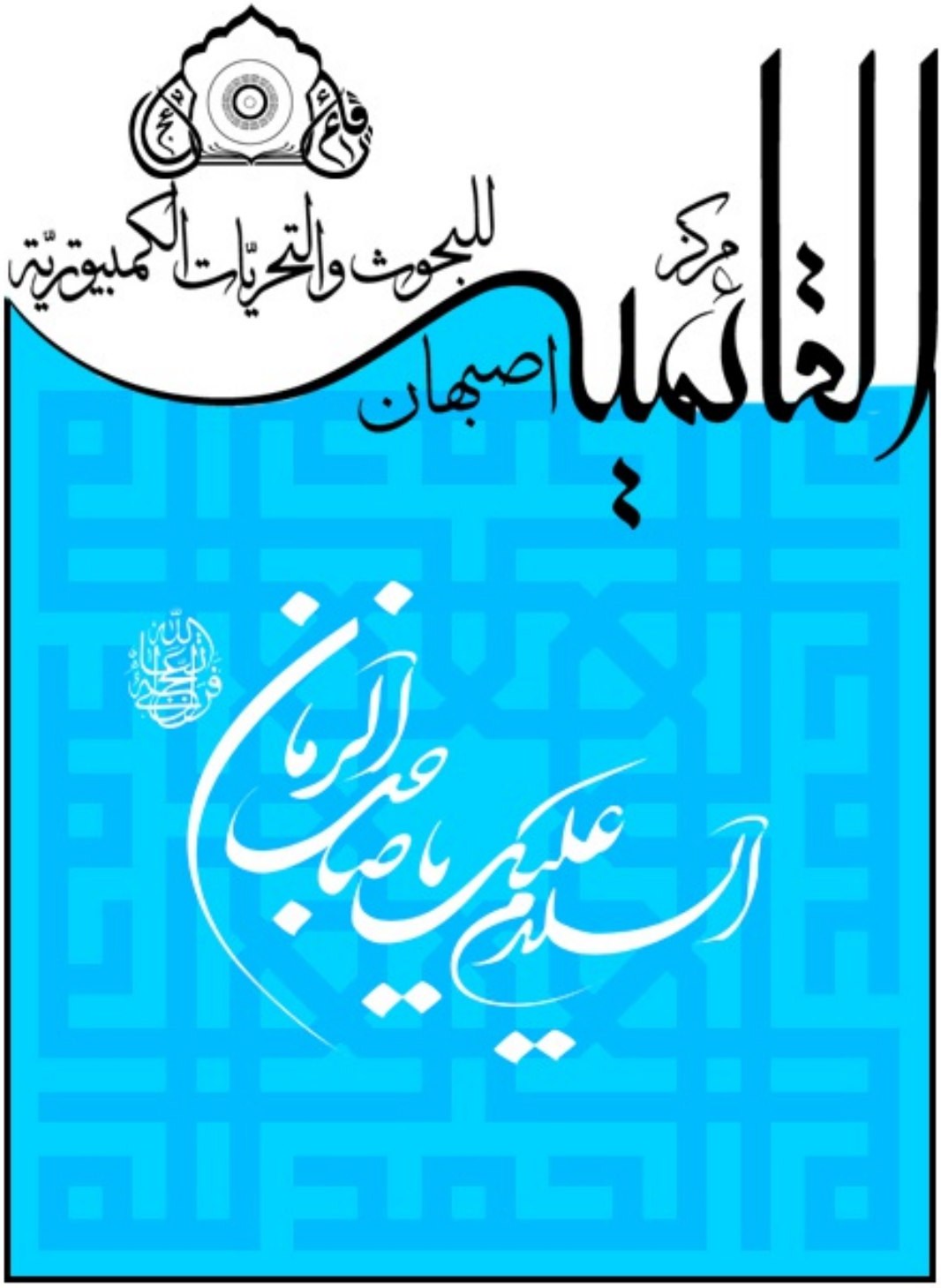

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

كتاب
المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار
المعروف بالخطط المقريزية

تأليف

تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر

العبيدي المقريزي

المتوفى سنة ٨٤٥هـ

وبهامشه

تذييل على الخطط

الجزء ٤ - ١

دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت

كاتب:

احمد بن على مقريزى

نشرت فى الطباعة:

دارالكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت ----- ۳۵
اشارة ----- ۳۵
الجزء الاول ----- ۳۵
تقدیم ----- ۳۵
]مقدمة المؤلف ----- ۳۶
ذکر الرءوس الثمانیة ----- ۳۸
اشارة ----- ۳۸
ذکر طرف من هیئة الأفلاک ----- ۴۰
ذکر صورة الأرض و موضع الأقالیم منها ----- ۴۴
ذکر محل مصر من الأرض و موضعها من الأقالیم السبعة ----- ۵۱
ذکر حدود مصر و جهاتها ----- ۵۲
اشارة ----- ۵۲
ذکر بحر القلزم ----- ۵۳
ذکر البحر الرومی ----- ۵۴
ذکر اشتقاق مصر و معناها و تعداد أسمائها ----- ۵۶
ذکر طرف من فضائل مصر ----- ۶۱
ذکر العجائب التی کانت بمصر من الطلسمات و البرابی و نحو ذلک ----- ۷۱
ذکر الدفائن و الکنوز التی تسمیها أهل مصر المطالب ----- ۸۲
ذکر هلاک أموال أهل مصر ----- ۸۴
ذکر أخلاق أهل مصر و طبائعهم و أمزجتهم ----- ۸۵
ذکر شیء من فضائل النیل ----- ۹۵
اشارة ----- ۹۵

ذکر مخرج النیل و انبعاثه ----- ۹۶
فصل فی الردّ علی من اعتقد أن النیل من سیل یفیض ----- ۱۰۱
ذکر مقاییس النیل و زیادته ----- ۱۰۴
ذکر الجسر الذی کان یعبر علیه فی النیل ----- ۱۰۹
ذکر ما قیل فی ماء النیل من مدح و ذم ----- ۱۰۹
ذکر عجائب النیل ----- ۱۱۳
ذکر طرف من تقدمة المعرفة بحال النیل فی کل سنة ----- ۱۱۶
ذکر عید الشهید ----- ۱۱۷
ذکر الخلجان التی شقت من النیل ----- ۱۱۹
اشارة ----- ۱۱۹
ذکر ما کانت علیه أرض مصر فی الزمن الأوّل ----- ۱۲۱
اشارة ----- ۱۲۱
ذکر أعمال الدیار المصریة و کورها ----- ۱۲۲
ذکر ما کان یعمل فی أراضی مصر من حفر الترع و عمارة الجسور و نحو ذلک من أجل ضبط ماء النیل و تصریفه فی أوقاته ----- ۱۲۴
ذکر مقدار خراج مصر فی الزمن الأوّل ----- ۱۲۶
اشارة ----- ۱۲۶
ذکر ما عمله المسلمون عند فتح مصر فی الخراج و ما کان من أمر مصر فی ذلک مع القبط ----- ۱۲۷
ذکر انتقاض القبط و ما کان من الأحداث فی ذلک ----- ۱۳۱
ذکر نزول العرب بریف مصر و اتخاذهم الزرع معاشا و ما کان فی نزولهم من الأحداث ----- ۱۳۲
ذکر قبالات أراضی مصر بعد ما فشا الإسلام فی القبط و نزول العرب فی القری و ما کان من ذلک إلی الروک الأخیر الناصری ----- ۱۳۴
ذکر الروک الأخیر الناصری ----- ۱۴۱
ذکر الدیوان ----- ۱۴۵
اشارة ----- ۱۴۵
ذکر دیوان العساکر و الجیوش ----- ۱۴۶

ذکر القطائع و الإقطاعات ---- ۱۵۱
ذکر دیوان الخراج و الأموال ---- ۱۵۴
اشارة ---- ۱۵۴
ذکر خراج مصر فی الإسلام ---- ۱۵۵
ذکر أصناف أراضی مصر و أقسام زراعتها ---- ۱۵۷
ذکر أقسام مال مصر ---- ۱۶۱
ذکر الأهرام ---- ۱۷۱
اشارة ---- ۱۷۱
ذکر الصنم الذی یقال له أبو الهول ---- ۱۸۴
ذکر الجبال ---- ۱۸۶
اشارة ---- ۱۸۶
ذکر الجبل المقطم ---- ۱۸۶
الجبل الأحمر ---- ۱۸۸
جبل یشکر ---- ۱۸۸
ذکر الرّصد ---- ۱۸۹
ذکر مدائن أرض مصر ---- ۱۹۲
اشارة ---- ۱۹۲
ذکر مدینة أمسوس و عجائبها و ملوکها ---- ۱۹۳
ذکر مدینة منف و ملوکها ---- ۱۹۹
ذکر مدینة الإسکندریة ---- ۲۱۱
اشارة ---- ۲۱۱
ذکر الإسکندر ---- ۲۱۹
ذکر تاریخ الإسکندر ---- ۲۲۱
ذکر الفرق بین الإسکندر و ذی القرنین و أنهما رجلان ---- ۲۲۲

ذکر من ولی الملک بالإسکندریة بعد الإسکندر ----- ۲۲۴
ذکر منارة الإسکندریة ----- ۲۲۶
ذکر الملعب الذی کان بالإسکندریة و غیره من العجائب ----- ۲۲۹
ذکر عمود السواری ----- ۲۳۰
ذکر طرف مما قیل فی الإسکندریة ----- ۲۳۴
ذکر فتح الإسکندریة ----- ۲۳۵
ذکر ما کان من فعل المسلمین بالإسکندریة و انتقاض الروم ----- ۲۴۰
ذکر بحیرة الإسکندریة ----- ۲۴۳
ذکر خلیج الإسکندریة ----- ۲۴۳
ذکر جمل حوادث الإسکندریّة ----- ۲۴۶
ذکر مدینة أتریب ----- ۲۵۰
ذکر مدینة تنیس ----- ۲۵۱
ذکر مدینة صا ----- ۲۵۸
رمل الغرابی ----- ۲۵۹
ذکر مدینة بلبیس ----- ۲۶۰
ذکر بلد الورادة ----- ۲۶۰
ذکر مدینة أیلة ----- ۲۶۱
ذکر مدینة مدین ----- ۲۶۴
اشارة ----- ۲۶۴
بقیة خبر مدینة مدین ----- ۲۶۶
ذکر مدینة فاران ----- ۲۶۶
ذکر أرض الجفار ----- ۲۶۷
ذکر صعید مصر ----- ۲۶۷
ذکر الجنادل و لمع من أخبار أرض النّوبة ----- ۲۶۹

اشارة ----- ۲۶۹
ذکر تشعب النیل من بلاد علوة و من یسکن علیه من الأمم ----- ۲۷۰
ذکر البجة و یقال إنهم من البربر ----- ۲۷۳
ذکر مدینة أسوان ----- ۲۷۸
اشارة ----- ۲۷۸
ذکر بلاق ----- ۲۸۰
ذکر حائط العجوز ----- ۲۸۰
ذکر البقط ----- ۲۸۰
ذکر صحراء عیذاب ----- ۲۸۳
ذکر مدینة الأقصر ----- ۲۸۴
ذکر البلینا ----- ۲۸۵
ذکر سمهود ----- ۲۸۵
ذکر إرجنّوس ----- ۲۸۵
ذکر أبویط ----- ۲۸۵
ذکر ملوی ----- ۲۸۵
ذکر مدینة أنصنا ----- ۲۸۵
ذکر دروط بلهاسة ----- ۲۸۷
ذکر سکر ----- ۲۸۷
ذکر منیة الخصیب ----- ۲۸۷
ذکر منیة الناسک ----- ۲۸۷
ذکر الجیزة ----- ۲۸۸
ذکر قریة ترسا ----- ۲۹۰
ذکر منیة أندونة ----- ۲۹۰
ذکر وسیم ----- ۲۹۰

ذکر منیة عقبة ---- ۲۹۱
ذکر حلوان ---- ۲۹۱
ذکر مدینة العریش ---- ۲۹۴
ذکر مدینة الفرماء ---- ۲۹۵
ذکر مدینة القلزم ---- ۲۹۶
ذکر التیه ---- ۲۹۷
ذکر مدینة دمیاط ---- ۲۹۷
ذکر شطا ---- ۳۱۲
ذکر الطریق فیما بین مدینة مصر و دمشق ---- ۳۱۳
ذکر مدینة حطین ---- ۳۱۴
ذکر مدینة الرقة ---- ۳۱۴
ذکر عین شمس ---- ۳۱۵
المنصورة ---- ۳۱۹
العباسة ---- ۳۱۹
ذکر مدینة قفط بصعید مصر ---- ۳۲۰
ذکر مدینة دندرة ---- ۳۲۲
ذکر الواحات الداخلة ---- ۳۲۲
ذکر مدینة سنتریّة ---- ۳۲۳
ذکر الواحات الخارجة ---- ۳۲۴
ذکر مدینة قوص ---- ۳۲۵
ذکر مدینة أسنا ---- ۳۲۶
ذکر مدینة أدفو ---- ۳۲۶
إهناس ---- ۳۲۶
ذکر مدینة البهنسا ---- ۳۲۶

ذکر مدینة الأشمونین ---- ۳۲۸
ذکر مدینة إخمیم ---- ۳۲۹
ذکر مدینة العقاب ---- ۳۳۰
ذکر مدینة الفیوم ---- ۳۳۲
اشارة ---- ۳۳۲
ذکر ما قیل فی الفیوم و خلجانها و ضیاعها ---- ۳۳۹
ذکر فتح الفیوم و مبلغ خراجها و ما فیها من المرافق ---- ۳۴۱
مدینة النحریریة ---- ۳۴۲
الجزء الثانی ---- ۳۴۳
ذکر تاریخ الخلیقة ---- ۳۴۳
اشارة ---- ۳۴۳
ذکر ما قیل فی مدّة أیام الدنیا ماضیها و باقیها ---- ۳۴۳
ذکر التواریخ التی کانت للأمم قبل تاریخ القبط ---- ۳۵۳
ذکر تاریخ القبط ---- ۳۵۵
ذکر دقلطیانوس الذی یعرف تاریخ القبط به ---- ۳۵۷
اشارة ---- ۳۵۷
ذکر أسابیع الأیام ---- ۳۵۸
ذکر أعیاد القبط من النصاری بدیار مصر ---- ۳۵۹
ذکر ما یوافق أیام الشهور القبطیة من الأعمال فی الزراعات، و زیادة النیل، و غیر ذلک علی ما نقله أهل مصر عن قدمائهم و اعتمدوا علیه فی أمو
ذکر تحویل السنة الخراجیة القبطیة إلی السنة الهلالیة العربیة ---- ۳۷۰
ذکر فسطاط مصر ---- ۳۸۴
اشارة ---- ۳۸۴
ذکر ما کان علیه موضع الفسطاط قبل الإسلام إلی أن اختطه المسلمون مدینة ---- ۳۸۵
ذکر الحصن الذی یعرف بقصر الشمع ---- ۳۸۶

ذکر حصار المسلمین للقصر و فتح مصر ----- ۳۸۷
اشارة ----- ۳۸۷
ذکر ما قیل فی مصر هل فتحت بصلح أو عنوة؟ ----- ۳۹۴
ذکر من شهد فتح مصر من الصحابة رضی اللّه عنهم ----- ۳۹۶
ذکر السبب فی تسمیة مدینة مصر بالفسطاط ----- ۳۹۷
اشارة ----- ۳۹۷
ذکر الخطط التی کانت بمدینة الفسطاط ----- ۳۹۸
ذکر أمراء الفسطاط من حین فتحت مصر إلی أن بنی العسکر ----- ۴۰۱
ذکر العسکر الذی بنی بظاهر مدینة فسطاط مصر ----- ۴۰۷
ذکر من نزل العسکر من أمراء مصر من حین بنی إلی أن بنیت القطائع ----- ۴۰۹
ذکر القطائع و دولة بنی طولون ----- ۴۱۸
ذکر من ولی مصر من الأمراء بعد خراب القطائع إلی أن بنیت قاهرة المعز علی ید القائد جوهر ----- ۴۳۴
ذکر ما کانت علیه مدینة الفسطاط من کثرة العمارة ----- ۴۳۸
ذکر الآثار الواردة فی خراب مصر ----- ۴۴۲
ذکر خراب الفسطاط ----- ۴۴۴
ذکر ما قیل فی مدینة فسطاط مصر ----- ۴۴۹
ذکر ما علیه مدینة مصر الآن وصفتها ----- ۴۵۲
ذکر ساحل النیل بمدینة مصر ----- ۴۵۳
ذکر المنشأة ----- ۴۵۶
ذکر أبواب مدینة مصر ----- ۴۵۸
ذکر القاهرة قاهرة المعز لدین اللّه ----- ۴۵۹
اشارة ----- ۴۵۹
ذکر ما قیل فی نسب الخلفاء الفاطمیین بناة القاهرة ----- ۴۵۹
اشارة ----- ۴۵۹

ذکر الخلفاء الفاطمیین ---- ۴۶۱
ذکر ما کان علیه موضع القاهرة قبل وضعها ---- ۴۷۲
ذکر حدّ القاهرة ---- ۴۷۳
ذکر بناء القاهرة و ما کانت علیه فی الدولة الفاطمیة ---- ۴۷۵
ذکر ما صارت إلیه القاهرة بعد استیلاء الدولة الأیوبیة علیها ---- ۴۷۸
ذکر طرف مما قیل فی القاهرة و منتزهاتها ---- ۴۸۰
ذکر ما قیل فی مدّة بقاء القاهرة و وقت خرابها ---- ۴۸۷
ذکر مسالک القاهرة و شوارعها علی ما هی علیه الآن ---- ۴۸۸
ذکر سور القاهرة ---- ۴۹۳
ذکر أبواب القاهرة ---- ۴۹۶
اشارة ---- ۴۹۶
باب زویلة ---- ۴۹۷
باب النصر ---- ۴۹۸
باب الفتوح ---- ۴۹۸
باب القنطرة ---- ۴۹۹
باب الشعریة ---- ۵۰۰
باب سعادة ---- ۵۰۰
الباب المحروق ---- ۵۰۰
باب البرقیة ---- ۵۰۱
ذکر قصور الخلفاء و مناظرهم و الإلماع بطرف من مآثرهم و ما صارت إلیه أحوالها من بعدهم ---- ۵۰۱
اشارة ---- ۵۰۱
القصر الکبیر ---- ۵۰۱
اشارة ---- ۵۰۱
کیفیة سماط شهر رمضان بهذه القاعة ---- ۵۰۵

اشارة ----- ۵۰۵
عمل سماط عید الفطر بهذه القاعة ----- ۵۰۵
الإیوان الکبیر ----- ۵۰۶
الدواوین ----- ۵۱۶
اشارة ----- ۵۱۷
دیوان المجلس ----- ۵۱۷
دیوان النظر ----- ۵۲۱
دیوان التحقیق ----- ۵۲۱
دیوان الجیوش و الرواتب ----- ۵۲۲
دیوان الإنشاء و المکاتبات ----- ۵۲۳
التوقیع بالقلم الدقیق فی المظالم ----- ۵۲۳
التوقیع بالقلم الجلیل ----- ۵۲۴
مجلس النظر فی المظالم ----- ۵۲۴
رتب الأمراء ----- ۵۲۴
قاضی القضاة ----- ۵۲۵
قاعة الفضة ----- ۵۲۵
قاعة السدرة ----- ۵۲۵
قاعة الخیم ----- ۵۲۶
المناظر الثلاث ----- ۵۲۶
قصر الشوک ----- ۵۲۶
قصر أولاد الشیخ ----- ۵۲۶
قصر الزمرّد ----- ۵۲۶
الرکن المخلق ----- ۵۲۷
السقیفة ----- ۵۲۷

دار الضرب ----- ۵۲۸
خزائن السلاح ----- ۵۲۹
المارستان العتیق ----- ۵۲۹
التربة المعزیة ----- ۵۳۰
القصر النافعیّ ----- ۵۳۱
الخزائن التی کانت بالقصر ----- ۵۳۱
اشارة ----- ۵۳۱
خزانة الکتب ----- ۵۳۱
خزانة الکسوات ----- ۵۳۲
خزائن الجوهر و الطیب و الطرائف ----- ۵۳۷
خزائن الفرش و الأمتعة ----- ۵۴۱
خزائن السلاح ----- ۵۴۲
خزائن السروج ----- ۵۴۲
خزائن الخیم ----- ۵۴۳
خزانة الشراب ----- ۵۴۵
خزانة التوابل ----- ۵۴۵
دار التعبیة ----- ۵۴۷
خزانة الأدم ----- ۵۴۸
خزائن دار أفتکین ----- ۵۴۸
خزانة البنود ----- ۵۴۹
دار الفطرة ----- ۵۵۲
المشهد الحسینیّ ----- ۵۵۳
ما کان یعمل فی یوم عاشوراء ----- ۵۵۸
ذکر أبواب القصر الکبیر الشرقی ----- ۵۵۹

ذکر المنحر ----- ۵۶۴
ذکر دار الوزارة الکبری ----- ۵۶۷
ذکر رتبة الوزارة، و هیئة خلعهم، و مقدار جاریهم، و ما یتعلق بذلک ----- ۵۶۸
ذکر الحجر التی کانت برسم الصبیان الحجریة ----- ۵۷۲
ذکر المناخ السعید ----- ۵۷۴
ذکر اصطبل الطارمة ----- ۵۷۴
ذکر دار الضرب و ما یتعلق بها ----- ۵۷۵
ذکر ما کان یضرب فی خمیس العدس من خراریب الذهب ----- ۵۸۱
ذکر دار الوکالة الآمریة ----- ۵۸۲
ذکر مصلی العید ----- ۵۸۲
ذکر هیئة صلاة العید و ما یتعلق بها ----- ۵۸۲
ذکر القصر الصغیر الغربی ----- ۵۸۹
اشارة ----- ۵۸۹
أبواب القصر الغربیّ ----- ۵۹۱
ذکر دار العلم ----- ۵۹۱
ذکر دار الضیافة ----- ۵۹۴
ذکر اصطبل الحجریّة ----- ۵۹۵
ذکر الدار المأمونیة ----- ۵۹۵
ذکر الحسبة و دار العیار ----- ۵۹۷
ذکر المناظر التی کانت للخلفاء الفاطمیین، و مواضع نزههم ما کان لهم فیها من أمور جمیلة ----- ۵۹۹
اشارة ----- ۵۹۹
ذکر ما کان یعمل یوم فتح الخلیج ----- ۶۰۵
منازل العز ----- ۶۲۲
ذکر الأیام التی کان الخلفاء الفاطمیون یتخذونها أعیادا، و مواسم تتسع بها أحوال الرعیة، و تکثر نعمهم ----- ۶۲۸

اشارة ----- ۶۲۸
ذکر مذاهبهم فی أوّل الشهور ----- ۶۳۰
ذکر النوروز ----- ۶۳۱
ذکر ما کان من أمر القصرین، و المناظر بعد زوال الدولة الفاطمیة ----- ۶۳۵
الجزء الثالث ----- ۶۳۷
ذکر حارات القاهرة و ظواهرها ----- ۶۳۸
اشارة ----- ۶۳۸
ذکر واقعة العبید ----- ۶۳۸
ذکر أبی عبد اللّه الشیعی ----- ۶۴۸
ذکر الأمراء البرقیّة و وزارة ضرغام ----- ۶۵۰
ذکر وزارة أبی الفتح ناصر الجیوش یأنس الأرمنی ----- ۶۵۵
ذکر الأمیر حسن بن الخلیفة الحافظ ----- ۶۵۶
ذکر قدوم الأویراتیة ----- ۶۶۱
ذکر اخطاط القاهرة و ظواهرها ----- ۶۶۳
ذکر کافور الإخشیدی ----- ۶۶۶
ذکر مقتل الخلیفة الظافر ----- ۶۷۰
ذکر الدروب و الأزقة ----- ۶۷۹
ذکر الخوخ ----- ۶۸۹
ذکر الرحاب ----- ۶۹۲
ذکر الدور ----- ۶۹۷
ذکر الحمامات ----- ۷۳۰
ذکر القیاسر ----- ۷۳۸
ذکر الخانات و الفنادق ----- ۷۴۵
ذکر الأسواق ----- ۷۴۸

الشارع خارج باب زویلة ----- ۷۵۵
ذکر العوائد التی کانت بقصبة القاهرة ----- ۷۶۳
ذکر ظواهر القاهرة المعزیة ----- ۷۶۴
ذکر میدان القبق ----- ۷۶۷
ذکر برّ الخلیج الغربی ----- ۷۷۰
اشارة ----- ۷۷۰
ذکر الأحکار التی فی غربیّ الخلیج ----- ۷۷۱
ذکر المقس و فیه الکلام علی المکس و کیف کان أصله فی أوّل الإسلام ----- ۷۷۹
ذکر میدان القمح ----- ۷۸۴
ذکر أرض الطبالة ----- ۷۸۴
ذکر حشیشة الفقراء ----- ۷۸۶
ذکر أرض البعل و التاج ----- ۷۸۹
اشارة ----- ۷۸۹
ذکر ضواحی القاهرة ----- ۷۹۰
ذکر منیة الأمراء ----- ۷۹۰
ذکر کوم الریش ----- ۷۹۱
ذکر بولاق ----- ۷۹۱
اشارة ----- ۷۹۱
ذکر ما بین بولاق و منشأة المهرانی ----- ۷۹۲
ذکر خارج باب زویلة ----- ۷۹۳
ذکر خارج باب الفتوح ----- ۷۹۸
اشارة ----- ۷۹۸
ذکر الخندق ----- ۷۹۸
ذکر خارج باب النصر ----- ۸۰۱

الریدانیة ----- ۸۰۱
ذکر الخلجان التی بظاهر القاهرة ----- ۸۰۲
اشارة ----- ۸۰۲
ذکر خلیج مصر ----- ۸۰۲
ذکر خلیج فم الخور و خلیج الذکر ----- ۸۰۸
ذکر الخلیج الناصریّ ----- ۸۰۹
ذکر خلیج قنطرة الفخر ----- ۸۱۰
ذکر القناطر ----- ۸۱۰
اشارة ----- ۸۱۰
ذکر قناطر الخلیج الکبیر ----- ۸۱۰
ذکر البرک ----- ۸۱۷
ذکر الماردانیّ ----- ۸۲۱
ذکر بساتین الوزیر ----- ۸۲۳
ذکر المعشوق ----- ۸۲۶
ذکر الجسور ----- ۸۳۳
و قد وجد بخط المصنف رحمه اللّه فی أصله هنا ما صورته ----- ۸۳۹
ذکر الجزائر ----- ۸۴۶
اشارة ----- ۸۴۶
ذکر الروضة ----- ۸۴۷
اشارة ----- ۸۴۷
ذکر قلعة الروضة ----- ۸۵۳
ذکر السجون ----- ۸۵۸
ذکر المواضع المعروفة بالصناعة ----- ۸۶۰
ذکر المیادین ----- ۸۷۰

ذکر قلعة الجبل ----- ۸۷۴
اشارة ----- ۸۷۵
ذکر بناء قلعة الجبل ----- ۸۷۷
ذکر صفة القلعة ----- ۸۷۹
ذکر النظر فی المظالم ----- ۸۸۱
اشارة ----- ۸۸۲
ذکر خدمة الإیوان المعروف بدار العدل ----- ۸۸۳
ذکر العلامة السلطانیة ----- ۸۸۶
ذکر جیوش الدولة الترکیة و زیّها و عوایدها ----- ۸۹۱
اشارة ----- ۸۹۱
ذکر الحجبة ----- ۸۹۶
ذکر أحکام السیاسة ----- ۸۹۷
ذکر المیاه التی بقلعة الجبل ----- ۹۰۸
ذکر ملوک مصر منذ بنیت قلعة الجبل ----- ۹۱۱
اشارة ----- ۹۱۱
ذکر من ملک مصر من الأکراد ----- ۹۱۱
ذکر دولة المماليک البحریة ----- ۹۱۶
ذکر دولة المماليک الجراکسة ----- ۹۲۲
الجزء الرابع ----- ۹۲۶
ذکر المساجد الجامعة ----- ۹۲۶
ذکر الجوامع ----- ۹۲۷
اشارة ----- ۹۲۷
الجامع العتیق ----- ۹۲۸
اشارة ----- ۹۲۸

ذکر المحاریب التی بدیار مصر و سبب اختلافها و تعیین الصواب فیها و تبیین الخطأ منها ----- ۹۴۰
جامع العسکر ----- ۹۴۹
اشارة ----- ۹۴۹
ذکر العسکر ----- ۹۴۹
جامع ابن طولون ----- ۹۵۱
اشارة ----- ۹۵۱
ذکر دار الإمارة ----- ۹۵۵
ذکر الأذان بمصر و ما کان فیه من الاختلاف ----- ۹۵۶
الجامع الأزهر ----- ۹۶۰
جامع الحاکم ----- ۹۶۴
جامع راشدة ----- ۹۷۰
جامع المقس ----- ۹۷۱
جامع الفیلة ----- ۹۷۸
جامع المقیاس ----- ۹۷۹
الجامع الأقمر ----- ۹۷۹
جامع الظافر ----- ۹۸۲
جامع الصالح ----- ۹۸۳
اشارة ----- ۹۸۳
ذکر الأحباس و ما کان یعمل فیها ----- ۹۸۴
الجامع بجوار تربة الشافعیّ بالقرافة ----- ۹۸۷
جامع محمود بالقرافة ----- ۹۸۷
جامع الروضة بقلعة جزیرة الفسطاط ----- ۹۸۷
جامع غین بالروضة ----- ۹۸۸
جامع الأفرم ----- ۹۸۸

الجامع بمنشأة المهرانیّ ---- ۹۸۹
جامع دیر الطین ---- ۹۸۹
جامع الظاهر ---- ۹۹۰
جامع ابن اللبان ---- ۹۹۵
الجامع الطیبرسیّ ---- ۹۹۵
الجامع الجدید الناصریّ ---- ۹۹۵
الجامع بالمشهد النفیسیّ ---- ۹۹۸
جامع الأمیر حسین ---- ۹۹۹
جامع الماس ---- ۹۹۹
جامع قوصون ---- ۹۹۹
جامع الماردانیّ ---- ۱۰۰۰
جامع أصلم ---- ۱۰۰۱
جامع بشتاک ---- ۱۰۰۱
جامع آق سنقر ---- ۱۰۰۲
جامع آق سنقر ---- ۱۰۰۲
جامع آل ملک ---- ۱۰۰۳
جامع الفخر ---- ۱۰۰۳
جامع نائب الکرک ---- ۱۰۰۴
جامع الخطیریّ ببولاق ---- ۱۰۰۴
جامع قیدان ---- ۱۰۰۵
جامع الست حدق ---- ۱۰۰۶
جامع ابن غازی ---- ۱۰۰۶
جامع الترکمانیّ ---- ۱۰۰۶
جامع شیخو ---- ۱۰۰۶

جامع الجاکیّ ---- ۱۰۰۸
جامع التوبة ---- ۱۰۰۸
جامع صاروجا ---- ۱۰۰۸
جامع الطباخ ---- ۱۰۰۸
جامع الأسیوطیّ ---- ۱۰۰۹
جامع الملک الناصر حسن ---- ۱۰۰۹
جامع القرافة ---- ۱۰۱۲
جامع الجیزة ---- ۱۰۱۴
جامع منجک ---- ۱۰۱۴
الجامع الأخضر ---- ۱۰۱۸
جامع البکجریّ ---- ۱۰۱۸
جامع السروجیّ ---- ۱۰۱۹
جامع کرجی ---- ۱۰۱۹
جامع الفاخریّ ---- ۱۰۱۹
جامع ابن عبد الظاهر ---- ۱۰۱۹
جامع بساتین الوزیر التی علی برکة الحبس جامع الخندق ---- ۱۰۲۰
جامع جزیرة الفیل جامع الطواشی ---- ۱۰۲۰
جامع کرای ---- ۱۰۲۰
جامع القلعة ---- ۱۰۲۰
جامع قوصون ---- ۱۰۲۰
جامع کوم الریش ---- ۱۰۲۱
جامع الجزیرة الوسطی ---- ۱۰۲۱
جامع ابن صارم ---- ۱۰۲۱
جامع الکیمختی ---- ۱۰۲۱

جامع الست مسکة ----- ۱۰۲۱
جامع ابن الفلک ----- ۱۰۲۱
جامع التکروریّ ----- ۱۰۲۱
جامع البرقیة ----- ۱۰۲۲
جامع الحرّانیّ ----- ۱۰۲۲
جامع برکة ----- ۱۰۲۲
جامع برکة الرطلیّ ----- ۱۰۲۲
جامع الضوة ----- ۱۰۲۲
جامع الحوش ----- ۱۰۲۳
جامع الاصطبل ----- ۱۰۲۳
جامع ابن الترکمانیّ ----- ۱۰۲۳
جامع ... ----- ۱۰۲۳
جامع الباسطیّ ----- ۱۰۲۳
جامع الحنفیّ ----- ۱۰۲۳
جامع ابن الرفعة ----- ۱۰۲۳
جامع الإسماعیلیّ ----- ۱۰۲۳
جامع الزاهد ----- ۱۰۲۳
جامع ابن المغربیّ ----- ۱۰۲۴
جامع الفخریّ ----- ۱۰۲۴
الجامع المؤیدی ----- ۱۰۲۴
الجامع الأشرفیّ ----- ۱۰۲۷
الجامع الباسطیّ ----- ۱۰۲۷
ذکر مذاهب أهل مصر و نحلهم منذ افتتح عمرو بن العاص رضی اللّه عنه أرض مصر إلی أن صاروا إلی اعتقاد مذاهب الأئمة رحمهم اللّه تعالی، و ما کان
ذکر فرق الخلیقة و اختلاف عقائدها و تباینها ----- ۱۰۴۲

ذکر الحال فی عقائد أهل الإسلام، منذ ابتداء الملة الإسلامیة إلی أن انتشر مذهب الأشعریة ----- ۱۰۵۶
ذکر المدارس ----- ۱۰۶۴
اشارة ----- ۱۰۶۴
المدرسة الناصریة ----- ۱۰۶۵
المدرسة القمحیة ----- ۱۰۶۵
مدرسة یازکوج ----- ۱۰۶۵
مدرسة ابن الأرسوفیّ ----- ۱۰۶۶
مدرسة منازل العز ----- ۱۰۶۶
مدرسة العادل ----- ۱۰۶۷
مدرسة ابن رشیق ----- ۱۰۶۷
المدرسة الفائزیة ----- ۱۰۶۷
المدرسة القطبیة ----- ۱۰۶۷
المدرسة السیوفیة ----- ۱۰۶۷
المدرسة الفاضلیة ----- ۱۰۶۸
المدرسة الأزکشیة ----- ۱۰۶۹
المدرسة الفخریة ----- ۱۰۶۹
المدرسة السیفیة ----- ۱۰۷۰
المدرسة العاشوریة ----- ۱۰۷۰
المدرسة القطبیة ----- ۱۰۷۰
المدرسة الخرّوبیة ----- ۱۰۷۱
مدرسة المحلیّ ----- ۱۰۷۱
المدرسة الفارقانیة ----- ۱۰۷۱
المدرسة المهذبیة ----- ۱۰۷۲
المدرسة الخرّوبیة ----- ۱۰۷۲

المدرسة الخروبية ---- ۱۰۷۲
المدرسة الصاحبية البهائية ---- ۱۰۷۲
المدرسة الصاحبية ---- ۱۰۷۴
المدرسة الشريفية ---- ۱۰۷۶
المدرسة الصالحية ---- ۱۰۷۷
المدرسة الكاملية ---- ۱۰۷۸
المدرسة الصيرمية ---- ۱۰۸۲
المدرسة المسرورية ---- ۱۰۸۲
المدرسة القوصية ---- ۱۰۸۲
مدرسة بحارة الديلم المدرسة الظاهرية ---- ۱۰۸۲
المدرسة المنصورية ---- ۱۰۸۳
المدرسة الحجازية ---- ۱۰۸۷
المدرسة الطيبرسية ---- ۱۰۸۷
المدرسة الأقبغاوية ---- ۱۰۸۸
المدرسة الحسامية ---- ۱۰۹۰
المدرسة المنكوتمرية ---- ۱۰۹۲
المدرسة القراسنقرية ---- ۱۰۹۳
المدرسة الغزنوية ---- ۱۰۹۶
المدرسة البوبكرية ---- ۱۰۹۶
المدرسة البقرية ---- ۱۰۹۶
المدرسة القطبية ---- ۱۰۹۷
مدرسة ابن المغربیّ ---- ۱۰۹۷
المدرسة البيدرية ---- ۱۰۹۷
المدرسة البديرية ---- ۱۰۹۷

المدرسة الملكية ---- ۱۰۹۷
المدرسة الجمالية ---- ۱۰۹۸
المدرسة الفارسية ---- ۱۰۹۹
المدرسة السابقية ---- ۱۰۹۹
المدرسة القيسرانية ---- ۱۱۰۰
المدرسة الزمامية ---- ۱۱۰۰
المدرسة الصغيرة ---- ۱۱۰۰
مدرسة تربة أمّ الصالح ---- ۱۱۰۰
مدرسة ابن عرّام ---- ۱۱۰۱
المدرسة المحمودية ---- ۱۱۰۱
المدرسة المهذبية ---- ۱۱۰۳
المدرسة السعدية ---- ۱۱۰۳
المدرسة الطفجية ---- ۱۱۰۴
المدرسة الجاولية ---- ۱۱۰۴
المدرسة الفارقانية ---- ۱۱۰۵
المدرسة البشيرية ---- ۱۱۰۵
المدرسة المهمندارية ---- ۱۱۰۶
مدرسة ألجاى ---- ۱۱۰۶
مدرسة أمّ السلطان ---- ۱۱۰۶
المدرسة الأيتمشية ---- ۱۱۰۷
المدرسة المجدية الخليلية ---- ۱۱۰۷
المدرسة الناصرية بالقرافة ---- ۱۱۰۷
المدرسة المسلمية ---- ۱۱۰۸
مدرسة اينال ---- ۱۱۰۸

مدرسة الأمير جمال الدين الأستادار ----- ۱۱۰۸
المدرسة الصرغتمشية ----- ۱۱۱۱
ذكر المارستانات ----- ۱۱۱۳
اشارة ----- ۱۱۱۳
مارستان ابن طولون ----- ۱۱۱۳
مارستان كافور ----- ۱۱۱۳
مارستان المغافر ----- ۱۱۱۴
المارستان الكبير المنصوریّ ----- ۱۱۱۴
المارستان المؤیدی ----- ۱۱۱۶
ذكر المساجد ----- ۱۱۱۷
اشارة ----- ۱۱۱۷
المسجد بجوار دير البعل ----- ۱۱۱۷
مسجد ابن الجباس ----- ۱۱۱۷
مسجد ابن البناء ----- ۱۱۱۸
مسجد الحلبيين ----- ۱۱۱۸
مسجد الكافوریّ ----- ۱۱۱۹
مسجد رشيد ----- ۱۱۱۹
المسجد المعروف بزرع النوى ----- ۱۱۱۹
مسجد الذخيرة ----- ۱۱۲۰
مسجد رسلان ----- ۱۱۲۰
مسجد ابن الشيخيّ ----- ۱۱۲۰
مسجد يانس ----- ۱۱۲۰
مسجد باب الخوخة ----- ۱۱۲۱
المسجد المعروف بمعبد موسى ----- ۱۱۲۱

مسجد نجم الدین ---- ۱۱۲۱
مسجد صواب ---- ۱۱۲۲
المسجد بجوار المشهد الحسینیّ ---- ۱۱۲۲
مسجد الفجل ---- ۱۱۲۲
مسجد تبر ---- ۱۱۲۲
مسجد القطبیة ---- ۱۱۲۳
ذکر الخوانک ---- ۱۱۲۳
اشارة ---- ۱۱۲۳
الخانکاه الصلاحیة، دار سعید السعداء، دویرة الصوفیة ---- ۱۱۲۴
خانقاه رکن الدین بیبرس ---- ۱۱۲۶
الخانقاه الجمالیة ---- ۱۱۲۸
الخانقاه الظاهریة ---- ۱۱۲۸
الخانقاه الشرابیشیة ---- ۱۱۲۸
الخانقاه المهمندارية ---- ۱۱۲۸
خانقاه بشتاک ---- ۱۱۲۹
خانقاه ابن غراب ---- ۱۱۲۹
الخانقاه البندقداریة ---- ۱۱۳۱
خانقاه شیخو ---- ۱۱۳۱
الخانقاه الجاولیة ---- ۱۱۳۱
خانقاه الجیبغا المظفری ---- ۱۱۳۲
خانقاه سریاقوس ---- ۱۱۳۲
خانقاه أرسلان ---- ۱۱۳۳
خانقاه بکتمر ---- ۱۱۳۴
خانقاه قوصون ---- ۱۱۳۶

خانقاه طغای النجمیّ ---- ۱۱۳۶
خانقاه أمّ أنوک ---- ۱۱۳۶
خانقاه یونس ---- ۱۱۳۷
خانقاه طیبرس ---- ۱۱۳۷
خانقاه أقبغا ---- ۱۱۳۸
الخانقاه الخروبیة ---- ۱۱۳۸
ذکر الربط ---- ۱۱۳۸
اشارة ---- ۱۱۳۸
رباط الصاحب ---- ۱۱۳۹
رباط الفخری ---- ۱۱۳۹
رباط البغدادیة ---- ۱۱۳۹
رباط الست کلیلة ---- ۱۱۴۰
رباط الخازن ---- ۱۱۴۰
الرباط المعروف برواق ابن سلیمان ---- ۱۱۴۰
رباط داود بن إبراهیم ---- ۱۱۴۰
رباط ابن أبی المنصور ---- ۱۱۴۰
رباط المشتهی ---- ۱۱۴۰
رباط الآثار ---- ۱۱۴۱
رباط الأفرم ---- ۱۱۴۲
الرباط العلائی ---- ۱۱۴۲
ذکر الزوایا ---- ۱۱۴۲
زاویة الدمیاطیّ ---- ۱۱۴۲
زاویة الشیخ خضر ---- ۱۱۴۲
زاویة ابن منظور ---- ۱۱۴۳

زاویة الظاهری ---- ۱۱۴۴
زاویة الجمیزة ---- ۱۱۴۴
زاویة الحلاوی ---- ۱۱۴۴
زاویة نصر ---- ۱۱۴۴
زاویة الخدّام ---- ۱۱۴۵
زاویة تقی الدین ---- ۱۱۴۵
زاویة الشریف مهدی ---- ۱۱۴۵
زاویة الطراطریة ---- ۱۱۴۵
زاویة القلندریة ---- ۱۱۴۵
قبة النصر ---- ۱۱۴۶
زاویة الرکراکی ---- ۱۱۴۶
زاویة إبراهیم الصائغ ---- ۱۱۴۶
زاویة الجعبری ---- ۱۱۴۷
زاویة أبی السعود ---- ۱۱۴۷
زاویة الحمصی ---- ۱۱۴۷
زاویة المغربل ---- ۱۱۴۷
زاویة القصری ---- ۱۱۴۷
زاویة الجاکی ---- ۱۱۴۸
زاویة الأبناسیّ ---- ۱۱۴۸
زاویة الیونسیة ---- ۱۱۴۸
زاویة الخلاطی ---- ۱۱۴۸
الزاویة العدویة ---- ۱۱۴۹
زاویة السدّار ---- ۱۱۴۹
ذکر المشاهد التی یتبرّک الناس بزیارتها مشهد زین العابدین ---- ۱۱۴۹

اشارة ----- ۱۱۴۹
مشهد السیدة نفیسة ----- ۱۱۵۵
مشهد السیدة کلثوم ----- ۱۱۵۷
سنا و ثنا ----- ۱۱۵۷
ذکر مقابر مصر و القاهرة المشهورة ----- ۱۱۵۷
ذکر القرافة ----- ۱۱۵۸
ذکر المساجد الشهیرة بالقرافة الکبیرة ----- ۱۱۶۰
اشارة ----- ۱۱۶۰
مسجد الأقدام ----- ۱۱۶۰
مسجد الرصد ----- ۱۱۶۱
مسجد شقیق الملک ----- ۱۱۶۱
مسجد الانطاکیّ ----- ۱۱۶۱
مسجد النارنج ----- ۱۱۶۱
مسجد الأندلس ----- ۱۱۶۲
مسجد البقعة ----- ۱۱۶۳
مسجد الفتح ----- ۱۱۶۳
مسجد أمّ عباس جهة العادل بن السلار ----- ۱۱۶۳
مسجد الصالح ----- ۱۱۶۳
مسجد ولیّ عهد أمیر المؤمنین ----- ۱۱۶۳
مسجد الرحمة ----- ۱۱۶۳
مسجد مکنون ----- ۱۱۶۴
مسجد جهة ریحان ----- ۱۱۶۴
مسجد جهة بیان ----- ۱۱۶۴
مسجد توبة ----- ۱۱۶۵

مسجد دری ---- ۱۱۶۵
مسجد ست غزال ---- ۱۱۶۵
مسجد ریاض ---- ۱۱۶۵
مسجد عظیم الدولة ---- ۱۱۶۵
مسجد أبی صادق ---- ۱۱۶۶
مسجد الفرّاش ---- ۱۱۶۶
مسجد تاج الملوک ---- ۱۱۶۶
مسجد الثمار ---- ۱۱۶۶
مسجد الحجر ---- ۱۱۶۶
مسجد القاضی یونس ---- ۱۱۶۷
مسجد الوزیریة ---- ۱۱۶۷
مسجد ابن العکر ---- ۱۱۶۷
مسجد ابن کباس ---- ۱۱۶۷
مسجد الشهمیة ---- ۱۱۶۷
مسجد زنکادة ---- ۱۱۶۷
جامع القرافة ---- ۱۱۶۸
مسجد الأطفیحیّ ---- ۱۱۶۸
مسجد الزیات ---- ۱۱۶۹
ذکر الجواسیق التی بالقرافة ---- ۱۱۶۹
اشارة ---- ۱۱۶۹
ذکر الرباطات التی کانت بالقرافة ---- ۱۱۷۱
ذکر المصلّیات و المحاریب التی بالقرافة ---- ۱۱۷۱
ذکر المساجد و المعابد التی بالجبل و الصحراء ---- ۱۱۷۲
ذکر الأحواض و الآبار التی بالقرافة ---- ۱۱۷۷

ذکر الآبار التی ببرکة الحبش و القرافة ----- ۱۱۷۷
ذکر السبعة التی تزار بالقرافة ----- ۱۱۷۸
ذکر المقابر خارج باب النصر ----- ۱۱۸۱
ذکر کنائس الیهود ----- ۱۱۸۲
اشارة ----- ۱۱۸۲
ذکر تاریخ الیهود و أعیادهم ----- ۱۱۹۱
ذکر معنی قولهم یهودی ----- ۱۱۹۴
ذکر معتقد الیهود و کیف وقع عندهم التبدیل ----- ۱۱۹۴
ذکر فرق الیهود الآن ----- ۱۱۹۵
ذکر قبط مصر و دیاناتهم القدیمة، و کیف تنصروا ثم صاروا ذمّة للمسلمین، و ما کان لهم فی ذلک من القصص و الأنباء، و ذکر الخبر عن کنائسهم و دی
اشارة ----- ۱۲۰۰
ذکر دیانة القبط قبل تنصرهم ----- ۱۲۰۱
ذکر دخول قبط مصر فی دین النصرانیة ----- ۱۲۰۲
ذکر دخول النصاری من قبط مصر فی طاعة المسلمین و أدائهم الجزیة، و اتخاذهم ذمّة لهم، و ما کان فی ذلک من الحوادث و الأنباء ----- ۱۲۱۳
ذکر دیارات النصاری ----- ۱۲۲۴
اشارة ----- ۱۲۲۴
أدیرة أدرنکة ----- ۱۲۲۹
ذکر کنائس النصاری ----- ۱۲۳۴
اشارة ----- ۱۲۳۴
و أما الوجه البحریّ: ----- ۱۲۴۴
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۲۴۶

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت

اشارة

نام كتاب: المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت

نويسنده: مقريزى، احمد بن على

تاريخ وفات مؤلف: ۸۴۵ ه. ق

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۴

ناشر: دار الكتب العلمية

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۸ ه. ق

نوبت چاپ: اول

رده بندى كنگره:

DT۷۷/ م۷م۸۱۳۷۶

almwaa'th walaa'tbar bthkr alkhtt wala'thar alma'rouf balkhtt almkriziah

تأليف: تقدى الدين العبيدى المقريزى تاريخ النشر: ۰۱/۰۱/۱۹۹۸

ترجمة، تحقيق: خليل المنصور الناشر: دار الكتب العلمية

النوع: ورقى غلاف فنى، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۱۸۳۲ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۴

الجزء الاول

تقديم

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم هـا نحن أيهـا القـارئ العربى العزيز نضع بين يـديك كتابـا جليلاـ من كتب تراثنا العربى ليكون لك عونا فى التعرف على ماضى من سبقوا و وضعوا لبنة فى بناء الحضارة العالمية، و فى مهد الحضارات و أمّ الدنيا مصر العزيزة.

هـذا الكتاب، كتاب المواعظ و الاعتبار بـذكر الخطط و الآثار و المعروف بالخطط المقريزيـة، نسـبة لمؤلفه العلامـة الجليل تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة ۸۴۵ ه.

و الذى يؤرخ فيه لأمّ الدنيا مصـر العزيزة خلال الفترة الممتدة من سـنة عشرين للهجرة النبوية الشريفة و حتى سنة ست و تسعمائة. مبينا فيه ما للنيل العظيم من أثر فى حياة مصـر، متعرضا لمناخها و طقسـها، مؤرخا للكيفية التى تمّ بها إنشاء كل من مصـر و القاهرة. القاهرة التى اختط أساسـها القائد جوهر من الطوب النىء، مبتدئا بحارات القاهرة و ظواهرها معددا سبعا و ثلاثين حارة مبينا كيفية بناءها و من قام على هـذا البناء منطلقا إلى ما لا يطلق عليه اسم حارة أو درب بل يسـمّى خطا، و هى كثيرة و كل قليل تتغير أسـماؤها و قد أورد ما تيسّر له منها فكانت ثلاثون خطا، مبينا ما كان عليه كل خط و ما آل إليه و من أمر بإنشائه و من قام على إنشائه و أسباب إنشائه. منتقلا إلى ذكر الدروب و الأزقة مبينا أسـماءها التى كانت و ما ذا أصـبحت و إلى من تنسب من الأشخاص و ما فيها من محال و دكاكين، و

كان عددها خمس و ستون دربا و ثمان أزقة. ثم يعدد الخوخ، و الخوخة نافذة فى باب كبير و عددها أربع عشرة خوخة. ثم ينتقل إلى الرحاب، و الرحبة تعنى الموضع الواسع و الرحاب كثيرة لا- تتغيّر إلّا بأن يبنى فيها و قد ذكر تسع و أربعون رحبة ثم ينتقل إلى ذكر الدور الهامة و عددها ست و خمسون دارا مسمّيا إياها بأسماء أصحابها. ثم ينتقل إلى ذكر الحمامات و القياسر و الفنادق و الخانات و الأسواق و السويقات و الحكر أو الأحكار، مترجما لها و للأمراء و السلاطين الذين عملوا على بنائها.

ثم ينتقل إلى الخلجان و القناطر و البرك و الجسور التى تمّ بناءها لجرّ مياه النيل إلى الحارات و الخطط.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴

ثم يؤرخ للملوك و السلاطين الذين تعاقبوا عليها منذ بناء قلعة الجبل مبتدئا بمن حكم من الأكراد، بدءا بالقائد أبو الحسن جوهر الذى قدم إلى إفريقيا بعساكر مولاه المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ فى سنة عشرين للهجرة، منتهيا بالملك الأشرف قانصوه الغورى الأشرفى قايتباى سنة ست و تسعمائة.

مترجما لحياتهم و كيفية وصولهم إلى السلطة و فتوحاتهم و غزواتهم و ما قاموا به من خير أو شر لرعيتهم، و ما بنوا و ما هدموا و كان عددهم ست و خمسون سلطانا و ملكا.

ثم انتقل إلى الجوامع ذاكرا بناتها و الكيفية التى تمّ عليها البناء و عددها ثمان و ثمانون جامعا. ثم ذكر مذاهب أهل مصر و نحلهم منذ افتتح عمرو بن العاص أرض مصر إلى أن صاروا إلى اعتقاد مذاهب الأئمة و ما كان من الأحداث فى ذلك.

ثم ذكر فرق الخليقة و اختلاف عقائدها و تباينها، و فرق أهل الإسلام و انحصار الفرق المتهالكة فى عشر طوائف هى: المعتزلة و المشبهة و القدرية و المجبرة و المرجئة و الحرورية و البخارية و الجهمية و الروافض و الخوارج، كما ذكر الحال فى عقائد أهل الإسلام منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى أن انتشر مذهب الأشعرية.

ثم انتقل إلى ذكر المدارس و من قام على بنائها و الأوقاف الموقوفة عليها و ما حلّ بها من تبدّل و تغير و عددها ثلاث و سبعون مدرسة. ثم انتقل إلى ذكر المساجد و المارستانات و الخوانك و الربط و الزوايا و المشاهد و المقابر و القرافات و مساجد القرافات و الجواسق و المصلّيات و المعابد.

ثم انتقل إلى ذكر الملل غير الإسلامية الموجودة فى مصر و القاهرة و هم اليهود و النصارى و ذكر أحوالهم و كنائسهم و دياراتهم و ما كان منهم و عليهم و ما آلوا إليه من فرق و خلافات فيما بينهم و مع المسلمين.

و رغم كل ما يقدمه هذا العالم الجليل يعترف بتقصيره عن إتمام الكمال الذى لا يصله إلّا اللّه وحده.

و يختتم كتابه بحمد اللّه و الاتكال عليه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۵

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

[مقدمة المؤلف

الحمد للّه الذى عرّف و فهم، و علم الإنسان ما لم يكن يعلم، و أسبغ على عباده نعما باطنة و ظاهره، و والى عليهم من مزيد آلائه مننا متظافرة متواترة، و بثهم فى أرضه حينا يتقلبون، و استخلفهم فى ماله فهم به يتنعمون، و هدى قوما إلى اقتناص شوارد المعارف و العلوم، و شوّقهم للتفنن فى مسارح التدبر و الركض بميادين الفهوم و أرشد قوما إلى الانقطاع من دون الخلق إليه، و وفقهم للاعتماد فى كل أمر عليه و صرف آخرين عن كل مكرمة و فضيلة، و قيض لهم قرناء قادوهم إلى كل ذميمة من الأخلاق و رذيلة، و طبع على قلوب آخرين فلا- يكادون يفقهون قولا، و ثبطهم عن سبل الخيرات، فما استطاعوا قوّة و لا حولا، ثم حكم على الكل بالفناء و نقلهم جميعا من دار التمحيص و الابتلاء إلى برزخ البيود و البلاء، و سيحشرهم أجمعين إلى دار الجزاء ليوفى كل عامل منهم عمله، و يسأله

عما أعطاه و خوّله.

و عن موفقه بين يديه سبحانه و ما أعدّ له لا يسأل عما يفعل و هم يسألون. أحمده سبحانه حمد من علم أنه إله لا يعبد إلا إياه، و لا خالق للخلق سواه حمدا يقتضى المزيد من النعماء، و يوالى المنن بتجدّد الآلاء، و صلى اللّه على سيدنا محمد و عبده و رسوله و نبيه و خليله سيد البشر و أفضل من مضى و غبر الجامع لمحاسن الأخلاق و السير، و المستحق لاسم الكمال على الإطلاق من البشر الذى كان نبيا و آدم بين الماء و الطين، و رقم اسمه من الأزل فى عليين، ثم تنقل من الأصلاب الفاخرة الزكية إلى الأرحام الطاهرة المرضية حتى بعثه اللّه عزّ و جلّ إلى الخلائق أجمعين، و ختم به الأنبياء و المرسلين و أعطاه ما لم يعط أحدا من العالمين و على آله و صحابته و التابعين و سلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

و بعد، فإنّ علم التاريخ من أجل العلوم قدرا، و أشرفها عند العقلاء مكانة و خطرا، لما يحويه من المواعظ و الإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار و الاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، و استعلام مذامّ الفعال ليرغب عنها أولو النهى، لا جرم إن كانت الأنفس الفاضلة به وامقة و الهمم العالية إليه مائلة و له عاشقة. و قد صنف فيه الأئمة كثيرا، و ضمّن الأجلّة كتبهم منه شيئا كبيرا، و كانت مصر هى مسقط رأسى، و ملعب أترابى و مجمع ناسى، و مغنى عشيرتى و حامتى، و موطن خاصتى و عامّتى، و جؤجؤى الذى ربى جناحى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۶

فى وكره و عش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره لا زلت مذ شذوت العلم و آتانى ربى الفطانة و الفهم أرغب فى معرفة أخبارها و أحبّ الأشراف على الاغتراف من آبارها، و أهوى مسائلة الركبان عن سكان ديارها فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة، و جمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب، أو يحويها لعزتها و غرابتها أهاب إلّا أنها ليست بمرتبة على مثال و لا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال، فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية، عن الأمم الماضية و القرون الخالية، و ما بقى بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه البلى و القدم و لم يبق إلّا أن يمحو رسمها الفناء و العدم، و أذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة، و ما اشتملت عليه من الخطط و الأصقاع، و حوته من المبانى البديعة الأوضاع، مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل، و التنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم و الأفاضل و أنثر خلال ذلك نكتا لطيفة، و حكما بديعة شريفة من غير إطالة و لا إكثار، و لا إجحاف مخل بالغرض و لا اختصار، بل وسط بين الطرفين، و طريق بين بين.

فلهذا سميته (كتاب المواعظ و الاعتبار فى ذكر الخطط و الآثار)، و إنى لأرجو أن يحظى إن شاء اللّه تعالى عند الملوك و لا ينبو عنه طباع العامىّ و الصعلوك و يجله العالم المنتهى، و يعجب به الطالب المبتدى، و ترضاه خلائق العابد الناسك، و لا يمجه سمع الخليع الفاتك و يتخذه أهل البطالة و الرفاهية سمرا، و يعدّه أولو الرأى و التدبير موعظة و عبرا، يستدلون به على عظيم قدرة اللّه تعالى فى تبديل الأبدال، و يعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور إلى حال بعد حال، فإن كنت أحسنت فيما جمعت و أصبت فى الذى صنعت و وضعت، فذلك من عميم منن اللّه تعالى و جزيل فضله و عظيم أنعمه علىّ، و جليل طوله، و إن أنا أسأت فيما فعلت و أخطأت إذ وضعت فما أجدر الإنسان بالإساءة و العيوب إذا لم يعصمه و يحفظه علام الغيوب:

و ما أبرّئ نفسى أننى بشرأسهو و أخطىء ما لم يحمنى قدر

و لا ترى عذرا أولى بذى زلل‌من أن يقول مقرّا أننى بشر

فليسبل الناظر فى هذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره إن مرّت به هفوة، و ليغض تجاوزا و صفحا إن وقف منه على كبوة، أو نبوة فأىّ جواد و إن عنق ما يكبو، و أىّ عضب مهند لا يكل و لا ينبو لا سيما و الخاطر بالأفكار مشغول، و العزم لالتواء الأمور و تعسرها فاتر محلول، و الذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل و القلب لتوالى المحن، و تواتر الإحن عليل:

يعاندنى دهرى كأنى عدوّهو فى كل يوم بالكريهة يلقانى

فإن رمت شيئا جاءنى منه ضدّهو إن راق لى يوما تكدّر فى الثانى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۷

اللهمّ غفرا ما هذا من التبرّم بالقضاء، و لا التضجر بالمقدور، بل إنه سقيم و نفثة مصدور يستروح أن أبدى التوجع و الأنين، و يجد خفا من ثقله إذا باح بالشكوى و الحنين:

و لو نظروا بين الجوانح و الحشارأوا من كتاب الحب فى كبدى سطرا

و لو جرّبوا ما قد لقيت من الهوىإذا عذرونى أو جعلت لهم عذرا

و اللّه أسأل أن يحلى هذا الكتاب بالقبول عند الجلة و العلماء، كما أعوذ به من تطرّق أيدى الحساد إليه و الجهلاء، و أن يهدينى فيه و فيما سواه من الأقوال و الأفعال إلى سواء السبيل، إنه حسبنا و نعم الوكيل و فيه جلّت قدرته لى سلوّ من كل حادث، و عليه عز و جل أتكل فى جميع الحوادث، لا إله إلا هو و لا معبود سواه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹

ذكر الرءوس الثمانية

اشارة

اعلم أنّ عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، و هى: الغرض و العنوان و المنفعة، و المرتبة، و صحة الكتاب، و من أىّ صناعة هو و كم فيه من أجزاء، و أىّ أنحاء التعاليم المستعملة فيه فنقول:

(أما الغرض) فى هذا التأليف فإنه جمع ما تفرّق من أخبار أرض مصر، و أحوال سكانها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر و هى التى إذا حصلت فى ذهن إنسان اقتدر على أن يخبر فى كل وقت بما كان فى أرض مصر من الآثار الباقية و البائدة و يقص أحوال من ابتدأها، و من حلها و كيف كانت مصائر أمورهم و ما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر.

(و أمّا عنوان هذا الكتاب) أعنى الذى و سمته به فإنى لما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلطة متفرّقة فلم يتهيأ لى إذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتبا على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة لا سيما فى الأعصر الخالية، و لا أن أضعها على أسماء الناس لعلل أخر تظهر عند تصفح هذا التأليف فلهذا فرّقتها فى ذكر الخطط و الآثار، فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه و يشاكله، و صار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرّق و تبدّد من أخبار مصر، و لم أتحاش من تكرار الخبر إذا احتجت إليه بطريقة يستحسنها الأريب، و لا يستهجنها الفطن الأديب كى يستغنى مطالع كل فصل بما فيه عما فى غيره من الفصول، فلذلك سميته:

(كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار).

(و أما منفعة هذا الكتاب) فإنّ الأمر فيها يتبين من الغرض فى وضعه، و من عنوانه أعنى أنّ منفعته هى أن يشرف المرء فى زمن قصير على ما كان فى أرض مصر من الحوادث و التغييرات فى الأزمنة المتطاولة و الأعوام الكثيرة، فتتهذب بتدبر ذلك نفسه و ترتاض أخلاقه فيحب الخير و يفعله، و يكره الشرّ و يتجنبه، و يعرف فناء الدنيا فيحظى بالإعراض عنها، و الإقبال على ما يبقى.

(و أما مرتبة هذا الكتاب) فإنه من جملة أحد قسمى العلم اللذين هما العقلىّ و النقلىّ، فينبغى أن يتفرّغ لمطالعته و تدبر مواعظه بعد إتقان ما تجب معرفته من العلوم النقلية و العقلية، فإنه يحصل بتدبره لمن أزال اللّه أكنة قلبه و غشاوة بصره نتيجة العلم بما صار إليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰

أبناء جنسه بعد التخوّل فى الأموال و الجنود من الفناء و البيود، فإذا مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم العقلية و النقلية ليعرف منه كيف

كان عاقبة الذين كانوا من قبل.

(و أما واضع هذا الكتاب و مرتّبه) فاسمه أحمد بن علىّ بن عبد القادر بن محمد، و يعرف بالمقريزىّ رحمه اللّه تعالى ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعد سنة ستين و سبعمائة من سنى الهجرة المحمدية، و رتبته من العلوم ما يدل عليه هذا الكتاب و غيره مما جمعه و ألفه.

(و أما من أىّ علم هذا الكتاب) فإنه من علم الأخبار و بها عرفت شرائع اللّه تعالى التى شرعها، و حفظت سنن أنبيائه و رسله، و دوّن هداهم الذى يقتدى به من وفقه اللّه تعالى إلى عبادته، و هداه إلى طاعته، و حفظه من مخالفته، و بها نقلت أخبار من مضى من الملوك و الفراعنة و كيف حل بهم سخط اللّه تعالى لما أتوا ما نهوا عنه، و بها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة ما دوّنوه من العلوم و الصنائع، و تأتى لهم على ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة، و الأمصار النائية و غير ذلك مما لا ينكر فضله، و لكل أمّة من أمم العرب و العجم على تباين آرائهم و اختلاف عقائدهم أخبار عندهم معروفة مشهورة ذائعة بينهم، و لكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرّت به يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر و لو استقصيت ما صنف علماء العرب و العجم فى ذلك لتجاوز حدّ الكثرة، و عجزت القدرة البشرية عن حصره.

(و أما أجزاء هذا الكتاب فإنها سبعة): أولها: يشتمل على جمل من أخبار أرض مصر، و أحوال نيلها و خراجها و جبالها.

و ثانيها: يشتمل على كثير من مدنها و أجناس أهلها.

و ثالثها: يشتمل على أخبار فسطاط مصر و من ملكها.

و رابعها: يشتمل على أخبار القاهرة و خلائقها و ما كان لهم من الآثار.

و خامسها: يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة و ظواهرها من الأحوال.

و سادسها: يشتمل على ذكر قلعة الجبل و ملوكها.

و سابعها: يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر.

و قد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء السبعة عدّة أقسام.

و أما أىّ أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب، فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء، و هى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم، و الرواية عمن أدركت من شيخه العلم و جلة الناس، و المشاهدة لما عاينته و رأيته. فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلته منه لأخلص من عهدته، و أبرأ من جريرته فكثيرا ممن ضمنى و إياه العصر، و اشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم و قصور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱

باعه فى معرفة علوم التاريخ، و جهل مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه و لو أنصف لعلم أن العجز من قبله و ليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه، و لا يحتاج فى الشريعة إليه و حسب العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك و يقف عليه.

و أما الرواية عمن أدركت من الجلة و المشايخ فإنى فى الغالب و الأكثر أصرح باسم من حدّثنى إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه، أو أكون قد أنسيته و قلّ ما يتفق مثل ذلك.

و أمّا ما شاهدته فإنى أرجو أن أكون و للّه الحمد غير متهم و لا ظنين، و قد قلت فى هذه الرءوس الثمانية ما فيه قنع و كفاية، و لم يبق إلا أن أشرع فيما قصدت، و عزمى أن أجعل الكلام فى كل خط من الأخطاط و فى كل أثر من الآثار على حدة ليكون العلم بما يشتمل عليه من الأخبار أجمع و أكثر فائدة و أسهل تناولا و اللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم و فوق كلّ ذى علم عليم.

(فصل): أوّل من رتب خطط مصر و آثارها، و ذكر أسبابها فى ديوان جمعه: أبو عمر محمد بن يوسف الكندىّ ، ثم كتب بعده القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعىّ كتابه المنعوت بالمختار فى ذكر الخطط و الآثار، و مات فى سنة سبع و خمسين و

أربعمائة قبل سنى الشدّة، فدثر أكثر ما ذكر اه.

و لم يبق إلا يلمع و موضع بلقع بما حل بمصر من سنى الشدّة المستنصرية من سنة سبع و خمسين إلى سنة أربع و ستين و أربعمائة من الغلاء و الوباء، فمات أهلها و خربت ديارها و تغيرت أحوالها، و استولى الخراب على عمل فوق من الطرفين بجانبى الفسطاط الغربىّ و الشرقىّ. فأما الغربىّ فمن قنطرة بنى وائل حيث الوراقات الآن قريبا من باب القنطرة خارج مدينة مصر إلى الشرف المعروف الآن بالرصد، و أنت مار إلى القرافة الكبرى. و أما الشرقىّ فمن طرف بركة الحبش التى تلى القرافة إلى نحو جامع أحمد بن طولون، ثم دخل أمير الجيوش بدر الجمالى مصر فى سنة ست و ستين و أربعمائة، و هذه المواضع خاوية على عروشها خالية من سكانها و أنيسها قد أبادهم الوباء و التباب، و شتتهم الموت و الخراب و لم يبق بمصر إلا بقايا من الناس كأنهم أموات قد اصفرّت وجوههم و تغيرت سحنهم من غلاء الأسعار، و كثرة الخوف من العسكرية، و فساد طوائف العبيد و الملحية، و لم يجد من يزرع الأراضى. هذا و الطرقات قد انقطعت بحرا و برّا إلا بخفارة و كلفة كثيرة، و صارت القاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲

أيضا يبابا داثرة، فأباح للناس من العسكرية و الملحية و الأرض، و كل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها فأخذ الناس فى هدم المساكن و نحوها بمصر، و عمروا بها فى القاهرة، و كان هذا أوّل وقت اختط الناس فيه بالقاهرة.

ثم كان المنبه بعد القضاعى على الخطط و التعريف بها تلميذه أبو عبد اللّه محمد بن بركات النحوىّ فى تأليف لطيف نبه فيه الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى على مواضع قد اغتصبت و تملكت بعد ما كانت أحباسا ثم كتب الشريف محمد بن أسعد الجوانى (كتاب النقط بعجم ما أشكل من الخطط) نبه فيه على معالم قد جهلت و آثار قد دثرت، و آخر من كتب فى ذلك القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوّج (كتاب إيعاظ المتأمّل و إيقاظ المتغفل) فى الخطط بيّن فيه جملا من أحوال مصر و خططها إلى أعوام بضع و عشرين و سبعمائة قد دثرت بعده معظم ذلك فى وباء سنة تسع و أربعين و سبعمائة ثم فى وباء سنة إحدى و ستين ثم فى غلاء سنة ست و سبعين و سبعمائة.

و كتب القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر (كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة) ففتح فيه بابا كانت الحاجة داعية إليه، ثم تزايدت العمارة من بعده فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون بالقاهرة و ظواهرها إلى أن كادت تضيق على أهلها حتى حل بها و باء سنة تسع و أربعين و سنة إحدى و ستين ثم غلاء سنة ست و سبعين فخربت بها عدّة أماكن فلما كانت الحوادث و المحن من سنة ست و ثمانمائة شمل الخراب القاهرة و مصر و عامّة الإقليم، و سأورد من ذكر الخطط ما تصل إليه قدرتى إن شاء اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳

ذكر طرف من هيئة الأفلاك

اعلم أنه لما كانت مصر قطعة من الأرض تعيّن قبل التعريف بموقعها من الأرض و تبيين موضع الأرض من الفلك أن أذكر طرفا من هيئة الأفلاك، ثم أذكر صورة الأرض و موضع الأقاليم منها، و أذكر محل مصر من الأرض، و موضعها من الأقاليم و أذكر حدودها و اشتقاقها و فضائلها و عجائبها و كنوزها و أخلاق أهلها، و أذكر نيلها و خلجانها و كورها و مبلغ خراجها، و غير ذلك ممّا يتعلق بها قبل الشروع فى ذكر خطط مصر و القاهرة فأقول: علم النجوم ثلاثة أقسام: (الأوّل): معرفة تركيب الأفلاك، و كمية الكواكب، و أقسام البروج، و أبعادها و عظمها و حركتها و يقال لهذا القسم: علم الهيئة. (و القسم الثانى): علم الزيج، و علم التقويم. (و القسم الثالث): معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك و طوالع البروج على الحوادث قبل كونها و يسمى هذا القسم علم الأحكام، و الغرض هنا إيراد

نبذ من علم الهيئة تكون توطئة لما يأتى ذكره. اعلم أن الكواكب أجسام كريات و الذى أدرك منها الحكماء بالرصد ألف كوكب و تسعة و عشرون كوكبا، و هى على قسمين: سيارة، و ثابتة. فالسيارة سبعة و هى: زحل، و المشترى، و المرّيخ، و الشمس، و الزهرة، و عطارد، و القمر، و قد نظمت فى بيت واحد و هو:

زحل شرى مرّيخه من شمسه‌فتزاهرت بعطارد الأقمار

و يقال لهذه السبعة: الخنّس، و قيل: إنها التى عناها اللّه تعالى بقوله: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ [التكوير/ ۱۵] و التى عناها اللّه تعالى بقوله: فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً [النازعات/ ۵]، و قيل لها: الخنس لاستقامتها فى سيرها و رجوعها، و قيل لها: الكنس لأنها تجرى فى البروج ثم تكنس أى تستتر كما يكنس الظبى، و قيل: الكنس و الخنس منها خمسة و هى: ما سوى الشمس و القمر سميت بذلك من الانحناس و هو الانقباض، و فى الحديث:

«الشيطان يوسوس للعبد فإذا ذكر اللّه خنس» أى انقبض و رجع فيكون الخنس على هذا فى الكواكب بمعنى الرجوع و سميت بالكنس من قولهم: كنس الظبى إذا دخل الكناس و هو مقرّة فالكنس على هذا فى الكواكب بمعنى اختفائها تحت ضوء الشمس و يقال لهذه الكواكب المتحيرة لأنها ترجع أحيانا عن سمت مسيرها بالحركة الشرقية و تتبع الغربية فى رأى العين فيكون هذا الارتداد لها شبه التحير، و هذه الأسماء التى لهذه الكواكب يقال: إنها مشتقة من صفاتها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۴

فزحل مشتق من زحل فلان إذا أبطأ سمى بذلك لبطء سيره، و قيل: للزحل و الزحل الحقد، و هو بزعمهم يدل على ذلك و يقال: إنه المراد فى قوله تعالى: وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ [الطارق/ ۱- ۳]. و المشترى سمى بذلك لحسنه كأنه اشترى الحسن لنفسه، و قيل: لأنه نجم الشراء و البيع، و دليل الريح و المال فى قولهم.

و المرّيخ مأخوذ من المرخ و هو شجر يحتك بعض أغصانه ببعض فيورى نارا سمى بذلك لاحمراره، و قيل: المرّيخ سهم لا ريش له إذا رمى به لا يستوى فى ممرّه، و كذا المرّيخ فيه التواء كثير فى سيره و دلالته بزعمهم تشبه ذلك، و الشمس لما كانت واسطة بين ثلاثة كواكب علوية لأنهم من فوقها، و ثلاثة سفلية لأنهم من تحتها سميت بذلك لأنّ الواسطة التى فى المخنقة تسمى شمسة، و الزهرة من الزاهر و هو الأبيض النير من كل شىء، و عطارد هو النافذ فى كل الأمور و لذلك يقال له أيضا الكاتب فإنه كثير التصرّف مع ما يقارنه و يلابسه من الكواكب، و القمر مأخوذ من القمرة و هى البياض و الأقمر الأبيض.

و يقال لزحل كيوان، و للمشترى تبر و البرجيس أيضا، و للمرّيخ بهرام، و للشمس مهر، و للزهرة أياهيد و سدحت أيضا، و لعطارد هرمس، و للقمر ماه، و قد جمعت فى بيت واحد و هو هذا:

لا زلت تبقى و ترقى للعلى أبداما دام للسبعة الأفلاك أحكام

مهر و ماه و كيوان و تبر معاو هرمس و أياهيد و بهرام

و يقال: لما عدا هذه الكواكب السبعة من بقية نجوم السماء الكواكب الثابتة.

سميت بذلك لثباتها فى الفلك بموضع واحد، و قيل: لبطء حركتها فإنها تقطع الفلك بزعمهم بعد كل ستة و ثلاثين ألف سنة شمسية مرّة واحدة.

و لكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة فلك من الأفلاك يخصه، و الأفلاك أجسام كريات مشقات بعضها فى جوف بعض و هى تسعة أقربها إلينا فلك القمر، و بعده فلك عطارد، ثم بعده فلك الزهرة، و بعده فلك الشمس، و فوقه فلك المريخ، ثم فلك المشترى، و فوقه فلك زحل، ثم فلك الثوابت و فيه كل كوكب يرى فى السماء سوى السبعة السيارة، و من فوق فلك الثوابت الفلك المحيط و هو الفلك التاسع، و يسمى الأطلس، و فلك الأفلاك، و فلك الكل، و قد اختلف فى الأفلاك فقيل: هى السماوات، و قيل: بل السماوات غيرها، و قيل: بل هى كرية، و قيل غير ذلك. و قيل: الفلك الثامن هو الكرسى، و الفلك التاسع هو العرش، و قيل غير

ذلك. و هذا الفلك التاسع دائم الدوران كالدولاب و يدور فى كل أربعة و عشرين ساعة مستوية دورة واحدة، و دورانه يكون أبدا من المشرق إلى المغرب، و يدور بدورانه جميع الأفلاك الثمانية و ما حوته من الكواكب دورانا حركته قسرية لإدارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۵

التاسع لها و عن حركة التاسع المذكور يكون الليل و النهار فالنهار مدّة بقاء الشمس فوق أفق الأرض و الليل مدّة غيبوبة الشمس تحت أفق الأرض، و فلك الكواكب الثابتة مقسوم باثنى عشر قسما كحجز البطيخة كل قسم منها يقال له: برج و هى: الحمل، و الثور، و الجوزاء، و السرطان، و الأسد، و السنبلة، و الميزان، و العقرب، و القوس، و الجدى، و الدلو، و الحوت. و كل برج من هذه البروج الاثنى عشر ينقسم ثلاثين قسما يقال: لكل قسم منها درجة، و كل درجة من هذه الثلاثين مقسومة ستين قسما يقال لكل قسم منها دقيقة و كل دقيقة من هذه الستين مقسومة ستين قسما يقال لكل قسم منها ثانية و هكذا إلى الثوالث و الروابع و الخوامس إلى الثوانى عشر و ما فوقها من الأجزاء و كل ثلاثة بروج تسمى فصلا. فالزمان على ذلك أربعة فصول: و هى الربيع، و الصيف، و الخريف، و الشتاء. و جهات الأقطار أربعة: الشرق، و الغرب، و الشمال، و الجنوب. و الأركان أربعة: النار، و الهواء، و الماء، و التراب. و الطبائع أربعة: الحرارة، و البرودة، و الرطوبة، و اليبوسة. و الأخلاط أربعة:

الصفراء، و السوداء، و البلغم، و الدم. و الرياح أربعة: الصبا، و الدبور، و الشمال، و الجنوب.

فالبروج منها ثلاثة ربيعية صاعدة فى الشمال زائدة النهار على الليل و هى: الحمل، و الثور، و الجوزاء، و ثلاثة صيفية هابطة فى الشمال آخذة الليل من النهار و هى: السرطان، و الأسد، و السنبلة، و ثلاثة خريفية هابطة فى الجنوب زائدة الليل على النهار و هى: الميزان، و العقرب، و القوس، و ثلاثة شتوية صاعدة فى الجنوب آخذة النهار من الليل و هى: الجدى، و الدلو، و الحوت، و الفلك المحيط كما تقدم دائم الدوران كالدولاب يدور أبدا من المشرق إلى المغرب فوق الأرض، و من المغرب إلى المشرق تحتها فيكون دائما نصف الفلك، و هو ستة بروج بمائة و ثمانين درجة فوق الأرض و نصفه الآخر و هو ستة بروج بمائة و ثمانين درجة تحت الأرض، و كلما طلعت من أفق المشرق درجة من درجات الفلك التى عدّتها ثلثمائة و ستون درجة غرب نظيرها فى أفق المغرب من البرج السابع فلا يزال دائما ستة بروج طلوعها بالنهار، و ستة بروج طلوعها بالليل، و الأفق عبارة عن الحدّ الفاصل من الأرض بين المرئىّ و الخفىّ من السماء، و الفلك يدور على قطبين شمالىّ و جنوبىّ كما يدور الحق على قطبى المخروطة، و يقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين متساويين بعدهما من كلا القطبين سواء، و تسمى هذه الدائرة دائرة معدّل النهار فهى تقاطع فلك البروج و دائرة فلك البروج تقاطع دائرة معدّل النهار، و يميل نصفها إلى الجانب الشمالى بقدر أربع و عشرين درجة تقريبا و هذا النصف فيه قسمة البروج الستة الشمالية و هى من أوّل الحمل إلى آخر السنبلة و يميل نصفها الثانى عنها إلى الجنوب بمثل ذلك و فيه قسمة البروج الستة الجنوبية.

و هى من أوّل برج الميزان إلى آخر برج الحوت، و موضع تقاطع هاتين الدائرتين أعنى دائرة معدّل النهار، و دائرة فلك البروج من الجانبين هما: نقطتا الاعتدالين أعنى رأس الحمل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۶

و رأس الميزان، و مدار الشمس و القمر، و سائر النجوم على محاذاة دائرة فلك البروج دون دائرة معدّل النهار و تمرّ الشمس على دائرة معدّل النهار عند حلولها بنقطتى الاعتدالين فقط لأنها موضع تقاطع الدائرتين، و هذا هو خط الاستواء الذى لا يختلف فيه الزمان بزيادة الليل على النهار و لا النهار على الليل. لأنّ ميل الشمس عنه إلى كلا الجانبين الشمالىّ و الجنوبىّ سواء فالشمس تدور الفلك و تقطع الاثنى عشر برجا فى مدّة ثلثمائة و خمسة و ستين يوما و ربع يوم بالتقريب. و هذه هى: مدّة السنة الشمسية و تقيم فى كل برج ثلاثين يوما و كسرا من يوم، و تكون أبدا بالنهار ظاهرة فوق الأرض، و بالليل بخلاف ذلك و إذا حلت فى البروج الستة الشمالية التى هى: الحمل، و الثور، و الجوزاء، و السرطان، و الأسد، و السنبلة فإنها تكون مرتفعة فى الهواء قريبة من سمت رؤوسنا و ذلك زمن فصل الربيع و فصل الصيف، و إذا حلت فى البروج الجنوبية و هى: الميزان، و العقرب، و القوس، و الجدى، و الدلو، و الحوت، كان

فصل الخريف و فصل الشتاء، و انحطت الشمس و بعدت عن سمت الرءوس.

و زعم وهب بن منبه أن أوّل ما خلق اللّه تعالى من الأزمنة الأربعة الشتاء فجعله باردا رطبا، و خلق الربيع فجعله حارا رطبا، و خلق الصيف فجعله حارا يابسا، و خلق الخريف فجعله باردا يابسا، و أوّل الفصول عند أهل زماننا الربيع و يكون فصل الربيع عندما تنتقل الشمس من برج الحوت، و قد اختلف القدماء فى البداية من الفصول فمنهم من اختار فصل الربيع و صيّره أوّل السنة، و منهم من اختار تقديم الانقلاب الصيفىّ، و منهم من اختار تقديم الاعتدال الخريفىّ، و منهم من اختار تقديم الانقلاب الشتوىّ، فإذا حلت أوّل جزء من برج الحمل استوى الليل و النهار و اعتدل الزمان و انصرف الشتاء و دخل الربيع، و طاب الهواء، و هبّ النسيم، و ذاب الثلج، و سالت الأودية، و مدّت الأنهار فيما عدا مصر، و نبت العشب، و طال الزرع، و نما الحشيش و تلألأ الزهر و أوراق الشجر، و تفتح النور، و اخضرّ وجه الأرض و نتجت البهائم، و درت الضروع، و أخرجت الأرض زخرفها، و ازينت و صارت كصبية شابة قد تزينت للناظرين و للّه درّ القائل، و هو الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليعمرىّ رحمه اللّه تعالى:

و استنشقوا لهوا الربيع فإنه‌نعم النسيم و عنده ألطاف

يغذى الجسوم نسيمه و كأنه‌روح حواها جوهر شفاف

و قال ابن قتيبة: و من ذلك الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذى يتبع الشتاء و يأتى فيه النور، و الورد، و لا يعرفون الربيع غيره، و العرب تختلف فى ذلك فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تدرك فيه الثمار، و هو الخريف و فصل الشتاء بعده ثم فصل الصيف بعد الشتاء و هو الوقت الذى تدعوه العامّة الربيع ثم فصل القيظ و هو الذى تدعوه العامّة الصيف، و من العرب من يسمى الفصل الذى يعتدل و تدرك فيه الثمار و هو الخريف الربيع الأوّل، و يسمى الفصل الذى يتلوه الشتاء و يأتى فيه الكمام و النور الربيع الثانى و كلهم مجتمعون على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷

أن الربيع هو الخريف فإذا حلت الشمس آخر برج الجوزاء، و أوّل برج السرطان تناهى طول النهار، و قصر الليل و ابتدأ نقص النهار و زيادة الليل و انصرم فصل الربيع، و دخل فصل الصيف، و اشتدّ الحرّ، و حمى الهواء، و هبت السمائم، و نقصت المياه إلا بمصر، و يبس العشب، و استحكم الحب، و أدرك حصاد الغلال، و نضجت الثمار، و سمنت البهائم، و اشتدّت قوّة الأبدان، و درت أخلاف النعم، و صارت الأرض كأنها عروس فإذا بلغت آخر برج السنبلة و أوّل برج الميزان تساوى الليل و النهار مرّة ثانية و أخذ الليل فى الزيادة و النهار فى النقصان و انصرم فصل الصيف و دخل فصل الخريف فبرد الهواء، و هبت الرياح، و تغير الزمان، و جفت الأنهار، و غارت العيون، و اصفرّ ورق الشجر، و صرّمت الثمار، و درست البيادر، و اختزن الحبّ، و اقتنى العشب، و اغبرّ وجه الأرض إلا بمصر، و هزلت البهائم، و ماتت الهوامّ، و انحجرت الحشرات، و انصرف الطير و الوحش يريد البلاد الدافئة، و أخذ الناس يخزنون القوت للشتاء و صارت الدنيا كأنها امرأة كهلة قد أدبرت و أخذ شبابها يولى و للّه درّ القائل و هو الإمام عز الدين أبو الحسن أحمد بن علىّ ابن معقل الأزدىّ المهلبىّ الحمصىّ حيث يقول:

للّه فصل الخريف المستلذ به‌برد الهواء لقد أبدى لنا عجبا

أهدى إلى الأرض من أوراقه ذهبا و الأرض من شأنها أن تهدى الذهبا

و قال أيضا:

للّه فصل الخريف فصلارقت حواشيه فهو رائق

فالماء يجرى بقلب سالو الدمع يبدو بوجه عاشق

فبرد هذا و لون هذايلذه ذائق و وامق

و قال أيضا:

أتى فصل الخريف بكل طيبو حسن معجب قلبا و عينا

أرانا الدوح مصفرّا نضاراو صافى الماء مبيضا لجينا

فأحسن كلّ إحسان إلىناو أنعم كلّ إنعام علينا

و قال آخر يذم الخريف:

خذ فى التدثر فى الخريف فإنهمستو بل و نسيمه خطاف

يجرى مع الأجسام جرى حياتهاكصديقا و من الصديق يخاف

و قال آخر:

يا عائبا فصل الخريف و غائباعن فضله فى ذمه لزمانه

لا شىء ألطف منه عندى موقعاأبدا يعرّى الغصن من قمصانه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۸ و تراه يفرش تحته أثوابهفأعجب لرأفته و فرط حنانه

و ألذ ساعات الوصال إذا دناوقت الرحيل و حان حين أوانه

فإذا حلّت الشمس آخر برج القوس و أوّل برج الجدى تناهى طول الليل و قصر النهار، و أخذ النهار فى الزيادة و الليل فى النقصان، و انصرم فصل الخريف، و حلّ فصل الشتاء، و اشتدّ البرد، و خشن الهواء، و تساقط ورق الشجر، و مات أكثر النبات، و غارت الحيوانات، فى جوف الأرض و ضعف قوى الأبدان و عرى وجه الأرض من الزينة، و نشأت الغيوم و كثرت الأنداء، و أظلم الجوّ و كلح وجه الأرض إلا بمصر، و امتنع الناس من التصرّف، و صارت الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت. فإذا بلغت آخر برج الحوت و أوّل برج الحمل عاد الزمان كما كان عام أوّل و هذا دأبه ذلك تقدير العزيز العليم و تدبير الخبير الحكيم لا إله إلّا هو. و قد شبه بطليموس فصل الربيع بزمان الطفولية، و فصل الصيف بالشباب، و الخريف بالكهولة، و الشتاء بالشيخوخة، و عن حركة الشمس و تنقلها فى البروج الاثنى عشر المذكورة تكون أزمان السنة و أوقات اليوم من الليل و النهار و ساعاتهما، و عن حركة القمر فى البروج الاثنى عشر تكون الشهور القمرية و السنة القمرية، فالقمر يدور البروج الاثنى عشر و يقطع الفلك كله فى مدّة ثمانية و عشرين يوما و بعض يوم، و يقيم فى كل برج يومين و ثلث يوم بالتقريب، و يقيم فى كلّ منزلة من منازل القمر الثمانية و العشرين منزلة يوما و ليلة، فيظهر عند إهلاله من ناحية الغرب بعد غروب جرم الشمس، و يزيد نوره فى كل ليلة قدر نصف سبع حتى يكمل نوره، و يمتلئ فى ليلة الرابع عشر من إهلاله، ثم يأخذ من الليلة الخامسة عشر فى النقصان فينقص من نوره فى كلّ ليلة نصف سبع كما بدا إلى أن يمحق نوره فى آخر الثمانية و عشرين يوما من إهلاله و يمرّ فى هذه المدّة منذ يفارق الشمس، و يبدو فى ناحية الغرب، و يستمرّ إلى أن يجامعها بثمانية و عشرين منزلة و هى: السرطان ، و البطين، و الثريا، و الدبران، و الهقعة، و الهنعة، و الذراع، و النثرة، و الطرف، و الجبهة، و الزبرة، و الصرفة، و العوّا، و السماك، و الغفر، و الزبانا، و الإكليل، و القلب، و الشولة، و النعائم، و البلدة، و سعد الذابح، و سعد بلع، و سعد السعود، و سعد الأخبية، و الفرغ المقدّم، و الفرغ المؤخر، و بطن الحوت. و لحساب ذلك كتب موضوعة و فيما ذكر كفاية و اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون.

ذكر صورة الأرض و موضع الأقاليم منها

و لما تقدّم فى الأفلاك من القول ما يتبين به لمن ألهمه اللّه تعالى كيف تكون الحركة التى بها الليل و النهار، و تركب الشهور و الأعوام منهما جاز حينئذ الكلام على الأرض.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹

فأقول: الجهات من حيث هى ست: الشرق و هو حيث تطلع الشمس. و القمر، و سائر الكواكب فى كل قطر من الأفق، و الغرب و هو

حيث تغرب، و الشمال و هو حيث مدار الجدى و الفرقدين، و الجنوب و هو حيث مدار سهيل، و الفوق و هو مما يلى السماء، و التحت و هو مما يلى مركز الأرض.

و الأرض جسم مستدير كالكرة، و قيل: ليست بكرية الشكل و هى واقفة فى الهواء بجميع جبالها و بحارها و عامرها و غامرها، و الهواء محيط بها من جميع جهاتها كالمحّ فى جوف البيضة و بعدها من السماء متساو من جميع الجهات و أسفل الأرض ما تحقيقه هو عمق باطنها مما يلى مركزها من أىّ جانب كان. ذهب الجمهور إلى أن الأرض كالكرة موضوعة فى جوف الفلك كالمح فى البيضة، و أنها فى الوسط و بعدها فى الفلك من جميع الجهات على التساوى.

و زعم هشام بن الحكم: أن تحت الأرض جسما من شأنه الارتفاع و هو المانع للأرض من الانحدار، و هو ليس محتاجا إلى ما بعده، لأنه ليس يطلب الانحدار بل الارتفاع، و قال:

إن اللّه تعالى وقفها بلاد عماد.

و قال ديمقراطس: أنها تقوم على الماء، و قد حصر الماء تحتها حتى لا يجد مخرجا فيضطرّ إلى الانتقال، و قال آخر: هى واقفة على الوسط على مقدار واحد من كلّ جانب و الفلك يجذبها من كل وجه فلذلك لا تميل إلى ناحية من الفلك دون ناحية، لأنّ قوة الأجزاء متكافئة، و ذلك كحجر المغناطيس فى جذبه الحديد فإنّ الفلك بالطبع مغناطيس الأرض، فهو يجذبها فهى واقفة فى الوسط، و سبب وقوفها فى الوسط سرعة تدوير الفلك و دفعه إياها من كل جهة إلى الوسط.

كما إذا وضعت ترابا فى قارورة و أدرتها بقوّة فإنّ التراب يقوم فى الوسط.

و قال محمد بن أحمد الخوارزمى : الأرض فى وسط السماء، و الوسط هو السفلى بالحقيقة، و هى مدوّرة مضرسة من جهة الجبال البارزة و الوهاد الغائرة، و ذلك لا يخرجها عن الكرية إذا اعتبرت جملتها لأنّ مقادير الجبال و إن شمخت يسيرة بالقياس إلى كرة الأرض، فإن الكرة التى قطرها ذراع، أو ذراعان مثلا إذا أنتأ منها شىء أو غار فيها لا يخرجها عن الكرية، و لا هذه التضاريس لإحاطة الماء بها من جميع جوانبها و غمرها، بحيث لا يظهر منها شىء. فحينئذ تبطل الحكمة المؤدّية المودعة فى المعادن، و النبات و الحيوان، فسبحان من لا يعلم أسرار حكمه إلا هو. و أما سطحها الظاهر المماس للهواء من جميع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰

الجهات فإنه فوق، و الهواء فوق الأرض يحيط بها و يجذبها من سائر الجهات، و فوق الهواء الأفلاك المذكورة فيما تقدّم واحدا فوق آخر إلى الفلك التاسع الذى هو أعلى الأفلاك، و نهاية المخلوقات بأسرها، و قد اختلف فيما وراء ذلك فقيل: خلا.

و قيل: ملاء، و قيل: لا خلاء و لا ملاء و كل موضع يقف فيه الإنسان من سطح الأرض فإنّ رأسه أبدا يكون مما يلى السماء إلى فوق، و رجلاه أبدا تكون أسفل مما يلى مركز الأرض، و هو دائما يرى من السماء: نصفها و يستر عنه النصف الآخر حدبة الأرض، و كلما انتقل من موضع إلى آخر ظهر له من السماء بقدر ما خفى عنه.

و الأرض غامرة بالماء كعنبة طافية فوق الماء قد انحسر عنها نحو النصف، و انغمر النصف الآخر فى الأرض، و صار المنكشف من الأرض نصفين، كأنما قسم بخط مسامت لخط معدّل النهار يمرّ تحت دائرته، و جميع البلاد التى على هذا الخط، لا عرض لها البتة، و القطبان غير مرتبين فيها، و يكونان هناك على دائرة الأفق من الجانبين.

و كلما بعد موضع بلد عن هذا الخط إلى ناحية الشمال قدر درجة ارتفع القطب الشمالىّ الذى هو: الجدى على أهل ذلك البلد درجة، و انخفض القطب الجنوبىّ الذى هو: سهيل درجة، و هكذا ما زاد و يكون الأمر فيما بعد من البلاد الواقعة فى ناحية الجنوب كذلك من ارتفاع القطب الجنوبىّ، و انحطاط القطب الشمالىّ، و بهذا عرف عرض البلدان، و صار عرض البلد عبارة عن ميل دائرة معدّل النهار عن سمت رؤوس أهله، و ارتفاع القطب عليهم، و هو أيضا بعد ما بين سمت رؤوس أهل ذلك البلد، و سمت رؤوس أهل بلد لا عرض له، فأمّا ما انكشف من الأرض مما يلى الجنوب من خط الاستواء، فإنه خراب، و النصف الآخر الذى يلى الشمال من

خط الاستواء، فهو الربع العامر، و هو المسكون من الأرض، و خط الاستواء لا وجود له فى الخارج، و إنما هو فرض بوهمنا أنه خط ابتداؤه من المشرق إلى المغرب تحت مدار رأس الحمل، و سمى بذلك من أجل أنّ النهار، و الليل هناك أبدا سواء لا يزيد و لا ينقص أحدهما عن الآخر شيئا البتة فى سائر أوقات السنة كلها، و نقطتا هذا الخط ملازمتان للأفق إحداهما على مدار سهيل فى ناحية الجنوب، و الأخرى مما يلى الجدى فى ناحية الشمال.

و العمارة من المشرق إلى المغرب مائة و ثمانون درجة من الجنوب إلى الشمال من خط أريس إلى بنات نعش: ثمان و أربعون درجة، و هو مقدار ميل الشمس مرّتين، و خلف خط أريس، و هو مقدار: ستة عشر درجة، و جملة معمور الأرض نحو من: سبعين درجة لاعتدال مسير الشمس فى هذا الوسط، و مرورها على ما وراء الحمل و الميزان مرّتين فى السنة، و أما الشمال و الجنوب، فالشمس لا تحاذيهما إلّا مرّة واحدة، و لأنّ أوج الشمس مرّتين فى جهة الشمال، كانت العمارة فيه لارتفاعها و انتفاء ضرر قربها عن ساكنيه، و لأن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱

حضيضها فى الجنوب، عدمت العمارة هنالك.

و قد اختلف الناس فى مسافة الأرض، فقيل: مسافتها خمسمائة عام ثلث عمران، و ثلث خراب، و ثلث بحار، و قيل: المعمور من الأرض مائة و عشرون سنة: تسعون ليأجوج و مأجوج، و اثنا عشر: للسودان، و ثمانية للروم، و ثلاثة للعرب، و سبعة لسائر الأمم.

و قيل: الدنيا سبعة أجزاء: ستة ليأجوج و مأجوج، و واحد لسائر الناس، و قيل:

الأرض خمسمائة عام: البحار ثلثمائة، و مائة خراب، و مائة عمران، و قيل: الأرض أربعة و عشرون ألف فرسخ: للسودان اثنا عشر ألف، و للروم ثمانية آلاف، و لفارس ثلاثة آلاف، و للعرب ألف.

و عن وهب بن منبه: ما العمارة من الدنيا فى الخراب إلا كفسطاط فى الصحراء.

و قال أزدشير بن بابك: الأرض أربعة أجزاء: جزء منها للترك، و جزء للعرب، و جزء للفرس، و جزء للسودان، و قيل: الأقاليم سبعة: و الأطراف أربعة، و النواحى خمسة و أربعون، و المدائن عشرة آلاف، و الرساتيق مائتا ألف و ستة و خمسون ألفا، و قيل: المدن و الحصون أحد و عشرون ألفا و ستمائة مدينة و حصن، ففى الإقليم الأوّل ثلاثة آلاف و مائة مدينة كبيرة، و فى الثانى ألفان و سبعمائة و ثلاثة عشر مدينة و قرية كبيرة، و فى الثالث ثلاثة آلاف و تسع و سبعون مدينة و قرية، و فى الرابع و هو بابل ألفان و تسعمائة و أربع و سبعون مدينة، و فى الخامس ثلاثة آلاف مدينة و ست مدائن، و فى السادس ثلاثة آلاف و أربعمائة و ثمان مدن، و فى السابع ثلاثة آلاف و ثلاثمائة مدينة فى الجزائر.

و قال الخوارزمىّ: قطر الأرض سبعة آلاف فرسخ، و هو نصف سدس الأرض و الجبال و المفاوز و البحار، و الباقى خراب يباب لا نبات فيه و لا حيوان، و قيل: المعمور من الأرض مثل: طائر، رأسه الصين، و الجناح الأيمن الهند و السند، و الجناح الأيسر الخزر، و صدره مكة و العراق و الشام و مصر، و ذنبه الغرب، و قيل: قطر الأرض سبعة آلاف و أربعمائة و أربعة عشر ميلا و دورها عشرون ألف ميل و أربعمائة ميل، و ذلك جميع ما أحاطت به من برّ و بحر.

و قال أبو زيد أحمد بن سهل البلخىّ : طول الأرض من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب نحو أربعمائة مرحلة، و عرضها من حيث العمران الذى من جهة الشمال، و هو مساكن يأجوج و مأجوج إلى حيث العمران الذى من جهة الجنوب، و هو مساكن السودان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲

مائتان و عشرون مرحلة و ما بين برارى يأجوج و مأجوج إلى البحر المحيط فى الشمال، و ما بين برارى السودان، و البحر المحيط فى الجنوب خراب ليس فيه عمارة، و يقال: إن مسافة ذلك: خمسة آلاف فرسخ، و هذه أقوال لا دليل على صدقها.

و الطريق فى معرفة مساحة الأرض أنّا لو سرنا على خط نصف النهار من الجنوب إلى الشمال بقدر ميل دائرة معدّل النهار عن سمت

رؤوسنا إلى الجنوب درجة من درج الفلك التى هى جزء من ثلاثمائة و ستين جزءا، و ارتفع القطب علينا درجة نظير تلك الدرجة فإنا نعلم أنا قد قطعنا من محيط جرم الأرض جزءا من ثلاثمائة و ستين جزءا، و هو نظير ذلك الجزء من الفلك، فلو قسنا من ابتداء مسيرنا إلى انتهاء مكاننا الذى وصلنا إليه حيث ارتفع القطب علينا درجة، فإنا نجد حقيقة الدرجة الواحدة من الفلك قد قطعت من الأرض ستة و خمسين ميلا، و ثلثى ميل عنها خمسة و عشرون فرسخا فإذا ضربنا حصة الدرجة الواحدة، و هو ما ذكر من الأميال فى ثلاثمائة و ستين خرج من الضرب عشرون ألفا، و أربعمائة ميل، و ذلك مساحة دور الأرض فإذا قسمنا هذه الأميال التى هى مساحة دور الأرض على ثلاثة و سبع خرج من القسمة ستة آلاف و أربعمائة، و أربعون ميلا، و هى مساحة قطر الأرض، فلو ضربنا هذا القطر فى مبلغ دور الأرض، لبلغت مساحة بسط الأرض بالتكسير مائة ألف ألف و اثنين و ثلاثين ألف ألف و ستمائة ألف ميل بالتقريب. فعلى هذا مساحة ربع الأرض المسكون بالتكسير ثلاثة و ثلاثون ألف ألف ميل و مائة و خمسون ألف ميل، و عرض المسكون من هذا الربع بقدر بعد مدار السرطان عن القطب، و هو خمسة و خمسون جزءا و سدس جزء، و هذا هو سدس الأرض و انتهاؤه إلى جزيرة تولى فى برطانية، و هى آخر المعمور من الشمال، و هو من الأميال ثلاثة آلاف و سبعمائة و أربعة و ستون ميلا، فإذا ضربنا هذا السدس الذى هو مساحة عرض الأرض فى النصف، و هو مقدار الطول، كان المعمور من الشمال قدر نصف سدس الأرض. و أما الطول فإنه يقل لتضايق أقسام كرة الأرض، و مقداره مثل خمس الدور، و هو بالتقريب أربعة آلاف و ثمانون ميلا، و فى الربع المسكون من الأرض: سبعة أبحر كبار، و فى كل بحر منها عدة جزائر، و فيه خمسة عشر بحيرة منها ملح و عذب، و فيه مائتا جبل طوال، و مائتا نهر، و أربعون نهرا طوالا، و يشتمل على سبعة أقاليم تحتوى على سبعة عشر ألف مدينة كبيرة.

و قال فى كتاب هروشيوس: لما استقامت طاعة بوليس الملقب قيصر الملك فى عامّة الدنيا، تخير أربعة من الفلاسفة سماهم، فأمرهم أن يأخذوا له وصف خدود الدنيا، و عدّة بحارها، و كورها أرباعا فولّى أحدهم أخذ وصف جزء المشرق، و ولى آخر أخذ وصف جزء المغرب، و ولى الثالث أخذ وصف جزء الشمال. و ولى الرابع أخذ وصف جزء الجنوب، فتمت كتابة الجميع على أيديهم فى نحو من ثلاثين سنة، فكانت جملة البحار المسماة فى الدنيا تسعة و عشرين بحرا قد سمّوها: منها بجزء الشرق ثمانية، و بجزء الغرب ثمانية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳

و بجزء الشمال أحد عشر، و بجزء الجنوب اثنان، و عدّة الجزائر المعروفة الأمهات: إحدى و سبعون جزيرة منها: فى الشرق ثمان، و فى الغرب ست عشرة، و فى جهة الشمال إحدى و ثلاثون، و فى جهة الجنوب ست عشرة. و عدّة الجبال الكبار المعروفة فى جميع الدنيا ستة و ثلاثون و هى أمّهات الجبال و قد سموها فيما فسروه منها: فى جهة الشرق سبعة، و فى جهة المغرب خمسة عشر، و فى الشمال اثنا عشر، و فى الجنوب اثنان، و البلدان الكبار ثلاثة و ستون منها: فى المشرق سبعة، و فى المغرب خمسة و عشرون، و فى الشمال تسعة عشر، و فى الجنوب اثنا عشر. و قد سموها، و الكور الكبار المعروفة تسع و مائتان منها: فى المشرق خمس و سبعون، و فى المغرب ست و ستون، و فى الشمال ست، و فى الجنوب اثنان و ستون. و الأنهار الكبار المعروفة فى جميع الدنيا ستة و خمسون منها: لجزء الشرق سبعة عشر، و لجزء الغرب ثلاثة عشر، و لجزء الشمال تسعة عشر، و لجزء الجنوب سبعة.

و الأقاليم السبعة كل إقليم منها كأنه بساط مفروش قد مدّ طوله من الشرق إلى الغرب، و عرضه من الشمال إلى الجنوب و هذه الأقاليم مختلفة الطول و العرض. فالإقليم الأوّل منها يمرّ وسطه بالمواضع التى طول نهار الأطول ثلاثة عشر ساعة و السابع منها يمرّ وسطه بالمواضع التى طول نهارها الأطول ست عشر ساعة لأنّ ما حاذى حدّ الإقليم الأوّل إلى نحو الجنوب يشتمل عليه البحر و لا عمارة فيه و ما حاذى الإقليم السابع إلى الشمال لا يعلم فيه عمارة فجعل طول الأقاليم السبعة من الشرق إلى الغرب مسافة اثنتى عشرة ساعة من دور الفلك و صارت عروضها تتفاضل نصف ساعة من ساعات النهار الأطول فأطولها و أعرضها الإقليم الأوّل و طوله من المشرق إلى المغرب نحو ثلاثة آلاف فرسخ، و عرضه من الشمال إلى الجنوب مائة و خمسون فرسخا.

و أقصرها طولا و عرضا الإقليم السابع و طوله من الشرق إلى الغرب ألف و خمسمائة فرسخ، و عرضه من الشمال إلى الجنوب نحو من سبعين فرسخا، و بقية الأقاليم الخمسة فيما بين ذلك، و هذه الأقاليم خطوط متوهمة لا وجود لها فى الخارج وضعها القدماء الذين جالوا فى الأرض ليقفوا على حقيقة حدودها، و يتيقنوا مواضع البلدان منها، و يعرفوا طرق مسالكها هذا حال الربع المسكون، و أما الثلاثة الأرباع الباقية فإنها خراب، فجهة الشمال واقعة تحت مدار الجدى قد أفرط هناك البرد، و صارت ستة أشهر ليلا مستمرّا، و هى مدّة الشتاء عندهم لا- يعرف فيها نهار، و يظلم الهواء ظلمة شديدة، و تجمد المياه لقوّة البرد، فلا يكون هناك نبات و لا حيوان، و يقابل هذه الجهة الشمالية ناحية الجنوب حيث مدار سهيل، فيكون النهار ستة أشهر بغير ليل، و هى مدّة الصيف عندهم، فيحمى الهواء و يصير سموما محرقا يهلك بشدّة حرّه الحيوان و النبات، فلا يمكن سلوكه و لا السكنى فيه، و أما ناحية الغرب، فيمنع البحر المحيط من السلوك فيه لتلاطم أمواجه و شدّة ظلماته و ناحية الشرق تمنع من سلوكها الجبال الشامخة، و صار الناس أجمعهم قد انحصروا فى الربع المسكون من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۴

الأرض و لا علم لأحد منهم بالأرض أى بالثلاثة الأرباع الباقية، و الأرض كلها بجميع ما عليها من الجبال، و البحار نسبتها إلى الفلك كنقطة فى دائرة، و قد اعتبرت حدود الأقاليم السبعة بساعات النهار، و ذلك أن الشمس إذا حلت برأس الحمل، تساوى طول النهار و الليل فى سائر الأقاليم كلها، فإذا انتقلت فى درجات برج الحمل و الثور و الجوزاء اختلفت ساعات نهار كل إقليم، فإذا بلغت آخر الجوزاء و أوّل برج السرطان، بلغ طول النهار فى وسط الإقليم الأوّل ثلاث عشرة ساعة سواء، و صارت فى وسط الإقليم الثانى ثلاث عشرة ساعة و نصف ساعة، و فى وسط الإقليم الثالث أربع عشرة ساعة، و صارت فى وسط الإقليم الثانى ثلاث عشرة ساعة و نصف ساعة، و فى وسط الإقليم الثالث أربع عشرة ساعة، و فى وسط الإقليم الرابع أربع عشرة ساعة و نصف ساعة، و فى وسط الإقليم الخامس خمس عشرة ساعة، و فى وسط الإقليم السادس خمس عشرة ساعة و نصف ساعة، و فى وسط الإقليم السابع ست عشرة ساعة سواء، و ما زاد على ذلك إلى عرض تسعين درجة يصير نهارا كلّه.

و معنى طول البلد: هو بعدها من أقصى العمارة فى الغرب، و عرضها هو بعدها عن خط الاستواء، و خط الاستواء كما تقدّم هو الموضع الذى يكون فيه الليل و النهار طول الزمان سواء، فكل بلد على هذا الخط لا عرض له، و كل بلد فى أقصى الغرب لا طول له، و من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، مائة و ثمانون درجة، و كل بلد يكون طوله تسعين درجة، فإنه فى وسط ما بين الشرق و الغرب، و كل بلد كان طوله أقل من تسعين درجة فإنه أقرب إلى الغرب و أبعد من الشرق، و ما كان طوله من البلاد أكثر من تسعين درجة، فإنه أبعد عن الغرب، و أقرب إلى الشرق.

و قد ذكر القدماء أن العالم السفلىّ مقسوم سبعة أقسام، كل قسم يقال له: إقليم، فإقليم الهند لزحل، و إقليم بابل للمشترى، و إقليم الترك للمرّيخ، و إقليم الروم للشمس، و إقليم مصر لعطارد، و إقليم الصين للقمر.

و قال قوم: الحمل و المشترى لبابل، و الجدى و عطارد للهند، و الأسد و المريخ للترك، و الميزان و الشمس للروم، ثم صارت القسمة على اثنى عشر برجا، فالحمل و مثلاه للمشرق، و الثور و مثلاه للجنوب، و الجوزاء و مثلاها للمغرب، و السرطان و مثلاه للشمال، قالوا و فى كل إقليم مدينتان عظيمتان بحسب بيتى كل كوكب إلا إقليم الشمس، و إقليم القمر فإنه ليس فى كل إقليم منهما سوى مدينة واحدة عظيمة. و جميع مدائن الأقاليم السبعة، و حصونها أحد و عشرون ألف مدينة، و ستمائة مدينة و حصن بقدر دقائق درج الفلك.

و قال هرمس: إذا جعلت هذه الدقائق روابع كانت أناس هذه الأقاليم، و إذا مات أحد ولد نظيره و يقال: إن عدد مدن الإقليم الأول من مطلع الشمس و قراها ثلاثة آلاف و مائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۵

مدينة و قرية كبيرة، و أنّ فى الثانى ألفان و سبعمائة و ثلاث عشرة مدينة و قرية كبيرة، و فى الثالث ثلاثة آلاف و تسع و سبعون، و فى

الرابع و هو بابل ألفان و تسعمائة و أربع و سبعون، و فى الخامس ثلاثة آلاف و ست مدن، و فى السادس ثلاثة آلاف و أربعمائة و ثمان مدن، و فى السابع ثلاثة آلاف و ثلاثمائة مدينة و قرية كبيرة فى الجزائر.

فالإقليم الأوّل يمرّ وسطه بالمواضع التى طول نهارها الأطول ثلاث عشرة ساعة، و يرتفع القطب الشمالىّ فيها عن الأفق ست عشرة درجة و ثلثا درجة، و هو العرض و انتهاء عرض هذا الإقليم من حيث يكون طول النهار الأطول فيه ثلاث عشرة ساعة و ربع ساعة، و ارتفاع القطب الشمالىّ، و هو العرض عشرون درجة و نصف درجة، و هو مسافة أربعمائة و أربعين ميلا، و ابتداؤه من أقصى بلاد الصين، فيمرّ فيها إلى ما يلى الجنوب، و يمرّ بسواحل الهند، ثم ببلاد السند، و يمرّ فى البحر على جزيرة العرب و أرض اليمن، و يقع بحر القلزم فيمرّ ببلاد الحبشة، و يقطع نيل مصر إلى بلاد الحبشة، و مدينة دنقلة من أرض النوبة، و يمرّ فى أرض المغرب على جنوب بلاد البربر إلى نحو البحر المحيط، و فى هذا الإقليم عشرون جبلا فيها ما طوله من عشرين فرسخا إلى ألف فرسخ، و فيه ثلاثون نهرا طويلا منها ما طوله ألف فرسخ إلى عشرين فرسخا، و فيه خمسون مدينة كبيرة، و عامّة أهل هذا الإقليم سود الألوان، و لهذا الإقليم من البروج الحمل و القوس، و له من الكواكب السيارة المشترى، و هو مع فرط حرارته كثير المياه كثير المروج و زرع أهله الذرة و الأرز إلّا أنّ الاعتدال عندهم معدوم، فلا يثمر عندهم كرم و لا حنطة، و البقر عندهم كثير لكثرة المروج، و فى مشرقه البحر الخارج وراء خط الاستواء، بثلاث عشرة درجة، و فى مغربه النيل، و بحر الغرب و من هذا الإقليم يأتى نيل مصر، و شرقهم معمور بالبحر الشرقىّ الذى هو بحر الهند و اليمن.

و الإقليم الثانى: حيث يكون طول النهار الأطول ثلاث عشرة ساعة و نصف، و يرتفع القطب الشمالىّ فيه قدر أربعة و عشرين جزءا و عشر جزء، و عرضه من حدّ الإقليم الأوّل إلى حيث يكون النهار الأطول ثلاث عشرة ساعة و نصف و ربع ساعة، و ارتفاع القطب الشمالىّ، و هو العرض سبعة و عشرون درجة و نصف درجة، و مساحة هذا الإقليم أربعمائة ميل و يبتدئ من بلاد الشرق مارّا ببلاد الصين إلى بلاد الهند و السند، ثم بملتقى البحر الأخضر و بحر البصرة، و يقطع جزيرة العرب فى أرض نجد و تهامة، فيدخل فى هذا الإقليم اليمامة، و البحران، و هجر، و مكة، و المدينة، و الطائف، و أرض الحجاز، و يقطع بحر القلزم، فيمرّ بصعيد مصر الأعلى و يقطع النيل، فيصير فيه مدينة قوص، و اخميم و أسنى و أنصنا و أسوان، و يمرّ فى أرض المغرب على وسط بلاد إفريقية، فيمرّ على بلاد البربر إلى البحر فى المغرب، و فى هذا الإقليم سبعة عشر جبلا، و سبعة عشر نهرا طوالا و أربعمائة و خمسون مدينة كبيرة، و ألوان أهل هذا الإقليم ما بين السمرة و السواد، و له من البروج الجدى، و من السيارة زحل، و يسكن هذا الإقليم الرحالة، ففى المغرب منهم حدا له و صنهاجة و لمتونة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۶

و مسوفة، و يتصل بهم رحالة مصر من ألواح و فى هذا الإقليم يكون يحل، و فيه مكة و المدينة و منه السماوة من أهل العراق إلى رحالة الترك.

و الإقليم الثالث: وسطه حيث يكون طول النهار الأطول أربع عشرة ساعة و ارتفاع القطب، و هو العرض ثلاثون درجة و نصف و خمس درجة، و عرض هذا الإقليم من حدّ الإقليم الثانى إلى حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة و ربع ساعة، و ارتفاع القطب و هو العرض ثلاث و ثلاثون درجة و مسافته ثلاثمائة و خمسون ميلا و يبتدئ من الشرق، فيمر بشمال الصين، و بلاد الهند، و فيه مدينة الهندهار ثم بشمال السند، و بلاد كابل، و كرمان، و سجستان إلى سواحل بحر البصرة، و فيه اصطخر و سابور، و شيراز و سيراف و يمرّ بالأهواز و العراق، و البصرة، و واسط، و بغداد، و الكوفة، و الأنبار و هيت، و يمرّ ببلا الشام إلى سلمية و صور و عكا، و دمشق و طبرية و قيسارية و بيت المقدس و عسقلان و غزة و مدين و القلزم و يقطع أسفل أرض مصر من شمال انصنا إلى فسطاط مصر، و سواحل البحر، و فيه الفيوم و الإسكندرية و العرما و تنيس و دمياط و يمرّ ببلاد برقة إلى إفريقية فيدخل فيه القيروان و ينتهى فى البحر إلى الغرب و بهذا الإقليم ثلاث و ثلاثون جبلا كبارا و اثنان و عشرون نهرا طوالا و مائة و ثمانية و عشرون مدينة و أهله سمر

الألوان و من له من البروج العقرب، و من السيارة الزهرة، و فى هذا الإقليم العمائر المتواصلة من أوّله إلى آخره اه.

و الإقليم الرابع: وسطه حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة و نصف ساعة، و ارتفاع القطب الشمالىّ، و هو العرض ست و ثلاثون درجة و خمس درجة، و حدّ هذا الإقليم من حدّ الإقليم الثالث إلى حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة و نصف و ربع ساعة، و العرض تسعا و عشرين درجة و ثلث درجة، و مسافة هذا الإقليم: ثلاثمائة ميل و يبتدئ من الشرق فيمر ببلاد التبت، و خراسان و خجندة و فرغانة و سمرقند و بخارى و هراة و مرو الروذ و سرخس و طوس و نيسابور و جرجان و قومس و طبرستان و قزوين و الديلم و الرىّ و أصفهان و همذان و نهاوند و دينور و الموصل و نصيبين و آمد و رأس العين و شميساط و الرقة و يمرّ ببلاد الشام فيدخل فيه بالس، و مسح و ملطية و حلب و أنطاكية و طرابلس و المصيصة و حماه و صيدا و طرسوس و عمورية و اللاذقية، و يقطع بحر الشام على جزيرة قبرس و رودس، و يمرّ ببلاد طنجة، فينتهى إلى بحر المغرب، و فى هذا الإقليم: خمسة و عشرون جبلا كبارا و خمسة و عشرون نهرا طوالا- و مائتا مدينة و اثنتا عشرة مدينة، و ألوان أهله ما بين السمرة و البياض، و له من البروج الجوزاء، و من السيارة عطارد، و فيه البحر الرومى من مغربه إلى القسطنطينية، و من هذا الإقليم ظهرت الأنبياء و الرسل صلوات اللّه عليهم أجمعين، و منه انتشر الحكماء و العلماء فإنه وسط الأقاليم، ثلاثة جنوبية، و ثلاثة شمالية، و هو فى قسم الشمس، و بعده فى الفضيلة الإقليم الثالث و الخامس فإنهما على جنبيه، و بقية الأقاليم منحطة أهلوها ناقصون و منحطون عن الفضيلة لسماجة صورهم و توحش أخلاقهم كالزنج،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۷

و الحبشة و أكثر أمم الإقليم الأوّل و الثانى و السادس و السابع يأجوج و مأجوج، و التغرغر و الصقالبة و نحوهم.

و الإقليم الخامس: وسطه حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة، و ارتفاع القطب الشمالى، و هو العرض إحدى و أربعون درجة و ثلث درجة، و ابتداؤه من نهاية عرض الإقليم الرابع إلى حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة و نصف ساعة، و العرض ثلاثا و أربعين درجة، و مسافته خمسون و مائتا ميل و يبتدئ من المشرق إلى بلاد يأجوج و مأجوج، و يمرّ بشمال خراسان، و فيه خوارزم و اسبيجاب و أذربيجان و بردعة و سجستان و أردن و خلاط و يمرّ على بلاد الروم إلى رومية الكبرى و الأندلس، حتى ينتهى إلى البحر الذى فى المغرب و فى هذا الإقليم من الجبال الطوال: ثلاثون جبلا- و من الأنهار الكبار خمسة عشر نهرا، و من المدائن الكبار مائتا مدينة، و أكثر أهله بيض الألوان و له من البروج الدلو، و من السيارة القمر.

و الإقليم السادس: وسطه حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة و نصف ساعة، و ارتفاع القطب الشمالىّ، و هو العرض خمسا و أربعين درجة و خمسى درجة، و ابتداؤه من حدّ نهاية عرض الإقليم الخامس إلى حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة و نصف و ربع ساعة، و العرض سبعا و أربعين درجة و ربع درجة.

و مسافة هذا الإقليم مائتا ميل و عشرة أميال، و يبتدى من المشرق، فيمرّ بمساكن الترك من أبحر خير و التغرغر إلى بلاد الخزر من شمال نجومهم على اللان و الشرير، و أرض برحان و القسطنطينية، و شمال الأندلس إلى البحر المحيط الغربى، و فى هذا الإقليم من الجبال الطوال: اثنان و عشرون جبلا- و من الأنهار الطوال: اثنان و ثلاثون نهرا، و من المدن الكبار تسعون مدينة و أكثر أهل هذا الإقليم ألوانهم ما بين الشقرة و البياض، و له من البروج السرطان، و من السيارة المرّيخ.

و الإقليم السابع: وسطه حيث يكون النهار الأطول ست عشرة ساعة سواء، و ارتفاع القطب الشمالى و هو العرض ثمانيا و أربعين درجة و ثلثى درجة، و ابتداء هذا الإقليم من حدّ نهاية الإقليم السادس إلى حيث يكون النهار الأطول ست عشرة ساعة و ربع ساعة، و العرض خمسين درجة و نصف درجة، و مسافته مائتا و خمسة و ثمانون ميلا، فتبين أن ما بين أوّل حدّ الإقليم الأوّل، و آخر حدّ الإقليم السابع ثلاث ساعات و نصف، و أن ارتفاع القطب الشمالىّ ثمانية و ثلاثون درجة تكون من الأميال، ألفين و مائة و أربعين ميلا، و يبتدى الإقليم السابع من المشرق على بلاد يأجوج و مأجوج، و يمرّ ببلاد الترك على سواحل بحر جرجان مما يلى الشمال، و يقطع بحر الروم

على بلاد جرجان و الصقالبة إلى أن ينتهى إلى البحر المحيط فى المغرب، و بهذا الإقليم عشرة جبال طوال و أربعون نهرا طوالا، و اثنتان و عشرون مدينة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۸

كبيرة، و أهله شقر الألوان، و له من البروج الميزان، و من السيارة الشمس، و فى كل إقليم من هذه الأقاليم السبعة أمم مختلفة الألسن، و الألوان، و غير ذلك من الطبائع و الأخلاق و الآراء و الديانات و المذاهب، و العقائد و الأعمال و الصنائع، و العادات و العبادات لا يشبه بعضهم بعضا، و كذلك الحيوانات و المعادن و النبات مختلفة فى الشكل و الطعم و اللون و الريح بحسب اختلاف أهوية البلدان، و تربة البقاع، و عذوبة المياه و ملوحتها على ما اقتضته طوالع كل بلد من البروج على أفقه و ممرّ الكواكب على مسامته البقاع من الأرض، و مطارح شعاعاتها على المواضع كما هو مقرّر فى مواضعه من كتب الحكمة ليتدبر أولو النهى، و يعتبر ذوو الحجى بتدبير اللّه فى خلقه، و تقديره لما يشاء و فعله لما يريد لا إله إلّا هو و مع ذلك فإن الربع المسكون من الأرض على تفاوت أقطاره مقسوم بين سبع أمم كبار: و هم الصين، و الهند، و السودان، و البربر، و الروم، و الترك، و الفرس، فجنوب مشرق الأرض فى يد الصين و شماله فى يد الترك و وسط جنوب الأرض فى يد الهند و فى وسط شمال الأرض الروم و فى جنوب مغرب الأرض السودان و فى شمال مغرب الأرض البربر و كانت الفرس فى وسط هذه الممالك قد أحاطت بهم الأمم الست.

ذكر محل مصر من الأرض و موضعها من الأقاليم السبعة

و إذ يسر اللّه سبحانه بذكر جمل أحوال الأرض، و معرفة ما فى كل إقليم من أقاليم الأرض، فلنذكر محل مصر من ذلك فنقول:

ديار مصر بعضها واقع فى الإقليم الثانى، و بعضها واقع فى الإقليم الثالث، فما كان منها فى الصعيد الأعلى كقوص، و اخميم و أسنى و أنصنا و أسوان، فإنّ ذلك واقع فى أقسام الإقليم الثانى، و ما كان من ديار مصر فى جهة الشمال من أنصنا، و هو الصعيد الأدنى من أسيوط إلى فسطاط مصر، و الفيوم و القاهرة و الإسكندرية و الفرما و تنيس و دمياط فإن ذلك من أقسام الإقليم الثالث، و طول مدينة مصر الفسطاط و القاهرة، و هو بعدهما من أوّل العمارة فى جهة المغرب: خمس و خمسون درجة، و العرض و هو البعد من خط الاستواء ثلاثون درجة، و طول النهار الأطول أربع عشرة ساعة، و غاية ارتفاع الشمس فى الفلك بها ثلاث و ثمانون درجة و ثلث و ربع درجة، و فسطاط مصر مع القاهرة من مكة شرّفها اللّه تعالى واقعان فى الربع الجنوبىّ الشرقىّ، و الصعيد الأعلى أشدّ تشريقا لبعده عن مدينة الفسطاط بأيام عديدة فى جهة الجنوب، فيكون على ذلك مقابلا لمكة من غربيها، و مصر لا يتوصل إليها إلا من مفازة، ففى شرقيها بحر القلزم من وراء الجبل الشرقى، و فى غربيها صحراء المغرب، و فى جنوبها مفازة النوبة و الحبشة، و فى شمالها البحر الشامى، و الرمال التى فيها بين بحر الروم، و بحر القلزم و بين مصر و بغداد على ما ذكره ابن خرداذبه فى كتاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹

الممالك و المسالك: ألف و سبعمائة و عشرة أميال، يكون خمسمائة و سبعين فرسخا، و مائة و بعضا و أربعين بريدا، و بين مصر و الشام أعنى دمشق: ثلاثمائة و خمسة و ستون ميلا تكون من الفراسخ مائة و إحدى و عشرين فرسخا و ثلثى فرسخ، عنها ثلاثون بريدا و كسر.

و قال ابن خرداذبه: أرض الحبشة و السودان مسيرة سبع سنين، و أرض مصر جزءا واحد من ستين جزءا من أرض السودان، و أرض السودان جزء واحد من الأرض كلها.

و فى كتاب هردوشيش: بلد مصر الأدنى شرقه فلسطين، و غربه أرض ليبية، و أرض مصر الأعلى تمتدّ إلى ناحية الشرق، و حدّه فى الشمال خليج الغرب، و فى الجنوب البحر المحيط، و فى الغرب مصر الأدنى، و فى الشرق بحر القلزم، و فيه من الأجناس ثمانية و عشرون جنسا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰

ذكر حدود مصر و جهاتها

اشارة

اعلم أن التحديد هو صفة المحدود على ما هو عليه، و الحدّ هو نهاية الشيء، و الحدود تكثر و تقل بحسب المحدود و الجهات التى تحدّ بها المساكن.

و البقاع أربع جهات و هى: جهة الشمال: التى هى إشارة إلى موضع قطب الفلك الشماليّ المعروف من كواكبه الجدى، و الفرقدان، و يقابل جهة الشمال الجهة الجنوبية، و الجنوب عبارة: عن موضع قطب الفلك الجنوبيّ الذى يقرب منه سهيل، و ما يتبعه من كواكب السفينة، و الجهة الثالثة: جهة المشرق و هو مشرق الشمس فى الاعتدالين اللذين هما رأس الحمل أوّل فصل الربيع، و رأس الميزان أوّل فصل الخريف، و الجهة الرابعة: جهة المغرب و هو مغرب الشمس فى الاعتدالين المذكورين، فهذه الجهات الأربع ثابتة بثبوت الفلك غير متغيرة بتغير الأوقات و بها تحدّ الأراضى و نحوها من المساكن، و بها يهتدى الناس فى أسفارهم و بها يستخرجون سمت محاريبهم.

فالمشرق و المغرب معروفان، و الشمال و الجنوب جهتان مقاطعتان لجهتى المشرق و المغرب على تربيع الفلك، فالخط المار بنقطتى الشمال و الجنوب يسمى: خط نصف النهار، و هو مقاطع للخط المار بنقطتى المشرق و المغرب المسمى: بخط الاستواء على زوايا قائمة، و أبعاد ما بين هذين الخطين متساوية فالمستقبل للجنوب يكون أبدا مستدبرا للشمال، و يصير المغرب عن يمينه، و المشرق عن يساره، و هذه الجهات الأربع هى التى ينسب إليها ما يحد من البلاد، و الأراضى و الدور إلا أن أهل مصر يستعملون فى تحديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية، فيقولون الحدّ القبلىّ ينتهى إلى كذا، و لا يقولون الحدّ الجنوبىّ، و كذلك يقولون الحدّ البحرىّ ينتهى إلى كذا، و يريدون بالبحرىّ الحدّ الشماليّ، و قد يقع فى هاتين الجهتين الغلط فى بعض البلاد و ذلك أن البلاد التى توافق عروضها عرض مكة إذا كانت أطوالها أقل من طول مكة، فإن القبلة تكون فى هذه البلاد نفس الشرق بخلاف التى توافق عروضها عرض مكة، إلا أن أطوالها أطول من طول مكة، فإنّ القبلة فى هذه البلاد تكون نفس الغرب، فمن حدّد فى شيء من هذه البلاد أرضا أو مسكنا بحدود أربعة، فإنه يصير حدّان منها حدّا واحدا، و كذلك جهة البحر لما جعلوها قبالة جهة القبلة، و حدّدوا ما بينهما من الأراضى، و الدور بما يسامتها منه، فإنهم أيضا ربما غلطوا، و ذلك أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۱

القبلة و البحر يكونان فى بعض البلاد فى جهة واحدة، فإذا عرفت ذلك فاعلم أن أرض مصر: لها حدّ يأخذ من بحر الروم و من الإسكندرية، و زعم قوم من برقة فى البرّ حتى ينتهى إلى ظهر الواحات، و يمتدّ إلى بلد النوبة، ثم يعطف على حدود النوبة فى حدّ أسوان على حدّ أرض السبخة فى قبلىّ أسوان حتى ينتهى إلى بحر القلزم، ثم يمتدّ على بحر القلزم و يجاوز القلزم إلى طور سينا، و يعطف على تيه بنى إسرائيل مارا إلى بحر الروم فى الجفار خلف العريش و رفح، و يرجع إلى الساحل مارّا على بحر الروم إلى الإسكندرية، و يتصل بالحدّ الذى قدمت ذكره من نوحى برقة.

و قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز فى رسالته المصرية: أرض مصر بأسرها واقعة فى المعمورة فى قسمى الإقليم الثانى، و الإقليم الثالث، و معظمها فى الثالث، و حكى المعتنون بأخبارها و تواريخها أنّ حدّها فى الطول من مدينة برقة التى فى جنوب البحر الرومىّ إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة و الزيج و الهند و الصين، و مسافة ذلك قريب من أربعين يوما، و حدّها فى العرض من مدينة أسوان و ما سامتها من الصعيد الأعلى المتآخم لأرض النوبة إلى رشيد، و ما حاذاها من مساقط النيل فى البحر الرومىّ و

مسافة ذلك قريب من ثلاثين يوما، و يكتنفها فى العرض إلى منتهاها جبلان أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل، و هو المقطم، و الآخر فى الضفة الغربية منه، و النيل متسرب فيما بينهما، و هما جبلان أجردان غير شامخين يتقاربان جدّا فى وضعهما من لدن أسوان إلى أن ينتهيا إلى الفسطاط، ثم يتسع ما بينهما، و ينفرج قليلا، و يأخذ المقطم منهما مشرّقا و الآخر مغرّبا على وراب فى مأخذيهما، و تفريج فى مسلكيهما، فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرماء و تنيس و دمياط و رشيد و الإسكندرية، فهناك تتقطع فى عرضها الذى هو مسافة ما بين أوغلها فى الجنوب، و أوغلها فى الشمال، و إذا نظرنا بالطريق البرهانية فى مقدار هذه المسافة من الأميال لم تبلغ ثلاثين ميلا، بل تنقص عنها نقصانا ما له قدر، و ذلك لأن فضل ما بين عرض مدينة أسوان التى هى أوغلها فى الجنوب، و عرض مدينة تنيس التى هى أوغلها فى الشمال تسعة أجزاء و نحو سدس جزء و ليس بين طوليها فضل له قدر يعتدّ به، و ينوب ذلك نحو خمسمائة و عشرين ميلا بالتقريب، و ذلك مسافة عشرين يوما أو قريب منها و فى هذه المدّة من الزمان تقطع السفار ما بين البلدين بالسير المعتدل أو أكثر من ذلك لما فى الطريق من التعويج و عدم الاستقامة.

و قال القضاعى: الذى يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية و مراقيه و فى آخر أرض مراقيه تلقى أرض انطابلس و هى برقة، و من العريش فصاعدا يكون ذلك مسيرة أربعين ليلة، و هو ساحل كله على البحر الرومى، و هو بحرىّ أرض مصر، و هو مهب الشمال منها إلى القبلة شيئا ما فإذا بلغت آخر أرض مراقيه عدّت ذات الشمال، و استقبلت الجنوب، و تسير فى الرمل و أنت متوجه إلى القبلة يكون الرمل من مصبه عن يمينك إلى إفريقة و عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲

يسارك من أرض مصر إلى أرض الفيوم منها و أرض الواحات الأربعة فذلك غربىّ مصر، و هو ما استقبلته منه ثم تعوج من آخر أرض الواحات، و تستقبل المشرق سائرا إلى النيل تسير ثمانى مراحل إلى النيل، ثم على النيل فصاعدا و هى آخر أرض الإسلام هناك، و يليها بلاد النوبة ثم ينقطع النيل فتأخذ من أسوان فى المشرق منكبا عن بلد أسوان إلى عيداب ساحل البحر الحجازىّ، فمن أسوان إلى عيداب خمس عشرة مرحلة، و ذلك كله قبلىّ أرض مصر و مهب الجنوب منها ثم ينقطع البحر الملح من عيداب إلى أرض الحجاز فينزل الحوراء أوّل أرض مصر و هى متصلة بأعراض مدينة الرسول صلى اللّه عليه و سلم و هذا البحر المحدود: هو بحر القلزم، و هو داخل فى أرض مصر بشرقيه و غربيه و بحريه فالشرقىّ منه أرض الحوراء و طنسه و النبك و أرض مدين و أرض أيلة فصاعدا إلى المقطم بمصر، و الغربىّ منه ساحل عيداب إلى بحر النعام إلى المقطم، و البحرىّ منه مدينة القلزم و جبل الطور و من القلزم إلى الفرماء مسيرة يوم و ليلة و هو الحاجز فيما بين البحرين طحر الحجاز و بحر الروم و هذا كله شرقىّ أرض مصر من الحوراء إلى العريش، و هو مهب الصبا منها فهذا المحدود من أرض مصر، و ما كان بعد هذا من الحدّ الغربىّ، فمن فتوح أهل مصر، و ثغورهم من البرقة إلى الأندلس.

ذكر بحر القلزم

القلازم: الدواهى و المضايقة و منه بحر القلزم لأنه مضيق بين جبال، و لما كانت أرض مصر منحصرة بين بحرين هما بحر القلزم من شرقيها و بحر الروم من شماليها، و كان بحر القلزم داخلا فى أرض مصر كما تقدّم صار من شرط هذا الكتاب التعريف به.

فنقول: هذا البحر إنما عرف فى ناحية ديار مصر: بالقلزم لأنه كان بساحله الغربىّ فى شرقىّ أرض مصر مدينة تسمى: القلزم و قد خربت كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكرى قرى مصر و مدنها فسمّى هذا البحر باسم تلك المدينة، و قيل له: بحر القلزم على الإضافة، و يقال له بالعبرانية: (ثم تسوب) و هذا البحر إنما هو خليج يخرج من البحر الكبير المحيط بالأرض الذى يقال له: بحر اقيانس و يعرف أيضا:

ببحر الظلمات لتكاثف البخار المتصاعد منه، و ضعف الشمس عن حله فيغلظ و تشتدّ الظلمة، و يعظم موج هذا البحر، و تكثر أهواله،

و لم يوقف من خبره إلّا على ما عرف من بعض سواحله، و ما قرب من جزائره، و فى جانب هذا البحر الغربىّ الذى يخرج منه البحر الرومى الآتى ذكره إن شاء اللّه.

الجزائر الخالدات و هى فيما يقال: ست جزائر يسكنها قوم متوحشون، و فى جانب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۳

هذا البحر الشرقىّ مما يلى الصين ست جزائر أيضا تعرف: بجزائر السبلى نزلها بعض العلويين فى أوّل الإسلام خوفا على أنفسهم من القتل، و يخرج من هذا المحيط ستة أبحر أعظمها اثنان: و هما اللذان عناهما اللّه تعالى بقوله: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ [الرحمن/ ۱۹]، و قوله: وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً [النمل/ ۶۱]، فأحدهما: من جهة الشرق، و الآخر:

من جهة الغرب. فالخارج من جهة الشرق يقال له: البحر الصينىّ، و البحر الهندىّ، و البحر الفارسىّ، و البحر اليمنىّ، و البحر الحبشىّ، بحسب ما يمرّ عليه من البلدان. و أما الخارج من الغرب فيقال له: البحر الرومىّ. فأما البحر الهندىّ الخارج من جهة الشرق فإن مبدأ خروجه من مشرق الصين وراء خط الاستواء بثلاثة عشر درجة و يجرى إلى ناحية الغرب فيمرّ على بلاد الصين و بلاد الهند إلى مدينة كنبانة و إلى التبير من بلاد كمران فإذا صار إلى بلاد كمران ينقسم هناك قسمين: أحدهما يسمى: بحر فارس، و الآخر يسمى: بحر اليمن فيخرج بحر اليمن من ركن جبل خارج فى البر يسمى هذا الركن: رأس الجمجمة فيمتد من هناك إلى مدينة ظفار و يسير إلى المسجر و ساحل بلاد حضرموت إلى عدن و إلى باب المندب، و طول هذا البحر الهندىّ ثمانية آلاف ميل فى عرض ألف و سبعمائة ميل عند بعض المواضع و ربما ضاق عن هذا القدر من العرض فإذا انتهى إلى باب المندب يخرج إلى بحر القلزم، و المندب جبل طوله اثنا عشر ميلا وسعة فوهته قدر ما يرى الرجل الآخر من البرّ تجاهه فإذا فارق باب المندب مرّ فى جهة الشمال بساحلى زبيد و الحرون إلى عثر و كانت عثر مقر الملك فى القديم و يمرّ من هناك على حلى إلى عسفان و أنمار و هى فرضة المدينة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة و السلام و التحية و الإكرام، و منها على ما يقابل الجحفة حيث يسمى اليوم رابغ إلى الحوراء و مدين و أيلة و الطور و فاران و مدينة القلزم، فإذا وصل إلى القلزم انعطف من جهة الجنوب و مرّ إلى القصير و هى فرضة قوص و من القصير إلى عيداب و هى فرضة البجه ، و يمتدّ من عيداب إلى بلد الزيلع، و هو ساحل بلاد الحبشة و يتصل ببربر و طول هذا البحر ألف و خمسمائة ميل و عرضه من أربعمائة ميل إلى ما دونها و هو بحر كريه المنظر و الرائحة و فى هذا البحر مصب دجلة و الفرات و على أطرافه بلاد السند، و بلاد اليمن كأنها جزائر أحاط بها الماء من جهاتها الثلاث و هو: يردع نهر مهران كردع البحر الرومى لنيل مصر. و فيه فيما بين مدينة القلزم، و مدينة أيلة مكان يعرف: بمدينة قاران و عندها جبل لا يكاد ينجو منه مركب لشدّة اختلاف الريح و قوّة ممرّها من بين شعبتى جبلين و هى بركة سعتها ستة أميال تعرف: ببركة الغرندل، يقال: إن فرعون غرق فيها فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة، و يقال: إن الغرندل اسم صنم كان فى القديم هناك قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضبا للملك أو فارا منه، و أنّ موسى عليه السلام لما خرج ببنى إسرائيل من مصر و سار بهم مشرقا أمره اللّه سبحانه و تعالى: أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۴

ينزل تجاه هذا الصنم فلما بلغ ذلك فرعون ظنّ أنّ الصنم قد حبس موسى و من معه و منعهم من المسير كما يعهدونه منه فخرج بجنوده فى طلب موسى و قومه ليأخذهم بزعمه فكان من غرقه ما قصه اللّه تعالى و سيرد خبر موسى عليه السلام عند ذكر كنيسة دموة من هذا الكتاب فى ذكر كنائس اليهود.

و فى بحر القلزم هذا خمس عشرة جزيرة منها: أربع عامرات و هى: جزيرة دهلك، و جزيرة سواكن، و جزيرة النعمان، و جزيرة السامرىّ و يخرج من هذا البحر خلجان: خليج لطيف ببلاد الهند المتصلة بالبحر الأعظم، و خليج يحول بين بلاد السودان، و بلاد اليمن عرض دقاقه نحو من فرسخين، و يقرب هذا البحر من البحر الرومى فى أعمال بلاد الشام و ديار مصر حتى يكون بينهما نحو يوم.

ذكر البحر الرومى

و لما كانت عدّة بلاد من أرض مصر مطلة على البحر الرومى كمدينة الإسكندرية، و دمياط و تنيس، و الفرماء، و العريش و غير ذلك، و كان حدّ أرض مصر ينتهى فى الجهة الشمالية إلى هذا البحر و هو نهاية مصب النيل حسن التعريف بشىء من أخباره، و قد تقدّم أن مخرج البحر الرومى هذا من جهة الغرب و هو يخرج فى الإقليم الرابع بين الأندلس، و الغرب سائرا إلى القسطنطينية، و يقال: إن إسكندر الجبار حفره و أجراه من البحر المحيط الغربىّ و أن جزيرة الأندلس و بلاد البربر كانت أرضا واحدة يسكنها البربر و الأشبان فكان بعضهم يغير على بعض إلى أن ملك إسكندر الجبار بن سلقوس بن اعريقس بن دوبان فرغب إليه الأشبان فى أن يجعل بينهم و بين البربر خليجا من البحر يمكن به احتراز كل طائفة عن الأخرى فحفر زقاقا طوله ثمانية عشر ميلا فى عرض اثنى عشر ميلا، و بنى بجانبيه سكرين و عقد بينهما قنطرة يجاز عليها و جعل عندها حرسا يمنعون البربر من الجواز عليها إلا بإذن و كان قاموس البحر أعلى من أرض هذا الزقاق فطما الماء حتى غطى السكرين مع القنطرة و ساق بين يديه بلادا كثيرة و طغى على عدّة بلاد و يقال: إن المسافرين فى هذا الزقاق بالبحر يخبرون أن المراكب فى بعض الأوقات يتوقف سيرها مع وجود الريح فيجدون المانع لها كونها قد سلكت بين شرافات السور و بين حائطين ثم عظم هذا الزقاق فى الطول و العرض حتى صار بحرا عرضه ثمانية عشر ميلا و يذكرون أن البحر إذا جزر ترى القنطرة حينئذ و هذا الخبر أظنه غير صحيح فإن أخبار هذا البحر و كونه بسواحل مصر لم يزل ذكره فى الدهر الأوّل قبل إسكندر بزمان طويل، فإما أن يكون ذلك قد كان فى أوّل الدهر مما عمله بعض الأوائل، و إما أن يكون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۵

خبرا واهيا و إلا فزمان إسكندر حادث بعد كون هذا البحر، و اللّه أعلم.

و هذا الزقاق صعب السلوك شديد الهول متلاطم الأمواج، و إذا خرج البحر من هذا الزقاق مرّ مشرقا فى بلاد البربر و شمال الغرب الأقصى إلى وسط بلاد المغرب على إفريقية و برقة و الإسكندرية و شمال التيه و أرض فلسطين، و السواحل من بلاد الشام، ثم يعطف من هناك إلى العلايا و أنطاكية إلى ظهر بلاد القسطنطينية حتى ينتهى إلى البحر المحيط الذى خرج منه و طول هذا البحر خمسة آلاف ميل، و قيل: ستة آلاف ميل، و عرضه من سبعمائة ميل إلى ثلاثمائة ميل، و فيه مائة و سبعون جزيرة عامرة فيها أمم كثيرة معروفة إلا أنه ليس من شرط هذا الكتاب منها صقلية و صورقة و أقريطش و قبالة البحر الهندىّ من جهة المغرب بحر خارج من المحيط فى مغرب بلاد الزنج ينتهى إلى قريب من جبل القمر و فيه مصب النيل المار على بلاد الحبشة و فى أسفله جزائر الخالدات التى هى منتهى الطول فى المغرب، و يقابل البحر الشامىّ من نحية المشرق بحر جرجان و قيل: إنه يتصل بالبحر المحيط من بين جبال شامخة و بحر الصقلب بحر يخرج من جهة المغرب بين الإقليم السادس، و الإقليم السابع، و هو متسع و فيه جزائر كثيرة، و منها جزيرة الأندلس إلا أنها تتصل بالبرّ الكبير و هو جبل كالذراع يتصل بهذا البرّ عند برشلونة و لهم بحر يعرف يأجوج و مأجوج غزير و فيه عجائب إلا أنه ليس من شرط هذا الكتاب ذكرها و يقال: إن مسافة هذا البحر الرومىّ نحو أربعة أشهر.

و قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونىّ ، فى كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن: و قد كان حرّض بعض ملوك الفرس فى بعض استيلائهم على مصر على أن يحفروا ما بين البحرين القلزم و الرومىّ و يرفعوا من بينهما البرزخ و كان أوّلهم شاسيس بن طراطس الملك ثم من بعده دارنوش الملك فلم يتمكن لهم ذلك لارتفاع ماء القلزم على أرض مصر.

فلما كانت دولة اليونانيين: جاء بطليموس الثالث ففعل ذلك على يد أرسمدس بحيث يحصل الغرض بلا ضرر. فلما كانت دولة الروم القياصرة طموه منعا لمن يصل إليهم من أعدائهم و ذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة أن ما بين الإسكندرية و بلادها و بين القسطنطينية كان فى قديم الزمان أرضا تنبت الجميز و كانت مسكونة وخمة و كان أهلها من اليونانية، و أن الإسكندر خرق إليها البحر فغلب على تلك الأرض و كان بها فيما يزعمون:

الطائر الذى يقال له قفنس، و هو طائر حسن الصوت و إذا حان موته زاد حسن صوته قبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۶

ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع و أنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم و سرور فلا يهدأ من الصياح، و زعموا أن عامل الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت قفنس فى تلك الحال فخشى إن هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسدّ أذنيه سدّا محكما ثم قرب إليه فجعل يفتح من أذنيه شيئا بعد شىء حتى استكمل فتح الأذنين فى ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة فلا يبغته حسنه فى أوّل مرّة فيأتى عليه، و زعموا: أن ذلك الطائر هلك و لم يبق منه و لا من فراخه شىء بسبب هجوم ماء البحر عليه، و على رهطه بالليل فى الأوكار فلم يبق له بقية، و يقال: إن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فأعطاه قدحا فيه سمّ ليشربه فأعلمه بذلك فظهر منه مسرّة و فرح فقال له: ما هذا أيها الحكيم؟ فقال: هل أعجز أن أكون مثل قفنس.

ذكر اشتقاق مصر و معناها و تعداد أسمائها

و يقال: كان اسمها فى الدهر الأوّل قبل الطوفان جزلة، ثم سميت مصر، و قد اختلف أهل العلم فى المعنى الذى من أجله سميت هذه الأرض بمصر فقال قوم: سميت بمصر ابن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم و هو مصر الأوّل. و قيل: بل سميت بمصر الثانى و هو مصرام بن يعراوش الجبار بن مصريم الأوّل و به سمى مصر بن بنصر بن حام بعد الطوفان، و قيل: بل سميت بمصر الثالث و هو مصر بن بنصر بن حام بن نوح و هو اسم أعجمىّ لا ينصرف. و قال آخرون: هى اسم عربىّ مشتق فأمّا من ذهب إلى أنّ مصر اسم أعجمىّ فإنه استدل بما رواه أهل العلم بالأخبار من نزول مصر بن بنصر بهذه الأرض و قسمها بين أولاده فعرفت به اه.

و ذكر الحسن بن أحمد الهمدانى : أنّ مصر بن حام و هو مصريم، و قيل: أنّ بنصر بن هرمس بن هردوس جدّ الإسكندر قال: و نكح لوما بن حام بنت شاويل بن يافث بن نوح فولدت له بوقير و قبط أبا القبط قبط مصر، و من ههنا أن مصر بن حام و إنما هو مصر بن هرمس بن هردش بن بيطون بن روى بن ليطى بن يونان و به سميت مصر فهى مقدونية.

و ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: أنّ بنى آدم لما تحاسدوا و بغى عليهم بنو أقابيل بن آدم ركب نقراوس الجبار ابن مصريم ابن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام فى نيف و سبعين راكبا من بنى عرياب جبابرة كلهم يطلبون موضعا من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۷

الأرض يقطنون فيه فرارا من بنى أبيهم فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فأطالوا المشى عليه فلما رأوا سعة البلد فيه و حسنه أعجبهم و قالوا: هذه بلد زرع، و عمارة فأقطنوا فيه، و استوطنوا و بنوا فيه الأبنية المحكمة، و الصنائع العجيبة.

و بنى نقراوس مصر و سماها باسم أبيه مصريم و كان نقراوس جبارا له قوّة، و كان مع ذلك عالما و له ائتمر الجنّ فى هلاك بنى أبيه و لم يزل مطاعا و قد كان وقع إليه من العلوم التى كان زواميل علمها لآدم عليه السلام ما قهر به الجبابرة الذين كانوا قبله و ملوكهم، ثم أمر حين ملك ببناء مدينة فى موضع خيمته فقطعوا له الصخور من الجبال، و أثاروا معادن الرصاص و بنوا مدينة سماها: أمسوس و أقاموا فيها أعلاما طول كل لم منها: مائة ذراع و زرعوا و عمروا الأرض، ثم أمرهم ببناء المدائن، و القرى و أسكن كل ناحية من الأرض من رأى ثم حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم و لم يكن قبل ذلك معتدل الجرى إنما كان ينبطح و يتفرّق فى الأرض حتى يتوجه إلى النوبة فهندسوه و ساقوا منه أنهارا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها، و ساقوا منه نهرا إلى مدينتهم أمسوس يجرى فى وسطها، ثم سميت مصر بعد الطوفان بمصر بن بنصر بن حام بن نوح و ذلك أن قليمون الكاهن خرج من مصر و لحق بنوح عليه السلام و آمن به هو و أهله و ولده و تلامذته و ركب معه فى السفينة، و زوّج ابنته من بنصر بن حام بن نوح فلما خرج نوح من السفينة و قسم الأرض بين أولاده، و كانت ابنة قليمون قد ولدت لبنصر ولد أسماه مصرايم، فقال قليمون لنوح: ابعث معى يا نبىّ اللّه ابنى حتى

أمضى به بلدى، و أظهره على كنوزى و أوقفه على علومه و رموزه فأنفذه معه فى جماعة من أهل بيته و كان غلاما مرفها فلما قرب من مصر بنى له عريشا من أغصان الشجر، و ستره بحشيش الأرض ثم بنى له بعد ذلك فى هذا الموضع مدينة و سماها: درسان أى باب الجنة، فزرعوا و غرسوا الأشجار و الأجنة من درسان إلى البحر فصارت هناك زروع و أجنة و عمارة و كان الذى مع مصرايم جبابرة فقطعوا الصخور و بنوا المعالم و المصانع و أقاموا فى أرغد عيش و يقال: إن أهل مصر أقاموا عليهم مصرايم بن بنصر ملكا فى أيام تالغ بن عابر بن شامخ بن أرفخشد بن سام بن نوح فملك مصر و هى مدينة منيعة على النيل و سماها باسمه و يقال: إن مصرايم غرس الأشجار بيده و كانت ثمارها عظيمة بحيث يشق الأترجة نصفين فيحمل على البعير نصفها و كان القثاء فى طول أربعة عشر شبرا و يقال: إنه أوّل من صنع السفن بالنيل و إنّ أوّل سفينة كانت ثلثمائة ذراع طولا فى عرض مائة ذراع.

و يقال: إن مصرايم نكح امرأة من بنى الكهنة فولدت له ولدا فسماه قبطيم، و نكح قبطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر: قبطيم، و أشمون، و أتريب، وصا، فكثروا و عمروا الأرض و بورك لهم فيها و قيل: إنه كان عدد من وصل معهم ثلاثين رجلا فبنوا مدينة سموها نافة و معنى نافة ثلاثون بلغتهم و هى (منف) و كشف أصحاب قليمون الكاهن عن كنوز مصر و علومهم و أثاروا المعادن، و علومهم علم الطلسمات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۸

و وضعوا لهم علم الصنعة، و بنوا على غير البحر مدنا منها رقودة مكان الإسكندرية و لما حضر مصرايم الوفاة عهد إلى ابنه قبطيم، و كان قد قسم أرض مصر بين بنيه فجعل لقبطيم من قفط إلى أسوان و لأشمون من أشمون إلى منف و لأتريب الحوف كله و لصا من ناحية صا البحرية إلى قرب برقة و قال لأخيه: فارق لك من برقة إلى الغرب فهو صاحب إفريقة و والد الأفارقة و أمر كل واحد من بنيه أن يبنى لنفسه مدينة فى موضعه و أمرهم عند موته أن يحفروا له فى الأرض سربا و أن يفرشوه بالمرمر الأبيض، و يجعلوا فيه جسده، و يدفنوا معه جميع ما فى خزائنه من الذهب، و الجوهر، و يزبروا عليه أسماء اللّه تعالى المانعة من أخذه فحفروا له سربا طوله مائة و خمسون ذراعا و جعلوا فى وسطه مجلسا مصفحا بصفائح الذهب، و جعلوا أربعة أبواب على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصع بالجوهر و هو جالس على كرسىّ من ذهب قوائمه من زبرجد و زبروا فى صدر كل تمثال آيات مانعة و جعلوا جسده فى جمد مرمر مصفح بالذهب و زبروا على مجلسه مات مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان و لم يعبد الأصنام إذ لا هرم، و لا سقام، و لا حزن، و لا اهتمام و حصنه بأسماء اللّه العظام، و لا يصل إليه إلا ملك ولدته سبعة ملوك تدين بدين الملك الديان و يؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعى إلى الإيمان آخر الزمان، و جعلوا معه فى ذلك المجلس: ألف قطعة من الزبرجد المخروط، و ألف تمثال من الجوهر النفيس، و ألف برنية مملوءة من الدرّ الفاخر و الصنعة الإلهية و العقاقر، و الطلسمات العجيبة، و سبائك الذهب و سقفوا ذلك بالصخور، و هالوا فوقها الرمال بين جبلين و ولى ابنه قبطيم الملك.

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام فى كتاب التحائف: أنّ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود أخى عاد ابن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام و اسم عبد شمس هذا: عامر، و عرف بعبد شمس لأنه أوّل من عبد الشمس و قيل له أيضا: (سبأ) لأنه أوّل من سبأ و هو سبأ الأكبر أبو حمير و كهلان ملك بعد أبيه يشجب بأرض اليمن جميع بنى قحطان و بنى هود عليه السلام، و حثهم على الغزو ثم سار بهم إلى أرض بابل ففتحها و قتل من كان بها من الثوار حتى بلغ أرض أرمينية، و ملك أرض بنى يافث بن نوح و أراد أن يعبر من هناك إلى الشام، و أرض الجزيرة فقيل له: ليس لك مجاز غير الرجوع فى طريقك فبنى قنطرة على البحر و جاز عليها إلى الشام فأخذ تلك الأراضى إلى الدرب، و لم يكن خلف الدرب إذ ذاك أحد ثم نهض يريد بلاد العرب فنزل على النيل، و جمع أهل مشورته و قال لهم: إنى رأيت أن أبنى مصرا إلى حدّ بين هذين البحرين يعنى بحر الروم، و بحر القلزم. فيكون فاصلا بين الشرق و الغرب فقالوا: نعم الرأى أيها الملك، فبنى مدينة سماها مصر، و ولى عليها ابنه بابليون و مضى إلى بنى حام بن نوح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۹

و هم نزول فى البرارى إلى قمونيـة و يعمونيـة القبـط فـأوقع بجميع تلـك الطوائف و سبى ذراريهم كما فعل ببلاد الشـرق فقيل له: من أجل ذلك سبأ ثم عاد إلى مصر و مضى فيها إلى الشام يريد الحجاز و أوصى ابنه بابليون عند رحيله اه:

ألا قل لبابليون و القول حكمةملكت زمام الشرق و الغرب فأجمل

و خذ لبنى حام من الأمر وسطهفإن صدفوا يوما عن الحق فأقبل

و إن جنحوا بالقول للرفق طاعةيريدون وجه الحق و العدل فأعدل

و لا تظهرنّ الرأى فى الناس يجترواعليك به و اجعله ضربة فيصل

و لا تأخذن المال فى غير حقهو إن جاء لا تدينه نحوك و ابذل

و داوى ذوى الأحقاد بالسيف إنهمتى يلق منك العزم ذو الحقد يجمل

وجد لذوى الأحساب لينا و شدّةو لا تك جبارا عليهم و أجمل

و كن لسؤال الناس غوثا و رحمةو من يك ذا عرف من الناس يسأل

و إياك و السفر القريب فإنهسيغنى بما يوليه فى كل منهل

ثم عاد إلى اليمن، و بنى سد مأرب و هو سدّ فيه سبعون نهرا، و يصل إليه السيل من مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها، ثم مات عن خمسمائة سنـة، و قام من بعـده ابنه حمير بن سـبا فعتا بنو حام على بابليون و أرادوا تخريب مصـر فاسـتدعى أخاه حمير لينجـده عليهم فقدم عليه مصـر، و مضـى إلى بلاد المغرب فأقام بها مائـة عام يبنى المدائن، و يتخذ المصانع فمات بابليون بن سـبأ بمصـر. و ولى بعده ابنه امرئ القيس بابليون ثم مات حمير بن سـبأ عن أربعمائة سـنة و خمس و أربعين سـنة منها فى الملك أربعمائة سـنة، و أقام من بعده وائل بن حمير. ثم مات فقام من بعـده ابنه السـكسك بن وائل الـذى يقال له: مقعقع الحمـد و قد افترق ملك حمير، فحارب الثوار، و سار إلى الشام فلقيه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن سـبأ بالرملـة و قد ملك بعد أبيه و قدّم له هديـة فأقرّه على مصـر حتى قدم عليه إبراهيم الخليل عليه السلام و وهبه هاجر.

و قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصـر و أخبارها عن عبد اللّه بن عباس رضـى اللّه عنهما قال: كان لنوح عليه السلام أربعة من الولد:

سـام، و حـام، و يافث، و يخطون، و أنّ نوحا رغب إلى اللّه عزّ و جلّ و سأله أن يرزقه الإجابـة فى ولـده و ذريته حين تكاملوا بالنماء و البركـة فوعده ذلك فنادى نوح ولده و هم نيام عند السـحر فنادى ساما فأجابه يسـعى و صاح سام فى ولده فلم يجبه أحد منهم إلا ابنه أرفخشد فانطلق به معه حتى أتياه فوضع نوح يمينه على سام و شماله على أرفخشد بن سام و سأل اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰

عزّ و جل أن يبارك فى سام أفضل البركة و أن يجعل الملك و النبوّة فى ولد أرفخشد، ثم نادى حاما و تلفت يمينا و شـمالا فلم يجبه و لم يقم إليه هو و لا أحد من ولده فدعا اللّه عز و جل نوح أن يجعل ولده أذلاء و أن يجعلهم عبيدا لولد سام، و كان مصـر بن بنصـر بن حام نائما إلى جنب جدّه فلما سـمع دعاء نوح على جدّه و ولده قام يسعى إلى نوح و قال: يا جدّى قد أجبتك إذ لم يجبك جدّى و لا أحـد من ولـده فاجعل لى دعوة من دعائك ففرح نوح و وضع يـده على رأسه و قال: اللهمّ إنه قد أجاب دعوتى فبارك فيه و فى ذريته و أسكنه الأرض المباركة التى هى أمّ البلاد، و غوث العباد التى نهرها أفضل أنهار الدنيا و أجعل فيها أفضل البركات، و سخر له و لولـده الأرض و ذللها لهم و قوّهم عليها، ثم دعا ابنه يافث فلم يجبه و لا أحـد من ولـده، فدعا اللّه عليهم أن يجعلهم شـرار الخلق، و عـاش سام مباركا إلى أن مات و عاش ابنه أرفخشـد بن سام مباركا حتى مات و كان الملك الـذى يحبه اللّه و النبوّة و البركـة فى ولد أرفخشد بن سام و كان أكبر ولد حام: كنعان بن حام، و هو الذى حمل به فى الرجز فى الفلك فدعا عليه نوح فخرج أسود و كان فى

ولده الملك و الجبروت و الجفاء و هو:

أبو السودان و الحبش كلهم و ابنه الثانى: كوش بن حام، و هو أبو السند و الهند و ابنه الثالث:

قوط بن حام و هو: أبو البربر و ابنه الأصغر الرابع: بنصر بن حام، و هو أبو القبط كلهم فولد بنصر بن حام أربعة: مصر بن بنصر و هو أكبرهم و الذى دعا له نوح بما دعا له. و فارق بن بنصر، و ماح بن بنصر، و قيل: ولد مصر أربعة: قفط بن مصر، و أشمن بن مصر، و أتريب بن مصر، وصا بن مصر؛ و عن ابن لهيعة و عبد اللّه بن خالد أوّل من سكن مصر بنصر بن حام بن نوح عليه السلام بعد أن أغرق اللّه تعالى قومه و أوّل مدينة عمرت بمصر منف فسكنها بنصر بولده و هم: ثلاثون نفسا منهم أربعة أولاد له قد بلغوا و تزوجوا و هم:

مصر، و فارق، و ياح، و ماح، و كان مصر أكبرهم فبنوا مصر، و كانت إقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم، و نقروا هناك منازل كثيرة، و كان نوح عليه السلام قد دعا لمصر أن يسكنه اللّه الأرض الطيبة المباركة التى هى أمّ البلاد، و غوث العباد، و نهرها أفضل الأنهار، و يجعل له فيها أفضل البركات و يسخر له الأرض و لولده و يذللها لهم و يقوّيهم عليها، فسأله عنها فوصفها له و أخبره بها قالوا: و كان مصر بن بنصر مع نوح فى السفينة لما دعا له و كان بنصر بن حام قد كبر و ضعف فساق ولده مصر، و جميع إخوته إلى مصر فنزلوها و بذلك سميت مصر فلما قرّ قرار بنصر و بنيه بمصر قال لمصر إخوته فارق و ماح و ياح و بنوا بنصر قد علمنا أنك أكبرنا و أفضلنا و أن هذه الأرض التى أسكنك إياها جدّك نوح، و نحن نضيق عليك أرضك، و ذلك حين كثر ولده و أولادهم، و نحن نطلب إليك البركة التى جعلها فيك جدّنا نوح أن تبارك لنا فى أرض نلحق بها و نسكنها و تكون لنا و لأولادنا، فقال: نعم عليكم بأقرب البلاد إلىّ و لا تباعدوا منى فإنّ لى فى بلادى مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسى فتكون لى و لولدى و لأولادهم، فحاز مصر بن بنصر لنفسه ما بين الشجرتين التى بالعريش

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱

إلى أسوان طولا، و من برقة إلى أيلة عرضا، و حاز فارق لنفسه ما بين برقة إلى إفريقية، و كان ولده الأفارقة و لذلك سميت إفريقية، و ذلك مسيرة شهر، و حاز ماح ما بين الشجرتين من منتهى حدّ مصر إلى الجزيرة مسيرة شهر، و هو أبو قبط الشام، و حاز باح ما وراء الجزيرة كلّها ما بين البحر إلى الشرق مسيرة شهر، و هو أبو قبط العراق، ثم توفى بنصر بن حام، و دفن فى موضع دير أبى هرميس غربىّ الأهرام، فهى أوّل مقبرة قبر فيها بأرض مصر، و كثر أولاد مصر و كان الأكابر منهم قفط، و أتريب، و أشمن، و صا، و القبط من ولد مصر هذا و يقال: إنّ قبط أخو قفط، و هو بلسانهم قفطيم و قبطيم و مصرايم، قال: ثم إنّ بنصر بن حام و توفى و استخلف ابنه مصر، و حاز كل واحد من إخوة مصر: قطعة من الأرض لنفسه سوى أرض مصر التى حازها لنفسه و لولده، فلما كثر ولد مصر و أولاد أولادهم قطع مصر لكل واحد من ولده قطيعة يحوزها لنفسه و لولده، و قسم لهم هذا النيل فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها و به سميت قفط قفطا، و ما فوقها إلى أسوان، و ما دونها إلى أشمون فى الشرق و الغرب، و قطع لأشمن من أشمون فما دونها إلى منف فى الشرق و الغرب فسكن أشمن أشمون فسميت به، و قطع لأتريب ما بين منف إلى صا فسكن أتريبا فسميت به، و قطع لصا ما بين صا إلى البحر فسكن صا فسميت به فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء: جزأين بالصعيد، و جزأين بأسفل الأرض.

قال البكرى: و مصر مؤنثة قال تعالى: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ [الزخرف/ ۵۱]، و قال:

ادْخُلُوا مِصْرَ [يوسف/ ۹۹]. و قال عامر بن أبى واثلة الكنانى لمعاوية: أما عمرو بن العاص، فأقطعته مصر، و أما قوله سبحانه: اهْبِطُوا مِصْراً [البقرة/ ۶۱] فإنه أراد مصرا من الأمصار، و قرأ سليم الأعمش: اهبطوا مصر، و قال: هى مصر التى عليها سليم بن علىّ فلم يجرّها.

و قال القضاعى: و كان بنصر بن حام قد كبر، و ضعف فساقه ولده مصر، و جميع إخوته إلى مصر، فنزلوها و بذلك سميت مصر، و هو اسم لا ينصرف فى المعرفة لأنه اسم مذكر سميت به هذه المدينة فاجتمع فيها التأنيث و التعريف، فمعناها الصرف، ثم قيل: لكل مدينة عظيمة يطرقها السفار: مصر فإذا أريد مصر من الأمصار صرف لزوال إحدى العلتين، و هى التعريف، و أما قوله تعالى إخبارا عن

موسى عليه السلام: اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكَمْ ما سَأَلْتُمْ [البقرة/ ۶۱] فإنه مصروف فى قراءة سائر القراء، و فى قراءة الحسن و الأعمش: غير مصروف فمن صرفها فله و جهان: أحدهما: أنه أراد هبوط مصرا من الأمصار لأنهم كانوا يومئذ فى التيه، و الآخر: أنه أراد مصر هذه بعينها و صرفها لأنه جعل مصرا اسما للبلد، و هو اسم مذكر سمى به مذكّر فلم يمنعه الصرف، و أما من لم يصرفه فإنه أراد بمصر هذه المدينة، و كذلك قوله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [يوسف/ ۹۹]، و قول فرعون: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ [الزخرف/ ۵۱] إنما يراد به مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۲

هذه، فأما المصر فى كلام العرب فهو الحدّ بين الأرضين، و يقال: إن أهل هجر يقولون:

اشتريت الدار بمصورها أى بحدودها.

و قال الجاحظ فى كتاب مدح مصر: إنما سميت مصر بمصر لمصير الناس إليها، و اجتماعهم بها. كما سمى مصير الجوف مصيرا و مصرانا لمصير الطعام إليه، قال: و جمع المصر من البلدان أمصار، و جمع مصير الطعام مصران، و ليس لمصر هذه جمع لأنها واحدة قال: و قال الأخطل: هممت بالإسلام، ثم توقفت عنه، قيل: و لم ذلك؟ قال: أتيت امرأة لى و أنا جائع فقلت: أطعمينى شيئا، فقالت: يا جارية ضعى لأبى مالك مصيرا فى النار، ففعلت، فاستعجلتها بالطعام فقالت: يا جارية أين مصير أبى مالك؟ قالت: فى النار، قال: فتطيرت و هممت بأن أسلم فتوقفت.

و قال الجوهرىّ فى كتاب الصحاح: مصر هى المدينة المعروفة تذكر و تؤنث عن ابن السراج و المصران الكوفة و البصرة، و قال ابن خالويه : فى كتاب ليس ليس أحد: فسّر لنا لم سميت مصر مقدونية قديما إلا فى اللسان العبرانىّ، قال: مقدونية مغيث و إنما سميت مصر لما سكنها بنصر بن حام، و تزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعا وقف على الكنيسة العظمى التى بالقسطنطينية، و يسمون بلاد مقدونية الأوصفية و هى عندهم الإسكندرية، و ما يضاف إليها و هى مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى، و يقال لمصر: أم خنور، و تفسيره النعمة و المصر الفرق بين الشيئين. قال الشاعر يصف اللّه تعالى:

و جاعل الشمس مصرا لا خفاء بهبين النهار و بين الليل قد فصلا

هذا البيت قائله عدىّ بن زيد العبادىّ و يروى لأمية بن الصلت الثقفىّ و هو من أبيات أوّلها:

اسمع حديثا كما يوما تحدّثهعن ظهر غيب إذا ما سائل سألا

كيف بدا ثم ربى اللّه نعمتهفيها و علمنا آياته ألا و لا

كانت رياح و سيل ذو كرانيهو ظلمة لم تدع فتقا و لا خللا

فآمر الظلمة السوداء فانكشفتو عزل الماء عما كان قد شغلا

و بسط الأرض بسطا ثم قدّرهاتحت السّماء سواميل و ما نقلا

و جاعل الشمس مصرا لا خفاء بهبين النهار و بين الليل قد فصلا

و فى السماء مصابيح تضىء لناما إن تكلفنا زيتا و لا فتلا

قضى لستة أيام خليقتهو كان آخر شىء صوّر الرجلا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۳ فأخذ اللّه من طين فصوّرهلما رأى أنه قد تم و اعتدلا

دعاه آدم صوتا فاستجاب لهفنفخ الروح فى الجسم الذى جبلا

ثمة أورثه الفردوس يسكنهاو زوجه ضلعة من جنبه جعلا

لم ينهه ربه عن غير واحدةمن شجر طيب إن شم أو أكلا

و كانت الحية الرقشاء إذ خلقتكما ترى ناقة فى الخلق أو جملا

فلامها اللّه إذ أطغت خليفتهطول الليالى و لم يجعل لها أكلا

تمشى على بطنها فى الأرض ما عمرتو الترب تأكله حزنا و إن سهلا

و قال الحافظ أبو الخطاب مجد الدين عمر بن دحية: و مصر أخصب بلاد اللّه و سماها اللّه بمصر و هى هذه دون غيرها بإجماع القرّاء على ترك صرفها، و هى اسم لا ينصرف فى معرفة لأنه اسم مذكر سميت به هذه المدينة، و اجتمع فيه التأنيث و التعريف فمنعاه الصرف، و هى عندنا مشتقة من مصرت الشاة إذا أخذت من ضرعها اللبن فسميت: مصر لكثرة ما فيها من الخير مما ليس فى غيرها فلا يخلو ساكنها من خير يدرّ عليه منها كالشاة التى ينتفع بلبنها، و صوفها، و ولادتها. و قال ابن الأعرابىّ: المصر الوعاء، و يقال للمعا المصير، و جمعه مصران و مصارين، و كذلك هى خزائن الأرض. قال أبو بصرة الغفارىّ من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: مصر خزائن الأرض كلها ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام: اجْعَلْنِى عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ [يوسف/ ۵۵] فأغاث اللّه بمصر يومئذ و خزائنها كل حاضر و باد ذكره الحوفىّ فى تفسيره.

و قال البكرى: أمّ خنور بفتح أوّله و تشديد ثانيه و بالراء المهملة اسم لمصر، و قال أرطاة بن شهبة: يا آل ذبيان! ذودوا عن دمائكم، و لا تكونوا كقوم أم خنور. يقول: لا تكونوا أذلاء ينالكم من أراد، يجب التأمل فى هذه الجملة، و هى أم خنور. قال كراع: أم خنور: النعمة و لذلك سميت مصر أم خنور لكثرة خيرها. و قال علىّ بن حمزة: سميت أم خنور لأنها يساق إليها القصار الأعمار، و يقال للضبع: خنور و خنوز بالراء و الزاى، و قال ابن قتيبة فى غرائب الحديث: و مصر الحدّ، و أهل هجر يكتبون فى شروطهم اشترى فلان الدار بمصورها كلها أى بحدودها، و قال عدىّ بن زيد:

و جاعل الشمس مصرا لا خفاء بهبين النهار و بين الليل قد فصلا

أى حدّا.

ذكر طرف من فضائل مصر

و لمصر فضائل كثيرة منها: أنّ اللّه عزّ و جلّ ذكرها فى كتابه العزيز بضعا و عشرين مرّة تارة بصريح الذكر و تارة إيماء. قال تعالى: اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ [البقرة/ ۶۱].

قال أبو محمد عبد الحق بن عطية فى تفسيره: و جمهور الناس يقرءون مصرا بالتنوين و هو

خط المصاحف إلا ما حكى عن بعض مصاحف عثمان رضى اللّه عنه، و قال مجاهد و غيره:

من صرفها أراد مصرا من الأمصار غير معين، و استدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية، و بما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه، و قالت طائفة ممن صرفها: أراد مصر فرعون بعينها و استدلوا بما فى القرآن أن اللّه تعالى أورث بنى إسرائيل ديار فرعون و آثاره، و أجازوا صرفها. قال الأخفش: لخفتها و شبهها بهند و دعد، و سيبويه لا يجير هذا.

و قال غير الأخفش: أراد المكان فصرف. و قرأ الحسن و أبان بن ثعلب و غيرهما: اهبطوا مصر بترك الصرف؛ و كذلك هى فى مصحف أبىّ بن كعب. و قال: هى مصر فرعون. قال الأعمش : هى مصر التى عليها صالح بن على، و قال أشهب: قال لى مالك: هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون، قال تعالى: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [يوسف/ ۹۹]. قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى تفسيره عن فرقد الشيخى.

قال: خرج يوسف عليه السلام يتلقى يعقوب عليه السلام، و ركب أهل مصر مع يوسف، و كانوا يعظمونه فلما دنا أحدهما من صاحبه و كان يعقوب يمشى و هو يتوكأ على رجل من ولده يقال له: يهوذا فنظر يعقوب إلى الخيل، و إلى الناس، فقال: يا يهوذا هذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ابنك فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه قال يعقوب عليه السلام: عليك يا ذاهب الأحزان عنى. هكذا قال: يا

ذاهب الأحزان عنى.

و قال تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ [يونس/ ۸۷]. قال الطبرى عن ابن عباس و غيره: كانت بنو إسرائيل تخاف فرعون، فأمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلون فيها. قال قتادة: و ذلك حين منعهم فرعون الصلاة فأمروا أن يجعلوا مساجدهم فى بيوتهم و أن يوجهوا نحو القبلة، و عن مجاهد: بيوتكم قبلة قال: نحو الكعبة حين خاف موسى و من معه من فرعون أن يصلوا فى الكنائس الجامعة فأمروا أن يجعلوا فى بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرّا، و عن مجاهد فى قوله: أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً [يونس/ ۸۷] قال: مصر: الإسكندرية.

و قال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ [الزخرف/ ۵۱]. قال ابن عبد الحكم، و أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس، و غيرهما عن أبى رهم السماعى أنه قال فى قوله تعالى: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي [الزخرف/ ۵۱] قال: و لم يكن يومئذ فى الأرض ملك أعظم من

ملك مصر، و كان جميع أهل الأرضيين يحتاجون إلى مصر، و أما الأنهار فكانت قناطر و جسورا بتقدير و تدبير حتى أن الماء يجرى من تحت منازلها و أفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا، فهذا ما ذكره اللّه سبحانه فى مصر من آى الكتاب العزيز بصريح الذكر.

(و أما) ما وقعت إليه الإشارة فيه من الآيات فعدّة.

قال تعالى: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ [يونس/ ۹۳]، و قال تعالى:

وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ [المؤمنون/ ۵۰]. قال ابن عباس، و سعيد بن المسيب، و وهب بن منبه: هى مصر، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه: هى الإسكندرية، و قال تعالى: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ [الشعراء/ ۵۷]، و قال تعالى: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ [الدخان/ ۲۵]. قال ابن يونس فى قول اللّه سبحانه: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ [الشعراء/ ۵۷]. قال أبو رهم: كانت الجنات بحافتى النيل من أوّله إلى آخره من الجانبين ما بين أسوان إلى رشيد، و سبعة خلج: خليج الإسكندرية، و خليج سخا، و خليج دمياط، و خليج سردوس، و خليج منف، و خليج الفيوم، و خليج المنهى متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء و زروع ما بين الجبلين كله من أوّل مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء، و كان جميع أرض مصر كلها تروى يومئذ من ستة عشر ذراعا لما قد دبروا من قناطرها، و جسورها. قال: و المقام الكريم: المنابر كان بها ألف منبر. و قال مجاهد و سعيد بن جبير: المقام الكريم: المنابر، و قال قتادة: و مقام كريم أى حسن و نعمة كانوا فيها فاكهين ناعمين. قال: أى و اللّه أخرجه اللّه من جنانه، و عيونه، و زروعه حتى ورطه فى البحر. و قال سعيد بن كثير بن عفير: كنا بقبة الهواء عند المأمون لما قدم مصر فقال لنا:

ما أدرى ما أعجب فرعون من مصر حيث يقول: أليس لى ملك مصر؟ فقلت: أقول: يا أمير المؤمنين، فقال: قل يا سعيد، فقلت: إنّ الذى ترى بقية مدمّر لأنّ اللّه عزّ و جلّ يقول:

وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف/ ۱۳۷] قال: صدقت، ثم أمسك، و قال تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ [القصص/ ۵]، و قال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال: يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ [غافر/ ۲۹]، و قال تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف/ ۱۳۷]، و قال تعالى مخبرا عن قوم فرعون: أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ [الأعراف/ ۱۲۷] يعنى أرض مصر، و قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام أنه قال اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [يوسف/ ۵۵]. روى ابن يونس عن أبى نضرة الغفارىّ رضى اللّه عنه قال: مصر خزائن الأرض كلها، و سلطانها سلطان الأرض كلها ألا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۶

ترى إلى قول يوسف عليه السلام لملك مصر: اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ ففعل فأغيث بمصر و خزائنها يومئذ كل حاضر، و باد من جميع الأرض، و قال تعالى: وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ [يوسف/ ۵۶]، فكان ليوسف بسلطانه بمصر جميع سلطان الأرض كلها لحاجتهم إليه، و إلى ما تحت يديه، و قال تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام أنه قال: رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ [يونس/ ۸۸]، و قال تعالى: عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [الأعراف/ ۱۲۹]، و قال تعالى: وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ [غافر/ ۲۶] يعنى أرض مصر، و قال تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ [القصص/ ۴] يعنى أرض مصر، و قال تعالى حكاية عن بعض إخوة يوسف عليه السلام: فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ [يوسف/ ۸۰] يعنى أرض مصر، و قال تعالى: إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ [القصص/ ۱۹] يعنى أرض مصر. قال ابن عباس رضى اللّه عنه: سميت مصر بالأرض كلها فى عشرة مواضع من القرآن، فهذا ما يحضرنى مما ذكرت فيه مصر من آى كتاب اللّه العزيز.

و قد جاء فى فضل مصر أحاديث: روى عبد اللّه بن لهيعة من حديث عمرو بن العاص أنه قال: حدّثنى عمر أمير المؤمنين رضى اللّه عنه أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «إذا فتح اللّه عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض». قال أبو بكر رضى اللّه عنه: و لم ذلك يا رسول اللّه؟ قال: «لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة». و عن عمرو بن الحمق : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «... تكون فتنة أسلم الناس فيها أو خير الناس فيها الجند الغربىّ ...». قال: فلذلك قدمت عليكم مصر، و عن تبيع بن عامر الكلاعىّ قال: أقبلت من الصائفة فلقيت أبا موسى الأشعرىّ رضى اللّه عنه فقال لى: من أين أنت؟

فقلت: من أهل مصر، قال: من الجند العربىّ؟ فقلت: نعم، قال: الجند الضعيف؟ قال:

قلت: أهو الضعيف؟ قال: نعم، قال: أما إنه ما كادهم أحد إلا كفاهم اللّه مؤنته، اذهب إلى معاذ بن جبل حتى يحدّثك قال: فذهبت إلى معاذ بن جبل فقال لى: ما قال لك الشيخ فأخبرته، فقال لى: و أىّ شىء تذهب به إلى بلادك أحسن من هذا الحديث، أكتبت فى أسفل ألواحك، فلما رجعت إلى معاذ أخبرنى أن بذلك أخبره رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و روى ابن وهب من حديث صفوان بن عسال قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «... فتح اللّه بابا للتوبة فى الغرب عرضه سبعون عاما لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه ...». و روى ابن لهيعة من حديث عمرو بن العاص: حدّثنى عمر أمير المؤمنين رضى اللّه عنه، أنه سمع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۷

رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «إن اللّه عز و جل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإنّ لهم منكم صهرا و ذمّة ...». و روى ابن وهب قال: أخبرنى حرملة بن عمران التجيبى عن عبد الرحمن بن شماسة المهرىّ قال: سمعت أبا ذر رضى اللّه عنه يقول: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإنّ لهم ذمّة و رحما فإذا رأيتم رجلين يقتتلان فى موضع لبنة فأخرجوا منها ...». قال: فمرّ بربيعة و عبد الرحمن ابنى شرحبيل يتنازعان فى موضع لبنة فخرج منها، و فى رواية:

«ستفتحون مصر و هى أرض يسمى فيها القيراط فإذا افتتحموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمّة و رحما أو قال: ذمّة و صهرا» الحديث، و رواه مالك، و الليث و زاد: فاستوصوا بالقبط خيرا. أخرجه مسلم فى الصحيح عن أبى الطاهر عن ابن وهب. قال ابن شهاب: و كان يقال إنّ أمّ إسماعيل منهم، قال الليث بن سعد: قلت لابن شهاب: ما رحمهم، قال: إن أمّ إسماعيل بن إبراهيم صلوات اللّه عليهما منهم، و قال محمد بن إسحاق : قلت للزهرىّ : ما الرحم التى ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؟ قال: كانت هاجر أمّ إسماعيل منهم، و روى ابن لهيعة من حديث أبى سالم الجيشانى: أن بعض أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أخبره أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه

عليه و سلم يقول: «إنكم ستكونون أجنادا و إن خير أجنادكم أهل الغرب منكم فاتقوا اللّه فى القبط لا تأكلوهم أكل الخضر»، و عن مسلم بن يسار: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «استوصوا بالقبط خيرا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدوّ»، و عن يزيد بن أبى حبيب: أن أبا سلمة ابن عبد الرحمن حدّثه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أوصى عند وفاته أن تخرج اليهود من جزيرة العرب، و قال: «اللّه اللّه فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم، و يكونون لكم عدّة، و أعوانا فى سبيل اللّه»، و روى ابن وهب عن موسى بن أيوب الغافقى عن رجل من الرّند: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم مرض فأغمى عليه ثم أفاق فقال: «استوصوا بالأدم الجعد» ثم أغمى عليه الثانية، ثم أفاق فقال مثل ذلك، ثم أغمى عليه الثالثة، فقال مثل ذلك، فقال القوم: لو سألنا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من الأدم الجعد، فأفاق فسألوه، فقال: «قبط مصر، فإنهم أخوال، و أصهار، و هم أعوانكم على عدوّكم و أعوانكم على دينكم»، قالوا: كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول اللّه؟ قال: «يكفونكم أعمال الدنيا و تتفرّغون للعبادة فالراضى بما يؤتى إليهم كالفاعل بهم و الكاره لما يؤتى إليهم من الظلم كالمتنزه عنهم»، و عن عمرو بن حريب و أبى عبد الرحمن الحلبى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرا فإنهم قوّة لكم و بلاغ إلى عدوّكم بإذن اللّه» يعنى قبط مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۸

و عن ابن لهيعة: حدّثنى مولى عفرة، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «اللّه اللّه فى أهل المدرة السوداء السجم الجعاد فإن لهم نسبا و صهرا»، قال عمرو مولى عفرة صهرهم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تسرّى فيهم، و نسبهم أن أمّ إسماعيل عليهم السلام منهم. قال ابن وهب:

فأخبرنى ابن لهيعة أن أمّ إسماعيل هاجر من أمّ العرب قرية كانت أمام الفرما من مصر و قال مروان القصاص: صاهر إلى القبط من الأنبياء ثلاثة: إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام تسرّى هاجر، و يوسف تزوّج بنت صاحب عين شمس، و رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تسرّى مارية. و قال يزيد بن أبى حبيب: قرية هاجر باق التى عندها أمّ دنين، و قال هشام: العرب تقول:

هاجر، و آجر، فيبدلون من الهاء الألف كما قالوا: هراق الماء، و أراق الماء، و نحوه.

و عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه قال: الأمصار سبعة. فالمدينة مصر، و الشأم مصر، و مصر، و الجزيرة، و البحرين، و البصرة، و الكوفة. و قال مكحول: أول الأرض خرابا أرمينة، ثم مصر. و قال عبد اللّه بن عمر: و قبطة مصر أكرم الأعاجم كلها، و أسمحهم يدا، و أفضلهم عنصرا، و أقربهم رحما بالعرب عامة، و بقريش خاصة، و من أراد أن يذكر الفردوس، أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها و تنور ثمارها. و قال كعب الأحبار : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أخرقت، و فى رواية: إذا أزهرت.

(و من فضائل مصر): أنه كان من أهلها السحرة، و قد آمنوا جميعا فى ساعة واحدة، و لا يعلم جماعة أسلمت فى ساعة واحدة أكثر من جماعة القبط، و كانوا فى قول يزيد بن أبى حبيب، و غيره اثنى عشر ساحرا رؤساء، تحت يد كل ساحر منهم عشرون عريفا، تحت يد كل عريف منهم ألف من السحرة، فكان جميع السحرة مائتى ألف و أربعين ألفا و مائتين و اثنين و خمسين إنسانا بالرؤساء، و العرفاء، فلما عاينوا ما عاينوا أيقنوا أن ذلك من السماء و أن السحر لا يقوم لأمر اللّه فخرّ الرؤساء الاثنا عشر عند ذلك سجدا، فأتبعهم العرفاء، و اتبع العرفاء من بقى، و قالوا: آمنا برب العالمين رب موسى و هارون. قال تبيع: كانوا من أصحاب موسى عليه السلام و لم يفتتن منهم أحد مع من افتتن من بنى إسرائيل فى عبادة العجل. قال تبيع: ما آمن جماعة قط فى ساعة واحدة مثل جماعة القبط، و قال كعب الأحبار: مثل قبط مصر كالغيضة كلما قطعت نبتت حتى يخرّب اللّه عز و جل بهم و بصناعتهم جزائر الروم، و قال عبد اللّه بن عمرو: خلقت الدنيا على خمس صور: على صورة الطير برأسه، و صدره، و جناحيه، و ذنبه. فالرأس مكة، و المدينة، و اليمن. و الصدر الشأم، و مصر و الجناح الأيمن العراق، و خلف العراق أمّة يقال لها: واق، و خلف واق أمّة يقال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۹

لها: واق واق و خلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا اللّه عز و جل، و الجناح الأيسر السند، و خلف السند الهند، و خلف الهند أمّة يقال لها: ناسك، و خلف ناسك أمّة يقال لها:

منسك، و خلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا اللّه عز و جل، و الذنب من ذات الحمام إلى مغرب الشمس، و شرّ ما فى الطير الذنب، و قال الجاحظ: الأمصار عشرة: الصناعة بالبصرة، و الفصاحة بالكوفة، و التحنيث ببغداد، و العىّ بالرى، و الجفا بنيسابور، و الحسن بهراة، و الطرمذة بسمرقند، و المروءة ببلخ، و التجارة بمصر، و البخل بمرو، الطرمذة: كلام ليس له فعل، و عن يحيى بن داخر الغافرىّ أنه سمع عمرو بن العاص يقول فى خطبته:

و اعملوا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لمكث الأعداء حولكم، و لإشراف قلوبهم إليكم، و إلى داركم معدن الزرع، و المال، و الخير الواسع، و البركة النامية.

و عن عبد الرحمن بن غنم الأشعرىّ: أنه قدم من الشأم إلى عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقال: ما أقدمك إلى بلادنا؟ قال: كنت تحدّثنى أن مصر أسرع الأرض خرابا ثم أراك قد اتخذت منها، و بنيت فيها القصور، و اطمأننت فيها، قال: إن مصر قد أوفت خرابها حطّمها البخت نصر، فلم يدع فيها إلا السباع، و الضباع، فهى اليوم أطيب الأرضين ترابا، و أبعدها خرابا، و لا يزال فيها بركة ما دام فى شىء من الأرض بركة، و يقال: مصر متوسطة الدنيا، قد سلمت من حرّ الإقليم الأوّل و الثانى، و من برد الإقليم السادس و السابع، و وقعت فى الإقليم الثالث، فطاب هواها، و ضعف حرّها، و خف بردها، و سلم أهلها من مشاتى الأهواز، و مصايف عمان، و صواعق تهامة، و دماميل الجزيرة، و جرب اليمن، و طواعين الشأم، و برسام العراق، و عقارب عسكر مكرم، و طحال البحرين، و حمى خيبر، و أمنوا من غارات الترك، و جيوش الروم، و هجوم العرب، و مكايد الدّيلم، و سرايا القرامطة، و نزف الأنهار، و قحط الأمطار، و بها ثمانون كورة ما فيها كورة إلا و بها طرائف، و عجاب من أنواع البرّ، و الأبنية، و الطعام، و الشراب، و الفاكهة، و سائر ما تنتفع به الناس، و تدخره الملوك يعرف بكل كورة، و جهاتها و ينسب كل لون إلى كورة، فصعيدها أرض حجازية حرّة حرّ العراق، و ينبت النخل، و الأراك، و القرظ، و الدوم، و العشر، و أسفل أرضها شامى يمطر مطر الشأم، و ينبت ثمار الشأم من الكروم، و الزيتون، و اللوز، و التين، و الجوز، و سائر الفواكه، و البقول، و الرياحين، و يقع به الثلج، و البرد.

و كورة الإسكندرية، و لوبية، و مراقيه برارى، و جبال، و غياض تنبت الزيتون، و الإعناب، و هى بلاد إبل، و ماشية، و عسل، و لبن. و فى كل كورة من كور مصر مدينة، فى كل مدينة منها آثار كريمة من الأبنية، و الصخور، و الرخام، و العجائب، و فى نيلها السفن التى تحمل السفينة الواحدة منها ما يحمله خمسمائة بعير، و كل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة يؤيد ذلك قول اللّه سبحانه و تعالى: وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ [الشعراء/ ۳۶]، و يعمل بمصر معامل كالتنانير يعمل بها البيض بصنعة يوقد عليه، فيحاكى نار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۵۰

الطبيعة فى حضانة الدجاجة لبيضها، و يخرج من تلك المعامل الفراريج، و هى معظم دجاج مصر، و لا يتم عمل هذا بغير مصر. و قال عمر بن ميمون: خرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل، فلما أصبح فرعون أمر بشاة، فأتى بها فأمر بها أن تذبح، ثم قال: لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع عندى خمس مائة ألف من القبط، فاجتمعوا إليه، فقال لهم فرعون: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، و كان أصحاب موسى عليه السلام ستمائة ألف و سبعين ألفا.

و وصف بعضهم مصر، فقال: ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، و ثلاثة أشهر مسكة سوداء، و ثلاثة أشهر زمردة خضراء، و ثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء، فأما اللؤلؤة البيضاء، فإن مصر فى أشهر أبيب و مسرى و بوت يركبها الماء، فترى الدنيا بيضاء، و ضياعها على روابى، و تلال مثل الكواكب قد أحيطت بها المياه من كل وجه، فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا فى الزوارق، و أما المسكة السوداء، فإن فى أشهر بابه، و هاتور، و كيهك ينكشف الماء عن الأرض فتصير أرضا سوداء، و فى هذه الأشهر تقع الزراعات، و أما الزمردة الخضراء

فإن فى أشهر طوبه و امشير و برمهات يكثر نبات الأرض، و ربيعها فتصير خضراء كأنها زمردة، و أما السبيكة الحمراء فإن فى أشهر برمودة و بشنس و بؤنة يتورد العشب، و يبلغ الزرع الحصاد، فيكون كالسبيكة التى من الذهب منظرا و منفعة، و سأل بعض الخلفاء الليث بن سعد عن الوقت الذى تطيب فيه مصر؟ فقال: إذا غاض ماؤها، و ارتفع و باها و جف ثراها و أمكن مرعاها، و قال آخر: نيلها عجب، و أرضها ذهب، و خيرها جلب، و ملكها سلب، و مالها رغب، و فى أهلها صخب، و طاعتهم رهب، و سلامهم شعب، و حربهم حرب، و هى لمن غلب. و قال آخر: مصر من سادات القرى و رؤساء المدن، و قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وابِلٌ فَطَلٌ [البقرة/ ۲۶۵] هى: مصر إن لم يصبها مطر أزكت، و إن أصابها مطرا ضعفت، قاله المسعودى فى تاريخه، و يقال: لما خلق اللّه آدم عليه السلام مثل له الدنيا شرقها، و غربها، و سهلها، و جبلها، و أنهارها، و بحارها، و بناءها، و خرابها، و من يسكنها من الأمم و من يملكها من الملوك، فلما رأى مصر أرضا سهلة ذات نهر جار مادّته من الجنة تنحدر فيه البركة، و رأى جبلا من جبالها مكسوّا نورا لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة فى سفحه أشجار مثمرة، و فروعها فى الجنة تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم عليه السلام فى النيل بالبركة، و دعا فى أرض مصر بالرحمة، و البرّ و التقوى، و بارك فى نيلها و جبلها سبع مرّات و قال: يا أيها الجبل المرحوم: سفحك جنة، و تربتك مسكة يدفن فيها غراس الجنة أرض حافظة مطيعة رحيمة لا خلتك يا مصر بركة، و لا زال بك حفظ و لا زال منك ملك و عزيا أرض مصر فيك الخبايا، و الكنوز، و لك البرّ و الثروة، و سال نهرك عسلا كثر اللّه زرعك، و درّ ضرعك، و زكى نباتك و عظمت بركتك، و خصبت و لا ـ زال فيك خير ما لم تتجبرى و تتكبرى، أو تخونى فإذا فعلت ذلك عد النشر، ثم يغور خيرك، فكان آدم أوّل من دعا لها بالرحمة، و الخصب و الرأفة و البركة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۱

و عن ابن عباس: أن نوحا عليه السلام دعا لمصر بن بيصر بن حام فقال: اللهمّ إنه قد أجاب دعوتى فبارك فيه و فى ذريته و أسكنه الأرض المباركة التى هى أم البلاد، و غوث العباد التى نهرها أفضل أنهار الدنيا، و اجعل فيها أفضل البركات، و سخر له و لولده الأرض، و ذللها لهم و قوّهم عليها.

و قال كعب الأحبار: لولا رغبتى فى بيت المقدس لما سكنت إلا مصر فقيل له: لم؟

فقال: لأنها بلد معافاة من الفتن و من أرادها بسوء أكبه اللّه على وجهه و هو بلد مبارك لأهله فيه. و قال ابن وهب: أخبرنى يحيى بن أيوب عن خالد بن يزيد عن ابن أبى هلال: أن كعب الأحبار كان يقول: إنى لأحب مصر و أهلها، لأن مصر بلد معافاة و أهلها أصحاب عافية، و هم بذلك مفارقون، و يقال: إن فى بعض الكتب الإلهية: مصر خزائن الأرض كلها فمن أرادها بسوء قصمه اللّه تعالى.

و قال عمرو بن العاص: ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة يعنى إذا جمع الخراج مع الإمارة، و قال أحمد بن مدبر: تحتاج مصر إلى ثمانية و عشرين ألف ألف فدان، و إنما يعمر منها ألف ألف فدّان، و قد كشفت أرض مصر، فوجدت غامرها أضعاف عامرها، و لو اشتغل السلطان بعمارتها لوفت له بخراج الدنيا. و قال بعضهم: إنّ خراج العراق لم يكن قط أوفر منه فى أيام عمر بن عبد العزيز، فإنه بلغ ألف ألف درهم و سبعة عشر ألف ألف درهم، و لم تكن مصر قط أقل من خراجها فى أيام عمرو بن العاص، و أنه بلغ اثنى عشر ألف ألف دينار، و كانت الشامات بأربعة عشر ألف ألف سوى الثغور. و من فضائل مصر: أنه ولد بها من الأنبياء موسى، و هارون، و يوشع عليهم السلام، و يقال: إن عيسى بن مريم صلوات اللّه عليه أخذ على سفح الجبل المقطم، و هو سائر إلى الشام، فالتفت إلى أمّه و قال: يا أمّاه هذه مقبرة أمّة محمد صلى اللّه عليه و سلم، و يذكر أنه ولد فى قرية اهناس من نواحى صعيد مصر و أنه كانت به نخلة يقال: إنها النخلة المذكورة فى القرآن بقوله سبحانه و تعالى: وَ هُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ [مريم/ ۲۵] و هذا القول و هم، فإنه لا خلاف بين علماء الأخبار من أهل الكتاب، و من يعتمد عليه من علماء المسلمين أن عيسى صلوات اللّه عليه ولد بقرية بيت لحم من بيت المقدس، و دخل مصر من الأنبياء، إبراهيم خليل الرحمن، و قد ذكر خبر ذلك عند ذكر خليج القاهرة من هذا الكتاب. و دخلها أيضا

يعقوب و يوسف و الأسباط، و قد ذكر ذلك فى خبر الفيوم، و دخلها أرميا، و كان من أهلها مؤمن آل فرعون الذى أثنى عليه اللّه جلّ جلاله فى القرآن.

و يقال: إنه ابن فرعون لصلبه، و أظنه أنه غير صحيح، و كان منها جلساء فرعون الذين أبان اللّه فضيلة عقلهم بحسن مشورتهم فى أمر موسى و هارون عليهما السلام، لما استشارهم فرعون فى أمرهما فقال تعالى: قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۲

أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ [الشعراء/ ۳۴- ۳۷]، و أين هذا من قول أصحاب النمرود فى إبراهيم صلوات اللّه عليه، حيث أشاروا بقتله قال تعالى حكاية عنهم: قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ [الأنبياء/ ۶۸] و من أهل مصر، امرأة فرعون التى مدحها اللّه تعالى فى كتابه العزيز بقوله:

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [التحريم/ ۱۱] و من أهلها، ماشطة بنت فرعون و آمنت بموسى عليه السلام، فمشطها فرعون بأمشاط الحديد كما يمشط الكتان، و هى ثابتة على إيمانها باللّه.

و قال صاعد اللغوى فى كتاب طبقات الأمم: إن جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأوّل الساكن بصعيد مصر الأعلى، و هو أوّل من تكلم فى الجواهر العلوية، و الحركات النجومية، و هو أوّل من ابتنى الهياكل، و مجد اللّه فيها، و أوّل من نظر فى علم الطب، و ألف لأهل زمانه قصائد موزونة فى الأشياء الأرضية و السماوية، و قالوا: إنه أوّل من أنذر بالطوفان، و رأى أن آفة سماوية تصيب الأرض من الماء، و النار فخاف ذهاب العلم، و اندراس الصنائع فبنى الأهرام، و البرابى التى فى صعيد مصر الأعلى، و صوّر فيها جميع الصنائع، و الآلات و رسم فيها صفات العلوم حرصا على تخليدها لمن بعده، و خيفة أن يذهب رسمها من العالم، و هرمس هذا هو: إدريس عليه السلام.

و قال أبو محمد الحسن بن إسماعيل بن الفرات فى أخبار مصر: إن الخضر جاز البحر مع موسى عليه السلام، و كان مقدّما عنده، و كان بمصر من الحكماء جماعة ممن عمرت الدنيا بكلامهم و حكمهم و تدبيرهم، و كان من علومهم علم الطب، و علم النجوم، و علم المساحة، و علم الهندسة، و علم الكيمياء، و علم الطلسمات، و يقال: كانت مصر فى الزمن الأوّل يسير إليها طلاب العلوم لتزكو عقولهم، و تجود أذهانهم و يتميز عندهم الذكاء و تدق الفطنة.

و من فضائل مصر: أنها تمير أهل الحرمين و توسع عليهم و مصر فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها، فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه إلى الحرمين و اليمن و الهند و الصين و عمان و السند و الشحر، و ساحلها من جهة تنيس و دمياط و الفرما فرضة بلاد الروم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۳

و الإفرنج، و سواحل الشام و الثغور إلى حدود العراق، و ثغر إسكندرية فرضة أقريطس و صقلية و بلاد المغرب، و من جهة الصعيد يحمل إلى بلاد الغرب و النوبة و البجة و الحبشة و الحجاز و اليمن، و بمصر عدّة من الثغور المعدّة للرباط فى سبيل اللّه تعالى و هى: البراس و رشيد و الإسكندرية و ذات الحمام و البحيرة و اخنا و دمياط و شطا و تنيس و الأشتوم و الفرما و الواردة و العريش و أسوان و قوص و الواحات، فيغزى من هذه الثغور الروم و الفرنج و البربر و النوبة و الحبشة و السودان. و بمصر عدّة مشاهد و كثير من المساجد، و بها النيل، و الأهرام و البرابى و الأديار و الكنائس و أهلها يستغنون بها عن كل بلد حتى أنه لو ضرب بينها و بين بلاد الدنيا بسوره لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد. و بمصر دهن البلسان الذى عظمت منفعته، و صارت ملوك الأرض تطلبه من مصر، و تعتنى به و ملوك النصرانية تترامى على طلبه، و النصارى كافة تعتقد تعظيمه و ترى أنه لا يتم تنصر نصرانىّ إلا بوضع شىء من دهن البلسان فى ماء المعمودية عند تغطيسه فيها، و بها السقنقور و منافعه لا تنكر و بها النمس و العرس، و لهما فى أكل الثعابين فضيلة لا تنكر فقد قيل: لولا العرس و النمس لما سكنت مصر من كثرة الثعابين، و بها السمكة الرعادة و نفعها فى البرء من الحمى إذا

علقت على المحموم عجيب، و بمصر حطب السنط، و لا نظير له فى معناه فلو و قد منه تحت قدر يوما كاملا لما بقى منه رماد، و هو مع ذلك صلب الكسر سريع الاشتعال بطيء الخمود. و يقال:

إنه أبنوس غيرته بقعة مصر فصار أحمر. و بها الأفيون عصارة الخشخاش، و لا يجهل منافعه إلا جاهل، و بها البنج و هو ثمر قدر اللوز الأخضر كان من محاسن مصر إلا أنه انقطع قبل سنة سبعمائة من الهجرة؛ و بها الأترج. قال أبو داود صاحب السير فى كتاب الزكاة: شبرت قثاءة بمصر ثلاثة عشر شبرا، و رأيت أترجة على بعير قطعتين، و صيرت مثل عدلين.

قال المسعودى فى التاريخ: و الأترج المدوّر حمل من أرض الهند بعد الثلاثمائة من سنى الهجرة، و زرع بعمان، ثم نقل منها إلى البصرة و العراق و الشام، حتى كثر فى دور الناس بطرسوس، و غيرها من الثغور الشامية، و فى أنطاكية و سواحل الشام و فلسطين و مصر، و ما كان يعهد و لا يعرف فعدمت منه الأراهج الحمراء الطيبة، و اللون الحسن الذى كان فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء و التربة و خاصية البلد. و فى مصر معدن الزمرد، و معدن النفط و الشب و البرام و مقاطع الرخام، و يقال: كان بمصر من المعادن ثلاثون معدنا؛ و أهل مصر يأكلون صيد بحر الروم، و صيد بحر اليمن طريا لأن بين البحرين مسافة ما بين مدينة القلزم، و الفرما، و ذلك يوم و ليلة، و هو الحاجز المذكور فى القرآن قال تعالى: وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً [النمل/ ۶۱] قيل: هما بحر الروم، و بحر القلزم، و قال تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ [الرحمن/ ۱۹]. قال بعض المفسرين: البرزخ ما بين القلزم و الفرما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۴

و من محاسن مصر: أنه يوجد بها فى كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول و المشموم دون ما عداه من بقية الشهور فيقال: رطب توت، و رمان بابه، و موزها تور، و سمك كيهك، و ماء طوبة، و خروف امشير، و لبن برمهات، و ورد برمودة، و نبق بشنس، و تين بؤنة، و عسل أبيب، و عنب مسرى، و منها: أن صيفها خريف لكثرة فواكهه و شتاءها ربيع لما يكون بمصر حينئذ من القرظ و الكنان.

و من محاسنها: أن الذى ينقطع من الفواكه فى سائر البلدان أيام الشتاء يوجد حينئذ بمصر. و منها: أن أهل مصر لا يحتاجون فى حرّ الصيف إلى استعمال الخيش و الدخول فى جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد، و لا يحتاجون فى برد الشتاء إلى لبس الفرو، و الاصطلاء بالنار الذى لا يستغنى عنه أهل الشام. كما أنهم أيضا فى الصيف غير محتاجين إلى استعمال الثلج، و يقال: زبرجد مصر، و قباطى مصر، و حمير مصر، و ثعابين مصر، و منافعها فى الدرياق جليلة.

و من فضائل مصر: أن الرخامة التى فى الحجر من الكعبة من مصر بعث بها محمد بن طريف مولى العباس بن محمد فى سنة إحدى و أربعين و مائتين، مع رخامة أخرى خضراء هدية للحجر، فجعلت إحدى الرخامتين على سطح جدر الكعبة، و هما من أحسن الرخام فى المسجد خضرة و كان المتولى عليهما عبد اللّه بن محمد بن داود، ذرعها ذراع و ثلاث أصابع. قاله الفاكهى فى أخبار مكة.

و من فضائل مصر: أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تسرّى من أهلها، و ولد له صلى اللّه عليه و سلم من نساء مصر، و لم يولد له ولد من غير نساء العرب إلا من نساء مصر. قال ابن عبد الحكم: لما كانت سنة ست من مهاجر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ و رجع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من الحديبية بعث إلى الملوك، فمضى حاطب بن أبى بلتعة بكتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فلما انتهى إلى الإسكندرية، وجد المقوقس فى مجلس مشرف على البحر، فركب البحر فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بين أصبعيه، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض و أمر به فأوصل إليه، فلما قرأ الكتاب قال: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو علىّ فيسلط علىّ. فقال له حاطب: ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل به، و يفعل، فوجم ساعة، ثم استعادها، فأعادها عليه حاطب فسكت فقال له حاطب: إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى فانتقم اللّه به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، و لا تعتبر بك، و إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير فيه، و هو الإسلام الكافى لنبيه عمّا سواه، و ما بشارة موسى بعيسى إلى كبشارة عيسى بمحمد، و ما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، و لسنا ننهاك عن دين المسيح و لكنا نأمرك به.

ثم قرأ الكتاب فإذا فيه: (بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى المقوقس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۵

عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى؛ أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرّتين و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا اللّه و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فلما قرأه أخذه فجعله فى حق من عاج و ختم عليه. و عن أبان بن صالح قال:

أرسل المقوقس إلى حاطب ليلة و ليس عنده أحد إلا الترجمان فقال له: ألا تخبرنى عن أمور أسألك عنها فإنى أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك، قلت: لا تسألنى عن شىء إلا صدقتك، قال: إلى ما يدعو محمد؟ قال: إلى أن تعبد اللّه و لا تشرك به شيئا، و تخلع ما سواه، و يأمر بالصلاة. قال: فكم تصلون؟ قال: خمس صلوات فى اليوم و الليلة، و صيام شهر رمضان، و حج البيت، و الوفاء بالعهد، و ينهى عن أكل الميتة، و الدم. قال: من أتباعه؟ قال: الفتيان من قومه، و غيرهم. قال: و هل يقبل قوله؟ قال: نعم، قال: صفه لى؟

قال: فوصفته بصفة من صفته، و لم آت عليها، قال: قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها فى عينيه حمرة قلّ ما تفارقه، و بين كتفيه خاتم النبوّة يركب الحمار، و يلبس الشملة، و يجتزى بالتمرات و الكسر لا يبالى من لاقى من عمّ و لا ابن عمّ، قلت: هذه صفته، قال: قد كنت أعلم أن نبيا بقى و قد كنت أظنّ أن مخرجه الشام، و هناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج فى أرض العرب فى أرض جهد، و بؤس، و القبط لا تطاوعنى فى أتباعه، و لا أحب أن تعلم بمحاورتى إياك و سيظهر على البلاد و ينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ههنا، و أنا لا أذكر للقبط من هذا حرفا فارجع إلى صاحبك. قال: ثم دعى كاتبا يكتب بالعربية فكتب: (لمحمد بن عبد اللّه من المقوقس عظيم القبط سلام. أما بعد:

فقد قرأت كتابك، و فهمت ما ذكرت، و ما تدعو إليه، و قد علمت أن نبيا قد بقى و قد كنت أظن أن نبيا يخرج بالشام، و قد أكرمت رسولك، و بعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، و بكسوة، و أهديت إليك بغلة لتركبها، و السلام).

و عن عبد الرحمن بن عبد القارى قال: لما مضى حاطب بكتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ قبل المقوقس الكتاب، و أكرم حاطبا و أحسن نزله، ثم سرّحه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و أهدى له كسوة، و بغلة بسرجها، و جاريتين إحداهما أمّ إبراهيم، و وهب الأخرى لجهم بن قيس العبدرى، فهى أمّ زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر و يقال: بل وهبها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لمحمد بن مسلمة الأنصارىّ، و يقال: بل لدحية بن خليفة الكلبى، و قيل: بل لحسان بن ثابت.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۶

و عن يزيد بن أبى حبيب : أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ضمه إلى صدره، و قال: هذا زمان يخرج فيه النبىّ الذى نجد نعته و صفته فى كتاب اللّه تعالى، و إنا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين فى ملك يمين، و لا نكاح، و أنه يقبل الهدية و لا يقبل الصدقة، و أن جلساءه المساكين و إن خاتم النبوّة بين كتفيه، ثم دعا رجلا عاقلا، ثم لم يدع بمصر أحسن و لا أجمل من مارية و أختها، و هما من أهل جفن بفتح أوّله و سكون ثانيه ثم نون بعده من كورة انصنا، فبعث بهما إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و أهدى له بغلة شهباء و حمارا أشهب، و ثيابا من قباطى مصر، و عسلا من عسل بنها، و بعث إليه بمال صدقة.

و يقال: إن المقوقس أهدى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أربع جوارى، و قيل: جاريتين، و بغلة اسمها الدلدل، و حمارا اسمه يعفور، و قبأ و ألف مثقال ذهبا و عشرين ثوبا من قباطى مصر، و خصيا يسمى مايور، و يقال: إنه ابن عمّ مارية، و فرسا يقال له: الكرّار، و قدحا من زجاج، و عسلا من عسل بنها، فأعجب النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و دعا فيه بالبركة، و قال: ضنّ الخبيث بملكه و لا بقاء لملكه، فإن المقوقس قال خيرا و أكرم حاطب ابن أبى بلتعة و قارب الأمر و لم يسلم.

و قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر الواقدىّ: أنبأنا يعقوب بن محمد بن أبى صعصعة عن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة

قال: أهدى المقوقس صاحب الإسكندرية إلى النبيّ صلى اللّه عليه و سلم فى سنة سبع من الهجرة، مارية و أختها سيرين، و ألف مثقال ذهبا و عشرين ثوبا، و بغلته الدلدل، و حماره عفيرا، و خصيا يقال له: مابور فعرض حاطب على مارية الإسلام فأسلمت هى و أختها، ثم أسلم الخصى بعد و كان الذى بعثه المقوقس، مع مارية اسمه جبرين بن عبد اللّه القبطى. مولى بنى عفار. قال ابن عبد الحكم: و أمر رسوله أن ينظر من جلساؤه و ينظر إلى ظهره هل يرى شامة كبيرة ذات شعر ففعل ذلك الرسول، فلما قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قدّم إليه الأختين و الدابتين، و العسل و الثياب، و أعلمه أن ذلك كله هدية، فقبل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الهدية، و كان لا يردّها من أحد من الناس. قال: فلما نظر إلى مارية و أختها أعجبتاه و كره أن يجمع بينهما، و كانت إحداهما تشبه الأخرى فقال:

«اللهم اختر لنبيك»، فاختار اللّه له ماريه. و ذلك أنه لما قال لهما: «اشهد أن لا إله إلا اللّه و أنّ محمدا عبده و رسوله»، فبادرت مارية فشهدت و آمنت قبل أختها، و مكثت أختها ساعة، ثم تشهدت و آمنت، فوهب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أختها لمحمد بن مسلمة الأنصارىّ، و قال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۵۷

بعضهم: بل وهبها لدحية بن خليفة الكلبىّ.

و عن يزيد بن أبى حبيب عن عبد الرحمن بن شامة المهرى عن عبد اللّه بن عمر قال:

دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم على أمّ إبراهيم أمّ ولده القبطية، فوجد عندها نسيبا لها كان قدم معها من مصر، و كان كثيرا ما يدخل عليها، فوقع فى نفسه شىء فرجع، فلقيه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فعرف ذلك فى وجهه، فسأله فأخبره، فأخذ عمر السيف، ثم دخل على مارية و قريبها عندها، فأهوى إليه بالسيف فلما رأى ذلك كشف عن نفسه، و كان مجبوبا ليس بين رجليه شىء. فلما رآه عمر رجع إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فأخبره فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «إن جبريل أتانى فأخبرنى أن اللّه عز و جل قد برّأها و قريبها و إن فى بطنها غلاما منى و أنه أشبه الخلق بى و أمرنى أن أسميه إبراهيم و كنانى بأبى إبراهيم».

و قال الزهرى عن أنس: لما ولدت أمّ إبراهيم إبراهيم كأنه وقع فى نفس النبيّ صلى اللّه عليه و سلم منه شىء حتى جاءه جبريل، فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم، و يقال: إن المقوقس بعث معها بخصىّ كان يأوى إليها، و قيل: إن المقوقس أهدى لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم جوارى منهنّ أمّ إبراهيم و واحدة وهبها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لأبى جهم بن حذيفة و واحدة و هبها لحسان بن ثابت فولدت مارية لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إبراهيم. و كان أحب الناس إليه حتى مات فوجد به و كان سنه يوم مات ستة عشر شهرا، و كانت البغلة و الحمار أحب دوابه إليه و سمى البغلة الدلدل، و سمى الحمار يعفورا، و أعجبه العسل، فدعا فى عسل بنها بالبركة، و بقيت تلك الثياب حتى كفن فى بعضها صلى اللّه عليه و سلم، و كان اسم أخت مارية قيصر، و قيل: بل كان اسمها سيرين، و قيل: حمنة.

و كلم الحسن بن علىّ معاوية بن أبى سفيان فى أن يضع الجزية عن جميع قرية أمّ إبراهيم لحرمتها ففعل، و وضع الخراج عنهم فلم يكن على أحد منهم خراج، و كان جميع أهل القرية من أهلها و أقربائها فانقطعوا. و يروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أنه قال: «لو بقى إبراهيم ما تركت قبطيا إلا وضعت عنه الجزية»، و ماتت مارية فى محرّم سنة خمس عشرة بالمدينة.

و قال ابن وهب: أخبرنى يحيى بن أيوب، و ابن لهيعة عن عقيل عن الزهرىّ عن يعقوب بن عبد اللّه بن المغيرة بن الأخفش عن ابن عمر: أن النبيّ صلى اللّه عليه و سلم قال: «دخل إبليس العراق فقضى حاجته منها، ثم دخل الشام فطردوه حتى دخل جبل شاق، ثم دخل مصر فباض فيها و فرّخ و بسط عبقريه» حديث صحيح غريب، و قد عاب بعضهم مصر فقال:

محاسنها مجلوبة إليها حتى العناصر الأربعة؛ الماء و هو فى النيل مجلوب من الجنوب، و التراب مجلوب فى حمل الماء، و إلا فهى رمل

محض لا تنبت الزرع، و النار لا يوجد بها شجرها، و الهواء لا يهب بها إلا من أحد البحرين، إما من الروميّ، و إما من القلزم، و قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۸

زاد هـذا فى تحامله. و قال كعب الأحبار: الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية، و مصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة و الكوفة آمنة من الخراب حتى تكون الملحمة.

ذكر العجائب التى كانت بمصر من الطلسمات و البرابى و نحو ذلك

ذكر فى كتاب عجائب الحكايات و غرائب الماجزيات أنه كان بمصر حجر من جمع كفيه عليه تقيأ جميع ما فى جوده. قال القضاعى: ذكر الجاحظ و غيره: أنّ عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة منها بسائر الدنيا عشر أعجوبات، و هى مسجد دمشق، و كنيسة الرّها، و قنطرة سنجر، و قصر غمدان، و كنيسة رومية، و صنم الزيتون، و إيوان كسرى بالمدائن، و بيت الريح بتدمر، و الخورنق، و السدير بالحيرة، و الثلاثة الأحجار ببعلبك، و ذكر أنها بيت المشترى و الزهرة، و أنه كان لكل كوكب من السبعة بيت فيها، فتهدّمت.

(و منها بمصر عشرون أعجوبة) فمن ذلك الهرمان، و هما أطول بناء و أعجبه ليس على وجه الدنيا بناء باليد حجر على حجر أطول منهما، و إذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان، و لذلك قال بعض من رآهما: ليس من شىء إلا و أنا أرحمه من الدهر إلا الهرمين فإنى لأرحم الدهر منهما.

و من ذلك صنم الهرمين، و هو بلهوية و يقال بلهيت و يقال: إنه طلسم للرمل لئلا يغلب على إبليز الجيزة.

و من ذلك بربا سمنود، و هو من أعاجيبها و ذكر عن أبى عمرو الكندىّ أنه قال: رأيته و قد خزن فيه بعض عمالها قرظا فرأيت الجمل إذا دناه من بابه بحمله و أراد أن يدخله سقط كل دبيب فى القرظ لم يدخل منه شىء إلى البربا، ثم خرب عند الخمسين و الثلاثمائة.

و من ذلك: بربا اخميم عجب من العجائب بما فيه من الصور، و أعاجيب و صور الملوك الذين يملكون مصر، و كان ذو النون الإخميمى يقرأ البرابى، فرأى فيها حكما عظيمة فأفسد أكثرها.

و من ذلك بربا دندره، و هو بربا عجيب فيه ثمانون و مائة كوّة تدخل الشمس كل يوم من كوّة منها، ثم الثانية حتى تنتهى إلى آخرها، ثم تكرّر راجعة إلى موضع بدائها.

و من ذلك حائط العجوز من العريش إلى أسوان يحيط بأرض مصر شرقا و غربا.

و من ذلك الإسكندرية و ما فيها من العجائب فمن عجائبها المنارة، و السوارى، و المعلب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة، ثم يرمون بكرة فلا تقع فى حجر أحد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۹

إلا ملك مصر، و حضر عيدا من أعيادهم عمرو بن العاص، فوقعت الكرة فى حجره فملك البلد بعد ذلك فى الإسلام، ثم يحضر هذا الملعب ألف ألف من الناس فلا يكون فيهم أحد إلا و هو ينظر فى وجه صاحبه، ثم إن قرىء كتاب سمعوه جميعا أو لعب نوع من أنواع اللعب رأوه عن آخرهم لا يتطاولون فيه بأكثر من المراتب العلية و السفلية.

و من عجائبها: المسلتان و هما: جبلان قائمان على سرطانات نجاس فى أركانها كل ركن على سرطان، فلو أراد مريد أن يدخل تحتها شيئا حتى يعبره من جانبه الآخر لفعل.

و من عجائبها: عمودا الأعيا، و هما عمودان ملقيان وراء كل عمود منهما جبل حصبا كصبر الجمار بمنى يقبل المعنى التعب النصب بسبع حصيات حتى يلتقى على أحدهما، ثم يرمى وراءه السبع، و يقوم و لا يلتفت و يمضى لطيته فكأنما يحمل حملا لا يحس بشىء من تعبه.

و من عجائبها: القبة الخضراء و هى: أعجب قبة ملبسة نحاسا كأنه الذهب الإبريز لا يبليه القدم و لا يخلقه الدهر.

و من عجائبها: منية عقبة و قصر فارس و كنيسة أسفل الأرض، ثم هى مدينة على مدينة ليس على وجه الأرض مدينة بهذه الصفة سواها، و يقال: إنها إرم ذات العماد؛ سميت بذلك لأن عمدها و رخامها من البدنجنا و الاصطنيدس المخطط طولا و عرضا.

و من عجائب مصر أيضا: الجبال التى هى بصعيدها على نيلها و هى ثلاثة أجبل؛ فمنها جبل الكهف، و يقال: الكف، و منها الطبلمون، و منها جبل زماجيز الساحرة. يقال: إن فيه حلقة من الجبل ظاهرة مشرفة على النيل لا يصل إليها أحد يلوح فيها خط مخلوق باسمك اللهم.

و من عجائبها: شعب البوقيرات بناحية اشمون من أرض الصعيد، و هو شعب فى جبل فيه صدع تأتيه البوقيرات فى يوم من السنة كان معروفا فتعرض أنفسها على الصدع فكلما أدخل بوقير منها منقاره فى الصدع مضى لسبيله، فلا يزال يفعل ذلك حتى يلتقى الصدع على بوقير منها، فتحبسه و تمضى كلها و لا يزال ذلك الذى يحبسه متعلقا حتى يتساقط و يتلاشى.

و من عجائبها: عين شمس و هى هيكل الشمس و بها العمودان اللذان لم ير أعجب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۶۰

منهما، و لا من شأنهما. طولهما فى السماء نحو من خمسين ذراعا، و هما محمولان على وجه الأرض و فيهما صورة إنسان على دابة، و على رأسهما شبه الصومعتين من نحاس، فإذا جاء النيل قطر من رأسهما ماء و تستبينه و تراه منهما واضحا ينبع حتى يجرى فى أسفلهما فينبت فى أصلهما العوسج، و غيره، و إذا حلت الشمس دقيقة من الجدى و هو أقصر يوم فى السنة انتهت إلى الجنوبىّ منها فطلعت عليه على قمة رأسه و هى منتهى الميلين، و خط الاستواء فى الواسطة منهما، ثم خطرت بينهما ذاهبة و جاثية سائر السنة كذا يقول أهل العلم بذلك.

و من عجائبها: منف، و عجائبها و أصنامها و أبنيتها و دفائنها و كنوزها، و ما يذكر فيها أكثر من أن يحصى من آثار الملوك و الحكماء، و الأنبياء لا يدفع ذلك.

و من عجائبها: الفرما و هى أكثر عجائبا و أكثر آثارا.

و من عجائبها: الفيوم.

و من عجائبها: نيلها. و من عجائبها: الحجر المعروف بحجر الخل يطفو على الخل، و يسبح فيه كأنه سمكة و كان يوجد بها حجر، إذا أمسكه الإنسان بكلتا يديه تقيأ كل شىء فى بطنه، و كان بها خرزة، تجعلها المرأة على حقوها فلا تحبل و كان بها حجر؛ يوضع على حرف التنور فيتساقط خبزه، و كان يوجد بصعيدها حجارة رخوة تكسر فتتقد كالمصابيح.

و من عجائبها: حوض كان بدلالات تدور من حجارة يركب فيها الواحد و الأربعة، و يحرّكون الماء بشىء فيعبرون من جانب إلى جانب لا يعلم من عمله، فأخذه كافور الإخشيدىّ إلى مصر فنظر إليه، ثم أخرج من الماء فألقى فى البرّ و كان فى أسفله كتابة لا يدرى ما هى ثم بطل.

و من عجائبها: أن بصعيدها ضيعة تعرف بدشنى، فيها سنطة إذا تهدّدت بالقطع تدبل، و تجتمع و تضمر فيقال لها: قد عفونا عنك، و تركناك فتتراجع، و المشهور و هو الموجود الآن سنطة فى الصعيد إذا نزلت اليد عليها دبلت، و إذا رفعت عنها تراجعت و قد حملت إلى مصر، و شوهدت. و بها نوع من الخشب يرسب فى الماء كالأبنوس و بها الخشب السنط الذى يوقد منه القدر الكثير فى الزمن الطويل فلا يوجد له رماد.

و ذكر ابن نصر المصرى: أنه كان على باب القصر الكبير الذى يقال له باب الريحان عند الكنيسة المعلقة صنم من نحاس على خلقة الجمل، و عليه رجل راكب عليه عمامة منتكب قوسا عربية، و فى رجليه نعلان كانت الروم و القبط و غيرهم إذا تظالموا بينهم، و اعتدى بعضهم على بعض تجاروا إليه حتى يقفوا بين يدى ذلك الجمل، فيقول المظلوم للظالم: انصفنى قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل، فيأخذ الحق لى منك شئت أم أبيت يعنون بالراكب النبىّ محمدا صلى اللّه عليه و سلم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۶۱

فلما قدم عمرو بن العاص غيبت الروم ذلك الجمل لئلا يكون شاهدا عليهم. قال ابن لهيعة: بلغنى أن تلك الصورة فى ذلك الموضع قد أتى الآن عليها سنين لا يدرى من عملها.

قال القضاعىّ: فهذه عشرون أعجوبة من جملتها ما يتضمن عدّة عجائب، فلو بسطت لجاء منها عدد كثير، و يقال: ليس من بلد فيه شىء غريب إلا و فى مصر مثله أو شبيه به. ثم تفضل مصر على البلدان بعجائبها التى ليست فى بلد سواها.

و فى كتاب تحفة الألباب: أنه كان بمصر بيت تحت الأرض فيه رهبان من النصارى، و فى البيت سرير صغير من خشب تحت صبىّ ميت ملفوف فى نطع أديم مشدود بحبل، و على السرير مثل الباطية فيها أنبوب من نحاس فيه فتيل إذا اشتعل الفتيل بالنار و صار سراجا خرج من ذلك الأنبوب الزيت الصافى الحسن الفائق حتى تمتلىء تلك الباطية، و ينطفى السراج بكثرة الزيت فإذا انطفأ لم يخرج من الدهن شىء، فإذا خرج الصبى الميت من تحت السرير لم يخرج من الزيت شىء و الباطية يريقها الإنسان فلا يرى تحتها شيئا، و لا موضعا فيه ثقب، و أولئك الرهبان يتعيشون من ذلك الزيت يشتريه الناس منهم فينتفعون به.

و قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: عديم الملك ابن تقطريم كان جبارا لا يطاق عظيم الخلق، فأمر بقطع الصخور ليعمل هرما كما عمل الأوّلون، و كان فى وقته الملكان اللذان أهبطا من السماء، و كانا فى بئر يقال له افتارة، و كانا يعلمان أهل مصر السحر.

و كان يقال: إن الملك عديم بن البودشير استكثر من علمهما، ثم انتقلا إلى بابل، و أهل مصر من القبط يقولون: إنهم شيطانان يقال لهما: مهلة و بهالة، و ليس هما الملكين و الملكان ببابل فى بئر هناك يغشاها السحرة إلى أن تقوم الساعة. و من ذلك الوقت عبدت الأصنام و قال قوم: كان الشيطان يظهر و ينصبها لهم. و قال قوم: أوّل من نصبها بدوره و أوّل صنم أقامه صنم الشمس، و قال آخرون: بل النمرود الأوّل أمر الملوك بنصبها، و عبادتها و عديم أول من صلب، و ذلك أن امرأة زنت برجل من أهل الصناعات، و كان لها زوج من أصحاب الملك، فأمر بصلبهما على منارين، و جعل ظهر كل واحد منهما إلى ظهر الآخر و زبر على المنارين اسمهما و ما فعلاه، و تاريخ الوقت الذى عمل ذلك بهما فيه، فانتهى الناس عن الزنى و بنى أربع مداين، و أودعها صنوفا كثيرة من عجائب الأعمال و الطلسمات، و كنز فيها كنوزا كثيرة و عمل فى الشرق منارا و أقام على رأسه صنما موجها إلى الشرق مادّا يديه يمنع دواب البحر و الرمال أن تتجاوز حدّه، و زبر فى صدره تاريخ الوقت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۶۲

الذى نصبه فيه و يقال: إن هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا. و لولا هذا لغلب الماء الملح من البحر الشرقىّ على أرض مصر و عمل على النيل قنطرة فى أول بلد النوبة، و نصب عليها أربعة أصنام موجهة إلى أربع جهات الدنيا فى يدى كل واحد من الأصنام حربتان يضرب بهما إذا أتاهم آت من تلك الجهة فلم تزل بحالها إلى أن هدمها فرعون موسى عليه السلام، و عمل البربا على باب النوبة، و هو هناك إلى وقتنا هذا، و عمل فى إحدى المدائن الأربع التى ذكرناها حوضا من صوّان أسود مملوء ماء لا ينقص طول الدهر، و لا يتغيّر ماؤه لأنه اجتلب إليه من رطوبة الهواء، و كان أهل تلك الناحية، و أهل تلك المدينة يشربون منه و لا ينقص ماؤه، و عمل ذلك لبعدهم عن النيل.

و ذكر بعض كهنة القبط أن ذلك الماء ثم لقربه من البحر الملح فإن الشمس ترفع بحرّها بخار البحر فينحصر من ذلك البخار جزء بالهندسة، أو بالسحر، و تجعله ينحط ذلك فى ذلك الموضع بالجوهر مثل الظل، و تمدّه بالهواء فلا ينقص بذلك ماؤه على الدهر، و لو شرب منه العالم و عمل قدحا لطيفا على مثل هذا العمل، و أهداه حوميل الملك إلى إسكندر اليونانى و ملكهم عديم مائة و أربعين سنة، و مات و هو ابن سبعمائة و ثلاثين سنة، و دفن فى إحدى المدائن ذات العجائب و قيل: فى صحراء قفط.

و ذكر بعض القبط أن ناووس عديم عمل فى صحراء قفط على وجه الأرض تحت قبة عظيمة من زجاج أخضر برّاق معقود على رأسها كرة من ذهب عليها طائر من ذهب موشح بجوهر منشور الجناحين يمنع من الدخول إلى القبة، و كان قطرهما مائة ذراع فى مثلها و

جعل جسده فی وسطها علی سریر من ذهب مشبک، و هو مکشوف الوجه، و علیه ثیاب منسوجة بالذهب المغروز بالجوهر المنظوم، و طول القبة أربعون ذراعا، و جعل فی القبة مائة و سبعین مصحفا من مصاحف الحکمة و سبع موائد بأوانیها. منها مائدة من درّ رمانی أحمر و أوانیها منها و مائدة من ذهب قلمونی أوانیها منها، و مائدة من حجر الشمس المضیء بآنیتها و هو الزبرجد الذی إذا نظرت إلیه الأفاعی سالت أعینها و مادة من کبریت أحمر مدبر بآنیتها، و مائدة من ملح أبیض مدبر برّاق بآنیتها و مائدة من زئبق معقود و جعل فی القبة جواهر کثیرة و برابی صنعة مدبرة، و حوله سبعة أسیاف، و أتراس من حدید أبیض مدبر، و تماثیل أفراس من ذهب علیها سروج من ذهب، و سبعة توابیت من دنانیر علیها صورته، و جعل معه من أصناف العقاقیر و السمومات و الأدویة فی برابی من حجارة، و قد ذکر من رأی هذه القبة أنهم أقاموا أیاما فما قدروا علی الوصول إلیها و أنهم إذا قصدوها، و کانوا منها علی ثمانیة أذرع دارت القبة عن أیمانهم أو عن شمائلهم.

و من أعجب ما ذکروه أنهم کانوا یحاذون آزاجها أزجا أزجا فلا یرون غیر الصورة

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۱، ص: ۶۳

التی یرونها من الأزج الآخر علی معنی واحد. و ذکروا أنهم رأوا وجه الملک قدر ذراع و نصف بالکبیر و لحیته کبیرة مکشوفة، و قدّروا طول بدنه عشرة أذرع و زیادة، و ذکر هؤلاء الذین رأوها أنهم خرجوا لحاجة، فوجدوها اتفاقا. و أنهم سألوا أهل قفط عنها فلم یجدوا أحدا یعرفها سوی شیخ منهم.

و أوصی عدیم الملک ابنه شداب بن عدیم أن ینصب فی کل حیز من أحیاز ولایته منارا، و یزبر علیه اسمه فانحدر إلی الأشمونین، و عمل مناراتها و زبر علیها اسمه، و عمل بها ملاعب و عمل فی صحرائها منارا أقام علیه صنما برأسین علی اسم کوکبین کانا مقترنین فی الوقت الذی خرج فیه إلی اتریب و بنی فیها قبة عظیمة مرتفعة علی عمد و أساطین بعضها فوق بعض، و علی رأسها صنما صغیرا من ذهب، و عمل هیکلا للکواکب، و مضی إلی حیز صا فعمل فیه منارا علی رأسه مرآة من أخلاط توری الأقالیم، و رجع و عمل شداب بن عدیم هیکل ارمنت. و أقام فیه أصناما بأسماء الکواکب من جمیع المعادن و زینه بأحسن الزینة، و نقشه بالجواهر و الزجاج الملوّن و کساه الوشی و الدیباج، و عمل فی المدائن الداخلة من أنصنا هیکلا و أقام فیه باتریب، و هیکلا شرقیّ الإسکندریة، و أقام صنما من صوّان أسود باسم زحل علی عبرة النیل من الجانب الغربیّ و بنی فی الجانب الشرقیّ مداین فی إحداها صورة صنم قائم، و له إحلیل إذا أتاه المعقود و المسحور و من لا ینتشر ذکره فمسحه بکلتی یدیه انتشر ذکره، و قوی علی الباه و فی إحداها بقرة، لها ضرعان کبیران إذا انعقد لبن امرأة أتتها و مسحتها بیدیها فإنه یدر لبنها، و جمع التماسیح بطلسم عمله بناحیة أسیوط، فکانت تنصب من النیل إلی اخمیم انصبابا فیقتلها و یستعملها جلودا فی السفن و غیرها.

و عمل منقاوس الملک بیتا تدور به تماثیل بجمیع العلل، و کتب علی رأس کل تمثال ما یصلح من العلاج، فانتفع الناس بها زمانا إلی أن أفسدها بعض الملوک و عمل صورة امرأة مبتسمة لا یراها مهموم إلا زال همه و نسیه فکان الناس یتناوبونها، و یطوفون حولها ثم عبدوها من جملة ما عبدوه بعد ذلک.

و عمل تمثالا من صفر مذهب بجناحین لا یمرّ به زان و لا زانیة إلا کشف عورته بیده، و کان الناس یمتحنون به الزناة فامتنعوا من الزنا فرقا منه. فلما ملک کلکن عشقت حظیة عنده رجلا من خدمه، و خافت أن تمتحن بذلک الصنم. فأخذت فی ذکر الزوانی مع الملک و أکثرت من سبهنّ و ذمّهنّ فذکر کلکن ذلک الصنم، و ما فیه من المنافع. فقالت: صدق الملک غیر أن منقاوس لم یصب فی أمره لأنه أتعب نفسه و حکماءه فیما جعله لإصلاح العامة دون نفسه، و کان حکم هذا أن ینصب فی دار الملک حیث یکون نساؤه و جواریه فإن اقترفت إحداهنّ ذنبا علم بها فیکون رادعا لهنّ متی عرض بقلوبهنّ شیء من الشهوة فقال:

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۱، ص: ۶۴

کلکن صدقت، و ظنّ أن هذا منها نصح، فأمر بنزع الصنم من موضعه و نقله إلی داره، فبطل عمله و عملت المرأة ما کانت همت به.

و بنى هيكلا على جبل القصير للسحرة، فكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب المقلعة إلا بضريبة يأخذونها منهم للملك.

و بنى مناوس بن منقاوس فى صحراء الغرب مدينة بالقرب من مدينة السحرة تعرف:

بقنطرة ذات عجائب، و جعل بوسطها قبة عليها كالسحابة تمطر شتاء و صيفا مطرا خفيفا، و تحت القبة مطهرة فيها ماء أخضر يداوى به من كل داء فيبريه، و عمل فى شرقيها بربا لطيفا له أربعة أبواب لكل باب عضادتان فى كل عضادة صورة وجه يخاطب كل واحد منهما صاحبه بما يحدث فى يومه فمن دخل البربا على غير طهارة نفخا فى وجهه فأصابه رعدة فظيعة لا تفارقه حتى يموت. و كانوا يقولون: إن فى وسطه مهبط النور فى صورة العمود من اعتنقه لم يحتجب عن نظره شىء من الروحانية و سمع كلامهم، و رأى ما يعملون، و على كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب فى يده مصحف فيه علم من العلوم. فمن أحب معرفة ذلك العلم أتى تلك الصورة، فمسحها بيديه و أمرّهما على صدره فيثبت ذلك العلم فى صدره. و يقال: إن هاتين المدينتين بنيتا على اسم هرمس، و هو عطارد و أنهما بحالهما (و حكى عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان، و هو أمير مصر، فعرّفه أنه تاه فى صحراء الشرق، فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صنف من الفاكهة، و أنه أكل منها و تزوّد فقال له رجل من القبط: هذه إحدى مدينتى هرمس، و فيها كنوز كثيرة فوجه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء و زاد، فأقاموا يطوفون تلك الصحارى شهرا فلم يقفوا لها على أثر.

و عملت أم ميلاطس الملك بركة عظيمة فى صحراء الغرب، و جعلت فى وسطها عمودا طوله ثلاثون ذراعا، و فى أعلاه قصعة من حجارة يفور منها الماء فلا ينقص أبدا.

و جعلت حول البركة أصناما من حجارة ملونة على صور الحيوانات من الوحش، و الطير و البهائم، فكان كل جنس يأتى إلى صورته و يألفها فيؤخذ باليد و ينتفع به.

و عملت لابنها منتزها لأنه كان يحب الصيد، فجعلت فيه مجالس مركبة على أساطين من مرمر مصفّح بالذهب مرصع بالجوهر، و الزجاج الملوّن و زخرفته بالتصاوير العجيبة، و النقوش فكان الماء يطلع من فوّارات و ينصب إلى أنهار قد صفحت بالفضة تجرى إلى حدائق فيها بديع الفروشات، و قد أقيم حولها تماثيل تصفر بأنواع اللغات، و أرخت على المجلس ستورا من ديباج، و اختارت لابنها من حسان بنات عمه و بنات الملوك و زوجته و حولته إلى هذه الجنة و بنت حول الجنة مجالس للوزراء، و الكهنة، و أشراف أهل الصناعات، فكانوا يرفعون إليه جميع ما يعملونه، فإذا فرغوا من أعمالهم حمل إليهم الطعام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۶۵

و الشراب، و كان ميلاطس تقلد الملك بعد أبيه مرقوه و هو صبىّ و كانت أمه مدبرة الملك، و هى حازمة مجرّبة فأجرت الأمور على ما كانت عليه فى حياة أبيه و أحسنت و عدلت فى الرعية و وضعت عنهم بعض الخراج، و كانت أيامه سعيدة كلها فى الخصب الكثير و السعة للناس و العدل، و كان له يوم يخرج فيه إلى الصيد، و يرجع إلى جنته فيأمر لكل من معه بالجوائز و الأطعمة و يجلس للنظر يوما فى مصالح الناس و قضاء حوائجهم و يخلو يوما بنسائه. و كان ملكه ثلاث عشرة سنة، و جدّر فمات.

و عمل فرسون بن قيلمون بن أتريب منارا على بحر القلزم، و على رأسه مرآة تجتذب بها المراكب إلى شاطىء البحر فلا يمكنها أن تبرح إلا أن تعشر فإذا عشرت سترت المرآة حتى تجوز المراكب، و أقام فرسون مائتى سنة و ستين سنة؛ و عمل لنفسه ناووسا خلف الجبل الأسود الشرقى فى وسطه قبة حولها اثنا عشر بيتا فى كل بيت أعجوبة لا تشبه الأخرى، و زبر عليها اسمه و مدة ملكه.

وكا مرقونس الملك حكيما محبا للنجوم، و العلوم و الحكمة، فعمل فى أيامه درهما إذا ابتاع به صاحبه شيئا اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم، و لا يطلب عليه زيادة فيغترّ البائع بذلك و يقبل الشرط فإذا تم ذلك بينهما وقع فى وزن الدرهم أرطال كثيرة تساوى عشرة أضعافه، و كان إذا أحب أن يدخل فى وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل، و قد وجد هذا الدرهم فى كنوزهم ثم فى خزائن بنى أمية و كان الناس يتعجبون منه و وجدوا دراهم أخر، قيل: إنها عملت فى وقته أيضا فيكون الدرهم منها فى ميزان الرجل فإذا أراد أن يبتاع حاجة أخذ ذلك الدرهم، و قبله و قال: اذكر العهد و ابتاع به ما أراد فإذا أخذ السلعة و مضى إلى بيته وجد الدرهم

قد سبقه إلى منزله، و يجد البائع موضع ذلك الدرهم، ورقة آس أو قرطاسا أو مثل ذلك بدور الدرهم، و فى وقته عملت الآنية الزجاج التى توزن فإذا ملئت ماء أو غيره، ثم وزنت لم تزد عن وزنها الأوّل شيئا و عمل فى وقته الآنية التى إذا جعل فيها الماء صار خمرا فى لونه و رائحته و فعله، و قد وجد من هذه الآنية باطفيح فى أمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون شربة جزع بعروة زرقاء ببياض، و كان الذى وجدها أبو الحسن الصائغ الخراسانى هو و نفر معه، فأكلوا على شاطىء النيل و شربوا بها الماء فوجدوه خمرا سكروا منه و قاموا ليرقصوا فوقعت الشربة، فانكسرت عدّة قطع؛ فاغتم الرجل و جاء بها إلى هارون فأسف عليها، و قال: لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكى.

و أما الآنية النحاسية التى تجعل الماء خمرا، فإنها منسوبة إلى قلوبطرة بنت بطليموس ملكة الإسكندرية فكثير، و فى وقته عملت الصور الحيثمية من الضفادع و الخنافس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۶۶

و الذباب و العقارب و سائر الحشرات، و كانت إذا جعلت فى موضع اجتمع إليها ذلك الجنس، و لا يقدر على مفارقة تلك الصورة حتى يقتل، و كأنه يعمل أعماله كلها بصور درج الفلك و أسمائها، و طوالعها فيتم له من ذلك ما يريده.

و عمل فى صحراء الغرب ملعبا من زجاج ملوّن فى وسطه قبة من زجاج أخضر صافى اللون. فإذا طلعت عليه الشمس ألقت شعاعها على مواضع بعيدة و عمل فى جوانبه الأربعة أربعة مجالس عالية من زجاج كل مجلس لون و نقش عليها بغير لونها طلسمات عجيبة، و نقوشات غريبة و صورا بديعة كل ذلك من زجاج مطلق يشف، و كان يقيم فى هذا الملعب الأيام و عمل له ثلاثة أعياد فى كل سنة. فكان الناس يحجون إليه فى كل عيد و يذبحون له و يقيمون فيه سبعة أيام، و لم يزل هذا الملعب تقصده الأمم فإنه لم يكن له نظير، و لا عمل فى العالم مثله إلى أن هدمه بعض الملوك لعجزه عن عمل مثله.

و كانت أم مرقونس ابنة ملك النوبة و كان أبوها يعبد الكوكب الذى يقال له السها و يسميه إلها. سألت ابنها أن يعمل لها هيكلا يفردها به، فعمله و صفحه بالذهب و الفضة، و أقام فيه صنما و أرخى عليه الستور الحرير، فكانت تدخل إليه بجواريها و حشمها و تسجد له فى كل يوم ثلاث مرّات، و عملت لكل شهر عيدا تقرّب له قرابين و تبخره ليله و نهاره، و نصبت له كاهنا من النوبة يقوم به و يقرّب له و يبخره، و لم تزل بابنها حتى سجد له، و دعى إلى عبادته. فلما رأى الكاهن الأمر فى عبادة الكواكب قد تم و أحكم من جهة الملك أحب أن يكون لكوكب السّها مثالا فى الأرض على صورة حيوان يتعبد له، فأقام بعمل الحيلة فى ذلك إلى أن اتفق أن العقبان كثرت بمصر، و أضرّت بالناس فأحضر الملك هذا الكاهن و سأله عن سبب كثرتها، فقال: إن إلهك أرسلها لتعمل لها نظيرا ليسجد له.

فقال مرقونس: إن كان يرضيه ذلك، فأنا فاعله. فقال: إن ذلك رضاه، فأمر بعمل عقاب طوله ذراعان فى عرض ذراع من ذهب مسبوك و عمل عينيه من ياقوتتين، و عمل له و شاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر أخضر، و فى منقاره درة معلقة و سرو له بالدرّ الأحمر، و أقامه على قاعدة من فضة منقوشة قد ركبت على قائمة زجاج أزرق، و جعله فى أزج عن يمين الهيكل، و ألقى عليه ستور الحرير و جعل له دخنة من جميع الأفاويه و الصموغ و قرّب له عجلا أسود، و بكارة الفراريج، و باكورة الفواكه و الرياحين. فلما تمت له سبعة أيام دعاهم إلى السجود إليه؛ فأجابه الناس، و لم يزل الكاهن يجهد نفسه فى عبادة العقاب و عمل له عيدا. فلما تم لذلك أربعون يوما نطق الشيطان من جوفه. و كان أوّل ما دعاهم إليه أن ينجز له فى إنصاف الشهور بالمندل، و يرش الهيكل بالخمر العتيقة التى تؤخذ من رؤوس الخوابى، و عرّفهم أنه قد أزال عنهم العقبان و ضررها، و كذلك يفعل فى غيرها مما يخافون. فسرّ الكاهن بذلك، و توجه إلى أمّ الملك يعرّفها ذلك، فسارت إلى الهيكل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۶۷

و سمعت كلام العقاب فسرّها ذلك و أعظمته. و بلغ الملك فركب إلى الهيكل حتى خاطبه و أمره و نهاه فسجد له، و أقام له سدنة و

أمر أن يزين بأصناف الزينة، و كان مرقونس يقوم بهذا الهيكل و يسجد لتلك الصورة، و يسألها عما يريد فتخبره. و عمل من الكيمياء ما لم يعمله أحد من الملوك فيقال: إنه دفن في صحراء الغرب خمسمائة دفين؛ و يقال: إنه عمل على باب مدينة صا عمودا عليه صنم في صورة امرأة جالسة و في يدها مرآة تنظر إليها، و كان العليل يأتي إلى هذه المرأة و ينظر فيها أو ينظر له أحد فيها فإن كان يموت من علته تلك رؤى ميّتا و إن كان يعيش رآه حيا، و ينظر فيها أيضا للمسافر فإن رأوه مقبلا بوجهه علموا أنه راجع، و إن رأوه موليا علموا أنه يتمادى في سفره، و إن كان مريضا أو ميتا رأوه كذلك في المرآة.

و عمل بالإسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة و على رأسه كالبرنس و في يده كالعكاز فإذا مرّ به تاجر جعل بين يديه شيئا من المال على قدر بضاعته فإن تجاوزه و لو عن بعد من غير أن يضع بين يديه المال لم يقدر على الجواز و ثبت قائما مكانه فكان يجتمع من ذلك مال عظيم يفرّق في الزمنى، و الضعفاء و الفقراء.

و عمل في زمنه كل أعجوبة ظريفة و أمر أن يزبر اسمه عليها و على كل علم و كل طلسم و كل صنم.

و عمل لنفسه ناووسا في داخل الأرض عند جبل يقال له: سدام و عمل تحته أزجا يقال: إن طوله مائة ذراع و ارتفاعه ثلاثون ذراعا و عرضه عشرون ذراعا، و صفحه بالمرمر، و الزجاج الملوّن و سقفه بالحجارة، و عمل فيها دائرة مساطب مبلطة بزجاج على كل مسطبة أعجوبة و في وسط الأزج دكة من زجاج على كل ركن من أركانها صورة تمنع الدنوّ إليها و بين كل صورتين منارة عليها حجر مضيء و في وسط الدكة حوض من ذهب فيه جسده بعدما ضمده بالأدوية الماسكة، و نقل إليه ذخائره من الذهب و الجوهر و غيره، و سدّ باب الأزج بالصخور و الرصاص، و هيل عليها الرمال و كان ملكه ثلاثا و سبعين سنة و عمره مائتين و أربعين سنة، و كان جميلا ذا وفرة حسنة، فتنسكت نساؤه و لزمن الهيكل من بعده. و ملك بعده ابنه إيساد، ثم صا بن إيساد. و قيل: صا بن مرقونس أخو إيساد فعمل مرآة في مدينة منف ترى الأوقات التي تخصب فيها مصر و تجدب و بنى بداخل الواحات مدينة، و نصب قرب البحر أعلاما كثيرة.

و عمل خلف المقطم صنما يقال له: صنم الحيلة، فكان كل من تعذر عليه أمر يأتيه و يبخره فيتيسر ذلك الأمر له، و جعل بحافة البحر الملح منارا يعلم منه أمر البحر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۶۸

و ما يحدث فيه من أقصى ما يصل إليه البصر على مسيرة أيام. و هو أوّل من اتخذها و يقال:

إنه بنى أكثر مدينة منف و كل بنيان عظيم بالإسكندرية.

و لما ملك بدارس بن صا الأحياز كلها بعد أبيه، و صفا له ملك مصر بنى في غربى مدينة منف بيتا عظيما لكوكب الزهرة، و أقام فيه صنما عظيما من لازورد مذهب، و توجّه بذهب يلوح بزرقة و سوّره بسوارين من زبرجد أخضر، و كان الصنم في صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبر. و في رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف، و نعلان من ذهب و بيدها قضيب مرجان، و هي تشير بسبابتها كأنها مسلمة على من في الهيكل، و جعل بحذائها تمثال بقرة ذات قرنين، و ضرعين من نحاس أحمر مموّه بذهب موشحة بحجر اللازورد، و وجّه البقرة تجاه وجه الزهرة، و بينهما مطهرة من أخلاط الأجساد على عمود رخام مجزع، و في المطهرة ماء مدبر يستنشق به من كل داء و فرش الهيكل بحشيشة الزهرة يبدلونها في كل سبعة أيام، و جعل في الهيكل كراسي للكهنة قد صفحت بالذهب و الفضة، و قرّب لهذا الصنم ألف رأس من الضأن و المعز و الوحش و الطير، و كان يحضر يوم الزهرة و يطوف به و فرش الهيكل و ستره، و جعل فيه تحت قبة صورة رجل راكب على فرس له جناحان و معه حربة في سنانها رأس إنسان معلق.

و لم يزل هذا الهيكل إلى أن هدمه بخت نصر في أيام ماليق بن تدارس، و كان موحدا على دين قبطيم و مصرايم خرج في جيش عظيم في البر و البحر فغزا البربر، و أرض إفريقية، و بلاد الأندلس و أرض الإفرنج إلى البحر، و عمل في البحر أعلا ما زبر عليها اسمه و مسيره، و رجع فهابه ملوك الأرض و كان في غربى مصر مدينة يقال لها: قرميدة بها قوم قد ملكوا عليهم امرأة ساحرة فغزاهم، فلم

ينل منهم قصدا، و رجع فأرادت ملكتهم إفساد مصر، فعملت من سحرها و أمرت، فألقى فى النيل ففاض الماء على المزارع حتى أفسدها و كثرت التماسيح و الضفادع، و فشت الأمراض فى الناس، و انبثت فيهم الثعابين و العقارب، فأحضر مالیق الكهنة و الحكماء فى دار حكمتهم و ألزمهم بالنظر لذلك. فنظروا فى نجومهم فرأوا أن هذه الآفة أتتهم من ناحية الغرب، و إنّ امرأة عملته و ألقته فى النيل، فعلموا حينئذ أنه من فعل تلك الساحرة، و اجتهدوا فى دفع ذلك بما عندهم من العلم حتى انكشف عنهم الماء الفاسد، و هلكت الدواب المضرة و جهزوا قائدا فى جيش إلى المدينة فلم يجدوا بها غير رجل واحد فأخذوا من الأموال و الجواهر و الأصنام ما لا يحصى.

فمن ذلك صورة كاهن من زبرجد أخضر على قائمة من حجر الأسباديم، و صورة روحانىّ من ذهب رأسه من جوهر أحمر، و له جناحان من دور فى يده مصحف فيه كثير من علومهم فى دفتين مرصعتين بجوهر، و مطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة زجاج أخضر فيها ماء لدفع الأسقام، و فرس من فضة إذا عزم عليه بعزائمه و دخن بدخنته و ركبه أحد طار به

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۶۹

فأحضر ذلك و غيره من عجائب السحرة و أصنامهم و الأموال و الجواهر إلى مصر، و معهم الرجل، فسأله الملك عن أعجب أعمالهم قال: قصدهم بعض ملوك البربر بجمع كثيف، و تخاييل هائلة. فأغلق أهل مدينتنا حصنهم و لجوا إلى الأصنام، فأتى الكاهن إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها، فجلس على حافتها و أحاط رؤساء الكهنة بها. و أخذ يزمزم على الماء حتى فار و خرج من وسطه نار فى وسطها وجه كدارة الشمس لها ضوء فخرّ الجماعة لها سجودا، و تلك الصورة تعظم حتى صعدت و خرقت القبة، و سمع منها قد كفيتم شرّ عدوّكم، فقاموا و إذا بعدوّهم قد هلك و سائر من معه و ذلك أن صورة الشمس التى ظهرت من الماء مرّت فصاحت عليهم صيحة هلكوا بها.

و لما ملك كلكن مصر بعد أبيه خريبا؛ كان النمرود فى وقته، فاتصل بنمرود خبر حكمته و سحره فاستزاره، و وجه إليه أن يلقاه، و كان النمرود يسكن سواد العراق و غلب على كثير من الأمم فأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله لها أجنحة قد أحاطب به كالنار، و حوله صور هائلة؛ فدخل بها و هو متوشح بثعبان و محزم ببعضه و ذلك التنين فأغرفاه، و معه قضيب آس أخضر كلما حرّك التنين رأسه ضربه بالقضيب، فلما رأى النمرود ذلك هاله، و اعترف له بجليل الحكم.

و تقول القبط: إن كلكن كان يرتفع فيجلس على الهرم الغربىّ فى قبة تلوح على رأسه، و كان أهل البلد إذا دهمهم أمر اجتمعوا حول الهرم، و يقولون: إنه ربما أقام على رأس الهرم أياما لا يأكل و لا يشرب، ثم إنه استتر مدّة حتى توهموا أنه هلك فطمع الملوك فى مصر.

و قصدها ملك من المغرب. يقال له: سادوم فى جيش عظيم إلى أن بلغ وادى هيبب، فأقبل كلكن و جللهم من سحره بشىء كالغمام شديد الحرارة، و هم تحته أياما لا يدرون أين يتوجهون، ثم ارتفع و صار بمصر يعرّفهم ما عمل و أمرهم، فخرجوا. فإذا بالقوم و دوابهم قد ماتوا فهابه جميع الكهنة و صوّروه فى سائر الهياكل و بنى هيكلا لزحل من صوان أسود فى ناحية الغرب و جعل له عيدا.

(و فى أيام دارم بن الريان) و هو الفرعون الرابع الذى يقال له عند القبط: دريموش، ظهر معدن فضة على ثلاثة أيام من النيل فأثاروا منه شيئا عظيما و عمل صنما على اسم القمر لأن طالعه كان برج السرطان، و نصبه على القصر الرخام الذى بناه أبوه فى شرقىّ النيل، و نصب حوله أصناما كلها من الفضة و ألبسها الحرير الأحمر، و عمل للصنم عيدا كلما دخل برج السرطان. و لمّا ولى اكسايس الملك بعد أبيه معدان بن معاديوس بن دارم بن دريموس و هو الفرعون السادس أقام أعلاما كثيرة حول منف، و جعل عليها أساطين يمشى من بعضها إلى بعض، و عمل برقودة وصا و مدائن الصعيد، و أسفل الأرض أعلاما، و منائر للوقود،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۷۰

و طلسمات كثيرة، و عمل كودة من فضة و نقش عليها صورة الكواكب و دهنها بالدهن الصينىّ، و أقامها على منار فى وسط منف، و

عمل فی هیکل أبیه روحانی زحل من ذهب أسود مدبر، و عمل فی وقته میزانا یعتبر به الناس کفتاه من ذهب، و علاقته من فضة، و سلاسله من ذهب فکان معلقا فی هیکل الشمس، و کتب علی إحدی کفتیه: حق، و الأخری: باطل، و تحته فصوص قد نقش علیها أسماء الکواکب، فیدخل الظالم و المظلوم یأخذ کل منهما فصا من تلک الفصوص و یسمی علیه ما یریده، و یجعل أحد الفصین فی کفة، و الآخر فی کفة، فتثقل کفة الظالم، و ترتفع کفة المظلوم، و من أراد سفرا أخذ فصین و ذکر علی أحدهما اسم السفر، و علی الآخر الإقامة، و جعل کل واحد فی کفة فإن ثقلا جمیعا و لم یرتفع أحدهما علی الآخر لم یسافر، و إن ارتفعا سافر، و إن ارتفع أحدهما أخر السفر، ثم سافر و کذا من علیه دین و من له غائب أو ینظر فی صلاح أمره و فساده.

و یقال: إن بخت نصر لمّا دخل إلی مصر حمل هذا المیزان معه فیما حمل إلی بابل، و جعله فی بیت من بیوت النار. و عمل فی أیامه تنورا أیضا یشوی فیه من غیر نار، و یطبخ فیه بغیر نار، و سکینا تنصب فإذا رآها شیء من البهائم أقبل حتی یذبح نفسه بها. و عمل ماء یستحیل نارا و زجاجا یستحیل هواء، و شیئا من النیرنجیات و النواسیس.

(و أما البرابی) فذکر ابن وصف شاه: أن سوریدالذی بنی الأهرام هو الذی بنی البرابی کلها، و عمل فیها الکنوز و زبر علیها علوما و وکل بها روحانیة تحفظها ممن یقصدها.

و قال فی کتاب الفهرست: و بمصر أبنیة یقال لها: البرابی من الحجارة العظیمة الکبیرة، و هی علی أشکال مختلفة، و فیها مواضع الصحن و السحق و الحل و العقد و التقطیر تدل علی أنها عملت لصناعة الکیمیاء، و فی هذه الأبنیة نقوش و کتابات لا یدری ما هی و قد أصیبت تحت الأرض فیها هذه العلوم مکتوبة فی التوز، و هی صفائح الذهب و النحاس و فی الحجارة.

و ذکر الحسن بن أحمد الهمدانی أن برابی مصر تنسب إلی براب بن الدرمسیل بن نحویل بن خنوخ بن قار بن آدم علیه السلام.

و ذکر أبو الریحان محمد بن أحمد البیرونی، فی کتاب الإشارات الباقیة عن القرون الخالیة: أن کنیسة فی بعض قری مصر قد شاهدها الموثوق بقولهم المأخوذ برأیهم المأمون من جهتهم الروایة عنهم فیها سرداب ینزل إلیه بنیف و عشرین مرقاة، و فیه سریر تحته رجل و صبیّ مشدودین فی نطع و فوقه ثور رخام فی جوفه باطیة زجاج یدخلها قنینة من نحاس فی جوفها فتیلة کتان توقد فیصب فیها زیت فلا یلبث إلا أن تمتلیء الباطیة الزجاج زیتا، و تفیض إلی الثور الرخام، فینفق علی تلک الکنیسة و قنادیلها.

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۱، ص: ۷۱

و ذکر الجهانیّ: أنه صار إلیه من وثق به و رفع الباطیة عن الثور و أفرغ الزیت من الباطیة و الثور جمیعا و أطفأ النار و أعادها جمیعا إلا الزیت فإنه صبّ زیتا من عنده و أبدله فتیلة أخری و أشعلها، فما لبث الزیت أن فاض إلی الباطیة الزجاج ثم فاض إلی الثور الرخام من غیر مدد و لا عنصر.

و ذکر الجهانیّ: أنه إذا أخرج المیت من تحت السریر انطفأت النار، و لم یفض الزیت.

و ذکر عن أهل القریة: أن المرأة المتوهمة فی نفسها حملا تحمل ذلک الصبیّ، و تضعه فی حجرها فیتحرّک ولدها فی البطن إن کان الحمل حقیقة، أو تیأس إن لم تحس بحرکة.

قال المؤلف رحمه اللّه: أخبرنی داود بن رزق اللّه بن عبد اللّه و کانت له سیاحات کثیرة بأراضی مصر و معرفة أحوالها أنه عبر فی مغارة کبیرة یقال لها: مغارة شقلقیل بالوجه القبلی فإذا فیها کوم عظیم من سندروس و أنه تخطاه و مضی فإذا شیء کثیر إلی الغایة من السمک، و جمیعها ملفوفة بثیاب کأنها قد کفنت بعد الموت، و أنه أخذ منها سمکة و فتشها فإذا فی فمها دینار علیه کتابة لا یحسن قراءتها. و أنه صار یأخذها سمکة سمکة، و یخرج من فم کل واحدة دینارا حتی اجتمع له من ذلک عدّة دنانیر. و أنه أخذ تلک الدنانیر و رجع لیخرج حتی جاء إلی الکوم السندروس، و إذا به ارتفع حتی سدّ علیه الموضع، فعاد إلی السمک، و أعاد الدنانیر إلی مواضعها، و خرج فإذا السندروس کما کان أوّلا بحیث یتجاوزه، و یخرج. فعاد و أخذ الدنانیر، و مشی یخرج بها فإذا السندروس قد ارتفع حتی سدّ علیه الموضع. فعاد إلی السمک، و أعاد الدنانیر إلی موضعها، و خرج فإذا السندروس علی حاله کما کان أوّلا بحیث

يتجاوزه و يخرج. و أنه كرّر أخذ الدنانير، و إعادتها مرارا.

و الحال على ما ذكر حتى خشى الهلاك، فتركها و خرج. فلما كان مدّة سكن موضعها، فرأى حجلا فى جدار، و قد قوّر، و وضع حجر آخر فحاول الحجر الآخر حتى رفعه فإذا تحته ستة دنانير من تلك الدنانير التى وجدها فى أفواه السمك، فأخذ منها واحدا و ترك البقية فى موضعها، و أعاد الحجر على الحجر، و قدّر اللّه بعد ذلك أنه ركب النيل ليعدّى من البرّ الشرقىّ إلى البرّ الغربىّ.

قال: فلما توسط البحر و إذا بالأسماك تثب من الماء، و تلقى أنفسها فى المركب حتى كدنا نغرق من كثرتها، فصاح الركاب خوفا من الهلاك قال: فتذكرت الدينار الذى معى، و أنّ هذا ربما كان بسببه فأخرجته من جيبى و ألقيته فى الماء فتواثبت الأسماك من المركب، و ألقت نفسها فى الماء حتى لم يبق منها شىء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۷۲

قلت: و أخبرنى قديما بعض من لا أتهمه أنه، ظفر بطلسم من هذا المعنى، و أنه عنده و أراد أن يرينى السمك يثب من الماء فلم يقدر لى أن أرى ذلك.

قال ابن عبد الحكم: لما أغرق اللّه آل فرعون، بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد. و لم يبق بها إلا العبيد، و الأجراء و النساء. فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا، و أجمع رأيهنّ أن يولينّ امرأة منهنّ يقال لها: دلوكة بنت زبا، و كان لها عقل و معرفة و تجارب، و كانت فى شرف منهنّ و موضع و هى يومئذ بنت مائة و ستين سنة.

فملكوها، فخافت أن يتناولها الملوك فجمعت نساء الأشراف، و قالت لهنّ: إنّ بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد و لا يمدّ عينه إليها، و قد هلك أكابرنا و أشرافنا و ذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم، و قد رأيت أن أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا، فأضع عليه المحارس من كل ناحية فإنا لا نأمن من أن يطمع فينا الناس، فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها، المزارع و المدائن و القرى، و جعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء، و أقامت القناطر و الترع، و جعلت فيه محارس و مسالح على كل ثلاثة أميال محرس و مسلحة، و فيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، و جعلت فى كل محرس رجالا و أجرت عليهم الأرزاق، و أمرتهم أن يحرسوا بالأجراس فإذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض الأجراس، فأتاهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة، فنظروا فى ذلك فمنعت بذلك مصر من أرادها و فرغت من بنائه فى ستة أشهر، و هو الجدار الذى يقال له: جدار العجوز بمصر، و قد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة.

قال المسعودى و قيل: إنما بنته خوفا على ولدها، و كان كثير القنص فخافت عليه سباع البرّ و البحر، و اغتيال من جاور أرضهم من الملوك و البوادى، فحوّطت الحائط من التماسيح، و غيرها. و قد قيل غير ما وصفنا. فملكتهم ثلاثين سنة فى قول. قال المؤلف رحمه اللّه: قد بقى من حائط العجوز هذا فى بلاد الصعيد بقايا. أخبرنى الشيخ المعمر محمد بن المسعودى: أنه سار فى بلاد الصعيد على حائط العجوز و معه رفقة فاقتلع أحدهم منها لبنة فإذا هى كبيرة جدا تخالف المعهود الآن من اللبن فى المقدار، فتناولها القوم واحدا بعد واحد يتأمّلونها، و بينما هم فى رؤيتها إذ سقطت إلى الأرض، فانفلقت عن حبة فول فى غاية الكبر الذى يتعجب منه لعدم مثله فى زماننا، فقشروا ما عليها فوجدوها سالمة من السوس، و العيب، كأنها قريبة عهد بحصادها لم يتغير فيها شىء البتة فأكلها الجماعة قطعة قطعة. و كأنها إنما خبئت لهم من الزمن القديم، و الأعصر الخالية. إنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها.

قال ابن عبد الحكم: و كان ثم عجوز ساحرة يقال لها: بدور و كانت السحرة تعظمها، و تقدّمها فى علمهم و سحرهم فبعثت إليها دلوكة ابنة زبا: إنا قد احتجنا إلى سحرك، و فزعنا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۷۳

إليك، و لا نأمن أن يطمع فينا الملوك، فاعملى لنا شيئا نغلب به من حولنا. فقد كان فرعون يحتاج إليك، فكيف و قد ذهب أكابرنا، يعنى فى الغرق مع فرعون موسى و بقى أقلنا، فعملت بربا من حجارة فى وسط مدينة منف، و جعلت لها أربعة أبواب كل باب منها

إلى جهة القبلة، و البحر و الغرب و الشرق، و صوّرت فيه صور الخيل، و البغال و الحمير و السفن و الرجال، و قالت لهم: قد عملت لكم عملا يهلك به كل من أرادكم من كل جهة تؤتون منها برّا أو بحرا، و هذا يغنيكم عن الحصن، و يقطع عنكم مؤنة من أتاكم من كل جهة فإنهم إن كانوا فى البرّ على خيل أو بغال أو إبل أو فى سفن أو رجالة، تحركت هذه الصور من جهتهم التى يأتون منها فما فعلتم بالصور من شىء أصابهم ذلك فى أنفسهم على ما تفعلون بهم. فلما بلغ الملوك حولهم أنّ أمرهم قد صار إلى ولاية النساء، طمعوا فيهم، و توجهوا إليهم، فلما دنوا من عمل مصر تحرّكت تلك الصور التى فى البربا فطفقوا لا يهيجون تلك الصور بشىء، و لا يفعلون بها شيئا إلا أصاب ذلك الجيش الذى كان أقبل إليهم مثله إن كان خيلا. فما فعلوا بتلك الخيل المصوّرة فى البربا من قطع رؤوسها أو سوقها أو فقء عيونها أو بقر بطونها أثر مثل ذلك بالخيل التى أرادتهم، و إن كانت سفنا أو رجالة، فمثل ذلك و كانوا أعلم الناس بالسحر، و أقواهم عليه و انتشر ذلك فتبادرهم الناس، و كان نساء أهل مصر حين غرق فرعون و قومه، و لم يبق إلا العبيد و الأجراء لم يصبرن عن الرجال. فطفقت المرأة تعتق عبدها، و تتزوّجه و تتزوّج الأخرى أجيرها، و شرطن على الرجال أن لا يفعلوا شيئا إلا بإذنهنّ، فأجابوهنّ فى ذلك فكان أمر النساء على الرجال.

قال يزيد بن حبيب: إنّ نساء القبط على ذلك إلى اليوم اتباعا لمن مضى منهم. لا يبيع أحد منهم، و لا يشترى إلا قال: استأمر امرأتى فملكتهم دلوكة بنت زبا عشرين سنة. تدبر أمرهم بمصر حتى بلغ صبىّ من أبناء أكابرهم، و أشرافهم يقال له: دركون بن بلوطس، فملكوه عليهم فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز نحوا من أربعمائة سنة.

و كلما انهدم من ذلك البربا الذى صوّر فيه الصور لم يقدر أحد على إصلاحه إلا تلك العجوز، و ولدها و ولد ولدها، و كانوا أهل بيت لا يعرف ذلك غيرهم فانقطع أهل ذلك البيت، و انهدم من البربا موضع فى زمان لقاس بن مرنيوس. فلم يقدر أحد على إصلاحه، و معرفة علمه و بقى على حاله و انقطع ما كان يقهرون به الناس. و بقوا كغيرهم إلا أنّ الجمع كثير و المال عندهم. فلما قدم بخت نصر بيت المقدس و ظهر على بنى إسرائيل، و سباهم، و خرج بهم إلى أرض بابل قصد مصر، و خرب مدائنها، و قراها، و سبى جميع أهلها و لم يترك بها شيئا، حتى بقيت مصر أربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن يجرى نيلها و يذهب لا ينتفع به ثم ردّ أهل مصر إليها بعد أربعين سنة، فعمروها و لم تزل مقهورة من يومئذ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۷۴

و قال بعض الحكماء: رأيت البرابى و أخذت أتأملها، فوجدتها مستحكمة على جميع أشكال الفلك، و الذى ظهر لى أنه لم يعملها حكيم واحد بل تولى عملها قوم بعد قوم، حتى تكاملت فى دور كامل. و هو ستة و ثلاثون ألف سنة شمسية، لأنّ مثل هذه الأعمال لا تعمل إلا بالأرصاد، و لا يتكامل رصد المجموع فى أقل من هذه المدّة المذكورة، و كانوا يجعلون الكتاب حفرا، و نقرا فى الصخور، و نقشا فى الحجارة، و حلقة مركبة فى البنيان، و ربما كان الكتاب هو الحفر إذا كان متضمنا لأمر جسيم، أو عهدا لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره.

و قد كتب غير المصريين كذلك كما كتبوا على قبة غمدان، و على باب القيروان، و على باب سمرقند، و على عمود مأرب، و على ركن المستقرّ، و على الأبلق المفرد، و على باب الرها، و كانوا يعمدون إلى الأماكن الشريفة، و المواضع المذكورة فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور و أمنعها من الدروس، و أجدر أن يراها من مرّ بها، و لا ينسى على طول الدهر.

و قال المسعودىّ: و اتخذت دلوكة بمصر البرابى و الصور و أحكمت آلات السحر، و جعلت فى البرابى صور من يرد من كل ناحية و دوابهم إبلا كانت أو خيلا و صورت فيها من يرد من البحر فى المراكب من بحر الغرب، و الشام و جمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة، و خواص الأحجار، و النباتات و الحيوانات، و جعلت ذلك فى أوقات فلكية و اتصالها بالمؤثرات العلوية، و كانوا إذا ورد إليهم جيش من نحو الحجاز، و اليمن عوّرت تلك الصور التى فى البريا من الإبل و غيرها فيتعوّر ما فى ذلك الجيش و ينقطع عنهم ناسه، و حيوانه و إذا كان الجيش من نحو الشام فعل فى تلك الصور التى من تلك الجهة التى أقبل منها جيش

الشام ما فعل بما وصفنا. فيحدث فى ذلك الجيش من الآفات فى ناسه و حيوانه ما صنع فى تلك الصور التى من تلك الجهة، و كذلك من ورد من جيوش الغرب، و من ورد فى البحر من رومية و الشام، و غير ذلك من الممالك. فهابهم الملوك و الأمم و منعوا ناحيتهم من عدوّهم و اتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز و إتقانها لزمّ أقطار المملكة و أحكامها السياسية.

و قد تكلم من سلف و خلف فى هذه الخواص و أسرار الطبيعة التى كانت ببلاد مصر و هذا الخبر من فعل العجوز مستفيض لا يشكون فيه و البرابى بمصر من صعيدها و غيره باقية إلى هذا الوقت و فيها أنواع الصور مما إذا صوّرت فى بعض الأشياء أحدثت أفعالا على حسب ما رسمت له، و صنعت من أجله على حسب قولهم فى الطبائع و اللّه أعلم بكيفية ذلك.

قال: و أخبرنى غير واحد من بلاد اخميم من صعيد مصر عن أبى الفيض ذى النون بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۷۵

إبراهيم المصرىّ الإخميمىّ الزاهد: و كان حكيما و كانت له طريقة يأتيها، و نحلة يقصدها، و كان ممن يقرّ على أخبار هذه البرابى و امتحن كثيرا مما صوّر فيها و رسم عليها من الكتابة، و الصور، قال: رأيت فى بعض البرابى كتابا تدبرته فإذا هو: احذر العبيد المعتقين، و الأحداث و الجند المتعبدين، و النبط المستعربين، و رأيت فى بعضها كتابا تدبرته فإذا فيه: يقدّر المقدّر و القضاء يضحك. و فى آخره كتابة تثبتها فى ذلك العلوم فوجدتها:

تدبر بالنجوم و لست تدرىو رب النجم يفعل ما يريد

قال: و كانت هذه الأمة التى اتخذت هذه البرابى لهجة بالنظر فى أحكام النجوم من المواظبين على معرفة أسرار الطبيعة، و كان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم: أنّ طوفانا سيكون فى الأرض، و لم يقطع على ذلك الطوفان ما هو؟ أنار تأتى على الأرض فتحرق ما عليها؟ أو ماء يغرقها، أو سيف يبيد أهلها، فخافت دثور العلوم، و فناءها بفناء أهلها، فاتخذت هذه البرابى و رسمت فيها علومها من الصور و التماثيل و الكتابة، و جعلت بنيانها نوعين طينا و حجارة و فرزت ما بنى بالطين مما بنى بالحجارة، و قالت: إن كان هذا الطوفان نارا استحجر ما بنى بالطين، و إن كان الطوفان الوارد ماء أذهب ما بنينا بالطين، و يبقى ما بنى بالحجارة، و إن كان الطوفان سيفا بقى كل من النوعين مما هو من الطين و ما هو من الحجر. و هذا ما قيل، و اللّه أعلم. إنه كان قبل الطوفان، و إنّ الطوفان الذى كانوا يرقبونه و لم يعينوه أنار هو أم ماء أم سيف. كان سيفا أتى على جميع أهل مصر من أمّة غشيتها، و ملك نزل عليها فأباد أهلها.

و منهم من رأى أن ذلك الطوفان كان و باء عمّ أهلها. و مصداق ذلك ما يوجد ببلاد تنيس من التلال المتقذرة من الناس من صغير و كبير، و ذكر و أنثى، كالجبال العظام، و هى المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر بذات الكوم، و ما يوجد ببلاد مصر، و صعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض فى الكهوف و الغيران و النواويس، و مواضع كثيرة من الأرض لا يدرى من أى الأمم هم، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم، و لا اليهود تقول إنهم من أوائلهم و لا المسلمون يدرون من هؤلاء، و لا تاريخ ينبئ عن حالهم، و عليهم أثوابهم و كثيرا ما يوجد فى تلك البرابى و الجبال من حليتهم. و البرابى ببلاد مصر بنيان قاتم عجيب كالبربا التى بأخميم و التى بسمنود و غير ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۷۶

ذكر الدفائن و الكنوز التى تسميها أهل مصر المطالب

الأصل فى جواز تتبع الدفائن ما رواه أبو عمرو بن عبد البر و البيهقىّ فى الدلائل من حديث ابن عباس.

أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم، لما انصرف من الطائف مرّ بقبر أبى رغال فقال: «هذا قبر أبى رغال، و هو أبو ثقيف». كان إذا هلك قوم صاح فى الحرم فمنعه اللّه. فلما خرج من الحرم رماه بقارعة، و آية ذلك أنه دفن معه عمود من ذهب فابتدر المسلمون قبره فنبشوه و استخرجوا العمود منه.

و من حديث عبد اللّه بن عمر سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبى رغال و كان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما أخرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه و آية ذلك أنه دفن معه عصا من ذهب إن نبشتم عليه أصبتموه معه»، فابتدره الناس فأخرجوا العصا الذى كان معه.

و بمصر كنوز يوسف عليه السلام، و كنوز الملوك من قبله، و الملوك من بعده لأنه كان يكنز ما يفضل عن النفقات، و المؤن لنوائب الدهر، و هو قول اللّه عز و جل: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ [الشعراء/ ۵۸] و يقال: إن علم الكنوز فى كنيسة القسطنطينية نقلت إليها من طليطلة.

و يقال: إنّ الروم لما خرجت من الشام و مصر، اكتنزت كثيرا من أموالها فى مواضع أعدّتها لذلك، و كتبت كتبا بأعلام مواضعها، و طرق الوصول إليها، و أودعت هذه الكتب قسطنطينية، و منها يستفاد معرفة ذلك، و قيل: إن الروم لم تكتب، و إنما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين، و الكلدانيين، و القبط. فلما خرجوا من مصر و الشام، حملوا تلك الكتب معهم، و جعلوها فى الكنيسة و قيل: إنه لا يعطى من ذلك أحد حتى يخدم الكنيسة مدّة. فيدفع إليه ورقة تكون حظه.

قال المسعودىّ: و لمصر أخبار عجيبة من الدفائن و البنيان، و ما يوجد فى الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض، و غيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض. و تدعى بالمطالب إلى هذه الغاية و قد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۷۷

(فمن أخبارها) ما ذكره يحيى بن بكير قال: كان عبد العزيز بن مروان، عاملا على مصر لأخيه عبد الملك بن مروان، فأتاه رجل متنصح فسأله عن نصحه فقال: بالقبة الفلانية كنز عظيم. قال عبد العزيز: و ما مصداق ذلك. قال: هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر و الرخام عند يسير من الحفر. ثم ينتهى بنا الحفر إلى باب من الصفر تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا، و جناحاه مضرجان بالياقوت، و الزمرد و رأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود، فأمر له عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال فى ذلك و يعمل فيه. و كان هناك تل عظيم، فاحتفروا حفيرة عظيمة فى الأرض، و الدلائل المقدّم ذكرها من الرخام و المرمر تظهر فازداد عبد العزيز حرصا على ذلك، و أوسع فى النفقة و أكثر من الرجالة، ثم انتهوا فى حفرهم إلى ظهور رأس الديك، فبرق عند ظهوره لمعان عظيم. لما فى عينيه من الياقوت، ثم بان جناحاه، ثم بانت قوائمه، و ظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع الحجارة، و الرخام و قناطر مقنطرة، و طاقات على أبواب معقودة، و لاحت منها تماثيل، و صور أشخاص من أنواع الصور الذهب و أجرنة من الأحجار قد أطبق عليها أغطيتها، و سبكت.

فركب عبد العزيز بن مروان، حتى أشرف على الموضع، فنظر إلى ما ظهر من ذلك فأسرع بعضهم، و وضع قدمه على درجة من نحاس ينتهى إلى ما هناك، فلما استقرّت قدماه على المرقاة ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة، و شمالها فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعا و هوى جسمه سفلا. فلما استقرّ جسمه على بعض الدرج اهتز العمود، و صفر الديك صفيرا عجيبا أسمع من كان بالبعد من هناك، و حرّك جناحيه، و ظهرت من تحته أصوات عجيبة، قد عملت بالكواكب و الحركات إذا مال وقع على بعض تلك الدرج شىء أو ماسها شىء انقلبت فتهاوى من هناك من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة، و كان فيها ممن يحفر و يعمل و ينقل التراب، و ينظر و يحوّل و يأمر و ينهى نحو ألف رجل. فهلكوا جميعا، فخرج عبد العزيز و قال: هذا ردم عجيب الأمر ممنوع النيل نعوذ بالله منه و أمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس. فكان الموضع قبرا لهم.

قال المسعودى: و قد كان جماعة من أهل الدفائن و المطالب و من قد اعتنى و أغرى بحفر الحفائر، و طلب الكنوز و ذخائر الملوك و الأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر، قد وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام بأن فيه مطلبا عجيبا، فأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۷۸

فأمرهم بحفره، و أباحهم استعمال الحيلة فى إخراجه، فحفروا حفرا عظيما إلى أن انتهوا إلى أزج و أقباء و حجارة مجوّفة فى صخرة منقورة فيها تماثيل قائمة على أرجلها من الخشب قد طلى بالأطلية المانعة من سرعة البلاء و تفرّق الأجزاء و الصور مختلفة فيها صور شيوخ و شبان و نساء و أطفال. أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت و الزمرد و الزبرجد و الفيروزج، و منها ما وجوهها ذهب، و فضة فكسر بعض تلك التماثيل فوجدوا فى أجوافها رمما بالية، و أجساما فانية، و إلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية كالبرانى و غيرها من المرمر و الرخام، و فيه من الطلى الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى التماثيل الخشب و الطلاء دواء مسحوق، و أخلاط معمولة لا رائحة لها، فجعل منه على النار شىء ففاح منه ريح طيبة مختلفة لا تعرف فى نوع من أنواع الطيب. و قد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم، و مقادير أعمارهم، و تباين صورهم، و بإزاء كل تمثال تمثال من الحجر المرمر، أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل و الصور. عليها أنواع من الكتابات لم يقف أحد على استخراجها من أهل الملل، و زعم قوم من أهل الدراية أن لذلك القلم منذ فقد من أرض مصر. أربعة آلاف سنة، و فيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود و لا- نصارى و لم يؤدّهم الحفر إلا- لما ذكرناه من هذه التماثيل، و كان ذلك فى سنة ثمان و عشرين و ثلثمائة، و قد كان من سلف و خلف من ولاة مصر. من أحمد بن طولون و غيره، إلى هذا الوقت و هو سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، لهم أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن، و الأموال و الجواهر، و ما أصيب فى هذه المطالب من القبور، و قد أتينا على ذكرها فيما تقدّم من تصنيفنا.

(و ركب) أحمد بن طولون يوما إلى الأهرام، فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف، و معهم المساحى و المعاول، فسألهم عن ما يعملون فقالوا: نحن قوم نطلب المطالب، فقال لهم: لا تخرجوا بعدها إلا بمشورتى أو رجل من قبلى و أخبروه أنّ فى سمت الأهرام مطلبا قد عجزوا عنه فضم إليهم الرافقى و تقدّم إلى عامل الجيزة فى إعانتهم بالرجال و النفقات، و انصرف فأقاموا مدّة يعملون حتى ظهر لهم، فركب أحمد بن طولون إليهم و هم يحفرون، فكشفوا عن حوض مملوء دنانير، و عليه غطاء مكتوب عليه بالبربطية فأحضر من قرأه: فإذا فيه أنا فلان بن فلان الملك الذى ميز الذهب من غشه و دنسه فمن أراد أن يعلم فضل ملكى على ملكه فلينظر إلى فضل عيار دينارى على عيار دينارة، فإن مخلص الذهب من الغش مخلص فى حياته و بعد وفاته، فقال أحمد بن طولون: الحمد للّه أنّ ما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۷۹

نبهتنى عليه هذه الكتابة أحبّ إلىّ من المال، ثم أمر لكل من القوم المطالبة بمائتى دينار منه و لكل من الصناع بخمسة دنانير بعد توفية أجرة عمله، و للرافقى بثلاثمائة دينار، و لنسيم الخادم بألف دينار و حمل باقى الدنانير، فوجدها أجود من كل عيار، و شدّد من حينئذ فى العيار بمصر. حتى صار عيار دينارة الذى عرف بالأحمدىّ أجود عيار، و كان لا يطلى إلا به.

ذكر هلاك أموال أهل مصر

قال اللّه عز و جل: وَ قالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما [يونس/ ۸۸- ۸۹] هذا دعاء من موسى عليه السلام، على فرعون و قومه من أهل مصر، لكفرهم أن يهلك اللّه أموالهم. قال الزجاج: طمس الشىء: إذهابه عن صورته.

و عن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما، و عن محمد بن كعب القرظى أنهما قالا:

صارت أموال أهل مصر و دراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا، و أثلاثا و أنصافا، فلم يبق معدن إلا طمس اللّه عليه فلم ينتفع به أحد بعدهم. و قال قتادة: بلغنا أن أموالهم و زروعهم صارت حجارة. و قال مجاهد: و عطية أهلكها اللّه تعالى حتى لا ترى يقال: عين مطموسة أى ذاهبة، و طمس الموضع: إذا عفا و درس. و قال ابن زيد: صارت دنانيرهم و دراهمهم و فرشهم و كل شىء لهم حجارة. و قال محمد بن كعب: و كان الرجل منهم يكون مع أهله و فراشه و قد صارا حجرين. قال: و قد سألنى عمر بن عبد العزيز، فذكرت

ذلك فدعا بخريطة أصيبت بمصر، فأخرج منها الفواكه و الدراهم و الدنانير و إنها لحجارة.

و قال محمد بن شهاب الزهرى: دخلت على عمر بن عبد العزيز فقال: يا غلام ائتنى بالخريطة. فجاء بخريطة نثر ما فيها، فإذا فيها دراهم و دنانير و تمر و جوز و عدس و فول.

فقال: كل يا ابن شهاب فأهويت فإذا هو حجارة فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا مما أصاب عبد العزيز بن مروان فى مصر إذ كان عليها واليا و هو مما طمس اللّه عليه من أموالهم.

و قال المضارب بن عبد اللّه الشامى: أخبرنى من رأى النخلة بمصر مصروعة و إنها لحجر. و لقد رأيت ناسا كثيرا قياما و قعودا فى أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم إنهم أناس و إنهم لحجارة. و لقد رأيت الرجل من رقيقهم و إنه لحارث على ثورين و إنه و ثوريه لحجارة. و نقل و سمة بن موسى فى قصص الأنبياء: أن فرعون لما هلك و قومه و آمنت بنو إسرائيل غائلته ندب موسى عليه السلام؛ من نقبائه الاثنى عشر نقيبين: أحدهما:

كالب بن موقيا، و الآخر: يوشع بن نون، مع كل واحد من سبطه اثنا عشر ألفا و أرسلهما إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۸۰

مصر. و قد خلت من حاميها لغرق أهلها مع فرعون فأخذوا ذخائر فرعون و كنوزه، و عادوا إلى موسى. فذلك توريثهم أرض مصر يعنى قول اللّه عز و جل عن قوم فرعون:

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ [الشعراء/ ۵۸]، كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ [الدخان/ ۲۸]، و قوله تعالى: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها [الأعراف/ ۱۳۷] يعنى أرض مصر أورثناها بنى إسرائيل لأنهم هم المستضعفون الذين كانوا فيها بدليل قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ [القصص/ ۵]. قال جامعه و مؤلفه رحمه اللّه تعالى: أخبرنى داود بن رزق بن عبد اللّه و كانت له سياحات كثيرة بأرض مصر أنه عبر إلى واد بالقرب من القلمون بالوجه القبلى فرأى فيه مقاتات كثيرة ما بين بطيخ و قثاء و تفاح و كلها حجارة و كان قد أخبرنى قديما بعض الأعيان أنه شاهد فى سفره إلى البلاد من أرض مصر بطيخا كثيرا كله حجارة و كذلك البطيخ من الصنف الذى يقال له العبدلى.

ذكر أخلاق أهل مصر و طبائعهم و أمزجتهم

قال أبو الحسن علىّ بن رضوان الطبيب: مصر، اسم فيما نقلت الرواة يدل على أحد أولاد نوح النبى عليه السلام، فإنهم ذكروا أنّ مصر هذا نزل بهذه الأرض فانسل فيها، و عمرها فسميت باسمه، و الذى يدل عليه هذا الاسم اليوم هو الأرض التى يفيض عليها النيل، و يحيط بها حدود أربعة؛ و هى: أنّ الشمس تشرق على أقصى العمارة بالشرق قبل أن تغيب عن آخر العمارة بالغرب بثلاث ساعات، و ثلثى ساعة. فيجب من ذلك أن تكون هذه الأرض فى النصف الغربىّ من الربع العامر، و النصف الغربىّ من الربع العامر على ما قال أبقراط، و بطليموس: أقل حرارة و أكثر رطوبة من النصف الشرقىّ. لأنه قسم كوكب القمر، و النصف الشرقىّ فى قسم كوكب الشمس، و ذلك أن الشمس تشرق على النصف الشرقىّ قبل شروقها على النصف الغربىّ، و القمر يهل على النصف الغربىّ قبل النصف الشرقىّ.

و قد زعم قوم من القدماء أنّ أرض مصر فى وسط الربع من المعمور من الأرض بالطبع، فأما بالقياس فعلى ما ذكرنا من أنها فى النصف الغربىّ، و الحدّ الثالث هو أن أوّل بعد هذه الأرض عن خط الاستواء فى جهة الجنوب أسوان و بعدها عن خط الاستواء اثنان و عشرون درجة و نصف، فالشمس تسامت رؤوس أهلها مرّتين فى السنة عند كونها فى آخر الجوزاء، أو فى أوّل السرطان، و فى هذين الوقتين لا يكون للقائم بأسوان نصف النهار ظل أصلا، فالحرارة و اليبس و الإحراق غالب على مزاجها لأنّ الشمس تنشف رطوبتها، و

لذلك صارت ألوانهم سودا و شعورهم جعدة لاحتراق أرضهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۸۱

و الحدّ الرابع هو: أن آخر بعد أرض مصر عن خط الاستواء فى جهة الشمال طرف بحر الروم، و عليه من أرض مصر بلدان كثيرة كالإسكندرية و رشيد و دمياط و تنيس و الفرما.

و بعد دمياط عن خط الاستواء فى الشمال أحد و ثلاثون جزءا و ثلث، و هذا البعد هو آخر الإقليم الثالث، و أوّل الإقليم الرابع. فالشمس لا تبعد عنهم كل البعد، و لا تقرب منهم كل القرب فالغالب عليهم الاعتدال مع ميل يسير إلى الحرارة فإن الموضع المعتدل على الصحة من البلدان العامة و هو أوّل وسط الإقليم الرابع، و أيضا فمجاورة دمياط للبحر و إحاطته بها تجعلها معتدلة بين الحرّ و البرد خارجة عن الاعتدال إلى الرطوبة، فيكون الغالب عليها المزاج الرطب الذى ليس بحارّ و لا بارد، و لذلك صارت ألوانهم سمرا و أخلاقهم سهلة و شعورهم سبطة، و إذا كان أوّل مصر من جهة الجنوب الغالب عليه الاحتراق و آخرها من جهة الشمال الغالب عليها الاعتدال مع ميل يسير نحو الحرارة فما بين هذين الموضعين من أرض مصر الغالب عليه الحرارة، و تكون قوّة حرارته بقدر بعده من أسوان، و قربه من بحر الروم.

و من أجل هذا قال أبقراط و جالينوس: إن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة قال: و جبل لوقا فى مشرق هذه الأرض يعوق عنها ريح الصبا، فإنه لم يوجد بفسطاط مصر صبا خالصة، لكن متى هبت الصبا عندهم، هبت نكبا بين المشرق و الشمال، أو المشرق و الجنوب، و هذه الرياح يابسة مانعة من العفن. و قد عدمت أهل مصر هذه الفضيلة و من أجل ذلك صارت المواضع التى تهب فيها ريح الصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها كالإسكندرية و تنيس، و يعوّق أيضا هذا الجبل إشراق الشمس على أرض مصر إذا كانت على الأفق فيكون زمان لبث الشعاع على هذه الأرض أقل من الطبيعىّ. و مثل هذه الحال سبب لركود الهواء و غلظه.

و أرض مصر أرض كثيرة الحيوان و النبات جدّا لا تكاد تجد فيها موضعا خلوا من الحيوان و النبات. و هى أرض متخلخلة فإنك تراها عند انصراف النيل بمنزلة الحمأة، فإذا حلّت الحرارة ما فيها من الرطوبة تشققت شقوقا عظاما، و المواضع الكثيرة الحيوان و النبات أرض كثيرة العفونة، و قد اجتمع على أرض مصر حرارة مزاجها و كثرة ما فيها من الحيوان و النبات، فأوجب ذلك احتراقها و سواد طينها، فصارت أرضا سوداء. و ما قرب منها من الجبل سبخ إما بورقىّ أو مالح. و يظهر من أرض مصر بالعشيات بخار أسود أو أغبر و خاصة فى أيام الصيف. و أرض مصر ذات أجزاء كثيرة و يختص كل جزء منها بشىء دون غيره، و علة ذلك ضيق عرضها و اشتمال طولها على عرض الإقليم الثانى و الثالث، فإن الصعيد فيه من النخل و السنط و آجام القصب و البردى و مواضع إحراق الفحم و غير ذلك شىء كثير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۸۲

و الفيوم فيه من النقائع و آجام القصب و مواضع تعطين الكتان شىء كثير.

و أسفل أرض مصر فيه من النبات أنواع كثيرة كالقلقاس و الموز و غير ذلك.

و بالجملة؛ فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء تختص بها و تتفضل عن غيرها. قال: و النيل يرطب يبس الصيف و الخريف فقد استبان أنّ المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة و الرطوبة الفصلية و إنها ذات أجزاء كثيرة. و أنّ هواءها و ماءها رديئان، و قد بيّن الأوائل أن المواضع الكثيرة العفن يتحلل منها فى الهواء فضول كثيرة لا تدعه يستقرّ على حال لاختلاف تصعدها.

و قد كان استبان أنّ هواء أرض مصر يسرع إليه التغير لأنّ الشمس لا يثبت على أرض مصر شعاعها المدّة الطبيعية، فمن أجل هذين كثر اختلاف هواء أرض مصر، فصار يوجد فى اليوم الواحد على حالات مختلفة مرّة حرّ، و مرّة برد، و مرّة يابس، و أخرى رطب، و مرّة متحرّك، و أخرى ساكن، و مرّة الشمس صاحية، و مرّة قد سترها الغيم.

و بالجملة هواء مصر كثير الاختلاف غير لازم لطريقة واحدة فيصير من أجل ذلك فى الأوعية و العروق من أخلاط البدن لا يلزم حدّا

واحدا. و أيضا فإنّ ما يتحلل كل يوم من البخار الرطب بأرض مصر يعوقه اختلاف الهواء و قلة سمك الجبال، و كثرة حرارة الأرض عن الاجتماع فى الجوّ، فإذا برد الهواء ببرد الليل انحدر هذا البخار على وجه الأرض فيتولد عنه الضباب الذى يحدث عنه الطل و الندا، و ربما تحلل هذا البخار بالتحلل الخفى فإذا يتحلل كل يوم ما كان اجتمع من البخار فى اليوم الذى قبله فمن أجل هذا لا يجتمع الغيم الممطر بأرض مصر إلا فى الندرة. و ظاهر أيضا، أنّ أرض مصر يترطب هواؤها فى كل يوم بما يترقى إليه من البخار الرطب و ما يتحلل.

و قد قال بعض الناس: أنّ الضباب يتكوّن من استحالة الهواء إلى طبيعة الماء فإذا انضاف هذا إلى ما قلناه كان أزيد فى بيان سرعة تغير الهواء بأرض مصر، و كثرة العفونة فيها و قد استبان أنّ أرض مصر كثيرة الاختلاف كثيرة الرطوبة الفضلية التى يسرع إليها العفن.

و العلة القصوى فى جميع ذلك هو أن أخص الأوقات بالجفاف فى الأرض كلها يكثر فيه بمصر الرطوبة لأنها تترطب فى الصيف و الخريف بمدّ النيل و فيضه. و هذا بخلاف ما عليه البلدان الأخر.

و قد علّمنا أبقراط أنّ رطوبة الصيف و الخريف فضيلة أعنى: خارجة عن المجرى الطبيعىّ كرطوبة المطر الحادث فى الصيف، و من أجل هذه قلنا: إن رطوبة مصر فضلية، و ذلك أن الحرارة و اليبس هو بالحقيقة مزاج مصر الطبيعىّ، و إنما عرض له ما أخرجه عن اليبس إلى الرطوبة الفضيلة بمدّ النيل فى الصيف و الخريف. و لذلك كثرت العفونات بهذه الأرض فهذا هو السبب الأعظم فى أن صارت أرض مصر على ما هى عليه من سخافة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۸۳

الأرض، و كثرة العفن، و رداءة الماء، و الهواء. إلا أن هذه الأشياء لا تحدث فى أبدان المصريين استحالة محسوسة إذا جرت على عادتها من أجل إلف المصريين لهذه الحال، و مشاكلة أبدانهم لها، فإن كل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان و النبات مشابه لما عليه مصر فى سخافة الأبدان و ضعف القوى، و كثرة التغير و سرعة الوقوع فى الأمراض، و قصر المدّة كالحنطة بمصر فإنها و شيكة الزوال سريع إليها العفن فى المدّة اليسيرة و لا مطعن أن أبدان الناس و غيرهم تخالف ما عليه الحنطة من سرعة الاستحالة، و كيف لا يكون الأمر كذلك و أبدانهم مبنية من هذه الأشياء فحال ما يتولد بأرض مصر من النبات، و الحيوان فى السخافة، و كثرة الفضول، و العفن و سرعة الوقوع فى الأمراض كحال سخافة أرضها و عفنها، و فضولها و سرعة استحالتها لأنّ النسبة واحدة. و لذلك أمكن حياة الحيوان فيها و نبات النبات بها فإن هذه الأشياء من حيث ناسبتها و لم تبعد من مشاكلتها أمكن حياتها.

فأما الأشياء الغريبة فإنها إذا دخلت إلى مصر تغيرت فى أوّل لقائها لهذا الهواء حتى إذا استقرّت و ألّفت الهواء، و استمرّت عليه صحت مشاكلة لأرض مصر.

قال: و أما جنس ما يؤكل، و يشرب بأرض مصر. فإنّ الغلات سريعة التغير سخيفة متخلخلة تفسد فى الزمان اليسير كالحنطة و الشعير و العدس و الحمص و الباقلاء و الجلبان.

فإنّ هذه تسوّس فى المدّة القليلة ليس لشىء من الأغذية التى تعمل منها لذاذة ما لنظيره فى البلدان الأخر. و ذلك أنّ الخبز المعمول من الحنطة بمصر متى لبث يوما واحدا بليلته لا يؤكل و إن أكل لم يوجد له لذاذة و لا تماسك لبعضه ببعض و لا يوجد فيه علوكة، و لكنه يتكرّج فى الزمان اليسير و كذلك الدقيق، و هذا خلاف أخبار البلدان الأخر، و كذلك الحال فى جميع غلات مصر و فواكهها، و ما يعمل فيها فإنها و شيكة الزوال سريعة الاستحالة و التغير. فأما ما يحمل من هذه إلى مصر فظاهر أنّ مزاجها يتبدّل باختلاف الهواء عليها و يستحيل عما كانت عليه إلى مشاكلة أرض مصر إلا أنّ ما كان حديثا قريب العهد بالسفر، فقد بقيت فيه من جودته بقايا صالحة فهذا حال الغلات.

و أما الحيوان الذى يأكله الناس، فالبلدى منه مزاجه مشاكل لمزاج الناس بهذه الأراضى فى السخافة و سرعة الاستحالة فهو على هذا ملائم لطبائعهم، و المجلوب كالكباش البرقية فالسفر يحدث فى أبدانها قحلا و يبسا و أخلاطا لا تشاكل أخلاط المصريين.

و لها إذا دخلت مصر مرض أكثرها. فإذا استقرّت زمانا صالحا تبدّل مزاجها و وافق مزاج المصريين.

و أهل مصر يشرب الجمهور منهم من ماء النيل و قد قلنا فى ماء النيل ما فيه كفاية و بعضهم يشرب مياه الأبار، و هى قريبة من مشاكلتهم و المياه المخزونة فقلّ من يشربها بأرض مصر.

و أجود الأشربة عندهم الشمسىّ: لأنّ العسل الذى فيه يحفظ قوّته و لا يدعه يتغير بسرعة و الزمان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۸۴

الذى يعمل فيه خالص الحرّ فهو ينضجه و الزبيب الذى يعمل منه مجلوب من بلاد أجود هواء.

و أما الخمر فقلّ من يعتصرها إلا و يلقى معها عسلا و هى معتصرة من كرومهم، فتكون مشاكلة لهم، و لهذا صاروا يختارون الشمسىّ عليها و ما عدا الشمسىّ و الخمر من الشراب بأرض مصر فردىء لا خير فيه لسرعة استحالته من فساد مادّته، كالنبيذ التمرى، و المطبوخ و المزر المعمول من الحنطة.

و أغذية أهل مصر مختلفة فإنّ أهل الصعيد يغتذون كثيرا بتمر النخل، و الحلاوة المعمولة من قصب السكر، و يحملونها إلى الفسطاط و غيرها. فتباع هناك و تؤكل، و أهل أسفل الأرض يغتذون كثيرا بالقلقاس و الجلبان و يحملون ذلك إلى مدينة الفسطاط و غيرها. فتباع هناك و تؤكل و كثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طريا و مالحا و كثير يكثرون أكل الألبان، و ما يعمل منها و عند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة، و يجفف و هو أكثر أكلهم السنة كلها. و بالجملة فكل قوم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها و ألفتها. و نشأت عليها إلا أن الغالب على أهل مصر الأغذية الرديئة و ليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة. و هذا أيضا مما يؤكد أمرهم فى السخافة و سرعة الوقوع فى الأمراض. و أهل الريف أكثر حركة رياضة من أهل المدن و لذلك هم أصح أبدانا لأنّ الرياضة تصلب أعضاءهم، و تقوّيها و أهل الصعيد أخلاطهم أرق و أكثر دخانية و تخلخلا و سخافة لشدّة حرارة أرضهم من أسفل الأرض، و أهل أسفل الأرض بمصر أكثر استفراغ فضولهم، بالبراز و البول لفتور حرارة أرضهم و استعمالهم للأشياء الباردة، و الغليظة كالقلقاس. و أما أخلاط المصريين فبعضها شبيه ببعض لأنّ قوى النفس تابعة لمزاج البدن، و أبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر و الجلد، و كذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة و التنقل من شىء إلى شىء و الدعة و الجبن و القنوط و الشح و قلة الصبر و الرغبة فى العلم و سرعة الخوف و الحسد و النميمة و الكذب و السعى إلى السلطان و ذمّ الناس. و بالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التى تكون من دناءة الأنفس و ليس هذه الشرور عامّة فيهم و لكنها موجودة فى أكثرهم، و منهم: من خصه اللّه بالفضل و حسن الخلق و برّأه من الشرور، و من أجل توليد أرض مصر، الجبن و الشرور الدنيئة فى النفس لم تسكنها الأسد و إذا دخلت ذلت و لم تتناسل و كلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان. و كذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخر ما خلا ما كان منها فى طبعه ملائمة لهذه الحال كالحمار و الأرنب.

و قال: إنّ جالينوس يرى أن فصل الربيع طبيعته الاعتدال، و يناقض من ظنّ أنه حار رطب، و من شأن هذا الفصل أن تصح فيه الأبدان، و يجود هضمها و تنتشر الحرارة لغريزية فيه، و يصفو الروح الحيوانى لاعتدال الهواء و صفائه و مساواة ليله لنهاره، و غلبة الدم و الهواء المعتدل هو الذى لا يحس فيه ببرد ظاهر و لا حرّ و لا رطوبة و لا يبس، و يكون فى نفسه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۸۵

صافيا نقيا فيقوى فيه الروح الحيوانى لهذا السبب، و تصح الأبدان و يكثر نشاط الحيوان و تنمو الأشياء و تزيد و تتوالد. و إذا طلبنا بأرض مصر مثل هذا الهواء لم نجده فى وقت من السنة إلا فى امشير و برمهات و برمودة و بشنس، عندما تكون الشمس فى النصف الأخير من الدلو و الحوت و الحمل و الثور. فإنا نجد بمصر فى هذا الزمان أياما معتدلة نقية صافية لا يحس فيها بحرّ ظاهر، و لا برد و لا رطوبة و لا يبوسة، و تكون الشمس فيها نقية من الغيوم، و الهواء ساكنا لا يتحرّك إلا أن يكون ذلك فى برمودة و بشنس فإنه يحتاج إلى أن تهب ريح الشمال ليعتدل ببردها حرّ الشمس.

و فى هذا الزمان تكثر حركة الحيوان و سفاده و تحسن أصواته، و تورق الأشجار و يعقد الزهر، و تقوى القوة المولدة و يغلب كيموس الدم. و هذا الفصل فى أرض مصر يتقدّم زمانه الطبيعىّ بمقدار ما ينقص عن آخره، و علة ذلك قوّة حرارة هذه الأرض، و قد يعرض فى أوّل هذا الفصل أيام شديدة البرود و ذلك فى أمشير إذا هبت ريح الشمال، و كانت الشمس غير نقية من الغيوم، و علة ذلك دخول فصل الربيع فى فصل الشتاء. فإذا هبت ريح الشمال برد ببردها الهواء، فأعادته بعد الاعتدال إلى البرد و لكثرة ما يصعد من الأرض فى هذا الزمان من البخار الرطب يرطب الهواء، و يعود إلى حاله فى فصل الشتاء، و ربما برد الهواء من هبوب رياح أخر فإن ريح الجنوب التى هى أشدّ الرياح حرارة إذا هبت فى هذا الزمان اكتسبت برودة من الأرض، و الماء الذين قد بردّهما هواء الشتاء.

فإذا مرّت بشىء بردّته ببرودتها العرضية حتى إذا دام هبوبها أياما كثيرة متوالية عادت إلى حرارتها، و أسخنت الهواء، و أحدثت فيه يبسا. و الدليل على أن برد رياح الجنوب التى تعرفها المصريون بالمريسى يتولد من برد مياه مصر، و أرضها لا بشىء طبيعى لها أنه لا يجتمع فى الجوّ فى أيام هبوبها الضباب الذى يجتمع من تحليل الحرارة للبخار الرطب بالنهار. و جمع البرودة له بالليل. فحرارة ريح الجنوب تفرّق البرودة عن جمعه، و تبدّده فى الهواء، و إذا دام هبوب هذه الريح أسخنت الماء، و الأرض و عادت إلى طبيعتها فى الحرارة.

و إذا كان فصل الربيع يتقدّم زمانه الطبيعى، و يختلف هذا الاختلاف. و الهواء فى الأصل بمصر يختلف بكثرة استحالته، و ما يرقى إليه من البخار فما ظنك بغيره من الفصول و لذلك كثرت فيه الرياح.

و أخر الأطباء فيه سقى الأدوية المسهلة إلى أن يستقرّ أمره فى شمس الحمل مع الثور، ثم يدخل فصل الصيف فى آخر بشنس و بؤنة و أبيب و بعض مسرى . عند ما تكون الشمس فى الجوزاء و السرطان و الأسد و بعض السنبلة، فيشتدّ الحرّ و اليبس فى هذا الزمان و تجف الغلات و تنضج الثمار و يجتمع من أكلها فى الأبدان كيموسات رديئة و إذا نزلت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۸۶

الشمس فى السرطان أخذ النيل فى الزيادة، و الفيض على أرض مصر. فيتغير مزاج الصيف الطبيعى بكثرة ما يترقى إلى الهواء من بخار الماء، و يوجد فى أوّل هذا الفصل عند ما تكون الشمس فى الجوزاء أيام يشاكل هواؤها هواء الربيع عندما تكون الشمس مستورة بالغيوم أو تكون الريح الشمال هاوية. و لهذا يغلط كثير من الأطباء و يسقى الأدوية المسهلة فى هذا الزمان، لظنه أن فصل الربيع لم يخرج إلا من كان منهم أحذق فهو يختار ما كان من هذه الأيام أسكن حرارة و الأكثر لا يشعرون البتة بهذه الحال.

و فى آخر الصيف يكون فيض النيل فظاهر أن هذا الفصل يتقدّم دخوله الزمان الطبيعىّ بقدر ما يتقدم آخره و أنه كثير الاضطراب بكثرة ما يرقى إليه من بخار الأرض. فلولا استمرار أبدانهم على هذا الاختلاف، و مشاكلتهم لهذه الحال لحدثت فيهم الأمراض التى ذكر أبقراط: أنها تحدث إذا كان الصيف رطبا.

ثم يدخل فصل الخريف و طبيعته يابسة من النصف الأخير من مسرى ثم توت و بابة و بعض أيام هاتور. و تكون الشمس فى آخر السنبلة و الميزان و العقرب، فتكمل زيادة النيل فى أوّل هذا الفصل و يطلق على الأرضين فيطبق أرض مصر و يرتفع منه فى الجوّ بخار كثير، فينتقل مزاج الخريف عن اليبس إلى الرطوبة حتى أنه ربما وقع فيه الأمطار، و كثرة الغيم فى الجوّ. و يوجد فى هذا الفصل أيام شديدة الحرّ لأنها على الحقيقة صيفية. فإذا نقى الجوّ من البخار الرطب عادت إلى طبيعتها من الحرارة. و فيه أيضا أيام شديدة الشبه بأيام الربيع تكون عند ما يساوى الليل النهار و يرطب الماء يبس الهواء، و يشتدّ فى هذا الفصل اضطراب الهواء بكثرة ما يرتقى إليه من البخار الرطب، فيكون مرّة حارّا أو أخرى باردا و مرّة يابسا، و أكثر أوقاته يغلب عليه الرطوبة فلا يزال كذلك يتمزج حتى يغلب عليه رطوبة الماء فى آخر الأمر و يصاد فى أيام الخريف من النيل أسماك كثيرة جدا يولد أكلها فى الأبدان أخلاطا لزجة.

و كثيرا ما يستحيل إلى الصفر إذا صادفت فى البدن خلطا صفراويا. فمن أجل ذلك يضطرب ما فى الأبدان من الروح الحيوانىّ، و تهيج الأخلاط، و يفسد الهضم فى البطون و الأوعية و العروق و يتولد من ذلك كيموسات رديئة كثيرة الأخلاط بعضها مرّة صفراء و

بعضها مرّة سوداء و بعضها بلغم لزج و بعضها خلط خام و بعضها مرّة محترقة، و كثير منها يتركب من هذه الأشياء فتثير الأمراض حتى إذا انصرف النيل فى آخر الخريف، و انكشفت الأرض و برد الهواء، و كثرت الأسماك و احتقن البخار، و كثر ما يرتفع به من الأرض من العفونة، و استحكم عند ذلك وجود العفن تزايدت الأمراض. و لو لا إلف أهل مصر لهذه الأشياء لكان ما يحدث فيهم من الأمراض أكثر من ذلك.

ثم يدخل فصل الشتاء، و طبيعته باردة رطبة من النصف الآخر من هاتور ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۸۷

كيهك و طوبة، و ذلك عند ما تكون الشمس فى القوس و الجدى، و بعض الدلو و ذلك أقل من ثلاثة أشهر و العلة فى ذلك قوّة حرارة أرض مصر، و كون الأبدان مضطربة، و تنكشف الأرض فى أوّل هذا الفصل و تحرث و تعفن بالجملة لكثرة ما يلقى فيها من البزور و ما فيها من أزبال الحيوان، و فضولها و لأنها سخيفة. و هى كالحمأة فى هذا الزمان فيتولد فيها من أنواع الفار و الدود و النبات و العشب و غير ذلك ما لا يحصى كثرة. و ينحل منها فى الجوّ أبخرة كثيرة حتى يصير الضباب بالغدوات ساترا للأبصار عن الألوان القريبة، و يصاد أيضا من الأسماك المحبوسة فى المياه المخزونة شىء كثير، و قد داخلها العفن لقلة حركتها فيولد أكلها فى الأبدان فضولا- كثيرة لزجة شديدة الاستعداد للعفن فتقوى الأمراض فى أوّل هذا الفصل. حتى إذا اشتدّ البرد، و قوى الهضم فى الأبدان، و استقرّ الهواء على شىء واحد، و عادت الحرارة الغريزية إلى داخل، و تطبقت الأرض بالنبات، و سكنت عفونتها صحت عند ذلك الأبدان. و هذا يكون فى آخر كيهك أو فى طوبة فقد استبان أن الفصول بأرض مصر كثيرة الاختلاف و إن أردأ أوقات السنة عندهم و أكثرها أمراضا هو آخر الخريف و أوّل الشتاء و ذلك فى شهر هاتور و كيهك، فإذا اختلاف الفصول مشاكل لما عليه أرضهم من الرداءة.

فمضرة الفصول إذا بالأبدان فى أرض مصر أقل منها فى البلدان الأخر إذا اختلفت هذا الاختلاف، و استبان أيضا أن السبب الأول فى ذلك هو: مدّ النيل فى أيام الصيف، و تطبيقه الأرض فى أيام الخريف بخلاف ما عليه مياه الأنهار فى العمارة كلها فإنها إنما تمتدّ فى أخص الأوقات بالرطوبة و هو الشتاء و الربيع.

قال: و قد استبان مما تقدم أن الرطوبة الفضيلة بأرض مصر كثيرة و ظاهر أن أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه الرطوبة. فإنى أنا قلما رأيت أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه كلها لا يشوبها فى أول أمرها البلغم و الخلط الخام. و الأمراض كلها تحدث عندهم فى الأوقات كلها كما قال أبقراط، و أكثر أمراضهم هى الفضيلة، أعنى العفنة من أخلاط صفراوية و بلغمية على ما يشاكل كل مزاج أرضهم.

و ما ذكرناه فيما تقدّم يوجب حدوث الأمراض كثيرا إلا أن مشاكلة هذه بعضها بعضا و اتفاقها فى سنة واحدة تمنع من أن تكون فى أنفسها ممرضة متى لزمت العادة فأما إذا خرجت عن عادتها فهى تحدث مرضا. و خروجها عن عادتها بمصر هو الذى أعدّه اختلافا ممرضا لا الاختلاف الموجود فيها على الدائم، و النيل ليس يحدث فى الأبدان كل سنة مرضا، و لكنه إذا أفرطت زيادته و دام مدّة تزيد على العادة كان ذلك سببا لحدوث المرض الوافد. فإن قيل: إذا كانت أبدان الناس بأرض مصر من السخافة على ما ذكرت فلعلها فى مرض دائم. فالجواب: لسنا نبالى بهذا كيف كان، لأن المرض هو ما يضرّ بالفعل ضررا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۸۸

محسوسا من غير توسط. فمن أجل ذلك ليس أبدان المصريين فى مرض دائم و لكنها كثيرة الاستعداد نحو الأمراض. قال: أما أمراض مصر البلدية فقد ذكرنا من أمرها ما فيه كفاية و ظهر أن أكثرها الأمراض الفضيلة التى يشوبها صفراء و خام على أن باقى الأمراض تحدث عندهم بسرعة، و قرب و خاصة فى آخر الخريف و أوّل الشتاء.

و أما الأمراض الوافدة: و معنى المرض الوافد: هو ما يعمّ خلقا كثيرا فى بلد واحد و زمان واحد و منه نوع يقال له: الموتان؛ و هو الذى

يكثر معه الموت، و حدوث الأمراض الوافدة تكون عن أسباب كثيرة يجتمع فى أجناس أربعة و هى تغير كيفية الهواء، و تغير كيفية الماء، و تغير كيفية الأغذية، و تغير كيفية الأحداث النفسانية. فالهواء تغير كيفيته على ضربين: أحدهما تغيره الذى جرت به العادة، و هذا لا يحث مرضا وافدا، و ليس تغيرا ممرضا. و الثانى: التغير الخارج عن مجرى العادة و هذا هو الذى يحدث المرض الوافد.

و كذلك الحال فى الأجناس الباقية و خروج تغير الهواء عن عادته يكون: إما بأن يسخن أكثر، أو يبرد أو يرطب، أو يجفف أو يخالطه حال عفنة، و الحالة العفنة إما أن تكون قريبة أو بعيدة. فإن أبقراط و جالينوس يقولان: إنه ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلد اليونانيين مرض وافد عن عفونة اجتمعت فى بلاد الحبشة، و تراقت إلى الجوّ و انحدرت على اليونانيين، فأحدثت فيهم المرض الوافد.

و قد يتغير أيضا مزاج الهواء عن العادة بأن يصل وفد كثير قد أنهك أبدانهم طول السفر، و ساءت أخلاطهم فيخالط الهواء منها شىء كثير، و يقع الأعداء فى الناس، و يظهر المرض الوافد. و الماء ضا قد يحدث المرض الوافد إما بأن يفرط مقداره فى الزيادة أو النقصان، أو يخالطه حال عفنة و يضطرّ الناس إلى شربه، و يعفن به أيضا الهواء المحيط بأبدانهم، و هذه الحال تخالطه إما قريبا أو بعيدا بمنزلة ما يمرّ فى جريانه بموضع خرب قد اجتمع فيه من جيف الموتى شىء كثير، أو بمياه تقاطع عفنة فيحذرها معه و يخالط جسمه، و الأغذية تحدث المرض الوافد. إما إذا لحقها اليرقان، و ارتفعت أسعارها، و اضطرّ الناس إلى أكلها، و إما إذا أكثر الناس منها فى وقت واحد، كالذى يكون فى الأعياد فيكثر فيهم التخم، و يمرضون مرضا متشابها. و إما من قبيل فساد مرعى الحيوان الذى يؤكل، أو فساد الماء الذى يشرب، و الأحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدث فى الناس خوف عام من بعض الملوك فيطول سفرهم و تفكرهم فى الخلاص منه، و فى وقوع البلاء، فيسوء هضمهم و تتغير حرارتهم الغريزية. و ربما اضطروا إلى حركة عنيفة فى هذه الحال، أو يتوقعوا قحط بعض السنين فيكثرون الحركة و الاجتهاد فى ادّخار الأشياء، و يشتد غمهم بما سيحدث. فجميع هذه الأشياء تحدث فى أبدان الناس المرض الوافد متى كان المتعرض لها خلق كثير فى بلد واحد و وقت واحد. و ظاهر أنه إذا كثر فى وقت واحد المرضى بمدينة واحدة؛ ارتفع من أبدانهم بخار كثير فيتغير مزاج الهواء فإذا صادف بدنا مستعدّا أمرضه، و إن

كان صاحبه لم يتعرّض لما يتعرّض إليه الناس.

فالأمراض الوافدة بمصر تحدث إما عن فساد لم تجر به العادة يعرض للهواء سواء كان مادّة فساده من أرض مصر، أو من البلاد التى تجاورها كالسودان و الحجاز و الشام و برقة، أو يعرض للنيل بأن تفرط زيادته، فتكثر زيادة الرطوبة و العفن، أو تقل زيادته جدّا فيجف الهواء عن مقدار العادة، و يضطرّ الناس إلى شرب مياه رديئة أو يخالطه عفونة تحدث عن جرب يكون بأرض مصر أو ببلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير، و يرتفع بخار جيفهم فى الهواء فيعفنه، و يتصل عفنه إليهم، أو يسيل الماء، و يحمل معه العفن، أو يغلو السعر أو يلحق الغلات آفة، أو يدخل على الكباش و نحوها مضرة أو يحلق الناس خوف عام أو قنوط. و كل واحد من هذه الأسباب يحدث فى أرض مصر مرضا وافدا يكون قوّته بمقدار قوّة السبب المحدث له و إن كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشدّ و أقوى و أسرع فى القتل.

قال: فمزاج أرض مصر حار رطب بالرطوبة الفضلية، و ما قرب من الجنوب بأرض مصر كان أسخن، و أقل عفنا فى ماء النيل مما كان منها فى الشمال، و لا- سيما من كان فى شمال الفسطاط. مثل أهل البشمور فإن طباعهم أغلظ، و البله عليهم أغلب، و ذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جدّا و يشربون من الماء الردىء.

و أما إسكندرية و تنيس و أمثال هذه، فقربها من البحر، و سكون الحرارة، و البرد عنهم، و ظهور الصبا فيهم مما يصلح أمرهم، و يرق طباعهم، و يرفع هممهم و لا يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع، و الجمادية و إحاطة البحر بمدينة تنيس، توجب غلبة الرطوبة عليها و ما يسر أخلاق أهلها قال: إنه لما كانت أرض مصر، و جميع ما فيها سخيفة الأجسام سريعا إليها التغير، و العفن وجب على الطبيب أن يختار من الأغذية، و الأدوية ما كان قريب العهد حديثا. لأنّ قوّته بعد باقية عليه، لم تتغير كل التغير، و أن يجعل

علاجه ملائما لما عليه الأبدان بأرض مصر، و يجتهد فى أن يجعل ذلك إلى الجهة المضادة أميل قليلا، و يتجنب الأدوية القوية الإسهال، و كل ما له قوّة مفرطة. و إن نكاية هذه الأبدان سريعة. سيما و أبدان المصريين سريعة الوقوع فى النكايات، و يختار ما يكون من الأدوية المسهلة، و غيرها ألين قوّة حتى لا يكون على طبيعة المصريين منها كلفة، و لا يلحق أبدانهم مضرّة، و لا يقدم على الأدوية الموجودة فى كتب أطباء اليونانيين و الفرس. فإن أكثرها عملت لأبدان قويّة البنية عظيمة الأخلاط، و هذه الأشياء قلما توجد بمصر.

فلذلك يجب، على الطبيب أن يتوقف فى إعطاء هذه الأدوية للمرضى، و يختار ألينها و ينقص عن مقدار شرباتها و يبدل كثيرا منها بما يقوم مقامه، و يكون ألين منه، فيتخذ السكنجبين السكرىّ فى مقام العسلى، و الجلاب بدلا من ماء العسل. و اعلم أن هواء مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۱ ؛ ص۹۰

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹۰

يعمل فى المعجونات، و سائر الأدوية ضعفا فى قوتها فأعمار الأدوية المفردة و المركبة المعجون منها، و غير المعجون بمصر أقصر من أعمارها فى غير مصر. فيحتاج الطبيب بمصر إلى تقدير ذلك و تمييزه حتى لا يشتبه عليه شىء مما يحتاج إليه. و إذا لم يكتف فى تنقية البدن بالدواء المسهل دفعة واحدة، فلا بأس بإعادته بعد أيام، فإن ذلك أحمد من إيراد الدواء الشديد القوّة فى دفعة واحدة.

قال: و لكون أرض مصر تولد فى الأجسام سخافة، و سرعة قبول للمرض وجب أن تكون الأبدان على الهيئة الفاضلة بأرض مصر قليلة جدا.

فأما الأبدان الباقية فكثيرة و أن تكون الصحة التامّة عندهم على الأمر الأكثر فى القريبة من الهيئة الفاضلة، و الطريق الأولى التى تدبر بها الأبدان فى الهيئة الفاضلة يحتاج فيها بأرض مصر إلى أن يدبر الهواء، و الغذاء و الماء و سائر الأشياء تدبيرا يصير به فى غاية الاعتدال.

و لأنّ الهضم كثيرا ما يسوء بأرض مصر. و كذلك الروح الحيوانى، فيجب صرف العناية إلى مراعاة أمر القلب و الدماغ و الكبد و المعدة و العروق و سائر الأعضاء الباطنة فى تجويد الهضم، و إصلاح أمر الروح الحيوانى و تنظيف الأوساخ الأححة.

و قال فى شرح كتاب الأربع لبطليموس: و أما سائر أجزاء الربع الذى يميل إلى وسط جميع الأرض المسكونة أعنى بلاد برقة، و سواحل البحر من مريوط إلى الإسكندرية و رشيد و دمياط و تنيس و الفرما، و أسفل الأرض بمصر، و نواحى مدينة منف و مدينة الفسطاط، و ما يلى شرقى النيل من صعيد مصر و الفيوم إلى أعلى الصعيد مما فى غرب النيل و أرض الواحات، و أرض النوبة و البجة و الأرض التى على البحر فى شرقى بلاد النوبة، و الحبشة.

فإن هذه البلاد موضوعة فى الزاوية التى تؤثر فى جميع الربع الموضوع فيما بين الدبور و الجنوب. و هى من جملة النصف الغربى من الربع المعمور و الكواكب الخمسة المتحيرة تشترك فى تدبيرها. فصار أهلها محبين للّه، و يعظمون الجنّ، و يحبون النوح، و يدفنون موتاهم فى الأرض، و يخفونهم و يستعملون سننا مختلفة، و عادات و آراء شتى لميلهم إلى الأسرار التى تدعو كل طائفة منهم إلى أمر من الأمور الخفية، فيعتقده و يوافقه جماعة و من أجل هذه الأسرار كان المستخرج للعلوم الدقيقة، كالهندسة و النجوم و غيرها فى الزمان الأول أهل مصر، و منهم تفرقت فى العالم و إذا ساسهم غيرهم كانوا أذلّاء. و الغالب عليهم الجبن و الاستحذاء فى الكلام و إذا ساسوا غيرهم كانت أنفسهم طيبة، و هممهم كثيرة، و رجالهم يتخذون نساء كثيرة، و كذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال. و هم منهمكون فى الجماع، و رجالهم كثيرو النسل، و نساؤهم سريعات الحمل، و كثير من ذكرانهم تكون أنفسهم ضعيفة مؤنثة.

و قال أبو الصلت: و أما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفوا الأصناف و الأجناس من قبط و روم و عرب و أكراد و ديلم و حبشان، و غير ذلك من الأصناف إلا أن جمهورهم قبط قالوا: و السبب فى اختلاطهم تداول المالكين لها، و المتغلبين عليها من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹۱

العمالقة و اليونانيين و الروم، و غيرهم. فلهذا اختلطت أنسابهم، و اقتصروا من التعريف بأنفسهم على الإشارة إلى مواضعهم، و الانتماء

إلى مساقطهم فيها.

و حكى أنهم كانوا فى الزمن السالف عباد أصنام و مدبرى هياكل إلى أن ظهر دين النصرانية، و غلب على أرض مصر. فتنصروا و بقوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون، فأسلم بعضهم، و بقى بعضهم على دين النصرانية.

و أما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات و الانهماك فى اللذات و الاشتغال بالترهات و التصديق بالمحالات و ضعف المرائر و العزمات، و لهم خبرة بالكيد و المكر، و فيهم بالفطرة قوّة عليه و تلطف فيه و هداية إليه لما فى أخلاقهم من الملق و البشاشة التى أربوا فيها على من تقدّم و تأخر. و خصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم. حتى صار أمرهم فى ذلك مشهورا و المثل بهم مضروبا و فى خبثهم و مكرهم يقول أبو نواس:

محضتكم يا أهل مصر نصيحتىألا فخذوا من ناصح بنصيب

رماكم أمير المؤمنين بحيةأكول لحيات البلاد شروب

فإن يك باق أفك فرعون فيكمفإن عصا موسى بكف خصيب

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: و قد مرّ لى قديما أن منطقة الجوزاء تسامت رؤوس أهل مصر. فلذلك يتحدّثون بالأشياء قبل كونها، و يخبرون بما يكون و ينذرون بالأمور المستقبلة. و لهم فى هذا الباب أخبار مشهورة.

قال ابن الطوير: و قد ذكر استيلاء الفرنج على مدينة صور، فعاد الحفظ و الحراسة على مدينة عسقلان فما زالت محمية بالأبدال المجرّدة إليها من العساكر و الأساطيل. و الدولة تضعف أوّلا فأوّلا باختلاف الآراء فثقلت على الأجناد و كبر أمرها عندهم، و اشتغلوا عنها فضايقها الفرنج حتى أخذوها فى سنة ثمان و أربعين و خمسمائة، و لقد سمعت رجلا قبل ذلك بسنين يحدّث بهذه الأمور و يقول فى سنة ثمان تؤخذ عسقلان بالأمان.

و من هذا الباب واقعة الكنائس التى للنصارى، و ذلك أنه لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى و عشرين و سبعمائة؛ و الناس فى صلاة الجمعة كأنما نودى فى إقليم مصر كله من قوص إلى الإسكندرية بهدم الكنائس. فهدم فى تلك الساعة بهذه المسافة الكبيرة عدد كثير من الكنائس كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، عند ذكر كنائس النصارى.

و من هذا الباب واقعة ألدمر و ذلك: أنه خرج الأمير ألدمر أمير جندار يريد الحج

من القاهرة فى سنة ثلاثين و سبعمائة؛ و كانت فتنة بمكة قتل فيها ألدمر يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة فأشيع فى هذا اليوم بعينه فى القاهرة و مصر و قلعة الجبل بأنّ وقعة كانت بمكة قتل فيها ألدمر فطار هذا الخبر فى ريف مصر و اشتهر، فلم يكترث الملك الناصر محمد بن قلاوون بهذا الخبر. فلما قدم المبشرون على العادة أخبروا بالواقعة. و قتل الأمير سيف الدين ألدمر فى ذلك اليوم الذى كانت الإشاعة فيه بالقاهرة. قال جامع السيرة الناصرية:

كنت مع الأمير علم الدين الخازن فى الغربية و قد خرج إليها كاشفا، فلما صليت أنا و هو صلاة الجمعة، و عدنا إلى البيت قدم بعض غلمانه من القاهرة فأخبرنا أنه أشيع بأن فتنة كانت بمكة، قتل فيها جماعة من الأجناد، و قتل فيها الأمير ألدمر أمير جندار. فقال له الأمير علم الدين: هل حضر أحد من الحجاز بهذا الخبر؟ قال: لا، فقال: و يحك، الناس ما تحضر من منى بمكة إلا ثالث يوم بعد عيد النحر، فكيف سمعتم هذا الخبر الذى لا يسمعه عاقل؟

فقال: قد استفيض ذلك و كان الأمر كما أشيع.

و وقع لى فى شهر رمضان من شهور سنة إحدى و تسعين و سبعمائة؛ أنى مررت فى الشارع بين القصرين بالقاهرة بعد العتمة فإذا العامّة تتحدّث بأن الملك الظاهر برقوق خرج من سجنه بالكرك و اجتمع عليه الناس فضبطت ذلك، فكان اليوم الذى خرج فيه من السجن و فى هذا الباب من هذا كثير.

و من أخلاق أهل مصر: قلة الغيرة و كفاك ما قصه اللّه سبحانه و تعالى من خبر يوسف عليه السلام و مراودة امرأة العزيز له عن نفسه، و شهادة شاهد من أهلها عليها بما بيّن لزوجها منها السوء، فلم يعاقبها على ذلك بسوى قوله: اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ [يوسف/ ۲۹].

و قال ابن عبد الحكم: و كان نساء أهل مصر حين غرق من غرق منهم، مع فرعون و لم يبق إلا العبيد و الأجراء لم يصبروا عن الرجال فطفقت المرأة تعتق عبدها، و تتزوّجه. و تتزوّج الأخرى أجيرها و شرطن على الرجال أن لا يفعلوا شيئا إلا بإذنهنّ، فأجابوهنّ إلى ذلك.

فكان أمر النساء على الرجال.

فحدّثنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب: أن نساء القبط على ذلك إلى اليوم إتباعا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹۳

لمن مضى منهم لا يبيع أحدهم و لا يشترى إلا قال: استأمر امرأتى. و قال: إن فرعون لما غرق و معه أشراف مصر. لم يبق من الرجال من يصلح للمملكة، فعدّ الناس فى مراتبهم بنت الملك؛ ملكة و بنت الوزير وزيرة و بنت الوالى و بنت الحاكم على هذا الحكم، و كذلك بنات القوّاد، و الأجناد فاستولت النساء على المملكة مدّة سنين و تزوّجن بالعبيد و اشترطن عليهم أن الحكم و التصرف لهنّ. فاستمرّ ذلك مدّة من الزمان، و لهذا صارت ألوان أهل مصر سمرا من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق، و استولدوهنّ؟!. و أخبرنى الأمير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد بن الغرابيلى الكركىّ رحمه اللّه تعالى: أنه مذ سكن مصر يجد من نفسه رياضة فى أخلاقه و ترخصا لأهله و لينا ورقة طبع من قلة الغيرة، و مما لم نزل نسمعه دائما بين الناس إن شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه.

و من أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر فى العواقب فلا تجدهم يدّخرون عندهم زادا كما هى عادة غيرهم من سكان البلدان بل يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة و عشيا.

و من أخلاقهم: الانهماك فى الشهوات و الإمعان من الملاذ و كثرة الاستهتار و عدم المبالاة قال لى شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه اللّه تعالى: أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب. و قد روى عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: أنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلدان، و أخلاق سكانها فقال: إن اللّه تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شىء لشىء فقال العقل: أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة: و أنا معك، و قال الخصب: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: و أنا معك، و قال الشقاء: أنا لاحق بالبادية، فقالت الصحة: و أنا معك.

و يقال: لما خلق اللّه الخلق خلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان و الحياء و النجدة و الفتنة و الكبر و النفاق و الغنى و الفقر و الذل و الشقاء، فقال الإيمان: أنا لاحق باليمن، فقال الحياء:

و أنا معك. و قالت النجدة: أنا لا حقة بالشام، فقالت الفتنة: و أنا معك. و قال الكبر: أنا لاحق بالعراق، فقال النفاق: و أنا معك. و قال الغنى: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: و أنا معك. و قال الفقر: أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء: و أنا معك.

و عن ابن عباس رضى اللّه عنهما: المكر عشرة أجزاء. تسعة منها فى القبط و واحد فى سائر الناس. و يقال: أربعة لا تعرف فى أربعة: السخاء فى الروم، و الوفاء فى الترك، و الشجاعة فى القبط، و العمر فى الزنج.

و وصف ابن العربية أهل مصر فقال: عبيد لمن غلب. أكيس الناس صغارا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹۴

و أجلهم كبارا. و قال المسعودى: لما فتح عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه البلاد على المسلمين من العراق و الشام و مصر، و غير ذلك، كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنا لناس عرب قد فتح اللّه علينا البلاد، و نريد أن نتبوّأ الأرض، و نسكن البلاد، و الأمصار.

فصف لی المدن و أهويتها و مساكنها و ما تؤثره الترب و الأهوية فی سكانها. فكتب إليه: و أما أرض مصر؛ فأرض قوراء غوراء ديار الفراعنة، و مساكن الجبابرة ذمّها أكثر من مدحها، هواؤها كدر، و حرّها زائد، و شرّها مائد تكدر الألوان و الفطن و تركب الإحن و هی معدن الذهب و الجوهر، و مغارس الغلات. غير أنها تسمن الأبدان و تسودّ الإنسان و تنمو فيها الأعمار و فی أهلها مكر و رياء و خبث و دهاء و خديعة. و هی بلدة مكسب ليست بلدة مسكن لترادف فتنها و اتصال شرورها.

و قال عمر بن شبه: ذكر ابن عبيدة فی كتاب أخبار البصرة عن كعب الأحبار: خير نساء علی وجه الأرض: نساء أهل البصرة إلا ما ذكر النبیّ صلی اللّه عليه و سلم من نساء قريش، و شرّ نساء علی وجه الأرض: نساء أهل مصر.

و قال عبد اللّه بن عمرو: لما أهبط إبليس، وضع قدمه بالبصرة، و فرخ بمصر. و قال كعب الأحبار: و مصر أرض نجسة كالمرأة العاذل يطهرها النيل كل عام.

و قال معاوية بن أبی سفيان: وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف: فثلث ناس، و ثلث يشبه الناس، و ثلث لا ناس. فأما الثلث الذين هم الناس: فالعرب، و الثلث الذين يشبهون الناس: فالموالی، و الثلث الذين لا ناس: المسالمة- يعنی القبط-.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹۵

ذكر شیء من فضائل النيل

اشارة

أخرج مسلم من حديث أنس رضی اللّه عنه فی حديث المعراج: أنّ النبیّ صلی اللّه عليه و سلم قال:

«ثم رفعت لی سدرة المنتهی فإذا نبقها مثل قلال هجر و إذا ورقها مثل آذان الفيلة. قلت: ما ذا يا جبريل؟ قال: هذه سدرة المنتهی، و إذا أربعة أنهار: نهران باطنان، و نهران ظاهران.

فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران فی الجنة، و أما الظاهران فالنيل و الفرات». و فی التوراة: و خلق فردوسا فی عدن، و جعل الإنسان فيه و أخرج منه نهران فقسمهما أربعة أجزاء: جيحون المحيط بأرض حويلا، و سيحون المحيط بأرض كوش و هو نيل مصر و دجلة الأخذ إلی العراق و الفرات.

و روی ابن عبد الحكم عن عبد اللّه بن عمر رضی اللّه عنهما أنه قال: نيل مصر سيد الأنهار سخر اللّه له كل نهر بين المشرق و المغرب، فإذا أراد اللّه أن يجری نيل مصر أمر كل نهر أن يمدّه فتمدّه الأنهار بمائها و فجر اللّه له الأرض عيونا فأجرته إلی ما أراد اللّه عز و جل.

فإذا انتهت جريته أوحی إلی كل ماء أن يرجع إلی عنصره.

و عن يزيد بن أبی حبيب: أن معاوية بن أبی سفيان رضی اللّه عنه سأل كعب الأحبار: هل تجد لهذا النيل فی كتاب اللّه خبرا؟ قال: أی و الذی فلق البحر لموسی إنی لأجده فی كتاب اللّه إن اللّه يوحی إليه فی كل عام مرّتين يوحی إليه عند جريته أن اللّه يأمرك أن تجری فيجری ما كتب اللّه له، ثم يوحی إليه بعد ذلك يا نيل عد حميدا. و عن كعب الأحبار أنه قال: أربعة أنهار من الجنة وضعها اللّه فی الدنيا: النيل نهر العسل فی الجنة، و الفرات نهر الخمر فی الجنة، و سيحان نهر الماء فی الجنة، و جيحان نهر اللبن فی الجنة.

و قال المسعودی: نهر النيل من سادات الأنهار و أشراف البحار لأنه يرج من الجنة علی ما ورد به خبر الشريعة. و قد قال: إن النيل إذا زاد غاضت له الأنهار و الأعين و الآبار، و إذا غاض زادت فزيادته من غيضها و غيضه من زيادتها و ليس فی أنهار الدنيا نهر يسمی بحرا غير نيل مصر لكبره و استبحاره.

و قال ابن قتيبة فی كتاب غريب الحديث: و فی حديثه عليه السلام: «نهران مؤمنان،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹۶

و نهران كافران. أما المؤمنان: فالنيل و الفرات، و أما الكافران: فدجلة و نهر بلخ». إنما جعل النيل و الفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض و يسقيان الحرث، و الشجر بلا تعب فى ذلك و لا مؤنة، و جعل دجلة و نهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض و لا يسقيان إلا شيئا قليلا و ذلك القليل بتعب و مؤنة فهذان فى الخير و النفع كالمؤمنين، و هذان فى قلة الخير و النفع كالكافرين.

ذكر مخرج النيل و انبعاثه

اعلم أن البحر المحيط بالمعمور إذا خرج منه نهر الهند، افترق قطعا كما تقدّم و كان منه قطعة تسمى بحر الزنج و هى مما يلى: بلاد اليمن و بحر بربر.

و فى هذه القطعة عدّة جزائر منها: جزيرة القمر- بضم القاف و إسكان الميم وراء مهملة-. و يقال لهذه الجزيرة أيضا: جزيرة ملاى، و طولها أربعة أشهر فى عرض عشرين يوما إلى أقل من ذلك؛ و هذه الجزيرة تحاذى جزيرة سرنديب، و فيها عدة بلاد كثيرة منها قمرية، و إليها ينسب الطائر القمرى، و يقال: إن بهذه الجزيرة خشب ينحت من الخشبة ساق طوله ستون ذراعا يجذف على ظهره مائة و ستون رجلا، و إن هذه الجزيرة ضاقت بأهلها فبنوا على الساحل محلات يسكنونها فى سفح جبل يعرف بهم يقال له: جبل القمر.

و اعلم أن الجبال كلها متشعبة من الجبل المستدير بغالب معمور الأرض، و هو المسمى بجبل قاف و هو أم الجبال، كلها تتشعب منه فيتصل فى موضع، و ينقطع فى آخر، و هو كالدائرة لا يعرف له أوّل إذ كان كالحلقة المستديرة لا يعرف طرفاها و إن لم يكن استدارة كريه و لكنها استدارة إحاطة.

و زعم قوم أن أمّهات الجبال جبلان: خرج أحدهما من البحر المحيط فى المغرب آخذا جنوبا، و خرج الآخر من البحر الرومى آخذا شمالا، حتى تلاقيا عند السدّ، و سموا الجنوبىّ قاف، و سموا الشمالى قاقونا، و الأظهر أنه جبل واحد، و محيط بغالب بسيط المعمور، و أنه هو الذى يسمى بجبل قاف، فيعرف بذلك فى الجنوب و يعرف فى الشمال بجبل قاقونا. و مبدأ هذا الجبل المحيط من كتف السدّ آخذا من وراء صنم الخط المشجوج إلى شعبته الخارجة منه المعمول بها باب الصين أخذا على غربى صين الصين، ثم ينعطف على جنوبه مستقيما فى نهاية الشرق على جانب البحر المحيط، مع الفرجة المنفرجة بينه و بين البحر الهندى الداخلة، ثم ينقطع عند مخرج البحر الهندىّ المحيط مع خط الاستواء.

حيث الطول مائة و سبعون درجة، ثم يتصل من شعبة البحر الهندى الملاقى لشعبة المحيط الخارجة إلى بحر الظلمات من الشرق بجنوب كثير من وراء مخرج البحر الهندى فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹۷

الجنوب؛ و تبقى الظلمات من هاتين الشعبتين شعبة المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقا مغربا؛ و مخرج البحر الهندى الجائية على الظلمات حتى تتلاقى الشعبتان عند مخرج هذا الجبل كتفصيل السراويل؛ ثم ينفرج برأس البحرين شعبتان على مبدأ هذا الجبل، و يبقى الجبل بينهما كأنه خارج من نفس الماء.

و مبدأ هذا الجبل هنا وراء قبة أرين عن شرقيها، و بعده منها خمس عشرة درجة.

و يقال لهذا الجبل فى أوّله: المجرّد، ثم يمتد حتى ينتهى فى القسم الغربى إلى طوله إلى خمس و ستين درجة؛ من أوّل المغرب و هناك يتشعب من الجبل المذكور جبل القمر، و ينصب منه النيل و به أحجار برّاقة كالفضة تتلألأ تسمى: ضحكة الباهت كل من نظرها ضحك، و التصق بها حتى يموت و يسمى: مغناطيس الناس. و يتشعب منه شعب تسمى:

أسيفى أهله كالوحوش، ثم ينفرج منه فرجة و يمرّ منه شعب إلى نهاية المغرب فى البحر المحيط يسمى: جبل وحشية به سباع لها قرون

طوال لا- تطاق، و ينطف دون تلك الفرجة من جبل قاف شعاب منها شعبتان إلى خط الاستواء يكتنفان مجرى النيل من الشرق و الغرب، فالشرقى يعرف: بجبل قاقول، و ينقطع عند خط الاستواء.

و الغربى يعرف: بأدمرية يجرى عليه نيل السودان المسمى ببحر الدمادم، و ينقطع تلقاء مجالات الحبشة ما بين مدينة سفرة و حيمى وراء هذه الشعبة يمتدّ منه شعبة هى الأم من الموضع المعروف فيه الجبل بأسيفى المذكور إلى خط الاستواء حيث الطول هناك عشرون درجة، و يعرف هناك بجبل كرسقابه، و به وحوش ضارية ثم ينتهى إلى البحر المحيط، و ينقطع دونه بفرجة. و ذلك وراء التكرور عند مدينة قلمتبور أو وراء هذا الجبل سودان يقال لهم: تمتم يأكلون الناس، ثم تتصل الأم من ساحل البحر الشامى فى شماله شرقى رومية الكبرى مسامتا للشعبة المسماة أدمدمه المنقطعة بين سمعرة، و حيمى لا- يكاد يخطوها حيث الطول خمس و ثلاثون درجة، و يقع منشأ اتصال هذه الأم على عرض خمسين درجة، و كذلك تقطع شعبها الآخذة فى الجنوب على عرض خمسين درجة عند آخرها ما بين سردانة و بلنسية و تتناهى، وصلة هذه الأم إلى البحر المحيط فى نهاية الشمال قبالة جزيرة بركانية. و تبقى سوسية داخل الجبل.

ثم تمتد هذه الأم بعد انقطاع لطيف، و ينعطف انعطاف خرجة البحر المحيط فى المغرب على الصقلب المسماة ببحر الأنفلشين، ممتدا إلى غاية المشرق و يسمى هناك بجبل قاقونا و يبقى وراءه البحر جامدا لشدة البرد، ثم ينعطف من الشمال إلى المشرق جنوبا بتغريب إلى كتف السدّ الشمالى فيتلاقى هناك الطرفان و بينهما فى الفرجة المنفرجة سوّى ذو القرنين بين الصدفين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹۸

و فى

جزيرة القمر، ثلاثة أنهار: أحدها فى شرقيها من قنطورا و معلا، و ثانيها فى غربيها ينصب من جبل قدم آدم على مدينة سبا، و يأخذ مارا على مدينة فردرا، و ينجر هناك بحيرة فى جنوبها مدينة كيما، حيث محل السودان الذين يأكلون الناس. و ثالثها فى غربيها أيضا و يخرج من الجبل المشبه ماء محدودب الذيل يطوف بمدينة دهما فتبقى مدينة دهما فى جزيرة بينهما يكون هو محيطا بها شرقا و جنوبا و غربا و يصير لذلك كالجزيرة، و يتصل شمالها بالبحر الهندى، و تقع مدينة قوارة فى غربيه، حيث يصب فى البحر الهندى.

و من جبل القمر يخرج نهر النيل، و قد كان يتبدّد على وجه الأرض فلما قدم نقراوش الحدار بن مصريم الأوّل ابن مركابيل ابن دوابيل بن عرباب ابن آدم عليه السلام إلى أرض مصر و معه عدّة من بنى عرباب، و استوطنوها، و بنوا بها مدينة أمسوس و غيرها من المدائن حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم، و لم يكن قبل ذلك معتدل الجرى بل ينبطح، و يتفرّق فى الأرض حتى وجه إلى النوبة الملك نقراوش، فهندسوه و ساقوا منه أنهارا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها، و ساقوا منه نهرا إلى مدينة أمسوس، ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان، و كانت أيام البودشيرين قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام عدل جانبى النيل تعديلا ثانيا بعدما أتلفه الطوفان.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فملك البودشير، و تجبر، و هو أوّل من تكهن، و عمل بالسحر، و احتجب عن العيون و قد كانت أعمامه أشمن و أتريب وصا ملوكا على أحيازهم. إلا أنه قهرهم بجبروته، و قوّته فكان الذكر له كما تجبر أبوه على من قبله لأنه كان أكبرهم و لذلك أغضوا عنه فيقال: إنه أرسل هرمس- الكاهن المصرى- إلى جبل القمر الذى يخرج النيل من تحته، حتى عمل هناك التماثيل النحاس، و عدل البطيحة التى ينصب فيها ماء النيل. و يقال: إنه الذى عدل جانبى النيل، و قد كان يفيض و ربما انقطع فى مواضع.

و هذا القصر الذى فيه تماثيل النحاس يشتمل على خمس و ثمانين صورة جعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد و مصاب مدورة و قنوات يجرى فيها الماء و ينصب إليها إذا خرج من تحت جبل القمر حتى يدخل من تلك الصور، و يخرج من حلوقها، و جعل لها قياسا معلوما بمقاطع، و أذرع مقدّرة، و جعل ما يخرج من هذه الصور من الماء ينصب إلى الأنهار ثم يصير منها

إلى بطيحتين، و يخرج منهما حتى ينتهى إلى البطيحة الجامعة للماء الذى يخرج من تحت الجبل، و عمل لتلك الصور مقادير من الماء الذى يكون معه الصلاح بأرض مصر. و ينتفع به أهلها دون الفساد، و ذلك الانتهاء المصلح ثمانية عشر ذراعا بالذراع الذى مقداره اثنان و ثلاثون إصبعا. و ما فضل عن ذلك عدل عن يمين تلك الصور، و شمالها إلى مسارب يخرج، و يصب فى رمال و غياض لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء. و لو لا ذلك لغرّق ماء النيل البلدان التى يمر عليها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۹۹

قال: و كان الوليد بن دومع العمليقى، قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان، و يقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها. فلما صار إلى الشام انتهى إليه خبر مصر، و عظم قدرها و إن أمرها قد صار إلى النساء، و باد ملوكها. فوجه غلاما له يقال له: عون إلى مصر، و سار إليها بعده، و استباح أهلها و أخذ الأموال، و قتل جماعة من كهنتها، ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل. فيعرف ما بحافتيه من الأمم فأقام ثلاث سنين يستعدّ لخروجه و خرج فى جيش عظيم فلم يمرّ بأمّة إلا أبادها، و مرّ على أمم السودان، و جاوزهم و مرّ على أرض الذهب، فرأى فيها قضبانا نابتة من ذهب، و لم يزل يسير حتى بلغ البطيحة التى ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القمر. و سار حتى بلغ البطيحة هيكل الشمس، و تجاوزه حتى بلغ جبل القمر، و هو جبل عال و إنما سمى: جبل القمر لأنّ القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت خط الاستواء، و نظر إلى النيل يخرج من تحته فيمرّ فى طريق و أنهار دقاق حتى ينتهى إلى حظيرتين، ثم يخرج منهما فى نهرين حتى ينتهى إلى حظيرة أخرى، فإذا جاوز خط الاستواء مدّته عين تخرج من ناحية نهر مكران بالهند؛ و تلك العين أيضا تخرج من تحت جبل القمر إلى ذلك الوجه. و يقال: إن نهر مكران، مثل النيل يزيد و ينقص، و فيه التماسيح و الأسماك التى مثل أسماك النيل.

و وجد الوليد بن دومع: القصر الذى فيه التماثيل النحاس التى عملها هرمس الأوّل فى وقت البودشير بن قنطريم بن قبطيم ابن مصرايم. و قد ذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب التى من وراء البحر المظلم و هى سيحون، و جيحون، و الفرات، و النيل. و أن تلك الأرض من أرض الجنة. و أن تلك القبة من زبرجد، و أنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل و أطيب رائحة من الكافور.

و ممن جاء بهذا رجل من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام وصل إلى تلك القبة؛ و قطع البحر المظلم و كان يقال له: حايد، و قال آخرون: تنقسم هذه الأنهار على اثنين و سبعين قسما حذاء اثنين و سبعين لسانا للأمم. و قال آخرون: هذه الأنهار من ثلوج تتكاثف و يذيبها الحرّ، فتسيل إلى هذه الأنهار و تسقى من عليها لما يريد اللّه عز و جل من تدبير خلقه قالوا: و لما بلغ الوليد جبل القمر، رأى جبلا عاليا؛ فعمل حيلة إلى أن صعد إليه ليرى ما خلفه، فأشرف على البحر الأسود الزفتى المنتن، و نظر إلى النيل يجرى عليه كالأنهار الدقاق. فأتته من ذلك البحر روائح منتنة هلك كثير من أصحابه من أجلها، فأسرع النزول بعد أن كاد يهلك.

و ذكر قوم: أنهم لم يروا هناك شمسا و لا قمرا إلا نورا أحمر كنور الشمس عند غيابها.

و أما ما ذكر عن حايد و قطعه البحر المظلم ماشيا عليه لا يلصق بقدمه منه شىء؛ و كان فيما يذكر نبيا و أوتى حكمة و أنه سأل اللّه تعالى: أن يريه منتهى النيل، فأعطاه قوّة على ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۰

فيقال: إنه أقام يمشى عليه ثلاثين سنة فى عمران و عشرين سنة فى خراب. قالوا: و أقام الوليد فى غيبته أربعين سنة، و عاد و دخل منف، و أقام بمصر فاستعبد أهلها و استباح حريمهم و أموالهم و ملكهم مائة و عشرين سنة؛ فأبغضوه و سئموه إلى أن ركب فى بعض أيامه متصيدا فألقاه فرسه فى و هدة فقتله، و استراح الناس منه.

و قال قدامة بن جعفر فى كتاب الخراج: انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار كل خمسة منها تصب إلى بطيحة، ثم يخرج من كل بطيحة نهران، و تجرى الأنهار الأربعة إلى بطيحة كبيرة فى الإقليم الأوّل، و من هذه البطيحة

يخرج نهر النيل.

و قال فى كتاب نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق: إن هذه البحيرة تسمى بحيرة كورى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها. متوحشين يأكلون من وقع إليهم من الناس، و من هذه البحيرة يخرج لهم نهر غانة و بحر الحبشة، فإذا خرج النيل منها يشق بلاد كورى، و بلادينه. و هم طائفة من السودان بين كاتم و النوبة فإذا بلغ دنقلة مدينة النوبة عطف من غربيها، و انحدر إلى الإقليم الثانى فيكون على شطيه عمارة النوبة. و فيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن و القرى ثم يشرق إلى الجنادل.

و قال المسعودى رحمه اللّه تعالى: رأيت فى كتاب جغرافيا: النيل مصوّرا ظاهرا من تحت جبل القمر، و منبعه و مبدأ ظهوره من اثنى عشرة عينا؛ فتصب تلك المياه إلى بحيرتين هنالك كالبطائح ثم يجتمع الماء منهما جاريا فيمرّ برمال هنالك و جبال، و يخرق أرض السودان فيما يلى بلاد الزنج، فيتشعب منه خليج يصب فى بحر الزنج، و يجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ. و قيل: ألف فرسخ فى عامر و غامر من عمران، و خراب حتى يأتى أسوان من صعيد مصر.

و قال فى كتاب هردسوس: نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم، ثم يميل إلى ناحية الغرب فيصير فى وسطه جزيرة، و آخر ذلك يميل إلى ناحية الشمال فيسقى أرض مصر.

و قيل: إن مخرجه من عين فيما يجاوز الجبل، ثم يغيب فى الرمال ثم يخرج غير بعيد فيصير له محبس عظيم، ثم يساير البحر المحيط على قفار الحبشة، ثم يميل على اليسار إلى أرض مصر، فيحق ما يظن بهذا النهر أنه عظيم إذ كان مجراه على ما حكيناه.

قال: و نهر النيل و هو الذى يسمى بلون مخرجه خفيّ و لكن ظاهر إقباله من أرض الحبشة، و يصير له هناك محبس عظيم مجراه إليه مائتا ميل و ذكر مخرجه حتى ينتهى إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۱

البحر قال: و كثيرا ما يوجد فى نهر النيل التماسيح، و إقبال النيل من أرض الحبشة ليس يختلف فيه أحد، و عدّة أمياله من مخرجه المعروف إلى موقفه مائة ألف و تسعون ألفا و تسعمائة و ثلاثون ميلا.

و ماء النيل عكر مرمل عذب و فيّ، انتهى. و النيل إذا وصل إلى الجنادل كان عند انتهاء مراكب النوبة انحدار أو مراكب الصعيد إقلاعا. و هناك حجارة مضرسة لا مرور للمراكب عليها إلا فى أيام زيادة النيل. ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرقيه أسوان من الصعيد الأعلى، و يمرّ بين جبلين يكتنفان أعمال مصر أحدهما شرقيّ و الآخر غربى، حتى يأتى مدينة فسطاط مصر، فتكون فى بره الشرقيّ. فإذا تجاوز فسطاط مصر بمسافة يوم صار فرقتين: فرقة تمرّ حتى تصب فى بحر الروم عند دمياط، و تسمى هذه الفرقة: بحر الشرق، و الفرقة الأخرى هى: عمود النيل و معظمه يقال لها: بحر الغرب تمرّ حتى تصب فى بحر الروم أيضا عند رشيد، و كانت مدينة كبيرة فى قديم الزمان.

و يقال: إن مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب فى البحر عند رشيد سبعمائة و ثمانية و أربعون فرسخا. و أنه يجرى فى الخراب أربعة أشهر، و فى بلاد السودان شهرين، و فى بلاد الإسلام مسافة شهر.

و ذهب بعضهم إلى أن زيادة ماء النيل إنما تكون بسبب المدّ الذى يكون فى البحر فإذا فاض ماؤه تراجع النيل، و فاض على الأراضى و وضع فى ذلك كتابا حاصله: إن حركة البحر التى يقال لها المدّ و الجزر، توجد فى كل يوم و ليلة مرّتين، و فى كل شهر قمرىّ مرّتين، و فى كل سنة مرّتين. فالمدّ و الجزر اليومىّ تابع لقرص القمر، و يخرج الشعاع عنه من جنبتى جرم الماء.

فإذا كان القمر وسط السماء كان البحر فى غاية المدّ، و كذا إذا كان القمر فى وتد الأرض فإذا بزغ القمر طالعا من الشرق أو غرب كان الجزر. و المدّ الشهرى يكون عند استقبال القمر للشمس فى نصف الشهر، و يقال له: الامتلاء أيضا عند الاجتماع، و يقال له: السرار.

و الجزر يكون أيضا فى وقتين عند تربيع القمر للشمس فى سابع الشهر، و فى ثانى عشريه.

و المدّ السنوى يكون أيضا فى وقتين: أحدهما عند حلول الشمس آخر برج السنبلة، و الآخر عند حلول الشمس بآخر برج الحوت، فإن اتفق أن يكون ذلك فى وقت الامتلاء أو الاجتماع، فإنه حينئذ يجتمع الامتلاءان الشهرىّ و السنوىّ، و يكون عند ذلك البحر فى غاية الفيض لا- سيما إن وقع الاجتماع أو الامتلاء فى وسط السماء، و وقع مع النيرين أو مع أحدهما أحد الكواكب السيارة فإنه يعظم الفيض. فإن وقع كوكب فصاعدا مع أحد النيرين، تزايد عظم الفيض، و كانت زيادة النيل تلك السنة عظيمة جدا، و زاد أيضا نهر مهران. فإن كان الاجتماع أو الامتلاء زائلا- عن وسط السماء، و ليس مع أحد النيرين كوكب فإن النيل و نهر مهران لا يبلغان غاية زيادتهما لعدم الأنوار التى تثير المياه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۲

و يكون بمصر فى السنة الغلاء و الجزء السنوى يكون عند حلول الشمس برأسى الجدى و السرطان. فأما المدّ اليومىّ الدافع من البحر المحيط فإنه لا- ينتهى فى البحر الخارج من المحيط أكثر من درجة واحدة فلكية، و مساحتها من الأرض نحو من ستين ميلا- ثم ينصرف، و انصرافه هو الجزر و كذلك الأودية إذا كانت الأرض و هدة، و المدّ الشهرى ينتهى إلى أقاصى البحار، و هو يمسكها حتى لا- تنصب فى البحر المحيط، و حيث ينتهى المدّ الشهرىّ فهناك منتهى ذلك البحر و طرفه. و أما المدّ السنوى فإنه يزيد فى البحار الخارجة عن البحر المحيط زيادة بينة، و من هذه الزيادة تكون زيادة النيل و امتلاؤه، و امتلاء نهر مهران، و الديتلو الذى ببلاد السند. قال: و لما جاء أرسطو إلى مصر مع الإسكندر و رأى مصب النيل، و علم أن من المحال أن يكون النيل فى أسوان واد من الأودية. و كلما استحل اتسع حتى أن عرضه فى أسفل ديار مصر لينتهى إلى مائة ميل عند غاية الفيض، و له أفواه كثيرة شارعه فى البحر تسع كل ما يهبط من الميزان فى ذلك الصنع، فرأى محالا أن يكون الوادى بحيث يضيق أسفله عن حمل ما يأتى به أعلاه مع ضيق أعلاه وسعة أسفله.

فلما رأى ذلك قال: إن رياحا تستقبل جرية الماء و تردعه، فيفيض لذلك. و قال الإسكندر: إن من المحال أن يكون الريح يردع الماء السائل فى الوادى حتى يفيض أكثر من مائة ميل، و لو كانت الريح تفعل ذلك لكان الماء السائل ينفلت من أسفل الوادى، و يسيل إلى البحر، لأن البحر لا- يمسك إلا أعلاه؛ و لكن الرياح تقذف الرمل فى أفواه تلك الشوارع التى تفضى إلى البحر، فيعثر بها شبه الردم فيفيض. قال: و أغفل أن الرمل جسم متخلخل، فالماء يتخلله و ينفذه سائلا إلى البحر، مع أن الرمل لم يعتل اعتلاء يظهر للحسن، و الماء سائل فى كل حين على حلق تنيس و دمياط و حلق رشيد و حلق الإسكندرية، ففطنوا لاستحالة كونه سائلا عن سيل حامل و نسبوا توقفه إلى الريح و الرمل. و هم استقصوا الهواء و استقصوا الأرض و أغفلوا الاستقصاء الثالث الذى هو الماء لأنهم لم يعرفوا حركة البحر السنوية لأنها لا تبلغ الغاية إلا فى ثلاثة أشهر فلا يظهر مقدار صعودها فى كل يوم للحس. و لذلك وضع أمير مصر المقياس بديار مصر.

قال: و المدّ كله واحد و هو أن القمر يقابل الماء كما تقابل الشمس الأرض، فنور القمر إذا قابل كرة الأرض سخنها كما تسخن الشمس الهواء المحيط فيعترى الهواء المحيط بالماء بعض تسخين يذيب الماء، فيفيض و ينمى بخاصته كالمرآة المحرقة الملهبة للجوّ حتى تحرق القطنة الموضوعة بين المرآة و الشمس. فهذا مثاله فى المقابلة و مثاله فى المسرار كون الزجاجة المملوءة ما يلقى الشعاع إلى حلقها، فتحترق القطنة أيضا. فالقمر جسم نورىّ باكتسابه ذلك من الشمس. فإذا حال بين الشمس و الأرض خرج عن جانبى الماء شعاع نافذ يمرّ مع جنبى الماء فيسخن ما قابله فينمو. و الماء جسم شفاف عن جانبيه يخرج الشعاع كما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۳

يخرج عن جانبى الزجاجة، فيحدث لها نور يسخن الهواء الذى يحيط بالزجاجة أو بالأرض، فيقترف الماء شبه تسخين ينمى به و يزيد و ذلك قبالة القرص، و قبالة مخرج الشعاع من قبالة وتد القمر، فهذا هو المدّ دائما، و يستدير باستدارة الفلك، و تدويره لفلك القمر و تدوير فلك القمر للقمر.

و المدّ الشهريّ هو أن يقابل القمر الشمس أو يستتر تحتها. لأنه ليس إلا كون القمر قبالة الشمس لكونه فى تربيع الشمس أضعف و فى المقابلة أقوى، و كذلك إذا قابلها على وسط كرة الأرض بحيث تكون الحركة أشدّ، و الاكتناف للماء و الأرض أعم فذلك هو المدّ السنوى.

فصل فى الردّ على من اعتقد أن النيل من سيل يفيض

أما العامة فليس عندهم ما يجىء على وجه الأرض أنه سيل، و من تفطن إلى عظمه و اتساعه فى أسفله و ضيقه فى أعلاه، و لم ينظر إلى ماء و لا أرض، و لا هواء. نسب ذلك إلى الخيال المحض.

كما فعل صاحب كتاب المسالك و الممالك: الذى زعم أن الماء يسافر من كل أرض، و موطن إلى النيل تحت الأرض فيمدّه لأن النيل إنما يفيض فى الخريف. و العيون و الآبار فى ذلك الوقت يقل ماؤها، و النيل يكثر فرأوا كثرة و قلة فأضافوا أحدهما إلى الآخر بالخيال، و مما يدلك على أنه ليس عن سيل يفيض أن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر، و لا يفيض النيل لكون البحر فى الجزر، فيصل السيل و يمرّ نحو البحر، فلا يردعه رادع ..

و منها: أن فيض النيل على تدريج مدّة ثلاثة أشهر من حلول الشمس رأس السرطان إلى حلولها بآخر برج السنبلة، و الناس يحسبون به قبل فيضه بمدّة شهرين و لعامل مصر فى وسط النيل مقياس موضوع، و هو سارية فيها خطوط يسمونها أذرعا يعلم بها مقدار صعوده فى كل يوم ..

و منها: أن فيضه أبدا فى وقت واحد، فلو كان بالسيل لاختلف بعض الاختلاف.

و منها: أنه قد يجىء السيل فى غير هذا الوقت فلا يفيض.

و منها: أن الحذاق بمصر إذا رأوا الحر يزيد علموا أن النيل سيزيد لأنّ شدّة الحرّ تذيب الهواء فيذوب الماء، و لا يكون إلا عن زيادة كوكب، و دنوّ نور.

و منها: أن موضع مصبه من أسوان إنما هو واد من الأودية و ما أسحل اتسع حتى يكون عرض اتساعه نحوا من مائة ميل و أسوان هو منتهى بلوغ الردع، فما ظنك بسيل مسيره نصف شهر لا نسبة بين مصب أعلاه و أسفله، كيف كان يكون أعلاه لو كان امتلاء أسفله عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۴

السيل! و منها: أن أهل أسوان إنما يرقبون بلوغ الردع إليهم مراقبة، و يحافظون عليه بالنهار محافظة، فإذا جنّ الليل أخذوا حقة خزف، فوضعوا فيها مصباحا، ثم يضعونه على حجر معدّ عندهم لذلك. و جعلوا يرقبونه فإذا طفىء المصباح يطفو الماء عليه علموا أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم بأخذه فى الجزر فيكتبوا بذلك إلى أمير مصر يعلموه أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم و أنهم قد أخذوا بقسطهم من الشرب. فحينئذ يأمر بكسر الأسداد التى على أفواه قرص المشارب، فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة.

و منها: أن جميع تلك المشارب تسدّ عند ابتداء النيل بالخشب، و التراب ليجتمع ما يسيل من الماء العذب فى النيل، و يكثر و يعم جميع أرضهم و يمنع بجملته دخول الماء الملح عليه. فلو كان سيلا ما احتاج إلى ذلك، و لفتحت له أفواه قرص المشارب عند ابتداء ظهوره.

و منها: أن الخلجان إذا سدّت و لم يكن لها رادع من البحر كان السيل من جنبه إلى البحر إذ أسفل النيل أوسع و أخفض من أعلاه.

و منها: أن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى حلق رشيد و تنيس و دمياط، كما يفعل فى سائر الأودية التى تدخل المدّ و الجزر، فلو كان النيل خاليا من الماء العذب، وصل البحر من أسوان إلى منتهى بلوغ الردع، لأن الماء يطلب بطبعه ما انخفض من

الأرض و أن يكون فى صفحة كرة مستوية الخطوط الخارجة من النقطة إلى المحيط متساوية.

و منها: أنها إذا فتحت تلك الأسداد، و كسرت الخلج، و فاض النيل على بطائح أرض مصر. شعر بذلك أهل أسوان للحين، و قالوا فى هذه الساعة كسرت الخلج، وفاض ماء النيل على أرض مصر، لأن ذلك يتبين لهم بتحوّل الماء دفعة، فلو كان سيلا و هم على أعلى المصب لقالوا: قد ارتفع المطر عن الأرض التى يسيل منها السيل.

و منها: أن قسميه الذى يمرّ ببلاد الحبشة المنبعث و إياه من جبل القمر لا يفيض كمدّة فيض النيل ثلاثة أشهر، و لا يقيم على وجه الأرض مدّة مقامه. لكنه إذا كثر فيه السيل غمر جوانبه على قدر انبساطها، و إذا نصبت مادّته أردع عليه، فلو كان فيض النيل عن السيل و هما من شعب واحد لكان شأنهما واحدا، و لا نقول: إن فيض النيل بسبب فيض البحر فقط إذ لولا كونه سيل ماء لما دخل ردع البحر إليه و لكان شاطىء ديار مصر كسائر السواحل المجاورة له. و لولا السيل السائل فيه لردمه البحر إذ عادة البحر ردم السواحل، و إنما دخل الشك على أهل مصر فى أيام النيل، لأنهم لم يشاهدوا منشأه، و لا عاينوا مبدأه من جبل القمر. لأنه فى موضع لا ساكن عليه، و لا تحققوا المدّ السنوىّ الرادع له، فلم يتحققوا شيئا من أمره، لأنه بعيد من أذهان العامّة أن يعلموا: أن ماء البحر يعظم فى أيام الصيف، لأن المعهود عندهم فى البحر أن يعظم فى أيام الشتاء، و طمو البحر فى الشتاء إنما يكون عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۵

الرياح الهابة عليه من أحد جانبيه، فيفيض و يخرج إلى الجانب الآخر، إلا ما كان من البحر المحيط فإنه يتحرّك أبدا من داخل البحر إلى البر.

و هو أن المحيط يطلب بطبعه أن يكون على وجه الأرض، و الأرض ليست بسيطة، فهى تمانعه بما فيها من التركيب فهو يطلب أبدا أن يعلوها و يركبها ببردها. قال: و السبب فى عظم المدّ و الجزر كثرة الأشعة. فإذا زاحمت الشمس و القمر، الكواكب السيارة عظم فيض البحر، و إذا عظم فيض البحر فاضت الأنهار، و كذلك إذا نهض القمر لمقابلة أحد السيارة ارتفع البخار، و صعد إلى كورة الزمهرير، و نزل المطر فإذا فارق القمر الكواكب ارتفع المطر لكثرة التحليل. كما يكون فى نصف النهار عند توسط الشمس لرؤوس الخلق، و كما يكون عند حلول الكواكب الكبيرة على وسط خط أرين، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: الذى تحصل من هذا القول إن النيل مخرجه من جبل القمر. و أن زيادته إنما هى من فيض البحر عند المدّ فأما كون مخرجه من جبل القمر فمسلم، إذ لا نزاع فى ذلك.

و أما كون زيادته لا تكون إلا من ردع البحر له بما حصل فيه من المدّ فليس كذلك.

نعم توالى هبوب الرياح الشمالية على وفور الزيادة، و ردع البحر له إعانة على الزيادة، و من تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه، و لا بد فإنه لا يزال أيام الشتاء، و أوائل فصل الربيع ماؤه صافيا من الكدرة فإذا فرغت أيام زيادته، و كان فى غاية نقصه تغير طعمه، و مال لونه إلى الخضرة، و صار بحيث إذا وضع فى إناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب. و سبب ذلك: أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة و نحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها فإذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف، و عظمت السيول الهابطة فى هذه البطيحة، فاض منها ما تغير من الماء و جرى إلى أرض مصر فيقال عند ذلك: توحم النيل، و لا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير، و يزاد عكره بزيادة الماء، فإذا وضع منه أيام الزيادة شيء فى إناء رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة و هذا الطين هو الذى تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها و فيه يكون الزرع بعد هبوط النيل، و إلا فأرض مصر سبخة لا تنبت، و لا ينبت منها إلا ما مرّ عليه ماء النيل، و ركد منه هذا الطين و قوله: إن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر و لا يفيض النيل لكون البحر فى الجزر فيصل السيل، و يمرّ نحو البحر، فلا يردعه رادع غير مسلم و إن العادة أن السيول التى عليها زيادة ماء النيل لا تكون إلا عن غزارة الأمطار ببلاد الجنوب و أمطار الجنوب لا تكون إلا فى أيام الصيف، و لم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء. و أول دليل على أن كون زيادته عن سيل يسيل فيه إنما يزيد بتدريج على قدر ما يهبط فيه من السيول.

و أما استدلاله بصب النيل فى أسوان و اتساعه أسفل الأرض فإنما ذلك لأنه يصب من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۶

علو فى منخرق بين جبلين، يقال لهما: الجنادل و ينبطح فى الأرض حتى يصب فى البحر، فاتساعه حيث لا يجد حاجزا يحجزه عن الانبساط. و أما قوله: إن الأسداد إذا كثرت فاض الماء على الأرض دفعة فليس كذلك؟ بل يصير الماء عند كسر كل سدّ من الأسداد فى خليج، ثم يفتح ترع من الخليج إلى الخليج إلى ما على جانبه من الأراضى حتى يروى.

فمن تلك الأراضى ما يروى سريعا، و منها ما يروى بعد أيام، و منها ما لا يروى لعلوّه.

و أما قوله: إن جميع تلك المشارب تستدّ عند ابتداء صعود النيل ليجتمع ما يسيل من الماء فى النيل، و يكثر فيعم جميع أرضهم، و يمنع بجملته دخول الماء الملح عليه، فغير مسلّم أن تكون السداد كما ذكر. بل أراضى مصر أقسام كثيرة منها: عال لا يصل إليه الماء إلا من زيادة كثيرة، و منها: منخفض يروى من يسير الزيادة و الأراضى متفاوتة فى الارتفاع و الانخفاض تفاوتا كثيرا. و لذلك احتيج فى بلاد الصعيد إلى حفر الترع. و فى أسفل الأرض إلى عمل الجسور حتى يحبس الماء ليروى أهل النواحى على قدر حاجتهم إليه عند الاحتياج. و إلا فهو يزيد أولا فى غير سقى الأراضى حتى إذا اجتمع من زيادته المقدار الذى هو كفاية الأراضى فى وقت خلوّ الأراضى من الغلال. و ذلك غالبا فى أثناء شهر مسرى فتح سدّ الخليج حتى يجرى فيه الماء إلى حدّ معلوم، و وقف حتى يروى ما تحت ذلك الحدّ الذى وقف عنده الماء من الأرض.

ثم فتح ذلك الحدّ فى يوم النيروز حتى يجرى إلى حدّ آخر، و يقف عنده حتى يروى ما تحت هذا الحدّ الثانى من الأراضى، ثم يفتح هذا الحدّ فى يوم عيد الصليب بعد النوروز بسبعة عشر يوما حتى يجرى الماء، و يقف على حدّ ثالث حتى يروى ما تحت هذا الحدّ من الأراضى، ثم يفتح هذا الحدّ فيجرى الماء، و يروى ما هنالك من الأراضى، و يصب فى البحر الملح.

هذا هو الحال فى سدود أراضى مصر و قوله: إن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى حلق رشيد و تنيس و دمياط فلو كان خاليا من الماء العذب لوصل البحر من أسوان إلى منتهى بلوغ الردع فنقول: هذا قول من لم يعرف أرض مصر، فإن النيل عند مصبه بأعالى أسوان يكون أعلى منه عند كونه أسفل الأرض بقامات عديدة. فإذا فاض ماء البحر حبسه أن يتدافع هو و ماء النيل، و ربما غلب ماء البحر ماء النيل فى أيام نقصان النيل حتى يملح ماء النيل فيما بين دمياط و فارس كور.

و أما فى أيام زيادة النيل، فإنى شاهدت مصب النيل فى البحر من دمياط و كل منهما يدافع الآخر فلا يطيقه حتى صارا متمانعين عبرة لمن اعتبر. و قوله: إن الأسداد إذا فتحت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۷

علم أهل أسوان بذلك فى الحال غير مسلم، بل لم نزل نشاهد النيل فى الأعوام الكثيرة إذا فتح منه خليج أو انقطع مقطع فأغرق ماؤه أراضى كثيرة لا- يظهر النقص فيه إلا- فيما قرب من ذلك الموضع، و ما برح المفرد يخرج من قوص ببشارة وفاء النيل. و قد أوفى عندهم ستة عشر ذراعا، فلا يوفى ذلك المقياس بمصر إلا بعد ثلاثة أيام و نحوها. و أما قوله: إن ما كان من النيل يمرّ ببلاد الحبشة يخالفه فليس كذلك، بل الزيادة فى النيل أيام زيادته تكون ببلاد النوبة، و ما وراءها فى الجنوب كما تكون فى أرض مصر، و لا فرق بينهما إلا فى شيئين:

أحدهما: أنه فى أرض مصر يجرى فى حدود و هناك يتبدّد على الأراضى، و الثانى: أن زيادته تعتبر بالقياس فى أرض مصر، و هناك لا يمكن قياسه لتبدّده و من عرف أخبار مصر علم أن زيادة ماء النيل تكون عن أمطار الجنوب.

و يقال: إن النيل ينصب من عشرة أنهار من جبل القمر المتقدّم ذكره. كل خمسة أنهار من شعبة، ثم تتبحر تلك الأنهار العشرة فى بحرين، كل خمسة أنهار تتبحر بحيرة بذاتها، ثم يخرج من البحيرة الشرقية بحر لطيف يأخذ شرقا على جبل قاقولى، و يمتدّ إلى مدن هناك، ثم يصب فى البحر الهندى.

و يخرج من البحيرتين ستة أنهار من كل بحيرة ثلاثة أنهار، و تجتمع الأنهار الستة فى بحيرة متسعة تسمى البطيحة، و فيها جبل يفرّق الماء نصفين يخرج أحدهما من غرب البطيحة، و هو نيل السودان، و يصير نهرا يسمى بحر الدمادم، و يأخذ مغربا ما بين سمغرة و غانة على جنوبىّ سمغرة و شمالىّ غانة، ثم ينعطف هناك. منه فرقة ترجع جنوبا إلى غانة، ثم تمرّ على مدينة برنسة، و تأخذ تحت جبل فى جنوبها خارج خط الاستواء إلى زفيلة، ثم تتبحر فى بحيرة هناك و تستمرّ الفرقة الثانية مغرّبة إلى بلاد مالى و التكرور، حتى تنصب فى البحر المحيط شمالىّ مدينة قلبتو، و يخرج النصف الآخر متشاملا آخذا على الشمال إلى شرقىّ مدينة حيما، ثم يتشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقا إلى مدينة سحرت. ثم ترجع جنوبا ثم تعطف شرقا بجنوب إلى مدينة سحرتة، ثم إلى مدينة مركة.

و ينتهى إلى خط الاستواء حيث الطول خمس و ستون درجة، و يتبحر هناك بحيرة و يسمى:

عمود النيل من قبالة تلك الشعبة شرقىّ مدينة شيمى متشاملا آخذا على أطراف بلاد الحبشة، ثم يتشامل على بلاد السودان إلى مدينة دنفلة حتى يرمى على الجنادل إلى أسوان، و ينحدر و هو يشق بلاد الصعيد إلى مدينة فسطاط مصر، و يمرّ حتى يصب فى البحر الشامىّ، و قد استفيض ببلاد السودان أن النيل ينحدر من جبال سود يبين على بعد كأن عليها الغمام ثم يتفرّق نهرين يصب أحدهما فى البحر المحيط إلى جهة بحر الظلمة الجنوبىّ، و الآخر يتصل إلى مصر حتى يصب فى البحر الشامىّ. و يقال: إنه فى الجنوب يتفرّق سبعة أنهار تدخل فى صحراء منقطعة، ثم تجتمع الأنهار السبعة، و تخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا فى بلاد السودان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۸

ذكر مقاييس النيل و زيادته

قال ابن عبد الحكم: أوّل من قاس النيل بمصر، يوسف عليه السلام، وضع مقياسا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة ابنة زبا و هى صاحبة حائط العجوز مقياسا بأنصنا . و هو صغير الذرع، و مقياسا بإخميم ، و وضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان ، و هو صغير و وضع أسامة بن زيد التنوخىّ فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة ، و هو أكبرها.

قال يحيى بن بكير: أدركت القياس يقيس فى مقياس منف و يدخل بزيادته إلى الفسطاط.

و قال القضاعىّ: كان أوّل من قاس النيل بمصر، يوسف عليه السلام و بنى مقياسا بمنف و هو أوّل مقياس وضعه عليه السلام. و قيل: إن النيل كان يقاس بمصر بأرض علوة إلى أن بنى مقياس منف.

و أن القبط كانت تقيس عليه إلى أن بطل و من بعده دلوكة العجوز بنت مقياسا بانصنا، و هو صغير الذرع و آخر بأخميم و هى التى بنت الحائط المحيط بمصر. و قيل: إنهم كانوا يقيسون الماء قبل أن يوضع المقياس بالرصاصة فلم يزل المقياس فيما مضى قبل الفتح بقيسارية الأكسية و معالمه هناك إلى أن ابتنى المسلمون بين الحصن، و البحر أبنيتهم الباقية الآن. و كان للروم أيضا مقياس بالقصر خلف الباب يمنة من دخل منه فى داخل الزقاق أثره قائم إلى اليوم و قد بنى عليه و حواليه.

ثم بنى عمرو بن العاص عند فتحه مصر مقياسا بأسوان ثم بنى بموضع يقال له:

دندرة، ثم بنى فى أيام معاوية مقياس بانصنا، فلم يزل يقاس عليه إلى أن بنى عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان و كانت منزله، و كان هذا المقياس صغير الذرع. فأمّا المقياس القديم الذى بنى فى الجزيرة فالذى وضعه أسامة بن زيد. و قيل: إنه كسر فيه ألفى أوقية، و هو الذى بنى بيت المال بمصر. ثم كتب أسامة بن زيد التنوخىّ، عامل خراج مصر لسليمان بن عبد الملك ببطلانه، فكتب إليه سليمان بأن يبنى مقياسا فى الجزيرة فبناه فى سنة سبع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۰۹

و تسعين، ثم بنى المتوكل فيها مقياسا فى أوّل سنة سبع و أربعين و مائتين فى ولاية يزيد بن عبد اللّه التركىّ على مصر. و هو المقياس الكبير المعروف بالجديد و أمر بأن يعزل النصارى عن قياسه، فجعل يزيد بن عبد اللّه التركىّ على المقياس أبا الردّاد المعلم و اسمه:

عبد اللّه بن عبد السلام بن عبد اللّه بن أبى الردّاد المؤذن. كان يقول القمىّ: أصله بالبصرة قدم مصر و حدث بها و جعل على قياس النيل، و أجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير فى كل شهر فلم يزل المقياس من ذلك الوقت فى يد أبى الردّاد و ولده إلى اليوم، و توفى أبو الردّاد سنة ست و ستين و مائتين.

ثم ركب أحمد بن طولون سنة تسع و خمسين و مائتين، و معه أبو أيوب صاحب خراجه، و بكار بن قتيبة القاضى فنظر إلى المقياس، و أمر بإصلاحه و قدّر له ألف دينار فعمرو بنى الحارث فى الصناعة مقياسا و أثره باق لا يعتمد عليه.

و قال ابن عبد الحكم: و لما فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إلى عمرو حين دخل بؤنة من أشهر العجم، فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها. فقال لهم: و ما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها، و جعلنا عليها من الحلىّ و الثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى النيل. فقال لهم عمر: و إن هذا لا يكون فى الإسلام، و إن الإسلام يهدم ما كان قبله، فأقاموا بؤنة و أبيب و مسرى، و هو لا يجرى قليلا و لا كثيرا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بذلك فكتب إليه عمر: أن قد أصبت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، و قد بعثت إليك ببطاقة، فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى.

فلما قدم الكتاب إلى عمرو فتح البطاقة فإذا فيها: من عبد اللّه أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد: فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، و إن كان اللّه الواحد القهار هو الذى يجريك، فنسأل اللّه الواحد القهار أن يجريك. فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم، و قد تهيأ أهل مصر للجلاء و الخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، و أصبحوا يوم الصليب، و قد أجراه اللّه تعالى ستة عشر ذراعا فى ليله، و قطع تلك السنة السوء عن أهل مصر.

و ذكر بعضهم: أن جاحلا الصدفىّ هو الذى جاء ببطاقة عمر رضى اللّه عنه إلى النيل حين توقف، فجرى بإذن اللّه تعالى. و قال يزيد بن أبى حبيب: أن موسى عليه السلام دعا على آل فرعون، فحبس اللّه عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء، فطلبوا إلى موسى أن يدعو اللّه، فدعا اللّه رجاء أن يؤمنوا، و ذلك ليلة الصليب، فأصبحوا، و قد أجراه اللّه فى تلك الساعة ستة عشر ذراعا، فاستجاب اللّه بطوله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام.

قال القضاعى: و وجدت فى رسالة منسوبة إلى الحسن بن محمد بن عبد المنعم، قال: لما

فتحت العرب مصر عرف عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حدّه فى مقياس لهم فضلا عن تقاصره، و إن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار، و أن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار بغير قحط، فكتب عمر إلى عمرو يسأله عن شرح الحال، فأجابه: إنى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا، و الحدّ الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم، و يبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا، و النهايتان المخوفتان فى الزيادة و النقصان و هما الظمأ و الاستئجار اثنا عشر ذراعا فى النقصان و ثمانية عشر ذراعا فى الزيادة هذا، و البلد فى ذلك الوقت محفور الأنهار معقود الجسور عند ما تسلموه من القبط، و خميرة العمارة فيه.

فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى اللّه عنه، عليا رضى اللّه عنه فى ذلك فأمره أن يكتب إليه أن يبنى مقياسا و أن ينقص ذراعين من اثنى عشر ذراعا، و أن يقرّ ما بعدها على الأصل، و أن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعا إصبعين، ففعل ذلك، و بناه بحلوان فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف، و زوال ما منه كان يخاف بأن جعل الاثنى عشر ذراعا أربع عشرة لأن كل ذراع أربع و عشرون إصبعا، فجعلها ثمانيا و عشرين من أوّلها إلى الاثنى عشر ذراعا يكون مبلغ الزيادة على الاثنى عشر ثمانيا و أربعين إصبعا و هى الذراعان، و جعل الأربع عشرة ست عشرة و الست عشرة ثمانى عشرة و الثمانى عشرة عشرين.

قال القضاعىّ: و فى هذا الحساب نظر فى وقتنا لزيادة فساد الأنهار و انتقاض الأحوال و شاهد ذلك: أن المقاييس القديمة الصعيدية

من أوّلها إلى آخرها أربع و عشرون إصبعا، كل ذراع، و المقاييس الإسلامية على ما ذكر منها المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى بالجزيرة، و هو الذى هدمه الماء و بنى المأمون آخر بأسفل الأرض بالبروذات و بنى المتوكل آخر بالجزيرة، و هو الذى يقاس عليه الماء الآن و قد تقدّم ذكره.

قال ابن عفير عن القبط المتقدّمين إذا كان الماء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنتى عشرة ذراعا فهى سنة ماء. و إلا فالماء ناقص، و إذا تمّ ست عشرة ذراعا قبل النوروز فالماء يتم فاعلم ذلك. و قال أبو الصلت: و أما النيل و ينبوعه فهو من وراء خط الاستواء من جبل هناك يعرف بجبل القمر، فإنه يبتدئ فى التزايد فى شهر أبيب، و المصريون يقولون: إذا دخل أبيب كان للماء دبيب، و عند ابتدائه فى التزايد يتغير جميع كيفياته، و يفسد. و السبب فى ذلك مروره بنقائع مياه آجنة يخالطها فيجتلبها معه إلى غير ذلك مما يحتمله فإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعا و زاد من السادس عشر إصبعا واحدا كسر الخليج، و لكسره يوم معدود، و مقام مشهود، و مجتمع خاص يحضره العام و الخاص، فإذا كسر فتحت الترع و هى فوهات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۱

الخلجان ففاض الماء، و ساح و غمر القيعان و البطاح، و انضم الناس إلى أعالى مساكنهم من الضياع و المنازل و هى على آكام و ربا لا ينتهى الماء إليها و لا يتسلط السيل عليها، فتعود أرض مصر بأسرها عند ذلك بحرا غامرا لما بين جبليها ريثما يبلغ الحدّ المحدود فى مشيئة اللّه عز و جل له، و أكثر ذلك يحوم حول ثمانى عشرة ذراعا، ثم يأخذ عائدا فى صبه إلى مجرى النيل و مسربه، فينضب أوّلا عما كان من الأرض عاليا و يصير فيما كان منها متطامنا، فيترك كل قرارة كالدرهم، و يغادر كل ملقة كالبرد المسهم.

و قال القاضى أبو الحسن علىّ بن محمد الماوردىّ فى كتاب الأحكام السلطانية:

و أما الذراع السوداء فهى أطول من ذراع الدور بأصبع و ثلثى أصبع، و أوّل من وضعها أمير المؤمنين هارون الرشيد قدّرها بذراع خادم أسود كان على رأسه قائما، و هى التى تتعامل الناس بها فى ذرع البز و التجارة و الأبنية، و قياس نيل مصر.

و أكثر ما وجد فى القياس من النقصان سنة سبع و تسعين و مائة وجد فى المقياس تسعة أذرع و أحد و عشرون أصبعا. و أقل ما وجد منه سنة خمس و ستين و مائة فإنه وجد فيه ذراع واحد و عشر أصابع، و أكثر ما بلغ فى الزيادة سنة تسع و تسعين و مائة فإنه بلغ ثمانية عشر ذراعا و تسعة عشر أصبعا، و أقل ما كان فى سنة ست و خمسين و ثلثمائة الهلالية فإنه بلغ اثنى عشر ذراعا و تسع عشرة أصبعا، و هى أيام كافور الإخشيدى.

و المقياس عمود رخام أبيض مثمن فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، و هذا العمود مفصل على اثنين و عشرين ذراعا، كل ذراع مفصل على أربعة و عشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى، فإنها مفصلة على ثمان و عشرين أصبعا كل ذراع.

و قال المسعودىّ: قالت الهند: زيادة النيل و نقصانه بالسيول و نحن نعرف ذلك بتوالى الأنواء و كثرة الأمطار.

و قالت الروم: لم يزد قط و لم ينقص و إنما زيادته، و نقصانه من عيون كثرت و اتصلت.

و قالت القبط: زيادته و نقصانه من عيون فى شاطئه يراها من سافر و لحق بأعاليه.

و قيل: لم يزد قط و إنما زيادته بريح الشمال إذا كثرت، و اتصلت تحبسه، فيفيض على وجه الأرض.

و قال قوم: سبب زيادته هبوب ريح تسمى ريح الملتن، و ذلك أنها تحمل السحاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۲

الماطر من خلف خط الاستواء فيمطر ببلاد السودان، و الحبشة، و النوبة فيأتى مدده إلى أرض مصر بزيادة النيل، و مع ذلك فإن البحر الملح يقف ماؤه على وجه النيل، فيتوقف حتى يروى البلاد و فى ذلك يقول :

فاسمع فللسامع أعلى يداعندى و أسمى من يد المحسن

فالنيل ذو فضل و لكنه‌الشكر فى ذلك للملتن

و يبتدئ النيل بالتنفس، و الزيادة بقية بؤنة و هو حزيران، و أبيب و هو تموز، و مسرى و هو آب، فإذا كان الماء زائدا زاد شهر توت كله، و هو أيلول إلى انقضائه. فإذا انتهت الزيادة إلى الذراع الثامن عشر؛ ففيه تمام الخراج و خصب الأرض و هو ضارّ بالبهائم لعدم الرعى و الكلا.

و أتمّ الزيادات كلها العامّة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا و فى ذلك كفايتها و ريّ جميع أرضها، و إذا زاد على ذلك، و بلغ ثمانية عشر ذراعا، و غلقها استبحر من أرض مصر الربع. و فى ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا من الاستبحار، و إذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث و باء و أكثر الزيادات ثمان عشرة ذراعا.

و قد بلغ فى خلافة عمر بن عبد العزيز اثنى عشر ذراعا، و مساحة الذراع إلى أن يبلغ اثنتى عشرة ذراعا، ثمان و عشرون أصبعا، و من اثنتى عشرة ذراعا إلى ما فوق ذلك يكون الذراع أربعا و عشرين أصبعا، و أقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع، و فى تلك السنة يكون الماء قليلا، و الأذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسميان منكرا و نكيرا، و هى الذراع الثالث عشر، و الذراع الرابع عشر، فإذا انصرف الماء عن هذين الذراعين و زيادة نصف ذراع من الخمس عشرة استسقى الناس بمصر. فكان الضرر الشامل لكل البلدان، و إذا تمّ خمس عشرة و دخل فى ست عشرة ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس، و لا يستسقى فيه و كان ذلك نقصا من خراج السلطان، و النبيذ يتخذ بمصر من ماء طوبة، و هو كانون الثانى بعد الغطاس، و هو لعشرة تمضى من طوبة، و أصفى ما يكون ماء النيل فى ذلك الوقت، و أهل مصر يفتخرون بصفاء ماء النيل فى هذا الوقت، و فيه يخزن الماء أهل تنيس و دمياط و تونة و سائر قرى البحيرة.

و قد كانت مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعا، غامرها و عامرها لما أحكموا من جسورها و بناء قناطرها، و تنقية خلجانها، و كان الماء إذا بلغ فى زيادته تسع أذرع، دخل خليج المنهى، و خليج الفيوم، و خليج سردوس، و خليج سخا.

قال: و المعمول عليه فى وقتنا هذا، و هو سنة خمس و أربعين و ثلثمائة إنه إن زاد على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۳

الستة عشر ذراعا أو نقص عنها نقص من خراج السلطان، و قد تغير فى زماننا هذا عامة ما تقدّم ذكره لفساد حال الجسور و الترع و الخلجان و قانون اليوم: أنه يزيد فى القيظ إذا حلت الشمس برج السرطان و الأسد و السنبلة حين تنقص عامة الأنهار التى فى المعمور، و لذلك قيل: إن الأنهار تمدّه بمائها عند غيضها، فتكون زيادته و تبتدىء الزيادة من خامس بؤنة ، و تظهر فى ثانى عشره، و أول دفعه فى الثانى من أبيب و تنتهى زيادته فى ثامن بابه ، و يؤخذ فى النقصان من العشرين منه. فتكون مدّة زيادته من ابتدائها إلى أن ينقص ثلاثة أشهر و خمسة و عشرين يوما. و هى: أبيب و مسرى و توت و عشرون يوما من بابه، و مدّة مكثه بعد انتهاء زيادته اثنا عشر يوما ثم يأخذ فى النقصان.

و من العادة أن ينادى عليه دائما فى اليوم السابع و العشرين من بؤنة بعد ما يؤخذ قاعه، و هو ما بقى من الماء القديم فى ثالث عشر بؤنة، و بفتح الخليج الكبير إذا أكمل الماء ستة عشر ذراعا و أدركت الناس يقولون: نعوذ بالله من أصبع من عشرين و كنا نعهد الماء إذا بلغ أصابع من عشرين ذراعا فاض ماء النيل، و غرّق الضياع و البساتين و فارت البلاليع، و ها نحن فى زمن منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة إذا بلغ الماء فى سنة أصبعا من عشرين لا يعم الأرض كلها لما قد فسد من الجسور، و كان إلى ما بعد الخمسمائة من الهجرة قانون النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة، و هى فى الحقيقة ثمانية عشر ذراعا؛ و كانوا يقولون: إذا زاد على ذلك ذراعا واحدة؛ زاد خراج مصر مائة ألف دينار لما يروى من الأراضى العالية؛ فإن بلغ ثمانية عشر ذراعا كانت الغاية القصوى، فإن الثمانية عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة اثنان و عشرون ذراعا فى الصعيد الأعلى؛ فإن زاد على الثمانية عشر ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من الأرض المنخفضة.

قال ابن ميسر فى حوادث سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة، و فيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر ذراعا و أربعة أصابع، و بلغ الماء الباب الجديد أوّل الشارع خارج القاهرة، و كان الناس يتوجهون إلى القاهرة من مصر من ناحية المقابر، فلما بلغ الخليفة الحافظ لدين اللّه أبا الميمون عبد المجيد بن محمد أن الماء وصل إلى الباب الجديد أظهر الحزن، و الانقطاع فدخل إليه بعض خواصه، و سأله عن السبب، فأخرج له كتابا فإذا فيه: إذا وصل الماء بالباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد، ثم قال: هذا الكتاب الذى تعلم منه أحوالنا و أحوال دولتنا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۴

و ما يأتى بعدها فمرض الحافظ فى آخر هذه السنة، و مات فى أوّل سنة أربع و أربعين و خمسمائة.

و قال القاضى الفاضل: فى متجدّدات سنة ست و سبعين و خمسمائة و فى يوم الاثنين السادس و العشرين من شهر ربيع الأوّل، و هو السادس عشر من مسرى. و فى النيل على ستة عشر ذراعا، و هو الوفاء و لا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقدّم، و هذا أيضا مما تغير فيه قانون النيل فى زماننا فإنه صار يوفى فى أوائل مسرى و لقد كان الوفاء فى سنة اثنتى عشرة، و ثمانمائة فى اليوم التاسع و العشرين من أبيب قبل مسرى بيوم، و هذا من أعجب ما يؤرخ فى زيادات النيل، و اتفق أن فى الحادى عشر من جمادى الأولى سنة تسع و سبعمائة، و فى النيل و كان ذلك اليوم التاسع عشر من بابه بعد النوروز بتسعة و أربعين يوما.

قال: و فى تاسع عشرة يعنى شوّال سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة. كسر بحر أبى المنجى و باشر الملك العزيز عثمان كسره و زاد النيل فيه أصبعا و هى الأصبع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذراعا، و هذا الحدّ يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى. فانظر كيف يسمى القاضى الفاضل هذا القدر اللجة الكبرى؟! و إنه و العياذ باللّه لو بلغ ماء النيل فى سنة هذا القدر فقط لحل بالبلاد غلاء يخاف منه أن يهلك فيه الناس، و ما ذاك إلا لما أهمل من عمل الجسور؛ و يحصل لأهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعا فرح عظيم، فإن ذلك كان قانون الرى فى القديم و استمرّ ذلك إلى يومنا هذا. و يتخذ ذلك اليوم عيدا يركب فيه السلطان بعساكره، و ينزل فى المراكب لتخليق المقياس.

و قد ذكرنا ما كان فى الدولة الفاطمية من الاهتمام بفتح الخليج عند ذكر مناظر اللؤلؤة. و قال بعض المفسرين رحمهم اللّه تعالى: إن يوم الوفا هو اليوم الذى وعد فرعون موسى عليه السلام بالاجتماع فى قوله تعالى: قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى [طه/ ۵۹].

و قد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق يكون فى هذا الوقت.

و من أحسن السياسات فى أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق فى سيرة المعز لدين اللّه قال: و فى هذا الشهر، يعنى شوّال، سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة منع المعز لدين اللّه من النداء بزيادة النيل، و أن لا يكتب بذلك إلا إليه، و إلى القائد جوهر، فلما تم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۵

أباح النداء، يعنى لما تم ست عشرة ذراعا، و كسر الخليج فتأمّل ما أبدع هذه السياسة؛ فإنّ الناس دائما إذا توقف النيل فى أيام زيادته، أو زاد قليلا- يقلقون، و يحدّثون أنفسهم بعدم طلوع النيل، فيقبضون أيديهم على الغلال، و يمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر، و يجتهد من عنده مال فى خزن الغلة؛ إما لطلب السعر، أو لطلب ادّخار قوت عياله، فيحدث بهذا الغلاء. فإن زاد الماء انحلّ السعر و إلا كان الجدب و القحط ففى كتمان الزيادة عن العامّة أعظم فائدة، و أجلّ عائدة.

و قال المسبحى فى تاريخ مصر: و خرج أمر صاحب القصر إلى ابن حيران بتحرير ما يستفتح به القياسون كلامهم إذا نادوا على النيل، فقال: نعم لا تحصى من خزائن اللّه لا تفنى زاد اللّه فى النيل المبارك كذا، و من عادة نيل مصر إذا كان عند ابتداء زيادته اخضرّ ماؤه، فتقول عامّة أهل مصر: قد توحم النيل، و يرون أن الشرب منه حينئذ مضر. و يقال فى سبب اخضراره: إنّ الوحوش سيما الفيلة ترد البطيحات التى فى أعالى النيل، و تستنقع فيها مع كثرة عددها لشدّة الحرّ هناك، فيتغير ماء تلك البطيحات، فإذا وقع المطر فى الجهة

الجنوبية فى أوقاته عندهم تكاثرت السيول حينئذ فى البطيحات، فخرج ما كان فيها من الماء الذى قد تغير، و مرّ إلى مصر، و جاء عقيبه الماء الجديد، و هو الزيادة بمصر و حينئذ يكون الماء محمرّا لما يخالطه من الطين الذى تأتى به السيول فإذا تناهت زيادته غشى أرض مصر، فتصير القرى التى فى الأقاليم فوق التلال و الروابى، و قد أحاط بها الماء، فلا يتوصل إليها إلا فى المراكب، أو من فوق الجسور الممتدّة التى يصرف عليها إذا عملت كما ينبغى ربع الخراج ليحفظ عند ذلك ماء النيل حتى ينتهى ريّ كل مكان إلى الحدّ المحتاج إليه، فإذا تكامل ريّ ناحية من النواحى قطع أهلها الجسور المحيطة بها من أمكنة معروفة عند خولة البلاد، و مشايخها فى أوقات محدودة لا تتقدّم، و لا تتأخر عن أوقاتها المعتادة على حسب ما يشهد به قوانين كل ناحية من النواحى، فتروى كل جهة مما يليها مع ما يجتمع فيها من الماء المختص؛ و لو لا إتقان ما هنالك من الجسور، و حفر الترع و الخلجان لقل الانتفاع بماء النيل كما قد جرى فى زماننا هذا. و قد حكى أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر فى كل سنة ثلث الخراج لعنايتهم فى القديم بها من أجل أنه يترتب على عملها ريّ البلاد الذى به مصالح العباد، و ستقف إن شاء اللّه تعالى عن قريب على ما كان من أعمال القدماء، و من بعدهم فى ذلك، و كان للمقياس فى الدولة الفاطمية رسوم لكنس مجارى الماء خمسون دينارا فى كل سنة تطلق لابن أبى الردّاد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۶

ذكر الجسر الذى كان يعبر عليه فى النيل

اعلم أنه كان فى النيل جسر من سفن فيما بين الفسطاط و الجزيرة التى تعرف اليوم:

بالروضة، و كان فيما بين الجزيرة، و الجيزة أيضا جسر فى كل جسر منهما ثلاثون سفينة.

ذكر ما قيل فى ماء النيل من مدح و ذم

قال الرئيس أبو علىّ ابن سينا عفا اللّه عنه، و قوم يفرطون فى مدح النيل إفراطا شديدا، و يجمعون محامده فى أربعة: بعد منبعه، و طيب مسلكه، و غمورته، و أخذه إلى الشمال عن الجنوب. فأخذه إلى الشمال عن الجنوب: ملطف لما يجرى فيه من المياه، و أما غمورته فيشاركه فيها غيره. قال: فأفضل المياه مياه العيون، و لا كل العيون و لكن مياه العيون الحرّة الأرض التى لا يغلب على تربتها شىء من الأحوال و الكيفيات الغريبة أو تكون حجرية فتكون أولى بأن لا تعفن عفونة الأرضية لكن التى هى من طينة حرّة خير من الحجرية، و لا كل عين حرّة، بل التى هى مع ذلك جارية، و لا كل جارية بل الجارية المكشوفة للشمس، و الرياح و إنّ هذا مما يكسب الجارية فضيلة. و أما الراكدة فربما اكتسب بالكشف رداءة لا تكسبها بالغور و الستر.

و اعلم أنّ المياه التى تكون طيبة المسيل خير من التى تجرى على الأحجار، فإنّ الطين ينقى الماء و يأخذ منه الممزوجات الغريبة و يروّقه، و الحجارة لا تفعل ذلك. لكنه يجب أن يكون طين مسيله حرّا لا حمأة، و لا سبخة، و لا غير ذلك. فإن اتفق أن كان هذا الماء غمرا شديد الجرية يحيل بكثرة ما يخالطه إلى طبيعته. فإن كان يأخذ إلى الشمس فى جريانه فيجرى إلى المشرق، و خصوصا إلى الصيفىّ منه، فهو أفضل لا سيّما إذا بعد جدّا من ميدانه، ثم ما يتوجه إلى الشمال و المتوجه إلى المغرب و الجنوب ردىء خصوصا عند هبوب ريح الجنوب، و الذى ينحدر من مواضع عالية مع سائر الفضل أفضل، و ما كان بهذه الصفة كان عذبا يخيل، إنه حلو و لا يحتمل الخمر إذا مزج به منه إلا قليلا، و كان خفيف الوزن سريع البرد، و التسخين لتخلخله باردا فى الشتاء حارا فى الصيف لا يغلب عليه طعم البتة، و لا رائحة و يكون سريع الانحدار من الشراسيف سريعا لهرى ما يهرى فيه و طبخ ما يطبخ فيه.

قال الرئيس علاء الدين علىّ بن أبى الحرم بن نفيس فى شرح القانون: هذه المحامد التى ذكرها ليست علامات للحمد بل هى من الأشياء الموجبة لكونه محمودا و أحد هذه الأربعة بعد منبعه، و قد بينا أنّ ذلك يوجب لطافة الماء بسبب كثرة حركته، و اعلم أن منبع النيل من جبل يقال له جبل القمر، و هذا الجبل وراء خط الاستواء بإحدى عشرة درجة و ثلاثين دقيقة، فماؤه أعظم دائرة فى الأرض

بثلاثمائة درجة و ستين، و ابتداء هذا الجبل من السادسة و الأربعين درجة و ثلاثين دقيقة من أوّل العمارة من جهة المغرب، و آخره عند آخر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۷

إحدى و ستين درجة و خمسين دقيقة، فيكون امتداد هذا الجبل مقدار خمس عشرة درجة و عشرين دقيقة، مما به أعظم دائرة فى الأرض ثلثمائة و ستون درجة، و يخرج من هذا الجبل عشرة أنهار من أعين فيه ترمى كل خمسة منها إلى بحيرة عظيمة مدوّرة، و إحدى هاتين البحيرتين مركزها حيث البعد من ابتداء العمارة بالمغرب خمسون درجة، و البعد من خط الاستواء فى الجنوب سبع درج و إحدى و ثلاثون دقيقة، و مركز الثانية حيث البعد عن أوّل العمارة بالمغرب سبع و خمسون درجة، و حيث البعد من خط الاستواء فى الجنوب سبع درج و إحدى و ثلاثون دقيقة، و هاتان البحيرتان متساويتان و قطر كل واحدة منهما مقدار خمس درج، و يخرج من كل واحدة من البحيرتين أربعة أنهار ترمى إلى بحيرة صغيرة مدوّرة فى الإقليم الأوّل بعد مركزها عن أوّل العمارة بالمغرب ثلاث و خمسون درجة و ثلاثون دقيقة، و عن خط الاستواء من الشمال درجتان من الإقليم الأوّل، و مقدار قطرها درجتان و يصب كل واحد من الأنهار الثمانية فى بحيرة و فى هذه البحيرة نهر واحد و هو: نيل مصر، و يمرّ ببلاد النوبة نهر آخر ابتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء كبيرة مستديرة مقدار قطرها ثلاث درج و بعد مركزها من أوّل العمارة بالمغرب: ثلاث و أربعون درجة، و يلقى نهر هذه العين لنهر النيل حيث البعد من أوّل العمارة بالمغرب ثلاث و أربعون دقيقة، و إذا تعدّى النيل مدينة مصر إلى بلد يقال له: شطنوف يفرق هناك إلى نهرين يرميان إلى البحر المالح أحدهما يعرف ببحر رشيد، و منه يكون خليج الإسكندرية، و ثانيهما يعرف ببحر دمياط، و هذا البحر إذا وصل إلى المنصورة تفرّع منه نهر يعرف ببحر أشمون يرمى إلى بحيرة هناك. و باقية يرمى إلى البحر المالح عند دمياط، و زيادة النيل هى من أمطار كثيرة ببلاد الحبشة، و اللّه أعلم.

و اعلم أن الوزن من الدستورات المنتخبة من حال الماء فإنّ الأخف فى أكثر الأحوال أفضل فهذا ما ذكره الرئيس ابن سيناء من صفات المياه الفاضلة، و اعتبر ما قاله تجد ذلك قد اجتمع فى ماء النيل.

فأوّله أن ماء النيل عين تمرّ على أراضى حرّة، و لا يغلب على تربه ما يمرّ به شىء من الأحوال و الكيفيات الرديئة كمعادن النفط، و الشب و الأملاح و الكباريت، و نحوها بل يمرّ على الأراضى التى تنبت الذهب بدليل ما يظهر فى الشطوط من قراضات الذهب، و قد عانى جماعة تصويل الذهب من الرمل المأخوذ من شطوط النيل فربحوا منه مالا و فضيلة كون الذهب فى المال لا تنكر.

الثانى: أن النيل فى جريانه أبدا مكشوف للشمس و الرياح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۸

الثالث: أنّ طينه من طين مسيل مياه مجتمعة من أمطار تمرّ على أراضى حرّة، و يظهر لك ذلك من عطرية روائح الطين إذا نديته بماء.

الرابع: غمورة ماء النيل، و شدّة جريته التى تكاد تقصف العمد إذا اعترضتها، و تدفع الأثقال العظيمة إذا عارضتها.

الخامس: بعد مبدأ خروجه من مصبه فى البحر المالح، و قد تقدّم من طول مسافته ما لا نجده فى نهر غيره من أنهار المعمور.

السادس: انحداره من علوّ فإن الجنوب مرتفع عن الشمال لا سيما إذا صار إلى الجنادل انحط من أعلى جبل مرتفع إلى وادى مصر.

و ذكر ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث من حديث جرير بن عبد اللّه البجلىّ حين سأله رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عن منزله ببلنسة فذكره إلى أن قال: و ماؤنا يمتنع أن يجرى من علوّ، فقال النبىّ صلى اللّه عليه و سلم: «خير الماء السنم» أى ما كان ظاهرا على وجه الأرض و السنم: الماء على وجه الأرض، و كل شىء علا شيئا فقد تسنمه مأخوذ من سنام البعير لعلوّه.

و قال بعض المفسرين فى قوله تعالى: وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ [المطففين/ ۲۷] أى يمزج بما ينزل من علوّ.

السابع: أنه يمرّ من الجنوب إلى الشمال فتستقبله ريح الشمال الطيبة دائما.

الثامن: من خفته فى الوزن، و قد اعتبر ذلك غير مرّة مع غيره من المياه فخف عنها فى الوزن.

التاسع: عذوبة طعمه و حسن أثره فى هضم الغذاء و أحداره عن المعدة بحيث إنه يحدث بعد شربه جشاء، و هذه صفات إن كنت ممن مارس العلم الطبيعىّ، و عرف الطب فإنه يعظم عندك قدر ماء النيل، و تبين لك غزارة نفعه و كثرة محاسنه.

و يقال: إنّ ذا القرنين كتب كتابا فيه ما شاهده من عجائب الدنيا فضمنه كل أعجوبة، ثم قال فى آخره: و ليس ذلك بعجب بل العجب نيل مصر، و قال بعض الحكماء: لو لا ما جعل اللّه فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل رىّ البلاد، و هبوط الماء عنها عند بدء الزراعة لفسد إقليم مصر، و تعذر سكناه لأنه ليس فيه أمطار كافية، و لا عيون جارية تعم أرضه إلا بعض إقليم الفيوم، و للّه در القائل:

واها لهذا النيل أىّ عجيبةبكر بمثل حديثها لا يسمع

يلقى الثرى فى العام و هو مسلمحتى إذا ما ملّ عاد يودّع

مستقبل مثل الهلال فدهرهأبدا يزيد كما يريد و يرجع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۹

و قال آخر:

كأنّ النيل ذو فهم و لبلما يبدو لعين الناس منه

فيأتى حين حاجتهم إليهو يمضى حين يستغنون عنه

و قال تميم بن المعتمر:

يوم لنا بالنيل مختصرو لكل يوم مسرّة قصر

و السفن تجرى كالخيول بناصعدا و جيش الماء منحدر

و كأنما أمواجه عكنو كأنما داراته سرر

و قال أيضا:

أما ترى الرعد بكى و اشتكىو البرق قد أومض و استضحكا

فاشرب على غيم بصنع الدجىيضحك وجه الأرض لما بكى

و انظر لماء النيل فى مدّهكأنما صندل أو مصطكا

و قال آخر:

و اللّه مجرى النيل منه إذا الصباأرينا به من برها عسكرا بحرا

بشط بنهر السمهريةٔ دبلاو موج بنهر البيض هندية بترا

إذا مرّ حاكى الورد غضا و إن صفاحكى ماءه لونا و لو بعده مرّا

و قال أبو الحسن محمد بن الوزير فى تدريج زيادة النيل و عظم منفعته:

أرى أبدا كثيرا من قليلو بدرا فى الحقيقة من هلال

فلا تعجب فكل خليج ماءبمصر مسيب بخليج مال

زيادة أصبع فى كل يومزيادة أذرع فى حسن حال

و قال الشهاب أحمد بن فضل اللّه العمرى:

بمصر فضل باهرلعيشها الرغد النضر

فى سفح روض يلتقىماء الحياة و الخضر

و قال ابن قلاقس:

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةو انظر لما بعدها من حمرة الشفق

غابت و ألقت شعاعا منه يخلفهاكأنما احترقت بالماء فى الغرق

و للهلال فها وافى لينفدهافى إثرها زورق قد صيغ من ورق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۰

و قال بشر الملك ابن المنجم:

يا رب سامية فى الجو قمت بهاأمدّ طرفى فى أرض من الأفق

حيث العشية فى التمثيل معتركإذا رآها جبان مات للفرق

للشمس غاربة للغرب ذاهبةبالنيل مصفرّة من هجمة الغسق

و للهلال انعطاف كالسنان بدامن سورة الطعن ملقى فى دم الشفق

و قال القاضى الفاضل رحمه اللّه تعالى عليه: و أما النيل، فقد ملأ البقاع، و انتقل من الأصبع إلى الذراع، فكأنما غار على الأرض، فغطاها و أغار عليها فاستقعدها، و ما تخطاها فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه، و لا مرغوب مرهوب إلا إياه.

و نيل مصر: مخالف فى جريه لغالب الأنهار، فإنه يجرى من الجنوب إلى الشمال و غيره، ليس كذلك إلا نهران فإنهما يجريان كما يجرى النيل، و هما نهر مكران بالسند و نهر الأريط ، و هو الذى يعرف اليوم بنهر العاصى فى حماه إحدى مدائن الشام. و قد عاب ماء النيل قوم.

قال أبو بكر ابن وحشية فى كتاب الفلاحة النبطية: و أما ماء النيل فمخرجه من جبال وراء بلاد السودان يقال لها جبال القمر، و حلاوته و زيادته يدلان على موقعه من الشمس أنها أحرقته لا كل الإحراق، بل أسخنته إسخانا طويلا لينا لا تزعجه الحرارة، و لا تقوى عليه بحيث تبدّد أجزاءه الرطبة و تبقى أجزاءه الراسخة، بل يعتدل عليه فصار ماؤه لذلك حلوا جدّا، و صار كثرة شربه يعفن البدن، و يحدث البثور، و الدماميل و القروح، و صار أهل مصر- الشاربون منه- دمويين محتاجين إلى استفراغ الدم عن أبدانهم فى كل مدّة قصيرة، فمن كان عالما منهم بالطبيعة، فهو يحسن مداواة نفسه حتى يدفع عن جسمه ضرر ماء النيل، و إلا فهو يقع فيما ذكرنا من العفونات و انتشار البثر و الدماميل.

و ذلك أن هذا الماء ناقص البرد عن سائر المياه قد صير له الطبخ قواما هو أثخن من قوام الماء؛ فصار إذا خالط الطعام فى الأبدان كثر فيها الفضول الردية العفنة، فيحدث من ذلك ما ذكرناه. و دواء أهل مصر الذى يدفع عنهم ضرر ماء النيل، إدمان شرب ربوب الفاكهة الحامضة القابضة، و أخذ الأدوية المستفرغة للفضول و لو زادت حرارة الشمس على ماء النيل، و طال طبخها له لصار مالحا بمنزلة ماء البحار الراكدة التى لا حركة لها إلا وقت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۱

جزر البحر، و هبوب الرياح، و هو أوفق للزروع و المنابت من الحيوان.

و قال ابن رضوان: و النيل يمرّ بأمم كثيرة من السودان، ثم يصير إلى أرض مصر، و قد غسل ما فى بلاد السودان من العفونات، و الأوساخ و يشق مارا بوسط أرض مصر من الجنوب إلى الشمال إلى أن يصب فى بحر الروم. و مبدأ زيادته فى فصل الصيف، و تنتهى زيادته فى فصل الخريف، و يرتقى فى الجوّ منه فى أوقات مدّة رطوبات كثيرة بالتحلل الخفىّ، فيرطب ذلك يبس الصيف، و الخريف، و إذا مدّ النهر فاض على أرض مصر فغسل ما فيها من الأوساخ نحو جيف الحيوانات، و أزبالها و فضول الآجام، و النبات و مياه النقاع، و أحدر جميع ذلك معه، و خالطه من تراب هذه الأرض، و طينها مقدار كثير من أجل سخافتها و باض فيه من السمك الذى تربى فيه و فى مياه النقائع، و من قبل ذلك تراه فى أوّل مدّة يخضر لونه بكثرة ما يخالطه من مياه النقائع العفنة التى قد اجتمع فيها العرمض، و الطحلب و اخضر لونها من عفنها ثم يتعكر حتى يصير آخر أمره مثل الحمأة، و إذا صفا اجتمع منه فى الإناء طين كثير،

و رطوبة لزجة لها سهوكة، و رائحة منكرة. و هذا من أوكد الأشياء فى ظهور رداءة هذا الماء، و عفنه.

و قد بيّن بقراط و جالينوس: أنّ أسرع المياه إلى العفن ما لطفته الشمس بمياه الأمطار و من شأن هذا الماء أن يصل إلى أرض مصر، و هو فى الغاية من اللطافة من شدّة حرارة بلاد السودان، فإذا اختلط به عفونات أرض مصر زاد ذلك فى استحالته، و لذلك يتولد منه من أنواع السمك شىء كثير جدّا. فإنّ فضول الحيوانات و النبات و عفونة هذا الماء، و بيض السمك يصير جميعها موادّا فى تكوّن هذه الأسماك.

كما قال أرسطاطاليس فى كتاب الحيوان: و ذلك شىء ظاهر للحس فإن كل شىء يتعفن يتولد من عفونته الحيوان، و لهذا صار ما يتولد من الدود، و الفأر و الثعابين و العقارب و الزنابير و الذباب، و غيرها بأرض مصر كثيرا، فقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة و الرطوبة الفضلية. و إنها ذات أجزاء كثيرة، و إن هواءها و ماءها رديان، و ربما انقطع النيل فى آخر الربيع و أوّل الصيف من جهة الفسطاط. فيعفن بكثرة ما يلقى فيه إلى أن يبلغ عفنه إلى أن يصير له رائحة منكرة محسوسة. و ظاهر أن هذا الماء إذا صار على هذه الحالة غيّر مزاج الناس تغيرا محسوسا، و ينبغى أن يستقى ماء النيل من الموضع الذى فيه جريه أشدّ، و العفونة فيه أقل، و يصفى كل إنسان هذا الماء بحسب ما يوافق مزاجه. أما المحرورون فى أيام الصيف فبالطباشير، و الطين الأرمنىّ، و المغرة و النبق المرضوض، و الزعرور المرضوض، و الخل. و أما المبرودون فى أيام الشتاء فباللوز المرّ، داخل نوى المشمش، و الصعتر و الشب. و ينبغى أن ينظف ما يروّق و يشرب و إن شئت أن تصفيه بأن تجعله فى آنية الخزف، و الفخار و الجلود، و ما يمصل من ذلك بالرشح، و إن شئت طبخته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۲

بالنار، و جعلته فى هواء الليل حتى يروق، ثم نظفت منه ما يروق و استعملته.

و إذا ظهرت فيه كيفيات رديئات فاطبخه بالنار ثم بردّه تحت السماء فى برودة الليل، وصفه بأخلاط الأدوية التى ذكرتها و أجود ما اتخذ هذا الماء أن يصفى مرارا، و ذلك بأن يسخنه أو يطبخه، ثم يبرّده فى هواء الليل، و يقطف ما يروق منه فتصفيه أيضا ببعض الأدوية ثم تأخذ ما يروق فتجعله فى آنية تمصل فى برد الليل، و تأخذ الرشح فتشربه، و اجعل آنية هذا الماء فى الصيف الخزف، و الفخار المعمولين فى طوبة و الظروف الحجرية، و القرب و نحوها مما يبرد. و فى الشتاء الآنية الزجاج و المدهون، و ما يعمل فى الصيف من الفخار، و الخزف و يكون موضعه فى الصيف تحت الأسراب و فى مخاريق ريح الشمال، و فى الشتاء بالمواضع الحارة، و يبرد فى الصيف بأن يخلط معه ماء الورد، و يؤخذ خرقة نظيفة و يشدّ فيها طباشير و بزر رجلة أو خشخاش أبيض أو طين أرمنىّ، أو مغرة و يلقى فيه كيما يأخذ من بردها، و لا يخالطه جسمها، و تغسل ظروفه فى الصيف بالخزف المدقوق و بدقيق الشعير، و الباقلاء و الصندل.

و فى الشتاء بالأشنان و السعد و يبخر بالمصطكى، و العود. و أردأ ما يكون ماء النيل بمصر عند فيضه، و عند وقوف حركته، فعند ذلك ينبغى أن يطبخ و يبالغ فى تصفيته بقلوب نوى المشمش و سائر ما يقطع لزوجته. و أجود ما يكون فى طوبة عند تكامل البرد، و من أجل هذا عرفت المصريون بالتجربة أن ماء طوبة أجود المياه حتى صار كثير منهم يخزنه فى القوارير الزجاج و الصينىّ و يشربه السنة كلها، و يزعم أنه لا يتغير و صاروا أيضا لا يصفونه فى هذا الزمان لظنهم أنه على غاية الخلاص، و أما أنت فلا تسكن إلى ذلك وصفه على أى حالة كان فالماء المخزون لا بدّ أن يتغير فهذا ما عندى من ذمّ ماء النيل. و حاصله: أن الماء تتغير كيفيته بما يمرّ عليه، لا أن ذاته رديئة، فلا يهولنك ما تسمع، فما الأمر إلا ما قلت لك، و إذا كان الضرر بحسب ما تغير من كيفيته لا من كميته، فقد عرفت ما تعالجه به كى يزول ما يخالطه من الكيفيات الرديئة، و اللّه الموفق بمنه و كرمه.

ذكر عجائب النيل

و من عجائب النيل فرس البحر. قال عبد اللّه بن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب أخبار النوبة: و مسافة ما بين دنقلة إلى أوّل بلد علوة أكثر مما بين دنقلة و أسوان، و فى ذلك من القرى و الضياع و الجزائر، و المواشى و النخل و الشجر و المقل و الزرع و الكرم. أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الإسلام.

و فى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام فيها الحيات و الوحوش و السباع، و مفاوز يخاف فيها العطش، و ماء النيل ينعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشمس، و إلى مغربها مسافة أيام حتى يصير الصعيد كالمنحدر، و هى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۳

المعدن المعروف بالشتكة و هى بلد معروف بشنقير، و منه يخرج القمرىّ و فرس البحر يكثر فى هذا الموضع.

و حدثنى سيمون صاحب عهد علوة أنه أحصى فى جزيرة سبعين دابة منها، و هى من دواب الشطوط فى خلق الفرس فى غلظ الجاموس قصيرة القوائم لها خف، و هى فى ألوان الخيل بأعراف و آذان صغار كآذان الخيل، و أعناقها كذلك، و أذنابها مثل أذناب الجواميس، و لها خرطوم عريض يظنّ الناظر إليها أنّ عليها مخلاة لها صهيل و أنياب لا يقوم حذاءها تمساح، و تعترض المراكب عند الغضب فتغرّقها و رعيها فى البرّ العشب، و جلدها فيه متانة عظيمة يتخذ منه دبابيس، انتهى.

و هو كفرس البرّ إلا أنه أكبر عرفا و ذنبا و أحسن لونا و حافره مشقوق كحافر البقر، و جثته أكبر من الحمار بقليل، و هو يأكل التمساح أكلا ذريعا، و يقوى عليه قوّة ظاهرة، و ربما خرج من الماء و نزا على فرس البرّ، فيتولد بينهما فرس فى غاية الحسن.

و اتفق أن بعض الناس نزل على طرف النيل و معه حجرة، فخرج من الماء فرس أدهم عليه نقط بيض، فنزا على الحجرة، فحملت منه، و ولدت مهرا عجيب الصورة، فطمع فى مهر آخر. فجاء بالحجرة و المهر إلى ذلك الموضع، فخرج الفرس من الماء، و شمّ المهر ساعة، ثم وثب إلى الماء، و معه المهر فصار الرجل يتعهد ذلك المكان كثيرا فلم يعد الفرس و لا المهر إليه.

قال المسعودى: و فى نيل مصر و أرضها عجائب كثيرة من الحيوانات، فمن ذلك السمك المعروف بالرعاد و الواحدة نحو الذراع إذا وقعت فى شبكة الصياد ارتعدت يده، و عضده، فيعلم بوقوعها فيبادر إلى أخذها، و إخراجها من شبكته و لو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك. و قد ذكرها جالينوس أنها إن جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة و هى فى الحياة هدأ من ساعته.

قال ابن البيطار عن جالينوس: هو الحيوان البحرى الذى يحدث الخدر، و زعم قوم أنه أدنى من رأس من يشتكى الصداع سكن صداعه، و إن أدنى من مقعدة من انقلبت مقعدته أصلحها، و لكن أنا جربت الأمرين جميعا فلم أجد يفعل و لا واحدا منهما، ففكرت أنى أدنيته من رأس المصدوع و الحيوان ما هو حىّ لأنى ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزلة الأدوية، فوجدته ينفع ما دام حيا. قال ديسقوريدوس: هو سمكة بحرية مخدّرة إذا وضعت على الرأس الذى عرض له الصداع المزمن سكن شدّة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۴

وجعه، و إذا احتمله ذو المقعدة التى تبرز إلى خارج أصلحها.

و قال يونس: الزيت الذى يطبخ فيه يسكن أوجاع المفاصل الحريفة إذا دهنت به.

قال ابن البيطار: رأيت بساحل مدينة مالقة من بلاد الأندلس سمكة عريضة لون ظاهرها لون رعاد مصر سواء، و باطنها أبيض، و فعلها فى تخدير ماسكها كفعل رعاد مصر، أو أشدّ إلا أنها لا تؤكل البتة. و قال بعضهم: إذا علقت المرأة شيئا من الرعاد عليها لم يطق زوجها البعد عنها، و كذلك إن علق منها الرجل عليه لم تكد المرأة أن تفارقه.

و السقنقور : هو صنف يتوالد من السمك، و التمساح فلا يشاكل السمك، لأنّ له يدين و رجلين، و لا يشاكل التمساح لأنّ ذنبه أجرد أملس عريض غير مضرّس، و ذنب التمساح سخيف مضرّس، و يتعالج بشحم السقنقور للجماع، و لا يكون بمكان إلا فى النيل، و فى نهر مهران من أرض الهند، و قد بلغنى أنّ أقواما شووها و أكلوا منها فماتوا كلهم فى ساعة واحدة.

و السقنقور قال ابن سيناء: هو ورن يصاد من نيل مصر. يقولون: إنه من نسل التمساح، و أجود ما يصطاد فى الربيع. و قال آخر: إنه فرخ التمساح فإذا خرج من البيض فما قصد الماء صار تمساحا، و ما قصد الرمل صار سقنقورا.

و قال ابن البيطار: هو جنس من الجراد يحفف فى الخريف إذا شرب منه وزن درهمين من الموضع الذى يلى كلاه بشراب أنهض الجماع، و هو شديد الشبه بالورن. يوجد بالرمال التى تلى نيل مصر فى نواحى صعيدها، و هو مما يسعى فى البر، و يدخل فى الماء يعنى النيل، و لهذا قيل له: الورن المائىّ لشبهه به، و لدخوله فى الماء و هو يتولد من ذكر و أنثى، و يوجد للذكر خصيتان كخصيتى الديك فى خلقهما و موضعهما، و إنانة تبيض فوق العشرين بيضة و تدفنها فى الرمل، و للذكر من السقنقور إحليلان، و للأنثى فرجان، و السقنقور يعض الإنسان، و يطلب الماء فإن وجده دخل فيه و إن لم يجده بال، و تمرّغ فى بوله، و إذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته و سلم السقنقور، فإن اتفق أن سبق المعضوض إلى الماء فدخله قبل دخول السقنقور الماء و تمرّغه فى بوله مات السقنقور لوقته و سلم المعضوض. و الأفضل الذكر منه و الأبلغ فى نفع الباه بل هو المخصوص بذلك دون الأنثى. و المختار من أعضائه ما يلى أصل ذنبه و محاذى سرته. و الوقت الذى يصاد فيه: الربيع فإنه يكون فيه هائجا للسفاد، فيكون فى هذا الوقت أبلغ نفعا فإذا أخذ ذكى فى يوم صيده فإنه إن ترك حيا زال شحمه، و هزل لحمه، و ضعف فعله، ثم يقطع رأسه و طرف ذنبه من غير استئصال و يشق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۵

جوفه طولا- و يلقى ما فيه إلا- كلاه، و كيسه فإذا نظف حشى ملحا و خيط الشق، و علق منكوسا فى ظل معتدل الهواء حتى يجف و يؤمن فساده، ثم يرفع فى إناء متخرق للهواء كالسلال المضفورة من قضبان شجر الصفصاف، و الخوص و نحوه إلى وقت الحاجة. و لحمه طريا حار رطب و المجفف أشدّ حرارة، و أقل رطوبة و لا يوافق استعماله من مزاجه حار يابس.

و إنما يوافق ذوى الأمزجة الباردة الرطبة، و خاصة لحمه و شحمه. إنهاض شهوة الجماع، و يهيج الشبق و يقوّى الاتعاظ، و ينفع أمراض العصب الباردة و خاصة ما يلى سرته، و يحاذى ذنبه و ينفع مفردا و مركبا، و استعماله مفردا أبلغ و المقدار منه بعد تجفيفه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل بحسب السنّ، و المزاج و البلد و الوقت الحاضر يسحق و يذاب بشراب أو ماء العسل، أو نقيع الزبيب أو يذرّ على صفرة بيض الدجاج النيمرشت و يتحسى، و كذلك يفعل بلحمه، إذا أخذ منه من درهم إلى درهمين، و ذرّ على صفرة البيض بمفرده أو مع مثله بزر جرجير مسحوق، و لا يوجد السقنقور إلا فى بلاد الفيوم خاصة و أكثر صيده فى الأربعينات إذا اشتدّ البرد، و خرج من الماء إلى البرّ فحينئذ يصاد.

و قال المسعودىّ: و الفرس الذى يكون فى نيل مصر إذا خرج من الماء و انتهى و طؤه إلى بعض المواضع من الأرض، علم أهل مصر أنّ النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه، و لا مقصر عنه لا يتخلف ذلك عندهم لطول العادات، و التجارب. و فى ظهوره من الماء ضرر بأرباب الأرض و الغلات لرعيه الزرع، و ذلك أنه يظهر من الماء فى الليل، فينتهى إلى موضع من الزرع ثم يولى عائدا إلى الماء، فيرعى فى حال رجوعه من الموضع الذى انتهى إليه مسيره، و لا يرعى من ذلك الذى قد رعاه شيئا فى ممرّه، و إذا رعى ورد الماء و شرب ثم قذف ما فى جوفه فى مواضع شتى فينبت ذلك مرّة ثانية، و إذا كثر ذلك من فعله و اتصل ضرره بأرباب الضياع طرحوا له من الترمس فى الموضع الذى يعرف خروجه منه مكاكى كثيرة مبدرا مبسوطا فيأكله ثم يعود إلى الماء، فإذا شرب منه ربا الترمس فى جوفه و انتفخ، فينشق جوفه منه، و يموت و يطفو على الماء، و يقذف به إلى الساحل و الموضع الذى يرى فيه لا يرى به تمساح، و هو على صورة الفرس إلا أنّ حوافره و ذنبه بخلاف ذلك، و جبهته واسعة.

و قال المسبحى: إنّ الصنف المعروف بالبلطى من أصناف السمك أوّل ما عرف بنيل مصر فى أيام الخليفة- العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه- و لم يكن يعرف قبله فى النيل، و ظهر فى أيامه أيضا سمك يعرف باللبيس، و إنما سمى باللبيس لأنه يشبه البورى الذى بالبحر الملح، فالتبس به و غالب الظنّ أنها من أسماك البحر الملح دخلت فى الحلو.

و من حيوان البحر: التمساح. قال ابن البيطار: التمساح حيوان معروف يكون فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۶

الأنهار الكبار. و فى النيل كثيرا و يوجد فى نهر مهران، و قد يوجد فى بلاد السودان، و هو الورن النيليّ.

و قال ابن زهران: كل حيوان يحرّك فكه الأسفل إذا أكل ما خلا التمساح فإنه يحرّك فكه الأعلى دون الأسفل و شحم التمساح إذا عجن بالسمن، و جعل فيه فتيلة و أسرج فى نهر أو أجمة لم ينعق ضفادعها، ما دامت تقد، و إن طيف بجلد تمساح حول قرية، ثم علق على سطح دهليز لم يقع البرد فى تلك القرية، و إذا عض التمساح إنسانا فوضع على العضة شحم التمساح برأ من ساعته، و إن لطخ بشحمه جبهة كبش نطاح نفر كل كبش يناطحه، و هرب منه. و مرارته يكتحل بها للبياض فى العين فيذهبه، و كبده ينجر بها المجنون فيبرأ، و زبل التمساح يزيل البياض من العين الحديث و القديم، و إن قلعت عيناه و هو حيّ و علقت على من به جذام أوقفه، و لم يزد عليه شيء، و إن علق شيء من التى بجانب الأيمن رجل زاد فى جماعه، و عينه اليمنى لمن يشتكى عينه اليمنى، و عينه اليسرى لمن يشتكى عينه اليسرى، و شحمه إذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب و الكليتين و زاد فى الباه، و إذا أخذ دم التمساح و خلط به هليلج و أملج و طلى به على الوضح أذهبه، و غيّر لونه، و إذا طلى به على الجبهة و الصدغين نفع من وجع الشقيقة، و إذا أكل لحمه اسفيد باجا سمن البدن النحيف، و شحمه إذا قطر بعد أن يذاب فى الأذن الوجعة نفعها، و إن أدمن تقطيره فى الأذن نفع من الصمم، و إذا دهن به صاحب حمى الربع سكنت عنه، و لحمه ردىء الكيموس.

و قال المسعودى: و كذلك التمساح آفته من دويبة تكون فى سواحل النيل و جزائره، و هو أنّ التمساح لا دبر له و ما يأكله يتكوّن فى بطنه دودا، فإذا أذاه ذلك خرج إلى البرّ فاستلقى على قفاه فاغرا فاه فينقض إليه طير الماء، و قد اعتاد ذلك منه، فيأكل ما يظهر من جوفه من ذلك الدود العظيم و تكون تلك الدويبة قد كمنت فى الرمل فتثب إلى حلقه و تصير إلى جوفه و تخرج فيخبط بنفسه إلى الأرض و يطلب قعر النيل حتى تأتى الدويبة على حشو جوفه، ثم تخرج جوفه و تخرج. و ربما قتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته، و هذه الدويبة تكون نحو الذراع على صورة ابن عرس ذات قوائم شتى و مخالب. و يقال: إن بجبال فسطاط مصر طلسم معمول بها، و كان التمساح لا يستطيع القرب حوله بل كان إذا بلغ حددوده انقلب، و استلقى على ظهره فيعبث به الصبيان إلى أن يجاوز نهاية المدينة، ثم يعود مستويا و يعود إلى طباعه، ثم إن هذا الطلسم كسر فبطل فعله، و يقال: إن التمساح يبيض كبيض الأوز، و ربما تولد فيه جرادين صغار ثم تكبر حتى يبلغ طولها عشرة أذرع، و تزداد طولا كلما عمرت، و التمساح يرتعش ستين مرّة فى حركة واحدة و محل واحد، و سنه اليسرى نافعة للنافض.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۷

ذكر طرف من تقدمة المعرفة بحال النيل فى كل سنة

قال ابن رضوان فى شرح الأربع: و قد يحتاج أمر النيل إلى شروط. منها: أن تكون الأمطار متوالية فى نواحى الجنوب قبل مدّه، و فى وقت مدّه، و لذلك وجب أن يكون النيل متى كانت الزهرة و عطارد مقترنين فى مدخل الصيف، كثير الزيادة لرطوبة الهواء، و متى كان المريخ، أو بعض المنازل فى ناحية الجنوب فى مدخل الربيع أو الصيف كان قليلا لقلة الأمطار فى تلك الناحية، و منها: أن تكون الرياح شمالية لتوقف جريه.

فأما الجنوبية: فإنها تسرع انحداره و لا تدعه يلبث فإذا علمت ما يكون فى ناحية الجنوب من كثرة الأمطار أو قلتها و فى ناحية مصر من هبوب مصر فى فصلى الربيع و الصيف، فقد علمت حال النيل كيف يكون، و تعلم من حاله ما يعرض بمصر من الخصب و الجدب.

و قال أبو سامر بن يونس المنجم عن بطليموس: إذا أردت أن تعلم مقدار النيل فى الزيادة و النقصان، فانظر حين تحل الشمس برج السرطان إلى الزهرة، و عطارد، و القمر، فإن كانت أحوالها جيدة و هى برية من النحوس، فالنيل يمتدّ و تبلغ الحاجة به و إن كانت أحوالها بخلاف ذلك و هى ضعيفة فانكس القول فإن ضعف بعضها و صلح البعض توسط الحال فى النيل، و الضابط أن قوّة الثلاثة

تدل على تمام النيل، و ضعفها على توسطه، و انتحاسها أو احتراقها أو وقوعها فى بعدها الأبعد من الأرض على النقص، و إنه قليل جدّا إلا أن احتراق الزهرة فى برج الأسد يستنزل الماء من الجنوب.

و قال أبو معشر : ينظر عند انتقال الشمس إلى برج السرطان للزهرة و عطارد و القمر، فإن كانت فى سيرها الأكبر فإن زيادة النيل عظيمة، و إن كانت فى سيرها الأوسط فاعرف كم أكثر مسيرها، و كم أقله و أنسبه بحسب ما تراه، و إن كانت بطيئة السير فزيادة النيل قليلة، و إن اختلف مسير هذه الثلاثة فكان بعضها فى مسيره الأكبر، و بعضها بطىء السير، فغلب أقواها و أمزج الدلالة و قل بحسب ذلك.

و قالت القبط: ينظر أوّل يوم من شهر برمودة ما الذى يوافقه من أيام الشهر العربىّ، فما كان من الأيام فزد عليه خمسة و ثمانين، فما بلغ خذ سدسه فإنه يكون عدد مبلغ النيل من الأذرع فى تلك السنة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۸

قالوا: و من المعتبر أيضا فى أمر النيل أن تنظر اليوم الذى تفطر فيه النصارى اليعاقبة بمصر و ما بقى من الشهر العربىّ فزد عليها أربعا و ثلاثين، فما بلغ أسقطه اثنى عشر فإن بقى بعد ذلك الإسقاط من العدد زيادة على اثنى عشر، فهو زيادة النيل من الأذرع فى تلك السنة، مع الاثنى عشر و إن بقى اثنى عشر فهى سنة رديئة. قالوا: و إذا كان العاشر من الشهر العربىّ موافقا لشهر أبيب ، و القمر فى برج العقرب، فإن كان مقارنا لقلب العقرب كان النيل مقصرا و إلا فهو جيد. قالوا: و ينظر أوّل يوم من بؤنة فإن هبت الريح شمالا فى بكرة النهار كان النيل عاليا، و إن هبت وسط النهار فإنه متوسط، و إن هبت آخر النهار كان نيلا قاصرا، و إن لم تهب لم يطلع تلك السنة. و قيل: يعتبر هكذا أول خميس من بؤنة.

و من المعتبر الذى جرّبته أنا سنين، و أخبرنى بعض شيوخنا: أنه جرّبه و أخبره به من جرّبه فصح أن ينظر أوّل يوم من مسرى كم مبلغ النيل، فزد عليه ثمانية أذرع، فما بلغ فهو زيادة النيل فى تلك السنة، و مما اشتهر عند أهل مصر و جربته أيضا، فصح أن يؤخذ قبل عيد ميكائيل بيوم فى وقت الظهر من الطين الذى مرّ عليه ماء النيل قطعة زنتها ستة عشر درهما سواء، و ترفع فى إناء مغطى إلى بكرة يوم عيد ميكائيل و توزن فما زاد على وزنها من الخراريب كان مبلغ النيل فى تلك السنة بقدر عدد تلك الخراريب لكل خرّوبة ذراع، و من ذلك أخذ شىء من دقيق القمح، و عجنه بماء النيل فى إناء فخار، و قد عمل من طين مرّ عليه النيل، و تركه مغطى طول ليلة عيد ميكائيل، فإذا وجد بكرة يوم العيد قد اختمر بنفسه، كان النيل تامّا وافيا، و إن وجده لم يختمر دل على قصور هذا النيل، ثم ينظرون مع ذلك بكرة يوم عيد ميكائيل إلى الهواء، فإن هبت طيابا فهو نيل كبير، و إن هبت غير طياب فهو نيل مقصر، لا سيما إن هبت مريسيا فإنه يكون نيلا غير كاف، و الشأن عندهم إنما هو فى دلالة العلامات الثلاث على شىء واحد، فأما إذا اختلف فالحكم لا يكاد يصح.

و قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، و ذكر أصحاب التجارب: أنه إذا تقدّم فعمد إلى لوح و زرع عليه من كل زرع و نبات حتى إذا كانت الليلة الخامسة و العشرون من شهر تموز أحد شهور الروم و هى آخر أيام الباحور، ثم وضع اللوح بارزا لطلوع الكواكب، و غروبها لا يحول بينه و بين السماء شىء، فإن كل ما لا يزكو فى تلك السنة من الزروع يصبح أصفر، و ما يصلح ريعه منها يبقى أخضر، و كذلك كانت القبط تفعل ذلك و قد جرّبت أنا على ما أفادنيه بعض الكتاب أنه إذا حصل مطر و لو قل فى شهر بابة ينظر ما ذلك اليوم من الشهر القبطىّ فإنه يبلغ سعر الويبة القمح تلك السنة من الدراهم بعدد ما مضى من أيام شهر بابة. و أوّل ما جرّبت هذا أنه وقع مطر فى بابة يوم الخميس الخامس عشر منها فبيعت الويبة تلك السنة بخمسة عشر درهما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۲۹

ذكر عيد الشهيد

و مما كان يعمل بمصر عيد الشهيد، و كان من أنزه فرج مصر، و هو (اليوم الثامن من بشنس) . أحد شهور القبط، و يزعمون أن النيل بمصر لا يزيد فى كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى. و يكون ذلك اليوم عيدا ترحل إليه النصارى من جميع القرى، و يركبون فيه الخيل، و يلعبون عليها، و يخرج عامّة أهل القاهرة، و مصر على اختلاف طبقاتهم، و ينصبون الخيم على شطوط النيل و فى الجزائر، و لا يبقى مغنّ و لا مغنية، و لا صاحب لهو، و لا رب ملعوب، و لا بغىّ و لا مخنث و لا ماجن، و لا خليع و لا فاتك و لا فاسق إلا و يخرج لهذا العيد، فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم.

و تصرف أموال لا تنحصر و يتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى و الفسوق، و تثور فتن و تقتل أناس و يباع من الخمر خاصة فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهبا و باع نصرانىّ فى يوم واحد بإثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر، و كان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائما بناحية شبرى من ضواحى القاهرة، و كان اعتماد فلاحى شبرى دائما فى وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر فى عيد الشهيد.

و لم يزل الحال على ما ذكر من الاجتماع كذلك إلى أن كانت سنة اثنتين و سبعمائة، و السلطان يومئذ بديار مصر: الملك الناصر محمد بن قلاوون، و القائم بتدبير الدولة الأمير:

ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و هو يومئذ أستادار السلطان، و الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة بديار مصر، فقام الأمير بيبرس فى إبطال ذلك قياما عظيما، و كان إليه أمور ديار مصر هو و الأمير سلار و الناصر تحت حجرهما لا يقدر على شبع بطنه إلا من تحت أيديهما، فتقدم أمر الأمير بيبرس أن لا يرمى أصبع فى النيل، و لا يعمل له عيد، و ندب الحجاب و والى القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرى على عادتهم، و خرج البريد إلى سائر أعمال مصر، و معهم الكتب إلى الولاة بإجهار النداء و إعلانه فى الأقاليم بأن لا يخرج أحد من النصارى، و لا يحضر لعمل عيد الشهيد، فشق ذلك على أقباط مصر كلهم من أظهر الإسلام منهم، و زعم أنه مسلم، و من هو باق على نصرانيته، و مشى بعضهم إلى بعض و كان منهم رجل يعرف: بالتاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة، و هو يومئذ فى خدمة الأمير بيبرس، و قد احتوى على عقله و استولى على جميع أموره كما هى عادة ملوك مصر، و أمرائها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۰

من الأتراك فى الانقياد لكتابهم من القبط سواء منهم من أسرّ الكفر و من جهر به.

و ما زال الأقباط بالتاج إلى أن تحدّث مع مخدومه الأمير بيبرس فى ذلك، و خيل له من تلف مال الخراج إذا بطل هذا العيد. فإن أكثر خراج شبرى إنما يحصل من ذلك، و قال له: متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل أبدا. و يخرب إقليم مصر لعدم طلوع النيل، و نحو ذلك من هتف القول، و تنميق المكر فثبت اللّه الأمير بيبرس، و قوّاه حتى أعرض عن جميع ما زخرفه من القول و استمرّ على منع عمل العيد. و قال للتاج: إن كان النيل لا يطلع إلا بهذا الأصبع فلا يطلع، و إن كان اللّه سبحانه هو المتصرف فيه فنكذب النصارى، فبطل العيد من تلك السنة و لم يزل منقطعا إلى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة.

و عمّر الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر فى بحر النيل ليرمى قوّة التيار عن برّ القاهرة إلى ناحية الجيزة كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، فطاب الأمير يلبغا اليحياوىّ، و الأمير الطنبغا الماردينى من السلطان أن يخرجا إلى الصيد و يغيبا مدّة، فلم تطب نفسه بذلك لشدّة غرامه بهما، و تهتكه فى محبتهما، و أراد صرفهما عن السفر، فقال لهما: نحن نعيد عمل عيد الشهيد، فيكون تفرّجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد، و كان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد فرضيا منه بذلك، و أشيع فى الإقليم إعادة عمل عيد الشهيد، فلما كان اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه ركب الأمراء النيل فى الشخاتير بغير حراريق، و اجتمع الناس من كل جهة، و برز أرباب الغناء و أصحاب اللهو و الخلاعة، فركبوا النيل و تجاهروا بما كانت عادتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات، و توسع الأمراء فى تنوّع الأطعمة و الحلاوات، و غيرها توسعا خرجوا فيه عن الحدّ فى الكثرة البالغة، و عمّ الناس منهم ما لا يمكن وصفه لكثرته، و استمرّوا على ذلك ثلاثة أيام، و كانت مدّة انقطاع عمل عيد الشهيد منذ أبطله الأمير بيبرس إلى أن أعاده الملك الناصر، ستا و ثلاثين

سنة، و استمرّ عمله فى كل سنة بعد ذلك إلى أن كانت سنة خمس و خمسين و سبعمائة، تحرّك المسلمون على النصارى و عملت أوراق بما قد وقف من أراضى مصر على كنائس النصارى، و دياراتهم. و ألزم كتاب الأمراء بتحرير ذلك و حمل الأوراق إلى ديوان الأحباس، فلما تحرّرت الأوراق اشتملت على خمسة و عشرين ألف فدّان كلها موقوفة على الديارات و الكنائس، فعرضت على أمراء الدولة القائمين بتدبير الدولة فى أيام الملك الصالح: صالح بن محمد بن قلاوون و هم:

الأمير شيخو العمرى، و الأمير صرغتمش، و الأمير طاز، فتقرّر الحال على أن ينعم بذلك على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم، و ألزم النصارى بما يلزمهم من الصغار، و هدمت لهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۱

عدّة كنائس كما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الكنائس، فلما كان العشر الأخير من شهر رجب من السنة المذكورة خرج الحاجب و الأمير علاء الدين علىّ بن الكورانىّ والى القاهرة إلى ناحية شبرى الخيام من ضواحى مصر، فهدمت كنيسة النصارى، و أخذ منها أصبع الشهيد فى صندوق و أحضر إلى الملك الصالح، و أحرق بين يديه فى الميدان، و ذرى رماده فى البحر حتى لا يأخذه النصارى، فبطل عيد الشهيد من يومئذ إلى هذا العهد، و للّه الحمد و المنة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۲

ذكر الخلجان التى شقت من النيل

اشارة

اعلم أن النيل إذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان و ترع، يتخرّق الماء فيها يمينا و شمالا إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل، و أكثر الخلجان و الترع و الجسور، و الأخوار بالوجه البحرىّ. و أما الوجه القبلىّ: و هو بلاد الصعيد فإن ذلك قليل فيه، و قد ذهبت معالمه و درست رسومه من هنالك.

و المشهور من الخلجان: خليج منجا، و خليج منف، و خليج المنهى، و خليج أشموم طناح، و خليج سردوس، و خليج الإسكندرية، و خليج دمياط، و خليج القاهرة، و بحر أبى المنجا، و الخليج الناصرى ظاهر القاهرة.

قال ابن عبد الحكم عن أبى رهم السماعىّ قال: كانت مصر ذات قناطر، و جسور بتقدير و تدبير حتى إن الماء ليجرى تحت منازلها و أفنيتها، فيحسبونه كيف شاءوا، و يرسلونه كيف شاءوا، فذلك قوله تعالى، عما حكى عن قول فرعون: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ [الزخرف/ ۵۱]، و لم يكن يومئذ فى الأرض ملك أعظم من ملك مصر، و كانت الجنات بحافتى النيل من أوّله إلى آخره فى الجانبين معا جميعا مما بين أسوان إلى رشيد، و سبع خلج: خليج الإسكندرية، و خليج سخا، و خليج دمياط، و خليج منف، و خليج الفيوم، و خليج المنهى، و خليج سردوس، جنات متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، و الزرع ما بين الجبلين من أوّل مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء.

و كانت جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما قدّروا و دبروا من قناطرها و خلجها و جسورها، فذلك قوله تعالى: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ [الدخان/ ۲۶]. قال: و المقام الكريم: المنابر، كان بها ألف منبر.

(خليج سخا) و خليج سخا: حفره ندارس بن صا ابن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح و هو: أحد ملوك القبط القدماء الذين ملكوا مصر فى الدهر الأوّل.

قال ابن وصيف شاه: ندارس الملك أوّل من ملك الأحياز كلها بعد أبيه صا، و صفا له ملك مصر، و كان ندارس محتنكا مجرّبا ذا أيد و قوّة، و معرفة بالأمور، فأظهر العدل، و أقام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۳

الهياكل و أهلها قياما حسنا، و دبر جميع الأحياز. و يقال: إنه الذى حفر خليج سخا و ارتفع مال البلد على يده مائة ألف ألف دينار و خمسين ألف ألف دينار، و قصده بعض عمالقة الشام فخرج إليه و استباحه، و دخل فلسطين، و قتل بها خلقا، و سبى بعض حكمائها و أسكنهم مصر، و هابته الملوك و على رأس ثلاثين من ملكه طمع السودان من الزنج و النوبة فى أرضه، و عاثوا و أفسدوا، فجمع الجيوش من أعمال مصر و أعد المراكب، و وجه قائدا يقال له: فلوطس فى ثلثمائة ألف، و قائدا آخر فى مثلها، و وجه فى النيل ثلثمائة سفينة فى كل سفينة كاهن يعمل أعجوبة من العجائب، ثم خرج فى جيوش كثيرة، فلقى جمع السودان، و كانوا فى زهاء ألف ألف فهزمهم، و قتل أكثرهم أبرح قتل، و أسر منهم خلقا و تبعتهم جيوشه حتى وصلوا إلى أرض الفيلة من بلاد الزنج، فأخذوا منها عدّة و من النمور و الوحوش و ساقوها إلى مصر فذللها و عمل على حدود بلده منارا و زبر عليه مسيره، و ظفره الوقت الذى سار فيه، و مات بمصر فدفن فى ناووس نقل إليه شيئا كثيرا من أصنام الكواكب، و من الذهب و الجوهر و الصيغة و التماثيل، و زبر عليه اسمه و تاريخ هلاكه، و جعل له طلسمات تمنع منه و عهد إلى ابنه ماليق بن ندارس.

(خليج سردوس) : حفره هامان. قال ابن وصيف شاه طلما بن قومس الملك:

جلس على سرير الملك، و حاز جميع ما كان فى خزائنهم، و هو الذى تذكر القبط أنه فرعون موسى.

فأما أهل الأثر فيزعمون أنه الوليد بن مصعب، و أنه من العمالقة، و ذكروا أن الفراعنة سبعة، و كان طلما فيما حكى عنه: قصيرا طويل اللحية أشهل العينين صغير العين اليسرى فى جبينه شامة، و كان أعرج. و زعم قوم: أنه من القبط و نسب أهل بيته مشهور عندهم.

و ذكر آخرون: أنه دخل منف على أتان عليها نطرون جاء ليبيعه، و كانوا قد اضطربوا فى تولية الملك فرضوا أن يملكوا عليهم أوّل من يطرأ من الناس، فلما رأوه ملكوه عليهم، و لما جلس فى الملك بذل الأموال، و قرب من أطاعه، و قتل من خالفه فاعتدل أمره، و استخلف هامان، و كان يقرب منه فى نسبه، و أثار بعض الكنوز و صرفها فى بناء المدائن و العمارات و حفر خلجانا كثيرة.

و يقال: إنه الذى حفر خليج سردوس، و كان كلما عرّجه إلى قرية من قرى الحوف حمل إليه أهلها مالا حتى اجتمع من ذلك مال كثير فأمر بردّه على أهله.

و قال ابن عبد الحكم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما: أن فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يسألونه أن يجرى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۴

الخليج تحت قريتهم، و يعطونه مالا؛ قال: و كان يذهب به إلى هذه القرية من نحو الشرق، ثم يردّه إلى قرية من نحو دبر القبلة، ثم يردّه إلى قرية فى الغرب ثم يردّه إلى أهل قرية فى القبلة، و يأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار، فأتى بذلك يحمله إلى فرعون فسأله عن ذلك، فأخبره بما فعل فى حفره فقال له فرعون: ويحك إنه ينبغى للسيد أن يعطف على عباده، و يفيض عليهم، و لا يرغب فيما بأيديهم ردّ على أهل كل قرية ما أخذت منهم فردّه كله على أهله. قال: فلا يعلم بمصر خليج أكثر انعطافا منه لما فعل هامان فى حفره كان هامان نبطيا.

(خليج الإسكندرية): قال ابن عبد الحكم: و يقال: إن الذى بنى منارة الإسكندرية (فليطرة الملكة) و هى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية، و لم يكن يدخلها الماء كان يعدل من قرية يقال لها: كسا قبالة الكريون، فحفرته حتى أدخلته الإسكندرية و هى التى بلطت قاعته. و قال الكندى: إن الحارث بن مسكين قاضى مصر حفر خليج الإسكندرية.

و قال الأسعد بن مماتى فى كتاب قوانين الدواوين: خليج الإسكندرية عليه عدّة ترع و طوله من فم الخليج ثلاثون ألف قصبة و ستمائة قصبة، و عرضه من قصبتين و نصف إلى ثلاث قصبات و نصف، و مقام الماء فيه بالنسبة إلى النيل فإن كان مقصر أقصرت مدّة إقامته فيه، و إن كان عاليا أقام فيه ما يزيده على شهرين.

و رأيت جماعة من أهل الخبرة، و ذوى المعرفة يقولون: إنه إذا عملت من قبالة منية نتيج إلى نتيج زلاقة استقرّ الماء فيه صيفا و شتاء، و رأيت البحيرة جميعها و حوف و دمسيس و الكفور الشاسعة، و قد زرعت عليه القصب، و القلقاس و النيلة و أنواع زراعة الصيفيّ و جرى مجرى بحر الشرق و المحلة، و تضاعفت عليه البلاد، و عظم ارتفاعها و إقامة هذه الزلاقة ممكنة لوجود الحجارة فى ربوة و الطوب فى البحيرة، و إنهم قدّروا ما يحتاج إليه فوجدوه يناهز عشرة آلاف دينار.

و يقال: إنه كان الماء فيه جاريا طول السنة، و كان السمك فيه غاية من الكثرة بحيث تصيده الأطفال بالخرق فضمنه بعض الولاة بمال، و منع الناس من صيده، فعدم منه السمك، و لم ير بعد ذلك فيه سمكة فصار يخرج بالشباك.

(خليج الفيوم و المنهى): مما حفره نبيّ اللّه يوسف الصديق عليه السلام عندما عمّر الفيوم كما هو مذكور فى خبر الفيوم من هذا الكتاب، و هو مشتق من النيل لا ينقطع جريه أبدا، و إذا قابل النيل ناحية دورة سريام التى تعرف اليوم بدورة الشريف يعنى ابن يغلن النائب فى الأيام الظاهرية بيبرس تشعبت منه فى غربيه شعبة تسمى المنهى تستقل نهرا يصل إلى الفيوم، و هو الآن عرف: ببحر يوسف، و هو نهر لا ينقطع جريانه فى جميع السنة، فيسقى الفيوم عامّة سقيا دائما، ثم ينجرّ فضل مائه فى بحيرة هناك، و من العجب أنه ينقطع ماؤه من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۵

فوهته، ثم يكون له بلل دون المكان المندى ثم يجرى جريا ضعيفا دون مكان البلل، ثم يستقل نهرا جاريا لا يقطع إلا بالسفن، و يتشعب منه أنهار و ينقسم قسما يعمّ الفيوم و يسقى قراه و مزارعه و بساتينه و عامّة أماكنه، و اللّه أعلم.

(خليج القاهرة): هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربى فيما بينها و بين المقس عرف فى أوّل الإسلام: بخليج أمير المؤمنين، و تسميه العامّة اليوم: بخليج الحاكمى، و بخليج اللؤلؤة، و هو خليج قديم أوّل من حفره طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف، و هو الذى قدم إبراهيم الخليل صلوات اللّه عليه فى أيامه إلى مصر، و أخذ منه امرأته سارة، و أخدمها هاجر أم إسماعيل صلوات اللّه عليهما؛ فلما أخرجها إبراهيم هى و ابنها إسماعيل إلى مكة بعثت إلى طوطيس تعرّفه أنها بمكان جدب و تستغيثه، فأمر بحفر هذا الخليج، و بعث إليها فيه بالسفن تحمل الحنطة و غيرها إلى جدّة، فأحيا بلد الحجاز، ثم إن أندرومانوس الذى يعرف: بإيليا أحد ملوك الروم بعد الإسكندر بن فيلبس المقدونى، جدّد حفر هذا الخليج، و سارت فيه السفن، و ذلك قبل الهجرة النبوية بنيف و أربعمائة سنة. ثم إن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، جدد حفره لما فتح مصر و أقام فى حفره ستة أشهر، و جرت فيه السفن بحمل الميرة إلى الحجاز فسمى: خليج أمير المؤمنين، يعنى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فإنه هو الذى أشار بحفره، و لم تزل تجرى فيه السفن من فسطاط مصر إلى مدينة القلزم التى كانت على حافة البحر الشرقى حيث الموضع الذى يعرف اليوم على البحر: بالسويس، و كان يصب ماء النيل فى البحر من عند مدينة القلزم إلى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمه فى سنة خمسين و مائة، فطم و بقى منه ما هو موجود الآن، و سيأتى الكلام عليه مبسوطا إن شاء اللّه تعالى عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب.

(بحر أبى المنجا) : هذا الخليج تسميه العامّة: بحر أبى المنجا الذى حفره:

الأفضل بن أمير الجيوش فى سنة ست و خمس مائة، و كان على حفره أبو المنجا بن شعيا اليهودى. فعرف به، و قد ذكر خبر هذا الخليج عند ذكر مناظر الخلفاء، و مواضع نزههم من هذا الكتاب.

(الخليج الناصرى): هذا الخليج فى ظاهر المقس، حفره: الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب.

ذكر ما كانت عليه أرض مصر فى الزمن الأوّل

اشارة

قال المسعودىّ: و قد كانت أرض مصر على ما زعم أهل الخبرة و العناية، بأخبار شأن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۶

العالم يركب أرضها ماء النيل، و ينبسط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض و موضع الفسطاط فى وقتنا هذا، و كان بدء ذلك من موضع يعرف: بالجنادل بين أسوان و النوبة إلى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء، و جريانه و ما يتصل من النوبة بتياره من موضع إلى موضع، فنضب الماء عن بعض المواضع من بلاد مصر، و سكن الناس بلاد مصر، و لم يزل الماء ينضب عن أرضها قليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من المدن و العمائر، و طرّقوا للماء، و حفروا له الخلجان، و عقدوا فى وجهه المسببات إلى أن خفى ذلك على ساكنيها لأنّ طول الزمان ذهب بمعرفة أوّل سكناهم كيف كان انتهى.

قلت: و مما ذكر أرسطاطاليس فى كتاب الآثار العلوية: أن أرض مصر كان النيل ينبسط عليها، فيطبقها كأنها بحر، و لم يزل الماء ينضب عنها، و يبس ما علا منها أوّلا فأوّلا، و يسكن إلى أن امتلأت بالمدن و القرى و الناس. و يقال: إن الناس كانوا قبل سكنى مدينة منف يسكنون بسفح الجبل المقطم فى منازل كثيرة نقروها، و هى المغاير التى فى الجبل المقابل لمنف من قبلىّ المقطم فى الجبل المتصل بدير القصير الذى يعرف: بدير البغل المطل على ناحية طرى، و من وقف عند أهرام نهيار، أى المغائر فى الشرقى، و بينهما النيل، و من صعد من طرا إلى الجبل و سار فيه دخلها و هى: مغاير متسعة، و فيها مغائر تنفذ إلى القلزم تسع المغارة منها أهل مدينة، و إذا دخلها أحد، و لم يهتد على ما يدله على المخرج هلك فى تحيره، و يقال: كانت مصر جرداء لا نبات بها فأقطعها متوشلح بن أخنوخ بن يازد بن مهلاييل بن فتيان بن أنوس بن شيث بن آدم لطائفة من أولاده، فلما نزلوها وجدوا نيلها قد سدّ ما بين الجبلين فنضب الماء عن أرض زروعها، فأخرجت الأرض بركاتها، ثم بعد زمان أخذها عنقام الأوّل بن عرياب بن آدم بالغلبة، و نسل بها خلقا عظيما، و جهز لقتال أولاد يزد سبعين ألف مقاتل، و حفر من البحر إلى الجبل نهرا عرضه أربعون قصبة ليمنع من يأتيه، فأتاه بنو يزد، فلم يجدوا إليه سبيلا ففزعوا إلى اللّه تعالى فبعث على أرض مصر نارا.

ذكر أعمال الديار المصرية و كورها

اعلم أن أرض مصر كانت فى الزمن الأوّل الغابر مائة و ثلاثا و خمسين كورة ، فى كل كورة مدينة و ثلثمائة و خمس و ستون كورة، فلما عمرت أرض مصر بعد بخت نصر، صارت على خمس و ثمانين كورة، ثم تناقصت حتى جاء الإسلام، و فيها أربعون عامرة بجميع قراها لا تنقص شيئا، ثم استقرّت أرض مصرها كلها فى الجملة على قسمين: الوجه القبلى: و هو ما كان فى جهة الجنوب من مدينة مصر؛ و الوجه البحرى: و هو ما كان فى شمال مدينة مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۷

و قد قسمت الأرض جميعها قبليها و بحريها على ستة و عشرين عملا و هى: الشرقية، و المرتاحية، و الدقهلية، و الإيوانية، و ثغر دمياط.

الوجه البحرى: جزيرة قويسنا، و الغربية، و السمنودية، و الدنجاوية، و المنوفية، و الستراوية، و فوّه، و المزاحمتين، و جزيرة بنى نصر، و البحيرة، و إسكندرية و ضواحيها، و حوف دمسيس.

و

الوجه القبلى: الجيزة، و الأطفيحية، و البوصيرية، و الفيومية، و البهنساوية، و الأشمونين، و المنفلوطية، و الأسيوطية، و الإخميمية، و القوصية. و هى أيضا ثلاثون كورة، و هى: كورة الفيوم، و فيها مائة و ست و خمسون قرية، و يقال: إنها كانت ثلثمائة و ستين قرية، و كورة منف و وسيم خمس و خمسون قرية، و كورة الشرقية و تعرف بالأطفيحية سبع عشرة قرية، و قرى أهناس و منه: قمن ثمانى قرى، و كور تادلاص، و بوصير ست قرى، و كورة أهناس خمس و تسعون قرية، سوى الكفور، و كورة البهنسا مائة و عشرون قرية، و

كورة الفشن سبع و ثلاثون قرية، و كورة طحا سبع و ثلاثون قرية، و حوز سنودة ثمان قرى، و كورة الأشمونين مائة و ثلاث و ثلاثون قرية، و كورة أسفل انصنا إحدى عشرة قرية، و كورة سيوط سبع و ثلاثون قرية، و كورة شطب ثمان قرى، و كورة أعلا أنصنا ثنتا عشرة قرية، و كورة قهقوه سبع و ثلاثون قرية، و كورة أخميم و الدوير ثلاث و ستون قرية، و كورة السبابة و الواحات ثلاث و ستون قرية سوى الكفور، و كورة هو عشرون قرية، و كورة فاو ثمان قرى، و كورة قنا سبع قرى، و كورة دندرة عشر قرى، و كورة قفط ثنتان و عشرون قرية، و كورة الأقصر خمس قرى، و كورة أسنا خمس قرى، و كورة أرمنت سبع قرى، و كورة أسوان سبع قرى، فجميع قرى الصعيد ألف و ثلاثون و أربعون قرية سوى المنى، و الكفور فى ثلاثين كورة.

كورة أسفل الأرض: الحوف الشرقيّ خمس و ستون قرية، كورة أتريب مائة و ثمان قرى سوى المنى و الكفور، كورة بنو سبع و ثمانون قرية سوى المنى و الكفور، كورة نما مائة و خمسون قرية سوى المنى و الكفور، كورة بسطة تسع و ثلاثون قرية، كورة طرابية ثمان و عشرون قرية منها: السدير و الهامة و فاقوس، كورة هربيط ثمان عشرة قرية سوى المنى و الكفور، كورة صا و إبليل ست و أربعون قرية منها: سنهور و الفرما و العريش.

فجميع قرى الحوف الشرقى خمسمائة و تسع و عشرون قرية سوى المنى فى سبع كور.

بطن الريف كورتادمسيس، و منوف مائة و أربع قرى سوى المنى و الكفور. كورة تاطورة منوف اثنتان و سبعون قرية سوى المنى و الكفور، كورة سخا مائة و خمس عشرة قرية، كورة بيدة و الأفراحون ثلاث و عشرون قريّة سوى المنى و الكفور، كورة البشرود اربع و عشرون قرية، كورة نفر اثنتا عشرة قرية سوى المنى، كورة ببا و بوصير ثمان و ثمانون قرية سوى المنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۸

و الكفور، كورة سمنود مائة و ثمان و عشرون قرية سوى المنى و الكفور، كورة نوسا إحدى و عشرون قرية سوى المنى، كورة الأوسية أربعون قرية سوى المنى، كورة النجوم أربعون قرية سوى المنى، تنيس و دمياط ثلاث عشرة قرية سوى المنى، و هى شىء كثير.

الإسكندرية، الحوف الغربى: كورة صا ثلاث و سبعون قرية سوى المنى و الكفور، كورة شباس اثنان و عشرون قرية سوى المنى و الكفور، كورة اليدقون ثلاث و أربعون قرية سوى المنى و الكفور، حيز اليدقون تسع و عشرون قرية سوى المنى و الكفور، الشراك تسع قرى، كورة ترنوط ثمان قرى، كورة خربتا اثنا و ستون قرية سوى المنى و الكفور، كورة قرطسا اثنان و عشرون قرية سوى المنى و الكفور، كورتا مصيل و المليدس تسع و أربعون قرية سوى المنى، كورتا احنور و رشيد سبع عشرة قرية، البحيراء و الحصص بالإسكندرية و الكرومات و البعل و مريوط و مدينة الإسكندرية و لوبيه و مراقبه مائة و أربع و عشرون قرية سوى المنى. فالحوف الغربىّ: أربعمائة و تسع و أربعون قرية سوى المنى فى ثلاث عشرة كورة.

قال المسبّحى فى تاريخه: تصير قرى مصر أسفل الأرض ألفا و أربعمائة و تسعا و ثلاثين قرية، و يكون جميع ذلك بالصعيد، و أسفل الأرض ألفين و ثلثمائة و خمسا و تسعين قرية.

و قال القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعى: أرض مصر قسمين: فمن ذلك صعيدها و هو ما يلى: مهب الجنوب منها، و أسفل أرضها و هو ما يلى: مهب الشمال منها، فقسم الصعيد على ثمان و عشرين كورة، فمن ذلك كورة الفيوم كلها، و كورتا منف و وسيم، و كورة الشرقية، و كورتا دلاص و أبو صير، و كورة أهناس، و كورتا الفشن و البهنسا، و كورة طحا و حيز سنودة، و كورة بويط، و كورتا الأشمونين و أسفل أنصنا و أعلاها و شطب قوص قام، و كورة سيوط، و كورة قهقوه، و كورتا أخميم و الدير و أبشاية، و كورة هوّ و أقنا و فاو و دندرة، و كورة قفط و الأقصر، و كورة اسنا و ارمنت، و كورة أسوان.

فهذه كور الصعيد، و من ذلك كور أسفل الأرض و هى خمس و عشرون كورة. و فى نسخة: ثلاث و ثلاثون كورة، و فى نسخة: ثمان و ثلاثون كورة، فمن ذلك:

كورة الجوف الشرقيّ: كورتا اتريب و عين شمس، و كورتا بنى و نمى، و كورتا بسطه و طرابية، و كورة هربيط، و كورة صا و إبليل، و كورة الفرما و العريش و الجفار و من ذلك: كور بطن الريف من أسفل الأرض، كورة ببا و بوصير، و كورتا سمنود و بوسا، و كورتا الأوسية و النجوم، و كورة دقملة، و كورتا تنيس و دمياط. و منها: كورة الجزيرة من أسفل الأرض، و كورة دمسيس و منوف، و كورة طوه و منوف، و كورة سخا و بيدة و الأفراحون، و كورة مقين و ديصا، و كورة البشرود.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۳۹

و من ذلك

كور الحوف الغربيّ: كورة صا، و كورة شباس، و كورة اليدقون و حيزها، و كورة الخيس و الشراك، و كورة خربتا، و كورة قرطسا و مصيل و المليدس، و كورتا اخنا و البحيرة و رشيد، و كورة الإسكندرية، و كورة مريوط، و كورة لوبية و مراقية.

و من

كور القبلة: كرى الحجاز و هى: كورة الطور و فاران، و كورة راية و القلزم، و كورة ايلة و حيزها و مدين و حيزها و العونيد و الحوراء و حيزها، ثم كورة بدا أو شغب.

و ذكر من له معرفة بالخراج، و أمر الديوان أنه وقف على جريدة عتيقة بخط ابن عيسى بقطر بن شغا الكاتب القبطيّ المعروف: بالبولس متولى خراج مصر للدولة الإخشيدية.

يشتمل على ذكر كور مصر و قراها إلى سنة خمس و أربعين و ثلثمائة إن قرى مصر بالصعيدين، و أسفل الأرض ألفان و ثلثمائة و خمس و تسعون قرية منها بالصعيد: تسعمائة و ست و خمسون قرية، و بأسفل الأرض: ألف و أربعمائة و تسع و ثلاثون قرية، و هذا عددها فى الوقت الذى جرّدت فيه الجرائد المذكورة، و قد تغيرت بعد ذلك بخراب ما خرب منها.

و قال ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد رضى اللّه عنه: لما ولى الوليد بن رفاعة مصر، خرج ليحصى عدّة أهلها، و ينظر فى تعديل الخراج عليهم، فأقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان، و معه جماعة من الكتاب، و الأعوان يكفونه ذلك بجدّ و تشمير، و ثلاثة أشهر بأسفل الأرض، و أحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية، فلم يحصر فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل.

و الذى استقرّ عليه الحال فى دولة الناصر (محمد بن قلاوون) أن الوجه القبلى ستة أعمال و هى من عمل قوص، و هو أجلها، و منه أسوان و غرب قوله، و عمل أخميم، و عمل أسيوط، و عمل منفلوط، و عمل الأشمونين و بها الطحاوية، و عمل البهنساوية الغربيّ، و هو عبارة عن قرى على غربى المنهى المارّ إلى الفيوم، و عمل الفيوم، و عمل أطفيح، و عمل الجيزة.

و

الوجه البحرى ستة أعمال: عمل البحيراء، و هو متصل البرّ بالإسكندرية و برقة، و عمل الغربية جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين، و هما البحر المارّ مسكبه عند دمياط و يسمى الشرقيّ، و البحر الثانى مسكبه عند رشيد و يسمى الغربى، و المنوفية و منها:

ابيار، و جزيرة بنى نصر، و عمل قليوب، و عمل الشرقية، و عمل أسموم طناح و منها:

الدقهلية و المرتاحية، و هناك موقع ثغر البرلس، و ثغر رشيد و المنصورة، و فى هذا الوجه الإسكندرية و دمياط و لا عمل لهما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۴۰

و أما الواحات: فمنقطعة وراء الوجه القبلى مغاربة لم تعدّ فى الولايات و لا فى الأعمال، و لا يحكم عليها والى السلطان و إنما يحكم عليها من قبل مقطعها، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر ما كان يعمل فى أراضى مصر من حفر الترع و عمارة الجسور و نحو ذلك من أجل ضبط ماء النيل و تصريفه فى أوقاته

قال ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب: و كانت فريضة مصر بحفر خليجها، و إقامة جسورها، و بناء قناطرها، و قطع جزائرها مائة ألف و عشرين ألفا. معهم المساحى و الطوريات و الأداة يعتقبون ذلك لا يدعونه شتاء و لا صيفا.

و عن أبى قبيل قال: زعم بعض مشايخ أهل مصر: أن الذى كان يعمل به مصر على عهد ملوكها أنهم كانوا يقرّون القرى فى أيدى أهلها كل قرية، بكراء معلوم لا ينقص عنهم إلا فى كل أربع سنين من أجل الظمأ، و تنقل اليسار فإذا مضت أربع سنين نقض ذلك، و عدّل تعديلا جديدا، فيرفق بممن استحق الرفق و يزاد على من احتمل الزيادة، و لا يحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم، فإذا جبى الخراج و جمع كان للملك من ذلك الربع خالصا لنفسه يصنع به ما يريد، و الربع الثانى لجنده و من يقوى به على حربه و جباية خراجه و دفع عدوه، و الربع الثالث فى مصلحة الأرض و ما تحتاج إليه من جسورها و حفر خلجها، و بناء قناطرها و القوّة للزارعين على زرعهم و عمارة أرضهم، و الربع الرابع يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها، فيدفن ذلك لنائبة تنزل أو جائحة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، و الذى يدفن فى كل قرية من خراجها هى: كنوز فرعون التى يتحدّث الناس بها أنها ستظهر فيطلبها الذين يتتبعون الكنوز.

و ذكر أن بعض فراعنة مصر جبى خراج مصر اثنين و سبعين ألف ألف دينار، و أن من عمارته أنه أرسل ويبة قمح إلى أسفل الأرض و إلى الصعيد فى وقت تنظيف الأرض و الترع من العمارة، فلم يوجد لها أرض فارغة تزرع فيها، و ذكر أنه كان عند تناهى العمارة يرسل بأربع و يبات برسيم إلى الصعيد، و إلى أسفل الأرض و إلى أىّ كورة، فإن وجد لها موضعا خاليا فزرعت فيه، ضرب عنق صاحب الكورة، و كانت مصر يومئذ عمارتها متصلة أربعين فرسخا فى مثلها، و الفرسخ: ثلاثة أميال، و البريد: أربعة فراسخ، فتكون عشرة برد فى مثلها، و لم تزل الفراعنة تسلك هذا المسلك إلى أيام فرعون موسى فإنه عمرها عدلا و سماحة، و تتابع الظمأ ثلاث سنين فى أيامه، فترك لأهل مصر خراج ثلاث سنين، و أنفق على نفسه و عساكره من خزائنه، و لما كان فى السنة الرابعة أضعف الخراج و استمرّ فاعتاض ما أنفق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۴۱

و كتب عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه إلى عمرو بن العاص رضى اللّه عنه: أن اسئل المقوقس عن مصر، من أين تأتى عمارتها و خرابها؟ فسأله عمرو، فقال له المقوقس:

عمارتها و خرابها من وجوه خمسة: أن يستخرج خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم، و يرفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم، و يحفر فى كل سنة خلجانها، و تسدّ ترعها و جسورها، و لا يقبل مطل أهلها يريد البغى، فإذا فعل هذا فيها عمرت و إن عمل فيها بخلافه خربت.

و عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما استبطأ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، فى الخراج كتب إليه: أن ابعث إلىّ رجلا- من أهل مصر، فبعث إليه رجلا قديما من القبطة فاستخبره عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه عن مصر و خراجها قبل الإسلام فقال: يا أمير المؤمنين مصر كان لا يؤخذ منها شىء إلا بعد عمارتها، و عاملك لا ينظر إلى العمارة، و إنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد، فعرف عمر رضى اللّه عنه ما قال، و قبل من عمرو ما كان يعتذر به.

و قال عمرو بن العاص رضى اللّه عنه للمقوقس: أنت وليت مصر فبم تكون عمارتها؟

فقال: بخصال أن تحفروا خلجانها، و تسدّ جسورها و ترعها، و لا- يؤخذ خراجها إلا- من غلتها، و لا يقبل مطل أهله، و يوفى لهم بالشروط، و يدر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا، و يرتفع عن أهله المعاون و الهدايا، ليكون قوّة لهم، فبذلك تعمر و يرجى خراجها.

و يقال: إن ملوك مصر من القبط كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام: قسم لخاصة الملك، و قسم لأرزاق الجند، و قسم لمصالح الأرض، و قسم يدخر لحادثة تحدث فينفق فيها.

و لما ولى عبيد اللّه بن الحبحاب خراج مصر، لهشام بن عبد الملك خرج بنفسه، فمسح أرض مصر كلها عامرها و غامرها مما يركبه

النيل، فوجد فيها مائة ألف ألف فدّان، و الباقى استبحر و تلف، و اعتبر مدّة الحرث، فوجدها ستين يوما، و الحرّاث يحرث خمسين فدّانا، و كانت محتاجة إلى أربعمائة ألف و ثمانين ألف حرّاث.

ذكر مقدار خراج مصر فى الزمن الأوّل

اشارة

قال ابن وصيف شاه: و كان منقاوس قسم خراج البلاد أرباعا، فربع للملك خاصة يعمل فيه ما يريد، و ربع ينفق فى مصالح الأرض و ما تحتاج إليه من عمل الجسور و حفر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۴۲

الخلج و تقوية أهلها على العمارة، و ربع يدفن لحادثة تحدث أو نازلة تنزل، و ربع للجند، و كان خراج البلد ذلك الوقت مائة ألف ألف و ثلاثة آلاف ألف دينار و قسمها على مائة و ثلاث كور بعدّة الآلاف.

و يقال: إن كل دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الإسلامية و هى اليوم: خمس و ثمانون كورة. أسفل الأرض: خمس و أربعون كورة، و الصعيد: أربعون كورة، و فى كل كورة كاهن يدبرها، و صاحب حرب و ارتفع مال البلد على يد ندارس بن صا مائة ألف ألف دينار و خمسين ألف ألف دينار، و فى أيام كلكن بن خربتا بن ماليق بن ندارس مائة ألف ألف دينار و بضعة عشر ألف ألف دينار و لما زالت دولة القبط الأولى من مصر و ملكها العمالقة اختل أمرها، و كان فرعون الأوّل يجبيها تسعين ألف ألف دينار يخرج من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لأولياء الأمر و الجند و الكتّاب، و عشرة آلاف ألف دينار لمصالح فرعون، و يكنزون لفرعون خمسين ألف ألف دينار.

و بلغ خراج مصر فى أيام الريان بن الوليد و هو فرعون يوسف عليه السلام، سبعة و تسعين ألف ألف دينار، فأحب أن يتمه مائة ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمارات و إصلاح جسور البلد، و الزيادة فى استنباط الأرض حتى بلغ ذلك و زاد عليه.

و قال ابن دحية: و جبيت مصر فى أيام الفراعنة فبلغت تسعين ألف ألف دينار بالدينار الفرعونىّ و هو ثلاثة مثاقيل فى مثقالنا المعروف الآن بمصر الذى هو: أربعة و عشرون قيراطا، كل قيراط: ثلاث حبات من قمح، فيكون بحساب ذلك مائتى ألف ألف و سبعين ألف ألف دينار مصرية.

و ذكر الشريف الجوّانى : أنه وجد فى بعض البرابى بالصعيد مكتوبا باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف عليه السلام، و هو الريان بن الوليد من أموال مصر بحق الخراج مما يوجبه الخراج، و سائر وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل و الإنصاف، و الرسوم الجارية من غير تأوّل و لا اضطهاد و لا مشاحة على عظيم فضل كان فى يد المؤدى لرسمه و بعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للعاملين و تقوية لحالهم من العين أربعة و عشرون ألف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار، و ذكر ما فيه كما فى خبر الحسن بن على الأسدى.

و قال الحسن بن على الأسدى: أخبرنى أبى قال: وجدت فى كتاب قبطى باللغة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۴۳

الصعيدية، مما نقل إلى اللغة العربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون مصر بحق الخراج الذى يوجد و سائر وجوه الجبايات لسنة كاملة على العدل و الإنصاف و الرسوم الجارية من غير اضطهاد و لا مناقشة على عظيم فضل كان فى يد المؤدّى لرسمه و بعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان رفقا بالمعاملين و تقوية لهم من العين أربعة و عشرين ألف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار من جهات مصر، و

ذلك ما يصرف فى عمارة البلاد لحفر الخلج و إتقان الجسور، و سدّ الترع و إصلاح السبل، و الساسة ثم فى تقوية من يحتاج التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل و التوسعة فى البدار و غير ذلك، و ثمن الآلات و أجرة من يستعان به من الأجراء لحمل الأصناف، و سائر نفقات تطريق أراضيهم من العين ثمانمائة ألف دينار، و لما يصرف فى أرزاق الأولياء الموسومين بالسلاح و حملته و الغلمان، و أشياعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين سوى أتباعهم من الخزان، و من يجرى مجراهم و عدّتهم مائة ألف و أحد عشر ألف رجل من العين ثمانية آلاف ألف دينار، و لما يصرف فى الأرامل، و الأيتام فرضا لهم من بيت المال، و إن كانوا غير محتاجين إليه حتى لا تخلو آمالهم من برّ يصل إليهم من العين أربعمائة ألف دينار، و لما يصرف فى كهنة برابيهم، و أئمتهم و سائر بيوت صلواتهم من العين مائة ألف دينار، و لما يصرف فى الصدقات، و ينادى فى الناس: برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة، فليحضر فلا يرد عند ذلك أحد، و الأمناء جلوس فإذا رؤى رجل لم تجر عادته بذلك أفرد بعض قبض ما يقبضه، حتى إذا فرّق المال، و اجتمع من هذه الطائفة عدّة دخل أمناء فرعون إليه وهنوه بتفرقة المال، و دعوا له بالبقاء و السلامة و أنهوا حال الطائفة المذكورة، فيأمر بتغيير شعثها بالحمام و اللباس، و بمدّ الأسمطة، و يأكلون و يشربون، ثم يستعلم من كلواحد سبب فاقته، فإن كان من آفة الزمان ردّ عليه مثل ما كان و أكثر، و إن كان عن سوء رأى و ضعف تدبير ضمه إلى من يشرف عليه، و يقوم بالأمر الذى يصلح له من العين مائتا ألف دينار.

فذلك جملة ما تبين، و فصل فى هذه الجهات المذكورة من العين تسعة آلاف ألف و ثمانمائة ألف دينار، و يحصل بعد ذلك ما يتسلمه فرعون فى بيوت أمواله عدّة لنوائب الدهر، و حادثات الزمان من العين أربعة عشر ألف ألف دينار و ستمائة ألف دينار.

و قيل لبعضهم: متى عقدت مصر تسعين ألف ألف دينار؟ قال: فى الوقت الذى أرسل فرعون بويبة قمح إلى أسفل الأرض و إلى الصعيد فلم يجد لها موضعا تبذر فيه لشغل جميع البلاد بالعمارة.

ذكر ما عمله المسلمون عند فتح مصر فى الخراج و ما كان من أمر مصر فى ذلك مع القبط

قال زهير بن معاوية: حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۴۴

«منعت العراق درهمها و قفيزها ، و منعت الشام مدّها و دينارها، و منعت مصر إردبها و عدتم من حيث بدأتم». قال أبو عبيد: قد أخبر صلى اللّه عليه و سلم بما لم يكن، و هو فى علم اللّه كائن فخرّج لفظه على لفظ الماضى لأنه ماض فى علم اللّه و فى إعلامه بهذا قبل وقوعه، ما دل على إثبات نبوّته، و دل على رضاه من عمر رضى اللّه عنه ما وظفه على الكفرة من الخراج فى الأمصار.

و فى تفسير المنع و جهان: أحدهما: أنه علم أنهم سيسلمون و يسقط عنهم ما وظف عليهم، فصاروا مانعين بإسلامهم ما وظف عليهم، يدل عليه قوله: «و عدتهم من حيث بدأتم». و قيل معناه: أنهم يرجعون عن الطاعة، و الأوّل أحسن.

و قال ابن عبد الحكم عن عبيد اللّه لن لهيعة: لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة و لا صبىّ و لا شيخ على دينارين دينارين، فأحصوا ذلك، فبلغت عدّتهم ثمانية آلاف ألف.

و عن هشام بن أبى رقية اللخمىّ: أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر:

إن من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته، و إنّ قبطيا من أرض الصعيد يقال له: بطرس، ذكر لعمرو: إن عنده كنزا فأرسل إليه فسأله، فأنكر، و جحد فحبسه فى السجن، و عمرو يسأل عنه: هل تسمعونه يسأل عن أحد؟ فقالوا: لا، إنما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور، فأرسل عمرو إلى بطرس، فنزع خاتمه، ثم كتب إلى ذلك الراهب: أن ابعث إلىّ بما عندك، و ختمه بخاتمه، فجاء الرسول بقلّة شامية مختومة بالرصاص، ففتحها عمرو، فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها: (ما لكم تحت الفسقية الكبيرة) فأرسل عمرو إلى الفسقية، فحبس

عنها الماء، ثم قلع البلاط الذى تحتها، فوجد فيها اثنين و خمسين أردبا ذهبا مصريا مضروبة، فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد، فأخرج القبط كنوزهم شفقا أن يبغى على أحد منهم، فيقتل كما قتل بطرس.

و عن يزيد بن أبى حبيب: أن عمرو بن العاص، استحل مال قبطىّ من قبط مصر لأنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۴۵

استقرّ عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين، و يكتب إليهم بذلك، فاستخرج منه بضعا و خمسين أردبا دنانير.

قال ابن عبد الحكم: و كان عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، يبعث إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه، و كانت فريضة مصر لحفر خلجها، و إقامة جسورها، و بناء قناطرها، و قطع جزائرها مائة ألف و عشرين ألفا معهم الطور و المساحى و الأداة يعتقبون ذلك لا يدعون ذلك صيفا و لا شتاء، ثم كتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: أن تختم فى رقاب أهل الذمّة بالرصاص، و يظهروا مناطقهم، و يجزوا نواصيهم و يركبوا على الأكف عرضا، و لا يضربوا الجزية إلا على من جرتعليه الموسى، و لا يضربوا على النساء، و لا على الولدان، و لا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم.

و عن يزيد بن أسلم: أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كتب إلى أمراء الأجناد: أن لا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى، و جزيتهم أربعون درهما على أهل الورق، و أربعة دنانير على أهل الذهب، و عليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة و الزيت مدّان من حنطة، و ثلاثة أقساط من زيت فى كل شهر لكل إنسان من أهل الشام، و الجزيرة، و ودك و عسل لا أدرى كم هو، و من كان من أهل مصر، فأردب فى كل شهر لكل إنسان، و لا أدرى كم الودك و العسل، و عليهم من البز الكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس و يضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام و على أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل إنسان، و لا أدرى كم لهم من الودك، و كان لا يضرب الجزية على النساء و الصبيان، و كان يختم فى أعناق رجال أهل الجزية، و كانت ويبة عمر فى ولاية عمرو بن العاص: ستة أمداد.

قال: و كان عمرو بن العاص، لما استوثق له الأمر أقرّ قبطها على جباية الروم، فكانت جبايتهم بالتعديل إذا عمرت القرية، و كثر أهلها زيد عليهم، و إن قل أهلها و خربت نقصوا، فيجتمع عرّافوا كل قرية و أمراءها و رؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة و الخراب حتى إذا أقرّوا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور، ثم اجتمعوا هم و رؤساء القرى، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع، ثم يجتمع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم و خراج كل قرية، و ما فيها من الأرض العامرة، فيبتدئون و يخرجون من الأرض فدّادين لكنائسهم و حماياتهم و معدياتهم من جملة الأرض، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين، و نزول السلطان فإذا فرغوا نظروا لما فى كل قرية من الصناع و الأجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم، فإن كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها، و قلما كانت تكون إلا لرجل الشاب أو المتزوج ثم ينظرون ما بقى من الخراج، فيقسمونه بينهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۴۶

على عدد الأرض، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم، فإنن عجز أحد منهم و شكا ضعفا عن زرع أرضه، و زعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال، و إن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف، فإن تشاحوا قسموا ذلك على عدّتهم، و كانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة و عشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك.

و لذلك روى عن النبىّ صلى اللّه عليه و سلم: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا».

و جعل لكل فدان عليهم: نصف أردب قمح، و ويبتين من شعير إلا القرظ فلم يكن عليه ضريبة، و الويبة ستة أمداد، و كان عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه لا يضع من ذلك شيئا، و لا يزيد عليه، و من نزل منهم على الجزية و لم يسم شيئا يؤدّيه نظر عمر فى أمره فإذا احتاجوا خفف عنهم، و إن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم.

و قال هشام بن أبى رقية اللخمى: قدم صاحب أخنا على عمرو بن العاص رضى اللّه عنه فقال له: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية

فنصير لها؟ فقال عمرو، و هو يشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، و إن خفف عنا خففنا عنكم، و من ذهب إلى هذا الحديث ذهب إلى أن مصر فتحت عنوة.

و عن يزيد بن أبى حبيب قال: قال عمر بن عبد: العزيز أيّما ذمىّ أسلم فإن إسلامه يحرز له نفسه و ماله، و ما كان من أرض فإنها من فىء اللّه على المسلمين، و أيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره و أرضه لبقيتهم.

و قال الليث: كتب إلىّ يحيى بن سعيد: أن ما باع القبط فى جزيتهم، و ما يؤخذون به من الحق الذى عليهم من عبد أو وليدة أو بعير أو بقرة أو دابة فإن ذلك جائز عليهم، فمن ابتاعه منهم فهو غير مردود عليهم أن أيسروا و ما أكروا من أرضهم فجائز كراؤه إلا أن يكون يضر بالجزية التى عليهم فلعل الأرض إن ترد عليهم أن أضرت بجزيتهم و إن كان فضلا بعد الجزية، فإنا نرى كراءها جائزا لمن يكراها منهم.

قال يحيى: فنحن نقول: الجزية جزيتان: جزية على رؤوس الرجال، و جزية جملة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۴۷

تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية، فمن هلك من أهل القرية التى عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رؤوس الرجال، فإنا نرى أنّ من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له و لا وارث إن أرضه ترجع إلى قريته فى جملة ما عليهم من الجزية، و من هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال، و لم يدع وارثا فإن أرضه للمسلمين.

و قال الليث عن عمر بن العزيز: الجزية على الرءوس و ليست على الأرضين، يريد أهل الذمّة.

و كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح: أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم، و هذا يدل على أنّ عمر كان يرى أنّ أرض مصر فتحت عنوة، و أن الجزية إنما هى على القرى، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم و إن موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئا. قال: و يحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح فذلك الصلح ثابت على من بقى منهم و إن موت من مات منهم لا يضع عنهم ممن صالحوا عليه شيئا.

قال الليث: وضع عمر بن عبد العزيز الجزية على من أسلم من أهل الذمّة من أهل مصر، و ألحق فى الديوان صلح من أسلم منهم فى عشائر من أسلموا على يديه، و كانت تؤخذ قبل ذلك ممن أسلم، و أوّل من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمّة: الحجاج بن يوسف، ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان: أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمّة، فكلمه ابن حجيرة فى ذلك فقال: أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أوّل من سنّ ذلك بمصر، فو اللّه إن أهل الذمّة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف نضعها على من أسلم منهم فتركهم عند ذلك.

و كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح: أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، فإن اللّه تبارك و تعالى قال: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة/ ۵]، و قال: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ [التوبة/ ۲۹].

و كتب حيان بن شريح إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد: فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينارا تمت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل، فكتب إليه عمر: أما بعد: فقد بلغنى كتابك، و قد وليتك جند مصر، و أنا عارف بضعفك، و قد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عن من أسلم قبح اللّه رأيك فإن اللّه إنما بعث محمدا صلى اللّه عليه و سلم هاديا و لم يبعثه جابيا، و لعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۴۸

قال: و لما استبطأ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب إليه: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من عبد اللّه

عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام اللّه عليك، فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإنى فكرت فى أمرك و الذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة، و قد أعطى اللّه أهلها عددا و جلدا و قوّة فى برّ و بحر، و أنها قد عالجتها الفراعنة، و عملوا فيها عملا محكما مع شدّة عتوهم و كفرهم فعجبت من ذلك، و أعجب مما عجبت أنها لا تؤدّى نصف ما كانت تؤدّيه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط، و لا جدب، و قد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج، و ظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر، و رجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك، فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، و لست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى، و قبضك، فلئن كنت مجرّبا كافيا صحيحا إن البراءة لنافعة، و إن كنت مضيعا نطعا إن الأمر لعلى غير ما تحدّث به نفسك، و قد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق، فترفع إلىّ ذلك و قد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن أعمالك عمال السوء، و ما توالس عليك و تلفف اتخذوك كهفا، و عندى بإذن اللّه دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد اللّه أن يؤخذ منك الحق و تعطاه، فإن النهر يخرج الدرّ و الحق أبلج و دعنى و ما عنه تلجلج، فإنه قد برح الخفاء و السلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص: بسم اللّه الرحمن الرحيم، لعبد اللّه عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام اللّه عليك، فإنى أحمد اللّه الذى لا إله إلا هو. أما بعد: فقد بلغنى كتابك أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج و الذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى و إعجابه من خراجها على أيديهم و نقص ذلك منها مذ كان الإسلام، و لعمرى للخراج يومئذ أوفر و أكثر، و الأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم، و عتوّهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام، و ذكرت أن النهر يخرج الدر، فحلبتها حلبا قطع درها، و أكثرت فى كتابك و أنبت و عرضت و تربت و علمت أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر، فجئت لعمرى بالمقطعات المقدّعات، و لقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق، و لقد عملنا لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و لمن بعده، فكنا نحمد اللّه مؤدّين لأماناتنا حافظين لما عظم اللّه من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحا، و العمل به شينا، فتعرف ذلك لنا و تصدّق فيه قلبنا معاذ اللّه من تلك الطعم و من شرّ الشيم، و الاجتراء على كل مأثم، فامض عملك فإن اللّه قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية، و الرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا، و لم تكرم فيه أخا، و اللّه يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشدّ غضبا لنفسى و لها إنزاها و إكراما، و ما عملت من عمل أرى عليه فيه متعلقا، و لكنى حفظت ما لم تحفظ، و لو كنت من يهود يثرب ما زدت، يغفر اللّه لك و لنا، و سكتّ عن أشياء كنت بها عالما و كان اللسان

بها منى ذلولا، و لكن اللّه عظم من حقك ما لا يجهل.

فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: سلام عليك فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو. أما بعد: فإنى قد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج، و كتابك إلى بثنيات الطرق، و قد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين، و لم أقدّمك إلى مصر أجعلها لك طعمة، و لا لقومك و لكنى و جهتك لما رجوت من توفيرك الخراج، و حسن سياستك، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فىء المسلمين، و عندى من قد تعلم قوم محصورون، و السلام. فكتب إليه عمرو بن العاص: بسم اللّه الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب، من عمرو بن العاص سلام عليك، فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج و يزعم أنى أحيد عن الحق، و أنكث عن الطريق، و إنى و اللّه ما أرغب عن صالح ما تعلم، و لكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم، فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه، و السلام.

و قال الليث بن سعد رضى اللّه عنه: جباها عمرو بن العاص رضى اللّه عنه اثنى عشر ألف ألف دينار، و جباها المقوقس قبله لسنة عشرين ألف ألف دينار، فعند ذلك كتب إليه عمر بن الخطاب بما كتب، و جباها عبد اللّه بن سعد بن سرح حين استعمله عثمان

رضى اللّه عنه على مصر أربعة عشر ألف ألف دينار، فقال عثمان لعمرو بن العاص بعد ما عزله عن مصر: (يا أبا عبد اللّه درت اللقحة بأكثر من درها الأوّل). قال: أضررتم بولدها، فقال:

ذلك أن لم يمت الفصيل.

و كتب معاوية بن أبى سفيان إلى وردان ، و كان قد ولى خراج مصر: أن زد على كل رجل من القبط قيراطا، فكتب إليه وردان: كيف نزيد عليهم و فى عهدهم أن لا يزاد عليهم شيء؟ فعزله معاوية و قيل فى عزل وردان غير ذلك.

و قال ابن لهيعة: كان الديوان فى زمان معاوية أربعين ألفا، و كان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين، فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان عطياتهم، و عطيات عيالهم، و أرزاقهم و نوائب البلاد من الجسور، و أرزاق الكتبة و حملان القمح إلى الحجاز، ثم بعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۰

و قال ابن عفير: فلما نهضت الإبل لقيهم برح بن كسحل المهرى فقال: ما هذا؟

ما بال مالنا يخرج من بلادنا؟ ردّوه، فردّوه حتى وقف على باب المسجد، فقال: أخذتم عطياتكم، و أرزاقكم و عطاء عيالكم و نوائبكم، قالوا: نعم، قال: لا بارك اللّه لهم فيه خذوه فساروا به.

و قال بعضهم: جبى عمرو بن العاص عشرة آلاف دينار فكتب إليه عمر بن الخطاب بعجزه، و يقول له جباية الروم: عشرون ألف ألف دينار فلما كان العام المقبل جباه عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار، و قال ابن لهيعة: جبى عمرو بن العاص الإسكندرية الجزية ستمائة ألف دينار، لأنه وجد فيها ثلاثمائة ألف من أهل الذمّة فرض عليهم دينارين دينارين، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر انتقاض القبط و ما كان من الأحداث فى ذلك

خرّج الإمام أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل البخارى من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: كيف أنتم إذا لم تجبوا دينارا و لا درهما؟ قالوا: و كيف نرى ذلك كائنا يا أبا هريرة؟ قال: إى و الذى نفس أبى هريرة بيده عن قول الصادق و المصدوق، قالوا: عم ذلك؟ قال: تنتهك ذمّته و ذمّة رسوله فيشدّ اللّه عز و جل قلوب أهل الذمّة فيمنعون ما فى أيديهم.

قال أبو عمرو محمد بن يوسف الكندىّ فى كتاب أمراء مصر، و أمرة الحرّ بن يوسف أمير مصر كتب عبد اللّه بن الحبحاب صاحب خراجها إلى هشام بن عبد الملك، بأنّ أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطا، فانتقصت كورة تنو و نمى و قربيط و طرابية، و عامة الحوف الشرقىّ، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير، و ذلك أول انتقاض القبط بمصر، و كان انتقاضهم فى سنة سبع و مائة، و رابط الحرّ بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر، ثم انتقض أهل الصعيد، و حارب القبط عمالهم فى سنة إحدى و عشرين و مائة، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر، أهل الديوان، فقتلوا من القبط ناسا كثيرا، و ظفر بهم و خرج- بخنس- رجل من القبط فى سمنود، فبعث إليه عبد الملك بن مروان: موسى بن نصير أمير مصر، فقتل- بخنس- فى كثير من أصحابه، و ذلك فى سنة اثنين و ثلاثين و مائة، و خالفت القبط برشيد.

فبعث إليهم مروان بن محمد الجعدىّ لما دخل مصر فارا من بنى العباس، بعثمان بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۱

أبى قسعة، فهزمهم، و خرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا، و نابذوا العمال و أخرجوهم، و ذلك فى سنة خمسين و مائة، و صاروا إلى شبرا سنباط، و انضم إليهم أهل اليشرود و الأريسية و النجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد لنصر بن حبيب المهلبىّ على أهل الديوان، و وجوه مصر، فخرجوا إليهم فبتهم القبط، و قتلوا من المسلمين. فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط، و انصرف المسلمون إلى مصر منهزمين.

و فی ولایـة موسـی بن علیّ بن ربـاح علی مصـر خرج القبط ببلهیب فی سـنة ست و خمسـین و مائـة، فخرج إلیهم عسـکر فهزمهم، ثم انتقضوا مع من انتقض فی سـنة ست عشرة و مائتین، فأوقع بهم الأفشین فی ناحیة الیشرود حتی نزلوا علی حکم أمیر المؤمنین، عبد اللّه المأمون، فحکم فیهم بقتل الرجال، و بیع النساء و الأطفال. فبیعوا و سبی أکثرهم.

و من حینئذ أذل اللّه القبط فی جمیع أرض مصـر، و خذل شوکتهم فلم یقدر أحد منهم علی الخروج، و لا القیام علی السلطان، و غلب المسـلمون علی القری، فعاد القبط من بعد ذلک إلی کید الإسلام و أهله بإعمال الحیلة، و استعمال المکر، و تمکنوا من النکایة بوضع أیدیهم فی کتاب الخراج، و کان للمسلمین فیهم وقائع یأتی خبرها فی موضعه من هذا الکتاب إن شاء اللّه تعالی.

ذکر نزول العرب بریف مصر و اتخاذهم الزرع معاشا و ما کان فی نزولهم من الأحداث

قال الکنـدی: و فی ولایـة الولید بن رفاعة الفهمیّ علی مصـر، نقلت قیس إلی مصـر فی سـنة تسع و مائة، و لم یکن بها أحد منهم قبل ذلک إلا ما کان من فهم و عـدوان، فوفد ابن الحبحاب علی هشام بن عبد الملک، فسأله أن ینقل إلی مصـر منهم أبیاتا، فأذن له هشام فی لحـاق ثلاثـة آلاـف منهم، و تحویل دیوانهم إلی مصـر علی أن لا ینزلهم بالفسـطاط، فعرض لهم ابن الحبحاب و قـدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقیّ، و فرّقهم فیه.

و یقـال: إن عبیـد اللّه بن الحبحـاب لما ولاه هشام بن عبـد الملک مصـر قال: ما أری لقیس فیها حظا إلا لناس من جدیلـة و هم فهم و عـدوان. فکتب إلی هشـام: إنّ أمیر المؤمنین أطال اللّه بقاءه قـد شـرّف هـذا الحیّ من قیس و نعشـهم و رفع من ذکرهم و إنی قـدمت مصر، و لم أر لهم حظا إلا أبیاتا من فهم، و فیها کور لیس فیها أحد، و لیس یضر بأهلها نزولهم

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۱، ص: ۱۵۲

معهم، و لا یکسر ذلک خراجا و هی بلبیس. فإن رأی أمیر المؤمنین أن ینزلها هذا الحی من قیس، فلیفعل.

فکتب إلیه هشام: أنت و ذاک، فبعث إلی البادیة فقدم علیه مائة أهل بیت من بنی نضر، و مائة أهل بیت من بنی سلیم، فأنزلهم بلبیس، و أمرهم بالزرع، و نظر إلی الصدقة من العشور فصـرفها إلیهم، فاشتروا إبلا فکانوا یحملون الطعام إلی القلزم، و کان الرجل یصـیب فی الشـهر العشـرة دنـانیر و أکثر، ثم أمرهم بـاشتراء الخیول فجعـل الرجـل یشتری المهر، فلاـ یمکث إلّا شـهرا حتی یرکب، و لیس علیهم مؤونة فی علف إبلهم و لا خیلهم لجودة مرعاهم.

فلما بلغ ذلک عامة قومهم تحملوا إلیهم فوصل إلیهم خمسمائة أهل بیت من البادیة، فکانوا علی مثل ذلک فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسـمائة أهل بیت، فصار ببلبیس: ألف و خمسمائة أهل بیت من قیس، حتی إذا کان زمن مروان بن محمد، و ولی الحوثرة بن سهیل الباهلی مصر. مالت إلیه قیس فمات مروان، و بها ثلاث آلاف أهل بیت، ثم توالدوا و قدم علیهم من البادیة من قدم.

و فی سـنة ثمان و سـبعین و مائة، کشف إسحاق بن سلیمان بن علیّ بن عبد اللّه بن عباس أمیر مصر أمر الخراج، و زاد علی المزارعین زیـادة أجحفت بهم، فخرج علیهم أهـل الحوف و عسـکروا فبعث إلیهم الجیوش، و حاربهم فقتل من الجیش جماعـة، فکتب إلی أمیر المؤمنین: هارون الرشـید یخبره بذلک، فعقد لهرثمة بن أعین فی جیش عظیم، و بعث به إلی مصر، فنزل الحوف و تلقاه أهله بالطاعة، و أذعنوا بأداء الخراج فقبل هرثمة منهم و اسـتخرج خراجه کله، ثم إن أهل الحوف خرجوا علی اللیث بن الفضل البیودی أمیر مصر، و ذلک أنه بعث بمساح یمسـحون علیهم أراضـی زرعهم، فانتقصوا من القصبة أصابع فتظلم الناس إلی اللیث، فلم یسمع منهم فعسکروا، و ساروا إلی الفسـطاط، فخرج إلیهم اللیث فی أربعة آلاف من جند مصر فی شعبان سنة ست و ثمانین و مائة، فالتقی معهم فی رمضان فـانهزم عنه الجنـد فی ثـانی عشـره و بقی فی نحـو المـائتین، فحمـل بمن معه علی أهـل الحـوف، فهزمهم حـتی بلغ بهم غیفـة، و کـان التقـاؤهم علی أرض جـب عمیرة، و بعـث اللیث إلی الفسـطاط بثمـانین رأسـا من رؤوس القیسـیة، و رجع إلی الفسـطاط، و عـاد أهل الحوف إلی منازلهم، و منعوا الخراج.

فخرج ليث إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد فى محرم سنة سبع و ثمانين و مائة، و سأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش يبعث معه، و كان محفوظ بن سليم بباب الرشيد، فرفع محفوظ إلى الرشيد يضمن له خراج مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۳

عن آخره بلا سوط و لا عصا، فولاه الخراج، و صرف ليث بن الفضل عن صلاة مصر، و خراجها، و فى ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج، فبعث أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن معاذ فى أمرهم فنزل بلبيس فى شوال سنة إحدى و تسعين و مائة، و صرف الحسين بن جميل عن أمارة مصر فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و تسعين و مائة.

و ولى مالك بن دلهم، و فرغ يحيى بن معاذ من أمر الحوف، و قدم الفسطاط فى جمادى الآخرة، فورد عليه كتاب الرشيد، يأمره بالخروج إليه فكتب إلى أهل الحوف: أن اقدموا حتى أوصى بكم مالك بن دلهم، و أدخل بينكم و بينه فى أمر خراجكم، فدخل كل رئيس منهم من اليمانية و القيسية، و قد أعدّ لهم القيود فأمر بالأبواب، فأخذت ثم دعا بالحديد، فقيدهم و توجه بهم للنصف من رجب منها.

و فى أمارة عيسى بن يزيد الجلودىّ على مصر ظلم، صالح بن شيرزاد عامل الخراج الناس، و زاد عليهم فى خراجهم، فانتقض أهل أسفل الأرض و عسكروا، فبعث عيسى بابنه محمد فى جيش لقتالهم، فنزل بلبيس، و حاربهم فنجا من المعركة بنفسه، و لم ينج أحد من أصحابه و ذلك فى صفر سنة أربع عشرة و مائتين، فعزل عيسى عن مصر.

و ولى عمير بن الوليد التميمىّ فاستعدّ لحرب أهل الحوف، و سار فى جيوشه فى ربيع الآخر، فزحفوا عليه و اقتتلوا، فقتل من أهل الحوف جمع و انهزموا، فتبعهم عمير فى طائفة من أصحابه، فعطف عليه كمين لأهل الحوف، فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر.

فولى عيسى الجلودى ثانيا، و سار إليهم فلقيهم بمنية مطر فكانت بينهم وقعة آلت إلى أن انهزم منهم إلى الفسطاط، و أحرق ما ثقل عليه من رحله، و خندق على الفسطاط و ذلك فى رجب، و قدم أبو إسحاق بن الرشيد من العراق فنزل الحوف، و أرسل إلى أهله فامتنعوا من طاعته، فقاتلهم فى شعبان و دخل و قد ظفر بعدة من وجوههم إلى الفسطاط فى شوال، ثم عاد إلى العراق فى المحرّم سنة خمس عشرة و مائتين بجمع من الأسارى. فلما كان فى جمادى الأولى سنة ست عشرة و مائتين انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد، و قبطها و أخرجوا العمال، و خلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم، فكانت بينهم و بين عساكر الفسطاط حروب امتدّت إلى أن قدم الخليفة عبد اللّه أمير المؤمنين المأمون إلى مصر لعشر خلون من المحرّم سنة سبع عشرة و مائتين، فسخط على عيسى بن منصور الرافقى، و كان على أمارة مصر و أمر بحل لوائه، و أخذه بلباس البياض عقوبة له. و قال: لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك و فعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، و كتمتنى الخبر حتى تفاقم الأمر و اضطرب البلد.

ثم عقد المأمون على جيش بعث به إلى الصعيد، و ارتحل هو إلى سخا، و بعث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۴

بالأفشين إلى القبط و قد خلعوا الطاعة، فأوقع بهم فى ناحية البشرود، و حصرهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال، و بيع النساء و الأطفال، فسبى أكثرهم، و تتبع المأمون كل من يومى إليه بخلاف، فقتل ناسا كثيرا، و رجع إلى الفسطاط فى صفر و مضى إلى حلوان، و عاد فارتحل لثمان عشرة خلت من صفر، و كان مقامه بالفسطاط و سخا و حلوان تسعة و أربعين يوما. و كان خراج مصر قد بلغ فى أيام المأمون على حكم الإنصاف فى الجباية أربعة آلاف ألف دينار و مائتى ألف دينار و سبعة و خمسين ألف دينار.

و يقال: إن المأمون، لما سار فى قرى مصر كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقة و العساكر من حوله، و كان يقيم فى

القريـة يوما و ليلـة، فمرّ بقرية يقال لها: طاء النمل، فلم يدخلها لحقارتها، فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية و هى تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة، فوقف لها و كان لا يمشى أبدا إلا و التراجمة بين يديه من كل جنس، فذكروا له إن القبطيـة قـالت: يـا أمير المؤمنين، نزلت فى كـل ضـيعة و تجـاوزت ضـيعتى، و القبـط تعيرنى بـذلك، و أنـا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف، و لعقبى، و لا تشمت الأعداء بى، و بكت بكاء كثيرا.

فرقّ لهـا المـأمون و ثنى عنـان فرسه إليهـا و نزل فجـاء ولـدها إلى صاحب المطبـخ، و سأله كم تحتاج من الغنم و الـدجاج و الفراخ و السـمك و التوابل و السـكر و العسل و الطيب و الشـمع و الفاكهة و العلوفة، و غير ذلك مما جرت به عادته، فأحضـر جميع ذلك إليه بزيادة.

و كان مع المأمون أخوه المعتصم و ابنه العباس، و أولاد أخيه الواثق و المتوكل و يحيى بن أكثم و القاضـى أحمد بن داود، فأحضرت لكل واحـد منهم ما يخصه على انفراده، و لم تكل أحدا منهم و لا من القوّاد إلى غيره، ثم أحضـرت للمأمون من فاخر الطعام و لذيذه شيئا كثيرا، حتى أنه استعظم ذلك. فلما أصبح، و قـد عزم على الرحيل حضـرت إليه و معها عشـر و صائف مع كل وصـيفة طبق. فلما عاينها المأمون من بعـد. قال لمن حضـر: قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ و الصـحناه و الصبر فلما وضـعت ذلك بين يديه إذا فى كـل طبق كيس من ذهب فاسـتحسن ذلك و أمرها بإعادته. فقالت: لا و اللّه لا أفعل فتأمّل الـذهب، فإذا به ضـرب عام واحـد كله، فقال: هذا و اللّه أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك.

فقـالت: يـا أمير المؤمنين، لاـ تكسـر قلوبنا و لا تحتقر بنا، فقال: إن فى بعض ما صـنعت لكفايـة، و لا نحب التثقيل عليك فردّى مالك باركَ اللّه فيك، فأخذت قطعة من الأرض و قالت: يا أمير المؤمنين، هذا و أشارت إلى الذهب، من هذا و أشارت إلى الطينة التى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۵

تناولتها من الأرض، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين و عندى من هذا شـىء كثير فأمر به فأخذ منها، و أقطعها عدّة ضـياع، و أعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدّان بغير خراج، و انصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها.

ذكر قبالات أراضى مصر بعد ما فشا الإسلام فى القبط و نزول العرب فى القرى و ما كان من ذلك إلى الروك الأخير الناصرى

و كان من خبر أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها و استيطانهم و أهاليهم فيها و اتخاذهم الزرع معاشا و كسبا و انقياد جمهور القبط إلى إظهـار الإسـلام و اختلاط أنسابهم بأنساب المسـلمين لنكاحهم المسـلمات، أنّ متولى خراج مصـر كان يجلس فى جامع عمرو بن العـاص من الفسـطاط فى الوقت الـذى تتهيأ فيه قبالـة الأراضـى، و قـد اجتمع الناس من القرى و المـدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صـفقات، و كتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور و الصـفقات على من يتقبلها من الناس، و كانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ و الاستبحار، و غير ذلك فإذا انقضى هذا الأمر، خرج كل من كان تقبل أرضا و ضمنهـا إلى نـاحيته فيتولى زراعتهـا، و إصـلاح جسورها و سائر وجوه أعمالها بنفسه و أهله، و من ينتـدبه لـذلك، و يحمل ما عليه من الخراج فى إبـائه على أقسـاط و يحسب له من مبلغ قبالته، و ضـمانه لتلك الأراضـى ما ينفقه على عمارة جسورها و سـدّ تراعها و حفر خلجها بضرائب مقدّرة فى ديوان الخراج، و يتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان و المتقبلين.

يقـال: لمـا تـأخر من مال الخراج البواقى و كانت الولاة تشـدّد فى طلب ذلك مرّة و تسامـح به مرّة، فإذا مضـى من الزمان ثلاثون سـنة حوّلوا السـنة، و راكوا البلاد كلها، و عـدّلوها تعـديلا جديـدا، فزيـد فيما يحتمل الزيادة من غير ضـمان البلاد، و نقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها، و لم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو بن العاص إلى أن عمّر أحمد بن طولون جامعه و صار العسـكر منزلا لأمراء مصـر. فنقل الـديوان إلى جامع أحمـد بن طولون، ثم نقل أيام العزيز بالله نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلس، فلما مات الوزير نقل الـديوان إلى القصر بالقاهرة، و استمرّ به مدّة الدولة الفاطمية، ثم نقل منه بعدها و سأتلوا عليك من نبأ ذلك ما يتضح به ما ذكرت.

قال ابن ذولاق فى كتاب أخبار الماردانيين كتاب مصر: و حضر أبو الحسن وهب بن إسماعيل، مجلس أبى بكر بن علىّ الماردانى فى المسجد الجامع، و هو يعقد الضياع، فقال له أبو بكر: الساعة آمر بالنداء على صفقة فخذها شركة بينى و بينك، فنودى على صفقة، فقال أبو بكر: اعقدوها على أبى الحسن، فعقدت عليه، و تحملها فأفضلت له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۶

أربعين ألف دينار فاستنض عشرين ألف دينار، و لم يدر ما يعمل فيها إلى أن اجتمع مع أبى يعقوب- كاتب أبى بكر- ليتحدثا، فقال أبو يعقوب: رأيت الشيخ- يعنى أبا بكر الماردانىّ- فى اليوم مشغول القلب أراد جمع مال، و قد عجز عنه، فقال له أبو الحسن:

عندى نحو عشرين ألف دينار، فقال: جئنى بها فأنفذها إليه، و جاءه خطه بالمبلغ فاتفق أن مضى أبو الحسن إلى أبى بكر الماردانىّ، فقال له: تلك الصفقة قد غلقت ما عليها و فضل أربعون ألف دينار، و قد حصل عندى عشرون ألف دينار حملتها إلى أبى يعقوب، و أرسلت فى استخراج الباقى فأحمله، فقال الماردانىّ: ما هذا العجز؟ إنما قلت لك: تكون بينى و بينك خوفا من تفريطك، و إنما أردت حفظ المال عليك ثم أمر أبا يعقوب أن يردّ عليه ما دفعه إليه، و قال لأبى الحسن: ردّ عليه خطه فقبض ما دفعه إلى أبى يعقوب.

و بلغ خراج مصر فى السنة التى دخل فيها جوهر القائد ثلاثة آلاف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار و نيفا. و قال فى كتاب سيرة المعز لدين اللّه: معدّ و لست عشرة بقيت من المحرّم سنة ثلاث و ستين و ثلثمائة، قلد المعز لدين اللّه الخراج، و وجوه الأموال، و غير ذلك: يعقوب بن كلس، و عسلوج بن الحسن، و جلسا فى هذا اليوم فى دار الإمارة فى جامع ابن طولون للنداء على الضياع، و سائر وجوه الأموال، و حضر الناس للقبالات، و طلبوا البقايا من الأموال مما على المالكين و المتقبلين و العمال.

و قال جامع سيرة الوزير الناصر للدين الحسن بن علىّ اليازورى : و أراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة و ما عليها من النفقات ليقايس بينهما، فتقدّم إلى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجرى فى ديوانه، و ما عليه من النفقات، فعمل ذلك و سلمه إلى متولى ديوان المجلس، و هو زمام الدواوين فنظم عليه عملا جامعا و أحضره إياه، فرأى ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار، منها الشام ألف ألف دينار و نفقاته بإزاء ارتفاعه، و منها الريف و باقى الدولة ألف ألف دينار يقف منها عن معلول و منكسر على موتى و هرّاب و مفقود مائتا ألف دينار و يبقى ثمانمائة ألف دينار يصرف منها للرجال عن واجباتهم و كساويهم ثلثمائة ألف دينار، و عن ثمن غلة للقصور مائة ألف دينار، و عن نفقات القصور مائتا ألف دينار، و عن عمائر و ما يقام للضيوف الواصلين من الملوك و غيرهم مائة ألف دينار، و يبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصله يحملها كل سنة إلى بيت المال المصون، فحظى بذلك عند سلطانه و خف على قلبه. قال: و انتهى ارتفاع الأرض السفلى إلى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأوّل، يعنى بعد موت البازورى و حدوث الفتن، و هو قبل سنى هذه الفتن يعنى فى أيام البازورى ستمائة ألف دينار كانت تحمل فى دفعتين فى السنة فى مستهل رجب ثلاثمائة ألف دينار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۷

و فى مستهل المحرّم بثلاثمائة ألف دينار، فاتضع الارتفاع و عظمت الواجبات.

و قال ابن ميسرة: و أمر الأفضل بن أمير الجيوش بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر، فجاء خمسة آلاف دينار و كان متحصل الأهراء ألف ألف أردب، و قال الأمير جمال الدين و الملك موسى بن المأمون البطائحىّ فى تاريخه من حوادث سنة إحدى و خمسمائة ثم رأى القائد أبو عبد اللّه محمد بن فاتك البطائحى من اختلال أحوال الرجال العسكرية و المقطعين، و تضررهم من كون إقطاعاتهم قد خس ارتفاعها، و ساءت أحوالهم لقلة المتحصل منها و إن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها، و ازدادت عن غيرها، و إن فى كل ناحية من الفواضل للديوان جملة تجىء بالعسف، و بتردّد الرسل من الديوان الشريف بسببها، فخاطب الأفضل ابن أمير الجيوش: فى أن يحل الإقطاعات جميعها و يروكها و عرّفه أن المصلحة فى ذلك تعود على المقطعين و الديوان لأنّ الديوان يتحصل له من هذه الفواضل جملة يحصل بها بلاد مقورة، فأجاب إلى ذلك، و حلّ جميع الإقطاعات و راكها و أخذ كل من الأقوياء و المميزين

يتضررون، و يذكرون أن لهم بساتين و أملاكا و معاصر فى نواحيهم فقال له: من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الإقطاع و هو محكم إن شاء باعه، و إن شاء آجره.

فلما حلت الإقطاعات أمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة فى إقطاعات الأقوياء إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم، و كتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم إلى مدّة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد و أحضر الأقوياء و قال لهم: ما تكرهون من الإقطاعات التى كانت بيد الأجناد؟ قالوا: كثرة عبرتها و قلة متحصلها و خرابها، و قلة الساكن بها. فقال لهم: ابذلوا فى كل ناحية ما تحمله، و تقوى رغبتكم فيه و لا تنظروا فى العبرة الأولى، فعند ذلك طابت نفوسهم، و تزايدوا فيها إلى أن بلغت إلى الحدّ الذى رغب كل منهم فيه، فأقطعوا به و كتب لهم السجلات على الحكم المتقدّم، فشملت المصلحة الفريقين، و طابت نفوسهم و حصل للديوان بلاد مقورة بما كان مفرّقا فى الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار.

و قال فى حوادث سنة خمس عشرة و خمسمائة، و كان قد تقدّم أمر الأجلّ المأمون بعمل حساب الدولة من الهلالى و الخراجىّ، و جعل نظمه على جملتين: إحداهما إلى سنة عشر و خمسمائة الهلالية الخراجية، و الجملة الثانية إلى آخر سنة خمس عشرة و خمسمائة هلالية، و ما يوافقها من الخراجية فعقدت على جملة كثيرة من العين و الأصناف، و شرحت بأسماء أربابها، و تعيين بلادها. فلما أحضرت أمر بكتب سجل يتضمن المسامحة بالبواقى إلى آخر سنة عشر و خمسمائة، و نسخته بعد التصدير.

و لما انتهى إلينا حال المعاملين، و الضمناء و المتصرفين و ما فى جهاتهم من بقايا معاملاتهم أنعمنا بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصدا فى استخلاص ضامن طالت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۵۸

غفلته، و خربت ذمّته، و إنقاذ عامل أجحف به من الديوان طلبته و توفير الرغبة على عمارتها، و جريها فيها على قديم عادتها، و لما كان ذلك من جميل الأحدوثة التى لم نسبق إليها و لا شاركنا ملك فيها اقتضت الحال إيرادها فى هذا الكتاب، و إيداعها هذا الباب لما اطلعنا عليه مما انتهت إليه أحوال الضمناء و المعاملين بالمملكة من الاختلال و تجمد البقايا فى جهاتهم، و الأموال عطفنا عليهم برأفة و رحمة و طالعنا المقام الأشرف النبوىّ بالتفصيل من أمورهم و الجملة و استخرجنا الأمر العالى بوضع ذلك فى الحال و أنشأ السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هذا الإحسان و تنفيذها إلى جميع البلدان ليقرأ على رؤوس الأشهاد بسائر البلاد، و مبلغ ما انتهت إليه هذه المسامحة إلى حين ختم هذا السجل من العين ألفا ألف و سبعمائة ألف و عشرون ألفا و سبعمائة و سبعة و ستون دينارا و نصف و ثلث و ثلثان و ربع قيراط، و من الفضة النقرة أربعة دراهم، و من الورق سبعة و ستون ألفا و خمسة دراهم و نصف و سدس درهم، و من الغلة ثلاثة آلاف ألف و ثمان مائة ألف و عشرة آلاف و مائتان و تسعة و ثلاثون أردبا و ثمن و نصف سدس و ثلثى قيراط، و من العناب ربع أردب، و من ورق الصباغ ألفان و أربعمائة و ثلاثة أرادب و نصف، و من زريعة الوسمة عشرة أرادب و ربع، و من الصباغ ألف و أربعمائة و ثمانون قنطارا و رطل و نصف، و من الفوّة أربعمائة و سبعون رطلا، و من الشب تسعمائة و ثلاثة عشر قنطارا و نصف، و من الحديد خمسمائة رطل واحد و ثلاثون رطلا، و من الزفت ألف و ثلثمائة و ثلاثة أرطال و ربع و سدس، و من القطران تسعة عشر رطلا و ثلث، و من الثياب الحلبىّ ثلاثة أثواب، و من المآزر مائة مئز صوف، و من الغرابيل مائة و سبعون غربالا، و من الأغنام مائتا ألف و خمسة و ثلاثون ألفا و ثلثمائة و خمسة أرؤس، و من البسر ثلثمائة و ثلاثة عشر قنطارا و ثمانية و ثلاثون رطلا، و من السحيل ثلاثمائة ألف و خمسة و سبعون ألفا و خمسمائة و خمسون باعا، و من الجريد أربعمائة ألف و ثمانية و ثلاثون ألفا و سبعمائة و ثلاثة و خمسون جريدة، و من السلب ألف و أربعمائة و ثلاثة و عشرون سلبة، و من الأطراف ستة آلاف و سبعمائة و ثلاثة أطراف، و من الملح ألفان و سبعمائة و ثلاثة و تسعون أردبا و ثلث، و من الأشنان أحد عشر أردبا، و من الرمان ألفا حبة، و من العسل النحل خمسمائة واحد و أربعون قنطارا أو سدس، و من الشهد اثنان و ثلاثون زيرا و قادوسا واحدا، و من الشمع أربعمائة و أربعون رطلا و من الخلايا ثلاثة آلاف و أربعمائة و خليتان، و من عسل القصب مائة و ثمانية و ثلاثون قنطارا، و من

الأبقار اثنان و عشرون ألفا و مائة و أربعة و ستون رأسا، و من الدواب أربعة و سبعون رأسا، و من السمن ألفان و تسعمائة و ستة و تسعون مطر أو سدس و ثمن، و من الجبن ثلثمائة و عشرون رطلا، و من الصوف أربعة آلاف و مائة و ثلاثة و عشرون جزة، و من الشعر ستة آلاف و خمسون رطلا- و ربع، و من بيوت الشعر بيتان، و فصل ذلك بجهاته و معاملاته. قال: و لما انتهى إلى المأمون ما يعتمد فى الدواوين من قبول الزيادات و فسخ عقود الضمانات و انتزاعها ممن كابد فيها المشقة، و التعب و تسليمها إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۹

باذل الزيادة من غير كلفة و لا نصب أنكر ذلك، و منع من ارتكابه و نهى عن الولوج فى بابه، و خرج أمره بإعفاء الكافة أجمعين و الضمناء و المعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه، و يستولون عليه ما داموا مغلقين و بأقساطهم قائمين، و تضمن ذلك منشور قرىء فى الجامعين الأزهر بالقاهرة و العتيق بمصر، و ديوانى المجلس و الخاص إلّا أمرين السعيدين و نسخته بعد التصدير.

و لما انتهى إلى حضرتنا ما يعتمد فى الدواوين و يقصده جماعة من المتصرفين و المستخدمين من تضمين الأبواب و الرباع و البساتين و الحمامات و القياسر و المساكن، و غير ذلك من الضمانات للرّاغبين فيها ممن تستمرّ معاملته، و لا تنكر طريقته فما هو إلا أن يحضر من يزيد عليه فى ضمانه حتى قد نقض عليه حكم الضمان، و قبل ما يبذل من الزيادة كائنا من كان و قبضت يد الضامن الأوّل عن التصرّف، و مكن الضامن الثانى من التصرف من غير رعاية للعقد على الضامن الأول، و لا تحرّز فى فسخه الذى لا يبيحه الشرع، و لا يتأوّل أنكرنا ذلك على معتمديه، و ذممنا من قصدنا عليه و مرتكبيه إذ كان للحق مجانبا و عن مذهب الصواب ذاهبا، و عرضنا ذلك بالمواقف المقدّسة المطهرة ضاعف اللّه أنوارها و أعلى أبدا منارها و استخرجنا الأوامر المطاعة فى كتب هذا المنشور إلى سائر الأعمال بأنه أىّ أحد من الناس ضمن ضمانا من باب، أو ربع أو بستان أو ناحية أو كفر، و كان لأقساط ضمانه مؤدّيا، و لما يلزمه من ذلك مبديا، و للحق متبعا فإن ضمانه باق فى يده لا تقبل زيادة عليه مؤدّيا، و لما يلزمه من ذلك مبديا، و للحق متبعا فإن ضمانه باق فى يده لا- تقبل زيادة عليه مدّة ضمانه على العقد المعقود عملا بالواجب، و النظام المحمود و إتباعا لما أمر اللّه تعالى به فى كتابه المجيد إذ يقول جلّ من قائل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [المائدة/ ۱] إلى أن تنقضى مدّة الضمان، و يزول حكمها و يذهب وضعها و رسمها حملا على قضية الواجب و سننها، و اعتمادا على حكم الشريعة التى ما ضل من اهتدى بفرائضها و سننها.

فأما من ضمن ضمانا و لم يقم بما يجب عليه فيه و أصرّ على المدافعة و المغالطة التى لا يعتمدها إلا كل ذميم الطباع سفيه، فذلك الذى فسخ حكم ضمانه بنقصه الشروط المشروطة عليه، و حكمه حكم من إذا زيد عليه فى ضمانه نقل عنه، و أخرج من يديه لأنه الذى بدأ بالفسخ، و أوجد السبيل إليه، فليعتمد كافة أرباب الدواوين و جميع المتصرفين و المستخدمين العمل بما تضمنه هذا المشهور، و امتثال المأمور و حمل هؤلاء الضمناء و المعاملين على ما نص فيه، و الحذر من تجاوزه و تعدّيه بعد ثبوته فى ديوانى المجلس و الخاص إلّا أمرين السعيدين، و بحيث يثبت مثله إن شاء اللّه تعالى.

قال: و وصلته المكاتبة من الوالى و المشارف، و من كان ندب صحبته لكشف الأراضى و السواقى و مساحتها متضمنة ما أظهره الكشف، و أوضحته المساحة على من بيده السواقى، و هم عدّة كثيرة و من جملتها ساقية مساحتها: ثلثمائة و ستون فدّانا تشتمل على النخل و الكرم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۰

و قصب السكر بمدينة إسنا، خراجها فى السنة عشرة دنانير، و ما يجرى فى الأعمال هذا المجرى و أنهم وضعوا يد الديوان على جميعها، و طلبوا من أرباب السواقى ما يدل على ما بأيديهم، فذكروا أنها انتقلت إليهم و لم يظهروا ما يدل عليها، و قد سيروا أملاكها إلى الباب تحت الحوطة ليخرج الأمر بما يعتمد عليه فى أمرهم، و عند وصولهم أوقع الترسيم عليهم إلى أن يقوموا بما يجب من الخراج عن هذه السواقى فإن الأملاك بجملتها لا- تقوم بما يجب عليها، فوقف المذكورون للمأمون فى يوم جلوسه للمظالم، فأمر بحضورهم بين يديه، و تقدّم إلى القاضى، جلال الملك أبو الحجاج يوسف بن أبى أيوب المغربىّ و هو يومئذ قاضى القضاة

لمحاكمتهم فجرى له معهم مفاوضة أوجبت الحق عليهم، و ألزمهم بالقيام بما يستغرق أموالهم و أملاكهم، فحصل من تضرّرهم ما أوجب العاطفة عليهم، و أخذهم بالخراج من بعد، و أن يضرب عما تقدّم صفحا.

و كتب منشور نسخته: قد علم الكافة ما تراه من إفاضة سحب العدل عليهم، و الإحسان و النظر فى مصالح كل قاص منهم و دان. و إنا لا ندع ضررا يتوجه إلى أحد من الرعية إلا حسمناه، و لا نعلم صلاحا يعود نفعه عليه إلا قوينا سببه، و وصلناه حسب ما يتعين على رعاة الأمم، و عملا بالواجب فى البعيد و الأمم و سلوكا لمحجة الدولة الفاطمية خلد اللّه ملكها القويمة، و استمرارا على قضاياها و سجاياها الكريمة، و لما كنا نرى النظر فى مصالح الرعايا أمرا واجبا و نصرف إلى سياستهم عزما ماضيا، و رأيا ثاقبا. كذلك نرى النظر فى أمور الدواوين و استيفاء حقوقها المصروفة إلى حماية البيضة، و المحاماة عن الدين و جهاد الكفرة و الملحدين ليكون ما نراعيه، و ننظر فيه جاريا على سنن الواجب محروسا من الخلل بإذن اللّه من جميع الجوانب، و من اللّه نستمدّ مواد التوفيق فى الحل و العقد، و نسأله الإرشاد إلى سواء السبيل و القصد، و ما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكل، و هو حسبنا و نعم الوكيل.

و كان القاضى الرشيد بن الزبير أيام مشارفته الصعيد الأعلى قد طالع المجلس الأفضلىّ بحال أرباب الأملاك هناك، و أنهم قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضى اغتصبوها، و مواضع مجاورة لأملاكهم تعدّوا عليها، و خلطوها بها و حازوها، و رسم له كشفها و نظم المشاريج بها، و ارتجاعها للديوان. و أن يعتمد فى ذلك ما يوجبه حكم العدل المثبت فى كل قطر و مكان، و بآخر ذلك سيرنا من الباب من يكشف ذلك على حقيقته، و إنهائه على طيته فاعتمدوا ما أمروا به من الكشف فى هذه الأملاك، و وردت المطالعة منهم بأنهم التمسوا ممن بيده ملك أو ساقية ما يشهد بصحة ملكه و مبلغ فدنه، و ذكر حدوده، فلم يحضر أحد منهم كتابا و لا أوضح جوابا، و أصدروا إلى الديوان المشاريج بما كشفوه، و أوضحوه فوجدوا التعدّى فيه ظاهرا و باب الحيف و الظلم غير متقاصر، و الشرع يوجب وضع اليد على ما هذه حاله و مطالبة صاحبه بريعه، و استغلاله، لا سيما و ليس بيده كتاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۱

يشهد بصحة الملك رأسا، و لا يستند فى ذلك حجة ادّخرها احترازا عن مجاهدة سبيله، و احتراسا. و لكن نحكم بما نراه من المصلحة للرعية و العدل الذى أقمنا مناره، و أحيينا معالمه و آثاره مع الرغبة فى عمارة البلاد و مصالح أحوالها، و استنباط الأرضين الداثرة، و إنشاء الغروس، و إقامة السواقى بها أمرنا بكتب هذا المنشور، و تلاوته بأعمال الصعيد الأعلى بإقرار جميع الأملاك و الأرضين و السواقى بأيدى أربابها الآن من غير انتزاع شىء منها، و لا ارتجاعه، و أن يقرّر عليها من الخراج ما يجب تقريره، و يشهد الديوان على أمثالهم بمثله إحسانا إليهم. لم نزل نتابع مثله و نواليه و إنعاما ما برحنا نعيده عليهم و نبديه، و قد أنعمنا و تجاوزنا عما سلف، و نهينا من يستأنف، و سامحنا من خرج عن التعدّى إلى المألوف و جرينا على سننا فى العفو و المعروف، و جعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين، و من عاد من الكافة أجمعين فلينتقم اللّه منه، و طولب بمستأنفه و أمسه و برئت الذمة من ماله و نفسه و تضاعفت عليه الغرامة و العقوبة، و سدّت فى وجهه أبواب الشفاعة و السلامة، و قد فسحنا مع ذلك لكل من يرغب فى عمارة أرض حلفاء داثرة، و إدارة بئر مهجورة معطلة فى أن يسلم إليه ذلك، و يقاس عليه، و لا يؤخذ منه خراج إلا فى السنة الرابعة من تسليمه إياه، و أن يكون المقرّر على كل فدّان ما توجبه زراعته لمثله خراجا مؤبدا و أمرا مؤكدا، فليعتمد ذلك النوّاب، و حكام البلاد و من جرت العادة بحضوره عقد مجلس، و إحضار جميع أرباب الأملاك و السواقى، و إشعارهم ما شملهم من هذا الإحسان الذى تجاوز آمالهم فى إجابتهم إلى ما كانوا يسألون فيه، و تقرير ما يجب على الأملاك المذكورة من الخراج على الوضع الذى مثلناه، و يجيز الديوان تقريره و يرضاه مع تضمين الأراضى الدائرة، و الآبار المعطلة لمن يرغب فى ضمانها و نظم المشاريج بذلك و إصدارها إلى الديوان ليخلد فيه على حكم أمثالها بعد ثبوت هذا المنشور بحيث يثبت مثله قال: و لما سرت هذه المصالح إلى جميع أهل هذه الأعمال حصل الاجتهاد فى تحصيل مال الديوان و عمارة البلاد.

و اعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر و لا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه

الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية، و إنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء، و الأجناد و الوجوه و أهل النواحى من العرب و القبط، و غيرهم لا يعرف هذه إلّا بذة التى يقال لها اليوم الفلاحة، و يسمى المزارع المقيم بالبلد: فلاحا قرارا، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية إلا أنه لا يرجو قط أن يباع و لا أن يعتق بل هو قنّ ما بقى، و من ولد له كذلك.

بل كان من اختار زراعة أرض يقبلها كما تقدّم، و حمل ما عليه لبيت المال، فإذا صار مال الخراج بالديوان أنفق فى طوائف العسكر من الخزائن، و كان مع ذلك إذا انحط ماء النيل عن الأراضى، و تعلقت نواحى مصر بأصناف الزراعات ندب من الحضرة من فيه نباهة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۲

و خرج معه عدول يوثق بهم، و كانت لهم معرفة بعلم الخراج و كثيرا ما كان هذا الكاتب من النصارى الأقباط و يخرج إلى كل ناحية من ذكرنا، فيحرّرون مساحة ما شمله الرىّ من الأراضى مما لعله بار أو شرق.

و يكتب بذلك مكلفات واضحة بالفدن، و القطائع على جميع الأصناف المزروعة، و يحضر إلى دواوين الباب. فإذا مضى من السنة القبطية أربعة أشهر ندب من الأجناد من عرف بالحماسة و قوّة البطش، و عين معه من الكتاب العدول من قد اشتهر بالأمانة، و كاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة، و ساروا إلى كل ناحية. كذلك فاستخرج مباشر و أكل بلد ثلث ما وجب من مال الخراج على ما شهدت به المكلفات، فإذا أحضر هذا الثلث صرف فى واجبات العساكر، و هكذا العمل فى استخراج كل قسط طول الزمان من كل سنة، و كانت تبقى فى جهات الضمان و المتقبلين جملة بواق.

و كانت بلاد مصر إذ ذاك تقبل بعين و غلة و أصناف، و قد عرف ذلك من نسخة المسموح الذى تضمن ترك البواقى فى أيام الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و وزارة المأمون البطائحى، و رأيت بخط الأسعد بن مهذب بن زكريا بن مماتى الكاتب المصرى سألت القاضى الفاضل عبد الرحيم: كم كانت عدّة العساكر فى عرض ديوان الجيش لما كان سيدنا يتولى ذلك فى أيام رزيك بن الصالح؟ فقال: أربعين ألف فارس و نيفا و ثلاثين ألف راجل من السودان.

و قال أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب حسن السريرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة:

أنّ ضرغاما لما ثار على شاور و فرّ شاور إلى السلطان نور الدين محمود بن زنكى بدمشق يستنجد به على ضرغام، و يعده بأنه يكون نائبا عنه بمصر، و يحمل إليه الخراج أنشأ لنور الدين عزما لم يكن، فجهز ألف فارس، و قدّم عليه أسد الدين شيركوه، و أمره بالتوجه فأبى و قال: لا أمضى أبدا. فإنّ هلاكى و من معى و سوء ما سمعه السلطان معلوم من هنا، و كيف أمضى بألف فارس إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس و مائة سبهبد فيها عشرة آلاف مقاتل و أربعون ألف عبد، و قوم مستوطنون فى أوطانهم فرأيت حرابتهم، و نحن نأتيهم من تعب السفر بهذه العدّة القليلة. قال: ثم أجابه بعد ذلك هذا أعزك اللّه بعد ما كانت عساكر أحمد بن طولون ما سنراه فى ذكر القطائع إن شاء اللّه تعالى.

ثم ما كان من عساكر الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد و هى على ما حكاه غير واحد، منهم ابن خلكان: أنها كانت أربعمائة ألف، و لما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز من بلاد الشام، و استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر، تغير الحال بعض التغير لا كله.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ستين و خمسمائة فى ثامن المحرّم:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۳

خرجت الأوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها و جديدها بعد أن أنذر حاضرها و غائبها و توافى وصولها، و تكامل سلاحها و خيولها، فحضر فى هذا اليوم جموع شهد كل من علا سنه و قرطس ظنه أن ملكا من ملوك الإسلام لم يحز مثلها، و شاهدت رسل الروم و الفرنج ما أرغم أنوف الكفرة، و لم يتكامل اجتياز العساكر موكبا بعد موكب، و طلبا بعد طلب.

و الطلب بلغة الغز هو: الأمير المقدّم الذى له علم معقود، و بوق مضروب، و عدّة من مائتى فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسا إلى أن انقضى النهار، و دخل الليل، و عاد و لم يكمل عرضهم، و كانت العدّة الحاضرة مائة و سبعة و أربعين طلبا و الغائب منها عشرون طلبا، و تقدير العدّة يناهز أربعة عشر ألف فارس أكثرها طواشية، و الطواشى: من رزقه من سبعمائة إلى ألف إلى مائة و عشرين، و ما بين ذلك و له بركك من عشرة رؤوس إلى ما دونها ما بين فرس، و برذون و بغل و جمل و له، غلام يحمل سلاحه و قرا غلامية تتمة الجملة.

قال: و فى هذه السفرة عرض العربان الخدّامين، فكانت عدّتهم سبعة آلاف فارس و استقرّت عدّتهم على ألف و ثلثمائة فارس لا غير. و أخذ بهذا الحكم عشر الواجب، و كان أصله ألف ألف دينار على حكم الاعتداد الذى يتأصل و لا يتحصل و كلف التغالبة ذلك، فامتعضوا و لوّحوا بالتحيز إلى الفرنج. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۱ ؛ ص۱۶۳

قال فى متجدّدات شهر رجب سنة سبع و سبعين و خمسمائة، استمر انتصاب السلطان صلاح الدين فى هذه السنة للنظر فى أمور الإقطاعات، و معرفة عبرها و النقص منها، و الزيادة فيها و إثبات المحروم و زيادة المشكور إلى أن استقرّت العدّة على ثمانية آلاف و ستمائة و أربعين فارسا أمراء مائة و أحد عشر أميرا طواشية ستة آلاف و تسعمائة و ستة و سبعون قراغلامية ألف و خمسمائة و ثلاثون و خمسون، و المستقرّ لهم من المال ثلاثة آلاف ألف و ستمائة ألف و سبعون ألفا و خمسمائة دينار، و ذاك خارج عن المحلولين من الأجناد الموسومين بالجوالة على العشر، و عن عدّة العربان المقطعين بالشرقية و البحيرة، و عن الكاتبين و المصريين و الفقهاء و القضاة و الصوفية، و عما يجرى بالديوان و لا يقصر عن ألف ألف دينار.

و قال فى متجدّدات سنة خمس و ثمانين و خمسمائة أوراق بما استقر عليه عبر البلاد من إسكندرية إلى عيذاب إلى آخر الرابع و العشرين من شعبان سنة خمس و ثمانين و خمسمائة خارجا عن الثغور و أبواب الأموال الديوانية و الأحكار و الحبس و منفلوط و منقباط، و عدّة نواح أوردت أسماءها و لم يعين لها فى الديوان عبرة من جملة أربعة آلاف ألف و ستمائة ألف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۴

و ثلاثة و خمسين ألفا و تسعة عشر دينارا. بعدما يجرى فى الديوان العادلى السعيد و غيره عن الشرقية و المرتاحية و الدقهلية و بوش و غير ذلك، و هو ألف ألف و مائة ألف و تسعون ألفا و تسعمائة و ثلاثة و عشرون دينارا.

تفصيل ذلك: الديوان العادلى: سبعمائة ألف و ثمانية و عشرون ألفا و مائتان و ثمانية و أربعون دينارا. الأمراء و الأجناد المرسوم بإبقاء إقطاعاتهم بالأعمال المذكورة مائة ألف و ثمانية و خمسون ألفا و مائتان و ثلاثة دنانير. ديوان السور المبارك و الأشراف: ثلاثة عشر ألفا و ثمانمائة و أربعة دنانير، العربان: مائتا ألف و أربعة و ثلاثون ألفا و مائتان و ستة و تسعون دينارا. الكنانية: خمسة و عشرون ألفا و أربعمائة و اثنا عشر دينارا، القضاة و الشيوخ: سبعة آلاف و أربعمائة و ثلاثة دنانير، القيمارية و الصالحية و الأجناد المصريون: اثنا عشر ألفا و خمسمائة و أربعة دنانير، الغزاة و العساقلة المركزة بدمياط و تنيس و غيرهم: عشرة آلاف و سبعمائة و خمسة و عشرون دينارا، البارز: ثلاثة آلاف ألف و أربعمائة ألف و اثنان و ستون ألفا و خمسة و تسعون دينارا.

الوجه البحرى: ألف ألف و مائة ألف واحد و خمسون ألفا و ثلاثة و خمسون دينار (تفصيله) ضواحى ثغر الاسكندرية و ثمانية و ثلاثون دينارا، ثغر رشيد: ألفا دينار، البحيرة:

مائة ألف و خمسة عشر ألفا و خمسمائة و ستة و سبعون دينارا، حوف رمسيس: اثنان و تسعون ألفا و أربعمائة و ثلاثة دنانير، فوّه و المزاحميتين: عشرة آلاف و مائة و خمسة و عشرون دينارا، النبراوية: خمسة عشر ألفا و ثلثمائة و خمسة دنانير، جزيرة بنى نصر: مائة ألف و اثنا عشر ألفا و ستمائة و ستة و أربعون دينارا، جزيرة قوسنينا: مائة ألف و ثلاثون ألفا و خمسمائة و اثنان و تسعون دينارا، الغربية: ستمائة ألف و أربعة و سبعون ألفا و ستمائة و خمسة دنانير، السمنودية: مائتا ألف و خمسة و أربعون ألفا و أربعمائة و تسعة و سبعون دينارا، الدنجاوية:

ستة و أربعون ألفا و مائتا و أربعة و سبعون دينارا، المنوفية: مائة ألف و ثمانية و أربعون ألفا و ثلثمائة و سبعة و أربعون دينارا.

الوجه القبلى: ألف ألف و ستمائة و عشرة آلاف و أربعمائة و أحد و أربعون دينارا.

تفصيل ذلك: الجيزة: مائة ألف و ثلاثة و خمسون ألفا و مائتان و أربعة دنانير، الأفطيحية: تسعة و خمسون ألفا و سبعمائة و ثمانية و عشرون دينارا، البوصيرية: ستون ألفا و أربعمائة و ستة و ستون دينارا، الفيومية: مائة ألف و اثنان و خمسون ألفا و ستمائة و أربعة و ثلاثون دينارا، البهنسية: ثلثمائة ألف و اثنان و خمسون ألفا و ستمائة و أربعة و ثلاثون دينارا، الواحات الداخلة، و الخارجتين، و واح البهنسا: خمسة و عشرون ألف دينار، الأشمونين:

مائة ألف و سبعون ألفا و خمسمائة و أربعة دنانير، الأخميمية: مائة ألف و ثمانية آلاف و ثمانمائة و اثنا عشر دينارا، الأعمال القوصية: ثلثمائة ألف و اثنان و ستون ألفا و خمسمائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۵

دينار، ثغر أسوان: خمسة و عشرون ألف دينار، ثغر عيذاب: يجرى فى غير هذا الديوان.

و قال فى متجدّدات سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة: و الذى انعقد عليه ارتفاع الديوان السلطانىّ ثلثمائة ألف و أربعة و خمسون ألفا و أربعة و أربعون دينارا، و الذى يميز زائد الارتفاع لسنة سبع و ثمانين و خمسمائة على ارتفاع سنة ست و ثمانين اثنان و عشرون ألفا و أربعمائة و خمسة و أربعون دينارا، و الذى انساق من البواقى للسنة المذكورة أحد و ثلاثون ألفا و ستمائة و اثنان و عشرون دينارا و الذى اشتمل عليه متحصل ديوان الخاص الملكى الناصرى بالديار المصرية لسنة سبع و ثمانين اثنان و عشرون ألفا و أربعمائة و خمسة و أربعون دينارا؛ و الذى انساق من البواقى للسنة المذكورة أحد و ثلاثون ألفا و ستمائة و اثنان و عشرون دينارا و الذى اشتمل عليه متحصل ديوان الخاص الملكى الناصرى بالديار المصرية لسنة سبع و ثمانين و خمسمائة ثلثمائة ألف و أربعة و خمسون ألفا و أربعمائة و أربعة و خمسون دينارا و نصف و ثلث و ثمن.

ذكر الروك الأخير الناصرى

و كان الجندى، إقطاعه بمفرده، و له تبع واحد من عشرين ألف درهم إلى ثلاثين، و فيهم من إقطاعه خمسة عشر ألفا و أقلهم عشرة آلاف، و ذلك سوى الضيافة، و بلغ خمسة آلاف درهم فى الإقطاع الثقيل، و كان الجندىّ يخرج إلى السكان بطوالة خيل، و يخرج مقدّم الحلقة كأمير عشرة، و تكون مضافته إذا نزل حوله، و أكثرهم يأكل على سماطه و لا يمكن الأمير أن يأكل إلا و جميع أجناده معه، و يأخذ غلمان أجناده كل يوم الطعام من مطبخه، و إذا رأى نارا توقد سأل عنها فيقال: إن فلانا اشتهى كذا، فيغضب ممن لا يأكل عنده، و مع ذلك كانت أشكالهم بشعة و ملابسهم غير خائلة.

فلما أفضت السلطنة إلى المنصور لاجين : راك البلاد و ذلك أن أرض مصر كانت أربعة و عشرين قيراطا، فيختص السلطان منها بأربعة قراريط، و يختص الأجناد بعشرة قراريط، و يختص الأمراء بعشرة قراريط، و كان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شىء، و يصير ذلك الإقطاع فى دواوين الأمراء، و يحتمى بها قطاع الطريق و تثور بها الفتن، و يقوم بها الهوشات و يمنع منها الحقوق و المقرّرات الديوانية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۶

و تصير مأكلة لأعوان الأمراء و مستخدميهم، و مضرّة على أهل البلاد التى تجاورها، فأبطل السلطان ذلك، و ردّ تلك الإقطاعات على أربابها و أخرجها بأسرها من دواوين الأمراء.

و أوّل ما بدأ به ديوان الأمير سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة، فأخرج منه ما كان فيه من هذه الإقطاعات، و كان يتحصل له منها مائة ألف أردب غلة فى كل سنة، و اقتدى به جميع الأمراء، و أخرجوا ما فى إقطاعاتهم من ذلك فبطلت الحمايات، و جعل السلطان

فى هذا الروك للأمراء و الأجناد أحد عشر قيراطا، و أفرد تسعة قراريط ليخدم بها عسكر أو يقطعهم إياها ثم رتب أوراقا بتكفية الأمراء و الأجناد بعشرة قراريط، و وفر قيراطا لزيادة من عساه يطلب زيادة لقلة متحصل إقطاعه، و أفرد لخاص السلطان عدّة أعمال جليلة، و أفرد للنائب منكوتمر لتفرقة المثالات فى تابعيه، فتنكرت قلوب الأمراء حتى كان من المنصور لاجين، و نائبه منكوتمر ما كان.

فلما كانت الأيام الناصرية راك الناصر محمد البلاد، قال جامع السيرة الناصرية: و فى سنة خمس عشرة و سبعمائة اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يروك الديار المصرية، و أن يبطل منها مكوسا كثيرة، و يفضل لخاص مملكته شيئا كثيرا من أراضى مصر، و كان سبب ذلك أنه اعتبر كثيرا من أخباز المماليك و الحاشية الذين كانوا للملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و الأمير سلار و سائر المماليك البرجية، فإذا هى ما بين ألف دينار إلى ثمانمائة دينار، و خشى من قطع أخباز المذكورين، فولد له الرأى مع القاضى فخر الدين محمد بن فضل اللّه ناظر الجيش أن يروك ديار مصر، و يقرّر إقطاعات مما يختار، و يكتب بها مثالات سلطانية، فتقدّم الفخر، ناظر الجيش، فعمل أوراقا بما عليه عبر النواحى و مساحتها.

و عين السلطان لكل إقليم من أقاليم ديار مصر أناسا، و كتب مرسوما للأمير بدر الدين جيكل بن البابا أن يخرج لناحية الغربية و معه أعزل الحاجب و من الكتاب المكين بن فرويته، و أن يخرج الأمير عز الدين إيدمر الخطيرىّ إلى ناحية الشرقية، و معه الأمير ايتمش المجدى، و من الكتاب أمين الدولة ابن قرموط، و أن يخرج الأمير بلبان الصرخدى و القليجى و ابن طرنطاى، و بيبرس الجمدار إلى ناحية المنوفية و البحيرة، و أن يخرج البليلى و المرتينى إلى الوجه القبلى، و ندب معهم كتابا و مستوفين و قياسين، فساروا إلى حيث ذكر، فكان كل منهم إذا نزل بأوّل عمله طلب مشايخ كل بلد و دللائها و عدولها و قضاتها و سجلاتها التى بأيدى مقطعيها، و فحص عن متحصلها من عين و غلة و أصناف، و مقدار ما تحتوى عليه من الفدن و مزروعها و بورها، و ما فيها من ترايب و بواق و غرس و مستبحر، و عبرة الناحية و ما عليها لمقطعيها من غلة و دجاج و خراف و برسيم و كشك و كعك، و غير ذلك من الضيافة فإذا حرّر ذلك كله ابتدأ بقياس تلك الناحية و ضبط بالعدول و القياسين و قاضى العمل ما يظهر بالقياس الصحيح، و طلب مكلفات تلك القرية و غنداقها و فضل ما فيها من الخاص السلطانى و بلاد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۷

الأمراء و إقطاعات الأجناد و الرزق حتى ينتهى إلى آخر عمله.

ثم حضروا بعد خمسة و سبعين يوما و قد تحرّر فى الأوراق المحضرة حال جميع ضياع أرض مصر، و مساحتها و عبرة أراضيها و ما يتحصل عن كل قرية من عين و غلة و صنف، فطلب السلطان الفخر ناظر الجيش و التقىّ الأسعد بن أمين الملك المعروف بكاتب سرلغى و سائر مستوفى الدولة و ألزمهم بعمل أوراق تشتمل على بلاد الخاص السلطانى التى عينها لهم، و على إقطاعات الأمراء، و أضاف على عبرة كل بلد ما كان على فلاحيها من ضيافة لمقطعيها و أضاف إلى العبرة ما فى الإقطاع من الجوالى، و كتب مثالات للأجناد بإقطاعات على هذا الحكم فاعتدّ منها بما كان يصرف فى كلف حمل الغلال من النواحى إلى ساحل القاهرة، و ما كان عليها من المكس، و أبطل السلطان عدّة مكوس: منها مكس ساحل الغلة، و كان جلّ متحصل الديوان و عليه إقطاعات الأمراء و الأجناد و يتحصل منه فى السنة أربعة آلاف ألف و ستمائة ألف درهم و عليه أربعمائة مقطع لكل منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف و لكل من الأمراء من أربعين ألف إلى عشرة آلاف، و كانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جدّا، و ينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى، و يحلّ بالناس من ذلك بلاء شديد و تعب عظيم من المغارم و الظلم. فإن مظالمها كانت تتعدّد ما بين نواتية تسرق و كيالين تبخس و شادّين و كتاب يريد كل منهم شيئا، و كان مقرّر الأردب: درهمين للسلطان، و يلحقه نصف درهم غير ما ينهب و يسرق، و كان لهذه الجهة مكان يعرف بخص الكيالة فى ساحل بولاق يجلس فيه شاد و ستون متعمما ما بين كتاب و مستوفين و ناظر، و ثلاثون جنديا مباشرون، و لا يمكن أحدا من الناس أن يبيع قدحا من غلة فى سائر النواحى بل تحمل الغلات حتى تباع فى خص الكيالة ببولاق.

و مما أبطل أيضا نصف السمسرة، و هو عبارة عن أن من باع شيئا من الأشياء فإنه يعطى أجرة الدلال على ما تقرّر من قديم عن كل

مائة درهم درهمين، فلما ولى ناصر الدين الشيخى الوزارة قرّر على كل دلال من دلالته درهما من كل درهمين. فصار الدلال يعمل معدّله و يجتهد حتى ينال عادته و تصير الغرامة على البائع، فتضرّر الناس من ذلك و أوذوا فلم يغاثوا حتى أبطل ذلك السلطان، و مما أبطل رسوم الولاية و كانت جهة تتعلق بالولاة المقدّمين، فيجبيها المذكورون من عرفاء الأسواق و بيوت الفواحش، و لهذه الجهة ضامن و تحت يده عدّة صبيان و عليها جند مستقطعون و أمراء و غيرهم، و كانت تشتمل على ظلم شنيع و فساد، قبيح و هتك قوم مستوزين و هجم لبيوت أكثر الناس، و مما أبطل مقرّر الحوائص و البغال من المدينة و سائر أعمال مصر كلها من الوجه القبلى و البحرى، فكان على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۸

كل من الولاة و المقدّمين مقرر يحمل فى كل قسط من أقساط السنة إلى بيت المال عن ثمن حياصة ثلثمائة درهم، و عن ثمن بغل خمسمائة درهم و على هذه الجهة عدّة مقطعين و يفضل منها ما يحمل، و كان يصيب الناس من هذه الجهة ما لا يوصف و يحلّ بهم من عسف الرقاصين ما يهون معه الموت، و من ذلك مقرّر السجون، و هو عبارة عما يؤخذ من كل من يسجن فللسجان على حكم المقرّر ستة دراهم سوى كلف أخرى، و على هذه الجهة عدّة مقطعين و يرغب فيها الضمان و يتزايدون فى مبلغ ضمانها لكثرة ما يتحصل منها فإنه كان لو تخاصم رجل مع امرأته أو ابنه رفعه الوالى إلى السجن فبمجرّد ما يدخل السجن، و لو لم يقم به إلا لحظة واحدة أخذ منه المقرّر، و كذلك كان على سجن القضاة أيضا.

و من ذلك مقرّر طرح الفراريج: و لها ضمان عدّة فى سائر نواحى أرض مصر يطرحون على الناس الفراريج فيمرّ بضعفاء الناس من ذلك بلاء عظيم، و تقاسى الأرامل من العسف و الظلم شيئا كثيرا، و كان على هذه الجهة عدّة مقطعين، و لا يمكن أحدا من الناس فى جميع الأقاليم أن يشترى فروجا فما فوقه إلا من الضامن و من عثر عليه أنه اشترى أو باع فروجا من سوى الضامن جاءه الموت من كل مكان، و ما هو بميت.

و من ذلك مقرّر الفرسان: و هو عبارة عما يجيبه ولاة النواحى من سائر البلاد فلا يؤخذ درهم مقرّر حتى يغرم عليه صاحبه درهمين و يقاسى الناس فيه أهوالا صعبة.

و من ذلك مقرّر الأقصاب و المعاصر: و هو ما يجبى من مزارعى قصب السكر، و من المعاصر و رجال المعاصر.

و من ذلك مقرّر رسوم الأفراح: و يجبى من سائر النواحى و لهذه الجهة عدّة ضمان و لا يعرف لهذه الجهة أصل البتة، و إنما يجبى بضرائب ينال الناس فيها مع المقرّر غرامات و روعات.

و من ذلك حماية المراكب: و هى عبارة عما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرّر الحماية و كانت هذه الجهة أشدّ ما ظلم به الناس فيؤخذ من كل من ركب البحر للسفر حتى من السؤال و المكدين.

و من ذلك حقوق القينات: و هو عبارة عما يجمع من الفواحش و المنكرات فيجبيه مهتار الطشتخاناه السلطانية من أوباش الناس.

و من ذلك شدّ الزعماء: و هى جهة مفردة و حقوق السودان و كشف المراكب و مقرّر ما على كل جارية، أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة فيؤخذ من كل ذكر و أنثى مقرّر معين، و متوفر الجراريف، و هو ما يجبى من سائر النواحى فيحمل ذلك مهندسوا البلاد إلى بيت المال بإعانة الولاة لهم فى تحصيل ذلك و على هذه الجهة عدّة مقطعين من الجند.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۶۹

و مقرّر المشاعلية و هو عبارة عما يؤخذ عن كسح الأفنية و حمل ما يخرج منها من الوسخ إلى الكيمان، فكان إذا امتلأ سراب جامع أو مدرسة أو مسمط أو تربة أو منزل من منازل سائر الناس لا يمكنه و لو بلغ من العظمة ما عسى أن يبلغ التعرّض لذلك حتى يأتيه ضامن الجهة، و يقاوله على كسح ذلك بما يريد و كان من عادة الضامن الإشطاط فى السوم، و طلب أضعاف القيمة فإن لم يرض رب المنزل بما طلب الضامن و إلا تركه و انصرف فلا يقدر على مقاساة ترك الوسخ و يضطرّ إلى سؤاله ثانيا، فيعظم تحكمه و يشتدّ بأسه

إلى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح فنائه و رفع ما هنالك من الأقذار.

و من ذلك إبطال المباشرين من النواحى: و كانت بلاد مصر كلها من الوجهين القبلىّ و البحرى ما من بلد صغير و كبير إلا و فيه عدّة من كتاب و شادّ و نحو ذلك، فأبطل السلطان المباشرين و تقدّم منعهم من مباشرة النواحى إلا من بلد فيها مال السلطان فقط، فأراح اللّه سبحانه الخلق بإبطال هذه الجهات من بلاء لا يقدر قدره و لا يمكن وصفه.

و لما أبطل السلطان، هذه الجهات، و فرغ من تعيين الإقطاعات للأمراء و الأجناد أفرز لخاص السلطان من بلاد أرض مصر عدّة نواح، مما كان فى إقطاعات البرجية و هى الجيزة و أعمالها و هو و الكوم الأحمر، و منفلوط و المرج و الخصوص، و غير ذلك مما بلغ عشرة قراريط من الإقليم، و صار لإقطاعات الأمراء و الأجناد، و غيرهم أربعة عشر قيراطا، و مكر الأقباط فيما أمكنهم المكر فيه، فبدأوا بأن أضعفوا عسكر مصر، ففرّقوا الإقطاع الواحد فى عدّة جهات، فصار بعض الجبى فى الصعيد و بعضه فى الشرقية، و بعضه فى الغربية إتعابا للجندىّ، و تكثيرا للكلفة، و أفردوا جوالى الذمّة من الخاص، و فرّقوها فى البلاد التى أقطعت للأمراء و الأجناد.

فإن النصارى كانوا مجتمعين فى ديوان واحد كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى، فصار نصارى كل بلد يدفعون جاليتهم إلى مقطع تلك الضيعة، فاتسع مجال النصارى، و صاروا يتنقلون فى القرى، و لا يدفعون من جزيتهم إلا ما يريدون، فقلّ متحصل هذه الجهة بعد كثرته، و أفردوا ما بقى من جهات المكوس برسم الحوائج خاناه التى تصرف للسماط ليتناولوا ذلك و يوردوا منه ما شاءوا، ثم يتولوا صرف ما يحصل منه فى جهات تستهلك بالأكل، و صارت جهات المكوس مما يتحدّث فيه الوزير، و شاد الدواوين.

ثم نظر السلطان فيما كان بيد الأميرين بيبرس الجاشنكير، و سلار نائب السلطنة من البلاد، فأخذ ما كان باسم كل منهما و باسم حواشيه، و لم يدع من ذلك شيئا مما كانوا قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷۰

وقفوه حتى حله، و جعل الجميع إقطاعات، و اعتدّ فى سائر الإقطاعات بما كان يستهديه المقطع من فلاحه، فحسب ذلك و أقامه من جملة عبر الإقطاع و أبطل الهدية، فلم يتهيأ له الفراغ من ذلك إلى آخر السنة، فلما أهلّ المحرّم من سنة ست عشرة و سبعمائة، و قد نظمت الحسبانات على ثلث مغلّ سنة خمس عشرة. جلس السلطان فى الإيوان الذى استجدّه بقطعة الجبل، و قد تقدّم لسائر نقباء الأجناد على لسان نقيب الجيش بالحضور بأجنادهم، و جعل للعرض فى كل يوم أميرين من الأمراء المقدّمين بمضافيهما، فكان الأمير مقدّم الألف يقف، و معه مضافوه، و ناظر الجيش يستدعيهم من تقدمة ذلك الأمير بأسمائهم على قدر منازلهم، فيقدّم نقيب الجيش، الواحد بعد الواحد من يد نقيبه إلى ما بين يدى السلطان، فإذا مثل بحضرته سأله السلطان بنفسه من غير واسطة عن اسمه، و أصله و جنسه، و وقت حضوره إلى ديار مصر، و مع من قدم، و إلى من صار من الأمراء و غيرهم، و عن مشاهده التى حضرها فى الغزو، و عما يعرفه من صناعة الحرب و غير ذلك من الاستقصاء، فإذا انتهى استفهامه إياه ناوله بيده مثالا من غير تأمّل بحسب ما قسم اللّه له، فلم يمرّ به فى مدّة العرض أحد إلا و قد عرفه و أشار إلى الأمراء بذكر شىء من خبره.

هذا و قد تقدّم إلى سائر الأمراء بأسرهم بأن يحضروا إلى الإيوان عند العرض، و لا يعارض أحد منهم السلطان فى شىء يفعله، فكانوا يحضرون و هم سكوت لا يتكلم أحد منهم خوفا من مخالفة السلطان لما يقوله، و أخذ السلطان فى مواربة الأمراء فما أثنوا على أحد فى مجلس العرض إلا و أعطاه السلطان مثالا بإقطاع ردىء، فلما عملوا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة، و انفرد بالاستبداد بأموره دونهم، فما عرف منه أنه قدّم إليه أحد إلا و سأله: إن كان مملوكا عمن أقدمه من التجار، و سائر ما تقدّم، و إن كان شيخا فعن أصله و سنه و كم مصاف حضرها؟ حتى أتى على الجميع و أفرد المشايخ العاجزين فلم يعطهم إقطاعات، و جعل لكل منهم مرتبا يقوم به، فانتهى العرض فى طول المحرّم، و توفر كثير من مثالات الأجناد فبلغ عدّة مائتى مثال، ثم أخذ فى عرض أطباق المماليك السلطانية، و وفر من جوامكهم كثيرا، و قطع عدّة رواتب من رواتبهم، و عوّضهم عن ذلك إقطاعات، و جعل جهة مكس قطيا لضعفاء الأجناد ممن قطع خبزه فجعل لكل منهم فى السنة ثلاثة آلاف درهم.

و كان لبيبرس، و سلار الجوكندار، تعلقات كثيرة فى بيت المال و فى الأعمال كالجيزة و الإسكندرية من متجر، و حمايات فارتجع ذلك و أبطله و ما شابهه، و أضاف ما لم يقطعه إلى ديوان الخاص، و مما أمر به فى مدّة العرض أن لا يردّ أحد مثالا أخذه من السلطان و لو استقله، و لا يشفع أمير فى جندىّ، و إنّ من خالف ذلك ضرب و حبس و نفى و قطع خبزه، فعظمت مهابة السلطان و قويت حرمته، و لم يجسر أحد أن يردّ عليه مثالا أخذ من السلطان، و لا استطاع أمير أن يتكلم لأحد، و صار كثير ممن كان إقطاعه مثلا ألف دينار إلى إقطاع مائتى دينار، و نحوها و كثير ممن كان إقطاعه قليلا إلى إقطاع معتبر، فإنه كان يعطى المثال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷۱

من غير تأمّل كيفما وقعت يده عليه.

و قدّر اللّه سبحانه و تعالى أنّ السلطان كان من جملة صبيان مطبخه، رجل مضحك يهزل بحضرته، فيضحك منه، و يعجب به و لا يعترض فيما يقول من السخف، فجلس السلطان فى بعض أيام العرض فى البستان بقلعة الجبل، و عنده الخاصة من الأمراء فدخل هذا المضحك، و أخذ فى السخرية على عادته ليضحك السلطان، إلى أن قال: وجدت بعض أجناد الروك الناصرىّ، و هو راكب الإكديش، و خرجه خلفه و رمحه فوق كتفه يقصد بهذا السخرية، و الطعن، فغضب السلطان غضبا شديدا و صاح: خذوه و عرّوه ثيابه، فتبادره الأعوان، و جرّوه برجله، و نزعوا ثيابه و ربطوه فى الساقية مع القواديس، و أكثروا من ضرب الأبقار حتى أسرعت بدوران الساقية، فصار المسكين ينقلب مع القواديس و يغطس فى المادة تارة و يرقى أخرى ثم ينتكس، و الماء يمرّ عليه مقدار ساعة إلى أن انقطع حسه، و أشرف على الهلاك، و اشتدّ رعب الأمراء لما رأوا من قوّة غضب السلطان.

ثم تقدّم الأمير طغاى الدوادار فى طائفة من الأمراء الخاصكية، و اعتذروا عن هذا المسكين بأنه لم يرد إلا أن يضحك السلطان من كلامه، و لم يقصد عيب الأجناد، و لا انتقاصهم و نحو هذا من القول إلى أن أمر بحله، فإذا ليس فيه حركة، فسحب و رسم السلطان بأنه إن كان حيا لا يبيت بديار مصر، فأخرج من وقته منفيا و حمد اللّه كل من الأمراء على ما وفقه من السكوت عن الكلام فى حال العرض.

و ما زال الأمر بمصر على ما رسمه الملك الناصر فى هذا الروك إلى أن زالت دولة بنى قلاوون بالملك الظاهر برقوق فى شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، فأبقى الأمر على ذلك إلا أنّ أشياء منه أخذت تتلاشى قليلا قليلا إلى أن كانت الحوادث و المحن فى سنة ست و ثمانمائة حيث حدث من أنواع التغيرات، و تنوّع الظلم ما لم يخطر ببال أحد، و سيمرّ بك حمل من ذلك عند ذكر أسباب خراب إقليم مصر إن شاء اللّه تعالى، و كانت لأراضى مصر تقاو مخلدة فى نواحيها و هى على قسمين: تقاو سلطانية، و تقاو بلدية، فالتقاوى السلطانية، وضعها الملوك فى النواحى، و كان الأمير أو الجندىّ عند ما يستقرّ على الإقطاع يقبض ماله من التقاوى السلطانية، فإذا خرج عنه طولب بها، فلما كان الروك الناصرى خلدت تقاوى كل ناحية بها، و ضبطت فى الديوان السلطانى فبلغت جملتها مائة ألف و ستين ألف أردب سوى التقاوى البلدية.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷۲

ذكر الديوان

اشارة

قال أقضى القضاة أبو الحسن الماوردىّ: الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال و الأموال، و من يقوم بها من الجيوش و العمال، و فى تسميته ديوانا و جهان: أحدهما: أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم، فقال: ديوانه، أى: مجانين، فسمى موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا للاسم، فقيل: ديوان. و الثانى: أن

الديوان اسم بالفارسية للشياطين، فسمى الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور، و وقوفهم على الجلىّ و الخفىّ، و جمعهم لما شذ و تفرّق، و اطلاعهم على ما قرب و بعد، ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم، فقيل: ديوان.

انتهى.

و اعلم أن كتابة الديوان على ثلاثة أقسام: كتابة الجيوش، و كتابة الخراج، و كتابة الإنشاء و المكاتبات، و لا بدّ لكل دولة من استعمال هذه الأقسام الثلاثة، و قد أفرد العلماء فى كتابة الخراج، و فى كتابة الإنشاءات عدّة مصنفات، و لم أر أحدا جمع شيئا فى كتابة الجيوش، و العساكر، و كانت كتابة الدواوين فى صدر الإسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفا مدرجة، فلما انقضت أيام بنى أمية، و قام عبد اللّه بن محمد: أبو العباس السفاح، استوزر خالد بن برمك بعد أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال، فجعل الدفاتر فى الدواوين من الجلود، و كتب فيها و ترك الدروج إلى أن تصرّف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك فى الأمور أيام الرشيد، فاتخذ الكاغد، و تداوله الناس من بعده إلى اليوم.

و ذكر أبو النمر الوراق قال: حدّثنى أبو حازم القاضى قال: قال لى أبو الحسن بن المدبر: لو عمرت مصر كلها لوفت بأعمال الدنيا، و قال: إنّ أرض مصر مساحتها للزراعة ثمانية و عشرون ألف ألف فدّان، و إنما المعمر منها ألف ألف فدّان. قال: و قال لى ابن المدبر: إنه كان يتقلد ديوان المشرق و ديوان المغرب. قال: و لم أبت قط ليلة من الليالى حتى أنهيه، و لا بقيته، و تقلدت مصر فكنت ربما نمت و قد بقى علىّ شىء من العمل فأستتمه إذا أصبحت.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷۳

ذكر ديوان العساكر و الجيوش

يقال: إنّ أول من وضع ديوان الجند بخيلهم، كيهراسف، أحد ملوك الطبقة الثانية من الفرس، و إنّ كيقباذ قبله كان قد أخذ العشر من الغلات، و صرفه فى أرزاق جنده، و أما فى الإسلام، فما خرجه البخارى و مسلم من حديث حذيفة رضى اللّه عنه قال: قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:

«اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس»، فكتبنا له ألفا و خمسمائة رجل، الحديث. ذكره البخارىّ فى باب كتابة الإمام الناس، و للبخارى من حديث عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما قال: جاء رجل إلى النبىّ صلى اللّه عليه و سلم فقال: يا رسول اللّه إنى اكتتبت فى غزوة كذا و كذا، و امرأتى حاجة؟ قال: «ارجع فاحجج مع امرأتك». و قال عمرو بن منبه عن معمر عن قتادة قال: آخر ما أتى به النبىّ صلى اللّه عليه و سلم ثمانمائة ألف درهم من البحرين، فما قام من مجلسه حتى أمضاه، و لم يكن للنبىّ صلى اللّه عليه و سلم بيت مال، و لا لأبى بكر.

و أوّل من اتخذ بيت مال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه. و قال ابن شهاب: عمر أوّل من دوّن الدواوين. و روى ابن سعد عن عائشة رضى اللّه عنها قالت: قسم أبى الفىء عام أوّل، فأعطى الحرّ عشرة، و الملوك عشرة، و المرأة عشرة، و أمتها عشرة، ثم قسم العام الثانى، فأعطاهم عشرين عشرين. فقيل: إن سببه أن أبا هريرة رضى اللّه عنه قدم على عمر رضى اللّه عنه بمال من البحرين، فقال له عمر: ما ذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر! و قال: أ تدرى ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألف خمس مرّات، فقال عمر: أطيب هو؟ قال: لا أدرى، فصعد عمر المنبر، فحمد اللّه، و أثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا، و إن شئتم عددنا لكم عدّا، فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدوّنون ديوانا لهم، فدوّن أنت ديوانا، فدوّن عمر.

و قيل: بل سببه أن عمر بعث بعثا و عنده الهرمزان، فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلف منهم رجل من أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديوانا، فسأله عن الديوان حتى فسره له، فاستشار المسلمين فى تدوين الدواوين فقال له علىّ بن أبى طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع عندك من المال، و لا تمسك منه شيئا، و قال عثمان رضى اللّه عنه:

أرى مالا كثيرا يسع الناس، فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر، و قال خالد بن الوليد رضى اللّه عنه: قد كنت بالشام، فرأيت ملوكها دوّنوا ديوانا و جندوا جنودا، فدوّن ديوانا، و جند جنودا، فأخذ بقوله، و دعا عقيل بن أبى طالب، و مخرمة بن نوفل، و جبير بن مطعم، و كانوا كتاب قريش، فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فبدأوا ببنى هاشم، و كتبوهم، ثم أتبعوهم أولاد أبى بكر، و قومه، ثم عمر و قومه، و كتبوا القبائل، و وضعوها على الخلافة، ثم رفعوا ذلك إلى عمر رضى اللّه عنه، فلما نظر فيه قال:

لا، و لكن ابدأوا بقرابة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الأقرب، فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷۴

فشكره العباس رضى اللّه عنه على ذلك، و قال: وصلت رحمك، و قد اختلف فى السنة التى فرض فيها عمر رضى اللّه عنه الأعطية و دوّن الدواوين فقال الكلبىّ فى سنة خمس عشرة، و حكى ابن سعد عن عمر الواقدى: أنه جعل ذلك فى سنة عشرين. قال الزهرىّ: و كان ذلك فى المحرّم سنة عشرين من الهجرة، و قيل: لما فتح اللّه على المسلمين القادسية، و قدمت على عمر رضى اللّه عنه الفتوح من الشام جمع المسلمين، و قال: ما يحلّ للوالى من هذا المال، فقالوا: جميعا. أما الخاصة، فقوته و قوت عياله لا وكس و شطط، و كسوته و كسوتهم للشتاء و الصيف، و دابتان إلى جهاده و حوائجه و حملانه إلى حجته و عمرته، و القسم بالسوية، و أن يعطى أهل البلاد على قدر بلادهم و يرم أمور الناس بعد، و يتعاهدهم فى الشدائد و النوازل حتى تنكشف، و يبدأ بأهل القىء ثم يجوزهم إلى كل مغلوب ما بلغ الفىء.

و قال الضحاك عن ابن عباس رضى اللّه عنهما: لما افتتحت القادسية، و صالح من صالح من أهل السواد، و افتتحت دمشق و صالح أهل الشام. قال عمر رضى اللّه عنه للناس:

اجتمعوا فأحضرونى علمكم فيما أفاء اللّه على أهل القادسية و أهل الشام، فاجتمع رأى علىّ و عمر رضى اللّه عنهما أن يأخذوه من قبل القرآن فقالوا: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى [الحشر/ ۷] يعنى: من الخمس فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ يعنى: من اللّه الأمر و على الرسول القسم وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ ثم فسروا ذلك بالآية الأخرى التى تليها:

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ [الحشر/ ۸] الآية، فأخذوا أربعة الأخماس على ما قسم عليه الخمس فيمن بدىء به، و ثنى و ثلث و أربعة أخماس لمن أفاء اللّه عليه المغنم، ثم استشهدوا على ذلك بقوله تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ [الأنفال/ ۴۱] الآية من تلك الطبقات الثلاث و أربعة أخماس لمن أفاء اللّه عليه، فقسم الأخماس على ذلك، فاجتمع على ذلك عمر و علىّ، و عمل به المسلمون بعد ذلك، فبدأ بالمهاجرين ثم الأنصار ثم التابعين الذين شهدوا معهم، و أعانوهم ثم فرض الأعطية من الجزاء على من صالح، أو دعا إلى الصلح من حرابة فردّه عليهم بالمعروف، و ليس فى الجزء أخماس الجزء لمن منع الذمّة، و وفى لهم ممن ولى ذلك منهم، و لمن لحق بهم، فأعانهم بأسوة إلا أن يواسوا بفضله عن طيب أنفس منهم، من لم ينل مثل الذى نالوا.

و عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال عمر رضى اللّه عنه: إنى مجيد المسلمين على الأعطية و مدوّنهم و متحرّى الحق، فقال عبد الرحمن بن عوف و عثمان و علىّ رضى اللّه عنهم: ابدأ بنفسك، قال: لا أبدأ إلا بعم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، ثم الأقرب فالأقرب منهم من رسول اللّه، ففرض للعباس، و بدأ به، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر رضى اللّه عنه عن أهل الردّة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، و دخل فى ذلك من شهد الفتح، و قاتل عن أبى بكر و من ولى الأيام قبل القادسية، كل هؤلاء على ثلاثة آلاف ثلاثة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷۵

آلاف، ثم فرض لأهل القادسية، و أهل الشام أصحاب اليرموك ألفين ألفين، و فرض لأهل البلاد النازح منهم ألفين و خمسمائة ألفين و خمسمائة، فقيل له: لو ألحقت أهل القادسية بأهل الأيام، فقال: لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا لاها اللّه إذن، و قيل له: قد

سوّيتهم على بعد دارهم بمن قد قربت داره، و قاتل عن فنائه، فقال: هم كانوا أحق بالزيادة لأنهم كانوا ردء الحقوق، و شجى للعدوّ. و أيم اللّه ما سوّيتهم حتى استطبتهم، فهلا قال المهاجرون مثل قولهم حين سوّينا بين السابقين من المهاجرين، و بين الأنصار، و قد كانت نصرة الأنصار بفنائهم، و هاجر إليهم المهاجرون من بعد، و فرض للروادف الذين ردفوا بعد افتتاح القادسية و اليرموك بعد الفتح ثلثمائة ثلثمائة سوّى كل طبقة فى العطاء ليس بينهم تفاضل، قويهم و ضعيفهم عربيهم و أعجميهم فى طبقاتهم سواء حتى إذا حوى أهل الأمصار من حووا من سباياهم، و ردفت المربع من الروادف فرض لهم على خمسين و مائتين، و فرض لمن ردف من الروادف الخمس على مائتين، فكان آخر من فرض له عمر رضى اللّه عنه أهل هجر على مائتين، و مات عمر على ذلك.

و أدخل فى أهل بدر أربعة من غير أهل بدر: الحسن و الحسين و أبا ذر و سلمان، و قال أبو سلمة: فرض عمر للعباس على خمسة و عشرين ألفا. و قال الزهرىّ: على اثنى عشر ألفا، و جعل نساء أهل بدر إلى الحديبية على أربعمائة أربعمائة، و نساء من بعد ذلك إلى الأيام قبل القادسية على ثلثمائة ثلثمائة، ثم نساء أهل القادسية على مائتين مائتين، ثم سوّى بين النساء بعد ذلك، و جعل للصبيان من أهل بدر و غيرهم مائة مائة، ثم دعا ستين مسكينا، فأطعمهم خبزا بملح فأحصوا ما أكلوه فوجدوه يخرج من جزيتين، ففرض لكل إنسان يقوم بالأمر له و لعياله جزيتين جزيتين فى كل شهر: مسلمهم و كافرهم، و فرض لأزواج النبىّ صلى اللّه عليه و سلم عشرة آلاف عشرة آلاف، إلا من جرى عليه البيع، فقالت أمّهات المؤمنين: ما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يفضلنا عليهنّ فى القسمة و لكن كان يسوّى بيننا فسوّ بيننا، فجعلهن على عشرة آلاف عشرة آلاف، و فضل عائشة رضى اللّه عنها بألفين، فأبت. فقال لفضل: منزلتك عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فإذا أخذتها فشأنك.

و كان الناس أعشارا، فكانت العرفاء ثلاثة آلاف عريف كل عريف على عشرة، و رزق الخيل على أعرافها، فما زالوا كذلك حتى اختطت الكوفة و البصرة، فغيرت العرفاء و الأعشار، و جعلت أسباعا، و جعل مائة عريف على كل مائة ألف درهم عريف، و كانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة و أربعين رجلا و ثلاثا و أربعين امرأة، و خمسين من العيال لهم مائة ألف درهم، و كل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف و عشرين امرأة، و لكل عيل مائة على مائة ألف درهم، و كل عرافة من الرادفة الأولى ستين رجلا و ستين امرأة، و أربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف و خمسمائة على مائة ألف درهم، و كان العطاء يدفع إلى أمراء الأسباع و أصحاب الرايات، و الرايات على أيادى العرب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷۶

فيدفعونه إلى العرفاء و النقباء و الأمناء، فيدفعونه إلى أهله فى دورهم. فمات عمر رضى اللّه عنه و الأمر على ذلك، و قد عزم قبل موته أن يجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، و قال:

لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، ألف يخلفها الرجل فى أهله، و ألف يتزوّدها معه فى سفره، و ألف يتجهز بها، و ألف يترفق بها، فمات و هو فى ارتياد ذلك قبل أن يفعل، و كان يقرى البعوث على قدر المسافة إن كان بعيدا فسنة، و إن كان دون ذلك فستة أشهر، فإذا أخل الرجل بثغره نزعت عمامته، و أقيم فى مسجد حيه، فقيل هذا فلان قد أخل. و قال سيف بن عمر: أول عطاء أخذ سنة خمس عشرة، و كان عمرو بن العاص رضى اللّه عنه يبعث من مصر إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه، فلما استخلف عثمان رضى اللّه عنه لثلاث مضين من المحرّم سنة أربع و عشرين زاد الناس مائة، و كان أوّل من زاد، و رفد أهل الأمصار، و هو أوّل من رفدهم، و صنع فيهم الصنائع، فاستن به الخلفاء فى الزيادة.

و كان عمر، قد فرض لكل نفس منفوسة من أهل الفىء فى رمضان درهما فى كل يوم، و فرض لأمهات المؤمنين درهمين. فقيل له: لو صنعت لهم به طعاما، فجمعتهم عليه فقال: اشبعوا الناس فى بيوتهم، فأقرّ عثمان رضى اللّه عنه ذلك، و زاد فوضع لهم طعام رمضان. و قال: هو للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد، و لابن السبيل، و للمعترين بالناس فى رمضان فاقتدى به الخلفاء من بعده.

و كان بمصر، فى خلافة معاوية بن أبى سفيان أربعون ألفا، و كان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين، و كان إنما يحمل إلى معاوية

ستمائة ألف دينار عن فضل أعطيات الجند، و ما يصرف إلى الناس، و كان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر، رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ و هل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام، و لفلان جارية، فيكتب أسماءهم، و يقال: نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله، فيسميه و عياله فإذا فرغ من القيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك، و أعطى مسلمة بن مخلد الأنصارى أمير مصر، أهل الديوان أعطياتهم و أعطيات عيالهم، و أرزاقهم و نوائبهم و نوائب البلاد من الجسور، و أرزاق الكتبة و حملان القمح إلى الحجاز، و بعث إلى معاوية ستمائة ألف دينار فضلا.

و أوّل تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، ثم دوّن عبد العزيز بن مروان تدوينا ثانيا، و دوّن قرّة بن شريك التدوين الثالث، ثم دوّن بشر بن صفوان تدوينا رابعا، ثم لم يكن بعد تدوين بشر شيء له ذكر إلا ما كان من إلحاق قيس بالديوان فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان.

فلما انقرضت دولة بنى أمية و غلبت المسودّة بنو العباس أحدثوا أشياء حتى إذا مات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷۷

عبد اللّه المأمون بن هارون الرشيد لسبع خلون من رجب سنة ثمانى عشرة و مائتين، و بويع أخوه المعتصم، أبو إسحاق محمد بن هارون كتب إلى كندر بن نصر الصفدى أمير مصر، يأمره بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب، و قطع العطاء عنهم ففعل ذلك، و كان مروان بن محمد الجعدى آخر خلائف بنى أمية قطع عن أهل مصر العطاء سنة، ثم كتب إليهم كتابا يعتذر فيه: إنى إنما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدوّ حضرنى، فاحتجت إلى المال، و قد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية، و عطاء هذه السنة فكلوه هنيئا مريئا، و أعوذ باللّه أن أكون أنا الذى يجرى اللّه قطع العطاء على يديه، و لما قطع كندر عطاء أهل مصر خرج يحيى بن الوزير الجروىّ فى جمع من لخم و جذام و قال له: هذا أمر لا يقوم فينا أفضل منه لأنا منعنا حقنا و فيئنا، فاجتمع إليه نحو خمسمائة رجل.

و مات كندر فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة و مائتين، و ولى ابنه المظفر مصر من بعده، فسار إلى يحيى، و قاتله فى بحيرة تنيس، و أخذه أسيرا فانقرضت دولة العرب من مصر، و صار جندها العجم و الموالى من عهد المعتصم إلى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مصر، فاستكثر من العبيد، و بلغت عدّتهم زيادة على أربعة و عشرين ألف غلام تركىّ، و أربعين ألف أسود، و سبعة آلاف حرّ مرتزق، ثم استجدّ ابنه الأمير أبو الجيش خمارويه بعده عدّة من شناترة حوف مصر، فلما كانت إمارة الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد على مصر، بلغت عدّة عساكره بمصر و الشام أربعمائة ألف تشتمل على عدّة طوائف.

ثم إن الأستاذ أبا المسك كافورا الإخشيدى استجدّ عدّة من السودان فى أيام تحكمه بمصر، فلما تغلب الإمام المعز لدين اللّه أبو تميم معدّ الفاطمى على مصر صارت عساكرها ما بين كتامة و زويلة و نحوها من طوائف البربر، و فيهم الروم و الصقالبة، و هم فى العدد كما قيل. و منهم معدّ. و لم تكن جيوشه تعدّ، و لا لما أوتيه كان حدّ، من كل ما يسعد فيه جدّ، و حتى قيل: إنه لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر بن فليبس المقدونى أكثر عددا من جيوش المعز، فلما قام فى الخلافة بمصر من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار استخدم الديلم و الأتراك و اختص بهم.

و ذكر الأمير المختار عبد الملك المسبحى فى تاريخه: أن خزانة الخاص حملها لما خرج العزيز إلى الشام عشرون ألف جمل خارجا عن خزائن القوّاد و أكابر الدولة.

و ذكر ابن ميسر فى تاريخه: أن عبيد السيدة أم المستنصر بالله أبى تميم، معدّ بن الظاهر لإعزاز دين اللّه أبى الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه أبى علىّ منصور بن العزيز بالله خاصة كانت عدّتهم خمسين ألف عبد سوى طوائف العسكر، و رأيت بخط الأسعد بن مماتى أن عدّة الجيوش بمصر فى أيام رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك كانت أربعين ألف فارس،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۷۸

و ستة و ثلاثين ألف راجل، و زاد غيره، و عشرة شوانى بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل، و هذا عند انقراض الدولة الفاطمية، فلما زالت

دولتهم على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، أزال جند مصر من العبيد السود و الأمراء المصريين و العربان و الأرمن، و غيرهم و استجدّ عسكرا من الأكراد و الأتراك خاصة، و بلغت عدّة عساكره بمصر اثنى عشر ألف فارس لا غير، فلما مات، افترقت من بعده، و لم يبق بمصر مع ابنه الملك العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس، و خمسمائة فارس إلا أن فيهم من له عشرة أتباع، و فيهم من له عشرون، و فيهم من له أكثر من ذلك إلى مائة تبع لرجل واحد من الجند، فكانوا إذا ركبوا ظاهر القاهرة يزيدون على مائتى ألف، ثم لم يزالوا فى افتراق، و اختلاف حتى زالت دولتهم بقيام عبيدهم المماليك الأتراك، فحذوا حذو مواليهم بنى أيوب، و اقتصروا على الأتراك و شىء من الأكراد، و استجدّوا من المماليك التى تجلب من بلاد الترك شيئا كثيرا حتى يقال: إنّ عدّة مماليك الملك المنصور قلاون كانت سبعة آلاف مملوك، و يقال: اثنى عشر ألفا، و كانت عدّة مماليك ولده الأشرف خليل بن قلاون اثنى عشر ألف مملوك، لم تبلغ بعد ذلك قريبا من هذا إلى أن زالت دولة بنى قلاون فى شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة بالملك الظاهر برقوق، فأخذ فى محو المماليك الأشرفية، و أنشأ لنفسه دولة من المماليك الجركسية بلغت عدّتهم ما بين مشترى و مستخدم أربعة آلاف أو تزيد قليلا، فلما قدم من بعده ابنه الناصر فرج، افترقوا و اختلفوا، فلم يقتل حتى هلك كثير منهم بالقتل و غيره.

و عساكر مصر فى الدولة التركية على قسمين: أجناد الحلقة، و المماليك السلطانية، و أكثر ما كانت أجناد الحلقة فى أيام الناصر محمد بن قلاون، فإنها بلغت على ما رأيته فى جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصرى أربعة و عشرين ألف فارس، ثم ما زالت تنقص حتى صارت اليوم مع قلّة عدّتها سواء منها الألف و الواحد فإنها لا تنفع و لا تدفع، و أما المماليك، فإنها اليوم قليل عددها بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية لا تكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس يصلح منها لأن يباشر القتال ألف أو دونها، و هى اليوم قسمان: أجناد الحلقة، و المماليك السلطانية.

و المماليك السلطانية ثلاثة أقسام: ظاهرية و ناصرية و مؤيدية، و المؤيدية ما بين حكمية و نوروزية، و من استجدّه المؤيد و إن خوفى ليكثر أن يكون الحال بعد الملك المؤيّد، أبى النصر شيخ- خلد اللّه ملكه- يتلاشى إلى أن يؤيد اللّه الملك بابنه الأمير، صارم الدين إبراهيم- شدّ اللّه به أزره- فإنه فتح من البلاد الرومية ما لا ملكه أحد من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۷۹

ملوك مصر فى الدولة الإسلامية قبله.

و الشبل فى المخبر مثل الأسد، و ابن السرىّ إذا سرى أسراهما. و لا غرو أن يحذو الفتى حذو والده،

بأبه اقتدى عدى فى الكرمو من يشابه أبه فما ظلم

إن الأصول عليها ينبت الشجر.

ثم لما ملك الأشرف برسباى صارت المماليك سبع طوائف: ظاهرية و ناصرية و مؤيدية و نوروزية و حكمية و ططرية و أشرفية، كل طائفة منها مباينة لجميعها، فلذلك اضمحلت شوكتهم، و انكسرت حدّتهم، و أمنت على السلطان غائلتهم، و لم يخف ثورتهم لتفرّقهم، و إن كانوا مجتمعين و تباينهم و إن كانوا فى الظاهر متفقين.

و اعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية و بنى العباس و الفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى اللّه عنه أن تجبى أموال الخراج، ثم تفرّق من الديوان فى الأمراء أو العمال و الأجناد على قدر رتبهم، و بحسب مقاديرهم، و كان يقال لذلك فى صدر الإسلام العطاء، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم، فغير هذا الرسم، و فرّقت الأراضى إقطاعات على الجند، و أوّل من عرف أنه فرّق الإقطاعات على الجند نظام الملك أبو علىّ الحسن بن علىّ بن إسحاق بن العباس الطوسى وزير البرشلان بن داود بن ميكال بن سلجوق، ثم وزر ابنه ملكشاه بن البرشلان، و ذلك أن مملكته اتسعت، فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقلّ على قدر إقطاعه لأنه رأى أن فى تسليم الأراضى إلى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال

المملكة ديوان واحد، فإن الخرق يتسع و يدخل الخلل فى البلاد ففعل نظام الملك ذلك، و عمرت به البلاد، و كثرت الغلات، و اقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع و ثمانين و أربعمائة إلى يومنا هذا، و كانت الخلفاء ترزق من بيت المال. فذكر عطاء بن السائب، فى حديث: أن أبا بكر رضى اللّه عنه، لما استخلف فرض له كل يوم شطر شاة و ما يكسى به الرأس و البطن، و ذكر عن حميد بن هلال: أنه فرض له بردان إذا أخلقهما وضعهما، و أخذ مثلهما، و طهره إذا سافر و نفقته على أهله، كما كان ينفق قبل أن يستخلف.

و ذكر ابن الأثير فى تاريخه: أن الذى فرضوا له ستة آلاف درهم فى السنة، و فرض لعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه لما استخلف ما يصلحه و يصلح عياله بالمعروف، و قال له علىّ رضى اللّه عنه: ليس لك غيره، فقال القوم: القول ما قال علىّ يأخذ قوته، و فرض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۸۰

عمر لمعاوية بن أبى سفيان على عمله فى الشام عشرة آلاف دينار فى السنة، و قيل: بل رزقه ألف دينار و هو أشبه.

ذكر القطائع و الإقطاعات

يقال: اقتطع طائفة من الشىء: أخذها، و القطيعة ما اقتطعه منه و أقطعنى إياها أذن لى فى اقتطاعها و استقطعه إياهما: سأله أن يقطعه إياها، و أقطعه نهرا و أرضا أباح له ذلك، و قد أقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و تألف على الإسلام قوما، و أقطع الخلفاء من بعده من رأوا فى إقطاعه صلاحا.

روى ابن أبى نجيح عن عمرو بن شعيب عن أبيه: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضا، فلم يعمروها، فجاء قوم فعمروها، فخاصمهم الجهينيون أو المزينيون إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فقال عمر: لو كانت منى أو من أبى بكر لرددتها، و لكنها قطيعة من رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، ثم قال: من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها، فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها.

و قال هشام بن عروة، عن أبيه: أقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الزبير أرضا فيها نخل من أموال بنى النضير، و ذكر أنها أرض يقال لها الجرف.

و ذكر أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: أقطع العقيق: أجمع الناس حتى جازت قطيعة عروة، فقال ابن الزبير: المستقطعون فند اليوم، فإن يك فيه خير فتحت قدمى. قال خوّات بن جبير: أقطعنيه فأقطعه إياه، و قال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: لما قدم النبىّ أقطع أبا بكر و أقطع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما، و قال أشعث بن سوار، عن حبيب بن أبى ثابت، عن صلت المكىّ، عن أبى رافع قال: أعطى النبىّ صلى اللّه عليه و سلم قوما أرضا فعجزوا عن عمارتها، فباعوها فى زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بثمانية آلاف دينارا و بثمانمائة ألف درهم، فوضعوا أموالهم عند علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، فلما أخذوها، وجدوها ناقصة، فقالوا: هذا ناقص، قال: احسبوا زكاته، قال: فحسبوا زكاته فوجدوه وافيا، فقال: أ حسبتم أن أمسك مالا و لا أزكيه، و قد سأل تميم الدارى، رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أن يقطعه عيون البلد الذى كان منه بالشام قبل فتحه، ففعل.

و سأله أبو ثعلبة الخشنى أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم، فأعجبه ذلك و قال: ألا تسمعون ما يقول؟ فقال: و الذى بعثك بالحق ليفتحن عليك، فكتب له بذلك كتابا، و قال ثابت بن سعد عن أبيه عن جده: إن الأبيض بن جمال، استقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ملح مأرب فأقطعه، فقال الأقرع بن حابس التميمى: يا رسول اللّه إنى وردت هذا الملح فى الجاهلية و هو بأرض ليس فيها ملح، من ورده أخذه، و هو مثل الماء العذب بالأرض، فاستقال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۸۱

الأبيض، فقال: قد أقلتك على أن تجعله منى صدقة، فقال النبىّ صلى اللّه عليه و سلم: «هو منك صدقة، و هو مثل الماء العذب من

ورده أخذه». و قال كثير بن عبد اللّه بن عوف المزنىّ عن أبيه عن جدّه: أقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بلال بن الحارث المعادن القبلية جليتها و غورتها، و قال مالك عن ربيعة عن قوم من علمائهم: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أقطع بلال بن الحرث المزنى معادن بناحية الفرع.

و عن ربيعة عن الحرث بن بلال عن أبيه بلال بن الحرث، أن النبىّ صلى اللّه عليه و سلم أقطعه العقيق أجمع، و عن حماد بن سلمة عن أبى مكين عن أبى عكرمة مولى بلال بن الحرث قال:

أقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بلالا أرضا فيها جبل معدن، فباع بنو بلال: عمر بن عبد العزيز أرضا منها، فظهر فيها معدن، أو قال: معدنان، فقالوا: إنما بعناك أرض حرث و لم نبعك المعادن، و جاءوا بكتاب النبى صلى اللّه عليه و سلم لهم فى جريدة، فقبلها عمر و فتح و مسح بها عينيه، و قال لقيمه: انظر ما خرج منها، و ما أنفقت، فقاصهم بالنفقة، و ردّ عليهم الفضل، و اصطفى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه من أرض السواد أموال كسرى، و أهل بيته، و ما هرب عنه أربابه أو هلكوا، فكان مبلغ غلته تسعة آلاف ألف درهم كان يصرفها فى مصالح المسلمين، و لم يقطع شيئا منها، ثم إن عثمان رضى اللّه عنه أقطعها لأنه رأى إقطاعها أوفر لغلتها من تعطيلها، و شرط على من أقطعها أن يأخذ منه حق الفيء، فكان مبلغ غلته خمسين ألف ألف درهم كان منها صلاته و عطاياه، ثم تناقلها الخلفاء بعده، فلما كان عام الجماجم سنة اثنتين و ثمانين فى فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، أحرق الديوان، و أخذ كل قوم ما يليهم، و أقطع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، ابن سندر منية الأصبغ، فحاز منها لنفسه ألف فدّان، و قال وكيع عن سفيان عن جابر الجعفى عن عامر: لم يقطع أبو بكر و لا- عمر و لا- علىّ رضى اللّه عنهم، و أوّل من أقطع القطائع، عثمان رضى اللّه عنه، و بيعت الأرضون فى خلافة عثمان.

قال الليث بن سعد: و لم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحدا من الناس شيئا من أرض مصر إلا ابن سندر، فإنه أقطعه أرض منية الأصبغ، فلم تزل له حتى مات، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته، فليس بمصر قطيعة أقدم منها، و لا أفضل. و قال الأعمش عن إبراهيم بن المهاجر عن موسى بن طلحة قال: أقطع عثمان رضى اللّه عنه عبد اللّه ابن مسعود النهرين، و عمار بن ياسر إسنسا، و أقطع خبابا و صهيبا، و أقطع سعد بن أبى وقاص قرية هرمز و كان عبد اللّه بن مسعود و سعد يعطيان أرضهما بالثلث و الربع.

و قال سيف بن عمر، عن عمرو بن محمد عن عمر قال: أقطع الزبير و خباب و عبد اللّه ابن مسعود و عمار بن ياسر، و ابن هبار أزمان عثمان، فإن يكن عثمان أخطأ، فالذين قبلوا منه الخطأ أخطأوا، و هم الذين أخذنا عنهم ديننا، و أقطع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، طلحة و جرير بن عبد اللّه و الربيل بن عمرو، و أقطع أبا مفرز دار النيل فى عدّة ممن أخذنا عنه، و إنما القطائع على وجه النفل من خمس ما أفاء اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۸۲

و كتب عمر رضى اللّه عنه إلى عثمان بن حنيف مع جرير بن عبد اللّه البجلى: أما بعد، فأقطع جرير بن عبد اللّه قدر ما يقوّته و لا وكس و لا شطط، فكتب عثمان إلى عمر: إن جريرا قدم علىّ بكتاب منك نقطعه ما يقوّته، فكرهت أن أمضى ذلك حتى أراجعك فيه، فكتب إليه صدق جرير، فأنفذ ذلك، و قد أحسنت فى مؤامرتى، و أقطع أبو موسى الأشعرىّ، و أقطع علىّ بن أبى طالب رحبة كردوس بن هانى، و أقطع سويد بن غفلة الجعفى.

قال سيف عن ثابت بن هزيمة عن سويد بن غفلة قال: استقطت عليا، فقال: اكتب هذا ما أقطع علىّ سويدا أرضا لدوابه ما بين كذا إلى كذا ما شاء اللّه، و ذكر أبو القسم، عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم ما أقطعه معاوية بن أبى سفيان و من بعده من الخلفاء من دور مصر، فأورد شيئا كثيرا.

و قد كان خلفاء بنى أمية و خلفاء بنى العباس يقطعون الأراضى من أرض مصر، النفر من خواصهم لا كما هو الحال اليوم، بل يكون مال خراج أرض مصر يصرف منه أعطية الجند، و سائر الكلف، و يحمل ما يفضل إلى بيت المال، و ما أقطع من الأراضى فإنه بيد من

أقطعه. و أما منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا. فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان و أمرائه و أجناده.

و أرض مصر اليوم على سبعة أقسام: قسم يجرى فى ديوان السلطان، و هذا القسم ثلاثة أقسام، منه ما يجرى فى الديوان الخاص، و منه ما يجرى فى الديوان المفرد، و قسم من أراضى مصر قد أقطع الأمراء و الأجناد، و قد ذكر تفصيل ذلك عند ذكر الروك الناصرى، و قسم ثالث جعل وقفا محبسا على الجوامع و المدارس و الخوانك ، و على جهات البرّ، و على ذرارى واقفى تلك الأراضى و عتقائهم، و قسم رابع يقال له: الأحباس يجرى فيه أراض بأيدى قوم يأكلونها. إما عن قيامهم بمصالح مسجد أو جامع، و إما يكون لهم لا فى مقابلة عمل، و قسم خامس قد صار ملكا يباع و يشترى و يورث و يوهب لكونه اشترى من بيت المال، و قسم سادس لا يزرع للعجز عن زراعته فترعاه المواشى أو ينبت الحطب و نحوه، و قسم سابع لا يشمله ماء النيل، فهو قفر و هذا القسم منه ما لم يزل كذلك منذ عرفت أحوال الخليقة، و منه ما كان عامرا فى الدهر الأوّل ثم خرب، و سائر هذه الأقسام مذكورة أخبارها فى هذا الكتاب تجدها إن أنت تأمّلته إن شاء اللّه تعالى.

و قال أبو عبد اللّه القاسم بن سلام فى كتاب الأموال فى الكلام على حديث معمر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۸۳

عن عبد اللّه بن طاوس عن أبيه طاوس قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «عادى الأرض للّه و لرسوله ثم هى لكم». قلت: ما معنى ذلك؟ قال: تكون إقطاعا، هذا الخبر أصل فى الإقطاع و العادى كل أرض كان لها سكان فانقرضوا، أى صارت خرابا فإن حكمها إلى الإمام قال:

و أما الأرض التى جعلها النبىّ صلى اللّه عليه و سلم لبعض الناس و هى عامرة لها أهل فإعطاء الإمام يكون على وجه النفل، و من ذلك ما أعطاه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تميما الدارى، فإنه أعطاه أرضا بالشام من قبل أن يفتح الشام، و قبل أن يملكها المسلمون، فجعلها له نفلا من أموال أهل الحرب إذا ظهر عليهم، كما فعل نائبه، نفيلة، لما وهبها الشيبانى قبل افتتاح الحيرة، فأمضاها له خالد بن الوليد رضى اللّه عنه، و كذلك أمضى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه لتميم الدارى لما فتحت فلسطين، ما كان النبىّ صلى اللّه عليه و سلم نفله، انتهى.

فقد خرّج أبو عبد اللّه، هذه العطية المعلقة مخرج النفل الذى ينفله الإمام بعض المقاتلة.

و قال أبو الحسن علىّ بن محمد بن حبيب الماوردى فى الأحكام السلطانية:

و الإقطاع ضربان: إقطاع استغلال، و إقطاع تمليك. و الثانى ينقسم إلى موات و عامر، و الثانى ضربان: أحدهما: ما يتعين مالكه و لا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام فإن كانت فى دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد، فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها، فإنه يجوز فقد سأل تميم الدارى، رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أن يعطيه عيون البلد الذى كان منه قبل أن يفتح الشام ففعل، و سأله أبو ثعلبة الخشنى أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم فأعجبه ذلك و قال: ألا تسمعون ما يقول هذا؟

فقال: و الذى بعثك بالحق ليفتحنّ عليك، فكتب له بذلك كتابا.

قال الماوردىّ: و هكذا لو استوهب أحد من الإمام مالا فى دار الحرب و هو على ملك أهلها أو استوهبه شيئا من سبيها أو ذراريها ليكون أحق به إذا فتحت جاز و صحت العطية منه مع الجهالة بها لتعلقها بالأمور العامة.

و قد روى الشعبىّ: أن خزيمة بن أوس الطائىّ، قال للنبىّ صلى اللّه عليه و سلم: إن افتح اللّه عليك الحيرة فأعطنى بنت نفيلة، فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة قال له خزيمة: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أعطانى بنت نفيلة، فلا تدخلها فى صلحك، فشهد له بشر بن سعد، و محمد بن مسلمة، فاستثناها من الصلح و دفعها إلى خزيمة، فاشتريت بألف درهم، و كانت عجزت و حالت عما عهد منها،

فقيل له: قد أرخصتها و كان أهلها يدفعون لك أضعاف ما سألت، فقال: ما كنت أظنّ أن عددا يكون أكثر من ألف.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۸۴

قال الماوردىّ: و إذا صح الإقطاع و التمليك على هذا الوجه نظر حال الفتح فإن كان صلحا خلصت الأرض لمقطعها، و كانت خارجة عن حكم الصلح بالإقطاع السابق، و إن كان الفتح عنوة كان المقطع و المستوهب أحق بما استقطعه، و استوهبه من الغانمين و نظر فى الغانمين فإن كانوا علموا بالإقطاع أو الهبة قبل الفتح، فليس لهم المطالبة بعوض، و إن لم يعلموا حتى فتحوا عاوضهم الإمام بما يستطيب نفوسهم من غير ذلك من الغنائم.

و قال أبو حنيفة رحمه اللّه تعالى: لا يلزم الإمام استطابة نفوسهم منه و لا من غيره من الغنائم إذا رأى المصلحة فى ذلك.

ذكر ديوان الخراج و الأموال

اشارة

يقال لكتابة الخراج: قلم التصريف، و أوّل ما دوّن هذا الديوان فى الإسلام بدمشق و العراق على ما كان عليه قبل الإسلام، و كان ديوان الشام بالرومية، و ديوان العراق بالفارسية، و ديوان مصر بالقبطية، فنقلت دواوين هذه الأمصار إلى العربية، و الذى نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية: عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان أمير مصر، فى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع و ثمانين، و نسخها بالعربية و صرف أنتناش عن الديوان و جعل عليه ابن يربوع الفزارىّ من أهل حمص، و أوّل من نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية:

الوليد بن هشام بن مخزوم بن سليمان بن ذكوان، و توفى سنة اثنتين و عشرين و مائتين، و الأكثرون على أن الذى نقل ديوان العراق إلى العربية صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج، و كان مولى لبنى سعد، و هو يومئذ صاحب دواوين العراق، و ذلك بعد سنة ثمانين، و سبب ذلك أن صالح بن عبد الرحمن هذا، كان أبوه من سبى سجستان، و مهر صالح فى الكتابة، و كتب لزادان فروح كاتب الحجاج بن يوسف الثقفىّ، و خط بين يديه بالفارسية و العربية، فخف على قلب الحجاج فخاف من زادان، و قال له: أنت الذى رقيتنى حتى وصلت إلى الأمير، و أراه قد استخفنى، و لا آمن أن يقدّمنى عليك، فتسقط منزلتك، فقال زادان: لا تظنّ ذلك هو أحوج إلىّ منى إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى، فقال صالح: و اللّه لو شئت أن أحوّل الحساب إلى العربية لحوّلته، قال: فحوّل منه أسطرا حتى أرى! ففعل، فقال له: تمارض، فتمارض، فبعث إليه الحجاج بطبيبه، فشق ذلك على زادان، و أمره أن لا يظهر للحجاج، فاتفق عقيب ذلك أن زادان قتل فى فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، و هو خارج من موضع كان فيه إلى منزله، فاستكتب الحجاج بعده صالحا، فأعلم الحجاج بما جرى له مع زادان فى نقل الديوان، فأعجبه ذلك و عزم عليه فى إمضائه، فنقله من الفارسية إلى العربية، و شق ذلك على الفرس، و بذلوا له مائة ألف درهم على أن لا يظهر النقل، فأبى عليهم، فقال له مروان شاه بن زادان فروح: قطع اللّه أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية، و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۸۵

عبد الحميد بن يحيى يقول: للّه در صالح ما أعظم منته على الكتاب.

و أما ديوان الشام، فإن الذى نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل، و اختلف فى وقت نقله فقيل: نقل فى خلافة عبد الملك بن مروان، و قيل:

فى خلافة هشام بن عبد الملك، و كان الذى يكتب على ديوان الشام، سرجون بن منصور النصرانى فى أيام معاوية بن أبى سفيان، ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون.

ذكر خراج مصر فى الإسلام

أوّل من جبى خراج مصر فى الإسلام، عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، فكانت جبايته اثنى عشر ألف ألف دينار، بفريضة دينارين دينارين من كل رجل، ثم جبى، عبد اللّه بن سعد ابن أبى سرح مصر أربعة عشر ألف ألف دينار، فقال عثمان بن عفان رضى اللّه عنه لعمرو بن العاص: يا أبا عبد اللّه درت اللقحة بأكثر من درها الأوّل، فقال: أضررتم بولدها، و هذا الذى جباه عمرو، ثم عبد اللّه إنما هو من الجماجم خاصة دون الخراج، و انحط خراج مصر بعدهما لنموّ الفساد مع الزمان، و سريان الخراب فى أكثر الأرض، و وقوع الحروب، فلم يجبها بنو أمية، و خلفاء بنى العباس إلا دون الثلاثة آلاف ألف، ما خلا أيام هشام بن عبد الملك، فإنه وصى عبيد اللّه بن الحبحاب عامل مصر بالعمارة فيقال: إنه لم يظهر من خراج مصر بعد تناقصه كثرة إلا فى وقتين، أحدهما فى خلافة هشام بن عبد الملك عند ما ولى الخراج عبيد اللّه بن الحبحاب، فخرج بنفسه و مسح العامر من أراضى مصر، و الغامر مما يركبه ماء النيل، فوجد قانون ذلك ثلاثين ألف ألف فدّان سوى ارتفاع الجرف و وسخ الأرض فراكها كلها، و عدّ لها غاية التعديل، فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار هذا و السعر راخ، و البلد بغير مكس، و لا ضريبة.

و فى سنة سبع و مائة لأوّل أيام هشام بن عبد الملك، وظف ابن الحبحاب بمصر، طبقات معلومة منسوبة فى الدواوين، و لم تزل إلى ما بعد ذهاب بنى أمية، و مبلغها ألف ألف دينار و سبعمائة ألف دينار و ثمانمائة و سبعة و ثلاثون دينارا منها على كور الصعيد: ألف ألف و أربعمائة دينار و عشرون دينارا. و نصف و الباقى على كور أسفل الأرض.

و يقال: إن أسامة بن زيد جباها فى خلافة سليمان بن عبد الملك، مبلغ اثنى عشر ألف ألف دينار.

و الوقت الثانى فى إمارة أحمد بن طولون لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر، و قد خربت أرض مصر حتى بقى خراجها ثمانمائة ألف ألف دينار، فاستقصى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۸۶

أحمد بن طولون فى العمارة، و بالغ فيها، فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار و ثلثمائة ألف دينار، و جباها ابنه الأمير أبو الجيش، خمارويه بن أحمد أربعة آلاف ألف دينار مع رخاء الأسعار أيامئذ، فإنه ربما بيع فى الأيام الطولونية القمح كل عشرة أرادب بدينار.

و ذكر ابن خرداذبه أن خراج مصر فى أيام فرعون، كان ستة و تسعين ألف ألف دينار، و أن ابن الحبحاب، و جباها ألفى ألف و سبعمائة ألف و ثلاثة و عشرين ألفا و ثمانمائة و تسعة و ثلاثين دينارا، و هذا و هم منه، فإن هذا القدر هو ما حمله إلى بيت المال بدمشق بعد أعطية أهل مصر، و كلفها قال: و حمل منها موسى بن عيسى الهاشمىّ ألفى ألف و مائة ألف و ثمانين ألف دينار، يعنى بعد العطاء و المؤن و سائر الكلف، قال: و كان خراج مصر إذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع أربعة آلاف ألف دينار و مائتى ألف و سبعة و خمسين ألف دينار، و المقبوض عن الفدّان دينارين فى خلافة المأمون و غيره.

و بلغ خراج مصر فى أيام الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد ألفى ألف دينار سوى ضياعه التى كانت ملكا له و الإخشيد أوّل من عمر الرواتب بمصر، و كان كاتبه، ابن كلا، قد عمل تقديرا عجز فيه المرتب عن الارتفاع مائتى ألف دينار، فقال له الإخشيد:

كيف نعمل؟ قال: حط من الجرايات و الأرزاق فليس هؤلاء أولى من الواجب، فقال: غدا تجيئنى، و تدبر هذا، فلما أتاه من الغد قال له الإخشيد: قد فكرت فيما قلت فإذا أصحاب الرواتب الضعفاء، و فيهم المستورون و أبناء النعم، و لست آخذ هذا النقص إلا منك، فقال ابن كلا: سبحان اللّه! فقال: تسبيحا، و ما زال به الإخشيد حتى أخذ خطه بالقيام بذلك، فعوتب على ما صنعه، فقال: يا قوم اسمعوا إيش كان يعمل؟ جاءه أحمد بن محمد بن الماردانى فقال له: ما بينى و بين السلطان معاملة، و لا للإخشيد علىّ طريق، و هذه هدية عشرة آلاف دينار للإخشيد و ألف دينار لك، فجاءنى، و قال لك قبل ابن الماردانى مطالبة، فقلت: لا، فقال: هذه ألف دينار قد جاءتك على وجه الماء، فأعطانى ألفا و أخذ عشرة آلاف دينار، و أهدى إلىّ محمد بن علىّ الماردانى فى وقت عشرين ألف دينار

على يده فاستقللتها، فلما اجتمعنا عاتبته فقال لى: أرسلت إليك مائة ألف دينار و لابن كلا كاتبك عشرين ألف دينار، فأخذ المائة و أعطانى العشرين ألفا، فذكرت قول محمد بن علىّ له، فقال: ما أبرد هذا! حفظت لك المائة ألف لوقت حاجتك تريدها خذها، و أنا أعلم أنك تتلفها.

و بلغت الرواتب فى أيام كافور الإخشيدى، خمسمائة ألف دينار فى السنة لأرباب النعم و المستورين و أجناس الناس ليس فيهم أحد من الجيش، و لا من الحاشية، و لا من المتصرّفين فى الأعمال، فحسن له علىّ بن صالح الروذبادى الكاتب، أن يوفر من مال الرواتب شيئا ينتقصه من أرزاق الناس، فساعة جلس يعمل حكه جبينه، فحكه بقلمه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۸۷

و الحكاك يزيد به إلى أن قطع العمل، و قام لما به، فعولج حينئذ بالحديد حتى مات فى رمضان سنة سبع و أربعين و ثلثمائة، و هذه موعظة من اللّه لمن توسط للناس بالسوء، قال تعالى: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [فاطر/ ۴۳].

و لما مات كافور نزلت محن شديدة كثيرة بمصر من الغلاء و الفناء و الفتن، فاتضع خراجها إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر مولاه، المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، فجبى الخراج لسنة ثمان و خمسين و ثلثمائة ثلاثة آلاف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار و نيفا، و أمر الوزير الناصر للدين أبو الحسين عبد الرحمن اليازورى وزير مصر، فى خلافة المستنصر بالله بن الظاهر أن يعمل قدر ارتفاع الدولة، و ما عليها من النفقات، فعمل أرباب كل ديوان ارتفاعه، و ما عليه و سلّم الجميع لمتولى ديوان المجلس، و هو زمام الدواوين، فنظم عليه عملا جامعا و أتاه به، فوجد ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار منها، الشام ألف ألف دينار، و نفقاته بإزاء ارتفاعه، و الريف و باقى الدولة ألف ألف دينار. قال القاضى أبو الحسن فى كتاب المنهاج فى علم الخراج: وقفت على مقايسة عملت لأمير الجيوش، بدر الجمالى حين قدم مصر فى أيام الخليفة المستنصر و غلب على أمرها، و قهر من كان بها من المفسدين شرح فيها أن الذى اشتمل عليه الارتفاع فى الهلاليّ لسنة ثلاث و ثمانين و أربعمائة، و فى الخراجيّ على ما يقتضيه الديوان فيه، مما كان جاريا فى الأعمال المصرية من الخراج، و ما يجرى معه، و المضمون و المقطع و المورد بغيره و المحلول بالقاهرة و مصر و ضواحيهما و ناحيتى الشرقية و الغربية من أسفل الأرض، و أعمالها و تنيس و دمياط و أعمالها و الإسكندرية و البحيرة و الأعمال الصعيدية العالية، و الدانية و واحات، و عيذاب لسنة ثمانين و أربعمائة الخراجية على الرسوم المصرية، و ما كان من الأعمال الشامية التى أوّلها من حدّ الشجرتين، و هو أوّل الأعمال الفلسطينية و الأعمال الطبرابلسية و لسنة ثمان و سبعين و أربعمائة الخراجية على ما استقرّت عليه الجملة عينا ثلاثة آلاف ألف و مائة ألف دينار، و إن الذى استقرّ عليه جملة ما كان يتأدّى فى سنة ست و ستين و أربعمائة الهلالية قبل نظر أمير الجيوش الموافقة لسنة ثلاث و ستين و أربعمائة الخراجية، فكان مبلغها ألفى ألف و ثمانمائة ألف دينار، و كان الزائد للسنة الجيوشية عما قبلها ثلثمائة ألف دينار، مما أعرب عنه حسن العمارة، و شمول العدل، و كان نظم هذه المقايسة سنة ثلاث و ثمانين و أربعمائة.

و ذكر ابن ميسر: أن الأفضل بن أمير الجيوش أمر بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر، فجاء خمسة آلاف ألف دينار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۸۸

و ذكر القاضى الفاضل فى مياوماته: أنه عبر البلاد من إسكندرية إلى عيذاب لسنة خمس و ثمانين و خمسمائة خارجا عن الثغور، و أرباب الأموال الديوانية، و عدّة نواح أربعة آلاف ألف و ستمائة ألف و ثلاثة و خمسين ألفا و تسعة و عشرين دينارا، ثم تقاصرت إلى أن جباها القاضى الموفق أبو الكرم بن معصوم العاصمىّ التنيسىّ، عينا خالصا إلى بيت المال بعد المؤن، و الكلف ألف ألف دينار، و مائتى ألف دينار إلى آخر سنة أربعين و خمسمائة، ثم بعده لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية.

و سبب اتضاع خراج مصر، بعد ما بلغ مع الروم فى آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر عشرين ألف ألف دينار، أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق فى كلف عمارة الأرض، فإنها تحتاج أن ينفق عليها ما بين ربع متحصلها إلى ثلثه، و آخر ما اعتبر حال أرض

مصر، فوجد مدّة حرثها ستين يوما، و مساحة أرضها مائة ألف ألف و ثمانين ألف ألف فدّان، يزرع منها فى مباشرة ابن مدبر أربعة و عشرون ألف ألف فدّان، و إنه لا يتم خراجها، حتى يكون فيها أربعمائة ألف و ثمانون ألف حرّاث يلزمون العمل فيها دائما، فإذا أقيم بها هذا القدر من العمال فى الأرض تمت عمارتها، و كمل خراجها، و آخر ما كان بها مائة ألف و عشرون ألف مزارع فى الصعيد، سبعون ألفا، و فى أسفل الأرض خمسون ألفا، و قد تغير الآن جميع ما كان بها من الأوضاع القديمة، و اختلت اختلالا فاضحا.

ذكر أصناف أراضى مصر و أقسام زراعتها

اعلم أن أراضى مصر عدّة أصناف: أعلاها قيمة و أوفاها سعرا و أعلاها قطيعة الباق ، و هو: أثر القرط، و المقاثى فإنه يصلح لزراعة القمح، و بعد الباق رى الشراقى، و هو الأرض التى ظمئت فى الخالية، فلما رويت فى الآتية، و صارت مستريحة من الزرع، و زرعت أنجب زرعها، و البرايب، و هو أثر القمح و الشعير و سعرها دون الباق لضعف الأرض بزراعة هذين الصنفين، فمتى زرعت على أثر أحدهما لم ينجب كنجابة الباق، و البرايب صالح لزراعة القرط و القطانى و المقاثى، فإن الأرض تستريح بزراعة هذه الأصناف و تصير فى القابل أرض باق، و السقماهية أثر الكتان فإن زرعت قمحا خسر، و الشتونية أثر ما روى، و بار فى السنة الماضية، و هو دون الشراقى، و السلايح ما روى و بار فحرث و تعطل، و هو مثل ريّ الشراقى فإن زرعه يكون ناجبا و النقا: كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها، و لم يبق بها شاغل عن قبول ما يزرع فيها من أصناف الزراعات، و الوسخ: كل أرض استحكم و سخها، و لم يقدر الزارعون على إزاحته كله منها بل حرثوا، و زرعوا فيها فجاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۸۹

زرعها مختلطا بالحلفاء و نحوها، و الغالب كل أرض حصل فيها نبات شغلها عن قبول الزراعة، و منع كثرته من زراعتها، و صارت مراعى، و الخرس: كل أرض فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع و كانت بها مراع و هو أشدّ من الوسخ الغالب، و إذا أدمن على إزالة ما فيها من الموانع تهيأ صلاحها، و الشراقى: كل أرض لم يصل إليها الماء إما لقصور ماء النيل أو علوّ الأرض، أو سدّ طريق الماء عنها، أو غير ذلك، و المستبحر: كل أرض و طيئة حصل بها الماء، و لم يجد مصرفا حتى فات أوان الزرع، و هو باق فى الأرض، و السباخ: كل أرض غلب عليها الملح حتى ملحت، و لم ينتفع بها فى زراعة الحبوب، و ربما زرعت ما لم يستحكم السباخ فيها غير الحبوب كالهليون و الباذنجان، و يزرع فيها القصب الفارسى.

و مما لا غنى لأراضى مصر عنه الجسور و هى على قسمين: سلطانية و بلدية.

فالجسور السلطانية: هى العامة النفع فى حفظ النيل على البلاد كافة إلى حين يستغنى عنه و لها رسوم موظفة على الأعمال الشرقية، و الأعمال الغربية، و كانت فى القديم تعمل من أموال النواحى و يتولى عملها مستقبلو الأراضى، و يعتدّ لهم بما صرف عليها مما عليهم من قبالات الأراضى، ثم صار بعد ذلك يستخرج برسم عملها من هذين العملين، مال بأيدى المستخدمين من الديوان، و يصرف عليها و يفضل من المال بقية تحمل إلى بيت المال، ثم صار يتولى ذلك أعيان أمراء الدولة إلى أن حدثت الحوادث فى أيام الناصر فرج، فصار يجبى من البلاد مال عظيم، و لا يصرف منه شىء البتة، بل يرفع إلى السلطان، و يتفرّق كثير منه بأيدى الأعوان، و يسخر أهل البلاد فى عمل الجسور، فيجىء الخلل كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى عند ذكر أسباب الخراب.

و أما

الجسور البلدية: فإنها عبارة عما يخص نفعها ناحية دون ناحية، و يتولى إقامتها المقطعون و الفلاحون من أصل مال الناحية. و محل الجسور السلطانية من القرى محل سور المدينة الذى يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته، و كفاية الرعية أمره. و محل الجسور البلدية، محل الدوز التى من داخل السور، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها، و يزيل ضررها و من العادة أن المقطع إذا انفصل و كان قد أنفق شيئا من مال إقطاعه فى إقامة جسر لأجل عمارة السنة التى انتقل الإقطاع عنه فيها، فإن له أن يستعيد من المقطع الثانى نظير ما

أنفقه من مال سنته فى عمارة سنة غيره.

و أصلح ما زرع القمح فى أثر الباق و الشراقى، و كان يزرع بالصعيد القمح على أثر القمح لكثرة الطرح، و ربما زرع هناك على أثر الكتان و الشعير، و يزرع القمح من نصف شهر بابه إلى آخر هتور، و هذا فى العوالى من الأرض التى تخرج بدريا.

و أما البحائر المتأخرة: فيمتدّ وقت الزرع فيها إلى آخر كيهك، و مقدار ما يحتاج إليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹۰

الفدّان الواحد من بذر القمح يختلف بحسب قوّة الأرض و ضعفها و رقتها و توسطها و ما يزرع فى اللوق و ما يزرع فى الحرث، و أكثر البذر من أردب إلى خمس ويبات و أربع ويبات أيضا.

و يوجد فى الصعيد أراض تحتمل دون هذا و فى حوف رمسيس أراض يكفى الفدّان منها نحو الويبتين، و يدرك الزرع بمصر فى بشنس و هو نيسان، و يختلف ما يخرج من فدّان القمح بحسب الأراضى فيرمى من أردبين إلى عشرين أردبا.

و قال أبو بكر بن وحشية فى كتاب الفلاحة: و ذكر أن فى مصر إذا زرعوا يخرج من المدّ ثلثمائة مدّ، و العلة فى ذلك حرارة هواء بلادهم مع سمن أرضهم، و كثرة كدورة ماء النيل.

و لما كان فى سنة ست و ثمانمائة انحسر الماء عن قطعة أرض من بركة الفيوم التى يقال لها اليوم: بحر يوسف، فزرعت و جاء زرعها عجيبا رمى الفدّان منها، أحدا و سبعين أردبا من شعير بكيل الفيوم، و أردبها تسع ويبات، و كانت قطيعة فدّان القمح ببلاد الصعيد فى أيام الفاطمية: ثلاثة أرادب، فلما مسحت البلاد فى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة تقرّر على كل فدّان أردبان و نصف، ثم صار يؤخذ أردبان عن الفدّان.

و أما أراضى أسفل الأرض فيأخذ عنها لا غلة، و يزرع الشعير فى أثر القمح و غيره فى الأرض التى غرقت و هى رطبة، و يتقدّم زراعته على زراعة القمح بأيام، و كذلك حصاده، فإنه يحصد قبل القمح، و يحتاج الفدّان منه أن يبذر فيه بحسب الأرض و يخرج أكثر من القمح و يكون إدراكه فى برموده و هو أذار.

و يزرع الفول فى الحرث إثر البرايب، من أوّل شهر بابه و يؤكل و هو أخضر فى شهر كيهك، و يحتاج الفدّان من البذر منه إلى ثلاث ويبات و نحوها، و يدرك فى برموده، و يتحصل من فدّانه، ما بين عشرين أردبا إلى ما دون ذلك.

و يزرع العدس و الحمص من هتور إلى كيهك، و الجلبان لا يزرع إلا فى أرق الأراضى حرثا من الأرض العالية، و يزرع تلويقا فى الأراضى الخرس، و يبذر فى كل فدّان من الحمص من أردب إلى ثمان ويبات، و من الجلبان: من أردب إلى أربع ويبات، و من العدس، من و يبتين إلى ما دونهما، و تدرك هذه الأصناف فى برموده، و يتحصل من فدّان الحمص من أربعة أرادب إلى عشرة، و من الجلبان، من عشرة أرادب إلى ما دونها، و العدس من عشرين أردبا فما دونها.

و أنجب ما يكون الكتان ذا زرع فى البرش ، و يحتاج أن يسبخ بتراب سباخ، و هو إذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹۱

طال رقد، و يقلع قضبانا و يسمى حينئذ: أسلافا و ينشر فى موضعه حتى يجف، فإذا جف حمل و هدر و عزل جوزه، فيخرج منه بزر الكتان، و يستخرج منه الزيت الحار، و يزرع الكتان فى شهر هتور، و يحتاج الفدّان أن يبذر فيه من البزر ما بين أردب و ثلث إلى ما دون ذلك، و يدرك فى شهر برموده، و يخرج من الفدّان ما بين ثلاثين شدّة إلى ما دون ذلك، و من البزر من ستة أرادب إلى ما دونها، و كانت قطيعة الفدّان منه فى القديم بأرض الصعيد، من خمسة دنانير إلى ثلاثة، و فى دلاص ثلاثة عشر دينارا، و فيما عدا ذلك ثلاثة دنانير.

و يزرع القرط عند أخذ ماء النيل فى النقصان، و لا ينبغى تأخير زرعه إلى أوان هبوب الريح الجنوبية التى يقال لها: المريسية و أوّل ما يبذر فى شهر بابه، و ربما زرع بعد النوروز، و الحراثىّ منه، يزرع فى كيهك و طوبة، و يزرع أحيانا فى هتور و يبذر فى كل فدّان من

و يبتين و نصف إلى ما حولها، و يدرك الأخضر منه فى آخر شهر كيهك، و يدرك الحراثى فى طوبة و أمشير، و يتحصل من الفدّان الحراثىّ ما بين أردبين إلى أربع ويبات.

و يزرع البصل و الثوم من شهر هتور إلى نصف كيهك، و يبذر فى فدّان البصل، من نصف و ربع ويبة إلى ويبة، و الثوم من مائة حزمة إلى مائة و خمسين حزمة، و يدرك ذلك فى برموده، و البصل الذى يخرج ليزرع زريعة فإنه يزرع من أوّل كيهك إلى العاشر من طوبة، و يخرج من زريعته، عشرة أرادب من الفدّان و يدرك فى بشنس.

و يزرع الترمس فى طوبة و زريعته لكل فدّان أردب، و يدرك فى برموده، و يتحصل من الفدّان ما بين عشرين أردبا إلى ما دونها، و هذه هى الأصناف الشتوية.

و أما الأصناف الصيفية: فإنّ البطيخ و اللوبيا يزرعان من نصف برمهات إلى نصف برموده، و يزرع فى الفدّان قدحان و يدرك فى بشنس، و يزرع السمسم فى برموده و زريعته ربع ويبة للفدّان، و يدرك فى أبيب و مسرى، و يتحصل من الفدّان ما بين أردب إلى ستة أرادب.

و يزرع القطن فى برموده و زريعته أربع ويبات حب للفدّان، و يدرك فى توت فيخرج من الفدّان، من ثمانية قناطير بالجروىّ إلى ما دونها.

و يزرع قصب السكر من نصف برمهات فى أثر الباق و البرش و تبرش أرضه سبع سككك، و أنجبه ما تكامل له ثلاث غرقات قبل انقضاء شهر بشنس، و مقدار زريعته ثمن فدّان و ما حوله لكل فدّان، و يحتاج القصب إلى أرض جيدة دمثة قد شملها الرىّ، و علاها ماء النيل، و قلع ما بها من الحلفاء و نظفت، ثم برشت بالمقلقلات و هى محاريث كبار ستة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹۲

وجوه، و تجرّف حتى تتمهد، ثم تبرش ستة و جوه أخرى و تجرّف، و معنى البرش: الحرث.

فإذا صلحت الأرض و طابت و نعمت و صارت ترابا ناعما، و تساوت بالتحريف شقت حينئذ بالمقلقلات و يرمى فيها القصب قطعتين، قطعة مثناة، و قطعة مفردة بعد أن تجعل الأرض أحواضا و تفرز لها جداول يصل الماء إلى الأحواض، و يكون طول كل قطعة من القصب ثلاثة أنابيب كوامل، و بعض أنبوبة من أعلى القطعة و بعض أخرى من أسفلها، و يختار ما قصرت أنابيبه و كثرت كعوبه من القصب و يقال لهذا الفعل: النصب، فإذا كمل نصب القصب أعيد التراب عليه، و لا بدّ فى النصب أن تكون القطعة ملقاة لا قائمة، ثم يسقى من حين نصبه فى أوّل فصل الربيع لكل سبعة أيام مرّة فإذا أنبت القصب، و صار أوراقا ظاهرة نبتت معه الحلفاء و البقلة الحمقاء التى يسميها أهل مصر، الرجلة، فعند ذلك تعزق أرضه، و معنى العزاق: أن تنكش أرض القصب، و ينظف ما نبت مع القصب و لا يزال يتعاهد ذلك حتى يغزر القصب و يقوى و يتكاثف، فيقال عند ذلك: طرد القصب عزاقه فإنه لا يمكن عزاق الأرض، و لا يكون هذا حتى يبرز الأنبوب منه، و مجموع ما يسقى بالقادوس ثمانية و عشرون ماء، و العادة أن الذى ينصب من الأقصاب على كل مجال بحرانىّ أى مجاور للبحر إذا كانت مزاحة الغلة بالأبقار الجياد مع قرب رشا الآبار ثمانية أفدنة، و يحتاج إلى ثمانية أرؤس بقر، فإن كانت الآبار بعيدة عن مجرى النيل لا يمكن حينئذ أن يقوم المجال بأكثر من ستة أفدنة إلى أربعة، فإذا طلع النيل و ارتفع سقى القصب عند ذلك ماء الراحة.

و صفة ذلك أن يقطع عليه من جانب جسر يكون قد أدير عليه ليقيه من الغرق عند ارتفاع النيل بالزيادة فيدخل الماء من ثلمه فى ذلك الجسر حتى يعلو على أرض القصب نحو شبر ثم يسدّ عنه الماء حتى لا يصل إليه، و يترك الماء فوق الأرض قدر ساعتين أو ثلاث إلى أن يسجن، ثم يصرف من جانب آخر حتى ينضب كله و يجدّد عليه ماء آخر كذلك فيتعاهد ما ذكرنا مرارا فى أيام متفرّقة بقدر معلوم، ثم يفطم بعد ذلك فإذا عمل ما قلناه و فى القصب حقه، فإن نقص عن ذلك حصل فيه الخلل، و لا بدّ للقصب من القطران قبل أن يحلو حتى لا يسوّس، و يكسر القصب فى كيهك و لا بدّ من حرق آثار القصب بالنار ثم سقيه و عزقه كما تقدّم،

فينبت قصبا يقال له: الخلفة، و يسمى الأوّل: الرأس، و قنود الخلفة أجود غالبا من قنود الرأس، و وقت إدراك الرأس فى طوبة، و الخلفة فى نصف هتور، و غاية إدارة معاصر القصب إلى النوروز، و يحصل من الفدّان، ما بين أربعين أبلوجة قند إلى ثمانين أبلوجة، و الأبلوجة تسع قنطارا فما حوله.

و يزرع القلقاس مع القصب، و لكل فدّان عشرة قناطير قلقاس جروية و يدرك فى هتور.

و يزرع الباذنجان فى برمهات و برموده و بشنس و بؤونة و يدرك من بؤونة إلى مسرى.

و تزرع النيلة من بشنس، و الزريعة للفدّان ويبة و يدرك من أبيب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹۳

و يزرع الفجل طول السنة و زريعة الفدّان من قدح واحد إلى قدحين.

و يزرع اللفت فى أبيب و زريعة الفدّان قدح واحد، و يدرك بعد أربعين يوما.

و يزرع الخس فى طوبة شتلا، و يؤكل بعد شهرين.

و يزرع الكرنب فى توت شتلا و يدرك فى هتور.

و يغرس الكرم فى أمشير نقلا و تحويلا.

و يغرس التين و التفاح فى أمشير.

و يقلم التوت فى برمهات.

و يغرس و يبلّ اللوز و الخوخ و المشمش فى ماء طوبة ثلاثة أيام، و هى قضبان، ثم يغرس و يحوّل شجرها فى طوبة.

و يزرع نوى التمر ثم يتحوّل وديا فينقل.

و يدفن بصل النرجس فى مسرى.

و يزرع الياسمين فى أيام النسىء و فى أمشير.

و يزرع المرسين فى طوبة و أمشير غرسا.

و يزرع الريحان فى برموده.

و يزرع حب المنثور فى أيام النيل.

و يزرع الموز الشتوىّ فى طوبة و الصيفىّ فى أمشير.

و يحوّل الخيار شنبر فى برمهات.

و تقلم الكروم على ريح الشمال إلى ليال من برمهات حتى تخرج العين منها.

و تقلم الأشجار فى طوبة و أمشير إلا السدر، و هو شجر النبق فإنه يقلم فى برمودة.

و تسقى الأشجار فى طوبة ماء واحدا و يسمونه ماء الحياة، و تسقى فى أمشير ثانيا عند خروج الزهر، و تسقى فى برمهات ماءين آخرين إلى أن ينعقد التمر، و تسقى فى بشنس ثلاث مياه و تسقى فى بؤونة و أبيب و مسرى ماء فى كل سبعة أيام، و تسقى فى توت و بابة مرّة واحدة تغريقا من ماء النيل، و تسقى فى هتور من ماء النيل بتغريق المساطب، و يسقى البعل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹۴

من الكروم فى هتور من ماء النيل مرّة واحدة تغريقا.

و جميع أراضى مصر تقاس بالفدّان، و هو عبارة عن أربعمائة قصبة حاكمية طولا فى عرض قصبة واحدة، و القصبة ستة أذرع و ثلثا ذراع بذراع القماش، و خمسة أذرع بذراع النجار تقريبا.

و قال القاضى أبو الحسن فى كتاب المنهاج: خراج مصر قد ضرب على قصبة فى المساحة اصطلح عليها زرع المزارع على حكمها، و

تكسير الفدّان أربعمائة قصبة لأنه عشرون قصبة طولا فى عشرين قصبة عرضا و قصبة المساحة تعرف بالحاكمية، و هى تقارب خمسة أذرع بالنجارى.

ذكر أقسام مال مصر

اعلم أن مال مصر فى زمننا ينقسم قسمين: أحدهما يقال له: خراجىّ، و الآخر يقال له: هلالىّ. فالمال الخراجىّ: ما يؤخذ مسانهة من الأراضى التى تزرع حبوبا و نخلا- و عنبا و فاكهة، و ما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم و الدجاج و الكشك و غيره من طرف الريف.

و المال الهلالىّ عدّة أبواب، كلها أحدثوها ولاة السوء شيئا بعد شىء، و أصل ذلك فى الإسلام أن أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، بلغه أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الجند، فيأخذون منهم العشر، فكتب إلى أبى موسى الأشعرىّ، و هو على البصرة أن خذ من كل تاجر يمرّ بك من المسلمين من كل مائتى درهم خمسة دراهم، و خذ من كل تاجر من تجار العهد، يعنى أهل الذمة من كل عشرين درهما درهما، و من تجار الحرب، من كل عشرة دراهم درهما، و قيل لابن عمر: كان عمر يأخذ من المسلمين العشر، قال: لا، و نهى عمر بن عبد العزيز عن ذلك، و كتب: ضعوا عن الناس هذه المكوس فليس بالمكس، و لكنه النجس.

و روى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أتاه ناس من أهل الشام فقالوا: أصبنا دواب و أموالا فخذ منها صدقة تطهر نابها، فقال: كيف أفعل ما لم يفعل من كان قبلى؟ و شاور، فقال علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه: لا بأس به إن لم يأخذه من بعدك، فأخذ عن العبد عشرة دراهم، و كذلك عن الفرس و عن الهجين ثمانية، و عن البرذون و البغل خمسة.

و أوّل من وضع على الحوانيت الخراج فى الإسلام أمير المؤمنين أبو عبد اللّه محمد بن أبى جعفر المنصور فى سنة سبع و ستين و مائة و ولى ذلك سعيد الجرسى.

و أوّل من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد بن مدبر لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين و مائتين، فإنه كان من دهاة الناس، و شياطين الكتاب، فابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرّة من بعده لا تنقض، فأحاط بالنطرون و حجر عليه بعد ما كان مباحا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۹۵

لجميع الناس، و قرّر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى، و قرّر على ما يطعم اللّه من البحر مالا و سماه المصايد إلى غير ذلك، فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجىّ و هلالىّ، و كان الهلالىّ يعرف فى زمنه و ما بعده: بالمرافق و المعاون، فلما ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون إمارة مصر، و أضاف إليه أمير المؤمنين المعتمد على اللّه الخراج و الثغور الشامية، رغب و تنزه عن أدناس المعاون و المرافق، و كتب بإسقاطها فى جميع أعماله، و كانت تبلغ بمصر خاصة، مائة ألف دينار فى كل سنة، و له فى ذلك خبر فيه أكبر معتبر قد ذكرته عند ذكر أخبار الجامع الطولونى من هذا الكتاب، ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عند ما ضعفت، و صارت تعرف: بالمكوس.

فلما استبدّ السلطان الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بملك مصر، أمر بإسقاط مكوس مصر و القاهرة. فكتب عنه القاضى الفاضل مرسوما بذلك، و كان جملة ذلك فى كل سنة: مائة ألف دينار.

تفصيلها: مكس البهار و عمالته: ثلاثة و ثلاثون ألفا و ثلثمائة و أربعة و ستون دينارا؛ مكس البضائع و القوافل و عمالتها: تسعة آلاف و ثلثمائة و خمسون دينارا؛ منفلت الصناعة عن مكس البز الوارد إليها و النحاس و القزدير و المرجان و الفاضلات: خمسة آلاف و مائة و ثلاثة و تسعون دينارا؛ الصادر عن الصناعة بمصر: ستة آلاف و ستمائة و ستة و ستون دينارا؛ سمسرة التمر: ثلثمائة دينار؛ الفندق بالمنية عن مكس البضائع: ثمانمائة دينار و ستة و خمسون دينارا؛ رسوم دار القند: ثلاثة آلاف و مائة و ثمانية دنانير؛ رسوم الخشب

الطويل و الملح: ستمائة و ستة و سبعون دينارا؛ رسوم العلب المنسوبة إلى بلبيس و البورى: مائة دينار؛ رسوم التفتيش بالصناعة عن البهار و غيره: مائتان و سبعة عشر دينارا؛ خيمة أرمنت عن الوارد إليها: سبعة و ستون دينارا؛ فندق القطن: ألفا دينار؛ سوق الغنم بالقاهرة و مصر و السمسرة و عبور الأغنام بالجيزة: ثلاثة آلاف و ثلثمائة و أحد عشر دينارا؛ عبور الأغنام و الكتّان و الأبقار بباب القنطرة: ألف و مائتا دينارا؛ واجب ما ورد من الكتان الحطب إلى الصناعة: مائتا دينار؛ رسوم واجب الغلات كالحبوب الواردة إلى الصناعة، و المقس و المنية و الجسر و التباين، و مفالت جزيرة الذهب، و طموه و منبر الدرج: ستة آلاف دينار.

مكس ما يرد إلى الصناعة من الأغنام: ستة و ثلاثون دينارا؛ الأغنام البيتوتية؛ اثنا عشر دينارا؛ العرصة و السرسناوى بالجيزة، و مكس الأغنام: مائة و تسعون دينارا؛ منفلت الفيوم عما يرد من الكتان من القبلة، و من البضائع الواردة من الفيوم و غيره: أربعة آلاف و مائة و ستون دينارا؛ مكس الورق المجلوب إلى الصناعة، و رسم التفتيش: مائتا دينارا؛ الحصة بساحل الغلة و الأقوات و الرسائل: سبعمائة و ثمانية و ستون دينارا؛ دار التفاح و الرطب بمصر و العرصة بالقاهرة: ألف و سبعمائة دينار؛ رسم ابن المليحى: مائتا دينار؛ دار الجبن: ألف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹۶

دينار؛ مشارفة الخزائن: مائتان و أربعون دينارا؛ واجب الحلى الوارد من الوجه البحرى، و القطن: ألف و عشرون دينارا؛ رسم سمسرة الصفا: ألف و مائتا دينار؛ منفلت بالصعيد:

مائة و أحد و ستون دينارا؛ خاتم الشرب و الديبقى: ألف و خمسمائة دينار؛ مكس الصوف:

مائتا دينار؛ نصف الموردة بساحل المقس: أربعة عشر دينارا؛ دكة السمسار: ثلثمائة و خمسون دينارا؛ منفلت العريف بالصناعة و حملة البهار و البضائع: مائتان و ستة عشر دينارا؛ الحلفاء الواردة من القبلة: مائة و خمسة و ثلاثون دينارا؛ الوقد و السرقين و الطعم بدار التفاح و منفلت القبلة بالتبانين و الجسر: خمسة و ثلاثون دينارا؛ رسوم الصفا و الحمراء و رسوم دار الكتان: ستون دينارا؛ حماية الغلات بالمقس و دار الجبن: مائة و أربعون دينار؛ الحلفاء الواردة على الجسر و معدّية المقياس: مائة دينار؛ خمس البرنية بالجيزة: عشرون دينارا؛ تلّ التعريف بالصناعة: ثمانية و عشرون دينارا؛ منفلت الغلات بمعدّية جزيرة الذهب: عشرة دنانير؛ رسوم الحمام بساحل الغلة: خمسمائة و أربعة و ثلاثون دينارا؛ واجب الحناء الواردة فى البرّ: ثمانمائة دينار؛ واجب الحلفاء و القصاب: ثلاثة و ستون دينارا؛ مكس ما يرد من البضائع إلى المنية: مائة و أربعة و ثمانون دينارا؛ مسلخة شطنوف و البرانية:

مائتا دينار؛ سوق السكر: بين خمسون دينارا؛ رسوم خيمة الجملى بالشارع و سوق وردان:

تسعة عشر دينارا؛ واجب الفحم الوارد إلى القاهرة: عشرة دنانير؛ معدّية الجسر بالجيزة:

مائة و عشرون دينارا؛ خيمة البقرى: أربعون دينارا؛ الخيمة بدار الدباغة: تسعة عشر دينارا.

سمسمرة الحبس الجيوشى: ثلثمائة و اثنا عشر دينارا؛ دكان الدهن و معصرة الشيرج و الخل بالقاهرة: خمسمائة دينار؛ الخل الحامض و ما معه: أربعمائة دينار؛ بيوت الغزل و المصطبة: ثلثمائة و خمسون دينارا؛ ذبائح الأبقار: ألف دينار؛ سوق السمك بالقاهرة و مصر: ألف و مائتا دينار؛ رسوم الدلالة: ثلثمائة دينار؛ سمسرة الكتان: ثلثمائة دينار؛ رسوم حماية الصناعتين: أربعمائة دينار؛ مربعة العسل: مائتان و اثنان و ثلاثون دينارا؛ معادى جزيرة الذهب و غيرها: ثلثمائة دينار؛ خاتم الشمع بالقاهرة: ثلاثة و ستون دينارا؛ زريبة الذبيحة: سبعمائة دينار؛ معدّية المقياس و أنبابة: مائتا دينار؛ حمولة السلجم: ثلثمائة و ثلاثون دينارا؛ دكة الدباغ: ثمانمائة دينار؛ سوق الرقيق: خمسمائة دينار؛ معمل الطبرى:

مائتان و أربعون دينارا؛ سوق منبوية: مائة و أربعة و ستون دينارا؛ ذبائح الضأن بالجيزة، و رسوم ساحل السنط: عشرة دنانير؛ نخ السمك: خمسة دنانير؛ تنور الشوى: مائة دينار؛ نصف الرطل من مطابخ السكر: مائة و خمسة و ثلاثون دينارا؛ سوق الدواب بالقاهرة و مصر: أربعمائة دينار؛ سوق الجمال: مائتان و خمسون دينارا؛ قبان الحناء: ثلاثون دينارا؛ واجب طاقات الأدم: ستة و ثلاثون دينارا؛

امنفلت الخام بالشاشيين: ثلاثة و ثلاثون دينارا؛ أنولة القصار: أربعون دينارا؛ بيوت الفرّوج: ثلاثون دينارا؛ الشعر و الطارات: أربعة دنانير؛ رسوم الصبغ و الحرير: ثلثمائة و أربعة و ثلاثون دينارا؛ وزن الطفل: مائة و أربعون دينارا؛

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹۷

معمل المزر: أربعة و ثمانون دينارا؛ الفاخور بمصر و القاهرة: مائتان و ستة و ثلاثون دينارا.

و ذكر ابن أبى طيّ: أن الذى أسقطه السلطان صلاح الدين و الذى سامح به لعدّة سنين، آخرها سنة أربع و ستين و خمسمائة مبلغه عن نيف ألف ألف دينار و ألفى ألف أردب، سامح بذلك و أبطله من الدواوين، و أسقطه عن المعاملين.

فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، أعاد المكوس و زاد فى شناعتها.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة تسعين و خمسمائة، و كان قد تتابع فى شعبان أهل مصر و القاهرة فى إظهار المنكرات، و ترك الإنكار لها، و إباحة أهل الأمر و النهى لها، و تفاحش الأمر فيها إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره، و أقيمت طاحون بحارة المحمودية لطحن حشيش المزر ، و أفردت برسمه و حميت بيوت المزر، و أقيمت عليها الضرائب الثقيلة، فمنها ما انتهى أمره فى كل يوم إلى ستة عشر دينارا، و منع المزر البيوتى ليتوفر الشراء من البيوت المحمية، و حملت أوانى الخمر على رؤوس الأشهاد، و فى الأسواق من غير منكر، و ظهر من عاجل عقوبة اللّه عز و جل، وقوف زيادة النيل عن معتادها، و زيادة سعر الغلة فى وقت ميسورها.

و قال فى متجدّدات سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة، و آل الأمر إلى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز و لحم إلى أن يتحمل فى بعض الأوقات لا كلها لبعض ما يتبلغ به من خبز، و كثر ضجيجهم، و شكواهم فلم يسمع. و وقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان، و فيما يصرف إلى عياله، و فيما يقتات به أولاده، و ما يغصب من أربابه، و أفضى هذا إلى غلاء الأسعار، فإنّ المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى أسعار المأكولات العامة بمقدار ما يؤخذ منهم للدار السلطانية، فأفضى ذلك إلى النظر فى المكاسب الخبيثة، و ضمن المزر و الخمر باثنى عشر ألف دينار.

و فسح فى إظهار منكره و الإعلان به و البيع له فى القاعات و الحوانيت، مع قرب استهلال رجب، و ما استطاع أحد من العامة الإنكار لا باليد و لا باللسان، و صار هذا السحت مما ينفرد السلطان به لنفقته و طعامه، و انتقل مال الثغور، و مال الجوالىّ الحل الطيب إلى أن يصير حوالات لمن لا يبالى من أين أخذ المال، و لا يفرّق بين الحرام و الحلال، و فى شهر رمضان: غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها، و تظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطانىّ، و استيفاء رسمه بأيدى مستخدميه، و بلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار، و حصل منه شىء حمل إليه، فبلغنى أنه صنع به آلات للشراب ذهبيات و فضيات، و كثر اجتماع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹۸

النساء و الرجال فى شهر رمضان لا- سيما على الخليج لما فتح، و على مصر لما زاد الماء و تلقى فيه النيل بمعاص نسأل اللّه أن لا يؤاخذنا بها، و أن لا يعاقبنا عليها بجرأة أهلها.

و قال جامع السيرة التركية: و لما استقل الملك المعز عز الدين أيبك التركمانىّ الصالحىّ بمملكة مصر فى سنة خمسين و ستمائة، بعد انقراض دولة بنى أيوب استوزر شخصا من نظار الدواوين يعرف بشرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزى، أحد كتاب الأقباط، و كان قد أظهر الإسلام من أيام الملك الكامل، و ترقى فى خدمة الكتابة، فقرّر فى وزارته أموالا على التجار، و ذوى اليسار، و أرباب العقار، و رتب مكوسا و ضمانات سموها:

حقوقا و معاملات.

و لما ولى الملك المظفر سيف الدين قطز: مملكة مصر، بعد خلعه الملك المنصور، علّى بن المعز أيبك أحدث عند سفره الذى قتل فيه مظالم كثيرة لأجل جمع المال، و صرفه فى الحركة لقتال جموع التتر، منها: تصقيع الأملاك، و تقويمها و زكاتها، و أحدث على كل إنسان دينارا يؤخذ منه، و أخذ ثلث التركات الأهلية، فبلغ ذلك ستمائة ألف دينار فى كل سنة.

فلما قتل قطز و جلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بعده على سرير الملك بقلعة الجبل، أبطل ذلك جميعه، و كتب به مسامیح قرئت على المنابر، ثم أبطل ضمان المزر و جهاته فى سنة اثنتين و ستين و ستمائة.

و كتب و هو بالشام إلى الأمير عز الدين الحلىّ نائب السلطنة بمصر: أن يبطل بيوت المزر، و يعفى آثاره، و يخرب بيوته، و يكسر مواعينه، و يسقط ارتفاعه من الديوان. فإنّ بعض الصالحين تحدّث معى فى ذلك، و قال: القمح الذى جعله اللّه تعالى يداس بالأرجل، و قد تقرّبت إلى اللّه تعالى بإبطاله، و من ترك شيئا للّه عوّضه خيرا منه، و من كان له على هذه الجهة شىء يعوّضه اللّه من المال الحلال، فأبطل الحلىّ ذلك، و عوّض المقطعين عليه بدله.

و فى سنة ثلاث و ستين أبطل حراسة النهار بالقاهرة و مصر، و كانت جملة مستكثرة، و كتب بذلك توقيعا، و أبطل من أعمال الدقهلية و المرتاحية عن رسوم الولاية، أربعة و عشرين ألف دينار، و فى خامس عشرى شهر رمضان سنة اثنتين و ستين و ستمائة، قرىء بجامع مصر مكتوب بإبطال ما قرّر على رسوم ولاية مصر من الرسوم، و هى مائة ألف درهم مصرية، فبطل ذلك، و أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها فى سنة خمس و ستين و ستمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۹۹

و أمر بإراقة الخمور، و إبطال المنكرات، و تعفية بيوت المسكرات، و منع الخانات و الخواطىء بجميع أقطار مملكة مصر و الشام، فطهرت من ذلك البقاع، و لما وردت المراسيم بذلك على القاضى ناصر الدين أحمد بن المنير قال:

ليس لإبليس عندنا أربغير بلاد الأمير مأواه

حرفته الخمر و الحشيش معاحرّمتا ماؤه و مرعاه

و قال الأديب الفاضل أبو الحسين الجزار:

قد عطل الكوب من حبابهو أخلى الثغر من رضابه

و أصبح الشيخ و هو يبكىعلى الذى فات من شبابه

و فى تاسع جمادى الآخرة سنة ست و ستين و ستمائة، أمر الملك الظاهر بيبرس بإراقة الخمور و إبطال الفساد، و منع النساء الخواطىء من التعرّض للبغاء من جميع القاهرة و مصر، و سائر الأعمال المصرية، فتطهرت أرض مصر من هذا المنكر، و نهبت الخانات التى كانت معدّة لذلك، و سلب أهلها جميع ما كان لها، و نفى بعضهم، و حبست النساء حتى يتزوّجن.

و كتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك، و حط المال المقرّر على البغايا من الديوان، و عوّض الحاشية من جهات حلّ بنظيره، و فى سابع عشر ذى الحجة سنة تسع و ستين و ستمائة، أريقت الخمور، و أبطل ضمانها، و كان كل يوم ألف دينار، و كتب توقيع بذلك قرىء على المنابر، و افتتح سنة سبعين بإراقة الخمور، و التشدّد فى إزالة المنكرات، و كان يوما مشهودا بالقاهرة، و بلغه فى سنة أربع و سبعين عن الطواشى شجاع الدين عنبر المعروف: بصدر الباز، و كان قد تمكن منه تمكنا كثيرا أنه يشرب الخمر، فشنقه تحت قلعة الجبل.

و لما ولى الملك المنصور سيف الدين قلاون الإلفى، مملكة مصر أبطل زكاة الدولة، و هو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبدا، و لو عدم منه، و إذا مات يؤخذ من ورثته، و أبطل ما كان يجبى من أهل إقليم مصر كله إذا حضر مبشر بفتح حصن، أو نحوه، فيؤخذ من الناس بالقاهرة و مصر على قدر طبقاتهم، و يجتمع من ذلك مال كثير، و أبطل ما كان يجبى من أهل الذمة، و هو دينار سوى الجالية برسم نفقة الأجناد فى كل سنة، و أبطل مقرّر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر و الغزاة، و كان يؤخذ من جميع تجار القاهرة و مصر من كل تاجر دينار، و أبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل مما يعمل به شوى و حلوى و فاكهة فى المقياس، و جعل مصر ذلك من بيت المال، و أبطل أشياء كثيرة من هذا النمط.

و أبطل الملك الناصر، محمد بن قلاون عدّة جهات قد ذكرت فى الروك الناصرىّ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۰

و آخر ما أدركنا إبطاله ضمان الأغانى، و ضمان القراريط فى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون.

فأما ضمان الأغانى فكان بلاء عظيما، و هو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجلّ امرأة فى مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة، و قامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة، و كان على النساء، إذا تنفسن أو عرّسن امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء، أو أراد أحد أن يعمل فرحا لا بدّ من مال بتقرير تأخذه الضامنة، و من فعل فرحا بأغان أو نفس امرأته من غير إذن الضامنة حلّ به بلاء لا يوصف.

و أما ضمان القراريط، فإنه كان يؤخذ من كل من باع ملكا عن كل ألف درهم، عشرون درهما، و كان متحصل هاتين الجهتين مالا كثيرا جدّا.

و أبطل الملك الظاهر برقوق، ما كان يؤخذ من أهل البرلس و شورى و بلطيم شبه الجالية فى كل سنة ستين ألف درهم، و أبطل ما كان على القمح من مكس، يؤخذ من الفقراء بثغر دمياط ممن يبتاع من أردبين، فما دونهما، و أبطل ما كان يؤخذ مكسا من معمل الفرّوج بالنحريرية، و الأعمال الغربية، و أبطل ما كان يؤخذ تقدمة لمن يسرح إلى العباسة من الخيل و الجمال و الغنم و غير ذلك، و أبطل ما كان يؤخذ على الدريس و الحلفاء بباب النصر خارج القاهرة، و أبطل ضمان الأغانى بمنية ابن خصيب بأعمال الأشمونين، و بزفتا بالأعمال الغربية، و أبطل الأبقار التى كانت ترمى بالوجه البحرى عند فراغ الجسور، و أبطل الأمير بلبغا السالمى، لما ولى استادار السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة إحدى و ثمانمائة تعريف الغلال بمنية ابن خصيب، و ضمان العرصة بها و أخصاص الغسالين، و كانت من المظالم القبيحة، و أبطل من القاهرة ضمان بحيرة البقر، ثم أعاده القبط من بعده.

و قد بقيت إلى الآن من المكوس بقايا، أخبرنى الأمير الوزير المشير الإستادار بلبغا السالمى فى أيام وزارته، أن جهات المكوس بديار مصر تبلغ فى كل يوم، بضعا و سبعين ألف درهم، و أنه اعتبرها فلم يجدها تصرف فى شىء من مصالح الدولة، بل إنما هى منافع للقبط و حواشيهم، و كان قد عزم على إبطال المكوس فلم يمهل.

و المال الهلالى: عبارة عما يستأدى مشاهرة كأجر الأملاك المسقفة من الآدر و الحوانيت و الحمامات و الأفران و الطواحين، و عداد الغنم و الجهة الهوائية المضمونة و المحلولة، و عدّ بعض الكتاب، أحكار البيوت و ريع البساتين التى تستخرج أجرها مشاهرة و مصايد السمك و معاصر الشيرج و الزيت فى المال الهلالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۱

و من اصطلاح كتاب مصر القدماء، أن تورد جزية أهل الذمة من اليهود و النصارى، قلما واحدا مستقلا بذاته بعد الهلالى، و قبل الخراجى، و ذلك أنها تستأدى مسانهة، و كانوا يرون وجوبها مشاهرة و فائدته فيمن أسلم أو مات أثناء الحول، فإنهم كانوا يلزمونه بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه، أو وفاته فلذلك أوردت فيما بين الهلالىّ و الخراجىّ.

و كانوا فى الإقطاعات الجيشية يجرونها، مجرى المال الهلالىّ عند خروج إقطاع من يقطع، و دخول آخر على ذلك الإقطاع، فإنها كانت تستخرج على حكم الشهور الهلالية لا الشمسية بحيث لو تعجلها مقطع فى غرّة السنة على العادة فى ذلك، و خرج الإقطاع عنه فى أثناء السنة بوفاة أو نقلة إلى غيره، استحق منها نظير ما مضى من شهور السنة إلى حين انتقال الإقطاع عنه، لا على حكم ما استحق من المغلّ، و يستحق المتصل من استقبال تاريخ منشوره كعادة النقود، و المتخلل بينهما من المدّة مستحق ذلك الديوان، فيردّ من جملة المحلولات من الإقطاعات و كان من أبواب الهلالى جهات تسمى المعاملات، و هى: الزكاة و المواريث و الثغور و المتجر و الشب و النطرون و الجبس الجيوشى و دار الضرب و دار العيار و الجاموس و أبقار الجبس و الأغنام و الغروس و البساتين و الأحكار و الرباع و المراكب، و ما يستأدى من الذمة غير الجوالى، و ساحل السنط، و الخراج و القرظ و مقرّر الجسور و موظف الاتبان و مقرّر

القصب و مقرّر البريد و مقرّر البسط و عشر العرق، و غير ذلك من جهات المكوس.

فأما الجزية: و تعرف فى زمننا بالجوالى فإنها تستخرج سلفا و تعجيلا فى غرّة السنة، و كان يتحصل منها مال كثير فيما مضى. قال القاضى الفاضل فى متجدّدات الحوادث الذى انعقد عليه ارتفاع الجوالى لسنة سبع و ثمانين و خمسمائة مائة ألف و ثلاثون ألف دينار، و أما فى وقتنا هذا، فإنّ الجوالى قلت جدّا لكثرة إظهار النصارى للإسلام فى الحوادث التى مرّت بهم.

و لما استبدّ السلطان الملك المؤيد شيخ بملك مصر، بعد الخليفة العباس بن محمد أمير المؤمنين المستعين بالله، ولى رجلا جباية الجوالى فكثر الاستقصاء عن الذمة و الكدّ فى الاستخراج منهم، فبلغت الجوالى فى سنة ست عشرة و ثمانمائة أحد عشر ألف دينار و أربعمائة دينار، سوى ما غرم للأعوان و هو قدر كثير.

و أما المراعى و هو الكلأ المطلق المباح الذى أنبته اللّه تعالى لرعى دواب بنى آدم فأوّل من أدخلها الديوان بمصر أحمد بن مدبر، لما ولى الخراج، و صير لذلك ديوانا و عاملا- جلدا يحظر على الناس أن يتبايعوا المراعى، أو يشتروها إلا من جهته، و أدركنا المراعى ببلاد الصعيد مما يضاف إلى الإقطاعات، فيأخذ الأمير ممن يرعى دوابه فى أرض بلده الكتيح فى كل سنة، مالا عن كل رأس فيجبى من صاحب الماشية بعدد أنعامه، فلما اختلّ أمر الصعيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۲

فى الحوادث الكائنة منذ سنة ست و ثمانمائة، تلاشى الأمر فى ذلك، و كانت العادة القديمة أن يندب للمراعى مشدّ و شهود، و كاتب، فيعدّون المواشى، و يستخرجون من أربابها عن كل رأس شيئا، و لا يكون ذلك إلا بعد هبوط النيل، و نبات الكلأ و استهلاكه للمرعى.

و أما المصايد فهى ما أطعم اللّه سبحانه و تعالى من صيد البحر، و أوّل من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر، و صير لها ديوانا و احتشم من ذكر المصايد، و شناعة القول فيها، فأمر أن يكتب فى الديوان خراج مضارب الأوتار و مغارس الشباك، فاستمرّ ذلك، و كان يندب لمباشرتها مشدّ و شهود و كاتب إلى عدّة جهات، مثل: خليج الإسكندرية، و بحيرة الإسكندرية، و بحيرة نسترو و ثغر دمياط و جنادل ثغر أسوان، و غير ذلك من البرك و البحيرات، فيخرجون عند هبوط النيل، و رجوع الماء من المزارع إلى بحر النيل بعد ما تكون أفواه الترع قد سكرت، و أبواب القناطر قد سدّت عند انتهاء زيادة النيل كيما يتراجع الماء، و يتكائف مما يلى المزارع، ثم تنصب شباك، و تصرف المياه، فيأتى السمك و قد اندفع مع الماء الجارى، فتصدّه الشباك عن الانحدار مع الماء، و يجتمع فيها فيخرج إلى البر، و يوضع على أنخاخ و يملح، و يوضع فى الأمطار فإذا استوى بيع، و قيل له: الملوحة و الصير، و لا يكون ذلك إلا فيما كان من السمك فى قدر الأصبع فما دونه، و يسمون هذا الصنف إذا كان طريا ابسارية، فتؤكل مشوية و مقلية، و يصاد من بحيرة نسترو، و بحيرة تنيس، و بحيرة الإسكندرية، أسماك تعرف: بالبورى، و قيل لها ذلك لأنها كانت تصاد عند قرية من قرى تنيس يقال لها: بورة، و قد خربت، و النسبة إليها البوريّ، و نسب إليها جماعة من الناس منهم بنو البورى.

و قيل لهذا السمك البوريّ إضافة إلى القرية المذكورة، و قد بطل فى زمننا اليوم أمر هذه المصايد إلا من بحيرة نسترو بالبرلس و بحيرة تنيس بدمياط فقط، و هاتان البحيرتان تجريان فى ديوان الخاص و هما مضمنتان، و ما يخرج منهما من البوريّ و غيره من أنواع السمك، فللسلطان لا يقدر أحد أن يتعرّض لصيد شىء منه إلا أن يكون من صياديهما القائمين بالضمان، و ما عدا هاتين البحيرتين من البرك و الأملاق و الخلجان، فليست للسلطان، و أما بحيرة اسكندرية فقد جفت و ثغر أسوان، فقد خرج عن يد السلطنة و تغلب عليه أولاد الكفرة، ثم برك بأيدى أقوام كبركة الفيل، بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس، و بركة الرطلى، بيد أولاد الأمير بكتمر الحاجب، و غير ذلك. فإنّ أسماكها مضمنة لهم يبيعونها و مع ذلك لا يمنع أحد الصيد منها.

و أما بحر النيل فما صيد منه يحمل إلى دار السمك بالقاهرة، فيباع و يؤخذ منه مكس السلطان إلا أنّ الأمير جمال الدين يوسف الإستادار، زاد فيما كان يؤخذ من الصيادين مكسا، و من حينئذ قلّ السمك بالقاهرة و غلا سعره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۳

و قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ مصر: إنّ صنما كان بالإسكندرية يقال له شراحيل على حشفة من حشاف البحر مستقبلا بأصبع من كفة قسطنطينية لا يدرى أكان مما عمله سليمان النبىّ، أم عمله الإسكندر، فكانت الحيتان تدور بالإسكندرية، و تصاد عنده، فيما زعموا.

قال زيد بن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أخبرنى أبى عن أبيه: أنه انبطح على بطنه و مدّ يديه و رجليه فكان طوله طول قدم الصنم، فكتب رجل يقال له: أسامة بن زيد كان عاملا على مصر للوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين: إنّ عندنا بالإسكندرية صنما يقال له: شراحيل من نحاس، و قد غلت علينا الفلوس فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزله و يضربه فلوسا فعل، و إن رأى غير ذلك فليكتب إلىّ من أمره، فكتب إليه: لا تنزله حتى أبعث إليك ضمناء يحضرونه، فبعث إليه رجالا أمناء حتى أنزل من الحشفة، فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة فضربه فلوسا، فانطلقت الحيتان فلم ترجع إلى ما هناك.

و أما الزكاة: فإنّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أوّل من جباها بمصر.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ستين و خمسمائة ثالث عشر ربيع الآخر، فرّقت الزكوات بعد ما جمعت على الفقراء و المساكين و أبناء السبيل و الغارمين، بعد أن رفع إلى بيت المال السهام الأربعة و هى: سهام العاملين، و المؤلفة، و فى سبيل اللّه، و فى الرقاب، و قرّرت لهم فريضة و استودى على الأموال و البضائع و على ما يتقرر عليه من المواشى، و النخل و الخضراوات.

قال: و الذى انعقد عليه ارتفاع الجوالى لسنة سبع و ثمانين و خمسمائة ثلاثون ألف دينار، و الزائد فى معاملة الزكاة و دار الضرب لسنتى ست و سبع و ثمانين و خمسمائة أحد و عشرون ألف دينار و ثمانمائة و أحد و ستون دينارا.

و قال فى سنة ثمان و ثمانين و استخدم ابن أحمدان فى ديوان الزكاة و كتب خطه بما مبلغه: اثنان و خمسون ألف دينار لسنة واحدة من مال الزكاة، و جعل الطواشى قراغش الشادّ فى هذا المال، و أن لا يتصرّف فيه بل يكون فى صندوق مودعا للمهمات التى يؤمر بها.

و لما قدم ابن عنين الشاعر من عند الملك العزيز سيف الإسلام طفتكين بن نجم الدين أيوب بن شادى ملك اليمن إلى مصر، و قد أجزل صلته عند ما وفد عليه و فارقه، و قد أثرى ثراء كثيرا، قبض أرباب ديوان الزكاة بمصر على ما قدم به من المتجر و طالبوه بزكاة ما معه، و كان ذلك فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فقال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۴ ما كان من يتسمى بالعزيز لهاأهل و لا كل برق سحبه غدقه

بين العزيزين فرق فى فعالهماهذاك يعطى و هذا يأخذ الصدقه

ثم إنّ العزيز كشف عما يستأدى من الزكاة فإنه انتهى إليه فيها أقوال شنيعة منها: أنه أخذ من رجل فقير يبيع الملح فى قفة على رأسه، زكاة عما فى القفة، و أنه بيع جمل بخمسة دنانير ذهب، فأخذ زكاتها خمسة دراهم، فأمر بتفويض أمرها إلى أرباب الأموال و من وجب عليه حق.

ثم لما كانت سلطنة الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب أخرج من زكاة الأموال التى كانت تجبى من الناس سهمى الفقراء و المساكين، و أمر بصرفهما فى مصارفهما الشرعية، و رتب من جملة هذين السهمين معاليم للفقهاء و الصلحاء، و أهل الخير تجرى عليهم، فاستحسن ذلك من فعله و حمله إلى ديوان الزكاة قبل منه، و من لم يحمل لا يتعرّض إليه فبخل الأغنياء بزكاة أموالهم حتى تضرّر الفقراء و المساكين، و أخذ السعاة يبذلون فى ضمانها الأموال لتعود إلى ما كانت عليه فولى النظر فى ديوان الزكاة القاضى الأسعد شرف الدين أبو المكارم أسعد بن مهذب بن مماتى، فاستخرج الزكاة من أربابها ثم ضمنت بمال كثير، و عاد الأمر فيها إلى ما كان عليه من العسف و الجور، و كانت أعوان متولى الزكاة تخرج إلى منية ابن خصيب و أخميم و قوص لكشف أحوال المسافرين من التجار و الحجاج و غيرهم، فيبحثون عن جميع ما معهم، و يدخلون أيديهم أوساط الرجال خشية أن يكون معهم

مال و يحلفون الجميع بالإيمان الحرجة على ما بأيديهم و ما عندهم غير ما وجدوه، و تقوم طائفة من مردة هذه الأعوان و بأيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة، فيصعدون إلى المراكب و يجسون بمسالهم جميع ما فيها من الأحمال و الغرائر مخافة أن يكون فيها شيء من بضاعة أو مال فيبالغون فى البحث و الاستقصاء بحيث يقبح، و يستشنع فعلهم و يقف الحجاج بين يدى هؤلاء الأعوان مواقف خزى و مهانة، لما يصدر منهم عند تفتيش أوساطهم و غرائر أزوادهم، و يحلّ بهم من العسف و سوء المعاملة ما لا يوصف، و كذلك يفعل فى جميع أرض مصر منذ عهد السلطان صلاح الدين بن أيوب.

و أما الثغور فهى: دمياط و تنيس و رشيد و عيذاب و أسوان و الإسكندرية و هى أعظمها قدرا فإنه كان فيها عدّة جهات منها: الخمس و المتجر، فالخمس: ما يستأدى من تجار الروم الواردين فى البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما صولحوا عليه، و ربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار و مائتان و خمسة و ثلاثون دينارا، و ربما انحط عن عشرين دينارا. و يسمى كلاهما خمسا. و من أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر و لذلك ضرائب مقرّرة.

و قال القاضى الفاضل: و الحاصل من خمس الإسكندرية فى سنة سبع و ثمانين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۵

و خمسمائة ثمانية و عشرون ألف دينار و ستمائة و ثلاثة عشر دينارا، و المتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو إليها الحاجة و يقتضيه طلب الفائدة.

قال جامع سيرة الوزير اليازورى: و قصر النيل بمصر فى سنة أربع و أربعين و أربعمائة، و لم يكن فى مخازن الغلات شيء، فاشتدّت المسغبة بمصر، و كان لخلوّ المخازن سبب أوجب ذلك و هو أنّ الوزير، الناصر للدين لما أضيف إليه القضاء فى أيام أبى البركات الوزير كان يبتاع للسلطان فى كل سنة غلة بمائة ألف درهم، و تجعل متجرا فمثل القاضى بحضرة الخليفة المستعين بالله، و عرّفه أنّ المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرّة على المسلمين، و ربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتعفن فى المخازن و تتلف، و أنه يقيم متجرا لا كلفة فيه على الناس، و يفيد أضعاف فائدة الغلة، و لا يخشى عليه من تغيره فى المخازن و لا انحطاط سعره و هو الخشب و الصابون و الحديد و الرصاص و العسل و ما أشبه ذلك، فأمضى السلطان له ما رآه، و استمرّ ذلك و دام الرخاء على الناس فوسعوا فيه مدّة سنين ثم عمل الملوك بعد ذلك ديوانا للمتجر و آخر من عمله الظاهر برقوق.

و أما

الشب: فإنّ معادنه بالصعيد، و كانت عادة الديوان الإنفاق، فى تحصيل القنطار، منه بالليثىّ يبلغ ثلاثين درهما، و كانت العربان تحضره من معادنه إلى ساحل أخميم و سيوط و البهنسا ليحمل إلى الإسكندرية أيام النيل فى الخليج و يشترى بالقنطار الليثىّ، و يباع بالقنطار الجروىّ، فيباع منه على تجار الروم قدر اثنى عشر ألف قنطاريا بالجروى بسعر أربعة دنانير كل قنطار إلى ستة دنانير و يباع منه بمصر على اللبوديين و الصباغين نحو الثمانين قنطارا بالجروىّ سعر ستة دنانير و نصف القنطار، و لا يقدر أحد على ابتياعه من العربان و لا غيرهم، فإن عثر على أحد أنه اشترى منه شيئا أو باعه سوى الديوان نكل به و استهلك ما وجد معه منه، و قد بطل هذا.

و أما

النطرون : فيوجد فى البرّ الغربىّ من أرض مصر بناحية الطرّانة، و هو أحمر و أخضر و يوجد منه بالفاقوسية شيء دون ما يوجد فى الطرّانة، و هو أيضا مما خطر عليه ابن مدبر من الأشياء التى كانت مباحة، و جعله فى ديوان السلطان و كان من بعده على ذلك إلى اليوم، و قد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه فى كل سنة عشرة آلاف قنطار، و يعطى الضمان منها فى كل سنة قدر ثلاثين قنطارا يتسلمونها من الطرّانة، فتباع فى مصر بالقنطار المصرى، و فى بحر الشرق و الصعيد بالجروىّ، و فى دمياط بالليثى. قال القاضى الفاضل: و باب النطرون كان مضمونا إلى آخر سنة خمس و ثمانين و خمسمائة بمبلغ خمسة عشر ألفا و خمسمائة دينار، و حصل منه فى سنة ست و ثمانين مبلغ سبعة آلاف و ثمانمائة دينار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۶

و أدركنا النطرون إقطاعا لعدّة أجناد.

فلما تولى الأمير محمود بن عليّ الإستادارية، و صار مدبر الدولة فى أيام الظاهر برقوق حاز النطرون، و جعل له مكانا لا يباع فى غيره، و هو إلى الآن على ذلك. و أما الحبس الجيوشى: فكان فى البرّين الشرقيّ و الغربيّ. ففى الشرقيّ: بهتين و الأميرية و المنية، و كانت تسجل هذه النواحى بعين، و فى الغربيّ: سفط و نهيا و وسيم، و هذه النواحى حبسها أمير الجيوش، بدر الجمالى، على عقبه هى و البساتين ظاهر باب الفتوح، فلما مات و طال العهد استأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلبا للفائدة، ثم أدخلت فى الديوان.

قال ابن المأمون فى تاريخه: و جميع البساتين المختصة بالورثة الجيوشية مع البلاد التى لهم لم تزل فى مدّة أيام الوزير المأمون البطائحيّ بأيديهم لم تخرج عنهم بضمان و لا بغيره.

فلما توفى الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و جلس أبو عليّ بن الأفضل بن أمير الجيوش، فى الوزارة، أعاد الجميع إلى الملاك لكون نايبه فى ذلك الأوفر.

فلما قتل، و استبدّ الخليفة، الحافظ لدين اللّه أمر بالقبض على جميع الأملاك، و حلّ الأحباس المختصة بأمير الجيوش، فلم يزل يأنس به، لأنه غلام الأفضل و الوزير فى ذلك الوقت، و عز الملك غلام الأوحد بن أمير الجيوش يتلطفان و يراجعان الخليفة مع الكتب التى أظهرها الورثة، و عليها خطوط الخلفاء إلى أن أبقاها عليهم، و لم يخرجها عنهم، ثم ارتفعت الحوطة عنها فى سنة سبع و عشرين و خمسمائة للديوان الحافظى.

و لما خدم الخطير و المرتضى فى سنة إحدى و ثلاثين و خمسمائة فى وزارة رضوان بن و لخشى، أعاد البساتين خاصة دون البلاد على الورثة بحكم ما آل أمرها إليه من الاختلال و نقص الارتفاع.

و لما انقرض عقب أمير الجيوش و لم يبق منه سوى امرأة كبيرة، أفتى فقهاء ذلك العصر، ببطلان الحبس، فقبضت النواحى و صارت من جملة الأموال السلطانية، فمنها ما هو اليوم فى الديوان السلطانيّ، و منها ما صار وقفا و رزقا أحباسية و غير ذلك.

و أما

دار الضرب: فكان بالقاهرة دار الضرب، و بالإسكندرية دار الضرب، و بقوص دار الضرب، و لا يتولى عيار دار الضرب، إلّا قاضى القضاة أو من يستخلفه، ثم رذلت فى زمننا حتى صار يليها مسالمة فسقة اليهود، المصرّين على الفسق، مع ادّعائهم الإسلام، و كان يجتهد فى خلاص الذهب و تحرير عياره، إلى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۷

الناصرية، فجاءت غير خالصة، و كانت بمصر المعاملة بالورق، فأبطلها الملك الكامل، محمد بن أبى بكر بن أيوب فى سنة بضع و عشرين، و ضرب الدرهم المدوّر الذى يقال له:

الكاملىّ، و جعل فيه من النحاس قدر الثلث، و من الفضة الثلثين، و لم يزل يضرب بالقاهرة إلى أن أكثر الأمير، محمود الإستادار من ضرب الفلوس بالقاهرة و الإسكندرية، فبطلت الدراهم من مصر، و صارت معاملة أهلها إلى اليوم بالفلوس، و بها يقوّم الذهب و سائر المبيعات، و سيأتى ذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى، عند ذكر أسباب خراب مصر.

و كانت دار الضرب يحصل منها للسلطان مال كثير، فقلّ فى زماننا لقلة الأموال و دار الضرب اليوم جارية فى ديوان الخاص.

و أما

دار العيار: فكانت مكانا يحتاط فيه للرعية و تصلح موازينهم و مكاييلهم به و يحصل منها للسلطان مال، و جعلها السلطان صلاح الدين من جملة أوقاف سور القاهرة، و قد ذكرت فى خطط القاهرة من هذا الكتاب.

و أما الأحكار: فإنها أجر مقرّرة على ساحات بمصر، و القاهرة، فمنها ما صار دورا للسكنى، و منها ما أنشئ بساتين، و كانت تلك

الأجر من جملة الأموال السلطانية، و قد بطل ذلك من ديوان السلطان، و صارت أحكار مصر، و القاهرة و ما بينهما أوقافا على جهات متعدّدة.

و أما

الغروس: فكانت فى الغربية فقط عدّة أراض يؤخذ منها شبه الحكر عن كل فدّان مقرّر معلوم، و قد بطل ذلك من الديوان.

و أما مقرّر الجسور: فكان على كل ناحية تقرير بعدّة قطع معلومة يجبى منها عن كل قطعة عشرة دنانير لتصرف فى عمل الجسور، فيفضل منها مال كثير يحمل إلى بيت المال، و قد بطل هذا أيضا، و جدّد الناصر فرج على الجسور حوادث قد ذكرت فى أسباب الخراب.

و أما موظف الأتبان: فكان جميع تبن أرض مصر على ثلاثة أقسام: قسم للديوان، و قسم للمقطع، و قسم للفلاح، فيجبى التبن على هذا الحكم من سائر الأقاليم، و يؤخذ فى التبن عن كل مائة حمل أربعة دنانير و سدس دينار، فيحصل من ذلك مال كثير، و قد بطل هذا أيضا من الديوان.

و أما الخراج: فإنه كان فى البهنساوية و سفط ريشين و الأشمونين و الأسيوطية، و الأخميمية و القوصية: أشجار لا تحصى من سنط، لها حرّاس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول، فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه، و كان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار.

و كان يستخرج من هذه النواحى مال يقال له: رسم الخراج، و يحتج فى جبايته بأنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۸

نظير ما تقطعه أهل النواحى، و تنتفع به من أخشاب السنط فى عمائرها، و مقرّر آخر، كان يجبى منهم يعرف بمقرّر السنط، فيصرف من هذا المقرّر أجرة قطع الخشب و حزه بضريبة عن كل مائة حمل دينار، و على المستخدمين فى ذلك أن لا يقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الأسطول، لكنهم إنما يقطعون الأطراف التى ينتفع بها فى الوقود فقط، و يقال لهذا الذى يقطع حطب النار، فيباع على التجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير، و يكتب على أيديهم زنة ما بيع عليهم، فإذا وردت المراكب بالحطب إلى ساحل مصر، اعتبرت عليهم و قوبل ما فيها بما عين فى الرسالة الواردة و استخرج الثمن على ما فى الرسالة، و كانت العادة أنه لا يباع مما فى البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية، و قد بطل هذا جميعه، و استولت الأيدى على تلك الأشجار، فلم يبق منها شىء البتة و نسى هذا من الديوان.

و أما القرظ: فإنه ثمر شجر السنط، و كان لا يتصرّف فيه إلا الديوان، و متى وجد منه مع أحد شىء اشتراه من غير الديوان، نكل به و استهلك ما وجد معه منه، فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع، و يؤخذ من ثمنها الربع عندما تصل إلى ساحل مصر بعد ما تقوّم، أو ينادى عليها و كان فيها حيف كبير، و قد بطل ذلك.

و أما ما يستأدى من أهل الذمّة: فإنه كان يأخذ منهم عما يرد و يصدر معهم من البضائع فى مصر و الإسكندرية و أخميم خاصة دون بقية البلاد، ضرائب بتقرير فى الديوان، و قد بطل ذلك أيضا.

و أما مقرّر الجاموس و مقرّر بقر الخيس و مقرّر الأغنام: فإنه كان للسلطان من هذه الأصناف شىء كثير جدّا فيؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب فى نظير ما يتحصل منه فى كل سنة، من خمسة دنانير إلى ثلاثة دنانير، و من اللاحق بحق النصف من الراتب، و أقل ما تنتج كل مائة خمسون إلى غير ذلك من ضرائب مقرّرة على الجاموس، و على أبقار الخيس، و على الغنم البيض، و الغنم الشعارى، و على النحل، و قد بطل ذلك جميعه لقلة مال السلطان، و إعراضه عن العمارة و أسبابها، و تعاطى أسباب الخراب.

و أما المواريث: فإنها فى الدولة الفاطمية لم تكن كما هى اليوم، من أجل أنّ مذهبهم توريث ذوى الأرحام، و أنّ البنت إذا انفردت

استحقت المال بأجمعه، فلما انقضت أيامهم، و استولت الأيوبية، ثم الدولة التركية، صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية، و هى التى يستحقها بيت المال عند عدم الوارث، فتعدل فيه الوزارة مرّة و تظلم أخرى.

و أما المكوس: فقد تقدّم حدوثها، و ما كان من الملوك فيها، و الذى بقى منها إلى الآن بديار مصر يلى أمره الوزير، و فى الحقيقة إنما هو نفع للأقباط يتخوّلون فيه بغير حق، و قد تضاعفت المكوس فى زمننا عما كنا نعهده، منذ عهد تحدّث الأمير جمال الدين يوسف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۰۹

الإستادار فى الأموال السلطانية، كما ذكر فى أسباب الخراب.

و أما البراطيل: و هى الأموال التى تؤخذ من ولاة البلاد، و محتسبيها و قضاتها و عمالها، فأوّل من عمل ذلك بمصر: الصالح بن رزيك فى ولاة النواحى فقط، ثم بطل، و عمل فى أيام العزيز بن صلاح الدين أحيانا، و عمله الأمير شيخون فى الولاة فقط، ثم أفحش فيه الظاهر برقوق كما يأتى فى أسباب الخراب.

و أما الحمايات و المستأجرات: فشىء حدث فى أيام الناصر فرج، و صار لذلك ديوان و مباشرون، و عمل مثل ذلك الأمراء، و هو من أعظم أسباب الخراب كما يذكر فى موضعه إن شاء اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱۰

ذكر الأهرام

اشارة

اعلم أنّ الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جدّا، منها بناحية بوصير شىء كثير، بعضها كبار، و بعضها صغار، و بعضها طين و لبن، و أكثرها حجر، و بعضها مدرج، و أكثرها مخروط أملس، و قد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر، عدّة كثيرة كلها صغار هدمت فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش، و بنى بها قلعة الجبل و السور المحيط بالقاهرة، و مصر و القناطر التى بالجيزة.

و أعظم الأهرام الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر، و قد اختلف الناس فى وقت بنائها، و اسم بانيها و السبب فى بنائها، و قالوا فى ذلك أقوالا متباينة، أكثرها غير صحيح، و سأقص عليك من نبأ ذلك ما يشفى، و يكفى إن شاء اللّه تعالى.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب فى أخبار مصر و عجائبها فى أخبار سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هوصال أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون فى مدينة أمسوس الآتى ذكرها عند ذكر مدائن مصر من هذا الكتاب، و هو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر المنسوبين إلى شدّاد بن عاد، و القبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوّة سحرهم.

و سبب بناء الهرمين أنه كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة، قد رأى سوريد فى منامه، كأنّ الأرض انقلبت بأهلها، و كأنّ الناس قد هربوا على وجوههم، و كأنّ الكواكب تتساقط و يصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة، فغمه ذلك، و لم يذكره لأحد، و علم أنه سيحدث فى العالم أمر عظيم، ثم رأى بعد ذلك بأيام كأنّ الكواكب الثابتة، نزلت إلى الأرض فى صور طيور بيض، و كأنها تختطف الناس، و تلقيهم بين جبلين عظيمين، و كأن الجبلين قد انطبقا عليهم، و كأن الكواكب المنيرة مظلمة مكسوفة، فانتبه مرعوبا مذعورا، و دخل إلى هيكل الشمس، و تضرّع و مرّغ خدّيه على التراب و بكى، فلما أصبح، جمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر، و كانوا مائة و ثلاثين كاهنا، فخلا بهم و حدّثهم ما رآه أوّلا و آخرا، فأوّلوه بأمر عظيم يحدث فى العالم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱۱

فقال عظيم الكهان، و يقال له: إقليمون: إنّ أحلام الملوك لا تجرى على محال لعظم أقدارهم، و أنا أخبر الملك برؤيا رأيتها منذ سنة، و لم أذكرها لأحد من الناس، رأيت كأنى قاعد مع الملك على وسط المنار الذى بأمسوس، و كأنّ الفلك قد انحط من موضعه حتى قارب رؤوسنا، و كان علينا كالقبة المحيطة بنا، و كأن الملك قد رفع يديه نحو السماء، و كواكبها قد خالطتها فى صور شتى مختلفة الأشكال، و كأنّ الناس قد جفلوا إلى قصر الملك، و هم يستغيثون به، و كأنّ الملك قد رفع يديه حتى بلغتا رأسه، و أمرنى أن أفعل كما فعل، و نحن على و جل شديد، إذ رأينا منها موضعا قد انفتح، و خرج منه نور مضىء، و طلعت علينا منه الشمس، و كأنا استغثنا بالشمس، فخاطبتنا أن الفلك سيعود إلى موضعه، فانتبهت مرعوبا، ثم نمت فرأيت كأن مدينة أمسوس قد انقلبت بأهلها و الأصنام تهوى على رؤوسها، و كأن أناسا نزولا من السماء بأيديهم مقام من حديد يضربون الناس بها، فقلت لهم: و لم تفعلون بالناس كذا؟ قالوا: لأنهم كفروا بإلههم! قلت: فما بقى لهم من خلاص؟

قالوا: نعم، من أراد الخلاص، فليلحق بصاحب السفينة، فانتبهت مرعوبا فقال الملك:

خذوا الارتفاع للكواكب، و انظروا هل من حادث؟ فبلغوا غايتهم فى استقصاء ذلك، و أخبروا بأمر الطوفان، و بعده بالنار التى تخرج من برج الأسد تحرق العالم، فقال الملك:

انظروا هل تلحق هذه الآفة بلادنا؟ فقالوا: نعم، تأتى فى الطوفان على أكثره و يلحقه خراب يقيم عدّة سنين. قال: فانظروا هل يعود عامرا كما كان؟ أو يبقى مغمورا بالماء دائما؛ قالوا:

بل تعود البلاد كما كانت و تعمر، قال: ثم ما ذا؟ قالوا: يقصدها ملك يقتل أهلها، و يغنم مالها؛ قال: ثم ما ذا؟ قالوا: يقصدها قوم مشوّهون من ناحية جبل النيل، و يملكون أكثرها؛ قال: ثم ما ذا؟ قالوا: ينقطع نيلها و تخلو من أهلها؛ فأمر عند ذلك: بعمل الأهرام، و أن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل إلى مكان بعينه، ثم يفيض إلى مواضع من أرض الغرب و أرض الصعيد، و ملأها طلسمات و عجائب و أموالا و أصناما، و أجساد ملوكهم، و أمر الكهان فزبروا عليها جميع ما قالته الحكماء، و زبر فيها و فى سقوفها و حيطانها و أسطواناتها جميع العلوم الغامضة التى يدّعيها أهل مصر، و صوّر فيها صور الكواكب كلها، و زبر عليها أسماء العقاقير و منافعها و مضارها و علم الطلسمات و علم الحساب و الهندسة، و جميع علومهم مفسرا لمن يعرف كتابتهم و لغتهم.

و لما شرع فى بنائها أمر بقطع الأسطوانات العظيمة و نشر البلاط الهائل، و استخراج الرصاص من أرض المغرب و إحضار الصخور من ناحية أسوان، فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة، الشرقىّ و الغربىّ و الملوّن، و كانت لهم صحائف، و عليها كتابة، إذا قطع الحجر و تمّ إحكامه وضعوا عليه تلك الصحائف و ضربوه، فيبعد بتلك الضربة قدر مائة سهم، ثم يعاودون ذلك حتى يصل الحجر إلى الأهرام، و كانوا يمدّون البلاطة، و يجعلون فى ثقب بوسطها قطبا من حديد قائما، ثم يركبون عليها بلاطة أخرى مثقوبة الوسط، و يدخلون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱۲

القطب فيها، ثم يذاب الرصاص و يصب فى القطب حول البلاطة بهندام و إتقان إلى أن كملت.

و جعل لها أبوابا تحت الأرض بأربعين ذراعا، فأما باب الهرم الشرقىّ، فإنه من الناحية الشرقية على مقدار مائة ذراع من وسط حائط الهرم، و أما باب الهرم الغربىّ، فإنه من الناحية الغربية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط، و أما باب الهرم الملوّن فإنه من الناحية الجنوبية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط، فإذا حفر بعد هذا القياس، وصل إلى باب الأزج المبنىّ، و يدخل إلى باب الهرم و جعل ارتفاع كل واحد من الأهرام فى الهواء مائة ذراع، بالذراع الملكىّ، و هو بذراعهم خمسمائة ذراع بذراعنا الآن، و جعل طول كل واحد من جميع جهاته، مائة ذراع بذراعهم، ثم هندسها من كل جانب حتى تحدّدت أعاليها من آخر طولها على ثمانية أذرع بذراعنا، و كان ابتداء بنائها فى طالع سعيد اجتمعوا عليه و تخيروه، فلما فرغت كساها ديباجا ملوّنا من فوقها إلى أسفلها، و عمل لها عيدا حضره أهل مملكته بأجمعهم ثم عمل فى الهرم الغربىّ، ثلاثين مخزنا من حجارة صوّان ملوّن، و ملئت بالأموال الجمة، و الآلات و التماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة، و آلات الحديد الفاخر من السلاح الذى لا يصدأ و الزجاج الذى ينطوى، و لا ينكسر و الطلسمات

الغربية، و أصناف العقاقير المفردة و المؤلفة، و السموم القاتلة، و عمل فى الهرم الشرقىّ أصناف القباب الفلكية و الكواكب، و ما عمله أجداده من التماثيل و الدخن التى يتقرّب بها إلى الكواكب و مصاحفها و كوّن الكواكب الثابتة، و ما يحدث فى أدوارها وقتا وقتا و ما عمل لها من التواريخ، و الحوادث التى مضت، و الأوقات التى ينتظر فيها ما يحدث، و كل من يلى مصر إلى آخر الزمان.

و جعل فيها المطاهر التى فيها المياه المدبرة و ما أشبه ذلك، و جعل فى الهرم الملوّن أجساد الكهنة فى توابيت من صوّان أسود، و مع كل كاهن مصحف فيه عجائب صناعاته و أعماله و سيرته، و ما عمل فى وقته، و ما كان، و ما يكون من أوّل الزمان إلى آخره، و جعل فى الحيطان من كل جانب أصناما تعمل بأيديها جميع الصنائع على مراتبها و أقدارها، و صفة كل صنعة و علاجها و ما يصلح لها، و لم يترك علما من العلوم حتى زبره و رسمه، و جعل فيها أموال الكواكب التى أهديت إلى الكواكب، و أموال الكهنة، و هو شىء عظيم لا يحصى.

و جعل لكل هرم منها خادما، فخادم الهرم الغربىّ: صنم من حجارة صوّان مجزع، و هو واقف و معه شبه حربة و على رأسه حية قد تطوّق بها من قرب منه، و ثبت إليه و طوّقت على عنقه و قتلته، ثم تعود إلى مكانها.

و جعل خادم الهرم الشرقىّ: صنما من جزع أسود مجزع بأسود و أبيض له عينان مفتوحتان برّاقتان، و هو جالس على كرسىّ، و معه حربة إذا نظر أحد إليه سمع من جهته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱۳

صوتا يفزع منه، فيخرّ على وجهه، و لا يبرح حتى يموت.

و جعل خادم الهرم الملوّن: صنما من حجر البهت على قاعدة منه، من نظر إليه جذبه حتى يلتصق به، فلا يفارقه حتى يموت، فلما فرغ من ذلك، حصّن الأهرام بالأرواح الروحانية، و ذبح لها الذبائح لتمنع عن أنفسها من أرادها إلا من عمل لها أعمال الوصول إليها.

و ذكر القبط فى كتبهم: أنّ عليها منقوشا تفسيره بالعربية: أنا سوريد الملك، بنيت هذه الأهرام فى وقت كذا و كذا، و أتممت بناءها فى ست سنين، فمن أتى بعدى، و زعم أنه ملك مثلى، فليهدمها فى ستمائة سنة، و قد علم أن الهدم أيسر من البنيان، و إنى كسوتها عند فراغها بالديباج، فليكسها بالحصر، فنظروا فوجدوا أنه لا يقوم بهدمها شىء من الأزمان الطوال.

و حكى القبط فى كتبهم: أنّ روحانية الهرم الشمالىّ، غلام أمرد أصفر اللون عريان فى فمه أنياب كبار، و روحانية الهرم الجنوبىّ: امرأة عريانة بادية الفرج حسناء فى فمها أنياب كبار تستهوى الإنسان إذا رأته، و تضحك له حتى يدنو منها، فتسلبه عقله، و روحانية الهرم الملوّن: شيخ فى يده مجمرة من مجامر الكنائس يبخر بها، و قد رأى غير واحد من الناس هذه الروحانيات مرارا، و هى تطوف حول الأهرام وقت القائلة، و عند غروب الشمس.

قال: و لمّا مات سوريد، دفن فى الهرم، و معه أمواله و كنوزه. و قالت القبط: إن سوريد هو الذى بنى البرابى، و أودع فيها كنوزا و زبر عليها علوما و وكل بها روحانيات تحفظها ممن يقصدها، قال: و أما الأهرام الدهشورية، فيقال: إن شدات بن عديم هو الذى بناها من الحجارة التى كانت قد قطعت فى زمن أبيه، و شدادت هذا يزعم بعض الناس أنه شدّاد بن عاد، و قال: من أنكر أن يكون العادية دخلت مصر، و إنما غلطوا باسم شدات بن عديم، فقالوا: شدّاد بن عاد، لكثرة ما يجرى على ألسنتهم شدّاد بن عاد، و قلة ما يجرى على ألسنتهم شدات بن عديم، و إلّا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر، و لا قوى على أهلها غير بخت نصر، و اللّه أعلم.

و ذكر أبو الحسن المسعودى فى كتابه أخبار الزمان: و من أباده الحدثان، أن الخليفة عبد اللّه المأمون بن هارون الرشيد، لمّا قدم مصر و أتى على الأهرام، أحب أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها، فقيل له: إنك لا تقدر على ذلك؟ فقال: لا بدّ من فتح شىء منه، ففتحت له الثلمة المفتوحة الآن بنار توقد و خلّ يرش و معاول و حدّادين يعملون فيها حتى أنفق عليها أموالا عظيمة، فوجدوا عرض الحائط قريبا من عشرين ذراعا، فلما انتهوا إلى آخر الحائط، وجدوا خلف الثقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب، وزن كل دينار أوقية، و كان عددها ألف دينار، فجعل المأمون يتعجب من ذلك الذهب و من جودته، ثم أمر بجملة ما أنفق على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱۴

الثلمة فوجدوا الذهب الذى أصابوه لا يزيد على ما أنفقوه، و لا ينقص فعجب من معرفتهم بمقدار ما ينفق عليه، و من تركهم ما يوازيه فى الموضع عجبا عظيما، و قيل: إن المطهرة التى وجد فيها الذهب كانت من زبرجد، فأمر المأمون بحملها إلى خزانته، و كان آخر ما عمل من عجائب مصر.

و أقام الناس سنين يقصدونه، و ينزلون فيه الزلاقة التى فيه، فمنهم من يسلم و منهم من يهلك، فاتفق عشرون من الأحداث على دخوله، و أعدّوا لذلك ما يحتاجون من طعام و شراب، و حبال و شمع و نحوه، و نزلوا فى الزلاقة، فرأوا فيها من الخفاش ما يكون كالعقبان يضرب وجوههم، ثم إنهم أدلوا أحدهم بالحبال، فانطبق عليه المكان، و حاولوا جذبه حتى أعياهم فسمعوا صوتا أربعهم فغشى عليهم، ثم قاموا و خرجوا من الهرم، فبينما هم جلوس يتعجبون مما وقع لهم، إذ أخرجت الأرض صاحبهم حيا من بين أيديهم يتكلم بكلام لم يعرفوه، ثم سقط ميتا، فحملوه و مضوا به فأخذهم الخفراء و أتوا بهم إلى الوالى فحدّثوه خبرهم، ثم سألوا عن الكلام الذى قال صاحبهم قبل موته، فقيل لهم:

معناه: هذا جزاء من طلب ما ليس له، و كان الذى فسر لهم معناه بعض أهل الصعيد.

و قال على بن رضوان الطبيب: فكرت فى بناء الأهرام، فأوجب علم الهندسة العلمية و رفع الثقيل إلى فوق أن يكون القوم هندسوا سطحا مربعا، و نحتوا الحجارة ذكرا و أنثى، و رصوها بالجبس البحرىّ إلى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل، و كانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازى للمربع الأسفل مربعا أصغر من المربع السفلانىّ، ثم عملوا فى السطح المربع الفوقانىّ مربعا أصغر بمقدار ما بقى فى الحاشية ما يمكن رفع الثقيل إليه، و كلما رفعوا حجرا مهندما رصوه إليه ذكرا و أنثى، إلى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الأوّل، و لم يزالوا يفعلون ذلك إلى أن بلغوا غاية لا يمكنهم بعدها أن يفعلوا ذلك فقطعوا الارتفاع، و نحتوا الجوانب البارزة التى فرضوها لرفع الثقيل، و نزلوا فى النحت من فوق إلى أسفل، و صار الجميع هرما واحدا.

و

قياس الهرم الأوّل: بالذراع التى تقاس بها اليوم الأبنية بمصر، كل حاشية منه أربعمائة ذراع، يكون بالذراع السوداء التى طول كل ذراع منها أربعة و عشرون أصبعا خمسمائة ذراع، و ذلك أن قاعدته مربع متساوى الأضلاع، و الزوايا ضلعان منهما، على خط نصف النهار، و ضلعان على خط المشرق و المغرب، و كل ضلع بالذراع السوداء خمسمائة ذراع، و الخط المنحدر على استقامة من رأس الهرم إلى نصف ضلع المربع أربعمائة و سبعون ذراعا، يكون إذا تمم أيضا، خمسمائة ذراع.

و أحيط بالهرم، أربع مثلثات و مربع، و كل مثلث منها متساوى الساقين، كل ساق منه إذا تمم خمسمائة و ستون ذراعا، و المثلثات الأربعة تجتمع رؤوسها عند نقطة واحدة، و هى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱۵

رأس الهرم إذا تمم فيلزم أن يكون عموده أربعمائة و ثلاثين ذراعا، و على هذا العمود مراكز أثقاله، و يكون تكسير كل مثلث من مثلثاته: مائة و خمسة و عشرين ألف ذراع، إذا اجتمع تكاسيرها كان مبلغ تكسير سطح هذا الهرم: خمسمائة ألف ذراع بالسوداء، و ما أحسب على وجه الأرض بناء أعظم منه و لا أحسن هندسة و لا أطول، و اللّه أعلم.

و قد فتح المأمون نقبا من هذا الهرم، فوجد فيه زلاقة تصعد إلى بيت مربع مكعب، و وجد فى سطحه قبر رخام و هو باق فيه إلى اليوم، و لم يقدر أحد يحطه، و بذلك أخبر جالينوس، أنها قبور. فقال فى آخر الخامسة من تدبير الصحة بهذا اللفظ، و هم يسمون، من كان فى هذا السن: الهرم، و هو اسم مشتق من الأهرام التى هم إليها صائرون عن قريب.

و قال الحوقلىّ فى صفة مصر: و بها الهرمان اللذان ليس على وجه الأرض لهما نظير فى ملك مسلم و لا كافر و لا عمل و لا يعمل لهما، و قرأ بعض بنى العباس على أحدهما:

إنى قد بنيتهما فمن كان يدّعى قوّة فى ملكه فليهدمها، فالهدم أيسر من البنيان، فهمّ بذلك و أظنه المأمون أو المعتصم، فإذا خراج مصر لا يقوم به يومئذ، و كان خراجها على عهده بالإنصاف فى الجباية و توخى الرفق بالرعية و المعدلة إذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع، أربعة آلاف ألف و مائتى ألف و سبعة و خمسين ألف دينار، و المقبوض على الفدّان، دينارين، فأعرض عن ذلك و لم يعد فيه شيئا.

و فى حدّ الفسطاط فى غربىّ النيل أبنية عظام يكثر عددها مفترشة فى سائر الصعيد تدعى: الأهرام، و ليست كالهرمين اللذين تجاه الفسطاط، و على فرسخين منها ارتفاع كل واحد منهما: أربعمائة ذراع، و عرضه كارتفاعه، مبنىّ بحجارة الكدّان التى سمك الحجر، و طوله و عرضه من العشر أذرع إلى الثمان بحسب ما دعت الحاجة إلى وضعه فى زيادته و نقصه، و أوجبته الهندسة عندهم لأنهما كلما ارتفعا فى البناء ضاقا حتى يصير أعلاهما من كل واحد منهما مثل مبرك جمل، و قد ملئت حيطانهما بالكتابة اليونانية، و قد ذكر قوم أنهما قبران و ليس كذلك، و إنما حمل صاحبهما على عملهما أنه قضى بالطوفان أنه يهلك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن فى مثلهما، فخزن ذخائره و أمواله فيهما، و أتى الطوفان، ثم نضب فصار ما كان فيهما إلى بيصر بن مصرايم بن حام بن نوح، و قد خزن فيهما بعض الملوك المتأخرين و جعلهما هراءه، و اللّه أعلم.

و قال أبو يعقوب محمد بن إسحاق النديم الوراق فى كتاب الفهرست: و قد ذكر هرمس البابلىّ قد اختلف فى أمره فقيل: إنه كان أحد السدنة السبعة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة، و إنه كان لترتيب عطارد و باسمه سمى، فإن عطارد باللغة الكلدانية: هرمس،

و قيل: إنه انتقل إلى أرض مصر بأسباب، و إنه ملكها و كان له أولاد منهم: طا، و صا، و أشمن، و أتريب، و قفط، و إنه كان حكيم زمانه، و إنه لما توفى دفن فى البناء الذى يعرف بمدينة مصر: بأبى هرمس، و يعرفه العامة بالهرمين، فإن أحدهما قبره و الآخر قبر زوجته، و قيل: قبر ابنه الذى خلفه بعد موته، و هذه البنية يعنى الأهرام: طولها بالذراع الهاشمى، أربعمائة ذراع و ثمانون ذراعا على مساحة أربعمائة و ثمانين ذراعا، ثم ينخرط البناء فإذا حصل الإنسان فى رأسه كان مقدار سطحه أربعين ذراعا، هذا بالهندسة و فى وسط هذا السطح، قبة لطيفة فى وسطها شبيهة بالمقبرة، و عند رأس ذلك القبر صخرتان فى نهاية النظافة و الحسن و كثرة التلوّن، و على كل واحدة منهما شخصان من حجارة، صورة ذكر و أنثى، و قد تلاقيا بوجهيهما، و بيد الذكر لوح من حجارة فيه كتابة، و بيد الأنثى مرآة، و الرف ذهّب نقشه نقاش، و بين الصخرتين برنية من حجارة على رأسها غطاء ذهب، فلما قلع فإذا فيها شبيه بالنار بغير رائحة قد يبس، و فيها حقة ذهب فنزع رأسها، فإذا فيها دم عبيط ساعة قرعه الهواء جمد، كما يجمد الدم و جف، و على القبور أغطية حجارة، فلما قلعت إذا رجل نائم على قفاه على نهاية الصحة و الجفاف بين الخلقة ظاهر الشعور، و إلى جنبه امرأة على هيئته، قال: و ذلك السطح منقر نحو قامة كما يدور مثل المسمار ذات آزاج من حجارة فيها صور و تماثيل مطروحة و قائمة، و غير ذلك من الآلة التى لا تعرف أشكالها.

و قال العلامة موفق الدين عبد اللطيف بن أبى العز يوسف بن أبى البركات محمد بن علىّ بن سعد البغدادى المعروف بابن المطحن فى سيرته، و جاء رجل جاهل عجمىّ، فخيّل إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أن الهرم الصغير تحته مطلب، فأخرج إليه الحجارين و أكثر العسكر و أخذوا فى هدمه، و أقاموا على ذلك شهورا، ثم تركوه عن عجز و خسران مبين فى المال و العقل، و من يرى حجارة الهرم يقول: إنه قد استوصل الهرم، و من يرى الهرم لا يجد به إلا تشعيثا يسيرا، و قد أشرفت على الحجارين فقلت لمقدّمهم: هل تقدرون على إعادته؟ فقال: لو بذل لنا السلطان عن كل حجر ألف دينار لم يمكنا ذلك.

و قال أبو الحسن المسعودى فى مروج الذهب: و أما الأهرام فطولها عظيم و بنيانها عجيب عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة، و الممالك الدائرة لا يدرى ما تلك الكتابة و لا المراد بها، و قد قال من عنى بتقدير ذرعها: أن مقدار ارتفاع الهرم الكبير ذهابا فى الجوّ نحو أربعمائة ذراع أو أكثر، و كلما صعد دق ذلك، و العرض نحو ما وصفنا، و عليها من الرسوم علوم و خواص و سحر

و أسرار الطبيعة، و إن من تلك الكتابة مكتوبا، إنا بنيناها فمن يدّعى موازاتنا فى الملك، و بلوغ القدرة و انتهاء أمر السلطان فليهدمها و ليزع رسمها فإن الهدم أيسر من البناء و التفريق أسهل من التأليف.

و قد ذكر أن بعض ملوك الإسلام شرع يهدم بعضها فإذا خراج مصر لا يفى بقلعها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱۷

و هى من الحجر و الرخام، و أنها قبور لملوك، و كان الملك منهم إذا مات، وضع فى حوض من حجارة، و يسمى بمصر و الشام: الجرون، و أطبق عليه، ثم بنى من الهرم على مقدار ما يريدون من ارتفاع الأساس، ثم يحمل الحوض، و يوضع وسط الهرم، ثم يقنطر عليه البنيان، ثم يرفعون البناء على المقدار الذى يرونه، و يجعل باب الهرم تحت الهرم، ثم يحفر له طريق فى الأرض، و يعقد أزج طوله تحت الأرض مائة ذراع أو أكثر، و لكل هرم من هذه الأهرام باب مدخله على ما وصفت، قال: و كان القوم يبنون الهرم من هذه الأهرام مدرجا ذا مراق كالدرج، فإذا فرغوا نحتوه من فوق إلى أسفل، فهذه كانت جبلتهم، و كانوا مع ذلك لهم قوّة و صبر و طاعة.

و قال فى كتاب البنية و الإشراف: و الهرمان اللذان فى الجانب الغربىّ من فسطاط مصر هما من عجائب بنيان العالم، كل واحد منهما أربعمائة ذراع فى سمك مثل ذلك، مبنيان بالحجر العظيم على الرياح الأربع كل ركن من أركانهما يقابل ريحا منها فأعظمهما فيهما تأثيرا ريح الجنوب و هى: المريسى و أحد هذين الهرمين، قبر أعاديمون، و الآخر قبر هرمس، و بينهما نحو ألف سنة و أعاديمون المتقدّم، و كان سكان مصر و هم الأقباط يعتقدون نبوّتهما قبل ظهور النصرانية فيهم على ما يوجبه رأى الصابئين فى النبوّات لا على طريق الوحى، بل هم عندهم نفوس طاهرة صفت و تهذبت من أدناس هذا العالم، فاتحدت بهم موادّ علوية، فأخبروا عن الكائنات قبل كونها، و عن سرائر العالم و غير ذلك، و فى العرب:

من اليمانية من يرى أنهما قبر شدّاد بن عاد و غيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر فى قديم الدهر، و هم العرب العاربة من العماليق و غيرهم و هى عند من ذكرنا من الصابئين قبور أجساد طاهرة.

و ذكر أبو زيد البلخىّ: أنه وجد مكتوبا على الأهرام بكتابتهم خط فعرّب، فإذا هو:

بنى هذان الهرمان و النسر الوقع فى السرطان، فحسبوا من ذلك الوقت إلى الهجرة النبوية، فإذا هو: ست و ثلاثون ألف سنة شمسية مرتين، يكون اثنتين و سبعين ألف سنة شمسية.

و قال الهمدانى فى كتاب الإكليل: لم يوجد مما كان تحت الماء وقت الغرق من القرى، قرية فيها بقية، سوى نهاوند وجدت كما هى اليوم لم تتغير، و أهرام الصعيد من أرض مصر.

و ذكر أبو محمد عبد اللّه بن عبد الرحيم القيسى فى كتاب تحفة الألباب: أن الأهرام مربعة الجملة مثلثة الوجوه، و عددها ثمانية عشر هرما، فى مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة أهرام، أكبرها دورة ألفا ذراع فى كل وجه خمسمائة ذراع، و علوه خمسمائة ذراع، و كل حجر من حجارتهما ثلاثون ذراعا فى غلظ عشرة أذرع قد أحكم إلصاقه و نحته.

و منها عند مدينة فرعون يوسف، هرم أعظم، و أكبر دوره ثلاثة آلاف ذراع، و علوه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱۸

سبعمائة من حجارة، كل حجر خمسون ذراعا، و عند مدينة فرعون موسى أهرام أكبر و أعظم، و هرم آخر يعرف بهرم، مدون كأنه جبل، و هو خمس طبقات، و فتح المأمون الهرم الكبير الذى تجاه الفسطاط، قال: و قد دخلت فى داخله، فرأيت قبة مربعة الأسفل مدوّرة الأعلى كبيرة فى وسطها بئر عمقها، عشرة أذرع، و هى مربعة ينزل الإنسان فيها، فيجد فى كل وجه من تربيع البئر بابا يفضى إلى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مائة ثوب على كل واحد، قد بليت بطول الزمان و اسودّت و أجسامهم مثلنا ليسوا طوالا، و لم يسقط من أجسامهم، و لا من شعورهم شىء، و ليس فيهم شيخ، و لا من شعره أبيض، و أجسادهم قوية لا يقدر الإنسان أن يزيل عضوا من أعضائهم البتة، و لكنهم خفوا حتى صاروا كالغثا لطول الزمان، و فى تلك البئر أربعة من

الدور مملوءة بأجساد الموتى، و فيها خفاش كثير، و كانوا يدفنون أيضا جميع الحيوان فى الرمال، و لقد وجدت ثيابا ملفوفة كثيرا مقدار جرمها، أكثر من ذراع، و قد احترقت تلك الثياب من القدم، فأزلت الثياب إلى أن ظهرت خرق صحاح قوية بيض من كتان أمثال العصائب فيها أعلام من الحرير الأحمر، و فى داخلها هدهد ميت لم يتناثر من ريشه، و لا من جسده شيء كأنه قد مات الآن.

و فى القبة التى فى الهرم، باب يفضى إلى علو الهرم، و ليس فيه درج عرضه نحو خمسة أشبار، يقال: إنه صعد فيها فى زمان المأمون فأفضوا إلى قبة صغيرة فيها صورة آدمى من حجر أخضر كالدهنج، فأخرجت إلى المأمون، فإذا هى مطبقة، فلما فتحت وجد فيها جسد آدميّ عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر و على صدره نصل سيف لا قيمة له، و عند رأسه حجر ياقوت أحمر كبيضة الدجاجة يضيء كلهب النار فأخذه المأمون.

و قد رأيت الصنم الذى أخرج منه ذلك الميت ملقى عند باب دار الملك بمصر فى سنة إحدى عشرة و خمسمائة.

و قال القاضى الجليل أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعى: روى علىّ بن الحسن بن خلف بن قديد عن يحيى بن عثمان بن صالح عن محمد بن علىّ بن صخر التميمىّ قال:

حدّثنى رجل من عجم مصر من قرية من قراها تدعى قفط، و كان عالما بأمور مصر و أحوالها و طالبا لكتبها القديمة و معادنها، قال: وجدنا فى كتبنا القديمة، قال: و أما الأهرام فإن قوما احتفروا قبرا فى دير أبى هرميس، فوجدوا فيه ميتا فى أكفانه، و على صدره قرطاس ملفوف فى خرق فاستخرجوه من الخرق، فرأوا كتابا لا يعرفونه، و كان الكتاب بالقبطية الأولى، فطلبوا من يقرأه لهم، فلم يقدروا عليه، فقيل لهم: إنّ بدير القلمون من أرض الفيوم راهبا يقرأه، فخرجوا إليه، و قد ظنوا أنه فى الضيعة، فقرأه لهم، و كان فيه: كتب هذا الكتاب فى أوّل سنة من ملك ديقلطيانس الملك، و إنّا استنسخناه من كتاب نسخ: فى أوّل سنة من ملك فيلبش الملك، و إنّ فيلبش استنسخه من صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا، و كان من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۱۹

الكتاب الأوّل، ترجمه له أخوان من القبط يقال لأحدهما: ايلو، و الآخر: يرثا، و إن الملك فيلبس سألهما عن سبب معرفتهما بما جهله الناس من قراءته، فذكرا أنهما من ولد رجل من أهل مصر الأوائل لم ينج من الطوفان من أهل مصر أحد غيره، و كان سبب نجاته أنه أتى نوحا عليه السلام فآمن به، و لم يأته من أهل مصر غيره، فحمله معه فى السفينة، فلما نضب ماء الطوفان أتى مصر، و معه نفر من ولد حام بن نوح، و كان بها حتى هلك، فورث ولده علم كتاب أهل مصر الأوّل، فورثناه عنه كابرا عن كابر.

و كان تاريخه الذى مضى إلى أن استنسخه فيلبش، ألفا و ثلثمائة و اثنتين و سبعين سنة، و إنّ الذى استنسخه فى صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا على ما وجده فيلبش، و إن تاريخه إلى أن استنسخه ألف و سبعمائة سنة و خمس و ثمانون سنة.

و كان الكتاب المنسوخ: إنا نظرنا فيما تدل عليه النجوم، فرأينا أن آفة نازلة من السماء و خارجة من الأرض، فلما بان لنا الكون نظرنا ما هو فوجدناه ماء مفسدا للأرض و حيوانها و نباتها، فلما تمّ اليقين من ذلك عندنا قلنا لملكنا سوريد بن سهلوق: مر ببناء أفروشات و قبر لك و قبر لأهل بيتك، فبنى لهم الهرم الشرقىّ، و بنى لأخيه هو حيث الهرم الغربىّ، و بنى لابن هو حيث الهرم الملوّن، و بنيت أفروشات فى أسفل مصر، و أعلاها فكتبنا فى حيطانها علم غامض أمر النجوم و عللها و الصنعة و الهندسة و الطلب، و غير ذلك مما ينفع و يضرّ ملخصا مفسرا لمن عرف كلامنا و كتابتنا، و إن هذه الآفة نازلة بأقطار العالم، و ذلك عند نزول قلب الأسد فى أوّل دقيقة من رأس السرطان، و يكون الكوكب عند نزوله إياها فى هذه المواضع من الفلك الشمس و القمر فى أوّل دقيقة من رأس الحمل، و قوريس فى درجة و ثمان و عشرين دقيقة من الحمل، و راويس فى الحوت فى تسع و عشرين درجة و ثمان و عشرين دقيقة، و آويس فى الحوت فى تسع و عشرين درجة و ثلاث دقائق، و أفرد و بطر فى الحوت فى ثمان و عشرين درجة و دقائق، و هرمس فى الحوت فى سبع و عشرين و دقائق، و الجوزهر فى الميزان و أوج القمر فى الأسد فى خمس درجات و دقائق.

ثم نظرنا هل يكون بعد هذه الآفة كون مضرّ بالعالم؟ فأصبنا الكواكب تدل على أن آفة نازلة من السماء إلى الأرض و إنها ضدّ الآفة

الأولى و هى نار محرقة أقطار العالم، ثم نظرنا متى يكون هذا الكون المضر؟ فرأيناه يكون، عند حلول قلب الأسد فى آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشر من الأسد، و يكون إبليس معه فى دقيقة واحدة متصلة بقوريس من تثليث الرامى، و يكون راويس مشترى فى أوّل الأسد فى آخر احتراقه، و معه آويس فى دقيقة، و يكون سليس فى الدلو مقابلا لإيليس الشمس، و معه الذنب فى اثنتين و عشرين، و يكون كسوف شديد له مكث يوازى القمر، و يكون هرمس عطارد فى بعده الأبعد أمامها مقبلين، أما إفرد و بطن فللاستقامة، و أما هرمس فللرجعة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۰

قال الملك: فهل عندكم من خبر توقفونا عليه غير هاتين الآفتين؟ قالوا: إذا قطع قلب الأسد ثلثى سدس أدواره لم يبق من حيوان الأرض متحرّك إلا تلف، فإذا استتم أدواره تحللت عقد الفلك، و سقط على الأرض، قال لهم: و أىّ يوم فيه انحلال الفلك؟ قالوا: اليوم الثانى من بدو حركة الفلك، فهذا ما كان فى القرطاس.

فلما مات الملك سوريد بن سهلوق دفن فى الهرم الشرقىّ، و دفن هو حيث فى الهرم الغربىّ، و دفن كرورس فى الهرم الذى أسفله من حجارة أسوان و أعلاه كدان.

و لهذه الأهرام أبواب فى أزج تحت الأرض طول كل أزج مائة و خمسون ذراعا.

فأما باب الهرم الشرقىّ فمن الناحية البحرية، و أما باب أزج الهرم الموزر فمن الناحية القبلية.

و فى الأهرام من الذهب و حجارة الزمرد ما لا يحتمله الوصف.

و إنّ مترجم هذا الكتاب من القبطىّ إلى العربىّ أجمل التاريخين إلى أوّل يوم من توت، و هو يوم الأحد طلوع شمسه سنة خمس و عشرين و مائتين من سنى العرب، فبلغت أربعة آلاف و ثلثمائة و إحدى و عشرين سنة لسنى الشمس، ثم نظر كم مضى للطوفان إلى يومه هذا فوجده ألفا و سبعمائة و إحدى و أربعين سنة و تسعة و خمسين يوما و ثلاث عشرة ساعة و أربعة أخماس ساعة و تسعة و خمسين جزءا من أربعمائة جزء من ساعة، فألقاها من الجملة فبقى معه ثلثمائة و تسع و تسعون سنة و مائتان و خمسة أيام و عشر ساعات و أحد و عشرون جزءا من أربعمائة جزء من ساعة، فعلم أن هذا الكتاب المؤرخ كتب قبل الطوفان بهذه السنين و الأيام و الساعات و الكسر من الساعة.

و أما الهرم الذى بدير أبى هرميس، فإنه قبر قرياس، و كان فارس أهل مصر، و كان يعدّ بألف فارس، فإذا لقيهم لم يقوموا به و انهزموا، و إنه مات فجزع الملك عليه جزعا بلغ منه، و اكتأبت لموته الرعية، فدفنوه بدير هرميس و بنوا عليه الهرم مدرجا، و كان طينه الذى بنى به مع الحجارة من الفيوم، و هذا معروف إذا نظر إلى طينه لم يعرف له معدن إلا بالفيوم و ليس بمنف و وسيم له شبه من الطين.

و أما قبر الملك صاحب قرياس هذا، فإنه الهرم الكبير من الأهرام التى فى بحرى دير أبى هرميس، و على بابه لوح كدان مكتوب فيه باللازورد طول اللوح: ذراعان فى ذراع و كله مملوء كتبا مثل كتب البرابى يصعد إلى باب الهرم بدرج بعضها صحيح لم ينخرم، و فى هذا الهرم ذخائر صاحبه من الذهب و حجارة الزمرد، و إنما سدّ بابه حجارة سقطت من أعاليه و من وقف عليه رآه بيتا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۱

و قال ابن عفير عن أشياخه: أن جياد بن مياد بن شمر بن شدّاد بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام، ملك الإسكندرية، و كانت تسمى إرم ذات العماد، فطال ملكه، و بلغ ثلثمائة سنة.

و هو الذى سار و بنى الأهرام و زبر فيها: أنا جياد بن مياد بن شمر بن شدّاد الشادّ بزراعة الواد المؤيد الأوتاد الجامع الصخر فى البلاد المجند الأجناد الناصب العماد الكند الكناد تخرجه أمّة اسم نبيها حماد آية ذلك إذا غشى بلد البلاد سبعة ملوك أجناس السواد تاريخ هذا الزبر ألف سنة و أربعمائة سنة عداد.

و قال ابن عفير و ابن عبد الحكم: و فى زمان شدّاد بن عاد بنيت الأهرام فيما ذكر بعض المحدّثين، و لم نجد عند أحد من أهل العلم من أهل مصر معرفة فى الأهرام و لا خبر ثبت.

و قال محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكيم: ما أحسب الأهرام بنيت إلا قبل الطوفان، لأنها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس.

و قال عبد اللّه بن شبرمة الجرهمىّ: لما نزلت العماليق أرض مصر حين أخرجها جرهم من مكة بنت الأهرام و اتخذت لها المصانع، و بنت فيها العجائب، و لم تزل بمصر حتى أخرجها مالك بن ذعر الخزاعى.

و قال محمد بن عبد الحكم: كان من وراء الأهرام إلى المغرب أربعمائة مدينة سوى القرى من مصر إلى المغرب فى غربىّ الأهرام.

و قال ابن عفير: و لم يزل مشايخنا من أهل مصر يقولون: الأهرام بناها شدّاد بن عاد و هو الذى بنى المغار، و جنّد الأجناد، فالمغار و الأجناد هى: الدفائن، و كانوا يقولون بالرجعة، و إذا مات أحدهم دفن معه ماله كائنا ما كان، و إن كان صانعا دفن معه آلة صنعته، و كانت الصابئة تحج إلى الأهرام.

و قال أبو الريحان البيروتى فى كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية: و الفرس و المجوس تنكر الطوفان، و أقرّ به بعض الفرس لكنهم قالوا: كان بالشام و المغرب منه شىء فى زمان طهمورث ، و لكنه لم يعمّ العمران كله، و لم يتجاوز عقبة حلوان، و لم يبل ممالك الشرق، و أن أهل المغرب لما أنذر به حكماؤهم بنوا أبنية كالهرمين بمصر ليدخلوها عند الآفة، و إن آثار دماء الطوفان و تأثيرات الأمواج كانت بينة على أنصاف الهرمين لم تتجاوزهما، انتهى.

و يقال: إن الطوفان لما نضب ماؤه لم يوجد تحت الماء قرية سوى: نهاوند، و جدت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۲

كما هى، و أهرام مصر و برابيها و هى التى بناها هرميس الأوّل الذى تسميه العرب: إدريس، و كان قد ألهمه اللّه علم النجوم، فدلته على أنه سينزل بالأرض آفة و أنه سيبقى بقية من العالم يحتاجون فيها إلى علم، فبنى هو و أهل عصره الأهرام و البرابى و كتب علمه فيها.

و قال أبو الصلت الأندلسىّ فى رسالته: و قد ذكر أخلاق أهل مصر، إلا أنه يظهر من أمرهم أنه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف و العلوم، و خصوصا علم الهندسة و النجوم، و يدل على ذلك ما خلفوه من الصنائع البديعة المعجزة كالأهرام و البرابى، فإنها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة، و استعجزت الأفكار الراجحة، و تركت لها شغلا بالتعجب منها و التفكر فيها، و فى مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرى من قصيدته التى يرثى بها أباه:

تضلّ العقول الهبرزيات رشدهاو لا يسلم الرأى القويم من الأفن

و قد كان أرباب الفصاحة كلمارأوا حسنا عدّوه من صنعة الجن

و أىّ شىء أعجب، و أغرب بعد مقدورات اللّه عز و جلّ، و مصنوعاته من القدرة على بناء جسم جسيم من أعظم الحجارة مربع القاعدة مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع و تسعة عشر ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع طول كل ضلع منها: أربعمائة ذراع و ستون، و هو مع العظم من أحكام الصنعة و إتقان الهندام، و حسن التقدير بحيث لم يتأثر إلى هلم جرّا بعصف الرياح و هطل السحاب، و زعزعة الزلازل و هذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربىّ على ما شاهدناه منهما.

و قد ذكرت عجائب مصر و إن ما على وجه الأرض بنية إلا و أنا أرثى لها من الليل و النهار إلّا الهرمان فأنا أرثى لليل و النهار منهما، و هذان الهرمان لهما إشراف على أرض مصر و إطلال على بطائحها، و إصعاد فى جوفها و هما اللذان أراد أبو الطيب المتنبى بقوله شعر:

أين الذى الهرمان من بنيانهما قومه ما يومه ما المصرع

تتخلف الآثار عن سكانهاحينا و يدركها الفناء فتتبع

و اتفق يوما إنا خرجنا إليهما فلما طفنا بهما و استدرنا حولهما، كثر التعجب منهما فقال بعضنا:

بعيشك هل أبصرت أعجب منظراعلى طول ما أبصرت من هرمى مصر

أنافا عنانا للسماء و أشرفاعلى الجوّ إشراف السماك أو النسر

و قد وافينا نشزا من الأرض عالياكأنهما نهدان قاما على صدر

و زعم قوم: إنّ الأهرام قبور ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۳

مماتهم كما تميزوا عنهم فى حياتهم و توخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور و تراخى العصور.

و لما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر بنقبها، فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد و عناء طويل، فوجدوا داخله مهاوى و مراقى يهول أمرها و يعسر السلوك فيها، و وجدوا فى أعلاها بيتا مكعبا طول كل ضلع من أضلاعه، نحو من ثمانية أذرع، و فى وسطه حوض رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمّة باليـة قـد أتت عليها العصور الخاليـة، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ما سواه، و يقال: إن النفقة على نقبة كانت عظيمة و المؤونة شديدة.

و من النـاس من زعم: أنّ هرمس الأوّل المـدعوّ بالمثلث، بالنبوّة و الملك و الحكمـة، و هو الـذى تسـميه العبرانيون: خنوخ بن يزد بن مهلايل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم عليه السلام، و هو إدريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعمّ الأرض، فأكثر من بنيان الأهرام و إيداعها الأموال و صحائف العلوم، و ما يشفق عليه من الذهاب و الدروس حفظا لها و احتياطا عليها.

و يقال: إن الذى بناها ملك اسـمه: سوريد بن سـهلوق بن سـرياق، و قال آخرون: إن الذى بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط شدّاد بن عـاد، لرؤيا رآها، و القبط تنكر دخول العمالقـة بلـد مصـر، و تحقق أن بانيها سوريـد لرؤيا رآها، و هى أن آفـة تنزل من السـماء و هى الطوفان، و قالوا: إنه بناهما فى مدّة ستة أشهر، و غشاهما بالديباج الملوّن، و كتب عليهما:

قـد بنيناهمـا فى سـتة أشـهر قل لمن يأتى من بعـدنا يهـدمهما فى سـتمائة سـنة، فالهـدم أيسـر من البنيان، و كسوناهما الـديباج الملوّن، فليكسـهما حصـرا، فالحصـر أهون من الـديباج، و رأينا سـطوح كل واحد من هذين الهرمين، مخطوطة من أعلاها إلى أسـفلها بسـطور متضايقـة متوازيـة من كتابـة بانيهـا، لا تعرف اليوم أحرفها و لا تفهم معانيها، و بالجملـة الأمر فيها عجيب، حتى أن غايـة الوصف لها و الإغراق فى العبـارة عنهـا، و عن حقيقـة الموصـوف منهـا بخلاـف مـا قـاله علىّ بن العبـاس الرومىّ، و إن تباعـد الموصوفـان و تبـاين المقصودان إذ يقول:

إذا ما وصفت امرأ لامرىءفلا تغل فى وصفه و اقصد

فإنّك إن تغل تبد الظنون فيه إلى الغرض الأبعد

فيصغر من حيث عظمتهلفضل المغيب على المشهد

و يقـال: إنّ المـأمون أمر من صـعد الهرم الكبير أن يـدلى حبلا فكان طوله ألف ذراع بالـذراع الملكىّ، و هو ذراع و خمسان، و تربيعه أربعمائة ذراع فى مثلها، و كان صعوده فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۴

ثلاث ساعات من النهار، و أنه وجد مقدار رأس الهرم قدر مبرك ثمانية جمال.

و يقال: إنه وجـد على المقبور فى الهرم حلّـة قد بليت، و لم يبق منها سوى سـلوكها من الذهب، و أنّ ثخانة الطلاء الذى عليه قدر شبر من مرّ و صبر.

و يقال: إنه وجـد فى موضع من هـذا الهرم إيوان فى صـدره ثلاثـة أبواب على ثلاثة بيوت طول، كل باب منها عشـرة أذرع فى عرض

خمسة أذرع من رخام منحوت محكم الهندام و على صفحاته خط أزرق لم يحسنوا قراءته، و أنهم أقاموا ثلاثة أيام يعملون الحيلة فى فتح هذه الأبواب إلى أن رأوا أمامها على عشرة أذرع منها ثلاثة أعمدة من مرمر، و فى كل عمود خرق فى طوله و فى وسط الخرق صورة طائر، ففى الأوّل من هذه العمد صورة حمام من حجر أخضر، و فى الأوسط صورة بازى من حجر أصفر، و فى العمود الثالث صورة ديك من حجر أحمر، فحرّكوا البازى، فتحرّك الباب الأوّل الذى فى مقابلته، فرفعوا البازى قليلا فارتفع الباب، و كان بحيث لا يرفعه مائة رجل من عظمه، فرفعوا التمثالين الآخرين، فارتفع البابان الآخران، فدخلوا إلى البيت الأوسط فوجدوا فيه ثلاثة سرر من حجارة شفافة مضيئة، و عليها ثلاثة من الأموات على كل ميت ثلاث حلل، و عند رأسه مصحف بخط مجهول، و وجدوا فى البيت الآخر عدّة رفوف من حجارة عليها أسفاط من حجارة، فيها أوان من الذهب عجيبة الصنعة مرصعة بأنواع الجواهر، و وجدوا فى البيت الثالث عدّة رفوف من حجارة عليها أسفاط من حجارة فيها آلات الحرب، و عدد السلاح، فقيس منها سيف فكان طوله سبعة أشبار، و كل ذرع من تلك الدروع اثنا عشر شبرا، فأمر المأمون بحمل ما وجد فى البيوت، و أمر فحطت العمد فانطبقت الأبواب كما كانت.

و يقال: كانت عدّة الأهرام ثمانية عشر هرما منها تجاه مدينة الفسطاط ثلاثة: أكبرها دوره ألفا ذراع و هو مربع فى كل وجه من وجوهه الأربعة خمسمائة ذراع، و يقال: إن المأمون لما فتحه وجد فيه حوضا من حجر مغطى بلوح من رخام، و هو مملوء بالذهب و على اللوح مكتوب بقلم عرّب فكان: إنّا عمرنا هذا الهرم فى ألف يوم و أبحنا لمن يهدمه فى ألف سنة، و الهدم أسهل من العمارة، و كسونا جميعه بالديباج و أبحنا لمن يكسوه الحصر، و الحصر أيسر من الديباج، و جعلنا فى كل جهة من جهاته ما لا يقدر ما يصرف على الوصول إليه، فأمر المأمون أن يحسب ما صرف على النقب، فبلغ قدر ما وجد فى الحوض من غير زيادة و لا نقص.

و يقال: إنه وجد فيه صورة آدميّ من حجر أخضر كالدهنج فيها طبق كالدواة ففتح فإذا فيه جسد آدميّ عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر، و على صدره نصل سيف لا قيمة له، و عند رأسه حجر من ياقوت أحمر فى قدر بيضة الدجاجة، فأخذه المأمون و قال: هذا خير من خراج الذهب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۲۵

و ذكر بعض مؤرخى مصر: أنّ هذا الصنم الأخضر الذى وجدت الرمّة فيه لم يزل معلقا عند دار الملك بمدينة مصر إلى سنة إحدى عشرة و ستمائة من سنى الهجرة.

و كان عند مدينة فرعون، هرمان، و عند ميدوم، هرم، و هذا آخرها.

و فى سنة تسع و سبعين و خمسمائة من سنى الهجرة ظهر بتربة بوصير من ناحية الجيزة بيت هرميس، ففتحه القاضى ابن الشهرزورى و أخذ منه أشياء من جملتها كباش، و قرود و ضفادع من حجر بازهر، و قوارير من دهنج، و أصنام من نحاس.

و قال ابن خرداذبه: من عجيب البنيان أن الهرمين بمصر، سمك كل واحد منهما أربعمائة ذراع، و كلما ارتفع دق، و هما من رخام و مرمر، و الطول أربعمائة ذراع فى عرض أربعمائة ذراع مكتوب عليهما: باليد كل سحر و كل عجيب من الطب، و مكتوب عليهما: إنى بنيتهما فمن يدّعى قوّة فى ملكه فليهدمهما فإنّ الهدم أيسر من البناء فاعتبر ذلك، فإذا خراج الدنيا لا يفى بهدمهما.

و قال فى كتاب عجائب البنيان عن الأهرام: قد انفردت مصر بهذه الأشكال، فليس لها بغيرها تمثال يظنهما الناظر للديار المصرية نهدين، و يحسبهما القابل أن مكارم أهلها قد أعدّتهما للتكرّم ابلوجين تراهما العين على بعد المسافة، و إذا حدثت عن عجائبهما يظنّ أنه حديث خرافة، و قد أكثر الناس فى ذكر الأهرام، و وصفها و مساحتها و هى كثيرة العدد جدّا، و كلّها ببرّ الجيزة على سمت مصر القديمة تمتدّ نحوا من مسافة ثلاثة أيام، و فى بوصير منها شىء كثير، و بعضها كبار، و بعضها صغار، و بعضها طين، و بعضها لبن، و أكثرها حجر، و بعضها مدرج و أكثرها مخروط أملس.

و قد كان منها بالجيزة: عدد كثير كلها صغار هدمت فى زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد الطواشى: بهاء الدين قراقوش، أخذ حجارتها و بنى بها القناطر فى الجيزة، و قد بقى من هذه الأهرام المهدومة تلّها.

و أمّا الأهرام المتحدّث عنها فهى: ثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط، و بينها مسافات كثيرة و زوايا متقابلة نحو الشرق، و اثنان عظيمان جدّا فى قدر واحد، و هما متقاربان و مبنيان بالحجارة البيض، و أما الثالث: فصغير عنهما نحو الربع لكنه مبنىّ بحجارة الصوّان الأحمر المنقط الشديد القوّة و الصلابة، و لا يكاد يؤثر فيه الحديد إلا فى الزمان الطويل، و تجده صغيرا بالقياس إلى ذينك فإذا أتيت إليه و أفردته بالنظر هالك مرآه و حيّر النظر فى تأمله!.

و قد سلك فى بناء الأهرام، طريق عجيب من الشكل و الإتقان، و لذلك صبرت على ممرّ الأيام لا بل على ممرّها صبر الزمان، فإنك إذا تأملتها وجدت الأذهان الشريفة قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۶

استهلكت فيها، و العقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها و الأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، و الملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثالا فى غاية إمكانها، حتى أنها تكاد تحدث عن قوّة قومها، و تخبر عن سيرتهم، و تنطق عن علومهم، و أذهانهم و تترجم عن سيرهم، و أخبارهم، و ذلك أن وضعها على شكل مخروط و يبتدئ من قاعدة مربعة، و ينتهى إلى نقطة. و من خواص الشكل المخروط: أن مركز ثقله فى وسطه يتساند على نفسه، و يتواقع على ذاته و يتحامل بعضه على بعض، و ليس له جهة أخرى يتساقط عليها.

و من عجيب وضعه، أنه شكل مربع قد قوبل بزوايا مهاب الرياح الأربع، فإن الريح تنكسر سورتها عند مسامتتها الزاوية، و ليست كذلك عندما تلقى السطح.

و ذكر المساح: أنّ قاعدة كل من الهرمين العظيمين أربعمائة ذراع بالذراع السوداء، و ينقطع المخروط فى أعلاه عند سطح مساحته عشرة أذرع فى مثلها، و ذكر أن بعض الرماة رمى سهما فى قطر أحدهما، و فى سمكة فسقط السهم دون نصف المسافة، و ذكر أنّ ذرع سطحها أحد عشر ذراعا بذراع اليد، و فى أحد هذين الهرمين، مدخل يلجه الناس يفضى بهم إلى مسالك ضيقة و أسراب متنافذة و آبار و مهالك، و غير ذلك على ما يحكيه من يلجه، و إنّ أناسا كثيرين لهم غرام به و تحيّل فيه فيتوغلون فى أعماقه، و لا بدّ أن ينتهوا إلى ما يعجزون عن سلوكه.

و أما المسلوك المطروق كثيرا، فزلاقة تفضى إلى أعلاه، فيوجد فيه بيت مربع فيه ناوس من حجر، و هذا المدخل ليس هو الباب فى أصل البناء، و إنما هو منقوب نقبا صادف اتفاقا، و ذكر أنّ المأمون فتحه.

و حكى من دخله و صعد إلى البيت الذى فى أعلاه فلما نزلوا حدّثوا بعظيم ما شاهدوه، و إنه مملوء بالخفافيش و أبوالها و تعظم فيه حتى تكون قدر الحمام، و فيه طاقات و روازن نحو أعلاه كأنها عملت مسالك للريح و منافذ للضوء بحجارة جافية طول الحجر منها: من عشرة أذرع إلى عشرين ذراعا، و سمكه من ذراعين إلى ثلاثة أذرع، و عرضه نحو ذلك.

و العجب كل العجب من وضع الحجر على الحجر بهندام ليس فى الإمكان أصح منه بحيث لا نجد بينهما مدخل إبرة و لا خلل شعرة، و بينهما طين لونه الزرقة لا يدرى ما هو؟

و لا ـ صفته؟ و على تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم يوجد بديار مصر من يزعم أنه سمع من يعرفه، و هذه الكتابات كثيرة جدّا حتى لو نقل ما عليها إلى صحف لكانت قدر عشرة آلاف صحيفة، و قرأت فى بعض كتب الصابئة القديمة: أنّ أحد هذين الهرمين، قبر أغاديمون، و الآخر قبر هرمس، و يزعمون أنهما بيتان عظيمان، و أنّ أغاديمون أقدم و أعظم و إنّه كان يحجج إليهما و يهدى إليهما من أقطار البلاد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۷

و كان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه، سوّل له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر، فأخرج إليه النقابين و الحجارين و جماعة من أمراء دولته و عظماء مملكته و أمرهم بهدمه، فخيموا عنده

و حشروا الرجال و الصناع، و وفروا عليهم النفقات و أقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم و رجلهم يهدمون كل يوم بعد الجهد، و استفراغ بذل الوسع الحجر و الحجرين فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين و قوم من أسفل يجذبونه بالقلوس و الأشطان ، فإذا سقط سمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف الجبال، و تزلزل الأرض و يغوص فى الرمل فيتعبون تعبا آخر حتى يخرجوه، و يضربون فيه بالأسافين بعد ما ينقبون لها موضعا، و يثبتونها فيه فيتقطع قطعا و تسحب كل قطعة على العجل حتى يلقى فى ذيل الجبل، و هى مسافة قريبة، فلما طال ثواءهم، و نفدت نفقاتهم، و تضاعف نصبهم، و وهت عزائمهم كفوا محسورين لم ينالوا بغية بل شوّهوا الهرم، و أبانوا عن عجز و فشل، و كان ذلك فى سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة، و مع ذلك فإنّ الرائى لحجارة الهرم يظنّ أنه قد استؤصل فإذا عاين الهرم ظنّ أنه لم يهدم منه شىء و إنما سقط بعض جانب منه، و حين ما شوهدت المشقة التى يجدونها فى هدم كل حجر، سئل مقدّم الحجارين فقيل له: لو بذل لكم السلطان ألف دينار على أن تردّوا حجرا واحدا إلى مكانه و هندامه هل كان يمكنكم؟ فأقسم بالله إنهم ليعجزون عنه و لو بذل لهم أضعاف ذلك.

و بإزاء الأهرام مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار لعلّ الفارس يدخلها برمحه و يتخللها يوما أجمع و لا ينهيها لكبرها وسعتها و بعدها و يظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام.

و أما مقاطع حجارة الهرم الأحمر فيقال: إنها بالقلزم و بأسوان، و عند هذه الأهرام آثار أبنية جبابرة و مغاير كثيرة منقبة، و قلما ترى من ذلك شيئا إلّا و ترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول، و للّه در الفقيه عمارة اليمنىّ حيث يقول:

خليلىّ ما تحت السماء بنيةتماثل فى إتقانها هرمى مصر

بناء يخاف الدهر منه و كلّ ماعلى ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

تنزه طرفى فى بديع بنائهاو لم يتنزه فى المراد بها فكرى

أخذ هذا من قول بعض الحكماء، كل شىء يخشى عليه من الدهر إلا الأهرام فإنه يخشى على الدهر منها، و قال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر بن الحاجب، و مات فى سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۸

سبع و ثمانين و ثلثمائة:

انظر إلى الهرمين إذ برزاللعين فى علو و فى صعد

و كأنما الأرض العريضة قدظمئت لطول حرارة الكبد

حسرت عن الثديين بارزةتدعو الإله لفرقة الولد

فأجابها بالنيل يشبعهاريا و ينقذها من الكمد

لكرامة المولى المقيم بهاخير الأنام مقوّم الأود

و قال سيف الدين بن جبارة:

للّه أىّ عجيبة و غريبةفى صنعة الأهرام للألباب

أخفت عن الأسماع قصة أهلهاو نضت عن الأبداع كل نقاب

فكأنما هى كالخيام مقامةمن غير ما عمد و لا أطناب

و قال آخر:

انظر إلى الهرمين و اسمع منهماما يرويان عن الزمان الغابر

و انظر إلى سرّ الليالى فيهمانظرا بعين القلب لا بالناظر

لو ينطقان لخبرانا بالذىفعل الزمان بأوّل و بآخر

و إذا هما بديا لعينى ناظرو صفا له أذنى جواد عائر

و قال الإمام أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشى:

أ لست ترى الأهرام دام بناؤهاو يفنى لدينا العالم الإنس و الجنّ

كأن رحى الأفلاك أكوارها علىقواعدها الأهرام و العالم الطحن

و قال:

قد كان للماضين منسكان مصرهم

فالفضل عنهم فضلةو العلم فيهم علم

ثم انقضت أعلامهمو علمهم و احتطموا

و انظر تراها ظاهراباد عليها الهرم

و قال:

خليلىّ لا باق على الحدثانمن الأوّل الباقى فيحدث ثانى

إلى هرمى مصر تناهت قوى الورىو قد هرمت فى دهرها الهرمان

فلا تعجبا أن قد هرمت فإنمارمانى بفقدان الشباب زمانى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۹ و عوجا بقرطاجنة فانظرا بهاجنايتى العادين تنتحبان

و إيوان كسرى فانظراه فإنهيخبر كما بالصدق كل أوان

فلا تحسبا أن الفناء يخصنىألا كل ما فوق البسيطة فانى

و وجدت بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى حجلة التلمسانى أنشدنى القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرىّ لنفسه فى الأهرام سنة خمس و خمسين و سبعمائة و أجاد:

أ مبانى الأهرام كم من واعظصدع القلوب و لم يفه بلسانه

اذكرننى قولا تقادم عهدهأين الذى الهرمان من بنيانه

هنّ الجبال الشامخات تكاد أنتمتدّ فوق الأرض عن كيوانه

لو أنّ كسرى جالس فى سفحهالأجلّ مجلسه على إيوانه

ثبتت على حرّ الزمان و بردهمددا و لم تأسف على حدثانه

و الشمس فى إحراقها و الريح عند هبوبها و السيل فى جريانه

هل عابد قد خصها بعبادةفمبانى الأهرام من أوثانه

أو قائل يقضى برجعى نفسهمن بعد فرقته إلى جثمانه

فاختارها لكنوزه و لجسمهقبرا ليأمن من أذى طوفانه

أو أنها للسائرات مراصديختار راصدها أعز مكانه

أو أنها وصفت شؤون كواكبأحكام فرس الدهر أو يونانه

أو أنهم نقشوا على حيطانهاعلما يحار الفكر فى تبيانه

فى قلب رائيها ليعلم نقشهافكر يعض عليه طرف بنانه

ذكر الصنم الذى يقال له أبو الهول

هذا الصنم بين الهرمين عرف أوّلا ببلهيب، و تقول أهل مصر اليوم أبو الهول.

قال القضاعى: صنم الهرمين و هو بلهويه، صنم كبير من حجارة فيما بين الهرمين لا يظهر منه سوى رأسه فقط تسميه العامة بأبى الهول و يقال: بلهيب، و يقال: إنه طلسم للرمل، لئلا يغلب على إبليز الجيزة.

و قال فى كتاب عجائب البنيان: و عند الأهرام رأس و عنق بارزة من الأرض فى غاية العظم تسميه الناس: أبا الهول، و يزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض، و يقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعا فصاعدا، و فى وجهه حمرة و دهان يلمع عليه رونق الطراوة، و هو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء و جمال كأنه يضحك تبسما.

و سئل بعض الفضلاء، عن عجيب ما رأى فقال: تناسب وجه أبى الهول، فإنّ أعضاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۰

وجهه كالأنف و العين و الأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة، فإنّ أنف الطفل مثلا مناسب له، و هو حسن به حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوّها، و كذلك أنف الرجل لو كان لصبىّ لتشوّهت صورته، و على هذا سائر الأعضاء فكل عضو ينبغى أن يكون على مقدار ماهيته بالقياس إلى الصورة و على نسبتها، و العجب من مصوّره كيف قدر أن يحفظ التناسب للأعضاء مع عظمها، و إنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه.

و يقابله فى برّ مصر قريبا من دار الملك: صنم عظيم الخلقة و الهيئة متناسب الأعضاء كما وصف، و فى حجره مولود و على رأسه مأجور، الجميع صوّان ماتع يزعم الناس أنه امرأة و أنها سريّة أبى الهول المذكور، و هى بدرب منسوب إليها و يقال: لو وضع على رأس أبى الهول خيط و مدّ إلى سريته لكان على رأسها مستقيما.

و يقال: إن أبا الهول، طلسم الرمل يمنعه عن النيل، و إنّ السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر.

و قال ابن المتوّج : زقاق الصنم، هو الزقاق الشارع، أوّله بأوّل السوق الكبير بجوار درب عمار، و يعرف الصنم بسرية فرعون، و ذكر أنه طلسم النيل لئلا يغلب على البلد.

و قيل: إن بلهيب الذى عند الأهرام يقابله، و إنّ ظهر بلهيب إلى الرمل، و ظهر هذا إلى النيل، و كل منهما مستقبل الشرق، و قد نزل فى سنة إحدى عشرة و سبعمائة، أمير يعرف ببلاط فى نفر من الحجارين و القطاعين و كسروا الصنم المعروف بالسرية، و قطعوه أعتابا و قواعد ظنا أن يكون تحته مال، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة، فحفر تحتها إلى الماء فلم يوجد شىء، و جعل من حجرة قواعد تحتانية للعمد الصوّان التى بالجامع المستجد بظاهر مصر المعروف: بالجامع الجديد الناصرىّ، و أزيل عين هذا الصنم من مكانه، و اللّه أعلم.

و فى زمننا، كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، قام فى نحو من سنة ثمانين و سبعمائة لتغيير أشياء من المنكرات، و سار إلى الأهرام و شوّه وجه أبى الهول و شعثه، فهو على ذلك إلى اليوم، و من حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة، و أهل تلك النواحى يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضى فساد وجه أبى الهول و للّه عاقبة الأمور، و ما أحسن قول ظافر الحدّاد:

تأمّل هيئة الهرمين و اعجبو بينهما أبو الهول العجيب

كعمار يبتن على رحيلبمحبوبين بينهما رقيب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۱ و ماء النيل تحتهما دموعو صوت الريح عندهما نحيب

و ظاهر سجن يوسف مثل صبتخلف فهو محزون كئيب

و يقال: إن أتريب بن قبط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح أوصى أخاه صا ، عند موته، أن يحمله فى سفينة و يدفنه بجزيرة فى وسط البحر، فلما مات، فعل ذلك من غير أن يعلم به أهل مصر فاتهمه الناس بقتل أتريب، و حاربوه تسع سنين، فلما مضى من حربهم

خمس سنين مضى بهم حتى أوقفهم على قبر أتريب، فحفروه فلم يجدوا به شيئا، و قد نقلته الشياطين إلى موضع أبى الهول، و دفنته هناك بجانب قبر أبيه و جدّه بيصر، فازدادوا له تهمة و عادوا إلى مدينة منف و تحاربوا فأتاهم إبليس، فدلهم على قبر أتريب حيث نقله، فأخرجوه من قبره، و وضعوه على سرير، فتكلم لهم الشيطان على لسانه حتى افتتنوا به و سجدوا له و عبدوه، فيما عبدوا من الأصنام، و قتلوا صا، و دفنوه على شاطىء النيل فكان النيل إذا زاد لا يعلو قبره، فافتتن به طائفة، و قال: قتل ظلما و صاروا يسجدون لقبره كما يسجد أولئك لأتريب، فعمد آخرون إلى حجر فنحتوه على صورة أشموم، و كان يقال له: أبو الهول، و نصبوه بين الهرمين، و جعلوا يسجدون له، فصار أهل مصر ثلاث فرق و لم تزل الصابئة تعظم أبا الهول و تقرّب إليه الديكة البيض و تبخره بالصندروس.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۲

ذكر الجبال

اشارة

اعلم أنّ أرض مصر بأسرها محصورة بين جبلين آخذين من الجنوب إلى الشمال قليلى الارتفاع، و أحدهما أعظم من الآخر، و الأعظم منهما هو الجبل الشرقىّ المعروف بجبل لوقا، و الغربىّ جبل صغير، و بعضه غير متصل ببعض و المسافة بينهما تضيق فى بعض المواضع و تتسع فى بعضها، و أوسع ما يكون بأسفل أرض مصر، و هذان الجبلان أقرعان لا يثبت فيهما نبات، كما يكون فى جبال البلدان الأخر، و علة ذلك: أنهما بورقيان مالحان لأنّ قوّة طين مصر تجذب منهما الرطوبات الموافقة فى التكوين، و لأنّ قوّة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب، و كذلك مياه الآبار منهما مالحة، و هذان الجبلان يجففان ما يدفن فيهما، فإنّ أرض مصر بالطبع قليلة الأمطار.

و جبل لوقا فى مشرق أرض مصر يعوق عنها ريح الصبا، فعدمت مصر هذا الريح، و يعوق أيضا إشراق الشمس على أرض مصر إذا كانت على الأفق و تتعدّد أسماء هذين الجبلين بحسب مواضعهما من الإقليم، فيطلّ على الفسطاط، و على القاهرة الجبل المقطم.

ذكر الجبل المقطم

اعلم أنّ الجبل المقطم أوّله من الشرق من الصين حيث البحر المحيط، و يمرّ على بلاد الططر حتى يأتى فرغانة إلى جبال اليتم الممتدّ بها نهر السغد إلى أن يصل الجبل إلى جيحون فيقطعه، و يمضى فى وسطه بين شعبتين منه و كأنه قطع، ثم فى وسطه و يستمرّ الجبل إلى الجورجان، و يأخذ على الطالقان إلى أعمال مروالرود إلى طوس، فيكون جميع مدن طوس فيه، و يتصل به جبال أصبهان و شيراز إلى أن يصل إلى البحر الهندى، و ينعطف هذا الجبل و يمتدّ إلى شهر زور فيمرّ على الدجلة، و يتصل بجبل الجودىّ موقف سفينة نوح عليه السلام فى الطوفان و لا يزال هذا الجبل مستمرّا من أعمال آمد و ميافارقين، حتى يمرّ بثغور حلب فيسمى هناك جبل اللكام ، إلى أن يعدّى الثغور فيسمى نهرا حتى يجاوز حمص فيسمى لبنان، ثم يمتدّ على الشام حتى ينتهى إلى بحر القلزم من جهة، و يتصل من الجهة الأخرى، و يسمى المقطم، ثم يتشعب و يتصل أواخر شعبه بنهاية الغرب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۳

و يقال: إنه عرف بمقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

و جبل المقطم: يمرّ على جانبى النيل إلى النوبة و يعبر من فوق الفيوم فيتصل بالغرب إلى أرض مقراوة و يمضى مغربا إلى سجلماسة، و منها إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر.

و قال إبراهيم بن وصيف شاه: و ذكر مجىء مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح إلى أرض مصر، و كشف أصحاب إقليمون الكاهن عن

كنوز مصر، و علومهم التى هى بخط البرابى و آثارهم و المعادن من الذهب و الزبرجد و الفيروزج، و غير ذلك. و وصفوا لهم عمل الصنعة يعنى الكيمياء، فجعل مصرايم أهلها إلى رجل من أهل بيعة يقال له: مقيطام الحكيم، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى، فسمى به: المقطم، من أجل أنّ مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء، و اختصر من اسمه و بقى ما يدل عليه، فقيل له: جبل المقطم، يعنى جبل مقيطام الحكيم.

و قال البكرى رحمه اللّه تعالى عليه: المقطم، بضم أوّله و فتح ثانيه، و تشديد الطاء المهملة و فتحها: جبل متصل بمصر يوارون فيه موتاهم.

و قال القضاعى: المقطم، ذكر أبو عبد اللّه اليمنىّ، أنّ هذا الجبل باسمه، و ليس هذا بصحيح لأنه لا يعرف لمصر ولد اسمه المقطم.

و الذى ذكره العلماء: أنّ المقطم مأخوذ من القطم، و هو القطع فكأنه لما كان منقطع الشجر و النبات سمى: مقطما، ذكر ذلك علىّ بن الحسن الهناءى الدوسى المنبوذ بكراع و غيره.

و روى عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم عن الليث بن سعد رضى اللّه عنه، قال:

سأل المقوقس عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين ألف دينار، و فى نسخة: بعشرين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك، و قال: اكتب بذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر: سله لم أعطاك به ما أعطاك و هى لا تزرع، و لا يستنبط بها ماء؟ فسأله، فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا المؤمنين فاقبر فيها، من مات قبلك من المؤمنين، و لا تبعه بشىء، فكان أوّل من قبر فيها رجلا- من المعافر، يقال له: عامر، فقيل: عمرت، فقال المقوقس لعمرو: و ما ذلك و ما على هذا عاهدتنا، فقطع لهم الحدّ الذى بين المقبرة و بينهم.

و ذكر عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر: أن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، سار فى سفح الجبل المقطم، و معه المقوقس، فقال له: ما لجبلكم هذا أقرع؟ أليس به نبات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۴

كجبال الشام فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل و غرسناه نخلا؟ فقال المقوقس: وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجارا و نباتا و فاكهة، و كان منزل المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، فلما كانت الليلة التى كلم اللّه فيها موسى عليه السلام، أوحى اللّه إلى الجبال إنى مكلم نبيا من أنبيائى على جبل منكم فسمت الجبال كلها، و تشامخت إلّا جبل بيت المقدس، فإنه هبط و تصاغر، فأوحى اللّه إليه لم فعلت ذلك؟ و هو به أخبر! فقال:

إعظاما و إجلالا لك يا رب، قال: فأمر اللّه سبحانه الجبال أن يحبوه كل جبل بما عليه من النبت، فجادله المقطم بكل ما عليه من النبت حتى بقى كما ترى، فأوحى اللّه إليه: إنى معوّضك على فعلك بشجر الجنة، أو غراس الجنة، فكتب بذلك عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: إنى لا أعلم شجر الجنة غير المؤمنين فاجعله لهم مقبرة ففعل، فغضب المقوقس من ذلك، و قال لعمرو: ما على هذا صالحتنى، فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى.

قال: و روى أن موسى عليه السلام سجد، فسجد معه كل شجرة من المقطم إلى طرا.

و روى أنه مكتوب، و إذا فتح مقدّسى يريد وادى مسجد موسى عليه السلام بالمقطم عند مقطع الحجارة، فإنّ موسى عليه السلام كان يناجى ربه بذلك الوادى.

و روى أسد بن موسى قال: شهدت جنازة مع موسى بن لهيعة، فجلسنا حوله فرفع رأسه، فنظر إلى الجبل فقال: إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام، مرّ بسفح هذا الجبل، و عليه جبة صوف و قدّ شد وسطه بشريط و أمّه إلى جانبه، فالتفت إليها و قال: يا أمّه هذه مقبرة أمّة محمد صلى اللّه عليه و سلّم، و روى عبد اللّه بن لهيعة، عن عياش بن عباس: أن كعب الأحبار رضى اللّه عنه، سأل رجلا يريد مصر،

فقال له: اهدنى تربة من سفح مقطمها فأتاه منه بجراب، فلما حضرت كعبا الوفاة أمر به، فجعل فى لحده تحت جثته.

و روى عن كعب أنه سئل عن جبل مصر، فقال: إنه لمقدّس ما بين القصير إلى اليحموم، قال ابن لهيعة: و المقطّم: ما بين القصير إلى مقطع الحجارة، و ما بعد ذلك، فمن اليحموم و فى هذا الجبل حجر الجوهر، و شىء من الفولاذ، و هو يمتدّ إلى أقاصى بلاد السودان.

الجبل الأحمر

هذا الجبل مطلّ على القاهرة من شرقيها الشمالىّ، و يعرف: باليحموم. قال القضاعىّ: اليحاميم هى: الجبال المتفرّقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقىّ و جبابها، و تنتهى هذه الجبال إلى بعض طرق الجب، و قيل لها: اليحاميم لاختلاف ألوانها، و اليحموم فى كلام العرب الأسود المظلم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۵

و قال ابن عبد الحكم عن سعى بن عبيد أنه لما قدم مصر، و أهل مصر، قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبى عون التى فى العسكر فقال: ما لهم وضعوا مصلاهم فى الجبل الملعون و تركوا الجبل المقدّس، يعنى المقطّم؟.

و قال ابن عبد الظاهر: الجبل الأحمر، ذكر القضاعىّ: أن اليحموم هو: الجبل المطلّ على القاهرة، و لا أرى جبلا يطلّ على القاهرة غيره.

و قال البكرى: اليحموم، بفتح أوّله و إسكان ثانيه. قال الحربى: اليحموم: جبل بمصر.

و روى من طريق أبى قبيل، عن عبد اللّه بن عمرو: أنه سأل كعبا عن المقطم: المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۱ ؛ ص۲۳۵

ملعون؟ قال: ليس بملعون، و لكنه مقدّس من القصير إلى اليحموم.

و ذكر البكرىّ أيضا: أنّ عابدا، بالباء الموحدة و الدال المهملة، على وزن فاعل: جبل بمصر قبل المقطم.

جبل يشكر

هذا الجبل فيما بين القاهرة و مصر عليه الجامع الطولونى. قال القضاعىّ: جبل يشكر: هو يشكر بن جديلة من لخم، و هو الذى عليه جامع ابن طولون، و يشكر بن جديلة:

قبيلة من قبائل العرب احتطت عند الفتح بهذا الجبل، فعرف بجبل يشكر لذلك.

قال ابن عبد الظاهر: و جامع ابن طولون على جبل يشكر، و هو مكان مشهور بإجابة الدعاء، و مكان مبارك، و قيل: إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات، و كان هذا الجبل يشرف على النيل، و ليس بينه و بين النيل شىء، و كان يشرف على البركتين، أعنى بركة الفيل، و البركة التى تعرف اليوم: ببركة قارون، و على هذا الجبل كانت تنصب المجانيق التى تجرّب قبل إرسالها إلى الثغور.

الكبش: هو جبل، بجوار يشكر كان قديما يشرف على النيل من غربيه، ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر، صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوى و سمى: الكبش.

الشرف: اسم لثلاثة مواضع، فاثنان منها: فيما بين القاهرة و مصر، و واحد فيما بين بركة الحبش و فسطاط مصر، فأما الذى بظاهر القاهرة، فأحدهما عليه الآن قلعة الجبل، و هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۶

من جملة الجبل المقطم، و الآخر: فيما بين الجامع الطولونىّ و مصر، فيشرف غربيه على جهة الخليج الكبير، و يصير فيما بين كوم الجارح، و خط الجامع الطولونىّ، و كان من خطة تجيب، ثم صار من جملة العسكر، و أما الشرف الثالث فيعرف اليوم: بالرصد، و هو يشرف على راشدة، و كان يقال للشرف: سند، و السند: ما قابلك من الجبل، و علا من السفح و يقال: فلان سند، أى: معتمد.

ذكر الرّصد

هذا المكان شرف يطلّ من غربيّه على راشدة، و من قبلّيه على بركة الحبش، فيحسبه من رآه من جهة راشدة جبلا و هو من شرقيه سهل يتوصل إليه من القرافة بغير ارتقاء و لا صعود، و هو محاذ للشرف الذى كان من جملة العسكر، و الشرف الذى يعرف اليوم بالكبش، و كان يقال له قديما: الجرف، ثم عرف بالرصد من أجل أنّ الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ، أقام فوقه كرة لرصد الكواكب، فعرف من حينئذ بالرصد. قال فى كتاب عمل الرصد: و حمل إلى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر من الشام تقاويم لما يستأنف من السنين لاستقبال سنة خمسمائة من سنى الهجرة، قيل: مائة تقويم، أو نحوها، و كان منجمو الحضرة يومئذ ابن الحلبىّ و ابن الهيثمى و سهلون و غيرهم، يطلق لهم الجارى فى كل شهر، و الرسوم و الكسوة على عمل التقويم فى كل سنة، و كان كل منهم يجتهد فى حسابه و ما تصل قدرته إليه، فإذا كان فى غرّة السنة حمل كلّ منهم تقويمه، فيقابل بينها و بين التقويمات المحضرة من الشام، فيوجد بينها اختلاف كثير، فأنكر ذلك، فلما كان غرّة ثلاث عشرة و خمسمائة عند إحصاء التقاويم على العادة، جمع المنجمين و الحساب، و أهل العلم و سألهم عن السبب فى الخلف بين التقاويم؟ فقالوا: الشامىّ يحسب و يعمل على رأى الزيج المهجور المأمونىّ، و نحن نعمل على رأى الزيج الحاكمىّ لقرب عهده، و بين المتقدّم و المتأخر تفاوت و خلف، و قد أجمع القدماء أن القريب العهد أصح من المتقدّم لتنقل الكواكب، و تغير الحساب، و تحدّثوا فى معنى ذلك بما هو مذكور فى موضعه، و أشاروا عليه بعمل رصد مستجدّ يصحح به الحساب، و يخرج به المعور و التفاوت، و تحصل به المنفعة العظيمة و الفائدة الجليلة و السمعة الشريفة و الذكر الباقى، فقال: من يتولى ذلك؟ فقال صاحب دسته و مشيره الشيخ الأجل أبو الحسن بن أبى أسامة: هذا القاضى ابن أبى العيش الطرابلسىّ المهندس العالم الفاضل، و كان ابن أبى العيش صهره زوج ابنته، و هو شيخ كبير السنّ و القدر كثير المال، و ساعده على ذلك القائد أبو عبد اللّه الذى تقلد الوزارة بعد الأفضل، و دعى بالمأمون بن البطائحىّ، فاستصوب الأفضل ذلك، و قال: مروه يهتم بذلك، و يستدعى ما يحتاج إليه، فكان أوّل ما بدأ به لما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۷

حصل ذلك أن مدح نفسه، و كان الأفضل غيورا على كل شىء أشدّ ما عليه من يفتخر أو يلبس ثيابا مذكورة، ثم قال: هذه الآلات عظيمة، و خطرها جسيم و لا كلّ أحد يقوم عليها، و لا يحسنها، و أكثر الكلام و التوسعة، و قال: يحتاج أنّ الذى يتولى ذلك يعتمد معه الإنعام و الإكرام لتطيب نفسه للمباشرة و ينشرح صدره، و يقدح خاطره لما يعمل فى حقه، فضجر الأفضل من ذلك، و قال: لقد أكثر فى مدح نفسه ولده و ما يعاملنا بعد، لا حاجة إلى معاملته، فأشار القائد بن البطائحىّ، و قال: هنا من يبلغ الغرض بأسهل مأخذ، و أقرب وقت و أسرعه، و ألطف معنى أبو سعيد بن قرقة الطبيب متولى خزائن السلاح و السروج و الصناعات و غير ذلك، فأحضره للوقت فاتفق له من الحديث الحسن السهل، و ما سبب عمل الآلات، و من ابتدأها من الأول.

و ذكر القدماء فى العلم: و من رصد منهم واحدا واحدا إلى آخرهم شرحا مستوفيا كأنه يحفظه ظاهرا، أو يقرأه من كتاب، فأعجب الأفضل و الحاضرين، و قال: أىّ شىء تحتاج؟

فقال: ما أحتاج كبير أمر، و الأمور سهلة و كلّ ما أحتاجه فى خزائن السلطان خلد اللّه ملكه، النحاس و الرصاص و الآلات، و كلّ ما أحتاج أستدعيه أوّلا أوّلا، إلّا لنفقات و أجرة الصناع، فيتولاها غيرى، فأعجب به. و قال: يطلق له جار لنفسه، فقال: أنا مستخدم فى عدّة خدم فجوارىّ تكفينى، فأنا مملوك الدولة ما أحتاج إلى جار، و إذا بلغت الغرض، و أنهيت الأشغال فهو المقصود. و كان قيل للأفضل، هذا الرصد يحتاج إلى أموال عظيمة، فقال: كم تقول يحتاج إليه؟ فقال: ما ينفق عليه إلا مثل ما ينفق عليه مسجد، أو مستنظر، فرجع يكرّر عليه القول، فقال: هاتوا ورقة، فكتب فيها المملوك يقبل الأرض و ينهى دعت الحاجة إلى خروج الأمر العالى إلى دار الوكالة بإطلاق مائتى قنطار من النحاس الثجر و ثمانين قنطارا من النحاس القضيب الأندلسىّ، و أربعين قنطارا من النحاس الأحمر و

من الرصاص ألف قنطار، و من الحطب، و من الحديد و الفولاذ من الصناعة ما لعله يحتاج إليه، و من الأخشاب و من النفقة مائة دينار على يد شاهد ينفق عليه، فإذا فرغت أستدعى غيرها، و أختار موضعا يصلح الرصد فيه، و يكون العمل و الصناعة فيه و مباشرة السلطان فيما يتوقف عليه و ما يستأمر فيه، فاستصوب الأفضل جميع ذلك، و أراد أن يخلع عليه. فقال القائد: هذا فيما بعد إذا شوهدت أعماله، فخدم من أوّل الحال إلى آخرها، و لم يحصل له الدرهم الفرد لأنه كان يستحيى أن يطلب، و هو مستخدم عندهم، و كانوا بأجمعهم يؤملون طول المدّة و البقاء، فقتل الأفضل ثانى سنة و تغيرت الأحوال، ثم إنهم اختاروا للرصد مسجد التنور فوق المقطم، فوجدوه بعيدا عن الحوائج، فأجمعوا على سطح الحرف بالمسجد المعروف:

بالفيلة الكبير.

و كان قد صرف على المسجد خاصة ستة آلاف دينار، فحفروا فى مسجد الفيلة نفرا فى الجبل مكان الصهريج الآن، فعمل فيه قالب الحلقة الكبيرة و قطرها عشرة أذرع و دورها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۳۸

ثلاثون ذراعا و هندموه و حرّروه أياما، و عمل حوله عشر هرج على كل هرجة منفاخان، و فى كل هرجة: أحد عشر قنطارا نحاسا، و أقلّ و أكثر و الجميع مائة قنطار و كسر، قسموها على الهرج و طرح فيها النار من العصر، و نفخوا إلى الثانية من النهار، و حضر الأفضل بكرة، و جلس على كرسىّ، فلما تهيأت الهرج، و دارت أمر الأفضل بفتحها، و قد وقف على كل هرجة رجل و أمروا بفتحها فى لحظة، ففتحت، و سال النحاس كالماء إلى القالب، و كان قد بقى فيه بعض النداوة، فلما استقرّ به النحاس بحرارته تقعقع المكان الندى، فلم تتمّ الحلقة، و لما بردت و كشف عنها إذ هى تامة ما خلا المكان الندىّ، فضجر الأفضل و ضاق صدره، و رمى الصناع بكيس فيه ألف درهم، و غضب و ركب فلاطفه ابن قرقة، و قال: مثل هذه الآلة العظيمة التى ما سمع قط بمثلها لو أعيد سبكها عشر مرّات حتى تصح ما كان كثيرا، فقال له الأفضل: اهتم فى إعادتها فسبكت و صحت، و لم يحضر الأفضل فى المرّة الثانية، ففرح بصحتها و عملت و رفعت إلى سطح مسجد الفيلة، و أحضر لها جميع صناع النحاس، و عمل لها بركار خشب من السنديان، و هو بركار عجيب، و بنى فى وسط الحلقة مسطبة حجارة منقبة لرجل البركار، و هو قائم مثل عروس الطاحون، و فيه ساعد مثل ناف الطاحون، و قد لبس بالحديد و الجميع سنديان جيد، و طرف الساعد مهيأ لعدّة فنون، تارة لتصحيح وجه الحلقة، و تارة لتعديل الأجناب، و تارة للخطوط و الحزوز، و أقام فى التصحيح فيها، و أخذ زوائدها بالمبارد مدّة طويلة، و جماعة الصناع و المهندسين و أرباب هذا العلم حاضرون، و استدعى لهم خيمة عظيمة ضربت على الجميع، و عقد تحت الحلقة أقباء وثيقة، و أرادوا قيامها على سطح مسجد الفيلة، فلم يتهيأ لهم فإنهم وجدوا المشرق لأوّل بروز الشمس مسدودا، فاتفقوا على نقلها إلى المسجد الجيوشىّ المجاور الأنطاكى المعروف أيضا بالرصد، و كان الأفضل، بناه ألطف من جامع الفيلة، و لم يكمل.

فلما صار برسم الرصد كمل، فحضر الأفضل، فى نقل الحلقة من جامع الفيلة إلى المسجد الجيوشىّ، و قد أحضرت الصوارى الطوال العظام، و السرياقات و المنحاتات من الإسكندرية و غيرها، و جمعت الأسطولية و رجال السودان، و بعض أصحاب الركاب و الجند حتى أدلوه و حملوه على العجل إلى مسجد الرصد الجيوشىّ، و ثانى يوم حضروا بأجمعهم حتى رفعوه إلى السطح و كملوه، و أقاموا الحلقة و جعلوا تحت أكتافها عمودين من رخام سبكوهما بالرصاص من أسفلهما و أعلاهما، حتى لا يرتخى ثقل النحاس، و جعل فى الوسط عمود رخام و بأعلاه قطب العضادة مسبوك بالنحاس الكثير لتدور عليه العضادة، و عملت من نحاس، فما تمارست، و لا دارت فعملوها من خشب ساج و قطبها و أطرافها من نحاس صفائح ليخف الدوران، ثم رصدوا بها الشمس بعد كلفة، و كانت الحلقة ترخى الدرجة و الدقائق كل وقت للثقل.

فعمل عمود من نحاس فوق عمود الرخام ليمسك رخوها، و غلبوا بعد ذلك فكانت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۳۹

تختلف لشدّة ما كانوا يحرّرونها بالشواقيل و عضادة الخشب، و تردّد إليها الأفضل مع كبر سنه، و هو يرتعش، و القائد يحمله إلى فوق، و يقعد زمانا من التعب لا يتكلّم و يده ترتعش، فرصدوا قدّامه، و فى خلال ذلك قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة و خمسمائة، و قيل للأفضل عن ابن قرقة: إنه أسرف فى كبر الحلقة، و عظم مقدارها، فقال له الأفضل:

لو اختصرت منها كان أهون، فقال: و حق نعمتك لو أمكننى أن أعمل حلقة تكون رجلها الواحدة على الأهرام، و الأخرى على التنور فعلت، فكلما كبرت الآلة صح التحرير، و أين هذا فى العالم العلوىّ، ثم أكثروا عليه، فعمل حلقة دونها فى الموضع المهندم بالطوب الأحمر تحت المسجد الجيوشى، كان قطرها أقل من سبعة أذرع و دورها نحو أحد و عشرين ذراعا.

فلما كملت، قتل الأفضل، و لم ينفق من مال السلطان فى الأجرة و المؤن، و ما لا بدّ منه سوى نحو مائة و ستين دينارا، فلما تمت الوزارة للمأمون البطائحىّ، أحب أن يكملها، و يقال له: الرصد المأمونى المصحح، كما قيل للأوّل: الرصد المأمونى الممتحن، فأخرج الأمر بنقل الرصد إلى باب النصر بالقاهرة، فنقل على الطريقة الأولى بالعتالين و الأسطولية و طوائف الرجال، و كان يدفع لهم كل يوم برسم الغداء جملة دراهم، فلما صار فوق العجل مضوا به على الخندق من وراء الفتح على المشاهد إلى مسجد الذخيرة من ظاهر القاهرة، و تعبوا فى دخوله من باب النصر تعبا عظيما لخوفهم أن يصدم فيتغير، فنصبوا الصوارى على عقد باب النصر من داخل الباب، و تكاثر الرجال فى جذب المياحين من أسفل، و من فوق حتى وصل إلى السطح الكبير.

ثم نقلوه من السطح الكبير إلى السطح الفوقانىّ، و أوقفوا له العمد كما تقدّم ذكره، و رصدوا بالحلقة الكبرى كما رصدوا بها على سطح الجرف، فصح لهم ما أرادوا من حال الشمس فقط، ثم اهتموا بعمل ذات حلق يكون قطرها خمسة أذرع، و سبكت فى فندق بالعطوفية من القاهرة، و كان الأمر فيها سهلا عندما لحقهم من العناء العظيم فى الحلقة الكبيرة، و الحلقة الوسطى، و تجرّد المأمون لعملها، و الحثّ فيها، و كان ابن قرقة يحضر كل يوم دفعتين، و يحضر أبو جعفر بن جسندای و أبو البركات بن أبى الليث صاحب الديوان و بيده الحل، و العقد فقال له المأمون: اطلع إليهم كل يوم و أىّ شىء طلبوه وقع لهم به من غير مؤامرة، و كان قصده ما أطمعوه فيه من أن يقال: الرصد المأمونىّ المصحح، فلو أراد اللّه أن يبقى المأمون قليلا كان كمل جميع رصد الكواكب، لكنه قبض عليه ليلة السبت ثالث شهر رمضان سنة تسع عشرة و خمسمائة، و كان من جملة ما عدّد من ذنوبه عمل الرصد المذكور، و الاجتهاد فيه، و قيل: أطمعته نفسه فى الخلافة بكونه سماه الرصد المأمونىّ، و نسبه إلى نفسه، و لم ينسبه إلى الخليفة الآمر بأحكام اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۴۰

و أما العامة و الغوغاء، فكانوا يقولون: أرادوا أن يخاطبوا زحل، و أرادوا أن يعلموا الغيب، و قال آخرون منهم: عمل هذا للسحر، و نحو ذلك من الشناعات، فلما قبض على المأمون، بطل و أنكر الخليفة على عمله، فلم يجسر أحد أن يذكره، و أمر فكسر، و حمل إلى المناخات، و هرب المستخدمون و من كان فيه من الخاص، و كان فيه من المهندسين برسم خدمته و ملازمته فى كل يوم بحيث لا يتأخر منهم أحد (الشيخ أبو جعفر بن حسندای و القاضى ابن أبى العيش، و الخطيب أبو الحسن علىّ بن سليمان بن أيوب، و الشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندرانىّ المهندس، و أبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس، و غيرهم من الحساب و المنجمين، كابن الحلبىّ و ابن الهيثمى و أبى نصر تلميذ سهلون و ابن دياب و القلعىّ، و جماعة يحضرون كل يوم إلى ضحوة النهار)، فيحضر صاحب الديوان ابن أبى الليث، و كان ابن حسندای ربما تأخر فى بعض الأيام فإنه كان امرأ عظيما صاحب كبرياء و هيبة، و فى كل يوم يبعث المأمون من يتفقد الجماعة، و يطالعه بمن غاب منهم لأنه كان كثير التفقد للأمور كلها، و له غمازون و أصحاب أخبار لا تنام، و لا يكاد يفوته شىء من أحوال الخاصة و العامّة بمصر و القاهرة، و من يتحدّث.

و جعل فى كل بلد من الأعمال من يأتيه بسائر أخبارها. و أنا أدركت هذا الموضع الذى يعرف اليوم: بالرصد، حيث جامع الفيلة عامرا فيه عدّة مساكن و مساجد، و به أناس مقيمون دائما، و قد خرب ما هناك، و صار لا أنيس به و كان الملك الناصر: محمد بن قلاون، قد أنشأ فيه سواقى لنقل الماء من أماكن قد حفر لها خليج من البحر، بجوار رباط الآثار النبوية، فإذا صار الماء فى سفح هذا الجرف

المسمى بالرصد نقل بسواق هناك، قد أنشئت إلى أن يصير إلى القلعة، فمات و لم يكمل ما أراده من ذلك، كما ذكر فى أخبار قلعة الجبل من هذا الكتاب، و ما زال موضع هذا الرصد منتزها لأهل مصر.

و يقال: إنّ المعز لدين اللّه معدّا لما قدم من بلاد المغرب إلى القاهرة لم يعجبه مكانها؟ و قال للقائد جوهر: فاتك بناء القاهرة على النيل، فهلا كنت بنيتها على الجرف؟

يعنى هذا المكان، و يقال: إن اللحم علق بالقاهرة، فتغير بعد يوم و ليلة، و علق بقلعة الجبل، فتغير بعد يومين و ليلتين، و علق فى موضع الرصد، فلم يتغير ثلاثة أيام و لياليها لطيب هوائه، و للّه در القائل:

يا ليلة عاش سرورى بهاو مات من يحسدنا بالكمد

و بت بالمعشوق فى المشتهىو بات من يرقبنا بالرصد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۴۱

ذكر مدائن أرض مصر

اشارة

قال ابن سيده : مدّن بالمكان: أقام، و المدينة: الحصن يبنى فى أسطحة الأرض، مشتق من ذلك، و الجمع: مدائن و مدن، و من هنا حكم أبو الحسن فيما حكى الفارسىّ عنه: أنّ مدينة فعيلة، و قال العلامة أثير الدين أبو حيان: المدينة معروفة مشتقة من مدن، فهى: فعيلة و من ذهب إلى أنها مفعلة من دان، فقوله ضعيف لإجماع العرب على الهمز فى جمعها، فإنهم قالوا: مدائن بالهمز، و لا يحفظ مداين بالياء، و لا ضرورة تدعو إلى أنها مفعلة من دان، و يقطع بأنها فعيلة جمعهم لها، على فعل فإنهم قالوا مدن، كما قالوا صحف فى صحيفة؛ و اعلم أن مدائن مصر كثيرة، منها ما دثر و جهل اسمه و رسمه، و منها ما عرف اسمه و بقى رسمه، و منها ما هو عامر.

و أوّل مدينة عرف اسمها فى أرض مصر، مدينة: أمسوس، و قد محا الطوفان رسمها، و لها أخبار معروفة؛ و بها كان ملك مصر قبل الطوفان، ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان، مدينة منف، و كان بها ملك القبط و الفراعنة، إلى أن خربها، بخت نصر، فلما قدم الإسكندر بن فيليبس المقدونىّ من مملكة الروم عمّر مدينة الإسكندرية عمارة جديدة، و صارت دار المملكة بمصر إلى أن قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين، و فتح أرض مصر، فاختط فسطاط مصر، و صارت مدينة مصر إلى أن قدم جوهر القائد من الغرب بعساكر المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، و ملك مصر، و اختط القاهرة، فصارت دار المملكة بمصر إلى زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فبنى قلعة الجبل، و صارت القاهرة مدينة مصر إلى يومنا هذا.

و فى أرض مصر: عدّة مدائن ليست دار ملك و هى: مدينة الفيوم، و مدينة دلاص، و مدينة أهناس، و مدينة البهنسا، و مدينة القيس، و مدينة طلخا، و مدينة الأشمونين، و مدينة أنصنا، و مدينة قوص، و مدينة سيوط، و مدينة فاو، و مدينة أخميم، و مدينة البلينا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۴۲

و مدين هوّ، و مدينة قنا و مدينة دندرة، و مدينة قفط، و مدينة الأقصر، و مدينة اسنا، و مدينة أرمنت، و مدينة أدفو، و ثغر أسوان، و أدركناه مدينة هذه مدائن الوجه القبلى.

و كان أهل مصر يسمون من سكن من القبط بالصعيد: المريس، و من سكن منهم أسفل الأرض يسمونه: البمبا، و فى الوجه البحرى مدينة: نوب من الحوف الشرقى بأسفل الأرض، و مدينة عين شمس، و مدينة أتريب، و مدينة تنوا، و من قراها ناحية زنكلون، و مدينة نمىّ، و مدينة بسطه و يعرف اليوم موضعها: بتل بسطة، و مدينة قربيط، و مدينة البتنون، و مدينة منوف، و مدينة طرّة، و مدينة منوف أيضا، و مدينة سخا، و مدينة الأوسة و هى: دميرة، و مدينة تيدة، و مدينة الأفراحون، و من جملة قراها: نشا، و مدينة بقيرة، و مدينة بنا،

و مدينة شبراساط، و مدينة سمنود، و مدينة نوسا، و مدينة سبتى، و مدينة النجوم، و قد غلب على مدينة النجوم: الرمال و السباخ و يعرف اليوم منها: قرية أدكو على ساحل البحر بين إسكندرية و رشيد، و مدينة تنيس، و مدينة دمياط، و مدينة الفرما، و مدينة العريش، و مدينة صا، و مدينة برنوط، و مدينة قرطسا، و مدينة أخنو، و مدينة رشيد، و مدينة مريوط، و مدينة لوبية و مراقية، و ليس بعد لوبية و مراقية إلا أرض أنطابلس و هى: بريّة، و فى كور القبلة مدينة فاران، و مدينة القلزم، و مدينة راية، و مدينة ايلة، و مدينة مدين؛ و أكثر هذه المدائن قد خرب و منها ما له أخبار معروفة، و قد استحدث فى الإسلام بعض مدائن و سيأتى من أخبار ذلك إن شاء اللّه ما يكفى.

و ديار مصر اليوم و جهان: قبلىّ و بحرىّ جملتهما، خمس عشرة ولاية.

فالوجه القبلىّ أكبرهما، و هو تسعة أعمال عمل قوص، و هو أجلها، و منه أسوان و غرب قمولة، و أسوان حدّ المملكة من الجنوب، و عمل أخميم، و عمل سيوط، و عمل منفلوط، و عمل الأشمونين و بها الطحاوية، و عمل البهنسا، و عمل الفيوم، و عمل اطفيح، و عمل الجيزة.

و الوجه البحرىّ ستة أعمال: عمل البحيرة، و هو متصل البرّ بالإسكندرية و برقة، و عمل الغربية و هى جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين: بحر دمياط، و بحر رشيد، و المنوفية و منها: أبيار التى تسمى: جزيرة بنى نصر، و عمل قليوب، و عمل الشرقية، و عمل أشموم طناح، و منها الدقهلية، و المرتاحية، و هنا موضع ثغر البرلس و ثغر رشيد و المنصورة، و فى هذا الوجه الإسكندرية و دمياط و هما مدينتان لا عمل لهما.

و ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: أن الكوكة و هى: أمّة من أهل أيلة ملكو الأرض و قسموا الصعيد على ثمانين كورة، و جعلوه أربعة أقسام، و كان عدد مدن مصر الداخلة فى كورها ثلاثين مدينة فيها جميع العجائب، و الكور مثل: أخميم و قفط و قوص و الفيوم و يقال: إنّ مصر بن بيصر، قسم الأرض بين أولاده فأعطى ولده أشمون من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۴۳

حدّ بلده إلى رأس البحر إلى دمياط، و أعطى ولده أنصنا من حدّ أنصنا إلى الجنادل، و أعطى لولده صا: من صا أسفل الأرض إلى الإسكندرية، و أعطى لولده منوف وسط الأرض السفلى منف و ما حولها، و أعطى لولده قفط غربىّ الصعيد إلى الجنادل، و أعطى لولده أتريب شرقىّ الأرض إلى البريّة بريّة فاران، و أعطى لبناته الثلاثة و هن: الفرما، و سريام، و بدورة، بقاعا من أرض مصر محدّدة فيما بين إخوتهن.

ذكر مدينة أمسوس و عجائبها و ملوكها

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب فى كتاب أخبار مصر و عجائبها: و كانت مصر القديمة اسمها: أمسوس.

و أوّل من ملك أرض مصر نقراوش الجبار بن مصرايم. و معنى نقراوش: ملك قومه الأوّل ابن مركاييل بن دواييل بن عرياب بن آدم عليه السلام، ركب فى نيف و سبعين راكبا من بنى عرياب جبابرة كلهم يطلبون موضعا يقطنون فيه فرارا من بنى أبيهم، عندما بغى بعضهم على بعض، و تحاسدوا و بغى عليهم بنو قابيل بن آدم، فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فلما رأوا سعة البلد فيه، و حسنه أعجبهم، فأقاموا فيه و بنوا الأبنية المحكمة، و بنى نقراوش: مصر، و سماها باسم أبيه: مصرايم، ثم تركها، و أمر ببناء مدينة سماها:

أمسوس.

و قال ابن وصيف شاه: و كان قد وقع إليه علم ذلك من العلوم التى تعلمها دواييل من آدم عليه السلام، فبنى الأعلام، و أقام الأساطين و عمل المصانع و استخرج المعادن، و وضع الطلسمات و شق الأنهار و بنى المدائن، فكل علم جليل كان فى أيدى المصريين إنما هو

من فضل علم نقراوش، و أصحابه. كان ذلك مرموزا على الحجارة ففسره قليمون الكاهن الذى ركب مع نوح عليه السلام فى السفينة و نقراوش هو الذى بنى مدينة أمسوس، و عمل بها عجائب كثيرة منها: طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرّتين، و عند غروبها مرّتين، فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيأون له. و منها صنم من حجر أسود فى وسط المدينة تجاهه صنم مثله إذا دخل إلى المدينة سارق لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما، فإذا دخل بينهما أطبقا عليه، فيؤخذ و عمل صورة من نحاس على منار عال لا يزال عليها سحاب يطلع، فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء، و عمل عمل حدّ البلاد أصناما من نحاس مجوّفة و ملأها كبريت، أو و كل بها روحانية النار، فكانت إذا قصدهم قاصد أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارا أحرقته، و عمل فوق جبل بطرس، منارا يفور بالماء، و يسقى ما حوله من المزارع، و لم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان، و يقال: إنه هو الذى أصلح مجرى النيل، و كان قبله يتفرّق بين الجبلين، و إنه وجه إلى بلاد النوبة جماعة هندسوه، و شقوا نهرا عظيما منه بنوا عليه المدن، و غرسوا الغروس، و أحب أن يعرف مخرج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۴۴

النيل، فسار حتى بلغ خلف خط الاستواء، و وقف على البحر الأسود الزفتى، و رأى النيل يجرى على البحر مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القمر، و يخرج منه إلى بطائح.

و يقال: إنه هو الذى عمل التماثيل التى هناك، و عاد إلى أمسوس و قسم البلاد بين أولاده، فجعل لابنه الأكبر و اسمه: نقاوش الجانب الغربىّ، و لابنه شورب الجانب الشرقىّ، و بنى لابنه الأصغر و اسمه: مصرايم مدينة برسان، و أسكنه فيها، و أقام ملكا على مصر مائة و ثمانين سنة، و لما مات لطخ جسده بأدوية ماسكة، و جعل فى تابوت من ذهب، و عمل له ناوس مصفح بالذهب، و وضع فيه و معه كنوز و إكسير و أوان من ذهب لا يحصى ذلك لكثرته، و زبروا على الناوس تاريخ موته، و أقاموا عليه طلسما يمنعه من الحشرات المفسدة.

و ملك بعده ابنه نقاوش بن نقراوش و كان كأبيه فى علم الكهانة و الطلسمات، و هو أوّل من عمر بمصر هيكلا، و جعل فيه صور الكواكب السبعة، و كتب على هيكل كلّ كوكب منافعه و مضاره، و ألبسها كلها الثياب الفاخرة، و أقام لها خدمة و سدنة، و خرج من أمسوس مغرّبا، حتى بلغ البحر المحيط، و أقام عليه أساطين على رؤوسها أصنام تسرج عيونها فى الليل، و مضى على بلاد السودان إلى النيل، و أمر ببناء حائط على جنب النيل، و عمل له أبوابا يخرج منها الماء و بنى فى صحراء الغرب، خلف الواحات ثلاث مدن على أساطين مشرفات من حجارة ملوّنة شفافة، و فى كل مدينة عدّة خزائن من الحكمة، و فى إحداها صنم للشمس على صورة إنسان، و جسد طائر من ذهب و عيناه من جوهر أصفر، و هو جالس على سرير من مغناطيس، و فى يده مصحف العلوم، و فى إحداها صنم رأسه رأس إنسان بجسد طائر، و معه صورة امرأة جالسة قد عملت من زئبق معقود لها ذؤابتان فى يدها مرآة، و على رأسها صورة كوكب، و قد رفعت المرآة بيديها إلى وجهها، و فى إحداها مطهرة فيها سبعة ألوان من سائل يرد إليها و لا يغير بعضها لون بعض، و فى بعضها: صورة شيخ جالس قد عمل من الفيروزج و بين يديه صبية جلوس كلهم من عقيق، و فى بعضها صورة هرمس، يعنى عطارد، و هو ينظر إلى مائدة بين يديه من نوشادر على قوائم من كبريت أحمر، و فى وسطها صحفة من جوهر، و جعل فيها صورة عقاب من زبرجد أخضر، و عيناه من ياقوت أصفر، و بين يديه حية زرقاء من فضة قد لوت ذنبها على رجليه، و رفعت رأسها كأنها تنفخ عليه، و جعل فيها صفة المرّيخ و هو راكب على فرس و فى يده سيف مسلول من حديد أخضر، و جعل فيها عمودا من جوهر أحمر، و عليه قبة من ذهب فيها صورة المشترى، و جعل فيها قبلة من آنك على أربعة أعمدة من جزع أزرق، و فى سقفها صورة الشمس و القمر متحاذيين فى صورة رجل و امرأة يتحادثان، و جعل فيها قبة من كبريت أحمر فيها صورة الزهرة على هيئة امرأة ممسكة بضفائرها، و تحتها رجل من زبرجد أخضر فى يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۴۵

و جعل فی بقیهٔ الخزائن من کنوز الأموال و الجواهر و الحلی و إکسیر الصنعهٔ، و صنوف الأدویهٔ و السموم القاتلهٔ ما لا یحصی کثرهٔ، و جعل علی باب کل مدینهٔ طلسما یمنع من دخولها، و أنفذ لها مسارب تحت الأرض ینفذ بعضها إلی بعض طول کل سرب ثلاثهٔ أمیال، و بنی أیضا مدینهٔ بأرض مصر اسمها: حلجمهٔ، و عمل فیها جنّهٔ صفح حیطانها بالجواهر الملوّنهٔ بالذهب، و غرس فیها أصناف الأشجار، و أجری تحتها الأنهار، و غرس فیها شجرهٔ مولدهٔ تطعم سائر الفواکه، و عمل فیها قبهٔ من رخام أحمر علی رأسها صنم یدور مع الشمس، و وکل بها شیاطین إذا خرج أحد من بیته فی اللیل هلک.

و أقام بها أساطین زبر علیها جمیع العلوم، و صور العقاقیر و منافعها و مضارها، و جعل لهذه المدینهٔ مسارب تتصل بمسارب تلک المدن الثلاث بین کل سرب منها، و بین هذه المدینهٔ عشرون میلا، فلم تزل هذه المدائن حتی أفسدها الطوفان، و لمّا مات بعد مائهٔ و تسع سنین من ملکه علی مصر جعل فی ناوس مطلسم، و دفن فیه.

و ملک بعده أخوه مصرام بن نقراوش الجبار بن مصرایم و یقال: به سمیت مصر، و کان حکیما فعمل هیکلا للشمس من مرمر مموّه بذهب أحمر، و فی وسطه فرس من جوهر أزرق علیه صورهٔ الشمس من ذهب أحمر، و علی رأسه قندیل من الزجاج فیه حجر مدبر یضیء أکثر من السراج، ثم إنه ذلل الأسد و رکبها و سار إلی البحر المحیط، و جعل فی وسطه قلعهٔ بیضاء علیها صنم للشمس، و زبر علیه اسمه و صفته، و عمل صنما من نحاس زبر علیه:

أنا مصرایم الجبار کاشف الأسرار الغالب القهار، وضعت الطلسمات الصادقهٔ، و أقمت الصور الناطقهٔ، و نصبت الأعلام الهائلهٔ علی البحار السائلهٔ لیعلم من بعدی، إنه لا یملک أحد أشدّ من أیدی، و عاد إلی أمسوس، و احتجب عن الناس ثلاثین سنهٔ، و استخلف رجلاـ یقال له: عیقام من ولد عریاب بن آدم، و کان کاهنا ساحرا. فلمّا مضت المدّهٔ أحب أهل مصر أن یروه، فجمعهم عیقام بعدما أعلم مصرایم، فظهر لهم، فی أعلی مجلس مزین بأصناف الزینهٔ فی صورهٔ هائلهٔ ملأت قلوبهم رعبا، فخرّوا له ساجدین، و دعوا له، ثم أحضر إلیهم الطعام فأکلوا و شربوا، و أمرهم بالرجوع إلی مواضعهم و لم یروه بعدها.

فملک بعده خلیفته عیقام، و قد حکی عنه أهل مصر حکایات لا تصدّقها العقول.

و یقال: إنّ إدریس علیه السلام، رفع فی أیامه و إنه رأی فی علمه کون الطوفان، فبنی خلف خط الاستواء فی سفح جبل القمر، قصرا من نحاس، و جعل فیه خمسهٔ و ثمانین تمثالا من نحاس یخرج ماء النیل من حلوقها، و یصب فی بطحاء تنتهی إلی مصر، و سار إلیه من أمسوس، فشاهد حکمهٔ بنیانه و زخرفهٔ حیطانه، و ما فیها من النقوش من صور الأفلاک، و غیرها، و کان قصرا تسرج فیه المصابیح، و تنصب به الموائد و علیها من کل الأطعمهٔ

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۱، ص: ۲۴۶

الفاخرهٔ فی الأوانی النفیسهٔ ما لو أکل منها عسکر لما نقصت ذرهٔ، و لا یعرف من عملها، و لا من وضعها، و فی وسط القصر برکهٔ من ماء جامد الظاهر، و تری حرکته من وراء ما جمد منه، فأعجب بما رأی، و عاد إلی أمسوس، و استخلف ابنه عریاق، و قلده الملک، و أوصاه، و عاد إلی ذلک القصر، و أقام به حتی هلک.

و إلی عیقام هذا یعزی مصحف القبط الذی فیه تواریخهم، و جمیع ما یجری فی آخر الزمان.

فقام من بعده ابنه عریاق، و یقال: أریاق بن عیقام، و یقال له: الأثیم، فعمل أعمالا عجیبهٔ منها شجرهٔ صفراء لها أغصان من حدید بخطاطیف إذا قرب الظالم منها أخذته تلک الخطاطیف، و لا تفارقه حتی یقرّ بظلمه، و یخرج منه لخصمه، و منها: صنم من کدان أسود سمّاه: عبد زحل، کانوا یتحاکمون إلیه، فمن زاغ عن الحق ثبت فی مکانه، و لم یقدر علی الخروج منه حتی ینصف خصمه من نفسه، و لو أقام سنهٔ و من کانت له حاجهٔ قام لیلا و نظر إلی الکوکب، و تضرّع و ذکر اسم عریاق، فإذا أصبح وجد حاجته علی بابه.

و عمل شجرهٔ من حدید ذات أغصان، و لطخها بدواء مدبر، فکانت تجلب کل صنف من الدواب و السباع و الوحوش إلیها، حتی یتمکن من صیدها، و کان إذا غضب علی أهل إقلیم سلط علیهم الوحوش و السباع، و تارهٔ یجعل ماءهم من الإیداق، و یقال: إن

هاروت و ماروت كانا فى زمانه! و إنه بنى جنة عظيمة، و اغتصب النساء الحسان و أسكنهنّ فيها، فعملت عليه امرأة منهنّ و سمّته فهلك.

و ملك بعده لوجيم بن نقاوش، و يقال: بل هو من بنى نقراوش الجبار، و يعرف:

بلوجيم الفتى، و هو الذى أخذ الملك من عرياق بن عيقام الكاهن، و ردّه لبنى نقراوش بعد ما خرج منهم بلا حرب، و لا قتل و كان عالما بالكهانة، و الطلسمات فعمل أعمالا- عجيبة منها: أنّ الغداف و الغراب كثر فى أيامه، و أتلف الزرع، فعمل أربع منارات فى جوانب مدينة أمسوس الأربعة، و على كل منارة، صورة غراب فى فمه حية قد التوت عليه، فنفرت عنهم الطيور المضرّة من حينئذ، و لم تقر بهم حتى زالت المنارات بالطوفان، و كان حسن السيرة منصفا للرعية عادلا- مقرّبا للكهنة، و لما مات دفن فى ناوس، و معه كنوزه، و عمل عليه طلسم يمنعه.

و ملك بعده ابنه فحصليم، و كان فاضلا عالما كاهنا، فعمل أعمالا عجيبة، و هو أوّل من عمل مقياسا لزيادة ماء النيل بأن جمع أرباب العلوم و الهندسة، فقدّروا بيتا من رخام على حافة النيل، و فى وسطه بركة صغيرة من نحاس فيها ماء موزون، و عليها من جانبيها

عقابان من نحاس أحدهما ذكر، و الآخر أنثى، فإذا كان أوّل الشهر الذى يزيد فيه النيل فتح هذا البيت و جمع الكهان فيه بين يديه، و زمزم الكهان بكلامهم حتى يصفر أحد العقابين، فإن صفر الذكر، كان الماء تاما، و إن صفرت الأنثى، كان الماء ناقصا، فيستعدّون عند ذلك لغلاء الأسعار بما يصلحون به شأنهم، و هو الذى بنى القنطرة ببلاد النوبة على النيل، و لما مات جعل فى ناوس، و معه كنوزه و عمل عليه طلسم.

و ملك بعده ابنه، هو صال، و يقال: يوصال، و معناه: خادم الزهرة، و يقال: سومال بن لوجيم الملك النقراوشى من بنى نقراوش الجبار، و يقال: إن نوحا عليه السلام ولد فى أيامه، و كان فاضلا كاهنا عالما بالسحر، و الطلسمات، فعمل عجائب، منها أنه بنى مدينة عمل فى وسطها صنما للشمس يدور بدورانها، و يبيت مغربا و يصبح مشرقا، و عمل سربا تحت النيل، فشق الأرض و خرج منه متنكرا، حتى بلغ مدينة بابل، و كشف أعمال الملوك، و كان نوح عليه السلام فى زمانه و ولد له عشرون ولدا، فجعل مع كل ولد منهم: قطرا، و هو رأس الكهنة، و أقام فى الملك مائة و سبع عشرة سنة، ثم لزم الهياكل و أقام أولاده على حالهم كل منهم فى قسمه الذى أعطاه إياه أبوه مدّة سبع سنين.

ثم اجتمعوا على واحد منهم و ملكوه عليهم و كان اسمه تدرشان، و قيل: تدرسان، فلما ملك نفى جميع إخوته إلى المدائن الداخلة فى الغرب، و اقتصر على امرأة من بنات عمه، و كانت ساحرة، و عمل له قصرا من خشب منقوشا فيه صورة الكواكب، و بسطه بأحسن الفرش و حمله على الماء، و صار يجلس فيه، فبينما هو فيه ذات يوم إذ هبت ريح شديدة اضطرب منها الماء، فانقلب القصر و تكسر فغرق، هو و من كان معه فى القصر.

و ملك بعده أخوه، نمرود الجبار، و يقال: شمرود بن هوصال، فأحسن السيرة و أنصف الرعية و بسط العدل، و جمع إخوته و فرّق عليهم كنوز أخيهم، فسرّ الناس به و طلب امرأة أخيه الساحرة، ففرّت منه بابنها إلى مدينة ببلاد الصعيد، و امتنعت عليه بسحرها، و أقامت مدّة و اجتمع السحرة إلى ابنها، و كان اسمه توميدون، و حملوه على طلب الملك، فسار و خرج إليه شمرود و أخوته، فاقتتلوا قتالا- عظيما كان فيه الظفر لتوميدون فقتله. و ملك من بعده، فقام توميدون بن تدرسان بالملك فى مدينة أمسوس، و كان عالما فاضلا، فتقوّى بسحر أمه، و عملت له أعمالا عجيبة، منها قبة من زجاج على هيئة الكرة تدور بدوران الفلك، و صوّرت فيها صور الكواكب، فكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع و علوم العالم، فلما ماتت أمّه الساحرة بعد ستين سنة من ملكه طلى جسدها بما يدفع عنه النتن و الحشرات، و دفنت تحت صنم القمر، و يقال: إنها كانت بعد موتها يسمع من عندها صوت بعض الأرواح، و تخبرهم بعجائب، و تجيب عما تسأل عنه، و لما مات توميدون بعد مائة سنة من ملكه عمل له صورة من زجاج مقسومة نصفين، و أدخل فيها بعد ما طلى

بالأدوية المانعة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۴۸

النتن، و أطبقت الصورة عليه حتى التحمت و أقيم فى هيكل الأصنام، و دفنت كنوزه عنده، و صار يعمل له فى كل سنة عيد.

و ملك بعده ابنه شرياق، و يقال له: سرياق بن توميدون بن تدرسان بن هوصال، و كان كأبيه فى علم الكهانة و السحر و الطلسمات، فعمل أعمالا- عجيبة منها: على باب مدينة أمسوس هيئة بطة من نحاس قائمة على أسطوانة إذا دخل غريب من ناحية من النواحى صفقت بجناحيها، و صرخت فيؤخذ ذلك الغريب، و يكشف أمره حتى يعرف فيما قدم، و شق من النيل نهرا يمرّ إلى مدائن الغرب و بنى عليه أعلاما و مدنا، و منتزهات، و سار ملك من بنى فراشى بن آدم و يقال: من بنى صوانيتى بن آدم خرج من ناحية العراق فى أيامه، و غلب على بلاد الشام، و قصد مصر ليأخذ ملكها، فقيل له: إنك لا تقدر عليها لسحر أهلها، فتنكر و دخل فى جماعة من خواصه ليكشف حال أهل مصر، فلما وصل إلى أوّل حدّ مصر حبسه الموكلون بذلك الحدّ هو و من معه، حتى يأمر الملك فيهم بأمره و بعثوا إليه بصفتهم، و كان قد رأى فى منامه كأنه على منار عال و كأن طائرا عظيما انقض عليه ليخطفه، فحاد عنه حتى كاد يسقط من المنار، فجاوزه الطائر و سلم منه فانتبه مذعورا.

و قص رؤياه على كبير الكهنة، فقال: يطلبك ملك، و لا يقدر عليك، و نظر فى نجومه، فرأى الملك الذى يطلب ملكه قد دخل إلى مصر، و كان ذلك هو الوقت الذى قدم عليه فيه الرسل بصفات الذين وصلوا إلى حدّ مصر، فأمر بإحضارهم إليه بعد ما يطاف بهم على عجائب مصر كلها ليروها، فأوثقوهم و ساروا بهم و أوقفوهم على عجائب أرض مصر، و ما فيها من الطلسمات حتى بلغوا إلى الإسكندرية، ثم إلى أمسوس، ثم إلى الجنة التى عملها مصرام، كان الملك شرياق مقيما بها، فعند ما وصلوا إليها أظهرت السحرة التماثيل العجيبة، فدخلوا عليه و حوله الكهنة، و بين يديه نار لا يصل إليه أحد حتى يخوضها، فمن كان بريئا لم تضرّه، و من كان يريد بالملك سوءا أو أضمر له مكروها أخذته النار، فشق القوم فى وسط النار واحدا بعد واحد من غير أن تضرّهم حتى انتهى الأمر إلى ملك العراق، فعندما دنا من النار أخذته بحرّها، فولى هاربا فاتبعوه حتى أخذوه و أوقفوه بين يدى شرياق، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر بصلب فصلب على الحصن الذى أخذ منه، و نودى عليه هذا جزاء من طلب ما لا يصل إليه، و عفا عن الباقين فساروا من مصر و تحدّثوا بما رأوه من العجائب، فانقطع طمع ملوك الأرض عن طلب ملك مصر، و مات شرياق بعد ما ملك مصر مائة و ثلاثين سنة، فجعل فى ناوس و معه أمواله و طلسم يحفظه ممن يقصده.

و ملك بعده ابنه: شهلوق، و كان عالما بالكهانة و الطلسمات، فقسم ماء النيل موزونا يصرف إلى كل ناحية قسطها، و رتب الدولة و عمل بيت نار، و هو أوّل من عبد النار، و عمل بأمسوس عجائب منها: شجرة على أعلى الجبال تقسم بها الرياح التى تمنع من أراد مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۴۹

بأذى أو فساد من جنىّ أو إنسىّ أو سبع أو طائر، و عمل بالمدينة قبة مركبة على سبعة أركان و لها سبعة أبواب على كل ركن باب، و فى وسط القبة قبة من صفر، و فى أعلاها صور الكواكب السبعة، و تحت القبة قبة أخرى معلقة على سبع أساطين، و على الباب الأوّل من القبة: أسد و لبوة من صفر، و هما رابضان، كان يذبح لهما جروا أسود و يبخرهما بشعره، و على الباب الثانى: ثور و بقرة يذبح لهما عجلا و يبخرهما بشعره، و على الباب الثالث:

خنزير و خنزيرة يذبح لهما خنوصا و يبخرهما بشعره، و على الباب الرابع: كبش و شاة يذبح لهما سخلة و يبخرهما بشعرها، و على الباس الخامس: ثعلب و ثعلبة يذبح لهما فرخ ثعلب و يبخرهما بشعره، و على الباب السادس: عقاب و أنثاه يذبح لهما فرخ عقاب و يبخرهما بريشه، و على الباب السابع: نسر و أنثاه يذبح لهما فرخ نسر و يبخرهما بريشه، و يلطخ كلا منهما بدم ما ذبح له، و تحرق سائر القرابين، و يوضع رمادها تحت عتبات أبواب القبة، و جعل لهذه القبة سدنة يشعلون المصابيح ليلا و نهارا، و قسم الناس بمصر سبع مراتب، لكل مرتبة منهم: باب من أبواب تلك القبة، فكان الخصم إذا تقدّم إلى شىء من تلك الصور، و كان ظالما فإنه يلتصق بها و

لا يتخلص منها حتى يخرج من الحق الذى عليه، الذكر للذكر، و الأنثى للأنثى، فيعرفون بذلك الظالم من المظلوم.

و لم تزل هذه القبة بأمسوس حتى أزالها الطوفان، و يقال: إنه رأى أباه فى النوم و هو يأمره أن ينطلق إلى جبل وصفه له من جبال مصر، فإنّ فيه كوّة صفتها كذا على بابها أفعى لها رأسان إذا أقبل إليها كشرت فى وجهه فخذ معك طائرين صغيرين ذكرا و أنثى، فاذبحهما لها و ألقمها إياهما، فإنها تأخذ برأسيهما، و تتنحى بهما إلى سرب فإذا غابت، أدخل الكوّة تجد فيها امرأة عظيمة من نور حار يابس، فإنها تسطع لك و تحس بحرارتها فلا تدن منها تحترق و لكن اقعد حذاءها و سلم عليها، فإنها تخاطبك فافهم ما تقول لك و اعمل به، فإنك تشرف بذلك، و تدلك على كنوز جدّك مصرام، فإنها حافظة لها، فلما انتبه عمل ما أمره أبوه فلما قعد بجانب المرأة و سلم، قالت له: أتعرفنى؟ قال: لا، قالت: أنا صورة النار المعبودة فى الأمم الخالية، و قد أردت أن تحيى ذكرى و تجدّد لى بيتا تقد لى فيه نارا دائمة بقدر واحد و تتخذ لها عيدا فى كل سنة تحضره أنت و قومك فإنك تتخذ بذلك عندى يدا أنيلك بها شرفا إلى شرفك، و ملكا إلى ملكك، و أمنع عنك من يطلبك بسوء، و أدلك على كنوز جدّك مصرام، فضمن لها أن يفعل كلّ ما أمرته به فدلته على الكنوز التى تحت المدائن المعلقة، و علمته كيف يصير إليها و كيف يحترس من الأرواح الموكلة بها، و ما ينجيه منها، ثم قال لها: كيف لى بأن أراك فى وقت آخر؟ قالت: لا تعد، فإنّ الأفعى لا تمكنك، و لكن بخر فى بيتك بكذا فإنى آتيك، فسرّ بذلك، و غابت عنه و خرج، ففعل ما أمرته به من عمل بيت النار، و أخذ كنوز مصرام، و لما مات جعل فى ناوس و معه سائر أمواله و كنوزه، و جعل عليه طلسم يحفظه ممن يقصده. و ملك بعده ابنه سوريد، و كان حكيما فاضلا، و هو أوّل من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۵۰

جبى الخراج بمصر، و أوّل من أمر بالإنفاق على المرضى، و الزمنى من خزائنه، و أوّل من سنّ رقعة الصباح، و عمل أعمالا عجيبة، منها مرآة من أخلاط كان ينظر فيها إلى الأقاليم فيعرف فيها ما حدث من الحوادث، و ما يخصب منها و ما يجدب، و أقام هذه المرأة فى وسط مدينة أمسوس، و كانت من نحاس.

و عمل فى أمسوس صورة امرأة جالسة فى حجرها صبىّ ترضعه، و كانت المرأة من نساء مصر إذا أصابتها علة فى موضع من جسمها أتت هذه الصورة، و مسحت ذلك الموضع من جسدها بمثل ذلك الموضع من الصورة، فتزول عنها العلة، و إن قلّ لبنها مسحت ثديها بثدى الصورة فيغزر لبنها، و إن قلّ حيضها مسحت فرجها بفرج الصورة فيكثر حيضها، و إن كثر دمها مسحت أسفل ركبها بمثل ذلك من الصورة، و إن عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبىّ الذى فى حجر الصورة، فتضع حملها، و إن أرادت التحبب إلى زوجها مسحت وجهها و تقول: افعلى كذا و كذا، فإذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تتوب، و لم تزل هذه الصورة إلى أن أزالها الطوفان، و فى كتب القبط: أنها وجدت بعد الطوفان، و أن أكثر الناس عبدوها.

و عمل سوريد، صنما من أخلاط كثيرة، فكان من أصابته علة فى موضع من جسده غسل ذلك الموضع من الصنم بماء و شرب الماء، فإنه يبرأ و سوريد هذا هو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر المنسوبين إلى شدّاد بن عاد، و القبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوّة سحرهم، و لما مات سوريد دفن فى الهرم و معه كنوزه، و يقال: إنه كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة و أنه ملك مائة سنة و تسعين سنة.

فملك بعده ابنه هرجيب، و كان كأبيه حكيما فاضلا فى علم السحر و الطلسمات، فعمل أعمالا عجيبة، و استخرج معادن كثيرة و أظهر علم الكيمياء، و بنى أهرام دهشور و حمل إليها أموالا عظيمة و جواهر نفيسة، و عقاقير و سمومات، و جعل عليها روحانيات تحفظها وشج رجل رجلا، فأمر بقطع أصابعه و سرق رجل مالا، فملك المسروق له رق السارق، و لما مات دفن فى الهرم، و معه جميع أمواله و ذخائره.

و ملك بعده ابنه مناوس، و يقال: منقاوس، و كان كأبيه فى الحكمة إلا أنه كان جبارا فاسقا سفاكا للدماء، ينتزع النساء من أزواجهنّ و يبيح ذلك لخواصه، و عمل أعمالا عجيبة و استخرج كنوزا و بنى قصورا من ذهب و فضة، و أجرى فيها الأنهار و جعل حصباءها

من أصناف الجواهر النفيسة، و سلط رجلا جبارا اسمه: قرناس، على الناس و وجّهه لمحاربة الأمم الغريبة، فقتل منهم خلائق، و لما مات دفن فى بعض قصوره و معه أمواله، و عمل عليه طلسم يحفظه و يمنعه من كل طالب.

و ملك بعده ابنه أفروس، و كان كأبيه فى العلم و الحكمة، و لما ملك أظهر العدل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۵۱

و أحسن السيرة و ردّ النساء اللاتى غصبن فى أيام أبيه على أزواجهنّ، و عمل قبة طولها خمسون ذراعا فى عرض مائة ذراع، و ركب فى جوانبها طيورا من صفر تصفر بأصوات مختلفة مطربة لا تفتر ساعة، و عمل فى وسط مدينة أمسوس، منارا عليه رأس إنسان من صفر كلما مضى من النهار أو الليل ساعة صاح صيحة يعلم من سمعها بمضىّ ساعة، و عمل منارا عليه قبة من صفر مذهب، و لطخها بلطوخات، فإذا غربت الشمس فى كل ليلة اشتعلت القبة نورا تضىء له مدينة أمسوس طول الليل، حتى يصير مثل النهار لا تطفئها الرياح و لا الأمطار فإذا طلع النهار خمد ضوءها و أهدى لبعض ملوك بابل مدهنا من زبرجد قطره خمسة أشبار.

و يقال: إنه وجد بعد الطوفان، و عمل فى الجبل الشرقىّ صنما عظيما قائما على قاعدة و هو مصبوغ مصفر بالذهب و وجهه إلى الشمس يدور معها حتى تغرب، ثم يدور ليلا حتى يحاذى المشرق مع الفجر، فإذا أشرقت الشمس استقبلها بوجهه، و بنى بصحراء الغرب مدنا كثيرة، و أودعها كنوزا عظيمة، و نكح ثلثمائة امرأة و لم يولد له ولد، فإنّ اللّه تعالى، كان قد أعقم الأرحام لما يريد من إهلاك العالم بالطوفان، و وقع الموت فى الناس و البهائم، و لما مات وضع فى ناوس بالجبل الشرقىّ، و معه أمواله و طلسم عليه.

و ملك بعده أرمالينوس، فعمل أعمالا عجيبة و بنى مدنا و مصانع جدّد الطلسمات، و كان له ابن عم يسمى: فرعان، و كان جبارا، فأبعده و جعله على جيش ساربه عنه، فقهر ملوكا و قتل أمما عظيمة، و غنم أموالا كثيرة، و عاد فشغفت به امرأة من نساء الملك، و ما زالت به حتى اجتمع بها تآلفا، و أقاما على ذلك مدّة، فخافا الملك أن يفطن بهما، فعملت المرأة لأرمالينوس سمّا فى شرابه هلك منه.

و ملك بعده ابن عمه فرعان بن مشور، فلم ينازعه أحد لشجاعته و سياسته، و لم تطل أعوامه حتى رأى قليمون الكاهن، كأنّ طيورا بيضاء قد نزلت من السماء، و هى تقول: من أراد النجاة فليلحق بصاحب السفينة، و كان عندهم علم بحدوث الطوفان من أيام سوريد و بنائه الأهرام، لأجل ذلك، و اتخذ الناس سراديب تحت الأرض مصفحة بالزجاج قد حبست الرياح فيها بتدبير، و عمل منها فرعان لنفسه و لأهله عدّة، فما كذب أن جمع أهله و ولده و تلميذه و لحق بنوح عليه السلام، و آمن به و أقام معه حتى ركب فى السفينة و جاء الطوفان فى أيام فرعان، فأغرق أرض مصر كلها، و خرب عمائرها، و أزال تلك المعالم كلها، و أقام الماء عليها ستة أشهر، و وصل إلى أنصاف الهرمين العظيمين، و سيأتى خبر ذلك إن شاء اللّه تعالى عند ذكر محن مصر من هذا الكتاب.

و يقال: إنّ فرعان كان عاتيا متجبرا يغصب الأموال و النساء، و أنه كتب إلى الدر مثيل ابن لحويل ببابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام، و أنه استخف بالكهنة و الهياكل، ففسدت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۵۲

فى أيامه أرض مصر، و نقص الزرع و أجدبت النواحى لانهماكه فى ضلاله و ظلمه و إقباله على لهوه و لعبه، و إنّ الناس اقتدوا به ففشا ظلم بعضهم لبعض، و إنه لما أقبل الطوفان، و سحت الأمطار، قام سكران يريد الهرب إلى الهرم، فتخلخلت الأرض به، و طلب الأبواب فخانته رجلاه و سقط يخور، حتى هلك، و هلك من دخل الأسراب بالغم، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر مدينة منف و ملوكها

هذه المدينة كانت فى غربىّ النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من مدينة فسطاط مصر، و هى أوّل مدينة عمرت بأرض مصر بعد الطوفان، و صارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التى تقدّم ذكرها، إلى أن أخربها بخت نصر، و قد ذكرها اللّه تعالى فى كتابه

العزيز بقوله:

وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها [القصص/ ۱۵]. قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى كتاب جامع البيان فى تفسير القرآن، عن السدىّ: أنّه قال: كان موسى عليه السلام حين كبر يركب، كمراكب فرعون، و يلبس مثل ما يلبس، و كان إنما يدعى: ابن فرعون، ثم إنّ فرعون ركب مركبا، و ليس عنده موسى، فلما جاء موسى عليه السلام قيل له: إنّ فرعون قد ركب، فركب فى إثره فأدركه المقيل فى أرض يقال لها: منف، فدخلها نصف النهار، و قد تغلقت أسواقها و ليس فى طرقها أحد، و هى التى يقول اللّه جلّ ذكره: وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها [القصص/ ۱۵].

قال ابن عبد الحكم، عن عبد اللّه بن لهيعة: أوّل من سكن بمصر بعد أن أغرق اللّه قوم نوح عليه السلام، بيصر بن حام بن نوح، فسكن منف، و هى أوّل مدينة عمرت بعد الطوفان هو و ولده، و هم ثلاثون نفسا منهم أربعة أولاد قد بلغوا و تزوّجوا، و هم: مصر و فارق و ماج و ياج و بنو بيصر، و كان مصر أكبرهم، فبذلك سميت: مافه، و مافه بلسان القبط ثلاثون، و كانت إقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم، و نقروا هناك منازل كثيرة. و قال ابن خرداذبه فى كتاب المسالك و الممالك: و مدينة منف هى (مدينة فرعون) التى كان ينزلها، و اتخذ لها سبعين بابا من حديد، و جعل حيطان المدينة من الحديد و الصفر، و فيها كانت الأنهار تجرى من تحت سريره، و هى أربعة، و يروى أنّ مدينة منف كانت قناطر و جسورا بتدبير، و تقدير حتى أنّ الماء ليجرى تحت منازلها و أفنيتها، فيحبسونه كيف شاءوا، و يرسلونه كيف شاءوا، فذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ [الزخرف/ ۵۱]، و كان بها كثير من الأصنام لم تزل قائمة إلى أن سقطت فيما سقط من الأصنام فى الساعة التى أشار فيها النبىّ صلى اللّه عليه و سلم إلى الأصنام، يوم فتح مكة بقضيب فى يده، و هو يطوف حولها، و يقول: جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً [الإسراء/ ۸۱] فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه، و لا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع، و فى تلك الساعة سقطت أصنام الأرض من الشرق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۵۳

إلى الغرب، و بقى أصحابها متعجبين لا يعلمون لها سببا أوجب سقوطها، و بقيت أصنام مدينة منف ساقطة من ساعته، و فيها الصنمان الكبيران المجاوران للبيت الأخضر الذى كان به صنم العزيز، و كان من ذهب و عيناه ياقوتتان لا يقدر على مثلهما، ثم قطعت الأصنام و البيت الأخضر من بعد سنة ستمائة.

و يقال: كانت منف ثلاثين ميلا طولا فى عشرين ميلا عرضا، و إنّ بعض بنى يافث بن نوح عمل فى أيام مصرايم آلة تحمل الماء حتى تلقيه على أعلى سور مدينة منف، و ذلك أنه جعلها درجا مجوّفة، كلما وصل الماء إلى درجة امتلأت الأخرى، حتى يصعد الماء إلى أعلى السور، ثم ينحط فيدخل جميع بيوت المدينة، ثم يخرج من موضع إلى خارج المدينة.

و كان بمنف بيت من الصوّان الأخضر الماتع الذى لا يعمل فيه الحديد قطعة واحدة، و فيه صور منقوشة و كتابة، و على وجه بابه صور حيات ناشرة صدورها، لو اجتمع ألوف من الناس على تحريكه ما قدروا لعظمه و ثقله، و الصابئة تقول: إنه بيت القمر، و كان هذا البيت من جملة سبعة بيوت كانت بمنف للكواكب السبعة، و هذا البيت الأخضر هدمه، الأمير سيف الدين شيخون العمرىّ، بعد سنة خمسين و سبعمائة، و منه شىء فى خانقاهه، و جامعه الذى بخط الصليبة خارج القاهرة.

و قال أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن القيسى فى كتابه تحفة الألباب: و رأيت فى قصر فرعون موسى بيتا كبيرا من صخرة واحدة أخضر كالآس فيه صورة الأفلاك و النجوم لم نر عجبا أحسن منه.

و قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ : و كانت دار الملك بمصر فى قديم الدهر مدينة منف، و هى فى غربىّ النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط، فلما بنى الإسكندر مدينة الإسكندرية رغب الناس فى عمارتها، فكانت دار العلم، و مقرّ الحكمة، إلى أن فتحها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، و اختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة، بالفسطاط، فانتشر أهل

مصر، و غيرهم من العرب و العجم إلى سكناها، فصارت قاعدة ديار مصر، و مركزها إلى وقتنا هذا.

و قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب: و قد ذكر أخبار مدينة أمسوس، و خراب عمائر أرض مصر بطوفان نوح عليه السلام، و لما نزل الماء كان أوّل من ملك مصر بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۵۴

الطوفان بيصر بن حام بن نوح، و كان معه ثلاثون من الجبابرة من أهله و ولده، فاجتمعوا و بنوا مدينة منف، و نزلوا بها، و كان قليمون الكاهن الذى تقدّم ذكره فى خبر مدينة أمسوس من جملتهم، و كان قد زوج ابنته ببيصر المذكور، و جاءت معه إلى مصر، و ولدت منه ولدا سماه: مصرايم، فلما مات بيصر، دفن فى موضع دير أبى هرميس، و يقال: دير أبى هرميس غربىّ الأهرام، و يقال: إنها أوّل مقبرة دفن فيها بأرض مصر، و كان موته بعد ألف و ثمانمائة و ست سنين مضت من وقت الطوفان، و قال غيره: ثم بنى مصرايم مدينة سماها باسمه، فجاءه رجل من بنى يافث، فعمل له سورا قائما، و صنع له درجا و أجرى الماء إلى أن بقى يصعد إلى أعلى السور بحكمة أتقنها، ثم ينزل ذلك الماء من أعلى السور إلى المدينة فينتفع به فيها بغير مشقة و لا كلفة، ثم يخرج من ناحية أخرى، و كتب على السور هذه صنعة من يموت لا صنعة من يدوم.

و ملك بعد بيصر، ابنه مصرايم. (و يقال له: مصر) بن بيصر، فأظهره قليمون الكاهن على كنوز مصر و علمه قراءة خطهم، و أطلعه على حكمهم و بنى مصرايم، المدن و شق الأنهار و غرس الأشجار، و بنى مدينة عظيمة سماها درسان، و هى العريش، و نكح امرأة من أولاد الكهنة، فولدت له ابنا سماه: قفطيم، و بنى مدينة رقودة مكان الإسكندرية.

و لما مات مصرايم، جعل له سرب طوله مائة و خمسون ذراعا، و بسط بالمرمر الأبيض و عمل فى وسطه مجلس مصفح بصفائح الذهب، و له أربعة أبواب، على كل باب: تمثال من ذهب على رأسه تاج من ذهب، و هو جالس على كرسىّ من ذهب قوائمه من زبرجد، و نقش فى صدر كل تمثال آيات مانعة و حبسوا جسده فى جسد من زبرجد أخضر شبه تابوت طوله أربعون ذراعا دفن فيه، و معه جميع ما كان فى خزائنه من ذهب، و فضة و جوهر منها ألف قطعة من زبرجد مخروط و ألف تمثال من جوهر نفيس، و ألف برنية من ذهب مملوءة درا نفيسا، و ألف آنية من ذهب، و عدّة سبائك من فضة، و عمل عليه طلسم مانع من الوصول إليه و زبروا عليه: مات مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد ألفين و ستمائة عام، و قيل: بعد سبعمائة سنة مضت من الطوفان، و لم يعبد الأصنام فصار إلى جنة لا هرم فيها و لا سقم، و لا همّ و لا حزن، و كتب اسم اللّه الأعظم عليه حتى لا يصل إليه أحد إلا ملك، يأتى فى آخر الزمان يدين بدين الملك الديان، و يؤمن بالبعث و الفرقان، و النبىّ الداعى إلى الإيمان فى آخر الزمان، و سقفوا فوق السرب بالصخور العظام، و هالوا عليه الرمال حتى سدّوا بين جبلين متقابلين.

و يقال: كان مصر بن بيصر، مع جدّ أبيه نوح عليه السلام فى السفينة، فدعا له أن يسكنه اللّه الأرض الطيبة المباركة التى هى أم البلاد و غوث العباد، و نهرها أفضل الأنهار، و يجعل له فيها أفضل البركات و يسخر له الأرض و لولده، و يذللها و يقوّيهم عليها، فسأله

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۵۵

عنها، فوصفها له، و أخبره بها، و كان بيصر بن حام قد كبر و ضعف فساقه ولده مصرايم، و جميع إخوته إلى مصر، فنزلوها و بذلك سميت: مصر.

و ملك بعده: ابنه قبطيم (و يقال له: قفط) بن مصرايم، و هو أوّل من عمل العجائب بعد الطوفان، فاستخرج المعادن و شق الأنهار، و نصب الأعلام و المنارات و عمل الطلسمات.

و يقال: إنّ مصرايم لما مات، اختلف أولاده من بعده، و كان قفط أصغرهم، فاجتمعوا عند الأهرام و رضوا بأنّ من غلب منهم أخاه أخذ الملك، فتحارب أشموم و أتريب، فغلب أتريب، ثم تحارب صا، هو و أشموم، فغلب أشموم، ثم تحارب قفط وصا، فغلب قفط فأخذ قفط الملك بعد أبيه، و أطاعه أخوته و سكن مدينة منف دار مملكة أبيه، و تزوّج امرأة ولدت له، أربعة أولادهم: قفطريم، و

أشمون، و أتريب، وصا، فتناسلوا و كثروا و عمروا البلاد، ثم إنه قسم الأرض بين أولاده الأربعة عند وفاته، فجعل لولده قفطريم من أسوان إلى قفط، و جعل لولده أشمون من مدينة قفط إلى مدينة منف، و جعل لولده أتريب الجرف كله، و جعل لولده صا من ناحية البحيرة إلى الغرب، و جعل أمرهم إلى قفطريم و أمر كل واحد منهم أن يبنى لنفسه مدينة فى حيزه، و جعل لنفسه سربا تحت الجبل الكبير، و صفحه بالمرمر، و عمل فيه منافذ للريح فصارت تنخرق فيه بدوىّ عظيم، و أقام فى السرب رؤوسا من نحاس مطلية تضىء كالسرج ليلا و نهارا. و لما مات وضع جسده بهذا السرب فى جرن من ذهب بعد ما ألبس ثيابا منسوجة بالدر و المرجان، و أقيم عند رأسه عمود من مرمر عليه جوهرة تضىء، و عمل حول الجرن توابيت من حجارة ملوّنة حولها مصاحف الحكمة، و وضعت عنده أمواله و كنوزه و ذخائره و زبروا عليه كما زبروا على أبيه، و انتقل كل من أولاده إلى حيزه، فانتقل صا بأهله و أولاده و سكن مدينة صا الآتى ذكرها.

و يقال: كانت البلبلة فى أيام قفط، و أنه ألهمه اللّه تعالى اللغة القبطية، و أنه أقام ملكا أربعمائة و ثمانين سنة، و مات، فدفن بأرض الواحات و ملك بعده أخو أشمن بن مصر، و قيل: بل أسكن فى حياته ابنه قفطريم فى حيزه، فشرع فى العمارة و كان جبارا عظيم الخلقة، فأثار من المعادن ما لم يثره أحد قبله و بنى مدينة دندرة، و عمل فى جبل قفط منارا عاليا يرى منه البحر الشرقىّ، و وجد هناك معادن من الزئبق، و عمل البركة التى سماها صيادة الطير، و هلك عاد بالريح فى آخر أيامه، و فى أيامه أثارت الشياطين الأصنام التى أغرقها الطوفان، فعبدت، و أقام ملكا أربعمائة و ثمانين سنة و مات.

و ذكر ابن عبد الحكيم: بعد مصر بن بيصر قفط بن مصر، و أنّ الذى ملك بعد قفط أخوه اشمن، ثم أتريب بن مصر، ثم صا بن مصر، ثم ابنه تدارس بن صا، ثم ابنه ماليق بن تدارس، ثم ابنه حزابا بن ماليق، ثم ابنه كلكلى بن حزابا، و يقال: إنّ أشمن، لما ملك بعد

أخيه، سار إليه شدّاد بن هدّاد بن شدّاد بن عاد، و ملك أرض مصر، و هدم مبانيها، و بنى أهراما و مضى إلى موضع الإسكندرية، فبناها و أقام دهرا، ثم خرجت العادية من أرض مصر، فعاد أشمن إلى ملكه، و أنه ملك بعده أخوه صا، ثم ملك بعد صا ابنه تدارس، و فى أيامه بعث اللّه صالحا إلى ثمود و مات.

فملك ابنه ماليق البودسير، و كان من الجبابرة العظام عمل أعمالا عظيمة، منها منار فوقه قبة لها أربعة أركان فى كل ركن كوّة يخرج منها فى يوم معلوم عندهم من كل سنة، دخان ملتف فى ألوان شتى يستدلون بكل لون على شىء، فإن خرج الدخان أخضر، دل على العمارة و الخصب فى تلك السنة، و إن خرج أبيض، دل على الجدب و قلة الخير، و إن خرج أحمر، دل على الحروب و قصد الأعداء، و إن خرج أصفر، دل على النيران و آفات تحدث من الملك، و إن خرج أسود، دل على الأمطار و السيول، و فساد بعض الأرض، و إن خرج مختلطا، دل على كثرة الظلم و بغى الناس بعضهم على بعض.

و عمل شجرة من نحاس تجذب سائر الوحوش حتى تصل إليها، فلا تستطيع الحركة إلى أن تؤخذ، فشبع أهل مصر من لحوم الوحوش، و اتفق أنّ غرابا نقر عين صبى من أولاد الكهنة فقلعها، فعمل شجرة من نحاس عليها غراب منشور الجناحين و فى منقاره حية، و على ظهره أسطر، فكانت الغربان تقع على هذه الشجرة، و لا تبرح حتى تموت، و كانت الرمال قد كثرت فى أيامه على أرض مصر من ناحية الغرب، فعمل صنما من صوّان أسود على قاعدة منه، و فوق كتبه قفة فيها مسحاة و نقش على وجهه و صدره و ذراعيه كتابة، و جعل وجهه إلى الغرب، فانكشفت الرمال و رجعت بها الرياح إلى ورائها، و صارت تلالا عالية.

و بعث بهرمس الحكيم، إلى جبل القمر الذى يخرج منه النيل، فعمل تماثيل النحاس، و عدّل جانبى النيل، و كان قبله يفيض فى مواضع و ينقطع فى مواضع و سار مغرّبا لينظر ما وراء ذلك، فوقع على أرض واسعة ينخرق فيها الماء و الأشجار فبنى فيها منتزهات، و أقام بها و حوّل إليها عدّة من أهله فعمروا تلك النواحى حتى صارت أرض الغرب كلها معمورة، ثم خالطتهم البربر، و جرت بينهم حروب كثيرة أفنتهم، فخربت تلك البلاد، و لم يبق منها إلا الواحات، ثم إنّ البودسير احتجب عن الناس، و صار يبرز وجهه من مقعده

فى النادر، و ربما خاطبهم من حيث لا يرونه.

و ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: إنّ أوّل من تحقق بالكهانة و غير الدين و عبد الكواكب البودسير، و تزعم القبط أنّ الكواكب كانت تخاطبه، و أنّ له عجائب كثيرة منها: أنه استتر عن الناس عدّة سنين من ملكه، و كان يظهر لهم وقتا بعد وقت مرّة فى كل سنة، و هو حلول الشمس فى برج الحمل، و يدخل الناس إليه، فيخاطبهم، و هم يرونه فيأمرهم و ينهاهم و يحذرهم مخالفة أمره، ثم بنيت له قبة من فضة مطلية بذهب، فصار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۵۷

يجلس فى أعلاها، و له وجه عظيم فيخاطبهم.

(فلما مات ملك بعده ابنه أرقليمون): و كان كاهنا ساحرا، فعمل أعمالا عظيمة منها:

أنه كان يجلس فى السحاب، فيرونه فى صورة إنسان عظيم، و أقام مدّة على ذلك، ثم إنه غاب عن أهل مصر، و صاروا بغير ملك، ثم رأوا صورة بحذاء جرم الشمس عند حلولها أوّل برج الحمل، فأمرهم أن يقلدوا الملك عديم بن قفطيم و أعلمهم أنه ما بقى يعود إليهم.

فولوا عليهم عديم بن قفطيم: و كان جبارا عظيما و هو أوّل من صلب بمصر، و ذلك أنّ امرأة و رجلا زنيا، فصلبهما، و جعل ظهر كل منهما لظهر الآخر، و بنى أربع مدائن أودعها كنوزا عظيمة، و جعل عليها طلسمات، و عدّة عجائب و عمل منارا على البحر الشرقىّ، و عليه صنم إلى الشرق حتى لا يغلب البحر على أرض مصر، و عمل قنطرة على النيل فى أرض النوبة، و أقام ملكا مائة و أربعين سنة، و مات و عمره سبعمائة و ثلاثون سنة.

(و ملك بعده ابنه شدّات بن عديم): و هو الذى تسميه العامة: شدّاد بن عاد، و كان عالما كاهنا ساحرا و يقال: إنه هو الذى بنى الأهرام الدهشورية، و عمل أعمالا عظيمة و طلسمات عجيبة و بنى فى الجانب الشرقىّ مدائن، و فى أيامه بنيت قوص و غزا الحبشة، و سباهم و أقام ملكا تسعين سنة، و هو أوّل من اتخذ الجوارح و صاد بها و ولّد الكلاب السلوقية، و عمل فى بركة سيوط تماسيح منصوبة تنصب إليها التماسيح من النيل انصبابا، فيقتلها و يعلق جلودها فى السفن، و اتفق أنه طرد صيدا فكبابه فرسه فى و هدة، فهلك. و كان قد غضب على بعض خدمه فرماه من جبل عال، فتقطع، فرأى أنه يصيبه مثل ذلك، و لما هلك وضع فى ناوس و دفنت معه أمواله و عمل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده، و كتب عليه: لا ينبغى لذى القدرة أن يخرج عن الواجب، و لا يفعل ما لا يجوز له فعله، فيجازى بعمله.

هذا ناوس بن شدّات بن عديم، فعل ما لا يحلّ له فعله، فكوفىء عليه بمثله.

و ملك بعده ابنه منقاوش: و كان حكيما فاضلا كاهنا، عمل أعمالا عجيبة، و بنى أشياء معجبة منها: أنه عمل هيكلا لصور الكواكب على ثمانية فراسخ من منف، و كنز من الأموال ما لا يحصى، و فتح عليه من المعادن ما لم يفتح به على غيره، و سار فى الجنوب يوما ثم سار مغرّبا يوما و بعض آخر، فانتهى فى اليوم الثالث إلى جبل أسود، فعمل تحته أسرابا و مغاير، و دفن فيها أمواله و زبر عليها حتى أنه من كثرتها يقال: إنه دفن حمل اثنى عشر ألف عجلة ذهبا و جواهر، و أقام أربع سنين يرسل فى كل سنة عجلا كثيرة يدفنها، و بقيت آثار العجل ترى فيما بين منف و المغرب زمانا طويلا، و بنى هيكلا للقمر، و يقال: إنه هو الذى بنى مدينة منف لبناته، و كنّ ثلاثين بنتا، و أنه ألزم الناس بعمل الكيمياء، فكانوا لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۵۸

يفترون عن عملها ليلا و لا نهارا، حتى اجتمع عنده مال عظيم و جوهر كثير، و هو الذى بنى مدينة عين شمس، و قسم خراج مصر أرباعا، جعل الربع للملك، و الربع للجند، و الربع ينفق فى مصالح الأرض، و الربع الرابع يدفن لحادثة تحدث، و هو الذى قسم أرض مصر على مائة و ثلاثين كورة، و أقام ملكا إحدى و تسعين سنة و مات.

فملك بعده ابنه عديم بن منقاوش: و كان جبارا لا يطاق، و فى أيامه كان نزول الملكين اللذين يعلمان الناس السحر، و القبط تزعم أنهما نزلا بأرض مصر، ثم نقلا إلى بابل.

ثم ملك بعده أخوه مناوش بن منقاوش، و كان عالما كاهنا فاضلا، بنى مواضع كثيرة فى الجبال و الصحارى، و كنز فيها كنوزا عظيمة، و أقام عليها أعلاما، و بنى فى صحراء الغرب مدينة، و أقام لها منارا و كنز حولها كنوزا عظيمة، و جعل فيها شجرة تطلع كل لون من الفاكهة، و هو أوّل من عبد البقر بمصر، و كان يطلب الحكمة، و يستخرج كتبها، و كذا كان كل من ملك منهم يجتهد فى أن يعمل له غريبة من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله، و تثبت فى كتبهم و تزبر على الحجارة.

و لما مات ملك بعده ابنه هرميس: و كان قليل الحكمة، فلم يعمل شيئا مما عمله آباؤه، و مات و قد أقام إحدى عشرة سنة.

فملك بعده أشمون بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح: و كان حيزه من أشمون إلى منف فى الغرب، و حيزه فى الشرق إلى حدّ البحر الملح مما يحاذى برقة، و هو آخر حدّ مصر، و من بلاد الصعيد إلى حدود أخميم، و كانت منزله بمدينة الأشمونين و كان طولها اثنى عشر ميلا فى مثلها، و بنى فى شرقىّ النيل مدينة أنصنا، و بنى بها قصرا عظيما، و اتخذ بها أبنية و ملاعب و عجائب كثيرة، و بنى مدينة طهراطيس، و هو أوّل من لعب بالكرة و الصولجان.

و يقال: إنه بنى مدنا كثيرة عمل فيها عجائب منها: مدينة فى سفح الجبل لها أربعة أبواب من كل ناحية باب، فعلى الباب الشرقىّ: صورة عقاب، و على الباب الغربىّ: صورة ثور، و على الباب الشمالىّ: صورة أسد، و على الباب الجنوبىّ: صورة كلب؛ و فى هذه الصور روحانيات تنطق فإذا قدم غريب لا يقدر على الدخول إليها إلا بإذن الموكلين بها، و دفن تحت كل شكل من هذه الأشكال الأربعة صنفا من الكنوز، و غرس فى هذه المدينة شجرة مولدة تثمر كل لون من الفاكهة، و نصب منارا طوله ثمانون ذراعا فوقه قبة تتلوّن كل يوم لونا حتى تمضى سبعة أيام ثم تعود إلى اللون الأوّل، فكانت تلك المدينة تكسى من تلك الألوان شعاعا مثل لونها، و أجرى حول المنار ماء شقه من النيل، و جعل فيه سمكا من كل لون و أقام حول المدينة طلسمات فى هيئة أناس رؤوسها كالقردة، و أسكن هذه المدينة السحرة، فعرفت بمدينة السحرة، و كانوا يعملون فيها أصناف السحر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۵۹

و بنى بالقرب منها مدينة عرفت بذات العجائب، و بنى مجالس مصفحة بزجاج ملوّن فى وسط النيل، و بنى سربا تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا.

و قيل: إنه هو الذى بنى مدينة عين شمس، و أنه ملك ثمانمائة سنة، و أنّ قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة سنة، و أقاموا بمصر تسعين سنة، فأصابهم و باء خرجوا منه إلى المدينة بطريق الحجاز إلى وادى القرى، فعاد أشمون بعد خروج العادية إلى ملك مصر، و هو أوّل من عمل النوروز بمصر.

و فى زمانه: بنيت مدينة البهنسا، و لما مات جعل له ناوس فى آخر حدّ الأشمونين، و دفن فيه و معه كنوزه العظيمة و عجائبه الكثيرة منها: ألف برنية من العقاقير المدبرة لفنون الأعمال و زبروا على ناوسه اسمه و نسبه، و جعل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده.

و ملك بعده ابنه صا: ثم بعد صا ابنه تدراس.

و قيل: ملك مناقيوش، و كان شجاعا فاضلا فاستأنف العمارة و بنى القرى و نصب الأعلام و عمل العجائب الهائلة، و بنى مدائن منها مدينة أخميم و حوّل الكهنة إليها، و أقام ملكا نيفا و أربعين سنة، و مات فدفن فى الهرم الشرقىّ و معه كنوزه.

و ملك بعده ابنه، و قد اختلف فى اسمه و كان فاضلا حازما معظما عند أهل مصر، و هو أوّل من عمل المارستان، و أول من عمل الميدان للرياضة، و فى أيامه بنيت مدينة سنترية فى صحراء الواحات، ثم إنّ نساء تغايرن عليه فقتلته إحداهنّ بسكين، فدفن فى ناوس و معه أمواله، و عمل عليه طلسم يحفظه.

و ملك بعده ابنه مرقورة: و كان حكيما كاهنا، و هو أوّل من ذلل السباع و ركبها، و بنى المدن، و عمر الهياكل، و أقام الأصنام، و لما

مات جعل له ناوس فى صحراء الغرب و دفن معه ماله.

و ملك بعده ابنه بلاطس: و كان صبيا، فدبرت أمّه أمر الملك، و كانت حازمة، فأجرت الأمور على أحسن ما يكون، و أظهرت العدل، و وضعت عن الناس الخراج فأحبّوها، و لما كبر ابنها أحب الصيد، فعملت له أمّه أعمالا عجيبة، و أقام ملكا ثلاث عشرة سنة و جدّر فمات، و انتقل الملك إلى أعمامه.

فملك بعده أتريب بن قبطيم بن مصرايم، و هو الثالث عشر من ملوك مصر بعد الطوفان، و هو الذى بنى مدينة أتريب، و عاش خمسمائة سنة منها مدّة ملكه ثلثمائة و ستون سنة، و يقال: إن النيل وقف فى أيام أتريب مائة و أربعين سنة، حتى أكلت البهائم بأرض مصر، و لم يبق بها بهيمة، و رؤى أتريب ماشيا و هو يبسط يديه و يقبضهما من الجوع، و مات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۶۰

عامّة أهل مصر جوعا، ثم أغيثوا بعد ذلك، و كثر الرخاء و دام مدّة مائتى سنة و بيع كل أردب بدانق و أقل، و لما مات اتهم أخوه صا بقتله و حاربه أهل مصر تسع سنين و قتلوه.

فملكت بعده ابنته تدرورة: و كانت كاهنة ساحرة فساست الملك أحسن سياسة، و دبرت الملك أجود تدبير، و عملت طلسمات عجيبة، منها طلسم منع الوحش و الطير أن يشرب من النيل، حتى مات أكثرها عطشا، و وقعت فى زمانها صيحة ارتجت لها الأرض فهلكت.

و ملك بعدها أخوها قليمون بن أتريب: و كان حكيما فاضلا فبنى البنيان و عمل الطلسمات، و فى أيامه بنيت مدينة تنيس الأولى، و بنيت مدينة دمياط، و أقام ملكا تسعين سنة، و مات فدفن فى ناوس.

و ملك بعده ابنه فرسون: و كان فاضلا كاهنا، بنى المدائن و جدّد الهياكل، و كان حدثا فقصده بعض ملوك حمير فى جموع عظيمة، فخرج إليهم و لقيه مدينة إيليا، و قاتله قتالا شديدا حتى تفانى من الفريقين معظمهما، و أظهر المصريون أشياء من سحرهم، فانهزم الحميرى فى طائفة يسيرة، و قتل فرسون عامّة أصحابه و أخذ ما كان معهم، و عاد مظفرا إلى مدينة منف، و عمل منارا على بحر القلزم فى رأسه مرآة تجذب المراكب إلى الساحل حتى يؤخذ منها ما هو مقرّر عليها من المال، و أقام ملكا مائتى سنة و ستين سنة، و مات فدفن فى ناوس خلف الجبل الأسود الشرقىّ، و عمل فيه قبة تحتوى على اثنى عشر بيتا فى كل بيت أعجوبة و دفن معه ماله و عمل عليه طلسم يحفظه.

و ملك بعده نحوه أربعة و صار الملك إلى صا بن قبطيم: و كان اصغر ولد أبيه و أحبهم إليه.

و لما مات ملك بعده نونية الكاهنة: و كانت ساحرة فكانت تجلس على سرير من نار فإذا تحاكم إليها أحد، و كان صادقا شق تلك النار من غير أن تضرّه، و إن كان كاذبا أخذته تلك النار، و كانت تتصوّر كل يوم فى صور كثيرة الأشكال، ثم بنت قصرا و احتجبت فيه، و جعلت فى سوره أنابيب من نحاس مجوّفة، و كتبت على كل أنبوب فنا من الفنون التى يتحاكم الناس بها إليها، فكان من أتاها فى محاكمة وقف عند الأنبوب الذى فيه محاكمته، و تكلم بما يريده، و سأل عنه بصوت خفىّ، فإذا فرغ جعل أذنه فى الأنبوب فيأتيه منه جواب ما سأل، و لم يزل هذا القصر و الأنابيب حتى أتلفه بخت نصر.

و ملك بعدها مرقونس: و كان فاضلا حكيما، و كانت أمه بنت ملك النوبة، فعملت عجائب و صنع فى أيامه كل غريبة، و ملك ثلاثا و سبعين سنة، و مات و عمره مائتان و أربعون سنة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۶۱

فملك بعده ابنه ايساد و هو ابن خمس و أربعين سنة: و كان جبارا طماح العين، فانتزى امرأة أبيه، و انكشف أمره معها، و كان أكبر همه اللهو و اللعب، فجمع كل ملة فى مملكته، و رفض العلوم، و أهمل أمر الهياكل و الكهنة، و ترك النظر فى أحوال الناس، و بنى قصورا على النيل ليتنزه فيها، و أتلف أكثر الأموال فى اللعب، فكرهه الناس، و كرههم إلى أن سمّوه، فمات عن مائة و عشرين سنة.

و ملك بعده ابنه صا: و يقال: إنّ صا هو ابن مرقونس، و هو أخود أيساد، و لما ملك سكن منف، و وعد الناس بخير و ملك الأحياز كلها، و عمل بها عجائب و طلسمات، و ردّ الكهنة إلى مراتبهم و نفى الملهين و أهل الشرّ، و نصب العقاب الذى عمله أبوه و شرّف هيكله و دعا إليه و بنى بداخل الواحات مدينة و نصب قرب البحر أعلاما كثيرة، و جعل على الأطراف أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجرى فى حدودهم، و عمل على حافتى النيل مناير يوقد عليها إذا حزبهم أمر أو قصدهم أحد، و جعل بحافة بحر الملح منارا يعلم به أمر البحر، و يقال:

إنه بنى أكثر مدينة منف، و كل بنيان عظيم بالإسكندرية، و كان لما ملك البلد بأسره جمع الحكماء، و نظر فى النجوم و كان بها حاذقا، فرأى أن مصر، لا بدّ أن تغرق من نيلها، و إنها تخرب على يد رجل يأتى من ناحية الشام، فجمع كل فاعل بمصر، و بنى مدينة فى الواح الأقصى، و قصده ملك الإفرنجة، و ملك منه مدينة منف، و قدم معه ألف مركب، و هدم أكثر الإسكندرية و دخل إلى النيل من رشيد حتى أخذ منف و فرّ منه صا إلى المدائن الداخلة، و تحصن بها من عدوّه، فامتنعت بالطلسمات أياما كثيرة، ثم كانت العاقبة له و عاد عدوّه منهزما، و رجع إلى منف فتتبع الكهنة و قتل منهم كثيرا، و أقام ملكا سبعا و ستين سنة، و عاش مائة و سبعين سنة.

و ملك ابنه تدراس: و استولى على الأحياز كلها وصفا له الوقت و ملك مصر، و كان محتكما مجرّبا ذا أيد و قوّة و معرفة بالأمور، فأظهر العدل و أقام الهياكل و أهلها قياما حسنا و بنى بيتا للزهرة، و حفر خليج سخا و حارب بعض عمالقة الشام، و دخل إلى فلسطين و قتل بها خلقا و سبى بعض أهلها إلى مصر، و غزا السودان من الزنج و الحبشة و وجه فى النيل بثلاثمائة سفينة فلقى السودان، و كانوا زهاء ألف ألف فهزمهم، و قتل أكثرهم و أسر منهم خلقا كثيرا، و ساق الفيلة و النمور إلى مصر، و عمل على حدود بلده منارات زبر عليها اسمه و مسيره و ظفره، و فى أيامه بعث اللّه نبيه صالحا إلى ثمود، و يقال: إنه هو الذى أنزل النوبة حيث هى، و ذلك أنه لما أوغل فى أرض الحبشة، و قتل أمم السودان وجد فيهم أمة تقرأ صحف آدم و شيث و إدريس فمنّ عليها، و أنزلها على نحو من شهر من أرض مصر، فسموا النوبة، و مات بمنف.

فملك بعده ابنه ماليق: و كان عاقلا كريما، حسن الصورة مجرّبا مخالفا لأبيه و أهل

مصر فى عبادة الكواكب و البقر، و يقال: إنه كان موحدا على دين أجداده، قبطيم و مصرايم، و كانت القبط تذمه لذلك، و أمر الناس باتخاذ كل قارة من الخيل، و اقتنى السلاح و أكثر الأسفار، و أنشأ فى بحر المغرب مائتى سفينة و خرج فى جيش عظيم فى البرّ و البحر، و أتى البربر، فهزمهم و استأصل أكثرهم، و بلغ إفريقية، و سار إلى الأندلس يريد الإفرنجة، فلم يمرّ بأمّة إلا أبادها، فحشد له ملك الإفرنجة و حاربه شهرا، ثم طلب صلحه، و أهدى إليه فسار عنه، و دوّخ الأمم المتصلة بالبحر الأخضر و القبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة، و عمل أعمالا على البحر، و زبر عليها اسمه و مسيره و خرّب مدن البربر، و رجع فتلقاه أهل مصر بأصناف الرياحين و أنواع اللهو، و فرشت له الطرقات، فهابه الملوك، و حملوا إليه الهدايا و ما زال موحدا حتى مات.

فملك بعده ابنه حزابا: و كان لينا سهل الخلق قد عرّفه أبوه التوحيد، و نهاه عن عبادة الأصنام فرجع عن ذلك بعده إلى دين قومه، و غزا الهند و السودان بعد ما عمل مائة سفينة على شكل سفن الهند، و تجهز و حمل معه امرأته و وجوه أصحابه و استخلف ابنه كلكلى على مصر، و كان صبيا و جعل معه وزيرا كاهنا، فمرّ على ساحل اليمن و عاث فى مدائنه، و بلغ سرنديب و أوقع بأهلها، و بلغ جزيرة بين الهند و الصين، فأذعن له أهلها و تنقل فى تلك الجزائر سنين، فيقال: إنه أقام فى سفره سبع عشرة سنة، و رجع غانما، فهابه الملوك، و بنى عدّة هياكل، و أقام بها الأصنام للكواكب، ثم غزا نواحى الشام فأطاعه أهله و رجع فغزا النوبة و السودان، و ضرب عليهم خراجا يحملونه إليه، و رفع أقدار الكهنة و مصاحفهم، و كان يرى أن هذا الظفر بمعونة الكواكب له، و مات و قد ملك خمسا و سبعين سنة. فقام ابنه كلكلى و عقد له بالإسكندرية، فأقام بها شهرا، ثم قدم إلى منف، و كان أصناميا، فسرّ به أهل مصر، و كان يحب الحكمة، و إظهارالعجائب و يقرّب أهلها و يجيزهم و عمل الكيمياء و خزن أموالا عظيمة بصحارى الغرب، و هو أوّل من أظهر

علم الكيمياء بمصر، و كان علمها مكتوما، و كان من تقدّمه من الملوك أمر بترك صنعتها، فعملها كلكلى، و ملأ دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهب فى زمن بمصر أكثر منه فى وقته، و لا الخراج لأنه كان مائة ألف ألف، و بضعة عشر ألف ألف مثقال، فاستغنوا عن إثارة المعادن، و عمل أيضا من الحجارة الملوّنة التى تشف شيئا كثيرا، و عمل من الفيروزج و غيره أشياء.

و اخترع أمورا تخرج عن حدّ العقل حتى سمى حكيم الملوك، و غلب جميع الكهنة فى علومهم، و كان يخبرهم بما يغيب عنهم، و كان نمرود إبراهيم عليه السلام فى وقته، فاتصل بنمرود خبر حكمته و سحره، فاستزاره، و كان النمرود جبارا مشوّه الخلق يسكن السواد من العراق، و أتاه اللّه قوّة و قدرة و بطشا، فغلب على كثير من الأمم، فتقول القبط: إنّ النمرود لما استزار كلكلى وجه إليه أن يلقاه بموضع كذا، فسار إلى الموضع على أربعة أفراس تحمله ذوات أجنحة، و قد أحاط به نور كالنار، و حوله صور هائلة، و قد خيل بها و هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۶۳

متوشح بثعبان متحزم ببعضه، و قد فغر فاه و هو يضربه بقضيب آس، فلما رآه النمرود هاله، و أقرّ له بجليل الحكمة، و سأله: أن يكون ظهيرا له، و يقال: إنه كان يرتفع و يجلس على الهرم الغربىّ فى قبة تلوح على رأسه، فإذا دهم أهل البلد أمر اجتمعوا حول الهرم فيقيم أياما لا يأكل و لا يشرب، ثم استتر مدّة حتى توهموا أنه هلك فطمع فيه الملوك، و قصده ملك من الغرب فى جيش عظيم، حتى قدم وادى هبيب، فأقبل حتى جللهم من سحره بشىء كالغمام شديد الحرّ، فأقاموا تحته أياما متحيرين، ثم طار إلى مصر، و أمرهم بالخروج إلى الجيش، فوجدوهم قد ماتوا هم و دوابهم، فهابه الكهنة مهابة لم يهابوها أحدا قبله، و عمر طويلا و غاب فلم يعلم خبره.

و قال ابن عبد الحكم: إنّ كلكلى ابن حزابا ملكهم نحو مائة سنة ثم مات و لا ولد له.

فملك أخوه ماليا بن حزابا. قال ابن وصيف شاه: و قام أخوه ماليا: و كان شرها كثير الأكل و الشرب منفردا بالرفاهية غير ناظر فى شىء من الحكمة، و جعل أمر البلد إلى وزيره، و اشتغل بالنساء، و كان له من النساء ثمانون امرأة فهجم عليه ابنه طوطيس، و هو سكران فقتله، و قتل امرأة كانت عنده.

و ملك بعده ابنه طوطيس: و يقال: إنه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و يقال: الوليد بن الريان، و أنه أحد فراعنة مصر، من ولد دان بن فهلوج بن أمراز بن أشود بن سام بن نوح.

و قيل: فراعنة مصر من ولد عملاق الأوّل بن لاود بن سام بن نوح، و كان جبارا جريئا شديد البأس مهابا، و القبط تزعم أنه أوّل الفراعنة بمصر، و هو فرعون إبراهيم عليه السلام، و يقال: إن الفراعنة سبعة، هو أوّلهم، و حفر نهرا فى شرقىّ مصر بسفح الجبل حتى ينتهى إلى مرفأ السفن فى البحر الملح، و كان يحمل إلى هاجر أمّ إسماعيل التى أعطاها إبراهيم عليه السلام الحنطة و أصناف الغلات فتصل إلى جدّة فأحيى بلد الحجاز مدّة، و يقال: إن كل ما حليت به الكعبة فى ذلك العصر مما أهداه ملك مصر، و لكثرة ما حمل إلى الحجاز سمته العرب من جرهم الصادوق.

و فى كتاب هروشيش: أن سلطان المصريين فى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، كان بأيدى قوم يدعون ببنى فاليق بن دارش، و دام ملكهم بمصر مائة و عشرين سنة، و قال ابن إسحاق عن بعضهم: إن فراعنة مصر من ولد دان بن فهلوج بن امراز بن أشود بن سام بن نوح، قال: و المشهور أنهم من العماليق، منهم الريان بن الوليد، و يقال: الوليد بن الريان فرعون يوسف، و الوليد بن مصعب فرعون موسى، و منهم سنان بن علوان.

قال ابن وصيف شاه: و إنما قيل له: فرعون، لأنه أكثر القتل و لم يرزق غير ابنة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۶۴

و كانت عاقلة فخافت لكثرة قتله الناس، فقتلته بسمّ، و له فى الملك مائة و سبعون سنة.

و ملكت بعده جوريق: فوعدت الناس بالإحسان، و جمعت الأموال و قدّمت الكهنة و أهل الحكمة و رؤساء السحرة، و رفعت

أقدارهم و جدّدت الهياكل، و صار من لم يرضها إلى مدينة أتريب، و ملّكوا رجلا من ولد أتريب، و قد تقدّم خبره فى الإسكندرية، و جورياق أوّل امرأة ملكت مصر من ولد نوح عليه السلام، و ماتت.

فملكت بعدها ابنة عمها زلفى بنت مأمون: و كانت عذراء عاقلة، فوعدت الناس بالجميل، و قام عليها أيمن الإتريبىّ، و استنصر بملك العمالقة، فسير معه قائدا، فأخرجت إليه جيشا فالتقوا بالعريش، و اقتتلوا حتى فنى منهم كثير من الناس، ثم انهزم أصحاب زلفى إلى منف، و هم فى أقفيتهم، فخرجت زلفى إلى الصعيد، و نزلت الأشمونين، فكان بينها و بين عساكر العمالقة حروب انهزموا فيها، و خرجوا عن منف بعد ما عاثوا فيها و عدّوا إلى الجرف، فامتنعوا به، و صارت مصر بينهم نصفين، ثم إنّ زلفى عاودت الحرب، فاستمرّت ثلاثة أشهر حتى انهزمت إلى قوص و أيمن خلفها، فلما أيقنت أنها تؤخذ، سمّت نفسها، فهلكت.

و قال ابن عبد الحكم: ثم توفى طوطيس بن ماليا، فاستخلفت ابنته جورياق ابنة طوطيس، و لم يكن له ولد غيرها، ثم توفيت جورياق فاستخلفت ابنة عمها زلفى ابنة مأمون بن ماليا، فعمرت دهرا طويلا، و كثروا و نموا و ملأوا أرض مصر كلها، فطمعت فيهم العمالقة، فغزاهم الوليد بن دومع، فقاتلهم قتالا عظيما، ثم رضوا أن يملكوه عليهم فملكهم نحوا من مائة سنة، فطغى و تكبر، و أظهر الفاحشة، فسلط اللّه عليه سبعا فافترسه و أكل لحمه.

و الذى ملك مصر من الفراعنة خمسة: و ملك أيمن و تجبر، و قتل خلقا ممن حاربه، و كان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج فى جيش كثيف، فبعث غلاما يقال له: فرعون، إلى مصر، ففتحها. ثم قدم بعده و استباح أهل مصر، و أخذ أموالهم ثم خرج ليقف على مصب النيل فرأى جبل القمر، و أقام فى غيبته أربعين سنة، و رجع إلى مصر، و قد خالفه فرعون، و فرّ منه فاستعبد أهل مصر و ملكهم مائة و عشرين سنة حتى هلك.

و ملك ابنه الريان بن الوليد بن دومع: أحد العمالقة، و كان أقوى أهل الأرض فى زمانه و أعظمهم ملكا.

و العمالقة: ولد عمليق بن لاود بن سام بن نوح، و هو فرعون يوسف عليه السلام، و القبط تسميه: نهراوش، و قيل: فرعون يوسف، اسمه: الريان بن الوليد بن ليث بن قاران بن عمرو بن عمليق بن بلقع بن عابر بن اشليخا بن لود بن سام بن نوح، و قيل: فرعون

يوسف، هو: جدّ فرعون موسى أبو أبيه، و اسمه: برخو، و كان عظيم الخليق جميل الوجه عاقلا، فوعد الناس الجميل، و أسقط عنهم الخراج لثلاث سنين و فرّق المال فيهم.

و ملك رجلا من أهل بيته يقال له: أطفين، و هو الذى يقال له: العزيز، و كان عاقلا أديبا مستعملا للعدل و العمارة، فأمر أن ينصب له سرير من فضة فى قصر الملك يجلس عليه، و يخرج و جميع الكتاب و الوزراء بين يديه، فكفى نهراوش ما خلف ستره، و قام بجميع أموره و خلاه للذاته، فأقام على قصفه مدّة و البلد عامر، فقصده رجل من العمالقة، و سار إلى مصر فى جيوشه، فخرج إليه و قاتله و هزمه، و سار خلفه، و دخل الشام و عاث هنالك، فهابته الملوك و لاطفته.

و قيل: إنه بلغ الموصل، و ضرب على أهل الشام خراجا و خرج لغزو بلاد المغرب فى تسعمائة ألف، و مرّ بأرض البربر، و جلا كثيرا منهم، و مرّ إلى البحر الأخضر، و سار إلى الجنوب، فقدم النوبة و عاد إلى مدينة منف، و كان من خبر يوسف معه ما ذكر عند ذكر الفيوم.

و ملك بعده ابنه دريموش : و يقال: له دارم بن الريان، و هو الفرعون الرابع، فخالف سنة أبيه، و كان يوسف خليفته، فيقبل منه تارة، و يخالفه تارة، و ظهر فى أيامه معدن فضة فأثار منه شيئا عظيما.

و فى أيامه مات يوسف عليه السلام، فاستوزر بعده رجلا حمله على أذى الناس، و أخذ أموالهم، فبلغ ذلك منهم مبلغا عظيما، ثم زاد فى التجرّى حتى اقتلع كل امرأة جميلة بمدينة منف من أهلها، فكان لا يسمع بامرأة حسناء فى موضع إلا وجّه إليها، فحملت إليه فاضطرب الناس و شنعوا عليه و عطلوا الصنائع و الأعمال و الأسواق، فعدا عليهم، و قتل منهم مقتلة عظيمة، و زاد الأمر حتى اجتمعوا

على خلعه، فبرز لهم و أسقط عنهم خراج ثلاث سنين، و أنفق فيهم مالا فسكتوا، و فى أيامه ثار القبط على بنى إسرائيل و طلبوا من الوزير، أن يخرجهم من مصر، فما زال بهم حتى أمسكوا، و بلغ الملك ذلك، و كان قد خرج إلى الصعيد فتوعد أهل مصر، فشغبوا عليه و حشدوا له، فحاربوه فقتل منهم خلقا كثيرا، و ظفر بمن بقى، فقتلهم و صلبهم على حافتى النيل، و عاد إلى أعظم ما كان عليه من أخذ الأموال و النساء، و استخدام أشراف القبط و بنى إسرائيل، فأجمع الكل على ذمّه، فركب النيل للنزهة، و ثار به ريح عاصف، فغرق، فلم يوجد إلا بناحية شطنوف، و قيل: فيما بين طرا و حلوان.

فقدّم الوزير ابنه معاديوس: و كان صبيا، و يقال له: معدان، فأسقط عن الناس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۶۶

ما أسقطه أبوه من الخراج، و وعد بالإحسان فاستقام له الأمر، و ردّ نساء الناس، و هو خامس الفراعنة، و حدث فى زمانه طوفان مصر، و كثر بنوا إسرائيل و عابوا الأصنام، فأفردوا ناحية عن البلد بحيث لا يختلط بهم غيرهم، و أقطعوا موضعا فى قبلىّ منف، فاجتمعوا فيه، و بنوا فيه معبدا، و غلب بعض الكنعانيين على الشام، و منع من الضريبة التى كانت على أهل الشام لملك مصر، فاجتمع الناس إلى معدان، و حثوه على المسير لحربه، فامتنع من المسير و لزم الهيكل، فزعموا أنه قام فى هيكل زحل للعبادة، فتجلى له زحل، و خاطبه. و قال له: قد جعلتك ربا على أهل بلدك، و حبوتك بالقدرة عليهم، و على غيرهم، و سأرفعك إلىّ، فلا تخل من ذكرى فعظم عند نفسه و تجبر، و أمر الناس، أن يسموه ربا، و ترفع عن أن ينظر فى شىء من أمر الملك، و جعل عليه ابنه اكسامس.

فقام ابنه اكسامس فى الملك، و يقال: كلسم بن معدان، فرتب الناس مراتب، و قسم الكور و الأعمال، و أمر باستنباط العمارات، و إظهار الصناعات، و وسع على الناس فى أرزاقهم، و أمر بتنظيف الهياكل، و تجديد لباسها و أوانيها و زاد فى القرابين، و هو الذى يقال له: كاشم بن معدان بن دارم بن الريان بن الوليد بن دومع العمليقى، و هو سادس الفراعنة، و سموا فراعنة، بفرعان، الأوّل فصار اسما لكل من تجبر و علا أمره، فطال ملكه، و أقام أعلاما كثيرة حول منف، و عمل مدنا كثيرة، و مناير للوقودات و طلسمات، و أقام سبع سنين بأجمل أمر، فلما مات وزير أبيه استخلف رجلا من أهل بيت المملكة يقال له ظلما بن قومس، و كان شجاعا ساحرا كاهنا كاتبا حكيما متصرّفا فى كل فنّ، و كانت نفسه تنازعه الملك، فأصلح أمر الملك و بنى مدنا من الجانبين، و رأى فى نجومه أنه سيكون حدث، فبنى بناحية رقودة و الصعيد ملاعب و مصانع و شكا إليه القبط من الإسرائيليين، فقال: هم عبيدكم، فأذلوهم من حينئذ، و خرج إلى ناحية البربر، فعاث و قتل و سبى، و فى أيامه:

بنيت منارة الإسكندرية، و هاج البحر الملح فغرّق كثيرا من القرى و الجنان و المصانع، و مات اكسامس، و كان ملكه إحدى و ثلاثين سنة، منها إحدى عشرة سنة يدبر أمره ظلما، فلما مات اضطرب الناس، و اتهموا ظلما أنه سمه فقام.

و ولى لاطيس بن اكسامس: و كان جريئا معجبا صلفا، فأمر و نهى، و ألزم الناس أعمالهم، و قال: أنا مستقيم ما استقمتم، و إن ملتم عن الواجب ملت عنكم، و حط جماعة عن مراتبهم، و صرف ظلما عن خلافته، و استخلف غيره، و أنفذ ظلما إلى الصعيد فى جماعة من الإسرائيليين، و جدّد بناء الهياكل و بنى القرى و أثار معادن كثيرة و كنز فى صحراء الشرق عدّة كنوز، و كان يحب الحكمة، ثم تجبر و علا أمره، و أمر أن لا يجلس أحد فى مجلسه، و لا فى قصر الملك، لا كاهن و لا غيره، بل يقومون على أرجلهم حتى يمضوا، و زاد فى أذى الناس و العنف بهم، و ممنع فضول ما بأيديهم و قصرهم على القوت، و جمع أموالهم و طلب النساء، و انتزع كثيرا منهنّ و فعل أكثر مما فعله من تقدّم قبله، و استعبد بنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۶۷

إسرائيل، و قتل جماعة من الكهنة، فأبغضه الخاص و العام، و ثار ظلما بالصعيد، و كاتب وجوه الناس فكتب لاطيس بصرفه عن العمل، فامتنع و حارب عساكره، و زحف حتى دخل منف.

ظلما بن قومس: فرعون موسى، يقال: إن اسمه الوليد بن مصعب بن اراهون بن الهلوت بن قاران بن عمرو بن عمليق بن بلقع بن عابر

بن اشليخا بن لود بن سام بن نوح، و إنه من العمالقة، و كان قصيرا طويل اللحية أشهل العين اليمنى صغير العين اليسرى، أعرج، و زعم قوم: أنه من القبط و أن نسبه و نسب أهل بيته مشهور عندهم، و قيل غير ذلك، و كان من خبره ما ذكرنا فى كنيسة دموة.

و قال ابن عبد الحكم: و لما أغرق اللّه فرعون بقيت مصر بعد غرقه، ليس فيها من أشراف أهلها أحد، و لم يبق إلا العبيد و الأجراء و النساء، فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا، و أجمع رأيهنّ أن يولين امرأة يقال لها: دلوكة.

فملكت دلوكة ابنة زبا: و يقال: دلوكة بنت قاران، و كان لها عقل و تجارب و معرفة، و كانت فى شرف منهنّ، و هى يومئذ بنت مائة و ستين سنة، فبنت جدارا حصنت به مصر من الأعداء، و كان من حدّ زنج إلى إفريقية إلى الواحات إلى بلد النوبة على كل موضع منه حرس قيام ليلهم، و نهارهم يقدون النار وقودا لا يطفأ أبدا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها فى ستة أشهر، و هو حائط العجوز، و فى أيامها، بنت تدورة الساحرة البرابى فى وسط منف، فملكتهم دلوكة عشرين سنة حتى بلغ صبىّ من أبناء أكابرهم يقال له: دركون بن بلاطس، ثم مات و استخلف ابنه تودست، ثم توفى تودست بن دركون، فاستخلف أدقاش، فلم يملك إلا ثلاث سنين، حتى مات فاستخلف أخوه مرينا بن مرينوس، ثم توفى فاستخلف أستادس بن مرينا، فطغى و تكبر و سفك الدم و أظهر الفاحشة، فخلعوه و قتلوه و بايعوا رجلا- من أشرافهم يقال له: بلطوس بن مينا كيل، فملكهم أربعين سنة، ثم توفى فقام ابنه مالوس، ثم توفى مالوس، فاستخلف أخوه ميناكيل بن بلطوس بن ميناكيل، فملكهم زمانا، ثم توفى و استخلف ابنه نوله بن ميناكيل، فملكهم مائة و عشرين سنة، و هو الأعرج الذى سبى ملك بيت المقدس، و قدم به إلى مصر، و كان قد تمكن و طغى و بلغ مبلغا لم يبلغه أحد ممن قبله بعد فرعون، فصرعته دابته، فمات.

و قيل له: الأعرج، لأنه لما غزا أهل بيت المقدس و نهبهم، و سبى ملكهم يوشيا بن أمون بن منشا بن حزقيا، همّ أن يصعد على كرسىّ نبىّ اللّه سليمان بن داود، و كان بلولب لا- يمكن أحدا أن يصعد عليه إلا- برجليه جميعا، فصعد برجل واحدة، و هى اليمنى، فدار اللولب على ساقه الأخرى فاندقت، فلم يزل يجمع بها إلى أن مات، فلذلك سمى الأعرج.

فاستخلف مرينوس بن نولة، فملكهم زمانا، ثم توفى و استخلف ابنه قرقورة، فملكهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۶۸

ستين سنة، ثم توفى و استخلف أخوه نقاس بن مرنيوس، و انهدم البربا فى زمنه، فلم يقدر أحد على إصلاحه، ثم توفى نقاس و استخلف ابنه قوميس بن نقاس، فملكهم دهرا و حاربه بخت نصر و قتله، و خرّب مدينة منف، و غيرها من المدائن و سبى أهل مصر، و لم يترك بها أحدا حتى بقيت أرض مصر أربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن.

و ذكر فى ترجمة كتاب هروشيش الأندلسىّ فى وصف الدول و الحروب، أنّ فيما بين غرق فرعون موسى إلى مائة و سبع سنين، كان بمصر ملك يسمى نوشردس كان يقتل الغرباء، و الأضياف و يذبحهم لأوثانه، و يجعل دماءهم قربانا لها، و أن بعد غرق فرعون إلى ثلثمائة و ثمان و عشرين سنة، كان بمصر ملك يسمى: بروبة، و كان عظيم المملكة قوىّ السلطان أخذ بالحرب أكثر نواحى الجنوب برّا و بحرا، و هو أوّل من حارب الروم الذين قيل لهم بعد ذلك الغوط، و كان قد أرسل إليهم يدعوهم إلى طاعته، و يخوّفهم حربه، فأجابوه ليس من الرأى المحمود للملك الغنىّ محاربة قوم فقراء لكثرة نوازل الحروب، و اختلاف حوادثها بالظفر و الهلاك، و إنا لا ننتظر مجيئك، بل نسرع لغارتك، و أتبعوا قولهم عملا، و خرج فرعون إليهم، فخرجوا مسرعين إليه و هزموا جيوشه، و نهبوا عساكره و أمواله و عدده، و جميع ذخائره و مضوا فنهبوا أرض مصر حتى كادوا يغلبون عليها لولا- و حول عرضت لهم منعتهم مما خلفها، ثم انصرفوا إلى بلاد الشام بحروب متصلة، حتى أذلوا أهلها، و جعلوهم يؤدّون إليهم المغارم، و أقاموا محاربين لمن خالفهم فى غزوتهم خمس عشرة سنة، و لم ينصرفوا إلى بلادهم حتى أتتهم من نسائهم من يقلن لهم: إما أن تنصرفوا، و إما أن تتخذ الأزواج و نطلب النسل من عند المجاورين لنا، فعند ذلك انصرفوا إلى بلادهم، و قد امتلأت أيديهم أموالا و أوقارا جمة، و قد خلفوا وراءهم ذكرا مفزعا.

و يقال: إنّ ملوك مدين ملكوا مصر، خمسمائة عام بعد غرق فرعون، و هلاك دلوكة حتى أخرجهم منها نبيّ اللّه سليمان بن داود، فعاد الملك بعدهم إلى القبط، و إنّ جالوت بن بالوت، لما قتله داود، سار ابنه جالوت بن جالوت إلى مصر، و بها ملوك مدين، فأنزله ملك مصر، بالجانب الغربيّ، فأقام بها مدّة ثم سار إلى بلاد الغرب.

و يقال: إنّ القبط ملكوا مصر بعد دلوكة، و ابنها مدّة ستمائة سنة و عشرين سنة، و عدّتهم سبعة و عشرون ملكا، هم: ديوسقوليطا، و مدّته ثمان و سبعون سنة، و قيل: ثمان و ثمانون سنة.

ثم ملك بعده سمانادوس، ستا و عشرين سنة، و قام بعده سوماناس مدّة مائة سنة، ثم ملك مفخراس أربع سنين، ثم ملك أماناقوناس تسع سنين، ثم اسحوريس ست سنين، ثم فسيناخس تسع سنين، ثم فسوسانس خمسا و ثلاثين سنة، ثم ملك سسوناخوسيس إحدى و عشرين سنة، ثم ملك اساليون خمس عشرة سنة، ثم طافالونيس ثلاث عشرة سنة، ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۶۹

نطافاناسطلس خمسا و عشرين سنة، ثم أساراثون تسع سنين، ثم ملك فسامرس عشر سنين، ثم أوفاينواس أربعا و أربعين سنة، ثم ساياقور اثنتى عشرة سنة، ثم سخس الحبشى اثنتى عشرة سنة ثم طراحوش الحبشى عشرين سنة، ثم أمراس الحبشى اثنتى عشرة سنة، ثم استطافينياس سبع سنين، ثم باخفاسوس ست سنين، ثم ياخو ثمان سنين، ثم فساماملطيقوش أربعا و أربعين سنة، ثم بحنوقا ست سنين، ثم فسامرتاس سبع عشرة سنة، ثم و افرس خمسا و عشرين سنة، ثم أماسلس اثنتين و أربعين سنة.

و ملك بعد هؤلاء: مصر خمسة ملوك من ملوك بابل، و هم: أمرطيوش ست سنين، ثم ما فرطاس سبع سنين، ثم أوخرس اثنتى عشرة سنة، ثم فساموت مدّة سنتين، ثم ملك موتاطوس سبع سنين.

ثم ملك ثلاثة ملوك من أثور، و هم: الجرامقة الذين ملكوا الموصل و الجزيرة، و هم:

نافاطانبوش ثلاث عشرة سنة، ثم طوس سبع سنين، ثم نافاطانيناس ثمان عشرة سنة.

ثم انتقل ملك مصر منهم: إلى الإسكندر بن فيليبس اليونانى، و هذه أسماء رومية، و لعلها أو بعضها متداخل فيما تقدّم ذكره ممن ملك بعد دلوكة.

و بين بخت نصر، و بين الطوفان ألفا سنة و ثلثمائة و ست و خمسون سنة و أشهر، و يجتمع من حساب ما وقع فى التوراة، أنّ بين الطوفان، و بين خراب بيت المقدس على يد بخت نصر من السنين، ألفا و ستمائة و أربعا و ثمانين سنة، و هذا خلاف ما نقله المسعودىّ، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

ذكر مدينة الإسكندرية

اشارة

هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا و أقدمها وضعا، و قد بنيت غير مرّة، فأوّل ما بنيت بعد كون الطوفان فى زمان مصرايم بن بيصر بن نوح، و كان يقال لها: إذ ذاك مدينة رقودة، ثم بنيت بعد ذلك مرّتين.

فلما كان فى أيام اليونانيين، جدّدها الإسكندر بن فيليبس المقدونىّ الذى قهر دارا، و ملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف، بمائة و عشرين سنة شمسية، فعرفت به، و منذ جدّدها الإسكندر المذكور انتقل تخت المملكة من مدينة منف إلى الإسكندرية، فصارت دار المملكة بديار مصر، و لم تزل على ذلك حتى ظهر دين الإسلام، و قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين، و فتح الحصن و الإسكندرية، و صارت ديار مصر أرض إسلام، فانتقل تخت الملك حينئذ من الإسكندرية إلى فسطاط مصر، و صار الفسطاط من بعد الإسكندرية دار مملكة ديار مصر.

و سأقص عليك من أخبار الإسكندرية ما وصل إليه علمى، إن شاء اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۷۰

ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: أنّ الكوكئ، و هى أمّة فى غابر الدهر من أهل أيلة ملكوا الأرض و قسموها على ثلاثين كورة، و أربعة أقسام، كل قسم عمل، و بنوا فى كل عمل، مدينة بها ملك يجلس على منبر من ذهب، و له بربا، و هى بيت الحكمة، و له هيكل على اسم كوكب فيه أصنام من ذهب، و جعلوا الإسكندرية و اسمها رقودة، خمس عشرة كورة، و جعلوا فيها كبار الكهنة، و نصبوا فى هياكلها من أصنام الذهب أكثر مما نصبوا فى غيرها، فكان ما بها مائتا صنم من ذهب، و قسموا الصعيد ثمانين كورة على أربعة أقسام و ثلاثين مدينة فيها جميع العجائب.

و ذكر بطليموس فى كتاب الأقاليم و وصف الجزائر و البحار و المدن: أنّ مدينة الإسكندرية لبرج الأسد و دليلها المرّيخ، و ساعاتها أربع عشرة ساعة، و طولها ستون درجة و نصف درجة يكون ذلك أربع ساعات مستوية و ثلث عشر ساعة.

و قال ابن وصيف شاه فى ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن نوح، و علمهم أيضا عمل الطلسمات، و كانت تخرج من البحر دواب تفسد زرعهم و جنانهم و بنيانهم، فعملوا لها الطلسمات، فغابت، و لم تعد و بنوا على غير البحر مدنا منها مدينة رقودة مكان الإسكندرية، و جعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب، و القبة مذهبة و نصبوا فوقها، مرآة من أخلاط شتى، قطرها خمسة أشبار و ارتفاع القبة مائة ذراع، فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم، فإن كان مما يهمهم، و كان من البحر عملوا لتلك المرآة عملا، فألقت شعاعها على ذلك الشىء فأحرقته، فلم تزل إلى أن غلب البحر عليها.

و يقال: إنّ الإسكندر إنما عمل المنارة تشبيها بها، و كان عليها أيضا مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم، فاحتال عليهم بعض ملوكهم، و وجه إليها من أزالها، و كانت من زجاج مدبر.

قال: و ذكر بعض القبط أنّ رجلا من بنى الكهنة الذين قتلهم، ايساد ملك مصر سار إلى ملك كان فى بلاد الإفرنجة، فذكر له كثرة كنوز مصر و عجائبها، و ضمن له أن يوصله إلى ملكها و أموالها و يرفع عنه أذى طلسماتها حتى يبلغ جميع ما يريد، فلما اتصل صا بن مرقونس أخى ايساد، و هو ملك مصر يومئذ، أنّ صاحب بلاد الإفرنجة يتجهز إليه عمد إلى جبل بين البحر الملح و شرقىّ النيل، فأصعد إليه أكثر كنوزه، و بنى عليها قبابا مصفحة بالرصاص، و ظهر صاحب بلاد الإفرنجة فى ألف مركب، فكان لا يمرّ بشىء من أعلام مصر و منازلها إلا هدمه، و كسر الأصنام بمعونة ذلك الكاهن، حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها، و فيما حولها و هدم أكثر معالمها إلى أن دخل النيل من ناحية رشيد، و صعد إلى منف، و أهل النواحى يحاربونه، و هو ينهب ما مرّ به، و يقتل ما قدر عليه إلى أن طلب المدائن الداخلة لأخذ كنوزها، فوجدها ممتنعة بالطلسمات الشداد، و المياه العميقة و الخنادق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۷۱

و الشداخات، فأقام عليها أياما كثيرة، فلم يمكنه الوصول إليها و غضب على الكاهن، فقتله من أجل أنّ جماعة من أصحابه هلكوا، فاجتمع أهل النواحى، و قتلوا من أصحابه الذين بالمراكب خلقا، و أحرقوا بعض المراكب، و قام أهل مصر بسحرهم و تهاويلهم فأتت رياح أغرقت أكثر مراكبه حتى نجا بنفسه، و قد خرج فعاد الناس إلى منازلهم و قراهم، و رجع الملك صا إلى مدينة منف، و أقام بها، و تجهز لغزو بلدان الروم، و بعث إليها و خرّب الجزائر فهابته الملوك، و تتبع الكهنة فقتل منهم خلقا كثيرا، و أقام ملكا سبعا و ستين سنة، و مات و عمره مائة و سبعون سنة، و دفن بمنف فى وسطها تحت الأرض، و معه الأموال و الجواهر و التماثيل و الطلسمات، كما فعل آباؤه منها: أربعة آلاف مثقال ذهبا على صور حيوانات برّية و بحرية، و تمثال عقاب من حجر أخضر، و تمثال تنين من ذهب، و زبروا عليها اسمه، و غلبته الملوك و سيرته، و عهد إلى ابنه تدراس.

قال: و لما جلست جورياق ابنة طوطيس، أوّل فراعنة مصر، و هو فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام على سرير الملك بعد قتلها لأبيها، و عدت الناس بالإحسان، و أخذت فى جمع الأموال، فاجتمع لها ما لم يجتمع لملك، و قدّمت الكهنة و أهل الحكمة، و رؤساء

السحرة، و رفعت أقدارهم، و أمرت بتجديد الهياكل و صار من لم يرضها إلى مدينة أتريب، و ملكوا عليها رجلا من ولد أتريب يقال له: إيداخس، فعقد على رأسه تاجا، و اجتمع إليه جماعة، فأنفذت إليه جيشا فهزموه، و قتلوا أكثر أصحابه فهرب إلى الشام، و بها الكنعانيون فاستغاث بملكهم، فجهزه بجيش عظيم ففتحت جورياق الخزائن و فرّقت الأموال و قوّت السحر، فعملوا أعمالهم و تقدّم إيداخس بجيوش الكنعانيين، و عليها قائد منهم يقال له:

جيرون.

فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرا لها من عقلاء النساء، إلى القائد سرّا عن إيداخس تعرّفه رغبتها فى تزوّجه، و أنها لا تختار أحدا من أهل بيتها، و أنه إن قتل إيداخس تزوّجت به و سلمته ملك مصر، ففرح بذلك، و سمّ إيداخس بسمّ أنفذته إليه فقتله، و بعثت إليه بعد قتل إيداخس أنه لا يجوز أن أتزوّجك حتى يظهر قومك فى بلدى، و تبنى لى مدينة عجيبة، و كان افتخارهم حينئذ بالبنيان و إقامة الأعلام، و عمل العجائب، و قالت: انتقل من موضعك إلى غربىّ بلدى فثم آثار لنا كثيرة، فاقتف تلك الأعمال و ابن عليها، ففعل، و بنى مدينة فى صحراء الغرب، يقال لها: قيدومة، و أجرى إليها من النيل نهرا و غرس حولها غروسا كثيرة، و أقام بها منارا عاليا فوقه منظر مصفح بالذهب و الفضة و الزجاج و الرخام، و هى تمدّه بالأموال و تكاتب صاحبه عنه و تهاديه، و هو لا يعلم.

فلما فرغ منها قالت له: إنّ لنا مدينة أخرى حصينة كانت لأوائلنا، و قد خرّبت منها أمكنة، و تشعث حصنها، فامض إليها و اعمل فى إصلاحها حتى أنتقل أنا إلى هذه المدينة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۷۲

التى بنيتها، فإذا فرغت من إصلاح تلك المدينة، فانفذ إلىّ جيشك حتى أصير إليك و أبعد عن مدينتى و أهل بيتى فإنى أكره أن تدخل علىّ بالقرب منهم، فمضى، و جدّ فى عمل الإسكندرية الثانية.

و أهل التاريخ يذكرون أنّ الذى قصدها الوليد بن دومع العمليقى ثانى الفراعنة، و كان سبب قصدها أنه كان به علة فوجه إلى الأقطار ليحمل إليه من مائها حتى يرى ما يلائمه، فوجه إلى مملكة مصر غلاما، فوقف على كثرة خيراتها، و حمل إليه من مائها و ألطافها، و عاد إليه فعرّفه حال مصر، فسار إليها فى جيش كثيف، و كاتب الملكة يخطبها لنفسه، فأجابته و شرطت عليه أن يبنى لها مدينة يظهر فيها أيده و قوّته، و يجعلها لها مهرا، فأجابها و شق مصر إلى ناحية الغرب، فبعثت إليه أصناف الرياحين و الفواكه و خلقت وجوه الدواب، فمضى إلى الإسكندرية، و قد خربت بعد خروج العادية منها فنقل ما كان من حجارتها و معالمها و عمدها، و وضع أساس مدينة عظيمة، و بعث إليها مائة ألف فاعل، و أقام فى بنائها مدّة، و أنفق جميع ما كان معه من المال و كلما بنى شيئا خرج من البحر دواب فتقلعه، فإذا أصبح لم يجد من البناء شيئا، فاهتم لذلك، و كانت جورياق قد أنفذت إليه ألف رأس من المعز اللبون يستعمل ألبانها فى مطبخه، و كانت مع راع تثق به يرعاها هنالك، فكان إذا أراد أن ينصرف عند المساء خرجت إليه من البحر جارية حسناء، فتتوق نفسه إليها، فإذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه، فإن صرعها، كانت له، و إن صرعته، أخذت من المعز رأسين، فكانت طول الأيام تصرعه، و تأخذ الغنم، حتى أخذت أكثر من نصفها و تغير باقيها لشغله بحبّ الجارية عن رعيها و نحل جسمه، فمرّ به صاحبه و سأله عن حاله، فأخبره الخبر خوفا من سطوته، فلبس ثياب الراعى، و تولى رعى الغنم يومه إلى المساء، فخرجت إليه الجارية و شرطت عليه الشرط، فأجابها و صارعها فصرعها و شدّها فقالت: إن كان و لا بدّ من أخذى، فسلمنى لصاحبى الأول، فإنه ألطف بى و قد عذبته مدّة، فردّها إليه، و قال له: سلها عن هذا البنيان الذى نبنيه، و يزال من ليلته من يفعل ذلك؟ و هل فى ثباته من حيلة؟ فسألها الراعى عن ذلك، فقالت: إنّ دواب البحر التى تنزع بنيانكم، فقال: فهل من حيلة؟ قالت:

نعم، تعملون توابيت من زجاج كثيف بأغطية، و تجعلون فيها أقواما يحسنون التصوير، و يكون معهم صحف و أنقاش، و زاد يكفيهم أياما و تحمل التوابيت فى المراكب بعد ما تشدّ بالحبال فإذا توسطوا الماء أمروا المصوّرين أن يصوّروا جميع ما يمرّ بهم، ثم ترفع تلك التوابيت فإذا وقفتم على تلك الصور فاعملوا لها أشباها من صفر أو حجارة أو رصاص و انصبوها قدّام البنيان الذى تبنونه من

جانب البحر، فإنّ تلك الدواب إذا خرجت، و رأت صورها هربت، و لم تعد، فعرّف الراعى صاحبه ذلك ففعله، و تمّ البنيان و بنى المدينة.

و قال قوم: إنّ صاحب البناء و الغنم هو جيرون، كان قصدهم قبل الوليد، و إنما أتاهم الوليد بعد جورياق و قهرهم و ملك مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۷۳

و ذكروا: أنّ الأموال التى كانت مع جيرون نفدت كلها فى تلك المدينة، و لم تتم، فأمر الراعى أن يخبر الجارية فقالت: إنّ فى المدينة التى خربت ملعبا مستديرا حوله سبعة عمد على رؤوسها تماثيل من صفر قيام، فقرّب لكل تمثال منها ثورا سمينا، و لطخ العمود الذى تحته من دم الثور، و بخره بشعر من ذنبه، و شىء من نحاتة قرونه و أظلافه، و قل له:

هذا قربانك، فأطلق لى ما عندك، ثم قس من كل عمود إلى الجهة التى يتوجه إليها وجه التمثال، مائة ذراع، و احفر عند امتلاء القمر، و استقامة زحل، فإنك تنتهى بعد خمسين ذراعا إلى بلاطة عظيمة، فلطخها بمرارة الثور، و أقلها فإنك تنزل إلى سرب طوله، خمسون ذراعا فى آخره خزانة مقفلة، و مفتاح القفل تحت عتبة الباب، فخذه و لطخ الباب ببقية المرارة و دم الثور و بخره بنحاتة قرونه و أظلافه و شعر ذنبه، و أدخل فإنه يستقبلك صنم فى عنقه لوح من صفر مكتوب فيه جميع ما فى الخزانة فخذ ما شئت و لا تعترض ميتا تجده و لا ما عليه، و كذلك كل عمود و تمثاله فإنك تجد مثل تلك الخزانة، و هذه نواويس سبعة من الملوك و كنوزهم، فلما سمع ذلك سرّ به، و امتثله فوجد ما لا يدرك وصفه، و وجد من العجائب شيئا كثيرا، فتمّ بناء المدينة و بلغ ذلك جورياق، فساءها و كانت قد أرادت إتعابه و هلاكه بالحيلة.

و يقال: إنه وجد فيما وجد درجا من ذهب مختوما فيه مكحلة زبرجد فيها ذرور أخضر، و معها عرق أحمر من اكتحل من ذلك الذرور بالعرق، و كان أشيب عاد شابا و اسودّ شعره، و أضاء بصره حتى يدرك الروحانيين، و وجد تمثالا من ذهب إذ ظهر غيمت السماء و أمطرت، و تمثال غراب من حجر إذا سئل عن شىء صوّت و أجاب عنه، و وجد فى كل خزانة عشر أعجوبات.

فلما فرغ من بناء المدينة وجه إلى جورياق يحثها على القدوم إليه، فحملت إليه فرشا فاخرا ليبسطه فى المجلس الذى يجلس فيه، و قالت له: اقسم جيشك أثلاثا، فانفذ إلىّ ثلثه حتى إذا بلغت ثلث الطريق، فانفذ الثلث الآخر، فإذا جزت نصف الطريق، فانفذ الثلث الباقى ليكونوا من ورائى لئلا يرانى أحد إذا دخلت عليك، و لا يكون عندك إلا صبية تثق بهم يخدمونك، فإنى أوافيك فى جوار تكفيك الخدمة، و لا أحتشمهنّ، ففعل.

و أقامت تحمل الجهاز إليه و الأموال حتى علم بمسيرها فوجه إليها ثلث جيشه، فعملت لهم الأطعمة و الأشربة المسمومة، و أنزلهم جواريها و حشمها، و قدّموا إليهم الأطعمة و الأشربة، و الطيب و أنواع اللهو، فلم يصبح منهم أحد حيا، و سارت فلقيها الثلث الآخر، ففعلت به مثل ذلك و هى توجه إليه أنها أنفذت جيشه إلى قصرها و مملكتها يحفظونهما، و سارت حتى دخلت عليه هى و ظئرها و جواريها، فنفخت ظئرها فى وجهه نفخة بهت إليها، و رشت عليه ما كان معها، فارتعدت أعضاؤه و قال: من ظنّ أنه يغلب النساء، فقد كذبته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۷۴

نفسه و غلبته النساء، ثم إنها فصدت عروقه و قالت: دماء الملوك شفاء، و أخذت رأسه و وجهت به إلى قصرها، و نصبته عليه و حوّلت تلك الأموال إلى مدينة منف، و بنت منارا بالإسكندرية، و زبرت عليه اسمها و اسمه، و ما فعلت به و تاريخ الوقت.

فلما بلغ خبرها الملوك هابوها و أطاعوها و هادوها، و عملت بمصر عجائب كثيرة، و بنت على حدّ مصر من ناحية النوبة حصنا، و قنطرة يجرى ماء النيل من تحتها، و اعتلت فقلدت ابنة عمها زلفى بنت مأمون و ماتت.

و قال ابن خرداذبه: إنّ الإسكندرية بنيت فى ثلثمائة سنة، و أنّ أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا بخرق سود مخافة على أبصارهم من شدّة بياض حيطانها و منارتها العجيبة على سرطان زجاج فى البحر، و إنه كان فيها سوى أهلها ستمائة ألف من اليهود

خول لأهلها.

و قال ابن وصيف شاه: و كانت العمارة ممتدّة فى رمال رشيد و الإسكندرية إلى برقة فكان الرجل يسير فى أرض مصر، فلا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه و الخيرات، و لا يسير إلا فى ظلال تستره من حرّ الشمس، و عمل الملك صا بن قبطيم فى تلك الصحارى قصورا، و غرس فيها غروسا و ساق إليها من النيل أنهارا فكان يسلك من الجانب الغربىّ إلى حد الغرب فى عمارة متصلة، فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى، و خربت تلك المنازل و باد أهلها، و لا يزال من دخل تلك الصحارى يحكى ما رآه فيها من الآثار و العجائب.

و قال ابن عبد الحكم: و كان الذى بنى الإسكندرية، و أسس بناءها: ذو القرنين الرومىّ، و اسمه: الإسكندر، و به سميت: الإسكندرية، و هو أوّل من عمل لوشى، و كان أبوه أوّل القياصرة، و قيل: إنه رجل من أهل مصر اسمه مرزبا بن مرزبه اليونانىّ من ولد يونان بن يافث بن نوح صلى اللّه عليه و سلم، و قيل: كان من أهل لوبية كورة من كور مصر الغربية، و قال ابن لهيعة: و أهلها روم و يقال: هو رجل من حمير. قال تبع:

قد كان ذو القرنين جدّى مسلماملكا تدين له الملوك بمحشد

بلغ المغارب و المشارق يبتغىأسباب علم من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبهافى عين ذى خلب و ثأط حرمد

و يروى: قد كان ذو القرنين قبلى مسلما، و حدّثنى عثمان بن صالح، حدّثنى عبد اللّه بن وهب، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن سعد بن مسعود التجيبىّ، عن شيخين من قومه قالا: كنا بالإسكندرية فاستطلنا يومنا، فقلنا: لو انطلقنا إلى عقبة بن عامر نتحدّث عنده، فانطلقنا إليه فوجدناه جالسا فى داره، فأخبرنا: إنا استطلنا يومنا، فقال: و أنا مثل ذلك! إنما خرجت حين استطلته، ثم أقبل علينا فقال: كنت عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أخدمه، فإذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۷۵

أنا برجال من أهل الكتاب معهم مصاحف أو كتب فقالوا: استأذن لنا على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فانصرفت إليه، فأخبرته بمكانهم، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «ما لى و لهم يسألونى عما لا أدرى إنما أنا عبد لا أعلم إلا ما علمنى ربى». ثم قال: «أبلغنى و ضوءا» فتوضأ، ثم قام إلى مسجد بيته، فركع ركعتين، فلم ينصرف حتى عرفت السرور فى وجهه و البشر، ثم انصرف فقال: أدخلهم و من وجدت بالباب من أصحابى، فأدخله قال: فأدخلتهم فلما وقفوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال لهم: «إن شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تتكلموا و إن أحببتم تكلمتم، و أخبرتكم»، قالوا: بلى، أخبرنا قبل أن نتكلم، قال: «أحببتم أن تسألونى عن ذى القرنين، و سأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندكم إن أول أمره إنه غلام من الروم أعطى ملكا، فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر، فابتنى عنده مدينة يقال لها:

الإسكندرية، فلما فرغ من بنائها أتاه ملك، فعرج به حتى استقله فرفعه فقال: انظر ما تحتك، فقال: أرى مدينتى، و أرى مدائن معها، ثم عرج به، فقال: انظر! فقال: قد اختلطت مدينتى مع المدائن، فلا أعرفها، ثم زاد، فقال: انظر! فقال: أرى مدينتى وحدها و لا أرى غيرها، قال له الملك: إنما تلك الأرض كلها و الذى ترى يحيط بها هو البحر، و إنما أراد بك أن يريك الأرض، و قد جعلك لك سلطانا فيها سوف يعلم الجاهل، و يثبت العالم، فسار حتى بلغ مغرب الشمس، ثم سار حتى بلغ مطلع الشمس، ثم أتى السدّين و هما جبلان لينان يزلق عنهما كل شىء فبنى السدّ، ثم جاز يأجوج و مأجوج فوجد قوما وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج و مأجوج، ثم قطعهم فوجد أمّه قصارا يقاتلون القوم الذين وجوههم وجوه الكلاب، و وجد أمّة من الغرانيق يقاتلون القوم القصار، ثم مضى فوجد أمّة من الحيات تلتقم الحية منها الصخرة العظيمة، ثم أفضى إلى البحر المدير بالأرض فقالوا: نشهد أن أمره هكذا كما ذكرت و إنا نجده هكذا فى كتابنا» .

و عن خالد بن معدان الكلاعيّ: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم سئل عن ذى القرنين فقال: «ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب».

قال خالد: و سمع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه رجلا يقول: يا ذا القرنين، فقال:

اللهم غفرا أما رضيتم أن تسموا بالأنبياء حتى تسميتم بالملائكة.

و قال قتادة، عن الحسن: كان ذو القرنين ملكا و كان رجلا صالحا، قال: و إنما سمى ذا القرنين لأنّ عليا رضى اللّه عنه سئل عن ذى القرنين، فقال: لم يكن ملكا و لا نبيا و لكن كان عبدا صالحا أحب اللّه فأحبه و نصح للّه فنصحه اللّه بعثه اللّه عز و جل إلى قومه فضربوه على قرنيه فمات، فسمى ذا القرنين، و يقال: إنما سمى ذا القرنين لأنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۷۶

جاوز قرنى الشمس من المغرب و المشرق.

و يقال: إنما سمى ذا القرنين لأنه كان له غديرتان من شعر رأسه يطأ فيهما، و قيل: بل كان له قرنان صغيران تواريهما العمامة.

و عن ابن شهاب: إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها و قرن الشمس من مشرقها.

و عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال: كان أوّل شأن الإسكندرية أنّ فرعون اتخذ بها مصانع و مجالس، و كان أوّل من عمرها و بنى فيها، فلم تزل على بنائه و مصانعه، ثم تداولها ملوك مصر بعده فبنت دلوكة بنت زبا منارة الإسكندرية و منارة بوقير بعد فرعون، فلما ظهر سليمان بن داود عليهما السلام على الأرض اتخذ بها مجلسا، و بنى فيها مسجدا، ثم إن ذا القرنين ملكها، فهدم ما كان من بناء الملوك و الفراعنة، و غيرهم إلا بناء سليمان لم يهدمه، و لم يغيره، و أصلح ما كان رث منه، و أقرّ المنارة على حالها، ثم بنى الإسكندرية من أوّلها بناء يشبه بعضه بعضا ثم تداولها الملوك بعده من الروم و غيرهم، ليس من ملك إلا يكون له بناء يضعه بالإسكندرية يعرف به، و ينسب إليه.

قال ابن لهيعة: و بلغنى أنه وجد بالإسكندرية حجر مكتوب فيه: أنا شدّاد بن عاد، و أنا الذى نصب العماد، و حيّد الأحياد، و شدّ بذراعه الواد بنيتهنّ إذ لا شيب و لا موت، و إذ الحجارة فى اللين مثل الطين، و فى رواية: و كنزت فى البحر كنزا على اثنى عشر ذراعا لن يخرجه أحد حتى تخرجه أمّة محمد صلى اللّه عليه و سلم.

قال ابن لهيعة: و الأحياد كالمغار، و قال أبو على القالىّ فى كتاب الأمالى، و أنشد ابن الأعرابىّ و غيره:

تسألنى عن السنين كم لىفقلت عمر الحسل

أو عمر نوح زمن الفطحللو أننى أوتيت علم الحكل

و عشت دهرا زمن الفطحللكنت رهن هرم أو قتل

و فى رواية:

علم سليمان كلام النملأيام كان الصخر مثل الوحل

و قال آخر: زمن الفحطل إذ السلام رطاب، و عندهم أنّ زمن الفحطل: زمان كان بعد الطوفان عظم فيه الخصب، و حسنت أحوال أهله، و قال بعضهم: زمن الفحطل زمن لم يخلف بعده، و قوله: علم الحكل، الحكل ما لا يسمع صوته من الحيوان، و هذا الرجز لرؤبة بن العجاج بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن حيى بن بكر بن ربيعة بن سعد بن مالك بن زيد مناة بن تميم، و ذلك أنه ورد ماء لعكل، فرأى فتاة فأعجبته، فخطبها، فقالت:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۷۷

أرى سنا، فهل من مال؟ قال: نعم قطعة من إبل، قالت: فهل من ورق؟ قال: لا، قالت:

يا آل عكل أكبروا أمعارا. فقال رؤبة:

لما ازدرت قدرى و قلت إبلى تألفت و اتصلت بعكل

حظى و هزت رأسها تستبلى تسألنى عن السنين كم لى

فقلت لو عمرت عمر الحسل أو عمر نوح زمن الفطحل

و الصخر مبتلّ كطين الوحل و فى روايۀ:

لو أننى أوتيت علم الحكل علم سليمان كلام النمل

و سألت أبا بكر بن دريد عن زمن الفطحل، فقال: تزعم العرب أنه زمان كانت فيه الحجارۀ رطبۀ.

قال ابن عبد الحكم، و يقال: إنّ الذى بنى الإسكندريۀ شدّاد بن عاد، و اللّه أعلم.

و كانت الإسكندريۀ ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض منيعۀ، و هى موضع المنارۀ و ما والاها، و الإسكندريۀ و هى موضع قصبۀ الإسكندريۀ اليوم و نفيطۀ، و كان على كل واحدۀ منهنّ سور و سور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهنّ جميعا، و قيل: كان على الإسكندريۀ سبعۀ حصون منيعۀ و سبعۀ خنادق، قال: و إنّ ذا القرنين لما بنى الإسكندريۀ رخمها بالرخام الأبيض جدرها و أرضها، فكان لباسهم فيها السواد و الحمرۀ، فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام، و لم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام، و إذا كان القمر أدخل الرجل الذى يخيط بالليل فى ضوء القمر مع بياض الرخام الخيط فى ثقب الإبرۀ.

و يقال: بنيت الإسكندريۀ فى ثلثمائۀ سنۀ، و سكنت ثلثمائۀ سنۀ، و خربت ثلثمائۀ سنۀ، و لقد مكثت سبعين سنۀ ما يدخلها أحد إلا و على بصره خرقۀ سوداء من بياض جصها و بلاطها، و لقد مكثت سبعين سنۀ ما يستسرج فيها، قال: و كانت الإسكندريۀ بيضاء تضىء بالليل و النهار، و كانوا إذا غربت الشمس لم يخرج أحد من بيته، و من خرج اختطف و كان منهم راع يرعى على شاطىء البحر، فكان يخرج من البحر شىء فيأخذ من غنمه، فكمن له الراعى فى موضع حتى خرج، فإذا جاريۀ قد نفشت شعرها و مانعته عن نفسها فقوى عليها فذهب بها إلى منزله، فآنست به، فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس، فسألتهم فقالوا:

من خرج منا اختطف، فهيأت لهم الطلسمات، فكانت أوّل من وضع الطلسمات بمصر فى الإسكندريۀ، و قيل: كان الرخام قد سخر لهم حتى يكون من بكرۀ النهار كالعجين فإذا انتصف النهار اشتدّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۷۸

و قال المسعودىّ: ذكر جماعۀ من أهل العلم أنّ الإسكندر المقدونىّ، لما استقام ملكه فى بلاده و سار حتى يختار أرضا صحيحۀ الهواء و التربۀ و الماء، حتى انتهى إلى موضع الإسكندريۀ، فأصاب فيها أثر بنيان و عمدا كثيرۀ من الرخام و فى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند، و هو القلم الأوّل من أقلام حمير و ملوك عاد، أنا شدّاد بن عاد شدّدت بساعدى الواد، و قطعت عظيم العماد و شوامخ الجبال، و الأطواد، و بنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد، و أردت أن أبنى هنا مدينۀ كإرم و أنقل إليها كل ذى قدم و كرم من جميع العشائر و الأمم، و ذلك إذ لا خوف و لا هرم و لا اهتمام و لا سقم، فأصابنى ما أعجلنى، و عما أردت قطعنى، و مع وقوعه طال همى و شجنى، و قلّ نومى و سكنى، فارتحلت بالأمس عن دارى، لا لقهر ملك جبار و لا لخوف جيش جرّار، و لا عن رغبۀ و لا عن صغار، و لكن لتمام المقدار، و انقطاع الآثار، و سلطان العزيز الجبار، فمن رأى أثرى، و عرف خبرى و طول عمرى و نفاد صبرى و شدّۀ حذرى، فلا يغترّ بالدنيا بعدى، فإنها غرّارۀ غدّارۀ، تأخذ منه ما تعطى، و تسترجع منه ما تؤتى، و كلام كثير يرى فناء الدنيا و يمنع من الاغترار بها و السكون إليها.

فنزل الإسكندر مفكرا يتدبر هذا الكلام، و يعتبره ثم بعث يحشر الصناع من البلاد، و خط الأساس، و جعل طولها و عرضها أميالا و جمع إليها العمد و الرخام، و أتته المراكب، فيها أنواع الرخام، و أنواع المرمر و الأحجار من جزيرۀ صقلية، و بلاد إفريقية و أقريطش، و أقاصى بحر الروم مما يلى مصبه بحر أقيانوس، و حمل إليه أيضا من جزيرۀ رودس، و أمر الفعلۀ و الصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينۀ، و جعل على كل قطعۀ من الأرض خشبۀ قائمۀ، و جعل من الخشبۀ إلى الخشبۀ حبالا منوطۀ بعضها ببعض، و

أوصل جميع ذلك بعمود من الرخام، و كان أمام مضربه و علق على العمود جرسا عظيما مصوّتا، و أمر الناس و القوّام على البنائين و الفعلة و الصناع أنهم إذا سمعوا صوت ذلك الجرس، و تحرّكت الجبال، و قد علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا حرصوا على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطاره، و أحب الإسكندر أن يجعل ذلك فى وقت يختاره و طالع سعد، فحرّك الإسكندر رأسه، و أخذته نعسة فى حال ارتقابه بالوقت المحمود، فجاء غراب، فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحرّكه، و خرج صوت الجرس و تحرّكت الجبال، و خفق ما عليها من الأجراس الصغار، و كان ذلك معمولا بحركات هندسية و حيل حكمية، فلما رأى الصناع تلك الجبال قد تحرّكت، و سمعوا الأصوات وضعوا الأساس دفعة واحدة و ارتفع الضجيج بالتحميد و التقديس، فاستيقظ الإسكندر من رقدته، و سأل عن الخبر فأخبر بذلك فأعجب! و قال: أردت أمرا و أراد اللّه غيره، و يأبى اللّه إلا ما يريد، أردت طول بقائها، و أراد اللّه سرعة فنائها و خرابها، و تداول الملوك إياها و إنّ الإسكندر لما أحكم بناءها، و ثبت أساسها و جنّ الليل عليهم خرجت دواب البحر، فأتت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۷۹

على جميع البنيان، فقال الإسكندر حين أصبح: هذا بدّ و الخراب فى عمارتها، و تحقق مراد البارى سبحانه من زوالها، فتطير من فعل الدواب فلم تزل البناة فى كل يوم تبنى و تحكم، و يوكل من يمنع الدواب إذا خرجت من البحر، فيصبحون و قد خرجت و خرّبت البنيان، فقلق الإسكندر لذلك وراعه ما رأى من البحر! فأقبل يفكر ما الذى يصنع و أىّ حيلة تنفع فى ذلك حتى تدفع الأذية عن المدينة، فسنحت له الحيلة عند خلوّه بنفسه و إيراده الأمور و إصدارها، فلما أصبح دعا الصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع، و جعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها، و قد أمسك ذلك بالقار و الزفت و غيره من الأطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء إلى التابوت، و قد جعل فيها مواضع للحبال، و دخل الإسكندر فى التابوت و رجلان من كتابه ممن له علم بإتقان التصوير، و أمر أن تسدّ عليه الأبواب و أن تطلى بما ذكرنا من الأطلية، و أمر بمركبين عظيمين فأخرجا إلى لجة البحر، و علق فى التابوت من أسفله مثقلات الرصاص و الحديد و الحجارة لتهوى بالتابوت سفلا، و جعل التابوت بين المركبين و ألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا، و شدّ حبال التابوت إلى المركبين و طوّل حباله، فغاص التابوت حتى انتهى إلى قرار البحر، فنظروا إلى دواب البحر و حيوانه من ذلك الزجاج الشفاف فى صفاء ماء البحر فإذا بصور الشياطين على مثال الناس، و فيهم من له مثل رؤوس السباع، و فى أيديهم الفوس مع بعضهم، و فى أيدى بعضهم المناشير و المقامع يحكون بذلك صناع المدينة و الفعلة، و ما فى أيديهم من آلات البناء، فأثبت الإسكندر و من معه تلك الصور، و حكوها بالتصوير فى القراطيس على اختلاف أنواعها و تشوّه خلقها، و قدودها ثم حرّك الحبال، فلما أحس بذلك من فى المركبين جذبوا الحبال، و أخرجوا التابوت، فخرج الإسكندر، و أمر صناع الحديد و النحاس و الحجارة، فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما صوّر، فلما فرغوا منها وضعت على العمد بشاطئ البحر، ثم أمرهم فبنوا، فلما جنّ الليل ظهرت الدواب و الآفات من البحر، فنظرت إلى صورها على العمد مقابلة إلى البحر، فرجعت و لم تعد بعد ذلك، فبنيت الإسكندرية و شيدت، و أمر الإسكندر أن يكتب على أبوابها: هذه الإسكندرية أردت أن أبنيها على الفلاح و النجاح و اليمن و السعادة و السرور و الثبات فى الدهور، و لم يرد البارى عز و جلّ ملك السماوات و الأرض، و مفنى الأمم أن يثبتها كذلك، فبنيتها، و أحكمت بنيانها و شيدت سورها، و آتانى اللّه عز و جل من كل شىء علما و حكمة، و سهل لى وجوه الأسباب، فلم يتعذر علىّ فى العالم شىء مما أردته، و لا امتنع عنى شىء مما طلبته لطفا من اللّه عز و جل، و صنعا لى و صلاحا لعباده من أهل عصرى، و الحمد للّه رب العالمين لا إله إلا هو رب كل شىء، و رسم بعد هذه الكتابة كلّ ما يحدث ببلده من الأحداث بعده فى مستقبل الزمان من الآفات و العمران و الخراب، و ما يؤول أمرها إليه إلى وقت دثور العالم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۸۰

و كان

بناء الإسكندرية طبقات، و تحتها قناطر مقنطرة عليها دور المدينة يسر تحتها الفارس، و بيده رمح لا تضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج و القناطر التى تحت المدينة، و قد عمل لتلك العقود و الآزاج مخاريق و متنفسات للضياء و منافذ للهواء، و قد كانت الإسكندرية تضيء بالليل بغير مصباح لشدّة بياض الرخام و المرمر، و كانت أسواقها و شوارعها و أزقتها مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شيء من المطر، و كان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة الألوان بينها خنادق، و بين كل خندق و سور فصول، و ربما تعلق فى المدينة شقاق الحرير الأخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدّة بياضه.

فلما أحكم بناءها، و سكنها أهلها كانت آفات البحر، و سكانه على ما زعم الإخباريون من المصريين و الإسكندريين تختطف بالليل أهل المدينة، فيصبحون، و قد فقد منهم العديد الكثير، فلما علم بذلك الإسكندر اتخذ الطلسمات على أعمدة هنالك تدعى: المسال، و هى باقية إلى هذه الغاية كل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السروة و طول كل واحد منها ثمانون ذراعا على عمد من نحاس، و جعل تحتها صورا و أشكالا و كتابة.

قال مؤلفه رحمه اللّه فيما تقدّم من حكاية ابن وصيف شاه: ما يتبين به و هم ما نقله المسعودىّ، من أن الإسكندر هو الذى عمل التابوت حتى صوّر أشكال حيوانات البحر، فإنّ ابن وصيف شاه أعرف بأخبار أهل مصر، و كذلك ما ذكره المسعودىّ من أنّ المسال، من عمل الإسكندر و هم أيضا، بل هذه المسال هى المنايرالتى كان ينوّر عليها و الأعلام التى كانت ملوك مصر القدماء تنصبها، و هى من أعمال ملوك القبط الأول، و من أعمال الفراعنة الذين ملكوا مصر من قديم الزمان.

ذكر الإسكندر

هو الإسكندر بن فيليبس بن آمنته (و يقال: آمنتاس) بن هركلش (و يقال: هرقول) الجبار، الذى هو ابن الإسكندر الأعظم، ولى أبوه فيليبس الملك فى بلد مجدونية (و يقال:

مقدونية) خمسا و عشرين سنة، استنبط فيها ضروبا من المكر و ابتدع أنواعا من الشرّ تقدّم فيها كل من ولى الملك بها قبله.

و كان فى أوّل أمره قد جعله أخوه الإسكندر رهينة عند أمير من الروم، فأقام عنده ثلاث سنين، و كان فيلسوفا فتعلم عنده ضروب الفلسفة، فلما قتل أخوه الإسكندر، اجتمع الناس على تولية فيليبس فولوه أميرا، فقام فى السلطان مقاما عظيما، فحارب الروم و غلب عليهم و مضى إلى البرية، فقتل بها من الناس آلافا، و غلب على مدائن فاجتمع له جمع لا يقاد، و جيش لا يرام، فأذل جميع الروم و ذهبت عينه فى بعض الحروب، و غمر البلدان و المدائن عمارة و هدما و سبيا و انتهابا، ثم حشد جميع أهل بلد الروم و عبأ عسكرا فيه: مائتا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۸۱

ألف راجل، و خمسون ألف فارس، سوى من كان فيه من أصحابه المقدونيين، و من غيرهم من أجناس اليونانيين يريد غزو الفرس.

فبينما هو يجمع هذا الجمع نظر فى تزويج ابنة له يقال لها: قلوبطرة من ختنه أخى امرأته، و خال ولده الإسكندر، و جلس قبل العرس بيومين يحدّث قوّاده، إذ سئل عن أىّ الموتات أحق أن يتمناها الإنسان؟ فقال: الواجب على الرجل القوىّ الظافر المجرّب يريد نفسه أن لا يتمنى الموت إلا بالسيف فجأة لئلا يعذبه المرض، و تحل قوّته الأوجاع، فعجل له ما تمنى فى ذلك العرس، و ذلك أنه حضر لعبا كان على الخيل بين ولده الإسكندر، و ختنه الإسكندر، فبينما هو فى ذلك غافله أحد أحداث الروم بطعنة، فقتله بها ثائرا بأبيه عندما تمكن منه منفردا، فولى الإسكندر، الملك بعد أبيه فيليبس، و كان أوّل شيء أظهر فيه قوّته و عزمه فى بلد الروم، و كانوا قد خرجوا عن طاعة المقدونيين إلى طاعة الفرس، فدرسهم و استأصلهم، و خرّب مدنهم و جعلهم سبيا مبيعا، و جعل سائر بلادهم و كورهم تؤدّى إليه الخراج، ثم قتل جميع أختانه، و أكثر أقاربه فى وقت تعبيته لمحاربة الفرس، و كان جميع عسكره اثنين و عشرين ألف فارس، و ستين ألف راجل، و كانت مراكبه خمسمائة مركب و ثمانين مركبا، فحرّك بهذه العدّة كبار ملوك الدنيا، و سار إلى

الإسكندرية و دخل بيت المقدس، و قرّب فيه للّه تعالى قربانا و خرج يريد محاربة دارا، و كان فى عسكر دارا ملك الفرس فى أوّل ملاقاته إياه، ستمائة ألف مقاتل، فغلبه الإسكندر، و كانت إذ ذاك على الفرس وقعة شنعاء و نكبة دهياء قتل فيها منهم عدد لا يحصى، و لم يقتل من عسكر الإسكندر إلا مائة و عشرون فارسا و تسعون راجلا.

و مضى الإسكندر ففتح مدائن و انتهب ما فيها فبلغه أنّ دارا قد عبّأ و أقبل نحوه بجمع عظيم، فخاف أن يلحقه فى ضيق الجبال التى كان فيها، فقطع نحوا من مائة ميل فى سرعة عجيبة، حتى بلغ مدينة طرسوس، و كاد يهلك لفرط البرد حتى انقبض عصبه، فلاقاه دارا فى ثلثمائة ألف راجل، و مائة ألف فارس، فلما التقى الجمعان كاد الإسكندر يفرّ لكثرة ما كان فيه دارا، و قلة ما كان فيه، و وقع القتال بينهما و باشر القوّاد الحرب بأنفسهم، و تنازل الأبطال و اختلف الطعن و الضرب، و ضاق الفضاء بأهله، فباشر كلا الملكين الحرب بأنفسهما، دارا و الإسكندر، و كان الإسكندر أكمل أهل زمانه فروسية و أشجعهم و أقواهم جسما فباشرا حتى جرحا جميعا، و تمادى الحرب بينهما حتى انهزم دارا، و نزلت الوقيعة بالفرس، فقتل من راجلهم نحو من ثمانين ألفا، و من فرسانهم نحو من عشرة آلاف، و أسر منهم نحو من أربعين ألفا، و لم يسقط من عسكر الإسكندر إلا مائتان و ثلاثون راجلا، و مائة و خمسون فارسا، فانتهب الإسكندر جميع عسكر الفرس، و أصاب فيه من الذهب و الفضة و الأمتعة الشريفة ما لا يحصى كثرة، و أصيب من جملة الأسارى: أم دارا و زوجته و أخته و ابنتاه، فطلب دارا من الإسكندر فديتهنّ بنصف ملكه فلم يجبه إلى ذلك، فعبى دارا مرّة ثالثة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۸۲

و حشد الفرس عن آخرهم، و استجاش بكل من قدر عليه من الأمم فبعث الإسكندر قائدا فى أسطول للغارة على بلد الفرس، و مضى الإسكندر إلى الشام، فتلقاه هنالك ملوك الدنيا خاضعين له، فعفا عن بعض، و نفى بعضا، و قتل بعضا، و مضى إلى إحراز طرسوس، و كانت مدينة زاهرة قديمة عظيمة الشأن، و أهلها قد وثقوا بعون أهل إفريقية لهم لصهر كان بينهم، فحاصرهم فيها حتى افتتحها، و مضى منها إلى رودس و إلى مصر، فانتهب الجميع، و بنى مدينة الإسكندرية بأرض مصر، و قال هروشيوش: و له فى بنيانها أخبار طويلة و سياسات كرهنا تطويل كتابنا بها.

ثم إنّ دارا لمّا يئس من مصالحته أقبل فى أربعمائة ألف راجل و مائة ألف فارس، فتلقى الإسكندر مقبلا من ناحية مصر فى أعمال مدينة طرسوس، فكانت بينهما معركة عجيبة شنيعة اجتهادا من الروم على ما كانوا خبروه، و اعتادوا من الغلبة و الظفر، و اجتهادا من الفرس بالتوطين على الهلاك و تفضيل الموت على الرق و العبودية، فقلما يحكى عن معركة كان القتل فيها أكثر منه فى تلك المعركة، فلما نظر دارا إلى أصحابه يتغلب عليهم و يهزمون عزم على استعجال الموت فى تلك الحرب بالمباشرة لها بنفسه، و الصبر حتى يقتل معترضا للقتل، فلطف به بعض قوّاده حتى سلوه، فانهزم و ذهبت قوّة الفرس و عزهم، و ذل بعدها سلطانهم، و صار بلد المشرق كله فى طاعة الروم، و انقطع ملك الفرس مدّة أربعمائة عام و خمسين عاما، و اشتغل الإسكندر بتحصيل ما أصاب فى عسكر الفرس و النظر فيه و قسمته على عسكره ثلاثين يوما، ثم مضى إلى مدينة الفرس التى كانت رأس مملكتهم، و التى اجتمعت فيها أموال الدنيا و نعمها، فهدمها و نهب ما فيها، فبلغه عن دارا أنه صار عند قوم مكبلا فى كبول من فضة، فتهيأ و خرج فى ستة آلاف، فوجده بالطريق مجروحا جراحات كثيرة، فلم يلبث أن هلك منها، فأظهر الإسكندر الحزن عليه و المرثية له، و أمر بدفنه فى مقابر الملوك من أهل مملكته، و كان فى أمر هذه الثلاث معارك عبرة لمن اعتبر، و وعظ لمن اتعظ، إذ قتل فيها من أهل مملكة واحدة نحو من خمسة عشر ألف ألف بين راكب و راجل من أهل بلد آسيا، و هى العراق، و قد كان قتل من أهل تلك المملكة قبل ذلك بنحو من ستين سنة نحو تسعة عشر ألف ألف إلى ألف ألف ما بين راكب و راجل من أهل بلد العراق و الشام و طرسوس و مصر و جزيرة رودس، و جميع البلدان الذين درسهم الإسكندر أجمعين، و كان سلطان الدنيا مقسوما بين قوّاده بعد ما زلزل بدواهيه العظيمة العالم كله، و عمّ أهله بعضا بالمنايا الفظيعة، و بعضا بالتوطين عليها، و المباشرة لأهوالها، و أوصى عند وفاته أن يلقب كل قائم فى اليونانيين بعده: ببطليموس تهويلا للأعداء لأنّ معناه الحربىّ، فهذا هو الصحيح من خبر الإسكندر فلا يلتفت إلى ما خالفه.

و يقال: إنه كان أشقر أزرق، و هو أوّل من سمر بالليل، و كان له قوم يضحكونه و يحكون له الخرافات يريد بذلك حفظ ملكه، و حراسة نفسه لا اللذة، و به اقتدى الملوك فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۸۳

السمر، و اتخاذ المضحكين و المخرّفين.

ذكر تاريخ الإسكندر

قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى: تاريخ الإسكندر اليونانىّ، الذى يلقبه بعضهم بذى القرنين على سنى الروم، و عليه عمل أكثر الأمم لما خرج من بلاد يونان، و هو ابن ست و عشرين سنة لقتال دارا ملك الفرس.

و لما ورد بيت المقدس أمر اليهود، بترك تاريخ داود و موسى عليهما السلام، و التحوّل إلى تاريخه، فأجابوه و انتقلوا إلى تاريخه، و استعملوه فيما يحتاجون إليه بعد أن عملوه من السنة السادسة و العشرين لميلاده، و هو أوّل وقت تحرّكه، ليتموا ألف سنة من لدن، موسى عليه السلام، و بقوا معتصمين بهذا التاريخ، و مستعملين له و عليه عمل اليونانيين، و كانوا قبله يؤخرون بخروج يونان بن نورس عن بابل إلى المغرب.

و أوّل تاريخ الإسكندر يوم الاثنين أوّل تشرين الأوّل، و موافقه اليوم الرابع من بابه، و مبادى الأيام عندهم من وقت طلوع الشمس إلى وقت غروبها، و إلى أن يصبح الصباح و تطلع الشمس، فقد كمل يوم بليلته، و مبادى الشهور ترجع إلى عدد واحد له نظام يجرى عليه دائما.

و عدد شهور سنتهم: اثنا عشر شهرا يخالف بعضها بعضا فى العدد، و هذه أسماؤها، و عدد أيام كل شهر منها: (تشرين الأوّل) أحد و ثلاثون يوما، (تشرين الثانى) ثلاثون يوما، (كانون الأول) أحد و ثلاثون يوما، (كانون الثانى) أحد و ثلاثون يوما، (شباط) ثمانية و عشرون يوما و ربع، (آذار) أحد و ثلاثون يوما، (نيسان) ثلاثون يوما، (أيار) أحد و ثلاثون يوما، (حزيران) ثلاثون يوما، (تموز) أحد و ثلاثون يوما، (آب) أحد و ثلاثون يوما، (أيلول) ثلاثون يوما. فسبعة أشهر كل شهر منها أحد و ثلاثون يوما، و أربعة أشهر كل شهر ثلاثون يوما، و شهر واحد ثمانية و عشرون يوما و ربع يوم، و ذلك أنهم جعلوا شباط كل ثلاث سنين متواليات ثمانية و عشرين يوما، و جعلوه فى السنة الرابعة تسعة و عشرين يوما.

فيكون عدد أيام سنتهم، ثلثمائة و خمسة و ستين يوما و ربع يوم، و يجعلون السنة الرابعة ثلثمائة و ستة و ستين يوما، و يسمونها السنة الكبيسة، و إنما زادوا الربع فى كل سنة ليقرب عدد أيام سنتهم من عدد أيام السنة الشمسية، حتى تبقى أمورهم على نظام واحد، فتكون شهور البرد، و شهور الحرّ، و أوان الزرع و لقاح الشجر و جنى الثمر فى وقت معلوم من السنة لا يتغير وقت شىء من ذلك البتة، و كان ابتداء الكبيس فى السنة الثالثة من ملك الإسكندر.

و بين يوم الاثنين أوّل يوم من تاريخ الإسكندر هذا، و بين يوم الخميس أوّل شهر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۸۴

المحرّم من السنة التى هاجر نبينا، محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من مكة إلى المدينة تسعمائة سنة و ثلاث و ثلاثون سنة، و مائة و خمسة و خمسون يوما.

و بينه و بين يوم الجمعة أوّل يوم من الطوفان: ألفا سنة و سبعمائة سنة، و اثنتان و تسعون سنة، و مائة و ثلاثة و تسعون يوما.

و بين ابتداء ملك بخت نصر، و بين أوّل تاريخ الإسكندر، أربعمائة و خمس و ثلاثون سنة شمسية و مائتا يوم و ثمانية و ثلاثون يوما.

و قال أبو بكر أحمد بن علىّ بن قيس بن وحشية فى كتاب الفلاحة النبطية الشهر المسمى تموز، فيما ذكر القبط بحسب ما وجدت فى كتبهم اسم رجل كانت له قصة عجيبة طويلة، و هو أنه دعا ملكا إلى عبادة الكواكب السبعة، و البروج الاثنى عشر، و أن الملك قتله و

عاش بعد القتلة، ثم قتله قتلات بعد ذلك قبيحة، و فى كلها يعيش، ثم مات فى آخرها.

و إنّ شهورهم هذه، كل واحد منها، اسم رجل فاضل عالم كان فى القديم من النبط الذين كانوا، مكان إقليم بابل قبل الكسدانيين، و ذلك أن تموز هذا ليس من الكسدانيين و لا الكنعانيين و لا العبرانيين و لا الجرامقة، و إنما هو من الحزناسيين الأوّلين و لذلك يقولون فى كل شهورهم: إنها أسماء رجال مضوا، و إنّ تشرين الأوّل، و تشرين الثانى، اسما أخوين كانا فاضلين فى العلوم، و كذلك كان كانون الأوّل و كانون الثانى، و إنّ شباط اسم رجل نكح ألف امرأة أبكارا كلهنّ، و لم ينسل نسلا، و لا ولد ولدا، فجعلوه فى آخر الشهور لنقصانه عن النسل، فصار النقصان من العدد فيه، و الصابئون من البابليين و الحزناسيين جميعا إلى وقتنا هذا ينوحون و يبكون على تموز فى الشهر المسمى تموز فى عيد لهم فيه منسوب إلى تموز، و يعدّدون تعديدا عظيما، و خاصة النساء، فإنهنّ يقمن ههنا جميعا، و ينحن و يبكين على تموز، و يهذين فى أمره هذيانا طويلا و ليس عندهم علم من أمره أكثر من أن يقولوا، هكذا وجدنا أسلافنا ينوّحون و يبكون على تموز فى هذا العيد المنسوب إلى تموز، و النصارى تذكر أنهم يعملونه لرجل يسمى جورجيس أحد حوارىّ عيسى عليه السلام، دعا ملكا من الملوك إلى دين النصرانية، فعذبه الملك بتلك الفتلات، فلا أدرى وقع إلى النصارى قصة تموز، فأبدلوا مكانها اسم جورجيس، و خالفوا الصابئين فى الوقت، لأن الصابئين يعملون ذكران تموز، أوّل يوم من شهر تموز، و النصارى يعملون لجورجيس فى آخر نيسان.

و يقال: إنّ بعض ملوك رومية زاد فى شهور الروم، كانون الثانى و شباط، فإنّ شهورهم كانت إلى زمانه عشرة أشهر، كل شهر ستة و ثلاثون يوما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۸۵

و يقال: إنّ فيوفيوس، أوّل من ملك مدينة رومية، و أنه أقام ملكا ثلاثا و أربعين سنة، و زاد كانون الثانى و شباط فى شهور الروم بحكم أنها كانت إلى ذلك الزمان عشرة أشهر، كل شهر ستة و ثلاثون يوما، و كان سبب نقص شباط يومين، وقوع غارة فى أيام فيطن رئيس جيش الروم خلف، و حروب بينه و بين فريوريوس آلت إلى نصرة فيطن، و أخذه مملكة الروم، و أمر بفريوريوس، فنودى عليه (اعيا مرديا) و تفسيره: اخرج يا شباط، ثم غرق فى البحر و سموا شهر شباط فريوريوس ليكون تذكار سوء له، فإنّ هذا الفعل كان فى يومى التاسع و العشرين و الثلاثين من شباط فنقصوهما من شباط، و زادوهما فى تموز و كانون الثانى، فجعلوا كل شهر منهما أحدا و ثلاثين يوما، ثم بعد زمان جاء ملك آخر فقال:

لا يحسن أن يكون شباط فى وسط السنة، فنقله إلى آخرها، و لم يزل الروم من ذلك الوقت يتطيرون من شباط.

ذكر الفرق بين الإسكندر و ذى القرنين و أنهما رجلان

اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار، أنّ ذا القرنين الذى ذكره اللّه فى كتابه العزيز، فقال: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً [الكهف/ ۸۳] الآيات، عربىّ، قد كثر ذكره فى أشعار العرب، و أنّ اسمه: الصعب بن ذى مراثد بن الحارث الرائش بن الهمال ذى سدد بن عاد ذى منح بن عامر الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

و أنه ملك من ملوك حمير، و هم العرب العاربة، و يقال لهم أيضا: العرب العرباء، و كان ذو القرنين تبعا متوّجا، و لما ولى الملك تجبر، ثم تواضع للّه، و اجتمع بالخضر.

و قد غلط من ظن أنّ الإسكندر بن فيليبس هو ذو القرنين الذى بنى السدّ، فإنّ لفظة ذو عربية، و ذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن و ذاك رومىّ يونانىّ.

قال أبو جعفر الطبرىّ: و كان الخضر فى أيام أفريدون الملك بن الضحاك فى قول عامة علماء أهل الكتاب الأول، و قبل موسى بن

عمران عليه السلام، و قيل: إنه كان على مقدّمة ذى القرنين الأكبر الذى كان على أيام إبراهيم الخليل عليه السلام.

و أنّ الخضر بلغ مع ذى القرنين أيام مسيره فى البلاد نهر الحياة، فشرب من مائه، و هو لا يعلم به ذو القرنين و لا من معه، فخلد، و هو حيّ عندهم إلى الآن، و قال آخرون:

إنّ ذا القرنين الذى كان على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام هو: أفريدون بن الضحاك، و على مقدّمته كان الخضر.

و قال أبو محمد عبد الملك بن هشام فى كتاب التيجان فى معرفة ملوك الزمان، بعد ما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۸۶

ذكر نسب ذى القرنين الذى ذكرناه، و كان تبعا متوّجا لما ولى الملك تجبر، ثم تواضع، و اجتمع بالخضر ببيت المقدس، و سار معه مشارق الأرض و مغاربها، و أوتى من كل شىء سببا، كما أخبر اللّه تعالى و بنى السدّ على يأجوج و مأجوج و مات بالعراق.

و أما الإسكندر فإنه يونانىّ، و يعرف بالإسكندر المجدونى (و يقال: المقدونى).

سئل ابن عباس رضى اللّه عنهما عن ذى القرنين ممن كان؟ فقال: من حمير، و هو الصعب بن ذى مراثد الذى مكنه اللّه تعالى فى الأرض و أتاه من كل شىء سببا، فبلغ قرنى الشمس، و رأس الأرض و بنى السدّ على يأجوج و مأجوج؛ قيل له: فالإسكندر؟ قال: كان رجلا- صالحا روميا حكيما بنى على البحر فى إفريقية منارا و أخذ أرض رومة و أتى بحر الغرب، و أكثر عمل الآثار فى الغرب من المصانع و المدن.

و سئل كعب الأحبار عن ذى القرنين؟ فقال: الصحيح عندنا من أحبارنا و أسلافنا أنه من حمير، و أنه الصعب بن ذى مراثد، و الإسكندر كان رجلا من يونان من ولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل صلوات اللّه و سلامه عليهما، و رجال الإسكندر أدركوا المسيح ابن مريم منهم: جالينوس، و أرسطاطاليس.

و قال الهمدانى فى كتاب الأنساب: و ولد كهلان بن سبأ زيدا، فولد زيد عربيا و مالكا و غالبا و عميكرب.

و قال الهيثم: عميكرب بن سبأ أخو حمير و كهلان، فولد عميكرب أبا مالك فدرحا و مهيليل ابنى عميكرب، و ولد غالب جنادة بن غالب، و قد ملك بعد مهيليل بن عميكرب بن سبأ، و ولد عريب عمرا، فولد عمر و زيدا، و الهميسع و يكنى أبا الصعب، و هو ذو القرنين الأوّل، و هو المساح و البناء، و فيه يقول النعمان بن بشير:

فمن ذا يعاددنا من الناس معشراكراما فذو القرنين منا و حاتم

و فيه يقول الحارثى:

سمّوا لنا واحدا منكم فنعرفهفى الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتبعين و ذى القرنين يقبلهأهل الحجى فأحق القول ما قبلا

و فيه يقول ابن أبى ذئب الخزاعى:

و منا الذى بالخافقين تغرّباو أصعد فى كل البلاد و صوّبا

فقد نال قرن الشمس شرقا و مغرباو فى ردم يأجوج بنى ثم نصبا

و ذلك ذو القرنين تفخر حميربعسكر قيل ليس يحصى فيحسبا

قال الهمدانى: و علماء همدان تقول: ذو القرنين: الصعب بن مالك بن الحارث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۸۷

الأعلى بن ربيعة بن الجبار بن مالك.

و فى ذى القرنين أقاويل كثيرة، و قال الإمام فخر الدين الرازى فى كتاب تفسير القرآن الكريم، و مما يعترض به على من قال: إنّ الإسكندر هو ذو القرنين، أن معلم الإسكندر كان أرسطاطاليس بأمره يأتمر، و بنهيه ينتهى، و اعتقاد أرسطاطاليس مشهور، و ذو

القرنين نبيّ، فكيف يقتدى نبيّ بأمر كافر فى هذا إشكال؟.

و قال الجاحظ فى كتاب الحيوان: إنّ ذا القرنين كانت أمه آدميـة، و أبوه من الملائكة، و لذلك لما سـمع عمر بن الخطاب رضـى اللّه عنه رجلا ينادى رجلا يا ذا القرنين، قال:

أفرغتم من أسـماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسـماء الملائكة؟! و روى المختار ابن أبى عبيد: أنّ عليا رضى اللّه عنه كان إذا ذكر ذا القرنين قال: ذلك الملك الأمرط، و اللّه أعلم.

ذكر من ولى الملك بالإسكندرية بعد الإسكندر

قال فى كتاب هروشـيوش: إنّ الإسـكندر ملك الـدنيا اثنتى عشـرة سـنة، فكانت الدنيا مأسورة بين يديه، طول ولايته، فلما مات، تركها بين يدى قوّاده المسـتخلفين تحته، فكان مثله معهم كمثل الأسد الذى ألقى صيده بين يدى أشباله، فتقاتلت عليه تلك الأشبال بعده، و ذلك أنهم اقتسـموا البلاد، فصارت مصـر و إفريقية كلها و بلاد الغرب إلى قائده، و صاحب خيله الذى ولى مكانه، و هو بطليموس بن لاـوى، و يقـال: بطليموس بن ارنبـا المنطقى، و ذكر بقيـة ممالـك القوّاد من أقصـى بلاد الهنـد إلى آخر بلاد المغرب، ثم قال: فثارت بينهم حروب و سـببها رسالـة كـانت خرجت من عنـد الإسـكندر بـأن يرجع جميع الغربـاء المنفيين إلى بلادهم، و يسـقط عنهم الرق و العبوديـة، فاسـتثقل ذلـك ملـك بلاـد الروم إذ خـاف أن يكـون الغربـاء و المنفيـون إذا رجعوا إلى بلـدانهم و مواطنهم يطلبون النقمة لأنفسهم، فكان هذا الأمر، سبب خروجهم عن طاعة سلطان المجدونيين.

و قال غيره: و بطليموس هـذا سبى بنى معـدّ بعـد ما غزا فلسـطين، ثم أطلقهم و حباهم بآنيـة جوهر وضـعت فى بيت المقدس، و ملك عشرين سنة، و قال غيره: ولى أربعين سنة، و قيل: ثمانيا و ثلاثين سنة، و قيل: إن اسمه فيلدلفوس، و هو محب الأب و كان مجدونيا، و هو الـذى غنم اليهود، و نقـل كثيرا منهم إلى مصـر، و فى زمانه كان زينون الفيلسوف، و كان هـذا الملك فيلسوفا، و أقبل برديقا أحد قوّاد الإسـكندر إلى مصـر، بعسـكر عظيم و جيش عرمرم، فتفرّق سـلطان مجدونية على قسـمين، ثم إنّ بطليموس جمع عساكر مصـر و إفريقية، و لاقى برديقا، فهزمه و أصاب عسكره، ثم قتله و أصاب ما كان معه، و حارب عدّة من قوّاد الإسكندر.

و قال غيره: و كان بطليموس هذا حكيما عالما شابا مدبرا، و هو أوّل من اقتنى البزاة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۸۸

و لعب بها و ضراها، و كان من قبله من الملوك لا يلعب بها.

و لمّا مات، ملك الإسكندرية بعده بطليموس الثانى، و اسمه: فيلوذوفوس، و يقال له:

محب الأخ، و كانت مدّة ملكه ثمانيا و ثلاثين سـنة، و هو الذى أطلق اليهود الذين كانوا مأسورين بأرض مصـر، و ردّ الأوانى المقدّسه على عزيز النبيّ، و هو الذى تخير السـبعين مترجما من علماء اليهود الذين ترجموا كتب التوراة و الأنبياء من اللسان العبرانىّ إلى اللسان الرومىّ اليونانىّ و اللاطينىّ، و كان فيلسوفا منجما، و مات فولى بعـده ابنه بطليموس أوراخيطس المعروف بمحب الأب ستا و عشـرين سنة.

ثم ولى بعـده أخوه بطليموس فيلوبطور سبع عشـرة سـنة، و هو الـذى قتـل من اليهود نحوا من سـتين ألفـا، و تغلب عليهم، و يقـال: إنه صاحب علم الفلك و النجوم و كتاب المجسطى.

ثم ملك بعده ابنه بطليموس أسفاميش، محب الأم أربعا و عشرين سنة.

ثم ولى بعـده ابنه بطليموس فلونـاطرة، و هو الصـانع، خمسـا و ثلاثين سـنة، و هو الـذى غلب ملك الشام، و حمل اليهود أنواع البلاء و العذاب.

ثم ملـك الإسـكندرية بعـده ابنه بطليمـوس أبريـاطيش، و هو الإسـكندرانىّ، تسـعا و عشـرين سـنة، و فى زمـانه غلب الرومـانيون على

الأندلس و احترقت مدينة قرطاجنة بالنار، و أقامت النار فيها سبعة عشر يوما فهدمت، و حوّلت أساساتها حتى صار رخام أسوارها غبارا، و ذلك إلى تسعمائة سنة من وقت بنيانها، و بيع جميع أهلها رقيقا إلا قليلا من خيارهم و أشرافهم، و كان المتولى لتخريبها قوّاد رومة.

ثم ولى بعده ابنه بطليموس شوطار الذى يقال له: الحديد، سبع عشرة سنة، و كان قبيح السيرة، تزوّج بأخته، ثم فارقها على أقبح حال مما تزوّجها عليه فى خبر له، ثم تزوّج ربيبته التى كانت بنت أخته، ثم زوّجها من ابنه المولود من أخته، و كثرت فواحشه حتى نفاه أهل الإسكندرية فمات منفيا.

و ولى أخوه بطليموس الإسكندر، و هو الجوّال، عشر سنين.

ثم ولى بعده ابنه بطليموس ديوشيش، ثمانيا و ثلاثين سنة، و فى زمانه غلب قائد الرومانيين على بيت المقدس، و جعل اليهود يؤدّون إليه الجزية.

و ظهرت فى ذلك الزمان علامات فى السماء مهولة، منها: أنه ظهر فى السماء بناحية مطلع الشمس من مدينة رومة مما يلى ناحية الجنوب، نار ملتهبة عظيمة، و كسر قوم خبزا فى صنع لهم، فانفجر من الخبز دم سائل، و نزل بمدينة رومة مدّة سبعة أيام متوالية برد كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۸۹

يوجد فى داخله حجارة و شقاف، و انفتحت الأرض، فصار فيها غور عظيم، و خرج منه لهب اشتعل حتى ظنوه بلغ السماء، و نظر أهل رومة يومئذ إلى عمود من الأرض إلى السماء لونه لون الذهب، و كان من عظمه تكاد الشمس أن تغيب منه.

ثم ولى الإسكندرية بعده كلوباطرة، سنتين، فدامت مملكة الإسكندرية، و هى الدولة المجدونية إلى أوّل ملوك قيصر الذى هو أوّل ملوك الرومانيين، مائتين و إحدى و ثمانين سنة، فبعث قيصر قائدين بعساكر كثيرة لفتح مصر، فتزوّج أحدهما كلوباطرة ابنة ديوشيش الملقب بطليموس، و قتل القائد الآخر، و خالف قيصر، فسار إليه قيصر بنفسه، و جرت أمور آلت إلى فتح الإسكندرية بعد حروب، و استولى قيصر على مملكة مصر، و قتل كلوباطرة و ولديها، و قتل القائد الذى تزوّجها، و يقال: بل سمت نفسها عندما تيقنت غلبة قيصر لها، و يقال: إنها كانت ذات حزم و معرفة و تدبير، و إنها حفرت خليج الإسكندرية و أجرت فيه الماء من مصر، و بنت بالإسكندرية أبنية عجيبة منها هيكل زحل، و عملت فيه صنما من نحاس أسود، و كان أهل مصر و الإسكندرية يعملون له عيدا فى اليوم الثانى و العشرين من هتور، و يحتج إليه اليونانيون من سائر الأقطار، و يذبحون له ذبائح لا- تحصى كثرة، فلما ظهرت ملة النصارى فى الإسكندرية جعلوا هيكل زحل كنيسة و لم تزل إلى أن هدمها جيوش المعز لدين اللّه عند قدومهم من المغرب إلى أرض مصر فى سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة من سنى الهجرة النبوية.

و يقال: إن كلوباطرة هى التى بنت حائط العجوز بمصر، و يشبه أن يكون هذا غير صحيح، و يقال: إنها بنت مقياسا بمدينة إخميم، و مقياسا آخر بأنصنا، و يقال: كانت مدّة ملكها ثلاثين سنة، و ليس بصحيح، و بموت كلوباطرة انقطعت مملكة مصر.

و صارت تحت يد ملوك الروم من أهل مدينة رومة، ثم تحت يد ملوك الروم من أهل قسطنطينة، فلم تزل تحت أيديهم يولون فيها من قبلهم من شاءوا، فيصير إلى الإسكندرية، و يقيم بها إلى أن قدم عمرو بن العاص بالمسلمين، و فتح اللّه على يده الحصن و الإسكندرية، و جميع أرض مصر.

و يقال: معنى كلوباطرة: الباكية، فكان جميع المدّة التى ما بين ذهاب دولة البطالسة من الإسكندرية، و قدوم عمرو بن العاص إلى مصر، و فتحها ستمائة سنة و بعضا و سبعين سنة، و فى خلال هذه المدّة قوى جانب ملوك الفرس على القياصرة، و ملكوا منهم بلاد الشام، و استولوا على أرض مصر و الإسكندرية فى أيام كسرى أبرويز بن هرمز، فبعث قائدا إلى مصر، و ملك الإسكندرية، و قتل الروم و أقاموا بالإسكندرية مدّة عشر سنين، فلما استبدّ هرقل بمملكة الروم، و خرج من القسطنطينية لجمع الأموال من سائر مملكته

أخذ حماه و دمشق و سار إلى بيت المقدس، و قد خرّبها الفرس، فأمر ببنائها و سار منها إلى أرض مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۰

و دخل الإسكندريهٔ، و قتل من بها من الفرس، و أقام بها بطريقا، ثم عاد إلى قسطنطينيهٔ فاستمرّت مصر بعده تحت إبالهٔ الروم حتى ملكها المسلمون.

و يقال: إن كل بناء بمصر من آجر فهو للفرس، و ما فيها من بناء حجر فهو للروم، و اللّه أعلم.

ذكر منارهٔ الإسكندريهٔ

قال المسعودىّ: فأما منارهٔ الإسكندريهٔ، فذهب الأكثرون من المصريين و الإسكندرانيين ممن عنى بأخبار بلدهم أن الإسكندر بن فيليبس المقدونى هو الذى بناها و منهم من رأى أن دلوكهٔ الملكهٔ ابنتها و جعلتها مرقبا لمن يرد من العدوّ إلى بلدهم، و من الناس من رأى، أن العاشر من فراعنهٔ مصر، هو الذى بناها، و منهم من رأى أن الذى بنى مدينهٔ رومهٔ هو الذى بنى مدينهٔ الإسكندريهٔ و منارتها، و الأهرام بمصر، و إنما أضيفت الإسكندريهٔ إلى الإسكندر لشهرته باستيلائه على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به، و ذكروا فى ذلك أخبارا كثيرهٔ يستدلون بها على ما قالوا، و الإسكندر لم يطرقه فى هذا البحر عدوّ و لا هاب ملكا يرد إليه فى بلده، و يغزوه فى داره فيكون هو الذى جعلها مرقبا و إنّ الذى بناها جعلها على كرسىّ من الزجاج على هيئهٔ السرطان فى جوف البحر، و على طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البرّ، و جعل على أعلاها تماثيل من النحاس و غيره، منها: تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس، أينما كانت من الفلك، و إذا علت فى الفلك فأصبعه يشير بها نحوها، فإذا انخفضت صارت يده سفلا، تدور معها حيث دارت، و منها: تمثال يشير بيده إلى البحر، إذا صار العدوّ منه على نحو من ليلهٔ فإذا دنا و جاوز أن يرى بالبصر لقرب المسافهٔ، سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من مسيرهٔ ميلين أو ثلاثهٔ، فيعلم أهل المدينهٔ أن العدوّ قد دنا منهم فيرمقونه بأبصارهم، و منها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعهٔ سمعوا له صوتا بخلاف ما صوّت فى الساعهٔ التى قبلها و صوته مطرب.

و قد كان ملك الروم، فى ملك الوليد بن عبد الملك بن مروان، أنفذ خادما من خواص خدمه، ذا رأى و دهاء، فجاء مستأمنا إلى بعض الثغور، فورد بآلهٔ حسنهٔ و معه جماعهٔ، فجاء إلى الوليد، فأخبره: أنه من خواص الملك، و أنه أراد قتله لموجدهٔ و حال بلغته عنه لم يكن لها أصل، و أنه استوحش، و رغب فى الإسلام، فأسلم على يد الوليد و تقرّب من قلبه، و تنصح إليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق و غيرها من الشام بكتب كانت معه، فيها صفات تلك الدفائن، فلما صارت إلى الوليد تلك الأموال و الجواهر، شرهت نفسه و استحكم طمعه.

فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين! إنّ ها هنا أموالا و جواهر و دفائن للملوك، فسأله

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۱

الوليد عن الخبر؟ فقال: تحت منارهٔ الإسكندريهٔ أموال ملوك الأرض، و ذلك أن الإسكندر احتوى على الأموال و الجواهر التى كانت لشدّاد بن عاد و ملوك مصر، فبنى لها أزجا تحت الأرض، و قنطر لها الأقباء و القناطر و السراديب، و أودعها تلك الذخائر من العين و الورق و الجوهر، و بنى فوق ذلك هذه المنارهٔ، و كان طولها فى الهواء ألف ذراع، و المرآهٔ فى علوه، و الدبادبهٔ جلوس حوله، فإذا نظروا إلى العدوّ فى البحر فى ضوء تلك المرآهٔ صوّتوا لمن قرب منهم، و نشروا أعلاما فيراها من بعد منهم، فتحذر الناس و تنذر البلد، فلا يكون للعدوّ عليهم سبيل.

فبعث الوليد مع الخادم، بجيش و أناس من ثقاته و خواصه، فهدم نصف المنارهٔ من أعلاها، و أزيلت المرآهٔ فضج الناس من هذا! و علموا أنها مكيدهٔ و حيلهٔ فى أمرها، فلما علم الخادم استفاضهٔ ذلك و أنه سينم إلى الوليد و أنه قد بلغ ما يحتاج إليه هرب فى الليل فى مركب كان قد أعدّه، و واطأ على ذلك، فتمت حيلته و بقيت المنارهٔ على ما ذكرنا إلى هذا الوقت و هو سنهٔ اثنتين و ثلاثين و ثلثمائهٔ.

و كان حوالى منارة الإسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجوهر يتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر، يقال: إنّ ذلك من آلات اتخذها الإسكندر للشراب، فلما مات كسرتها أمه، و رمت بها فى تلك المواضع من البحر، و منهم من رأى أن الإسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر، و غرّقه حول المنارة لكيلا تخلو من الناس حولها، لأنّ من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا فى كل عصر، و يقال: إنّ هذه المنارة إنما جعلت المرآة فى أعلاها، لأنّ ملوك الروم بعد الإسكندر كانت تحارب ملوك مصر و الإسكندرية، فجعل من كان بالإسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد فى البحر من عدوّهم، و كان من يدخلها يتيه فيها إلا أن يكون عارفا بالدخول و الخروج فيها لكثرة بيوتها و طبقاتها و ممرّاتها.

و قد ذكر: أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم إلى المنارة، فتاهوا فيها، و فى طرق تؤول إلى مهاو تهوى إلى السرطان الزجاج، و فيه مخارق إلى البحر، فتهوّرت دوابهم، و فقد منهم عدد كثير و علم بهم بعد ذلك، و قيل: إن تهوّرهم كان على كرسىّ لها قدّامها، و فى المنارة مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه مطوّعة المصريين و غيرهم. و فى سنة سبع و سبعين و سبعمائة، سقط رأس المنارة من زلزلة، و يقال: إنّ منارة الإسكندرية، كانت مبنية بحجارة مهندمة مضببة برصاص على قناطر من الزجاج، و تلك القناطر على ظهر سرطان، و كان فى المنارة، ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض، و كانت الدابة تصعد بحملها إلى سائر البيوت من داخل المنارة، و لهذه البيوتات طاقات تشرف على البحر، و كانت على الجانب الشرقىّ من المنارة كتابة عرّبت، فإذا هى:

بنت هذه المنظرة قريبا بنت مرينوس اليونانية لرصد الكواكب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۲

و قال ابن وصيف شاه: و قد ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح و بنوا على البحر مدنا منها رقودة مكان الإسكندرية، و جعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب و القبة مذهبة، و نصبوا فوقها منارة عليها مرآة من أخلاط شتى، قطرها خمسة أشبار، و كان ارتفاع القبة مائة ذراع، فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم، فإن كان مما يهمهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملا، فألقت شعاعها على ذلك الشيء فأحرقته، فلم تزل على حالها إلى أن غلب عليها البحر فنسفها.

و يقال: إنّ الإسكندر إنما عمل المنار الذى كان شبيها بها و قد كان أيضا عليه مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم، فاحتال بعض ملوك الروم، فوجه من أزالها، و كانت من زجاج مدبر.

و قال المسعودىّ فى كتاب التنبيه و الأشراف: و قد كان وزير المتوكل، عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان لمّا أمر المستعين بنفيه إلى برقة فى سنة ثمان و أربعين و مائتين، صار إلى الإسكندرية من بلاد مصر، فرأى حمرة الشمس على علو المنارة التى بها وقت المغيب، فقدّر أنه يلزمه أن لا يفطر إذا كان صائما أو تغرب الشمس من جميع أقطار الأرض، فأمر إنسانا أن يصعد إلى أعلى منارة الإسكندرية و معه حجر، و أن يتأمّل موضع سقوط الشمس، فإذا أسقطت رمى بالحجر، ففعل الرجل ذلك، فوصل الحجر إلى قرار الأرض بعد صلاة العشاء الآخرة، فجعل إفطاره بعد صلاة العشاء الآخرة، فيما بعد إذا صام فى مثل ذلك الوقت، و كان عند رجوعه إلى سرّ من رأى لا يفطر إلا بعد عشاء الآخرة، و عنده أنّ هذا فرضه، و أنّ الوقتين متساويان، و هذا غاية ما يكون من قلة العلم بالفرض و مجارى الشرق و الغرب.

و قد ذكر أرسطاطاليس فى كتاب الآثار العلوية: أن بناحية المشرق الصيفىّ جبلا شامخا جدّا، و أنّ من علامة ارتفاعه أن الشمس لا تغيب عنه إلى ثلاث ساعات من الليل، و تشرق عليه قبل الصبح بثلاث ساعات.

و منارة الإسكندرية أحد بنيان العالم العجيب، بناها بعض البطالسة ملوك اليونانيين بعد وفاة الإسكندر بن فيليبس الملك، لما كان بينهم و بين ملوك رومة من الحروب فى البرّ و البحر، فجعلوا هذه المنارة مرقبا فى أعاليها مرآة عظيمة من نوع الأحجار المشفة ليشاهد منها مراكب البحر إذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها، فكانوا يراعون ذلك فى تلك المرآة فيستعدّون

لهم قبل ورودهم، و طول المنارة فى هذا الوقت على التقريب، مائتان و ثلاثون ذراعا، و كان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع، فهدمت على طول الأزمان و ترادف الزلازل و الأمطار، لأنّ بلد الإسكندرية تمطر و ليس سبيلها سبيل فسطاط مصر إذ كان الأغلب عليها أن لا تمطر إلا اليسير، و بناؤها ثلاثة أشكال، فقريب من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۳

النصف، و أكثر من الثلث مربع الشكل، بناؤه بأحجار بيض يكون نحوا من مائة ذراع و عشرة أذرع على التقريب، ثم من بعد ذلك مثمن الشكل، مبنى بالحجر و الجص نحو من نيف و ستين ذراعا و حواليه فضاء يدور فيه الإنسان و أعلاها مدوّر.

و كان أحمد بن طولون رمّ شيئا منها، و جعل فى أعلاه قبة من الخشب ليصعد إليها من داخلها و هى مبسوطة موربة بغير درج، و فى الجهة الشمالية من المنارة، كتابة برصاص مدفون بقلم يونانىّ طول كلّ حرف ذراع فى عرض شبر، و مقدارها على جهة الأرض نحو من مائة ذراع، و ماء البحر قد بلغ أصلها، و قد كان تهدّم أحد أركانها الغربية مما يلى البحر.

فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، و بينها و بين مدينة الإسكندرية فى هذا الوقت نحو من ميل، و هى على طرف لسان من الأرض قد ركب البحر جنبتيه، و هى مبنية على فم ميناء الإسكندرية و ليس بالميناء القديم، لأنّ القديم فى المدينة العتيقة لا ترسى فيه المراكب لبعده عن العمران، و الميناء هو الموضع الذى ترسى فيه مراكب البحر.

و أهل الإسكندرية يخبرون عن أسلافهم أنهم شاهدوا بين المنارة و بين البحر نحوا مما بين المدينة و المنارة فى هذا الوقت، فغلب عليه ماء البحر فى المدّة اليسيرة و أنّ ذلك فى زيادة، قال: و تهدّم فى شهر رمضان سنة أربع و أربعين و ثلثمائة، نحو من ثلاثين ذراعا من أعاليها بالزلزلة التى كانت ببلاد مصر، و كثير من بلاد الشام و المغرب فى ساعة واحدة على ما وردت به علينا الأخبار المتواترة، و نحن بفسطاط مصر، و كانت عظيمة جدّا مهولة فظيعة أقامت نحو نصف ساعة زمانية، و ذلك لنصف يوم السبت لثمان عشرة خلت من هذا الشهر و هو الخامس من كانون الآخر، و التاسع من طوبة، و كان لهذه المنارة مجمع فى يوم خميس العدس يخرج سائر أهل الإسكندرية إلى المنارة من مساكنهم بمآكلهم و لا بد أن يكون فيها عدس، فيفتح باب المنار، و يدخله الناس، فمنهم من يذكر اللّه، و منهم من يصلى، و منهم من يلهو و لا يزالون إلى نصف النهار، ثم ينصرفون و من ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدوّ.

و كان فى المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل، فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد، فإذا رأى أهل المنار ما يريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة، فإذا رآها الحرس ضربوا الأبواق و الأجراس، فيتحرّك عند ذلك الناس لمحاربة العدوّ.

و يقال: إنّ المنار كان بعيدا عن البحر، فلما كان فى أيام قسطنطين بن قسطنطين هاج البحر و غرّق مواضع كثيرة و كنائس عديدة بمدينة الإسكندرية، و لم يزل يغلب عليها بعد ذلك و يأخذ منها شيئا بعد شىء.

و ذكر بعضهم: أنه قاسه فكان مائتى ذراع و ثلاثة و ثلاثين ذراعا و هى ثلاث طبقات،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۴

الطبقة الأولى: مربعة و هى مائة و إحدى و عشرون ذراعا و نصف ذراع، و الطبقة الثانية: مثمنة و هى: إحدى و ثمانون ذراعا و نصف ذراع، و الطبقة الثالثة: مدوّرة و هى إحدى و ثلاثون ذراعا و نصف ذراع.

و ذكر ابن جبير فى رحلته: أن منار الإسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا، و أنه ذرع أحد جوانبه الأربعة فى سنة ثمان و سبعين و خمسمائة، فأناف على خمسين ذراعا، و أنّ طول المنار أزيد من مائة و خمسين قامة، و فى أعلاه مسجد يتبرّك الناس بالصلاة فيه.

و قال ابن عبد الحكم: و يقال: إنّ الذى بنى منار الإسكندرية كلوباطرة الملكة و هى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية، و لم يكن يبلغها إنما كان يعدل من قرية يقال لها: كسا قبالة الكريون، فحفرته حتى أدخلته الإسكندرية و هى التى بلطت قاعه.

و لما استولى أحمد بن طولون على الإسكندرية بنى فى أعلى المنار قبة من خشب فأخذتها الرياح، و فى أيام الظاهر بيبرس تداعى بعض أركان المنار، و سقط فأمر ببناء ما انهدم منه، فى سنة ثلاث و سبعين و ستمائة، و بنى مكان هذه القبة مسجد أو هدم فى ذى

الحجة سنة اثنتين و سبعمائة عند حدوث الزلزلة، ثم بنى فى شهور سنة ثلاث و سبعمائة على يد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و هو باق إلى يومنا هذا، و للّه در الوجيه الدرويّ، حيث يقول فى منار الإسكندرية:

و سامية الأرجاء تهدى أخا السرىضياء إذا ما حندس الليل أظلما

لبست بها بردا من الإنس صافيافكان بتذكار الأحبة معلما

و قد ظللتنى من ذراها بقبةألاحظ فيها من صحابى أنجما

فخيّل أنّ البحر تحتى غمامةو أنى قد خيمت فى كبد السما

و قال ابن قلاقس من أبيات:

و منزل جاوز الجوزاء مرتقياكأنما فيه للنسرين أوكار

راسى القرارة سامى الفرع فى يدهللنون و النور أخبار و أخبار

أطلقت فيه عنان النظم فاطردتخيل لها فى بديع الشعر مضمار

و قال الوزير أبو عبد اللّه محمد بن الحسن بن عبد ربه:

للّه در منار إسكندرية كمىسمو إليه على بعد من الحدق

من شامخ الأنف فى عرنينه شمم كأنه باهت فى دارة الأفق

للمنشآت الجوارى عند رؤيتهكموقع النوم فى أجفان ذى أرق

و قال عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر: ذكر أهل العلم أن المنارة كانت فى وسط الإسكندرية، حتى غلب عليها البحر، فصارت فى جوفه، ألا ترى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۵

الأبنية و الأساسات فى البحر إلى الآن عيانا.

و قال عبد اللّه بن عمر: و عجائب الدنيا أربعة: مرآة كانت معلقة بمنارة الإسكندرية، فكان يجلس الجالس تحتها، فيرى من بالقسطنطينية و بينهما عرض البحر، و ذكر الثلاثة؟!.

ذكر الملعب الذى كان بالإسكندرية و غيره من العجائب

قال القضاعىّ: و من عجائب مصر: الإسكندرية و ما بها من العجائب، فمن عجائبها:

المنارة، و السوارى، و الملعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة، ثم يرمون بأكرة، فلا تقع فى حجر أحد إلا ملك مصر، و حضر عيدا من أعيادهم، عمرو بن العاص، فوقعت الأكرة فى حجره، فملك البلد بعد ذلك فى الإسلام، ثم حضر هذا الملعب ألف ألف من الناس، فلا يكون فيهم أحد إلا و هو ينظر فى وجه صاحبه، ثم إن قرىء كتاب سمعوه جميعا، أو لعب لون من اللعب رأوه عن آخرهم لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العلية و السفلية.

و قال ابن عبد الحكم: فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة، و قدم عمر بن الخطاب، رضى اللّه عنه، الجابية، خلا به عمرو بن العاص، و استأذنه فى المسير إلى مصر، و كان عمرو قد دخل فى الجاهلية مصر، و عرف طرقها، و رأى كثرة ما فيها، و كان سبب دخوله إياها أنه قدم إلى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش، فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية، قدم للصلاة فى بيت المقدس، فخرج فى بعض جبالها يسيح، و كان عمرو يرعى إبله و إبل أصحابه، و كانت رعية الإبل نوبا بينهم، فبينا عمرو يرعى إبله، إذ مرّ به ذلك الشماس، و قد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحرّ، فوقف على عمرو، فاستسقاه، فسقاه عمرو من قربة له، فشرب حتى روى، و نام الشماس مكانه، و كانت إلى جنب الشماس حيث نام حفرة، فخرجت منها حية عظيمة، فبصر بها عمرو،

فنزع لها بسهم فقتلها، فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه اللّه منها، فقال لعمرو: ما هذه؟ فأخبره عمرو أنه رماها، فقتلها، فأقبل إلى عمرو، فقبّل رأسه، و قال: قد أحيانى اللّه بك مرّتين: مرّة من شدّة العطش، و مرّة من هذه الحية، فما أقدمك هذه البلاد؟ قال: قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا، فقال له الشماس: و كم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك؟ قال: رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا، فإنى لا أملك إلا بعيرين، فآمل أن أصيب بعيرا آخر فتكون ثلاثة أبعرة، فقال له الشماس: أ رأيت دية أحدكم بينكم كم هى؟ قال: مائة من الإبل، فقال له الشماس: لسنا أصحاب إبل إنما نحن أصحاب دنانير، قال: تكون ألف دينار، فقال له الشماس: إنى رجل غريب فى هذه البلاد، و إنما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس، و أسيح فى هذه الجبال شهرا جعلت ذلك نذرا على نفسى، و قد قضيت ذلك، و أنا أريد الرجوع إلى بلادى، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۶

و لك علىّ عهد اللّه و ميثاقه أن أعطيك دينين، لأنّ اللّه عز و جل أحيانى بك مرّتين، فقال له عمرو: أين بلادك؟ قال: مصر فى مدينة يقال لها: الإسكندرية، فقال له عمرو: لا أعرفها، و لم أدخلها قط، فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها! فقال له عمرو: تفى لى بما تقول، ولى عليك بذلك العهد و الميثاق، فقال له الشماس: نعم لك و اللّه علىّ العهد و الميثاق أن أفى لك، و أن أردّك إلى أصحابك، فقال له عمرو: كم يكون مكثى فى ذلك؟ قال: شهرا تنطلق معى ذاهبا عشرا، و تقيم عندنا عشرا، و ترجع فى عشر، و لك علىّ أن أحفظك ذاهبا و أن أبعث معك من يحفظك راجعا، فقال له عمرو: انظرنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك، فانطلق عمرو إلى أصحابه، فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس، و قال لهم: تقيمون علىّ حتى أرجع إليكم و لكم علىّ العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبنى رجل منكم آنس به، فقالوا: نعم، و بعثوا معه رجلا منهم، فانطلق عمرو و صاحبه مع الشماس، حتى انتهوا إلى مصر فرأى عمرو من عمارتها، و كثرة أهلها و ما بها من الأموال و الخير ما أعجبه! فقال عمرو للشماس: ما رأيت مثل ذلك، و مضى إلى الإسكندرية، فنظر عمرو إلى كثرة ما فيها من الأموال و العمارة، و جودة بنائها، و كثرة أهلها، فازداد عجبا، و وافق دخول عمرو الإسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم و أشرافهم، و لهم كرة من ذهب مكالة يترامى بها ملوكهم، و هم يتلقونها بأكمامهم، و فيما اختبروا من تلك الكرة على ما وصفها من مضى منهم، أنها من وقعت الكرة فى كمه و استقرّت فيه لم يمت حتى يملكهم.

فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله، و كساه ثوب ديباج ألبسه إياه، و جلس عمرو و الشماس مع الناس فى ذلك المجلس، حيث يترامون بالكرة و هم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم، فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو، فعجبوا من ذلك، و قالوا: ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرّة! أ ترى هذا الأعرابىّ يملكنا؟ هذا ما لا يكون أبدا، و إنّ ذلك الشماس مشى فى أهل الإسكندرية، و أعلمهم أنّ عمرا أحياه مرّتين، و أنه قد ضمن له ألفى دينار، و سألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم، ففعلوا، و دفعوها إلى عمرو، فانطلق عمرو و صاحبه، و بعث معهما الشماس دليلا و رسولا، و زوّدهما و أكرمهما، حتى رجع هو و صاحبه إلى أصحابهما، فبذلك عرف عمرو مدخل مصر و مخرجها، و رأى منها ما علم أنها أفضل البلاد، و أكثرها أموالا، فلما رجع عمرو إلى أصحابه، دفع إليهم بيما بينهم ألف دينار، و أمسك لنفسه ألفا، قال عمرو: و كان أوّل مال اعتقدته و تأثلته.

ذكر عمود السوارى

هذا العمود حجر أحمر منقط، و هو من الصوّان الماتع كان حوله، نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا والى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۷

و رماها بشاطئ البحر ليوعر على العدوّ سلوكه إذا قدموا، و يذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس

الذى كان يدرس به الحكمة، و أنه كان دار علم، و فيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، و يقال: إنّ ارتفاع هذا العمود سبعون ذراعا و قطره خمسة أذرع، و ذكر بعضهم: أنّ طوله بقاعدتيه: اثنان و ستون ذراعا و سدس ذراع، و هو على نشز طوله ثلاثة و عشرون ذراعا و نصف ذراع، فجملة ذلك خمسة و ثمانون ذراعا و ثلثا ذراع، و طول قاعدته السفلى اثنا عشر ذراعا، و طول القاعدة العليا سبعة أذرع و نصف.

قال المسعودىّ: و فى الجانب الغربىّ من صعيد مصر، جبل رخام عظيم، كانت الأوائل تقطع منه العمد و غيرها، و كانوا يحملون ما عملوا بعد النقر، فأما العمد و القواعد و الرءوس التى يسميها أهل مصر الأسوانية، و منها حجارة الطواحين، فتلك نقرها الأوّلون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين، و منها العمد التى بالإسكندرية، و العمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله، و قد رأيت فى جبل أسوان، أخا هذا العمود، و قد هندس و نقر و لم يصل من الجبل، و لم يحمل ما ظهر منه، و إنما كانوا ينتظرون به أن يفصل من الجبل، ثم يحمل إلى حيث يريد القوم، انتهى.

و كان بالإسكندرية من العمد العظام، و أنواع الحجارة و الرخام الذى لا تقلّ القطعة منه، إلا بألوف من الناس، و قد علقت بين السماء و الأرض على فوق المائة ذراع، و فوق رؤوس أساطين دائر الأسطوانة ما بين الخمسة عشر ذراعا إلى العشرين ذراعا، و الحجر فوقه عشرة أذرع فى عشرة أذرع، فى سمك عشرة أذرع بغرائب الألوان.

و كان بالإسكندرية قصر عظيم لا نظير له فى معمور الأرض على ربوة عظيمة، بإزاء باب البلد طوله خمسمائة ذراع، و عرضه على النصف من ذلك، و بابه من أعظم بناء و أتقنه، كل عضادة منه حجر واحد، و عتبته حجر واحد، و كان فيه نحو مائة أسطوانة و بإزائه أسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها، غلظها ستة و ثلاثون شبرا، و علوها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر، و عليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك بناء، و تحتها قاعدة حجر أحمر محكم الصناعة، عرض كل ضلع منه عشرون شبرا فى ارتفاع ثمانية أشبار، و الأسطوانة منزلة فى عمود من حديد قد خرقت به الأرض، فإذا اشتدّت الرياح رأيتها تتحرّك، و ربما وضع تحتها الحجارة، فطحنتها لشدّة حركتها، و كانت هذه الأسطوانة إحدى عجائب الدنيا، و قد زعم قوم أنها مما عمله الجنّ لسليمان بن داود عليهما السلام، كما هى عادتهم فى نسبة كل ما يستعظمون عمله إلى أنه من صنيع الجنّ، و ليس كذلك، بل كانت مما عمله القدماء من أهل مصر.

و كان فى وسطه، قبة و من حولها أساطين، و على الجميع قبة من حجر واحد رخام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۸

أبيض كأحسن ما أنت راء من الصنائع.

و يقال: إن بعض ملوك مصر دخل الإسكندرية، فأعجبه هذا القصر، و أراد أن يبنى مثله، فجمع الصناع و المهندسين ليقيموا له قصرا عظيما على هيئته، فما منهم إلا من اعترف بعجزه عن مثله، إلّا شيخا منهم، فإنه التزم أن يصنع مثله، فسرّ الملك ذلك، و أذن له فى طلب ما يحتاج إليه من المؤن و الآلات و الرجال، فقال: ائتونى بثورين مطيقين و عجلة كبيرة، فللحال أتى بذلك فمضى إلى المقابر القديمة، و حفر منها قبرا أخرج منه: جمجمة عظيمة، رفعها عدّة من الرجال على العجلة، فما جرّها الثوران مع قوّتهما إلّا بعد جهد و عناء، فلما وقف بها بين يدى الملك، قال: أصلح اللّه سيدنا! إن أتيتنى بقوم رؤوسهم مثل هذا الرأس عملت لك مثل هذا القصر؟ فتيقن الملك عند ذلك عجز أهل زمانه عن إقامة مثل ذلك القصر.

و قد ذكر: أنه كان بالإسكندرية ضرس إنسان عند قصاب، يزن به اللحم، زنته ثمانية أرطال.

و يقال: إنّ عمود السوارى الموجود الآن خارج مدينة الإسكندرية، أحد سبعة أعمدة، أتى بأحدها، البتون بن مرّة العادى، و هو يحمله تحت إبطه من جبل بريم الأحمر قبلىّ أسوان إلى الإسكندرية، فانكسر ضلعه، لأنه كان ضعيف القوى فى قومه، فشق ذلك على يعمر بن شدّاد بن عاد، و قال: ليتنى فديته بنصف ملكى، و جاء بعمود آخر، جحدر بن سنان الثمودىّ، و كان قويا، فحمله من أسوان تحت

إبطه، و جاء بقية رجالهم كل رجل بعمود، فأقام العمد السبعة، الجارود بن قطن المؤتفكى، و كان بناءها بعد أن اختاروا لها طالعا سعيدا، كما هى عادتهم فى عامّة أعمالهم، و قد ذكر غير واحد، أن الصخور فى القديم من الدهر كانت تلين، فعمل منها أعمدة، ناعط و مارب و بينون و ماثر اليمن، و أعمدة دمشق و مصر و مدين و تدمر، و إنّ كل شيء كان يتكلم، قال أمية بن أبى الصلت:

و إذ هم لا لبوس لهم عراؤو إذ صخر السلام لهم رطاب

و قال قوم: عمود السوارى من جملة أعمدة كانت تحمل رواقا، يقال له: بيت الحكمة، و ذلك حيث انتهت علوم أهل الغرب إلى خمس فرق، و هم: أصحاب الرواق هذا، و أصحاب الأسطوانة و كانوا ببعلبك، و أصحاب المظال و هم بأنطاكية، و أصحاب البرابى و كانوا بصعيد مصر، و المشاؤون و كانوا بمقدونية، و كأنى بمن قلّ علمه ينكر علىّ إيراد هذا الفصل، و يراه من قبيل المحال، و مما وضعه القصاص، و يجزم بكذبه، فلا يوحشنك حكايتى له، و اسمع قول اللّه تعالى عن عاد قوم هود: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً [الأعراف/ ۶۹] أى طولا و عظم جسم.

قال عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما: كان أطولهم مائة ذراع، و أقصرهم ستين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۹

ذراعا، و هذه الزيادة كانت على خلق آبائهم، و قيل: على خلق قوم نوح، و قال وهب بن منبه: كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، و كانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع، و كذلك مناخرهم.

و روى شهر بن حوشب عن أبى هريرة رضى اللّه عنه: إنه قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليحمل المصراعين لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يطيقوه، و إن كان أحدهم ليغمز بقدمه الأرض فيدخل فيها.

و روى عبد اللّه بن لهيعة، عن يزيد بن عمرو المعافرىّ، عن ابن بجرة، قال: استظل سبعون رجلا من قوم موسى عليه السلام، فى قحف رجل من العماليق. و عن زيد بن أسلم:

بلغنى أنّ الضبعة و أولادها ربين فى حجاج عين رجل من العماليق، و قال تعالى: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ [الفجر/ ۸].

قال المبرّد: و قولها يعنى الخنساء: رفيع العماد إنما تريد الطول، يقال: رجل معمد:

يريد طولا و منه قوله تعالى: إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ أى: الطوال.

و قال البغوىّ: سموا ذات العماد لأنهم كانوا أهل عمدة سيارة، و هو قول قتادة و مجاهد و الكلبىّ، و رواية عطاء عن ابن عباس، و قال بعضهم: سموا ذات العماد لطول قاماتهم، قال ابن عباس: يعنى طولهم مثل العماد، قال مقاتل: كان طول أحدهم اثنى عشر ذراعا.

و فى كشاف الزمخشرىّ: لم يخلق مثلها، مثل عاد فى البلاد عظم أجرام و قوّة، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع، و كان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها، فيلقيها على الحىّ فيهلكهم، و قد ذكر غير واحد أنه وجد فى خلافة المقتدر باللّه أبى الفضل جعفر بن المعتضد، كنز بمصر فيه ضلم إنسان طوله أربعة عشر شبرا فى عرض ثلاثة أشبار.

و اعلم أن أعين بنى آدم ضيقة و قد نشأت نفوسهم فى محل صغير، فإذا حدّث القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو مبلغ أجسامهم مما ليس له عندهم أصل يقيسونه على إلا ما يشاهدونه، أو يألفونه عجلوا إلى الارتياب فيه، و سارعوا إلى الشك فى الخبر عنه، إلّا من كان معه علم و فهم، فإنه يفحص عما يبلغه من ذلك حتى يجد دليلا على قبوله، أو ردّه، و كيف يردّ مثل هذه الأخبار. و فى الصحيح: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «حلق اللّه آدم طوله ستون ذراعا فى السماء» ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن.

و ذكر محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسىّ الغرناطىّ فى كتاب تحفة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰۰

الألباب قال: نقل الشعبىّ فى كتاب سير الملوك: أن الضحاك بن علوان، لما هرب منه لام بن عاد إلى ناحية الشمال أرسل فى طلبه

أميرين مع كل أمير طائفة من الجبارين خرج أحدهما قاصدا إلى بلغار، و الآخر إلى باشقرد، فأقام أولئك الجبارون فى أرض بلغار، و فى باشقرد. قال الإقليشىّ: و قد رأيت صورهم فى باشقرد، و رأيت قبورهم بها، فكان مما رأيته، ثنية أحدهم طولها: أربعة أشبار، و عرضها شبران، و قد كان عندى فى باشقرد نصف أصل الثنية أخرجت لى من فكه الأسفل، فكان عرضها شبرا، و وزنها ألف مثقال، و مائتا مثقال، أنا و زنتها بيدى، و هى الآن فى دارى فى باشقرد، و كان دور فلك ذلك العادىّ سبعة عشر ذراعا، و فى بيت بعض أصحابى فى باشقرد، عضد أحدهم طوله ثمانية و عشرون ذراعا، و أضلاعه كل ضلع عرضه ثلاثة أشبار، و أكثر كاللوح الرخام، و أخرج إلىّ نصف رسغ يد أحدهم، فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدىّ جميعا، قال: و لقد رأيت فى بلد بلغار سنة ثلاثين و خمسمائة من نسل العاديين رجلا طوالا كان طوله أكثر من سبعة أذرع، و كان يسمى: دنقى و كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الطفل الصغير، و كان إذا وقع القتال بتلك الناحية، يقاتل بشجرة من شجر البلوط، يمسكها كالعصا فى يده لو ضرب بها الفيل قتله، و كان خيّرا متواضعا، كلما التقانى سلم علىّ، و رحب بى و أكرمنى، و كان رأسى لا يصل إلى حقوه، و كان له أخت على طوله رأيتها فى بلغار مرارا عدّة.

قال لى القاضى يعقوب بن النعمان، يعنى قاضى بلغار: إن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها، و كان اسمه آدم، و كان من أقوى أهل بلغار ضمته إلى صدرها، فكسرت أضلاعه، فمات من ساعته. قال: و لم يكن فى بلغار حمّام تسعهم، إلا حمّام واحدة واسعة الأبواب، انتهى.

و قد حدّثنى الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد الفريابى عن أبيه: أنه شاهد قبرا احتفر بمدينة قرطاجنة من إفريقية، فإذا جثة رجل قدر عظيم رأسه كثورين عظيمين، و وجد معه لوح مكتوب بالقلم المسند، و هو قلم عاد، و حروفه مقطعة، ما نصه:

أنا كوش بن كنعان ابن الملوك من آل عاد، ملكت بهذه الأرض ألف مدينة، و بنيت بها على ألف بكر، و ركبت من الخيل العتاق سبعة آلاف، حمر و صفر و شهب و بيض و دهم، ثم لم يغن عنى ذلك شيئا، أو جاءنى صائح، فصاح بى صيحة أخرجتنى من الدنيا، فمن كان عاقلا ممن جاء بعده فليعتبر بى و أنشد:

يا واقفا يرعى السهىبرسم ربع قد و هى

قف و استمع ثم اعتبرإن كنت من أهل النهى

بالأمس كنا فوقهاو اليوم صرنا تحتها

لكل حدّ غايةلكل أمر منتهى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰۱

قال: فأمر السلطان أبو بكر بن يحيى الحفصىّ ، صاحب تونس بطمه، فطم القبر.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: و أنا أدركت شيئا من ذلك، و هو أنه ترافع فى بعض الأيام طائفة من الحجارين إلى السلطان الملك الظاهر برقوق أعوام، بضع و تسعين و سبعمائة، و قد اختلفوا على مال وجدوه بجبل المقطم، و هو أنهم كانوا يقطعون الحجارة من مغار فيما يلى قلعة الجبل من بحريها، فانكشف لهم حجر أسود عليه كتابة، فاجتمعوا على قطع ما بين يدى هذا الحجر طمعا فى وجود مال، فانتهى بهم القطع إلى عمود عظيم قائم فى قلب الجبل، فلعجلتهم أقبلوا بمعاولهم عليه حتى تكسر قطعا، فإذا هو مجوّف، و إنسان قائم على قدميه بطوله و تناثر لهم من جهة رأسه دنانير كثيرة، فاقتسموها و تنافسوا فى قسمتها، و اختلفوا حتى اشتهر أمرهم، و ترافعوا إلى السلطان، فبعث من كشف المغار فوجد الحجر و العمود، و قد تكسر فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير، و لم يجد من يعرف ما قد كتب على الحجر، و تسامع الناس بالخبر، فأقبلوا إلى المغار و عبثوا برمّة الميت، فأخبرنى من شاهد سنا من أسنان هذا الميت، أنها سوداء بقدر الباذنجانة و إن عظم ساقه فيما بين قدمه إلى ركبته خمسة أذرع فيجىء هذا من حساب طوله عشرين ذراعا و أزيد، و دماغ سنّ واحدة من أسنانه فى قدر الباذنجانة، ما هو إلا كالقبة الكبيرة، و أخبرنى السيد الشريف قاضى القضاة بدمشق شهاب الدين

أحمد بن علىّ بن إبراهيم الحسينىّ المعروف: بابن عدنان و بابن أبى الجن: أنه وقف فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة بمقبرة باب الصغير من دمشق على قبر ليدفن فيه ميت لهم، فلما تهيأ القبر، و لم يبق إلا أن يدلى فيه الميت، انخسف و خرج من الخسف ذباب كثير كبار زرق الألوان حتى كادت تظلهم، فنزل الحفار فى الخسف، فإذا قبر طوله اثنان و عشرون ذراعا و فيه بطوله ميت قد صار كالرماد.

و أخبرنى أيضا: أنه شاهد بهذه المقبرة ضرس إنسان و له ثلاث شعب، و قد سقطت منه قطعة و هو فى قدر البطيخة، و أنه وزن بحضرته فبلغ رطلين و تسع أواقى بالرطل الشامى، و إنّ القطعة التى انكسرت منه نحو أوقيتين بالشامى، فيكون على هذا زنة هذا الضرس نحو اثنى عشر رطلا بالمصرىّ، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر طرف مما قيل فى الإسكندرية

قال أبو عمرو الكندىّ: أجمع الناس أنه ليس فى الدنيا مدينة على ثلاث طبقات، غير الإسكندرية، و لما دخل عبد العزيز بن مروان الإسكندرية، سأل رجلا من علماء الروم عنها و عن عدد أهلها؟ فقال: و اللّه أيها الأمير، ما أدرك علم هذا أحد من الملوك، و الذى أخبرك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰۲

كم كان فيها من اليهود، فإنّ ملك الروم أمر بإحصائهم، فكانوا ستمائة ألف. قال: فما هذا الخراب الذى فى أطرافها، قال: بلغنى عن بعض ملوك فارس حين ملكوا مصر أنه أمر بفرض دينار على كل محتلم لعمران الإسكندرية، فأتاه كبراء أهلها و علماؤهم، و قالوا: أيها الملك لا تتعب فإنّ الإسكندرية أقام الإسكندر على بنائها، ثلثمائة سنة، و عمرت ثلثمائة سنة، و إنها لخراب منذ ثلثمائة سنة، و لقد أقام أهلها سبعين سنة لا يمشون فيها نهارا إلا بخرق سود فى أيديهم خوفا على أبصارهم من شدّة بياضها.

و من فضائلها ما قاله بعض المفسرين من أهل العلم: أنها المدينة التى وصفها اللّه عز و جلّ فى كتابه العزيز فقال: إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِى الْبِلادِ [الفجر/ ۸].

قال أحمد بن صالح: قال لى سفيان بن عيينة: يا مصرىّ أين تسكن؟ قلت: أسكن الفسطاط، فقال: أتانى الإسكندرية؟ قلت: نعم، قال: تلك كنانة اللّه يجعل فيها خيار سهامه.

و قال و قال عبد اللّه بن مرزوق الصدفىّ، لما نعى لى ابن عمى خالد بن يزيد، و كان قد توفى بالإسكندرية، لقينى موسى بن علىّ بن رباح و عبد اللّه بن لهيعة و الليث بن سعد متفرّقين كلهم يقول: أليس مات بالإسكندرية؟ فأقول: نعم، فيقولون: هو حىّ عند اللّه يرزق و يجرى عليه أجر رباطه ما أقامت الدنيا، و له أجر شهيد حتى يحشر على ذلك، و قال الذين ينظرون فى الأهوية و البلدان و ترتب الأقاليم و الأمصار: أنه لم تطل أعمار الناس فى بلد من البلدان طولها بمربوط من كورة الإسكندرية، و وادى فرغانة. و قال الحسن بن صفوان: و أما الإسكندرية و تنيس، و أمثالهما، فقربها من البحر و سكون الحرارة و البرد عندهم، و ظهور ريح الصبا فيهم مما يصلح أمرهم، و يرق طباعهم، و يرفع همتهم و ليس يعرض لهم ما يعرض لأهل اليشمون من غلظ الطبع و الحمارية، و قد وصف أهل الإسكندرية بالبخل، قال جلال الدين بن مكرم بن أبى الحسن بن أحمد الخزرجى ملك الحفاظ:

نزيل اسكندرية ليس يقرىبغير الماء أو نعت السوارى

و يتحف حين يكرم بالهواء الملاتن و الإشارة للمنار

و ذكر البحر و الأمواج فيهو وصف مراكب الروم الكبار

فلا يطمع نزيلهم بخبزفما فيها لذاك الحرف قارى

و قال أحمد بن جردادية من الفسطاط إلى ذوات الساحل، أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى مربوط ثلاثون ميلا، ثم إلى كوم شريك ثلاثون ميلا، ثم إلى كريون أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى الإسكندرية أربعة و عشرون ميلا، و قال آخر: و طريق الإسكندرية إذا نضّب

ماء النيل يأخذ بين المدائن و الضياع، و ذلك إذا أخذت من شطنوف إلى سبك العبيد، فهو منزل فيه منية لطيفة، و بينهما اثنا عشر سقسا، و من سبك إلى مدينة منوف، و هى كبيرة فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰۳

حمامات و أسواق، و بها قوم فيهم يسار و وجوه من النار، و بينهما ستة عشر سقسا، و من منوف إلى محلة صرد و فيها منبر و حمام و فنادق، و سوق صالح ستة عشر سقسا، و من محلة صرد إلى سخا و هى مدينة كبيرة ذات حمامات و أسواق، و عمل واسع و إقليم جليل له عامل بعسكر و جند، و به الكتان الكثير و زيت الفجل، و قموح عظيمة ستة عشر سقسا، و من سخا إلى شبر كمية و هى مدينة كبيرة بها جامع و أسواق ستة عشر سقسا، و من شبر كمية إلى مسير و هى مدينة بها جامع و أسواق ستة عشر سقسا، و من مسير إلى سنهور و هى مدينة ذات إقليم كبير و بها حمامات و أسواق، و عمل كبير ستة عشر سقسا، و من سنهور إلى التخوم و هى إقليم و بها حمامات و فنادق و أسواق ستة عشر سقسا، و من التخوم إلى نسترو، و كانت مدينة عظيمة حسنة على بحيرة اليشمون عشرون سقسا، و من نسترو إلى البرلس و هى مدينة كثيرة الصيد فى البحيرة و بها حمامات عشر سقسات، و من نسترو إلى البرلس إلى اخنا و هى حصن على شط بحر الملح عشر سقسات، و من اخنا إلى رشيد و هى مدينة على النيل و منها يصب النيل فى البحر من فوهة تعرف بالأشتوم و هى المدخل ثلاثون سقسا، و كان بها أسواق صالحة و حمام، و بها نخيل و ضريبة على ما يحمل من الإسكندرية.

و هذا الطريق الآخذ من شطنوف إلى رشيد ربما امتنع سلوكه عند زيادة النيل، و الثياب المنسوجة بالإسكندرية لا نظير لها، و تحمل إلى أقطار الأرض، و فى ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثيابا يقال لها الشرب كل زنة درهم بدرهم فضة، و ما يدخل فى الطرز، فيباع بنظير وزنه مرّات عديدة.

ذكر فتح الإسكندرية

قال أبو عمرو الكندى: لما حاز المسلمون الحصن بما فيه، أجمع عمرو على المسير إلى الإسكندرية، فسار إليها فى ربيع الأوّل سنة عشرين، و قال غيره: بل سار فى جمادى الآخرة منها.

و ذكر سيف بن عمر: أنّ عمرو بن العاص بعث إلى الإسكندرية، و هو على عين شمس، عوف بن مالك، فنزل عليها، و بعث يقول لأهلها: إن شئتم أن نزلوا فلكم الأمان، فقالوا: نعم، فراسلهم و تربصوا أهل عين شمس، و سار المسلمون من بين ذلك.

و قال ابن عبد الحكم: و يقال: إنّ المقوقس إنما صالح عمرو بن العاص، لما فتح الإسكندرية حاصر أهلها ثلاثة أشهر، و ألحّ عليهم فخافوه، و سأله المقوقس الصلح عنهم كما صالحه على القبط على أن يستنظر رأى الملك، فحدّثنا يزيد بن أبى حبيب: أنّ المقوقس الرومى الذى كان ملكا على مصر صالح عمرو بن العاص، على أن يسير من أراد من الروم المسير، و يقرّ من أراد من الروم على أمر قد سماه، فبلغ ذلك هرقل ملك الروم، فسخط أشد السخط، و أنكر أشدّ الإنكار، و بعث الجيوش، فأغلقوا أبواب الإسكندرية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰۴

و آذنوا عمرا بالحرب، فخرج إليه المقوقس، فقال: أسألك ثلاثا، قال: ما هنّ؟ قال:

لا تبذل للروم ما بذلت لى، فإنى قد نصحت لهم، فاستغشونى. و لا تنقض القبط، فإنّ النقض لم يأت من قبلهم، و أن تأمر بى إذا متّ فادفنى فى بخنس، فقال عمرو: هذه أهونهنّ علينا، قال: فخرج عمرو بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، و خرج معه جماعة من رؤساء القبط، و قد أصلحوا لهم الطرق، و أقاموا لهم الجسور و الأسواق، و صارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم، و سمعت بذلك الروم فاستعدّت و استجاشت، و قدمت عليهم مراكب من أرض الروم فيها جمع عظيم من الروم بالعدّة و السلاح، فخرج إليهم عمرو من الفسطاط، متوجها إلى الإسكندرية، فلم ير منهم أحدا حتى بلغ مربوط، فلقى فيها طائفة من الروم، فقاتلهم قتالا خفيفا، فهزمهم اللّه، و مضى عمرو بمن معه حتى لقى جمع الروم بكوم شريك، فاقتتلوا ثلاثة أيام، ثم فتح اللّه على المسلمين و ولى الروم

أكتافهم.

و يقال: بل أرسل عمرو بن العاص، شريك بن سمىّ فى آثارهم، فأدركهم عند الكوم الذى يقال له: كوم شريك، فهزمهم، و كان على مقدّمة عمرو، و عمرو بمربوط، فألجأوه إلى الكوم، فاعتصم به، و أحاطت به الروم، فلما رأى ذلك شريك بن سمىّ، أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفىّ، و هو صاحب الفرس الأشقر الذى يقال له: أشقر صدف، و كان لا يجارى سرعة، فانحط عليهم من الكوم، و طلبته الروم، فلم تدركه حتى أتى عمرا، فأخبره، فأقبل عمرو متوجها، و سمعت به الروم، فانصرفت، ثم التقوا بسلطيس، فاقتتلوا قتالا شديدا، ثم هزمهم اللّه تعالى، ثم التقوا بالكريون، فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما، و كان عبد اللّه بن عمرو، على المقدّمة، و حامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو، فأصابت عبد اللّه بن عمرو جراحات كثيرة، فقال: يا وردان لو تقهقرت قليلا نصيب الروم، فقال وردان:

الروم تريد الروح أمامك و ليس خلفك، فتقدّم عبد اللّه، فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال:

أقول لها إذا جشأت و جاشت‌رويدك تحمدى أو تستريحى

و هذا البيت لعمرو بن الإطنابة، و هو أنّ رجلا- من بنى النجار كان مجاورا لمعاذ بن النعمان، فقتل، فقال معاذ: لا أقتل به إلا عمرو بن الإطنابة، و هو يومئذ أشرف الخزرج، فقال عمرو:

ألا من مبلغ الأكفاء عنى‌و قد تهدى النصيحة للنصيح

بأنكم و ما تزجون شطرى‌من القول المرغى و الصريح

سيقدم بعضكم عجلا عليه‌و ما أثر اللسان إلى الجروح

أبت لى عفتى و أبى بلائى‌و أخذى الحمد بالثمن الربيح

و إعطائى على المكروه مالى‌و إقدامى على البطل المشيح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰۵ و قولى كلما جشأت و جاشت‌مكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفع عن مآثر صالحات‌و أحمى بعد عن عرض صحيح

بذى شطب كلون الملح صاف‌و نفس لم تقرّ على القبيح

الشطب: سعف النخل الأخضر، الواحدة شطبة، و جشأت: ارتفعت من حزن أو فزع، و جاشت: دارت للغثيان، و قيل: هما بمعنى ارتفع، و المشيح: البارد المنكمش.

فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال، فقال عمرو: هو ابنى حقا، و صلى عمرو يومئذ صلاة الخوف، ثم فتح اللّه للمسلمين، و قتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، و اتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية، فتحصن بها الروم، و كان عليها حصون متينة لا ترام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون و معهم رؤساء القبط يمدّونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة و العلوفة، فأقاموا شهرين ثم تحوّل، فخرجت عليه خيل من ناحية البحيرة مستترة بالحصن، فواقعوه، فقتل يومئذ من المسلمين، اثنا عشر رجلا- و رسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية فى المراكب بمادة الروم.

و كان ملك الروم يقول: لئن ظهرت العرب على الإسكندرية ففى ذلك انقطاع الروم و هلا-كهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، و إنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية، فقال الملك: لئن غلبونا على الإسكندرية، هلكت الروم، و انقطع ملكها، فأمر بجهازه و مصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه، فلما فرغ من جهازه صرعه اللّه عز و جل، فأماته و كفى المسلمين مؤنته، و كان موته فى سنة تسع عشرة، فكسر اللّه بموته شوكة الروم، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه.

و قال الليث: مات هرقل فى سنة عشرين، و فيها فتحت قيسارية الشام. قال:

و استأسدت العرب عند ذلك، و ألحت بالقتال على أهل الإسكندرية، فقاتلوهم قتالا شديدا، و خرج طرف من الروم من باب حصن الإسكندرية، فحملوا على الناس، فقتلوا رجلا من مهرة و احتزوا رأسه، و مضوا به، فجعل المهريون يتغضبون، و يقولون: لا ندفنه إلا برأسه، فقال عمرو: تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم، احملوا على القوم إذا خرجوا، فاقتلوا منهم رجلا- ثم ارموا برأسه، يرمونكم برأس صاحبكم، فخرجت الروم إليهم فاقتتلوا، فقتل من الروم رجل من بطارقتهم، فاحتزوا رأسه، و رموا به الروم، فرمت الروم برأس المهرى إليهم، فقال: دونكم الآن فادفنوا صاحبكم.

و كان عمرو يقول: ثلاث قبائل من مصر، أما مهرة فقوم يقتلون و لا يقتلون، و أما عافق فقوم يقتلون و لا يقتلون، و أما بلى فأكثرها رجلا- صحب النبيّ صلى اللّه عليه و سلم، و أفضلها فارسا. و قال رجل لعمرو: لو جعلت المنجنيق و رميتهم به لهدم حائطهم، فقال عمرو:

تستطيع أن يفنى مقامك من الصف، و قيل له: إنّ العدوّ قد غشوك و نحن نخاف على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰۶

رايطة يريدون امرأته، فقال: إذا يتخذوا أرياطا كثيرة.

و لما استجرّ القتال، بارز رجل من الروم، مسلمة بن مخلد، فصرعه الرومىّ، و ألقاه عن فرسه، و هوى إليه ليقتله، حتى حماه رجل من أصحابه، و كان مسلمة لا يقاوم، و لكنها مقادير، ففرحت بذلك الروم و شق على المسلمين، و غضب عمرو بن العاص لذلك، و كان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن، فقال عمرو عند ذلك: ما بال الرجل السته الذى يشبه النساء يتعرّض مداخل الرجال، و يتشبه بهم، فغضب من ذلك مسلمة، و لم يراجعه، ثم اشتدّ القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية، فقاتلهم العرب فى الحصن، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعا من الحصن إلا- أربعة نفر تفرّقوا فى الحصن، و أغلقوا عليهم باب الحصن، أحدهم: عمرو بن العاص، و الآخر مسلمة، و لم نحفظ الآخرين، و حالوا بينهم و بين أصحابهم، و لا- يدرى الروم من هم، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص و أصحابه التجأوا إلى ديماس من حماماتهم، فدخلوا فيه، فاحترزوا به، فأمروا روميا أن يكلمهم بالعربية، فقال لهم: إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى، فاستأسروا، و لا تقتلوا أنفسكم فامتنعوا عليه، ثم قال لهم: إنّ فى أيدى أصحابكم منا رجالا أسروهم، و نحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا، و لا- نقتلكم، فأبوا عليه، فلما رأى ذلك الرومىّ منهم قال لهم: هل لكم إلى خصلة، و هى نصف فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا، و أمكنتمونا من أنفسكم، و إن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم، فرضوا بذلك، و تعاهدوا عليه، و عمرو و مسلمة و صاحباهما فى الحصن فى الديماس، فتداعوا إلى البراز فبرز رجل من الروم، و قد وثقت الروم بنجدته و شدّته، و قالوا: يبرز رجل منكم لصاحبنا، فأراد عمرو أن يبرز، فمنعه مسلمة، و قال: ما هذا تخطىء مرّتين تشذ من أصحابك، و أنت أمير، و إنما قوامهم بك، و قلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك، و لا ترضى حتى تبارز و تتعرّض للقتل، فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك مكانك، و أنا أكفيك إن شاء اللّه تعالى، فقال عمرو: دونك فربما فرّجها اللّه بك، فبرز مسلمة للرومىّ، فتجاولا ساعة، ثم أعانه اللّه عليه، فقتله. فكرّ مسلمة و أصحابه و وفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه، ففتحوا لهم باب الحصن، فخرجوا و لا يدرى الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك، فأسفوا على ذلك، و أكلوا أيديهم تغيظا على ما فاتهم، فلما خرجوا استحيى عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب، فقال عمرو عند ذلك: استغفر لى ما كنت قلت لك، فاستغفر له، و قال عمرو: ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار: مرّتين فى الجاهلية، و هذه الثالثة، و ما منهنّ مرّة إلا و قد ندمت، و ما استحييت من واحدة منهنّ أشدّ مما استحييت مما قلت لك، و و اللّه إنى لأرجو أن لا أعود إلى الرابعة ما بقيت، قال: و أقام عمرو محاصر الإسكندرية أشهرا، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، قال: ما أبطأوا بالفتح إلا لما أحدثوا، و كتب إلى عمرو بن العاص: أمّا بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنين و ما ذاك إلا لما أحدثتم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰۷

و أحببتم من الدنيا ما أحب عدوّكم، فإنّ اللّه تبارك و تعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم، و قد كنت وجهت إليك أربعة نفر، و أعلمتك أن الرجل منهم مقاوم ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكونوا غيّرهم ما غيّر غيرهم، فإذا أتاك كتابى هذا فاخطب الناس، و حضهم على قتال عدوّهم، و رغبهم فى الصبر و النية، و قدّم أولئك الأربعة فى صدور الناس و مر الناس جميعا أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد، و ليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة، و وقت الإجابة و ليعجّ الناس إلى اللّه، و يسألوه النصر على عدوّهم، فلما أتى عمرو بن العاص رضى اللّه عنه الكتاب، جمع الناس و قرأ عليهم كتاب عمر رضى اللّه عنه، ثم دعا أولئك النفر فقدّمهم أمام الناس، و أمر الناس أن يتطهروا، و يصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى اللّه تعالى و يسألوه النصر، ففعلوا، ففتح اللّه عليهم.

و يقال: إنّ عمرو بن العاص استشار مسلمة، فقال: أشر علىّ فى قتال هؤلاء، فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة و تجارب من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فتعقد له على الناس، فيكون هو الذى يباشر القتال و يكفيكه، فقال عمرو: من ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت، فدعاه عمرو فأتاه و هو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت ناولنى سنان رمحك، فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه، و عقد له، و ولاه قتال الروم، فتقدّم عبادة مكانه، فصادف الروم و قاتلهم، ففتح اللّه على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.

و كان حصار الإسكندرية بعد موت هرقل، تسعة أشهر و خمسة أشهر قبل ذلك، و فتحت يوم الجمعة لمستهل المحرّم سنة إحدى و عشرين، و قال أبو عمرو الكندى: و حاصر عمرو الإسكندرية ثلاثة أشهر، ثم فتحها عنوة و هو الفتح الأوّل، و يقال: بل فتحها عمرو لمستهل المحرّم سنة إحدى و عشرين.

قال القضاعىّ عن الليث: أقام عمرو بالإسكندرية فى حصارها، و فتحها ستة أشهر، ثم انتقل إلى الفسطاط، فاتخذها دارا فى ذى القعدة.

و قال ابن عبد الحكم: فلما هزم اللّه تعالى الروم، و فتح الإسكندرية، هرب الروم فى البرّ و البحر، فخلف عمرو بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه و مضى و من معه فى طلب من هرب من الروم فى البرّ، فرجع من كان هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلّا من هرب منهم، و بلغ ذلك عمرا، فكرّ راجعا، ففتحها، و أقام بها و كتب إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: قد فتح علينا الإسكندرية بغير عقد و لا عهد، فكتب إليه عمرو رضى اللّه عنه يقبح رأيه، و يأمره أن لا يجاوزها. قال ابن لهيعة: و هو فتح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۰۸

الإسكندرية الثانى، و كان سبب فتحها هذا: أنّ رجلا يقال له: ابن بسامة كان بوّابا، فسأل عمرا أن يؤمّنه على نفسه و أرضه و أهل بيته، و يفتح له الباب، فأجابه عمرو إلى ذلك، ففتح له ابن بسامة الباب، فدخل عمرو و قتل من المسلمين من حين كان من آمر الإسكندرية ما كان إلى أن فتحت اثنان و عشرون رجلا، و بعث عمرو بن العاص، معاوية بن خديج وافدا إلى عمر بن الخطاب بشيرا له بالفتح، فقال له معاوية: ألا تكتب معى، فقال له عمرو:

و ما أصنع بالكتاب أ لست رجلا عربيا تبلغ الرسالة، و ما رأيت و حضرت.

فلما قدم على عمر، أخبره بفتح الإسكندرية فخرّ عمر ساجدا، و قال: الحمد للّه، و قال معاوية بن خديج: بعثنى عمرو بن العاص إلى عمر رضى اللّه عنه بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة فى الظهيرة، فأنخت راحلتى بباب المسجد ثم دخلت المسجد، فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فرأتنى شاحبا علىّ ثياب السفر، فأتتنى، و قالت: من أنت؟ فقلت: أنا معاوية بن خديج، رسول عمرو بن العاص، فانصرفت عنى، ثم أقبلت تشدّ أسمع حفيف إزارها على ساقها، حتى دنت منى، ثم قالت:

قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك، فتبعتها، فلما دخلت فإذا بعمر يتناول رداءه بإحدى يديه، و يشدّ إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك؟

فقلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح اللّه الإسكندرية فخرج معى إلى المسجد، فقال للمؤذن: أذن فى الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، ثم قال لى: قم فأخبر أصحابك، فقمت فأخبرتهم ثم صلى و دخل منزله، و استقبل القبلة، فدعا بدعوات، ثم جلس، فقال: يا جارية! هل من طعام؟ فأتت بخبز و زيت، فقال: كل، فأكلت حياء، ثم قال: كل، فإنّ المسافر يحب الطعام فلو كنت آكلا لأكلت معك، فأصبت على حياء، ثم قال: يا جارية! هل من تمر؟ فأتت بتمر فى طبق، فقال: كل، فأكلت على حياء، ثم قال: ما ذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت: أمير المؤمنين قائل، قال:

بئس ما قلت، أو بئس ما ظننت لئن نمت النهار لأضيعنّ الرعية، و لئن نمت الليل لأضيعنّ نفسى، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية.

ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك إلى عمر بن الخطاب: أمّا بعد! فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية، بأربعة آلاف حمام، و أربعين ألف يهودىّ، عليهم الجزية، و أربعمائة ملهى للملوك.

و عن أبى قبيل: أنّ عمرا لما فتح الإسكندرية وجد فيها: اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر، و ترحل من الإسكندرية فى الليلة التى دخلها عمرو، و فى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو، سبعون ألف يهودىّ.

و كان بالإسكندرية فيما أحصى من الحمامات: اثنا عشر ألف ديماس، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس، كل مجلس يسع جماعة نفر، و كان عدّة من بالإسكندرية من الروم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۰۹

مائتى ألف رجل، فلحق بأرض الروم أهل القوّة و ركبوا السفن، و كان بها مائة مركب من المراكب الكبار، فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال و المتاع و الأهل، و بقى من بقى من الأسارى من بلغ الخراج، فأحصى يومئذ ستمائة ألف، سوى النساء و الصبيان، فاختلف الناس على عمرو فى قسمها، فكان أكثر الناس يريدون قسمها، فقال عمرو: لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه يعلمه بفتحها و شأنها، و يعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها، فكتب إليه عمر: لا تقسمها و ذرها يكون خراجها فيئا للمسلمين، و قوّة لهم على جهاد عدوّهم، فأقرّها عمرو، و أحصى أهلها، و فرض عليهم الخراج، فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين على كل رجل، لا يزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض و الزرع إلا الإسكندرية، فإنهم كانوا يؤدّون الخراج و الجزية على قدر ما يرى من وليهم لأنّ الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد و لا عقد، و لم يكن لهم صلح و لا ذمّة.

و قد كانت قرى من قرى مصر قاتلت، فسبوا منها قرية يقال لها: بلهيب، و قرية يقال لها: الخيس، و قرية يقال لها: سلطيس، فوقع سباياهم بالمدينة و غيرها، فردّهم عمر بن الخطاب إلى قراهم، و صيرهم و جماعة القبط أهل ذمّة.

و عن يزيد بن أبى حبيب: أنّ عمرا سبى أهل بلهيب، و سلطيس، و قرطيا و سخا، فتفرّقوا، و بلغ أوّلهم المدينة حين نقضوا، ثم كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بردّهم، فردّ من وج منهم، و فى رواية: إنّ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كتب فى أهل سلطيس خاصة من كان منهم فى أيديكم، فخيروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين له مالهم، و عليه ما عليهم، و إن اختار دينه، فخلوا بينه و بين قريته، فكان البلهيبى، خير يومئذ، فاختار الإسلام.

و فى رواية: إنّ أهل سلطيس، وصا، و بلهيب، ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم، فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم، و قالوا: هؤلاء لنا فيء مع الإسكندرية، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: أن تجعل الإسكندرية و هؤلاء الثلاث قريات، ذمّة للمسلمين، و تضرب عليهم الخراج، و يكون خراجهم، و ما صالح عليه القبط، قوّة للمسلمين على عدوّهم، و لا يجعلون فيئا و لا عبيدا، ففعل ذلك.

و يقال: إنما ردّهم عمر رضى اللّه عنه، لعهد كان تقدّم لهم. و قال ابن لهيعة: جبى عمرو جزية الإسكندرية ستمائة ألف دينار، لأنه وجد ثلثمائة ألف من أهل الذمّة، فقدّر عليهم دينارين دينارين، فبلغت ذلك، و قيل: كانت جزية الإسكندرية ثمانية عشر ألف دينار،

فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك، بلغت ستة و ثلاثين ألف دينار، و يقال: إنّ عمرو بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۱۰

العاص، استبقى أهل الإسكندرية، فلم يقتل و لم يسب، بل جعلهم ذمّة كأهل النوبة.

ذكر ما كان من فعل المسلمين بالإسكندرية و انتقاض الروم

قال ابن عبد الحكم: فأمّا الإسكندرية فلم يكن بها خطط، و إنما كانت أخائذ، من أخذ منزلا نزل فيه هو و بنو أبيه، و إنّ عمرو بن العاص، لما فتح الإسكندرية، أقبل هو و عبادة بن الصامت، حتى علوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص، فقال معاوية بن خديج: ننزل، فنزل عمرو القصر، و نزل أبو ذر منزلا كان غربىّ المصلى الذى عند مسجد عمرو، مما يلى البحر، و قد انهدم، و نزل معاوية بن خديج فوق التل، و ضرب عبادة بن الصامت خباءه فلم يزل فيه حتى خرج من الإسكندرية.

و يقال: إنّ أبا الدرداء كان معه، و اللّه أعلم. قال: فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الناس، و ربعا فى السواحل، و النصف مقيمون معه، و كان يصير بالإسكندرية خاصة الربع فى الصيف، بقدر ستة أشهر، و يعقب بعدهم شاتية ستة أشهر، و كان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه، و اتخذوا فيه أخائذ.

و عن يزيد بن أبى حبيب: أن المسلمين لما سكنوا الإسكندرية فى رباطهم، ثم قفلوا، ثم غزوا ابتدروا، فكان الرجل منهم يأتى المنزل الذى كان فيه صاحبه قبل ذلك، فيبتدره فيسكنه، فلما غزوا قال عمرو: إنى أخاف أن تخرّبوا المنازل إذا كنتم تتعاورونها، فلما كان عند الكريون قال لهم: سيروا على بركة اللّه، فمن ركز منكم رمحه فى دار فهى له، و لبنى بنيه، فكان الرجل يدخل الدار، فيركز رمحه فى منزل منها، ثم يأتى الآخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار، فكانت الدار تكون لقبيلتين و ثلاث، و كانوا يسكنونها حتى إذا قفلوا سكنها الروم، و عليهم مرمّتها، و كان يزيد بن أبى حبيب يقول: لا يحلّ من كرائها شىء، و لا بيعها و لا يورث منها شىء، إنما كانت لهم يسنونها فى رباطهم.

و عن يزيد بن أبى حبيب: أنّ عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية، و رأى بيوتها و بناءها مفروغا منها، همّ أن يسكنها، و قال: مساكن قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، يستأذنه فى ذلك، فسأل عمر الرسول: هل يحول بينى و بين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو: إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى و بينهم شتاء و لا صيفا، فتحوّل عمرو بن العاص إلى الفسطاط، و قال: و كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص، و هو نازل بمدائن كسرى، و إلى عامله بالبصرة، و إلى عمرو بن العاص، و هو نازل بالإسكندرية أن لا- تجعلوا بينى و بينكم ماء، متى ما أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم، قدمت، فتحوّل سعد بن أبى وقاص من مدائن كسرى إلى الكوفة، و تحوّل صاحب البصرة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۱۱

المكان الذى كان فيه، فنزل البصرة، و تحوّل عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط، و كان عمر بن الخطاب يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية، و كان على الولاء لا يغفلها، و يكنف مرابطها، و لا يأمن الروم عليها.

و كتب عثمان رضى اللّه عنه إلى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح: قد علمت كيف كان همّ أمير المؤمنين بالإسكندرية، و قد نقضت الروم مرّتين، فألزم الإسكندرية مرابطيها، ثم أجر عليهم أرزاقهم، و أعقب بينهم فى كل ستة أشهر، قال: و كانت الإسكندرية انتقضت، و جاءت الروم عليهم، منويل الخصىّ فى المراكب، حتى أرسوا بالإسكندرية، فأجابهم من بها من الروم، و لم يكن المقوقس تحرّك و نكث، و قد كان عثمان رضى اللّه عنه، عزل عمرو بن العاص، و ولى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، فلما نزلت الروم، سأل أهل مصر، عثمان أن يقرّ عمرا حتى يفرغ من قتال الروم، فإنّ له معرفة بالحرب و هيبة فى العدوّ، ففعل.

و كان على الإسكندرية سورها، فحلف عمرو بن العاص: لئن أظفره اللّه عليهم ليهدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من

كل مكان، فخرج إليهم عمرو فى البرّ و البحر، فضموا إلى المقوقس من أطاعه من القبط، و أمّا الروم فلم يطعه منهم أحد، فقال خارجة بن حذافة لعمرو: ناهضهم قبل أن يكثر مددهم، فلا آمن أن تنتقض مصر كلها، فقال عمرو:

لا، و لكن أدعهم حتى يسيروا إلىّ فإنهم يصيبون من مرّوا به، فيخزى اللّه بعضهم ببعض، فخرجوا من الإسكندرية و معهم من نقض من أهل القرى، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها، و يأكلون أطعمتها، و ينتهبون ما مرّوا به، فلم يتعرّض لهم عمرو، حتى بلغوا نفيوس، فلقوهم فى البرّ و البحر، فبدأت الروم القبط، فرموا بالنشاب فى الماء رميا شديدا، حتى أصابت النشاب يومئذ فرس عمرو فى لبته، و هو فى البرّ، فعقر فنزل عنه عمرو، ثم خرجوا من البحر، فاجتمعوا هم و الذين فى البرّ، فنفحوا المسلمين بالنشاب، فاستأخر المسلمون عنهم شيئا، و حملوا على المسلمين حملة ولى المسلمون منها، و انهزم شريك بن سمىّ فى خيله، و كانت الروم قد جعلت صفوفا خلف صفوف، و برز يومئذ بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب، فدعا إلى البراز، فبرز إليه رجل من زبيد يقال له: حومل، يكنى: أبا مذحج، فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح، و أخذ السيف، فألقى حومل رمحه، و أخذ سيفه، و كان يعرف بالنجدة، فجعل عمرو يصيح: أبا مذحج، فيجيبه: لبيك، و الناس على شاطىء النيل فى البرّ على تعبيتهم و صفوفهم، فتجاولا ساعة بالسيف، ثم حمل عليه البطريق، فاحتمله، و كان نحيفا فاخترط حومل خنجرا، كان فى منطقته أو فى ذراعه، فضرب به نحر العلج أو ترقوته، فأثبته و وقع عليه، فأخذ سلبه، ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمه اللّه، فرؤى عمرو يحمل سريره بين عمودى نعشه حتى دفنه بالمقطم، ثم شدّ المسلمون عليهم، فكانت هزيمتهم، فطلبهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۱۲

المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح اللّه عليهم، و قتل منويل الخصى، و قتلهم عمرو حتى أمعن فى مدينتهم، فكلم فى ذلك، فأمر برفع السيف عنهم، و بنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا، و هو المسجد الذى بالإسكندرية الذى يقال له:

مسجد الرحمة، سمى بذلك لرفع عمرو السيف هناك، و هدم سورها كله، و جمع ما أصاب منهم، فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض، فقالوا: قد كنا على صلحنا، و قد مرّ علينا هؤلاء اللصوص، فأخذوا متاعنا و دوابنا، و هو قائم فى يديك، فردّ عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه، و أقاموا عليه البينة، و قال بعضهم لعمرو: ما حلّ لك ما صنعت بنا، كان لنا أن تقاتل عنا لأنا فى ذمّتك، و لم ننقض، فأما من نقض، فأبعده اللّه، فندم عمرو و قال:

يا ليتنى كنت لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية.

و كان سبب نقض الإسكندرية هذا أن ظلما صاحب إخنا قدم على عمرو، فقال:

أخبرنا ما على أحدنا من الجزية، فيصير لها، فقال عمرو، و هو يشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتنى من الركن إلى السقف ما أخبرتك؟ إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، و إن خفف عنا خففنا عنكم، فغضب صاحب إخنا، و خرج إلى الروم فقدم بهم، فهزمهم اللّه تعالى، و أسر فأتى به إلى عمرو، فقال له الناس: اقتله، فقال: لا- بل انطلق، فجئنا بجيش آخر و سوّره و توجه و كساه برنس أرجوان، فرضى بأداء الجزية، فقيل له: لو أتيت ملك الروم، فقال: لو أتيته لقتلنى، و قال: قتلت أصحابى، و عن أبى قبيل: أن عتبة بن أبى سفيان عقد لعلقمة القطيفىّ على الإسكندرية، و بعث معه اثنى عشر ألفا فكتب علقمة إلى معاوية بن أبى سفيان، يشكو عتبة حين غرّر به، و بمن معه، فكتب إليه معاوية: إنى قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام، و بخمسة آلاف من أهل المدينة، فكان فى الإسكندرية سبعة و عشرون ألفا، و فى رواية: أن علقمة بن يزيد كان على الإسكندرية، و معه اثنا عشر ألفا، فكتب إلى معاوية: إنك خلفتنى بالإسكندرية، و ليس معى إلا اثنا عشر ألفا ما يكاد بعضنا يرى بعضا من القلة، فكتب إليه معاوية: إنى قد أمددتك بعبد اللّه بن مطيع فى أربعة آلاف من أهل المدينة، و أمرت معن بن يزيد السلمىّ أن يكون بالرملة فى أربعة آلاف مسكين بأعنة خيولهم متى بلغهم عنك فزع، يعبروا إليك. قال ابن لهيعة: و قد كان عمرو بن العاص يقول: ولاية مصر جامعة، تعدل الخلافة.

و كان عمرو حين توجه إلى الإسكندرية، خرّب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان.

و اختلف علينا السبب الذى خربت له، فحدّثنا سعيد بن عفير: أنّ عمرا لما توجه إلى نفيوس، لقتال الروم، عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح، فاختطفه أهل الخربة، فغيبوه، ففقده عمرو، و سأل عنه وقفا أثره، فوجدوه فى بعض دورهم، فأمر بإخرابها و إخراجهم منها، و قيل: كان أهل الخربة رهبانا كلهم، فغدروا بقوم من ساقة عمرو، فقتلوهم بعد أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۱۳

بلغ عمرو الكريون، فأقام عمرو و وجه إليهم وردان، فقتلهم و خرّبها فهى خراب إلى اليوم، و قيل: كان أهل الخربة، أهل تويت، و خبت، فأرسل عمرو إلى أرضهم، فأخذ له منها جراب فيه تراب من ترابها، فكلمهم فلم يجيبوه إلى شىء، فأمر بإخراجهم، ثم أمر بالتراب ففرش تحت مصلاه، ثم قعد عليه، ثم دعاهم، فكلمهم، فأجابوه إلى ما أحبّ، ثم أمر بالتراب فرفع، ثم دعاهم فلم يجيبوه إلى شىء، فعل ذلك مرارا، فلما رأى عمرو ذلك، قال: هذه بلدة لا يصلح أن توطأ، فأمر بإخرابها، فلما هزم اللّه الروم، أراد عثمان رضى اللّه عنه، أن يكون عمرو بن العاص على الحرب، و عبد اللّه بن سعد على الخراج، فقال عمرو:

إنا إذا كماسك البقرة بقرنيها، و آخر يحلبها؛ فأبى عمرو، و كان فتح عمرو هذا عنوة قسرا فى خلافة عثمان سنة خمس و عشرين، و بينه و بين الفتح الأوّل أربع سنين. و قال الليث: كان فتح الإسكندرية الأوّل سنة اثنتين و عشرين، و كان فتحها الآخر خمسة و عشرين. و أقامت الجيش من السماء يقاتلون الناس سبع سنين بعد أن فتحت مصر مما يفتحون عليهم من تلك المياه و الغياض، قال: ثم غزا عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، ذا الصوارى، فى سنة أربع و ثلاثين.

و كان من حديث هذه الغزوة: أنّ عبد اللّه بن سعد لما نزل ذو الصوارى أنزل نصف الناس، مع بسر بن أرطاة فى البرّ، فلما مضوا أتى آت إلى عبد اللّه بن سعد فقال: ما كنت فاعلا- حين ينزل بك ابن هرقل فى ألف مركب فافعله الساعة، و كانت مراكب المسلمين مائتى مركب و نيفا، فقام عبد اللّه بن سعد بين ظهرانى الناس، فقال: بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل إليكم فى ألف مركب فأشيروا علىّ، فما كلمه رجل من المسلمين، فجلس قليلا لترجع إليهم أفئدتهم، ثم قام الثانية، فكلمهم فما كلمه أحد، فجلس. ثم قام الثالثة، فقال:

إنه لم يبق شىء فأشيروا علىّ، فقام رجل من أهل المدينة، كان متطوّعا مع عبد اللّه بن سعد، فقال: أيها الأمير، إنّ اللّه جلّ ثناؤه يقول: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة/ ۲۴۹]، فقال عبد اللّه: اركبوا، فركبوا، و إنما فى كل مركب نصف شحنته، لأنه قد خرج النصف الآخر إلى البرّ مع بسر، فلقوهم، فاقتتلوا بالنبل و النشاب، و تأخر ابن هرقل، لئلاتصيبه الهزيمة، و جعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار، فقال:

ما فعلوا؟ قالوا: قد اقتتلوا بالنبل و النشاب، فقال: غلبت الروم، ثم أتوه فقال: ما فعلوا؟

قالوا: قد نفد النبل و النشاب فهم يرمون بالحجارة، فقال: غلبت الروم، ثم أتوه فقال:

ما فعلوا؟ قالوا: قد نفدت الحجارة، و ربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف، قال: غلبت الروم، و كانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال، قال: فقرن مركب عبد اللّه يومئذ و هو الأمير بمركب من مراكب العدوّ، فكان مركب العدوّ يجترّ مركب عبد اللّه إليهم، فقام علقمة بن يزيد القطيفىّ، و كان مع عبد اللّه بن سعد فى المركب، فضرب السلسلة بسيفه، فقطعها فسأل عبد اللّه امرأته بعد ذلك، بسيسة ابنة حمزة بن يشرح، و كانت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۱۴

مع عبد اللّه يومئذ، و كان الناس يغزون بنسائهم فى المراكب: من رأيت أشدّ قتالا؟ قالت علقمة: صاحب السلسلة، و كان عبد اللّه قد خطب بسيسة إلى أبيها، فقال له: إن علقمة قد خطبها، و له علىّ فيها رأى، فإن تركها أفعل، فكلم عبد اللّه علقمة، فتركها، فتزوّجها عبد اللّه بن سعد، ثم هلك عنها عبد اللّه، فتزوّجها بعده علقمة بن زيد، ثم هلك عنها علقمة، فتزوّجها بعده كريب بن أبرهة، و ماتت تحته. و قيل: مشت الروم إلى قسطنطين ابن هرقل فى سنة خمس و ثلاثين، فقالوا: أ نترك الإسكندرية فى أيدى العرب و هى مدينتنا الكبرى؟ فقال: ما أصنع بكم ما تقدرون أن تمالكوا ساعة إذا لقيتم العرب، قالوا: اخرج على أنا نموت، فتبايعوا على ذلك، فخرج فى

ألف مركب يريد الإسكندرية، فسار فى أيام غالبة الرياح، فبعث اللّه عليهم ريحا فغرّقهم إلا قسطنطين فإنه نجا بمركبه، فألقته الريح بصقلية، فسألوه عن أمره فأخبرهم، فقالوا: شتّت النصرانية، و أفنيت رجالها لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردّهم، فقال: خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا، فصنعوا له الحمام، و دخلوا عليه فقال: ويلكم يذهب رجالكم، و تقتلون ملككم؟ قالوا: كأنه غرق معهم، ثم قتلوه و خلوا من كان معه فى المركب. قال أبو عمرو الكندىّ: و إنما سميت غزوة ذى الصوارى لكثرة صوارى المراكب و اجتماعها.

ذكر بحيرة الإسكندرية

قال ابن عبد الحكم: كانت بحيرة الإسكندرية كروما كلها لامرأة المقوقس، فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم، فكثر الخمر عليها، حتى ضاقت به ذرعا، فقالت: لا حاجة لى فى الخمر، أعطونى دنانير، فقالوا: ليس عندنا، فأرسلت إليهم الماء، فغرّقتها فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان حتى استخرجها الخلفاء من بنى العباس، فسدّوا جسورها و زرعوها، ثم صارت بحيرة طولها إقلاع يوم فى عرض يوم، و يصير إليها الماء من أشتوم فى البحر الرومىّ، و يخرج منها إلى بحيرة دونها فى خليج عليه مدينتان: إحداهما الحدبة، و الأخرى اتكو، و هى كثيرة المقاثى و النخل، و كلها فى الرمل و يصب فى هذه البحيرة خليج من النيل يسمى: الحافر، طوله نصف يوم أقلاعا، و هو كثير الطير و السمك و العشب، و كان السمك بوجود هذه البحيرة فى الإسكندرية غاية فى الكثرة، يباع بأقلّ القيم، و أبخس الأثمان، ثم انقطع الماء عن هذه البحيرة منذ.

ذكر خليج الإسكندرية

يقال: إن كلوباطرة الملكة، هى التى ساقت خليج الإسكندرية حتى أدخلته إليها، و لم يكن يبلغها الماء، فحفرته حتى أدخلته الإسكندرية، و بلطت قاعه بالرخام من أوّله إلى آخره، و لم يزل يوجد ذلك فيه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۱۵

و قال أبو الحسن المخزومى فى كتاب المنهاج: أمّا خليج الإسكندرية فإنه من فوهة الخليج إلى ترعة بودرة ليس على شىء منها سدّ بمخرج محلة تبوك اسينة أورين محلة، فرنو محلة، حسن منية طراد، و تعرف بالقاعة محلتا نصر و مسروق، فأمّا ترعة لقانة فإنها تفتح بعد سبعة أيام من توت، و الترعة الجديدة تفتح فى السادس عشر من توت، و ترعة بودرة تفتح بعد سبعة أيام من توت، و ترعة بو يحيى، و ترعة بو السحما، و ترعة القهوقية ليس على شىء من ذلك سدّ، و ترعة الشراك تفتح بعد سبعة أيام من توت، و ترعة بو خراشة، و ترعة البربيط يشرب منها ديسو و سمخراط، و شيرنوبة، و منية حماد، و سنادة، و بعض محلة مارية، و ترعة فيشة بلخا تفتح فى ثانى عشر توت، و جرت العادة أن تفتح فى النوروز، ترعة بويط، و مقطع سمديسة يفتح فى الثانى و العشرين من توت، و مقطع ياطس يفتح فى تاسع عشر توت، و لما سدّ المقطع المذكور عملت بعد ذلك ترعة تروى الصفقة القبلية منها، فتفتح فى يوم النوروز، و لما استحدثت ترعة أفلاقة، و خرجت فى أرض ياطس جرت العادة إذا رويت الصفقة القبلية من أفلاقة، تطلق الترعة المذكورة على القسم البحرىّ من ياطس إلى أن يروى، و ترعة القارورة محدثة، و ترعة بفوها تفتح فى ثانى عشر توت، و ترعة افلاقة تفتح فى عاشر توت، و ترعة اسكنيدة تفتح فى سادس توت.

تراع

بحر دمنهور تفتح فى العشرين من مسرى إلى سادس توت، و يروى منها بعض طاموس، و بعض كنيسة الغيط، و بعض قرطسا و دمنهور، ترعة القواديس منها تشرب شبرا النخلة، و كوم التلول، و تراع شبرا النخلة تفتح على أعاليها من أوّل توت، و ترعة بسطرى تفتح فى خامس عشر مسرى، و ترعة مسيد تفتح فى ثامن توت، و ترعة سنتوية تفتح فى ثامن عشر توت، و بحر دمشوية يفتح فى

العشرين من مسرى، و منه تشرب منية رزقون و سفط كرداسة و دمشوية و محلة الشيخ و مصيل، و ترعة دمشوية تفتح فى تاسع توت و يقيم الماء عليها سبعة عشر يوما، و تفتح إلى محلة الشيخ و مصيل يقيم الماء عليها ثلاثين يوما، و يسدّ بعد ذلك على دمشوية سبعة أيام، و على سفط و منية رزقون، ترعة برسيق كانت تفتح فى أوّل توت.

محلة برسيق: ليس عليها سدّ.

محلة الكروم تفتح فى ثامن توت و منها تشرب عدّة أماكن و هى محلة الكروم و كفورها، و هى دنيسة، و كوم الولائد و كوم الصخرة و ديرامس و الصفاصف، و ما يخرج عن كفورها، و هى تلمسان و الجلمون من حقوق محلة كيل، و منها تشرب الجهة الغربية.

شبرابار ليس عليها سدّ و ترعة قافلة كانت تفتح فى ثامن توت، و ليس عليها الآن سدّ، و ترعة بلقطر و كفورها كانت تفتح فى تاسع توت، و ليس عليها الآن سدّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۱۶

ترعة الراهب ليس عليها سدّ، و ترعة دسونس المقاريضى تسقى الحلفاية و تفتح فى ثامن توت، و كذلك ترعة مرحنا و الملعقية، و ترعة نيلامة، و بيشاى، و آخر تراع الحجيجة، و ترعة الكريون تفتح فى ثامن توت، و ترعة السلقون كانت تفتح فى سادس توت، و ليس عليها الآن سدّ، و ترعة أرمياخ تفتح فى ثانى عشر توت، و ترعة ابلوق تفتح فى سادس توت، و أمّا جون رمسيس، فإنّ بحر رمسيس كان يضرب السدّ فيه على تراع رمسيس من أوّل النيل إلى سابع عشر توت، و الذى يشرب من السدّ المذكور من النواحى و الكفور رمسيس و محلة جعفر و فليشان، و بعض أبنية البعيدىّ، و بعض خربتا و بعض البلكوس، و بعض بولين و بعض محلة وافد و البيضاء، و بعض طيلاس، ثم يفتح سدّ دكدولة، و هو محدث يقيم الماء عليه عشرة أيام، و تشرب منه دكدولة، و محلة معن و منية أسامى و بعض صيفية، ثم يقطع سدّ الفطامى و هو محدث، و منه يشرب بعض جنبوية و بليانة البحرية و السرّة و أبو حمار و البهوط، ثم يقطع سدّ رسونس، و أبو دينار و ترعة طبرينة، فيشرب منه دنسال و طلموس يقيم الماء عليها ستة أيام، و منه تشرب منية عطية و سلطيس.

و أما

بحر دمنهور فإنه يسدّ على سلطيس إلى سابع عشر توت، و منه تشرب سلطيس و زهرا و بعض طابوس و بعض قرطسا و بعض كنيسة الغيط و دمنهور، ثم يقطع سدّ نديبة و هو محدث فيقيم ثمانية أيام و منه تشرب نديبة و دقرس و العميرية و النسرين، ثم يفتح و يسدّ على محلة خفض، و محلة كيل و محلة نمير، ثم يقطع سدّ سلطيس، و هو محدث فيقيم عشرة أيام بعد اختلاط الماءين ببحر دمنهور، و رمسيس، ثم يقطع جسر ملولة و منه تشرب تروجة و أرسيس و المراسى و غابة الأعساس و بعض سمرو، و محلة نمير، و يبقى هناك إلى انقضاء النيل.

و أمّا

ترعة طبرينة فهى محدثة و إذا رويت طبرينة تطلق على دسونس أمّ دينار، ثم تقطع على طاموس بمقدار ريّها ثم تطلق فى النيل العالى على أرض قراقس و يطلق الماء على قرطسا و كنيسة الغيط و خليج الطبرينة إذا خرج الماء منه يسقى منه فى أوّل النيل إلى أن يضرب جسر شبراوسيم، فيسقى منه شبراوسيم، و بعض البلكوس، و حفيرة الزعفرانى، و بعض بولين، و مسجد غانم و الصوّاف و كوم شريك و منية مغيين، و تل الفطامى و محلة وافد، ثم يقطع جسر دليجة، و منه يشرب بعض خربتا، و بعض فليشان و بعض بولين و البيضاء، و دنست و تلبانة الأبراج، و تل بقا و الحدّين و اليهودية، و النسوم، و أبو صمادة و الحصن و قلاوة بنى عبيد و طوخ دخاية و درشا و سقرا و دليجة و لمحة و طيبة، ثم يقطع على منية و زراقة الحجر و المحزون و بعض حيارس و افزيم و أبو سمار و أمّ الضروع.

خليج ابن زلوم و يعرف بخليج ابن ظلوم، و سدّ مخرج التعيدى لا يفتح إلى عشرة أيام من توت، و منه يشرب شابور و كنيسة مبارك و بعض سرسيقة و بعض دموشة و منية يزيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۱۷

و حوض الماصلى و حصة سلمون و بعض سنيت و بعض التعيدى و بعض فليشان، ثم يفتح فيشرب منه أمليط و بعض انباى و بعض كنيسة عبد الملك و بعض أرمنية و ميسنا و بعض محلة عبيد و سفط خالد و برنامة و شبرانوبة و كيمان شراس، و بعض دمشوه و تقام الحرّاس على جسر سفط، و يشرب من خليج الإسكندرية و ما يفيض منه أهل الباطن، و أهل البحيرة فى فجاج و أودية، فيكون ذلك الماء صلة و هم قبيل من دنانة و الرمحانة و بنى يزان، و قبائل البربر، و يزرعون عليه فيستوفى منهم الخراج و بين مشارق الفرما من ناحية جوجير و قاقوس و بين آخر ما يشرب من خليج الإسكندرية مسيرة شهر كان عامرا كله فى محلول و معقود إلى ما بعد الخمسين و ثلثمائة من سنى الهجرة، و قد خرب معظم ذلك.

و قال أبو بكر الطرطوسى عمن حدّثه من مشايخ البحر أنه قال: شاهدت الإسكندرية و الصيد فى الخليج: مطلق للرعية و السمك فيه يطفو الماء به كثرة، حتى تصيده الأطفال بالخرق، ثم حجره الوالى و منع الناس من صيده فذهب حتى كاد لا يرى فيه إلا الواحدة بعد الواحدة إلى يومنا هذا. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۱ ؛ ص۳۱۷

قال أبو عمرو الكندىّ فى كتاب الموالى عن الحارث بن مسكين: أنه تقلد قضاء مصر من قبل أمير المؤمنين الواثق بالله فى سنة تسع و ثلاثين و مائتين، فذكر سيرته و قال:

و حفر خليج الإسكندرية، و ورد الكتاب بصرفه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس و أربعين و مائتين.

و قال جامع السيرة الطولونية: و فى ربيع الأوّل سنة تسع و خمسين و مائتين أمر أحمد بن طولون بحفر خليج الإسكندرية.

و قال المسعودىّ: و قد كان النيل انقطع عن بلاد الإسكندرية قبل سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، و قد كان الإسكندر، بنى الإسكندرية على هذا الخليج من النيل و كان عليها معظم ماء النيل، فكان يسقى الإسكندرية، و بلاط مربوط، و كانت بلاد مربوط، فى نهاية العمارة و الجنان المتصلة بأرض برقة، و كانت السفن تجرى فى النيل و تتصل بأسواق الإسكندرية، و قد بلط أرض خليجها فى المدينة بالأحجار و المرمر و انقطع الماء عنها لعوارض سدّت خليجها، و منعت الناس دخوله، فصار شربهم من الآبار، و صار النيل على يوم منهم.

و ذكر المسبحىّ: أن الحاكم بأمر اللّه، أبا منصور بن العزيز، أطلق لحفر خليج الإسكندرية فى سنة أربع و أربعمائة، خمسة عشر ألف دينار، فحفر كله، و فى سنة اثنتين و ستين و ستمائة، بعث الملك الظاهر بيبرس، الأمير عليا أمير جاندار لحفر خليج الإسكندرية، و قد امتلأت فوهته بالطين، و قلّ الماء فى الإسكندرية فابتدأ بالحفر من التعيدى، و أنشأ هناك مسجدا و تولى مباشرة هذا الحفر، المعلم تعاسيف، ناظر الدواوين، ثم بعث السلطان فى سنة أربع و ستين و ستمائة لحفر هذا الخليج، الأمير علم الدين سنجر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۱۸

المسرورى، ثم سار بعامّة الأمراء و الأجناد و باشر الحفر بنفسه، و عمل فيه الأمراء، و جميع الناس إلى أن زالت الرمال التى كانت على الساحل بين التعيدى و فم الخليج، ثم عدّى إلى بار نبار، و غرّق مراكب هناك، و بنى عليها بالحجارة، فلما تم الغرض عاد إلى قلعة الجبل، ثم تعطل استمرار جريان الماء فيه بطول السنة، و صار يحفر سريعا بعد شهرين أو نحوهما من دخول الماء إليه، و احتاج أهل الإسكندرية فى طول السنة إلى الشرب من الصهاريج التى يخزن فيها الماء إلى أن كانت سنة عشر و سبعمائة، فقدم الأمير بدر الدين بكتوت الخزندارى المعروف بأمير شكار، متولى الإسكندرية إلى قلعة الجبل، و حسّن للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون حفره، و ذكر له ما فى ذلك من المنافع أوّلها حمل الغلال و أصناف المتجر إلى الإسكندرية فى المركب، و فى ذلك توفير للكلف و زيادة فى مال الديوان، و ثانيها عمارة ما على حافتى الخليج من الأراضى بإنشاء الضياع و السواقى، فينمو الخراج بهذا نموّا كثيرا، و ثالثها انتفاع الناس به فى عمارة بساتينهم، و شرب مائه دائما، فأعجب السلطان ذلك، و ندب الأمير بدر الدين محمد بن كندعدى بن الوزيرى مع بكتوت لعمله، و تقدّم إلى جميع أمراء الدولة بإخراج مباشريهم لإحضار رجال النواحى الجارية فى إقطاعاتهم العمل

للحفير، و كتب لولاة الأعمال بالوقوف فى العمل، فاجتمع من النواحى نحو الأربعين ألف رجل، جمعت فى نحو العشرين يوما، و وقع العمل فى شهر رجب من السنة المذكورة و أفرد لكل أهل ناحية قطعة يحفرونها حتى كمل، فجاء قياس الحفر، من فم بحر النيل إلى ناحية شنبار، ثمانية آلاف قصبة حاكمية، و من شنبار إلى الإسكندرية مثلها، و كان الخليج الأصلىّ يدخل الماء إليه، من حدّ شنبار، فجعل فم هذا البحر يرمى عليه، و عمل عمقه، ست قصبات فى عرض، ثمانى قصبات، فلما انتهوا إلى حدّ الخليج الأوّل حفر أيضا على نظير الخليج المستجدّ، فصارا بحرا واحدا، و ركبت عليه السدود، و القناطر، و وجد فى الخليج الأوّل عند حفره من الرصاص المبنىّ تحت الصهاريج شىء كثير جدّا، فلم يتعرّض السلطان لشىء منه، و أنعم به على الأمير بكتوت، و عظمت المشقة فى حفر هذا الخليج، فإنّ الذى تجاوز البحر منه غلب عليه الماء، فصارت الرجال تغطس فيه و ترفع الطين من أسفله، ثم كثر الماء فركبت السواقى حتى نزحته، إلا أنّ عظيم النفع به سهل جميع ذلك، فإنّ السفن جرت فيه طول السنة، و استغنى أهل الإسكندرية عن شرب ماء الصهاريج، و بادر الناس للعمارة على جانبى الخليج، فلم يمض غير قليل حتى استجدّ عليه ما يزيد على مائة ألف فدّان زرعت بعد ما كانت سباخا، و ما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس و النيلة و السمسم، و فوق الأربعين ضيعة، و أزيد من ألف غيط بالإسكندرية، و عمرت منه عدّة بلاد كثيرة، و تحوّل عالم عظيم إلى سكنى ما استجدّ عليه.

و فيه: و لما فرغ العمل فى الخليج شرع الأمير بكتوت فى عمل جسر من ماله، فإنّ الناس كانوا فى وقت هيجان البحر يجدون مشقة عظيمة لغلبة الماء على أراضى السباخ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۱۹

فأقام ثلاثة أشهر حتى بنى رصيفا دكّ أساسه بالحجر و الرصاص، و أعلاه بالحجر و الكلس، و عمل فيه ثلاثين قنطرة، و أنشأ خانا ينزله الناس، و رتب فيه الخفراء و وقف على مصالحه رزقة، فبلغ مصروفه نحو الستين ألف دينار مصرية سوى ما أخذ من الحجارة التى بعضها من قصر قديم كان خارج الإسكندرية، و سوى ما وجده من الرصاص فى سرب بأسفل هذا القصر ينتهى بمن يمشى فيه إلى قريب البحر، و سوى ما أنعم به عليه من الرصاص الموجود بالخليج، و لم يزل الخليج فيه الماء طول السنة إلى ما بعد سنة سبعين و سبعمائة، فانقطع الماء منه و صار الماء لا يدخل إليه إلا فى أيام زيادة ماء النيل فقط ثم يجف عند نقصه فتلف من أجل هذا أكثر بساتين الإسكندرية و خربت و تلاشى كثير من القرى التى كانت على هذا الخليج.

و سبب انقطاع الماء عنه غلبة الروم على الأشتوم الذى كان يعبر منه ماء بحر الملح إلى بحيرة الإسكندرية حتى جفت، و صار الرمل تلقيه الرياح فى الخليج فانطمّ منه و علا قاعه، و قصد من أدركناه من ملوك مصر حفر هذا الخليج غير مرّة، فلم يتهيأ ذلك إلى أن كانت سلطنة الملك الأشرف، برسباى، فندب لحفره الأمير جرباش الكريمى المعروف بعاشق، فتوجه إليه و جمع له من قدر عليه من رجال النواحى فبلغت عدّتهم ثمانمائة و خمسة و سبعين رجلا ابتدؤوا فى حفره من حادى عشر جمادى الأولى سنة ست و عشرين و ثمانمائة إلى حادى عشر شعبان لتمام تسعين يوما، فانتهى عملهم، و مشى الماء فى الخليج، حتى انتهى إلى حدّه من مدينة الإسكندرية، و جرت فيه السفن، فسرّ الناس به سرورا كبيرا و جبى ما أنفق على العمال فى الحفر من أرباب النواحى التى على الخليج، و من أرباب البساتين بالإسكندرية، و لم يكن فى حفره كبير شناعة مما جرت به عادة الولاة فى مثل ذلك، و للّه الحمد، و عند ما انتهى قدم الأمير جرباش إلى قلعة الجبل، فخلع السلطان عليه و شكره، ثم عمله حاجب الحجاب، فلم يستمرّ ذلك إلا قليلا حتى انطمّ بالرمل و تعذر سلوك الخليج بالمراكب إلا فى أيام النيل فقط.

ذكر جمل حوادث الإسكندريّة

و فى سنة تسع و تسعين و مائة، عظمت الحروب بديار مصر بين المطلب بن عبد اللّه الخزاعىّ أمير مصر، و بين عبد العزيز بن الوزير الجروىّ، الثائر بتنيس، فعقد المطلب على الإسكندرية، لمحمد بن هبيرة بن هاشم بن خديج، فاستخلف محمد خاله، عمر بن عبد

الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج، الذى يقال له: عمر بن ملاك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲۰

ثم عزله المطلب بعد ثلاثة أشهر، بأخيه الفضل بن عبد اللّه بن مالك، و كانت بالإسكندرية مراكب الأندلسيين قد قفلوا من غزوهم، و كان سبب قدوم هذه المراكب ما جرى لأهل قرطبة بوقعة الربض مع الحكم بن هشام فى سنة اثنتين و ثمانين و مائة، فأخرج جماعة منهم، فوصلوا إلى صغر الإسكندرية، زيادة على عشرة آلاف، و كان سبب ثورتهم أنّ قصابا من الإسكندرية، رمى وجه رجل منهم بكرش، فأنفوا من ذلك و صاروا إلى ما صاروا إليه، و ذلك لما نزلوا رمل الإسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم، و كذلك كانوا على الزمان، و كانت الأمراء لا تبيحهم دخول الإسكندرية إنما كان الناس يخرجون إليهم، فيبايعونهم، فلما عزل عمر بن ملاك كتب إليه عبد العزيز الجروىّ يأمره بالوثوب على الإسكندرية، و الدعاء له بها، فبعث عمر بن ملاك إلى الأندلسيين، فدعاهم إلى القيام معه فى إخراج الفضل عنها، فساروا معه، و أخرج الفضل، و دعا للجروى، فوثب أهل الإسكندرية على الأندلسيين و أخرجوهم و ردّوا الفضل، و قتل من الأندلسيين نفر، و انهزم الباقون إلى مراكبهم، فعزل المطلب أخاه، و ولى عليها إسحاق بن أبرهة بن الصباح، فى شهر رمضان سنة تسع و تسعين، ثم عزله بأبى ذكر بن جنادة المعافرى.

فلما اقتتل السرى بن الحكم هو و المطلب بن عبد اللّه، و غلب السرى على مصر، وثب عمر بن ملاك، على أبى بكر، و أخرجه من الإسكندرية، و دعا للجروىّ، و أقبل الأندلسيون إليه فأفسدوا، فأمرهم بالخروج إلى مراكبهم، فشق ذلك عليهم، و ظهرت بالإسكندرية طائفة يسمون بالصوفية، يأمرون بالمعروف، و يعارضون السلطان فى أموره، فترأس عليهم رجل منهم يقال له: أبو عبد الرحمن الصوفىّ، فصاروا مع الأندلسيين يدا واحدة، و اعتضدوا بلخم، و كانت لخم أعز من فى ناحية الإسكندرية، فخوصم أبو عبد الرحمن الصوفىّ إلى عمر بن ملاك فى امرأة، فقضى على أبى عبد الرحمن، فوجد فى نفسه من ذلك، و خرج إلى الأندلسيين فألّف بينهم و بين لخم، و رجا أهل الأندلس أن يدركوا ثارا من عمر بن ملاك، فساروا إلى عمر بن ملاك، و هم زهاء عشرة آلاف، فحصروه فى قصره، و خشى أنّ القصر لا يمنعه منهم، و خاف أن يدخلوا عليه عنوة، فيفضح فى حرمه، فاغتسل، و تحنط، و تكفن، و أمر أهله أن يدلوه إليهم، فدلى فأخذته السيوف، فقتل.

ثم ولى أخوه محمد بن عبد اللّه الذى يلقب: جيوس، فقتل، ثم ولى عليهم عبد اللّه البطال بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج، فقتل، ثم ولى عليهم أخوه أبو هبيرة الحارث، فقتل، ثم ولى عليهم خديج بن عبد الواحد، فقتل، و انصرف القوم، و ذلك فى ذى القعدة، ثم فسد ما بين لخم و الأندلسيين عند مقتل ابن ملاك و اقتتلوا، فانهزمت لخم.

فظفر الأندلسيون بالإسكندرية فى ذى الحجة، فولوها أبا عبد الرحمن الصوفىّ، فبلغ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲۱

من الفساد و النهب و القتل ما لم يسمع بمثله، فعزله الأندلسيون، و ولوا رجلا منهم يعرف بالكنانىّ، ثم حاربت بنو مدلج الأندلسيين فظفر بهم الأندلسيون و نفروهم عن البلاد، فلم يقدر بنو مدلج على الرجوع إلى أرض الإسكندرية حتى طلب السرىّ من الأندلسيين أن يردّوهم، فأذنوا لهم حينئذ و رجعوا، و كان أبو قبيل يقول: أنا على الإسكندرية من أربعين مركبا مسلمين و ليسوا بمسلمين، تأتى فى آخر الصيف أخوف منى عليها من الروم، فيقال له: ما هذه الأربعون مركبا فى هذا الخلق، لو كانت نيرانا تضطرم، فيقول: اسكت ويلك منها، و ممن فيها يكون خراب الإسكندرية و ما حولها، و بلغ عبد العزيز الجروىّ قتل ابن ملاك، فسار فى خمسين ألفا، حتى نزل على حصن الإسكندرية، و حصرها حتى أجهد من فيها، فبلغه: أن السرى بن الحكم بعث إلى تنيس بعثا، فكرّ راجعا فى المحرّم سنة إحدى و مائتين، فدعا الأندلسيون للسرى، ثم لما خلع أهل مصر المأمون، و دعوا لإبراهيم بن المهدىّ، و قام الجروىّ بذلك سار إلى الإسكندرية و حصر الأندلسيين حتى دخلها صلحا، و دعى له بها ثم سار عنها إلى الفسطاط، فحارب السرى و قتل ابنه، ثم انصرف، فسار الأندلسيون بعامل الجروىّ، و أخرجوه من الإسكندرية و خلعوا الجروىّ، و دعوا للسرىّ فسار إليهم الجروىّ فى شهر

رمضان سنة ثلاث و مائتين، فعارضته القبط بسخا و أمدّتهم بنو مدلج، و هم فى نحو من مائتى ألف فهزمهم، و بعث بجيوشه إلى الإسكندرية فحاصروها، و كانت بين السرىّ و بين أهل الصعيد حروب، ثم إنّ الجروىّ سار إلى الإسكندرية سيره الرابع، و حاصرها و نصب عليها المجانيق سبعة أشهر، من أوّل شعبان سنة أربع و مائتين إلى سلخ صفر سنة خمس، فأصاب الجروىّ فلقة من حجر منجنيقة، فمات سلخ صفر سنة خمس و مائتين، و قام من بعده ابنه علىّ.

فلم تزل الفتن بالأندلسيين فى الإسكندرية متصلة إلى أن قدم عبد اللّه بن طاهر إلى مصر من قبل أمير المؤمنين المأمون، و أخرج عبيد اللّه بن السرىّ من مصر، و سار إلى الإسكندرية فى قوّاد العجم من أهل خراسان مستهلّ صفر سنة اثنتى عشرة و مائتين، فحاصرها بضع عشرة ليلة، حتى خرج إليه أهلها بأمان و صالحه الأندلسيون على أن يسيرهم من الإسكندرية حيث أحبوا، على أن لا يخرجوا فى مراكبهم أحدا من أهل مصر، و لا عبدا و لا آبقا، فإن فعلوا فقد حلت له دماؤهم، و نكث عهدهم و توجهوا، فبعث ابن طاهر، من يفتش عليهم مراكبهم، فوجدوا فيها جمعا من الذين اشترط عليهم أن لا يخرجوهم، فأمر بإحراق مراكبهم، فسألوه أن يردّهم إلى شرطهم، ففعل و ساروا إلى جزيرة أقريطش، و ملكوها، و كان الأمير معهم أبو حفص عمر بن عيسى، ثم ملكها ولده من بعده، و عمرها الأندلسيون إلى أن غزاها الروم سنة خمس و أربعين و ثلثمائة، و ملكها بعد حصار طويل، و ولى على الإسكندرية إلياس بن أسد بن سامان، و رجع إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة، ثم سار إلى العراق، و لما انتقض أسفل الأرض فى جمادى الأولى سنة ست عشرة و مائتين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲۲

و حاربهم الأفشين و معه عيسى بن منصور الرافقىّ أمير مصر، و بعث عبد اللّه بن يزيد بن مزيد الشيبانىّ إلى الغربية، فانهزم إلى الإسكندرية، و استجاشت عليه بنو مدلج و حصروه فى شوّال، فسار الأفشين و أوقع بمن فى طريقه حتى قدم الإسكندرية فى جنوده، فلقيته طائفة من بنى مدلج، فهزمهم مرّتين و أسر منهم و قتل و دخل الإسكندرية لعشر بقين من ذى الحجة، ففرّ منه رؤساؤها.

و كان عليها معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج، فأصلح أمرها، ثم خرج إلى أهل البشرود، فامتنعوا عليه حتى قدم المأمون إلى مصر، فصار إلى البشرود و الأفشين قد أوقع بالقبط بها كما تقدّم ذكره.

و لما ولى إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب إفريقية فى سنة إحدى و ستين و مائتين حسنت سيرته، فكانت القوافل و التجار تسير فى الطرق و هى آمنة و بنى الحصون، و المحارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبتة إلى الإسكندرية، فيصل الخبر منها إلى الإسكندرية فى ليلة واحدة، و بينهما مسيرة أشهر.

و فى سنة اثنتين و ثلثمائة دخل حباسة فى جيوش إفريقية إلى الإسكندرية فى المحرّم، و معه مائة ألف أو زيادة عليها، و قدمت الجيوش من المشرق، مددا لتكين أمير مصر، و سار حباسة من الإسكندرية و نودى بالنضير فى الفسطاط لعشر بقين من جمادى الآخرة، فلم يتخلّف عن الخروج إلى الجيزة أحد من الخاصة و العامّة، إلا من عجز عن الحركة لمرض، أو عذر، و أتاهم حباسة فلقوه و هزموه، ثم دار عليهم، فقتل من أهل مصر نحوا من عشرة آلاف، و نهض حباسة إلى إفريقية، و أقاموا بمصر مضطربين.

فأقبل مؤنس الخادم من العراق فى رمضان بجيوش كثيرة، فصرف تكين فى ذى القعدة، و ولى ذكاء الأعور فى صفر سنة ثلاث و ثلثمائة، فخرج فى جيوشه إلى الإسكندرية، و تتبع كل من يومأ إليه بمكاتبة صاحب إفريقية، فسجن منهم، و قتل كثيرا و جلا أهل لوبية و مراقية إلى الإسكندرية فى شوّال سنة أربع و ثلثمائة، خوفا من صاحب برقة.

و فى سنة سبع و ثلثمائة، سارت مقدّمة المهدىّ، عبيد اللّه من إفريقية مع ابنه أبى القاسم إلى لوبية، فهرب أهل الإسكندرية وجلوا عنها، و خرج منها مظفر بن ذكاء الأعور فى جيشه، و دخلت إليها العساكر يوم الجمعة لثمان خلون من صفر، و فرّ أهل القوّة من الفسطاط إلى الشأم، فخرج ذكاء أمير مصر إلى الجيزة، و عسكر بها، ثم مرض و مات على مصافه بالجيزة فى ربيع الأوّل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲۳

فولى تكين بعده ولايته الثانية من قبل المقتدر، و نزل الجيزة و أقبلت مراكب صاحب إفريقية إلى الإسكندرية عليها سليمان الخادم، فقدم ثمل الخادم صاحب مراكب طرسوس، فالتقيا برشيد فى شوّال، فاقتتلا فبعث اللّه ريحا على مراكب سليمان ألقتها إلى البر فتكسر أكثرها، و أخذ من فيها أخذا باليد، و قتل أكثرهم، و أسر من بقى و سيقوا إلى الفسطاط فقتل منهم نحو سبعمائة رجل، و سار أبو القاسم بن المهدى من الإسكندرية إلى الفيوم، و ملك جزيرة الأشمونين و الفيوم، و أزال عنها جند مصر، فمضى ثمل الخادم فى مراكبه إلى الإسكندرية، فقاتل من بها من أهل إفريقية، فظفر بهم، و نقل أهل الإسكندرية إلى رشيد و عاد إلى الفسطاط، و مضى فى مراكبه إلى اللاهون، و لحقته العساكر، فدخلوا إلى الفيوم فى صفر سنة سبع و ثلثمائة، فخرج أبو القاسم بن المهدى إلى برقة، و لم يكن بينهما قتال، و رجعت العساكر إلى الفسطاط، و ما زالت الإسكندرية و أعمالها فى اضطراب إلى أن قدمت جيوش المعز لدين اللّه، مع القائد جوهر فى سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، فملكتها و ما برحت إلى أن قام بها نزار بن المستنصر، و كان من أمره ما قد ذكر عند ذكر خزائن القصر.

و فى سنة اثنتى عشرة و ستمائة، اجتمع بالإسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج، و قدمت بطسة إلى المينا فيها من ملوك الفرنج، ملكان، فهموا أن يثوروا و يقتلوا أهل البلد، و يملكوها، فتوجه الملك العادل، أبو بكر بن أيوب، إليها و قبض على التجار المذكورين، و على من بالبطسة و استصفى أموالهم، و سجنهم و سجن الملكين، و جرت خطوب حتى أطلق السلطان نساءهم، و عاد إلى القاهرة.

و فى سنة أربع و خمسين و خمسمائة، بنى الملك الصالح طلائع بن رزيك على بلبيس حصنا من لبن.

و فى سنة اثنتين و ستين و خمسمائة، كانت وقعة البابين بين الوزير شاور، و أسد الدين شيركوه، فانهزم عسكر شيركوه، و مضى منهم طائفة إلى الإسكندرية، ثم كانت لشيركوه على شاور، فانهزم منه إلى القاهرة، و مضى شيركوه إلى الإسكندرية، فخرج إليه أهل الثغر، و فيهم: نجم الدين محمد بن مصال والى الثغر و قاضيه الأشرف بن الخباب، و ناظره القاضى الرشيد بن الزبير، و سرّوا بقدومه و سلّموه المدينة؛ ثم سار منها يريد بلاد الصعيد.

و استخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الثغر فى ألف فارس، فنزل عليه شاور، و معه: مرى ملك الفرنج، فقام معه أهل الثغر، و استعدّوا لقتال شاور، فكان ما أخرجوه أربعة و عشرين ألف فرس، فوعدهم شاور أن يضع عنهم المكوس و الواجبات، و يعطيهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين، فأبوا ذلك، و ألحوا فى قتاله، فحصرهم حتى قلّ الطعام عندهم، فتوجه إليهم شيركوه و قد حشد من العربان جموعا كثيرة، فبعث إليه شاور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۲۴

و بذل له خمسة آلاف دينار على أن يرجع إلى الشأم، فأجابه إلى ذلك، و فتحت المدينة، و خرج صلاح الدين إلى مرى ملك الفرنج، و جلس معه، فما زال به شاور أن يسلمه صلاح الدين، فلم يوافقه، بل سيره إلى عمه شيركوه من البحر على عكا بمن معه إلى دمشق، و دخل شاور إلى الإسكندرية فى سابع عشر شوّال، فاستتر ابن مصال، و فرّ إلى الشأم، و قبض على ابن الخباب، و عوقب حتى فداه أهله بمال جزيل، و لم يقدر على ابن الزبير، و خرج إلى رشيد.

هذا و قد امتنع الفقيه أبو الطاهر بن عوف، و جماعة كثيرة بالمنار فوقف عليهم شاور، فقال له ابن عوف: اعذرنا يا أمير الجيوش، و سامحنا بما فعلناه، فعفا عنهم، و ولى القاضى الأشرف أبا القاسم عبد الرحمن بن منصور بن نجا، ناظرا على الأموال، و خرج و معه مرى ملك الفرنج إلى القاهرة، ثم توجه مرى إلى بلاده.

و فى سنة إحدى و سبعين و ستمائة، ورد الخبر بحركة الفرنج إلى ثغور مصر، فاهتم الملك الظاهر بيبرس بأمر الشوانى، و نصب على أسوار الإسكندرية نحو مائة منجنيق.

و فى يوم الخميس شهر رجب سنة سبع و عشرين، خرج بعض تجار الفرنج إلى ظاهر باب البحر حيث تجتمع العامّة للفرجة، و تعرّض إلى صبىّ أمرد يراوده عن نفسه، فأنكر ذلك بعض من هناك من المسلمين، و قال: هذا ما يحل، فأخذ الفرنجى خفا كان بيده، و

ضربه على وجهه، فصاح بالناس، فأتوه، فقام الفرنج مع صاحبهم، و اتسع الخرق إلى أن ركب متولى الثغر، و أغلق أبواب المدينة، و طلب من أثار الفتنة ففرّوا، و عاد إلى داره، و ترك الأبواب مغلقة، و كان بظاهر المدينة خلق كثيرة قد توجهوا على عادتهم فى حوائجهم فحيل بينهم و بين بيوتهم، و جاء الليل و هم قيام على الأبواب يضجون و يصيحون، فمضى أعيان البلد إلى المتولى، و ما زالوا به، حتى فتح لهم، فدخلوا مبادرين و هم يزدحمون، فمات منهم زيادة على عشرة أنفس، و تلفت أعضاء جماعة، و ذهب من عمائم الناس و مناديلهم، و غير ذلك شىء كثير؛ و عظم البكاء و الصراخ طول الليل، فلما كان من الغد، ركب الوالى لكشف أحوال الناس، فتكاثروا عليه و رجموه، فانهزم منهم إلى داره فتبعوه و قاتلوه، فقاتلهم من أعلى الدار حتى سفكت بينهما دماء كثيرة، و أحرقوا بابه، و نهبوا دورا بجانبه.

فكتب يستنجد والى دمنهور و من حوله من العربان، فأتوه و احتاطوا بالمدينة، و سرّح الطائر إلى السلطان بخروج أهل الإسكندرية عن الطاعة، فاشتدّ غضبه و خشى من إطلاقهم الأمراء المسجونين، و بعث إلى القضاة فجمعهم و استفتاهم فى قتالهم، فكتبوا بما يجب، و خرج إليهم الوزير مغلطاى الجمالىّ، و طوغان شادّ الدواوين، و أيدمر أمير جندار، و عدّة من المماليك السلطانية، و ناظر الخاص، و مع الوزير تذكرة بإراقة دماء أهل الفساد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲۵

و مصادرة جماعة و أخذ أموال أهل البلد، و القبض على الأسلحة المعدّة بها للغزاة و إمساك القاضى و الشهود و حمل الأمراء المسجونين إلى القاهرة، فساروا فى عاشره، و قدموا الثغر بعد ثلاثة أيام، و نزل الوزير بالخيس، و فرض على الناس خمسمائة ألف دينار مصرية، و أحضر قاضى القضاة، عماد الدين و نائبه فى الحديد، و أنكر عليهما كونهما شهرا النداء فى البلد بالغزاة فى سبيل اللّه، فأنكرا وقوع هذا منهما، و أنهما لم يكن فى قدرتهما ردّ السواد الأعظم، فضرب نائبه ابن الشيبى ضربا مبرّحا، و ألزمه بحمل ستمائة ألف درهم، و ألزم القاضى بخمسمائة ألف درهم، و كان قد رسم بشنقه، فتلطف فى مكاتبة السلطان، و اعتذر عنه و برّأه حتى عفا عنه، و تتبع العامّة فوسط منهم ثلاثين رجلا فى يوم الجمعة، ثالث عشره، فتسارع الناس إلى دورهم من الخوف، فذهبت عدّة عمائم و اشتدّ الخوف مدّة عشرين يوما، و كتب السلطان تتوالى بالإيقاع بأهل الثغر، و أخذ أموالهم و الوزير يحسن فى الجواب إلى أن جهز الأمراء المسجونين، و سار من الثغر، و قد استعرض ما به من السلاح، فوجد ستة آلاف عدّة كاملة جعلها جميعها فى قاعة و ختم عليها، و بلغت الجباية من الناس ما ينيف على مائتين و ستين ألف دينار، فكانت هذه من المحن العظيمة، و الحوادث الشنيعة، و للّه الأمر من قبل و من بعد.

ذكر مدينة أتريب

هذه المدينة بناها أتريب بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. قال ابن وصيف شاه: و كان أتريب قد انتقل إلى حيزه بعد موت أبيه قبطيم، و هى المدينة التى كان أبوه بناها له، و كان طولها اثنى عشر ميلا، و لها اثنا عشر بابا، و جعل فى شارعها الأعظم ثلاث قباب عالية على أعمدة بعضها فوق بعض منها قبة فى وسط المدينة، و قبتان فى طرفيها، و جعل على كل قبة مرقبا كبيرا و فى كل ناحية منها ملعبا، و مجالس و منتزهات تشرق، و شق فى غربيها نهرا و عقد عليه قناطر، و جعل من فوقها مجالس متصلة، و حولها المنازل تدور بالخليج متصلة بالقناطر على رياض مزروعة من خلفها الجنان و البساتين، و على كل باب من الأبواب، أعجوبة من تماثيل و أصنام متحرّكة، و أصنام تمنع من يؤذى، و جعل فى داخل كل باب صورة شيطانين من صفر، فإذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذى عن يمنة الباب، و إن كان من أهل الشرّ بكى الشيطان الذى عن يسرة الباب، و جعل فى كل منتزه منها من الوحش الآلف و الطيور المغرّدة كل مستحسن، و فوق قباب المدينة صورا تصفر إذا هبت الرياح، و نصب مرآة ترى البلاد البعيدة، و بنى حذاءها فى الشرق مدينة، و جعل فيها ملاعب و أصناما بارزة فى صور مختلفة، و فى وسطها بركة إذا مرّ بها الطير سقط عليها، فلا

يبرح حتى يؤخذ و جعل لها حصنا، باثنى عشر بابا، على كل باب تمثال يعمل بأعجوبة، و عمل حواليها جنانا، و جعل بالقرب منها فى ناحية الشرق مجلسا منقوشا على ثمانى أساطين، و فوقه قبة عليها طائر منشور الجناحين يصفر فى كل يوم ثلاث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲۶

تصفيرات، بكرة و نصف النهار و عند غروب الشمس، و أقام فيها أصناما و عجائب كثيرة، و بنى مدنا كثيرة، و أقام فيها رجلا يقال له: برسان، يعمل الكيمياء، و ضرب منها دنانير فى كل دينار، سبعة مثاقيل عليها صورته، و عاش أتريب ملكا ثلثمائة و ستين سنة، و بلغ من العمر خمسمائة سنة، و عمل له ناوس فى جبل بالشرق، حفر له تحته سرب بطن بالزجاج و المرمر، و جعل على سرير من ذهب مرصع، و حملت إليه ذخائره و جعلوا على بابه صورة تنين لا يدنو منه أحد إلا أهلكه، و سوّروا عليه الرمال، و زبروا عليه اسمه و تاريخ وقته.

و قال ابن الكندىّ: أربع كور بمصر ليس على وجه الأرض أفضل منها، و لا تحت السماء لهنّ نظير: كورة الفيوم، و كورة أتريب، و كورة سمنود، و كورة أنصنا؛ و كورة أتريب من جملة كور أسفل الأرض، و هى مائة و ثمانى قرى.

و كان يقال: مدائن السحرة من ديار مصر سبع و هى: أرمنت، و بيا، و بوصير، و أنصنا، و صان، و أتريب، و صا.

ذكر مدينة تنيس

تنيس: بكسر التاء المنقوطة باثنتين من فوقها و كسر النون المشدّدة و ياء آخر الحروف و سين مهملة: بلدة من بلاد مصر فى وسط الماء، و هى من كورة الخليج سميت بتنيس بن حام بن نوح، و يقال: بناها قليمون من ولد أتريب بن قبطيم، أحد ملوك القبط فى القديم.

قال ابن وصيف شاه: و ملكت بعد أتريب، ابنته، فدبرت الملك وساسته بأيد و قوّة خمسا و ثلاثين سنة، و ماتت، فقام بالملك من بعدها، ابن أختها، قليمون الملك، فردّ الوزراء إلى مراتبهم، و أقام الكهان على مواضعهم و لم يخرج الأمر عن رأيهم، و جدّ فى العمارات و طلب الحكم.

و فى أيامه بنيت تنيس الأولى التى غرّقها البحر، و كان بينه و بينها شىء كثير و حولها الزرع و الشجر و الكروم و قرى و معاصر للخمر و عمارة لم يكن أحسن منها، فأمر الملك أن يبنى له فى وسطها مجالس، و ينصب له عليها قباب و تزين بأحسن الزينة و النقوش، و أمر بفرشها و إصلاحها، و كان إذا بدا النيل يجرى، انتقل الملك إليها، فأقام بها إلى النوروز، و رجع و كان للملك بها أمناء يقسمون المياه، و يعطون كل قرية قسطها، و كان على تلك القرى، حصن يدور بقناطر، و كان كل ملك يأتى يأمر بعمارتها و الزيادة فيها و يجعلها له منتزها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲۷

و يقال: إنّ الجنتين اللتين ذكرهما اللّه تعالى فى كتابه العزيز إذ يقول: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ [الكهف/ ۳۲] الآيات، كانتا لأخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع، فأحسنا عمارته و هندسته و بنيانه، و كان الملك يتنزه فيهما، و يؤتى منهما بغرائب الفواكه و البقول، و يعمل له من الأطعمة و الأشربة ما يستطيبه، فعجب بذلك المكان أحد الأخوين، و كان كثير الضيافة و الصدقة، ففرّق ماله فى وجوه البرّ، و كان الآخر ممسكا يسخر من أخيه إذا فرّق ماله، و كلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه حتى بقى لا يملك شيئا، و صارت تلك الجنة لأخيه و احتاج إلى سؤاله، فانتهره و طرده، و عيره بالتبذير، و قال: قد كنت أنصحك بصيانة مالك، فلم تفعل، و نفعنى إمساكى فصرت أكثر منك مالا و ولدا، و ولى عنه مسرورا بماله و جنته، فأمر اللّه تعالى البحر، فركب تلك القرى، و غرّقها جميعها، فأقبل صاحبها يولول و يدعو بالثبور و يقول: يا ليتنى لم أشرك بى أحدا، قال اللّه جلّ جلاله: وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ [الكهف/ ۴۳].

و فى زمان قليمون الملك، بنيت دمياط، و ملك قليمون تسعين سنة، و عمل لنفسه ناوسا فى الجبل الشرقىّ، و حوّل إليه الأموال و

الجواهر و سائر الذخائر، و جعل من داخله تماثيل تدور بلواليب فى أيديها سيوف من دخل قطعته، و جعل عن يمينه و يساره، أسدين من نحاس مذهب بلوالب، من أتاه حطماه، و زبر عليه: هذا قبر قليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصر عمّر دهرا، و أتاه الموت فما استطاع له دفعا، فمن وصل إليه فلا يسلبه ما عليه و ليأخذ من بين يديه.

و يقال: إنّ تنيس أخ لدمياط.

و قال المسعودىّ فى كتاب مروج الذهب و غيره: تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء و طيب تربة، و كانت جنانا و نخلا و كرما و شجرا و مزارع، و كانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض، و لم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض، و لا أحسن اتصالا من جنانها و كرومها، و لم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم، و كان الماء منحدرا إليها لا ينقطع عنها صيفا و لا شتاء يسقون جنانهم إذا شاءوا، و كذلك زروعهم و سائره يصب إلى البحر من جميع خلجانه، و من الموضع المعروف بالأشتوم، و قد كان بين البحر و بين هذه الأرض مسيرة يوم، و كان فيما بين العريش و جزيرة قبرس، طريق مسلوك إلى قبرس، تسلكه الدواب يبسا و لم يكن بين العريش و جزيرة قبرس فى البحر سير طويل، حتى علا الماء الطريق الذى كان بين العريش و قبرس، فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتا و إحدى و خمسون سنة، هجم الماء من البحر على بعض المواضع التى تسمى اليوم: بحيرة تنيس، فأغرقه و صار يزيد فى كل عام، حتى أغرقها بأجمعها، فما كان من القرى التى فى قرارها غرق، و أما الذى كان منها على ارتفاع من الأرض فبقى منه تونة و بورا و غير ذلك مما هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲۸

باق إلى هذا الوقت، و الماء محيط بها، و كان أهل القرى التى فى هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تنيس، فنبشوهم واحدا بعد واحد، و كان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها قبل أن تفتح مصر بمائة سنة. قال: و قد كان لملك من الملوك التى كانت دارها، الفرما مع أركون من أراكنة: البلينا، و ما اتصل بها من الأرض، حروب عملت فيها خنادق و خلجان فتحت من النيل إلى البحر يمتنع بها كل واحد من الآخر، و كان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل و استيلائه على هذه الأرض.

و قال فى كتاب أخبار الزمان: و كانت تنيس عظيمة لها مائة باب، و قال ابن بطلان:

تنيس بلد صغير على جزيرة فى وسط البحر، ميله إلى الجنوب عن وسط الإقليم الرابع، خمس درج، و أرضه سبخة، و هواؤه مختلف، و شرب أهله من مياه مخزونة فى صهاريج تملأ فى كل سنة عند عذوبة مياه البحر بدخول ماء النيل إليها، و جميع حاجاتها مجلوبة إليها فى المراكب، و أكثر أغذية أهلها السمك و الجبن و ألبان البقر، فإنّ ضمان الجبن السلطانىّ سبعمائة دينار حسابا عن كل ألف قالب دينار و نصف، و ضمان السمك عشرة آلاف دينار، و أخلاق أهلها سهلة منقادة، و طبائعهم مائلة إلى الرطوبة و الأنوثة.

قال أبو السرىّ الطبيب: إنه كان يولد بها فى كل سنة مائتا مخنث، و هم يحبون النظافة و الدماثة و الغناء و اللذة، و أكثرهم يبيتون سكارى، و هم قليلو الرياضة لضيق البلد، و أبدانهم ممتلئة الأخلاط و حصل بها مرض يقال له: الفواق التنيسىّ، فلما فتحت دمياط، سار إليها المسلمون، فبرز إليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة و القبط و الروم، فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبى ثور فى أيدى المسلمين، و انهزام أصحابه، فدخل المسلمون البلد و بنوا كنيستها جامعا، و قسموا الغنائم و ساروا إلى الفرما، فلم تزل تنيس بيد المسلمين، إلى أن كانت إمرة بشر بن صفوان الكلبىّ على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك فى شهر رمضان سنة إحدى و مائة، فنزل الروم تنيس، فقتل مزاحم بن مسلمة المرادىّ أميرها فى جمع من الموالى، و فيهم يقول الشاعر:

أ لم تربع فيخبرك الرجال‌بما لاقى بتنيس الموالى

و كانت تنيس مدينة كبيرة، و فيها آثار كثيرة للأوائل، و كان أهلها مياسير أصحاب ثراء، و أكثرهم حاجة، و بها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا، و كان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له: البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء و لحمة غير أوقيتين، و ينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل و لا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار، و ليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه،

و هو سادج بغير ذهب مائة دينار عينا، غير طراز تنيس و دمياط، و كان النيل إذا أطلق يشرب منه من بمشارق الفرما من ناحية جرجير، و فاقوس من خليج تنيس، فكانت من أجلّ مدن مصر، و إن كانت شطا، و ديفو، و دميرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۲۹

و تونة، و ما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع فليس ذلك يقارب التنيسيّ و الدمياطيّ، و كان الحمل منها إلى ما بعد سنة ستين و ثلثمائة، يبلغ من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق، فلما تولى الوزير يعقوب بن كلس تدبير المال استأصل ذلك بالنوائب، و كان يسكن بمدينة تنيس و دمياط نصارى تحت الذمّة، و كان أهل تنيس يصيدون السمانى و غير ذلك من الطير على أبواب دورهم، و السمانى طائر يخرج من البحر، فيقع فى تلك الشباك، و كانت السفن تركب من تنيس إلى الفرما و هى على ساحل البحر.

و لما مات هارون الرشيد، و قام من بعده ابنه محمد الأمين، و أراد الغدر و النكث بالمأمون، كان على مصر، حاتم بن هرثمة بن أعين من قبل الأمين، فلما ثار عليه أهل تنو، و نمى بعث إليهم السرىّ بن الحكم، و عبد العزيز بن الوزير الجروىّ، فغلبا بعد الثمانية من شوّال سنة أربع و تسعين و مائة، ثم ولى الأمير جابر بن الأشعث الطائىّ مصر، و صرف حاتم بن هرثمة، و كان جابر لينا، فلما تباعد ما بين محمد الأمين و بين أخيه عبد اللّه المأمون، و خلع محمد أخاه من ولاية العهد، و ترك الدعاء له على المنابر، و عهد إلى ابنه موسى، و لقبه بالشديد و دعى له، تكلم الجند بمصر بينهم فى خلع محمد غضبا للمأمون، فبعث إليهم جابر ينهاهم عن ذلك، و يخوّفهم عواقب الفتن، و أقبل السرىّ بن الحكم يدعو الناس، إلى خلع محمد، و كان ممن دخل إلى مصر فى أيام الرشيد من جند، الليث بن الفضل، و كان خاملا فارتفع ذكره بقيامه فى خلع محمد الأمين.

و كتب المأمون إلى أشراف مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته، فأجابوه و بايعوا المأمون فى رجب سنة ست و تسعين و مائة، و وثبوا بجابر، فأخرجوه و ولوا عباد بن محمد، فبلغ ذلك محمد الأمين، فكتب إلى رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشىّ، و كان رئيس قيس الحوف، فانقاد أهل الحوف كلهم معه، يمنها و قيسها، و أظهروا دعوة الأمين، و خلع المأمون، و ساروا إلى الفسطاط لمحاربة أهلها و اقتتلوا، فكانت بينهما قتلى، ثم انصرفوا و عادوا مرارا إلى الحرب، فعقد عباد بن محمد لعبد العزيز الجروىّ، و سيره فى جيش ليحارب القوم فى دارهم، فخرج فى ذى القعدة سنة سبع و تسعين و مائة، و حاربهم بعمريط، فانهزم الجروىّ، و مضى فى قومه من لخم و جذام إلى فاقوس، فقال له قومه: لم لا تدعو لنفسك فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض؟ فمضى فيهم إلى تنيس، فنزلها ثم بعث بعماله يجبون الخراج من أسفل الأرض، فبعث ربيعة بن قيس يمنعه من الجباية، و سار أهل الحوف فى المحرّم سنة ثمان و تسعين إلى الفسطاط، فاقتتلوا، و قتل جمع من الفريقين، و بلغ أهل الحوف قتل الأمين، فتفرّقوا.

و ولى إمرة مصر، مطلب بن عبد اللّه الخزاعىّ من قبل المأمون، فدخلها فى ربيع الأوّل، و ولى عبد العزيز الجروىّ شرطته، ثم عزله و عقد له على حرب أسفل الأرض، ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۳۰

صرف المطلب، و ولى العباس بن موسى بن عيسى فى شوّال، فولى عبد العزيز الشرطة، فلما ثار الجند و أعادوا المطلب فى المحرّم سنة تسع و تسعين، هرب الجروىّ إلى تنيس، و أقبل العباس بن موسى بن عيسى من مكة إلى الحوف، فنزل ببلبيس، و دعا قيسا إلى نصرته، ثم مضى إلى الجروىّ بتنيس، فأشار عليه أن ينزل دار قيس، فرجع إلى بلبيس فى جمادى الآخرة، و بها مات مسموما فى طعام دسه إليه المطلب على يد قيس، فدان أهل الأحواف للمطلب، و بايعوه، و سارعوا إلى جب عميرة و سالموه عند ما لقوه، و بعث إلى الجروىّ يأمره بالشخوص إلى الفسطاط فامتنع من ذلك، و سار فى مراكبه حتى نزل شطنوف، فبعث إليه المطلب السرىّ بن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح، فأجابهم إليه، ثم اجتهد فى الغدر بهم، فتيقظوا له، فمضى راجعا إلى بنا، فاتبعوه و حاربوه.

ثم عاد، فدعاهم إلى الصلح و لاطف السرىّ، فخرج إليه فى زلاج و خرج الجروىّ فى مثله، فالتقيا فى وسط النيل مقابل سندفا، و قد

أعدّ الجرويّ فى باطن زلاجة الحبال، و أمر أصحابه بسندفا إذا لصق بزلاج السريّ، أن يجرّوا الحبال إليهم، فلصق الجرويّ بزلاج السريّ، فربطه فى زلاجه، و جرّ الحبال، و أسر السريّ، و مضى به إلى تنيس، فسجنه بها، و ذلك فى جمادى الأولى، ثم كرّ الجرويّ و قاتل، فلقيه جموع المطلب بسفط سليط فى رجب، فظفر، و لما عزل عمر بن ملاك عن الإسكندرية، ثار بالأندلسيين، و دعا للجرويّ، فأقبل عبد اللّه بن موسى بن عيسى إلى مصر طالبا بدم أخيه العباس فى المحرّم سنة مائتين، فنزل على عبد العزيز الجرويّ، فسار معه فى جيوش كثيرة العدد فى البرّ و البحر حتى نزل الجيزة، فخرج إليه المطلب فى أهل مصر، فحاربوه فى صفر، فرجع الجرويّ إلى شرقيون، و مضى عبد اللّه بن موسى إلى الحجاز، و ظهر المطلب على أنّ أبا حرملة فرجا الأسود، هو الذى كاتب عبد اللّه بن موسى، و حرّضه على المسير، فطلبه ففرّ إلى الجرويّ، و جدّ المطلب فى أمر الجرويّ، فأخرج الجرويّ السريّ بن الحكم من السجن، و عاهده و عاقده على أن يثور بالمطلب و يخلعه، فعاهده السريّ على ذلك فأطلقه، و ألقى إلى أهل مصر أنّ كتاب ورد بولايته فاستقبله الجند من أهل خراسان، و عقدوا له عليهم و امتنع المصريون من ولايته، فنزل داره بالحمراء، و أمدّه قيس بجمع منهم و حارب المصريين فهزمهم، و قتل منهم، فطلب المطلب منه الأمان، فأمنه، و خرج من مصر.

و استبدّ السريّ بن الحكم، بأمر مصر فى مستهل شهر رمضان ، فلما قتل الأندلسيون، عمر بن ملاك بالإسكندرية، سار إليها الجرويّ فى خمسين ألفا، فبعث السريّ إلى تنيس بعثا، فكرّ الجرويّ راجعا إلى تنيس فى محرّم سنة إحدى و مائتين، فلما ثار الجند بالسريّ فى شهر ربيع الأوّل، و بايعوا سليمان بن غالب، قام عباد بن محمد عليه و خلعه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۳۱

و قام بالأمر عليّ بن حمزة بن جعفر بن سليمان بن عليّ بن عبد اللّه بن عباس، فى مستهل شعبان، فامتنع عباد أن يبايعه، و لحق بالجرويّ، ثم لحق به أيضا سليمان بن غالب، فكان معه و عاد السريّ إلى ولايته مصر، فى شعبان و قوى سلطانه.

فلما كان فى المحرّم سنة اثنتين مائتين، ورد كتاب المأمون إليه يأمره، بالبيعة لوليّ عهده عليّ بن موسى الرضى، فبويع له بمصر، و قام فى فساد ذلك إبراهيم بن المهديّ ببغداد، و كتب إلى وجوه الجند بمصر، يأمرهم بخلع المأمون، و وليّ عهده و بالوثوب على السريّ، فقام بذلك الحارث بن زرعة بن محرّم بالفسطاط، و عبد العزيز بن الوزير الجرويّ بأسفل الأرض، و مسلمة بن عبد الملك الطحاويّ الأزديّ بالصعيد، و خالفوا السريّ، و دعوا إلى إبراهيم بن المهديّ، و عقدوا على ذلك الأمر لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزديّ، فحاربه السريّ، و ظفر به فى صفر و لحق كل من كره بيعة عليّ الرضى بالجرويّ، لمنعته بتنيس و شدّة سلطانه، فسار إلى الإسكندرية، و ملكها و دعى له بها و ببلاد الصعيد، ثم سار فى جمع كبير لمحاربة السريّ، و استعدّ كل منهما لصاحبه بأعظم ما قدر عليه، فبعث إليه السريّ ابنه ميمونا، فالتقيا بشطنوف، فقتل ميمون فى جمادى الأولى سنة ثلاث و مائتين، و أقبل الجرويّ على مراكبه إلى الفسطاط ليحرقها، فخرج إليه أهل المسجد، و سألوه الكف، فانصرف عنها و حارب الإسكندرية غير مرّة، و قتل بها من حجر أصابه من منجنيقه فى آخر صفر سنة خمس و مائتين.

و مات السريّ بعده بثلاثة أشهر فى آخر جمادى الأولى، و قام بعده الجرويّ ابنه عليّ بن عبد العزيز الجرويّ، فحارب أبا نصر محمد بن السريّ أمير مصر بعد أبيه بشطنوف، ثم التقيا بدمنهور، فيقال: إنّ القتلى بينهما يومئذ كانوا سبعة آلاف، و انهزم ابن السريّ إلى الفسطاط، فتبعته مراكب ابن الجوريّ، ثم عادت فدخل أبو حرملة فرج بينهما حتى اصطلحا، و مات ابن السريّ فى شعبان سنة ست و مائتين، فولى بعده أخوه عبيد اللّه بن السريّ، فكف عن ابن الجرويّ.

و بعث المأمون، مخلد بن يزيد بن مزيد الشيبانيّ إلى مصر فى جيش من ربيعة، فامتنع عبيد اللّه بن السريّ من التسليم له، و مانعه فاقتتلوا، و انضم عليّ بن الجرويّ إلى خالد بن يزيد، و أقام له الأنزال و أغاثه، و سار حتى نزل على خندق عبيد اللّه بن السريّ، فاقتتلا فى شهر ربيع الأوّل سنة سبع و مائتين، و جرت بينهما حروب بعد ذلك آلت إلى ترفع خالد إلى أرض الحوف، فكره ذلك ابن الجرويّ، و مكر به حتى أخرجه من عمله إلى غربيّ النيل فنزل نهيا، و انصرف ابن الجرويّ إلى تنيس، فصار خالد فى ضرّ و جهد، و

عسكر له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۳۲

ابن السرىّ فى شهر رمضان و أسره و أخرجه من مصر إلى مكة فى البحر.

و بعث المأمون، بولاية عبيد اللّه بن السرىّ، على ما فى يده و هو فسطاط مصر، و صعيدها و غربيها، و بولاية علىّ بن عبد العزيز الجروىّ تنيس مع الحوف الشرقىّ، و ضمنه خراجه، و أقبل ابن الجروىّ على استخراج خراجه من أهل الحوف فمانعوه، و كتبوا إلى ابن السرىّ يستمدّونه عليه، فأمدّهم بأخيه، فالتقيا بكورة بنا فى بلقينة، فاقتتلوا فى صفر سنة تسع و مائتين، و امتدّت الحروب بينهما إلى أثناء ربيع الأوّل و هم منتصفون، فانصرف ابن الجروىّ فيمن معه إلى دمياط، فسار ابن السرىّ إلى محلة شريقون، و نهبها و بعث إلى تنيس و دمياط فملكها، و لحق ابن الجروىّ بالفرما، و سار منها إلى العريش، فنزل فيما بينها و بين غزة، ثم عاد و أغار على الفرما فى جمادى الآخرة، ففرّ أصحاب ابن السرىّ من تنيس، و سار ابن الجروىّ إلى شطنوف، فخرج إليه ابن السرىّ، و اقتتلا، فكانت لابن الجروىّ فى أوّل النهار، ثم أتاه كمين ابن السرىّ فانهزم، و ذلك فى رجب، فمضى إلى العريش، و سار ابن السرىّ إلى تنيس و دمياط، ثم أقبل ابن الجروىّ فى المحرّم سنة عشر و مائتين، و ملك تنيس و دمياط بغير قتال، فبعث إليه ابن السرىّ البعوث فحاربهم.

فبينما هم فى ذلك إذ قدم عبد اللّه بن طاهر، فتلقاه ابن الجروىّ بالأموال و الأنزال، و انضم إليه و نزل معه ببلبيس، فامتنع ابن السرىّ، و دافع ابن طاهر، فتراخى له و بعث، فجبى المال، و نزل زفتا، و بعث إلى شطنوف عيسى الجلودىّ على جسر عقده من زفتا، و جعل ابن الجروىّ على سفنه التى جاءته من الشام لمعرفته بالحرب، فهزم مراكب ابن السرىّ فى المحرّم سنة إحدى عشرة، و صالح ابن طاهر عبيد اللّه بن السرىّ فى صفر، و خلع عليه، و أجازه بعشرة آلاف دينار، و أقرّه بالخروج إلى المأمون، فسكنت فتن مصر بعبد اللّه بن طاهر.

و فى سنة سبع و سبعين و ثلثمائة، ولدت بتنيس، معزى جديا له قرون عدّة، و رأسه مع صدره و بدنه، و مقدّمه بصوف أبيض، و مؤخره بشعر أسود، و ذنبه ذنب شاة.

و ولدت امرأة سخلة لها رأس مدوّر، و لها يدان و رجلان و ذنب.

و لثلاث بقين من ذى الحجة من هذه السنة، حدث بتنيس رعد و برق و ريح شديدة و سواد عظيم فى الجوّ، ثم ظهر وقت السحر فى السماء عمود نار احمرّت منه السماء و الأرض أشدّ حمرة و خرج غبار و دخان يأخذ بالأنفس، فلم يزل إلى الرابعة من النهار حتى ظهرت الشمس، و لم يزل كذلك خمسة أيام.

و فى سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، حضر عند قاضى تنيس أبى محمد عبد اللّه بن أبى الريس رجل و امرأة فطالبت المرأة الرجل بفرض واجب عليه، فقال الرجل: تزوّجت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۳۳

بها منذ خمسة أيام، فوجدت لها ما للرجال و ما للنساء! فبعث إليها القاضى امرأة لتشرف عليها، فأخبرت أن لها فوق القبل: ذكرا بخصيتين، و الفرج تحتها، و الذكر أقلف، و إنها رائعة الحسن، فطلقها الزوج.

قال أبو عمرو الكندىّ: حدّثنى أبو نصر أحمد بن علىّ، قال: حدّثنى يس بن عبد الأحد قال: سمعت أبى يقول: لما دخل عبد اللّه بن طاهر مصر كنت فيمن دخل عليه، فقال: حدّثنا عبد اللّه بن لهيعة عن أبى قبيل عن سبيع، قال: يا أهل مصر كيف بكم إذا كان فى بلدكم فتن، فوليكم فيها الأعرج، ثم الأصفر، ثم الأمرد، ثم يأتى رجل من ولد الحسين لا يدفع، و لا يمنع تبلغ راياته البحر الأخضر، يملأها عدلا، فقلت: كان ذلك، كانت الفتنة، فوليها السرىّ و هو الأعرج، و الأصفر ابنه أبو النصر، و الأمرد عبيد اللّه بن السرىّ، و أنت عبد اللّه بن طاهر بن الحسين، ثم إن عبد اللّه بن طاهر سار إلى الإسكندرية، و أصلح أمرها، و أخرج ابن الجروىّ إلى العراق، ثم قدم بالأفشين إلى مصر فى ذى الحجة سنة خمس عشرة، و قد أمر الأفشين أن يطالبه بالأموال التى عنده، فإن دفعها إليه و إلا قتله، فطالبه،

فلم يدفع إليه شيئا، فقدّمه بعد الأضحى بثلاث فقتله.

و فى جمادى الآخرة سنة تسع عشرة و مائتين، ثار يحيى بن الوزير فى تنيس، فخرج إليه المظفر بن كندر أمير مصر، فقاتله فى بحيرة تنيس، و أسره و تفرّق عنه أصحابه.

و فى سنة تسع و ثلاثين و مائتين، أمر المتوكل ببناء حصن على البحر بتنيس، فتولى عمارته، عنبسة بن إسحاق أمير مصر، و أنفق فيه و فى حصن دمياط و الفرما مالا عظيما.

و فى سنة تسع و أربعين و مائتين عذبت بحيرة تنيس صيفا و شتاء، ثم عادت ملحا صيفا و شتاء، و كانت قبل ذلك تقيم ستة أشهر عذبة و ستة أشهر مالحة.

و فى سنة ثمان و أربعين و ثلثمائة، وصلت مراكب من صقلية، فنهبوا مدينة تنيس. و فى سنة ثمان و سبعين و ثلثمائة، صيد بأشتوم تنيس حوت طوله ثمانية و عشرون ذراعا و نصف من ذلك، طول رأسه، تسعة أذرع، و دائر بطنه مع ظهره، خمسة عشر ذراعا، و فتحة فمه، تسعة و عشرون شبرا، و عرض ذنبه، خمسة أذرع و نصف، و له يدان يجذف بهما طول كل يد، ثلاثة أذرع، و هو أملس أغبر غليظ الجلد مخطط البطن ببياض و سواد و لسانه أحمر، و فيه خمل كالريش طوله نحو الذراع يعمل منه أمساط شبه الذبل، و له عينان كعينى البقر.

فأمر أمير تنيس أبو إسحاق بن لوبة به فشق بطنه، و ملح بمائة أردب ملح و رفع فكه الأعلى بعود خشب طويل، و كان الرجل يدخل إلى جوفه بقفاف الملح، و هو قائم غير منحن و حمل إلى القصر حتى رآه العزيز بالله. و فى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الأوّل سنة تسع و سبعين و ثلثمائة، شاهد أهل تنيس، تسعة أعمدة من نار تلتهب فى آفاق السماء من ناحية الشمال، فخرج الناس إلى ظاهر البلد يدعون اللّه تعالى، حتى أصبحوا فخبت تلك النيران، و فيها صيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۳۴

ببحيرة تنيس، حوت طوله ذراع و نصفه الأعلى فيه، رأس و عينان و عنق و صدره على صورة أسد و يداه فى صدره بمخالبه و نصفه الأدنى صورة حوت بغير قشر فحمل إلى القاهرة. و فى سنة سبع و تسعين و ثلثمائة ولدت جارية بنتا برأسين، أحدهما بوجه أبيض مستدير، و الآخر بوجه أسمر فيه سهولة فى كل وجه عينان، فكانت ترضعهما، و كلاهما مركب على عنق واحد فى جسد واحد بيدين و رجلين و فرج و دبر، فحملت إلى العزيز حتى رآها و وهب لأمها جملة من المال، ثم عادت إلى تنيس و ماتت بعد شهور.

و فى سنة إحدى و سبعين و خمسمائة وصل إلى تنيس من شوانى صقلية نحو أربعين مركبا، فحصروها يومين، و أقلعوا ثم وصل إليها من صقلية أيضا فى سنة ثلاث و سبعين نحو أربعين مركبا فقاتلوا أهل تنيس حتى ملكوها. و كان محمد بن إسحاق صاحب الأسطول قد حيل بينه و بين مراكبه، فتحيز فى طائفة من المسلمين إلى مصلى تنيس، فلما اجنهم الليل، هجم بمن معه البلد على الفرنج، و هم فى غفلة، فأخذ منهم مائة و عشرين، فقطع رؤوسهم، فأصبح الفرنج إلى المصلى و قاتلوا من بها من المسلمين، فقتل من المسلمين نحو السبعين، و سار من بقى منهم إلى دمياط، فمال الفرنج على تنيس و ألقوا فيها النار، فأحرقوها، و ساروا و قد امتلأت أيديهم بالغنائم و الأسرى إلى جهة الإسكندرية بعد ما أقاموا بتنيس، أربعة أيام.

ثم لما كانت سنة ست و سبعين و خمسمائة نزل فرنج عسقلان فى عشر حراريق على أعمال تنيس، و عليها رجل منهم، يقال له: المعز، فأسر جماعة، و كان على مصر، الملك العادل من قبل أخيه الملك الناصر، صلاح الدين يوسف، عند ما سار إلى بلاد الشام، ثم مضى المعز، و عاد فأسر و نهب، فثار به المسلمون، و قاتلوه فظفرهم اللّه به و قبضوا عليه، و قطعوا يديه و رجليه و صلبوه.

و فى سنة سبع و سبعين و خمسمائة، انتدب السلطان لعمارة قلعة تنيس، و تجديد الآلات بها عندما اشتدّ خوف أهل تنيس من الإقامة بها، فقدّر لعمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار عن ثمن أصناف و آجر.

و فى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة، كتب بإخلاء تنيس، و نقل أهلها إلى دمياط، فأخليت فى صفر من الذرارى و الأثقال، و لم يبق

بها سوى المقاتلة فى قلعتها.

و فى شوّال من سنة أربع و عشرين و ستمائة، أمر الملك الكامل، محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، بهدم مدينة تنيس، و كان من المدن الجليلة تعمل بها الثياب السرية، و تصنع بها كسوة الكعبة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۳۵

قال الفاكهىّ فى كتاب أخبار مكة: و رأيت كسوة مما يلى الركن الغربىّ، يعنى من الكعبة، مكتوبا عليها، مما أمر به السرىّ بن الحكم و عبد العزيز بن الوزير الجروىّ، بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين ، و طاهر بن الحسين سنة سبع و تسعين و مائة، و رأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها إلا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود، مما أمر به أمير المؤمنين، المأمون سنة ست و مائتين، و رأيت كسوة من كسا المهدىّ مكتوبا عليها: بسم اللّه بركة من اللّه لعبد اللّه المهدىّ محمد أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين و ستين و مائة، و رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها: بسم اللّه، بركة من اللّه مما أمر به عبد اللّه المهدىّ محمد أمير المؤمنين أصلحه اللّه محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع و خمسين و مائة.

قال المسبحىّ فى حوادث سنة أربع و ثمانين و ثلثمائة: و فى ذى القعدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس و دمياط و الفرما بهديته، و هى أسفاط و تخوت و صناديق مال، و خيل و بغال و حمير و ثلاث مظال، و كسوتان للكعبة.

و فى ذى الحجة سنة اثنتين و أربعمائة وردت هدية تنيس الواردة فى كل سنة منها خمس نوق مزينة و مائة رأس من الخيل بسروجها و لجمها و تجافيف و صناعات عدّة، و ثلاث قباب دبيقية بمراتبها، و متحرقات و بنود، و ما جرى الرسم بحمله من المتاع و المال و البز.

و لما قدم الحاكم استدعت أخته، السيدة سيدة الملك إلى عامل تنيس عن الحاكم بأن يحمل مالا كان اجتمع قبله، و يعجل توجيهه، و قيل: إنه كان ألف ألف دينار، و ألفى ألف درهم اجتمعت من ارتفاع البلد لثلاث سنين، و أمره الحاكم بتركها عنده، فحمل ذلك إليها و به استعانت على ما دبرت.

و فى سنة خمس عشرة و أربعمائة ورد الخبر على الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه، أبى هاشم علىّ بن الحاكم بأمر اللّه: أن السودان و غيرهم ثاروا بتنيس، و طلبوا أرزاقهم و ضيقوا على العامل، حتى هرب، و أنهم عاثوا فى البلد و أفسدوا، و مدّوا أيديهم إلى الناس، و قطعوا الطرقات و أخذوا من المودع ألفا و خمسمائة دينار، فقام الجرجرای و قعد، و قال:

كيف يفعل هذا بخزانة السلطان؟ و ساءنا فعل هذا بتنيس، أو بيت المال و سير خمسين فارسا للقبض على الجناة، و ما زالت تنيس مدينة عامرة ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها، و لا أحصن من عمارتها إلى أن خرّبها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة أربع و عشرين و ستمائة، فاستمرّت خرابا، و لم يبق منها إلا رسومها فى وسط البحيرة، و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۳۶

من جملة كورة تنيس: بورا، و منها، و إيوان، و شطا، و بحيرتها الآن يصاد منها السمك، و هى قليلة العمق يسار فيها بالعادىّ و تلتقى السفينتان هذه صاعدة، و هذه نازلة بريح واحدة، و قلع كل واحدة منها مملوء بالريح سيرهما فى السرعة مستو توسط البحيرة عدّة جزائر تعرف اليوم بالعزب، جمع عزبة، بضم العين المهملة و زاء ثم باء موحدة، سكنها طائفة من الصيادين، و فى بعضها ملاحات يؤخذ منها ملح عذب لذيذ ملوحته، و ماؤها ملح، و قد يحلو أيام النيل.

تونة: و كان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها: تونة يعمل بها طراز تنيس، و يصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا.

قال الفاكهى: و رأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها:

بسم اللّه، بركة من اللّه للخليفة الرشيد عبد اللّه هارون أمير المؤمنين أكرمه اللّه مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة

تسعين و مائة.

سمنای: قریۀ من قری تنیس غلبت علیها بحیرۀ تنیس، فصارت جزیرۀ، فلما کان فی شهر ربیع الأوّل سنۀ سبع و ثلاثین و ثمانمائۀ، کشف عن حجارۀ و آجرّ بها، فإذا عضادات زجاج کثیرۀ مکتوب علی بعضها اسم الإمام المعز لدین اللّه، و علی بعضها اسم الإمام العزیز باللّه نزار، و منها ما علیه اسم الإمام الحاکم بأمر اللّه، و منها ما علیه اسم الإمام الظاهر لإعزاز دین اللّه، و منها ما علیه اسم المستنصر، و هو أکثرها؛ أخبرنی بذلک من شاهده و رآه.

بورا: کانت فیما بین تنیس و دمیاط، و إلیها ینسب السمک الذی یقال له: البوریّ، و إلیها ینسب أیضا بنو البوریّ، الذین کانوا بالقاهرۀ و الإسکندریۀ.

و فی سنۀ عشر و ستمائۀ، وصل العدوّ إلیها بشوانیۀ، و سباها فقدمت إلیها القطائع التی کانت علی رشید، فسار عنها العدوّ.

القیس: بفتح القاف و بعدها سین مهملۀ، بلد ینسب إلیها الثیاب القیسیۀ آثارها إلی الیوم باقیۀ علی البحر الملح فیما بین السوادۀ و الواردۀ، و بعدها من مدینۀ الفرما قریب من ستۀ برد فی البرّ، و هناک تل عظیم من رمل خارج فی البحر الشامیّ یقطع الفرنج عنده الطریق علی المارۀ، و بالقرب من التل سباخ ینبت فیه ملح یحمله العربان إلی غزۀ و الرملۀ، و بقرب هذا السباخ آبار یزرع عندها مقاثی لعربان تلک البوادی.

ذکر مدینۀ صا

قال ابن وصیف شاه: و لما قسم قبطیم بن مصرایم الأرض بین أشمون و أتریب و قفط وصا، انتقل کل واحد إلی قسمه و حیزه، فخرج صا بأهله و ولده و حشمه إلی حیزه، و هو بلد البحیرۀ و الإسکندریۀ حتی انتهی إلی برقۀ، و نزل مدینۀ صا قبل أن تبنی الإسکندریۀ، و کان

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۱، ص: ۳۳۷

صا أصغر ولد أبیه و أحبهم إلیه، فلما ملک حیزه أمر بالنظر فی العمارات و بناء المدائن و البلدان و الهیاکل، و إظهار العجائب کما صنع إخوته و طلب الزیادۀ فی ذلک.

و قال مرهون الهندیّ: صاحب بانۀ فبنی من حدّ صا إلی حدّ لوبیۀ، و مراقیه علی البحر أعلاما، و جعل علی رؤوس تلک الأعلام مرائی من أخلاط شتی، فکان منها ما یمنع من دواب البحر و أذاها، و منها ما إذا قصدتم عدوّ من الجزائر و أصابها الشمس، ألقت شعاعا علی مراکبهم، فأحرقتها، و منها ما یری المدائن التی تحاذیهم من عدوۀ البحر، و ما یعمله أهلها، و منها ما ینظر فیها إلی إقلیم مصر فیعلم منه ما یخصب، و ما یجدب فی کل سنۀ، و جعل فیها حمامات تقدمن نفسها، و جعل مستشرفات و منتزهات، و کان ینزل کل یوم منها فی موضع بمن یخصه من خدمه و حشمه، و جعل حوالیها بساتین و سرح فیها الطیور المغرّدۀ، و الوحش المستأمن، و الأنهار المطردۀ و الریاض المونقۀ، و جعل شرفات قصوره من حجارۀ ملوّنۀ تلمع إذا أصابتها الشمس، فینشر شعاعها علی ما حولها، و لم یدع شیئا من آلۀ النعمۀ و الرفاهیۀ إلا استعمله، فکانت العمارۀ ممتدّۀ فی رمال رشید و رمال الإسکندریۀ إلی برقۀ، و کان الرجل یسافر فی أرض مصر لا یحتاج إلی زاد لکثرۀ الفواکه و الخیرات، و لا یسیر إلا فی ظلال تستره من الشمس، و عمل فی تلک الصحاری قصورا، و غرس فیها غروسا، و ساق إلیها من النیل أنهارا، فکان یسلک من الجانب الغربیّ إلی حدّ الغرب فی عمارۀ متصلۀ، فلما انقرض أولئک القوم بقیت آثارهم فی تلک الصحاری، و خربت تلک المنازل و باد أهلها، و لا یزال من دخل تلک الصحاری یحکی ما رآه فیها من الآثار و العجائب.

قال مؤلفه رحمه اللّه: حدّثنی الثقۀ، عمن دخل مدینۀ صا، و مشی فی خرابها فإذا هو بلبنۀ طولها أربعۀ أشبار، فتناولها و أخذ یتأملها، ثم کسرها فإذا فیها سنبلۀ قدر شبر وافر، کأنها کما حصدت، و فرکها بیده فخرج منها قمح أبیض، کبار حبه جدّا فی قدر حب اللوبیا،

فأكله كله فلم يجد فيه تغيرا، و دخل آخر إليها قبيل سنة تسعين و سبعمائة، و أخذ منها لبنة طولها ذراع و نصف فى عرض ذراع، فكسرها فإذا فيها سنبلة قمح ثخن كل قمحة منها فى مقدار ما يكون أكبر من الحمص، فلم يطق كسره إلا بعد ما رضه بالحجارة رضا، و وجد بصا: صنم لطيف طول أصبع فاتفق أنه ألقى فى خابية ماء فصار خمرا، و كان ذلك عند رجل من تنيس، فصلحت حاله من بيعه ذلك الخمر، فطلبه الأمير الأوحد مستولى تنيس، و ما زال به حتى أخذ الصنم منه.

رمل الغرابى

اعلم أنّ هذا الرمل ممتدّ فى الأرض و يسميه بعضهم: الرمل الهبير، و طوله من وراء جبل طى إلى أن يتصل مشرقا بالبحر، و يمضى من وراء جبل طى إلى أرض مصر، ثم إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۳۸

بلد النوبة، و يمتدّ إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر، و منه عرق يضرب من القادسية إلى البحرين، فيعبر البحرين فيمرّ على مشارق خورستان و فارس إلى أن يرد سجستان و يمرّ مشرقا إلى مرو آخذا على جيحون فى برّية خوارزم، و يأخذ فى بلاد الحدلحية إلى الصين و البحر المحيط فى جهة الشرق، و هو على ما وصفته و سقته من المحيط بالمشرق إلى المحيط بالمغرب، و فيه جبال عظام لا ترتقى، و بعضه فى أرض سهلة ينتقل من مكان إلى مكان، و منه أصفر لين اللمس و أحمر و أزرق سماوىّ و أسود حالك و أكحل مشبع كالنيل و أبيض كالثلج، و منه ما يحكى الغبار نعومة، و منه خشن جريش اللمس، و زعم بعضهم أن رمل الغرابىّ، و ما يتصل به من حدّ العريش إلى أرض العباسة حادث.

و ذكر فى سبب كونه، خبر فيه معتبر، و هو أنّ شدّاد بن هدّاد بن شدّاد بن عاد، أحد الملوك العادية، قدم إلى مصر، و غلب بكثرة جيوشه أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ملك مصر، و هدم ما بناه هو و آباؤه، و بنى لنفسه أهراما و نصب أعلاما زبر عليها الطلسمات، و اختط موضع الإسكندرية، و أقام هناك دهرا إلى أن نزل به و بقومه و باء، فخرجوا من أرض مصر إلى جهة وادى القرى فيما بين المدينة النبوية، و أرض الشام، و عمروا الملاعب و المصانع لحبس المياه التى تجتمع من الأمطار و السيول، فكان سعة كل مصنع ميلا فى ميل، و غرسوا النخل و غيره، و زرعوا أصناف الزراعات، فيما بين راية و أيلة إلى البحر الغربىّ، و امتدّت منازلهم من الدثنة إلى العريش و الجفار فى أرض سهلة ذات عيون تجرى و أشجار مثمرة، و زروع كثيرة، فأقاموا بهذه الأرض دهرا طويلا، حتى عثوا و بغوا و تجبروا و طغوا، و قالوا: نحن الأكثرون قوّة الأشدّون الأغلبون، فسلط اللّه عليهم الريح فأهلكتهم و نسفت مصانعهم و ديارهم، حتى سحلتها رملا فما تراه من هذه الرمال التى بأرض الجفار، ما بين العباسة حيث المنزلة التى تعرف اليوم بالصالحية إلى العريش من رمل مصانع العادية، و سالة صخورهم لما أهلكهم اللّه بالريح و دمّرهم تدميرا، و إياك و إنكار ذلك لغرابته، ففى القرآن الكريم ما يشهد لصحته، قال تعالى: وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ [الذاريات/ ۴۱] أى كالشىء الهالك البالى، و قيل: الرميم: نبات الأرض إذا يبس، و ديس، و قيل: الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم، و الرميم: الخلق البالى من كل شىء.

مراقية: مدينة مراقية، كورة من كور مصر الغربية، و هى آخر حدّ أرض مصر، و فى آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس، و هى برقة و بعدها من مدينة سنترية نحو من بريدين، و كان قطرا كبيرا به نخل كثير و مزارع، و به عيون جارية، و بها إلى اليوم بقية، و ثمرها جيد إلى الغاية و زرعها إذا بذر ينبت من الحبة الواحدة من القمح، مائة سنبلة، و أقل ما تنبت تسعون سنبلة، و كذلك الأرز بها فإنه جيد زاك و بها إلى اليوم بساتين متعدّدة، و كانت مراقية فى القديم من الزمان سكنها البربر الذين نفاهم داود عليه السلام من أرض فلسطين، فنزلها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۳۹

منهم خلائق، و منها تفرّقت البربر، فنزلت زناتة و مغيلة و ضريسة الجبال، و نزلت لواتة أرض برقة، و نزلت هوّارة طرابلس المغرب، ثم انتشرت البربر إلى السويس، فلما كان فى شوّال سنة أربع و ثلثمائة من سنى الهجرة المحمدية جلى أهل لوبية و مراقية إلى الإسكندرية خوفا من صاحب برقة، و لم تزل فى اختلال إلى أن تلاشت فى زمننا، و بها بعد ذلك بقية جيدة.

كوم شريك: هذا المكان بالقرب من الإسكندرية، له ذكر فى الأخبار عرف بشريك بن سمىّ بن عبد يغوث بن جزء المرادىّ القطيفىّ، من الصحابة رضى اللّه عنهم، و كان على مقدّمة عمرو بن العاص فى فتح الإسكندرية الثانى، فعند ما كثرت جمائع الروم انحاز شريك إلى هذا الكوم بأصحابه، و دافع الروم حتى أدركه عمرو، و كوم شريك هذا من جملة حوف رمسيس.

غيفة: قرية تقارب مدينة بلبيس، من الفسطاط إليها مرحلتان، كانت منزلة قافلة الحاج، و يقال: إنّ صواع الملك الذى فقد من مدينة مصر وجد فى رحال إخوة يوسف عليه السلام، بغيفة هذه.

سمنود: كان بها بربا عليه هيئة درقة، فيها كتابة حكى ابن زولاق عن أبى القاسم مأمون العدل: أنه نسخ الكتابة فى قرطاس و صوّره على درقة، قال: فما كنت أستقبل به أحدا، إلا ولى هاربا، و كان بها أيضا تماثيل و صور من يملك مصر، فيهم قوم عليهم شاسيات، و بأيديهم الحراب، و عليهم مكتوب هؤلاء يملكون مدينة مصر.

ذكر مدينة بلبيس

و سميت فى التوراة: أرض حاشان، و فيها نزل يعقوب لما قدم على ولده يوسف عليهما السلام، فأنزله بأرض حاشان، و هى: بلبيس إلى العلاقمة من أجل مواشيهم. قال ابن سعيد: بلبيس و اليها يصل حكمه إلى الواردة و هى آخر حدّ مصر، و إليها تنتهى المعادلة بفضة السواد، و يصير الناس يتعاملون بالفلوس بعدها إلى العريش، و هى أوّل الشام، و قيل:

هى آخر مصر.

و قال أبو عبيد البكرىّ: بلبيس، فتح أوّله و إسكان ثانيه بعده باء مثل الأولى مفتوحة أيضا و ياء ساكنة و سين مهملة، و هو موضع قريب مصر معروف، و ذكر ابن خرداذبه فى كتاب المسالك و الممالك: أن بين بلبيس، و مدينة فسطاط مصر، أربعة و عشرين ميلا.

و ذكر الواقدىّ: أنّ المقوقس زوّج ابنته أرمانوسة من قسطنطين بن هرقل، و جهزها بأموالها و جواريها و غلمانها و حشمها لتسير إليه حتى يبنى عليها فى مدينة فيسارية، و هم محاصرون لها، فخرجت إلى بلبيس، و أقامت بها، و بعثت حاجبها الكبير فى ألفى فارس إلى الفرما ليحفظ الطريق، و لا يدع أحدا من الروم و لا غيرهم يعبر إلى مصر، و بعث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۴۰

المقوقس رسله إلى أطراف بلاده مما يلى الشام، أن لا يتركوا أحدا يدخل أرض مصر مخافة أن يتحدّثوا بغلبة المسلمين على الشام، فيدخل الرعب فى قلوب عساكره، فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية، و سار عمرو بن العاص إلى مصر، نزل على بلبيس، و بها أرمانوسة ابنة المقوقس، فقاتل من بها و قتل منهم زهاء ألف فارس، و أسر ثلاثة آلاف، و انهزم من بقى إلى المقوقس، و أخذت أرمانوسة و جميع مالها و سائر ما كان للقبط فى بلبيس، فأحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسيّر إليه ابنته أرمانوسة مكرمة فى جميع مالها مع قيس بن أبى العاص السهمىّ، فسرّ بقدومها، ثم سار عمرو إلى القصر، و لم تزل من مدائن مصر الكبار، حتى نزل عليها مرى ملك الفرنج، و أخذها عنوة بعد حصار طويل، و قتل منها آلافا، و لها أخبار كثيرة و قد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر، بعد سنة ست و ثمانمائة بعد ما أدركناه، و بها عمارة كثيرة، و فيها عدّة بساتين و أهلها أصحاب يسار و نعم سنية.

ذكر بلد الورادة

الورادة من جملة الجفار. قال عبيد اللّه بن عبد اللّه بن خرداذبه فى كتاب المسالك و الممالك: و صفة الطريق و الأرض من الرملة

إلى أردود، اثنا عشر ميلا، ثم إلى غزة عشرون ميلا، ثم إلى العريش أربعة و عشرون ميلا فى رمل، ثم الورادة ثمانية عشر ميلا، ثم إلى الغريب عشرون ميلا، ثم إلى الفرما أربعة و عشرون ميلا.

قال الخليفة المأمون:

لليلك كان بالميدان أقصر منه بالفرما

غريب فى قرى مصريقاسى الهم و السدما

ثم إلى جرير ثلاثون ميلا، ثم إلى القاصرة أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلا، ثم إلى بلبيس أحد و عشرون ميلا، ثم إلى فسطاط مدينة مصر أربعة و عشرون ميلا.

و قال جامع تاريخ دمياط: و لما افتتح المسلمون الفرما، بعد ما افتتحوا دمياط و تنيس، ساروا إلى البقارة فأسلم من بها، و ساروا منها إلى الورادة، فدخل أهلها فى الإسلام و ما حولها إلى عسقلان.

و قال القاضى الفاضل فى متجدّدات شهر المحرّم سبع و ستين و خمسمائة: و صابحنا الورادة فبتنا على مينا الورادة، و دخلنا الورادة فرأيت تاريخ منارة جامعها سنة ثمان و أربعمائة، و اسم الحاكم بأمر اللّه عليها، و الورادة من جملة الجفار، و يقال: أخذ اسمها من الورود، و لم يزل جامعها عامرا تقام به الجمعة إلى ما بعد السبعمائة، و بلد الورّادة القديمة فى شرقىّ المنزلة التى يقال لها اليوم: الصالحية، و بها آثار عمائر و نخل قليل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۴۱

الصالحية: هذه البلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى، بأرض المسانح و العلاقمة فى أوّل الرمل الذى بين مصر و الشام، و أنشأ بها قصورا و جامعا و سوقا لتكون منزلة العساكر إذا خرجوا من الرمل، و ذلك فى سنة أربع و أربعين و ستمائة.

ذكر مدينة أيلة

ذكر ابن حبيب: أنّ أثال، بضم أوّله ثم ثاء مثلثة، وادى أيلة، و أيلة، بفتح أوّله على وزن فعلة، مدينة على شاطىء البحر فيما بين مصر و مكة سميت: بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام، و أيلة، أوّل حدّ الحجاز، و قد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح، بها التجارة الكثيرة و أهلها أخلاط من الناس، و كانت حدّ مملكة الروم فى الزمن الغابر، و على ميل منها باب معقود لقيصر، قد كان فيه مسلحته، يأخذون المكس، و بين أيلة و القدس، ست مراحل.

و الطور الذى كلم اللّه عليه موسى عليه السلام، على يوم و ليلة من أيلة، و كانت فى الإسلام منزلا لبنى أمية، و أكثرهم موالى عثمان بن عفان، و كانوا سقاة الحاج، و كان بها علم كثير، و آداب و متاجر و أسواق عامرة، و كانت كثيرة النخل و الزروع، و عقبة أيلة لا يصعد إليها من هو راكب، و أصلحها فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون، و سوّى طريقها، و رمّ ما استرم منها، و كان بأيلة مساجد عديدة، و بها كثير من اليهود، و يزعمون أن عندهم برد النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و أنه بعثه إليهم أمانا و كانوا يخرجونه رداء عدنيا ملفوفا فى الثياب قد أبرز منه قدر شبر فقط، و يقال: إنّ أيلة هى القرية التى ذكرها اللّه تعالى فى كتابه حيث قال:

وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ [الأعراف/ ۱۶۳].

و قد اختلف فى تعيين هذه القرية، فقال ابن عباس رضى اللّه عنهما: و عكرمة و السدىّ، هى أيلة؛ و عن ابن عباس أيضا: أنها مدينة بين أيلة و الطور؛ و عن الزهرىّ: إنها طبرية؛ و قال قتادة و زيد بن أسلم: هى ساحل من سواحل الشام بين مدين و عينونة، يقال لها: معناة، و سئل الحسين بن الفضل، هل تجد فى كتاب اللّه الحلال لا يأتيك إلا قوتا و الحرام يأتيك جزافا؟ قال: نعم فى قصة أيلة: إِذْ

تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ [الأعراف/ ۱۶۳].

و كان من خبر أهل القرية أنهم كانوا من بنى إسرائيل، و قد حرّم اللّه عليهم العمل فى يوم السبت، فزين لهم إبليس الحيلة، و قال: إنما نهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة، فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۲

و قيل: كان الرجل يأخذ خيطا، و يضع فيه وهقه، و يلقيه فى ذنب الحوت، و هو بتحريك الهاء و إسكانها، حبل كالطول، و يجعل فى الطرف الآخر من الخيط وتدا، و يتركه كذلك إلى يوم الأحد، ثم تطرّق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يبتلى حتى كثر الصيد للحيتان، و مشى به فى الأسواق، و أعلن الفسقة بصيده، فقامت طائفة من بنى إسرائيل، و جاهرت بالنهى، و اعتزلت و قالت: لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار، فأصبح الناهون، ذات يوم فى مجالسهم، و لم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إنّ للناس لشأنا، فعلوا على الجدار فإذا هم قردة، فدخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، فجعلت تأتيهم فتشم ثيابهم، و تبكى، فيقول الناهون للقردة: أ لم ننهكم، فتقول برأسها: نعم. قال قتادة:

فصارت الشباب قردة، و الشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا، و هلك سائرهم.

و قيل: إنّ ذلك كان فى زمن نبىّ اللّه داود عليه السلام، و قيل: إنّ أيلة أصلها أيلياليا، و قد وقع ذكرها فى التوراة كذلك، و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ: دكالة من البربر، بطن من المصامدة، و قالت طائفة: إنّ دكالة ولد أيلة، و يقال: أيل الذى سميت به عقبة أيلة، و أخر، أنهم من دغفل بن أيلة، و أنهم يعزون إلى البربر، و يقولون: نحن من ربيعة الفرس، و فى ذلك خلاف عظيم.

و ذكر المسعودىّ: أن يوشع بن نون عليه السلام حارب السميدع بن هزبر بن مالك العمليقىّ، ملك الشام، ببلد أيلة نحو مدين و قتله، و احتوى على ملكه، و فى ذلك يقول عون بن سعيد الجرهمىّ:

أ لم تر أن العملقىّ بن هرمزبأيلة أمسى لحمه قد تمزعا

تداعت عليه من يهود جحافل ثمانون ألفا حاسرين و درّعا

و هى أبيات كثيرة. و قال ابن إسحاق: فلما انتهى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إلى تبوك، أتاه تحية بن روبة صاحب أيلة فصالحه، و أعطاه الجزية، و أتاه أهل جرباء و أذرح، فأعطوه الجزية، و كتب لهم كتابا فهو عندهم، و كتب لتحية بن روبة: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا أمنة من اللّه و محمد النبىّ رسوله لتحية بن روبة و أهل أيلة أساقفهم و سائرهم فى البرّ و البحر لهم ذمّة اللّه و ذمّة النبىّ، و من كان معهم من أهل الشام، و أهل اليمن، و أهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، و إنه طيب لمن أخذه من الناس، و إنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه و لا طريقا يريدونه من برّ أو بحر». هذا كتاب جهيم بن الصلت و شرحبيل بن حسنة، بإذن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و كان ذلك فى سنة تسع من الهجرة، و لم تزل مدينة أيلة عامرة آهلة.

و فى سنة خمس عشرة و أربعمائة، طرق عبد اللّه بن إدريس الجعفرى أيلة و معه بعض بنى الجرّاح و نهبها و أخذ منها ثلاثة آلاف دينار، و عدّة غلال، و سبى النساء و الأطفال، ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۳

إنه صرف عن ولاية وادى القرى، فسارت إليه سرية من القاهرة لمحاربته.

قال القاضى الفاضل: و فى سنة ست و ستين و خمسمائة، أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، مراكب مفصلة و حملها على الجمال، و سار بها من القاهرة فى عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة، و كانت قد ملكها الفرنج، و امتنعوا بها، فنازلها فى ربيع الأوّل، و أقام المراكب و أصلحها و طرحها فى البحر، و شحنها بالمقاتلة و الأسلحة، و قاتل قلعة أيلة فى البرّ و البحر حتى فتحها فى العشرين من شهر ربيع الآخر، و قتل من بها من الفرنج و أسرهم، و أسكن بها جماعة من ثقاته، و قوّاهم بما يحتاجون إليه من سلاح و غيره، و عاد

إلى القاهرة فى آخر جمادى الأولى.

و فى سنة سبع و سبعين، وصل كتاب النائب بقلعة أيلة: أنّ المراكب على تحفظ و خوف شديد من الفرنج، ثم وصل الإيريس، لعنه اللّه، إلى أيلة، و ربط العقبة و سير عسكره إلى ناحية تبوك و ربط جانب الشام لخوفه من عسكر يطلبه من الشام أو مصر، فلما كان فى شعبان من السنة المذكورة كثر المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة، حتى صارت به مياه استغنى بها أهل القلعة عن ورود العين مدّة شهرين، و تأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر، و وهت لضعف أساسها فتداركها أصحابها و أصلحوها.

و ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: و من أباده الحدثان: الكوكة، و هم أمّة لهم أربعة ملوك، ملكوا أرض أيلة و الحجاز و بنى كل واحد منهم مدينة سماها باسمه، و جعلوا سائر الأرض خيمات، و قسموها على ثلاثين كورة و جعلوها أربعة أعمال لكل عمل، ملك يجلس على منبر ذهب فى مدينته، و عمل بربا و هى بيت الحكمة و عمل هيكلا لأخذ الكواكب، و جعل فيه أصناما من ذهب كل صنم له مرتبة، و كانت الإسكندرية و اسمها رقودة، فجعلوا لها خمس عشرة كورة، و جعلوا فيها كبار الكهنة، و نصبوا فى هياكلها من أصنام الذهب أكثر مما فى غيرها، و كان فيها مائتا صنم من ذهب و قسموا الصعيد على ثمانين كورة، و جعلوا أربعة أقسام، و كان عدد مدن أهل مصر الداخلة فى كورها، ثلاثين مدينة فيها العجائب.

و قيل: إنّ حمير الأكبر و اسمه العرنجج بن سبأ الأكبر و اسمه عامر و يعرف بعبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لما ملك بعد أبيه جمع جيوشه، و سار يطأ الأمم و يدوس الممالك، كما فعل أبوه فأمعن فى المشرق حتى أبعد يأجوج و مأجوج إلى مطلع الشمس، ثم قفل نحو المغرب، فجاءه قبائل من أهل اليمن من بنى هود بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، يشكون من ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، و ما نزل بهم من ظلمهم، فأمر برفعهم من أرض اليمن، و أنزلهم أيلة فعمروها من أيلة إلى ذات الآصال إلى أطراف جبل نجد، فقطعت ثمود هناك الصخور، و نحتوا من الجبال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۴۴

البيوت، و تكبروا و طغوا، فبعث اللّه فيهم صالحا نبيا و رسولا، فكذبوه و سألوه، أن يخرج لهم ناقة من صخرة، فأخرجها لهم، فعقروها، فأهلكهم اللّه بالصيحة، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

و قد ذكر أنّ موسى عليه السلام، سار ببنى إسرائيل بعد موت أخيه هارون إلى أرض أولاد العيص و هى التى تعرف بجبال السراة جنب بلد الشوبك، ثم مرّ فيها إلى أيلة، و توجه بعد أيام إلى برّية باب حيث بلاد الكرك، حتى حارب تلك الأمم، و كان إلى جانب أيلة مدينة يقال لها: عصبون جليلة عظيمة.

مربوط: كورة من كور الإسكندرية، كانت لشدّة بياضها لا يكاد يبين فيها دخول الليل إلا بعد وقت، و كان الناس يمشون فيها، و فى أيديهم خرق سود خوفا على أبصارهم، و من شدّة بياضها لبس الرهبان السواد، و كانت بلاد مربوط فى نهاية العمارة و الجنان المتصلة بأرض برقة، و هى اليوم من قرى الإسكندرية يزرع بها الفواكه و غيرها، و قد وقفها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، على جهات برّ بالجامع الحاكمى من القاهرة و بها جامع عمر فى سنة ست و ستين و ستمائة، ثم استأجرها الملك المؤيد شيخ المحمودى فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و جدّد عمارة بستانها، و قد خرب لترداد عرب لبدة و برقة إليه، فاستمرّت فى ديوان السلطان.

وادى هبيب: هذا الوادى بالجانب الغربىّ من أرض مصر، فيما بين مربوط و الفيوم، يجلب منه الملح و النطرون عرف بهبيب بن محمد بن معقل بن الواقعة بن حزام بن عفان الغفارىّ، أحد أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم شهد فتح مكة، و روى عنه أبو تميم الجيشانىّ، و أسلم مولى تجيب و سعيد بن عبد الرحمن الغفارىّ، و كان قد اعتزل عند فتنة عثمان رضى اللّه عنه بهذا الوادى، فعرف به، و كان يقول: لا يفرق بين قضاء دين رمضان، و يجمع بين الصلاتين فى السفر، و يقال لهذا الوادى أيضا: وادى الملوك، و وادى النطرون، و برّية شهاب، و برّية الإسقيط، و ميزان القلوب، و كان به مائة دير للنصارى، و بقى به سبعة ديورة، و قد ذكرت عند ذكر

الأديار من هذا الكتاب، و هو واد كثير الفوائد فيه النطرون، و يتحصل منه مال كثير و فيه الملح الأندرانىّ و الملح السلطانىّ، و هو على هيئة ألواح الرخام، و فيه:

الوكت و الكحل الأسود، و معمل الزجاج و فيه الماسكة، و هو طين أصفر فى داخل حجر أسود يحك فى الماء، و يشرب لوجع المعدة، و فيه البردىّ لعمل الحصر، و فيه عين الغراب و هو ماء فى هيئة البركة و طولها نحو خمسة عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع فى مغار بالجبل لا يعلم من أين يأتى، و لا إلى أين يذهب و هو حلو رائق.

و يذكر أنه خرج منه سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فتلقوا عمرو بن العاص بالطرّانة مرجعه من الإسكندرية يطلبون، أمانة لهم على أنفسهم و أديارهم، فكتب لهم بذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۵

أمانا بقى عندهم، و كتب لهم أيضا بجراية الوجه البحرى، فاستمرّت بأيديهم، و إنّ جرايتهم جاءت فى سنة زيادة على خمسة آلاف أردب و هى الآن لا تبلغ مائة أردب.

ذكر مدينة مدين

اشارة

اعلم أن مدين أمّة شعيب هم: بنو مديان بن إبراهيم عليه السلام، و أمهم قنطوراء ابنة يقطان الكنعانية، ولدت له ثمانية من الولد، تناسلت منهم أمم، و مدين على بحر القلزم تحاذى تبوك على نحو ست مراحل و هى أكبر من تبوك، و بها البئر التى استقى منها موسى لسائمة شعيب، و عمل عليها بيت.

قال الفرّاء: مدين اسم بلد و قطر، و قيل: اسم قبيلة سميت باسم أبيها مدين.

و يقال له: مديان بن إبراهيم، قاله مقاتل و غيره، و الجمهور على أنّ مدين أعجمىّ، و قيل: عربىّ، فإن كان عربيا فإنه يحتمل أن يكون فعيلا- من مدّن بالمكان، أقام به، و هو بناء نادر، و قيل: مهمل أو مفعلا من دان فتصحيحه شاذ، و هو ممنوع الصرف على كل حال، سواء كان اسم الأرض أو اسم القبيلة عجميا أو عربيا.

و قال المسعودىّ: قد تنازع أهل الشرائع فى قوم شعيب بن نوفل بن رعويل بن مرّ بن عيقا بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، و كان لسانه العربية، فمنهم من رأى أنهم من العرب البائدة، و الأمم البائدة، و بعض من ذكرنا من الأجيال الخالية، و منهم من رأى أنهم من ولد المحصن بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم الخليل، و أنّ شعيبا آخرهم فى النسب، و قد كانوا عدّة ملوك تفرّقوا فى ممالك متصلة، فمنهم المسمى: بأبجد، و هوّز، و حطى، و كلمن، و سعفص، و قرشت، و هم على ما ذكرنا بنو المحصن بن جندل.

و أحرف الجمل هى: أسماء هؤلاء الملوك و هى الاثنان و العشرون حرفا التى عليها حساب الجمل، و قد قيل فى هذه الحروف غير ما ذكرنا من الوجوه، فكان أبجد، ملك مكة، و ما يليها من الحجاز، و كان هوّز و حطى، ملكين ببلادوج، و هى الطائف و ما اتصل بذلك من أرض نجد، و كلمن و سعفص و قرشت، ملوك بمدين، و قيل: ببلاد مصر، و كان كلمن على ملك مدين، و من الناس من رأى أنه كان ملك جميع من سمينا مشاعا متصلا على ما ذكرنا، و إنّ عذاب يوم الظلة كان فى ملك، كلمن منهم، و إنّ شعيبا دعاهم، فكذبوه وعدهم بعذاب يوم الظلة، ففتح عليهم باب من السماء من نار، و نجا شعيب بمن آمن معه إلى الموضع المعروف بأيلة، و هى غيضة نحو مدين، فلما أحس القوم بالبلاء و اشتدّ عليهم الحرّ، و أيقنوا بالهلاك طلبوا شعيبا، و من آمن معه، و قد أظلتهم سحابة بيضاء طيبة النسيم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۶

و الهواء لا يجدون فيها ألم العذاب، فأخرجوا شعيبا و من آمن معه من مواضعهم، و أزالوهم عن أماكنهم، و توهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم، فجعلها اللّه عليهم نارا، فأتت عليهم فرثت جارية بنت كلمن أباها، و كانت بالحجاز فقالت:

كلمن هدّم ركنى‌هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه الحتف نارا وسط ظله

كوّنت نارا فأضحت‌دار قومى مضمحله

و قال المتنصر بن المنذر المدينىّ:

ألا يا شعيب قد نطقت مقالةأبدت بها عمرا و تحيى بنى عمرو

هم ملكوا أرض الحجاز بأوجه‌كمثل شعاع الشمس فى صورة البدر

و هم قطنوا البيت الحرام و زينواقطورا و فازوا بالمكارم و الفخر

ملوك بنى حطى و سعفص ذى الندىو هوّز أرباب الثنية و الحجر

قال المسعودىّ: و لهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب و سير، و كيفية تغلبهم على هذه الممالك، و تملكهم عليها و إبادتهم من كان فيها قبلهم من الأمم، و قيل: إنّ الأيكة المذكورة فى قوله عز و جل: كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ [الشعراء/ ۱۷۶]، و فى قوله سبحانه و تعالى: وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ [الحجر/ ۷۸] هى مدين، و قيل: من ساحل البحر إلى مدين، و قيل: هى غيضة نحو مدين، و قيل: بل أصحاب الأيكة، الذين بعث إليهم شعيب كانوا بتبوك بين الحجر، و أوّل الشام، و لم يكن شعيب منهم، و إنما كان من مدين.

و قال أبو عبيد البكرىّ: الأيكة المذكورة فى كتاب اللّه تعالى التى كانت منازل قوم شعيب، روى عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما فيها روايتان، إحداهما: إنّ الأيكة من مدين إلى شعيب، و الرواية الثانية: إنها من ساحل البحر إلى مدين، و كان شجرهم المقل و الأيكة عند أهل اللغة الشجر الملتف، و كانوا أصحاب شجر ملتف، و قال قوم: الأيكة:

الغيضة، و ليكة: اسم البلد و ما حولها كما قيل: مكة، و بكة.

و قال أبو جعفر النحاس: و لا يعلم ليكة اسم البلد، و قال ابن قتيبة: و كان بعضهم يزعم أن بكة، هو موضع المسجد و ما حولها مكة كما فرق بين الأيكة و ليكة، فقيل:

الأيكة: الغيضة، و ليكة البلد: حولها.

و قال البكرىّ: مدين بلد بالشام معلوم تلقاء غزة، و هو المذكور فى كتاب اللّه تعالى، و هذا و هم، بل مدين من أرض مصر، و بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، سرية إلى مدينة مدين، أميرهم: زيد بن حارثة رضى اللّه عنه، فأصاب سبيا من أهل ميتا. قال ابن إسحاق: و ميتا هى السواحل، فبيعوا و فرّق بين الأمهات و الأولاد، فخرج رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و هم يبكون فقال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۷

«ما لهم»؟ فأخبر خبرهم، فقال: «لا تبيعوهم إلّا جميعا». و مدين من منازل جذام بن عدىّ بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عزيب بن زيد بن كهلان.

و شعيب النبىّ المبعوث إلى أهل مدينة أحد بنى وائل بن جذام.

و قد روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال لوفد جذام: «مرحبا بقوم شعيب و أصهار موسى و لا تقوم الساعة حتى يتزوّج فيكم المسيح و يولد له».

و قال محمد بن سهل الأحول: مدين من أعراض المدينة مثل فدك و الفرع و رهاط.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: و كان بأرض مدين، عدّة مدائن كثيرة قد باد أهلها، و خربت، و بقى منها إلى يومنا هذا، و هو سنة خمس

و عشرين و ثمانمائة نحو الأربعين مدينة قائمة منها ما يعرف اسمه، و منها ما قد جهل اسمه، فمما يعرف اسمه فيما بين أرض الحجاز، و بلاد فلسطين، و ديار مصر، ست عشرة مدينة منها: فى ناحية فلسطين، عشر مدائن، و هى الخلصة، و السنيطة، و المدرة، و المنية، و الأعوج، و الخويرق، و البئرين، و الماءين، و السبع، و المعلق، و أعظم هذه المدائن العشر: الخلصة و السنيطة، و كثيرا ما تنقل حجارتها إلى غزة و يبنى بها هناك، و من مدائن مدين بناحية بحر القلزم و الطور مدينة فاران، و مدينة الرقة، و مدينة القلزم، و مدينة أيلة، و مدينة مدين، و بمدينة مدين إلى الآن آثار عجيبة و عمد عظيمة.

و وجد فى مدينة الأعوج، أعوام بضع و ستين و سبعمائة جب بقلعتها بعيد المهوى يبلغ عمقه نحو مائة ذراع، و بقاعه عدة أسفار على رفوف حمل منها سفر طوله، ذراعان و أزيد، قد غلف بلوحين من خشب، و كتابته بالقلم المسند، طول الألف و اللام، نحو شبر، فوجد ببلاد الكرك من قرأه، فإذا هو سفر من عشرة أسفار قد ابتدأه، بحمد اللّه، ثم قال: خروج موسى من أرض مصر إلى بلاد مدين، و ملوك بنى مدين فيما بعد شعيب، فذكر لموسى عليه السلام، عدّة أسماء منها، اسمه بالعربية: موسى بن عمران، و بالعبرانية: موشى، و بالفارسية: داران، و بالقبطية: هروسيس، و ذكر أنه تزوّج ابنة شعيب، و أنه أقام بمدينة ثمانى حجج، ثم قال لابن شعيب: قد أتممت لك شرطك، و سأزيدك سنتين فضلا منى.

بقية خبر مدينة مدين

قال: و خرج موسى متوجها إلى مصر، و الملك يومئذ على مدين أبجد. قال: و قوى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۸

أمر أبجد، فطغى حتى ملك الحجاز و اليمن، و كان له خمسة أولاد هم: هوّز، و حطى، و كلمن، و سعفص، و قرشت، فأقام أبجد ملكا باليمن، مائة سنة. و مات و قد استخلف من بعده ابنه: كلمن باليمن، و جعل ابنه هوّز على الحجاز، و ابنه حطى على أرض مصر، و ابنه سعفص على الجزيرة، و بلادها حيث الموصل و حرّان إلى أرض العراق، و ابنه قرشت على العراق و مشارفها من خراسان، و كان قرشت هو الجبار فيهم، و كان سعفص و هوّز و كلمن أهل عدل و حلم، و كان حطى صاحب بطش و جرأة.

و كان بنو إسرائيل إذ ذاك بالشام، فلم يملك أولاد أبجد أرض الشام، و لا احتووا عليها، و كانت مدّة ملكهم نحوا من مائة و خمسين سنة، فتم لهم بدولة أبيهم أبجد ثلثمائة سنة و أزيد.

ثم ملك بعدهم على بنى إسرائيل، روزيت بن هوّز، و عرزيت بن حطى بن أبجد نحو سبع سنين، ثم خرجت الدولة عن أولاد أبجد، و أقام هذا الكتاب عندهم زمانا، ثم أعادوه إلى الجبّ من قلعة الأعوج.

حدّثنى بهذا الخبر، الحافظ المتقن الضابط أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الغريانىّ التونسىّ المالكىّ، قال: حدثنى به شتر بن غنيم العامرىّ شيخ لقيه بأرض فلسطين، أنه شاهد الكتاب المذكور، و هو شاب، و حفظ منه ما تقدّم ذكره.

و قيل: إنّ مالك بن دعر بن حجر بن جديلة بن لخم كان له أربعة و عشرون ولدا ذكرا، فكثرت أولادهم، حتى بنوا المدائن و القرى و الحصون، و عمروا بلاد مدين كلها، و غلبوا على بلاد الشام و مصر و الحجاز، و غيرها خمسمائة سنة، و قيل: إنما كان استيلاء ملوك مدين على مصر، خمسمائة سنة بعد غرق فرعون موسى، و هلاكه دلوكة بنت زفان، حتى أخرجهم منها نبىّ اللّه سليمان بن داود، فعاد الملك إلى القبط بعدهم.

ذكر مدينة فاران

هذه المدينة بساحل بحر القلزم، و هى من مدن العماليق على تل بين جبلين، و فى الجبلين ثقوب كثيرة لا تحصى مملوءة أمواتا، و من هناك إلى بحر القلزم، مرحلة واحدة، و يقال له هناك ساحل بحر فاران، و هو البحر الذى أغرق اللّه فيه فرعون، و بين مدينة فاران، و

التيه مرحلتان، و يذكر أنّ فاران اسم لجبال مكة، و قيل: اسم لجبال الحجاز، و هى التى ذكرت فى التوراة، و التحقيق أنّ فاران و الطور كورتان من كور مصر القبلية، و هى غير فاران المذكورة فى التوراة، و قيل: إنّ فاران بن عمرو بن عمليق هو الذى نسب إليه جبال الحرم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۹

فقيل: جبال فاران، و بعضهم يقول: جبال فران و كانت مدينة فاران من جملة مدائن، مدين إلى اليوم، و بها نخل كثير مثمر، أكلت من ثمره، و بها نهر عظيم، و هى خراب يمرّ بها العربان.

ذكر أرض الجفار

اعلم أنّ الجفار اسم لخمس مدائن، و هى: الفرما، و البقارة، و الورادة، و العريش، و رفج، و الجفار كله رمل و سمى بالجفار لشدّة المشى فيه على الناس، و الدواب من كثرة رمله، و بعد مراحله، و الجفار تجفر فيه الإبل، فاتخذ له هذا الاسم كما قيل للحبل الذى يهجر به البعير، هجار، و للذى يحجر به حجار، و للذى يعقل به عقال، و للذى يبطن به بطان، و للذى يخطم به خطام، و للذى يزم به زمام، و اشتقت البقارة من البقر، و الواردة من الوريد، و العريش أخذ من العريش، و قيل: إن رفج اسم جبل.

و كان يسكن الجفار فى القديم خذام بن العريان.

و يقال: إنّ أرض الجفار كانت فى الدهر الأوّل و الزمن الغابر متصلة العمارة، كثيرة البركات مشهورة بالخيرات لكثرة زراعة أهلها الزعفران و العصفر و قصب السكر، و كان ماؤها غزيرا عذبا، ثم صار بها نخل يحدق بها من كل النواحى إلى أن دمرها اللّه تدميرا، فصارت إلى اليوم ذات رمل عظيم يسلك فيه إلى العريش، و إلى رفج كله قفر تعرف بقعته برمل الغرابىّ قليل الماء عديم المرعى، لا أنيس به، فسبحان محيل الأحوال.

ذكر صعيد مصر

الصعيد: المرتفع من الأرض، و قيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة، و قيل:

ما لم يخالطه رمل و لا سبخة، و قيل: هو وجه الأرض، و قيل: الأرض الطيبة، و قيل: هو كل تراب طيب، و تسمية هذه الجهة من أرض مصر بهذا الاسم إنما حدث فى الإسلام، سماها العرب بذلك لأنها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر، و لذلك يقال فيها: أعلى الأرض، و لأنها أرض ليس فيها رمل و لا سباخ، بل كلها أرض طيبة مباركة، و يقال للصعيد أيضا: الوجه القبلىّ.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: و لما حضرت مصرايم الوفاة، عهد إلى ابنه قبطيم، و كان قد قسم أرض مصر بين بنيه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۵۰

فجعل لقبطيم من بلد إلى أسوان، و لأشمون، من بلد أشمون إلى منف، و لأتريب، الحوف كله، و لصا من ناحية صا البحيرة إلى قرب برقة، و قال لأخيه فارق لك من برقة إلى الغرب، فهو صاحب إفريقية و ولده الأفارق، و أمر كلّ واحد من بنيه أن يبنى لنفسه مدينة فى موضعه.

و قال ابن عبد الحكم: فلما كثر ولد مصر و أولاد أولادهم، قطع مصر لكل واحد منهم قطعة يحوزها لنفسه و لولده، و قسم لهم هذا النيل، فقطع لابنه قفط، موضع قفط فسكنها، و به سميت: قفط قفطا، و ما فوقها إلى أسوان، و ما دونها إلى أشمون فى الشرق و الغرب، و قطع لأشمون من أشمون فما دونها فى الشرق و الغرب إلى منف، فسكن أشمون أشمون، فسميت به، و قطع لأتريب ما بين منف إلى صا فسكن أتريب فسميت به، و قطع لصا ما بين صا إلى البحر، فسكن صا فسميت به، فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء: جزأين بالصعيد، و جزأين بأسفل الأرض.

و قال أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوى فى كتاب الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد: مسافة إقليم الصعيد الأعلى مسيرة اثنى عشر يوما بسير الجمال، و عرضه ثلاث ساعات، و أكثر بحسب الأماكن العامرة، و يتصل عرضه فى الكورة الشرقية بالبحر الملح و أراضى البجة، و فى الغربية، بألواح و هى كورتان: شرقية، و غربية، و النيل بينهما فاصل، و أوّل الشرقية من مرج بنى هميم المتصلة أرضها بأراضى جرجا من عمل أخميم، و آخرها من قبلىّ الهو و يليها أوّل أراضى النوبة، و فى هذه الكورة تيج، و قفط و قوص، و أوّل الكورة الغربية، برديس تتصل أرضها بأرض جرجا، و فى هذه الكورة الغربية سمهود، و آخر الكورة الغربية أسوان و بحافته أكثر النخل من الجانبين، تكون مساحة الأراضى التى فيها النخل و البساتين تقارب عشرين ألف فدّان، و المستولى على إقليم الصعيد المشترى.

و يقال: كان بصعيد مصر، نخلة تحمل عشرة أرادب تمرا، فغصبها بعض الولاة فلم تحمل فى ذلك العام و لا تمرة واحدة، و كانت هذه النخلة فى الجانب الغربىّ، و بيع منها فى الغلاء كل ويبة بدينار.

و يقال: لما صوّرت الدنيا لأمير المؤمنين هارون بن محمد الرشيد لم يستحسن إلا كورة سيوط من صعيد مصر، فإنها ثلاثون ألف فدّان فى استواء من الأرض لو وقعت فيها قطرة ماء لانتشرت فى جميعها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۵۱

و بالصعيد بقايا سحر قديم، حكى الأمير طقطبا والى قوص فى أيام الناصر محمد بن قلاون قال: أمسكت امرأة ساحرة، فقلت لها: أريد أن أبصر شيئا من سحرك؟ فقالت:

أجود عملى أن أسحر العقرب على اسم شخص بعينه، فلا بدّ أن تقع عليه و يصيبه سمها، فتقتله. فقلت: أرينى هذا و اقصدينى بسحرك؟ فأخذت عقربا و عملت ما أحبت، ثم أرسلت العقرب فتبعنى! و أنا أتنحى عنه، و هو يقصدنى فجلست على تخت وضعته على بركة ماء، فأقبل العقرب إلى ذلك الماء، و أخذ فى التوصل إلىّ، فلم يطق ذلك، فمرّ إلى الحائط و صعد فيه، و أنا أشاهده، حتى وصل إلى السقف و مرّ فيه إلى أن صار فوقى و ألقى نفسه صوبى، و سعى نحوى حتى قرب منى، فضربته فقتلته، ثم قتلت الساحرة أيضا.

و أرض الصعيد كثيرة المواشى من الضأن و غير ذلك لكثرة نتاجه، حتى أن الرأس الواحد من نعاج الضأن، يتولد عنه فى عشر سنين، ألف و أربع و عشرون رأسا! و ذلك بتقدير السلامة، و أن تلد كلها أناثا، و تلدّ مرّة واحدة فى كل سنة، و لا تلد فى كل بطن غير رأس واحد، و إلا فإن ولدت فى السنة مرّتين، و كان فى كل بطن رأسان تضاعف العدد، و تأمل حساب ما قلناه تجده صحيحا، و قد شوهد كثيرا أنّ من أغنام الصعيد، ما يلد فى السنة ثلاث مرّات و يلد فى البطن الواحد، ثلاثة أرؤس.

و كانت الكثرة و الغلبة ببلاد الصعيد لست قبائل، و هم: بنو هلال، و بلى، و جهينة، و قريش، و لواته، و بنو كلاب، و كان ينزل مع هؤلاء عدّة قبائل سواهم من الأنصار، و من مزينة، و بنى دراج و بنى كلاب و ثعلبة و جذام.

و بلغ من عمارة الصعيد، أن الرجل فى أيام الناصر، محمد بن قلاون، و ما بعدها كان يمرّ من القاهرة إلى أسوان، فلا يحتاج إلى نفقة، بل يجد بكل بلد و ناحية، عدّة دور للضيافة، إذا دخل دارا منها، أحضر لدابته علفها، و جيء له بما يليق به من الأكل و نحوه، و آل أمره الآن إلى أن لا يجد الرجل أحدا فيما بين القاهرة و أسوان يضيفه لضيق الحال، ثم تلاشى أمر بلاد الصعيد منذ سنة الشراقى فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون سنة ست و سبعين و سبعمائة، و تزايد تلاشيه فى أيام الظاهر برقوق لجور الولاة، و لم يزل فى إدبار، إلى أن كانت سنة ست و ثمانمائة، و شرقت مصر بقصور مدّ النيل، فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف، حتى أنه مات من مدينة قوص سبعة عشر ألف إنسان، و ذلك كله سوى الطرحى على الطرقات، و من لا يعرف من الغرباء و نحوهم، ثم دمّر فى أيام المؤيد شيخ، فلم يبق منه إلا رسوم تبذل الولاة الجهد فى محوها، نسأل اللّه حسن الخاتمة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۵۲

ذكر الجنادل و لمع من أخبار أرض النّوبة

اشارة

الجندل: ما يقلّ الرجل من الحجارة، و قيل: هو الحجر كله، الواحدة، جندلة، و الجندل: الجنادل.

قال سيبويه: و قالوا جندل يعنون: الجنادل، و صرفوه لنقصان البناء عما لا ينصرف، و أرض جندلة، ذات جندل و قيل: الجندل، المكان الغليظ فيه حجارة، و مكان جندل، كثير الجندل.

قال عبد اللّه بن أحمد بن سليم الأسوانىّ فى كتاب أخبار النوبة: و المقرة و علوة و البجة و النيل، و أوّل بلد النوبة، قرية تعرف بالقصر من أسوان إليها خمسة أميال، و آخر حصن للمسلمين، جزيرة تعرف ببلاق، بينها و بين قرية النوبة ميل، و هو ساحل بلد النوبة، و من أسوان إلى هذا الموضع، جنادل كثيرة الحجر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة، و دلالة من يخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك، لأنّ هذه الجنادل متقطعة و شعاب معترضة فى النيل، و لانصبابه فيها خرير عظيم و دوىّ يسمع من بعد، و بهذه القرية مسلحة، و باب إلى بلد النوبة، و منها إلى الجنادل الأولى من بلد النوبة، عشر مراحل، و هى الناحية التى يتصرّف فيها المسلمون، و لهم فيما قرب أملاك و يتجرون فى أعلاها، و فيها جماعة من المسلمين قاطنون، لا يفصح أحدهم بالعربية، و شجرها كثير، و هى ناحية ضيقة شظفة كثيرة الجبال، و ما تخرج عن النيل، و قراها متسطرة على شاطئه و شجرها النخل و المقل، و أعلاها أوسع من أدناها، و فى أعلاها الكروم، و النيل لا يروى مزارعها لارتفاع أرضها، و زرعها، الفدّان و الفدّانان و الثلاثة على أعناق البقر بالدواليب، و القمح عندهم قليل و الشعير أكثر و السلت، و يعتقبون الأرض لضيقها، فيزرعونها فى الصيف بعد تطريتها بالزبل و التراب.

الدخن و الذرة و الجاورس و السمسم و اللوبيا.

و هذه الناحية نجراش مدينة المريس، و قلعة ابريم، و قلعة أخرى دونها، و بها مينا تعرف بأدواء ينسب إليها، لقمان الحكيم، و ذو النون، و بها بربا عجيب، و لهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من أجلّ ولاتهم لقربه من أرض الإسلام، و من يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه فى تجارة أو هدية إليه، أو إلى مولاه يقبل الجميع، و يكافىء عليه بالرقيق، و لا يطلق لأحد الصعود إلى مولاه لمسلم و لا لغيره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۵۳

و أوّل الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى، هى ساحل، و إليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أوّل بلدهم، و لا تتجاوزها المراكب، و لا يطلق لأحد من المسلمين، و لا من غيرهم الصعود منها إلا بإذن من صاحب جبلهم، و منها إلى المقس الأعلى، ست مراحل، و هى جنادل كلها، و شرّ ناحية رأيتها لهم لصعوبتها، و ضيقها و مشقة مسالكها، أما بحرها، فجنادل و جبال معترضة فيه، حتى إن النيل ينصب من شعاب و يضيق فى مواضع، حتى يكون سعة ما بين الجانبين، خمسين ذراعا، و برّها مجاوب ضيقة، و جبال شاهقة، و طرقات ضيقة، حتى لا يمكن الراكب أن يصعد منها، و الراجل الضعيف يعجز عن سلوكها، و رمال فى غربها و شرقها، و هذه الجبال حصنهم، و إليها يفزع أهل الناحية التى قبلها المتصلة بأرض الإسلام، و فى جزائرها نخل يسير و زرع حقير، و أكثر أكلهم السمك و يدّهنون بشحمه، و هى من أرض مريس، و صاحب الجبل و اليهم، و المسلحة بالمقس الأعلى صاحبها من قبل كبيرهم شديد الضبط لها، حتى أنّ عظيمهم إذا صار بها وقف به المسلحى، و أوهم أنه يفتش عليه، حتى يجد الطريق إلى ولده و وزيره، فمن دونهما و لا يجوزها دينار و لا درهم إذ كانوا لا يتبايعون بذلك إلا دون الجنادل مع المسلمين، و ما فوق ذلك لا بيع بينهم و لا شراء، و إنما هى معاوضة بالرقيق و المواشى و الحبال و الحديد و الحبوب، و لا يطلق لأحد أن يجوزها إلا بإذن الملك، و من خالف كان جزاؤه القتل كائنا من كان، و بهذا الاحتياط تنكتم أخبارهم حتى إنّ العسكر منهم يهجم على البلد إلى البادية و غيرهم، فلا يعلمون به، و السنباد الذى يخرط به الجوهر، يخرج من النيل فى هذه المواضع، يغطس عليه فيوجد جسمه باردا مخالفا للحجارة فإذا أشكل عليه نفخ فيه

بالفم فيعرق، و من هذه المسلحة إلى قرية تعرف: بساى، جنادل أيضا، و هى آخر كرسيهم، و لهم فيها أسقف و فيها بربا.

ثم ناحية سقلودا و تفسيرها السبع ولاة، و هى أشبه الأرض بالأرض المتاخمة لأرض الإسلام فى السعة و الضيق فى مواضع، و النخل و الكرم و الزرع و شجر المقل، و فيها شىء من شجر القطن، و يعمل منه ثياب و خشة، و بها شجر الزيتون، و واليها من قبل كبيرهم و تحت يده ولاة يتصرّفون، و فيها قلعة تعرف: بأصطنون، و هى أوّل الجنادل الثلاثة، و هى أشدّ الجنادل صعوبة لأنّ فيها جبلا معترضا من الشرق إلى الغرب فى النيل، و الماء ينصب من ثلاثة أبواب، و ربما رجع إلى ما بين عند انحساره شديد الخرير عجيب المنظر يتحدّر الماء عليه من علو الجبل و قبليّة فرش حجارة فى النيل نحو ثلاثة برد إلى قرية تعرف:

بيستو، و هى آخر قرى مريس، و أوّل بلد مقرة، و من هذا الموضع إلى حدّ المسلمين لسانهم مريسى، و هى آخر عمل متملكهم، ثم ناحية بقون، و تفسيرها بالعجب، و هى عند اسمها لحسنها، و ما رأيت على النيل أوسع منها، و قدّرت أن سعة النيل فيها من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل، الجزائر تقطعه و الأنهار منه تجرى بينها على أرض منخفضة، و قرى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۵۴

متصلة، و عمارة حسنة بأبرجة حمام، و مواش و أنعام و أكثر ميرة مدينتهم منها، و طيورها النقيط و النوبى و البغاء، و غير ذلك من الطيور الحسان، و أكثر نزهة كبيرهم فى هذه الناحية.

قال: و كنت معه فى بعض الأوقات، فكان سيرنا فى ظل شجر من الحافتين فى الخلجان الضيقة، و قيل: إنّ التمساح لا يضرّ هناك، و رأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة، ثم سفد بقل، و هى ناحية ضيقة شبيهة بأوّل بلادهم إلا أنّ فيها جزائر حسانا، و فيها دون المرحلتين نحو، ثلاثين قرية بالأبنية الحسان، و الكنائس و الأديار و النخل الكثير و الكروم و البساتين و الزرع، و مروج كبار فيها إبل و جمال صهب مؤبلة للنتاج، و كبيرهم يكثر الدخول إليها لأنّ طرفها القبلىّ يحاذى دنقلة مدينتهم، و من مدينة دنقلة دار المملكة إلى أسوان، خمسون مرحلة، و ذكر صفتها، ثم قال: إنهم يسقفون مجالسهم بخشب السنط، و بخشب الساج الذى يأتى به النيل فى وقت الزيادة سقالات منحوتة لا يدرى من أين تأتى.

و لقد رأيت على بعضها علامة غريبة، و مسافة ما بين دنقلة إلى أوّل بلد علوة أكثر مما بينها و بين أسوان، و فى ذلك من القرى و الضياع و الجزائر و المواشى و النخل و الشجر و المقل و الزرع و الكرم، أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الإسلام، و فى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام، فيها الجبال و الوحش و السباع، و مفاوز يخاف فيها العطش، و النيل يعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشمس، و إلى مغربها مسيرة أيام، حتى يصير المصعد كالمنحدر، و هى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف: بالشلة، و هو بلد يعرف بشنقير، و منه خرج العمرى، و تغلب على هذه الناحية إلى أن كان من أمره ما كان، و فرس البحر، يكثر فى هذه المواضع، و من هذه الموضع طرق إلى سواكن و باصع و دهلك و جزائر البحر، و منها عبر من نجا من بنى أمية عند هربهم إلى النوبة، و فيها خلق من البجة يعرفون بالرنافج انتقلوا إلى النوبة قديما و قطنوا هناك و هم على حدتهم فى الرعى و اللغة، لا يخالطون النوبة، و لا يسكنون قراهم، و عليهم وال من قبل النوبة.

ذكر تشعب النيل من بلاد علوة و من يسكن عليه من الأمم

اعلم أنّ النوبة و المقرة جنسان بلسانين، كلاهما على النيل، فالنوبة هم: المريس المجاورون لأرض الإسلام، و بين أوّل بلدهم، و بين أسوان خمسة أميال، و يقال: إنّ سلها جدّ النوبة، و مقرى جدّ المقرة من اليمن.

و قيل: النوبة و مقرى من حمير، و أكثر أهل الأنساب على أنهم جميعا من ولد حام بن نوح، و كان بين النوبة و المقرة حروب قبل النصرانية، و أوّل أرض المقرة قرية تعرف بنافة على مرحلة من أسوان، و مدينة ملكهم، يقال لها: نجراش، على أقل من عشر مراحل من أسوان، و يقال: إن موسى صلوات اللّه عليه، غزاهم قبل مبعثه فى أيام فرعون، فأخرب نافة، و كانوا صابئة يعبدون الكواكب، و

ينصبون التماثيل لهم، ثم تنصروا جميعا النوبة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۵۵

و المقرة، و مدينة دنقلة، و هى دار مملكتهم، و أوّل بلاد علوة، قرى فى الشرق على شاطىء النيل تعرف بالأبواب، و لهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح.

و النيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار، فمنها نهر يأتى من ناحية المشرق كدر الماء يجف فى الصيف حتى يسكن بطنه، فإذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء، و زادت البرك التى فيه، و أقبل المطر و السيول فى سائر البلد، فوقعت الزيادة فى النيل، و قيل: إنّ آخر هذا النهر، عين عظيمة تأتى من جبل.

قال مؤرخ النوبة: و حدّثنى سيمون صاحب عهد بلد علوة، أنه يوجد فى بطن هذا النهر، حوت لا قشر له ليس هو من جنس ما فى النيل، يحفر عليه قامة و أكثر، حتى يخرج، و هو كبير و عليه جنس مولد بين العلوة و البجة، يقال لهم: الديجيون، و جنس يقال لهم: بازة يأتى من عندهم طير يعرف بحمام بازين، و بعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة، ثم النيل الأبيض، و هو نهر يأتى من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن.

قال: و قد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذى عندهم، و عن لونه، فذكر أنه يخرج من جبال الرمل، أو جبل الرمل و أنه يجتمع فى بلد السودان فى برك عظام، ثم ينصب إلى ما لا يعرف، و إنه ليس بأبيض، فإمّا أن يكون اكتسب ذلك اللون، مما يمرّ عليه أو من نهر آخر ينصب إليه، و عليه أجناس من جانبيه، ثم النيل الأخضر، و هو نهر يأتى من القبلة مما يلى الشرق شديد الخضرة، صافى اللون جدّا، يرى ما فى قعره من السمك، و طعمه مخالف لطعم النيل، يعطش الشارب منه بسرعة، و حيتان الجميع واحدة، غير أنّ الطعم مختلف، و يأتى فيه وقت الزيادة خشب الساج و البقم و الغثاء، و خشب له رائحة كرائحة اللبان، و خشب غليظ ينحت و يعمل منه مقدام، و على شاطئه ينبت هذا الخشب أيضا، و قيل: إنه وجد فيه عود البخور.

قال: و قد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة التى تأتى فيه وقت الزيادة، علامة غريبة، و يجتمع هذان النهران الأبيض و الأخضر عند مدينة متملك بلد علوة، و يبقيان على ألوانهما قريبا من مرحلة، ثم يختلطان بعد ذلك، و بينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما.

قال: و أخبرنى من نقل النيل الأبيض، و صبه فى النيل الأخضر فبقى فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا، و بين هذين النهرين، جزيرة لا يعرف لها غاية، و كذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية، فأوّلهما يعرف عرضه، ثم يتسع فيصير مسافة شهر، ثم لا تدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض، لأنّ فيهما أجناسا كثيرة و خلقا عظيما، قال:

و بلغنى أنّ بعض متملكى بلد علوة سار فيها يريد أقصاها، فلم يأت عليه بعد سنين، و إنّ فى طرفها القبلىّ جنسا يسكنون و دوابهم فى بيوت تحت الأرض مثل السراديب بالنهار من شدّة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۵۶

حرّ الشمس، و يسرحون فى الليل، و فيهم قوم عراة، و الأنهار الأربعة الباقية، تأتى أيضا من القبلة مما يلى الشرق أيضا فى وقت واحد، و لا يعرف لها نهاية أيضا، و هى دون النهرين الأبيض و الأخضر فى العرض، و كثرة الخلجان و الجزائر، و جميع الأنهار الأربعة تنصب فى الأخضر، و كذلك الأوّل الذى قدّمت ذكره، ثم يجتمع مع الأبيض، و كلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن و غيرها، و أحد هذه الأربعة يأتى مرّة من بلاد الحبشة.

قال: و لقد أكثرت السؤال عنها، و استكشفتها من قوم عن قوم، فما وجدت مخبرا يقول إنه وقف على نهاية جميع هذه الأنهار، و الذى انتهى إليه علم من عرّفنى عن آخرين إلى خراب، و أنه يأتى فى وقت الزيادة فى هذه الأنهار، آلة مراكب و أبواب و غير ذلك، فيدل على عمارة بعد الخراب، فأمّا الزيادة فيجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتى من ذاتها، و الدليل على ذلك النهر الذى يجف و يسكن بطنه، ثم ينبع وقت الزيادة.

و من عجائبه: أنّ زيادته فى أنهار مجتمعة، و سائر النواحى و البلدان فى مصر و ما يليها و الصعيد و أسوان و بلد النوبة و علوة، و ما وراء ذلك فى زمان واحد، و أكثر ما وقف عليه من هذه الزيادة أنه ربما وجدت مثلا بأسوان، و لا توجد بقوص، ثم تأتى بعد فإذا كثرت الأمطار عندهم و اتصلت السيول، علم أنها سنة ريّ، و إذا قصرت الأمطار علم أنها سنة ظمأ، قال:

و أما من طرق بلاد الزنج فإنهم أخبرونى عن مسيرهم فى بحر الصين إلى بلاد الزنج بالريح الشمالىّ، مساحلين للجانب الشرقىّ من جزيرة مصر، حتى ينتهوا إلى موضع يعرف برأس حفرى، و هو عندهم آخر جزيرة مصر، فينظرون كوكبا يهتدون به، فيقصدون الغرب، ثم يعودون إلى البحرى، و يصير الشمال فى وجوههم، حتى يأتوا إلى قبيلة من بلاد الزنج و هى مدينة متملكهم، و تصير قبلتهم للصلاة إلى جدّة.

قال: و بعض الأنهار الأربعة يأتى، من بلاد الزنج لأنه يأتى فيه الخشب الزنجىّ، و سوبة مدينة العلوى شرقىّ الجزيرة الكبرى التى بين البحرين الأبيض و الأخضر فى الطرف الشمالىّ منها عند مجتمعهما، و شرقيها، النهر الذى يجف، و يسكن بطنه، و فيها أبنية حسان و دور واسعة، و كنائس كثيرة الذهب، و بساتين و لها رباط فيه جماعة من المسلمين، و متملك علوة أكثر مالا من متملك المقرة، و أعظم جيشا، و عنده من الخيل ما ليس عند المقرى، و بلده أخصب و أوسع، و النخل و الكرم عندهم يسير و أكثر حبوبهم الذرة البيضاء التى مثل الأرز منها، خبزهم و مزرهم و اللحم عندهم كثير لكثرة المواشى، و المروج الواسعة العظيمة السعة، حتى أنه لا يوصل إلى الجبل إلا فى أيام، و عندهم خيل عتاق، و جمال صهب عراب، و دينهم النصرانية يعاقبة، و أساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة، و كتبهم بالرومية يفسرونها بلسانهم، و هم أقل فهما من النوبة، و ملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم، و بغير جرم، و لا ينكرون ذلك عليه، بل يسجدون له و لا يعصون أمره على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۵۷

المكروه الواقع بهم، و ينادون الملك يعيش فليكن أمره، و هو يتتوّج بالذهب، و الذهب كثير فى بلده.

و مما فى بلده من العجائب: أنّ فى الجزيرة الكبرى التى بين البحرين جنسا يعرف:

بالكرنينا، لهم أرض واسعة مزروعة من النيل و المطر، فإذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر، و اختط على مقدار ما معه و زرع فى أربعة أركان الخطة يسيرا، و جعل البذر فى وسطه الخطة و شيئا من المزر، و انصرف عنه فإذا أصبح وجد ما اختط، قد زرع و شرب المزر، فإذا كان وقت الحصاد، حصد يسيرا منه و وضعه فى موضع أراده و معه مزر، و ينصرف، فيجد الزرع قد حصد بأسره، و جرّن فإذا أراد دراسه و تذريته فعل به كذلك، و ربما أراد أحدهم أن ينقى زرعه من الحشيش، فيلفظ بقلع شىء من الزرع فيصبح، و قد قلع جميع الزرع، و هذه الناحية التى فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين فى شهرين يزرع جميعها فى وقت واحد، و ميرة بلد، علوة و متملكهم من هذه الناحية، فيوجهون المراكب، فتوسق، و ربما وقع بينهم حرب.

قال: و هذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة و العلوة، و كل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه و لا يرتابون به، و لولا أنّ اشتهاره و انتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثله، لما ذكرت شيئا منه لشناعته، فأما أهل الناحية، فيزعمون أن الجنّ تفعل ذلك، و أنها تظهر لبعضهم، و تخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها، و تعمل لهم عجائب، و أنّ السحاب يطيعهم؟!.

قال: و من عجائب ما حدّثنى به متملك المقرة للنوبة، أنهم يمطرون فى الجبال، و يلتقطون منه للوقت سمكا على وجه الأرض، و سألتهم عن جنسه، فذكروا أنه صغير القدر بأذناب حمر، قال: و قد رأيت جماعة و أجناسا ممن تقدّم ذكر أكثرهم يعترفون بالبارى سبحانه و تعالى، و يتقرّبون إليه بالشمس و القمر و الكواكب، و منهم من لا يعرف البارى و يعبد الشمس و النار، و منهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة، و ذكر أنه رأى رجلا فى مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده؟ فقال: مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة، و سأله عن دينه؟

فقال: ربى و ربك اللّه، و ربّ الملك، و ربّ الناس كلهم واحد، و إنه قال له: فأين يكون؟

قال: فى السماء وحده، و قال: إنه إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء، أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل، و دعوا اللّه، فيجابون للوقت و تقضى حاجتهم قبل أن ينزلوه، و سأله هل أرسل فيكم رسول؟ قال: لا، فذكر له بعثة موسى و عيسى و محمد صلوات اللّه عليهم و سلامه، و ما أبدوا به من المعجزات، فقال: إذا كانوا فعلوا هذا، فقد صدقوا، ثم قال: قد صدّقتهم إن كانوا فعلوا.

قال مؤلفه رحمه اللّه: و قد غلب أولاد، كنز الدولة على النوبة و ملكوها (من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۵۸

سنة) و بنى بدنقلة جامع يأوى إليه الغرباء، و اعلم أنّ على ضفة النيل أيضا، الكانم، و ملكها مسلم، و بينه و بين بلاد مالى مسافة بعيدة جدّا، و قاعدة ملكه بلدة اسمها حميمى، و أوّل مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زرلا، و آخرها طولا بلدة يقال لها: كاكا، و بينهما نحو ثلاثة أشهر، و هم يتلثمون، و ملكهم متحجب لا يرى إلا يومى العيدين بكرة، و عند العصر، و طول السنة لا يكلمه أحد إلا من وراء حجاب، و غالب عيشهم الأرز، و هو ينبت من غير بذر، و عندهم القمح و الذرة و التين و الليمون و الباذنجان و اللفت و الرطب، و يتعاملون بقماش ينسج عندهم اسمه: دندى طول كل ثوب، عشرة أذرع، يشترون به من ربع ذراع فأكثر، و يتعاملون أيضا بالودع و الخرز و النحاس المكسر و الورق، و جميع ذلك بسعر ذلك القماش، و فى جنوبها شعارى و صحارى، فيها أشخاص متوحشة كالفيول قريبة من شكل الآدمىّ لا يلحقها الفارس تؤذى الناس، و يظهر فى الليل أيضا شبه نار تضىء، فإذا مشى أحد ليلحقها بعدت عنه، و لو جرى إليها لا يصل إليها بل لا تزال أمامه فإذا رماها بحجر، فأصابها تشظى منها شرر، و تعظم عندهم اليقطينة حتى تصنع منها مراكب يعبر فيها فى النيل.

و هذه البلاد بين إفريقية و برقة ممتدّة فى الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط، و هى بلاد قحطان و شطن و سوء مزاج، و أوّل من بث بها الإسلام، الهادى العثمانىّ، ادّعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و صارت بعده، لليزنيين من بنى سيف بن ذى يزن، و هم على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه اللّه، و العدل قائم بينهم، و هم يابسون فى الدين لا يلينون، و بنوا بمدينة مصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق فى سنى أربعين و ستمائة، و صارت و فودهم تنزل بها، و سيرد ذكرها فى المدارس إن شاء اللّه تعالى.

ذكر البجة و يقال إنهم من البربر

اعلم أنّ أول بلد البجة من قرية تعرف بالحزبة معدن الزمرّذ فى صحراء قوص، و بين هذا الموضع، و بين قوص نحو من ثلاث مراحل، و ذكر الجاحظ أنه ليس فى الدنيا معدن للزمرّذ غير هذا الموضع، و هو يوجد فى مغاير بعيدة مظلمة يدخل إليها بالمصابيح، و بحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال، و يحفر عليه بالمعاول، فيوجد فى وسط الحجارة، و حوله غشيم دونه فى الصبغ و الجوهر، و آخر بلاد البجة، أوّل بلاد الحبشة، و هم فى بطن هذه الجزيرة أعنى جزيرة مصر إلى سيف البحر الملح مما يلى جزائر سواكن، و باضع، و دهلك، و هم بادية يتبعون الكلأ، حيثما كان الرعى بأخبية من جلود.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۵۹

و أنسابهم من جهة النساء، و لكل بطن منهم رئيس، و ليس عليهم متملك و لا لهم دين، و هم يورثون، ابن البنت و ابن الأخت دون ولد الصلب، و يقولون: إنّ ولادة ابن الأخت و ابن البنت، أصح فإنه إن كان من زوجها، أو من غيره، فهو ولدها على كل حال، و كان لهم قديما رئيس يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه يسكن قرية تعرف: بهجر، هى أقصى جزيرة البجة، و يركبون النجب الصهب، و تنتج عندهم، و كذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضا، و المواشى من البقر و الغنم و الضأن غاية فى الكثرة عندهم، و بقرهم، و حسان ملعمة بقرون عظام، و منها جمّ و كباشهم كذلك منمرة و لها ألبان، و غذاؤهم اللحم و شرب اللبن، و أكلهم للجبن قليل، و فيهم من يأكله، و أبدانهم صحاح و بطونهم خماص، و ألوانهم مشرقة الصفرة، و لهم سرعة فى الجرى يباينون بها الناس، و كذلك

جمالهم شديدة العدو صبورة عليه، و على العطش، يسابقون عليها الخيل، و يقاتلون عليها، و تدور بهم كما يشتهون، و يقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره، و يتطاردون عليها فى الحرب، فيرمى الواحد منهم الحربة فإن وقعت فى الرمية طار إليها الجمل، فأخذها صاحبها، و إن وقعت فى الأرض ضرب الجمل بجرانه الأرض فأخذها صاحبها.

و نبغ منهم فى بعض الأوقات رجل يعرف بكلاز شديد مقدام، و له جمل ما سمع بمثله فى السرعة، و كان أعور، و صاحبه كذلك التزم لقومه أنه يشرف على مصلى مصر يوم العيد، و قد قرب العيد قربا لا يكون للبلوغ إليها فى مثله حقيقة، فوفى بذلك، و أشرف على المقطم و ضربت الخيل خلفه فلم يلحق، و هذا هو الذى أوجب أن يكون فى السفح طليعة يوم العيد، و كان الطولونية و غيرهم: من أمراء مصر يوقفون فى سفح الجبل المقطم، مما يلى الموضع المعروف: بالحبش، جيشا كثيفا مراعيا للناس حتى ينصرفوا من عيدهم فى كل عيد، و هم أصحاب ذمّة فإذا غدر أحدهم رفع المغدور به ثوبا على حربة، و قال: هذا عرش فلان يعنى أبا الغادر، فتصير سيئة عليه إلى أن يترضاه، و هم يبالغون فى الضيافة، فإذا طرق أحدهما الضيف ذبح له، فإذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب الأنعام إليه سواء كانت له أو لغيره، و إن لم يكن شىء نحر راحلة الضيف، و عوّضه ما هو خير منها، و سلاحهم الحراب السباعية مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع، و العود أربعة أذرع، و بذلك سميت سباعية و الحديدة فى عرض السيف لا يخرجونها من أيديهم إلا فى بعض الأوقات، لأنّ فى آخر العود شيئا شبيها بالفلكة يمنع خروجها عن أيديهم، و صناع هذه الحراب نساء فى موضع لا يختلط بهنّ رجل إلا المشترى منهنّ.

فإذا ولدت إحداهنّ من الطارقين لهنّ جارية استحيتها، و إن ولدت غلاما قتلته، و يقلن: إنّ الرجال بلاء و حرب، و درقهم من جلود البقر مشعرة، و درق مقلوبة تعرف بالأكسومة من جلود الجواميس، و كذلك الدهلكية و من دابة فى البحر، و قسيّهم عربية كبار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۶۰

غلاظ من السدر و الشوحط يرمون عليها بنبل مسموم، و هذا السم يعمل من عروق شجر الغلف يطبخ على النار حتى يصير مثل الغرا فإذا أرادوا تجربته شرط أحدهم جسده، و سيل الدم ثم شممه هذا السم، فإذا تراجع الدم علم أنه جيد، و مسح الدم لئلا يرجع إلى جسمه فيقتله، فإذا أصاب الإنسان قتل لوقته، و لو مثل شرطة الحجام، و ليس له عمل فى غير الجرح و الدم و إن شرب منه لم يضرّ، و بلدانهم كلها معادن، و كلما تصاعدت كانت أجود ذهبا و أكثر، و فيها معادن الفضة و النحاس و الحديد و الرصاص و حجر المغناطيس و المرقشيتا و الحمست و الزمرّذ و حجارة شطبا، فإذا بلّت الشطبة منها بزيت و قدت مثل الفتيلة و غير ذلك مما شغلهم طلب معادن الذهب عما سواه.

و البجة لا تتعرّض لعمل شىء من هذه المعادن، و فى أوديتهم شجر المقل و الإهليلج و الإذخر، و الشيح و السنا و الحنظل، و شجر البان و غير ذلك، و بأقصى بلدهم:

النخل و شجر الكرم و الرياحين، و غير ذلك مما لم يزرعه أحد، و بها سائر الوحش من السباع و الفيلة و النمور و الفهود و القردة و عناق الأرض و الزباد، و دابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب قليلة البقاء إذا صيدت، و من الطيور: الببغاء، و النقيط، و النوبىّ، و القمارىّ، و دجاج الحبش، و حمام بازين، و غير ذلك.

و ليس منهم رجل إلا منزوع البيضة اليمنى، و أما النساء فمقطوع أشفار فروجهنّ و إنه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوّج بمقدار ذكر الرجل، ثم قلّ هذا الفعل عندهم، و قيل: إنّ السبب فى ذلك أنّ ملكا من الملوك حاربهم قديما، ثم صالحهم و شرط عليهم قطع ثدىّ من يولد لهم من النساء، و قطع ذكور من يولد من الرجال، أراد بذلك قطع النسل منهم، فوفوا بالشرط، و قلبوا المعنى فى أن جعلوا قطع الثدىّ للرجال، و الفروج للنساء، و فيهم جنس يقلعون ثناياهم و يقولون: لا نتشبه بالحمير، و فيهم جنس آخر فى آخر بلاد البجة يقال لهم:

البازة، نساء جميعهم يتسمون باسم واحد، و كذلك الرجال، فطرقهم فى وقت رجل مسلم له جمال، فدعا بعضهم بعضا، و قالوا: هذا

اللّه قد نزل من السماء، و هو جالس تحت الشجرة، فجعلوا ينظرون إليه من بعد.

و تعظم الحيات ببلدهم و تكثر أصنافها، و رئيت حية فى غدير ماء، قد أخرجت ذنبها و التفت على امرأة وردت فقتلتها، فرؤى شحمها قد خرج من دبرها من شدّة الضغطة، و بها حية ليس لها رأس، و طرفاها سواء منقشة ليست بالكبيرة إذا مشى الإنسان على أثرها مات، و إذا قتلت و أمسك القاتل ما قتلها به من عود أو حربة فى يده، و لم يلقه من ساعته مات، و قتلت حية منها بخشبة، فانشقت الخشبة، و إذا تأمّل هذه الحية أحد، و هى ميتة أو حية أصابه ضررها، و فى البجة شرّ و تسرع إليه، و لهم فى الإسلام و قبله أذية على شرق صعيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۶۱

مصر خرّبوا هناك قرى عديدة، و كانت فراعنة مصر تغزوهم و توادعهم أحيانا لحاجتهم إلى المعادن، و كذلك الروم لما أن ملكوا مصر، و لهم فى المعادن آثار مشهورة، و كان أصحابهم بها و قد فتحت مصر.

قال عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم: و تجمع لعبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، فى انصرافه من النوبة على شاطىء النيل البجة، فسأل عن شأنهم؟ فأخبر: أن ليس لهم ملك يرجعون إليه، فهان عليه أمرهم، و تركهم، فلم يكن لهم عقد و لا صلح، و كان أوّل من هادنهم عبيد اللّه بن الحبحاب السلولىّ، و يذكر أنه وجد فى كتاب ابن الحبحاب، لهم ثلثمائة بكر فى كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجارا غير مقيمين على أن لا يقتلوا مسلما، و لا ذميّا، فإن قتلاه فلا عهد لهم، و لا يؤوا عبيد المسلمين، و أن يردّوا آبقيهم إذا وقعوا إليهم.

و يقال: إنهم كانوا يؤاخذون بهذا و بكل شاة أخذها البجاوى فعليه أربعة دنانير، و للبقرة عشرة، و كان وكيلهم مقيما بالريف رهينة بيد المسلمين، ثم كثر المسلمون فى المعدن فخالطوهم و تزوّجوا فيهم، و أسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب إسلاما ضعيفا، و هم شوكة القوم، و وجوههم، و هم مما يلى مصر من أوّل حدّهم إلى العلاقى، و عيذاب المعبر منه إلى جدّة و ما وراء ذلك، و منهم جنس آخر يعرفون بالرنافج هم أكثر عددا من الحدارب غير أنهم تبع لهم و خفراؤهم يحمونهم و يحبونهم المواشى و لكل رئيس من الحدارب، قوم من الرنافج فى حملته، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الرنافج قديما أظهر عليهم، ثم كثرت أذيتهم على المسلمين، و كان ولاة أسوان من العراق، فرفع إلى أمير المؤمنين المأمون خبرهم، فأخرج إليهم عبد اللّه بن الجهم، فكانت له معهم وقائع، ثم وادعهم، و كتب بينه و بين ركنون رئيسهم الكبير الذى يكون بقريتهم، هجر المقدّم ذكرها كتابا نسخته: هذا كتاب، كتبه عبد اللّه بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبى إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه اللّه فى شهر ربيع الأوّل سنة ست عشرة و مائتين، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان، إنك سألتنى و طلبت إلىّ أن أؤمنك و أهل بلدك من البجة، و أعقد لك و لهم أمانا علىّ، و على جميع المسلمين، فأجبتك إلى أن عقدت لك، و على جميع المسلمين أمانا ما استقمت، و استقاموا على ما أعطيتنى، و شرطت لى فى كتابى هذا، و ذلك أن يكون سهل بلدك و جبلها من منتهى حدّ أسوان من أرض مصر إلى حدّ ما بين دهلك و باضع ملكا للمأمون عبد اللّه بن هارون أمير المؤمنين أعزه اللّه تعالى، و أنت و جميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلا أنك تكون فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۶۲

بلدك ملكا على ما أنت عليه فى البجة، و على أن تؤدّى إليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجة، و ذلك مائة من الإبل، أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال، و الخيار فى ذلك لأمير المؤمنين و لولاته، و ليس لك أن تخرم شيئا عليك من الخراج، و على أنّ كل أحد منكم إن ذكر محمدا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أو كتاب اللّه أو دينه بما لا ينبغى أن يذكره به، أو قتل أحدا من المسلمين حرّا أو عبدا، فقد برئت منه الذمّة، ذمّة اللّه و ذمّة رسوله صلى اللّه عليه و سلم، و ذمّة أمير المؤمنين، أعزه اللّه، و ذمة جماعة المسلمين، و حلّ دمه كما يحلّ دم أهل الحرب و ذراريهم، و على أنّ أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال أو دلّه على عورة من عورات المسلمين، أو أثر لعزتهم فقد نقض ذمّة عهده و حلّ دمه، و على أنّ أحدا منكم إن قتل أحدا من

المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ حرّا أو عبدا أو أحدا من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمّتهم ما لا ببلد البجة، أو ببلاد الإسلام أو ببلاد النوبة أو فى شىء من البلدان برّا أو بحرا، فعليه فى قتل المسلم عشر ديات، و فى قتل العبد المسلم عشر قيم، و فى قتل الذمىّ عشر ديات من دياتهم، و فى كل مال أصبتموه للمسلمين، و أهل الذمّة عشرة أضعافه، و إن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، و لا تؤوا أحدا من آبقى المسلمين، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردّوه إلى المسلمين، و على أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة تلزمهم فى ذلك، و على أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحا، و لا تدخلون المدائن و القرى بحال، و لا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم و التجارة فيها برّا و لا- بحرا، و لا- تخيفوا السبيل، و لا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين، و لا أهل الذمّة، و لا تسرقوا لمسلم و لا ذمىّ مالا و على أن لا تهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون، بصيحة و هجر، و سائر بلادكم طولا و عرضا فإن فعلتم ذلك، فلا عهد لكم و لا ذمّة.

و على أن كنون بن عبد العزيز، يقيم بريف صعيد مصر وكيلا- يفى للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج، و ردّ ما أصابه البجة للمسلمين من دم و مال، و على أن أحدا من البجة لا يعترض حدّ القصر إلى قرية يقال لها قبان، من بلد النوبة حدّا لا عمدة عقد، عبد اللّه بن الجهم، مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز، كبير البجة الأمان على ما سمينا و شرطنا فى كتابنا هذا، و على أن يوافى به أمير المؤمنين فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له، و لا ذمّة، و على كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة، لقبض صدقات من أسلم من البجة، و على كنون الوفاء بما شرط، لعبد اللّه بن الجهم، و أخذ بذلك عهد اللّه عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء و الميثاق.

و لكنون بن عبد العزيز، و لجميع البجة: عهد اللّه و ميثاقه و ذمّة أمير المؤمنين، و ذمّة الأمير، أبى إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد، و ذمّة عبد اللّه بن الجهم، و ذمّة المسلمين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۶۳

بالوفاء، بما أعطاه عبد اللّه بن الجهم، ما وفى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه، فإن غيّر كنون، أو بدّل أحد من البجة، فذمّة اللّه جل اسمه، و ذمّة أمير المؤمنين، و ذمّة الأمير أبى إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد، و ذمّة عبد اللّه بن الجهم، و ذمّة المسلمين بريئة منهم، و ترجم جميع ما فى هذا الكتاب حرفا حرفا، زكريا بن صالح المخزومىّ من سكان جدّة و عبد اللّه بن إسماعيل القرشىّ، ثم نسق جماعة من شهود أسوان، فأقام البجة على ذلك برهة، ثم عادوا إلى غزو الريف من صعيد مصر، و كثر الضجيج منهم إلى أمير المؤمنين، جعفر المتوكل على اللّه، فندب لحربهم، محمد بن عبد اللّه القمىّ، فسأل أن يختار من الرجال، من أحبّ، و لم يرغب إلى الكثرة لصعوبة المسالك.

فخرج إليهم من مصر فى عدّة قليلة، و رجال منتخبة، و سارت المراكب فى البحر، فاجتمع البجة لهم فى عدد كثير عظيم قد ركبوا الإبل، فهاب المسلمون ذلك، فشغلهم بكتاب طويل كتبه فى طومار، و لفه بثوب فاجتمعوا لقراءته، فحمل عليهم، و فى أعناق الخيل الأجراس، فنفرت الجمال بالبجة، و لم تثبت لصلصلة الأجراس، فركب المسلمون أقفيتهم، و قتلوا منهم مقتلة عظيمة، و قتل كبيرهم، فقام من بعده، ابن أخيه، و بعث يطلب الهدنة، فصالحهم، على أن يطأ بساط أمير المؤمنين، فسار إلى بغداد، و قدم على المتوكل، بسرّمن‌رأى فى سنة إحدى و أربعين و مائتين، فصولح على أداء الإداوة و البقط، و اشترط عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن.

و أقام القمىّ بأسوان مدّة، و ترك فى خزائنها ما كان معه من السلاح و آلة الغزو، فلم تزل الولاة تأخذ منه حتى لم يبقوا منه شيئا، فلما كثر المسلمون فى المعادن، و اختلطوا بالبجة، قلّ شرهم، و ظهر التبر لكثرة طلابه، و تسامع الناس به فوفدوا من البلدان، و قدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحميد العمرىّ، بعد محاربته النوبة فى سنة خمس و خمسين و مائتين، و معه ربيعة و جهينة و

غيرهم من العرب، فكثرت بهم العمارة فى البجة حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان، ستين ألف راحلة، غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب، و مالت البجة إلى ربيعة و تروّحوا إليهم.

و قيل: إنّ كهان البجة قبل إسلام من أسلم منهم ذكرت، عن معبودهم الطاعة لربيعة، و لكنون معا، فهم على ذلك، فلما قتل العمرىّ، و استولت ربيعة على الجزائر، والاهم على ذلك البجة، فأخرجت من خالفها من العرب، و تصاهروا إلى رؤساء البجة، و بذلك كف ضررهم عن المسلمين.

و البجة الداخلة فى صحراء بلد علوة مما يلى البحر الملح إلى أوّل الحبشة، و رجالهم فى الظعن و المواشى و اتباع الرعى و المعيشة، و المراكب و السلاح، كحال الحدارب، إلا أن الحدارب أشجع و أهدى من الداخلة على كفرهم من عبادة الشيطان، و الاقتداء بكهانهم، المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۶۴

و لكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم معبدهم فيها، فإذا رأوا استخباره عما يحتاجون إليه تعرّى، و دخل إلى القبة مستدبرا، و يخرج إليهم و به أثر جنون و صرع، يقول: الشيطان يقرئكم السلام، و يقول لكم: ارحلوا عن هذه الحلة، فإنّ الرهط الفلانىّ يقع بكم، و سألتم عن الغزو إلى بلد كذا، فسيروا فإنكم تظفرون و تغنمون كذا و كذا، و الجمال التى تأخذونها من موضع كذا هى لى، و الجارية الفلانية التى تجدونها فى الخباء الفلانىّ، و الغنم التى من صفتها كذا، و نحو هذا القول، فيزعمون أنه يصدقهم فى أكثر من ذلك، فإذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر، و دفعوه إلى الكاهن يتموّله و يحرّمون ألبان نوقها على من لم يقبل، فإذا أرادوا الرحيل حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد، فيزعمون أن ذلك الجمل لا يثور إلا بجهد، و كذلك سيره و يتصبب عرقا، و الخيمة فارغة لا شىء فيها، و قد بقى فى الحدارب جماعة على هذا المذهب، و منهم من يتمسك بذلك مع إسلامه.

قال مؤرخ النوبة: و منه لخصت ما تقدّم ذكره، و قد قرأت فى خطبة الأجناس لأمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه: ذكر البجة و الكجة و يقول عنهم: شديد كلبهم، قليل سلبهم، فالبجة كذلك، و أما الكجة، فلا أعرفهم انتهى ما ذكره عبد اللّه بن أحمد مؤرخ النوبة.

و قال أبو الحسن المسعودى: فأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم و نيل مصر، و تشعبوا فرقا و ملّكوا عليهم ملكا، و فى أرضهم معادن الذهب، و هو التبر و معادن الزمرّذ، و تتصل سراياهم و مناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة، فيغزون و يسبون، و قد كانت النوبة قبل ذلك أشدّ من البجة إلى أن قوى الإسلام، و ظهر و سكن جماعة من المسلمين معدن الذهب، و بلاد العلاقى و عيذاب، و سكن فى تلك الديار خلق من من العرب من ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان، فاشتدّت شوكتهم، و تزوّجوا من البجة، فقويت البجة، ثم صاهرها قوم من ربيعة، فقويت ربيعة بالبجة على من ناواها، و جاورها من قحطان و غيرهم، ممن سكن تلك الديار.

و صاحب المعدن فى وقتنا هذا، و هو سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة يركب فى ثلاثة آلاف ألف من ربيعة و أحلافها من مصر، و اليمن و ثلاثين ألف حراب على النجب من البجة فى الجحف التحاوية، و هم الحدارب، و هم مسلمون ممن بين سائر البجة، و الداخلة من البجة، كفار يعبدون صنما لهم، و البجة المالكة لمعدن الزمرّذ يتصل ديارها بالعلاقى، و هو معدن الذهب، و بين العلاقى و النيل خمس عشرة مرحلة و أقرب العمارة إليه مدينة أسوان، و جزيرة سواكن أقل من ميل فى ميل، و بينها و بين البحر الحبشى بحر قصير يخاض، و أهلها طائفة من البجة تسمى: الخاسة، و هم مسلمون و لهم بها ملك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۶۵

و قال الهمدانىّ: نكح كنعان بن حام أرتيب بنت شاويل بن ترس بن يافث، فولدت له حقا، و الأساود، و نوبة، و قران، و الزنج، و الزغاوة، و أجناس السودان، و قيل: البجة من ولد حام بن نوح، و قيل: من ولد كوش بن كنعان بن حام، و قيل: البجة قبيلة من الحبش أصحاب أخبية من شعر، و ألوانهم أشدّ سوادا من الحبشة يتزيون بزىّ العرب، و ليس لهم مدن و لا قرى و لا مزارع، و معيشتهم مما ينقل إليهم من أرض الحبشة، و أرض مصر و النوبة.

و كانت البجة تعبد الأصنام، ثم أسلموا فى إمارة عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، و فيهم كرم و سماحة، و هم قبائل و أفخاذ لكل فخذ رئيس، و هم أهل نجعة و طعامهم اللحم و اللبن فقط.

ذكر مدينة أسوان

اشارة

أسوان من قولهم: أسى الرجل، يأسى أسى: إذا حزن، و رجل أسيان و أسوان: أى حزين، و أسوان فى آخر بلاد الصعيد، و هى ثغر من ثغور الإقليم يفصل بين النوبة و أرض مصر، و كانت كثيرة الحنطة، و غيرها من الحبوب و الفواكه و الخضراوات و البقول، و كانت كثيرة الحيوان من الإبل و البقر و الغنم، و لحمانها هناك غاية فى الطيب و السمن، و كانت أسعارها أبدا رخيصة، و بها تجارات و بضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة، و لا يتصل بأسوان من شرقها بلد إسلامىّ، و فى جنوبها جبل به معدن الزمرّد، و هو فى برّية منقطعة عن العمارة، و على خمسة عشر يوما من أسوان، معدن الذهب، و يتصل بأسوان من غربيها:

الواحات، و يسلك من أسوان إلى عيذاب، و يتوصل من عيذاب إلى الحجاز و إلى اليمن و الهند.

قال المسعودىّ: و مدينة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان، و نزار بن ربيعة و مضر، و خلق كثير من قريش، و أكثرهم من الحجاز و البلد كثير النخل خصيب، كثير الخير تودع النواة فى الأرض فتنبت نخلة، و يؤكل من ثمرها بعد سنتين، و لمن بأسوان ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدّون خراجها إلى ملك النوبة، و ابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الإسلام فى دولة بنى أمية و بنى العباس.

و قد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم، يوفد و فدهم إلى الفسطاط، ذكروا عنه أنّ أناسا من أهل مملكته و عبيده، باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان و أنها ضياعه و القوم عبيد لا أملاك لهم، و إنما تملكهم على هذه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۶۶

الضياع تملك العبيد العامرين فيها، فجعل المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان، و من بها من أهل العلم و الشيوخ، و علم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن يقدّموا إلى من ابتيع منهم من النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم أن لا يقرّوا لملكهم بالعبودية، و أن يقولوا سبيلنا معاشر النوبة، سبيلكم مع ملككم، يجب علينا طاعته، و ترك مخالفته فإن كنتم أنتم عبيدا لملككم و أموالكم له، فنحن كذلك، فلما جمع الحاكم بينهم و بين صاحب الملك، أتوا بهذا الكلام للحاكم و نحوه، مما أوقفوهم عليه من هذا المعنى، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم إلى هذا الوقت.

و توارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس، و صار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين من وصفنا، أحرار غير عبيد، و النوع الآخر من أهل مملكته عبيد و هم من سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان و هى بلاد مريس. قال: و أما النوبة، فافترقت فرقتين، فرقة فى شرق النيل و غربه، فأناخت على شاطئه، و اتصلت ديارها بديار القبط من أرض صعيد مصر، و اتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مصعدة، و لحقوا بقريب من أعاليه، و بنوا دار مملكة، و هى مدينة عظيمة تدعى: دنقلة، و الفرقة الأخرى من النوبة، يقال لها: علوة و بنوا مدينة عظيمة سموها: سرقته، و البلد المتصل مملكته بأرض أسوان يعرف بمريس، و إليه تضاف الريح المريسية، و عمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد، و مدينة أسوان. قال: و فى الجانب الشرقىّ من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمد و غيرها. فأما العمد و القواعد و الرءوس التى يسميها أهل مصر الأسوانية، و منها حجارة الطواحين، فتلك نقرها الأوّلون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين، و منها العمد التى بالإسكندرية. و فى ذى الحجة

سنة أربع و أربعين و ثلثمائة، أغار ملك النوبة على أسوان، و قتل جمعا من المسلمين، فخرج إليه محمد بن عبد اللّه الخازن على عسكر مصر من قبل، أو نوجور بن الإخشيد فى محرّم سنة خمس و أربعين، فساروا فى البرّ و البحر، و بعثوا بعدّة من النوبة أسروهم، فضربت أعناقهم، بعد ما أوقع بملك النوبة، و سار الخازن، حتى فتح مدينة أبريم و سبى أهلها، و قدم إلى مصر فى نصف جمادى الأولى سنة خمس و أربعين بمائة و خمسين أسيرا، و عدّة رؤوس. و قال القاضى الفاضل: إنّ متحصل ثغر أسوان فى سنة خمس و ثمانين و خمسمائة بلغ، خمسة و عشرين ألف دينار. و قال الكمال جعفر الأدفوى: و كان بأسوان ثمانون رسولا من رسل الشرع، و تحصل من أسوان فى سنة واحدة، ثلاثون ألف أردب تمرا، و أخبرنا من وقف على مكتوب كان فيه أربعون شريفا خاصة، و أنّ مكتوبا آخر رأى فيه ستين شريفا دون من عداهم.

قال: و وقفت أنا، على مكتوب فيه نحو من أربعين مؤرخ بما بعد العشرين و ستمائة من الهجرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۶۷

و كان بثغر أسوان، بنو الكنز من ربيعة أمراء ممدوحون مقصودون، صنع لهم الفاضل الشديد، أبو الحسن بن عرام سيرة، ذكر فيها مناقبهم، و أسماء من مدحهم و من ورد عليهم، و لما أرسل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا إلى كنز الدولة و أصحابه ترحلوا عن البلاد، فدخلوا بيوتهم، فوجدوا بها قصائد من مدحهم منها، قصيدة أبى محمد الحسن بن الزبير قال فيها:

و ينجده إن خانه الدهر أوسطاأناس إذا ما أنجد الذل اتهموا

أجاروا فما تحت الكواكب خائفو جادوا فما فوق البسيطة معدم

و أنه أجازه عليها بألف دينار، و وقف عليه ساقية تساوى ألف دينار، و كان بأسوان رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة و السودان عليه، فلما زالت الدولة الفاطمية أهمل ذلك، فسار ملك النوبة فى عشرة آلاف، و نزله تجاه أسوان فى جزيرة و أسر من كان فيها من المسلمين، ثم تلاشى بعد ذلك أمر الثغر، و استولى عليه أولاد الكنز من بعد سنة تسعين و سبعمائة، فأفسدوا فسادا كبيرا، و كانت لهم مع ولاة أسوان عدّة حروب إلى أن كانت المحن منذ سنة ست و ثمانمائة، و خرب إقليم الصعيد، فارتفعت يد السنة عن ثغر أسوان، و لم يبق للسلطان فى مدينة أسوان وال، و اتضع حاله عدّة سنين، ثم زحفتّ هوّارة فى محرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة إلى أسوان، و حاربت أولاد الكنز و هزموهم، و قتلوا كثيرا من الناس، و سبوا ما هناك من النساء و الأولاد، و استرقوا الجميع و هدموا سور مدينة أسوان، و مضوا بالسبى، و قد تركوها خرابا يبابا لا سكن بها، فاستمرت على ذلك بعد ما كانت بحيث يقول عنها عبد اللّه بن أحمد بن سليم الأسوانىّ فى كتاب أخبار النوبة: أن أبا عبد الرحمن عبد اللّه بن عبد الحميد العمرىّ، لما غلب على المعدن كتب إلى أسوان يسأل التجار الخروج إليه بالجهاز من طريق المعدن، فخرج إليه رجل يعرف بعثمان بن حيخلة التميمىّ فى ألف راحلة فيها الجهاز و البرّ.

و ذكر أنّ العمرىّ لما عاد إلى بلاد البجة بعد حروبه للنوبة، كثرت العمارة حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان، ستين ألف راحلة، غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب، قال: و مما شاهده جماعة من شيوخنا الثقات بأسوان بقرية تدعى أساشى، هى من أسوان على مرحلتين و نصف، أنهم رأوا شرقها من جانب النيل قرية بسور، و خارج بابها جميزة و ناس يدخلون و يخرجون، فإذا عبروا إلى الموضع لم يجدوا شيئا، و هذا يكون فى الشتاء دون الصيف قبل طلوع الشمس، و الناس مجمعون على رؤيتها، و صحة هذا الخبر، و كان بها أنواع من التمر و أنواع من الرطب منها نوع من الرطب، أشدّ ما يكون من خضرة السلق.

و أمر هارون الرشيد، أن يجمع له من ألوان تمر أسوان من كل صنف، تمرة واحدة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۶۸

فجمع له ويبة، و لا يعرف فى الدنيا بسر يتتمر قبل أن يصير رطبا إلا بأسوان.

ذكر بلاق

بلاق: أجلّ حصن للمسلمين، و هى جزيرة تقرب من الجنادل، محيط بها النيل فيها بلد كبير يسكنه خلق كثير من الناس و بها نخل عظيم، و منبر فى جامع و إليها تنتهى سفن النوبة، و سفن المسلمين من أسوان، و بينها و بين القرية التى تعرف بالقصر، و هى أوّل بلد النوبة ميل واحد، و بينها و بين أسوان أربعة أميال، و من أسوان إلى هذا الموضع، جنادل فى البحر، لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة، و دلالة من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك، و بالقصر مسلحة و باب إلى بلد النوبة.

ذكر حائط العجوز

هذا الحائط، كان حصنا لأرض مصر، يحدق بجميعها، و كان فيه محارس و مسالح، و من ورائه خليج يجرى فيه الماء، معقود عليه القناطر، عملته دلوكة بنت زبا، و قد وهى و تلاشى، و لم يبق منه إلا يسير فى شط النيل الشرقىّ ينتهى إلى أسوان.

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر: فبقيت مصر بعد غرقهم، يعنى فرعون و جنوده، و ليس فيها من أشراف أهلها أحد، و لم يبق بها إلا العبيد، و الأجراء، و النساء، فأعظم أشراف من بمصر من النساء، أن يولين منهم أحدا، و أجمع رأيهنّ، أن يولين امرأة منهن يقال لها: دلوكة بنت زبا، و كان لها عقل و معرفة و تجارب، و كانت فى شرف منهنّ و موضع، و هى يومئذ بنت مائة سنة و ستين سنة، فملكوها، فخافت أن يتناولها ملوك الأرض، فجمعت نساء الأشراف فقالت لهنّ: إنّ بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد، و لا يمدّ عينه إليها، و قد هلك أكابرنا و أشرافنا، و ذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم، و قد رأيت أن أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا، فأضع عليه المحارس من كل ناحية، فإنا لا نأمن من أن يطمع فينا الناس، فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها، المزارع و المدائن و القرى، و جعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء، و أقامت القناطر و الترع، و جعلت فيه محارس و مسالح على كل ثلاثة أميال، محرس و مسلحة، و فيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، و جعلت فى كل محرس رجالا، و أجرت عليهم الأرزاق، و أمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض بالأجراس، فأتاهم الخبر من أىّ جهة كانت فى ساعة واحدة، فنظروا فى ذلك، فمنعت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۶۹

بذلك مصر، ممن أرادها، و فرغت من بنائه فى ستة أشهر، و هو الجدار الذى يقال له: جدار العجوز بمصر، و قد بقيت بالصعيد منه بقايا كبيرة، و اللّه أعلم.

ذكر البقط

البقط: ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام، و يحمل إلى مصر، ضريبة عليهم، فإن كانت هذه الكلمة عربية، فهى إمّا من قولهم فى الأرض بقط من بقل و عشب، أى نبذ من مرعى، فيكون معناه على هذا، نبذة من المال أو يكون من قولهم، إنّ فى بنى تميم، بقطا من ربيعة أى فرقة أو قطعة، فيكون معناه على هذا، فرقة من المال، أو قطعة منه، و منه بقط الأرض، فرقة منها، و بقط الشىء: فرّقه.

و البقط: أن تعطى الحبة على الثلث أو الربع، و البقط أيضا: ما سقط من التمر إذا قطع، فأخطأ المخرف، فيكون معناه على هذا بعض ما فى أيدى النوبة، و كان يؤخذ منهم فى قرية يقال لها: القصر، مسافتها من أسوان خمسة أميال فيما بين بلد بلاق و بلد النوبة، و كان القصر فرضة لقوص، و أوّل ما تقرّر هذا البقط على النوبة فى إمارة عمرو بن العاص، لما بعث عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين، و قيل: سنة إحدى و عشرين فى عشرين ألفا، فمكث بها زمانا، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه.

فلما مات عمرو رضى اللّه عنه، نقض النوبة الصلح الذى جرى بينهم و بين عبد اللّه بن سعد، و كثرت سراياهم إلى الصعيد، فأخربوا، و

أفسدوا، فغزاهم مرّة ثانية عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، و هو على إمارة مصر فى خلافة عثمان رضى اللّه عنه، سنة إحدى و ثلاثين، و حصرهم بمدينة دنقلة حصارا شديدا، و رماهم بالمنجنيق، و لم تكن النوبة تعرفه و خسف بهم كنيستهم بحجر، فبهرهم ذلك، و طلب ملكهم و اسمه: قليدوروث الصلح، و خرج إلى عبد اللّه و أبدى ضعفا و مسكنة و تواضعا، فتلقاه عبد اللّه و رفعه و قرّبه، ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة و ستين رأسا فى كل سنة، و وعده عبد اللّه بحبوب يهديها إليه لما شكا له قلة الطعام ببلده، و كتب لهم كتابا نسخته بعد البسملة.

عهد من الأمير عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، لعظيم النوبة و لجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير و الصغير من النوبة من حدّ أرض أسوان إلى حدّ أرض علوة أنّ عبد اللّه ابن سعد، جعل لهم أمانا و هدنة جارية بينهم، و بين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر، و غيرهم من المسلمين، و أهل الذمّة، إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان اللّه و أمان رسوله محمد النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، أن لا نحاربكم، و لا ننصب لكم حربا و لا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا و بينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، و ندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، و عليكم حفظ من نزل بلدكم، أو يطرقه من مسلم أو معاهد، حتى يخرج عنكم، و إنّ عليكم ردّ كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين، حتى تردّوه إلى أرض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۷۰

الإسلام، و لا تستولوا عليه، و لا تمنعوا منه و لا تتعرّضوا لمسلم قصده و حاوره إلى أن ينصرف عنه، و عليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، و لا تمنعوا منه مصليا، و عليكم كنسه و إسراجه و تكرمته، و عليكم فى كل سنة ثلثمائة و ستون رأسا، تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران و إناث، ليس فيها شيخ هرم، و لا عجوز، و لا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والى أسوان، و ليس على مسلم دفع عدوّ عرض لكم و لا منعه عنكم، من حدّ أرض علوة إلى أرض أسوان، فإن أنتم آويتم عبد المسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا، أو تعرّضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئا من الثلاثمائة رأس و الستين رأسا، فقد برئت منكم هذه الهدنة و الأمان وعدنا نحن و أنتم على سواء حتى يحكم اللّه بيننا، و هو خير الحاكمين علينا بذلك عهد اللّه و ميثاقه و ذمّته و ذمّة رسوله محمد صلى اللّه عليه و سلم، و لنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمّة المسيح، و ذمّة الحواريين، و ذمّة من تعظمونه من أهل دينكم، و ملتكم اللّه الشاهد بيننا و بينكم على ذلك. كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى و ثلاثين.

و كانت النوبة دفعت إلى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط قبل نكثهم، و أهدوا إلى عمرو أربعين رأسا من الرقيق، فلم يقبلها، و ردّ الهدية إلى كبير البقط و يقال له:

سمقوس، فاشترى له بذلك جهازا و خمرا، و وجهه إليه، و بعث إليهم عبد اللّه بن سعد، ما وعدهم به من الحبوب، قمحا و شعيرا و عدسا و ثيابا و خيلا ثم تطاول الرسم على ذلك، فصار رسما يأخذونه عند دفع البقط فى كل سنة، و صارت الأربعون رأسا التى أهديت إلى عمرو يأخذها والى مصر.

و عن أبى خليفة حميد بن هشام البحترىّ، أن الذى صولح عليه النوبة، ثلثمائة و ستون رأسا لفىء المسلمين، و لصاحب مصر أربعون رأسا و يدفع إليهم ألف أردب قمحا، و لرسله ثلثمائة أردب، و من الشعير كذلك، و من الخمر ألف اقتيز للمتملك، و لرسله ثلثمائة اقتيز، و فرسين من نتاج خيل الإمارة، و من أصناف الثياب مائة ثوب، و من القباطىّ أربعة أثواب للمتملك و لرسله ثلاثة، و من البقطرية، ثمانية أثواب، و من المعلمة خمسة أثواب و جبة مجملة للملك، و من قمص أبى بقطر عشرة أثواب، و من أحاص عشرة أثواب، و هى ثياب غلاظ.

قال أبو خليفة: ليس فى كتاب عبد اللّه بن وهب و لا فى كتاب الواقدىّ تسمية ينتهى إليها، و إنما أخذت التسمية من أبى زكريا، قال أبو زكريا: سمعت والدى عمرو بن صالح يقول هذا الخبر، فحفظت منه، ما وقفت عليه، و قال: حضرت مجلس الأمير، عبد اللّه بن

طاهر، و هو على مصر، فقال: أنت عثمان بن صالح، الذى وجهنا إليك فى كتاب بقط النوبة، قلت: نعم، فأقبل علىّ محفوظ بن سليمان، فقال: ما أعجب أمر هذه البلدة وجهنا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۷۱

إليهم نطلب علما من علومهم، و إلى هذا الشيخ، فما شقانا أحد منهم، فقلت: أصلح اللّه الأمير، إنّ الذى طلبت من خبر النوبة عندى، قد حفظه شيوخ عن الشيوخ الذين حضروا هناك، و الهدنة و الصلح الذى جرى بين عبد اللّه بن سعد، و بين النوبة، ثم حدّثته عن أخبارهم، كما سمعت فأنكر عطية الخمر، فقلت: قد أنكرها عبد العزيز بن مروان، و كان هذا المجلس بفسطاط مصر سنة إحدى عشرة و مائتين، بعد أن تم الصلح بينه و بين عبد اللّه بن السرىّ بن الحكم التميمىّ الأمير كان قبله، قال عثمان بن صالح، فوجه الأمير إلى الديوان بظهر المسجد الجامع بمصر، فاستخرج منه خبر النوبة، فوجده كما ذكرت، فسرّه ذلك.

و عن مالك بن أنس: أنه كان يرى أنّ أرض النوبة إلى حدّ علوة صلح، و كان لا يجيز شراء رقيقهم، و كان أصحابه مثل عبد اللّه بن عبد الحكم، و عبد اللّه بن وهب، و الليث بن سعد، و يزيد بن أبى حبيب و غيرهم من فقهاء مصر، يرون خلاف ذلك.

قال الليث بن سعد: نحن أعرف بأرض النوبة من الإمام مالك بن أنس، إنما صولحوا على أن لا تغزوهم، و لا تمنع منهم عدوّا فما استرقه متملكهم، أو غزا بعضهم بعضا، فشراؤه جائز، و ما استرقه بغاة المسلمين و سرّاقهم، فغير جائز، و كان عند جماعة منهم جوار نوبيات لفرشهم، و لم يزل النوبة يؤدّون البقط فى كل سنة، و يدفع إليهم ما تقدّم ذكره إلى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله، أبى إسحاق بن الرشيد، و كبير النوبة، يومئذ زكرياء بن بجنس، و كانت النوبة، ربما عجزت عن دفع البقط، فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم، و يمنع من إخراج الجهاز إليهم، فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكرياء على أبيه، بذله الطاعة لغيره، و استعجزه فيما يدفع، فقال له أبوه فما تشاء، قال:

عصيانهم و محاربتهم، قال أبوه: هذا شىء رآه السلف من آبائنا صوابا و أخشى أن يفضى هذا الأمر إليك فتقدم على محاربة المسلمين، غير أنى أوجهك إلى ملكهم رسولا فأنت ترى حالنا و حالهم فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة و إلا سألته الإحسان إلينا، فشخص فيرقى إلى بغداد، و كانت البلدان تزين له و يسير على المدن، و انحدر بانحداره رئيس البجة بأسبابه، و لقيا المعتصم، فنظروا إلى ما بهرهما من حال العراق فى كثرة الجيوش، و عظم العمارة مع ما شاهداه فى طريقهما، فقرّب المعتصم فيرقى و أدناه و أحسن إليه إحسانا تامّا، و قبل هديته، و كافأه بأضعافها، و قال له: تمنّ ما شئت، فسأله فى إطلاق المحبوسين فأجابه إلى ذلك، و كبر فى عين المعتصم و وهب له الدار التى نزلها بالعراق و أمر أن يشترى له فى كل منزل من طريقه دار تكون لرسلهم، فإنه امتنع من دخول دار لأحد فى طريقه فأخذ له بمصر: دار بالجيزة، و أخرى ببنى وائل، و أجرى لهم فى ديوان مصر سبعمائة دينار و فرسا و سرجا و لجاما و سيفا محلّى و ثوبا مثقلا و عمامة من الخز و قميص شرب و رداء شرب و ثيابا لرسله غير محدودة عند وصول البقط إلى مصر، و لهم حملان و خلع على المتولى لقبض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۷۲

البقط، و عليهم رسوم معلومة لقابض البقط و المتصرّفين معه، و ما يهدى إليهم بعد ذلك فغير محدود، و هو عندهم هدية يجازون عليها، و نظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون، فوجده أكثر من البقط، و أنكر عطية الخمر، و أجرى الحبوب و الثياب التى تقدّم ذكرها، و قرّر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين، و كتب لهم كتابا بذلك بقى فى يد النوبة، و ادّعى النوبىّ على قوم من أهل أسوان أنهم اشتروا أملاكا من عبيده، فأمر المعتصم بالنظر فى ذلك، فأحضر والى البلد، و المختار للحكم فيه، التابعين من النوبة و سألاهم: عما ادّعاه صاحبهم من بيعهم، فأنكروا ذلك، و قالوا: نحن رعية، فزال ما ادّعاه، و طلب أشياء غير ذلك من إزالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها إلى الحدّ الذى بينهم و بين المسلمين لأنّ المسلحة على أرضهم، فلم يجبه إلى ذلك، و لم يزل الرسم جاريا بدفع البقط على هذا التقرير، و يدفع إليهم ما أجراه المعتصم إلى أن قدمت الدولة الفاطمية إلى مصر، ذكر ذلك مؤرخ النوبة.

و قال أبو الحسن المسعودىّ: و البقط هو ما يقبض من السبى فى كل سنة، و يحمل إلى مصر ضريبة عليهم، و هو ثلثمائة رأس و خمسة و ستون رأسا لبيت المال بشرط الهدنة بين النوبة و المسلمين، و للأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأسا، و لخليفته المقيم بأسوان و هو المتولى لقبض البقط عشرون رأسا و للحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط، خمسة أرؤس و لاثنى عشر شاهدا عدول من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأسا من السبى على حسب ما جرى به الرسم فى صدر الإسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين و النوبة.

و قال البلاذرى فى كتاب الفتوحات: إنّ المقرّر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعاما، أى غلة و ألزمهم أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور، ثلثمائة و ستين رأسا و زراقة.

و فى سنة أربع و سبعين و ستمائة، كثر خبث داود، متملك النوبة، و أقبل إلى أن قرب من مدينة أسوان، و حرّق عدّة سواق، بعد ما أفسد بعيذاب، فمضى إليه والى قوص، فلم يدركه، و قبض على صاحب الخيل فى عدّة من النوبة، و حملهم إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بقلعة الجبل فوسطهم و قدم سكندة ابن أخت متملك النوبة متظلما من خاله داود، فجرّد السلطان معه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى الإستادار، و الأمير عز الدين إيبك الأفرم، و أمير جاندار فى جماعة كثيرة من العسكر، و من أجناد الولايات و عربان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۷۳

الوجه القبلىّ و الزراقين و الرماة و رجال الحراريق، فساروا فى أوّل شعبان من القاهرة حتى وصلوا إلى أرض النوبة، فخرجوا إلى لقائهم على النجب بأيديهم الحراب، و عليهم دكادك سود، فاقتتل الفريقان قتالا كبيرا، انهزم فيه النوبة و أغاز الأفرم على قلعة الدار، و قتل و سبى و أوغل الفارقانى فى أرض النوبة برّا و بحرا، يقتل و يأسر، فحاز من المواشى ما لا يعدّ، و نزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل، و نفر المراكب من الجنادل، ففرّ النوبة إلى الجزائر، و كتب لقمر الدولة نائب داود متملك النوبة أمانا، فحلف لسكندة على الطاعة، و أحضر رجال المريس و من فرّ، و خاض الأفرم إلى برج فى الماء و حصره، حتى أخذه و قتل به مائتين و أسر أخا لداود، فهرب داود و العسكر فى أثره، مدّة ثلاثة أيام و هم يقتلون و يأسرون، حتى أذعن القوم، و أسرت أم داود و أخته، و لم يقدر على داود، فتقرّر سكندة عوضه، و قرّر على نفسه القطيعة فى كل سنة ثلاث فيلة، و ثلاث زرافات، و خمس فهود من أناثها، و مائة نجيب أصهب، و أربعمائة رأس من البقر المنتجة، على أن تكون بلاد النوبة نصفين، نصفها للسلطان، و نصفها لعمارة البلاد، و حفظها ما خلا بلاد الجنادل، فإنها كلها للسلطان لقربها من أسوان، و هى نحو الربع من بلاد النوبة، و أن يحمل ما بها من التمر و القطن، و الحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان، و أن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية، فيدفع كل بالغ منهم فى السنة دينارا عينا، و كتب نسخة يمين بذلك، حلف عليها الملك سكندة.

و نسخة يمين أخرى، حلفت عليها الرعية، و خرّب الأميران كنائس النوبة، و أخذ ما فيها، و قبض على نحو عشرين أميرا من أمراء النوبة، و أفرج عمن كان بأيدى النوبة من أهل أسوان و عيذاب من المسلمين فى أسرهم، و ألبس سكندة تاج الملك، و أقعد على سرير المملكة، بعد ما حلف و التزم أن يحمل جميع ما لداود، و لكل من قتل و أسر من مال و دواب إلى السلطان مع البقط القديم، و هو أربعمائة رأس من الرقيق، فى كل سنة و زرافة من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة و ستون رأسا، و لنائبه بمصر أربعون رأسا، على أن يطلق لهم إذا و صلوا بالبقط تاما من القمح ألف أردب لمتملكهم، و ثلثمائة أردب لرسله.

ذكر صحراء عيذاب

اعلم أنّ حجاج مصر و المغرب، أقاموا زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون إلى مكة شرّفها اللّه تعالى، إلا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص ، ثم يركبون الإبل من قوص، و يعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب، ثم يركبون البحر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۷۴

فى الجلاب إلى جدّة ساحل مكة، و كذلك تجار الهند و اليمن و الحبشة، يردون فى البحر إلى عيذاب، ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص، و منها يردون مدينة مصر، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر، أو يرد من قوافل التجار و الحجاج، حتى إن كانت أحمال البهار كالقرفة و الفلفل، و نحو ذلك لتوجد ملقاة بها و القفول صاعدة و هابطة لا يعترض لها أحد، إلى أن يأخذها صاحبها.

فلم تزل مسلكا للحجاج فى ذهابهم و إيابهم، زيادة على مائتى سنة من أعوام بضع و خمسين و أربعمائة، إلى أعوام بضع و ستين و ستمائة، و ذلك منذ كانت الشدّة العظمى فى أيام الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر، و انقطاع الحج فى البرّ إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى، الكعبة و عمل لها مفتاحا، ثم أخرج قافلة الحاج من البرّ فى سنة ست و ستين و ستمائة، فقلّ سلوك الحجاج لهذه الصحراء، و استمرّت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص، حتى بطل ذلك بعد سنة ستين و سبعمائة، و تلاشى أمر قوص من حينئذ، و هذه الصحراء مسافتها من قوص إلى عيذاب سبعة عشر يوما، و يفقد فيها الماء ثلاثة أيام متوالية، و تارة يفقد أربعة أيام، و عيذاب مدينة على ساحل بحر جدّة، و هى غير مسوّرة، و أكثر بيوتها أخصاص، و كانت من أعظم مراسى الدنيا بسبب أنّ مراكب الهند و اليمن تحط فيها البضائع، و تقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة و الواردة، فلما انقطع ورود مراكب الهند و اليمن إليها صارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن إلى أن كانت أعوام بضع و عشرين و ثمانمائة، فصارت جدّة أعظم مراسى الدنيا، و كذلك هرمز، فإنها مرسى جليل، و عيذاب فى صحراء لا نبات فيها، و كل ما يؤكل بها مجلوب إليها حتى الماء، و كان لأهلها من الحجاج و التجار فوائد لا تحصى، و كان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقرّرة، و كانوا يكارون الحجاج الجلاب التى تحملهم فى البحر إلى جدّة، و من جدّة إلى عيذاب، فيجتمع لهم من ذلك مال عظيم، و لم يكن فى أهل عيذاب إلا من له جلبة فأكثر على قدر يساره.

و فى

بحر عيذاب، مغاص اللؤلؤ فى جزائر قريبة منها تخرج إليها الغوّاصون فى وقت معين من كل سنة، فى الزوارق حتى يوافوه بتلك الجزائر، فيقيمون هنالك أياما، ثم يعودون بما قسم لهم من الحظ و المغاص فيها قريب القعر، و عيش أهل عيذاب، عيش البهائم، و هم أقرب إلى الوحش فى أخلاقهم من الإنس، و كان الحجاج: يجدون فى ركوبهم الجلاب على البحر أهوالا عظيمة لأنّ الرياح تلقيهم فى الغالب بمراس فى صحارى بعيدة مما يلى الجنوب، فينزل إليهم التجار من جبالهم، فيكارونهم الجمال، و يسلكون بهم على غير ماء، فربما هلك أكثرهم عطشا، و أخذ التجار ما كان معهم، و منهم من يضلّ و يهلك عطشا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۷۵

و الذى يسلم منهم يدخل إلى عيذاب، كأنه نشر من كفن، قد استحالت هيئاتهم و تغيرت صفاتهم، و أكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى، و منهم من يساعده الريح فتحطه بمرسى عيذاب، و هو الأقل و جلباتهم التى تحمل الحجاج فى البحر لا يستعمل فيها مسمار البتة، إنما يخيط خشبها بالقنبار، و هو متخذ من شجر النارجيل، و يخللونها بدسر من عيدان النخل، ثم يسقونها بسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش، و هو حوت عظيم فى البحر، يبتلع الغرقى و قلاع هذه الجلاب من خوص شجر المقل.

و لأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت فإنهم يبالغون فى شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصا على الأجرة، و لا يبالون بما يصيب الناس فى البحر، بل يقولون دائما علينا بالألواح، و على الحجاج بالأرواح، و أهل عيذاب من البجاة.

و لهم ملك منهم، و بها وال من قبل سلطان مصر، و أدركت قاضيها عندنا بالقاهرة، أسود اللون، و البجاة قوم لا دين لهم، و لا عقل، و رجالهم و نساؤهم أبدا عراة، و على عوراتهم خرق، و كثير منهم لا يسترون عوراتهم، و عيذاب حرّها شديد بسموم محرق.

ذكر مدينة الأقصر

هذه المدينة من مدائن الصعيد العظيمة، يقال: إنّ أهلها المريس، و منها: الحمير المريسية.

ذكر البلينا

هـذه و ذكر الكمال الأدفويّ: أنه وقع بين أهل البلاد، و والى قوص، فتوجهوا إلى القاهرة و صـرفوه، و ولى غيره و طلع الخطيب بالبلينا صحبته، و كان إقطاعه أرمنت، فلما وصل إليها أضافه أهلها، بستين منسفا من طعام اللبن، فقال للخطيب: فى بلادكم مثل هذا؟
فقال الخطيب: و حلوى، فلما وصل إلى أخميم، تقـدّم الخطيب إلى البلينا، فعند ما وصل الوالى إليها، أخرجوا له ستين منسـفا حلوى، و ستين منسـفا شواء، قال: و بعض الحكام بها فى عيـد من الأعياد، امتدحه من أهلها خمسة و عشـرون شاعرا، و فيها من لا يرضـى بمدح القاضى، و فيها من تقصر رتبته عن ذلك، قال: و كان عدّة مسابك للسكر، و يوصف أهلها بالمكارم.
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۷۶

ذكر سمهود

هذه المدينة بالجانب الغربىّ من النيل، قال الأدفوى: كان بسـمهود سـبعة عشـر حجرا لاعتصار قصب السكر. و يقال: إنّ الفار لا يدخل قصبها.

ذكر إرجنّوس

هذه المدينة من جملة عمل البهنسا، بها كنيسة بظاهرها، فيها بئر يقال لها بئر سيرس صغيرة، لها عيد يعمل فى اليوم الخامس و العشرين من بشـنس أحـد شـهور القبـط، فيفور بهـا المـاء، عنـد مضـى ست ساعـات من النهار حتى يطفو، ثم يعود إلى ما كان عليه، و يسـتدل النصارى على زيادة النيل فى كل سنة، بقدر ما علا الماء من الأرض، فيزعمون أنّ الأمر فى النيل و زيادته يكون موافقا لذلك.

ذكر أبويط

هـذه المدينـة أيضا من جملـة البهنساوية، كان بها منارة محكمة البناء، إذا هزها الرجل تحرّكت يمينا و شـمالا، فيرى ميلها رؤية ظاهرة بانتقال ظلها عن موضعه.

ذكر ملوى

هـذه المدينـة بالجانب الغربىّ من النيل، و أرضـها معروفـة بزراعـة قصب السـكر، و كان بها عدّة أحجار لاعتصاره، و آخر من كان بها أولاد فضيل، بلغت زراعتهم فى أيام الناصر محمد بن قلاون ألفا و خمسمائة فدّان من القصب، فى كل سنة، فأوقع النشو، ناظر الخاص الحوطة على موجودهم فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، فوجد من جملة مالهم، أربعة عشر ألف قنطار من القند، حملها إلى دار القند بمصـر، سوى العسـل، و ألزمهم بحمل ثمانيـة آلاف قنطار بعـد ذلك، و أفرج عنهم فوجـدوا لهم حاصـلا لم يهتـد له النشو فيه عشـرة آلاف قنطار قند، سوى مالهم من عبيد و غلال و غير ذلك.

ذكر مدينة أنصنا

اعلم أن مدينة أنصـنا إحدى مدائن صعيد مصر القديمة، و فيها عدّة عجائب، منها الملعب، و يقال: إنه كان مقياس النيل، و إنه من بناء

دلوكة أحد من ملك مصر، و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۷۷

كالطيلسان، و فى دائرة عمد على عدّة أيام السنة الشمسية، كلها من الصوّان الأحمر الماتع، و مسافة ما بين كل عمودين، مقدار خطوة إنسان، و كان ماء النيل يدخل إلى هذا الملعب من فوهة عند زيادة الماء، فإذا بلغ ماء النيل الحدّ الذى كان إذ ذاك يحصل منه ريّ أرض مصر و كفايتها، جلس الملك عند ذلك فى مشرف له، و صعد القوم من خواصه إلى رؤوس الأعمدة المذكورة، فيتعادون عليها ما بين ذاهب و آت، و يتساقطون من الأعمدة إلى الملعب، و هو ممتلئ بالماء.

قال أبو عبيد البكرىّ: أنصنا، بفتح أوّله و إسكان ثانيه بعده صاد مهملة مكسورة و نون و ألف، كورة من كور مصر معروفة منها: كانت سريّة النبىّ صلى اللّه عليه و سلم أمّ ابنه إبراهيم من قرية يقال لها حفن من قرى هذه الكورة، و يقال: إن سحرة فرعون كانوا منها، و إنه جلبهم منها يوم الموعد للقاء موسى عليه السلام.

و يقال: إنّ التمساح لا يضرّ بساحل أنصنا لطلاسم وضعت بها، و إنه إذا حاذى برّها انقلب على ظهره، حتى يجاوزها، و يقال: إنّ الذى بنى مدينة أنصنا أشمون بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح، و هى واقعة فى شرقىّ النيل، و كانت حسنة البساتين و المنتزهات كثيرة الثمار و الفواكه، و هى الآن خراب.

و قال أبو حنيفة الدينورىّ: و لا ينبت البنج إلا بأنصنا، و هو عود ينشر منه ألواح للسفن، و ربما أرعفت ناشرها و يباع اللوح منها بخمسين دينارا و نحوها، و إذا شدّ لوح منها بلوح، و طرح فى الماء ستة أيام صارا لوحا واحدا، و كان لأنصنا سور عتيق هدمه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و جعل على كل مركب منحدر فى النيل، جزأ من حمل صخره إلى القاهرة، فنقل بأسره إليها.

ذكر القيس

اعلم أن القيس من البلاد التى تجاور مدينة البهنسا، و كان يقال: القيس و البهنسا. قال ابن عبد الحكم: بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث إلى الصعيد، فسار حتى أتى القيس، فنزل بها فسميت به.

و قال ابن يونس: قيس بن الحارث المرادىّ، ثم الكعبىّ، شهد فتح مصر، يروى عن عمر بن الخطاب، و كان يفتى الناس فى زمانه، روى عنه سويد بن قيس، و قيل: شديد بن قيس بن ثعلبة، و روى عنه عسكر بن سوادة، و هو الذى فتح القرية بصعيد مصر المعروفة بالقيس، فنسبت إليه.

و قال ابن الكندىّ: و لهم ثياب الصوف و أكسية المرعز، و ليس هى بالدنيا إلا بمصر، و ذكر بعض أهل مصر: أنّ معاوية بن أبى سفيان، لما كبر كان لا يدفأ، فاجتمعوا أنه لا يدفّيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۷۸

إلا الأكسية نعمل بمصر من صوفها المرعز العسلىّ العين المصبوغ، فعمل له منها عدد، فما احتاج منها إلا إلى واحد، و لهم طراز القيس، و البهنسا فى الستور و المضارب يعرفون به، و منه طراز أهل الدنيا.

و ظهر بها بالقرب من البهنسا، سرب فى أيام السلطان، الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، فأمر متولى البهنساوية بكشفه، فجمع له أهل المعرفة بالعوم و الغطس، فكانوا ما ينيف على مائتى رجل ما فيهم إلا من نزل السرب، فلم يجد له قرارا، و لا جوانب، فأمر بعمل مركب طويل رقيق بحيث يمكن إدخاله من رأس السرب، و شحنه بالأزراد و الرجال، و ركب فيه حبالا مربوطة فى خوازيق عند رأس السرب، و حمل مع الرجال آلات يعرفون بها أوقات الليل و النهار، و عدّة شموع و غيرها، مما تستخرج به النار و تشعل به، و أمرهم أن يسلكوا بالمركب فى السرب حتى ينفد نصف ما معهم من الزاد، فساروا بالمركب فى ظلمة، و هم يرخون الحبال، و لا يجدون لما هم سائرون فيه من الماء جوانب، فما زالوا حتى قلت أزوادهم، فأبطلوا حركة المركب بالمجاذيف إلى داخل السرب، و جرّوا الحبال ليرجعوا إلى حيث دخلوا، حتى انتهوا إلى رأس السرب، فكانت مدّة غيبتهم فى السرب، ستة أيام أربعة منها

دخولا- إلى جوفه و تطواف جوانبه، و يومان رجوعا إلى رأس السرب، و لم يقفوا فى هذه المدّة على نهاية السرب، فكتب بذلك الأمير علاء الدين الطنبغا والى البهنسا إلى الملك الكامل، فتعجب عجبا كثيرا، و اشتغل عن ذلك بمحاربة الفرنج على دمياط، فلما رحلوا عن دمياط، و عادوا إلى القاهرة، خرج بعد ذلك حتى شاهد السرب المذكور.

ذكر دروط بلهاسة

اعلم أن: دروط و هى: بفتح الدال المهملة و ضم الراء و سكون الواو و طاء، اسم لثلاث قرى: دروط أشموم من الأشمونين، و دروط سريان، من الأشمونين أيضا، و دروط بلهاسة من ناحية البهنسا بالصعيد، و بها جامع أنشأه زياد بن المغيرة بن زياد بن عمرو العتكىّ، و مات فى المحرّم سنة إحدى و تسعين و مائة، فدفن به، و قال فيه الشاعر:

حلف الجود حلفه برّ فيهاما برا اللّه واحدا كزياد

كان غيثا لمصر إذ كان حياو أمانا من السنين الشداد

و مات أخوه إبراهيم بن المغيرة سنة سبع و تسعين و مائة فقال الشاعر فيه:

ابن المغيرة إبراهيم من ذهب‌يزداد حسنا على طول الدهارير

لو كان يملك ما فى الأرض عجله‌إلى العفاة و لم يهمم بتأخير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۷۹

و مات أحمد بن زياد بن المغيرة فى المحرّم سنة ست و ثلاثين و مائتين فقال الشاعر فيه:

أحمد مات ماجدا مفقوداو لقد كان أحمد محمودا

ورث المجد عن أب ثم عمّمثله ليس بعده موجودا

ذكر سكر

هى من الأطفيحية تجاهها، واد به إلى وقتنا هذا، شكل جمل من الحجر كأكبر ما يرى من الجمال، و أحسنها هيئة، و هو قائم على أربعة، و قد استقبل بوجهه المشرق، و على فخذه الأيمن كتابة بقلمهم و هى أحرف مقطعة فى ثلاثة أسطر، ثم على نحو مائة و خمسين خطوة منه جمل آخر مثله سواء، و وجهه إلى وجه الجمل الأوّل، و ليس عليه كتابة، و فيما بين الجملين المذكورين، هيئة أعدال قد ملئت قماشا عدّتها أربعون زكيبة موضوعة بالأرض، عشرين تجاه عشرين، و جميعها من حجارة، و لا يشك من رآها أنها أحمال قماش، و بعد مائة و خمسين خطوة منها، جمل ثالث على هيئة الجملين المذكورين، و هو أيضا قائم و ظهره إلى ظهر الجمل الثانى، و وجهه إلى الجبل و هناك آخر الوادى، و ليس على هذا الجمل أيضا كتابة أخبرنى بذلك من لا اتهم روايته.

ذكر منية الخصيب

هذه المدينة تنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر، من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد.

ذكر منية الناسك

هى بلدة من جملة الأطفيحية عرفت بالناسك أخى الوزير بهرام الأرمنىّ فى أيام الخليفة، الحافظ لدين اللّه أبى الميمون عبد المجيد بن محمد، ولى من قبل أخيه مدينة قوص سنة تسع و عشرين و خمسمائة، و ولاية قوص يومئذ، أجل ولايات مصر، فجار على المسلمين، و اشتدّ عسفه، و أذاه لهم فعند ما وصل الخبر بقيام رضوان بن و لخشى على بهرام و هزيمته منه، و تقلده الوزارة بعده، ثار

أهل قوص بالناسك فى جمادى الآخرة سنة إحدى و ثلاثين و خمسمائة، و قتلوه و ربطوا كلبا ميتا فى رجله و سحبوه، حتى ألقوه على مزبلة، و كان نصرانيا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۸۰

ذكر الجيزة

قال ابن سيده: الجيزة الناحية و الجانب، و جمعها جيز وجيز و الجيز: جانب الوادى، و قد يقال فيه: الجيزة، و اعلم أنّ الجيزة اسم لقرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربىّ، تجاه مدينة فسطاط مصر، لها فى كل يوم أحد سوق عظيم يجىء إليه من النواحى أصناف كثيرة جدّا، و يجتمع فيه عالم عظيم، و بها عدّة مساجد جامعة.

و قد روى الحافظ أبو بكر بن ثابت الخطيب من حديث نبيط بن شريط قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم: «الجيزة روضة من رياض الجنة و مصر خزائن اللّه فى أرضه». و يقال: إنّ مسجد التوبة الذى بالجيزة، كان فيه تابوت موسى عليه السّلام الذى قذفته أمّه فيه بالنيل، و بها النخلة التى أرضعت مريم تحتها عيسى فلم يثمر غيرها.

و قال ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب: فاستحبت همدان و من والاها الجيزة، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما بما صنع اللّه للمسلمين، و ما فتح عليهم، و ما فعلوا فى خططهم، و ما استحبت همدان من النزول بالجيزة، فكتب إليه عمر يحمد اللّه على ما كان من ذلك، و يقول له: كيف رضيت أن تفرّق أصحابك لم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك و بينهم بحر، و لا تدرى ما يفجأهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره؟

فاجمعهم إليك فإن أبوا عليك، و أعجبهم موضعهم بالجيزة، و أحبوا ما هنالك، فابن عليهم من فىء المسلمين حصنا، فعرض عليهم عمرو ذلك، فأبوا و أعجبهم موضعهم بالجيزة، و من والاهم على ذلك من رهطهم يافع و غيرها، و أحبوا ما هنالك، فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن فى الجيزة فى سنة إحدى و عشرين، و فرغ من بنائه فى سنة اثنتين و عشرين.

و يقال: إن عمرو بن العاص، لما سأل أهل الجيزة أن ينضموا إلى الفسطاط قالوا:

مقدم قدمناه فى سبيل اللّه ما كنا لنرحل منه إلى غيره، فنزلت يافع الجيزة فيها مبرح بن شهاب، و همدان، و ذو أصبح، فيهم أبو شمر بن أبرهة و طائفة من الحجر.

و قال القضاعىّ: و لما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية، و نزل الفسطاط جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدوّ يغشاهم من تلك الناحية، فجعل فيها آل ذى أصبح من حمير، و هم كثير، و يافع بن زيد من رعين، و جعل فيها همدان، و جعل فيها طائفة من الأزديين بنى الحجر بن الهبو بن الأزد، و طائفة من الحبشة، و ديوانهم فى الأزد، فلما استقرّ عمرو فى الفسطاط، أمر الذين خلفهم بالجيزة أن ينضموا إليه فكرهوا ذلك، و قالوا: هذا مقدم قدمناه فى سبيل اللّه، و أقمنا به ما كنا بالذين نرغب عنه، و نحن به منذ أشهر، فكتب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۸۱

عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما بذلك يخبره، أنّ همدان و آل ذى أصبح و يافعا و من كان معهم أحبوا المقام بالجيزة، فكتب إليه كيف رضيت أن تفرّق عنك أصحابك، و تجعل بينك و بينهم بحرا لا تدرى ما يفجأهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم، فاجمعهم إليك، و لا تفرّقهم فإن أبوا و أعجبهم مكانهم، فابن عليهم حصنا من فىء المسلمين، فجمعهم عمرو و أخبرهم بكتاب عمر فامتنعوا من الخروج من الجيزة، فأمر عمرو ببناء الحصن عليهم، فكرهوا ذلك، و قالوا: لا حصن أحصن لنا من سيوفنا، و كرهت ذلك همدان و يافع، فأقرع عمرو بينهم، فوقعت القرعة على يافع، فبنى فيهم الحصن فى سنة إحدى و عشرين، و فرغ من بنائه فى سنة اثنتين عشرين، و أمرهم عمرو بالخطط بها، فاختط ذو أصبح من حمير من الشرق، و مضوا إلى الغرب، حتى بلغوا أرض

الحرث و الزرع، و كرهوا أن يبنى الحصن فيهم، و اختط يافع بن الحرث من رعين، بوسط الجيزة و بنى الحصن فى خططهم و خرجت طائفة منهم عن الحصن أنفه منه، و اختطت بكيل بن جشم من نوف من همدان فى مهب الجنوب من الجيزة فى شرقيها، و اختطت حاشد بن جشم من نوف فى مهب الشمال من الجيزة فى غربيها، و اختطت الجباوية بنو عامر بن بكيل فى قبلىّ الجيزة، و اختطت بنو حجر بن أرحب بن بكيل فى قبلىّ الجيزة، و اختط بنو كعب بن مالك بن الحجر بن الهبو بن الأزد، فيما بين بكيل و يافع، و الحبشة اختطوا على الشارع الأعظم.

و المسجد الجامع بالجيزة بناه محمد بن عبد اللّه الخازن فى المحرّم سنة خمسين و ثلثمائة بأمر الأمير علىّ بن الإخشيد، فتقدّم كافور، إلى الخازن ببنائه، و عمل له مستغلا، و كان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد همدان، و هو مسجد مراحق بن عامر بن بكيل، كان يجمع فيه الجمعة فى الجيزة، و شارف بناء هذا الجامع الخازن، أبو الحسن بن أبى جعفر الطحاوىّ، و احتاجوا إلى عمد للجامع، فمضى الخازن فى الليل إلى كنيسة بأعمال الجيزة فقلع عمدها، و نصب بدلها أركانا، و حمل العمد إلى الجامع، فترك أبو الحسن بن الطحاوىّ الصلاة فيه مذ ذاك تورّعا.

قال اليمنىّ: و قد كان ابن الطحاوىّ، يصلى فى جامع الفسطاط العتيق، و بعض عمده أو أكثرها و رخامه من كنائس الإسكندرية، و أرياف مصر، و بعضه بناه قرّة بن شريك، عامل الوليد بن عبد الملك، و يقال: إنّ بالجيزة قبر كعب الأحبار، و إنه كان بها أحجار و رخام قد صوّرت فيها التماسيح، فكانت لا تظهر فيما يلى البلد من النيل، مقدار ثلاثة أميال علوا و سفلا.

و فى سنة أربع و عشرين و سبعمائة منع الملك الناصر، محمد بن قلاون، الوزير أن يتعرّض إلى شىء مما يتحصل من مال الجيزة، فصار جميعه يحمل إليه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۸۲

قال القضاعىّ: سجن يوسف عليه السلام ببوصير من عمل الجيزة، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان، و فيه أثر نبيين، أحدهما يوسف، سجن به المدّة التى ذكر أن مبلغها سبع سنين، و كان الوحى ينزل عليه فيه، و سطح السجن موضع معروف، بإجابة الدعاء، يذكر أن كافور الإخشيدىّ، سأل أبا بكر بن الحدّاد عن موضع معروف بإجابة الدعاء ليدعو فيه؟ فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن، و النبّى الآخر موسى عليه السلام، و قد بنى على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى.

أخبرنا أبو الحسن علىّ بن إبراهيم الشرفىّ بالشرف قال: حدّثنا أبو محمد عبد اللّه بن الورد، و كان قد هلكت أخته، و ورث منها مورثا و كنا نسمع عليه دائما، و كان لسجن يوسف وقت يمضى الناس إليه يتفرّجون، فقال لنا يوما: يا أصحابنا هذا أوان السجن، و نريد أن نذهب إليه، و أخرج عشرة دنانير، فناولها لأصحابه و قال لهم: ما اشتهيتموه، فاشتروه، فمضى أصحاب الحديث، و اشتروا ما أرادوا و عدّينا يوم أحد الجيزة كلنا، و بتنا فى مسجد همدان، فلما كان الصباح مشينا حتى جئنا إلى مسجد موسى، و هو الذى فى السهل، و منه يطلع إلى السجن، و بينه و بين السجن تل عظيم من الرمل، فقال الشيخ: من يحملنى و يطلع بى إلى هذا السجن حتى أحدّثه بحديث لا أحدّثه لأحد بعده، حتى تفارق روحى الدنيا.

قال الشرفىّ: فأخذت الشيخ، و حملته حتى صرت فى أعلاه، فنزل و قال: معك ورقة؟ قلت: لا، قال: أبصر لى بلاطة، فأخذ فحمة و كتب: حدّثنى يحيى بن أيوب، عن يحيى بن بكير، عن زيد بن أسلم بن يسار، عن ابن عباس قال: إنّ جبريل أتى إلى يوسف فى هذا السجن فى هذا البيت المظلم، فقال له يوسف: من أنت الذى مذ دخلت السجن ما رأيت أحسن وجها منك؟ فقال له: أنا جبريل، فبكى يوسف، فقال: ما يبكيك يا نبىّ اللّه، فقال: إيش يعمل جبريل فى مقام المذنبين؟ فقال: أما علمت أنّ اللّه تعالى يطهر البقاع بالأنبياء، و اللّه لقد طهر اللّه بك السجن و ما حوله، فما أقام إلى آخر النهار، حتى أخرج من السجن.

قال القضاعىّ: سقط بين يحيى و زيد رجل، و قال الفقيه أبو محمد أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوىّ، و ذكر سجن يوسف لو سافر الرجل من العراق ليصلى فيه، و ينظر إليه لما عنفته فى سفره.

و ذكر المسبحيّ: فى حوادث شهر ربيع الأوّل سنة خمس عشرة و أربعمائة، أنّ العامّة و السوقة طافت بمصر بالطبول و البوقات يجمعون من التجار، و أرباب الأسواق ما ينفقونه فى مضيهم إلى سجن يوسف، فقال لهم التجار: شغلنا بعدم الأقوات يمنعنا من هذا، و كان قد اشتدّ الغلاء، و أنهوا حالهم إلى الحضرة المطهرة، يعنى أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين اللّه أبا الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه، فرسم لنائب الدولة أبى طاهر بن كافى متولى الشرطة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۸۳

السفلى: الترسيم على التجار، حتى يدفعوا إليهم ما جرت به رسومهم، و رسم لهم بالخروج إلى سجن يوسف، و وعدوا أن يطلق لهم من الحضرة ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية من الهبة، فخرجوا، و فى يوم السبت لتسع خلون من جمادى الأولى ركب القائد الأجل عز الدولة، و سناها معضاد الخادم الأسود، فى سائر الأتراك و وجوه القوّاد، و شق البلد، و نزل إلى الصناعة التى بالجسر بمن معه، ثم خرج من هناك، و عدّى فى سائر عساكره إلى الجيزة، حتى رتب لأمير المؤمنين عساكر تكون معه مقيمة هناك لحفظه، لأنه عدّى يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت منه فى أربع عشاريات، و أربع عشرة بغلة من بغال النقل، و فى جميع من معه من خاصته و حرمه إلى سجن يوسف عليه السلام، و أقام هناك يومين و ليلتين، إلى أن عاد الرمادية الخارجون إلى السجن بالتماثيل، و المضاحك و الحكايات و السماجات، فضحك منهم و استظرفهم، و عاد إلى قصره بكرة يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت منه، و أقام أهل الأسواق نحو الأسبوعين يطرقون الشوارع بالخيال و السماجات و التماثيل، و يطلعون إلى القاهرة بذلك ليشاهدهم أمير المؤمنين، و يعودون و معهم سجل قد كتب لهم أن لا يعارض أحد منهم فى ذهابه و عوده، و أن يعتمد إكرامهم و صيانتهم، و لم يزالوا على ذلك إلى أن تكامل جميعهم، و كان دخولهم من سجن يوسف يوم السبت لأربع عشرة بقيت من جمادى الأولى، و شقوا الشوارع بالحكايات و السماجات و التماثيل فتعطل الناس فى ذلك اليوم عن أشغالهم و معايشهم، و اجتمع فى الأسواق خلق كثير لنظرهم، و ظل الناس أكثر هذا اليوم على ذلك، و أطلق لجميعهم ثمانية آلاف درهم، و كانوا اثنى عشر سوقا و نزلوا مسرورين، و بخارج مدينة الجيزة موضع يعرف بأبى هريرة، فيظنّ من لا علم له أنه أبو هريرة الصحابىّ، و ليس كذلك، بل هو منسوب إلى ابن ابنته.

ذكر قرية ترسا

قال القضاعىّ: و ذكر أنّ القاسم بن عبيد اللّه بن الحبحاب، عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر، بنى فى الجيزة قرية تعرف بترسا.

و القاسم هذا خرج إلى مصر، و ولى خلافة عن أبيه، عبيد اللّه بن الحبحاب السلولىّ على الخراج، فى خلافة هشام بن عبد الملك، ثم أمّره هشام على خراج مصر، حين خرج أبوه إلى إمارة إفريقية فى سنة ست عشرة و مائة، فلم يزل إلى سنة أربع و عشرين و مائة، فنزع عن مصر، و جمع لحفص بن الوليد، عربها و عجمها، فصار يلى الخراج و الصلاة معا، و بترسا هذه كانت وقعة هارون بن محمد الجعدىّ.

ذكر منية أندونة

هى إحدى قرى الجيزة، عرفت بأندونة، كاتب أحمد المدائنى الذى كان يتقلد ضياع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۸۴

موسى بن بغا، التى بمصر، فقبض أحمد بن طولون على أندونة هذا، و كان نصرانيا، فأخذ منه خمسين ألف دينار.

ذكر وسيم

قال ابن عبد الحكم: و خرج عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان، أمير مصر إلى وسيم، و كانت لرجل من القبط، فسأل عبد اللّه أن يأتيه إلى منزله، و يجعل له مائة ألف دينار، فخرج إليه عبد اللّه بن عبد الملك، و قيل: إنما خرج عبد اللّه إلى قرية أبى النمرس، مع رجل من الكتاب، يقال له: ابن حنظلة، فأتى عبد اللّه العزل، و ولاية قرّة بن شريك، و هو هناك، فلما بلغه ذلك، قام ليلبس سراويله، فلبسه منكوسا، و قيل: إنّ عبد اللّه لمّا بلغه العزل، ردّ المال على صاحبه، و قال: قد عزلنا، و كان عبد اللّه قد ركب معه إلى المعديّة، و عدّى أصحابه قبله تأخر، فورد الكتاب بعزله، فقال صاحب المال: و اللّه لا بدّ أن تشرّف منزلى، و تكون ضيفى، و تأكل طعامى، و و اللّه لا عاد لى شيء من ذلك، و لا أدعك منصرفا فعدّى معه.

ذكر منية عقبة

هذه القرية بالجيزة عرفت بعقبة بن عامر الجهنىّ رضى اللّه عنه.

قال ابن عبد الحكم: كتب عقبة بن عامر إلى معاوية بن أبى سفيان رضى اللّه عنهما، يسأله أرضا يسترقق فيها عند قرية عقبة، فكتب له معاوية بألف ذراع فى ألف ذراع، فقال له مولى له: كان عنده، انظر أصلحك اللّه أرضا صالحة، فقال عقبة: ليس لنا ذلك، إنّ فى عهدهم شروطا ستة منها، أن لا يؤخذ من أرضهم شيء، و لا من نسائهم، و لا من أولادهم، و لا يزاد عليهم و يدفع عنهم موضع الخوف من عدوّهم، و أنا شاهد لهم بذلك.

و فى رواية: كتب عقبة إلى معاوية يسأله نقيعا فى قرية يبنى فيه منازل و مساكن، فأمر له معاوية بألف ذراع فى ألف ذراع، فقال له مواليه و من كان عنده: انظر إلى أرض تعجبك، فاختط فيها و ابتن، فقال: إنه ليس لنا ذلك، لهم فى عهدهم ستة شروط منها، أن لا يؤخذ من أرضهم شيء، و لا يزاد عليهم، و لا يكلفوا غير طاقتهم، و لا تؤخذ ذراريهم، و أن يقاتل عنهم عدوّهم من ورائهم.

قال أبو سعيد بن يونس: و هذه الأرض التى اقتطعها عقبة هى: المنية المعروفة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۸۵

بمنية عقبة فى جيزة فسطاط مصر.

عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو بن عدىّ بن عمرو بن رفاعة بن مودوعة بن عدىّ بن غنم بن الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة، كذا نسبه أبو عمرو الكندىّ.

و قال الحافظ: أبو عمر بن عبد البر، عقبة بن عامر بن حسن الجهنىّ من جهينة بن زيد بن مسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، و قد اختلف فى هذا النسب، يكنى:

أبا حماد، و قيل: أبا أسد، و قيل: أبا عمرو، و قيل: أبا سعاد، و قيل: أبا الأسود.

و قال خليفة بن خياط: و قتل أبو عامر عقبة بن عامر الجهنىّ يوم النهروان، شهيدا و ذلك سنة ثمان و ثلثين، و هذا غلط منه، و فى كتابه بعد، و فى سنة ثمان و خمسين توفى عقبة بن عامر الجهنىّ، قال: سكن عقبة بن عامر مصر، و كان واليا عليها، و ابتنى بها دارا، و توفى فى آخر خلافة معاوية، روى عنه من الصحابة جابر، و ابن عباس، و أبو أمامة، و مسلمة بن مخلد، و أما رواته من التابعين فكثير.

و قال الكندىّ: ثم وليها عقبة بن عامر من قبل معاوية، و جمع له صلاتها و خراجها، فجعل على شرطته حمادا، و كان عقبة قارئا فقيها فرضيا شاعرا له الهجرة و الصحبة السابقة، و كان صاحب بغلة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم الشهباء الذى يقودها فى الأسفار، و كان صرف عقبة من مصر، بمسلمة بن مخلد لعشر بقين من ربيع الأوّل سنة أربعين، فكانت ولايته سنتين و ثلاثة أشهر.

و قال ابن يونس: توفى بمصر سنة ثمان و خمسين، و دفن فى مقبرتها بالمقطم، و كان يخضب بالسواد رحمه اللّه تعالى.

ذكر حلوان

يقال: إنها تنسب إلى حلوان بن بابليون بن عمرو بن امرئ القيس، ملك مصر بن سائب بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و كان حلوان هذا بالشام على مقدّمة أبرهة ذى المنار أحد التابعة.

قال ابن عبد الحكم: و كان الطاعون قد وقع بالفسطاط، فخرج عبد العزيز بن مروان من الفسطاط، فنزل بحلوان داخلا فى الصحراء فى موضع منها يقال له: أبو قرقورة، و هو رأس العين التى احتفرها عبد العزيز بن مروان، و ساقها إلى نخيلة التى غرسها بحلوان، فكان ابن خديج يرسل إلى عبد العزيز فى كل يوم بخبر ما يحدث فى البلد من موت و غيره، فأرسل إليه ذات يوم رسولا، فأتاه فقال له عبد العزيز: ما اسمك؟ فقال: أبو طالب، فثقل ذلك على عبد العزيز، و غاظه، فقال له عبد العزيز: أسألك عن اسمك؟! فتقول أبو طالب! ما اسمك؟ فقال: مدرك، فتفاءل بذلك، و مرض فى مخرجه ذلك، و مات هنالك، فحمل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۸۶

فى البحر يراد به الفسطاط حتى تغير، فأنزل فى بعض خصوص ساحل مريس، فغسل فيه، و أخرجت من هنالك جنازته، و خرج معه بالمجامر فيها العود لما كان قد تغير من ريحه، و أوصى عبد العزيز أن يمرّ بجنازته إذا مات على منزل، جناب بن مرثد بن زيد بن هانىء الرعينىّ، صاحب حرسه، و كان صديقا له و قد توفى قبل عبد العزيز فمرّ بجنازته على باب جناب، و قد خرج عيال جناب، و لبسن السواد و وقفن على الباب صائحات، ثم اتبعنه إلى المقبرة، و كان لنصيب من عبد العزيز ناحية، فقدم عليه فى مرضه، فأذن له، فلما رأى شدّة مرضه أنشأ يقول:

و نزور سيدنا و سيد غيرناليت التشكى كان بالعوّاد

لو كان يقبل فدية لفديتهبالمصطفى من طارفى و تلادى

فلما سمع صوته، فتح عينيه، و أمر له بألف دينار، و استبشر بذلك آل عبد العزيز، و فرحوا به، ثم مات.

و قال الكندى: و وقع الطاعون بمصر فى سنة سبعين، فخرج عبد العزيز بن مروان منها إلى الشرقية منتديا، فنزل حلوان، فأعجبته فاتخذها و سكنها، و جعل بها الحرس و الأعوان و الشرط، فكان عليهم جناب بن مرثد بحلوان، و بنى عبد العزيز بحلوان الدور و المساجد، و عمّرها أحسن عمارة و أحكمها و غرس نخلها و كرمها، فقال ابن قيس الرقيات:

سقيا لحلوان ذى الكروم و ماصنف من تينه و من عنبه

نخل مواقير بالفناء من البرنىّ يهتز ثم فى سربه

أسود سكانه الحمام فماينفك غربانه على رطبه

و لما غرس عبد العزيز، نخل حلوان و أطعم دخله، و الجند معه، فجعل يطوف فيه و يقف على غروسه و مساقيه، فقال يزيد بن عروة الجملىّ: ألا قلت أيها الأمير، كما قال العبد الصالح: ما شاء اللّه لا قوّة إلا بالله، فقال: أذكرتنى شكرا يا غلام، قل لأنيتاس: يزيد فى عطائه عشرة دنانير.

عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشىّ الأموىّ، أبو الأصبغ، أمّه ليلى ابنة زبان بن الأصبغ الكندىّ، روى عن أبى هريرة، و عقبة بن عامر الجهنىّ، و روى عنه علىّ بن رباح، و بحير بن داخرة، و عبيد اللّه بن مالك الخولانىّ، و كعب بن علقمة، و وثقه النسائى و ابن سعد.

و لما سار أبوه مروان إلى مصر، بعثه فى جيش إلى أيلة، ليدخل مصر من تلك الناحية، فبعث إليه ابن جحدم أمير مصر بجيش عليهم: زهير بن قيس البلوىّ، فلقى عبد العزيز ببصاق، و هى سطح عقبة أيلة، فقاتله فانهزم زهير و من معه، فلما غلب مروان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۸۷

على مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس و ستين، جعل صلاتها و خراجها إلى ابنه عبد العزيز بعد ما أقام بمصر شهرين، فقال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين! كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى؟ فقال له مروان: يا بنى عمّهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك،

و اجعل وجهك طلقا تصف لك مودّتهم، و أوقع إلى كل رئيس منهم إنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينا على غيره، و ينقاد قومه إليك، و قد جعلت معك أخاك بشرا مؤنسا، و جعلت لك موسى بن نصير وزيرا أو مشيرا، و ما عليك يا بنيّ أن تكون أميرا بأقصى الأرض، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك و خمولك فى منزلك، و أوصاه عند مخرجه من مصر إلى الشام، فقال: أوصيك بتقوى اللّه فى سرّ أمرك و علانيته، فإنّ اللّه مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون، و أوصيك أن لا تجعل لداعى اللّه عليك سبيلا، فإن المؤذن يدعو إلى فريضة افترضها اللّه، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا، و أوصيك أن لا تعد الناس موعدا إلا أنفذته لهم، و إن حملته على الأسنة، و أوصيك أن لا تعجل فى شيء من الحكم حتى تستشير، فإنّ اللّه لو أغنى أحدا عن ذلك لأغنى نبيه محمدا صلى اللّه عليه و سلّم عن ذلك، بالوحى الذى يأتيه، قال اللّه عز و جل: وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [۱۵۹/ آل عمران .

و خرج مروان من مصر، لهلال رجب سنة خمس و ستين، فوليها عبد العزيز على صلاتها و خراجها، و توفى مروان لهلال رمضان، و بويع ابنه عبد الملك بن مروان، فأقرّ أخاه عبد العزيز و وفد على عبد الملك فى سنة سبع و ستين، و جعل له الحرس و الخيل و الأعوان جناب بن مرثد الرعينىّ، فاشتدّ سلطانه، و كان الرجل إذا غلظ لعبد العزيز و خرج تناوله جناب و من معه فضربوه، و حبسوه، و عبد العزيز أوّل من عرّف بمصر فى سنة إحدى و سبعين.

قال يزيد بن أبى حبيب: أوّل من أحدث القعود يوم عرفة فى المسجد بعد العصر عبد العزيز بن مروان.

و فى سنة اثنتين و سبعين، صرف بعث البحر إلى مكة، لقتال عبد اللّه بن الزبير، و جعل عليهم مالك بن شرحبيل الخولانىّ، و هم: ثلاثة آلاف رجل فيهم: عبد الرحمن بن بحنس، مولى ابن أبزى، و هو الذى قتل ابن الزبير و خرج إلى الإسكندرية فى سنة أربع و سبعين، و وفد على أخيه عبد الملك فى سنة خمس و سبعين، و هدم جامع الفسطاط كله، و زاد فيه من جوانبه كلها فى سنة سبع و سبعين، و أمر بضرب الدنانير المنقوشة.

و قال ابن عفير: كان لعبد العزيز ألف جفنة، كل يوم تنصب حول داره، و كانت له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۸۸

مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل، و كتب عبد الملك إليه، أن ينزل له عن ولاية العهد، ليعهد إلى الوليد و سليمان، فأبى ذلك، و كتب إليه إن يكن لك ولد فلنا أولاد، و يقضى اللّه ما يشاء، فغضب عبد الملك، و قال: فرّق اللّه بينى و بينه، فلم يزل به عليّ حتى رضى، فقدم على عبد العزيز، فأخبره عن عبد الملك و عن حاله، ثم أخبره بدعوته فقال: أفعل أنا، و اللّه مفارقه، و اللّه ما دعا دعوة قط إلا أجيبت، و كان عبد العزيز يقول: قدمت مصر فى إمرة مسلمة بن مخلد، فتمنيت بها ثلاث أمانىّ، فأدركتها تمنيت ولاية مصر، و أن أجمع بين امرأتى مسلمة و يحجبنى قيس بن كليب حاجبه، فتوفى مسلمة، و قدم مصر، فوليها و حجبه قيس، و تزوّج امرأتى مسلمة، و توفى ابنه الأصبغ بن عبد العزيز لتسع بقين من ربيع الآخر، سنة ست و ثمانين، فمرض عبد العزيز و توفى ليلة الاثنين لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ست و ثمانين، فحمل فى النيل من حلوان إلى الفسطاط، فدفن بها.

و قال ابن أبى مليكة: رأيت عبد العزيز بن مروان حين حضره الموت يقول: ألا ليتنى لم أك شيئا مذكورا، ألا ليتنى كنابتة من الأرض أو كراعى إبل فى طرف الحجاز، و لما مات لم يوجد له مال ناض! إلا سبعة آلاف دينار، و حلوان، و القيسارية، و ثياب بعضها مرقوع، و خيل و رقيق، و كانت ولايته على مصر، عشرين سنة و عشرة أشهر و ثلاثة عشر يوما، و لم يلها فى الإسلام قبله أطول ولاية منه.

و كان بحلوان فى النيل، معدّية من صوّان تعدّى بالخيل تحمل فيها الناس و غيرهم من البرّ الشرقىّ بحلوان إلى البرّ الغربىّ فلما كان و هذا من الأسرار التى فى الخليقة، فإنّ جميع الأجسام المعدنية كالحديد و النحاس و الفضة و الرصاص و الذهب و القصدير، إذ عمل من شيء منها إناء يسع من الماء أكثر من وزنه، فإنه يعوم على وجه الماء، و يحمل ما يمكنه، و لا يغرق، و ما برح المسافرون فى بحر الهند إذا أظلم عليهم الليل و لم يروا ما يهديهم من الكواكب إلى معرفة الجهات، يحملون حديدة مجوّفة على شكل سمكة، و يبالغون

فى ترقيقها جهد المقدرة، ثم يعمل فى فم السمكة شىء من مغناطيس جيدا، ويحك فيها بالمغناطيس، فإنّ السمكة إذا وضعت فى الماء دارت، و استقبلت القطب الجنوبىّ بفمها، و استدبرت القطب الشمالىّ و هذا أيضا من أسرار الخليفة فإذا عرفوا جهتى الجنوب و الشمال تبين منهما المشرق و المغرب، فإنّ من استقبل الجنوب فقد استدبر الشمال و صار المغرب عن يمينه و المشرق عن يساره، فإذا تحدّدت الجهات الأربع عرفوا مواقع البلاد بها، فيقصدون حينئذ جهة الناحية التى يريدونها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۸۹

ذكر مدينة العريش

العريش مدينة فيما بين أرض فلسطين و إقليم مصر، و هى مدينة قديمة من جملة المدائن التى اختطت بعد الطوفان.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: عن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، و كان غلاما مرفها فلما قرب من مصر بنى له عريشا من أغصان الشجر، و ستره بحشيش الأرض، ثم بنى له بعد ذلك فى هذا الموضع مدينة و سمّاها: درسان، أى:

باب الجنة، فزرعوا و غرسوا الأشجار و الجنان من درسان إلى البحر، فكانت كلها زروعا و جنانا و عمارة.

و قال آخر: إنما سميت بذلك، لأنّ بيصر بن حام بن نوح، تحمّل فى ولده و هم أربعة، و معهم أولادهم، فكانوا ثلاثين ما بين ذكر و أنثى، و قدم ابنه مصر بن بيصر أمامه نحو أرض مصر، حتى خرج من حدّ الشام، فتاهوا، و سقط مصر فى موضع العريش، و قد اشتدّ تعبه و نام، فرأى قائلا يبشره بحصوله فى أرض ذات خير و در، و ملك و فخر، فانتبه فزعا فإذا عليه، عريش من أطراف الشجر، و حوله عيون ماء، فحمد اللّه و سأله أن يجمعه بأبيه و إخوته، و أن يبارك له فى أرضه، فاستجيب له، و قادهم اللّه إليه، فنزلوا فى العريش، و أقاموا به، فأخرج اللّه لهم من البحر دوابّ ما بين خيل و حمر و بقر و غنم و إبل، فساقوها حتى أتوا موضع مدينة منف، فنزلوه، و بنوا فيه قرية سميت بالقبطية: مافة يعنى قرية ثلاثين، فنمت ذرية بيصر حتى عمروا الأرض، و زرعوا و كثرت مواشيهم، و ظهرت لهم المعادن، فكان الرجل منهم يستخرج القطعة من الزبرجد، يعمل منها مائة كبيرة، و يخرج من الذهب ما تكون القطعة منه مثل الأسطوانة و كالبعير الرابض.

و قال ابن سعيد عن البيهقىّ: كان دخول إخوة يوسف و أبويه، عليهم السلام، عليه بمدينة العريش، و هى أوّل أرض مصر، لأنه خرج إلى تلقيهم، حتى نزل المدينة بطرف سلطانه، و كان له هناك عرش، و هو سرير السلطنة، فأجلس أبويه عليه، و كانت تلك المدينة تسمى فى القديم بمدينة العرش لذلك، ثم سمتها العامّة مدينة العريش، فغلب ذلك عليها.

و يقال: إنه كان ليوسف عليه السلام حرس فى أطراف أرض مصر من جميع جوانبها، فلما أصاب الشام القحط، و سارت إخوة يوسف لتمتار من مصر أقاموا بالعريش، و كتب صاحب الحرس إلى يوسف، إنّ أولاد يعقوب الكنعانىّ، يريدون البلد لقحط نزل بهم، فعمل إخوة يوسف عند ذلك عرشا يستظلون به من الشمس، حتى يعود الجواب، فسمى الموضع العريش، و كتب يوسف بالإذن لهم، فكان من شأنهم ما قد ذكر فى موضعه، و يقال للعرش: الج فهذا كما ترى، و ابن وصيف شاه أعرف بأخبار مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۹۰

و فى سنة خمس عشرة و أربعمائة، طرق عبد اللّه بن إدريس الجعفرىّ العريش بمعاونة بنى الجرّاح و أحرقها، و أخذ جميع ما فيها.

و قال القاضى الفاضل: و فى جمادى الآخرة سنة سبع و سبعين و خمسمائة، ورد الخبر، بأنّ نخل العريش قطع الفرنج أكثره، و حملوا جذوعه إلى بلادهم، و ملئت منه، و لم يجدوا مخاطبا على ذلك، و نقل عن ابن عبد الحكم: أنّ الجفار بأجمعه كان أيام فرعون موسى فى غاية العمارة بالمياه و القرى و السكان، و أنّ قول اللّه تعالى: وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ [۱۳۷/ الأعراف عن هذه المواضع و أنّ العمارة متصلة منه إلى اليمن، و لذلك سميت العريش: عريشا، و قيل: إنها نهاية التخوم من الشام، و إنّ إليه كان ينتهى رعاة إبراهيم الخليل عليه السلام بمواشيه، و إنه عليه السلام اتخذ به عريشا كان يجلس فيه، حتى تحلب مواشيه بين

يديه، فسمى العريش من أجل ذلك، و قيل: إنّ مالك بن دعر بن حجر بن جذيلة بن لخم كان له أربعة و عشرون ولدا منهم: العريش بن مالك، و به سميت العريش لأنه نزل بها و بناها مدينة، و عن كعب الأحبار: أنّ بالعريش قبور عشرة أنبياء.

ذكر مدينة الفرماء

قال البكريّ: الفرماء بفتح أوّله، و ثانيه ممدود على وزن فعلاء، و قد يقصر مدينة تلقاء مصر.

و قال ابن خالويه فى كتاب ليس الفرما: هذه سميت بأخى الإسكندر كان يسمى:

الفرما، و كان كافرا، و هى قرية أم إسماعيل بن إبراهيم، انتهى.

و يقال: اسمه الفرما بن فيلقوس، و يقال فيه: ابن فليس، و يقال: بليس؛ و كانت الفرما على شط بحيرة تنيس، و كانت مدينة خصباء، و بها قبر جالينوس الحكيم، و بنى بها المتوكل على اللّه حصنا على البحر تولى بناءه عنبسة بن إسحاق، أمير مصر فى سنة تسع و ثلاثين و مائتين، عند ما بنى حصن دمياط، و حصن تنيس، و أنفق فيها مالا عظيما، و لما فتح عمرو بن العاص، عين شمس، أنفذ إلى الفرماء، أبرهة بن الصباح، فصالحه أهلها على خمسمائة دينار هرقلية، و أربعمائة ناقة، و ألف رأس من الغنم، فرحل عنهم إلى البقارة.

و فى سنة ثلاث و أربعين و ثلثمائة، نزل الروم عليها، فنفر الناس إليهم، و قتلوا منهم رجلين، ثم نزلوا فى جمادى الأولى سنة تسع و أربعين و ثلثمائة، فخرج إليهم المسلمون،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۹۱

و أخذوا منهم مركبا، و قتلوا من فيه و أسروا عشرة.

و قال اليعقوبىّ : الفرما، أوّل مدن مصر من جهة الشمال، و بها أخلاط من الناس، و بينها و بين البحر الأخضر، ثلاثة أميال.

و قال ابن الكندىّ: و منها الفرما، و هى أكثر عجائب، و أقدم آثارا، و يذكر أهل مصر:

أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبرس فى البرّ، فغلب عليها البحر، و يقولون: إنه كان فيما غلب عليه البحر مقطع الرخام الأبلق، و إنّ مقطع الأبيض بلوبية.

و قال يحيى بن عثمان: كنت أرابط فى الفرما، و كان بينها و بين البحر قريب من يوم يخرج الناس و المرابطون فى أخصاص على الساحل، ثم علا البحر على ذلك كله. و قال ابن قديد: وجّه ابن المدبر، و كان بتنيس، إلى الفرما فى هدم أبواب من حجارة شرقىّ الحصن، احتاج أن يعمل منها جيرا، فلما قلع منها حجر، أو حجران، خرج أهل الفرما بالسلاح، فمنعوا من قلعها، و قالوا: هذه الأبواب التى قال اللّه فيها على لسان يعقوب عليه السلام: يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ [يوسف/ ۶۷] و الفرما بها النخل العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر و الرطب من سائر الدنيا، فيبتدىء هذا الرطب من حين يلد النخل فى الكوانين، فلا ينقطع أربعة أشهر، حتى يجىء البلح فى الربيع، و هذا لا يوجد فى بلد من البلدان لا بالبصرة و لا بالحجاز و لا باليمن، و لا بغيرها من البلدان، و يكون فى هذا البسر، ما وزن البسرة الواحدة فوق العشرين درهما، و فيه ما طول البسرة نحو الشبر و الفتر.

و قال ابن المأمون البطائحى فى حوادث سنة تسع و خمسمائة: و وصلت النجابون من والى الشرقية تخبر بأنّ بغدوين ملك الفرنج، وصل إلى أعمال الفرما، فسيّر الأفضل بن أمير الجيوش للوقت إلى والى الشرقية بأن يسير المركزية و المقطعين بها، و سيّر الراجل من العطوفية، و أن يسير الوالى بنفسه بعد أن يتقدّم إلى العربان بأسرهم بأن يكونوا فى الطوالع، و يطاردوا الفرنج، و يشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر إليه، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام، و تجهيز الأصحاب و الحواشى، فلما تواصلت العساكر و تقدّمها العربان، و طاردوا الفرنج، و علم بغدوين ملك الفرنج أنّ العساكر متواصلة إليه، و تحقق أن الإقامة لا تمكنه أمر أصحابه بالنهب و التخريب و الإحراق و هدم المساجد، فأحرق جامعها و مساجدها و جميع البلد، و عزم على الرحيل، فأخذه اللّه سبحانه و تعالى، و عجل بنفسه إلى النار، فكتم أصحابه موته، و ساروا بعد أن شقوا بطن بغدوين، و ملأوه ملحا حتى بقى إلى بلاده، فدفنوه بها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۹۲

و أما العساكر الإسلامية فإنهم شنوا الغارات على بلاد العدوّ، و عادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان، و كتب إلى الأمير ظهير الدين طفدكين صاحب دمشق بأن يتوجه إلى بلاد الفرنج، فسار إلى عسقلان، و حملت إليه الضيافات و طولع بخبر وصوله، فأمر بحمل الخيام، و عدّة وافرة من الخيل و الكسوات و البنود و الأعلام، و سيف ذهب، و منطقة ذهب، و طوق ذهب، و بدلة طقم، و خيمة كبيرة مكملة و مرتبة ملوكية و فرشها و جميع آلاتها، و ما تحتاج إليه من آلات الفضة، و سير برسم شمس الخواص، و هو مقدم كبير خلعة مذهبة و منطقة ذهب و سيف، و سير برسم المميزين من الواصلين، خلع و سيوف، و سلم ذلك بثبت لأحد الحجاب، و سير معه فرّاشان برسم الخيام، و أمر بضرب الخيمة الكبيرة و فرشها، و أن يركب والى عسقلان و ظهير الدين و شمس الخواص و جميع الأمراء الواصلين و المقيمين بعسقلان إلى باب الخيمة و يقبلوه، ثم إلى بساطها و المرتبة المنصوبة، ثم يجلس الوالى و ظهير الدين و شمس الخواص و المقدّمون، و يقف الناس بأجمعهم إجلالا و تعظيما، و يخلع على الأمير ظهير الدين، و شمس الخواص، و تشدّ المناطق فى أوساطهما، و يقلدا بالسيوف و يخلع بعدهما على المميزين، ثم يسير ظهير الدين و المقدّمون بالتشريف و الأعلام، و الرايات المسيرة إليهم إلى أن يصلوا إلى الخيام التى ضربت لهم، فإذا كان كل يوم يركب الوالى، و الأميران و المقدّمون و العساكر إلى الخيمة الملوكية، و يتفاوضون فيما يجب من تدبير العساكر، فامتثل ذلك، و تواصلت الغارات على بلاد العدوّ و أسروا و قتلوا، فسير إليهم الخلع ثانيا، و جعل الشمس الخواص خاصة فى هذه السفرة عشرة آلاف دينار، و تسلم ظهير الدين الخيمة الكبيرة بما فيها، و كان تقدير ما حصل له و لأصحابه ثلاثين ألف دينار و بلغ المنفق فى هذه النوبة و على ذهاب بغدوين و هلاكه مائة ألف دينار.

و فى شهر رجب سنة خمس و أربعين و خمسمائة، نزل الفرنج على الفرما فى جمع كبير، و أحرقوها و نهبوا أهلها، و آخر أمرها أنّ الوزير شاور خرّبها لما خرج منها متوليها، ملهم أخو الضرغام فى سنة ، فاستمرّت خرابا لم تعمر بعد ذلك، و كان بالفرما و البقارة و الورادة عرب من جذام يقال لهم: القاطع، و هو جرى بن عوف بن مالك بن شنوءة بن بديل بن جشم بن جذام منهم: عبد العزيز بن الوزير بن صابى بن مالك بن عامر بن عدىّ بن حرش بن بقر بن نصر بن القاطع، مات فى صفر سنة خمس و مائتين، و للسروىّ و الجروىّ هنا أخبار كثيرة، نبهنا عليها فى كتاب عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط.

و قال ابن الكندىّ: و بها مجمع البحرين، و هو البرزخ الذى ذكره اللّه عزّ و جل، فقال:

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ [الرحمن/ ۱۹] و قال: و جعل بين البحرين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۹۳

حاجزا و هما بحر الروم و بحر الصين، و الحاجز بينهما مسيرة ليلة، ما بين القلزم و الفرما، و ليس يتقاربان فى بلد من البلدان أقرب منهما بهذا الموضع، و بينهما فى السفر مسيرة شهور.

ذكر مدينة القلزم

القلزم: بضم القاف و سكون اللام و ضم الزاى و ميم، بلدة كانت على ساحل بحر اليمن فى أقصاه من جهة مصر، و هى كورة من كور مصر، و إليها ينسب بحر القلزم، و بالقرب منها غرق فرعون، و بينها و بين مدينة مصر ثلاثة أيام، و قد خربت و يعرف اليوم موضعها بالسويس تجاه عجرود، و لم يكن بالقلزم ماء و لا شجر و لا زرع، و إنما يحمل الماء إليها من آبار بعيدة، و كان بها فرضة مصر و الشام، و منها تحمل الحمولات إلى الحجاز و اليمن، و لم يكن بين القلزم و فاران قرية و لا مدينة، و هى نخل يسير فيه صيادو السمك، و كذلك من فاران و جيلان إلى أيلة.

قال ابن الطوير : و البلد المعروف بالقلزم، أكثرها باق إلى اليوم، و يراها الراكب السائر من مصر إلى الحجاز، و كانت فى القديم ساحلا من سواحل الديار المصرية، و رأيت شيئا من حسابه من جهة مستخدميه فى حواصل القصر، و ما ينفق على واليه و قاضيه و

داعيه و خطيبه، و الأجناد المركزين به لحفظه و قربه و جامعه و مساجده، و كان مسكونا مأهولا.

قال المسبحى فى حوادث سنة سبع و ثمانين و ثلثمائة و فى شهر رمضان: سامح أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أهل مدينة القلزم، مما كان يؤخذ من مكوس المراكب.

و قال ابن خرداذبة عن التجار، فيركبون فى البحر الغربىّ، و يخرجون بالفرماء، و يحملون تجاراتهم على الظهر إلى القلزم، و بينهما خمسة و عشرون فرسخا، ثم يركبون البحر الشرقىّ، من القلزم إلى تجار جدّة، ثم يمضون إلى السند و الهند و الصين، و من القلزم ينزل الناس فى بريّة و صحراء، ست مراحل إلى أيلة، و يتزوّدون من الماء لهذه المراحل الست، و يقال: إنّ بين القلزم و بحر الروم ثلاث مراحل، و إنّ ما بينهما هو البرزخ الذى ذكره تعالى بقوله: بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ [الرحمن/ ۱۹].

ذكر التيه

هو أرض بالقرب من أيلة بينهما عقبة، لا يكاد الراكب يصعدها لصعوبتها، إلا أنها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۹۴

مهدت فى زمان خمارويه بن أحمد بن طولون، و يسير الراكب مرحلتين فى محض التيه هذا، حتى يوافى ساحل بحر فاران، حيث كانت مدينة قاران، و هناك غرق فرعون، و التيه مقدار أربعين فرسخا فى مثلها، و فيه تاه بنو إسرائيل أربعين سنة لم يدخلوا مدينة و لا أووا إلى بيت و لا بدّلوا ثوبا، و فيه مات موسى عليه السلام.

و يقال: إنّ طول التيه نحو من ستة أيام، و اتفق أنّ المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين فى سنة اثنتين و خمسين و ستمائة مرّ طائفة منهم بالتيه، فتاهوا فيه خمسة أيام، ثم تراءى لهم فى اليوم السادس سواد على بعد، فقصدوه، فإذا مدينة عظيمة لها سور و أبواب كلها من رخام أخضر، فدخلوا بها، و طافوا بها، فإذا هى قد غلب عليها الرمل، حتى طمّ أسواقها و دورها، و وجدوا بها أوانى و ملابس، و كانوا إذا تناولوا منها شيئا، تناثر من طول البلى، و وجدوا فى صينية بعض البزازين، تسعة دنانير ذهبا، عليها صورة غزال، و كتابة عبرانية، و حفروا موضعا فإذا حجر على صهريج ماء، فشربوا منه ماء أبرد من الثلج، ثم خرجوا و مشوا ليلة فإذا بطائفة من العربان، فحملوهم إلى مدينة الكرك، فدفعوا الدنانير لبعض الصيارفة فإذا عليها، أنها ضربت فى أيام موسى عليه السلام، و دفع لهم فى كل دينار مائة درهم، و قيل لهم: إنّ هذه المدينة الخضراء من مدن بنى إسرائيل، و لها طوفان رمل يزيد تارة، و ينقص أخرى لا يراها إلا تائه، و اللّه أعلم.

ذكر مدينة دمياط

إعلم أنّ دمياط: كورة من كور أرض مصر، بينها و بين تنيس اثنا عشر فرسخا، و يقال: سميت بدمياط من ولد أشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

و يقال: إنّ إدريس عليه السلام، كان أوّل ما أنزل عليه ذو القوّة و الجبروت، أنا اللّه مدين المدائن الفلك بأمرى و صنعى أجمع بين العذب و الملح و النار و الثلج، و ذلك بقدرتى و مكنون علمى، الدال و الميم و الألف و الطاء، قيل هم: بالسريان، دمياط، فتكون دمياط كلمة سريانية، أصلها دمط أى: القدرة إشارة إلى مجمع العذب و الملح.

و قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: دمياط بلد قديم بنى فى زمن قليمون بن اتريب بن قبطيم بن مصرايم على اسم غلام كانت أمّه ساحرة لقليمون.

و لما قدم المسلمون إلى أرض مصر كان على دمياط رجل، من أخوال المقوقس، يقال له: الهاموك، فلما افتتح عمرو بن العاص مصر امتنع الهاموك بدمياط، و استعدّ للحرب، فأنفذ إليه عمرو بن العاص المقداد بن الأسود، فى طائفة من المسلمين، فحاربهم الهاموك و

قتل ابنه فى الحرب، فعاد إلى دمياط، و جمع إليه أصحابه، فاستشارهم فى أمره، و كان عنده حكيم قد حضر الشورى، فقال: أيها الملك إنّ جوهر العقل لا قيمة له،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۹۵

و ما استغنى به أحد إلّا هداه إلى سبيل الفوز و النجاة من الهلاك، و هؤلاء العرب من بدء أمرهم، لم تردّ لهم راية، و قد فتحوا البلاد، و أذلوا العباد، و ما لأحد عليهم قدرة، و لسنا بأشدّ من جيوش الشام، و لا أعز و لا أمنع، و إنّ القوم قد أيدوا بالنصر و الظفر و الرأى، أن تعقد مع القلوم صلحا ننال به الأمن و حقن الدماء و صيانة الحرم، فما أنت بأكثر رجالا من المقوقس. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۱ ؛ ص۳۹۵

م يعبأ الهاموك بقوله، و غضب منه، فقتله، و كان له ابن عارف عاقل، و له دار ملاصقة للسور، فخرج إلى المسلمين فى الليل، و دلهم على عورات البلد، فاستولى المسلمون عليها، و تمكنوا منها، و برز الهاموك للحرب، فلم يشعر بالمسلمين إلا و هم يكبرون على سور البلد، و قد ملكوه، فعند ما رأى شطا بن الهاموك المسلمين فوق السور، لحق بالمسلمين، و معه عدّة من أصحابه، ففت ذلك فى عضد أبيه، و استأمن للمقداد، فتسلم المسلمون دمياط، و استخلف المقداد عليها، و سير بخبر الفتح، إلى عمرو بن العاص، و خرج شطا، و قد أسلم إلى البرلس و الدميرة و أشموم طناح، فحشد أهل تلك النواحى، و قدم بهم مدد للمسلمين، و عونا لهم على عدوّهم، و سار بهم مع المسلمين لفتح تنيس، فبرز لأهلها، و قاتلهم قتالا شديدا، حتى قتل رحمه اللّه فى المعركة شهيدا بعد ما أنكى فيهم، و قتل منهم، فحمل من المعركة، و دفن فى مكانه المعروف به، خارج دمياط، و كان قتله فى ليلة الجمعة النصف من شعبان، فلذلك صارت هذه الليلة من كل سنة، موسما يجتمع الناس فيها من النواحى، عند شطا، و يحيونها، و هم على ذلك إلى اليوم، و ما زالت دمياط بيد المسلمين إلى أن نزل عليها الروم فى سنة تسعين من الهجرة، فأسروا خالد بن كيسان، و كان على البحر هناك و سيروه إلى ملك الروم، فأنفذه إلى أمير المؤمنين، الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التى كانت بينه و بين الروم.

فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك، نازل الروم دمياط فى ثلثمائة و ستين مركبا، فقتلوا و سبوا، و ذلك فى سنة إحدى و عشرين و مائة، و لما كانت الفتنة بين الأخوين: محمد الأمين، و عبد اللّه المأمون، و كانت الفتن بأرض مصر، طمع الروم فى البلاد، و نازلوا دمياط فى أعوام بضع و مائتين.

ثم لما كانت خلافة أمير المؤمنين، المتوكل على اللّه و أمير مصر يومئذ عنبسة بن إسحاق ، نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان و ثلاثين و مائتين، فملكوها، و ما فيها و قتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين، و سبوا النساء و الأطفال، و أهل الذمّة، فنفر إليهم عنبسة بن إسحاق يوم النحر فى جيشه، و نفر كثير من الناس إليهم، فلم يدركوهم، و مضى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۹۶

الروم إلى تنيس، فأقاموا بأشتومها، فلم يتبعهم عنبسة، فقال يحيى بن الفضيل للمتوكل:

أ ترضى بأن يوطأ حريمك عنوةو أن يستباح المسلمون و يحربوا

حمار أتى دمياط و الروم وثببتنيس رأى العين منه و أقرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ماأصابوه من دمياط و الحرب ترتب

فما رام من دمياط شبرا و لا درىمن العجز ما يأتى و ما يتجنب

فلا تنسنا إنا بدار مضيعةبمصر و إنّ الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط، فابتدىء فى بنائه، يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع و ثلاثين، و أنشأ من حينئذ الأسطول بمصر، فلما كان فى سنة سبع طرق الروم دمياط فى نحو مائتى مركب، فأقاموا يعبثون فى السواحل شهرا، و هم يقتلون و يأسرون و كانت للمسلمين معهم معارك.

ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الإخشيدىّ، طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع و خمسين و ثلثمائة فى بعض و عشرين مركبا، فقتلوا و أسروا مائة و خمسين من المسلمين.

و فى سنة ثمان و أربعمائة، ظهر بدمياط سمكة عظيمة طولها مائتان و ستون ذراعا، و عرضها مائة ذراع، و كانت حمير الملح تدخل فى جوفها موسوقة، فتفرّغ و تخرج، و وقف خمسة رجال فى قحفها، و معهم المجاريف يجرفون الشحم، و يناولونه الناس، و أقام أهل تلك النواحى مدّة طويلة يأكلون من لحمها.

و فى أيام الخليفة الفائز بنصر اللّه عيسى، و الوزير حينئذ الصالح طلائع بن رزيك، نزل على دمياط نحو ستين مركبا فى جمادى الآخرة سنة خمسين و خمسمائة، بعث بها لوجيز بن رجاو، صاحب صقلية، فعاثوا و قتلوا، و نزلوا تنيس و رشيد و الإسكندرية، فأكثروا فيها الفساد.

ثم كانت خلافة العاضد لدين اللّه فى وزارة شاور بن مجير السعدىّ، الوزارة الثانية عند ما حضر ملك الفرنج مرى إلى القاهرة، و حصرها و قرّر على أهلها المال، و احترقت مدينة الفسطاط، فنزل على تنيس و أشموم و منية عمر، و صاحب أسطول الفرنج فى عشرين شونة، فتل و أسر و سبى.

و فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد، و صل الفرنج إلى دمياط فى شهر ربيع الأول سنة خمس و ستين و خمسمائة، و هم فيما يزيد على ألف و مائتى مركب، فخرجت العساكر من القاهرة، و قد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف و خمسين ألف دينار، فأقامت الحرب مدّة خمسة و خمسين يوما، و كانت صعبة شديدة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۹۷

و اتهم فى هذه النوبة عدّة من أعيان المصريين بممالأة الفرنج و مكاتبتهم، و قبض عليهم الملك الناصر، و قتلهم.

و كان سبب هذه النوبة أنّ الغزو لما قدموا إلى مصر من الشام صحبة أسد الدين شيركوه، تحرّك الفرنج لغزو ديار مصر، خشية من تمكن الغزو بها، فاستمدّوا إخوانهم أهل صقلية، فأمدّوهم بالأموال و السلاح، و بعثوا إليهم بعدّة وافرة، فساروا بالدبابات و المجانيق، و نزلوا على دمياط فى صفر، و هم فى العدّة التى ذكرنا من المراكب، و أحاطوا بها بحرا و برّا، فبعث السلطان بابن أخيه تقىّ الدين عمرو، و أتبعه بالأمير شهاب الدين الحازمىّ فى العساكر إلى دمياط، و أمدّهما بالأموال و الميرة و السلاح، و اشتدّ الأمر على أهل دمياط، و هم ثابتون على محاربة الفرنج.

فسيّر صلاح الدين إلى نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام يستنجده، و يعلمه بأنه لا يمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرنج خوفا من قيام المصريين عليه، فجهز إليه العساكر شيئا بعد شىء، و خرج نور الدين من دمشق بنفسه إلى بلاد الفرنج التى بالساحل، و أغار عليها و استباحها، فبلغ ذلك الفرنج، و هم على دمياط، فخافوا على بلادهم من نور الدين، أن يتمكن منها، فرحلوا عن دمياط فى الخامس و العشرين من ربيع الأوّل بعد ما غرق لهم نحو الثلاثمائة مركب، و قلّت رجالهم بفناء وقع فيهم، و أحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات و غيرها، و كان صلاح الدين يقول: ما رأيت أكرم من العاضد! أرسل إلىّ مدّة مقام الفرنج عل دمياط: ألف ألف دينار سوى ما أرسله إلىّ من الثياب و غيرها.

و فى سنة سبع و سبعين و خمسمائة رتبت المقاتلة على البرجين، و شدّت مراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها، و يدافع عن الدخول من بين البرجين، و رمّ شعث سور المدينة، و سدّت ثلمة، و أتقنت السلسلة التى بين البرجين، فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار، و اعتبر السور، فكان قياسه: أربعة آلاف و ستمائة و ثلاثين ذراعا.

و فى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة أمر السلطان، بقطع أشجار بساتين دمياط، و حفر خندقها، و عمل جسر عند سلسلة البرج.

و فى سنة خمس عشرة و ستمائة، كانت واقعة دمياط العظمى، و كان سبب هذه الواقعة أنّ الفرنج فى سنة أربع عشرة و ستمائة، تتابعت إمدادهم من رومية الكبرى : مقرّ البابا، و من غيرها من بلاد الفرنج، و ساروا إلى مدينة عكا، فاجتمع بها عدّة من ملوك الفرنج، و

تعاقدوا على قصد القدس، و أخذه من أيدى المسلمين، فصاروا بعكا فى جمع عظيم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۹۸

و بلغ ذلك الملك أبا بكر بن أيوب، فخرج من مصر فى العساكر إلى الرملة، فبرز الفرنج من عكا فى جموع عظيمة، فسار العادل إلى بيسان، فقصده الفرنج، فخافهم لكثرتهم، و قلة عسكره، فأخذ على عقبة رفيق يريد دمشق، و كان أهل بيسان و ما حولها، قد اطمأنوا لنزول السلطان هناك، فأقاموا فى أماكنهم، و ما هو إلا أن سار السلطان، و إذا بالفرنج قد وضعوا السيف فى الناس، و نهبوا البلاد، فحازوا من أموال المسلمين ما لا يحصى كثرة، و أخذوا بيسان و بانياس و سائر القرى التى هناك، و أقاموا ثلاثة أيام ثم عادوا إلى مرج عكا بالغنائم و السبى، و هلك من المسلمين خلق كثير، فاستراح الفرنج بالمرج أياما، ثم عادوا ثانيا و نهبوا صيدا و الشقيف، و عادوا إلى مرج عكا، فأقاموا به، و كان ذلك كله فيما بين النصف من شهر رمضان و عيد الفطر، و الملك العادل مقيم بمرج الصفر، و قد سير ابنه المعظم عيسى بعسكر إلى نابلس لمنع الفرنج من طروقها، و الوصول إلى بيت المقدس، فنازل الفرنج قلعة الطور سبعة عشر يوما، ثم عادوا إلى عكا، و عزموا على قصد الديار المصرية، فركبوا بجموعهم البحر، و ساروا إلى دمياط فى صفر، فنزلوا عليها يوم الثلاثاء رابع ربيع الأوّل سنة خمس عشرة و ستمائة الموافق لثامن حزيران، و هم نحو السبعين ألف فارس و أربعمائة ألف راجل، فخيموا تجاه دمياط فى البرّ الغربىّ، و حفروا على عسكرهم خندقا، و أقاموا عليه سورا و شرعوا فى قتال برج دمياط، فإنه كان برجا منيعا فيه سلاسل من حديد غلاظ، تمدّ على النيل، لتمنع المراكب الواصلة فى البحر الملح من الدخول إلى ديار مصر فى النيل، و ذلك أنّ النيل إذا انتهى إلى فسطاط مصر، مرّ عليه فى ناحية الشمال إلى شطنوف، فإذا صار إلى شطنوف انقسم قسمين أحدهما يمرّ فى الشمال إلى رشيد، فيصب فى البحر الملح، و الشطر الآخر يمرّ من شطنوف إلى جوجر، ثم يتفرّق من عند جوجر فرقتين، فرقة تمرّ إلى أشموم فتصب فى بحيرة تنيس، و فرقة تمرّ من جوجر إلى دمياط، فتصب فى البحر الملح هناك، و تصير هذه الفرقة من النيل فاصلة بين مدينة دمياط و البرّ الغربىّ، و هذا البرّ الغربىّ من دمياط يعرف بجزيرة دمياط، يحيط بها ماء النيل و البحر الملح.

و فى مدّة إقامة الفرنج بهذا البرّ الغربىّ، عملوا الآلات و المراسى، و أقاموا أبراجا يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه، فإنهم إذا ملكوه تمكنوا من العبور فى النيل إلى القاهرة و مصر، و كان هذا البرج مشحونا بالمقاتلة، فتحيل الفرنج عليه، و عملوا برجا من الصوارى على بسطة كبيرة، و أقلعوا بها حتى أسندوها إليه، و قاتلوا من به حتى أخذوه.

فبلغ نزول الفرنج على دمياط الملك الكامل، و كان يحلف أباه الملك العادل على ديار مصر، فخرج بمن معه من العساكر فى ثالث يوم من وقوع الطائر، بخبر نزول الفرنج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۹۹

لخمس خلون منه، و أمر والى الغربية بجمع العربان، و سار فى جمع كبير، و خرج الأسطول، فأقام تحت دمياط، و نزل السلطان بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية، قرب دمياط، و امتدّت عساكره إلى دمياط لتمنع الفرنج من السور و القتال مستمرّ و البرج ممتنع مدّة أربعة أشهر، و العادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئا بعد شىء حتى تكاملت عند الملك الكامل، و اهتمّ الملك لنزول الفرنج على دمياط، و اشتدّ خوفه، فرحل من مرج الصفر إلى عالقين فنزل به المرض، و مات فى سابع جمادى الآخرة، فكتم الملك المعظم عيسى موته و حمله فى محفة، و جعل عنده خادما و طبيبا راكبا إلى جانب المحفة، و الشر بدار يصلح الشراب، و يحمله إلى الخادم فيشربه، و يوهم الناس، أنّ السلطان شربه، إلى أن دخلوا به إلى قلعة دمشق، و صارت إليها الخزائن و البيوتات، فأعلن بموته.

و تسلم ابنه الملك المعظم، جميع ما كان معه، و دفنه بالقلعة، ثم نقله إلى مدرسة العادلية بدمشق، و بلغ الملك الكامل موت أبيه، و هو بمنزلة العادلية قرب دمياط، فاستقلّ بمملكة ديار مصر، و اشتدّ الفرنج، و ألحوا فى القتال، حتى استولوا على برج السلسلة، و قطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم فى بحر النيل، و يتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسرا عظيما، لمنع الفرنج من عبور النيل، فقاتلت الفرنج عليه قتالا شديدا إلى أن قطعوه و كان قد أنفق على البرج و الجسر، ما ينيف على سبعين ألف دينار، و

كان الكامل يركب فى كل يوم عدّة مرار من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور، و إعمال الحيلة فى مكايدة الفرنج، فأمر الملك الكامل، أن يفرّق عدّة من المراكب فى النيل حتى تمنع الفرنج من سلوك النيل، فعمد الفرنج إلى خليج هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجرى فيه قديما، فحفروه و عمقوا حفره، و أجروا فيه المال إلى البحر الملح، و أصعدوا مراكبهم فيه إلى بورة على أرض جيزة دمياط، مقابل المنزلة التى بها السلطان ليقاتلوه من هناك، فلما صاروا فى بورة جاؤوه، و قاتلوه فى الماء، و زحفوا إليه عدّة مرار، فلم يظفروا منه بطائل و لم يتغير على أهل دمياط شىء لأنّ الميرة و الإمداد متصلة إليهم، و النيل يحجز بينهم بين الفرنج، و أبواب المدينة مفتحة و ليس عليها من الحصر ضيق و لا ضرر، و العربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة، بحيث امتنعوا من الرقاد خوفا من غاراتهم، فلما قوى طمع العرب فى الفرنج حتى صاروا يخطفونهم نهارا، و يأخذون الخيم بمن فيها، أكمن الفرنج لهم عدّة كمناء، و قتلوا منهم خلقا كثيرا، و أدرك الناس الشتاء، و هاج البحر على مخيم المسلمين و غرّقهم، فعظم البلاء و تزايد الغم و ألح الفرنج فى القتال، و كادوا أن يملكوا، فبعث اللّه ريحا قطعت مراسى مرمة الفرنج.

و كانت من عجائب الدنيا، فمرّت إلى برّ المسلمين فأخذوها فإذا هى مصفحة بالحديد، لا تعمل فيها النار و مساحتها خمسمائة ذراع، فكسروها، فإذا فيها مسا ميرزنة الواحد منها خمسة و عشرون رطلا، و بعث الكامل إلى الآفاق سبعين رسولا يستنجد أهل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۰

الإسلام لنصرة المسلمين، و يخوّفهم من غلبة الفرنج على مصر.

فساروا فى شوّال و أتته النجدات، من حماه و حلب، و بينا الناس فى ذلك إذ طمع الأمير عماد الدين أحمد بن الأمير سيف الدين أبى الحسين علىّ بن أحمد الهكارىّ:

المعروف بابن المشطوب فى الملك الكامل عند ما بلغه موت الملك العادل، و كان له لفيف ينقادون إليه و يطيعونه، و كان أميرا كبيرا مقدّما عظيما فى الأكراد الهكارية وافر الحرمة عند الملوك، معدودا بينهم، مثل واحد منهم، و كان مع ذلك عالى الهمة غزير الجود واسع الكرم شجاعا أبىّ النفس تهابه الملوك، و له الوقائع المشهورة، و هو من أمراء دولة صلاح الدين يوسف، فاتفق مع جماعة من الجند و الأكراد على خلع الملك الكامل، و إقامة أخيه الملك الفائز إبراهيم ليصير له الحكم، و وافقه الأمير عز الدين الحميدى، و الأمير أسد الدين الهكارىّ، و الأمير مجاهد الدين، و جماعة من الأمراء، فلما بلغ ذلك الملك الكامل دخل عليهم، و هم مجتمعون و المصحف بين أيديهم ليحلفوا للفائز، فلما رأوه انفضوا، فخشى على نفسه فخرج، فاتفق وصول الصاحب، صفىّ الدين بن سكر من آمد إلى الملك الكامل، فإنه كان استدعاه بعد موت أبيه، فتلقاه و أكرمه، و ذكر له ما هو فيه، فضمن له تحصيل المال، فلما كان فى الليل ركب، الملك الكامل و توجه من العادلية فى جريدة إلى أشموم طناح، فنزلها و أصبح العسكر بغير سلطان، فركب كل منهم هواه، و لم يعطف الأخ على أخيه، و تركوا أثقالهم و خيامهم و أموالهم و أسلحتهم، و لحقوا بالسلطان.

فبادر الفرنج فى الصباح إلى مدينة دمياط، و نزلوا البرّ الشرقىّ، يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة بغير منازع و لا مدافع، و أخذوا سائر ما كان فى عسكر المسلمين، و كان شيئا لا يحيط به الوصف، و داخل السلطان و هم عظيم، و كاد أن يفارق البلاد، فإنه تخيل من جميع من معه، و اشتدّ طمع الفرنج فى أرض مصر كلها، و ظنوا أنهم قد ملكوها إلا أنّ اللّه سبحانه و تعالى: أغاث المسلمين، و ثبت السلطان، و واقاه أخوه الملك المعظم، بأشموم طناح، فاشتدّ به أزره، و قوى جأشه، و أطلعه على ما كان من ابن المشطوب، فوعده بإزاحة ما يكره، ثم إنّ المعظم ركب إلى خيمة ابن المشطوب، و استدعاه للركوب معه و مسايرته، فاستمهله حتى يلبس خفيه و ثياب الركوب، فلم يمهله، و أعجله فركب معه و سايره حتى خرج به من العسكر الكاملىّ.

ثم قال له: يا عماد الدين، هذه البلاد لك و أشتهى أن تهبها لنا، و أعطاه نفقة، و سلمه إلى جماعة من أصحابه، يثق بهم، و قال لهم: أخرجوه من الرمل، و لا تفارقوه حتى يخرج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۱

من الشام، فلم يسع ابن المشطوب إلا امتثال ما قال المعظم لأنه معه بمفرده، و لا قدرة له على الممانعة، فساروا به إلى حماه، ثم مضى منها إلى المشرق، و لما شيّع الملك المعظم ابن المشطوب رجع إلى الملك الكامل، و أمر أخاه الفائز إبراهيم أن يسير إلى ملوك الشام فى رسالة عن أخيه الملك الكامل لاستدعائهم إلى قتال الفرنج، فمضى إلى دمشق و خرج منها إلى حماه، فمات بها مسموما على ما قيل، فثبت للملك الكامل، أمر الملك و سكن روعه، هذا و الفرنج قد أحاطوا بدمياط برّا و بحرا، و أحدقوا و ضيقوا على أهلها، و منعوا القوت من الوصول إليهم، و حفروا على عسكرهم المحيط بدمياط خندقا، و بنوا عليه سورا، و أهل دمياط يقاتلونهم أشدّ القتال، و يمانعونهم، و قد غلت عندهم الأسعار لقلّة الأقوات، ثم إنّ المعظم فارق الملك الكامل، و سار إلى بلاد الشام.

و أقام الكامل لمحاربة الفرنج، و انتدب شمائل أحد الجاندارية فى الركاب للدخول إلى دمياط، فكان يسبح فى الماء، و يصل إلى أهل دمياط، فيعدهم بوصول النجدات، فحظى بذلك عند الكامل، و تقرّب منه، حتى عمله والى القاهرة، و إليه تنسب خزانة شمائل بالقاهرة، فلم يزل الحال على ذلك إلى أن دخلت سنة ست عشرة، فجهز الملك المنصور محمد بن عمرو بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماه ابنه المظفر تقيّ الدين محمودا إلى مصر نجدة لخاله الملك الكامل على الفرنج فى جيش كثيف، فوصل إلى العسكر، و تلقاه الملك الكامل، و أنزله فى ميمنة العسكر منزلة أبيه و جدّه عند السلطان صلاح الدين يوسف، فألح الفرنج فى القتال، و كان بدمياط نحو العشرين ألف مقاتل، فنهكتهم الأمراض و غلت عندهم الأسعار حتى بلغت بيضة الدجاجة عندهم عدّة دنانير.

قال الحافظ عبد العظيم المنذرى : سمعت الشيخ أبا الحسن علىّ بن فضل يقول:

كان لبعض بنى خيار، بقرة فذبحوها، و باعوها فى الحصار، فجاءت ثمانمائة دينار.

و قال فى المعجم المترجم: سمعت الأمير أبا بكر بن حسن بن خسويام يقول: كنت بدمياط فى حصار العدوّ بها، فبيع السكز بها بمائة و أربعين دينارا الرطل، و الدجاجة بثلاثين دينارا، قال: و اشتريت ثلاث دجاجات بتسعين دينارا، و الرواية بأربعين درهما، و القبر يحفر بأربعين مثقالا، و أخذت أختى جملا، فشقت جوفه و ملأته دجاجا و فاكهة و بقلا، و غير ذلك، و خاطته و رمته فى البحر، و كتبت إلىّ تقول: قد فعلت كذا، فإذا رأيتم جملا ميتا، فخذوه فوقع لنا ليلا، فأخذناه و كان فيه ما يساوى جملة، ففرّقته على الناس، ثم عمل بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۲

ذلك، ثلاثة جمال على هيئته، ففطن لها الفرنج، فأخذوها و امتلأت مساكنهم، و طرقات البلد من الموتى و عدمت الأقوات، و صار السكر، كعزة الياقوت، و فقدت اللحوم، فلم يقدر عليها بوجه و آلت بهم الحال، إلى أن لم يبق بها سوى قليل من القمح و الشعير فقط. فتسوّر الفرنج و أخذوا منه البلد فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان، و كانت مدّة الحصار ستة عشر شهرا و اثنين و عشرين يوما، و لما أخذوا البلد وضعوا السيف فى الناس، فتجاوزوا الحدّ فى القتل و أسرفوا فى مقدار القتلى، و بلغ ذلك السلطان، فرحل بعد أخذ دمياط بيومين، و نزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم، و رأس بحر دمياط و حيز فى المنزلة التى صار يقال لها المنصورة، و حصّن الفرنج أسوار دمياط، و جعلوا الجامع كنيسة و بثوا سراياهم فى القرى، فقتلوا و نهبوا، و سيّر السلطان الكتب إلى الآفاق ليستحث الناس على الحضور، لدفع الفرنج عن ملك مصر، و شرع العسكر فى بناء الدور و الفنادق و الحمامات، و الأسواق بمنزلة المنصورة، و جهز الفرنج من أسروه من المسلمين فى البحر إلى عكا، و خرجوا من دمياط، و نازلوا السلطان تجاه المنصورة، و صار بينهم و بينه بحر أشموم، و بحر دمياط، و كان الفرنج فى مائتى ألف راجل، و عشرة آلاف فارس، فقدّم المسلمون شوانيهم أمام المنصورة، و عدّتها مائة قطعة، و اجتمع الناس من القاهرة و مصر، و سائر النواحى من أسوان إلى القاهرة، و وصل الأمير حسام الدين يونس، و الفقيه تقيّ الدين، أبو الطاهر محمد بن الحسن بن عبد الرحمن المحلى، فأخرجا الناس من القاهرة و مصر، و نودى بالنفير العام و خرج الأمير علاء الدين جلدك، و جمال الدين بن صيرم، لجمع الناس فيما بين القاهرة إلى آخر الحوف الشرقيّ، فاجتمع عالم لا يقع عليه حصر، و أنزل السلطان على ناحية شار مساح ألف فارس فى آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج و دمياط، و سارت الشوانى، و معها حراقة

كبيرة على رأس بحر المحلة، و عليها الأمير بدر الدين بن حسون، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر و البحر.

و سارت عساكر المسلمين من الشرق و الشام إلى الديار المصرية، و كان قد خرج الفرنج من داخل البحر لمدد الفرنج على دمياط، فقدم منهم أمم لا- تحصى، يريدون التوغل فى أرض مصر، فلما تكاملوا بدمياط، خرجوا منها فى حدّهم و حديدهم، و نزلوا تجاه الملك الكامل، كما تقدّم، فقدمت النجدات يقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل، و على ساقتها الملك المعظم عيسى، فتلقاهم الملك الكامل و أنزلهم عنده بالمنصورة فى ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة، و تتابع مجيء الملوك، حتى بلغت عدّة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس، فحاربوا الفرنج فى البر و البحر، و أخذوا منهم ست شوانى و جلاسة و بطسة و أسروا من الفرنج ألفين و مائتين، ثم ظفر المسلمون، بثلاث قطائع أخر، فتضعضع الفرنج لذلك، و ضاق بهم المقام.

فبعثوا يطلبون الصلح، فقدم عند مجيء رسلهم أهل الإسكندرية فى ثمانية آلاف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۳

مقاتل، و كان الذى طلب الفرنج القدس و عسقلان و طبرية و جبلة و اللاذقية، و سائر ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف من الساحل ليرحلوا عن ديار مصر، فبذل المسلمون لهم سائر ما ذكر من البلاد، خلا مدينة الكرك و الشويك، فامتنع الفرنج من الصلح، و قالوا لا- بدّ من أخذهم الكرك و الشوبك، و مبلغ ثلثمائة ألف دينار، عوضا عما خرّبه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق من أسوار القدس، و كان المعظم لما مات أبوه العادل، و استولى الفرنج على دمياط، و نازلوا الملك الكامل قبالة المنصورة، خاف أن يصل منهم فى البحر، من يأخذ القدس، و يتحصنوا به فأمر بتخريب أسواره، و كانت أسواره و أبراجه فى غاية العظمة و المنعة، فأتى الهدم على جميعها ما خلا- برج داود، و انتقل أكثر الناس من القدس، و لم يبق به إلا- القليل، و نقل المعظم ما كان بالقدس من الأسلحة و الآلات، فامتنع المسلمون من إجابة الفرنج إلى ذلك، و قاتلوهم و عبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها الفرنج، و حفروا مكانا عظيما فى النيل، و كان فى قوّة الزيادة، فركب الماء أكثر تلك الأرض، و صار حائلا بين الفرنج و مدينة دمياط، و انحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة، فأمر السلطان للوقت، بنصب الجسور عند أشموم طناح، فعبرت العساكر عليها، و ملكت الطريق التى يسلكها الفرنج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول إليها، فاضطربوا و ضاقت عليهم الأرض.

و اتفق مع ذلك وصول مرمّة عظيمة للفرنج فى البحر حولها عدّة حراقات تحميها، و قد ملئت كلها بالميرة و الأسلحة، فقاتلهم شوانى المسلمين و ظفرها اللّه بهم، فأخذها المسلمون، و عند ما علم الفرنج ذلك أيقنوا بالهلاك، و صار المسلمون يرمونهم بالنشاب، و يحملون على أطرافهم، فهدموا حينئذ خيامهم و مجانيقهم، و ألقوا فيها النار، و هموا بالزحف على المسلمين و مقاتلتهم ليخلصوا إلى دمياط، فحال بينهم و بين ذلك كثرة الوحل و المياه الراكبة على الأرض، و خشوا من الإقامة لقلة أقواتهم، فذلوا و سألوا الأمان على أن يتركوا دمياط للمسلمين، فاستشار السلطان فى ذلك، فاختلف الناس عليه، فمنهم من امتنع من تأمين الفرنج و رأى أن يؤخذوا عنوة، و منهم من جنح إلى إعطائهم الأمان خوفا ممن وراءهم من الفرنج فى الجزائر و غيرها، ثم اتفقوا على الأمان و أن يعطى كل من الفريقين رهائن، فتقرّر ذلك فى تاسع شهر رجب سنة ثمان عشرة، و سير الفرنج عشرين ملكا رهنا عند الملك الكامل.

و بعث الملك الكامل بابنه الملك الصالح، نجم الدين أيوب، و جماعة من الأمراء إلى الفرنج، و جلس السلطان مجلسا عظيما لقدوم ملك الفرنج، و قد وقف إخوته و أهل بيته بين يديه، و صار فى أبهة و ناموس مهاب، و خرج قسوس الفرنج و رهبانهم إلى دمياط، فسلموها للمسلمين فى تاسع عشرة، و كان يوم تسليمها يوما عظيما و عند ما تسلم المسلمون دمياط، و صارت بأيديهم، قدمت نجدة فى البحر للفرنج، فكان من جميل صنع اللّه، تأخرها حتى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۴

ملكت دمياط بأيدى المسلمين، فإنها لو قدمت قبل ذلك لقوى بها الفرنج، فإنّ المسلمين وجدوا مدينة دمياط، قد حصنها الفرنج، و صارت بحيث لا ترام، و لما تمّ الأمر بعث الفرنج بولد السلطان، و أمرائه إليه، و سيّر إليهم السلطان من كان عنده من الملوك فى

الرهن، و تقرّرت الهدنة بين الفرنج و المسلمين، مدّة ثماني سنين، و كان مما وقع الصلح عليه أن كلا من المسلمين و الفرنج يطلق ما عنده من الأسرى، و حلف السلطان و إخوته، و حلفت ملوك الفرنج، و تفرّق الناس إلى بلادهم.

و دخل الملك الكامل إلى دمياط بإخوته و عساكره، و كان يوم دخوله إليها من الأيام المذكورة و رحل الفرنج إلى بلادهم، و عاد السلطان إلى مقرّ ملكه، و أطلقت الأسرى من ديار مصر، و كان فيهم من له من أيام السلطان صلاح الدين يوسف، و سارت ملوك الشام بعساكرها إلى بلادها، و عمت بشارة أخذ المسلمين مدينة دمياط من الفرنج، سائر الآفاق، فإنّ التتر كانوا قد استولوا على ممالك المشرق، فأشرف الفرنج على أخذ ديار مصر من أيدى المسلمين، و كانت مدّة نزول الفرنج على دمياط إلى أن أقلعوا عنها سائرين إلى بلادهم، ثلاث سنين و أربعة أشهر و تسعة عشر يوما منها مدّة استيلائهم على مدينة دمياط سنة و عشرة أشهر و أربعة و عشرون يوما.

فلما كان فى سنة ست و أربعين و ستمائة حدث بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، محمد ورم فى مأبضه تكوّن منه، ناصور فتح و عسر برؤه، فمرض من ذلك، و انضاف إليه قرحة فى الصدر، فلزم الفراش إلا أنّ علوّ همته اقتضى مسيره من ديار مصر إلى الشام فسار فى محفة، و نزل بقلعة دمشق، فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر، و أخبره سرّا بأن بواش الذى يقال له: رواد فرنس، عازم على المسير إلى أرض مصر، و أخذها فسار السلطان من دمشق، و هو مريض فى محفة، و نزل بأشموم طناح فى المحرّم سنة سبع و أربعين، و جمع فى مدينة دمياط من الأقوات و الأزواد و الأسلحة و آلات القتال شيئا كثيرا خوفا أن يجرى على دمياط ما جرى فى أيام أبيه، فأخذت بغير ذلك.

و لما نزل السلطان، بأشموم كتب إلى الأمير حسام الدين أبى علىّ بن علىّ الهدبانىّ، نائبه بديار مصر، أن يجهز الأسطول من صناعة مصر، فشرع فى الاهتمام بذلك و شحن الأسطول بالرجال و السلاح، و سائر ما يحتاج إليه و سيره شيئا بعد شىء، و جهز السلطان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، و معه الأمراء و العساكر، فنزل بحيرة دمياط من برّها الغربىّ، و صار النيل بينه و بينها، فلما كان فى الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر وردت مراكب الفرنج البحريين فيها جموعهم العظيمة و قد انضم إليهم فرنج الساحل و أرسوا بإزاء المسلمين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۵

و بعث ملكهم إلى السلطان كتابا نصه: أما بعد: فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمّة العيسوية، كما أنه لا يخفى علىّ أنك أمين الأمّة المحمدية، و غير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس، و ما يحملونه إلينا من الأموال و الهدايا، و نحن نسوقهم سوق البقر و نقتل منهم الرجال، و نرمّل النساء، و نستأسر البنات و الصبيان و نخلى منهم الديار، و أنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية، و بذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لى بكل الإيمان، و أدخلت علىّ الأقساء و الرهبان، و حملت قدّامى الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا إليك، و قاتلك فى أعز البقاع إليك، فإما إن تكون البلاد لى فيا هدية حصلت فى يدىّ، و إما أن تكون البلاد لك و الغلبة علىّ، فيدك العليا ممتدّة إلىّ، و قد عرّفتك و حذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى، تملأ السهل و الجبل، و عددهم كعدد الحصى، و هم مرسلون إليك بأسياف القضاء.

فلما قرىء الكتاب على السلطان، و قد اشتدّ به المرض بكى، و استرجع.

فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد، الجواب: بسم اللّه الرحمن الرحيم، و صلواته على سيدنا محمد رسول اللّه و آله و صحبه أجمعين، أما بعد: فإنه وصل كتابك، و أنت تهدّد فيه بكثرة جيوشك، و عدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، و ما قتل منا فرد إلا جدّدناه، و لا بغى علينا باغ إلا دمّرناه، و لو رأت عينك أيها المغرور، حدّ سيوفنا، و عظم حروبنا، و فتحنا منكم الحصون و السواحل، و تخريبنا ديار الأواخر منكم و الأوائل، لكان لك أن تعض على أنا ملك بالندم، و لا بدّ أن تزل بك القدم فى يوم أوّله لنا و آخره عليك، فهنالك تسىء الظنون، و سيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون، فإذا قرأت كتابى هذا، فتكون فيه على أوّل سورة النحل: أَتى

أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل/ ۱] و تكون على آخر سورة ص:

وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ [ص/ ۸۸]، و نعود إلى قول اللّه تعالى، و هو أصدق القائلين: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة/ ۲۴۹]، و قول الحكماء: إنّ الباغى له مصرع و بغيك يصرعك، و إلى البلاد يقلبك و السلام.

و فى يوم السبت ورد الفرنج و ضربوا خيامهم فى أكثر البلاد التى فيها عساكر المسلمين، و كانت خيمة الملك رواد فرنس حمراء، فناوشهم المسلمون القتال، و استشهد يومئذ الأمير نجم الدين يوسف بن شيخ الإسلام، و الأمير صارم الدين أزبك الوزيرىّ، فلما أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بعساكر المسلمين جبنا و صلفا، و سار بهم فى برّ دمياط، و سار إلى جهة أشموم طناح، فخاف من كان فى مدينة دمياط، و خرجوا منها على وجوههم فى الليل لا يلتفتون إلى شىء، و تركوا المدينة خالية من الناس، و لحقوا بالعسكر فى أشموم، و هم حفاة عرايا جياع حيارى بمن معهم من النساء و الأولاد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۶

و مرّوا هاربين إلى القاهرة، فأخذ منهم قطاع الطريق، ما عليهم من الثياب، و تركوهم عرايا، فشنعت القالة على الأمير فخر الدين من كل أحد، و عدّ جميع ما نزل بالمسلمين من البلاء بسبب هزيمته، فإن دمياط كانت مشحونة بالمقاتلة و الأزواد العظيمة و الأسلحة و غيرها، خوفا أن يصيبها فى هذه المدّة ما أصابها فى أيام الكامل، فإنه ما أتى عليها ذاك إلا من قلّة الأقوات بها، و مع ذلك امتنعت من الفرنج أكثر من سنة، حتى فنى أهلها كما تقدّم، و لكن اللّه يفعل ما يريد.

و لما أصبح الفرنج يوم الأحد لسبع بقين من صفر قصدوا دمياط فإذا أبواب المدينة مفتحة، و لا أحد يدفع عنها، فظنوا أنّ ذلك مكيدة، و تمهلوا حتى ظهر لهم خلوّها فدخلوا إليها من غير مانع و لا مدافع، و استولوا على ما بها من الأسلحة العظيمة، و آلات الحرب، و الأقوات الخارجة عن الحدّ فى الكثرة و الأموال و الأمتعة صفوا بغير كلفة، فأصيب الإسلام و المسلمون ببلاء، لو لا لطف اللّه لمحى اسم الإسلام و رسمه بالكلية، و انزعج الناس فى القاهرة و مصر انزعاجا عظيما، لما نزل بالمسلمين مع شدّة مرض السلطان، و عدم حركته، و أما السلطان فإنه اشتدّ حنقه على الأمير فخر الدين، و قال: أما قدرت أنت و العساكر أن تقفوا ساعة بين يدى الفرنج؟ و أقام عليه القيامة، لكن الوقت لم يكن يسع غير الصبر و الإغضاء، و غضب على الكنانيين الذين كانوا بدمياط و وبخهم، فقالوا: ما نعمل إذا كانت عساكر السلطان بأجمعهم و أمراؤه هربوا و أخربوا الزردخاناه، كيف لا نهرب نحن؟ فأمر بشنقهم لكونهم خرجوا من دمياط بغير إذن، و كانت عدّة من شنق من الأمراء الكنانية زيادة على خمسين أميرا فى ساعة واحدة، و من جملتهم أمير جسيم، له ابن جميل يسأل أن يشنق قبل ابنه، فأمر السلطان أن يشنق ابنه قبله، فشنق الابن ثم الأب، و يقال: إنّ شنق هؤلاء كان بفتوى الفقهاء، فخاف جماعة من الأمراء، و هموا بالقيام على السلطان.

فأشار عليهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بأنّ السلطان على خطة، فإن مات فقد كفيتم أمره، و إلا فهو بين أيديكم و أخذ السلطان فى إصلاح سور المنصورة، و انتقل إليها لخمس بقين من صفر، و جعل الستائر على السور، و قدمت الشوانى إلى تجاه المنصورة، و فيها العدد الكاملة و شرع العسكر فى تجديد الأبنية هناك، و قدم من العربان، و أهل النواحى و من المطوّعة خلق لا يحصى عددهم، و أخذوا فى الإغارة على الفرنج، فملأ الفرنج أسوار مدينة دمياط بالمقاتلة و الآلات، فلما كان أوّل ربيع الأوّل قدم إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العربان، ستة و ثلاثون منهم: فارسان، و فى خامس ربيع الآخر، ورد منهم تسعة و ثلاثون، و فى سابعه ورد اثنان و عشرون أسيرا، و فى سادس عشره ورد خمسة و أربعون أسيرا منهم: ثلاثة خيالة، و فى ثامن عشر جمادى الأولى ورد خمسون أسيرا.

هذا و مرض السلطان يتزايد، و قواه تتناقص حتى آيس الأطباء منه، و فى ثالث عشر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۷

رجب قدم إلى القاهرة سبعة و أربعون أسيرا، و أحد عشر فارسا، و ظفر المسلمون بمسطح للفرنج فى البحر فيه مقاتلة من نستراوة.

فلما كانت ليلة الأحد لأربع عشرة مضت من شعبان، مات الملك الصالح بالمنصورة، فلم يظهر موته، و حمل فى تابوت إلى قلعة الروضة، و قام بأمر العسكر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ.

فإنّ شجرة الدر زوجة السلطان، لما مات أحضرت الأمير فخر الدين، و الطواشى جمال الدين محسنا، و إليه أمر المماليك البحرية و الحاشية و أعلمتهما بموته، فكتما ذلك خوفا من الفرنج، لأنهم كانوا قد أشرفوا على تملك ديار مصر، فقام الأمير فخر الدين بالتدبير.

و سيروا إلى الملك المعظم توران شاه ، و هو بحصن كيفا ، الفارس أقطاى لإحضاره، و أخذ الأمير فخر الدين فى تحليف العسكر للملك الصالح، و ابنه الملك المعظم بولاية العهد من بعده، و للأمير فخر الدين بأتابكية العسكر، و القيام بأمر الملك حتى حلفهم كلهم بالمنصورة و بالقاهرة فى دار الوزارة عند الأمير حسام الدين بن أبى علىّ فى يوم الخميس لاثنتى عشرة بقيت من شعبان، و كانت العلامات تخرج من الدهاليز السلطانية بالمنصورة إلى القاهرة بخط خادم يقال له: سهيل لا يشك من رآها، إنها خط السلطان، و مشى ذلك على الأمير حسام الدين بالقاهرة، و لم يتفوّه أحد بموت السلطان إلى أن كان يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان، ورد الأمر إلى القاهرة بدعاء الخطباء فى الجمعة الثانية للملك المعظم بعد الدعاء للسلطان، و أن ينقش اسمه على السكة، فلما علم الفرنج بموت السلطان، خرجوا من دمياط بفارسهم و راجلهم، و شوانيهم تحاذيهم فى البحر حتى نزلوا، فارسكور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان.

فورد فى يوم الجمعة من الغد كتاب إلى القاهرة من العسكر، أوّله: انفروا خفافا و ثقالا و جاهدوا بأموالكم و أنفسكم فى سبيل اللّه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، و فيه مواعظ بليغة بالحث على الجهاد، فقرىء على منبر جامع القاهرة، و قد جمع الناس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۸

لسماعه، فارتجت القاهرة و مصر، و ظواهرهما بالبكاء و العويل، و أيقن الناس باستيلاء الفرنج على البلاد لخلوّ الوقت من ملك يقوم بالأمر لكنهم لم يهنوا، و خرجوا من القاهرة و مصر، و سائر الأعمال، فاجتمع عالم عظيم.

فلما كان يوم الثلاثاء أوّل شهر رمضان، اقتتل المسلمون و الفرنج، فاستشهد العلائىّ أمير مجلس و جماعة، و نزل الفرنج، شارمساح ، و فى يوم الاثنين سابعه نزلوا البرمون، فاضطرب الناس و زلزلوا زلزالا شديدا لقربهم من العسكر، و فى يوم الأحد ثالث عشره، و صلوا تجاه المنصور، و صار بينهم و بين المسلمين، بحر أشموم، و خندقوا عليهم و أداروا على خندقهم سورا ستروه بكثير من الستائر، و نصبوا المجانيق، ليرموا بها على المسلمين، و صارت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل، و شوانى المسلمين بإزاء المنصورة، و التحم القتال برّا و بحرا.

و فى سادس عشره نفر إلى المسلمين، ستة خيالة، أخبروا بمضايقة الفرنج، و فى يوم عيد الفطر، أسروا من الفرنج، كند من أقارب الملك، و أبلى عوامّ المسلمين فى قتال الفرنج بلاء كبيرا، و أنكوهم نكاية عظيمة، و صاروا يقتلون منهم فى كل وقت، و يأسرون و يلقون أنفسهم فى الماء، و يمرّون فيه إلى الجانب الذى فيه الفرنج، و يتحيلون فى اختطاف الفرنج بكل حيلة، و لا يهابون الموت، حتى إن إنسانا قوّر بطيخة، و حملها على رأسه، و غطس فى الماء حتى حاذى الفرنج، فظنه بعضهم بطيخة، و نزل حتى يأخذها، فخطفه و أتى به إلى المسلمين، و فى يوم الأربعاء سابع شوّال، أخذ المسلمون شونة للفرنج فيها: كندا، و مائتا رجل، و فى يوم الخميس النصف منه ركب الفرنج إلى برّ المسلمين و اقتتلوا فقتل منهم أربعون فارسا، و سير فى عدّة إلى القاهرة بسبعة و ستين أسيرا منهم: ثلاثة من أكابر الدوادارية، و فى يوم الخميس، ثانى عشرية أحرقت للفرنج مرمّة عظيمة فى البحر، و استظهر المسلمون عليهم، و كان بحر أشموم فيه مخايض، فدل بعض من لا دين له ممن يظهر الإسلام الفرنج عليها، فركبوا سحر يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة أو رابعه، و لم يشعر المسلمون بهم إلا و قد هجموا على العسكر، و كان الأمير فخر الدين قد عبر إلى الحمام، فأتاه الصريخ بأنّ الفرنج قد هجموا على العسكر، فركب دهشا غير معتدّ، و لا متحفظ و ساق ليأمر الأمراء و الأجناد بالركوب فى طائفة من مماليكه، فلقيه عدّة من الفرنج الدوادارية ، و حملوا عليه ففرّ أصحابه، و أتته طعنة فى جنبه، و أخذته السيوف من كل جانب حتى لحق بالله عز و جل، و فى

الحال غدت مماليكه فى طائفة إلى داره، و كسروا صناديقه و خزائنه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۰۹

و نهبوا أمواله و خيوله، و ساق الفرنج عند مقتل الأمير فخر الدين إلى المنصورة، ففرّ المسلمون خوفا منهم، و تفرّقوا يمنة و يسرة، و كادت الكسرة أن تكون، و تمحوا الفرنج كلمة الإسلام من أرض مصر، و وصل الملك، رواد فرنس إلى باب قصر السلطان، و لم يبق إلا أن يملكه فأذن اللّه تعالى أنّ طائفة المماليك من البحرية و الجمدارية ، الذين استجدّهم الملك الصالح، و من جملتهم: بيبرس البندقدارى حملوا على الفرنج حملة صدقوا فيها اللقاء، حتى أزاحوهم عن مواقفهم، و أبلوا فى مكافحتهم بالسيوف و الدبابيس، فانهزموا و بلغت عدّة من قتل من فرسان الفرنج الخيالة فى هذه النوبة، ألفا و خمسمائة فارس، و أما الرجالة فإنها كانت وصلت إلى الجسر لتعدّى، فلو تراخى الأمر حتى صاروا مع المسلمين لأعضل الداء، على أن هذه الواقعة كانت بين الأزقة و الدروب، و لو لا ضيق المجال، لما أفلت من الفرنج أحد فنجا من بقى منهم، و ضربوا عليهم سورا و حفروا خندقا، و صارت طائفة منهم فى البرّ الشرقىّ، و معظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط، و كانت البطاقة عند الكبسة سرّحت على جناح الطائر إلى القاهرة، فانزعج الناس انزعاجا عظيما، و وردت السوقة و بعض العسكر، و لم تغلق أبواب القاهرة ليلة الأربعاء، و فى يوم الأربعاء: سقط الطائر بالبشارة بهزيمة الفرنج، و عدّة من قتل منهم، فزينت القاهرة و ضربت البشائر بقلعة الجبل.

و سار المعظم، توران شاه إلى دمشق، فدخلها يوم السبت آخر شهر رمضان، و استولى على من بها، و لأربع مضين من شوّال، سقط الطائر بوصوله إلى دمشق، فضربت البشائر فى العسكر بالمنصورة، و فى قلعة الجبل، و سار من دمشق لثلاث بقين منه، فتواترت الأخبار بقدومه، و خرج الأمير حسام الدين بن أبى علىّ إلى لقائه، فوافاه بالصالحية لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة، و من يومئذ أعلن بموت الملك الصالح، بعد ما كان قبل ذلك لا ينطق أحد بموته البتة، بل الأمور على حالها، و الدهليز السلطانىّ بحاله و السماط على العادة، و شجرة الدر، أم خليل زوجة السلطان تدبر الأمور، و تقول: السلطان مريض ما إليه وصول، ثم سار من الصالحية، فتلقاه الأمراء و المماليك، و استقرّ بقصر السلطنة من المنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة، و فى أثناء هذه المدّة، عمل المسلمون مراكب و حملوها على الجمال إلى بحلة المحلة، و ألقوها فيه و شحنوها بالمقاتلة، فعند ما حاذت مراكب الفرنج بحر المحلة، و تلك المراكب فيه مكمنة، خرجت عليهم و وقع الحرب بينهما، و قدم الأسطول الإسلامىّ من جهة المنصورة، و أحاط بالفرنج، فظفر باثنين و خمسين مركبا للفرنج، و قتل و أسر منهم نحو ألف رجل، فانقطعت الميرة عن الفرنج، و اشتدّ عندهم الغلاء، و صاروا محصورين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۰

فلما كان أوّل يوم من ذى الحجة، أخذ الفرنج من المراكب فى بحر المحلة سبع حراريق، و فرّ من كان فيها من المسلمين، و فى يوم عرفة برزت الشوانى الإسلامية إلى مراكب قدمت للفرنج فيها ميرة، فأخذت منها اثنين و ثلاثين مركبا منها تسع شوانى، فوهنت قوّة الفرنج، و تزايد الغلاء عندهم، و شرعوا فى طلب الهدنة من المسلمين، على أن يسلموا دمياط، و يأخذوا بدلا منها القدس، و بعض بلاد الساحل، فلم يجابوا إلى ذلك، فلما كان اليوم السابع و العشرون من ذى الحجة، أحرق الفرنج أخشابهم كلها، و أتلفوا مراكبهم، يريدون التحصن بدمياط، و رحلوا فى ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرّم سنة ثمان و أربعين و ستمائة إلى دمياط، و أخذت مراكبهم فى الانحدار قبالتهم، فركب المسلمون أقفيتهم بعدما عدّوا إلى برّهم و طلع الفجر من يوم الأربعاء، و قد أحاط المسلمون بالفرنج، و قتلوا و أسروا منهم كثيرا، حتى قيل: إن عدد من قتل من الفرسان على فارسكور ، يزيد على عشرة آلاف، و أسر من الخيالة و الرجال و الصناع و السوقة، ما يناهز مائة ألف، و نهب من المال و الذخائر و الخيول و البغال، ما لا يحصى، و انحاز الملك رواد فرنس، و أكابر الفرنج إلى تلّ، و وقفوا مستسلمين، و سألوا الأمان، فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحىّ، و نزلوا على أمانة.

و أحيط بهم و سيقوا إلى المنصورة، فقيد رواد فرنس، و اعتقل فى الدار التى كان ينزل فيها القاضى، فخر الدين إبراهيم بن لقمان، كاتب الإنشاء، و وكل به الطواشى صبيح المعظمىّ، و اعتقل معه أخوه و رتب له راتب يحمل إليه فى كل يوم، و رسم الملك المعظم

لسيف الدين يوسف بن الطورى أحد من وصل صحبته من الشرق أن يتولى قتل الأسرى، فكان يخرج منهم كل ليلة، ثلثمائة رجل و يقتلهم، و يلقيهم فى البحر حتى فنوا. و لما قبض على الملك رواد فرنس، رحل الملك المعظم من المنصورة، و نزل بالدهليز السلطانىّ على فارسكور و عمل له برجا من خشب و تراخى فى قصد دمياط، و كتب بخطه إلى الأمير جمال الدين بن يغمور، نائبه بدمشق و ولده توران شاه.

الحمد للّه الذى أذهب عنا الحزن و ما النصر إلا من عند اللّه و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه، و أما بنعمة ربك فحدّث، و إن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها، نبشر المجلس السامى الجمالىّ، بل نبشر المسلمين كافة بما منّ اللّه به على المسلمين، من الظفر بعدوّ الدين فإنه كان قد استكمل أمره، و استحكم شرّه، و يئس العباد من البلاد، و الأهل و الأولاد فنودوا ألا تيأسوا من روح اللّه.

و لما كان يوم الاثنين مستهلّ السنة المباركة، و هى سنة ثمان و أربعين و ستمائة، تمم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۱

اللّه على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن و بذلنا الأموال، و فرّقنا السلاح، و جمعنا العربان و المطوّعة، و خلقا لا يعلمهم إلا اللّه جاءوا من كل فج عميق، و مكان سحيق، فلما رأى العدوّ ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم، و بين الملك الكامل فأبينا، و لما كانت ليلة الأربعاء تركوا خيامهم و أموالهم و أثقالهم، و قصدوا دمياط هاربين، فسرنا فى آثارهم طالبين، و ما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامّة الليل، و قد حلّ بهم الخزى و الويل، فلما أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه فى اللجج، و أما الأسرى فحدّث عن الحر، و لا حرج، و التجأ الفرنسيس إلى المينة، و طلب الأمان، فأمّناه، و أخذناه و أكرمناه، و سلمناه دمياط بعون اللّه تعالى، و قوّته و جلاله و عظمته، و بعث مع الكتاب غفارة الملك فرنسيس، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور، و هى: اشكر لاطا أحمر بفرو سنجاب، فقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

إنّ غفارة الفرنسيس جاءتفهى حقا لسيد الأمراء

كبياض القرطاس لونا و لكن‌صبغتها سيوفنا بالدماء

و قال آخر:

أسيّد أملاك الزمان بأسرهم‌تنجزت من نصر الإله و عوده

فلا زال مولانا يبيح حمى العدىو يلبس أثواب الملوك عبيده

و أخذ الملك المعظم، يهدّد زوجة أبيه، شجرة الدر، و يطالبها بمال أبيه، فخافته و كاتبت مماليك الملك الصالح، تحرّضهم عليه، و كان المعظم لما وصل إليه الفارس، أقطاى إلى حصن كيفا، وعده أن يعطيه إمرة، فلم يف له بها، و أعرض مع ذلك عن مماليك أبيه، و اطّرح أمراءه، و صرف الأمير حسام الدين بن أبى علىّ، عن نيابة السلطنة، و أحضره إلى العسكر، و لم يعبأ به و أبعد غلمان أبيه، و اختص بمن وصل معه من المشرق، و جعلهم فى الوظائف السلطانية، فجعل الطواشى مسرورا خادمه إستادارا، و عمل صبيحا، و كان عبدا حبشيا فحلاـ خازندار‌ه، و أمر أن تكون له عصا من ذهب، و أعطاه مالا جزيلا، و إقطاعات جليلة، و كان إذا سكر جمع الشمع، و ضرب رؤوسها بالسيف، حتى تنقطع، و يقول هكذا أفعل بالبحرية، فإنه كان فيه هرج و خفة، و احتجب على العكوف بملاذه، فنفرت منه النفوس، و بقى كذلك إلى يوم الاثنين، تاسع عشرى المحرّم، و قد جلس على السماط، فتقدّم إليه أحد المماليك البحرية، و ضربه بسيف قطع أصابع يديه، ففرّ إلى البرج، فاقتحموا عليه، و سيوفهم مصلتة، فصعد أعلى البرج الخشب، فرموه بالنشاب، و أطلقوا الناس فى البرج، فألقى نفسه و مرّ إلى البحر، و هو يقول: ما أريد ملككهم دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمين؟ ما فيكم من يصطنعنى و يجيرنى؟ و سائر العساكر بالسيوف واقفة، فلم يجبه أحد و النشاب يأخذه من كل ناحية، و أدركوه، فقطع بالسيوف و مات حريقا غريقا قتيلا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۲

فى يوم الاثنين المذكور، و ترك على الشط ثلاثة أيام، ثم دفن.

و لما قتل الملك المعظم، اتفق أهل الدولة، على إقامة شجرة الدر، والدة خليل فى مملكة مصر، و أن يكون مقدّم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركمانىّ الصالحىّ، و حلف الكل على ذلك، و سيروا إليها عز الدين الرومىّ، فقدم عليها فى قلعة الجبل، و أعلمها بما اتفق فرضيت به، و كتبت على التواقيع علامتها، و هى والدة خليل، و خطب لها على المنابر بمصر و القاهرة، و جرى الحديث مع الملك روادفرنس فى تسليم دمياط، و تولى مفاوضته فى ذلك الأمير حسام الدين بن أبى علىّ الهدبانىّ، فأجاب إلى تسليمها، و أن يخلى عنه بعد محاورات، و سير إلى الفرنج بدمياط يأمرهم بتسليمها إلى المسلمين، فسلموها بعد جهد جهيد من كثرة المراجعات فى يوم الجمعة ثالث صفر، و رفع العلم السلطانىّ على سورها، و أعلن فيها بكلمة الإسلام، و شهادة الحق بعد ما أقامت بيد الفرنج، أحد عشر شهرا و سبعة أيام، و أفرج عن الملك روادفرنس، و عن أخيه، و زوجته، و من بقى من أصحابه إلى البرّ الغربىّ، و ركبوا البحر من الغد، و هو يوم السبت رابع صفر، و أقلعوا إلى عكا. و فى هذه النوبة يقول الوزير جمال الدين يحيى بن مطروح:

قل للفرنسيس إذا جئتهمقال نصح عن قؤول نصيح

آجرك اللّه على ما جرىمن قبل عباد يسوع المسيح

أتيت مصر تبتغى ملكهاتحسب أنّ الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلى أدهمضاق به عن ناظريك الفسيح

و كل أصحابك أودعتهمبحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفا لا يرى منهمإلا قتيل أو أسير جريح

وفقك اللّه لأمثالهالعلّ عيسى منكم يستريح

إن كان بابا كم بذار راضيافرب غشّ قد أتى من نصيح

قل لهم أن أضمروا عودةلأخذ ثأر أو لنقد صحيح

دار ابن لقمان على حالهاو القيد باق و الطواشى صبيح

و قدّر اللّه أن الفرنسيس هذا بعد خلاصه من هذه الوقعة جمع عدّة جموع، و قصد يونس، فقال شاب من أهلها يقال له أحمد بن إسماعيل الزيات:

يا فرنسيس هذه أخت مصرفتأهب لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبرو طواشيك منكر و نكير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۳

فكان هذا فألا حسنا، فإنه مات و هو على محاصرة تونس، و لما تسلم الأمراء دمياط وردت البشرى إلى القاهرة، فضربت البشائر، و زينت القاهرة و مصر، فقدمت العساكر من دمياط يوم الخميس تاسع صفر، فلما كان فى سلطنة الأشرف موسى بن الملك المسعود، أقسيس بن الملك الكامل، و الملك المعزّ عز الدين التركمانىّ، و كثر الاختلاف بمصر، و استولى الملك الناصر يوسف بن العزيز على دمشق، اتفق أرباب الدولة بمصر، و هم المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفا من مسير الفرنج إليها مرّة أخرى، فسيروا إليها الحجارين و الفعلة، فوقع الهدم فى أسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان و أربعين و ستمائة، حتى خربت كلها، و محيت آثارها، و لم يبق منها سوى الجامع، و صار فى قبليها أخصاص على النيل سكنها الناس الضعفاء، و سمّوها المنشية، و هذا السور هو الذى بناه أمير المؤمنين المتوكل على اللّه، كما تقدّم ذكره.

فلما استبدّ الملك الظاهر بيبرس البندقدارى: الصالحىّ بمملكة مصر بعد قتل الملك المظفر ، قطز أخرج من مصر عدّة من الحجارين فى سنة تسع و خمسين و ستمائة، لردم فم بحر دمياط، فمضوا و قطعوا كثيرا من القرابيص، و ألقوها فى بحر النيل الذى ينصب من

شمال دمياط فى البحر الملح، حتى ضاق، و تعذر دخول المراكب منه إلى دمياط، و هو إلى اليوم على ذلك لا تقدر مراكب البحر الكبار أن تدخل منه، و إنما ينقل ما فيها من البضائع فى مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط، بالجروم واحدها: جرم، و تصير مراكب البحر، جبل فى فم البحر، أو رمل يتربى هناك، و هذا قول باطل، حملهم عليه ما يجدونه من تلاف المراكب إذا هجمت على هذا المكان، و جهلهم بأحوال الوجود، و ما مرّ من الوقائع، و إلى يومنا هذا يخاف على المراكب عند ورودها فم البحر، و كثيرا ما تتلف فيه.

و قد سرت إليه حتى شاهدته، و رأيته من أعجب ما يراه الإنسان.

و أما دمياط الآن فإنها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط، و عمل هناك أخصاص، و ما برحت تزداد إلى أن صارت بلدة كبيرة ذات أسواق و حمامات و جوامع و مدارس و مساجد، و دورها تشرف على النيل الأعظم، و من ورائها البساتين، و هى أحسن بلاد اللّه منظرا.

و قد أخبرنى الأمير الوزير المشير الإستادار يلبغا السالمىّ رحمه اللّه أنه لم ير فى البلاد التى سلكها من سمرقند إلى مصر أحسن من دمياط هذه، فظننت أنه يغلو فى مدحها إلى أن شاهدتها، فإذا هى أحسن بلد و أنزهه، و فيها أقول:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۴ سقى عهد دمياط و حياه من عهدفقد زادنى ذكراه وجدا على وجد

و لا زالت الأنواء تسقى سحابهاديارا حكت من حسنها جنة الخلد

فيا حسن هاتيك الديار و طيبهافكم قد حوت حسنا يجلّ عن العدّ

فللّه أنهار تحف بروضهالكالمرهف المصقول أو صفحة الخد

و بشنينها الريان يحكى متيماتبدّل من وصل الأحبة بالصدّ

فقام على رجليه فى الدمع غارقايراعى نجوم الليل من وحشة الفقد

و ظلّ على الأقدام تحسب أنهلطول انتظار من حبيب على وعد

و لا سيما تلك النواعير إنهاتجدّد حزن الواله المدنف الفرد

أطارحها شجوى و صارت كأنماتطارح شكواها بمثل الذى أبدى

فقد خلتها الأفلاك فيها نجومهاتدور بمحض النفع منها و بالسعد

و فى البرك الغرّاء يا حسن نوفرحلا و غدا بالزهو يسطو على الورد

سماء من البلور فيها كواكبعجيبة صبغ اللون محكمة النضد

و فى شاطىء النيل المقدّس نزهةتعيد شباب الشيب فى عيشه الرغد

و تنشى رياحا تطرد الهمّ و الأسىو تنشى ليالى الوصل من طيبها عندى

و فى مرج البحرين جمّ عجائبتلوح و تبدو من قريب و من بعد

كأنّ التقاء النيل بالبحر إذ غداماليكان سارا فى الجحافل من جند

و قد نزلا للحرب و احتدم اللقاو لا طعن إلا بالمثقفة الملد

فظلا كما باتا و ما برحا كماهما من جليل الخطب فى أعظم الجهد

فكم قد مضى لى من أفانين لذةبشاطئها العذب الشهىّ لذى الورد

و كم قد نعمنا فى البساتين برهةبعيش هنىء فى أمان و فى سعد

و فى البرزخ المأنوس كم لى خلوةو عند شطا عن أيمن العلم الفرد

هناك ترى عين البصيرة ما تریمن الفضل و الأفضال و الخير و المجد

فيا رب هيئ لى بفضلك عودةو منّ بها فى غير بلوى و لا جهد

و بدمياط حيث كانت المدينة التى هدمت جامع من أجلّ مساجد المسلمين تسمية العامّة، مسجد فتح، و هو المسجد الذى أسسه المسلمون عند فتح دمياط.

أوّل ما فتح اللّه أرض مصر على يد عمرو بن العاص، و على بابه مكتوب بالقلم الكوفىّ، أنه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة، و فيه عدّة من عمد الرخام منها، ما يعز وجود مثله، و إنما عرف بجامع فتح لنزول شخص يقال له: فاتح به، فقالت العامّة: جامع فتح.

و إنما هو: فاتح بن عثمان الأسمر التكرورىّ، قدم من مراكش إلى دمياط على قدم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۵

التجريد، و سقى بها الماء فى الأسواق احتسابا من غير أن يتناول من أحد شيئا، و نزل فى ظاهر الثغر و لزم الصلاة مع الجماعة، و ترك الناس جميعا، ثم أقام بناحية تونة من بحيرة تنيس، و هى خراب نحو سبع سنين، ورمّ مسجدها، ثم انتقل من تونة إلى جامع دمياط، و أقام فى وكر بأسفل المنارة من غير أن يخالط أحدا إلا إذا أقيمت الصلاة، خرج و صلى فإذا سلّم الإمام، عاد إلى و كره، فإن عارضه أحد بحديث كلّمه، و هو قائم بعد انصرافه من الصلاة، و كانت حاله أبدا اتصالا فى انفصال، و قربا فى ابتعاد، و أنسا فى نفار، و حج فكان يفارق أصحابه عند الرحيل، فلا يرونه إلا وقت النزول، و يكون سيره منفردا عنهم لا يكلم أحدا إلى أن عاد إلى دمياط، فأخذ فى ترميم الجامع، و تنظيفه بنفسه، حتى نقى ما كان فيه من الوطواط بسقوفه، و ساق الماء إلى صهاريجه، و بلط صحنه و سبك سطحه بالجبس، و أقام فيه.

و كان قبل ذلك من حين خربت دمياط، لا- يفتح إلا فى يوم الجمعة فقط، فرتب فيه إماما راتبا يصلى الخمس، و سكن فى بيت الخطابة، و واظب على إقامة الأوراد به، و جعل فيه قرّاء يتلون القرآن بكرة و أصيلا و قرّر فيه رجلا يقرأ ميعادا يذكر الناس و يعلمهم، و كان يقول: لو علمت بدمياط مكانا أفضل من الجامع لأقمت به، و لو علمت فى الأرض بلدا يكون فيه الفقير، أخمل من دمياط لرحلت إليه، و أقمت به، و كان إذا ورد عليه أحد من الفقراء، و لا يجد ما يطعمه باع، من لباسه ما يضيفه به، و كان يبيت و يصبح، و ليس له معلوم، و لا ما يقع عليه العين، أو تسمعه الأذن، و كان يؤثر فى السرّ الفقراء و الأرامل، و لا يسأل أحدا شيئا، و لا يقبل غالبا، و إذا قبل ما يفتح اللّه عليه آثر به، و كان يبذل جهده فى كتم حاله، و اللّه تعالى يظهر خيره و بركته من غير قصد منه لذلك، و عرفت له عدّة كرامات، و كان سلوكه على طريق السلف من التمسك بالكتاب و السنة و النفور عن الفتنة، و ترك الدعاوى و اطراحها و ستر حاله و التحفظ فى أقواله، و أفعاله، و كان لا يرافق أحدا فى الليل، و لا يعلم أحد يوم صومه من يوم فطره، و يجعل دائما قول إن شاء اللّه تعالى، مكان قول غيره، و اللّه.

ثم إنّ الشيخ عبد العزيز الدميرىّ، أشار عليه بالنكاح و قال له: النكاح من السنة، فتزوّج فى آخر عمره بامرأتين و لم يدخل على واحدة منهما نهارا البتة، و لا أكل عندهما، و لا شرب قط، و كان ليله ظرفا للعبادة، لكنه يأتى إليهما أحيانا، و ينقطع أحيانا لاستغراق زمنه كله فى القيام بوظائف العبادات و إيثار الخلوة، و كان خواص خدمه لا يعلمون بصومه من فطره، و إنما يحمل إليه ما يأكل، و يوضع عنه بالخلوة، فلا- يرى قط آكلا، و كان يحب الفقر، و يؤثر حال المسكنة، و يتطارح على الخمول و الجفا و يتواضع مع الفقراء، و يتعاظم على العظماء و الأغنياء، و كان يقرأ فى المصحف، و يطالع الكتب، و لم يره أحد يخط بيده شيئا، و كانت تلاوته للقرآن بخشوع و تدبر، و لم يعمل له سجادة قط، و لا أخذ على أحد عهدا، و لا لبس طاقية، و لا قال أنا شيخ، و لا أنا فقير، و متى قال فى كلامه: إنا تفطّن لما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۶

وقع فيه، و استعاذ بالله من قول أنا، و لا حضر قط سماعا، و لا أنكر على من يحضره، و كان سلوكه صلاحا من غير إصلاح، و يبالغ فى الترفع على أبناء الدنيا، و يترامى على الفقراء، و يقدّم لهم الأكل، و لم يقدّم لغنىّ أكلا البتة، و إذا اجتمع عنده الناس، قدّم الفقير على

الغنيّ، و إذا مضى الفقير من عنده سار معه، و شيعه عدّة خطوات، و هو حاف بغير نعل و وقف على قدميه ينظره حتى يتوارى عنه، و من كان من الفقراء يشار إليه بمشيخة، جلس بين يديه بأدب مع إمامته و تقدّمه فى الطريق، و يقول: ما أقول لأحد افعل أو لا تفعل، من أراد السلوك يكفيه أن ينظر إلى أفعاله، فإنّ من لم يتسلك بنظره لا يتسلك بسمعه.

و قال له شخص من خواصه: يا سيدى ادع اللّه لنا أن يفتح علينا، فنحن فقراء، فقال:

إن أردتم فتح اللّه، فلا تبقوا فى البيت شيئا، ثم اطلبوا فتح اللّه بعد ذلك، فقد جاء لا تسأل اللّه، و لك خاتم من حديد، و من كلامه: الفقير بحال البكر، إذا سأل زالت بكارته، و سأله بعض خواصه: أن يدعو له بسعة، و شكا له الضيق، فقال: أنا ما أدعو لك بسعة بل أطلب لك الأفضل و الأكمل.

و كان مع اشتغاله بالعبادة و استغراق أوقاته فيها، لا يغفل عن صاحبه، و لا ينسى حاجته حتى يقضيها، و يلازم الوفاء لأصحابه و يحسن معاشرتهم، و يعرف أحوال الناس على طبقاتهم، و يعظم العلم و يكرم الأيتام و يشفق على الضعفاء و الأرامل، و يبذل شفاعته فى قضاء حوائج الخاص و العام من غير أن يملّ، و لا يتبرّم بكثرة ذلك، و يكثر من الإيثار فى السرّ، و لا يمسك لنفسه شيئا، و يستقلّ ما منه مع كثرة إحسانه، و يستكثر ما يدفع إليه و إن كان يسيرا، و يكافىء عليه بأحسن منه، و لم يصحب قط، أميرا و لا وزيرا بل كان فى سلوكه و طريقه يرفع فى تواضع و يعزز مع مسكنة، و قرب فى ابتعاد، و اتصال فى انفصال، و زهد فى الدنيا، و أهلها، و كان أكبر من خبره، و من دعائه لنفسه و لمن يسأل له الدعاء: اللهم بعّدنا عن الدنيا و أهلها، و بعّدها عنا، و ما زال على ذلك إلى أن مات آخر ليلة أسفر صباحها عن الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس و تسعين و ستمائة، و ترك و لدين ليس لهما قوت ليلة، و عليه مبلغ ألفى درهم دينا، و دفن بجوار الجامع، و قبره يزار إلى يومنا هذا.

ذكر شطا

شطا: مدينة عند تنيس و دمياط، و إليها تنسب الثياب الشطوية، و يقال: إنها عرفت بشطا بن الهاموك، و كان أبوه خال المقوقس، و كان على دمياط، فلما فتح اللّه الحصن على يد عمرو بن العاص، و استولى على أرض مصر، جهز بعثا لفتح دمياط، فنازلوها إلى أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۷

ملكوا سور المدينة، فخرج شطا فى ألفين من أصحابه، و لحق بالمسلمين، و قد كان قبل ذلك يحب الخير، و يميل إلى ما يسمعه من سيرة أهل الإسلام.

و لما ملك المسلمون دمياط، امتنع عليهم صاحب تنيس، فخرج شطا إلى البرلس و الدميرة و أشموم طناح يستنجد، فجمع الناس لقتال أهل تنيس، و سار بهم من كان بدمياط من المسلمين، و من قدم مددا من عند عمرو بن العاص إلى قتال أهل تنيس، فالتقى الفريقان، و أبلى شطا منهم بلاء حسنا، و قتل من أبطال تنيس اثنى عشر رجلا، و استشهد فى ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة إحدى و عشرين من الهجرة، فقبر حيث هو الآن خارج دمياط، و بنى على قبره، و صار الناس يجتمعون هناك فى ليلة النصف من شعبان كل عام، و يغدون للحضور من القرى، و هم على ذلك إلى يومنا هذا، و كانت تعمل كسوة الكعبة بشطا.

قال الفاكهىّ: و رأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين، هارون الرشيد من قباطىّ مصر مكتوبا عليها: بسم اللّه بركة من اللّه لعبد اللّه هارون أمير المؤمنين، أطال اللّه بقاءه، مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته فى طراز شطا، كسوة الكعبة سنة إحدى و تسعين و مائة.

و من المواضع المشهورة بدمياط: البرزخ: و هو مسجد بحيرة دمياط تسميه العامّة البرزخ، و لا أعرف مستندهم فى ذلك، و شاهدت فيه عجبا، و هو أنّ به منارة كبيرة مبنية من الآجرّ إذا هزّها أحد، اهتزت، فلما صعدت أعلاها حيث يقف المؤذنون، و حرّكتها رأيت ظلها، قد تحرّك بتحريكى لها، و يوجد حول هذا المسجد، رمم أموات يشبه أن تكون ممن استشهد فى وقائع الفرنج، و اللّه يعلم و

أنتم لا تعلمون.

ديبق: قريـة من قرى دميـاط بنسب إليها الثياب المثقلـة و العمائم الشـرب الملوّنـة، و الـديبقيّ العلم المـذهب، و كانت العمائم الشـرب المذهبة تعمل بها، و يكون طول كل عمامة منها مائة ذراع، و فيها رقمات منسوجة بالذهب، فتبلغ العمامة من الذهب، خمسـمائة دينار، سوى الحرير و الغزل.

و حدثت هذه العمائم و غيرها فى أيام العزيز بالله بن المعز سـنة خمس و ستين و ثلثمائة، إلى أن مات فى شـعبان سـنة ست و ثمانين و ثلثمائة.

النحريرية: قرية من الأعمال الغربية أسـس حكرها الأمير شـمس الدين سنقر السعدى، نقيب الجيش فى أيام الناصر محمد بن قلاون، و بالغ فى عمارتها، فبلغت فى أيامه عشـرة آلاف درهم فضـة، ثم خرج عنها، فعمرت للسـلطان، و اتسع أمرها حتى أنشـئ فيها زيادة على ثلاثين بستانا، و وصل حكرها لكثرة سكانها إلى ألف درهم فضة لكل فدّان، و صارت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۸

بلدا كبيرا لعمل يبلغ فى السنة ما بين خراجيّ و هلاليّ ثلثمائة ألف درهم فضة عنها خمسة عشر ألف دينار ذهبا.

و مات سنقر هذا فى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، و إليه تنسب المدرسة السعدية بخط حدرة البقر خارج باب زويلة.

جزيرة بنى نصر: منسوبـة إلى بنى نصـر بن معاويـة بن بكر بن هوازن، و ذلك أن بنى حماس بن ظالم بن جعيل بن عمرو بن درهمان بن نصـير بن معاويـة بن بكر بن هوازن، كانت لهم شوكـة شديدة بأرض مصـر، و كثروا حتى ملؤوا أسـفل الأرض، و غلبوا عليها حتى قويت عليهم، قبيلة من البربر تعرف: بلواتة، و لواتة تزعم أنها من قيس، فأجلت بنى نصر، و أسكنها الجدار، فصاروا أهل قرى فى مكان عرف بهم وسط النيل، و هى جزيرة بنى نصر هذه.

ذكر الطريق فيما بين مدينة مصر و دمشق

اعلم: أن

البريد، أوّل من رتب دوابه الملك دارا بن بهمن بن كيبشتاسف بن كيهراسف، أحد ملوك الفرس.

و أما فى الإسـلام، فأوّل من أقام البريـد أمير المؤمنين المهـدى محمد بن أبى جعفر المنصور، أقامه فيما بين مكة و المدينة و اليمن، و جعله بغالا و إبلا، و ذلك فى سنة ست و ستين و مائة.

و أصل هـذه الكلمـة، بريـد ذنب، فإنّ دارا: أقام فى سـككك البريـد، دوابّ محذوفـة الأذناب سـميت بريد ذنب، و حذف منها نصـفها الأخير فقيل: بريد، و هذا الدرب الذى يسلكه العساكر و التجار و غيرهم، من القاهرة على الرمل إلى مدينة غزة، ليس هو الدرب الذى يسـلك فى القديم من مصر إلى الشام، و لم يحدث هذا الدرب الذى يسـلك فيه من الرمل الآن إلا بعد الخمسـمائة من سنى الهجرة، عند ما انقرضت الدولة الفاطمية.

و كـان الـدرب أوّلا- قبـل استيلاء الفرنـج على سواحـل البلاد الشاميـة غير هـذا، قال أبو عبيـد اللّه بن عبـد اللّه بن خرداذبه فى كتاب المسالك و الممالك و صـفة الأرض و الطريق من دمشق إلى الكسوة : اثنا عشر ميلا، ثم إلى جاسم أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى فيق أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى طبرية مدينة الأردن ستة أميال، و من طبرية إلى اللجون عشرون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۹

ميلا، ثم إلى القلنسوة عشرون ميلا، ثم إلى الرملة مدينة فلسطين أربعة و عشرون ميلا، و الطريق من الرملة إلى أزدود اثنا عشر ميلا، ثم إلى غزة عشـرون ميلا، ثم إلى العريش أربعة و عشـرون ميلا فى رمل، ثم إلى الورادة ثمانية عشـر ميلا، ثم إلى أم العرب عشرون ميلا، ثم إلى الفرما أربعة و عشـرون ميلا، ثم إلى جرير ثلاثون ميلا، ثم إلى القاصرة أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر

ميلا، ثم إلى بلبيس أحد و عشرون ميلا، ثم إلى الفسطاط مدينة مصر أربعة و عشرون ميلا، فهذا كما ترى. إنما كان الدرب المسلوك من مصر إلى دمشق، على غير ما هو الآن، فيسلك من بلبيس إلى الفرما فى البلاد التى تعرف اليوم ببلاد السباخ من الحوف، و يسلك من الفرما و هى بالقرب من قطية إلى أم العرب، و هى بلاد خراب على البحر، فيما بين قطية و الورادة، و يقصدها قوم من الناس، و يحفرون فى كيمانها، فيجدون دراهم من فضة خالصة ثقيلة الوزن، كبيرة المقدار، و يسلك من أم العرب، إلى الورادة و كانت بلدة فى غير موضعها الآن، قد ذكرت فى هذا الكتاب.

فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية فى سنة تسعين و أربعمائة لأخذ البلاد من أيدى المسلمين، و أخذ بغدوين الشوبك و عمّره فى سنة تسع و خمسمائة، و كان قد خرب من تقادم السنين، و أغار على العريش، و هو يومئذ عامر، بطل السفر حينئذ من مصر إلى الشام، و صار يسلك على طريق البرّ مع العرب مخافة الفرنج إلى أن استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، بيت المقدس من أيدى الفرنج فى سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة، و أكثر من الإيقاع بالفرنج، و افتتح منهم عدّة بلاد بالساحل، و صار يسلك هذا الدرب على الرمل، فسلكه المسافرون من حينئذ إلى أن ولى ملك مصر، الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، فأنشأ بأرض السباخ على طرف الرمل بلدة عرفت إلى اليوم بالصالحية، و ذلك فى سنة أربع و أربعين و ستمائة، و صار ينزل بها و يقيم فيها، و نزل بها من بعده الملوك.

فلما ملك مصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ، رتب البريد فى سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق فى أربعة أيام، و يعود فى مثلها، فصارت أخبار الممالك ترد إليه فى كل جمعة مرّتين، و يتحكم فى سائر ممالكه بالعزل و الولاية، و هو مقيم بالقلعة، و أنفق فى ذلك مالا عظيما حتى تم ترتيبه، و كان ذلك فى سنة تسع و خمسين و ستمائة، و ما زال أمر البريد مستمرّا فيما بين القاهرة و دمشق، يوجد بكل مركز من مراكزه عدّة من الخيول المعدّة للركوب، و تعرف بخيل البريد، و عندها عدّة سوّاس، و للخيل رجال يعرفون بالسوّاقين، و أحدهم سوّاق يركب مع رسم بركوبه، خيل البريد ليسوق له فرسه، و يخدمه مدّة مسيره، و لا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطانىّ، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۲۰

و تارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطانىّ، و كانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد و علف و غيره و لكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة، أو ماشية، لا تحمل زادا و لا ماء.

فلما أخذ تيمور لنك دمشق، و سبى أهلها، و حرّقها فى سنة ثلاث و ثمانمائة، خربت مراكز البريد، و اشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن، و ما دهوا به من كثرة الفتن عن إقامة البريد، فاختلّ بانقطاعه طريق الشام خللا فاحشا، و الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا، و هو سنة ثمان عشرة و ثمانمائة.

ذكر مدينة حطين

هذه المدينة: آثارها إلى اليوم باقية، فيما بين حبوة، و العاقولة بأرض العاقولة، فيما بين قطية، و العريش، تجاهها بميل ماء عذب تسميه العرب: أبا العروق، و هو شرقيها، و هذه المدينة تنسب إلى حطين، و يقال: حطى بن الملك أبى جاد المدينى، و أهل قطية اليوم يسمون تلك الأرض، ببلاد حطين و الجفر، و ملك حطين هذا، أرض مصر بعد موت أبيه، و كان صاحب حرب و بطش، و كان ينزل بقلعة فى جبال الأردن قريبا من طبرية و إليه تنسب قرية حطين التى بها الآن قبر شعيب بالقرب من صفد.

ذكر مدينة الرقة

هذه المدينة: من جملة مدائن: مدين، فيما بين بحر القلزم و جبل الطور، كان بها عند ما خرج موسى عليه السلام، ببنى إسرائيل من مصر، قوم من لخم آل فرعون، يعبدون البقر، و إياهم عنى اللّه بقوله تعالى: وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ [الأعراف/ ۱۳۸] الآية.

قال قتادة: أولئك القوم من لخم، و كانوا نزولا بالرقة، و قيل: كانت أصنامهم تماثيل البقر، و لهذا أخرج لهم السامرىّ عجلا، و آثار هذه المدينة باقية إلى اليوم، فيما بقى من مدينة فاران، و القلزم، و مدين، و أيلة ، تمرّ بها الأعراب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۲۱

ذكر عين شمس

و كان يقال لها فى القديم: رعمساس، و كانت عين شمس، هيكلا يحج الناس إليه، و يقصدونه من أقطار الأرض فى جملة ما كان يحج إليه من الهياكل التى كانت فى قديم الدهر، و يقال: إنّ الصابئة أخذت هذه الهياكل عن عاد و ثمود، و يزعمون أنه عن شيث بن آدم، و عن هرمس الأوّل، و هو إدريس، و إن إدريس هو أوّل من تكلم فى الجواهر العلوية و الحركات النجومية، و بنى الهياكل و مجد اللّه فيها.

و يقال: إنّ الهياكل كانت عدّتها فى الزمن الغابر: اثنى عشر هيكلا، و هى هيكل:

العلة الأولى، و هيكل: العقل، و هيكل: السياسة، و هيكل: الصورة، و هيكل: النفس؛ و كانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات، و الهيكل السادس هيكل: زحل، و هو مسدّس، و بعده هيكل: المشترى و هو مثلث، ثم هيكل: المرّيخ، و هو مربع، و هيكل: الشمس، و هو أيضا مربع، و هيكل: الزهرة، و هو مثلث مستطيل، و هيكل: عطارد مثلث فى جوف مربع مستطيل، و هيكل: القمر مثمن.

و عللوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا: لما كان صانع العالم مقدّسا عن صفات الحدوث، وجب العجز عن إدراك جلاله، و تعين أن يتقرّب إليه عباده بالمقرّبين لديه، و هم:

الروحانيون ليشفعوا لهم، و يكونوا وسائط لهم عنده، و عنوا بالروحانيين: الملائكة، و زعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها، و هى هياكلها و أنه لا بدّ لكل روحانىّ من هيكل، و لا بدّ لكل هيكل من فلك، و أن نسبة الروحانىّ، إلى الهيكل نسبة الروح إلى الجسد، و زعموا: أنه لا بدّ من رؤية المتوسط بين العباد، و بين بارئهم حتى يتوجه إليه العبد بنفسه، و يستفيد منه، ففزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات، فعرفوا بيوتها من الفلك، و عرفوا مطالعها و مغاربها و اتصالاتها، و ما لها من الأيام و الليالى، و الساعات و الأشخاص و الصور و الأقاليم، و غير ذلك مما هو معروف فى موضعه من العلم الرياضى.

و سموا هذه السبعة السيارة: أربابا و آلهة، و سموا: الشمس إله الآلهة و رب الأرباب، و زعموا أنها المفيضة على ألسنة أنوارها، و المظهرة فيها آثارها، فكانوا يتقرّبون إلى الهياكل تقرّبا إلى الرّوحانيين لتقرّبهم إلى البارى، لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين، و كلّ من تقرّب إلى شخص، فقد تقرّب إلى روحه.

و كانوا: يصلون لكل كوكب يوما، يزعمون أنه رب ذلك اليوم، و كانت صلاتهم فى ثلاثة أوقات: الأولى عند طلوع الشمس، و الثانية عند استوائها فى الفلك، و الثالثة عند

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۲۲

غروبها، فيصلون لزحل يوم السبت، و للمشترى يوم الأحد، و للمريخ يوم الاثنين، و للشمس يوم الثلاثاء، و للزهرة يوم الأربعاء، و لعطارد يوم الخميس، و للقمر يوم الجمعة.

و يقال: إنه كان ببلخ هيكل بناه: بنو حمير على اسم القمر لتعارض به الكعبة، فكانت الفرس تحجه و تكسوه الحرير، و كان اسمه: نوبهر، فلما تمجست الفرس، عملته بيت نار، و قيل للموكل بسدانته: برمك، يعنى والى مكة، و انتهت البرمكة إلى جد خالد جدّ جعفر

بن يحيى بن خالد، فأسلم على يد هشام بن عبد الملك، و سماه عبد اللّه، و خرّب هذا الهيكل، قيس بن الهيثم فى أوّل خلافة معاوية سنة إحدى و أربعين، و كان بناء عظيما حوله أروقة و ثلثمائة و ستون مقصورة لسكن خدّامه.

و كان بصنعاء، قصر غمدان من بناء الضحاك، و كان هيكل الزهرة، و هدم فى خلافة عثمان بن عفان.

و كان بالأندلس: فى الجبل الفارق بين جزيرة الأندلس، و الأرض الكبيرة، هيكل المشترى من بناء كلوبطرة بنت بطليموس.

و كان بفرعانة بيت يقال له: كلوسان هيكل للشمس، بناه بعض ملوك الفرس، الأول خرّبه المعتصم، و قد اختلف فيمن بنى هيكل عين شمس، و سأقص من أخباره ما لم أره مجموعا فى كتاب.

قال ابن وصيف شاه: و قد كان الملك، منقاوس إذا ركب، عملوا بين يديه التخاييل العجيبة، فيجتمع الناس، و يعجبون من أعمالهم، و أمر أن يبنى له هيكل للعبادة يكون له خصوصا، و يجعل فيه قبة فيها صورة الشمس و الكواكب، و جعل حولها أصناما، و عجائب، فكان الملك يركب إليه و يقيم فيه سبعة أيام، و جعل فيه عمودين زبر عليهما تاريخ الوقت الذى عمله فيه، و هما باقيان إلى اليوم، و هو الموضع الذى يقال له عين شمس، و نقل إلى عين شمس كنوزا و جواهر و طلسمات و عقاقير و عجائب، و دفنها بها و بنواحيها، و أقام ملكا بإحدى و تسعين سنة، و مات من الطاعون، و قيل: من سمّ، و عمل له ناوس فى صحراء الغرب، و قيل: فى غربىّ قوص، و دفن معه مصاحف الحكمة و الصنعة، و تماثيل الذهب و الجوهر، و من الذهب المضروب شىء كثير، و دفن معه تمثال روحانىّ الشمس من ذهب يلمع، و له جناحان من زبرجد، و صنم على صورة امرأته، و كان يحبها.

فلما ماتت، أمر أن تعمل صورتها فى الهياكل كلها، و عمل صورتها من ذهب بذؤابتين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۲۳

سوداوين، و عليها حلة من جواهر منظومة، و هى جالسة على كرسىّ، و كان يجعلها بين يديه فى كل موضع يجلس فيه يتسلى بذلك عنها، فدفنت هذه الصورة معه تحت رجليه كأنها تخاطبه.

و قال الحكيم الفاضل أحمد بن خليفة فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء:

و اشتاق فيثاغورس إلى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا بمصر، فورد على أهل مدينة الشمس المعروفة فى زماننا بعين شمس، فقبلوه قبولا كريما، و امتحنوه زمانا، فلم يجدوا عليه نقصا و لا تقصيرا، فوجهوا به إلى كهنة منف كى يبالغوا فى امتحانه، فقبلوه على كراهة و استقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيبا، و لا أصابوا له عثرة، فبعثوا به إلى أهل ديوسوس ليمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقا، و لا إلى إدحاضه سبيلا، ففرضوا عليه فرائض صعبة، كيما يمتنع من قبولها، فيدحضوه و يحرموه طلبته، مخالفة لفرائض اليونانين، فقبل ذلك، و قام به، فاشتدّ إعجابهم به، و فشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر، فأعطاه سلطانا على ضحايا الرب، و على سائر قرابينهم، و لم يعط ذلك لغريب قط.

و يقال: إنه كان للكواكب السبعة السيارة، هياكل تحج الناس إليها من سائر أقطار الدنيا، وضعها القدماء، فجعلوا على اسم كل كوكب هيكلا فى ناحية من نواحى الأرض، و زعموا أن البيت الأوّل هو الكعبة، و أنه مما أوصى إدريس الذى يسمونه هرمس الأوّل المثلث، أن يحج إليه، و زعموا أنه منسوب لزحل، و البيت الثانى بيت المرّيخ، و كان بمدينة صور من الساحل الشامىّ، و البيت الثالث للمشترى، و كان بدمشق، بناه جيرون بن سعد بن عاد، و موضعه الآن جامع بنى أمية، و البيت الرابع بيت الشمس بمصر، و يقال: إنه من بناء هرشيك أحد ملوك الطبقة الأولى من ملوك الفرس، و هو المسمى بعين شمس، و البيت الخامس بيت الزهرة، و كان بمنتيح، و البيت السادس بيت عطارد، و هو بصيدا من ساحل البحر الشامىّ، و البيت السابع بيت القمر، و كان بحرّان و يقال: إنه قلعتها، و يسمى المدوّر، و لم يزل عامرا إلى أن خرّبه التتر، و يقال: إنه كان هو هيكل الصابئة الأعظم. و قال شافع بن علىّ فى كتاب عجائب البلدان: و عين شمس مدينة صغيرة تشاهد سورها محدقا بها مهدوما، و يظهر من أمرها أنها كانت بيت عبادة، و فيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة ما يكون طول الصنم، بقدر ثلاثين ذراعا، و أعضاؤه فى تلك النسبة من العظم، و كل هذه

الأصنام قائمة على قواعد، و بعضها قاعد على نصبات عجيبة و إتقانات محكمة، و باب المدينة موجود إلى الآن، و على معظم تلك الحجارة تصاوير على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۲۴

شكل الإنسان و غيره من الحيوان، و كتابة كثيرة بالقلم المجهول، و قلما ترى حجرا خلا عن كتابة أو نقش أو صورة.

و فى هذه المدينة، المسلتان المشهورتان، و تسميان مسلتى فرعون و صفة المسلة قاعدة مربعة طولها عشرة أذرع فى مثلها عرضا فى نحوها سمكا، قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض، ثم أقيم عليها، عمود مثلث مخروط ينيف طوله على مائة ذراع، يبتدئ من القاعدة ببسطة، قطرها خمسة أذرع، و ينتهى إلى نقطة، و قد لبّس رأسها بقلنسوة نحاس إلى نحو ثلاثة أذرع منها كالقمع، و قد تزنجر بالمطر، و طول المدّة، و اخضرّ، و سال من خضرته على بسيط المسلة، و كلها عليها كتابات بذلك القلم، و كانت المسلتان قائمتين، ثم خربت إحداهما، و انصدعت من نصفها العظم الثقل، و أخذ النحاس من رأسها، ثم إنّ حولها من الأصنام شيئا كثيرا لا يحصى عدده على نصف تلك العظمى، أو يليها، و قلما يوجد فى هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة، بل فصوصها بعضها على بعض، و قد تهدّم أكثرها، و إنما بقيت قواعدها.

و قال محمد بن إبراهيم الجزرىّ فى تاريخه: و فى رابع شهر رمضان، يعنى من سنة ست و خمسين و ستمائة: وقعت إحدى مسلتى فرعون التى بأراضى المطرية من ضواحى القاهرة، فوجدوا داخلها مائتى قنطار من نحاس، و أخذ من رأسها عشرة آلاف دينار.

و يقال: إنّ عين شمس، بناها الوليد بن دومع من الملوك العماليق، و قيل: بناها الريان بن الوليد، و كانت سرير ملكه.

و الفرس تزعم: أنّ هرشيك بناها.

و يقال: طول العمودين مائة ذراع، و قيل: أربعة و ثمانون ذراعا، و قيل: خمسون ذراعا.

و يقال: إنّ بخت نصر هو الذى خرّب عين شمس لما دخل إلى مصر.

و قال القضاعىّ: و عين شمس، و هى هيكل الشمس بها العمودان اللذان لم ير أعجب منهما، و لا من شأنهما، طولهما فى السماء نحو من خمسين ذراعا، و هما محمولان على وجه الأرض، و بينهما صورة إنسان على دابة، و على رأسهما شبه الصومعتين من نحاس، فإذا جاء النيل، قطر من رأسيهما ما تستبينه و تراه منهما واضحا ينبع حتى يجرى من أسافلهما، فينبت فى أصلهما العوسج و غيره، و إذا دخلت الشمس دقيقة من الجدى، و هو أقصر يوم فى السنة، انتهت إلى الجنوبىّ منهما، فطلعت عليه على قمة رأسه، و هما منتهى الميلين و خط الاستواء فى الواسطة منهما، ثم خطرت بينهما ذاهبة، و جائية سائر السنة، كذا يقول أهل العلم بذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۲۵

و قال ابن سعيد فى كتاب المغرب: و كانت عين شمس فى قديم الزمان عظيمة الطول و العرض، متصلة البناء بمصر القديمة، حيث مدينة الفسطاط الآن، و لما قدم عمرو بن العاص، نازل عين شمس، و كان جمع القوم حتى فتحها.

و قال جامع السيرة الطولونية: كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعتدل الخلق، من كدّان أبيض محكم الصنعة يتخيل من استعرضه أنه ناطق، فوصف لأحمد بن طولون، فاشتاق إلى تأمّله، فنهاه ندوسة عنه، و قال: ما رآه وال قط إلا عزل، فركب إليه، و كان هذا فى سنة ثمان و خمسين و مائتين، و تأمّله، ثم دعا بالقطاعين، و أمرهم باجتثاثه من الأرض، و لم يترك منه شيئا، ثم قال لندوسة خازنه: يا ندوسة من صرف منا صاحبه؟ فقال: أنت أيها الأمير، و عاش بعدها أحمد اثنتى عشرة سنة أميرا. و بنى العزيز بالله نزار بن المعز قصورا بعين شمس.

و قال أبو عبيد البكرىّ: عين شمس، بفتح الشين و إسكان ثانيه بعده سين مهملة، عين ماء معروفة.

قال محمد بن حبيب: عين شمس حيث بنى فرعون الصرح، و زعم قوم: أنّ عين شمس إلى هذا الماء أضيف، و أوّل من سمى هذا الاسم، سبا بن يشجب.

و ذكر الكلبيّ: أن شمسا الذى تسموا به صنم قديم.

و قال ابن خرداذبه: و أسطوانتين بعين شمس من أرض مصر، و من بقايا أساطين كانت هناك فى رأس كل أسطوانة: طوق من نحاس يقطر من إحداهما ماء من تحت الطوق إلى نصف الأسطوانة لا يجاوزه، و لا ينقطع قطره ليلا و لا نهارا، فموضعه من الأسطوانة أخضب رطب، و لا يصل الماء إلى الأرض، و هو من بناء أوسهنك.

و ذكر محمد بن عبد الرحيم فى كتاب تحفة الألباب: أنّ هذا المنار مربع علوه:

مائة ذراع قطعة واحدة محدّد الرأس على قاعدة من حجر، و على رأس المنار، غشاء من صفر كالذهب فيه صورة إنسان على كرسىّ، قد استقبل المشرق، و يخرج من تحت ذلك الغشاء الصفر، ماء يسيل، مقدار عشرة أذرع، و قد نبت منه شىء كالطحلب، فلا يبرح لمعان الماء على تلك الخضرة أبدا صيفا و شتاء، لا ينقطع و لا يصل إلى الأرض منه شىء،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۲۶

و بعين شمس نبت يزرع كالقضبان يسمى البلسم، يتخذ منه دهن البلسان لا يعرف بمكان من الأرض إلا هناك، و تؤكل لحمى هذه القضبان، فيكون له طعم، و فيه حرارة، و حرافة لذيذة.

و بناحية المطرية من حاضرة عين شمس، البلسان، و هو شجر قصار يسقى من ماء بئر هناك، و هذه البئر، تعظمها النصارى و تقصدها، و تغتسل بمائها، و تستشفى به، و يخرج لاعتصار البلسان أوان إدراكه من قبل السلطان، من يتولى ذلك، و يحفظه و يحمل إلى الخزانة السلطانية، ثم ينقل منه إلى قلاع الشام، و المارستانات لمعالجة المبرودين، و لا يؤخذ منه شىء إلا من خزانة السلطان بعد أخذ مرسوم بذلك، و لملوك النصارى من الحبشة و الروم و الفرنج فيه غلوّ عظيم، و هم يتهادونه من صاحب مصر، و يرون أنهم لا يصح عندهم لأحد أن يتنصر إلا أن ينغمس فى ماء المعمودية، و يعتقدون أنه لا بدّ أن يكون فى ماء المعمودية شىء من دهن البلسان، و يسمونه: الميرون.

و كان فى القديم، إذا وصل من الشام خبر انتهى إلى صاحب عين شمس، ثم يرد من عين شمس إلى الحصن الذى عرف بقصر الشمع حيث الآن مدينة مصر، ثم يرد من الحصر إلى مدينة منف، حيث كانت منف تحت الملك.

و سبب تعظيم النصارى لدهن البلسان، ما ذكره فى كتاب السنكسار، و هو يشتمل على أخبار النصارى: أنّ المسيح لما خرجت به أمّه، و معهما يوسف النجار من بيت المقدس فرارا من هيرودس ملك اليهود، نزلت به أول موضع من أرض مصر، مدينة بسطة فى رابع عشرى بشنس، فلم يقبلهم أهلها، فنزلوا بظاهرها، و أقاموا أياما، ثم ساروا إلى مدينة سمنود، و عدّوا النيل إلى الغربية، و مشوا إلى مدينة الأشمونين، و كان بأعلاها إذ ذاك، شكل فرس من نحاس قائم على أربعة أعمدة، فإذا قدم إليها غريب صهل، فجاءوا و نظروا فى أمر القادم، فعندما وصلت مريم بالمسيح عليه السلام، إلى المدينة سقط الفرس المذكور، و تكسر فدخلت به أمّه، و ظهرت له عليه السلام فى الأشمونين آية، و هو أنّ: خمسة جمال محملة زاحمتهم فى مرورهم، فصرخ فيها المسيح فى الأشمونين، فصارت حجارة، ثم إنهم ساروا من الأشمونين، و أقاموا بقرية تسمى: فيلس مدّة أيام، ثم مضوا إلى مدينة تسمى:

قس و قام، و هى التى يقال لها اليوم: القوصية، فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التى بها، و قال: إنّ امرأة أتت، و معها ولدها يريدون أن يخربوا بيوت معابدكم، فخرج إليهم مائة رجل بسلاحهم، و طردوهم عن المدينة، فمضوا إلى ناحية ميرة فى غربىّ القوصية، و نزلوا فى الموضع الذى يعرف اليوم بدير المحرق، و أقاموا به ستة أشهر و أياما، فرأى يوسف النجار فى منامه قائلا يخبره بموت هيرودس، و يأمره أن يرجع بالمسيح إلى القدس، فعادوا من ميرة حتى نزلوا حيث الموضع الذى يعرف اليوم فى مدينة مصر بقصر الشمع، و أقاموا بمغارة تعرف اليوم بكنيسة بوسرجة، ثم خرجوا منها إلى عين شمس، فاستراحوا هناك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۲۷

بجوار ماء، فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح، و قد اتسخت، و صبت غسالتها بتلك الأراضى، فأنبت اللّه هنالك البلسان، و

كان إذ ذاك بالأردن، فانقطع من هناك، و بقى بهذه الأرض، و غمرت هذه البئر التى هى الآن موجودة هناك على ذلك الماء الذى غسلت منه مريم، و بلغنى أنها إلى الآن إذا اعتبرت يوجد ماؤها عينا جارية فى أسفلها، فهذا سبب تعظيم النصارى لهذه البئر و للبلسان، فإنه إنما سقى منها، و اللّه أعلم.

المنصورة

هذه البلدة على رأس بحر أشموم تجاه ناحية طلخا بناها: السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، فى سنة ست عشرة و ستمائة عند ما ملك الفرنج، مدينة دمياط، فنزل فى موضع هذه البلدة، و خيم به، و بنى قصرا لسكناه، و أمر من معه من الأمراء و العساكر بالبناء، فبنى هناك عدّة دور و نصبت الأسواق و أدار عليها سورا مما يلى البحر، و ستره بالآلات الحربية و الستائر، و تسمى هذه المنزلة المنصورة، و لم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط، كما تقدّم ذكره عند ذكر مدينة دمياط من كتابنا هذا، فصارت مدينة كبيرة بها الحمامات و الفنادق و الأسواق، و لما استنقذ الملك الكامل دمياط من الفرنج، و رحل الفرنج إلى بلادهم جلس بقصره فى المنصورة و بين يديه إخوته الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، و الملك الأشرف موسى صاحب بلاد الشرق و غيرهما من أهله، و خواصه، فأمر الملك الأشرف جاريته، فغنت على عودها:

و لما طغى فرعون عكا و قومهو جاء إلى مصر ليفسد فى الأرض

أتى نحوهم موسى و فى يده العصافأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف، و قال لها: باللّه كرّرى، فشق ذلك على الملك الكامل، و أسكتها، و قال لجاريته: غنى أنت فأخذت العود، و غنت:

أيا أهل دين الكفرة قوموا لتنظروالما قد جرى فى وقتنا و تجدّدا

أعباد عيسى إن عيسى و حزبهو موسى جميعا ينصران محمدا

و هذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حبارة أوّلها: (أبى الوجد إلا أن أبيت مسهدا) فأعجب ذلك الملك الكامل، و أمر لكل من الجاريتين، بخمسمائة دينار، فنهض القاضى الصدر الأجل الرئيس هبة اللّه بن محاسن قاضى غزة و كان من جملة الجلساء على قدميه و أنشد يقول:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۲۸ هنيئا فإنّ السعد جاء مخلداو قد أنجز الرحمن بالنصر موعدا

حبانا إله الخلق فتحا لنا بدامبينا و إنعاما و عزا مؤبدا

تهلل وجه الأرض بعد قطوبهو أصبح وجه الشرك بالظلم أسودا

و لما طغى البحر الخضمّ بأهله الطغاة و أضحى بالمراكب مزبدا

أقام لهذا الدين من سلّ عزمهصقيلا كما سلّ الحسام المهندا

فلم ينج إلا كل شلو مجدّلثوى منهم أو من تراه مقيدا

و نادى لسان الكون فى الأرض رافعاعقيرته فى الخافقين و منشدا

أعباد عيسى إنّ عيسى و حزبهو موسى جميعا ينصران محمدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة، من أحسن ليلة مرّت لملك من الملوك، و كان عند إنشاده يشير إذا قال عيسى إلى عيسى المعظم، و إذا قال موسى إلى موسى الأشرف، و إذا قال محمدا إلى السلطان الملك الكامل، و قد قيل: إنّ الذى أنشد هذه الأبيات إنما هو راجح المحلى الشاعر.

العباسة

هـذه القريـة فيما بين بلبيس و الصالحية، من أرض السدير لم يزل منتزها لملوك مصـر، و بها ولد العباس بن أحمد بن طولون، فسـماه لـذلك أبوه العباس، و ولـد بها أيضا الملك الأمجـد تقيّ الـدين عباس بن العادل أبى بكر بن أيوب، و كان الملك الكامل محمد بن العـادل يقيم بها كثيرا، و يقول: هـذه تعلو مصـر إذا أقمت بها أصـطاد الطير من السـماء، و السـمك من الماء، و الوحش من الفضاء، و يصـل الخبز من قلعـة الجبـل إليّ بهـا فى قلعتى، و هو سـخن، و بنى بها آدرا و مناظر و بساتين، و بنى أمراؤه بها أيضا عـدّة مساكن فى البساتين، و لم تزل العباسـة على ذلك حتى أنشأ الملك الصالـح نجم الـدين أيوب بن الكامل، المنزلـة الصالحيـة، فتلاشـى حينئذ أمر العباسة، و خربت المناظر فى سلطنة الملك المعز أيبك.

فلمـا كـانت سـلطنة الملـك الظـاهر ركن الـدين بيبرس، مرّ على السـدير، و هو فم الوادى، فأعجب به و بنى فى موضع اختاره منه قرية سماها الظاهرية، و أنشأ بها جامعا، و ذلك فى سنة ست و ستين و ستمائة.

و سـميت: بالعباسـة بنت أحمـد بن طولون، فإنها خرجت إلى هـذا الموضع مودّعـة لبنت أخيها، قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لما حملت إلى المعتضد، و ضربت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۲۹

هناك فساطيطها، ثم بنت قرية، فسميت باسمها.

ذكر مدينة قفط بصعيد مصر

هـذه المدينـة عرفت: بقفطريم بن قبطيم بن مصـرايم بن بيصـر بن حام بن نوح عليه السـلام، و كانت فى الدهر الأوّل، مدينة الإقليم، و إنما بـدا خرابها بعد الأربعمائة من تاريخ الهجرة النبوية، و آخر ما كان فيها بعد السـبعمائة من سـنى الهجرة، أربعون مسـبكا للسـكر، و ست معاصـر للقصب، و يقـال: كـان فيها قباب بأعالى دورها، و كانت إشارة من ملك من أهلها عشـرة آلاف دينار أن يجعل فى داره قبة، و بالقرب منها معدن الزمرّذ، و لم يبطل إلا من قريب، فإنّ قفطريم ولى الملك بعد أبيه قبطيم.

قال ابن وصـيف شاه: كان أكبر ولد أبيه، و كان جبارا عظيم الخلق، و هو الذى وضع أساسات الأهرام الدهشورية و غيرها، و هو الذى بنى مدينـة دنـدرة ، و مدينـة الأصـنام، و هلكت عاد بالريح فى آخر أيامه، و أثار من المعادن ما لم يثره غيره، و كان يتخذ من الذهب مثل حجر الرحى، و من الزبرجد مثل الأسطوانة، و من الإسبادشم فى صحراء الغرب كالقلة، و عمل من العجائب شيئا كثيرا.

و بنى منارا عاليا على جبل قفط، يرى منه البحر الشرقىّ، و وجد هناك معدن زئبق، فعمل منه تمثالا كالعمود لا ينحلّ، و لا يذوب.

و عمل البركـة التى سـماها صـيادة الطير إذا مرّ عليها طائر سـقط فيها، و لم يقـدر على الحركـة، حتى يؤخـذ، و هـذه البركة يقال: إنها هنـاك إلى الآـن، و أمـا المنـار فسـقط، و عمل عجائب كثيرة، و فى أيامه أثار عبادة الأصـنام التى كان الطوفان غرّقها و زين الشـيطان أمرهـا و عبادتهـا، و يقال: إنه بنى المـدائن الداخلـة، و عمل فيها عجائب، و بنى غربىّ النيل، و خلف الواحات الداخلـة مـدنا عمل فيها عجـائب كثيرة، و وكل بها الروحانيين الـذين يمنعون منها، فما يسـتطيع أحـد أن يـدنو إليها و لا يـدخلها، إلا أن يعمل قرابين لأولئك الروحانيين، و أقام قفطريم ملكا أربعمائة و ثمانين سـنة، و أكثر العجائب عملت فى وقته، و وقت ابنه، البودسـير، و لذلك كان الصعيد أكثر عجائب من أسفل، لأنّ حيز قفطريم فيه.

و لمـا حضـر قفطريم الوفـاة عمل ناوسا فى الجبل الغربىّ قرب مدينـة الكهان فى سـرب تحت الأرض معقود على آزاج إلى الأرض، و نقر تحت الجبل، دارا واسعة، و جعل دورها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۳۰

خزائن منقورة، و فى سـقفها مسـارب للرياح، و بلط السـرب، و جميع الـدار بالمرمر، و جعل فى وسط الـدار مجلسا على ثمانيـة أركان مصـفحا بالزجاج الملوّن المسـبوك، و جعل فى سقفه جواهر تسرج، و جعل فى كل ركن من أركان المجلس، تمثالا من الذهب بيده

كالبوق الذى يبوق به، و تحت القبة دكة مصفحة بذهب، و لها حواف من زبرجد، و فوق الدكة فرش من حرير، و جعل عليها جسد بعد أن لطخ بالأدوية المجففة، و وضع فى جانبه آلات كافور، و سدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب، و وجهه مكشوف و على رأسه تاج مكلل، و عن جوانب الدكة أربعة تماثيل مجوّفات من زجاج مسبوك فى صور النساء بأيديهنّ مراوح من ذهب، و على صدره من فوق الثياب، سيف فاخر قائمته من زبرجد، و جعل فى تلك الخزائن من الذخائر و سبائك الذهب، و التيجان و الجوهر، و برابى الحكم، و أصناف العقاقير و الطلسمات و مصاحف العلوم، ما لا يحصى كثرة، و جعل على باب المجلس: ديكا من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين، مزبورا عليه آيات مانعة، و جعل على كل مدخل أزج، صورتين من نحاس بأيديهما سيفان، و قدّامهما بلاطة، تحتها لوالب من وطئها، ضرباه بأسيافهما، فقتلاه، و فى سقف كل أزج، كرة و عليها الطوخ مدبر يسرج، فيقد طول الزمان، و سدّ باب الأزج بالأساطين المرصصة، و رصوا على سقفه البلاط العظام، و ردموا فوقها الرمال، و زبروا على باب الأزج، هذا المدخل إلى جسد الملك المعظم المهيب الكريم الشديد قفطريم ذى الأيد و الفخر و الغلبة و القهر، و أفل نجمه، و بقى ذكره و علمه، فلا يصل أحد إليه و لا يقدر بحيلة عليه، و ذلك بعد سبعمائة و سبعين و دورات مضت من السنين.

و قال المسعودىّ: و معدن الزمرّد فى عمل الصعيد الأعلى، من مدينة قفط، و منها يخرج إلى هذا المعدن، و الموضع الذى هو فيه يعرف: بالخربة، و هى مفازة و جبال، و البجة تحمى هذا المكان المعروف بالخربة، و إليها يؤدّى الخفارات من يرد إلى حفر الزمرّذ، و وجدت جماعة من صعيد مصر من ذوى الدراية ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن، و عرف هذا النوع من الجوهر يخبرون أنه يكثر، و يقلّ فى فصول السنة، فيكثر فى قوّة موادّ الهواء، و هبوب نوع من الرياح الأربع، و تقوى الخضرة فيه، و الشعاع النورىّ فى أوائل الشهر، و الزيادة فى نور القمر، و بين الموضع المعروف بالخربة الذى فيه معدن الزمرّذ، و بين ما اتصل من العمارة، و قرب منه من الديار مسيرة سبعة أيام، و هى قفط و قوص و غيرهما من صعيد مصر، و قوص راكبة النيل، و بين النيل و قفط نحو من ميلين.

و لمدينتى قفط و قوص أخبار عجيبة فى بدء عمارتهما، و ما كان فى أيام القبط من أخبارهما إلا أنّ مدينة قفط فى هذا الوقت، متداعية للخراب، و قوص أعمر و الناس فيها أكثر، و كان بقفط بربا موكل بها روحانىّ فى صورة جارية سوداء تحمل صبيا أسود صغيرا، حكى أنها رئيت بها مرارا، و معدن الزمرّذ فى البرّ المتصل بأسوان، و كان له ديوان فيه شهود

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۳۱

و كتاب، و ينفق على العمال به، و تنال لهم المؤن لحفره، و استخراج الزمرّذ منه، و هو فى جبال مرملة يحفر فيه، و ربما سقط على الجماعة به فماتوا. و كان يجمع ما يخرج منه، و يحمل إلى الفسطاط، و منه يحمل إلى البلاد، و قد كان الناس يسيرون من قوص إلى معدن الزمرّذ، فى ثمانية أيام بالسير المعتدل.

و كانت البجاه، تنزل حوله و قريبا منه لأجل القيام بحفره، و حفظه و هذا المعدن فى الجبل الآخذ على شرقىّ النيل فى بحرىّ قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى: اقرشندة، و ليس هناك من الجبال أعلى منها، و هو فى منقطع من البرّ لا عمارة عنده، و لا حوله و لا قريبا منه، و الماء عنه مسيرة نصف يوم أو أزيد، و هو ما يتحصل من المطر، و يعرف بغدير أعين يكثر بكثرة المطر، و يقلّ بقلته، و هذا المعدن فى صدر مفازة طويلة فى حجر أبيض يستخرج منه الزمرّذ، و هذا الحجر الأبيض، ثلاثة أنواع أحدها يقال له: طلق كافورىّ، و الثانى يقال له: طلق فضىّ، و الثالث يقال له: حجر جروىّ، و يضرب فى هذه الحجارة، حتى يخرج الزمرّذ، و هو كالغريق فيه، و أنواعه الريانىّ، و هو أقلّ من القليل لا يخرج إلا فى النادر، و إذا استخرج ألقى فى الزيت الحار، ثم يحط فى قطن، و يصرّ ذلك القطن فى خرق خام أو نحوها، و كان الاحتراز على هذا المعدن كثير جدّا، و يفتش الفعلة عند الخروج منه كل يوم، حتى تفتش عوراتهم، و مع ذلك فيختلسون منه بصناعات لهم فى ذلك، و لم يزل هذا المعدن يستخرج منه الزمرّذ إلى أن أبطل العمل منه الوزير الصاحب علم الدين عبد اللّه بن زنبور فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى سنة بضع و ستين و سبعمائة.

و فى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، كانت فتنة كبيرة بمدينة قفط، سببها أنّ داعيا من بنى عبد القوى، ادّعى أنه داود بن العاضد،

فاجتمع الناس عليه، فبعث السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، أخاه الملك العادل أبا بكر بن أيوب على جيش، فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف، و صلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمائمهم، و طيالستهم.

ذكر مدينة دندرة

هى إحدى مدن الصعيد الأعلى القديمة بناها قفطريم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، و كا فيها بربا عظيمة، فيها: مائة و ثمانون كوّة تدخل الشمس فى كل يوم من كوّة، حتى تأتى على آخرها، ثم تكرّ راجعة إلى حيث بدأت، و كانت روحانيتها الموكلة بها تظهر فى هيئة إنسان له رأس أسد بقرنين، و كان بها أيضا شجرة تعرف بشجرة العباس متوسطة، و أوراقها خضر مستديرة، إذا قال الإنسان عندها: يا شجرة العباس، جاءك الفاس، تجتمع أوراقها، و تحزن لوقتها، ثم تعود كما كانت، و بين دندرة، و بين قوص بريد واحد، و كانت بربا دندرة أعظم من بربا إخميم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۳۲

ذكر الواحات الداخلة

الواحات منقطعة وراء الوجه القبلىّ فى مغاربه، و لا تعدّ فى الولايات، و لا فى الأعمال، و لا يحكم عليها من قبل السلطان وال و إنما يحكم عليها من قبل مقطعها.

و بلاد الواحات بين مصر، و الإسكندرية، و الصعيد، و النوبة، و الحبشة بعضها داخل ببعض، و هو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره، و لا يفتقر إلى سواه، و أرضها شبية و زاجية، و عيون حامضة الطعم تستعمل كاستعمال الخل، و عيون مختلفة الطعوم من الحامض، و القابض، و المالح، و لكل نوع منها خاصية و منفعة، و هى على قسمين، واحات داخلة، و واحات خارجة جملتها أربع واحات.

و يقال: إنّ الواحات ولدوا حويلا بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح، و إنّ أخر سبا بن كوش، أبو الحبش، و أبو شنبا بن كوش، أبو زغاوة، و أبو شفحيا بن كوش:

أبو الحبش الرمرم.

قال ابن وصيف شاه و يقال: إنّ قفطريم بنى المدائن الداخلة، و عمل فيها عجائب منها الماء القائم كالعمود، لا ينحلّ، و لا يذوب و البركة التى تسمى فلسطين، أى صيادة الطير، إذا مرّ عليها الطير سقط فيها، و لم يمكنه الخروج منها، حتى يؤخذ، و عمل أيضا عمودا من نحاس عليه صورة طائر إذا قرب الأسد أو الحيات أو غيرها من الأشياء المضرّة من تلك المدينة صفر تصفيرا عاليا، فترجع تلك الدواب هاربة، و عمل على أربعة أبواب هذه المدينة، أربعة أصنام من نحاس لا يقرب منها غريب إلا ألقى عليه النوم، و السبات، فينام عندها، و لا يبرح حتى يأتيه أهل المدينة، و ينفخون فى وجهه ليقوم، و إن لم يفعلوا ذلك لا يزال نائما عند الأصنام، حتى يهلك.

و عمل منارا لطيفا من زجاج ملوّن على قاعدة من نحاس، و عمل على رأس المنار صورة صنم من أخلاط كثيرة، و فى يده كالقوس كأنه يرمى عنها، فإن عاينه غريب وقف فى موضعه، و لم يبرح حتى ينحيه أهل المدينة، و كان ذلك الصنم، يتوجه إلى مهب الرياح الأربع من نفسه، و قيل: إن هذا الصنم على حاله إلى الآن، و إنّ الناس تحاموا تلك المدينة على كثرة ما فيها من الكنوز و العجائب الظاهرة خوفا من ذلك الصنم أن تقع عين إنسان عليه، فلا يزال قائما حتى يتلف، و كان بعض الملوك، عمل على قلعه فما أمكنه، و هلك لذلك خلق كثير.

و يقال: إنه عمل فى بعض المدائن الداخلة مرآة، يرى فيها جميع ما يسأل الإنسان عنه، و بنى غربىّ النيل، و خلف الواحات الداخلة مدنا عمل فيها عجائب كثيرة، و وكل الروحانيين بها الذين يمنعون منها، فما يستطيع أحد أن يدنو إليها و لا يدخلها، أو يعمل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۳۳

قرابين أولئك الروحانيين، فيصل إليها حينئذ، و يأخذ من كنوزها ما أب من غير مشقة، و لا ضرر، و بنى الملك صا بن الساد، و قيل: صا بن مرقونس بداخل الواحات مدينة، و غرس حولها نخلا كثيرا، و كان يسكن منف، و ملك الأحياز كلها، و عمل عجائب و طلسمات، و ردّ الكهنة إلى مراتبهم، و نفى الملهيين، و أهل الشرّ ممن كان يصحب الساد بن مرقونس، و جعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجرى فى حدودهم، و عمل على غربىّ النيل مناير يوقد عليها إذا حزبهم أمر، أو قصدهم قاصد.

و كان لما ملك البلد بأسره، جمع الحكماء إليه، و نظر فى نجومه، و كان بها حاذقا، فرأى أن بلده لا بدّ أن تغرق بالطوفان من نيلها، و رأى أنها تخرب على يد رجل يأتى من ناحية الشام، فجمع كل فاعل بمصر، و بنى فى ألواح الأقصى مدينة، جعل طول حصنها فى الارتفاع خمسين ذراعا، و أودعها جميع الحكم، و الأموال، و هى المدينة التى وقع عليها، موسى بن نصير فى زمن بنى أمية، لما قدم من المغرب، فلما دخل مصر أخذ على ألواح الأقصى، و كان عنده علم منها، فأقام سبعة أيام يسير فى رمال بين الغرب و الجنوب، فظهرت له مدينة عليها حصن و أبواب من حديد، فلم يمكنه فتح الأبواب، و كان إذا صعد إليها الرجال، و علوا الحصن، و أشرفوا على المدينة ألقوا أنفسهم فيها، فلما أعياه أمرها مضى و هلك من أصحابه عدّة.

قال: و فى تلك الصحارى كانت منتزهات القوم، و مدنهم العجيبة، و كنوزهم إلا أنّ الرمال غلبت عليها، و لم يبق يملك ملك إلا و قد عمل للرمل طلسما لدفعه، ففسدت طلسماتها لقدم الزمان، قال: و لا ينبغى لأحد أن ينكر كثرة بنيانهم، و لا مدائنهم، و لا ما نصبوه من الأعلام العظام، فقد كان للقوم بطش لم يكن لغيرهم، و إنّ آثارهم لبينة مثل الأهرام و الأعلام و الإسكندرية، و ما فى صحارى الشرق و الجبال المنحوتة التى جعلوا كنوزهم فيها، و الأودية المنحوتة، و مثل ما بالصعيد من البرابى و ما نقشوه عليها من حكمتهم، فلو تعاطى جميع ملوك الأرض أن يبنوا مثل الهرمين، ما تهيأ لهم، و كذلك أن ينقشوا بربا لطال بهم الأمد و لم يمكنهم.

و حكى عن قوم من البنائين فى ضياع الغرب، أنّ عاملا عندهم عنف بهم، ففرّوا فى صحراء الغرب، و معهم زاد إلى أن تنصلح أحوالهم، و يرجعوا، فلما كانوا على مسيرة يوم و بعض آخر قدموا إلى سفح جبل، فوجدوا عيرا أهليا قد خرج من بعض الشعاب، فتبعه بعضهم، فانتهى إلى مساكن و أشجار، و نخل و مياه تطرد و قوم هناك يرعون، و لهم مساكن، و كلمهم و أعجب بهم، فجاء إلى أصحابه، و قدم بهم على أولئك القوم، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم، و أقاموا عندهم حتى صلحت أحوالهم و خرجوا ليأتوا بأهاليهم و مواشيهم، و يقيموا عندهم، فساروا مدّة، و هم لا يعرفون الطريق، و لا يتأتى لهم العود فأسفوا على ما فاتهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۳۴

و ضلّ آخرون عن الطريق فى الغرب فوقعوا على مدينة عامرة كثيرة الناس، و المواشى و النخل و الشجر، فأضافوهم و أطعموهم و سقوهم و باتوا فى طاحونة، فسكروا من الشراب، و ناموا فلم ينتبهوا إلا من حرّ الشمس، فإذا هم فى مدينة خراب ليس فيها أحد، فخافوا، و خرجوا، و ظلوا يومهم سائرين إلى المساء، فظهرت لهم مدينة أكبر من الأولى، و أعمر و أكثر أهلا و شجرا و مواشى، فأنسوا بهم، و أخبروهم بخبر المدينة الأولى، فجعلوا يعجبون منهم، و يضحكون و انطلقوا بهم إلى وليمة لبعض أهل المدينة، فأكلوا و شربوا و عنوا بهم، حتى سكروا، فلما كان من الغد انتبهوا فإذا هم فى مدينة عظيمة ليس فيها أحد و حولها نخل قد تساقط ثمره، و تكدّس، فخرجوا و هم يجدون ريح الشراب، و مبادى الخمار، فساروا يوما إلى المساء و إذا راع يرعى غنما، فسألوه عن الطريق؟ فدلهم، فساروا بعض يوم من الغد، فوصلوا مدينة الأشمونين بالصعيد.

قال: و هذه مدائن القوم الداخلة القديمة قد غلب عليها الجانّ، و منها ما سترته عن العيون، فلا ينظر إليها أحد، و قال: إنّ البودسير بن قفطريم بن قبطيم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام فى أيامه بنيت بصحراء الغرب مناير و منتزهات، و حوّل إليها جماعة من أهل بيته، فعمروا تلك النواحى، و بنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عامرة كلها، و أقامت على ذلك مدّة كثيرة، فخالطهم البربر، و نكحوا منهم، ثم تحاسدوا، فكانت بينهم حروب خربت فيها تلك الجهات، و بادت إلا بقية منازل تسمى: الواحات.

ذكر مدينة سنتريّة

و مدينة سنتريّة: من جملة الواحات بناها: مناقيوش باني مدينة إخميم، كان أحد ملوك القبط القدماء، قال ابن وصيف شاه: و كان في حزم أبيه، و حنكته تعظم في أعين أهل مصر، و هو أوّل من عمل الميدان و أمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه.

و أوّل من عمل المارستان لعلاج المرضى، و الزمنى، و أودعه العقاقير، و رتب فيه الأطباء، و أجرى عليهم ما يسعهم، و أقام الأمناء على ذلك، و صنع لنفسه عيدا، فكان الناس يجتمعون إليه فيه، و سماه عيد الملك في يوم من السنة، فيأكلون، و يشربون سبعة أيام، و هو مشرف عليهم من مجلس على عمد، قد طوّقت بالذهب، و ألبست فاخر الثياب المنسوجة بالذهب، و عليه قبة مصفحة من داخل بالرخام و الزجاج و الذهب، و في أيامه بنيت: سنتريّة في صحراء الواحات، عملها من حجر أبيض مربعة، و في كل حائط باب في وسطه شارع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۳۵

إلى حائط محاذ له، و جعل في كل شارع يمنة و يسرة أبوابا تنتهي طرقاتها إلى داخل المدينة.

و في وسط المدينة، ملعب يدور به من كل ناحية سبع درج، و عليه قبة من خشب مدهون على عمد عظيمة من رخام، و في وسطه: منار من رخام عليه، صنم من صوّان أسود يدور مع الشمس بدورانها، و بسائر نواحي القبة، صورة معلقة تصفر، و تصيح بلغات مختلفة، فكان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب، و حوله بنوه و أقاربه، و أبناء الملوك، و على الدرجة الثانية، رؤساء الكهنة و الوزراء، و الثالثة رؤساء الجيش، و على الرابعة الفلاسفة و المنجمون و الأطباء و أرباب العلوم، و على الخامسة أصحاب العمارات، و على السادسة أصحاب المهن، و على السابعة العامّة.

فيقال: لكل صنف منهم انظروا إلى من دونكم، و لا تنظروا إلى من فوقكم لا تلحقونهم، و هذا ضرب من التأديب، و قتلته امرأته بسكين، فمات، و كان ملكه ستين سنة.

و سنتريّة الآن بلد صغير يسكنه نحو ستمائة رجل من البرّ يعرفون سيوة، و لغتهم تعرف بالسيوية تقرب من لغة زنانة، و بها حدائق نخل و أشجار من زيتون و تين و غير ذلك و كرم كثير، و بها الآن نحو العشرين عينا تسيح بماء عذب، و مسافتها من الإسكندرية أحد عشر يوما، و من جيزة مصر أربعة عشر يوما و هي قرية يصيب أهلها الحمى كثيرا، و ثمرها غاية في الجودة، و تعبث الجنّ بأهلها كثيرا، و تختطف من انفرد منهم، و تسمع الناس بها عزيف الجنّ!.

ذكر الواحات الخارجة

بناها أحد ملوك القبط الأول، و يقال له: البودسير بن قفطيم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، قال ابن وصيف شاه: و أراد البودسير أن يسير مغرّبا لينظر إلى ما هنالك، فوقع على أرض واسعة متخرّقة بالمياه و العيون، كثيرة العشب، فبنى فيها مناير و منتزهات، و أقام فيها جماعة من أهل بيته، فعمروا تلك النواحي، و بنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عمارة كلها، و أقامت كذلك مدّة كثيرة، و خالطهم البربر، فنكح بعضهم من بعض، ثم إنهم تحاسدوا، و بغى بعضهم على بعض، فكانت بينهم حروب، فخرب ذلك البلد، و باد أهله إلا بقية منازل تسمى الواحات.

و قال المسعوديّ: و أما بلاد الواحات فهي بين بلاد مصر و الإسكندرية و صعيد مصر و الغرب و أرض الأحابش من النوبة و غيرهم، و بها أرض شبية و زاجية، و عيون حامضة، و غير ذلك من الطعوم.

و صاحب الواحات في وقتنا هذا، و هو سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، عبد الملك بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۳۶

مروان، و هو رجل من لواتة إلا أنه مروانيّ الذهب، و يركب في آلاف من الناس خيلا و نجبا، و بينه و بين الأحابش نحو من ستة أيام،

و كذلك بينه و بين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة، و فى أرضه خواص و عجائب، و هو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره، و لا يفتقر إليه، و يحمل من أرضه التمر و الزبيب و العناب.

و حدّثنى وكيل أبى الشيخ المعز حسام الدين عمرو بن محمد بن زنكى الشهرزورى:

أنه سمع ببلاد الواحات، أنّ فيها شجرة تاريخ يقطف منها فى سنة واحدة أربعة عشر ألف حبة نارنج صفراء، سوى ما يتناثر، و سوى ما هو أخضر، فلم أصدّق ذلك لغرابته، و قمت حتى شاهدت الشجرة المذكورة، فإذا هى كأعظم ما يكون من شجر الجميز بمصر و أكبر، و سألت مستوفى البلد عنها، فأحضر إلىّ جرائد حساباته و تصفحها حتى أوقفنى على أن منها فى سنة كذا قطف من النارنجة اللانية، أربعة عشر ألف حبة نارنج مستوية صفراء، سوى ما بقى عليها من الأخضر، و سوى ما تناثر منها و هو صغير.

و بالواحات الشبّ الأبيض بواد تجاه مدينة أدفو كان فى زمن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر، و فى زمن ابنه الصالح نجم الدين أيوب على مقطعى الواحات حمل ألف قنطار شب أبيض فى كل سنة إلى القاهرة، و يطلق لهم فى نظير ذلك جوالى الواحات، ثم أهمل هذا فبطل.

و فى سنة تسع و ثلاثين و ثلثمائة، سار ملك النوبة فى جيش عظيم إلى الواحات، فأوقع بأهلها، و قتل منها، و أسر كثيرا.

ذكر مدينة قوص

اعلم: أنّ قوص أعظم مدائن الصعيد، و هى على النيل بنيت بعد قفط فى أيام ملك من ملوك القبط الأول يقال له: سدان بن عديم بن البودسير بن قفطريم.

قيل: سميت باسم قوص بن قفط بن أخميم بن سيفاف بن أشمن بن مصر، قال ابن وصيف شاه: سدان بن عديم، هو الذى بنى الأهرام الدهشورية من الحجارة التى قطعت فى زمان أبيه، و عمل مصاحف النيرنجات، و هيكل أرمنت، و عمل فى المدائن الداخلة من أنصنا هيكلا و أقام فيه فى أتريب، و هيكلا فى شرقىّ الإسكندرية، و بنى فى الجانب الشرقىّ مدائن، و فى أيامه بنيت قوص العالية، و أسكن فيها قوما من أهل الحكمة، و أهل الصناعات، و كان الحبش و السودان، قد عاثوا فى بلده، فأخرج لهم، ابنه منقاوش فى جيش عظيم، فقتل منهم، و سبى، و استعبد الذين سباهم، و صار ذلك سبّة لهم، و اقتطع معدن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۳۷

الذهب من أرضهم، و أقام ذلك السبى يعملون فيه، و يحملون الذهب إليه، و هو أوّل من أحب الصيد، و اتخذ الجوارح، و ولد الكلاب السلوقية من الذئاب و الكلاب الأهلية، و عمل من العجائب و الطلسمات لكل فنّ ما لا يحصى كثرة.

و قال الأدفوىّ فى تاريخ الصعيد: و قوص بجانب قفط، حكى بعض المؤرخين: أنها شرعت فى العمارة، و شرعت قفط فى الخراب من سنة أربعمائة.

قيل: إنه حضر مرّة قاضى قوص، فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة إلى لقائه.

و فى شهر رمضان سنة اثنتين و ستين و ستمائة، أحضر إلى الملك الظاهر بيبرس فلوس، وجدت مدفونة بقوص، فأخذ منها فلس، فإذا على أحد وجهيه، صورة ملك واقف، و فى يده اليمنى ميزان، و فى اليسرى سيف، و على الوجه الآخر رأس فيه أذن كبيرة، و عين مفتوحة، و بدائر الفلس، كتابة، فقرأها راهب يونانىّ، فكان تاريخه، إلى وقت قراءته، ألفين و ثلثمائة سنة، و فيه أنا غلياث الملك ميزان العدل و الكرم فى يمينى لمن أطاع، و السيف فى يسارى لمن عصى، و فى الوجه الآخر، أنا غلياث الملك، أذنى مفتوحة لسماع المظلوم، و عينى مفتوحة أنظر بها مصالح ملكى.

و قوص، كثيرة العقارب و السام أبرص، و بها صنف من العقارب القتالات، حتى إنه كان يقال بها أكلة العقرب لأنه كان لا يرجى لمن لسعته حياة، و اجتمع بها مرّة فى يوم صائف على حائط الجامع سبعون سام أبرص صفا واحدا، و كان الواحد من أهلها إذا مشى

فى الصيف ليلا خارج داره، يأخذ بإحدى يديه مسرجة تضىء له، و بالأخرى مشك من حديد يشك به العقارب، ثم إنها تلاشت بعد سنة ثمانمائة.

فلما كانت الحوادث و المحن، مات بها سبعة عشر ألف إنسان فى سنة ست و ثمانمائة، و كانت من العمارة بحيث إنه تعطل منها فى شراقى البلاد سنة ست و سبعين و سبعمائة، مائة و خمسون مغلقا، و المغلق عندهم بستان من عشرين فدّانا فصاعدا، و له ساقية بأربعة وجوه، و ذلك سوى ما تعطل مما هو دون ذلك، و هو كثير جدّا.

ذكر مدينة أسنا

قال الأدفوىّ: و ذكر أنّ أسنا فى سنة حصل منها، أربعون ألف إردب تمر، و اثنا عشر ألف إردب زبيب، و أسنا تشمل على ما يقارب ثلاثة عشر ألف منزل، و قيل: إنه كان بها فى وقت سبعون شاعرا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۳۸

ذكر مدينة أدفو

و مدينة أدفو يقال بالدال المهملة، و يقال أيضا بالتاء المثناة من فوق. قال الأدفوىّ:

أخبرنى الخطيب العدل أبو بكر خطيب أدفو: أن جمارة طرحت، ثلاثة شماريخ فى كل شمروخ تمرة واحدة، و أنه قلع الجمارة بأصلها، و وزنها فجاءت خمسة و عشرين درهما، كلها بجريدها و خشبها، و ذلك بأدفو.

و لما كان بعد سنة سبعمائة، حفر صناع الطوب، فظهرت صورة شخص من حجر شكل امرأة متربعة على كرسىّ، و عليها مثال شبكة، و فى ظهرها لوح مكتوب بالقلم اليونانىّ، رأيتها على هذه الحالة فى مدينة أدفو.

إهناس

هى كورة من كور الصعيد يقال: إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام، ولد بها، و إن نخلة مريم عليها السلام التى ذكرت فى قوله تعالى: وَ هُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا [مريم/ ۲۵] لم تزل بها إلى آخر أيام بنى أمية، و الذى عليه الجماهرة أنّ عيسى عليه السلام إنما ولد بقرية بيت لحم من مدينة بيت المقدس و بإهناس شجر البنج.

ذكر مدينة البهنسا

هذه المدينة فى جهة الغرب من النيل بها تعمل الستور البهنسية، و ينسج المطرّز و المقاطع السلطانية، و المضارب الكبار، و الثياب المحبرة، و كان يعمل بها من الستور، ما يبلغ طول الستر الواحد ثلاثين ذراعا، و قيمة الزوج مائتا مثقال ذهب، و إذا صنع بها شىء من الستور و الأكسية، و الثياب من الصوف أو القطن، فلا بدّ أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوبا على ذلك مضوا جيلا بعد جيل.

و قبط مصر، مجمعون على أنّ المسيح و أمّه مريم كانا بالبهنسا، ثم انتقلا عنها إلى القدس.

و قال بعض المفسرين فى قوله تعالى عن المسيح و أمّه: وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ [المؤمنون/ ۵۰]، الربوة، البهنسا، و هذه المدينة بناها ملك من القبط يقال له:

مناوش بن منقاوش.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۳۹

قال ابن وصيف شاه: و استخلف مناوش الملك فطلب الحكمة مثل أبيه، و استخرج كتبها، و أكرم أهلها، و بذل فيهم الجوائز، و طلب

الأغراب فى عمل العجائب، و كان كل من ملوكهم يجهد جهده فى أن يعمل له غريبة من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله، و ثبت فى كتبهم، و زبر على الحجارة فى تواريخهم.

و هو أوّل من عبد البقر من أهل مصر، و كان السبب فى ذلك أنه اعتلّ، علة يئس منه فيها، فرأى فى منامه صورة روحانىّ عظيم، يقول له: إنه لا يخرجك من علتك إلا عبادتك البقر، لأنّ الطالع كان وقت حلولها بك صورة ثور بقرنين، ففعل ذلك، و أمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة، و عمل له مجلسا فى قصره، و سقفه بقبة مذهبة، فكان ينجره، و يطيب موضعه، و كل به سائسا يقوم به، و يكنس تحته، و يعبد سرا من أهل مملكته، فبرأ من علته.

و هو أوّل من عمل العجل فى علته، فكان يركب عليها البيوت من فوقها قباب الخشب، و عمل ذلك من أحب من نسائه، و خدمه إلى المواضع، و المنتزهات، و كان البقر يجرّه، فإذا مرّ بمكان نزهة أقام فيه و إذا مرّ بمكان خراب أمر بعمارته، فيقال: إنه نظر إلى ثور من البقر الذى يجرّ عجلته أبلق حسن الشية، فأمر بترفيهه، و سوقه بين يديه إعجابا به، و جعل عليه جلا من ديباج، فلما كان فى يوم و قد خلا فى موضع صار إليه، و قد انفرد عن عبيده و خدمه، و الثور قائم إذ خاطبه الثور، و قال له: لو رفهنى الملك عن السير معه، و جعلنى فى هيكل و عبدنى، و أمر أهل مملكته بعبادتى، كفيته جميع ما يريد، و عاونته على أمره، و قوّيته فى مملكته، و أزلت عنه جميع علله، فارتاع لذلك، و أمر بالثور، فغسل و طيب، و أدخل فى هيكل، و أمر بعبادته، فأقام ذلك الثور يعبد مدّة، و صار فيه آية و هو أنه لا يبول و لا يروث و لا يأكل إلا أطراف ورق القصب الأخضر فى كل شهر مرّة، فافتتن الناس به، و صار ذلك أصلا لعبادة البقر، و بنى مواضع كنز فيها كنوزا، و أقام عليها أعلاما، و بنى فى صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس و أقام فيها منارا، و دفن حولها كنوزا.

و يقال: إن هذه المدينة قائمة، و إنّ قوما، جازوا بها من نواحى الغرب، و قد ضلوا الطريق، فسمعوا بها، عزيف الجنّ، و رأوا ضوءا يتراءى بها، و فى بعض كتبهم أنّ ذلك الثور بعد مدّة من عبادتهم له، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف، و يؤخذ من رأسه شعرات، و من ذنبه و من نحاتة قرونه و أظلافه، و يجعل فى التمثال المذكور، و عرّفهم أنه يلحق بعالمه، و أمرهم أن يجعلوا جسده فى جرن من حجر أحمر، و يدفن فى الهيكل، و ينصب تمثاله عليه، و زحل فى شرفه، و الشمس تنظر إليه من تثليث القمر زائد النور، و ينقش على التمثال علامات الكواكب السبعة، ففعلوا ذلك، و كلّلوه بجميع الأصناف من الجواهر، و جعلوا عينيه جزعتين، و غرسوا فى الهيكل عليه شجرة بعد ما دفنوه فى الجرن الأحمر، و بنوا منارا طوله ثمانون ذراعا على رأسه قبة تتلوّن كل يوم لونا، حتى تمضى سبعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۴۰

أيام، ثم تعود إلى اللون الأوّل، و كسوا الهيكل ألوان الثياب، و شقوا نهرا من النيل إلى الهيكل، و جعل حوله طلسمات رؤوسها رؤوس القرود على أبدان اناس، كل واحد منها لدفع مضرّة، و جلب منفعة، و أقام عند الهيكل، أربعة أصنام على أربعة أبواب، و دفن تحت كل صنم صنفا من الكنوز، و كتب عليها قربانها، و بخورها و أسكنها الشجرة، فكانت تعرف بمدينة الشجرة، و منها كانت أصناف الشجر تخرج و هو أوّل من عمل النيروز بمصر، و فى زمانه بنيت البهنسا، و أقم بها أسطوانات و جعل فيما فوقها مجلسا من زجاج أصفر عليه قبة مذهبة إذا طلعت الشمس ألقت شعاعها على المدينة.

و يقال: إنه ملكهم ثمانمائة و ثلاثين سنة، و دفن فى أحد الأهرام الصغار القبلية، و قيل: فى غربىّ الأشمونين، و دفن معه من المال و الجواهر و العجائب شىء كثير، و أصناف الكواكب السبعة التى يرى الدفين و الحية، و ألف سرج ذهبا و فضة، و عشرة آلاف جام و غضار من ذهب و فضة و زجاج، و ألف عقاقير لفنون الأعمال، و زبروا عليه اسمه و مدّة ملكه، و وقت موته.

و فى سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة، ظهر بالأشمونين فى واد بين جبلين، فساقى مربعة مملوءة ماء عذبا صافيا، فمشى شخص على حافتها طول يوم و ليلة، فلم يبلغ آخرها.

و يقال: إنها من عمل سوريد بانى الأهرام لتكون عدّة لما كانوا قد توقعوه من حدوث طوفان ناريّ، فردم هذا الوادى بعد ذلك خوفا

من تلاف الناس.

يقول الشيخ الإمام محمد بن أحمد الغريانيّ: حدّثنى علىّ بن حسن بن خالد الشعرىّ، ثلاث مرّات لم يختلف قوله علىّ فيها، قال: حدّثنى رجل من فزارة، الساكنين بكورة البهنسا قال: خرجت أنا و رجل رفيق لى نرتاد البلاد، و نطلب الرزق فى الأرض، و ذلك بعد سنة عشر و ثمانمائة، فقطعنا الجبل الغربىّ من ناحية البهنسا، و سرنا متوكلين على اللّه تعالى، فأقمنا أياما، و نحن نمشى ما بين الغرب و الجنوب، فوقعنا فى واد كثير الشجر و النبات و الماء و الكلأ ليس فيه أنيس، و هو واد واسع فى الطول و العرض، نحو يوم فى الطول، و يوم فى العرض، كله أعين و بساتين نخل و زيتون كثير الإبل و المعز، و الذئب و الضبع به كثير، و الإبل به متوحشة، و كذلك المعز قد صارت به وحشية بعد أن كانت آنسة به، و ليس بالوادى لا رائح، و لا غاد من الناس قال: فأخبرنى أنهما أقاما بالوادى نحوا من شهرين أو ثلاثة، و إنهما رأيا فى وسط الوادى، مدينة حصينة منيعة عالية السور شامخة القصور فإذا تقرّبا من سورها سمعا ضجيجا عظيما، و أصواتا مهولة مخوفة، و رأيا دخانا يرتفع إلى جوّ السماء، حتى يغطى سور المدينة، و جميع ما فيها، و إنّ تلك الإبل الوحشية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۴۱

عدت على رواحلهما الإنسية، فآذتها، و قتلتها فتحيل عند ذلك الرجلان الفزاريان بحيل، و فتلا حبالا و أشراكا شباكا من ليف النخل، و قيدا تلك الإبل الوحشية، و فتلا خوصا، و ضفرا قفاصا من الخوص لزادهما، و ملآها تمرا، و زللا من تلك الإبل الوحشية مكان رواحلهما عوضا عنها، و ركباها متوجهين نحو الشرق، و حملا معهما من الجريد أعنى جريد النخل ما يعرفان به الطريق التى بينهما و بينها، و يجعلان ذلك أمارات لمرورهما إليها، فكانا كلما مرّا على شرف جعلا عليه، جريدتين علما، حتى وصلا إلى الجبل الغربىّ من مصر، فنزلا إلى البهنسا، فعرّفا قومهما، و تحملا بأهاليهما، فلما علوا سطح الجبل الغربىّ، و جدا كلّ ما فرقاه من جريد النخل على رؤوس الآكام مجتمعا فى مكان واحد فى أعلى الجبل، فرجعا عند ذلك لأهاليهما، و من معهم إلى أرض البهنسا، و هذا ما حدّثنى به، و اللّه أعلم.

ذكر مدينة الأشمونين

كانت من أعظم مدن الصعيد، يقال: إنها من بناء أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

و قال ابن وصيف شاه: كان أشمون أعدل ولد أبيه، و أرغبهم فى صنعة تبقى، و يبقى ذكرها، و هو الذى بنى المجالس المصفحة بالزجاج الملوّن وسط النيل، و تقول القبط: إنه بنى سربا تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا تحت النيل، و قيل: إنه حفره، و عمله لبناته لأنهنّ كنّ يمضين إلى هيكل الشمس، و كان هذا السرب مبلط الأرض و الحيطان و السقف بالزجاج الثخين الملوّن.

و قيل: إنّ أشمون كان أطول إخوته ملكا.

و قال أهل الأثر: إنه ملك ثمانمائة سنة، و إنّ قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة من ملكه، و أقاموا تسعين سنة و استولوا على البلد، فانتقلوا إلى الدثنية من طريق الحجاز إلى وادى القرى، فعمروها، و اتخذوا بها المنازل، و المصانع و سلط اللّه عليهم الذر، فأهلكهم، و عاد ملك مصر إلى أشموم.

و يقال: إنه عمل على باب الأشمونين أوزة من نحاس، فكان الغريب إذا جاء ليدخل المدينة، صاحت الأوزة و صفقت بجناحيها، فيعلم به فإن أحبوا منعوه، و إن أحبوا تركوه، و كثرت الحيات فى وقته، فكانوا يصيدونها، و يعملون من لحومها، أدوية و ترياقات، ثم ساقوها بسحرهم إلى وادى الحيات فى جبال لوبية و مراقية، فسجنوها هناك.

و قال فى كتاب هروشيش: إنّ أشمون بن قبط أوّل ملوك المصريين، و إنّه كان فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۴۲

زمان شاروح بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، و إن سنىّ الدنيا صارت إلى زمان شاروح، ألفين و

تسعمائة و خمس سنين يكون ذلك بعد الطوفان بستمائة و ثلاث و ستين سنة، و بها كانت فرهة الخيل، و البغال و الحمير، و كان يعمل بها فرش القرمز الذى يشبه الأرمنى.

و كان ينزل بأرض الأشمونين عدّة بطون من بنى جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و كانوا بادية أصحاب شوكة، و كان معهم بنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان خلفاء لهم، و معهم بطن آخر يقال لهم: إنّ أباهم كان مولى لعبد الملك بن مروان، و يزعمون أنهم من بنى أمية صلبية، و كان معهم أيضا حلفاء لهم بنو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ينزلون، أرض دلجة عند أشمون.

ذكر مدينة إخميم

ضبطها البكرى : بكسر الهمزة، و إسكان الخاء، ثم ميم و ياء و ميم على بناء إفعيل، و هى فى الجانب الشرقىّ من النيل، و الذى بناها مناقيوش أحد ملوك القبط الأول.

قال ابن وصيف شاه: كان جلدا محتكما، فاستأنف العمارة و بنى القرى، و نصب الأعلام، و جمع الحكم، و مصاحف الملوك و الحكماء، و عمل العجائب، و بنى لنفسه مدينة انفرد بها، و عمل عليها حصنا، و نصب عليه أربعة أعلام فى كل ركن من أركانه علم، و بين تلك الأعلام ثمانون صنما من نحاس، و أخلاط فى أيديهما السلاح، و زبر على صدرها آياتها.

و كان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر، و أبصرهم بأخذ التماسيح و السباع، و كان يعلم الغلمان السحر، فإذا حذقوا علّم غيرهم، فأمر الملك أن يبنى له مدينة، و يحوّل إليها و هى إخميم، فملكهم مناقيوش نيفا و أربعين سنة و مات، فدفن فى الهرم المحاذى لأطفيح، و معه شىء كثير من المال و الجوهر و الآنية و التماثيل، و زبر عليه اسمه، و الوقت الذى هلك فيه، قال: و ذكر أهل إخميم: أنّ رجلا أتى من الشرق و كان يلزم البربا، و يأتى إليه كل يوم ببخور، و خلوق فيبخر، و يطيب صورة فى عضادة الباب، فيجد تحتها دينارا، فيأخذه، و ينصرف ففعل ذلك مدّة حتى وشى به غلام له إلى عامل البلد، فقبض عليه، فبذل مالا و خرج عن البلد.

و كانت بربا إخميم من أعجب البرابى، و أعظمها قد بنيت لخزن برّهم فإنهم قضوا على أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرائن، لكنهم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: تكون نار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۴۳

فتحرق ماء على جميع وجه الأرض، و قال آخرون: بل يكون ماء، فعملوا هذه البرابى قبل الطوفان، و كان فى هذه البربا صور الملوك الذين يملكون مصر، و كانت مبنية بحجر المرمر، و طول كل حجر منها، خمسة أذرع فى سمك ذراعين، و هى سبعة دهاليز سقوفها حجارة طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع مدهونة باللازورد، و غيره من الأصباغ التى يحسبها الناظر، كأنما فرغ الدّهان منها الآن لجدتها، و كان كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة السيارة، و جدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيئات و المقادير، فيها رموز علوم القبط من الكيمياء، و السيمياء، و الطلسمات، و الطب و النجوم، و الهندسة و غير ذلك، أودعوها تلك الصور.

و ذكر ابن جبير فى رحلته: أنّ طول هذه البربا مائتا و عشرون ذراعا، وسعتها مائة و سبعون ذراعا، و أنها قائمة على أربعين، سارية سوى الحيطان دور كل سارية خمسون شبرا، و بين كل ساريتين ثلاثون شبرا، و رؤوسها فى نهاية العظم كلها منقشة من أسفلها إلى أعلاها، و من رأس كل سارية إلى الأخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت، فيها ما ذرعه ستة و خمسون شبرا طولا فى عرض عشرة أشبار، و ارتفاع ثمانية أشبار، و سطحها من ألواح الحجارة كأنها فرش واحد فيه التصاوير البديعة، و الأصبغة الغريبة كهيئة الطيور و الآدميين، و غير ذلك فى داخلها و خارجها، و عرض حائط البربا ثمانية عشر شبرا من حجارة مرصوصة، كذا قاسها ابن جبير فى سنة ثمان و سبعين و خمسمائة.

و يقال: إنّ ذا النون عرف منها، علم الكيمياء، و ما زالت هذه البربا قائمة إلى سنة ثمانين و سبعمائة، فخرّبها رجل من أهل إخميم يعرف: بالخطيب كمال الدين بن بكر الخطيب علم الدين عليّ، و نال منها مالا فلم تطل حياته، و مات، و من حينئذ تلاشى أمر إخميم إلى أن خربت، و قد ذكر جماعة أنّ بربا إخميم كانت فى هيئة غلام أمرد عريان، و إنّ قوما دخلوها مرّة فتبعهم، و أخذ يضربهم ضربا وجيعا، حتى خرجوا هاربين، و حكى مثل ذلك عمن دخل الأهرام أيضا.

و قد حكى أنّ رجلا ألصق على صورة من بربا إخميم شمعة، فكان إذا تركها فى موضع التجأت العقارب إليها، و إذا وضع الشمعة فى تابوت اجتمعت العقارب حوله.

و يقال: إنه كان فى بربا إخميم شيطان قائم على رجل واحدة، و له يد واحدة، و قد رفعها إلى الهواء، و فى جبهته و حواليه كتابة، و له إحليل ظاهر ملتصق بالحائط، و كان يذكر أنّ من احتال، حتى ينقب على ذلك الإحليل حتى يخرجه، من غير أن ينكسر، و يعلقه على وسطه، فإنه لا يزال منغطا إلى أن ينزعه، و يجامع ما أحب، و لا يفتر ما دام معلقا عليه، و إنّ بعض من ولى إخميم اقتلعه، فوجد منه شيئا عجيبا من ذلك، و كانت الأنطاع تجلب من إخميم، و بها تعمل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۴۴

و يقال: إنه كان بها اثنا عشر ألف عريف على السحرة، و كان بها شجر البنج، و يقال:

إنّ الذى بنى بربا إخميم اسمه دومريا، و إنه جعل هذه البربا مثلا للأمم الآتية بعده، و كتب فيها تواريخ الأمم و الأجيال و مفاخرهم التى يفتخرون بها، و صوّر فيها الأنبياء و الحكماء، و كتب فيها من يأتى من الملوك إلى آخر الدهر، و كان بناؤه إياها و النسر برأس الحمل، و النسر يقيم عندهم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة.

قلت: و النسر فى زماننا بآخر باب برج الجدى، فيكون على ذلك لهذه البربا منذ بنيت نحو الثلاثين ألف سنة.

و ذكر أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحيم القيسىّ فى كتاب تحفة الألباب: أن هذه البربا مربعة من حجارة منحوتة، و لها أربعة أبواب يفضى كل باب إلى بيت له أربعة أبواب كلها مظلمة، و يصعد منها إلى بيوت كالغرف على قدرها.

ذكر مدينة العقاب

قال المسعودىّ: مدينة العقاب غربىّ أهرام أبو صير بالجيزة على مسيرة خمسة أيام بلياليها للراكب المجدّ، و قد عوّر طريقها، و عمى المسلك إليها، و السمت الذى يؤدّى نحوها، و فيها عجائب البنيان و الجواهر، و الأموال.

و قال ابن وصيف شاه: و كان الوليد بن دومع العمليقىّ، قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان، و يقهر ملوكها، فلما صار بالشام، وجه غلاما له يقال له: عون، فسار إلى مصر، و فتحها، ثم سار، فتلقاه عون و دخل مصر، فاستباح أهلها.

ثم سنح له أن يقف على مصب النيل، فخرج فى جيش كثيف، و استخلف عونا على مصر، و أقام فى غيبته أربعين سنة، و إنّ عونا بعد سبع سنين من مسيرة تجبر، و ادّعى أنه الملك، و أنكر أن يكون غلام الوليد و إنما هو أخوه، و غلب بالسحر، و سبى الحرائر فمال الناس إليه، و لم يدع امرأة من بنات ملوك مصر، إلا نكحها، و لا مالا إلا أخذه و قتل صاحبه، و هو مع ذلك يكرم الكهنة، و يعظم الهياكل، فاتفق أنه رأى الوليد فى منامه، و هو يقول له: من أمرك أن تتسمى باسم الملك؟ و قد علمت أنه من فعل ذلك استحق القتل، و نكحت بنات الملوك، و أخذت الأموال بغير واجب، ثم أمر بقدر ملئت زيتا، و أحميت حتى غلت، و نزع ثيابه ليلقيه فيها، فأتاه عقاب، فاختطفه، و حلق به فى الجوّ، و جعله فى هوّة على رأس جبل، فسقط إلى واد فيه حمأة منتنة، فانتبه مرعوبا، و قص ذلك على كهنته، فقالوا: نحن نخلصك منه بأن تعمل عقابا و تعبده، فإنه الذى خلصك فى نومك، فقال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۴۵

أشهد لقد قال لى: إعرف لى هذا المقام، و لا تنسه، فعمل عقابا من ذهب، و جعل عينيه جوهرتين، و وشحه بالجوهر، و عمل له هيكلا

لطيفا، و أرخى عليه ستور الحرير، و أقبلوا على تبخيره و قربانه، حتى نطق لهم، فأقبل عون على عبادته، و دعا الناس إلى ذلك، فأجابوه، ثم أمر فجمع له كل صانع بمصر، و أخرج أصحابه إلى صحراء الغرب لطلب أرض سهلة حسنة الاستواء يدخل إليها من مواضع صعبة، و جبال و عرة بحيث تقرب من مغيض الماء التى هى اليوم: الفيوم، و كانت مغيضا لماء النيل، حتى أصلحها يوسف عليه السلام ليجرى الماء منها إلى المدينة، فخرجوا، و أقاموا شهرا يطوفون حتى وجدوا بغيته، فلم يبق بمصر فاعل، و لا مهندس، و لا أحد له بصر بالبناء، و قطع الصخور، و نحتها، إلّا وجّه إليها، و أنفذ ألف رجل من الجيش، و سبعمائة ساحر لمعاونتهم، و أنفذ معهم الآلات و الأزواد على العجل و طريق هذه العجل إلى الفيوم فى صحراء الغرب واضحة من خلف الأهرام.

فلما تكامل له ما أراد من نحت الحجارة، خطوا المدينة فرسخين فى مثلهما، و حفروا فى الوسط بئرا جعلوا فيها تمثال خنزير من نحاس بأخلاط، و نصبوه على قاعدة نحاس، و وجهه إلى الشرق، و ذلك بطالع بيت زحل و استقامته و سلامته، و كان فى شرفه، و ذبحوا خنزيرا، و لطخوا التمثال بدمه فى وجهه، و بخروه بشىء من شعره، و حشوا جوفه بدمه، و شعره و عظامه و لحمه و مرارته، و جعلوا فى أذنيه من مرارته، و حرّقوا بقية الخنزير، و جعلوا رماده فى قلة من نحاس بين يدى التمثال، و نقشوه بآيات زحل، ثم شقوا فى البئر من الجهات الأربع فى كل جهة، سربا إلى حيطان المدينة، و عملوا على أفواهها منافس تجذب الهواء، و سدّوا البئر من الجهات الأربع قبة على عمد مرتفعة على حيطان المدينة، و جعلوا فيها شوارع يتصل كل شارع بباب من أبواب المدينة، و فصلوها بالطرقات و المنازل، و جعلوا حول القبة تماثيل فرسان من نحاس بأيديهما حراب، و وجوههما تجاه الأبواب، و جعلوا أساس المدينة من حجر أسود، فوقه حجر أحمر، عليه حجر أصفر، من فوقه حجر أخضر، و فوق الجميع حجر أبيض يشف، و كلها مبنية بالرصاص المصبوب بين الحجارة، و فى قلوبها أعمدة من حديد على بناء الأهرام، و جعلوا طول حصنها ستين ذراعا فى عرض عشرين، و على رأس كل باب حصن بأعلاه، عقاب كبير من صفر و أخلاط، قد نشر جناحيه، و هو أجوف، و على كل ركن فارس بيده حربة، و وجهه إلى خارج المدينة، و ساق الماء إلى الباب الشرقىّ ينحدر فى صبه إلى الباب الغربىّ، و يخرج إلى صهاريج، و كذلك من الباب الجنوبىّ إلى الشمالىّ، و قرّب للعقاب، عقبانا ذكورا، و اجتلب الرياح إلى أفواه التماثيل، فصار يسمع لها أصوات هائلة، و وكل بها أرواحا تمنع الداخل إليها، إلا أن يكون من أهلها.

و نصب العقاب الذى يتعبد له تحت القبة فى وسط المدينة على قاعدة بأربعة أركان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۴۶

على كل ركن، وجه شيطان، و جعلها على عمود يديرها، فكان العقاب يدور إلى الجهات، فيقيم فى كل جهة ربع السنة، فلما تمّ ذلك نقل إلى المدينة الأموال و الجواهر التى بمصر من عهد الملوك، و التماثيل و الحكم، و تراب الفضة و العقاقير و السلاح، و حوّل إليها كبار السحرة و الكهنة، و أصحاب الصنائع، و التجار و قسم المساكن بينهم، فلا يختلط أهل صناعة بسواهم و عمل بها ربضا لأصحاب المهن و الزراعة، و عقد على تلك الأنهار قناطر يمشى عليها الداخل إلى المدينة، و جعل الماء يدور حول الربض، و نصب عليها أعلاما و حرسا، ثم غرس وراء ذلك مما يتصل بالبرية النخل و الكرم، و جميع أصناف الشجر على أقسام مقسومة، و من وراء ذلك كله مزارع الغلات من كل جهة، كل ذلك خوفا من الوليد.

قال: و بين هذه المدينة، و بين منف ثلاثة أيام، و كان يقيم فيها و يخرج إليها، ثم يعود إلى منف و كان لها أربعة أعياد فى السنة، و هى: الأوقات التى يتحوّل العقاب فيها، فلما تمّ لعون ذلك، اطمأنّ قلبه، إلى أن وافى إليه كتاب الوليد من النوبة يأمره بحمل الأزواد، و نصب الأسواق، فوجه إليه فى البرّ و البحر، بما أراد و حوّل أهله و من اصطفاه من بنات الملوك و الكبراء إلى المدينة.

فلما قرب الوليد، خرج إليها و تحصن فيها، و استخلف على منف، فقدم الوليد، و قد سمع ما فعله عون، فغضب، و همّ أن يبعث إليه جيشا، فعرّف بخبر المدينة و منعتها، و خبر السحرة، فكتب إليه أن يقدم عليه، و يحذره عاقبة التخلف، فأجابه ما على الملك منى مؤنة و لا تعرّض، و لا عيب فى بلده لأنى عبده، و أنا له ردء فى هذا المكان من كل عدوّ يأتيه من الغرب، و لا أقدر على المسير إليه

لخوفى منه، فليقرّنى الملك بحالى كأحد عماله، و أوجه إليه ما يلزمنى من خراجه و هداياه، و بعث إليه بأموال جليلة، و جوهر نفيس، فكف عنه، و أقام الوليد بمصر حتى مات.

ذكر مدينة الفيوم

اشارة

اعلم: أن موضع الفيوم كان مغيض ماء النيل، فلما ولى السيد يوسف الصدّيق عليه السلام تدبير، أمور مصر عمّرها. قال ابن وصيف شاه: ثم ملك الريان بن الوليد، و هو فرعون وسف، و القبط تسميه: نهر أوش، فجلس على سرير الملك، و كان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا متمكنا، فوعد بالجميل، و أسقط عن الناس خراج ثلاث سنين، و فرّق المال فى الخاص و العامّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۴۷

و ملك على البلد رجلا من أهل بيته يقال له: أطفين، و هو الذى يسميه أهل الأثر العزيز فأمر أن ينصب له فى قصر الملك سرير من فضة يجلس عليه، و يغدو فيه، و يروح إلى باب الملك، و يخرج العمال و الكتاب بين يديه، فكفى نهراوش، ما خلف ستره، و قام بجميع أموره، و خلاه للذته، فانغمس نهر أوش فى لهوه، و لم ينظر فى عمل، و لا ظهر للناس حينا، و البلد عامر، و هو لا يسأل عن شىء، و عمل له مجالس من زجاج ملوّن، و حولها ماء فيه أسماك مفرطة و بلور ملوّن، فكان إذا وقعت عليه الشمس، ظهر له شعاع عجيب، و عملت له عدّة منتزهات على عدد أيام السنة، فكان كل يوم فى موضع منها، و عمل له فى كل موضع من الآنية و الفرش ما ليس لغيره، فاتصل بملوك النواحى تشاغله بلذاته، و تدبير أطفين.

فسار ملك من العماليق يقال له: أبو قابوس عاكر بن ينحوم إلى مصر، و نزل على حدودها، فجهز إليه العزيز جيشا عليه قائد يقال له: بريانس، فأقام يحاربه ثلاث سنين، فظفر به العمليقىّ و قتله، و هدم الأعلام و المصانع، و قوى طعمه فى البلد، فاجتمع الناس إلى قصر الملك، و استغاثوا، فخرج إليهم و عرض جيوشه، و خرج فى ستمائة ألف مقاتل سوى الأتباع، فالتقوا من وراء الحوف، و كان بينهما قتال شديد، فانهزم العمليقىّ، و تبعه نهراوش إلى حدّ الشام، و قتل خلقا من أصحابه، و أفسد زروعهم، و أشجارهم، و حرّق و صلب، و نصب أعلاما على الأماكن التى وصلها وزبر عليها، أنى لمن تجاوز هذا المكان بالمرصاد.

و قيل: إنه بلغ الموصل، و ضرب على أهل الشام خراجا، و بنى عند العريش مدينة لطيفة، و شحنها بالرجال، و رجع إلى مصر، فحشد من جميع الأعمال جنودا، و استعدّ لغزو ملك الغرب، و خرج فى سبعمائة ألف، فمرّ بأرض البربر، و أجلى كثيرا منها، و جهز قائدا فى السفن من ناحية رقودة إلى جزائر بنى يافث، فعاث فيها، و خرج من ناحية أرض البربر، فقتل و صالح بعضهم على مال حملوه إليه، و مضى إلى إفريقية و قرطاجنة، فصالحوه على مال، و مرّ حتى بلغ مصب البحر الأخضر إلى بحر الروم، و هو موضع أصنام النحاس، فأقام هناك صنما زبر عليه، اسمه، و تاريخ خروجه، و ضرب على أهل تلك النواحى الخراج، و عدّى إلى الأرض الكبيرة.

و سار إلى الأندلس، فحاربه ملكها أياما، ثم صالحه على مال و أن يمنع من يغزو مصر من ناحيته، و انصرف على غير البحر مشرّقا فى بلاد البربر، فلم يمرّ بأمّه إلا و دخلت فى طاعته، و مرّ فى الجنوب، فقتل خلقا و بعث قائدا إلى مدينة على البحر الأسود، فخرج إليه ملكها، و ذكر له حال الريان و مصالحة الملوك له، فقال: ما بلغنا أحد قط، و سأله القائد عن البحر هل ركبه أحد قط؟ فقال: ما يقدر أحد على ركوبه، و ربما أظله غمام، فلا يرى أياما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۴۸

و قدم الريان، فحملوا الهدايا إليه و فاكهة أكثرها الموز، و حجارة سوداء إذا جعلت فى الماء صارت بيضاء، ثم سار الملك على أمم السودان إلى مملكة الدمدام الذين يأكلون الناس، فخرجوا إليه عراة، فهزمهم و ظفر بهم، و مرّ على البحر المظلم، فغشيهم منه غمام،

فترجع شمالا حتى انتهى إلى تمثال من حجر أحمر يومئ بيده ارجعوا، و على صدره مزبور ما ورائى أحد، فسار إلى مدينة النحاس، فلم يصل إليها و مضى إلى الوادى المظلم، فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة، و لا يرون أحدا لشدّة ظلمته، و سار إلى وادى الرمل، فرأى على معبره أصناما عليها أسماء الملوك، فأقام عليه صنما زبر عليه اسمه، فلما أثبت الرمل جاز عليه إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود، فرأى سباعا يزأر بعضها على بعض، فحكم أنه لا مذهب له من ورائها، فرجع و عدّى وادى الرمل، و مرّ بأرض العقارب فهلك بعض أصحابه، و دفعوا عن أنفسهم أذاها بالرقى و جازها إلى مدينة الحكماء، و تعرف بمدينة الكند، ففرّوا منه إلى جبل.

فأقام عليه أياما حتى كاد يهلك جيشه عطشا، فنزل إليه من الجبل رجل من أفاضل الحكماء، و قد لبس شعره جسده، فقال للملك: أين تريد أيها المغرور الممدود له فى الأجل المرزوق فوق الكفاية أتعبت نفسك، و جيشك ألا اجترأت بما تملكه، و اتكلت على خالقك، و ربحت الراحة، و تركت العناء و الغرر بهذا الخلق؟ فعجب من قوله و سأله عن الماء، فدله عليه، و سأله عن موضعهم فقال: موضع لا يصل إليه أحد و لا يبلغه قبلك أحد، فقال: ما عيشك؟ قال: من أصول النبات نقنع به، و يكفينا اليسير، قال: فمن أين تشربون؟

قال: من الأمطار و الثلوج، قال: فلم هربتم منا؟ قال: زهادة فى مخالطتكم و إلا فليس لنا ما نخافكم عليه، قال: فكيف بكم إذا حميت الشمس؟ قال: نأوى إلى غيران تحت هذا الجبل، قال: فهل لكم فى مال أخلفه لكم؟ قال: إنما يريد المال أهل الترف، و نحن لا نستعمل منه شيئا استغنينا عنه بما قد اكتفينا به، و عندنا منه ما لو رأيته لاحتقرت ما عندك، قال: فأرنيه، فانطلق بنفر من أصحابه إلى أرض فى سفح جبلهم فيها قضبان ذهب ناتئة، و أراهم واديا لهم فى حافتيه حجارة زبرجد، و فيروز فأمر نهراوش أصحابه أن يحملوا من كبار تلك الحجارة، ففعلوا.

و رأى الحكيم جماعة الملك يصلون إلى صنم يحملونه معهم، فسأل الملك: أن لا يقيم بأرضهم، و خوّفه من عبادة الأصنام، فودّعه و سار، فلم يمرّ بأمّه إلا أثر فيها حتى بلغ النوبة، فصالحهم على مال، و أقام على دنقلة صنما، و زبر عليه اسمه و مسيره، و سار يريد مدينة منف، فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقونه بالفرح و السرور و الرياحين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۴۹

و الطيب إلى أن بلغ منف، فخرج أهلها إليه مع العزيز بأصناف الرياحين، و الطيب، و كان العزيز قد بنى له مجلسا من زجاج ملوّن و فرشه بأحسن فرش، و غرس حوله الأشجار و الرياحين، و جعل فيه بحرة من زجاج سماوىّ، و فى أرضه شبه السمك من زجاج أبيض، فنزل الملك فيه، و أقام الناس يأكلون و يشربون أياما كثيرة، و تفقد جيشه، ففقد منهم سبعين ألفا، و وجد فيهم ممن أسره نيفا و خمسين ألفا، فكانت مدّة غيبته عن مصرفى مسيرة هذه، إحدى عشرة سنة.

فلما بلغ الملوك قدومه هابوه، و اشتدّ بأسه، و تجبر و بنى فى الجانب الشرقىّ قصورا من رخام، و نصب عليها أعلاما، و أمر بالعمارة، و إصلاح الجسور، و استنباط الأراضى حتى زاد الخراج على مائة ألف ألف دينار.

و دخل إلى البلد فى أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه إخوته، و باعوه، و كانت قوافل الشام تعرّس بناحية الموقف اليوم، فوقف الغلام، و نودى عليه، و هو: يوسف الصدّيق ابن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّه عليهم و سلامه، فاشتراه إطفين ليهديه إلى الملك.

فلما أتى به قصره، رأته امرأته زليخا، و هى ابنة عمه، فقالت: اتركه لنا نربيه لينفعنا، و كان من أمرها ما قصه اللّه تعالى فى القرآن، فكانت تكتم حبه حتى غلبت، فخلت به و تزينت له، و عرّفته أنها تحبه، و أنه و إن و اتاها على ما تريده منه حبته بمال عظيم، فامتنع من ذلك، و رأت أن تغلبه، فما زالت تعاركه، و هو ممتنع منها إلى أن وافى زوجها وراءه، و هو هارب منها، و كان العزيز عنينا لا يأتى النساء، فجعل يوسف يعتذر إليه و قالت: إنى كنت نائمة، فأتانى يراودنى عن نفسى، و تبين من شاهد أهلها أن الأمر من قبل امرأته، فقال ليوسف: أعرض عن هذا، أى عن اعتذارك، و قال لها: استغفر لذنبك، و قد كان خبر أطفين، و الغلام بلغ الملك، و

كان نهراوش عاود العكوف على اللهو و الاحتجاب عن الناس، و اتصل خبر زليخا و يوسف بنساء الخاصة، فعيرنها بذلك، فدعت جماعة منهنّ، و صنعت لهنّ طعاما و شرابا، و عملت مجلسين مذهبين و فرشتهما بديباج أصفر مذهب، و أرخت عليهما ستور الديباج، و أمرت المواشط بتزين يوسف و إخراجه من المجلس الذى يحاذى المجلس الذى كانت مع النسوة فيه، و كان المجلس محاذيا للشمس، فأخذته المواشط، و نظمن شعره بأصناف الجواهر، و ألبسنه ثوب ديباج أصفر، قد نسج بدارات حمر مذهبة فيها أطيار صغار خضر مبطن ببطانة خضراء، و من تحته غلالة حمراء، و على رأسه تاج قد نظم بالدرّ و الجوهر، و أخرجن من تحت التاج أطراف شعره على جبهته، و رددن ذوائبه على صدره، و جعلن جبهته مكشوفة، و التاج محيط بها، و فى أذنيه قرطى جوهر، و من خلف طوق القباء شعر مسبل بين كتفيه منظوم مشبك بالذهب و الجوهر، و فى عنقه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۵۰

طوق منظوم بذهب مشدّد بجوهر أحمر و درّ فاخر، و فى وسطه منطقة ذهب فيها لوالب جوهر ملوّن، و لها معاليق منظومة، و ألبسنه خفين أبيضين منقوشين بأخضر على نقوش ذهب، و جعلن للقباء الذى عليه و شاحين و إفراور يحيط بأسفله و كميه من جوهر أخضر، و عقرين صدغيه على خديه، و كحلن عينيه، و دفعن إليه مذبة شعرها أخضر.

فلما فرغ النساء من طعامهنّ، و شربن أقداحا قدّمت إليهنّ سكاكين قبضهنّ من جوهر ليقطعن بها الفاكهة، فيقال: إنهنّ أخذن أترجا، و هنّ يقطعنه إذ قالت لهنّ: قد بلغنى حديثكنّ فى أمرى مع عبدى، فقلن لها: الأمر كما بلغك لأنك أعلى قدرا من هذا، و مثلك يرتفع عن أولاد الملوك لحسنك و شرفك، فكيف ترضين بغلامك؟ فقالت: لم يبلغكنّ الصدق، و لا هو عندى بهذا، و أو مأت إلى المواشط أن يخرجن يوسف، فرفعن الستور عن المجلس الذى يحاذى مجلسها، و برز منه يوسف محاذيا بوجهه الشمس، فأشرق المجلس، و ما فيه من وجه يوسف، و أقبل بالمذبة، و هنّ يرمقنه.

فوقف على رأس زليخا يذب عنها، فاشتغل النساء برؤيته، و جعلن يقطعن أيديهنّ موضع الفاكهة التى كانت معهنّ، و لا يعين الكلام ذهولا منهنّ بما رأين من حسن يوسف! فقالت لهنّ زليخا ما لكنّ قد اشتغلتن عن خطابى بالنظر إلى عبدى؟ فقلن: معاذ اللّه ما هذا عبدك؟ إن هذا إلّا ملك كريم، و لم يبق منهنّ امرأة إلا حاضت، و أنزلت شهوة من محبته ، فقالت زليخا عند ذلك: فهذا الذى لمتنى فيه، فقلن: ما ينبغى لأحد أن يلومك فى هذا، و من لامك فقد ظلمك فدونكه، قالت: قد فعلت، فأبى علىّ، فخاطبنه لى.

فكانت كل واحدة منهنّ تخاطبه و تدعوه سرّا إلى نفسها، و تبتذل له، و هو يمتنع عليها فإذا يئست منه أن يجيبها لنفسها خاطبته من جهة زليخا، و قالت: مولاتك تحبك و أنت تكرهها، ما ينبغى أن تخالفها، فقال: ما لى بذلك حاجة، فلما رأين ذلك أجمعن على أخذه غصبا، فقالت زليخا: لا يجوز هذا لكنه إن لم يفعل لأمنعنه اللذات و لأسجننه و أنتزع جميع ما أعطيته، فقال يوسف: رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه، فأقسمت بإلهها و كان صنما من زبرجد أخضر باسم عطارد إنه إن لم يفعل لتعجلن له ذلك.

ثم أمرت بنزع ثيابه، و ألبسته الصوف، و سألت العزيز حبسه ليزول ما قذفها به، فأمر به فحبس، و رأى الملك فى منامه كأن آتيا أتاه، فقال له: إن فلانا و فلانا قد عزما على قتلك يريد صاحبى طعامه و شرابه، فلما أصبح قرّرهما فاعترفا له، و قيل: اعترف أحدهما، و أنكر الآخر فأمر بحبسهما، و كان اسم صاحب الطعم راسان، و اسم صاحب الشراب مرطس،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۵۱

و كان يوسف عليه السلام و هو فى السجن رؤوفا بمن فيه، و يعدهم الفرج، فأخبره صاحبا طعام الملك و شرابه برؤياهما التى قصها اللّه فى كتابه، فوقع كما قصه يوسف، و رأى الملك البقرات و السنابل، فعرّفه الساقى خبر يوسف، فمضى إليه، و قصها عليه.

فلما عاد إلى الملك قال: جيئونى به، فقال يوسف: ما أخرج أو يكشف أمر النسوة اللاتى من أجلهنّ حبست، فكشف عن ذلك، فاعترفت زليخا بالقصة، و وجه إليه، فأخرج و غسل من درن السجن، و ألبس ما يليق بالدخول على الملوك، فلما رآه امتلأ قلبه من حبه و إكباره، و سأله عن الرؤيا ففسرها كما قال اللّه تعالى. فقال الملك: و من يقوم لى بذلك؟

قال: أنا، فخلع عليه خلع الملوك، و ألبسه تاجا و أمر أن يطاف به و ركب الجيش معه، و تردد إلى قصر الملك، و جلس على سرير العزيز، و استخلفه الملك على ملكه مكانه.

و يقال: إنّ العزيز إطفين، كان قد مات، فزوّجه امرأته، و قال لها يوسف: هذا أصلح مما أردت، فقالت: اعذرنى إنّ زوجى كان عنينا، و لم تركّ امرأة إلّا صبا قلبها إليك من حسنك، و جاءت سنّو خصب فى مصر، فجمع يوسف الغلال، و خزنها و أكثر منها، فلما جاءت سنّو الجدب بدأ النيل فى النقصان، و كان ينقص كل سنة أكثر من التى قبلها، فقحط البلد حتى بيع القمح بالمال و الجوهر و الدواب و الثياب و الآنية و العقار، و كاد أهل مصر يرحلون عنها لو لا تدبير يوسف، و قحط الشام أيضا، و كان من مجيء إخوة يوسف ما قصه اللّه تعالى، و وجه إلى أبيه، فحمل إلى مصر و جميع أهله، و خرج فى وجوه أهل مصر، فتلقاه و أدخله على الملك، و كان يعقوب مهابا، فأعظمه الملك، و سأله عن سنه و صناعته و عبادته فقال: سنى عشرون و مائة سنة، و أما صناعتى فلنا غنم ترعى ننتفع بها، و أعبد رب العالمين الذى خلقك و خلقنى، و هو إله آبائى و إلهك و إله كل شيء.

و كان فى مجلس الملك، كاهن جليل القدر، فقال للملك: إنى أخاف أن يكون خراب مصر على يد ولد هذا، فقال له الملك: فأنّى لنا خبره، فقال الكاهن ليعقوب: أرنى إلهك أيها الشيخ، قال: إلهى أعظم من أن يرى، قال: فإنا نرى آلهتنا، قال: إن آلهتكم من ذهب و فضة و حجارة و جوهر و نحاس و خشب، مما يعمله بنو آدم، و هم عبيد، إلهى لا إله إلّا هو العزيز الحكيم، قال الكاهن: إنّ كل شيء لا تراه العيون ليس بشيء، فغضب يعقوب و كذبه، و قال: إنّ اللّه شيء لا كالأشياء و هو خالق كل شيء لا إله إلا هو، قال: فصفه لنا، قال: إنما يوصف المخلوق لكنه خالق واحد قديم مدبر أزليّ يرى و لا يرى، و قام يعقوب مغضبا، فأجلسه الملك و أمر الكاهن، فكف عنه، فقال الكاهن: إنا نجد فى كتبنا أنّ خراب مصر يجرى على أيدى هؤلاء؟ فقال الملك: هذا يكون فى أيامنا؟ قال: لا، و لا إلى مدّة كثيرة، و الصواب: أن يقتله الملك و لا يبقى من ذريته أحدا، فقال الملك: إن كان الأمر كما تقول، فلا يمكننا أن ندفعه، و لا نقدر على قتل هؤلاء، و أنزل يعقوب و من معه بوادى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۵۲

السدير إلى أن مات، فحمل إلى قرية إبراهيم عليه السلام و دفن عنده.

و يقال: إنّ نهراوش الملك آمن، و كتم إيمانه خوفا من فساد أمره، و أقام ملكا مائة و عشرين سنة.

و فى وقته عمل يوسف الفيوم، فإنّ أهل مصر كانوا وشوا به إلى الملك، و قالوا: قد كبر و نقص نفعه، فاختبره فقال له: إنى وهبت هذه الناحية لابنتى، و كانت مغايض للماء، فدبرها لها، فعملها يوسف، و احتال للمياه حتى أخرجها، و قلع أو حالها و ساق المنهى، و بنى اللاهون، و جعل الماء فيها مقسوما موزونا، و فرغ منها فى شهور أربعة، فعجبوا من حكمته.

و يقال: إنه أول من هندس بمصر، و مات نهراوش: فخلف ابنه در مجوش و سمته أهل الأثر: دارم بن الريان، و هو الفرعون الرابع عندهم، فحالف سنة أبيه، و كان يوسف خليفته، فقبل منه بعضا و خالفه فى البعض، فمات يوسف فى أيامه، و له مائة و عشرون سنة، فكفن و جعل فى تابوت من رخام، و دفن فى الجانب الغربيّ، فأخصب و نقص الشرقيّ، فحوّل إليه، فأخصب و نقص الغربيّ، فاتفقوا على أن يجعلوه فى الشرقيّ عاما و فى الغربيّ عاما، ثم حدث لهم من الرأى أن يجعلوا له حلقا وثاقا، و يشدّوا التابوت فى وسط النيل، فأخصب الجانبان كلاهما.

و قال ابن عبد الحكم: فملكهم الريان بن الوليد بن دومع، و هو صاحب يوسف النبيّ صلى اللّه عليه و سلم، فلما رأى الملك رؤياه التى رأى، و عبره يوسف أرسل إليه الملك، فأخرجه من السجن.

قال ابن عباس رضى اللّه عنهما: فأتاه الرسول، فقال: ألق عنك ثياب السجن، و البس ثيابا جددا، و قم إلى الملك، فدعا له أهل السجن، و هو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما أتاه رأى غلاما حدثا، فقال: أ يعلم هذا رؤياى و لا تعلمها السحرة و الكهنة؟ و أقعده قدّامه، و قال له: لا تخف، قال: فلما استنطقه، و سأله عظم فى عينيه، و جعل إليه أمره فدفع إليه خاتمه، و ولاه ما خلف بابه و ألبسه طوقا من

ذهب و ثياب حرير، و أعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك، و ضرب بالطبل بمصر: إنّ يوسف خليفة الملك.

و عن عكرمة: أن فرعون قال ليوسف: قد سلطنتك على مصر غير أنى أريد أن أجعل كرسيّ أطول من كرسيك بأربع أصابع، قال يوسف: نعم و أجلسه على السرير، و دخل الملك بيته مع نسائه، و فوّض أمر مصر كلها إليه، فبسبب عبارة رؤيا الملك ملك يوسف مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۵۳

و عن الليث بن سعد قال: حدّثنى مشيخة لنا قالوا: اشتدّ الجوع على أهل مصر، فاشتروا الطعام بالذهب حتى لم يجدوا ذهبا، فاشتروا بالفضة، حتى لم يجدوا فضة، فاشتروا بأغنامهم، حتى لم يجدوا غنما، فلم يزل يبيعهم الطعام حتى لم يبق لهم فضة و لا ذهب، و لا شاة و لا بقرة فى تلك السنين، فأتوه فى الثالثة فقالوا: لم يبق لنا إلا أنفسنا، و أهلونا و أرضونا، فاشترى يوسف أرضهم كلها لفرعون، ثم أعطاهم يوسف طعاما يزرعونه على أن لفرعون الخمس.

و يقال فى خبر بناء يوسف عليه السلام: مدينة الفيوم أنه لما وزر لفرعون ثلاثين سنة عزله، فقال: لم عزلتنى؟ فقال: لم أعزلك لريبة، و لا- أنسى بركتك، و لكن آبائى عهدوا إلىّ أن لا يتولى لنا وزير أكثر من ثلاثن سنة، و إنا نخشى أن يتأصل الوزير حتى يدبر على الملك، فقال له يوسف: قد علمت نصحى لك، حتى صيرت ديار مصر كلها ملكا لك، فأقطعنى أرضا تكون لقوتى و قوت أهلى و عشيرتى، فقال له فرعون: اختر حيث شئت، فمشى يوسف فى قفار الأرض حتى رأى أرض الفيوم، و فيها جبل حائل بين النيل و بينها، فوزن ماء النيل حتى رأى أن قاعها يركبه النيل، فحرق خرقا فى ذلك الجبل، و ساق الماء فيه إلى الفيوم، فسقى الأرض، و عمل فى جوانب الماء، ثلثمائة و ستين قرية على عدد أيام السنة، و شحنها بالغلال، و الأقوات التى ازدرعها، فكان إذا نقص النيل، و وقع الجوع بأرض مصر، باع كل يوم، ما جمعه فى قرية من قرى الفيوم، حتى ملك مصر لنفسه، كما جمعها للملك، فعظم شأن يوسف، و كثر ماله، فردّه الملك بعد مدّة إلى وزارته، و توفى و هو وزير، فأوصى بخروج جثته إلى الأرض المقدّسة، فخرج بها هارون بن إفراييم بن يوسف فى مائة ألف من بنى إسرائيل، فهزمته الجبابرة فيما بين مصر و الشام، و هلك أكثر من معه، و عاد بمن بقى معه إلى مصر، فأقاموا بها، حتى بعث اللّه موسى بن عمران عليه السلام إلى فرعون رسولا- فخرج ببنى إسرائيل من مصر، و معه جثة يوسف عليه السلام.

و فى ذلك الزمان استنبطت الفيوم، و قيل: كان سبب ذلك، أنّ يوسف عليه السلام لما ملك مصر، و عظمت منزلته من فرعون، و جاوز سنه مائة سنة، قال وزراء الملك له: إنّ يوسف قلّ عمله، و تغير عقله، و نفدت حكمته، فعنفهم فرعون، و ردّ عليهم مقالتهم و أساء اللفظ لهم، فكفوا، ثم عاودوه بذلك القول بعد سنين، فقال لهم: هلموا ما شئتم من أىّ شىء أختبره به.

و كان بلد الفيوم يومئذ يدعى الجوبة، و إنما كانت لمصالة ماء الصعيد، و فضوله فاجتمع رأيهم على أن تكون هى المحنة التى يمتحنون بها يوسف، فقالوا لفرعون: سل يوسف أن يصرف ماء الجوبة عنها، و يخرجه منها، فتزداد بلدا إلى بلدك و خراجا إلى خراجك، فدعا يوسف فقال: تعلم مكان ابنتى فلانة منى و قد رأيت إذا بلغت أن أطلب لها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۵۴

بلدا، و إنى لم أصب لها إلا الجوبة، و ذلك إنه بلد بعيد قريب لا يرى بوجه من الوجوه إلا من غابة أو صحراء، و كذلك ليست هى تؤتى من ناحية من النواحى من مصر إلا من مفازة و صحراء، فالفيوم وسط مصر كمثل مصر فى وسط البلاد، لأنّ مصر لا تؤتى من ناحية من النواحى إلّا من صحراء أو مفازة قال: و قد اقتطعتها إياها، فلا تتركن وجها، و لا نظرا إلا بلغته، فقال يوسف: نعم أيها الملك، متى أردت ذلك فابعث إلىّ، فإنى إن شاء اللّه فاعل ذلك، قال: إنّ أحبه إلىّ و أرفعه، و أعجله، فأوحى إلى يوسف، أن تحفر ثلاثة خلج، خليجا من أعلى الصعيد من موضع كذا إلى موضع كذا، و خليجا شرقيا من موضع كذا إلى موضع كذا، و خليجا غربيا من موضع كذا إلى موضع كذا.

فوضع يوسف العمال، فحفر خليج المنهى من أعلى أشمون إلى اللاهون ، و أمر البنائين أن يحفروا اللاهون، و حفر خليج الفيوم، و هو الخليج الشرقيّ، و حفر خليجا بقرية يقال لها: بنهمت، من قرى الفيوم، و هو الخليج الغربيّ، فخرج ماؤها من الخليج الشرقيّ، فصب فى النيل و خرج من الخليج الغربيّ، فصب فى صحراء بنهمت إلى الغرب، فلم يبق فى الجوبة ماء، ثم أدخلها الفعلة، فقطع ما كان فيها من القصب و الطرفاء، و أخرجه منها، و كان ذلك ابتداء جرى النيل، و قد صارت أرض الجوبة نقية بريئة، و ارتفع ماء النيل، فدخل فى رأس المنهى، فجرى فيه حتى انتهى إلى اللاهون، فقطعه إلى الفيوم، فدخل خليجها فسقاها، فصارت لجة من النيل، و خرج إليها الملك و وزراؤه و كان هذا كله فى سبعين يوما.

فلما نظر إليها الملك قال لوزرائه: أولئك هذا عمل ألف يوم، فسميت: الفيوم، و أقامت تزرع كما تزرع غوائط مصر.

قال: و قد سمعت فى استخراج الفيوم غير هذا، أنّ يوسف عليه السلام ملك مصر، و هو ابن ثلاثين، فأقام يدبرها أربعين سنة، فقال أهل مصر: قد كبر يوسف و اختلف رأيه، فعزلوه و قالوا: اختر لنفسك من الموات أرضا تقطعها لنفسك، و تصلحها و تعمل رأيك فيها، فإن رأينا من رأيك و حسن تدبيرك ما نعلم أنك فى زيادة من عقلك رددناك إلى ملكك، فاعترض البريّة فى نواحى مصر، فاختار موضع الفيوم، فأعطيها فشق إليها خليج المنهى من النيل، حتى أدخله الفيوم كلها، و فرغ من حفر ذلك كله فى سنة.

قال يزيد بن أبى حبيب: و بلغنا أنه إنما عمل ذلك بالوحى و قوى على ذلك بكثرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۵۵

الفعلة و الأعوان، فنظروا، فإذا الذى أحياه يوسف من الفيوم لا يعلمون له بمصر كلها مثلا و لا نظيرا، فقالوا: ما كان يوسف قط أفضل عقلا و لا رأيا و لا تدبيرا منه اليوم، فردّوا إليه الملك، فأقام ستين سنة أخرى تمام مائة سنة، حتى مات، و هو ابن ثلاثين و مائة سنة.

قال: ثم بلغ يوسف قول وزراء الملك، و إنه إنما كان ذلك على المحنة منهم له، فقال للملك: عندى من الحكمة و التدبير غير ما رأيت، فقال له الملك: و ما ذاك؟ قال: أنزل الفيوم من كل كورة من كور مصر أهل بيت، و آمر أهل كل بيت أن يبنوا لأنفسهم قرية، و كانت قرى الفيوم على عدد كور مصر، فإذا فرغوا من بناء قراهم، صيرت لكل قرية من الماء بقدر ما أصير لها من الأرض لا يكون فى ذلك زيادة، و لا نقص، و أصير لكل قرية شربا فى زمان لا ينالهم الماء إلّا فيه، و أصير مطأطئا للمرتفع، و مرتفعا للمطأطىء بأوقات من الساعات فى الليل و النهار، و أصير لها قبضات، فلا يقصر بأحد دون حقه، و لا يزداد فوق قدره، فقال له فرعون: هذا من ملكوت السماء؟ قال: نعم، فبدأ يوسف، فأمر ببنيان القرى و حدّد لها حدودا، و كانت أوّل قرية عمرت بالفيوم قرية يقال لها سانة، و هى القرية التى كانت تنزلها بنت فرعون، ثم أمر بحفر الخليج، و بنيان القناطر، فلما فرغوا من ذلك استقبل وزن الأرض، و وزن الماء، و من يومئذ حدثت الهندسة، و لم يكن الناس يعرفونها قبل ذلك، و كان أوّل من قاس النيل بمصر، يوسف، و وضع مقياسا بمنف.

قال جامعه: و فى التوراة: أن فرعون ألزم بنى إسرائيل البناء، و ضرب اللبن، فبنوا له عدّة مدن محصنة منها فيثوم و عرمسيس. قال الشارح: هى الفيوم، و حوف رمسيس، و فى زمان الريان بن الوليد، دخل يعقوب عليه السلام، و ولده مصر، و هم ثلاثة و سبعون نفسا ما بين رجل و امرأة، فأنزلهم يوسف ما بين عين شمس إلى الفرما، و هى أرض ريفية بريّة، و كان يعقوب لما دنا من مصر أرسل، يهودا إلى يوسف، فخرج إليه يوسف، فلقيه فالتزمه و بكى.

فلما دخل يعقوب على فرعون كلمه، و كان يعقوب شيخا كبيرا حليما حسن الوجه و اللحية جهير الصوت، فقال له فرعون: أيها الشيخ كم أتى عليك؟ قال: عشرون و مائة، و كان بهمن ساحر فرعون قد وصف صفة يعقوب و يوسف و موسى صلوات اللّه عليهم فى كتبه، و أخبر أن خراب مصر، و هلاك أهلها يكون على أيديهم، و وضع البربايات و صفات من تخرب مصر على يديه. فلما رأى يعقوب، قام إلى مجلسه، فكان أول ما سأله عنه أن قال: من تعبد أيها الشيخ؟ قال له يعقوب: أعبد اللّه إله كل شىء، فقال: فكيف تعبد من لا ترى؟ قال يعقوب: إنه أعظم و أجلّ من أن يراه أحد، قال: فنحن نرى آلهتنا؟ قال يعقوب:

إن آلهتكم من عمل أيدى بنى آدم من يموت و يبلى، و إنّ إلهى لأعظم و أرفع، و هو أقرب إلينا من حبل الوريد، فنظر بهمن إلى

فرعون فقال: هذا الذى يكون هلاك بلادنا على يديه؟

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۵۶

قال فرعون: أفى أيامنا أو فى أيام غيرنا؟ قال: ليس فى أيامك و لا أيام بنيك، قال الملك:

فهل تجد هذا فيما قضى به إلهكم؟ قال: نعم، قال: فكيف تقدر أن تقيل من يريد إلهه هلاك قومه على يديه؟ فلا يعبأ بهذا الكلام.

و عن كعب: أنّ يعقوب عاش فى أرض مصر ست عشرة سنة، فلما أحضرته الوفاة قال ليوسف: لا تدفنى بمصر، فإذا مت فاحملونى فادفنونى فى مغارة جبل جيرون، و جيرون مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام، و بينه و بين بيت المقدس، ثمانية عشر ميلا.

قال: فلما مات لطخوه بمرّ و صبر و جعلوه فى تابوت من ساج، فكانوا يفعلون به ذلك أربعين يوما، حتى كلم يوسف فرعون، فأعلمه: أنّ أباه قد مات، و إنه سأله أن يقبره فى أرض كنعان، فأذن له و خرج معه أشراف أهل مصر، حتى دفنه، و انصرف.

و قيل: قبر يعقوب بمصر، فأقام بها نحوا من ثلاث سنين، ثم حمل إلى بيت المقدس، و أوصاهم بذلك عند موته.

قال: ثم مات الريان بن الوليد، فملكهم من بعده ابنه دارم بن الريان، و فى زمانه توفى يوسف عليه السلام، فلما حضرته الوفاة قال: إنكم ستخرجون من أرض مصر إلى أرض آبائكم، فاحملوا عظامى معكم، فمات فجعلوه فى تابوت، و دفنوه فى أحد جانبى النيل، فأخصب الجانب الذى كان فيه، و أجدب الجانب الآخر، فحوّلوه إلى الجانب الآخر، فأخصب الجانب الذى حوّلوه إليه، و أجدب الآخر.

فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه، فجعلوها فى صندوق من حديد، و جعلوا فيه سلسلة، و أقاموا عمودا على شاطىء النيل، و جعلوا فى أصله سكة من حديد، و جعلوا السلسلة فى السكة، و ألقوا الصندوق فى وسط النيل، فأخصب الجانبان جميعا.

و كان سبب حمل عظام يوسف من مصر إلى الشام أنّ سارة ابنة أسر بن يعقوب عمّرت حتى صارت عجوزا كبيرة ذاهبة البصر، فلما سرى موسى عليه السلام ببنى إسرائيل غشيتهم ضبابة، حالت بينهم و بين الطريق أن يبصروه، و قيل لموسى: لن تعبر إلّا و معك عظام يوسف، قال: و من يدرى أين موضعها؟ قالوا: عجوز كبيرة ذاهبة البصر تركناها فى الديار، فرجع موسى، فلما سمعت حسه قالت: ما ردّك؟ قال: أمرت أن أحمل عظام يوسف، قالت: ما كنتم لتعبروا إلا و أنا معكم، قال: دلينى على عظام يوسف، فدلته عليها، فأخذ عظام يوسف معه إلى التيه .

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: خليل الرحمن صلوات اللّه عليهم أحد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۵۷

الأسباط الاثنى عشر ولد بأرض كنعان من بلاد الشام، و رأى الأحد عشر كوكبا، و الشمس و القمر له ساجدين، و عمره سبع عشرة سنة، و كاد إخوته على ذلك، و باعوه من قوم مدنيين، فساروا به إلى مصر، و باعوه لقائد فرعون، فأقام فى منزله اثنى عشر شهرا، ثم راودته امرأة العزيز عن نفسه، فاعتصم، و كذبت عليه، إلى أن حبس، و مكث فى السجن عشر سنين، و قيل غير ذلك، فلم يزل فى السجن إلى أن رأى الساقى و الخباز ذينك المنامين، و فسّر لهما يوسف و خرجا فأنسى الساقى يوسف سنتين إلى أن رأى الملك البقر و السنابل، فذكره، و أتاه فقص عليه الرؤيا و عبرها، فأخرج من السجن، و له حينئذ ثلاثون سنة، فاستوزره الملك، و من ذلك الوقت إلى أن صار يعقوب إلى مصر تسع سنين منها، سبع سنين من سنى الشبع، و سنتان من سنى الجوع، و كان ليعقوب فى السنة التى صار فيها إلى مصر، مائة سنة و ثلاثون سنة، و كان أهل بيته حينئذ سبعين نفسا، و منذ سار إلى مصر إلى أن ولد موسى عليه السلام، مائة و ثلاثون سنة أخرى.

فلما مضى له بمصر، سبع عشرة سنة توفى و عمره مائة و سبع و أربعون سنة، فخاف الأسباط حينئذ مقابلة يوسف إياهم، فقالوا: إنّ أباك أوصى أن تغفر ذنب إخوتك، فإنك و هم عبيد اللّه، إله أبيك، فبكى يوسف، و قال لهم: لا تحتاجون إلى ذلك، و وعدهم بخير تممه لهم، و مات يوسف و له مائة سنة و عشر سنين، و اللّه أعلم.

ذكر ما قيل فى الفيوم و خلجانها و ضياعها

قال اليعقوبىّ: كان يقال، فى متقدّم الأيام مصر و الفيوم لجلالة الفيوم، و كثرة عمارتها، و بها القمح الموصوف، و بها يعمل الخيش.

و حكى المسعودىّ: أنّ معنى الفيوم، ألف يوم.

قال القضاعىّ: الفيوم و هى مدينة دبرها يوسف النبىّ عليه السلام بالوحى، و كانت ثلثمائة و ستين ضيعة، تمير كل ضيعة منها مصر يوما واحدا، فكانت تمير مصر السنة، و كانت تروى من اثنى عشر ذراعا، و لا يستبحر ما زاد على ذلك، فإنّ يوسف عليه السلام اتخذ لهم مجرى و رتبه ليدوم لهم دخول الماء فيه، و قوّمه بالحجارة المنضدة، و بنى به اللّاهون.

و قال ابن رضوان : الفيوم يخزن فيه ماء النيل، و يزرع عليه مرّات فى السنة، حتى إنك ترى هذا الماء إذا خلى يغير لون النيل، و طعمه و أكثر ما تحسن هذه الحالة فى البحيرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۵۸

التى تكون فى أيام القيظ سفط و نهيا، و صاعدا إلى ما يلى الفيوم، و هذه حالة تزيد فى رداءة أهل المدينة يعنى مصر، و لا سيما إذا هبت ريح الجنوب، فإنّ الفيوم فى جنوب مدينة مصر على مسافة بعيدة من أرضها.

و قال القاضى السعيد أبو الحسن علىّ بن القاضى المؤتمن، بقية الدولة أبى عمرو عثمان بن يوسف القرشىّ المخزومىّ فى كتاب المنهاج فى علم الخراج: و هذه الأعمال من أحسن الأشياء تدبيرا و أوسعها أرضا و أجودها قطرا، و إنما غلب على بعضها الخراب لخلوّها من أهلها، و استيلاء الرمل على كثير من أرضها، و قد وقفت على دستور عمله أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر بن الحسن بن إسحاق لذكر خلجان الأعمال المدثورة، و ما عليها من الضياع، و قد أوردته ههنا، و إن كان منه ما قد دثر، و منه ما تغيرت أسماؤه، و منه ما جهلت مواضعه بالدثور، و لكن أوردته ليعلم منه حال العامر الآن، و يستقصى به من له رغبة فى عمارة ما يقذر عليه من الغامر، و فى إيراده مصلحة ليعلم شرب كل موضع و نسخته.

دستور: على ما أوضحه الكشف من حال الخلج الأمّهات بمدينة الفيوم، و ما لها من المواضع و شرب كل ضيعة منها، و رسمها فى السدّ و الفتح و التعديل و التحرير، و زمان ذلك عمل فى جمادى الآخرة سنة اثنتين و عشرين و أربعمائة، تبتدىء بعون اللّه و حسن توفيقه بذكر حال البحر الأعظم الذى منه هذه الخلج، فنذكر مادّته التى صلاحه بصلاحها.

خليج الفيوم الأعظم: يصل الماء إلى هذا الخليج من البحر الصغير المعروف بالنهى ذى الحجر اليوسفىّ، و فوقه هذا البحر عند الجبل المعروف: بكرسىّ الساحرة من أعمال الأشمونين، و منه شرب بعض الضياع الأشمونية، و القيسية، و الأهناسية و على جانبيه ضياع كثيرة شربها منه، و شرب كروم ما له كروم منها.

قال الحجر اليوسفىّ: و الحجر اليوسفىّ جدار مبنىّ بالطوب، و الجير المعروف عند المتقدّمين بالصاروج، و هو الجير و الزيت، و بناؤه من جهة الشمال إلى الجنوب، و يتصل من نهايته من الجنوب بجدار بناؤه مثل بنائه على استقامة من الغرب إلى الشرق، و يحصره ميلان منه فى نهايته، و طوله مائتا ذراع بذراع العمل، و يتصل بهذا الجدار على طول ثمانين ذراعا منه من جهة الغرب نهاية الجدار الأعظم من الجنوب.

و فائدة بناء الجدار الأعظم ردّ الماء إذا انتهى إلى حدود اثنتى عشرة ذراعا إلى مدينة الفيوم، و طول ما يتصل منه الجدار الذى من جهة الغرب إلى الشرق، ثم يتصل بالميل، ثم ينخفض من حدود هذا الميل إلى ميل مثله يقابله من جهة الشمال خمسون ذراعا، و بعد ما بين هذين الميلين، و هو المنخفض مائة ذراع و عشرة أذرع، و مقدار المنخفض منه، أربعة أذرع، و هذا المنخفض هو الذى يسدّ بجسر من حشيش يسمى لبشا، و عرض ما يجرى عليه الماء، و هو موضع اللبش و ما قابله إلى جهة الشرق، أربعون ذراعا، و عليه مسك اللبش

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۵۹

الثانى، و يتصل بهذا الميل إلى جهة الشمال، ما طوله ثلثمائة و اثنان و سبعون ذراعا، ثم يتصل به على نهاية هذا الطول، جدار يمرّ على استقامته إلى الحجر مبنىّ بالحجر طوله على استقامته إلى جهة الشرق، مائة ذراع، ثم ينخفض أيضا من حيث يتصل بهذا الجدار ما طوله، عشرون ذراعا، و قدر المنخفض منه ذراعان.

و هذا المنخفض أيضا يسدّ بجسر حشيش يسمى: اللكبد، و طول بقية الجدار إلى نهايته من جهة الشمال، مائة و ستة و ثلاثون ذراعا، و قبالة هذا بطوله منه مبلط، و فيه قناطر مبنية بالحجر كانت قديما تردّ الماء إلى اليوم من الخليج القديم الذى عنده السدود اليوم، و كان عليها أبواب، و عدّتها عشر قناطر قديمة، فيكون جميع ذرع الجدار الأعظم من نهايته، سبعمائة و اثنين و سبعين ذراعا بذراع العمل دون الجدار المعترض من الغرب إلى الشرق، و يمرّ هذا الجدار الأعظم من كلتا جهتيه جميعا، حتى يتصل بالجبل، فتوجد آثاره فى القيظ مرورا على غير استقامة، و عرضه مختلف، و كلما انتهى إلى سطحه، قلّ عرضه، و عرض أعلاه مع الظاهر من أسفله جميعا ستة عشر ذراعا، و فيه منافس يخرج منه الماء، و هى برابخ زجاج ملوّثة بشبه المينا و أزرق و سليمانىّ.

و هو من العجائب الحسنة فى عظم البناء و إتقانه، لأنه من الأبنية اللاحقة بمنارة الإسكندرية، و بناء الأهرام، فمن معجزته أن النيل يمرّ عليه من عهد يوسف عليه السلام إلى هذه الغاية، و ما تغير عن مستقرّه، و يدخل الماء من هذا البحر فى هذا الزمان إلى مدينة الفيوم من خليجها الأعظم ما بين أرض الضيعتين المعروفتين، بدمونة و اللاهون، و منه شرب هاتين الضيعتين و غيرهما سيحا، و منه شرب كرومها بالدواليب على أعناق البقر، و إن قصر النيل عن الصعود إلى سوادها، سقيت منه على أعناق البقر و زرعت، و ينتهى فى الخليج الأعظم إلى خليج يعرف بخليج الأواسى، و ليس عليه رسم فى سدّ و لا فتح و لا تعديل، و ينتهى إلى الضيعة المعروفة ببياض، فيملأ بركها و غيرها من البرك، و للبرك مقاسم يصل إلى كل مقسم منها لغايته، و مقدار شرب ما عليه، و ينتهى إلى الضيعة المعروفة بالأوسية الكبرى ، فمنه شربها من مقسمين لها، و برسمها باب، و منه يشرب نخلها و شجرها، و على هذا الحدّ طاحونة تعمل بالماء.

ثم ينتهى إلى ثلاثة مقاسم آخرها الضيعة المعروفة بمرطينة منها مقسم لها، و مقسم لقبالات عدّة، و المقسم الثالث يسقى أحد أحياء النخل، و بهذا الحىّ أسواق و بساتين قد خربت، و جميز دائر به، و كان بها بيوت فى أقنية النخل، ثم ينتهى إلى حىّ ثان على ضفة الأوّل، ثم ينتهى إلى الضيعة المعروفة بالجوبة، فيملأ بركها و ينتهى إلى ثلاثة مقاسم فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۶۰

صف، و فوقها خليج معطل و يشرب من هذه المقاسم عدّة ضياع، ثم ينتهى الماء من هذا الخليج إلى البطس، و هو نهايته، و على الخليج الأعظم بعد هذا أباليز شربها منه من أفواه لها سيحا، فإذا نضب ماء النيل، نصب على أفواهها برسم صيد السمك شباك.

ثم ينتهى الخليج الأعظم على يمنة من يريد الفيوم إلى خليج يعرف: بخليج

سمسطوس . منه شرب سمسطوس و غيرها، و أباليز كثيرة تجاوز الصحراء من المشرق منه، و من قبليه، و هى ما بين هذا الخليج، و خليج الأواسى.

ثم ينتهى الخليج الأعظم أيضا إلى:

خليج ذهالة. و منه شرب عدّة ضياع و عليه يزرع الأرز و غيره.

ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى ثلاث خلج ثم ينتهى إلى

خليج بينطاوة. و بهذا الخليج ثلاثة أبواب قديمة يوسفية سعة كل باب منها، ذراعان بذراع العمل، و يمرّ فيه الماء، و ينتهى أيضا إلى بابين يوسفيين، و رسم هذا الخليج أن يسدّ هو و سائر المطاطية على استقبال عشر تخلو من هاتور إلى سلخه، و يفتح على استقبال كهيك إلى عشر تبقى منه، ثم يسدّ إلى عشر تخلو من طوبة، ثم يفتح ليلة الغيطاس إلى سلخ طوبة، ثم يسدّ على استقبال أمشير إلى عشرة تبقى منه، ثم يفتح لعشر تبقى منه إلى عشر تخلو من برمهات، ثم يفتح إلى عشر تخلو من برمودة، ثم يعدل فى موضعه، و قد

خرب ما على بحريه من الضياع، و يشرب منه عدّة ضياع، و لهذا الخليج مغيض معمول تحت الجبل بقبو يخرج منه الماء فى زمان تكاثره.

ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى:

خليج دله. و هو من المطاطية، و حكمه فى السدّ، و الفتح، و التعديل، و التحسين كما تقدّم، و هو على يسرة من يريد المدينة، و له بابان يوسفيان مبنيان بالحجر سعة كل منهما ذراعان و ربع، و منه شرب عدّة ضياع أمّهات و غيرها، و فى وسطه مفيض لزمان الاستبحار، يفتح فيفيض الماء إلى البركة العظمى، و فى أقصى هذه البركة أيضا مفيض له أبواب يقال: إنها كانت من حديد فإذا زادت فتحت الأبواب، فيمضى الماء إلى الغرب، و قيل: إنه يمرّ إلى سنتريه، و كان على هذين الخليجين بساتين و كروم كثيرة تشرب على أعناق البقر.

و ينتهى الخليج الأعظم إلى

خليج المجنونة. سمى بذلك لعظم ما يصير إليه من الماء، و حكمه فى السدّ، و غيره على ما ذكر، و منه شرب ضياع كثيرة، و به تدار طواحين و إليه تصير مصالات مياه الضياع القبلية، و إلى بركة فى أقصى مدينة الفيوم تجاور الجبل المعروف بأبى قطران، و يلقى ما ينصب من مصالات الضياع البحرية فيها، و هى البركة العظمى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۶۱

ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى:

خليج تلاله. و له بابان يوسفيان متينان مبنيان بالحجر سعة كل منهما ذراعان و ثلثا ذراع، و ليس فيه رسم سدّ، و لا فتح و لا تعديل، و لا تحيز إلا فى تقصير النيل، فإنه يحيز بحشيش، و منه شرب طوائف المدينة، و عدّة أراض و ضياع، و فيه فوهة خليج البطش الذى إليه مفاضل المياه، و فيه أبواب تسدّ حتى يصعد الماء إلى أراض مرتفعة بقدر معلوم، و إذا حدث بالسدّ حدث يفسده، كانت النفقة عليه من الضياع التى تشرب منه بقدر استحقاقها.

ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى خلجان من جانبيه فى قبليه و بحريه ثم ينتهى إلى:

خليج سموه. و هو على يمنة من يريد مدينة الفيوم، و هو من المطأطئة، و له بابان يوسفيان سعة كل منهما ذراعان و نصف، و حكمه حكم ما تقدّم، و منه شرب طوائف كثيرة، و عدّة ضياع، و ينتهى إلى أربعة مقاسم بأبواب، و إلى خلجان تسقى ضياعا كثيرة فيها.

خليج تبدود: فيه عين حلوة فإذا سدّ هذا الخليج سقى منها أراضى ما جاورها، و ظهرت هذه العين لما عدم الماء، و حفر هذا الموضع ليعمل بئرا، فظهرت منه هذه العين، فاكتفى بها، ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى خلجان بها شاذروانات، و مقاسم قديمة يوسفية، و بها أبواب يوسفية، بها رسوم فى السدّ، و الفتح يشرب منها ضياع كثيرة، و رسم الترع أن يسدّ جميعها على استقبال عشرة أيام تخلو من هاتور إلى سلخه، و تفتح على استقبال كيهك مدّة عشرين يوما، و تسدّ لعشر تبقى منه إلى الغطاس، و تفتح يوم الغطاس إلى سلخ طوبة، و تسدّ على استقبال أمشير عشرين يوما، ثم تفتح لعشر تبقى منه إلى عشرين من برمهات، و تفتح عشرة أيام تخلو من برمودة، ثم تعدّل فيهتم بعمارتها، و لهم فى التعديل قسم تعطى منه كل ناحية شربها بالعدل بقوانين معروفة عندهم، و قد اختصرت أسماء الضياع التى ذكرها لخراب أكثرها الآن، و اللّه أعلم.

ذكر فتح الفيوم و مبلغ خراجها و ما فيها من المرافق

قال ابن عبد الحكم: فلما تمّ الفتح للمسلمين بعث عمرو بن العاص جرائد الخيل إلى القرى التى حولها، فأقامت الفيوم سنة لا يعلم المسلمون بمكانها، حتى أتاهم رجل، فذكرها لهم، فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفىّ فلما سلكوا فى المجابة لم يروا شيئا، فهمّوا بالانصراف، فقالوا: لا تعجلوا سيروا فإن كان قد كذب، فما أقدركم على ما أردتم، فلم يسيروا إلا قليلا، حتى طلع لهم

سواد الفيوم، فهجموا عليها، فلم يكن عندهم قتال، و ألقوا بأيديهم.

قال: و يقال: بل خرج مالك بن ناعمة الصدفيّ، و هو صاحب الأشقر على فرسه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۶۲

ينفض المجابة، و لا علم له بما خلفها من الفيوم، فلما رأى سوادها رجع إلى عمرو، فأخبره بذلك.

قال: و يقال بل بعث عمرو بن العاص، قيس بن الحارث إلى الصعيد، فسار حتى أتى القيس، فنزل بها، و به سميت القيس، فراث على عمرو خبره، فقال ربيعة بن حبيش:

كفيت، فركب فرسه، فأجاز عليه البحر، و كانت أنثى فأتاه بالخبر، و يقال: إنه أجاز من ناحية الشرقية حتى انتهى إلى الفيوم و كان يقال لفرسه: الأعمى، و اللّه أعلم.

و قال ابن الكنديّ فى كتاب فضائل مصر: و منها كورة الفيوم، و هى ثلثمائة و ستون قرية دبرت على عدد أيام السنة لا تنقص عن الريّ، فإن قصر النيل فى سنة من السنين مار بلد مصر، كل يوم قرية، و ليس فى الدنيا ما بنى بالوحى غير هذه الكورة، و لا بالدنيا بلد أنفس منه، و لا أخصب، و لا أكثر خيرا، و لا أغزر أنهارا، و لو قايسنا بأنهار الفيوم، أنهار البصرة و دمشق، لكان لنا بذلك الفضل، و لقد عدّ جماعة من أهل العقل و المعرفة مرافق الفيوم و خيرها، فإذا هى لا تحصى، فتركوا ذلك، و عدّوا ما فيها من المباح مما ليس عليه ملك لأحد من مسلم، و لا معاهد يستعين به القويّ و الضعيف، فإذا هو فوق السبعين صنفا.

و قال ابن زولاق فى كتاب الدلائل على أمراء مصر للكنديّ: و عقدت لكافور الإخشيديّ، الفيوم فى هذه السنة يعنى سنة ست و خمسين و ثلثمائة، ستمائة ألف دينار و نيفا و عشرين ألف دينار.

و قال القاضى الفاضل: فى كتاب متجدّدات الحوادث، و من خطه نقلت، أنّ الفيوم بلغت فى سنة خمس و ثمانين و خمسمائة، مبلغ مائة ألف و اثنين و خمسين ألف دينار، و سبعمائة و ثلاثة دنانير.

و قال البكريّ: و الفيوم معروف هنالك يغلّ فى كل يوم ألفى مثقال ذهبا.

مدينة النحريرية

كانت أرضا مقطعة لعشرة من أجناد الحلقة من جملتهم، شمس الدين سنقرّ السعديّ، فأخذ قطعة من أراضى زراعتها، و جعلها اصطبلا لدوابه و خيله، فشكاه شركاؤه إلى السلطان الملك المنصور قلاون، فسأله عن ذلك فقال: أريد أن أجعله جامعا تقام فيه الخطبة، فأذن له السلطان فى ذلك فابتدأ عمارته فى أخريات سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، حتى كمل فى سنة خمس و ثمانين، فعمل له السلطان منبرا، و أقيمت به الجمعة، و استمرّت إلى يومنا هذا.

و أنشأ السعديّ حوانيت حول الجامع، فلم تزل بيده حتى مات، و ورثها ابناه:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۶۳

عز الدين خليل، و ركن الدين، عمر، فباعاها بعد مدّة للأمير: شيخو العمريّ، فجعلها مما وقفه على الخانكاه و الجامع اللذين أنشأهما بخط صليبة جامع ابن طولون خارج القاهرة، فعمرت هذه الأرض بعمارة الجامع، و سكنها الناس، فصارت مدينة من مدائن أراضى مصر بحيث بلغت أنوال القزازين فيها ، و ترقى سنقر السعديّ فى الخدم حتى صار من الأمراء، و ولى نقيب المماليك السلطانية، و أنشأ المدرسة السعدية خارج القاهرة قريبا من حدرة البقر، فيما بين قلعة الجبل، و بركة الفيل فى سنة خمس عشرة و سبعمائة، و بنى أيضا رباطا للنساء، و كان شديد الرغبة فى العمائر محبا للزراعة كثير المال ظاهر الغنى، ثم إنه أخرج إلى طرابلس، و بها مات سنة ثمان و عشرين و سبعمائة.

تم الجزء الأوّل، و يليه الجزء الثانى و أوله: «ذكر تاريخ الخليقة»

الجزء الثانى

ذكر تاريخ الخليقة

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم اعلم: أنه لما كانت الحوادث لا بدّ من ضبطها، و كان لا يضبط ما بين العصور، و بين أزمنة الحوادث إلّا بالتاريخ المستعمل العام الذى لا ينكره الجماعة أو أكثرها، و ذلك أنّ التاريخ المجمع عليه، لا يكون إلّا من حادث عظيم يملأ ذكره الأسماع، و كانت زيادة ماء النيل، و نقصانه، إنما يعتبرهما أهل مصر، و يحسبون أيامهما بأشهر القبط، و كذلك خراج أراضى مصر إنما يحسبون أوقاته بذلك، و هكذا زراعات الأراضى، إنما يعتمدون فى أوقاتها أيام الأشهر القبطية عادة، و سلكوا فيها سبيل أسلافهم، و اقتفوا مناهج قدمائهم، و ما برح الناس من قديم الدهر أسراء العوائد.

احتيج فى هذا الكتاب إلى إيراد جملة من تاريخ الخليقة لتعيين موقع تاريخ القبط منها، فإنّ بذكر ذلك يتمّ الغرض. فأقول: التاريخ عبارة عن يوم، ينسب إليه ما يأتى بعده، و يقال أيضا: التاريخ عبارة عن مدّة معلومة تعدّ من أوّل زمن مفروض لتعرف بها الأوقات المحدودة، و لا غنى عن التاريخ فى جميع الأحوال الدنيوية، و الأمور الدينية، و لكل أمّة من أمم البشر تاريخ تحتاج إليه فى معاملاتها، و فى معرفة أزمنتها تنفرد به دون غيرها من بقية الأمم.

و أوّل الأوائل القديمة و أشهرها هو، كون مبدأ البشر، و لأهل الكتاب من اليهود و النصارى و المجوس فى كيفيته، و سياقة التاريخ منه خلاف لا يجوز مثله فى التواريخ، و كلّ ما تتعلق معرفته ببدء الخلق، و أحوال القرون السالفة، فإنه مختلط بتزويرات و أساطير لبعد العهد، و عجز المعتنى به عن حفظه، و قد قال اللّه سبحانه و تعالى: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ [إبراهيم/ ۹]. فالأولى أن لا يقبل من ذلك إلا ما يشهد به كتاب أنزل من عند اللّه يعتمد على صحته لم يرد فيه نسخ، و لا طرقه تبديل، أو خبر ينقله الثقات، و إذا نظرنا فى التاريخ وجدنا فيه بين الأمم خلافا كثيرا، و سأتلو عليك من ذلك ما لا أظنك تجده مجموعا فى كتاب، و أقدّم بين يدى هذا القول ما قيل فى مدّة بقاء الدنيا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴

ذكر ما قيل فى مدّة أيام الدنيا ماضيها و باقيها

اعلم: أنّ الناس قد اختلفوا قديما و حديثا فى هذه المسألة، فقال قوم من القدماء الأول: بالأكوار و الأدوار و هم الدهرية، و هؤلاء هم القائلون بعود العوالم كلها على ما كانت عليه بعد ألوف من السنين معدودة، و هم فى ذلك غالطون من جهة طول أدوار النجوم، و ذلك أنهم وجدوا قوما من الهند و الفرس قد عملوا أدوارا للنجوم ليصححوا بها فى كل وقت مواضع الكواكب فظنوا أنّ العدد المشترك لجميعها هو عدد سنى العالم أو أيام العالم، و إنه كلما مضى ذلك العدد عادت الأشياء إلى حالها الأوّل.

و قد وقع فى هذا الظنّ ناس كثير مثل، أبى معشر و غيره، و تبع هؤلاء خلق و أنت تقف على فساد هذا الظن إن كنت تخبر من العدد شيئا ما، و ذلك أنك إذا طلبت عددا مشتركا بعده أعداد معلومة، فإنك تقدر أن تضع لكل زيج أياما معلومة كالذى وضعه الهند و الفرس، فهؤلاء حيث جهلوا صورة الحال فى هذه الأدوار، ظنوا أنها عدد أيام العالم، فتفطن ترشد.

و عند هؤلاء أنّ الدور هو أخذ الكواكب من نقطة و هى سائر حتى تعود إلى تلك النقطة، و أن الكور هو استئناف الكواكب فى أدوارها سيرا آخر إلى أن تعود إلى مواضعها مرّة بعد أخرى.

و زعم أهل هذه المقالة، أنّ الأدوار منحصرة فى أنواع خمسة:

الأوّل: أدوار الكواكب السيارة فى أفلاك تداويرها.

الثانى: أدوار مراكز أفلاك التدوير فى أفلاكها الحاملة.

الثالث: أدوار أفلاكها الحالة فى فلك البروج.

الرابع: أدوار الكواكب الثابتة فى فلك البروج.

الخامس: أدوار الفلك المحيط بالكل حول الأركان الأربعة، و هذه الأدوار المذكورة، منها ما يكون فى كل زمان طويل مرّة واحدة، و منها ما يكون فى كل زمان قصير مرّة واحدة، فأقصر هذه الأدوار، أدوار الفلك المحيط بالكل حول الأركان الأربعة فإنه يدور فى كل أربع و عشرين ساعة، دورة واحدة، و باقى الأدوار يكون فى أزمنة أخر أطول من هذه لا حاجة بنا فى هذه المسألة إلى ذكرها.

قالوا: و أدوار الكواكب الثابتة فى فلك البروج تكون فى كلّ ستّة و ثلاثين ألف سنة شمسية مرّة واحدة، و حينئذ تنتقل أوجات الكواكب، و جوز هراتها إلى مواضع حضيضها، و نوبهراتها و بالعكس، فيوجب ذلك عندهم، عود العوالم كلها إلى ما كانت عليه من الأحوال فى الزمان و المكان و الأشخاص و الأوضاع، بحيث لا يتخالف ذرة واحدة، و هم مع ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵

مختلفون فى كمية ما مضى من أيام العالم، و ما بقى.

فقال البراهمة من الهند فى ذلك قولا غريبا، و هو ما حكاه عنهم الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب القانون المسعودىّ: إنهم يسمون الطبيعة باسم ملك يقال له: إبراهيم، و يزعمون أنه محدث محصور الموت بين مبدأ و انتهاء عمره كعمرها مائة سنة برهموية، كل سنة منها ثلثمائة و ستون يوما زمان النهار، منها بقدر مدّة دوران الأفلاك، و الكواكب لإثارة الكون و الفساد، و هذه المدّة بقدر ما بين كل اجتماعين للكواكب السبعة فى أوّل برج الحمل بأوجاتها، و جوز هراتها، و مقدارها: أربعة آلاف ألف سنة، و ثلثمائة ألف ألف سنة و عشرون ألف ألف سنة شمسية، و هو زمان اثنى عشر ألف دورة للكواكب الثابتة على أنّ زمان الدورة الواحدة، ثلثمائة ألف سنة و ستون ألف سنة شمسية، و اسم هذا النهار بلغتهم الكلية، و زمان الليل عندهم كزمان النهار، و فى الليل تسكن المتحرّكات، و تستريح الطبيعة من إثارة الكون و الفساد، ثم يثور فى مبدأ اليوم الثانى بالحركة و التكوّن، فيكون زمان اليوم بليلته من سنى الناس، ثمانية آلاف ألف سنة و ستمائة ألف ألف سنة و أربعين ألف ألف سنة، فإذا ضربنا ذلك فى ثلثمائة و ستين تبلغ سنو أيام السنة البرهموية، ثلاثة آلاف ألف ألف ألف سنة، و عشرة آلاف ألف ألف سنة، و أربعمائة ألف ألف سنة شمسية، فإذا ضربناها فى مائة يبلغ عمر الملك الطبيعىّ البرهموىّ من سنى الناس، ثلثمائة ألف ألف ألف ألف سنة، و أحد عشر ألف ألف ألف سنة و أربعين ألف ألف سنة شمسية، فإذا تمت هذه السنون بطل العالم عن الحركة، و التكوين ما شاء اللّه، ثم يستأنف من جديد على الوضع المذكور.

و قسموا زمان النهار المذكور إلى تسع و عشرين قطعة، سموا كل أربع عشرة قطعة منها نوبا، و سموا الخمس عشرة قطعة الباقية فصولا، و جعلوا كل نوبة محصورة بين فصلين، و كل فصل محصورا بين نوبتين، و قدّموا زمان الفصل على النوبة إلى تمام المدّة، و زمان الفصل هو خمسا الدور و الدور جزء من ألف جزء من المدّة، فإذا قسمنا المدّة على ألف تحصل زمان الدور، أربعة آلاف ألف سنة، و ثمانية و عشرون ألف سنة، و زمان النوبة عندهم أحد و سبعون دورا مقدارها من السنين ثلثمائة ألف ألف سنة، و ستة آلاف ألف سنة و سبعمائة ألف سنة و عشرون ألف سنة.

و قد قسّموا الدور أيضا بأربع قطع، أوّلها أعظمها، و هى مدّة الفصل المذكور و ثانيها ثلاثة أرباع الفصل، و مدّتها ألف ألف سنة، و مائتا ألف سنة و ستة و تسعون ألف سنة، و ثالثها نصف الفصل، و مدّته ثمانمائة ألف سنة و أربعة و ستون ألف سنة، و رابعها ربع الفصل، و هو عشر الدور المذكور، و مدّته أربعمائة ألف سنة و اثنان و ثلاثون ألف سنة.

و لكل واحد من هذه القطع الأربع اسم يعرف به، فاسم القطعة الرابعة عندهم، كلكال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶

لأنهم يزعمون أنهم فى زمانها، و إنّ الذى مضى من عمر الملك الطبيعىّ على زعم حكيمهم الأعظم المسمى عندهم: برهمكوت ثمان سنين و خمسة أشهر و أربعة أيام.

و نحن الآن فى نهار اليوم الخامس من الشهر السادس من السنة التاسعة، و مضى من النهار الخامس ست نوب، و سبعة فصول و سبعة و عشرون دورا من النوبة السابعة، و ثلاث قطع من الدور المذكور أعنى تسعة أعشاره، و مضى من القطعة الرابعة أعنى من أوّل كلكال إلى هلاك، شككال عظيم ملوكهم الواقع فى آخر سنة ثمان و ثمانينة و ثلثمائة للإسكندر ثلاثة آلاف سنة و مائة سنة و تسع و سبعون سنة، و قال: إنما عرفنا هذا الزمان من علم إلهىّ، وقع إلينا من عظماء أنبيائنا المتألهين برواياتهم جيلا بعد جيل على ممرّ الدهور و الأزمان، و زعموا أن فى مبدأ كل دور أو فصل أو قطعة أو نوبة، تتجدّد أزمنة العوالم، و تنتقل من حال إلى حال، و أن الماضى من أوّل كلكال إلى شككال ثلاثة آلاف، و مائة و تسع و سبعون سنة، و الماضى من النهار المذكور إلى آخر سنة ثمان و ثمانين و ثلثمائة للإسكندر ألف ألف ألف سنة، و تسعمائة ألف ألف سنة، و اثنان و سبعون ألف ألف سنة، و تسعمائة ألف سنة و سبعة و أربعون ألف سنة، و مائة سنة و سبع و سبعون سنة.

فيكون الماضى من عمر الملك الطبيعىّ إلى آخر هذه السنة ستة، و عشرين ألف ألف ألف ألف سنة، و ثلثمائة ألف ألف ألف سنة و خمسة عشر ألف ألف ألف سنة، و سبعمائة ألف ألف سنة، و اثنين و ثلاثين ألف ألف سنة، و تسعمائة ألف سنة، و سبعة و أربعين ألف سنة و مائة سنة و تسعا و سبعين سنة، فإذا زدنا عليها الباقى من تاريخ الإسكندر بعد نقصان السنين المذكورة منه تحصل الماضى من عمر الملك بالوقت المفروض، و اللّه أعلم بحقيقة ذلك.

و قال الخطا و الايغز فى ذلك قولا أعجب من قول الهند، و أغرب على ما نقلته من زيج أدوار الأنوار، و قد لخص هذا القول من كتب أهل الصين، و ذلك أنهم جعلوا مبادى سنيهم مبنية على ثلاثة أدوار: الأوّل: يعرف بالعشرىّ مدّته عشر سنين لكل سنة منها اسم يعرف به، و الثانى: يعرف بالدور الاثنى عشرىّ، و هو أشهرها خصوصا فى بلاد الترك يسمون سنيه بأسماء حيوانات بلغتى الخطا و الايغز، و الثالث: مركب من الدورين جميعا و مدّته ستون سنة، و به يؤرخون سنى العالم و أيامه و يقوم عندهم مقام أيام الأسبوع عند العرب و غيرها، و اسم كل سنة منها مركب من اسميها فى الدورين جميعا، و كذلك كل يوم من أيام السنة.

و لهذا الدور ثلاثة أسماء، و هى: شانكون، و جونكون، و خاون، و يصير بحسبها مرّة أعظم و مرّة أوسط، و مرّة أصغر، فيقال: دور شانكون الأعظم، و دور: جونكون الأوسط، و دور: خاون الأصغر، و بهذه الأدوار يعتبرون سنى العالم و أيامه، و جملتها مائة و ثمانون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷

سنة، ثم تدور الأدوار الثلاثة عليها مرة أخرى. و اتفق وقوع مبدأ الدور الأعظم فى الشهر الأوّل من سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة: ليزدجرد، و اسمه بلغتهم: كادره، و بلغة العرب: سنة الغار، و كان دخول أوّل افرودين هذه السنة من سنى العرب يوم الخميس، و هو بلغتهم: سن جن، و من هذا اليوم و على هذا التاريخ تترتب مبادى سنيهم و أيامهم فى الماضى و المستقبل، و شهورهم اثنا عشر شهرا، لكل شهر منها اسم بلغة: الخطا، و بلغة الايغز لا حاجة بنا هنا إلى ذكره.

و يقسمون اليوم الأوّل بليلته اثنى عشر قسما، كل قسم منها يقال له: جاغ، و كل جاغ ثمانية أقسام، كل قسم منها يقال له: كه، و يقسمون اليوم بليلته أيضا عشرة آلاف فنك، و كل فنك منها: مائة مياو، فيصيب كل جاغ: ثمانمائة و ثلاثة و ثلاثين فنكا و ثلث فنك، و كل: كه مائة و أربعة أفناك و سدس فنك، و ينسبون، كل جاغ إلى صورة من الصور الاثنتى عشرة، و مبدأ اليوم بليلته عندهم من نصف الليل، و فى منتصف جاغ كسكو يتغير أوّل النهار و آخره بحسب الطول و القصر من قبل أنّ كل جاغ ساعتان مستويتان، و فى منتصف النهار ينتصف جاغ يوند، و هم يكبسون فى كل ثلاث سنين قمرية شهرا واحدا يسمونه: سيون ليحفظوا بالكبس مبادى سنى الشمس فى زمان واحد من سنة أخرى، و يكبسون أحد عشر شهرا فى كل ثلاثين سنة قمرية، و لا يقع عندهم

شهر الكبس فى موضع واحد بعينه من السنة، بل يقع فى كل موضع منها، و كل شهر عدّة أيامه إما ثلاثون يوما أو تسعة و عشرون يوما، و لا يمكن عندهم أكثر من ثلاثة أشهر متوالية تامّة، و لا أكثر من شهرين ناقصين.

و مبادى شهورهم، يوم الاجتماع إن وقع اجتماع النيرين نهارا، فإن وقع الاجتماع ليلا كان أوّل الشهر فى اليوم الذى بعد الاجتماع و زمان السنة الشمسية بحسب أرصادهم، ثلثمائة و خمسة و ستون يوما و ألفان و أربعمائة و ستة و ثلاثون فنكا، و السنة أربعة و عشرون قسما، كل قسم منها: خمسة عشر يوما و ألفان و مائة و أربعة و ثمانون فنكا و خمسة أسداس فنك، و لكل قسم من هذه الأقسام اسم، و كل ستة أقسام منها فصل من فصول السنة، فاسم أوّل قسم من فصولها الحن، و أوّله أبدا، حيث تكون الشمس فى ست عشرة درجة من برج الدلو و هكذا أوائل كل فصل، إنما تكون فى حدود أواسط البروج الثابتة، و كان بعد مدخل الحن من أوّل الدور الستينىّ فى السنة المذكورة أحد عشر يوما، و سبعة آلاف و ستمائة و ستين فنكا، و اسم مدخله بى خاينى، و كان بعد دخول السنة الفارسية المذكورة بنحو عشرين يوما، و يبعد مدخله عن أوّل الدور الستينىّ، و يتفاضل البعد بينهما فى كل سنة بقدر فضل سنة الشمس على سنة القمر التى هى ثلثمائة و أربعة و خمسون يوما، و ثلاثة آلاف و ستمائة و اثنان و سبعون فتكا، و مقدار الفضل بينهما عشرة أيام و ثمانية آلاف و سبعمائة و أربعة و ستون فنكا، فإن زادت الأيام على زمان الشهر القمرىّ الأوسط الذى هو تسعة و عشرون يوما، و خمسة آلاف و ثمانمائة و ستة أفناك، نقص منها هذا العدد، و احتسب بالباقى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸

فإذا عرفت هذا من حسابهم، فاعلم أنّ عمر العالم عندهم ثلثمائة ألف ونّ و ستون ألف ونّ، و كل ونّ: عشرة آلاف سنة. مضى من ذلك إلى أوّل سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة ليزدجرد، و هى دور: شانكون الأعظم: ثمانية آلاف ونّ و ثمانمائة ونّ و ثلاثة و ستون ونا، و تسعة آلاف و سبعمائة، و أربعون سنة، فتكون المدّة العظمى على هذا: ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ألف سنة و ستمائة ألف ألف ألف ألف سنة بهذه الصورة ۳۶۰۰۰۰۰۰۰۰ و الماضى منها إلى السنة المذكورة: ثمانية، و ثمانون ألف ألف سنة و ستمائة ألف سنة و تسعة و ثلاثون ألف سنة، و سبعمائة سنة و أربعون سنة بهذه الصورة ۸۸۶۳۹۷۴۰ و للّه غيب السماوات و الأرض و إليه يرجع الأمر كله.

و إنما ذكرت طرفا من حساب سنى البراهمة، و طرفا من حساب سنى الخطا و الايغز المستخرج من حساب الصين ليعلم المنصف أنّ ذلك لم يضعه حكماؤهم عبثا، و لأمر ما جدع قصير أنفه، و كم من جاهل بالتعاليم إذا سمع أقوالهم فى مدّة سنى العالم يبادر إلى تكذيبهم من غير علم بدليلهم عليه، و طريق الحق أن يتوقف، فيما لا يعلمه حتى يتبين أحد طرفيه فيرجحه على الآخر، و اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون.

و قال أصحاب السند هند: و معناه: الدهر الداهر أنّ الكواكب و أوجاتها و جوز هراتها تجتمع كلها فى أوّل برج الحمل عند كل أربعة آلاف ألف ألف سنة و ثلثمائة ألف ألف ألف سنة و عشرين ألف ألف سنة شمسية، و هذه مدّة سنى العالم.

قالوا: و إذا جمعت برأس الحمل فسدت المكوّنات الثلاث التى يحويها عالم الكون و الفساد المعبر عنه بالحياة الدنيا، و هذه المكوّنات هى: المعدن و النبات و الحيوان، فإذا فسدت بقى العالم السفلىّ خرابا دهرا طويلا إلى أن تتفرّق الكواكب، و الأوجات و الجوزهرات فى بروج الفلك، فإذا تفرّقت فيها بدأ الكون بعد الفساد، فعادت أحوال العالم السفلىّ إلى الأمر الأوّل، و هذا يكون عودا بعد بدء إلى غير نهاية، قالوا: و لكل واحد من الكواكب و الأوجات و الجوزهرات عدّة أدوار فى هذه المدّة يدل كل دور منها على شىء من المكوّنات، كما هو مذكور فى كتبهم مما لا حاجة بنا هنا إلى ذكره، و هذا القول منتزع من قول البراهمة الذى تقدّم ذكره.

و قال أصحاب الهازروان من قدماء الهند: إنّ كل ثلثمائة ألف سنة و ستين ألف سنة شمسية: يهلك العالم بأسره و يبقى مثل هذه المدّة، ثم يعود بعينه، و يعقبه البدل، و هكذا أبدا يكون الحال لا إلى نهاية.

قالوا: و مضى من أيام العالم المذكورة إلى طوفان نوح عليه السلام: مائة ألف و ثمانون ألف سنة شمسية.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹

و مضى من الطوفان إلى سنة الهجرة المحمدية ثلاثة آلاف و سبعمائة و ثلاث و عشرون سنة، و أربعة أشهر و أيام.

و بقى من سنى العالم حتى يبتدئ و يفنى مائة ألف و بضع و سبعون ألف سنة شمسية، أوّلها تاريخ الهجرة الذى يؤرخ به أهل الإسلام.

و قال أصحاب الأزجهير: مدّة العالم التى تجتمع فيها الكواكب برأس الحمل هى و أوجاتها و جوزهراتها: جزء من ألف جزء من مدّة: السند هند، و هذا أيضا منتزع من قول البراهمة.

و قال أبو معشر، و ابن بو بخت: إنّ بعض الفرس يرى أنّ عمر الدنيا اثنا عشر ألف سنة بعدّة البروج، لكل برج ألف سنة، فكان ابتداء أمر الدنيا فى أوّل ألف الحمل، لأنّ الحمل و الثور و الجوزاء تسمى: أشرف الشرف، و ينسب إلى الحمل: الفصل، و فيها تكون الشمس فى شرفها، و علوّها، و طول نهارها، و لذلك كانت الدنيا كانت إلى ثلاثة آلاف سنة: علوية روحانية طاهرة، و لأن السرطان و الأسد و السنبلة: منتقصة، فإنّ الشمس تنحط من علوّها فى أوّل دقيقة من السرطان، و كان قدر الدنيا و أبنائا منحطا فى الثلاثة آلاف الثانية، و لأن الميزان أهبط الهبوط، و بئر الآبار، و ضدّ البرج الذى فيه شرف الشمس دل على أنه أصابت الدنيا و اكتسب أهلها المعصية، و الميزان و العقرب و القوس إذا نزلتها الشمس لم تزدد إلّا انحطاطا، و الأيام إلّا نقصانا. فلذلك دلت على البلايا و الضيق، و الشدّة و الشرّ، و حيث تبلغ الآلاف إلى أوّل الجدى الذى فيه أوّل ارتفاع الشمس، و إشرافها على شرفها، و فيه تزداد الأيام طولا، و الدلو و الحوت اللذان تزداد الشمس فيهما صعودا، حتى تصل لشرفها فيدل على ظهور الخير، و ضعف الشرّ، و ثبات الدين و العقل و العمل بالحق و العدل، و معرفة فضل العلم و الأدب فى تلك الثلاثة الآلاف سنة، و ما يكون فى ذلك فعلى قدر صاحب الألف و المائة و العشرة، و على حسب اتفاق الكواكب فى أوّل سلطان صاحب الألف، فلا يزال ذلك فى زيادة حتى يعود أمر الدنيا فى آخرها إلى مثل ما كان عليه ابتداؤها، و هى فى ألف الحمل و كلما تقارب آخر كل ألف من هذه الألوف اشتدّ الزمان، و كثرت البلايا لأنّ أواخر البرج فى حدود النحوس، و كذلك فى آخر المئين و العشرات، فعلى هذا الانقضاء للدنيا إذا كان الزمان يعود إلى الحمل كما بدأ أوّل مرّة.

و زعموا أن ابتداء الخلق بالتحرّك كان و الشمس فى ابتداء المسير، فدار الفلك، و جرت المياه، و هبت الرياح، و اتقدت النيران، و تحرّك سائر الخلائق بما هم عليه من خير و شرّ، و الطالع تلك الساعة تسع عشرة درجة من برج السرطان، و فيه المشترى، و فى البيت الرابع الذى هو بيت العافية، و هو برج الميزان زحل، و كان الذنب فى القوس، و المرّيخ و الجدى و الزهرة و عطارد فى الحوت، و وسط السماء برج الحمل، و فى أوّل دقيقة منه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۰

الشمس، و كان القمر فى الثور و فى بيت السعادة، و كان الرأس فى برج الجوزاء، و هو بيت الشقاء، و فى تلك الدقيقة من الساعة كان استقبال أمر الدنيا، فكان خيرها و شرّها و انحطاطها و ارتفاعها، و سائر ما فيها على قدر مجارى البروج و النجوم، و ولاية أصحاب الألوف، و غير ذلك من أحوالها. و لأنّ المشترى كان فى السرطان فى شرفه و زحل فى الميزان فى شرفه و المرّيخ و الشمس و القمر فى إشرافها دلت على كائنة جليلة، فكان نشوء العالم، و انبرز زحل.

فتولى الألف هو و الميزان و كان المشترى فى الطالع مقبولا. و كذلك جميع الكواكب كانت مقبولة، فدل على نماء العالم و حسن نشوءه، و كان زحل هو المستولى و العالى فى الفلك و البرج طويل المطالع، فطالت أعمار تلك الألف و قويت أبدانهم، و كثرت مياههم و كون الميزان تحت الأرض دل على خفاء أوّل حدوث العالم، و على أنّ أهل ذلك الزمان ينظرون فى عمارة الأرضين و تشييد البنيان. ثم ولى الألف الثانى العقرب و المريخ، و كان فى الطالع المرّيخ، فدل على القتل فى ذلك الألف و سفك الدماء، و السبى و الظلم و الجور و الخوف و الهمّ و الأحزان و الفساد و جور الملوك، و ولى الألف الثالث القوس و شاركه عطارد و الزهرة

بطلوعهما، و كان الذنب فى القوس، فدل المشترى على النجدة فى تلك الألف و الشدّة و الجلد و البأس و الرياسة و العدل، و تقسيم الملوك الدنيا، و سفك الدماء بسبب ذلك، و دلت الزهرة على ظهور بيت العبادة و على الأنبياء، و دل عطارد على ظهور العقل و الأدب و الكلام، و كون البرج مجسدا دلّ على انقلاب الخير و الشرّ فى تلك الألف مرّات، و على ظهور ألوان من آيات الحق و العدل و الجور.

ثم ولى الألف الرابع الجدى، و كان فيه المرّيخ فدل على ما كان فى تلك الألف من إهراق الدماء، و دلت الشمس على ظهور الخير و العلم، و معرفة اللّه تعالى، و عبادته و طاعته و طاعة أنبيائه، و الرغبة فى الدين مع الشجاعة و الجلد، و كون البرج منقلبا هو و البرج الذى فيه الشمس دلّ على انقلاب ذلك فى آخرها، و ظهور الشرّ و التفرّق و القسم و القتل و سفك الدماء و الغصب فى أصناف كثيرة، و تحوّل ذلك و تلوّنه، و كون الجدى منحطا دلّ على أنه يظهر فى آخر تلك الألف الحسن الشبيه بصفة زحل و المريخ و انقطاع العظماء و الحكماء، و بوارهم و ارتفاع السفلة، و خراب العامر، و عمارة الخراب، و كثرة تلوّن الأشياء، و ولى الألف الخامس الدلو بطلوع القمر، و كان القمر فى الثور، فدل الدلو لبرودته و عسره على سقوط العماء و عطلة أمرهم، و ارتفاع السفلة و العبيد، و محمدة البخلاء، و ظهور الجيش الأسود و السواد، و على كثرة التفتيش، و التفكر و ظهور الكلام فى الأديان و محبة الخصومات و كون القمر فى شرفه يدل على قهر الملوك، و ظهور ولاة الحق، و نفاذ الخير، و ظهور بيوت العبادة و الكف عن الدماء، و الراحة و السعادة فى العامّة و ثبات ما يكون من العدل و الخير، و طول المدّة فيه و كون البرج مائيا يدل على كثرة الأمطار و الغرق و آفة من البرد يهلك فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱

الكثير، و يلى الألف السادس برج الحوت بطلوع المشترى و الرأس فيدل على المحمدة فى الناس عامّة و على الصلاح و الخير و السرور، و ذهاب الشرّ، و حسن العيش، و لكل واحد من الكواكب ولاية ألف سنة، فصار عطارد خاتما فى برج السنبلة.

و زعم ابن بوبخت: أنّ من يوم سارت الشمس إلى تمام خمس و عشرين من ملك أنوشروان ثلاثة آلاف و ثمانمائة و سبع و ستون سنة، و ذلك فى ألف الجدى و تدبير الشمس، و منه إلى اليوم الأوّل من الهجرة سبع و ثمانون سنة شمسية و ستة و عشرون يوما، و من الهجرة إلى قيام يزدجرد تسع سنين و ثلثمائة و سبعة و ثلاثون يوما فذلك الجميع إلى أن قام يزدجرد ثلاثة آلاف و تسعمائة و ست و ستون سنة.

و قال أبو معشر: و زعم قوم من الفرس أنّ عمر الدنيا سبعة آلاف سنة بعدّة الكواكب السبعة. و زعم أبو معشر: أنّ عمر الدنيا ثلثمائة ألف سنة و ستون ألف سنة، و أنّ الطوفان كان فى النصف من ذلك على رأس مائة ألف و ثمانين ألف سنة.

و قال قوم: عمر الدنيا تسعة آلاف سنة لكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة ألف سنة، و للرأس ألف سنة، و للذنب ألف سنة و شرّها ألف الذنب، و إنّ الأعمار طالت فى تدبير آلاف الثلاثة العلوية، و قصرت فى آلاف الكواكب السفلية.

و قال قوم: عمر الدنيا تسعة عشر ألف سنة بعدد البروج الاثنى عشر لكل برج ألف سنة و بعدد الكواكب السبعة السيارة لكل كوكب ألف سنة.

و قال قوم: عمر الدنيا أحد و عشرون ألف سنة بزيادة ألف للرأس، و ألف للذنب.

و قال قوم: عمر الدنيا ثمانية و سبعون ألف سنة فى تدبير برج الحمل اثنا عشر ألف سنة، و فى تدبير برج الثور أحد عشر ألف سنة، و فى تدبير الجوزاء عشرة آلاف سنة، فكانت الأعمار فى هذا الربع أطول، و الزمان أجدّ، ثم تدبير الربع الثانى مدّة أربعة و عشرين ألف سنة، فتكون الأعمار دون ما كانت فى الربع الأوّل، و تدبير الربع الثالث خمسة عشر ألف سنة، و تدبير الربع الرابع ستة آلاف سنة.

و قال قوم: كانت المدّة من آدم إلى الطوفان ألفين و ثمانين سنة و أربعة أشهر و خمسة عشر يوما، و من الطوفان إلى إبراهيم عليه السلام تسعمائة و اثنتين و أربعين سنة و سبعة أشهر و خمسة عشر يوما، فذلك ثلاثة آلاف، و مائتان و ثلاث و عشرون سنة.

و قال قوم من اليهود: عمر الدنيا سبعون ألف سنة منحصرة فى ألف جيل و لفقوا ذلك من قول موسى عليه السلام فى صلاته: إنّ الجيل سبعون سنة، و من قوله فى الزبور: إنّ إبراهيم عليه السلام قطع معه اللّه تعالى عهد البقاء البشر ألف جيل، فجاء من ذلك أنّ مدّة الدنيا سبعون ألف سنة، و استظهروا لقولهم هذا بما فى التوراة من قوله، و اعلم أنّ اللّه إلهك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲

هو القادر المهيمن الحافظ العهد و الفضل لمحبيه و حافظى وصاياه لألف جيل.

و ذكر أبو الحسن علىّ بن الحسين المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان عن الأوائل:

أنهم قالوا: كان فى الأرض ثمان و عشرون ذات أرواح و أيد و بطش و صور مختلفات بعدد منازل القمر لكل منزلة أمّة منفردة تعرف بها تلك الأمّة، و يزعمون أن تلك الأمم كانت الكواكب الثابتة تدبرها، و كانوا يعبدونها، و يقال: لما خلق اللّه تعالى البروج الاثنى عشر قسم دوامها فى سلطانها، فجعل للحمل اثنى عشر ألف عام، و للثور أحد عشر ألف عام، و للجوزاء عشرة آلاف عام، و للسرطان تسعة آلاف عام، و للأسد ثمانية آلاف عام، و للسنبلة سبعة آلاف عام، و للميزان ستة آلاف عام، و للعقرب خمسة آلاف عام، و للقوس أربعة آلاف عام، و للجدى ثلاثة آلاف عام، و للدلو ألفى عام، و للحوت ألف عام، فصار الجميع ثمانية و سبعين ألف عام، فلم يكن فى عالم الحمل و الثور و الجوزاء حيوان، و ذلك ثلاثة و ثلاثون ألف عام، فلما كان عالم السرطان تكوّنت دواب الماء و هوامّ الأرض.

فلما كان عالم الأسد تكوّنت ذوات الأربع من الوحش و البهائم، و ذلك بعد تسعة آلاف عام من خلق دواب الماء و الهوام، فلما كان عالم السنبلة، تكوّن الإنسانان الأوّلان، و هما:

أدمانوس، و حنوانواس، و ذلك لتمام سبعة عشر ألف عام لخلق دواب الماء، و هوامّ الأرض و لتمام ثمانية آلاف عام من خلق ذوات الأرض، و خلقت الأرض فى عالم الميزان، و يقال:

بل خلقت الأرض أوّلا، و أقامت خالية ثلاثة و ثلاثين ألف عام ليس فيها حيوان و لا عالم روحانىّ، ثم خلق اللّه تعالى هوامّ الماء، و دواب الأرض، و ما بعد ذلك على ما تقدّم ذكره، فلما تمّ أربعة و عشرون ألف عام لخلق دواب الماء و هوامّ الأرض، و لتمام خمسة عشر ألف عام من خلق ذوات الأربع، و لتتمة سبعة آلاف عام من لدن تكوّن الإنسانين خلقت الطيور.

و يقال: إنّ مدّة مقام الإنسانين و نسلهما فى الأرض مائة ألف و ثلاثة و ثلاثون ألف عام منها لزحل: ستة و خمسون ألف عام، و للمشترى أربعة و أربعون ألف عام، و للمرّيخ ثلاثة و ثلاثون ألف عام، و يقال: إنّ الأمم المخلوقات قبل آدم هى كانت الجبلة الأولى، و هى ثمان و عشرون أمّة بإزاء منازل القمر خلقت من أمزجة مختلفة أصلها: الماء، و الهواء، و الأرض، و النار، فتباين خلقها، فمنها أمّة خلقت طوالا زرقا ذوات أجنحة كلامهم قرقعة على صفة الأسود، و منها أمّة أبدانهم أبدان الأسود و رؤوسهم رؤوس الطير لهم شعور، و آذان طوال، و كلامهم دوىّ، و منها أمّة لها وجهان: وجه أمامها، و وجه خلفها، و لها أرجل كثيرة، و كلامهم كلام الطير، و منها أمّة ضعيفة فى صور الكلاب لها أذناب، و كلامهم همهمة لا يعرف، و منها أمّة تشبه بنى آدم أفواههم فى صدورهم يصفرون إذا تكلموا تصفيرا، و منها أمّة يشبهون نصف إنسان لهم عين واحدة، و رجل يقفزون بها قفزا، و يصيحون كصياح الطير، و منها أمّة لها وجوه كوجوه الناس و أصلاب كأصلاب السلاحف فى رؤوسهم قرون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳

طوال لا يفهم كلامهم، و منها أمّة مدوّرة الوجوه لهم شعور بيض، و أذناب كأذناب البقر و رؤوسهم فى صدورهم لهم شعور و ثدىّ، و هم أناس كلهنّ ليس فيهنّ ذكر يلقحن من الريح، و يلدن أمثالهنّ، و لهنّ أصوات مطربة يجتمع إليهنّ كثير من هذه الأمم لحسن أصواتهنّ، و منها أمّة على خلق بنى آدم سود وجوههم، و رؤوسهم كرؤوس الغربان، و منها أمّة فى خلق الهوام و الحشرات إلا أنها عظيمة الأجسام تأكل، و تشرب مثل الأنعام، و منها أمّة كوجوه دواب البحر لها أنياب كأنياب الخنازير، و آذان طوال، و يقال: إنّ هذه

الثمانية و العشرين أمّة تناكحت، فصارت مائة و عشرين أمّة.

و سئل أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه: هل كان فى الأرض خلق قبل آدم يعبدون اللّه تعالى؟ فقال: نعم خلق اللّه الأرض، و خلق فيها الجنّ يسبحون اللّه و يقدّسونه لا يفترون، و كانوا يطيرون إلى السماء، و يلقون الملائكة، و يسلمون عليهم و يستعملون منهم خبر ما فى السماء، ثم إنّ طائفة منهم تمرّدت، و عتت عن أمر ربها، و بغت فى الأرض بغير الحق، و عدا بعضهم على بعض، و جحدوا الربوبية، و كفروا باللّه، و عبدوا ما سواه، و تغايروا على الملك حتى سفكوا الدماء، و أظهروا فى الأرض الفساد، و كثر تقاتلهم، و علا بعضهم على بعض، و أقام المطيعون للّه تعالى على دينهم، و كان إبليس من الطائفة المطيعة للّه و المسبحين له، و كان يصعد إلى السماء، فلا يحجب عنها لحسن طاعته.

و يروى: أنّ الجنّ كانت تفترق على إحدى و عشرين قبيلة، و أنّ بعد خمسة آلاف سنة ملكوا عليهم ملكا يقال له: شملال بن ارس، ثم افترقوا فملكوا عليهم: خمسة ملوك، و أقاموا على ذلك دهرا طويلا، ثم أغار بعضهم على بعض، و تحاسدوا، فكانت بينهم وقائع كثيرة، فأهبط اللّه تعالى إليهم إبليس، و كان اسمه بالعربية: الحارث، و كنيته أبو مرّة، و معه عدد كثير من الملائكة، فهزمهم و قتلهم، و صار إبليس ملكا على وجه الأرض، فتكبر و طغى، و كان من امتناعه من السجود لآدم ما كان، فأهبطه اللّه تعالى إلى الأرض، فسكن البحر، و جعل عرشه على الماء، فألقيت عليه شهوة الجماع، و جعل لقاحه لقاح الطير و بيضه.

و يقال: إنّ قبائل الجنّ من الشياطين خمس و ثلاثون قبيلة، خمس عشرة قبيلة تطير فى الهواء و عشر قبائل مع لهب النار، و ثلاثون قبيلة يسترقون السمع من السماء، و لكل قبيلة ملك موكل بدفع شرّها، و منهم صنف من السعالى يتصوّرون فى صور النساء الحسان، و يتزوّجن برجال الأنس و يلدن منهم، و منهم صنف على صور الحيات إذا قتل أحد منهم واحدة هلك من وقته، فإن كانت صغيرة هلك ولده أو عزيز عنده.

و عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه قال: إنّ الكلاب من الجنّ فإذا رأوكم تأكلون،

فألقوا إليهم من طعامكم، فإنّ لهم أنفسا يعنى إنهم يأخذون بالعين.

و قد روى: أنّ الأرض كانت معمورة بأمم كثيرة منهم: الطمّ، و الرمّ، و الجنّ، و البن، و الحسن، و البسن، و أنّ اللّه تعالى لما خلق السماء عمّرها بالملائكة، و لما خلق اللّه الأرض عمرها بالجنّ، فعاثوا و سفكوا الدماء، فأنزل اللّه إليهم جندا من الملائكة، فأتوا على أكثرهم قتلا و أسرا، فكان ممن أسر إبليس، و كان اسمه عزازيل، فلما صعد به إلى السماء أخذ نفسه بالاجتهاد فى العبادة و الطاعة رجاء أن يتوب اللّه عليه، فلما لم يجد ذلك عليه شيئا خامر الملائكة القنوط، فأراط اللّه أن يظهر لهم خبث طويته، و فساد نيته، فخلق آدم فامتحنه بالسجود له ليظهر للملائكة تكبره، و إبانة ما خفى عنهم من مكتوم أنبائه، و إلى عمارة الأرض قبل آدم ممن أفسد فيها أشار بقوله تعالى حكاية عن الملائكة: أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ [البقرة/ ۳۰] يعنون كما فعل بها من قبل، و اللّه أعلم بمراده. و قال أبو بكر بن أحمد بن علىّ بن وحشية فى كتاب الفلاحة: إنه عرّب هذا الكتاب، و نقله من لسان الكلدانيين إلى اللغة العربية، و إنه وجده من وضع ثلاثة حكماء قدماء و هم: صعريت و سوساد و فوقاى ابتدأه الأوّل، و كان ظهوره فى الألف السابعة من سبعة آلاف سنى زحل، و هى الألف التى يشارك فيها زحل القمر، و تممه الثانى، و كان ظهوره فى آخر هذه الألف، و أكمله الثالث، و كان ظهوره بعد مضىّ أربعة آلاف سنة من دور الشمس الذى هو سبعة آلاف سنة، و إنه نظر إلى ما بين زمان الأوّل و الثالث، فكان ثمانية عشر ألف سنة شمسية، و بعض الألف التاسعة عشر، و قد اختلف أهل الإسلام فى هذه المسألة أيضا، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة، و اليوم ألف سنة، فذلك سبعة آلاف سنة، و روى سفيان عن الأعمش عن أبى صالح قال: قال كعب الأحبار: الدنيا ستة آلاف سنة.

و عن وهب بن منبه أنه قال: قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة و ستمائة سنة إنى لأعرف كل زمان منها، و من فيه من الأنبياء، فقيل

له: فكم الدنيا؟ قال: ستة آلاف سنة.

و روى عبد اللّه بن دينار عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما أنه قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «أجلكم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس».

و فى حديث أبى هريرة: الحقب ثمانون عاما اليوم منها سدس الدنيا، و الحقب هنا بكسر الحاء و ضمها.

قال أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانىّ فى كتاب الإكليل: و كأن الدنيا جزء من أربعة آلاف و سبعمائة و ثلاثة و عشرين جزءا و ثلث جزء من الحقب، على أنّ السنة القمرية ثلثمائة و أربعة و خمسون يوما و خمس و سدس يوم، فإذا كانت الدنيا ستة آلاف سنة، و اليوم ألف سنة تكون سنين قمرية ستة آلاف ألف سنة، فإذا جعلناه جزءا و ضربناه فى أجزاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵

الحقب، و هى أربعة آلاف و سبعمائة سنة و ثلاث و عشرون و ثلث خرج من السنين: ثمانية و عشرون ألف ألف ألف و ثلثمائة ألف ألف و أربعون ألف ألف، و إذا كانت جمعة من جمع الآخرة زدنا مع هذا العدد مثل سدسه، و هذا عدد الحقب.

و قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ: الصواب من القول ما دل على صحته الخبر الوارد، فذكر قوله عليه السلام: «أجلكم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس»، و قوله عليه السلام: «بعثت أنا و الساعة كهاتين» و أشار بالسبابة و الوسطى، و قوله عليه السلام: «بعثت أنا و الساعة جميعا إن كادت لتسبقنى». قال: فمعلوم إن كان اليوم أوّله طلوع الشمس، و آخره غروب الشمس، و كان صحيحا عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قوله: «أجلكم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس»، و قوله: «بعثت أنا و الساعة كهاتين» و أشار بالسبابة و الوسطى، و كان قدر ما بين أوسط أوقات العصر، و ذلك إذا صار ظل كل شىء مثليه على التحرّى إنما يكون قدر نصف سبع اليوم يزيد قليلا أو ينقص قليلا، و كذلك فضل ما بين الوسطى و السبابة، إنما يكون نحوا من ذلك، و كان صحيحا مع ذلك قوله عليه السلام: «لن يعجز اللّه أن يؤخر هذه الأمّة نصف يوم» يعنى نصف اليوم الذى مقداره ألف سنة، فأولى القولين اللذين أحدهما عن ابن عباس و الآخر عن كعب. قول ابن عباس:

إنّ الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف، و إذا كان كذلك، و كان قد جاء عنه عليه السلام: أنّ الباقى من ذلك فى حياته نصف يوم، و ذلك خمسمائة عام إذا كان ذلك نصف يوم من الأيام التى قدر الواحد منها ألف عام كان معلوما أنّ الماضى من الدنيا إلى وقت قوله عليه السلام: «ستة آلاف سنة و خمسمائة سنة» أو نحو ذلك، و قد جاء عنه عليه السلام خبر يدل على صحة قول من قال: إنّ الدنيا كلها ستة آلاف سنة لو كان صحيحا لم يعد القول به إلى غيره، و هو حديث أبى هريرة يرفعه الحقب ثمانون عاما اليوم منها سدس الدنيا، فتبين من هذا الخبر أن الدنيا كلها ستة آلاف سنة، و ذلك أنه حيث كان اليوم الذى هو من أيام الآخرة مقداره ألف سنة من سنى الدنيا، و كان اليوم الواحد من ذلك سدس الدنيا، كان معلوما أن جميعها ستة أيام من أيام الآخرة، و ذلك ستة آلاف سنة، و قال أبو القاسم السهيلىّ : و قد مضت الخمسمائة من وفاته صلّى اللّه عليه و سلّم إلى اليوم بنيف عليها، و ليس فى قوله: لن يعجز اللّه أن يؤخّر هذه الأمّة نصف يوم، ما ينفى الزيادة على النصف، و لا فى قوله: بعثت أنا و الساعة كهاتين، ما يقطع به على صحة تأويله، يعنى الطبرى، فقد نقل فى تأويله غير هذا و هو أنه ليس بينه و بين الساعة نبىّ، و لا شرعة غير شرعته مع التقريب لحينها، كما قال تعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ [القمر/ ۱]، و قال: أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل/ ۱] و لكن إذا قلنا: إنه عليه السلام إنما بعث فى الألف الآخر بعد ما مضت منه سنون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶

و نظرنا إلى الحروف المقطعة فى أوائل السور وجدناها أربعة عشر حرفا يجمعها قولك. (ألم يسطع نص حق كره). ثم تأخذ العدد على حساب أبى جاد، فيجىء تسعمائة و ثلاثة، و لم يسمّ اللّه تعالى أوائل السور إلا هذه الحروف، فليس يبعد أن يكون من بعض مقتضياتها، و بعض فوائدها الإشارة إلى هذا العدد من السنين لما قدّمناه من حديث الألف السابع الذى بعث عليه السلام فيه غير أن

الحساب يحتمل أن يكون من مبعثه أو من وفاته أو من هجرته و كل قريب بعضه من بعض، فقد جاء أشراطها، و لكن لا تأتيكم إلا بغتة، و قد روى أنه عليه السلام قال: «إن أحسنت أمّتى فبقاؤها يوم من أيام الآخرة» و ذلك ألف سنة، و إن أساءت فنصف يوم. ففى الحديث تتميم للحديث المتقدّم، و بيان له، إذ قد نقضت الخمسمائة و الأمة باقية، و قال شادان البلخىّ المنجم: مدّة ملة الإسلام ثلثمائة و عشرين سنين، و قد ظهر كذب قوله و للّه الحمد، و قال أبو معشر: يظهر بعد المائة و الخمسين من سنى الهجرة اختلاف كثير.

و قال حراس: إنّ المنجمين أخبروا كسرى أنوشروان بتملك العرب، و ظهور النبوّة فيهم، و أنّ دليلهم الزهرة، و هى فى شرفها، و الزهرة دليل العرب، فتكون مدّة ملك نبوّتهم ألفا و ستين سنة، و لأنّ طالع القرآن الدال على ذلك برج الميزان و الزهرة صاحبته فى شرفها، قال: و سأل كسرى وزيره بزرجمهر عن ذلك، فأعلمه أن الملك يخرج من فارس، و ينتقل إلى العرب، و تكون ولادة القائم بإمرة العرب لخمس و أربعين سنة من وقت القران، و أنّ العرب تملك المشرق و المغرب من أجل أن المشترى دليل فارس قد قبل تدبير الزهرة دليل العرب، و القران قد انتقل من المثلثة الهوائية إلى المثلثة المائية، و إلى برج العقرب منها، و هو دليل العرب أيضا، و هذه الأدلة تقتضى بقاء الملة الإسلامية بقدر دور الزهرة، و هو ألف و ستون سنة شمسية.

و قال نفيل الرومىّ: و كان فى أيام بنى أمية تبقى ملة الإسلام، بقدر مدّة القران الكبيرة، و هى تسعمائة و ستون سنة شمسية، فإذا عاد القران بعد هذه المدة إلى برج العقرب كما كان فى ابتداء الملة، و تغير وضع تشكيل الفلك عن هيئته فى الابتداء، فحينئذ يفتر العمل، و يتجدّد ما يوجب خلاف الظنّ.

قال: و اتفقوا على أنّ خراب العالم يكون باستيلاء الماء و النار حتى تهلك المكوّنات بأسرها، و ذلك إذا قطع قلب الأسد أربعا و عشرين درجة من برج الأسد الذى هو حدّ المرّيخ بعد تسعمائة و ستين سنة شمسية من قران الملة، و يقال: إنّ ملك رابلستان و هى عزبة بعث إلى عبد اللّه أمير المؤمنين المأمون بحكيم اسمه دوبان فى جملة هدية، فأعجب به المأمون، و سأله عن مدّة ملك بنى العباس، فأخبره بخروج الملك عن عقبه، و اتصاله فى عقب أخيه، و أنّ العجم تغلبهم على الخلافة، فيتغلب الديلم أوّلا- ثم يسوء حالهم، حتى يظهر الترك من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷

شمال المشرق، فيملكون الفرات و الروم و الشام، و قال يعقوب بن إسحاق الكندىّ: مدّة ملة الإسلام ستمائة و ثلاث و تسعون سنة.

و قال الفقيه الحافظ أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد بن حزم : و أما اختلاف الناس فى التاريخ، فإنّ اليهود يقولون: أربعة آلاف سنة، و النصارى يقولون: الدنيا خمسة آلاف سنة، و أما نحن يعنى أهل الإسلام، فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا، و من ادّعى فى ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقلّ فقد قال ما لم يأت قط عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيه لفظة تصح، بل صح عنه عليه السلام خلافه، بل نقطع على أن للدنيا أمدا لا- يعلمه إلا- اللّه تعالى، قال اللّه تعالى: ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ [الكهف/ ۵۱]، و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما أنتم فى الأمم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود و الشعرة السوداء فى الثور الأبيض». و هذه نسبة من تدبرها، و عرف مقدار عدد أهل الإسلام، و نسبة ما بأيديهم من معمور الأرض، و إنه الأكثر علم أن للدنيا أمدا لا يعلمه إلا اللّه تعالى، و كذلك قوله عليه السلام: «بعثت أنا و الساعة كهاتين» و ضم أصبعيه المقدّستين السبابة و الوسطى، و قد جاء النص: بأن الساعة لا يعلم متى تكون إلا اللّه تعالى لا أحد سواه، فصح أنه صلّى اللّه عليه و سلّم، إنما عنى شدّة القرب لا فضل السبابة على السباحة إذ لو أراد ذلك لأخذت نسبة ما بين الإصبعين، و نسب من طول الأصبع، فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة، و هذا باطل و أيضا فكان تكون نسبته صلّى اللّه عليه و سلّم إيانا من قبلنا بأننا كالشعرة فى الثور كذبا، و معاذ اللّه من ذلك، فصح أنه عليه السلام، إنما أراد شدّة القرب، و له صلّى اللّه عليه و سلّم منذ بعث أربعمائة عام و نيف، و اللّه تعالى أعلم بما بقى للدنيا، فإذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عندما سلف لقتله، و تفاهته بالإضافة إلى ما مضى، فهو الذى قاله صلّى اللّه عليه و سلّم من أننا فيمن مضى كالشعرة فى الثور أو الرقمة فى ذراع الحمار.

و قد رأيت بخط الأمير أبى محمد عبد اللّه بن الناصر قال: حدّثنى محمد بن معاوية القرشىّ أنه رأى بالهند بلدا له اثنتان و سبعون ألف سنة، و قد وجد محمود بن سبكتكين بالهند مدينة يؤرخون بأربعمائة ألف سنة، قال أبو محمد: إلا أن لكل ذلك أوّلا، و لا بدّ و نهاية لم يكن شىء من العالم موجودا قبله، و للّه الأمر من قبل و من بعد، و اللّه أعلم.

ذكر التواريخ التى كانت للأمم قبل تاريخ القبط

التاريخ: كلمة فارسية أصلها: ماروز، ثم عرّب.

قال محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف البلخىّ فى كتاب مفاتيح العلوم، و هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸

كتاب جليل القدر، و هذا اشتقاق بعيد لو لا أنّ الرواية جاءت به، و قال قدامة بن جعفر فى كتاب الخراج: تاريخ كل شىء آخره، و هو فى الوقت غايته، يقال: فلان تاريخ قومه، أى إليه ينتهى شرفهم، و يقال: ورّخت الكتاب توريخا و أرخته تأريخا، اللغة الأولى لتميم، و الثانية لقيس، و لكل أهل ملة تاريخ، فكانت الأمم تؤرخ أوّلا بتاريخ الخليقة، و هو ابتداء كون النسل من آدم عليه السلام، ثم أرخت بالطوفان، و أرخت ببخت نصر، و أرخت بفيلبس، و أرخت بالإسكندر، ثم بأغشطش، ثم بأنطيس، ثم بدقلطيانوس، و به تؤرخ القبط، لم يكن بعد تاريخ القبط إلا تاريخ الهجرة، ثم تاريخ يزدجرد، فهذه تواريخ الأمم المشهورة، و للناس تواريخ أخر قد انقطع ذكرها.

فأما تاريخ الخليقة، و يقال له: ابتداء كون النسل، و بعضهم يقول: بدو التحرّك، فإنّ لأهل الكتاب من اليهود و النصارى و المجوس فى كيفيته، و سياقة التاريخ منه خلافا كثيرا، قال المجوس و الفرس: عمر العالم اثنا عشر ألف عام على عدد بروج الفلك و شهور السنة، و زعموا أنّ زرادشت صاحب شريعتهم قال: إن الماضى من الدنيا إلى وقت ظهوره ثلاثة آلاف و مائتا سنة و ثمان و خمسون سنة، و إذا حسبنا من أوّل يوم كيومرت الذى هو عندهم الإنسان الأوّل، و جمعنا مدّة كل من ملك بعده، فإنّ الملك ملصق فيهم غير منقطع عنهم، كان العدد منه إلى الإسكندرية ثلاثة آلاف و ثلثمائة و أربعا و خمسين سنة، فإذا لم يتفق التفصيل مع الجملة، و قال قوم: الثلاثة الآلاف الماضية إنما هى من خلق كيومرت فإنه مضى قبله ألف سنة، و الفلك فيها واقف غير متحرّك، و الطبائع غير مستحيلة، و الأمّهات غير متمازجة، و الكون و الفساد غير موجود فيها، و الأرض غير عامرة، فلما تحرّك الفلك حدث الإنسان الأوّل فى معدن النهار، و تولد الحيوان و توالد و تناسل الإنس فكثروا، و امتزجت أجزاء العناصر للكون و الفساد، فعمرت الدنيا، و انتظم العالم.

و قال اليهود: الماضى من آدم إلى الإسكندرية ثلاثة آلاف و أربعمائة و ثمان و أربعون سنة.

و قال النصارى: المدّة بينهما خمسة آلاف و مائة و ثمانون سنة، و زعموا أن اليهود نقصوها، ليقع خروج عيسى ابن مريم عليه السلام فى الألف الرابع وسط السبعة آلاف التى هى مقدار العالم عندهم، حتى تخالف ذلك الوقت الذى سبقت البشارة من الأنبياء الذين كانوا بعد موسى بن عمران عليه السلام، بولادة المسيح عيسى، و إذا جمع ما فى التوراة التى بيد اليهود من المدّة التى بين آدم عليه السلام، و بين الطوفان، كانت ألفا و ستمائة و ستا و خمسين سنة، و عند النصارى فى إنجيلهم ألفان و مائتا سنة و اثنتان و أربعون سنة، و تزعم اليهود أن توراتهم بعيدة عن التخاليط، و تزعم النصارى: أن توراة السبعين التى هى بأيديهم لم يقع فيها تحريف، و لا تبديل، و تقول اليهود: فيها خلاف ذلك، و تقول السامرية: بأنّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹

توارثهم هى الحقّ، و ما عداها باطل، و لس فى اختلافهم ما يزيل الشك بل يقوّى الجالبة له، و هذا الاختلاف بعينه بين النصارى أيضا فى الإنجيل، و ذلك أنّ له عند النصارى أربع نسخ مجموعة فى مصحف واحد، أحدهما إنجيل متى، و الثانى لمارقوس، و الثالث للوقا، و الرابع ليوحنا، قد ألف كل من هؤلاء الأربعة إنجيلا على حسب دعوته فى بلاده، و هى مختلفة اختلافا كثيرا، حتى فى صفات المسيح عليه السلام، و أيام دعوته، و وقت الصلب بزعمهم، و فى نسبه أيضا، و هذا الاختلاف لا يحتمل مثله، و مع هذا فعند كل من

أصحاب مرقيون، و أصحاب ابن ديصان إنجيل يخالف بعضه هذا الأناجيل، و لأصحاب مانى إنجيل على حدة يخالف ما عليه النصارى من أوّله إلى آخره، و يزعمون أنه هو الصحيح، و ما عداه باطل.

و لهم أيضا إنجيل يسمى: إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس، و النصارى و غيرهم ينكرونه، و إذا كان الأمر من الاختلاف بين أهل الكتاب، كما قد رأيت و لم يكن للقياس و الرأى مدخل فى تميز حق ذلك من باطله امتنع الوقوف على حقيقة ذلك من قبلهم، و لم يعوّل على شىء من أقوالهم فيه، و أما غير أهل الكتاب، فإنهم أيضا مختلفون فى ذلك.

قال أسوش: بين خلق آدم و بين ليلة الجمعة أوّل الطوفان ألفا سنة و مائتا سنة و ست و عشرون سنة و ثلاثة و عشرون يوما و أربع ساعات، و قال ما شاه: و اسمه منشا بن أثرى منجم المنصور و المأمون فى كتاب القرانات: أوّل قران وقع بين زحل و المشترى فى بدء التحرّك، يعنى ابتداء النسل من آدم كان على مضىّ خمسمائة و تسع سنين و شهرين و أربعة و عشرين يوما مضت من ألف المريخ، فوقع القران فى برج الثور من المثلثة الأرضية على سبع درج و اثنتين و أربعين دقيقة، و كان انتقال الممرّ من برج الميزان، و مثلثته الهوائية إلى برج العقرب، و مثلثته المائية بعد ذلك بألفى سنة و أربعمائة سنة و اثنتى عشرة سنة و ستة أشهر و ستة و عشرين يوما، و وقع الطوفان فى الشهر الخامس من السنة الأولى من القران الثانى من قرانات هذه المثلثة المائية، و كان بين وقت القران الأوّل الكائن فى بدء التحرّك، و بين الشهر الذى كان فيه الطوفان ألفان و أربعمائة و ثلاث و عشرون سنة و ستة أشهر و اثنا عشر يوما، قال: و فى كل سبعة آلاف سنة و سنتين و عشرة أشهر و ستة أيام يرجع القران إلى موضعه من برج الثور الذى كان فى بدء التحرّك، و هذا القول أعزك اللّه هو الذى اشتهر، حتى ظنّ كثير من الملل، أنّ مدّة بقاء الدنيا سبعة آلاف سنة فلا تغترّ به، و تنبه إلى أصله تجده أوهى من بيت العنكبوت فاطرحه.

و قيل: كان بين آدم و بين الطوفان ثلاثة آلاف و سبعمائة و خمس و ثلاثون سنة، و قيل:

كانت بينهما مدّة ألفين و مائتين و ست و خمسين سنة، و قيل: ألفان و ثمانون سنة.

و أما تاريخ الطوفان: فإنه يتلو تاريخ الخليقة، و فيه من الاختلاف ما لا يطمع فى حقيقته من أجل الاختلاف فيما بين آدم و بينه و فيما بينه و بين تاريخ الإسكندر، فإن اليهود

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰

عندهم أنّ بين الطوفان، و بين الإسكندر ألفا و سبعمائة و اثنتين و تسعين سنة، و عند النصارى بينهما ألفا سنة و تسعمائة و ثمان و ثلاثون سنة، و الفرس و سائر المجوس، و الكلدانيون أهل بابل، و الهند، و أهل الصين، و أصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان، و أقرّ به بعض الفرس، لكنهم قالوا: لم يكن الطوفان بسوى الشام و المغرب، و لم يعمّ العمران كله و لا- غرّق إلا- بعض الناس، و لم يتجاوز عقبة حلوان، و لا بلغ إلى ممالك المشرق، قالوا: و وقع فى زمان طمهورت، و إنّ أهل المغرب لما أنذر حكماؤهم بالطوفان اتخذوا المبانى العظيمة كالهرمين بمصر، و نحوهما ليدخلوا فيها عند حدوثه، و لما بلغ طمهورت الإنذار بالطوفان قبل كونه بمائة و إحدى و ثلاثين سنة، أمر باختيار مواضع فى مملكته صحيحة الهواء و التربة، فوجد ذلك بأصبهان ، فأمر بتجليد العلوم، و دفنها فيها فى أسلم المواضع، و يشهد لهذا ما وجد بعد الثلاثمائة من سنى الهجرة فى حىّ من مدينة أصبهان من التلال التى انشقت عن بيوت مملوءة أعد الأعدّة كثيرة قد ملئت من لحاء الشجر التى تلبس بها القسىّ ، و تسمى:

التور مكتوبة بكتابة لم يدر أحد ما هى؟.

و أما المنجمون: فإنهم صححوا هذه السنين من القران الأوّل من قرانات العلويين:

زحل و المشترى التى أثبت علماء أهل بابل، و الكلدانيين مثلها إذا كان الطوفان ظهوره من ناحيتهم، فإنّ السفينة استقرّت على الجودىّ و هو غير بعيد من تلك النواحى، قالوا: و كان هذا القران قبل الطوفان بمائتين و عشرين سنة و مائة و ثمانية أيام، و اعتنوا بأمرها و صححوا ما بعدها، فوجدوا ما بين الطوفان، و بين أوّل ملك بخت نصر الأوّل ألفى سنة و ستمائة و أربع سنين، و بين بخت نصر هذا، و

بين الإسكندر أربعمائة و ست و ثلاثون سنة، و على ذلك بنى أبو معشر أوساط الكواكب فى زيجه، و قال: كان الطوفان عند اجتماع الكواكب فى آخر برج الحوت، و أوّل برج الحمل، و كان بين وقت الطوفان، و بين تاريخ الإسكندر قدر ألفى سنة و سبعمائة و تسعين سنة مكبوسة و سبعة أشهر و ستة و عشرين يوما، و بينه و بين يوم الخميس أوّل المحرّم من السنة الأولى من سنى الهجرة النبوية ألف ألف يوم و ثلثمائة ألف يوم و تسعة و خمسون ألف يوم و تسعمائة يوم و ثلاثة و سبعون يوما، يكون من السنين الفارسية المصرية ثلاثة آلاف سنة، و سبعمائة و خمسا و عشرين سنة، و ثلثمائة يوم و ثمانية و أربعين يوما.

و منهم من يرى أنّ الطوفان كان يوم الجمعة، و عند أبى معشر أنه كان يوم الخميس، و لما تقرّر عنده الجملة المذكورة، و خرجت له المدّة التى تسمى: أدوار الكواكب، و هى بزعمهم ثلثمائة ألف و ستون ألف سنة شمسية، و أوّلها متقدّم على وقت الطوفان بمائة ألف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱

و ثمانين ألف سنة شمسية، حكم بأنّ الطوفان كان فى مائة ألف و ثمانين ألف سنة، و سيكون فيما بعد كذلك، و مثل هذا لا يقبل إلّا بحجة أو من معصوم.

و أما تاريخ بخت نصر: فإنه على سنى القبط، و عليه يعمل فى استخراج مواضع الكواكب من كتاب المجسطى، ثم أدوار قالليس، و أوّل أدواره فى سنة ثمانى عشرة و أربعمائة لبخت نصر، و كل دور منها ست و سبعون سنة شمسية، و كان قالليس من جلّة أصحاب التعاليم، و بخت نصر هذا ليس هو الذى خرّب بيت المقدس، و إنما هو آخر كان قبل بخت نصر مخرّب بيت المقدس، بمائة و ثلاث و أربعين سنة، و هو اسم فارسىّ أصله بخت برسى، و معناه كثير البكاء و الأنين، و يقال له بالعبرانية: نصار، و قيل تفسيره: عطارد، و هو ينطق و ذلك لتحيبه على الحكمة، و تغريب أهلها ثم عرّب فقيل: بخت نصر.

و أما تاريخ فيلبس: فإنه على سنى القبط، و كثيرا ما يستعمل هذا التاريخ من موت الإسكندر البناء المقدونىّ، و كلا الأمرين سواء، فإن القائم بعد البناء هو فيلبس فسواء كان من موت الأوّل أو من قيام الآخر، فإن الحالة المؤرخة هى كالفصل المشترك بينهما، و فيلبس هذا هو أبو الإسكندر المقدونىّ، و يعرف هذا التاريخ: بتاريخ الإسكندرانيين، و عله بنى تاون الإسكندرانىّ فى تاريخه المعروف بالقانون، و أعلم.

و أما تاريخ الإسكندرية فإنه على سنى الروم عليه يعمل أكثر الأمم إلى وقتنا هذا من أهل الشام، و أهل بلاد الروم، و أهل المغرب و الأندلس، و الفرنج و اليهود، و قد تقدّم الكلام عليه عند ذكر الإسكندرية من هذا الكتاب.

و أما تاريخ أغشطش فإنه لا يعرف اليوم أحد يستعمله، و أغشطش هذا هو أوّل القياصرة، و معنى قيصر بالرومية شقّ عنه، فإنّ أغشطش هذا لما حملت به أمّه ماتت فى المخاض، فشق بطنها حتى أخرج منه، فقيل: قيصر، و به يلقب من بعده من ملوك الروم، و يزعم النصارى أنّ المسيح عليه السلام: ولد لأربعين سنة من ملكه، و فى هذا القول نظر، فإنه لا يصح عند سياقه السنين، و التواريخ بل يجىء تعديل ولادته عليه السلام فى السنة السابعة عشر من ملكه. و أما تاريخ أنطيس: فإن بطليموس صحح الكواكب الثابتة فى كتابه المعروف بالمجسطىّ لأوّل ملكه على الروم و سنو هذا التاريخ رومية.

ذكر تاريخ القبط

إعلم: أن السنة الشمسية عبارة عن عود الشمس فى فلك البروج إذا تحرّكت على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۲

خلاف حركة الكل إلى أىّ نقطة فرضت، ابتداء حركتها، و ذلك أنها تستوفى الأزمنة الأربعة التى هى الربيع، و الصيف، و الخريف، و الشتاء، و تحوز طبائعها الأربع، و تنتهى إلى حيث بدأت، و فى هذه المدّة يستوفى القمر اثنتى عشرة عودة، و أقلّ من نصف عودة، و يستهل اثنتى عشرة مرّة، فجعلت المدّة التى فيها عودات القمر الاثنتا عشرة فى فلك البروج سنة للقمر على جهة الاصطلاح، و أسقط

الكسر الذى هو أحد عشر يوما بالتقريب، فصارت السنة على قسمين: سنة شمسية، و سنة قمرية، و جميع من على وجه الأرض من الأمم أخذوا تواريخ سنيهم من مسير الشمس و القمر، فالآخذون بسير الشمس خمس أمم و هم:

اليونانيون، و السريانيون، و القبط، و الروم، و الفرس، و الآخذون بسير القمر خمس أمم هم:

الهند، و العرب، و اليهود، و النصارى، و المسلمون.

فأهل قسنطينية و الإسكندرية، و سائر الروم و السريانيون و الكلدانيون، و أهل مصر، و من يعمل برأى المعتضد أخذوا بالسنة الشمسية التى هى ثلثمائة و خمسة و ستون يوما و ربع يوم بالتقريب، و صيروا السنة ثلثمائة و خمسة و ستين يوما، و ألحقوا الأرباع بها فى كل أربع سنين يوما حتى انجبرت السنة، و سمّوا تلك السنة كبيسة لانكباس الأرباع فيها.

و أما قبط مصر القدماء: فإنهم كانوا يتركون الأرباع حتى يجتمع منها أيام سنة تامّة، و ذلك فى كل ألف و أربعمائة و ستين سنة، ثم يكبسونها سنة واحدة، و يتفقون حينئذ فى أوّل تلك السنة مع أهل الإسكندرية و قسطنطينية.

و أما الفرس: فإنهم جعلوا السنة ثلثمائة و خمسة و ستين يوما من غير كبس حتى اجتمع لهم من ربع اليوم فى مائة و عشرين سنة أيام شهر تامّ، و من خمس الساعة الذى يتبع ربع اليوم عندهم، يوم واحد، فألحقوا الشهر التامّ بها فى كل مائة و ست عشرة سنة، و اقتفى أثرهم فى هذا أهل خوارزم القدماء و الصغد، و من دان بدين فارس، و كانت الملوك البيشدادية منهم، و هم الذين ملكوا الدنيا بحذافيرها يعملون السنة ثلثمائة و خمسة و ستين يوما كل شهر منها: ثلاثون يوما سواء، و كانوا يكبسون السنة كل ست سنين بيوم، و يسمونها كبيسة، و كل مائة و عشرين سنة بشهرين أحدهما بسبب خمسة الأيام، و الثانى بسبب ربع اليوم، و كانوا يعظمون تلك السنة و يسمونها المباركة.

و أما قدماء القبط: و أهل فارس فى الإسلام، و أهل خوارزم و الصغد فتركوا الكسور أعنى الربع، و ما يتبعه أصلا. و أما العبرانيون، و جميع بنى إسرائيل، و الصابئون، و الحرّانيون فإنهم أخذوا السنة من مسير الشمس، و شهورها من مسير القمر لتكون أعيادهم، و صيامهم على حساب قمرىّ، و تكون مع ذلك حافظة لأوقاتها من السنة، فكبسوا كل تسع عشرة سنة قمرية بستة أشهر، و وافقهم النصارى فى صومهم، و بعض أعيادهم لأن مدار أمرهم على نسخ اليهود، و خالفوهم فى الشهور إلى مذهب الروم و السريانيين، و كانت

العرب فى جهالتها تنظر إلى فضل ما بين سنتهم، و سنة القمر، و هو عشرة أيام و إحدى و عشرون ساعة و خمس ساعة، فيلحقون ذلك بها شهرا كلما تمّ منها ما يستوفى أيام شهر، و لكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام و عشرون ساعة، و كان يتولى ذلك النّسأة من بنى كنانة المعروفون بالقلامس، و أحدهم قلمس، و هو البحر الغزير، و هو أبو تمام جنادة بن عوف بن أمية بن قلع، و أوّل من فعل ذلك منهم: حذيفة بن عبد فقيم، و آخر من فعله أبو تمامة، و أخذ العرب الكبس من اليهود قبل مجىء دين الإسلام بنحو المائتى سنة، و كانوا يكبسون فى كل أربعة و عشرين سنة، تسعة أشهر حتى تبقى أشهر السنة ثابتة مع الأزمنة على حالة واحدة لا تتأخر عن أوقاتها، و لا تتقدّم إلى أن حج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنزل اللّه تعالى عليه: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ [التوبة/ ۳۷]، فخطب صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السماوات و الأرض فبطل النسىء، و زالت شهور العرب عما كانت عليه، و صارت أسماؤها غير دالة على معانيها».

و أما أهل الهند فإنهم يستعملون رؤية الأهلة فى شهورهم، و يكبسون كل تسعمائة سنة و سبعين يوما بشهر قمرىّ، و يجعلون ابتداء تاريخهم: اتفاق اجتماع فى أوّل دقيقة من برج ما، و أكثر طلبهم لهذا الاجتماع أن يتفق فى إحدى نقطتى الاعتدالين، و يسمون السنة الكبيسة بذمات فهذه آراء الخليقة فى السنة.

و أما اليوم فإنه عبارة عن عود الشمس بدوران الكل إلى دائرة قد فرضت، و قد اختلف فيه فجعله العرب من غروب الشمس إلى غروبها من الغد، و من أجل أنّ شهور العرب مبنية على مسير القمر، و أوائلها مقيدة برؤية الهلال، و الهلال يرى لدن غروب الشمس، صارت الليلة عندهم قبل النهار، و عند الفرس و الروم، اليوم بليلته من طلوع الشمس بارزة من أفق المشرق إلى وقت طلوعها من الغد، فصار النهار عندهم قبل الليل، و احتجوا على قولهم:

بأنّ النور وجود، و الظلمة عدم، و الحركة تغلب على السكون لأنها وجود لا عدم، و حياة لا موت، و السماء أفضل من الأرض، و العامل الشاب أصح، و الماء الجارى لا يقبل عفونة كالراكد، و احتج الآخرون بأن الظلمة أقدم من النور، و النور طارىء عليها، فالأقدم يبدأ به، و غلبوا السكون على الحركة بإضافة الراحة و الدعة إليه، و قالوا: الحركة إنما هى الحاجة و الضرورة، و التعب تنتجه الحركة، و السكون إذا دام فى الاستقصاءات مدّة لم يولد فسادا، فإذا دامت الحركة فى الاستقصاءات و استحكمت أفسدت، و ذلك كالزلازل و العواصف، و الأمواج و شبهها، و عند أصحاب التنجيم أن اليوم بليلته من موافاة الشمس فلك نصف النهار إلى موافاتها إياه فى الغد، و ذلك من وقت الظهر إلى وقت العصر، و بنوا على ذلك حساب أزياجهم، و بعضهم ابتدأ باليوم من نصف الليل، و هو صاحب زيج شهر بارازانساه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴

و هذا هو حدّ اليوم على الإطلاق إذا اشترط الليلة فى التركيب فأمّا على التفصيل: فاليوم بانفراده، و النهار بمعنى واحد، و هو من طلوع جرم الشمس إلى غروب جرمها، و الليل خلاف ذلك و عكسه، و حدّ بعضهم أوّل النهار بطلوع الفجر و آخره بغروب الشمس لقوله تعالى: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ [البقرة/ ۱۸۷] و قال: هذان الحدّان هما طرفا النهار، و عورض بأنّ الآية إنما فيها بيان طرفى الصوم لا تعريف أوّل النهار، و بأن الشفق من جهة المغرب نظير الفجر من جهة المشرق، و هما متساويان فى العلة، فلو كان طلوع الفجر أوّل النهار، لكان غروب الشفق آخره، و قد التزم ذلك بعض الشيعة، فإذا تقرّر ذلك، فنقول تاريخ القبط يعرف عند نصارى مصر الآن بتاريخ الشهداء، و يسميه بعضهم، تاريخ دقلطيانوس.

ذكر دقلطيانوس الذى يعرف تاريخ القبط به

اشارة

إعلم: أنّ دقلطيانوس هذا: أحد ملوك الروم المعروفين بالقياصرة ملك فى منتصف سنة خمس و تسعين و خمسمائة من سنى الإسكندر، و كان من غير بيت الملك، فلما ملك تجبر و امتدّ ملكه إلى مدائن الأكاسرة، و مدينة بابل، فاستخلف ابنه على مملكة رومة، و اتخذ تخت ملكه بمدينة أنطاكية، و جعل لنفسه بلاد الشام و مصر إلى أقصى المغرب، فلما كان فى السنة التاسعة عشر من ملكه، و قيل: الثانية عشر خالف عليه أهل مصر، و الإسكندرية، فبعث إليهم و قتل منهم خلقا كثيرا، و أوقع بالنصارى فاستباح دماءهم و غلق كنائسهم، و منع من دين النصارى، و حمل الناس على عبادة الأصنام، و بالغ فى الإسراف فى قتل النصارى، و أقام ملكا إحدى و عشرين سنة، و هلك بعد علل صبعة دوّد منها بدنه، و سقطت أسنانه، و هو آخر من عبد الأصنام من ملوك الروم، و كل من ملك بعده فإنما كان على دين النصرانية، فإن الذى ملك بعده ابنه سنة واحدة، و قيل: أكثر من ذلك، ثم ملك قسطنطين الأكبر، فأظهر دين النصرانية، و نشره فى الأرض، و يقال: إن رجلا ثار بمصر، يقال له: أجله، و خرج عن طاعة الروم، فسار إليه دقلطيانوس و حصر الإسكندرية دار الملك يومئذ ثمانية أشهر، حتى أخذ أجله و قتله، و عمّ أرض مصر كلها بالسبى و القتل، و بعث قائده، فحارب سابور ملك فارس، و قتل أكثر عسكره، و هزمه و أسر امرأته و إخوته و أثخن فى بلاده، و عاد بأسرى كثيرة من رجال فارس، ثم أوقع بعامّة بلاد رومة، فأكثر فى قتلهم و سبيهم، فكانت أيامه شنعة، قتل فيها من أصناف الأمم، و هدم من بيوت العبادات ما لا يدخل تحت

حصر، و كانت واقعته بالنصارى هى الشدّة العاشرة، و هى أشنع شدائدهم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵

و أطولها لأنها دامت عليهم مدّة عشر سنين لا يفتر يوما واحدا يحرق فيها كنائسهم، و يعذب رجالهم، و يطلب من استتر منهم أو هرب ليقتل، يريد بذلك قطع أثر النصارى، و إبطال دين النصرانية من الأرض، فلهذا اتخذوا ابتداء ملك دقلطيانوس تاريخا، و كان ابتداء ملكه يوم الجمعة، و بينه و بين يوم الاثنين أوّل يوم من توت، و هو أوّل أيام ملك الإسكندر بن فيلبس المقدونىّ خمسمائة و أربع و تسعون سنة، و أحد عشر شهرا، و ثلاثة أيام، و بين يوم الجمعة أوّل يوم من تاريخ دقلطيانوس، و بين يوم الخميس أوّل يوم من سنة الهجرة النبوية ثلثمائة و ثمان و ثلاثون سنة قمرية و تسعة و ثلاثون يوما، و جعلوا شهور السنة القبطية اثنى عشر شهرا كل شهر منها عدده ثلاثون يوما سواء، فإذا تمت الأشهر الاثنا عشر أتبعوها بخمسة أيام زيادة على عدد أيامها، و سموا هذه الخمسة الأيام أبو عمنا، و تعرف اليوم: بأيام النسيء، فيكون الحال فى النسيء على ذلك ثلاث سنين متواليات، فإذا كان فى السنة الرابعة جعلوا النسيء ستة أيام، فتكون سنوهم ثلاث سنين متواليات كل سنة ثلثمائة و خمسة و ستون يوما و الرابعة يصير عددها ثلثمائة و ستة و ستين يوما، و يرجع حكم سنتهم إلى حكم سنة اليونانيين بأن تصير سنتهم الوسطى ثلثمائة و خمسة و ستين يوما و ربع يوم إلا أن الكبس يختلف، فإذا كان كبس القبط فى سنة كان كبس اليونانيين فى السنة الداخلة.

و أسماء شهور القبط : توت، بابه. هتور، كهيك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بؤونة، أبيب، مسرى؛ فهذه اثنا عشر شهرا كل شهر منها عدده ثلاثون يوما، و إذا كانت عدّة شهر مسرى، و هو الشهر الثانى عشر زادوا أيام النسيء بعد ذلك، و عملوا النوروز أوّل يوم من شهر توت.

ذكر أسابيع الأيام

إعلم: أن القدماء من الفرس و الصفد و قبط مصر الأول يم يكونوا يستعملون الأسابيع من الأيام فى الشهور، و أوّل من استعملها أهل الجانب الغربىّ من الأرض لا سيما أهل الشام، و ما حواليه من أجل ظهور الأنبياء عليهم السلام فيما هنا لك، و أخبارهم عن الأسبوع الأوّل و بدء العالم فيه، و إنّ اللّه خلق السماوات و الأرض فى ستة أيام من الأسبوع، ثم انتشر ذلك منهم فى سائر الأمم، و استعملته العرب العاربة بسبب تجاوز ديارهم، و ديار أهل الشام، فإنهم كانوا قبل تحوّلهم إلى اليمن ببابل، و عندهم أخبار نوح عليه السلام، ثم بعث اللّه تعالى إليهم هودا، ثم صالحا عليهما السلام، و أنزل فيهم إبراهيم خليل الرحمن ابنه إسماعيل عليهما السلام، فتعرّب إسماعيل، و كانت القبط الأول تستعمل أسماء الأيام الثلاثين من كل شهر، فتجعل لكل يوم منها اسما، كما هو العمل فى تاريخ الفرس،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶

و ما زالت القبط على هذا إلى أن ملك مصر أغشطش بن بوحس، فأراد أن يحملهم على كبس السنين ليوافقوا الروم أبدا فيها، فوجدوا الباقى حينئذ إلى تمام السنة الكبيسة الكبرى خمس سنين، فانتظر حتى مضى من ملكه خمس سنين، ثم حملهم على كبس الشهور فى كل أربع سنين بيوم، كما تفعل الروم، فترك القبط من حينئذ استعمال أسماء الأيام الثلاثين، لاحتياجهم فى يوم الكبس إلى اسم يخصه، و انقرض بعد ذلك مستعملو أسماء الأيام الثلاثين من أهل مصر، و العارفون بها، و لم يبق لها ذكر يعرف فى العالم بين الناس، بل دثرت كما دثر غيرها من أسماء الرسوم القديمة، و العادات الأول سنة اللّه فى الذين خلوا من قبل، و كانت أسماء شهور القبط فى الزمن القديم: توت، بؤونى، أتور، سواق، طوبى، ماكير، فامينوت، برموتى، باحون، باونى، افيعى، ابيقا؛ و كل شهر منها ثلاثون يوما، و لكل يوم اسم يخصه، ثم أحدث بعض رؤساء القبط بعد استعمالهم الكبس الأسماء التى هى اليوم متداولة بين الناس بمصر، إلا أن من الناس من يسمى كيهك كياك، و يقول فى برمهات برمهوط، و فى بشنس بشانس، و فى مسرى ماسورى، و من الناس من يسمى الخمسة الأيام الزائدة أيام النسيء، و منهم من يسميها أبو عمنا، و معنى ذلك الشهر الصغير، و هى كما تقدّم تلحق

فى آخر مسرى، و فيه يزاد اليوم الكبيس، فيكون أبو عمنا ستة أيام حينئذ، و يسمون السنة الكبيسة النقط، و معناه العلامة، و من خرافات القبط أنّ شهورهم هى شهور سنى نوح و شيث و آدم منذ ابتداء العالم، و إنها لم تزل على ذلك إلى أن خرج موسى ببنى إسرائيل من مصر، فعملوا أوّل سنتهم خامس عشر نيسان، كما أمروه به فى التوراة إلى أن نقل الإسكندر رأس سنتهم إلى أوّل تشرين، و كذلك المصريون نقل بعض ملوكهم أوّل سنتهم إلى أوّل يوم من ملكه، فصار أوّل توت عندهم يتقدّم أوّل يوم خلق فيه العالم بمائتين و ثمانية أيام أوّلها يوم الثلاثاء، و آخرها يوم السبت، و كان توت أوّله فى ذلك الوقت يوم الأحد، و هو أوّل يوم خلق اللّه فيه العالم الذى يقال له الآن: تاسع عشرى برمهات و ذلك أنّ أوّل من ملك على الأرض بعد الطوفان نمرود بن كنعان بن حام بن نوح، فعمر بابل، و هو أبو الكلدانيين، و ملك بنو مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام: متش فبنى منف بمصر على النيل، و سماها باسم جدّه مصرايم، و هو ثانى ملك ملك على الأرض، و هذان الملكان استعملا تاريخ جدّهما نوح عليه السلام، و استن بسنتهم من جاء بعدهم حتى تغيرت كما تقدّم.

ذكر أعياد القبط من النصارى بديار مصر

روى يونس عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه قال: اجتنبوا عيد اليهود و النصارى، فإنّ السخط ينزل عليهم فى مجامعهم، و لا تتعلموا رطانتهم فتخلقوا ببعض خلقهم.

و عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷

كِراماً [الفرقان/ ۷۲] قال: أعياد المشركين، فقيل له: أو ما هذا فى الشهادة بالزور، فقال:

لا إنما أية شهادة الزور، و لا تقف ما ليس لك به علم إنّ السمع و البصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا.

اعلم: أنّ نصارى مصر من القبط ينحلون مذهب اليعقوبية كما تقدّم ذكره، و أعيادهم الآن التى هى مشهورة بديار مصر أربعة عشر عيدا فى كل سنة من سنيهم القبطية منها سبعة أعياد يسمونها أعيادا كبارا، و سبعة يسمونها أعيادا صغارا. فالأعياد الكبار عندهم: عيد البشارة، و عيد الزيتونة، و عيد الفصح، و عيد خميس الأربعين، و عيد الخميس، و عيد الميلاد، و عيد الغطاس.

و الأعياد الصغار: عيد الختان، و عيد الأربعين، و خميس العهد، و سبت النور، و أحد الحدود، و التجلى، و عيد الصليب، و لهم مواسم أخر ليست هى عندهم من الأعياد الشرعية لكنها عندهم من المواسم العادية، و هو يوم النوروز، و سأذكر من خبر هذه الأعياد ما لا تجده مجموعا فى غير هذا الكتاب على ما استخرجته من كتب النصارى، و تواريخ أهل الإسلام.

عيد البشارة: هذا العيد عيد النصارى أصله بشارة جبريل مريم بميلاد المسيح عليهما السلام، و هم يسمون جبريل غبريال، و يقولون: مارت مريم، و يسمون المسيح: ياشوع، و ربما قالوا: السيد يشوع، و هذا العيد تعمله نصارى مصر فى اليوم التاسع و العشرين من شهر برمهات .

عيد الزيتونة: و يعرف عندهم: بعيد الشعانين، و معناه التسبيح، و يكون فى سابع أحد من صومهم و سنتهم فى عيد الشعانين أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة، و يرون أنه يوم ركوب المسيح العنو، و هو الحمار فى القدس، و دخوله إلى صهيون، و هو راكب و الناس بين يديه يسبحون، و هو يأمر بالمعروف، و يحث على عمل الخير، و ينهى عن المنكر، و يباعد عنه، و كان عيد الشعانين من مواسم النصارى بمصر التى تزين فيها كنائسهم، فلما كان لعشر خلون من شهر رجب سنة ثمان و سبعين و ثلثمائة، كان عيد الشعانين فمنع الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور بن العزيز بالله النصارى من تزيين كنائسهم، و حملهم الخوص على ما كانت عادتهم، و قبض على عدّة ممن وجد معه شيئا من ذلك، و أمر بالقبض على ما هو محبس على الكنائس من الأملاك، و أدخلها فى الديوان، و كتب لسائر الأعمال بذلك، و أحرقت عدّة من صلبانهم على باب الجامع العتيق و الشرطة.

عيد الفصح: هذا العيد عندهم هو العيد الكبير، و يزعمون أنّ المسيح عليه السلام،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸

لما تمالأ اليهود عليه، و اجتمعوا على تضليله و قتله، قبضوا عليه، و أحضروه إلى خشبة ليصلب عليها، فصلب على خشبة عليها لصان، و عندنا و هو الحق أنّ اللّه تعالى رفعه إليه، و لم يصلب، و لم يقتل و أنّ الذى صلب على الخشبة مع اللصين غير المسيح ألقى اللّه عليه شبه المسيح، قالوا: و اقتسم الجند ثيابه، و غشى الأرض ظلمة من الساعة السادسة من النهار إلى الساعة التاسعة من يوم الجمعة خامس عشر هلال نيسان للعبرانيين، و تاسع عشرى برمهات، و خامس عشرى آذار سنة و دفن الشبيه آخر النهار بقبر، و أطبق عليه حجر عظيم، و ختم عليه رؤساء اليهود، و أقاموا عليه الحرس باكر يوم السبت، كيلا يسرق فزعموا أنّ المقبور قام من القبر ليلة الأحد سحرا، و مضى بطرس، و يوحنا التلميذان إلى القبر، و إذا الثياب التى كانت على المقبور بغير ميت، و على القبر ملاـك اللّه بثياب بيض، فأخبرهما بقيام المقبور من القبر، قالوا: و فى عشية يوم الأحد هذا، دخل المسيح على تلاميذه، و سلّم عليهم، و أكل معهم، و كلمهم و أوصاهم، و أمرهم بأمور قد تضمنها إنجيلهم، و هذا العيد عندهم بعد عيد الصلبوت بثلاثة أيام.

خميس الأربعين: و يعرف عند أهل الشام بالمسلاق، و يقال له أيضا: عيد الصعود، و هو الثانى و الأربعون من الفطر، و يزعمون أنّ المسيح عليه السلام بعد أربعين يوما من قيامته خرج إلى بيت عينا، و التلاميذ معه، فرفع يديه و بارك عليهم، و صعد إلى السماء، و ذلك عند إكماله ثلاثا و ثلاثين سنة و ثلاثة أشهر، فرجع التلامذة إلى أوراسليم يعنى بيت المقدس، و قد وعدهم باشتهار أمرهم، و غير ذلك مما هو معروف عندهم، فهذا اعتقادهم فى كيفية رفع المسيح، و من أصدق من اللّه حديثا.

عيد الخميس: و هو العنصرة، و يعملونه بعد خمسين يوما من يوم القيام، و زعموا أن بعد عشرة أيام من الصعود و خمسين يوما من قيامة المسيح، اجتمع التلاميذ فى علية صهيون، فتجلى لهم روح القدس فى شبه ألسنة من نار، فامتلأوا من روح القدس، و تكلموا بجميع الألسن، و ظهرت على أيديهم آيات كثيرة، فعاداهم اليهود، و حبسوهم فنجاهم اللّه منهم، و خرجوا من السجن، فساروا فى الأرض متفرّقين يدعون الناس إلى دين المسيح.

عيد الميلاد: يزعمون أنه اليوم الذى ولد فيه المسيح، و هو يوم الاثنين فيحيون عشية ليلة الميلاد، و سنتهم فيه كثرة الوقود بالكنائس، و تزيينها، و يعملونه بمصر فى التاسع و العشرين من كيهك و لم يزل بديار مصر من المواسم المشهورة، فكان يفرّق فيه أيام الدولة الفاطمية على أرباب الرسوم من الأستاذين المحنكين، و الأمراء المطوّقين، و سائر الموالى من الكتاب و غيرهم، الجامات من الحلاوة القاهرية، و المثارد التى فيها السميذ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹

و قربات الجلاب، و طمافير الزلابية، و السمك المعروف بالبوريّ، و من رسم النصارى فى الميلاد اللعب بالنار. و من أحسن ما قيل:

ما اللعب بالنار فى الميلاد من سفهو إنما فيه للإسلام مقصود

ففيه بهت النصارى أنّ ربهمعيسى ابن مريم مخلوق و مولود

و أدركنا الميلاد بالقاهرة و مصر، و سائر إقليم مصر موسما جليلا يباع فيه من الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة، و التماثيل البديعة بأموال لا تنحصر، فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم و أدناهم حتى يشترى من ذلك لأولاده و أهله، و كانوا يسمونها: الفوانيس، و احدها فانوس، و يعلقون منها فى الأسواق بالحوانيت شيئا يخرج عن الحدّ فى الكثرة و الملاحة، و يتنافس الناس فى المغالات فى أثمانها حتى لقد أدركت شمعة عملت فبلغ مصروفها: ألف درهم و خمسمائة درهم فضة عنها يومئذ ما ينيف على سبعين مثقالا من الذهب و اعرف السؤال فى الطرقات أيام هذه المواسم، و هم يسألون اللّه أن يتصدّق عليهم بفانوس، فيشترى لهم من صغار الفوانيس، ما يبلغ ثمنه الدرهم، و ما حوله ثم لما اختلت أمور مصر، كان من جملة ما بطل من عوايد الترف، عمل الفوانيس فى الميلاد إلّا قليلا.

الغطاس: و يعمل بمصر فى اليوم الحادى عشر من شهر طوبه ، و أصله عند النصارى، أنّ يحيى بن زكرياء عليهما السلام المعروف

عندهم بيوحنا المعمدانيّ: عمّد المسيح أى غسله فى بحيرة الأردن، و عندما خرج المسيح عليه السلام من الماء، اتصل به روح القدس، فصار النصارى لذلك يغمسون أولادهم فى الماء فى هذا اليوم، و ينزلون فيه بأجمعهم، و لا يكون ذلك إلا فى شدّة البرد، و يسمونه يوم الغطاس، و كان له بمصر موسم عظيم إلى الغاية.

قال المسعودىّ: و لليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها، و هى ليلة الحادى عشر من طوبه، و لقد حضرت سنة ثلاثين و ثلثمائة ليلة الغطاس بمصر، و الإخشيد محمد بن طغج أمير مصر فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة الراكبة للنيل، و النيل يطيف بها، و قد أمر فأسرج فى جانب الجزيرة، و جانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل و الشمع، و قد حضر بشاطئ النيل فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين، و من النصارى منهم فى الزواريق، و منهم فى الدور الدانية من النيل، و منهم على سائر الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل و المشارب و الملابس، و آلات الذهب و الفضة، و الجوهر و الملاهى، و العزف و القصف، و هى أحسن ليلة تكون بمصر، و أشملها سرورا، و لا تغلق فيها الدروب، و يغطس أكثرهم فى النيل، و يزعمون أنّ ذلك أمان من المرض و نشزة للداء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰

و قال المسبحىّ فى تاريخه: من حوادث سنة سبع و ستين و ثلثمائة: منع النّصارى من إظهار ما كانوا يفعلونه فى الغطاس من الاجتماع، و نزول الماء، و إظهار الملاهى، و نودى أن من عمل ذلك نفى من الحضرة، و قال فى سنة ثمان و ثمانين و ثلثمائة: كان الغطاس فضربت الخيام و المضارب و الأسرّة فى عدّة مواضع على شاطىء النيل، و نصبت أسرّة للرئيس فهد بن إبراهيم النصرانىّ كاتب الأستاذ برجوان ، و أوقدت له الشموع و المشاعل، و حضر المغنون و الملهون، و جلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس، فغطس و انصرف.

و قال: فى سنة إحدى و أربعمائة، و فى ثامن عشرى جمادى الأولى، و هو عاشر طوبه منع النصارى من الغطاس، فلم يغطس أحد منهم فى البحر، و قال: فى حوادث سنة خمس عشرة و أربعمائة، و فى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة، كان غطاس النصارى، فجرى الرسم من الناس فى شراء الفواكه و الضأن و غيره، و نزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين اللّه لقصر جدّه العزيز بالله فى مصر، لنظر الغطاس، و معه الحرم، و نودى أن لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم فى البحر فى النيل، و ضرب بدر الدولة الخادم الأسود متولى الشرطتين، خيمة عند الجسر، و جلس فيها و أمر أمير المؤمنين بأن توقد النار و المشاعل فى الليل، و كان وقيدا كثيرا، و حضر الرهبان و القسوس بالصلبان و النيران، فقسسوا هناك طويلا إلى أن غطسوا، و قال ابن المأمون فى تاريخه: من حوادث سنة سبع عشرة و خمسمائة، و ذكر الغطاس، ففرّق أهل الدولة ما جرت به العادة لأهل الرسوم من الأترج و النارنج و الليمون فى المراكب، و أطنان القصب و البورى بحسب الرسوم المقرّرة بالديوان لكل واحد.

الختان: يعمل فى سادس شهر بؤونة ، و يزعمون أنّ المسيح ختن فى هذا اليوم، و هو الثامن من الميلاد، و القبط من دون النصارى تختن بخلاف غيرهم.

الأربعون: و هو عندهم دخول المسيح الهيكل، و يزعمون أنّ سمعان الكاهن: دخل بالمسيح مع أمّه، و بارك عليه، و يعمل فى ثامن شهر أمشير .

خميس العهد: و يعمل قبل الفصح بثلاثة أيام، و سنتهم فيه أن يملئوا إناء من ماء، و يزمزمون عليه، ثم يغسل للتبرّك به أرجل سائر النصارى، و يزعمون أنّ المسيح فعل هذا بتلامذته فى مثل هذا اليوم كى يعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد أن لا يتفرّقوا، و أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱

يتواضع بعضهم لبعض، و عوامّ أهل مصر فى وقتنا يقولون: خميس العدس من أجل أنّ النصارى تطبخ فيه العدس المصفى، و يقول أهل الشام: خميس الأرز و خميس البيض، و يقول أهل الأندلس: خميس أبريل، و أبريل اسم شهر من شهورهم، و كان فى الدولة

الفاطمية تضرب فى خميس العدس هذا خمسمائة دينار، فتعمل خراريب تفرّق فى أهل الدولة برسوم مفردة كما ذكر فى أخبار القصر من القاهرة عند ذكر دار الضرب من هذا الكتاب، و أدركنا خميس العدس هذا فى القاهرة و مصر، و أعمالها من جملة المواسم العظيمة، فيباع فى أسواق القاهرة من البيض المصبوغ عدّة ألوان ما يتجاوز حدّ الكثرة، فيقامر به العبيد و الصبيان و الغوغاء، و ينتدب لذلك من جهة المحتسب من يردعهم فى بعض الأحيان، و يهادى النصارى بعضهم بعضا، و يهدون إلى المسلمين أنواع السمك المنوّع مع العدس المصفى، و البيض، و قد بطل ذلك لما حلّ بالناس و بقيت منه بقية.

سبت النور: و هو قبل الفصح بيوم، و يزعمون: أنّ النور يظهر على قبر المسيح بزعمهم فى هذا اليوم بكنيسة القيامة من القدس، فتشعل مصابيح الكنيسة كلها، و قد وقف أهل الفصح، و التفتيش على أنّ هذا من جملة مخاريق النصارى، لصناعة يعملونها، و كان بمصر هذا اليوم من جملة المواسم، و يكون ثالث يوم من خميس العدس، و من توابعه.

حدّ الحدود: و هو بعد الفصح بثمانية أيام فيعمل أوّل أحد بعد الفطر لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم، و فيه يجدّون الآلات و الأثاث و اللباس، و يأخذون فى المعاملات، و الأمور الدنيوية و المعاش.

عيد التجلى: يعمل فى ثالث عشر شهر مسرى يزعمون أن المسيح تجلى لتلاميذه بعد ما رفع، و تمنوا عليه أن يحضر لهم إيلياء، و موسى عليهما السلام، فأحضرهما إليهم بمصلى بيت المقدس، ثم صعد إلى السماء و تركهم.

عيد الصليب: و يعمل فى اليوم السابع عشر من شهر توت ، و هو من الأعياد المحدثة، و سببه ظهور الصليب بزعمهم على يد هيلانة أم قسطنطين، و له خبر طويل عندهم ملخصه ما أنت تراه.

ذكر قسطنطين: و قسطنطين هذا: هو ابن قسطنش بن و ليطنوش بن أرشميوش بن دقبون بن كلوديش بن عايش بن كتبيان اعسب الأعظم الملقب قيصر، و هو أوّل من ثبت دين النصرانية، و أمر بقطع الأوثان، و هدم هياكلها، و بنيان البيع، و آمن من الملوك بالمسيح، و كانت أمّه هيلانة من مدينة الرها، فنشأ بها مع أمّه، و تعلم العلوم، و لم يزل فى غاية من

الظفر و السعادة معانا منصورا على كل من حاربه، و كان فى أوّل أمره على دين المجوس شديدا على النصارى ماقتا لدينهم، و كان سبب رجوعه عن ذلك إلى دين النصرانية أنه ابتلى بجذام ظهر عليه، فاغتمّ لذلك غما شديدا، و جمع الحذاق من الأطباء، فاتفقوا على أدوية دبّروها له، و أوجبوا أن يستنقع بعد أخذ تلك الأدوية فى صهريج مملوء من دماء أطفال رضع ساعة يسيل منهم، فتقدّم أمره بجمع جملة من أطفال الناس، و أمر بذبحهم فى صهريج ليستنقع فى دمائهم، و هى طرية، فجمعت الأطفال لذلك، و برز ليمضى فيهم ما تقدّم به من ذبحهم، فسمع ضجيج النساء اللّاتى أخذ أولادهنّ، فرحمهنّ و أمر فدفع لكل واحدة ابنها، و قال: احتمال علّتى أولى بى، و أوجب من هلاك هذه العدّة العظيمة من البشر، فانصرف النساء بأولادهنّ، و قد سررن سرورا كثيرا، فلما صار من الليل إلى مضجعه رأى فى منامه شيخا يقول له: إنك رحمت الأطفال و أمّهاتهم، و رأيت احتمال علتك أولى من ذبحهم، فقد رحمك اللّه، و وهبك السلامة من علتك، فابعث إلى رجل من أهل الإيمان يدعى: شلبشقر، قد فرّ خوفا منك، وقف عندما يأمرك به، و التزم ما يخصك عليه تتم لك العافية، فانتبه مذعورا، و بعث فى طلب شلبشقر الأسقف، فأتى به إليه و هو يظنّ أنه يريد قتله، لما عهده من غلظته على النصارى، و مقته لدينهم، فعندما رآه تلقاه بالبشر، و أعلمه بما رآه فى منامه، قفص عليه دين النصرانية، و كانت له معه أخبار طويلة مذكورة عندهم، فبعث قسطنطين فى جمع الأساقفة المنفيين، و المسيرين و التزم دين النصرانية، و شفاه اللّه من الجذام، فأيد الديانة، أعلن بالإيمان بدين المسيح، و بينا هو فى ذلك إذ توقع و ثوب أهل رومة عليه، و إيقاعهم به، فخرج عنها و بنى مدينة قسطنطينية بنيانا جليلا فعرفت به، و سكنها فصارت موضع تخت الملك من عهده، و قد كان النصارى من لدن زمان بيرون الملك الذى قبل الحواريين، و من بعده ممن ملك رومة فى كل وقت يقتلون، و يحبسون و يشرّدون بالنفى، فلما سكن قسطنطين مدينة قسطنطينية جمع إلى نفسه أهل المسيح، و قوّى وجوههم و أذلّ عبّاد الأوثان، فشق ذلك على أهل رومة، و خلعوا طاعته، و قدّموا

عليهم ملكا، فأهمه ذلك، و مرّت له معهم عدّة أخبار مذكورة فى تاريخ رومة، ثم إنه خرج من قسطنطينية يريد رومة، و قد استعدّوا لحربه، فلما قاربهم أذعنوا له، و التزموا طاعته، فدخلها فأقام إلى أن رجع لحرب الفرس، و خرج إليهم، فقهرهم و دانت له أكثر ممالك الدنيا، فلما كان فى عشرين سنة من دولته، خرجت الفرس على بعض أطرافه، فغزاهم و أخرجهم عن بلاده، و رأى فى منامه كأن بنودا شبه الصليب قد رفعت، و قائلا يقول له: إن أردت أن تظفر بمن خالفك، فاجعل هذه العلامات على جميع بركك، و سككك، فما انتبه أمر بتجهيز أمه هيلانة إلى بيت المقدس فى طلب آثار المسيح عليه السلام، و بناء الكنائس، و إقامة شعائر النصرانية، فسارت إلى بيت المقدس، و بنت الكنائس، فيقال: إنّ الأسقف مقاريوس دلّها على الخشبة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳

التى زعموا أن المسيح صلب عليها، و قد قص عليها ما عمل به اليهود، فحفرت فإذا قبر و ثلاث خشبات على شكل الصليب، فزعموا أنهم ألقوا الثلاث خشبات على ميت واحدة بعد واحدة، فقام حيّا عندما وضعت عليه الخشبة الثالثة منها، فاتخذوا ذلك اليوم عيدا، و سمّوه: عيد الصليب، و كان فى اليوم الرابع عشر من أيلول و السابع عشر من توت، و ذلك بعد ولادة المسيح بثلاثمائة و ثمان و عشرين سنة، و جعلت هيلانة لخشبات الصليب غلافا من ذهب، و بنت كنيسة القيامة ببيت المقدس على قبر المسيح بزعمهم، و كانت لها مع اليهود أخبار كثيرة قد ذكرت عندهم، ثم انصرفت بالصليب معها إلى ابنها، و ما زال قسطنطين على ممالك الروم إلى أن مات بعد أربع و عشرين سنة من ولايته، فقام من بعده بممالك الروم ابنه قسطنطين الأصغر، و قد كان لعيد الصليب بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه إلى بنى وائل بظاهر فسطاط مصر، و يتظاهرون فى ذلك اليوم بالمنكرات من أنواع المحرّمات، و يمرّ لهم فيه ما يتجاوز الحدّ، فلما قدمت الدولة الفاطمية إلى ديار مصر، و بنوا القاهرة، و استوطنوها، و كانت خلافة أمير المؤمنين العزيز بالله أمر فى رابع شهر رجب فى سنة إحدى و ثمانين و ثلثمائة، و هو يوم الصليب، فمنع الناس من الخروج إلى بنى وائل و ضبط الطرق و الدروب، ثم لما كان عيد الصليب فى اليوم الرابع عشر من شهر رجب سنة اثنتين و ثمانين و ثلثمائة خرج الناس فيه إلى بنى وائل، و جروا على عادتهم فى الاجتماع و اللهو، و فى صفر سنة اثنتين و أربعمائة قرىء فى سابعه سجل بالجامع العتيق و فى الطرقات كتب عن الحاكم بأمر اللّه يشتمل على منع النصارى من الاجتماع على عمل عيد الصليب، و أن لا يظهروا بزينتهم فيه، و لا يقربوا كنائسهم، و أن يمنعوا منها ثم بطل ذلك، حتى لم يكد يعرف اليوم بديار مصر البتة.

النيروز: هو أوّل السنة القبطية بمصر، و هو أوّل يوم من توت، و سنتهم فيه إشعال النيران، و التراش بالماء، و كان من مواسم لهم المصريين قديما و حديثا. قال ابن وهب:

بردت النار فى الليلة التى ألقى فيها إبراهيم، و فى صبيحتها على الأرض كلها، فلم ينتفع بها أحد فى الدنيا تلك الليلة، و ذلك الصباح، فمن أجل ذلك بات الناس على النار فى تلك الليلة التى رمى فيها إبراهيم عليه السلام، و وثبوا عليها، و تبخروا بها، و سموا تلك الليلة:

نيروزا، و النيروز فى اللسان السريانى: العيد. و سئل ابن عباس عن النيروز لم اتخذوه عيدا، فقال: إنه أوّل السنة المستأنفة و آخر السنة المنقطعة، فكانوا يستحبون أن يقدموا فيه على ملوكهم بالطرف، و الهدايا، فاتخذته الأعاجم سنّة.

قال الحافظ أبو القاسم علىّ بن عساكر فى تاريخ دمشق من طريق ابن عباس رضى اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴

عنهما، قال: إنّ فرعون لما قال للملأ من قومه: إن هذا لساحر عليم، قالوا له: ابعث إلى السحرة، فقال فرعون لموسى: يا موسى اجعل بيننا و بينك موعدا لا نخلفه نحن، و لا أنت، فتجتمع أنت و هارون و تجتمع السحرة، فقال موسى: موعدكم يوم الزينة، قال:

و وافق ذلك يوم السبت فى أوّل يوم من السنة، و هو يوم النيروز، و فى رواية: أن السحرة قالوا لفرعون: أيها الملك واعد الرجل، فقال: قد واعدته يوم الزينة، و هو عيدكم الأكبر، و وافق ذلك يوم السبت، فخرج الناس لذلك اليوم، قال: و النوروز أوّل سنة الفرس،

و هو الرابع عشر من آذار، و فى شهر برمهات، و يقال: أوّل من أحدثه جمشيد من ملوك الفرس، و إنه ملك الأقاليم السبعة، فلما كمل ملكه، و لم يبق له عدوّ اتخذ ذلك اليوم عيدا، و سماه نوروزا فى اليوم الجديد، و قيل: إن سليمان بن داود عليهما السلام، أوّل من وضعه فى اليوم الذى رجع إليه فيه خاتمه، و قيل: هو اليوم الذى شفى فيه أيوب عليه السلام، و قال اللّه سبحانه و تعالى له: ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ [ص/ ۴۲] فجعل ذلك اليوم عيدا، و سنّوا فيه رش الماء، و يقال: كان بالشام سبط من بنى إسرائيل أصابهم الطاعون، فخرجوا إلى العراق، فبلغ ملك العجم خبرهم، فأمر أن تبنى عليهم حظيرة يجعلون فيها، فلما صاروا فيها ماتوا، و كانوا أربعة آلاف رجل، ثم إن اللّه تعالى أوحى إلى نبيّ ذلك الزمان أ رأيت بلاد كذا و كذا، فحاربهم بسبط بنى فلان، فقال: يا رب كيف أحارب بهم، و قد ماتوا، فأوحى اللّه إليه: إنى أحييهم لك، فأمطرهم اللّه ليلة من الليالى فى الحظيرة، فأصبحوا أحياء فهم الذين قال اللّه فيهم: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ، فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ [البقرة/ ۲۴۳] فرفع أمرهم إلى ملك فارس، فقال: تبرّكوا بهذا اليوم، و ليصب بعضكم على بعض الماء، فكان ذلك اليوم يوم النوروز، فصارت سنّة إلى اليوم، و سئل الخليفة المأمون عن رش الماء فى النوروز، فقال قول اللّه تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ [البقرة/ ۲۴۳] هؤلاء قوم أجدبوا تقول مات فلان هزالا فغيثوا فى هذا اليوم برشة من مطر فعاشوا، فأخصب بلدهم، فلما أحياهم اللّه بالغيث، و الغيث يسمى الحيا جعلوا صب الماء فى مثل هذا اليوم سنّة يتبرّكون بها إلى يومنا هذا.

و قد روى: أن الذين خرجوا من ديارهم و هم ألوف قوم من بنى إسرائيل فرّوا من الطاعون، و قيل: أمروا بالجهاد، فخافوا الموت بالقتل فى الجهاد، فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك، فأماتهم اللّه ليعرّفهم أنه لا ينجيهم من الموت شىء، ثم أحياهم على يد حزقيل أحد أنبياء بنى إسرائيل فى خبر طويل قد ذكره أهل التفسير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵

و قال علىّ بن حمزة الأصفهانىّ فى كتاب أعياد الفرس: إنّ أوّل من اتخذ النيروز، جمشيد، و يقال: جمشاد أحد ملوك الفرس الأول، و معنى النوروز اليوم الجديد، و النوروز عند الفرس يكون يوم الاعتدال الربيعىّ، كما أنّ المهرجان أوّل الاعتدال الخريفىّ، و يزعمون أن النوروز أقدم من المهرجان، فيقولون: إن المهرجان كان فى أيام أفريدون، و إنه أوّل من عمله لما قتل الضحاك، و هو بيوراست، فجعل يوم قتله عيدا سماه المهرجان، و كان حدوثه بعد النوروز بألفى سنة و عشرين سنة.

و قال ابن وصيف شاه فى ذكر مناوش بن منقاوش أحد ملوك القبط فى الدهر القديم:

و هو أوّل من عمل النوروز بمصر، فكانوا يقيمون سبعة أيام يأكلون و يشربون إكراما للكواكب.

و قال ابن رضوان: و لمّا كان النيل هو السبب الأعظم فى عمارة أرض مصر، رأى المصريون القدماء، و خاصة الذين كانوا فى عهد قلديانوس الملك أن يجعلوا أوّل السنة فى أوّل الخريف عند استكمال النيل الحاجة فى الأمر الأكثر، فجعلوا أوّل شهورهم توت، ثم بابه ثم هاتور، و على هذا الولاء بحسب المشهور من ترتيب هذه الشهور.

و قال ابن زولاق: و فى هذه السنة، يعنى سنة ثلاث و ستين و ثلثمائة، منع أمير المؤمنين المعز لدين اللّه من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك، و من صبّ الماء يوم النوروز.

و قال: فى سنة أربع و ستين، و فى يوم النوروز زاد اللعب بالماء، و وقود النيران، و طاف أهل الأسواق، و عملوا فيه و خرجوا إلى القاهرة بلعبهم، و لعبوا ثلاثة أيام، و أظهروا السماجات و الحلى فى الأسواق، ثم أمر المعز بالنداء بالكف، و أن لا توقد نار، و لا يصب ماء، و أخذ قوم فحبسوا، و أخذ قوم فطيف بهم على الجمال. و قال ابن المأمون فى تاريخه:

و حلّ موسم النوروز فى اليوم التاسع من رجب سنة سبع عشرة و خمسمائة، و وصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز، و ثغر الإسكندرية مع ما يتبعها من الآلات المذهبة، و الحريرى و السوادج، و أطلق جميع ما هو مستقرّ من الكسوات الرجالية و النسائية و العين و الورق، و جميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها، و أسماء أربابها، و أصناف النوروز البطيخ و الرمان، و

عناقيد الموز، و أفراد البسر، و أقفاص التمر القوصى، و أقفاص السفرجل، و بكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج، و من لحم الضأن، و من لحم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۶

البقر من كل لون بكلة مع حبرير مارق، قال: و أحضر كاتب الدفتر الحسابات بما جرت به العادة من إطلاق العين و الورق، و الكسوات على اختلافها فى يوم النوروز، و غير ذلك من جميع الأصناف، و هو أربعة آلاف دينار ذهبا و خمسة عشر ألف درهم فضة، و الكسوات عدّة كثيرة من شقق ديبقية مذهبات و حريريات، و معاجر و عصائب نسائيات ملوّنات و سقولاد مذهب و حريرى، و مسفع، و فوط ديبقية حريرية، فأما العين و الورق و الكسوات، فذلك لا يخرج عمن تحوزه القصور، و دار الوزارة و الشيوخ و الأصحاب، و الحواشى و المستخدمين و رؤساء العشاريات، و بحاريها، و لم يكن لأحد من الأمراء على اختلاف درجاتهم فى ذلك نصيب.

و أما الأصناف من البطيخ و الرّمان و البسر و الموز و السفرجل و العناب و الهرائس على اختلافها، فيشمل ذلك جميع من تقدّم ذكرهم، و يشركهم فيه جميع الأمراء أرباب الأطواق و الإنصاف و غيرهم من الأماثل، و الأعيان من له جاه، و رسم فى الدولة.

و قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة أربع و ثمانين و خمسمائة يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطىّ، و هو مستهلّ توت، و توت أوّل سنتهم، و قد كان بمصر فى الأيام الماضية و الدولة الخالية من مواسم بطالاتهم، و مواقيت ضلالاتهم، فكانت المنكرات ظاهرة فيه، و الفواحش صريحة فيه، و يركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز، و مه جمع كثير، و يتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه، و يرسم على دور الأكابر بالجمل الكبار، و يكتب مناشير، و يندب مرسمين كل ذلك يخرج مخرج الطير، و يقنع بالميسور من الهبات، و يجتمع المغنون، و الفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدهم الخليفة، و بأيديهم الملاهى، و ترتفع الأصوات، و يشرب الخمر و المزر شربا ظاهرا بينهم، و فى الطرقات، و يتراش الناس بالماء، و بالماء و الخمر، و بالماء ممزوجا بالأقذار، و إن غلط مستور، و خرج من بيته لقيه من يرشه، و يفسد ثيابه، و يستخف بحرمته، فإمّا أن يفدى نفسه، و إمّا أن يفضح، و لم يجر الحال على هذا، و لكن قد رش الماء فى الحارات، و قد أحيى المنكرات فى الدور أرباب الخسارات.

و قال فى متجدّدات سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة: و جرى الأمر فى النوروز على العادة من رش الماء، و استجدّ فيه هذا العام التراجم بالبيض، و التصافع بالأنطاع، و انقطع الناس عن التصرّف، و من ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة، و خرق به، و ما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء، و التصافع بالجلود، و غيرها إلى أن كانت أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، و أمر الدولة بديار مصر، و تدبيرها إلى الأمير الكبير برقوق قبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷

أن يجلس على سرير الملك، و يتسمى بالسلطان، فمنع من لعب النوروز، و هدّد من لعبه بالعقوبة، فانكف الناس عن اللعب فى القاهرة، و صاروا يعملون شيئا من ذلك فى الخلجان، و البرك، و نحوها من مواضع التنزه، بعد ما كانت أسواق القاهرة تتعطل فى يوم النوروز زمن البيع و الشراء، و يتعاطى الناس فيه من اللهو و اللعب ما يخرجون عن حدّ الحياء و الحشمة إلى الغاية من الفجور و العهور، و قلما انقضى يوم نوروز إلّا و قتل فيه قتيل أو أكثر، و لم يبق الآن للناس من الفراغ ما يقتضى ذلك، و لا من الرفه و البطر ما يوجب لهم عمله، و ما أحسن قول بعضهم:

كيف ابتهاجك بالنوروز يا سكنىو كل ما فيه يحكينى و أحكيه

فتارة كلهيب النار فى كبدىو تارة كتوالى دمعتى فيه

و قال آخر:

نوروز الناس و نورزت و لكن بدموعىو ذكت نارهم و النار ما بين ضلوعى

و قال آخر:

و لما أتى النوروز يا غاية المنىو أنت على الأعراض و الهجر و الصدّ

بعثت بنار الشوق ليلا إلى الحشافنورزت صبحا بالدموع على الخدّ

ذكر ما يوافق أيام الشهور القبطية من الأعمال فى الزراعات، و زيادة النيل، و غير ذلك على ما نقله أهل مصر عن قدمائهم و اعتمدوا عليه فى أمورهم

اعلم: أنّ المصريين القدماء اعتمدوا فى تاريخهم السنة الشمسية كما تقدّم ذكره ليصير الزمان محفوظا، و أعمالهم واقعة فى أوقات معلومة من كل سنة، لا يتغير وقت عمل من أعمالهم بتقديم و لا تأخير البتة.

توت: بالقبطىّ هو أيلول، و كانت عادة مصر مذ عهد فراعنتها فى استخراج خراجها، و جباية أموالها إنه لا يستتم استيفاء الخراج من أهلها، إلّا عند تمام الماء، و افتراشه على سائر أرضها، و يقع إتمامه فى شهر توت، فإذا كان كذلك، و ربما كانت زيادة عن ذلك أطلق الماء فى جميع نواحيها من ترعها، ثم لا يزال يترجح فى الزيادة و النقصان، حتى يفرغ توت، و فى أوّل يكون يوم النوروز، و رابعه أوّل أيلول، و سابعه يلقط الزيتون، و ثانى عشره

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸

يطلع الفجر بالصرفة ، و سابع عشره عيد الصليب، فيشرط البلسان، و يستخرج دهنه، و يفتح ما يتأخر من الأبحر و الترع، و ترتب المدامسة لحفظ الجسور، و فى ثامن عشرة تنقل الشمس إلى برج الميزان، فيدخل فصل الخريف، و فى خامس عشريه يطلع الفجر بالعوّا ، و يكبر صغار السمك، و فى هذا الشهر يعم ماء النيل أراضى مصر، و فيه تسجل النواحى، و تسترفع السجلات و القوانين، و تطلق التقاوى من الغلال لتخضير الأراضى، و فيه يدرك الرّمان و البسر و الرطب و الزيتون و القطن و السفرجل، و فيه يكون هبوب ريح الشمال أقوى من هبوب ريح الجنوب، و هبوب الصبا أقوى من الدبور، و كان قدماء المصريين لا ينصبون فيه أساسا و فيه يكثر بمصر العنب الشتوىّ و تبذر المحمضات.

بابه: فى أوّله يحصد الأرز، و يزرع الفول و البرسيم، و سائر الحبوب التى لا تشق لها الأرض، و فى رابعه أوّل تشرين الأوّل، و فى ثامنه طلوع الفجر بالسماك ، و هو نهاية زيادة النيل، و ابتداء نقصه، و قد لا يتم الماء فيه، فيعجز بعض الأرض عن أن يركبها الماء، فيكون من ذلك نقص الخراج عن الكمال، و فى تاسعه يكون مجيء الكراكى إلى أرض مصر، و فى عاشره يزرع الكتان، و فى ثانى عشره يكون ابتداء شق الأرض بصعيد مصر لبذر القمح، و الشعير، و فى ثامن عشره تنقل الشمس إلى برج العقرب، و يقطع الخشب، و فى تاسع عشره يكون ابتداء نقص ماء النيل، و يكثر البعوض، و فى حادى عشريه يطلع الفجر بالغفر .

و فى هذا الشهر تصرف المياه عن الأراضى، و يخرج المزارعون لتخضير الأراضى فيبدأون ببذر زراعة القرط، ثم بزراعة الغلة البدرية أوّلا فأوّلا، و فيه يستخرج دهن الآس، و دهن النيلوفر، و يدرك التمر و الزبيب و السمسم و القلقاس، و فيه يكثر صغار السمك، و يقل كباره، و يسمن الراى، و الأبرميس من السمك خاصة، و تستحكم حلاوة الرّمان، و يكون فيه أطيب منه فى سائر الشهور التى يكون فيها، و يضع الضأن و المعز و البقر الخيسية، و فيه يملح السمك المعروف بالبورى، و يهزل الضأن و المعز و البقر، و لا تطيب لحومها، و تدر المحمضات، و فيه يجب كتابة التذاكر بالأعمال القوصية، و فيه يغرس المنثور، و يزرع السلجم.

هاتور: فى خامسه يكون أوّل تشرين الثانى، و يطلع الفجر بالزبانا فى رابعه، و فى سادسه يزرع الخشخاش، و فى سابعه يصرف ماء النيل عن أراضى الكتان، و يبذر فى النصف منه، و بعد تمام شهر يسبخ، و فى ثامنه أوان المطر الموسمى، و فى حادى عشره تهب ريح الجنوب، و فى خامس عشره تبرد المياه بمصر، و فى سابع عشره يطلع الفجر بالإكليل ، و فى ثامن عشره تحل الشمس برج القوس، و فى تاسع عشره يغلق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹

البحر الملح، و فى سابع عشريه تهب الرياح اللواقح.

و فى هذا الشهر يلبس أهل مصر الصوف من سابعه، و فيه يكسر ما يحتاج إليه من قصب السكر برسم المعاصر، و براح الغلة فى جميع ما يحتاج إليه فيها، و يهتم بعلف أبقارها و جمالها بعد بيع شارفها و عاجزها، و التعويض عنه بغيره، و أفراد الأتيان برسم وقود القنود، و ترتيب القوامصة لعمل الأباليح و القواديس، و الأمطار برسم القنود، و الأعسال، و فيه يدرك البنفسج، و النيلوفر، و المنثور، و من البقولات الإسباناخ و البلسان، و اختار قدماء المصريين فى هاتور نصب الأساسات، و زرع القمح، و أطيب حملان السنة حمله، و فيه يكثر العنب الذى كان يحمل من قوص.

كهيك: أوّله الأربعينات بمصر، و يدخل الطير وكره، و فى سادسه بشارة مريم بحمل عيسى عليهما السلام، و فى سابعه أوّل كانون الأول، و فى عاشره آخر الليالى البلق، و أوّلها أوّل هاتور، و فى حادى عشره أوّل الليالى السود، و يدخل النمل الأحجرة، و فى ثالث عشره يطلع الفجر بالشولة ، و تظهر البراغيث، و يسخن باطن الأرض، و فى سادس عشره يسقط ورق الشجر، و فى سابع عشرة تنقل الشمس إلى برج الجدى، فيدخل فصل الشتاء، و يزرع الهليون، و فى حادى عشريه يكون آخر الليالى البلق، و فى ثانى عشريه عيد البشارة، و فى ثالث عشريه تزرع الحلبة و الترمس، و فى سادس عشريه يطلع الفجر بالنعائم ، و فى ثامن عشريه يبيض النعام، و فى تاسع عشريه الميلاد.

و فى هذا الشهر يزرع الخيار بعد إغراق أرضه، و فيه يتكامل بذر القمح و الشعير و البرسيم الحراثىّ، و فيه يستخرج خراج البرسيم بدار الوجه القبلىّ، و فيه ترتب حراس الطير، و فيه كسر قصب السكر و اعتصاره، و استخدام الطباخين لطبخ القنود، و فيه يكون إدراك النرجس، و المحمضات، و الفول الأخضر، و الكرنب و الجزر و الكرّاث الأبيض و اللفت، و فيه يقل هبوب ريح الشمال، و يكثر هبوب ريح الجنوب، و فيه يجود الجدا، و يكون أطيب منها فى جميع الشهور التى يكون فيها، و فيه يزرع أكثر حبوب الحرث، و لا يزرع بعده فى شىء من أرض مصر غير السمسم، و المقاثى و القطن.

طوبه: فى ثالثه ابتداء زراعة الحمص و الجلبان و العدس، و فى سادسه أوّل كانون الثانى، و فى تاسعه يطلع الفجر بالبلد ، و عاشره صوم الغطاس، و حادى عشره الغطاس، و فى ثانى عشره يشتدّ البرد، و فى رابع عشره يرتفع الوباء بمصر، و يغرس النخل، و فى سابع عشره تحل الشمس أوّل برج الدلو، و يكثر الندى، و يكون ابتداء غرس الأشجار، و فى العشرين منه يكون آخر الليالى السود، و حادى عشريه الليالى البلق الثانية، و فى ثانى عشريه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰

يطلع الفجر بسعد الذابح ، و فى ثالث عشريه تهب الرياح الباردة، و فى رابع عشريه تفرخ جوارح الطير، و فى خامس عشريه يكون نتاج الإبل المحمودة، و فى سابع عشريه يصفو ماء النيل، و فى ثامن عشريه يتكامل إدراك القرط.

و فى هذا الشهر تقلم الكروم، و ينظف زرع الغلة من اللبسان و غيره، و ينظف زرع الكتان من الفجل و غيره، و فيه تبرش الأراضى أوّل سكة برسم الصيافى و المقائى و القطن و السمسم، و ينتهى برشها فى أوّل أمشير، و فيه تسقى أرض القلقاس و القصب، و تشق الجسور فى آخره، و فيه تستخرج أراضى الخرس، و يكسر القصب الراس بعد إفراز ما يحتاج إليه من الزريعة، و هو لكل فدّان طين قيراط طيب قصب راس، و فيه يهتم بعمارة السواقى و حفر الآبار، و ابتياع الأبقار، و فيه يظهر اللوز الأخضر و النبق و الهليون، و فيه أيضا يكون هبوب ريح الجنوب أكثر من هبوب الشمال، و هبوب الصبا أكثر من هبوب الدبور، و فيه يكون الباقلا الأخضر و الجزر أطيب منهما فى غيره، و فيه يتناهى ماء النيل فى صفائه، و يخزن فلا يتغير فى أوانيه، و لو طال لبثه فيها، و فيه تطيب لحوم الضأن أطيب منها فى سائر الشهور، و فيه تربط الخيول و البغال على القرط من أجل ربيعها، و بطوبه يطالب الناس بافتتاح الخراج، و محاسبة المتقبلين على الثمن من السجلات من جميع ما بأيديهم من المحلول و المعقود.

أمشير: فى أوّله تختلف الرياح، و فى خامسه يطلع الفجر بسعد بلع ، و فى سادسه يكون أوّل شباط، و فى تاسعه يجرى الماء فى العود، و حادى عشره أوّل جمرة باردة، و سادس عشره تحل الشمس بأوّل برج الحوت، و فى سابع عشره يخرج النمل من الأحجرة، و فى ثامن عشره يطلع الفجر بسعد السعود ، و فى العشرين منه ثانى جمرة فاترة، و فى ثالث عشريه تقلم الكروم، و خامس عشريه يفرخ النحل، و سابع عشريه ثالث جمرة حامية، و يورق الشجر، و هو آخر غرسها، و فى آخره يكون آخر الليالى البلق.

و فى هذا الشهر يقلع السلجم، و يستخرج خراجه، و فيه يثنى برش الصيافى و تبرش أيضا ثالث سكة، و فيه يعمل مقاطع الجسور، و تمسح الأراضى، و يرقد البيض فى المعامل أربعة أشهر آخرها بشنس، و فيه يكون ريح الشمال أكثر الرياح هبوبا، و فيه ينبغى أن تعمل أوانى الخزف للماء لتستعمل فيه طول السنة، فإنّ ما عمل فيه من أوانى الخزف يبرّد الماء فى الصف أكثر من تبريد ما يعمل فى غيره من الشهور، و فيه يتكامل غرس الشجر، و تقليم الكروم، و فيه يدرك النبق و اللوز الأخضر، و يكثر البنفسج و المنثور.

و يقال: أمشير يقول للزرع سير، و يلحق بالطويل القصير، و فيه يقل البرد، و يهب الهواء الذى فيه سخونة ما، و فى أمشير يؤخذ الناس فيه بإتمام ربع الخراج من السجلات.

برمهات: أوّل يوم منه يطلع الفجر بالأخبية ، و فى خامسه يحضن دود القز،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱

و سادسه يزرع السمسم، و ثانى عشره يقلع الكتان، و رابع عشره يكون أوّل الأعجاز، و يطلع الفجر بالفرغ المقدّم ، و فى سادس عشره تفتح الحيات أعينها، و فى سابع عشره تنقل الشمس إلى برج الحمل، و هو أوّل فصل الربيع، و رأس سنة الجند، و رأس سنة العالم، و فى العشرين منه يكون آخر الإعجاز، و ثانى عشريه نتاج الخيل المحمودة و ثالث عشريه يظهر الذباب الأزرق، و خامس عشريه تظهر هوام الأرض، و سابع عشريه يطلع الفجر بالفرغ المؤخر ، و فى آخره يتفرّق السحاب.

و فى هذا الشهر تجرى المراكب السفرية فى البحر الملح إلى ديار مصر من المغرب و الروم، و يهتم فيه بتجريد الأجناد إلى الثغور كالإسكندرية و دمياط و تنيس و رشيد، و فيه كانت تجهز الأساطيل، و مراكب الشوانى لحفظ الثغور، و فيه زرع المقائى و الصيفىّ، و يدرك الفول و العدس، و يقلع الكتان، و تزرع أقصاب السكر فى الأرض المبروشة المختارة لذلك البعيدة العهد عن الزراعة، و يأخذ المقشرون فى تنظيف الأرض المزروعة من القش فى وقت الزراعة، و يأخذ القطاعون فى قطع الزريعة، و يأخذ المزارعون فى رمى قطع القصب، و فيه يؤخذ فى تحصيل النطرون و حمله من وادى هبيت إلى الشونة السلطانية، و فيه يكون ريح الشمال أكثر الرياح هبوبا، و فيه تزهر الأشجار، و ينعقد أكثر ثمارها، و فيه يكون اللبن الرائب أطيب منه فى جميع الشهور التى يعمل فيها، و فى برمهات يطالب الناس بالربع الثانى، و الثمن من الخراج.

برموده: فى سادسه أوّل نيسان، و فى عاشره يطلع الفجر بالرشاء ، و فى ثانى عشره يقلع الفجل، و فى سابع عشره تحل الشمس أوّل برج الثور، و فى ثالث عشريه يطلع الفجر بالشرطين ، و هو رأس الحمل، و أوّل منازل القمر، و فيه ابتداء كسار الفول، و حصاد القمح، و هو ختام الزرع.

و فى هذا الشهر يهتم بقطع خشب السنط من الخراج الذى كان بمصر فى القديم أيام الدولة الفاطمية و الأيوبيّة، و يجرّ إلى السواحل لتيسر حمله فى زمن النيل إلى ساحل مصر ليعمل شوانى و أحطابا برسم الوقوع فى المطابخ السلطانية، و فيه يكثر الورد، و يزرع الخيار شنبر و الملوخيا و الباذنجان، و فيه يقطف أوائل عسل النحل، و ينفض بزر الكتان، و أحسن ما يكون الورد فيه من جميع زمانه، و فيه يظهر البطن الأوّل من الجميز، و فيه تقع المساحة على أهل الأعمال، و يطالب الناس بإغلاق نصف الخراج من سجلاتهم، و يحصد بدرىّ الزرع.

بشنس: فى خامسه تكثر الفاكهة، و سادسه أوّل أيار، و فيه طلوع الفجر بالبطين ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲

و ثامنه عيد الشهيد، و تاسعه انفتاح البحر المالح، و رابع عشره يزرع الأرز، و ثامن عشره تحل الشمس أوّل بزرج الجوزاء، و فيه يطيب الحصاد، و فى تاسع عشره يطلع الفجر بالثريا ، و فيه زراعة الأرز و السمسم، و رابع عشريه يكون عيد البلسان بالمطرية، و يزعمون أنه اليوم الذى دخلت فيه مريم إلى مصر.

و فى هذا الشهر يكون دراس الغلة، و هدار الكتان، و نفض البزر، و النقاوى و الأتبان، و حملها، و فيه زراعة البلسان و تقليمه و سقيه، و تكريم أراضيه من بؤونة إلى آخر هاتور، و استخراج دهنه بعد شرطه فى نصف توت، و إن كان فى أوّله، فهو أصلح إلى آخر هاتور، و صلاح أيامه أيام الندى، و يقيم فى الندى سنة كاملة إلى أن يشرب إعكاره، و أوساخه، و يطبخ الدهن فى الفصل الربيعىّ فى شهر برمهات، فيعمل لكل رطل مصرىّ أربعة و أربعون رطلا من مائة، فيحصل منه قدر عشرين درهما، و ما حولها من الدهن.

و فى هذا الشهر أكثر ما يهب من الرياح الشمالية، و فيه يدرك التفاح القاسمى، و يبتدى فيه التفاح المسكى، و البطيخ العبدلى، و يقال: إنه أوّل ما عرف بمصر عندما قدم إليها عبد اللّه بن طاهر بعد المائتين من سنى الهجرة، فنسب إليه، و قيل له العبدلىّ، و فيه أيضا يبتدئ البطيخ الجربىّ و المشمس و الخوخ الزهرىّ، و يجنى الورد الأبيض، و فيه تقرّر المساحة، و يطالب الناس بما يضاف إلى المساحة من أبواب، وجوه المال كالصرف و الجهبذة، و حق المراعى و القرط و الكتان على رسوم كل ناحية، و يستخرج فيه إتمام الربع مما تقرّرت عليه العقود، و المساحة و يطلق الحصاد لجميع الناس.

بؤونة: فى ثانية يطلع الفجر بالدبران ، و فى خامسه يتنفس النيل، و فى تاسعه أوان قطف النحل، و فى حادى عشره تهب رياح السموم، و فى ثانى عشره عيد ميكائيل، فيؤخذ قاع النيل، و فى ثالث عشره يشتدّ الحرّ، و فى خامس عشره يطلع الفجر بالهنعة ، و فى عشريه تحل الشمس أوّل برج السلطان، و هو أوّل فصل الصيف، و فى سابع عشريه ينادى على النيل بما زاده من الأصابع، و فى ثامن عشريه يطلع الفجر بالهقعة .

و فى هذا الشهر تسفر المراكب لإحضار الغلال و التبن و القنود و الأعسال، و غير ذلك من الأعمال القوصية، و نواحى الوجه البحرىّ، و فيه يقطف عسل النحل، و تخرّص الكروم، و يستخرج زكاتها، و فيه ينذّى الكتان، و يقلب أربعة أوجه فى بؤونة و أبيب، و فيه زراعة النيلة بالصعيد الأعلى، و تحصد بعد مائة يوم، ثم تترك و تحصد فى كل مائة يوم حصدة، و يحصل فى أوّل كيهك و طوبة و أمشير و برمهات، و يطلع فى برمودة، و تحصد فى عشرة أيام من أبيب، و تقيم فى الأرض الجيدة ثلاث سنين، و تسقى كل عشرة أيام دفعتين، و ثانى سنة ثلاث دفعات، و ثالث سنة أربع دفعات، و فى هذا الشهر يكون التين الفيومىّ و الخوخ الزهرىّ و الكمثرى و القراصيا و القثاء و البلح و الحصرم، و يبتدئ إدراك العصفر، و فيه يدخل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳

بعض العنب و يطيب التوت الأسود، و يقطف جمهور العسل، فتكون رياحه قليلة و التين يكون فيه أطيب منه فى سائر الشهور، و فيه يطلع النخل، و فيه يستخرج تمام نصف الخراج مما بقى بعد المساحة.

أبيب: فى سابعه أوّل تموز، و فى عاشره آخر قطع الخشب، و فى حادى عشره يطلع الفجر بالذراع ، و ثانى عشره ابتداء تعطين الكتان، و فى خامس عشره يقلّ ماء الآبار، و تدرك الفواكه، و يموت الدود، و فى حادى عشريه تحل الشمس بأوّل برج الأسد، و تذهب البراغيث و يبرد باطن الأرض، و تهيج أوجاع العين، و فى خامس عشريه يطلع الفجر بالنثرة ، و فى سادس عشريه تطلع الشعرى العبور اليمانية.

و فى هذا الشهر أكثر ما يهب من الرياح الشمال، و يكثر فيه العنب، و يجود، و فيه يطيب التين المقرون بمجىء العنب، و يتغير البطيخ العبدلىّ، و تقل حلاوته، و تكثر الكمثرى السكرية، و يطيب البلخ، و فيه يقطف بقايا عسل النحل، و تقوى زيادة ماء النيل، فيقال: فى أبيب يدب الماء دبيب، و فيه ينقع الكتان بالمبلات، و يباع برسيم البذر برسم زراعة القرط و الكتان، و فيه تدرك ثمرة العنب، و يحصد القرطم، و فيه تستتم ثلاثة أرباع الخراج.

مسرى: فى سابعه يطلع الفجر بالطرف ، و فى ثامنه أوّل آب، و فى حادى عشره يجمع القطن، و فى رابع عشره يحمى الماء، و لا يبرد، و فى سابع عشره استكمال الثمار، و فى عشريه يطلع الفجر بالجبهة ، و فى حادى عشريه تحلّ الشمس برج السنبلة، و فى ثالث عشريه يتغير طعم الفاكهة لغلبة ماء النيل على الأرض، و فى خامس عشريه يكون آخر السموم، و فى تاسع عشريه يطلع سهيل بمصر.

و فى هذا الشهر يكون وفاء النيل ستة عشر ذراعا فى غالب السنين، حتى قيل: إن لم يوف النيل فى مسرى فانتظره فى السنة الأخرى، و فيه يجرى ماء النيل فى خليج الإسكندرية، و يسافر فيه المراكب بالغلال و البهار و السكر، و سائر أصناف المتاجر، و فيه يكثر البسر، و كانوا يخرّصون النخل، و يخرجون زكاة الثمار فى هذا الشهر عندما كانت الزكوات يجيبها السلطان من الرعية، و أكثر ما يهب فى هذا الشهر ريح الشمال، و فيه يعصر قبط مصر الخمر، و يعمل الخل من العنب، و فيه يدرك الموز و أطيب ما يكون الموز بمصر فى هذا الشهر، و فيه يدرك الليمون التفاحى، و كان من جملة أصناف الليمون بأرض مصر ليمون يقال له: التفاحىّ يؤكل بغير سكر لقلة حمضه، و لذة طعمه، و فيه يكون ابتداء إدراك الرّمان، و إذا انقضت أيام مسرى ابتدأت أيام النسىء ففى أوّلها ابتداء هيج النعام، و فى

رابعها يطلع الفجر بالخراتان، و فى مسرى يغلق الفلاحون خراج أراضى زراعاتهم، و كانوا يؤخرون البقايا على دق الكتان فى مسرى و أبيب، لأنّ الكتان يبلّ فى توت، و يدق فى بابه.

ذكر تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية

و كيف عمل ذلك فى الإسلام؟ قد تقدّم فيما سلف من هذا الكتاب التعريف بالسنة الشمسية، و السنة القمرية، و ما للأمم فى كبس السنين من الآراء، فما جاء اللّه تعالى بالإسلام تحرّز المسلمون من كبس السنين خشية الوقوع فى النسىء الذى قال اللّه سبحانه و تعالى فيه: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا [التوبة/ ۳۷]، ثم لما رأوا تداخل السنين القمرية فى السنين الشمسية، أسقطوا عند رأس كل اثنتين و ثلاثين سنة قمرية، و سموا ذلك الازدلاق لأنّ لكل ثلاث و ثلاثين سنة قمرية، اثنتين و ثلاثين سنة شمسية بالتقريب، و سألونا عليك من نبأ ذلك ما لم أره مجموعا.

قال أبو الحسين عبد اللّه بن أحمد بن أبى طاهر فى كتاب أخبار أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن أبى أحمد طلحة الموفق ابن المتوكل، و منه نقلت، و خرج أمر المعتضد فى ذى الحجة سنة إحدى و ثمانين، و مائتين بتصيير النوروز لإحدى عشرة ليلة خلت من حزيران رأفة بالرعية، و إيثارا لإرفاقها، و قالوا: خرج التوقيع فى المحرّم سنة اثنتين و ثمانين و مائتين بإنشاء الكتب إلى جميع العمال فى النواحى و الأمصار بترك افتتاح الخراج فى النوروز الفارسىّ الذى يقع يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر، و أن يجعل ما يفتتح من خراج سنة اثنتين و ثمانين و مائتين يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر من هذه السنة، و هو اليوم الحادى عشر من حزيران، و يسمى هذا النوروز المعتضدىّ ترفيها لأهل الخراج و نظرا لهم.

و نسخة التوقيع الخارج فى تصيير افتتاح الخراج فى حزيران: أمّا بعد: فإنّ اللّه لما حوّل أمير المؤمنين للمحل الذى أحله به من أمور عباده و بلاده، رأى أن من حق اللّه عليه أن لا يكلفها إلا ما به بالعدل و الإنصاف لها، و السيرة القاصدة، و أن يتولى لها إصلاح أمورها، و يستقرئ السير و المعاملات التى كانت تعامل بها، و يقرّ منها ما أوجب الحق إقراره، و يزيل ما أوجب إزالته غير مستكثر لها كثير ما يسقطه العدل، و لا مستقل لها قليل ما يلزمه إياها الجور، و قد وفق اللّه أمير المؤمنين لما يرجو أن يكون لحق اللّه فيها قاضيا و لنصيبها من العدل موازيا، و بالله يستعين أمير المؤمنين على حفظ ما استرعاه منها، و حياطة ما قلده من أمورها، و هو خير موفق و معين، و إن أبا القاسم عبيد اللّه رفع إلى أمير المؤمنين، فيما أمر أمير المؤمنين من ردّ النوروز الذى يفتتح به الخراج بالعراق و المشرق، و ما يتصل بهما، و يجرى مجراهما من الوقت الذى صار فيه من الزمان إلى الوقت الذى كان عليه متقدّما مع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۵

ما أمر به فى مستقبل السنين من الكبس، حتى يصير العدل عامّا فى الزمان كله باقيا على غابر الدهر، و مرّ الأيام مؤامرة أمير المؤمنين، فأمر بتسجيلها لك فى آخر كتابه مع ما وقع به فيها لتمثيله، فافعل ذلك إن شاء اللّه تعالى و السلام عليك و رحمة اللّه و بركاته، و كتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة إحدى و ثمانين و مائتين.

نسخة المؤامرة أنهيت إلى أمير المؤمنين أن مما أنعم اللّه به على رعيته، و رزقها إياه من رأفته، و حسن نظره، و إقامته عليها من عدله، و إنصافه و رفعه عنها فى خلافته من الظلم الشامل ما كان الأقصى و الأدنى، و الصغير و الكبير، و المسلم و الذمىّ فيه سواء ما حرّرته من نقل كتب الخراج عن السنة التى كانت تنسب إليها من سنى الهجرة إلى السنة التى فيها تدرك الغلات، و يستخرج المال، و إن ذلك ما كان بعض أهل الجهل حاوله، و بعض المتغلبين استعمله من تثبيت الخراج على أهله، و مطالبتهم به قبل وقت الزراعة، و إعيائهم بذكر سنة من السنتين اللتين ينسب الخراج لإحداهما، و تدرك الغلات، و يقع الاستخراج فى الأخرى منهما فى حساب شهور الفرس التى عليها يجرى العمل فى الخراج بالسواد، و ما يليه، و الأهواز و فارس و الجبل، و ما يتصل به من جميع نواحى المشرق، و ما يضاف إليه إذا كان عمل الشأم و الجزيرة و الموصل، جرى على حساب شهور الروم الموافقة للأزمنة، فليست تختلف أوقاتها مع الكبيسة المستعملة فيها، و العمل فى خراج مصر، و ما والاها على شهور القبط الموافقة لشهور الروم، و كانت من شهور الفرس قد خالفت موافقها من الزمان بما ترك من الكبس منذ أزال اللّه ملك فارس، و فتح للمسلمين بلادهم، فصار النوروز الذى كان الخراج يفتتح فيه بالعراق و المشرق قد تقدّم فى ترك الكبس شهرين و صارا بينه و بين إدراك الغلة، فأمر أمير المؤمنين بما جبل اللّه عليه رأيه فى التوصل إلى كل ما عاد بصلاح رعيته.

و حسما للأسباب المؤدّية إلى إعيائها بتأخير النوروز الذى يقع فى شهور سنة اثنتين و ثمانين و مائتين من سنى الهجرة عن الوقت الذى يتفق فيه أيام سنة الفرس، و هو يوم الجمعة لإحدى عشر تخلو من صفر مثل عدّة أيام الشهرين من شهور الفرس التى ترك كبسها، و هى ستون يوما، حتى يكون نوروز السنة واقعا يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و ثمانين و مائتين، و هو الحادى عشر من حزيران، و هو يتصل بهما، و يجرى مجراهما، و ينسب و يضاف إليهما، و بسائر أعمالهم، و بما يعمله أصحاب الحساب من التقويمات و جميع الأعمال، و ما يعدّه الفرس من شهورهم إلى شهوره الكبيسة الأول و الأخر، ثم يكبس بعد ذلك فى كل أربع سنين من سنى الفرس، و لا يقع تفاوت بينه و بينها على مرور الأيام، و ليكن أبدا واقعا فى حزيران، و غير خارج عنه، و أن يلغى ذكر كل سنة من أربع سنين تنسب إلى الخراج بالعراق، و فى المشرق و المغرب، و سائر النواحى و الآفاق إذ كان مقدار سنى أيام الهجرة، و السنة الجامعة للأزمنة التى تتكامل فيها الغلات، و أن يخرج التوقيع بذلك لتنشأ الكتب به من ديوان الرسائل إلى ولاة المعاون و الأحكام،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۶

و تقرأ على المنابر، و يحمل أصحاب المعاون الرعية عليه، و تأخذها بامتثال ما أمر به أمير المؤمنين، و سنة الحكام فى ديوان حكمهم لتمثيل الضمان و المقاطعين ذلك على حسبه، و استطلع رأى أمير المؤمنين فى ذلك، فرأى أمير المؤمنين فى ذلك موفق إن شاء اللّه تعالى، و تكتب نسخة التوقيع بتنفيذ ذلك إن شاء اللّه تعالى، و كتب فى شهر ذى الحجة سنة إحدى و ثمانين و مائتين.

قال: و كان السبب فى نقل الخراج إلى حزيران فى أيام المعتضد ما حدّثنى به أبو أحمد يحيى بن علىّ بن يحيى المنجم القديم قال: كنت أحدّث أمير المؤمنين المعتضد، فذكرت خبر المتوكل فى تأخير النوروز، فاستحسنه، و قال لى: كيف كان ذلك؟

قلت: حدّثنى أبى قال: دخل المتوكل قبل تأخير النوروز بعض بساتينه الخاصة التى كانت فى يدى و هو متوكئ علىّ يحادثنى، و ينظر إلى ما أحدث فى ذلك البستان، فمرّ بزرع فرآه أخضر، فقال: يا علىّ، إنّ الزرع اخضرّ بعد ما أدرك، و قد استأمرنى عبيد اللّه بن يحيى فى استفتاح الخراج، فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج فى النوروز و الزرع لم يدرك بعد؟

قال: فقلت له: ليس يجرى الأمر اليوم على ما كان يجرى عليه فى أيام الفرس، و لا النوروز فى هذه الأيام فى وقته الذى كان فى أيامها، قال: و كيف ذاك؟ فقلت: لأنها كانت تكبس فى كل مائة و عشرين سنة شهرا.

و كان النوروز إذا تقدّم شهرا، و صار فى خمس من حزيران كبست ذلك الشهر، فصار فى خمس من أيار، و أسقطت شهرا، وردته إلى خمس من حزيران، فكان لا يتجاوز هذا، فلما تقلّد العراق خالد بن عبد اللّه القسرى، و حضر الوقت الذى تكبس فيه الفرس منعها من ذلك، و قال: هذا من النسىء الذى نهى اللّه عنه، فقال: إنما النسىء زيادة فى الكفر و أنا لا أطلقه حتى أستأمر فيه أمير المؤمنين، فبذلوا على ذلك مالا جليلا، فامتنع عليهم من قبوله.

و كتب إلى هشام بن عبد الملك يعرّفه ذلك، و يستأمره، و يعلمه أنه من النسىء الذى نهى اللّه عنه، فأمر بمنعهم من ذلك، فلما امتنعوا من الكبس تقدّم النوروز تقدّما شديدا حتى صار يقع فى نيسان و الزرع أخضر، فقال له المتوكل: فاعمل لهذا يا علىّ عملا تردّ النوروز فيه إلى وقته الذى كان يقع فيه أيام الفرس، و عرّف بذلك عبيد اللّه بن يحيى، و أدّ إليه رسالة منى فى أن يجعل استفتاح الخراج فيه، قال: فصرت إلى أبى الحسن عبيد اللّه بن يحيى، و عرّفته ما جرى بينى و بين المتوكل، و أدّيت إليه رسالته، فقال لى: يا أبا الحسن قد و اللّه فرّجت عنى، و عن الناس، و عملت عملا كثيرا يعظم ثوابك عليه، و كسبت لأمير المؤمنين أجرا و شكرا، فأحسن اللّه جزاءك، فمثلك من يجالس الخلفاء، و أحب أن يتقدّم بالعمل الذى أمر به المتوكل، و ينفذه إلىّ حتى أجرى الأمر عليه، و أتقدّم فى كتب الكتب، باستفتاح الخراج، قال: فرجعت، و حرّرت الحساب، فوجدت النوروز لم يكن يتقدّم فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۷

أيام الفرس أكثر من شهر يتقدّم من خمس تخلو من حزيران، فيصير فى خمسه أيام تخلو أيار، فتكبس سنتها، و تردّه إلى خمسة أيام من حزيران، و أنفذته إلى عبيد اللّه بن يحيى، فأمر أن يستفتح الخراج فى خمس من حزيران، و تقدّم إلى إبراهيم بن العباس فى أن ينشئ كتابا عن أمير المؤمنين فى ذلك ينفذ نسخته إلى النواحى، فعمل إبراهيم بن العباس كتابه المشهور فى أيدى الناس.

قال أبو أحمد: فقال لى المعتضد: يا يحيى، هذا و اللّه فعل حسن، و ينبغى أن يعمل به، فقلت: ما أحد أولى بفعل الحسن، و إحياء السنن الشريفة من سيدنا، و مولانا أمير المؤمنين لما جمعه اللّه فيه من المحاسن، و وهبه له من الفضائل، فدعا بعبيد اللّه بن سليمان، و قال له: اسمع من يحيى ما يخبرك به، و امض الأمر فى استفتاح الخراج عليه، قال: فصرت مع عبيد اللّه بن سليمان إلى الديوان، و عرّفته الخبر، فأحب تأخيره عن ذلك لئلا يجرى الأمر المجرى الأوّل بعينه، فجعله فى أحد عشر من حزيران، و استأمر المعتضد فى ذلك فأمضاه فقلت فى ذلك شعرا أنشدته للمعتضد فى هذا المعنى:

يوم نوروزك يومواحد لا يتأخر

من حزيران يوافىأبدا فى أحد عشر

قال: و أخبرنى بعض مشايخ الكتاب قال: و كانت الخلفاء تؤخر النوروز عن وقته عشرين يوما، و أقل و أكثر ليكون ذلك سببا لتأخير افتتاح الخراج على أهله.

و أمّا المهرجان فلم تكن تؤخره عن وقته يوما واحدا، فكان أوّل من قدّمه عن وقته بيوم المعتمد بمدينة السلام فى سنة خمس و ستين و مائتين، و أمر المعتضد بتأخير النوروز عن وقته ستين يوما.

و قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونىّ فى كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية:

و منه نقلت ما ذكر ابن أبى طاهر و زاد، و نفذت الكتب إلى الآفاق يعنى عن المتوكل فى محرّم سنة ثلاث و أربعين و مائتين، و قتل المتوكل، و لم يتم له ما دبر، و استمرّ الأمر حتى قام المعتضد، فاحتذى ما فعله المتوكل فى تخير النوروز غير أنه نظر فإذا المتوكل أخذ ما بين سنته، و بين أوّل تاريخ يزدجرد، فأخذ المعتضد ما بين سنته، و بين السنة التى زال فيها ملك الفرس بهلاك يزدجرد، ظنا أن إهمالهم أمر الكبس من ذلك الوقت، فوجده مائتى سنة، و ثلاثا و أربعين سنة، حصتها من الأرباع ستون يوما و كسر، فزاد ذلك

على النوروز فى سنة، و جعله منتهى تلك الأيام، و هو من خردادماه فى تلك السنة، و كان يوم الأربعاء، و يوافقه اليوم الحادى عشر من حزيران، ثم وضع النوروز على شهور الروم لتكبس شهوره إذا كبست الروم شهورها.

و قال القاضى السعيد ثقة الثقات ذو الرياستين أبو الحسن علىّ بن القاضى المؤتمن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۸

ثقة الدولة أبى عمرو عثمان بن يوسف المخزومى فى كتاب المنهاج فى علم الخراج: و السنة الخراجية مركبة على حكم السنة الشمسية لأنّ السنة الشمسية ثلثمائة و خمسة و ستون يوما و ربع يوم، و رتب المصريون سنتهم على ذلك ليكون أدار الخراج عند إدراك الغلات من كل سنة، و وافقها السنة القبطية، لأنّ أيام شهورها ثلثمائة و ستون يوما، و يتبعها خمسة أيام النسىء و ربع يوم بعد تقضى مسرى، و فى كل أربع سنين تكون أيام النسىء ستة أيام، لينجبر الكسر.

و يسمون تلك السنة كبيسة، و فى كل ثلاث و ثلاثين سنة تسقط سنة، فيحتاج إلى نقلها لأجل الفصل بين السنين الشمسية و السنين الهلالية، لأنّ السنة الشمسية ثلثمائة و خمسة و ستون يوما و ربع يوم، و السنة الهلالية ثلثمائة و أربعة و خمسون يوما و كسر، و لما كان كذلك احتيج إلى استعمال النقل الذى تطابق به إحدى السنتين الأخرى، و قد قال أبو الحسن علىّ بن الحسن الكاتب رحمه اللّه: عهدت جباية أموال الخراج فى سنين قبل سنة إحدى و أربعين و مائتين من خلافة أمير المؤمنين المتوكل على اللّه رحمة اللّه عليه، تجرى كل سنة فى السنة التى بعدها، بسبب تأخير الشهور الشمسية عن الشهور القمرية فى كل سنة أحد عشر يوما و ربع يوم، و زيادة الكسر عليه، فلما دخلت سنة اثنتين و أربعين و مائتين، كان قد انقضى من السنين التى قبلها ثلاث و ثلاثون سنة، أوّلهنّ سنة ثمان و مائتين من خلافة أمير المؤمنين المأمون رحمة اللّه عليه، و اجتمع من هذا المتأخر فيها أيام سنة شمسية كاملة، و هى ثلثمائة و خمسة و ستون يوما و ربع يوم، و زيادة الكسر، و بها إدراك غلات، و ثمار سنة إحدى و أربعين و مائتين فى صفر سنة اثنتين و أربعين و مائتين، و أمر أمير المؤمنين المتوكل على اللّه رحمة اللّه عليه، بإلغاء ذكر سنة إحدى و أربعين و مائتين، إذ كانت قد انقضت، و ينسب الخراج إلى سنة اثنتين و أربعين و مائتين، فجرت الأعمال على ذلك سنة بعد سنة، إلى أن انقضت ثلاث و ثلاثون سنة آخرهنّ انقضاء سنة أربع و سبعين و مائتين، فلم ينبه كتاب أمير المؤمنين المعتمد على اللّه رحمة اللّه عليه على ذلك، إذ كان رؤساؤهم فى ذلك الوقت إسماعيل بن بلبل و بنى الفرات، و لم يكونوا عملوا فى ديوان الخراج و الضياع فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على اللّه رحمة اللّه عليه و لا كانت أسنانهم أسنانا بلغت معرفتهم معها هذا النقل، بل كان مولد أحمد بن محمد بن الفرات قبل هذه السنة بخمس سنين، و مولد علىّ أخيه فيها، و كان إسماعيل بن بلبل يتعلم فى مجلس لم يبلغ أن ينسخ، فلما تقلدت لناصر الدين أبى أحمد طلحة الموفق رحمه اللّه أعمال الضياع بقزوين و نواحيها، لسنة ست و سبعين و مائتين، و كان مقيما بأذربيجان ، و خليفته بالجبل جرادة بن محمد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۹

و أحمد بن محمد كاتبه، و احتجت إلى رفع جماعتى إليه ترجمتها بجماعة سنة ست و سبعين و مائتين التى أدركت غلاتها و ثمارها فى سنة سبع و سبعين و مائتين، و وجب إلغاء ذكر سنة ست و سبعين و مائتين، فلما وقفا على هذه الترجمة أنكراها، و سألانى عن السبب فيها، فشرحت لهما، و أكدت ذلك بأن عرّفتهما إنى قد استخرجت حساب السنين الشمسية، و السنين القمرية من القرآن الكريم بعد ما عرضته على أصحاب التفسير، فذكروا أنه لم يأت فيه شىء من الأثر، فكان ذلك أوكد فى لطف استخراجى، و هو أنّ اللّه تعالى قال فى سورة الكهف: وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً [الكهف/ ۲۵] فلم أجد أحدا من المفسرين عرف معنى قوله: و ازدادوا تسعا، و إنما خاطب اللّه عز و جل نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بكلام العرب، و ما تعرفه من الحساب، فمعنى هذه التسع أنّ الثلاثمائة كانت شمسية بحساب العجم، و من كان لا يعرف السنين القمرية، فإذا أضيف إلى الثلاثمائة القمرية زيادة التسع، كانت سنين شمسية صحيحة، فاستحسناه، فلما انصرف جرادة مع الناصر لدين اللّه إلى مدينة السلام، و توفى الناصر رحمه اللّه، و تقلد

القاسم عبيد اللّه بن سليمان كتابة أمير المؤمنين المعتضد باللّه أجرى له جرادة ذكر هذا النقل، و شرح له سببه تقرّبا إليه و طعنا على أبى القاسم عبيد اللّه فى تأخيره إياه، فلما وقف المعتضد على ذلك تقدّم إلى أبى القاسم بإنشاء الكتب بنقل سنة ثمان و سبعين إلى سنة تسع و سبعين و مائتين، و كان هذا النقل بعد أربع سنين من وجوبه، ثم مضت السنون سنة بعد سنة إلى أن انقضت الآن ثلاث و ثلاثون سنة، أولاهنّ السنة التى كان النقل وجب فيها، و هى سنة خمس و سبعين و مائتين، و آخرتهنّ انقضاء سنة سبع و ثلثمائة، و قد تهيأ إدراك الغلات، و الثمار فى صدر سنة ثمان و ثلثمائة، و نسبته إليها، و قد عملت نسخة هذا النقل نسختها تحت هذا الموضع ليوقف عليها، و قد كان أصحاب الدواوين فى أيام المتوكل لما نقل سنة إحدى و أربعين و مائتين إلى سنة اثنتين و أربعين و مائتين جبوا الجوالى و الصدقات لسنتى إحدى و اثنتين و أربعين و مائتين فى وقت واحد، لأنّ الجوالى بسرّمن‌رأى ، و مدينة السلام ، و قصب المدن المشهورة كانت تجبى على شهور الأهلة، و ما كان من جماجم أهل القرى فى الخراج و الضياع و الصدقات و المستغلات، كان يجبى على شهور الشمس، و فى ثلاث و ثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة، فألزم أهل الذمّة خاصة بالجوالى، و رفعها العمال فى حساباتهم فمن لم يرفعها ألزموه بجوالى السنة الزائدة، فأحفظ أنه اجتمع من ذلك ألوف دراهم، ثم جدّدت الكتب إلى العمال بأن تكون حساباتهم الجوالى على شهور الأهلة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۰

فجرى الأمر على ذلك، قال القاضى أبو الحسن: و قد كان النقل أغفل فى الديار المصرية، حتى كانت سنة تسع و تسعين و أربعمائة الهلالية تجرى مع سنة سبع و تسعين الخراجية، فنقلت سنة سبع و تسعين و أربعمائة إلى سنة إحدى و خمسمائة، هكذا رأيت فى تعليقات أبى رحمه اللّه، و آخر ما نقلت السنة فى وقتنا هذا سنة خمس و ستين و خمسمائة إلى سنة سبع و ستين و خمسمائة الهلالية، فتطابقت السنتان، و ذلك أننى لما قلت للقاضى الفاضل أبى علىّ عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ: أنه قد آن نقل السنة، فأنشأ سجلا بنقلها نسخ الدواوين، و حمل الأمر على حكمه، و ما برح الملوك و الوزراء يعتنون بنقل السنين فى أحيانها.

و قال أبو الحسين هلال بن المحسن الصابى: حدّثنى أبو علىّ قال: لما أراد الوزير أبو محمد المهلبىّ نقل سنة خمس و ثلثمائة الهلالية أمر أبا إسحاق والدى و غيره من كتابة فى الخراج، و الرسائل بإنشاء كتاب عن المطيع للّه فى هذا المعنى، فكتب كل منهم، و كتب والدى الكتاب الموجود فى رسائله، و عرضت النسخ على الوزير، فاختاره منها، و تقدّم بأن يكتب إلى أصحاب الأطراف، و قال لأبى الفرج بن أبى هشام خليفته: اكتب إلى العمال بذلك كتبا محققه، و انسخ فى أواخرها هذا الكتاب السلطانىّ، فغاظ أبا الفرج وقوع التفضيل و الاختيار لكتاب والدى، و قد كان عمل نسخة اطرحت فى جملة ما اطرح و كتب، قد رأينا نقل سنة خمسين إلى إحدى و خمسين، فاعمل على ذلك، و لم ينسخ الكتاب السلطانىّ، و عرف الوزير ما كتب به أبو الفرج، فقال له: لماذا أغفلت نسخ الكتاب السلطانىّ فى آخر الكتب إلى العمال، و إثباته فى الديوان، فأجاب جوابا علك فيه، فقال له: يا أبا الفرج ما تركت ذلك إلّا حسدا لأبى إسحاق، و هو و اللّه فى هذا الفنّ أكتب أهل زمانه، فأعد الآن الكتب، و انسخ الكتاب فى أواخرها، قال القاضى أبو الحسن: و أنا أذكر بمشيئة اللّه نسخة الكتاب الذى أشار إليه أبو الحسن علىّ بن الحسن الكاتب، و كتاب أبى إسحاق، و كتاب القاضى الفاضل، ليستبين للناظر طريق نقل السنين الخراجية إلى السنين الهلالية، فإذا قاربت الموافقة، و حسنت فيها المطابقة، فالكتاب الفاضلىّ أكثر نجازا، و أعظم إعجازا، و لا يخفى على المتأمّل قدر ما أورد فيه من البلاغة، كما لا يخفى على العارف قدر ما تضمنه كتاب الصابى من الصناعة.

نسخة الكتاب الذى أشار إليه أبو الحسن الكاتب: إنّ أولى ما صرف إليه أمير المؤمنين عنايته، و أعمل فيه فكره و رويته، و شغل فيه تفقده، و رعايته أمر الفيء الذى خصه اللّه به، و ألزمه جمعه، و توفيره و حياطته، و تكثيره و جعله عماد الدين، و قوام أمر المسلمين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۱

و فيما يصرف منه إلى أعطيات الأولياء و الجنود، و من يستعان به لتحصين البيضة، و الذب عن الحريم، و حج البيت، و جهاد العدوّ، و

سدّ الثغور، و أمن السبيل، و حقن الدماء، و إصلاح ذات البيت، و أمير المؤمنين يسأل اللّه تعالى، راغبا إليه و متوكلا عليه أن يحسن عونه على ما حمله منه، و يديم توفيقه بما أرضاه، و إرشاده إلى أن يقضى عنه و له، و قد نظر أمير المؤمنين فيما كان يجرى عليه أمر جباية هذا الفيء فى خلافة آبائه الراشدين صلوات اللّه عليهم، فوجده على حسب ما كان يدرك من الغلات و الثمار من كل سنة أوّلا أوّلا على مجارى شهور سنى الشمس فى النجوم التى يحل مال كل صنف منها فيها، و وجد شهور السنة الشمسية تتأخر عن شهور السنة الهلالية أحد عشر يوما و ربعا، و زيادة عليه، و يكون إدراك الغلات و الثمار فى كل سنة بحسب تأخرها، فلا تزال السنون تمضى على ذلك سنة بعد سنة حتى تنقضى منها ثلاث و ثلاثون سنة، و تكون عدّة الأيام المتأخرة منها أيام سنة شمسية كاملة، و هى ثلثمائة و خمسة و ستون يوما و ربع يوم و زيادة عليه.

فحينئذ يتهيأ بمشيئة اللّه تعالى و قدرته إدراك الغلات التى تجرى عليها الضرائب، و الطسوق فى استقبال المحرّم من سنى الأهلة، و يجب مع ذلك إلغاء السنة الخارجة إذا كانت قد انقضت، و نسبتها إلى السنة التى أدركت الغلات و الثمار فيها، لأنه وجد ذلك قد كان وقع فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على اللّه رحمة اللّه عليه عند انقضاء ثلاث و ثلاثين سنة آخرتهنّ سنة إحدى و أربعين و مائتين، فجرت المكاتبات و الحسبانات، و سائر الأعمال بعد ذلك سنة بعد سنة إلى أن مضت ثلاث و ثلاثون سنة آخرتهنّ انقضاء سنة أربع و سبعين و مائتين، و وجب إنشاء الكتب بإلغاء ذكر سنة أربع و سبعين و مائتين، و نسبتها إلى سنة خمس و سبعين و مائتين، فذهب ذلك على كتاب أمير المؤمنين المعتمد على اللّه، و تأخر الأمر أربع سنين إلى أن أمر أمير المؤمنين المعتضد باللّه رحمة اللّه عليه فى سنة سبع و سبعين و مائتين بنقل خراج سنة ثمان و سبعين إلى سنة تسع و سبعين و مائتين.

فجرى الأمر على ذلك إلى أن انقضت فى هذا الوقت ثلاث و ثلاثون سنة: أولاهنّ السنة التى كان يجب نقلها فيها، و هى سنة خمس و سبعين و مائتين، و آخرتهنّ انقضاء شهور خراج سنة سبع و ثلثمائة، و وجب افتتاح خراج ما يجرى على الضرائب و الطسوق فى أوّلها، و إن من صواب التدبير و استقامة الأعمال، و استعمال ما يخف على الرعية معاملتها به، نقل سنة الخراج سنة سبع و ثلثمائة إلى سنة ثمان و ثلثمائة، فرأى أمير المؤمنين لما يلزمه نفسه، و يؤاخذها به من العناية بهذا الفيء، و حياطة أسبابه، و إجرائها مجاريها، و سلوك سبيل آبائه الراشدين رحمة اللّه عليهم أجمعين فيها، أن يكتب إليك، و إلى سائر العمال فى النواحى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۲

بالعمل على ذلك، و أن يكون ما يصدر إليكم من الكتب، و تصدرونه منكم، و تجرى عليه أعمالكم و رفوعكم و حسباناتكم، و سائر مناظراتكم على هذا النقل، فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين، و اعمل به مستشعرا فيه، و فى كل مضنة تقوى اللّه، و طاعته و مستعملا عليه ثقات الأعوان و كفاتهم، و مشرفا عليهم، و مقوّما لهم، و اكتب بما يكون منك فى ذلك إن شاء اللّه تعالى.

نسخة أبى إسحاق الصابى: أما بعد: فإنّ أمير المؤمنين لا زال مجتهدا فى مصالح المسلمين، و باعثا لهم على مراشد الدنيا و الدين، و مهيأ لهم أحسن الاختيار فيما يوردون و يصدرون، و أصوب الرأى فيما يبرمون و ينقضون، فلا يلوح له خلة داخلة على أمورهم إلّا سدّها، و تلافاها و لا حال عائدة بحظ عليهم إلا اعتمدها، و أتاها، و لا سنة عادلة إلا أخذهم بإقامة رسمها، و إمضاء حكمها، و الاقتداء بالسلف الصالح فى العمل بها، و الإتباع لها، و إذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها، و تجهله العامّة بقصور أفهامها، و كانت أوامره فيه خارجة إليك، و إلى أمثالك من أعيان رجاله، و أماثل عماله الذين يكتفون بالإشارة، و يجتزون بيسير الإبانة و العبارة لم يدع أن يبلغ من تخليص اللفظ، و إيضاح المعنى إلى الحدّ الذى يلحق المتأخر بالمتقدّم، و يجمع بين العالم و المتعلم، و لا سيما إذا كان ذلك فيما يتعلق بمعاملات الرعية، و من لا يعرف إلّا الظواهر الجلية دون البواطن الخفية، و لا يسهل عليه الانتقال عن العادات المتكرّرة إلى الرسوم المتغيرة ليكون القول بالمشروح لمن برز فى المعرفة مذكرا، و لمن تأخر فيها مبصرا، و لأنه ليس من الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين فى صدورها، و لا أن يقتصر على اللمحة الدالة فى مخاطبة جمهورها، حتى إذا استوت الأقدام بطوائف الناس فى فهم ما أمروا به و فقه ما دعوا إليه، و صاروا على حكمه سواء لا يعترضهم شك الشاكين، و لا

استرابة المستريبين، اطمأنت قلوبهم، و انشرحت صدورهم، و سقط الخلاف بينهم، و استمرّ الاتفاق بهم، و استيقنوا أنهم مؤسسون على استقامة من المنهاج، و محروسون من حزائز الزيغ و الاعوجاج، فكان الانقياد منهم، و هم دارون عالمون لا- مقلدون مسلمون، و طائعون مختارون لا مكرهون، و لا مجبرون.

و أمير المؤمنين يستمدّ اللّه تعالى فى جميع أغراضه، و مراميه و مطالبه، و مغازيه مادّة من صنعه يقف بها على سنن الصلاح، و يفتح له أبواب النجاح، و ينهضه بما أهّله لحمله من الأعباء التى لا- يدّعى الاستقلال بها إلا بتوفيقه، و معونته، و لا يتوجه فيها إلّا بدلالته و هدايته، و حسب أمير المؤمنين اللّه، و نعم الوكيل يرى أنّ أولى الأقوال أن يكون سدادا، و أحرى الأفعال أن يكون رشادا ما وجد له فى السابق من حكم اللّه أصول و قواعد، و فى النص من كتابه آيات و شواهد، و كان منصبا بالأمّة إلى قوام من دين أو دنيا، و وفاق فى آخره أو أولى، فذلك هو البناء الذى يثبت، و يعلو، و الغرس الذى ينبت و يزكو، و السعى الذى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۳

تنجح مباديه و هواديه، و تبهج عواقبه و تواليه، و تستنير سبله لسالكيها، و توردهم موارد السعود فى مقاصدهم فيها غير ضالين و لا عادلين، و لا- منحرفين و لا- زائلين، و قد جعل اللّه عز و جل لعباده من هذه الأفلاك الدائرة، و النجوم السائرة، فيما تنقلب عليه من اتصال و افتراق و يتعاقب عليها من اختلاف، و اتفاق منافع تظهر فى كرور الشهور و الأعوام، و مرور الليالى و الأيام، و تفاوت الضياء و الظلام، و اعتدال المسالك و الأوطان، و تغاير الفصول و الأزمان، و نشو النبات و الحيوان، مما ليس فى نظام ذلك خلل، و لا فى صنعه زلل بل هو منوط بعضه ببعض، و محوط من كل تلمة و نقض.

قال اللّه تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِ [يونس/ ۵]، و قال جلّ من قائل: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [الرعد/ ۲]، و قال تعالى: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [يس/ ۳۸]، و قال عزت قدرته: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [يس/ ۳۹]، ففضل اللّه تعالى بهذه الآيات بين الشمس و القمر، و أنبأنا فى الباهر من حكمه، و المعجز من كلامه أن لكل منهما طريقا سخر فيها، و طبيعة جبل عليها و أن تلك المباينة و المخالفة فى المسير يؤدّيان إلى موافقة، و ملازمة فى التدبير، فمن هنا لك زادت السنة الشمسية.

فصارت ثلثمائة و خمسة و ستين يوما و ربعا بالتقريب المعمول عليه، و هى المدّة التى تقطع الشمس فيها الفلك مرّة واحدة، و نقصت الهلالية، فصارت ثلثمائة و أربعة و خمسين يوما، و هى المدّة التى يجامع القمر فيها الشمس اثنتى عشرة مرّة، و احتيج إذا انساق هذا الفضل إلى استعمال النقل الذى يطابق إحدى السنتين بالأخرى إذا افترقنا، و يدانى بينهما إذا تفاوتتا، و ما زالت الأمم السالفة تكبس زيادات السنين على افتنان من طرقها و مذاهبها، و فى كتاب اللّه عز و جل شهادة بذلك إذ يقول فى قصة أهل الكهف: وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً [الكهف/ ۲۵]، فكانت هذه الزيادة بأنّ الفضل فى السنين المذكورة على تقريب التقريب.

فأما الفرس: فإنهم أجروا معاملاتهم على السنة المعتدلة التى شهورها اثنا عشر شهرا، و أيامها ثلثمائة و ستون يوما، و لقبوا الشهور باثنى عشر لقبا، و سموا أيام الشهر منها بثلاثين اسما، و أفردوا الخمسة الأيام الزائدة، و سموها المسترقة، و كبسوا الربع فى كل مائة و عشرين سنة شهرا، فلما انقرض ملكهم بطل فى كبس هذا الربع تدبيرهم، و زال نوروزهم عن سنته، و انفرج ما بينه، و بين حقيقة وقته انفراجا هو زائد لا يقف، و دائر لا ينقطع، حتى إن موضوعهم فى النوروز أن يقع فى مدخل الصيف، و سينتهى إلى أن يقع فى مدخل الشتاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۴

و يتجاوز ذلك، و موضوعهم فى المهرجان أن يقع فى مدخل الشتاء، و ينتهى إلى أن يقع فى مدخل الصيف، و يتجاوز.

و أما الروم: فكانوا أتقن منهم حكمة، و أبعد نظرا فى العاقبة لأنهم رتبوا شهور السنة على أرصاد شهروها، و أنواء عرفوها، و فضوا

الخمسة الأيام على الشهور، و ساقوها على الدهور، و كبسوا الربع فى كل أربع سنين يوما، و رسموا أن يكون إلى شباط مضافا، فقرّبوها ما بعّده غيرهم، و سهّلوا على الناس أن يقتفوا أثرهم، لا جرم أن المعتضد بالله رحمه اللّه على أصولهم بنى، و لمثالهم احتذى فى تصييره نوروزه اليوم الحادى عشر من حزيران، حتى سلم مما لحق النواريز فى سالف الأزمان، و تلافوا الأمر فى عجز سنى الهلال عن سنى الشمس بأن جبروها بالكبس، فكلما اجتمع من فصول سنى الشمس، و ما بقى تمام شهر جعلوا السنة الهلالية، يتفق ذلك فيها ثلاثة عشر هلالا، فربما تمّ الشهر الثالث عشر فى ثلاث سنين، و ربما تمّ فى سنتين بحسب ما يوجبه الحساب، فتصير سنتا الشمس و الهلال عندهم متقاربتين أبدا لا يتباعد ما بينهما.

و أمّا العرب: فإنّ اللّه تعالى فضّلها على الأمم الماضية، و ورثها ثمرات مشاقها المتعبة، و أجرى شهر صيامها، و مواقيت أعيادها، و زكاة أهل ملتها، و جزية أهل ذمّتها على السنة الهلالية، و تعبدها فيها برؤية الأهلة إرادة منه أن تكون مناهجها واضحة، و أعلامها لائحة، فيتكافأ فى معرفة الغرض، و دخول الوقت الخاص منها و العام، و الناقص الفقه و التام، و الأنثى و الذكر، و الصغير و الكبير و الأكبر، فصاروا حينئذ يحسبون فى سنة الشمس حاصل الغلات المقسومة، و خراج الأرض الممسوحة، و يجبون فى سنة الهلال الجوالى، و الصدقات و الأرجاء، و المقاطعات و المستغلات، و سائر ما يجرى على المشاهرات، و حدث من التداخل بين السنين ما لو استمرّ لقبح جدا، و ازداد بعدا إذ كانت الجباية الخراجية فى السنة التى ينتهى إليها تنسب إلى الشمسية، و إلى ما قبلها، فوجب مع هذا أن تطرح تلك السنة، و تلغى و يتجاوز إلى ما بعدها، و يتخطى، و لم يجز لهم أن يعتدّوا لمخالفتهم فى كبس السنة الهلالية بشهر ثالث عشر، و لأنهم لو فعلوا ذلك لزحزحت الأشهر الحرم عن موافقها، و ارتجت المناسك عن حقائقها، و نقصت الجباية فى سنى الأهلة القبطية بقسط ما استغرقه الكبس منها، فانتظروا بذلك الفضل إلى أن تتم السنة، و أوجب الحساب المقرّب أن يكون كل اثنتين و ثلاثين سنة شمسية ثلاثا و ثلاثين هلالية، فنقلوا المتقدّمة إلى المتأخرة نقلا لا يتجاوز الشمسية.

و كانت هذه الكلفة فى دنياهم مستسهلة مع تلك النعمة فى دينهم، و قد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين و ثلثمائة الخراجية إلى سنة إحدى و خمسين و ثلثمائة الهلالية جمعا بينهما، و لزوما لتلك السنة فيهما، فاعمل بما ورد به أمر أمير المؤمنين عليك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۵

و تضمنه كتابه هذا إليك، و مر الكتاب قبلك أن يحتذوا رسمه فيما يكتبون به إلى عمال نواحيك، و يخلدونه فى الدواوين من ذكورهم و رفوعهم، و يعدونه من خروج الأموال و ينظمونه فى الدواوين و الأعمال، و يثبتون عليه الجماعات و الحسبانات، و يوغرون بكتبه من الروزنامجات، و البراءات و ليكن المنسوب من ذلك إلى سنة خمسين و ثلثمائة التى وقع النقل إليها، و أقم فى نفوس من بحضرتك من أصناف الجند و الرعية، و أهل الملة و الذمة أن هذا النقل لا يغير لهم رسما، و لا يلحق بهم ثلما، و لا يعود على قابضى العطاء بنقصان ما استحقوا قبضه، و لا على مؤدّى حق بيت المال بإغضاء عما وجب أداؤه، فإنّ قرائح أكثرهم فقيرة إلى إفهام أمير المؤمنين الذى آثر أن تزاح فيه العلة، و يسدّ بهم سهم الخلة إذ كان هذا الشأن لا يتجدّد إلا فى المدد الطوال التى فى مثلها يحتاج إلى تعريف الناسى، و أجب بما يكون منك جوابا يحسن موقعه لك إن شاء اللّه تعالى.

و قال ابن المأمون فى تاريخه: من حوادث سنة إحدى و خمسمائة، و أوّل ما تحدّث فيه نقل السنة الشمسية إلى العربية، و كان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين، فتحدّث القائد أبو عبد اللّه محمد بن فاتك البطائحىّ مع الأفضل بن أمير الجيوش فى ذلك، فأجاب إليه، و خرج أمره إلى الشيخ أبى القاسم بن الصيرفىّ بإنشاء سجل به.

فأنشأ ما نسخته: بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه الذى ارتضى أمير المؤمنين أمينه فى أرضه و خليفته، و ألهمه أن يعمّ بحسن التدبير عبيده و خليقته، و وفقه لمصالح يستمدّ أسبابها، و يفتح بحسن نظره أبوابها، و أورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر، و جعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة فى المحشر، و عناهم بقوله: يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، و أعلى منار سلطانه بمدبر أفلاكك دولته، و مبيد أعداء مملكته، و أشرف من نصب للجند علما و راية، و وقف على مصلحة البرية نظره و رأيه، و أرشد

بهداتيه الألباب الحائرة، و أذهب بمعدلته الأحكام الجائرة السيد الأجل الأفضل، و نتمم النعوت بالدعاء للذى كمل تدبيره نظام الصلاح و تممه، و سدّد تقريره الأمور فى كل ما قصده و يممه، و نبّه فى السياسة على ما أهمله من سبقه، و أغفله من تقدّمه، و تتبع أحوال المملكة، فلم يدع مشكلا إلا أوضحه و بين الواجب فيه، و لا خللا إلا أصلحه، و بادر بتلافيه، و لا مهملا إلا استعمله على ما يوافق الصواب، و لا ينافيه إيثارا لعمارة الأعمال، و قصدا لما يقضى بتوفير الأموال.

و توخيا لما عاد بضروب الاستغلال، و اعتناء برجال الدولة العلوية و أجنادها، و اهتماما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۶

بمصالحهم التى ضعفت قواهم عن ارتيادها، و رعاية لمن ضمنه أقطار المملكة من الرعايا، و حملا لهم على أعدل السنن، و أفضل القضايا يحمده أمير المؤمنين على ما أعانه عليه من حسن النظر للأمّة، و ادّخره لأيامه من الفضائل التى صفت بها ملابس النعمة، و وفقه لما يعود على الكافة بشمول الانتفاع، حتى صار استبدال الحقوق بواجبات الشريعة الواضحة الأدلة و استيفاؤها بمقتضى المعدلة، فيما يجرى على أحكام الخراج، و أوضاع الأهلة، و يرغب إليه بالصلاة على محمد الذى ميزه بالحكمة، و فصل الخطاب، و بين به ما استيهم من سبل الصواب، و أنزل عليه فى محكم الكتاب: هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ [یونس/ ۵] صلى اللّه عليه، و على أخيه و ابن عمه أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كافيه فيما أعضل لمّا عدم المساعد، و واقيه بنفسه لما تخاذل الكف و الساعد، و على الأئمة من ذريتهما العاملين برضى اللّه تعالى فيما يقولون و يفعلون، و الذين يهددون بالحق، و به يعدلون، و إنّ أولى ما أولاه أمير المؤمنين حظا وافيا من تفقده، و أسهم له جزءا وافرا من كريم تعهده، و نظر إليه بعين اهتمامه، و اختصه بالقسم الأجزل من استمالة أمر الأموال التى يستعان بها على سدّ الخلل، و برجائها يستدفع ما يطرق من الحادث الجلل، و بوفورها تستثبت شؤون المملكة، و تستقيم أحوال الدول، و باستخراجها على حكم العدل الشامل، و وصية إنصاف المعامل تكون العمارة التى هى أصل زيادتها، و مادة كثرتها و غزارتها.

و لما كانت جباياتها على حكمين: أحدهما: يجىء هلاليا، و ذلك ما لا يدخله عارض و لا إشكال، و لا إبهام، و لا يحتاج فيه إلى إيضاح و لا إفهام، لأن شهور الهلال يشترك فى معرفتها الأمير و المقصر، و يستوى فى الفهم بها المتقدّم فى العلم و المتأخر، إذ كان الناس آلفين لأزمنة متعبداتهم السنين مما يحفظ لهم نظام مرسوم، و الآخر يجىء خراجيا و يثبت بنسبته إلى الخراج لأنها تضبط أوقات ما يجرى ذلك لأجله من النيل المبارك، و الزراعة و تحفظ أحيانه دون السنة الهلالية، و تحرس أوضاعه، و لا يستقل بمعرفته إلا من باشره، و عرف موارده و مصادره، فوجب أن يقصر على السنة الخراجية النظر، و يفعل فيها ما تعظم به الفائدة، و يحسن فيه الأثر و يعتمد فى إيضاح أمرها، و تقديم حكمها على ما تتحلى به التواريخ، و تزين به السير، و يكون ذلك شاهدا لمساعى السيد الأجل الأفضل الذى لا يزال ساهرا ليله فى حياطه الهاجعين شاهرا لسيفه فى حماية الوادعين مطلعا للدولة بدور السعادة، و شموسها مذللا صعب الحوادث، و شموسها ناطقة تارة بأن أمّية هو راعيها قد فضل اللّه سائسها، و أسعد مسوسها، و هذا حين التبصير و الإرشاد، و أوان التبيين للغرض و المراد، لتتساوى العامّة و الخاصة فى علمه و تسعهم الفائدة فى معرفة حكمه، و تتحقق المنفعة لهم فيما يمنع من تداخل السنين و استقبالها، و تتيقن المعدلة عليهم فيما يؤمن من المضار التى يحتاج إلى استدراكها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۷

و معلوم أنّ أيام السنة الخراجية، و هى السنة الشمسية بخلاف السنة الهلالية لأن أيام السنة الخراجية من استقبال النوروز إلى آخر النسىء ثلثمائة و خمسة و ستون يوما و ربع يوم، و أيام السنة الهلالية لاستقبال المحرّم إلى آخر ذى الحجة ثلثمائة و أربعة و خمسون يوما، و الخلاف فى كل سنة بالتقريب أحد عشر يوما، و فى كل ثلاث و ثلاثين سنة سنة واحدة على حكم التقريب و يتقضيه ما تقدّم من الترتيب، فإذا اتفق أن يكون أوّل الهلالية موافقا لمدخل السنة الخراجية، و كانت نسبتهما واحدة استمرّ اتفاق التسمية فيهما، و بقى ذلك جاريا عليهما، و لم يزالا متداخلين لكون مدخل الخراجية فى أثناء شهور الهلالية إلى انقضاء ثلاث و ثلاثين سنة، فإذا انقضت

هذه المدّة بطلت المداخلة، و خلت السنة الهلالية من نوروز يكون فيها، و بحكم ذلك بطل اتفاق التسمية، و يكون التفاوت سنة واحدة للعلّة المقدّم ذكرها، و من أين يستمرّ بينهما ائتلاف، أو يعدم لهما اختلاف، أم كيف يعتقد ذلك أحد من البشر.

و اللّه تعالى يقول: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ [يس/ ۴۰] فقد وضح دليل التباعد بما جاء منصوصا فى الكتاب، و ظهر برهانه بما اقتضاه موجب الحساب، فيحتاج بحكم ذلك إلى نقل السنة الشمسية إلى التى تليها لتكون موافقة للهلالية، و جارية معها، و فائدة النقل أن لا تخلو السنة الهلالية من مال خاص ينسب إلى السنة الموافقة لها، لأنّ واجبات العسكرية على عظمها، و اتساعها و أرزاق المرتزقة على اختلاف أجناسها، و أوضاعها جارية على أحكام الهلالية غير معدول بها عن ذلك فى حال من الأحوال، و المحافظة على ثمرة ارتفاعها متعينة، و منفعة العناية بما تجرى عليه واضحة مبينة، و لما أهلت سنة إحدى و خمسمائة، و دخلت فيها سنة تسع و تسعين و أربعمائة الخراجية الموافقة لسنة إحدى و خمسمائة الهلالية كان فى ذلك من التباين، و التعارض و التفاوت، و التنافر بحكم إهمال النقل فيما تقدّم ما صارت السنة الهلالية الحاضرة لا يجبى خراج ما يوافقها فيها، و لا تدرك غلّات السنة المجرى ما لها عليها إلّا فى السنة التى تليها، فهى تستهل و تنقضى.

و ليس لها فى الخراجىّ ارتفاع و الأعمال تطيف بالزراعة، و لا حظ لها فى ذلك، و لا انتفاع، و هذه الحال المضرّة بها على بيت المال غير خفية، و الأذية فيها للرجال المقطعين بادية، و أسباب لحوقها إياهم مستمرّة متمادية، و لا سيما من وقع له بإثبات و أنعم عليه بزيادات، فإنّهم يتعجلون الاستقبال، و يتأجلون الاستغلال، و متى لم تنقل هذه السنة الخراجية كانت متداخلة بين سنين هلالية، و هى موافقة لغيرها، و ما لها يجرى على سنة تجرى بينهما لأنّ مدخلها فى اليوم العاشر من المحرّم سنة إحدى و خمسمائة، و انقضاؤها فى العشرين من المحرّم سنة اثنتين و خمسمائة، و هى متداخلة بين هاتين السنتين، و ما لهما يجرى على سنة إحدى و خمسمائة، و الحال فى ذلك لا ينتهى إلى أمد، و لا يزال الفساد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۸

يتزايد طول الأبد، و قد رأى أمير المؤمنين و باللّه توفيقه ما خرج به أمره إلى السيد الأجل الأفضل الذى نبه على هذا الأمر، و كشف غامضه، و أزال بحسن توصله تنافيه، و تناقضه أن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل مضمنا ما رآه و دبره مودعا إنفاذ ما أحكمه، و قرّره من نقل سنة تسع و تسعين و أربعمائة إلى سنة إحدى و خمسمائة، لتكون موافقة لها.

و يجرى عليها ما لها، و يكون ما يستأدونه من إقطاعاتهم، و يستخرجونه من واجباتهم جاريا على نظام محروس، و نطاق محيط غير منحوس، و شاهدا بنصيب موفى غير منقوص، و يتضح ما أبهم إشكاله التعمية، و يزول الاستكراه فى اختلاف التسمية، و يستمرّ الوفاق بين السنين الهلالية و الخراجية إلى سنة أربع و ثلاثين و خمسمائة، و ينسب مال الخراج و المقاسمات، و ما يستغلّ، و يجبى من الإقطاعات مما كان جاريا على ذكر سنة تسع و تسعين و أربعمائة إلى سنة إحدى و خمسمائة، و تجرى الإضافة إليها مجرى ما يرتفع من الهلالىّ فيها لتكون سنة إحدى من هذه مشتملة على ما يخصها من مالها، و على مال السنة الخراجية بما يشرح من انتقالها، و كذلك نقل سنة تسع و تسعين و أربعمائة الخراجية الثابتة بالتسمية إلى سنة إحدى و خمسمائة المشار إليها، و يكون مالها جاريا عليها، فليعتمد ذلك فى الدواوين بالحضرة، و فى سائر أعمال الدولة قاصيها و دانيها، و فارسها و شاميها، و ليتنبه كافة الكتاب و المستخدمين، و جميع العمال و المتصرّفين إلى اقتفاء هذه السنن و أتباعه، و ليحذروا الخروج عن أحكامه المقرّرة و أوضاعه، و ليبادروا إلى امتثال المرسوم فيه، و ليحذروا من تجاوزه و تعدّيه، و لينسخ فى دواوين الأموال و الجيوش المنصورة، و ليخلد بعد ذلك فى بيوت المال المعمورة، و كتب فى محرّم سنة إحدى و خمسمائة.

و قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ستين و خمسمائة و من خطه نقلت مستهلّ المحرّم نسخ منشور بنقل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية، و المطابقة بين اسمهما لموافقة الشهور العربية للشهور القبطية، و خلوّ سنة سبع من نوروز، فنقلت سنة خمس و ستين و خمسمائة الخراجية إلى هذه السنة، و كان آخر نقل نقلته هذه السنة فى الأيام الأفضلية، فإنّ سنة ثمان و تسعين و أربعمائة، و سنة

تسع و تسعين الخراجيتين نقلتا إلى سنة إحدى و خمسمائة الخراجية، و سبب هذا الانفراج بينهما زيادة عدد السنة الشمسية على عدد الهلالية أحد عشر يوما، و إغفال النقل فى سنة ثلاث و ثلاثين فى أيام الوزير الأفضل رضوان بن و لخشى، و انسحب ذيل هذه الزيادة، و تداخل السنين بعضها فى بعض إلى أن صار التفاوت بينهما سنتين فى هذه السنة فنقلت، و هو انتقال لا يتعدّى التسمية، و لا يتجاوز اللفظ، و لا ينقص مالا لديوان، و لا لمقطع، و إنما يقصد به إزالة الإلباس، و حل الإشكال.

و قال القاضى أبو الحسين: و نسخة الكتاب الذى أنشأه القاضى الفاضل خرجت الأوامر الملكية الناصرية زاد اللّه فى إعلائها بإبداع هذا المنشور إنا نؤثر من حسن النظر ما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۵۹

يؤثر أحسن الخبر، و لا ينصرف بنا الفكر عمّا تحلى به السير، و تجلى به الغير، و لا تزال خواطرنا تعتلى فتطلع الدرارى، و تغوص فتخرج الدرر، و إنّ أولى ما استحدّت به البصائر، و حرست فيه المصائر كل أمر يصحح المعاملات و يشرحها، و يطلق عقولهم من عقول الإشكال، و يسرّحها، و لما وجب نقل السنة الخراجية، و المطابقة بينها و بين الهلالية، لانفراجهما بسنتين، و موافقة الشهور الخراجية و الهلالية فى هذه السنة مطلع المستهلين أمضينا هذه السنة الخالية فى هذه السنة الآتية، و استخرنا اللّه تعالى فى نقل سنتى خمس و ست و ستين و خمسمائة إلى سنة سبع و ستين و خمسمائة التى سميت بهذا النقل هلالية خراجية نفيا للأمور المشتبهة، و التسمية المموّهة، و تنزيها لسنى الإسلام عن التكبيس، و لتاريخه عن ملابسة التلبيس، و إعلاما بالوفاق الذى استشعرته آباؤها و بنوها، و إعلانا باتباعه عناية بعوايد السلف التى خلفوها للخلف و بنوها، و فى ذلك ما تحمد به العواقب، و تنفسخ به المذاهب، و تتيسر به المطالب، و يزول به الإشكال، و يؤمن به الاختلال، و ينحسم به الغلط فى الحساب، و يؤلف بين السنين المتلفة الأنساب، و يحفظ على القمر معاملته، و يبعد عن التاريخ معاطلته، و يقرّب على الكاتب محاولته، و يصرف عن نعمة اللّه هجنة كونها مقدّمة فى التسنية مؤخرة فى التسمية، و عن معاملة بيت المال و صمة كونها معذوقة بالمطل، و قد بالغت فى التوفيه لأنّ من أعطى فى سنة سبع و ستين و خمسمائة استحقاق سنة خمس، فلا ريب أنه قد مطل بحكم السمع، و إن كان قد أنجز بحكم الشرع فتوسم هذه السنة المباركة بالهلالية الخراجية، و ترفع الحسبانات بهذا الوضع، و يعمل فى التقريرات و التسجيلات على هذا، فليفعل فى ذلك ما يقضى بإرتاج هذا الانفراج، و جبر هذا الصدع، و ليعلم فى الدواوين علمه، و لينفذ فيها حكمه بعد ثبوته إلى حيث يثبت مثله إن شاء اللّه تعالى.

و أما تاريخ العرب: فإنه لم يزل فى الجاهلية و الإسلام يعمل بشهور الأهلة، و عدّة شهور السنة عندهم: اثنا عشر شهرا، إلا أنهم اختلفوا فى أسمائها، فكانت العرب العاربة تسميها: ناتق، و نقيل، و طليق، واسخ، أنخ، و حلك، و كسح، و زاهر، و نوط، و حرف، و بغش. فناتق هو: المحرّم، و نقيل هو: صفر، و هكذا ما بعده على سرد الشهور.

و كانت ثمود تسميها: موجب، و موجر، و مورد، و ملزم، و مصد، و هوبر، و هوبل، و موها، و ديمر، و دابر، و حيقل، و مسيل، فموجب هو: المحرّم، و موجر: صفر، إلا أنهم كانوا يبدأون بالشهور من ديمر، و هو شهر رمضان، فيكون أوّل شهور السنة عندهم، ثم كانت العرب تسميها بأسماء أخر هى: مؤتمر، و ناجر، و خوّان، و صوان، و حنتم، و زبا، و الأصم، و عادل، و بايق، و وعل، و هواع، و برك، و معنى المؤتمر: أنه يأتمر بكل شىء مما تأتى به السنة من أقضيتها، و ناجر: من النجر، و هو شدّة الحرّ، و خوّان: فعال من الخيانة، و صوان، بكسر الصاد و ضمها: فعال من الصيانة، و الزبا: الداهية العظيمة المتكاثفة سمى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۰

بذلك لكثرة القتال فيه، و منهم من يقول: بعد صوان الزبا، و بعد الزبا بائدة، و بعد بائدة الأصم، ثم واغل، و باطل، و عادل، ورنه، وبرك، فالبائد من القتال إذ كان فيه يبيد كثير من الناس، و جرى المثل بذلك فقيل العجب كل العجب بين جمادى و رجب، و كانوا يستعجلون فيه و يتوخون بلوغ النار و الغارات قبل رجب فإنه شهر حرام، و يقولون له الأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال، فلا يسمع فيه صوت السلاح، و الواغل الداخل على شرب و لم يدعوه، و ذلك لأنه تهجم على شهر رمضان، و كان يكثر فى شهر رمضان

شربهم الخمر لأن الذى يتلوه هى شهور الحج، و باطل هو مكيال الخمر سمى به لإفراطهم فيه فى الشرب، و كثرة استعمالهم لذلك المكيال، و أما العادل فهو من العدل لأنه من أشهر الحج، و كانوا يشتغلون فيه عن الباطل، و أما الزبا فلأن الأنعام كانت تزب فيه لقرب النحر، و أما برك فهو لبروك الإبل إذا حضرت المنحر.

و قد روى: أنهم كانوا يسمون المحرّم: مؤتمر، و صفر: ناجر، و ربيع الأوّل: نصار، و ربيع الآخر: خوان، و جمادى الأولى: حمتن، و جمادى الآخرة: الرنة، و رجب: الأصم و هو شهر مضر، و كانت العرب تصومه فى الجاهلية، و كانت تمتار فيه، و تمير أهلها، و كان يأمن بعضهم بعضا فيه، و يخرجون إلى الأسفار، و لا يخافون، و شعبان: عادل، و رمضان:

ناتق، و شوّال: واغل، و ذو القعدة: هواع، و ذو الحجة: برك، و يقال فيه أيضا: أبروك، و كانوا يسمونه الميمون، ثم سمت العرب أشهرها بالمحرّم، و صفر، و ربيع الأوّل، و ربيع الآخر، و جمادى الأولى، و جمادى الآخرة، و رجب، و شعبان، و رمضان، و شوّال، و ذى القعدة، و ذى الحجة، و اشتقوا أسماءها من أمور اتفق وقوعها عند تسميتها، فالمحرّم كانوا يحرّمون فيه القتال، و صفر كانت تصفر فيه بيوتهم لخروجهم إلى الغزو، و شهرا ربيع كانا زمن الربيع، و شهرا جمادى كانا يجمد فيهما الماء لشدّة البرد، و رجب الوسط، و شعبان يشعب فيه القتال، و رمضان من الرمضاء لأنه كان يأتى فيه القيظ، و شوّال تشيل فيه الإبل أذنابها، و ذو القعدة لقعودهم فى دورهم، و ذو الحجة لأنه شهر الحج، و أنت إذا تأمّلت اشتقاق أسماء شهور الجاهلية أوّلا، ثم اشتقاقها ثانيا تبين لك أنّ بين التسميتين زمانا طويلا، فإنّ صفر فى أحدهما هو: صميم الحروب، و فى الآخر: رمضان، و لا يمكن ذلك فى وقت واحد أو وقتين متقاربين، و كانت العرب أوّلا تستعمل هذه الشهور على نحو ما يستعمله أهل الإسلام إما بطريق إلهىّ، أو لأنّ العرب لم يكن لها دراية بمراعاة حساب حركات النيرين، فاحتاجت إلى استعمال مبادى الشهور لرؤية الأهلة، و جعلت زمان الشهر بحسب ما يقع بين كل هلالين، فربما كان بعض الشهور تامّا أعنى ثلاثين يوما، و ربما كان ناقصا أعنى تسعة و عشرين يوما، و ربما كانت أشهر متوالية تامّة أكثرها أربعة، و هذا نادر، و ربما كانت أشهر متوالية ناقصة أكثرها ثلاثة، و كان يقع حج العرب فى أزمنة السنة كلها، و هو أبدا عاشر ذى الحجة من عهد إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام، فإذا انقضى موسم الحج تفرّقت العرب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۱

طالبة أماكنها، و أقام أهل مكة بها، فلم يزالوا على ذلك دهرا طويلا إلى أن غيروا دين إبراهيم و إسماعيل، فأحبوا أن يتوسعوا فى معيشتهم، و يجعلوا حجهم فى وقت إدراك شغلهم من الأدم و الجلود و الثمار و نحوها، و أن يثبت ذلك على حالة واحدة فى أطيب الأزمنة، و أخصبها فتعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا يثرب من عهد شمويل نبىّ بنى إسرائيل، و عملوا النسىء قبل الهجرة بنحو مائتى سنة، و كان الذى يلى النسىء يقال له: القلمس يعنى الشريف، و قد اختلف فى أول من أنسأ الشهور منهم فقيل: القلمس هو:

عدىّ بن زيد، و قيل: القلمس هو: سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، و إنه قال:

أرى شهور الأهلة ثلثمائة و أربعة و خمسين يوما، و أرى شهور العجم ثلثمائة و خمسة و ستين يوما، فبيننا و بينهم أحد عشر يوما، ففى كل ثلاث سنين ثلاثة و ثلاثون يوما، ففى كل ثلاث سنين شهر، و كان إذا جاءت ثلاث سنين قدّم الحج فى ذى القعدة، فإذا جاءت ثلاث سنين أخر فى المحرّم، و كانت العرب إذا حجت قلّدت الإبل النعال، و ألبستها الجلال، و أشعرتها، فلا يتعرّض لها أحد إلّا خثعم، و كان النسىء فى بنى كنانة، ثم فى بنى ثعلبة بن مالك بن كنانة، و كان الذى يلى ذلك منهم: أبو ثمامة المالكىّ، ثم من بنى فقيم، و بنو فقيم هم النساءة، و هو منسىء الشهور، و كان يقوم على باب الكعبة، فيقول: إنّ إلهتكم العزى قد أنسأت صفر الأوّل، و كان يحله عاما و يحرّمه عاما، و كان إتباعهم على ذلك غطفان و هوازن و سليم و تميم، و آخر النساءة: جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة بن عبد بن فقيم.

و قيل: القلمس هو: حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدىّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، ثم توارث ذلك منه بنوه من

بعده، حتى كان آخرهم الذى قام عليه السلام أبو ثمامة جنادة، و كانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فأحلّ لهم من الشهور، و حرّم، فأحلوا ما أحلّ و حرّموا ما حرّم، و كان إذا أراد أن ينسئ منها شيئا أحل المحرّم، فأحلوه، و حرّم مكانه صفر فحرّموه ليواطئوا عدّة الأربعة، فإذا أرادوا الهدى اجتمعوا إليه، فقال: اللهم إنى لا أجاب، و لا أعاب فى أمرى و الأمر لما قضيت، اللهم إنى قد أحللت دماء المحلين من طى و خثعم، فاقتلوهم حيث ثقفتموهم أى ظفرتم به، اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين الصفر الأوّل و أنسأت الآخر من العام المقبل، و إنما أحل دم طى و خثعم لأنهم كانوا يعدون على الناس فى الشهر الحرام من بين جميع العرب.

و قيل: أوّل من أنسأ سرير بن ثعلبة، و انقرض فأنسأ من بعده ابن أخيه: القلمس و اسمه عديّ بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن كنانة، ثم صار النسيء فى ولده، و كان آخرهم أبو ثمامة جنادة، و قيل: عوف بن أمية بن قلع عن أبيه أمية بن قلع عن جدّه قلع بن عباد عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۲

جدّ أبيه عباد بن حذيفة عن جدّ جدّه حذيفة بن عبد بن فقيم، و كان يقال لحذيفة القلمس، و هو أوّل من أنسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما أحل و حرّم ما حرّم، ثم كان بعد عوف المذكور ولده أبو ثمامة جنادة بن عوف، و عليه قام الإسلام، و كان أبعدهم ذكرا، و أطولهم أمدا يقال: إنه أنسأ أربعين سنة، و لهم يقول عمير بن قيس جذل الطعان يفتخر:

و أىّ الناس لم يسبق بوترو أىّ الناس لم يعلك لجاما

ألسنا الناسئين على معدّشهور الحل نجعلها حراما

و قال آخر:

أ تزعم أنى من فقيم بن مالكلعمرى لقد غيرت ما كنت أعلم

لهم ناسئ يمشون تحت لوائهيحل إذا شاء الشهور و يحرم

و قيل: كانت العرب تكبس فى كل أربع و عشرين سنة قمرية بتسعة أشهر، فكانت شهورهم ثابتة مع الأزمنة جارية على سنن واحد لا تتأخر عن أوقاتها، و لا تتقدّم و كان النسيء الأوّل للمحرّم، فسمى صفر باسمه، و شهر ربيع الأوّل باسم صفر، ثم والوا بين أسماء الشهور، فكان النسيء الثانى بصفر، فسمى الذى كان يتلوه بصفر أيضا، و كذلك حتى دار النسيء فى الشهور الاثنى عشر، و عاد إلى المحرّم، فأعادوا فعلهم الأوّل، و كانوا يعدّون أدوار النسيء، و يحدّون بها الأزمنة، فيقولون: قد دارت السنون من لدن زمان كذا إلى زمان كذا: و كذا دورة، فإن ظهر لهم مع ذلك تقدّم شهر عن فصله من الفصول الأربعة لما يجتمع من كسور سنة الشمس بقية فضل ما بينها، و بين سنة القمر الذى ألحقوه بها كبسوها كبسا ثانيا، و كان يظهر لهم ذلك بطلوع منازل القمر، و سقوطها حتى هاجر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و كانت نوبة النسيء بلغت شعبان، فسمى: محرّما، و شهر رمضان: صفر، و قيل: إن الناسيء الأوّل نسأ المحرّم، و جعله كبسا، و أخر المحرّم إلى صفر، و صفر إلى ربيع الأوّل، و كذا بقية الشهور، فوقع لهم فى تلك السنة عاشر المحرّم، و جعل تلك السنة ثلاثة عشر شهرا، و نقل الحج بعد كل ثلاث سنين شهرا فمضى على ذلك مائتان و عشر سنين، و كان انقضاؤها سنة حجة الوداع، و كان وقوع الحج فى السنة التاسعة من الهجرة عاشر ذى القعدة، و هى السنة التى حج فيها أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه بالناس، ثم حجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى السنة العاشرة حجة الوداع لوقوع الحج فيها عاشر ذى الحجة كما كان فى عهد إبراهيم و إسماعيل، و لذلك قال صلّى اللّه عليه و سلّم فى حجته هذه: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السماوات و الأرض» يعنى رجوع الحج و الشهور إلى الوضع، و أنزل اللّه تعالى إبطال النسيء بقوله تعالى: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ [التوبة/ ۳۷] فبطل ما أحدثته الجاهلية من النسيء، و استمرّ وقوع الحج و الصوم برؤية الأهلة، و للّه الحمد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۳

و كانت العرب لها تواريخ معروفة عندها قد بادت، فما كانت تؤرخ به، إنّ كنانة أرخت من موت كعب بن لؤىّ حتى كان عام الفيل،

فأرخوا به، و هو عام مولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و كان بين كعب بن لؤىّ، و الفيل خمسمائة و عشرون سنة، و كان بين الفيل، و بين الفجار أربعون سنة، ثم عدّوا من الفجار إلى وفاة هشام بن المغيرة، فكان ست سنين، ثم عدّوا من وفاة هشام بن المغيرة إلى بنيان الكعبة، فكان تسع سنين، ثم كان بين بنائها، و بين هجرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خمس عشرة سنة.

ثم وقع التاريخ من الهجرة النبوية، فعن سعيد بن المسيب قال: جمع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه الناس فسألهم من أىّ يوم يكتب التاريخ؟ فقال علىّ بن أبى طالب:

من يوم هاجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ترك أرض الشرك، ففعله عمر، و عن سهل بن سعد الساعدىّ قال: أخطأ الناس فى العدد ما عدّوا من مبعثه، و لا من وفاته إنما عدّوا من مقدمه المدينة، و عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: كان التاريخ من السنة التى قدم فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة، و قال قرّة بن خالد عن محمد: كان عند عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه عامل جاء من اليمن فقال لعمر: أما تؤرخون؟ تكتبون فى سنة كذا و كذا من شهر كذا و كذا، فأراد عمر و الناس أن يكتبوا من مبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم قالوا: من عند وفاته، ثم أرادوا أن يكون ذلك من الهجرة، ثم قالوا: من أى شهر، فأرادوا أن يكون من رمضان، ثم بدا لهم، فقالوا:

من المحرّم. و قال ميمون بن مهران: رفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، صكّ محله شعبان، فقال: أىّ شعبان هو؟ أشعبان الذى نحن فيه أو الآتى؟ ثم جمع وجوه الصحابة فقال: إنّ الأموال قد كثرت، و ما قسمنا منها غير مؤقت، فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك، فقالوا: يجب أن يعرف ذلك من رسوم الفرس، فعندها استحضر عمر رضى اللّه عنه الهرمزان، و سأله عن ذلك، فقال: إنّ لنا حسابا نسميه: ماه روز، معناه:

حساب الشهور و الأيام، فعرّبوا الكلمة، و قالوا: مؤرخ، ثم جعلوه اسم التاريخ و استعملوه، ثم طلبوا وقتا يجعلونه أوّلا لتاريخ دولة الإسلام، فاتفقوا على أن يكون المبدأ من سنة الهجرة، و كانت الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، و قد تصرّم من شهور السنة، و أيامها المحرّم و صفر، و أيام من ربيع الأوّل، فلما عزموا على تأسيس الهجرة رجعوا القهقرى ثمانية و ستين يوما، و جعلوا التاريخ من أوّل محرّم هذه السنة، ثم أحصوا من أوّل يوم فى المحرّم إلى آخر عمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فكان عشر سنين و شهرين، و أما إذا حسب عمره المقدّس من الهجرة حقيقة، فيكون قد عاش صلّى اللّه عليه و سلّم بعدها تسع سنين، و أحد عشر شهرا و اثنين و عشرين يوما، و كان بين مولده صلّى اللّه عليه و سلّم و بين مولد المسيح عليه السلام، خمسمائة و ثمان و سبعون سنة تنقص شهرين و ثمانية أيام.

و ابتداء تاريخ الهجرة يوم الخميس أوّل شهر اللّه المحرّم، و بينه و بين الطوفان ثلاثة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۴

آلاف و سبعمائة، و خمس و ثلاثون سنة، و عشرة أشهر و اثنان و عشرون يوما على ما عرّفناه من الخلاف فى ذلك، و بينه و بين تاريخ الإسكندر بن فيليبس المقدونىّ الرومىّ: تسعمائة و إحدى و ستون سنة قمرية و أربعة و خمسون يوما لتكون من السنين الشمسية تسعمائة و اثنتين و ثلاثين سنة، و مائتين و تسعة و ثمانين يوما عنها تسعة أشهر و تسعة عشر يوما، و بينه و بين تاريخ القبط: ثلثمائة و سبع و ثلاثون سنة و تسعة و ثلاثون يوما.

و قال ابن ماشا اللّه : إنّ انتقال المرمن المثلثة الهوائية التى هى برج الجوزاء دولتها إلى برج السرطان، و مثلثته المائية التى كانت دولة الإسلام فيها عند تمام ستة آلاف و ثلثمائة و خمس و أربعين سنة و ثلاثة أشهر و عشرين يوما من وقت القران الأوّل الواقع فى بدء التحرّك يعنى خلق آدم عليه السلام، و إن القران من هذه المثلثة وقع فى أربع درج و دقيقة واحدة من برج العقرب، و هو قران الملة الإسلامية، قال: و فى السنة الثانية من هذا القران ولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كان بين دخول الشمس برج الحمل فى هذه السنة، و بين أوّل يوم من سنة الهجرة سنون فارسية عدّتها إحدى و خمسون سنة، و ثلاثة أشهر و ثمانية أيام و ست عشرة ساعة، فكان

من وقت الطوفان إلى وقت قران الملة ثلاثة آلاف و تسعمائة و اثنتا عشرة سنة، و ستة أشهر و أربعة عشر يوما.

و زعمت اليهود أنّ من آدم عليه السلام إلى سنة الهجرة أربعة آلاف و اثنتين و أربعين سنة و ثلاثة أشهر.

و زعمت النصارى أن بينهما خمسة آلاف و تسعمائة و تسعين سنة و ثلاثة أشهر.

و زعمت المجوس أعنى الفرس أن بينهما أربعة آلاف و مائة و اثنتين و ثمانين سنة و عشرة أشهر، و تسعة عشر يوما، و قد عرفت أنّ شهور تاريخ الهجرة قمرية، و أيام كل سنة منها عدّتها ثلثمائة و أربعة و خمسون يوما، و خمس و سدس يوم، و جميع الأحكام الشرعية مبنية على رؤية الهلال عند جميع فرق الإسلام ما عدا الشيعة، فإنّ الأحكام مبنية عندهم على عمل شهور السنة بالحساب على ما ستراه فى ذكر القاهرة و خلفائها، ثم لما احتاج منجمو الإسلام إلى استخراج من لا بدّ منه من معرفة الأهلة، و سمت القبلة، و غير ذلك بنوا أزياجهم على التاريخ العربىّ، و جعلوا شهور السنة العربية شهرا كاملا، و شهرا ناقصا، و ابتدأوا بالمحرّم اقتداء بالصحابة رضى اللّه عنهم، فجعلوا المحرّم ثلاثين يوما، و صفر تسعة و عشرين يوما، و ربيعا الأوّل ثلاثين يوما، و ربيعا الآخر تسعة و عشرين يوما، و جمادى الأولى ثلاثين يوما، و جمادى الآخرة تسعة و عشرين يوما، و رجب ثلاثين يوما، و شعبان تسعة و عشرين يوما، و رمضان ثلاثين يوما، و شوّالا تسعة و عشرين يوما، و ذا القعدة ثلاثين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۵

يوما، و ذا الحجة تسعة و عشرين يوما، و زادوا من أجل كسر اليوم الذى هو خمس و سدس يوما فى ذى الحجة إذا صار هذا الكسر أكثر من نصف يوم، فيكون شهر ذى الحجة فى تلك السنة ثلاثين يوما، و يسمون تلك السنة كبيسة، و يصير عددها ثلثمائة و خمسة و خمسين يوما، و يجتمع فى كل ثلاثين من الكبس أحد عشر يوما، و اللّه أعلم.

و أما تاريخ الفرس، و يعرف أيضا بتاريخ يزدجرد، فإنه من ابتداء تملك يزدجرد بن شهربار بن كسرى أبرويز، أرخ به الفرس من أجل أن يزدجرد قام فى المملكة بعد ما تبدّد ملك فارس، و استولى عليه النساء، و المتغلبون، و هو أيضا آخر ملوك فارس، و بقتله تمزق ملكهم، و أوّل هذا التاريخ يوم الثلاثاء، و بينه و بين تاريخ الهجرة تسع سنين، و ثلثمائة و ثمانية و ثلاثون يوما، و أيام سنة هذا التاريخ تنقص عن السنة الشمسية ربع يوم، فيكون فى كل مائة و عشرين سنة شهرا واحدا، و لهم فى كبس السنة آراء ليس هذا موضع إيرادها، و على هذا التاريخ يعتمد فى زمننا أهل العراق و بلاد العجم، و للّه عاقبة الأمور.

ذكر فسطاط مصر

اشارة

قال الجوهرىّ: الفسطاط بيت من شعر، قال: و منه فسطاط مدينة مصر، إعلم: أن فسطاط مصر اختط فى الإسلام بعد ما فتحت أرض مصر، و صارت دار إسلام، و قد كانت بيد الروم، و القبط و هم نصارى ملكانية، و يعقوبية و ميانية، و حين اختط المسلمون الفسطاط انتقل كرسىّ المملكة من مدينة الإسكندرية بعد ما كانت منزل الملك، و دار الإمارة زيادة على تسعمائة سنة، و صار من حينئذ الفسطاط دار إمارة ينزل به أمراء مصر، فلم يزل على ذلك حتى بنى العسكر بظاهر الفسطاط، فنزل فيه أمراء مصر، و سكنوه، و ربما سكن بعضهم الفسطاط، فلما أنشأ الأمير أبو العباس أحمد بن طولون القطائع بجانب العسكر سكن فيها، و اتخذها الأمراء من بعده منزلا إلى أن انقرضت دولة بنى طولون، فصار أمراء مصر من بعد ذلك ينزلون بالعسكر خارج الفسطاط، و ما زالوا على ذلك حتى قدمت عساكر الإمام المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ الفاطمىّ مع كاتبه جوهر القائد، فبنى القاهرة، و صارت خلافة، و استمرّ سكنى الرعية بالفسطاط، و بلغ من وفور العمارة، و كثرة الخلائق، ما أربى على عامّة مدن المعمور حاشا بغداد، و ما زال على ذلك، حتى تغلب الفرنج على سواحل البلاد الشامية، و نزل مخرى ملك الفرنج بجموعه الكثيرة على بركة الحبش يريد الاستيلاء على مملكة

مصر، و أخذ الفسطاط و القاهرة، فعجز الوزير شاور ابن مجير السعدىّ عن حفظ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۶

البلدين معا، فأمر الناس بإخلاء مدينة الفسطاط، و اللحاق بالقاهرة للامتناع من الفرنج، و كانت القاهرة إذ ذاك من الحصانة، و الامتناع بحيث لا ترام، فارتحل الناس من الفسطاط، و ساروا بأسرهم إلى القاهرة، و أمر شاور، فألقى العبيد النار فى الفسطاط، فلم تزل به بضعا و خمسين يوما حتى احترقت أكثر مساكنه، فلما رحل مرى عن القاهرة، و استولى شيركوه على الوزارة تراجع الناس إلى الفسطاط، و رموا بعض شعثه، و لم يزل فى نقص و خراب إلى يومنا هذا، و قد صار الفسطاط يعرف فى زمننا بمدينة مصر، و اللّه أعلم.

ذكر ما كان عليه موضع الفسطاط قبل الإسلام إلى أن اختطه المسلمون مدينة

اعلم: أنّ موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم: مدينة مصر كان فضاء و مزارع فيما بين النيل، و الجبل الشرقىّ الذى يعرف بالجبل المقطم، ليس فيه من البناء، و العمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه: بقصر الشمع، و بالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصر ملوك الروم عند مسيره من مدينة الإسكندرية، و يقيم فيه ما شاء، ثم يعود إلى دار الإمارة، و منزل الملك من الإسكندرية، و كان هذا الحصن مطلا على النيل، و تصل السفن فى النيل إلى بابه الغربىّ الذى كان يعرف بباب الحديد، و منه ركب المقوقس فى السفن فى النيل من بابه الغربىّ حين غلبه المسلمون على الحصن المذكور، و صار فيه إلى الجزيرة التى تجاه الحصن، و هى التى تعرف اليوم: بالروضة قبالة مصر، و كان مقياس النيل بجانب الحصن.

و قال ابن المتوّج: و عمود المقياس موجود فى زقاق مسجد ابن النعمان قلت: و هو باق إلى يومنا هذا، أعنى سنة عشرين و ثمانمائة، و كان هذا الحصن لا يزال مشحونا بالمقاتلة، و سيرد فى هذا الكتاب خبره إن شاء اللّه تعالى، و كان بجوار هذا الحصن من بحريه، و هى الجهة الشمالية أشجار و كروم صار موضعها الجامع العتيق، و فيما بين الحصن و الجبل عدّة كنائس، و ديارات للنصارى فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة، و بجانب الحصن فيما بين الكروم التى كانت بجانبه، و بين الجرف الذى يعرف اليوم: بجبل يشكر، حيث جامع ابن طولون، و الكبش عدّة كنائس، و ديارات للنصارى فى الموضع الذى كان يعرف فى أوائل الإسلام بالحمراء، و عرف الآن بخط قناطر السباع و السبع سقايات، و بقى بالحمراء عدّة من الديارات إلى أن هدمت فى سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون على ما ذكر فى هذا الكتاب عند ذكر كنائس النصارى، فلما افتتح عمرو بن العاص مدينة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۷

الإسكندرية الفتح الأوّل نزل بجوار هذا الحصن، و اختط الجامع المعروف بالجامع العتيق، و بجامع عمرو بن العاص، و اختطت قبائل العرب من حوله، فصارت مدينة عرفت بالفسطاط، و نزل الناس بها، فانحسر بعد الفتح بأعوام ماء النيل عن أرض تجاه الحصن و الجامع العتيق، فصار المسلمون يوقفون هناك دوابهم، ثم اختطوا فيه المساكن شيئا بعد شىء، و صار ساحل البلد حيث الموضع الذى يقال له اليوم فى مصر: المعاريج مارّا إلى الكوم الذى على يسرة الداخل من باب مصر بحدّ الكبارة، و فى موضع هذا الكوم كانت الدور المطلة على النيل، و يمرّ الساحل من باب مصر المذكور إلى حيث بستان ابن كيسان الذى يعرف اليوم: ببستان الطواشى فى أوّل مراغة مصر، و جميع الأماكن التى تعرف اليوم:

بمراغة مصر و بالجرف إلى الخليج عرضا، و من حيث قنطرة السدّ إلى سوق المعاريج طولا، كان غامرا بماء النيل إلى أن انحسر عنه ماء النيل بعد سنة ستمائة من سنى الهجرة، فصار رملة، ثم اختط فيه الأمراء مما يلى النيل آدرا عند ما عمر الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة، و اختط بعضه شونا إلى أن أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون جامعه المعروف بالجامع الجديد الناصرى ظاهر مصر، فعمر ما حوله، و قد كان عند فتح مصر سائر المواضع التى من منشأة المهرانىّ إلى بركة الحبش طولا، و من ساحل النيل بموردة

الحلفاء، و تجاه الجامع الجديد إلى سوق المعاريج، و ما على سمته إلى تجاه المشهد الذى يقال له: مشهد الراس، و تسميه العامّة اليوم: مشهد زين العابدين كلها بحرا لا يحول بين الحصن و الجامع، و ما على سمتهما إلى الحمراء الدنيا التى منها اليوم: خط قناطر السباع، و بين جزيرة مصر التى تعرف اليوم: بالروضة شيء سوى ماء النيل، و جميع ما فى هذه المواضع من الأبنية انكشف عنه النيل قليلا قليلا، و اختط على ما يتبين لك فى هذا الكتاب.

ذكر الحصن الذى يعرف بقصر الشمع

اعلم: أن هذا القصر أحدث بعد خراب مصر على يد بخت نصر، و قد اختلف فى الوقت الذى بنى فيه، و من أنشأه من الملوك، فذكر الواقدىّ: أن الذى بناه اسمه: الريان بن الوليد بن أرسلاوس، و كان هذا القصر يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر، و ذلك أنه إذا حلّت الشمس فى برج من البروج أوقد فى تلك الليلة الشمع على رأس ذلك القصر، فيعلم الناس بوقود الشمع أنّ الشمس انتقلت من البرج الذى كانت فيه إلى برج آخر غيره، و لم يزل القصر على حاله، إلى أن خربت مصر زمن بخت نصر بن نيروز الكلدانىّ، فأقام خرابا خمسمائة سنة، و لم يبق منه إلا أثره فقط، فلما غلب الروم على مصر، و ملكوها من أيدى اليونانيين، ولى مصر من قبلهم رجل يقال له: أرجاليس بن مقراطيس فبنى القصر على ما وجد من أساسه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۸

و قال ابن سعيد: و صارت مصر و الشام بعد بخت نصر فى مملكة الفرس، فوليها منهم: كشرجوش الفارسىّ بانى قصر الشمع، و بعده طخارست الطويل الولاية، و توالت بعده نوّاب الفرس إلى ظهور الإسكندر، و قال غيره: إن الذى بناه طخشاشت أحد ملوك الفرس عند ما سار لمحاربة أهل مصر، فلما غلب قسطو ملك مصر الذى يعرف بفرعون سابان، و فرّ منه إلى مقدونية غلب على ملك مصر، و استولى عليها و بنى للفرس قصرا، و جعل فيه بيت نار على شاطىء النيل الشرقىّ، و عرف بقصر الشمع لأنه كان له باب يقال له: باب الشمع، و جعل فى القصر بيت نار و هو باق.

و قال ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد: و كانت الفرس قد أسست بناء الحصن الذى يقال له: باب اليون ، و هو الحصن الذى بفسطاط مصر اليوم، فلما انكشفت جموع فارس عن الروم، و أخرجتهم الروم من الشام أتمت بناء ذلك الحصن، و أقامت به، فلم تزل مصر فى ملك الروم حتى فتحها اللّه تعالى على المسلمين قال: و كان أبو الأسود نصر بن عبد الجبار يقولها بالميم، يعنى باب اليوم، و يقال: إنما سمى كذا لأنهم كانوا يقولون: من يقاتل اليوم.

و قال القضاعىّ: ذكر الحصن المعروف بقصر الشمع يقال: إن فارس لما ظهرت على الروم و ملكت عليهم الشام، و ملكت مصر بدأت ببناء هذا القصر، و بنت فيه هيكلا لبيت النار، و لم يتم بناؤه على أيديهم إلى أن ظهرت الروم عليهم، فتممت بناءه و حصنته، و لم تزل فيه إلى حين الفتح، و هيكل الناس هو القبة المعروفة اليوم بقبة الدخان، و بحضرتها مسجد معلق أحدثه المسلمون.

و قال أبو عبيد البكرىّ: باب اليون بمصر إن كان عربيا، فإنه مثل يوم، و يوح مما فاؤه ياء، و عينه واو، و قد يجوز أن يكون فعلا من بين، و هو اسم موضع على مذهب أبى الحسن فى فعل من البيع بوع قال: و ليست الألف و اللام فيه للتعريف، فعلى هذا يجب أن تثبت فى الرسم. و قال أبو صخر:

و حلوا تهامى أرضنا و تبدّلوابمكة باب اليون و الربط بالعصب

و الرواية فى شعر كثير عزّة فى قوله:

جرى بين باب اليون و العصب دونهرياح أشفت بالنقى و أشمت

بالباء، و بفتح النون غير مجرور للعجمة على أن همزته مقطوعة، وصلها للضرورة. و قال الحازمىّ: باب البون بالباء اسم مدينة مصر فتحها المسلمون، و سموها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۶۹

الفسطاط، و قال عبد الملك بن هشام بابليون المنسوب إليه مصر هو: بابليون بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان و أن من ولده عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن سبا، و هو الملك على مصر لما قدم إليها إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّه عليه، و القبط تسمى عمرا هذا: طوطيس، و من ولده حلوان بن بابليون بن عمرو بن امرئ القيس، و به سميت حلوان.

و قال القاضى القضاعيّ: فى ظاهر الفسطاط القصر المعروف بباب ليون بالشرف، ليون اسم بلد مصر بلغة السودان و الروم، و قد بقيت من بنائه بقية مبنية بالحجارة على طرف الجبل بالشرف، و عليه اليوم مسجد.

قال المؤلف: فهذا كما ترى صريح فى أن قصر باب اليون غير قصر الشمع، فإنّ قصر الشمع فى داخل الفسطاط، و قصر باب اليون هذا عند القضاعيّ على الجبل المعروف بالشرف، و الشرف خارج الفسطاط، و هو خلاف ما قاله ابن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر، و اللّه أعلم. و يقال: إنّ فى زمن ناحور بن شاروع، و هو الثامن عشر من آدم ملك مصر رجل اسمه: أفطوطس مدّة اثنتين و ثلاثين سنة، و أنه أوّل من أظهر علم الحساب و السحر، و حمل كتب ذلك من بلاد الكلدانيين إلى مصر، و فى ذلك الزمان بنيت بابليون على بحر النيل بمصر، و ذلك لتمام ثلاثة آلاف و ثلثمائة و تسعين للعالم، و قال ابن سعيد فى كتاب المعرب: و أما فسطاط مصر، فإنّ مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس، و جاء الإسلام، و بها بناء يعرف: بالقصر حوله مساكن، و عليه نزل عمرو بن العاص، و ضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب إليه، و هذا و هم من ابن سعيد، فإنّ فسطاط عمرو إنما كان مضروبا عند درب حمام شموط بخط الجامع هكذا هو بخط الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة، و هو أقعد بخطط مصر، و أعرف من ابن سعيد، و أما موضع الجامع، فكان كروما و جنانا، و حاز موضعه قيسبة التجيبيّ، ثم تصدّق به على المسلمين، فعمل المسجد، و ستقف على هذا إن شاء اللّه تعالى فى ذكر جامع عمرو عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب.

و قال ابن المتوّج: خط قصر الشمع هذا الخط يعرف بقصر الشمع، و فيه قصر الروم و فيه أزقة و دروب، قال: و كنيسة المعلقة بمصر بباب القصر، و هو قصر الروم.

و قال ابن عبد الحكم: و أقرّ عمرو بن العاص القصر لم يقسمه و وقفه.

و قال أبو عمرو الكندىّ فى كتاب الأمراء: و قد ذكر قيام علىّ بن محمد بن عبد اللّه بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۰

الحسن بن علىّ بن أبى طالب، و طروق المسجد فى إمارة يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة على مصر، و ورد كتاب أبى جعفر المنصور على يزيد بن حاتم يأمره بالتحوّل من العسكر إلى الفسطاط، و أن يجعل الديوان فى كنائس القصر، و ذلك فى سنة ست و أربعين و مائة، و اللّه أعلم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۱

ذكر حصار المسلمين للقصر و فتح مصر

اشارة

اختلف الناس فى فتح مصر، فقال محمد بن إسحاق، و أبو معشر، و محمد بن عمرو الواقدىّ، و يزيد بن أبى حبيب، و أبو عمرو الكندىّ: فتحت سنة عشرين، و قال سيف بن عمر: فتحت سنة ست عشرة، و قيل: فتحت سنة ست و عشرين، و قيل: سنة إحدى و عشرين، و قيل: سنة اثنتين و عشرين، و الأوّل أصح و أشهر.

قال ابن عبد الحكم: لما قدم عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، الجابية قام إليه عمرو بن العاص، فخلا به، فقال: يا أمير المؤمنين ائذن لى

أن أسير إلى مصر، و حرّضه عليها، و قال: إنك إن فتحتها كانت قوّة للمسلمين، و عونا لهم، و هى أكثر الأرض أموالا، و أعجز عن القتال و الحرب.

فتخوّف عمر بن الخطاب، و كره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب، و يخبره بحالها، و يهوّن عليه فتحها حتى ركن لذلك، فعقد له على أربعة آلاف رجل، كلّهم من عك، و يقال: بل ثلاثة آلاف و خمسمائة، و قال له عمر: سر و أنا مستخير اللّه فى مسيرك، و سيأتيك كتابى سريعا إن شاء اللّه تعالى، فإن أدرككك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، أو شيئا من أرضها، فانصرف، و إن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك، و استعن باللّه و استنصره.

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل، و لم يشعر به أحد من الناس، و استخار عمر اللّه، فكأنه تخوّف على المسلمين فى وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك عمرا الكتاب إذ هو برفج فتخوّف عمرو إن هو أخذ الكتاب، و فتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول، و دافعه و سار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفج و العريش، فسأل عنها فقيل: إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، فقال عمرو لمن معه: أ لستم تعلمون أنّ هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى، قال: فإنّ أمير المؤمنين عهد إلىّ، و أمرنى إن لحقنى كتابه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۲

و لم أدخل أرض مصر أن أرجع، و لم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا، و امضوا على بركة اللّه.

و يقال: بل كان عمرو بفلسطين، فتقدّم عمرو بأصحابه إلى مصر بغير إذن، فكتب فيه إلى عمر رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر و هو دون العريش، فحبس الكتاب فلم يقرأه حتى بلغ العريش، فقرأه فإذا فيه من عمر بن الخطاب إلى العاصى ابن العاصى: أما بعد، فإنك سرت إلى مصر، و من معك و بها جموع الروم، و إنما معك نفر يسير، و لعمرى لو نكل بك ما سرت بهم، فإن لم تكن بلغت مصر، فارجع. فقال عمرو: الحمد للّه أية أرض هذه؟

قالوا: من مصر فتقدّم كما هو، و يقال: بل كان عمرو فى جنده على قيسارية مع من كان بها من أجناد المسلمين، و عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه إذ ذاك بالجابية، فكتب سرّا فاستأذن أن يسير إلى مصر، و أمر أصحابه، فتنحوا كالقوم الذين يريدون أن يتنحوا من منزل إلى منزل قريب، ثم سار بهم ليلا فلما فقده أمراء الأجناد استنكروا الذى فعل، و رأوا أن قد غدر، فرفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر إلى العاصى ابن العاصى: أما بعد، فإنك قد غررت بمن معك، فإن أدرككك كتابى، و لم تدخل مصر فارجع، و إن أدرككك، و قد دخلت فامض، و اعلم أنّى ممدّك.

و يقال: إنّ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، كتب إلى عمرو بن العاص بعد ما فتح الشام: أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خف معك فسر به، و بعث به مع شريك بن عبدة، فندبهم عمرو، فأسرعوا إلى الخروج مع عمرو، ثم إنّ عثمان بن عفان رضى اللّه عنه دخل على عمر بن الخطاب، فقال عمر: كتبت إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام، فقال عثمان: يا أمير المؤمنين إنّ عمر لجرىء و فيه إقدام و حبّ للإمارة، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة و لا جماعة، فيعرّض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا؟ فندم عمر على كتابه إلى عمرو، و أشفق مما قال عثمان، فكتب إليه: إن أدرككك كتابى قبل أن تدخل إلى مصر، فارجع إلى موضعك، و إن كنت دخلت، فامض لوجهك.

فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو بن العاص إلى مصر توجه إلى موضع الفسطاط، فكان يجهز على عمرو الجيوش، و كان على القصر رجل من الروم يقال له: الأعيرج، واليا عليه، و كان تحت المقوقس، و أقبل عمرو حتى إذا كان بجبل الجلال نفرت معه راشدة، و قبائل من لخم فتوجه عمرو حتى إذا كان بالعريش أدركه النحر، فضحى عن أصحابه يومئذ بكبش، و تقدّم، فكان أوّل موضع قوتل فيه الفرما قاتلته الروم قتالا شديدا نحوا من شهر، ثم فتح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۳

۲ للّه عليه، و كان عبد اللّه بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية إلى أن فرغ من حربه، و كان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له: أبو ميامين، فلما بلغه قدوم عمرو إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة، و إنّ ملكهم قد انقطع، و يأمرهم بتلقى عمرو.

فيقال: إنّ القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا، ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى نزل القواصر، فسمع رجل من لخم نفرا من القبط يقول بعضهم لبعض: أ لا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم، و إنما هم فى قلة من الناس، فأجابه رجل منهم فقال: إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلّا ظهروا عليه، حتى يقتلوا خيرهم، و تقدّم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحوا من الشهر حتى فتح اللّه عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى أم دنين ، فقاتلوه بها قتالا شديدا، و أبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر يستمدّه فأمدّه بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف، و قيل: بل أمدّه باثنى عشر ألفا، فوصلوا إليه أرسالا يتبع بعضهم بعضا.

فكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة: الزبير بن العوّام، و المقداد بن الأسود، و عبادة بن الصامت، و مسلمة بن مخلد. و قيل: إنّ الرابع: خارجة بن حذافة دون مسلمة، ثم أحاط المسلمون بالحصن، و أميره يومئذ المنقور الذى يقال له: الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقت اليونانىّ، و كان المقوقس ينزل الإسكندرية و هو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضرا لحصن حين حاصره المسلمون، فقاتل عمرو بن العاص من بالحصن، و جاء رجل إلى عمرو فقال: اندب معى خيلا حتى آتى من دياراتهم عند القتال، فأخرج معه خمسمائة فارس عليهم: خارجة بن حذافة فى قول، فساروا من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بنى وائل قبل الصبح، و كانت الروم قد خندقوا خندقا، و جعلوا له أبوابا، و بنوا فى أفنيتها حسك الحديد، فالتقى القوم حين أصبحوا، و خرج خارجة من ورائهم، فانهزموا حتى دخلوا الحصن، و كانوا قد خندقوا حوله، فنزل عمرو على الحصن، و قاتلهم قتالا شديدا يصبحهم و يمسيهم، و قيل: إنه لما أبطأ الفتح على عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب يستمدّه، و يعلمه بذلك، فأمدّه بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم مقام الألف الزبير بن العوّام، و المقداد بن عمرو، و عبادة بن الصامت، و مسلمة بن مخلد، و قيل: بل خارجة بن حذافة لا يعدّون مسلمة. و قال عمر: إعلم أنّ معك اثنى عشر ألفا، و لا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة.

و قيل: قدم الزبير فى اثنى عشر ألفا، و إن عمرا لما قدم من الشام كان فى عدّة قليلة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۴

فكان يفرّق أصحابه ليرى العدوّ أنهم أكثر مما هم، فلما انتهى إلى الخندق نادوه أن قد رأينا ما صنعت، و إنما معك من أصحابك كذا و كذا، فلم يخطئوا برجل واحد، فأقام عمرو على ذلك أياما يغدو فى السحر، فيصف أصحابه على أفواه الخندق عليهم السلاح، فبينا هو على ذلك إذ جاءه خبر الزبير بن العوام، أنه قدم فى اثنى عشر ألفا، فتلقاه عمرو، ثم أقبلا يسيران، ثم لم يلبث الزبير أن ركب، ثم طاف بالخندق، ثم فرّق الرجال حول الخندق، و ألح عمرو على القصر، و وضع عليه المنجنيق، و دخل عمرو إلى صاحب الحصن، فتناظرا فى شىء مما هم فيه، فقال عمرو: أخرج و أستشير أصحابى، و قد كان صاحب الحصن أوصى الذى على الباب إذا مرّ به عمرو أن يلقى عليه صخرة فيقتله، فمرّ عمرو، و هو يريد الخروج برجل من العرب، فقال له: قد دخلت، فانظر كيف تخرج؟ فرجع عمرو إلى صاحب الحصن، فقال له: إنى أريد أن آتيك بنفر من أصحابى حتى يسمعوا منك مثل الذى سمعت، فقال العلج فى نفسه: قتل جماعة أحب إلىّ من قتل واحد.

و أرسل إلى الذى كان أمره بما أمره به من قتل عمرو أن لا يتعرّض له، رجاء أن يأتيه بأصحابه، فيقتلهم، فخرج عمرو و عبادة بن الصامت فى ناحية يصلى و فرسه عنده، فرآه قوم من الرّوم، فخرجوا إليه، و عليهم حلية و بزة، فلما دنوا منه سلّم من صلاته، و وثب على فرسه، ثم حمل عليهم، فلما رأوه ولّوا راجعين فأتبعهم، فجعلوا يلقون مناطقهم و متاعهم، ليشغلوه بذلك عن طلبهم، و هو لا يلتفت إليه حتى دخلوا الحصن، و رمى عبادة من فوق الحصن بالحجارة، فرجع، و لم يتعرّض لشىء مما طرحوا من متاعهم حتى رجع

إلى موضعه الذى كان به، فاستقبل الصلاة، و خرج الروم إلى متاعهم يجمعونه، فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير: إنى أهب اللّه نفسى، أرجو أن يفتح اللّه بذلك على المسلمين، فوضع سلّما إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد، فأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا، فما شعروا إلّا و الزبير على رأس الحسن يكبر، و معه السيف، و تحامل الناس على السلم، حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر، و كبر الزبير، فكبرت الناس معه، و أجابهم المسلمون من خارج، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعا، فهربوا، و عمد الزبير و أصحابه إلى باب الحصن، ففتحوه، و اقتحم المسلمون الحصن، فخاف المقوقس على نفسه، و من معه.

فحينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح، و دعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم، فأجابه عمرو إلى ذلك و كان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر، قال: و قد سمعت فى فتح القصر وجها آخر، هو أنّ المسلمين لما حصروا باب اليون كان به جماعة من الروم، و أكابر القبط و رؤسائهم، و عليهم المقوقس، فقاتلوهم شهرا، فلما رأى القوم الجدّ من العرب على فتحه و الحرص، و رأوا من صبرهم على القتال، و رغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم، فتنحى المقوقس و جماعة من أكابر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۵

القبط، و خرجوا من باب القصر القبلىّ، و دونهم جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة، و أمروا بقطع الجسر، و ذلك فى جرى النيل.

و يقال: إنّ الأعيرج تخلف فى الحصن بعد المقوقس، و قيل: خرج معهم، فلما خاف فتح الحصن ركب هو و أهل القوّة و الشرف، و كانت سفنهم ملصقة بالحصن، ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة، فأرسل المقوقس إلى عمرو: إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا، و ألححتم على قتالنا و طال مقامكم فى أرضنا، و إنما أنتم عصبة يسيرة، و قد أظلتكم الروم، و جهزوا إليكم، و معهم من العدة و السلاح، و قد أحاط بكم هذا النيل، و إنما أنتم أسارى فى أيدينا، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا و بينكم على ما تحبون و نحب، و ينقطع عنا و عنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام، و لا نقدر عليه، و لعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم، و رجائكم فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن و هم به من شىء.

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس، حبسهم عنده يومين و ليلتين، حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: أ ترون أنهم يقتلون الرسل، و يستحلون ذلك فى دينهم؟

و إنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين فردّ عليهم عمرو مع رسله، أنه ليس بينى و بينكم إلّا إحدى ثلاث خصال: إما أن دخلتم فى الإسلام، فكنتم إخواننا، و كان لكم ما لنا، و إن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد و أنتم صاغرون، و إما أن جاهدناكم بالصبر و القتال حتى يحكم اللّه بيننا و بينكم، و هو خير الحاكمين، فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال:

كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، و التواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة، و لا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، و أكلهم على ركبهم، و أميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، و لا السيد منهم من العبد، و إذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء، و يخشعون فى صلاتهم، فقال عند ذلك المقوقس: و الذى يحلف به لو أنّ هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، و ما يقوى على قتال هؤلاء أحد، و لئن لم نغتنم صلحهم اليوم، و هم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا بعد اليوم إذ أمكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم، فردّ إليهم المقوقس رسله: ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم، و نتداعى نحن و هم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا و لكم.

فبعث عمرو بن العاص: عشرة نفر، أحدهم: عبادة بن الصامت، و كان طوله عشرة أشبار، و أمره أن يكون متكلم القوم، و لا يجيبهم إلى شىء دعوه إليه إلّا إحدى هذه الثلاث خصال، فإن أمير المؤمنين قد تقدّم إلىّ فى ذلك، و أمرنى أن لا أقبل شيئا سوى خصلة من هذه الثلاث خصال، و كان عبادة أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس، و دخلوا عليه تقدّم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۶

عبادة، فهابه المقوقس لسواده، و قال: نحوا عنى هذا الأسود، و قدّموا غيره يكلمنى، فقالوا جميعا: إنّ هذا الأسود أفضلنا رأيا و علما، و هو سيدنا و خيرنا، و المقدّم علينا، و إنما نرجع جميعا إلى قوله و رأيه، و قد أمره الأمير دوننا بما أمره، و أمرنا أن لا نخالف رأيه و قوله، قال: و كيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، و إنما ينبغى أن يكون هو دونكم؟ قالوا:

كلا إنه و إن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا و أفضلنا سابقة و عقلا و رأيا، و ليس ينكر السواد فينا، فقال المقوقس لعبادة: تقدّم يا أسود، و كلمنى برفق، فإنى أهاب سوادكم و إن اشتدّ كلامك علىّ ازددت لك هيبة، فتقدّم عليه عبادة، فقال:

قد سمعت مقالتك، و إنّ فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشدّ سوادا منى و أفظع منظرا، و لو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لى، و أنا قد ولّيت و أدبر شبابى، و إنى مع ذلك بحمد اللّه، ما أهاب مائة رجل من عدوّى لو استقبلونى جميعا، و كذلك أصحابى، و ذلك إنما رغبتنا و همتنا الجهاد فى اللّه، و إتباع رضوانه، و ليس غزونا عدوّنا ممن حارب اللّه لرغبة فى دنيا، و لا طلب للاستكثار منها إلا أنّ اللّه عز و جل، قد أحل لنا ذلك، و جعل ما غنمنا من ذلك حلالا، و ما يبالى أحدنا إن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما، لأنّ غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسدّ بها جوعه لليلة و نهاره و شملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، و إن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة اللّه، و اقتصر على هذا الذى بيده، و يبلغه ما كان فى الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، و رخاءها ليس برخاء، إنما النعيم و الرخاء فى الآخرة، و بذلك أمرنا اللّه، و أمرنا به نبينا، و عهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلّا ما يمسك جوعته، و يستر عورته، تكون همته و شغله فى رضوانه و جهاد عدوّه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه، قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟

لقد هبت منظره، و إنّ قوله لأهيب عندى من منظره، إنّ هذا و أصحابه أخرجهم اللّه لخراب الأرض ما أظنّ ملكهم إلّا سيغلب على الأرض كلها، ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت، فقال له: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك، و ما ذكرت عنك و عن أصحابك، و لعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلّا بما ذكرت، و ما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا، و رغبتهم فيها، و قد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم، ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة و الشدّة ما يبالى أحدهم من لقى، و لا من قاتل، و إنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم، و لن تطيقوهم لضعفكم و قلتكم، و قد أقمتم بين أظهرنا أشهرا، و أنتم فى ضيق و شدّة من معاشكم و حالكم، و نحن نرق عليكم لضعفكم و قلتكم، و قلة ما بين أيديكم، و نحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۷

و لأميركم مائة دينار، و لخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها و تنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به. فقال عبادة بن الصامت: يا هذا لا تغرنّ نفسك، و لا أصحابك أمّا ما تخوّفنا به من جمع الروم و عددهم و كثرتهم، و أنا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما هذا بالذى تخوّفنا به، و لا بالذى يكسرنا عما نحن فيه، و إن كان ما قلتم حقا، فذلك و اللّه أرغب ما يكون فى قتالهم، و أشدّ لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه و جنته، و ما شىء أقرّ لأعيننا، و لا أحب لنا من ذلك، و إنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين: إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، و لأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، و إن اللّه عز و جلّ قال لنا فى كتابه: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة/ ۲۴۹].

و ما منا رجل إلا و هو يدعو ربه صباحا و مساء أن يرزقه الشهادة، و أن لا يردّه إلى بلده، و لا إلى أرضه، و لا إلى أهله و ولده، و ليس لأحد منا همّ فيمات خلفه، و قد استودع كل واحد منا ربّه أهله و ولده، و إنما همنا ما أمامنا، و أما قولك: إنا فى ضيق و شدّة من معاشنا و حالنا، فنحن فى أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا، ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذى تريد فيه فبينه لنا، فليس بيننا و بينك خصلة نقبلها منك، و لا نجيبك إليها إلّا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت، و لا تطمع نفسك فى الباطل، بذلك

أمرنى الأمير، و بها أمره أمير المؤمنين و هو عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من قبل إلينا، إما إن أجبتم إلى الإسلام الذى هو الدين القيم الذى لا يقبل اللّه غيره، و هو دين أنبيائه و رسله و ملائكته، أمرنا اللّه تعالى أن نقاتل من خالفه، و رغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا، و عليه ما علينا، و كان أخانا فى دين اللّه، فإن قبلت ذلك أنت و أصحابك، فقد سعدتم فى الدنيا و الآخرة، و رجعنا عن قتالكم، و لم نستحل أذاكم، و لا التعرّض لكم، و إن أبيتم إلّا الجزية، فأدّوا إلينا الجزية عن يد و أنتم صاغرون، و أن نعاملكم على شىء نرضى به نحن، و أنتم فى كل عام أبدا ما بقينا، و بقيتم و نقاتل عنكم من ناواكم، و عرض لكم فى شىء من أرضكم و دمائكم و أموالكم، و نقوم بذلك عنكم إذ كنتم فى ذمتنا، و كان لكم به عهد علينا، و إن أبيتم فليس بيننا و بينكم إلّا المحاكمة بالسيف، حتى نموت من آخرنا أو نصيب ما نريد منكم، هذا ديننا الذى ندين اللّه تعالى به، و لا يجوز لنا فيما بيننا و بينه غيره، فانظروا لأنفسكم.

فقال المقوقس: هذا ما لا يكون أبدا ما تريدون إلّا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۸

فقال له عبادة: هو ذاك، فاختر لنفسك ما شئت. فقال المقوقس: أ فلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال؟ فرفع عبادة يديه إلى السماء فقال: لا و رب هذه السماء، و رب هذه الأرض، و رب كل شىء ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم.

فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه فقال: قد فرغ القوم، فما ترون؟ فقالوا:

أو يرضى أحد بهذا الذل! أمّا ما أرادوا من دخولنا فى دينهم، فهذا لا يكون أبدا أن نترك دين المسيح ابن مريم، و ندخل فى دين غيره لا نعرفه، و أمّا ما أرادوا أن يسبونا و يجعلونا عبيدا، فالموت أيسر من ذلك لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا.

فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم، فما ترى فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرّتكم هذه، ما تمنيتم و تنصرفون، فقال عبادة و أصحابه: لا، فقال المقوقس عند ذلك:

أطيعونى و أجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فو اللّه ما لكم بهم طاقة، و لئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين، فقالوا: و أىّ خصلة تجيبهم إليها؟ قال: إذا أخبركم، أمّا دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به، و أمّا قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم، و لن تصبروا صبرهم، و لا بدّ من الثالثة، قالوا: فنكون لهم عبيدا أبدا؟ قال: نعم تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم و أموالكم و ذراريكم خير لكم من أن تموتوا من آخركم، و تكونوا عبيدا تباعوا، و تمزقوا فى البلاد مستعبدين أبدا أنتم، و أهليكم و ذراريكم، قالوا: فالموت أهون علينا، و أمروا بقطع الجسر من الفسطاط، و بالجزيرة و بالقصر من جمع القبط و الروم كثير.

فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من بالقصر حتى ظفروا بهم، و أمكن اللّه منهم، فقتل منهم خلق كثير، و أسر من أسر و انجرّت السفن كلها إلى الجزيرة، و صار المسلمون يراقبونهم، و قد أحدق بهم الماء من كل وجه لا يقدرون على أن ينفذوا نحو الصعيد، و لا إلى غير ذلك من المدن و القرى، و المقوقس يقول لأصحابه: أ لم أعلمكم و أخافه عليكم! ما تنتظرون! فو اللّه لتجيبنهم إلى ما أرادوا طوعا أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرها، فأطيعونى من قبل أن تندموا، فلما رأوا منهم ما رأوا، و قال لهم المقوقس ما قال، أذعنوا بالجزية و رضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه.

و أرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: إنى لم أزل حريصا على إجابتكم إلى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت إلىّ بها، فأبى علىّ من حضرنى من الروم و القبط، فلم يكن لى أن أفتات عليهم فى أموالهم، و قد عرفوا نصحى لهم، و حبى صلاحهم، و رجعوا إلى قولى، فأعطنى أمانا أجتمع أنا و أنت، أنا فى نفر من أصحابى، و أنت فى نفر من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۷۹

أصحابك، فإن استقام الأمر بيننا تمّ ذلك جميعا، و إن لم يتمّ رجعنا إلى ما كنا عليه.

فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك فقالوا: لا نجيبهم إلى شىء من الصلح و لا الجزية حتى يفتح اللّه علينا، و تصير الأرض كلها لنا فيئا و غنيمة، كما صار لنا القصر و ما فيه، فقال عمرو: قد علمتم ما عهد إلىّ أمير المؤمنين فى عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد إلىّ فيها أجبتهم إليها، و قبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا، و بين ما نريد من قتالهم فاجتمعوا على عهد بينهم، و اصطلحوا على أن يفرض لهم على جميع من بمصر أعلاها و أسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس شريفهم و وضيعهم، ممن بلغ منهم الحلم ليس على الشيخ الفانى، و لا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، و لا على النساء شىء، و على أن للمسلمين عليهم لنزل بجماعتهم حيث نزلوا، و من نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، و أنّ لهم أرضهم و أموالهم لا تعرّض لهم فى شىء منها، فشرط ذلك كله على القبط خاصة، و أحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية، و فرض عليهم الديناران، رفع ذلك عرفاؤهم بالإيمان المؤكدة، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها و أسفلها من جميع القبط فيما أحصوا، و كتبوا و رفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة.

و قال ابن لهيعة عن يحيى بن ميمون الحضرمىّ: لما فتح عمرو مصر صالح عن جميع من فيها من الرجال من القبط، ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة، و لا شيخ و لا صبىّ، فأحصوا بذلك على دينارين دينارين، فبلغت عدّتهم ثمانية آلاف ألف، قال: و شرط المقوقس للروم أن يخيروا، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا، أقام على ذلك لازما له مفترضا عليه ممن أقام بالإسكندرية، و ما حولها من أرض مصر كلها، و من أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، و على أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة، حتى يكتب إلى ملك الروم، و يعلمه ما فعل، فإن قبل ذلك، و رضيه جاز عليهم، و إلا كانوا جميعا على ما كانوا عليه، و كتبوا به كتابا، و كتب المقوقس إلى ملك الروم كتابا يعلمه بالأمر كله.

فكتب إليه ملك الروم: يقبح رأيه، و يعجزه و يردّ عليه ما فعل، و يقول فى كتابه: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا، و بمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال، و أحبوا أداء الجزية إلى العرب، و اختاروهم علينا، فإن عندكم بمصر من الروم و بالإسكندرية، و من معك أكثر من مائة ألف معهم العدّة و القوّة و العرب و حالهم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸۰

و ضعفهم على ما قد رأيت، فعجزت عن قتالهم، و رضيت أن تكون أنت و من معك من الروم فى حال القبط أذلاء فقاتلهم أنت و من معك من الروم، حتى تموت أو تظهر عليهم، فإنهم فيكم على قدر كثرتكم، و قوّتكم و على قدر قلتهم، و ضعفهم كاكلة، ناهضهم القتال، و لا يكن لك رأى غير ذلك، و كتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا إلى جماعة الروم، فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم: و اللّه أعلم إنهم على قلتهم و ضعفهم أقوى و أشدّ منا على قوّتنا، و كثرتنا إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا، و ذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة يقاتل الرجل منهم، و هو مستقبل يتمنى أن لا يرجع إلى أهله و لا بلده، و لا ولده و يرون أن لهم أجرا عظيما فيمن قتلوه منا، و يقولون أنهم إن قتلوا دخلوا الجنة، و ليس لهم رغبة فى الدنيا، و لا لذة إلّا قدر بلغة العيش من الطعام، و اللباس، و نحن قوم نكره الموت، و نحب الحياة و لذتها، فكيف نستقيم نحن و هؤلاء؟ و كيف صبرنا معهم، و اعلموا معشر الروم، و اللّه إنى لا أخرج مما دخلت فيه، و لا صالحت العرب عليه، و إنى لأعلم أنكم سترجعون غدا إلى قولى و رأيى و تتمنون أن لو كنتم أطعتمونى، و ذلك أنى قد عاينت و رأيت، و عرفت ما لم يعاين الملك، و لم يره، و لم يعرفه أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا فى دهره على نفسه، و ماله و ولده بدينارين فى السنة.

ثم أقبل المقوقس إلى عمرو، فقال له: إنّ الملك قد كره ما فعلت، و عجّزنى و كتب إلىّ و إلى جماعة الروم: أن لا نرضى بمصالحتك، و أمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم، و لم أكن لأخرج عما دخلت فيه، و عاقدتك عليه، و إنما سلطانى على

نفسى، و من أطاعنى و قد تمّ صلح القبط فيما بينك و بينهم، و لم يأت من قبلهم نقض، و أنا متمّ لك على نفسى، و القبط متمون لك على الصلح الذى صالحتهم عليه و عاقدتهم، و أمّا الروم فأنا منهم برىء، و أنا أطلب إليك أن تعطينى ثلاث خصال، لا تنقض بالقبط، و أدخلنى معهم، و ألزمنى ما لزمهم، و قد اجتمعت كلمتى و كلمتهم على ما عاقدتك عليه، فهم متمون لك على ما تحب، و أمّا الثانية إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم، فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئا و عبيدا، فإنهم أهل ذلك لأنى نصحتهم فاستغشونى، و نظرت لهم، فاتهمونى و أما الثالثة: أطلب إليك إن أنا مت أن تأمرهم أن يدفنونى بجسر الإسكندرية، فأنعم له عمرو بذلك، و أجابه إلى ما طلب على أن يضمنوا له الجسرين جميعا، و يقيموا لهم الأنزال و الضيافة، و الأسواق و الجسور، ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية، ففعلوا.

و صارت لهم القبط أعوانا كما جاء فى الحديث. و قال ابن وهب فى حديثه عن عبد الرحمن بن شريح: فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن، فحاصرهم حتى سألوه أن يسير منهم بضعة عشر أهل بيت، و يفتحوا له الحصن، ففعل ذلك ففرض عليهم عمرو لكل رجل من أصحابه دينارا وجبة و برنسا و عمامة و خفين، و سألوه: أن يأذن لهم أن يهيئوا له و لأصحابه صنيعا، ففعل، و أمر عمرو أصحابه فتهيئوا و لبسوا البرود، ثم أقبلوا فلما فرغوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸۱

من طعامهم سألهم عمرو: كم أنفقتم؟ قالوا: عشرين ألف دينار، قال عمرو: لا حاجة لنا بصنيعكم بعد اليوم أدّوا إلينا عشرين ألف دينار، فجاءه النفر من القبط، فاستأذنوه إلى قراهم و أهليهم، فقال لهم عمرو: كيف رأيتم أمرنا؟ قالوا: لم نر إلّا حسنا، فقال الرجل الذى قال فى المرّة الأولى: إنكم لن تزالوا تظهرون على كل من لقيتم حتى تقتلوا خيركم رجلا فغضب عمرو، و أمر به فطلب إليه أصحابه، و أخبروه أنه لا يدرى ما يقول، حتى خلصوه.

فلما بلغ عمرا قتل عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، أرسل فى طلب ذلك القبطىّ، فوجدوه قد هلك، فعجب عمرو من قوله و يقال: إنّ عمرو بن العاص قال: فلما طعن عمر بن الخطاب، قلت هو ما قال القبطىّ، فلما حدّثت أنه إنما قتله أبو لؤلؤة رجل نصرانىّ قلت: لم يعن هذا إنما عنى من قتله المسلمون، فلما قتل عثمان عرفت أن ما قال الرجل حق، فلما فرغ القبط من صنيعهم، أمر عمرو بن العاص بطعام، فصنع لهم و أمرهم أن يحضروا لذلك، فصنع لهم الثريد و العراق، و أمر أصحابه بلباس الأكسية، و اشتمال الصمّاء و القعود على الركب، فلما حضرت الروم، وضعوا كراسى الديباج، فجلسوا عليها، و جلست العرب إلى جوانبهم، فجعل الرجل من العرب يلتقم اللقمة العظيمة من الثريد، و ينهش من ذلك اللحم، فيتطاير على من إلى جنبه من الروم، فبشعت الروم ذلك، و قالت:

أين أولئك الذين كانوا أتونا قبل؟ فقيل لهم: أولئك أصحاب المشورة، و هؤلاء أصحاب الحرب.

و قال الكندىّ: و ذكر يزيد بن أبى حبيب: أنّ عدد الجيش الذين كانوا مع عمرو بن العاص خمسة عشر ألفا و خمسمائة، و ذكر عبد الرحمن بن سعيد بن مقلاص: أنّ الذى جرت سهمانهم فى الحصن من المسلمين اثنا عشر ألفا و ثلثمائة بعد من أصيب منهم فى الحصار بالقتل و الموت، و يقال: إنّ الذين قتلوا فى هذا الحصار من المسلمين دفنوا فى أصل الحصن.

و ذكر القضاعىّ: أنّ مصر فتحت يوم الجمعة مستهلّ المحرّم سنة عشرين، و قيل:

فتحت سنة ست عشرة، و هو قول الواقدىّ، و قيل: فتحت و الإسكندرية سنة خمس و عشرين، و الأكثر على أنها فتحت قبل عام الرّمادة، و كانت الرّمادة فى آخر سنة سبع عشرة، و أول ثمان عشرة.

ذكر ما قيل فى مصر هل فتحت بصلح أو عنوة؟

و قد اختلف فى فتح مصر، فقال قوم: فتحت صلحا، و قال آخرون: إنما فتحت عنوة، فأمّا الذين قالوا كان فتح مصر بصلح، فإنّ حسين بن شفى قال: لما فتح عمرو بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸۲

العاص الإسكندرية بقى من الأسارى بها ممن بلغ الخراج، و أحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء و الصبيان، فاختلف الناس على عمرو فى قسمهم، فكان أكثر المسلمين يريد قسمها، فقال عمرو: لا أقدر على قسمها، حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه يعلمه بفتحها و شأنها، و أنّ المسلمين طلبوا قسمها، فكتب إليه عمر رضى اللّه عنه: لا تقسمها، و ذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين، و قوّة لهم على جهاد عدوّهم، فأقرّها عمرو، و أحصى أهلها، و فرض عليهم الخراج، فكانت مصر كلها صلحا بفريضة: دينارين دينارين، إلّا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض و الزرع إلّا الإسكندرية فإنهم كانوا يؤدّون الخراج و الجزية على قدر ما يرى من وليهم، لأنّ الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد، و لا عقد، و لم يكن لهم صلح و لا ذمّة.

و قال الليث عن يزيد بن أبى حبيب: مصر كلها صلح إلّا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة.

و قال عبد اللّه بن أبى جعفر: حدّثنى رجل ممن أدرك عمرو بن العاص قال: للقبط عهد عند فلان، و عهد عن فلان، فسمى ثلاثة نفر، و فى رواية: إنّ عهد أهل مصر كان عند كبرائهم، و فى رواية: سألت شيخا من القدماء عن فتح مصر، قلت له: فإن ناسا يذكرون أنه لم يكن لهم عهد، فقال: ما يبالى أن لا يصلى من قال: إنه ليس لهم عهد، فقلت: فهل كان لهم كتاب؟ فقال: نعم، كتب ثلاثة: كتاب عند ظلما صاحب إخنا، و كتاب عند قرمان صاحب رشيد، و كتاب عند بحنس صاحب البرلس؛ قلت: كيف كان صلحهم؟ قال:

دينارين على كل إنسان جزية، و أرزاق المسلمين، قلت: فتعلم ما كان من الشروط؟ قال:

نعم، ستة شروط: لا يخرجون من ديارهم، و لا تنزع نساؤهم، و لا كفورهم، و لا أراضيهم، و لا يزاد عليهم.

و قال يزيد بن أبى حبيب عن أبى جمعة مولى عقبة قال: كتب عقبة بن عامر إلى معاوية بن أبى سفيان رضى اللّه عنه: يسأله أرضا يسترفق بها عند قرية عقبة، فكتب له معاوية: بألف ذراع فى ألف ذراع، فقال له مولى له كان عنده: انظر أصلحك اللّه أرضا صالحة، فقال له عقبة: ليس لنا ذلك إنّ فى عهدهم شروطا ستة لا يؤخذ من أنفسهم شىء، و لا من نسائهم، و لا من أولادهم، و لا يزاد عليهم، و يدفع عنهم موضع الخوف من عدوّهم، و أنا شاهد لهم بذلك.

و عن يزيد بن أبى حبيب عن عوف بن حطان: أنه كان لقريات من مصر منهنّ:

أم دنين و بلهيت عهد، و إنّ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه لما سمع بذلك، كتب إلى عمرو يأمره أن يخبرهم، فإن دخلوا فى الإسلام فذاك، و إن كرهوا فارددهم إلى قراهم، و قال يحيى بن أيوب و خالد بن حميد: ففتح اللّه أرض مصر كلها بصلح غير الإسكندرية، و ثلاث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸۳

قريات ظاهرت الروم على المسلمين سلطيس و مصيل و بلهيت ، فإنه كان للروم جمع، فظاهروا الروم على المسلمين، فلما ظهر عليها المسلمون استحلوها، و قالوا: هؤلاء لنا فيء مع الإسكندرية، فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر: أن يجعل الإسكندرية، و هؤلاء الثلاث قريات ذمّة للمسلمين، و يضربون عليهم الخراج، و يكون خراجهم، و ما صالح عليه القبط كله قوّة للمسلمين لا يجعلون فيئا، و لا عبيدا، ففعلوا ذلك إلى اليوم.

و قال آخرون: بل فتحت مصر عنوة بلا عهد، و لا عقد. قال سفيان بن وهب الخولانىّ: لما افتتحنا مصر بغير عهد، و لا عقد، قام الزبير بن العوّام فقال: اقسمها يا عمرو بن العاص، فقال عمرو: و اللّه لا أقسمها، فقال الزبير: و اللّه لنقسمنها، كما قسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خيبر، فقال عمرو: و اللّه لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: أقرّها حتى يغزو منها حبل الحبلة، و صولح الزبير على شىء أرضى به، و قال ابن لهيعة عن عبد اللّه بن هبيرة: إنّ مصر فتحت عنوة، و عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال: سمعت أشياخنا يقولون: إنّ مصر فتحت عنوة بغير عهد، و لا عقد منهم، أبى يحدّثنا عن أبيه، و كان فيمن شهد فتح مصر، و عن أبى الأسود عن عروة: إنّ مصر فتحت عنوة، و عن عمرو بن العاص أنه قال: لقد قعدت مقعدى هذا، و ما لأحد من قبط

مصر عليّ عهد، و لا عقد إلّا أهل أنطابلس كان لهم عهد يوفى به إن شئت قبلت، و إن شئت خمست، و إن شئت بعت. و عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن: أنّ عمرو بن العاص فتح مصر بغير عهد، و لا عقد، و أنّ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه حبس درها و ضرعها أن يخرج منه شيء نظرا للإسلام و أهله.

و عن يزيد بن أسلم قال: كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه و بين أحد ممن عاهده، فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد، فمن أسلم منهم أقامه و من أقام منهم قوّمه، و كتب حيان بن شريح إلى عمر بن عبد العزيز يسأله أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم، فسأل عمر عراك بن مالك، فقال عراك: ما سمعت لهم بعهد و لا عقد، و إنما أخذوا عنوة بمنزلة العبيد، فكتب عمر إلى حيّان: أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم، و قال يحيى بن عبد اللّه بن بكير: خرج أبو سلمة بن عبد الرحمن يريد الإسكندرية فى سفينة، فاحتاج إلى رجل يجذف، فسخر رجلا من القبط، فكلم فى

ذلك، فقال: إنما هم بمنزلة العبيد إن احتجنا إليهم.

و قال ابن لهيعة عن الصلت بن أبى عاصم: إنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح: أنّ مصر فتحت عنوة بغير عهد و لا عقد.

و عن عبيد اللّه بن أبى جعفر: أن كاتب حيان حدّثه: أنه احتيج إلى خشب لصناعة الجزيرة، فكتب حيان إلى عمر بن عبد العزيز يذكر ذلك له، و أنه وجد خشبا عند بعض أهل الذمّة، و أنه كره أن يأخذها منهم حتى يعلمه، فكتب إليه عمر: خذها منهم بقيمة عدل، فإنى لم أجد لأهل مصر عهدا أفى لهم به، و قال عمر بن عبد العزيز لسالم: أنت تقول ليس لأهل مصر عهد؟ قال: نعم. و عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: أنّ عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب فى رهبان يترهبون بمصر، فيموت أحدهم، و ليس له وارث، فكتب إليه عمر: أن من كان منهم له عقب، فادفع ميراثه إلى عقبه، فإن لم يكن له عقب، فاجعل ماله فى بيت مال المسلمين، فإن ولاءه للمسلمين.

و قال ابن شهاب: كان فتح مصر بعضها بعهد و ذمّة، و بعضها عنوة، فجعلها عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه جميعها ذمّة، و حملهم على ذلك، فمضى ذلك فيهم إلى اليوم، و اشترى الليث بن سعد شيئا من أرض مصر لأنه كان يحدّث عن يزيد بن أبى حبيب: أن مصر صلح، و كان مالك بن أنس ينكر على الليث ذلك، و أنكر عليه أيضا عبد اللّه بن لهيعة، و نافع بن يزيد لأنّ مصر عندهم كانت عنوة.

ذكر من شهد فتح مصر من الصحابة رضى اللّه عنهم

قال ابن عبد الحكم: و كان من حفظ من الذين شهدوا فتح مصر من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من قريش و غيرهم، و ممن لم يكن له برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صحبة الزبير بن العوّام، و سعد بن أبى وقاص، و عمرو بن العاص، و كان أمير القوم، و عبد اللّه بن عمرو، و خارجة ابن حذافة العدوىّ، و عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، و قيس بن أبى العاص السهمىّ، و المقداد بن الأسود، و عبد اللّه بن أبى سعد بن أبى سرح العامرى، و نافع بن عبد قيس الفهرىّ، و يقال: بل هو عقبة بن نافع، و أبو عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهرىّ، و أبو رافع مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ابن عبدة، و ابن عبد الرحمن و ربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة، و وردان مولى عمرو بن العاص، و كان حامل لواء عمرو بن العاص و قد اختلف فى سعد بن أبى وقاص، فقيل: إنما دخلها بعد الفتح، و شهد الفتح من الأنصار عبادة بن الصامت، و قد شهد بدرا و بيعة العقبة، و محمد بن مسلمة الأنصارىّ، و قد شهد بدرا و هو الذى بعثه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه إلى مصر، فقاسم عمرو بن العاص ماله، و هو أحد من كان صعد الحصن مع الزبير بن العوّام، و مسلمة بن مخلد الأنصارىّ، يقال له: صحبة، و أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارىّ، و أبو الدرداء عويمر بن عامر، و قيل: عويمر بن زيد، و من أحياء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸۵

القبائل أبو نصرة جميل بن نصرة الغفاريّ، و أبو ذر جندب بن جنادة الغفاريّ، و شهد الفتح مع عمرو بن العاص: هبيب بن معقل، و إليه ينسب وادى هبيب الذى بالمغرب، و عبد اللّه ابن الحارث ابن جزء الزبيديّ، و كعب بن ضبة العبسيّ، و يقال: كعب بن يسار بن ضبة، و عقبة بن عامر الجهنيّ، و هو كان رسول عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص حين كتب إليه يأمره أن يرجع إلى لم يكن دخل أرض مصر، و أبو زمعة البلويّ و برح بن حسكل و يقال: برح بن عسكر.

و شهد فتح مصر و اختط بها، و جنادة بن أبى أمية الأزديّ، و سفيان بن وهب الخولانيّ، و له صحبة، و معاوية بن خديج الكنديّ، و هو كان رسول عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، و قد اختلف فيه، فقال قوم: له صحبة، و قال آخرون:

ليست له صحبة، و عامر مولى حمل الذى يقال له: عامر حمل شهد الفتح، و هو مملوك، و عمار بن يسار، و لكن دخل بعد الفتح فى أيام عثمان وجهه إليها فى بعض أموره. و قال ابن عبد الحكم: منهم من اختط بالبلد، فذكرنا خطته، و منهم من لم يذكر له خطة، قال: فاختط عمرو بن العاص داره التى عند باب المسجد بينهما الطريق، و داره الأخرى اللاصقة إلى جنبها، و فيها دفن عبد اللّه بن عمرو، فيما زعم بعض مشايخ البلد لحدث كان يومئذ فى البلد، و الحمام الذى يقال له حمام الفار، و إنما قيل له: حمام الفار لأنّ حمامات الروم كانت ديماسات كبارا، فلما نبى هذا الحمام، و رأوا صغره قالوا: من يدخل هذا؟ هذا حمام الفار.

ذكر السبب فى تسمية مدينة مصر بالفسطاط

اشارة

قال ابن عبد الحكم عن يزد بن أبى حبيب: أنّ عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية، و رأى بيوتها، و بناءها مفروغا منها، همّ أن يسكنها، و قال: مساكن قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يستأذنه فى ذلك، فسأل عمر الرسول: هل يحول بينى و بين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو: إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى و بينهم فى شتاء و لا صيف، فتحوّل عمرو من الإسكندرية إلى الفسطاط، قال: و كتب عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه إلى سعد بن أبى وقاص، و هو نازل بمدائن كسرى، و إلى عامله بالبصرة، و إلى عمرو بن العاص، و هو نازل بالإسكندرية: أن لا تجعلوا بينى و بينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت، فتحوّل سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة، و تحوّل صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه، فنزل البصرة، و تحوّل عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸۶

قال: و إنما سميت الفسطاط لأنّ عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فسطاطه، فإذا فيه يمام قد فرّخ، فقال عمرو: لقد تحرّم منا بمتحرّم، فأمر به فأقرّ كما هو، و أوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون من الإسكندرية قالوا: أين ننزل؟ قالوا: الفسطاط، لفسطاط عمرو الذى كان خلفه، و كان مضروبا فى موضع الدار التى تعرف اليوم بدار الحصار عند دار عمرو الصغيرة.

قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانيّ: كان فسطاط عمرو عند درب حمام شمول بخط الجامع، و قال ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث فى حديث النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال:

«عليكم بالجماعة فإنّ يد اللّه على الفسطاط» يرويه سويد بن عبد العزيز عن النعمان بن المنذر عن مكحول عن أبى هريرة عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم.

و الفسطاط: المدينة، و كل مدينة: فسطاط، و لذلك قيل لمصر: فسطاط. و قال البكرىّ: الفسطاط بضم أوّله و كسره و إسكان ثانيه:

اسم لمصر، و يقال: فسطاط و بسطاط.

قال المطرّزى: و فصطاد، و فستاد، و بكسر أوائل جميعها، فهى عشر لغات. و قال ابن قتيبة:

كل مدينة فسطاط، و ذكر حديث: عليكم بالجماعة، فإنّ يد اللّه على الفسطاط، و أخبرنى أبو حاتم عن الأصمعىّ أنه قال: حدّثنى رجل من بنى تميم قال: قرأت فى كتاب رجل من قريش: هذا ما اشترى فلان بن فلان من عجلان مولى زياد، اشترى منه خمسمائة جريب حيال الفسطاط، يريد البصرة، و منه قول الشعبىّ فى الآبق إذا أخذ فى الفسطاط عشرة، و إذا أخذ خارجا عن الفسطاط أربعون، و أراد أن يد اللّه على أهل الأمصار و أنّ من شذ عنهم، و فارقهم فى الرأى فقد خرج عن يد اللّه، و فى ذلك آثار، و اللّه أعلم.

ذكر الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط

اعلم: أنّ الخطط التى كانت بمدينة فسطاط مصر، بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة، فقيل لتلك فى مصر: خطة، و قيل لها فى القاهرة: حارة.

قال القضاعىّ: و لما رجع عمرو من الإسكندرية، و نزل موضع فسطاطه، انضمت القبائل بعضها إلى بعض، و تنافسوا فى المواضع، فولى عمرو على الخطط: معاوية بن خديج التجيبىّ، و شريك بن سمىّ الغطيفىّ، و عمرو بن قحزم الخولانىّ، و حيويل بن ناشرة المغافرىّ، و كانوا هم الذين أنزلوا الناس، و فصلوا بين القبائل، و ذلك فى سنة إحدى و عشرين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸۷

خطة أهل الراية: أهل الراية جماعة من قريش، و الأنصار و خزاعة، و أسلم، و غفار، و مزينة، و أشجع، و جهينة، و ثقيف، و دوس، و عبس بن بغيض، و حرش من بنى كنانة، و ليث بن بكر، و العتقاء منهم إلا أنّ منزل العتقاء فى غير الراية، و إنما سموا أهل الراية، و نسبت الخطة إليهم لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان، فكره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته، فجعل لهم عمرو بن العاص راية، و لم ينسبها إلى أحد فقال: يكون موقفكم تحتها، فكانت لهم كالنسب الجامع، و كان ديوانهم عليها، و كان اجتماع هذه القبائل لما عقده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الولاية بينهم، و هذه الخطة محيطة بالجامع من جميع جوانبه، ابتدأوا من المصف الذى كانوا عليه فى حصارهم الحصن، و هو باب الحصن الذى يقال له: باب الشمع، ثم مضوا بخطتهم إلى حمام الفار، و شرعوا بغربيها إلى النيل، فإذا بلغت إلى النحاسين، فالجانبان لأهل الراية إلى باب المسجد الجامع المعروف: بباب الوراقين، ثم يسلك على حمام شمول، و فى هذه الخطة زقاق القناديل إلى تربة عفان إلى سوق الحمام إلى باب القصر الذى بدأنا بذكره.

خطة مهرة: بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير: و خطة مهرة هذه قبلىّ خطة الراية، و اختطت مهرة أيضا على سفح الجبل الذى يقال له: جبل يشكر مما يلى الخندق إلى شرقىّ العسكر إلى جنان بنى مسكين، و من جملة خطة مهرة الموضع الذى يعرف اليوم بمساطب الطباخ، و اسمه حمد، و يقال: إنّ الخطة التى لهم قبلىّ الراية كانت حوزا لهم يربطون فيها خيلهم إذا رجعوا إلى الجمعة، ثم انقطعوا إليها، و تركوا منازلهم بيشكر.

خطة تجيب: و تجيب هم بنو عدىّ، و سعد ابنى الأشرس بن شبيب بن السكن بن الأشرس بن كندة، فمن كان من ولد عدىّ، و سعد يقال لهم: تجيب، و تجيب: أمّهم، و هذه الخطة تلى خطة مهرة، و فيها درب الممصوصة آخره حائط من الحصن الشرقىّ.

و

خطط لخم فى موضعين: فمنها خطة لخم بن عدىّ بن مرّة بن أدد، و من خالطها من جذام، فابتدأت لخم بخطتها من الذى انتهت إليه خطة الراية و أصعدت ذات الشمال، و فى هذه الخطة سوق بربر، و شارعه مختلط فيما بين لخم، و الراية و لهم خطتان أخريان، إحداهما منسوبة إلى بنى رية بن عمرو بن الحارث بن وائل بن راشدة من لخم، و أوّلها شرقىّ الكنيسة المعروفة: بمكائيل التى عند

خليج بنى وائل، و هذا الموضع اليوم وراقات يعمل فيها الورق بالقرب من باب القنطرة خارج مصر، و الخطة الثانية: خطة راشدة بن أدب بن جزيلة من لخم، و هى متاخمة للخطة التى قبلها، و فى هذه الخطة جامع راشدة، و جنان كهمس بن معمر الذى عرف: بالمادرانىّ، ثم عرف بجنان الأمير تميم، و هو اليوم يقال له: المعشوق بجوار الآثار النبوية، و لهم مواضع مع اللفيف، و خطط أيضا بالحمراء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸۸

خطط اللفيف: إنما سموا بذلك لالتفات بعضهم ببعض، و سبب ذلك: أنّ عمرو بن العاص، لما فتح الإسكندرية أخبر أنّ مراكب الروم قد توجهت إلى الإسكندرية لقتال المسلمين، فبعث عمرو بعمرو بن جمالة الأزدىّ الحجرىّ ليأتيه بالخبر، فمضى و أسرعت هذه القبائل التى تدعى اللفيف، و تعاقدوا على اللحاق به، و استأذنوا عمرو بن العاص فى ذلك، فأذن لهم و هم جمع كثير، فلما رآهم عمرو بن جمالة استكثرهم، و قال: تاللّه ما رأيت قوما قد سدّوا الأفق مثلكم، و إنكم كما قال اللّه تعالى: فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً [الإسراء/ ۱۰۴] فبذلك سموا من يومئذ اللفيف، و سألوا عمرو بن العاص: أن يفرد لهم دعوة فامتنعت عشائرهم من ذلك، فقالوا لعمرو: فإنا نجتمع فى المنزل حيث كنا، فأجابهم إلى ذلك، فكانوا مجتمعين فى المنزل متفرّقين فى الديوان إذا دعى كل بطن منهم، انضم إلى بنى أبيه.

قال قتادة و مجاهد و الضحاك بن مزاحم فى قوله: جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً [الإسراء/ ۱۰۴] قال: جميعا، و كان عامتهم من الأزد من الحجر، و من غسان، و من شجاعة، و التف بهم نفر من جذام و لخم و الزحاف، و تنوخ من قضاعة، فهم مجتمعون فى المنزل متفرّقون فى الديوان، و هذه الخطة أوّلها مما يلى الراية سالكا ذات الشمال إلى نقاشى البلاط، و فيها دار ابن عشرات إلى نحو من سوق وردان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۲ ؛ ص۸۸

ط أهل الظاهر: إنما سمى هذا المنزل بالظاهر، لأنّ القبائل التى نزلته كانت بالإسكندرية، ثم قفلت بعد قفول عمرو بن العاص، و بعد أن اختط الناس خططهم، فخاصمت إلى عمرو، فقال لهم معاوية بن خديج: و كان ممن يتولى الخطط يومئذ أرى لكم أن تظهروا على أهل هذه القبائل، فتتخذوا منزلا فسمى الظاهر بذلك، و كانت القبائل التى نزلت الظاهر العتقاء، و هم جماع من القبائل، كانوا يقطعون على أيام النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فبعث إليهم، فأتى بهم أسرى، فأعتقهم، فقيل لهم: العتقاء، و ديوانهم مع أهل الراية، و خطتهم بالظاهر متوسطة فيه، و كان فيهم طوائف من الأزد و فهم، و أوّل هذه الخطة من شرقىّ خطة لخم، و تتصل بموضع العسكر، و من هذه الخطة سويقة العراقيين، و عرفت بذلك ونّ زيادا لما ولاه معاوية بن أبى سفيان البصرة، غرّب جماعة من الأزد إلى مصر، و بها مسلمة بن مخلد فى سنة ثلاث و خمسين، فنزل منهم هنا نحو من مائة و ثلاثين، فقيل لموضعهم من خطة الظاهر: سويقة العراقيين.

خطط غافق: هو غافق بن الحارث بن عك بن عدنان بن عبد اللّه بن الأزد، و هذه الخطة تلى خطة لخم إلى خطة الظاهر، بجوار درب الأعلام.

خطط الصدف: و اسمه مالك بن سهل بن عمرو بن قيس بن حمير، و دعوتهم مع كندة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۸۹

خطط الفارسيين: و استبدّ بخطة خولان من حضر فتح مصر من الفارسيين، و هم بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، أسلموا بالشأم، و رغبوا فى الجهاد، فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر، فاختطوا بها، و أخذوا فى سفح الجبل الذى يقال له: جبل باب البون، و هذا الجبل اليوم شرقىّ من وراء خطة جامع ابن طولون تعرف أرضه بالأرض الصفراء، و هى من جملة العسكر.

خطة مذحج: بالحاء قبل الجيم، و هو مالك بن مرّة بن أدد بن زيد بن كهلان.

خطة غطيف: بن مراد.

خطة و علان: بن قرن بن ناجية بن مراد، و كلهم من مذحج، فاختطت و علان من الزقاق الذى فيه الصنم المعروف بسرية فرعون، و

هذا الزقاق أوّله باب السوق الكبير، و اختطت أيضا بجولان، ثم انفردت و علان بخططها مقابل المسجد المعروف: بالدينوريّ، و أسندت إلى خولان، و هذه الخطة اليوم: كيمان تطلّ على قبر القاضى بكار.

خطة يحصب: بن مالك بن أسلم بن زيد بن غوث، و هذه الخطة موضعها: كيمان، و هى تتصل بالشرف الذى يعرف اليوم: بالرصد المطلّ على راشدة.

خطة رعين: بن زيد بن سهل.

خطة ذى الكلاع: بن شرحبيل بن سعد من حمير.

خطة المغافر: بن يعفر بن مرّة بن أدد، و هذه الخطة من الرصد إلى قاية بن طولون، و هى القناطر التى تطلّ على عفصة، و تفصل بين القرافتين و القناطر للمغافر، و لهم إلى مصلى خولان، و إلى الكوم المشرف على المصلى.

خطة سبا و خطة الرحبة: بن زرعة بن كعب.

خطة السلف بن سعد: فيما بين الكوم المطلّ على القاضى بكار، و بين المغافر.

خطة بنى وائل: بن زيد مناة بن أفصى بن إياس بن حرام بن جذام بن عدىّ، و هى من سفح الشرف المعروف بالرصد إلى خطة الجولان.

خطة القبض: بالتحريك، بن مرثد، و هى بجانب خطة بنى وائل إلى نحو بركة الحبش، قال: و كان سبب نزول بنى وائل، و القبض و ريئة و راشدة و الفارسيين هذه المواضع أنهم كانوا فى طوالع عمرو بن العاص، فنزلوا فى مقدّمة الناس، و حازوا هذه المواضع قبل الفتح.

خطط الحمراوات الثلاث: قال الكندىّ: و كانت الحمراء على ثلاثة: بنو نبه و روبيل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۰

و الأزرق، و كانوا ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام إلى مصر من عجم الشأم ممن كان رغب فى الإسلام من قبل اليرموك، و من أهل قيسارية و غيرهم.

قال القضاعىّ: و إنما قيل الحمراء لنزول الروم بها، و هط خطط بلىّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة و فهم و عدوان، و بعض الأزد و هم ثراد، و بنى بحر، و بنى سلامان و يشكر بن لخم و هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر و بنى نبه، و بنى الأزرق، و هم من الروم، و بنى روبيل، و كان يهوديا، فأسلم. فأوّل ذلك الحمراء الدنيا خطة بلىّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، و منها خطة ثراد من الأزد، و خطة فهم بن عمرو بن قيس عيلان، و منها خطة بنى بحر بن سوادة من الأزد.

و من ذلك الحمراء الوسطى: منها خطة بنى نبه، و هم قوم من الروم حضر الفتح منهم مائة رجل، و منها خطة هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر، و منها خطة بنى سلامان من الأزد، و منها خطة عدوان.

و من ذلك الحمراء القصوى، و هى خطة بنى الأزرق، و كان روميا حضر الفتح منهم أربعمائة، و خطة بنى روبيل، و كان يهوديا فأسلم، و حضر الفتح منهم ألف رجل، و خطة بنى يشكر بن جزيلة بن لخم و كانت منازل يشكر مفرّقة فى الجبل، فدثرت قديما، و عادت صحراء حتى جاءت المسودّة، يعنى جيوش بنى العباس، فعمروها، و هى الآن خراب.

و قال ابن المتوّج: الحمراوات ثلاث: أولى، و وسطى، و قصوى. فأمّا الأولى:

فتجمع جابر الأور، و عقبة العدّاسين، و سوق وردان، و خطة الزبير إلى نقاشى البلاط طولا و عرضا على قدر ذلك، و أمّا الوسطى: فمن درب نقاشى البلاط إلى درب معانى طولا و عرضا على قدره، و أمّا القصوى فمن درب معانى إلى القناطر الظاهرية يعنى قناطر السباع، و هى حدّ ولاية مصر من القاهرة، و كانت هذه الحمراوات جلّ عمارة مصر فى زمن الروم، فإذا الحمراء الأولى و الوسطى هما الآن خراب، و موضعهما فيما بين سوق المعاريج، و حمام طن من شرقيهما إلى ما يقابل المراغة فى الشرق، و أما الحمراء الدنيا فهى

الآن تعرف بخط قناطر السباع، و بخط السبع سقايات، و بحكر الخليليّ، و حكر أقبغا و الكوم، حيث الأسرى و منها أيضا خط الكبش، و خط الجامع الطولونيّ و العسكر، و منها حدرة ابن قميحة إلى حيث قنطرة السدّ، و بستان الطواشي، و ما فى شرقيه إلى مشهد الرأس المعروف بزين العابدين، و سيأتى لذلك مزيد بيان إن شاء اللّه تعالى عند ذكر العسكر، و كانت مدينة الفسطاط على قسمين هما: عمل فوق، و عمل أسفل.

فعمل فوق له طرفان غربيّ و شرقيّ، فالغربيّ من شاطىء النيل فى الجهة القبلية، و أنت مار فى الشرف المعروف اليوم بالرصد إلى القرافة الكبرى، و الشرقيّ من القرافة الكبرى إلى العسكر، و عمل أسفل ما عدا ذلك إلى حدّ القاهرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۱

ذكر أمراء الفسطاط من حين فتحت مصر إلى أن بنى العسكر

اعلم: أنّ عدّة من ولى مصر من الأمراء فى الإسلام منذ فتحت، و سكن الفسطاط إلى أن بنى العسكر تسعة و عشرون أميرا فى مدّة مائة و ثلاث عشرة سنة و سبعة أشهر، أوّلها يوم الجمعة مستهل المحرّم سنة عشرين من الهجرة النبوية، و هو يوم فتح مصر، و آخرها سلخ شهر رجب سنة ثلاث و مائة آخر ولاية صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس على مصر، و أوّل ولاية أبى عون عبد الملك، و هو أوّل من سكن العسكر من أمراء مصر.

و أوّل أمراء الفسطاط بعد الفتح على ما ذكر الكندىّ و غيره: عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك: أبو عبد اللّه، كان تاجرا فى الجاهلية، و كان يختلف بتجارته إلى مصر، و هى الأدم و العطر، ثم ضرب الدهر ضرباته حتى فتح المسلمون الشأم، فخلا بعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فاستأذنه فى المسير إلى مصر، فسار فى سنة تسع عشرة، و أتى الحصن، فحاصره سبعة أشهر إلى أن فتحه فى يوم الجمعة مستهل المحرّم سنة عشرين، و قيل: كان فتح مصر فى ثانى عشر بؤنة سنة سبع و خمسين و ثلثمائة لدقلطيانوس، فعلى هذا يكون فتح مصر فى سنة تسع عشرة من الهجرة، و تحرير ذلك أن الذى بين يوم الجمعة أوّل يوم من ملك دقلطيانوس، و بين يوم الخميس أوّل سنة الهجرة ثمان و ثلاثون و ثلثمائة سنة فارسية، و تسعة و ثلاثون يوما، فإذا ألغينا ذلك من تاريخ مصر فى ثانى عشر بؤنة سنة سبع و خمسين و ثلثمائة بقى ثمان عشر سنة، و ثمانية أشهر و ثلاثة أيام، و هذه سنون شمسية عنها من سنى القمر تسع عشر سنة و شهر و ثلاثة عشر يوما، فيكون ذلك فى ثالث عشر ربيع الأوّل سنة عشرين، فلعل الوهم وقع فى الشهر القبطىّ، و حاز الحصن بما فيه، و سار إلى الإسكندرية فى ربيع الأوّل منها، فحاصرها ثلاثة أشهر، ثم فتحها عنوة، و هو الفتح الأوّل، و يقال: بل فتحها مستهل سنة إحدى و عشرين، ثم سار عنها إلى برقة، فافتتحها عنوة فى سنة اثنتين و عشرين، و قيل: فى سنة ثلاث و عشرين، و قدم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قدمتين استخلف فى إحداهما زكريا بن جهم العبدرىّ، و فى الثانية ابنه عبد اللّه، و توفى عمر رضى اللّه عنه فى ذى الحجة سنة ثلاث و عشرين، و بويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، فوفد عليه عمرو، و سأله عزل عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح عن صعيد مصر، و كان عمر ولاه الصعيد، فامتنع من ذلك عثمان، و عقد لعبد اللّه بن سعد على مصر كلها، فكانت ولاية عمرو على مصر: صلاتها و خراجها، منذ افتتحها إلى أن صرف عنها أربع سنين و أشهرا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۲

عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، و اسمه الحسام بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤىّ، ولى من قبل أمير المؤمنين عثمان رضى اللّه عنه، فجاءه الكتاب بالفيوم، فجعل لأهل أطواف جعلا فقدموا به الفسطاط، ثم إن منويل الخصىّ سار إلى الإسكندرية فى سنة أربع و عشرين، فسأل أهل مصر: عثمان أن يردّ عمرو بن العاص لمحاربته، فردّه واليا على الإسكندرية، فحارب الروم بها حتى افتتحها، و عبد اللّه بن سعد مقيم بالفسطاط، حتى فتحت الإسكندرية الفتح الثانى عنوة فى سنة خمس و

عشرين، ثم جمع لعبد اللّه بن سعد أمير مصر صلاتها و خراجها، و مكث أميرا مدّة ولاية عثمان رضى اللّه عنه كلها، محمودا فى ولايته، و غزا ثلاث غزوات كلها لها شأن، غزا إفريقية سنة سبع و عشرين، و قتل ملكها جرجير، و غزا غزوة الأساود حتى بلغ دنقلة فى سنة إحدى و ثلاثين، و غزا ذا الصوارى فى سنة أربع و ثلاثين، فلقيهم قسطنطين بن هرقل فى ألف مركب، و قيل: فى سبعمائة مركب و المسلمون فى مائتى مركب، فهزم اللّه الروم، و إنما سميت غزوة ذى الصوارى لكثرة صوارى المراكب، و اجتماعها، و وفد على عثمان حين تكلم الناس بالطعن على عثمان، و استخلف عقبة بن عامر الجهنىّ، و قيل: السائب بن هشام العامرىّ، و جعل على خراجها سليمان بن عتر التجيبى، و كان ذلك سنة خمس و ثلاثين فى رجب.

محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. أمّر فى شوال سنة خمس و ثلاثين على عقبة بن عامر خليفة عبد اللّه بن سعد، فأخرجه من الفسطاط، و دعا إلى خلع عثمان، و أسعر البلاد، و حرّض على عثمان بكل شرّ يقدر عليه، فاعتزله شيعة عثمان، و نابذوه، و هم: معاوية بن خديج، و خارجة بن حذافة، و بسر بن أرطأة، و مسلمة بن مخلد فى جمع كثير، و بعثوا إلى عثمان بأمرهم، و بصنيع ابن أبى حذيفة، فبعث سعد بن أبى وقاص: ليصلح أمرهم، فخرج إليه جماعة، فقلبوا عليه فسطاطه، و شجوه و سبوه، فركب و عاد راجعا، و دعا عليهم، و أقبل عبد اللّه بن سعد، فمنعوه أن يدخل، فانصرف إلى عسقلان، و قتل عثمان رضى اللّه عنه، و ابن سعد بعسقلان، ثم أجمع ابن أبى حذيفة على بعث جيش إلى عثمان، فجهز إليه ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ، ثم قتل عثمان فى ذى الحجة منها، فثار شيعة عثمان بمصر، و عقدوا لمعاوية بن خديج ، و بايعوه على الطلب بدم عثمان، و ساروا إلى الصعيد، فبعث إليهم ابن أبى حذيفة خيلا، فهزمت، و مضى ابن خديج إلى برقة، ثم رجع إلى الإسكندرية، فبعث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۳

إليه ابن أبى حذيفة بجيش آخر فاقتتلوا بخربتا فى أوّل شهر رمضان سنة ست و ثلاثين، فانهزم الجيش، و أقامت شيعة عثمان بخربتا.

و قدم معاوية بن أبى سفيان يريد الفسطاط، فنزلت سلمنت فى شوّال، فخرج إليه ابن أبى حذيفة فى أهل مصر، فمنعوه ثم اتفقا على أن يجعلا رهنا، و يتركا الحرب، فاستخلف ابن أبى حذيفة على مصر: الحكم بن الصلت، و خرج فى الرهن هو و ابن عديس، و عدّة من قتلة عثمان، فلما بلغوا لدّا سجنهم معاوية بها، و سار إلى دمشق، فهربوا من السجن، و تبعهم أمير فلسطين، فقتلهم فى ذى الحجة سنة ست و ثلاثين.

قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى: ولاه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، لما بلغه مصاب ابن أبى حذيفة، و جمع له الخراج و الصلاة، فدخل مصر مستهل ربيع الأوّل سنة سبع و ثلاثين، فاستمال الخارجية بخربتا شيعة عثمان، و بعث إليهم أعطياتهم، و وفد عليهم وفدهم، فأكرمهم، و كان من ذوى الرأى، فجهد عمرو بن العاص، و معاوية بن أبى سفيان على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها، فإنها كانت من جيش علىّ رضى اللّه عنه، فامتنع منهما بالدهاء و المكايدة، فلم يقدرا على مصر، حتى كاد معاوية قيسا من قبل علىّ رضى اللّه عنه، فأشاع أن قيسا من شيعته، و أنه يبعث إليه بالكتب و النصيحة سرّا، فسمع ذلك جواسيس علىّ رضى اللّه عنه، و ما زال به محمد بن أبى بكر، و عبد اللّه بن جعفر، حتى كتب إلى قيس بن سعد يأمره بالقدوم إليه، فوليها إلى أن عزل أربعة أشهر و خمسة أيام، و صرف لخمس خلون من رجب سنة سبع و ثلاثين، فوليها:

الأشتر مالك بن الحارث بن خالد النخعىّ من قبل أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، فلما قدم القلزم شرب عسلا فمات، فبلغ ذلك عمرا و معاوية، فقال عمرو: إن للّه جنودا من عسل.

ثم وليها: محمد بن أبى بكر الصدّيق من قبل علىّ رضى اللّه عنه، و جمع له صلاتها و خراجها، فدخلها للنصف من رمضان سنة سبع و ثلاثين، فهدم دور شيعة عثمان، و نهب أموالهم و سجن ذراريهم، فنصبوا له الحرب، ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية، فلحقوا بمعاوية بالشام، فبعث معاوية عمرو بن العاص فى جيوش أهل الشام إلى الفسطاط و تغيب ابن أبى بكر، فظفر به معاوية بن خديج فقتله، ثم جعله فى جيفة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۴

حمار ميت، و أحرقه بالنار لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان و ثلاثين، فكانت ولايته خمسة أشهر.

ثم وليها: عمرو بن العاص: ولايته الثانية من قبل معاوية بن أبى سفيان رضى اللّه عنه، فاستقبل بولايته شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و ثلاثين، و جعل إليه الصلاة و الخراج جميعا، و جعلت مصر له طعمة بعد عطاء جندها، و النفقة فى مصلحتها، ثم خرج عمرو للحكومة، و استخلف على مصر ابنه عبد اللّه، و قيل: بل خارجة بن حذافة، و رجع إلى مصر، و تعاقد بنو لخم عبد الرحمن و قيس و يزيد على قتل علىّ و معاوية و عمرو، و تواعدوا ليلة من رمضان سنة أربعين، فمضى كل منهم إلى صاحبه، و كان يزيد هو صاحب عمرو، فعرضت لعمرو علة منعته من حضور المسجد، فصلى خارجة بالناس، فشدّ عليه يزيد فضربه، حتى قتله، فدخل به على عمرو، فقال: أما و اللّه ما أردت غيرك يا عمرو، قال عمرو: و لكن اللّه أراد خارجة، و للّه در القائل:

وليتها إذ فدت عمرا بخارجةفدت عليا بمن شاءت من البشر

و عقد عمرو لشريك بن سمىّ على غزو لواتة من البربر، فغزاهم فى سنة أربعين، و صالحهم ثم انتقضوا، فبعث إليهم عقبة بن نافع فى سنة إحدى و أربعين، فغزاهم حتى هزمهم، و عقد لعقبة أيضا على غزوة هوّارة، و عقد لشريك بن سمىّ: على غزوة لبدة ، فغزواهما فى سنة ثلاث و أربعين، فقفلا و عمرو شديد الدنف فى مرض موته، و توفى ليلة الفطر، فغسله عبد اللّه بن عمرو، و أخرجه إلى المصلى و صلى عليه، فلم يبق أحد شهد العيد إلّا صلى عليه، ثم صلى بالناس صلاة العيد، و كان أبوه استخلفه، و خلف عمرو بن العاص سبعين بهارا دنانير، و البهار: جلد ثور، و مبلغه أردبان بالمصرىّ، فلما حضرته الوفاة أخرجه، و قال: من يأخذه بما فيه، فأبى ولده أخذه، و قالا: حتى تردّ إلى كل ذى حق حقه، فقال: و اللّه ما أجمع بين اثنين منهم، فبلغ معاوية، فقال: نحن نأخذه بما فيه.

ثم وليها: عتبة بن أبى سفيان من قبل أخيه معاوية بن أبى سفيان على صلاتها، فقدم فى ذى القعدة سنة ثلاث و أربعين، و أقام شهرا، ثم وفد على أخيه، و استخلف عبد اللّه بن قيس بن الحارث، و كان فيه شدّة، فكره الناس ولايته، و امتنعوا منها، فبلغ ذلك عتبة، فرجع إلى مصر، و صعد المنبر فقال: يا أهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم، و قد وليكم من إذا قال فعل، فإن أبيتم درأكم بيده، فإن أبيتم درأكم بسيفه، ثم رجا فى الأمير ما أدرك فى الأوّل أن البيعة شائعة لنا عليكم السمع، و لكم علينا العدل،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۵

و أينا غدر، فلا ذمّة له عند صاحبه، فناداه المصريون من جنبات المسجد سمعا سمعا فناداهم عدلا عدلا، ثم نزل ثم جمع له معاوية الصلات و الخراج، و عقد عتبة لعلقمة بن زيد على الإسكندرية فى اثنى عشر ألفا من أهل الديوان تكون لها رابطة، ثم خرج إليها مرابطا فى ذى الحجة سنة أربع و أربعين، فمات بها و استخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنىّ، فكانت ولايته ستة أشهر.

ثم وليها: عقبة بن عامر بن عبس الجهنىّ من قبل معاوية، و جعل له صلاتها و خراجها، و كان قارئا فقيها مفرضا شاعرا، له الهجرة و الصحبة و السابقة، ثم وفد مسلمة بن محمد الأنصارىّ على معاوية، فولاه مصر، و أمره أن يكتم ذلك عن عقبة بن عامر، و جعل عقبة على البحر، و أمره أن يسير إلى رودس، فقدم مسلمة، فلم يعلم بإمارته، و خرج مع عقبة إلى الإسكندرية، فلما توجه سائرا استوى مسلمة على سرير إمارته، فبلغ ذلك عقبة فقال: أخلعا و غربة، و كان صرفه لعشر بقين من ربيع الأوّل سنة سبع و أربعين، و كانت ولايته سنتين و ثلاثة أشهر.

فولى مسلمة بن مخلد بن صامت بن نيار الأنصارىّ من قبل معاوية، و جمع له الصلات و الخراج و الغزو، فانتظمت غزواته فى البر و البحر، و فى إمارته نزلت الروم البرلس فى سنة ثلاث و خمسين، فاستشهد يومئذ: وردان مولى عمرو بن العاص فى جمع من المسلمين، و هدم ما كان عمرو بن العاص بناه من المسجد، و بناه و أمر بابتناء منارات المساجد كلها إلا خولان و تجيب، و خرج إلى الإسكندرية فى سنة ستين، و استخلف عابس بن سعيد، و مات معاوية بن أبى سفيان فى رجب منها، و استخلف ابنه يزيد بن معاوية، فأقرّ مسلمة، و كتب إليه بأخذ البيعة، فبايعه الجند إلّا عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فدعا عابس بالنار ليحرق عليه بابه! فحينئذ بايع

ليزيد، و قدم مسلمة من الإسكندرية، فجمع لعابس مع الشرط القضاء فى سنة إحدى و ستين، و قال مجاهد: صليت خلف مسلمة بن مخلد، فقرأ سورة البقرة، فما ترك ألفا و لا- واوا، و قال ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد: كان مسلمة بن مخلد يصلى بنا، فيقوم فى الظهر، فربما قرأ الرجل البقرة، و توفى مسلمة، و هو وال لخمس بقين من رجب سنة اثنتين و ستين، فكانت ولايته خمس عشرة سنة و أربعة أشهر، و استخلف عابس بن سعيد.

ثم وليها سعيد بن يزيد بن علقمة بن يزيد بن عوف الأزدى من أهل فلسطين، فقدم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۶

مستهلّ رمضان سنة اثنتين و ستين فتلقاه عمرو بن قحزم الخولانىّ، فقال: يغفر اللّه لأمير المؤمنين أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك، يولى علينا أحدهم، و لم تزل أهل مصر على الشنآن له، و الإعراض عنه، و التكبر عليه حتى توفى يزيد بن معاوية، و دعا عبد اللّه بن الزبير رضى اللّه عنه إلى نفسه، فقامت الخوارج الذين بمصر، و أظهروا دعوته، و سار منهم إليه، فبعث لعبد الرحمن بن جحدم، فقدم و اعتزل سعيدا، فكانت ولايته سنتين غير شهر.

ثم وليها: عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم من قبل عبد اللّه بن الزبير، فدخل فى شعبان سنة أربع و ستين فى جمع كثير من الخوارج، فأظهروا التحكيم، و دعوا إليه، فاستعظم الجند ذلك، و بايعه الناس على غل فى قلوب شيعة بنى أمية، ثم بويع مروان بن الحكم بالخلافة فى أهل الشام، و أهل مصر معه فى الباطن، فسار إليها، و بعث ابنه عبد العزيز فى جيش إلى أيلة ليدخل مصر من هناك، و أجمع ابن جحدم على حربه، و حفر الخندق فى شهر، و هو الذى فى شرقىّ القرافة، و قدم مروان، فحاربه ابن جحدم، و قتل بينهما كثير من الناس ثم اصطلحا، و دخل مروان لعشر من جمادى الأولى سنة خمس و ستين، فكانت مدّة ابن جحدم تسعة أشهر، و وضع مروان العطاء، فبايعه الناس إلّا نفرا من المغافر قالوا: لا نخلع بيعة ابن الزبير، فضرب أعناقهم، و كانوا ثمانين رجلا، و ذلك للنصف من جمادى الآخرة، يومئذ مات عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فلم يستطع أن يخرج بجنازته إلى المقبرة لشغب الجند على مروان، و جعل مروان صلات مصر، و خراجها إلى ابنه عبد العزيز، و سار و قد أقام بها شهرين لهلال رمضان.

عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص أبو الأصبغ ولى من قبل أبيه لهلال رجب سنة خمس و ستين على الصلات و الخراج، و مات أبوه، و بويع من بعده عبد الملك بن مروان، فأقرّ أخاه عبد العزيز، و وقع الطاعون بمصر سنة سبعين، فخرج عبد العزيز منها، و نزل حلوان، فاتخذها دارا و سكنها، و جعل بها الأعوان، و بنى بها الدور و المساجد، و عمرها أحسن عمارة، و غرس نخلها و كرمها، و عرّف بمصر، و هو أول من عرّف بها فى سنة إحدى و سبعين، و جهز البعث فى البحر لقتال ابن الزبير فى سنة اثنتين و سبعين، ثم مات لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ست و ثمانين، فكانت ولايته عشرين سنة، و عشرة أشهر و ثلاثة عشر يوما.

فولى: عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان من قبل أبيه على صلاتها و خراجها، فدخل يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ست و ثمانين، و هو ابن تسع و عشرين سنة، و قد تقدّم إليه أبوه أن يقتفى آثار عمه عبد العزيز، فاستبدل بالعمال و بالأصحاب، و مات عبد الملك، بويع ابنه الوليد بن عبد الملك، فأقرّ أخاه عبد اللّه، و أمر عبد اللّه، فنسخت دواوين مصر بالعربية، و كانت بالقبطية، و فى ولايته غلت الأسعار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۷

فتشاءم الناس به، و هى أوّل شدّة رأوها بمصر، و كان يرتشى، ثم وفد على أخيه فى صفر سنة ثمان و ثمانين، و استخلف عبد الرحمن بن عمرو بن قحزم الخولانىّ، و أهل مصر فى شدّة عظيمة، و رفع سقف المسجد الجامع فى سنة تسع و ثمانين، ثم صرف، فكانت ولايته ثلاث سنين و عشرة أشهر.

فولى: قرّة بن شريك بن مرثد بن الحرث العبسىّ للوليد بن عبد الملك على صلات مصر و خراجها، فقدمها يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأوّل سنة تسعين، و خرج عبد اللّه بن عبد الملك من مصر بكل ما ملكه، فأحيط به فى الأردن، و أخذ سائر ما معه، و

حمل إلى أخيه، و أمر الوليد بهدم ما بناه عبد العزيز فى المسجد، فهدم أوّل سنة اثنتين و تسعين، و بنى و استنبط قرّة بن شريك: بركة الحبش من الموات و أحياها، و غرس فيها القصب، فقيل لها: اصطبل قرّة، و اصطبل القاش، ثم مات و هو وال ليلة الخميس لست بقين من ربيع الأوّل سنة ست و تسعين، و استخلف على الجند و الخراج عبد الملك بن رفاعة، فكانت ولايته ست سنين و أياما.

ثم ولى: عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمىّ: من قبل الوليد بن عبد الملك على صلاتها، و توفى الوليد، و استخلف سليمان بن عبد الملك، فأقرّ ابن رفاعة، و توفى سليمان، و بويع عمر بن عبد العزيز، فعزل ابن رفاعة، فكانت ولايته ثلاث سنين.

ثم ولى: أيوب بن شرحبيل بن أكسوم بن أبرهة بن الصباح، من قبل عمر بن عبد العزيز على صلاتها فى ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين، فورد كتاب أمير المؤمنين:

عمر بن عبد العزيز بالزيادة فى أعطيات الناس عامّة، و خمرت الخمر، و كسرت و عطلت حاناتها، و قسم للغارمين بخمسة و عشرين ألف دينار، و نزعت مواريث القبط عن الكور، و استعمل المسلمون عليها، و منع الناس الحمامات، و توفى عمر بن عبد العزيز، و استخلف يزيد بن عبد الملك، فأقرّ أيوب على الصلات إلى أن مات لإحدى عشرة، و قيل: لسبع عشرة خلت من رمضان سنة إحدى و مائة، فكانت ولايته سنتين و نصفا.

فولى: بشر بن صفوان الكلبىّ: من قبل يزيد بن عبد الملك قدمها لسبع عشرة خلت من رمضان سنة إحدى و مائة، و فى إمرته نزل الروم تنيس، ثم ولاه يزيد على إفريقية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۸

فخرج إليها فى شوّال سنة اثنتين و مائة، و استخلف أخاه حنظلة.

فولى: حنظلة بن صفوان باستخلاف أخيه، فأقرّه يزيد بن عبد الملك، و خرج إلى الإسكندرية فى سنة ثلاث و مائة، و استخلف عقبة بن مسلمة التجيبىّ، و كتب يزيد بن عبد الملك فى سنة أربع و مائة بكسر الأصنام و التماثيل، فكسرت كلها، و محيت التماثيل، و مات يزيد بن عبد الملك، و بويع هشام بن عبد الملك، فصرف حنظلة فى شوّال سنة خمس و مائة، فكانت ولايته ثلاث سنين.

و ولى: محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم من قبل أخيه هشام بن عبد الملك على الصلات، فدخل مصر لإحدى عشرة خلت من شوّال سنة خمس و مائة، و وقع و باء شديد بمصر، فترفع محمد إلى الصعيد هاربا من الوباء أياما، ثم قدم و خرج عن مصر لم يلها إلّا نحوا من شهر، و انصرف إلى الأردن.

فولى: الحرّ بن يوسف بن يحيى بن الحكم من قبل هشام بن عبد الملك على صلاتها، فدخل لثلاث خلون من ذى الحجة سنة خمس و مائة، و فى إمرته كان أوّل انتفاض القبط فى سنة سبع و مائة، و رابط بدمياط ثلاثة أشهر، ثم وفد إلى هشام بن عبد الملك، فاستخلف حفص بن الوليد، و قدم فى ذى القعدة من سنة سبع، و انكشف النيل عن الأرض فبنى فيها، و صرف فى ذى القعدة سنة ثمان و مائة، باستعفائه لمغاضبة كانت بينه و بين عبد اللّه بن الحبحاب متولى خراج مصر، فكانت ولايته ثلاث سنين سواء.

و ولى: حفص بن الوليد بن سيف بن عبد اللّه من قبل هشام بن عبد الملك، ثم صرف بعد جمعتين يوم الأضحى بشكوى ابن الحبحاب منه، و قيل: صرف سلخ ثمان و مائة.

فولى: عبد الملك بن رفاعة ثانيا على الصلات، فقدم من الشام عليلا لثنتى عشرة بقيت من المحرّم سنة تسع و مائة، و كان أخوه الوليد يخلفه من أوّل المحرّم، و قيل: بل ولى أوّل المحرّم، و مات للنصف منه، و كانت ولايته خمس عشرة ليلة.

ثم ولى أخوه: الوليد بن رفاعة باستخلاف أخيه، فأقرّه هشام بن عبد الملك على الصلات، و فى ولايته نقلت قيس إلى مصر، و لم يكن بها أحد منهم، و خرج وهيب اليحصبىّ شاردا فى سنة سبع عشرة و مائة من أجل أنّ الوليد أذن للنصارى فى ابتناء كنيسة يوحنا بالحمراء، و توفى و هو وال أوّل جمادى الآخرة سنة سبع عشرة، و استخلف عبد الرحمن بن خالد، فكانت إمرته تسع سنين و خمسة أشهر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۹۹

فولى: عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمىّ أبو الوليد من قبل هشام بن عبد الملك على صلاتها، و فى إمرته نزل الروم على تروجة ، فحاصروها، ثم اقتتلوا فأسروا، فصرفه هشام، فكانت ولايته سبعة أشهر.

و ولى: حنظلة بن صفوان ثانيا فقدم لخمس خلون من المحرّم سنة تسع و مائة، فانتفض القبط، و حاربهم فى سنة إحدى و عشرين و مائة، و قدم رأس زيد بن علىّ إلى مصر فى سنة اثنتين و عشرين و مائة، ثم ولاه هشام إفريقية، فاستخلف حفص بن الوليد بإمرة هشام، و خرج لسبع خلون من ربيع الآخر سنة أربع و عشرين و مائة، فكانت ولايته هذه خمس سنين و ثلاثة أشهر.

و ولى: حفص بن الوليد الحضرمىّ ثانيا باستخلاف حنظلة له على صلاتها، فأقرّه هشام بن عبد الملك إلى ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة أربع و عشرين، فجمع له الصلات و الخراج جميعا، و استسقى بالناس، و خطب و دعا، ثم صلى بهم، و مات هشام بن عبد الملك، و استخلف من بعده: الوليد بن يزيد، فأقرّ حفصا على الصلات و الخراج، ثم صرف عن الخراج بعيسى بن أبى عطاء لسبع بقين من شوّال سنة خمس و عشرين و مائة، و انفرد بالصلات، و وفد على الوليد بن يزيد، و استخلف عقبة بن نعيم الرعينى، و قتل الوليد بن يزيد، و حفص بالشام، و بويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فأمر حفصا باللحاق بجنده، و أمّره على ثلاثين ألفا و فرض الفروض، و بعث بيعة أهل مصر إلى يزيد بن الوليد، ثم توفى يزيد و بويع إبراهيم بن الوليد، و خلعه مروان بن محمد الجعدى، فكتب حفص يستعفيه من ولاية مصر، فأعفاه مروان، فكانت ولاية حفص هذه ثلاث سنين إلا شهرا.

و ولى: حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن التجيبىّ و هو بالشام، فكتب إلى خير بن نعيم باستخلافه، فسلم حفص إلى خير، ثم قدم حسان لثنتى عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة سبع و عشرين و مائة على الصلات، و عيسى بن أبى عطاء على الخراج، فأسقط حسان فروض حفص كلها، فوثبوا به، و قالوا: لا نرضى إلّا بحفص، و ركبوا إلى المسجد، و دعوا إلى خلع مروان و حصروا حسان فى داره، و قال له: اخرج عنا، فإنك لا تقيم معنا ببلد، و أخرجوا عيسى بن أبى عطاء صاحب الخراج، و ذلك فى آخر جمادى الآخرة، و أقاموا حفصا، فكانت ولاية حسان ستة عشر يوما.

فولى: حفص بن الوليد الثالثة: كرها أخذه قوّاد الفروض بذلك، فأقام على مصر رجب و شعبان، و لحق حسان بمروان، و قدم حنظلة بن صفوان من إفريقية، و قد أخرجه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۰۰

أهلها فنزل الجيزة، و كتب مروان بولايته على مصر، فامتنع المصريون من ولاية حنظلة، و أظهروا الخلع، و أخرجوا حنظلة إلى الحوف الشرقىّ، و منعوه من المقام بالفسطاط، و هرب ثابت بن نعيم من فلسطين يريد الفسطاط، فحاربوه و هزموه، و سكت مروان عن مصر بقية سنة سبع و عشرين و مائة، ثم عزل حفصا مستهل سنة ثمان و عشرين.

و ولى: الحوثرة بن سهيل بن العجلان الباهلىّ: فسار إليها فى آلاف، و قدم أوّل المحرّم، و قد اجتمع الجند على منعه، فأبى عليهم حفص، فخافوا حوثرة، و سألوه الأمان، فأمّنهم، و نزل ظاهر الفسطاط، و قد اطمأنوا إليه فخرج إليه حفص، و وجوه الجند، فقبض عليهم، و قيدهم، فانهزم الجند و دخل معه عيسى بن أبى عطاء على الخراج لثنتى عشرة خلت من المحرّم، و بعث فى طلب رؤساء الفتنة، فجمعوا له و ضرب أعناقهم، و قتل حفص بن الوليد، ثم صرف فى جمادى الأولى سنة إحدى و ثلاثين و مائة، و بعثه مروان إلى العراق فقتل، و استخلف على مصر حسان بن عتاهية، و قيل: أبا الجرّاح بشر بن أوس، و خرج لعشر خلون من رجب، و كانت ولايته ثلاث سنين و ستة أشهر.

ثم ولى: المغيرة بن عبيد اللّه بن المغيرة الفزارىّ على الصلاة من قبل مروان، فقدم لست بقين من رجب سنة إحدى و ثلاثين، و خرج إلى الإسكندرية، و استخلف أبا الجرّاح الحرشى، و توفى لثنتى عشرة خلت من جمادى الأولى سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، فكانت ولايته عشرة أشهر، و استخلف ابنه الوليد بن المغيرة، ثم صرف الوليد فى النصف من جمادى الآخرة.

و ولى: عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير من قبل مرون على الصلات و الخراج، و كان واليا على الخراج قبل أن يولى الصلات فى جمادى الآخرة سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، فأمر باتخاذ المنابر فى الكور، و لم تكن قبله، و إنما كانت ولاة الكور يخطبون على العصىّ إلى جانب القبلة، و خرج القبط فحاربهم، و قتل كثيرا منهم، و خالف عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان، و اجتمع عليه جمع من قيس فى الحوف الشرقىّ، فبعث إليهم عبد الملك بجيش، فلم يكن حرب، و سار مروان بن محمد إلى مصر منهزما من بنى العباس، فقدم يوم الثلاثاء لثمان بقين من شوّال سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، و قد سوّد أهل الحوف الشرقىّ، و أهل الإسكندرية، و أهل الصعيد و أسوان، فعزم مروان على تعديه النيل، و أحرق دار آل مروان المذهبة، ثم رحل إلى الجيزة، و خرق الجسرين، و بعث بجيش إلى الإسكندرية، فاقتتلوا بالكريون ، و خالفت القبط برشيد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۰۱

فبعث إليهم و هزمهم، و بعث إلى الصعيد، فقدم صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس فى طلب مروان هو و أبو عون عبد الملك بن يزيد يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة، فأدرك صالح مروان ببوصير من الجيزة بعد ما استخلف على الفسطاط معاوية بن بحيرة بن ريسان، فحارب مروان حتى قتل ببوصير يوم الجمعة لسبع بقين من ذى الحجة، و دخل صالح إلى الفسطاط يوم الأحد لثمان خلون من المحرّم سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، و بعث برأس مروان إلى العراق، و انقضت أيام بنى أمية.

فولى: صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس، ولى من قبل أمير المؤمنين أبى العباس عبد اللّه بن محمد السفاح، فاستقبل بولايته المحرّم سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، و بعث بوفد أهل مصر إلى أبى العباس السفاح ببيعة أهل مصر، و أسر عبد الملك بن موسى بن نصير و جماعة، و قتل كثيرا من شيعة بنى أمية، و حمل طائفة منهم إلى العراق، فقتلوا بقلنسوة من أرض فلسطين، و أمر للناس بأعطياتهم للمقاتلة و العيال، و قسمت الصدقات على اليتامى و المساكين، و زاد صالح فى المسجد، و ورد عليه كتاب أمير المؤمنين السفاح، بإمارته على فلسطين و الاستخلاف على مصر، فاستخلف أبا عون مستهلّ شعبان سنة ثلاث و ثلاثين، و سار و معه عبد الملك بن نصير ملزما، و عدّة من أهل مصر صحابة لأمير المؤمنين، و أقطع الذين سوّدوا قطائع منها: منية بولاق، و قرى إهناس، و غيرها ثم من بعد صالح بن علىّ.

سكن أمراء مصر العسكر، و أوّل من سكنه أبو عون، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر العسكر الذى بنى بظاهر مدينة فسطاط مصر

اعلم: أن موضع العسكر قد كان يعرف فى صدر الإسلام بالحمراء القصوى، و قد تقدّم أن الحمراء القصوى كانت خطة بنى الأزرق، و بنى روبيل، و بنى يشكر بن جزيلة، ثم دثرت هذه الخطط بعد العمارة بتلك القبائل، حتى صارت صحراء، فلما قدم مروان بن محدم آخر خلفاء بنى أمية إلى مصر منهزما من بنى العباس نزلت عساكر صالح بن علىّ، و أبى عون عبد الملك بن يزيد فى هذه الصحراء، حيث جبل يشكر حتى ملؤوا الفضاء، و أمر أبو عون أصحابه بالبناء فيه، فبنوا و ذلك فى سنة ثلاث و ثلاثين و مائة.

فلما خرج صالح بن علىّ من مصر خرب أكثر ما بنى فيه إلى زمن موسى بن عيسى الهاشمىّ فابتنى فيه دارا أنزل فيها حشمة و عبيده، و عمر الناس، ثم ولى: السرىّ بن الحكم، فأذن للناس فى البناء، فابتنوا فيه و صار مملوكا بأيديهم، و اتصل بناؤه ببناء الفسطاط، و بنيت فيه دار الإمارة، و مسجد جامع عرف بجامع العسكر، ثم عرف بجامع ساحل الغلة، و عملت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۰۲

الشرطة أيضا فى العسكر، و قيل لها: الشرطة العليا، و إلى جانبها بنى أحمد بن طولون جامعه الموجود الآن، و سمى من حينئذ ذلك الفضاء بالعسكر، و صار أمراء مصر إذا ولوا ينزلون به من بعد أبى عون، فقال الناس من يومئذ: كنا بالعسكر، و خرجنا إلى العسكر، و كتب من العسكر، و صار مدينة ذات محال، و أسواق و دور عظيمة، و فيه بنى أحمد بن طولون مارستانه ، فأنفق عليه، و على مستغله

ستين ألف دينار، و كان بالقرب من بركة قارون التى صارت كيمانا، و بعضها بركة على يسرة من سار من حدرة ابن قميحة يريد قنطرة السدّ، و على بركة قارون هذه كانت جنان بنى مسكين، و بنى كافور الإخشيدى دارا أنفق عليها مائة ألف دينار، و سكنها فى رجب سنة ست و أربعين و ثلثمائة، و انتقل منها بعد أيام عليها مائة ألف دينار، و سكنها فى رجب سنة ست و أربعين و ثلثمائة، و انتقل منها بعد أيام لوباء وقع فى غلمانه من بخار البركة، و عظمت العمارة فى العسكر جدّا إلى أن قدم أحمد بن طولون من العراق إلى مصر، فنزل بدار الإمارة من العسكر، و كان لها باب إلى جامع العسكر، و ينزلها الأمراء منذ بناها صالح بن علىّ بعد قتله مروان، و ما زال بها أحمد بن طولون إلى أن بنى القصر، و الميدان بالقطائع، فتحوّل من العسكر، و سكن قصره بالقطائع، فلما ولى أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بعد أبيه، جعل دار الإمارة ديوان الخراج، ثم فرّقت حجرا بعد دخول محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر، و زوال دولة بنى طولون، فسكن محمد بن سليمان بدار الإمارة فى العسكر عند المصلى القديم، و كان المصلى القديم حيث الكوم المطلّ الآن على قبر القاضى بكار، و ما زالت الأمراء تنزل بالعسكر إلى أن قدم القائد جوهر من المغرب، و بنى القاهرة المعزية، و لما بنى أحمد بن طولون القطائع اتصلت مبانيها بالعسكر، و بنى جامعه على جبل يشكر، فعمرها هنا لك عمارة عظيمة تخرج عن الحدّ فى الكثرة، و قدم جوهر القائد بعساكر مولاه المعز لدين اللّه فى سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، و العسكر عامر إلّا أنه منذ بنيت القطائع هجر اسم العسكر، و صار يقال: مدينة الفسطاط و القطائع، و ربما قيل: و العسكر أحيانا، فلما خرّب محمد بن سليمان قصر ابن طولون، و ميدانه بقى فى القطائع مساكن جليلة حيث كان العسكر، و أنزل المعز لدين اللّه عمه أبا علىّ فى دار الإمارة، فلم يزل أهله بها إلى أن خربت القطائع فى الشدّة العظمى التى كانت فى خلافة المستنصر أعوام بضع و خمسين و أربعمائة، فيقال: إنه كان هناك زيادة على مائة ألف دار سوى البساتين، و ما هذا ببعيد، فإنّ ذلك كان ما بين سفح الشرف الذى عليه الآن قلعة الجبل، و بين ساحل مصر القديم حيث الآن الكبارة خارج مصر، و ما على سمتها إلى كوم الجارح، و من كوم الجارح إلى جامع ابن طولون، و خط

قناطر السباع، و خط السبع سقايات إلى قنطرة السدّ، و مراغة مصر إلى المعاريج بمصر، و إلى كوم الجارح، ففى هذه المواضع كان العسكر و القطائع، و يخص العسكر من بين ذلك ما بين قناطر السباع، و حدرة ابن قميحة إلى كوم الجارح حيث الفضاء الذى يتوسط ما بين قنطرة السدّ، و بين سور القرافة الذى يعرف بباب المجدم، فهذا هو العسكر، و لما استولى الخراب فى المحنة أمر ببناء حائط يستر الخراب عن نظر الخليفة إذا سار من القاهرة إلى مصر، فيما بين العسكر و القطائع، و بين الطريق، و أمر ببناء حائط آخر عند جامع ابن طولون.

فلما كان فى خلافة الآمر بأحكام اللّه أبى علىّ منصور بن المستعلى أمر وزيره أبو عبد اللّه محمد بن فاتك المنعوت بالأجل المأمون بن البطائحى، فنودى مدّة ثلاثة أيام فى القاهرة و مصر، بأنّ من كان له دار فى الخراب، أو مكان فليعمره، و من عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه، و من تأخر بعد ذلك، فلا حق له و لا حكر يلزمه، و أباح تعمير جميع ذلك بغير طلب حق، و كان سبب هذا النداء أنه لما قدم أمير الجيوش بدر الجمالىّ فى آخر الشدّة العظمى، و قام بعمارة إقليم مصر، أخذ الناس فى نقل ما كان بالقطائع و العسكر من أنقاض المساكن حتى أتى على معظم ما هنا لك الهدم، فصار موحشا، و خرب ما بين القاهرة و مصر من المساكن، و لم يبق هنا لك إلّا بعض البساتين، فلما نادى الوزير المأمون عمّر الناس ما كان من ذلك، مما يلى القاهرة من جهة المشهد النفيسىّ إلى ظاهر باب زويلة، كما يرد خبر ذلك فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى، و نقلت أنقاض العسكر كما تقدّم، فصار هذا الفضاء الذى يتوصل إليه من مشهد السيدة نفيسة، و من الجامع الطولونىّ، و من قنطرة السدّ، و من باب المجدم فى سور القرافة، و يسلك فى هذا الفضاء إلى كوم الجارح، و لم يبق الآن من العسكر ما هو عامر سوى جبل يشكر الذى عليه جامع ابن طولون، و ما حوله من الكبش، و حدرة ابن قميحة إلى خط السبع سقايات، و خط قناطر السباع إلى جامع ابن طولون، و أما سوق الجامع من قبليه، و ما وراء ذلك إلى المشهد النفيسىّ، و إلى القبيبات، و الرميلة تحت القلعة، فإنما هو من القطائع كما ستقف عليه

عند ذكر القطائع، و عند ذكر هذه الخطط، إن شاء اللّه تعالى، و طالما سلكت هذا الفضاء الذى بين جامع ابن طولون، و كوم الجارح، حيث كان العسكر، و تذكرت ما كان هنا لك من الدور الجليلة و المنازل العظيمة، و المساجد و الأسواق و الحمامات و البساتين و البركة البديعة، و المارستان العجيب، و كيف بادت حتى لم يبق لشيء منها أثر البتة فأنشدت أقول:

و بادوا فلا مخبر عنهمو ماتوا جميعا و هذا الخبر

فمن كان ذا عبرة فليكن‌فطينا ففى من مضى معتبر

و كان لهم أثر صالح‌فأين هم ثم أين الأثر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۰۴

و سيأتى لذلك مزيد بيان عند ذكر القطائع، و عند ذكر خط قناطر السباع، و غيره من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

ذكر من نزل العسكر من أمراء مصر من حين بنى إلى أن بنيت القطائع

إعلم: أنّ أمراء مصر ما برحوا ينزلون فسطاط مصر منذ اختط بعد الفتح إلى أن بنى أب عون العسكر، فصارت أمراء مصر من عهد أبى عون إنما ينزلون بالعسكر، و ما برحوا على ذلك إلى أن أنشأ الأمير أبو العباس أحمد بن طولون القصر و الميدان و القطائع، فتحوّل من العسكر إلى القصر، و سكن فيه و سكنه الأمراء من أولاده بعده إلى أن زالت دولتهم، فسكن الأمراء بعد ذلك العسكر إلى أن زالت دولة الإخشيدية بقدوم جوهر القائد من المغرب.

و أوّل من سكن العسكر من أمراء مصر: أبو عون: عبد الملك بن يزيد من أهل جرجان ولى صلاة مصر و خراجها، باستخلاف صالح بن علىّ له، فى مستهل شعبان سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، و وقع الوباء بمصر، فهرب أبو عون إلى يشكر، و استخلف صاحب شرطته عكرمة بن عبد اللّه بن عمرو بن قحزم، و خرج إلى دمياط فى سنة خمس و ثلاثين و مائة، و استخلف عكرمة، و جعل على الخراج: عطاء بن شرحبيل، و خرج القبط بسمنود، فبعث إليهم و قتلهم، و ورد الكتاب بولاية صالح بن علىّ على مصر و فلسطين و المغرب، جمعلت له، و وردت الجيوش من قبل أمير المؤمنين السفاح لغزو المغرب.

فولى: صالح بن علىّ الثانية على الصلاة و الخراج، فدخل لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ست و ثلاثين و مائة، فأقرّ عكرمة على شرطة الفسطاط، و جعل على شرطته بالعسكر: يزيد بن هانى الكندىّ، و ولى أبا عون جيوش المغرب، و قدّم أمامه دعاة لأهل إفريقية، و خرج أبو عون فى جمادى الآخرة، و جهزت المراكب من الإسكندرية إلى برقة، فمات السفاح فى ذى الحجة، و استخلف أبو جعفر عبد اللّه بن محمد المنصور، فأقرّ صالحا، و كتب إلى أبى عون بالرجوع، و ردّ الدعاة، و قد بلغوا شبرت ، و بلغ أبو عون برقة، فأقام بها أحد عشر يوما، ثم عاد إلى مصر فى جيشه، فجهزه صالح إلى فلسطين لحربه فغلب، و سير إلى مصر ثلاثة آلاف رأس، ثم خرج صالح إلى فلسطين، و استخلف ابنه الفضل، فبلغ بلبيس و رجع، ثم خرج لأربع خلون من رمضان سنة سبع و ثلاثين، فلقى أبا عون بالفرما، فأمّره على مصر صلاتها و خراجها، و مضى فدخل أبو عون الفسطاط لأربع بقين من رمضان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۰۵

فولى: أبو عون ولايته الثانية من قبل صالح بن علىّ، ثم أفرده أبو جعفر بولايتها، و قدم أبو جعفر بيت المقدس، و كتب إلى أبى عون بأن يستخلف على مصر، و يخرج إليه، فاستخلف عكرمة على الصلاة، و عطاء على الخراج، و خرج للنصف من ربيع الأوّل سنة إحدى و أربعين و مائة، فلما صار إلى أبى جعفر ببيت المقدس، بعث أبو جعفر: موسى بن كعب فكانت ولاية أبى عون هذه ثلاث سنين، و ستة أشهر.

فوليها: موسى بن كعب بن عيينة ابن عائشة أبو عيينة من تميم من قبل أبى جعفر المنصور، و كان أحد نقباء بنى العباس، فدخلها لأربع عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة إحدى و أربعين و مائة على صلاتها و خراجها، و نزل العسكر و بها الناس من الجند يغدون، و

يروحون إليه، كما كانوا يفعلون بالأمراء قبله، فانتهوا عنه حتى لم يكن أحد يلزم بابه، و كان قد اتهم فى خراسان بأمر أبى مسلم، فأمر به أسد بن عبد اللّه البجلىّ والى خراسان، فألجم بلجام، ثم كسرت أسنانه، فكان يقول بمصر كانت لنا أسنان و ليس عندنا خبز، فلما جاء الخبز ذهبت الأسنان. و كتب إليه أبو جعفر: إنى عزلتك من غير سخطة، و لكن بلغنى أنّ غلاما يقتل بمصر يقال له: موسى، فكرهت أن تكونه، فكان ذلك موسى بن مصعب زمن المهدىّ، كما يأتى إن شاء اللّه تعالى، فولى موسى بن كعب سبعة أشهر، و صرف فى ذى القعدة، و استخلف على الجند ابن خاله ابن حبيب، و على الخراج نوفل بن الفرات، و خرج لست بقين منه.

فولى: محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعىّ من قبل أبى جعفر على الصلاة و الخراج، و قدم لخمس خلون من ذى الحجة سنة إحدى و أربعين و مائة، و بعث أبو جعفر إلى نوفل بن الفرات: أن اعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر، فإن ضمنه فأشهد عليه، و اشخص إلىّ، و إن أبى فاعمل على الخراج، فعرض عليه ذلك فأبى، فانتقل نوفل الدواوين، فافتقد ابن الأشعث الناس، فقيل له: هم عند صاحب الخراج، فندم على تسليمه، و عقد على جيش بعث به إلى المغرب لحربه فانهزم، و خرج ابن الأشعث يوم الأضحى سنة اثنتين و أربعين، و توجه إلى الإسكندرية، و استخلف محمد بن معاوية بن بجير بن رسان صاحب شرطته، ثم صرف ابن الأشعث، فكانت ولايته سنة و شهرا.

و ولى: حميد بن قحطبة بن شبيب بن خالد بن سعدان الطائىّ من قبل أبى جعفر على الصلاة و الخراج، فدخل فى عشرين ألفا من الجند لخمس خلون من رمضان سنة ثلاث

و أربعين و مائة، ثم قدم عسكر آخر فى شوّال، و قدم علىّ بن محمد بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن داعية لأبيه و عمه، فدس إليه حميد، فتغيب، فكتب بذلك إلى أبى جعفر، فصرفه فى ذى القعدة، و خرج لثمان بقين من ذى القعدة سنة أربع و أربعين.

فولى: يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة من قبل أبى جعفر على الصلاة و الخراج، فقدم على البريد للنصف من ذى القعدة، فاستخلف على الخراج معاوية بن مروان بن موسى بن نصير، و فى إمرته ظهرت دعوة بنى الحسن بن علىّ بمصر، و تكلم بها الناس، و بايع كثير منهم لعلىّ بن محمد بن عبد اللّه، و طرق المسجد لعشر خلون من شوّال سنة خمس و أربعين، كما يذكر فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى، ثم قدمت الخطباء برأس إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن علىّ فى ذى الحجة، فنصبت فى المسجد، و ورد كتاب أبى جعفر بأمر يزيد بن حاتم بالتحوّل من العسكر إلى الفسطاط، و أن يجعل الديوان فى كنائس القصر، و ذلك فى سنة ست و أربعين و مائة من أجل ليلة المسجد، و منع يزيد أهل مصر من الحج سنة خمس و أربعين، فلم يحج أحد منهم، و لا من أهل الشام، لما كان بالحجاز من الاضطراب بأمر بنى حسن، ثم حج يزيد فى سنة سبع و أربعين، و استخلف عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج صاحب شرطته، و بعث جيشا لغزو الحبشة من أجل خارجىّ ظهر هناك، فظفر به الجيش، و قدم رأسه فى عدّة رؤوس، فحملت إلى بغداد، و ضم يزيد برقة إلى عمل مصر، و هو أوّل من ضمها إلى مصر، و ذلك فى سنة ثمان و أربعين، و خرج القبط بسخا فى سنة خمسين و مائة، فبعث إليهم جيشا، فشتته القبط و رجع منهزما، فصرفه أبو جعفر فى ربيع الآخر سنة اثنتين و خمسين و مائة، فكانت ولايته سبع سنين و أربعة أشهر.

و ولى: عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج من قبل أبى جعفر على الصلاة لثنتى عشرة بقيت من ربيع الآخر، و هو أوّل من خطب بالسواد، و خرج إلى أبى جعفر لعشر بقين من رمضان سنة أربع و خمسين و مائة، و استخلف أخاه محمدا، و رجع فى آخرها، و مات و هو وال مستهلّ صفر سنة خمس و خمسين و مائة، و استخلف أخاه محمدا، فكانت ولايته سنتين و شهرين.

فولى: محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج باستخلاف أخيه، فأقرّه أبو جعفر على الصلاة، و مات و هو وال للنصف من شوّال، فكانت ولايته ثمانية أشهر و نصفا، و استخلف موسى بن علىّ.

فولى: موسى بن علىّ بن رباح باستخلاف محمد بن خديج، فأقرّه أبو جعفر على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۰۷

الصلاة و خرج القبط بهبيب فى سنة ست و خمسين، فبعث إليهم و هزمهم، و كان يروح إلى المسجد ماشيا، و صاحب شرطته بين يديه يحمل الحربة، و إذا أقام صاحب الشرطة الجدود يقول له: ارحم أهل البلاد، فيقول: أيها الأمير ما يصلح الناس إلا ما يفعل بهم، و كأن يحدّث، فيكتب الناس عنه، و مات أبو جعفر لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان و خمسين و مائة، و بويع ابنه محمد المهدىّ، فأقرّ موسى بن علىّ إلى سابع عشر ذى الحجّة سنة إحدى و ستين و مائة، فكانت ولايته ست سنين و شهرين.

و ولى: عيسى بن لقمان بن محمد الجمحىّ: من قبل المهدىّ على الصلاة و الخراج، فقدم لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجة سنة إحدى و ستين و مائة، و صرف لثنتى عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة اثنتين و ستين و مائة فوليها أربعة أشهر.

ثم ولى: واضح مولى أبى جعفر من قبل المهدىّ على الصلاة و الخراج، فدخل لست بقين من جمادى الأولى و صرف فى رمضان.

فولى: منصور بن يزيد بن منصور الرعينىّ، و هو ابن خال المهدىّ على الصلاة، فقدم لإحدى عشرة خلت من رمضان سنة اثنتين و ستين و مائة، و صرف للنصف من ذى الحجة، فكان مقامه شهرين و ثلاثة أيام.

ثم ولى: يحيى بن داود أبو صالح من أهل خراسان من قبل المهدىّ على الصلاة و الخراج، فقدم فى ذى الحجة، و كان أبوه تركيا، و هو من أشدّ الناس، و أعظمهم هيبة، و أقدمهم على الدم، و أكثرهم عقوبة، فمنع من غلق الدروب بالليل، و من غلق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب، و منع حرّاس الحمامات أن يجلسوا فيها، و قال: من ضاع له شىء، فعلىّ أداؤه، و كان الرجل يدخل الحمام، فيضع ثيابه، و يقول: يا أبا صالح احرسها، فكانت الأمور على هذا مدّة ولايته، و أمر الأشراف و الفقهاء، و أهل النوبات بلبس القلانس الطوال، و الدخول بها على السلطان يوم الاثنين و الخميس بلا أردية، و كان أبو جعفر المنصور إذا ذكره قال: هو رجل يخافنى، و لا يخاف اللّه، فولى إلى المحرّم سنة أربع و ستين.

و قدم: سالم بن سوادة التميمىّ من قبل المهدىّ على الصلاة، و معه أبو قطيعة إسماعيل بن إبراهيم على الخراج لثنتى عشرة خلت من المحرّم.

ثم ولى: إبراهيم بن صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس من قبل المهدىّ على الصلاة و الخراج، فقدم لإحدى عشرة خلت من المحرّم سنة خمس و ستين، و ابتنى دارا عظيمة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۰۸

بالموقف من العسكر، و خرج دحية بن المعصب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بالصعيد، و نابذ، و دعا إلى نفسه بالخلافة، فتراخى عنه إبراهيم، و لم يحفل بأمره حتى ملك عامّة الصعيد، فسخط المهدىّ لذلك، و عزله عزلا قبيحا لسبع خلون من ذى الحجة سنة سبع و ستين، فوليها ثلاث سنين.

ثم ولى: موسى بن مصعب بن الربيع من أهل الموصل على الصلاة و الخراج من قبل المهدىّ، فقدم لسبع خلون من ذى الحجة المذكور، فردّ إبراهيم، و أخذ منه و ممن عمل له ثلثمائة ألف دينار، ثم سيره إلى بغداد، و شدّد موسى فى استخراج الخراج، و زاد على كل فدّان ضعف ما يقبل به، و ارتشى فى الأحكام، و جعل خرجا على أهل الأسواق، و على الدواب، فكرهه الجند و نابذوه، و ثارت قيس و اليمانية، و كاتبوا أهل الفسطاط، فاتفقوا عليه و بعث بجيش إلى قتال دحية بالصعيد، و خرج فى جند مصر كلهم لقتال أهل الحوف.

فلما التقوا انهزم عنه أهل مصر بأجمعهم، و أسلموه فقتل من غير أن يتكلم أحد من أهل مصر لتسع خلون من شوّال سنة ثمان و ستين و مائة، فكانت ولايته عشرة أشهر، و كان ظالما غاشما سمعه الليث بن سعد يقرأ فى خطبته:: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها، فقال الليث: اللهم لا تمقتنا.

ثم ولى: عسامة بن عمرو باستخلاف موسى بن مصعب، و بعث إلى دحية جيشا مع أخيه بكار بن عمرو، فحارب يوسف بن نصير، و

هو على جيش دحية، فتطاعنا و وضع يوسف الرمح فى خاصرة بكار، و وضع بكار الرمح فى خاصرة يوسف فقتلا معا، و رجع الجيشان منهزمين، و ذلك فى ذى الحجة، و صرف عسامة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة بكتاب ورد عليه من الفضل بن صالح بأنه ولى مصر، و قد استخلفه، فخلعه إلى سلخ المحرّم سنة تسع و ستين و مائة.

ثم قدم الفضل بن صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس سلخ المحرّم المذكور فى جيوش الشام، و مات المهدىّ فى المحرّم هذا، و بويع موسى الهادى، فأقرّ الفضل، و قدم مصر يضطرب من أهل الخوف و من خروج دحية، فإنّ الناس كانوا قد كاتبوه و دعوه، فسير العساكر حتى هزم دحية، و أسر و سيق إلى الفسطاط فضربت عنقه، و صلب فى جمادى الآخرة سنة تسع و ستين، فكان الفضل يقول: أنا أولى الناس بولاية مصر، لقيامى فى أمر دحية، و قد عجز عنه غيرى فعزل، و ندم على قتل دحية، و الفضل هو الذى بنى الجامع بالعسكر فى سنة تسع و ستين، فكانوا يجمعون فيه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۰۹

ثم ولى: علىّ بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس من قبل الهادى على الصلاة و الخراج، فدخل فى سنة تسع و ستين و مائة، و مات الهادى للنصف من ربيع الأوّل سنة سبعين و مائة، و بويع هارون بن محمد الرشيد، فأقرّ علىّ بن سليمان، و أظهر فى ولايته الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و منع الملاهى و الخمور، و هدم الكنائس المحدثة بمصر، و بذل له فى تركها خمسون ألف دينار، فامتنع و كان كثير الصدقة فى الليل، و أظهر أنه تصلح له الخلافة، و طمع فيها، فسخط عليه هارون الرشيد، و عزله لأربع بقين من ربيع الأوّل سنة إحدى و سبعين و مائة.

ثم ولى: موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس من قبل الرشيد على الصلاة، فأذن للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها علىّ بن سليمان، فبنيت بمشورة الليث بن سعد، و عبد اللّه بن لهيعة، ثم صرف لأربع عشرة خلت من رمضان سنة اثنتين و سبعين و مائة، فكانت ولايته سنة و خمسة أشهر و نصفا.

ثم ولى: مسلمة بن يحيى بن قرّة بن عبيد اللّه البجلىّ من أهل جرجان من قبل الرشيد على الصلاة، ثم صرف فى شعبان سنة ثلاث و سبعين، فوليها أحد عشر شهرا.

ثم ولى: محمد بن زهير الأزدى على الصلاة و الخراج لخمس خلون من شعبان، فبادر الجند لعمر بن غيلان صاحب الخراج، فلم يدفع عنه، فصرف بعد خمسة أشهر فى سلخ ذى الحجة سنة ثلاث و سبعين و مائة.

فولى: داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة، و قدم هو و إبراهيم بن صالح بن علىّ، فولى داود الصلاة، و بعث بإبراهيم لإخراج الجند الذين ثاروا من مصر، فدخل لأربع عشرة خلت من المحرّم سنة أربع و سبعين و مائة، فأخرجت الجند العديدة إلى المشرق و المغرب فى عالم كثير، فساروا فى البحر فأسرتهم الروم، و صرف لست خلون من المحرّم سنة خمس و سبعين، فكانت ولايته سنة و نصف شهر.

ثم ولى: موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس على الصلاة و الخراج من قبل الرشيد، فدخل لسبع خلون من صفر سنة خمس و سبعين، و صرف لليلتين بقيتا من صفر سنة ست و سبعين و مائة، فولى سنة واحدة.

ثم ولى: إبراهيم بن صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس ثانيا من قبل الرشيد، فكتب إلى عسامة بن عمرو، فاستخلفه، ثم قدم نصر بن كلثوم خليفته على الخراج مستهلّ ربيع الأوّل، و توفى عسامة لسبع بقين من ربيع الآخر، فقدم روح بن روح بن زنباع خليفة لإبراهيم على الصلاة و الخراج، ثم قدم إبراهيم للنصف من جمادى الأولى، و توفى و هو وال لثلاث خلون من شعبان، فكان مقامه بمصر شهرين و ثمانية عشر يوما، و قام بالأمر بعده ابنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۰

صالح بن إبراهيم، مع صاحب شرطته خالد بن يزيد.

ثم ولى: عبد اللّه بن المسيب بن زهير بن عمرو الضبيّ من قبل الرشيد على الصلاة لإحدى عشرة بقيت من رمضان سنة ست و سبعين و مائة، و صرف فى رجب سنة سبع و سبعين و مائة.

فولى: إسحاق بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس من قبل الرشيد على الصلاة و الخراج مستهلّ رجب، فكشف أمر الخراج، و زاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم، فخرج عليه أهل الحوف، فحاربهم، فقتل كثير من أصحابه، فكتب إلى الرشيد بذلك، فعقد لهرثمة بن أعين فى جيش عظيم، و بعث به فنزل الحوف، فتلقاه أهله بالطاعة، و أذعنوا فقبل منهم، و استخرج الخراج كله، فكان صرف إسحاق فى رجب سنة ثمان و سبعين و مائة.

فولى: هرثمة بن أعين من قبل الرشيد على الصلاة و الخراج لليلتين خلتا من شعبان ثم سار إلى إفريقية لثنتى عشر خلت من شوّال، فأقام بمصر شهرين و نصفا.

ثم ولى: عبد الملك بن صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس من قبل الرشيد على الصلاة و الخراج، فلم يدخل مصر، و استخلف عبد اللّه بن المسيب بن زهير الضبيّ، و صرف فى سلخ سنة ثمان و سبعين و مائة.

فولى: عبيد اللّه بن المهدىّ محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن عباس من قبل الرشيد على الصلاة و الخراج فى يوم الاثنين لثنتى عشرة خلت من المحرّم سنة تسع و سبعين و مائة، فاستخلف ابن المسيب، ثم قدم لإحدى عشرة خلت من ربيع الأول، و صرف فى شهر رمضان، فولى تسعة أشهر و خرج من مصر لليلتين خلتا من شوّال. فأعاد الرشيد موسى بن عيسى و ولاه مرّة ثالثة على الصلاة، فقدم ابنه يحيى بن موسى خليفة له لثلاث خلون من رمضان، ثم قدم آخر ذى القعدة، و صرف فى جمادى الآخرة سنة ثمانين و مائة.

فولى الرشيد عبيد اللّه بن المهدىّ ثانيا على الصلاة، فقدم داود بن حباش خليفة له لسبع خلون من جمادى الآخرة، ثم قدم لأربع خلون من شعبان، و صرف لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى و ثمانين و مائة.

فولى: إسماعيل بن صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس على الصلاة لسبع خلون من رمضان، فاستخلف عون بن وهب الخزاعىّ، ثم قدم لخمس بقين منه. قال ابن عفير:

ما رأيت على هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن صالح، ثم صرف فى جمادى الآخرة سنة اثنتين و ثمانين و مائة.

فولى: إسماعيل بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس من قبل الرشيد على الصلاة، فقدم لأربع عشرة بقيت من جمادى الآخرة، و صرف فى رمضان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۱

فولى: الليث بن الفضل البيوردىّ من أهل بيورد على الصلاة و الخراج، و قدم لخمس خلون من شوّال، ثم خرج إلى الرشيد لسبع بقين من رمضان سنة ثلاث و ثمانين و مائة بالمال و الهدايا، و استخلف أخاه الفضل بن علىّ، ثم عاد فى آخر السنة، و خرج ثانيا بالمال لتسع بقين من رمضان سنة خمس و ثمانين، و استخلف هاشم بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، و قدم لأربع عشرة خلت من المحرّم سنة ست و ثمانين، فكان كلما غلق خراج سنة، و فرغ من حسابها خرج بالمال إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، و معه الحساب، ثم خرج عليه أهل الحوف، و ساروا إلى الفسطاط، فخرج إليهم فى أربعة آلاف ليومين بقيا من شعبان سنة ست و ثمانين و مائة، و استخلف عبد الرحمن بن موسى بن علىّ بن رباح على الجند و الخراج، فواقع أهل الحوف، و انهزم عنه الجند، فبقى فى نحو المائتين فحمل بهم، و هزم القوم من أرض الجبّ إلى غيفة ، و بعث إلى الفسطاط بثمانين رأسا، و قدم فرجع أهل الحوف، و منعوا الخراج، فخرج ليث إلى الرشيد، و سأله أن يبعث معه بالجيوش، فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الأحواف إلّا بجيش، فرفع محفوظ بن سليمان أنه يضمن خراج مصر عن آخره بغير سوط و لا عصا، فولاه الرشيد الخراج، و صرف ليثا عن الصلاة و الخراج، و بعث أحمد بن إسحاق على الصلاة، مع محفوظ، و كانت ولاية ليث أربع سنين، و سبعة أشهر.

فولى: أحمد بن إسماعيل بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس من قبل الرشيد على الصلاة و الخراج، و قدم لخمس بقين من جمادى الآخرة

سنة سبع و ثمانين، ثم صرف لثمان عشرة خلت من شعبان سنة تسع و ثمانين، فولى سنتين و شهرا و نصفا.

ثم ولى: عبيد اللّه بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس على الصلاة، و استخلف لهيعة بن عيسى بن لهيعة الحضرمىّ، ثم قدم للنصف من شوّال، و صرف لإحدى عشرة بقيت من شعبان سنة تسعين و مائة، و خرج و استخلف هاشم بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج.

و ولى: الحسين بن جميل من قبل الرشيد على الصلاة، و قدم لعشر خلون من رمضان، ثم جمع له الخراج مع الصلاة فى رجب سنة إحدى و تسعين، و خرج أهل الحوف، و امتنعوا من أداء الخراج، و خرج أبو النداء بأيلة فى نحو ألف رجل، فقطع الطريق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۲

بأيلة ، و شعيب، و مدين ، و أغار على بعض قرى الشام، و ضوى إليه من جذام جماعة، فبلغ من النهب و القتل مبلغا عظيما، فبعث الرشيد من بغداد جيشا لذلك، و بعث الحسين بن جميل من مصر: عبد العزيز بن الوزير بن صابى الجروىّ فى عسكر، فالتقى العسكران بأيلة، فظفر عبد العزيز بأبى النداء، و سار جيش الرشيد إلى بلبيس فى شوّال سنة إحدى و تسعين و مائة، فأذعن أهل الحوف بالخراج، و صرف ابن جميل لثنتى عشرة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين، و تسعين و مائة.

فولى: مالك بن دلهم بن عمير الكلبىّ على الصلاة و الخراج، و قدم لسبع بقين من ربيع الآخر، و فرغ يحيى بن معاذ أمير جيش الرشيد من أمر الحوف، و قدم الفسطاط لعشر بقين من جمادى الآخرة، فكتب إلى أهل الأحواف أن اقدموا حتى أوصى بك مالك بن دلهم، فدخل الرؤساء من اليمانية و القيسية، فأخذت عليهم الأبواب، و قيدوا، و سار بهم للنصف من رجب، و صرف مالك لأربع خلت من صفر سنة ثلاث و تسعين و مائة.

فولى الحسن بن التختاح بن التختكان على الصلاة و الخراج، فاستخلف العلاء بن عاصم الخولانىّ، و قدم لثلاث خلون من ربيع الأوّل، ثم مات الرشيد، و استخلف ابنه محمد الأمين، فثار الجند بمصر، و وقعت فتنة عظيمة قتل فيها عدّة، و سير الحسن مال مصر، فوثب أهل الرملة، و أخذوه، و بلغ الحسن عزله، فسار من طريق الحجاز لفساد طريق الشام لثمان بقين من ربيع الأوّل سنة أربع و تسعين و مائة، و استخلف عوف بن وهب على الصلاة، و محمد بن زياد بن طبق القيسىّ على الخراج.

فولى حاتم بن هرثمة بن أعين من قبل الأمين على الصلاة و الخراج، و قدم فى ألف من الأبناء، فنزل بلبيس، فصالحه أهل الأحواف على خراجهم، و ثار عليه أهل تنو و تمى ، و عسكروا، فبعث إليهم جيشا، فانهزموا، و دخل حاتم إلى الفسطاط، و معه نحو مائة من الرهائن لأربع خلون من شوّال، و صرف فى جمادى الآخرة سنة خمس و تسعين و مائة.

فولى جابر بن الأشعث بن يحيى الطائىّ من قبل الأمين على الصلاة و الخراج لخمس بقين من جمادى الآخرة، و كان لينا، فلما حدثت فتنة الأمين و المأمون، قام السرىّ بن الحكم غضبا للمأمون، و دعا الناس إلى خلع الأمين، فأجابوه و بايعوا المأمون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۳

لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ست و تسعين، و أخرجوا جابر بن الأشعث، و كانت ولايته سنة.

فولى عباد بن محمد بن حيان أبو نصر من قبل المأمون على الصلاة و الخراج، لثمان خلون من رجب بكتاب هرثمة بن أعين، و كان وكيله على ضياعه بمصر فى الثامن من رجب سنة ست و تسعين، فبلغ الأمين ما كان بمصر، فكتب إلى ربيعة بن قيس بن الزبير الجرشى رئيس قيس الحوف بولاية مصر، و كتب إلى جماعة بمعاونته، فقاموا ببيعة الأمين، و خلعوا المأمون، و ساروا لمحاربة أهل الفسطاط، فخندق عباد، و كانت حروب، فقتل الأمين، و صرف عباد فى صفر سنة ثمان و تسعين و مائة، فكانت ولايته سنة و سبعة أشهر.

فولى المطلب بن عبد اللّه بن مالك الخزاعىّ من قبل المأمون على الصلاة و الخراج، فدخل من مكة للنصف من ربيع الأوّل، فكانت فى أيامه حروب، و صرف فى شوّال بعد سبعة أشهر.

فولى العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس من قبل المأمون على الصلاة و الخراج، فقدم ابنه عبد اللّه، و معه الحسين بن عبيد بن لوط الأنصارىّ فى آخر شوّال، فسجنا المطلب، فثار الجند مرارا، فمنعهم الأنصارىّ أعطياتهم و تهدّدهم، و تحامل على الرعية و عسفها، و تهدّد الجميع، فثاروا، و أخرجوا المطلب من الحبس، و أقاموه لأربع عشرة خلت من المحرّم سنة تسع و تسعين و مائة، و أقبل العباس، فنزل بلبيس، و دعا قيسا إلى نصرته، و مضى إلى الجروىّ بتنيس، ثم عاد فمات فى بلبيس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة، و يقال: إن المطلب دسّ إليه سما فى طعامه فمات منه، و كانت حروب و فتن، فكانت ولاية المطلب هذه سنة و ثمانية أشهر.

ثم ولى السرى بن الحكم بن يوسف من قوم الزط و من أهل بلخ بإجماع الجند عليه عند قيامه على المطلب فى مستهلّ رمضان سنة مائتين.

ثم ولى سليمان بن غالب بن جبريل البجلىّ على الصلاة و الخراج بمبايعة الجند له لأربع خلون من ربيع الأوّل سنة إحدى و مائتين، فكانت حروب، ثم صرف بعد خمسة أشهر.

و أعيد السرى بن الحكم ثانيا من قبل المأمون على الصلاة و الخراج، فذمّت ولايته، و أخرجه الجند من الحبس لثنتى عشرة خلت من شعبان، و تتبع من حاربه، و قوى أمره و مات، و هو وال لانسلاخ جمادى الأولى سنة خمس و مائتين، فكانت ولايته هذه ثلاث سنين و تسعة أشهر و ثمانية عشر يوما.

فولى ابنه محمد بن السرىّ أبو نصر أوّل جمادى الآخرة على الصلاة و الخراج، و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۴

الجروى قد غاب على أسفل الأرض فجرت بينهما حروب، ثم مات لثمان خلون من شعبان سنة ست و مائتين، و كانت ولايته أربعة عشر شهرا.

ثم ولى عبيد اللّه بن السرىّ بن الحكم بمبايعة الجند لتسع خلون من شعبان على الصلاة و الخراج، فكانت بينه و بين الجروىّ حروب إلى أن قدم عبد اللّه بن طاهر، و أطعن له عبيد اللّه فى آخر صفر سنة إحدى عشرة و مائتين.

فولى عبد اللّه بن طاهر بن الحسين بن مصعب من قبل المأمون على الصلاة و الخراج، فدخل يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة و مائتين، و أقام فى معسكره حتى خرج عبد اللّه بن السرىّ إلى بغداد للنصف من جمادى الأولى، ثم سار إلى الإسكندرية مستهلّ صفر سنة اثنتى عشرة، و استخلف عيسى بن يزيد الجلودىّ، فحصرها بضع عشرة ليلة، و رجع فى جمادى الآخرة، و أمر بالزيادة فى الجامع العتيق، فزيد فيه مثله، و ركب النيل متوجها إلى العراق لخمس بقين من رجب، و كان مقامه بمصر واليا سبعة عشر شهرا، و عشرة أيام.

ثم ولى عيسى بن يزيد الجلودىّ باستخلاف ابن طاهر على صلاتها إلى سابع عشر ذى القعدة سنة ثلاث عشرة، فصرف ابن طاهر، و ولى الأمير أبو إسحاق بن هارون الرشيد مصر، فأقرّ عيسى على الصلاة فقط، و جعل على الخراج: صالح بن شيرازاد، فظلم الناس، و زاد عليهم فى خراجهم، فانتفض أهل أسفل الأرض، و عسكروا، فبعث عيسى بابنه محمد فى جيش، فحاربوه فانهزم، و قتل أصحابه فى صفر سنة أربع عشرة.

فولى عمير بن الوليد التميمىّ باستخلاف أبى إسحاق بن الرشيد على الصلاة لسبع عشرة خلت من صفر، و خرج و معه عيسى الجلودىّ لقتال أهل الحوف فى ربيع الآخر، و استخلف ابنه محمد بن عمير فاقتتلوا، و كانت بينهم معارك قتل فيها عمير لست عشرة خلت من ربيع الآخر، فكانت مدّة إمرته ستين يوما.

فولى عيسى الجلودىّ ثانيا لأبى إسحاق على الصلاة، فحارب أهل الحوف بمنية مطر، ثم انهزم فى رجب، و أقبل أبو إسحاق إلى مصر فى أربعة آلاف من أتراكه، فقاتل أهل الحوف فى شعبان، و دخل إلى مدينة الفسطاط لثمان بقين منه، و قتل أكابر الحوف، ثم خرج

إلى الشام غرّة المحرّم سنة خمس عشرة و مائتين فى أتراكه، و معه جمع من الأسارى فى ضر و جهد شديد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۵

و ولى على مصر عبدويه بن جبلة من الأبناء على الصلاة، فخرج ناس بالحوف فى شعبان، فبعث إليهم و حاربهم حتى ظفر بهم، ثم قدم الأفشين حيدر بن كاوس الصفدىّ إلى مصر لثلاث خلون من ذى الحجة، و معه علىّ بن عبد العزيز الجروىّ لأخذ ماله، فلم يدفع إليه شيئا، فقتله، و صرف عبدويه، و خرج إلى برقة.

و ولى عيسى بن منصور بن موسى بن عيسى الرافعىّ، فولى من قبل أبى إسحاق أوّل سنة ست عشرة على الصلاة، فانتقضت أسفل الأرض عربها، و قبطها فى جمادى الأولى، و أخرجوا العمال لسوء سيرتهم، و خلعوا الطاعة، فقدم الأفشين من برقة للنصف من جمادى الآخرة، ثم خرج هو و عيسى فى شوّال، فأوقعا بالقوم، و أسرا منهم و قتلا، و مضى الأفشين و رجع عيسى، فسار الأفشين إلى الحوف، و قتل جماعتهم، و كانت حروب إلى أن قدم أمير المؤمنين عبد اللّه المأمون لعشر خلون من المحرّم سنة سبع عشرة و مائتين، فسخط على عيسى و حلّ لواءه، فأخذه بلباس البياض، و نسب الحدث إليه، و إلى عماله و سير الجيوش و أوقع بأهل الفساد و سبى القبط، و قتل مقاتلتهم، ثم رحل لثمان عشرة خلت من صفر بعد تسعة و أربعين يوما.

و ولى كيدر و هو نصر بن عبد اللّه أبو مالك الصفدىّ، فورد كتاب المأمون عليه بأخذ الناس بالمحنة فى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة، و القاضى بمصر يومئذ هارون بن عبد اللّه الزهرىّ، فأجاب، و أجاب الشهود، و من وقف منهم سقطت شهادته، و أخذ بها القضاة و المحدّثون و المؤذنون، فكانوا على ذلك من سنة ثمان عشرة إلى سنة اثنتين و ثلاثين، و مات المأمون فى رجب سنة ثمان عشرة، و بويع أبو إسحاق المعتصم، فورد كتابه على كيدر ببيعته، و يأمره بإسقاط من فى الديوان من العرب، و قطع العطاء عنهم، ففعل ذلك، فخرج يحيى بن الوزير الجروىّ فى جمع من لخم و جذام، و مات كيدر فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة و مائتين.

فولى ابنه المظفر بن كيدر باستخلاف أبيه و خرج إلى يحيى بن وزير، و قاتله و أسره فى جمادى الآخرة، ثم صرفت مصر إلى أبى جعفر أشناس فدعى له بها، و صرف مظفر فى شعبان.

فولى موسى بن أبى العباس ثابت من قبل أشناس على الصلاة مستهلّ شهر رمضان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۶

سنة تسع عشرة، و صرف فى ربيع الآخرة سنة أربع و عشرين و مائتين، فكانت ولايته أربع سنين، و سبعة أشهر.

فولى مالك بن كيدر بن عبد اللّه الصفدىّ من قبل أشناس على الصلاة و قدم لسبع بقين من ربيع الآخر، و صرف لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ست و عشرين، فولى سنتين و أحد عشر يوما، و توفى لعشر خلون من شعبان سنة ثلاث و ثلاثين و مائتين.

فولى علىّ بن يحيى الأرمنىّ من قبل أشناس على صلاتها، و قدم لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ست و عشرين و مائتين، و مات المعتصم فى ربيع الأوّل سنة سبع و عشرين، و بويع: الواثق بالله، فأقرّه إلى سابع ذى الحجة سنة ثمان و عشرين و مائتين، فكانت ولايته سنتين و ثلاثة أشهر.

ثم ولى عيسى بن منصور الثانية من قبل أشناس على صلاتها، فدخل لسبع خلون من المحرّم سنة تسع و عشرين و مائتين، و مات أشناس سنة ثلاثين، و جعل مكانه إيتاخ، فأقرّ عيسى، و مات الواثق، و بويع المتوكل، فصرف عيسى للنصف من ربيع الأوّل سنة ثلاث و ثلاثين و مائتين، و قدم علىّ بن مهرويه خليفة هرثمة بن النضر، ثم مات عيسى فى قبة الهواء بعد عزله لإحدى عشرة خلت من ربيع الآخر.

فولى هرثمة بن نضر الجبلىّ من أهل الجبل لإيتاخ على الصلاة، و قدم لست خلون من رجب سنة ثلاث و ثلاثين و مائتين، فورد كتاب المتوكل يترك الجدال فى القرآن لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع و ثلاثين و مائتين، و مات هرثمة، و هو وال لسبع بقين من رجب سنة أربع، و استخلف ابنه حاتم بن هرثمة.

فولى حاتم بن هرثمة بن النضر باستخلاف أبيه له على الصلاة، و صرف لست خلون من رمضان.

فولى علىّ بن يحيى بن الأرمنىّ الثانية من قبل إيتاخ على الصلاة لست خلون من رمضان، و صرف إيتاخ فى المحرّم سنة خمس و ثلاثين، و استصفيت أمواله بمصر، و ترك الدعاء له، و دعى للمنتصر مكانه، و صرف علىّ فى ذى الحجة منها.

فولى إسحاق بن يحيى بن معاذ بن مسلم الجبلىّ من قبل المنتصر ولىّ عهد أبيه المتوكل على اللّه على الصلاة و الخراج، فقدم لإحدى عشرة خلت من ذى الحجة، فورد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۷

كتاب المتوكل و المنتصر بإخراج الطالبيين من مصر إلى العراق، فأخرجوا، و مات إسحاق بعد عزله أوّل ربيع الآخر سنة سبع و ثلاثين و مائتين.

فولى خوط عبد الواحد بن يحيى بن منصور بن طلحة بن زريق من قبل المنتصر على الصلاة و الخراج، فقدم لتسع بقين من ذى القعدة سنة ست و ثلاثين و مائتين، و صرف عن الخراج لتسع خلون من صفر سنة سبع و ثلاثين، و أقرّ على الصلاة، ثم صرف سلخ صفر سنة ثمان و ثلاثين بخليفته عنبسة على الصلاة و الشركة فى الخراج مستهل ربيع الأوّل.

فولى عنبسة بن إسحاق بن شمر عبس أبو جابر من قبل المنتصر على الصلاة، و شريكا لأحمد بن خالد الضريقسىّ صاحب الخراج، فقدم لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمان و ثلاثين و مائتين و أخذ العمال بردّ المظالم، و أقامهم للناس، و أنصف منهم، و أظهر من العدل ما لم يسمع بمثله فى زمانه، و كان يروح ماشيا إلى المسجد الجامع من العسكر، و كان ينادى فى شهر رمضان السحور، و كان يرمى بمذهب الخوارج، و فى ولايته نزل الروم دمياط، و ملكوها و ما فيها، و قتلوا بها جمعا كثيرا من الناس و سبوا النساء و الأطفال، فنفر إليهم يوم النحر من سنة ثمان و ثلاثين فى جيشه، و كثير من الناس، فلم يدركهم، و أضيف له الخراج مع الصلاة، ثم صرف عن الخراج أوّل جمادى الآخرة سنة إحدى و أربعين، و أفرد بالصلاة، و ورد الكتاب بالدعاء للفتح بن خاقان فى ربيع الأوّل سنة اثنتين و أربعين، فدعا له، و عنبسة هذا آخر من ولى مصر من العرب، و آخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع، و صرف أوّل رجب منها، فقدم العباس بن عبد اللّه بن دينار خليفة يزيد بن عبد اللّه بولاية يزيد، و كانت ولاية عنبسة أربع سنين، و أربعة أشهر، و خرج إلى العراق فى رمضان سنة أربع و أربعين.

فولى يزيد بن عبد اللّه بن دينار أبو خالد من الموالى، ولاه: المنتصر على الصلاة، فقدم لعشر بقين من رجب سنة اثنتين و أربعين، فأخرج المؤنثين من مصر، و ضربهم و طاف بهم، و منع من النداء على الجنائز، و ضرب فيه، و خرج إلى دمياط مرابطا فى المحرّم سنة خمس و أربعين و رجع فى ربيع الأوّل، فبلغه نزول الروم الفرما، فرجع إليها، فلم يلقهم، و عطل الرهان و باع الخيل التى تتخذ للسلطان، فلم تجر إلى سنة تسع و أربعين، و تتبع الروافض، و حملهم إلى العراق، و بنى مقياس النيل فى سنة سبع و أربعين، و جرت على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۸

العلويين فى ولايته شدائد، و مات المتوكل فى شوّال، و بويع ابنه محمد المنتصر، و مات الفتح بن خاقان، فأقرّ المنتصر يزيد على مصر، ثم مات المنتصر فى ربيع الأوّل سنة ثمان و أربعين، و بويع المستعين، فورد كتابه بالاستسقاء لقحط كان بالعراق، فاستسقوا السبع عشرة خلت من ذى القعدة، و استسقى أهل الآفاق فى يوم واحد، و خلع المستعين فى المحرّم سنة اثنتين و خمسين، و بويع المعتز، فخرج جابر بن الوليد بأرض الإسكندرية، و كانت هناك حروب ابتدأت من ربيع الآخر، فقدم مزاحم بن خاقان من العراق معينا ليزيد فى جيش كثيف لثلاث عشرة بقيت من رجب، فواقعهم حتى ظفر بهم، ثم صرف يزيد، و كانت مدّته عشر سنين، و سبعة أشهر و عشرة أيام.

فولى مزاحم بن خاقان بن عرطوج أبو الفوارس التركىّ لثلاث خلون من ربيع الأوّل سنة ثلاث، و خمسين و مائتين على الصلاة من قبل

المعتز، و خرج إلى الحوف، فأوقع بأهله و عاد، ثم خرج إلى الجيزة، فسار إلى تروجة، فأوقع بأهلها، و أسر عدّة من أهل البلاد، و قتل كثيرا، و سار إلى الفيوم، فطاش سيفه، و كثر إيقاعه بسكان النواحى و عاد.

و ولى الشرطة أرجوز، فمنع النساء من الحمامات و المقابر، و سجن المؤنثين و النوائح، و منع من الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع فى رجب سنة ثلاث و خمسين، و لم يزل أهل مصر على الجهر بها فى الجامع منذ الإسلام إلى أن منع منها: أرجوز، و أخذ أهل الجامع بتمام الصفوف، و وكل بذلك رجلا من العجم يقوم بالسوط من مؤخر المسجد، و أمر أهل الحلق بالتحوّل إلى القبلة قبل إقامة الصلاة، و منع من المساند التى يستند إليها، و من الحصر التى كانت للمجالس فى الجامع، و أمر أن تصلى التراويح فى رمضان خمس تراويح، و لم يزل أهل مصر يصلونها ستا إلى شهر رمضان سنة ثلاث و خمسين و مائتين، و منع من التثويب، و أمر بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد، و أن يغلس بصلاة الصبح، و نهى أن يشق ثوب على ميت أو يسوّد وجه، أو يحلق شعر، أو تصيح امرأة، و عاقب فى ذلك، و شدّد فيه، ثم مات مزاحم لخمس مضين من المحرّم سنة أربع و خمسين.

فاستخلف ابنه أحمد بن مزاحم، فولى باستخلاف أبيه على الصلاة إلى أن مات لسبع خلون من ربيع الآخر، فكانت ولايته شهرين و يوما، فاستخلف أرجوز بن أولع طرخان التركىّ على الصلاة، فولى خمسة أشهر و نصفا، و خرج أوّل ذى القعدة بعد أن صرف بأحمد بن طولون فى شهر رمضان سنة أربع و خمسين و مائتين، و إليه كان أمر البلد جميعه، من أيام مزاحم، و فى أيام ابنه أحمد أيضا، و اللّه تعالى أعلم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۱۹

ذكر القطائع و دولة بنى طولون

اعلم: أنّ القطائع قد زالت آثارها، و لم يبق لها رسم يعرف، و كان موضعها: من قبة الهواء التى صار مكانها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون، و هذا أشبه أن يكون طول القطائع، و أمّا عرضها: فإنه من أوّل الرميلة تحت القلعة إلى الموضع الذى يعرف اليوم بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن: زين العابدين، و كانت مساحة القطائع ميلا فى ميل، فقبة الهواء كانت فى سطح الجرف الذى عليه قلعة الجبل.

و تحت قبة الهواء: قصر ابن طولون، و موضع هذا القصر: الميدان السلطانىّ تحت القلعة و الرميلة التى تحت القلعة مكان سوق الخيل و الحمير و الجمال. كانت بستانا، و يجاورها الميدان فى الموضع الذى يعرف اليوم: بالقبيبات، فيصير الميدان، فيما بين القصر و الجامع الذى أنشأه أحمد بن طولون، و بحذاء الجامع: دار الأمارة فى جهته القبلية، و لها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جوار المحراب، و هناك أيضا دار الحرم، و القطائع: عدّة قطع، تسكن فيها عبيد ابن طولون، و عساكره و غلمانه، و كل قطيعة لطائفة، فيقال: قطيعة السودان، و قطيعة الروم، و قطيعة الفرّاشين، و نحو ذلك، فكانت كل قطيعة لسكنى جماعة بمنزلة الحارات التى بالقاهرة، و كان ابتداء عمارة هذه القطائع، و سببها: أنّ أمير المؤمنين المعتصم بالله أبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد، لما اختص بالأتراك، و وضع من العرب، و أخرجهم من الديوان، و أسقط أسماءهم، و منعهم العطاء، و جعل الأتراك أنصار دولته، و أعلام دعوته. كان من عظمت عنده منزلته قلّده الأعمال الجليلة الخارجة عن الحضرة فيستخلف على ذلك العمل الذى تقلده من يقوم بأمره، و يحمل إليه ماله، و يدعى له على منابره كما يدعى للخليفة، و كانت مصر عندهم بهذه السبيل.

و قصد المعتصم، و من بعده من الخلفاء بذلك، العمل مع الأتراك محاكاة ما فعله الرشيد، بعبد الملك بن صالح، و المأمون بطاهر بن الحسين، ففعل المعتصم مثل ذلك بالأتراك، فقلد أشناس، و قلّد الواثق إيتاخ، و قلد المتوكل نقا و وصيف، و قلد المهتدى ماجور، و غير من ذكرنا من أعمال الأقاليم ما قد تضمنته كتب التاريخ، فتقلد باكباك مصر، و طلب من يخلفه عليها، و كان أحمد بن طولون قد مات أبوه فى سنة أربعين و مائتين، و لأحمد عشرون سنة منذ ولد من جارية كانت تدعى قاسم، و كان مولده فى سنة

عشرين و مائتين، و ولدت أيضا أخاه موسى و حبسية و سمانة، و كان طولون من الطغرغر مما حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفا عليه من المال، و الرقيق و البراذين، و غير ذلك فى كل سنة، و ذلك فى سنة مائتين، فنشأ أحمد بن طولون نشأ جميلا غير نشء أولاد العجم، فوصف بعلوّ الهمة، و حسن الأدب و الذهاب بنفسه عما كان يترامى إليه أهل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۰

طبقته، و طلب الحديث، و أحب الغزو، و خرج إلى طرسوس مرّات، و لقى المحدّثين، و سمع منهم، و كتب العلم، و صحب الزّهاد و أهل الورع، فتأدّب بآدابهم، و ظهر فضله، فاشتهر عند الأولياء، و تميز على الأتراك، و صار فى عداد من يوثق به، و يؤتمن على الأموال و الأسرار، فزوّجه ماجور ابنته، و هى أم ابنه العباس، و ابنته فاطمة.

ثم إنه سأل الوزير عبيد اللّه بن يحيى أن يكتب له برزقه على الثغر، فأجابه و خرج إلى طرسوس، فأقام بها و شق على أمّه مفارقته، فكاتبته بما أقلقه، فلما قفل الناس إلى سرّ من رأى سار معهم إلى لقاء أمّه، و كان فى القافلة، نحو خمسمائة رجل، و الخليفة إذ ذاك: المستعين بالله أحمد بن المعتصم، و كان قد أنفذ خادما إلى بلاد الروم لعمل أشياء نفيسة، فلما عاد بها، و هى: وقر بغل إلى طرسوس، خرج مع القافلة، و كان من رسم الغزاة أن يسيروا متفرّقين، فطرق الأعراب بعض سوادهم، و جاء الصائح: فبدر أحمد بن طولون لقتالهم و تبعوه، فوضع السيف فى الأعراب، و رمى بنفسه فيهم حتى استنفذ منهم جميع ما أخذوه، و فرّوا منه، و كان من جملة ما استنفذ من الأعراب البغل المحمل بمتاع الخليفة، فعظم أحمد بما فعل عند الخادم، و كبر فى أعين القافلة، فلما وصلوا إلى العراق، و شاهد المستعين ما أحضره الخادم أعجب به، و عرّفه الخادم خروج الأعراب، و أخذهم البغل بما عليه، و ما كان من صنع أحمد بن طولون، فأمر له بألف دينار، و سلم عليه مع الخادم، و أمره أن يعرّفه به إذا دخل مع المسلمين، ففعل ذلك، و توالت عليه صلاة الخليفة حتى حسنت حاله، و وهبه جارية اسمها: مياس استولدها ابنه خمارويه فى النصف من المحرّم سنة خمسين و مائتين، فلما خلع المستعين، و بويع المعتز أخرج المستعين إلى واسط، و اختار الأتراك أحمد بن طولون أن يكون معه، فسلم إليه و مضى به، فأحسن عشرته، و أطلق له التنزه و الصيد، و خشى أن يلحقه منه احتشام، فألزمه كاتبه أحمد بن محمد الواسطىّ، و هو إذ ذاك غلام حسن الشاهد حاضر النادرة، فأنس به المستعين.

ثم إن فتيحة أم المعتز كتبت إلى أحمد بن طولون بقتل المستعين، و قلدته واسط، فامتنع من ذلك، و كتب إلى الأتراك يخبرهم بأنه لا يقتل خليفة له فى رقبته بيعة، فزاد محله عند الأتراك بذلك، و وجهوا سعيد الحاجب، و كتبوا إلى ابن طولون بتسليم المستعين له، فتسلمه منه و قتله، و واراه ابن طولون، و عاد إلى سرّ من رأى، و قد تقلد باكباك مصر، و طلب من يوجهه إليها، فذكر له أحمد بن طولون، فقلده خلافته، و ضم إليه جيشا، و سار إلى مصر، فدخلها يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان سنة أربع و خمسين و مائتين متقلّدا للقصبة دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها، كالإسكندرية و نحوها، و دخل معه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۱

أحمد بن محمد الواسطىّ، و جلس الناس لرؤيته، فسأل بعضهم غلام أبى قبيل: صاحب الملاحم، و كان مكفوفا عما يجده فى كتبهم، فقال: هذا رجل نجد صفته كذا و كذا و أنه يتقلد الملك هو و ولده قريبا من أربعين سنة، فما تمّ كلامه حتى أقبل أحمد بن طولون، و إذا هو على النعت الذى قال.

و لما تسلم أحمد بن طولون مصر كان على الخراج أحمد بن محمد بن المدبر، و هو من دهاة الناس، و شياطين الكتاب، فأهدى إلى أحمد بن طولون هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار بعد ما خرج إلى لقائه هو و شقير الخادم غلام فتيحة أم المعتز، و هو يتقلد البريد، فرأى ابن طولون بين يدى ابن المدبر مائة غلام من الغور، قد انتخبهم و صيرهم عدّة و جمالا، و كان لهم خلق حسن و طول أجسام، و بأس شديد، و عليهم أقبية و مناطق تقال عراض، و بأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة، و كانوا يقفون بين يديه فى حافتى مجلسه إذا جلس، فإذا ركب ركبوا بين يديه، فيصير له بهم هيبة عظيمة فى صدور الناس، فلما بعث ابن المدبر بهديته

إلى ابن طولون ردّها عليه، فقال ابن المدبر: إنّ هذه لهمة عظيمة، من كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الأطراف، فخافه و كره مقامه بمصر معه، و سار إلى شقير الخادم صاحب البريد، و اتفقا على مكاتبة الخليفة بإزالة ابن طولون، فلم يكن غير أيام حتى بعث ابن طولون إلى ابن المدبر يقول له: قد كنت أعزك اللّه أهديت لنا هدية وقع الغنى عنها، و لم يجز أن يغتنم مالك كثّره اللّه، فرددتها توفيرا عليك، و نحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك، فأنا إليهم أحوج منك، فقال ابن المدبر: لما بلغته الرسالة هذه أخرى أعظم مما تقدّم قد ظهرت من هذا الرجل إذ كان يردّ الأعراض، و الأموال و يستهدى الرجال، و يثابر عليهم، و لم يجد بدّا من أن بعثهم إليه، فتحوّلت هيبة ابن المدبر إلى ابن طولون، و نقصت مهابة ابن المدبر بمفارقة الغلمان مجلسه.

فكتب ابن المدبر فيه إلى الحضرة يغرى به، و يحرّض على عزله، فبلغ ذلك ابن طولون، فكتم فى نفسه، و لم يبده و اتفق موت المعتز فى رجب سنة خمس و خمسين، و قيام المهتدى باللّه محمد بن الواثق، و قتل باكباك، و ردّ جميع ما كان بيده إلى ماجور التركىّ حموا بن طولون، فكتب إليه: تسلم من نفسك لنفسك، و زاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر، و كتب إلى إسحاق بن دينار، و هو يتقلد الإسكندرية أن يسلمها لأحمد بن طولون، فعظمت لذلك منزلته، و كثر قلق ابن المدبر و غمه، و دعته ضرورة الخوف من ابن طولون إلى ملاطفته، و التقرّب من خاطره، و خرج ابن طولون إلى الإسكندرية و تسلمها من إسحاق بن دينار، و أقرّه عليها، و كان أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانىّ يتقلد جندى فلسطين و الأردن.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۲

فلما مات وثب ابنه على الأعمال، و استبدّ بها، فبعث ابن المدبر سبعمائة ألف و خمسين ألف دينار حملا من مال مصر إلى بغداد، فقبض ابن شيخ عليها، و فرّقها فى أصحابه، و كانت الأمور قد اضطربت ببغداد، فطمع ابن شيخ فى التغلب على الشامات، و أشيع أنه يريد مصر، فلما قتل المهتدى فى رجب سنة ست و خمسين، و بويع المعتمد باللّه أحمد بن المتوكل لم يدع ابن شيخ له، و لا بايع هو، و لا أصحابه، فبعث إليه بتقليد أرمينية زيادة على ما معه من بلاد الشام، و فسح له فى الاستخلاف عليها، و الإقامة على عمله، فدعا حينئذ للمعتمد، و كتب إلى ابن طولون أن يتأهب لحرب ابن شيخ، و أن يزيد فى عدّته، و كتب لابن المدبر أن يطلق له من المال ما يريد، فعرض ابن طولون الرجال، و أثبت من يصلح، و اشترى العبيد من الروم و السودان، و عمل سائر ما يحتاج إليه، و خرج فى تجمل كبير و جيش عظيم، و بعث إلى ابن شيخ يدعوه إلى طاعة الخليفة، و ردّ ما أخذ من المال، فأجاب بجواب قبيح، فسار لست خلون من جمادى الآخرة، و استخلف أخاه موسى بن طولون على مصر، ثم رجع من الطريق بكتاب ورد عليه من العراق، و دخل الفسطاط فى شعبان.

و قدم من العراق: ماجور التركىّ لمحاربة ابن شيخ، فلقيه أصحاب ابن شيخ، و عليهم ابنه، فانهزموا منه، و قتل الابن، و استولى ماجور على دمشق، و لحق ابن شيخ بنواحى أرمينية، و تقلد ماجور أعمال الشام كله، و صار أحمد بن طولون من كثرة العبيد، و الرجال و الآلات بحال يضيق به داره، و لا يتسع له فركب إلى سفح الجبل فى شعبان، و أمر بحرث قبور اليهود و النصارى، و اختط موضعها فبنى القصر و الميدان، و تقدّم إلى أصحابه و غلمانه و أتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله، فاختطوا و بنوا حتى اتصل البناء لعمارة الفسطاط، ثم قطعت القطائع، و سميت كل قطيعة باسم من سكنها، فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم، و للروم قطيعة مفردة تعرف بهم، و للفرّاشين قطيعة مفردة تعرف بهم، و لكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم.

و بنى القوّاد مواضع متفرّقة، فعمرت القطائع عمارة حسنة، و تفرّقت فيها السكك و الأزقة، و بنيت فيها المساجد الحسان و الطواحين و الحمامات و الأفران، و سميت أسواقها، فقيل: سوق العيارين، و كان يجمع العطارين و البزازين، و سوق الفاميين، و يجمع الجزارين و البقالين و الشوّايين، فكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة.

و أكثر و أحسن، و سوق الطباخين، و يجمع الصيارف، و الخبازين و الحلوانيين، و لكل من الباعة سوق حسن عامر، فصارت القطائع مدينة كبيرة، أعمر و أحسن من الشام، و بنى ابن طولون قصره و وسعه و حسنه، و جعل له ميدانا كبيرا يضرب فيه بالصوالجة، فسمى

القصر كله الميدان، و كان كل من أراد الخروج من صغير و كبير إذا سئل عن ذهابه يقول:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۳

إلى الميدان، و عمل للميدان أبوابا لكل باب اسم، و هى باب الميدان، و منه كان يدخل و يخرج معظم الجيش، و باب الصوالجة، و باب الخاصة، و لا يدخل منه إلا خاصة ابن طولون، و باب الجبل لأنه مما يلى جبل المقطم، و باب الحرم، و لا يدخل منه إلا خادم خصىّ أو حرمة، و باب الدرمون لأنه كان يجلس عنه حاجب أسود عظيم الخلقة يتقلد جنايات الغلمان السودان الرجالة فقط يقال له: الدرمون، و باب دعناج لأنه كان يجلس عنده حاجب يقال له: دعناج، و باب الساج لأنه عمل من خشب الساج، و باب الصلاة لأنه كان فى الشارع الأعظم، و منه يتوصل إلى جامع ابن طولون، و عرف هذا الباب أيضا بباب السباع، لأنه كان عليه صورة سبعين من جبس، و كان الطريق الذى يخرج منه ابن طولون، و هو الذى يعرج منه إلى القصر طريقا واسعا فقطعه بحائط و عمل فيه ثلاثة أبواب كأكبر ما يكون من الأبواب، و كانت متصلة بعضها ببعض واحدا بجانب الآخر.

و كان ابن طولون إذا ركب يخرج معه عسكر متكاثف الخروج على ترتيب حسن بغير زحمة، ثم يخرج ابن طولون من الباب الأوسط من الأبواب الثلاثة بمفرده من غير أن يختلط به أحد من الناس، و كانت الأبواب المذكورة تفتح كلها فى يوم العيد، أو يوم عرض الجيش، أو يوم صدقة، و ما عدا هذه الأيام لا تفتح إلا بترتيب فى أوقات معروفة، و كان القصر له مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض، و يوم الصدقة لينظر من أعلاه من يدخل و يخرج، و كان الناس يدخلون من باب الصوالجة، و يخرجون من باب السباع، و كان على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع ليرى حركات الغلمان، و تأهبهم و تصرّفهم فى حوائجهم، فإذا رأى فى حال أحد منهم نقصا أو خللا أمر له بما يتسع به، و يزيد فى تجمله، و كان يشرف منه أيضا على البحر، و على باب مدينة الفسطاط، و ما يلى ذلك.

فكان منتزها حسنا، و بنى الجامع، فعرف بالجامع الجديد، و بنى العين و السقاية بالمغافر، و بنى تنور فرعون فوق الجبل، و اتسعت أحواله و كثرت اصطبلاته و كراعه، و عظم صيته، فخافه ماجور، و كتب فيه إلى الحضرة يغرى به، و كتب فيه ابن المدبر و شقير الخادم، و كانت لابن طولون أعين، و أصحاب أخبار يطالعونه بسائر ما يحدث، فلما بلغه ذلك تلطف أصحاب الأخبار له ببغداد عند الوزير، حتى سير إلى ابن طولون بكتب ابن المدبر، و كتب شقير من غير أن يعلما بذلك، فإذا فيها: أنّ أحمد بن طولون عزم على التغلب على مصر و العصيان بها، فكتم خبر الكتب و ما زال بشقير حتى مات و كتب إلى الحضرة يسأل صرف ابن المدبر عن الخراج، و تقليد هلال فأجيب إلى ذلك، و قبض على ابن المدبر و حبسه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۴

و كان له معه أمور آلت إلى خروج ابن المدبر عن مصر، و تقلد ابن طولون خراج مصر مع المعونة و الثغور الشامية، فأسقط المعاون و المرافق، و كانت بمصر خاصة فى كل سنة مائة ألف دينار، فأظفره اللّه عقيب ذلك، بكنز فيه ألف ألف دينار: بنى منه المارستان، و خرج إلى الشام، و قد تقلدها فتسلم دمشق و حمص، و نازل أنطاكية حتى أخذها، و كانت صدقاته على أهل المسكنة و الستر، و على الضعفاء و الفقراء، و أهل التجمل متواترة، و كان راتبه لذلك فى كل شهر ألفى دينار سوى ما يطرأ عليه من النذور، و صدقات الشكر على تجديد النعم، و سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره و غيرها. يذبح فيها البقر و الكباش، و يغرف للناس فى القدور و الفخار و القصاع على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة فى اثنين منها فالوذج، و الاثنان الآخران على القدر، و كانت تعمل فى داره، و ينادى من أحبّ أن يحضر دار الأمير فليحضر، و تفتح الأبواب و يدخل الناس الميدان، و ابن طولون فى المجلس الذى تقدّم ذكره ينظر إلى المساكين، و يتأمل فرحهم بما يأكلون و يحملون، فيسرّه ذلك، و يحمد اللّه على نعمته.

و لقد قال له مرّة إبراهيم ابن قراطغان، و كان على صدقاته: أيّد اللّه الأمير إنّا نقف فى المواضع التى تفرّق فيها الصدقة، فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشا، و المعصم الرائع فيه الحديدة، و الكف فيها الخاتم فقال: يا هذا كل من مدّ يده إليك، فأعطه فهذه هى

اللطيفة المستوردة التى ذكرها اللّه سبحانه و تعالى فى كتابه فقال: يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ [البقرة/ ۲۷۳] فاحذر أن تردّ يدا امتدّت إليك، و أعط كل من يطلب منك.

فلما مات أحمد بن طولون، و قام من بعده ابنه خمارويه أقبل على قصر أبيه، و زاد فيه، و أخذ الميدان الذى كان لأبيه، فجعله كله بستانا، و زرع فيه أنواع الرياحين، و أصناف الشجر، و نقل إليه الودى اللطيف الذى ينال ثمره القائم، و منه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل، و حمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب، و أنواع الورد، و زرع فيه الزعفران، و كسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة، و جعل بين النحاس، و أجساد النخل مزاريب الرصاص، و أجرى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف، قائم النخل عيون الماء، فتنحدر إلى فساقى معمولة، و يفيض منها الماء إلى مجار تسقى سائر البستان، و غرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة، و كتابات مكتوبة يتعاهدها البستانىّ بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة، و زرع فيه النيلوفر الأحمر، و الأزرق و الأصفر و الجنوى العجيب، و أهدى إليه من خراسان و غيرها، كل أصل عجيب، و طعموا له شجر المشمش باللوز، و أشباه ذلك من كل ما يستظرف و يستحسن، و بنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ، ليقوم مقام الأقفاص، و زوّقه بأصناف الأصباغ و بلط أرضه، و جعل فى تضاعيفه أنهارا لطافا جدا و لها يجرى فيها الماء مدبرا من السواقى التى تدور على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۵

الآبار العذبة، و يسقى منها الأشجار و غيرها، و سرّح فى هذا البرج من أصناف القمارى و الدباسى و النونيات، و كل طائر مستحسن حسن الصوت، فكانت الطير تشرب، و تغتسل من تلك الأنهار الجارية فى البرج، و جعل فيه أوكارا فى قواديس لطيفة ممكنة فى جوف الحيطان، لتفرخ الطيور فيها، و عارض لها فيه عيدانا ممكنة فى جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضا بالصياح، و سرّح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس، و دجاج الحبش، و نحوها شيئا كثيرا.

و عمل فى داره مجلسا برواقة سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول فى أحسن نقش، و أظرف تفصيل، و جعل فيه على مقدار قامة و نصف صورا فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته، و صور حظاياه، و المغنيات اللّاتى تغنينه بأحسن تصوير، و أبهج تزويق، و جعل على رؤوسهنّ الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين، و الكوادن المرصعة بأصناف الجواهر، و فى آذانها الأجراس الثقال الوزن، المحكمة الصنعة، و هى مسمرة فى الحيطان، و لوّنت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة.

فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا و جعل بين يدى هذا البيت فسقية مقدّرة و ملأها زئبقا، و ذلك أنه شكا إلى طبيبه كثرة السهر، فأشار عليه بالتغمير ، فأنف من ذلك، و قال: لا أقدر على وضع يد أحد علىّ، فقال له: تأمر بعمل بركة من زئبق، فعمل بركة يقال: إنها خمسون ذراعا طولا فى خمسين ذراعا عرضا، و ملأها من الزئبق، فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة، و جعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة، و جعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة، و عمل فرشا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ، فيحكم حينئذ شدّة، و يلقى على تلك البركة الزئبق، و تشدّ زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بسكك الفضة، و ينام على هذا الفرش، فلا يزال الفرش يرتج و يتحرّك بحركة الزئبق، ما دام عليه، و كانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية، فكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب، إذا تألف نور القمر بنور الزئبق، و لقد أقام الناس بعد خراب القصر مدّة يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة، و ما عرف ملك قط تقدّم خمارويه فى عمل مثل هذه البركة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۶

و بنى أيضا فى القصر قبة تضاهى قبة الهواء سماها الدكة، فكانت أحسن شىء بنى، و جعل لها الستر التى تقى الحرّ و البرد، فتسبل إذا شاء، و ترفع إذا أحب، و فرش أرضها بالفرش السرية، و عمل لكل فصل فرشا يليق به، و كان كثيرا ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان و غيره، و يرى الصحراء و النيل و الجبل، و جميع المدينة، و بنى ميدانا آخر أكبر من ميدان

أبيه، و كان أحمد بن طولون، قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجال سمّاهم بالمكبرين عدّتهم اثنا عشر رجلا يبيت منهم فى كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل نوبا يكبرون و يسبحون و يحمدون، و يهللون و يقرءون القرآن تطريبا بألحان، و يتوسلون بقصائد زهدية، و يؤذنون أوقات الأذان، فلما ولى خمارويه: أقرّهم على حالهم، و أجراهم على رسمهم، و كان يجلس للشرب مع حظاياه فى الليل، و قيناته تغنين، فإذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون اللّه، و القدح فى يده وضعه بالأرض، و أسكت مغنياته، و ذكر اللّه معهم أبدا، حتى يسكت القوم لا يضجره ذلك، و لا يغيظه أن قطع عليه ما كان فيه من لذته بالسماع.

و بنى أيضا فى داره: دارا للسباع عمل فيها بيوتا بآزاج، كل بيت يسع سبعا، و لبوته، و على تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات، و لكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالزبل، و فى جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه المال، و بين يدى هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها، و فى جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير، فإذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته أو وضع وظيفة اللحم التى لغذائه، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت، و صاح بالسبع، فيخرج إلى القاعة المذكورة، و يردّ الباب، ثم ينزل إلى البيت من الطاق، فيكنس الزبل، و يبدّل الرمل بغيره مما هو نظيف، و يضع الوظيفة من اللحم فى مكان معدّ لذلك بعدما يخلص ما فيه من الغدد، و يقطعه لهما، و يغسل الحوض، و يملأه ماء، ثم يخرج و يرفع الباب من أعلاه، و قد عرف السبع ذاك، فحال ما يرفع السائس باب البيت دخل إليه الأسد، فأكل ما هيئ له من اللحم، حتى يستوفيه، و يشرب من الماء كفايته، فكانت هذه مملوءة من السباع، و لهم أوقات يفتح فيها سائر بيوت السباع، فتخرج إلى القاعة، و تتمشى فيها و تمرح و تلعب، و يهارش بعضها بعضا، فتقيم يوما كاملا إلى العشىّ، فيصبح بها السّواس، فيدخل كل سبع إلى بيته لا يتخطاه إلى غيره.

و كان من جملة هذه السباع: سبع أزرق العينين يقال له: زريق قد أنس بخمارويه، و صار مطلقا فى الدار لا يؤذى أحدا، و يقام له بوظيفته من الغذاء فى كل يوم، فإذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها، و ربض بين يديه، فرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة، و الفضلة الصالحة من الجدى، و نحو ذلك مما على المائدة، فيتفكه به.

و كانت له لبوة لم تستأنس كما أنس، فكانت مقصورة فى بيت، و لها وقت معروف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۷

يجتمع معها فيه، فإذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه، فإن كان قد نام على سرير ربض بين يدى السرير، و جعل يراعيه، ما دام نائما، و إن كان إنما نام على الأرض بقى قريبا منه، و تفطن لمن يدخل، و يقصد خمارويه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة، و كان على ذلك دهره قد ألف ذلك، و درب عليه، و كان فى عنقه طوق من ذهب، فلا يقدر أحد من أن يدنو من خمارويه ما دام نائما لمراعاة زريق له، و حراسته إياه حتى إذا شاء اللّه إنفاذ قضائه فى خمارويه كان بدمشق، و زريق غائب عنه بمصر، ليعلم أنه لا يغنى حذر من قدر، و بنى أيضا دار الحرم، و نقل إليها أمهات أولاد أبيه، مع أولادهنّ، و جعل معهنّ المعزولات من أمهات أولاده، و أفرد لكل واحدة حجرة واسعة نزل فى كل حجرة منها بعد زوال دولتهم قائد جليل فوسعته، و فضل عنه منها شىء، و أقام لكل حجرة من الأنزال و الوظائف الواسعة، ما كان يفضل عن أهلها منه شىء كثير، فكان الخدم الموكلون بالحرم من الطباخين، و غيرهم يفضل لكل منهم مع كثرة عددهم بعد التوسع فى قوته الزلة الكبيرة، و التى فيها العدّة من الدجاج، فمنها ما قلع فخذها، و منها ما قد تشعب صدرها، و من الفراخ مثل ذلك مع القطع الكبار من الجدى و لحوم الضأن، و العدّة من ألوان عديدة، و القطع الصالحة من الفالوذج، و الكثير من اللوزينج، و القطائف و الهرائس من العصيدة التى تعرف اليوم فى وقتنا هذا بالمامونية، و أشباه ذلك مع الأرغفة الكبار، و اشتهر بمصر بيعهم لذلك، و عرفوا به، فكان الناس يتناوبونهم لذلك، و أكثر ما تباع الزلة الكبيرة منها بدرهمين، و منها ما يباع بدرهم، فكان كثير من الناس يتفكهون من هذه الزلات، و كان شيئا موجودا فى كل وقت لكثرته، و اتساعه بحيث إنّ الرجل إذا طرقه ضيف، خرج من فوره إلى باب دار الحرم، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه، مما لا يقدر على عمل مثله، و لا يتهيأ له من اللحوم، و الفراخ و الدجاج و

الحلوى مثل ذلك.

و اتسعت أيضا اصطبلات خمارويه، فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلا مفردا، لكان للخيل الخاص اصطبل مفرد و لدواب الغلمان اصطبلات عدّة، و لبغال القباب اصطبلات، و لبغال النقل غير بغال القباب اصطبلات، و للنجائب و البختى اصطبلات لكل صنف اصطبل مفرد للاتساع فى المواضع و التفنن فى الأثقال، و عمل للنمور دارا مفردة، و للفهود دارا مفردة، و للفيلة دارا، و للزرافات دارا، كل ذلك سوى الاصطبلات التى بالجيزة، فإنه كان له عدّة ضياع من الجيزة اصطبلات مثل: نهيا، و وسيم، و سفط، و طهرمس، و غيرها، و كانت هذه الضياع لا تزرع إلا القرط برسم الدواب، و كان للخليفة أيضا بمصر اصطبلات سوى ما ذكر تنتج فيها الخيل: لحلبة السباق، و للرباط فى سبيل اللّه تعالى برسم الغزو، و كان لكل دار من الدور المذكورة، و لكل اصطبل وكلاء لهم الرزق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۸

السنىّ و الوظائف الكثيرة و الأموال المتسعة، و بلغ رزق الجيش فى أيام خمارويه تسعمائة ألف دينار فى كل سنة، و قام مطبخه المعروف بمطبخ العامة بثلاثة و عشرين ألف دينار فى كل شهر، سوى ما هو موظف لجواريه و أرزاق من يخدمهنّ و يتصرّف فى حوائجهنّ.

و كان قد اتخذ لنفسه من ولد الحوف و شناترة الضياع قوما معروفين بالشجاعة، و البأس لهم خلق عظيم تامّ، و عظم أجسام، و أدرّ عليهم الأرزاق، و وسع لهم فى العطاء، و شغلهم عما كانوا فيه من قطع الطريق، و أذية الناس بخدمته، و ألبسهم الأقبية، و جواشن الديباج، و صاغ لهم المناطق العراض الثقال، و قلّدهم السيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم، فإذا مشوا بين يديه، و موكبه على ترتيبه، و مضت أصناف العسكر و طوائفه تلاهم السودان، و عدّتهم ألف أسود لهم درق من حديد، محكم الصنعة، و عليهم أقبية سود، و عمائم سود، فيخالهم الناظر إليهم بحرا أسود يسير، لسواد ألوانهم، و سواد قيابهم، و يصير لبريق درقهم و حلى سيوفهم و البيض التى تلمع على رؤوسهم من تحت العمائم زىّ بهج، فإذا مضى السودان قدم خمارويه، و قد انفرد عن موكبه، و صار بينه و بين الموكب نحو نصف غلوة سهم و المختارة تحف به، و كان تامّ الظهر، و يركب فرسا تامّا، فيصير كالكوكب إذا أقبل لا يخفى على أحد، كأنه قطعة جبل فى وسط المختارة، و كان مهابا ذا سطوة، و قد وقع فى قلوب الكافة أنه متى أشار إليه أحد بإصبعه، أو تكلم أو قرب من، لحقه مكروه عظيم، فكان إذا أقبل كما ذكرنا لا يسمع من أحد كلمة، و لا سعلة و لا عطسة، و لا نحنحة البتة، كأنما على رؤوسهم الطير، و كان يتقلد فى يوم العيد سيفا بحمائل، و لا يزال يتفرّج و يتنزه و يخرج إلى مواضع لم يكن أبوه يهش إليها، كالأهرام، و مدينة العقاب، و نحو ذلك لأجل الصيد، فإنه كان مشغوفا به لا يكاد يسمع بسبع، إلا قصده، و معه رجال عليهم لبود، فيدخلون إلى الأسد و يتناولونه بأيديهم من غابه عنوة، و هو سليم فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع، و هو قائم فإذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص، و فيه السبع بين يديه، و كانت حلبة السباق فى أيامهم تقوم مقام الأعياد، لكثرة الزينة و ركوب سائر الغلمان، و العساكر على كثرتهم بالسلاح التام، و العدد الكاملة، فيجلس الناس لمشاهدة ذلك، كما يجلسون فى الأعياد و تطلق الخيل من غايتها، فتمرّ متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى يتم السبق.

قال القضاعىّ: المنظر بناه أحمد بن طولون فى ولايته لعرض الخيل، و كان عرض الخيل من عجائب الإسلام الأربعة التى منها هذا العرض، و رمضان بمكة، و العيد كان بطرسوس، و الجمعة ببغداد، فبقى من هذه الأربعة، شهر رمضان بمكة، و الجمعة ببغداد، و ذهبت اثنتان، قال كاتبه: و قد ذهبت الجمعة ببغداد أيضا بعد القضاعىّ، بقتل هولاكو للخليفة المستعصم، و زوال شعائر الإسلام من العراق، و بقيت مكة شرّفها اللّه تعالى، و ليس فى شهر رمضان الآن بها ما يقال فيه أنه من عجائب الإسلام، و لما تكامل عزّ خمارويه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۲۹

و انتهى أمره بدأ يسترجع منه الدهر ما أعطاه، فأوّل ما طرقه موت خطيبته بوران التى من أجلها بنى بيت الذهب، و صوّر فيه صورتها و صورته، كما تقدّم، و كان يرى أن الدنيا لا تطيب له إلا بسلامتها و بنظره إليها، و تمتعه بها فكدّر موتها عيشه، و انكسر انكسارا بان

عليه، ثم إنه أخذ فى تجهيز ابنته، فجهزها جهازا ضاهى به نعم الخلافة، فلم يبق خطيرة و لا طرفة من كل لون و جنس إلا حمله معها، فكان من جملته: دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة، و مائة هون من ذهب.

قال القضاعيّ: و عقد المعتضد النكاح على ابنته، يعنى ابنة خمارويه: قطر الندى، فحملها أبو الجيش خمارويه مع عبد اللّه بن الخصاص، و حمل معها ما لم ير مثله، و لا يسمع به، و لما دخل إليه ابن الخصاص يودّعه، قال له خمارويه: هل بقى بينى و بينك حساب؟ فقال: لا، فقال: انظر حسابك، فقال: كسر بقى من الجهاز، فقال: أحضروه، فأخرج ربع طومار فيه سبت ذكر النفقة، فإذا هى أربعمائة ألف دينار، قال محمد بن علىّ المادرانىّ، فنظرت فى الطومار، فإذا فيه و ألف تكة الثمن عنها عشرة آلاف دينار، فأطلق له الكل.

قال القضاعيّ: و إنما ذكرت هذا الخبر لتستدل به على أشياء منها سعة نفس أبى الجيش، و منها كثرة ما كان يملكه ابن الخصاص حتى أنه قال: كسر بقى من الجهاز، و هو أربعمائة ألف دينار، لو لم يقتضه ذلك، لم يذكره، و منها ميسور ذلك الزمان لما طلب فيه ألف تكة من أثمان عشرة دنانير قدر عليها فى أيسر وقت، و بأهون سعى، و لو طلب اليوم خمسون، لم يقدر عليها، قال كاتبه: و لا يعرف اليوم فى أسواق القاهرة و مصر تكة بعشرة دنانير، إذا طلبت توجد فى الحال، و لا بعد شهر، إلّا أن يتعنى بعملها، فتعمل، و لما فرغ خمارويه من جهاز ابنته أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر، فيما بين مصر و بغداد، و أخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون فى جماعة مع ابن الخصاص، فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد، فإذا وافت المنزل وجدت قصرا قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه، و علقت فيه الستور، و أعدّ فيه كل ما يصلح لمثلها فى حال الإقامة، فكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة، كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس، حتى قدمت بغداد أوّل المحرّم سنة اثنتين و ثمانين و مائتين، فزفت على الخليفة المعتضد.

و بعد ذلك قتل خمارويه بدمشق، و كانت مدّة بنى طولون بمصر سبعا و ثلاثين سنة، و ستة أشهر و اثنين و عشرين يوما.

و ولى منهم خمسة أمراء أوّلهم: أحمد بن طولون، ولى مصر من قبل المعتز على

صلاتها، فدخل يوم الخميس لسبع بقين من شهر رمضان سنة أربع و خمسين و مائتين، و خرج بغا الأصفر و هو أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن طباطبا، فيما بين برقة و الإسكندرية فى جمادى الأولى سنة خمس و خمسين، و سار إلى الصعيد، فقتل فى الحرب، و حمل رأسه إلى الفسطاط لإحدى عشرة بقيت من شعبان، و خرج ابن الصوفى العلوىّ، و هو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد اللّه بن محمد بن عمر بن علىّ بن أبى طالب، و دخل إسنا فى ذى القعدة، فنهب و قتل، فبعث إليه ابن طولون جيشا، فهزم الجيش فى ربيع الأوّل سنة ست و خمسين، فبعث بجيش آخر، فواقعه بإخميم فى ربيع الآخر، فانهزم ابن الصوفىّ إلى الواح، فأقام به، و خرج أحمد بن طولون يريد حرب عيسى بن الشيخ، ثم عاد، فابتدأ فى أبناء الميدان، و قدم العباس و خمارويه ابنا أحمد بن طولون من العراق على طريق مكة سنة سبع و خمسين، و ورد كتاب ماجور بتسلم أحمد بن طولون الأعمال الخارجة عن يده من أرض مصر، فتسلم الإسكندرية، و خرج إليها لثمان خلون من شهر رمضان، و استخلف طفج صاحب الشرط، ثم قدم لأربع عشرة بقيت من شوّال، و سخط على أخيه موسى، و أمره بلباس البياض.

و خرج إلى الإسكندرية ثانيا لثمان بقين من شعبان سنة تسع و خمسين، و استخلف ابنه العباس، و قدم لثمان خلون من شوّال، و أمر ببناء المسجد الجامع على الجبل فى صفر سنة تسع و خمسين، و ببناء المارستان للمرضى، و ورد كتاب المعتمد يستحثه فى حمل الأموال، فكتب إليه لست أطيق ذلك، و الخراج بيد غيرى، فأنفذ المعتمد نفيسا الخادم بتقليد أحمد بن طولون الخراج، و بولايته على الثغور الشامية، فأقرّ أبا أيوب أحمد بن محمد بن شجاع على الخراج خليفة له عليه، و عقد لطخشى بن بلبرد على الثغور، فخرج فى

جمادى الأولى سنة أربع و ستين، و تقدّم أبو أحمد الموفق إلى موسى بن بغا فى صرف أحمد بن طولون، و تقليدها ماجور التركى والى دمشق، فكتب إليه بذلك، فتوقف لعجزه عن مقاومة ابن طولون، فخرج موسى بن بغا، و نزل الرقة، فبلغ ابن طولون أنه سائر إليه فابتدأ فى بناء الحصن بالجزيرة، ليكون معقلا لماله و حرمه فى سنة ثلاث و ستين، و اجتهد فى عمل المراكب الحربية، و أظافها بالجزيرة، فأقام موسى بالرقة عشرة أشهر، و اضطربت أموره، و مات فى صفر سنة أربع و ستين، و مات ماجور بدمشق، و استخلف ابنه علىّ بن ماجور، فحرّك ذلك أحمد بن طولون على المسير، و كتب إلى ابن ماجور أنه سائر إليه، و أمره بإقامة الأنزال و الميرة، فأجاب بجواب حسن، و شكا أهل مصر إلى ابن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده و سودانه، فأمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر، فابتدأ ببنائه فى سنة أربع و تم فى سنة ست و ستين و مائتين، و خرج فى جيوشه لثمان بقين من شعبان سنة أربع و ستين، و استخلف ابنه العباس، و ضم إليه أحمد بن محمد الواسطىّ مدبرا و وزيرا، فبلغ الرملة، و تلقاه محمد بن رافع واليها، و أقام له بها الدعوة، فأقرّه و مضى إلى دمشق،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳۱

فتلقاه علىّ بن ماجور، و أقام له بها الدعوة، فأقام بها حتى استوثق له أمرها، و مضى إلى حمص فتسلمها، و بعث إلى سيما الطويل، و هو بأنطاكية يأمره بالدعاء له فأبى، فسار إليه فى جيش عظيم، و حاصره، و رماه بالمجانيق، حتى دخلها فى المحرّم سنة خمس و ستين، فقتل سيما، و استباح أمواله و رجاله، و مضى إلى طرسوس، فدخلها فى ربيع الأوّل، فضاقت به، و غلا السعر بها، فنابذه أهلها، فقاتلهم و أمر أصحابه أن ينهزموا عن أهل طرسوس ليبلغ طاغية الروم، فيعلم أنّ جيوش ابن طولون مع كثرتها و شدّتها، لم تقم لأهل طرسوس، فانهزموا، و خرج عنهم و استخلف عليها طخشى، فورد الخبر عليه بأنّ ابنه العباس قد خالف عليه، فأزعجه ذلك، و سار فخاف العباس، و قيد الواسطىّ، و خرج بطائفته إلى الجيزة لثمان خلون من شعبان سنة خمس و ستين و مائتين، فعسكر بها، و استخلف أخاه ربيعة بن أحمد، و أظهر أنه يريد الإسكندرية، و سار إلى برقة، فقدم أحمد بن طولون من الشام لأربع خلون من رمضان، لأنفذ القاضى بكار بن قتيبة فى نفر بكتابه إلى العباس، فساروا إليه ببرقة، فأبى أن يرجع، و عاد بكار فى أوّل ذى الحجة، و مضى العباس يريد إفريقية فى جمادى الأولى سنة ست و ستين، فنهب لبدة ، و قتل من أهلها عدّة، و ضجت نساؤهم، فاجتمع عليه: جيش ابن الأغلب و الإباضية، فقاتلهم بنفسه، و حسن بلاؤه يومئذ و قال:

للّه درّى إذ أعدوا على فرسىإلى الهياج و نار الحرب تستعر

و فى يدى صارم أفرى الرءوس بهفى حدّه الموت لا يبقى و لا يذر

إن كنت سائلة عنى و عن خبرىفها أنا الليث و الصمصامة الذكر

من آل طولون أصلى إن سألت فمافوقى لمفتخر بالجود مفتخر

لو كنت شاهدة كرّى بلبدة إذبالسيف أضرب و الهامات تبتذر

إذا لعاينت منى ما تبادرهعنى الأحاديث و الأنباء و الخبر

و قتل يومئذ صناديد عسكره، و وجوه أصحابه، و نهبت أمواله، و فرّ إلى برقة فى ضرّ.

و عقد أحمد بن طولون على جيش، و بعث به إلى برقة فى رمضان سنة سبع و ستين، ثم خرج بنفسه فى عسكر عظيم يقال: إنه بلغ مائة ألف لثنتى عشر خلت من ربيع الأوّل سنة ثمان و ستين، فأقام بالإسكندرية، و فرّ إليه أحمد بن محمد الواسطىّ من عند العباس، فصغر عنده أمر العباس، فعقد على جيش سيّره إلى برقة، فواقعوا أصحاب العباس و هزموهم، و قتلوا منهم كثيرا، و أدركوا العباس لأربع خلون من رجب و عاد أحمد إلى الفسطاط لثلاث عشرة خلت منه، و قدم العباس و الأسرى فى شوّال، ثم أخرجوا أوّل ذى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳۲

القعدة، و قد بنيت لهم دكة عالية، فضربوا و ألقوا من أعلاها، ثم بعث بلؤلؤ فى جيش إلى الشام، فخالف على أحمد، و مال مع

الموفق، و صار إليه، فخرج أحمد، و استخلف ابنه خمارويه فى صفر سنة تسع و ستين، فنزل دمشق، و معه ابنه العباس مقيدا، فخالف عليه أهل طرسوس، فخرج يريد محاربتهم ثم توقف لورود كتاب المعتمد عليه، أنه قادم عليه ليلتجئ إليه، فخرج كالمتصيد من بغداد، و توجه نحو الرقة، فبلغ أبا أحمد الموفق مسيره، و هو محارب لصاحب الزنج، فعمل عليه حتى عاد إلى سامراء، و وكل به جماعة، و عقد لإسحاق بن كنداخ الخزرىّ على مصر، فبلغ ذلك ابن طولون، فرجع إلى دمشق، و أحضر القضاة و الفقهاء من الأعمال، و كتب إلى مصر كتابا قرئ على الناس بأنّ: أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد، و أسره فى دار أحمد بن الخصيب، و إنّ المعتمد قد صار من ذلك إلى ما لا يجوز ذكره، و إنه بكى بكاء شديدا، فلما خطب الخطيب يوم الجمعة، ذكر ما نيل من المعتمد، و قال: اللهم فاكفه من حصره و ظلمه، و خرج من مصر بكار بن قتيبة ، و جماعة إلى دمشق، و قد حضر أهل الشامات و الثغور، فأمر ابن طولون بكتاب فيه: خلع الموفق من ولاية العهد، لمخالفة المعتمد، و حصره إياه، و كتب فيه: إنّ أبا أحمد الموفق خلع الطاعة، و برىء من الذمّة، فوجب جهاده على الأمّة، و شهد على ذلك جميع من حضر إلّا بكار بن قتيبة و آخرين.

و قال بكار: لم يصح عندى ما فعله أبو أحمد، و لم أعلمه، و امتنع من الشهادة و الخلع، و كان ذلك لإحدى عشرة خلت من ذى القعدة، فبلغ ذلك الموفق، فكتب إلى عماله: بلعن أحمد بن طولون على المنابر، فلعن عليه بما صيغته: اللهم العنه لعنا يفلّ حدّه، و يتعس جدّه، و اجعله مثلا للغابرين إنك لا تصلح عمل المفسدين، و مضى أحمد إلى طرسوس، فنازلها، و كان البرد شديدا، ثم رحل عنها إلى أذنة ، و سار إلى المصيصة ، فنزلت به علة الموت، فأعدّ السير يريد مصر، حتى بلغ الفرما، فركب النيل إلى الفسطاط، فدخل لعشر بقين من جمادى الآخرى سنة سبعين، فأوقف بكار بن قتيبة، و بعث به إلى السجن، و تزايدت به العلة، حتى مات ليلة الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة سبعين و مائتين، فلما بلغ المعتمد موته اشتدّ وجده و جزعه عليه، و قال يرثيه:

إلى اللّه أشكو أسىعرانى كوقع الأسل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳۳

على رجل أروع يرى منه فضل الوجل

شهاب خبا وقدهو عارض غيث أفل

شكت دولتى فقدهو كان يزين الدول

فقام بعده ابنه: أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، و بايعه الجند يوم الأحد لعشر خلون من ذى القعدة، فأمر بقتل أخيه العباس لامتناعه من مبايعته، و عقد لأبى عبد اللّه أحمد الواسطىّ، على جيش إلى الشام لست خلون من ذى الحجة، و عقد لسعد الأعسر على جيش آخر، و بعث بمراكب فى البحر لتقيم على السواحل الشامية، فنزل الواسطىّ فلسطين، و هو خائف من خمارويه أن يوقع به، لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه العباس، فكتب إلى أبى أحمد الموفق: يصغر أمر خمارويه، و يحرّضه على المسير إليه، فأقبل من بغداد، و انضمّ إليه إسحاق بن كنداح، و محمد بن أبى الساج، و نزل الرقة، فتسلم قنسرين و العواصم و سار إلى شيرز ، فقاتل أصحاب خمارويه، و هزمهم و دخل دمشق، فخرج خمارويه فى جيش عظيم لعشر خلون من صفر سنة إحدى و سبعين، فالتقى مع أحمد بن الموفق بنهر أبى بطرس المعروف بالطواحين من أرض فلسطين، فاقتتلا فانهزم أصحاب خمارويه، و كان فى سبعين ألفا، و ابن الموفق فى نحو أربعة آلاف، و احتوى على عسكر خمارويه بما فيه، و مضى خمارويه إلى الفسطاط، و أقبل كمين له عليه: سعد الأعسر، و لم يعلم بهزيمة خمارويه، فحارب ابن الموفق، حتى أزاله عن المعسكر، و هزمه اثنى عشر ميلا و مضى إلى دمشق، فلم يفتح له، و دخل خمارويه إلى الفسطاط لثلاث خلون من ربيع الأوّل، و سار سعد الأعسر و الواسطىّ، فملكا دمشق، و خرج خمارويه من مصر لسبع بقين من رمضان، فوصل إلى فلسطين، ثم عاد لاثنتى عشرة بقيت من شوّال، ثم خرج فى ذى القعدة سنة اثنتين و سبعين، فقتل سعدا الأعسر، و دخل دمشق لسبع خلون من المحرّم سنة ثلاث و سبعين، و سار لقتال ابن كنداح، فكانت على خمارويه، فانهزم أصحابه، و ثبت هو فى طائفة، فهزم ابن كنداح، و أتبعه حتى بلغ أصحابه سرّ من رأى، ثم اصطلحا و تظاهرا، و أقبل إلى خمارويه، فأقام فى عسكره، و دعا له فى أعماله التى بيده، و كاتب خمارويه أبا أحمد الموفق فى الصلح، فأجابه إلى ذلك، و كتب له بذلك كتابا، فورد

عليه به: فالق الخادم إلى مصر فى رجب ذكر فيه: أنّ المعتمد و الموفق و ابنه كتبوه بأيديهم، و بولاية خمارويه و ولده ثلاثين سنة على مصر و الشامات، ثم قدم خمارويه سلخ رجب،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳۴

فأمر بالدعاء لأبى أحمد الموفق، و ترك الدعاء عليه، و جعل على المظالم بمصر: محمد بن عبدة بن حرب، و بلغه مسير محمد بن أبى الساج إلى أعماله، فخرج إليه فى ذى القعدة، و لقيه شيبة العقاب من دمشق، فانهزم أصحاب خمارويه و ثبت هو، فحاربه حتى هزمه أقبح هزيمة، و عاد إلى مصر فدخلها لست بقين من جمادى الآخرة سنة ست و سبعين، ثم خرج إلى الإسكندرية لأربع خلون من شوّال، و ورد الخبر أنه دعى له بطرسوس فى جمادى الآخرة سنة سبع و سبعين، و خرج إلى الشام لسبع عشرة من ذى القعدة، و مات الموفق فى سنة ثمان و سبعين، ثم مات المعتمد فى رجب سنة تسع و سبعين، و بويع المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق، فبعث إليه خمارويه بالهدايا، و قدم من الشام لست خلون من ربيع الأوّل سنة ثمانين، فورد كتاب المعتضد بولاية خمارويه على مصر هو و ولده ثلاثين سنة، من الفرات إلى برقة، و جعل له الصلاة و الخراج و القضاء و جميع الأعمال، على أن يحمل فى كل عام مائتى ألف دينار عما مضى، و ثلثمائة ألف للمستقبل، ثم قدم رسول المعتضد بالخلع، و هى اثنتا عشرة خلعة و سيف و تاج و وشاح مع خادم فى رمضان، و عقد المعتضد نكاح قطر الندى بنت خمارويه فى سنة إحدى و ثمانين، و فيها خرج خمارويه إلى نزهته ببربوط فى شعبان، و مضى إلى الصعيد فبلغ سيوط، ثم رجع من الشرق إلى الفسطاط أوّل ذى القعدة، و خرج إلى الشام لثمان خلون من شعبان سنة اثنتين و ثمانين، فأقام بمنية الأصبغ، و منية مطر، ثم رحل حتى أتى دمشق، فقتل بها على فراشه، ذبحه جواريه و خدمه، و حمل فى صندوق إلى مصر، و كان لدخول تابوته يوم عظيم، و استقبله جواريه، و جوارى غلمانه، و نساء قوّاده، و نساء القطائع بالصياح، و ما يصنع فى المآتم، و خرج الغلمان، و قد حلوا أقبيتهم، و فيهم من سوّد ثيابه و شققها، و كانت فى البلد ضجة عظيمة، و صرخة تتعتع القلوب حتى دفن، و كانت مدّته اثنتى عشرة سنة، و ثمانية عشر يوما.

ثم ولى أبو العساكر بن خمارويه بن أحمد بن طولون لليلة بقيت من ذى القعدة سنة اثنتين و ثمانين و مائتين بدمشق، فسار إلى مصر، و اشتمل على أمور أنكرت عليه، فاستوحش من عظماء الجند و تنكر لهم، فخافوه و دأبوا فى الفساد، فخرج منتزها إلى منية الأصبغ، ففرّ جماعة من عظماء الدولة إلى المعتضد، و خلعه أحمد بن طغان، و كان على الثغر، و خلعه طغج بن جف بدمشق، فوثب جيش على عمه مضر بن أحمد بن طولون فقتله، فوثب عليه الجيش، و خلعوه و جمعوا الفقهاء و القضاة، فتبرّأ من بيعته و حللهم منها، و كان خلعه لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث و ثمانين، فولى ستة أشهر و اثنى عشر يوما، و مات فى السجن بعد أيام.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳۵

ثم ولى أبو موسى هارون بن خمارويه يوم خلع جيش، فقام طائفة من الجند، و كاتبوا ربيعة بن أحمد بن طولون، و كان بالإسكندرية، و دعوه، و وعدوه بالقيام معه، فجمع جمعا كثيرا من أهل البحيرة، و من البربر و غيرهم، و سار حتى نزل ظاهر فسطاط مصر، فخذله القوم، و خرج إليه القوّاد، فقاتلوه و أسروه لإحدى عشرة ليلة خلت من شعبان سنة أربع و ثمانين، و ضرب ألف سوط و مائتى سوط فمات، و مات المعتضد فى ربيع الآخر سنة تسع و ثمانين، و بويع ابنه محمد المكتفى بالله، و خرج القرمطىّ بالشام فى سنة تسعين، فخرج القوّاد من مصر و حاربوه، فهزمهم، و بعث المكتفى محمد بن سليمان الكاتب ، فنزل حمص، و بعث بالمراكب من الثغر إلى سواحل مصر، و أقبل إلى فلسطين، فخرج هارون يوم التروية سنة إحدى و تسعين، و سير المراكب الحربية، فالتقوا بمراكب محمد بن سليمان فى تنيس، فغلبوا، و ملك أصحاب محمد بن سليمان تنيس و دمياط، فسار هارون إلى العباسة، و معه أهله و أعمامه فى ضيق و جهد، فتفرّق عنه كثير من أصحابه و بقى فى نفر يسير، و هو متشاغل باللهو، فأجمع عمّاه: شيبان و عدىّ: ابنا أحمد بن طولون على قتله، فدخلا عليه و هو ثمل، فقتلاه ليلة الأحد لإحدى عشرة بقيت من صفر سنة اثنتين و تسعين، و سنه يومئذ اثنان و عشرون سنة، فكانت ولايته ثمان سنين و ثمانية أشهر و أياما.

ثم ولى شيبان بن أحمد بن طولون أبو المواقيت لعشر بقين من صفر، فرجع إلى الفسطاط، و بلغ طفج بن جف، و غيره من القوّاد قتل هارون، فأنكروه، و خالفوا على شيبان، و بعثوا إلى محمد بن سليمان فأمنهم، و حرّكوه على المسير إلى مصر، فسار حتى نزل العباسة، فلقيه طفج فى ناس من القوّاد كثير، فساروا به إلى الفسطاط، و أقبل إليهم عامّة أصحاب شيبان، فخاف حينئذ شيبان، و طلب الأمان فأمنه محمد بن سليمان، و خرج إليه لليلة خلت من ربيع الأوّل سنة اثنتين و تسعين و مائتين، و كانت ولايته اثنى عشر يوما، و دخل محمد بن سليمان يوم الخميس أوّل ربيع الأوّل، فألقى النار فى القطائع، و نهب أصحابه الفسطاط، و كسروا السجون، و أخرجوا من فيها، و هجموا الدور، و استباحوا الحريم، و هتكوا الرعية، و افتضوا الأبكار، و ساقوا النساء، و فعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم، و غير ذلك، و أخرج ولد أحمد بن طولون، و هم عشرون إنسانا، و أخرج قوّادهم، فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر، و خلت منهم الديار، و عفت منهم الآثار، و تعطلت منهم المنازل، و حلّ بهم الذل بعد العز، و التطريد و التشريد بعد اجتماع الشمل، و نضرة الملك، و مساعدة الأيام، ثم سيق أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان، و هو راكب،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳۶

فذبحوا بين يديه، كما تذبح الشياه، و قتل من السودان سكان القطائع خلقا كثيرا فقال أحمد بن محمد الحبيشىّ:

الحمد للّه إقرارا بما وهباقد لمّ بالأمن شعب الحق فانشعبا

اللّه أصدق هذا الفتح لا كذبفسوء عاقبة المثوى لمن كذبا

فتح به فتح الدنيا محمدهاو فرّج الظلم و الإظلام و الكربا

لا ريب رب هياج يقتضى دعةو فى القصاص حياة تذهب الريبا

رمى الإمام به عذراء غادرهفاقتض عذرتها بالسيف و اقتضبا

محمد بن سليمان أعزهمنفسا و أكرمهم فى الذاهبين أبا

سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشراأضحى عرينهم الخطىّ لا القضبا

جمّ الفضاء على اليحموم حين أتوامثل الزبا يمتحون الزبية الذأبا

أيها علوت على الأيام مرتبةأبا علىّ ترى من دونها الرتبا

لما أطال بنو طولون خطبتهممن الخطوب و عافت منهم الخطبا

هارت بهارون من ذكراك بقعتهو شيّب الرعب شيبانا و قد رعبا

و كم ترى لهم من جنة أنفو من نعيم جنى من غدرهم عطبا

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غابر ذهبا

و قال أحمد بن يعقوب:

إن كنت تسأل عن جلالة ملكهمفارتع و عج بمرابع الميدان

و انظر إلى تلك القصور و ما حوتو اسرح بزهرة ذلك البستان

و إن اعتبرت ففيه أيضا عبرةتنبيك كيف تصرّف العصران

يا قتل هارون اجتثثت أصولهمو أشبت رأس أميرهم شيبان

لم يغن عنكم بأس قيس إذا غدافى جحفل لجب و لا غسان

و عديه البطل الكمىّ و خزرجلم ينصرا بأخيهما عدنان

زفت إلى آل النبوّة و الهدىو تمزقت عن شيعة الشيطان

و قال إسماعيل بن أبى هاشم:

قف وقفة بقباب باب الساجو القصر ذى الشرفات و الأبراج

و ربوع قوم أزعجوا عن دارهمبعد الإقامة أيما إزعاج

كانوا مصابيحا لدى ظلم الدجىيسرى بها السارون فى الإدلاج

و كأنّ أوجههم إذا أبصرتهامن فضة بيضاء أو من عاج

كانوا ليوثا لا يرام حماهمفى كل ملحمة و كل هياج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳۷ فانظر إلى آثارهم تلقى لهمعلما بكل ثنية و فجاج

و عليهم ما عشت لا أدع البكامع كل ذى نظر و طرف ساجى

و قال سعيد القاص:

تجرى دمعه ما بين سحر إلى نحرو لم يجر حتى أسلمته يد الصبر

و بات و قيذا للذى خامر الحشايئنّ كما أنّ الأسير من الأسر

و هل يستطيع الصبر من كان ذا أسىيبيت على جمر و يضحى على جمر

تتابع أحداث يضيعن صبرهو غدر من الأيام و الدهر ذو غدر

أصاب على رغم الأنوف وجدعهاذوى الدين و الدنيا بقاصمة الظهر

طوى زينة الدنيا و مصباح أهلهابفقد بنى طولون و الأنجم الزهر

و فقد بنى طولون فى كل موطنأمرّ على الإسلام فقدا من القطر

فبادوا و أضحوا بعد عز و منعةأحاديث لا تخفى على كل ذى حجر

و كان أبو العباس أحمد ماجداجميل المحيّا لا يبيت على وتر

كأنّ ليالى الدهر كانت لحسنهاو إشرافها فى عصره ليلة القدر

يدل على فضل ابن طولون همةمحلقة بين المساكين و الغفر

فإن كنت تبغى شاهدا ذا عدالةيخبر عنه بالجلىّ من الأمر

فبالجبل الغربىّ خطة يشكرله مسجد يغنى عن المنطق الهذر

يدل ذوى الألباب أن بناءهو بانيه لا بالضنين و لا الغمر

بناه بآجرّ و ساج و عرعرو بالمرمر المسنون و الجص و الصخر

بعيد مدى الأقطار سام بناؤهوثيق المبانى من عقود و من جدر

فسيح رحاب يحصر الطرف دونهرقيق نسيم طيب العرف و النشر

و تنور فرعون الذى فوق قلةعلى جبل عال على شاهق و عر

بنى مسجدا فيه يروق بناؤهو يهدى به فى الليل إن ضلّ من يسرى

تخال سنا قنديله و ضياءهسهيلا إذا ما لاح فى الليل للسفر

و عين معين الشرب عين زكيةو عين أجاج للرواة و للطهر

كأن وفود النيل فى جنباتهاتروح و تغدو بين مدّ إلى جزر

فأركك بها مستنبطا لمعينهامن الأرض من بطن عميق إلى ظهر

بناء لو أنّ الجنّ جاءت بمثلهلقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

يمرّ على أرض المغافر كلهاو شعبان و الأحمور و الحىّ من بشر

قبائل لا نوء السحاب يمدّهاو لا النيل يرويها و لا جدول يجرى

و لا تنس مارستانه و اتساعهو توسعة الأرزاق للحول و الشهر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳۸ و ما فيه من قوّامه و كفاتهو رفقتهم بالمعتفين ذوى الفقر

فللميت المقبور حسن جهازهو للحيّ رفق فى علاج و فى جبر

و إن جئت رأس الجسر فانظر تأمّلاإلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر

ترى أثرا لم يبق من يستطيعهمن الناس فى بدو البلاد و لا حضر

مآثر لا تبلى و إن باد أهلهاو مجد يؤدى وارثيه إلى الفخر

لقد ضمن القبر المقدّر ذرعهأجلّ إذا ما قيس من قبتى حجر

و قام أبو الجيش ابنه بعد موتهكما قام ليث الغاب فى الأسل السمر

أتته المنايا و هو فى أمن دارهفأصبح مسلوبا من النهى و الأمر

كذاك الليالى من أعارته بهجةفيا لك من ناب حديد و من ظفر

و ورث هارون ابنه تاج ملكهكذاك أبو الأشبال ذو الناب و الهصر

و قد كان جيش قبله فى محلهو لكنّ جيشا كان مستقصر العمر

فقام بأمر الملك هارون مدّةعلى كظظ من ضيق باع و من حصر

و ما زال حتى زال و الدهر كاشح عقاربه من كل ناحية تسرى

تذكرتهم لما مضوا فتتابعواكما أرفض سلك من جمان و من شذر

فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهلهلفقدهم فليبك حزنا على مصر

ليبك بنى طولون إذ بان عصرهمفبورك من دهر و بورك من عصر

و قال أيضا:

من لم ير الهدم للميدان لم يرهتبارك اللّه ما أعلى و أقدره

لو أن عين الذى أنشأه تبصرهو الحادثات تعاديه لأكبره

كانت عيون الورى تعشوا لهيبتهإذا أضاف إليه الملك عسكره

أين الملوك التى كانت تحلّ بهو أين من كان بالإنفاذ دبره

و أين من كان يحميه و يحرسهمن كل ليث يهاب الليث منظره

صاح الزمان بمن فيه ففرّقهموحط ريب البلى فيه فدعثره

و أخلق الدهر منه حسن جدّتهمثل الكتاب محا العصر أن أسطره

دكت مناظره و اجتثّ جوسقهكأنما الخسف فاجأه فدمّره

أو هبّ إعصار نار فى جوانبهفعاد معروفه للعين منكره

كم كان يأوى إليه فى مقاصرهأحوى أغنّ غضيض الطرف أحوره

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۳۹ كم كان فيه لهم من مشرب غدقفعب صرف الردى فيه فكدّره

أين ابن طولون بانيه و ساكنهأماته الملك الأعلى فأقبره

ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكرطوبى لمن خصه رشد فذكره

و قال أحمد بن إسحاق الجفر:

و إذا ما أردت أعجوبة الدهر تراها فانظر إلى الميدان

تنظر البين و الهموم و أنواعا توالت به من الأشجان

يعلم العالم المبصر أن الدهر فيما يراه ذو ألوان

أين ما فيه من نعيم و من عيش رخيّ و نضرة و حسان

أين ذاك المسك الذى ديف بالعنبر بحتا و علّ بالزعفران

أين ذاك الخز المضاعف و الوشيو ما استخلصوا من الكتان

أين تلك القيان تشدو على العرس بما استحسنوا من الألحان

حوّز الدهر آل طولون فى هوّةنقر مسكونها غير دان

و أعاض الميدان من بعد أهليهذئابا تعوى بتلك المغانى

ثم أمر الحسين بن أحمد المادرانى متولى خراج مصر بهدم الديوان، فابتدىء فى هدمه فى شهر رمضان سنة ثلاث و تسعين و مائتين، و بيعت أنقاضه، و دثر كأنه لم يكن. فقال محمد بن طسويه:

و كأنّ الميدان ثكلى أصيبتبحبيب قد ضاع ليلة عرس

تتغشى الرياح منه محلاكان للصون فى ستور الدمقس

و بفرش الأضريج و البسط الديباج فى نعمة و فى لين لمس

و وجوه من الوجوه حسانو خدود مثل اللآلئ ملس

و كل نجلاء كالغزال و بخلاو رداح من بين حور و لعس

آل طولون كنتم زينة الأرض فأضحى الجديد أهدام لبس

و قال ابن أبى هاشم:

يا منزلا لبنى طولون قد دثراسقاك صرف الغوادى القطر و المطرا

يا منزلا صرت أجفوه و أهجرهو كان يعدل عندى السمع و البصرا

بالله عندك علم من أحبتناأم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۰

و قال:

ألا فاسأل الميدان ثم اسأل الجبلعن الملك الماضى ابن طولون ما فعل

و عن ابنه العباس إن كنت سائلاو أين أبو الجيش الفصافصة البطل

و جيش و هارون الذى قام بعدهو شيبان بالأمس الذى خانه الأمل

و من قبله أردى ربيعة يومهو كان هزبرا لا يطاق إذا حمل

و أين ذراريهم و أين جموعهمو كيف تقضى عنهم الملك فاضمحل

و أين بناء القصر و الجوسق الذىعهدناه معمور الفناء له زجل

لقد ملكوه برهة من زماننابدولتهم ثم انقضوا بانقضا الدول

فما منهم خلق يحس و لا يرىبذكر طوال الدهر لما انقضى الأجل

و صاروا أحاديثا لمن جاء بعدهمو كان بهم فى ملكهم يضرب المثل

و قال:

قف وقفة و انظر إلى الميدانو القصر ذى الشرفات و الإيوان

و الجوسق العالى المنيف بناؤهما باله قفر من السكان

أين الذين لهوا به و عنوا بهزمنا مع القينات و النسوان

يجبى الخراج إليهم فى دارهملا يرهبون غوائل الحدثان

جمعوا الجموع مع الجموع فأكثرواو استأثروا بالروم و السودان

فانظر إلى ما شيدوا من بعدهمهل فيه غير البوم و الغربان

أين الأولى حفروا العيون بأرضهو تأنقوا فيه و فى البنيان

غرسوا صنوف النخل فى ساحاتهو غرائب الأعناب و الرّمان

و الزعفران مع البهاء بأرضهو الورد بين الآس و الريحان

كانوا ملوك الأرض فى أيامهم كبراء كل مدينة و مكان

فتمزقوا و تفرّقوا فهناك هم تحت الثرى يبلون فى الأكفان

إلا أغيلمة أسارى بعدهمفى دار مضيعة و دار هوان

متلذذين بأسرهم قد شرّدواو نفوا عن الأهلين و الأوطان

و اللّه وارث كل حىّ بعدهمو له البقاء و كل شىء فان

و قال:

إن فى قبة الهواء لذى اللب معتبرو القصور المشيدات مع الدور و الحجر

و البساتين و المجالس و البيت و الزهرو الجوارى المغنيات ذوى الدل و الخفر

يتبخترن فى الحرير و فى الوشى و الحبرو ملوك عبيدهم عدد الشوك و الشجر

و جيوش مؤيدوون لدى البأس بالظفرمن صنوف السودان و الترك و الروم و الخزر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۱ عمروا الأرض مدّة ثم صاروا إلى الحفرو استبدّ الزمان من عاش منهم فلم يذر

فهم فى الهوان و الذل أسرى على خطرو هم بعد صفو عيش من الذل فى كدر

يا آل طولون ما لكم صرتم للورى سمريا آل طولون كنتم خبرا فانقضى الخبر

و قال:

مررت على الميدان معتبرا بهفناديته أين الجبال الشوامخ

خمار و عباس و أحمد قبلهمو أين ترى شبانهم و المشايخ

و أين ذرارى آل طولون بعدهمأما فيك منهم أيها الربع صارخ

و أين ثياب الخز و الوشى و الحلىو أربابها أم أين تلك المطابخ

و أين فتات المسك و العنبر الذىعنيت به دهرا و تلك اللطائخ

لقد غالك الدهر الخؤون بصرفهفأصبحت منحطا و غيرك باذخ

و قال:

مررت على الميدان بالأمس ضاحيافأبصرته قفر الجناب فراعنى

فناديت فيه يا آل طولون ما لكمفهود فما حلق بحرف أجابنى

فأذريت عينا ذات دمع غزيرةو رحت كئيب القلب مما أصابنى

و إنى عليهم ما بقيت لموجعو لست أبالى من لحانى و عابنى

و حدّث محمد بن أبى يعقوب الكاتب قال: لما كانت ليلة عيد الفطر من سنة اثنتين و تسعين و مائتين تذكرت ما كان فيه آل طولون فى مثل هذه الليلة من الزيّ الحسن بالسلاح، و ملوّنات البنود و الأعلام، و شهرة الثياب، و كثرة الكراع و أصوات الأبواق و الطبول، فاعترانى لذلك فكرة، و نمت فى ليلتى، فسمعت هاتفا يقول: ذهب الملك التملك و الزينة لما مضى بنو طولون.

و قال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسىّ فى كتاب حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة: رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون قال: فإذا كانت أسماء الشعراء فى ثنتى عشرة كراسة، كم يكون شعرهم؟ مع أنه لم يوجد من لدك الآن ديوان واحد. و قال أبو الخطاب بن دحية فى كتاب النبراس: و خربت قطائع أحمد بن طولون، يعنى فى الشدّة العظمى زمن الخليفة المستنصر، و هلك جميع من كان بها من الساكنين، و كانت نيفا على مائة ألف دار نزهة للناظرين محدقة بالجنان و البساتين، و اللّه يرث الأرض و من عليها، و هو خير الوارثين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۲

ذكر من ولى مصر من الأمراء بعد خراب القطائع إلى أن بنيت قاهرة المعز على يد القائد جوهر

و كان أوّل من ولى مصر بعد زوال دولة بنى طولون و خراب القطائع.

محمد بن سليمان الكاتب كاتب لؤلؤ غلام أحمد بن طولون دخل مصر يوم الخميس مستهلّ ربيع الأوّل سنة اثنتين و تسعين و مائتين، و دعا على المنبر لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده، و جعل أبا علىّ الحسين بن أحمد المادرانىّ على الخراج عوضا عن أحمد بن علىّ المادرانىّ.

ثم ورد كتاب المكتفى بولاية: عيسى بن محمد النوشرىّ أبى موسى، فولى على الصلاة، و دخل خليفته لأربع عشرة خلت من جمادى الأولى، فتسلم الشرطتين و سائر الأعمال، ثم قدم عيسى لسبع خلون من جمادى الآخرة، و خرج محمد بن سليمان مستهلّ رجب، و كان مقامه بمصر أربعة أشهر، فأخرج كل من بقى من الطولونية، فلما بلغوا دمشق، انخنس عنهم محمد بن علىّ الخليج فى جمع كثير ممن كره مفارقة مصر من القوّاد، فعقدوا له عليهم، و بايعوه بالإمرة فى شعبان، و رجع إلى مصر، فبعث إليه النوشرىّ بجيش أوّل رمضان، و قد دخل أرض مصر، ثم خرج إليه النوشرى، و عسكر بباب المدينة أوّل ذى القعدة، و سار إلى العباسة، ثم رجع لثلاث عشرة خلت منه، و خرج إلى الجيزة من غده و أحرق الجسرين، و سار يريد الإسكندرية، ففرّ عنه طائفة إلى ابن الخليج، فبعث إليه بجيش، فهزمه و سار إلى الصعيد.

و دخل محمد بن الخليج الفسطاط لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة، فوضع العطاء، و فرض الفروض، و قدم أبو الأعز من قبل المكتفى فى طلب ابن الخليج، فخرج إليه لثلاث خلون من المحرّم سنة ثلاث و تسعين و حاربه، فانهزم منه أبو الأعز، و أسر من أصحابه جمعا كثيرا، و عاد لثمان بقين منه، فقدم فاتك المعتضدى من بغداد فى البرّ، فعسكر و قدم دميانة فى المراكب، فنزل فاتك النويرة ، فخرج ابن الخليج و عسكر بباب المدينة، و قام فى الليل بأربعة آلاف من أصحابه ليبيت فاتكا، فأضلوا الطريق، و أصبحوا قبل أن يبلغوا النويرة، فعلم بهم فاتك، فنهض بأصحابه، و حارب ابن الخليج، فانهزم عنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۳

أصحابه، و ثبت فى طائفة، ثم انهزم إلى الفسطاط لثلاث خلون من رجب، فاستتر، و دخل دميانة فى مراكب الثغور، و أقبل عيسى النوشرى، و معه الحسين المادرانىّ، و من كان معهما لخمس خلون منه، فعاد النوشرى إلى ما كان عليه من صلاتها، و المادرانىّ إلى ما كان عليه من الخراج، و عرف النوشرىّ بمكان ابن الخليج، فهجم عليه و قيده لست خلون من رجب، و كانت مدّة ابن الخليج بمصر

سبعة أشهر و عشرين يوما، و دخل فاتك فى عسكره إلى الفسطاط لعشر خلون من رجب، فأخرج ابن الخليج فى البحر لست خلون من شعبان، فلما قدم بغداد طيف به و بأصحابه و هم ثلاثون نفرا، فكان يوما مذكورا، و ابتدئ فى هدم ميدان بنى طولون فى شهر رمضان، و بيعت أنقاضه، و خرج فاتك إلى العراق للنصف من جمادى الأولى سنة أربع و تسعين، و أمر النوشرى بنفى المؤنثين، و منع النوح و النداء على الجنائز، و أمر بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلاتين، ثم أمر بفتحه بعد أيام، و مات المكتفى فى ذى القعدة سنة خمس و تسعين، فشغب الجند بمصر، و حاربوا النوشرىّ على طلب مال البيعة، فظفر بجماعة منهم، و بويع جعفر المقتدر، فأقرّ النوشرى على الصلاة، و قدم زيادة اللّه بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية مهزوما من أبى عبد اللّه الشيعىّ فى رمضان سنة ست و تسعين إلى الجيزة، فمنعه النوشرى من العبور، و كانت بين أصحابه، و بين جند مصر منافسة، ثم أذن له أن يعبر وحده، و مات النوشرى لأربع بقين من شعبان سنة سبع و تسعين، و هو وال، فكانت ولايته خمس سنين و شهرين و نصفا، منها مدّة ابن الخليج سبعة أشهر و عشرون يوما، و قام من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى.

ثم ولى تكين الخزرىّ أبو منصور، من قبل المقتدر على الصلاة، فدعى له بها يوم الجمعة لإحدى عشرة خلت من شوّال، و قدم خليفته لسبع بقين منه، ثم قدم تكين لليلتين خلتا من ذى الحجة، و تقدّم إليه بالجدّ فى أمر المغرب، و الاحتراس منه، فبعث جيشا إلى برقة عليه أبو اليمن، فحاربه حباسة بن يوسف بعساكر المهدىّ عبيد اللّه الفاطمىّ صاحب إفريقية، و استولى على برقة، و سار إلى الإسكندرية فى زيادة على مائة ألف، فدخلها فى المحرّم سنة اثنتين و ثلثمائة، فقدمت الجيوش من العراق مددا لتكين فى صفر، و قدم الحسين المادرانىّ، و أحمد بن كيغلغ فى جمع من القوّاد، و برزت العساكر إلى الجيزة فى جمادى الأولى، و خرج تكين، فكانت واقعة حباسة:

قتل فيها آلاف من الناس، و عاد حباسة إلى المغرب، و قدم مونس الحادم من بغداد فى جيوشه للنصف من رمضان، و معه جمع من الأمراء، فنزل الحمراء، و لقى الناس منهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۴

شدائد، و خرج ابن كيغلغ إلى الشام فى رمضان، و صرف تكين لأربع عشرة خلت من ذى القعدة صرفه مؤنس، فخرج لسبع خلون من ذى الحجة، و أقام مونس يدعى و يخاطب بالأستاذ.

ثم ولى: ذكا الرومىّ أبو الحسن الأعور من قبل المقتدر على الصلاة، فدخل لثنتى عشرة خلت من صفر سنة ثلاث و ثلثمائة، و خرج موسى بجميع جيوشه لثمان خلون من ربيع الآخر، و خرج ذكا إلى الإسكندرية فى المحرّم سنة أربع و ثلثمائة، ثم عاد فى ثامن ربيع الأوّل، و تتبع كل من يومأ إليه بمكاتبة المهدىّ صاحب إفريقية، فسجن منهم، و قطع أيدى أناس، و أرجلهم، و جلا أهل لوبية و مراقية إلى الإسكندرية خوفا من صاحب برقة، و سير العساكر إلى الإسكندرية، ثم فسد ما بينه و بين الرعية بسبب سب الصحابة رضى اللّه عنهم، و سب القرآن، و قدمت عساكر المهدىّ صاحب إفريقية إلى لوبية و مراقية عليها أبو القاسم، فدخل الإسكندرية ثامن صفر سنة سبع و ثلثمائة، و فرّ الناس من مصر إلى الشام فى البرّ و البحر، فهلك أكثرهم، و أخرج ذكا الجند المخالفون له، فعسكر بالجيزة، و قدم أبو الحسن بن المادرانىّ واليا على الخراج، فوضع العطاء، و جدّ ذكا فى أمر الحرب، و احتفر خندقا على عسكره بالجيزة، فمرض و مات لإحدى عشرة خلت من ربيع الأوّل بالجيزة، فكانت إمرته أربع سنين و شهرا.

فولى: تكين مرّة ثانية من قبل المقتدر، و قدمت جيوش العراق عليها، محمود بن حمل، و إبراهيم بن كيغلغ فى ربيع الأوّل، و دخل تكين لإحدى عشرة خلت من شعبان، فنزل الجيزة، و حفر خندقا ثانيا، و أقبلت مراكب المغرب، فظفر بها فى شوّال، و قدم مونس الخادم من بغداد بعساكره لخمس خلون من المحرّم سنة ثمان و ثلثمائة، فنزل الجيزة، و كان فى نحو ثلاثة آلاف و سيّر ابن كيغلغ إلى الأشمونين، فمات بالبهنساء أوّل ذى القعدة، و ملك أصحاب المهدىّ الفيوم، و جزيرة الأشمونين، فقدم جنى الخادم من بغداد فى عسكر آخر ذى الحجة، فعسكر بالجيزة، فكانت حروب مع أصحاب المهدىّ بالفيوم و الإسكندرية، و رجع أبو القاسم بن المهدىّ إلى

برقة، و صرف تكين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأوّل سنة تسع و ثلثمائة.

فولّى مونس: أبا قابوس محمود بن حمل، فأقام ثلاثة أيام، و عزله ورد تكين لخمس بقين من ربيع الأوّل، ثم صرفه بعد أربعة أيام، و أخرجه إلى الشام فى أربعة آلاف من أهل الديوان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۵

ثم ولى: هلال بن بدر من قبل المقتدر على الصلاة، فدخل لست خلون من ربيع الآخر، و خرج مونس لثمان عشرة خلت منه و معه ابن حمل، فشغب الجند على هلال، و خرجوا إلى منية الأصبغ، و معهم محمد بن طاهر صاحب الشرط، فكثر النهب و القتل و الفساد بمصر، إلى أن صرف عنها فى ربيع الآخر سنة إحدى عشرة و ثلثمائة و خرج فى نفر من أصحابه.

فولى: أحمد بن كيغلغ من قبل المقتدر على الصلاة، و قدم ابنه أبو العباس خليفة له أوّل جمادى الأولى، ثم قدم و معه محمد بن الحسين بن عبد الوهاب المادرانىّ على الخراج فى رجب، فأحضرا الجند، و وضعا العطاء، و أسقطا كثيرا من الرجالة، و كان ذلك بمنية الأصبغ، فثار الرجالة به، ففرّ إلى فاقوس ، و أدخل المادرانىّ إلى المدينة لثمان خلون من شوال، و أقام ابن كيغلغ بفاقوس إلى أن صرف بقدوم رسول تكين فى ثالث ذى القعدة.

فولى: تكين المرّة الثالثة من قبل المقتدر على الصلاة، و خلفه ابن منجور إلى أن قدم يوم عاشوراء سنة اثنتى عشرة و ثلثمائة، فأسقط كثيرا من الرجالة، و كانوا أهل الشرّ و النهب، و نادى ببراءة الذمّة، ممن أقام منهم بالفسطاط، و صلى الجمعة فى دار الإمارة بالعسكر، و ترك حضور الجمعة فى مسجد العسكر، و المسجد الجامع العتيق فى سنة سبع عشرة، و لم يصلّ قبله أحد من الأمراء فى دار الإمارة الجمعة، ثم قتل المقتدر فى شوّال سنة عشرين، و بويع أبو منصور القاهر بالله، فأقرّ تكين حتى مات فى سادس عشر ربيع الأوّل سنة إحدى و عشرين و ثلثمائة، فحمل إلى بيت المقدس، و كانت إمرته هذه تسع سنين و شهرين و خمسة أيام.

فقام ابنه محمد بن تكين موضعه، و قام أبو بكر محمد بن علىّ المادرانىّ بأمر البلد كله، و نظر فى أعماله فشغب الجند عليه فى طلب أرزاقهم، و أحرقوا دوره، و دور أهله، فخرج ابن تكين إلى منية الأصبغ، فبعث إليه المادرانىّ يأمره بالخروج من أرض مصر، و عسكر بباب المدينة، و أقام هناك بعدما رحل ابن تكين إلى سلخ ربيع الأوّل، فلحق ابن تكين بدمشق، ثم أقبل يريد مصر، فمنعه المادرانىّ.

ثم ولى: محمد بن طغج بن جف الفرغانىّ أبو بكر من قبل القاهر بالله على الصلاة، فورد كتابه لسبع خلون من رمضان سنة إحدى و عشرين، و دعى له، و هو بدمشق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۶

مدّة اثنتين و ثلاثين يوما إلى أن قدم رسول أحمد بن كيغلغ بولايته الثانية من قبل القاهر بالله لتسع خلون من شوّال، و استخلف أبا الفتح بن عيسى النوشرىّ، فشغب الجند فى أرزاقهم على المادرانىّ صاحب الخراج، فاستتر منهم، فأحرقوا دوره و دور أهله، و كانت فتن قتل فيها جماعة إلى أن أتاهم محمد بن تكين من فلسطين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأوّل سنة اثنتين و عشرين، فأنكر المادرانىّ ولايته، و تعصب له طائفة، و دعى له بالإمارة، و خرج قوم إلى الصعيد فيهم: ابن النوشرىّ، فأمّروه عليهم و هم على الدعاء لابن كيغلغ، فنزل منية الأصبغ لثلاث خلون من رجب، فلحق به كثير من أصحاب تكين، ففرّ ابن تكين ليلا، و دخل ابن كيغلغ المدينة لست خلون منه، و كان مقام ابن تكين بالفسطاط مائة يوم و اثنى عشر يوما، و خلع القاهر، و بويع أبو العباس الراضى بالله، فعاد ابن تكين، و أظهر أنّ الراضى ولّاه فخرج إليه العسكر، و حاربوه فيما بين بلبيس و فاقوس، فانهزم وجىء به إلى المدينة، فحمل إلى الصعيد، فورد الخبر بأنّ محمد بن طغج سار إلى مصر بولاية الراضى له، فبعث إليه ابن كيغلغ بجيش ليمنعوه من دخول الفرما، فأقبلت مراكب ابن طغج إلى تنيس، و سارت مقدّمته فى البرّ، و كانت بينهما حروب فى تاسع عشر شعبان سنة ثلاث و عشرين كانت لأصحاب ابن طغج، و أقبلت مراكبه إلى الفسطاط سلخ شعبان، و أقبل فعسكر ابن كيغلغ للنصف من رمضان، و لاقاه لسبع بقين منه، فسلم ابن كيغلغ إلى محمد بن طغج من غير قتال.

و ولى: محمد بن طغج الثانية من قبل الراضى على الصلاة و الخراج، فدخل لست بقين من رمضان، و قدم أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن فرات بالخلع لمحمد بن طغج، و كانت حروب مع أصحاب ابن كيغلغ انهزموا منها إلى برقة، و ساروا إلى القائم بأمر اللّه محمد بن المهدىّ بالمغرب، فحرّضوه على أخذ مصر، فجهز جيشا إلى مصر، فبعث ابن طغج عسكره إلى الإسكندرية و الصعيد، ثم ورد الكتاب من بغداد بالزيارة فى اسم الأمير محمد بن طغج، فلقب الإخشيد و دعى له بذلك على المنبر فى رمضان سنة سبع و عشرين، و سار محمد بن رائق إلى الشامات، ثم سار فى المحرّم سنة ثمان و عشرين، و استخلف أخاه الحسن بن طغج، فنزل الفرما، و ابن رائق بالرملة، فسفر بينهما الحسن بن طاهر بن يحيى العلوىّ فى الصلح، حتى تمّ، و عاد إلى الفسطاط مستهل جمادى الأولى، ثم أقبل ابن رائق من دمشق فى شعبان، فسير إليه الإخشيد الجيوش، ثم خرج لست عشرة خلت من شعبان، و التقيا للنصف من رمضان بالعريش، فكانت بينهما وقعة عظيمة انكسرت فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۷

ميسرة الإخشيد، ثم حمل بنفسه، فهزم أصحاب ابن رائق، و أسر كثيرا منهم، و أثخنهم قتلا و أسرا، و مضى ابن رائق فقتل الحسين بن طغج باللجون ، و دخل الإخشيد الرملة بخمسمائة أسير، فتداعى ابن طغج و ابن رائق إلى الصلح، فمضى ابن رائق إلى دمشق على صلح، و قدم الإخشيد محمد بن طغج إلى مصر لثلاث خلون من المحرّم سنة تسع و عشرين، و مات الراضى باللّه، و بويع المتقى للّه إبراهيم فى شعبان، فأقرّ الإخشيد، و قتل محمد بن رائق بالموصل، قتله بنو حمدان فى شعبان سنة ثلاثين و ثلثمائة، فبعث الإخشيد بجيوشه إلى الشام، ثم سار لست خلون من شوّال، و استخلف أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج، و دخل دمشق، ثم عاد لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة إحدى و ثلاثين، فنزل البستان الذى يعرف اليوم بالكافوريّ من القاهرة، ثم دخل داره، و أخذ البيعة لابنه أبى القاسم أونوجور على جميع القوّاد، آخر ذى القعدة، و سار المتقى للّه إلى بلاد الشام، و معه بنو حمدان، فسار الإخشيد لثمان خلون من رجب سنة اثنتين و ثلاثين، و استخلف أخاه الحسن، فلقى المتقى، ثم رجع فنزل البستان لأربع خلون من جمادى الأولى سنة ثلاث و ثلاثين، و خلع المتقى، و بويع عبد اللّه المستكفى لسبع خلون من جمادى الآخرة، فأقرّ الإخشيد، و بعث الإخشيد بحانك و كافور فى الجيوش إلى الشام.

ثم خرج لخمس خلون من شعبان سنة ست و ثلاثين، و استخلف أخاه الحسن، فلقى علىّ بن عبد اللّه بن حمدان بأرض قنسرين و حاربه، و مضى فأخذ منه حلب، و خلع المستكفى، و دعى للمطيع للّه الفضل بن جعفر فى شوّال سنة أربع و ثلاثين، فأقرّ الإخشيد إلى أن مات بدمشق يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجة.

فولى بعده ابنه (أونوجور) أبو القاسم باستخلافه إياه، و قبض على أبى بكر محمد بن علىّ بن مقاتل فى ثالث المحرّم سنة خمس و ثلاثين، و جعل مكانه على الخراج محمد بن علىّ المادرانىّ، و قدم العسكر من الشام أوّل صفر، فلم يزل أونوجور واليا إلى أن مات لسبع خلون من ذى القعدة سنة سبع و أربعين و ثلثمائة، و حمل إلى القدس، فدفن عند أبيه، و كان كافور متحكما فى أيامه، و يطلق له فى السنة أربعمائة ألف دينار، فلما مات، قوى كافور، و كانت ولايته أربع عشرة سنة و عشرة أشهر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۸

فأقام كافور أخاه علىّ بن الإخشيد أبا الحسن لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة، فأقرّ المطيع للّه على الحرب و الخراج بمصر و الشام و الحرمين، و صار خليفته على ذلك كافور غلام أبيه، و أطلق له ما كان يطلق لأخيه فى كل سنة، و فى سنة إحدى و خمسين ترفع السعر، و اضطربت الإسكندرية و البحيرة بسبب المغاربة الواردين إليها، و تزايد الغلاء، و عز وجود القمح، و قدم القرمطىّ إلى الشام فى سنة ثلاث و خمسين، و قلّ ماء النيل، و نهبت ضياع مصر، و تزايد الغلاء، و سار ملك النوبة إلى أسوان، و وصل إلى إخميم، فقتل و نهب و أحرق، و اشتدّ اضطراب الأعمال، و فسد ما بين كافور و بين علىّ بن الإخشيد، فمنع كافور من الاجتماع به، و اعتلّ علىّ بعد ذلك علة أخيه، و مات لإحدى عشرة خلت من المحرّم سنة خمس و خمسين و ثلثمائة، فحمل إلى القدس، و بقيت مصر بغير أمير

أياما، و لم يدع بها إلّا للمطيع للّه وحده، و كافور يدبر أمورها، و معه أبو الفضل جعفر بن الفرات.

ثم ولى كافور الخصىّ الأسود مولى الإخشيد من قبل المطيع على الحرب و الخراج، و جميع أمور مصر و الشام و الحرمين، فلم يغير لقبه، و إنما كان يدعى و يخاطب بالأستاذ ، و أخرج كتاب المطيع بولايته لأربع بقين من المحرّم سنة خمس و خمسين، فلم يزل إلى أن توفى لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع و خمسين و ثلثمائة.

فولى أحمد بن علىّ الإخشيد أبو الفوارس و سنة إحدى عشرة سنة فى يوم وفاة كافور، و جعل الحسين بن عبيد اللّه بن طغج يخلفه، و أبو الفضل جعفر بن الفرات يدبر الأمور و سمول الإخشيدىّ العساكر إلى أن قدم جوهر القائد من المغرب بجيوش المعز لدين اللّه فى سابع عشر شعبان سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، ففرّ الحسين بن عبيد اللّه، و تسلم جوهر البلاد، كما سيأتى إن شاء اللّه تعالى، فكانت مدّة الدعاء لبنى العباس بمصر، منذ ابتدئت دولتهم إلى أن قدم القائد جوهر إلى مصر: مائتى سنة، و خمسا و عشرين سنة، و مدّة الدولة الإخشيدية بها أربعا و ثلاثين سنة و عشرة أشهر، و أربعة و عشرين يوما، و منذ افتتحت مصر إلى أن انتقل كرسىّ الإمارة منها إلى القاهرة ثلثمائة سنة و سبع و ثلاثون سنة و أشهر، و اللّه تعالى أعلم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۴۹

ذكر ما كانت عليه مدينة الفسطاط من كثرة العمارة

قال ابن يونس عن الليث بن سعد: أن حكيم بن أبى راشد حدّثه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن: أنه وقف على جزار، فسأله عن السعر؟ فقال: بأربعة أفلس الرطل، فقال له أبو سلمة: هل لك أن تعطينا بهذا السعر ما بدا لنا و بدا لك؟ قال: نعم، فأخذ منه أبو سلمة، و مرّ فى القصبة، حتى إذا أراد أن يوفيه، قال: بعثنى بدينار، ثم قال: اصرفه فلوسا، ثم وفه.

و قال الشريف أبو عبد اللّه محمد بن أسعد الجوانىّ النسابة فى كتاب النقط على الخطط: سمعت الأمير تأييد الدولة تميم بن محمد المعروف بالضمضام يقول: فى سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة، و حدّثنى القاضى أبو الحسين علىّ بن الحسين الخلعىّ عن القاضى أبى عبد اللّه القضاعىّ قال: كان فى مصر الفسطاط من المساجد، ستة و ثلاثون ألف مسجد، و ثمانية آلاف شارع مسلوك، و ألف و مائة، و سبعون حماما، و إن حمام جنادة فى القرافة ما كان يتوصل إليها إلّا بعد عناء من الزحام، و إن قبالتها فى كل يوم جمعة خمسمائة درهم.

و قال القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعىّ فى كتاب الخطط: إنه طلب لقطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون ألف تكة بعشرة آلاف دينار من أثمان كل تكة بعشرة دنانير، فوجدت فى السوق فى أيسر وقت، و بأهون سعى، و ذكر عن القاضى أبى عبيد: أنه لما صرف عن قضاء مصر كان فى المودع مائة ألف دينار، و إنّ فائقا مولى أحمد بن طولون اشترى دارا بعشرين ألف دينار، و سلم الثمن إلى البائعين، و أجلهم شهرين، فلما انقضى الأجل سمع فائق صياحا عظيما و بكاء فسأل عن ذلك؟ فقيل: هم الذين باعوا الدار، فدعاهم و سألهم عن ذلك؟ فقالوا: إنما نبكى على جوارك، فأطرق و أمر بالكتب، فردّت عليهم، و وهب لهم الثمن، و ركب إلى أحمد بن طولون، فأخبره فاستصوب رأيه، و استحسن فعله.

و يقال: إنه كان لفائق ثلثمائة فرشة كل فرشة لحظية مثمنة، و إنّ دار الحرم بناها خمارويه لحرمه، و كان أبوه اشتراها له، فقام عليه الثمن و أجرة الصناع و البناء بسبعمائة ألف دينار، و إنّ عبد اللّه بن أحمد بن طباطبا الحسينىّ دخل الجامع، فلم يجد مكانا فى الصفّ الأوّل، فوقف فى الصف الثانى، فالتفت أبو حفص بن الجلاب، فلما رآه تأخر، و تقدّم الشريف مكانه، فكافأه على ذلك بنعمة حملها إليه، و دارا ابتاعها له، و نقل أهله إليها بعد أن كساهم و حلّاهم.

و ذكر غير القضاعىّ: أنه دفع إليه خمسمائة دينار قال: و يقال: إنه أهدى إلى أبى جعفر الطحاوىّ كتبا قيمتها ألف دينار، و إنّ رشيقا الإخشيدىّ استحجبه أبو بكر محمد بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵۰

عليّ المادرانيّ، فلما مضت عليه سنة رفع فيه أنه كسب عشرة آلاف دينار، فخاطبه في ذلك، فحلف بالإيمان الغليظة على بطلان ذلك، فأقسم أبو بكر المادرانيّ بمثل ما أقسم به لئن خرجت سنتنا هذه، و لم تكسب هذه الجملة لأصحبتني، و لم يزل في صحبته إلى أن صودر أبو بكر، فأخذ منه، و من رشيق مال جزيل، و ذكر: أن الحسن بن أبي المهاجر موسى بن إسماعيل بن عبد الحميد بن بحر بن سعد كان على البريد في زمن أحمد بن طولون، و قتله خمارويه، و سبب ذلك ما كان في نفس عليّ بن أحمد المادرانيّ منه، فأغرى خمارويه به، و قال: قد بقي لأبيك مال غير الذي ذكره في وصيته، و لم يقف عليه غير ابن مهاجر، فطالبه، فلم يزل خمارويه بابن مهاجر إلى أن وصف له موضع المال من دار خمارويه، فأخرج فكان مبلغه ألف ألف دينار، فسلمه إلى أحمد المادرانيّ، فحمله إلى داره، و أقبلت توقيعات خمارويه فأخرج، فكان مبلغه ألف ألف دنار، فسلمه أموال الضياع و المرافق، و حصلت له تلك الأموال، و لم يضع يده عليها إلى أن قتل، و صودر أبو بكر محمد بن عليّ في أيام الإخشيد، و قبضت ضياعه، فعاد إلى تلك الألف ألف دينار مع ما سواها من ذخائره و أعراضه و عقده، فما ظنك برجل ذخيرته ألف ألف دينار، سوى ما ذكر عن أبي بكر محمد بن عليّ المادرانيّ أنه قال: بعث إليّ أبو الجيش خمارويه أن أشترى له أردية و أقنعة للجوارى، و عمل دعوة خلا فيها بنفسه و بهم، و غدوت متعرّفا لخبره، فقيل له: إنه طرب لما هو فيه، فنثر دنانير على الجوارى و الغلمان، و تقدّم إليهم أنّ ما سقط من ذلك في البركة، فهو لمحمد بن عليّ كاتبي، فلما حضرت، و بلغني ذلك أمرت الغلمان، فنزلوا في البركة، فأصعدوا إليّ منها سبعين ألف دينار، فما ظنك بمال نثر على أناس فتطاير منه إلى بركة ماء هذا المبلغ.

و قال ابن سعيد في كتاب المعرب في حل المغرب: و في الفسطاط دار تعرف بعبد العزيز يصب فيها لمن بها في كل يوم أربعمائة راوية ماء، و حسبك من دار واحدة يحتاج أهلها في كل يوم إلى هذا القدر من الماء.

و قال ابن المتوّج في كتاب إيقاظ المتغفل و اتعاظ المتأمّل عن ساحل مصر، و رأيت من نقل عمن نقل عمن رأى الأسطال التي كانت بالطاقات المطلة على النيل، و كان عددها ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر، و أطناب بها ترخي و تملأ. أخبرني بذلك من أثقل بنقله، قال:

و كان بالفسطاط في جهته الشرقية حمام من بناء الروم عامرة زمن أحمد بن طولون. قال الراوى: دخلتها في زمن خمارويه بن أحمد بن طولون، و طلبت بها صانعا يخدمني، فلم أجد فيها صانعا متفرّغا لخدمتي، و قيل لي: إن كل صانع معه اثنان يخدمهم و ثلاثة، فسألت كم فيها من صانع؟ فأخبرت: أنّ بها سبعين صانعا قلّ من معه دون ثلاثة، سوى من قضى حاجته، و خرج قال: فخرجت و لم أدخله لعدم من يخدمني بها، ثم طفت غيرها، فلم أقدر على من أجده فارغا إلّا بعد أربع حمامات، و كان الذي خدمني فيها نائبا، فانظر رحمك اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵۱

ما اشتمل عليه هذا الخبر، مع ما ذكره القضاعيّ من عدد الحمامات، و أنها ألف و مائة و سبعون حماما، تعرف من ذلك كثرة ما كان بمصر من الناس، هذا و السعر راخ و القمح كل خمسة أرادب بدينار، و بيعت عشرة أرادب بدينار في زمن أحمد بن طولون.

قال ابن المتوّج: خطة مسجد عبد اللّه أدركت بها آثار دار عظيمة، قيل: إنها كانت دار كافور الإخشيديّ، و يقال: إن هذه الخطة تعرف بسوق العسكر، و كان به مسجد الزكاة، و قيل: إنه كان منه قصبة سوق متصلة إلى جامع أحمد بن طولون، و أخبرني بعض المشايخ العدول عن والده، و كان من أكابر الصلحاء أنه قال: عددت من مسجد عبد اللّه إلى جامع ابن طولون ثلثمائة و تسعين قدر حمص مصلوق بقصبة هذا السوق بالأرض، سوى المقاعد و الحوانيت التي بها الحمص، فتأمّل أعزك اللّه ما في هذا الخبر مما يدل على عظمة مصر، فإن هذا السوق كان خارج مدينة الفسطاط، و موضعه اليوم الفضاء الذي بين كوم الجارح و بين جامع ابن طولون، و من المعروف أن الأسواق التي تكون بداخل المدينة أعظم من الأسواق التي هي خارجها، و مع ذلك ففي هذا السوق من صنف

واحد من المآكل هذا القدر، فكم ترى تكون جملة ما فيه من سائر أصناف المآكل، و قد كان إذ ذاك بمصر عشرة أسواق كلها أو أكثرها أجلّ من هذا السوق، قال: و درب السفافير بنى فيه زقاق بنى الرصاص، كان به جماعة إذا عقد عندهم عقد لا يحتاجون إلى غريب، و كانوا هم و أولادهم نحوا من أربعين نفسا.

و قال ابن زولاق فى كتاب سيرة المادرانيين: و لما قدم الأستاذ مونس الخادم من بغداد إلى مصر استدعى أبو علىّ الحسين بن أحمد المادرانىّ المعروف بأبى زنبور الدقاق، و هو الذى نسميه اليوم الطحان، و قال: إن الأستاذ مؤنسا قد وافى، ولى بمشتول قدر ستين ألف أردب قمحا، فإذا وافى، فقم له بالوظيفة، فكان يقوم له بما يحتاج إليه من دقيق حوارى مدّة شهر، فلما كمل الشهر قال كاتب مونس للدقاق: كم لك حتى ندفعه إليك؟

فأعلمه الخبر، فقال: ما أحسب الأستاذ يرضى أن يكون فى ضيافة أبى علىّ، و أعلم مونسا بذلك، فقال: أنا آكل خبز حسين؟! لا يبرح الرجل حتى يقبض ماله، فمضى الدقاق و علم أبا زنبور، فقام من فوره إلى مونس، فأكب على رجليه، فاحتشم منه، و قال: و اللّه لا أجيبك إلا هذا الشهر الذى مضى و لا تعاود، ثم رجع فقال الدقاق: قم له بالوظيفة فى المستقبل و اعمل ما يريده؟ قال: فجئته و قد فرغ القمح، و معى الحساب، و أربعمائة دينار قال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵۲

إيش هذا؟ فقلت: بقية ذلك القمح، فقال: أعفنى منه و تركه، فتأمّل ما اشتمل عليه هذا الخبر من سعة حال كاتب من كتاب مصر، كيف كان له فى قرية واحدة هذا القدر من صنف القمح، و كيف صار مما يفضل عنه، حتى يجعله ضيافة، و كيف لم يعبأ بأربعمائة دينار، حتى وهبها لدقاق قمح، و ما ذاك إلا من كثرة المعاش، و قس عليه باقى الأحوال.

و قال عن أبى بكر محمد بن علىّ المادرانىّ: أنه حج اثنتين و عشرين حجة متوالية، أنفق فى كل حجة مائة ألف دينار، و خمسين ألف دينار، و أنه كان يخرج معه بتسعين ناقعة لقبته التى يركبها، و أربعمائة لجهازه و ميرته، و معه المحامل فيها أحواض البقل، و أحواض الرياحين، و كلاب الصيد، و ينفق على الأشراف، و أولاد الصحابة، و لهم عنده ديوان بأسمائهم، و أنه أنفق فى خمس حجات أخر ألفى ألف دينار، و مائتى ألف دينار، و كانت جاريته تواصل معه الحج، و معها لنفسها ثلاثون ناقة لقبتها، و مائة و خمسون عربيا لجهازها، و أحصى ما يعطيه كل شهر لحاشيته، و أهل الستر، و ذوى الأقدار جراية من الدقيق الحوارى، فكان بضعا و ثمانين ألف رطل، و كان سنة القرمطىّ بمكة، فمن جملة ما ذهب له به مائتا قميص ديبقى ثمن كل ثوب منها خمسون دينارا، و قال مرّة: و هو فى عطلته أخذ منى محمد بن طفج الإخشيد عينا و عرضا يبلغ نيفا و ثمانين و يبة دنانير، فاستعظم من حضر ذلك، فقال ابنه الذى أخذ أكثر: و أنا أوقفه عليه، ثم قال لأبيه: يا مولاى أليس نكتب ثلاث مرّات؟ قال: قريب منها، قال: و عرض و عين؟ قال: كذلك، فأمر بعض الحساب بضبط ذلك، فجاء ما ينيف عن ثلاثين أردبا من ذهب؟! فانظر ما تضمنته أخبار المادرانىّ، و قس عليها بقية أحوال مصر، فما كان سوى كاتب الخراج، و هذه أمواله كما قد رأيت.

و قال الشريف الجوانىّ: إن أبا عبد اللّه محمد بن مفسر قاضى مصر سمع بأن المادرانىّ عمل فى أيامه الكعك المحشوّ بالسكر، و القرص الصغار المسمى افطن له، فأمرهم بعمل الفستق الملبس بالسكر الأبيض الفانيد المطيب بالمسك، و عمل منه فى أوّل الحال أشياء عوض لبه: لب ذهب فى صحن واحد، فمضى عليه جملة، و خطف قدّامه تخاطفه الحاضرون، و لم يعد لعمله بل الفستق الملبس، و كان قد سمع فى سيرة المادرانيين أنه عمل له هذا الإفطن له، و فى كل واحدة خمسة دنانير، و وقف أستاذ على السماط، فقال لأحد الجلساء: افطن له، و كان عمل على السماط عدّة صحون من ذلك الجنس، لكن ما فيه الدنانير صحن واحد، فلما رمز الأستاذ لذلك الرجل بقوله: افطن له، و أشار إلى الصحن تناول ذلك الرجل منه، فأصاب الذهب، و اعتمد عليه، فحصل له جملة، و رآه الناس و هو إذا أكل يخرج من فمه، و يجمع بيده، و يحط فى حجره، فتنبهوا له، و تزاحموا عليه فقيل لذلك من يومئذ: افطن له.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵۳

و قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ مصر: حدّثنى بعض أصحابنا بتفسير رؤيا رآها غلام ابن عقيل الخشاب عجيبة، فكانت حقا، كما فسرت، فسألت غلام ابن عقيل عنها؟ فقال لى: أنا أخبرك، كان أبى فى سوق الخشابين فأنفق بضاعته، ورثت حاله و ماله، فأسلمتنى أمى إلى ابن عقيل، و كان صديقا لأبى، فكنت أخدمه، و أفتح حانوته و أكنسها، ثم أفرش ما يجلس عليه، فكان يجرى علىّ رزقا أتقوّت به، فأتى يوما فى الحانوت، و قد جلس أستاذى ابن عقيل، فجاء ابن العسال مع رجل من أهل الريف يطلب عود خشب لطاحونة، فاشترى من ابن عقيل عود طاحونة بخمسة دنانير، فسمعت قوما من أهل السوق يقولون: هذا ابن العسال المفسر للرؤيا عند ابن عقيل، فجاء منهم قوم، و قصوا عليه منامات رأوها، ففسرها لهم، فذكرت رؤيا رأيتها فى ليلتى، فقلت له: إنى رأيت البارحة فى نومى كذا و كذا، فقصصت عليه الرؤيا، فقال لى: أىّ وقت رأيتها من الليل، فقلت: انتبهت بعد رؤياى فى وقت كذا، فقال لى: هذه رؤيا لست أفسرها إلّا بدنانير كثيرة، فألححت عليه، فقال أستاذى ابن عقيل: إن قرّبت علينا وزنت أنا لك ذلك من عندى، فلم يزل به ينزله، حتى قال: و اللّه لا آخذ أقل من ثمن العود الخشب خمسة دنانير، فقال له ابن عقيل: إن صحت الرؤيا دفعت إليك العود بلا ثمن، فقال له: يأخذ مثل هذا اليوم ألف دينار، قال أستاذى: فإذا لم يصح هذا، فقال: يكون العود عندك إلى مثل هذا اليوم، فإن كان لم يصح أخذ ما قلت له فى ذلك اليوم، فليس لى عندك شىء، و لا أفسر رؤيا أبدا، فقال له أستاذى: قد أنصفت و مضت الجمعة، فلما كان مثل ذلك اليوم غدوت مثل ما كنت أغدو إلى دكان أستاذى، ففتحتها و رششتها، و استلقيت على ظهرى أفكر فيما قال لى، و من أين يمكن أن يصير إلىّ ألف دينار، فقلت: لعل سقف المكان ينفرج، فيسقط منه هذا المال، و جعلت أجيل فكرى، و إنى كذلك إلى ضحى إذ وقف علىّ جماعة من أعوان الخراج معهم ناس، فقالوا: هذه دكان ابن عقيل؟ ثم قالوا لى: قم، فقلت لهم:

لست ابن عقيل، أنا غلامه، فقالوا: بل أنت ابنه، و جبذونى، فأخرجونى من الدكان، فقلت: إلى أين؟ فقالوا: إلى ديوان الأستاذ أبى علىّ الحسين بن أحمد يعنون أبا زنبور، فقلت: و ما يصنع بى؟ فقالوا: إذا جئت سمعت كلامه، و ما يريده منك، و كنت بعقب علة ضعيف البدن، فقلت: ما أقدر أمشى، فقالوا: اكتر حمارا تركبه، و لم يكن معى ما أكترى به حمارا، فنزعت تكة سراويلى من وسطى، و دفعتها على درهمين لمن أكرانى الحمار، و مضيت معهم، فجاءوا بى إلى دار أبى زنبور، فلما دخلت قال لى: أنت ابن عقيل؟

فقلت: لا- يا سيدى، أنا غلام فى حانوته، قال،: أفليس تبصر قيمة الخشب؟ قلت: بلى، قال: فاذهب مع هؤلاء، فقوّم لنا هذا الخشب، فانظر بحيث لا يزيد و لا ينقص، فمضيت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵۴

معهم، فجاءوا بى إلى شط البحر إلى خشب كثير من أثل و سنط جاف، و غير ذلك مما يصلح لبناء المراكب، فقوّمته تقويم جزع، حتى بلغت قيمته ألفى دينار، فقالوا لى: انظر هذا الموضع الآخر فيه من الخشب أيضا، فنظرت فإذا هو أكثر مما قوّمت بنحو مرّتين فأعجلونى، و لم أضبط قيمة الخشب، فردّونى إلى أبى زنبور، فقال لى: قوّمت الخشب كما أمرتك؟ ففزعت، فقلت: نعم، فقال: هات كم قوّمته، فقلت: ألفا دينار، فقال: انظر لا- تغلط، فقلت: هو قيمته عندى، فقال لى: فخذه أنت بألفى دينار، فقلت: أنا فقير لا أملك دينارا واحدا، فكيف لى بقيمته، قال: أ لست تحسن تدبيره و تبيعه؟ فقلت: بلى، قال:

فدبره و بعه و نحن نصبر عليك بالثمن إلى أن تبيع شيئا شيئا، و تؤدّى ثمنه، فقلت: أفعل، فأمر بكتاب يكتب علىّ فى الديوان بالمال، فكتب علىّ، و رجعت إلى الشط أعرف عدد الخشب، و أوصى به الحرّاس، فوافيت جماعة أهل سوقنا، و شيوخهم قد أتوا إلى موضع الخشب، فقالوا لى: إيش صنعت؟ قوّمت الخشب؟ قلت: نعم، قالوا: بكم قوّمته؟ فقلت:

بألفى دينار، فقالوا لى: و أنت تحسن تقوّم؟ لا- يساوى هذا هذه القيمة، فقلت لهم: قد كتب علىّ كتاب فى الديوان، و هو عندى يساوى أضعاف هذا، فقالوا لى: اسكت لا يسمعك أحد، و كانوا قد قوّموه قبلى لأبى زنبور بألف دينار، فقال بعضهم لبعض: أعطوا هذا ربحه، و تسلموه أنتم، فقال قائل: أعطوه ربحه خمسمائة دينار، فقلت: لا و اللّه لا آخذ، فقالوا: قد رأى رؤيا، فزيدوه، فقلت: لا و

اللّه لا آخذ أقلّ من ألف دينار، قالوا: فلك ألف دينار، فحوّل اسمك من الديوان نعطك إذا بعنا ألف دينار، فقلت: لا و اللّه لا أفعل حتى آخذ الألف دينار فى وقتى هذا، فمضوا إلى حوانيتهم، و إلى منازلهم حتى جاءونى بألف دينار، فقلت: لا آخذها إلا بنقد الصيرفىّ و ميزانه، فمضيت معهم إلى صيرفىّ الناحية، حتى وزنوا عنده الألف دينار، و نقدتها و أخذتها فشددتها فى طرف رداءى، فمضيت معهم إلى الديوان، و حوّلت أسماءهم مكان اسمى، و وفوا حتى الديوان من عندهم، و رجعت وقت الظهر إلى أستاذى، فقال لى: قبضت ألف دينار منهم؟ فقلت: نعم ببركتك، و تركت الدنانير بين يديه، و قلت له: يا أستاذ خذ ثمن العود الخشب، فقال: لا و اللّه لا آخذ منك شيئا أنت عندى مقام ابنى، و جاء فى الوقت ابن العسال، فدفع إليه أستاذى العود الخشب، فمضى، فهذا خبر رؤياى و تفسيرها، فتأمّل أعزك اللّه ما يشتمل عليه من عظم ما كانت عليه مصر، وسعة حال الديوان، و كيف فضل فيه خشب يساوى آلافا من الذهب، و نحن اليوم فى زمن إذا احتيج فيه إلى عمارة شىء من الأماكن السلطانية بخشب أو غيره أخذ من الناس إما بغير ثمن أو بأخس القيم، مع ما يصيب مالكه من الخوف و الخسارة للأعوان، و كيف لما قوّم هذا الخشب لم يكلف المشترى دفع المال فى الحال، و فى زمننا إذا طرحت البضاعة السلطانية على الباعة يكلفون حمل ثمنها بالسرعة، حتى أنّ فيهم من يبيعها بأقلّ من نصف ما اشتراها به، و يكمل الثمن إمّا من ماله، أو يقترضه بربح، و كيف لما علم أهل السوق أن الخشب بيع بدون القيمة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵۵

لم يمضوا إلى الديوان، و يدفعون فيه زيادة إمّا لقلة شره الناس إذ ذاك و تركهم الأخلاق الرذيلة من الحسد و نحوه أو لعلمهم بعدل السلطان، و إنه لا ينكث ما عقده، و فى زمننا لو ادّعى عدوّ على عدوّه أنّ البضاعة التى كان اشتراها من الديوان قيمتها أكثر مما أخذها به لقبل قوله، و رغم زيادة على ما ادّعاه عدوّه من قلة القيمة جملة أخرى لا جرم أنه تظاهر سفهاء الناس بكل رذيلة و ذميمة من الأخلاق، فإنّ الملك سوق يجبى إليه ما نفق به، و كيف لما علم ابن عقيل أنّ غلامه استفاد على اسمه ألف دينار، لم يشره إلى أخذها بل دفع عنه خمسة الدنانير، و ما ذاك إلا من انتشار الخير فى الناس، و كثرة أموالهم، وسعة حال كل أحد بحسبه و طيب نفوس الكافة، و لعمرى لو سمع زمننا أحد من الأمراء و الوزراء فضلا عن الباعة، أنّ غلاما من غلمانه أخذ على اسمه عشر هذا المبلغ لقامت قيامته، و كيف اتسعت أحوال الخشابين حتى وزنوا ألف دينار فى ساعة، و إنه ليعسر اليوم على الخشابين أن يزنوا فى يوم مائة دينار، و هذا كله من وفور غنى الناس بمصر، و عظم أمرهم، و كثرة سعاداتهم، و كان الفسطاط نحو ثلث بغداد، و مقداره فرسخ على غاية العمارة، و الخصب و الطيبة، و اللذة، و كانت مساكن أهلها خمس طبقات و ستا و سبعا و ربما سكن فى الدار الواحدة المائتان من الناس، و كان فيه دار عبد العزيز بن مروان يصب فيها لمن فى كل يوم أربعمائة راوية ماء، و كان فيها خمسة مساجد و حمامان، و عدّة أفران يخبز بها عجين أهلها، و قد قال أبو داود فى كتاب السنن: شبرت قثاءة بمصر: ثلاثة عشر شبرا، و رأيت أترجة على بعير قطعتين: قطعت، و صيرت على مثل عدلين، ذكره فى باب صدقة الزرع من كتاب الزكاة، قلت: و قد ذكر أن هذا كان فى جنان بنى سنان البصرىّ خارج مدينة الفسطاط، و كانت بحيث لم ير أبدع منها، فلما قدم أمير المؤمنين عبد اللّه المأمون بن هارون الرشيد مصر: سنة سبع عشرة و مائتين، رأى جنان بنى سنان هذه؟ فأعجب بها، و سأل إبراهيم بن سنان:

كم عليه من الخراج لجنانه؟ فذكر أنه يحمل إلى الديوان فى كل سنة عشرين ألف دينار، فقال المأمون: و كم ترد عليك هذه الجنان؟ قال: لا أستطيع حصره إلا أن ما زاد على مائة ألف دينار، أتصدّق به و لو درهما هذا، و له ولد اسمه أحمد بن إبراهيم بن سنان يوصف بعلم و زهد، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر الآثار الواردة فى خراب مصر

روى قاسم بن أصبغ عن كعب الأحبار قال: الجزيرة آمنة من الخراب، حتى تخرب أرمينية، و مصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة، و الكوفة آمنة من الخراب، حتى تكون الملحمة، و لا يخرج الدجال حتى تفتح القسطنطينية.

و عن وهب بن منبه أنه قال: الجزيرة آمنة من الخراب، حتى تخرب أرمينية، و أرمينية آمنة من الخراب حتى تخرب مصر، و مصر آمنة من الخراب، حتى تخرب الكوفة، و لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵۶

تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة، فإذا كانت الملحمة الكبرى، فتحت القسطنطينية على يدى رجل من بنى هاشم، و خراب الأندلس من قبل الزنج، و خراب إفريقية من قبل الأندلس، و خراب مصر من انقطاع النيل، و اختلاف الجيوش فيها، و خراب العراق من قبل الجوع و السيف، و خراب الكوفة من قبل عدوّ من ورائهم يخفرهم، حتى لا يستطيعوا أن يشربوا من الفرات قطرة، و خراب البصرة من قبل العراق، و خراب الأبلة من قبل عدوّ يخفرهم مرّة برّا، و مرّة بحرا، و خراب الريّ من قبل الديلم، و خراب خراسان من قبل التبت، و خراب التبت من قبل الصين، و خراب الصين من قبل الهند، و خراب اليمن من قبل الجراد و السلطان، و خراب مكة من قبل الحبشة، و خراب المدينة من قبل الجوع، و فى رواية: و خراب أرمينية من قبل الرجف و الصواعق، و خراب الأندلس، و خراب الجزيرة من سنابك الخيل، و اختلاف الجيوش.

و عن عبد اللّه بن الصامت قال: إن أسرع الأرضين خرابا البصرة و مصر، فقيل له: و ما يخربهما و فيهما عيون الرجال و الأموال؟ فقال: يخربهما القتل الأحمر و الجوع الأغبر، كأنى بالبصرة: كأنها نعامة جاثمة، و أما مصر: فإنّ نيلها ينضب، أو قال: ييبس، فيكون ذلك خرابها، و عن الأوزاعيّ: إذا دخل أصحاب الرايات الصفر مصر، فلتحفر أهل الشام أسرابا تحت الأرض.

و عن كعب: علامة خروج المهدىّ ألوية تقبل من قبل المغرب عليها رجل من كندة أعرج، فإذا ظهر أهل المغرب على مصر، فبطن الأرض يومئذ خير لأهل الشام.

و عن سفيان الثوريّ قال: يخرج عنق من البربر، فويل لأهل مصر. و قال ابن لهيعة عن أبى الأسود عن مولى لشرحبيل بن حسنة أو لعمرو بن العاص قال: سمعته يوما، و استقبلنا فقال: إيها لك مصر إذا رميت بالقسىّ الأربع: قوس الأندلس، و قوس الحبشة، و قوس التركّ، و قوس الروم.

و عن قاسم بن أصبغ: حدّثنا أحمد بن زهير حدثنا هارون بن معروف حدثنا ضمرة عن الشيبانىّ قال: تهلك مصر غرقا، أو حرقا.

و عن عبد اللّه بن مغلا- أنه قال لابنته: إذا بلغك أن الإسكندرية قد فتحت، فإن كان خمارك بالمغرب، فلا تأخذيه حتى تلحقى بالمشرق.

و ذكر مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس يرفعه قال: أنزل اللّه تعالى من الجنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵۷

إلى الأرض خمسة أنهار: سيحون، و هو نهر الهند، و جيحون، و هو نهر بلخ، و دجلة و الفرات، و هما نهرا العراق، و النيل و هو نهر مصر، أنزلها اللّه تعالى من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل عليه السلام، و استودعها الجبال، و أجراها فى الأرض، و جعل فيها منافع للناس فى أصناف معايشهم، و ذلك قوله عز و جل: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ [المؤمنون/ ۱۸] فإذا كان عند خروج يأجوج و مأجوج أرسل اللّه تعالى جبريل عليه السلام، فرفع من الأرض القرآن كله، و العلم كله، و الحجر من ركن البيت، و مقام إبراهيم، و تابوت موسى بما فيه، و هذه الأنهار الخمسة، فيرفع كل ذلك إلى السماء، فذلك قوله تعالى: وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ [المؤمنون/ ۱۸] فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقدت أهلها خير الدنيا و الدين، و قال ابن لهيعة عن عقبة بن عامر الحضرمىّ عن حيان بن الأعين عن عبد اللّه بن عمرو قال: إنّ أوّل مصر خرابا أنطابلس، و قال الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب عن سالم بن أبى سالم عن عبد اللّه بن عمرو قال: إنى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر قال: فقلت له: ما يخرجنا منها يا أبا محمد، أعدوّ؟ قال: لا، و لكن يخرجكم منها نيلكم هذا، يغور فلا تبقى منه قطرة حتى تكون فيه الكثبان من الرمل، و تأكل سباع الأرض حيتانه.

ذكر خراب الفسطاط

و كان لخراب مدينة فسطاط مصر سببان: أحدهما: الشدّة العظمى التى كانت فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى، و الثانى: حريق مصر فى وزارة شاور بن مجير السعدىّ.

فأما الشدّة العظمى: فإنّ سببها أنّ السعر ارتفع بمصر فى سنة ست و أربعين و أربعمائة، و تبع الغلاء، و باء، فبعث الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معدّ بن الظاهر لإعزاز دين اللّه أبى الحسن علىّ إلى متملك الروم بقسطنطينية أن يحمل الغلال إلى مصر، فأطلق أربعمائة ألف أردب، و عزم على حملها إلى مصر، فأدركه أجله و مات قبل ذلك، فقام فى الملك بعده امرأة، و كتبت إلى المستنصر تسأله أن يكون عونا لها، و يمدّها بعساكر مصر إذا ثار عليها أحد، فأبى أن يسعفها فى طلبتها، فجردت لذلك، و عاقت الغلال عن المسير إلى مصر، فخنق المستنصر، و جهز العساكر، و عليها مكين الدولة الحسن بن ملهم، و سارت إلى اللاذقية، فحاربتها بسبب نقض الهدنة و إمساك الغلال عن الوصول إلى مصر، و أمدّها بالعساكر الكثيرة، و نودى فى بلاد الشام بالغزو، فنزل ابن ملهم قريبا من فامية ، و ضايق أهلها، و جال فى أعمال أنطاكية، فسبى و نهب، فأخرج صاحب قسطنطينية ثمانين قطعة فى البحر، فحاربها ابن ملهم عدّة مرار، و كانت عليه، و أسر هو و جماعة كثيرة فى شهر ربيع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۵۸

الأوّل منها، فبعث المستنصر فى سنة سبع و أربعين: أبا عبد اللّه القضاعىّ برسالة إلى القسطنطينية فوافى إليها رسول طغربل السلجوقىّ من العراق بكتابة يأمر متملك الروم بأن يمكن الرسول من الصلاة فى جامع القسطنطينية، فأذن له فى ذلك، فدخل إليه و صلى فيه صلاة الجمعة.

و خطب للخليفة القائم بأمر اللّه العباسىّ، فبعث القاضى القضاعىّ إلى المستنصر يخبره بذلك، فأرسل إلى كنيسة قمامة بيت المقدس، و قبض على جميع ما فيها، و كان شيئا كثيرا من أموال النصارى، ففسد من حينئذ ما بين الروم و المصريين، حتى استولوا على بلاد الساحل كلها، و حاصروا القاهرة كما يرد فى موضعه إن شاء اللّه تعالى، و اشتدّ فى هذه السنة الغلاء، و كثر الوباء بمصر و القاهرة، و أعمالها إلى سنة أربع و خمسين و أربعمائة، فحدث مع ذلك الفتنة العظيمة التى خرب بسببها إقليم مصر كله، و ذلك أنّ المستنصر لما خرج على عادته فى كل سنة على النجب مع النساء، و الحشم إلى أرض الجب خارج القاهرة، و جرّد بعض الأتراك سيفا، و هو سكران على أحد عبيد الشراء، فاجتمع عليه كثير من العبيد و قتلوه، فحنق لقتله الأتراك، و ساروا بجميعهم إلى المستنصر.

و قالوا: إن كان هذا عن رضاك، فالسمع و الطاعة، و إن كان من غير رضى أمير المؤمنين، فلا نرضى بذلك، فتبرّأ المستنصر مما جرى و أنكره، فتجمع الأتراك لمحاربة العبيد، و كانت بينهما حروب شديدة بناحية كوم شريك قتل فيها عدّة من العبيد.

و انهزم من بقى منهم، فشق ذلك على أمّ المستنصر، فإنها كانت السبب فى كثرة العبيد السود بمصر، و ذلك أنها كانت جارية سوداء، فأحبت الاستكثار من جنسها، و اشترتهم من كل مكان، و عرفت رغبتها فى هذا الجنس، فجلبت الناس إلى مصر منهم، حتى يقال: إنه صار فى مصر إذ ذاك على زيادة على خمسين ألف عبد أسود، فلما كانت وقعة كوم شريك أمدّت العبيد بالأموال و السلاح سرّا، و كانت أمّ المستنصر قد تحكمت فى الدولة، و حقدت على الأتراك، و حثت على قتلهم مولاها أبا سعد التسترىّ، فقويت العبيد لذلك، حتى صار الواحد منهم يحكم بما يختار، فكرهت الأتراك ذلك، و كان ما ذكر، فظفر بعض الأتراك يوما بشىء من المال و السلاح قد بعثت به أمّ المستنصر إلى العبيد تمدّهم به بعد انهزامهم من كوم شريك، فاجتمعوا بأسرهم، و دخلوا على المستنصر، و أغلظوا فى القول، فحلف أنه لم يكن عنده علم بما ذكر، و صار إلى أمه، فأنكرت ما فعلت، و خرج الأتراك، فصار السيف قائما، و وقعت الفتنة ثانيا فانتدب المستنصر: أبا الفرج ابن المغربىّ ليصلح بين الطائفتين، فاصطلحه على غلّ، و خرج العبيد إلى شبرا دمنهور، فكان هذا أوّل اختلال أحوال أهل مصر، و دبت عقارب العداوة بين الفئتين إلى سنة تسع و خمسين، فقويت شوكة

الأتراك، و ضروا على المستنصر، و زاد طمعهم فيه، و طلبوا منه الزيادة فى واجباتهم، و ضاقت أحوال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۲، ص: ۱۵۹

العبيد، و اشتدّت ضرورتهم، و كثرت حاجتهم، و قلّ مال السلطان، و استضعف جانبه، فبعثت أم المستنصر إلى قوّاد العبيد تغريهم بالأتراك، فاجتمعوا بالجيزة، و خرج إليهم الأتراك، و مقدّمهم ناصر الدين حسين بن حمدان ، فاقتتلا عدّة مرار ظهر فى آخرها الأتراك على العبيد، و هزموهم إلى بلاد الصعيد، فعاد ابن حمدان إلى القاهرة، و قد عظم أمره، و قوى جأشه، و كبرت نفسه، و استخف بالخليفة، فجاءه الخبر: أنه قد تجمع من العبيد ببلاد الصعيد نحو خمسة عشر ألف فارس، فقلق و بعث بمقدّمى الأتراك إلى المستنصر، فأنكر ما كان من اجتماع العبيد، و جفوا فى خطابهم، و فارقوه على غير رضى منهم، فبعثت أم المستنصر إلى من بحضرتها من العبيد، تأمرهم بالإيقاع على غفلة بالأتراك، فهجموا عليهم، و قتلوا منهم عدّة، فبادر ابن حمدان إلى الخروج ظاهر القاهرة، و تلاحق به الأتراك، و برز إليهم العبيد المقيمون بالقاهرة و مصر، و حاربوهم عدّة أيام، فحلف ابن حمدان أنه لا ينزل عن فرسه حتى ينفصل الأمر إمّا له أو عليه، و جدّ كل من الفريقين فى القتال، فظهرت الأتراك على العبيد، و أثخنوا فى قتلهم و أسرهم، فعادوا إلى القاهرة، و تتبع ابن حمدان من فى البلد منهم، حتى أفنى معظمهم، هذا و العبيد ببلاد الصعيد على حالهم، و بالإسكندرية أيضا منهم جمع كثير، فسار ابن حمدان إلى الإسكندرية، و حاصرهم فيها مدّة حتى سألوه الأمان، فأخرجهم، و أقام فيها من يثق به، و انقضت هذه السنة كلها فى قتال العبيد، و دخلت سنة ستين و أربعمائة، و قد خرق الأتراك ناموس المستنصر، و استهانوا به، و استخفوا بقدره، و صار مقرّرهم فى كل شهر أربعمائة ألف دينار بعدما كان ثمانية و عشرين ألف دينار، و لم يبق فى الخزائن مال، فبعثوا يطالبونه بالمال، فاعتذر إليهم بعجزه عما طلبوه، فلم يعذروه، و قالوا: بع ذخائرك، فلم يجد بدّا من إجابتهم، و أخرج ما كان فى القصر من الذخائر، فصاروا يقوّمون ما يخرج إليهم بأخس القيم، و أقل الأثمان، و يأخذون ذلك فى واجباتهم.

و تجهز ابن حمدان، و سار إلى الصعيد يريد قتال العبيد، و كانت شرورهم قد كثرت، و ضررهم و فسادهم قد تزايد، فلقيهم و واقعهم غير مرّة، و الأتراك تنكسر منهم، و تعود إلى محاربتهم إلى أن حمل العبيد عليهم حملة انهزموا فيها إلى الجيزة، فأفحشوا عند ذلك فى أمر المستنصر، و نسبوه إلى مباطنة العبيد، و تقويتهم، فأنكر ذلك، و حلف عليه، فأخذوا فى إصلاح شأنهم، و لمّ شعثهم و ساروا لقتال العبيد، و ما زالوا يلحون فى قتالهم حتى انكسرت العبيد كسرة شنيعة، و قتل منهم خلق كثير، و فرّ من بقى، فذهبت شوكتهم، و زالت دولتهم، و رجع ابن حمدان، و قد كشف قناع الحياء، و جهر بالسوء للمستنصر، و استبدّ بسلطنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۲، ص: ۱۶۰

البلاد، و دخلت سنة إحدى و ستين و ابن حمدان مستبدّ بالأمر مجاف للمستنصر، فنقل مكانه على الأتراك، و تفرّغوا من العبيد، و التفتوا إليه، و قد استبدّ بالأمور دونهم، و استأثر بالأموال عليهم، ففسد ما بينهم و بينه، و شكوا منهم إلى الوزير خطير الملك، فأغراهم به، و لامهم على ما كان من تقويته، و حسن لهم الثورة به، فصاروا إلى المستنصر، و وافقوه على ذلك، فبعث إلى ابن حمدان يأمره بالخروج عن مصر، و يهدّده إن امتنع، فلم يقدر على الامتناع منه، لفساد الأتراك عليه، و ميلهم مع المستنصر، فخرج إلى الجيزة، و انتهب الناس دوره و دور حواشيه، فلما جنّ عليه الليل عاد من الجيزة سرّا إلى دار القائد تاج الملوك شادى، و ترامى عليه، و قبل رجليه، و سأله النصرة على الذكر و الوزير الخطير، فإنهما قاما بهذه الفتنة، فأجابه إلى ذلك، و وعده بقتل المذكورين و فارقه ابن حمدان، فلما كان من الغد ركب شادى فى أصحابه، و أخذ يسير بين القصرين بالقاهرة، و أقبل الوزير الخطير، فى موكبه، فبادره شادى على حين غفلة و قتله، ففرّ الذكر إلى القصر، و التجأ بالمستنصر، فلم يكن بأسرع من قدوم ابن حمدان، و قد استعدّ للحرب، فيمن معه فركب المستنصر بلأمة الحرب، و اجتمع إليه الأجناد و العامّة، و صار فى عدد لا ينحصر، و برزت الفرسان، فكانت بين الخليفة، و ابن حمدان حروب آلت إلى هزيمة ابن حمدان، و قتل كثير من أصحابه، فمضى فى طائفة إلى البحيرة، و ترامى على بنى سيس، و تزوّج منها، فعظم الأمر بالقاهرة و مصر من شدّة الغلاء، و قلة الأقوات لما فسد من الأعمال بكثرة النهب، و قطع الطريق حتى

أكل الناس الجيف و الميتات، و وقف أرباب الفساد فى الطريق، فصاروا يقتلون من ظفروا به فى أزقة مصر، فهلك من أهل مصر فى هذه الحروب و الفتن ما لا يمكن حصره، و امتدّ ذلك إلى أن دخلت سنة ثلاث و ستين، فجهز المستنصر عساكره لقتال ابن حمدان بالبحيرة، فسارت إليه و لم يوفق فى محاربته، فكسرها كلها، و احتوى على ما كان معها من سلاح و كراع و مال، فتقوّى به، و قطع الميرة عن البلد، و نهب أكثر الوجه البحرىّ، و قطع منه الخطبة للمستنصر، و دعا للخليفة القائم بأمر اللّه العباسىّ بالإسكندرية و دمياط، و عامّة الوجه البحرىّ، فاشتدّ الجوع، و تزايد الموتان بالقاهرة و مصر حتى أنه كان يموت الواحد من أهل البيت، فلا يمضى يوم و ليلة من موته، حتى يموت سائر من فى ذلك البيت، و لا يوجد من يستولى عليه، و مدّت الأجناد أيديها إلى النهب، فخرج الأمر عن الحدّ، و نجا أهل القوّة بأنفسهم من مصر، و ساروا إلى الشام و العراق، و خرج من خزائن القصر ما يجل وصفه، و قد ذكر طرف من ذلك فى أخبار القاهرة عند ذكر خزائن القصر، فاضطرّ الأجناد ما هم فيه من شدّة الجوع إلى مصالحة ابن حمدان بشرط أن يقيم فى مكانه، و يحمل إليه مال مقرّر، و ينوب عنه شادى بالقاهرة، فرضى بذلك، و سير الغلال إلى القاهرة و مصر، فسكن ما بالناس من شدّة الجوع قليلا، و لم يكن ذلك إلا نحو شهر، و وقع الاختلاف عليه، فقدم من البحيرة إلى مصر، و حاصرها و انتهبها، و أحرق دورا عديدة بالساحل، و رجع إلى البحيرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶۱

فدخلت سنة أربع و ستين، و الحال على ذلك، و شادى قد استبدّ بأمر الدولة، و فسد ما بينه و بين ابن حمدان، و منعه من المال الذى تقرّر له و شح به عليه، فلم يوصله إلى القليل، فجرد من ذلك ابن حمدان، و جمع العربان، و سار إلى الجيزة، و خادع شادى حتى صار إليه ليلا فى عدّة من الأكابر، فقبض عليه و عليهم، و بعث أصحابه فنهبوا مصر، و أطلقوا فيها النار، فخرج إليهم عسكر المستنصر من القاهرة، و هزموهم، فعاد إلى البحيرة، و بعث رسولا إلى الخليفة القائم بأمر اللّه ببغداد بإقامة الخطبة له، و سأله الخلع و التشاريف فاضمحل أمر المستنصر، و تلاشى ذكره، و تفاقم الأمر فى الشدّة من الغلاء، حتى هلكوا فسار ابن حمدان إلى البلد، و ليس فى أحد قوّة يمنعه بها، فملك القاهرة و امتنع المستنصر بالقصر، فسير إليه رسولا يطلب منه المال، فوجده، و قد ذهب سائر ما كان يعهده من أبهة الخلافة، حتى جلس على حصير، و لم يبق معه سوى ثلاثة من الخدم، فبلغه رسالة ابن حمدان، فقال المستنصر للرسول: ما يكفى ناصر الدولة أن اجلس فى مثل هذا البيت على هذا الحال؟ فبكى الرسول رقة له، و عاد إلى ابن حمدان فأخبره بما شاهد من اتضاع أمر المستنصر، و سوء حاله، فكف عنه، و أطلق له فى كل شهر مائة دينار، و امتدّت يده و تحكم و بالغ فى إهانة المستنصر مبالغة عظيمة، و قبض على أمه و عاقبها أشد العقوبة، و استصفى أموالها، فحاز منها شيئا كثيرا، فتفرّق حينئذ عن المستنصر جميع أقاربه، و أولاده من الجوع فمنهم من سار إلى المغرب، و منهم من سار إلى الشام و العراق.

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ النسابة فى كتاب النقط: حلّ بمصر غلاء شديد، فى خلافة المستنصر باللّه فى سنة سبع و خمسين و أربعمائة، و أقام إلى سنة أربع و ستين و أربعمائة، و عمّ مع الغلاء و باء شديد، فأقام ذلك سبع سنين، و النيل يمدّ و ينزل، فلا يجد من يزرع، و شمل الخوف من العسكرية، و فساد العبيد، فانقطعت الطرقات برّا و بحرا إلّا بالخفارة الكثيرة مع ركوب الغرر، و نزا المارقون بعضهم على بعض، و استولى الجوع لعدم القوت، و صار الحال إلى أن بيع رغيف من الخبز الذى وزنه رطل بزقاق القناديل: كبيع الطرف فى النداء بأربعة عشر درهما، و بيع أردب من القمح بثمانين دينارا، ثم عدم ذلك، و أكلت الكلاب و القطاط، ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا، و كان بمصر طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتا قصيرة السقوف قريبة ممن يسعى فى الطرقات و يطوف، و قد أعدّوا سلبا، و خطاطيف فإذا مرّ بهم أحد شالوه فى أقرب وقت، ثم ضربوه بالأخشاب، و شرّحوا لحمه و أكلوه.

قال: و حدّثنى بعض نسائنا الصالحات قالت: كانت لنا من الجارات امرأة ترينا أفخاذها، و فيها كالحفر، فكنا نسألها، فتقول: أنا ممن خطفنى أكلة الناس فى الشدّة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶۲

فأخذنى إنسان، و كنت ذات جسم و سمن، فأدخلنى إلى بيت فيه سكاكين و آثار الدماء، و زفرة القتلى، فأضجعنى على وجهى، و ربط فى يدىّ و رجلىّ سلبا إلى أوتاد حديد عريانة، ثم شرّح من أفخاذى شرائح و أنا أستغيث، و لا أحد يجيبنى، ثم أضرم الفحم و شوى من لحمى، و أكل أكلا كثيرا، ثم سكر حتى وقع على جنبه لا يعرف أين هو، فأخذت فى الحركة إلى أن انحل أحد الأوتاط، و أعان اللّه على الخلاص، و تخلصت و حللت الرباط، و أخذت خرقا من داره، و لففت بها أفخاذى، و زحفت إلى باب الدار، و خرجت أزحف إلى أن وقعت إلى المأمن، و جئت إلى بيتى، و عرّفتهم بموضعه، فمضوا إلى الوالى، فكبس عليه و ضرب عنقه، و أقام الدواء فى أفخاذى سنة إلى أن ختم الجرح، و بقى كذا حفرا، و بسبب هذا الغلاء خرب الفسطاط، و خلا موضع العسكر و القطائع، و ظاهر مصر، مما يلى القرافة حيث الكيمان الآن إلى بركة الحبش، فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالىّ إلى مصر، و قام بتدبير أمرها نقلت أنقاض ظاهر مصر مما يلى القاهرة حيث كان العسكر و القطائع، و صار فضاء و كيمانا، فيما بين مصر و القاهرة، و فيما بين مصر و القرافة، و تراجعت أحوال الفسطاط بعد ذلك حتى قارب ما كان عليه قبل الشدّة.

و أما حريق مصر: فكان سببه: أنّ الفرنج لما تغلبوا على ممالك الشام، و استولوا على الساحل حتى صار بأيديهم ما بين ملطية إلى بلبيس إلّا مدينة دمشق فقط، و صار أمر الوزارة بديار مصر: لشاور بن مجير السعدىّ، و الخليفة يومئذ العاضد لدين اللّه عبد اللّه بن يوسف، اسم لا معنى له، و قام فى منصب الوزارة بالقوّة فى صفر سنة ثمان و خمسين و خمسمائة، و تلقب بأمير الجيوش، و أخذ أموال بنى رزيك وزراء مصر، و ملوكها من قبله، فلما استبدّ بالإمرة حسده ضرغام صاحب الباب، و جمع جموعا كثيرة، و غلب شاور على الوزارة فى شهر رمضان منها، فسار شاور إلى الشام، و استقل ضرغام بسلطنة مصر، فكان بمصر فى هذه السنة ثلاثة وزراء هم: العادل بن رزيك بن طلائع بن رزيك، و شاور بن مجير، و ضرغام، فأساء ضرغام السيرة فى قتل أمراء الدولة، و ضعفت من أجل ذلك دولة الفاطميين بذهاب رجالها الأكابر، ثم إن شاور استنجد بالسلطان: نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام، فأنجده و بعث معه عسكرا كثيرا فى جمادى الأولى سنة تسع و خمسين، و قدم عليه أسد الدين شيركوه على أن يكون لنور الدين إذا عاد شاور إلى منصب الوزارة ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر، و أن يكون شيركوه عنده بعساكره فى مصر، و لا يتصرّف إلا بأمر نور الدين، فخرج ضرغام بالعسكر، و حاربه فى بلبيس فانهزم، و عاد إلى مصر، فنزل شاور بمن معه عند التاج خارج القاهرة، و انتشر عسكره فى البلاد، و بعث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶۳

ضرغام إلى أهل البلاد، فأتوه خوفا من الترك القادمين معه، و أتته الطائفة الريحانية و الطائفة الجيوشية، فامتنعوا بالقاهرة، و تطاردوا مع طلائع شاور بأرض الطبالة، فنزل شاور فى المقس، و حارب أهل القاهرة فغلبوه، و حتى ارتفع إلى بركة الحبش، فنزل على الرصد و استولى على مدينة مصر، و أقام أياما فمال الناس إليه، و انحرفوا عن ضرغام لأمور، فنزل شاور باللوق، و كانت بينه و بين ضرغام حروب آلت إلى إحراق الدور من باب سعادة إلى باب القنطرة خارج القاهرة، و قتل كثير من الفريقين، و اختلّ أمر ضرغام، و انهزم، فملك شاور القاهرة، و قتل ضرغام آخر جمادى الآخرة سنة تسع و خمسين، فأخلف شيركوه ما وعد به السلطان نور الدين، و أمره بالخروج عن مصر، فأبى عليه و اقتتلا.

و كان شيركوه قد بعث بابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بلبيس، ليجمع له الغلال و غيرها من الأموال، فحشد شاور، و قاتل الشاميين، فجرت وقائع، و احترق وجه الخليج خارج القاهرة بأسره، و قطعة من حارة زويلة، فبعث شاور إلى الفرنج و استنجد بهم فطمعوا فى البلاد، و خرج ملكهم مرى من عسقلان بجموعه، فبلغ ذلك شيركوه، فرحل عن القاهرة بعد طول محاصرتها، و نزل بلبيس فاجتمع على قتاله بها شاور و ملك الفرنج، و حصروه بها، و كانت إذا ذاك حصينة ذات أسوار، فأقام محصورا مدّة ثلاثة أشهر، و بلغ ذلك نور الدين، فأغار على ما قرب منه من بلاد الفرنج، و أخذها من أيديهم، فخافوه، و وقع الصلح مع شيركوه على عوده إلى الشام،

فخرج فى ذى الحجة، و لحق بنور الدين، فأقام و فى نفسه من مصر أمر عظيم إلى أن دخلت سنة اثنتين و ستين، فجهزه نور الدين إلى مصر فى جيش قوىّ فى ربيع الأوّل، و سيره فبلغ ذلك شاور، فبعث إلى مرى ملك الفرنج مستنجدا به، فسار بجموع الفرنج، حتى نزل بلبيس، فوافاه شاور و أقام حتى قدم شيركوه إلى أطراف مصر، فلم يطق لقاء القوم، فسار حتى خرج من إطفيح إلى جهة بلاد الصعيد من ناحية بحر القلزم، فبلغ شاور أنّ شيركوه قد ملك بلاد الصعيد، فسقط فى يده، و نهض للفور من بلبيس و معه الفرنج، فكان من حروبه مع شيركوه ما كان حتى انهزم بالأشمونين، و سار منها بعد الهزيمة إلى الإسكندرية فملكها، و أقرّ بها ابن أخيه صلاح الدين، و خرج إلى الصعيد، فخرج شاور بالفرنج و حصر الإسكندرية أشدّ حصار، فسار شيركوه من قوص و نزل على القاهرة، و حاصرها، فرحل إليه شاور، و كانت أمور آلت إلى الصلح و سار شيركوه بمن معه إلى الشام فى شوّال، فطمع مرى فى البلاد، و جعل له شحنة بالقاهرة، و صارت أسوارها بيد فرسان الفرنج، و تقرّر لهم فى كل سنة مائة ألف دينار، ثم رحل إلى بلاده، و ترك بالقاهرة من يثق به من الفرنج، و سار شيركوه إلى الشام، فتحكم الفرنج فى القاهرة حكما جائرا، و ركبوا المسلمين بالأذى العظيم، و تيقنوا عجز الدولة عن مقاومتهم، و انكشفت لهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶۴

عورات الناس إلى أن دخلت سنة أربع و ستين، فجمع مرى جمعا عظيما من أجناس الفرنج، و أقطعهم بلاد مصر، و سار يريد أخذ مصر، فبعث إليه شاور يسأله عن سبب مسيره، فاعتل بأنّ الفرنج غلبوه على قصد ديار مصر، و أنه يريد ألفى ألف دينار يرضيهم بها، و سار فنزل على بلبيس، و حاصرها حتى أخذها عنوة فى صفر، فسبى أهلها، و قصد القاهرة، فسير العاضد كتبه إلى نور الدين، و فيها شعور نسائه و بناته يسأله إنقاذ المسلمين من الفرنج، و سار مرى من بلبيس، فنزل على بركة الحبش، و قد انضم الناس من الأعمال إلى القاهرة، فنادى شاور بمصر أن لا يقيم بها أحد، و أزعج الناس فى النقلة منها، فتركوا أموالهم و أثقالهم و نجوا بأنفسهم، و أولادهم و قد ماج الناس و اضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر لا يعبأ والد بولده، و لا يلتفت أخ إلى أخيه، و بلغ كراء الدابة من مصر إلى القاهرة بضعة عشر دينارا، و كراء الحمل إلى ثلاثين دينارا، و نزلوا بالقاهرة فى المساجد، و الحمامات و الأزقة و على الطرقات، فصاروا مطروحين بعيالهم و أولادهم، و قد سلبوا سائر أموالهم، و ينتظرون هجوم العدوّ على القاهرة بالسيف، كما فعل بمدينة بلبيس، و بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط، و عشرة آلاف مشعل نار، فرّق ذلك فيها، فارتفع لهب النار و دخان الحريق إلى السماء، فصار منظرا مهولا، فاستمرّت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع و العشرين من صفر لتمام أربعة و خمسين يوما، و النّهابة من العبيد، و رجال الأسطول و غيرهم بهذه المنازل فى طلب الخبايا، فلما وقع الحريق بمصر، رحل مرى من بركة الحبش، و نزل بظاهر القاهرة، مما يلى باب البرقية، و قاتل أهلها قتالا كثيرا، حتى زلزلوا زلزالا شديدا، و ضعفت نفوسهم، و كادوا يؤخذون عنوة، فعاد شاور إلى مقاتلة الفرنج، و جرت أمور آلت إلى الصلح على مال، فبينا هم فى جبايته إذ بلغ الفرنج مجيء أسد الدين شيركوه بعساكر الشام من عند السلطان نور الدين محمود، فرحلوا فى سابع ربيع الآخر إلى بلبيس، و ساروا منها إلى فاقوس، فصاروا إلى بلادهم بالساحل، و نزل شيركوه بالمقس خارج القاهرة، و كان من قتل شاور، و استيلاء شيركوه على مصر ما كان، فمن حينئذ خربت مصر الفسطاط هذا الخراب الذى هو الآن: كيمان مصر، و تلاشى أمرها، و افتقر أهلها، و ذهبت أموالهم، و زالت نعمهم، فلما استبدّ شيركوه بوزارة العاضد، أمر بإحضار أعيان أهل مصر الذين خلوا عن ديارهم فى الفتنة، و صاروا بالقاهرة، و تغمم لمصابهم و سفه رأى شاور فى إحراق المدينة، و أمرهم بالعود إليها، فشكوا إليه ما بهم من الفقر و الفاقة و خراب المنازل، و قالوا: إلى أىّ مكان نرجع؟ و فى أىّ مكان ننزل و نأوى؟

و قد صارت كما ترى، و بكوا و أبكوا، فوعدهم جميلا، و ترفق بهم و أمر، فنودى فى الناس بالرجوع إلى مصر، فتراجع إليها الناس قليلا و عمروا ما حول الجامع إلى أن كانت المحنة من الغلاء و الوباء العظيم فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب لسنتى خمس و خمسمائة فخرب من مصر جانب كبير، ثم تحايا الناس بها، و أكثروا من العمارة بجانب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶۵

مصر الغربيّ على شاطىء النيل، لمّا عمّر الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة، و صار بمصر عدّة آدار جليلة، و أسواق ضخمة، فلما كان غلاء مصر و الوباء الكائن فى سلطنة الملك العادل: كتبغا سنة ست و تسعين و ستمائة خرب كثير من مساكن مصر، و تراجع الناس بعد ذلك فى العمارة إلى سنة تسع و أربعين و سبعمائة، فحدث الفناء الكبير الذى أقفر منه معظم دور مصر، و خربت ثم تحايا الناس من بعد الوباء، و صار ما يحيط بالجامع العتيق، و ما على شط النيل عامرا إلى سنة ست و سبعين و سبعمائة، فشرقت بلاد مصر، و حدث الوباء بعد الغلاء، فخرب كثير من عامر مصر، و لم يزل يخرب شيئا بعد شيء إلى سنة تسعين و سبعمائة، فعظم الخراب فى خط زقاق القناديل، و خط النحاسين، و شرع الناس فى هدم دور مصر، و بيع أنقاضها، حتى صارت على ما هى عليه الآن، و تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا و جعلنا لمهلكهم موعدا.

ذكر ما قيل فى مدينة فسطاط مصر

قال ابن رضوان: و المدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء: الفسطاط، و القاهرة، و الجزيرة، و الجيزة، و بعد هذه المدينة عن خط الاستواء ثلاثون درجة، و الجبل المقطم فى شرقيها، و بينها و بين مقابر المدينة.

و قد قالت الأطباء: إن أردأ المواضع ما كان الجبل فى شرقيه يعوق ريح الصبا عنه، و أعظم أجزائها: هو الفسطاط، و يلى الفسطاط من الغرب: النيل، و على شط النيل الغربيّ أشجار طوال و قصار، و أعظم أجزاء الفسطاط: موضع فى غور، فإنه يعلوه من المشرق المقطم، و من الجنوب الشرف، و من الشمال الموضع العالى من عمل فوق، أعنى الموقف و العسكر و جامع ابن طولون، و متى نظرت إلى الفسطاط من الشرق أو من مكان آخر عال:

رأيت وضعها فى غور. و قد بيّن أبقراط أن المواضع المتسفلة: أسخن من المواضع المرتفعة، و أردأ هواء لاحتقان البخار فيها، و لأن ما حولها من المواضع العالية يعوق تحليل الرياح لها، و أزقة الفسطاط و شوارعها ضيقة، و أبنيتها عالية، و قد قال روفس: إذا دخلت مدينة، فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة البناء، فاهرب منها لأنها و بيئة أراد أن البخار لا ينحل منها كما ينبغى لضيق الأزقة و ارتفاع البناء.

و من شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت فى دورهم من السنانير و الكلاب، و نحوها من الحيوان الذى يخالط الناس فى شوارعهم و أزقتهم فتعفن، و تخالط عفونتها الهواء، و من شأنهم أيضا: أن يرموا فى النيل الذى يشربون منه فضول حيواناتهم و جيفها، و خرّارا كنفهم تصب فيه، و ربما انقطع جرى الماء، فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء، و فى خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها فى الهواء دخان مفرط، و هى أيضا كثيرة الغبار لسخانة أرضها، حتى أنك ترى الهواء فى أيام الصيف كدرا يأخذ بالنفس، و يتسخ الثوب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶۶

النظيف فى اليوم الواحد، و إذا مرّ الإنسان فى حاجة لم يرجع إلّا و قد اجتمع فى وجهه و لحيته غبار كثير، و يعلوها فى العشيات خاصة فى أيام الصيف بخار كدر أسود و أغبر، سيّما إذا كان الهواء سليما من الرياح، و إذا كانت هذه الأشياء كما وصفنا، فمن البيّن أنه يصير الروح الحيوانيّ الذى فيها حالة كهذه الحال، فيتولد إذا فى البدن من هذه الأعراض فضول كثيرة، و استعدادات نحو العفن إلّا أنّ ألف أهل الفسطاط لهذه الحال، و أنسهم بها يعوق عنهم أكثر شرّها، و إن كانوا على كل حال أسرع أهل مصر وقوعا فى الأمراض، و ما يلى النيل من الفسطاط، يجب أن يكون أرطب مما يلى الصحراء، و أهل الشرق أصلح حالا لتخرّق الرياح لدورهم، و كذلك عمل فوق و الحمراء، إلّا أن أهل الشرف الذى يشربونه أجود لأنه يستقى قبل أن تخالطه عفونة الفسطاط، فأمّا القرافة فأجود هذه المواضع، لأن المقطم يعوق بخار الفسطاط من المرور بها، و إذا هبت ريح الشمال مرّت بأجزاء كثيرة من بخار الفسطاط، و القاهرة على الشرف، فغيرت حاله، و ظاهر أن المواضع المكشوفة فى هذه المدينة هى أصح هواء، و كذلك حال المواضع المرتفعة، و أردأ موضع فى

المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق إلى ما يلى النيل و السواحل، و إذا كان فى الشتاء و أوّل الربيع حمل من بحر الملح سمك كثير، فيصل إلى هذه المدينة، و قد عفن، و صارت له رائحة منكرة جدّا، فساغ فى القاهرة، و يأكله أهلها و أهل الفسطاط، فيجتمع فى أبدانهم منه فضول كثيرة عفنة، فلو لا الاعتدال أمزجتهم و صحة أبدانهم فى هذا الزمان لكان ذلك يولد فى أبدانهم أمراضا كثيرة، قاتلة، إلّا أن قوّة الاستمرار تعوق عن ذلك، و ربما انقطع النيل فى آخر الربيع، و أوّل الصيف من جهة الفسطاط، فيعفن بكثرة ما يلقى فيه إلى أن يبلغ عفنه إلى أن تصير له رائحة منكرة محسوسة، و ظاهر أن هذا الماء إذا صار على هذه الحال، غيّر مزاج الناس تغيرا محسوسا. قال: فمن البيّن أن أهل هذه المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا فى الأمراض من جميع أهل هذه الأرض ما خلا أهل الفيوم، فإنها أيضا قريبة، و أردأ ما فى المدينة: الموضع الغائر من الفسطاط، و لذلك غلب على أهلها الحين، و قلة الكرم، و أنه ليس أحد منهم يغيث، و لا يضيف الغريب إلا فى النادر، و صاروا من السعاية و الاغتياب على أمر عظيم، و لقد بلغ بهم الجبن إلى أنّ خمسة أعوان تسوق منهم مائة رجل و أكثر، و يسوق الأعوان المذكورين: رجل واحد من أهل البلدان الأخر، و ممن قد تدرّب فى الحرب، فقد استبان إذا العلة و السبب فى أن صار أهل المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا فى الأمراض من جميع أهل هذه الأرض، و أضعف أنفسا، و لعل لهذا السبب اختار القدماء: اتخاذ المدينة فى غير هذا الموضع، فمنهم من جعلها بمنف، و هى: مصر القديمة، و منهم من جعلها بالإسكندرية، و منهم من جعلها بغير هذه المواضع، و يدل على ذلك آثارهم.

و قال ابن سعيد عن كتاب الكمائم: و أما فسطاط مصر فإنّ مبانيها كانت فى القديم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶۷

متصلة بمبانى مدينة عين شمس، و جاء الإسلام، و بها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن، و عليه نزل عمرو بن العاص، و ضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب إليه، ثم لما فتحها: قسم المنازل على القبائل، و نسبت المدينة إليه، فقيل: فسطاط عمرو، و تداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر، فاتخذوها سريرا للسلطنة و تضاعفت عمارتها، فأقبل الناس من كل جانب إليها، و قصروا أمانيهم عليها إلى أن رسخت بها دولة بنى طولون، فبنوا إلى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع، و بها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن إلى جانب القاهرة، و هى مدينة مستطيلة يمرّ النيل مع طولها، و يحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل، و جنوبه بأنواع الفوائد، و لها منتزهات، و هى فى الإقليم الثالث، و لا ينزل فيها مطر إلّا فى النار، و ترابها تثيره الأرجل، و هو قبيح اللون تتكدّر منه أرجاؤها و يسوء بسببه هواؤها، و لها أسواق ضخمة إلّا أنّها ضيقة و مبانيها بالقصب، و الطوب طبقة على طبقة، و مذ بنيت القاهرة، ضعفت مدينة الفسطاط، و فرّط فى الاغتباط بها بعد الإفراط، و بينهما نحو ميلين، و أنشد فيها الشريف العقيلى:

أحنّ إلى الفسطاط شوقا و إننىلأدعو لها أن لا يحلّ بها القطر

و هل فى الحيا من حاجة لجنابهاو فى كل قطر من جوانبها نهر

تبدّت عروسا و المقطم تاجهاو من نيلها عقد كما انتظم الدر

و قال عن كتاب آخر: فالفسطاط هى قصبة مصر، و الجبل المقطم شرقها، و هو متصل بجبل الزمرّذ.

و قال عن كتاب ابن حوقل: و الفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها، و هى كبيرة نحو ثلث بغداد، و مقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة و الطيبة و اللذة، ذات رحاب فى محالها، و أسواق عظام فيها ضيق، و متاجر فخام، و لها ظاهر أنيق و بساتين نضرة، و منتزهات على ممرّ الأيام خضرة، و فى الفسطاط قبائل، و خطط للعرب تنسب إليها كالبصرة و الكوفة إلا- أنها أقل من ذلك، و هى سبخة الأرض غير نقية التربة، و تكون بها الدار سبع طبقات و ستا و خمسا، و ربما يسكن فى الدار المائتان من الناس، و معظم بنيانهم بالطوب، و أسفل دورهم غير مسكون، و بها مسجدان للجمعة: بنى أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الفسطاط، و الآخر على الموقف بناه أحمد بن طولون، و كان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلا فى ميل يسكنها جنده تعرف بالقطائع، كما بنى بنو الأغلب خارج القيروان و قادة، و قد خربتا فى وقتنا هذا، و أخلف اللّه بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة.

قال ابن سعيد: و لما استقررت بالقاهرة تشوّقت إلى معاينة الفسطاط، فسار معى أحد أصحاب العزمة، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدّة لركوب من يسير إلى الفسطاط

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶۸

جملة عظيمة لا عهد لى بمثلها فى بلد، فركب منها حمارا، و أشار إلىّ أن اركب حمارا آخر، فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلّفته فى بلاد المغرب، فأعلمنى أنه غير معيب على أعيان مصر، و عاينت الفقهاء و أصحاب البزة و السادة الظاهرة يركبونها فركبت، و عندما استويت راكبا أشار المكارى على الحمار، فطار بى، و أثار من الغبار الأسود، ما أعمى عينى، و دنس ثيابى، و عاينت ما كرهته، و لقلة معرفتى بركوب الحمار، و شدّة عدوه على قانون لم أعهده، و قلة رفق المكارى، وقفت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت:

لقيت بمصر أشدّ البواركوب الحمار و كحل الغبار

و خلفى مكار يفوق الرياح لا يعرف الرفق بهمى استطار

أناديه مهلا فلا يرعوىإلى أن سجدت سجود العثار

و قد مدّ فوقى رواق الثرىو ألحد فيه ضياء النهار

فدفعت إلى المكارى أجرته، و قلت له: إحسانك إلىّ أن تتركنى أمشى على رجلىّ، و مشيت إلى أن بلغتها، و قدّرت الطريق بين القاهرة و الفسطاط، و حققت بعد ذلك نحو الميلين، و لما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرّة، و تأمّلت أسوار مثلمة سوداء، و آفاقا مغبرّة، و دخلت من بابها، و هو دون غلق مفض إلى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع، قد بنيت من الطوب الأدكن و القصب، و النخيل طبقة فوق طبقة، و حول أبوابها من التراب الأسود، و الأزبال ما يقبض نفس النظيف، و يغض طرف الطريف، فسرت و أنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن سرت فى أسواقها الضيقة، فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق و الروايا التى على الجمال ما لا يفى به إلّا مشاهدته و مقاساته إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضدّه فى جامع إشبيلية، و جامع مراكش، ثم دخلت إليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف، و لا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه، و تبسط فيه، و أبصرت العامّة رجالا و نساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق، و البياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات و الكعك، و ما جرى مجرى ذلك، و الناس يأكلون منه فى أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك، و عدّة صبيان بأوانى ماء يطوفون على من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منهم رزقا، و فضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع، و فى زواياه و العنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف و الأركان و الحيطان، و الصبيان يلعبون فى صحنه، و حيطانه مكتوبة بالفحم، و الحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامّة إلّا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق، و حسن القبول، و انبساط النفس، ما لا تجده فى جامع إشبيلية مع زخرفته، و البستان الذى فى صحنه، و قد تأمّلت ما وجدت فيه من الارتياح و الأنس دون منظر يوجب ذلك، فعلمت أنه سرّ مودع من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۶۹

وقوف الصحابة رضوان اللّه عليهم فى ساحته عند بنائه، و استحسنت ما أبصرته فيه من حلق المصدّرين لإقراء القرآن و الفقه و النحو فى عدّة أماكن، و سألت عن موارد أرزاقهم، فأخبرت أنها من فروض الزكاة، و ما أشبه ذلك. ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب إلا بالجاه و التعب، ثم انفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل، فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف، و لا متسع الساحة، و لا مستقيم الاستطالة، و لا عليه سور أبيض، إلّا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب، و أصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار الأرض و النيل، و لئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل، فإنى أقول حقا و النيل هنا لك ضيق لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء و مالت إلى جهة الفسطاط، و بحسن سورها المبيض الشامخ: حسن منظر الفرجة فى

ذلك الساحل، و قد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدّا من الفسطاط إلى الجزيرة، و هو غير طويل، و من الجانب الآخر إلى البرّ الغربىّ المعروف ببرّ الجيزة جسر آخر من الجزيرة إليه، و أكثر جواز الناس بأنفسهم و دوابهم فى المراكب لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان، و لا يجوز أحد على الجسر الذى بين الجزيرة و الفسطاط راكبا احتراما لموضع السلطان، و يتنافى ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل فقلت:

نزلنا من الفسطاط أحسن منزلبحيث امتداد النيل قد دار كالعقد

و قد جمعت فيه المراكب سحرةكسرب قطا أضحى يزف على ورد

و أصبح يطغى الموج فيه و يرتمىو يطغو حنانا و هو يلعب بالنرد

غدا ماؤه كالريق ممن أحبهفمدّت عليه حلية من حلى الخدّ

و قد كان مثل الزهر من قبل مدّةفأصبح لما زاده المدّ كالورد

قلت: هذا لأنى لم أذق فى المياه أحلى من مائه، و أنه يكون قبل المدّ الذى يزى به، و يفيض على أقطاره أبيض، فإذا كان عباب النيل صار أحمر. و أنشدنى علم الدين فخر التركى أيدمر عتيق وزير الجزيرة فى مدح الفسطاط و أهلها:

حبذا الفسطاط من والدةجنبت أولادها درّ الجفا

يرد النيل إليها كدرافإذا مازج أهليها صفا

لطفوا فالمزن لا يألفهمخجلا لما رآهم ألطفا

و لم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط، حتى أنهم ألطف من أهل القاهرة، و بينهما نحو ميلين، و جملة الحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة و اللين فى الكلام،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷۰

و تحت ذلك من الملق، و قلة المبالاة برعاية قدم الصحبة، و كثرة الممازجة و الألفة ما يطول ذكره، و أما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانىّ، و البحر الحجازى، فإنه فوق ما يوصف، و بها مجمع ذلك لا بالقاهرة، و منها تجهز إلى القاهرة، و سائر البلاد، و بالفسطاط مطابخ السكر و الصابون، و معظم ما يجرى هذا المجرى، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند، كما أنّ جميع زىّ الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط و كذلك ما ينسج، و يصاغ و سائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية، و الخراب فى الفسطاط كثير، و القاهرة أجدّ و أعمر، و أكثر زحمة بسبب انتقال السلطان إليها، و سكنى الأجناد فيها، و قد نفخ روح الاعتناء و النموّ فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية، و كثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة، و بنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر، يعنى ابن سعيد: ما بنى على شقة مصر من جهة النيل.

ذكر ما عليه مدينة مصر الآن وصفتها

قد تقدّم من الأخبار جملة تدل على عظم ما كان بمدينة فسطاط مصر من المبانى و كثرتها، ثم الأسباب التى أوجبت خرابها، و آخر ما رأيت من الكتب التى صنفت فى خطط مصر كتاب إيقاظ المتغفل، و اتعاظ المتأمّل تأليف: القاضى الرئيس تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوّج الزبيرىّ رحمه اللّه، و قطع على سنة خمس و عشرين و سبعمائة، فذكر من الأخطاط المشهورة بذاتها لعهده اثنين و خمسين خطا، و من الحارات ثنتى عشرة حارة، و من الأزقة المشهورة: ستة و ثمانين زقاقا، و من الدروب المشهورة: ثلاثة و خمسين دربا، و من الخوخ المشهورة: خمسا و عشرين خوخة، و من الأسواق المشهورة: تسعة عشر سوقا، و من الخطط المشهورة بالدور: ثلاثة عشر خطا، و من الرحاب المشهورة: خمس عشرة رحبة، و من العقبات المشهورة: إحدى عشرة عقبة، و من الكيمان المسماة: ستة كيمان، و من الأقباء: عشرة أقباء، و من البرك: خمس برك، و من السقائف: خمسا و ستين سقيفة، و من القياسر: سبع قياسر، و من

مطابخ السكر العامرة: ستة و ستين مطبخا، و من الشوارع: ستة شوارع، و من المحارس: عشرين محرسا، و من الجوامع التى تقام فيها الجمعة بمصر، و ظاهرها من الجزيرة، و القرافة: أربعة عشر جامعا، و من المساجد: أربعمائة و ثمانين مسجدا، و من المدارس: سبع عشرة مدرسة، و من الزوايا: ثمانى زوايا، و من الربط التى بمصر و القرافة: بضعا و أربعين رباطا، و من الأحباس و الأوقاف كثيرا، و من الحمامات:

بضعا و سبعين حماما، و من الكنائس و ديارات النصارى: ثلاثين ما بين دير و كنيسة، و قد باد أكثر ما ذكره و دثر، و سيرد ما قاله من ذلك فى مواضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

فأقول: إنّ مدينة مصر محدودة الآن بحدود أربعة: فحدّها الشرقىّ اليوم: من قلعة الجبل، و أنت آخذ إلى باب القرافة، فتمرّ من داخل السور الفاصل بين القرافة، و مصر إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷۱

كوم الجارح، و تمرّ من كوم الجارح، و تجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهى إلى الرصد حيث أوّل بركة الحبش، فهذا طول مصر من جهة المشرق، و كان يقال لهذه الجهة عمل فوق.

و حدّها الغربى: من قناطر السباع خارج القاهرة إلى موردة الحلفاء، و تأخذ على شاطىء النيل إلى دير الطين، فهذا أيضا طولها من جهة المغرب. و حدّها القبلىّ من شاطىء النيل بدير الطين حيث ينتهى الحدّ الغربىّ إلى بركة الحبش تحت الرصد، حيث انتهى الحدّ الشرقىّ، فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التى تسميها أهل مصر الجهة القبلية.

و حدّها البحرىّ: من قناطر السباع حيث ابتداء الحدّ الغربىّ إلى قلعة الجبل، حيث ابتداء الحدّ الشرقىّ، فهذا عرض مصر من جهة الشمال التى تعرف بمصر بالجهة البحرية، و ما بين هذه الجهات الأربع فإنه يطلق عليه الآن مصر، فيكون أوّل عرض مصر فى الغرب بحر النيل، و آخر عرضها فى الشرق أوّل القرافة، و أوّل طولها من قناطر السباع، و آخره بركة الحبش، فإذا عرفت ذلك ففى الجهة الغربية خط السبع سقايات، و يجاوره الخليج، و عليه من شرقيه حكر أقبغا، و من غربيه المريس، و منشأه المهرانىّ، و يحاذى المنشأة من شرقىّ الخليج خط قنطرة السدّ، و خط بين الزقّاقين، و خط موردة الحلفاء، و خط الجامع الجديد، و من شرقىّ خط الجامع الجديد خط المراغة، و يتصل به خط الكبارة، و خط المعاريج، و يجاوز خط الجامع الجديد من بحريه الدور التى تطلّ على النيل، و هى متصلة إلى جسر الأفرم المتصل بدير الطين و ما جاوره إلى بركة الحبش، و هذه الجهة هى أعمر ما فى مصر الآن، و أما الجهة الشرقية، فليس فيها شىء عامر إلّا قلعة الجبل، و خط المراغة المجاور لباب القرافة إلى مشهد السيدة نفيسة، و يجاور خط مشهد السيدة نفيسة من قبليه الفضاء الذى كان موضع الموقف، و العسكر إلى كوم الجارح، ثم خط كوم الجارح، و ما بين كوم الجارح إلى آخر حدّ طول مصر عند بركة الحبش تحت الرصد، فإنه كيمان، و هى الخطط التى ذكرها القضاعىّ، و خربت فى الشدّة العظمى زمن المستنصر، و عند حريق شاور لمصر كما تقدّم، و أما عرض مصر الذى من قناطر السباع إلى القلعة، فإنه عامر و يشتمل على بركة الفيل الصغرى، بجوار خط السبع سقايات، و يجاور الدور التى على هذه البركة من شرقيها خط الكبش، ثم خط جامع أحمد بن طولون، ثم خط القبيبات، و ينتهى إلى الفضاء الذى يتصل بقلعة الجبل، و أما عرض مصر الذى من شاطىء النيل بخط دير الطين إلى تحت الرصد حيث بركة الحبش، فليس فيه عمارة سوى خط دير الطين، و ما عدا ذلك فقد خرب بخراب الخطط، و كان فيه خط بنى وائل، و خط راشدة، فأما خط السبع سقايات: فإنه من جملة الحمراء الدنيا، و سيرد عند ذكر الأخطاط إن شاء اللّه تعالى، و ما عدا ذلك فإنه يتبين من ذكر ساحل مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷۲

ذكر ساحل النيل بمدينة مصر

قد تقدّم أنّ مدينة فسطاط مصر اختطها المسلمون حول جامع عمرو بن العاص، و قصر الشمع، و أنّ بحر النيل كان ينتهى إلى باب قصر الشمع الغربىّ المعروف بالباب الجديد، و لم يكن عند فتح أرض مصر بين جامع عمرو و بين النيل حائل، ثم انحسر ماء النيل عن أرض تجاه الجامع، و قصر الشمع، فابتنى فيها عبد العزيز بن مروان، و حاز منه بشر بن مروان لما قدم على أخيه عبد العزيز، ثم حاز منه هشام بن عبد الملك فى خلافته، و بنى فيه، فلما زالت دولة بنى أمية قبض ذلك فى الصوافى، ثم أقطعه الرشيد السرىّ بن الحكم، فصار فى يد ورثته من بعده يكترونه، و يأخذون حكره، و ذلك أنه كان قد اختط فيها المسلمون شيئا بعد شىء و صار شاطىء النيل بعد انحساره ماء النيل عن الأرض المذكورة حيث الموضع الذى يعرف اليوم بسوق المعاريج.

قال القضاعىّ: كان ساحل أسفل الأرض بإزاء المعاريج القديم، و كانت آثار المعاريج قائمة سبع درج حول ساحل البيما إلى ساحل البورىّ اليوم، فعرف ساحل البورىّ بالمعاريج الجديد، يعنى بالمعاريج الجديد: موضع سوق المعاريج اليوم، و كان من جملة خطط مدينة فسطاط مصر: الحمراوات الثلاث، فالحمراء الأولى من جملتها سوق وردان، و كان يشرف بغربيه على النيل، و يجاوره: الحمراء الوسطى، و من بعضها الموضع الذى يعرف اليوم بالكبارة، و كانت على النيل أيضا، و بجانب الكبارة: الحمراء القصوى، و هى من بحرىّ الحمراء الوسطى إلى الموضع الذى هو اليوم: خط قناطر السباع، و من جملة الحمراء القصوى: خط خليج مصر من حدّ قناطر السباع إلى تجارة قنطرة السدّ من شرقيها، و بآخر الحمراء القصوى: الكبش و جبل يشكر، و كان الكبش يشرف على النيل من غربيه، و كان الساحل القديم، فيما بين سوق المعاريج اليوم إلى دار التفاح بمصر، و أنت مارّ إلى باب مصر بجوار الكبارة، و موضع الكوم المجاور لباب مصر من شرقيه، فلما خربت مصر بحريق شاور بن مجير إياها صار هذا الكوم من حينئذ، و عرف بكوم المشانيق، فأنه كان يشنق بأعلاه أرباب الجرائم، ثم بنى الناس فوقه دورا فعرف إلى يومنا هذا بكوم الكبارة، و كان يقال لما بين سوق المعاريج، و هذا الكوم لما كان ساحل النيل القالوص .

قال القضاعىّ: رأيت بخط جماعة من العلماء القالوص: بألف، و الذى يكتب فى هذا الزمان القلوص بحذف الألف، فأما القلوص: بحذف الألف، فهى من الإبل و النعام الشابة، و جمعها قلص، و قلاص و قلائص، و القلوص من الحبارى الأنثى الصغيرة، فلعل هذا المكان سمى بالقلوص لأنه فى مقابلة الجمل الذى كان على باب الريحان الذى يأتى ذكره فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷۳

عجائب مصر، و أما القالوص بالألف: فهى كلمة رومية و معناها بالعربية: مرحبا بك، و لعل الروم كانوا يصفقون لراكب هذا الجمل، و يقولون هذه الكلمة على عاداتهم. و قال ابن المتوّج: و الساحل القديم أوّله من باب مصر المذكور يعنى المجاور للكبارة، و إلى المعاريج جميعه كان بحرا يجرى فيه ماء النيل، و قيل: إنّ سوق المعاريج كان موردة سوق السمك يعنى ما ذكره القضاعىّ من أنه كان يعرف بساحل البورىّ، ثم عرف بالمعاريج الجديد.

قال ابن المتوّج : و نقل أنّ بستان الجرف المقابل لبستان حوض ابن كيسان كان صناعة العمارة، و أدركت أنا فيه بابها، و رأيت زريبة من ركن المسجد المجاور للحوض من غربيه تتصل إلى قبالة مسجد العادل الذى بمراغة الدواب الآن.

قال مؤلفه رحمه اللّه: بستان الجرف يعرف بذلك إلى اليوم، و هو على يمنة من سلك إلى مصر من طريق المراغة، و هو جار فى وقف الخانقاه التى تعرف بالواصلة بين الزقاقين، و حوض ابن كيسان يعرف اليوم: بحوض الطواشى، تجاه غيط الجرف المذكور، يجاوره بستان ابن كيسان الذى صار صناعة، و قد ذكر خبر هذه الصناعة عند ذكر مناظر الخلفاء، و يعرف بستان ابن كيسان اليوم ببستان الطواشى أيضا، و بين بستان الجرف، و بستان الطواشى هذا مراغة مصر المسلوك منها إلى الكبارة، و باب مصر.

قال ابن المتوّج: و رأيت من نقل عمن نقل عمن رأى هذا القلوص يتصل إلى آدر الساحل القديم، و أنه شاهد ما عليه من العمائر المطلة على بحر النيل من الرباع و الدور المطلة، و عدّ الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على بحر النيل، فكانت عدّتها ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر مؤبدة فيها أطناب ترخى بها و تملأ أخبرنى بذلك من أثق بنقله، و قال: إنه أخبره به من يثق به متصلا

بالمشاهد له الموثوق به، قال: و باب مصر الآن بين البستان الذى قبلىّ الجامع الجديد يعنى بستان العالمة، و بين كوم المشانيق يعنى كوم الكبارة، و رأيت السور يتصل به إلى دار النحاس، و جميع ما بظاهره شون، و لم يزل هذا السور القديم الذى هو قبلىّ بستان العالمة موجودا أراه و أعرفه إلى أن اشترى أرضه من باب مصر إلى موقف المكارية بالخشابين القديمة الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى، فأجّر مكانه للعامة، و صار كل من استأجر قطعة هدم ما بها من البناء بالطوب اللبن، و قلع الأساس الحجر، و بنى به، فزال السور المذكور، ثم حدث الساحل الجديد.

قال مؤلفه رحمه اللّه: و هذا الباب الذى ذكره ابن المتوّج كان يقال له: باب الساحل، و أوّل حفر ساحل مصر فى سنة ست و ثلاثين و ثلثمائة، و ذلك أنه جف النيل عن برّ مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷۴

حتى احتاج الناس أن يستقوا من بحر الجيزة الذى هو فيما بين جزيرة مصر التى تدعى الآن بالروضة، و بين الجيزة، و صار الناس يمشون هم و الدواب إلى الجزيرة، فحفر الأستاذ كافور الإخشيدىّ، و هو يومئذ مقدّم أمراء الدولة لأونوجور بن الإخشيد خليجا حتى اتصل بخليج بنى وائل، و دخل الماء إلى ساحل مصر، ثم إنه لما كان قبل سنة ستمائة تقلص الماء عن ساحل مصر القديمة، و صار فى زمن الاحتراق يقل حتى تصير الطريق إلى المقاييس يبسا، فلما كان فى سنة ثمان و عشرين و ستمائة خاف السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من تباعد البحر عن العمران بمصر، فاهتم بحفر البحر من دار الوكالة بمصر إلى صناعة التمر الفاضلية، و عمل فيه بنفسه فوافقه على العمل فى ذلك الجمّ الغفير، و استوى فى المساعدة السوقة، و الأمير، و قسط مكان الحفر على الدور بالقاهرة و مصر و الروضة و المقياس، فاستمرّ العمل فيه من مستهلّ شعبان إلى سلخ شوّال مدّة ثلاثة أشهر حتى صار الماء يحيط بالمقياس، و جزيرة الروضة دائما بعد ما كان عند الزيادة يصير جدولا رقيقا فى ذيل الروضة، فإذا اتصل ببحر بولاق فى شهر أبيب كان ذلك من الأيام المشهودة بمصر، فلما كانت أيام الملك الصالح، و عمر قلعة الروضة، أراد أن يكون الماء طول السنة كثيرا فيما دار بالروضة، فأخذ فى الاهتمام بذلك، و غرّق عدّة مراكب مملوءة بالحجارة فى برّ الجيزة تجاه باب القنطرة خارج مدينة مصر، و من قبلىّ جزيرة الروضة، فانعكس الماء، و جعل البحر حينئذ يمرّ قليلا- قليلا، و تكاثر أوّلا فأوّلا فى برّ مصر من دار الملك إلى قريب المقس، و قطع المنشأة الفاضلية.

قال ابن المتوّج عن موضع الجامع الجديد: و كان فى الدولة الصالحية، يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب: رملة تمرّغ الناس فيها الدواب فى زمن احتراق النيل، و جفاف البحر الذى هو أمامها، فلما عمر السلطان الملك الصالح قلعة الجزيرة، و صار فى كل سنة يحفر هذا البحر بجنده و نفسه، و يطرح بعض رمله فى هذه البقعة، شرع خواص السلطان فى العمارة على شاطىء هذا البحر، فذكر من عمّر على هذا البحر من قبالة موضع الجامع الجديد الآن إلى المدرسة المعزية، و ذكر ما وراء هذه الدور من بستان العالمة المطل عليه الجامع الجديد و غيره، ثم قال: و إنما عرف بالعالمة لأنه كان قد حله السلطان الملك الصالح لهذه العالمة، فعمرت بجانبه منظرة لها، و كان الماء يدخل من النيل لباب المنظرة المذكورة، فلما توفيت بقى البستان مدّة فى يد ورثتها، ثم أخذ منهم، و ذكر أن بقعة الجامع الجديد كانت قبل عمارته شونا للأتبان السلطانية، و كذلك ما يجاورها، فلما عمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون الجامع الجديد كثرت العمائر من حدّ موردة الحلفاء على شاطىء النيل، حتى اتصلت بدير الطين، و عمر أيضا ما وراء الجامع من حدّ باب مصر الذى كان بحرا كما تقدّم إلى حدّ قنطرة السدّ، و أدركنا ذلك كله على غاية العمارة، و قد اختل منذ الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، فخرب خط بين الزقاقين المطل من غربيه على الخليج،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷۵

و من شرقيه على بستان الجرف، و لم يبق به إلا القليل من الدور، و موضعه كما تقدّم كان فى قديم الزمان غامرا بماء النيل، ثم ربى جرفا، و هو بين الزقاقين المذكور، فعمر عمارة كبيرة، ثم خرب الآن و خرب أيضا خط موردة الحلفاء، و كان فى القديم غامرا بالماء،

فلما ربى النيل الجرف المذكور، و تربت الجزيرة قدّام الساحل القديم الذى هو الآن البكارة إلى المعاريج، و أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون الجامع الجديد عمرت موردة الحلفاء هذه، و اتصلت من بحريها بمنشأة المهرانىّ، و من قبليها بالأملاك التى تمتدّ من تجاه الجامع الجديد إلى دير الطين، و صارت موردة الحلفاء عظيمة تقف عندها المراكب بالغلال و غيرها، و يملأ منها الناس الروايا، و كان البحر لا يبرح طول السنة هناك، ثم صار ينشّف فى فصل الربيع و الصيف، و استمرّ على ذلك إلى يومنا هذا، و خراب ما خلف الجامع الجديد أيضا من الأماكن التى كانت بحرا تجاه الساحل القديم، ثم لما انحسر الماء صارت مراغة للدواب، فعرفت اليوم بالمراغة و هى من آخر خط قنطرة السدّ إلى قريب من الكبارة، و يحصرها من غربيها بستان الجرف المقدّم ذكره، و عدّة دور كانت بستانا و شونا إلى باب مصر، و من شرقيها بستان ابن كيسان الذى صار صناعة، و عرف الآن ببستان الطواشى، و لم يبق الآن بخط المراغة إلّا مساكن يسيرة حقيرة.

ذكر المنشأة

اعلم أن خليج مصر كان يخرج من بحر النيل، فيمرّ بطريق الحمراء القصوى، و كان فى الجانب الغربىّ من هذا الخليج عدّة بساتين من جملتها بستان، عرف ببستان الخشاب، ثم خرب هذا البستان، و موضعه الآن يعرف: بالمريس، فلما كان بعد الخمسمائة من سنى الهجرة انحسر النيل عن أرض فيما بين ميدان اللوق الآتى ذكره فى الأحكار ظاهر القاهرة إن شاء اللّه تعالى، و بين بستان الخشاب المذكورة، فعرفت هذه الأرض بمنشأة الفاضل، لأنّ القاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ أنشأ بها بستانا عظيما كان يمير أهل القاهرة من ثماره و أعنابه، و عمر بجانبه جامعا، و بنى حوله فقيل لتلك الخطة منشأة الفاضل، و كثرت بها العمارة، و أنشأ بها موفق الدين محمد بن أبى بكر المهدوىّ العثمانىّ الديباجىّ بستانا دفع له فيه ألف دينار فى أيام الظاهر بيبرس، و كان الصرف قد بلغ كل دينار ثمانية و عشرين درهما و نصفا، فاستولى البحر على بستان الفاضل و جامعه، و على سائر ما كان بمنشأة الفاضل من البساتين و الدور، و قطع ذلك حتى لم يبق لشىء منه أثر، و ما برح باعة العنب بالقاهرة و مصر تنادى على العنب بعد خراب بستان الفاضل هذا عدّة سنين: رحم اللّه الفاضل يا عنب، إشارة لكثرة أعناب بستان الفاضل و حسنها، و كان أكل البحر لمنشأة الفاضل هذه بعد سنة ستين و ستمائة، و كان الموفق الديباجىّ المذكور يتولى خطابة جامع الفاضل الذى كان بالمنشأة، فلم تلف الجامع باستيلاء النيل عليه سأل: الصاحب بهاء الدين بن حنا، و ألحّ عليه و كان من ألزامه، حتى قام فى عمارة الجامع بمنشأة المهرانىّ، و منشأة المهرانىّ هذه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷۶

موضعها فيما بين النيل و الخليج، و فيها من الحمراء القصوى فوهة الخليج انحسر عنها ماء النيل قديما و عرف موضعها بالكوم الأحمر من أجل أنه كان يعمل فيها أقمنة الطوب، فلما سأل الصاحب بهاء الدين بن حنا الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع بهذا المكان ليقوم مقام الجامع الذى كان بمنشأة الفاضل أجابه إلى ذلك، و أنشأ الجامع بخط الكوم الأحمر كما ذكر فى خبره عند ذكر الجوامع، فأنشأ هناك الأمير سيف الدين بلبان المهرانىّ دارا و سكنها، و بنى مسجدا، فعرفت هذه الخطة به، و قيل لها: منشأة المهرانىّ، فإنّ المهرانىّ المذكور أوّل من ابتنى فيها بعد بناء الجامع، و تتابع الناس فى البناء بمنشأة المهرانىّ و أكثروا من العمائر حتى يقال: إنه كان بها فوق الأربعين من أمراء الدولة سوى من كان هناك من الوزراء، و أماثل الكتاب، و أعيان القضاة، و وجوه الناس، و لم تزل على ذلك حتى انحسر الماء عن الجهة الشرقية فخربت، و بها الآن بقية يسيرة من الدور، و يتصل بخط الجامع الجديد خط دار النحاس، و هو مطلّ على النيل، و دار النحاس هذه من الدور القديمة، و قد دثرت، و صار الخط: يعرف بها.

قال القضاعىّ:

دار النحاس اختطها: وردان مولى عمرو بن العاص، فكتب مسلمة بن مخلد، و هو أمير مصر إلى معاوية يسأله أن يجعلها ديوانا، فكتب معاوية إلى وردان يسأله فيها، و عوّضه فيها دار وردان التى بسوقه الآن، و قال ربيعة: كانت هذه الدار من خطة الحجر من الأزد،

فاشتراها عمر بن مروان، و بناها، فكانت فى يد ولده، و قبضت عنهم و بيعت فى الصوافى سنة ثمان و ثلثمائة، ثم صارت إلى شمول الإخشيدىّ، فبناها قيسارية و حماما، فصارت دار النحاس قيسارية شمول.

و قال ابن المتوّج: دار النحاس خط نسب لدار النحاس، و هو الآن فندق الأشراف ذو البابين أحدهما من رحبة أمامه، و الثانى شارع بالساحل القديم، و بآخر هذه الشقة التى تطل على النيل (جسر الأفرم)، و هو فى طرف مصر فيما بين المدرسة المعزية، و بين رباط الآثار كان مطلا على النيل دائما، و الآن ينحسر الماء عنه عند هبوط النيل، و عرف بالأمير عز الدين أيدمر الأفرم الصالحىّ النجمىّ أمير جندار، و ذلك أنه لما استأجر بركة الشعيبية، كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب جعل منها فدّانين من غربيها أذن للناس فى تحكيرها، فحكرت و بنى عليها عدّة دور بلغت الغاية فى إتقان العمارة، و تنافس عظماء دولة الناصر محمد بن قلاون من الوزراء، و أعيان الكتاب فى المساكن بهذا الجسر، و بنوا و تأنقوا، و تفننوا فى بدع الزخرفة، و بالغوا فى تحسين الرخام، و خرجوا عن الحدّ فى كثرة إنفاق الأموال العظيمة على ذلك بحيث صار خط الجسر خلاصة العامر من إقليم مصر، و سكانه أرق الناس عيشا، و أترف المتنعمين حياة، و أوفرهم نعمة، ثم خرب هذا الجسر بأسره، و ذهبت دوره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷۷

و أما الجهة الشرقية من مصر: ففيها قلعة الجبل، و قد أفردنا لها خبرا مستقلا يحتوى على فوائد كثيرة تضمنه هذا الكتاب فانظره، و يتصل آخر قلعة الجبل بخط باب القرافة، و هو من أطراف القطائع و العسكر، و يلى خط باب القرافة الفضاء الذى كان يعرف بالعسكر، و قد تقدّم ذكره، و كان بأطراف العسكر مما يلى كوم الجارح.

الموقف قال ابن وصيف شاه فى أخبار الريان بن الوليد: و هو فرعون نبىّ اللّه يوسف صلوات اللّه عليه، و دخل إلى البلد فى أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه إخوته و باعوه، و كانت قوافل الشام تعرّس بناحية الموقف اليوم، فأوقف الغلام، و نودى عليه، و هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّه عليهم، فاشتراه أطفين العزيز، و يقال: إنّ الذى أخرج يوسف من الجب: مالك بن دعر بن حجر بن جزيلة بن لخم بن عدىّ بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

و قال القضاعىّ: كان الموقف فضاء لأم عبد اللّه بن مسلمة بن مخلد، فتصدّقت به على المسلمين، فكان موقفا تباع فيه الدواب، ثم ملك بعد و قد ذكرته فى الظاهر يعنى فى خطط أهل الظاهر، فإنّ الموقف من جملة خطط أهل الظاهر.

و قال ابن المتوّج: بقعة (خط الصفاء) هذا الخط دثر جميعه، و لم يبق له أثر، و هو قبلىّ الفسطاط أوّله بجوار المصنع، و خط الطحانين أدركته، كان صفين طواحين متلاصقة متصلة من درب الصفاء إلى كوم الجارح، و أدركت به جماعة من أكابر المصريين أكثرهم عدول، و كان المار بين هذين الصفين لا يسمع حديث رفيقه إذا حدّثه لقوّة دوران الطواحين، و كان من جملتها طاحون واحد فيه سبعة أحجار، دثر جميع ذلك، و لم يبق له أثر.

قال: و

بقعة درب الصفاء هو الدرب الذى كان باب مصر، و قيل: إنه كان بظاهره سوق يوسف عليه السلام، و كان بابا بمصراعين يعلوهما عقد كبير، و هو بعتبة كبيرة سفلى من صوّان، و كان بجوار المصنع الخراب الموجود الآن، و كان حول المصنع عمد رخام بدائرة حاملة الساباط يعلوه مسجد معلق، هدم ذلك جميعه فى ولاية سيف الدين المعروف بابن سلار، والى مصر فى دولة الظاهر بيبرس، و هذا الدرب يسلك منه إلى درب الصفاء، و الطحانين.

قال مؤلفه رحمه اللّه: كان هذا الباب المذكور أحد أبواب مدينة مصر، و بابها الآخر من ناحية الساحل الذى موضعه اليوم باب مصر بجوار الكبارة، و أنا أدركت آثار درب الصفاء المذكور و المصنع الخراب، و كان يصب فيه الماء للسبيل، و هو قريب من كوم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۷۸

الجارح، و سيأتى ذكر كوم الجارح فى ذكر الكيمان من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

و أما الذى يلى كوم الجارح إلى آخر حدّ طول مصر عند بركة الحبش، فإنها الخطط القديمة، و أدركتها عامرة لا سيما خط النخالين، و خط زقاق القناديل، و خط المصاصة، و قد خرب جميع ذلك، و بيعت أنقاضه من بعد سنة تسعين و سبعمائة.

و أما

الجهة القبلية من مصر: فإن» خط دير الطين حدثت العمارة فيه بعد سنة ستمائة لما أنشأ الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا الجامع هناك، و عمّر الناس فى جسر الأفرم، و كان قبل ذلك آخر عمارة مدينة مصر دار الملك التى موضعها الآن بجوار المدرسة المعزية، و أما موضع الجسر فإنه كان بركة ماء، تتصل بخط راشدة حيث جامع راشدة، و من قبلىّ هذه البركة البستان الذى كان يعرف ببستان الأمير تميم بن المعز، و يعرف اليوم: بالمعشوق، و هو على رباط الآثار، و يجاور المعشوق بركة الحبش، و ما بين خط دير الطين، و آخر عرض مصر من الجهة القبلية طرف خط راشدة.

و أما

الجهة البحرية من مصر: فإنه يتصل بخط السبع سقايات الدور المطلّة على البركة التى يقال لها بركة قارون، و هى التى تجاور الآن حدرة ابن قميحة، و هى من جملة الحمراء القصوى، و بقبلىّ البركة المذكورة الكوم المعروف بالأسرى، و هو من جملة العسكر، و سيرد إن شاء اللّه تعالى ذكره عند ذكر الكيمان، و يجاور البركة المذكورة خط الكبش، و قد ذكر فى الجبال، و يأتى إن شاء اللّه تعالى له خبر عند ذكر الأخطاط، و يلى خط الكبش خط الجامع الطولونىّ، و يلى خط الجامع القبيبات، و خط المشهد النفيسىّ، و جميع ذلك إلى قلعة الجبل من جملة القطائع.

ذكر أبواب مدينة مصر

و كان لفسطاط مصر أبواب فى القديم خربت، و تجدّد لها بعد ذلك أبواب أخر.

باب الصفاء: هذا الباب كان هو فى الحقيقة باب مدينة مصر، و هى فى كمالها، و منه تخرج العساكر، و تعبر القوافل، و موضعه الآن بالقرب من كوم الجارح، و هدم فى أيام الملك الظاهر بيبرس.

باب الساحل: كان يفضى بسالكه إلى ساحل النيل القديم، و موضعه قريب من الكبارة.

باب مصر: هذا الباب هو الذى بناه قراقوش، و منه يسلك الآن من دخل إلى مدينة مصر من الطريق التى تعرف بالمراغة، و هو مجاور للكوم الذى يقال له: كوم المشانيق، و يعرف اليوم بالكبارة، و كان موضع هذا الباب غامرا بماء النيل، فلما انحسر الماء عن ساحل مصر صار الموضع المعروف بالمراغة، و الموضع المعروف بغيط الجرف، إلى موردة المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج ۲ ؛ ص ۱۷۹

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۲، ص: ۱۷۹

الحلفاء فضاء لا يصل إليه ماء النيل البتة، فأحب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يدير سورا يجمع فيه القاهرة و مصر و قلعة الجبل، فزاد فى سور القاهرة على يد قراقوش من باب القنطرة إلى باب الشعرية، و إلى باب البحر يريد أن يمدّ السور من باب البحر إلى الكوم الأحمر الذى هو اليوم حافة خليج مصر تجاه خط بين الزقاقين ليصل أيضا من الكوم الأحمر إلى باب مصر هذا، فلم يتهيأ له هذا، و انقطع السور من عند جامع المقس، و زاد فى سور القاهرة أيضا من باب النصر إلى قلعة الجبل، فلم يكمل له و مدّ السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة خارج مصر، فصار هذا الباب غير متصل بالسور.

باب القنطرة: هذا الباب فى قبلىّ مدينة مصر عرف بقنطرة بنى وائل التى كانت هناك، و هو أيضا من بناء قراقوش.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۲، ص: ۱۸۰

ذكر القاهرة قاهرة المعز لدين اللّه

اشارة

اعلم: أن القاهرة المعزية رابع موضع انتقل سرير السلطنة إليه من أرض مصر فى الدولة الإسلامية، و ذلك أن الإمارة كانت بمدينة الفسطاط، ثم صار محلها العسكر خارج الفسطاط، فلما عمرت القطائع صارت دار الإمارة إلى أن خربت، فسكن الأمراء بالعسكر إلى أن قدم القائد جوهر بعساكر مولاه الإمام المعز لدين اللّه معدّ، فبنى القاهرة حصنا، و معقلا بين يدى المدينة، و صارت القاهرة دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه، و خواصه إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية.

فسكنها من بعدهم: السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و ابنه الملك العزيز عثمان، و ابنه الملك المنصور محمد، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب، و ابنه الملك الكامل محمد، و انتقل من القاهرة إلى قلعة الجبل، فسكنها بحرمه و خواصه، و سكنها الملوك من بعده إلى يومنا هذا، فصارت القاهرة مدينة سكنى بعد ما كانت حصنا يعتقل به، و دار خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز، و ابتذلت بعد الاحترام، و هذا شأن الملوك ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم، و يميتون ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن و الحصون، و كذلك كانوا أيام العجم، و فى جاهلية العرب، و هم على ذلك فى أيام الإسلام، فقد هدم عثمان بن عفان صومعة غمدان، و هدم الآطام التى كانت بالمدينة، و قد هدم زياد كل قصر، و مصنع كان لابن عامر، و قد هدم بنو العباس مدن الشام لبنى مروان:

و إذا تأمّلت البقاع وجدتهاتشقى كما تشقى الرجال و تسعد

و سيأتى من أخبار القاهرة، و الكلام على خططها و آثارها ما تنتهى إليه قدرتى، و يصل إلى معرفته علمى و فوق كل ذى علم عليم.

ذكر ما قيل فى نسب الخلفاء الفاطميين بناة القاهرة

اشارة

اعلم: أن القوم كانوا ينسبون إلى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهما، و الناس فريقان فى أمرهم: فريق يثبت صحة ذلك، و فريق يمنعه، و ينفيهم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و يزعم أنهم أدعياء من ولد ديصان البونىّ الذى ينسب إليه النوبة، و إنّ ديصان كان له ابن اسمه: ميمون القدّاح كان له مذهب فى الغلوّ، فولد ميمون: عبد اللّه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸۱

و كان عبد اللّه عالما بجميع الشرائع، و السنن و المذاهب.

و أنه رتب سبع دعوات يندرج الإنسان فيها حتى ينحل عن الأديان كلها، و يصير معطلا إباحيا لا يرجو ثوابا، و لا يخاف عقابا، و يرى أنه، و أهل نحلته على هدى، و جميع من خالفهم أهل ضلالة، و إنه قصد بذلك أن يجعل له أتباعا، و كان يدعو إلى الإمام من آل البيت محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، و أنه كان من الأهواز، و اشتهر بالعلم و التشيع، و صار له دعاة، و قصد بالمكروه، ففرّ إلى البصرة، فاشتهر أمره، و سار منها إلى سلمية من أرض الشام، فولد له ابن بها اسمه: أحمد، و مات فقام من بعده أحمد، و بعث بالحسين الأهوازىّ داعية إلى العراق، فلقى أحمد بن الأشعث المعروف: بقرمط فى سواد الكوفة، و دعاه إلى مذهبه، فأجابه، و قام هناك بالأمر، و إلى قرمط هذا تنسب القرامطة، و ولد لأحمد بن عبد اللّه بن ميمون القدّاح: الحسين، و محمد المعروف بأبى الشعلع، فلما مات أحمد خلفه ابنه الحسين فى الدعوة حتى مات، فقام من بعده أخوه: أبو الشعلع، و كان لأحمد بن عبد اللّه ولد اسمه سعيد، فصار تحت حجر عمه، و بعث أبو الشعلع بداعيين إلى المغرب و هما: أبو عبد اللّه و أخوه أبو العباس، فنزلا فى البربر، و دعوها، و اشتهر سعيد

بسلمية بعد موت عمه، و كثر ماله فطلبه السلطان ففر من سلمية إلى مصر يريد المغرب، و كان على مصر عيسى النوشرىّ، فورد عليه كتاب الخليفة ببغداد بالقبض عليه، ففاته، و صار بسلجماسة فى زىّ التجار، فبعث المعتضد من بغداد فى طلبه، فأخذ و حبس حتى أخرجه أبو عبد اللّه الشيعىّ من محبسه، فتسمى حينئذ بعبيد اللّه، و تكنى بأبى محمد، و تلقب بالمهدىّ، و صار إماما علويا من ولد محمد بن جعفر الصادق، و إنما هو: سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد اللّه بن ميمون القدّاح بن ديصان البونىّ الأهوازىّ، و أصله من المجوس، فهذا قول من ينكر نسبهم.

و بعض منكرى نسبهم فى العلوية يقول: إنّ عبيد اللّه من اليهود، و إنّ الحسين بن أحمد المذكور تزوّج امرأة يهودية من نساء سلمية كان لها ابن من يهودىّ حدّاد، مات و تركه لها، فرباه الحسين، و أدّبه و علمه، ثم مات عن غير ولد فعهد إلى ابن امرأته هذا، فكان هو:

عبيد اللّه المهدىّ، و هذه أقوال إن أنصفت تبين لك أنها موضوعة، فإن بنى علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد و جلالة القدر عند الشيعة، فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم، و الدعاء لابن مجوسىّ، أو لابن يهودى، فهذا مما لا يفعله أحد، و لو بلغ الغاية فى الجهل و السخف، و إنما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸۲

بنى العباس عندما غصبوا بمكان الفاطميين، فإنهم كانوا قد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين و سبعين سنة، و ملكوا من بنى العباس: بلاد المغرب و مصر و الشام و ديار بكر و الحرمين و اليمن، و خطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة، و عجزت عساكر بنى العباس عن مقاومتهم، فلاذت حينئذ بتنفير الكافة عنهم بإشاعة الطعن فى نسبهم، و بث ذلك عنهم خلفاؤهم، و أعجب به أولياؤهم، و أمراء دولتهم الذين كانوا يحاربون عساكر الفاطميين كى يدفعوا بذلك عن أنفسهم و سلطانهم معرّة العجز عن مقاومتهم و دفعهم عما غلبوا عليه من ديار مصر و الشام و الحرمين، حتى اشتهر ذلك ببغداد، و أسجل القضاة بنفيهم من نسب العلويين.

و شهد بذلك من أعلام الناس جماعة منهم الشريفان: الرضى و المرتضى، و أبو حامد الإسفرايينىّ و القدورىّ فى عدّة وافرة عندما جمعوا لذلك فى سنة اثنتين و أربعمائة أيام القادر، و كانت شهادة القوم فى ذلك على السماع لما اشتهر و عرف بين الناس ببغداد، و أهلها، إنما هم شيعة بنى العباس الطاعنون فى هذا النسب، و المتطيرون من بنى علىّ بن أبى طالب الفاعلون فيهم منذ ابتداء دولتهم الأفاعيل القبيحة، فنقل الإخباريون و أهل التاريخ ذلك كما سمعوه، و رووه حسب ما تلقوه من غير تدبر، و الحق من وراء هذا، و كفاك بكتاب المعتضد من خلائف بنى العباس حجة، فإنه كتب فى شأن عبيد اللّه إلى ابن الأغلب بالقيروان، و ابن مدرار بسلجماسة بالقبض على عبيد اللّه، فتفطن أعزك اللّه لصحة هذا الشاهد، فإنّ المعتضد لولا صحة نسب عبيد اللّه عنده ما كتب لمن ذكرنا بالقبض عليه إذ القوم حينئذ لا يدعون لدعىّ البتة، و لا يذعنون له بوجه، و إنما ينقادون لمن كان علويا، فخاف مما وقع، و لو كان عنده من الأدعياء لما مرّ له بفكر، و لا خافه على ضيعة من ضياع الأرض، و إنما كان القوم أعنى بنى علىّ بن أبى طالب تحت ترقب الخوف من بنى العباس، لتطلبهم لهم فى كل وقت، و قصدهم إياهم دائما بأنواع من العقاب، فصاروا ما بين طريد شريد، و بين خائف يترقب، و مع ذلك فإن لشيعتهم الكثيرة المنتشرة فى أقطارهم من المحبة لهم، و الإقبال عليهم، ما لا مزيد عليه، و تكرّر قيام الرجال منهم مرّة بعد مرّة، و الطلب عليهم من ورائهم، فلاذوا بالاختفاء، و لم يكادوا يعرفون حتى تسمى محمد بن إسماعيل الإمام جدّ عبيد اللّه المهدىّ بالمكتوم سماه بذلك الشيعة عند اتفاقهم على إخفائه حذرا من المتغلبين عليهم.

و كانت الشيعة فرقا فمنهم: من كان يذهب إلى أنّ الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه، و هؤلاء يعرفون ممن بين فرق الشيعة: بالإسماعيلية من أجل أنهم يرون أنّ الإمام من بعد جعفر ابنه إسماعيل، و أنّ الإمام بعد إسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم، و بعد ابنه محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق، و من بعد جعفر الصادق ابنه محمد الحبيب، و كانوا أهل غلوّ فى دعاويهم فى هؤلاء الأئمة، و كان محمد بن جعفر هذا يؤمّل ظهوره، و أنه يصير له دولة، و كان باليمن من أهل هذا المذهب كثير

يعدن بإفريقية، و فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸۳

كتامة ، و نقرة ، تلقوا ذلك من عهد جعفر الصادق، فقدم على محمد بن جعفر والد عبيد اللّه رجل من شيعته باليمن، فبعث معه الحسن بن حوشب فى سنة ثمان و ستين و مائتين، فأظهرا أمرهما باليمن، و أشهرا الدعوة فى سنة سبعين، و صار لابن حوشب دولة بصنعاء، و بث الدعاة بأقطار الأرض، و كان من جملة دعاته أبو عبد اللّه الشيعىّ، فسيره إلى المغرب، فلقى كتامة و دعاهم، فلما مات محمد بن جعفر عهد لابنه عبيد اللّه، فطلبه المكتفى العباسىّ، و كان يسكن عسكر مكرّم، فسار إلى الشام، ثم سار إلى المغرب، فكان من أمره ما كان، و كانت رجال هذه الدولة الذين قاموا ببلاد المغرب، و ديار مصر عشر رجلا هذه خلاصة أخبارهم فى أنسابهم، فتفطن و لا تغترّ بزخرف القول الذى لفقوه من الطعن فيهم، و اللّه يهدى من يشاء.

ذكر الخلفاء الفاطميين

و كان ابتداء الدولة الفاطمية أن أبا عبد اللّه الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء الشيعىّ سار إلى أبى القاسم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفىّ القائم ببلاد اليمن، و صار من كبار أصحابه و له علم، و عنده دهاء و مكر، فورد على ابن حوشب من المغرب، خبر موت الحلوانىّ داعية فى المغرب و رفيقه، فقال لأبى عبد اللّه الشيعىّ: قد خرّب الحوانىّ، و أبو يوسف بلاد المغرب، و قد ماتا، و ليس للبلاد إلّا أنت فإنها موطأة ممهدة، فخرج أبو عبد اللّه إلى مكة، و قصد حجاج كتامة، فجلس قريبا منهم، و سمعهم يتحدّثون بفضائل البيت، فحدّثهم فى معناه، فمالوا إليه، و سألوه أن يأذن لهم فى زيارته، فلما زاروه سألوه عن مقصده، فلم يخبرهم، و أوهمهم أنه يريد مصر، فسرّوا بصحبته، و رحلوا، و هو رفيقهم فشاهدوا من عبادته، و زهده ما زادهم رغبة فيه، هذا و هو يسألهم عن أحوالهم و قبائلهم، حتى صار يعرف جميع أمورهم، فلما وصلوا مصر همّ بمفارقتهم، فقالوا: أىّ شىء تطلب من مصر؟ فقال: أطلب التعليم بها، فقالوا: إذا كان قصدك هذا، فبلادنا أنفع لك، و ما زالوا به حتى سار معهم، فلما وصلوا بلادهم اقترعوا فيمن يضيفه منهم، و من بقية أصحابهم، و وصلوا به أرض كتامة للنصف من ربيع الأوّل سنة ثمان و ثمانين و مائتين، و كادوا يحتربون عليه أيّهم ينزل عنده، فأبى أن ينزل عندهم، و قال: أين يكون فج الأخيار؟ فعجبوا لذلك! إذ لم يكونوا ذكروه له قط، فدلوه عليه، فسار إليه، و قال: هذا فج الأخيار، و ما سمى إلا بكم، و لقد جاء فى الآثار للمهدىّ هجرة عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان قوم اسمهم مشتق من الكتمان، و بخروجكم فى هذا الفج سمى فج الأخيار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸۴

فتسامعت به القبائل، و أتوه فعظم أمره و هو لا يذكر اسم المهدىّ البتة، فبلغ خبره إبراهيم بن أحمد بن الأغلب أمير إفريقية، فبعث يسأل عن خبره، و كانت له معه قصص آلت إلى قيام أبى عبد اللّه و محاربته لمن خالفه، فظفر بهم، و صارت إليه أموالهم، و غلب على مدائن، و هزم جيوش ابن الأغلب، و قتل كثيرا من أصحابه، فمات إبراهيم بن الأغلب، و ولى زيادة اللّه بن الأغلب، و كان كثير اللهو، فقوى أمر أبى عبد اللّه، و انتشرت جنوده فى البلاد، و صار يقول: المهدىّ يخرج فى هذه الأيام، و يملك الأرض فيا طوبى لمن هاجر إلىّ، و أطاعنى و يغرى الناس بزيادة اللّه بن الأغلب و يعيبه، و كان أكثر خواص زيادة اللّه شيعة، فلم يكن يسوءهم ظفر أبى عبد اللّه، و أكثر من ذكر كرامات المهدىّ، و الإرسال إلى أصحاب زيادة اللّه إلى أن تمكن، فبعث برجال من كتامة إلى سلمية من أرض الشام، فقدموا على عبيد اللّه، و أخبروه بما فتح اللّه عليه، و كان قد اشتهر هناك، و طلبه الخليفة المكتفى، فخرج من سلمية فارا، و معه ابنه أبو القاسم نزار، و معهما أهلهما و مواليهما، فأقاما بمصر مستترين، فوردت على عيسى النوشرىّ أمير مصر الكتب من بغداد بصفة عبيد اللّه و حليته، و إنه يأخذ عليه الطريق و يقبضه، فبلغ ذلك عبيد اللّه، فخرج و الأعوان فى طلبه، و يقال: إنّ النوشرىّ ظفر به، فناشده اللّه فى أمره، فخلى عنه و وصله، فسار إلى طرابلس، و قد سبق خبره إلى زيادة اللّه، فسار إلى قسطيلية ، فقدم كتاب زيادة اللّه

بن الأغلب إلى عامل طرابلس بأخذ عبيد اللّه و قد فاتهم، فلم يدركوه، فرحل إلى سلجماسة، و أقام بها، و قد أقيمت له المراصد بالطرقات، فتلطف باليسع بن مدرار صاحب سلجماسة، و أهدى إليه فكف عنه، و وافاه كتاب زيادة اللّه بالقبض على عبيد اللّه، فلم يجد بدّا من أن قبض عليه و سجنه، و اشتغل زيادة اللّه بجمع العساكر لمحاربة أبى عبد اللّه و تجهيزهم إليه فغلبهم أبو عبد اللّه، و غنم سائر ما معهم، و قتل أكثرهم، و بلغه ما كان من سجن عبيد اللّه، فكتب إليه يبشره، فوصل إليه الكتاب، و هو بالسجن مع قصاب دخل به إليه، و هو يبيع اللحم، و ما زال أبو عبد اللّه يضايق زيادة اللّه إلى أن فرّ إلى مصر، و قام من بعده إبراهيم بن الأغلب، فلم يتم له أمر، و ملك أبو عبد اللّه القيروان، و نزل برقادة مستهل رجب سنة ست و تسعين و مائتين، فأمر و نهى، و بث العمال فى الأعمال، و قتل من يخاف شرّه، و أمر فنقش على السكة فى أحد الوجهين: بلغت حجة اللّه، و فى الآخر: تفرّق أعداء اللّه و نقش على السلاح عدّة فى سبيل اللّه، و وسم الخيل على أفخاذها: الملك للّه، و أقام على ما كان عليه من لبس الخشن الدون، و تناول القليل الغليظ من الطعام، فلما دخل شهر رمضان سار من رقادة فى جيوش عظيمة اهتز لها المغرب بأسره يريد سلجماسة، فحاربه اليسع يوما كاملا إلى الليل، ثم فرّ فى خاصته، فدخل أبو عبد اللّه من الغد إلى البلد، و أخرج عبيد اللّه و ابنه، و مشى فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸۵

ركابهما بجميع رؤساء القبائل، و هو يقول للناس: هذا مولاكم، و هو يبكى من شدّة الفرح حتى وصل بهما إلى فسطاط ضربه فى العسكر، فأنزلهما فيه، و بعث الخيل فى طلب اليسع، فأدركته و جاءت به فقتله، و أقام عبيد اللّه بسلجماسة أربعين يوما، ثم سار إلى إفريقية فى ربيع الآخر سنة سبع و تسعين، و نزل برقادة، و أمر يوم الجمعة أن يذكر فى الخطبة و تلقب بالمهدىّ أمير المؤمنين، فدعى له فى جميع البلاد بذلك، و جلس بعد الصلاة الدعاة و دعوا الناس كافة إلى مذهبهم، فمن أجاب قبل منه، و من أبى قتل، و عرض جوارى زيادة اللّه، و اختار منهنّ لنفسه و لولده، و فرّق ما بقى على وجوه كتامة، و قسم عليهم أعمال إفريقية، و دوّن الدواوين، وجبى الأموال و دانت له البلاد، فشق ذلك على أبى عبد اللّه، و نافس المهدىّ، و حسده من أجل أنه كف يده، و يد أخيه أبى العباس، فعظم عليه الفطام عن الأمر و النهى و الأخذ و العطاء، و أقبل أبو العباس يرزى على المهدىّ فى مجلس أخيه، و يؤنب أخاه على ما فعل حتى أثر فى نفسه، فسأل المهدىّ: أن يفوّض إليه الأمور و يجلس فى القصر، و كان قد بلغ المهدىّ ما يجهر به أبو العباس من السوء فى حقه، فردّ أبا عبد اللّه ردّا لطيفا، و أسرّها فى نفسه، و أكثر أبو العباس من قوله حتى أغرى المقدّمين بالمهدىّ، و قال:

ما هذا بالذى كنا نعتقد طاعته، و ندعو إليه لأنّ المهدىّ يأتى بالآيات الباهرة، فمال إليه جماعة، و واجه بعضهم المهدىّ بذلك، و قال له: إن كنت المهدىّ، فأظهر لنا آية، فقد شككنا فيك، فبعد ما بين المهدىّ، و بين أبى عبد اللّه، و أوجس كلّ منهما فى نفسه خيفة من الآخر، و أخذ أبو العباس يدبر فى قتل المهدىّ، و المهدىّ يحلّ ما كان يبرمه، و ثم رتب رجالا، فلما ركب أبو عبد اللّه، و أخوه إلى قصر المهدىّ ثار بهما الرجال، فقال أبو عبد اللّه:

لا تفعلوا، فقالوا له: إنّ الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك، فقتل هو و أخوه للنصف من جمادى الآخرة سنة ثمان و تسعين و مائتين بمدينة رقادة، فثارت فتنة بسبب قتلهما، فركب المهدىّ حتى سكنت و تتبع جماعة منهم، فقتلهم فلما استقام له الأمر عهد إلى ابنه أبى القاسم، و تتبع بنى الأغلب، فقتل منهم جماعة، و جهز فى سنة إحدى و ثلثمائة ابنه أبا القاسم بالعساكر إلى مصر، فأخذ برقة و الإسكندرية و الفيوم، و كانت له مع عساكر مصر، و عساكر العراق الواردة إلى مصر مع مؤنس الخادم عدّة حروب، و عاد إلى الغرب، فجهز المهدىّ فى سنة اثنتين و ثلثمائة: حباسة بجيوش إلى مصر، فغلب على الإسكندرية، و كان من أمره ما تقدّم ذكره.

و كان للمهدى ببلاد المغرب عدّة حروب، و كان يوجد فى الكتب خروج أبى يزيد النكارىّ على دولته، فبنى المهدية، و أدار عليها سورا جعل فيه أبوابا زنة كل مصراع منها، مائة قنطار من حديد، و كان ابتداء بنائها فى ذى القعدة سنة ثلاث و ثلثمائة، و بنى المصلى بظاهرها، و قال: إلى هنا يصل صاحب الحمار، يعنى أبا يزيد، فكان كذلك، و أنشأ صناعة فيها تسعمائة شونة، و قال: إنما بنيت هذه لتعتصم الفواطم بها ساعة من نهار، فكان كذلك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸۶

ثم إنه جهز ابنه أبا القاسم فى سنة ست و ثلثمائة على جيش إلى مصر، فأخذ الإسكندرية، و ملك جزيرة الأشمونين، و كثيرا من صعيد مصر، و كانت هناك حروب مع عساكر مصر و العراق، ثم عاد إلى المغرب، و خرج أبو القاسم فى سنة خمس عشرة بالجيوش إلى المغرب، فحارب قوما و عاد، فمات عبيد اللّه فى ليلة الثلاثاء منتصف شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و عشرين و ثلثمائة بالمهدية من القيروان عن ثلاث و ستين سنة، و كانت خلافته أربعا و عشرين سنة و شهرا و عشرين يوما، و لما مات: أخفى ابنه موته.

و قام من بعد عبيد اللّه المهدىّ وليّ عهده: القائم بأمر اللّه أبو القاسم محمد، و يقال:

كان اسمه بالمشرق: عبد الرحمن، فتسمى فى بلاد المغرب: بمحمد، و ذلك بسلمية فى المحرّم سنة ثمانين و مائتين، فلما فرغ من جميع ما يريده، و تمكن أظهر موت أبيه، و استقل بالأمر، و له سبع و أربعون سنة، و تبع سيرة أبيه و ثار عليه جماعة، فظفر بهم و بث جيوشه فى البرّ و البحر، فسبوا و غنموا من بلد جنوة، و بعث جيشا إلى مصر، فملكوا الإسكندرية و الإخشيد يومئذ أمير مصر، فلما كان فى سنة ثلاث و ثلاثين و ثلثمائة، خرج عليه أبو يزيد مخلد بن كندار النكارىّ الخارجىّ بإفريقية، و اشتدّت شوكته، و كثرت أتباعه، و هزم جيوش القائم غير مرّة، و كان مذهبه تكفير أهل الملة، و إراقة دمائهم ديانة، فملك باجة ، و حرّقها، و قتل الأطفال، و سبى النسوان، ثم ملك القيروان، فاضطرب القائم، و خاف الناس و هموا بالنقلة من زويلة، و قوى أمر أبى يزيد، و نازل المهدية، و حصر القائم بها، و كاد أن يغلب عليها، فلما بلغ المصلى حيث أشار المهدىّ أنه يصل هزمه أصحاب القائم، و قتلوا كثيرا من أصحابه، و كانت له قصص، و أنباء إلى أن مات القائم لثلاث عشرة خلت من شوّال سنة أربع و ثلاثين و ثلثمائة عن أربع و خمسين سنة و تسعة أشهر، و لم يرق منبرا، و لا ركب دابة لصيد مدّة خلافته، حتى مات و صلى مرّة على جنازة، و صلى بالناس العيد مرّة واحدة، و كانت مدّة خلافته اثنتى عشرة سنة و ستة أشهر و أياما، و ترك أبا الظاهر إسماعيل، و أبا عبد اللّه جعفرا، و حمزة و عدنان، و عدّة أخر.

و قام من بعده ابنه: المنصور بنصر اللّه أبو الظاهر إسماعيل، و كتم موت أبيه خوفا أن يعلم أبو يزيد فإنه كان قريبا منه، و أبقى الأمور على حالها، و لم يتسمّ بالخليفة، و لا غير السكة، و لا الخطبة و لا البنود، و جدّ فى حرب أبى يزيد حتى ظفر به و حمل إليه، فمات من جراحات كانت به سلخ المحرّم سنة ست و ثلاثين و ثلثمائة، و لم يزل المنصور إلى أن مات سلخ شوّال سنة إحدى و أربعين و ثلثمائة عن إحدى و أربعين سنة و خمسة أشهر، و كانت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸۷

مدّة خلافته ثمان سنين، و قيل: سبع سنين و عشرة أيّام، و قد اختلف فى تاريخ ولادته، فقيل: ولد أوّل ليلة من جمادى الآخرة سنة ثلاث و ثلثمائة بالمهدية، و قيل: بل ولد فى سنة اثنتين، و قيل: سنة إحدى و ثلثمائة، و كان خطيبا بليغا يرتجل الخطبة لوقته شجاعا عاقلا.

و قام من بعده ابنه: المعز لدين اللّه أبو تميم معدّ، و عمره نحو أربع و عشرين سنة، فإنه ولد للنصف من رمضان سنة سبع عشرة و ثلثمائة، فانقاد إليه البربر، و أحسن إليهم فعظم أمره، و اختص من مواليه: بجوهر، و كناه بأبى الحسين و أعلى قدره، و صيره فى رتبة الوزارة، و عقد له على جيش كثيف فيهم: الأمير زيرى بن مناد الصنهاجىّ، فدوّخ المغرب و افتتح مدنا، و قهر عدّة أكابر و أسرهم حتى أتى البحر المحيط، فأمر باصطياد سمكة منه، و سيّرها فى قلة من ماء إلى المعز إشارة إلى أنه ملك حتى سكان البحر المحيط الذى لا عمارة بعده، ثم قدم غانما مظفرا، فعظم قدره عند المعز، و لما كان فى بعض الأيام استدعى المعز فى يوم شات عدّة من شيوخ كتامة، فدخلوا عليه فى مجلس قد فرش باللبود، و حوله كساء، و عليه جبة، و حوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب، و بين يديه دواة و كتب.

فقال: يا إخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء و البرد، فقلت لأمّ الأمراء، و إنها الآن بحيث تسمع كلامى: أ ترى إخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل و نشرب، و نتقلب فى المثقل و الديباج و الحرير، و الفنك و السمور و المسك و الخمر، و القباء كما يفعل

أرباب الدنيا، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم، و احتجبت عنكم، و إنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلّا بما لا بدّ لى منه من دنياكم، و بما خصنى اللّه به من إمامتكم، و إنى مشغول بكتب ترد علىّ من المشرق و المغرب أجيب عنها بخطى، و إنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم، و يعمر بلادكم، و يذل أعداءكم، و يقمع أضدادكم، فافعلوا يا شيوخ فى خواتكم مثل ما أفعله، و لا تظهروا التكبر و التجبر، فينزع اللّه النعمة عنكم، و ينقلها إلى غيركم، و تحننوا علىّ من وراءكم ممن لا يصل إلىّ، كتحننى عليكم ليتصل فى الناس الجميل، و يكثر الخير، و ينتشر العدل، و أقبلوا بعدها على نسائكم و الزموا الواحدة التى تكون لكم، و لا تشرهوا إلى التكثر منهنّ و الرغبة فيهنّ، فيتنغص عشيكم، و تعود المضرّة عليكم، و تنهكوا أبدانكم و عقولكم، و اعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرّب اللّه علينا أمر المشرق كما قرّب أمر المغرب بكم انهضوا رحمكم اللّه و نصركم، فخرجوا عنه، و استدعى يوما أبا جعفر حسين بن مهذب صاحب بيت المال، و هو فى وسط القصر قد جلس على صندوق، و بين يديه ألوف صناديق مبدّدة، فقال له: هذه صناديق مال، و قد شذ عنى ترتيبها فانظرها و رتبها قال: فأخذت أجمعها إلى أن صارت مرتبة، و بين يديه جماعة من خدّام بيت المال، و الفرّاشين، فأنفذت إليه أعلمه فأمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها، و أن يغلق عليها، و تختم بخاتمه، و قال: قد خرجت عن خاتمنا و صارت إليك، فكانت جملتها أربعة و عشرين ألف ألف دينار، و ذلك فى سنة سبع و خمسين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸۸

و ثلثمائة، فأنفقها أجمع على العساكر التى سيرها إلى مصر من سنة ثمان و خمسين إلى سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة.

و لما أخذ فى تجهيز جوهر بالعساكر إلى أخذ ديار مصر، حتى تهيأ أمره، و برز للمسير، بعث المعز خفيفا الصقلبىّ إلى شيوخ كتامة يقول: يا إخواننا قد رأينا أن ننفذ رجالا إلى بلدان كتامة يقيمون بينهم، و يأخذون صدقاتهم، و مراعيهم و يحفظونها عليهم فى بلادهم، فإذا احتجنا إليها أنفذنا خلفها، فاستعنا بها على ما نحن بسبيله، فقال بعض شيوخهم لخفيف لما بلغه ذلك، قل لمولانا و اللّه لا فعلنا هذا أبدا، كيف تؤدّى كتامة الجزية، و يصير عليها فى الديوان ضريبة، و قد أعزها اللّه قديما بالإسلام، و حديثا معكم بالإيمان و سيوفنا بطاعتكم فى المشرق و المغرب، فعاد خفيف إلى المعز بذلك، فأمر بإحضار جماعة كتامة، فدخلوا عليه، و هو راكب فرسه، فقال: ما هذا الجواب الذى صدر عنكم؟ فقالوا: هذا جواب جماعتنا ما كنا يا مولانا بالذى يؤدّى جزية تبقى علينا، فقام المعز فى ركابه، و قال: بارك اللّه فيكم فهكذا أريد أن تكونوا، و إنما أردت أن أختبركم، فانظر كيف أنتم بعدى، فسار جوهر، و أخذ مصر، كما قد ذكر فى ترجمته عند ذكر سور القاهرة من هذا الكتاب.

فلما ثبتت قدم جوهر بمصر كتب إليه المعز جوابا عن كتابه، و أما ما ذكرت يا جوهر، من أن جماعة بنى حمدان وصلت إليك كتبهم يبذلون الطاعة، و يعدون بالمسارعة فى المسير إليك، فاسمع لما أذكره لك، احذر أن تبتدىء أحدا من آل حمدان بمكاتبة ترهيبا له، و لا ترغيبا، و من كتب إليك كتابا منهم، فأجبه بالحسن الجميل، و لا تستدعه إليك، و من ورد إليك منهم، فأحسن إليه، و لا تمكن أحدا منهم من قيادة جيش، و لا ملك طرف، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم، و ليس لهم فيها نصيب، يتظاهرون بالدين، و ليس لهم فيه نصيب، و يتظاهرون بالكرم، و ليس لواحد منهم كرم فى اللّه، و يتظاهرون بالشجاعة، و شجاعتهم للدنيا لا للآخرة، فاحذر كل الحذر من الاستناد إلى أحد منهم.

و لما عزم المعز على المسير إلى مصر أجال فكره، فيمن يخلفه فى بلاد المغرب، فوقع اختياره على جعفر بن علىّ الأمير، فاستدعاه، و أسرّ إليه أنه يريد استخلافه بالمغرب، فقال: تترك معى أحد أولادك أو إخوتك يجلس فى القصر، و أنا أدبر، و لا تسألنى عن شىء من الأموال، لأنّ ما أجيبه يكون بإزاء ما أنفقه من الأموال، و إذا أردت أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر و المغرب، و يكون تقليد القضاء و الخراج و غيره إلىّ، فغضب المعز، و قال: يا جعفر عزلتنى عن ملكى؟ و أردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى؟ و استبددت بالأعمال و الأموال دونى؟ قم فقد أخطأت حظك، و ما أصبت رشدك، فخرج عنه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۸۹

ثم إنه استدعى يوسف بن زيرى الصنهاجيّ، و قال له: تأهب لخلافة المغرب، فأكبر ذلك، و قال: يا مولانا، أنت و آباؤك الأئمة من ولد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لى، و أنا صنهاجيّ بربرى؟ قتلتنى يا مولانا بغير سيف و لا رمح، فما زال به المعز حتى أجاب بشريطة أنّ المعز يولى القضاء و الخراج لمن يراه و يختاره، و يجعل الحيز لمن يثق به، و يجعله قائما بين أيدى هؤلاء، فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى يعمل به ما يجب، و يكون الأمر لهم و يصير كالخادم بين أولئك، فأحب المعز ما قال و شكره، فلما انصرف قال أبو طالب بن القائم بأمر اللّه للمعز: يا مولانا، و تثق بهذا القول من يوسف، و إنه يقوم بوفاء ما ذكر، فقال المعز: يا عمنا كم بين قول يوسف، و قول جعفر، فاعلم يا عمّ أن الأمر الذى طلبه جعفر ابتداء، هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف، و إذا تطاولت المدّة سينفرد بالأمر، و لكن هذا أوّلا أحسن، و أجود عند ذوى العقل، و هو نهاية ما يفعله، و كانت أم الأمراء قد وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر، فعرضها وكيلها فى مصر للبيع، و طلب فيها ألف دينار، فحضر إليه فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتقلب الصبية، فساومته ففيها، و ابتاعتها منه بستمائة دينار، فإذا هى ابنة الإخشيد محمد بن طغج، و قد بلغها خبر هذه الصبية.

فلما رأتها شغفتها حبا، فاشترتها لتستمتع بها، فعاد الوكيل إلى المغرب، و حدّث المعز بذلك، فأحضر الشيوخ، و أمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الإخشيد مع الصبية إلى آخره، فقال المعز: يا إخواننا انهضوا إلى مصر، فلن يحول بينكم و بينها شيء، فإنّ القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها، و تشترى جارية لتتمتع بها، و ما هذا إلّا من ضعف نفوس رجالهم، و ذهاب غيرتهم، فانهضوا لمسيرنا إليهم، فقالوا: السمع و الطاعة، فقال: خذوا فى حوائجكم، فنحن نقدّم الاختيار لمسيرنا إن شاء اللّه تعالى. و كان قيصر، و مظفر الصقلبيان قد بلغا رتبة عظيمة عند المنصور والد المعز، و كان المظفر يدل على المعز من أجل أنه علمه الخط فى صغره، فحرد عليه مرّة، و ولى فسمعه المعز يتكلم بكلمة صقلبية استراب منها، و لقنها منه، و أنفت نفسه من السؤال عن معناها، فأخذ يحفظ اللغات، فابتدأ بتعلم اللغة البربرية، حتى أحكمها، ثم تعلم الرومية و السودانية حتى أتقنهما، ثم أخذ يتعلم الصقلبية، فمرّت به تلك الكلمة، فإذا هى سب قبيح، فأمر بمظفر، فقتل من أجل تلك الكلمة، و بلغه أمر الحرب التى كانت بين بنى حسن، و بنى جعفر بالحجاز، حتى قتل من بنى حسن أكثر ممن قتل من بنى جعفر، فأنفذ مالا و رجالا فى السرّ ما زالوا بالطائفتين حتى اصطلحتا، و تحمل الرجال عن كل منهما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۰

الحمالات، فجاء الفاضل فى القتلى لبنى حسن عند بنى جعفر نحو سبعين قتيلا فأدّوا عنهم و عقدوا بينهم الصلح فى الحرم تجاه الكعبة، و تحملوا عنهم الديات من مال المعز، و كان ذلك فى سنة ثمان و أربعين و ثلثمائة، فصارت هذه الفعلة يدا عند بنى حسن للمعز، فلما ملك جوهر مصر: بادر حسن بن جعفر الحسنىّ بالدعاء للمعز فى مكة، و بعث إلى جوهر بالخبر، فسير إلى المعز يعرّفه بإقامة الدعوة له بمكة، فأنفذ إليه بتقليده الحرم و أعماله.

و سار المعز بعساكره من المغرب حتى نزل بالجيزة فعقد له جوهر جسرا جديدا عند المختار بالجزيرة، فسار عليه، و قد زينت له مدينة الفسطاط، فلم يشقها و دخل إلى القاهرة بجميع أولاده و إخوته و سائر أولاد عبيد اللّه المهدىّ، و بتوابيت آبائه، و ذلك لسبع خلون من رمضان سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة، فعندما دخل القصر صلى ركعتين، فاقتدى به من حضر، و بات به ثم أصبح فجلس للهناء، و أمر فكتب فى سائر مدينة مصر: خير الناس بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، و أثبت اسم المعز لدين اللّه، و اسم أبيه عبد اللّه الأمير، و جلس فى القصر على السرير الذهب، و صلى بالناس صلاة عيد الفطر فى المصلى، فسبح فى كل ركعة، و فى كل سجدة ثلاثين تسبيحة، ثم خطب بعد الصلاة، و ركب لفتح خليج مصر يوم الوفاء، و عمل عيد غدير خم، و مات بعض بنى عمه، فصلى عليه، و كبر سبعا، و كبر على ميت آخر خمسا، و قدمت القرامطة إلى مصر، فسير إليهم الجلوس و هزموهم، و

ما زال إلى أن توفى من علة اعتلها بعد دخوله إلى القاهرة بسنتين و سبعة أشهر و عشرة أيام، و عمره خمس و أربعون سنة و ستة أشهر تقريبا، فإنّ مولده بالمهدية فى حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة و ثلثمائة، و وفاته بالقاهرة لأربع عشرة خلت من ربيع الآخر سنة خمس و ستين و ثلثمائة، و كانت مدّة خلافته بالمغرب، و ديار مصر، ثلاثا و عشرون سنة و عشرة أيام، و هو أوّل الخلفاء الفاطميين بمصر، و إليه تنسب القاهرة المعزية لأنّ عبده جوهر القائد بناها حسب ما رسم له كما ذكر فى خبر بنائها.

و كان المعز عالما فاضلا جوادا حسن السيرة منصفا للرعية مغرما بالنجوم أقيمت له الدعوة بالمغرب كله و ديار مصر و الشام، و الحرمين، و بعض أعمال العراق.

و قام من بعده ابنه: العزيز بالله أبو منصور نزار، فأقام فى الخلافة إحدى و عشرين سنة و خمسة أشهر و نصفا، و مات و عمره اثنتان و أربعون سنة و ثمانية أشهر و أربعة عشر يوما فى الثامن و العشرين من رجب سنة ست و ثمانين و ثلثمائة بمدينة بلبيس، و حمل إلى القاهرة.

و قام من بعده ابنه: الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور، و كانت مدّة خلافته إلى أن فقد خمسا و عشرين سنة و شهرا، و فقد و عمره ست و ثلاثون سنة و سبعة أشهر فى ليلة السابع و العشرين من شوّال سنة إحدى عشرة و أربعمائة، و قد بسطت خبر العزيز و الحاكم عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۱

و قام من بعده ابنه: الظاهر لإعزاز دين اللّه أبو الحسين علىّ بن الحاكم، بأمر اللّه، ولد بالقاهرة يوم الأربعاء، لعشر خلون من رمضان سنة خمس و تسعين و ثلثمائة، و بويع له بالخلافة يوم عيد النحر، سنة إحدى عشرة و أربعمائة، و عمره ست عشرة سنة، فخرج إلى صلاة العيد، و على رأسه المظلة، و حوله العساكر، و صلى بالناس فى المصلى، و عاد فكتب بخلافته إلى الأعمال، و شرب الخمر و رخص فيه للناس، و فى سماع الغناء، و شرب الفقاع، و أكل الملوخيا و جميع الأسماك، فأقبل الناس على اللهو، و وزر له الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن عمار بن محمد، و كان يلى ديوان الإنشاء و غيره، و استوزره بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين، و كان يتولى الشرطة، ثم ولى ديوان الإنشاء بعد ابن حيران، و صرف عن الوزارة فى المحرّم سنة ثلاث عشرة، و قبض عليه فى شوّال، و قتل فوجد له من العين ستمائة ألف دينار و عشرون ألف دينار، و ولى بعده الأزارة الأمير شمس الملوك المكين مسعود بن طاهر.

و فى سنة أربع عشرة قلد منتخب الدولة الدريزى متولى قيساورية ولاية فلسطين، فكانت له مع حسان بن مفرح بن جراح الطائىّ حروب، و فيها نزع السعر بمصر، و تعذر وجود الخبز، و فى المحرّم سنة خمس عشرة لقب الخادم الأسود معضاد ، بالقائد عز الدولة و سنائها أبى الفوارس معضاد الظاهر، و خلع عليه، و ثار رجل من بنى الحسين ببلاد الصعيد، فقبض عليه، و أقرّ أنه قتل الحاكم بأمر اللّه، و وجد معه قطعة من جلد رأسه، و قطعة من الفوطة التى كانت عليه، فسئل عن سبب قتله إياه؟ فقال: غرت للّه و للإسلام، ثم قتل نفسه بسكين كانت معه، فقطعت رأسه، و سيرت إلى القاهرة، و فيها اشتدّ الغلاء بمصر، و كثر نقص النيل.

و فيها قرّر الشريف الكبير العجمىّ، و الشيخ نجيب الدولة الجرجراى ، و الشيخ العميد محسن بن بدوس، مع القائد معضاد أن لا يدخل على الظاهر أحد غيرهم، و كانوا يدخلون كل يوم خلوة و يخرجون، فيتصرّفون فى سائر أمور الدولة، و الظاهر مشغول بلذاته، و صار شمس الملوك مظفر صاحب المظلمة، و ابن حيران صاحب الإنشاء، و داعى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۲

الدعاة، و نقيب نقباء الطالبيين، و قاضى القضاة، ربما دخلوا على الظاهر فى كل عشرين يوما مرّة، و من عداهم لا يصل إلى الظاهر البتة، و الثلاثة الأول هم الذين يقضون الأشغال، و يمضون الأمور بعد الاجتماع عند القائد معضاد، و منع الناس من ذبح الأبقار لقلتها، و عزت الأقوات بمصر، و قلت البهائم كلها حتى بيع الرأس البقر بخمسين دينارا، و كثر الخوف فى ظواهر البلد، و كثر اضطراب الناس، و تحدّث زعماء الدولة بمصادرة التجار، فاختلف بعضهم على بعض، و كثر ضجيج طوائف العسكر من الفقر و الحاجة، فلم

يجابوا و تحاسد زعماء الدولة، فقبض على العميد محسن، و ضرب عنقه و اشتدّ الغلاء، و فشت الأمراض، و كثر الموت فى الناس، و فقد الحيوان، فلم يقدر على دجاجة، و لا فروج و عز الماء لقلة الظهر، فعمّ البلاء من كل جهة، و عرض الناس أمتعتهم للبيع، فلم يوجد من يشتريها، و خرج الحاج فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركة الجب، و أخذت أموالهم، و قتل منهم كثير و عاد من بقى، فلم يحج أحد من أهل مصر، و تفاقم الأمر فى شدّة الغلاء، فصاح الناس بالظاهر: الجوع الجوع يا أمير المؤمنين؟ لم يصنع بنا هذا أبوك و لا جدّك، فاللّه اللّه فى أمرنا، و طرقت عساكر ابن جراح الفرما، ففرّ أهلها إلى القاهرة، و أصبح الناس بمصر على أقبح حال من الأمراض و الموتان، و شدّة الغلاء، و عدم الأقوات، و كثر الخوف من الذعار التى تكبس حتى أنه لما عمل سماط عيد النحر بالقصر كبس العبيد على السماط، و هم يصيحون: الجوع، و نهبوا سائر ما كان عليه، و نهبت الأرياف و كثر طمع العبيد و نهبهم، و جرت أمور من العامّة قبيحة، و احتاج الظاهر إلى القرض، فحمل بعض أهل الدولة إليه مالا، و امتنع آخرون، و اجتمع نحو الألف عبد لتنهب البلد من الجوع، فنودى بأن من تعرّض له أحد من العبيد، فليقتله و ندب جماعة لحفظ البلد، و استعدّ الناس، فكانت نهبات بالساحل، و وقائع مع العبيد احتاج الناس فيها إلى أن خندقوا عليهم خنادق، و عملوا الدروب على الأزقّة و الشوارع، و خرج معضاد فى عسكر، فطردهم و قبض على جماعة منهم ضرب أعناقهم، و أخذ العبيد فى طلب الحرحراى و غيره من وجوه الدولة، فحرسوا أنفسهم، و امتنعوا فى دورهم و انقضت السنة، و الناس فى أنواع من البلاء.

و فى سنة ست عشرة أمر الظاهر، فأخرج من بمصر من الفقهاء المالكية و غيرهم، و أمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام، و مختصر الوزير، و جعل لمن حفظ ذلك مالا.

و فى سنة سبع عشرة ثار بمصر رعاف عظيم بالناس، و كثرت زيادة النيل عن العادة، و تصدّق الظاهر بمائة ألف دينار من أجل أنه سقط عن فرسه و سلم.

و فى سنة ثمان عشرة وقعت الهدنة مع صاحب الروم، و خطب للظاهر فى بلاده، و أعاد الجامع بقسطنطينية، و عمل فيه مؤذنا، فأعاد الظاهر كنيسة قمامة بالقدس، و أذن لمن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۳

أظهر الإسلام فى أيام الحاكم أن يعود إلى النصرانية، فرجع إليها كثير منهم، و صرف الظاهر وزيره عميد الدولة، و ناصحها أبا محمد الحسن بن صالح الروذبادى، و أقام بدله أبا القاسم علىّ بن أحمد الحرحراى.

و فى سنة عشرين كانت فتنة بين المغاربة و الأتراك قتل فيها كثير.

و فى سنة إحدى و عشرين بويع لابن الظاهر بولاية العهد، و عمره ثمانية أشهر، و أنفق على ذلك فى خلع لأهل الدولة، و طعام و نثار للعامة ما يجل وصفه.

و فى سنة اثنتين و عشرين تحرّك السعر لنقص ماء النيل، ثم زاد بعد أوانه بأربعة أشهر.

و فى سنة ثلاث و عشرين قتل الظاهر أحد الدعاة، فاضطربت الرعية و الجند، و تحدّث الناس بخلعه، ثم سكنت الفتنة بعد إنفاق مال جزيل.

و فى سنة أربع و عشرين ركب وليّ العهد من القاهرة إلى مصر، و قد زينت الطرقات، فكان إذا مرّ بقوم قبلوا له الأرض، و نثر يومئذ على العامّة مبلغ خمسة آلاف دينار، فكان يوما عظيما.

و فى سنة خمس و عشرين بث الظاهر دعاته ببغداد عند اختلاف الأتراك بها، فكثرت دعاته هناك، و استجاب لهم خلق كثير، فلما كان فى سنة ست و عشرين كثر الوباء بمصر، و مات الظاهر للنصف من شعبان سنة سبع و عشرين و أربعمائة عن اثنتين و ثلاثين سنة إلّا أياما، فكانت مدّة خلافته خمس عشرة سنة و ثمانية أشهر و أياما، و كان مشغوفا باللهو محبا للغناء، فتأنق الناس فى أيامه بمصر، و اتخذوا المغنيات و الرقاصات، و بلغوا من ذلك مبلغا عظيما، و اتخذ حجرا لمماليكه و علمهم أنواع العلوم، و سائر فنون الحرب، و

اتخذ خزانة البنود، و أقام فيها ثلاثة آلاف صانع، و راسل الملوك و استكثر من شراء الجواهر، و كانت مملكته بإفريقية و مصر و الشام و الحجاز، و غلب صالح بن مرداس على حلب فى أيامه، و استولى على ما يليها، و تغلّب حسان بن جرّاح على أكثر بلاد الشام، فتضعضعت الدولة.

و قام من بعده ابنه و لىّ العهد، و بويع له و هو: المستنصر بالله أبو تميم معدّ، و مولده فى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة عشرين و أربعمائة، و بويع بالخلافة للنصف من شعبان سنة سبع و عشرين، و عمره يومئذ سبع سنين، فأقام ستين سنة و أشهرا فى الخلافة كانت فيها أنباء، و قصص شنيعة بديار مصر منها: أنّ أمّه كانت أمة سوداء لتاجر يهودىّ يقال له:

أبو سعد سهل بن هارون التسترىّ، فابتاعها منه الظاهر، و استولدها المستنصر، فلما أفضت الخلافة إليه استدنت أمّه أبا سعد، و رقته درجة عليّة، و كان الوزير يومئذ أبا القاسم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۴

الحرحراى، فلم يتمكن أبو سعد من إظهار ما فى نفسه حتى مات الحرحراى، و تولى أبو منصور صدقة بن يوسف العلاجىّ الوزارة، فانبسطت يد أبى سعد، و صار العلاجىّ يأتمر بأمر، فعمل عليه و قتله كما ذكر فى خبر خزانة البنود، فحقدت أم المستنصر على العلاجىّ، و صرفته عن الوزارة و استقر أبو البركات صفىّ الدين الحسين بن محمد بن أحمد الحرحراى فى الوزارة.

و فى سنة أربعين سار ناصر الدولة الحسين بن حمدان متولى دمشق بالعساكر إلى حلب، و حارب متوليها: ثمال بن صالح بن مرداس، ثم رجع بغير طائل، فقلد مظفر الصقلبىّ دمشق، و قبض على ابن حمدان، و صادره و اعتقله بصور، ثم بالرملة، و خرج أمير الأمراء: رفق الخادم على عسكر تبلغ عدّته نحو الثلاثين ألفا بلغت النفقة عليه أربعمائة ألف دينار يريد الشام، و محاربة بنى مرداس.

و فى المحرّم سنة إحدى و أربعين صرف قاضى القضاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان عن القضاء بعدما باشره ثلاث عشرة سنة و شهر أو أربعة أيام، و تقلد وظيفة القضاء بعده القاضى الأجل خطير الملك أبو محمد البازورىّ.

و فيها حارب رفق بنى مرداس، فظفروا به و أسروه، فمات بقلعة حلب، فأفرج عن ابن حمدان، و بقى بالحضرة، و قبض على الوزير أبى البركات الحرحراى، و نفى إلى الشام، و عمل أبو المفضل صاعد بن مسعود واسطة لا وزيرا، ثم قلد القضاة أبو محمد البازورىّ الوزارة مع وظيفة القضاء، و لقب بسيد الوزراء.

و فى سنة اثنتين و أربعين كانت حروب البحيرة، و إخراج بنى قرّة منها، و إنزال بنى سنيس بعدهم بها، و فيها دعا علىّ بن محمد الصليحىّ باليمن للمستنصر، و بعث إليه بمال النجوة و الهدن.

و فى سنة أربع و أربعين كتب ببغداد محاضر بالقدح فى نسب الخلفاء المصريين، و نفيهم من الانتساب إلى علىّ بن أبى طالب، و سيرت إلى الآفاق و قصر مدّ النيل، فتحرّك السعر بمصر، ثم قصر أيضا مدّ النيل فى سنة ست و أربعين، فقوى الغلاء، و كثر الموت فى الناس.

و فى سنة ثمان و أربعين خرج أبو الحارث البساسيرى من بغداد منتميا للمستنصر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۵

فسيرت إليه الأموال و الخلع.

و فى سنة ثمان و أربعين عادت حلب إلى مملكة المستنصر.

و فى سنة خمسين قبض على الوزير الناصر للدين أبى محمد البازورىّ، و تقلد بعده الوزارة أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى بن عبد اللّه بن محمد، و ولى القضاء بعد البازورىّ أبو علىّ أحمد بن عبد الحكم، ثم صرف بعبد الحاكم المليحىّ، و فيها أخذ البساسيرى بغداد، و أقام فيها الخطبة للمستنصر، و فرّ الخليفة القائم بأمر اللّه العباسىّ إلى قريش بن بدران، فبعث به إلى غانة، و سيرت ثياب القائم، و عمامته و غير ذلك من الأموال إلى مصر، و فيها سار ناصر الدولة إلى دمشق أميرا عليها.

و فى سنة إحدى و خمسين أقيمت دعوة المستنصر بالبصرة و واسط و جميع تلك الأعمال، فقدم طغريل إلى بغداد، و أعاد الخليفة القائم بعد ما خطب للمستنصر ببغداد أربعون خطبة، و قتل البساسيرىّ، و فيها قطعت خطبة المستنصر أيضا من حلب، فسار إليها ابن حمدان، و حارب أهلها، فانكسر كسرة شديدة شنيعة، و عاد إلى دمشق، و فيها صرف أبو الفرج بن المغربىّ عن الوزارة، و عبد الحاكم عن القضاء، و أعيد إلى الوزارة أبو الفرج البابلىّ، و استقرّ فى وظيفة القضاء أحمد بن أبى زكرى.

و فى سنة ثلاث و خمسين كثر صرف الوزراء و القضاة، و ولايتهم لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة، و تقدّم الأراذل بحيث كان يصل إليه فى كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المرافعات و السعايات، فاشتبهت عليه الأمور، و تناقضت الأحوال، و وقع الاختلاف بين عبيد الدولة، و ضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدّة كل منهم، و خربت الأعمال، و قلّ ارتفاعها، و تغلب الرجال على معظمها مع كثرة النفقات و الاستخفاف بالأمور، و طغيان الأكابر إلى أن آل الأمر إلى حدوث الشدّة العظمى، كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، و كان من قدوم أمير الجيوش بدر الجمالىّ فى سنة ست و ستين و أربعمائة، و قيامه بسلطنة مصر ما ذكر فى ترجمته عند ذكر أبواب القاهرة، فلم يزل المستنصر مدّة أمير الجيوش ملجما عن التصرّف إلى أن مات فى سنة سبع و ثمانين، فأقام العسكر من بعده فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه، فباشر الأمور يسيرا، و مات المستنصر ليلة الخميس لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة سبع و ثمانين عن سبع، و ستين سنة و خمسة أشهر منها فى الخلافة ستون سنة، و أربعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۶

أشهر و ثلاثة أيام مرّت فيها أهوال عظيمة، و شدائد آلت به إلى أن جلس على نخ، و فقد القوت فلم يقدر عليه حتى كانت امرأة من الأشراف تتصدّق عليه فى كل يوم بقعب فيه فتيت، فلا يأكل سواه مرّة فى كل يوم، و قد مرّ فى غير موضع من هذا الكتاب كثير من أخباره، فلما مات المستنصر أقام الأفضل بن أمير الجيوش فى الخلافة من بعده ابنه:

المستعلى بالله أبا القاسم أحمد، و كان مولده فى العشرين من المحرّم سنة سبع و ستين و أربعمائة، فحالف عليه أخوه نزار، و فرّ إلى الإسكندرية و كان القائم بالأمور كلها الأفضل، فحاربه حتى ظفر به، و قتله كما تقدّم فى خبر أفتكين عند خزائن القصر.

و فى سنة تسعين وقع بمصر غلاء و وباء و قطعت الخطبة من دمشق للمستعلى، و خطب بها للعباسىّ، و خرج الفرنج من قسطنطينية لأخذ سواحل الشام، و غيرها من أيدى المسلمين فملكوا أنطاكية.

و فى سنة إحدى و تسعين خرج الأفضل بعسكر عظيم من القاهرة، فأخذ بيت المقدس من الأرمن، و عاد إلى القاهرة.

و فى سنة اثنتين و تسعين ملك الفرنج الرملة و بيت المقدس، فخرج الأفضل بالعساكر، و سار إلى عسقلان، فسار إليه الفرنج و قاتلوه، و قتلوا كثيرا من أصحابه، و غنموا منه شيئا كثيرا و حصروه، فنجا بنفسه فى البحر، و صار إلى القاهرة.

و فى سنة ثلاث و تسعين عمّ الوباء أكثر البلاد، فهلك بمصر عالم عظيم.

و فى سنة أربع و تسعين خرج عسكر مصر لقتال الفرنج، و كانت بينهما حروب كثيرة.

و فى سنة خمس و تسعين و أربعمائة مات المستعلى بالله لثلاث عشرة بقيت من صفر، و عمره سبع و عشرون سنة و سبعة و عشرون يوما، و مدّة خلافته سبع سنين و شهران، و فى أيامه اختلت الدولة، و انقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام، فإنها صارت بين الأتراك و الفرنج، و صارت الإسماعيلية فرقتين: فرقة نزارية تطعن فى إمامة المستعلى، و فرقة ترى صحة خلافته، و لم يكن للمستعلى مع الأفضل أمر و لا نهى، و لا نفوذ كلمة، و قيل: إنه سمّ، و قيل: بل قتل سرّا.

فلما مات أقام الأفضل من بعده فى الخلافة ابنه: الآمر بأحكام اللّه أبا علىّ منصورا، و عمره خمس سنين و شهر و أيام، فقتل الأفضل فى أيامه، و أقام فى الخلافة تسعا و عشرين سنة و ثمانية أشهر و نصفا، و قد ذكرت ترجمته عند ذكر الجامع الأقمر فى ذكر الجوامع من هذا الكتاب، و لما قتل الآمر بأحكام اللّه.

أقيم من بعده: الحافظ لدين اللّه أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله، و كان قد ولد بعسقلان فى

المحرّم سنة سبع، و قيل: فى سنة ثمان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۷

و تسعين و أربعمائة لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده فى أيام الشدّة، فلذلك كان يقال له فى أيام الآمر بأحكام اللّه الأمير عبد المجيد العسقلانىّ ابن عمّ مولانا.

و لما قتل النزارية: الخليفة الآمر أقام برغش و هزار الملوك الأمير عبد المجيد فى دست الخلافة، و لقباه بالحافظ لدين اللّه، و أنه يكون كفيلا- لمنتظر فى بطن أمّه من أولاد الآمر، و استقرّ هزاز الملوك وزيرا، فثار العسكر، و أقاموا أبا علىّ بن الأفضل وزيرا، و قتل هزار الملوك، و نهب شارع القاهرة، و ذلك كله فى يوم واحد، فاستبدّ أبو علىّ بالوزارة يوم السادس عشر من ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و قبض على الحافظ، و سجنه مقيدا، فاستمرّ إلى أن قتل أبو علىّ فى سادس عشر المحرّم سنة ست و عشرين، فأخرج من معتقله، و أخذ له العهد على أنه ولىّ عهد كفيل لمن يذكر اسمه، فاتخذ الحافظ هذا اليوم عيدا سماه عيد النصر، و صار يعمل كل سنة، و نهبت القاهرة يومئذ و قام يانس صاحب الباب بالوزارة إلى أن هلك فى ذى الحجة منها بعد تسعة أشهر، فلم يستوزر الحافظ بعده أحدا، و تولى الأمور بنفسه إلى سنة ثمان و عشرين، فأقام ابنه سليمان ولىّ عهده مقام وزير، فلم تطل أيامه سوى شهرين و مات، فجعل مكانه ابن حيدرة، فخنق ابنه حسن، و ثار بالفتنة، و كان من أمره ما ذكر فى خبر الحارة اليانسية من هذا الكتاب، فلما قتل حسن قام بهرام الأرمنىّ، و أخذ الوزارة فى جمادى الآخرة سنة تسع و عشرين، و كان نصرانيا، فاشتدّ ضرر المسلمين من النصارى، و كثرت أذيتهم فسار رضوان بن ولخشى، و هو يومئذ متولى الغربية، و جمع الناس لحرب بهرام، و سار إلى القاهرة، فانهزم بهرام، و دخل رضوان القاهرة، و استولى على الوزارة فى جمادى الأولى سنة إحدى و ثلاثين، فأوقع بالنصارى و أذلهم، فشكره الناس إلا أنه كان خفيفا عجولا، فأخذ فى إهانة حواشى الخليفة، و همّ بخلع، و قال: ما هو بإمام، و إنما هو كفيل لغيره، و ذلك الغير لم يصح، فتوحش الحافظ منه، و ما زال يدبر عليه حتى ثارت فتنة انهزم فيها رضوان، و خرج إلى الشام، فجمع و عاد فى سنة أربع و ثلاثين، فجهز له الحافظ العساكر لمحاربته، فقاتلهم و انهزم منهم إلى الصعيد فقبض عليه، و اعتقل، فلم يستوزر الحافظ أحدا بعده إلى أن كانت سنة ست و ثلاثين، فغلت الأسعار بمصر و كثر الوباء، و امتدّ إلى سنة سبع و ثلاثين، فعظم الوباء.

و فى سنة اثنتين و أربعين خلص رضوان من معتقله بالقصر، و خرج من نقب، و ثار بجماعة، و كانت فتنة آلت إلى قتله.

و فى سنة أربع و أربعين ثارت فتنة بالقاهرة بين طوائف العسكر، فمات الحافظ ليلة الخامس من جمادى الآخرة عن سبع و سبعين سنة منها مدّة خلافته ثمان عشرة سنة و أربعة أشهر و تسعة يوما، أصابته فيها شدائد كثيرة، و كان حازما سيوسا كثير المداراة عارفا جماعا للمال مغرى بعلم النجوم يغلب عليه الحلم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۸

فلما مات و الفتنة قائمة أقيم ابنه: الظاهر بأمر اللّه أبو منصور إسماعيل، و مولده للنصف من ربيع الآخر سنة سبع و عشرين و خمسمائة، فأقام فى الخلافة أربع سنين و ثمانية أشهر إلا خمسة أيام، و كان محكوما عليه من الوزارة، و فى أيامه أخذت عسقلان، فظهر الخلل فى الدولة، و قد ذكرت أخباره فى خط الخشيبة عند ذكر الخطط من هذا الكتاب.

فلما قتل أقيم من بعده ابنه: الفائز بنصر اللّه أبو القاسم عيسى، أقامه فى الخلافة بعد مقتل أبيه الوزير عباس، و عمره خمس سنين، فقدم طلائع بن رزيك والى الأشمونين بجموعه إلى القاهرة، ففرّ عباس، و استولى طلائع على الوزارة، و تلقب بالصالح، و قام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة خمس و خمسين عن إحدى عشرة سنة، و ستة أشهر و يومين منها فى الخلافة ست و ستين و خمسة أشهر و أيام، لم ير فيها خيرا فإنه لما أخرج ليقام خليفة رأى أعمامه قتلى، و سمع الصراخ، فاختلّ عقله، و صار يصرخ حتى مات.

فأقام الصالح بن رزيك فى الخلافة بعده: العاضد لدين اللّه أبا محمد عبد اللّه بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين اللّه، و مولده لعشر

بقين من المحرّم سنة ست و أربعين و خمسمائة، و كان عمره يوم بويع نحو إحدى عشرة سنة، و قام الصالح بتدبير الأمور إلى أن قتل فى رمضان سنة ست و خمسين كما ذكر فى خبره عند ذكر الجوامع، فقام من بعده ابنه رزيك بن طلائع، و حسنت سيرته، فعزل شاور بن مجير السعدىّ عن ولاية قوص، فلم يقبل العزل، و حشد و سار على طريق الواحات فى البرية إلى تروجة، فجمع الناس، و سار إلى القاهرة، فلم يثبت رزيك، و فرّ فقبض عليه بإطفيح، و استقرّ شاور فى الوزارة لأيام خلت من صفر سنة ثمان و خمسين، فأقام إلى أن ثار ضرغام صاحب الباب، ففرّ منه إلى الشام، و استبدّ ضرغام بالوزارة، فقتل أمراء الدولة، و أضعفها بسبب ذهاب أكابرها، فقدم الفرنج، و نازلوا مدينة بلبيس مدّة، و دافعهم المسلمون عدّة مرار، حتى عادوا إلى بلادهم بالساحل، و رجع العسكر إلى القاهرة، و قد قتل منهم كثير، فوصل شاور بعساكر الشام فى جمادى الآخرة سنة تسع و خمسين، فحاربه ضرغام على بلبيس بعساكر مصر، و كانت لهم منه معارك انهزموا فى آخرها، و غنم شاور و من معه سائر ما خرجوا به، و كان شيئا جليلا، فسرّوا بذلك، و ساروا إلى القاهرة فكانت بين الفريقين حروب آلت إلى هزيمة ضرغام، و قتله فى شهر رمضان منها.

فاستولى شاور على الوزارة مرّة ثانية، و اختلف مع الغزاة القادمين معه من الشام، و كانت له معهم حروب آلت إلى أن شاور كتب إلى مرى ملك الفرنج يستدعيه إلى القاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۱۹۹

ليعينه على محاربة شيركوه، و من معه من الغز، فحضر، و قد صار شيركوه فى مدينة بلبيس، فخرج شاور من القاهرة، و نزل هو و مرى على بلبيس، و حصرا شيركوه ثلاثة أشهر، ثم وقع الصلح، فسار شيركوه بالغز إلى الشام، و رحل الفرنج، و عاد شاور إلى القاهرة فى سنة ستين و خمسمائة، فلم يزل إلى أن قدم شيركوه من الشام بالعساكر مرّة ثانية فى ربيع الآخر، فخرج شاور من القاهرة إلى لقائه، و استدعى مرى ملك الفرنج، فسار شيركوه على الشرق، و خرج من إطفيح، فسار إليه شاور بالفرنج، و كانت له معه الوقعة المشهورة، فسار شيركوه بعد الوقعة من الأشمونين، و أخذ الإسكندرية بعد أن استخلف عليها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، و لم يزل يسير من الإسكندرية إلى قوص، و هو يجبى البلاد، فخرج شاور من القاهرة بالفرنج، و نازل الإسكندرية، فبلغ شيركوه ذلك، فعاد من قوص إلى القاهرة، و حصرها.

ثم كانت أمور آخرها مسير شيركوه و أصحابه من أرض مصر إلى الشام فى شوّال، و قد طمع الفرنج فى البلاد و تسلموا أسوار القاهرة، و أقاموا فيها شحنة معه عدّة من الفرنج لمقاسمة المسلمين ما يتحصل من مال البلد، و فحش أمر شاور، و ساءت سيرته، و كثر تجرّيه على الدماء، و إتلافه للأموال، فلما كان فى سنة أربع و ستين قوى تمكن الفرنج فى القاهرة، و جاروا فى حكمهم بها، و ركبوا المسلمين بأنواع الإهانة.

فسار مرى يريد أخذ القاهرة، و نزل على مدينة بلبيس، و أخذها عنوة، فكتب العاضد إلى نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام يستصرخه، و يحثه على نجدة الإسلام، و إنقاذ المسلمين من الفرنج، فجهز أسد الدين شيركوه فى عسكر كثير، و جهزهم و سيرهم إلى مصر، و قد أحرق شاور مدينة مصر، كما تقدّم و نزل مرى ملك الفرنج على القاهرة، و ألحّ فى قتال أهلها حتى كاد أن يأخذها عنوة، فسير إليها شاور و خادعه حتى رضى بمال يجمعه له، فشرع فى جبايته، و إذا بالخبر ورد بقدوم شيركوه، فرحل الفرنج عن القاهرة فى سابع ربيع الآخر، ونز شيركوه على القاهرة بالغز ثالث مرّة، فخلع عليه العاضد، و أكرمه، فأخذ شاور يفتك بالغز على عادته، فكان من قتله ما ذكر فى موضعه، و ذلك فى سابع عشر ربيع الآخر المذكور، و تقلد شيركوه وزارة العاضد، و قام بالدولة شهرين و خمسة أيام، و مات فى الثانى و العشرين من جمادى الآخرة، ففوّض العاضد الوزارة لصلاح الدين يوسف بن أيوب، فساس الأمور، و دبر لنفسه، فبذل الأموال، و أضعف العاضد باستنفاد ما عنده من المال، فلم يزل أمره فى ازدياد.

و أمر العاضد فى نقصان، و صار يخطب من بعد العاضد للسلطان محمود نور الدين، و أقطع أصحابه البلاد، و أبعد أهل مصر، و أضعفهم، و استبدّ بالأمور، و منع العاضد من التصرّف حتى تبين للناس ما يريده من إزالة الدولة إلى أن كان من واقعة العبيد ما ذكرنا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۰

فأبادهم و أفناهم، و من حينئذ تلاشى العاضد، و انحلّ أمره، و لم يبق له سوى إقامة ذكره فى الخطبة فقط، هذا و صلاح الدين يوالى الطلب منه فى كل يوم ليضعفه، فأتى على المال و الخيل و الرقيق و غير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد، فطلب منه، و ألجأه إلى إرساله، و أبطل ركوبه من ذلك الوقت.

و صار لا يخرج من القصر البتة، و تتبع صلاح الدين جند العاضد، و أخذ دور الأمراء و إقطاعاتهم، فوهبها لأصحابه، و بعث إلى أبيه و إخوته و أهله، فقدموا من الشام عليه، فلما كان فى سنة ست و ستين أبطل المكوس من ديار مصر، و هدم دار المعونة بمصر، و عمرها مدرسة للشافعية، و أنشأ مدرسة أخرى للمالكية، و عزل قضاة مصر الشيعة، و قلد القضاء صدر الدين بن عبد الملك بن درباس الشافعىّ، و جعل إليه الحكم فى إقليم مصر كله، فعزل سائر القضاة، و استناب قضاة شافعية، فتظاهر الناس من تلك السنة بمذهب مالك و الشافعىّ رضى اللّه عنهما، و اختفى مذهب الشيعة إلى أن نسى من مصر، و أخذ فى غزو الفرنج، فخرج إلى الرملة، و عاد فى ربيع الأوّل، ثم سار إلى أيلة، و نازل قلعتها، حتى أخذها من الفرنج فى ربيع الآخر، ثم سار إلى الإسكندرية، و لمّ شعث سورها، و عاد و سير توران شاه ، فأوقع بأهل الصعيد، و أخذ منهم ما لا يمكن وصفه كثرة، و عاد فكثر القول من صلاح الدين، و أصحابه فى ذم العاضد، و تحدّثوا بخلعه، و إقامة الدعوة العباسية بالقاهرة و مصر، ثم قبض على سائر من بقى من أمراء الدولة، و أنزل أصحابه فى دورهم فى ليلة واحدة، فأصبح فى البلد من العويل و البكاء، ما يذهل، و تحكم أصحابه فى البلد بأيديهم، و أخرج إقطاعات سائر المصريين لأصحابه، و قبض على بلاد العاضد، و منع عنه سائر موادّه، و قبض على القصور، و سلمها إلى الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدىّ، و جعله زمامها، فضيق على أهل القصر، و صار العاضد معتقلا تحت يده، و أبطل من الأذان: حىّ على خير العمل، و أزال شعار الدولة، و خرج بالعزم على قطع خطبة العاضد، فمرض و مات، و عمره إحدى و عشرون سنة إلّا عشرة أيام منها فى الخلافة إحدى عشرة سنة و ستة أشهر و سبعة أيام، و ذلك فى ليلة يوم عاشوراء سنة سبع و ستين و خمسمائة بعد قطع اسمه من الخطبة، و الدعاء للمستنجد العباسىّ بثلاثة أيام، و كان كريما لين الجانب مرّت به مخاوف و شدائد، و هو آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، و كانت مدّتهم بالمغرب و مصر منذ قام عبيد اللّه المهدىّ إلى أن مات العاضد مائتى سنة و اثنتين و سبعين سنة و أياما بالقاهرة، منها مائتان و ثمانى سنين، فسبحان الباقى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۱

ذكر ما كان عليه موضع القاهرة قبل وضعها

إعلم أن

مدينة الإقليم منذ كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص رضى اللّه عنه كانت مدينة الفسطاط المعروفة فى زماننا بمدينة: مصر قبلىّ القاهرة، و بها كان محل الأمراء، و منزل ملكهم، و عاليها تجبى ثمرات الأقاليم، و تأوى الكافة، و كانت قد بلغت من وفور العمارة، و كثرة الناس و سعة الأرزاق و التفنن فى أنواع الحضارة، و التأنق فى النعيم ما أربت به على كل مدينة فى المعمور حاشا بغداد، فإنها كانت سوق العالم، و قد زاحمتها مصر، و كادت أن تساميها إلّا قليلا، ثم لما انقضت الدولة الإخشيدية من مصر، و اختلّ حال الإقليم بتوالى الغلوات، و تواتر الأوباء، و الفنوات حدثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ أمير المؤمنين على يد عبده، و كاتبه القائد جوهر، فنزل حيث القاهرة الآن، و أناخ هناك، و كانت حينئذ رملة، فيما بين مصر و عين شمس يمرّ بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس، و كانت فيما بين الخليج المعروف فى أوّل الإسلام بخليج أمير المؤمنين، ثم قيل له خليج القاهرة، ثم هو الآن يعرف بالخليج الكبير، و بالخليج الحاكمىّ، و بين الخليج المعروف باليحاميم، و هو الجبل الأحمر، و كان الخليج المذكور فاصلا بين الرملة المذكورة، و بين القرية التى يقال لها: أم دنين، ثم عرفت الآن بالمقس، و كان من يسافر من الفسطاط إلى

بلاد الشام ينزل بطرف هذه الرملة فى الموضع الذى كان يعرف بمنية الأصبغ، ثم عرف إلى يومنا بالخندق، و تمرّ العساكر و التجار، و غيرهم من منية الأصبغ إلى بنى جعفر على غيفة و سلمنت إلى بلبيس، و بينها و بين مدينة الفسطاط أربعة و عشرون ميلا، و من بلبيس إلى العلاقمة إلى الفرما، و لم يكن الدرب الذى يسلك فى وقتنا من القاهرة إلى العريش فى الرمل يعرف فى القديم، و إنما عرف بعد خراب تنيس و الفرما، و إزاحة الفرنج عن بلاد الساحل بعد تملكهم له مدّة من السنين، و كان من يسافر فى البرّ من الفسطاط إلى الحجاز ينزل بجب عميرة المعروف اليوم ببركة الجب، و ببركة الحاج، و لم يكن عند نزول جوهر بهذه الرملة فيها بنيان سوى أماكن هى بستان الإخشيد محمد بن ظفج المعروف اليوم بالكافوريّ من القاهرة، و دير للنصارى يعرف بدير:

العظام، تزعم النصارى أنّ فيه بعض من أدرك المسيح عليه السلام، و بقى الآن بئر هذا الدير، و تعرف ببئر العظام و العامة تقول بئر العظمة، و هى بجوار الجامع الأقمر من القاهرة، و منها ينقل الماء إليه، و كان بهذه الرملة أيضا مكان ثالث يعرف بقصيّر الشوك بصيغة التصغير تنزله بنو عذرة فى الجاهلية، و صار موضعه عند بناء القاهرة يعرف بقصر الشوك من جملة القصور الزاهرة، هذا الذى اطلعت عليه أنه كان فى موضع القاهرة قبل بنائها بعد الفحص و التفتيش، و كان النيل حينئذ بشاطئ المقس يمرّ من موضع الساحل القديم بمصر الذى هو الآن سوق المعاريج، و حمام طن و المراغة، و بستان الجرف، و موردة الحلفاء، و منشأة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۲

المهرانيّ على ساحل الحمراء، و هى موضع قناطر السباع، فيمرّ النيل بساحل الحمراء إلى المقس موضع جامع المقس الآن، و فيما بين الخليج، و بين ساحل النيل بساتين الفسطاط، فإذا صار النيل إلى المقس حيث الجامع الآن مرّ من هناك على طرف الأرض التى تعرف اليوم بأرض الطبالة من الموضع المعروف اليوم بالجرف، و صار إلى البعل، و مرّ على طرف منية الأصبغ من غربىّ الخليج إلى المنية، و كان فيما بين الخليج و الجبل مما يلى بحرىّ موضع القاهرة مسجد بنى على رأس إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، ثم مسجد تبر الإخشيدىّ، فعرف بمسجد تبر، و العامّة تقول: مسجد التبن، و لم يكن الممرّ من الفسطاط إلى عين شمس، و إلى الحوف الشرقىّ، و إلى البلاد الشامية إلّا بحافة الخليج، و لا يكاد يمرّ بالرملة التى فى موضعها الآن مدينة القاهرة كثير جدا، و لذلك كان بها دير للنصارى إلّا أنه لما عمر الإخشيد البستان المعروف: بالكافوريّ، أنشأ بجانبه ميدانا، و كان كثيرا ما يقيم به، و كان كافور أيضا يقيم به، و كان فيما بين موضع القاهرة، و مدينة الفسطاط مما يلى الخليج المذكور: أرض تعرف فى القديم منذ فتح مصر بالحمراء القصوى، و هى موضع قناطر السباع، و جبل يشكر حيث الجامع الطولونىّ، و ما دار به، و فى هذه الحمراء عدّة كنائس، و ديارات للنصارى خربت شيئا بعد شىء إلى أن خرب آخرها فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، و جميع ما بين القاهرة و مصر مما هو موجود الآن من العمائر، فإنه حادث بعد بناء القاهرة، و لم يكن هناك قبل بنائها شىء البتة، سوى كنائس الحمراء، و سيأتى بيان ذلك مفصلا فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

ذكر حدّ القاهرة

قال ابن عبد الظاهر فى كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة الذى استقرّ عليه الحال أنّ حدّ القاهرة من مصر من السبع سقايات، و كان قبل ذلك من المجنونة إلى مشهد السيدة رقية عرضا، ا ه. و الآن تطلق القاهرة على ما حازه السور الحجر الذى طوله من باب زويلة الكبير إلى باب الفتوح و باب النصر، و عرضه من باب سعادة، و باب الخوخة إلى باب البرقية و الباب المحروق، ثم لما توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة، و بنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر بمدينة فسطاط مصر، و بنوا خارج باب الفتوح، و باب النصر إلى أن انتهت العمائر إلى الريدانية، و بنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذى يقال له بولاق حيث شاطىء النيل، و امتدّوا بالعمارة من بولاق على الشاطئ إلى أن اتصلت بمنشأة المهرانيّ، و بنوا خارج باب البرقية، و الباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السور، فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين: أحدهما يقال له: القاهرة، و الآخر يقال له: مصر. فأما مصر: فإنّ حدّها على ما

وقع عليه الاصطلاح فى زمننا هذا الذى نحن فيه من حدّ أوّل قناطر السباع إلى طرف بركة الحبش القبلىّ، مما يلى بساتين الوزير، و هذا هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۳

طول حدّ مصر، و حدّها فى العرض من شاطىء النيل الذى يعرف قديما بالساحل الجديد حيث فم الخليج الكبير، و قنطرة السدّ إلى أوّل القرافة الكبرى.

و أما حدّ القاهرة، فإنّ طولها من قناطر السباع إلى الريدانية، و عرضه من شاطىء النيل ببولاق إلى الجبل الأحمر، و يطلق على ذلك كله مصر و القاهرة، و فى الحقيقة قاهرة المعز التى أنشأها القائد جوهر عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ إلى مصر فى شعبان سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة إنما هى ما دار عليه السور فقط غير أن السور المذكور الذى أداره القائد جوهر تغير، و عمل منذ بنيت إلى زمننا هذا ثلاث مرّات، ثم حدثت العمائر فيما وراء السور من القاهرة، فصار يقال لداخل السور: القاهرة، و لما خرج عن السور ظاهر القاهرة، و ظاهر القاهرة أربع جهات: الجهة القبلية، و فيها الآن معظم العمارة، و حدّ هذه الجهة طولا من عتبة باب زويلة إلى الجامع الطولونىّ، و ما بعد الجامع الطولونىّ، فإنه من حدّ مصر، و حدّها عرضا من الجامع الطيبرسىّ بشاطئ النيل غربىّ المريس إلى قلعة الجبل، و فى الاصطلاح الآن أن القلعة من حكم مصر، و الجهة البحرية، و كانت قبل السبعمائة من سنى الهجرة، و بعدها إلى قبيل الوباء الكبير فيها أكثر العمائر و المساكن، ثم تلاشت من بعد ذلك، و طول هذه الجهة من باب الفتوح، و باب النصر إلى الريدانية، و عرضها من منية الأمراء المعروفة فى زمننا الذى نحن فيه بمنية الشيرج إلى الجبل الأحمر، و يدخل فى هذا الحدّ مسجد تبر و الريدانية، و الجهة الشرقية فإنها حيث ترب أهل القاهرة، و لم تحدث بها العمر من التربة إلا بعد سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، و حدّ هذه الجهة طولا من باب القلعة المعروف بباب السلسلة إلى ما يحاذى مسجد تبر فى سفح الجبل، و حدّها عرضا فيما بين سور القاهرة، و الجبل و الجهة الغربية، فأكثر العمائر بها لم يحدث أيضا إلّا بعد سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، و إنما كانت بساتين و بحرا، و حدّ هذه الجهة طولا من منية الشيرج إلى منشأة المهرانىّ بحافة بحر النيل، و حدّها عرضا من باب القنطرة، و باب الخوخة و باب سعادة إلى ساحل النيل، و هذه الأربع جهات من خارج السور يطلق عليها: ظاهر القاهرة.

و تحوى مصر و القاهرة من الجوامع، و المساجد، و الربط و المدارس، و الزوايا، و الدور العظيمة، و المساكن الجليلة، و المناظر البهجة، و القصور الشامخة، و البساتين النضرة، و الحمامات الفاخرة، و القياسر المعمورة بأصناف الأنواع، و الأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس، و الخانات المشحونة بالواردين، و الفنادق الكاظة بالسكان و الترب التى تحكى القصور ما لا يمكن حصره، و لا يعرف ما هو قدره إلا أن قدر ذلك بالتقريب الذى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۴

يصدّقه الاختبار طولا بريدا ، و ما يزيد عليه، و هو من مسجد تبر إلى بساتين الوزير قبلىّ بركة الحبش، و عرضا يكون نصف بريد فما فوقه، و هو من ساحل النيل إلى الجبل، و يدخل فى هذا الطول و العرض بركة الحبش، و ما داربها و سطح الجرف المسمى: بالرصد، و مدينة الفسطاط التى يقال لها: مدينة مصر، و القرافة الكبرى و الصغرى، و جزيرة الحصن المعروف اليوم: بالروضة، و منشأة المهرانىّ، و قطائع ابن طولون التى تعرف الآن بحدرة ابن قميحة، و خط جامع ابن طولون و الرميلة تحت القلعة، و القبيبات و قلعة الجبل و الميدان الأسود الذى هو اليوم مقابر أهل القاهرة خارج باب البرقية إلى قبة النصر، و القاهرة المعزية، و هو ما دار عليه السور الحجر، و الحسينية و الريدانية، و الخندق و كوم الريش، و جزيرة الفيل، و بولاق، و الجزيرة الوسطى المعروفة بجزيرة أروى ، و زريبة قوصون، و حكر ابن الأثير، و منشأة الكاتب، و الأحكار التى فيما بين القاهرة، و ساحل النيل، و أراضى اللوق، و الخليج الكبير الذى تسميه العامّة بالخليج الحاكمىّ، و الحبانية و الصليبة و التبانة، و مشهد السيدة نفيسة، و باب القرافة، و أرض الطبالة، و الخليج الناصرىّ، و المقس و الدكة، و غير ذلك مما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و قد أدركنا هذه المواضع، و هى عامرة، و المشيخة تقول: هى

خراب بالنسبة لما كانت عليه قبل حدوث طاعون سنة تسع و أربعين و سبعمائة الذى يسميه أهل مصر: الفناء الكبير، و قد تلاشت هذه الأماكن، و عمها الخراب منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، و للّه عاقبة الأمور.

ذكر بناء القاهرة و ما كانت عليه فى الدولة الفاطمية

و ذلك أن القائد جوهر الكاتب: لمّا قدم الجيزة بعساكر مولاه الإمام المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ أقبل فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، و سارت عساكره بعد زوال الشمس، و عبرت الجسر أفواجا، و جوهر فى فرسانه إلى المناخ الذى رسم له المعز موضع القاهرة الآن، فاستقرّ هناك، و اختط القصر، و بات المصريون، فلما أصبحوا حضروا للهناء، فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل، و كانت فيه ازورارات غير معتدلة، فلما شاهدها جوهر لم يعجبه، ثم قال: قد حفر فى ليلة مباركة، و ساعة سعيدة، فتركه على حاله، و أدخل فيه دير العظام، و يقال: إن القاهرة اختطها جوهر فى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة، سنة تسع و خمسين، و اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها: فزويلة بنت الحارة المعروفة بها، و اختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية، و اختطت الروم حارتين: حارة الروم الآن، و حارة الروم الجوّانية بقرب باب النصر، و قصد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۵

جوهر باختطاط القاهرة حيث هى اليوم أن تصير حصنا فيما بين القرامطة، و بين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره، و أنشأ من داخل السور جامعا، و قصرا، و أعدّها معقلا يتحصن به، و تنزله عساكره، و احتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة، و ما وراءها من المدينة، و كان مقدار القاهرة حينئذ أقل من مقدارها اليوم، فإن أبوابها كانت من الجهات الأربعة، ففى الجهة القبلية التى تفضى بالسالك منها إلى مدينة مصر: بابان متجاوران يقال لهما: بابا زويلة، و موضعهما الآن بحذاء المسجد الذى تسميه العامّة: بسام بن نوح، و لم يبق إلى هذا العهد سوى عقده، و يعرف باب القوس، و ما بين باب القوس هذا، و باب زويلة الكبير ليس هو من المدينة التى أسسها القائد جوهر، و إنما هى زيادة حدثت بعد ذلك، و كان فى جهة القاهرة البحرية، و هى التى يسلك منها إلى عين شمس بابان أحدهما، باب النصر، و موضعه بأوّل الرحبة التى قدّام الجامع الحاكمىّ الآن، و أدركت قطعة منه كانت قدّام الركن الغربىّ من المدرسة القاصدية، و ما بين هذا المكان، و باب النصر الآن مما زيد فى مقدار القاهرة بعد جوهر، و الباب الآخر من الجهة البحرية: باب الفتوح، و عقده باق إلى يومنا هذا، مع عضادته اليسرى، و عليه أسطر مكتوبة بالقلم الكوفىّ، و موضع هذا الباب الآن بآخر سوق المرجلين، و أوّل رأس حارة بهاء الدين مما يلى باب الجامع الحاكمىّ، و فيما بين هذا العقد، و باب الفتوح من الزيادات التى زيدت فى القاهرة من بعد جوهر، و كان فى الجهة الشرقية من القاهرة، و هى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان: أحدهما يعرف الآن:

بالباب المحروق، و الآخر يقال له: باب البرقية، و موضعهما دون مكانهما إلى الآن و يقال لهذه الزيادة من هذه الجهة: بين السورين، و أحد البابين القديمين موجود إلى الآن اسكفته، و كان فى الجهة الغربية من القاهرة، و هى المطلة على الخليج الكبير بابان أحدهما: باب سعادة، و الآخر باب الفرج، و باب ثالث يعرف: بباب الخوخة، أظنه حدث بعد جوهر، و كان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين، و جامع يقال لأحد القصرين: القصر الكبير الشرقىّ، و هو منزل سكنى الخليفة، و محل حرمه، و موضع جلوسه لدخول العساكر، و أهل الدولة، و فيه الدواوين و بيت المال، و خزائن السلاح، و غير ذلك، و هو الذى أسسه القائد جوهر، و زاد فيه المعز، و من بعده من الخلفاء، و الآخر تجاه هذا القصر، و يعرف: بالقصر الغربىّ، و كان يشرف على البستان الكافورىّ، و يتحوّل إليه الخليفة فى أيام النيل للنزهة على الخليج، و على ما كان إذ ذاك بجانب الخليج الغربىّ من البركة التى يقال لها بطن البقرة، و من البستان المعروف بالبغدادية، و غيره من البساتين التى كانت تتصل بأرض اللوق، و جنان الزهرىّ، و كان يقال لمجموع القصرين: القصور الزاهرة، و يقال للجامع:

جامع القاهرة، و الجامع الأزهر.

فأما

القصر الكبير الشرقيّ: فإنه كان من باب الذهب الذى موضعه الآن محراب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۶

المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ ، و كان يعلو عقد باب الذهب منظرة يشرف الخليفة فيها من طاقات فى أوقات معروفة، و كان باب الذهب هذا هو أعظم أبواب القصر، و يسلك من باب الذهب المذكور إلى باب البحر، و هو الباب الذى يعرف اليوم: بباب قصر بشتاك، مقابل المدرسة الكاملية، و هو من باب البحر إلى الركن المخلق، و منه إلى باب الريح، و قد أدركنا منه عضادتيه، و اسكفته، و عليها أسطر بالقلم الكوفيّ، و جميع ذلك مبنيّ بالحجر إلى أن هدمه الأمير الوزير المشير جمال الدين يوسف الإستادار، و فى موضعه الآن قيسارية أنشأها المذكور بجوار مدرسته من رحبة باب العيد، و يسلك من باب الريح المذكور إلى باب الزمرّذ، و هو موضع المدرسة الحجازية الآن، و من باب الزمرّذ إلى باب العيد، و عقده باق، و فوقه قبة إلى الآن فى درب السلامى بخط رحبة باب العيد، و كان قبالة باب العيد هذا رحبة عظيمة فى غاية الاتساع تقف فيها العساكر الكثيرة من الفارس و الراجل فى يومى العيدين تعرف: برحبة العيد، و هى من باب الريح إلى خزانة البنود، و كان يلى باب العيد السفينة، و بجوار السفينة خزانة البنود، و يسلك من خزانة البنود إلى باب قصر الشوك، و أدركت منه قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه الحمام التى عرفت بحمام الأيدمريّ، ثم قيل لها فى زمننا: حمام يونس بجوار المكان المعروف: بخزانة البنود، و قد عمل موضع هذا الباب زقاق يسلك منه إلى المارستان العتيق، و قصر الشوك، و درب السلامى و غيره، و يسلك من باب قصر الشوك إلى باب الديلم، و موضعه الآن المشهد الحسينيّ، و كان فيما قصر الشوك، و باب الديلم رحبة عظيمة تعرف برحبة قصر الشوك، أوّلها من رحبة خزانة البنود، و آخرها حيث المشهد الحسينيّ الآن، و كان قصر الشوك يشرف على اصطبل الطارمة، و يسلك من باب الديلم إلى باب تربة الزعفران، و هى مقبرة أهل القصر من الخلفاء، و أولادهم و نسائهم، و موضع باب تربة الزعفران فندق الخليليّ فى هذا الوقت، و يعرف بخط الزراكشة العتيق، و كان فيما بين باب الديلم، و باب تربة الزعفران الخوخ السبع التى يتوصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر فى ليالى الوقدات، فيجلس بمنظرة الجامع الأزهر، و معه حرمه لمشاهدة الوقيد و الجمع، و بجوار الخوخ السبع اصطبل الطارمة، و هو برسم الخيل الخاص المعدّة لركاب الخليفة، و كان مقابل باب الديلم، و من وراء اصطبل الطارمة الجامع المعدّ لصلاة الخليفة بالناس أيام الجمع، و هو الذى يعرف فى وقتنا هذا بالجامع الأزهر، و يسمى فى كتب التاريخ: بجامع القاهرة، و قدّام هذا الجامع رحبة متسعة من حدّ اصطبل الطارمة إلى الموضع الذى يعرف اليوم:

بالأكفانيين، و يسلك من باب تربة الزعفران إلى باب الزهومة، و موضعه الآن باب سرّ قاعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۷

مدرسة الحنابلة من المدارس الصالحية، و فيما بين تربة الزعفران، و باب الزهومة دراس العلم، و خزانة الدرق، و يسلك من من باب الزهومة إلى باب الذهب المذكور أوّلا، و هذا هو دور القصر الشرقيّ الكبير، و كان بحذاء رحبة باب العيد: دار الضيافة، و هى الدار المعروفة: بدار سعيد السعداء التى هى اليوم: خانقاه للصوفية، و يقابلها: دار الوزارة، و هى حيث الزقاق المقابل لباب سعيد السعداء، و المدرسة القراسنقرية، و خانقاه بيبرس، و ما يجاورها إلى باب الجوّانية، و ما وراء هذه الأماكن، و بجوار دار الوزارة الحجر، و هى من حذاء دار الوزارة بجوار باب الجوّانية إلى باب النصر القديم، و من وراء دار الوزارة:

المناخ السعيد، و يجاوره حارة العطوفية، و حارة الروم الجوّانية، و كان جامع الخطبة الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم خارجا عن القاهرة، و فى غربيه الزيادة التى هى باقية إلى اليوم، و كانت أهراء لخزن الغلال التى تدّخر بالقاهرة، كما هى عادة الحصون، و كان فى غربىّ الجامع الأزهر: حارة الديلم، و حارة الروم البرّانية، و حارة الأتراك، و هى تعرف اليوم:

بدرب الأتراك، و حارة الباطلية، و فيما بين باب الزهومة، و الجامع الأزهر، و هذه الحارات خزائن القصر، و هى خزانة الكتب، و خزانة الأشربة، و خزانة السروج، و خزانة الخيم، و خزائن الفرش، و خزائن الكسوات، و خزائن دار أفتكين، و دار الفطرة، و دار التعبية، و غير ذلك من الخزائن هذا ما كان فى الجهة الشرقية من القاهرة.

و أما

القصر الصغير الغربىّ: فإنه موضع المارستان الكبير المنصورىّ إلى جوار حارة برجوان، و بين هذا القصر، و بين القصر الكبير الشرقىّ فضاء متسع يقف فيه عشرة آلاف من العساكر ما بين فارس و راجل يقال له: بين القصرين، و بجوار القصر الغربىّ الميدان، و هو الموضع الذى يعرف بالخرنشف، و اصطبل الطارمة، و بحذاء الميدان البستان الكافورىّ المطل من غربيه على الخليج الكبير، و يجاور الميدان، دار برجوان العزيزىّ، و بحذائها رحبة الأفيال، و دار الضيافة القديمة، و يقال لهذه المواضع الثلاثة: حارة برجوان، و يقال دار برجوان المنحر، و موضعه الآن يعرف: بالدرب الأصفر، و يدخل إليه من قبالة خانقاه بيبرس، و فيما بين ظهر المنحر، و باب حارة برجوان سوق أمير الجيوش، و هو من باب حارة برجوان الآن إلى باب الجامع الحاكمىّ، و يجاور حارة برجوان من بحريها اصطبل الحجرية، و هو متصل بباب الفتوح الأوّل، و موضع باب اصطبل الحجرية يعرف اليوم:

بخان الوراقة، و القيسارية تجاه الجملون الصغير، و سوق المرحلين، و تجاه اصطبل الحجرية الزيادة، و فيما بين الزيادة و المنحر درب الفرنجية.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۸

و بجوار البستان الكافورى حارة زويلة، و هى تتصل بالخليج الكبير من غربيها، و تجاه حارة زويلة اصطبل الجميزة، و فيه خيول الخليفة أيضا، و فى هذا الاصطبل بئر زويلة، و موضعها الآن قيسارية معقودة على البئر المذكورة يعلوها ربع يعرف: بقيسارية يونس من خط البندقانيين، فكان اصطبل الجميزة المذكور فيما بين القصر الغربىّ من بحريه، و بين حارة زويلة، و موضعه الآن قبالة باب سرّ المارستان المنصورىّ إلى البندقانيين، و بحذاء القصر الغربىّ من قبيلة مطبخ القصر تجاه باب الزهومة المذكور، و المطبخ موضعه الآن الصاغة قبالة المدارس الصالحية، و بجوار المطبخ الحارة العدوية، و هى من الموضع الذى يعرف بحمام خشيبة إلى حيث الفندق الذى يقال له فندق الزمام، و بجوار العدوية، حارة الأمراء، و يقال لها اليوم: سوق الزجاجين، و سوق الحريريين الشراربيين.

و يجاور الصاغة القديمة: حبس المعونة، و هو موضع قيسارية العنبر، و تجاه حبس المعونة، عقبة الصباغين، و سوق القشاشين، و هو يعرف اليوم: بالخرّاطين، و يجاور حبس المعونة دكة الحسبة، و دار العيار، و يعرف موضع دكة الحسبة الآن، بالإبزاريين، و فيما بين دكة الحسبة و حارتى الروم و الديلم: سوق السرّاجين، و يقال له الآن: الشوّايين، و بطرف سوق السرّاجين مسجد ابن البناء الذى تسميه العامّة: سام بن نوح، و يجاور هذا المسجد:

باب زويلة، و كان من حذاء حارة زويلة من ناحية باب الخوخة: دار الوزير يعقوب بن كلس، و صارت بعده: دار الديباج، و دار الاستعمال و موضعها الآن المدرسة الصالحية، و ما وراءها و يتصل دار الديباج بالحارة الوزيرية، و إلى جانب الوزيرية: الميدان الآخر إلى باب سعادة، و فيما بين باب سعادة و باب زويلة أهراء أيضا و سطاح. هذا ما كانت عليه صفة القاهرة فى الدولة الفاطمية، و حدّثت هذه الأماكن شيئا بعد شىء، و لم تزل القاهرة دار خلافة، و منزل ملك، و معقل قتال لا ينزلها إلّا الخليفة و عساكره، و خواصه الذين يشرّفهم بقربه فقط.

و أما ظاهر القاهرة من جهاتها الأربع: فإنه كان فى الدولة الفاطمية على ما أذكر.

أما الجهة القبلية: و هى التى فيما بين باب زويلة و مصر طولا، و فيما بين الخليج الكبير و الجبل عرضا، فإنها كانت قسمين: ما حاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر، و ما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل، فأما: ما حاذى يمينك، و هى المواضع التى تعرف اليوم بدار التفاح، و تحت الربع و القشاشين، و قنطرة باب الخرق، و ما على حافتى الخليج من جانبيه طولا إلى الحمراء التى

يقال لها اليوم: خط قناطر السباع، و يدخل فى ذلك سويقة عصفور، و حارة الحمزيين، و حارة بنى سوس إلى الشارع، و بركة الفيل، و الهلالية و المحمودية إلى الصليبة، و مشهد السيدة نفيسة، فإنّ هذه الأماكن كلها كانت بساتين تعرف بجنان الزهرىّ، و بستان سيف الإسلام، و غير ذلك، ثم حدث فى الدولة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۰۹

هناك حارات للسودان، و عمر الباب الجديد، و هو الذى يعرف اليوم بباب القوس من سوق الطيور فى الشارع عند رأس ، و حدثت الحارة الهلالية، و الحارة المحمودية، و أما: ما حاذى شمالك حيث الجامع المعروف: بجامع الصالح، و الدرب الأحمر إلى قطائع ابن طولون التى هى الآن الرميلة، و الميدان تحت القلعة فإن ذلك كان مقابر أهل القاهرة.

و أما جهة القاهرة الغربية: و هى التى فيها الخليج الكبير، و هى من باب القنطرة إلى المقس، و ما جاور ذلك، فإنها كانت بساتين من غربيها النيل، و كان ساحل النيل بالمقس حيث الجامع الآن، فيمرّ من المقس إلى المكان الذى يقال له الجرف، و يمضى على شمالىّ أرض الطبالة إلى البعل، و موضع كوم الريش إلى المنية، و مواضع هذه البساتين اليوم أراضى اللوق و الزهرى، و غيرها من الحكورة التى فى برّ الخليج الغربىّ إلى بركة قرموط، و الخور، و بولاق، و كان فيما بين باب سعادة، و باب الخوخة، و باب الفرج، و بين الخليج فضاء لا بنيان فيه، و المناظر تشرف على ما فى غربىّ الخليج من البساتين التى وراءها بحر النيل، و يخرج الناس فيما بين المناظر و الخليج للنزهة، فيجتمع هناك من أرباب البطالة، و اللهو ما لا يحصى عددهم، و يمرّ لهم هنالك من اللذات و المسرّات ما لا تسع الأوراق حكايته خصوصا فى أيام النيل عند ما يتحوّل الخليفة إلى اللؤلؤة، و يتحوّل خاصته إلى دار الذهب، و ما جاورها، فإنه يكثر حينئذ الملاذ بسعة الأرزاق، و إدرار النعم فى تلك المدّة، كما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

و أما جهة القاهرة البحرية، فإنها كانت قسمين: خارج باب الفتوح، و خارج باب النصر، أما خارج باب الفتوح: فإنه كان هناك منظرة من مناظر الخلفاء، و قدّامها البستانان الكبيران، و أوّلهما من زقاق الكحل، و آخرهما منية مطر التى تعرف اليوم: بالمطرية، و من غربىّ هذه المنظرة فى جانب الخليج الغربىّ منظرة البعل فيما بين أرض الطبالة، و الخندق، و بالقرب منها مناظر الخمس وجوه، و التاج ذات البساتين الأنيقة المنصوبة لتنزه الخليفة، و أما خارج باب النصر: فكان به مصلى العيد التى عمل من بعضها مصلى الأموات لا غير، و الفضاء من المصلى إلى الريدانية، و كان بستانا عظيما، ثم حدث فيما خرج من باب النصر تربة أمير الجيوش بدر الجمالى، و عمر الناس الترب بالقرب منها، و حدث فيما خرج عن باب الفتوح عمائر منها: الحسينية، و غيرها.

و أما جهة القاهرة الشرقية، و هى ما بين السور و الجبل، فإنه كان فضاء ثم أمر الحاكم بأمر اللّه أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور، لتمنع السيول أن تدخل إلى القاهرة، فصار منها الكيمان التى تعرف بكيمان البرقية، و لم تزل هذه الجهة خالية من العمارة إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية، فسبحان الباقى بعد فناء خلقه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۰

ذكر ما صارت إليه القاهرة بعد استيلاء الدولة الأيوبية عليها

قد تقدّم أن القاهرة إنما وضعت منزل سكنى للخليفة، و حرمه، و جنده، و خواصه، و معقل قتال يتحصن بها، و يلتجأ إليها، و إنها ما برحت هكذا حتى كانت السنة العظمى فى خلافة المستنصر، ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالى، و سكن القاهرة، و هى يباب دائرة خاوية على عروشها غير عامرة، فأباح للناس من العسكرية، و الملحية، و الأرمن، و كل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر، و مات أهله، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور، و غيرها، و عمروا به المنازل فى القاهرة، و سكنوها فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فى سنة سبع و ستين و خمسمائة.

فنقلها عما كانت عليه من الصيانة، و جعلها مبتذلة لسكن العامّة و الجمهور، و حط من مقدار قصور الخلافة، و أسكن فى بعضها، و تهدّم البعض، و أزيلت معالمه، و تغيرت معاهده، فصارت خططا و حارات، و شوارع و مسالك، و أزقة، و نزل السلطان منها فى دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل، فكان السلطان صلاح الدين يتردّد إليها، و يقيم بها، و كذلك ابنه الملك العزيز عثمان، و أخوه الملك العادل، أبو بكر، فلما كان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب تحوّل من دار الوزارة إلى القلعة، و سكنها و نقل سوق الخيل و الجمال و الحمير إلى الرميلة تحت القلعة، فلما خرب المشرق و العراق بهجوم عساكر التتر منذ كان جنكيزخان فى أعوام بضع عشرة و ستمائة إلى أن قتل الخليفة المستعصم ببغداد فى صفر سنة ست و خمسين و ستمائة، كثر قدوم المشارقة إلى مصر، و عمرت حافتى الخليج الكبير، و ما دار على بركة الفيل، و عظمت عمارة الحسينية، فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون الثالثة بعد سنة إحدى عشرة و سبعمائة، و استجدّ بقلعة الجبل المبانى الكثيرة من القصور و غيرها، حدثت فيما بين القلعة و قبة النصر عدّة ترب بعد ما كان ذلك المكان فضاء يعرف: بالميدان الأسود و ميدان القبق، و تزايدت العمائر بالحسينية، حتى صارت من الريدانية إلى باب الفتوح، و عمر جميع ما حول بركة الفيل، و الصليبة إلى جامع ابن طولون، و ما جاوره إلى المشهد النفيسىّ، و حكر الناس أرض الزهرىّ، و ما قرب منها، و هو من قناطر السباع إلى منشاة المهرانىّ، و من قناطر السباع إلى البركة الناصرية إلى اللوق إلى المقس، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ اتسعت الخطة فيما بين المقس، و الدكة إلى ساحل النيل، و أنشأ الناس فيها البساتين العظيمة، و المساكن الكثيرة، و الأسواق و الجوامع و المساجد، و الحمامات و الشون، و هى من المواضع التى من باب البحر خارج المقس إلى ساحل النيل المسمى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۱

ببولاق، و من بولاق إلى منية الشيرج، و منه فى القبلة إلى منشأة المهرانىّ، و عمر ما خرج عن باب زويلة يمنة و يسرة من قنطرة الخرق إلى الخليج، و من باب زويلة إلى المشهد النفيسىّ، و عمرت القرافة من باب القرافة إلى بركة الحبش طولا، و من القرافة الكبرى إلى الجبل عرضا، حتى أنه استجدّ فى أيام الناصر بن قلاون بضع و ستون حكرا، و لم يبق مكان يحكر، و اتصلت عمائر مصر و القاهرة، فصارا بلدا واحدا يشتمل على البساتين و المناظر و القصور، و الدور و الرباع، و القياسر، و الأسواق، و الفنادق، و الخانات، و الحمامات، و الشوارع، و الأزقة، و الدروب، و الخطط و الحارات، و الأحكار و المساجد، و الجوامع، و الزوايا و الربط، و المشاهد و المدارس، و الترب و الحوانيت، و المطابخ و الشون، و البرك و الخلجان و الجزائر و الرياض، و المنتزهات متصلا جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر إلى بساتين الوزير قبلىّ بركة الحبش، و من شاطىء النيل بالجيزة إلى الجبل المقطم، و ما زالت هذه الأماكن فى كثرة العمارة، و زيادة العدد تضيق بأهلها لكثرتها، و تختال عجبا بهم لما بالغوا فى تحسينها، و تأنقوا فى جودتها، و تنميقها إلى أن حدث الفناء الكبير فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة، فخلا كثير من هذه المواضع، و بقى كثير أدركناه، فلما كانت الحوادث من سنة ست و ثمانمائة، و قصر جرى النيل فى مدّة، و خربت البلاد الشامية بدخول الطاغية تيمور لنك، و تحريقها، و قتل أهلها و ارتفاع أسعار الديار المصرية، و كثرة الغلاء فيها، و طول مدّته، و تلاف النقود المتعامل بها، و فسادها، و كثرة الحروب و الفتن بين أهل الدولة، و خراب الصعيد، و جلاء أهله عنه، و تداعى أسفل أرض مصر من البلاد الشرقية و الغربية إلى الخراب، و اتضاع أمور ملوك مصر، و سوء حال الرعية، و استيلاء الفقر و الحاجة و المسكنة على الناس، و كثرة تنوّع المظالم الحادثة من أرباب الدولة بمصادرة الجمهور، و تتبع أرباب الأموال، و احتجاب ما بأيديهم من المال بالقوّة و القهر و الغلبة، و طرح البضائع مما يتجر فيه السلطان، و أصحابه على التجار و الباعة بأغلى الأثمان إلى غير ذلك مما لا يتسع لأحد ضبطه، و لا تسع الأوراق حكايته، كثر الخراب بالأماكن التى تقدّم ذكرها، و عمّ سائرها، و صارت كيمانا، و خرائب موحشة مقفرة يأويها البوم و الرخم أو مستهدمة واقعة، أو آئلة إلى السقوط و الدثور، سنة اللّه التى قد خلت فى عباده، و لن تجد لسنة اللّه تبديلا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۲

ذكر طرف مما قيل فى القاهرة و منتزهاتها

قال أبو الحسن علىّ بن رضوان الطبيب: ويلى الفسطاط فى العظم، و كثرة الناس القاهرة، و هى فى شمال الفسطاط، و فى شرقيها أيضا الجبل المقطم يعوق عنها ريح الصبا، و النيل منها أبعد قليلا و جميعها مكشوف للهواء، و إن كان عمل فوق ربما عاق عن بعض ذلك، و ليس ارتفاع الأبنية بها كارتفاع الفسطاط، لكن دونها كثيرا، و أزقتها و شوارعها بالقياس إلى أزقة الفسطاط، و شوارعها أنظف، و أقل و سخا، و أبعد عن العفن، و أكثر شرب أهلها من مياه الآبار، و إذا هبت ريح الجنوب أخذت من بخار الفسطاط على القاهرة شيئا كثيرا، و قرب مياه آبار القاهرة من وجه الأرض مع سخافتها موجب ضرورة أن تكون يصل إليها بالرشح من عفونة الكتف شىء ما، و بين القاهرة و الفسطاط بطائح تمتلىء من رشح الأرض فى أيام فيض النيل، و يصب فيها بعض خرّارات القاهرة، و مياه البطائح هذه رديئة وسخة أرضها، و ما يصب فيها من العفونة يقتضى أن يكون البخار المرتفع منها على القاهرة، و الفسطاط زائدا فى رداءة الهواء بهما، و يطرح فى جنوب القاهرة قذر كثير نحو حارة الباطلية، و كذلك يطرح فى وسط حارة العبيد إلّا أنه إذا تأمّلنا حال القاهرة، كانت بالإضافة إلى الفسطاط أعدل و أجود هواء، و أصلح حالا، لأنّ أكثر عفوناتهم ترمى خارج المدينة و البخار ينحل منها أكثر، و كثير أيضا من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل، و خاصة فى أيام دخوله الخليج، و هذا الماء يستقى بعد مروره بالفسطاط، و اختلاطه بعفوناتها.

قال: و قد اقتصر أمر الفسطاط و الجيزة و الجزيرة، فظاهر أن أصح أجزاء المدينة الكبرى: القرافة، ثم القاهرة، و الشرف، و عمل فوق مع الحمراء و الجيزة، و شمال القاهرة أصح من جميع هذه لبعده عن بخار الفسطاط، و قربه من الشمال، و أرقى موضع فى المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق إلى ما يلى النيل، و السواحل، و إلى جانب القاهرة من الشمال الخندق، و هو فى غور فهو يتغير أبدا لهذا السبب، فأما المقس فمجاورته للنيل تجعله أرطب. و قال ابن سعيد فى كتاب المعرب فى حلى المغرب عن البيهقىّ: و أما مدينة القاهرة، فهى الحالية الباهرة التى تفنن فيها الفاطميون، و أبدعوا فى بنائها، و اتخذوها وطنا لخلافتهم، و مركزا لأرجائها، فنسى الفسطاط، و زهد فيه بعد الاغتباط.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۳

قال: و سميت القاهرة، لأنها تقهر من شذّ عنها، و رام مخالفة أميرها، و قدّروا أن منها يملكون الأرض، و يستولون على قهر الأمم، و كانوا يظهرون ذلك، و يتحدّثون به.

قال ابن سعيد: هذه المدينة اسمها أعظم منها، و كان ينبغى أن تكون فى ترتيبها و مبانيها على خلاف ما عاينته، لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين، و كان سلطانه، قد عمّ جميع طول المغرب من أوّل الديار المصرية إلى البحر المحيط، و خطب له فى البحرين من جزيرة عند القرامطة، و فى مكة و المدينة، و بلاد اليمن، و ما جاورها، و قد علت كلمته، و سارت مسير الشمس فى كل بلدة، وهبت الريح فى البرّ و البحر، لا سيما، و قد عاين مبانى أبيه المنصور فى مدينة المنصورية التى إلى جانب القيروان، و عاين المهدية مدينة جدّه عبيد اللّه المهدىّ لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة، و هى ناطقة إلى الآن بألسن الآثار و للّه درّ القائل:

هم الملوك إذا أرادوا ذكرهامن بعدهم فبألسن البنيان

إن البناء إذا تعاظم شأنهأضحى يدل على عظيم الشأن

و اهتم من بعد الخلفاء المصريون بالزيادة فى تلك القصور، و قد عاينت فيها إيوانا يقولون: إنه بنى على قدر إيوان كسرى الذى بالمدائن، و كان يجلس فيه خلفاؤهم، و لهم على الخليج الذى بين الفسطاط و القاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار، و أبصرت فى قصورهم حيطانا عليها طاقات عديد من الكلس و الجبس، ذكر لى أنهم كانوا يجدّدون تبييضها فى كل سنة، و المكان المعروف فى

القاهرة ببين القصرين هو من الترتيب السلطانيّ، لأنّ هناك ساحة متسعة للعسكر، و المتفرّجين ما بين القصرين، و لو كانت القاهرة عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية، و لكن ذلك أمد قليل، ثم تسير منه إلى أمد ضيق، و تمرّ فى ممرّ كدر حرج بين الدكاكين إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان ذلك ما تضيق منه الصدور، و تسخن منه العيون، و لقد عاينت يوما وزير الدولة، و بين يديه أمراء الدولة، و هو فى موكب جليل، و لقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، و قد سدّت جميع الطرق بين يدى الدكاكين، و وقف الوزير و عظم الازدحام، و كان فى موضع طباخين و الدخان فى وجه الوزير، و على ثيابه، و قد كاد يهلك المشاة، و كدت أهلك فى جملتهم.

و أكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب، و الأزبال، و المبانى عليها من قصب و طين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء و الضوء بينهما، و لم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۴

حالا منها فى ذلك، و لقد كنت إذا مشيت فيها بضيق صدرى، و يدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين.

و من عيوب القاهرة: أنها فى أرض النيل الأعظم، و يموت الإنسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها، و يأكل ديارها، و إذا احتاج الإنسان إلى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور إلى موضع يعرف: بالمقس، و جوّها لا يبرح كدرا، بما تثيره الأرجل من التراب الأسود، و قد قلت فيها حين أكثر علىّ رفاقى من الحض على العود فيها:

يقولون سافر إلى القاهرةو ما لى بها راحة ظاهره

زحام و ضيق و كرب و ماتثير بها أرجل السائره

و عند ما يقبل المسافر عليها، يرى سورا أسود كدرا، و جوّا مغبرّا، فتنقبض نفسه، و يفرّ أنسه، و أحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة، لا سيما أرض القرط و الكتان فقلت:

سقى اللّه أرضا كلما زرت أرضهاكساها و حلّاها بزينته القرط

تجلت عروسا و المياه عقودهاو فى كل قطر من جوانبها قرط

و فيها خليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافى:

ما زالت الأنحال تأخذهحتى غدا كذؤابة النجم

و قلت فى نوّار الكتان على جانبى هذا الخليج:

انظر إلى النهر و الكتان يرمقهمن جانبيه بأجفان لها حدق

رأته سيفا عليه للصبا شطبفقابلته بأحداق بها أرق

و أصبحت فى يد الأرواح تنسجهاحتى غدت حلقا من فوقها حلق

فقم وزرها و وجه الأفق متضحأو عند صفرته إن كنت تغتبق

و أعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر، و المناظرة فوقها كالنجوم، و عادة السلطان أن يركب فيها بالليل، و تسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم، و قدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب و فيها أقول:

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفتبها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هى و الأبصار ترمقهاكواكب قد أداروها على القمر

و نظرت إليها و قد قابلتها الشمس بالغدوّ فقلت:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۵ انظر إلى بركة الفيل التى نحرتلها الغزالة نحرا من مطالعها

و خل طرفك مجنونا ببهجتهاتهيم وجدا و حبا فى بدائعها

و الفسطاط أكثر أرزاقا، و أرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط، فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك، و يباع ما يصل فيها بالقرب منها، و ليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة، لأنه بعيد عن المدينة، و القاهرة هى أكثر عمارة، و احتراما و حشمة من الفسطاط، لأنها أجلّ مدارس، و أضخم خانات، و أعظم دثارا لسكنى الأمراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر، و أكثر، و بها الطراز و سائر الأشياء التى تتزين بها الرجال و النساء، إلّا أنّ فى هذا الوقت لما اعتنى السلطان الآن ببناء قلعة الجزيرة التى أمام الفسطاط، و صيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط، و انتقل إليها كثير من الأمراء، و ضخمت أسواقها و بنى فيها للسلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة تنقل إليها من القاهرة سوق الأجناد التى يباع فيها الفراء و الجوخ، و ما أشبه ذلك.

و معاملة القاهرة و الفسطاط بالدراهم المعروفة بالسوداء، كل درهم منها ثلث من الدرهم الناصرىّ، و فى المعاملة بها شدّة و خسارة فى البيع و الشراء، و مخاصمة مع الفريقين، و كان بها فى القديم الفلوس، فقطعها الملك الكامل فبقيت إلى الآن مقطوعة منها، و هى فى الإقليم الثالث، و هواءها ردىء لا سيّما إذا هبّ المريسى من جهة القبلة، و أيضا رمد العين فيها كثير، و المعايش فيها متعذرة نزرة، لا- سيّما أصناف الفضلاء و جوامك المدارس قليلة كدرة، و أكثر ما يتعيش بها اليهود و النصارى فى كتابة الخراج و الطب، و النصارى بها يمتازون بالزنار فى أوساطهم، و اليهود بعلامة صفراء فى عمائمهم، و يركبون البغال، و يلبسون الملابس الجليلة، و مآكل أهل القاهرة الدميس، و الصير، و الصحناة، و البطارخ، و لا تصنع النيدة، و هى حلاوة القمح إلا بها و بغيرها من الديار المصرية، و فيها جوار طباخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين لهنّ فى الطبخ صناعة عجيبة و رياسة متقدّمة، و مطابخ السكر، و المطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة، و يصنع فيها من الأنطاع المستحسنة، ما يسفر إلى الشام و غيرها، و لها من الشروب الدمياطية و أنواعها، ما اختصت به، و فيها صناع للقسىّ كثيرون متقدّمون، و لكن قسىّ دمشق بها يضرب المثل و إليها النهاية، و يسفر من القاهرة إلى الشام ما يكون من أنواع الكمرانات، و خرائط الجلد، و السيور، و ما أشبه ذلك و هى الآن عظيمة آهلة يجبى إليها من الشرق و الغرب و الجنوب و الشمال، و لا ترسيما و عذابا، و لا يطلب برفيق له إذا مات فيقال له: ترك عندك مالا، فربما سجن فى شأنه أو ضرب و عصر، و الفقير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۶

المجرّد فيها مستريح من جهة رخص الخبز و كثرته، و وجود السماعات، و الفرج فى ظواهرها و دواخلها، و قلة الاعتراض عليه، فيما تذهب إليه نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقص فى السوق أو تجريد، أو سكر من حشيشة أو غيرها أو صحبة المردان، و ما أشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب، و سائر الفقراء لا يعترضون بالقبض للأسطول إلّا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر، فقد عمّ ذلك من يعرف معاناة البحر منهم، و من لا- يعرف، و هم فى القدوم عليها بين حالين إن كان المغربىّ غنيا طولب بالزكاة، و ضيقت عليه أنفاسه حتى يفرّ منها، و إن كان مجرّدا فقيرا حمل إلى السجن حتى يجىء وقت الأسطول، و فى القاهرة أزاهير كثيرة غير منقطعة الاتصال، و هذا الشأن فى الديار المصرية تفضل به كثيرا من البلاد، و فى اجتماع النرجس و الورد فيها أقول:

من فضل النرجس و هو الذى‌يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعداو قام فى خدمته النرجس

و أكثر ما فيها من الثمرات و الفواكه: الرمان و الموز و التفاح، و أما الإجاص فقليل غال، و كذلك الخوخ، و فيها الورد و النرجس و النسرين و اللينوفر و البنفسج و الياسمين و الليمون الأخضر و الأصفر، و أما العنب و التين فقيل غال و لكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل، و مع هذا فشراؤه عندهم فى نهاية الغلاء، و عامّتها يشربون المزر الأبيض المتخذ من القمح، حتى أن القمح يطلع عندهم سعره بسببه، فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه، و كسر أوانيه، و لا ينكر فيها إظهار أوانى الخمر، و لا آلات الطرب ذوات الأوتار، و لا تبرّج النساء العواهر، و لا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب، و قد دخلت فى الخليج الذى بين

القاهرة و مصر، و معظم عمارته فيما يلى القاهرة، فرأيت فيه من ذلك العجائب، و ربما وقع فيه قتل بسبب السكر، فيمنع فيه الشرب، و ذلك فى بعض الأحيان، و هو ضيق عليه فى الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب و التهكم، و المخالفة حتى إنّ المحتشمين و الرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب، و للسرج فى جانبيه الليل منظر فتان، و كثيرا ما يتفرّج فيه أهل الستر بالليل، و فى ذلك أقول:

لا تركبن فى خليج مصرإلا إذا أسدل الظلام

فقد علمت الذى عليهمن عالم كلهم طغام

صفان للحرب قد أظلاسلاح ما بينهم كلام

يا سيدى لا تسر إليهإلا إذا هوّم النيام

و الليل ستر على التصابىعليه من فضله لثام

و السرج قد بدّدت عليهمنها دنانير لا ترام

و هو قد امتدّ و المبانىعليه فى خدمة قيام

للّه كم دوحة جنيناهناك أثمارها الآثام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۷

انتهى. و فيه تحامل كثير. و قال زكى الدين الحسين من رسالة كتبها من مصر فى شهر رجب سنة اثنتين و ستين و سبعمائة إلى أخيه، و هو بدمشق يتشوّق إليها، و يذكر ما فيها من المواضع، و المنتزهات، و يذم من مصر بقوله: فكيف يبقى لمن حلّ فى جنة النعيم و رياضها، و يرتع فى ميادين المسرّات، و غياضها تلفت إلى من سلمته يد الأقدار إلى أرض ليست بذات قرار، و بدّلوا بجنتهم ذات البان المتفاوح، و الورق المتصادح، و النشر المتقادح، و الماء المطلق المسلسل، و النسيم الصحيح العليل جنتين ذواتى أكل خمط ، و أثل و شىء من سدر قليل، و تقصدتهم يد القضاء، فأخذتهم بالبأساء و الضرّاء، و أوقعتهم بمصر و شموسها، و حميمها و غمومها، و حزونها، و وعورها، و حرورها، و زفيرها، و سعيرها، و كيمانها، و نيرانها، و سودانها، و فلاحيها، و ملاحيها، و مشاربها، و مساربها، و مسالكها، و مهالكها، و صحناتها، و عصفورها، و بوريها، و صقورها، و مخاوف نوروها، و حرارة تموزها، و دارس طلولها، و رائس أسطولها، و تعكر مائها، و تكدّر هوائها، فلو تراهم فى أرجائها القصوى كالأباعر الهمل، و هم يصطخرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل.

فأجابه من دمشق بكتاب من جملته على لسان دمشق، كأنها تخاطبه: و يا أيها الولد العزيز كيف سمحت فطرتك السليمة، و مروءتك الكريمة، و سيرتك المستقيمة، و صبرك المحافظ، و دينك المراقب الملاحظ بذم من جنيت نعمها، و سكنت حرمها، و قلت مصر و شموسها، و سقت عليها القول من كل جانب، و استعرت لها التكدير حتى فى المشارب و المسارب، و هلا ذكرتها، و قد باكرها نيل نيل النعيم، بمغيثة بليل النسيم بكأس من تسنيمه، و طما البحر عليها زاخرا، فأغناها عن بكاء السحاب و تجهيمه، و عمّ معظم أرضها، و عبّ عبابه فى طولها و عرضها، حتى كاد يعلو رفيع قصورها، و يتسوّر بسورته شامخ سورها، و مع ذا لا- تراه جسورا على ضعاف جسورها، و قد طبق التهائم و الأنجاد، و غرّق الآكام و الوهاد، و علا أعلى الصعيد و الصعاد، و أعاد البرّ سلطانه بحرا بالازدياد، فإذا ارتوى أوام أكباد البلاد، و روى السهل و الوعر و الهضاب و الوهاد، و ذهب إملاق الأرض بكل ملقة و خليج، و انجاب عنها فاهتزت و ربت و أنبتت من كلزوج بهيج، بدت روضة نضرة بأملاق مقطعة، كزمرّدة أخضر بلآل مرصعة، فكم من غدير مستدير كبدر منير، و دقيق مستطيل كسيف صقيل، و كم من قليب قلاب بماء كجلاب، و كم من عظيم بركة حرّكها النسيم بلطفه، و طيبها عبير عنبرها، فضمّخها بكفه، و زهت بزهو نيلوفرها، فعرّفها بعرفه، و كم ترى من ملقة لبقة، عليها عيون النرجس محدّقة، كصحن خدّ عروس منمقة، و النوّار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۸

قد دارت بمدام الندى كؤوسه، و جالت فى مراح الأفراح نفوسه، و نجم نجمه و ابتسم عروسه، و سامره الرذاذ المنهل، و باكره الطل، فكلله بلؤلؤه و قلده، و زاره النسيم المعتل فأقامه و أقعده، و نمق أرضه و روضه، فذهّبه و فضّضه، قد تاهت برياضها الغناء، و زهت بزخرفها و زينتها الحسناء، و امتدّ بساطها الزمرّدى، و انبسط مدادها الزبرجدى، فلا يدرك أقصاه ناظر مسافر، و لا يحيط بمنتهاه خيال و لا خاطر، فللّه درّها من روضة مرن، و كعبة حسن، و مقطعات بماء غير آسن، و حرم بحر لحجاج طيره آمن، آتاها حجيج الطير من كل فج عميق، ملبيا داعى حسنها من كل مكان سحيق، قد امتطى ركبها متون الرياح، و علا جثمانها عالم الأرواح، و وصلن الإدلاج بالصباح، و قطعن أجناح الليل بخفاق الجناح، كأنهن الدرارى السوارى، أو المنشآت الجوارى، أو المطايا المهارى:

تواصل من جوّ حوائض نيلهصعود على حكم الطريق نزول

رفاق تعاهدن على الوفاء، و تحالفن على النعماء و البلاء، خرجن مهاجرات من الأوطان ألوفا، و قدمن صافات كالمصلين صفوفا، يقدمهن دليل كأنه إمام، قد قتل طرق الآفاق خبرا و استوى لديه الإضواء و الإظلام، أبصر من زرقاء اليمامة، و أطير من الورقاء و الهامة، و أهدى من النجم، و أشدّ من السهم، يتناجين بلغات أعجميات، سبحات بألحان مطربات، فطفن فى حرمها الآمن، و اعتمرن بتلك المحاسن، فتراها عند إقبال نوّها، و حومها فى جوّها، ما تستقيم خطا مستقيما، و إن كانت تصطف صفا عظيما، فمنها ما يستهل هلالا، و منها ما يحكى بنات نعس حالا، و منها ما ينثنى بإدلاله دالا، و منها ما يخط نونا نونا، فيحكى حاجبا مقرونا، و منها ما يكتب زينا، فيعيدها عينا، و منها ما يصوّر ميم الهجاء، فيشاهد مبسم السماء، و منها ما يأتى زرافات و وحدانا، فيبدع فى إعجابه حسنا و إحسانا، فكم من حبل أوز معلق بالسماء، يحلق إلى ذلك الماء، و أوانس عرّيسات، أنيسات كيّسات و صور صور، كأمثال حور، و طير لغلغ ، مكتس بديباج مصبغ، و جليل حبرج ، كعلج متوّج، و كركىّ عريض طويل، كبعير كبير جميل، و غرير غرّ، مغرّر متغير، و سبيطر شديد شويطر، و كم ضخم الدسيعة جوّال، ككوهى بالقوّة المنيعة صوّال، و رخام مرزم كذى إمرة محتشم، و جلالة نسر فى الشائع الذائع، و الحاضر الواقع، أبهى من النسر الطائر و الواقع، و عظم عقاب تمّ الحسن بحسنه، و كل الصيد فى ضمنه، و كم من خضارى و حرمان، و بلشون و شهرمان، صنوان و غير صنوان، و كم من بط على شط و خلط، و قطقط منقط، و غرّ و غرنوق، و كرسوغ ممشوق، و نورس مستأنس، و قد امتلأت بهنّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۱۹

الآفاق و تكللت بنجومهنّ الأملاق، و شربن من جريالها، فأسكرهنّ الاصطباح و الاغتباق ، فكم من مسودّ كخال بخدّ، و أزرق كلا زورد، و أشقر كزهر ورد، أحمر ناصع، و أصفر فاقع، و أبيض ذى خضاب عندمى، بلطيف منقار بقمى، و مبرقش و مبقع، و معمم و مقتنع، و أشقر منقش، و أرقش مرشش، و عودى، و هندى، و صينى مسنى، و عينين كياقوتتين، قد رصعتا فى لجين، و كم من طائر أبهى من قمر سائر بفرق مثل صبح سافر، فتراهنّ فى الماء صموتا وقوفا، صفوفا عكوفا، كصور أصنام، أو حجارة مبدّدة فى آكام، و كم من أطيار ظراف، ملاح لطاف، ذوات ألحان، و نضرة و ألوان، و خلق و أخلاق، و نطق و أطواق، و إيناس مع شماس، قد ازدانت الأرض بأصواتها، و اختلاف لغاتها و عجائب صفاتها، فبرزت بأنواع الأعاجيب، و تجلت بأجمل الجلابيب، و أبدعت فى صور الإحسان، و تصوّرت فى بدائع الألوان، فإذا بدت زرقاء فى زهر كتانها، مذهبة بأزهار لبسانها، مفضضة بنجوم أقحوانها، خلعت السماء عليها خلعة جميل أردانها ، و إذا فاح نشر نوّار قرطها، شممت المسك الذكىّ من مرطها ، و رأيت لآلىء سمطها، مبسوطة على خضر بسطها، و مغالاتها بغالية نور فولها، و هزاتها إذا رفل النسيم فى ذيولها، قد رصعت أغصانه بفصوص لجينها، و نقطته من حسنها بسواد عينها، فعيونه كعيون غزلانها فى فتكها، و أحداقه كأحداق ولدانها من تركها، و كم لها من طرّة معتبرة، و جبهة منوّرة، و وجنة مزعفرة، و ملاءة منشورة معصفرة، و خدّ مورّد، و طرف مهند، و لماها صيغ من عقيق الشقيق، و سكرها من ذلك الريق على التحقيق، و أين بزوغ بشنينها، و امتداد يقطينها، و أين حلاوة عرائس نخلاتها، و طلاوة أوانس قاماتها، بمشابهتها فى صفاتها، و غرائس فسيلاتها ، و أين نضيد طلعها، و حميد فرعها، و مديد جذعها، و فرّ جمارها، عن غرّة جمارها، و اخضرار أكمامها، و احمرار لثامها، و بنان بسرها

المطرف، و بنان نشرها المشرف، و انتظام سرورها، بابتسام منثورها، و ورد واديها و منحناها، و ندى ندّها و تمرحناها، و آسى آسها، و طبيب طيب أنفاسها، و تبرّجها بأترجها، و تبهرجها بنارنجها، و تختمها بمختمها، و تبسمها عن بلسمها، و تشقق أبرادها، عن نهود كبادها، و تضاعف أرجها، بمضعف بنفسجها، و جلالة مقدارها، إذا فتحت أزرارها عن جل نارها، و طيب شميمها من أشمومها، و نسيمها و وسيمها بأوسيمها، و جنان قليوبها، و حرمان قليبها، و أحواضها، ببهنيها و رياضها، و طربتها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۲۰

بمطريتها، و نفيس أنسها بمقسها ، و غريب غرسها ببلقسها، و عظيم آسها بمحلق مقياسها، و كريم تحيتها من قبل اليمن هبوب أنفاسها، و اجتماع أسعدها، و ارتفاع رصدها، و سواقيها الحنانة فى سجعها، الهتانة بسكبها من دمعها، و جنة لوقها، و لجة بولاقها، و بركة فيلها، من بركة نيلها، و جزيرة ذهبها، و قلعة الجزيرة بذهبها، من عجبها حكت فلكها فى بحرها، و أحكمت مملكتها فى برّها، و عظم جللها بقلعة جبلها، و اتلاء أعلامها، ببناء أهرامها، و إذا نظرت إلى سعود صعودها، إلى سعيد صعيدها، و اغتباطها بانحطاطها، إلى صوب سكندريتها و دمياطها، ألهتك عن حسن الثريا و مناطها، و لا تنس الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام، التى تسبق عند طياب الرياح مفوّقات السهام، و إعجابها بغربانها البحرية، و حراقاتها الحربية، و شوانيها و حول مبانيها، و جلال شكلها و جمال معانيها، تبدو موشاة بالنضار الأحمر، منقشة باللون الأفخر، فهى كالأرقم المنمر، أو كمتلوّن الثمر، أو الطاوس الذكر أو الناوس لبنى الأصفر، معمرة بيأس الحديد و الأحجار، محمولة على سيح الماء التيار، مشحونة بالرجال، منصورة عند القتال، مصونة بالمجنّ و النبال تبرز مذكرة بالآية النوحية، و تضمن إحراز الهمة العلية الفتحية، حصون أمنع من أعز قلاع، تطير إذا فتح لها جناح القلاع، فتسبق وفد الريح عند الإسراع، و تفوق سرعة السحاب عند الاتساع، فهن مع العقبان فى النيق حوّم، و هن مع البنيان فى البحر عوّم، لو أقسم من رآها، و لو قال مشاهد معناها، إن اللّه نفخ فيها الروح فأحياها، لبرّ فى يمينه التى أقسم و تلاها، و كم من مركب لحسنه معجب، و كم من سفين قويّ أمين، و خضارى جليل، و عشارى طويل، و مسمارى طويل جميل و فستراوى، عكاوى، و لكة و درمونة، و معدّية مكينة، و سلور دقيق، و شختور رشيق، و قرقور رقيق، و زورق ذى زواريق، و طريدة بخيل الطراد معمورة، دهماء بحمل الجياد و الأجناد مشهورة، و مخلوف فى الآفاق بالمعروف معروف، و ما أحلى بنان رطبها المخضب، و رشيق قامة قصبها المقصب، و بهجة فوز ما بطلح موزها، و خضر أعلام أوراقها، و صفر كرام إعلاقها، فلا البلاغة تبلغ من إحصاء فضلها مراما، و لا الفصاحة تصوغ لوصف تشبيهها كلاما، فنسأل اللّه تعالى أن يكنفها بركنه الذى لا يرام، و يحرسها بعينه التى لا تنام بمنه و كرمه.

و قال الرئيس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل اللّه العمرى كاتب السرّ:

لمصر فضل باهربعيشها الرغد النضر

فى كل سفح يلتقى‌ماء الحياة و الخضر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۲۱

و قال إبراهيم بن القاسم الكاتب الملقب بالرشيق يتشوّق إلى مصر، و قد خرج عنها فى سنة ست و ثمانين و ثلثمائة من قصيدة:

هل الريح إن سارت مشرّقة تسرى‌تؤدّى تحياتى إلى ساكنى مصر

فما خطرت إلّا بكيت صبابةو حملتها ما ضاق عن حمله صدرى

لأنى إذا هبت قبولا بنشرهم‌شممت نسيم المسك من ذلك النشر

فكم لى بالأهرام أو دير نهيةمصايد غزلان المطايد و القفر

إلى جيزة الدنيا و ما قد تضمنت‌جزيرتها ذات المواخر و الجسر

و بالمقس و البستان للعين منظرأنيق إلى شاطىء الخليج إلى القصر

و فى بئر دوس مستراد و ملعب‌إلى دير محنا إلى ساحل البحر

فكم بين بستان الأمير و قصره‌إلى البركة النضراء من زهر نضر

تراها كمرآة بدت فى رفارف‌من السندس الموشى تنشر للتجر

و كم ليلة بالقرافة خلتهالما نلت من لذاتها ليلة القدر

و قال أحمد بن رستم بن إسفهسلار الديلمىّ: يخاطب الوزير نجم الدين أبا يوسف بن الحسين المجاور، و توفى فى رابع عشر ذى الحجة سنة إحدى و عشرين و ستمائة:

حىّ الديار بشاطئى مقياسهافالمقسم الفياح بين دهاسها

فالروضتين و قد تضوّع عرفهاأرج البنفسج فى غضارة أسها

فمنازل العين المنيفة أصبحت‌يغنى سناها عن سنا نبراسها

فخليجها لذاته مطلوبة‌تسمو محاسنه علا بأناسها

حافاته محفوفة بمنازل‌نزلت بها الآرام دون كناسها

و قال العلامة جلال الدين محمد الشيرازىّ المعروف بإمام منكلى بغا:

حيّا الحيا مصرا و سكانهاو باكر الوسمىّ كثبانها

و جاد صوب المزن من أرضهامعاهد الأنس و أوطانها

معاهد بالأنس معمورة‌لم أنس مهما عشت إحسانها

كم أيقظتنى فى ذرا دوحهاعجماء لا تفقه ألحانها

و كم نعيم قد تخيلته‌فيها و كم غازلت غزلانها

و عاينت عينى بها أغيدامنعس المقلة و سنانها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۲۲ تسحر بالتفتير ألحاظه‌كأنّ من بابل شيطانها

و كم شجت قلبى بها غادة‌قد كحلت بالغنج أجفانها

إذا دعت صبا إلى حبهالا يستطيع الصب عصيانها

و كم ليال لى بها قد مضت‌تسحب بالإعجاب أردانها

و ألهف نفسى كيف شطت بهاحوادث قوّضن بنيانها

فارقتها لا عن قلى صدّنى‌عنها فراق الروح جسمانها

و اعتضت عن غزلانها و المهانعاج جيرون و ثيرانها

يا سائلى عن حالتى بعدهاها أنا ذا أذكر عنوانها

ما حال من فارق أصحابه‌و فارق الدنيا و جيرانها

تقلب فوق الجمر أحشاؤه‌تؤجج الأشواق نيرانها

و العين لا تنفك من عبرة‌ترسل فوق الخدّ طوفانها

يا سائق النوق يبث الثرى‌كمثل بث السحب تهتانها

حىّ ربا مصر و جناتهاو حورها العين و ولدانها

و دورها الزهر و ساحاتهاو بين قصريها و ميدانها

و أرضها المخصب أرجاؤهاو نيلها الزاهى و خلجانها

و الروضة الفيحاء تلك التى‌تجلو عن الأنفس أحزانها

و منیهٔ الشیرج لا تنسهاو قرطها الأحوی و کتانها

و التاج الخمس وجوه التیأضحت من الأعین إنسانها

و حیّ یا برق وجد بالحیاجزیرهٔ الفیل و غیطانها

و بانها الغض و نسرینهاو وردها البکر و ریحانها

و ظلها الضافی و أزهارهاو ماءها الصافی و غدرانها

و المعهد المأنوس من ربعهاو حیّ أهلیها و سکانها

لم أنس لا أنسی اصطباحی بهاو لا اغتباقاتی و إبانها

و لا أویقات التصابی و لاتلک الخلاعات و أزمانها

أیام لا انفک من صبوهٔأهوی اللذا ذات و إعلانها

أخطر تیها فی ریاض الصبامرنح الأعطاف کسلانها

و خیل لهوی فی میادینهاتجرجر الصبوهٔ أرسانها

و دوحتی ناضرهٔ غضهٔتعطف ریح اللهو أغصانها

حاشای أن أنقض عهدا لهاحاشای أن أصبح خوّانها

حاشای أن أهجرها قالیاحاشای أن أحدث سلوانها

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۲، ص: ۲۲۳ حاشای أن أرضی بدیلا بهاروابی الشام و قیعانها

و ماءها الثج و حصباءهاو صخرها الصلد و صوّانها

قد تاقت النفس إلی الفهاو حثت الأشواق أظعانها

و ادّکرت فی البعد أحبابهافهیّج التبریح أشجانها

و ما لها غیرک من ملتجایا أوحد الدنیا و إنسانها

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۲، ص: ۲۲۴

ذکر ما قیل فی مدّهٔ بقاء القاهرهٔ و وقت خرابها

قال المعارف محیی الدین محمد بن العربیّ الطائیّ الحاتمیّ فی الملحمهٔ المنسوبهٔ إلیه قاهرهٔ تعمر فی سنهٔ ثمان و خمسین و ثلثمائهٔ، و تخرب سنهٔ ثمانین و سبعین، و وقفت لها علی شرح لم أعرف تصنیف من هو، فإنه لم یسمّ فی النسخهٔ التی وقفت علیها، و هو شرح لطیف قلیل الفائدهٔ، فإنه ترک کلام المصنف فیما مضی علی ما هو معروف فی کتب التاریخ، و لم یبین مراده، فیما یستقبل، و کانت الحاجهٔ ماسهٔ إلی معرفهٔ ما یستقبل أکثر من المعرفهٔ بحال ما مضی، لکن أخبرنی غیر واحد من الثقات، أنه وقف لهذه الملحمهٔ علی شرح کبیر فی مجلدین، قال هذا الشارح: کانت بدایهٔ عمارهٔ القاهرهٔ و النّیران فی شرفهما: الشمس فی برج الحمل، و القمر فی برج الثور، و هو برج ثابت. قال: فعمّر القاهرهٔ، و مدّتها أربعمائهٔ، و إحدی و ستون سنهٔ، قال فی الأصل: و إذا نزل زحل برج الجوزاء عزت الأقوات بمصر، و قلّ أغنیاؤهم، و کثر فقراءهم و یکون الموت فیهم و یخرج أهل برقهٔ عن أوطانهم، لا سیما إذا قارن زحل الجوزهر، فإنّ الحال یکون أشدّ و أقوی.

قال الشارح: کان ذلک فی سنهٔ أربع و ستین و ستمائهٔ فی أیام الملک الظاهر رکن الدین بیبرس، فإنه نزل زحل برج الجوزاء، فوقع الغلاء، و فی آخر سنهٔ أربع، و أوّل سنهٔ خمس و تسعین و ستمائهٔ، فی أیام الملک العادل: کتبغا حلّ زحل فی برج الجوزاء، و کان معه الجوزهر، فکانت أشدّ و أقوی و کثر الغلاء و الوباء.

قال: سئل المعز عن الترك ما هم؟ فقال: قوم مسلمون يأمرون بالمعروف، و ينهون عن المنكر، و يقيمون الحدود و الواجبات، و يقاتلون فى سبيل اللّه أعداء اللّه، فقيل له:

أ تطول مدّتهم؟ قال: لا- تطول مدّتهم، قيل: فكيف يكون زوالهم؟ قال: يكون هكذا، و كان إلى جانبه طبق كيزان، فحرّكه حركة شديدة، فتكسرت الكيزان، فقال: هكذا يكون زوالهم يقتل بعضهم بعضا، قال:

احذر بنيّ من القران العاشرو ارحل بأهلك قبل نقر الناقر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۲۵

قال الشارح: أوّل القران العاشر فى سنة خمس و ثمانين و سبعمائة، و فيه تكون حالات رديئة بأرض مصر، و هذا يوافق ما فى القول عن القاهرة، و تخرب فى سنة خمس و ثمانين و سبعمائة، يعنى بداية انحطاطها من سنة خمس و ثمانين و سبعمائة التى فيها القران العاشر، و يثبت فى عشرين سنة التى هى أيام القران، و قد ذكر فى الربع الآخر أربعمائة، و إحدى و ستين سنة، و قد تخيلت أنها مدّة عمر القاهرة، فإذا زدتها على تاريخ عمارتها بلغ ذلك ثمانمائة و تسع عشرة سنة، و فى ذلك الوقت يكون زوالها، و هو ما بين سنة ثمانين، و سبعمائة إلى سنة تسع عشرة و ثمانمائة، و يكون ذلك سببه قحط عظيم، و قلة خير، و كثرة شرّ حتى تتخرّب و يضعف أهلها.

قال: قران زحل و المرّيخ فى برج الجدى يكون فى سنة سبعين و سبعمائة، فتعدّ لكل مائة سنة من سنى الهجرة ثلاث سنين، فيكون ثلاثا و عشرين سنة تزيدها على سبعمائة و سبعين سنة تبلغ سبعمائة، و ثلاثا و تسعين سنة، ففى مثلها من سنى الهجرة يكون أوّل أوقات خراب القاهرة، انتهى.

و تهذيب هذا القول: أنّ زحل كلما حلّ برج الجوزاء، اتضعت أحوال مصر، و قلت أموالهم، و كثر الغلاء و الفناء عندهم، بحسب الأوضاع الفلكية، و زحل يحلّ فى برج الجوزاء كل ثلاثين سنة شمسية، فيقيم فيه نحوا من ثلاثين شهرا، و أنت إذا اعتبرت أمور العالم وجدت الحال كما ذكرنا، فإنه كلما حلّ زحل برج الجوزاء وقع الغلاء بمصر، و ذكر أنّ القران العاشر تتضع فيه أحوال القاهرة، و رأينا الأمر كما ذكرنا، فإنّ القران العاشر كان فى سنة ست و ثمانين و سبعمائة، و مدّة سنينه عشرون سنة شمسية، آخرها سابع عشر رجب سنة سبع و ثمانمائة، و فى هذه المدّة اتضع حال القاهرة و أهلها، اتضاعا قبيحا، و من الأوقات المحذورة لها أيضا اقتران زحل و المريخ فى برج السرطان، و يكون ذلك فى كل ثلاثين سنة شمسية، و يقترنان فى سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، و فى مدّته تنقضى الأربعمائة و الإحدى و الستون سنة التى ذكر أنها عمر القاهرة فى سنة تسع عشرة و ثمانمائة، و شواهد الحال اليوم تصدّق ذلك لما عليه أهل القاهرة الآن من الفقر و الفاقة، و قلة المال و خراب الضياع و القرى، و تداعى الدور للسقوط، و شمول الخراب أكثر معمور القاهرة، و اختلاف أهل الدولة، و قرب انقضاء مدّتهم و غلاء سائر الأسعار.

و لقد سمعت عمن يرجع إليه فى مثل ذلك: أنّ العمارة تنتقل من القاهرة إلى بركة الحبش، فيصير هناك مدينة، و اللّه تعالى أعلم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۲۶

ذكر مسالك القاهرة و شوارعها على ما هى عليه الآن

و قبل أن نذكر خطط القاهرة، فلنبتدىء بذكر شوارعها، و مسالكها: المسلوك منها إلى الأزقة، و الحارات لتعرف بها الحارات و الخطط و الأزقة و الدروب، و غير ذلك مما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى.

فالشارع الأعظم: قصبة القاهرة من باب زويلة إلى بين القصرين، عليه باب الخرنفش أو الخرنشف، و من باب الخرنفش ينفرق من هنالك طريقان ذات اليمين، و يسلك منها إلى الركن المخلق، و رحبة باب العيد إلى باب النصر، و ذات اليسار، و يسلك منها إلى الجامع الأقمر، و إلى حارة برجوان إلى باب الفتوح، فإذا ابتدأ السالك بالدخول من باب زويلة، فإنه يجد يمنة الزقاق الضيق الذى يعرف اليوم: بسوق الخلعيين، و كان قديما يعرف:

بالخشابين، و يسلك من هذا الزقاق إلى حارة الباطلية، و خوخة حارة الروم البرّانية، ثم يسلك الداخل أمامه، فيجد على يسرته سجن متولى القاهرة المعروف: بخزانة شمايل، و قيسارية سنقر الأشقر، و درب الصفيرة، ثم يسلك أمامه، فيجد على يمنته: حمام الفاضل المعدّة لدخول الرجال، و على يسرته تجاه هذه الحمام: قيسارية الأمير بهاء الدين رسلان الدوادار الناصرىّ إلى أن ينتهى بين الحوانيت، و الرباع فوقها إلى بابى زويلة الأوّل، و لم يبق منهما سوى عقد أحدهما، و يعرف الآن: بباب القوس، ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الحدّادين، و الحجارين المعروف اليوم بسوق الأنماطيين، و سكن الملاهى، و إلى المحمودية، و إلى سوق الأخفافيين، و حارة الجودرية و الصوّافين، و القصارين و الفحامين و غير ذلك، و يجد تجاه هذا الزقاق عن يمينه المسجد المعروف قديما، بابن البناء و تسميه العامّة الآن: بسام بن نوح، و هو فى وسط سوق الغرابليين و المناخليين، و من معهم من الضبيين، ثم يسلك أمامه فيجد سوق السرّاجين، و يعرف اليوم: بالشوّايين، و فى هذا السوق على يمينه: الجامع الظافرىّ المعروف بجامع الفكاهين، و بجانبه الزقاق المسلوك منه إلى حارة الديلم، و سوق القفاصين، و سوق الطيوريين، و الأكفانيين القديمة المعروفة الآن بسكنى دقاقى الثياب، و يجد على يسرته الزقاق المسلوك منه إلى حارة الجودرية، و درب كركامة، و دكة الحسبة المعروفة قديما بسوق الحدّادين و سوق الورّاقين القديمة، و إلى سوق الفاميين المعروف اليوم: بالأبازرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۲۷

و إلى غير ذلك، ثم يسلك أمامه إلى سوق الحلاويين الآن، فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الكعكيين المعروف قديما بالقطانيين، و سكنى الأساكفة، و إلى بابى قيسارية جهاركس، و عن يسرته: قيسارية الشرب، ثم يسلك أمامه إلى سوق الشرابشيين المعروف قديما يسكن الحالقيين، و عن يمنته درب قيطون، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق الشرابشيين، فيجد عن يمنته قيسارية أمير على، و يجد عن يسرته سوق الجملون الكبير المسلوك فيه إلى قيسارية ابن قريش، و إلى سوق العطارين و الوراقين، و إلى سوق الكفتيين، و الصيارف، و الأخفافيين، و إلى بئر زويلة و البندقانيين، و إلى غير ذلك، ثم يسلك أمامه، فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الفرّايين الآن، و كان يعرف أوّلا بدرب البيضاء، و إلى درب الأسوانى، و إلى الجامع الأزهر، و غير ذلك، و يجد عن يسرته قيسارية بنى أسامة، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق الجوخيين و اللجميين، فيجد عن يمينه قيسارية السروج، و عن يسرته قيسارية ثم يسلك أمامه إلى سوق السقطيين و المهامزيين، فيجد عن يمينه درب الشمسىّ، و يقابله باب قيسارية الأمير علم الدين الخياط، و تعرف اليوم: بقيسارية العصفر، ثم يسلك أمامه شاقا فى السوق المذكور، فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه إلى سوق القشاشين، و عقبة الصباغين المعروف اليوم بالخرّاطين، و إلى سوق الخيميين، و إلى الجامع الأزهر، و غير ذلك و يجد قبالة هذا الزقاق عن يسرته قيسارية العنبر المعروفة قديما بحبس المعونة، ثم يسلك أمامه، فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الورّاقين، و سوق الحريريين الشراربيين المعروف قديما بسوق الصاغة القديمة، و إلى درب شمس الدولة، و إلى سوق الحريريين، و إلى بئر زويلة و البندقانيين، و إلى سويقة الصاحب، و الحارة الوزيرية، و إلى باب سعادة و غير ذلك، ثم يسلك أمامه شاقا فى بعض سوق الحريريين، و سوق المتعيشين، و كان قديما سكنى الدجاجين و الكعكيين، و قبل ذلك أوّلا سكنى السيوفيين، فيجد عن يمينه قيسارية الصنادقيين، و كانت قديما تعرف بفندق الدبابليين، و يجد عن يسرته مقابلها، دار المأمون البطائحى المعروفة بمدرسة الحنفية، ثم عرفت اليوم بالمدرسة السيوفية، لأنها كانت فى سوق السيوفيين، ثم يسلك أمامه فى سوق السيوفيين الذى هو الآن سوق المتعيشين، فيجد عن يمينه خان مسرور، و حجرتى الرقيق، و كدة المماليك بينهما، و لم تزل موضعا لجلوس من يعرض من المماليك الترك و الروم، و نحوهم للبيع إلى أوائل أيام الملك الظاهر برقوق، ثم بطل ذلك، و يجد عن يسرته قيسارية الرماحين، و خان الحجر، و يعرف اليوم هذا الخط بسوق باب الزهومة، ثم يسلك أمامه، فيجد عن يسرته الزقاق و الساباط المسلوك فيه إلى حمام خشيبة، و درب شمس الدولة، و إلى حارة العدوية المعروفة اليوم بفندق الزمام، و إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۲۸

حارة زويلة و غير ذلك، و يجد بعد هذا الزقاق قريبا منه فى صفة درب السلسلة، و من هنا ابتداء خط بين القصرين، و كان قديما فى أيام الدولة الفاطمية مراحا واسعا ليس فيه عمارة البتة، يقف فيه عشرة آلاف فارس، و القصران هما موضع سكنى الخليفة أحدهما شرقيّ، و هو القصر الكبير، و كان على يمنة السالك من موضع خان مسرور طالبا باب النصر و باب الفتوح، و موضعه الآن المدارس الصالحية النجمية، و المدرسة الصاهرية الركنية، و ما فى صفها من الحوانيت، و الرباع إلى رحبة العيد، و ما وراء ذلك إلى البرقية، و يقابل هذا القصر الشرقيّ القصر الغربيّ، و هو القصر الصغير، و مكانه الآن المارستان المنصوريّ، و ما فى صفه من المدارس و الحوانيت، إلى تجاه باب الجامع الأقمر، فإذا ابتدأ السالك بدخول بين القصرين من جهة خان مسرور، فإنه يجد على يسرته درب السلسلة، ثم يسلك أمامه، فيجد على يمينه الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الأمشاطيين المقابل لمدرسة الصالحية التى للحنفية و الحنابلة، و إلى الزقاق الملاصق لسور المدرسة المذكورة المسلوك فيه إلى خط الزراكشة العتيق حيث خان الخليليّ، و خان منج، و إلى الخوخ السبع حيث الآن سوق الأبارين، و إلى الجامع الأزهر، و إلى المشهد الحسينيّ و غير ذلك، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق السيوفيين الآن، فيجد على يساره دكاكين السيوفيين، و على يمينه دكاكين النقليين ظاهر سوق الكتبيين الآن، و على يساره سوق الصيارف برأس باب الصاغة، و كان قديما مطبخ القصر قبالة باب الزهومة، ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه باب المدارس الصالحية تجاه باب الصاغة، ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه القبة الصالحية، و بجوارها المدرسة الطاهرية الركنية، و يجد على يساره باب المارستان المنصورى، و فى داخله القبة المنصورية التى فيها قبور الملوك، و تحت شبابيكها دكك القفصيات التى فيها الخواتيم و نحوها، فيما بين القبة المذكورة، و المدرسة الظاهرية المذكورة، و فى داخله أيضا المدرسة المنصورية، و تحت شبابيكها أيضا، دكك القفصيات فيما بين شبابيكها، و شبابيك المدرسة الصالحية التى للشافعية و المالكية، و تحتها خيمة الغلمان بجوار قبة الصالح، و فى داخله أيضا المارستان الكبير المنصوريّ المتوصل من باب سرّه إلى حارة زويلة، و إلى الخرنشف، و إلى الكافورى و إلى البندقانيين، و غير ذلك، ثم يسلك باب المارستان، فيجد على يمنته سوق السلاح و النشابين الآن تحت الربع المعروف: بوقف أمير سعيد، و يجد على يسرته المدرسة الناصرية الملاصقة لمئذنة القبة المنصورية، ثم يسلك أمامه، فيجد على يمنته: خان بشتاك، و فوقه الربع و عرف الآن هذا الخان: بالمستخرج، و يجد على يسرته: المدرسة الظاهرية الجديدة بجوار المدرسة الناصرية، و كانت قبل إنشائها مدرسة فندقا يعرف: بخان الزكاة، ثم يسلك أمامه، فيجد على يمنته، باب قصر بشتاك، و يجد على يسرته المدرسة الكاملية المعروفة:

بدار الحديث، و هى ملاصقة للمدرسة الظاهرية الجديدة، ثم يسلك أمامه، فيجد على يمنته الزقاق المسلوك فيه إلى بيت أمير سلاح المعروف بقصر أمير سلاح، و هو الأمير فخر الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۲۹

بكتاش الفخرىّ الصالحىّ النجمىّ، و إلى دار الأمير سلار نائب السلطنة، و إلى دار الطواشى سابق الدين، و مدرسته التى يقال لها المدرسة السابقية، و كان فى داخل هذا الزقاق مكان يتوصل إليه من تحت قبو المدرسة السابقية يعرف بالسودوس فيه عدّة مساكن صارت كلها اليوم دارا واحدة إنشاء الأمير جمال الدين الإستادار، و كان تجاه باب المدرسة السابقية ربع تحته فرن، و من ورائه عدّة مساكن يعرف مكانها بالحدرة، فهدم الأمير جمال الدين المذكور الربع، و ما وراءه، و حفر فيه صهريجا و أنشأ به عدة آدر هى الآن جارية فى أوقافه.

و كان يسلك من باب السابقية على باب الربع، و الفرن المذكورين إلى دهليز طويل مظلم ينتهى إلى باب القصر، تجاه سور سعيد السعداء، و منه يخرج السالك إلى رحبة باب العيد، و إلى الركن المخلق، فهدمه الأمير جمال الدين، و جعل مكانه قيسارية، و ركب على رأس هذا الزقاق تجاه حمام البيسرىّ، دربا فى داخله دروب ليصون أمواله، و انقطع التطرّق من هذا الزقاق، و صار دربا غير نافذ، و يجد السالك عن يسرته قبالة هذا الزقاق، و صار دربا مدربا باب قصر البيسرية، و قد بنى فى وجهه حوانيت بجانبها حمام البيسرى، و

من هنا ينقسم شارع القاهرة المذكورة إلى طريقين: إحداهما ذات اليمين، و الأخرى ذات اليسار، فأمّا ذات اليسار، فإنها تتمة القصبة المذكورة، فإذا مرّ السالك من باب حمام الأمير بيسرى، فإنه يجد على يسرته باب الخرنشف المسلوك فيه إلى باب سرّ البيسرية، و إلى باب حارة برجوان، الذى يقال له: أبو تراب، و إلى الخرنشف، و اصطبل القطبية، و إلى الكافورى، و إلى حارة زويلة، و إلى البندقانيين، و غير ذلك، ثم يسلك أمامه فيجد سوقا يعرف أخيرا بالوزارزين و الدجاجين يباع فيه الأوز، و الدجاج و العصافير، و غير ذلك من الطيور، و أدركناه عامرا سوقا كبيرا من جملته دكان لا يباع فيها غير العصافير، فيشتريها الصغار للعب بها.

و فى هذا السوق على يمنة السالك: قيسارية يعلوها ربع كانت مدّة سوقا يباع فيه الكتب، ثم صارت لعمل الجلود، و كانت من جملة أوقاف المارستان المنصورى، فهدمها بعض من كان يتحدّث فى نظره عن الأمير أيتمش فى سنة إحدى و ثمانمائة، و عمرها على ما هى عليه الآن، و على يسرة السالك فى هذا السوق ربع يجرى فى وقف المدرسة الكاملية، و كان هذا السوق يعرف قديما بالتبانين و القماحين، ثم يمرّ سالكا أمامه، فيجد سوق الشماعين متصلا بسوق الدجاجين، و كان سوقا كبيرا فيه صفان عن اليمين و الشمال من حوانيت باعة الشمع أدركته عامرا، و قد بقى منه الآن يسير، و فى آخر هذا السوق على يمنة السالك: الجامع الأقمر، و كان موضعه قديما سوق القماحين، و قبالته درب الخضرىّ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۰

و بجانب الجامع الأقمر من شرقيه الزقاق الذى يعرف بالمحايريين و يسلك فيه إلى الركن المخلق و غيره، و قبالة هذا الزقاق بئر الدلاء، ثم يسلك المارّ أمامه، فيجد على يمنته زقاقا ضيقا، ينتهى إلى دور و مدرسة تعرف بالشرابشية، يتوصل من باب سرّها إلى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، ثم يسلك أمامه فى سوق المتعيشين، فيجد على يسرته باب حارة برجوان، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المتعيشين، و قد أدركته سوقا عظيما لا يكاد يعدم فيه شىء مما يحتاج إليه من المأكولات، و غيرها بحيث إذا طلب منه شىء من ذلك فى ليل أو نهار وجد.

و قد خرب الآن، و لم يبق منه إلا اليسير، و كان هذا السوق قديما يعرف بسوق أمير الجيوش، و بآخره خان الروّاسين، و هو زقاق على يمنة السالك غير نافذ، و يقابل هذا الزقاق على يسرة السالك إلى باب الفتوح شارع يسلك فيه إلى سوق يعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش، و كان قبل اليوم يعرف بسوق الخروقيين، و يسلك من هذا السوق إلى باب القنطرة فى شارع معمور بالحوانيت من جانبيه، و يعلوها الرباع، و فيما بين الحوانيت دروب ذات مساكن كثيرة، ثم يسلك أمامه من رأس سويقة أمير الجيوش، فيجد على يمينه الجملون الصغير المعروف بجملون ابن صيرم، و كان مسكنا للبزازين فيه عدّة حوانيت عامرة بأصناف الثياب أدركتها عامرة، و فيه مدرسة ابن صيرم المعروفة بالمدرسة الصيرمية، و فى آخره باب زيادة الجامع الحاكمىّ، و كان على بابها عدّة حوانيت تعمل فيها الضبب التى برسم الأبواب، و يخرج من هذا الجملون إلى طريقين: إحداهما يسلك فيها إلى درب الفرنجية، و إلى دار الوكالة و شارع باب النصر، و الأخرى إلى درب الرشيدىّ النافذ إلى درب الجوّانية، ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته شباك المدرسة الصيرمية، و يقابله باب قيسارية خوانداردكين الأشرفية، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المرحلين، و كان صفين من حوانيت عامرة فيها جميع ما يحتاج إليه فى ترحيل الجمال، و قد خرب و بقى منه قليل، و فى هذا السوق على يسرة السالك زقاق يعرف بحارة الورّاقة، و فيه أحد أبواب قيسارية خوند المذكورة، و عدّة مساكن و كان مكانه يعرف قديما باصطبل الحجرية، ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته أحد أبواب الجامع الحاكمىّ و ميضأته، و يجد باب الفتوح القديم، و لم يبق منه سوى عقدته، و شىء من عضادته، و بجواره شارع على يسرة السالك يتوصل منه إلى حارة بهاء الدين، و باب القنطرة، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المتعيشين، فيجد على يمينه بابا آخر من أبواب الجامع الحاكمىّ، ثم يسلك أمام، فيجد عن يسرته زقاقا بسياط ينفذ إلى حارة بهاء الدين فيه كثير من المساكن، ثم يسلك أمامه، فيجد عن يمينه باب الجامع الحاكمى الكبير، و يجد عن يساره فندق العادل، و يشق فى سوق عظيم إلى باب الفتوح، و هو آخر قصبة القاهرة، و أما ذات اليمين من شارع بين القصرين، فإن المارّ إذا سلك من الدرب الذى يقابل حمام البيسرى طالبا

الركن المخلق، فإنه يشق فى سوق القصاصين، و سوق الحصريين إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۱

الركن المخلق، و يباع فيه الآن النعال، و به حوض فى ظهر الجامع الأقمر لشرب الدواب تسميه العامة حوض النبى، و يقابله مسجد يعرف بمراكع موسى، و ينتهى هذا السوق إلى طريقين: إحداهما إلى بئر العظام التى تسميها العامة: بئر العظمة، و منها ينقل الماء إلى الجامع الأقمر و الحوض المذكور بالركن المخلق، و يسلك منه إلى المحايريين و الطريق الأخرى تنتهى إلى الدنق المعروف بقيسارية الجلود، و يعلوها ربع أنشأت ذلك خوند بركة أمّ الملك الأشرف شعبان بن حسين، و بجوار هذه القيسارية بوّابة عظيمة، قد سترت بحوانيت يتوصل منها إلى ساحة عظيمة هى من حقوق المنحر كانت خوند المذكورة، قد شرعت فى عمارتها قصرا لها، فماتت دون إكماله، ثم يسلك أمامه فيجد الرباع التى تعلو الحوانيت، و القيسارية المستجدّة فى مكان باب القصر الذى كان ينتهى إلى مدرسة سابق الدين، و بين القصرين، و كان أحد أبواب القصر، و يعرف بباب الريح، و هذه الرباع و القيسارية من جملة إنشاء الأمير جمال الدين الإستادار، و كانت قبله حوانيت و رباعا، فهدمها و أنشأها على ما هى عليه اليوم، ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه مدرسة الأمير جمال الدين المذكور، و كان موضعها خانا، و ظاهره حوانيت، فبنى مكانها مدرسة و حوضا للسبيل، و غير ذلك، و يقال لهذه الأماكن رحبة باب العيد، و يسلك منها إلى طريقين:

إحداهما ذات اليمين، و الأخرى ذات اليسار، فأما ذات اليمين فإنها تنتهى إلى المدرسة الحجازية، و إلى درب قراصيا، و إلى حبس الرحبة، و إلى درب السلامىّ المسلوك منه إلى باب العيد الذى تسميه العامة بالقاهرة، و إلى المارستان العتيق، و إلى قصر الشوك، و دار الضرب، و إلى باب سرّ المدارس الصالحية، و إلى خزانة البنود، و يسلك من رأس درب السلامىّ هذا فى رحبة باب العيد إلى السفينة، و خط خزانة البنود، و رحبة الأيد مرىّ، و المشهد الحسينىّ، و درب الملوخيا، و الجامع الأزهر، و الحارة الصالحية، و الحارة البرقية إلى باب البرقية، و الباب المحروق، و الباب الجديد. و أما ذات اليسار من رحبة باب العيد، فإنّ المارّ يسلك من باب مدرسة الأمير جمال الدين إلى باب زاوية الخدّام إلى باب الخانقاه المعروفة بدار سعيد السعداء، فيجد عن يمينه زقاقا بجوار سور دار الوزارة يسلك فيه إلى خرائب تتر، و إلى خط الفهادين، و إلى درب ملوخيا، و غير ذلك. ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه المدرسة القراسنقرية، و خانقاه ركن الدين بيبرس، و هما من جملة دار الوزارة، و ما جاور الخانقاه إلى باب الجوّانية، و تجاه خانقاه بيبرس الدرب الأصفر، و هو المنحر الذى كانت الخلفاء تنحر فيه الأضاحى، ثم يسلك أمامه، فيجد على يمنته دار الأمير قزمان بجوار خانقاه بيبرس، و بجوارهما دار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير، و قد عرفت الآن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۲

بدار خوند طولوباى زوجة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، و بجوارها حمام الأعسر المذكور، و جميع هذا من دار الوزارة، و يجد على يسرته: درب الرشيدى تجاه حمام الأعسر المسلوك فيه إلى درب الفرنجية و جملون بن صيرم، ثم يسلك أمامه، فيجد على يمينه الشارع المسلوك فيه إلى الجوّانية، و إلى خط الفهادين، و إلى درب ملوخيا، و إلى العطوفية، و قد خربت هذه الأماكن و يجد على يسرته الوكالة المستجدّة من إنشاء الملك الظاهر برقوق، ثم يسلك أمامه، فيجد على يسرته زقاقا يسلك فيه إلى جملون ابن صيرم، و إلى درب الفرنجية، ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته: دار الأمير شهاب الدين أحمد، ابن خالة الملك الناصر محمد بن قلاوون، و دار الأمير علم الدين سنجر الجاولى، و هما من حقوق الحجرانتى كانت بها مماليك الخلفاء، و أجنادهم، و يجد على يسرته: وكالة الأمير قوصون ثم يسلك من باب الوكالة، فيجد مقابل باب قاعة الجاولى: خان الجاولى، و بعدها باب النصر القديم، و أدركت فيه قطعة كانت تجاه ركن المدرسة الفاصدية الغربىّ، و قد زال و يسلك منه إلى رحبة الجامع الحاكمى، فيجد على يمنته المدرسة القاصدية، و على يسرته بابى الجامع الحاكمىّ، و تجاه أحدهما الشارع المسلوك فيه إلى حارة العبدانية، و حارة العطوفية، و غير ذلك، و من باب الجامع الحاكمىّ ينتهى إلى باب النصر، فيما بين حوانيت و رباع و دور، فهذه صفة القاهرة الآن، و

ستقف إن شاء اللّه تعالى على كيفيـة ابتداء موضع هذه الأماكن، و ما صارت إليه، و ذكر التعريف بمن نسبت إليه أو عرفت به على ما التقطت ذلـك من كتب التواريـخ، و مجامع الفضـلاء، و وقفت عليه بخطوط الثقات، و أخبرنى بـذلك من أدركته من المشيـخة، و ما شاهدته من ذلك سالكا فيه سبيل التوسط فى القول بين الإكثار و الاختصار، و اللّه الموفق بمنه و كرمه لا إله غيره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۳

ذكر سور القاهرة

اعلم أن القاهرة مذ أسـست عمل سورها ثلاث مرّات: الأولى: وضعه القائد جوهر، و المرّة الثانية: وضعه أمير الجيوش بدر الجمالىّ فى أيام الخليفة المستنصر، و المرّة الثالثة:

بناه الأمير الخصىّ بهاء الدين قراقوش الأسدىّ فى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أوّل ملوك القاهرة.

السور الأوّل: كان من لبن وضـعه جوهر القائد على مناخه الذى نزل به هو و عساكره حيث القاهرة الآن، فأداره على القصر و الجامع، و ذلك أنه لما سار من الجيزة بعد زوال الشـمس، من يوم الثلاثاء لسـبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة بعساكره، و قصد إلى مناخه الذى رسـمه له مولاه الإمام المعز لدين اللّه أبو تميم معدّ، و استقرّت به الدار اختط القصر، و أصبح المصريون يهنونه، فوجـدوه قـد حفر الأساس فى الليل، فأدار السور اللبن، و سـماها المنصورية إلى أن قدم المعز لدين اللّه من بلاد المغرب إلى مصـر، و نزل بها فسماها: القاهرة.

و يقال فى سـبب تسميتها: إن القائد جوهرا لما أراد بناءها أحضر المنجمين، و عرّفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند، و أمرهم باختيار طالع سـعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلـد عن نسـلهم أبـدا، فاختاروا طالعا لوضع الأساس، و طالعا لحفر السور، و جعلوا بـدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس، و قالوا للعمال: إذا تحرّكت الأجراس، فارموا ما بأيديكم من الطين و الحجـارة، فوقفوا ينتظرون الوقت الصالـح لـذلك، فـاتفق أنّ غرابـا وقع على حبـل من تلك الحبال التى فيها الأجراس، فتحرّكت كلها، فظن العمال أن المنجمين قد حرّكوها، فألقوا ما بأيديهم من الطين و الحجارة، و بنوا فصاح المنجمون: القاهرة فى الطالع فمضى ذلك، وفاتهم ما قصدوه.

و يقال: إنّ المرّيـخ كان فى الطالع عنـد ابتـداء وضع الأساس، و هو قاهر الفلك، فسـموها: القاهرة، و اقتضـى نظرهم أنها لا تزال تحت القهر، و أدخـل فى دائر هـذه السور بئر العظام، و جعل القاهرة حارات للواصـلين صـحبته، و صـحبة مولاه المعز، و عمّر القصـر بترتيب ألقاه إليه المعز.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۴

و يقـال: إنّ المعز لمـا رأى القاهرة لم يعجبه مكانها، و قال الجوهر: لما فاتك عمارة القاهرة بالساحل، كان ينبغى عمارتها بهـذا الجبل يعنى سـطح الجرف الـذى يعرف اليوم بالرصـد المشـرف على جـامع راشـدة، و رتب فى القصـر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء بحيث لا تراهم الأعين فى النقلـة من مكان إلى مكان، و جعل فى ساحاته البحرة و الميدان، و البسـتان و تقدّم بعمارة المصـلى بظاهر القاهرة، و قـد أدركت من هـذا السور اللبن قطعا، و آخر ما رأيت منه قطعـة كبيرة كانت فيما بين باب البرقيـة، و درب بطوط هدمها شـخص من الناس فى سنة ثلاث و ثمانمائة، فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه فى زمننا، حتى أنّ اللبنة تكون قدر ذراع فى ثلثى ذراع، و عرض جـدار السـور: عـدّة أذرع يسع أن يمر به فارسـان، و كـان بعيـدا عن السور الحجر الموجود الآـن، و بينهمـا نحو الخمسـين ذراعـا، و ما أحسب أنه بقى الآن من هذا السور اللبن شىء.

و جـوهر هـذا: مملوك رومىّ ربـاه المعز لـدين اللّه أبو تميم معـدّ، و كنـاه بـأبى الحسن، و عظم محله عنـده فى سـنة سـبع و أربعين و ثلثمائة، و صار فى رتبة الوزارة، فصـيره قائد جيوشه و بعثه فى صـفر منها، و معه عساكر كثيرة فيهم الأمير: زيرى بن مناد الصـنهاجى و

غيره من الأكابر، فسار إلى تاهرت و أوقع بعدّة أقوام، و افتتح مدنا و سار إلى فاس، فنازلها مدّة، و لم ينل منها شيئا، فرحل عنها إلى سجلماسة، و حارب ثائرا، فأسره بها، و انتهى فى مسيره إلى البحر المحيط، و اصطاد منه سمكا، و بعثه فى قلة ماء إلى مولاه المعز، و أعلمه أنه قد استولى على ما مرّ به من المدائن و الأمم، حتى انتهى إلى البحر المحيط، ثم عاد إلى فاس، فألح عليه بالقتال إلى أن أخذها عنوة، و أسر صاحبها، و حمله هو و الثائر بسجلماسة فى قفصين، مع هدية إلى المعز، و عاد فى أخريات السنة، و قد عظم شأنه و بعد صيته، ثم لما قوى عزم المعز على تسيير الجيوش لأخذ مصر، و تهيأ أمرها، فقدّم عليها القائد جوهرا، و برز إلى رمادة، و معه ما ينيف على مائة ألف فارس، و بين يديه أكثر من ألف صندوق من المال، و كان المعز يخرج إليه فى كل يوم و يخلو به، و أطلق يده فى بيوت أمواله، فأخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه، و خرج إليه يوما، فقام جوهر بين يديه، و قد اجتمع الجيش، فالتفت المعز إلى المشايخ الذين وجههم مع جوهر، و قال: و اللّه لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، و لتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، و لتنزلن فى خرابات ابن طولون، و تبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا، و أمر المعز بإفراغ الذهب فى هيئة الأرحية، و حملها مع جوهر على الجمال ظاهرة، و أمر أولاده و إخوانه الأمراء، و ولىّ العهد، و سائر أهل الدولة أن يمشوا فى خدمته، و هو راكب و كتب إلى سائر عماله يأمرهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۵

إذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة فى خدمته، فلما قدم برقة افتدى صاحبها من ترجله و مشيه فى ركابه بخمسين ألف دينار ذهبا، فأبى جوهر إلّا أن يمشى فى ركابه، و ردّ المال فمشى، و لمّا رحل من القيروان إلى مصر فى يوم السبت رابع عشر ربيع الأوّل سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة أنشد محمد بن هانىء، فى ذلك:

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمعو قد راعنى يوم من الحشر أروع

غداة كأن الأفق سدّ بمثلهفعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم أدر إذ ودّعت كيف أودعو لم أدر إذا شيّعت كيف أشيع

إلا أن هذا حشد من لم يذق لهغرار الكرى جفن و لا بات يهجع

إذا حلّ فى أرض بناها مدائناو إن سار عن أرض غدت و هى بلقع

تحلّ بيوت المال حيث محلهو جمّ العطايا و الرواق المرفع

و كبرت الفرسان للّه إذ بداو ظل السلاح المنتضى يتقعقع

و عب عباب الموكب الفخم حولهورق كما رق الصباح الملمع

رحلت إلى الفسطاط أوّل رحلةبأيمن فأل بالذى أنت تجمع

فإن يك فى مصر ظماء لموردفقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

و يمّمهم من لا يغار بنعمةفيسلبهم لكن يزيد فيوسع

و لما دخل إلى مصر و اختط القاهرة، و كتب بالبشارة إلى المعز قال ابن هانىء:

تقول بنو العباس قد فتحت مصرفقل لبنى العباس قد قضى الأمر

و قد جاوز الإسكندرية جوهرتصاحبه البشرى و يقدمه النصر

و لم يزل معظما مطاوعا، و له حكم ما فتح من بلاد الشام، حتى ورد المعز من المغرب إلى القاهرة، و كان جعفر بن فلاح يرى نفسه أجلّ من جوهر، فلما قدم معه إلى مصر سيره جوهر إلى بلاد الشام فى العساكر، فأخذ الرملة، و غلب الحسن بن عبد اللّه بن طفج، و سار فملك طبرية و دمشق.

فلما صارت الشام له شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر، فأنفذ كتبه من دمشق إلى المعز، و هو بالمغرب سرّا من جوهر يذكر فيها طاعته،

و يقع فى جوهر، و يصف ما فتح اللّه للمعز على يده، فغضب المعز لذلك، و ردّ كتبه كما هى مختومة، و كتب إليه: قد أخطأت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۶

الرأى لنفسك، نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر، فاكتب إليه فما وصل منك إلينا على يده قرأناه، و لا تتجاوزه بعد، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذى أردته، و إن كنت أهله عندنا، و لكنا لا نستفسد جوهرا مع طاعته لنا، فزاد غضب جعفر بن فلاح، و انكشف ذلك لجوهر، فلم يبعث ابن فلاح لجوهر يسأله نجدة خوفا أن لا ينجده بعسكر، و أقام مكانه لا يكاتب جوهرا بشىء من أمره إلى أن قدم عليه الحسن بن أحمد القرمطىّ، و كان من أمره ما قد ذكر فى موضعه.

و لما مات المعز و استخلف من بعده ابنه العزيز، و ورد إلى دمشق: هفتكين الشرابىّ من بغداد، ندب العزيز باللّه جوهرا القائد إلى الشام، فخرج إليها بخزائن السلاح، و الأموال و العساكر العظيمة، فنزل على دمشق لثمان بقين من ذى القعدة سنة خمس و ستين و ثلثمائة، فأقام عليها، و هو يحارب أهلها إلى أن قدم الحسن بن أحمد القرمطىّ من الإحساء إلى الشام، فرحل جوهر فى ثالث جمادى الأولى سنة ست و ستين، فنزل على الرملة و القرمطىّ فى إثره فهلك، و قام من بعده جعفر القرمطىّ، فحارب جوهرا، و اشتدّ الأمر على جوهر، و سار إلى عسقلان، و حصره هفتكين بها حتى بلغ من الجهد مبلغا عظيما، فصالح هفتكين، و خرج من عسقلان إلى مصر بعد أن أقام بها، و بظاهر الرملة نحوا من سبعة عشر شهرا، فقدم على العزيز، و هو يريد الخروج إلى الشام.

فلما ظفر العزيز بهفتكين، و اصطنعه فى سنة ثمانين و ثلثمائة، و اصطنع منجوتكين التركىّ أيضا، أخرجه راكبا من القصر وحده فى سنة إحدى و ثمانين، و القائد جوهر و ابن عمار، و من دونهما من أهل الدولة مشاة فى ركابه، و كانت يد جوهر فى يد ابن عمار، فزفر ابن عمار زفرة كاد أن ينشق لها، و قال: لا حول و لا قوّ إلا باللّه، فنزع جوهر يده منه، و قال: قد كنت عندى يا أبا محمد أثبت من هذا، فظهر منك إنكار فى هذا المقام، لأحدّثنك حديثا عسى يسليك عما أنت فيه، و اللّه ما وقف على هذا الحديث أحد غيرى.

لما خرجت إلى مصر و أنفذت إلى مولانا المعز من أسرته، ثم حصل فى يدى آخرون اعتقلتهم، و هم نيف على ثلثمائة أسير من مذكوريهم و المعروفين فيهم، فلما ورد مولانا المعز إلى مصر أعلمته بهم، فقال: أعرضهم علىّ، و اذكر فى كل واحد حاله، ففعلت، و كان فى يده كتاب مجلد يقرأ فيه، فجعلت آخذ الرجل من يد الصقالبة، و أقدّمه إليه، و أقول: هذا فلان، و من حاله و حاله، فيرفع رأسه، و ينظر إليه، و يقول: يجوز و يعود إلى قراءة ما فى الكتاب حتى أحضرت له الجماعة، و كان آخرهم غلاما تركيا، فنظر إليه و تأمّله، و لما ولى أتبعه بصره، فلما لم يبق أحد قبلت الأرض، و قلت: يا مولانا رأيتك فعلت لما رأيت هذا التركىّ ما لم تفعله مع من تقدّمه، فقال: يا جوهر يكون عندك مكتوما حتى ترى أنه يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تنفق له فتوحات عظيمة فى بلاد كثيرة، و يرزقه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۷

اللّه على يده ما لم يرزقه أحد منا مع غيره، و أنا أظنّ أنه ذاك الذى قال لى مولانا المعز، و لا علينا إذا فتح اللّه لموالينا على أيدينا أو على يد من كان، يا أبا محمد، لكل زمان دولة و رجال، أ نريد نحن أن نأخذ دولتنا و دولة غيرنا، لقد أرجل لى مولانا المعز لما سرت إلى مصر أولاده و إخوته، و ولىّ عهده، و سائر أهل دولته، فتعجب الناس من ذلك، و ها أنا اليوم أمشى راجلا بين يدى منجوتكين، أعزونا و أعزوا بنا غيرنا، و بعد هذا، فأقول: اللهم قرّب أجلى و مدّتى فقد أنفت على الثمانين، أو أنا فيها، فمات فى تلك السنة، و ذلك أنه اعتلّ، فركب إليه العزيز باللّه عائدا أو حمل إليه قبل ركوبه خمسة آلاف دينار و مرتبة مثقل، و بعث إليه الأمير منصور بن العزيز باللّه خمسة آلاف دينار، توفى يوم الاثنين لسبع بقين من ذى القعدة سنة إحدى و ثمانين و ثلثمائة، فبعث إليه العزيز بالحنوط و الكفن، و أرسل إليه الأمير منصور بن العزيز أيضا الكفن، و أرسلت إليه السيدة العزيزية الكفن، فكفن فى سبعين ثوبا ما بين مثقل و وشى مذهب، و صلى عليه العزيز باللّه، و خلع على ابنه الحسين، و حمله و جعله فى مرتبة أبيه، و لقبه بالقائد ابن القائد، و مكنه من جميع ما خلفه أبوه، و كان جوهر عاقلا محسنا إلى الناس كاتبا بليغا، فمن مستحسن توقيعاته على قصة رفعت إليه بمصر:

سوء الاجترام، أوقع بكم حلول الانتقام، و كفر الإنعام أخرجكم من حفظ الذمام، فالواجب فيكم ترك الإيجاب، و اللازم لكم ملازمة الاحتساب، لأنكم بدأتم فأسأتم، وعدتم فتعدّيتم، فابتداؤكم ملوم، و عودكم مذموم، و ليس بينهما فرجة إلا تقتضى الذم لكم و الإعراض عنكم ليرى أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه رأيه فيكم، و لما مات رثاه كثير من الشعراء.

السور الثانى: بناه أمير الجيوش بدر الجمالىّ فى سنة ثمانين و أربعمائة، و زاد فيه الزيادات التى فيما بين بابى زويلة، و باب زويلة الكبير، و فيما بين باب الفتوح الذى عند حارة بهاء الدين، و باب الفتوح الآن، و زاد عند باب النصر أيضا جميع الرحبة التى تجاه جامع الحاكم الآن إلى باب النصر، و جعل السور من لبن، و أقام الأبواب من حجارة، و فى نصف جمادى الآخرة سنة ثمانى عشرة و ثمانمائة ابتدئ بهدم السور الحجر، فيما بين باب زويلة الكبير، و باب الفرج عندما هدم الملك المؤيد شيخ الدور ليبنى جامعه، فوجد عرض السور فى الأماكن نحو العشرة أذرع.

السور الثالث: ابتدأ فى عمارته السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ست و ستين و خمسمائة، و هو يومئذ على وزارة العاضد لدين اللّه، فلما كانت سنة تسع و ستين، و قد استولى على المملكة، انتدب لعمل السور الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى، فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن، و قصد أن يجعل على القاهرة و مصر و القلعة سورا واحدا، فزاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب القنطرة إلى باب الشعرية، و من باب الشعرية إلى باب البحر، و بنى قلعة المقس، و هى برج كبير، و جعله على النيل بجانب جامع المقس، و انقطع السور من هناك، و كان فى أمله مدّ السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر، و زاد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۸

فى سور القاهرة قطعة مما يلى باب النصر ممتدّة إلى باب البرقية، و إلى درب بطوط، و إلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل، فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوّة تحت القلعة لموته، و إلى الآن آثار الجد و ظاهرة لمن تأمّلها فيما بين آخر السور إلى جهة القلعة، و كذلك لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مصر، و جاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة الآن تسعة و عشرين ألف ذراع و ثلثمائة ذراع و ذراعين بذراع العمل، و هو الذراع الهاشمىّ، من ذلك ما بين قلعة المقس على شاطىء النيل، و البرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع و خمسمائة ذراع، و من قلعة المقس إلى حائط قلعة الجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف و ثلثمائة و اثنان و تسعون ذراعا، و من جانب حائط قلعة الجبل من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف، و مائتا ذراع، و من وراء القلعة بحيال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف، و مائتان و عشرة أذرع، و ذلك طول قوسه فى أبراجه من النيل إلى النيل، و قلعة المقس المذكور كانت برجا مطلا على النيل فى شرقىّ جامع المقس، و لم تزل إلى أن هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عبد اللّه المقسىّ، عندما جدّد الجامع المذكور فى سنة سبعين و سبعمائة، و جعل فى مكان البرج المذكور جنينته، و ذكر أنه وجد فى البرج مالا، و أنه إنما جدّد الجامع منه، و العامّة تقول اليوم جام المقسىّ بالإضافة و كان يحيط بسور القاهرة خندق شرع فى حفره من باب الفتوح إلى المقس فى المحرّم سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة، و كان أيضا من الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية، و ما بعده، و شاهدت آثار الخندق باقية، و من ورائه سور بأبراج له عرض كبير مبنىّ بالحجارة، إلّا أنّ الخندق انطمّ، و تهدّمت الأسوار التى كانت من ورائه، و هذا السور هو الذى ذكره القاضى الفاضل فى كتابه إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فقال: و اللّه يحيى المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه، و يمتدّ عليهما رواقه، فما عقيلة ما كان معصمها ليترك بغير سوار، و لا خصرها ليتحلى بغير منطقة تضار، و الآن قد استقرّت خواطر الناس، و أمنوا به من يد تتخطف، و من يد مجرم يقدم، و لا يتوقف.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۳۹

ذكر أبواب القاهرة

اشارة

و كان للقاهرة من جهتها القبليـة: بابان متلاصـقان يقال لهما: باب زويلة، و من جهتها البحرية: بابان متباعدان، أحدهما: باب الفتوح، و الآخر: باب النصـر، و من جهتها الشرقية: ثلاثة أبواب متفرقة: أحدها: يعرف الآن بباب البرقية، و الآخر: بالباب الجديد، و الآخر: بالباب المحروق، و من جهتها الغربية ثلاثة أبواب: باب القنطرة، و باب الفرج، و باب سعادة، و باب آخر يعرف: باب الخوخة، و لم تكن هذه الأبواب على ما هى عليه الآن، و لا فى مكانها عندما وضعها جوهر.

باب زويلة

كان باب زويلة عنـدما وضع القائـد جوهر القاهرة بابين متلاصـقين بجوار المسـجد المعروف اليوم: بسام ابن نوح، فلما قدم المعز إلى القـاهرة دخـل من أحـدهما، و هو الملاـصق للمسـجد الـذى بقى منه إلى اليوم عقـد، و يعرف بباب القوس، فتيامن الناس به، و صاروا يكثرون الـدخول و الخروج منه، و هجروا الباب المجاور له، حتى جرى على الألسـنة أن من مرّ به لا تقضـى له حاجـة، و قـد زال هـذا الباب، و لم يبق له أثر اليوم إلّا أنه يفضى إلى الموضع الذى يعرف اليوم: بالحجارين، حيث تباع آلات الطرب من الطنابير، و العيدان و نحوهما، و إلى الآن مشهور بين الناس أن من يسلك من هناك لا تقضى له حاجة، و يقول بعضهم: من أجل أن هناك آلات المنكر، و أهـل البطالـة من المغنين و المغنيـات، و ليس الأمر كما زعم، فإنّ هـذا القول جار على ألسـنة أهل القاهرة من حين دخل المعز إليها قبل أن يكون هذا الموضع سوقا للمعازف، و موضعا لجلوس أهل المعاصى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۰

فلما كان فى سـنة خمس و ثمانين و أربعمائـة، بنى أمير الجيوش بدر الجمالىّ: وزير الخليفة المستنصـر بالله باب زويلة الكبير الذى هو بـاق إلى الآـن، و على أبراجه، و لم يعمـل له بـاشورة، كمـا هى عادة أبواب الحصون من أن يكون فى كل باب عطف، حتى لا تهجم عليه العساكر فى وقت الحصار، و يتعـذر سوق الخيل، و دخولها جملـة لكنه عمل فى بابه زلاقـة كبيرة من حجارة صوّان عظيمة بحيث إذا هجم عسـكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوّان، فلم تزل هذه الزلاقة باقية إلى أيام السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمـد ابن الملـك العـادل أبى بكر بن أيوب، فـاتفق مروره من هنـا لـك، فاختلّ فرسه، و زلق به، و أحسـبه سـقط عنه، فأمر بنقضـها، فنقضت، و بقى منهـا شـىء يسـير ظـاهر، فلمـا ابتنى الأمير جمال الـدين يوسف الإسـتادار المسـجد المقابل لباب زويلـة، و جعله باسـم الملك الناصـر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، ظهر عنـد حفرة الصـهريج الذى به بعض هذه الزلاقة، و أخرج منها حجارة من صوّان لا تعمل فيها العدّة الماضـية، و أشكالها فى غاية من الكبر لا يستطيع جرّها إلّا أربعة أرؤس بقر، فأخذ الأمير جمال الدين منها شيئا، و إلى الآن حجر منها ملقى تجاه قبو الخرنشف من القاهرة.

و يـذكر أن ثلاثـة إخوة قدموا من الرها بنائين بنوا: باب زويلة، و باب النصـر، و باب الفتوح، و كل واحد بنى بابا، و أن باب زويلة هذا بنى فى سنة أربع و ثمانين و أربعمائة، و أن باب الفتوح بنى فى سنة ثمانين و أربعمائة.

و قـد ذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة: أن باب زويلة هذا بناه العزيز بالله نزار بن المعز، و تممه أمير الجيوش، و أنشد لعلىّ بن محمد النيلى:

يا صاح لو أبصرت باب زويلةلعلمت قدر محله بنيانا

باب تأزر بالمجرّة و ارتدى الشعرى ولاث برأسه كيوانا

لو أنّ فرعونا بناه لم يردصرحا و لا أوصى به هامانا

ا ه. و سمعت غير واحد يذكر أنّ فردتيه يدوران فى سكرجتين من زجاج.

و ذكر جامع سـيرة الناصـر محمد بن قلاوون: أن فى سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة رتب أيدكين والى القاهرة فى أيام الملك الناصر

محمد بن قلاوون على باب زويلة خليلية تضرب كل ليلة بعد العصر.

و قد أخبرنى من طاف البلاد، و رأى مدن الشرق، أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظم باب زويلة، و لا يرى مثل بدنتيه اللتين عن جانبيه، و من تأمّل الأسطر التى قد كتبت على أعلاه من خارجه، فإنه يجد فيها اسم أمير الجيوش، و الخليفة المستنصر، و تاريخ بنائه، و قد كانت البدنتان أكبر مما هما الآن بكثير، هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ لما أنشأ الجامع داخل باب زويلة، و عمر على البدنتين منارتين، و لذلك خبر تجده

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۱

فى ذكر الجوامع، عند ذكر الجامع المؤيدى.

باب النصر

كان باب النصر أوّلا دون موضعه اليوم، و أدركت قطعة من أحد جانبيه، كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربىّ، بحيث تكون الرحبة التى فيما بين المدرسة القاصدية، و بين بابى جامع الحاكم القبليين خارج القاهرة، و لذلك تجد فى أخبار الجامع الحاكمىّ أنه وضع خارج القاهرة، فلما كان فى أيام المستنصر، و قدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالىّ من عكا، و تقلد وزارته، و عمر سور القاهرة، نقل باب النصر، من حيث وضعه القائد جوهر إلى حيث هو الآن، فصار قريبا من مصلى العيد، و جعل له باشورة أدركت بعضها إلى أن احتفرت أخت الملك الظاهر برقوق الصهريج السبيل تجاه باب النصر، فهدمته، و أقامت السبيل مكانه، و على باب النصر مكتوب بالكوفىّ فى أعلاه: لا إله إلّا اللّه محمد رسول اللّه علىّ ولىّ اللّه صلوات اللّه عليهما.

باب الفتوح

وضعه القائد جوهر دون موضعه الآن، و بقى منه إلى يومنا هذا عقده، و عضادته اليسرى، و عليه أسطر من الكتابة بالكوفىّ، و هو برأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمىّ، و أما الباب المعروف اليوم: بباب الفتوح، فإنه من وضع أمير الجيوش، و بين يديه باشورة، قد ركبها الآن الناس بالبنيان، لما عمر ما خرج عن باب الفتوح.

أمير الجيوش: أبو النجم بدر الجمالىّ كان مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار، فلذلك عرف: بالجمالىّ، و ما زال يأخذ بالجدّ من زمن سبيه فيما يباشره، و يوطن نفسه على قوّة العزم، و يتنقل فى الخدم، حتى ولى إمارة دمشق من قبل المستنصر فى يوم الأربعاء ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس و ستين و أربعمائة، ثم سار منها كالهارب فى ليلة الثلاثاء لأربع عشرة خلت من رجب سنة ست و خمسين، ثم وليها ثانيا يوم الأحد سادس شعبان سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۲

ثمان و خمسين، فبلغه قتل ولده شعبان بعسقلان، فخرج فى شهر رمضان سنة ستين و أربعمائة، فثار العسكر، و أخربوا قصره، و تقلد نيابة عكا، فلما كانت الشدّة بمصر من شدّة الغلاء، و كثرة الفتن، و الأحوال بالحضرة قد فسدت، و الأمور قد تغيرت، و طوائف العسكر قد شغبت، و الوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر و النهى، و الرخاء قد أيس منه، و الصلاح لا مطمع فيه، و لواته قد ملكت الريف، و الصعيد بأيدى العبيد، و الطرقات قد انقطعت برّا و بحرا إلّا بالخفارة الثقيلة، فلما قتل بلدكوش : ناصر الدولة حسين بن حمدان، كتب المستنصر إليه يستدعيه ليكون المتولى لتدبير دولته، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من العساكر، و لا يبقى أحدا من عسكر مصر، فأجابه المستنصر إلى ذلك، فاستخدم معه عسكرا، و ركب البحر من عكا فى أوّل كانون، و سار بمائة مركب بعد أن قيل له: إنّ العادة لم تجر بركوب البحر فى الشتاء لهيجانه، و خوف التلف، فأبى عليهم، و أقلع فتمادى الصحو، و السكون مع الريح الطيبة

مدّة أربعين يوما، حتى كثر التعجب من ذلك، و عدّ من سعادته، فوصل إلى تنيس و دمياط، و اقترض المال من تجارها و مياسيرها، و قام بأمر ضيافته، و ما يحتاج إليه من الغلال: سليمان اللواتيّ كبير أهل البحيرة، و سار إلى قليوب، فنزل بها و أرسل إلى المستنصر يقول: لا أدخل إلى مصر حتى تقبض على بلدكوش، و كان أحد الأمراء، و قد اشتدّ على المستنصر بعد قتل ابن حمدان، فبادر المستنصر، و قبض عليه، و اعتقله بخزانة البنود، فقدم بدر عشية الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة خمس و ستين و أربعمائة، فتهيأ له أن قبض على جميع أمراء الدولة، و ذلك أنه لما قدم لم يكن عند الأمراء علم من استدعائه، فما منهم إلّا من أضافه، و قدّم إليه، فلما انقضت نوبهم فى ضيافته استدعاهم إلى منزله فى دعوة صنعها لهم، و بيت مع أصحابه أن القوم إذا أجنهم الليل، فإنهم لا بدّ يحتاجون إلى الخلاء، فمن قام منهم إلى الخلاء يقتل هناك، و وكل بكل واحد واحدا من أصحابه، و أنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الأمير من دار و مال، و إقطاع و غيره، فصار الأمراء إليه و ظلوا نهارهم عنده، و باتوا مطمئنين، فما طلع ضوء النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور الأمراء، و صارت رؤوسهم بين يديه، فقويت شوكته، و عظم أمره، و خلع عليه المستنصر بالطيلسان المقوّر، و قلده وزارة السيف و القلم، فصارت القضاة و الدعاة، و سائر المستخدمين من تحت يده، و زيد فى ألقابه أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين، و هادى دعاة المؤمنين، و تتبع المفسدين، فلم يبق منهم أحدا حتى قتله، و قتل من أماثل المصريين، و قضاتهم و وزرائهم جماعة، ثم خرج إلى الوجه البحرىّ، فأسرف فى قتل من هنا لك من لواتة، و استصفى أموالهم، و أزاح المفسدين و أفناهم بأنواع القتل، و صار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۳

إلى البرّ الشرقىّ، فقتل منه كثيرا من المفسدين، و نزل إلى الإسكندرية، و قد ثار بها جماعة مع ابنه الأوحد، فحاصرها أياما من المحرّم سنة سبع و سبعين و أربعمائة، إلى أن أخذها عنوة، و قتل جماعة ممن كان بها، و عمر جامع العطارين من مال المصادرات، و فرغ من بنائه فى ربيع الأوّل سنة تسع و سبعين و أربعمائة، ثم سار إلى الصعيد، فحارب جهينة و الثعالبة، و أفنى أكثرهم بالقتل، و غنم من الأموال، ما لا يعرف قدره كثرة، فصلح به حال الإقليم بعد فساده، ثم جهز العساكر لمحاربة البلاد الشامية، فصارت إليها غير مرّة، و حاربت أهلها، و لم يظفر منها بطائل، و استناب ولده شاهنشاه، و جعله ولىّ عهده.

فلما كان فى سنة سبع و ثمانين و أربعمائة مات فى ربيع الآخر، و قيل: فى جمادى الأولى منها، و قد تحكم فى مصر تحكم الملوك، و لم يبق للمستنصر معه أمر، و استبدّ بالأمور، فضبطها أحسن ضبط، و كان شديد الهيبة، وافر الحرمة مخوف السطوة قتل من مصر خلائق لا يحصيها إلا خالقها، منها أنه قتل من أهل البحيرة نحو العشرين ألف إنسان إلى غير ذلك من أهل دمياط و الإسكندرية، و الغربية و الشرقية، و بلاد الصعيد و أسوان، و أهل القاهرة و مصر، إلّا أنه عمر البلاد، و أصلحها بعد فسادها و خرابها، بإتلاف المفسدين من أهلها، و كان له يوم مات نحو الثمانين سنة، و كانت له محاسن منها: أنه أباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين، حتى ترفهت أحوال الفلاحين، و استغنوا فى أيامه، و منها حضور التجار إلى مصر لكثرة عدله بعد انتزاحهم منها فى أيام الشدّة، و منها كثرة كرمه، و كانت مدّة أيامه بمصر إحدى و عشرين سنة، و هو أوّل وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر.

و من آثاره الباقية بالقاهرة: باب زويلة، و باب الفتوح، و باب النصر، و قام من بعده بالأمر ابنه شاهنشاه الملقب بالأفضل بن أمير الجيوش، و به و بابنه الأفضل أبهة الخلفاء الفاطمية بعد تلاشى أمرها، و عمرت الديار المصرية بعد خرابها، و اضمحلال أحوال أهلها، و أظنه هو الذى أخبر عنه المعز فيما تقدّم من حكاية جوهر عنه، فإنه لم يتفق ذلك لأحد من رجال دولتهم غيره، و اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون.

باب القنطرة

عرف بذلك لأنّ جوهر القائد بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليمشى عليها إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر

فى شوّال سنة ستين و ثلثمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۴

باب الشعرية

يعرف بطائفة من البربر يقال لهم: بنو الشعريه، هم و مزانة و زيارة و هوارة من أحلاف لواتة الذين نزلوا بالمنوفية.

باب سعادة

عرف بسعادة بن حيان، غلام المعز لدين اللّه، لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القائد جوهر القاهرة نزل بالجيزة، و خرج جوهر إلى لقائه، فلما عاين سعادة جوهرا ترجل و سار إلى القاهرة فى رجب سنة ستين و ثلثمائة، فدخل إليها من هذا الباب، فعرف به، و قيل له: باب سعادة، و وافى سعادة هذا القاهرة بجيش كبير معه، فلما كان فى شوّال سيره جوهر فى عسكر مجر عند ورود الخبر من دمشق بمجيء الحسين بن أحمد القرمطىّ المعروف:

بالأعصم، إلى الشام، و قتل جعفر بن فلاح، فسار سعادة يريد الرملة، فوجد القرمطىّ قد قصدها، فانحاز بمن معه إلى يافا، و رجع إلى مصر، ثم خرج إلى الرملة، فملكها فى سنة إحدى و ستين، فأقبل إليه القرمطىّ، ففرّ منه إلى القاهرة، و بها مات لخمس بقين من المحرّم سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة، و حضر جوهر جنازته، و صلى عليه الشريف أبو جعفر مسلم، و كان فيه برّ و إحسان.

الباب المحروق

كان يعرف قديما بباب القرّاطين، فلما زالت دولة بنى أيوب، و استقل بالملك: الملك المعز عز الدين أيبك التركمانىّ ، أوّل من ملك من المماليك بمملكة مصر فى سنة خمسين و ستمائة، كان حينئذ أكبر الأمراء البحرية مماليك، الملك الصالح نجم الدين أيوب، الفارس أقطاى الجمدار، و قد استفحل أمره، و كثرت أتباعه، و نافس المعز أيبك، و تزوّج بابنة الملك المظفر صاحب حماه، و بعث إلى المعز بأن ينزل من قلعة الجبل، و يخليها له، حتى يسكنها بامرأته المذكورة، فقلق المعز منه، و أهمّه شأنه، و أخذ يدبر عليه، فقرّر مع عدّة من مماليكه أن يقفوا بموضع من القلعة عينه لهم، و إذا جاء الفارس أقطاى فتكوا به، و أرسل إليه وقت القائلة يستدعيه ليشاوره فى أمر مهمّ، فركب فى قائلة يوم الاثنين حادى عشرى شعبان سنة اثنتين و خمسين و ستمائة فى نفر من مماليكه، و هو آمن مطمئن بما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۵

صار له فى الأنفس من الحرمة و المهابة، و بما يثق به من شجاعته، فلما صار بقلعة الجبل، و انتهى إلى قاعة العواميد عوّق من معه من المماليك عن الدخول معه، و وثب به المماليك الذين أعدّهم المعزّ، و تناولوه بالسيوف، فهلك لوقته، و غلقت أبواب القلعة، و انتشر الصوت بقتله فى البلد، فركب أصحابه و خشداشيته ، و هم نحو السبعمائة فارس إلى تحت القلعة، و فى ظنهم أنّ الفارس أقطاى لم يقتل، و إنما قبض عليه السلطان، و إنهم يقاتلونه حتى يطلقه لهم، فلم يشعروا إلّا برأس الفارس أقطاى، و قد ألقيت عليهم من القلعة، فانفضوا لوقتهم، و تواعدوا على الخروج من مصر إلى الشام، و أكابرهم يومئذ بيبرس البندقدارىّ، و قلاون الإلفىّ، و سنقر الأشقر، و بيسرى، و سكز، و برامق، فخرجوا فى الليل من بيوتهم بالقاهرة إلى جهة باب القرّاطين، و من العادة أن تغلق أبواب القاهرة بالليل، فألقوا النار فى الباب حتى سقط من الحريق، و خرجوا منه، فقيل له من ذلك الوقت: الباب المحروق و عرف به، و أما القوم فإنهم ساروا إلى الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب الشام، فقبلهم و أنعم عليهم، و أقطعهم إقطاعات، و استكثر بهم، و أصبح المعز، و

قد علم بخروجهم إلى الشام، فأوقع الحوطة على جميع أموالهم و نسائهم و أولادهم و عامّة تعلقاتهم، و سائر أسبابهم، و تتبعهم و نادى عليهم فى الأسواق بطلب البحرية، و تحذير العامّة من إخفائهم، فصار إليه من أموالهم ما ملأ عينه، و استمرّت البحرية فى الشام إلى أن قتل المعز أيبك، و خلع ابنه المنصور، و تسلطن الأمير قطز، فتراجعوا فى أيامه إلى مصر، و آلت أحوالهم إلى أن تسلطن منهم: بيبرس و قلاون، و للّه عاقبة الأمور.

باب البرقية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۶

ذكر قصور الخلفاء و مناظرهم و الإلماع بطرف من مآثرهم و ما صارت إليه أحوالها من بعدهم

اشارة

إعلم أنه كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة، و ظواهرها: قصور و مناظر، منها: القصر الكبير الشرقيّ الذى وضعه القائد جوهر عندما أناخ فى موضع القاهرة، و منها: القصر الصغير الغربيّ، و القصر اليافعيّ، و قصر الذهب، و قصر الأقيال، و قصر الظفر، و قصر الشجرة، و قصر الشوك، و قصر الزمرّذ، و قصر النسيم، و قصر الحريم، و قصر البحر، و هذه كلها قاعات، و مناظر من داخل سور القصر الكبير، و يقال لها: القصور الزاهرة، و يسمى مجموعها: القصر، و كان بجوار القصر الغربيّ: الميدان و البستان الكافوريّ، و كان لهم عدّة مناظر و آدر سلطانية غير هذه القصور، منها: دار الضيافة، و دار الوزارة، و دار الوزارة القديمة، و دار الضرب، و المنظرة بالجامع الأزهر، و المنظرة بجوار الجامع الأقمر، و منظرة اللؤلؤة على الخليج بظاهر القاهرة، و منظرة الغزالة، و دار الذهب، و منظرة المقس، و منظرة الدكة و البعل، و الخمس وجوه، و التاج و قبة الهواء، و البساتين الجيوشية، و البستان الكبير، و منظرة السكرة، و المنظرة ظاهر باب الفتوح، و دار الملك بمدينة مصر، و منازل العز بها، و منظرة الصناعة بالساحل، و منظرة بجوار جامع القرافة الكبرى المعروف اليوم: بجامع الأولياء و الأندلس بالقرافة، و المنظرة ببركة الحبش، و سأذكر من أخبار هذه الأماكن فى مدّة الدولة الفاطمية، و ما آل إليه حالها بحسب ما انتهى إلىّ علمه إن شاء اللّه تعالى.

القصر الكبير

اشارة

هذا القصر كان فى الجهة الشرقية من القاهرة، فلذلك يقال له: القصر الكبير الشرقيّ، و يسمى: القصر المعزى لأنّ المعز لدين اللّه أبا تميم معدّا هو الذى أمر عبده، و كاتبه جوهرا ببنائه، حين سيره من رمادة أحد بلاد إفريقية بالعساكر إلى مصر، و ألقى إليه ترتيبه، فوضعه على الترتيب الذى رسمه له، و يقال: إن جوهرا لما أسسه فى الليلة التى أناخ قبلها فى موضعه، و أصبح رأى فيه ازورارات غير معتدلة لم تعجبه، فقيل له فى تغييرها، فقال: قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۷

حفر فى ليلة مباركة، و ساعة سعيدة، فتركه على حاله.

و كان ابتداء وضعه مع وضع أساس سور القاهرة فى ليلة الأربعاء الثامن عشر من شعبان سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، و ركّب عليه بابان يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة تسع و خمسين، ثم إنه أدار عليه سورا محيطا به فى سنة ستين و ثلثمائة، و هذا القصر كان دار الخلافة، و به سكن الخلفاء إلى آخر أيامهم، فلما انقرضت الدولة على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن

أيوب، أخرج أهل القصر منه و أسكن فيه الأمراء، ثم خرب أوّلا فأوّلا.

و ذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة عن مرهف بوّاب باب الزهومة أنه قال: أعلم هذا الباب المدّة الطويلة، و ما رأيته دخل إليه حطب، و لا رمى منه تراب قال:

و هذا أحد أسباب خرابة، لوقود أخشابه، و تكوين ترابه، قال: و لما أخذه صلاح الدين، و أخرج من كان به كان فيه اثنا عشر ألف نسمة، ليس فيهم فحل إلا الخليفة، و أهله و أولاده، فأسكنهم دار المظفر بحارة برجوان ، و كانت تعرف: بدار الضيافة، قال: و وجد إلى جانب القصر بئر تعرف ببئر الصنم، كان الخلفاء يرمون فيها القتلى، فقيل: إنّ فيها مطلبا، و قصد تغويرها، فقيل: إنها معمورة بالجانّ، و قتل عمارها جماعة من أشياعه، فردمت و تركت، انتهى.

و كان صلاح الدين لما أزال الدولة أعطى هذا القصر الكبير لأمراء دولته، و أنزلهم فيه، فسكنوه و أعطى القصر الصغير الغربىّ لأخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب، فسكنه و فيه ولد له ابنه الكامل ناصر الدين محمّد، و كان قد أنزل والده نجم الدين أيوب بن شادى فى منظرة اللؤلؤة، و لما قبض على الأمير داود ابن الخليفة العاضد، و كان ولىّ عهد أبيه، و ينعت بالحامد للّه اعتقله و جميع إخوته، و هم: أبو الأمانة جبريل، و أبو الفتوح، و ابنه أبو القاسم، و سليمان بن داود بن العاضد، و عبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد، و إسماعيل بن العاضد، و جعفر بن أبى الطاهر بن جبريل، و عبد الظاهر بن أبى الفتوح بن جبريل بن الحافظ و جماعة، فلم يزالوا فى الاعتقال بدار المظفر و غيرها إلى أن انتقل الكامل محمد بن العادل من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل، فنقل معه ولد العاضد و إخوته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۸

و أولاد عمه، و اعتقلهم بها، و فيها مات داود بن العاضد، و لم يزل بقيتهم معتقلين بالقلعة، إلى أن استبدّ السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، فأمر فى سنة ستين بالإشهاد على كمال الدين إسماعيل بن العاضد، و عماد الدين أبى القاسم ابن الأمير أبى الفتوح بن العاضد، و بدر الدين عبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد أن جميع المواضع التى قبلىّ المدارس الصالحية من القصر الكبير، و الموضع المعروف بالتربة باطنا و ظاهرا بخط الخوخ السبع، و جميع الموضع المعروف بالقصر اليافعى بالخط المذكور، و جميع الموضع المعروف بالجباسة بالخط المذكور، و جميع الموضع المعروف بالجباسة بالخط المذكور، و جميع الموضع المعروف: بخزائن السلاح السلطانية، و ما هو بخطه، و جميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ الشيوخ و غيرهم من القصر الشارع بابه قبالة دار الحديث النبوىّ الكاملية، و جميع الموضع المعروف بالقصر الغربىّ، و جميع الموضع المعروف بدار القنطرة بخط المشهد الحسينىّ، و جميع الموضع المعروف بدار الضيافة بحارة برجوان، و جميع الموضع المعروف بدار الذهب بظاهر القاهرة، و جميع الموضع المعروف باللؤلؤة ، و جميع قصر الزمرّذ، و جميع البستان الكافورىّ، ملك لبيت المال بالنظر المولوىّ السلطانىّ الملكىّ الظاهرىّ من وجه صحيح شرعىّ، لا رجعة لهم فيه، و لا لواحد منهم فى ذلك، و لا فى شىء منه ولاء، و لا شبهة بسبب يد و لا ملك، و لا وجه من الوجوه كلها خلا ما فى ذلك من مسجد للّه تعالى أو مدفن لآبائهم، فأشهدوا عليهم بذلك، و ورخوا الإشهاد بالثالث عشر من جمادى الأولى سنة ستين و ستمائة، و أثبت على يد قاضى القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعىّ، و تقرّر مع المذكورين أنه مهما كان قبضوه من أثمان بعض الأماكن المذكورة التى عاقد عليها و كلاؤهم، و اتصلوا إليه يحاسبوا به من جملة ما تحرّر ثمنه عند وكيل بيت المال، و قبضت أيدى المذكورين عن التصرّف فى الأماكن المذكورة، و غيرها مما هو منسوب إلى آبائهم، و رسم ببيع ذلك، فباعه وكيل بيت المال كمال الدين ظافر شيئا بعد شىء، و نقضت تلك المبانى، و ابتنى فى مواضعها على غير تلك الصفة من المساكن و غيرها كما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و كان هذا القصر يشتمل على مواضع منها:

قاعة الذهب: و كان يقال لقاعة الذهب: قصر الذهب، و هو أحد قاعات القصر الذى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۴۹

هو قصر المعز لدين اللّه معدّ، و بنى قصر الذهب العزيز بالله نزار بن المعز، و كان يدخل إليه من باب الذهب الذى كان مقابلا للدار القطبية التى هى اليوم المارستان المنصورىّ، و يدخل إليه أيضا من باب البحر الذى هو الآن تجاه المدرسة الكاملية، و جدّد هذا القصر من بعد العزيز الخليفة المستنصر فى سنة ثمان و عشرين و أربعمائة، و بهذه القاعة كانت الخلفاء تجلس فى الموكب يوم الاثنين، و يوم الخميس، و بها كان يعمل سماط شهر رمضان للأمراء، و سماط العيدين، و بها كل سرير الملك.

هيئة جلوس الخليفة بمجلس الملك: قال الفقيه أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق فى كتاب سيرة المعز: و كان وصول المعز لدين اللّه إلى قصره بمصر فى يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر رمضان سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة، و لما وصل إلى قصره خرّ ساجدا، ثم صلى ركعتين و صلى بصلاته كل من دخل معه، و استقرّ فى قصره بأولاده و حشمه، و خواص عبيده، و القصر يومئذ يشتمل على ما فيه من عين، و ورق، و جوهر، و حلى، و فرش، و أوان، و ثياب و سلاح، و أسفاط و أعدال، و سروج و لجم، و بيت المال بحاله بما فيه، و فيه جميع ما يكون للملوك، و للنصف من رمضان جلس المعجز فى قصره على السرير الذهب الذى عمله عبده القائد جوهر فى الإيوان الجديد، و أذن بدخول الأشراف أوّلا، ثم أذن بعدهم للأولياء، و لسائر وجوه الناس، و كان القائد جوهر قائما بين يديه يقدّم الناس قوما بعد قوم، ثم مضى القائد جوهر، و أقبل بهديته التى عباها ظاهرة يراها الناس، و هى:

من الخيل مائة و خمسون فرسا مسرجة ملجمة منها مذهب، و منها مرصع، و منها معنبر، و إحدى و ثلاثون قبة على نوق بخاتى بالديباج، و المناطق و الفرش منها تسعة بديباج مثقل، و تسع نوق مجنوبة مزينة بمثقل، و ثلاثة و ثلاثون بغلا منها سبعة مسرجة ملجمة، و مائة و ثلاثون بغلا للنقل، و تسعون نجيبا، و أربعة صناديق مشبكة، يرى ما فيها، و فيها أوانى الذهب و الفضة، و مائة سيف محلى بالذهب و الفضة، و درجان من فضة مخرقة فيها جوهر، و شاشية مرصعة فى غلاف و تسعمائة ما بين سفط و تخت فيها سائر ما أعدّ له من ذخائر مصر.

و فى يوم عرفة نصب المعز الشمسية التى عملها للكعبة على إيوان قصره، وسعتها:

اثنا عشر شبرا فى اثنى عشر شبرا، و أرضها ديباج أحمر، و دورها اثنا عشر هلال ذهب، فى كل هلال أترجة ذهب مسبك، جوف كل أترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام، و فيها الياقوت الأحمر، و الأصفر، و الأزرق، و فى دورها كتابة آيات الحج بزمرّذ أخضر قد فسر، و حشو الكتابة در كبير لم ير مثله، و حشو الشمسية: المسك المسحوق يراها الناس فى القصر، و من خارج القصر لعلوّ موضعها، و إنما نصبها عدّة فرّاشين، و جرّوها لثقل وزنها.

و قال فى كتاب الذخائر و التحف: و ما كان بالقصر من ذلك إن وزن ما استعمل من الذهب الإبريز الخالص فى سرير الملك الكبير، مائة ألف مثقال و عشرة آلاف مثقال و وزن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵۰

ما حلى به الستر الذى أنشأه سيد الوزراء أبو محمد البازورى من الذهب أيضا ثلاثون ألف مثقال، و إنه رصع بألف و خمسمائة و ستين قطعة جوهر من سائر ألوانه، و ذكر أن فى الشمسية الكبيرة ثلاثين ألف مثقال ذهبا، و عشرين ألف درهم مخرّقة، و ثلاثة آلاف و ستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه و أنواعه، و أن فى الشمسية التى لم تتمّ من الذهب سبعة عشر ألف مثقال.

و قال المرتضى أبو محمد عبد السلام بن محمد بن الحسن بن عبد السلام بن الطوير الفهرىّ القيسرانىّ: الكاتب المصرىّ فى كتاب نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين الفاطمية و الصلاحية، الفصل العاشر فى ذكر هيئتهم فى الجلوس العام بمجلس الملك، و لا يتعدّى ذلك يومى الاثنين و الخميس، و من كان أقرب الناس إليهم، و لهم خدم لا- تخرج عنهم، و ينتظر لجلوس الخليفة أحد اليومين المذكورين، و ليس على التوالى بل على التفاريق، فإذا تهيأ ذلك فى يوم من هذه الأيام استدعى الوزير من داره صاحب الرسالة على الرسم المعتاد فى سرعة الحركة، فيركب فى أبهته، و جماعته على الترتيب المقدّم ذكره يعنى فى ذكر الركوب أوّل العام، و سيأتى إن شاء اللّه تعالى فى موضعه من هذا الكتاب، فيسير من مكان ترجله عن دابته بدهليز العمود إلى مقطع الوزارة، و بين يديه أجلاء أهل

الإمارة، كل ذلك بقاعة الذهب التى كان يسكنها السلطان بالقصر، و كان الجلوس قبل ذلك بالإيوان الكبير الذى هو خزائن السلاح فى صدره على سير الملك، و هو باق فى مكانه إلى الآن من هذا المكان إلى آخر أيام المستعلى، ثم إنّ الآمر نقل الجلوس فى هذا المكان، و اسمه مكتوب بأعلى باذهنجه إلى اليوم، و يكون المجلس المذكور معلقا فيه ستور الديباج شتاء، و الدبيقىّ صيفا، و فرش الشتاء بسط الحرير عوضا عن الصوف مطابقا لستور الديباج، و فرش الصيف مطابقا لستور الديبقىّ، ما بين طبرى و طبرستانى مذهب معدوم المثل، و فى صدره:

المرتبة المؤهلة لجلوسه فى هيئة جليلة على سرير الملك المغشى بالقرقوبىّ، فيكون وجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه، فإذا تهيأ الجلوس استدعى الوزير من المقطع إلى باب المجلس المذكور، و هو مغلق و عليه ستر، فيقف بحذائه، و عن يمينه زمام القصر، و عن يساره زمام بيت المال، فإذا انتصب الخليفة على المرتبة وضع أمين الملك مفلح أحد الأستاذين المحنكين الخواص الدواة مكانها من المرتبة، و خرج من المقطع الذى يقال له فردا لكم، فإذا الوزير واقف أمام باب المجلس، و حواليه الأمراء المطوّقون أرباب الخدم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵۱

الجليلة، و غيرهم، و فى خلالهم قرّاء الحضرة، فيشير صاحب المجلس إلى الأستاذين، فيرفع كل منهم جانب الستر، فيظهر الخليفة جالسا بمنصبه المذكور، فتستفتح القرّاء بقراءة القرآن الكريم، و يسلم الوزير بعد دخوله إليه، فيقبل يديه و رجليه، و يتأخر مقدار ثلاثة أذرع، و هو قائم قدر ساعة زمانية، ثم يؤمر بأن يجلس على الجانب الأيمن، و تطرح له مخدّة تشريفا، و يقف الأمراء فى أماكنهم المقرّرة، فصاحب الباب، و اسفهسلار العساكر من جانبى الباب يمينا و يسارا، و يليهم من خارجه لاصقا بعتبته زمام الآمرية و الحافظية كذلك، ثم يرتبهم على مقاديرهم، فكل واحد لا يتعدّى مكانه هكذا إلى آخر الرواق، و هو الإفريز العالى عن أرض القاعة، و يعلوه الساباط على عقود القناطر التى على العهد هناك، ثم أرباب القصب و العماريات يمنة و يسرة كذلك، ثم الأماثل، و الأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة، و يقف مستندا للصدر الذى يقابل باب المجلس: بوّاب الباب، و الحجاب، و لصاحب الباب فى ذلك المحل الدخول و الخروج، و هو الموصل عن كل قائل ما يقول، فإذا انتظم ذلك النظام، و استقرّ بهم المقام، فأوّل ماثل للخدمة بالسلام: قاضى القضاة، و الشهود المعروفون بالاستخدام، فيجيز صاحب الباب القاضى دون من معه، فيسلم متأدّبا، و يقف قريبا، و معنى الأدب فى السلام، أنه يرفع يده اليمنى، و يشير بالمسبحة، و يقول بصوت مسموع: السلام على أمير المؤمنين، و رحمة اللّه و بركاته، فيتخصص بهذا الكلام دون غيره من أهل السلام، ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامهم، و هو من الأستاذين المحنكين، و بالأشراف الطالبيين نقيبهم، و هو من الشهود المعدّلين، و تارة يكون من الأشراف المميّزين، فيمضى عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاث، و يخص بالسلام فى ذلك الوقت خلع عليه: لقوص، أو الشرقية أو الغربية أو الإسكندرية، فيشرّفون بتقبيل القبة، فإن دعت حاجة الوزير إلى مخاطبة الخليفة فى أمر قام من مكانه، و قرب منه منحنيا على سيفه، فيخاطبه مرّة أو مرّتين، ثم يؤمر الحاضرون، فيخرجون حتى يكون آخر من يخرج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة و رجله، و يخرج فيركب على عادته إلى داره، و هو مخدوم بأولئك، ثم يرخى الستر، و يغلق باب المجلس إلى يوم مثله، فيكون الحال كما ذكر، و يدخل الخليفة إلى مكانه المستقرّ فيه، و معه خواص أستاذيه، و كان أقرب الناس إلى الخلفاء: الأستاذون المحنكون، و هم أصحاب الأنس لهم، و لهم من الخدم ما لا يتطرّق إليه سواهم، و منهم زمام القصر، و شاد التاج الشريف، و صاحب بيت المال، و صاحب الدفتر، و صاحب الرسالة، و زمام الأشراف الأقارب، و صاحب المجلس، و هم المطلعون على أسرار الخليفة، و كانت لهم طريقة محمودة فى بعضهم بعضا، منها: أنه متى ترشح أستاذ للتحنيك، و حنك: حمل إليه كل واحد من المحنكين بدلة من ثياب، و منديلا و فرشا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵۲

و سيفا، فيصبح لاحقا بهم، و فى يديه مثل ما فى أيديهم، و كان لا يركب أحد فى القصر إلا الخليفة، و لا ينصرف ليلا و نهارا إلا

كذلك، و له فى الليل شدّادات من النساء يخدمن البغلات و الحمير الإناث للجواز فى السراديب القصيرة الأقباء، و الطلوع على الزلاقات إلى أعالى المناظر و الأماكن، و فى كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق فى الليل.

كيفية سماط شهر رمضان بهذه القاعة

اشارة

قال ابن الطوير: فإذا كان اليوم الرابع من شهر رمضان، رتب عمل السماط كل ليلة بالقاعة بالقصر إلى السادس و العشرين منه، و يستدعى له: قاضى القضاة ليالى الجمع توقيرا له، فأما الأمراء، ففى كل ليلة منهم قوم بالنوبة، و لا يحرمونهم الإفطار مع أولادهم، و أهاليهم، و يكون حضورهم بمسطور يخرج إلى صاحب الباب، و أسفهسلاره، فيعرف صاحب كل نوبة ليلته، فلا يتأخر و يحضر الوزير، فيجلس صدره، فإن تأخر كان ولده أو أخوه، و إن لم يحضر أحد من قبله كان صاحب الباب، و يهتم فيه اهتماما عظيما تاما بحيث لا يفوته شىء من أصناف المأكولات الفائقة، و الأغذية الرائقة، و هو مبسوط فى طول القاعة، مادّ من الرواق إلى ثلثى القاعة المذكورة، و الفرّاشون قيام لخدمة الحاضرين، و حواشى الأستاذين يحضرون الماء المبخر فى كيزان الخزف برسم الحاضرين، و يكون انفصالهم العشاء الآخرة، فيعمهم ذلك، و يصل منه شىء إلى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض، و يأخذ الرجل الواحد ما يكفى جماعة، فإذا حضر الوزير أخرج إليه مما هو بحضرة الخليفة، و كانت يده فيه تشريفا له، و تطييبا لنفسه، و ربما حمل لسحوره من خاص ما يعين لسحور الخليفة نصيب وافر، ثم يتفرّق الناس إلى أماكنهم بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين، قال: و مبلغما ينفق فى شهر رمضان لسماطه مدّة سبعة و عشرين يوما ثلاثة آلاف دينار.

عمل سماط عيد الفطر بهذه القاعة

قال الأمير المختار عز الملك بن عبيد اللّه بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز المسبحىّ فى تاريخه الكبير: و فى آخر يوم منه يعنى شهر رمضان سنة ثمانين و ثلثمائة، حمل يانس الصقلبى صاحب الشرطة السفلى السماط، و قصور السكر و التماثيل، و أطباقا فيها تماثيل حلوى، و حمل أيضا علىّ بن سعد المحتسب القصور و تماثيل السكر.

و قال ابن الطوير: فأما الأسمطة الباطنة التى يحضرها الخليفة بنفسه، ففى يوم عيد الفطر: اثنان، و يوم عيد النحر: واحد، فأما الأوّل من عيد الفطر، فإنه يعين فى الليل بالإيوان قدّام الشباك الذى يجلس فيه الخليفة، فيمدّ ما مقداره ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة

أذرع من الخشكنان، و الفانيذ، و البسندود المقدّم ذكر عمله بدار الفطرة، فإذا صلى الفجر فى أوّل الوقت حضر إليه الوزير، و هو جالس فى الشباك، و مكن الناس من ذلك الممدود، فأخذ و حمل و نهب، فيأخذه من يأكله فى يومه، و من يدّخره لغده، و من لا حاجة له به، فيبيعه و يتسلط عليه أيضا حواشى القصر المقيمون هناك، فإذا فرغ من ذلك، و قد بزغت الشمس ركب من باب الملك بالإيوان، و خرج من باب العيد إلى المصلى، و الوزير معه كما وصفنا فى هيئة ركوب هذا العيد فى فصله مخليا لقاعة الذهب لسماط الطعام، فينصب له سرير الملك قدّام باب المجلس فى الرواق، و ينصب فيه مائدة من فضة، و يقال لها:

المدوّرة، و عليها أوانى الفضيات و الذهبيات، و الصينى الحاوية للأطعمة الخاص الفائحة الطيب الشهية من غير خضراوات، سوى الدجاج الفائق المسمن المعمول بالأمزجة الطيبة النافعة، ثم ينصب السماط أمام السرير إلى باب المجلس قبالته، و يعرف بالمحول

طول القاعة، و هو اليوم الباب الذى يدخل منه إليها من باب البحر الذى هو باب القصر اليوم، و السماط خشب مدهون شبه الدكك اللاطية، فيصير من جمعه للأوانى سماطا عاليا فى ذلك الطول، و بعرض عشرة أذرع، فيفرش فوق ذلك الأزهار، و يرص الخبز على حافتيه سواميذ كل واحد ثلاثة أرطال من نقيّ الدقيق، و يدهن وجهها عند خبزها بالماء، فيحصل لها بريق، و يحسن منظرها، و يعمر داخل ذلك السماط على طوله بأحد و عشرين طبقا فى كل طبق أحد و عشرون ثنيا سمينا مشويا، و فى كل من الدجاج و الفراريج و فراخ الحمام ثلثمائة و خمسون طائرا، فيبقى طائلا- مستطيلا، فيكون كقامة الرجل الطويل، و يسوّر بشرائح الحلواء اليابسة، و يزين بألوانها المصبغة، ثم يسدّ خلل تلك الأطباق بالصحون الخزفية التى فى كل واحد منها سبع دجاجات، و هى مترعة بالألوان الفائقة من الحلواء المائعة و الطباهجة المشققة، و الطيب غالب على ذلك كله، فلا يبعد أن تناهز عدّة الصحون المذكورة خمسمائة صحن، و يرتب ذلك أحسن ترتيب من نصف الليل بالقاعة إلى حين عود الخليفة من المصلى، و الوزير معه، فإذا دخل القاعة، وقف الوزير على باب دخول الخليفة، لينزع عنه الثياب العيدية التى فى عمامتها السمة، و يلبس سواها من خزائن الكسوات الخاصة التى قدّمنا ذكرها، و قد عمل بدار الفطرة، قصران من حلى فى كلواحد سبعة عشر قنطارا، و حملا، فمنهما واحد يمضى به من طريق قصر الشوك إلى باب الذهب، و الآخر يشق به بين القصرين يحملهما العتالون، فينصبان أوّل السماط و آخره، و هما شكل مليح مدهونان بأوراق الذهب، و فيهما شخوص ناتئة كأنها مسبوكة فى قوالب لوحا لوحا، فإذا عبر الخليفة راكبا، و نزل على السرير الذى عليه المدوّرة الفضة، و جلس قام على رأسه أربعة من كبار الأستاذين المحنكين، و أربعة من خواص الفرّاشين، ثم يستدعى الوزير، فيطلع إليه و يجلس عن يمينه، و يستدعى الأمراء المطوّقين، و من يليهم من الأمراء دونهم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵۴

فيجلسون على السماط كقيامهم بين يديه، فيأكل من أراد من غير إلزام، فإنّ فى الحاضرين من لا يعتقد الفطر فى ذلك اليوم، فيستولى على ذلك المعمول الآكلون، و ينقل إلى دار أرباب الرسوم، و يباح فلا يبقى منه إلا السماط فقط، فيعم أهل القاهرة و مصر من ذلك نصيب وافر، فإذا انقضى ذلك عند صلاة الظهر، انفض الناس، و خرج الوزير إلى داره مخدوما بالجماعة الحاضرين، و قد عمل سماطا لأهله و حواشيه، و من يعز عليه لا يلحق بأيسر يسير من سماط الخليفة، و على هذا العمل يكون سماط عيد النحر أوّل يوم منه، و ركوبه إلى المصلى، كما ذكرنا، و لا- يخرج عن هذا المنوال و لا ينقص عن هذا المثال، و يكون الناس كلهم مفطرين، و لا يفوت أحدا منهم شيء، كما ذكرنا فى عيد الفطر.

قال: و مبلغ ما ينفق فى سماطى الفطر، و الأضحى أربعة آلاف دينار، و كان يجلس على أسمطة الأعياد فى كل سنة رجلان من الأجناد يقال لأحدهما: ابن فائز، و الآخر الديلمىّ يأكل كل واحد منهما خروفا مشويا، و عشر دجاجات محلاة، و جام حلوى عشرة أرطال، و لهما رسوم تحمل إليهما بعد ذلك من الأسمطة لبيوتهما و دنانير وافرة على حكم الهبة، و كان أحدهما أسر بعسقلان فى تجريدة جرّد إليها، و أقام مدّة فى الأسر فاتفق أنه كان عندهم عجل سمين فيه عدّة قناطير لحم، فقال له الذى أسره و هو يداعبه: إن أكلت هذا العجل أعتقتك، ثم ذبحه، و سوّى لحمه، و أطعمه حتى أتى على جميعه، فوفى له و أعتقه، فقدم على أهله بالقاهرة، و رأيته يأكل على السماط.

الإيوان الكبير

قال القاضى الرئيس محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر الروحى الكاتب فى كتاب الروضة البهية الزهراء فى خطط المعزية القاهرة، الإيوان الكبير بناه العزيز بالله أبو منصور نزار بن المعز لدين اللّه معدّ فى سنة تسع و ستين و ثلثمائة، انتهى.

و كان الخلفاء أولا يجلسون به فى يومى الاثنين و الخميس إلى أن نقل الخليفة الآمر بأحكام اللّه الجلوس منه فى اليومين المذكورين إلى قاعة الذهب كما تقدّم، و بصدر هذا الإيوان كان الشباك الذى يجلس فيه الخليفة، و كان يعلو هذا الشباك قبة، و فى هذا

الإيوان، كان يمدّ سماط الفطرة بكرة يوم عيد الفطر كما تقدّم به، و به أيضا كان يعمل الاجتماع، و الخطبة فى يوم عيد الغدير، و كان بجانب هذا الإيوان الدواوين، و كان بهذا الإيوان ضلعا سمكة إذا أقيما واريا الفارس بفرسه، و لم يزالا حتى بعثهما السلطان صلاح الدين يوسف إلى بغداد فى هدية.

عيد الغدير : إعلم أن عيد الغدير لم يكن عيدا مشروعا، و لا عمله أحد من سالف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵۵

الأمّة المقتدى بهم، و أوّل ما عرف فى الإسلام بالعراق أيام معز الدولة علىّ بن بويه، فإنه أحدثه فى سنة اثنتين و خمسين و ثلثمائة، فاتخذه الشيعة من حينئذ عيدا، و أصلهم فيه، ما خرّجه الإمام أحمد فى مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب رضى اللّه عنه قال: كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى سفر لنا، فنزلنا بغدير خم، و نودى الصلاة جامعة و كسح لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تحت شجرتين، فصلى الظهر، و أخذ بيد علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، فقال: «أ لستم أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: أ لستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى، فقال: من كنت مولاه فعلىّ مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه».

قال: فلقيه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فقال: هنيئا لك يا ابن أبى طالب أصبحت مولى كل مؤمن و مؤمنة.

و

غدير خم: على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق، و تصب فيه عين، و حوله شجر كثير، و من سنتهم فى هذا العيد، هو أبدا يوم الثامن عشر من ذى الحجة أن يحيوا ليلته بالصلاة، و يصلوا فى صبيحته ركعتين قبل الزوال، و يلبسوا فيه الجديد، و يعتقوا الرقاب، و يكثروا من عمل البرّ، و من الذبائح، و لما عمل الشيعة هذا العيد بالعراق أرادت عوامّ السنية مضاهاة فعلهم، و نكايتهم، فاتخذوا فى سنة تسع و ثمانين و ثلثمائة بعد عيد الغدير بثمانية أيام عيدا، أكثروا فيه من السرور و اللهو، و قالوا: هذا يوم دخول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الغار هو و أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، و بالغوا فى هذا اليوم فى إظهار الزينة، و نصب القباب، و إيقاد النيران، و لهم فى ذلك أعمال مذكورة فى أخبار بغداد ... و قال ابن زولاق: و فى يوم ثمانية عشر من ذى الحجة سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة، و هو يوم الغدير: تجمع خلق من أهل مصر و المغاربة، و من تبعهم للدعاء لأنه يوم عيد، لأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عهد إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فيه، و استخلفه، فأعجب المعز ذلك من فعلهم، و كان هذا أوّل ما عمل بمصر.

قال المسبحىّ، و فى يوم الغدير، و هو ثامن عشر ذى الحجة اجتمع الناس بجامع القاهرة و القرّاء و الفقهاء، و المنشدون، فكان جمعا عظيما أقاموا إلى الظهر، ثم خرجوا إلى القصر، فخرجت إليهم الجائزة، و ذكر أن الحاكم بأمر اللّه، كان قد منع من عمل عيد الغدير، قال ابن الطوير: إذا كان العشر الأوسط من ذى الحجة اهتمّ الأمراء، و الأجناد بركوب عيد الغدير، و هو فى الثامن عشر منه، و فيه خطبة و ركوب الخليفة بغير مظلمة، و لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵۶

سمة، و لا خروج عن القاهرة، و لا يخرج لأحد شىء، فإذا كان ذلك اليوم ركب الوزير بالاستدعاء الجارى به العادة، فيدخل القصر، و فى دخوله بروز الخليفة لركوبه من الكرسىّ على عادته، فيخدم و يخرج و يركب من مكانه من الدهليز، و يخرج فيقف قبالة باب القصر، و يكون ظهره إلى دار فخر الدين جهاركس اليوم، ثم يخرج الخليفة راكبا أيضا، فيقف فى الباب، و يقال له: القوس، و حواليه الأستاذون المحنكون رجالة، و من الأمراء المطوّقين من يأمره الوزير بإشارة خدمة الخليفة على خدمته، ثم يجوز زىّ كل من له زىّ على مقدار همته، فأوّل ما يجوز زىّ الخليفة، و هو الظاهر فى ركوبه، فتجد الجنائب الخاص التى قدّمنا ذكرها أوّلا، ثم زىّ الأمراء المطوّقين لأنهم غلمانه واحدا فواحدا بعددهم، و أسلحتهم، و جنائبهم إلى آخر أرباب القصب و العماريات، ثم طوائف العسكر أزمّتها أمامها، و أولادهم مكانهم لأنهم فى خدمة الخليفة وقوف بالباب طائفة طائفة، فيكونون أكثر عددا من خمسة آلاف فارس، ثم المترجلة الرماة بالقسىّ بالأيدى و الأرجل، و تكون عدّتهم قريبا من ألف، ثم الراجل من الطوائف الذين قدّمنا ذكرهم فى الركوب،

فتكون عدّتهم قريبا من سبعة آلاف كل منهم بزمام و بنود و رايات و غيرها، بترتيب مليح مستحسن، ثم يأتى زىّ الوزير مع ولده، أو أحد أقاربه، و فيه جماعته و حاشيته فى جمع عظيم، و هيئة هائلة، ثم زىّ صاحب الباب، و هم أصحابه و أجناده، و نوّاب الباب، و سائر الحجاب، ثم يأتى زىّ اسفهسلار العساكر بأصحابه، و أجناده فى عدّة وافرة، ثم يأتى زىّ والى القاهرة، و زىّ والى مصر، فإذا فرغا خرج الخليفة من الباب و الوقوف بين يديه مشاة فى ركابه خارجا عن صبيان ركابه الخاص، فإذا وصل إلى باب الزهومة بالقصر، انعطف على يساره داخلا من الدرب هناك جائزا على الخوخ ، فإذا وصل إلى باب الديلم الذى داخله المشهد الحسينىّ، فيجد فى دهليز ذلك الباب: قاضى القضاة و الشهود، فإذا وازاهم خرجوا للخدمة و السلام عليه، فيسلم القاضى كما ذكرنا من تقبيل رجله الواحدة التى تليه، و الشهود أمام رأس الدابة بمقدار قصبة، ثم يعودون و يدخلون من ذلك الدهليز إلى الإيوان الكبير، و قد علق عليه الستور القرقوبية جميعه على سعته، و غير القرقوبية سترا فسترا، ثم يعلق بدائرة على سعته ثلاث صفوف: الأوسط طوارق فارسيات مدهونة، و الأعلى و الأسفل درق، و قد نصب فيه كرسىّ الدعوة، و فيه تسع درجات لخطابة الخطيب فى هذا العيد، فيجلس القاضى و الشهود تحته، و العالم من الأمراء، و الأجناد، و المتشيعين، و من يرى هذا الرأى من الأكابر و الأصاغر، فيدخل الخليفة من باب العيد إلى الإيوان إلى باب الملك، فيجلس بالشباك، و هو ينظر القوم، و يخدمه الوزير عندما ينزل، و يأتى هو و من معه، فيجلس بمفرده على يسار منبر الخطيب، و يكون قد سير لخطيبه بدلة حرير يخطب فيها، و ثلاثون دينارا، و يدفع له كرّاس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵۷

محرّر من ديوان الإنشاء يتضمن نص الخلافة من النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرّم اللّه وجهه و رضى عنه بزعمهم، فإذا فرغ و نزل صلى قاضى القضاة بالناس ركعتين، فإذا قضيت الصلاة، قام الوزير إلى الشباك، فيخدم الخليفة، و ينفض الناس بعد التهانى من الإسماعيلية بعضهم بعضا، و هو عندهم أعظم من عيد النحر، و ينحر فيه أكثرهم.

قال: و كان الحافظ لدين اللّه أبو الميمون عبد المجيد: لما سلم من يد أبى علىّ بن الأفضل الملقب كتيفات، لما وزر له، و خرج عليه عمل عيدا فى ذلك اليوم، و هو السادس عشر من المحرّم من غير ركوب، و لا حركة بل إنّ الإيوان باق على فرشه، و تعليقه من يوم الغدير، فيفرش المجلس المحوّل اليوم فى الإيوان الذى بابه خورنق.

و كان يقابل الإيوان الكبير الذى هو اليوم: خزائن السلاح، بأحسن فرش، و ينصب له مرتبة هائلة قريبا من باذهنجه، فيجتمع أرباب الدولة سيفا و قلما، و يحضرون إلى الإيوان إلى باب الملك المجاور للشباك، فيخرج الخليفة راكبا إلى المجلس، فيترجل على بابه، و بين يديه الخواص، فيجلس على المرتبة، و يقفون بين يديه صفين إلى باب المجلس، ثم يجعل قدّامه كرسىّ الدعوة، و عليه غشاء قرقوبىّ، و حواليه الأمراء الأعيان، و أرباب الرتب، فيصعد قاضى القضاة، و يخرج من كمه كراسة مسطحة تتضمن فصولا، كالفرج بعد الشدّة بنظم مليح، يذكر فيه كل من أصابه من الأنبياء و الصالحين و الملوك شدّة، و فرّج اللّه عنه واحدا فواحدا، حتى يصل إلى الحافظ، و تكون هذه الكراسة محمولة من ديوان الإنشاء، فإذا تكاملت قراءتها، نزل عن المنبر، و دخل إلى الخليفة، و لا يكون عنده من الثياب أجلّ مما لبسه، و يكون قد حمل إلى القاضى قبل خطابته بدلة مميزة يلبسها للخطابة، و يوصل إليه بعد الخطابة خمسون دينارا.

و قال الأمير جمال الدين أبو علىّ موسى بن المأمون أبى عبد اللّه محمد بن فاتك بن مختار الطائحىّ فى تاريخه، و استهل عيد الغدير يعنى من سنة ست عشرة و خمسمائة، و هاجر إلى باب الأجل يعنى الوزير المأمون البطائحى الضعفاء و المساكين من البلاد، و من انضمّ إليهم من العوالى، و الأدوان على عادتهم فى طلب الحلال، و تزويج الأيامى، و صار موسما يرصده كل أحد، و يرتقبه كل غنىّ و فقير، فجرى فى معروفه على رسمه، و بالغ الشعراء فى مدحه بذلك، و وصلت كسوة العيد المذكور، فحمل ما يختص بالخليفة و الوزير، و أمر بتفرقة ما يختص بأزمّة العساكر فارسها و راجلها من عين و كسوة، و مبلغ ما يختص بهم من العين سبعمائة و تسعون دينارا، و من الكسوات مائة و أربع و أربعون قطعة، و الهيئة المختصة بهذا العيد، برسم كبراء الدولة، و شيوخها و أمرائها و ضيوفها، و

الأستاذين المحنكين و المميزين منهم خارجا عن أولاد الوزير و إخوته، و يفرّق من مال الوزير بعد الخلع عليه ألفان و خمسمائة دينار و ثمانون دينارا، و أمر بتعليق جميع أبواب القصور،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵۸

و تفرقة المؤذنين بالجوامع و المساجد عليها، و تقدّم بأن تكون الأسمطة بقاعة الذهب على حكم سماط أوّل يوم من عيد النحر، و فى باكر هذا اليوم توجه الخليفة إلى الميدان، و ذبح ما جرت به العادة، و ذبح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة فى عيد النحر، و أمر بتفرقة ذلك للخصوص دون العموم، و جلس الخليفة فى المنظرة و خدمت الرهجية .

و تقدّم الوزير و الأمراء، و سلموا، فلما حان وقت الصلاة و المؤذنون على أبواب القصر يكبرون تكبير العيد إلى أن دخل الوزير، فوجد الخطيب على المنبر قد فرغ، فتقدّم القاضى أبو الحجاج يوسف بن أيوب فصلى به و بالجماعة صلاة العيد، و طلع الشريف بن أنس الدولة، و خطب خطبة العيد، ثم توجه الوزير إلى باب الملك، فوجد الخليفة قد جلس قاصدا للقائه، قد ضربت المقدّمة، فأمره بالمضىّ إليها، و خلع عليه خلعة مكملة من بدلات النحر و ثوبها أحمر بالشدّة الدائمية، و قلده سيفا مرصعا بالياقوت و الجواهر، و عندما نهض ليقبل الأرض وجده قد أعدّ له العقد الجوهر، و ربطه فى عنقه بيده، و بالغ فى إكرامه، و خرج من باب الملك فتلقاه المقرّبون، و سارع الناس إلى خدمته، و خرج من باب العيد و أولاده و إخوته و الأمراء المميزون بحجبه، و خدمت الرهجية، و ضربت العربية و الموكب جميعه بزيه، و قد اصطفت العساكر، و تقدّم إلى ولده بالجلوس على أسمطته و تفرّقتها برسومها، و توجه إلى القصر، و استفتح المقرئون، فسلم الحاضرون، و جرى الرسم فى السماط الأوّل و الثانى، و تفرقة الرسوم و الموائد على حكم أوّل يوم من عيد النحر، و توجه الخليفة بعد ذلك إلى السماط الثالث الخاص بالدار الجليلة لأقاربه و جلسائه.

و لما انقضى حكم التعييد جلس الوزير فى مجلسه، و استفتح المقرئون، و حضر الكبراء و بياض البلدين لتهنىء بالعيد و الخلع، و خرج الرسم، و تقدّم الشعراء، فأنشدوا و شرحوا الحال، و حضر متولى خزائن الكسوة الخاص بالثياب التى كانت على المأمون قبل الخلع، و قبضوا الرسم الجارى به العادة، و هو مائة دينار، و حضر متولى بيت المال، و صحبته صندوق فيه خمسة آلاف دينار برسم فكاك العقد الجوهر و السيف المرصع، فأمر الوزير المأمون الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة: كاتب الدست الشريف بكتب مطالعة إلى الخليفة بما حمل إليه من المال برسم منديل الكم، و هو ألف دينار، و رسم الأخوة و الأقارب ألف دينار، و تسلم متولى الدولة بقية المال ليفرّق على الأمراء المطوّقين و المميزين و الضيوف و المستخدمين.

المحول: قال ابن عبد الظاهر: المحول هو مجلس الداعى ، و يدخل إليه من باب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۵۹

الريح، و بابه من باب البحر، و يعرف بقصر البحر، و كان فى أوقات الاجتماع يصلى الداعى بالناس فى رواقه.

و قال المسبحىّ: و فى ربيع الأوّل يعنى من سنة خمس و ثمانين و ثلثمائة، جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسىّ بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد المتقدّم له و لأخيه بمصر، و لأبيه بالمغرب، فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا، فكفنهم العزيز بالله، و قال ابن الطوير: و أما داعى الدعاة فإنه يلى قاضى القضاة فى الرتبة، و يتزيا بزيه فى اللباس و غيره، و وصفه أنه يكون عالما بجميع مذاهب أهل البيت يقرأ عليه، و يأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم، و بين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيبا، و له نوّاب كنوّاب الحكم فى سائر البلاد، و يحضر إليه فقهاء الدولة، و لهم مكان يقال له:

دار العلم ، و لجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة، و كان الفقهاء منهم يتفقون على دفتر يقال له: مجلس الحكمة فى كل يوم اثنين و خميس، و يحضر مبيضا إلى داعى الدعاة فينفذه إليهم، و يأخذه منهم، و يدخل به إلى الخليفة فى هذين اليومين المذكورين، فيتلوه عليه إن أمكن، و يأخذ علامته بظاهره، و يجلس بالقصر لتلاوته على المؤمنين فى مكانين للرجال على كرسىّ الدعوة بالإيوان الكبير، و للنساء بمجلس الداعى، و كان من أعظم المبانى و أوسعها.

فإذا فرغ من تلاوته على المؤمنين و المؤمنات حضروا إليه، لتقبيل يديه، فيمسح على رؤوسهم بمكان العلامة، أعنى خط الخليفة، و له أخذ النجوى من المؤمنين بالقاهرة و مصر و أعمالهما، لا سيما الصعيد، و مبلغها ثلاثة دراهم و ثلث، فيجتمع من ذلك شيء كثير يحمله إلى الخليفة بيده بينه، و بينه، و أمانته فى ذلك مع اللّه تعالى، فيفرض له الخليفة منه ما يعينه لنفسه و للنقباء، و فى الإسماعيلية المموّلين من يحمل ثلاثة و ثلاثين دينارا و ثلثى دينار على حكم النجوى، و صحبة ذلك رقعة مكتوبة باسمه، فيتميز فى المحول فيخرج له عليها خط الخليفة بارك اللّه فيك، و فى مالك و ولدك و دينك، فيدّخر ذلك، و يتفاخر به، و كانت هذه الخدمة متعلقة بقوم يقال لهم: بنو عبد القوىّ أبا عن جدّ آخرهم الجليس، و كان الأفضل بن أمير الجيوش نفاهم إلى المغرب، فولد الجليس بالمغرب، و ربى به، و كان يميل إلى مذهب أهل السنة، و ولى القضاء مع الدعوة، و أدركه أسد الدين شيركوه، و أكرمه و جعله واسطة عند الخليفة العاضد، و كان قد حجر على العاضد و لولاه لم يبق فى الخزائن شيء لكرمه، و كأنه علم أنه آخر الخلفاء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۰

قال المسبحىّ: و كان الداعى يواصل الجلوس بالقصر لقراءة ما يقرأ على الأولياء، و الدعاوى المتصلة، فكان يفرد للأولياء مجلسا، و للخاصة و شيوخ الدولة، و من يختص بالقصور من الخدم و غيرهم مجلسا، و لعوام الناس، و للطارئين على البلد مجلسا، و للنساء فى جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مجلسا، و للحرم و خواص نساء القصر مجلسا، و كان يعمل المجالس فى داره، ثم ينفذها إلى من يختص بخدمة الدولة، و يتخذ لهذه المجالس كتبا يبيضونها بعد عرضها على الخليفة، و كان يقبض فى كل مجلس من هذه المجالس ما يتحصل من النجوى من كل من يدفع شيئا من ذلك عينا و ورقا من الرجال و النساء، و يكتب أسماء من يدفع شيئا على ما يدفعه، و كذلك فى عيد الفطر يكتب ما يدفع عن الفطرة، و يحصل من ذلك مال جليل، يدفع إلى بيت المال شيئا بعد شيء، و كانت تسمى مجالس الدعوة: مجالس الحكمة، و فى سنة أربعمائة كتب سجل عن الحاكم بأمر اللّه فيه رفع الخمس و الزكاة و الفطرة و النجوى التى كانت تحمل، و يتقرّب بها، و تجرى على أيدى القضاة، و كتب سجل آخر بقطع مجالس الحكمة التى تقرأ على الأولياء يوم الخميس و الجمعة، انتهى. و وظيفة داعى الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية، و قد لخصت من أمر الدعوة طرفا أحببت إيراده هنا.

وصف الدعوة و ترتيبها: و كانت الدعوة مرتبة على منازل: دعوة بعد دعوة.

الدعوة الأولى: سؤال الداعى لمن يدعوه إلى مذهبه عن المشكلات، و تأويل الآيات، و معانى الأمور الشرعية، و شيء من الطبيعيات، و من الأمور الغامضة، فإن كان المدعوّ عارفا سلم له الداعى و إلّا تركه يعمل فكره فيما ألقاه عليه من الأسئلة، و قال له: يا هذا، إنّ الدين لمكتوم، و إنّ الأكثر له منكرون، و به جاهلون، و لو علمت هذه الأمّة ما خص اللّه به الأئمة من العلم، لم تختلف؟ فيتشوق حينئذ المدعوّ إلى معرفة ما عند الداعى من العلم فإذا علم منه الإقبال أخذ فى ذكر معانى القراءات و شرائع الدين، و تقرير أنّ الآفة التى نزلت بالأمّة، و شتت الكلمة، و أورثت الأهواء المضلة، ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم، و أقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها، و يحفظون معانيها، و يعرفون بواطنها غير أنّ الناس لما عدلوا عن الأئمة، و نظروا فى الأمور بعقولهم، و اتبعوا ما حسن فى رأيهم، و قلدوا أسفلتهم، و أطاعوا سادتهم و كبراءهم اتباعا للملوك، و طلبا للدنيا التى هى أيدى متبعى لإثم و أجناد الظلمة، و أعوان الفسقة الذين يحبون العاجلة، و يجتهدون فى طلب الرئاسة على الضعفاء و مكايدة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى أمّته و تغيير كتاب اللّه عزّ و جلّ، و تبديل سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و مخالفة دعوته، و إفساد شريعته، و سلوك غير طريقته، و معاندة الخلفاء الأئمة من بعده بختر من قبل ذلك، و صار الناس إلى أنواع الضلالات، فإنّ دين محمد صلّى اللّه عليه و سلّم ما جاء بالتحلى، و لا بأمانىّ الرجال، و لا شهوات الناس، و لا بما خف على الألسنة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۱

و عرفته دهماء العامّة، و لكنه صعب مستصعب، و أمر مستقبل، و علم خفىّ غامض ستره اللّه فى حجبه، و عظم شأنه عن ابتذال أسراره،

فهو سرّ اللّه المكتوم، و أمره المستور الذى لا يطيق حمله، و لا ينهض بأعبائه، و ثقله إلّا ملك مقرّب، أو نبيّ مرسل، أو عبد مؤمن امتحن اللّه قلبه للتقوى، فإذا ارتبط المدعوّ على الداعى، و أنس له، نقله إلى غير ذلك.

فمن مسائلهم ما معنى: رمى الجمار؟ و العدو بين الصفا و المروة؟ و لم كانت الحائض تقضى الصوم، و لا تقضى الصلاة؟ و ما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير؟ و لا يغتسل من البول النجس الكثير القذر؟ و ما بال اللّه خلق الدنيا فى ستة أيام؟ أعجز عن خلقها فى ساعة واحدة؟ و ما معنى الصراط المضروب فى القرآن مثلا؟ و الكاتبين الحافظين و ما لنا لا نراهما؟

أخاف أن نكابره، و نجاحده حتى أدلى العيون، و أقام علينا الشهود، و قيد ذلك فى القرطاس بالكتابة، و ما تبديل الأرض غير الأرض؟ و ما عذاب جهنم؟ و كيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب؟ و ما معنى: و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية؟ و ما إبليس؟

و ما الشياطين؟ و ما وصفوا به و أين مستقرّهم؟ و ما مقدار قدرهم؟ و ما يأجوج و مأجوج و هاروت و ماروت و أين مستقرّهم؟ و ما سبعة أبواب النار؟ و ما ثمانية أبواب الجنة؟ و ما شجرة الزقوم النابتة فى الجحيم؟ و ما دابة الأرض و رؤس الشياطين؟ و الشجرة الملعونة فى القرآن؟ و التين و الزيتون؟ و ما الخنس الكنس؟ و ما معنى ألم و المص؟ و ما معنى كهيعص و حمعسق، و لم جعلت السماوات سبعا و الأرضون سبعا، و المثانى من القرآن سبع آيات، و لم فجرت العيون اثنتى عشرة عينا، و لم جعلت الشهور اثنى عشر شهرا، و ما يعمل معكم عمل الكتاب و السنة، و معانى الفرائض اللازمة؟ فكروا أوّلا فى أنفسكم أين أرواحكم؟

و كيف صورها؟ و أن مستقرّها؟ و ما أوّل أمرها و الإنسان ما هو؟ و ما حقيقته؟ و ما الفرق بين حياته و حياة البهائم؟ و فضل ما بين حياة البهائم و حياة الحشرات؟ و ما الذى بانت به حياة الحشرات من حياة النبات؟ و ما معنى قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خلقت حوّاء من ضلع آدم»؟ و ما معنى قول الفلاسفة: الإنسان عالم صغير و العالم إنسان كبير؟ و لم كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من الحيوانات؟ و لم كان فى يديه من الأصابع عشر، و فى رجليه عشر أصابع؟ و فى كل أصبع من أصابع يديه ثلاثة شقوق إلا الإبهام، فإنّ فيه شقين فقط؟ و لم كان فى وجهه سبع ثقب؟ و فى سائر بدنه ثقبان؟ و لم كان فى ظهره اثنتا عشرة عقدة و فى عنقه سبع عقد؟

و لم جعل عنقه صورة ميم، و يداه: حاء، و بطنه: ميما، و رجلاه: دالا حتى صار ذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد، و لم جعلت قامته إذا انتصب صورة ألف، و إذا ركع صارت صورة: لام، و إذا سجد صارت صورة هاء، فكان كتابا يدل على اللّه، و لم جعلت أعداد عظام الإنسان كذا؟ و أعداد أسنانه كذا؟ و الأعضاء الرئيسة كذا إلى غير ذلك من التشريح، و القول فى العروق و الأعضاء، و وجوه منافع الحيوان، ثم يقول الداعى: ألا تتفكرون فى حالكم، و تعتبرون و تعلمون أنّ الذى خلقكم حكيم غير مجازف، و أنه فعل جميع ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۲

لحكمة، و له فيها أسرار خفية، حتى جمع ما جمع، و فرّق ما فرّق، فكيف يسعلكم الإعراض عن هذه الأمور، و أنتم تسمعون قول اللّه عز و جل: وَ فِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ [الذاريات/ ۲۰، ۲۱]، وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [إبراهيم/ ۲۵]، سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ [فصلت/ ۵۳]. فأىّ شىء رآه الكفار فى أنفسهم و فى الآفاق، حتى عرفوا أنه الحق، و أىّ حق عرفه من جحد الديانة، ألا يدلكم هذا على أنّ اللّه جل اسمه أراد أن يرشدكم إلى بواطن الأمور الخفية، و أسرار فيها مكتومة لو نبهتم لها، و عرفتموها لزالت عنكم كل حيرة، و دحضت كل شبهة، و ظهرت لكم المعارف السنية، ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم التى من جهلها، كان حريا أن لا يعلم غيرها، أ ليس اللّه تعالى يقول: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا [الإسراء/ ۷۲] و نحو ذلك من تأويل القرآن، و تفسير السنن و الأحكام، و إيراد أبواب من التجويز و التعليل، فإذا علم الداعى أن نفس المدعوّ قد تعلقت بما سأله عنه، و طلب منه الجواب عنها قال له: حينئذ لا تعجل فإنّ دين اللّه

أعلى و أجل من أن يبذل لغير أهله، و يجعل غرضا للعب و جرت عادة اللّه، و سنته فى عباده عند شرع من نصبه أن يأخذ العهد على من يرشده، و لذلك قال: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً [الأحزاب/ ۷]، و قال عز و جلّ: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا [الأحزاب/ ۲۳]، و قال جلّ جلاله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [المائدة/ ۱]، و قال: وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً [النحل/ ۹۱]، و قال: لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ [المائدة/ ۷۰]. و من أمثال هذا فقد أخبر اللّه تعالى أنه لم يملك حقه إلا لمن أخذ عهده فأعطنا صفقة يمينك، و عاهدنا بالموكد من أيمانك و عقودك، أن لا تفشى لنا سرّا، و لا تظاهر علينا أحدا، و لا تطلب لنا غيلة، و لا تكتمنا نصحا، و لا توالى لنا عدوّا، فإذا أعطى العهد قال له الداعى: أعطنا جعلا من مالك نجعله مقدّمة أمام كشفنا لك الأمور، و تعريفك إياها، و الرسم فى هذا الجعل بحسب ما يراه الداعى، فإن امتنع المدعوّ أمسك عنه الداعى، و إن أجاب و أعطى نقله إلى الدعوة الثانية، و إنما سميت الإسماعيلية بالباطنية لأنهم يقولون: لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطن، و لكل تنزيل تأويل.

الدعوة الثانية: لا تكون إلّا بعد تقدّم الدعوى الأولى، فإذا تقرّر فى نفس المدعوّ جميع ما تقدّم، و أعطى الجعل، قال له الداعى: إنّ اللّه تعالى لم يرض فى إقامة حقه، و ما شرعه لعباده إلّا أن يأخذوا ذلك عن أئمة نصبهم للناس، و أقامهم لحفظ شريعته على ما أراده اللّه تعالى، و يسلك فى تقرير هذا، و يستدل عليه بأمور مقرّرة فى كتبهم، حتى يعلم أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۳

اعتقاد الأئمة قد ثبت فى نفس المدعوّ، فإذا اعتقد ذلك، نقله إلى الدعوة الثالثة.

الدعوة الثالثة: مرتبة على الثانية، و ذلك أنه إذا علم الداعى ممن دعاه، أنّ ارتباطه على دين اللّه لا يعلم إلّا من قبل الأئمة، قرّر حينئذ عنده أن الأئمة سبعة، قد رتبهم البارى تعالى كما رتب الأمور الجليلة، فإنه جعل الكواكب السيارة سبعة، و جعل السماوات سبعا، و جعل الأرضين سبعا، و نحو ذلك مما هو سبع من الموجودات.

و هؤلاء الأئمة السبعة هم: علىّ بن أبى طالب، و الحسن بن علىّ، و الحسين بن علىّ، و علىّ بن الحسين الملقب زين العابدين، و محمد بن علىّ، و جعفر بن محمد الصادق، و السابع هو: القائم صاحب الزمان.

و هم أعنى الشيعة مختلفون فى هذا القائم، فمنهم من يجعله: محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، و يسقط إسماعيل بن جعفر، و منهم من يعدّ إسماعيل بن جعفر إماما، ثم يعدّ ابنه محمد بن إسماعيل، فإذا تقرّر عند المدعوّ أن الأئمة سبعة انحل عن معتقد الإمامية من الشيعة القائلين بإمامة اثنى عشر إماما، و صار إلى معتقد الإسماعيلية، بأنّ الإمامة انتقلت إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، فإذا علم الداعى ثبات هذا العقد فى نفس المدعوّ، شرع فى ثلب بقية الأئمة الذين قد اعتقد الإمامية فيهم الإمامة، و قرّر عند المدعوّ أنّ محمد بن إسماعيل عنده علم المستورات، و بواطن المعلومات التى لا يمكن أن توجد عند أحد غيره، و أنّ عنده أيضا علم التأويل، و معرفة تفسير ظاهر الأمور، و عنده سرّ اللّه تعالى فى وجه تدبيره المكتوم، و إتقان دلالته فى كل أمر يسأل عنه فى جميع المعدومات، و تفسير المشكلات، و بواطن الظاهر كله و التأويلات، و تأويل التأويلات، و أنّ دعاته هم: الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة لأنهم أخذوا عنه، و من جهته رووا، و إنّ أحدا من الناس المخالفين لهم لا يستطيع أن يساويهم، و لا يقدر على التحقق بما عندهم إلّا منهم، و يحتج لذلك بما هو معروف فى كتبهم مما لا يسع هذا الكتاب حكايته لطوله، فإذا انقاد المدعوّ، و أذعن لما تقرّر، نقله إلى الدعوة الرابعة.

الدعوة الرابعة: لا يشرع الداعى فى تقريرها حتى يتيقن صحة انقياد المدعوّ لجميع ما تقدّم، فإذا تيقن منه صحة الانقياد، قرّر عنده أنّ عدد الأنبياء الناسخين للشرائع المبدّلين لأحكامها، أصحاب الأدوار، و تقليب الأحوال، الناطقين بالأمور، سبعة فقط، كعدد الأئمة سواء، و كل واحد من هؤلاء الأنبياء لا بدّ له من صاحب يأخذ عنه دعوته، و يحفظها على أمّته، و يكون معه ظهيرا له فى حياته، و خليفة له

من بعد وفاته، إلى أن يبلغ شريعته إلى أحد يكون سبيله معه، كسبيله هو مع نبيه الذى اتبعه، ثم كذلك كل مستخلف خليفة إلى أن يأتى منهم على تلك الشريعة، سبعة أشخاص.

و يقال لهؤلاء السبعة: الصامتون لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أوّلهم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۴

و يسمى الأوّل من هؤلاء السبعة: السوس، و أنه لا بدّ عند انقضاء هؤلاء السبعة، و نفاذ دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبىّ ينسخ شرع من مضى من قبله، و تكون الخلفاء من بعده أمورهم تجرى كأمر من كان قبلهم، ثم يكون من بعدهم نبىّ ناسخ يقوم من بعده سبعة صمت أبدا، و هكذا حتى يقوم النبىّ السابع من النطقاء، فينسخ جميع الشرائع التى كانت قبله، و يكون صاحب الزمان الأخير.

فكان أوّل هؤلاء الأنبياء النطقاء: آدم عليه السلام، و كان صاحبه وسوسه ابنه شيث، و عدوّ إتمام السبعة الصامتين على شريعة آدم.

و كان الثانى من الأنبياء النطقاء نوح عليه السلام فإن نطق بشريعة، نسخ بها شريعة آدم، و كان صاحبه وسوسه ابنه سام، و تلاه بقية السبعة الصامتين على شريعة نوح.

ثم كان الثالث من الأنبياء النطقاء إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّه عليه، فإنه نطق بشريعة نسخ بها شريعة نوح و آدم عليهما السلام، و كان صاحبه وسوسه فى حياته، و الخليفة القائم من بعده المبلغ شريعته ابنه إسماعيل عليه السلام، و لم يزل يخلفه صامت بعد صامت على شريعة إبراهيم، حتى تمّ دور السبعة الصمت.

و كان الرابع من الأنبياء النطقاء: موسى بن عمران عليه السلام، فإنه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم و نوح و إبراهيم، و كان صاحبه وسوسه أخوه هارون، و لما مات هارون فى حياة موسى، قام من بعد موسى، يوشع بن نون خليفة له صمت على شريعته، و بلغها فأخذها عنه واحد بعد واحد إلى أن كان آخر الصمت على شريعة موسى، يحيى بن زكرياء و هو آخر الصمت.

ثم كان الخامس من الأنبياء النطقاء المسيح عيسى ابن مريم صلوات اللّه عليه، فإنه نطق بشريعة نسخ بها شرائع من كان قبله، و كان صاحبه وسوسه: شمعون الصفا، و من بعده تمام السبعة الصمت على شريعة المسيح.

إلى أن كان السادس من الأنبياء النطقاء نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فإنه نطق بشريعة نسخ بها جميع الشرائع التى جاء بها الأنبياء من قبله، و كان صاحبه وسوسه علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، ثم من بعد علىّ ستة صمتوا على الشريعة المحمدية، و قاموا بميراث أسرارها، و هم: ابنه الحسن، ثم ابنه الحسين، ثم علىّ بن الحسين، ثم محمد بن علىّ، ثم جعفر بن محمد، ثم إسماعيل بن جعفر الصادق، و هو آخر الصمت من الأئمة المستورين و السابع من النطقاء هو صاحب الزمان.

و عند هؤلاء الإسماعيلية أنه: محمد بن إسماعيل بن جعفر و أنه الذى انتهى إليه علم الأوّلين، و قام بعلم بواطن الأمور و كشفها، و إليه المرجع فى تفسيرها دون غيره، و على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۵

جميع الكافة أتباعه و الخضوع له، و الانقياد إليه، و التسليم له، لأنّ الهداية فى موافقته و أتباعه، و الضلال و الحيرة إلى فى العدول عنه، فإذا تقرّر ذلك عند المدعوّ انتقل الداعى إلى الدعوة الخامسة.

الدعوة الخامسة: مترتبة على ما قبلها، و ذلك أنه إذا صار المدعوّ فى الرتبة الرابعة من الاعتقاد أخذ الداعى يقرّر أنه لا بدّ مع كل إمام قائم فى كل عصر حجج متفرّقون فى جميع الأرض عليهم تقوم، و عدّة هؤلاء الحجج أبدا اثنا عشر رجلا فى كل زمان كما أنّ عدد الأئمة سبعة، و يستدل لذلك بأمور منها: أنّ اللّه تعالى لم يخلق شيئا عبثا، و لا بدّ فى خلق كل شىء من حكمة، و إلّا فلم خلق النجوم التى بها قوام العالم سبعة، و جعل أيضا السماوات سبعا، و الأرضين سبعا، و البروج اثنى عشر، و الشهور اثنى عشر شهرا، و نقباء بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبا، و نقباء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الأنصار اثنى عشر نقيبا، و خلق تعالى فى كف كل إنسان أربع أصابع، و فى كل أصبع ثلاث شقوق تكون جملتها اثنى عشر شقا، على أنه فى يد كل إبهام شقان، دلالة على أنّ الإنسان بدنه

كالأرض، و أصابعه كالجزائر الأربع و الشقوق التى فى الأصابع كالحجج، و الإبهام الذى به قوام جميع الكف، و سداد الأصابع، كالذى يقوّم الأرض بقدر ما فيها، و الشقان اللذان فى الإبهام إشارة إلى أنّ الإمام وسوسة لا يفترقان، و لذلك صار فى ظهر الإنسان: اثنتا عشرة خرزة، إشارة إلى الحجج الاثنى عشر، و صار فى عنقه: سبع، فكان العنق عاليا فى خرزات الظهر، و ذلك إشارة إلى الأنبياء النطقاء، و الأئمة السبعة، و كذلك الأثقاب السبعة التى فى وجه الإنسان العالى على بدنه، و أشياء من هذا النوع كثيرة، فإذا تمهد عند المدعوّ ما دعاه إليه الداعى، و تقرّر نقله حينئذ إلى الدعوة السادسة.

الدعوة السادسة: لا تكون إلا بعد ثبوت جميع ما تقدّم فى نفس المدعوّ، و ذلك أنه إذا صار إلى الرتبة الخامسة، أخذ الداعى فى تفسير معانى شرائع الإسلام من الصلاة و الزكاة و الحج و الطهارة، و غير ذلك من الفرائض بأمور مخالفة للظاهر، بعد تمهيد قواعد تبين فى أزمنة من غير عجلة تؤدّى إلى أنّ هذه الأشياء، وضعت على جهة الرموز لمصلحة العامة، و سياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض، و تصدّهم عن الفساد فى الأرض، حكمة من الناصبين للشرائع، و قوّة فى حسن سياستهم لأتباعهم، و إتقانا منهم لما رتبوه من النواميس و نحو ذلك، حتى يتمكن هذا الاعتقاد فى نفس المدعوّ، فإذا طال الزمان، و صار المدعوّ يعتقد أنّ أحكام الشريعة كلها وضعت على سبيل الرمز لسياسة العامّة، و أنّ لها معانى أخر غير ما يدل عليه الظاهر، و نقله الداعى إلى الكلام فى الفلسفة، و حضه على النظر فى كلام أفلاطون، و أرسطو، و فيثاغورس، و من فى معناهم، و نهاه عن قبول الأخبار، و الاحتجاج بالسمعيات، و زين له الاقتداء بالأدلة العقلية، و التعويل عليها، فإذا استقرّ ذلك عنده و اعتقده، نقله بعد ذلك إلى الدعوة السابعة، و يحتاج ذلك إلى زمان طويل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۶

الدعوة السابعة: لا يفصح بها الداعى ما لم يكثر أنسه بمن دعاه، و يتيقن أنه قد تأهل إلى الانتقال إلى رتبة أعلى مما هو فيه، فإذا علم ذلك منه قال: إنّ صاحب الدلالة، و الناصب للشريعة، لا يستغنى بنفسه، و لا بدّ له من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما الأصل و الآخر عنه كان و صدر، و هذا إنما هو إشارة العام السفلىّ، لما يحويه العالم العلوىّ، فإنّ مدبر العالم فى أصل الترتيب، و قوام النظام صدر عنه أوّل موجود بغير واسطة، و لا سبب نشأ عنه، و إليه الإشارة بقوله تعالى: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس/ ۸۲] إشارة إلى الأوّل فى الرتبة، و الآخر هو القدر الذى قال فيه: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ [القمر/ ۴۹] و هذا معنى ما نسمعه من أنّ اللّه: أوّل ما خلق القلم، فقال للقلم: اكتب، فكتب فى اللوح ما هو كائن، و أشياء من هذا النوع موجودة فى كتبهم، و أصلها مأخوذ من كلام الفلاسفة القائلين: الواحد لا يصدر عنه إلّا واحد، و قد أخذ هذا المعنى المتصوّفة، و بسطوه بعبارات أخر فى كتبهم، فإن كنت ممن ارتاض و عرف مقالات الناس تبين ذلك ما ذكرت، و لا يحتمل هذا الكتاب بسط القول فى هذا المعنى، و إذا تقرّر ما ذكر فى هذه الدعوة عند المدعوّ، نقله الداعى إلى الدعوة الثامنة.

الدعوة الثامنة: متوقفة على اعتقاد سائر ما تقدّم، فإذا استقرّ ذلك عند المدعوّ، دينا له، قال له الداعى: اعلم أن أحد المذكورين اللذين هما مدبر الوجود و الصادر عنه، إنما تقدّم السابق على اللاحق، تقدّم العلة على المعلول، فكانت الأعيان كلها ناشئة، و كائنة عن الصادر الثانى، بترتيب معروف فى بعضهم، و مع ذلك فالسابق عندهم: لا اسم له، و لا صفة، و لا يعبر عنه، و لا يقيد فلا يقال هو موجود، و لا معدوم، و لا عالم، و لا جاهل، و لا قادر، و لا عاجز، و كذلك سائر الصفات، فإنّ الإثبات عندهم يقتضى شركة بينه و بين المحدثات، و التقى يقتضى التعطيل، و قالوا: ليس بقديم، و لا محدث، بل القديم أمره و كلمته و المحدث خلقه و فطرته، كما هو مبسوط فى كتبهم، فإذا استقرّ ذلك عند المدعوّ قرر عنده الداعى، أن التالى يدأب فى أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق، و أنّ الصامت فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء، و أنّ الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السوس، و حالة سواء.

و هكذا تجرى أمور العالم فى أكواره و أدواره، و لهذا القول بسط كثير، فإذا اعتقده المدعوّ قرّر عنده الداعى أنّ معجزة النبىّ الصادق الناطق ليست غير أشياء ينتظم بها سياسة الجمهور، و تشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوى معانى فلسفية تنبىء عن حقيقة

أنيـة السـماء و الأـرض، و ما يشـتمل العالم عليه بأسـره من الجواهر و الأعراض، فتارة برموز يعقلها العالمون، و تارة بإفصاح يعرفه كل أحد، فينتظم بذلك للنبيّ شريعة يتبعها الناس، و يقرّر عنده أيضا أنّ القيامة، و القرآن، و الثواب، و العقاب، معناها: سوى ما يفهمه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۷

العامّـة، و غير ما يتبادر الذهن إليه، و ليس هو إلّا حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب، و عوالم اجتماعاتها من كون، و فساد جاء على ترتيب الطباع، كما قد بسطه الفلاسفة فى كتبهم، فإذا استقرّ هذا العقد عند المدعوّ، نقله الداعى إلى الدعوة التاسعة.

الدعوة التاسـعة: هى النتيجة التى يحاول الداعى بتقرير جميع ما تقدّم رسوخها فى نفس من يدعوه، فإذا تيقن أنّ المدعوّ تأهل لكشف السـرّ، و الإفصاح عن الرموز أحاله على ما تقرّر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات، و ما بعد الطبيعة و العلم الإلهى، و غير ذلك من أقسام العلوم الفلسـفية، حتى إذا تمكن المـدعوّ من معرفـة ذلك، كشف الـداعى قناعه و قال اذكر من الحـدوث، و الأصول رموز إلى معـانى المبـادىء، و تقلب الجـواهر، و أنّ الوحى إنمـا هو صـفاء النفس، فيجـد النـبيّ فى فهمه مـا يلقى إليه، و يتنزل عليه، فيـبرزه إلى الناس، و يعبر عنه بكلام اللّه الذى ينظم به النبيّ شـريعته بحسب ما يراه من المصـلحة فى سـياسة الكافة، و لا يجب حينئذ العمل بها إلّا بحسب الحاجـة من رعايـة مصالـح الدهماء، بخلاف العارف، فإنه لا يلزمه العمل بها، و يكفيه معرفته، فإنها اليقين الذى يجب المصـير إليه و مـا عـدا المعرفـة من سائر المشـروعات، فإنما هى أثقال و آصار حملها الكفار أهل الجهالـة لمعرفـة الأعراض و الأسـباب. و من جملة المعرفة عندهم: أن الأنبياء النطقاء أصـحاب الشرائع، إنّما هم لسياسة العامّة، و إنّ الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة، و إنّ الإمام إنما وجوده فى العـالم الروحـانى، إذا صـرنا بالرياضـة فى المعـارف إليه، و ظهوره الآن إنما هو ظهور أمره و نهيه على لسان أوليائه، و نحو ذلك مما هو مبسوط فى كتبهم، و هذا حاصل علم الداعى، و لهم فى ذلك مصنفات كثيرة، منها اختصرت ما تقدّم ذكره.

ابتداء هذه الدعوة: إعلم أنّ هذه الدعوة منسوبة إلى شخص كان بالعراق يعرف:

بميمون القـدّاح، و كـان من غلاة الشـيعة، فولـد ابنا عرف: بعبـد اللّه بن ميمون، اتسع علمه و كثرت معارفه، و كاد أن يطلع على جميع مقالات الخليقـة، فرتب له مـذهبا، و جعله فى تسع دعوات، و دعا الناس إلى مذهبه، فاسـتجاب له خلق، و كان يدعو إلى الإمام محمد بن إسـماعيل، و ظهر من الأهواز، و نزل بعسـكر مكرّم، فصار له مال، و اشتهرت دعاته، فأنكر الناس عليه، و هموا به ففرّ إلى البصرة، و معه من أصـحابه الحسـين الأهوازىّ، فلما انتشـر ذكره بها طلب، فصار إلى بلاد الشام، و أقام بسـلمية، و بها ولـد له ابنه أحمد، فقام من بعـد أبيه عبـد اللّه بن ميمون فسير الحسـين الأهوازىّ داعيـة له إلى العراق، فلقى حمدان بن الأشـعث المعروف: بقرمط بسواد الكوفة، فـدعاه و اسـتجاب له، و أنزله عنـده، و كان من أمره ما هو مذكور فى أخبار القرامطة من كتابنا هذا، عند ذكر المعز لدين اللّه معدّ، ثم إنه ولـد لأحمد بن عبد اللّه: ابنه الحسـين و محمد المعروف: بأبى الشـلعلع، فلما هلك أحمد خلفه ابنه الحسـين، ثم قام من بعده أخوه أبو الشـلعلع، و كان من أمرهم ما هو مـذكور فى موضـعه، فانتشـرت الـدعاة فى أقطار الأرض، و تفقهوا فى الدعوة، حتى وضـعوا فيها الكتب الكثيرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۸

و صارت علما من العلوم المدوّنة، ثم اضمحلت الآن، و ذهبت بذهاب أهلها، و لهذا يقال:

إنّ أصل دعوة الإسماعيلية مأخوذ من القرامطة، و نسبوا من أجلها إلى الإلحاد.

صفـة العهـد الـذى يؤخـذ على المـدعوّ: و هو إنّ الداعى يقول لمن يأخذ عليه العهد و يحلفه: جعلت على نفسك عهد اللّه و ميثاقه، و ذمّـة رسوله، و أنبيـائه، و ملائكته، و كتبه، و رسـله، و مـا أخـذه على النبيين من عقـد، و عهـد، و ميثاق إنك تستر جميع ما تسـمعه، و سمعته، و علمته، و تعلمه، و عرفته، و نعرفه من أمرى، و أمر المقيم بهـذا البلـد لصاحب الحق الإمام الـذى عرّفت إقرارى له، و نصـحى لمن عقـد ذمّته، و أمـور إخوانه و أصـحابه و ولـده، و أهـل بيته المطيعين له على هـذا الـدين، و مخالصـته له من الـذكور و الإنـاث، و الصـغار و الكبار، فلا تظهر من ذلك شـيئا قليلا، و لا كثيرا، و لا شـيئا يدل عليه إلا ما أطلقت لك أن تتكلم به، أو أطلقه لك صاحب

الأمر المقيم بهذا البلد، فتعمل فى ذلك بأمرنا و لا تتعدّاه، و لا تزيد عليه، و ليكن ما تعمل عليه قبل العهد، و بعده بقولك، و فعلك أن تشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له و تشهد أن محمدا عبده و رسوله، و تشهد أن الجنة حقّ، و أن النار حقّ، و أن الموت حق، و أن البعث حق، و أن الساعة آتية لا ريب فيها، و أنّ اللّه يبعث من فى القبور، و تقيم الصلاة لوقتها، و تؤتى الزكاة لحقها، و تصوم رمضان، و تحج البيت الحرام، و تجاهد فى سبيل اللّه حق جهاده على ما أمر اللّه به و رسوله، و توالى أولياء اللّه، و تعادى أعداء اللّه، و تقوم بفرائض اللّه و سننه، و سنن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و على آله الطاهرين ظاهرا و باطنا، و علانية سرّا و جهرا فإنّ ذلك يؤكد هذا العهد، و لا يهدمه، و يثبته، و لا يزيله، و يقرّ به، و لا يباعده، و يشدّه، و لا يضعفه، و يوجب ذلك، و لا يبطله و يوضحه، و لا يعميه، كذلك هو الظاهر و الباطن، و سائر ما جاء به النبيون من ربهم صلوات اللّه عليهم أجمعين على الشرائط المبينة فى هذا العهد، جعلت على نفسك الوفاء بذلك، قل: نعم، فيقول المدعوّ: نعم.

ثم يقول الداعى له: و الصيانة له بذلك، و أداء الأمانة على أن لا تظهر شيئا أخذ عليك فى هذا العهد فى حياتنا، و لا بعد وفاتنا لا فى غضب، و لا على حال رضى، و لا على رغبة، و لا فى حال رهبة، و لا عند شدّة، و لا فى حال رخاء، و لا على طمع، و لا على حرمان، تلقى اللّه على الستر لذلك، و الصيانة له على الشرائط المبينة فى هذا العهد، و جعلت على نفسك عهد اللّه و ميثاقه، و ذمّته و ذمة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، أن تمنعنى و جميع من أسميه لك، و أثبته عندك مما تمنع منه نفسك، و تنصح لنا و لوليك وليّ اللّه نصحا ظاهرا و باطنا، فلا تخن اللّه و وليه، و لا أحدا من إخواننا و أوليائنا، و من تعلم أنه منا بسبب فى أهل و لا مال، و لا رأى، و لا عهد، و لا عقد تتأوّل عليه بما يبطله، فإن فعلت شيئا من ذلك، و أنت تعلم أنك قد خالفته، و أنت على ذكر منه فأنت برىء من اللّه خالق السماوات و الأرض الذى سوّى خلقك، و ألف تركيبك، و أحسن إليك فى دينك و دنياك، و آخرتك، و تبرأ من رسله الأوّلين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۶۹

و الآخرين، و ملائكته المقرّبين الكروبيين، و الروحانيين و الكلمات التامّات، و السبع المثانى، و القرآن العظيم، و تبرأ من التوراة، و الإنجيل، و الزبور، و الذكر الحكيم، و من كل دين ارتضاه اللّه فى مقدّم الدار الآخرة، و من كل عبد رضى اللّه عنه، و أنت خارج من حزب اللّه، و حزب أوليائه و خذلك اللّه خذلانا بينا، يعجل لك بذلك النقمة و العقوبة، و المصير إلى نار جهنم التى ليس لله فيها رحمة، و أنت برىء من حول اللّه و قوّته، و ملجأ إلى حول نفسك، و قوّتك، و عليك لعنة اللّه التى لعن اللّه بها إبليس، و حرّم عليه بها الجنة و خلده فى النار، إن خالفت شيئا من ذلك، و لقيت اللّه يوم تلقاه، و هو عليك غضبان، و للّه عليك أن تحج إلى بيته الحرام ثلاثين حجة حجا واجبا ماشيا حافيا، لا يقبل اللّه منك إلّا الوفاء بذلك، و كل ما تملك فى الوقت الذى تخالفه فيه، فهو صدقة على الفقراء و المساكين الذين لا رحم بينك، و بينهم لا يأجرك اللّه عليه، و لا يدخل عليك بذلك منفعة و كل مملوك لك من ذكر و أنثى فى ملكك، أو تستفيده إلى وقت وفاتك إن خالفت شيئا من ذلك، فهم أحرار لوجه اللّه عز و جل، و كل امرأة لك أو تتزوّجها إلى وقت وفاتك إن خالفت شيئا من ذلك، فهنّ طوالق ثلاثا بتة، طلاق الحرج لا مثوبة لك، و لا خيار، و لا رجعة، و لا مشيئة، و كل ما كان لك من أهل و مال و غيرهما، فهو عليك حرام، و كل ظهار فهو لازم لك، و أنا المستحلف لك لإمامك، و حجتك، و أنت الحالف لهما، و إن نوت أو عقدت أو أضمرت، خلاف ما أحملك عليه، و أحلفك به، فهذه اليمين من أوّلها إلى آخرها مجدّدة عليك لازمة لك، لا يقبل اللّه منك، إلّا الوفاء بها و القيام بما عاهدت بينى و بينك. قل: نعم، فيقول: نعم، و لهم مع ذلك وصايا كثيرة أضربنا عنها خشية الإطالة و فيما ذكرناه كفاية لمن عقل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۰

الدواوين

اشارة

و كانت دواوين الدولة الفاطمية لما قدم المعز لدين اللّه إلى مصر، و نزل بقصره فى القاهرة، محلها بدار الإمارة من جوار الجامع الطولونىّ.

فلما مات المعز، و قلد العزيز بالله الوزارة، ليعقوب بن كلس نقل الدواوين إلى داره، فلما مات يعقوب نقلها العزيز بعد موته إلى القصر، فلم تزل به إلى أن استبدّ الأفضل بن أمير الجيوش، و عمر دار الملك بمصر فنقل إليها الدواوين، فلما قتل عادت من بعده إلى القصر، و ما زالت هناك حتى زالت الدولة.

قال فى كتاب الذخائر و التحف: و حدّثنى من أثق به، قال: كنت بالقاهرة يوما من شهور سنة تسع و خمسين و أربعمائة، و قد استفحل أمر المارقين، و قويت شوكتهم، و امتدّت أيديهم إلى أخذ الذخائر المصونة فى قصر السلطان بغير أمره، فرأيت و قد دخل من باب الديلم أحد أبواب القصور المعمورة الزاهرة المعروف بتاج الملوك شادى، و فخر العرب علىّ بن ناصر الدولة بن حمدان، و رضى الدولة بن رضى الدولة، و أمير الأمراء بحتكين ابن بسكتكين، و أمير العرب بن كيغلغ و الأعز بن سنان، و عدّة من الأمراء أصحابهم البغداديين و غيرهم، و صاروا فى الإيوان الصغير، فوقفوا عند ديوان الشام لكثرة عددهم و جماعتهم، و كان معهم أحد الفرّاشين المستخدمين برسم القصور المعمورة، فدخلوا إلى حيث كان الديوان النظرىّ فى الديوان المذكور، و صحبتهم فعلة، و انتهوا إلى حائط مجيّر، فأمروا الفعلة بكشف الجير عنه، فظهرت حنية باب مسدود، فأمروا بهدمه، فتوصلوا منه إلى خزانة، ذكر أنها عزيزية من أيام العزيز بالله فوجدوا فيها من السلاح ما يروق الناظر، و من الرماح العزيزية المطلية أسنتها بالذهب، ذات مهارك فضة مجراة بسواد ممسوح، و فضة بياض ثقيلة الوزن عدّة رزم، أعوادها من الزان الجيد، و من السيوف المجوهرة النصول و من النشاب الخلنجىّ و غيره، و من الدرق اللمطىّ، و الجحف التينىّ و غير ذلك، و من الدروع المكلل سلاح بعضها و المحلّى بعضها بالفضة المركبة عليه، و من التخافيف، و الجواشن، و الكراعيدات الملبسة ديباجا المكوكبة بكواكب فضة، و غير ذلك، مما ذكر أنّ قيمته تزيد على عشرين ألف دينار، فحملوا جميع ذلك بعد صلاة المغرب.

و لقد شاهدت بعض حواشيهم، و ركابياتهم يكسرون الرماح، و يتلفون بذلك أعوادها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۱

الزان، ليأخذوا المهارك الفضة و منهم من يجعل ذلك فى سراويله، و عمامته، و جيبه، و منهم من يستوهب من صاحب السيف الثمين، و كان فيها من الرماح الطوال الخطية السمر الجياد عدّة، حملوا منها ما قدروا عليه، و بقى منها ما كسره الركابية، و من يجرى مجراهم كانوا يبيعونه للمغازليين، و لصناع المرادن، حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة، و لم تعترضهم الدولة، و لا التفتت إلى قدر ذلك، و لا احتفلت به، و جعلته هو و غيره فداء لأموال المسلمين، و حفظا لما فى منازلهم.

ديوان المجلس

قال ابن الطوير: ديوان المجلس، هو أصل الدواوين قديما، و فيه علوم الدولة بأجمعها، و فيه عدّة كتاب، و لكل واحد مجلس مفرد، و عنده معين أو معينان، و صاحب هذا الديوان، هو المتحدّث فى الإقطاعات، و يلحق بديوان النظر و يخلع عليه و ينشأ له السجل، و له المرتبة و المسند و الدواة و الحاجب إلى غير ذلك.

قال: ذكر خدمهم الخاصة المتصلة بهم، فأوّلها دفتر المجلس، و صاحبه من الأستاذين المحنكين، ثم يتولاه أجلّ كتاب الدولة ممن يكون مترشحا لرأس الدواوين، و يتضمن ذلك الدفتر، و له مكان ديوان بالقصر الباطن من الإنعام فى العطايا، و الظاهر من الرسوم

المعروفة فى غرّة السنة، و الضحايا و المرتب من الكسوات للأولّاد، و الأقارب و الجهات، و أرباب الرتب على اختلاف الطبقات، و ما يرد من ملوك الدنيا من التحف و الهدايا، و ما يرسل إليهم من الملاطفات، و مقادير الصلات للمترسلين بالمكاتبات، و ما يخرج من الأكفان لمن يموت من أرباب الجهات المحترمات، ثم يضبط ما ينفق فى الدولة من المهمات ليعلم ما بين كل سنة من التفاوت، فالصرّة المنعم بها فى أوّل العام من الدنانير، و الرباعية و القراريط تقرب من ثلاثة آلاف دينار، و ثمن الضحايا يقرّب من ألفى دينار، و ما ينفق فى دار الفطرة فيما يفرّق على الناس سبعة آلاف دينار، و ما ينفق فى دار الطراز للاستعمالات الخاص، و غيرها فى كل سنة عشرة آلاف دينار، و ما ينفق فى مهمّ فتح الخليج غير المطاعم ألفا دينار، و ما ينفق فى شهر رمضان فى سماطه ثلاثة آلاف دينار، و ما ينفق فى سماطى الفطر، و النخر أربعة آلاف دينار، و هذا خارج عما يطلق للناس أصنافا من خزائنه من المآكل و المشارب و المواصلة من الهبات، و ما تخرج به الخطوط من التشريفات ، و المسامحات ، و ما يطلق من الأهراء من الغلات حتى لا يفوتهم علم شىء من هذه المطلقات، و فى هذه الخدمة كاتب مستقل بين يدى صاحب ديوانه الأصلىّ، و معه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۲

كاتبان آخران لتنزيل ذلك فى الدفتر، و الدفتر عبارة عن جرائد مسطوحات ينزل ذلك فيها فى أوقاته من غير فوات.

قال: و إذا انقضى عيد النحر من كل سنة تقدّم بعمل الاستيمار لتلك السنة تمام ذى الحجة منها، فيجتمع كتاب ديوان الرواتب عند متوليه، و تحمل العروض إليه، فإذا تحرّرت نسخة التحرير: بيّضت بعد أن يستدعى من المجلس أوراق بالإدرار الذى يقبض بغير حرج، و فى الإدرار ما هو مستقرّ بالوجهين، فيضاف هذا المبلغ بجهاته إلى المبالغ المعلومة بديوان الرواتب و جهاتها، حتى لا يفوت من الاستيمار شىء من كل ما تقرّر شرحه، و يعلم مقداره عينا و ورقا، و غلة و غير ذلك، فيحرّر ذلك كله بأسماء المرتزقين، و أوّلهم: الوزير، و من يلوذ به، و على ذلك إلى أن ينتهى الجميع إلى أرباب الضرّ، فإذا تكمل استدعى له من خزانة الفرش وطاء حرير لشدّه، و شرابة لمسكه، إمّا خضراء أو حمراء، و يعمل له صدر من الكلام اللائق بما بعده، و هذا كله خارج عن الكسوات المطلقة لأربابها، و الرسوم المعدّة فى كل سنة، و ما يحمل من دار الفطرة من الأصناف برسم عيد الفطر، و عما يشهد به دفتر المجلس من العطايا الخافية و الرسوم، و قد انعقد مرّة، و أنا أتولى ديوان الرواتب على ما مبلغه نيف و مائة ألف دينار أو قريب من مائتى ألف دينار، و من القمح و الشعير على عشرة آلاف أردب، فإذا فرغ من مسكه فى الشرابة حمل إلى صاحب ديوان النظر إن كان، و إلّا فلصاحب ديوان المجلس ليعرضه على الخليفة، إن كان يعنى مستبدّا أو الوزير لاستقبال المحرّم من السنة الآتية فى أوقات معلومة، فيتأخر فى العرض، و ربما يستوعب المحرّم ليحيط العلم بما فيه، فإذا كمل العرض أخرج إلى الديوان، و قد شطب على بعضه، و كانوا يتحرّجون من الإقامات على مال الدولة التى لا أصل لها، و على غير متوفر، و يتنجزها أربابها بالمستقبلات على الخلفاء و الوزراء، و ينقص قوم للاستكثار، و يزاد قوم للاستحقاق، و يصرف قوم، و يستخدم آخرون على ما تقتضيه الآراء فى ذلك الوقت، ثم يسلم لرب هذا الديوان فيحمل الأمر على ما شطب عليه، و علامة الإطلاق خروجه من العرض.

و قيل: إنه عمل مرّة فى أيام المستنصر بالله، فلما استؤذن على عرضه، قال: هل وقع أحد بما فيه غيرنا؟ قيل له: معاذ اللّه يا مولانا، ما تمّ إنعام إلّا لك، و لا رزق إلّا من اللّه على يديك، فقال: ما ينقص به أمرنا، و لا خطنا، و ما صرفناه فى دولتنا بإذننا، و تقدّم إلى ولىّ الدولة بن جبران كاتب الإنشاء بإمضائه للناس من غير عرض، و حمل الأمر على حكمه، و وقع عن الخليفة بظاهره: الفقر مرّ المذاق، و الحاجة تذل الأعناق، و حراسة النعم بإدرار الأرزاق، فليجروا على رسومهم فى الإطلاق ما عندكم ينفد، و ما عند اللّه باق.

و وقع فى خلافة الحافظ لدين اللّه على استيمار الرواتب ما نصه: أمير المؤمنين لا يستكثر فى ذات اللّه كثيرا لإعطاء، و لا يكدّره بالتأخير له، و التسويف، و الإبطاء، و لما انتهى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۳

إليه ما أرباب الرواتب عليه من القلق للامتناع من إيجاباتهم، و حمل خروجاتهم، قد ضعفت قلوبهم، و قنطت نفوسهم، و ساءت

ظنونهم، شملهم برحمته و رأفته، و أمنهم مما كانوا وجلين من مخافته، و جعل التوقيع بذلك بخط يده تأكيدا للإنعام و المنّ، و تهنئة بصدقة لا تتبع بالأذى و المنّ، فليعتمد فى ديوان الجيوش المنصورة إجراء ما تضمنت هذه الأوراق ذكرهم على ما ألفوه، و عهدوه من رواتبهم، و إيجابها على سياقها لكافتهم من غير تأوّل، و لا- تعنت و لا- استدراك و لا- تعقب و ليجروا فى نسبياتهم على عادتهم لا ينقض من أمرهم ما كان مبرما، و لا ينسخ من رسمهم ما كان محكما، كرما من أمير المؤمنين، و فعلا مبرورا، و عملا بما أخبر به عز و جل فى قوله تعالى: إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً [الإنسان/ ۹] و لينسخ فى جميع الدواوين بالحضرة إن شاء اللّه تعالى.

و قال فى كتاب كنز الدرر: إن فى سنة ست و أربعمائة: عرض على الحاكم بأمر اللّه الاستيمار باسم المتفقهين، و القرّاء، و المؤذنين بالقاهرة و مصر، و كانت الجملة فى كل سنة: أحدا و سبعين ألف دينار، و سبعمائة، و ثلاثة و ثلاثين دينارا و ثلثى دينار و ربع دينار، فأمضى جميع ذلك.

و قال ابن المأمون: و أما الاستيمار، فبلغنى ممن أثق به أنه كان فى الأيام الأفضلية اثنى عشر ألف دينار، و صار فى الأيام المأمونية لاستقبال سنة ست عشرة، و خمسمائة ستة عشر ألف دينار، و أما تذكر الطراز، فالحكم فيها مثل الاستيمار، و الشائع فيها أنها كانت تشمل فى الأيام الأفضلية على أحد و ثلاثين ألف دينار، ثم اشتملت فى الأيام المأمونية على ثلاثة و أربعين ألف دينار، و تضاعفت فى الأيام الآمرية، و عرض روزنامج بما أنفق عينا من بيت المال فى مدّة أوّلها محرّم سنة سبع و عشرة و خمسمائة، و آخرها: سلخ ذى الحجة منها فى العساكر المسيرة لجهاد الفرنج برّا، و الأساطيل بحرا، و المنفق فى أرباب النفقات من الحجرية و المصطيعية و السودان على اختلاف قبوضهم، و ما ينصرف برسم خزانة القصور الزاهرة، و ما يبتاع من الحيوان برسم المطابخ، و ما هو برسم منديل الكمّ الشريف فى كل سنة، مائة دينار، و المطلق فى الأعياد و المواسم، و ما ينعم به عند الركوبات من الرسوم و الصدقات، و عند العود منها، و ثمن الأمتعة المبتاعة من التجار على أيدى الوكلاء و المطلق برسم الرسل، و الضيوف، و من يصل متسأمنا، و دار الطراز، و دار الديباج، و المطلق برسم الصلاة و الصدقات، و من يعتدى للإسلام، و ما ينعم به على الولاة عند استدامهم فى الخدم، و نفقات بيت المال، و العمائر و هو من العين: أربعمائة ألف و ثمانية و ستون ألفا، و سبعمائة و سبعة و تسعون دينارا و نصف من جملة: خمسمائة ألف و سبعة و ستين و ألفا، و مائة و أربعين دينارا و نصف، يكون الحاصل بعد ذلك مما يحمل إلى الصناديق الخاص برسم المهمات لما يتجدّد من تسفير العساكر، و ما يحمل إلى الثغور عند نفاد ما بها: ثمانية و تسعين ألفا، و مائة و سبعة و تسعين دينارا و ربعا و سدسا، و لم يكن يكتب من بيت المال وصول، و لا مجرى و لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۴

تعرّف، و ذلك خارج عما يحمل مشاهرة برسم الديوان المأمونىّ، و الأجلاء إخوته، و أولاده، و ما أنعم به على ما تضمنت اسمه مشاهرة من الأصحاب، و الحواشى، و أرباب الخدم، و الكتاب، و الأطباء، و الشعراء، و الفرّاشين الخاص و الجوق، و المؤدبين، و الخياطين، و الرفائين، و صبيان بيت المال، و نوّاب الباب، و نقباء الرسائل، و أرباب الرواتب المستقرّة من ذوى النسب، و البيوتات و الضعفاء، و الصعاليك من الرجال و النساء عن مشاهرتهم، ستة عشر ألفا، و ستمائة و اثنان و ثمانون دينارا و ثلثا دينار يكون فى السنة: مائتى ألف و مائة دينار، فتكون الجملة سبمائة ألف و سبعة و ستين ألفا و مائتين و أربعة و تسعين دينارا و نصفا.

قال: و فى هذا الوقت، يعنى شوّال، سنة سبع عشرة و خمسمائة: وقعت مرافعة فى أبى البركات بن أبى الليث متولى ديوان المجلس صورتها المملوك يقبل الأرض، و ينهى إنه ما واصل إنهاء حال هذا الرجل، و ما يعتمده لأنه أهل أن ينال خدمته، و إنما هى نصيحة تلزمه فى حق سلطانه، و قد حصل له من الأموال و الذخائر ما لا عدد له و لا قيمة عليه، و يضرب المملوك عن وجوه الجناية التى هى ظاهرة، لأن السلطان لا يرضى بذكرها فى عالى مجلسه و لا سماعها فى دولته، و له و لأهله مستخدمون فى الدولة ست عشرة سنة بالجارى الثقيل لكل منهم.

و يذكر المملوك ما وصلت قدرته إلى علمه، ما هو باسمه خاصة دون من هو مستخدم فى الدواوين من أهله، و أصحابه، و يبدأ بما باسمه مياومة إدرارا من بيت المال، و الخزائن و دار التعبية، و المطابخ، و شون الحطب، و هو ما يبين برسم البقولات و التوابل: نصف دينار، و من الضأن: رأس واحد، و من الحيوان: ثلاثة أطيار، و من الحطب: حملة واحدة، و من الدقيق: خمسة و عشرون رطلا، و من الخبز: عشرون وظيفة، و من الفاكهة: ثمرة زهرة قصريتان و شمامة، و فى كل اثنين و خميس من السماط بقاعة الذهب: طيفور خاص و صحن من الأوائل، و خمسة و عشرون رغيفا من الخبز الموائدى و السميذ، و فى كل يوم أحد و أربعاء من الأسمطة بالدار المأمونية مثل ذلك، و فى كل يوم سبت و ثلاثاء من أسمطة الركوبات: خروف مشوىّ، و جام حلوى و رباعى عنبا، و يحضر إليه فى كل يوم من الإصطبلات بغلة بمركوب محلى و بغلة برسم الراجل، و فراشين من الجوق برسم خدمته، و تبيت على بابه، و إذا خرج من بين يدى السلطان فى الليل، كان له شمعة من الموكبيات توصله إلى داره وزنها: سبعة عشر رطلا، و لا تعود، و برسم ولده: فى كل يوم ثلاثة أرطال لحم، و عشرة أرطال دقيق، و فى أيام الركوبات رباعى، و المشاهرة جارى ديوان الخاص،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۵

و المجلس برسمه: مائة و عشرون دينارا، و برسم ولده: راتبا عشرة دنانير و أثبت أربعة غلمان نصارى، و نسبهم للإسلام فى جملة المستخدمين فى الركاب، و لم يخدموا لا فى الليل، و لا فى النهار بما مبلغه سبعة دنانير، و من السكر خمسة عشر رطلا، و من عسل النحل:

عشرة أرطال، و من قلب الفستق: ثلاثة أرقال، و قلب البندق: خمسة أرطال، و قلب اللوز:

أربعة أرطال، و ورد مربى: رطلان، زيت طيب: عشرة أرطال، شيرج: خمسة أرطال، زيت حار: ثلاثون رطلا، خل: ثلاث جرار، أرز: نصف ويبة، سماق: أربعة أرطال، حصرم و كشك، و حب رمّان، و قراصيا بالسوية: اثنا عشر رطلا، سدر و أشنا: ويبة، و من الكيزان: عشرون شربة عزيزية و ثلجية واحدة، و من الشمع ست شمعات منهنّ: اثنتان منويات، و أربعة رطليات، و المسانهة فى بكور الغرّة برسم الخاصة: خمسة دنانير، و خمسة رباعية، و عشرة قراريط جدد، و برسم ولده: دينار و رباعى، و ثلاثة قراريط، و خروف مقموم، و خمسة أرؤس، و ربع قنطار خبز برماذق، و صحن أرز بلبن و سكر، و من السماط بالقصر فى اليوم المذكور خروف شواء، و زبادى، و جام حلوى و الخبز، و قطعة منفوخ، و من القمح: ثلثمائة أردب، و من الشعير: مائة و خمسون أردبا.

و فى المواليد الأربعة: أربع صوانى فطرة، و كسوة الشتاء، برسمه خاصة منديل حريرى و شقة ديبقىّ حرير و شقة ديباج، و رداء أطلس، و شقة ديباج دارى، و شقتان سقلاطون إحداهما اسكندرانية و شقتان عتابىّ و شقتان خز مغربىّ، و شقتان اسكندرانىّ، و شقتان دمياطىّ، و شقة طلى مرش، و فوطة خاص.

و برسم ولده: شقة سقلاطون دارى، و شقة عتابىّ دارى، و شقة خز مغربىّ، و شقتان دمياطىّ، و شقتان اسكندرانىّ، و شقة طلى و فوطة.

و برسم من عنده: منديلا كم أحدهما خزائنىّ خاص، و نصفى أردية ديبقى، و شقة سقلاطون دارى و شقة عتابىّ، و شقة سوسىّ، و شقة دمياطىّ، و شقتان اسكندرانىّ، و فوطة، و برسمه أيضا فى عيد الفطر: طيفوران، فطرة مشورة، و مائة حبة بورى، و بدلة مذهبة مكملة، و لولده: بدلة حرير، و برسم من عنده حلة مذهبة، و فى عيد النحر: رسمه مثل عيد الفطر، و يزيد عنه هبة مائة دينار، و لولده: مثل عيد الفطر و زيادة عشرة دنانير، و يساق إليه من الغنم ما لم يكن باسمه.

و فى موسم فتح الخليج: أربعون دينارا، و صينية فطرة، و طيفور خاص من القصر، و خروف شواء، و حام حلواء، و برسم ولده: خمسة دنانير، و لخاصه فى النوروز: ثلاثون دينارا، و شقة ديبقى حريرى، و شقة لاذ و معجر حريرى، و منديل كم حريرى، و فوطة، و مائة بطيخة، و سبعمائة حبة رمان، و أربعة عناقيد موز، و فرد بسر و ثلاثة أقفاص تمر قوصىّ، و قفصان سفرجل، و ثلاث بكالى هريسة، واحدة بدجاج، و أخرى بلحم ضان،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۶

و الثالثة بلحم بقرىّ، و أربعون رطلا خبز برماذق، و لولده: خمسة دنانير و حوائج النوروز بما تقدّم ذكره، و برسم الغيطاس: خمسمائة حبة ترنج و نارنج و ليمون مركب، و خمسة عشر طنّ قصب، و عشر حبات بورى، و باسمه فى عيد الغدير من السماط بالقصر مثل عيد النحر، و له هبة عن رسم الخلع من المجلس المأمونىّ، يعنى مجلس الوزارة ثلاثون دينارا، و لولده خمسة دنانير، و من تكون هذه رسومه فى أىّ وجه تنصرف أمواله، و الذى باسم أخيه نظير ذلك، و كذلك صهره فى ديوان الوزارة و ابن أخيه فى الديوان التاجىّ، و وجوه الأموال من كل جهة واصلة إليهم، و الأمانة مصروفة عنهم.

و قد اختصر المملوك فيما ذكر، و الذى باسمه أكثر، و إذا أمر بكشف ذلك من الدواوين تبين صحة قول المملوك، و علم أنه ممن يتجنب قول المحال، و لا يرضاه لنفسه سيما أن رفعه إلى المقام الكريم، و شنع ذلك بكثرة القول فيهم، و عرّض بالقبض عليهم، و أوجب على نفسه أنه يثبت فى جهاتهم من الأموال التى تخرج عن هذا الإنعام ما يجده حاضرا مدخورا عند من يعرفه مائة ألف دينار، فلم يسمع كلامه إلى أن ظهر الراهب فى الأيام الآمرية، فوجد هو و غيره الفرصة فيهم، و كثر الوقائع عليهم، فقبض عليهم عن آخرهم، و من يعرفهم، و أخذ منهم الجملة الكبيرة، ثم بعد ذلك عادوا إلى خدمهم بما كان من أسمائهم، و تجدّد من جاههم، و انتقامهم من أعدائهم أكثر مما كان أوّلا، انتهى.

فانظر أعزك اللّه إلى سعة أحوال الدولة من معلوم رجل واحد من كتاب دواوينها، يتبين لك بما تقدّم ذكره فى هذه المرافعة من عظم الشأن و كثر العطاء، ما يكون دليلا على باقى أحوال الدولة.

ديوان النظر

قال ابن الطوير: أما دواوين الأموال، فإنّ أجلّها من يتولى النظر عليهم، و له العزل، و الولاية، و من يده عرض الأوراق فى أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير، و لم ير فيه نصرانىّ، إلّا الأحزم، و لم يتوصل إليه إلّا بالضمان، و له الاعتقال بكل مكان يتعلق بنوّاب الدولة، و له الجلوس بالمرتبة، و المسند، و بين يديه حاجب من أمراء الدولة، و تخرج له الدواة بغير كرسى، و هو يندب المترسلين لطلب الحساب، و الحث على طلب الأموال، و مطالبة أرباب الدولة، و لا يعترض فيما يقصده من أحد من الدولة.

ديوان التحقيق

هو ديوان مقتضاه المقابلة على الدواوين، و كان لا يتولاه إلّا كاتب خبير، و له الخلع المرتبة، و الحاجب، و يلحق برأس الديوان يعنى متولى النظر، و يفتقر إليه فى أكثر الأوقات.

و قال ابن المأمون: و فى هذه السنة يعنى سنة إحدى و خمسمائة: فتح ديوان المجلس،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۷

قال: و لما كثرت الأموال عند ابن أبى الليث صاحب الديوان، رغب فى التبجح على الأفضل بن أمير الجيوش ينهضه، و يسأله أن يشاهده قبل حمله، و ذكر أنه سبعمائة ألف دينار خارجا عن نفقات الرجال، فجعلت الدنانير فى صناديق بجانب، و الدراهم فى صناديق بجانب، و قام ابن أبى الليث بين الصفين، فلما شاهد الأفضل بن أمير الجيوش ذلك، قال لابن أبى الليث: يا شيخ تفرّحنى بالمال؟ و تربة أمير الجيوش إن بلغنى أن بئرا معطلة، أو أرضا بائرة، أو بلدا خراب، لأضربنّ عنقك، فقال: و حق نعمتك لقد حاشا اللّه أيامك أن يكون فيها بلد خراب، أو بئر معطلة، أو أرض بور، فأبى أن يكشف عما ذكر انتهى.

و قتل ابن أبى الليث فى سنة ثمان عشرة و خمسمائة.

ديوان الجيوش و الرواتب

قال ابن الطوير: أما الخدمة فى ديوان الجيوش، فتنقسم قسمين: الأوّل ديوان الجيش، و فيه مستوف أصيل و لا يكون إلّا مسلما، و له مرتبة على غيره لجلوسه بين يدى الخليفة داخل عتبة باب المجلس، و له الطرّاحة، و المسند، و بين يديه الحاجب، و ترد عليه أمور الأجناد، له العرض و الحلى و الثياب.

و لهذا الديوان خازنان برسم رفع الشواهد، و إذا عرض أحد الأجناد، و رضى به عرض دوابه، فلا يثبت له إلّا الفرس الجيد من ذكور الخيل، و إناثها، و لا يترك لأحد منهم برذون و لا بغل، و إن كان عندهم البراذين و البغال، و ليس لهم تغيير أحد من الأجناد إلّا بمرسوم، و كذلك إقطاعهم، و يكون بين يدى هذا المستوفى: نقباء الأمراء ينهون إليه متجدّدات الأجناد من الحياة و الموت و المرض و الصحة، و كان قد فسح للأجناد فى مقايضة بعضهم بعضا فى الإقطاع بالتوقيعات بغير علامة، بل بتخريج صاحب ديوان المجلس، و من هذا الديوان تعمل أوراق أرباب الجرايات، و ما كان لأمير، و إن علا قدره بلد مقور إلّا نادرا.

و أما القسم الثانى من هذا الديوان: فهو ديوان الرواتب، و يشتمل على أسماء كل مرتزق، و جار، و جارية، و فيه كاتب أصيل بطرّاحة، و فيه من المعينين و المبيضين نحو عشرة أنفس و التعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار من هو مستمرّ، و مباشرة من استجدّ، و موت من مات ليوجب استحقاقه على النظام المستقيم.

و فى هذا الديوان عدّة عروض، العرض الأوّل: يشتمل على راتب الوزير، و هو فى الشهر خمسة آلاف دينار، و من يليه من ولد، و أخ من ثلثمائة دينار إلى مائتى دينار، و لم يقرّر لولد وزير خمسمائة دينار سوى شجاع بن شاور، المنعوت: بالكامل، حواشيهم على مقتضى عدّتهم، من خمسمائة إلى أربعمائة إلى ثلثمائة خارجا عن الإقطاعات.

العرض الثانى حواشى الخليفة، و أوّلهم: الأستاذون المحنكون على رتبهم، و جوارى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۸

خدمهم التى لا يباشرها سواهم، فزمام القصر، و صاحب بيت المال، و حامل الرسالة، و صاحب الدفتر، و مشاد التاج، و زمام الأشراق الأقارب، و صاحب المجلس لكل واحد منهم: مائة دينار فى كل شهر، و من دونهم ينقص عشرة دنانير حتى يكون آخرهم من له فى كل شهر عشرة دنانير، و تزيد عدّتهم على ألف نفس، و لطبيبى الخاص لكل واحد: خمسون دينارا، و لمن دونهما من الأطباء برسم المقيمين بالقصر، لكل واحد عشرة دنانير.

العرض الثالث: يتضمن أرباب الرتب بحضرة الخليفة، فأوّله كاتب الدست الشريف، و جارية: مائة و خمسون دينارا، و لكل واحد من كتابه ثلاثون دينارا، ثم صاحب الباب و جارية: مائة و عشرون دينارا، ثم حامل السيف و حامل الرمح لكل منهما: سبعون دينارا و بقية الأزمّة على العساكر و السودان: من خمسين إلى أربعين دينارا إلى ثلاثين دينارا.

العرض الرابع: يشتمل على المستقرّ لقاضى القضاة، و من يلى قاضى القضاة: مائة دينار، و داعى الدعاة: مائة دينار، و لكل من قرّاء الحضرة: عشرون دينارا إلى خمسة عشر إلى عشرة، و الخطباء الجوامع: من عشرين دينارا إلى عشرة، و للشعراء من عشرين دينارا إلى عشرة دنانير.

العرض الخامس: يشتمل على أرباب الدواوين، و من يجرى مجراهم، و أوّلهم: من يتولى ديوان النظر و جاريه: سبعون دينارا، و ديوان التحقيق جاريه: خمسون دينارا، و ديوان المجلس: أربعون دينارا، و صاحب دفتر المجلس: خمسة و ثلاثون دينارا، و كاتبه: خمسة دنانير، و ديوان لجيوش و جاريه: أربعون دينارا، و الموقع بالقلم الجليل: ثلاثون دينارا، و لجميع أصحاب الدواوين الجارى فيها

المعاملات لكل واحد: عشرون دينارا، و لكل معين: من عشرة دنانير إلى سبعة إلى خمسة دنانير.

العرض السادس: يشتمل على المستخدمين بالقاهرة و مصر لكل احد من المستخدمين فى ولاية القاهرة، و ولاية مصر فى الشهر: خمسون دينارا، و الحماة بالإهراء، و المناخات و الجوالى و البساتين، و الأملاك و غيرها لكل منهم: من عشرين دينارا إلى خمسة عشر إلى عشرة إلى خمسة دنانير.

العرض السابع: الفرّاشون بالقصور برسم خدمها و تنظيفها خارجا و داخلا و نصب الستائر المحتاج إليها، و خدمة المناظر الخارجة عن القصر، فمنهم خاص برسم خدمة الخليفة، و عدّتهم: خمسة عشر رجلا منهم: صاحب المائدة، و حامى المطابخ: من ثلاثين دينارا إلى ما حولها، و لهم رسوم متميزة، و يقربون من الخليفة فى الأسمطة التى يجلس عليها، و يليهم الرشاشون داخل القصر و خارجه، و لهم عرفاء، و يتولى أمرهم أستاذ من خواص الخليفة و عدّتهم: نحو الثلاثمائة رجل، و جار بهم: من عشرة دنانير إلى خمسة دنانير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۷۹

العرض الثامن: صبيان الركاب، و عدّتهم: تزيد على ألفى رجل، و مقدّموهم أصحاب ركاب الخليفة، و عدّتهم: اثنا عشر مقدّما، منهم: مقدّم المقدّمين، و هو صاحب الركاب اليمين، و لكل من هؤلاء المقدّمين فى كل شهر: خمسون دينارا، و لهم نقباء من جهة المذكورين يعرفونهم و هم مقرّرون جوقا على قدر جواريهم، جوقة لكل منهم: خمسة عشر دينارا، و جوقة لكل منهم: عشرة دنانير، و جوقة لكل منهم: خمسة دنانير، و منهم من ينتدب فى الخدم السلطانية، و يكون لهم نصيب فى الأعمال التى يدخلونها، و هم الذين يحملون الملحقات لركوب الخليفة فى المواسم و غيرها.

و أوّل من قرّر العطاء لغلمانه، و خدمه، و أولادهم الذكور و الإناث، و لنسائهم، و قرّر لهم أيضا الكسوة: العزيز بالله نزار بن المعز.

ديوان الإنشاء و المكاتبات

و كان لا يتولاه إلّا أجل كتاب البلاغة، و يخاطب: بالشيخ الأجل، و يقال له: كاتب الدست الشريف، و يسلم المكاتبات الواردة مختومة، فيعرضها على الخليفة من بعده، و هو الذى يأمر بتنزيلها، و الإجابة عنها للكتاب، و الخليفة يستشيره فى أكثر أموره، و لا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه، و هذا أمر لا يصل إليه غيره، و ربما بات عند الخليفة ليالى و كان جاريه: مائة و عشرين دينارا فى الشهر، و هو أوّل أرباب الإقطاعات، و أرباب الكسوة، و الرسوم و الملاطفات و لا سبيل أن يدخل إلى ديوانه بالقصر، و لا يجتمع بكتابه أحد إلّا الخواص، و له حاجب من الأمراء الشيوخ، و فرّاشون و له المرتبة الهائلة، و المخادّ، و المسند، و الدواة لكنها بغير كرسىّ، و هى من أخص الدوى، و يحملها أستاذ من أستاذى الخليفة.

التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم

و كان لا بدّ للخليفة من جليس يذاكره ما يحتاج إليه من كتاب اللّه، و تجويد الخط، و أخبار الأنبياء، و الخلفاء، فهو يجتمع به فى أكثر الأيام، و معه أستاذ من المحنكين مؤهل لذلك، فيكون الأستاذ ثالثهما، و يقرأ على الخليفة ملخص السير، و يكرّر عليه: ذكر مكارم الأخلاق، و له بذلك رتبة عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست، و يكون صحبته للجلوس دواة محلاة، فإذا فرغ من المجالسة، ألقى فى الدواة كاغد: فيه عشرة دنانير، و قرطاس: فيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۰

ثلاثة مثاقيل ندّ مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثانى مرة، و له منصب التوقيع بالقلم الدقيق، و له طرّاحة، و مسند، و

فرّاش يقدّم إليه ما يوقع عليه، و له موضع من حقوق ديوان المكاتبات، لا يدخل إليه أحد إلّا بإذن، و هو يلى صاحب ديوان المكاتبات فى الرسوم، و الكساوى و غيرها.

التوقيع بالقلم الجليل

و هى رتبة جليلة، و يقال لها: الخدمة الصغرى، و لها الطرّاحة، و المسند بغير حاجب، بل الفرّاش لترتيب ما يوقع فيه. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۲ ؛ ص ۲۸۰

مجلس النظر فى المظالم

كانت الدولة إذا خلت من وزير صاحب سيف، جلس صاحب الباب فى باب الذهب بالقصر، و بين يديه النقباء و الحجاب، فينادى المنادى بين يديه: يا أرباب الظلامات، فيحضرون، فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت إلى الولاة و القضاة رسالة بكشفها، و من تظلم ممن ليس من أهل البلدين أحضر قصة بأمره، فيتسلمها الحاجب منه، فإذا جمعها أحضرها إلى الموقع بالقلم الدقيق، فيوقع عليها، ثم تحمل إلى الموقع بالقلم الجليل، فيبسط ما أشار إليه الموقع الأوّل، ثم تحمل فى خريطة إلى الخليفة، فيوقع عليها، ثم تخرج فى الخريطة إلى الحاجب، فيقف على باب القصر، و يسلم كل توقيع لصاحبه، فإن كان وزيره صاحب سيف: جلس للمظالم بنفسه، و قبالته: قاضى القضاة، و من جانبيه شاهدان معتبران، و من جانب الوزير: الموقع بالقلم الدقيق، و يليه: صاحب ديوان المال، و بين يديه صاحب الباب و اسفهسلار العساكر، و بين أيديهما النوّاب، و الحجاب على طبقاتهم، و يكون الجلوس بالقصر فى مجلس المظالم فى يومين من الأسبوع، و كان الخليفة إذا رفعت إليه القصة، وقع عليها: يعتد ذلك إن شاء اللّه تعالى، و يوقع فى الجانب الأيمن منها، يوقع بذلك، فتخرج إلى صاحب ديوان المجلس، فيوقع عليها جليلا، و يخلى مكان العلامة فيعلم عليها الخليفة و تثبت، و كانت علامتهم أبدا: الحمد للّه رب العالمين، و كان الخليفة يوقع فى المسامحة، و التسويغ و التحبيس: قد أنعمنا بذلك، و قد أمضينا ذلك، و كان إذا أراد أن يعلم ذلك الشىء الذى أنهى وقع ليخرج الحال فى ذلك، فإذا أحضر إليه إخراج الحال، علم عليه فإن كان حينئذ وزير وقع الخليفة بخطه، وزيرنا السيد الأجل و ذكر نعته المعروف به أمتعنا اللّه ببقائه يتقدّم بنجاز ذلك إن شاء اللّه تعالى، فيكتب الوزير تحت خط

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۱

الخليفة: يمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه، و يثبت فى الدواوين.

رتب الأمراء

كان أجل خدم الأمراء: أرباب السيوف، خدم الباب، و يقال لمتولى هذه الخدمة:

صاحب الباب، و ينعت أوّلا بالمعظم، و أوّل من خدم بها: المعظم خمرتاش فى أيام الخليفة الحافظ، و كان من العقلاء، و ناب عن الحافظ فى مرضه، فلما عوفى أراده على الوزارة، فامتنع، و له نائب يقال له: النائب، و تسمى الخدمة فيها: بالنيابة الشريفة و مقتضاها أنها مميزة، و لا يليها إلّا أعيان العدول، و أرباب العمائم، و ينعت أبدا بعدى الملك، و هو الذى يتلقى الرسل الواصلة من الدول، و معه نوّاب الباب فى خدمته، و يحفظهم ينزلهم بالأماكن المعدّة لهم، و يقدّمهم للسلاح على الخليفة، و الوزير مع صاحب الباب،

فيكون صاحب الباب يمينا، و هو يسار، و يتولى افتقادهم، و الحث على ضيافتهم، و لا يمكن من التقصير فى حقوقهم، و اجتماع الناس بهم، و الاطلاع على ما جاؤوا فيه، و لا من ينقل الأخبار إليهم، و يلى رتبة صاحب الباب، الإسفهسلار، و هو زمام كل زمام، و إليه أمور الأجناد، ثم يليه حامل سيف الخليفة أيام الركوب بالمظلة و اليتيمة، ثم من يزم طائفتى الحافظية، و الآمرية، و هما وجه الأجناد، و هؤلاء أرباب الأطواق، و يليهم: أرباب القصب، و العماريات، و هى الأعلام، ثم زى الطوائف، ثم من يترشح لذلك من الأماثل و كانت الدولة لا تسند ذلك إلّا إلى أرباب الشجاعة، و النجدة، و لهذا دخل فيه أخلاط الناس من الأرمن و الروم و غيرهم، و على ذلك كان عملهم لا للزينة و التباهى.

قاضى القضاة

و كان من عادة الدولة، أنه إذا كان وزير: رب سيف، فإنه يقلد القضاء رجلا نيابة عنه، و هذا إنما حدث من عهد أمير الجيوش بدر الجمالىّ، و إذا كان الخليفة مستبدّا قلد القضاء رجلا، و نعته بقاضى القضاة، و تكون رتبته أجل رتب أرباب العمائم، و أرباب الأقلام، و يكون فى بعض الأوقات داعيا، فيقال له حينئذ: قاضى القضاة، و داعى الدعاة و لا يخرج شىء من الأمور الدينية عنه، و يجلس السبت و الثلاثاء، بزيادة جامع عمرو بن العاص بمصر على طرّاحة و مسند حرير.

فلما ولى ابن عقيل القضاء، رفع المرتبة و المسند، و جلس على طرّاحات السامان، فاستمرّ هذا الرسم و يجلس الشهود حواليه يمنة و يسرة بحسب تاريخ عدالتهم، و بين يديه خمسة من الحجاب اثنان بين يديه، و اثنان على باب المقصورة، و واحد ينفذ الخصوم إليه، و له أربعة من الموقعين بين يديه: اثنان يقابلان اثنين، و له كرسىّ الدواة، و هى دواة محلاة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۲

بالفضة تحمل إليه من خزائن القصور، و لها حامل بجامكية فى الشهر على الدولة، و يقدّم له من الإصطبلات برسم ركوبه على الدوام: بغلة شهباء، و هو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة، و عليها من خزانة السروج، سرج محلى ثقيل وراء دفتر فضة، و مكان الجلد حرير، و تأتيه فى المواسم الأطواق، و يخلع عليه الخلع المذهبة بلا طبل، و لا بوق إلّا إذا ولى الدعوة مع الحكم، فإنّ للدعوة فى خلعها الطبل، و البوق، و البنود الخاص و هى نظير البنود التى يشرّف بها الوزير صاحب السيف، و إذا كان للحكم خاصة كان حواليه القرّاء رجالة، و بين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة، و الوزير إن كان، ثم و يحمل بنوّاب الباب و الحجاب، و لا يتقدّم عليه أحد فى محضر هو حاضره من رب سيف و قلم، و لا يحضر لأملاك و لا جنازة إلا بإذن، و لا سبيل إلى قيامه لأحد، و هو فى مجلس الحكم و لا يعدّل شاهد إلّا بأمره، و يجلس بالقصر فى يومى الاثنين و الخميس، أوّل النهار للسلام على الخليفة، و نوّابه لا يفترون عن الأحكام، و يحضر إليه وكيل بيت المال، و كان له النظر فى ديوان الضرب لضبط ما يضرب من الدنانير فكان يحضر مباشرة التغليق بنفسه، و يختم عليه، و يحضر لفتحه، و كان القاضى لا يصرف إلّا بجنحة، و لا يعدّل أحد إلّا بتزكية عشرين شاهدا: عشرة من مصر، و عشرة من القاهرة، و رضى الشهود به، و لا يحتمى أحد على الشرع و من فعل ذلك أدب.

قاعة الفضة

و هى من جملة قاعات القصر.

قاعة السدرة

كانت بجوار المدرسة، و التربة الصالحية، و اشتراها قاضى القضاة: شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد بن علىّ بن سرور المقدسىّ الحنبلىّ، مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية: بألف و خمسة و تسعين دينارا فى رابع شهر ربيع الآخر: سنة ستين و ستمائة من كمال الدين ظافر بن الفقيه نصر وكيل بيت المال، ثم باعها شمس الدين المذكور للملك الظاهر بيبرس فى حادى عشرى ربيع الآخر المذكور، و كان يتوصل إليها من باب البحر.

قاعة الخيم

كانت شرقىّ قاعة السدرة، و قد دخلت قاعة السدرة، و قاعة الخيم فى مكان المدرسة الظاهرية العتيقة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۳

المناظر الثلاث

استجدّهن الوزير المأمون البطائحى، وزير الخليفة الآمر بأحكام اللّه: إحداهن بين باب الذهب، و باب البحر و الأخرى: على قوس باب الذهب، و منظرة ثالثة، و كان يقال لها: الزاهرة، و الفاخرة، و الناضرة، و كان يجلس الخليفة فى إحداها لعرض العساكر يوم عيد الغدير، و يقف الوزير فى قوس باب الذهب.

قصر الشوك

قال ابن عبد الظاهر كان منزلا لبنى عذرة قبل القاهرة يعرف: بقصر الشوك، و هو الآن أحد أبواب القصر انتهى، و العامّة تقول: قصر الشوق، و أدركت مكانه دارا استجدّت بعد الدولة الفاطمية، هدمها الأمير جمال الدين يوسف الإستادار فى سنة إحدى عشرة و ثمانمائة، لينشئها دارا، فمات قبل ذلك، و موضعه اليوم بالقرب من دار الضرب فيما بينه، و بين المارستان العتيق.

قصر أولاد الشيخ

هذا المكان من جملة القصر الكبير، و كان قاعة، فسكنها الوزير الصاحب الأمير الكبير: معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه فى أيام الملك الصالح:

نجم الدين أيوب، فعرف به، و أدركت هذا المكان خطا يعرف: بالقصر يتوصل إليه من زقاق تجاه حمام بيسرى، و فيه عدّة دور منها: دار الطواشى سابق الدين، و مدرسته المعروفة بالمدرسة السابقية، و كان يتوصل إليه من الركن المخلق أيضا من الباب المظلم تجاه سور سعيد السعداء بالمعروف قديما: بباب الريح، ثم عرف: بقصر ابن الشيخ، و عرف فى زمننا: بباب القصر إلى أن هدمه جمال الدين الإستادار كما يأتى إن شاء اللّه تعالى.

قصر الزمرّد

هو من جملة القصر الكبير، و عرف أخيرا: بقصر قوصون، ثم عرف فى زمننا: بقصر الحجازية، و قيل له: قصر الزمرّد لأنه كان بجوار: باب الزمرد، أحد أبواب القصر، و وجد به فى سنة بضع و سبعين و سبعمائة تحت التراب عمودان عظيمان من الرخام الأبيض، فعمل لهما ابن عابد رئيس الحراريق السلطانية أساقيل، و جرّهما إلى المدرسة التى أنشأها الملك الأشرف شعبان بن حسين تجاه: الطبلخاناة من قلعة الجبل، و أدركنا لجرّ هذين العمودين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۴

أوقاتا فى أيام تجمع الناس فيها من كل أوب لمشاهدة ذلك، و لهجوا بذكرهما زمنا، و قالوا فيهما شعرا، و غناء كثيرا، و عملوا نموذجات من ثياب الحرير، و تطريز المناديل عرفت بجرّ العمود، و كانت الأنفس حينئذ منبسطة، و القلوب خالية من الهموم و للناس إقبال على اللهو لكثرة نعمهم، و طول فراغهم، و كان العمودان المذكوران، مما ارتدم من أنقاض القصر فسبحان الوارث.

الركن المخلق

موضعه الآن: تجاه حوض الجامع الأقمر على يمنة من أراد الدخول إلى المسجد المعروف الآن: بمعبد موسى و قيل له: الركن المخلق لأنه ظهر فى: سنة ستين و ستمائة فى هذا الموضع حجر مكتوب عليه: هذا مسجد موسى عليه السلام، فخلق بالزعفران، و سمى من ذلك اليوم بالركن المخلق، و أخبرنى الأمير الوزير أبو المعالى يلبغا السالمىّ، أنه قرأ فى الأسطر المكتوبة: بأسكفة باب الجامع الأقمر كلاما من جملته، و الحوانيت التى بالركن المخوّق: بواو بعد الخاء، فرأيت بعد ذلك فى الأمالى للقالى، و قال أبو عبيدة عن أبى عمر، و الخوقاء: الصحراء التى لا ماء بها، و يقال: الواسعة و أخوق: واسع، فلعله سمى: المخوّق بمعنى الاتساع، فكان ركنا متسعا، و فى بناء واسع أو يكون المخلق باللام من قولهم قدح مخلق بضم الميم، و فتح الخاء، و تشديد اللّام، و فتحها أى: مستو أملس، و كل ما لين و ملس، فقد خلق، فكل مملس مخلق، و سمته العامة بعد ذلك: الركن المخلق عندما خلقوه بالزعفران، و اللّه أعلم.

السقيفة

و كان من جملة القصر الكبير موضع يعرف: بالسقيفة يقف عنده المتظلمون، و كانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين، فإذا ظلم أحد وقف تحت السقيفة، و قال بصوت عال: لا إله إلّا اللّه محمد رسول اللّه علىّ وليّ اللّه، فيسمعه الخليفة، فيأمر بإحضاره إليه، أو يفوّض أمره إلى الوزير أو القاضى أو الوالى، و من غريب ما وقع أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۵

الموفق بن الخلال: لما كان يتحدّث فى أمور الدواوين أيام الخليفة الحافظ لدين اللّه، و خرج من انتدب بعد انحطاط النيل من العدول، و النصارى الكتاب إلى الأعمال لتحرير ما شمله الرىّ، و زرع من الأراضى و كتابة المكلفات، فخرج إلى بعض النواحى من يمسحها من شادّ، و ناظر، و عدول، و تأخر الكاتب النصرانىّ، ثم لحقهم و أراد التعدية إلى الناحية، فحمله ضامن تلك المعدّية إلى البرّ، و طلب منه أجرة التعدية، فنفر فيه النصرانىّ و وسبّه، و قال: أنا ماسح هذه البلدة، و تريد منى حق التعدية، فقال له الضامن: إن كان لى زرع خذه، و قلع لجام بغلة النصرانىّ، و ألقاه فى معدّيته، فلم يجد النصرانى بدّا من دفع الأجرة إليه، حين أخذ لجام بغلته، فلما تمم مساحة البلد، و بيض مكلفة المساحة ليحملها إلى دواوين الباب، و كانت عادتهم حينئذ، كتب الجملة بزيادة عشرين فدّانا ترك بياضا فى بعض الأوراق، و قابل العدول على المكلفة، و أخذ الخطوط عليها بالصحة، ثم كتب فى البياض الذى تركه: أرض اللجام باسم ضامن المعدّية عشرين فدانا، قطيعة كل فدّان: أربعة دنانير، عن ذلك ثمانون دينارا، و حمل المكلفة إلى ديوان الأصل و كانت

العادة إذا مضى من السنة الخراجية أربعة أشهر ندب من الجند من فيه حماسة، و شدّة، و من الكتاب العدول، و كاتب نصرانيّ، فيخرجون إلى سائر الأعمال لاستخراج ثلث الخراج على ما تشهد به المكلفات المذكورة فينفق فى الأجناد، فإنه لم يكن حينئذ للأجناد إقطاعات، كما هو الآن، و كان من العادة أن يخرج إلى كل ناحية ممن ذكر من لم يكن خرج وقت المساحة، بل ينتدب قوم سواهم، فلما خرج الشادّ و الكاتب و العدول لاستخراج ثلث مال الناحية استدعوا أرباب الزرع على ما تشهد به المكلفة، و من جملتهم ضامن المعدّية، فلما حضر: ألزم بستة و عشرين دينارا و ثلثى دينار عن نظير ثلث المال الثمانين دينارا التى تشهد بها المكلفة، عن خراج أرض اللجام فأنكر الضامن أن تكون له زراعة بالناحية، و صدّقه أهل البلد، فلم يقبل الشادّ ذلك، و كان عسوفا، و أمر به فضرب بالمقارع و احتج بخط العدول على المكلفة، و ما زال به حتى باع معدّيته و غيرها، و أورد ثلث المال الثابت فى المكلفة و سار إلى القاهرة، فوقف تحت السقيفة، و أعلن بما تقدّم ذكره، فأمر الخليفة الحافظ بإحضاره، فلما مثل بحضرته قص عليه ظلامته مشافهة، و حكى له ما اتفق منه فى حق النصرانيّ، و ما كاده به، فأحضر ابن الخلال، و جميع أرباب الدواوين، و أحضرت المكلفات التى عملت للناحية المذكورة فى عدّة سنين ماضية، و تصفحت بين يديه سنة سنة، فلم يوجد لأرض اللجام ذكر البتة، فحينئذ أمر الخليفة الحافظ: بإحضار ذلك النصرانيّ، و سمر فى مركب و أقام له من يطعمه و يسقيه، و تقدّم بأن يطاف به سائر الأعمال، و ينادى عليه، ففعل ذلك، و أمر بكف أيدى النصرانية كلها عن الخدم فى سائر المملكة، فتعطلوا مدّة إلى أن ساءت أحوالهم.

و كان الحافظ مغرما بعلم النجوم و له عدّة من المنجمين من جملتهم: شخص صار إليه عدّة من أكابر كتاب النصارى، و دفعوا إليه جملة من المال، و معهم رجل منهم يعرف:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۶

بالأخرم بن أبى زكريا، و سألوه أن يذكر للحافظ فى أحكام تلك السنة حلية هذا الرجل، فإنه إن أقامه فى تدبير دولته زاد النيل، و نما الارتفاع، و زكت الزروع، و نتجت الأغنام، و درّت الضروع، و تضاعفت الأسماك، و ورد التجار، و جرت قوانين المملكة على أجمل الأوضاع، فطمع ذلك المنجم فى كثرة ما عاينه من الذهب و عمل ما قرّره النصارى معه، فلما رأى الحافظ ذلك تعلقت نفسه بمشاهدة تلك الصفة، فأمر بإحضار الكتاب من النصارى، صار يتصفح وجوههم من غير أن يطلع أحدا على ما يريده، و هم يؤخرون الأخرم عن الحضور إليه قصدا منهم، و خشية أن يفطن بمكرهم إلى أن اشتدّ إلزامهم بإحضار سائر من بقى منهم، فأحضروه بعد أن وضعوا من قدره، فلما رآه الحافظ: رأى فيه الصفات التى عينها منجمه، فاستدناه إليه، و قربه و آل أمره إلى أن ولّاه أمير الدواوين، فأعاد كتاب النصارى أوفر ما كانوا عليه، و شرعوا فى التجبر، و بالغوا فى إظهار الفخر، و تظاهروا بالملابس العظيمة، و ركبوا البغلات الرائعة، و الخيول المسوّمة بالسروج المحلاة، و اللجم الثقيلة، و ضايقوا المسلمين فى أرزاقهم و استولوا على الأحباس الدينية، الأوقاف الشرعية، و اتخذوا العبيد و المماليك، و الجوارى من المسلمين و المسلمات، و صودر بعض كتاب المسلمين، فألجأته الضرورة إلى بيع أولاده و بناته، فيقال: إنه اشتراهم بعض النصارى، و فى ذلك يقول ابن الخلال:

إذا حكم النصارى فى الفروجو غالوا بالبغال و بالسروج

و ذلت دولة الإسلام طرّاو صار الأمر فى أيدى العلوج

فقل للأعور الدجال هذازمانك إن عزمت على الخروج

و موضع السقيفة فيما بين درب السلامى، و بين خزانة البنود يتوصل إليه من تجاه البئر التى قدّام دار كانت تعرف: بقاعة ابن كتيلة، ثم استولى عليها جمال الدين الإستادار، و جعلها مسكنا لأخيه ناصر الدين الخطيب و غير بابها.

دار الضرب

هـذا المكان الـذى هو الآن: دار الضـرب من بعض القصـر، فكان خزانـة بجوار الإيوان الكبير سـجن بها الخليفـة الحافظ لـدين اللّه أبو الميمون عبـد المجيـد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصـر باللّه أبى تميم معدّ، ذلك أنّ الآمر لما قتل فى يوم الثلاثاء: رابع عشـر ذى القعدة سنة أربع و عشرين خمسمائة، قام العادل برغش، و هزار الملوك جوامرد ، و كانا أخص غلمان الآمر بالأمير عبد المجيد، و نصباه خليفة، و نعتاه بالحافظ لدين اللّه، و هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۷

يومئـذ أكبر الأقـارب سـنا، و ذكر أن الآمر، قال قبل أن يقتل بأسـبوع عن نفسـة المسـكين المقتول بالسـكين، و إنه أشار إلى أن بعض جهاته حامل منه، و أنه رأى أنها ستلد ذكرا، و هو الخليفة من بعده، و أن كفالته للأمير عبد المجيد، فجلس على أنه كافل للمذكور، و ندب هزار الملوك للوزارة، و خلع عليه، فلم ترض الأجناد به، و ثاروا بين القصـرين، و كبيرهم رضوان بن ولخشـى، و قاموا بأبى علىّ بن الأفضـل الملقب: بكتيفات، و قالوا: لا نرضـى إلّا أن يصـرف هزار الملوك و تفوّض الوزارة لأحمـد بن الأفضل فى سادس عشـرة، فكان أوّل ما بـدأ به أن أحاط على الخليفة الحافظ، و سـجنه بالقاعة المذكورة، و قيده، و همّ بخلعه، فلم يتأت له ذلك، و كان إماميا، فأبطـل ذكر الحافـظ من الخطبـة، و صار يـدعو للقائم المنتظر، و نقش على السـكة: اللّه الصـمد الإمام محمـد، فلما قتل فى يوم الثلاثاء سادس عشـر المحرّم سـنة ست و عشرين و خمسمائة بالميدان خارج باب الفتوح، سارع صبيان الخاص الذين تولوا قتله إلى الحافظ، و أخرجوه من الخزانـة المـذكورة و فكوا عنه قيـده، و كان كبيرهم: يانس ، و أجلسوه فى الشـباك على منصب الخلافـة، و طيف برأس أحمد بن الأفضل، و خلع على:

يانس خلع الوزارة، و ما زالت الخلافة فى يد الحافظ، حتى مات ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سـنة أربع و أربعين، و خمسمائة عن: سبع و ستين سنة منها: خليفة من حين قتل ابن الأفضل: ثمان عشرة سنة، و أربعة أشهر و أيام.

خزائن السلاح

كانت بالإيوان الكبير الـذى تقـدّم ذكره فى صـدر الشـباك الـذى يجلس فيه الخليفة تحت القبة التى هدمت فى سـنة سـبع و ثمانين و سبعمائة كما تقـدّم، و خزائن السـلاح المـذكورة هى الآن باقية بجوار دار الضـرب خلف المشـهد الحسـينىّ، و عقد الإيوان باق، و قد تشعث.

المارستان العتيق

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و سبعين و خمسمائة فى تاسع ذى القعدة:

أمر السـلطان يعنى صـلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح: مارستان للمرضى و الضعفاء، فاختير له مكان بالقصر، و أفرد برسمه من أجرة الرباع الديوانية مشاهرة، مبلغها مائتا دينار، و غلات جهاتها الفيوم، و استخدم له أطباء، و طبائعيين، و جرايحيين، و مشارف، و عاملا، و خداما،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۸

و وجـد الناس به رفقا، و إليه مستروحا، و به نفعا، و كـذلك بمصـر أمر: بفتـح مارسـتانها القـديم و أفرد برسـمه من ديوان الأحباس ما تقدير ارتفاعه: عشرون دينارا، و استخدم له طبيب، و عامل و مشارف، و ارتفق به الضعفاء، و كثر بسبب ذلك الدعاء.

و قال ابن عبد الظاهر: كان قاعة بناها العزيز باللّه فى سنة أربع و ثمانين و ثلثمائة، و قيل: إن القرآن مكتوب فى حيطانها، و من خواصها

أنه لا يدخلها ثمل لطلسم بها، و لما قيل ذلك لصلاح الدين رحمه اللّه قال: هذا يصلح أن يكون مارستانا، و سألت مباشريه عن ذلك، فقالوا: إنه صحيح، و كان قديما المارستان، فيما بلغنى القشاشين، و أظنه المكان المعروف: بدار الديلم انتهى، و القشاشين المذكورة تعرف اليوم: بالخرّاطين المسلوك فيها إلى الخيميين، و الجامع الأزهر.

التربة المعزية

كان من جملة القصر الكبير: التربة المعزية، و فيها دفن المعز لدين اللّه، آباءه الذين أحضرهم فى توابيت معه من بلاد المغرب، و هم الإمام المهدى عبيد اللّه، و ابنه القائم بأمر اللّه محمد، و ابنه الإمام المنصور بنصر اللّه إسماعيل، و استقرّت مدفنا يدفن فيه الخلفاء، و أولادهم، و نساءهم، و كانت تعرف: بتربة الزعفران، و هو مكان كبير من جملتها الموضع الذى يعرف اليوم: بخط الزراكشة العتيق، و من هناك بابها، و لما انشأ الأمير: جهاركس الخليلىّ خانه المعروف به فى الخط المذكور، أخرج ما شاء اللّه من عظامهم، فألقيت فى المزابل على كيمان البرقية، و يمتدّ من هناك من حيث المدرسة البديرية خلف المدارس الصالحية النجمية، و بها إلى اليوم بقايا من قبورهم، و كان لهذه التربة عوايد و رسوم منها:

أن الخليفة كلما ركب بمظلة، و عاد إلى القصر لا بدّ أن يدخل إلى زيارة آبائه بهذه التربة، و كذلك لا بدّ أن يدخل فى يوم الجمعة دائما، و فى عيدى الفطر و الأضحى مع صدقات و رسوم تفرّق.

قال ابن المأمون: و فى هذا الشهر يعنى شوّالا سنة ست عشرة و خمسمائة، تنبه ذكر الطائفة النزارية، و تقرّر بين يدى الخليفة الآمر بأحكام اللّه أن يسير رسول إلى صاحب الموق بعد أن جمعوا الفقهاء من الإسماعيلية، و الإمامية، و قال لهم الوزير المأمون البطائحىّ ما لكم من الحجة فى الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية؟ فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة و من اعتقد هذا، فقد خرج عن المذهب، و ضلّ، و وجب قتله، و ذكروا حجتهم، فكتب الكتاب، و وصلت كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قويت شوكتهم، و اشتدّت فى البلاد طمعتهم، و أنهم سيروا الآن ثلاثة آلاف برسم النجوى و برسم المؤمنين الذين تنزل الرسل عندهم، و يختفون فى محلهم، فتقدّم الوزير بالفحص عنهم، و الاحتراز التام على الخليفة فى ركوبه، و منتزهاته، و حفظ الدور و الأسواق، و لم يزل البحث فى طلبهم إلى أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۸۹

وجدوا، فاعترفوا بأن خمسة منهم هم الرسل الواصلون بالمال فصلبوا.

و أما المال و هو ألفا دينار، فإنّ الخليفة أبى قبوله، و أمر أن ينفق فى السودان عبيد الشراء، و أحضر من بيت المال نظير المبلغ، و تقدّم بأن يصاغ به قنديلان من ذهب، و قنديلان من فضة، و أن يحمل منها قنديل ذهب، و قنديل فضة إلى مشهد الحسين بثغر عسقلان، و قنديل إلى التربة المقدّسة تربة الأئمة بالقصر، و أمر الوزير المأمون: بإطلاق ألفى دينار من ماله، و تقدّم بأن يصاغ بها قنديل ذهب، و سلسلة فضة برسم المشهد العسقلانىّ، و أن يصاغ على المصحف الذى بخط أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب بالجامع العتيق بمصر من فوق الفضة ذهب، و أطلق حاصل الصناديق التى تشتمل على مال النجاوى برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرّق فى الجوامع الثلاثة: الأزهر بالقاهرة، و العتيق بمصر، و جامع القرافة، و على فقراء المؤمنين على أبواب القصور، و أطلق من الاهراء ألفى أردب قمحا، و تصدّق على عدّة من الجهات بجملة كثيرة، و اشتريت عدّة جوار من الحجر، و كتب عتقهن للوقت، و أطلق سراحهن، و قال فى كتاب الذخائر: إنّ الأتراك طلبوا من المستنصر نفقة فى أيام الشدّة، فماطلهم و إنهم هجموا على التربة المدفون فيها أجداده، فأخذوا ما فيها من قناديل الذهب و كانت قيمة ذلك، مع ما اجتمع إليه من الآلات الموجودة هناك مثل المداخن، و المجامر و حلى المحاريب و غير ذلك خمسين ألف دينار.

القصر النافعيّ

قال ابن عبد الظاهر: القصر النافعيّ قرب التربة يقرب من جهة السبع خوخ كان فيه عجائز من عجائز القصر و أقارب الأشراف انتهى.
و موضع هذا القصر اليوم فندق المهمندار الذى يدق فيه الذهب، و ما فى قبليه من خان منجك، و دار خواجا عبد العزيز المجاورة للمسجد الذى بحذاء خان منجك، و ما بجوار دار خواجا من الزقاق المعروف: بدرب الحبشيّ، و كان حدّ هذا القصر الغربيّ ينتهى إلى الفندق الذى بالخيميين المعروف قديما: بخان منكورس، و يعرف اليوم: بخان القاضى، و اشترى بعض هذا القصر لما بيع بعد زوال الدولة، الأمير ناصر الدين عثمان بن سنقر الكامليّ المهمندار الذى يعرف: بفندق المهمندار بعد أن كان اصطبلا له، و اشترى بعضه الأمير حسام الدين لاجين الإيدمرى المعروف: بالدر قيل دوادار الملك الظاهر بيبرس، و عمّره اصطبلا، و دارا، و هى الدار التى تعرف اليوم: بخواجا عبد العزيز على باب درب الحبشى، ثم عمل الإصطبل الخان الذى يعرف اليوم: بخان منجك، و ابتنى الناس فى مكان درب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۰

الحبشيّ الدور، و زال أثر القصر، فلم يبق منه شىء البتة.

الخزائن التى كانت بالقصر

اشارة

و كانت بالقصر الكبير عدّة خزائن منها: خزانة الكتب، و خزانة البنود، و خزائن السلاح، و خزائن الدرق، و خزائن السروج، و خزانة الفرش، و خزانة الكسوات، و خزانة الأدم، و خزائن الشراب، و خزنة التوابل، و خزائن الخيم، و دار التعبية، و خزائن دار أفتكين، و دار الفطرة، و دار العلم، و خزانة الجوهر و الطيب، و كان الخليفة يمضى إلى موضع من هذه الخزائن، و فى كل خزانة دكة عليها طرّاحة، و لها فرّاش يخدمها، و ينظفها طول السنة، و له جار فى كل شهر، فيطوفها كلها فى السنة.

خزانة الكتب

قال المسبحيّ: و ذكر عند العزيز بالله، كتاب العين للخليل بن أحمد، فأمر خزان دفاتره، فأخرجوا من خزانته نيفا و ثلاثين نسخة من كتاب العين، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد، و حمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبرى: اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز الخزان، فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرىّ، منها نسخة بخطه.
و ذكر عنده كتاب: الجمهرة لابن دريد، فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها، و قال فى كتاب الذخائر: عدّة الخزائن التى برسم الكتب فى سائر العلوم بالقصر: أربعون خزانة، خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة، و إن الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة فى شدّة المستنصر ألفان و أربعمائة ختمة قرآن فى ربعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بذهب و فضة، و غيرهما، و إنّ جميع ذلك كله ذهب فيما أخذه الأتراك فى واجباتهم ببعض قيمته، و لم يبق فى خزائن القصر البرانية منه شىء بالجملة دون خزائن القصر الداخلة التى لا يتوصل إليها، و وجدت صناديق مملوءة أقلاما مبرية من براية ابن مقلة، و ابن البوّاب و غيرهما.
قال: و كنت بمصر فى العشر الأول من محرّم سنة إحدى و ستين و أربعمائة، فرأيت فيها خمسة و عشرين جملا موقرة كتبا محمولة

إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۱

جعفر المغربىّ، فسألت عنها، فعرفت أنّ الوزير أخذها من خزائن القصر هو، و الخطير ابن الموفق فى الدين بإيجاب وجبت لهما عما يستحقانه، و غلمانهما من ديوان الجبليين، و إن حصة الوزير أبى الفرج منها قوّمت عليه من جارى مماليكه، و غلمانه بخمسة آلاف دينار، و ذكر لى من له خبرة بالكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار، و نهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر فى صفر من السنة المذكورة مع غيرها، مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبى الفرج، و ابن أبى كدينة، و غيرهما هذا سوى ما كان فى خزائن دار العلم بالقاهرة، و سوى ما صار إلى عماد الدولة أبى الفضل بن المحترق بالإسكندرية، ثم انتقل بعد مقتله إلى المغرب، و سوى ما ظفرت به لواتة محمولا مع ما صار إليه بالابتياع، و الغصب فى بحر النيل إلى الاسكندرية فى سنة إحدى و ستين و أربعمائة، و مما بعدها من الكتب الجليلة المقدار، المعدومة المثل فى سائر الأمصار صحة، و حسن خط، و تجليد، و غرابة التى أخذ جلودها عبيدهم، و إماؤهم برسم عمل ما يلبسونه فى أرجلهم، و أحرق ورقها تأوّلا منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعز اللّه أنصاره، و إنّ فيها كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم سوى ما غرق، و تلف، و حمل إلى سائر الأقطار، و بقى منها ما لم يحرق، و سفت عليه الرياح التراب، فصار تلالا باقية إلى اليوم فى نواحى آثار تعرف: بتلال الكتب.

و قال ابن الطوير: خزانة الكتب كانت فى أحد مجالس المارستان اليوم يعنى:

المارستان العتيق، فيجىء الخليفة راكبا، و يترجل على الدكة المنصوبة، و يجلس عليها، و يحضر إليه من يتولاها، و كان فى ذلك الوقت الجليس بن عبد القوىّ، فيحضر إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة، و غير ذلك مما يقترحه من الكتب، فإن عنّ له أخذ شىء منها أخذه، ثم يعيده، و تحتوى هذه الخزانة على عدّة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم، و الرفوف مقطعة بحواجز، و على كل حاجز باب مقفل بمفصلات، و قفل و فيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلدات، و يسير من المجرّدات، فمنها الفقه على سائر المذاهب، و النحو، و اللغة، و كتب الحديث و التواريخ، و سير الملوك، و النجامة، و الروحانيات، و الكيمياء من كل صنف النسخ، و منها النواقص التى ما تممت كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة، و ما فيها من المصاحف الكريمة فى مكان فوقها، و فيها من الدروج بخط ابن مقلة، و نظائره كابن البوّاب و غيره، و تولى بيعها ابن صورة فى أيام الملك الناصر صلاح الدين، فإذا أراد الخليفة الانفصال مشى فيها مشية لنظرها، و فيها ناسخان، و فرّاشان صاحب المرتبة. و آخر، فيعطى الشاهد عشرين دينارا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۲

و يخرج إلى غيرها، و قال ابن أبى طى بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر، و من جملة ما باعوه: خزانة الكتب، و كانت من عجائب الدنيا، و يقال: إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر، و من عجائبها: أنه كان فيها ألف، و مائتا نسخة من تاريخ الطبرىّ إلى غير ذلك، و يقال: إنها كانت تشتمل على ألف و ستمائة ألف كتاب، و كان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة انتهى، و مما يؤيد ذلك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ: لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة، جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد، و باع ابن صورة دلال الكتب منها جملة فى مدّة أعوام، فلو كانت كلها مائة ألف لما فضل عن القاضى الفاضل منها شىء، و ذكر ابن أبى واصل: أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة و عشرين ألف مجلد.

خزانة الكسوات

قال ابن أبى طى: و عمل يعنى لمعز الدين اللّه دارا، و سماها: دار الكسوة كان يفصل فيها من جميع أنواع الثياب و البز، و يكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء و الصيف، و كانت لأولاد الناس، و نسائهم كذلك و جعل ذلك رسما يتوارثونه فى

الأعقاب، و كتب بذلك كتبا، و سمى هذا الموضع: خزانة الكسوة، و قال عند ذكر انقراض الدولة.

و من أخبارهم: أنهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع خدمهم و حواشيهم، و من يلوذ بهم من صغير و كبير، و رفيع، و حقير كسوات الصيف و الشتاء من العمامة إلى السراويل، و ما دونه من الملابس و المنديل من فاخر الثياب، و نفيس الملبوس، و يقومون لهم بجميع ما يحتاجون إليه من نفيس المطعومات و المشروبات، و سمعت من يقول: إنه حضر كسا القصر التى تخرج فى الصيف و الشتاء، فكان مقدارها ستمائة ألف دينار و زيادة، و كانت خلعهم على الأمراء الثياب الديبقىّ، و العمائم بالطراز الذهب، و كان طراز الذهب و العمامة من خمسمائة دينار، و يخلع على أكابر الأمراء الأطواق و الأسورة و السيوف المحلاة، و كان يخلع على الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر.

و قال ابن المأمون: و جلس الأجلّ يعنى الوزير المأمون فى مجلس الوزارة لتنفيذ الأمور، و عرض المطالعات، و حضر الكتاب، و من جملتهم ابن أبى الليث كاتب الدفتر، و معه ما كان أمر به من عمل جرائد الكسوة للشتاء بحكم حلوله، و أوان تفرقتها، فكان ما اشتمل عليه المنفق فيها لسنة ست عشرة و خمسمائة: من الأصناف أربعة عشر ألفا و ثلثمائة و خمس قطع، و إنّ أكثر ما أنفق عن مثل ذلك فى الأيام الأفضلية فى طول مدّتها لسنة ثلاث عشرة، و خمسمائة: ثمانية آلاف و سبعمائة و خمس و سبعون قطعة، يكون الزائد عنها بحكم ما رسم به فى منفق سنة، ست عشرة: خمسة آلاف و ستمائة و أربعا و ثلاثين قطعا، و وصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر الشهر، و قد تضاعفت عما كانت عليه فى الأيام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۳

الأفضلية لهذا الموسم، و هى تشتمل على ذهوب و سلف دون العشرين ألف دينار، و هو عندهم الموسم الكبير، و يسمى: بعيد الحلل، لأنّ الحلل فيه تعمّ الجماعة، و فى غيره للأعيان خاصة، فأحضر الأمير: افتخار الدولة مقدّم خزانة الكسوة الخاص ليتسلم ما يختص بالخليفة، و هو برسم الموكب: بدلة خاص جليلة مذهبة، ثوبها موشح مجاوم مذايل عدّتها باللفافتين إحدى عشرة قطعة، السلف عنها مائة و ستة و سبعون دينارا و نصف، و من الذهب العالى المغزول: ثلثمائة و سبعون و خمسون مثقالا و نصف، كل مثقال أجرة غزله ثمن دينار، و من الذهب العراقى: ألفان و تسعمائة و أربع و تسعون قصبة.

تفصيل ذلك: شاشية طميم السلف: ديناران، و سبعون قصبة ذهبا عراقيا منديل بعمود ذهب السلف: سبعون و ألفان و مائتان و خمسون قصبة ذهبا عراقيا، فإن كان الذهب نظير المصرىّ، كان الذى يرقم فيه: ثلثمائة و خمسة و عشرين مثقالا، لأنّ كل مثقال نظير تسع قصبات ذهبا عراقيا وسط سرب بطانة للمنديل السلف: عشرة دنانير و سبعون قصبة ذهبا عراقيا ثوب موشح مجاوم مطرّف السلف: خمسون دينارا و ثلثمائة و أحد و خمسون مثقالا- و نصف ذهبا عاليا، أجرة كل مثقال ثمن دينار، تكون جملة مبلغه، و قيمة ذهبه: ثلثمائة و أربعة و تسعين دينارا و نصفا، ثوب ديبقىّ حريرىّ و سلطانىّ السلف: اثنا عشر دينارا، غلالة ديبقىّ حريرىّ السلف: عشرون دينارا، منديل كم أوّل مذهب السلف: خمسة دنانير و مائتان و أربع قصبات ذهبا عراقيا، منديل كم ثان حريرىّ السلف: خمسة دنانير، حجرة السلف:

أربعة دنانير، عرضىّ مذهب السلف: خمسة دنانير و خمسة عشر مثقالا ذهبا عاليا، عرضى لفافة للتخت دينار واحد و نصف، بدلة ثانية برسم الجلوس على السّماط عدّتها باللفافتين، عشر قطع السلف: مائة و أربعة عشر دينارا، و من الذهب العالى خمسة و خمسون مثقالا، و من الذهب العراقىّ: سبعمائة و أربعون قصبة.

تفصيل ذلك: شاشية طميم السلف: ديناران، و سبعون قصبة ذهبا عراقيا، منديل السلف: ستون دينارا، و ستمائة قصبة ذهبا عراقيا، شقة و كم السلف: ستة عشر دينارا، و خمسة و خمسون مثقالا ذهبا عاليا، أجرة كل مثقال ثمن دينار شقة ديبقىّ حريرىّ و سلطانىّ:

اثنا عشر دينارا، شقة ديبقىّ غلالة ثمانية دنانير، منديل الكمّ الحريرىّ: خمسة دنانير، حجرة أربعة دنانير، عرضى خمسة دنانير، عرضى برسم التخت دينار واحد و نصف، و هذه البدلة لم تكن فيما تقدّم فى أيام الأفضل لأنه لم يكن ثم سماط يجلس عليه الخليفة، فإنه

كان قد نقل ما يعمل فى القصور من الأسمطة، و الدواوين إلى داره، فصاره يعمل هناك، ما هو برسم الأجل أبى الفضل: جعفر أخى الخليفة الآمر بدلة مذهبة مبلغها: تسعون دينارا و نصف، و خمسة و عشرون مثقالا ذهبا عاليا، و أربعمائة و سبعون قصبة ذهبا عراقيا، تفصيل ذلك: منديل السلف: عشرة دنانير، شقة غلالة ديبقىّ السلف: ثمانية دنانير، حجرة: ثلاثة دنانير و ثلث، عرضى ديبقىّ: ثلاثة دنانير، الجهة العالية بالدار الجديدة التى يقوم بخدمتها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۴

جوهر: حلة مذهبة موشح مجاوم مذايل مطرّف عدّتها: خمس عشرة قطعة سلفها: ستة آلاف و ثلثمائة و ثلاثون قصبة، تفصيل ذلك: مذهب مكلف موشح مجاوم السلف: خمسة عشر دينارا، و ستمائة و ستون قصبة، سداسىّ مذهب السلف: ثمانية عشر دينارا، و مائتا قصبة معجر أوّل مذهب موشح مجاوم مطرّف السلف: خمسون دينارا، و ألف و تسعمائة قصبة. معجز ثان حريرىّ السلف: خمسة و ثلاثون دينارا و نصف، رداء حريرىّ أوّل السلف:

عشرة دنانير و نصف، رداء حريرىّ ثان، السلف: تسعة دنانير، دراعة موشح مجاوم مذايل مذهبة السلف: خمسة و تسعون دينارا، و من الذهب العراقىّ ألفان و ستمائة و خمس و خمسون قصبة، شقة ديبقىّ حريرىّ و سطانى السلف: عشرون دينارا و نصف، شقة ديبقىّ بغير رقم برسم عجز التفصيل: ثلاثة دنانير، ملاءة ديبقىّ السلف: أربعة و عشرون دينارا و ستمائة قصبة، منديل كم أوّل السلف: ستة دنانير، و مائة و ستون قصبة، منديل كم ثان السلف: خمسة دنانير، و مائة و ستون قصبة منديل كم ثالث السلف: خمسة دنانير، حجرة: ثلاثة دنانير، عرضى ديبقىّ: ثلاثة دنانير، جهة مكنون القاضى بمثل ذلك على الشرح، و العدّة جهة مرشد: حلة مذهبة عدّتها، أربع عشرة قطعة السلف: مئة و أحد و أربعون دينارا، و من الذهب العراقىّ: ألف و ستمائة و تسع و ثمانون قصبة، جهة عنبر مثل ذلك.

السيدة جهة ظل: مثل ذلك، جهة منجب: مثل ذلك، الأمير أبو القاسم عبد الصمد:

بدلة مذهبة، الأمير داود مثله، السيدة العمة حلة مذهبة، السيدة العابدة العمة مثل ذلك، الموالى الجلساء من بنى الأعمام، و هم أبو الميمون بن عبد المجيد، و الأمير أبو اليسر ابن الأمير محسن، و الأمير أبو علىّ ابن الأمير جعفر، و الأمير حيدرة ابن الأمير عبد المجيد، و الأمير موسى ابن الأمير عبد اللّه، و الأمير أبو عبد اللّه ابن الأمير داود لكل منهم: بدلة مذهبة، البنون و البنات من بنى الأعمام غير الجلساء لكل منهم: بدلة حريرىّ، ست سيدات لكل منهنّ حلة حريرىّ، جهة المولى أبى الفضل جعفر التى يقوم بخدمتها ريحان حلة مذهبة، جهة المولى عبد الصمد حلة حريرى، ما يختص بالدار الجيوشية و المظفرية فعلى ما كان بأسمائهم، المستخدمات لخزانة الكسوة الخاص زين الخزان المقدّمة: حلة مذهبة، ست خزان لكل منهنّ حلة حريرىّ، عشر وقافات لكل منهنّ كذلك، المعلمة مقدّمة المائدة كذلك، رايات مقدّمة خزانة الشراب كذلك، المستخدمات من أرباب الصنائع من القصوريات، و ممن انضاف إليهنّ من الأفضليات مائة و سبعون حلة مذهبة و حريرىّ على التفصيل المتقدّم، المستخدمات عند الجهات العالية، جهة جوهر عشرون حلة مذهبة و حريرىّ، و كذلك المستخدمات عند مكنون الأمراء.

الأستاذون المحنكون: الأمير الثقة زمام القصور: بدلة مذهبة، الأمير نسيب الدولة مرشد متولى الدفتر كذلك، الأمير خاصة الدولة ريحان متولى بيت المال كذلك، الأمير عظيم الدولة، و سيفها حامل المظلة كذلك، الأمير صارم الدولة صاف متولى الستر كذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۵

و فىّ الدولة إسعاف متولى المائدة مثله، الأمير افتخار الدولة جندب بدلة مذهبة، نظير البدلة المختصة بالأمير الثقة و لكل من غير هؤلاء المذكورين: حلة حريرىّ أربع قطع و لفافة فوطة، مختار الدولة ظل بدلة حريرىّ، ستة أستاذين فى خزانة الكسوة الخاص عند الأمير افتخار الدولة جندب لكل منهم بدلة مذهبة، جوهر زمام الدار الجديدة بدلة حريرىّ، تاج الملك أمين بيت المال مثله، مفلح برسم الخدمة فى المجلس مثله، مكنون متولى خدمة الجهة العالية مثله، فنون متولى خدمة التربة مثله، مرشد الخاصى مثله، النوّاب عن الأمير الثقة فى زمان القصور، و عدّتهم أربعة لكل منهم بدلة حريرىّ خسروانى، العظمى مقدّم خزانة الشراب، و رفيقه لكل منهما

بدلة. كذلك الصقالبة أرباب المداب، و عدّتهم أربعة لكل منهم: بدلة حريرىّ و شقة و فوطة، نائب الستر مثل ذلك. الأستاذون برسم خدمة المظلة، و عدّتهم خمسة لكل منهم: منديل سوسىّ، و شقة دمياطىّ، و شقة اسكندرانىّ، و فوطة، الأستاذون الشدّادون برسم الدواب، و عدّتهم ستة كذلك، ما حمل برسم السيد الأجل المأمون يعنى الوزير: بدلة خاصة مذهبة كبيرة موكبية عدّتها: إحدى عشرة، و ما هو برسم جهاته و برسم أولاده: الأجل تاج الرياسة، و تاج الخلافة، و سعد الملك محمود، و شرف الخلافة جمال الملك موسى، و هو صاحب التاريخ نظير ما كان باسم أولاد الأفضل بن أمير الجيوش، و هم: حسن، و حسين، و أحمد الأجل المؤتمن سلطان الملوك يعنى أخا الوزير عن تقدمة العساكر، و زم الأزمّة و برسم الجهة المختصة به، و ركن الدولة عزا الملوكأ بو الفضل جعفر عن حمل السيف الشريف خارجا عما له من حماية خزانة الكسوات، و صناديق النفقات، و ما يحمل أيضا للخزائن المأمونية مما ينفق منها على من يحسن فى الرأى من الحاشية المأمونية: ثلاثون بدلة.

الشيخ الأجل أبو الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست الشريف: بدلة مذهبة عدّتها خمس قطع و كمّ و عرضى، الأمير فخر الخلافة حسام الملك متولى حجبية الباب: بدلة مذهبة، كذلك القاضى ثقة الملك ابن النائب فى الحكم: بدلة مذهبة عدّتها أربع قطع و كمّ و عرضى، الشيخ الداعى وليّ الدولة بن أبى الحقيق: بدلة مذهبة، الأمير الشريف أبو علىّ أحمد بن عقيل نقيب الأشراف : بدلة حريرى ثلاث قطع و فوطة، الشريف أنس الدولة متولى ديوان الإنشاء بدلة كذلك، ديوان المكاتبات الشيخ أبو الرضى ابن الشيخ الأجل أبى الحسن النائب عن والده فى الديوان المذكور: بدلة مذهبة عدّتها ثلاث قطع و كمّ، أبو المكارم: هبة اللّه أخوه بدلة مذهبة ثلاث قطع و فوطة، أبو محمد حسن أخوهما كذلك أخوهم أبو الفتح بدلة حريرىّ قطعتان و فوطة، الشيخ أبو الفضل يحيى بن سعيد الندمىّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۶

منشئ ما يصدر عن ديوان المكاتبات، و محرّر ما يؤمر به من المهمات: بدلة مذهبة عدّتها ثلاث قطع و كم و مزنر، أبو سعيد الكاتب: بدلة حريرىّ، أبو الفضل الكاتب كذلك، الحاج موسى المعين فى الإلصاق كذلك.

و أما الكتاب بديوان الإنشاء فلم يتفق وجود الحساب الذى فيه أسماؤهم، فيذكروا، و من القياس أن يكونوا قريبا من ذلك، الشيخ وليّ الدولة أبو البركات متولى ديوان المجلس و الخاص: بدلة مذهبة عدّتها خمس قطع و كم و عرضى، و لامرأته حلة مذهبة. الشيخ أبو الفضائل هبة اللّه بن أبى الليث متولى الدفتر، و ما جمع إليه بدلة، أبو المجد ولده بدلة حريرىّ، عدى الملك أبو البركات متولى دار الضيافة: بدلة مذهبة، و بعده الضيوف الواردون إلى الدولة جميعهم، منهم من له بدلة مذهبة و منهم من له بدلة حريرىّ، و كذلك من يتفق حضوره من الرسل على هذا الحكم.

مقدّمو الركاب: عفيف الدولة مقبل بدلة مذهبة، القائد موفق و القائد تميم مثل ذلك، أربعة من المقدّمين برسم الشكيمة لكل منهم: بدلة حريرى الروّاض عدّتهم ثلاثة لكل منهم:

بدلة حريرى، الخاص من الفرّاشين، و هم اثنان و عشرون رجلا منهم أربعة مميزون لكل منهم: بدلة مذهبة، و بقيتهم لكل واحد بدلة حريرىّ.

الأطباء: الشديد أبو الحسن علىّ بن أبى الشديد: بدلة حريرى، أبو الفضل النسطورى بدلة حريرى، و كذلك الفئة المستخدمون برسم الحمام، و هم ثمانية مقدّمهم: بدلة مذهبة، و بقيتهم لكل واحد بدلة حريرىّ، والى القاهرة، و والى مصر لكل منهما بدلة مذهبة.

المستخدمون فى المواكب: الأمير كوكب الدولة حامل الرمح الشريف وراء الموكب، و الدرقة المعزية: بدلة حريرىّ، حاملا الرمحين المعزية أيضا أمام الموكب بغير درق لكل منهما: منديل و شقة و فوطة، و هؤلاء الثلاثة رماح ما هى عربية بل هى خشوت قدم بها المعز من المغرب، حاملا لواء الحمد المختصان بالخليفة عن يمينه و يساره لكل منهما بدلة، متولى بغل الموكب الذى يحمل عليه جميع العدّة المغربية بدلة حريرى، متولى حمل المظلة كذلك، عشرة نفر من صبيان الخاص برسم حمل العشرة رماح العربية المغشاة

بالديباج وراء الموكب لكل منهم: منديل و شقة و فوطة، حامل السبع وراء الموكب: بدلة حريرى.

المقدّمون من صبيان الخاص، و هم عشرون لكل منهم: بدلة، عرفاء الفرّاشين الذين ينحطون عن فرّاشى الخاص، و فرّاشى المجلس، و فرّاشى خزائن الكسوة الخاص لكل منهم: بدلة حريرى، الفرّاشون فى خزائن الكسوات المستخدمون بالإيوان، و هم الذين يشدّون ألوية الحمد بين يدى الخليفة ليلة الموسم فإنها لا تشدّ إلّا بين يديه، و يبدأ هو باللف عليها بيده على سبيل البركة، و يكمل المستخدمون بقية شدّها، و ما سوى ذلك من القضب الفضة، و ألوية الوزارة، و غيرها، و عدّتهم: سبعة لكل منهم: منديل سوسى، و شقتان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۷

اسكندرانىّ. المستخدمون برسم حمل القضب الفضة، و لوائى الوزارة أربعة عشر كذلك، مشارف خزانة الطيب، و كانت من الخدم الجليلة، و كان بها أعلام الجوهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد، و يستدعى منها عند الحاجة، و يعاد إليها عند الغنى عنها، و كذلك السيف و الثلاثة رماح المعزية، مشارف خزائن السروج بدلة حريرى، مشارف خزائن الفرش، و كاتب بيت المال، و مشارف خزائن الشراب، و مشارف خزائن الكتب كل منهم:

بدلة حريرى، و بركات الأدمى و المستخدمون بالدولة بالباب، و سنان الدولة مز الكركندىّ عن زم الرهجية، و المبيت على أبواب القصور و كانت من الخدم الجليلة، و الصبيان الحجرية المشدّون بلواء الموكب بعد المقرّبين، و عدّتهم عشرون لكل منهم الكسوة فى الشتاء، و العيدين و غيرهما، و عدّة الذين يقبضون الكسوة فى العيدين من الفرّاشين أكثر من صبيان الركاب، و ذلك أنهم يتولون الأسمطة، و يقفون فى تقدمتها، و ينفرد عنهم المستخدمون فى الركاب بما لهم من المتحصل فى المخلفات فى العيدين، و هو ما مبلغه ستة آلاف دينار ما لأحد معهم فيها نصيب، و كان يكتب فى كل كسوة هى برسم وجوه الدولة رقعة من ديوان الانشاء.

فمما كتب به من إنشاء ابن الصيرفىّ مقترنة بكسوة عيد الفطر من سنة: خمس و ثلاثين و خمسمائة، و لم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب، موليا إحسانه كل حاضر من أوليائه، و غائب مجزلا حظهم من منائحه و مواهبه، موصلا إليهم من الحباء ما يقصر شكرهم عن حقه و واجبه، و إنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه، و أحراهم باستنشاق نسيمه، و أخلقهم بالجزء الأوفى منه عند فضه و تقسيمه، إذ كنت فى سماء المسابقة بدرا، و فى جرائد المناصحة صدرا، و ممن أخلص فى الطاعة سرّا و جهرا، و حظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصوفا و سير له ذكرا، و لما أقبل هذا العيد السعيد، و العادة فيه أن يحسن الناس هيآتهم و يأخذوا عند كل مسجد زينتهم، و من وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه و خدمه فيه، و فى المواسم التى تجاريه، بكسوات على حسب منازلهم تجمع بين الشرف و الجمال، و لا يبقى بعدها مطمع للآمال، و كنت من أخص الأمراء المقدّمين.

قال: و وصلت الكسوة المختصة بغرّة شهر رمضان، و جمعتيه برسم الخليفة للغرّة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة، و برسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر: بدلة موكبية حريرىّ مكملة منديلها و طيلسانها بياض، و برسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها و طيلسانها شعرى، و ما هو برسم أخى الخليفة للغرّة خاصة بدلة مذهبة، و يرسم له مع جهات الخليفة أربع حلل مذهبات، و برسم الوزير للغرّة بدلة مذهبة مكملة موكبية، و برسم الجمعتين بدلتان حريرى، و لم يكن لغير الخليفة، و أخيه الوزير فى ذلك شىء فيذكر، و وصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج، و هى برسم الخليفة تختان ضمنهما بدلتان إحداهما: منديلها و طيلسانها طميم برسم المضىّ، و الأخرى جميعها حريرىّ، برسم العود، و كذلك ما يختص بإخوته، و جهاته بدلتان مذهبتان و أربع حلل مذهبة، و برسم الوزير بدلة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۸

موكبية مذهبة فى تخت، و برسم أولاده الثلاثة: ثلاث بدلات مذهبة، و برسم جهته حلة مذهبة فى تخت و بقية ما يخص المستخدمين، و ابن أبى الردّاد فى تخوت كل تخت: عدّة بدلات، و حضر متولى الدفتر، و استأذن على ما يحمل برسم الخليفة، و ما يفرّق و يفصل

برسم الخلع، و ما يخرج من حاصل الخزائن عن الواصل، و هو ما يفصل برسم الخاص من الغلمان برسم: سبعمائة قباء و خمسمائة و شقين سقلاطون دارى، و برسم رؤساء العشاريات من الشقق الدمياطيّ، و المناديل السوسيّ، و الفوط الحرير الحمر، و برسم النواتية التى برسم الخاص من العشارية من الشقق الإسكندرانيّ، و الكلوتات، و قد تقدّم تفصيل الكسوات جميعها، و عددها و أسماء المستمرّين لقبضها.

و قال فى كتاب الذخائر: و حدّثنى من أثق به عن ابن عبد العزيز أنه قال: قوّمنا ما أخرج من خزائن القصر يعنى فى سنى الشدّة أيام المستنصر، من سائر ألوان الخسروانى، ما يزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب، و سألت ابن عبد العزيز، فقال: أخرج من الخزائن مما حرّرت قيمته على يدى، و بحضرتى أكثر من ألف قطعة.

و حدّثنى أبو الفضل يحيى بن دينار البغدادىّ: أحد أصحاب الدواوين بالحضرة أن الذى تولى أبو سعيد النهاوندى المعروف: بالمعتمد بيعه خاصة من مخرج القصر دون غيره من الأمناء فى مدّة يسيرة: ثمانية عشر ألف قطعة من بلور، و يحكم منها ما يساوى الألف دينار إلى عشرة دنانير و نيف، و عشرون ألف قطعة خسروانى. و حدّثنى عميد الملك أبو الحسن علىّ بن عبد الكريم فخر الوزراء بن عبد الحاكم، أن ناصر الدولة أرسل يطالب المستنصر بما بقى لغلمانه، فذكر أنه لم يبق عنده شىء إلّا ملابسه، فأخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة فقوّمت و حملت إليه.

و قال ابن الطوير: الخدمة فى خزائن الكسوات لها رتبة عظيمة فى المباشرات، و هما خزانتان، فالظاهرة يتولاها خاصة أكبر حواشى الخليفة إمّا أستاذ أو غيره، و فيها من الحواصل ما يدل على إسباغ نعم اللّه تعالى على من يشاء من خلقه من الملابس الشروب، و الخاص الديبقىّ الملوّنة، رجالية و نسائية، و الديباج الملوّنة، و السقلاطون و إليها يحمل ما يستعمل فى دار الطراز بتنيس و دمياط و إسكندرية من خاص المستعمل و بها صاحب المقص، و هو مقدّم الخياطين، و لأصحابه مكان لخياطتهم، و التفصيل يعمل على مقدار الأوامر و ما تدعو الحاجة إليه، ثم ينقل إلى خزانة الكسوة الباطنة ما هو خاص للباس الخليفة، و يتولاها امرأة تنعت: بزين الخزان أبدا، و بين يديها ثلاثون جارية، فلا يغير الخليفة أبدا ثيابه إلّا عندها، و لباسه خافيا الثياب الدارية وسعة أكمامها سعة نصف أكمام الظاهر، و ليس فى جهة من جهاته ثياب أصلا، و لا يلبس إلّا من هذه الخزانة، و كان برسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطىء الخليج يعنى أبدا فيه النسرين، و الياسمين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۲۹۹

فيحمل فى كل يوم منه شىء فى الصيف و الشتاء، لا ينقطع البتة برسم الثياب و الصناديق، فإذا كان أوان التفرقة الصيفية أو الشتوية شدّ لمن تقدّم ذكره من أولاد الخليفة، و جهاته و أقاربه، و أرباب الرواتب و الرسوم من كل صنف شدّة على ترتيب الفروض من شقق الديباج الملوّن، و السقلاطون إلى السوسيّ، و الإسكندرانيّ على مقدار الفصول من الزمان، ما يقرب من مائتى شدّة، فالخواص فى العراضى الديبقى، و دونهم فى أوطية حرير، و دونهم فى فوط إسكندرية، و يدخل فى ذلك: كتاب ديوانى الإنشاء، و المكاتبات دون غيرهم من الكتاب على مقدارهم، و ذلك يخرج من الجوارى فى الشهر المطلقات.

و قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ستين و خمسمائة بعد وفاة العاضد:

و كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر، فقيل: إن الموجود فيها: مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى، و مرصع، و عقود ثمينة، و ذخائر فخمة، و جواهر نفيسة، و غير ذلك من ذخائر عظيمة الخطر، و كان الكاشف بهاء الدين قراقوش.

خزائن الجوهر و الطيب و الطرائف

قال ابن المأمون: و كان بها الأعلام و الجوهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد و يستدعى منها عند الحاجة، و يعاد إليها عند الغنى عنها، و كذلك السيف الخاص، و الثلاثة رماح المعزية، و قال فى كتاب الذخائر و التحف: و ذكر بعض شيوخ دار الجوهر بمصر: أنه

استدعى يوما هو و غيره من الجوهريين من أهل الخبرة بقيمة الجوهر إلى بعض خزائن القصر يعنى فى أيام الشدّة زمن المستنصر، فأخرج صندوق كيل منه: سبعة أمداد زمرّد قيمتها، على الأقل: ثلثمائة ألف دينار، و كان هناك جالسا فخر العرب بن حمدان، و ابن سنان، و ابن أبى كدينة، و بعض المخالفين فقال بعض من حضر من الوزراء المعطلين للجوهريين: كم قيمة هذا الزمرّد؟ فقالوا: إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجودا، و مثل هذا لا قيمة له، و لا مثل! فاغتاظ، و قال ابن أبى كدينة: فخر العرب كثير المؤنة، و عليه خرج، فالتفت إلى كتاب الجيش، و بيت المال، فقال: يحسب عليه فيه خمسمائة دينار، فكتب ذلك، و قبضه و أخرج عقد جوهر قيمته على الأقل: من ثمانين ألف دينار فصاعدا، فتحرّيا فيه، فقال: يكتب بألفى دينار، و تشاغلوا بنظر ما سواه، و انقطع سلكه فتناثر حبّه، فأخذوا واحد منهم واحدة، فجعلها فى جيبه، و أخذ ابن أبى كدينة أخرى، و أخذ فخر العرب بعض الحب، و باقى المخالفين التقطوا ما بقى منه، و غاض كأن لم يكن، و أخذ ما كان أنفذه: الصليحى من نفيس الدرّ الرفيع الرائع وكيله على ما ذكر سبع و يبات، و أخذوا ألفا و مائتى خاتم ذهبا و فضة فصوصها من سائر أنواع الجوهر المختلف الألوان و القيم و الأثمان، و الأنواع مما كان لأجداده و له، و صار إليه من وجوه دولته منها ثلاثة خواتم ذهب مربعة عليها ثلاثة فصوص أحدها زمرّذ، و الاثنان ياقوت سماقىّ، و رمّانىّ بيعت باثنى عشر ألف دينار بعد ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰۰

و أحضر خريطة فيها نحو ويبة جوهر، و أحضر الخبراء من الجوهريين، و تقدّم إليهم بقيمتها، فذكروا أن لا قيمة لها، و لا يشترى مثلها إلّا الملوك، فقوّمت: بعشرين ألف دينار، فدخل جوهر الكاتب المعروف: بالمختار عز الملك إلى المستنصر، و أعلمه أن هذا الجوهر اشتراه جدّه: بسبعمائة ألف دينار و استرخصه، فتقدّم بإنفاقه فى الأتراك، فقبض كل واحد منهم جزء بقيمة الوقت، و فرّق عليهم.

قال: فأمّا ما أخذ مما فى خزائن البلور، و المحكم و المينا المجرى بالذهب و المجرود، و البغدادى و الخيار، و المدهون، و الخلنج، و العينىّ، و الدهيمىّ، و الآمدىّ، و خزائن الفرش و البسط، و الستور، و التعاليق فلا يحصى كثرة.

و حدّثنى من أثق به من المستخدمين فى بيت المال: أنه أخرج يوما فى جملة ما أخرج من خزائن القصر عدّة صناديق، و إنّ واحدا منها فتح، فوجد فيه على مثال كيزان الفقاع من صافى البلور المنقوش و المجرود شيء كثير، و إنّ جميعها مملوء من ذلك و غيره، و حدثنى من أثق به أنه رأى: قدح بلور بيع مجرودا بمائتين و عشرين دينارا، و رأى خردادى بلور بيع:

بثلاثمائة و ستين دينارا، و كوز بلور بيع: بمائتين و عشرة دنانير، و رأى صحون مينا كثيرة تباع من: المائة دينار إلى ما دونها.

و حدّثنى من أثق بقوله أنه رأى بطرابلس قطعتين من البلور الساذج، الغاية فى النقاء، و حسن الصنعة إحداهما خردادى، و الأخرى باطية مكتوب على جانب كل واحدة منهما:

اسم العزيز بالله، تسع الباطية سبعة أرطال بالمصرى ماء، و الخردادى تسعة، و إنه عرضهما على جلال الملك أبى الحسن علىّ بن عمار، فدفع فيهما: ثمانمائة دينار، فامتنع من بيعهما، و كان اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من الخزائن، و إن الذى تولى بيعه: أبو سعيد النهاندى من مخرج القصر دون غيره من الأمناء فى مديدة يسيرة، ثمانية عشر ألف قطعة من بلور، و يحكم منها ما يساوى: الألف دينار إلى عشرة دنانير.

و أخرج من صوانى الذهب المجراة بالمينا، و غير المجراة المنقوشة بسائر أنواع النقوش المملوء جميعها من سائر أنواعه، و ألوانه، و أجناسه شيء كثير جدّا، و وجد فيما وجد غلف خيار مبطنة بالحرير محلاة بالذهب مختلفة الأشكال خالية مما فيها من الأوانى عدّتها: سبعة عشر ألف غلاف؛ كان فى كل قطعة إما بلور مجرود أو محكم أو ما يشاكله، و وجد أكثر من مائة كأس باد زهر، و نصب، و أشباهها، على أكثرها اسم هارون الرشيد و غيره.

و وجد فى خزائن القصر عدّة صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة، و مفضضة بنصب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰۱

مختلفة من سائر الجواهر و صناديق كثيرة مملوءة من أنواع الدوى المربعة، و المدوّرة و الصغار، و الكبار المعمولة من الذهب و الفضة و الصندل و العود، و الأبنوس الزنجيّ، و العاج، و سائر أنواع الخشب المحلاة بالجوهر، و الذهب و الفضة، و سائر الأنواع الغريبة، و الصنعة المعجزة الدقيقة بجميع آلاتها فيها ما يساوى: الألف دينار، و الأكثر و الأقل سوى ما عليها من الجواهر، و صناديق مملوءة مشارب ذهب و فضة مخرقة بالسواد صغار، و كبار مصنوعة بأحسن ما يكون من الصنعة، و عدّة أزيار صينيّ كبار، مختلفة الألوان مملوءة:

كافورا قيصوريا، و عدّة من جماجم العنبر الشحريّ، و نوافج المسك التبتى، و قواريره و شجر العود و قطعه.

و وجد للسيدة رشيدة ابنة المعز حين ماتت فى سنة اثنتين و أربعين و أربعمائة: ما قيمته ألف ألف دينار و سبعمائة ألف دينار من جملته: ثلاثون ثوب خز مقطوع و اثنا عشر ألفا من الثياب المصمت ألوانا، و مائة قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا، و مما وجد لها معممات بجواهرها من أيام المعز، و بيت هرون الرشيد الخز الأسود الذى مات فيه بطوس، و كان من ولى من الخلفاء ينتظرون وفاتها، فلم يقض ذلك إلّا للمستنصر بالله، فحازه فى خزانته.

و وجد لعبدة بنت المعز: أيضا و ماتت فى سنة اثنتين و أربعين و أربعمائة ما لا يحصى.

حدّثنى بعض خزان القصر: أن خزائن السيدة عبدة، و مقاصيرها و صناديقها، و ما يجب أن يختم عليه ذهب من الشمع فى خواتيمه على الصحة و المشاهدة أربعون رطلا بالمصرىّ و إنّ بطائق المتاع الموجود كتبت: فى ثلاثين رزمة ورق، و مما وجد لها أيضا: أربعمائة قمطرة ، و ألف و ثلثمائة قطعة مينا فضة مخرّقة زنة كل مينا: عشرة آلاف درهم، و أربعمائة سيف محلى بالذهب، و ثلاثون ألف شقة صقلية، و من الجوهر ما لا يحدّ كثرة، و زمرذ كيله: أردب واحد، و أن سيد الوزراء أبا محمد البازورى وجد فى موجوداتها: طستا و إبريقا، فلفرط استحسانه لهما، سأل المستنصر فيهما، فوهبهما له، و وجد مدهن ياقوت أحمر وزنه: سبعة و عشرون مثقالا، و أخرج أيضا: تسعون طستا و تسعون إبريقا من صافى البلور، و وجد فى القصر خزائن مملوءة من سائر أنواع الصينى منها: أجاجين صينى كبار محلاة، كل إجانة منها على ثلاثة أرجل على صورة الوحوش، و السباع قيمة كل قطعة منها:

ألف دينار، معمولة لغسل الثياب، و وجد عدّة أقفاص مملوءة ببيض صينيّ معمول على هيئة البيض فى خلقته، و بياضه يجعل فيها ماء البيض النيمبرشت يوم الفصاد، و وجد حصير ذهب وزنها: ثمانية عشر رطلا ذكر أن الحصير التى جليت عليها: بوران بنت الحسن بن سهل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰۲

على المأمون، و أخرج ثمان و عشرون صينية مينا مجرابا لذهب بكعوب، كان أرسلها ملك الروم إلى العزيز بالله، قوّمت كل صينية منها: بثلاثة آلاف دينار، أنفذ جميعها إلى ناصر الدولة.

و وجد عدّة صناديق مملوءة مرائى حديد من صينى، و من زجاج المينا لا يحصى ما فيها كثرة، جميعها محلى بالذهب المشبك و الفضة، و منها المكلل بالجوهر فى غلف الكيمخت، و سائر أنواع الحرير و الخيزران و غيره، مضبب بالذهب و الفضة، و لها المقابض من العقيق و غيره، و أخرج من المظال و قضبها الفضة و الذهب شىء كثير، و أخرج من خزائن الفضة ما يقارب: الألف درهم من الآلات المصنوعة من الفضة المجراة بالذهب فيها: ما زنة القطعة الواحدة منه، خمسة آلاف درهم، الغريبة النقش و الصنعة التى تساوى خمسة دراهم بدينار، و إنّ جميعه بيع كل عشرين درهما بدينار، سوى ما أخذ من العشاريات الموكبية، و أعمدة الخيام، و قضب المظال و المتحوقات، و الأعلام و القناديل، و الصناديق، و التوقات، و الروّازين و السروج و اللجم و المناطق التى للعماريات، و القباب و غيرها مثل ذلك و أضعافه.

و أخرج من الشطرنج و النرد المعمولة من سائر أنواع الجوهر، و الذهب، و الفضة، و العاج و الآبنوس برقاع الحرير، و المذهب ما لا يحدّ كثرة و نفاسة، و أخرج آلات فضة وزنها: ثلثمائة ألف و نيف، و أربعون ألف درهم تساوى ستة دراهم بدينار، و أخرج أقفاص

مملوءة من سائر آلات مصوغة مجراة بالذهب عدّتها أربعمائة قفص كبار، سبكت جميعها، و فرّقت على المخالفين، و أخرجت أربعة آلاف نرجسية مجوّفة بالذهب، يعمل فيها النرجس، و ألفا بنفسجية كذلك، و أخرج من خزانة الطرائف: ستة و ثلاثون ألف قطعة من محكم و بلور، و قوّم السكاكين بأقل القيم، فجاءت قيمتها على ذلك: ستة و ثلاثين ألف دينار و أخرج من تماثيل العنبر: اثنان و عشرون ألف قطعة، أقل تمثال منها وزنه: اثنا عشر منا، و أكبره يجاوز ذلك، و من تماثيل الخليفة ما لا يحدّ، من جملتها ثمانمائة بطيخة كافور.

و أخرجت الكلوتة المرصعة بالجوهر، و كانت من غريب ما فى القصر، و نفيسه، ذكر أن قيمتها: ثلاثون ألف دينار، و مائة ألف دينار، قوّمت: بثمانين ألف دينار، و كان وزن ما فيها من الجوهر: سبعة عشر رطلا اقتسمها فخر العرب، و تاج الملوك، فصار إلى فخر العرب منها قطعة بلخش وزنها: ثلاثة و عشرون مثقالا، و صار إلى تاج الدين مما وقع إليه حبات درّ، كل حبة: ثلاثة مثاقيل، عدّتها مائة حبة فلما كانت هزيمتهم من مصر نهبت،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰۳

و أخرج من خزائن الطيب: خمسة صوارى عود هندى، كل واحد من تسعة أذرع إلى عشرة أذرع، و كافور قيصورى زنة كل حبة: من خمسة مثاقيل إلى ما دونها، و قطع عنبر وزن القطعة: ثلاثة آلاف مثقال، و أخرج متارد صينى محمولة على ثلاثة أرجل ملء كل وعاء منها: مائتا رطل من الطعام، و عدّة قطع شب و باد زهر منها: جام سعته ثلاثة أشبار و نصف، و عمقه شبر، مليح الصنعة، و قاطرميز بلور فيه: صور ثابتة تسع سبعة عشر رطلا، و بلوجة بلور مجرود تسع عشرين رطلا، و قصرية نصب كبيرة جدّا، و طابع ندّ فيه ألف مثقال، كان فخر الدولة أبو الحسن علىّ بن ركن الدولة بن بويه الديلمىّ عمله مكتوب فى وسطه فخر الدولة شمس الملة، و أبيات منها:

و من يكن شمس أهل الأرض قاطبةفندّه طابع من ألف مثقال

و طاوس ذهب مرصع بنفيس الجوهر، عيناه من ياقوت أحمر، و ريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاوس، و ديك من الذهب له عرف مفروق كأكبر ما يكون من أعراف الديوك من الياقت الأحمر مرصع بسائر الدر، و الجوهر، و عيناه ياقوت، و غزال مرصع بنفيس الدر و الجوهر، و بطنه أبيض، قد نظم من در رائع، و مجمع سكارج من بلور تخرج منه و تعود فيه، فتحته أربعة أشبار، مليح الصنعة فى غلاف خيزران، و بطيخة من الكافور فى شباك ذهب مرصعة وزنها خالصة سبعون مثقالا من كافور، و قطعة عنبر تسمى:

الخروف وزنها سوى ما يمسكها من الذهب: ثمانون منا، و بطيخة كافور أيضا وجد ما عليها من الذهب: ثلاثة آلاف مثقال، و مائدة نصب كبيرة واسعة قوائمها منها، و بيضة بلخش وزنها: سبعة و عشرون مثقالا أشدّ صفاء من الياقوت الأحمر، و قاطر ميز بلور مليح التقدير، يسع مروقتين قوّم فى المخرج: بثمانمائة دينار دفع إلى تاج الملوك فيه بعد ذلك ألفا دينار، فامتنع من بيعه، مائدة جزع يقعد عليها جماعة، قوائمها مخروطة منها، و نخلة ذهب مكللة بالجوهر، و بديع الدرّ فى إجانة ذهب تجمع الطلع و البلح، و الرطب بشكله، و لونه و على صفته، و هيأته من الجواهر لا قيمة لها، و كوز زير بلور يحمل عشرة أرطال ماء، و دارج مرصع بنفيس الجوهر لا قيمة له، و مزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس، و قبة العشارىّ، و كارته و كسوة رحله الذى استعمله علىّ بن أحمد الجرجراى، و فيه مائة ألف و سبعة و ستون ألفا، و سبعمائة درهم نقرة، و أطلق للصناع عن أجرة صياغته، و ثمن ذهب للطلاء: ألفان و تسعمائة دينار، و كان سعر الفضة حينئذ: كل مائة درهم بستة دنانير و ربع، سعر ستة عشر درهما بدينار، و أخرج العشارىّ الفضى الذى استعمله علىّ بن أحمد لأمّ المستنصر، و كان فيه مائة ألف، و عشرون ألف درهم نقرة، و صرف أجرة صياغة، و طلاء ألفان و أربعمائة دينار، و كسوة بمال جليل، و أخرج جميع كسا العشاريات التى برسم البرية و البحرية، و عدّتها، و مناطقها و رؤوس منحرفات و أهلة، و صفريات و كانت أربعمائة ألف دينار لستة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰۴

و ثلاثين عشاريا، و عدّة مياكيم فضة فيها ما وزنه مائة و تسعة أرطال فضة، و أخرج بستان أرضه فضة مخرقة مذهبة و طينة ندّ، و أشجاره فضة مذهبة مصوغة و أثماره عنبر، و غيره وزنه ثلثمائة و ستة أرطال، و بطيخة كافور وزنها ستة عشر ألف مثقال، و قطع ياقوت أزرق زنة كل قطعة: سبعون درهما، قطع زمرّذ زنة كل قطعة ثمانون درهما، و نصاب مرآة من زمرّذ له طول و ثخن كل ذلك أخذه المخالفون.

خزائن الفرش و الأمتعة

قال فى كتاب الذخائر: و حدّثنى من أثق به عن ابن عبد العزيز الأنماطىّ قال: قوّمنا ما أخرج من خزائن القصر من سائر الخسروانى، ما يزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب، و سألت ابن عبد العزيز، فقال: أخرج من الخزائن ما حرّرت قيمته على يدى و بحضرتى أكثر من مائة ألف قطعة، و أخرج مرتبة خسروانى حمراء بيعت: بثلاثة آلاف و خمسمائة دينار، و مرتبة قلمونى بيعت: بألفين و أربعمائة دينار، و ثلاثون سندسية بيعت كل واحدة منها: بثلاثين دينارا، و نيف و عشرون ألف قطعة خسروانى فى هدبه لم يقطع منها شىء، و كانت قيمة العرض المبيع بأقل القيم، و أبرز الأثمان فى مدّة خمسة عشر يوما من صفر سنة ستين و أربعمائة سوى ما نهب و سرق ثلاثون ألف ألف دينار قبض جميعها الجند، و الأتراك ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق.

و حدّثنى الأمير أبو الحسن علىّ بن الحسن أحد مقدّمى الخيميين بالقصر: أنّ الفرّاشين دخلوا إلى بعض خزائن الفرش لما اشتدّت مطالبة المارقىّ للمستنصر بالمال إلى الخزانة المعروفة: بخزانة الرفوف، و سميت بذلك لكثرة رفوفها، لكل رف منها سلم مفرد، فأنزلوا منها ألفى عدل شقق طميم بهدبها من سائر أنواع الخسروانى و غيره لم تستعمل بعد، و جميع ما فيها مذهب معمول بسائر الأشكال، و الصور، و أنهم فتحوا عدلا منها، فوجدوا ما فيه أجلة معمولة للفيلة من خسروانى أحمر مذهب كأحسن ما يكون من العمل، و موضع نزول أفخاذ الفيل، و رجليه ساذجة بغير ذهب. و أخرج من بعض الخزائن ثلاثة آلاف قطعة خسروانى أحمر مطرّز بأبيض فى هدبها لم يفصل من كسا بيوت كاملة بجميع آلاتها و مقاطعها، و كل بيت يشتمل على مسانده، و مخادّه، و مساوره، و مراتبه، و بسطه و عتبه مقاطعه و ستوره، و كل ما يحتاج إليه فيه.

قال: و أخرج من خزائن الفرش من البيوت الكاملة الفرش من القلمونىّ و الديبقىّ من سائر ألوانه، و أنواعه المخمل، و الخسروانى، و الديباج الملكىّ، و الخز و سائر الحرير من جميع ألوانه و أنواعه ما لا يحصى كثرة، و لا يعرف قدره نفاسة، و أخرج من الحصر، و الأنخاخ السامان المطرّزة بالذهب و الفضة و غير المطرّزة من المخرمة، و الطيور و الفيلة المصوّرة بسائر أنواع الصور شىء كثير، و التمس بعض الأتراك من المستنصر مقرمة يعنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰۵

ستارة سندس أخضر مذهبة، فأخرج عدل منها مكتوب عليه: مائة و ثمانية و ثمانون من جملة أعداد أعدال، فيها من المتاع، و وجد من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها و أطوالها عدّة مئين تقارب الألف فيها: صور الدول و ملوكها، و المشاهير فيها مكتوب على صورة كل واحد اسمه و مدّة أيامه و شرح حاله.

و أخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة خسروانىّ مذهب فى كل رزمة فرش مجلس ببسطه و تعاليقه، و سائر آلاته منسوجة فى خيط واحد باقية على حالها لم تمس، و صار إلى فخر العرب مقطع من الحرير الأزرق التسترىّ القرقوبىّ غريب الصنعة منسوج بالذهب، و سائر ألوان الحرير، كان المعز لدين اللّه أمر بعمله فى سنة ثلاث و خمسين و ثلثمائة، فيه صورة أقاليم الأرض و جبالها، و بحارها، و مدنها، و أنهارها، و مسالكها شبه جغرافيا، و فيه صورة مكة و المدينة مبينة للناظر مكتوب على كل مدينة، و جبل و بلد و نهر، و بحر، و طريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير، و فى آخره مما أمر بعمله المعز لدين اللّه شوقا إلى حرم اللّه، و إشهارا لمعالم رسول اللّه فى سنة ثلاث و خمسين و ثلثمائة، و النفقة عليه: اثنان و عشرون ألف دينار، و صار إلى تاج الملوك: بيت أرمنىّ أحمر

منسوج بالذهب، عمل للمتوكل على اللّه لا مثل له و لا قيمة، و بساط خسروانيّ دفع إليه فيه ألف دينار، فامتنع من بيعه.

و قال ابن الطوير: خزانة الفرش، و هى قريبة من باب الملك يحضر إليها الخليفة من غير جلوس، و يطوف فيها و يستخبر عن أحوالها، و يأمر بإدامة الاستعمال، و كان من حقوقها استعمال السامان فى أماكن خارجها بالقاهرة و مصر، و يعطى مستخدمها: خمسة عشر دينارا يعنى يوم يطوف بها الخليفة.

خزائن السلاح

قال فى كتاب الذخائر: فأما خزائن السيوف، و الآلات، و السلاح فإنّ بعضها أخذ، و قسم بين العشرة الثائرين على المستنصر، و هم ناصر الدولة بن حمدان، و أخواه، و بلد كوس، و ابن سبكتكين، و سلام عليك، و شاور بن حسين. حتى صار ذو الفقار: إلى تاج الملوك، و صمصامة عمرو بن معدى كرب، و سيف عبد اللّه بن وهب الراسبّ، و سيف كافور، و سيف المعز، و سيف أبى المعز إلى: الأعز بن سنان، و درع المعز لدين اللّه، و كانت تساوى ألف دينار، و سيف الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليهما السلام، و درقة حمزة بن عبد المطلب رضى اللّه عنه، و سيف جعفر الصادق رضى اللّه عنه، و من الخود و الدروع، و التخافيف، و السيوف المحلاة بالذهب، و الفضة، و السيوف الحديدية، و صناديق النصول، و جعاب السهام الخلنج، و صناديق القسىّ، و رزم الرماح الزان الخطية، و شدات القسا الطوال و الزرد و البيض مئين ألوف، و كان كل صنف منها مفردا عشرات ألوف.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰۶

و قال ابن الطوير: خزانة السلاح يدخل إليها الخليفة، و يطوفها قبل جلوسه على السرير هناك، و يتأمّل حواصلها من الكراغندات المدفونة بالزرد المغشاة بالديباج المحكمة الصناعة، و الجواشن المبطنة المذهبة، و الزرديات السابلة برءوسها، و الخود المحلاة بالفضة و كذلك أكثر الزرديات، و السيوف على اختلافها من العربيات، و القلجوريات، و الرماح القنا، و القنطاريات المدهونة و المذهبة، و الأسنة البرصانية، و القسىّ لرماية اليد المنسوبة إلى صناعها مثل الخطوط المنسوبة إلى أربابها، فيحضر إليه منها ما يجرّبه، و يتأمّل النشاب، و كانت نصوله مثلثة الأركان على اختلافها، ثم قسىّ الرجل و الركاب، و قسىّ اللولب الذى زنة نصله: خمسة أرطال، و يرمى من كل سهم بين يديه، فينظر كيف مجراه، و النشاب الذى يقال له: الجراد، و طوله: شبر يرمى به عن قسىّ فى مجار معمولة برسمه، فلا يدرى به الفارس أو الراجل إلّا و قد نفذ، فإذا فرغ من نظر ذلك كله، خرج من خزانة الدرق، و كانت فى المكان الذى هو خان مسرور، و هى برسم الاستعمالات للأساطيل من الكبورة الخرجية، و الخود الجلودية إلى غير ذلك، فيعطى مستخدمها: خمسة و عشرون دينارا، و يخلع على متقدّم الاستعمالات جوكانية مزيد حريرا، و عمامة لطيفة.

خزائن السروج

قال فى كتاب الذخائر: أخرج فيما أخرج: صناديق سروج محلاة بفضة مجراة بسواد ممسوحة وجد على صندوق منها: الثامن و التسعون و الثلاثمائة، و عدّة ما فيها زيادة على أربعة آلاف سرج، و أخرج المستنصر من خزائن السروج: خمسة آلاف سرج كان أبو سعد إبراهيم بن سهل التسترىّ ذخرها له فيها، و تقدّم بحفظها كل سرج منها يساوى: من سبعة آلاف دينار إلى ألف، و أكثرها عال سبك جميعها، و فرّق فى الأتراك كان برسم ركابه منها أربعة آلاف سرج، و أخذ من خزائن السيدة والدته: أربعة آلاف سرج مثلها، و دونها صنع بها مثل ذلك. و قال ابن الطوير: خزانة السروج تحتوى على ما لا يحتوى عليه مملكة من الممالك، و هى قاعة كبيرة بدورها مصطبة علوها ذراعان، و مجالسها كذلك، و على تلك المصطبة متكآت مخلصة الجانبين على كل متكأ ثلاثة سروج متطابقة، و فوقه فى الحائط وتد مدهون مضروب فى الحائط قبل تبييضه، و هو بارز بروزا متكئا عليه المركبات الحلى على لجم تلك السروج الثلاثة من الذهب خاصة أو الفضة خاصة أو الذهب، و الفضة، و قلائدها و أطواقها لأعناق الخيل، و هى لخاص الخليفة، و أرباب

الرتب ما يزيد على ألف سرج، و منها لجام هو الخاص و منها الوسط، و منها الدون، و هى خيار غيرها برسم العوارى لأرباب الرتب و الخدم، و منها ما هو قريب من الخاص فيكون عند المستخدم بشداده الدائم، و جاريه على الخليفة ما دام مستخدما، و العلف مطلق من الأهراء و أما الصاغة: فإنّ فيها منهم و من المركبين و الخرّازين عددا جمادا ثمين لا يفترون عن العمل، و كل مجلس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰۷

مضبوط بعدد متكآته، و ما عليها من السروج، و الأوتاد و اللجم، و كل مجلس لذلك عند مستخدميه فى العرض، فلا يختل عليهم منها شىء، و كذلك وسط قاعدتها بعدّة متوالية أيضا، و الشدّادون مطلوبون بالنقائص منها أيام المواسم و هم يحضرونها أو قيمتها فيعرض و يركب، و يحضر إليها الخليفة، و يطوفها من غير جلوس، و يعطى حاميها للتفرقة فى المستخدمين عشرين دينارا.

و يقال: إنّ الحافظ لدين اللّه عرضت له فيها حاجة، فجاء إليها مع الحامى، فوجد الشاهد غير حاضر و ختمه عليها، فرجع إلى مكانه، و قال: لا يفك ختم العدل إلّا هو، و نحن نعود فى وقت حضوره انتهى.

و كان الخليفة الآمر بأحكام اللّه تحدّثه نفسه بالسفر إلى المشرق و الغارة على بغداد، فأعدّ لذلك شروجا مجوّفة القرابيص، و بطنها بصفائح من قصدير ليجعل فيها الماء، و جعل لها فما فيه صفارة، فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منه الفارس، و كان كل سرج منها يسع سبعة أرطال ماء، و عمل عدّة مخال للخيل من ديباج، و قال فى ذلك:

دع اللوم عنى لست منى بموثقفلا بدّ لى من صدمة المتحقّق

و أسقى جيادى من فرات و دجلةو أجمع شمل الدين بعد التفرّق

و أوّل من ركب المتصرّفين فى دولته من يخوله بالمراكب الذهب فى المواسم:

العزيز بالله نزار بن المعز.

خزائن الخيم

قال فى كتاب الذخائر: و أخبرنى سماء الرؤساء أبو الحسن علىّ بن أحمد بن مدبر وزير ناصر الدولة قال: أخرج فيما أخرج من خزائن القصر عدّة لم تحص من أعدال الخيم، و المضارب، و الفازات، و المسطحات، و الجركاوات، و الحصون، و القصور، و الشراعات، و المشارع، و الفساطيط المعمولة من الديبقىّ، و المخمل و الخسرانىّ، و الديباج الملكىّ، و الأرمنىّ، و البهنساوىّ، و الكردوانىّ و الجيد من الحلبىّ، و ما أشبه ذلك من سائر ألوانه، و أنواعه، و من السندس و الطميم أيضا منها المفيل، و المسبع، و المخيل، و المطوّس و المطير، و غير ذلك من سائر الوحوش، و الطير و الآدميين من سائر الأشكال، و الصور البديعة الرائعة، و منها الساذج و المنقوش فى ظاهره بغرائب النقوش بجميع آلاتها من الأعمدة الملبسة أنابيب الفضة، و الثياب المذهبة، و غير المذهبة من سائر أنواعها، و ألوانها، و الصفريات الفضة على أقدارها، و الحبال الملبسة القطن، و الحرير، و الأوتاد، و سائر ما يحتاج إليه من جميع آلاتها و عدّتها المبطن جميعها بالديبقىّ الطميم المذهب، و الخسروانىّ المذهب، و ثياب الحرير الصينىّ، و التسترىّ، و المضبب، و الرجيح، و الشرفىّ، و الشعرىّ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۰۸

و الديباج و المريش، و سائر أنواع الحرير من سائر الألوان، و أنواعها كبارا و صغارا منها ما يحمل خرقه، و أوتاده، و عمده، و سائر عدّته على عشرين بعيرا، و دون ذلك، و فوقه.

فالمسطح بيت مربع له أربع حيطان، و سقف بستة أعمدة منها عمودان للحائط الواحد المرفوع للدخول و الخروج، و الخيمة ظهرها حائط مربع و سقيفتها إلى الباب حائط مربع، و أركانها شوارك من الجانبين على قدر القائم، و فيها أربعة أعمدة اثنان فى الباب و اثنان فى وسطها، و كلما زادت زاد عمدها و سقفها، لها حدان مشروكان من الجانبين، و الشراع حائط فى الظهر مسقف على الرأس

بعمودين من أىّ موضع دارت الشمس حوّل إلى ناحية الشمس، و المشرعة فيه مثل المظلة على عمود واحد تامّ، و شراع سابل خلفها من أىّ موضع دارت الشمس أدير، و القبة على حالها.

و حدّثنى أبو الحسن علىّ بن الحسن الخيمىّ قال: أخرجنا فى جملة ما أخرج من خزائن القصر أيام المارقين حين اشتدّت المطالبة على السلطان: فسطاطا كبيرا أكبر ما يكون يسمى: المدورة الكبيرة يقوم على فرد عمود طوله: خمسة و ستون ذراعا بالكبير، و دائر فلكته: عشرون ذراعا، و قطرها: ستة أذرع و ثلثا ذراع، و دائره خمسمائة ذراع، و عدّة قطع خرقه: أربع و ستون قطعة كل قطعة منها تحزم فى عدل واحد يجمع بعضه إلى بعض بعرى و شراريب حتى ينصب، يحمل خرقه و حباله، و عدّته على: مائة جمل، و فى صفريته المعمولة من الفضة ثلاثة قناطير مصرية يحملها من داخل قضبان حديد من سائر نواحيها، تمتلىء ماء من راوية جمل قد صوّر فى رفرفه كل صورة حيوان فى الأرض، و كل عقد مليح، و شكل ظريف، و فيه باذهنج طوله: ثلاثون ذراعا. فى أعلاه، كان أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن البازورى أمر بعمله أيام وزارته، فعمله الصناع، و عدّتهم: مائة و خمسون صانعا فى مدّة تسع سنين، و اشتملت النفقة عليه على ثلاثين ألف دينار، و كان عمله على مثال القاتول الذى كان العزيز بالله أمر بعمله أيام خلافته إلّا أن هذا أعلى عمودا منه، و أوسع، و أعظم، و أحسن، و كان الخليفة أنفذ إلى متملك الروم فى طلب عمودين للفسطاط طول كل واحد منهما: سبعون ذراعا بعد أن غرم عليهما ألف دينار أحدهما فى هذا الفسطاط بعد أن قطع منه خمسة أذرع، و الآخر حمله ناصر الدولة بن حمدان حين خرج على الخليفة المستنصر بالله إلى الاسكندرية، و ما أدرى ما فعل به.

قال: و أقمنا مدّة طويلة فى تفصيل بعضه من بعض، و تقطيعه خرقا و شققا قوّمت على المذكورين بأقل القيم، و تفرّق فى الآفاق، و قال لى أيضا: أخرجنا مسطحا قلمونيا مخملا موجها من جانبيه، عمل بتنيس للعزيز بالله يسمى: دار البطيخ، وسطه بكنيس على ستة

أعمدة، أربعة منها فى أركان الكنيس، و فى أربعة الأركان أربع قباب، و من القبة إلى القبة رواق دائر عليه، و القباب دونه، و فى كل قبة أربعة أعمدة ذول كل عمود من أعمدة الكنيس ثمانية عشر ذراعا، و كذلك طول قائم القباب، و فعلنا به مثل ما فعلنا فى الأوّل.

و قال لى: أخرجنا مسطحا عمل للظاهر لإعزاز دين اللّه: بتنيس ذهب فى ذهب طميم، قائم على عمود له: ست صفارى بلور، و ستة أعمدة فضة أنفق عليه أربعة عشر ألف دينار، و مسطحا ديبقيا كبيرا مذهبا بدوائر كردوانى منقوش، و أخرجنا قصورا تحيط بالخيام بشرفات من المخمل و القلمونىّ، و الديبقىّ ، و الديباج الخسروانىّ، و الحرير من سائر أنواعه، و ألوانه المذهبة المنقوشة بحياضها، و دككها، و مصاطبها، و قدورها، و زجاجها، و سائر عددها.

و أخرجنا من الخيام الكردوانى شيئا كثيرا، و أخرجنا خيمة كبيرة مدوّرة كردوانىّ مليحة النقش و الصنعة، عدّتها قطع كثيرة طول عمودها خمسة و ثلاثون ذراعا فعلنا بجميعها مثل ما فعلنا بالأوّل، و أخرج فى جملتها الفسطاط الكبير المعروف بالمدوّرة الكبيرة المتولى عمله بحلب أبو الحسن علىّ بن أحمد المعروف بابن الأيسر فى سنى نيف و أربعين و أربعمائة المنفق على خرقه، و نقشه و عمله، و عدّته ثلاثون ألف دينار الذى عموده أثول ما يكون من صوارى درامين الروم البنادقة أربعون ذراعا، و دائر فلكة عوده أربعة و عشرون شبرا، و يحمل على سبعين جملا، و وزن صفريته الفضة قنطاران سوى أنابيب عمده، و يتولى إتقان عمده، و نصبه مائتا رجل من فرّاش و معين، و هو شبيه بالقاتول العزيزىّ، و سمى بالقاتول: لأنه ما نصب قط إلّا، و قتل رجلا أو رجلين ممن يتولى إتقانه من فرّاش و غيره.

قال: و وجد فى خزائن مملوءة من سائر أنواع الصوانى المدهونة ببغداد المذهبة التى حشيت، كل واحدة منها بما دونها فى السعة إلى ما سعته دون الدرهم، و من سائر أنواع الأطباق الخلع الرازى فى هذه السعة، و فوق ذلك و دونه قد حشيت بطونها بما دونها فى السعة، إلى ما سعته دون الدينار، و من الموائد القوائمية الصغار، و الكبار ألوف، و من موائد الكرم، و ما أشبهها شىء كثير، و من الجفان الحور الواسعة التى قد عملت مقابضها من الفضة، و حليت بأنواع الحلى التى لا يقدر الجمل القوىّ على حمل جفنتين منها،

لعظمها تساوى الواحدة منها: مائة دينار، و فوقها، و دونها شىء كثير، و وجد من الدكك، و المحاريب، و الأسرّة العود، و الصندل، و العاج و الأبنوس، و البقم شىء كثير مليح الصنعة.

و قال ابن ميسر: و عمل الأفضل بن أمير الجيوش خيمة سماها: خيمة الفرح اشتملت على:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱۰

ألف ألف و أربعمائة ألف ذراع، و قائمها ارتفاعه خمسون ذراعا بذراع العمل، صرف عليها:

عشرة آلاف دينار، و مدحها جماعة من الشعراء.

خزانة الشراب

قال ابن المأمون: و لم يكن فى الإيوان فيما تقدّم شراب حلو، بل إنها قرّرت لاستقبال النظر المأمونىّ، و أطلق لها من السكر: مائة و خمسة عشر قنطارا، و برسم الورد المربى خمسة عشر قنطارا، و أما ما يستعمل بالكافورىّ من الحلو الفانيذ و الحامض، فالمبلغ فى ذلك على ما حصره شاهده فى السنة: ستة آلاف و خمسمائة دينار، و ما يحمل للكافورىّ أيضا برسم كرك الماورد ما يستدعيه متولى الشراب.

و قال ابن الطوير: خزانة الشراب، و هى أحد مجالسه أيضا يعنى القاعة التى هى الآن:

المارستان العتيق، فإذا جلس الخليفة على السرير عرض عليه ما فيها حاميها، و هو من كبار الأستاذين و شاهدها، فيحضر إليه فرّاشوها بين يدى مستخدمها من عيون الأصناف العالية من المعاجين العجيبة فى الصينىّ، و الطيافير الخلنج، فيذوق ذلك شاهدها بحضرته، و يستخبر عن أحوالها بحضور أطباء الخاص، و فيها من الآلات، و الأزياء الصينىّ، و البرابى عدّة عظيمة للورد، و البنفسج، و المرسين، و أصناف الأدية من الراوند الصينى، و ما يجرى مجراه، مما لا يقدر أحد على مثله إلّا هناك، و ما يدخل فى الأدوية من آلات العطر إلى ذلك، و يسأل عن الدرياق الفاروق، و يأمرهم بتحصيل أصنافه ليستدرك عمله قبل انقطاع الحاصل منه، و يؤكد فى ذلك تأكيدا عظيما، و يستأذن على ما يطلق منها برقاع أطباء الخاص للجهات، و حواشى القصر، فيأذن فى ذلك، و يعطى الحامى للتفرقة فى الجماعة: ثلاثين دينارا.

خزانة التوابل

و قال ابن المأمون: فأما التوابل العالى منها و الدون، فإنها جملة كثيرة، و لم يقع لى شاهد بها، بل إننى اجتمعت بأحد من كان مستخدما فى خزانة التوابل، فذكر أنها تشتمل على: خمسين ألف دينار فى السنة، و ذلك خارج عما يحمل من البقولات، و هى باب مفرد مع المستخدم فى الكافورى، و الذى استقرّ إطلاقه على حكم الاستيمار من الجرايات المختصة بالقصور، و الرواتب المستجدّة، و المطلق من الطيب، و يذكر الطراز، و ما يبتاع من الثغور، و يستعمل بها و غير ذلك.

فأوّلها: جراية القصور، و ما يطلق لها من بيت المال إدرارا لاستقبال النظر المأمونىّ:

ستة آلاف و ثلثمائة و ثلاثة و أربعون دينارا، تفصيله: منديل الكم الخاص الآمرى فى الشهر:

ثلاثة آلاف دينار، عن مائة دينار كل يوم أربع جمع الحمام فى كل جمعة: مائة دينار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱۱

أربعمائة دينار، و برمس الإخوة و الأخوات، و السيدة الملكة، و السيدات، و الأمير أبى علىّ، و إخوته، و الموالى، و المستخدمات، و من استجدّ من الأفضليات ألفان و تسعمائة و ثلاثة و أربعون دينارا، و لم يكن للقصور فى الأيام الأفضلية من الطيب راتب فيذكر، بل كان إذا وصلت الهدية و الجاوى من البلاد اليمنية تحمل برمّتها إلى الإيوان، فينقل منها بعد ذلك للأفضل، و الطيب المطلق للخليفة

من جملتها فانفسخ هذا الحكم.

و صار المرتب من الطيب مياومة، و مشاهرة على ما يأتى ذكره ما هو برسم الخاص الشريف فى كل شهر ندّ مثلث: ثلاثون مثقالا، عود صيفىّ: مائة و خمسة دراهم، كافور قديم: خمسة عشر درهما، عنبر خام: عشرة مثاقيل، زعفران: عشرون درهما، ماء ورد:

ثلاثون رطلا، برسم بخور المجلس الشريف فى كل شهر فى أيام السلام، ندّ مثلث: عشرة مثاقيل، عود صيفى: عشرون درهما، كافور قديم: ثمانية دراهم، زعفران شعر: عشرة دراهم، ما هو برسم بخور الحمام فى كل ليلة جمعة عن أربع جمع فى الشهر، ندّ مثلث:

أربعة مثاقيل، عود صيفى: عشرة مثاقيل، ما هو برسم السيدات، و الجهات، و الأخوة فى كل شهر: ندّ مثلث خمسة و ثلاثون مثقالا، عود صيفى: مائة و عشرون درهما، زعفران شعر: خمسون درهما، عنبر خام: عشرون مثقالا، كافور قديم: عشرون درهما، مسك:

خمسة عشر مثقالا، ماء ورد: أربعون رطلا، ما هو برسم المائدة الشريفة ما تستلمه المعلمة مسك خمسة عشر مثقالا، ماء ورد: خمسة عشر رطلا، ما هو برسم خزانة الشراب الخاص مسك: ثلاثة مثاقيل، ندّ ثلث سبعة مثاقيل، عود صيفى: خمسة و ثلاثون درهما، ماء ورد:

عشرون رطلا ما هو برسم بخور المواكب الستة، و هى الجمعتان الكائنتان فى شهر رمضان، برسم الجامعين بالقاهرة يعنى الجامع الأزهر، و الجامع الحاكمى، و العيدان، و غيد الغدير، و أوّل السنة بالجوامع و المصلى، ندّ خاص جملة كثيرة لم تتحقق فتذكر، و لم يكن للغرّتين غرّة السنة، و غرّة شهر رمضان، و فتح الخليج بخور فيذكر، و عدّة المبخرين فى المواكب ستة: ثلاثة عن اليمين، و ثلاثة عن الشمال، و كل منهم مشدود الوسط، و فى كمه فحم برسم تعجيل المدخنة، و المداخن فضة، و حامل الدرج الفضة الذى فيه البخور أحد مقدّمى بيت المال، و هو فيما بين المبخرين طول الطريق، و يضع بيده البخور فى المدخنة، و إذا مات أحد هؤلاء المبخرين لا يخدم عوضا عنه إلّا من يتبرّع بمدخنة فضة، لأنّ لهم رسوما كثيرة فى المواسم مع قربهم فى المواكب من الخليفة، و من الوقت الذى يتبرّع فيه بالمدخنة يرجع فى حاصل بيت المال، و إذا توفى حاملها لا ترجع لورثته، و عدّة ما يبخر فى الجوامع و المصلى غير هؤلاء فى مداخن كبار، فى صوانى فضة: ثلاث صوان، فى المحراب إحداهنّ، و عن يمين المنبر، و شماله اثنتان، و فى الموضع الذى يجلس فيه الخليفة إلى أن تقام الصلاة صينية رابعة.

و أما البخور المطلق برسم المأمون فهو فى كل شهر: ندّ مثلث: خمسة عشر مثقالا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱۲

عود صيفىّ: ستون درهما، عنبر خام: ستة مثاقيل، كافور: ثمانية دراهم، زعفران شعر:

عشرة دراهم، ماء ورد: خمسة عشر رطلا و منها مقرّر الحلوى، و الفستق، و مما استجدّ ما يعمل فى الإيوان برسم الخاص فى كل يوم من الحلوى: اثنا عشر جاما رطبة و يابسة نصفين وزن كل جام من الرطب: عشرة أرطال، و من اليابس: ثمانية أرطال، و مقرّر الخشكنانج و البسندود فى كل ليلة على الاستمرار برسم الخاص الآمرىّ، و المأمونىّ: قنطار واحد سكر، و مثقالان مسك و ديناران برسم المؤن لعمل خشكنانج و بسندود فى قعبان و سلال صفصاف، و يحمل ثلثا ذلك إلى القصر و الثلث إلى الدار المأمونية.

قال و جرت مفاوضة بين متولى بيت المال، و دار الفطرة بسبب الأصناف، و من جملتها: الفستق، و قلة وجوده و تزايد سعره إلى أن بلغ رطل و نصف: بدينار، و قد وقف منه لأرباب الرسوم ما حصل شكواهم بسببه، فجاوبه متولى الديوان، بأن قال: ما تمّ موجب الإنفاق لما هو راتب من الديوان، و طالعا المقام العالى بأنه لما رسم لهما: ذكرا جميع ما اشتمل عليه ما هو مستقرّ الإنفاق من قلب الفستق و الذى يطلق من الخزائن من قلب الفستق إدرارا مستقرّا بغير استدعاء، و لا توقيع مياومة، كل يوم حسابا فى الشهر التام عن ثلاثين يوما خمسمائة و خمسة و ثمانون رطلا، و فى الشهر الناقص عن تسعة و عشرين يوما خمسمائة و خمسة و ستون رطلا حسابا عن كل: يوم تسعة عشر رطلا و نصف من ذلك ما يستلمه الصناع الحلاويون، و المستخدمون بالإيوان مما يصنع به خاص خارجا عما يصنع بالمطابخ الآمرية عن اثنى عشر جام حلوى خاص وزنها: مائة و ثمانية أرطال منها: رطب ستون رطلا، و يابس و غيره: ثمانية و أربعون

رطلا مما يحمل فى يومه و ساعته، منها ما يحمل مختوما برسم المائدتين الآمريتين بالباذهنج ، و الدار الجديدة اللتين ما يحضرهما إلّا من كبرت منزلته، و عظمت وجاهته جامان رطبا و يابسا، و ما يفرّق فى العوالى من الموالى، و الجهات على أوضاع مختلفة تسع جامات، و ما يحمل إلى الدار المأمونية برسم المائدة بالداردون السماط: جام واحد.

تتمة المياومة المذكورة ما يتسلمه الشاهد، و المشارف على المطابخ الآمرية، مما يصنع فيها برسم الجامات الحلوى، و غيره مما يكون على المدورة فى الأسمطة المستمرّة بقاعة الذهب فى أيام السلام، و فى أيام الركوبات، و حلول الركاب بالمناظر أربعة أرطال،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱۳

و ما يتسلمه الحاج مقبل الفرّاش برسم المائدة المأمونية، مما يوصله لزمام الدار دون المطابخ الرجالية رطلان الحكم الثانى يطلق مشاهرة بغير توقيع، و لا استدعاء بأسماء كبراء الجهات، و المستخدمين من الأصحاب، و الحواشى فى الخدم المميزة، و هو فى الشهر ثلاثة عشر رطلا، و الديوان شاهد بأسماء أربابه، و ما يطلق من هذه الخزائن السعيدة بالاستدعاءات و المطالعات، و يوقع عليه بالإطلاق من هذا الصنف فى كل سنة على ما يأتى ذكره، و ما يستدعى برسم التوسعة فى الراتب عند تحويل الركاب العالى إلى اللؤلؤة مدّة أيام النيل المبارك فى كل يوم رطلان، و ما يستدعى برسم الصيام مدّة تسعة و خمسين يوما رجب و شعبان حسابا عن كل يوم: رطلان مائة و ثمانية عشر رطلا- و ما يستدعى لما يصنع بدار الفطرة فى كل ليلة برسم الخاص خشكنانج لطيفة، و بسندود، و جوارشات، و نواطف، و يحمل فى سلال صفصاف لوقته، عن مدّة أوّلها مستهل رجب، و آخرها سلخ رمضان عن تسعة و ثمانين يوما مائة و ثمانية و سبعون رطلا، لكل ليلة: رطلان، و يسمى ذلك: بالتعبية، و ما يستدعيه صاحب بيت المال، و متولى الديوان.

فيما يصنع بالإيوان الشريف برسم الموالد الشريفة الأربعة: النبوىّ، و العلوىّ، و الفاطمىّ، و الآمرىّ مما هو برسم الخاص، و الموالى، و الجهات بالقصور الزاهرة، و الدار المأمونية، و الأصحاب، و الحواشى خارجا عما يطلق مما يصنع بدر الوكالة، و يفرّق على الشهود، و المتصدّرين و الفقراء، و المساكين مما يكون حسابه من غير هذه الخزائن عشرون رطلا قلب فستق حسابا لكل يوم مؤبد منها: خمسة أرطال.

ما يستدعى برسم ليالى الوقود الأربع الكائنات فى رجب و شعبان، مما يعمل بالإيوان برسم الخاصيين، و القصور خاصة: عشرون رطلا لكل ليلة خمسة أرطل.

و أما ما ينصرف فى الأسمطة، و الليالى المذكورات فى الجامع الأزهر بالقاهرة، و الجامع الظاهرىّ بالقرافة فالحكم فى ذلك يخرج عن هذه الخزائن، و يرجع إلى مشارف الدار السعيدة، و كذلك ما يستدعيه المستخدمون فى المطابخ الآمرية من التوسعة من هذا الصنف المذكور فى جملة غيره برسم الأسمطة لمدّة تسعة و عشرين يوما من شهر رمضان و سلخه لأسماط فيه، و فى الأعياد جميعها بقاعة الذهب، و ما يستدعيه النائب برسم ضيافة من يصرف من الأمراء فى الخدم الكبار، و يعود إلى الباب، و من يرد إليه من جميع الضيوف، و ما يستدعيه المستخدمون فى دار الفطرة برسم فتح الخليج، و هى الجملتان الكبيرتان، فجميع ذلك لم يكن فى هذه الخزائن محاسبته، و لا ذكر جملته، و المعاملة فيه مع مشارف الدار السعيدة، و أما: ما يطلق من هذا الصنف من هذه الخزائن فى هذه الولائم، و الأفراح، و إرسال الأنعام فهو شىء لم تتحقق أوقاته، و لا مبلغ استدعائه، أنهى المملوكان ذلك، و المجلس فضل السموّ، و القدرة فيما يأمر به إن شاء اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱۴

دار التعبية

قال ابن المأمون: دار التعبية كانت فى الأيام الأفضلية تشتمل على مبلغ يسير، فانتهى الأمر فيها إلى عشرة دنانير كل يوم خارجا عما هو موظف على البساتين السلطانية، و هو النرجس و النينوفران الأصفر، و الأحمر، و النخل الموقوف برسم الخاص، و ما يصل إليه من

الفيوم، و ثغر الإسكندرية، و من جملتها تعبية للجهات، و الخاص و السيدات، و لدار الوزارة، و تعبية المناظر فى الركوبات إلى الجمع فى شهر رمضان خارجا عن تعبية الحمامات، و ما يحمل كل يوم من الزهرة، و برسم خزانة الكسوة الخاص، و برسم المائدة، و تفرقة الثمرة الصيفية فى كل سنة على الجهات، و الأمراء، و المستخدمين، و الحواشى، و الأصحاب، و ما يحمل لدار الوزارة، و الضيوف و حاشية دار الوزارة.

خزانة الأدم

قال: و أما الراتب من عند بركات الأدميّ، فإنه فى كل شهر ثمانون زوجا أو طية من ذلك، برسم الخاص: ثلاثون زوجا، برسم الجهات: أربعون زوجا، برسم الوزارة: عشرة أزواج خارجا عن السباعيات، فإنها تستدعى من خزانة الكسوة، و فى كل موسم تكون مذهبة.

خزائن دار أفتكين

قال ابن الطوير: و كانت لهم دار كبرى يسكنها: نصر الدولة أفتكين الذى رافق نزار بن المستنصر بالإسكندرية جعلوها: برسم الخزن، فقيل: خزائن دار أفتكين، و تحتوى على أصناف عديدة من الشمع المحمول من الإسكندرية و غيرها، و جميع القلوب المأكولة من الفستق و غيره، و الأعسال على اختلاف أصنافها، و السكر، و القند، و الشيرج، و الزيت، فيخرج من هذه الخزائن بيد حاميها، و هو من الأستاذين المميزين و مشارفها، و هو من المعدّلين راتب المطابخ: خاصا و عامّا أو لأيام، ينفق منها للمستخدمين، ثم لأرباب التوقيعات من الجهات، و أرباب الرسوم فى كل شهر من أرباب الرتب حتى لا يخرج عما يحتاجونه فيها إلا اللحم، و الخضراوات، فهى أبدا معمورة بذلك انتهى. خبر نزار و أفتكين:

لما مات الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معدّ بن الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه أبى الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه أبى علىّ منصور: فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱۵

سبع و ثمانين و أربعمائة، بادر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى إلى القصر، و أجلس: أبا القاسم أحمد بن المستنصر فى منصب الخلافة، و لقبه: بالمستعلى بالله، و سير إلى الأمير نزار، و الأمير عبد اللّه، و الأمير إسماعيل: أولاد المستنصر فجاؤوا إليه، فإذا أخوهم أحمد، و هو أصغرهم قد جلس على سرير الخلافة، فامتعضوا لذلك، و شق عليهم.

و أمرهم الأفضل بتقبيل الأرض، و قال لهم: قبلوا الأرض لمولانا المستعلى بالله، و بايعوه فهو الذى نص عليه الإمام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده، فامتنعوا من ذلك، و قال كل منهم: إن أباه قد وعده بالخلافة، و قال نزار: لو قطعت ما بايعت من هو أصغر منى سنا، و خط والدى عندى بأنى ولىّ عهده، و أنا أحضره، و خرج مسرعا ليحضر الخط، فمضى لا يدرى به أحد، و توجه إلى الاسكندرية.

فلما أبطأ مجيئه بعث الأفضل إليه ليحضر بالخط، فلم يعلم له خبرا. فانزعج لذلك انزعاجا عظيما، و كانت نفرة نزار من الأفضل لأمور منها: أنه خرج يوما فإذا بالأفضل قد دخل من باب القصر، و هو راكب، فصاح به نزار: انزل يا أرمنىّ الجنس ، فحقدها عليه، و صار كل منهما يكره الآخر، و منها: أنّ الأفضل: كان يعارض نزارا فى أيام أبيه، و يستخف به، و يضع من حواشيه، و أسبابه، و يبطش بغلمانه، فلما مات المستنصر خافه، لأنه كان رجلا كبيرا، و له حاشية، و أعوان، فقدّم لذلك أحمد بن المستنصر بعد ما اجتمع بالأمراء و خوّفهم من نزار، و ما زال بهم حتى وافقوه على الإعراض عنه، و كان من جملتهم:

محمود بن مصال، فسير خفية إلى نزار، و أعلمه بما كان من اتفاق الأفضل مع الأمراء على إقامة أخيه أحمد، و إدارته لهم عنه، فاستعدّ

إلى المسير إلى الاسكندرية هو و ابن مصال، فلما فارق الأفضل، ليحضر إليه بخط أبيه، خرج من القصر متنكرا، و سار هو و ابن مصال إلى الاسكندرية، و بها الأمير نصر الدولة أفتكين أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى، و دخلا عليه ليلا و أعلماه بما كان من الأفضل، و ترامیا عليه، و وعده نزار بأن يجعله وزيرا مكان الأفضل، فقبلهما أتمّ قبول، و بايع نزارا، و أحضر أهل الثغر لمبايعته فبايعوه، و نعته بالمصطفى لدين اللّه، فبلغ ذلك الأفضل، فأخذ يتجهز لمحاربتهم و خرج فى آخر المحرّم سنة ثمان و ثمانين بعسكره، و سار إلى الاسكندرية، فبرز إليه نزار و أفتكين، و كانت بين الفريقين عدّة حروب شديدة انكسر فيها الأفضل، و رجع بمن معه منهزما إلى القاهرة، فقوى نزار و أفتكين، و صار إليهما كثير من العرب، و اشتدّ أمر نزار، و عظم و استولى على بلاد الوجه البحرىّ، و أخذ الأفضل يتجهز ثانيا إلى المسير لمحاربة نزار، و دس إلى أكابر العربان، و وجوه أصحاب نزار و أفتكين، و صاروا إلى الاسكندرية، فنزل الأفضل إليها، و حاصرها حصارا شديدا، و ألحّ فى مقاتلتهم، و بعث إلى أكابر أصحاب نزار، و وعدهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱۶

فلما كان فى ذى القعدة و قد اشتدّ البلاء من الحصار جمع ابن مصال ماله، و فرّ فى البحر إلى جهة بلاد المغرب، ففت ذلك فى عضد نزار و تبين فيه الانكسار، و اشتدّ الأفضل، و تكاثرت جموعه، فبعث نزار و أفتكين إليه يطلبان الأمان منه، فأمنهما و دخل الاسكندرية، و قبض على نزار و أفتكين، و بعث بهما إلى القاهرة، فأما نزار: فإنه قتل فى القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما، و أما أفتكين، فإنه قتله الأفضل بعد قدومه، و دار أفتكين هذه كانت خارج القصر و موضعها الآن حيث مدرسة القاضى الفاضل، و آدره بدرب ملوخيا.

خزانة البنود

البنود: هى الرايات و الأعلام، و يشبه أن تكون هى التى يقال لها فى زمننا: العصائب السلطانية، و كانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير، و من حقوقه فيما بين قصر الشوك، و باب العيد بناها: الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه أبو هاشم علىّ بن الحاكم بأمر اللّه، و كان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين فى سائر الصنائع، و كانت أيام الظاهر هذا سكونا و طمأنينة، و كان مشتغلا بالأكل و الشرب، و النزه، و سماع الأغانى.

و فى زمانه تأنق أهل مصر و القاهرة فى اتخاذ الأغانى و الرقاصات، و بلغ من ذلك المبالغ العجيبة، و اتخذت له حجرة المماليك، و كانوا يعلمونهم فيها أنواع العلوم و أنواع آلة الحرب، و صنوف حيلها من الرماية، و المطاعنة، و المسابقة و غير ذلك.

و قال فى كتاب الذخائر و التحف: و لما وهب السلطان يعنى الخليفة المستنصر لسعد الدولة المعروف بسلام عليك ما فى خزانة البنود من جميع المتاع و الآلات، و غير ذلك فى اليوم السادس من صفر سنة إحدى و ستين و أربعمائة، حمل جميعه ليلا، و كان فيما وجد سعد الدولة فيها ألفا و تسعمائة درقة إلى ما سوى ذلك من آلات الحرب و ما سواه، و غير ذلك من القضب الفضة و الذهب و البنود، و ما سواه، و فى خلال ذلك سقط من بعض الفرّاشين: مقط شمع موقد نارا، فصادف هناك أعدال كتان، و متاعا كثيرا، فاحترق جميعه، و كانت لتلك غلبة عظيمة، و خوف شديد فيما يليها من القصر، و دور العامّة و الأسواق.

و أعلمنى من له خبرة بما كان فى خزانة البنود أن مبلغ ما كان فيها من سائر الآلات، و الأمتعة، و الذخائر لا يعرف له قيمة عظما، و إنّ المنفق فيها كل سنة: من سبعين ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار من وقت دخول القائد جوهر، و بناء القصر من سنة ثمان و خمسين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱۷

و ثلثمائة إلى هذا الوقت، و ذلك زائد عن مائة سنة، و إنّ جميعه باق فيها على الأيام لم يتغير، و إنّ جميعه احترق حتى لم يبق منه باقية، و لا أثر، و إنه احترق فى هذه الليلة من قربات النفط عشرات ألوف، و من زراقات النفط أمثالها، فأما الدرق و السيوف و الرماح و النشاب، فلا تحصى بوجه، و لا سبب مع ما فيها من قضب الفضة، و ثيابها المذهبة و غيرها، و البنود المجملة، و سروج و لجم و

ثياب الفرحية المصبغات و البنادين، و غيرها بعد أن أخذوا ما قدروا عليه، حتى لواء الحمد ، و سائر البنود، و جميع العلامات، و الألوية.

و حدّثنى من أثق به أيضا: أنه احترق فيها من السيوف عشرات ألوف، و ما لا يحصى كثرة، و إن السلطان بعد ذلك بمدّة طويلة احتاج إلى إخراج شيء من السلاح لبعض مهماته، فأخرج من خزانة واحدة مما بقى و سلم خمسة عشر ألف سيف مجوهرة سوى غيرها.

حدّثنى بجميعه الأجل: عظيم الدولة متولى الستر الشريف انتهى.

و جعلت خزانة البنود بعد هذا الحريق حبسا، و فيها يقول القاضى المهذب بن الزبير لما اعتقل بها، و كتب بها للكامل بن شاور:

أيا صاحبى سجن الخزانة خليانسيم الصبا يرسل إلى كبدى نفحا

و قولا لضوء الصبح هل أنت عائدإلى نصرى أم لا أرى بعدها صبحا

و لا تيأسا من رحمة اللّه أن أرىسريعا بفضل الكامل العفو و الصفحا

و قال:

أيا صاحبى سجن الخزانة خليامن الصبح ما يبدو سناه لناظرى

فو اللّه ما أدرى أطرفى ساهرعلى طول هذا الليل أم غير ساهر

و ما لى من أشكو إليه إذا كماسوى ملك الدنيا شجاع بن شاور

و استثمرت سجنا للأمراء، و الوزراء، و الأعيان إلى أن زالت الدولة، فاتخذها ملوك بنى أيوب أيضا سجنا، تعتقل فيه الأمراء و المماليك.

و من غريب ما وقع بها أن الوزير: أحمد بن علىّ الجرجرائى : لما توفى طلب الوزارة: الحسن بن علىّ الأنبارى: فأجيب إليها، فتعجل من سوء التدبير قبل تمامه ما فوّته مراده، و ضيع ماله و نفسه، و ذلك أنه كان قد نبغ فى أيام الحاكم بأمر اللّه أخوان يهوديان:

بتصرّف أحدهما فى التجارة، و الآخر فى الصرف، و بيع ما يحمله التجار من العراق.

و هما: أبو سعد إبراهيم، و أبو نصر هارون ابنا سهل التسترىّ، و اشتهر من أمرهما فى البيوع و إظهار ما يحصل عندهما من الودائع الخفية لمن يفقد من التجار فى القرب و البعد، ما ينشأ به جميل الذكر فى الآفاق، فاتسع حالهما لذلك، و استخدم الخليفة الظاهر لإعزار دين اللّه: أبا سعد إبراهيم بن سهل التسترىّ فى ابتياع ما يحتاج إليه من صنوف الأمتعة، و تقدّم عنده، فباع له جارية سوداء، فتحظى بها الظاهر، و أولدها: ابنه المستنصر، فرعت لأبى سعد ذلك، فلما أفضت الخلافة إلى المستنصر ولدها قدّمت: أبا سعد، و تخصصت به فى خدمتها.

فلما مات الوزير الجرجرائى، و تكلم ابن الأنبارى فى الوزارة قصده أبو نصر أخو أبى سعد، فجبهه أحد أصحابه بكلام مؤلم، فظنّ أبو نصر أن الوزير ابن الأنبارى إذا بلغه ذلك ينكر على غلامه، و يعتذر إليه، فجاء منه خلاف ما ظنه، و بلغه عنه أضعاف ما سمعه من الغلام، فشكا ذلك إلى أخيه أبى سعد، و أعلمه بأنّ الوزير متغير النية لهما، فلم يفتر أبو سعد عن ابن الأنبارىّ، و أغرى به أمّ المستنصر مولاته، فتحدّثت مع ابنها الخليفة المستنصر فى أمره حتى عزله عن الوزارة فسعى أبو سعد عند أمّ المستنصر: لأبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحىّ فى الوزارة، فاستوزره المستنصر، و تولى أبو سعد الإشراف عليه، و صار الوزير الفلاحىّ منقادا لأبى سعد تحت حكمه، و أخذ الفلاحى يعمل على ابن الأنبارى و يغرى به، و يصنع عليه ديونا، و يذكر عنه ما يوجب الغضب عليه، حتى تمّ له ما يريد، فقبض عليه، و خرّج عليه من الدواوين أموالا كثيرة، مما كان يتولاه قديما، و ألزمه بحملها، و نوّع له أصناف العذاب، و استصفى أمواله، و هو معتقل بخزانة البنود، ثم قتله فى يوم الاثنين الخامس من المحرّم سنة أربعين و أربعمائة بها، فاتفق أن الفلاحى لما صرف عن الوزارة، اعتقل بخزانة البنود حيث كان ابن الأنبارى، قم قتل بها، و حفر له ليدفن، فظهر فى الحفر رأس ابن الأنبارى

قبل أن يمضى فيه القتل، فقال لا إله إلّا اللّه: هذا رأس ابن الأنبارى أنا قتلته، و دفنته ههنا و أنشد:

رب لحد قد صار لحدا مراراضاحكا من تزاحم الأضداد

فقتل، و دفن فى تلك الحفرة مع ابن الأنبارى، فعدّ ذلك من غرائب الاتفاق.

ثم إن خزانة البنود جعلت منازل للأسرى من الفرنج المأسورين من البلاد الشامية أيام المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۱۹

كانت محاربة المسلمين لهم، فأنزل بها الملك الناصر محمد بن قلاون: الأسارى بعد حضوره من الكرك، و أبطل السجن بها، فلم يزالوا فيها بأهاليهم، و أولادهم فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، فصار لهم فيها أفعال قبيحة، و أمور منكرة شنيعة من التجاهر: ببيع الخمر، و التظاهر بالزنا و اللياطة، و حماية من يدخل إليها من أرباب الديون، و أصحاب الجرائم و غيرهم، فلا يقدر أحد، و لو جلّ على أخذ من صار إليهم و احتمى بهم.

و السلطان يغضى عنهم لما يرى فى ذلك من مراعاة المصلحة، و السياسة التى اقتضاها الحال من مهادنة ملوك الفرنج، و كان يسكن بالقرب منها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار، و يبلغه ما يفعله الفرنج من العظائم الشنيعة، فلا يقدر على منعهم، و فحش أمرهم، فرفع الخبر إلى السلطان، و أكثر من شكايتهم غير مرّة و السلطان يتغافل عن ذلك إلى أن كثرت مفاوضة الحاج آل ملك للسلطان فى أمرهم، فقال له السلطان: أ تنقل أنت عنهم يا أمير؟

فلم يسعه إلّا الإعراض عن ذلك، و عمّر داره التى بالحسينية، و الإصطبل، و الجامع المعروف: بآل ملك و الحمام و الفندق، و انتقل من داره التى كان فيها بجوار خزانة البنود، و سكن بالحسينية إلى أن مات السلطان الملك الناصر فى أخريات سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و تنقل الملك فى أولاده إلى أن جلس الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاون، و ضرب شورى على من يكون نائب السلطنة بالديار المصرية يدبر أحوال المملكة، كما كانت العادة فى ذلك مدّة الدلة التركية، فأشير بتولية الأمير: بدر الدين جنكل بن البابا، فتنصل من ذلك، و أبى قبوله، فعرضت النيابة على الأمير الحاج آل مالك فاستبشر و قال: لى شروط أشرطها على السلطان، فإن أجابنى إليها فعلت ما يرسم به.

و هى أن لا يفعل شىء فى المملكة إلا برأيى، و أن يمنع الناس من شرب الخمر، و يقام منار الشرع، و لا يعترض على أمر من الأمور، فأجيب إلى ما سأل، و أحضرت التشاريف، فأفيضت عليه بالجامع من قلعة الجبل فى يوم الجمعة الثانى عشر من المحرّم سنة أربع و أربعين و سبعمائة، و أصبح يوم السبت جالسا فى دار النيابة من القلعة، و حكم بين الناس، و أوّل ما بدأ به: أن أمر والى القاهرة بالنزول إلى خزانة البنود، و أن يحتاط على جميع ما فيها من الخمر و الفواحش، و يخرج الأسرى منها، و يهدمها حتى يجعلها دكا، و يسوّى بها الأرض، فنزل إليها و معه الحاجب فى عدّة وافرة، و هجموا على من فيها، و هم آمنون، و أحاطوا بسائر ما تشتمل عليه، و قد اجتمع من العامّة و الغوغاء، ما لا يقع عليه حصر، فأراقوا منها خمورا كثيرة تتجاوز الحدّ فى الكثرة، و أخرج من كان فيها من النساء البغايا، و غيرهنّ من الشباب، و أرباب الفساد، و قبض على الفرنج و الأرمن، و هدمها حتى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۰

لم يبق لها أثر، و نودى فى الناس، فحكروها و بنوا فيها الدور و الطواحين على ما هى على الآن، و أمر بالأسرى، فأنزلوا بالقرب من المشهد النفيسىّ، بجوار كيمان مصرفهم هناك إلى الآن، و أنزل من كان منهم أيضا بقلعة الجبل، فأسكنوا معهم و طهر اللّه تلك الأرض منهم، و أراح العباد من شرّهم، فإنها كانت شرّ بقعة من بقاع الأرض يباع فيها لحم الخنزير على الوضم، كما يباع لحم الضأن، و يعصر فيها من الخمور فى كل سنة ما لا يستطيع أحد حصره، حتى يقال: إنه كان يعصر بها فى كل سنة: اثنان و ثلاثون ألف جرّة خمر، و يباع فيها الخمر نحو: اثنى عشر رطلا بدرهم إلى غير ذلك من سائر أنواع الفسوق.

دار الفطرة

قال ابن الطوير: دار الفطرة خارج القصر، بناها: العزيز بالله، و هو أوّل من بناها، و قرّر فيها ما يعمل مما يحمل إلى الناس فى العيد، و هى قبالة باب الديلم من القصر الذى يدخل منه إلى المشهد الحسينىّ، و يكون مبدأ الاستعمال فيها، و تحصيل جميع أصنافها من السكر و العسل، و القلوب، و الزعفران، و الطيب، و الدقيق لاستقبال النصف الثانى من شهر رجب كل سنة ليلا و نهارا، من الخشكنانج و البسندود، و أصناف الفانيذ الذى يقال له:

كعب الغزال، و البرماورد، و الفستق، و هو شوابير مثال الصنج، و المستخدمون يرفعون ذلك إلى أماكن وسيعة مصونة فيحصل منه فى الحاصل شىء عظيم هائل، بيد مائة صانع للعلاويين مقدّم، و للخشكانيين آخر، ثم يندب لها مائة فرّاش لحمل طيافير للتفرقة على أرباب الرسوم خارجا عمن هو مرتب لخدمتها من الفرّاشين الذين يحفظون رسومها و مواعينها الحاصلة بالدائم، و عدّتهم: خمسة فيحضر إليها الخليفة، و الوزير معه، و لا يصحبه فى غيرها من الخزائن لأنها خارج القصر، و كلها للتفرقة فيجلس على سريره بها، و يجلس الوزير على كرسى ملين على عادته فى النصف الثانى من شهر رمضان، و يدخل معه قوم من الخواص، ثم يشاهد ما فيها من تلك الحواصل المعمولة المعباة مثل الجبال من كل صنف، فيفرّقها من ربع قنطار إلى عشرة أرطال إلى رطل واحد، و هو أقلها.

ثم ينصرف الخليفة و الوزير بعد أن ينعم على مستخدميها بستين دينارا، ثم يحضر إلى حاميها و مشارفها الأدعية المعمولة المخرجة من دفتر المجلس، كل دعو لتفريق فريق من خاص، و غيره حتى لا يبقى أحد من أرباب الرسوم إلّا و اسمه وارد فى دعو من تلك الأدعية، و يندب صاحب الديوان الكتاب المسلمين فى الديوان، فيسيرهم إلى مستخدميها، فيسلم كل كاتب دعوا أو دعوين أو ثلاثة على كثرة ما يحتويه و قلته، و يؤمر بالتفرقة من ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۱

اليوم، فيقدمون أبدا مائتى طيفور من العالى و الوسط و الدون، فيحملها الفرّاشون برقاع من كتاب الأدعية باسم صاحب ذلك الطيفور علا، أو دنا، و ينزل اسم الفرّاش بالدعو، أو عريفه حتى لا يضيع منها شىء، و لا يختلط، و لا يزال الفرّاشون يخرجون بالطيافير ملأى و يدخلون بها فارغة، فبمقدار ما تحمل المائة الأولى عبيت المائة الثانية، فلا يفتر ذلك طول التفرقة، فأجل الطيافير ما عدد خشكنانه مائة حبة، ثم إلى سبعين و خمسين، و يكون على صاحب المائة طرحة فوق قوّارته، ثم إلى خمسين ثم إلى ثلاث و ثلاثين، ثم إلى خمس و عشرين، ثم إلى عشرين، و نسبة منثور كل واحد على عدد خشكنانه، ثم العبيد السودان بغير طيافير، كل طائفة يتسلمه لها عرفاؤها فى أفراد الخواص، لكل طائفة على مقدارها الثلاثة الأفراد و الخمسة و السبعة إلى العشرة فلا يزالون كذلك إلى أن ينقضى شهر رمضان، و لا يفوت أحدا شىء من ذلك و يتهاداه الناس فى جميع الإقليم.

قال: و ما ينفق فى دار الفطرة فيما يفرّق على الناس منها: سبعة آلاف دينار. و قال ابن عبد الظاهر: دار الفطرة بالقاهرة قبالة مشهد الإمام الحسين عليه السلام، و هى الفندق الذى بناه الأمير سيف الدين بهادر الآن فى سنة: ست و خمسين و ستمائة، أوّل من رتبها الإمام العزيز بالله، و هو أوّل من سنّها، و كانت الفطرة قبل أن ينتقل الأفضل إلى مصر تعمل بالإيوان، و تفرّق منه، و عند ما تحوّل إلى مصر نقل الدواوين من القصر إليها، و استجدّ لها مكانا قبالة دار الملك بإيوانى المكاتبات، و الانشاء، فإنهما كانا بقرب الدار و يتوصل إليهما من القاعة الكبرى التى فيها جلوسه، ثم استجدّ للفطرة دارا عملت بعد ذلك وراقة، و هى الآن دار الأمير عز الدين الأفرم بمصر قبالة: دار الوكالة، و عملت بها الفطرة مدّة، و فرّق منها إلّا ما يخص الخليفة و الجهات و السيدات و المستخدمات، و الأستاذين، فإنه كان يعمل بالإيوان على العادة.

و لما توفى الأفضل، و عادت الدواوين إلى مواضعها أنهى: خاصة الدولة ريحان، و كان يتولى بيت المال، إنّ المكان بالإيان يضيق بالفطرة، فأمره المأمون أن يجمع المهندسين، و يقطع قطعة من اصطبل الطارمة، يبنيه دار الفطرة، فأنشأ الدار المذكورة قبالة مشهد

الحسين، و الباب الذى بمشهد الحسين يعرف: بباب الديلم، و صار يعمل بها ما استجدّ من رسوم المواليد و الوقودات، و عقد لها جملتان إحداهما: وجدت فسطرت، و هى عشرة آلاف دينار خارجا عن جوارى المستخدمين، و الجملة الثانية: فصلت فيها الأصناف، و شرحها: دقيق ألف حملة، سكر: سبعمائة قنطار، قلب فستق: ستة قناطير، قلب لوز:

ثمانية قناطير، قلب بندق: أربعة قناطير، تمر: أربعمائة إردب، زبيب: ثلثمائة أردب، خل: ثلاثة قناطير، عسل نحل: خمسة عشر قنطارا، شيرج: مائتا قنطار، حطب: ألف و مائتا حملة، سمسم أردبان، آنيسون أردبان، زيت طيب برسم الوقود ثلاثون قنطارا، ماء ورد خمسون رطلا، مسك خمس نوافج، كافور قديم عشرة مثاقيل، زعفران مطحون مائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۲

و خمسون درهما، و بيد الوكيل برسم المواعين و البيض و السقائين، و غير ذلك من المؤن على ما يحاسب به، و برفع المحازيم خمسمائة دينار.

و وجدت بخط ابن ساكن قال: كان المرتب فى دار الفطرة، و لها ما يذكر، و هو زيت طيب برسم القناديل خمسة عشر قنطارا: مقاطع سكندرى برسم القوارات: ثلثمائة مقطع، طيافير جدد: برسم السماط ثلثمائة طيفور، شمع برسم السماط، و توديع الأمراء ثلاثون قنطارا، أجرة الصناع ثلثمائة دينار، جارى الحامى: مائة و عشرون دينارا، جارى العامل، و المشارف مائة و ثمانون دينارا، و شقة ديبقىّ، بياض حريرى، و منديل ديبقى كبير حيرى، و شقة سقلاطون أندلسى يلبسها قدّام الفطرة يوم حملها ليفرّق طيافير الفطرة على الأمراء، و أرباب الرسومات، و على طبقات الناس حتى يعمّ الكبير و الصغير، و الضعيف و القوى، و يبدأ بها من أوّل رجب إلى آخر رمضان.

ذكر ما اختص من صفة الطيافير: الأعلى منها: طيفور فيه مائة حبة خشكنانج وزنها مائة رطل، و خمسة عشر قطعة حلاوة زنتها مائة رطل، سكر سليمانىّ، و غيره عشرة أرطال، قلوبات ستة أرطال، بسندود عشرون حبة، كعك و زبيب و تمر قنطار، جملة الطيفور ثلاثة قناطير و ثلث إلى ما دون ذلك على قدر الطبقات إلى عشر حبات.

و قال ابن أبى طىّ: و عمل المعز لدين اللّه دارا سماها: دار الفطرة، فكان يعمل فيها من الخشكنانج، و الحلواء، و البسندود، و الفانيذ، و الكعك و التمر و البندق شىء كثير من أوّل رجب إلى نصف رمضان، فيفرّق جميع ذلك فى جميع الناس الخاص و العام على قدر منازلهم فى أوان لا تستعاد، و كان قبل ليلة العيد يفرّق على الأمراء الخيول بالمراكب الذهب، و الخلع النفيسة، و الطراز الذهب، و الثياب برسم النساء.

المشهد الحسينىّ

قال الفاضل محمد بن علىّ بن يوسف بن ميسر: و فى شعبان سنة إحدى و تسعين و أربعمائة، خرج الأفضل بن أمير الجيوش بعساكر جمة إلى بيت المقدس، و به: سكان و ابلغازى ابنا ارتق فى جماعة من أقاربهما، و رجالهما و عساكر كثيرة من الأتراك، فراسلهما الأفضل يلتمس منهما تسليم القدس إليه بغير حرب، فلم يجيباه لذلك، فقاتل البلد، و نصب عليها المجانيق، و هدم منها جانبا، فلم يجدا بدّا من الإذعان له، و سلّماه إليه، فخلع عليهما، و أطلقهما، و عاد فى عساكره، و قد ملك القدس، فدخل عسقلان.

و كان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهما فأخرجه و عطره، و حمله فى سفط إلى أجلّ دار بها، و عمّر المشهد، فلما تكامل، حمل الأفضل الرأس الشريف على صدره و سعى به ماشيا إلى أن أحله فى مقرّه، و قيل: إنّ المشهد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۳

بعسقلان بناه: أمير الجيوش بدر الجمالىّ، و كمله ابنه الأفضل و كان حمل الرأس إلى القاهرة من عسقلان، و وصوله إليها فى يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان و أربعين و خمسمائة، و كان الذى وصل بالرأس من عسقلان: الأمير سيف المملكة تميم واليها

كان، و القاضى المؤتمن بن مسكين مشارفها، و حصل فى القصر يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة المذكور.

و يذكر أنّ هذا الرأس الشريف لما أخرج من المشهد بعسقلان وجد دمه لم يجف، و له ريح كريح المسك، فقدم به الأستاذ مكنون فى عشارى من عشاريات الخدمة، و أنزل به إلى الكافورى، ثم حمل فى السرداب إلى قصر الزمرّذ، ثم دفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة، فكان كل من يدخل الخدمة يقبل الأرض أمام القبر، و كانوا ينحرون فى يوم عاشوراء عند القبر الإبل و البقر و الغنم، و يكثرون النوح و البكاء، و يسبون من قتل الحسين، و لم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم.

و قال ابن عبد الظاهر: مشهد الإمام الحسين صلوات اللّه عليه، قد ذكرنا أن طلائع بن رزيك المنعوت بالصالح، كان قد قصد نقل الرأس الشريف من عسقلان لما خاف عليها من الفرنج، و بنى جامعه خارج باب زويلة ليدفنه به، و يفوز بهذا الفخار، فغلبه أهل القصر على ذلك، و قالوا: لا يكون ذلك إلّا عندنا، فعمدوا إلى هذا المكان، و بنوه له، و نقلوا الرخام إليه، و ذلك فى خلافة الفائز على يد طلائع فى سنة تسع و أربعين و خمسمائة.

و سمعت من يحكى حكاية يستدل بها على بعض شرف هذا الرأس الكريم المبارك، و هى أن السلطان الملك الناصر رحمه اللّه، لما أخذ هذا القصر و شى إليه بخادم له قدر فى الدولة المصرية، و كان زمام القصر، و قيل له: إنه يعرف الأموال التى بالقصر و الدفائن، فأخذ و سئل، فلم يجب بشىء، و تجاهل، فأمر صلاح الدين نوّابه بتعذيبه، فأخذه متولى العقوبة، و جعل على رأسه خنافس و شدّ عليها قرمزية، و قيل: إن هذه أشدّ العقوبات، و إنّ الإنسان لا يطيق الصبر عليها ساعة إلّا تنقب دماغه و تقتله ففعل ذلك به مرارا، و هو لا يتأوّه، و توجد الخنافس ميتة، فعجب من ذلك، و أحضره، و قال له: هذا سرّ فيك، و لا بدّ أن تعرّفنى به؟ فقال: و اللّه ما سبب هذا إلا أنى لما وصلت رأس الإمام الحسين حماتها، قال: و أىّ سرّ أعظم من هذا و راجع فى شأنه فعفا عنه.

و لما ملك السلطان الملك الناصر جعل به حلقة تدريس و فقهاء، و فوّضها للفقيه البهاء الدمشقىّ، و كان يجلس للتدريس عند المحراب الذى الضريح خلفه، فلما وزر معين الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۴

حسين بن شيخ الشيوخ بن حمويه، و ردّ إليه أمر هذا المشهد بعد إخوته، جمع من أوقاته ما بنى به إيوان التدريس الآن، و بيوت الفقهاء العلوية خاصة، و احترق هذا المشهد فى الأيام الصالحية فى سنة بضع و أربعين و ستمائة، و كان الأمير جمال الدين بن يعمور نائبا عن الملك الصالح فى القاهرة، و سببه أن أحد خزان الشمع دخل ليأخذ شيئا، فسقطت منه شعلة، فوقف الأمير جمال الدين المذكور بنفسه حتى طفىء و أنشدته حينئذ فقلت:

قالوا تعصب للحسين و لم يزلبالنفس للهول المخوف معرّضا

حتى انضوى ضوء الحرق و أصبح المسودّ من تلك المخاوف أبيضا

أرضى الإله بما أتى فكأنهبين الأنام بفعله موسى الرضى

قال: و لحفظة الآثار، و أصحاب الحديث، و نقلة الأخبار ما إذا طولع وقف منه على المسطور، و علم منه ما هو غير المشهور، و إنما هذه البركات مشاهدة مرئية، و هى بصحة الدعوى ملية، و العمل بالنية.

و قال فى كتاب الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبد الرحيم، و من جملة مبانيه الميضأة قريب مشهد الإمام الحسين بالقاهرة و المسجد و الساقية، و وقف عليها أراضى قريب الخندق فى ظاهر القاهرة، و وقفها دارّ جار، و الانتفاع بهذه المثوبة عظيم، و لما هدم المكان الذى بنى موضعه مئذنة وجد فيه شىء من طلسم لم يعلم لأىّ شىء هو، فيه اسم الظاهر بن الحاكم، و اسم أمّه رصد.

خبر الحسين: هو الحسين بن علىّ بن أبى طالب، و اسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصىّ، أبو عبد اللّه، و أمّه فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع، و قيل: سنة ثلاث، و عق عنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم سابعه بكبش، و حلق رأسه، و أمر أن يتصدّق بزنته فضة، و قال: أرونى ابنى ما سميتموه؟ فقال علىّ بن

أبى طالب: حربا، فقال: بل هو حسين و كان أشبه الناس بالنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم ما كان أسفل من صدره، و كان فاضلا دينا كثير الصوم و الصلاة و الحج، و قتل يوم الجمعة لعشر خلون من المحرّم يوم عاشوراء، سنة إحدى و ستين من الهجرة بموضع يقال له: كربلاء من أرض العراق بناحية الكوفة، و يعرف الموضع أيضا: بالطف، قتله سنان بن أنس اليحصبى ، و قيل: قتله رجل من مذحج، و قيل: قتله شمر بن ذى الجوشن، و كان أبرص، و أجهز عليه خولى بن يزيد الأصبحيّ من حمير، حزّ رأسه، و أتى عبيد اللّه بن زياد، و قال:

أوقر ركابى فضة و ذهباإنى قتلت الملك المحجبا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۵ قتلت خير الناس أمّا و أباو خيرهم إذ ينسبون نسبا

و قيل: قتله عمرو بن سعد بن أبى وقاص، و كان الأمير على الخيل التى أخرجها عبيد اللّه بن زياد إلى قتل الحسين، و أمّر عليهم: عمرو بن سعد، و وعده أن يوليه الريّ إن ظفر بالحسين و قتله.

و قال ابن عباس رضى اللّه عنهما: رأيت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فيما يرى النائم نصف النهار، و هو قائم أشعث أغبر بيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبى أنت و أمى ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين لم أزل ألتقطه منذ اليوم، فوجدته قد قتل فى ذلك اليوم، و هذا البيت زعموا قديما لا يدرى قائله:

أ ترجو أمّه قتلت حسيناشفاعة جدّه يوم الحساب

و قتل مع الحسين: سبعة عشر رجلا كلهم من ولد فاطمة، و قد قتل معه من أهل بيته، و إخوته ثلاثة و عشرون رجلا. و كان سبب قتله أنه لما مات معاوية بن أبى سفيان رضى اللّه عنه فى سنة ستين، وردت بيعة اليزيد على الوليد بن عقبة بالمدينة، ليأخذ البيعة على أهلها، فأرسل إلى الحسين بن علىّ، و إلى عبد اللّه بن الزبير ليلا فأتى بهما، فقال: بايعا، فقالا:

مثلنا لا يبايع سرّا، و لكنا نبايع على رؤوس الناس إذا أصبحنا، فرجعا إلى بيوتهما، و خرجا من ليلهما إلى مكة، و ذلك ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب، فأقام الحسين بمكة شعبان و رمضان و شوّالا و ذو القعدة، و خرج يوم التروية يريد الكوفة، و بكتب أهل العراق.

فلما بلغ عبيد اللّه بن زياد مسير الحسين من مكة بعث الحصين بن تميم التميمى صاحب شرطته، فنزل القادسية، و نظم الخيل ما بينها، و بين جبل لعلع، فبلغ الحسين الحاجز له عن البلاد فكتب إلى أهل الكوفة، يعرّفهم بقدومه مع قيس بن مسهر، فظفر به الحصين، و بعث به إلى ابن زياد فقتله، و أقبل الحسين يسير نحو الكوفة، فأتاه خبر قتل مسلم بن عقيل، و خبر قتل أخيه من الرضاعة ، فقام حتى أعلم الناس بذلك و قال: قد خذلنا شيعتنا، فمن أحب أن يتصرف، فليتصرف، فليس عليه ذمام منا فتفرّقوا، حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من مكة و سار، فأدركته الخيل، و هم ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمىّ.

و نزل الحسين، فوقفوا تجاهه و ذلك فى نحر الظهيرة، فسقى الحسين الخيل، و حضرت صلاة الظهر، فأذن مؤذنه و خرج، فحمد اللّه، و أثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۶

معذرة إلى اللّه، و إليكم إنى لم آتكم، حتى أتتنى كتبكم و رسلكم، أن أقدم علينا، فليس لنا إمام، لعل اللّه أن يجمعنا بك على الهدى، و قد جئتكم، فإن تعطونى ما أطمئنّ إليه من عهودكم أقدم مصركم، و إن لم تفعلوا و كنتم لمقدمى كارهين، انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه فسكتوا، و قال للمؤذن: أقم، فأقام و قال الحسين للحرّ: أ تريد أن تصلى أنت بأصحابك؟ قال: بل صلّ أنت، و نصلى بصلاتك، فصلى بهم، و دخل فاجتمع إليه أصحابه و انصرف الحرّ إلى مكانه، ثم صلى بهم العصر، و استقبلهم فحمد اللّه، و أثنى عليه، و قال: يا أيها الناس إنكم إن تتقوا اللّه و تعرفوا الحق لأهله يكن أرضى للّه، و نحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم السائرين فيكم بالجور و العدوان، فإن أنتم كرهتمونا، و جهلتم حقنا، و كان رأيكم غير ما أتتنى به

كتبكم انصرفت عنكم، فقال الحرّ: إنا و اللّه ما ندرى ما هذه الكتب و الرسل التى تذكر، فأخرج خرجين مملوءين صحفا، فنشرها بين أيديهم، فقال الحرّ: إنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، و قد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد اللّه بن زياد، فقال الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك، ثم أمر أصحابه لينصرفوا فركبوا، فمنعهم الحرّ من ذلك، فقال له الحسين: ثكلتك أمّك ما تريد، فقال له: و اللّه لو كان غيرك من العرب يقولها، ما تركت ذكر أمّه بالثكل كائنا من كان، و اللّه ما لى إلى ذكر أمّك من سبيل إلّا بأحسن ما نقدر عليه، فقال له الحسين: ما تريد؟ قال: أريد أن أنطلق بك إلى ابن زيادة، و ترادّ الكلام، فقال له الحرّ:

إنى لم أومر بقتالك، و إنما أمرت أن لا أفارقك حتى أدخلك الكوفة، فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة، و لا تزول إلى المدينة، حتى أكتب إلى ابن زياد، و تكتب أنت إلى يزيد، أو إلى ابن زياد، فلعل اللّه أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشىء من أمرك، فتياسر عن طريق العذيب و القادسية، و الحرّ يسايره.

فلما كان يوم الجمعة الثالث من المحرّم سنة إحدى و ستين، قدم عمرو بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف، و بعث إلى الحسين رسولا- يسأله ما الذى جاء به، فقال: كتب إلىّ أهل مصر كم هذا أن أقدم عليهم، فإذا كرهونى، فأنا أنصرف عنهم، فكتب عمرو إلى ابن زياد يعرّفه ذلك، فكتب إليه أن يعرض على الحسين بيعة يزيد، فإن فعل رأينا فيه رأينا، و إلّا نمنعه، و من معه الماء، فأرسل عمرو بن سعد خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة، و حالوا بين الحسين، و بين الماء، و ذلك قبل قتله بثلاثة أيام، و نادى مناد:

يا حسين ألا تنظر الماء لا ترى منه قطرة حتى تموت عطشا، ثم التقى الحسين بعمرو بن سعد مرارا، فكتب عمرو بن سعد إلى عبيد اللّه بن زياد: أما بعد، فإنّ اللّه قد أطفأ الثائرة، و جمع الكلمة، و قد أعطانى الحسين أن يرجع إلى المكان الذى أتى منه، أو أن تسيره إلى أىّ ثغر من الثغور شاء، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين، فيضع يده فى يده، و فى هذا الكم رضى، و للأمّة صلاح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۷

فقال ابن زياد لشمر بن ذى الجوشن: اخرج بهذا الكتاب إلى عمرو فليعرض على الحسين و أصحابه النزول على حكمى، فإن فعلوا فليبعث بهم، و إن أبوا، فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له، و أطع و إن أبى فأنت الأمير عليه، و على الناس، و اضرب عنقه و ابعث إلىّ برأسه.

و كتب إلى عمرو بن سعد: أمّا بعد، فإنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه، و لا لتنميه، و لا لتطاوله و لا لتقعد له عندى شافعا أنظر، فإنّ نزل حسين و أصحابه على الحكم، و استسلموا فابعث بهم إلىّ سلما، و إن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم، و تمثل بهم، فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل الحسين، فأوطىء الخيل صدره و ظهره، فإنه عاق شاق قاطع ظلوم، فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، و إن أنت أبيت، فاعتزل جندنا، و خل بين شمر و بين العسكر و السلام.

فلما أتاه الكتاب ركب و الناس معه بعد العصر، فأرسل إليهم الحسين: ما لكم؟

فقالوا: جاء أمر الأمير بكذا، فاستمهلهم إلى غدوة، فلما أمسوا، قام الحسين و من معه الليل كله يصلون و يستغفرون و يدعون و يتضرّعون، فلما صلى عمرو بن سعد الغداة يوم السبت، و قيل: يوم الجمعة يوم عاشوراء، خرج فيمن معه، و عبىء الحسين أصحابه، و كان معه اثنان و ثلاثون فارسا، و أربعون راجلا، و ركب و معه مصحف بين يديه وضعه أمامه، و اقتتل أصحابه بين يديه، و أخذ عمرو بن سعد سهما، فرمى به، و قال: اشهدوا أنّى أوّل من رمى الناس، و حمل أصحابه فصرعوا رجالا، و أحاطوا بالحسين من كل جانب، و هم يقاتلون قتالا- شديدا، حتى انتصف النهار، و لا- يقدرون يأتونهم إلّا من وجه واحد، و حمل شمر حتى بلغ فسطاط الحسين، و حضر وقت الصلاة، فسأل الحسين أن يكفوا عن القتال حتى يصلى، ففعلوا، ثم اقتتلوا بعد الظهر أشدّ قتال، و وصل إلى الحسين، و قد صرعت أصحابه، و مكث طويلا من النهار، كلما انتهى إليه رجل من الناس رجع عنه، و كره أن يتولى قتله.

فأقبل عليه رجل من كندة يقال له: مالك فضربه على رأسه بالسيف، قطع البرنس و أدماه، فأخذ الحسين دمه بيده، فصبه فى الأرض ثم قال: اللهمّ إن كنت حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير و انتقم من هؤلاء الظالمين، و اشتدّ عطشه، فدنا ليشرب فرماه حصين بن تميم بسهم، فوقع فى فمه، فتلقى الدم بيده، و رمى به إلى السماء، ثم قال بعد حمد اللّه و الثناء عليه: اللهمّ إنى أشكو إليك ما يصنع بابن بنت نبيك، اللهم أحصهم عددا و اقتلهم بددا، و لا تبقى منهم أحدا، فأقبل شمر فى نحو عشرة إلى منزل الحسين، و حالوا بينه و بين رحله، و أقدم عليه و هو يحمل عليهم، و قد بقى فى ثلاثة، و مكث طويلا من النهار و لو شاءوا أن يقتلوه لقتلوه، و لكنهم كان يتقى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۸

بعضهم ببعض، و يحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء.

فنادى شمر فى الناس: و يحكم؟ ما تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمّكم! فحملوا عليه من كل جانب، فضرب زرعة بن شريك التميمى كفه الأيسر، و ضرب عاتقه، و هو يقوم و يكبو، فحمل عليه فى تلك الحال سنان بن أنس النخعىّ، فطعنه بالرمح، فوقع و قال لخولى بن يزيد الأصبحىّ: احتز رأسه، فأرعد و ضعف، فنزل عليه، و ذبحه، و أخذ رأسه، فدفعه إلى خولى، و سلب الحسين ما كان عليه حتى سراويله، و مال الناس، فانتهبوا ثقله و متاعه، و ما على النساء.

و وجد بالحسين: ثلاث و ثلاثون طعنة، و أربع و أربعون ضربة، و نادى عمرو بن سعد فى أصحابه: من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه، فانتدى عشر فداسوا الحسين بخيولهم، حتى رضوا ظهره و صدره، و كان عدّة من قتل معه: اثنين و سبعين رجلا، و من أصحاب عمرو بن سعد: ثمانية و ثمانين رجلا غير الجرحى، و دفن أهل الغاضرية من بنى أسد الحسين بعد قتله بيوم و بعد أن أخذ عمرو بن سعد رأسه، و رؤوس أصحابه و بعث بها إلى ابن زياد، فأحضر الرءوس بين يديه، و جعل ينكث بقضيب ثنايا الحسين، و زيد بن أرقم حاضر، و أقام ابن سعد بعد قتل الحسين يومين، ثم رحل إلى الكوفة، و معه ثياب الحسين و إخوانه، و من كان معه من الصبيان، و علىّ بن الحسين مريض، فأدخلهم على زياد، و لما مرّت زينب بالحسين صريعا صاحت: يا محمداه هذا حسين بالعراء! مزمل بالدماء! مقطع الأعضاء! يا محمد بناتك سبايا، و ذريتك مقتلة فأبكت كل عدوّ و صديق، و طيف برأسه بالكوفة على خشبة، ثم أرسل بها إلى يزيد بن معاوية، و أرسل النساء و الصبيان، و فى عنق علىّ بن الحسين و يديه الغل، و حملوا على الأقتاب، فدخل بعض بنى أمة على يزيد، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين، فقد أمكنك اللّه من عدوّ اللّه، و عدوّك قد قتل، و وجه برأسه إليك، فلم يلبث إلّا أياما حتى جىء برأس الحسين، فوضع بين يدى يزيد فى طشت، فأمر الغلام فرفع الثوب الذى كان عليه، فحين رآه خمر وجهه بكمه كأنه شمّ منه رائحة، و قال: الحمد للّه الذى كفانا المؤنة بغير مؤنة، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأ اللّه، قالت ريّا حاضنة يزيد، فدنوت منه، فنظرت إليه و به ردغ من حناء، و الذى أذهب نفسه، و هو قادر على أن يغفر له، لقد رأيته يقرع ثناياه بقضيب فى يده، و يقول أبياتا من شعر ابن الزبعرى، و مكث الرأس مصلوبا بدمشق ثلاثة أيام، ثم أنزل فى خزائن السلاح، حتى ولى سليمان بن عبد الملك الملك، فبعث إليه، فجىء به، و قد محل، و بقى عظما أبيض، فجعله فى سفط، و طيبه و جعل عليه ثوبا، و دفنه فى مقابر المسلمين.

فلما ولى عمر بن عبد العزيز بعث إلى خازن بيت السلاح أن وجه إلىّ برأس الحسين ابن علىّ، فكتب إليه: إنّ سليمان أخذه و جعله فى سفط، و صلى عليه، و دفنه، فلما دخلت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۲۹

المسودّة سألوا عن موضع الرأس الكريمة الشريفة، فنبشوه و أخذوه، و اللّه أعلم ما صنع به.

و قال السرىّ: لما قتل الحسين بن علىّ بكت السماء عليه، و بكاؤها حمرتها، و عن عطاء فى قوله تعالى: فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ [الدخان/ ۲۹] قال: بكاؤها حمرة أطرافها. و عن علىّ بن مسهر قال: حدّثتنى جدّتى قالت: كنت أيام الحسين جارية شابة، فكانت السماء أياما كأنها علقة. و عن الزهرى بلغنى: أنه لم يقلب حجر من أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين إلّا وجد تحته دم

عبيط.

و يقال: إنّ الدنيا أظلمت يوم قتل ثلاثا، و لم يمس أحد من زعفرانهم شيئا، فجعله على وجهه إلّا احترق و أنهم أصابوا إبلا فى عسكر الحسين يوم قتل، فنحروها و طبخوها فصارت مثل العلقم، فما استطاعوا أن يسيغوا منها شيئا، و روى: أن السماء أمطرت دما، فأصبح كل شيء لهم ملآن دما.

ما كان يعمل فى يوم عاشوراء

قال ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز لدين اللّه فى يوم عاشوراء من سنة ثلاث و ستين و ثلثمائة، انصرف خلق من الشيعة، و أشياعهم إلى المشهدين: قبر كلثوم و نفيسة، و معهم جماعة من فرسان المغاربة، و رجالتهم بالنياحة و البكاء على الحسين عليه السلام، و كسروا أوانى السقائين فى الأسواق، و شققوا الروايا، و سبوا من ينفق فى هذا اليوم، و نزلوا حتى بلغوا مسجد الريح، و ثارت عليهم جماعة من رعية أسفل، فخرج أبو محمد الحسين بن عمار، و كان يسكن هناك فى دار محمد بن أبى بكر، و أغلق الدرب، و منع الفريقين، و رجع الجميع، فحسن موقع ذلك عند المعز، و لو لا ذلك لعظمت الفتنة، لأنّ الناس قد غلقوا الدكاكين و أبواب الدور، و عطلوا الأسواق، و إنما قويت أنفس الشيعة بكون المعز بمصر، و قد كانت مصر لا تخلو منهم فى أيام الإخشيدية، و الكافورية فى يوم عاشوراء عند قبر كلثوم، و قبر نفيسه؟ و كان السودان و كافور يتعصبون على الشيعة، و تتعلق السودان فى الطرقات بالناس، و يقولون للرجل: من خالك؟ فإن قال: معاوية، أكرموه، و إن سكت لقى المكروه، و أخذت ثيابه، و ما معه حتى كان كافور قد وكل بالصحراء و منع الناس من الخروج.

و قال المسبحىّ: و فى يوم عاشوراء، يعنى من سنة ست و تسعين و ثلثمائة جرى الأمر فيه على ما يجرى كل سنة من تعطيل الأسواق، و خروج المنشدين إلى جامع القاهرة، و نزولهم مجتمعين بالنوح و النشيد ثم جمع بعد هذا اليوم قاضى القضاة عبد العزيز من النعمان، سائر المنشدين الذين يتكسبون بالنوح و النشيد و قال لهم: لا تلزموا الناس أخذ شيء منهم إذا وقفتم على حوانيتهم، و لا تؤذوهم، و لا تتكسبوا بالنوح و النشيد، و من أراد ذلك فعليه بالصحراء، ثم اجتمع بعد ذلك طائفة منهم يوم الجمعة فى الجامع العتيق بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۰

الصلاة، و أنشدوا، و خرجوا على الشارع بجمعهم، و سبّوا السلف، فقبضوا على رجل، و نودى عليه: هذا جزاء من سب عائشة، و زوجها صلّى اللّه عليه و سلّم، و قدّم الرجل بعد النداء، و ضرب عنقه.

و قال ابن المأمون: و فى يوم عاشوراء، يعنى من سنة خمس عشرة و خمسمائة عبىء السماط بمجلس العطايا من دار الملك بمصر، التى كان يسكنها الأفضل بن أمير الجيوش، و هو السماط المختص بعاشوراء، و هو يعبئ فى غير المكان الجارى به العادة فى الأعياد، و لا يعمل مدورة خشب بل سفرة كبيرة من أدم، و السماط يعلوها من غير مرافع نحاس، و جميع الزبادى أجبان، و سلائط و مخللات، و جميع الخبز من شعير، و خرج الأفضل من باب فردالكم، و جلس على بساط صوف من غير مشورة، و استفتح المقرئون، و استدعى الأشراف على طبقاتهم، و حمل السماط لهم، و قد عمل فى الصحن الأول الذى بين يدى الأفضل إلى آخر السماط عدس أسود، ثم بعده عدس مصفى إلى آخر السماط، ثم رفع و قدّمت صحون جميعها عسل نحل.

و لما كان يوم عاشوراء من سنة ست عشرة و خمسمائة جلس الخليفة الآمر بأحكام اللّه على باب الباذهنج يعنى من القصر بعد قتل الأفضل و عود الأسمطة إلى القصر على كرسىّ جريد بغير مخدّة متلثما هو و جميع حاشيته، فسلم عليه الوزير المأمون و جميع الأمراء الكبار، و الصغار بالقيراميز، و أذن للقاضى، و الداعى، و الأشراف، و الأمراء بالسلام عليه، و هم بغير مناديل ملثمون حفاة، و عبىء السماط فى غير موضعه المعتاد، و جميع ما عليه خبز الشعير و الحواضر على ما كان فى الأيام الأفضلية، و تقدّم إلى والى مصر و

القاهرة بأن لا يمكنا أحدا من جمع و لا قراءة مصرع الحسين، و خرج الرسم المطلق للمتصدّرين و القرّاء الخاص، و الوعاظ، و الشعراء، و غيرهم على ما جرت به عادتهم.

قال: و فى ليلة عاشوراء من سنة سبع عشرة و خمسمائة: اعتمد الأجل الوزير المأمون على السنة الأفضلية من المضىّ فيها إلى التربة الجيوشية، و حضور جميع المتصدّرين، و الوعاظ، و قرّاء القرآن إلى آخر الليل، و عوده إلى داره، و اعتمد فى صبيحة الليلة المذكورة مثل ذلك، و جلس الخليفة على الأرض متلثما يرى به الحزن، و حضر من شرف بالسلام عليه، و الجلوس على السماط بما جرت به العادة.

قال ابن الطوير: إذا كان اليوم العاشر من المحرّم: احتجب الخليفة عن الناس فإذا علا النهار ركب قاضى القضاة، و الشهود، و قد غيروا زيهم فيكونون كما هم اليوم، ثم صاروا إلى المشهد الحسينىّ، و كان قبل ذلك يعمل فى الجامع الأزهر، فإذا جلسوا فيه، و من معهم من قرّاء الحضرة، و المتصدّرين فى الجوامع جاء الوزير، فجلس صدرا، و القاضى و الداعى من جانبيه، و القرّاء يقرءون نوبة بنوبة، و ينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعرا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۱

يرثون به أهل البيت عليهم السلام، فإن كان الوزير رافضيا تغالوا، و إن كان سنيا اقتصدوا، و لا يزالون كذلك إلى أن تمضى ثلاث ساعات، فيستدعون إلى القصر بنقباء الرسائل، فيركب الوزير، و هو بمنديل صغير إلى داره، و يدخل قاضى القضاة و الداعى، و من معهما إلى باب الذهب، فيجدون الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر بدل البسط، و ينصب فى الأماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش، و يجدون صاحب الباب جالسا هناك، فيجلس القاضى و الداعى إلى جانبه، و الناس على اختلاف طبقاتهم، فيقرأ القرّاء و ينشد المنشدون أيضا ثم يفرش عليهم سماط الحزن مقدار ألف زبدية من العدس، و الملوحات، و المخللات، و الأجبان و الألبان الساذجة و الأعسال النحل، و الفطير و الخبز المغير لونه، فإذا قرب الظهر وقف صاحب الباب، و صاحب المائدة، و أدخل الناس للأكل منه، فيدخل القاضى و الداعى، و يجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير، و المذكوران إلى جانبه، و فى الناس من لا يدخل، و لا يلزم أحد بذلك، فإذا فرغ القوم انفصلوا إلى أماكنهم ركبانا بذلك الزى الذى ظهروا فيه، و طاف النوّاح بالقاهرة ذلك اليوم، و أغلق البياعون حوانيتهم إلى جواز العصر، فيفتح الناس بعد ذلك أو يتصرّفون.

ذكر أبواب القصر الكبير الشرقى

و كان لهذا القصر الكبير الشرقىّ تسعة أبواب أكبرها و أجلها: باب الذهب، ثم باب البحر، ثم باب الريح، ثم باب الزمرّذ، ثم باب العيد، ثم باب قصر الشوك، ثم باب الديلم، ثم باب تربة الزعفران، ثم باب الزهومة.

باب الذهب : و هو باب القصر الذى تدخل منه العساكر، و جميع أهل الدولة فى يومى الاثنين و الخميس للموكب المقدّم ذكره بقاعة الذهب.

قال ابن أبى طىء عن المعز لدين اللّه: أنه لما خرج من بلاد المغرب أخرج أموالا كانت له ببلاد المغرب، و أمر بسبكها أرحية كأرحية الطواحين، و أمر بها حين دخل إلى مصر فألقيت على باب قصره، و هى التى كان الناس يسمونها: الحشرات، و لم تزل على باب القصر إلى أن كان زمن الغلاء فى أيام الخليفة المستنصر باللّه، فلما ضاق بالناس الأمر أذن لهم أن يبردوا منها بمبارد، فاتخذ الناس مبارد حادّة و غرّهم الطمع، حتى ذهبوا بأكثرها، فأمر بحمل الباقى إلى القصر فلم تر بعد ذلك.

و قال ابن ميسر: إن المعز لما قدم إلى القاهرة كان معه مائة جمل عليها الطواحين من الذهب، و قال غيره: كانت خمسمائة جمل على كل جمل: ثلاثة أرحية ذهبا، و إنه عمل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۲

عضادتى الباب من تلك الأرحية واحدة فوق أخرى، فسمى: باب الذهب.

جلوس الخليفة فى الموالد بالمنظرة علو باب الذهب: قال ابن المأمون فى أخبار سنة ست عشرة و خمسمائة: و فى الثانى عشر من المحرّم، كان المولد الآمرىّ، و اتفق كونه فى هذا الشهر يوم الخميس، و كان قد تقرّر أن يعمل أربعون صينية خشكنانج، و حلوى و كعك، و أطلق برسم المشاهد المحتوية على الضرائح الشريفة لكل مشهد سكر و عسل و لوز و دقيق و شيرج، و تقدّم بأن يعمل خمسمائة رطل حلوى، و تفرّق على المتصدّرين، و القرّاء و الفقراء للمتصدّرين، و من معهم فى صحون، و للفقراء على أرغفة السميذ، ثم حضر فى الليلة المذكورة القاضى و الداعى، و الشهود، و جميع المتصدّرين و قرّاء الحضرة، و فتحت الطاقات التى قبلىّ باب الذهب، و جلس الخليفة و سلموا عليه، ثم خرج متولى بيت المال بصندوق مختوم، ضمنه عينا مائة دينار، و ألف و ثمانمائة و عشرون درهما برسم أهل القرافة، و ساكنيها و غيرهم، و فرّقت الصوانى بعد ما حمل منها للخاص، و زمام القصر و متولى الدفتر خاصة و إلى دار الوزارة، و الأجلاء الأخوة، و الأولاد، و كاتب الدست، و متولى حجبة الباب، و القاضى و الداعى، و مفتى الدولة و متولى دار العلم، و المقرئين الخاص، و أئمة الجوامع بالقاهرة و مصر، و بقية الأشراف.

قال: و خرج الآمر، يعنى فى سنة سبع عشرة و خمسمائة بإطلاق ما يخص المولد الآمرىّ برسم المشاهد الشريفة من سكر و عسل و شيرج و دقيق، و ما يصنع مما يفرّق على المساكين بالجامعين الأزهر بالقاهرة، و العتيق بمصر، و بالقرافة خمسة قناطير حلوى و ألف رطل دقيق، و ما يعمل بدار الفطرة، و يحمل للأعيان، و المستخدمين من بعد القصور، و الدار المأمونية صينية خشكنانج، و حضر القاضى و الداعى، و المستخدمون بدار العيد، و الشهود فى عشية اليوم المذكور، و قطع سلوك الطريق بين القصرين، و جلس الخليفة فى المنظرة، و قبلوا الأرض بين يديه، و المقرئون الخاص جميعهم يقرءون القرآن و تقدّم الخطيب، و خطب خطبة وسع القول فيها، و ذكر الخليفة و الوزير، ثم حضر من أنشد، و ذكر فضيلة الشهر و المولود فيه، ثم خرج متولى بيت المال، و معه صندوق من مال النجاوى خاصة مما يفرّق على الحكم المتقدّم ذكره. قال: و استهلّ ربيع الأوّل، و نبدأ بما شرّف به الشهر المذكور، و هو ذكر مولد سيد الأوّلين و الآخرين محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لثلاث عشرة منه، و أطلق ما هو برسم الصدقات من مال النجاوى خاصة ستة آلاف درهم، و من الأصناف من دار الفطرة أربعون صينية فطرة، و من الخزائن برسم المتولين، و السدنة للمشاهد الشريفة التى بين الجبل و القرافة التى فيها أعضاء آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لوز عسل، و شيرج لكل مشهد، و ما يتولى تفرقته: سنا الملك ابن ميسر أربعمائة رطل حلاوة، و ألف رطل خبز.

قال: و كان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطل أمر الوالد الأربعة: النبوىّ، و العلوىّ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۳

و الفاطمىّ، و الإمام الحاضر، و ما يهتمّ به، و قدم العهد به حتى نسى ذكرها، فأخذ الأستاذون يجدّدون ذكرها للخليفة الآمر بأحكام اللّه، و يردّدون الحديث معه فيها، و يحسنون له معارضة الوزير بسببها، و إعادتها، و إقامة الجوارى و الرسوم فيها، فأجاب إلى ذلك، و عمل ما ذكر.

و قال ابن الطوير: ذكر جلوس الخليفة فى الموالد الستة فى تواريخ مختلفة، و ما يطلق فيها، و هى مولد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و مولد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، و مولد فاطمة عليها السلام، و مولد الحسن، و مولد الحسين عليهما السلام، و مولد الخليفة الحاضر، و يكون هذا الجلوس فى المنظرة التى هى أنزل المناظر، و أقرب إلى الأرض قبالة دار فخر الدين جهاركس، و الفندق المستجدّ، فإذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأوّل، تقدّم بأن يعمل فى دار الفطرة عشرون قنطارا من السكر اليابس حلواء يابسة من طرائفها، و تعبى فى ثلثمائة صينية من النحاس، و هو مولد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فتفرّق تلك الصوانى فى أرباب الرسوم من أرباب الرتب، و كل صينية فى قوارة من أوّل النهار إلى ظهره.

فأوّل أرباب الرسوم قاضى القضاة، ثم داعى الدعاة، و يدخل فى ذلك القرّاء بالحضرة، و الخطباء و المتصدّرون بالجوامع بالقاهرة، و قومة المشاهد، و لا يخرج ذلك مما يتعلق بهذا الجانب بدعو يخرج من دفتر المجلس كما قدّمناه، فإذا صلى الظهر ركب قاضى القضاة، و الشهود بأجمعهم إلى الجامع الأزهر، و معهم أرباب تفرقة الصوانى، فيجلسون مقدار قراءة الختمة الكريمة، ثم يستدعى قاضى القضاة، و من معه فإن كانت الدعوة مضافة إليه، و إلّا حضر الداعى معه بنقباء الرسائل، فيركبون و يسيرون إلى أن يصلوا إلى آخر المضيق من السيوفيين قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين، فيقفون هناك، و قد سلكت الطريق على السالكين من الركن المخلق، و من سويقة أمير الجيوش عند الحوض هناك، و كنست الطريق فيما بين ذلك، و رشت بالماء رشا خفيفا، و فرش تحت المنظرة المذكورة بالرمل الأصفر.

ثم يستدعى صاحب الباب من دار الوزارة، و والى القاهرة ماض، و عائد لحفظ ذلك اليوم من الازدحام على نظر الخليفة، فيكون بروز صاحب الباب من الركن المخلق هو وقت استدعاء القاضى و من معه من مكان وقوفهم، فيقربون من المنظرة، يترجلون قبل الوصول إليها بخطوات، فيجتمعون تحت المنظرة دون الساعة الزمانية بسمت و تشوّف لانتظار الخليفة، فتفتح إحدى الطاقات، فيظهر منها وجهه، و ما عليه من المنديل، و على رأسه عدّة من الأستاذين المحنكين، و غيرهم من الخواص منهم، و يفتح بعض الأستاذين طاقة، و يخرج منها رأسه و يده اليمنى فى كمه، و يشير به قائلا: أمير المؤمنين يردّ عليكم السلام، فيسلم بقاضى القضاة أوّلا بنعوته و بصاحب الباب بعده كذلك، و بالجماعة الباقية جملة جملة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۴

من غير تعيين أحد، فيستفتح قرّاء الحضرة بالقراءة و يكونون قياما فى الصدر وجوههم للحاضرين، و ظهورهم إلى حائط المنظرة، فيقدّم خطيب الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم، فيخطب كما يخطب فوق المنبر إلى أن يصل إلى ذكر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فيقول: و إنّ هذا يوم مولده إلى ما منّ اللّه به على ملة الإسلام من رسالته، ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة، ثم يؤخر و يقدّم خطيب الجامع الأزهر، فيخطب كذلك، ثم خطيب الجامع الأقمر فيخطب كذلك، و القرّاء فى خلال خطابة الخطباء يقرءون. فإذا انتهت خطابة الخطباء أخرج الأستاذ رأسه، و يده فى كمه من طاقته، و ردّ على الجماعة السلام، ثم تغلق الطاغتان، فتنفض الناس و يجرى أمر الموالد الخمسة الباقية على هذا النظام إلى حين فراغها على عدّتها من غير زيادة و لا نقص، انتهى.

و هذا الباب صار بعد زوال الدولة الفاطمية يقابل دار الأمير فخر الدين جهاركس الصلاحىّ التى عرفت بعد ذلك بالدار القطبية، و هى الآن المارستان المنصورى، و صار موضع هذا الباب محراب مدرسة الظاهر ركن الدين بيبرس.

باب البحر : هو من إنشاء الحاكم بأمر اللّه أبى علىّ منصور، و هدم فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و شوهد فيه أمر عجيب.

قال جامع السيرة الظاهرية: لما كان يوم عاشوراء يعنى من سنة اثنتين و سبعين و ستمائة رسم بنقض علو أحد أبواب القصر المسمى بباب البحر، قبالة المدرسة دار الحديث الكاملية لأجل نقل عمدة فيه لبعض العمائر السلطانية، فظهر صندوق فى حائط مبنىّ عليه، فللوقت أحضرت الشهود و جماعة كثيرة، و فتح الصندوق، فوجد فيه صورة من نحاس أصفر مفرغ على كرسىّ شبه الهرام، ارتفاعه قدر شبر له أربعة أرجل تحمل الكرسىّ، و الصنم جالس متورّكا، و له يدان مرفوعتان ارتفاعا جيدا يحمل صحيفة دورها: قدر ثلاثة أشبار، و فى هذه الصحيفة أشكال ثابتة، و فى الوسط صورة رأس بغير جسد، و دائرة مكتوب كتابة بالقبطىّ، و بالقلفطيريات و إلى جانبها فى الصحيفة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة، و إلى الجانب الآخر شكل آخر، و على رأسه صليب، و الآخر فى يده عكاز، و على رأسه صليب، و تحت أرجلهم أشكال طيور، و فوق رؤوس الأشكال كتابة، و وجد مع هذا الصنم فى الصندوق لوح من ألواح الصبيان التى يكتبون فيها بالمكاتب مدهون وجهه الواحد أبيض، و وجهه الواحد أحمر، و فيه كتابة قد تكشط أكثرها من طول المدّة، و قد بلى اللوح و ما بقيت الكتابة تلتئم، و لا الخط يفهم.

و هذا نص ما فيه، و أخليت مكان كتابته التى تكشطت، و أمّا الوجه الأبيض: فهو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۵

مكتوب بقلم الصحيفة القبطيّ، و المكتوب فى الوجه الأحمر على هذه الصورة: السطر الأوّل بقى منه مكتوبا الإسكندر ، السطر الثانى: الأرض وهبها له، السطر الثالث:

و جرب لكل ، السطر الرابع: أصحاب ، السطر الخامس: و هو يحرس ، السطر السادس: و احترازه بقوّة، السطر السابع: الملك مرجو، و أبواب السطر الثامن غير بيته سبعة ، السطر التاسع: عالم حكيم عالم فى عقله، السطر العاشر: وصفها فلا تفسد، السطر الحادى عشر: طارد كل سوء، و الذى صاغها النساء، السطر الثانى: عشر سد أيضا كل آثار اسدية بيبرس، و هى أحد ، السطر الثالث عشر: بيبرس ملك الزمان و الحكمة كلمة اللّه عز و جل، هذا صورة ما وجد فى اللوح مما بقى من الكتابة و البقية قد تكشط.

و قيل: إنّ هذا اللوح بخط الخليفة الحاكم، و أعجب ما فيه اسم السلطان، و هو بيبرس، و لما شاهد السلطان ذلك: أمر بقراءته، فعرض على قرّاء الأقلام، فقرىء، و ذلك بالقلم القبطيّ، و مضمونه طلسم عمل للظاهر بن الحاكم، و اسم أمّه رصد، و فيه أسماء الملائكة، و عزائم ورقى و أسماء روحانية، و صور ملائكة أكثره حرس لديار مصر و ثغورها، و صرف الأعداء عنها، و كفهم عن طروقهم إليها، و ابتهال إلى اللّه تعالى بأقسام كثيرة لحماية الديار المصرية، و صونها من الأعداء، و حفظها من كل طارق من جميع الأجناس، و تضمن هذا الطلسم: كتابة بالقلفطيريات، و أوفاقا، و صورا، و خواص لا يعلمها إلّا اللّه تعالى، و حمل هذا الطلسم إلى السلطان، و بقى فى ذخائره. قال: و رأيت فى كتاب عتيق رث سماه مصنفه: وصية الإمام العزيز بالله، والد الإمام الحاكم بأمر اللّه لولده المذكور، و قد ذكر فيه الطلسمات التى على أبواب القصر، و من جملتها: إنّ أوّل البروج: الحمل، و هو بيت المريخ و شرف الشمس، و له القوّة على جميع سلطان الفلك، لأنه صاحب السيف، و اسفهسلارية العسكر بين يدى الشمس الملك، و له الأمر و الحرب و السلطان و القوّة، و المستولى لقوّة روحانيته على مدينتنا، و قد أقمنا طلسما لساعته و يومه لقهر الأعداء، و ذل المنافقين فى مكان أحكمناه على إشرافه عليه، و الحصن الجامع لقصر مجاور الأوّل باب بنيناه، هذا نص ما رأيته، انتهى.

و لعل معنى كتابة بيبرس فى هذا اللوح إشارة إلى أن هدم هذا الباب يكون على زمان بيبرس، فإنّ القوم كانت لهم معارف كثيرة، و عنايتهم بهذا الفنّ وافرة كبيرة، و اللّه أعلم، و موضع باب البحر هذا اليوم يعرف: بباب قصر بشتاك، قبالة المدرسة الكاملية.

باب الريح : كان على ما أدركته تجاه سور سعيد السعداء على يمنة السالك من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۶

الركن المخلق إلى رحبة باب العيد، و كان بابا مربعا، يسلك فيه من دهليز مستطيل مظلم إلى حيث المدرسة السابقية، و دار الطواشى سابق الدين، و قصر أمير السلاح، و ينتهى إلى ما بين القصرين تجاه حمام البيسرى، و عرف هذا الباب فى الدولة الأيوبية: بباب قصر ابن الشيخ، و ذلك أن الوزير: الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ، وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب: كان يسكن بالقصر الذى فى داخل هذا الباب، ثم قيل له فى زمننا: باب القصر، و كان على حاله، له عضادتان من حجارة، و يعلوه اسكفة حجر مكتوب فيها نقرا فى الحجر عدّة أسطر، بالقلم الكوفيّ لم يتهيأ لى قراءة ما فيها، و كان دهليز هذا الباب عريضا يتجاوز عرضه فيما أقدّر: العشرة أذرع فى طول كبير جدّا، و يعلو هذا الباب دور للسكنى تشرف على الطريق، و ما زال على ذلك، إلى أن أنشأ الأمير الوزير المشير جمال الدين يوسف الإستادار مدرسته برحبة باب العيد، و اغتصب لها أملاك الناس، و كان مما اغتصب ما بجوار المدرسة المذكورة من الحوانيت، و الرباع التى فوقها، و ما جاوز ذلك، و هدمها ليبنيها على ما يريد، فهدم هذا الباب فى صفر سنة إحدى عشرة و ثمانمائة، و بنى فى مكانه، و مكان الدهليز المظلم الذى كان ينتهى بالسالك فيه من هذا الباب إلى المدرسة السابقية: هذه القيسارية الكبيرة ذات الحوانيت، و السقيفة و الأبواب الجديدة، و دخل فيها بعض مما كان بجانبى هذا الباب من الحوانيت و علوها، و لما هدم هذا الباب ظهر فى داخل بنيانه شخص، و بلغنى ذلك فسرت إلى الأمير المذكور، و كان بينى و بين صحبة، لأشاهد

هذا الشخص المذكور، و التمست منه إحضاره، فأخبرنى أنه أحضر إليه شخص من حجارة: قصير القامة إحدى عينيه أصغر من الأخرى، فقلت: لا بدّ لى من مشاهدته، فأمر بإحضاره الموكل بالعمارة، و أنا معه إذ ذاك فى موضع الباب، و قد هدم ما كان فيها من البناء، فذكر أنه رماه بين أحجار العمارة، و أنه تكسر و صار فيما بينها، و لا يستطيع تمييزه منها، فأغلظ عليه و بالغ فى الفحص عنه، فأعياهم إحضاره.

فسألت الرجل حينئذ فقال لى: إنهم لما انتهوا فى الهدم إلى حيث كان هذا الشخص إذا بدائرة فيها كتابة و بوسطها شخص قصير، صغير إحدى العينين من حجارة، و هذه كانت صفة جمال الدين فإنه كان قصير القامة، إحدى عينيه أصغر من الأخرى، و يشبه، و اللّه أعلم، أن يكون قد عين فى تلك الكتابة التى كانت حول الشخص، أنّ هذا الباب يهدمه من هذه صفته، كما وجد فى باب البحر اسم بيبرس الذى هدم على يديه، و بأمره، و قد ظفر جمال الدين هذا بأموال عظيمة وجدها فى داخل هذا القصر، لما أنشأ داره الأولى فى الحدرة من داخل هذا الباب فى سنة ست و تسعين و سبعمائة، و كان لكثرة هذا المال لا يستطيع كتمانه، و من شدّة خوفه يومئذ من الظاهر برقوق أن يظهر عليه، لا يقدر أن يصرّح به، فكان يقول لأصحابه و خواصه: وجدت فى هذا المكان سبعين قفة من حديد.

أخبرنى اثنان رئيسان من أعيان الدولة عنه: إنه قال لهما هذا القول، و كنت إذ ذاك أيام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۷

عمارته لهذه القاعة أتردّد لشيخنا سراج الدين عمر بن الملقن رحمه اللّه تعالى بالمدرسة السابقية، و بها كان يسكن، فتعرّفت بجمال الدين منه، و كان يومئذ من عرض الجند، و يعرف: باستادار نحاس، فاشتهر هناك أنه وجد حال هدمه و عمارته القاعة، و الرواق بالحدرة مكانا مبنيا تحت الأرض مبيض الحيطان، فيه مال فما كان عندى شك أنه من أموال خبايا الفاطميين، فإنه قد ذكر غير واحد من الإخباريين، أن السلطان صلاح الدين لما استولى على القصر بعد موت العاضد لم يظفر بشىء من الخبايا، و عاقب جماعة، فلم يوقفوه على أمرها.

باب الزمرد : سمى بذلك لأنه كان يتوصل منه إلى قصر الزمرذ، و موضعه الآن المدرسة الحجازية بخط رحبة باب العيد.

باب العيد : هذا الباب مكانه اليوم فى داخل درب السلامى بخط رحبة باب العيد، و هو عقد محكم البناء و يعلوه قبة قد عملت مسجدا، و تحتها حانوت يسكنه سقّاء، و يقابله مصطبة، و أدركت العامّة، و هم يسمون هذه القبة بالقاهرة، و يزعمون أن الخليفة كان يجلس بها، و يرخى كمه فتأتى الناس و تقبله، و هذا غير صحيح، و قيل لهذا الباب: باب العيد، لأنّ الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيد إلى المصلى بظاهر باب النصر، فيخطب بعد أن يصلى بالناس صلاة العيد، كما ستقف عليه عند ذكر المصلى إن شاء اللّه تعالى، و فى سنة إحدى و ستين و ستمائة: بنى الملك الظاهر بيبرس خانا للسبيل بظاهر مدينة القدس، و نقل إليه باب العيد هذا، فعمله بابا له، و تم بناؤه فى سنة اثنتين و ستين.

باب قصر الشوك : و هو الذى كان يتوصل منه إلى قصر الشوك، و موضعه الآن تجاه حمام عرفت بحمام الإيدمرىّ، و يقال لها اليوم: حمام يونس عند موقف المكارية، بجوار خزانة البنود على يمنة السالك منها إلى رحبة الإيدمرىّ، و هو الآن زقاق ينتهى إلى بئر يسقى منها بالدلاء، و يتوصل من هناك إلى المارستان العتيق و غيره، و أدركت منه قطعة من جانبه الأيسر.

باب الديلم : و كان يدخل منه إلى المشهد الحسينىّ، و موضعه الآن درج ينزل منها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۸

إلى المشهد تجاه الفندق الذى كان دار الفطرة، و لم يبق لهذا الباب أثر البتة.

باب تربة الزعفران : مكانه الآن بجوار خان الخليلى من بحريه، مقابل فندق المهمندار الذى يدق فيه ورق الذهب، و قد بنى بأعلاه طبقة، و رواق و لا يكاد يعرفه كثير من الناس، و عليه كتابة بالقلم الكوفىّ، و هذا الباب كان يتوصل منه إلى تربة القصر المذكورة فيما تقدّم.

باب الزهومة : كان فى آخر ركن القصر، مقابل خزانة الدرق التى هى اليوم: خان مسرور، و قيل له: باب الزهومة لأن اللحوم و حوائج الطعام التى كانت تدخل إلى مطبخ القصر الذى للحوم إنما يدخل بها من هذا الباب. فقيل له: باب الزهومة يعنى باب الزفر، و كان تجاهه أيضا درب السلسلة الآتى ذكره إن شاء اللّه تعالى. و موضعه الآن: باب قاعة الحنابلة من المدارس الصالحية، تجاه فندق مسرور الصغير، و من بعد باب الزهومة المذكور باب الذهب الذى تقدّم ذكره، فهذه أبواب القصر الكبير التسعة.

ذكر المنحر

و كان بجوار هذا القصر الكبير: المنحر، و هو الموضع الذى اتخذه الخلفاء لنحر الأضاحى فى عيد النحر، و عيد الغدير و كان تجاه رحبة باب العيد، و موضعه الآن يعرف:

بالدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، و صار موضعه ما فى داخل هذا الدرب من الدور و الطاحون و غيرها، و ظاهره تجاه رأس حارة برجوان يفصل بينه و بين حارة برجوان الحوانيت التى تقابل باب الحارة، و من جملة المنحر الساحة العظيمة التى عملت لها خوند بركة أمّ السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين، البوّابة العظيمة بخط الركن المخلق بجوار قيسارية الجلود التى عمل فيها حوانيت الأساكفة، و كان الخليفة إذا صلى صلاة عيد النحر، و خطب ينحر بالمصلى، ثم يأتى المنحر المذكور، و خلفه المؤذنون يجهرون بالتكبير، و يرفعون أصواتهم كلما نحر الخليفة شيئا، و تكون الحربة فى يد قاضى القضاة، و هو بجانب الخليفة ليناوله إياها إذا نحر، و أوّل من سنّ منهم إعطاء الضحايا، و تفرقتها فى أولياء الدولة على قدر رتبهم: العزيز باللّه نزار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۳۹

ما كان يعمل فى عيد النحر: قال المسبحىّ: و فى يوم عرفة يعنى من سنة ثمانين و ثلثمائة حمل يانس صاحب الشرطة السماط، و حمل أيضا علىّ بن سعد المحتسب سماطا آخر، و ركب العزيز باللّه يوم النحر، فصلى و خطب على العادة، ثم نحر عدّة نوق بيده، و انصرف إلى قصره، فنصب السماط، و الموائد، و أكل و نحر بين يديه، و أمر بتفرقة الضحايا على أهل الدولة، و ذكر مثل ذلك فى باقى السنين.

و قال ابن المأمون فى عيد النحر من سنة خمس عشرة و خمسمائة: و أمر بتفرقة عيد النحر، و الهبة و جملة العين، ثلاثة آلاف و ثلثمائة و سبعون دينارا، و من الكسوات مائة قطعة، و سبع قطع برسم الأمراء المطوّقين، و الأستاذين المحنكين، و كاتب الدست، و متولى حجبة الباب، و غيرهم من المستخدمين، و عدّة ما ذبح: ثلاثة أيام النحر فى هذا العيد، و عيد الغدير: ألفان و خمسمائة و أحد و ستون رأسا.

تفصيله: نوق مائة و سبعة عشر رأسا، يقر أربعة و عشرون رأسا، جاموس عشرون رأسا، هذا الذى ينحره و يذبحه الخليفة بيده فى المصلى و النحر، و باب الساباط، و يذبح الجزارون من الكباش ألفين و أربعمائة رأس، و الذى اشتملت عليه نفقات الأسمطة فى الأيام المذكورة خارجا عما يعمل بالدار المأمونية من الأسمطة، و خارجا عن أسمطة القصور عند الحرم، و خارجا عن القصور الحلواء، و القصور المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة: ألف و ثلثمائة و ستة و عشرون دينارا، و ربع و سدس دينار، و من السكر برسم القصور، و القطع المنفوخ أربعة و عشرون قنطارا.

تفصيله عن قصرين فى أوّل يوم خاصة اثنا عشر قنطارا المنفوخ عن ثلاثة الأيام اثنا عشر قنطارا، و قال فى سنة ست عشرة و خمسمائة: و حضر وقت تفرقة كسوة عيد النحر و وصل ما تأخر فيها بالطراز، و فرّقت الرسوم على من جرت عادته خارجا عما أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد و أضحيته، و خارجا عما يفرّق على سبيل المناخ، و من باب الساباط مذبوحا، و منحورا ستمائة دينار و سبعة عشر دينارا، و فى التاسع من ذى الحجة، جلس الخليفة الآمر بأحكام اللّه على سرير الملك، و حضر الوزير، و أولاده و قاموا بما يجب

من السلام، و استفتح المقرئون، و تقدّم حامل المظلة، و عرض ما جرت عادته من المظال الخمسة التى جميعها مذهب، و سلم الأمراء على طبقاتهم، و ختم المقرئون، و عرضت الدواب جميعها، و العماريات و الوحوش و عاد الخليفة إلى محله، فلما أسفر الصبح: خرج الخليفة، و سلم على من جرت عادته بالسلام عليه، و لم يخرج شيء عما جرت به العادة فى الركوب و العود، و غير الخليفة ثيابه، و لبس ما يختص بالنحر، و هى البدلة الحمراء بالشدّة التى تسمى: بشدّة الوفار، و العلم الجوهر فى وجهه بغير قضيب ملك فى يده إلى أن دخل المنحر، و فرشت الملاءة الديبقىّ الحمراء و ثلاث بطائن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۰

مصبوغة حمر، ليتقى بها الدم مع كون كل من الجزارين، بيده مكبة صفاف مدهونة يلقى بها الدم عن الملاءة، و كبر المؤذنون، و نحر الخليفة أربعا و ثلاثين ناقة، و قصد المسجد الذى آخر صف المنحر، و هو مغلق بالشروب و الفاكهة المعبأة فيه بمقدار ما غسل يديه، ثم ركب من فوره، و جملة ما نحره، و ذبحه الخليفة خاصة فى المنحر، و باب الساباط دون الأجل الوزير المأمون، و أولاده، و إخوته فى ثلاثة الأيام ما عدّته: ألف و تسعمائة و ستة و أربعون رأسا.

تفصيله: نوق مائة و ثلاث عشرة ناقة، نحر منها فى المصلى عقيب الخطبة، ناقة و هى التى تهدى و تطلب من آفاق الأرض للتبرّك بلحمها، و نحر فى المناخ مائة ناقة، و هى التى يحمل منها للوزير، و أولاده و إخوته و الأمراء، و الضيوف، و الأجناد، و العسكرية و المميزين من الراجل، و فى كل يوم يتصدّق منها على الضعفاء و المساكين بناقة واحدة، و فى اليوم الثالث من العيد تحمل ناقة منحورة للفقراء فى القرافة، و ينحر فى باب الساباط ما يحمل إلى من حوته القصور، و إلى داره الوزارة، و إلى الأصحاب، و الحواشى اثنتا عشرة ناقة، و ثمانى عشرة بقرة و خمس عشرة جاموسة، و من الكباش ألف و ثمانمائة رأس، و يتصدّق كل يوم فى باب الساباط بسقط ما يذبح من النوق و البقر.

و أما مبلغ المنصرف على الأسمطة فى ثلاثة الأيام خارجا عن الأسمطة بالدار المأمونية، فألف و ثلثمائة و ستة و عشرون دينارا و ربع و سدس دينار، و من السكر برسم قصور الحلاوة، و القطع المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة خارجا عن المطابخ ثمانية و أربعون قنطارا.

و قال ابن الطوير: فإذا انقضى ذو القعدة، و أهلّ ذو الحجة، اهتمّ بالركوب فى عيد النحر، و هو يوم عاشره، فيجرى حاله كما جرى فى عيد الفطر من الزى، و الركوب إلى المصلى، و يكون لباس الخليفة فيه: الأحمر الموشح، و لا ينخرم منه شيء، و ركوبه ثلاثة أيام متوالية، فأوّلها: يوم الخروج إلى المصلى و الخطابة، كعيد الفطر، و ثانى يوم و ثالثه إلى المنحر، و هو المقابل لباب الريح الذى فى ركن القصر المقابل لسور دار سعيد السعداء، الخانقاه اليوم، و كان براحا خاليا لا عمارة فيه، فيخرج من هذا الباب الخليفة بنفسه، و يكون الوزير واقفا عليه، فيترجل و يدخل ماشيا بين يديه بقربه، هذا بعد انفصالهما من المصلى، و يكون قد قيّد إلى هذا المنحر أحد و ثلاثون فصيلا و ناقة أمام مصطبة مفروشة يطلع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۱

عليها الخليفة و الوزير، ثم أكابر الدولة، و هو بين الأستاذين المحنكين، فيقدّم الفرّاشون له إلى المصطبة رأسا، و يكون بيده حربة، من رأسها الذى لا سنان فيه و يد قاضى القضاة فى أصل سنانها، فيجعله القاضى فى نحر النحيرة، و يطعن بها الخليفة، و تجرّ من بين يديه، حتى يأتى على العدّة المذكورة، فأوّل نحيرة هى التى تقدّد، و تسير إلى داعى اليمن، و هو الملك فيه، فيفرّقها على المعتقدين من وزن نصف درهم إلى ربع درهم، ثم يعمل ثانى يوم كذلك فيكون عدد ما ينحر: سبعا و عشرين، ثم يعمل فى اليوم الثالث كذلك و عدّة ما ينحر ثلاث و عشرون.

هذا: و فى مدّة هذه الأيام الثلاثة يسير رسم الأضحية إلى أرباب الرتب و الرسوم كما سيرت الغرّة فى أوّل السنة من الدنانير بغير رباعية، و لا قراريط على مثال الغرّة من عشرة دنانير إلى دينار، و أما لحم الجزور، فإنه يفرّق فى أرباب الرسوم للتبرّك فى أطباق مع أدوان الفرّاشين، و أكثر ذلك تفرقة قاضى القضاة و داعى الدعاة للطلبة بدار العلم، و المتصدّرين بجوامع القاهرة، و نقباء المؤمنين بها

من الشيعة للتبرّك، فإذا انقضى ذلك خلع الخليفة على الوزير ثيابه الحمر التى كانت عليه، و منديلا آخر بغير السمة، و العقد المنظوم من القصر عند عود الخليفة من المنحر، فيركب الوزير من القصر بالخلع المذكورة شاقا القاهرة، فإذا خرج من باب زويلة انعطف على يمينه سالكا على الخليج، فيدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة، و بذلك انفصال عيد النحر.

و قال ابن أبى طيّ: عدّة ما يذبح فى هذا العيد فى ثلاثة أيام النحر، و فى يوم عيد الغدير: ألفان و خمسمائة و أحد و ستون رأسا، و تفصيله: نوق مائة و سبعة عشر رأسا، بقر أربعة و عشرون رأسا، جاموس عشرون رأسا، هذا الذى ينحره الخليفة، و يذبحه بيده فى المصلى، و المنحر، و باب الساباط، و يذبح الجزارون بين يديه من الكباش ألفا و أربعمائة رأس.

و قال ابن عبد الظاهر: كان الخليفة ينحر بالمنحر: مائة رأس، و يعود إلى خزانة الكسوة فيغير قماشه، و يتوجه إلى الميدان، و هو الخرنشف بباب الساباط للنحر و الذبح، و يعود بعد ذلك إلى الحمام و يغير ثيابه للجلوس على الأسمطة، و عدّة ما يذبحه ألف و سبعمائة و ستة و أربعون رأسا: مائة و ثلاث عشر ناقة و الباقى بقر و غنم.

قال ابن الطوير: و ثمن الضحايا على ما تقرّر ما يقرب من ألفى دينار، و كانت تخرج المخلقات إلى الأعمال بشائر بركوب الخليفة فى يوم عيد النحر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۲

فمما كتب به الأستاذ البارع أبو القسم علىّ بن منجيب بن سليمان الكاتب المعروف:

بابن الصيرفىّ المنعوت: بتاج الرياسة، أما بعد: فالحمد للّه الذى رفع منار الشرع، و حفظ نظامه و نشر راية هذا الدين، و أوجب إعظامه، و أطلع بخلافة أمير المؤمنين كواكب سعوده، و أظهر للمؤالف و المخالف عزة أحزابه و قوّة جنوده، و جعل فرعه ساميا ناميا، و أصله ثابتا راسخا، و شرّفه على الأديان بأسرها و كان لعراها فاصما و لأحكامها ناسخا، يحمده أمير المؤمنين أن الزم طاعته الخليقة، و جعل كراماته الأسباب الجديرة بالإمارة الخليقة، و يرغب إليه فى الصلاة على جدّه محمد الذى حاز الفخار أجمعه، و ضمن الجنة لمن آمن به و اتبع النور الذى أنزل معه، و رفعه إلى أعلى منزلة تخير له منها المحل، و أرسله بالهدى و دين الحق، فزهق الباطل، و خمدت ناره و اضمحل، صلى اللّه عليه، و على أخيه و ابن عمه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب خير الأمّة و إمامها، و حبر الملة و بدر تمامها، و الموفى يومه فى الطاعات على ماضى أمسه، و من أقامه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المباهلة مقام نفسه، و اختصه بأبعد غاية فى سورة براءة، فنادى فى الحج بأوّلها، و لم يكن غيره ينفذ نفاذه و لا يسدّ مكانه، لأنه قال: «لا يبلغ عنى إلّا رجل من أهل بيتى» عملا فى ذلك بما أمر اللّه به سبحانه، و على الأئمة من ذريتهما خلفاء اللّه فى أرضه، و القائمين فى سياسة خلقه بصريح الإيمان و محضه، و المحكمين من أمر الدين ما لا وجه لحله، و لا سبيل إلى نقضه، و سلم عليهم أجمعين سلاما يتصل دوامه، و لا يخشى انصرامه، و مجد و كرّم، و شرّف و عظم، و كتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم الأحد عيد النحر من سنة ست و ثلاثين و خمسمائة الذى تبلج فجره عن سيئات محصت، و نفوس من آثار الذنوب خلصت، و رحمة امتدّت ظلالها و انتشرت و مغفرة هنأت و نشرت، و كان من خبر هذا اليوم: أن أمير المؤمنين برز لكافة من بحضرته من أوليائه، متوجها لقضاء حق هذا العيد السعيد و أدائه، فى عترة راسخة قواعدها متمكنة، و عساكر جمة تضيق عنها ظروف الأمكنة، و مواكب تتوالى كتوالى السيل، و تهاب هيبة مجيئه فى الليل، بأسلحة تحسر لها الأبصار و تبرق و ترتاع الأفئدة منها و تفرق، فمن مشرفىّ إذا ورد تورّد، و من سمهرىّ إذا قصد تقصد، و من عمد إذا عمدت تبرّأت المغافر من ضمانها، و من قسىّ إذا أرسلت بنانها وصلت إلى القلوب بغير استئذانها، و لم يزل سائرا فى هدى الإمامة و أنوارها، و سكينة الخلافة و وقارها، إلى أن وصل إلى المصلى قدام المحراب، و أدّى الصلاة إذ لم يكن بينه و بين التقبيل حجاب، ثم علا المنبر فاستوى على ذروته، ثم هلل اللّه و كبر، و أثنى على عظمته و أحسن إلى الكافة بتبليغ موعظته، و توجه إلى ما أعدّ من البدن فنحره تكميلا لقربته، و انتهى فى ذلك إلى ما أمر اللّه عز و جل، و عاد إلى قصوره المكرّمة، و منازله المقدّسة، قد رضى اللّه عمله، و شكر فعله و تقبله، أعلمك أمير المؤمنين بذلك، لتشكر اللّه على النعمة فيه، و تذيعه قبلك على الرسم مما تجاريه، فاعلم هذا، و اعمل به

إن شاء اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۳

ذكر دار الوزارة الكبرى

و كان بجوار هذا القصر الكبير الشرقيّ تجاه رحبة باب العيد، دار الوزارة الكبرى، و يقال لها: الدار الأفضلية و الدار السلطانية.

قال ابن عبد الظاهر: دار الوزارة بناها: بدر الجماليّ أمير الجيوش، ثم لم يزل يسكنها من يلى إمرة الجيوش إلى أن انتقل الأمر عن المصريين، و صار إلى بنى أيوب، فاستقرّ سكن الملك الكامل بقلعة الجبل خارج القاهرة، و سكنها السلطان الملك الصالح ولده، ثم أرصدت دار الوزارة لمن يرد من الملوك، و رسل الخليفة إلى هذا الوقت، و كانت دار الوزارة قديما تعرف بدار القباب، و أضافها الأفضل إلى دور بنى هريسة، و عمرها دارا و سماها دار الوزارة، انتهى.

و الذى تدل عليه كتب ابتياعات الأملاك القديمة التى بتلك الخطة أنها من بناء الأفضل، لا من عمارة أبيه بدر، و الدار التى عمرها أمير الجيوش بدر هى داره: بحارة برجوان التى قيل لها دار المظفر، و ما زال وزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف من عهد الأفضل بن أمير الجيوش يسكنون بدار الوزارة هذه إلى أن زالت الدولة فاستقرّ بها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، و ابنه من بعده: الملك العزيز عثمان، ثم ابنه الملك المنصور، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب، ثم ابنه الملك الكامل، و صاروا يسمونها الدار السلطانية، و أوّل من انتقل عنها من الملوك، و سكن بالقلعة الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و جعلها منزلا للرسل، فلما ولى قطز سلطنة ديار مصر، و تلقب بالملك العادل فى سنة سبع و خمسين و ستمائة، و حضر إليه البحرية و فيهم بيبرس البندقداريّ، و قلاون الألفيّ من الشام، خرج الملك العادل قطز إلى لقائهم، و أنزل الأمير ركن الدين بيبرس بدار الوزارة، فلم يزل بها، حتى سافر صحبة قطز إلى الشام، و قتله و عاد إلى مصر فتسلطن، و سكن بقلعة الجبل. و فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، لما قتل الأشرف خليل بن قلاون فى واقعة بيدرا ، ثم قتل بيدرا، و أجلس الملك الناصر محمد على تخت الملك، و ثارت الأشرفية من المماليك على الأمراء، و قتل من قتل منهم، خاف بقية الأمراء من شرّ المماليك الأشرفية، فقبض منهم على نحو الستمائة مملوك، و أنزل بهم من القلعة، و أسكن منهم نحو: الثلاثمائة بدار الوزارة، و أسكن منهم كثير فى مناظر الكبش، و أجريت عليهم الرواتب، و منعوا من الركوب إلى أن كان من أمرهم ما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۴

و لما كانت سنة سبعمائة: أخذ الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورى نائب السلطنة فى أيام الملك المنصور حسام الدين لاجين: قطعة من دار الوزارة، فبنى بها الربع المقابل خانقاه سعيد السعداء، ثم بنى المدرسة المعروفة: بالقراسنقرية، و مكتب الأيتام، فلما كانت دولة البرجية بنى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير: الخانقاه الركنية، و الرباط بجانبها من جملة دار الوزارة، و ذلك فى سنة تسع و سبعمائة، ثم استولى الناس على ما بقى من دار الوزارة، و بنوا فيها، فمن حقوقها الربع تجاه الخانقاه الصلاحية دار سعيد السعداء، و المدرسة القراسنقرية، و خانقاه ركن الدين بيبرس، و ما بجوارها من دار قزمان و دار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير، المعروفة: بدار خوند طولوباى الناصرية، جهة الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون، و حمام الأعسر التى بجانبها، و الحمام المجاور لها، و ما وراء هذه الأماكن من الآدر و غيرها. و هى الفرن و الطاحون التى قبليّ المدرسة القراسنقرية، و من الآدر و الخربة التى قبليّ ربع قراسنقر، و ما جاور باب سرّ المدرسة القراسنقرية من الآدر، و خربة أخرى هناك، و الدار الكبرى المعروفة بدار الأمير سيف الدين برلغى الصغير صهر الملكك المظفر بيبرس الجاشنكير المعروفة اليوم: بدار الغزاوى، و فيها السرداب الذى كان رزيك بن الصالح رزيك فتحه فى أيام وزارته من دار الوزارة إلى سعيد السعداء، و هو باق إلى الآن فى صدر قاعتها، و ذكر أنّ فيه حية عظيمة،

و من حقوق دار الوزارة المناخ المجاور لهذه القاعة، و كان على دار الوزارة: سور مبنيّ بالحجارة و قد بقى الآن منه قطعة فى حدّ دار الوزارة الغربيّ، و فى حدّها القبليّ، و هو الجدار الذى فيه باب الطاحون و الساقية تجاه باب سعيد السعداء من الزقاق الذى يعرف اليوم: بخرائب تتر، و منه قطعة فى حدّها الشرقيّ عند باب الحمام، و المستوقد بباب الجوّانية، و كان بدار الوزارة هذا الشباك الكبير المعمول من الحديد فى القبة التى دفن تحتها بيبرس الجاشنكير من خانقاهه، و هو الشباك الذى يقرأ فيه القرّاء، و كان موضوعا فى دار الخلافة ببغداد يجلس فيه الخلفاء من بنى العباس.

فلما استولى الأمير أبو الحرث البساسيرى على بغداد، و خطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطميّ أربعين جمعة، و انتهب قصر الخلافة، و صار الخليفة القائم بأمر اللّه العباسيّ إلى عانة، و سير البساسيريّ الأموال، و التحف من بغداد إلى المستنصر بالله بمصر فى سنة سبع و أربعين و أربعمائة: كان من جملة ما بعث به منديل الخليفة القائم بأمر اللّه الذى عممه بيده فى قالب من رخام، قد وضع فيه كما هو حتى لا تتغير شدّته، و مع هذا المنديل رداءه، و الشباك الذى كان يجلس فيه، و يتكئ عليه، فاحتفظ بذلك إلى أن عمرت دار الوزارة على يد الأفضل بن أمير الجيوش، فجعل هذا الشباك بها، يجلس فيه الوزير،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۵

و يتكئ عليه، و ما زال بها إلى أن عمر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية، و أخذ من دار الوزارة أنقاضا منها هذا الشباك، فجعله فى القبة، و هو شباك جليل، و أما العمامة و الرداء: فما زالا بالقصر حتى مات العاضد، و تملك السلطان صلاح الدين ديار مصر، فسيرهما فى جملة ما بعث من مصر إلى الخليفة المستضىء بالله العباسيّ ببغداد، و معهما الكتاب الذى كتبه الخليفة القائم على نفسه، و أشهد عليه العدول فيه أنه لا حق لبنى العباس، و لا له من جملتهم فى الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء عليها السلام.

و كان البساسيريّ ألزمه حتى أشهد على نفسه بذلك، و بعث بالأشهاد إلى مصر، فأنفذه صلاح الدين إلى بغداد مع ما سير به من التحف التى كانت بالقصر، و أخبرنى شيخ معمر:

يعرف بالشيخ عليّ السعوديّ ولد فى سنة سبع و سبعمائة قال: رأيت مرّة، و قد سقط من ظهر الرباط المجاور لخانقا هبيبرس من جملة ما بقى من سور دار الوزارة جانب، ظهرت منه علبة فيها رأس إنسان كبير، و عندى أن هذا الرأس من جملة رؤوس الأمراء البرقية الذين قتلهم ضرغام فى أيام وزارته للعاضد بعد شاور، فإنه كان عمل الحيلة عليهم بدار الوزارة، و صار يستدعى واحدا بعد واحد إلى خزانة بالدار، و يوهم أنه يخلع عليهم، فإذا صار واحد منهم فى الخزانة قتل، و قطع رأسه، و ذلك فى سنة ثمان و خمسين و خمسمائة، و كانت دار الوزارة فى الدولة الفاطمية تشتمل على عدّة قاعات، و مساكن و بستان و غيره، و كان فيها مائة و عشرون مقسما للماء الذى يجرى فى بركها، و مطابخها و نحو ذلك.

ذكر رتبة الوزارة، و هيئة خلعهم، و مقدار جاريهم، و ما يتعلق بذلك

أما المعز لدين اللّه: أوّل الخلفاء الفاطميين بديار مصر، فإنه لم يوقع اسم الوزارة على أحد فى أيامه، و أوّل من قيل له الوزير فى الدولة الفاطمية، الوزير يعقوب بن كاس وزير العزيز بالله أبى منصور نزار بن المعز، و إليه تنسب الحارة الوزيرية، كما ستقف عليه، عند ذكر الحارات من هذا الكتاب، فلما مات ابن كاس، لم يستوزر العزيز بالله بعده أحدا، و إنما كان رجل يلى الوساطة، و السفارة، فاستقرّ فى ذلك جماعة كثيرة بقية أيام العزيز، و سائر أيام ابنه أبى علىّ منصور الحاكم بأمر اللّه، ثم ولى الوزارة: أحمد بن علىّ الجرجرائىّ فى أيام الظاهر أبى هاشم علىّ بن الحاكم، و ما زال الوزراء من بعده واحدا بعد واحد، و هم أرباب أقلام حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالىّ.

قال ابن الطوير: و كان من زىّ هؤلاء الوزراء، أنهم يلبسون المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلوقهم، مثل العدول الآن، و ينفردون

بلباس ثياب قصار، يقال لها:

الذراريع، واحدها: ذراعة، و هى مشقوقة أمام وجهه إلى قريب من رأس الفؤاد بأزرار و عرى، و منهم من تكون أزراره ممن ذهب مشبك، و منهم من أزراره لؤلؤ، و هذه علامة الوزارة، و يحمل له الدواة المحلاة بالذهب، و يقف بين يديه الحجاب، و أمره نافذ فى أرباب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۶

السيوف من الأجناد و أرباب الأقلام، و كان آخرهم الوزير: ابن المغربىّ الذى قدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالىّ من عكا، و وزر للمستنصر: وزير سيف، و لم يتقدّمه فى ذلك أحد، انتهى.

و ترتيب وزارته بأن تكون وزارته وزارة صاحب سيف بأن تكون الأمور كلها مردودة إليه، و منه إلى الخليفة، دون سائر خدمه، فعقد له هذا العقد، و أنشئ له السجل، و نعت بالسيد الأجل أمير الجيوش، و هو النعت الذى كان لصاحب ولاية دمشق و أضيف إليه: كافل قضاة المسلمين و هادى دعاة المؤمنين، و جعل القاضى و الداعى نائبين عنه، و مقلدين من قبله.

و كتب له فى سجله، و قد قلدك أمير المؤمنين: جميع جوامع تدبيره، و ناط بك النظر فى كل ما وراء سريره، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد، و مصلحا للفساد، و مدمرا أهل العناد، و خلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق، و زيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة، و الطيلسان المقوزرىّ قاضى القضاة، و ذلك فى سنة سبع و ستين و أربعمائة، فصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض، و يقال لمتوليها: أمير الجيوش، و بطل اسم الوزارة، فلما قام شاهنشاه بن أمير الجيوش من بعد أبيه، و مات الخليفة المستنصر، و لقبه بالمستعلى، صار يقال له: الأفضل و من بعده صار من يتولى هذه الرتبة يتلقب به أيضا.

و أوّل من لقب بالملك منهم مضافا إلى بقية الألقاب: رضوان بن و لخشى، عندما وزر للحافظ لدين اللّه، فقيل له: السيد الأجل الملك الأفضل، و ذلك فى سنة ثلاثين و خمسمائة، و فعل ذلك من بعده، فتلقب طلائع بن رزيك: بالملك المنصور، و تلقب ابنه رزيك بن طلائع: بالملك العادل و تلقب شاور بالملك المنصور، و تلقب آخرهم: صلاح الدين يوسف بن أيوب بالملك الناصر، و صار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة، هو سلطان مصر، و صاحب الحل و العقد، و إليه الحكم فى الكافة من الأمراء و الأجناد، و القضاة، و الكتاب، و سائر الرعية، و هو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية، و الدينية، و صار حال الخليفة معه كما هو حال ملوك مصر من الأتراك إذا كان السلطان صغيرا و القائم بأمره من الأمراء، و هو الذى يتولى تدبير الأمور، كما كان الأمير يلبغا الخاصكىّ مع الأشرف شعبان، و كما أدركنا الأمير برقوق قبل سلطنته مع ولدى الأشرف، و كما كان الأمير أيتمش مع الملك الناصر فرج بعد موت الظاهر برقوق.

قال ابن أبى طى: و كانت خلعهم يعنى الخلفاء الفاطميين على الأمراء: الثياب الديبقىّ، و العمائم الصب بالطراز الذهب، و كان طراز الذهب، و العمامة من خمسمائة دينار، و يخلع على أكابر الأمراء: الأطواق الذهب، و الأسورة و السيوف المحلاة، و كان يخلع على الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۷

قال ابن الطوير : و خلع عليه، يعنى على أمير الجيوش بدر الجمالىّ بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق، و زيد له الحنك، مع الذؤابة المرخاة، و الطيلسان المقوّر زى قاضى القضاة، و هذه الخلع تشابه خلع الوزراء، و أرباب الأقلام فى زمننا هذا، غير أنه لقصور أحوال الدولة جعل عوض العقد الجوهر الذى كان للوزير، و يفك بخمسة آلاف مثقال ذهبا قلادة من عنبر مغشوش يقال لها: العنبرية، و يتميز بها الوزير خاصة، و يلبس أيضا:

الطيلسان المقوّر، و يسمى اليوم: بالطرحة، و يشاركه فيها جميع أرباب العمائم، إذا خلع عليهم، فإنه تكون خلعهم بالطرحة، و ترك أيضا اليوم من خلعة الوزير، و غيره الذؤابة المرخاة، و هى العذبة و صارت الآن من زى القضاة فقط، و هجرها الوزوراء، و يشبه، و اللّه

أعلم، أن يكون وضعها فى الدولة الفاطمية للوزير فى خلعه إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف، و الأقلام، فإنه كان مع ذلك يتقلد بالسيف و كذلك ترك فى الدولة التركية من خلع الوزارة تقليد السيف لأنه لا حكم له على أرباب السيوف، و لما قام الأفضل بن أمير الجيوش خلع أيضا عليه بالسيف و الطيلسان المقوّر، و بعد الأفضل لم يخلع على أحد من الوزراء كذلك إلى أن قدم طلائع بن رزيك، و لقب بالملك الصالح عندما خلع عليه للوزارة، و جعل فى خلعته السيف و الطيلسان المقوّر.

قال ابن المأمون: و فى يوم الجمعة ثانية، يعنى ثانى ذى الحجة يعنى سنة خمس عشرة و خمسمائة: خلع على القائد ابن فاتك البطائحى من الملابس الخاص الشريفة فى فردكم مجلس الكعبة، و طوّق بطوق ذهب مرصع و سيف ذهب كذلك، و سلم على الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و أمر الخليفة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه و أن يركب من المكان الذى كان الأفضل بن أمير الجيوش يركب منه، و مشى فى ركابه القوّاد على دعاة من تقدّمه و خرج بتشريف الوزارة يعنى: من باب الذهب، و دخل من باب العيد راكبا، و جرى الحكم فيه على ما تقدّم للأفضل و وصل إلى داره، فضاعف الرسوم، و أطلق الهبات.

و لما كان يوم الاثنين خامس ذى الحجة اجتمع أمراء الدولة لتقبيل الأرض بين يدى الخليفة الآمر على العادة التى قرّرها مستجدّة، و استدعى الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة، فلما حضر أمر بإحضار السجل للأجل الوزير المأمون من يده، فقبله و سلمه لزمام القصر، و أمر الخليفة الوزير المأمون بالجلوس عن يمينه، و قرىء السجل على باب المجلس، و هو أوّل سجل قرىء فى هذا المكان، و كانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان، و رسم للشيخ أبى الحسن أن ينقل النسبة للأمراء، و المحنكين من الأمراء إلى المأمونى للناس أجمع، و لم يكن أحد منهم ينتسب للأفضل، و لا لأمير الجيوش، و قدّمت الدواة للمأمون، فعلم فى مجلس الخليفة، و تقدّمت الأمراء، و الأجناد فقبلوا الأرض، و شكروا على هذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۸

الإحسان، و أمر الخليفة بإحضار الخلع لحاجب الحجاب حسام الملك، و طوّق بطوق ذهب، و سيف ذهب، و منطقة ذهب، ثم أمر بالخلع للشيخ أبى الحسن بن أبى أسامة باستمراره على ما بيده من كتابة الدست الشريف، و شرفه بالدخول إلى مجلس الخليفة، ثم استدعى الشيخ أبا البركات بن أبى الليث، و خلع عليه بدلة مذهبة، و كذلك أبو الرضى سالم ابن الشيخ أبى الحسن، و كذلك أبو المكارم أخوه، و أبو محمد أخوهما، ثم أبو الفضل بن الميدمىّ، و وهبه دنانير كثيرة بحكم أنه الذى قرأ السجل، و خلع على الشيخ أبى الفضائل بن أبى الليث، صاحب دفتر المجلس، ثم استدعى عدى الملك سعيد بن عماد الضيف متولى أمور الضيافات، و الرسل الواصلين إلى الحضرة من مجلس الأفضل، و لا يصل لعتبته أحد لا حاجب الحجاب، و لا غيره سوى عدى الملك هذا، فإنه كان يقف من داخل العتبة، و كانت هذه الخدمة فى ذلك الوقت من أجل الخدم و أكبرها، ثم عادت من أهون الخدم، و أقلها، فعند ذلك قال القاضى أبو الفتح بن قادوس: يمدح الوزير المأمون عند مثوله بين يديه و قد زيد فى نعوته:

قالوا أتاه النعت و هو السيد المأمون حقا و الأجلّ الأشرف

و مغيث أمة أحمد و مجيرهاما زادنا شيئا على ما نعرف

قال: و لما استمرّ حسن نظر المأمون للدولة، و جميل أفعاله، بلغ الخليفة الآمر بأحكام اللّه، فشكره و أثنى عليه فقال له المأمون: ثمّ كلام يحتاج إلى خلوة، فقال الخليفة:

تكون فى هذا الوقت، و أمر بخلوّ المجلس، فعند ذلك مثل بين يدى الخليفة، و قال له: يا مولانا امتثالنا الأمر صعب، و مخالفته أصعب، و ما يتسع خلافه قدّام أمراء دولته، و هو فى دست خلافته، و منصب آبائه و أجداده، و ما فى قواى ما يرومه منى، و يكفينى هذا المقدار، و هيهات أن أقوم به و الأمر كبير، فعند ذلك تغير الخليفة، و أقسم إن كان لى وزير غيرك، و هو فى نفسى من أيام الأفضل، و هو مستمرّ على الاستعفاء، إلى أن بان له التغير فى وجه الخليفة، و قال: ما اعتقدت أنك تخرج عن أمرى، و لا تخالفنى فقال له المؤمون عند ذلك:

لى شروط، و أنا أذكرها، فقال له: مهما شئت اشترط، فقال له: قد كنت بالأمس مع الأفضل و كان قد اجتهد فى النعوت، و حل المنطقة، فلم أفعل فقال الخليفة: علمت ذلك فى وقته، قال: و كان أولاده يكتبون إليه بما يعلمه مولاى من كونى قد خنته فى المال و الأهل، و ما كان و اللّه العظيم ذلك منى يوما قط، ثم مع ذلك معاداة الأهل جميعا و الأجناد، و أرباب الطيالس، و الأقلام، و هو يعطينى كل رقعة تصل إليه منهم، و ما سمع كلام أحد منهم فىّ، فعند ذلك، قال له الخليفة: فإذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته إيش يكون فعلى أنا، فقال المأمون: يعرّفنى المولى ما يأمر به، فأمتثله بشرط أن لا يكون عليه زائد، فأوّل ما ابتدأ به أن قال: أريد الأموال لا تجبى إلا بالقصر و لا تصل الكسوات من الطراز و الثغور إلّا إليه، و لا تفرّق إلّا منه، و تكون أسمطة الأعياد فيه، و يوسع فى رواتب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۴۹

القصور من كل صنف و زيادة رسم منديل الكمّ، فعند ذلك قال له المأمون: سمعا و طاعة، أما الكسوات و الجباية من الأسمطة، فما تكون إلّا بالقصور، و أما توسعة الرواتب فما ثم من يخالف الأمر، و أما زيادة رسم منديل الكم، فقد كان الرسم فى كل يوم ثلاثين دينارا، يكون فى كل يوم مائة دينار، و مولانا سلام اللّه عليه يشاهد ما يعمل بعد ذلك فى الركوبات، و أسمطة الأعياد، و غيرها فى سائر الأيام، ففرح الخليفة، و عظمت مسرّته، ثم قال المأمون: أريد بهذا مسطورا بخط أمير المؤمنين، و يقسم لى فيه بآبائه الطاهرين أن لا يلتفت لحاسد، و لا مبغض، و مهما ذكر فىّ يطلعنى عليه، و لا يأمر فىّ بأمر سرّا، و لا جهرا، يكون فيه ذهاب نفسى، و انحطاط قدرى، و هذه الإيمان باقية إلى وقت وفاتى فإذا توفيت تكون لأولادى، و لمن أخلفه بعدى، فحضرت الدواة، و كتب ذلك جميعه، و أشهد اللّه تعالى فى آخرها على نفسه، فعندما حصل الخط بيد المأمون وقف، و قبل الأرض، و جعله على رأسه، و كان الخط بالأيمان نسختين: إحداهما فى قصبة فضة، قال: فلما قبض على المأمون فى شهر رمضان سنة تسع و عشرين و خمسمائة أنفذ الخليفة الآمر بأحكام اللّه يطلب الإيمان، فنفذ له التى فى القصبة الفضة، فحرّقها لوقتها، و بقيت النسخة الأخرى عندى، فعدمت فى الحركات التى جرت.

و قال ابن ميسر: فى حوادث سنة خمس عشرة و خمسمائة، و فيها: تشرّف القائد أبو عبد اللّه محمد ابن الأمير نور الدولة أبى شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى المعروف: بابن البطائحىّ فى الخامس من ذى الحجة، و كان قبل ذلك عند الأفضل استداره، و هو الذى قدّمه إلى هذه المرتبة، و استقرّت نعوته فى سجله المقرّر على كافة الأمراء، و الأجناد بالأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين و الدنيا، ثم نعت بما كان ينعت به الأفضل، و هو السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، و هادى دعاة المؤمنين.

و لما كان يوم الثلاثاء التاسع من ذى الحجة، و هو يوم الهناء بعيد النحر، جلس المأمون فى داره عند أذان الصبح، و جاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم من أرباب السيوف، و الأقلام، ثم الأمراء، و الأستاذون المحنكون، و الشعراء بعدهم، فركب إلى القصر، و أتى باب الذهب، فوجد المرتبة المختصة بالوزارة، و قد هيئت له فى موضعها الجارى به العادة، و أغلق الباب الذى عندها على الرسم المعتاد لوزراء السيوف و الأقلام، و هذا الباب يعرف: بباب السرداب، فعند ما شاهد الحال فى المرتبة توقف عن الجلوس عليها، لأنها حالة لم يجر معه حديث فيها، ثم ألجأته الضرورة لأجل حضور الأمراء إلى الجلوس فجلس عليها، و جلس أولاده الثلاثة عن يمينه، و أخواه عن يساره، و الأمراء المطوّقون خاصة دون غيرهم قيام بين يديه، فإنه لا يصل أحد إلى هذا المكان سواهم، فلم يكن بأسرع من أن فتح الباب، و خرج عدّة من الأستاذين المحنكين بسلام أمير المؤمنين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵۰

و خرج إليه الأمير الثقة متولى الرسالة، و زمام القصور، فعند حضوره وقف له أولاد المأمون، و أخواه فطلع عند خروجه قبالة المرتبة، و قال أمير المؤمنين يردّ على السيد الأجل المأمون السلام، فوقف عند ذلك المأمون، و قبل الأرض، و عاد فجلس مكانه، و تأخر الأمير

إلى أن نزل من المصطبة، و قبل الأرض، و قبل يد المأمون، و دخل من فوره من الباب، و أغلق الباب على حاله على ما كان عليه الأفضل، و كان الأفضل يقول: ما أزال أعدّ نفسي سلطانا حتى أجلس على تلك المرتبة، و الباب يغلق في وجهي و الدخان في أنفي، فإن الحمام كانت من حلف الباب في السرداب، ثم فتح الباب، و عاد الثقة، و أشار بالدخول إلى القصر فدخل إلى المكان الذي هيئ له، و عاد لمجلس الوزارة، و بقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس الخليفة.

و استفتح القرّاء، و استدعى المأمون، فحضر بين يديه و سلم عليه أولاده، و إخوته و أحلّ الأمراء على قدر طبقاتهم، أوّلهم: أرباب الأطواق، و يليهم أرباب العماريات، و الأقصاب، ثم الضيوف و الأشراف، ثم دخل ديوان المكاتبات و سلم بهم الشيخ أبو الحسن ابن أبي أسامة، ثم ديوان الإنشاء، و سلم بهم الشريف ابن أنس الدولة، ثم بقية الطالبيين من الأشراف، ثم سلم القاضي ابن الرسعنيّ بشهوده و الداعي ابن عبد الحق بالمؤمنين، ثم سلم القائد مقبل مقدّم الركاب الآمرى، بجميع المقدّمين الآمرية، ثم سلم بعدهم الشيخ أبو البركات بن أبي الليث متولي ديوان المملكة ثم دخل الأجناد من باب البحر، و سلم كل طائفة بمقدّمها، فلما انقضى ذلك دخل والي القاهرة، و والي مصر و سلم كل منهما ببياض أهل البلدين.

ثمّ دخل البطرك بالنصارى، و فيهم كتاب الدولة من النصارى، و رئيس اليهود، و معه الكتاب من اليهود، ثم سلم المقربون، و قد قارب القصر، و دخل الشعراء على طبقاتهم، و أنشد كل منهم ما سمحت به قريحته.

قال: فكان هذا رتبة الوزير المأمون، قال ابن المأمون: و أما ما قرّر للوزارة عينا في الشهر بغير إيجاب بل يقبض من بيت المال، فهو ثلاثة آلاف دينار. تفصيلها: ما هو على حكم النيابة في العلامة: ألف دينار، و ما هو على حكم الراتب: ألف و خمسمائة دينار، و ما هو عن مائة غلام برسم مجلسه، و خدمته لكل غلام: خمسة دنانير في الشهر، فأما الغلمان الركابية، و غيرهم من الفرّاشين و الطباخين، فعلى حكم ما يرغب في إثباته، و في السنة من الإقطاعات: خمسون ألف دينار منها: دهشور، و جزيرة الذهب، و بقية الجملة صفقات، و من البساتين ثلاثة: بستان لأمير تميم، و بستانان بكوم أشفين.

و من القوت يعني القمح، و من القضم يعني الشهير و البرسيم في السنة: عشرون ألف إردب قمحا و شعيرا، و من الغنم برسم مطابخه، ساقه من المراحات ثمانية آلاف رأس، و أما

الحيوان و الأحطاب، و جميع التوابل العال منها و الدون، فمهما استدعاه متولي المطابخ يطلق من دار أفتكين، و شون الأحطاب، و غير ذلك، و قد تقدّم مقرّر كسوة الوزارة في العيدين، و فصلي الشتاء و الصيف، و موسم عيد الغدير و فتخ الخليج، و غير ذلك من غرّتي شهر رمضان، و أوّل العام و غيره، كما سيرد في موضعه من هذا الكتاب، إن شاء اللّه تعالى.

و قد استقصيت سير الوزراء في كتابي الذي سميته تلقيح العقول، و الآراء في تنقيح أخبار الجلة الوزراء. فانظره.

ذكر الحجر التي كانت برسم الصبيان الحجرية

و كان بجوار دار الوزارة مكان كبير يعرف: بالحجر: جمع حجرة فيها الغلمان المختصون بالخلفاء، كما أدركنا بالقلعة البيوت التي كان يقال لها: الطباق، و كانت هذه الحجر من جانب حارة الجوّانية، و إلى حيث المسجد الذي يعرف: بمسجد القاصد تجاه باب الجامع الحاكميّ الذي يفضي إلى باب النصر، فمن حقوق هذه الحجر: دار الأمير بهادر اليوسفيّ السلاحدار الناصريّ، التي تجاور المسجد الكائن على يمنة من سلك من باب الجوّنية طالبا باب النصر، و منها الحوض المجاور لهذه الدار، و دار الأمير أحمد قريب الملك الناصر محمد بن قلاون، و المسجد المعروف بالنخلة، و ما بجواره من القاعتين اللتين تعرف إحداهما: بقاعة الأمير علم الدين سنجر الجاوليّ، و ما في جانبها إلى مسجد القاصد، و ما وراء هذه الدور، و كان لهؤلاء الحجرية: إصطبل برسم دوابهم سيأتي ذكره إن شاء

اللّه تعالى.

و ما زالت هذه الحجر باقية بعد انقضاء دولة الخلفاء الفاطميين إلى ما بعد السبعمائة، فهدمت و ابتنى الناس مكانها الأماكن المذكورة.

قال ابن أبى طيّ: عن المعز لدين اللّه، و جعل كل ماهر فى صنعة صانعا للخاص، و أفرد لهم مكانا برسمهم، و كذلك فعل بالكتاب و الأفاضل، و شرط على ولاة الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم، فمن كان ذا شهامة، و حسن خلقة أرسله ليخدم فى الركاب، فسيروا إليه عالما من أولاد الناس، فأفرد لهم دورا، و سماها الحجر.

و قال ابن الطوير: و كوتب الأفضل بن أمير الجيوش من عسقلان باجتماع الفرنج، فاهتمّ للتوجه إليها، فلم يبق ممكنا من مال و سلاح، و خيل و رجال و استناب أخاه المظفر:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵۲

أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر بين يدى الخليفة مكانه، و قصد استنفاذ الساحل من يد الفرنج، فوصل إلى عسقلان، و زحف عليها بذلك العسكر، فخذل من جهة عسكره، و هى نوبة النصة، و علم أنّ السبب فى ذلك من جنده، و لما غلب حرّق جميع ما كان معه من الآلات، و كان عند الفرنج شاعر منتجع إليهم فقال: يخاطب صنجل ملك الفرنج:

نصرت بسيفك دين المسيحفللّه درك من صنجل

و ما سمع الناس فيما رووهبأقبح من كسرة الأفضل

فتوصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر، و لم ينتفع بعد هذه النوبة أحد من الأجناد بالأفضل، و حظر عليهم النعوت و لم يسمع لأحد منهم كلمة، و أنشأ سبع حجر، و اختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف راجل، و قسمهم فى الحجر، و جعل لكل مائة زمانا، و نقيبا، وزم الكل بأمير يقال له: الموفق، و أطلق لكل منهم ما يحتاج إليه من خيل و سلاح، و غيره.

و عنى بهؤلاء الأجناد، فكان إذا دهمه أمر مهمّ جهزهم إليه مع الزمام الأكبر.

و قال ابن المأمون: و كان من جملة الحجرية الذين يحضرون السماط رجل يعرف بابن زحل، و كان يأكل خروفا كبيرا مشويا، و يستوفيه إلى آخره، ثم يقدّم له صحن كبير من القصور المعمولة بالسكرة، و جميع صنوف الحيوانات على اختلاف أجناسها، ما لم يعمل قط مثله من الأطعمة، فيأكل معظمه، و كان يقعد فى طرف المدوّرة، حتى يكون بالقرب من نظر الخليفة، لا لميزته، و كان من الأجناد و أسر فى أيام الأفضل، و قيده الفرنجيّ الذى أسره، و عذبه و طالت مدّته فى الأسر، و كان فقيرا، فاتفق أن ذكر للفرنجيّ كثرة أكله، فأراد أن يمتحنه، فقال له: أحضر لى عجلا أكبر عجل عندكم آكله إلى آخره، فضحك منه الفرنجيّ، و نقص عقله و أتاه بعجل كبير، و يقال: بخنزير، فقال له: اذبحه و اشوه و ائتنى معه بجرّة خل، ثم قال: إذا أكلته ما يكون لى عندك، فغلط الفرنجيّ، و قال له: أطلقك حتى تمضى إلى أهلك، فاستحلفه على ذلك، و غلظ عليه اليمين، و أحضر الفرنجيّ عدّة من أصحابه ليشاهدوا فعله، فلما استوفى العجل جميعه صلّب كل من الحاضرين على وجهه و تعجب من فعله، و أطلقه، فقال: أخاف من أن يعتقد أننى هربت فأرد إليكم، فأحضر الفرنجيّ من العربان من سلمه إليهم، و لم يشعر به إلّا بباب عسقلان، فطلع منها، و أعفى بعد ذلك من السفر، و بقى برسم الأسمطة.

و قال ابن عبد الظاهر: الحجر قريب من باب النصر، و هو مكان كبير فى صف دار الوزارة إلى جانبه باب القوس الذى يسمى: باب النصر قديما على يمنة الخارج من القاهرة، كان تربى فيه جماعة من الشباب يسمون: صبيان الحجر، يكونون فى جهات متعدّدة، و هم يناهزون خمسة آلاف نسمة، و لكل حجرة اسم تعرف به، و هى المنصورة، و الفتح و الجديدة، و غير ذلك مفردة لهم، و عندهم سلاحهم، فإذا جرّوا خرج كل منهم لوقته لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵۳

يكون له ما يمنعه، و كانوا فى ذلك على مثال الذؤابة، و الأستار، و كانوا إذا سمى الرجل منهم: بعقل و شجاعة خرج من هناك إلى

الأمرة، أو التقدمة مثل علىّ بن السلار، و غيره، و لا يأوى أحد منهم إلا بحجرته بفرسه، و عدّته و قماشه، و للصبيان الحجرية حجرة مفردة، عليهم أستاذون يبيتون عندهم، و خدّام برسمهم.

ذكر المناخ السعيد

و كان من وراء القصر الكبير فيما يلى ظهر دار الوزارة الكبرى و الحجر: المناخ، و هو موضع برسم طواحين القمح التى تطحن جرايات القصور، و برسم مخازن الأخشاب، و الحديد و نحو ذلك.

قال ابن الطوير: و أما المناخات ففيها من الحواصل، ما لا يحصره، إلّا القلم من الأخشاب، و الحديد، و الطواحين النجدية، و الغشيمة، و آلات الأساطيل من الأسلحة المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيه، و القنب، و الكتان، و المنجنيقات المعدّة، و الطواحين الدائرة برسم الجرايات المقدّم ذكرها، و الزفت فى المخازن الذى عليه الأتربة، و لا ينقطع إلّا بالمعاول، و قد أدركت هذه الدولة، يعنى دولة بنى أيوب منه شيئا كثيرا فى هذا المكان انتفع به، و إليه يأوى الفرنج فى بيوت برسمهم، و كانت عدّتهم كثيرة، ففيه من النجارين و الجزارين، و الدهانين و الخبازين و الخياطين، و الفعلة، و من العجانين، و الطحانين فى تلك الطواحين، و الفرّانين فى أفران الجرايات، و فى هذا المكان مادّة أكثر أهل الدولة، و حامية أمير من الأمراء و مشارفه من العدول، و فيه أيضا شاهد النفقات، و عامل يتولى التنفيذ مع المشارف، و عامل برسم نظم الحساب من تعلقاتهما بجار غير جواريهم، لأنّ أوقاتهم مستغرقة فى مباشرة الإطلاقات و غيرها، و ذكر ابن الطوير: أن المأمون بن البطائحىّ استجدّ طواحين برسم الرواتب.

ذكر اصطبل الطارمة

الطارمة: بيت من خشب، و هو دخيل، و كان بجوار القصر الكبير، تجاه باب الديلم من شرقىّ الجامع الأزهر اصطبل.

قال ابن الطوير: و كان لهم اصطبلان أحدهما يعرف بالطارمة يقابل قصر الشوك، و الآخر بحارة زويلة يعرف بالجميزة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵۴

و كان للخليفة الحاضر ما يقرب من ألف رأس فى كل اصطبل، النصف من ذلك منها، ما هو برسم الخاص، و منها ما يخرج برسم العوارى لأرباب الرتب، و المستخدمين دائما، و منها ما يخرج أيام المواسم، و هى التغيرات المتقدّم ذكر إرسالها لأرباب الرتب، و الخدم، و المرتب لكل اصطبل منها لكل: ثلاثة أرؤس سائس واحد ملازم، و لكل واحد منها: شدّاد برسم تسييرها، و فى كل اصطبل بئر بساقية، تدور إلى أحواض، و مخازن فيها الشعير، و الأقراط اليابسة المحمولة من البلاد إليها، و لكل عشرين رجلا من السّواس: عريف يلتزم دركهم بالضمان لأنهم الذين يتسلمون من خزائن السروج المركبات بالحلى، و يعيدونها إليها كما تقدّم ذكره فى خزائن السروج و لكل من الاصطبلين: رائض كأمير أخور، و لهما ميرة، و جامكية متسعة، و للعرفاء على السّواس ميرة، و للجماعات الجرايات من القمح، و الخبز خارجا عن الجامكيات، فإذا بقى لأيام المواسم التى يركب فيها الخليفة بالمظلة مدّة أسبوع أخرج إلى كل رائض فى الإصطبل مع أستاذ مظلة ديبقىّ مركبة على قنطارية مدهونة، و يختص الرائض على ما يركبه الخليفة إما فرسين أو ثلاثة، و عليهما المركبات الحلى التى يركبها الخليفة، فيركبها الرائض بحائل بينه و بين السرج، و يركب الأستاذ بغلة مظلة، و يحمل تلك المظلة، و يسير فى براح الاصطبل، و فيه سعة عظيمة مارّا، و عائدا و حولها البوق و الطبل، فيكرّر ذلك عدّة دفعات فى كل يوم مدّة ذلك الأسبوع، ليستقرّ ما يركبه الخليفة من الدواب على ذلك، و لا ينفر منه فى حال الركوب عليه، فيعمل كذلك فى كل اصطبل من الاصطبلين، و الدواب البغلة التى تتهيأ، هى التى يركبها الخليفة، و صاحب المظلة يوم الموسم، و لا يختل ذلك.

و يقال: إنه ما راثت دابة و لا بالت، و الخليفة راكبها، و لا بغلة صاحب المظلة أيضا إلى حين نزولهما عنهما، و كان فى الساحل بطريق مصر من القاهرة فى البساتين المنسوبة إلى ملك صارم الدين حللبا: شونتان مملوءتان تبنا معبيتان كتعبيته فى المراكب كالجبلين الشاهقين، و لهما مستخدمون حام، و مشارف، و عامل بجامكية جيدة تصل بذلك المراكب التبانة المؤهلة له، من موظف الأتبان بالبلاد الساحلية و غيرها، مما يدخل إليه فى أيام النيل، و لها رؤساء، و أمرها جار فى ديوان العمائر، و الصناعة، و الإنفاق منها بالتوقيعات السلطانية للاصطبلات المذكورة و غيرها من الأواسى الديوانية، و عوامل بساتين الملك، و إذا جرى بين المستخدمين خلف فى الشنف التبن المعتبر، عادوا إلى قبضه بالوزن، فيكون الشنف التبن: ثلثمائة و ستين رطلا بالمصرىّ، نقيا و إذا أنفقوا دريسا قد تغيرت صورة قته كان عن القتة اثنا عشر رطلا، و لم يزل ذلك كذلك إلى آخر وقته، و مما يخبر عنهم أنهم لم يركبوا حصانا أدهم قط، و لا يرون إضافته إلى دوابهم بالاصطبلات، و قال ابن عبد الظاهر:

اصطبل الطارمة: كان اصطبلا للخليفة، فلما زالت تلك الأيام اختط و بنى آدرا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵۵

ذكر دار الضرب و ما يتعلق بها

و كان بجوار خزانة الدرق التى هى اليوم: خان مسرور الكبير، دار الضرب، و موضعها حينئذ كان بالقشاشين التى تعرف اليوم: بالخرّاطين، و صار مكان دار الضرب اليوم: درب يعرف بدرب: الشمسىّ فى وسط سوق السقطيين المهامزيين، و باب هذا الدرب: تجاه قيسارية العصفر، فإذا دخلت هذا الدرب، فما كان على يسارك من الدور فهو موضع دار الضرب، و بجوارها دار الوكالة الحافظية، فجعلت الحوانيت التى على يمنة من سلك من رأس الخرّاطين تجاه سوق العنبر طالبا الجامع الأزهر فى ظهر دار الضرب، و أنشأ هذه الحوانيت، و ما كان يعلوها من البيوت الأمير المعظم: خمرتاش الحافظىّ، و جعلها وقفا، و قال فى كتاب وقفها: و حدّ هذه الحوانيت الغربىّ ينتهى إلى دار الضرب، و إلى دار الوكالة، و قد صارت هذه الحوانيت الآن من جملة أوقاف المدرسة الجمالية مما اغتصب من الأوقاف، و ما زالت دار الضرب هذه فى الدولة الفاطمية باقية إلى أن استبدّ السلطان صلاح الدين، فصارت دار الضرب حيث هى اليوم، كما تقدّم ذكره، و كان لدار الضرب المذكورة فى أيامهم أعمال و يعمل بها دنانير الغرّة، و دنانير خميس العدس، و يتولاها قاضى القضاة لجلالة قدرها عندهم.

قال ابن المأمون: و فى شوّال منها، و هى سنة ست عشرة و خمسمائة أمر الأجل ببناء دار الضرب بالقاهرة المحروسة لكونها مقرّ الخلافة و موطن الإمامة، فبنيت بالقشاقشين:

قبالة المارستان، و سميت بالدار الآمرية، و استخدم لها العدول، و صار دينارها أعلى عيارا من جميع ما يضرب بجميع الأمصار، انتهى.

و كانت دار الضرب المذكورة تجاه المارستان، فكان المارستان، بجوار خزانة الدرق، فما عن يمينك الآن إذا سلكت من رأس الخرّاطين، فهو موضع دار الضرب، و دار الوكالة هكذا إلى الحمام التى بالخرّاطين، و ما وراءها، و ما عن يسارك، فهو موضع المارستان.

قال ابن عبد الظاهر: فى أيام المأمون بن البطائحى وزير الآمر بأحكام اللّه بنيت دار الضرب فى القشاشين قبالة المارستان الذى هناك و سميت بالدار الآمرية.

دار العلم الجديدة : و كان بجوار القصر الكبير الشرقىّ: دار فى ظهر خزانة الدرق من باب تربة الزعفران لما أغلق الأفضل بن أمير الجيوش دار العلم التى كان الحاكم بأمر اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵۶

فتحها فى باب التبانين اقتضى الحال بعد قتله إعادة دار العلم، فامتنع الوزير المأمون من إعادتها فى موضعها، فأشار الثقة زمام القصور بهذا الموضع، فعمل دار العلم فى شهر ربيع الأوّل سنة سبع عشرة و خمسمائة، و ولاها لأبى محمد حسن بن أدم، و استخدم فيها مقرئين و لم تزل دار العلم عامر حتى زالت الدولة الفاطمية.

قال ابن عبد الظاهر: رأيت فى بعض كتب الأملاك القديمة ما يدل على أنها قريبة من القصر النافعىّ، و كذا ذكر لى السيد الشريف الحلبىّ، أنها دار ابن أزدمر المجاورة لدار سكنى الآن، خلف فندق مسرور الكبير، و كذلك قال لى والدى رحمه اللّه، و قد بناها جمال الدين الإستادار الحلبىّ: دارا عظيمة غرم عليها مائة ألف، و أكثر من ذلك على ما ذكره، انتهى. و موضع دار العلم هذه دار كبيرة ذات زلاقة بجوار درب ابن عبد الظاهر قريبا من خان الخليلى، بخط الزراكشة العتيق.

موسم أوّل العام: قال ابن المأمون، و أسفرت غرّة سنة سبع عشرة، و خمسمائة، و بادر المستخدمون فى الخزائن، و صناديق الإنفاق بحمل ما يحضر بين يدى الخليفة من عين، و ورق من ضرب السنة المستجدّة، و رسم جميع من يختص به من إخوته، و جهاته، و قرابته، و أرباب الصنائع، و المستخدمات، و جميع الأستاذين العوالى و الأدوان، و ثنوا بحمل ما يختص بالأجلّ المأمون، و أولاده، و إخوته، و استأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجلّ المأمون، و أولاده، و الأصحاب و الحواشى و الأمراء، و الضيوف، و الأجناد، فأمروا بتفرقته، و الذى اشتمل عليه المبلغ فى هذه السنة نظير ما كان قبلها، و جلس المأمون باكرا على السماط بداره، و فرّقت الرسوم على أرباب الخدم و المميزين من جميع أصنافه على ما تضمنته الأوراق، و حضرت التعاشير، و التشريفات، و زى الموكب إلى الدار المأمونية، و تسلم كل من المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجبة، و مصفات العساكر، و ترتيب الأسمطة، و أصمد كل منهم إلى شغله، و توجه لخدمته، ثم ركب الخليفة، و استدعى الوزير المأمون، ثم خرج من باب الذهب، و قد نشرت مظلته، و خدمت الرهجية، و رتب الموكب و الجنائب، و مصفات العساكر عن يمينه و شماله، و جميع تجار البلدين من الجوهريين و الصيارف، و الصاغة، و البزازين، و غيرهم قد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم، و معاشه لطلب البركة بنظر الخليفة.

و خرج من باب الفتوح، و العساكر فارسها و راجلها بتجملها و زيها، و أبواب حارات العبيد معلقة بالستور، و دخل من باب النصر و الصدقات تعمّ المساكين، و الرسوم تفرّق على المستقرّين إلى أن دخل من باب الذهب، فلقيه المقرئون بالقرآن الكريم فى طول الدهاليز إلى أن دخل خزانة الكسوة الخاص، و غير ثياب الموكب بغيرها، و توجه إلى تربة آبائه للترحيم على عادته، و بعد ذلك إلى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة، و عبيت الأسمطة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵۷

و جرى الحال فيها، و فى جلوس الخليفة، و من جرت عادته، و تهيئة قصور الخلافة، و تفرقة الرسوم على ما هو مستقرّ.

و توجه الأجلّ المأمون إلى داره، فوجد الحال فى الأسمطة على ما جرت به العادة و التوسعة فيها أكثر مما تقدّمها، و كذلك الهناء فى صبيحة الموسم بالدار المأمونية و القصور، و حضر من جرت العادة بحضوره للهناء و بعدهم الشعراء على طبقاتهم، و عادت الأمور فى أيام السلام، و الركوبات، و ترتيبها على المعهود، و أحضر كل من المستخدمين فى الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر، و المطالعات مما تحتاج إليه الدولة فى طول السنة، و ينعم به و يتصدّق و يحمل إلى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل فى التذاكر على يد المندوبين، و يحمل إلى الثغور و يخزن من سائر الأصناف ما يستعمل، و يباع فى الثغور و البلاد و الاستيمار و جريدة الأبواب، و تذكرة الطراز و التوقيع عليها.

و قال ابن الطوير: فإذا كان العشر الأخير من ذى الحجة فى كل سنة انتصب كل من المستخدمين بالأماكن لإخراج آلات الموكب من الأسلحة و غيرها، فيخرج من خزائن الأسلحة ما يحمله صبيان الركاب حول الخليفة من الأسلحة، و هو الصماصم المصقولة المذهبة، مكان السيوف المحدّبة، و الدبابيس الكيمخت الأحمر و الأسود، و رؤوسها مدوّرة مضرّسة، و اللتوت كذلك و رؤوسها مستطيلة مضرّسة أيضا، و آلات يقال لها:

المستوفيات، و هى عمد حديد من طول ذراعين مربـة الأشكال بمقابض مدوّرة فى أيديهم بعدّة معلومة من كل صنف، فيتسلمها نقباؤهم، و هى فى ضمانهم، و عليهم إعادتها إلى الخزائن بعد تقضى الخدمة بها، و يخرج للطائفة من العبيد الأقوياء السودان الشباب، و يقال لهم: أرباب السلاح الصفر، و هم ثلثمائة عبد لكل واحد حربتان بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة كل اثنتين فى شرابة و ثلثمائة درقة بكوامخ فضة، يتسلم ذلك عرفاؤهم على ما تقدّم، فيسلمونه للعبيد لكل واحد حربتان و درقة.

ثم يخرج من خزانة التجمل، و هى من حقوق خزائن السلاح القصب الفضة برسم تشريف الوزير، و الأمراء أرباب الرتب، و أزمّة العساكر، و الطوائف من الفارس، و الراجل و هى رماح ملبسة بأنابيب الفضة المنقوشة بالذهب إلّا ذراعين منها، فيشدّ فى ذلك الخالى من الأنابيب عدّة من المعاجر الشرب الملوّنة، و يترك أطرافها المرقومة مسبلة كالصناجق ، و برءوسها رمامين منفوخة فضة مذهبة و أهلة مجوّفة كذلك، و فيها جلاجل لها حس إذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵۸

تحرّكت، و تكون عدّتها ما يقرب من مائة، و من العماريات ، و هى شبه الكخاوات من الديباج الأحمر، و هو أجلها و الأصفر و القرقوبىّ، و السقلاطون مبطنة مضبوطة بزنانير حرير، و على دائر التربيع منها: مناطق بكوامخ فضة مسمورة فى جلد نظير عدد القصب، فيسير من القصب عشرة، و من العماريات مثلها من الحمر خاصة، و يخرج للوزير خاصة لواءان على رمحين طويلين ملبسين، بمثل تلك الأنابيب و نفس اللواء ملفوف غير منشور، و هذا التشريف يسير أمام الوزير، و هو للأمراء من ورائهم، ثم يسير للأمراء أرباب الرتب فى الخدم، و أوّلهم صاحب الباب، و هو أجلهم خمس قصبات، و خمس عماريات، و يرسل لأسفهسلار العساكر أربع قصبات، و أربع عماريات من عدّة ألوان، و من سواهما من الأمراء على قدر طبقاتهم: ثلاث ثلاث و اثنتان اثنتان، و واحدة واحدة، ثم يخرج من البنود الخاص الديبقىّ المرقوم الملوّن برماح ملبسة بالأنابيب، و على رؤوسها الرمامين، و الأهلة للوزير خاصة، و دون هذه البنود مما هو من الحرير على رماح غير ملبسة و رؤوسها و رامينها من نحاس مجوّف مطلىّ بالذهب، فتكون هذه أمام الأمراء المذكورين من تسعة إلى سبعة أذرع برأسها طلعة مصقولة، و هى من خشب القنطاريات داخلة فى الطلعة، و عقبها حديد مدوّر أسفل، فهى فى كف حاملها الأيمن، و هو يفتلها فيه فتلا متدارك الدوران، و فى يده اليسرى تشابه كبير يخطر بها، و عدّتها ستون مع ستين رجلا يسيرون رجالة فى الموكب يسيرون يمنة و يسرة.

ثم يخرج من النقارات حمل عشرين بغلا على كل بغل ثلاث مثل نقارات الكوسات بغير كوسات يقال لها طبول، فيتسلمها صناعها، و يسيرون فى الموكب اثنين اثنين و لها حس مستحسن، و كان لها ميزة عندهم فى التشريف، ثم يخرج لقوم متطوّعين بغير جار، و لا جراية تقرب عدّتهم من مائة رجل لكل واحد درقة من درق اللمط ، و هى واسعة و سيف، و يسيرون أيضا رجالة فى الموكب هذا وظيفة خزائن السلاح.

ثم يحضر حامى خزائن السروج و هو من الأستاذين المحنكين إليها مع مشارفها، و هو من الشهود المعدّلين، فيخرج منها برسم خاص الخليفة من المركبات الحلى ما هو برسم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۵۹

ركوبه، و ما يجنب فى موكبه مائة سرج، منها سبعون على سبعين حصانا، و منها ثلاثون على ثلاثين بغلة كل مركب مصوغ من ذهب أو من ذهب و فضة، أو من ذهب منزل فيه المينا، أو من فضة منزلة بالمينا، و روادفها و قرابيسها من نسبتها، و منها ما هو مرصع بالجواهر الفائقة، و فى أعناقها الأطواق الذهب، و قلائد العنبر، و ربما يكون فى أيدى و أرجل أكثرها خلاخل مسطوحة دائرة عليها، و مكان الجلد من السروج الديباج الأحمر و الأصفر، و غيرهما من الألوان و السقلاطون المنقوش بألوان الحرير، قيمة كل دابة، و ما عليها من العدّة ألف دينار، فيشرّف الوزير من هذه بعشرة حصن لركوبه و أولاده و إخوته، و من يعز عليه من أقاربه، و يسلم ذلك لعرفاء الاصطبلات بالعرض عليهم من الجرائد التى هى ثابتة فيها بعلاماتها فى أماكنها، و أعدادها، و عدد كل مركب منقوش عليه

مثل: أوّل و ثان و ثالث إلى آخرها كما هو مسطور فى الجرائد، فيعرف بذلك قطعة قطعة، و يسلمها العرفاء للشدّادين بضمان عرفائهم إلى أن تعود، و عليهم غرامة ما نقص منها، و إعادتها برمّتها.

ثم يخرج من الخزائن المذكورة لأرباب الدواوين المرتبين فى الخدم على مقاديرهم مركبات أيضا من الحلىّ دون ما تقدّم ذكره، و ما تقرب عدّته من ثلثمائة مركب على خيل و بغلات، و بغال يتسلمها العرفاء المتقدّم ذكرهم على الوجه المذكور، و ينتدب حاجب يحضر على التفرقة لفلان، و فلان من أرباب الخدم سيفا و قلما، فيعرّف كل شدّاد صاحبه، فيحضر إليه بالقاهرة و مصر سحر يوم الركوب، و لهم من الركاب رسوم من دينار إلى نصف دينار إلى ثلث دينار، فإذا تكمل هذا الأمر، و سلم أيضا الجمالون بالمناخات أغشية العماريات، و يكون إراحة فى ذلك كله إلى آخر الثامن و العشرين من ذى الحجة، و أصبح اليوم التاسع و العشرون من سلخه على رأى القوم، عزم الخليفة على الجلوس فى الشباك لعرض دوابه الخاص المقدّم ذكرها، و يقال له: يوم عرض الخيل، فيستدعى الوزير بصاحب الرسالة، و هو من كبار الأستاذين المحنكين، و فصحائهم و عقلائهم و محصليهم، فيمضى إلى استدعائه فى هيئة المسرعين على حصان دهراج امتثالا لأمر الخليفة بالإسراع على خلاف حركته المعتادة، فإذا عاد مثل بين يدى الخليفة، و أعلمه باستدعائه الوزير، فيخرج راكبا من مكانه فى القصر و لا يركب أحد فى القصر إلّا الخليفة، و ينزل فى السدلا بدهليز باب الملك الذى فيه الشباك، و عليه من ظاهره للناس ستر، فيقف من جانبه الأيمن زمام القصر ، و من جانبه الأيسر صاحب بيت المال، و هما من الأستاذين المحنكين فيركب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۶۰

الوزير من داره، و بين يديه الأمراء، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء، و هو راكب، و يكون دخوله فى هذا اليوم من باب العيد، و لا يزال راكبا إلى أوّل باب من الدهاليز الطوال، فينزل هناك، و يمشى فيها، و حواليه حاشيته، و غلمانه و أصحابه، و من يراه من أولاده، و أقاربه و يصل إلى الشباك فيجد تحته كرسيا كبيرا من كراسى البلق الجيد، فيجلس عليه، و رجلاه تطأ الأرض، فإذا استوى جالسا رفع كل أستاذ الستر من جانبه، فيرى الخليفة جالسا فى المرتبة الهائلة، فيقف و يسلم و يخدم بيده إلى الأرض ثلاث مرات، ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه، فيجلس و يستفتح القرّاء بالقراءة قبل كل شىء بآيات لائقة بذلك الحال، مقدار نصف ساعة، ثم يسمر الأمراء، و يسرع فى عرض الخيل، و البغال الخاص المقدّم ذكرها دابة دابة، و هى هادئة كالعرائس بأيدى شدّاديها إلى أن يكمل عرضها، فيقرأ القرّاء لختم ذلك الجلوس، و يرخى الأستاذان الستر، فيقدّم الوزير و يدخل إليه، و يقبل يديه و رجليه و ينصرف عنه إلى داره، فيركب من مكان نزوله، و الأمراء بين يديه لوداعه إلى داره ركبانا و مشاة، إلى قريب المكان فإذا صلى الخليفة الظهر بعد انفضاض ما تقدّم، جلس لعرض ما يلبسه فى عيد تلك الليلة، و هو يوم افتتاح العام بخزائن الكسوات الخاص، و يكون لباسه فيه البياض غير الموشح فيعين على منديل خاص و بدلة، فأما المنديل: فيسلم الشادّ التاج الشريف، و يقال له شدّة الوقار ، و هو من الأستاذين المحنكين، و له ميزة لممارسة ما يعلو تاج الخليفة فيشدّها شدّة غريبة لا يعرفها سواه، شكل الإهليلجة، ثم يحضر إليه اليتيمة، و هى جوهرة عظيمة لا يعرف لها قيمة فتنظم هى و حواليها ما دونها من الجواهر، و هى موضوعة فى الحافر، و هو شكل الهلال من ياقوت أحمر ليس له مثال فى الدنيا، فتنظم على خرقة حرير أحسن وضع، و يخيطها شادّ التاج بخياطة خفيفة ممكنة، فتكون بأعلى جبهة الخليفة.

و يقال: إنّ زنة الجوهرة سبعة دراهم، وزنة الحافر: أحد عشر مثقالا، و بدائرها قصبة زمرّد ذبابى له قدر عظيم ثم يؤمر بشدّ المظلة التى تشابهها تلك البدلة المحضرة بين يديه، و هى مناسبة للثياب، و لها عندهم جلالة لكونها تعلو رأس الخليفة، و هى اثنا عشر شوزكا عرض سفل كل شوزك شبر، و طوله ثلاثة أذرع و ثلث، و آخر الشورك من فوق دقيق جدّا، فيجتمع ما بين الشوازك فى رأس عودها بدائره، و هو قنطارية من الزان ملبسة بأنابيب الذهب، و فى آخر أنبوبة تلى الرأس من جسمه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۶۱

فلكة بارزة مقدار عرض إبهام فيشدّ آخر الشوارك فى حلقة من ذهب، و يترك متسعا فى رأس الرمح، و هو مفروض فتلقى تلك الفلكة، فتمنع المظلة من الحدور فى العمود المذكور و لها أضلاع من خشب الخلنج مربعات مكسوّة بوزن الذهب على عدد الشوارك خفاف فى الوزن طولها طول الشوارك، و فيها خطاطيف لطاف، و حلق يمسك بعضها بعضا، و هى تنضم و تنفتح على طريقة شوكات الكيزان، و لها رأس شبه الرمانة، و يعلوه رمانة صغيرة، كلها ذهب مرصع بجوهر يظهر للعيان، و لها رفرف دائر يفتحها من نسبتها عرضه أكثر من شبر و نصف، و سفل الرمانة فاصل يكون مقداره ثلاث أصابع، فإذا أدخلت الحلقة الذهب الجامعة لآخر شوارك المظلة فى رأس العمود ركبت الرمانة عليها، و لفت فى عرض ديبقىّ مذهب، فلا يكشفها منه إلا حاملها عند تسليمها إليه أوّل وقت الركوبة.

ثم يؤمر بشدّ لواءى الحمد المختصين بالخليفة، و هما رمحان طويلان ملبسان بمثل أنابيب عمود المظلة إلى حدّ نصفهما، و هما من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب، و غير منشورين بل ملفوفين على جسم الرمحين، فيشدّان ليخرجا بخروج المظلة إلى أميرين من حاشية الخليفة، برسم حملهما و يخرج إحدى و عشرون راية لطاف من الحرير المرقوم ملوّنة بكتابة تخالف ألوانها من غيره.

و نص كتابتها: نصر من اللّه و فتح قريب، على رماح مقوّمة من القنا المنتقى، طول كل راية ذراعان فى عرض ذراع و نصف فى كل واحدة ثلاث طرازات، فتسلم لأحد و عشرين رجلا- من فرسان صبيان الخاص ، و لهم بشارة عود الخليفة سالما عشرون دينارا، ثم يخرج رمحان رؤوسهما أهلة من ذهب صامتة فى كل واحد سبع من ديباج أحمر و أصفر، و فى فمه طارة مستديرة يدخل فيها الريح، فينفتحان فيظهر شكلهما، و يتسلمهما فارسان من صبيان الخاص، فيكونان أمام الرايات، ثم يخرج السيف الخاص، و هو من صاعقة وقعت على ما يقال، و جلبته ذهب مرصعة بالجوهر فى خريطة مرقومة بالذهب لا يظهر إلا رأسه، ليسلم إلى حامله، و هو أمير عظيم القدر، و هذه عندهم رتبة جليلة المقدار، و هو أكبر حامل، ثم يخرج الرمح و هو رمح لطيف فى غلاف منظوم من اللؤلؤ، و له سنان مختصر بحلية ذهب، و درقة بكوامخ ذهب فيها سعة منسوبة إلى حمزة بن عبد المطلب رضى اللّه عنه فى غشاء من حرير لتخرج إلى حاملها، و هو أمير مميز، و لهذه الخدمة و صاحبها عندهم جلالة.

ثم تشعر الناس بطريق الموكب، و سلوكه لا يتعدّى دورتين إحداهما كبرى، و الأخرى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۶۲

صغرى، أما الكبرى: فمن باب القصر إلى باب النصر مارّا إلى حوض عز الملك نبا، و مسجده هناك، و هو أقصاها ثم ينعطف على يساره طالبا باب الفتوح إلى القصر، و الأخرى إذا خرج من باب النصر سار حافا بالسور، و دخل من باب الفتوح، فيعلم الناس بسلوك إحداهما، فيشيرون إذا ركب الخليفة فيها من غير تبديل للموكب و لا تشويش، و لا اختلال، فلا يصبح الصبح من يوم الركوب إلّا و قد اجتمع من بالقاهرة و مصر من أرباب الرتب و أرباب التميزات من أرباب السيوف، و الأقلام قياما بين القصرين، و كان براحا واسعا خاليا من البناء الذى فيه اليوم، فيسع القوم لانتظار الخليفة، و يبكر الأمراء إلى الوزير إلى داره، فيركب إلى القصر من غير استدعاء لأنها خدمة لازمة للخليفة، فيسير أمامه تشريفه المقدّم ذكره، و الأمراء بين يديه ركبانا و مشاة، و أمامه أولاده و إخوته و كل منهم مرخى الذؤابة بلا حنك، و هو فى أبهة عظيمة من الثياب الفاخرة، و المنديل، و هو بالحنك، و يتقلد بالسيف المذهب، فإذا وصل القصر ترجل قبله أهله فى أخص مكان لا- يصل الأمراء إليه، و دخل من باب القصر، و هو راكب دون الحاضرين إلى دهليز يقال له دهليز العمود، فيترجل على مصطبة هناك، و يمشى بقية الدهليز إلى القاعة فيدخل مقطع الوزارة هو و أولاده و إخوته، و خواص حاشيته، و يجلس الأمراء بالقاعة على دكك معدّة لذلك مكسوّة فى الصيف بالحصر السامان، و فى الشتاء بالبسط الجهرمية المحفورة، فإذا أدخلت الدابة لركوب الخليفة و أسندت إلى الكرسىّ الذى يركب عليه من باب المجلس، أخرجت المظلة إلى حاملها، فيكشفها مما هى ملفوفة فيه غير مطوية، فيتسلمها بإعانة أربعة من الصقالبة برسم خدمتها، فيركزها فى آلة حديد متخذة شكل القرن و هو مشدود فى ركاب حاملها الأيمن بقوّة و تأكيد، فيمسك العمود بحاجز فوق يده، فيبقى و هو منتصف واقف و لم يذكر قط أنها اضطربت فى

ريح عاصف، ثم يخرج بالسيف، فيتسلمه حامله فإذا تسلمه أرخيت ذؤابته ما دام حاملا له، ثم تخرج الدواة، فتسلم لحاملها، و هو من الأستاذين المحنكين. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج ۲ ؛ ص ۳۶۲

كان الوزراء حملوها لقوم من الشهود المعدّلين، و هى الدواة التى كانت من أعاجيب الزمان، و هى فى نفسها من الذهب، و حليتها مرجان، و هى ملفوفة فى منديل شرب بياض مذهب، و قد قال فيها بعض الشعر: يخاطب الخليفة التى صنعت حلية المرجان فى وقته و هذا من أغرب ما يكون ذكر ذلك فى بيتين و هما:

ألين لداود الحديد كرامةفقدّر منه السرد كيف يريد

و لأن لك المرجان و هو حجارةو مقطعه صعب المرام شديد

فيخرج الوزير، و من كان معه من المقطع، و تنضم إليه الأمراء، و يقفون إلى جانب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۲، ص: ۳۶۳

الراية، فيرفع صاحب المجلس الستر فيخرج من كان عند الخليفة للخدمة منهم، و فى إثرهم يبرز الخليفة بالهيئة للشروح حالها فى لباسه الثياب المعروضة عليه، و المنديل الحامل لليتيمة بأعلى جبهته، و هو محنك مرخى الذؤابة مما يلى جانبه الأيسر، و يتقلد بالسيف المغربى و بيده قضيب الملك، و هو طول شبر و نصف من عود مكسوّ بالذهب المرصع بالدرر و الجوهر، فيسلم على الوزير قوم مرتبون لذلك، و على أهله على الأمراء بعدهم، ثم يخرج أولئك أوّلا- فأوّلا، و الوزير يخرج بعد الأمراء فيركب و يقف قبالة باب القصر بهيئته.

و يخرج الخليفة و حواليه الأستاذون و دابته ماشية على بسط مفروشة خيفة من زلقها على الرخام، فإذا قارب الباب، و ظهر وجهه ضرب رجل ببوق لطيف من ذهب معوج الرأس يقال له: الغربية، بصوت عجيب يخالف أصوات البوقات، فإذا سمع ذلك ضربت الأبواق فى الموكب، و نشرت المظلة، و برز الخليفة من الباب، و وقف وقفة يسيرة بمقدار ركوب الأستاذين المحنكين و غيرهم من أرباب الرتب الذين كانوا بالقاعة للخدمة، و سار الخليفة و على يساره صاحب المظلة، و هو يبالغ أن لا يزول عنها ظلها، ثم يكتنف الخليفة مقدّمو صبيان الركاب منهم، اثنان فى الشكيمة، و اثنان فى عنق الدابة من الجانبين، و اثنان فى ركابه فالأيمن مقدّم المقدّمين، و هو صاحب المقرعة التى يتناولها، و يناولها، و هو المؤدّى عن الخليفة مدّة ركوبه الأوامر، و النواهى، و يسير الموكب بالحث.

فأوّله الأمراء و أولادهم، و أخلاط بعض العسكر الأماثل إلى أرباب القصر إلى أرباب الأطواق إلى الأستاذين المحنكين إلى حامل اللوائين من الجانبين إلى حامل الدواة، و هى بينه و بين قربوس السرج إلى صاحب السيف، و هما فى الجانب الأيسر كل واحد ممن تقدّم ذكره بين عشرة إلى عشرين من أصحابه، و يحجبه أهل الوزير المقدّم ذكرهم من الجانب الأيمن بعد الأستاذين المحنكين، ثم يأتى الخليفة، و حواليه صبيان الركاب المذكورة، تفرقة السلاح فيهم، و هم أكثر من ألف رجل، و عليهم المناديل الطبقيات، و يتقلدون بالسيوف، و أوساطهم مشدودة بمناديل، و فى أيديهم السلاح مشهور، و هم من جانبى الخليفة كالجناحين المادّين و بينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد، و بالقرب من رأس الصقلبيان الحاملان للمذبتين، و هما مرفوعتان كالنخلتين لما يسقط من طائر و غيره، و هو سائر على تؤدة، و رفق و فى طول الموكب من أوّله إلى آخره والى القاهرة مارّ و عائد، يفسح الطرقات و يسير الركبان فيلقى فى عوده الإسفهسلار كذلك مارا و عائدا لحث الأجناد فى الحركة و الإنكار على المزاحمين المعترضين، و يلقى فى عوده صاحب الباب، و مروره فى زمرة الخليفة إلى أن يصل إلى الإسفهسلار، فيعود لترتيب الموكب، و حراسة طرقات الخليفة، و فى يد كل منهم دبوس، و هو راكب خير دوابه و أسرعها، هذا لمن أمام الموكب، ثم يسير خلف دابة الخليفة قوم من صبيان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۲، ص: ۳۶۴

الركاب لحفظ أعقابه، ثم عشرة يحملون عشرة سيوف فى خرائط ديباج أحمر و أصفر بشراريب غزيرة يقال لها: سيوف الدم برسم ضرب الأعناق ثم يسير بعدهم صبيان السلاح الصغير، أرباب الفرنجيات المقدّم ذكرهم.

ثم يأتى الوزير فى هيبة، و فى ركابه من أصحابه قوم يقال لهم: صبيان الزرد من أقوياء الأجناد يختارهم لنفسه ما مقداره خمسمائة رجل من جانبيه بفرجة لطيفة أمامه، دون فرجة الخليفة، و كأنه على وفز من حراسة الخليفة، و يجتهد أن لا يغيب عن نظره، و خلفه الطبول و الصنوج و الصفافير، و هو مع عدّة كثيرة تدوى بأصواتها و حسّها الدنيا، ثم يأتى حامل الرمح المقدّم ذكره و درقته حمراء.

ثم طوائف الراجل من الركابية و الجيوشية، و قبلهما المصامدة، ثم الفرنجية، ثم الوزيرية زمرة زمرة فى عدّة وافرة تزيد على أربعة آلاف فى الوقت الحاضر، و هم أضعاف ذلك، ثم أصحاب الرايات و السبعين، ثم طوائف العساكر من الآمرية و الحجرية الكبار، و الحافظية، و الحجرية الصغار المنقولين، و الأفضلية و الجيوشية، ثم الأتراك المصطنعون، ثم الديلم، ثم الأكراد، ثم الغز المصطنعة، و قد كان تقدّم هؤلاء الفرسان عدّة وافرة من المترجلة أرباب قسىّ اليد، و قسىّ الرجل فى أكثر من خمسمائة، و هم المعدّون للأساطيل، و يكون من الفرسان المقدّم ذكرهم ما يزيد على ثلاثة آلاف، و هذا كله بعض من كل.

فإذا انتهى الموكب إلى المكان المحدود، عادوا على أدراجهم، و يدخلون من باب الفتوح، و يقفون بين القصرين بعد الرجوع، كما كانوا قبله، فإذا وصل الخليفة إلى الجامع الأقمر بالقماحين اليوم وقف وقفة بجملته فى موكبه، و انفرج الموكب للوزير، فيتحرّك مسرعا ليصير أمام الخليفة، حتى يدخل بين يديه فيمرّ الخليفة، و يسكع له سكعة ظاهرة، فيشير الخليفة للسلام عليه إشارة خفية، و هذه أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة، و لا تكون إلّا للوزير صاحب السيف، و سبقه إلى دخول باب القصر راكبا على عادته إلى موضعه، و يكون الأمراء، قد نزلوا قبله لأنهم فى أوائل الموكب، فإذا وصل الخليفة إلى باب القصر، و دخله ترجل الوزير، و دخل قبله الأستاذون المحنكون، و أحدقوا به، و الوزير أمام وجه الفرس مكان ترجله إلى الكرسىّ الذى ركب منه، فينزل عليه و يدخل إلى مكانه بعد خدمة المذكورين له، فيخرج الوزير، و يركب من مكانه الجارى به على عادته، و الأمراء بين يديه، و أقاربه حواليه، فيركبون من أماكنهم و يسيرون صحبته إلى داره، فيدخل و ينزل أيضا إلى مكانه على كرسىّ فتخدمه الجماعة بالوداع، و يتفرّق الناس إلى أماكنهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۶۵

فيجدون قد أحضر إليهم الغرّة ، و هو أنه يقدّم الخليفة بأن يضرب بدار الضرب فى العشر الآخر من ذى الحجة بتاريخ السنة التى ركب أوّلها فى هذا اليوم جملة من الدنانير و الرباعية و الدراهم المدوّرة المقسقلة، فيحمل إلى الوزير منها ثلثمائة و ستون دينارا، و ثلثمائة و ستون رباعيا و ثلثمائة و ستون قيراطا، و إلى أولاده، و إخوته من كل صنف من ذلك خمسون، و إلى أرباب الرتب من أصحاب السيوف، و الأقلام من عشرة دنانير، و عشر رباعيات، و عشرة قراريط إلى دينار واحد، و رباعىّ واحد، و قيراط واحد، فيقبلون ذلك على حكم البرمكية من مبلغ الخليفة قال: و مبلغ الغرّة التى ينعم بها فى أوّل العام المقدّم ذكره من الدنانير و الرباعيات و القراريط ما يربط من ثلاثة آلاف دينار، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر ما كان يضرب فى خميس العدس من خراريب الذهب

قال ابن المأمون: و أحضر الأجل المأمون كاتب الدفتر، و أمره بالكشف عما كان يضرب برسم خميس العدس من الخراريب الذهب، و هو خمسمائة دينار عن عشرين ألف خروبة، و استدعى كاتب بيت المال، و وقع له بإطلاق ألف دينار، و أمره بإحضار مشارف دار الضرب، و سلمها إليه، فاعتمد ذلك، و ضربت عشرون ألف خروبة و أحصرها، فأمر بحملها إلى الخليفة، فسير الخليفة منها إلى المأمون ثلثمائة دينار، و ذكر أنها لم تضرب فى مدّة خلافة الحافظ لدين اللّه غير سنة واحدة، ثم بطل حكمها، و نسى ذكرها.

قال: و صار ما يضرب باسم الخليفة يعنى الآمر بأحكام اللّه فى ستة مواضع: القاهرة، و مصر، و قوص، و عسقلان، و صور، و الإسكندرية.

و قال ابن عبد الظاهر: خميس العدس كان يضرب فيه خمسمائة، تعمل عشرة آلاف خروبة، كان الأفضل بن أمير الجيوش يحمل منها للخليفة مائتى دينار، و البقية برسمه، ثم جعلت فى الأيام المأمونية ألف دينار، و ربما زادت أو نقصت يسيرا، و قد تقدّم أنّ قاضى القضاة كان يتولى عيار دار الضرب، و يحضر التغليق بنفسه، و يختم عليه و يحضر للموعد الآخر لفتحه.

ذكر دار الوكالة الآمرية

كانت دار الوكالة المذكورة، بجانب دار الضرب، و موضعها الآن على يمنة السالك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۶۶

من رأس الخرّاطين إلى سوق الخيميين، و الجامع الأزهر.

قال ابن المأمون: فى شوّال سنة ست عشرة و خمسمائة، ثم أنشأ، يعنى المأمون بن البطائحىّ، وزير الخليفة الآمر بأحكام اللّه دار الوكالة بالقاهرة المحروسة، لمن يصل من العراقيين و الشاميين و غيرهما من التجار، و لم يسبق إلى ذلك.

ذكر مصلى العيد

و كان فى شرقىّ القصر الكبير مصلى العيد من خارج باب النصر، و هذا المصلى بناه القائد جوهر لأجل صلاة العيد فى شهر رمضان سنة: ثمان و خمسين و ثلثمائة، ثم جدّده العزيز بالله، و بقى بقى إلى الآن بعض هذا المصلى، و اتخذ فى جانب منه موضع مصلى الأموات اليوم.

ذكر هيئة صلاة العيد و ما يتعلق بها

قال ابن زولاق: و ركب المعز لدين اللّه، يوم الفطر لصلاة العيد إلى مصلى القاهرة التى بناها القائد جوهر، و كان محمد بن أحمد بن الأدرع الحسنىّ، قد بكر و جلس فى المصلى تحت القبة فى موضع، فجاء الخدم و أقاموه، و أقعدوا موضعه أبا جعفر مسلما، و أقعدوه هو دونه، و كان أبو جعفر مسلم، خلف المعز عن يمينه، و هو يصلى و أقبل المعز فى زيه و بنوده و قبابه، و صلى بالناس صلاة العيد تامّة طويلة، قرأ فى الأولى بأمّ الكتاب، و هل أتاك حديث الغاشية، ثم كبر بعد القراءة، و ركع فأطال، و سجد فأطال، أنا سبحت خلفه فى كل ركعة، و فى كل سجدة نيفا و ثلاثين تسبيحة.

و كان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير، و قرأ فى الثانية بأمّ الكتاب، و سورة و الضحى، ثم كبر أيضا بعد القراءة، و هى صلاة جدّه علىّ بن أبى طالب عليه السلام، و أطال أيضا فى الثانية الركوع و السجود، أنا سبحت خلفه نيفا و ثلاثين تسبيحة فى كل ركعة، و فى كل سجدة، و جهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم فى كل سورة، و أنكر جماعات يتوسمون بالعلم قراءة قبل التكبير لقلة علمهم، و تقصيرهم فى العلوم.

حدّثنا محمد بن أحمد قال: حدّثنا عمر بن شيبة، ثنا عبد اللّه، و رجاء عن إسرائيل، عن أبى إسحاق عن الحارث عن علىّ عليه السلام: أنه كان يقرأ فى صلاة العيد قبل التكبير، فلما فرغ المعز من الصلاة، صعد المنبر و سلم على الناس يمينا و شمالا، ثم ستر بالسترين اللذين كانا على المنبر، فخطب وراءهما على رسمه، و كان فى أعلى درجة من المنبر و سادة ديباج مثقل، فجلس عليها بين الخطبتين، و استفتح الخطبة: ببسم اللّه الرحمن الرحيم، و كان معه على المنبر القائد جوهر، و عمار بن جعفر، و شفيع صاحب المظلة، ثم قال: اللّه

أكبر اللّه أكبر و استفتح بذلك، و خطب و أبلغ، و أبكى الناس، و كانت خطبة بخشوع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۶۷

و خضوع، فلما فرغ من خطبته، انصرف فى عساكره و خلفه أولاده الأربعة بالجواشن و الخود على الخيل بأحسن زىّ، و ساروا بين يديه بالفيلين، فلما حضر فى قصره أحضر الناس، فأكلوا و قدّمت إليهم السمط، و نشطهم إلى الطعام، و عتب على من تأخر، و هدّد من بلغه عنه صيام العيد.

و قال المسبحىّ فى حوادث آخر يوم من رمضان: سنة ثمانين و ثلثمائة، و بقيت مصاطب ما بين القصور و المصلى الجديدة ظاهر باب النصر عليها المؤذنون، حتى يتصل التكبير من المصلى إلى القصر، و فيه تقدّم أمر القاضى محمد بن النعمان، بإحضار المتفقهة و المؤمنين يعنى الشيعة، و أمرهم بالجلوس يوم العيد على هذه المصاطب و لم يزل يرتب الناس، و كتب رقاعا فيها أسماء الناس، فكانت تخرج رقعة رقعة، فيجلس الناس على مصطبة مصطبة بالترتيب.

و فى يوم العيد: ركب العزيز بالله لصلاة العيد، و بين يديه الجنائب، و القباب الديباج بالحلىّ و العسكر فى زيه من الأتراك، و الديلم و العزيزية، و الإخشيدية، و الكافورية، و أهل العراق بالديباج المثقل و السيوف، و المناطق الذهب، و على الجنائب السروج الذهب بالجوهر، و السروج بالعنبر، و بين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح، و الزرّاقة، و خرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر، و بيده قضيب جدّه عليه السلام، فصلى على رسمه و انصرف.

و قال ابن المأمون: و لما توفى أمير الجيوش بدر الجمالىّ، و انتقل الأمر إلى ولده:

الأفضل بن أمير الجيوش جرى على سنن والده فى صلاة العيد، و يقف فى قوس باب داره الذى عند باب النصر يعنى: دار الوزارة فلما سكن بمصر صار يطلع من مصر باكرا، و يقف على باب داره على الحالة الأولى، حتى تستحق الصلاة، فيدخل من باب العيد إلى الإيوان، و يصلى به القاضى ابن الرسعنىّ، ثم يجلس بعد الصلاة على المرتبة إلى أن تنقضى الخطبة فيدخل من باب الملك، و يسلم على الخليفة، بحيث لا يراه أحد غيره، ثم يخلع عليه، و يتوجه إلى داره بمصر، فيكون السماط بها مدى الأعياد، فلما قتل الأفضل، و استقرّ بعده المأمون بن البطائحىّ فى الوزارة قال: هذا نقص فى حق العيد، و لا يعلم السبب فى كون الخليفة لا يظهر، فقال له الخليفة الآمر بأحكام اللّه: فما تراه أنت؟ فقال: يجلس مولانا فى المنظرة التى استجدّت بين باب الذهب، و باب البحر، فإذا جلس مولانا فى المنظرة، و فتحت الطاقات، وقف المملوك بين يديه فى قوس باب الذهب، و تجوز العساكر فارسها و راجلها، و تشملها بركة نظر مولانا إليها، فإذا حان وقت الصلاة توجه المملوك بالموكب و الزىّ و جميع الأمراء و الأجناد، و اجتاز بأبواب القصر، و دخل الإيوان، فاستحسن ذلك منه، و استصوب رأيه، و بالغ فى شكره، ثم عاد المأمون إلى مجلسه، و أمر بتفرقة كسوة العيد و الهبات، يعنى فى عيد النحر، سنة خمس عشرة و خمسمائة، و جملة العين: ثلاثة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۶۸

آلاف و ثلثمائة دينار و سبعة دنانير و من الكسوات: مائة قطعة و سبع قطع برسم الأمراء المطوّقين، و الأستاذين المحنكين، و كاتب الدست، و متولى حجبة الباب و غيرهم.

قال: و وصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر شهر رمضان يعنى من سنة ست عشرة و خمسمائة و هى تشتمل على دون العشرين ألف دينار، و هو عندهم الموسم الكبير، و يسمى بعيد الحلل، لأنّ الحلل فيه تعم الجماعة، و فى غيره للأعيان خاصة، و قد تقدّم تفصيلها عند ذكر خزانة الكسوة من هذا الكتاب.

قال: و لما كان فى التاسع و العشرين من شهر رمضان، خرجت الأوامر بأضعاف ما هو مستقرّ للمقرئين و المؤذنين فى كل ليلة برسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر، و حضر المأمون فى آخر النهار إلى القصر للفطور مع الخليفة، و الحضور على الأسمطة على العادة و حضر إخوته و عمومته، و جميع الجلساء، و حضر المقرئون و المؤذنون، و سلّموا على عادتهم و جلسوا تحت الروشن ، و حمل من

عند معظم الجهات و السيدات، و المميزات من أهل القصور بلاحى و موكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى ديبقى، و جعلت أمام المذكورين، ليشملها بركة ختم القرآن، و استفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمة القرآن تلاوة، و تطريبا ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع، و دعا فأبلغ، و رفع الفرّاشون ما أعدّوه برسم الجهات، ثم كبر المؤذنون، و هللوا، و أخذوا فى الصوفيات إلى أن نثر عليهم من الروشن دراهم و دنانير و رباعيات، و قدّمت جفان القطائف على الرسم مع الحلوى، فجروا على عادتهم، و ملأوا أكمامهم، ثم خرج أستاذ من باب الدار الجليلة بخلع خلعها على الخطيب و غيره، و دراهم تفرّق على الطائفتين من المقرئين و المؤذنين، و رسم أن تحمل الفطرة إلى قاعة الذهب، و أن تكون التعبية فى مجلس الملك، و تعبى الطيافير المشورة الكبار من السرير إلى باب المجلس، و تعبى من باب المجلس إلى ثلثى القاعة سماطا واحدا مثل سماط الطعام، و يكون جميعه سدا واحدا من حلاوة الموسم، و يزين بالقطع المنفوخ، فامتثل الأمر، و حضر الخليفة إلى الإيوان، و استدعى المأمون، و أولاده و إخوته، و عرضت المظال المذهبة المحاومة، و كان المقرئون يلوّحون عند ذكرها بالآيات التى فى سورة النحل و اللّه جعل لكم مما خلق ظلالا إلى آخرها.

و جلس الخليفة و رفعت الستور، و استفتح المقرئون، و جدّد المأمون السلام عليه، و جلس على المرتبة عن يمينه، و سلم الأمراء جميعهم على حكم منازلهم لا- يتعدّى أحد منهم مكانه و النوّاب جميعهم يستدعونهم بنعوتهم، و ترتيب وقوفهم، و سلم الرسل الواصلون من جميع الأقاليم، و وقفوا فى آخر الإيوان، و ختم المقرئون، و سلموا، و خدمت الرهجية، و تقدّم متولى كل اصطبل من الروّاض و غيرهم يقبل الأرض، و يقف و دخلت الدواب من باب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۶۹

الديلم و المستخدمون فى الركاب بالمناديل يتسلمونها من الشدّادين و يدورون بها حول الإيوان، و دواب المظلة متميزة عن غيرها يتسلمها الأستاذون، و المستخدمون فى الركاب و يعلون بها إلى قريب من الشباك الذى فيه الخليفة، و كلما عرض دواب اصطبل قبل الأرض متوليه. و انصرف. و تقدّم متولى غيره على حكمه إلى أن يعرض جميع ما أحضروه، و هو ما يزيد على ألف فارس خارجا عن البغال و ما تأخر من العشاريات و الحجور و المهارة، و لما عرضت الدواب أبطلت الرهجية، و عاد استفتاح المقرئين، و كانوا محسنين فيما ينتزعونه من القرآن الكريم، مما يوافق الحال، مثل الآية من آل عمران: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ إلى آخرها، ثم بعدها: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ، إلى آخرها.

و عرضت الوحوش بالأجلة الديباج و الديبقىّ بقباب الذهب، و المناطق، و الأهلة و بعدها النجب، و البخاتى بالأقتاب الملبسة بالديبقىّ الملوّن المرقوم، و عرض السلاح، و آلات الموكب جميعها، و نصبت الكسوات على باب العيد، و ضربت طول الليل و حملت الفطرة الخاص التى يفطر عليها الخليفة بأصناف الجوارشات بالمسك، و العود و الكافور و الزعفران و التمور المصبغة التى يستخرج ما فيها، و تحشى بالطيب و غيره، و تسدّ، و تختم و سلمت للمستخدمين فى القصور، و عبيت فى مواعين الذهب المكللة بالجواهر، و خرجت الأعلام و البنود.

و ركب المأمون، فلما حصل بقاعة الذهب أخذ فى مشاهدة السماط من سرير الملك إلى آخرها، و خرج الخليفة لوقته من الباذهنج، و طلع إلى سرير ملكه، و بين يديه الصوانى المقدّم ذكرها، و استدعى بالمأمون، فجلس عن يمينه بعد أداء حق السلام، و أمر بإحضار الأمراء المميزين و القاضى و الداعى و الضيوف، و سلم كل منهم على حكم ميزته، و قدمت الرسل، و شرّفوا بتقبيل الأرض و المقرئون يتلون، و المؤذنون يهللون و يكبرون، و كشفت القوّارات الشرب المذهبات، عما هو بين يدى الخليفة فبدأ و كبر، و أخذ بيده تمرة، فأفطر عليها، و ناول مثلها الوزير، فأظهر الفطر عليها، و أخذ الخليفة فى أن يستعمل من جميع ما حضر، و يناول وزيره منه، و هو يقبله و يجعله فى كمه، و تقدّمت الأجلاء إخوة الوزير و أولاده من تحت السرير، و هو يناولهم من يده، فيجعلونه فى أكمامهم بعد تقبيله، و أخذ كل من الحاضرين كذلك، و يومئ بالفطور و يجعله فى كمه على سبيل البركة، فمن كان رأيه الفطور أفطر، و من لم يكن رأيه أومأ، و جعله فى كمه لا ينتقد على أحد فعله.

ثم قال المأمون بعد ذلك: ما على من يأخذ من هذا المكان نقيصة بل له به الشرف و الميزة، و مدّ يده، و أخذ من الطيفور الذى كان بين يديه عود نبات، و جعله فى كمه بعد تقبيله، و أشار إلى الأمراء، فاعتمد كل من الحاضرين ذلك و ملأوا أكمامهم، و دخل الناس، فأخذوا جميع ذلك، ثم خرج الوزير إلى داره و الجماعة فى ركابه، فوجد التعبية فيها من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۰

صدر المجلس إلى آخره على ما أمر به، و لم يعدم مما كان بالقصر غير الصوانى الخاص، فجلس على مرتبته و الأجلاء أولاده، و استدعى بالعوالى من الأمراء، و القاضى و الداعى، و الضيوف، فحضروا و شرّفوا بجلوسهم معه، و حصل من مسرّتهم بذلك ما بسطهم، و رفعوا اليسير مما حضر على سبيل الشرف، ثم انصرفوا و حضرت الطوائف، و الرسل على طبقاتهم إلى أن حمل جميع ما كان بالدار بأسره، و انقضى حكم الفطور.

و عاد للتنفيذ فى غيره، و ضربت الطبول، و الأبواق على أبواب القصور، و الدار المأمونية، و أحضرت التغايير، و فرّقت على أربابها من الأجناد و المستخدمين، و خرجت أزمة العساكر فارسها و راجلها، و ندب الحاجب الذى بيده الدعوة لترتيب صفوفها من باب القصر إلى المصلى، ثم حضر إلى الدار المأمونية الشيوخ المميزون، و جلس المأمون فى مجلسه و أولاده بهيئة العيد و زينته، و رفعت الستور، و ابتدأ المقرئون، و سلم متولى الباب و الشيوخ، و لم يدخل المجلس غير كاتب الدست، و متولى الحجبة، و بالغ كل منهما فى زيه و ملبوسه، و جروا على رسمهم فى تقبيل الأرض و عتبة المجلس، و وصل إلى الدار المأمونية التجمل الخاص الذى برسم الخليفة جميعه، القصب الفضة و الأعلام و المنجوقات، و العقبات و العماريات، و لواء الوزارة لركوب الخليفة بالمظلة بالطميم، و المراكيب الذهب المرصعة بالجواهر، و غير ذلك من التجملات.

و ركب المأمون من داره و جميع التشاريف الخاص بين يديه، و خدمت الرهجية، و من جملتهم الغربية و هى أبواق لطاف عجيبة غريبة الشكل تضرب كل وقت يركب فيه الخليفة و لا تضرب قدّام الوزير إلّا فى المواسم خاصة و فى أيام الخلع عليه و الأمراء مصطفون عن يمينه، و عن شماله، و يليهم إخوته و بعدهم أولاده، و دخل إلى الإيوان، و جلس على المرتبة المختصة به، و عن يمينه جميع الأجلاء و المميزون وقوف أمامه، و من انحط عنهم من باب الملك إلى الإيوان قيام، و يخرج خاصة الدولة ريحان إلى المصلى بالفرش الخاص، و آلات الصلاة، و علق المحراب بالشروب المذهبة، و فرش فيه ثلاث سجادات متراكبة، و أعلاها السجادة اللطيفة التى كانت عندهم معظمة، و هى قطعة من حصير ذكر أنها من جملة حصير:

لجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، يصلى عليها، و فرش الأرض جميعها بالحصر المحاريب، ثم علق على جانبى المنبر، و فرش جميع درجه، و جعل أعلاه المخادّ التى يجلس عليها الخليفة، و علق اللواءان عليه، و قعد تحت القبة خاصة الدولة ريحان و القاضى و أطلق البخور.

و لم يفتح من أبوابه إلّا باب واحد، و هو الذى يدخل منه الخليفة، و يقعد الداعى فى الدهليز و نقباء المؤمنين بين يديه، و كذلك الأمراء، و الأشراف، و الشيوخ، و الشهود، و من سواهم من أرباب الحرف و لا يمكن من الدخول إلّا من يعرفه الداعى، و يكون فى ضمانه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۱

و استفتحت الصلاة، و أقبل الخليفة من قصوره بغاية زيه، و العلم الجوهر فى منديله، و قضيب الملك بيده، و بنو عمه، و إخوته و أستاذوه فى ركابه، و تلقاه المقرئون عند وصوله و الخواص، و استدعى بالمأمون، فتقدّم بمفرده، و قبل الأرض، و أخذ السيف و الرمح من مقدّمى خزائن الكسوة، و الرهجية تخدم، و حمل لواء الحمد بين يديه إلى أن خرج من باب العيد، فوجد المظلة قد نشرت عن يمينه، و الذى بيده المدعو فى ترتيب الحجبة لمن شرّف بها، لا يتعدّى أحد حكمه، و سائر المواكب بالجنائب الخاص، و خيل التخافيف، و مصفات العساكر و الطوائف جميعها بزيها، و راياتها وراء الموكب إلى أن وصل إلى قريب المصلى، و العماريات و

الزرافات، و قد شدّ على الفيلة بالأسرّة مملوءة رجالا مشيكة بالسلاح لا يتبين منهم إلّا الأحداق، و بأيديهم السيوف المجرّدة، و الدرق الحديد الصينى، و العساكر قد اجتمعت و ترادفت صفوفا من الجانبين إلى باب المصلى، و النظارة قد ملأت الفضاء لمشاهدة ما لم يبلغوه، و الموكب سائر بهم، و قد أحاط بالخليفة و الوزير صبيان الخاص، و بعدهم الأجناد بالدروع المسبلة، و الزرديات بالمغافر ملثمة، و البروك الحديد بالصماصم و الدبابيس.

و لما طلع الموكب من ربوة المصلى ترجل متولى الباب، و الحجاب و وقف الخليفة بجمعه بالمظلة إلى أن اجتاز المأمون راكبا بمن حول ركابه، و ردّ الخليفة السلام عليه بكمه، و صار أمامه، و ترجل الأمراء المميزون و الأستاذون المحنكون بعدهم، و جميع الأجلاء، و صار كل منهم يبدأ بالسلام على الوزير، ثم على الخليفة إلى أن صار الجميع فى ركابه، و لم يدخل من باب المصلى راكبا غير الوزير خاصة، ثم ترجل على بابه الثانى إلى أن وصل الخليفة إليه فاستدعى به، سلم و أخذ الشكيمة بيده إلى أن ترجل الخليفة فى الدهليز الآخر، و قصد المحراب و المؤذنون يكبرون قدّامه، و استفتح الخليفة فى المحراب و سامته فيه:

وزيره و القاضى، و الداعى عن يمينه و شماله ليوصلوا التكبير لجماعة المؤذنين من الجانبين، و يتصل منهم التكبير إلى مؤذنى مصلى الرجال و النساء الخارجين عن المصلى الكبير، و كاتب الدست و أهله، و متولى ديوان الإنشاء يصلون تحت عقد المنبر، و لا يمكن غيرهم أن يكون معهم.

و لما قضى الخليفة الصلاة، و هى ركعتان قرأ فى الأولى بفاتحة الكتاب، و هل أتاك حديث الغاشية، و كبر سبع تكبيرات، و ركع و سجد، و فى الثانية بالفاتحة، و سورة و الشمس و ضحاها، و كبر خمس تكبيرات، و هذه سنة الجميع و من ينوب عنهم فى صلاة العيدين على الاستمرار و سلم، و خرج من المحراب، و عطف عن يمينه، و الحرص عليه شديد و لا يصل إليه إلّا من كان خصيصا به، و صعد المنبر بالخشوع و السكينة، و جميع من بالمصلى و التربة لا يسأم نظره و يكثرون من الدعاء له، و لما حصل فى أعلى المنبر أشار إلى المأمون، فقبل الأرض و سارع فى الطلوع إليه، و أدّى ما يجب من سلامه، و تعظيم مقامه، و وقف بأعلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۲

درجة، و أشار إلى القاضى، فتقدّم و قبل كل درجة إلى أن يصل إلى الدرجة الثالثة، وقف عندها، و أخرج الدعو من كمه، و قبله و وضعه على رأسه، و أعلى بما تضمنه و هو ما جرت به العادة من تسمية يوم العيد، و سنته و الدعاء للدولة.

و كانت الحال فى أيام وزراء الأقلام و السيوف إذا حصل الخليفة فى أعلى المنبر بقى الوزير مع غيره، و أشار الخليفة إلى القاضى، فيقبل الأرض، و يطلع إلى الدرجة الثالثة و يخرج الدعو من كمه و يقبله، و يضعه على رأسه، و يذكر يوم العيد، و سنته و الدعاء للدولة، ثم يستدعى بالوزير بعد ذلك فيصعد بعد القاضى، فراعى الخليفة ذلك الأمر فى حق الوزير، فجعل الإشارة منه إليه أوّلا، و رفعه عن أن يكون مأمورا مثل غيره، و جعلها له ميزة على غيره ممن تقدّمه، و استمرّت فيما بعد، و استفتح الخليفة بالتكبير الجارى به العادة فى الفطر، و الخطبتين إلى آخرهما، و كبر المؤذنون، و رفع اللواءان، و ترجل كل أحد من موضعه كما كان ركوبه، و صار الجميع فى ركاب الخليفة، و جرى الأمر فى رجوعه على ما تقدّم شرحه، و مضى إلى تربة آبائه، و هى سنتهم فى كل ركبة بمظلة، و فى كل يوم جمعة مع صدقات، و رسوم تفرّق.

و أمّا الوزير المأمون فإنه توجه و خرج من باب العيد، و الأمراء بين يديه إلى أن وصل إلى باب الذهب، فدخل منه بعد أن أمر ولده الأكبر بالوصول إلى داره و الجلوس على سماط العيد على عادته، و لما دخل المأمون بقاعة الذهب وجد السروع قد وقع من المستخدمين بتعبية السماط، فأمر بتفرقة الرسوم على أربابها، و هو ما يحمل إلى مجلس الوزارة برسم الحاشية، و لكل من حاشية أولاده و إخوته، و كاتب الدست، و متولى حجبة الباب، و متولى الديوان، و كاتب الدفتر، و النائب لكل منهم رسم يصرف قبل جلوس الخليفة، و عند انقضاء الأسمطة لغير المذكورين على قدر منزلة كل منهم، ثم حضر أبو الفضائل ابن أبى الليث، و استأذن على طيافير الفطرة الكبار التى فى مجلس الخليفة فأمره الوزير بأن يعتمد فى تفرقتها على ما كان يعتمده فى الأيام الأفضلية، و هو لكل من

يصعد المنبر مع الخليفة طيفور.

فلما أخذ الخليفة راحة بعد مضيه إلى التربة جلس على السرير، و بين يديه المائدة اللطيفة الذهب بالمينا، معبأة بالزبادى الذهب، و استدعى الوزير و اصطف الناس من المدورة إلى آخر السماط من الجانبين على طبقاتهم، و رفعت الستور، و استفتح المقرئون، و وفّى الدولة إسعاف متولى المائدة مشدود الوسط، و مقدّم خزانة الشراب، بيده شربة فى مرفع ذهب، و غطاء مرصعين بالجوهر و الياقوت، و متولى خزائن الإنفاق بيده خريطة مملوءة دنانير لمن يقف يطلب صدقة، و إنعاما فيؤمر بما يدفع إليه، و تفرقة الرسوم الجارى بها العادة، و لعبت المنافقون، و التحساريّة، و تناوب القرّاء، و المنشدون، و أرخيت الستور و عبىء السماط ثانيا على ما كان عليه أوّلا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۳

ثم رفعت الستور، و جلس على المدورة و السماط من جرت العبادة به، و فرّقت الدنانير على المقرئين، و المنشدين و التحساريّة و المنافقين، و من هو معروف بكثرة الأكل، و نهبت قصور الخلافة، و فرّق من الأصناف ما جرت به العادة، و أرخيت الستور، و أحضر متولى خزانة الكسوة الخاص للخليفة: بدلة إلى أعلى السرير حسبما كان أمره، فلبسها و خلع الثياب التى كانت عليه على الوزير بعد ما بالغ فى شكره، و الثناء عليه، و توجه إلى داره، فوصل إليه من الخليفة الصوانى الخاص المكللة معبأة على ما كانت بين يديه، و غيرها من الموائد، و كذلك إلى أولاده و إخوته صينية صينية، و لكاتب الدست، و متولى حجبة الباب مثل ذلك و يكبر الوزير بجلوسه فى داره معلنا، و تسارع الناس على طبقاتهم بالعيد، و الخلع و بما جرى فى صعود المنبر، و حضر الشعراء، و أسنيت لهم الجوائز، و جرى الحال يومئذ فى جلوس الخليفة، و فى السلام لجميع الشيوخ و القضاة و الشهود و الأمراء، و الكتاب، و مقدّمى الركاب و المتصدّرين بالجوامع، و الفقهاء، و القاهريين، و المصريين، و اليهود برئيسهم، و النصارى ببطريقهم على ما جرت به عادتهم، و ختم المقرئون، و قدمت الشعراء على طبقاتهم إلى آخرهم و جدّد لكل من الحاضرين سلامه، و انكفأ الخليفة إلى الباذهنج لأداء فريضة الصلاة و الراحة بمقدار ما عبيت المائدة الخاص، و استحضر المأمون، و أولاده و إخوته على عادتهم، و استدعى من شرّف بحضور المائدة، و هم الشيخ أبو الحسن كاتب الدست، و أبو الرضى سالم ابنه، و متولى حجبة الباب، و ظهير الدين الكنانىّ على ما كان عليه الحال قبل الصيام، و انقضى حكم العيد.

و قال ابن الطوير: إذا قرب آخر العشر الآخر من شهر رمضان خرج الزى من أماكنه، على ما وصفنا فى ركوب أوّل العام، و لكن فيه زيادات يأتى ذكرها، و يركب فى مستهلّ شوّال بعد تمام شهر رمضان، و عدّته عندهم أبدا ثلاثون يوما، فإذا تهيأت الأمور من الخليفة، و الوزير و الأمراء، و أرباب الرتب على ما تقدّم، و صار الوزير بجماعته إلى باب القصر، ركب الخليفة بهيئة الخلافة من المظلة و اليتيمة و الآلات المقدّم ذكرها، و لباسه فى هذا اليوم الثياب البياض الموشحة المحومة، و هى أجل لباسهم، و المظلة كذلك، فإنها أبدا تابعة لثيابه كيف كانت الثياب، و يكون خروجه من باب العيد إلى المصلى، و الزيادة ظاهرة فى هذا اليوم فى العساكر، و قد انتظم القوم له صفين من باب القصر إلى باب المصلى، و يكون صاحب بيت المال قد تقدّم على الرسم، لفرش المصلى، فيفرش الطرّاحات على رسمها فى المحراب مطابقة، و يعلق سترين يمنة و يسرة فى الأيمن: البسملة و الفاتحة، و سبح اسم ربك الأعلى، و فى الأيسر: مثل ذلك، و هل أتاك حديث الغاشية، ثم يركز فى جانب المصلى لواءين مشدودين على رمحين ملبسين بأنابيب الفضة، و هما مستوران مرخيان، فيدخل الخليفة من شرقىّ المصلى إلى مكان يستريح فيه دقيقة، ثم يخرج محفوظا، كما يحفظ فى جامع القاهرة، فيصير إلى المحراب، و يصلى صلاة العيد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۴

بالتكبيرات المسنونة، و الوزير وراءه و القاضى، و يقرأ فى كل ركعة، ما هو مرقوم فى السترين فإذا فرغ و سلم صعد المنبر للخطابة العيدية يوم الفطر، فإذا جلس فى الذروة و هناك طرّاحة سامان أو ديبقىّ على قدرها و باقية يستر بياض على مقداره فى تقطيع درجه، و هو مضبوط لا يتغير، فيراه أهل ذلك الجمع جالسا فى الذروة و يكون قد وقف أسفل المنبر الوزير، و قاضى القضاة، و صاحب

الباب إسفهسلار العساكر، و صاحب السيف و صاحب الرسالة، و زمام القصر، و صاحب دفتر المجلس، و صاحب المظلة، و زمام الأشراف الأقارب، و صاحب بيت المال، و حامل الرمح، و نقيب الأشراف الطالبيين، و وجه الوزير إليه فيشير إليه فيصعد، و يقرب وقوفه منه، و يكون وجهه موازيا رجليه، فيقبلهما بحيث يراه العالم، ثم يقوم و يقف على يمينه، فإذا وقف أشار إلى قاضى القضاة، فيصعد إلى سابع درجة، و يتطلع إليه صاغيا لما يقول، فيشير إليه فيخرج من كمه مدرجا قد أحضر إليه أمس من ديوان الإنشاء بعد عرضه على الخليفة و الوزير، فيعلن بقراءة مضمونه.

و يقول: بسم اللّه الرحمن الرحيم: ثبت بمن شرّف بصعوده المنبر الشريف فى يوم كذا، و هو عيد الفطر من سنة كذا من عبيد أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه، و على آبائه الطاهرين، و أبنائه الأكرمين بعد صعود السيد الأجل، و نعوته المقرّرة و دعائه المحرّر، فإن أراد الخليفة أن يشرّف أحدا من أولاد الوزير، و إخوته استدعاه القاضى بالنعت المذكور، ثم يتلو ذلك ذكر القاضى و هو القارئ، فلا يتسع له أن يقول عن نفسه نعوته و لا دعاءه، بل يقول: المملوك فلان بن فلان، و قرأه مرّة القاضى ابن أبى عقيل.

فلما وصل إلى اسمه قال: العبد الذليل المعترف بالصنع الجميل فى المقام الجليل أحمد بن عبد الرحمن بن أبى عقيل، فاستحسن ذلك منه، ثم حذا حذوه الأعز بن سلامة، و قد استقضى فى آخر الوقت، فقال المملوك فى محل الكرامة الذى عليه من الولاء أصدق علامة: حسن بن علىّ بن سلامة، ثم يستدعى من ذكرنا وقوفهم على باب المنبر بنعوتهم، و ذكر خدمهم و دعائهم على الترتيب، فإذا طلع الجماعة و كل منهم يعرف مقامه فى المنبر يمنة و يسرة أشار الوزير إليهم، فأخذ هو من كل جانب بيده نصيبا من اللواء الذى بجانبه، فيستر الخليفة، و يسترون و ينادى فى الناس بأن ينصتوا، فيخطب الخليفة من المسطور على العادة، و هى خطبة بليغة موافقة لذلك اليوم، فإذا فرغ ألقى كل من فى يده من اللواء شيء خارج المنبر، فينكشفون و ينزلون أوّلا فأوّلا، الأقرب فالأقرب إلى القهقرى فإذا خلا المنبر منهم، قام الخليفة هابطا، و دخل إلى المكان الذى خرج منه، فلبث يسيرا و ركب فى زيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۵

المفخم و عاد من طريقه بعينها إلى إن يصل إلى قريب القصر، فيتقدّمه الوزير كما شرحنا، ثم يدخل من باب العيد، فيجلس فى الشباك، و قد نصب منه إلى فسقية كانت فى وسط الإيوان مقدار عشرين قصبة سماط من الخشكنان و البسندود و البرماورد مثل الجبل الشاهق، و فيه القطعة وزنها من ربع قنطار إلى رطل، فيدخل ذلك الجمع إليه، و يفطر منه من يفطر، و ينقل منه من ينقل، و يباح و لا يحجر عليه، و لا مانع دونه، فيمرّ ذلك بأيدى الناس و ليس هو مما يعتدّ به و لا يعبئ مما يفرّق للناس، و يحمل إلى دورهم، و يعمل فى هذا اليوم سماط من الطعام فى القاعة يحضر عليه الخليفة و الوزير، فإذا انقضى ذو القعدة، و هلّ هلال ذى الحجة، اهتمّ بركوب عيد النحر، فيجرى حاله كما جرى فى عيد الفطر من الزى و الركوب إلى المصلى، و يكون لباس الخليفة فيه الأحمر الموشح، و لا ينخرم منه شيء، انتهى.

و صعد مرّة الخليفة الحافظ لدين اللّه أبو الميمون عبد المجيد المنبر يوم عيد، فوقف الشريف ابن أنس الدولة بإزائه، و قال مشيرا إلى الحاضرين:

خشوعا فإنّ اللّه هذا مقامهو همسا فهذا وجهه و كلامه

و هذا الذى فى كل وقت بروزهتحياته من ربنا و سلامه

فضرب الحافظ الجانب الأيسر من المنبر، فرقى إليه زمام القصر، فقال له: قل للشريف حسبك، قضيب حاجتك، و لم يدعه يقول شيئا آخر، و كانت تكبت المخلقات بركوب أمير المؤمنين لصلاة العيد، و يبعث بها إلى الأعمال.

فمما كتب به من إنشاء ابن الصيرفى: أمّا بعد، فالحمد للّه الذى رفع بأمير المؤمنين، عماد الإيمان، و ثبت قواعده و أعز بخلافته معتقده، و أذل بمعابته معانده، و أظهر من نوره مان انبسط فى الآفاق، و زال معه الإظلام، و نسخ به ما تقدّمه من الملل، فقال: إنّ الدين عند اللّه الإسلام، و جعل المعتصم بحبله مفضلا على من يفاخره، و يباهيه و أوجب دخول الجنة، و خلودها لمن عمل بأوامره و

نواهيه، و صلى اللّه على سيدنا محمد نبيه الذى اصطفى له الدين و بعثه إلى الأقربين و الأبعدين، و أيده فى الإرشاد حتى صار العاصى مطيعا، و دخل الناس فى التوحيد فرادى و جميعا، و غدوا بعروته الوثقى متمسكين، و أنزل عليه قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا، و ما كان من المشركين، و على أخيه و ابن عمه أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب إمام الأمّة، و كاشف الغمة، و أوجه الشفعاء لشيعته يوم العرض، و من الإخلاص فى ولائه قيام بحق و أداء فرض، و على الأئمة من ذريتهما سادة البرية، و العادلين فى القضية، و العاملين بالسيرة المرضية، و سلم و كرم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۶

و شرّف و عظم و كتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم الثلاثاء: عيد الفطر من سنة ست و ثلاثين و خمسمائة، و قد كان من قيام أمير المؤمنين بحقه و أدائه، و جريه فى ذلك على عادته، و عادة من قبله من آبائه، ما ينبئك به، و يطلعك على مستوره عنك و مغيبه، و ذلك أن دنس ثوب الليل لما بيضه الصباح، و عاد المحرّم المحظور بما أطلقه المحلل المباح، توجهت عساكر أمير المؤمنين من مظانها إلى بابه، و أفطرت بين يديه بعد ما حازته من أجر الصيام و ثوابه، ثم انثنت إلى مصافها فى الهيئات، التى يقصر عنها تجريد الصفات، و تغنى مهابتها عن تجريد المرهفات، و تشهد أسلحتها و عددها بالتنافس فى الهمم، و تلق مواضيها فى أغمادها شوقا إلى الطلى و القمم، و قد امتلأت الأرض بازدحام الرجل و الخيل، و ثار العجاج فلم ير أغرب من اجتماع النهار و الليل، و برز أمير المؤمنين من قصوره، و ظهر للأبصار على أنه محتجب بضيائه و نوره، و توجه إلى المصلى فى هدى جدّه و أبيه، و الوقار الذى ارتفع فيه عن النظير و الشبيه، و لما انتهى إليه قصد المحراب و استقبله، و أدّى الصلاة على وضع رضيه اللّه و تقبله، و أجرى أمرها على أفضل المعهود، و وفاها حقها من القراءة و التكبير و الركوع و السجود، و انتهى إلى المنبر، فعلا- و كبر اللّه، و هلله على ما أولاه، و ذكر الثواب على إخراج الفطرة و بشر به، و إنّ المسارعة إليه من وسائل المحافظة على الخير و قربه، و وعظ وعظا ينتفع قابله فى عاجلته و منقلبه، ثم عاد إلى قصوره الزاهرة مشمولا بالوقاية، مكنوفا بالكفاية، منتهيا فى إرشاد عبيده، و رعاياه أقصى الغاية، أعلمك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم، لتعلم منه ما تسكن إليه و تعلن بتلاوته على الكافة ليشتركوا فى معرفته، و يشكروا اللّه عليه، فاعلم هذا، و اعمل به إن شاء اللّه تعالى. و كان من أهل برقة طائفة تعرف بصبيان الخف لها إقطاعات و جرايات، و كسوات و رسوم فإذا ركب الخليفة فى العيدين مدّوا حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر إلى الأرض حبلا عن يمين الباب، و حبلا عن شماله، فإذا عاد الخليفة من المصلى، نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب، مدهون و فى أيديهم رايات، و خلف كل واحد منهم رديف، و تحت رجليه آخر معلق بيديه و رجليه، و يعملون أعمالا- تذهل العقول، و يركب منهم جماعة فى الموكب على خيول، فيركضون و هم يتقلبون عليها، و يخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس، و هو يركض، و يعود يركب من الجانب الآخر، و يعود، و هو على حاله لا يتوقف، و لا يسقط منه شيء إلى الأرض، و منهم من يقف على ظهر الحصان، فيركض به، و هو واقف.

ذكر القصر الصغير الغربى

اشارة

و كان تجاه القصر الكبير الشرقىّ الذى تقدّم ذكره فى غربيه قصر آخر صغير يعرف بالقصر الغربى، و مكانه الآن حيث المارستان المنصورى، و ما فى صفّه من المدارس، و دار الأمير بيسرى، و باب قبو الخرنشف، و ربع الملك الكامل المطل على سوق الدجاجين اليوم المعروف قديما بالتبانين، و ما يجاوره من الدرب المعروف اليوم بدرب الخضيرى تجاه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۷

الجامع الأقمر، و ما وراء هذه الأماكن إلى الخليج، و كان هذا القصر الغربىّ يعرف أيضا بقصر البحر و الذى بناه العزيز بالله نزار بن

المعز.

قال المسبحى: و لم يبن مثله فى شرق، و لا فى غرب.

و قال ابن أبى طيّ فى أخبار سنة سبع و خمسين و أربعمائة، ففيها تمم الخليفة المستنصر بناء القصر الغربيّ، و سكنه، و غرم عليه ألفى ألف دينار و كان ابتداء بنيانه فى سنة خمسين و أربعمائة، و كان سبب بنائه أنه غرم على أن يجعله منزلا للخليفة القائم بأمر اللّه صاحب بغداد، و يجمع بنى العباس إليه، و يجعله كالمجلس لهم، فخانه أمله، و تممه فى هذه السنة، و جعله لنفسه و سكنه.

و قال ابن ميسر: إن ست الملك أخت الحاكم كانت أكبر من أخيها الحاكم، و إنّ والدها العزيز بالله كان قد أفردها بسكنى القصر الغربيّ، و جعل لها طائفة برسمها كانوا يسمون: بالقصرية، و هذا يدلك على أنّ القصر الغربيّ كان قد بنى قبل المستنصر، و هو الصحيح، و كان هذا القصر يشتمل أيضا على عدّة أماكن:

الميدان: و كان بجوار القصر الغربيّ، و من حقوقه الميدان، و يعرف هذا الميدان اليوم بالخرنشف و اصطبل القطبية.

البستان الكافورى: و كان من حقوق القصر الصغير الغربيّ: البستان الكافوريّ، و كان بستانا أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طفج بن جف الإخشيد أمير مصر، و كان مطلا على الخليج، فاعتنى به الإخشيد، و جعل له أبوابا من حديد، و كان ينزل به، و يقيم فيه الأيام، و اهتمّ بشأنه من بعد الإخشيد ابناه: الأمير أبو القاسم أونوجور بن الإخشيد، و الأمير أبو الحسن عليّ بن الإخشيد فى أيام إمهارتهما بعد أبيهما، فلما استبدّ من بعدهما الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيديّ بإمارة مصر كان كثيرا ما يتنزه به، و يواصل الركوب إلى الميدان الذى كان فيه و كانت خيوله بهذا الميدان.

فلما قدم القائد جوهر من المغرب بجيوش مولاه المعز لدين اللّه لأخذ ديار مصر، أناخ بجوار هذا البستان، و جعله من جملة القاهرة، و كان منتزها للخلفاء الفاطميين مدّة أيامهم، و كانوا يتوصلون إليه من سراديب مبنية تحت الأرض، ينزلون إليها من القصر الكبير الشرقيّ، و يسيرون فيها بالدواب إلى البستان الكافوريّ، و مناظر اللؤلؤة، بحيث لا تراهم الأعين، و ما زال البستان عامرا إلى أن زالت الدولة، فحكر و بنى فيه فى سنة إحدى و خمسين و ستمائة، كما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، عند ذكر الحارات و الخطط من هذا الكتاب، و أما الأقباء و السراديب، فإنها عملت أسربة للمراحيض، و هى باقية إلى يومنا هذا تصب فى الخليج.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۸

القاعة: و كان من جملة القصر الغربيّ قاعة كبيرة هى الآن المارستان المنصورى، حيث المرضى، كانت سكن ست الملك أخت الحاكم بأمر اللّه، و كانت أحوالها متسعة جدّا.

قال فى كتاب الذخائر و التحف: و أهدت السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر اللّه إلى أخيها يوم الثلاثاء التاسع من شعبان سنة سبع و ثمان و ثلثمائة: هدايا من جملتها: ثلاثون فرسا بمركبها ذهبا، منها: مركب واحد مرصع، و مركب من حجر البلور و عشرون بغلة بسروجها و لحمها، و خمسون خادما منهم عشرة صقالبة، و مائة تخت من أنواع الثياب، و فاخرها، و تاج مرصع بنفيس الجوهر، و بديعه و شاشية مرصعة، و أسفاط كثيرة من طيب من سائر أنواعه، و بستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر.

قال: و خلفت حين ماتت فى مستهل جمادى الآخرة من سنة خمس و عشرين و أربعمائة ما لا يحصى كثرة، و كان إقطاعها فى كل سنة يغل خمسين ألف دينار، و وجد لها بعد وفاتها ثمانية آلاف جارية منها بنيات ألف و خمسمائة، و كانت سمحة نبيلة كريمة الأخلاق و الفعل، و كان فى جملة موجودها نيف و ثلاثون زيرا صينيا مملوءا جميعها مسكا مسحوقا، و وجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت ذكر أن فيها عشرة مثاقيل.

قال المسبحيّ: ولدت بالمغرب فى ذى القعدة سنة خمس و ثلثمائة، و لما زالت الدولة عرفت هذه الدار: بالأمير فخر الدين جهاركس موسك ثم بالملك المفضل قطب الدين بن الملك العادل، فلما كان فى شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، شرع الملك المنصور قلاون الألفى فى بنائها مارستانا، و مدرسة و تربة، و تولى عمارتها الأمير علم الدين سنجر الشجاعيّ، مدبر الممالك،

و يقال: إن ذرع هذه الدار عشرة آلاف و ستمائة ذراع.

أبواب القصر الغربيّ

كان لهذا القصر عدّة أبواب: منها: باب الساباط، و باب التبانين، و باب الزمرّذ.

باب الساباط: هذا الباب موضعه الآن باب سرّ المارستان المنصورى الذى يخرج منه الآن إلى الخرنشف و كان من الرسم، أن يذبح فى باب الساباط المذكور، مدّة أيام النحر، و فى عيد الغدير عدّة ذبائح تفرّق على سبيل الشرف.

قال ابن المأمون: فى سنة ست عشرة و خمسمائة، و جملة ما نحره الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و ذبحه خاصة فى المنحر، و باب الساباط دون المأمون، و أولاده و إخوته فى ثلاثة الأيام: ألف و سبعمائة و ستة و أربعون رأسا، فذكر ما كان بالمنحر قال: و فى باب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۷۹

الساباط مما يحمل إلى من حوته القصور، و إلى دار الوزارة، و الأصحاب و الحواشى اثنتا عشرة ناقة، و ثمانية عشر رأس بقر، و خمسة عشر رأس جاموس، و من الكباش: ألف و ثمانمائة رأس، و يتصدّق كل يوم فى باب الساباط بسقط ما يذبح من النوق و البقر.

و قال ابن عبد الظاهر: كان فى القصر باب يعرف بباب الساباط، كان الخليفة فى العيد يخرج منه إلى الميدان، و هو الخرنشف الآن لينحر فيه الضحايا.

باب التبانين: هذا الباب، مكان باب الخرنشف الآن، و جعل فى موضعه دار العلم التى بناها الحاكم الآتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى.

باب الزمرّذ: كان موضع اصطبل القطبية قريبا من باب البستان الكافورىّ الموجود الآن.

ذكر دار العلم

و كان بجوار القصر الغربىّ من بحريه دار العلم، و يدخل إليها من باب التبانين الذى هو الآن يعرف: بقبو الخرنشف، و صار مكان دار العلم الآن، الدار المعروفة: بدار الخضيرى الكائنة بدرب الخضيرى المقابل للجامع الأقمر و دار العلم هذه، اتخذها الحاكم بأمر اللّه، فاستمرّت إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش.

قال الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد اللّه المسبحىّ: و فى يوم السبت هذا يعنى العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس و تسعين و ثلثمائة: فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، و جلس فيها الفقهاء، و حملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة و دخل الناس إليها، و نسخ كل من التمس نسخ شىء مما فيها مما التمسه، و كذلك من رأى قراءة شىء مما فيها، و جلس فيها القرّاء و المنجمون، و أصحاب النحو و اللغة، و الأطباء بعد أن فرشت هذه الدار، و زخرفت و علقت على جميع أبوابها و ممرّاتها الستور، و أقيم قوّام و خدّام و فرّاشون، و غيرهم و سموا بخدمتها، و حصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم، و الآداب و الخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك.

و أباح ذلك كله لسائر الناس، على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب، و النظر فيها فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضا، التى لم يسمع بمثلها من إجراء الرزق السنىّ، لمن رسم له بالجلوس فيها، و الخدمة لها من فقيه و غيره، و حضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، و منهم من يحضر للنسخ، و منهم من يحضر للتعلم، و جعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر، و الأقلام، و الورق و المحابر، و هى الدار المعروفة بمختار الصقلبىّ. قال: و فى سنة ثلاث و أربعمائة: أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸۰

و المنطق و جماعة من الفقهاء منهم: عبد الغنىّ بن سعيد، و جماعة من الأطباء إلى حضرة الحاكم بأمر اللّه، و كانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه، ثم خلع على الجميع و وصلهم، و وقف الحاكم بأمر اللّه أماكن فى فسطاط مصر على عدّة مواضع، و

ضمنها كتابا ثبت على قاضى القضاة: مالك بن سعيد، و قد ذكر عند ذكر الجامع الأزهر، و قال فيه: و قد ذكر دار العلم، و يكون العشر و ثمن العشر لدار الحكمة لما يحتاج إليه فى كل سنة من العين المغربىّ: مائتان و سبعة و خمسون دينارا، من ذلك الثمن الحصر العبدانىّ، و غيرها لهذه الدار عشرة دنانير، و من ذلك لورق الكاتب يعنى الناسخ تسعون دينارا، و من ذلك للخازن بها ثمانية و أربعون دينارا، و من ذلك لثمن الماء اثنا عشر دينارا، و من ذلك للفرّاش خمسة عشر دينارا، و من ذلك للورق و الحبر، و الأقلام لمن ينظر فيها من الفقهاء اثنا عشر دينارا، و من ذلك لمرمّة الستارة: دينار واحد، و من ذلك لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب و ما عساه أن يسقط من ورقها: اثنا عشر دينارا، و من ذلك لثمن لبود للفرش فى الشتاء خمسة دنانير، و من ذلك لثمن طنافس فى الشتاء أربعة دنانير.

و قال ابن المأمون: و فى هذا الشهر يعنى شهر ذى الحجة سنة ست عشرة و خمسمائة جرت نوبة القصار، و هى طويلة، و أوّلها من الأيام الأفضلية، و كان فيهم رجلان يسمى أحدهما: بركات، و الآخر: حميد بن مكىّ الإطفيحىّ القصار، مع جماعة يعرفون بالبديعية، و هم على الإسلام و المذاهب الثلاثة المشهورة، و كانوا يجتمعون فى دار العلم بالقاهرة، فاعتمد بركات من جملتهم أن استفسد عقول جماعة، و أخرجهم عن الصواب، و كان ذلك فى أيام الأفضل فأمر للوقت بغلق دار العلم، و القبض على المذكور، فهرب، و كان من جملة من استفسد عقله بركات المذكور: أستاذان من القصر.

فلما طلب بركات المذكور، و استتر دقق الأستاذان الحيلة إلى أن دخلاه عندهما فى زىّ جارية اشترياها، و قاما بحقه، و جميع ما يحتاج إليه، و صار أهله يدخلون إليه فى بعض الأوقات، فمرض بركات عند الأستاذين، فحارا فى أمره و مداواته، و تعذر عليهما إحضار طبيب له، و اشتدّ مرضه، و مات، فأعملا الحيلة، و عرّفا زمام القصر، أنّ إحدى عجائزهما قد توفيت، و أن عجائزهما يغسلنها على عادة القصور، و يشيعنها إلى تربة النعمان بالقرافة، و كتبا عدّة من يخرج، ففسح لهما فى العدّة، و أخذا فى غسله، و ألبساه ما أخذاه من أهله، و هو ثياب معلمة، و شاشية و منديل، و طيلسان مقوّر، و أدرجوه فى الديبقىّ، و توجه مع التابوت الأستاذان المشار إليهما، فلما قطعوا به بعض الطريق أرادا تكميل الأجر له على قدر عقولهما، فقالا للحمالين: هو رجل تربيته عندنا فنادوا عليه: نداء الرجال، و اكتموا الحال، و هذه أربعة دنانير لكم، فسرّ الحمالون بذلك، فلما عادوا إلى صاحب الدكان عرّفوه بما جرى، و قاسموه الدنانير، فخافت نفسه، و علم أنها قضية لا تخفى، فمضى بهم إلى الوالى، و شرح له القضية فأودعهم فى الاعتقال، و أخذ الذهب منهم، و كتب مطالعة بالحال.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸۱

فمن أوّل ما سمع القائد أبو عبد اللّه بن فاتك الذى قيل له بعد ذلك: المأمون بالقضية، و كان مدبر الأمور فى الأيام الأفضلية قال: هو بركات المطلوب، و أمر بإحضار الأستاذين و الكشف عن القضية، و إحضار الحمالين، و الكشف عن القبر بحضورهم، فإذا تحققوه أمرهم بلعنه، فمن أجاب إلى ذلك منهم أطلقوه، و من أبى أحضروه، فحققوا معرفته، فمنهم من بصق فى وجهه، و تبرّأ منه، و منهم من همّ بتقبيله، و لم يتبرّأ منه، فجلس الأفضل و استدعى الوالى و السياف، و استدعى من كان تحت الحوطة من أصحابه، فكل من تبرّأ منه، و لعنه أطلق سبيله، و بقى من الجماعة ممن لم يتبرّأ منه: خمسة نفر و صبىّ لم يبلغ الحلم، فأمر بضرب رقابهم، و طلب الأستاذين، فلم يقدر عليهما، و قال للصبىّ: من لفظه تبرّأ منه، و أنعم عليك، و أطلق سبيلك فقال له: اللّه يطالبك إن لم تلحقنى بهم، فإنى مشاهد ما هم فيه، و أخذ بسيفه على الأفضل، فأمر بضرب عنقه، فلما توفى الأفضل أمر الخليفة الآمر بأحكام اللّه: وزيره المأمون بن البطائحىّ باتخاذ دار العلم، و أفسد عقل أستاذ و خياط، و جماعة، و ادّعى الربوبية فحضر الداعى ابن عبد الحقيق إلى الوزير المأمون، و عرّفه بأنّ هذا قد تعرّف بطرف من علم الكلام، على مذهب أبى الحسن الأشعرىّ، ثم انسلخ عن الإسلام، و سلك طريق الحلاج فى التمويه فاستهوى من ضعف عقله، و قلة بصيرته، فإنّ الحلاج فى أوّل أمره كان يدّعى أنه: داعية المهدىّ، ثم ادّعى أنه المهدىّ ثم ادّعى الإلهية، و أنّ الجنّ تخدمه، و أنه أحيى عدّة من الطيور، و كان هذا القصار شيعىّ الدين، و جرت له أمور فى الأيام

الأفضلية، و نفى دفعة و اعتقل أخرى، ثم هرب بعد ذلك، ثم حضر و صار يواصل طلوع الجبل، و استصحب من استهواء من أصحابه، فإذا أبعد قال لبعضهم بعد أن يصلى ركعتين: نطلب شيئا تأكله أصحابنا فيمضى، و لا يلبث دون أن يعود، و معه ما كان أعدّه مع بعض خاصته الذين يطلعون على باطنه، فكانوا يهابونه و يعظمونه حتى أنهم يخافون الإثم فى تأمّل صورته، فلا ينفكون مطرقين بين يديه، و كان قصيرا دميم الخلقة، و ادّعى مع ذلك الربوبية و كان ممن اختص بحميد رجل خياط و خصىّ، فرسم المأمون بالقبض على المذكور، و على جميع أصحابه فهرب الخياط، و طلب فلم يوجد، و نودى عليه و بذل لمن يحضر به مال، فلم يقدر عليه، و اعتقل القصار و أصحابه، و قرّروا فلم يقرّوا بشيء من حاله، و بعد أيام تماوت فى الحبس.

فلما استؤمر عليه أمر بدفنه، فلما حمل ليدفن ظهر أنه حىّ، فأعيد إلى الاعتقال، و بقى كل من لم يتبرّأ منه معتقلا ما خلى الخصىّ، فإنه لم يتبرّأ منه، و ذكر أن القتل لا يصل إليه فأمر بقطع لسانه، و رمى قدّامه، و هو مصرّ على ما فى نفسه، فأخرج القصار، و الخصىّ، و من لم يتبرّأ منه من أصحابه فصلبوا على الخشب، و ضربوا بالنشاب، فماتوا لوقتهم، ثم نودى على الخياط ثانيا، فاحضر و فعل به ما فعل بأصحابه بعد أن قيل له: ها أنت تنظره، فلم يتبرّأ منه، و صلب إلى جانبه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸۲

و ذكر أن بعض أصحاب هذا القصار ممن لم يعرف أنه كان يشترى الكافور، و يرميه بالقرب من خشبته التى هو مصلوب عليها، فيستقبل رائحته من سلك تلك الطريق و يقصد بذلك أن يربط عقول من كان القصار قد أضله، فأمر المأمون أن يحطوا عن الخشب، و أن تخلط رممهم و يدفنوا متفرّقين، حتى لا يعرف قبر القصار من قبورهم، و كان قتلهم فى سنة سبع عشرة و خمسمائة، و ابتداء هذه القضية سنة ثلاث عشرة و خمسمائة.

قال: و كان الشريف عبد اللّه يحدّث عن صديق له مأمول القول: إنه أخبره أنه لما شاع خبر هذا القصار، و ما ظهر منه أراد أن يمتحنه، فتسبب إلى أن خالطه، و صار فى جملة أصحابه، و من يعظمه و يطلع معه إلى الجبل، فأفسد عقله، و غير معتقده، و أخرجه عن الإسلام، و أنه لامه على ذلك، و ردعه فحدّثه بعجائب منها أنه قال: و اللّه ما من الجماعة الذين يطلعون معه إلى الجبل أحد إلّا و يسأله، و يستدعيه ما يريد على سبيل الامتحان فيحضره إليه لوقته، و إنّ بيده سكينا لا تقطع إلّا بيده، و إذا أمسك طائرا، و قبضه أحد من الحاضرين يدفع السكين التى معه له، و يقول له: اذبحه، فلا تمشى فى يده، فيأخذها هو و يذبحه بها و يجرى دمه، ثم يعود و يمسكه بيده، و يسرّحه فيطير، و يقول: إنّ الحديد لا يعمل فيه، و يوسع القول فيما يشاهده منه، و يسمعه، فلما اعتقل القصار بقى هذا الرجل مصرّا على اعتقاده، فلما قتل و خرج إليه و شاهده، و تحقق موته علم أن ما كان فيه سحر، و زور و إفك، فتصدّق بجملة من ماله، و عاد إلى مذهبه، و صحّ معتقده.

و قال ابن عبد الظاهر: دار العلم كان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطلها، و هى بجوار باب التبانين، و هى متصلة بالقصر الصغير، و فيها مدفون الداعى: المؤيد فى الدين هبة اللّه بن موسى الأعجمىّ، و كان لإبطالها أمور سببها اجتماع الناس، و الخوض فى المذاهب و الخوف من الاجتماع على المذهب النزارىّ، و لم يزل الخدّام يتوصلون إلى الخليفة الآمر بأحكام اللّه، حتى تحدّث فى ذلك مع الوزير المأمون فقال: أين تكون هذه الدار؟ فقال بعض الخدّام: تكون بالدار التى كانت أوّلا، فقال المأمون: هذا لا يكون لأنه باب صار من جملة أبواب القصر، و برسم الحوائج، و لا يمكن الاجتماع و لا يؤمن من غريب يتحصل به، فأشار كل من الأستاذين بشيء، فأشار بعضهم أن تكون فى بيت المال القديم، فقال المأمون: يا سبحان اللّه قد منعنا أن تكون متاخمة للقصر الكبير الذى هو سكن الخليفة نجعلها ملاصقة؟ فقال الثقة زمام القصور: فى جوارى موضع ليس ملاصقا للقصر، و لا مخالطا له يجوز أن يعمر، و يكون دار العلم، فأجاب المأمون إلى ذلك و قال: بشرط أن يكون متوليها رجلا دينا، و الداعى الناظر فيها، و يقام فيها متصدّرون برسم قراءة القرآن، فاستخدم فيها أبو محمد حسن بن آدم، فتولاها، و شرط عليه ما تقدّم ذكره، و استخدم فيها مقرئون.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸۳

ذكر دار الضيافة

خرّج مالك فى الموطأ: عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام أوّل من ضيّف الضيف، و أوّل من اتخذ دار ضيافة الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فى سنة سبع عشرة، و أعدّ فيها الدقيق و السمن و العسل و غيره، و جعل بين مكة و المدينة من يحمل المنقطعين من ماء إلى ماء حتى يوصلهم إلى البلد، فلما استخلف عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، أقام الضيافة لأبناء السبيل، و المتعبدين فى المسجد و أوّل من بنى دار الضيافة بمصر للناس: عثمان بن قيس بن أبى العاص السهمىّ، أحد من شهد فتح مصر من الصحابة، و كان ميدان القصر الغربىّ الذى هو الآن الخرنشف دار الضيافة بحارة برجوان ، و كانت هذه الدار أوّلا- تعرف: بدار الأستاذ برجوان، و فيها كان يسكن حيث الموضع المعروف بحارة برجوان، ثم لما قدم أمير الجيوش بدر الجمالىّ فى أيام الخليفة المستنصر من عكا، و استبدّ بأمر الدولة أنشأ هناك دارا عظيمة، و سكنها و لم يسكن بدار الديباج التى كانت دار الوزارة القديمة.

فلما مات أمير الجيوش بدر، و استولى سلطنة ديار مصر ابنه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش، و أنشأ دار القباب التى عرفت: بدار الوزارة الكبرى قريبا من رحبة باب العيد، أقرّ أخاه أبا محمد جعفرا المنعوت: بالمظفر ابن أمير الجيوش، بدار أمير الجيوش من حارة برجوان، فعرفت: بدار المظفر، و ما زال بها حتى مات، و قبر بها، و إلى اليوم قبره بها، و تسميه العامّة: جعفرا الصادق. و لما مات المظفر اتخذت داره المذكورة دار ضيافة برسم الرسل الواردين من الملوك، و استمرّت كذلك إلى أن انقرضت الدولة، فأنزل بها السلطان صلاح الدين أولاد العاضد إلى أن نقلهم إلى قلعة الجبل، الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب.

فلما كان فى سنة تسع و سبعين و ستمائة، تقدّم أمر الملك المنصور قلاون لوكيل بيت المال القاضى: مجد الدين عيسى بن الخشاب ببيع دار المظفر، فباع القاعة الكبرى، و ما هو من حقوقها، و بيعت دار المظفر الصغرى، و هدمها الناس، و بنوا فى مكانها دورا، و موضعها الآن دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسىّ الحنفىّ، و ما بجوارها إلى الدار التى بها سكنى اليوم، و هى من حقوق دار المظفر الصغرى، على ما فى كتبها القديمة، و لما أنشأ قاضى القضاة شمس الدين المذكور داره: فى سنة سبع أو سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة، ظهر من تحت الأرض عند حفر الأساس حجر عظيم، قيل: إنه عتبة دار المظفر الكبرى، و كان إذ

ذاك الأمير جهاركس الخليلىّ يتولى عمارة مدرسة الملك الظاهر برقوق، التى فى خط بين القصرين، فلما بلغه خبر هذا الحجر بعث إليه، و أمر بجرّه إلى العمارة، فعمل عتبة باب المزمّلة، التى للمدرسة و كان من وراء هذه الدار، رحبة الأفيال أدركتها ساحة ثم عمر فيها.

قال ابن الطوير: الخدمة المعروفة: بالنيابة للقاء المرسلين، و هى خدمة جليلة يقال لمتوليها النائب، و ينعت بعدى الملك، و هو ينوب عن صاحب الباب فى لقاء الرسل الوافدين على مسافة، و إنزال كل واحدة فى دار تصلح له، و يقيم له من يقوم بخدمته، و له نظير فى دار الضيافة، و هو يسمى اليوم بمهمندار، و يرتب لهم ما يحتاجون إليه، و لا يمكن أحدا من الاجتماع بهم، و يذكر صاحب الباب بهم، و يبالغ فى نجاز ما وصلوا فيه، و هو الذى يسلم بهم أبدا عند الخليفة و الوزير، و ينفذ بهم، و يستأذن عليهم، و يدخل الرسول و صاحب الباب قابض على يده اليمنى، و النائب بيده اليسرى، فيحفظ ما يقولون، و ما يقال لهم، و يجتهد فى انفصالهم على أحسن الوجوه، و بين يديه من الفرّاشين المقدّم ذكرهم عدّة لإعانته و إذا غاب أقام عنه نائبا إلى أن يعود و له من الجارى خمسون دينارا فى كل شهر، و فى اليوم نصف قنطار خبز، و قد يهدى إليه المرسلون طرفا فلا يتناولها إلّا بإذن، انتهى.

و فى هذه الدولة التركية يقال لمتولى هذه الوظيفة: مهمندار، و لا يليها عندهم إلّا صاحب سيف من الأمراء العشراوات، و كانت فى الدولة الفاطمية على ما ذكره ابن الطوير:

لا يليها إلّا أعيان العدول، و أرباب العمائم، و ينعت أبدا بعدى الملك، و أصل هذه الكلمة الفارسية: مهمان دار (و معناها ملتقى الضيوف).

ذكر اصطبل الحجريّة

و كان بجوار دار الضيافة: اصطبل الصبيان الحجرية المقدّم ذكرهم، و موضع هذا الاصطبل اليوم يعرف: بخان الوراقة داخل باب الفتوح القديم، بسوق المرحلين، على يسرة من أراد الخروج من باب الفتوح القديم، تجاه زيادة الجامع الحاكمىّ، و من حقوق هذا الاصطبل أيضا الموضع الذى فيه الآن القيسارية المعروفة بقيسارية الست التى هى اليوم تجاه المدرسة الصيرمية، و الجملون الصغير، و كانت بهذه الإصطبل خيول الصبيان الحجرية إحدى طوائف العساكر فى زمن الخلفاء الفاطميين.

ذكر مطبخ القصر

و كان بجوار القصر الغربىّ قبالة باب الزهومة من القصر الكبير: مطبخ القصر، و موضعه الآن: الصاغة تجاه المدارس الصالحية، و لما كانت مطبخا، كان يخرج إليه من باب الزهومة، و ذكر ابن عبد الظاهر: أنه كان يخرج من المطبخ المذكورة مدّة شهر رمضان:

ألف و مائتا قدر من جميع ألوان الطعام، تفرّق كل يوم على أرباب الرسوم و الضعفاء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸۵

درب السلسلة: و كان بجوار مطبخ القصر: درب السلسلة، قال ابن الطوير: و يبيت خارج باب القصر فى كل ليلة خمسون فارسا، فإذا أذن بالعشاء الآخرة داخل القاعة، و صلى الإمام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين و غيرهم وقف على باب القصر أمير يقال له: سنان الدولة بن الكركندىّ، فإذا علم بفراغ الصلاة، أمر بضرب النوبات من الطبل و البوق، و لوائقهما من عدّة وافرة بطرائق مستحسنة مدّة ساعة زمانية، ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة، فيقول أمير المؤمنين يردّ على سنان الدولة السلام، فيصقع و يغرس حربة على الباب ثم يرفعها بيده، فإذا رفعها أغلق الباب، و سار حوالى القصر سبع دورات، فإذا انتهى ذلك جعل على الباب البياتين و الفرّاشين المقدّم ذكرهم، و انصرف المؤذنون إلى خزانتهم هناك، و ترمى السلسلة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين، فينقطع المار من ذلك المكان إلى أن تضرب النوبة سحرا قرب الفجر، فتنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلة.

و قال ابن عبد الظاهر: درب السلسلة الذى هو الآن إلى جانب السيوفيين كانت عنده سلسلة منه إلى قبالته، تعلق كل يوم من الظهر، حتى لا يعبر راكب تحت القصر، و هذا الدرب يعرف: بسنان الدولة بن الكركندىّ، و هذا الدرب هو المختص بالتقفيزة، و هذه التقفزية أمرها مستظرف، لا من قبل الحسن، بل من قبل التعجب من العقول.

و لها خمسة أوقات، و هى: ليالى العيدين، و غرّة السنة، و غرّة شهر رمضان و يوم فتح الخليج، و هو: أنه يقف راكبا فى وسط الزلاقة التى لباب الذهب، قبالة الدار القطبية، فيخرج إليه السلام من الخليفة، ثم يخدم الرهجية، ثم يصعد على كندرة باب الزهومة، و قدّامه دواب المظلة يمنة و يسرة، و الرهجية تخدم و أرباب الضوء، و مستخدمو الطرق على السلسلة، فإذا كان الطرف وصلوا إليه، و اجتمعت الرهجية كلهم، و ركب فرسا و عليه ثياب حسنة، و كشف عن راياته، و أخذ بيده رمحا، و اجتمعت الرهجية حوله، و يعبر مشورا، و أولئك خلفه بالصراخ و الصياح بشعار الإمام، ثم يسير بذاك الجمع و خيل المظلة إلى أبواب القصر، فيقف عند كل باب تخدم الرهجية إلى أن يعودوا إلى باب الذهب، ثم إلى دار الوزارة للهناء، فلم يزالوا كذلك إلى ولاية ابن الكركندى فبطلت هذه السنة فى الأيام الآمرية، و صاحب التقفيزة: ممن واصل آباؤه صحبة المعز لدين اللّه من بلاد المغرب فكانت هذه سنتهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸۶

ذكر الدار المأمونية

و كان بجوار درب السلسلة الدار المأمونية، و هى المدرسة السيوفية، و كانت هذه الدار سكن المأمون ابن البطائحى، و عرفت قديما، بقوام الدولة حبوب، ثمجدّدها المأمون محمد ابن فاتك.

المأمون البطائحى: هو أبو عبد اللّه محمد ابن الأمير نور الدولة أبى شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى، اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش فى شهر شوّال سنة إحدى و خمسمائة، عند ما تغير على تاج المعالى المختار الذى كان اصطنعه، و فخم أمره و سلم إليه خزائن أمواله، و كسواته، و سلم ما كان بيده من الخدمة لمحمد بن فاتك، فتصرّف فيها، و قرّر له الأفضل ما كان باسم مختار من العين خاصة دون الإقطاع، و هو مائة دينار فى كل شهر، و ثلاثون دينارا عن جارى الخزائن مضافا إلى الأصناف الراتبة مياومة و مشاهرة و مسانهة فحسن عند الأفضل موقع خدمته، فاعتمد عليه و سلم له جميع أموره، و صرّفه فى كل أحواله.

فلما كثر عليه الشغل استعان بأخويه أبى تراب حيدرة، و أبى الفضل جعفر، فأطلق الأفضل لهما ما وسع به عليهما من المياومة و المشاهرة و المسانهة، و نعته الأفضل بالقائد، فصار يخاطب بالقائد، و يكاتب به، و صار عنده بمنزلة الأستادار ، فلما قتل الأفضل ليلة عيد الفطر من سنة خمس عشرة و خمسمائة، قام القائد أبو عبد اللّه بن فاتك لخدمة الخليفة الآمر بأحكام اللّه و أطلعه على أموال الأفضل، و بالغ فى مناصحته، حتى لقد اتهم أنه هو الذى دبر فى قتل الأفضل بإشارة الخليفة، فخلع عليه الآمر فى مستهل ذى القعدة، بمجلس اللعبة من القصر، و هو المجلس الذى يجلس فيه الخليفة، و لم يخلع قبله على أحد فيه، و حل المنطقة من وسطه، و خلع على ولده، و حل منطقته، و خلع على إخوته، و استمرّ تنفيذ الأمور إليه إلى أن استهل ذو الحجة، ففى يوم الجمعة ثانية، خلع عليه من الملابس الخاص فى فرد كمّ مجلس اللعبة طوق ذهب مرصع، و سيف ذهب كذلك، و سلم على الخليفة، و تقدّم الأمر للأمراء، و كافة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه، و أن يركب من المكان الذى كان الأفضل يركب منه، و مشى فى ركابه القوّاد، على عادة من تقدّمه، و خرج بتشريف الوزارة، و دخل من باب العيد راكبا، و وصل إلى داره، فضاعف الرسوم، و أطلق الهبات.

فلما كان يوم الاثنين خامسه اجتمع الأمراء بين يدى الخليفة، و أحضر السجل فى لفافة خاص مذهبة، فسلمه الخليفة له من يده فقبله، و سلمه لزمام القصر، فأمره الخليفة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸۷

بالجلوس إلى جانبه عن يمينه، و قرىء السجل على باب المجلس، و هو أوّل سجل قرىء هناك، و كانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان، و رسم للشيخ أبى الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست أن ينقل نسبة الأمراء، و المحنكين من الآمرىّ إلى المأمونىّ، و كذا الناس أجمع، و لم يكن أحد ينتسب إلى الأفضل، و لا لأمير الجيوش، و قدّمت له الدواة، فعلم فى مجلس الخليفة، و نعت بالسيد الأجل، المأمون تاج الخلافة و وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين، أمير الجيوش سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، و هادى دعاة المؤمنين، و كان يجلس بداره فى يومى الأحد و الأربعاء للراحة و النفقة فى العسكر البساطية إلى الظهر، ثم يرفع النفقة، و يحط السماط، و يجلس بعد العصر، و الكتاب بين يديه، فينفق فى الراجل إلى آخر النهار، و فى يوم الجمعة يطلق للمقرئين بحضرته خمسة دنانير، و لكل من هو مستمرّ القراءة على بابه من الضعفاء، و الأجراء مما هو ثابت بأسمائهم: خمسمائة درهم، و لبقية الضعفاء و المساكين: خمسمائة درهم أخرى.

فإذا توجه يوم الجمعة إلى القرافة يكون المبلغ المذكور مستقرّا لأربابه، و لم يزل إلى ليلة السبت الرابع من رمضان سنة تسع عشرة و خمسمائة، فقبض الآمر المذكور عليه، و على إخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من خواصه و أهله، و اعتقله ثم صلبه مع إخوته فى سنة اثنتين و عشرين.

قيل: إن سبب القبض عليه ما بلغ الآمر عنه أنه بعث إلى الأمير جعفر بن المستعلى يغريه بقتل أخيه، ليقيمه مكانه فى الخلافة، و كان الذى بلّغ الآمر ذلك الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة، و بلغه أيضا عنه أنه: سير نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن ليضرب سكة عليها،

الإمام المختار محمد بن نزار، و ذكر عنه أنه سمّ شيئا، و دفعه لقصاد الخليفة، فنمّ عليه القصاد.

و كان مولد المأمون فى سنة ثمان و سبعين و أربعمائة، و كان من ذوى الآراء، و المعرفة التامّة بتدبير الدول كريما واسع الصدر سفاكا للدماء، كثير التحرّز و التطلع إلى معرفة أحوال الناس من العامّة و الجند، فكثر الوشاة فى أيامه.

حبس المعونة: و كان بجوار الدار المأمونية حبس المعونة، و موضعه اليوم: قيسارية العنبر.

قال ابن المأمون فى سنة سبع عشرة و خمسمائة: تقدّم أمر المأمون إلى الواليين بمصر و القاهرة بإحضار عرفاء السقائين و أخذ الحجج على المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم، متى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸۸

دعت الحاجة إليهم ليلا و نهارا، و كذلك يعتمد فى القربيين، و أن يبيتوا على باب كل معونة، و معهم عشرة من الفعلة بالطوارىء و المساحى، و أن يقوما لهم بالعشاء من أموالهما بحكم فقرهم، انتهى.

و كان حبس المعونة هذا يسجن فيه أرباب الجرائم، كما هو اليوم السجن المعروف:

بخزانة شمائل، و أما الأمراء، و الأعيان، فيسجنون: بخزانة البنود، كما تقدّم، و لم يزل هذا الموضع سجنا مدّة الدولة الفاطمية، و مدّة دولة بنى أيوب إلى أن عمره: الملك المنصور قلاون قيسارية، أسكن فيها العنبرانيين فى سنة ثمانين و ستمائة.

ذكر الحسبة و دار العيار

و كان بجوار حبس المعونة: دكة الحسبة، و مكانها اليوم يعرف: بالإبازرة، و مكسر الحطب بجوار سوق القصارين و الفحامين.

قال ابن الطوير: و أما الحسبة، فإنّ من تسند إليه لا يكون إلّا من وجوه المسلمين و أعيان المعدّلين لأنها خدمة دينية، و له استخدام النوّاب عنه بالقاهرة و مصر، و جميع أعمال الدولة، كنوّاب الحكم، و له الجلوس بجامعى القاهرة و مصر يوما بعد يوم، و يطوف نوّابه على أرباب الحرف، و المعايش و يأمر نوّابه بالختم على قدور الهرّاسين، و نظر لحمهم و معرفة من جزاره، و كذلك الطباخون و يتتبعون الطرقات، و يمنعون من المضايقة فيها، و يلزمون رؤساء المراكب أن لا يحملوا أكثر من وسق السلامة، و كذلك مع الحمالين على البهائم و يأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية، و لهم عيار: و هو أربعة و عشرون دلوا، كل دلو: أربعون رطلا، و أن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم، و هى زرق، و ينذرون معلمى المكاتب بأن لا يضربوا الصبيان ضربا مبرّحا، و لا فى مقتل، و كذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس، و يقفون على من يكون سيء المعاملة، فينهونه بالردع و الأدب، و ينظرون المكاييل و الموازين، و للمحتسب النظر فى دار العيار، و يخلع عليه و يقرأ سجله بمصر و القاهرة على المنبر، و لا يحال بينه، و بين مصلحة إذا رآها، و الولاة تشدّ معه إذا احتاج إلى ذلك و جاريه: ثلاثون دينارا فى كل شهر، انتهى.

و كان للعيار: مكان يعرف بدار العيار تعير فيه الموازين بأسرها، و جميع الصنج، و كان ينفق على هذه الدار من الديوان السلطانىّ، فيما تحتاج إليه من الأصناف كالنحاس و الحديد و الخشب و الزجاج، و غير ذلك من الآلات، و أجر الصناع و المشارفين و نحوهم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۸۹

و يحضر المحتسب أو نائبه إلى هذه الدار ليعير المعمول فيها بحضوره، فإن صح ذلك أمضاه، و إلّا أمر بإعادة عمله، حتى يصح، و كان بهذه الدار أمثلة يصحح بها العيار، فلا تباع الصنج، و الموازين و الأكيال، إلّا بهذه الدار، و يحضر جميع الباعة إلى هذه الدار باستدعاء المحتسب لهم، و معهم موازينهم، و صنجهم و مكاييلهم، فتعير فى كل قليل، فإن وجد فيها الناقص استهلك، و أخذ من صاحبه لهذه الدار، و ألزم بشراء نظيره، مما هو محرّر بهذه الدار، و القيام بثمنه، ثم سومح الناس و صار يلزم من يظهر فى ميزانه أو صنجه خلل بإصلاح ما فيها من فساط فقط، و القيام بأجرته فقط، و ما زالت هذه الدار باقية جميع الدولة الفاطمية.

فلما استولى صلاح الدين على السلطنة أقرّ هذه الدار، و جعلها وقفا على سور القاهرة مع كان جاريا فى أوقاف السور من الرباع و

النواحى الجارية فى ديوان الأسوار، و ما زالت هذه الدار باقية.

اصطبل الجميزة: و كان بجوار القصر الغربىّ من قبليه اصطبل الجميزة من جانب باب الساباط الذى هو الآن: باب سرّ المارستان المنصورىّ، و قيل له: اصطبل الجميزة من أجل أنه كان فى وسطه شجرة جميز كبيرة، و كان موضع هذا الاصطبل، تجاه من يخرج من باب الساباط، فينزل من الحدرة التى هى الآن تجاه باب سرّ المارستان المتوصل منها إلى حارة زويلة، و يمتدّ فيما حاذاه يسارك، إذا وقفت بأوّل هذه الحدرة، حيث الطاحون الكبيرة التى هى الآن فى أوقاف المارستان، و ما وراءها و يحاذيها إلى الموضع المعروف اليوم:

بالبندقانيين، و كانت بئره تعرف: ببئر زويلة، و عليها ساقية تنقل الماء لشرب الخيول، و موضع هذا البئر اليوم: قيسارية تعرف بقيسارية يونس تجاه درب الأنجب، و قد شاهدت هذه البئر، لما أنشأ الأمير يونس الدوا دار هذه القيسارية و الربع علوها، فرأيت بئرا كبيرة جدّا، و قد عقد على فوهتها عقد ركب فوقه بعض القيسارية، و ترك منها شىء، و منها الآن الناس تسقى بالدلاء، و ما زال هذا الاصطبل باقيا إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية، فحكر و بنى فى مكانه الآدار التى هى موجودة الآن، و حكره جار فى أوقاف الصلاح الأزبكىّ، و قد تقدّم ذكر هذا الاصطبل عند ذكر اصطبل الطارمة، فانظر رسومه هناك.

دار الديباج : و كان بجوار اصطبل الطارمة من غربيه: دار الديباج، و هى حيث المدرسة الصاحبية بسويقة الصاحب و ما جاورها من جانبها، و ما خلفها إلى الوزيرية، و كانت هى: دار الوزارة القديمة، و أوّل من أنشأها: الوزير يعقوب بن يونس بن كاس وزير العزيز بالله، ثم سكنها الوزير الناصر للدين قاضى القضاة، و داعى الدعاة علم المجد أبو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۰

محمد الحسن بن علىّ بن عبد الرحمن البازورىّ، و ما زالت سكن الوزراء إلى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالىّ من عكا، و وزره المستنصر، و صار وزيرا مستبدّا، فأنشأ داره: بحارة برجوان، و سكنها و سكن من بعده ابنه الأفضل ابن أمير الجيوش بدار القباب التى عرفت:

بدار الوزارة الكبرى، و صارت هذه الدار تعرف: بدار الديباج، لأنه يعمل فيها الحرير الديباج، و يتولاها الأماثل و الأعيان.

فمن وليها أبو سعيد بن قرقة الطبيب متولى خزائن السلاح، و خزائن السروج و الصناعات، فلما انقرضت الدولة الفاطمية بنى الناس فى مكان دار الديباج المدرسة السيفية، و ما وراءها من المواضع التى تعرف أماكنها اليوم: بدرب الحريرىّ، و ما جاور هذا الدرب إلى المدرسة الصاحبية، و ما بجوارها و ما هو فى ظهرها، فصار يعرف خط دار الديباج فى زمننا بخط سويقة الصاحب.

الأهراء السلطانية : و كانت أهراء الغلال السلطانية فى دولة الخلفاء الفاطميين حيث المواضع التى فيها الآن خزانة شمائل، و ما وراءها إلى قرب الحارة الوزيرية.

قال ابن الطوير: و أما الأهراء فإنها كانت فى عدّة أماكن بالقاهرة و هى اليوم:

اصطبلات و مناخات، و كانت تحتوى على ثلثمائة ألف أردب من الغلات، و أكثر من ذلك.

و كان فيها مخازن يسمى أحدها: بغداى، و آخر: الفول، و آخر: القرافة، و لها الحماة من الأمراء و المشارفين من العدول، و المراكب واصلة إليها بأصناف الغلات إلى ساحل مصر، و ساحل المقس، و الحمالون يحملون ذلك إليها بالرسائل على يد رؤساء المراكب، و أمنائها من كل ناحية سلطانية، و أكثر ذلك من الوجه القبلىّ، و منها إطلاق الأقوات لأرباب الرتب و الخدم و أرباب الصدقات، و أرباب الجوامع، و المساجد، و جرايات العبيد السودان بتعريفات، و ما ينفق فى الطواحين برسم خاص الخليفة، و هى طواحين مدارها سفل، و طواحينها علو حتى لا تقارب زبل الدواب، و يحمل دقيقها للخاص، و ما يختص بالجهات فى خرائط من شقق حلبية.

و من الأهراء تخرج جرايات رجال الأسطول، و فيها ما هو قديم يقطع بالمساحى، و يخلط فى بعض الجرايات بالجديد بجرايات المذكورين و جرايات السودان، و منها ما يستدعى بدار الضيافة لإخباز الرسل، و من يتبعهم، و ما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد

الأسطول، فلا يفتر مستخدموها من دخل و خرج و لهم جامكية مميزة، و جرايات برسم أقواتهم، و شعير لدوابهم و ما يقبض من الواصلين بالغلال إلّا ما يماثل العيون المختومة معهم، و إلّا ذرّى، و طلب العجز بالنسبة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۱

و ذكر ابن المأمون: أن غلّات الوجه القبلىّ، كانت تحمل إلى الأهراء، و أما الأعمال البحرية، و البحيرة و الجزيرتان و الغربية و الكفور، و الأعمال الشرقية، فيحمل منها اليسير، و يحمل باقيها إلى الإسكندرية، و دمياط و تنيس ليسير إلى ثغر عسقلان، و ثغر صور، و إنه كان يسير إليهما فى كل سنة مائة و عشرون ألف أردب، منها العسقلان خمسون ألفا، و لصور: سبعون ألفا، فيصير هناك ذخيرة، و يباع منها عند الغنى عنها.

قال: و كان متحصل الديوان فى كل سنة ألف ألف أردب.

و ذكر جامع السيرة البازورية: أن المتجر كان يقام به للديوان من الغلة، و أن الوزير أبا محمد البازورىّ قال للخليفة المستنصر: و هو يومئذ يتقلّد وظيفة قاضى القضاة، و قد قصر النيل فى سنة أربع و أربعين و أربعمائة و لم يكن بالمخازن السلطانية غلال، فاشتدّت المسغبة بأمير المؤمنين: إنّ المتجر الذى يقام بالغلة فيه أو فى مضرّة على المسلمين، و ربما أقحط السعر من مشتراها، و لا يمكن بيعها، فتتغير فى المخازن و تتلف، و إنه يقام متجر لا كلفة فيه على الناس، و يفيد أضعاف فائدة الغلة، و لا يخشى عليه من تغير فى المخازن، و لا انحطاط سعر، و هو الصابون و الخشب و الحديد، و الرصاص، و العسل، و ما أشبه ذلك، فأمضى الخليفة ما رآه، و استمرّ ذلك و دام الرخاء على الناس و توسعوا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۲

ذكر المناظر التى كانت للخلفاء الفاطميين، و مواضع نزههم ما كان لهم فيها من أمور جميلة

اشارة

و كان للخلفاء الفاطميين: مناظر كثيرة بالقاهرة و مصر، و الروضة، و القرافة، و بركة الحبش، و ظواهر القاهرة، و كانت لهم عدّة منتزهات أيضا فمن مناظرهم التى بالقاهرة:

منظرة الجامع الأزهر، و منظرة اللؤلؤة على الخليج، و منظرة الدكة، و منظرة المقس، و منظرة باب الفتوح، و منظرة البعل، و منظرة التاج، و الخمس وجوه، و منظرة الصناعة بمصر، و دار الملك، و منازل العز، و الهودج بالروضة، و منظرة بركة الحبش، و الأندلس بالقرافة و قبة الهواء، و منظرة السكرة، و كان من منتزهاتهم كسر خليج أبى المنجا، و قصر الورد بالخرقانية، و بركة الجب.

منظرة الجامع الأزهر: و كان بجوار الجامع الأزهر من قبليه: منظرة تشرف على الجامع الأزهر يجلس الخليفة فيها لمشاهدة ليالى الوقود.

ذكر ليالى الوقود : قال المسبحىّ فى حوادث شهر رجب من سنة ثمانين و ثلثمائة:

و فيه خرج الناس فى لياليه على رسمهم فى ليالى الجمع، و ليلة النصف إلى جامع القاهرة يعنى الجامع الأزهر عوضا عن القرافة، و زيد فيه فى الوقيد على حافات الجامع، و حول صحنه التنانير، و القناديل، و الشمع على الرسم فى كل سنة، و الأطعمة، و الحلوى و البخور فى مجامر الذهب و الفضة، و طيف بها، و حضر القاضى محمد بن النعمان فى ليلة النصف بالمقصورة، و معه شهوده و وجوه البلد، و قدّمت إليه سلال الحلوى و الطعام، و جلس بين يديه القرّاء، و غيرهم و المنشدون، و الناحة و أقام إلى نصف الليل، و انصرف إلى داره بعد أن قدّم إلى من معه أطعمة من عنده و بخرهم.

و قال فى شعبان و كان الناس فى كل ليلة جمعة، و ليلة النصف على مثل ما كانوا عليه فى رجب، و أزيد، و فى ليلة النصف من شعبان: كان الناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء، و القرّاء، و المنشدين، و حضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده، و

وجوه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۳

البلد، و وقدت التنانير و المصابيح على سطح الجامع، و دور صحنه، و وضع الشمع على المقصورة و فى مجالس العلماء، و حمل إليهم العزيز بالله بالأطعمة، و الحلوى و البخور، فكان جمعا عظيما.

قال: و فى شهر رجب سنة اثنتين و أربعمائة: قطع الرسم الجارى من الخبز، و الحلوى الذى يقام فى هذه الثلاثة الأشهر لمن يبيت بجامع القاهرة فى ليالى الجمع، و الأنصاف و حضر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقىّ إلى جامع القاهرة ليلة النصف من رجب، و اجتمع الناس بالقرافة على ما جرت به رسومهم من كثرة اللعب و المزاح.

روى الفاكهىّ فى كتاب مكة: أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، كان يصيح فى أهل مكة، و يقول: يا أهل مكة أوقدوا ليلة هلال المحرّم فأوضحوا فجاجكم لحاج بيت اللّه، و احرسوهم ليلة هلال المحرّم، حتى يصبحوا، و كان الأمر على ذلك بمكة فى هذه الليلة، حتى كانت ولاية عبد اللّه بن محمد بن داود على مكة، فأمر الناس أن يوقدوا ليلة هلال رجب، فيحرسوا عمار أهل اليمن، ففعلوا ذلك فى ولايته، ثم تركوه بعد.

و فى ليلة النصف من رجب سنة خمس عشرة و أربعمائة: حضر الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه أبو هاشم علىّ بن الحاكم بأمر اللّه، و معه السيدات، و خدم الخاصة و غيرهم، و سائر العامّة و الرعايا، فجلس الخليفة فى المنظرة، و كان فى ليلة شعبان أيضا اجتماع لم يشهد مثله من أيام العزيز بالله، و أوقدت المساجد كلها أحسن و قيد، و كان مشهدا عظيما بعد عهد الناس بمثله، لأنّ الحاكم بأمر اللّه كان أبطل ذلك، فانقطع عمله.

و قال ابن المأمون: و لما كانت ليلة مستهل رجب، يعنى من سنة ست عشرة و خمسمائة عملت الأسمطة الجارى بها العادة، و جلس الخليفة الآمر بأحكام اللّه عليها، و الأجلّ المأمون الوزير، و من جرت عادته بين يديه، و أظهر الخليفة من المسرّة و الانشراح، ما لم تجريه عادته، و بالغ فى شكره وزيره، و إطرائه و قال: قد أعدت لدولتى بهجتها، و جدّدت فيها من المحاسن ما لم يكن، و قد أخذت الأيام نصيبها من ذلك، و بقيت الليالى و قد كان بها مواسم قد زال حكمها، و كان فيها توسعة و برّ و نفقات، و هى ليالى الوقود الأربع، و قد آن وقتهنّ فأشتهى نظرهنّ، فامتثل الأمر و تقدّم بأن يحمل إلى القاضى خمسون دينارا يصرفها فى ثمن الشمع.

و أن يعتمد الركوب فى الأربع الليالى و هى: ليلة مستهل رجب، و ليلة نصفه، و ليلة مستهل شعبان، و ليلة نصفه، و أن يتقدّم إلى جميع الشهود بأن يركبوا صحبته، و أن يطلق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۴

للجوامع و المساجد توسعة فى الزيت برسم الوقود، و يتقدّم إلى متولى بيت المال بأن يهتمّ برسم هذه الليالى من أصناف الحلاوات مما يجب برسم القصور، و دار الوزارة خاصة.

و قال فى سنة سبع عشرة و خمسمائة: و فى الليلة التى صبيحتها مستهل رجب، حضر القاضى أبو الحجاب يوسف بن أيوب المغربىّ، و وقع له بما استجدّ إطلاقه فى العام الماضى، و هو خمسون دينارا من بيت المال، لابتياع الشمع برسم أوّل ليلة من رجب، و استدعى ما هو برسم التعبيتين، إحداهما: للمقصورة، و الأخرى: للدار المأمونية بحكم الصيام من مستهل رجب إلى سلخ رمضان ما يصنع فى دار الفطرة خشكنانج صغير و بسندود فى كل يوم قنطار سكر و مثقالان مسكا، و ديناران مؤنة.

و كان يطلق فى أربع ليالى الوقود برسم الجوامع الستة: الأزهر و الأقمر و الأنور بالقاهرة، و الطولونىّ، و العتيق بمصر، و جامع القرافة، و المشاهد التى تضمنت الأعضاء الشريفة، و بعض المساجد التى لأربابها و جاهة جملة كبيرة من الزيت الطيب، و يختص بجامع راشدة، و جامع ساحل الغلة بمصر و الجامع بالمقس يسير قال: و لقد حدّثنى القاضى المكين بن حيدرة، و هو من أعيان الشهود أنّ من جملة الخدم التى كانت بيده مشارفة الجامع العتيق، و أن القومة بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود بمدّة إلى أن يكملوا ثمانية عشر

ألف فتيلة، و أنّ المطلق برسمه خاصة فى كل ليلة برسم وقوده: أحد عشر قنطارا و نصف قنطار زيت طيب. و ذكر ركوب القاضى و الشهود فى الليلة المذكورة على جارى العادة.

قال: و توجه الوزير المأمون يوم الجمعة ثانى الشهر بموكبه إلى مشهد السيدة نفيسة، و ما بعده من المشاهد، ثم إلى جامع القرافة، و بعده إلى الجامع العتيق بمصر، و قد عمّ معروفه جميع الضعفاء، و قومة المساجد و المشاهد، و صلى الجمعة و عند انقضاء الصلاة، احضر إليه الشريف الخطيب المصحف الذى بخط أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، فوقع بإطلاق ألف دينار من ماله، و أن يصاغ عليه فوق حلية الفضة حلية ذهب، و كتب عليه اسمه، و فى الخامس عشر من الشهر المذكور ليلة الوقود جرى الحال فى ركوب القاضى، و شهوده على الترتيب الذى تقدّم فى أوّل الشهر، و لما وصل إلى الجامع وجده قد عبىء فى الرواق الذى عن يمين الخارج منه سماط كعك، و خشكنانج، و حلوى، فجلس عليه بشهود، و نهبه الفقراء، و المساكين، و توجه بعده إلى ما سواه من جامع القرافة و غيره، فوجد فى رواق الجامع المذكور سماطا مثل السماط المذكور، فاعتمد فيه على ما ذكره، و له أيضا رسم صدقة فى هذا النصف للفقراء، و أهل الربط، مما يفرّقه القاضى عشرة دنانير يفرّقها القاضى.

و قال ابن الطوير: إذا مضى النصف من جمادى الآخرة، و كان عدده عندهم تسعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۵

و عشرين يوما، أمر أن يسبك فى خزائن دار أفتكين: ستون شمعة وزن كل شمعة منها:

سدس قنطار بالمصرىّ، و حملت إلى دار قاضى القضاة لركوب ليلة مستهل رجب، فإذا كان بعد صلاة العصر من ذلك اليوم اهتمّ الشهود أيضا، فمنهم من يركب بثلاث شمعات إلى اثنتين إلى واحدة، و يمضى أهل مصر منهم إلى القاهرة، فيصلون المغرب فى الجوامع و المساجد، ثم ينتظرون ركوب القاضى، فيركب من داره بهيئته، و أمامه الشمع المحمول إليه موقودا مع المندوبين لذلك من الفرّاشين من الطبقة السفلى، من كل جانب: ثلاثون شمعة، و بينهما المؤذنون بالجوامع يذكرون اللّه تعالى، و يدعون للخليفة و الوزير، بترتيب مقدّر محفوظ، و ينـدب فى حجبته: ثلاثة من نوّاب الباب، و عشرة من الحجاب، خارجا عن حجاب الحكم المستقرّين، و عدّتهم: خمسة فى زىّ الأمراء، و فى ركابه القرّاء يطرّبون بالقراءة و الشهود وراءه على الترتيب فى جلوسهم بمجلس الحكم، الأقدم فالأقدم، و حوالى كل واحد ما له من شمع، فيشقون من أوّل شارع فيه دار القاضى إلى بين القصرين، و قد اجتمع من العالم فى وقت جوازهم ما لا يحصى كثرة رجالا و نساء، و صبيانا بحيث لا يعرف الرئيس من المرؤوس، و هو مارّ إلى أن يأتى هو و الشهود باب الزمرّذ من أبواب القصر فى الرحبة الوسيعة تحت المنظرة العالية فى السعة العظيمة من الرحبة المذكورة، و هى التى تقابل درب قراصيا، فيحضر صاحب الباب، و والى القاهرة و القرّاء، و الخطباء كما شرحنا فى المواليد الستة و يترجلون تحتها ريثما يجلس الخليفة فيها، و بين يديه شمع و يبين شخصه، و يحضر بين يديه الخطباء الثلاثة، و يخطبون كالمواليد، و يذكرون استهلال رجب، و أن هذا الركوب علامته.

ثم يسلم الأستاذ من الطاقة الأخرى استفتاحا و انصرافا كما ذكرنا، ثم يركب الناس إلى دار الوزارة، فيدخل القاضى و الشهود إلى الوزير، فيجلس لهم فى مجلسه و يسلمون عليه، و يخطب الخطباء أيضا بأخف من مقام الخليفة، و يدعون له و يخرجون عنه، فيشق القاضى و الجماعة القاهرة، و ينزل على باب كل جامع بها، و يصلى ركعتين، ثم يخرج من باب زويلة طالبا مصر بغير نظام و والى القاهرة فى خدمته اليوم مستكثرا من الأعوان، و الحفظة فى الطرقات إلى جامع ابن طولون، فيدخل القاضى إليه للصلاة، فيجد والى مصر عنده للقاء القوم و خدمتهم، فيدخل المشاهد التى فى طريقه أيضا، فإذا وصل إلى باب مصر ترتب كما ترتب فى القاهرة، و سار شاقا الشارع الأعظم إلى باب الجامع من الزيادة التى يحكم فيها، فيوقد له التنور الفضة الذى كان معلقا فيه، و كان مليحا فى شكله، و تعليقه غير منافر فى الطول و العرض واسع التدوير فيه عشر مناطق فى كل منطقة: مائة و عشرون بزاقة، و فيه سروات بارزة مثل النخيل فى كل واحدة عدّة بزاقات تقرب عدّة ذلك من ثلثمائة، و معلق بدائر سفله: مائة قنديل نجومية، و يخرج له الحاكم فإن كان ساكنا

بمصر استقرّ بها و إن كان ساكنا بالقاهرة وقف له والى القاهرة بجامع ابن طولون، فيودّعه والى مصر، و يسير معه والى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۶

القاهرة إلى داره، فإذا مضى من رجب أربعة عشر يوما: ركب ليلة الخامس عشر كذلك، و فيه زيارة طلوعه بعد صلاته بجامع مصر إلى القرافة ليصلى فى جامعها، و الناس يجتمعون له لينظروه، و من معه فى كل مكان، و لا يملون من ذلك فإذا انقضت هذه الليلة: استدعى منه الشمع ليكمل بعضه، حتى يركب به فى أوّل شعبان، و نصفه على الهيئة المذكورة و الأسواق معمورة بالحلواء، و يتفرّغ الناس لذلك هذه الأربع الليالى.

منظرة للؤلؤة: و كان للخلفاء الفاطميين، منظرة تعرف: بقصر اللؤلؤة، و بمنظرة اللؤلؤة على الخليج بالقرب من باب القنطرة، و كان قصرا من أحسن القصور، و أعظمها زخرفة، و هو أحد منتزهات الدنيا المذكورة، فإنه كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورىّ، و يطل من غربيه على الخليج، و كان غربىّ الخليج، إذ ذاك ليس فيه من المبانى شىء، و إنما كان فيه بساتين عظيمة، و بركة تعرف ببطن البقرة، فيرى الجالس فى قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة ، و سائر أرض اللوق ، و ما هو من قبليها، و يرى بحر النيل من وراء البساتين.

قال ابن ميسر: هذه المنظرة بناها العزيز بالله، و لما ولى برجوان الحاكم بأمر اللّه بعد أمين الدولة بن عمار الكتامىّ: سكن بمنظرة اللؤلؤة فى جمادى الأولى سنة ثمان و ثمانين و ثلثمائة، إلى أن قتل، و فى السادس و العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين و أربعمائة: أمر الحاكم بأمر اللّه بهدم اللؤلؤة، و نهبها، فهدمت، و نهبت و بيع ما فيها.

و قال المسبحىّ: و فى سادس عشرى ربيع الآخر، يعنى سنة اثنتين و أربعمائة: أمر الحاكم بأمر اللّه بهدم الموضع المعروف: باللؤلؤة على الخليج موازاة المقس، و أمر بنهب أنقاضه، فنهبت كلها، ثم قبض على من وجد عنده شىء من نهب أنقاض اللؤلؤة و اعتقلوا.

و قال ابن المأمون: و لما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة، و المقام فيها مدّة النيل على الحكم الأوّل يعنى قبل وزارة أمير الجيوش بدر و ابنه الأفضل، أمر بإزالة ما لم تكن العادة جارية به من مضايقها بالبناء، و لما بدت زيادة النيل، و عوّل الخليفة الآمر بأحكام اللّه على السكن باللؤلؤة أمر الأجلّ الوزير المأمون: بأخذ جماعة الفرّاشين الموقوفين برسم خدمتها بالمبيت بها على سبيل الحراسة لا على سبيل السكن بها، و عندما بلغ النيل: ستة عشر ذراعا أمر بإخراج الخيم.

و عندما قارب النيل الوفاء: تحوّل الخليفة فى الليل من قصوره بجميع جهاته و إخوته،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۷

و أعمامه، و السيدات كرائمه، و عماته إلى اللؤلؤة، و تحوّل المأمون إلى دار الذهب، و أسكن الشيخ أبا الحسن محمد بن أبى أسامة الغزالة على شاطىء الخليج، و سكن حسام الملك:

حاجب الباب داره على الخليج، و أمر متولى المعونة أن يكشف الآدر المطلة على الخليج قبلىّ اللؤلؤة، و لا يمكن أحدا من السكن فى شىء منها إلّا من كان له ملك، و من كان ساكنا بالأجرة ينقل، و يقام بالأجرة لرب الملك ليسكن بها حواشى الخليفة مدّة سنة، و قرّر من التوسعة فى النفقات، و ما يكون برسم المستخدمين فى المبيتات ما يختص برواتب القصور مدّة المقام فى اللؤلؤة فى أيام النيل مياومة من الغنم و الحيوان، و جميع الأصناف، و هى جملة كبيرة و أمر متولى الباب أن يندب فى كل يوم خروف شواء، و قنطار خبز، و كذلك جميع الدروب من يحرسها، و يطلق لهم برسم الغداء مثل ذلك، و تكون نوبة دائرة بينهم، و بقية مستخدمى الركاب ملازمون لأبواب القصر على رسمهم، و فى يومى الركوب يجتمعون للخدمة إلّا من هو فى نوبته فيما رسم له، و أمر متولى زمام المماليك الخاص أن يكونوا بأجمعهم، حيث يكون الخليفة، و فى الليل يبيت منهم عدّة برسم الخدمة تحت اللؤلؤة، و لهم فى كل يوم مثل ما تقدّم، و الرهجية تقسم قسمين أحدهما: على أبواب القصور، و الآخر: على أبواب اللؤلؤة، و أصحاب الضوء مثل ذلك، و قرّر للجماعة المقدّم ذكرها فى الليل عن رسم المبيت، و عن ثمن الوقود ما يخرج إليهم مختوما بأسماء كل منهم و يعرضهم متولى

الباب فى كل ليلة بنفسه عند رواحه و عوده، و كذلكما يختص بدار الذهب من الحرس عليها من باب سعادة، و من باب الخوخة، و لهم رسوم كما تقدّم لغيرهم و المتفرّجون يخرجون كل ليلة للنزهة عليهم، و يقيمون إلى بعض الليل حتى ينصرفوا من غير خروج فى شىء من ذلك عما يوجبه الشرع، و فى يومى السلام يمضى الخليفة من قصوره، بحيث لا يراه، إلّا أستاذوه و خواصه إلى قاعة الذهب من القصر الكبير الشرقىّ، و يحضر الوزير على عادته إليه، فيكون السلام بها على مستمرّ العادة، و الأسمطة بها فى يومى الاثنين و الخميس، و تكون الركوبات من اللؤلؤة فى يومى السبت و الثلاثاء إلى المنتزهات.

و قال فى سنة سبع عشرة و خمسمائة، و لما جرى النيل، و بلغ خمسة عشر ذراعا: أمر بإخراج الخيام، و المضارب الديبقىّ، و الديباج و تحوّل الخليفة الآمر بأحكام اللّه إلى اللؤلؤة بحاشيته و أطلقت التوسعة فى كل يوم لما يخص الخاص، و الجهات و الأستاذين من جميع الأصناف، و انضاف إليها ما يطلق كل ليلة عينا و ورقا، و أطعمة للبياتين بالنوبة برسم الحرس بالنهار، و الشهر فى طول الليل من باب القنطرة بما دار إلى مسجد الليمونة من التزين من صبيان الخاص و الركاب، و الرهجية و السودان، و الحجاب كل طائفة بنقيبها و العرض من متولى الباب واقع بالعدّة فى طرفى كل ليلة، و لا يمكن بعضهم بعضا من المنام و الرهجية تخدم على الدوام، و تحوّل الوزير المأمون إلى دار الذهب، وى ۴ لقت التوسعة، و الحال فى إطلاق الأسمطة لهم فى الليل و النهار مستمرّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۸

و قال ابن عبد الظاهر : المنظرة المعروفة باللؤلؤة على برّ الخليج بناها: الظاهر لإعزاز دين اللّه بن الحاكم يعنى بعدما هدمها أبوه الحاكم، و كانت معدّة لنزهة الخلفاء، و كان التوصل إليها من القصر يعنى القصر الغربىّ، من باب مراد، و أظنه فيما ذكر لى: علم الدين بن مماتى الوراق، لأنه شاهد فى كتب دار ابن كوخيا التيقة أنه بابها، و كان عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل، و لما حصل التوهم من النزارية، و الحشيشية قبل تصرّفهم لا سيما لصغر سنّ الخليفة، و قلة حواشيه، أمر بسدّ باب مراد المذكور الذى يتوصل منه إلى الكافورىّ، و إلى اللؤلؤة، و أسكن فى بعضها فرّاشين لحفظها، فإن كان فى صبيحة كسر الخليج استؤذن الأفضل ابن أمير الجيوش فى فتح باب مراد الذى يتوصل منه إلى اللؤلؤة و غيرها، فيفتح و يروح الخليفة ليتفرّج هو و أهله من النساء، ثم يعود، و يسدّ الباب هذا إلى آخر أيام الأفضل، فلما راجع الوزير المأمون فى ذلك سارع إليه، فأصلحت و أزيل ما كان أنشئ قبالتها على ما سيذكر فى مكانه إن شاء اللّه تعالى.

و مات بقصر اللؤلؤة من خلفاء الفاطميين: الآمر بأحكام اللّه، و الحافظ لدين اللّه، و الفائز، و حملوا إلى القصر الكبير الشرقىّ من السراديب. و لما قدم نجم الدين أيوب بن شادى من الشام على ولده: صلاح الدين يوسف، و خرج الخليفة العاضد لدين اللّه إلى لقائه بصحراء الهليلج بآخر الحسينية عند مسجد تبر ، أنزل بمنظرة اللؤلؤة، فسكنها حتى مات فى سنة سبع و ستين و خمسمائة، و اتفق أن حضر يوما عنده الفقيه نجم الدين عمارة اليمنىّ، و الرضى أبو سالم يحيى الأحدب بن أبى حصيبة الشاعر فى قصر اللؤلؤة بعد موت الخليفة العاضد، فأنشد ابن أبى حصيبة نجم الدين أيوب فقال:

يا مالك الأرض لا أرضى له طرفامنها و ما كان منها لم يكن طرفا

قد عجل اللّه هذى الدار تسكنهاو قد أعدّ لك الجنات و الغرفا

تشرّفت بك عمن كان يسكنهافالبس بها العزّ و لتلبس بك الشرفا

كانوا بها صدقا و الدار لؤلؤةو أنت لؤلؤة صارت لها صدفا

فقال الفقيه عمارة يرد عليه:

أثمت يا من هجا السادات و الخلفاو قلت ما قلته فى ثلبهم سخفا

جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤةو العرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدفا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۳۹۹ و إنما هى دار حل جوهرهمفيها وشف فأسناها الذى وصفا

فقال لؤلؤة عجبا ببهجتهاو كونها حوت الأشراف و الشرفا

فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوافيها و من قبلها قد أسكنوا الصحفا

و الجوهر الفرد نور ليس يعرفهمن البرية إلا كل من عرفا

لو لا تجسمهم فيه لكان علىضعف البصائر للأبصار مختطفا

فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمةلأن فيه حفاظا دائما و وفا

فللّه درّ عمارة لقد قام بحق الوفاء، و وفى بحسن الحفاظ، كما هى عادته، لا جرم أنه قتل فى واجب من يهوى كما هى سنة المحبين فاللّه يرحمه و يتجاوز عنه.

منظرة الغزالة : و كان بجوار منظرة اللؤلؤة منظرة تعرف: بالغزالة على شاطىء الخليج تقابل حمام ابن قرقة و قد خربت هذه المنظرة أيضا، و موضعها الآن تجاه باب جامع ابن المغربىّ الذى من ناحية الخليج، و قد خربت أيضا حمام ابن قرقة، و صار موضعها فندقا بجوار حمام السلطان التى هناك يعرف بفندق عماد، و موضع منظرة الغزالة اليوم ربع يعرف بربع غزالة إلى جانب قنطرة الموسكىّ فى الحدّ الشرقىّ، و كان يسكن بهذه المنظرة الأمير أبو القاسم بن المستنصر والد الحافظ لدين اللّه، ثم سكنها أبو الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست، و كان بعد ذلك ينزلها من يتولى الخدمة فى الطراز أيام الخلفاء.

قال ابن المأمون: لما ذكر تحوّل الخليفة الأمر بأحكام اللّه إلى اللؤلؤة: و أسكن الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست الغزالة التى على شاطىء الخليج، و لم يسكن أحد فيها قبله ممن يجرى مجراه و لا كانت إلّا سكن الأمير أبى القاسم ولد المستنصر، ولد الإمام الحافظ.

قال: و أما ما يذكره الطرّاز، فالحكم فيه مثل الاستيمار و الشائع فيها أنها كانت تشتمل فى الأيام الأفضلية على أحد و ثلاثين ألف دينار، فمن ذلك السلف خاصة خمسة عشر ألف دينار قيمة الذهب العراقىّ، و المصرىّ ستة عشر ألف دينار، ثم اشتملت فى الأيام المأمونية على ثلاثة و أربعين ألف دينار، و تضاعفت فى الأيام الآمرية.

و قال ابن الطوير: الخدمة فى الطراز، و ينعت بالطراز الشريف، و لا يتولاه إلّا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم و السيوف، و له اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين، و مقامه بدمياط، و تنيس و غيرهما و جارية أمير الجوارى، و بين يديه من المندوبين مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى، و له عشارىّ دتماس مجرّد معه، و ثلاثة مراكب من الدكاسات،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۰

و لها رؤساء، و نواتية لا يبرحون و نفقاتهم جارية من مال الديون، فإذا وصل بالاستعمالات الخاصة التى منها المظلة، و بدلتها و البدنة و اللباس الخاص الجمعىّ، و غيره هيئ بكرامة عظيمة، و ندب له دابة من مراكيب الخليفة لا تزال تحته حتى يعود إلى خدمته و ينزل فى الغزالة على شاطىء الخليج، و كانت من المناظر السلطانية، و جدّدها شعاع بن شاور، و لو كان لصاحب الطراز فى القاهرة عشرة دور، لا يمكن من نزوله إلّا بالغزالة، و تجرى عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة، فيمتثل بين يدى الخليفة بعد حمل الأسفاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة، و يعرض جيع ما معه، و هو ينبه على شىء فشىء بيد فراشى الخاص فى دار الخليفة مكان سكنه، و لهذا حرمة عظيمة، و لا سيما إذا وافق استعماله غرضهم. فإذا انقضى عرض ذلك بالمدرج الذى يحضر سلم لمستخدم الكسوات، و خلع عليه بين يدى الخليفة باطنا و لا يخلع على أحد كذلك سواه، ثم ينكفئ إلى مكانه، و له فى بعض الأوقات التى لا يتسع له الانفصال نائب يصل عنه بذلك غير غريب منه، و لا يمكن أن يكون إلّا ولدا أو أخا، فإن الرتبة عظيمة، و المطلق له من الجامكية فى الشهر سبعون دينارا، و لهذا النائب: عشرون دينارا، لأنه يتولى عنه إذا وصل بنفسه، و يقوم إذا غاب فى الاستعمال مقامه و من أدواته أنه إذا عبىء ذلك فى الأسفاط: استدعى والى ذلك المكان ليشاهد عند ذلك، و يكوعن الناس كلهم قياما لحلول نفس المظلة، و ما يليها من خاص الخليفة فى مجلس دار الطراز، و هو جالس فى مرتبته، و الوالى واقف على رأسه خدمة لذلك، و هذا من

رسوم خدمته و ميزتها.

دار الذهب: و كان بجوار الغزالة: دار الذهب، و موضعها الآن على يسرة الخارج من باب الخوخة، فيما بينه و بين باب سعادة، و كانت مطلة على الخليج فى مكانها اليوم دار تعرف: ببهادر الأعسر، و بقى منها عقد بجوار دار الأعسر يعرف الآن: بقبو الذهب من خطة بين السورين.

قال ابن المأمون: لما ذكر تحوّل الخليفة الآمر بأحكام اللّه إلى اللؤلؤة: ثم أحضر الوزير المأمون وكيله أبا البركات محمد بن عثمان، و أمره أن يمضى إلى دارى الفلك و الذهب اللتين على شاطىء الخليج، فالدار الأولى التى من حيز باب الخوخة بناها فلك الملك، و ذكر أنه من الأستاذين الحاكمية و لم تكن تعرف إلّا بدار الفلك، و لما بنى الأفضل ابن أمير الجيوش، الدار الملاصقة لها التى من حيز باب سعادة، و سماها دار الذهب غلب الاسم على الدارين، و يصلح ما فسد منهما، و يضيف إليهما دار الشابورة، و ذكر أن هذه الدار لم تسمّ بهذا الاسم إلّا لأن جزءا منها بيع فى أيام الشدّة فى زمن المستنصر بشابورة.

قال: و عندما قارب النيل أقاربه، تحوّل الخليفة فى الليل من قصوره بجميع جهاته و إخوته و أعمامه و السيدات كرائمه، و عماته إلى اللؤلؤة، و تحوّل الأجل المأمون بالأجلاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۱

أولاده، إلى دار الذهب، و ما أضيف إليها.

و قال ابن عبد الظاهر: دار الذهب بناها: الأفضل بن أمير الجيوش، و كانت عادة الأفضل أن يستريح بها إذا كان الخليفة باللؤلؤة يكون هو بدار الذهب و كذلك كان المأمون من بعده، و كان حرس دار الذهب يسلم للوزيرية من باب سعادة يسلم لهم، و من باب الخوخة للمصامدة أرباب الشعور، و صبيان الخاص، و كان المقرّر لهم فى كل يوم سماطين، أحدهما بقاعة الفلك للمماليك الخاص، و الحاشية، و أرباب الرسوم، و الآخر على باب الدار برسم المصامدة حتى أنه من اجتاز و رأى أنه يجلس معهم على السماط لا يمنع، و الضعفاء، و الصعاليك يقعدون بعدهم، و فى أوّل الليل بمثل ذلك، و لكل منهم رسم لجميع من يبيت من أرباب الضوء إلى الأعلى.

منظرة السكرة: و كان من جملة مناظر الخلفاء، منظرة تعرف بمنظرة السكرة فى برّ الخليج الغربىّ يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج، و كان لها بستان عظيم بناها العزيز بالله بن المعز، و قد دثرت هذه المنظرة، و يشبه أن يكون موضعها فى المكان الذى يقال له اليوم: المريس قريبا من قنطرة السدّ، و كانت السكرة من جنات الدنيا المزخرفة، و فيها عدّة أماكن معدّة لنزول الوزير، و غيره من الأستاذين.

ذكر ما كان يعمل يوم فتح الخليج

قال ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز لدين اللّه: و فى ذى القعدة، يعنى من سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة، و هى السنة التى قدم فيها الخليفة المعز لدين اللّه إلى القاهرة من بلاد المغرب، ركب المعز لدين اللّه عليه السلام، لكسر خليج القنطرة، فكسر بين يديه، ثم سار على شاطىء النيل، حتى بلغ إلى بنى وائل، و مرّ على سطح الجرف فى موكب عظيم و خلفه وجوه أهل الدولة، و معه أبو جعفر أحمد بن نصر يسير معه، و يعرّفه بالمواضع التى يجتاز عليها، و نجعت له الرعية بالدعاء، ثم عطف على بركة الحبش، ثم على الصحراء على الخندق الذى حفره القائد جوهر، و مرّ على قبر كافور و على قبر عبد اللّه بن أحمد بن طباطبا الحسنىّ و عرّفه، ثم عاد إلى قصره.

و ذكر الأمير المسبحىّ فى تاريخه الكبير: ركوب العزيز بالله بن المعز، و ركوب الحاكم بأمر اللّه بن العزيز، و ركوب الظاهر لإعزاز دين اللّه بن الحاكم فى كل سنة لفتح الخليج.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۲

و قال ابن المأمون: فى سنة ست عشرة و خمسمائة، و عندما بلغ النيل ستة عشر ذراعا أمر بإخراج الخيم، و أن يضرب الثوب الكبير

الأفضلىّ المعروف بالقاتول، و هو أعظم ما فى الحاصل بأربعة دهاليز و أربع قاعات خارجا عن القاعة الكبيرة، و مساحته على ما ذكر: ألف ألف ذراع، و أربعمائة ذراع بالذراع الكبير خارجا عن القاعة الكبيرة، منه ارتفاعه: خمسون ذراعا، و لما كمل استعماله فى أيام الأفضل، و نصب تأذى منه جماعة، و مات رجلان، فسمى: بالقاتول لأجل ذلك، و ما زال لا يضرب إلّا بحضور المهندسين، و تنصب له أساقيل عدّة بأخشاب كثيرة، و المستخدمون يكرهون ضربه، و يرغبون فى ضرب أحد الثوبين الجيوشيين، و إن كانا عظيمين، إلّا أنهما لا يصلان بجملتهما إلى مقايسته، و لا مؤنته، و لا صنعته.

و أقام هذا الثوب فى الاستعمال عدّة سنين مع جمع الصناع عليه، و ما يضرب منه سوى القاعة الكبيرة لا غير، و أربعة الدهاليز، و بعض السرادق الذى هو سور عليه لضيق المكان الذى يضرب فيه، و كونه لا يسعه بجملته.

قال: و وصلت كسوة موسم فتح الخليج، و هى ما يختص بالخليفة، و أخيه، و بعض جهاته و الوزير.

فأما ما يختص بالخليفة خاصة: فبدلة شرحها بدنة طميم منديل سلفه: مائة و عشرون دينارا، و أحد طرفيه ثلاثة عشر ذراعا ذهبا عراقيا دمجا لوحا واحدا، و الثانى ثلاثة أذرع سلفه أربعة و عشرون دينارا، ثوب طميم سلفه: خمسون دينارا، و الذهب الذى فى الثوب و المنديل و الحنك ألف دينار، و خمسة دنانير، فتكون جملتها بالسلف: ألف دينار، و مائة و خمسة و سبعين دينارا، شاشية طميم للسلف: ديناران و سبعون قصبة ذهبا عراقيا، فتكون جملة سلفها، و قيمة ذهبها ثمانية دنانير، منديل سلام سلفه: ديناران، و سبعون قصبة قيمته كذلك، وسط برسم المنديل بخوص ذهب سلفه اثنا عشر دينارا و سبعون قصبة قيمة ذلك عشرون دينارا، شقة ديبقىّ و سطانىّ حريرىّ السلف: اثنا عشر دينارا، غلالة ديبقى حريرىّ السلف: عشرة دنانير، منديل كم ثان حريرى: خمسة دنانير، حجره: أربعة دنانير، عرضىّ لفافة خاص: خمسة دنانير و ستة عشر مثقالا ذهبا مصريا، فتكون سلفه و ذهبه: خمسة و عشرين دينارا، عرضى ثان برسم تغطية التخت: دينار واحد و نصف، تخت ثان ضمنه:

بدلة خاص حريرىّ برسم العود من السكرة شرحها منديل حريرىّ سلفه: ستون دينارا، وسط شرب رسمه اثنا عشر دينارا، شقة ديبقىّ: و كم و عشرون دينارا، شقة و سطانى اثنا عشر دينارا، غلالة: خمسة عشر دينارا، و غلالة: عشرة دنانير، منديل سلام ديناران، منديل كم خمسة دنانير، منديل كم ثان أيضا خمسة دنانير، شاشية حريرىّ ديناران، حجره أربعة دنانير، عرضى لفافة خمسة دنانير، عرضى ثان برسم لفافة التخت دينار واحد و نصف.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۳

قال: و رأيت شاهدا أن قيمة كل حلة من هذه الحلل، و سلفها إذا كانت حريرىّ ثلثمائة و ستة دنانير، و إذا كانت مذهبة ألف دينار، و اختصر ما باسم أبى الفضل جعفر أخى الخليفة و أربع جهات.

و أما ما يختص بالوزير: فبدلة مذهبة شرحها منديل سلفه سبعون دينارا، و خمسمائة و سبعون قصبة عراقى جملة سلفه و ذهبه: مائة و أربعة عشر دينارا، شقة ديبقىّ و كم السلف ستة عشر دينارا و ثمانية و عشرون مثقالا ذهبا عاليا تكون جملة ذلك خمسين دينارا، تصف شقة ديبقىّ وسطانىّ اثنا عشر دينارا و نصف، شقة وسطانىّ برسم العود ثلاثة دنانير، غلالة ديبقىّ سبعة دنانير و نصف، شقة برسم الغلالة ديناران و نصف، منديل كم سبعة دنانير و اثنا عشر مثقالا ذهبا، تكون قيمته تسعة عشر دينارا، حجره ثلاثة دنانير، عرضى أربعة دنانير و أحد عشر مثقالا تكون سلفه و ذهبه سبعة عشر دينارا.

ثم ذكر بعد ذلك ما يكون لجهة الوزير، و ما يكون برسم صبيان الحمام، و ما يفصل برسم المماليك الخاص: صبيان الرايات، و الرماح خمسمائة، شقة سقلاطون دارى تكون قيمتها: سبعمائة و خمسين، قباء يحمل منها برسم غلمان الوزير مائة قباء، و يفرّق جميع ذلك.

قال: و لم يكن لأحد من الأصحاب، و الحواشى و غيرهم فى هذا الموسم شىء فيذكر، بل لهم من الهبات العين و الرسوم الخارجة عن ذلك ما يأتى ذكره فى موضعه، و فى صبيحة هذا الموسم خلع على ابن أبى الرداد، و على رؤساء المراكب، و غيرهم، و حمل إلى

المقياس برسم المبيت، و ركوب الخليفة بتجمله، و مواكبه إلى السكرة ما فصله، و بينه مما يطول ذكره.

و قال: فى سنة سبع عشرة و خمسمائة، و لما جرى النيل، و بلغ خمسة عشر ذراعا، أمر بإخراج الخيام و المضارب الديبقىّ، و الديباج و تحوّل الخليفة إلى اللؤلؤة بحاشيته، و تحوّل المأمون إلى دار الذهب، و وصلت كسوة الموسم المذكور من الطراز و إن كانت يسيرة العدّة فهى كثيرة القيمة، و لم تكن للعموم من الحاشية، و المستخدمين بل للخليفة خاصة، و إخوته و أربع من خواص جهاته، و الوزير و أولاده، و ابن أبى الردّاد، فلما وفى النيل ستة عشر ذراعا ركب الخليفة، و الوزير إلى الصناعة بمصر العشريات بين أيديهما، ثم عدّيا فى إحداها إلى المقياس ، وصليا و نزل الثقة صدقة بن أبى الردّاد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۴

منزلته، و خلّق العمود ، و دعا الخليفة على فوره، و ركب البحر فى العشارى الفضىّ، و الوزير صحبته، و الرهجية تخدم برّا و بحرا، و العساكر طول البرّ قبالته إلى أن وصل إلى المقس، و رتب الموكب، و قدم العشارى بالخليفة الآمر بأحكام اللّه، و الوزير المأمون، و سار الموكب، و الرهجية تخدم، و الصدقات، و الرسوم تفرّق، و دخل من باب القنطرة، و قصد باب العيد، و اعتمد ما جرت به العادة من تقديم الوزير، و ترجله فى ركابه إلى أن دخل من باب العيد إلى قصره، و تقدّم بالخلع على ابن أبى الردّاد: بدلة مذهبة، و ثوب ديبقىّ حريرىّ، و طيلسان مقوّر، و بياض مذهب، و شقة سقلاطون، و شقة تحتانىّ، و شقة خز، و شقة ديبقىّ، و أربعة أكياس دراهم، و نشرت قدّامه الأعلام الخاص الديبقىّ المحاومة بالألوان المختلفة التى لا ترى إلّا قدّامه لأنها من جملة تجمل الخليفة، و أطلق له برسم المبيت من البخور و الشموع، و الأغنام، و الحلاوات كثير.

قال: و هيئت المقصورة فى منظرة السكرة برسم راحة الخليفة، و تغيير ثيابه و قد وقعت المبالغة فى تعليقها، و فرشها و تعبيتها، و قدّم بين يديه الصوانى الذهب التى وقع التناهى فيها من همم الجهات من أشكال الصور الآدمية، و الوحشية من الفيلة، و الزرافات، و نحوها المعمولة من الذهب و الفضة و العنبر و المرسين المشدود و المظفور عليها المكلل باللؤلؤ، و الياقوت و الزبرجد من الصور الوحشية ما يشبه الفيلة. جميعها عنبر معجون كخلفة الفيل، و ناباه فضة، و عيناه جوهرتان كبيرتان فى كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده و عليه سرير منجور من عود بمتكآت فضة و ذهب، و عليه عدّة من الرجال ركبان، و عليهم اللبوس تشبه الزرديات و على رؤوسهم الخود، و بأيديهم السيوف المجرّدة، و الدرق و جميع ذلك فضة، ثم صور السباع منجورة من عود، و عيناه ياقوتتان حمراوان، و هو على فريسته، و بقية الوحوش، و أصناف تشدّ من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة.

قال: و من جملة ما وقع الاهتمام به فى هذا الموسم ما صار يستعمل فى الطراز، و إن لم يتقدّم نظيره للولائم التى تتخذ برسم تغطية الصوانى عدّة من عراضى ديبقىّ، ثم قوّارات شرب تكون من تحت العراضى على الصوانى مفتح كل قوّارة منهنّ دون أربعة أشبار سلف كل واحدة منهنّ خمسة عشر دينارا، و رقم فى كل منهنّ سجف ذهب عراقىّ ثمنه: من أربعين إلى ثلاثين دينارا، تكون الواحدة بخمسين دينارا، و يستعمل أيضا برسم الطرح من فوق القوّارات الإسكندرانىّ التى تشدّ على الموائد التى تحمل من عند كل جهة قوّارات ديبقىّ مقصور من كل لون محاومة بالرقم الحريرىّ، مفتح كل قوّارة أربعة أذرع يكون الثمن عن كل واحدة: أربعين دينارا، و لقد بيعت عدّة من القوّارات الشرب، فسارع التجار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۵

العراقيون إلى شرائها، و نهاية ما بلغ ثمن كل واحدة منهن: ستة عشر دينارا، و سافروا بها إلى البلاد، فلم يبع لهم منها سوى اثنتين، و عادوا بالبقية إلى الديار المصرية فى سنة ست و ثمانين و خمسمائة و حفظوا منهنّ شيئا عن السوق، فلم يحفظ لهم رأس مالهنّ.

قال: و كان ما تقدّم من الزبادى فى الطيافير من الصينى إلى آخر أيام الأفضل بن أمير الجيوش، و أيام المأمون، و إنما استجدّت الأوانى الذهب فى أواخر الأيام الآمرية و الذى يعبئ بين يديه الخليفة قوائمية ضمنها: عدّة من الطيافير المحمولة بالمرافع الفضة برسم الأطباق الحارة، و ليس فى المواسم مائدة بغير سماط للأمراء، و يجلس عليها الخليفة غير هذا الموسم، و إن كان يجرى مجرى

الأعياد، و له البخور مطلق مثلها، و ينفرد بالجلوس معه الجلساء المميزون و المستخدمون، و عند كمال تعبيتها، و بخورها جلس الخليفة عليها عن يمينه: وزيره، و عن يساره: أخوه، و من شرّف بحضوره، و فى آخرها فرّق منها ما جرت به العادة على سبيل البركة.

و قال: فى سنة ثمان عشرة و خمسمائة، و وصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج و هى برسم الخليفة، تختان ضمنهما بدلتان إحداهما منديلها، و ثوبها طميم برسم المضىّ، و الأخرى جميعها حريرىّ برسم العود، و كذلك ما يخص إخوته و جهاته: بدلتان مذهبتان، و أربع حلل مذهبة، و برسم الوزير بدلة موكبية مذهبة فى تخت، و برسم أولاده الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة، و برسم جهته حلة مذهبة فى تخت، و هؤلاء المميزون لكل منهم تخت، و بقية ما يخص المستخدمين و ابن أبى الردّاد فى تخوت كل تخت فيه: عدّة بدلات، و حضر متولى الدفتر و استأذن على ما يحمل، برسم الخليفة، و ما يفرّق، و ما يفصل برسم الخلع، و ما يخرج من حاصل الخزائن غير الواصل، و هو ما يفصل برسم الغلمان الخاص عن سبعمائة قباء: خمسمائة، و شقتان سقلاطون دارى و برسم رؤساء العشارىّ من الشقق الدمياطىّ و المناديل السوسىّ، و الفوط الحرير الأحمر، و برسم النواتية التى برسم الخاص من العشارية من الشقق الإسكندرانىّ، و الكلوتات فوقع بإنفاق جميع ذلك، و تفصيل ما يجب منه، ثم ابتيع ذلك بمطالعة ثانية برسم ما هو مستمرّ العموم من النقد العين و الورق للموسم المذكورة، و هو من العين: أربعة آلاف و خمسمائة دينار و من الورق: خمسة عشر ألف درهم، فوقع بإطلاق ذلك.

و ذكر تفصيل الكسوات و الهبات بأسماء أربابها و حضر متولى المائدة الآمرية بمطالعة يستدعى ما جرت به العادة فى هذا الموسم من الحيوان، و الضأن، و البقر، و غير ذلك من الأصناف برسم التفرقة، و الأسمطة، و حضر متولى دار التعبية يستدعى ما يبتاع به الثمرة و الزهرة، و هيئة المتعينين لتعبية السكرة لأجل حلول الركاب بها، و مقامه فيها، و تعبية جميع مقاصيرها التى برسم الأستاذين، و الأصحاب، و الحواشى، و هو: مائة دينار، فوقع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۶

بإطلاقها، و فى العاشر من الشهر المذكور يعنى شهر رجب، و فى النيل: ستة عشر ذراعا، فتوجه المأمون إلى صناعة العمائر بمصر، و رميت العشاريات بين يديه و قد حدّدت و زينت جميعها بالستور الديبقىّ الملوّنة، و الكوامخ ، و الأهلة الذهب و الفضة، و شمل الإنعام أرباب الرسوم على عادتهم، و عدّى فى إحدى العشاريات إلى المقياس، و خلّق العمود بما جرت به عادتهم من الطيب و فرّقت رسوم الإطلاق، و انكفأ إلى دار الذهب، و أمر بإطلاق ما يخص المبيت فى المقياس بجميع الشهود و المتصدّرين، و هى العشرات من الخبز: عشرة قناطير، و عشرة خراف شوى، و عشر جامات حلوى، و عشر شمعات و أوّل من يحضر المبيت: الشريف الخطيب سيد المقرّبين، و إمام المتصدّرين، و له و للجماعة من الدراهم التى تفرّق أوفى نصيب.

قال: و خرج الخليفة بزى الخلافة، و وقارها و ناموسها بالثياب الطميم التى تذهل الأبصار و المنديل بالشدّة العربية التى ينفرد بلباسها فى الأعياد، و المواسم خاصة لا- على الدوام، و كانت تسمى عندهم: شدّة الوقار مرصعة بغالى الياقوت و الزمرذ و الجوهر، و عند لباسها تخفق لها الأعلام، و يتجنب الكلام، و يهاب و لا يكون سلام قريب منه، و خليل غير الوزير إلّا بتقبيل الأرض من بعيد من غير دنوّ، ثم بين يديه من مقدّمى خزائنه من يحمل سيفه، و رمحه المرصعين بأفخر ما يكون ثم المذاب التى كل منها عمودها ذهب، و ينفرد بحملها الصقالبة، و يمشى بين الصفين المرتبين راجلا على بسط حرير فرشت له، و كل من الصفين يتناهى فى مواصلة تقبيل الأرض إلى أن وصل إلى مجلس خلافته، و صعد على الكرسى المغشى بالديباج المنصوب رسم ركوبه، و قد صفّت الروّاض، و أزمّة الاصطبلات خيل المظلة بعد أن أزالت الأغشية الحرير، و الشقق الديبقىّ المذهبة عن السروج، و بقيت كما وصفها اللّه تعالى فى كتابه، فقدّم إليه ما وقع اختياره عليه، و أمر بأن يجنب البقية فى الموكب بين يديه.

و لما علا- ما قدّم إليه استفتح مقرئو الحضرة، و تسلم جميع مقدّمى الركاب ركابه، و الروّاض الشكيمة، و زال حكم الأستاذين المستخدمين فى الركاب، و عادت الموالى و الأقارب إلى محالهم، و استدعى بالوزير بجميع نعوته فواصل تقبيل الأرض إلى أن قبل ركابه، و شرّفه بتقبيل يده بحكم خلوّها من قضيب الملك فى هذه المواسم، و لما أدّى ما يجب من فرض السلام، أخذ السيف من

الأمير افتخار الدولة أحد الأمراء الأستاذين المميزين المحنكين متولى خزانة الكسوة الخاص، و سلّمه بعد أن قبّله لأخيه الذى يتولى حمله فى الموكب بعد أن أرخيت عذبته تشريفا له مدّة حمله خاصة، و ترفع بعد ذلك، و شدّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۷

وسطه بالمنطقة الذهب تأدّبا و تعظيما لما معه، و سلم الرمح و الدرقة لمن يتولى حملهما بلواء الموكب.

و لم يكن للخدمة المذكورة عذبة مرخاة، و لا منطقة، و استدعى ركوب الوزير و أولاده من عند باب قاعة الذهب، و خرج الخليفة من القاعة المذكورة إلى أوّل دهليز، فتلقته جماعة صبيان ركابه العشرة المقدّمين أرباب الميمنة و الميسرة، و صبيان وراء صبيان الرسائل، و صبيان السلام كل منهم فى الخدمة المعينة لا يخرج عنها لسواها، و جميعهم بالمناديل الشروب المعلمة، و بأوساطهم العراض الديبقىّ المقصورة، و ليس الجميع عبيدا بشراء و لا سودان، بل مولدة، و أولاد أعيان، و أهل فهم و لسان، ثم احتاط بركابه بعدهم من هو على غير زيهم بل بالقنابيز المفرّجة، و المناديل السوسىّ، و هم المتولون لحمل السلاح الخاص الذى لا يكون إلّا فى موكبه خاصة على الاستمرار من الصوارى، و الفرنجيات و الدبابيس، و اللتوت، و الصماصم بالدرق الصينىّ، و اليمنىّ بالكوامخ الفضة، و الذهب، و يحصل الاستدعاء من صبيان السلام فى مسافة الدهاليز لكل من هو مستخدم فى الموكب ركوبه من محل حجبته، إلى أن خرج الخليفة من باب الذهب، و قد ضربت الغربية، و أبواق السلام و اجتمع الرهج من كل مكان، و نشرت المظلة، فاجتمع إليها الزويلية بالعدد الغريبة، و ظلل بها، و سارت بسيره، و القرآن الكريم عن يمينه و يساره، و الحجرية الصبيان المنشدون، و اجتمع الموكب بجملته على ما ذكر أوّلا، و الترتيب أمامه لمتولى الباب و حجابه، و تلوه لمتولى الستر، و كل منهم على حكم المدارج التى وصلت إليه لا سبيل إلى الخروج عما رسم فيها، و سار بجملة موكبه على ترتيب أوضاعه، بين حصنين مانعين من طوارق عساكره فارسها، و راجلها كل طائفة يقدمها زمامها، و قد ازدحموا فى المصفات بالعدد المذهبة الحربية، و الآلات المانعة المضيئة و ليس بينهم طريق لسالك، و قد زين لهم جميع ما يكون أمامهم من الطرق جميعها حوانيتها، و آدرها، و جميع مساكنها، و أبواب حاراتها، بأنواع من الستور، و الديباج و الديبقىّ على اختلاف أجناسها، ثم بأصناف السلاح و ملأت النظارة الفجاج و البطاح، والوها و الربا، و الصدقات، و الرسوم تعمّ أهل الجانبين من أرباب الجوامع و المساجد، و بوّابى الأبواب، و السقائين، و الفقراء، و المساكين فى طول الطريق إلى أن أظل على الخيام المنصوبة. فوقف بموكبه، و استدعى الوزير بعده من مقدّمى ركابه، فاجتاز راكبا بمفرده، و جمع حاشيته بسلاحهم رجالة فى ركابه بعد أن بالغ فى الإيماء بتقبيل الأرض أمامه، فردّ عليه بكمه السلام.

و عاد الخليفة فى سيره بالموكب بعد أن حصل الوزير أمامه، و ترجل جميع من شرّف بحجبته فى ركابه، و آخرهم متولى حمل سيفه، و رمحه و صبيان السلام يستدعون كل منهم إلى تقبيل الأرض بجميع نعوته إكبارا له، و تمييزا و احتاطوا بركابه، و وصل إلى المضارب فى الحرس الشديد على أبوابها، و سرادقاتها من كل جانب، و قد تبين و جاهة من حصل بها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۸

و مكن من الدخول إليها، و ترجل الوزير فى الدهليز الثالث من دهاليزها، و تقدّم إلى الخليفة، و أخذ شكيمة الفرس من يد الروّاض، و شق به الخيام التى جمعت جمع الصور الآدمية و الوحشية، و قد فرشت جميعها بالبسط الجهرمية و الأندلسية إلى أن وصل إلى القاعة الكبرى فيها، و ترجل على سرير خلافته، و جلس فى محل عظمته، و أجلس وزيره على الكرسىّ الذى أعدّ له، و احتاط به المستخدمون من جملة السلاح المنتصب جميعه، و حجبوا العيون عن النظر إليه وصف بين يديه الأمراء و الضيوف، و المشرّفون بحجبته، و ختم المقرئون القرآن العظيم، و قدّم عدى الملك النائب: شعراء المجلس على طبقاتهم، و عند انقضاء خدمة آخرهم عادت المستخدمون، و الروّاض مقدّمة ما أمروا به من الدواب، فعلاه الخليفة و الوزير يمسك الشكيمة بيده، و انتظم موكبا عظيما و القرّاء عوض الرهجية، و الجماعة فى ركابه رجالة على حكم ما كانوا عليه أوّلا، و صعد من القاعة التى فى دهاليز الباب القبلىّ منها، فخرج منه، و انفصلت خدمة جميع الأمراء و الضيوف من ركابه بأحسن وداع من تقبيل الأرض.

و صعد الخليفة و وزيره، و أولاده و إخوته و الأصحاب و الحواشى إلى السكرة، و هى من جنات الدنيا المزخرفة، و تلقاه أخوه بعظمة سلامه، و تقبيل الأرض بين يديه، و جلس لوقته، و فتحت الطاقات التى فى المنظرة، و عن يمينه وزيره، و عن يساره أخوه جالسان، و اعتمد الناس جميعهم عند مشاهدته تقبيل الأرض له، و إدامة النظر نحوه، و المستخدمون جميعهم على السدّ مشدودى الأوساط واقفين عليه.

فلما أمرهم الوزير أن يكسروه: قبلوا الأرض جميعا، و انصرفوا عنه، و تولته الفعلة فى البساتين السلطانية بالفتح من الحانيين، و القرآن و التكبير من الجانب الغربىّ، حيث الخليفة و الرهج و اللعب من الجانب الشرقىّ، و لما كمل فتحه: انحدرت العشاريات عن آخرها اللطيف منها يقدم الكبير، و الجميع مزينة بالذهب و الفضة، و الستور المرقومة، و رؤساؤهم و خدّامهم بالكسوات الجميلة، و بعد ذلك غلقت الطاقات، و حلّ الخليفة بالمقصورة التى لراحته، و كذلك الوزير، و أولاده و إخوته، و جميع الأمراء الأستاذين، و الأصحاب و الحواشى و استدعى للوقت والى مصر من البرّ الشرقىّ، و خلع عليه بدلة منديلها و ثوبها مذهبان، و ثوبان عتابىّ و سقلاطون، و قبل الأرض من تحت المنظرة، و عدّى فى البحر إلى حفظ مكانه.

ثم استدعى بعده حامى البساتين و مشارفها، فخلع عليهما بدلتين حريرىّ و ثوبين سقلاطون، و عتابىّ، ثم متولى ديوان العمائر كذلك، ثم مقدّمى الرؤساء كذلك، و اعتمد كل من سلم إليه الإثباتات المشتملة على أصناف الأنعام من العين و الورق، و صوانى الفطرة و الموائد التى يهتمّ بها جميع الجهات، و الخراف المشوية، و الجامات الحلواء، تفرقة ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۰۹

على ما رسم، و هو شامل غير مخصص من أخى الخليفة، و الوزير إلى الأصحاب و الحواشى من أرباب السيوف و الأقلام، ثم الأمراء المستخدمين و الضيوف المميزين من الأجناد، و غيرهم من الأدوان ممن يتعلق به خدمة تختص بالموسم من البحارة، و أرباب اللعب و غيرهم، و عبيت الأسمطة فى المسطحات المنصوبة لها بالجانب من الباب الغربىّ، من الخيام.

و أمر الوزير أخاه: بالمضىّ إليها و الجلوس عليها، فتوجه و بين يديه متولى حجبة الباب، و نوّابه و المعروفية، و الحجاب و استدعت الأمراء و الضيوف بالسقاة من خيامهم، و أجلس كل منهم على السماط فى موضعه على عادتهم، و تلاهم العساكر على طبقاتهم، و لم يمنع حضورهم ما يسير لكل منهم من جميع ما ذكر على حكم ميزته. و لما انقضى حكم الأسمطة المختصة بالأمراء الكبار، عاد أخو الوزير إلى حيث مقرّ الخلافة، و بقى متولى الباب جالسا لأسمطة العبيد، و جميع المستخدمين من الراجل و السودان، و عبيت المائدة الخاص بالسكرة التى ما يحضرها إلّا العوالى الخاص المستخدمون فى الخدم الكبار، و يجمع له حالتان حضوره فى أشرف مقام. و جلوسه فى محل يحصل له به حرمة، و ذمام.

و جلس الخليفة عليها، و أخوه على شماله، و وزيره على يمينه بعد أن أدّى كل منهما ما يجب من سلامه و تعظيمه، و حضر أولاد الوزير، و إخوته و الشيخ أبو الحسن: كاتب الدست، و ابنه سالم، و من الأستاذين المحنكين أرباب الخدم، و جرى الحال فى المائدة الشريفة على ما هو مألوف، و فرّق من جملتها لكل من أرباب الخدم الذين لم يحضروا عليها، ما هو لكل منهم على سبيل الشرف، و تميز فى ذلك اليوم خاصة ما يختص بالقاضى و شهوده، و الداعى و ابن خاله الذين يخصصون عن سواهم بمقامهم دون غيرهم فى قاعة الخيمة الكبرى، أمام سرير الخلافة المنصوب مدّة النهار، مع ما يحمل إليهم من الموائد، و غيرها مما هو بأسمائهم فى الإثباتات مذكور و لما تكامل وضع المائدة، و انقضى حكمها قبل كل من الحاضرين الأرض، و انصرف بعد أن استصحب منها ما تقتضيه نفسه على حكم الشرف و البركة.

و يقضى بعد ذلك الفرائض الواجبة فى وقتها، و لا بدّ من راحة بعدها و حضر مقدّما الركاب، و حاسبا كاتب الدفتر على ما معهما برسم تفرقة الرسوم، و الصدقات فى مسافة الطريق فكمل لهما على ما بقى معهما مثل ما كان أوّلا، و لما استحق العود عاد كل من المستخدمين إلى شغلة من ترتيب الموكب، و مصفات العساكر، و ترتيب من يشرّف بالحضرة من الأمراء و الضيوف، و فرّقت الصوانى

الخاص التى تكون بين يدى الخليفة مدّة النهار، الجامعة للثروة من كل جهة و الزينة من كل معنى، و الغرابة من كل صنف، و قد جمعت ملاذ جميع الحواس، و العدّة منها يسيرة، و ليس ذلك لتقصير من هم الجهات التى تتنوّع فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱۰

بالغرائب بل للتعب الشديد عليها، ثم لضيق الزمان، لأنّ كلا منها لا مندوحة أن يكون فيه زهرة و ثمرة، و طول المكث كذلك يتلف ما فيها، و إذا شملت مع قلتها من له الوجاهة العالية من أخى الخليفة، و الوزير لم يكن له غير صينية واحدة، و أخذ كل من الحاشية أهبة تجمله لموضع ميزته، و غير الخليفة ثيابه بما يقتضيه الموكب، و هو بدلة حريرىّ، بشدّة الوقار، و علم الجوهر، و سير إلى الوزير صحبة مقدّم خزانة الكسوة الخاص على يد المستخدمين عنده من الأستاذين من جملة بدلات الجمع التى يتوجه منها إلى زيه، ما يؤمر به من السعى إليه بدلة مكملة حريرىّ و منديلها بياض بالشدّة الدانية غير العربية.

و لما لبس ما سير إليه و حضر بين يديه لشكر نعمته، أمره بركوب أخيه فى إحدى العشريات، فامتثل أمره، و توجه صحبته من السكرة بجميع خواصه و حواشيه، و فتح لهم الباب الذى هو منها بشاطئ الخليج، و قدّم له إحدى العشاريات الموكبية، و فيها مقدّم رياسة البحرية، فركب فيها بجمعه، و الوزير واقف راجل على شاطىء الخليج خدمة له إلى أن انحدرت العشاريات جميعها قدّامه، و مراكب اللعب بغير أحد من أرباب الرهج، و المستخدمون فى البرّين يمنعون من يقاربه، و المتفرّجون لا يصدّهم و يردّهم ما يحل بهم بل يرمون أنفسهم من على الدواب، و يسيرون بسيره.

و عاد الوزير إلى السكرة، فلما شاهد الخليفة الدواب الخاص التى برسم ركوبه، أمره بما وقع عليه اختياره منها، و علاه فاحتاط بركابه، مقدّمو الركاب و استفتح القرّاء و خرج من باب السكرة و دخل من باب الخليفة القبلىّ و شق قاعتها على سرير مملكته و خص بالسلام فيها شيوخ الكتاب العوالى، و القاضى و الداعى، و من معهما، و لهم بذلك ميزة عظيمة يختصون بها دون غيرهم، و خرج منها إلى البستان المعروف. بنزار، و سار فى ميدانه، و جميعه من الجانبين سور معقود من شجر نارنج أصولها مفترقة، و فروعها مجتمعة، و ظللت الطريق، و عليها من الثمرة التى أخرجها من وقته إلى هذا اليوم و قد خرجت بهجتها عن المعتاد، و حصل عليها ثمرة سنتين إحداهما انتهت، و الأخرى فى الابتداء، و هو بهيئته و زيه و ترتيب عساكره و أمرائه، و خرج من الباب بعد أن عمّ من له رسم بإنعامه، و عاد الرهج و الموكب على ما كان عليه. فلما وصل إلى السدّ الذى على بركة الحبش كسر بين يديه.

و قال فى كتاب الذخائر: إن مما أخرج من القصر فى سنة إحدى و ستين و أربعمائة فى خلافة المستنصر قبة العشارىّ و قاربه، و كسوة رحله، و هو مما استعمله الوزير أحمد بن علىّ الجرجرای فى سنة ست و ثلاثين و أربعمائة، و كان فيه مائة ألف و سبعة و ستون ألفا و سبعمائة درهم فضة نقرة، و إن المطلق لصناع الصاغة عن أجرة ذلك، و فى ثمن لطلائه خاصة، ألفان و سبعمائة دينار، و عمل أبو سهل التسترىّ لوالدة المستنصر عشاريا يعرف بالفضىّ و حلى رواقة بفضة تقديرها مائة ألف و ثلاثون ألف درهم، و لزم ذلك أجرة الصناعة، و لطلاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱۱

بعضه: ألفان و أربعمائة دينار، و استعمل كسوة برسمه بمال جليل، و أنفق على العشاريات التى برسم النزه البحرية التى عدّتها ستة و ثلاثون عشاريا بالتقدير بجميع آلاتها، و كساها و حلاها من مناطق، و رؤوس منجوقات، و أهلة و صفريات، و غير ذلك: أربعمائة ألف دينار.

و قال ابن الطوير: إذا أذن اللّه سبحانه و تعالى بزيادة النيل المبارك: طالع ابن أبى الردّاد بما استقرّ عليه أذرع القاع فى اليوم الخامس و العشرين من بؤونة ، و أرخه بما يوافقه من أيام الشهور العربىّ، فعلم ذلك من مطالعته و أخرجت إلى ديوان المكاتبات، فنزلت فى السير المرتب بأصل القاع، و الزيادة بعد ذلك فى كل يوم، تؤرخ بيومه من الشهر العربىّ، ما وافقه من أيام الشهر القبطىّ لا يزال كذلك، و هو محافظ على كتمان ذلك لا يعلم به أحد قبل الخليفة، و بعده الوزير، فإذا انتهى فى ذراع الوفاء، و هو السادس عشر إلى

أن يبقى منه أصبع أو أصبعان و علم ذلك من مطالعته.

أمر أن يحمل إلى المقياس فى تلك الليلة من المطابخ: عشرة قناطير من الخبز السميذ و عشرة من الخراف المشوية، و عشرة من الجامات الحلواء، و عشر شمعات، و يؤمر بالمبيت فى تلك الليلة بالمقياس فيحضر إليه قرّاء الحضرة، و المتصدّرون بالجوامع بالقاهرة و مصر، و من يجرى مجراهم، فيستعملون ذلك و يقدون الشمع عليهم من العشاء الآخرة، و هم يتلون القرآن برفق، و يطرّبون بمكان التطريب، فيختمون الختمة الشريفة و يكون هذا الاجتماع فى جامع المقياس، فيوفى الماء ستة عشر ذراعا فى تلك الليلة، و لوفاء النيل عندهم قدر عظيم، و يبتهجون به ابتهاجا زائدا، و ذلك لأنه عمارة الديار، و به التئام الخلق على فضل اللّه، فيحسن عند الخليفة موقعه، و يهتمّ بأمره اهتماما عظيما أكثر من كل المواسم، فإذا أصبح الصبح من هذا اليوم، و حضرت مطالعة ابن أبى الردّاد إليه بالوفاء، ركب إلى المقياس لتخليقه، فيستدعى الوزير على العادة، فيحضر إلى القصر، فيركب الخليفة بزىّ أيام الركوب من غير مظلة، و لا ما يجرى مجراها بل فى هيئة عظيمة من الثياب، و الوزير تابعه فى الجمع الهائل على ترتيب الموكب، و يخرج شاقا من باب زويلة، و سالكا الشارع إلى آخر الركن من بستان عباس المعروف اليوم: بسيف الإسلام، فيعطف سالكا على جامع ابن طولون، و الجسر الأعظم بين الركنين إلى الساحل بمصر إلى الطريق المسلوكة على طرف الخشابين الشرقىّ على دار الفاضل إلى باب الصاغة بجوارها، و له دهليز مادّ بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانىّ بسطا و تأزيرا، فيشقها و الوزير تابعه، فيخرج منها منعطفا على الصناعة الأخرى، و كانت برسم المكس إلى السيوفيين، ثم على منازل العز التى هى اليوم مدرسة، ثم إلى دار الملك فيدخل من الباب المقابل لسلوكه، فيترجل الوزير عنده للدخول بين يديه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱۲

ماشيا إلى المكان المعدّ له، و يكون قد حمل أمس ذلك اليوم من القصر البيت المتخذ للعشارىّ الخاص، و هو بيت مثمن من عاج و أبنوس عرض كل جزء ثلاثة أذرع، و طوله قامة رجل تامّ، فيجمع بين الأجزاء الثمانية، فيصير بيتا دوره أربعة و عشرون ذراعا و عليه قبة من خشب محكم الصناعة، و هو بقبته ملبس بصفائح الفضة، و الذهب، فيتسلمه رئيس العشاريات الخاص و يركبه على العشارىّ المختص بالخليفة، و يجعل باكر ذلك اليوم الذى يركب فيه الخليفة على الباب الذى يخرج منه للركوب إلى المقياس.

فإذا استقرّ الخليفة بالمنظرة بدار الملك التى يخرج من بابها إلى العشارىّ، و أسند إليه استدعى الوزير من مكانه، فيحضر إليه و يخرج بين يديه إلى أن يركب فى العشارىّ، فيدخل البيت المذهب وحده، و معه من الأستاذين المحنكين من يأمره من ثلاثة إلى أربعة، ثم يطلع فى العشارىّ خواص الخليفة خاصة و رسم الوزير اثنان أو ثلاثة من خواصه، و ليس فى العشارىّ من هو جالس سوى الخليفة باطنا، و الوزير ظاهرا فى رواق من باب البيت الذى هو بعرانيس من الجانبين قائمة مخروطة من أخف الخشب، و هى مدهونة مذهبة و عليها من جانبيها ستور معمولة برسمها على قدرها.

فإذا اجتمع فى العشارىّ من جرت عادته بالاجتماع اندفع من باب القنطرة طالبا باب المقياس العالى على الدرج التى يعلوها النيل، فيدخل الوزير، و معه الأستاذون بين يدى الخليفة إلى الفسقية، فيصلى هو و الوزير ركعات كل واحد بمفرده، فإذا فرغ من صلاته أحضرت الآلة التى فيها الزعفران و المسك، فيديفها بيده بآلة، و يتناولها صاحب بيت المال، فيناولها لابن أبى الردّاد، فيلقى نفسه فى الفسقية، و عليه غلالته، و عمامته، و العمود قريب من درج الفسقية، فيتعلق فيه برجليه، و يده اليسرى، و يخلقه بيده اليمنى، و قرّاء الحضرة من الجانب الآخر يقرءون القرآن نوبة بنوبة، ثم يخرج على فوره راكبا فى العشارى المذكور، و هو بالخيار إما أن يعود إلى دار الملك، و يركب منها عائدا إلى القاهرة، أو ينحدر فى العشارىّ إلى المقس فيتبعه الموكب إلى القاهرة، و يكون فى البحر فى ذلك اليوم ألف قرقورة مشحونة بالعالم، فرحا بوفاء النيل، و بنظر الخليفة.

فإذا استقرّ بالقصر اهتمّ بركوب فتح الخليج، و فيه همة عظيمة ظاهرة للابتهاج بذلك، ثم يصير ابن أبى الردّاد باكر ثانى ذلك اليوم إلى القصر بالإيوان الكبير الذى فى الشباك إلى باب الملك بجواره، فيجد خلعة معبأة هناك، فيؤمر بلبسها و يخرج من باب العيد

شاقا بها بين القصرين من أوّله قصدا لإشاعة ذلك، فإنّ ذلك من علامة وفاء النيل، و لأهل البلاد إلى ذلك تطلع، و تكون خلعة مذهبة، و كان من العدول المحنكين، فيشرّف فى الخلعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱۳

بالطيلسان المقوّر، و يندب له من التغييرات، و لمن يريده خمس تغييرات مركبات بالحلى، و يحمل أمامه على أربع بغال مع أربعة من مستخدمى بيت المال، أربعة أكياس فى كل كيس خمسمائة درهم ظاهرة فى أكفهم و بصحبته أقاربه، و بنو عمه و أصدقاؤه، و يندب له الطبل و البوق، و يكتنف به عدّة كثيرة من المتصرّفين الرجالة، فيخرج من باب العيد، و يركب إحدى التغييرات، و هى أميزها، و شرّف أمامه بجملين من النقارات التى قدّمنا ذكرها يعنى فى ركوب أوّل العام من زىّ الموكب، فيسير شاقا القاهرة، و الأبواق تضرب أمامه كبارا و صغارا، و البطل وراءه مثل الأمراء، و ينزل على كل باب يدخل منه الخليفة، و يخرج من باب القصر فيقبله و يركب.

و هكذا يعمل كل من يخلع عليه من كبير، و صغير من الأمراء المطوّقين إلى من دونهم سيفا و قلما، و يخرج من باب زويلة طالبا مصر من الشارع الأعظم إلى مسجد عبد اللّه إلى دار الأنماط ، جائزا على الجامع إلى شاطىء البحر، فيعدّى إلى المقياس بخلعه، و أكياسه، و هذه الأكياس معدّة لأرباب الرسوم عليه فى خلعه و لنفسه، و لبنى عمه بتقرير من أوّل الزمان، فإذا انقضى هذا الشأن، شرع فى الركوب إلى فتح الخليج ثانى يوم، و قد كان وقع الاهتمام به، منذ دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء اهتماما عظيما، فيعمل فى بيت المال من التماثيل شكل الوحوش من الغزلان، و السباع، و الفيلة، و الزرافات: عدّة وافرة، منها ما هو ملبس بالعنبر، و منها ما هو ملبس بالصندل، ثم شكل التفاح، و الأترج اللطيف، و الوحوش مفسرة الأعين و الأعضاء بالذهب إلى غير ذلك.

ثم تخرج الخيمة التى يقال لها القاتول لأنّ فرّاشا سقط من أعلى عمودها فمات، فسميت بلك، و طوله سبعون ذراعا، و أعلاه صفرية فضة تسع راوية ماء، و عليه الفلكة التى كانت فى الإيوان إلى قريب الوقت، ثم يعمل فى أوّل العمود شقة دائرة، ثم أوسع منها، و يتوالى ذلك إلى إحدى عشرة شقة، فتصير سعة الخيمة، ما يزيد على فدّانين مستديرة، و تنصب فى برّ الخليج الغربىّ على حافته مكان بستان الحلىّ اليوم، و كانت ثمّ منظرة يقال لها السكرة برسم جلوس الخليفة لفتح الخليج فى مثل هذا اليوم، و ينصب أرباب الرتب من الأمراء من بحرىّ تلك لخيمة الكبرى خياما كثيرة، و يتمايزون فيها على قدر هممهم و ضربهم إياها فى الأماكن الأقرب فالأقرب على قدر رتبهم، فإذا تمّ ذلك و عزم الخليفة على الركوب ثالث يوم التخليق أو رابعه أخرج كل من المستخدمين فى المواضع المقدّم ذكرها فى ركوب أوّل العام: آلات الموكب على عادته، و يزاد فيه إخراج أربعين بوقا عشرة من الذهب،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱۴

و ثلاثون من الفضة، و يكون بوّاقوها ركبانا، و أرباب الأبواق النحاس مشاة، و من الطبول الكبار التى مكان خشبها فضة عشرة. فإذا حضر الوزير إلى باب القصر، خرج الخليفة فى هيئة عظيمة، و همة عالية، و قد تضاعفت هم الأجناد فى ذلك اليوم فارسها و راجلها، و يخرج زىّ الخليفة من المظلة، و السيف و الرمح و الألوية، و الدواة، و غير ذلك من الأستاذين المحنكين، و يركب فى ذلك اليوم من الأقارب المقيمين بالقصر: عشرون أو ثلاثون، و هم بالنوبة فى كل سنة فيتقدّمون إلى المنظرة فى مكان لهم صحبة أستاذين لخدمتهم، و حفظهم، و يكون قد لف عمود الخيمة الكبرى المشار إليها إما بديباج أبيض، أو أحمر، أو أصفر من أعلاه إلى أسفله، و ينصب مسندا إليه سرير الملك، و يغشى بقرقوبىّ و عرانيسه ذهب ظاهرة.

فيخرج الخليفة للرّكوب، و يركب فيخرج من باب القصر، و عليه ثوب يقال له: البدنة و هو كله ذهب و حرير مرقوم، و المظلة من شكله، و لا يلبس هذا الثوب فى غير هذا اليوم، و يسير بالموكب الهائل شاقا القاهرة من الطريق التى ركب منها لتخليق المقياس، إلّا أنه لا يدخل طرق مصر من الخشابين، بل خارجها من طريق الساحل، فإذا جاز على جامع ابن طولون، وجد قد ربط من رأس المنارة من مكان العشارىّ النحاس حبل طويل قوىّ، موضوع آخره فى الطريق، و فيه قوم يقال لهم: التحتبارية واحد فى زىّ فارس على شكل فرس و فى يده رمح، و بكتفه درقة، فينحدر على بكرة، و فى رجليه آخر ممسكها، و هو يتقلب فى الهواء بطنا و ظهرا، حتى يصل إلى

الأرض، و يكون قاضى القضاة، و أعيان الشهود جلوسا فى باب الجامع من هذه الجهة، فإذا وازاهم الخليفة و كانوا قد ركبوا، وقف لهم وقفة، فيسلم على القاضى، ثم يدخل، فيقبل الرجل التى من جانبه لا غير، و يدخل بالشهود فى الفرجة أمام وجه الدابة بمقدار قصبة المساحة، فيسلم عليهم و يرجعون إلى دوابهم، فيركبون، و يكون قد نصب لهم بالقرب من الخيمة الكبرى: خيمتان، إحداهما ديباج أحمر، و الأخرى ديبقى أبيض بصفارى فضة لكل واحدة فيتم الخليفة بهيئته إلى أن يدخل من باب الخيمة، و يكون الوزير قد تقدّمه على العادة ليخدمه، فيجده راجلا على باب الخيمة، فيمشى بين يديه إلى سرير الملك، فينزل و يجلس على المرتبة المنصوبة فيه، و يحيط به الأستاذون المحنكون و الأمراء المطوّقون بعدهم، و يوضع للوزير الكرسىّ الجارى به عادته، فيجلس عليه، و رجلاه تحك الأرض و يقف أرباب الرتب صافين من ناحية سرير الملك إلى ناحية الخيمة، و القرّاء يقرءون القرآن ساعة زمانية، فإذا ختموا قراءتهم، استأذن صاحب الباب على حضور الشعراء للخدمة بما يطلق هذا اليوم، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد، و لهم منازل على مقدار أقدارهم، فالواحد يتقدّم الواحد بخطوة فى الإنشاد، و هو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب، و تقدّم شاعر يقال له ابن جبر، و أنشأ قصيدة منها:

فتح الخليج فسال منه الماءو علت عليه الراية البيضاء

 فصفت موارده لنا فكأنه كف الإمام فعرفها الإعطاء

فانتقد الناس عليه فى قوله، فسال منه الماء، و قالوا: أىّ شىء يخرج من البحر غير الماء، فضيع ما قاله بعد هذا المطلع، و تقدّم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير، و أنشد:

ما زال هذا السدّ ينظر فتحهإذن الخليفة بالنوال المرسل

حتى إذا برز الإمام بوجههوسطا عليه كل حامل معول

فجرى كأن قد ديف فيه عنبريعلوه كافور بطيب المندل

فانتقدوا عليه أيضا قوله فى البيت الثانى، و قالوا: أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه، و إن كان قصد فتح السدّ بالمعاول، لكنه ما نظمه إلا قلقا، ثم تقدّم له شاعر شاهد يقال له: كافى الدولة أبو العباس أحمد، و أنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضى الأثير بن سنان، فإنه عملها بحضوره بديها:

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهدللنيل أم لك يا ابن بنت محمد

أم لاجتماعكما معا فى موطنوافيتما فيه لأصدق موعد

ليس اجتماع الخلق إلّا للذىحاز الفضيلة منكما فى المولد

شكروا لكلّ منكما لوفائهبالسعى لكن ميلهم للأجود

و لمن ذا اعتمد الوفاء ففعلهبالقصد ليس له كمن لم يقصد

هذا يفى و يعود ينقص تارةو تسدّ أنت النقص إن لم يردد

و قواه إن بلغ النهاية قصرتو إذا بلغت إلى النهاية تبتدى

فالآن قد ضاقت مسالك سعيهبالسدّ فهو به بحال مقيد

فإذا أردت صلاحه فافتح ليرى جنابا مخصبا و ترى ندى

و أمر بفصد العرق منه فما شكاجسم فصيح الجسم إن لم يقصد

و اسلم إلى أمثال يومك هذافى عيش مغبوط و عز مخلد

فأمر له على الفور بخمسين دينارا، و خلع عليه، و زيد فى جاريه، ثم يقوم الخليفة عن السرير راكبا، و الوزير بين يديه حتى يطلع على المنظرة المعروفة بالسكرة، و قد فرشت بالفرش المعدّة لها، فيجلس فيها، و يتهيأ أيضا للوزير مكان يجلس فيه، و يحيط بالسدّ حامى

البساتين و مشارفها لأنه من حقوق خدمتهما، فتفتح إحدى طاقات المنظرة، و يطل منها الخليفة على الخليج، و طاقة تقاربها يتطلع منها أستاذ من الخواص، و يشير بالفتح، فيفتح بأيدى عمال البساتين بالمعاول و يخدم بالطبل و البوق من البرّين.

فإذا اعتدل الماء فى الخليج، دخلت العشاريات اللطاف، و يقال لها السماويات و كأنها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱۶

خدم بين يدى العشارىّ الذهبىّ المقدّم ذكره، ثم العشاريات الخاص الكبار، و هى ستة:

الذهبىّ المذكور و الفضىّ، و الأحمر، و الأصفر، و اللازوردى، و الصقلى، و كان أنشأه نجار من رأساء الصناعة صقلىّ، و زاد فيه على الإنشاء المعتاد، فنسب إليه، و هذه العشاريات لا تخرج عن خاص الخليفة فى أيام النيل، و تحوّله إلى اللؤلؤة للفرجة، و سارت فى الخليج، و على بيت كل منهما الستور الديبقىّ الملوّنة، و برءوسها و فى أعناقها الأهلة، و قلائد من الخرز، فتسند إلى البرّ الذى فيه المنظرة الجالس فيها الخليفة، فإذا استقرّ جلوس الخليفة، و الوزير بالمنظرة، و دخل قاضى القضاة، و الشهود الخيمة الديبقى البيضاء، وصلت المائدة من القصر فى الجانب الغربىّ من الخليج على رؤوس الفرّاشين صحبة صاحب المائدة، و عدّتها مائة شدّة فى الطيافير الواسعة، و عليها القوّارات الحرير، و فوقها الطرّاحات، و لها رواء عظيم و مسك فاتح، فتوضع فى خيمة واسعة منصوبة لذلك و يحمل للوزير ما هو مستقرّ له بعادة جارية، و من صوانى التماثيل المذكورة: ثلاث صوان، و يخصص منها أيضا لأولاده، و إخوته خارجا عن ذلك إكراما و افتقادا، و يحمل إلى قاضى القضاة، و الشهود شدّة من الطعام الخاص من غير تماثيل توقيرا للشرع، و يحمل إلى كل أمير فى خيمته شدّة طعام، و صينية تماثيل، و يصل بمن ذلك إلى الناس شىء كثير، و لا يزالون كذلك إلى أن يؤذن بالظهر، فيصلون و يقيمون إلى العصر، فإذا أذن به صلى، و ركب الموكب كله لانتظار ركوب الخليفة.

فيركب لابسا غير البدنة بل بهيئته، و المظلة مناسبة لثيابه التى عليه، و اليتيمة و الترتيب بأجمعه على حاله، و يسير فى البرّ الغربىّ من الخليج شاقا البساتين هناك، حتى يدخل من باب القنطرة إلى القصر، و الوزير تابعه على الرسم المعتاد، و يمرّ فيه لقوم أحسن الأيام، و يمضى الوزير إلى داره مخدوما على العادة.

و قال فى كتاب الذخائر و التحف: إنّ المستعمل من الفضة قبة العشارى المعروف بالمقدّم، و قاربه و كسوة رحله فى سنة ست و ثلاثين و أربعمائة فى وزارة علىّ بن أحمد الجرجرائى: مائة ألف و سبعة، و ستون ألفا، و سبعمائة درهم نقرة، و إنّ المطلق للصناع عن أجرة الصناعة، و فى ثمن ذهب لطلائه خاصة: ألفان و تسعمائة دينار و سبعون، و كانت الفضة فى ذلك الوقت، كل مائة درهم: بستة دنانير و ربع، سعر ستة عشر درهما بدينار.

و لما تولى أبو سعيد سهل التسترىّ الوساطة سنة ست و ثلاثين و أربعمائة، استعمل لأمّ المستنصر عشاريا يعرف: بالفضىّ و حلّى رواقه بفضة تقديرها: مائة ألف و ثلاثون ألف درهم، و لزم ذلك أجرة الصناعة، و لطلاء بعضه: ألفان و أربعمائة دينار، سوى كسوة له بمال جليل، و المنفق على ستة و ثلاثين عشاريا برسم النزه البحرية، لآلاتها و حلاها من مناطق، و رؤوس منجوقات و أهله و صفريات و غير ذلك: أربعمائة ألف دينار، و كانت العادة عندهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱۷

إذا حصل وفاء النيل أن يكتب إلى العمال.

فمما كتب من إنشاء تاج الرياسة أبى القاسم علىّ بن منجب بن سليمان الصيرفى :

أمّا بعد: فإن أحق ما أوجبت به التهنئة و البشرى، و غدت المسارّ منتشرة تتوالى و تترى، و كان من اللطائف التى غمرت بالمنة العظمى، و النعمة الجسيمة الكبرى، ما استدعى الشكر لموجد العالم و خالقه، و ظلت النعمة به عامّة لصامت الحيوان و ناطقه، و تلك الموهبة بوفاء النيل المبارك الذى يسره اللّه تعالى، و له الحمد يوم كذا، فإن هذه العطية تؤدّى إلى خصب البلاد و عمارتها، و شمول المصالح و غزارتها، و تفضى بتضاعف المنافع و الخيرات، و تكاثر الأرزاق، و الأقوات و يتساهم الفائدة فيها جميع العباد، و تنتهى

البركة بها إلى كل دان و ناء و كل حاضر و باد، فأذع هذه النعمة قبلك، و انشرها فى كل من يتدبر عملك، و حثهم على مواصلة الشكر لهذه الألطاف الشاملة لهم، و لك، فاعلم هذا و اعمل به إن شاء اللّه تعالى.

و كتب أيضا: إن أولى ما تضاعف به الابتهاج و الجذل، و انفتح فيه الرجاء، و اتسع الأمل، ما عمّ نفقه صامت الحيوان و ناطقه، و أحدث لكل أحد اغتباطا لزمه، و آلى أن لا يفارقه، و ذلك ما منّ اللّه به من وفاء النيل المبارك الذى تحيى به كل أرض موات، و تكتسى بعد اقشعرارها حلة النبات و يكون سببا لتوافر الأقوات، فإنه و فى المقدار الذى يحتاج إليه، فلتذع هذه المنة فى القاضى و الدانى، لتستعمل الكافة بينهم ضروب البشائر و التهانى إن شاء اللّه تعالى.

و كتب أيضا: من لطف اللّه الواجب حمده، اللازم شكره و فضله، الذى لا يمل بشره، و لا يسأم ذكره، و منّه، الذى استبشر به الأنام، و تضاعف فيه الإنعام، و مثل اللّه الحياة به فى قوله تعالى: إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ [يونس/ ۲۴] أمر النيل المبارك الذى يعمّ النجود و التهائم، و تنتفع به الخلائق، و ترتع فيما يظهره البهائم، و قد توجه إليك بهذا الكتاب بهذه البشرى فلان، فأجره على رسمه فى إظهاره مجملا، و إيصاله إلى رسمه مكملا، و إذاعة هذه النعمة على الكافة ليتساهموا الاغتباط بها، و يبالغوا فى الشكر للّه سبحانه و تعالى بمقتضاها، و على حسبها فاعلم ذلك، و اعمل به إن شاء اللّه تعالى.

منظرة الدكة: و كان من جملة مناظر الخلفاء الفاطميين، منظرة تعرف: بالدكة لها بستان عظيم بجوار المقس فيما بينه، و بين أراضى اللوق، و ما زالت باقية، حتى زالت الدولة، و حكر مكان البستان، و صار خطة تعرف إلى اليوم بخط الدكة، فخربت المنظرة، و زال أثرها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱۸

قال ابن عبد الظاهر: الدكة بالمقس، كانت بستانا، و كان الخليفة إذا ركب من كسر الخليج من السكرة بمظلته يسير فى البرّ الغربىّ، و مضارب الناس و الأمراء، و خيمهم عن يمينه و شماله إلى أن يصل إلى هذا البستان المعروف بالدكة: و قد غلقت أبوابه و دهاليزه، فيدخل إليه بمفرده، و يسقى منه الفرس الذى تحته، و هى قضية، ذكر المؤرخ للسيرة المأمونية: أنهم كانوا يعتمدونها إلى آخر وقت، و لم يعلم سببها، ثم يخرج و يسير إلى أن يقف على الترعة الآتى ذكرها، و يدخل من باب القنطرة، و ينزل إلى القصر، و الدكة الآن: آدر و حارات شهرتها تغنى عن وصفها، فسبحان من لا يتغير.

و قال ابن الطوير عن الظاهر لإعزاز دين اللّه أبى هاشم علىّ بن الحاكم بأمر اللّه: كان بمنظرة يقال لها: الدكة بساحل المقس يعنى أنه مات بها.

منظرة المقس : و كان من جملة مناظرهم أيضا: منظرة بجوار جامع المقس الذى تسميه العامّة اليوم: جامع المقسى، و كانت هذه المنظرة بحرى الجامع المذكور، و هى مطلة على النيل الأعظم، و كان حينئذ ساحل النيل بالمقس و كانت هذه المنظرة: معدّة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول إلى غزو الفرنج، فتحضر رؤساء المراكب بالشوانى، و هى مزينة بأنواع العدد، و السلاح، و يلعبون بها فى النيل حيث الآن الخليج الناصرى تجاه الجامع و ما وراء الخليج من غربيه.

قال ابن المأمون: و ذكر تجهيز العساكر فى البرّ، عند ورود كتب صاحبى دمشق و حلب فى سنة سبع عشرة و خمسمائة، ما يحث على غزو الفرنج، و مسيرها مع حسام الملك، و ركب الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و توجه إلى الجامع بالمقس، و جلس بالمنظرة فى أعلاه، و استدعى مقدّم الأسطول الثانى، و خلع عليه، و انحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال، و العدد، و الآلات، و الأسلحة، و اعتمد ما جرت العادة به من الإنعام عليهم، و عاد الخليفة إلى البستان المعروف بالبعل إلى آخر النهار، و توجه إلى قصره بعد تفرقة جميع الرسوم، و الصدقات و الهبات الجارى بها العادة فى الركوبات.

و قال ابن الطوير: فإذا تكملت النفقة، و تجهزت المراكب، و تهيأت للسفر ركب الخليفة و الوزير إلى ساحل المقس، و كان هناك

على شاطىء البحر بالجامع، منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداعه يعنى الأسطول، و لقائه إذا عاد، فإذا جلس هو و الوزير للوداع، جاءت القوّاد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات فى البحر بين يديه و هى مزينة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۱۹

بأسلحتها، و لبوسها، و فيها المنجنيقات تلعب فتنحدر و تقلع بالمجاذيف كما يفعل فى لقاء العدوّ بالبحر الملح، و يحضر بين يدى الخليفة المقدّم و الرئيس، فيوصيهما، و يدعو للجماعة بالنصرة و السلامة، و يعطى المقدّم مائة دينار، و الرئيس: عشرين دينارا، و تنحدر إلى دمياط، و تخرج إلى البحر الملح، فيكون لها ببلاد العدوّ صيب و هيبة، فإذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوى الصغار و الرجال و النساء، و السلاح و ما عدا ذلك فللأسطول.

و اتفق مرّة أن قدّم على الأسطول سيف الملك الجمل، فكسب بطشة عظيمة فيها ألف و خمسمائة شخص، بعد أن بعث عليهم بالقتال، و قتل منهم نحوا من مائة و عشرين رجلا، و حضر إلى القاهرة، ففرح الخليفة، و ركب إلى المقس، و جلس بالمنظرة للقائهم، و أطلقوا الأسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البرّ فاستدعيت الجمال لركوبهم، و شق بهم القاهرة و مصر، و هم كل اثنين على جمل، ظهر الظهر، و عاد الخليفة إلى القصر فجلس فى إحدى مناظره لنظرهم فى جوازهم، فلما عادوا بهم من مصر صاروا بهم إلى المناخات، فصح منهم ألف رجل، فانضافوا إلى من فى المناخ، و أمّا النساء و الصبيان فإنهم دخلوا بهم إلى القصر بعد أن حمل منهم للوزير نصيب وافر، و أخذ الجهات، و الأقارب بقيتهنّ، فيستخدمونهنّ، و يعلمونهنّ الصنائع، و يتولى الأستاذون تربية الصبيان، و تعليمهم الخط و الرماية، و يقال لهم: الترابى، و من استريب به من الأسرى، و نبه عليه بقوّة أوقع به، و الشيخ الذى لا ينتفع به يمضى فيه حكم السيف بمكان يقال له: بئر المنامة فى الخراب قريب مصر، و لم يسمع على الدولة قط أنها فادت أسيرا بمال، و لا بأسير مثله، و هذه الحال فى كل سنة آخذة فى الزيادة لا النقص، و قدّم على الأسطول مرّة أمير يقال له: حرب بن فور، صاحب الحاجب لؤلؤ، فكسب بطشة حصل فيها: خمسمائة رجل، انتهى.

و قد خربت هذه المنظرة، و كان موضعها برج كبير صار يعرف فى الدولة الأيوبية بقلعة المقس مشرف على النيل، فلما جدّد الصاحب الوزير شمس الدين عبد اللّه المقسى جامع المقس على ما هو عليه الآن فى سنة سبعين و سبعمائة، هدم هذا البرج، و جعل مكانه جنينة شرقىّ الجامع، و تحدّث الناس أنه وجد فيه مالا، و اللّه أعلم.

منظرة البعل: و كان من مناظرهم بظاهر القاهرة منظرة فى بستان أنيق يعرف: بالبعل أنشأه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ، و موضع هذا البستان إلى اليوم يعرف بالبعل، و صارت أرضه مزرعة فى جانب الخليج الغربىّ، بحرىّ أرض الطبالة فى كوم الريش، مقابل قناطر الأزر، و قد خربت المنظرة و بقى منها آثار أدركتها، يعطن بها الكتان تدل على عظمها، و جلالتها فى حال عمارتها، و كانت منظرة البعل من أجلّ منتزهاتهم، و كان لهم بها أوقات عميمة المبرّات جليلة الخيرات.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۰

قال ابن المأمون: فأمّا يوم السبت و الثلاثاء فيكون ركوب الوزير من داره بالرهجية، و يتوجه إلى القصر، فيركب الخليفة إلى ضواحى القاهرة للنزهة فى مثل الروضة، و المشتهى، و دار الملك، و التاج، و البعل، و قبة الهواء، و الخمسة وجوه، و البستان الكبير، و كان لكل منظرة منهنّ فرش معلوم مستقرّ فيها من الأيام الأفضلية للصيف و الشتاء، و تفرّق الرسوم و يسلم لمقدّمى الركاب اليمين و الشمال لكل واحد عشرون دينارا، و خمسون رباعيا، و لتالى مقدّم الركاب اليمين مائة كاغدة فى كل كاغدة ثلاثة دراهم، و مائة كاغدة فى كل كاغدة درهمان، و لتالى مقدّم الشمال مثل ذلك، فأمّا الدنانير، فلكل باب يخرج منه من البلد دينار، و لكل باب يدخل منه دينار، و لكل جامع يجتاز عليه دينار، ما خلا جامع مصر، فإن رسمه خمسة دنانير، و لكل مسجد يجتاز عليه رباعىّ، و لكل من يقف و يتلو القرآن:

كاغدة، و الفقراء و المساكين من الرجال و النساء، لكل من يقف كاغدة، و لكل من يركب الخليفة ديناران، و يكون مع هذا متولى

صناديق الإنفاق يحجب الخليفة و بيده خريطة ديباج فيها خمسمائة دينار لما عساه يؤمر به.

فإذا حصل فى إحدى المناظر المذكورة، فرّق من العين ما مبلغه: سبعة و خمسون دينارا، و من الرباعية: مائة و ستة و ثمانون دينارا للحواشى، و الأستاذين و أصحاب الدواوين و الشعراء، و المؤذنين، و المقرئين، و المنجمين و غيرهم، و من الخزاف الشواء: خمسون رأسا منها طبقان حارّة مكملة مشورة، برسم المائدة الخاص مضافا لما يحضر من القصور من الموائد الخاص، و الحلاوات و طبق واحد، برسم مائدة الوزير، و بقية ذلك بأسماء أربابه، و رأسا بقر برسم الهرائس، فإذا جلس الخليفة على المائدة استدعى الوزير، و خواصه، و من جرت العادة بجلوسه معه، و من تأخر عن المائدة، ممن جرت عادته بحضورها حمل إليه من بين يدى الخليفة على سبيل التشريف، و عند عود الخليفة إلى القصر يحاسب متولى الدفتر مقدّمى الركاب على ما أنفق عليه فى مسافة الطريق من جامع، و مسجد و باب و دابة.

و أمّا تفرقة الصدقات فهم فيها على حكم الأمانة، قال: و إذا وقع الركوب إلى الميادين جرى الحال فيها على الرسم المستقرّ من الإنعام و يؤمر متولى خزائن الخاص، و صناديق الإنفاق أن يكون معه خريطة فى السرج ديباج تسمى خريطة الموكب فيها ألف دينار معدّة لمن يؤمر بالإنعام عليه فى حال الركوب.

منظرة التاج: هى من جملة المناظر التى كانت الخلفاء تنزلها للنزهة بناها الأفضل بن أمير الجيوش و كان لها فرش معدّ لها للشتاء و الصيف، و قد خربت، و لم يبق لها سوى أثر كوم، توجد تحته الحجارة الكبار و ما حول هذا الكوم، صار مزارع من جملة أراضى منية الشيرج.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۱

قال ابن عبد الظاهر: و أمّا التاج فكان حوله البساتين عدّة، و أعظم ما كان حوله: قبة الهواء، و بعدها الخمس وجوه التى هى باقية.

منظرة الخمس وجوه: كانت أيضا من مناظرهم التى يتنزهون فيها، و هى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش و كان لها فرش معدّ لها، و بقى منها آثار بناء جليل على بئر متسعة، كان بها: خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان، العظيم الوصف البديع الزىّ، البهيج الهيئة، و العامّة تقول التاج، و السبع وجوه إلى الآن و موضعها إلى وقتنا هذا من أعظم متفرّجات القاهرة، و ينبت هناك فى أيام النيل عندما يعمّ تلك الأراضى البشنين فتفتن رؤيته، و تبهج النفوس نضارته، و زينته، فإذا نضب ماء النيل، زرعت تلك البسطة قرطا، و كتانا يقصر الوصف عن تعداد حسنه، و أدركت حول الخمس وجوه: غروسا من نخل، و غيره تشبه أن تكون من بقايا البستان القديم، و قد تلاشت الآن، ثم إنّ السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودىّ الظاهرىّ جدّد عمارة منظرة: فوق الخمس وجوه، ابتدأ بناءها فى يوم الاثنين أوّل شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة.

منظرة باب الفتوح: و كان للخلفاء الفاطميين منظرة خارج باب الفتوح، و كان يومئذ خرج عن باب الفتوح براحا فيما بين الباب، و بين البساتين الجيوشية، و كانت هذه المنظرة معدّة لجلوس الخليفة فيها عند عرض العساكر، و وداعها إذا سارت فى البرّ إلى البلاد الشامية.

قال ابن المأمون: و فى هذا الشهر يعنى المحرّم سنة سبع عشرة و خمسمائة، وصلت رسل ظهير الدين طفدكين صاحب دمشق، و آق سنقر صاحب حلب، بكتب إلى الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و إلى الوزير المأمون إلى القصر، فاستدعوا لتقبيل الأرض كما جرت العادة من إظهار التجمل، و كان مضمون الكتب بعد التصدير، و التعظيم، و السؤال، و الضراعة أنّ الأخبار تظافرت بقلة الفرنج بالأعمال الفلسطينية، و الثغور الساحلية، و أنّ الفرصة قد أمكنت فيهم، و اللّه قد أذن بهلاكهم، و أنهم ينتظرون إنعام الدولة العلوية، و عوايد أفضالها، و يستنصرون بقوّتها، و يحثون على نصرة الإسلام، و قطع دابر الكفر و تجهيز العساكر المنصورة، و الأساطيل المظفرة، و المساعدة على التوجه نحوهم لئلا يتواصل مددهم، و تعود إلى القوّة شوكتهم، فقوى العزم على النفقة فى العساكر فارسها و راجلها، و تجريدها، و تقدّم إلى الأزمّة بإحضار الرجال الأقوياء، و ابتدئ بالنفقة فى الفرسان بين يدى الخليفة فى قاعة الذهب، و أحضر الوزانون، و صناديق المال و أفرغت الأكياس على البساط، و استمرّ الحال بعد ذلك فى الدار المأمونية.

و تردّد الرأى فيمن يتقدّم، فوقع الاتفاق على حسام الملك البرنى، و أحضر مقدّم الأساطيل الثانية، لأن الأساطيل توجهت فى الغزو و خلع عليه، و أمر بأن ينزل إلى الصناعتين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۲

بمصر و الجزيرة، و ينفق فى أربعين شينيا ، و يكمل نفقاتها و عددها، و يكون التوجه بها صحبة العسكر، و أنفق فى عشرين من الأمراء للتوجه صحبته، فكملت النفقة فى الفارس و الراجل، و فى الأمراء السائرين، و فى الأطباء، و المؤذنين و القرّاء، و ندب من الحجاب عدّة، و جعل لكل منهم خدمة، فمنهم من يتولى خزانة الخيام، و سير معه من حاصل الخزائن برسم ضعفاء العسكر، و من لا يقدر على خيمة خيم، و منهم حاجب على خزائن السلاح، و أنفق فى عدّة من كتاب ديوان الجيش لعرض العساكر، و فى كتاب العربان:

و أحضر مقدّمو الحراسين بالخفار، و تقدّم إليها بأنه من تأخر عن العرض بعسقلان، و قبض النفقة، فلا واجب له، و لا إقطاع، و كتبت الكتب إلى المستخدمين بالثغور الثلاثة:

الإسكندرية، و دمياط، و عسقلان بإطلاق، و ابتياع ما يستدعى برسم الأسمطة على ثغر عسقلان للعساكر و العربان من الأصناف، و الغلال.

و وقع الاهتمام بنجاز أمر الرسل الواصلين، و كتبت الأجوبة عن كتبهم، و جهز المال و الخلع المذهبات، و الأطواق، و السيوف، و المناطق الذهب، و الخيل بالمراكب الحلى الثقال، و غير ذلك من التجملات، و خلع على الرسل، و أطلق لهم التغيير، و سلمت إليهم الكتب، و التذاكر و توجهوا صحبة العسكر.

و ركب الخليفة الآمر بأحكام اللّه إلى باب الفتوح، و نظر بالمنظرة، و استدعى حسام الملك، و خلع عليه بدلة جليلة مذهبة، و طوّقه بطوق ذهب، و قلده و منطقه بمثل ذلك، ثم قال الوزير المأمون للأمراء: بحيث يسمع الخليفة، هذا الأمير مقدّمكم، و مقدّم العساكر كلها، و ما وعد به أنجزته، و ما قرّره أمضيته، فقبلوا الأرض، و خرجوا من بين يديه، و سلم متولى بيت المال، و خزائن الكسوة لحسام الملك الكتب بما ضمنته الصناديق من المال، و أعدال الكسوات، و حملت قدّامه، و فتحت طاقات المنظرة، فلما شاهد العساكر الخليفة قبلوا الأرض، فأشار إليهم بالتوجه، فساروا بأجمعهم، و ركب الخليفة، و توجه إلى الجامع بالمقس، و جلس بالمنظرة، و استدعى مقدّم الأسطول، و خلع عليه، و انحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال و العدّة.

منظرة الصناعة: و كان من جملة مناظر الخلفاء منظرة بالصناعة فى الساحل القديم من مصر يجلس بها الخليفة تارة حتى تقدّم له العشاريات، فيركبها و يسير للمقياس، حتى يخلق بين يديه عند الوفاء، و كان بهذه الصناعة ديوان العمائر.

و أنشأ هذه المنظرة، و الصناعة التى هى فيها: الوزير المأمون، لم تزل إلى آخر الدولة، و دهليزها مادّ بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانى بسطا و تأزيرا، و قد خربت هذه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۳

الصناعة و المنظرة، و صار موضعهما الآن بستانا كان يعرف ببستان ابن كيسان، و يعرف فى زمننا هذا الذى نحن فيه الآن ببستان الطواشى، و هو بأوّل مراغة مصر، تجاه غيط الجرف على يسرة من يسلك من المراغة يريد الكيارة، و باب مصر.

قال ابن المأمون: و كانت جميع مراكب الأساطيل ما تنشأ إلّا بالصناعة التى بالجزيرة، فأنكر الوزير المأمون ذلك، و أمر بأن يكون إنشاء الشوانى، و غيرها من المراكب النيلة الديوانية بالصناعة بمصر، و أضاف إليها دار الزبيب، و أنشأ المنظرة بها و اسمه باق إلى الآن عليها، و قصد بذلك أن يكون حلول الخليفة يوم تقدمة الأساطيل، و رميها بالمنظرة المذكورة و أن يكون ما ينشأ من الجرانى، و الشلنديات فى الصناعة بالجزيرة.

قال: و لما و فى النيل ستة عشر ذراعا ركب الخليفة و الوزير إلى الصناعة بمصر، و رميت العشاريات بين أيديهما، ثم عدّيا فى إحداها إلى المقياس.

و قال ابن الطوير: الخدمة فى ديوان الجهاد، و يقال له: ديوان العمائر، و كان محله بصناعة الإنشاء بمصر للأسطول و المراكب الحاملة للغلات السلطانية، و الأحطاب و غيرها، و كانت تزيد على خمسين عشاريا، و يليها عشرون ديماسا ، منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج و غيرها، و لكل منها رئيس، و نواتيّ لا يبرحون ينفق فيهم من مال هذا الديوان، و بقية العشاريات الدواميس برسم ولاة الأعمال المميزة، فهى تجرّ لهم، و ينفق فى رؤسائها و رجالها أينما كانوا من مال هذا الديوان، و تقيم مع أحدهم مدّة مقامه، فإذا صرف عاد فيه، و خرج المتولى الجديد فى العشارى المرسى بالصناعة، و لا يخرج إلا بتوقيع بإطلاقه، و الإنفاق فيه، و للمشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه، و فى هذا الديوان برسم خدمة ما يجرى فى الأساطيل نائبان من قبل مقدّم الأسطول، و فيه من الحواصل لعمارة المراكب شيء كثير، و إذا لم يف ارتفاعه بما يحتاج إليه استدعى له من بيت المال يسدّ خلله.

قال: و كان من أهم أمورهم احتفالهم بالأساطيل و الأجناد، و مواصلة إنشاء المراكب بمصر و الإسكندرية و دمياط من الشوانى الحربية و الشلنديات، و المسطحات إلى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم مثل صور و عكا و عسقلان، و كانت جريدة قوّاده أكثر من خمسة آلاف مدوّنة منهم عشرة أعيان تصل جامكية كل منهم إلى عشرين دينارا، ثم إلى خمسة عشر، ثم إلى عشرة دنانير، ثم إلى ثمانية، ثم إلى دينارين، و هى أقلها، و لهم إقطاعات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۴

تعرف: بأبواب الغزاة بما فيه من النطرون فيصل دينارهم بالمناسبة إلى نصف دينار و حواليه، و يعين من هؤلاء القوّاد العشرة من يقع الإجماع عليه لرئاسة الأسطول المتوجه للغزو، فيكون معه الفانوس، و كلهم يهتدون به، و يقلعون بإقلاعه، و يرسون بإرسائه، و يقدّم على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء، و أقواهم جنانا، و يتولى النفقة فيهم للغزو الخليفة بنفسه بحضور الوزير، فإذا أراد النفقة فيما تعين من عدّة المراكب السائرة.

و كانت آخر وقت تزيد على خمسة و سبعين شينيا، و عشر مسطحات، و عشر حمالة، فيتقدّم إلى النقباء بإحضار الرجال، و يسمع بذلك من هو خارج مصر و القاهرة، فيدخل إليها و لهم المشاهرة و الجرايات المتقرّرة مدّة أيام السفر، و هم معروفون عند عشرين نقيبا، و لا يعترض أحد أحدا إلّا من رغب فى ذلك من نفسه، فإذا اجتمعت العدّة المغلقة للمراكب المطلوبة أعلم المقدّم بذلك الوزير، فطالع الخليفة بالحال، و فرز يوم للنفقة، فحضر الوزير بالاستدعاء على العادة، فيجلس الخليفة على هيئته فى مجلس، و يجلس الوزير فى مكانه، و يحضر صاحبا ديوان الجيش، و هما المستوفى و هو أميرهما، و يجلس داخل عتبة المجلس، و هذه رتبة له مميزة، و كاتب الجيش الأصل، و يجلس بجانبه تحت العتبة على حصر مفروشة بالقاعة، و لا يخلو المستوفى أن يكون عدلا أو من أعيان الكتاب المسلمين، و أما كاتب الجيش: فيهوديّ فى الأغلب، و يفرش أمام المجلس أنطاع تصب عليها الدراهم، و يحضر الوزانون ببيت المال لذلك، فإذا تهيأ الإنفاق أدخل القابضون مائة مائة، و يقفون فى آخر الوقوف بين يدى الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة، و تكون أسماؤهم قد رتبت فى أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة، و يستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق واحدا واحدا، فإذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هو فيه إلى الجانب الخالى، فإذا تكمل عشرة رجال:

وزن الوزانون لهم النفقة، و كانت لكل واحد خمسة دنانير صرف، كل دينار ستة و ثلاثون درهما، فيستلمها النقيب، و تكتبت بيده و باسمه، و تمضى النفقة كذلك إلى آخرها، فإذا تمّ ذلك اليوم، ركب الوزير من بين يدى الخليفة، و انفض ذلك الجمع، فيحمل من عند الخليفة مائدة يقال لها: غداء الوزير، هى سبع مجيفات أوساط إحداها بلحم دجاج و فستق، و البقية من شواء، و هى مكمورة بالأزهار، فتكون هذه عدّة أيام تارة متوالية، و تارة متفرّقة، فإذا تكملت النفقة، و تجهزت المراكب، و تهيؤت للسفر: ركب الخليفة و الوزير إلى ساحل المقس، و ذكر ابن أبى طى: أنّ المعز لدين اللّه، أنشأ ستمائة مركب، لم ير مثلها فى البحر على مدينة و عمل دار صناعة بالمقس.

دار الملك: و كان من جملة مناظرهم: دار الملك بمصر، و هى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ابتدأ فى بنائها و إنشائها فى سنة

إحدى و خمسمائة، فلما كملت تحوّل إليها من دار القباب بالقاهرة، و سكنها، و حوّل إليها الدواوين من القصر، فصارت بها، و جعل فيها الأسمطة، و اتخذ بها مجلسا سماه: مجلس العطايا، كان يجلس فيه، فلما قتل الأفضل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۵

صارت دار الملك هذه من جملة منتزهات الخلفاء، و كان بها بستان عظيم، و ما زالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة، فجعلها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب دار متجر، ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى: دار وكالة، و موضع دار الملك: ما وراء حبة الخرّوب، بجوار المدرسة المعزى، و بقى منها جدار يجلس تحته بياعو الحناء.

قال ابن المأمون: و من جملة ما قرّره القائد أبو عبد اللّه من تعظيم المملكة، و تفخيم أمر السلطنة أنّ المجلس الذى يجلس فيه الأفضل بدار الملك يسمى: مجلس العطايا، فقال القائد: مجلس يدعى بهذا الاسم ما يشاهد فيه دينار؟ يدفع لمن يسأل، و أمر بتفصيل ثمان ظروف ديباج أطلس، من كل لون اثنين، و جعل فى سبعة منها خمسة و ثلاثين ألف دينار و فى كل ظرف: خمسة آلاف دينار سكب، و بطاقة بوزنه، و عدده، و شرّابة حرير كبيرة من ذلك ستة ظروف دنانير بالسوية عن اليمين و الشمال فى مجلس العطايا الذى برسم الجلوس، و عند مرتبة الأفضل بقاعة اللؤلؤة: ظرفان، أحدهما دنانير، و الآخر دراهم جدد، فالذى فى اللؤلؤة برسم ما يستدعيه الأفضل إذا كان عند الحرم، و أمّا الذى فى مجلس العطايا، فإنّ جميع الشعراء لم يكن لهم فى الأيام الأفضلية، و لا فيما قبلها على الشعر جار و إنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان، و استحسانه لشعر من أنشد منهم ما يسهله اللّه على حكم الجائزة، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف، و كذلك من يتضرّع و يسأل فى طلب صدقة، أو ينعم عليه ابتداء بغير سؤال، يخرج ذلك من الظروف.

و إذا انصرف الحاضرون، نزل القائد المبلغ بخطه فى البطاقة، و يكتب عليه الأفضل بخطه: صح، و يعاد إلى الظرف، و يختم عليه، فلما استهلّ رجب من سنة اثنتى عشرة و خمسمائة، و جلس الأفضل فى مجلس العطايا على عادته، و حضر الأجلّ المظفر أخوه للهناء، و جلس بين يديه، و شاهد الظروف و القائد، و ولده، و أخوه قيام على رأسه، و تقدّمت الشعراء على طبقاتهم، أمر لكل منهم بجائزة، و شاع خبر الظروف و كثر القول فيها، و استعظم أمرها، و ضوعف مبلغها، و اتسع هذا الإنعام بالصدقات الجارى بها العادة فى مثل هذا الشهر لفقهاء مصر، و الرباطات بالقرافة و فقرائها.

و قال ابن الطوير: و قد ذكر ركوب الخليفة فى أوّل العام و حضور العزّة، و ينقطع الركوب بعد هذا اليوم الذى هو أوّل العام، فيركبون فى آحاد الأيام إلى أن يكمل شهر و لا يتعدّى ذلك يومى السبت و الثلاثاء، فإذا عزم الخليفة على الركوب فى أحد هذه الأيام أعلم بذلك، و علامته إنفاق الأسلحة فى صبيان الركاب من خزانة السلاح خاصة دون ما سواها، و أكثر ذلك إلى مصر، و يركب الوزير صحبته من ورائه على أخصر من النظام المتقدّم يعنى فى ركوب أوّل العام، و أقل جمع، فيخرج شاقا القاهرة و شوارعها على الجامع الطولونىّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۶

على المشاهد إلى درب الصفاء، و يقال له: الشارع الأعظم إلى دار الأنماط إلى الجامع العتيق، فإذا وصل إلى بابه، وجد الشريف الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها محراب مفروشة بحصر معلق عليها سجادة، و فى يده المصحف المنسوب خطه إلى علىّ بن أبى طالب، رضى اللّه عنه، و هو من حاصله فإذا وازاه وقف فى موضعه، و ناوله المصحف من يده، فيتسمله منه، و يقبله و يتبرّك به مرارا، و يعطيه صاحب الخريطة المرسومة للصلات: ثلاثين دينارا، و هى رسمه متى اجتاز به، فيوصلها الشريف إلى مشارف الجامع، فيكون نصيبهما منها خمسة عشر دينارا، و الباقى للقومة و المؤذنين دون غيرهم.

و يسير إلى أن يصل دار الملك، فينزلها و الوزير معه و منذ يخرج من باب القصر إلى أن يصل إلى دار الملك لا يمرّ بمسجد إلا أعطى قيمة من الخريطة دينارا، فلا يزال بدار الملك نهاره فتأتيه المائدة من القصر، و عدّتها: خمسون شدّة على رؤوس الفرّاشين مع صاحب المائدة، و هو أستاذ جليل غير محنك، و كل شدّة فيها: طيفور فيها الأوانى الخاص، و فيها من الأطعمة الخاص من كل نوع

شهىّ، و كل صنف من المطاعم العالية، و لها رواء، و رائحة المسك فائحة منها، و على كل شدّة طرحهة حرير تعلو القوّارة التى هى الشدّة، فيحمل إلى الوزير منها جزء وافر، و لمن صحبه و للأمراء، و لكافة الحاضرين فى الخدمة، و يصل منها إلى الناس بمصر ممن بعضهم بعضا شىء كثير، و لا يزال إلى أن يؤذن عليه بالعصر، فيصلى و يتحرّك إلى العود إلى القاهرة، و الناس فى طريقه لنظره، فيركب و زيه فى هذه الأيام أنه يلبس الثياب المذهبة البياض، و الملوّنة و المنديل من النسبة، و هو مشدود شدّة مفردة عن شدّات الناس، و ذؤابته مرخاة من جانبه الأيسر، و يتقلد بالسيف العربى المجوهر بغير حنك، و لا مظلة، و لا يتيمة، فإنّ ذلك فى أوقات مخصومة، و لا يمرّ أيضا بمسجد فى سلوكه فى هذه الطريق بالساحل إلّا، و يعطى قيّمه دينارا أيضا، كما جرى فى الرواح، و ينعطف من باب الخرق، و يدخل من باب زويلة شاقا القاهرة حتى يدخل القصر، فيكون ذلك من المحرّم إلى شهر رمضان، إمّا أربع مرّات أو خمس مرّات، و من شعر الأسعد أسعد بن مهذب بن زكريا بن أبى مليح مما فى دار الملك هذه:

حللت بدار الملك و النيل آخذبأطرافها و الموج يوسعها ضربا

فخيلته قد غار لما وطئتهاعليها فأضحى عند ذاك لها خربا

منازل العز

بنتها السيدة تغريد أمّ العزيز بالله بن المعز، و لم يكن بمصر أحسن منها، و كانت مطلة على النيل لا يحجبها شىء عن نظره، و ما زال الخلفاء من بعد المعز يتداولونها، و كانت معدّة لنزهتهم، و كان بجوارها حمام، و لها منها باب و موضعها الآن مدرسة تعرف: بالمدرسة التقوية منسوبة للملك المظفر تقىّ الدين عمرو بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۷

الهودج: و كان من منتزهاتهم العظيمة البناء العجيبة البديعة الزى بناء فى جزيرة الفسطاط التى تعرف اليوم: بالروضة، يقال له: الهودج، بناه الخليفة الآمر بأحكام اللّه لمحبوبته البدوية التى غلب عليه حبها بجوار البستان المختار، و كان يتردد إليه كثيرا، و قتل و هو متوجه إليه و ما زال منتزها للخلفاء من بعده.

قال ابن سعيد فى كتاب المحلى بالأشعار: قال القرطبىّ فى تاريخه: تذاكر الناس فى حديث البدوية، و ابن مياح من بنى عمها و ما يتعلق بذلك من ذكر الآمر، حتى صارت رواياتهم فى هذا الشأن كأحاديث البطال، و ألف ليلة و ليلة و ما أشبه ذلك.

و الاختصار منه أن يقال: إنّ الآمر كان قد بلى بعشق الجوارى العربيات، و صارت له عيون بالبوادى، فبلغه أن جارية بالصعيد من أكمل العرب، و أظرفهم شاعرة جميلة، فيقال: إنه تزيا بزىّ بداة الأعراب و كان يجول فى الأحياء إلى أن انتهى إلى حيّها، و بات هناك فى ضائقة، و تحيل حتى عاينها هنالك، فما ملك صبره و رجع إلى مقرّ ملكه، و أرسل إلى أهلها يخطبها، و تزوّجها، فلما وصلت صعب عليها مفارقة ما اعتادته، و أحبت أن تسرّح طرفها فى الفضاء، و لا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة، فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج، و كان غريب الشكل على شط النيل، و بقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها، ربيت معه يعرف: بابن مياح، فكتبت إليه من قصر الآمر:

يا ابن مياح إليك المشتكىمالك من بعد قد ملكا

كنت فى حيى مطاعا آمرانائلا ما شئت منكم مدركا

فأنا الآن بقصر مرصدلا أرى إلّا خبيثا ممسكا

كم تثنينا كأغصان اللواحيث لا نخشى علينا دركا

فأجابها:

بنت عمى و التى غذيتهابالهوى حتى علا و احتبكا

بحت بالشكوى و عندى ضعفهالو غدا ينفع منا المشتكى

مالك الأمر إليه أشتكىمالك و هو الذى قد ملكا

قال: و للناس فى طلب ابن مياح، و اختفائه أخبار تطول، و كان من عرب طيّ فى قصر الآمر: طراد بن مهلهل السنبسى فبلغته هذه القضية، فقال:

ألا بلغوا الآمر المصطفىمقال طراد و نعم المقال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۸ قطعت الأليفين عن ألفةبها سمر الحىّ بين الرجال

كذا كان آباؤك الأكرمونسالت فقل لى جواب السؤال

فقال الخليفة الآمر: لما بلغته الأبيات، جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله، و طلب فى أحياء العرب، فلم يوجد، فقالت العرب: ما أخسر صفقة طراد، باع أبيات الحىّ بثلاثة أبيات، و كان بالإسكندرية: مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد له مروءة عظيمة، و يحتذى أفعال البرامكة، و للشعراء فيه أمداح كثيرة مدحه ظافر الحدّاد، و أمية بن أبى الصلت، و غيرهما. و كان له بستان يتفرّج فيه به جرن كبير من رخام، و هو قطعة واحدة و ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره، و كان يجد فى نفسه برؤيته زيادة على أهل التنعم، و المباهاة فى عصره، فوشى به للبدوية محبوبة الآمر، فسألت الخليفة الآمر فى حمل الجرن إليها، فأرسل إلى ابن حديد بإحضار الجرن، فلم يجد بدّا من حمله من البستان، فلما صار إلى الآمر أمر بعمله فى الهودج، فقلق ابن حديد، و صارت فى قلبه حرارة من أخذ الجرن، فأخذ يخدم البدوية، و من يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحدّ فى الكثرة حتى قالت البدوية: هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه، و لم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا، فلما قيل له هذا القول عنها قال: ما لى حاجة بعد الدعاء للّه بحفظ مكانها، و طول حياتها فى عزّ ردّد الفسقية التى قلعت من دارى التى بنيتها فى أيامها من نعمتهم تردّ إلى مكانها، فتعجبت من ذلك، و ردّتها عليه، فقيل له: حصلت فى حدّ أن خيّرتك البدوية فى جميع المطالب، فنزلت همتك إلى قطعة حجر، فقال: أنا أعرف بنفسى، ما كان لها أمل سوى أن لا تغلّب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه، و قد بلغها اللّه أملها، و كان هذا المكين قضاء الإسكندرية، و نظرها فى أيام الآمر.

و بلغ من علوّ همته، و عظم مروءته أنّ سلطان الملوك حيدرة أخا الوزير المأمون بن البطائحىّ: لما قلده الآمر ولاية ثغر الإسكندرية فى سنة سبع عشرة و خمسمائة، و أضاف إليه الأعمال البحرية، و وصل إلى الثغر، و وصف له الطبيب دهن شمع بحضور القاضى المذكور، فأمر فى الحال بعض غلمانه بالمضىّ إلى داره لإحضار دهن شمع. فما كان أكثر من مسافة الطريق إلا أن أحضر حقا مختوما فكّ عنه، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه: ثلاثة بيوت، كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت و جوهر، بيت دهن بمسك، و بيت دهن بكافور، و بيت دهن بعنبر طيب، و لم يكن فيه شىء مصنوع لوقته، فعندما أحضره الرسول، تعجب المؤتمن و الحاضرون من علوّ همته، فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر أنعامه، و حلف بالحرام إن عاد إلى ملكه، فكان جواب المؤتمن قد قبلته منك لا لحاجة إليه، و لا لنظر فى قيمته بل لإظهار هذه الهمة، و إذاعتها، و ذكر أن قيمة هذا المداف، و ما عليه: خمسمائة دينار، فانظر رحمك اللّه، إلى من يكون دهن الشمع عنده فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۲۹

إناء قيمته: خمسمائة دينار و دهن الشمع لا- يكاد أكثر الناس يحتاج إليه البتة، فماذا تكون ثيابه، و حلىّ نسائه، و فرش داره، و غير ذلك من التجملات، و هذا إنما هو حال قاضى الإسكندرية، و من قاضى الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة؟ و ما نسبة أعيان الدولة، و إن عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة، و أبهتها إلّا يسير حقير.

و ما زال الخليفة الآمر يتردّد إلى الهودج المذكور إلى أن ركب يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة يريد الهودج، و قد كمن له عدّة من النزارية فى فرن عند رأس الجسر من ناحية الروضة، فوثبوا عليه، و أثخنوه بالجراحة حتى هلك، و

حمل فى العشارىّ إلى اللؤلؤة، فمات بها، و قيل: قبل أن يصل إليها، و قد خرب هذا الهودج، و جهل مكانه من الروضة، و للّه عاقبة الأمور.

قصر القرافة: و كان لهم بالقرافة قصر بنته: السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز فى سنة: ست و ستين و ثلثمائة، على يد الحسين بن عبد العزيز الفارسىّ المحتسب هو، و الحمام الذى فى غربيه، و بنت البئر، و البستان و جامع القرافة، و كان هذا القصر نزهة من النزه من أحسن الآثار فى إتقان بنيانه و صحة أركانه، و له منظرة مليحة كبيرة محمولة على قبو مادّ تجوز المارّة من تحته، و يقيل المسافرون فى أيام القيظ هناك، و يركب الراكب إليه على زلاقة، و كان كأحسن ما يكون من البناء، و تحته حوض لسقى الدواب يوم الحلول فيه، و كان مكانه بالقرب من مسجد الفتح.

و لما كان فى سنة عشرين و أربعمائة جدّده الخليفة الآمر، و عمل تحته مصطبة للصوفية و كان يجلس فى الطاق بأعلى القصر و يرقص أهل الطريقة من الصوفية، و المجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم و الشموع الكثيرة تزهر، و قد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط، و مدّت لهم الأسمطة التى عليها كل نوع لذيذ و لون شهىّ من الأطعمة، و الحلوى أصنافا مصنفة، فاتفق أن تواجد الشيخ أبو عبد اللّه بن الجوهرىّ الواعظ، و مزق مرقعته، و فرّقت على العادة خرقا، و سأل الشيخ أبو إسحاق إبراهيم المعروف بالقارح المقرى خرقة منها، و وضعها فى رأسه، فلما فرغ التمزيق، قال الخليفة الآمر بأحكام اللّه: من طاق بالمنظرة يا شيخ أبا إسحاق، قال: لبيك يا مولانا، قال: أين خرقتى؟ فقال مجيبا له فى الحال: ها هى على رأسى يا أمير المؤمنين، فاستحسن الآمر ذلك، و أعجبه موقعه فأمر فى الساعة، و الوقت فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية، ففرّقت على الحاضرين، و على فقراء القرافة، و نثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار، فتخاطفها الحاضرون، و تعاهد المغربلون الأرض التى هناك أياما لأخذ ما يواريه التراب، و ما برح قصر الأندلس بالقرافة، حتى زالت الدولة، فهدم فى شهر ربيع الآخر سنة سبع و ستين و خمسمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۰

المنظرة ببركة الحبش : و كانت لهم منظرة تشرف على بركة الحبش، قال الشريف أبو عبد اللّه محمد الجوانى فى كتاب النقط على الخطط: إن الخليفة الآمر بأحكام اللّه بنى على المنظرة التى يقال لها بئر دكة الخركة منظرة من خشب مدهونة فيها طاقات، تشرف على خضرة بركة الحبش، و صوّر فيها الشعراء كل شاعر و بلده، و استدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح، و ذكر الخركاه، و كتب ذلك عند رأس كل شاعر، و بجانب صورة كل منهم رف لطيف مذهب، فلما دخل الآمر، و قرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف، صرّة مختومة فيها: خمسون دينارا، و أن يدخل كل شاعر، و يأخذ صرّته بيده، ففعلوا ذلك، و أخذوا صررهم، و كانوا عدّة شعراء.

البساتين: و كان للخلفاء عدّة بساتين يتنزهون بها: منها البساتين الجيوشية، و هما بستانان كبيران أحدهما من عند زقاق الكحل، خارج باب الفتوح إلى المطرية، و الآخر يمتدّ من خارج باب القنطرة إلى الخندق، و كان لهما شأن عظيم، و من شدّة غرام الأفضل بالبستان الذى كان يجاور بستان البعل، عمل له سورا مثل سور القاهرة، و عمل فيه بحرا كبيرا، و قبة عشارى تحمل ثمانية أرادب، و بنى فى وسط البحر منظرة محمولة على أربع عواميد من أحسن الرخام، و حفها بشجر النارنج، فكان نارنجها لا يقطع حتى يتساقط و سلط على هذا البحر أربع سواق، و جعل له معبرا من نحاس مخروط زنته قنطار، و كان يملأ فى عدّة أيام، و جلب إليه من الطيور المسموعة شيئا كثيرا، و استخدم للحمام الذى كان به عدّة مطيرين، و عمر به أبراجا عدّة للحمام و الطيور المسموعة، و سرّح فيه كثيرا من الطاوس، و كان البستانان اللذان على يسار الخارج من باب الفتوح بينهما بستان الخندق، لكل منهما أربعة أبواب من الأربع جهات على كل منها عدّة من الأرمن، و جميع الدهاليز مؤزرة بالحصر العبدانىّ، و على أبوابها سلاسل كثيرة من حديد، و لا يدخل منها إلّا السلطان، و أولاده و أقاربه.

قال ابن عبد الظاهر: و اتفقت جماعة على أن الذى يشتمل عليه مبيعهما فى السنة من زهر و ثمر: نيف و ثلاثون ألف دينار، و إنها لا

تقوم بمؤنهما على حكم اليقين لا- الشك، و كان الحاصل بالبستان الكبير، و المحسن إلى آخر الأيام الآمرية، و هى سنة: أربع و عشرين و خمسمائة: ثمانمائة، و أحد عشر رأسا من البقر، و من الجمال: مائة و ثلاثة رؤوس، و من العمال و غيرهم ألف رجل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۱

و ذكر أنّ الذى دار سور البساتين من سنط، و جميز، و أثل من أوّل حدّهما الشرقىّ، و هو ركن بركة الأرمن مع حدّهما البحرىّ و الغربى جميعا إلى آخر زقاق الكحل فى هذه المسافة الطويلة: سبعة عشر ألف ألف، و مائتا شجرة، و بقى قبليهما جميعا لم يحصن.

و إنّ السنط تغصن حتى لحق بالجميز فى العظم، و إنّ معظم قرظه يسقط إلى الطريق، فيأخذه الناس، و بعد ذلك يباع بأربعمائة دينار، و كان به كل ثمرة لها دويرة مفردة، و عليها سياج، و فيها نخل منقوش فى ألواح عليها برسم الخاص لا تجنى إلّا بحضور المشارف، و كان فيهما ليمون تفاحىّ يوكل بقشرة بغير سكر، و أقام هذان البستانان بيد الورثة الجيوشية مع البلاد التى لهم مدّة أيام الوزير المأمون، لم تخرج عنهم، و كشف ذلك فى أيام الخليفة الحافظ، فكان فيهما ستمائة رأس من البقر، و ثمانون جملا، و قوّم ما عليهما من الأثل و الجميز، فكانت قيمته: مائتى ألف دينار، و طلب الأمير شرف الدين و كانت له حرمة عظيمة من الخليفة الحافظ قطع شجرة واحدة من سنط فأبى عليه، فتشفع إليه، و قوّمت بسبعين دينارا، فرسم الخليفة إن كانت وسط البستان تقطع، و إلا فلا، و لما جرى فى آخر أيام الحافظ ما جرى من الخلف ذبحت أبقاره، و جماله، و نهب ما فيه من الآلات و الأنقاض، و لم يبق إلّا الجميز و السنط و الأثل لعدم من يشتريه، انتهى.

و كان هذان البستانان من جملة الحبس الجيوشىّ، و هو أن أمير الجيوش بدر الجمالىّ حبس عدّة بلاد و غيرها، منها فى البرّ الشرقىّ بناحية بهتيت، و الأميرية، و المنية، و فى البرّ الغربىّ ناحية سفط و نهيا و وسيم مع هذين البستانين المذكورين على عقبة، فاستأجر هذا الحبس الوزير مدّة سنين بأجرة يسيرة، و صار يزرع فى الشرقىّ منه، الكتان و منه ما تبلغ قطيعته ثلاثة دنانير و نصفا و ربعا عن كل فدّان فيتناولون فيه ربحا جزيلا لأنفسهم، فلما بعد العهد انقرضت أعقابه، و لم يبق من ذرّيته سوى امرأة كبيرة، فأفتح الفقهاء بأن هذا الحبس باطل، فصار للديوان السلطانىّ يتصرّف فيه، و يحمل متحصله مع أموال بيت المال و تلاشت البساتين، و بنى فى أماكنها ما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و بنى العزيز بالله بستانا بناحية سردوس.

قبة الهواء: و كان من أحسن منتزهات الخلفاء الفاطميين، قبة الهواء، و هى مستشرف بهج بديع، فيما بين التاج، و الخمس وجوه يحيط به عدّة بساتين، لكل بستان منها: اسم، و لهذه القبة فرش معدّة فى الشتاء، و الصيف و يركب إليها الخليفة فى أيام الركوبات التى هى يوم السبت و الثلاثاء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۲

بحر أبى المنجا : و كان من منتزهات الخلفاء، يوم فتح بحر أبى المنجا، قال ابن المأمون: و كان الماء لا يصل إلى الشرقية إلّا من السردوسىّ، و من الصماصم، و من المواضع البعيدة، فكان أكثرها يشرق فى أكثر السنين، و كان أبو المنجا اليهودىّ مشارف الأعمال المذكورة، فتضرّر المزارعون إليه، و سألوا فى فتح ترعة يصل الماء منها فى ابتدائه إليهم، فابتدأ بحفر خليج أبى المنجا فى يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ست و خمسمائة، و ركب الأفضل بن أمير الجيوش ضحى، و صحبته القائد أبو عبد اللّه محمد بن فاتك البطائحىّ، و جميع إخوته و العساكر تحاذيه فى البرّ و جمعت شيوخ البلاد و أولادها، و ركبوا فى المراكب، و معهم حزم البوص فى البحر، و صار العشارىّ، و المراكب تتبعها إلى أن رماها الموج إلى الموضع الذى حفروا فيه البحر، و أقام الحفر فيه سنتين، و فى كل سنة تتبين الفائدة فيه، و يتضاعف من ارتفاع البلاد، ما يهوّن الغرامة عليه.

و لما عرض على الأفضل جملة ما أنفق فيه استعظمه و قال: غرمنا هذا المال جميعه، و الاسم لأبى المنجا، فغير اسمه، و دعى بالبحر الأفضلىّ، فلم يتم ذلك، و لم يعرف إلّا بأبى المنجا ثم جرى بين أبى المنجا، و بين ابن أبى الليث، صاحب الديوان بسبب الذى أنفق خطوب أدت إلى اعتقال أبى المنجا عدّة سنين، ثم نفى إلى الإسكندرية بعد أن كادت نفسه تتلف، و لم يزل القائد أبو عبد اللّه بن

فاتك، يتلطف بحاله إلى تضاعف من عبرة البلاد ما سهل أمر النفقة فيه.

و رأيت بخط ابن عبد الظاهر، و هذا أبو المنجا هو جدّ بنى صفير الحكماء اليهود، و الذين أسلموا منهم، و لما طال اعتقال أبى المنجا فى الإسكندرية فى مكان بمفرده مضيقا عليه، تحيل فى تحصيل مصحف، و كتب ختمة، و كتب فى آخرها: كتبها أبو المنجا اليهودىّ، و بعثها إلى السوق ليبعها، فقامت قيامة أهل الثغر، و طولع بأمره إلى الخليفة، فأخرج.

و قيل له: ما حملك على هذا؟ فقال: طلب الخلاص بالقتل، فأدّب، و أطلق سبيله.

و قيل: إنه كان فى محبسه حية عظيمة، فأحضر إليه فى بعض الأيام لبن، فرأى الحية، و قد شربت منه، و دخلت حجرها، فصار فى كل يوم يحضر لها لبنا، فتخرج و تشرب منه، و تدخل مكانها، و لم تؤذه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۳

و لما ولى المأمون البطائحىّ وزارة الآمر بأحكام اللّه بعد الأفضل بن أمير الجيوش، تحدّث الآمر معه فى رؤية فتح هذا الخليج، و أن يكون له يوم كخليج القاهرة، فندب الآمر معه عدى الملك أبا البركات بن عثمان وكيله، و أمره بأن يبنى على مكان السدّ منظرة متسعة، تكون من بحرىّ السدّ، و سرّع فى عمارتها بعد كمال النيل، و ما زال يوم فتح سدّ هذا البحر يوما مشهودا إلى أن زالت الدولة الفاطمية.

فلما استولى بنو أيوب من بعدهم على مملكة مصر، أجروا الحال فيه على ما كان، قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و سبعين و خمسمائة: و ركب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لفتح بحر أبى المنجا، و عاد. و قال: و فى سنة تسعين و خمسمائة، كسر بحر أبى المنجا بعد أن تأخر كسره عن عيد الصليب بسبعة أيام، و كان ذلك لقصور النيل فى هذه السنة، و لم يباشر السلطان الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين بنفسه، و ركب أخوه شرف الدين يعقوب الطواشى لكسره، و بدت فى هذا اليوم من مخايل القبوط ما يوجبه سوء الأفعال من المجاهرة بالمنكرات، و الإعلان بالفواحش، و قد أفرط هذا الأمر، و اشترك فيه الآمر و المأمور، و لم ينسلخ شهر رمضان، إلّا و قد شهد ما لم يشهده رمضان قبله فى الإسلام و بدا عقاب اللّه فى الماء الذى كانت المعاصى على ظهره، فإنّ المراكب كان يركب فيها فى رمضان الرجال و النساء مختلطين، مكشفات الوجوه، و أيدى الرجال تنال منها ما تنال فى الخلوات، و الطبول، و العيدان مرتفعات الأصوات، و الصنجات، و استنابوا فى الليل عن الخمر بالماء، و الجلاب ظاهرا، و قيل: إنهم شربوا الخمر مستورا، و قربت المراكب بعضها من بعض، و عجز المنكر عن الإنكار إلّا بقلبه، و رفع الأمر إلى السلطان، فندب حاجبه فى بعض الليالى، ففرّق منهم من وجده فى الحالة الحاضرة، ثم عادوا بعد عوده، و ذكر أنه وجد فى بعض المعادى خمرا فأراقه.

و لما استهل شوّال و هو مطموع فيه تضاعف هذا المنكر، و فشت هذه الفاحشة، و نسأل اللّه العفو و العافية عن الكبائر، و التجاوز عما تسقط فيه المعاذر.

و قال: فى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة: كسر بحر أبى المنجا، و باشر العزيز كسره، و زاد النيل فيه أصبعا، و هى الأصبع الثامنة عشرة من ثمانى عشر ذراعا، و هذا الحدّ يسمى عند أهل مصر: اللجة الكبرى، و قد تلاشى فى زمننا أمر الاجتماع فى يوم فتح سدّ بحر أبى المنجا، و قلّ الاحتفال به لشغل الناس بهتمّ المعيشة.

قصر الورد بالخاقانية: و كان من أيام منتزهات الخلفاء يوم قصر الورد بناحية الخاقانية، و هى قرية من قرى قليوب ، كانت من خاص الخليفة، و بها جنان كثيرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۴

للخليفة، و كانت من أحسن المنتزهات المصرية و كان بها عدّة دويرات يزرع فيها الورد، فيسير إليها الخليفة يوما، و يصنع له فيها قصر عظيم من الورد، و يخدم بضيافة عظيمة.

قال ابن الطوير عن الخليفة الآمر بأحكام اللّه: و عمل له بالخاقانية و كانت من خاص الخليفة، قصر من ورد فسار إليها يوما، و خدم بضيافة عظيمة، فلما استقرّ هناك، خرج إليه أمير يقال له: حسام الملك من الأمراء الذين كانوا مع المؤتمن أخى المأمون البطائحيّ، و تخاذلوا عنه، فوصل إلى الخاقانية، و هو لابس لأمة حربه و التمس المثول بين يديه يعنى الخليفة، فاستقلّ ما جاء به فى ذلك الوقت، مما ينافى ما فيه الخليفة من الراحة، و النزهة و حيل بينه و بين مقصوده، فقال لجماعة من حواشى الخليفة: أنتم منافقون على الخليفة إن لم أصل إليه، فإنه يعاقبكم بذلك، فأطلعوا الخليفة على أمره، و حليته بالسلاح، و قوله فأمر بإحضاره، فلما وقعت عينه عليه قال: يا مولانا، لمن تركت أعداءك؟ يعنى الوزير المأمون البطائحيّ، و أخاه، و كان الآمر قد قبض عليهما، و اعتقلهما هذا و العهد قريب غير بعيد أ أمنت الغدر؟ فما أجابه إلّا و هو على الرهاويج من الخيل، فلم تمض ساعة إلّا، و هو بالقصر، فمضى إلى مكان اعتقال المأمون و أخيه، فزادهما وثاقا و حراسة، و فى أثناء ذلك، وصل ابن نجيب الدولة الذى كان سيره المأمون فى وزارته إلى اليمن، لتحقيق نسبه أنه ولد من جارية نزار بن المستنصر، لما خرجت من القصر، و هى به حامل و يدعو إليه بقية الناس، و أحضر إلى القاهرة على جمل مشوّه، فأدخل خزانة البنود، و قتل هو و المأمون، و جماعة فى تلك الليلة، و صلبوا ظاهر القاهرة.

بركة الجب: هى بظاهر القاهرة من بحريها، و تسميها العامّة فى زمننا هذا الذى نحن فيه: بركة الحاج لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج فى كل سنة، و نزولهم عند العود بها، و منها يدخلون إلى القاهرة و من الناس من يقول: جب يوسف، و هو خطأ، و إنما هى أرض جب عميرة، و عميرة هذا هو: ابن تميم بن جزء التجيبى من بنى القرناء، نسبت هذه الأرض إليه، فقيل لها: أرض جب عميرة، ذكره ابن يونس، و كان من عادة الخليفة المستنصر باللّه أبى تميم معدّ بن الظاهر بن الحاكم فى كل سنة أن يركب على النجب مع النساء، و الحشم إلى رجب عميرة هذا، و هو موضع نزهة بهيئة أنه خارج إلى الحج على سبيل اللعب و المجانة، و ربما حمل معه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء، و يسقيه من معه، و أنشده مرّة الشريف أبو الحسن علىّ بن الحسين بن حيدرة العقيلىّ فى يوم عرفة:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماءو لا تضح ضحى إلّا بصهباء

و ادرك حجيج الندامى قبل نفرهمإلى منى قصفهم مع كل هيفاء

و عج على مكة الروحاء مبتكرافطف بها حول ركن العود و النائى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۵

قال ابن دحية: فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى و تساق، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق، فأقام بها سوق الفسوق على ساق، و فى ذلك العام أخذه اللّه تعالى، و أهل مصر بالسنين، حتى بيع فى أيامه الرغيف: بالثمن الثمين، و عاد ماء النيل بعد عذوبته كالفسلين، و لم يبق بشاطئيه أحد بعد أن كانا محفوفين بحور عين.

و قال ابن ميسر: فلما كان فى جمادى الآخرة من سنة: أربع و خمسين و أربعمائة، خرج المستنصر على عادته إلى بركة الجب، فاتفق أن بعض الأتراك جرّد سيفا فى سكر منه على بعض عبيد الشراء، فاجتمع عليه طائفة من العبيد و قتلوه، فاجتمع الأتراك بالمستنصر، و قالوا: إن كان هذا عن رضاك، فالسمع و الطاعة، و إن كان عن غير رضاك، فلا نرضى بذلك، فأنكر المستنصر ما وقع، و تبرّأ مما فعله العبيد، فتجمع الأتراك لحرب العبيد، و برز بعضهم إلى بعض، و كان بين الفريقين قتال شديد على كوم شريك، انهزم فيه العبيد، و قتل منهم عدد كثير، و كانت أمّ المستنصر تعين العبيد، و تمدّهم بالأموال و الأسلحة، فاتفق فى بعض الأيام أن بعض الأتراك ظفر بشىء مما تبعث به أمّ المستنصر إلى العبيد، فأعلم بذلك أصحابه، و قد قويت شوكتهم بانهزام العبيد، فاجتمعوا بأسرهم، و دخلوا على المستنصر و خاطبوه فى ذلك، و أغلظوا فى القول، و جهروا بما لا ينبغى، و صار السيف قائما، و الحروب متتابعة إلى أن كان من خراب مصر بالغلاء و الفتن، ما كان، و كان من قبل المستنصر يتردّدون إلى بركة الجب.

قال المسبحىّ: و لاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع و ثمانين و ثلثمائة، عرض العزيز باللّه عساكره بظاهر القاهرة، عند سطح

الجب فنصب له مضرب ديباج رومىّ، فيه ألف ثوب بصفرية فضة، و نصبت له فازة مثقل، و قبة مثقل بالجوهر، و ضرب لابنه الأمير أبى علىّ منصور مضرب آخر، و عرضت العساكر، و كان عدّتها مائة عسكرى، و أقبلت أسارى الروم، و عدّتهم مائتان و خمسون، فطيف بهم، و كان يوما عظيما حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار إلى صلاة المغرب، و ما زالت بركة الجب منتزها للخلفاء و الملوك من بنى أيوب، و كان السلطان صلاح الدين يبرز إليها للصيد، و يقيم فيها الأيام، و فعل ذلك الملوك من بعده، و اعتنى بها الملك الناصر محمد بن قلاون، و بنى بها أحواشا و ميدانا كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و بركة الجب، و ما يليها فى درك بنى صبرة، و هم ينسبون إلى صبرة ابن بطيح بن مغالة بن عجان بن عنب بن الكليب بن أبى عمرو بن دمية بن جدس بن أريش بن أراش بن جزيلة بن لخم، فهم أحد بطون لخم، و فيهم بنو جذام بن صبرة بن بصرة بن غنم بن غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام أخى لخم.

المشتهى: و كان من مواضعهم التى أعدّت للنزهة المشتهى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۶

ذكر الأيام التى كان الخلفاء الفاطميون يتخذونها أعيادا، و مواسم تتسع بها أحوال الرعية، و تكثر نعمهم

اشارة

و كان للخلفاء الفاطميين فى طول السنة: أعياد و مواسم، و هى: موسم رأس السنة، و موسم أوّل العام، و يوم عاشوراء، و مولد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و مولد علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و مولد الحسن، و مولد الحسين عليهما السلام، و مولد فاطمة الزهراء عليها السلام، و مولد الخليفة الحاضر، و ليلة أوّل رجب، و ليلة نصفه، و ليلة أوّل شعبان، و ليلة نصفه، و موسم ليلة رمضان، و غرّة رمضان، و سماط رمضان، و ليلة الختم، و موسم عيد الفطر، و موسم عيد النحر، و عيد الغدير، و كسوة الشتاء، و كسوة الصيف، و موسم فتح الخليج، و يوم النوروز، و يوم الغطاس، و يوم الميلاد، و خميس العدس، و أيام الركوبات.

موسم رأس السنة: و كان للخلفاء الفاطميين اعتناء بليلة أوّل المحرّم فى كل عام لأنها أوّل ليالى السنة و ابتداء أوقاتها، و كان من رسومهم فى ليلة رأس السنة أن يعمل بمطبخ القصر عدّة كثيرة من الخراف المقموم و الكثير من الرءوس المقموم، و تفرّق على جميع أرباب الرتب، و أصحاب الدواوين من العوالى و الأدوان أرباب السيوف و الأقلام مع جفان اللبن، و الخبز، و أنواع الحلواء، فيعمّ ذلك سائر الناس من خاص الخليفة، و جهاته و الأستاذين المحنكين إلى أرباب الضوء، و هم المشاعلية، و يتنقل ذلك فى أيدى أهل القاهرة و مصر.

موسم أوّل العام: و كان لهم بأوّل العام عناية كبيرة فيه، يركب الخليفة بزيه المفخم، و هيئته العظيمة كما تقدّم، و يفرّق فيه دنانير الغرّة التى مرّ ذكرها عند ذكر دار الضرب، و يفرّق من السماط الذى يعمل بالقصر لأعيان أرباب الخدم من أرباب السيوف، و الأقلام بتقرير مرتب، خرفان شواء، و زبادى طعام و جامات حلواء، و خبز و قطع منفوخة من سكر، و أرز بلبن، و سكر، فيتناول الناس من ذلك ما يجل وصفه، و يتبسطون بما يصل إليهم من دنانير الغرّة من رسوم الركوب كما شرح فيما تقدّم.

يوم عاشوراء : كانوا يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق، و يعمل فيه السماط

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۷

العظيم المسمى: سماط الحزن، و قد ذكر عند ذكر المشهد الحسينىّ، فانظره. و كان يصل إلى الناس منه شىء كثير، فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بنى أيوب يوم عاشوراء، يوم سرور، يوسعون فيه على عيالهم، و يتبسطون فى المطاعم، و يصنعون الحلاوات، و يتخذون الأوانى الجديدة، و يكتحلون، و يدخلون الحمام جريا على عادة أهل الشام التى سنّها لهم الحجاج فى أيام عبد الملك بن

مروان، ليرغموا بذلك آناف شيعة علىّ بن أبى طالب، كرّم اللّه وجهه، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء، و حزن فيه على الحسين بن علىّ، لأنه قتل فيه، و قد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء، يوم سرور، و تبسط و كلا الفعلين غير جيد، و الصواب ترك ذلك، و الاقتداء بفعل السلف فقط.

و ما أحسن قول أبى الحسين الجزار الشاعر يخاطب الشريف شهاب الدين ناظر الأهراء، و كتب بها إليه ليلة عاشوراء عند ما أخر عنه ما كان من جاريه فى الأهراء:

قل لشهاب الدين ذى الفضل الندىو السيد بن السيد بن السيد

أقسم بالفرد العلىّ الصمدإن لم يبادر لنجاز موعدى

لأحضرنّ للهناء فى غدمكحل العينين مخضوب اليد

يعرّض للشريف: يما يرمى به الأشراف من التشيع، و إنه إذا جاء بهيئة السرور فى يوم عاشوراء، غاظه ذلك لأنه من أفعال الغضب، و هو من أحسن ما سمعته فى التعريض فللّه دره.

عيد النصر: و هو السادس عشر من المحرّم عمله: الخليفة الحافظ لدين اللّه، لأنه اليوم الذى ظهر فيه من محبسه، و يفعل فيه ما يفعل فى الأعياد من الخطبة، و الصلاة، و الزينة، و التوسعة فى النفقة، و كتب فيه أبو القاسم علىّ بن الصيرفىّ إلى بعض الخطباء:

عيد النصر، و هو أفضل الأعياد، و أسناها و أعلاها، و أدلها على تقصير الواصف إذا بلغ و تناهى، و نحن نأمرك أن تبرز فى يوم الأحد السادس عشر من المحرّم سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة على الهيئة التى جرت العادة بمثلها فى الأعياد، و توعد بأن تقرأ على الناس الخطبة التى سيرناها إليك قرين هذا الأمر بشرح هذا اليوم و تفصيله، و ذكر ما خصه اللّه به من تشريفه و تفضيله، و تعتمد فى ذلك ما جرى الرسم فيه كل يعيد، و تنتهى فيه إلى الغاية التى ليس عليها مزيد، فاعلم هذا، و اعمل به إن شاء اللّه تعالى.

المواليد الستة: كانت مواسم جليلة عمل الناس فيها، ميزان من ذهب، و فضة و خشكنانج، و حلواء كما مرّ ذلك.

ليالى الوقود الأربع: كانت من أبهج الليالى، و أحسنها، يحشر الناس لمشاهدتها من كل أوب، و تصل إلى الناس فيها أنواع من البرّ، و تعظم فيها ميزة أهل الجوامع و المشاهد، فانظره فى موضعه تجده.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۸

موسم شهر رمضان: و كان لهم فى شهر رمضان عدّة أنواع من البرّ منها: كشف المساجد، قال الشريف الجوّانى فى كتاب النقط: كان القضاة بمصر إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام، طافوا يوما على المشاهد، و المساجد بالقاهرة و مصر، فيبدأون بجامع المقس، ثم بجوامع القاهرة، ثم بالمشاهد، ثم بالقرافة، ثم بجامع مصر، ثم بمشهد الرأس لنظر حصر ذلك، و قناديله، و عمارته، و إزالة شعثه، و كان أكثر الناس ممن يلوذ بباب الحكم، و الشهود، و الطفيليون يتعينون لذلك اليوم، و الطواف مع القاضى لحضور السماط.

إبطال المسكرات: قال ابن المأمون: و كانت العادة جارية من الأيام الأفضلية فى آخر جمادى الآخرة من كل سنة: أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة و مصر، و تختم و يحذر من بيع الخمر، فرأى الوزير المأمون لما ولى الوزارة بعد الأفضل بن أمير الجيوش، أن يكون ذلك فى سائر أعمال الدولة، فكتب به إلى جميع ولاة الأعمال، و أن ينادى بأنه من تعرّض لبيع شىء من المسكرات، أو لشرائها سرّا، أو جهرا فقد عرّض نفسه لتلافها و برئت الذمّة من هلاكها.

و منها غرّة رمضان: و كان فى أوّل يوم من شهر رمضان، يرسل لجميع الأمراء، و غيرهم من أرباب الرتب و الخدم لكل واحد طبق، و لكل واحد من أولاده، و نسائه طبق فيه حلواء، و بوسطه صرّة من ذهب، فيعم ذلك سائر أهل الدولة، و يقال لذلك غرّة رمضان.

و منها ركوب الخليفة فى أوّل شهر رمضان: قال ابن الطوير: فإذا انقضى شعبان اهتمّ بركوب أوّل شهر رمضان، و هو يقوم مقام الرؤية، عند المتشيعين، فيجرى أمره فى اللباس و الآلات، و الأسلحة، و العرض و الركوب و الترتيب، و الموكب و الطريق المسلوكة، كما وصفناه فى أوّل العام لا يختلّ بوجه، و يكتب إلى الولاة، و النوّاب و الأعمال بمساطير مخلقة يذكر فيها ركوب الخليفة.

و منها سماط شهر رمضان: و قد تقدّم ذكر السماط فى قاعة الذهب من القصر.

سحور الخليفة: قال ابن المأمون: و قد ذكر أسمطة رمضان، و جلوس الخليفة بعد ذلك فى الروشن إلى وقت السحور، و المقرئون تحته يتلون عشرا، و يطرّبون بحيث يشاهدهم الخليفة، ثم حضر بعدهم المؤذنون، و أخذوا فى التكبير، و ذكر فضائل السحور، و ختموا بالدعاء، و قدّمت المخادّ للوعاظ، فذكروا فضائل الشهر، و مدح الخليفة و الصوفيات، و قام كل من الجماعة للرقص، و لم يزالوا إلى أن انقضى من الليل أكثر من نصفه، فحضر بين يدى الخليفة أستاذ بما أنعم به عليهم، و على الفرّاشين، و أحضرت جفان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۳۹

القطائف، جرار الجلاب برسمهم، فأكلوا، و ملأوا أكمامهم، و فضل عنهم ما تخطفه الفرّاشون، ثم جلس الخليفة فى السدلا التى كان بها عند الفطور، و بين يديه المائدة معبأة جميعها من جميع الحيوان و غيره، و القعبة الكبيرة الخاص مملوءة أوساطه بالهمة المعروفة، و حضر الجلساء، و استعمل كل منهم ما اقتدر عليه، و أومأ الخليفة بأن يستعمل من القعبة، فيفرّق الفرّاشون عليهم أجمعين و كل من تناول شيئا قام، و قبل الأرض، و أخذ منه على سبيل البركة لأولاده، و أهله لأنّ ذلك كان مستفاضا عندهم غير معيب على فاعله، ثم قدّمت الصحون الصينىّ مملوءة قطائف، فأخذ منها الجماعة الكفاية.

و قام الخليفة، و جلس بالباذهنج، و بين يديه السحورات المطيبات من لبئين رطب و مخض، و عدّة أنواع عصارات و افطلوات و سويق ناعم، و جريش جميع ذلك بقلوبات و موز، ثم يكون بين يديه صينية ذهب مملوءة سفوفا، و حضر الجلساء، و أخذ كل منهم فى تقبيل الأرض، و السؤال بما ينعم عليه منه، فتناوله المستخدمون، و الأستاذون و فرّقوه، فأخذه القوم فى أكمامهم، ثم سلم الجميع و انصرفوا.

و منها الختم فى آخر رمضان: و كان يعمل فى التاسع و العشرين منه.

قال ابن المأمون: و لما كان التاسع و العشرون من شهر رمضان، خرج الأمر بأضعاف ما هو مستقرّ للمقرئين، و المؤذنين فى كل ليلة برسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر، و حضر الأجل الوزير المأمون فى آخر النهار إلى القصر للفطور مع الخليفة، و الحضور على الأسمطة على العادة، و حضر إخوته، و عمومته، و جميع الجلساء، و حضر المقرئون، و المؤذنون، و سلموا على عادتهم و جلسوا تحت الروشن، و حمل من عند معظم الجهات، و السيدات و المميزات من أهل القصور ثلاجى ، و موكبيات مملوءة ملفوفة فى عراضى ديبقىّ، و جعلها أمام المذكورين، لتشملها بركة ختم القرآن الكريم، و استفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمة القرآن تلاوة و تطريبا، ثم وقف بعد ذلك من خطب، فأسمع و دعا، فأبلغ و رفع الفرّاشون ما أعدّوه برسم الجهات، ثم كبر المؤذنون، و هللوا و أخذوا فى الصوفيات إلى أن نثر عليهم من الروشن دنانير، و دراهم و رباعيات، و قدّمت جفان القطائف على الرسم مع البسندود، و الحلواء فجروا على عادتهم، و ملأوا أكمامهم، ثم خرج أستاذ من باب الدار الجديدة، بخلع خلعها على الخطيب، و غيره و دراهم تفرّق على الطائفتين من المقرئين و المؤذنين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۰

ذكر مذاهبهم فى أوّل الشهور

اعلم أن القوم كانوا شيعة، ثم غلوا حتى عدوّا من غلاة أهل الرفض، و للشيعة فى أثناء الشهور عمل، أحسن ما رأيت فيه.

ما حكاه أبو الريحان محمد بن أحمد البيروتىّ فى كتاب الآثار العافية عن القرون الخالية قال: و فى سنين من الهجرة نجمت ناجمة لأجل أخذهم بالتأويل إلى اليهود و النصارى، فإذا لهم جداول و حسبانات يستخرجون بها شهورهم، و يعرفون منها صيامهم، و المسلمون مضطرّون إلى رؤية الهلال، و تفقد ما اكتساه القمر من النور وجدوهم شاكين فى ذلك مختلفين فيه، مقلدين بعضهم بعضا فى عمل رؤية الهلال بطريق الزيجات، فرجعوا إلى أصحاب علم الهيئة، فألفوا زيجاتهم مفتتحة بمعرفة أوائل ما يراد من شهور العرب

بصنوف الحسبانات، فظنوا أنها معمولة لرؤية الأهلة، فأخذوا بعضها، و نسبوه إلى جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، و زعموا أنه سرّ من أسرار النبوّة، و تلك الحسبانات مبنية على حركات التدبير الوسطى دون المعدّلة أو معمولة على سنة القمر التى هى: ثلثمائة و أربعة، و خمسون يوما و خمس يوم، و سدس يوم، و أن ستة أشهر من السنة تامة، و ستة أشهر ناقصة، و إن كل ناقص منها، فهو تال لتامّ، فلما قصدوا استخراج الصوم و الفطر بها، خرجت قبل الواجب بيوم فى أغلب الأحوال، فأوّلوا قوله عليه السلام: «صوموا لرؤيته و أفطروا لرؤيته» و قالوا: معنى صوموا لرؤيته: أى صوموا اليوم الذى يرى فى عشيته، كما يقال: تهيؤا لاستقباله، فيقدّم التهيؤ على الاستقبال، قال: و رمضان لا ينقص عن ثلاثين يوما أبدا.

قافلة الحج: قال فى كتاب الذخائر و التحف: إن المنفق على الموسم كان فى كل سنة تسافر فيها القافلة: مائة ألف و عشرين ألف دينار منها: ثمن الطيب، و الحلواء و الشمع راتبا فى كل سنة: عشرة آلاف دينار، و منها: نفقة الوفد الواصلين إلى الحضرة: أربعون ألف دينار، و منها فى ثمن الحمايات، و الصدقات، و أجرة الجمال، و معونة من يسير من العسكرية، و كبير الموسم، و خدم القافلة، و حفر الآبار، و غير ذلك: ستون ألف دينار، و إنّ النفقة كانت فى أيام الوزير البازوريّ: قد زادت فى كل سنة، و بلغت إلى مائتى ألف دينار، و لم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك فى دولة من الدول.

موسم عيد الفطر: و كان لهم فى موسم عيد الفطر عدّة وجوه من الخيرات منها: تفرقة الفطرة، و تفرقة الكسوة، و عمل السماط، و ركوب الخليفة لصلاة العيد، و قد تقدّم ذكر ذلك كله فيما سبق.

عيد النحر: فيه تفرقة الرسوم من الذهب و الفضة، و تفرقة الكسوة لأرباب الخدم من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۱

أهل السيف و القلم، و فيه ركوب الخليفة لصلاة العيد، و فيه تفرقة الأضاحى، كما مرّ ذلك مبينا فى موضعه من هذا الكتاب.

عيد الغدير : فيه تزويج الأيامى، و فيه الكسوة، و تفرقة الهبات لكبراء الدولة، و رؤسائها و شيوخها و أمرائها، و ضيوفها و الأستاذين المحنكين، و المميزين، و فيه النحر أيضا، و تفرقة النحائر على أرباب الرسوم، و عتق الرقاب، و غير ذلك كما سبق بيانه فيما تقدّم.

كسوة الشتاء و الصيف: و كان لهم فى كل من فصلى الشتاء، و الصيف، كسوة تفرّق على أهل الدولة و على أولادهم، و نسائهم و قد مرّ ذكر ذلك.

موسم فتح الخليج : و كانت لهم فى موسم فتح الخليج وجوه من البرّ منها:

الركوب لتخليق المقياس، و مبيت القرّاء بجامع المقياس، و تشريف ابن أبى الردّاد بالخلع و غيرها، و ركوب الخليفة إلى فتح الخليج، و تفرقة الرسوم على أرباب الدولة من الكسوة، و العين و المآكل و التحف، و قد تقدّم تفصيل ذلك.

ذكر النوروز

و كان النوروز القبطىّ فى أيامهم من جملة المواسم، فتتعطل فيه الأسواق، و يقلّ فيه سعى الناس فى الطرقات، و تفرّق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة، و أولادهم و نسائهم و الرسوم من المال، و حوائج النوروز.

قال ابن زولاق: و فى هذه السنة، يعنى سنة ثلاث و ستين و ثلثمائة، منع المعز لدين اللّه من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك، و من صب الماء يوم النوروز.

و قال: فى سنة أربع و ستين و ثلثمائة: و فى يوم النوروز زاد اللعب بالماء و وقود النيران، و طاف أهل الأسواق، و عملوا فيلة، و خرجوا إلى القاهرة بلعبهم، و لعبوا ثلاثة أيام، و أظهروا السماجات و الحلى فى الأسواق، ثم أمر المعز بالنداء بالكشف، و أن لا توقد نار و لا يصب ماء، و أخذ قوم، فحبسوا و أخذ قوم، فطيف بهم على الجمال.

و قال ابن ميسر: فى حوادث سنة ست عشرة و خمسمائة: و فيها أراد الآمر بأحكام اللّه أن يحضر إلى دار الملك فى النوروز الكائن فى

جمادى الآخرة فى المراكب على ما كان عليه الأفضل بن أمير الجيوش، فأعاد المأمون عليه أنه لا يمكن، فإنّ الأفضل لا يجرى مجراه مجرى الخليفة، و حمل إليه من الثياب الفاخرة برسم النوروز للجهات، ما له قيمة جليلة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۲

و قال ابن المأمون: و حل موسم النوروز فى التاسع من رجب سنة سبع عشرة و خمسمائة، و وصلت الكسوة المختصة به من الطراز، و ثغر الإسكندرية مع ما يبتاع من المذابّ المذهبة و الحريرى و السوادج، و أطلق جميع ما هو مستقرّ من الكسوات الرجالية، و النسائية، و العين و الورق و جميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها، و أسماء أربابها، و أصناف النوروز البطيخ و الرّمان و عراجين الموز، و أفراد البسر، و أقفاص التمر القوصىّ، و أقفاص السفرجل، و بكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج، و لحم الضأن، و لحم البقر من كل لون بكلة مع خبز برّ مارق.

قال: و أحضر كاتب الدفتر: الإثبابات بما جرت العادة به من إطلاق العين و الورق، و الكسوات على اختلافها فى يوم النوروز، و غير ذلك من جميع الأصناف، و هو أربعة آلاف دينار، و خمسة عشر ألف درهم فضة، و الكسوات عدّة كثيرة من شفق ديبقىّ مذهبات، و حريريات، و معاجر و عصائب مشاومات ملوّنات، و شفق لاذ مذهب و حريرىّ، و مشفع و فوط، ديبقىّ حريرىّ.

فأما العين و الورق، و الكسوات فذلك لا يخرج عمن تحوزه القصور، و دار الوزارة، و الشيوخ و الأصحاب و الحواشى و المستخدمون، و رؤساء العشاريات، و بحارتها، و لم يكن لأحد من الأمراء على اختلاف درجاتهم فى ذلك نصيب، و أما الأصناف من البطيخ و الرمّان و البسر و التمر و السفرجل و العناب، و الهرائس على اختلافها فيشمل ذلك جميع من تقدّم ذكرهم، و يشكرهم فى ذلك جميع الأمراء أرباب الأطواق، و الأقصاب و سائر الأماثل، و قد تقدّم شرح ذلك، فوقع الوزير المأمون على جميع ذلك بالإنفاق.

و قال القاضى الفاضل فى تعليق المتجدّدات لسنة أربع و ثمانين و خمسمائة: يوم الثلاثاء أربع عشر رجب يوم النوروز القبطىّ، و هو مستهل توت، و توت أوّل سنتهم، و قد كان بمصر فى الأيام الماضية، و الدولة الخالية يعنى دولة الخلفاء الفاطميين من مواسم بطالاتهم، و مواقيت ضلالاتهم، فكانت المنكرات ظاهرة فيه، و الفواحش صريحة فى يومه و يركب فيه أمير موسوم: بأمير النوروز، و معه جمع كثير، و يتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على دور الأكابر بالجمل الكبار، و يكتب مناشير، و يندب مترسمين، كل ذلك يخرج مخرج الطير، و يقنع بالميسور من الهبات، و يتجمع المؤنثون، و الفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة، و بأيديهم الملاهى، و ترفع الأصوات، و تشرب الخمر و المزر شربا ظاهرا بينهم، و فى الطرقات، و يتراش الناس بالماء، و بالماء و الخمر، و بالماء ممزوجا بالأقدار، فإن غلط مستور، و خرج من داره لقيه من يرشه، و يفسد ثيابه، و يستخف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۳

بحرمته، فإما فدى نفسه، و إما فضح، و لم يجر الحال فى هذا النوروز على هذا، و لكن قد رش الماء فى الحارات، و أحيى المنكر فى الدور أرباب الخسارات.

و قال: فى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة: و جرى الأمر فى النوروز على العادة من رش الماء، و استجدّ فيه هذا العام التراجم بالبيض، و التصافع بالأنطاع، و انقطع الناس عن التصرّف، و من ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة و خرق به.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: إنّ أوّل من اتخذ النوروز: جمشيد، و يقال فى اسمه أيضا: جمشاد أحد ملوك الفرس الأول، و معناه: اليوم الجديد، و للفرس فيه آراء، و أعمال على مصطلحهم غير أنه فى غير هذا اليوم. و قد صنف علىّ بن حميرة الأصفهانىّ كتابا مفيدا فى أعياد الفرس.

و ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة قال: كان اليوم الذى ردّ اللّه فيه إلى سليمان بن داود خاتمه يوم النوروز، فجاءت إليه الشياطين بالتحف، و كانت تحفة الخطاطيف أن جاءت بالماء فى مناقيرها فرشته بين

يدى سليمان، فاتخذ الناس رش الماء من ذلك اليوم.

و عن مقاتل بن سليمان قال: سمى ذلك اليوم: نيروزا، و ذلك أنه وافق هذا اليوم الذى يسمونه النيروز، فكانت الملوك تتيمن بذلك اليوم، و اتخذوه عيدا، و كانوا يرشون الماء فى ذلك اليوم، و يهدون كفعل الخطاف، و يتيمنون بذلك، و للّه درّ القائل:

كيف ابتهاجك بالنوروز يا سكنىو كل ما فيه يحكينى و أحكيه

فناره كلهيب النار فى كبدىو ماؤه كتوالى دمعتى فيه

و قال آخر:

نورز الناس و نورزت و لكن بدموعى

و ذكت نارهم و النار ما بين ضلوعى

و قال غيره:

و لما أتى النوروز يا غاية المنىو أنت على الإعراض و الهجر و الصدّ

بعثت بنار الشوق ليلا إلى الحشىفنورزت صبحا بالدموع على الخدّ

الميلاد: و هو اليوم الذى ولد فيه عبد اللّه، و رسوله المسيح عيسى ابن مريم صلّى اللّه عليه و سلّم، و النصارى تتخذ ليلة يوم الميلاد عيدا، و تعمله قبط مصر فى التاسع و العشرين من كيهك ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۴

و ما برح لأهل مصر به اعتناء، و كان من رسوم الدولة الفاطمية فيه: تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية، و التمارد التى فيها السمك، و قرابات الجلاب، و طيافير الزلابية، و البورى، فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف، و الأقلام بتقرير معلوم على ما ذكره ابن المأمون فى تاريخه.

الغطاس: و من مواسم النصارى بمصر عمل الغطاس فى اليوم الحادى عشر من طوبة .

قال المسعودىّ فى مروج الذهب: و لليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها، و هى ليلة إحدى عشرة من طوبة و لقد حضرت سنة ثلاثين و ثلثمائة ليلة الغطاس بمصر، و الإخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة الراكبة على النيل، و النيل مطيف بها، و قد أمر فأسرج من جانب الجزيرة، و جانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل و الشمع، و قد حضر النيل فى تلك الليلة: مئو ألوف من الناس من المسلمين و النصارى منهم: فى الزواريق، و منهم فى الدور الدانية من النيل، و منهم على الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل، و المشارب، و آلات الذهب و الفضة، و الجواهر و الملاهى و العزف و القصف، و هى أحسن ليلة تكون بمصر، و أشملها سرورا، و لا تغلق فيها الدروب، و يغطس أكثرهم فى النيل، و يزعمون أنّ ذلك أمان من المرض، و نشرة للداء.

و قال المسبحىّ: فى سنة ثمان و ثمانين و ثلثمائة: كان غطاس النصارى، فضربت الخيام و المضارب، و الأشرعة فى عدّة مواضع على شاطىء النيل، فنصبت أسرّة للرئيس فهد ابن إبراهيم النصرانىّ كاتب الأستاذ برجوان، و أوقدت له الشموع و المشاعل، و حضر المغنون، و الملهون، و جلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس، فغطس و انصرف.

و قال: فى سنة خمس عشرة و أربعمائة، و فى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة كان غطاس النصارى، فجرى الرسم من الناس فى شراء الفواكه، و الضأن و غيره، و نزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين اللّه بن الحاكم لقصر جدّه العزيز بالله بمصر، لنظر الغطاس، و معه الحرم، و نودى أن لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم إلى البحر فى الليل، و ضرب بدر الدولة الخادم الأسود متولى الشرطتين خيمة عند الجسر، و جلس فيها، و أمر الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه بأن توقد المشاعل و النار فى الليل، فكان و قيدا كثيرا، و حضر الرهبان و القسوس بالصلبان، و النيران، فقسسوا هناك طويلا إلى أن غطسوا.

و قال ابن المأمون: إنه كان من رسوم الدولة أنه يفرّق على سائر أهل الدولة الترنج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۵

و النارنج و الليمون المراكبى، و أطنان القصب، و السمك و البورى برسوم مقرّرة لكل واحد من أرباب السيوف و الأقلام.

خميس العهد: و يسميه أهل مصر من العامّة: خميس العدس، و يعمله نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام و يتهادون فيه، و كان من جملة رسوم الدولة الفاطمية فى خميس العدس ضرب خمسمائة دينار ذهبا، عشرة آلاف خرّوبة، و تفرقتها على جميع أرباب الرسوم كما تقدّم.

أيام الركوبات: و كان الخليفة يركب فى كل يوم سبت و ثلاثاء إلى منتزهاته بالبساتين، و التاج، و قبّة الهواء و الخمس وجوه، و بستان البعل، و دار الملك، و منازل العز، و الروضة، فيعمّ الناس فى هذه الأيام من الصدقات أنواع ما بين ذهب، و مآكل، و أشربة، و حلاوات، و غير ذلك كما تقدّم بيانه فى موضعه من هذا الكتاب.

صلاة الجمعة: و كان الخليفة يركب فى كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس فى جامع القاهرة الذى يعرف بالجامع الأزهر مرّة، و فى جامع الخطبة المعروف: بالجامع الحاكمىّ مرّة، و فى جامع عمرو بن العاص بمصر أخرى، فينال الناس منه فى هذه الجمع الثلاث، رسوم و هبات و صدقات، كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى عند ذكر الجامع الأزهر.

و للّه در الفقيه عمارة اليمنى فقد ضمن مرثيته أهل القصر جملا مما ذكر، و هى القصيدة التى قال ابن سعد فيها، و لم يسمع فيما يكتب فى دولة بعد انقراضها أحسن منها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل‌و جيده بعد حسن الحلى بالعطل

سعيت فى منهج الرأى العثور فإن‌قدرت من عثرات الدهر فاستقل

جدعت ما رنك الأقنى فأنفك لاينفك ما بين قرع السنّ و الخجل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل‌سعيت مهلا أما تمشى على مهل

لهفى و لهف بنى الآمال قاطبة‌على فجيعتها فى أكرم الدول

قدمت مصر فأولتنى خلائفهامن المكارم ما أربى على الأمل

قوم عرفت بهم كسب الألوف و من‌كمالها أنها جاءت و لم أسل

و كنت من وزراء الدست حين سمارأس الحصان يهاديه على الكفل

و نلت من عظماء الجيش مكرمة‌و خلة حرست من عارض الخلل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۶ يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة‌لك الملامة إن قصرت فى عذلى

بالله در ساحة القصرين و ابك معى‌عليهما لا على صفين و الجمل

و قل لأهليهما و اللّه ما التحمت‌فيكم جراحى و لا قرحى بمندمل

ما ذا عسى كانت الإفرنج فاعلة‌فى نسل آل أمير المؤمنين على

هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ماملكتموا بين حكم السبى و النفل

و قد حصلتم عليها و اسم جدّكم‌محمد و أبوكم غير منتقل

مررت بالقصر و الأركان خالية‌من الوقود و كانت قبلة القبل

فملت عنها بوجهى خوف منتقدمن الأعادى و وجه الودّ لم يمل

أسلت من أسفى دمعى غداة خلت‌رحابكم و غدت مهجورة السبل

أبكى على ما تراءت من مكارمكم‌حال الزمان عليها و هى لم تحل

دار الضيافة كانت أنس وافدكمو اليوم أوحش من رسم و من طلل

و فطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم‌تشكو من الدهر حيفا غير محتمل

و كسوة الناس فى الفصلين قد درست‌ورث منها جدد عندهم و بلى

و موسم كان فى يوم الخليج لكم‌يأتى تجملكم فيه على الجمل

و أوّل العام و العيدين كم لكم‌فيهنّ من وبل جود ليس بالوشل

و الأرض تهتز فى يوم الغدير كمايهتز ما بين قصريكم من الأسل

و الخيل تعرض فى وشى و فى شيةمثل العرائس فى حلى و فى حلل

و لا حملتم قرى الأضياف من سعة الأطباق إلا على الأكتاف و العجل

و ما خصصتم ببرّ أهل ملتكم‌حتى عممتم به الأقصى من الملل

كانت رواتبكم للذمتين و للضيف المقيم و للطارى من الرسل

ثم الطراز بتنيس الذى عظمت‌منه الصلات لأهل الأرض و الدول

و للجوامع من إحسانكم نعم‌لمن تصدّر فى علم و فى عمل

و ربما عادت الدنيا فمعقلهامنكم و أضحت بكم محلولة العقل

و اللّه لا فاز يوم الحشر مبغضكمو لا نجا من عذاب اللّه غير ولى

و لا سقى الماء من حرّ و من ظمأمن كف خير البرايا خاتم الرسل

و لا رأى جنة اللّه التى خلقت‌من خان عهد الإمام العاضد ابن على

أئمتى و هداتى و الذخيرة لى‌إذا ارتهنت بما قدّمت من عملى

تاللّه لم أوفهم فى المدح حقهم‌لأنّ فضلهم كالوا بل الهطل

و لو تضاعفت الأقوال و اتسعت‌ما كنت فيهم بحمد اللّه بالخجل

باب النجاة هم دنيا و آخرةو حبهم فهو أصل الدين و العمل

نور الهدى و مصابيح الدجى و محل‌الغيث إن ربت الأنواء فى المحل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۷ أئمة خلقوة نورا فنورهم‌من محض خالص نور اللّه لم يغل

و اللّه ما زلت عن حبى لهم أبداما أخر اللّه لى فى مدّة الأجل

و بسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه اللّه، و تمحلت له الذنوب، انتهى ما ذكره رحمه اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۸

ذكر ما كان من أمر القصرين، و المناظر بعد زوال الدولة الفاطمية

و لما مات العاضد لدين اللّه فى يوم عاشوراء سنة سبع و ستين و خمسمائة، احتاط الطواشى قراقوش على أهل العاضد، و أولاده، فكانت عدّة الأشراف فى القصور: مائة و ثلاثين، و الأطفال خمسة و سبعين، و جعلهم فى مكان أفرد لهم خارج القصر، و جمع عمومته، و عشيرته فى إيوان بالقصر، و احترز عليهم، و فرّق بين الرجال و النساء لئلا يتناسلوا، و ليكون ذلك أسرع لانقراضهم.

و تسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر، بما فيه من الخزائن و الدواوين، و غيرها من الأموال و النفائس، و كانت عظيمة الوصف، و استعرض من فيه من الجوارى و العبيد، فأطلق من كان حرّا، و وهب و استخدم باقيهم، و أطلق البيع فى كل جديد، و عتيق، فاستمرّ البيع فيما وجد بالقصر، عشر سنين، و أخلى القصور من سكانها، و أغلق أبوابها، ثم ملكها أمراءه، و ضرب الألواح على ما كان

للخلفاء و أتباعهم من الدور و الرباع، و أقطع خواصه منها، و باع بعضها.

ثم قسم القصور، فأعطى القصر الكبير: للأمراء فسكنوا فيه، و أسكن أباه نجم الدين أيوب بن شادى فى قصر اللؤلؤة على الخليج، و أخذ أصحابه دور من كان ينسب إلى الدولة الفاطمية، فكان الرجل إذا استحسن دارا أخرج منها سكانها، و نزل بها.

قال القاضى الفاضل: و فى ثالث عشريه يعنى ربيعا الآخر سنة سبع و ستين: كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر، فقيل: إن الموجود فيه مائة صندوق كسوة فاخرة من موشح، و مرصع و عقود ثمينة، و دخائر فخمة، و جواهر نفيسة، و غير ذلك من ذخائر جمة الخطر، و كان الكاشف بهاء الدين قراقوش، و بيان، و أخليت أمكنة من القصر الغربىّ سكن بها الأمير موسك و الأمير أبو الهيجاء السمنىّ، و غيره من الغزو، ملئت المناظر المصونة عن الناظر، و المنتزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر، فسبحان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۴۹

مظهر العجائب، و محدثها، و وارث الأرض و مورثها.

قال: و مقدار ما يحدس أنه خرج من القصر ما بين دينار و درهم، و مصاغ و جوهر، و نحاس، و ملبوس، و أثاث، و قماش، و سلاح ما لا يقى به ملك الأكاسرة، و لا تتصوّره الخواطر الحاضرة، و لا يشتمل على مثله الممالك العامرة، و لا يقدر على حسابه إلّا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة.

و قال الحافظ جمال الدين يوسف اليغمورىّ: وجدت بخط المهذب أبى طالب محمد ابن علىّ بن الخيمىّ، حدّثنى الأمير عضد الدين مرهف بن مجد الدين سويد الدولة بن منقذ:

أن القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة عشرة آلاف شريف و شريفة، و ثمانية آلاف عبد، و خادم و أمة و مولدة و تربية.

و قال ابن عبد الظاهر عن القصر لما أخذه صلاح الدين، و أخرج من به كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل، إلّا الخليفة، و أهله، و أولاده و لما أخرجوا منه، أسكنوا فى دار المظفر، و قبض أيضا صلاح الدين على الأمير داود بن العاضد، و كان ولىّ العهد و ينعت بالحامد للّه، و اعتقل معه جميع إخوته الأمير أبو الأمانة جبريل، و أبو الفتح، و ابنه أبو القاسم، و سليمان بن داود، و عبد الظاهر حيدرة بن العاضد، و عبد الوهاب بن إبراهيم ابن العاضد، و إسماعيل بن العاضد، و جعفر بن أبى الظاهر بن جبريل، و عبد الظاهر بن أبى الفتوح بن جبريل بن الحافظ، و جماعة من بنى أعمامه، فلم يزالوا فى الاعتقال بدار الأفضل من حارة برجوان إلى أن انتقل الملك الكامل محمد بن العادل بن أبى بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل، فنقل معه ولد العاضد و إخوته و أولاد عمه، و اعتقلهم بالقلعة، و بهامات العاضد، و استمرّ البقية حتى انقرضت الدولة الأيوبية، و ملك الأتراك إلى أن تسلطن الملك الظاهر: ركن الدين بيبرس البندقدارىّ.

فلما كان فى سنة ستين و ستمائة: أشهد على من بقى منهم، و هم كمال الدين إسماعيل بن العاضد و عماد الدين أبو القاسم ابن الأمير أبى الفتوح بن العاضد، و بدر الدين عبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد أن جميع المواضع التى قبلىّ المدارس الصالحية من القصر الكبير، و الموضع المعروف: بالتربة ظاهرا و باطنا بخط الخوخ السبع، و جميع الموضع المعروف بالقصر اليافعىّ، بالخط المذكور، و جميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ الشيوخ، و غيرهم من القصر الشارع بابه قبالة دار الحديث النبوىّ الكاملية، و جميع الموضع المعروف بالقصر الغربىّ، و جميع الموضع المعروف: بدار الفطرة بخط المشهد الحسينىّ، و جميع الموضع المعروف: بدار الضيافة بحارة برجوان، و جميع الموضع:

المعروف باللؤلؤة، و جميع قصر الزمرّذ، و جميع البستان الكافورىّ: ملك لبيت المال المولوىّ السلطانىّ الملكىّ الظاهرىّ من وجه صحيح شرعىّ لا رجعة لهم فيه، و لا لواحد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۵۰

منهم فى ذلك و لا فى شىء منه، و لا مثوبة بسبب يد، و لا ملك، و لا وجه من الوجوه كلها، خلا ما فى ذلك من مسجد للّه تبارك

و تعالى أو مدفن لآبائهم، و ورخ ذلك الإشهاد بثالث عشر ربيع الأوّل سنة ستين و ستمائة، و أثبت على قاضى القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعزّ الشافعى رحمه اللّه تعالى.

و تقرّر مع المذكورين أن مهما كان قبضوه من أثمان بعض الأماكن المذكورة التى عاقد عليها و كلاؤهم، و اتصلوا إليه يحاسبوا به من جملة ما يحرز ثمنه عند وكيل بيت المال، و قبضت أيدى المذكورين عن التصرّف فى الأماكن المذكورة و غيرها، و رسم ببيعها فباعها وكيل بيت المال كمال الدين ظافر أوّلا فأوّلا، و نقضت شيئا شيئا، و بنى فى أماكنها ما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۲ ؛ ص ۴۵۰

اشترى قاعة السدرة بجوار المدرسة، و التربة الصالحية قاضى القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن علىّ بن مسرور المقدسىّ الحنبلىّ، مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية: بألف و خمسة و سبعين دينارا فى رابع جمادى الآخرة سنة ستين و ستمائة من كمال الدين ظافر بن الفقيه نصر وكيل بيت المال، ثم باعها المذكور للملك الظاهر بيبرس فى حادى عشرى جمادى الآخرة المذكورة، و قاعة السدرة هذه، قد صارت هى، و قاعة الخيم أصل المدرسة الظاهرية الركنية البيبرسية البندقدارية.

قال القاضى الفاضل: و فى يوم الاثنين سادس شهر رجب، يعنى من سنة أربع و ثمانين و خمسمائة، ظهر تسحب رجلين من المعتقلين فى القصر أحدهما من أقارب المستنصر، و الآخر من أقارب الحافظ، و أكبرهما سنا كان معتقلا بالإيوان حدث به مرض، و أثخن فيه، ففكّ حديده، و نقل إلى القصر الغربىّ فى أوائل سنة ثلاث و ثمانين، و استمرّ لما به، و لم يستقل من المرض، و طلب ففقد، و اسمه: موسى بن عبد الرحمن أبى حمزة بن حيدرة بن أبى الحسن أخى الحافظ، و اسم الآخر: موسى بن عبد الرحمن بن أبى محمد بن أبى اليسر بن محسن بن المستنصر، و كان طفلا فى وقت الكائنة بأهله، و أقام بالقصر الغربىّ مع من أسر به إلى أن كبر و شب.

قال: و ذكر أن القصر الغربىّ قد استولى عليه الخراب، و علا على جدرانه التشعث، و الهدم، و إنه يجاور اصطبلات فيها جماعة من المفسدين، و ربما تسلق إليه للتطرّق للنساء المعتقلات، و المتسلق منه إذا قويت نفسه على التسحب لم تكن عقلته فى القصر المذكور مانعة من التسحب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۲، ص: ۴۵۱

قال: و عدد من بقى من هذه الذرية بدار المظفر و القصر الغربىّ و الإيوان: مائتان و اثنان و خمسون شخصا، ذكور ثمانية و تسعون، و إناث مائة و أربعة و خمسون، تفصيله المقيمون بدار المظفر: أحد و ثلاثون ذكور، أحد عشر كلهم أولاد العاضد لصلبه، أناث عشرون: بنات العاضد خمسة، إخوته أربع، جهات العاضد أربع، بنات الحافظ ثلاث، جهات يوسف ابنه و جبريل ابن عمه أربع، المعتلقون بالإيوان خمسة و خمسون رجلا منهم الأمير أبو الظاهر بن جبريل بن الحافظ، المقيمون بالقصر الغربىّ: مائة و ستة و ستون شخصا ذكور اثنان و ثلاثون، أكبرهم: عمره عشرون سنة، و أصغرهم عمره سبع عشرة سنة، إناث: مائة و أربع، و ثلاثون: بنات أربع و ستون، أخوات و عمات و زوجات سبعون.

قال: و فى جمادى الآخرة سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة، كانت عدّة من فى دار المظفر بحارة برجوان، و القصر الغربىّ، و الإيوان من أولاد العاضد، و أقاربه، و من معهم مضافا إليهم ثلثمائة و اثنتين و سبعين نفسا. دار المظفر، أحرار و مماليك: مائة و ست و ستون نفسا، القصر الغربىّ: أحرار مائة و أربعون نفسا، الإيوان: تسعة و سبعون رجلا بالغون، و أما منازل العز، فاشتراها الملك المظفر تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى فى نصف شعبان سنة: ست و ستين و خمسمائة، و جعلها مدرسة للفقهاء الشافعية، و اشترى الروضة، و جعلها وقفا على المدرسة المذكورة، و اللّه تعالى أعلم بالصواب، و إليه المرجع، و المآب، و صلى اللّه على سيدنا محمد و آله و سلم.

تم الجزء الثانى، و يليه الجزء الثالث و أوله: «ذكر حارات القاهرة و ظواهرها»

الجزء الثالث

ذكر حارات القاهرة و ظواهرها

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم قال ابن سيده: و الحارة كلّ محلّة دنت منازلها، قال: و المحلّة منزل القوم. و بالقاهرة و ظواهرها عدّة حارات و هى:

حارة بهاء الدين: هذه الحارة كانت قديما خارج باب الفتوح الذى وضعه القائد جوهر عند ما اختطّ أساس القاهرة من الطوب النيء، و قد بقى من هذا الباب عقدة برأس حارة بهاء الدين ، و صارت هذه الحارة اليوم من داخل باب الفتوح الذى وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى، و هو الموجود الآن. و حدّ هذه الحارة عرضا من خطّ باب الفتوح الآن إلى خطّ حارة الورّاقة بسوق المرحلين، و حدّها طولا فيما وراء ذلك إلى خطّ باب القنطرة. و كانت هذه الحارة تعرف بحارة الريحانية و الوزيرية و هما طائفتان من طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين، فإنّ بها كانت مساكنهم، و كان فيها لهاتين الطائفتين دور عظيمة و حوانيت عديدة؛ و قيل لها أيضا بين الحارتين، و اتصلت العمارة إلى السور و لم تزل الريحانية و الوزيرية بهذه الحارة إلى أن كانت واقعة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب بالعبيد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴

ذكر واقعة العبيد

و سببها أنّ مؤتمن الخلافة جوهرا أحد الأستاذين المحنّكين بالقصر تحدّث فى إزالة صلاح الدين يوسف بن أيوب من وزارة الخليفة العاضد لدين اللّه عندما ضايق أهل القصر و شدّد عليهم و استبدّ بأمور الدولة و أضعف جانب الخلافة و قبض على أكابر أهل الدولة، فصار مع جوهر عدّة من الأمراء المصريين و الجند. و اتفق رأيهم أن يبعثوا إلى الفرنج ببلاد الساحل يستدعونهم إلى القاهرة، حتّى إذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكر ثاروا و هم بالقاهرة، و اجتمعوا مع الفرنج على إخراجه من مصر.

فسيروا رجلا إلى الفرنج و جعلوا كتبهم التى معه فى نعل، و حفظت بالجلد مخافة أن يفطن بها، فسار الرجل إلى البئر البيضاء قريبا من بلبيس ، فإذا بعض أصحاب صلاح الدين هناك، فأنكر أمر الرجل من أجل أنّه جعل النعلين فى يده، و رآهما و ليس فيهما أثر المشى، و الرجل رثّ الهيئة؛ فارتاب و أخذ النعلين و شقّهما، فوجد الكتب ببطنهما، فحمل الرجل و الكتب إلى صلاح الدين، فتتبع خطوط الكتب حتّى عرفت، فإذا الذى كتبها من اليهود الكتّاب، فأمر بقتله، فاعتصم بالإسلام و أسلم، و حدّثه الخبر. فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة، فاستشعر الشرّ و خاف على نفسه، و لزم القصر و امتنع من الخروج منه، فأعرض صلاح الدين عن ذلك جملة، و طال الأمد؛ فظنّ الخصىّ أنه قد أهمل أمره، و شرع يخرج من القصر. و كانت له منظرة بناها بناحية الخرقانية فى بستان، فخرج إليها فى جماعة. و بلغ ذلك صلاح الدين، فأنهض إليه عدّة هجموا عليه و قتلوه فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة سنة أربع و ستّين و خمسمائة، و احتزوا رأسه و أتوا بها إلى صلاح الدين، فاشتهر ذلك بالقاهرة و أشيع، فغضب العسكر المصرىّ، و ثاروا بأجمعهم فى سادس عشريّة، و قد انضمّ إليهم عالم عظيم من الأمراء و العامّة حتّى صاروا ما ينيف على خمسين ألفا، و ساروا إلى دار الوزارة- و فيها يومئذ ساكنا بها صلاح الدين- و قد استعدّوا بالأسلحة، فبادر شمس الدولة فخر الدين توران شاه أخو صلاح الدين، و صرخ فى عساكر الغزّ، و ركب صلاح الدين و قد اجتمع إليه طوائف من أهله و أقاربه و جميع الغزّ و رتبهم، و وقفت الطائفة الريحانية و الطائفة الجيوشية و الطائفة الفرحية و غيرهم من الطوائف السودانية و من انضمّ إليهم بين القصرين، فثارت الحروب بينهم و بين صلاح الدين، و اشتدّ الأمر و عظم الخطب حتّى لم يبق إلا هزيمة صلاح الدين و أصحابه. فعند ذلك أمر توران شاه بالحملة على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵

السودان، فقتل فيها أحد مقدّميهم، فانكفّ بأسهم قليلا، و عظمت حملة الغزّ عليهم، فانكسروا إلى باب الذهب، ثمّ إلى باب الزهومة ، و قتل حينئذ عدّة من الأمراء المصريين و كثير ممّن عداهم.

و كان العاضد فى هذه الوقعة يشرف من المنظرة، فلمّا رأى أهل القصر كسرة السودان و عساكر مصر رموا على الغزّ من أعلى القصر بالنشّاب و الحجارة حتّى أنكوا فيهم، و كفّوهم عن القتال، و كادوا ينهزمون؛ فأمر حينئذ صلاح الدين النفّاطين بإحراق المنظرة، فأحضر شمس الدولة النفّاطين و أخذوا فى تطييب قارورة النفط و صوّبوا بها على المنظرة التى فيها العاضد، فخاف العاضد على نفسه، و فتح باب المنظرة زعيم الخلافة أحد الأستاذين، و قال بصوت عال: أمير المؤمنين يسلّم على شمس الدولة و يقول: دونكم و العبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم.

فلمّا سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم و تخاذلوا، فحمل عليهم الغزّ فانكسروا، و ركب القوم أقفيتهم إلى أن وصلوا إلى السيوفيين ، فقتل منهم كثير و أسر منهم كثير و امتنعوا هناك على الغزّ بمكان، فأحرق عليهم. و كان فى دار الأرمن التى كانت قريبا من بين القصرين خلق عظيم من الأرمن كلّهم رماة لهم جار فى الدولة يجرى عليهم، فعند ما قرب منهم الغزّ رموهم عن يد واحدة حتّى امتنعوا عن أن يسيروا إلى العبيد، فأحرق شمس الدولة دارهم حتّى هلكوا حرقا و قتلا، و مرّوا إلى العبيد، فصاروا كلّما دخلوا مكانا أحرق عليهم و قتلوا فيه إلى أن وصلوا إلى باب زويلة، فإذا هو مغلوق، فحصروا هناك و استمرّ فيهم القتل مدّة يومين. ثمّ بلغهم أنّ صلاح الدين أحرق المنصورة التى كانت أعظم حاراتهم، و أخذت عليهم أفواه السكك ، فأيقنوا أنّهم قد أخذوا لا محالة، فصاحوا الأمان، فأمنوا- و ذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة- و فتح لهم باب زويلة، فخرجوا إلى الجيزة، فعدا عليهم شمس الدولة فى العسكر و قد قووا بأموال المهزومين و أسلحتهم، و حكّموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم إلا الشريد؛ و تلاشى من هذه الواقعة أمر العاضد.

و كان من غرائب الاتّفاقات أن الدولة الفاطمية كان الذى افتتح لها بلاد مصر و بنى القاهرة جوهر القائد؛ و الذى كان سببا فى إزالة الدولة و خراب القاهرة جوهر المنعوت بمؤتمن الخلافة هذا. ثمّ لما استبدّ صلاح الدين يوسف بسلطنة الديار المصريّة بعد موت

الخليفة العاضد لدين اللّه سكن هذه الحارة الأمير الطواشىّ الخصىّ بهاء الدين قراقوش بن عبد اللّه الأسدى فعرفت به.

حارة برجوان: منسوبة إلى الأستاذ أبى الفتوح برجوان الخادم، و كان خصيّا أبيض تامّ الخلقة، ربّى فى دار الخليفة العزيز بالله، و ولاه أمر القصور. فلمّا حضرته الوفاة وصّاه على ابنه الأمير أبى علىّ منصور، فلمّا مات العزيز بالله أقيم ابنه منصور فى الخلافة من بعده، و قام بتدبير الدولة أبو محمد الحسن بن عمّار الكتامى، فدبّر الأمور و برجوان يناكده فيما يصدر عنه و يختصّ بطوائف من العسكر دونه إلى أن أفسد أمر ابن عمّار، فنظر برجوان فى تدبير الأمور يوم الجمعة لثلاث بقين من رمضان سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة، و صار الواسطة بين الحاكم و بين الناس، فأمر بجمع الغلمان و نهاهم عن التعرّض لأحد من الكتاميين و المغاربة، و وجّه إلى دار ابن عمّار، فمنع الناس عنها بعد أن كانوا قد أحاطوا بها و انتهبوا منها، و أمر أن يجرى لأصحاب الرسوم الرواتب جميع ما كان ابن عمّار قطعه، و أجرى لابن عمّار ما كان يجرى له فى أيام العزيز بالله من الجرايات لنفسه و لأهله و حرمه، و مبلغ ذلك من اللحم و التوابل خمسمائة دينار فى كلّ شهر يزيد عن ذلك أو ينقص عنه على قدر الأسعار، مع ما كان له من الفاكهة؛ و هو فى كلّ يوم سلّة بدينار، و عشرة أرطال شمع بدينار و نصف، و حمل بلح. و جعل كاتبه أبا العلاء فهد بن إبراهيم النصرانى، يوقّع عنه و ينظر فى قصص الرافعين و ظلاماتهم، فجلس لذلك فى القصر و صار يطالعه بجميع ما يحتاج إليه، و رتّب الغلمان فى القصر و أمرهم بملازمة الخدمة و تفقّد أحوالهم، و أزال علل أولياء الدولة، و تفقّد أمور الناس و أزال ضروراتهم، و منع الناس كافة من الترجّل له؛ فكان الناس يلقونه فى داره، فإذا تكامل لقاؤهم ركبوا بين يديه إلى القصر ما عدا الحسين بن جوهر و القاضى ابن النعمان فقط، فإنهما كانا يتقدّمانه من دورهما إلى القصر حتّى أنّه لقّب كاتبه فهدا بالرئيس، فصار يخاطب بذلك و يكاتب به.

و كان برجوان يجلس فى دهاليز القصر، و يجلس الرئيس فهد بالدهليز الأول يوقّع و ينظر و يطالع برجوان ما يحتاج إليه ممّا يطالع به الحاكم، فيخرج الأمر بما يكون العمل به.

و ترقّت أحوال برجوان إلى أن بلغ النهاية، فقصر عن الخدمة، و تشاغل بلذّاته، و أقبل على سماع الغناء و أكثر من الطرب؛ و كان شديد المحبّة فى الغناء، فكان المغنّون من الرجال و النساء يحضرون داره فيكون معهم كأحدهم، ثمّ يجلس فى داره حتّى يمضى صدر النهار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷

و يتكامل جميع أهل الدولة و أرباب الأشغال على بابه، فيخرج راكبا و يمضى إلى القصر، فيمشى من الأمور ما يختار بغير مشاورة.

فلما تزايد الأمر و كثر استبداده تحرّد له الحاكم، و نقم عليه أشياء من تجرّئه عليه و معاملته له بالإذلال و عدم الامتثال، منها أنّه استدعاه يوما و هو راكب معه، فصار إليه و قد ثنى رجله على عنق فرسه و صار باطن قدمه و فيه الخفّ قبالة وجه الحاكم، و نحو ذلك من سوء الأدب. فلما كان يوم الخميس سادس عشرى شهر ربيع الآخر سنة تسعين و ثلاثمائة، أنفذ إليه الحاكم عشيّة للركوب معه إلى المقياس ، فجاء بعد ما تباطأ، و قد ضاق الوقت، فلم يكن بأسرع من خروج عقيق الخادم باكيا يصيح: قتل مولاى. و كان هذا الخادم عينا لبرجوان فى القصر، فاضطرب الناس، و أشرف عليهم الحاكم، و قام زيدان صاحب المظلّة فصاح بهم: من كان فى الطاعة فلينصرف إلى منزله و يبكر إلى القصر المعمور.

فانصرف الجميع.

فكان من خبر قتل برجوان أنّه لما دخل إلى القصر كان الحاكم فى بستان يعرف بدويرة التين و العنّاب و معه زيدان، فوافاه برجوان بها و هو قائم، فسلّم و وقف، فسار الحاكم إلى أن خرج من باب الدويرة فوثب زيدان على برجوان و ضربه بسكّين كانت معه فى عنقه، و ابتدره قوم كانوا قد أعدّوا للفتك به، فأثخنوه جراحة بالخناجر، و احتزّوا رأسه و دفنوه هناك. ثمّ إنّ الحاكم أحضر إليه الرئيس، فهدأ بعد العشاء الأخيرة و قال له: أنت كابنى، و أمّنه و طمّنه، فكانت مدّة نظر برجوان فى الوساطة سنتين و ثمانية أشهر تنقص يوما واحدا، و وجد الحاكم فى تركته مائة منديل يعنى عمامة، كلّها شروب ملوّنة معمّمة على مائة شاشية، و ألف سراويل دبيقية بألف تكّة حرير أرمنىّ، و من الثياب المخيطة و الصحاح و الحلىّ و المصاغ و الطيب و الفرش و الصياغات الذهب و الفضّة ما لا يحصى كثرة، و من العين ثلاثة و ثلاثين ألف دينار، و من الخيل الركابيّة مائة و خمسين فرسا و خمسين بغلة، و من بغال النقل و دواب الغلمان نحو ثلثمائة رأس، و مائة و خمسين سرجا، منها عشرون ذهبا؛ و من الكتب شىء كثير. و حمل لجاريته من مصر إلى القاهرة رحل على ثمانين حمارا.

قال ابن خلكان: و برجوان بفتح الباء الموحدة و سكون الراء و فتح الجيم و الواو و بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸

الألف نون هكذا وجدته مقيّدا بخطّ بعض الفضلاء. و قال ابن عبد الظاهر: و يسمى الوزغ، سماه به الحاكم.

حارة زويلة: قال ابن عبد الظاهر: لما نزل القائد جوهر بالقاهرة اختطت كلّ قبيلة خطة عرفت بها، فزويلة بنت الحارة المعروفة بها و البئر التى تعرف ببئر زويلة فى المكان الذى يعمل فيه الآن الروايا، و البابان المعروفان ببابى زويلة. و قال ياقوت: زويلة بفتح الزاى و كسر الواو و ياء ساكنة و فتح اللام: أربعة مواضع: الأوّل زويلة السودان و هى قصبة أعمال فزّان فى جنوب إفريقية مدينة كثيرة النخل و الزرع. الثانى زويلة المهديّة، بلد كالربض للمهديّة اختطّه عبد اللّه الملقّب بالمهدى و أسكنه الرعيّة، و سكن هو بالمهديّة التى استجدّها، فكانت دكاكين الرعية و أمتعتهم بالمهديّة، و منازلهم و حرمهم بزويلة، فكانوا يظلّون بالنهار فى المهدية و يبيتون ليلا بزويلة. و زعم المهدىّ أنه فعل بهم ذلك ليأمن غائلتهم، قال: أحول بينهم و بين أموالهم ليلا و بينهم و بين نسائهم نهارا. الثالث باب زويلة بالقاهرة من جهة الفسطاط الرابع حارة زويلة محلّة كبيرة بالقاهرة بينها و بين باب زويلة عدّة محال، سمّيت بذلك لأنّ جوهرا

غلام المعزّ لما اختطّ محلّه بالقاهرة أنزل أهل زويلة بهذا المكان فتسمّى بهم.

الحارة المحمودية : الصواب فى هذه الحارة أن يقال حارة المحمودية على الإضافة، فإنّها عرفت بطائفة من طوائف عسكر الدولة الفاطمية كان يقال لها الطائفة المحمودية، و قد ذكرها المسبّحى فى تاريخه مرارا قال: فى سنة أربع و تسعين و خمسمائة، و فيها اقتتلت الطائفة المحمودية و اليانسية. و اشتبه أمر هذه الحارة على ابن عبد الظاهر، فلم يعرف نسبتها لمن و قال: لا أعلم فى الدولة المصريّة من اسمه محمود إلا ركن الإسلام محمود بن أخت الصالح بن رزّيك صاحب التربة بالقرافة، اللهم إلا أن يكون محمود بن مصال الملكىّ الوزير. فقد ذكر ابن القفطىّ أنّ اسمه محمود، و محمود صاحب المسجد بالقرافة، و كان فى زمان السّرى ابن الحكم قبل ذلك. و هذا و هم آخر، فإنّ ابن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹

مصال الوزير اسمه سليمان، و ينعت بنجم الدين.

و وقعت فى هذه الحارة نكتة، قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة أربع و تسعين و خمسمائة، و السلطان يومئذ بمصر الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، و كان فى شعبان قد تتابع أهل مصر و القاهرة فى إظهار المنكرات و ترك الإنكار لها و إباحة أهل الأمر و النهى فعلها، و تفاحش الأمر فيها إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره، و أقيمت طاحون بالمحموديّة لطحن حشيشة للبزر، و أفردت برسمه، و حميت بيوت المزر، و أقيمت عليها الضرائب الثقيلة؛ فمنها ما انتهى أمره فى كلّ يوم إلى ستّة عشر دينارا، و منع المزر البيوتى ليتوفر الشراء من مواضع الحمى، و حملت أوانى الخمر على رؤوس الأشهاد و فى الأسواق من غير منكر، و ظهر من عاجل عقوبة اللّه تعالى وقوف زيادة النيل عن معتادها و زيادة سعر الغلّة فى وقت ميسورها.

حارة الجودرية: هذه الحارة عرفت أيضا بالطائفة الجودرية إحدى طوائف العسكر فى أيام الحاكم بأمر اللّه على ما ذكره المسبّحى، و قال ابن عبد الظاهر: الجودريّة منسوبة إلى جماعة تعرف بالجودريّة اختطّوها و كانوا أربعمائة، منهم أبو علىّ منصور الجودرىّ الذى كان فى أيام العزيز بالله، و زادت مكانته فى الأيام الحاكمية، فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة و سوق الرقيق و السواحل و غير ذلك، و لها حكاية سمعت جماعة يحكونها، و هى أنّها كانت سكن اليهود، و المعروفة بهم؛ فبلغ الخليفة الحاكم أنّهم يجتمعون بها فى أوقات خلواتهم و يغنّون:

و أمّة قد ضلّوا و دينهم معتلّقال لهم نبيّهم: نعم الإدام الخلّ

و يسخرون من هذا القول و يتعرّضون إلى ما لا ينبغى سماعه، فأتى إلى أبوابها و سدّها عليهم ليلا و أحرقها، فإلى هذا الوقت لا يبيت بها يهودىّ و لا يسكنها أبدا. و قد كان فى الأيام العزيزيّة جودر الصقلبىّ، أيضا ضرب عنقه و نهب ماله فى سنة ستّ و ثمانين و ثلثمائة.

حارة الوزيرية: هى أيضا تنسب إلى طائفة يقال لها الوزيرية من جملة طوائف العسكر، و كانت أوّلا تعرف بحارة بستان المصمودى و عرفت أيضا بحارة الأكراد. قال ابن عبد الظاهر: الوزيرية منسوبة إلى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس؛ و قال ابن الصيرفىّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰

و الطائفة المنعوتة بالوزيرية إلى الآن منسوبة إليه، يعنى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس أبو الفرج. كان يهوديا من أهل بغداد، فخرج منها إلى بلاد الشام و نزل بمدينة الرملة، و أقام بها فصار فيها وكيلا للتجّار بها، و اجتمع فى قبله مال عجز عن أدائه، ففرّ إلى مصر فى أيّام كافور الإخشيدىّ، فتعلّق بخدمته. و وثب إليه بالمتجر، فباع إليه أمتعة أحيل بثمنها على ضياع مصر، فكثر لذلك تردّده على الريف، و عرف أخبار القرى؛ و كان صاحب حيل و دهاء و مكر و معرفة مع ذكاء مفرط و فطنة، فمهر فى معرفة الضياع حتّى كان إذا سئل عن أمر غلالها و مبلغ ارتفاعها و سائر أحوالها الظاهرة و الباطنة أتى من ذلك بالغرض، فكثرت أمواله و اتسعت أحواله، و أعجب به كافور لما خبر فيه من الفطنة و حسن السياسة فقال: لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا. فلمّا بلغه هذا عن كافور

تاقت نفسه إلى الولاية و أحضر من علّمه شرائع الإسلام سرا، فلمّا كان فى شعبان سنة ستّ و خمسين و ثلثمائة دخل إلى الجامع بمصر و صلّى صلاة الصبح، و ركب إلى كافور و معه محمد بن عبد اللّه بن الخازن فى خلق كثير، فخلع عليه كافور، و نزل إلى داره و معه جمع كثير، و ركب إليه أهل الدولة يهنئونه، و لم يتأخّر عن الحضور إليه أحد، فغصّ بمكانه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات، و قلق بسببه، و أخذ فى التدبير عليه، و نصب الحبائل له حتّى خافه يعقوب، فخرج من مصر فارّا منه يريد بلاد المغرب فى شوّال سنة سبع و خمسين و ثلاثمائة. و قد مات كافور، فلحق بالمعزّ لدين اللّه أبى تميم معدّ، فوقع منه موقعا حسنا، و شاهد منه معرفة و تدبيرا، فلم يزل فى خدمته حتّى قدم من المغرب إلى القاهرة فى شهر رمضان سنة اثنين و ستّين و ثلثمائة، فقلّده فى رابع عشر المحرّم سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة الخراج و جميع وجوه الأموال و الحسبة و السواحل و الأعشار و الجوالى و الأحباس و المواريث و الشرطتين و جميع ما يضاف إلى ذلك و ما يطرأ فى مصر و سائر الأعمال. و أشرك معه فى ذلك كله عسلوج بن الحسن، و كتب لهما سجلا بذلك قرىء فى يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون فقبضت أيدى سائر العمّال و المتضمّنين، و جلس يعقوب و عسلوج فى دار الإمارة فى جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع و سائر وجوه الأموال، و حضر الناس للقبالات، و طالبا بالبقايا من الأموال ممّا على الناس من المالكين و المتقبّلين و العمّال، و استقصيا فى الطلب، و نظرا فى المظالم، فتوفّرت الأموال و زيد فى الضياع، و تزايد الناس و تكاشفوا، أو امتنعا أن يأخذا إلا دينارا معزيا ، فاتضّع الدينار الراضى و انحطّ و نقص من صرفه أكثر من ربع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱

دينار، فخسر الناس كثيرا من أموالهم فى الدينار الأبيض و الدينار الراضى، و كان صرف المعّزىّ خمسة عشر درهما و نصفا و اشتدّ الاستخراج، فكان يستخرج فى اليوم نيّف و خمسون ألف دينار معزّية، و استخرج فى يوم واحد مائة و عشرون ألف دينار معزّية، و حصل فى يوم واحد من مال تنّيس و دمياط الأشمونين أكثر من مائتى ألف دينار و عشرين ألف دينار، و هذا شىء لم يسمع قطّ بمثله فى بلد.

فاستمرّ الأمر على ذلك إلى المحرّم سنة خمس و ستّين و ثلثمائة. فتشاغل يعقوب عن حضور ديوان الخراج، و انفرد بالنظر فى أمور المعزّ لدين اللّه فى قصره و فى الدور الموافق عليها، و بعد ذلك بقليل مات المعزّ لدين اللّه فى شهر ربيع الآخر منها و قام من بعده فى الخلافة ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، ففوّض ليعقوب النظر فى سائر أموره و جعله وزيرا له فى أوّل المحرّم سنة سبع و ستّين و ثلثمائة. و فى شهر رمضان سنة ثمان و ستّين لقبه بالوزير الأجلّ، و أمر أن لا يخاطبه أحد و لا يكاتبه إلّا به، و خلع عليه و حمل و رسم له فى محرّم سنة ثلاث و سبعين و ثلثمائة أن يبدأ له فى مكاتباته باسمه على عنوانات الكتب النافذة عنه، و خرج توقيع العزيز بذلك. و فى هذه السنة اعتقل فى القصر، و ردّ الأمر إلى خير بن القاسم، فأقام معتقلا عدّة شهور ثم أطلق فى سنة أربع و سبعين و حمل على عدّة خيول، و قرىء سجلّ بردّه إلى تدبير الدولة. و وهبه خمسمائة غلام من الناشئة و ألف غلام من المغاربة ملّكه العزيز رقابهم، فكان يعقوب أوّل وزراء الخلفاء الفاطميين بديار مصر. فدبّر أمور مصر و الشام و الحرمين و بلاد المغرب و أعمال هذه الأقاليم كلّها من الرجال و الأموال و القضاء و التدبر، و عمل له إقطاعا فى كلّ سنة بمصر و الشام مبلغها ثلثمائة ألف دينار، و اتسعت دائرته و عظمت مكانته حتّى كتب اسمه على الطرز ، و فى الكتب، و كان يجلس كلّ يوم فى داره يأمر و ينهى و لا ترفع إليه رقعة إلا وقّع فيها، و لا يسأل فى حاجة إلا قضاها، و رتب فى داره الحجّاب نوبا، و أجلسهم على مراتب و ألبسهم الديباج، و قلّدهم السيوف، و جعل لهم المناطق ، و رتب فرسين فى داره للنوبة لا تبرح واقفة بسروجها و لجمها، لهم برد ، و نصب فى داره الدواوين، فجعل ديوانا للعزيزية فيه عدّة كتّاب، و ديوانا للجيش فيه عدّة كتاب، و ديوانا للأموال فيه عدّة كتّاب، و عدّة جهابذة ، و ديوانا للخراج، و ديوانا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲

للسجلات و الإنشاء، و ديوانا للمستغلّات ، و أقام على هذه الدواوين زمانا، و جعل فى داره خزانة للكسوة و خزانة للمال و خزانة للدفاتر و خزانة للأشربة، و عمل على كلّ خزانة ناظرا، و كان يجلس عنده فى كلّ يوم الأطبّاء لينظروا فى حال الغلمان و من يحتاج

منهم إلى علاـج أو إعطاء دواء، و رتّب فى داره الكتّاب و الأطبّاء يقفون بين يـديه، و جعل فيها العلماء و الأدباء و الشـعراء و الفقهاء و المتكلّمين و أرباب الصنائع، لكلّ طائفة مكان مفرد، و أجرى على كلّ واحد منهم الأرزاق، و ألّف كتبا فى الفقه و القراءات، و نصب له مجلسا فى داره يحضـره فى كلّ يوم ثلاثاء، و يحضـر إليه الفقهاء و المتكلّمون و أهل الجـدل يتناظرون بين يـديه. من تأليفه: كتاب فى القراءات و كتاب فى الأديان- و هو كتاب الفقه و اختصـره- و كتاب فى آداب رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سلم، و كتاب فى علم الأبـدان و صـلاحها فى ألف ورقـة، و كتـاب فى الفقه ممّا سـمعه من الإمام المعزّ لـدين اللّه و الإمام العزيز بالله. و كان يجلس فى يوم الجمعة أيضا و يقرأ مصنّفاته على الناس بنفسه، و فى حضرته القضاة و الفقهاء و القرّاء و أصحاب الحديث و النّحاة و الشهود، فإذا فرغ من قراءة ما يقرأ من مصـنّفاته قام الشـعراء ينشدون مدائحهم فيه. و كان فى داره عدّة كتّاب ينسخون القرآن الكريم و الفقه و الطبّ و كتب الأدب و غيرها من العلوم، فإذا فرغوا من نسـخها قوبلت و ضـبطت، و جعل فى داره قرّاء و أئمـة يصـلّون فى مسـجد داره، و أقام بداره عدّة مطابخ لنفسه و لجلسائه و لغلمانه و حواشـيه، و كان ينصب مائدة لخاصّته يأكل هو و خواصّه من أهل العلم و وجوه كتّابه و خواصّ غلمانه و من يسـتدعيه عليها، و ينصب عـدّة موائـد لبقيّة الحجّاب و الكتّاب و الحواشـى. و كان إذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الـذى سـمعه من المعزّ و العزيز لا يمنع أحـد من مجلسه، فيجتمع عنـده الخاص و العامّ، و رتّب عنـد العزيز بالله جماعة لا يخاطبون إلا بالقائـد، و أنشـأ عـدّة مساجـد و مساكن بمصـر و القاهرة، و كان يقيم فى شـهر رمضان الأطعمـة للفقهاء و وجوه الناس و أهل الستر و التعفّف و لجماعـة كثيرة من الفقراء، و كان إذا فرغ الفقهاء و الوجوه من الأكل معه يطاف عليهم بالطّيب. و مرض مرّة من علّة أصابت يده، فقال فيه عبد اللّه بن محمد بن أبى الجرع:

يد الوزير هى الدنيا فإن ألمترأيت فى كلّ شىء ذلك الألما

تأمّل الملك و انظر فرط علّتهمن أجله و اسأل القرطاس و القلما

و شاهد البيض فى الأغماد حائمةإلى العدا و كثيرا ما روين دما

و أنفس الناس بالشكوى قد اتّصلت كأنّما أشعرت من أجله سقما

هل ينهض المجد إلا أن يؤيّدهساق يقدّم فى إنهاضه قدما

لولا العزيز و آراء الوزير معاتحيّفتنا خطوب تشعب الأمما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳ فقل لهذا و هذا أنتما شرفلا أوهن اللّه ركنيه و لا انهدما

كلاكما لم يزل فى الصالحات يدامبسوطة و لسانا ناطقا و فما

و لا أصابكما أحداث دهركماو لا طوى لكما ما عشتما علما

و لا انمحت عنك يا مولاى عافيةفقد محوت بما أوليتنى العدما

و كان الناس يفتون بكتابه فى الفقه، و درّس فيه الفقهاء بجامع مصـر، و أجرى العزيز بالله لجماعة فقهاء يحضرون مجلس الوزير أرزاقا فى كلّ شـهر تكفيهم، و كان للوزير مجلس فى داره للنظر فى رقاع المرافعين و المتظلّمين، و يوقع بيـده فى الرقاع، و يخاطب الخصوم بنفسه. و أراد العزيز بالله أن يسافر إلى الشام فى زمن ابتداء الفاكهة، فأمر الوزير أن يأخذ الأهبة لذلك فقال: يا مولاى؛ لكلّ سـفر أهبة على مقداره، فما الغرض من السفر؟ فقال:

إنّى أريد التفرّج بدمشق لأكل القراصـيا . فقال: السـمع و الطاعة. و خرج فاسـتدعى جميع أرباب الحمام و سألهم عمّا بدمشق من طيور مصـر، و أسماء من هى عنده، و كانت مائة و نيّفا و عشرين طائرا، ثمّ التمس من طيور دمشق التى هى فى مصر عدّة، فأحضرها و كتب إلى نـائبه بـدمشق يقول: إنّ بـدمشق كـذا و كـذا طائرا، و عرّفه أسـماء من هى عنـده، و أمره بإحضارها إليه جميعها، و أن يصـيب من القراصـيا فى كلّ كاغدة ، و يشدّها على كلّ طائر منها و يسرّحها فى يوم واحد، فلم يمض إلا ثلاثة أيّام أو أربعة حتّى وصلت الحمائم كلّها و لم يتأخر منها إلا نحو عشـر، و على جناحها القراصـيا، فاسـتخرجها من الكواغد، و عملها فى طبق من ذهب، و غطّاها و بعث بها

إلى العزيز بالله مع خادم، و ركب إليه و قدّم ذلك و قال: يا أمير المؤمنين قد حضّرنا قبالك القراصيا ههنا، فإن أغناك هذا القدر و إلا استدعينا شيئا آخر، فعجب العزيز بالوزير و قال: مثلك يخدم الملوك يا وزير؛ و اتفق أنه سابق العزيز بين الطيور، فسبق طائر الوزير يعقوب طائر العزيز، فشقّ ذلك على العزيز، و وجد أعداء الوزير سبيلا إلى الطعن فيه، فكتبوا إلى العزيز أنه قد اختار من كلّ صنف أعلاه و لم يترك لأمير المؤمنين إلا أدناه حتّى الحمام، فبلغ ذلك الوزير فكتب إلى العزيز:

قل لأمير المؤمنين الذىله العلى و المثل الثاقب

طائرك السابق لكنّهلم يأت إلّا و له حاجب

فأعجب العزيز ذلك و أعرض عما و شى به، و لم يزل على حال رفيعة و كلمة نافذة إلى أن ابتدأت به علّته يوم الأحد الحادى و العشرين من شوّال سنة ثمانين و ثلثمائة، و نزل إليه العزيز بالله يعوده، و قال له: وددت أنّك تباع فابتاعك بمالى أو تفدى فأفديك بولدى، فهل من حاجة توصى بها يا يعقوب؟ فبكى و قبّل يده و قال: أمّا فيما يخصّنى فأنت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴

أرعى بحقّى من أن أسترعيك إياه و أرأف على من أن أوصيك به، و لكنّى أنصح لك فيما يتعلّق بك و بدولتك سالم الروم ما سالموك، و اقنع من الحمدانية بالدعوة و الشكر ، و لا تبق على مفرج بن دعقل إن عرضت لك فيه فرصة. و انصرف العزيز فأخذته السكتة، و كان فى سياق الموت يقول: لا يغلب اللّه غالب، ثمّ قضى نحبه ليلة الأحد لخمس خلون من ذى الحجّة، فأرسل العزيز بالله إلى داره الكفن و الحنوط، و تولّى غسله القاضى محمد بن النعمان و قال: كنت و اللّه اغسل لحيته و أنا أرفق به خوفا أن يفتح عينه فى وجهى.

و كفّن فى خمسين ثوبا، ثلاثين مثقلا، يعنى: منسوجا بالذهب، و وشى مذهبا، و شرب ديبقى مذهبا، و حقّة كافورا، و قارورتى مسك و خمسين منا ماء ورد؛ و بلغت قيمة الكفن و الحنوط عشرة آلاف دينار.

و خرج مختار الصقلبىّ و علىّ بن عمر العدّاس و الرجال بين أيديهم ينادون لا يتكلّم أحد و لا ينطق، و قد اجتمع الناس فيما بين القصر و دار الوزير التى عرفت بدار الديباج، ثمّ خرج العزيز من القصر على بغلة و الناس يمشون بين يديه و خلفه بغير مظلّة و الحزن ظاهر عليه حتّى وصل إلى داره، فنزل و صلّى عليه، و قد طرح على تابوته ثوب مثقل، و وقف حتّى دفن بالقبّة التى كان بناها و هو يبكى، ثمّ انصرف. و سمع العزيز و هو يقول: و اطول أسفى عليك يا وزير، و اللّه لو قدرت أفديك بجميع ما أملك لفعلت. و أمر بإجراء غلمانه على عادتهم، و عتق جميع مماليكه، و أقام ثلاثا لا يأكل على مائدته و لا يحضرها من عادته الحضور، و عمل على قبره ثوبان مثقلان، و أقام الناس عند قبره شهرا، و غدا الشعراء إلى قبره، فرثاه مائة شاعر أجيزوا كلّهم، و بلغ العزيز أنّ عليه ستّة عشر ألف دينار دينا، فأرسل بها إلى قبره فوضعت عليه و فرّقت على أرباب الديون، و ألزم القرّاء بالمقام على قبره، و أجرى عليهم الطعام، و كانت الموائد تحضر إلى قبره كلّ يوم مدّة شهر، يحضر نساء الخاصّة كلّ يوم و معهنّ نساء العامّة، فتقوم الجوارى بأقداح الفضّة و البلّور و ملاعق الفضّة فيسقين النساء الأشربة و السويق بالسكّر، و لم تتأخّر نائحة و لا لاعبة عن حضور القبر مدّة الشهر، و خلّف أملاكا و ضياعا قياسير و رباعا و عينا و ورقا و أوانى ذهبا و فضّة و جوهرا و عنبرا و طيبا و ثيابا و فرشا و مصاحف و كتبا و جوارى و عبيدا و خيلا و بغالا و نوقا و حمرا و إبلا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵

و غلالا- و خزائن ما بين أشربة و أطعمة قوّمت بأربعة آلاف ألف دينار سوى ما جهّز به ابنته و هو ما قيمته مائتا ألف دينار، و خلّف ثمانمائة حظيّة سوى جوارى الخدمة، فلم يتعرّض العزيز لشىء ممّا يملكه أهله و جواريه و غلمانه، و أمر بحفظ جهاز ابنته إلى أن زوّجها و أجرى لمن فى داره كلّ شهر ستمائة دينار للنفقة سوى الكسوة و الجرايات و ما يحمل إليهم من الأطعمة من القصر، و أمر بنقل ما خلّفه إلى القصر، فلمّا تمّ له من يوم وفاته شهر قطع الأمير منصور بن العزيز جميع مستغلّاته، و أقرّ العزيز جميع ما فعله الوزير و

ما ولّاه من العمّال على حاله، و أجرى الرسوم التى كان يجريها، و أقرّ غلمانه على حالهم و قال: هؤلاء صنائعى. و كانت عدّة غلمان الوزير أربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيريّة، و زاد العزيز أرزاقهم عمّا كانت عليه، و أدناهم، و إليهم تنسب الوزيريّة، فإنّها كانت مساكنهم. و اتّفق أنّ الوزير عمّر قبّة أنفق عليها خمسة عشر ألف دينار، و آخر ما قال: لقد طال أمر هذه القبّة، ما هذه قبّة، هذه تربة. فكانت كذلك، و دفن تحتها، و موضع قبره اليوم المدرسة الصاحبيّة، و اتّفق أنّه وجد فى داره رقعة مكتوب فيها:

احذروا من حوادث الأزمانو توقّوا طوارق الحدثان

قد أمنتم ريب الزمان و نمتمربّ خوف مكمن فى الأمان

فلمّا قرأها قال: لا حول و لا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم، و لم يلبث بعدها إلا أياما يسيرة، و مرض فمات.

حارة الباطلية: عرفت بطائفة يقال لهم الباطلية، قال ابن عبد الظاهر: و كان المعزّ لما قسم العطاء فى الناس جاءت طائفة فسألت عطاء فقيل لها: افرغ ما كان حاضرا، و لم يبق شىء؛ فقالوا: رحنا نحن فى الباطل، فسمّوا الباطليّة، و عرفت هذه الحارة بهم. و فى سنة ثلاث و ستّين و ستّمائة احترقت حارة الباطليّة عند ما كثر الحريق فى القاهرة و مصر، و اتّهم النصارى بفعل ذلك، فجمعهم الملك الظاهر بيبرس، و حملت لهم الأحطاب الكثيرة و الحلفاء، و قدّموا ليحرقوا بالنار، فتشفّع لهم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر على أن يلتزموا بالأموال التى احترقت و أن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار فتركوا. و جرى فى ذلك ما تستحسن حكايته، و هو أنّه قد جمع مع النصارى سائر اليهود، و ركب السلطان ليحرقهم بظاهر القاهرة، و قد اجتمع الناس من كلّ مكان للتشفّى بحريقهم لما نالهم من البلاء فيما دهوا به من حريق الأماكن لا سيّما الباطليّة، فإنّها أتت النار عليها حتّى حرقت بأسرها. فلمّا حضر السلطان و قدم اليهود و النصارى ليحرقوا برز ابن الكازرونى اليهودىّ- و كان صيرفيا- و قال للسلطان: سألتك بالله لا- تحرقنا مع هؤلاء الكلاب الملاعين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶

أعدائنا و أعدائكم، احرقنا ناحية وحدنا؛ فضحك السلطان و الأمراء، و حينئذ تقرّر الأمر على ما ذكر، فندب لاستخراج المال منهم الأمير سيف الدين بلبان المهرانى، فاستخلص بعض ذلك فى عدّة سنين، و تطاول الحال، فدخل كتّاب الأمراء مع مخادعيهم و تحيّلوا فى إبطال ما بقى، فبطل فى أيام السعيد بن الظاهر. و كان سبب فعل النصارى لهذا الحريق حنقهم لمّا أخذ الظاهر من الفرنج أرسوف و قيسارية و طرابلس و يافا و أنطاكية. و ما زالت الباطلية خرابا، و الناس تضرب بحريقها المثل لمن يشرب الماء كثيرا فيقولون: كأنّ فى باطنه حريق الباطليّة. و لما عمر الطواشى بهادر المقدّم داره بالباطليّة عمر فيها مواضع بعد سنة خمس و ثمانين و سبعمائة.

حارة الروم: قال ابن عبد الظاهر: و اختطّت الروم حارتين: حارة الروم الآن و حارة الروم الجوّانية، فلمّا ثقل ذلك عليهم قالوا: الجوّانية لا غير. و الورّاقون إلى هذا الوقت يكتبون حارة الروم السفلى و حارة الروم العليا المعروفة اليوم بالجوّانية. و فى سابع عشر ذى الحجّة سنة تسع و تسعين و ثلثمائة أمر الخليفة الحاكم بأمر اللّه بهدم حارة الروم فهدمت و نهبت.

حارة الديلم: عرفت بذلك لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى حين قدم و معه أولاد مولاه معزّ الدولة البويهى و جماعة من الدّيلم و الأتراك فى سنة ثمان و ستّين و ثلثمائة، فسكنوا بها فعرفت بهم. و هفتكين هذا يقال له الفتكين أبو منصور التركىّ الشرابىّ غلام معزّ الدولة أحمد بن بويه. ترقّى فى الخدم حتّى غلب فى بغداد على عزّ الدولة مختار بن معزّ الدولة، و كان فيه شجاعة و ثبات فى الحرب. فلمّا سارت الأتراك من بغداد لحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين إلّا أنّ أصحابه انهزموا عنه و صار فى طائفة قليلة، فولّى بمن معه من الأتراك و هم نحو الأربعمائة، فسار إلى الرحبة و أخذ منها على البرّ إلى أن قرب من حوشبة إحدى قرى الشام، و قد وقع فى قلوب العربان منه مهابة، فخرج إليه ظالم بن مرهوب العقيلى من بعلبك، و بعث إلى أبى محمود إبراهيم بن جعفر أمير دمشق من قبل الخليفة المعزّ لدين اللّه يعلمه بقدومه هفتكين من بغداد لإقامة الخطبة العباسيّة، و خوّفه منه، فأنفذ إليه عسكرا و سار إلى ناحية حوشبة يريد هفتكين، و سار بشارة الخادم من قبل أبى المعالى بن حمدان عونا لهفتكين فردّ ظالم إلى بعلبك

من غير حرب، و سار بشارة بهفتكين إلى حمص، فحمل إليه أبو المعالى و تلقّاه و أكرمه. و كان قد ثار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷

بدمشق جماعة من أهل الدّعارة و الفساد و حاربوا عمّال السلطان و اشتدّ أمرهم، و كان كبيرهم يعرف بابن الماورد، فلمّا بلغهم خبر هفتكين بعثوا إليه من دمشق إلى حمص يستدعونه، و وعدوه بالقيام معه على عساكر المعزّ و إخراجهم من دمشق ليلى عليهم، فوقع ذلك منه بالموافقة، و سار حتّى نزل بثنية العقاب لأيام بقيت من شعبان سنة أربع و ستّين و ثلثمائة فبلغ عسكر المعزّ خبر الفرنج و أنّهم قد قصدوا طرابلس، فساروا بأجمعهم إلى لقاء العدوّ، و نزل هفتكين على دمشق من غير حرب، فأقام أياما ثم سار يريد محاربة ظالم، ففرّ منه، و دخل هفتكين بعلبكّ، فطرقه العدوّ من الروم و الفرنج و انتهبوا بعلبك و أحرقوا، و ذلك فى شهر رمضان، و انتشروا فى أعمال بعلبك و البقاع يقتلون و يأسرون و يحرقون، و قصدوا دمشق و قد التحق بها هفتكين، فخرج إليهم أهل دمشق و سألوهم الكفّ عن البلد، و التزموا بمال، فخرج إليهم هفتكين و أهدى إليهم، و تكلّم معهم فى أنه لا يستطيع جباية المال لقوّة ابن الماورد و أصحابه، و أمر ملك الروم به، فقبض عليه و قيّده، و عاد فجبى المال من دمشق بالعنف، و حمل إلى ملك الروم ثلاثين ألف دينار، و رحل إلى بيروت ثمّ إلى طرابلس، فتمكن هفتكين من دمشق، و أقام بها الدعوة لأبى بكر عبد الكريم الطائع بن المطيع العباسىّ، و سيّر إلى العرب السرايا، فظفرت و عادت إليه بعده بمن أسرته من رجال العرب فقتلهم صبرا.

و كان قد تخوّف من المعزّ، فكاتب القرامطة يستدعيهم من الأحساء للقدوم عليه لمحاربة عساكر المعزّ، و ما زال بهم حتّى وافوا دمشق فى سنة خمس و ستّين، و نزلوا على ظاهرها و معهم كثير من أصحاب هفتكين الذين كانوا قد تشتتوا فى البلاد، فقوى بهم، و لقى القرامطة ، و حمل إليهم و سرّ بهم، فأقاموا على دمشق أياما، ثمّ رحلوا نحو الرّملة و بها أبو محمود فلحق بيافا، و نزل القرامطة الرملة و نصبوا القتال على يافا حتّى كلّ الفريقان و سئموا جميعا من طول الحرب، و سار هفتكين على الساحل و نزل صيدا، و بها ظالم بن مرهوب العقيلىّ و ابن الشيخ من قبل المعزّ، فقاتلهم قتالا شديدا انهزم منه ظالم إلى صور، و قتل بين الفريقين نحو أربعة آلاف رجل، فقطع أيدى القتلى من عسكر المعزّ و سيّرها إلى دمشق، فطيف بها، ثمّ سار عن صيدا يريد عكّا و بها عسكر المعزّ، و كان قد مات المعزّ فى ربيع الآخر سنة ۳۶۵ ه، و قام من بعده ابنه العزيز بالله، و سيّر جوهرا القائد فى عسكر عظيم إلى قتال هفتكين و القرامطة، فبلغ ذلك القرامطة و هم على الرملة و وصل الخبر بمسيره إلى هفتكين و هو على عكّا، فخاف القرامطة و فرّوا عنها، فنزلها جوهر، و سار من القرامطة إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸

الأحساء التى هى بلادهم جماعة و تأخّر عدّة، و سار هفتكين من عكّا إلى طبريّة و قد علم بمسير القرامطة و تأخّر بعضهم، فاجتمع بهم فى طبرية و استعدّ للقاء جوهر، و جمع الأقوات من بلاد حوران و الثنية، و أدخلها إلى دمشق و سار إليها، فتحصن بها، و نزل جوهر على ظاهر دمشق لثمان بقين من ذى القعدة فبنى على معسكره سورا، و حفر خندقا عظيما، و جعل له أبوابا، و جمع هفتكين الناس للقتال.

و كان قد بقى بعد ابن الماورد رجل يعرف بقسّام التراب، و صار فى عدّة وافرة من الدعّار، فأعانه هفتكين و قوّاه و أمدّه بالسلاح و غيره، و وقعت بينهم و بين جوهر حروب عظيمة طويلة إلى يوم الحادى عشر من ربيع الأوّل سنة ستّ و ستين و ثلاثمائة، فاختلّ أمر هفتكين و همّ بالفرار، ثمّ إنه استظهر و وردت الأخبار بقدوم الحسن بن أحمد القرمطىّ إلى دمشق، فطلب جوهر الصلح على أن يرحل عن دمشق من غير أن يتبعه أحد، و ذلك أنه رأى أمواله قد قلّت و هلك كثير ممّا كان فى عسكره حتّى صار أكثر عسكره رجّالة و أعوزهم العلف، و خشى قدوم القرامطة، فأجابه هفتكين، و قد عظم فرحه و اشتدّ سروره، فرحل فى ثالث جمادى الأولى و جدّ فى المسير و قد قرب القرامطة؛ فأناخ بطبريّة، فبلغ ذلك القرمطى فقصده، و قد سار عنها إلى الرملة فبعث إليه بسرية كانت لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب، و أدركه القرمطى، و سار فى أثره هفتكين فمات الحسن بن أحمد القرمطى بالرملة، و قام من

بعده بأمر القرامطة ابن عمّه جعفر، ففسد ما بينه و بين هفتكين، و رجع عن الرملة إلى الأحساء، و ناصب هفتكين القتال، و ألح فيه على جوهر حتّى انهزم عنه و سار إلى عسقلان و قد غنم هفتكين ممّا كان معه شيئا يجلّ عن الوصف، و نزل على البلد محاصرا لها. و بلغ ذلك العزيز، فاستعدّ للمسير إلى بلاد الشام، فلما طال الأمر على جوهر راسل هفتكين حتّى يقرّر الصلح على مال يحمله إليه و أن يخرج من تحت سيف هفتكين، فعلق سيفه على باب عسقلان، و خرج جوهر و من معه من تحته و ساروا إلى القاهرة، فوجد العزيز قد برز يريد المسير، فسار معه، و كان مدّة قتال هفتكين لجوهر على ظاهر الرملة و في عسقلان سبعة عشر شهرا. و سار العزيز بالله حتّى نزل الرملة، و كان هفتكين بطبريّة، فسار إلى لقاء العزيز و معه أبو إسحاق و أبو طاهر أخو عز الدولة ابن بختيار بن أحمد بن بويه و أبو اللحاد مر زبان عز الدولة ابن بختيار بن عز الدولة ابن بويه، فحاربوه، فلم يكن غير ساعة حتّى هزمت عساكر العزيز عساكر هفتكين و ملكوه في يوم الخميس لسبع بقين من المحرّم سنة ثمان و ستّين و ثلثمائة، و استأمن أبو إسحاق و مرزبان بن بختيار و قتل أبو طاهر أخو عز الدولة ابن بختيار، و أخذ أكثر أصحابه أسرى، و طلب هفتكين في القتلى فلم يوجد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹

و كان قد فرّ وقت الهزيمة على فرس بمفرده، فأخذه بعض العرب أسيرا، فقدم به على مفرّج بن دعقل بن الجراح الطائيّ و عمامته في عنقه، فبعث به إلى العزيز، فأمر به فشهر في العسكر، و طيف به على جمل، فأخذ الناس يلطمونه و يهزّون لحيته حتى رأى في نفسه العبر، ثم سار العزيز بهفتكين و الأسرى إلى القاهرة، فاصطنعه و من معه، و أحسن إليه غاية الإحسان، و أنزله في دار و واصله بالعطاء و الخلع حتّى قال: لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله و تطوّفي إليه بما غمرني من فضله و إحسانه. فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة: يا عمّ؛ و اللّه إني أحبّ أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، و أرى عليهم الذهب و الفضة و الجوهر و لهم الخيل و اللباس و الضياع و العقار، و أن يكون ذلك كلّه من عندي.

و بلغ العزيز أنّ الناس من العامّة يقولون: ما هذا التركيّ؟ فأمر به فشهّر في أجمل حال، و لمّا رجع من تطوّفه و هب له مالا جزيلا، و خلع عليه و أمر سائر الأولياء بأن يدعوه إلى دورهم، فما منهم إلا من عمل له دعوة، و قدم إليه و قاد بين يديه الخيول، ثمّ إن العزيز قال له بعد ذلك: كيف رأيت دعوات أصحابنا؟ فقال: يا مولانا، حسنة في الغاية و ما فيهم إلا من أنعم و أكرم. فصار يركب للصيد و التفرّج، و جمع إليه العزيز بالله أصحابه من الأتراك و الديلم، و استحجبه و اختصّ به، و ما زال على ذلك إلى أن توفّي في سنة اثنين و سبعين و ثلثمائة، فاتّهم العزيز وزيره يعقوب بن كلّس أنه سمّه لأنّ هفتكين كان يترفّع عليه، فاعتقله مدّة ثمّ أخرجه.

حارة الأتراك: هذه الحارة تجاه الجامع الأزهر، و تعرف اليوم بدرب الأتراك، و كان نافذا إلى حارة الديلم، و الورّاقون القدماء تارة يفردونها من حارة الديلم، و تارة يضيفونها اليها و يجعلونها من حقوقها، فيقولون تارة: حارة الديلم و الأتراك، و تارة يقولون: حارتي الديلم و الأتراك، و قيل لها حارة الأتراك لأنّ هفتكين لما غلب ببغداد سار معه من جنسه أربعمائة من الأتراك، و تلاحق به عند ورود القرامطة عليه بدمشق عدّة من أصحابه، فلما جمع لحرب العزيز بالله كان أصحابه ما بين ترك و ديلم، فلما قبض عليه العزيز و دخل به إلى القاهرة في الثاني و العشرين من شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و ستّين و ثلثمائة كما تقدّم نزل الديلم مع أصحابهم في موضع حارة الديلم، و نزل هفتكين بأتراكه في هذا المكان، فصار يعرف بحارة الأتراك. و كانت مختلطة بحارة الديلم لأنهما أهل دعوة واحدة، إلا أنّ كلّ جنس على حدة لتخالفهما في الجنسيّة ثم قيل بعد ذلك درب الأتراك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰

حارة كتامة : هذه الحارة مجاورة لحارة الباطليّة، و قد صارت الآن من جملتها.

كانت منازل كتامة بها عند ما قدموا من المغرب مع القائد جوهر، ثمّ مع العزيز، و موضع هذه الحارة اليوم حمام كواى و ما جاورها مما وراء مدرسة ابن الغنام حيث الموضع المعروف بدرب ابن الأعسر إلى رأس الباطلية، و كانت كتامة هي أصل دولة الخلفاء الفاطميين.

ذكر أبى عبد اللّه الشيعى

هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى من أهل صنعاء اليمن، ولى الحسبة فى بعض أعمال بغداد، ثمّ سار إلى ابن حوشب باليمن، و صار من كبار أصحابه، و كان له علم و فهم و عنده دهاء و مكر، فورد على ابن حوشب موت الحلوانىّ داعى المغرب و رفيقه، فقال لأبى عبد اللّه الشيعى: إنّ أرض كتامة من بلاد المغرب قد خرّبها الحلوانىّ و أبو سفيان، و قد ماتا، و ليس لها غيرك؛ فبادر فإنّها موطّأة ممهّدة لك. فخرج من اليمن إلى مكّة، و قد زوّده ابن حوشب بمال، فسأل عن حجّاج كتامة فأرشد إليهم و اجتمع بهم، و أخفى عنهم قصده، و ذلك أنه جلس قريبا منهم فسمعهم يتحدّثون بفضائل آل البيت فحدّثهم فى ذلك و أطال، ثمّ نهض ليقوم فسألوه أن يأذن لهم فى زيارته فأذن لهم، فصاروا يتردّدون إليه لما رأوا من علمه و عقله، ثمّ إنهم سألوه أين يقصد؟ فقال: أريد مصر، فسرّوا بصحبته، و رحلوا من مكّة و هو لا يخبرهم شيئا من خبره و ما هو عليه من القصد. و شاهدوا منه عبادة و ورعا و تحرّجا و زهادة، فقويت رغبتهم فيه و اشتملوا على محبّته و اجتمعوا على اعتقاده، و ساروا بأسرهم خدما له. و هو فى أثناء ذلك يستخبرهم عن بلادهم و يعلم أحوالهم و يفحص عن قبائلهم و كيف طاعتهم للسلطان بإفريقية، فقالوا له: ليس له علينا طاعة، و بيننا و بينه عشرة أيام، قال: أفتحملون السلاح؟ قالوا: هو شغلنا. و ما برح حتّى عرف جميع ما هم عليه. فلمّا وصلوا إلى مصر أخذ يودّعهم، فشقّ عليهم فراقه و سألوه عن حاجته بمصر فقال: ما لى بها من حاجة، إلا أنّى أطلب التعليم بها. قالوا: فأمّا إذا كنت تقصد هذا فإنّ بلادنا أنفع لك و أطوع لأمرك، و نحن أعرف بحقّك؛ و ما زالوا به حتّى أجابهم إلى المسير معهم، فساروا به إلى أن قاربوا بلادهم، و خرج إلى لقائهم أصحابهم، و كان عندهم حسّ كبير من التشيّع و اعتقاد عظيم فى محبّة أهل البيت كما قرّره الحلوانىّ، فعرّفهم القوم خبر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱

أبى عبد اللّه، فقاموا بحقّ تعظيمه و إجلاله، و رغبوا فى نزوله عندهم، و اقترعوا فيمن يضيفه، ثمّ ارتحلوا إلى أرض كتامة فوصلوا إليها منتصف الربيع الأوّل سنة ثمان و ثمانين و مائتين، فما منهم إلا من سأله أن يكون منزله عنده، فلم يوافق أحدا منهم و قال: أين يكون فجّ الأخيار؟ فعجبوا من ذلك و لم يكونوا قطّ ذكروه له منذ صحبوه فدلّوه عليه، فقصده و قال: إذا حللنا به صرنا نأتى كلّ قوم منكم فى ديارهم و نزورهم فى بيوتهم؛ فرضوا جميعا بذلك. و سار إلى جيل ايلحان و فيه فج الأخيار، فقال هذا فج الأخيار و ما سمّى إلا بكم، و لقد جاء فى الآثار للمهدىّ هجرة ينبو بها عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم اسمهم مشتقّ من الكتمان، و لخروجكم فى هذا الفجّ سمّى فجّ الأخيار، فتسامعت به القبائل و أتته البربر من كلّ مكان، و عظم أمره حتى أنّ كتامة اقتتلت عليه مع قبائل البربر، و هو لا يذكر اسم المهدى و لا يعرّج عليه، فبلغ خبره إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، فقال أبو عبد اللّه لكتامة: أنا صاحب النذر الذى قال لكم أبو سفيان و الحلوانىّ، فازدادت محبّتهم له و عظم أمره فيهم، و أتته القبائل من كلّ مكان، و سار إلى مدينة تاصروق ، و جمع الخيل و صيّر أمرها للحسن بن هارون كبير كتامة، و خرج للحرب فظفر و غنم، و عمل على تاصروق خندقا، فرجعت إليه قبائل من البربر و حاربوه فظفر بهم، و صارت إليه أموالهم، و والى الغزو فيهم حتّى استقام له أمرهم، فسار و أخذ مدائن عدّة، فبعث إليه ابن الأغلب بعساكر كانت له معهم حروب عظيمة و خطوب عديدة و أنباء كثيرة آلت إلى غلب أبى عبد اللّه و انتشار أصحابه من كتامة فى البلاد، فصار يقول: المهدىّ يخرج فى هذه الأيام و يملك الأرض، فيا طوبى لمن هاجر إلىّ و أطاعنى. و أخذ يغرى الناس بابن الأغلب ، و يذكر كرامات المهدى و ما يفتح اللّه له، و يعدهم بأنّهم يملكون الأرض كلّها.

و سير إلى عبيد اللّه بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح اللّه له و أنه ينتظره، فوافوا عبيد اللّه بسلمية من أرض حمص، و كان قد اشتهر بها و طلبه الخليفة المكتفى، ففرّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲

منه بابنه أبى القاسم و سار إلى مصر، و كان لهما قصص مع النوشزىّ عامل مصر حتّى خلصا منه و لحقا ببلاد المغرب. و بلغ ابن

الأغلب زيادة اللّه خبره مسير عبيد اللّه، فأزكى له العيون و أقام له الأعوان حتّى قبض عليه بسلجماسة، و كان عليها اليسع بن مدرار، و حبس بها هو و ابنه أبو القاسم. و بلغ ذلك أبا عبد اللّه و قد عظم أمره، فسار و ضايق زيادة اللّه بن الأغلب، و أخذ مدائنه شيئا بعد شيء، و صار فيما ينيف على مائتى ألف، و ألحّ على القيروان حتّى فرّ زيادة اللّه إلى مصر، و ملكها أبو عبد اللّه، ثم سار إلى رفادة فدخلها أوّل رجب سنة ست و تسعين و مائتين، و فرّق الدور على كتامة و بعث العمال إلى البلاد، و جمع الأموال و لم يخطب باسم أحد.

فلما دخل شهر رمضان سار من رفّادة فاهتزّ لرحيله المغرب بأسره و خافته زنانة و غيرها، و بعثوا إليه بطاعتهم، و سار إلى سلجماسة ، ففرّ منه اليسع بن مدرار و اليها، و دخل البلد فأخرج عبيد اللّه و ابنه من السجن و قال: هذا المهدىّ الذى كنت أدعوكم إليه.

و أركبه هو و ابنه و مشى بسائر رؤساء القبائل بين أيديهما و هو يقول: هذا مولاكم و يبكى من شدّة الفرح حتى وصل إلى فسطاط ضرب له، فأنزل فيه و بعث فى طلب اليسع فأدركه، و حمل إليه فضربه بالسياط و قتله، ثمّ سار المهدى إلى رفادة فصار بها فى آخر ربيع الآخر سنة سبع و تسعين و مائتين.

و لما تمكّن قتل أبا عبد اللّه و أخاه فى يوم الاثنين للنصف من جمادى الآخرة سنة ثمان و تسعين و مائتين، فكان هذا ابتداء أمر الخلفاء الفاطميين، و ما زالت كتامة هى أهل الدولة مدّة خلافة المهدى عبيد اللّه و خلافة ابنه القاسم القائم بأمر اللّه و خلافة المنصور بنصر اللّه إسماعيل بن القاسم و خلافة معدّ المعز لدين اللّه ابن المنصور، و بهم أخذ ديار مصر لما سيّرهم إليها مع القائد جوهر فى سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، و هم أيضا كانوا أكابر من قدم معه من الغرب فى سنة اثنين و ستّين و ثلثمائة. فلما كان فى أيّام ولده العزيز بالله نزار اصطنع الدّيلم و الأتراك، و قدّمهم و جعلهم خاصّته، فتنافسوا و صار بينهم و بين كتامة تحاسد إلى أن مات العزيز بالله، و قام من بعده أبو علىّ المنصور الملقّب بالحاكم بأمر اللّه، فقدّم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳

ابن عمار الكتامى و ولّاه الوساطة و هى فى معنى رتبة الوزارة، فاستبدّ بأمور الدولة و قدّم كتامة و أعطاهم، و حطّ من الغلمان الأتراك و الديلم الذين اصطنعهم العزيز، فاجتمعوا إلى برجوان و كان صقلبيا و قد تاقت نفسه إلى الولاية فأغرى المصطنعة بابن عمّار حتّى وضعوا منه، و اعتزل عن الأمر، و تقلّد برجوان الوساطة، فاستخدم الغلمان المصطنعين فى القصر، و زاد فى عطاياهم و قوّاهم، ثمّ قتل الحاكم ابن عمّار و كثيرا من رجال دولة أبيه و جدّه، فضعفت كتامة و قويت الغلمان.

فلما مات الحاكم و قام من بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين اللّه على، أكثر من اللهو و مال إلى الأتراك و المشارقة، فانحطّ جانب كتامة، و ما زال ينقص قدرهم و يتلاشى أمرهم حتّى ملك المستنصر بعد أبيه الظاهر، فاستكثرت أمّه من العبيد حتّى يقال إنهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود، و استكثر هو من الأتراك، و تنافس كلّ منهما مع الآخر فكانت الحرب التى آلت إلى خراب مصر و زوال بهجتها إلى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالى من عكّا و قتل رجال الدولة و أقام له جندا و عسكرا من الأرمن، فصار من حينئذ معظم الجيش الأرمن، و ذهبت كتامة و صاروا من جملة الرعيّة بعد ما كانوا وجوه الدولة و أكابر أهلها.

حارة الصالحية: عرفت بغلمان الصالح طلائع بن رزبك، و هى موضعان:

الصالحيّة الكبرى و الصالحيّة الصغرى، و موضعهما فيما بين المشهد الحسينى و رحبة الأيدمرى و بين البرقيّة، و كانت من الحارات العظيمة، و قد خربت الآن و باقيها متداع إلى الخراب. قال ابن عبد الظاهر: الحارة الصالحية منسوبة إلى الصالح طلائع بن رزيك، لأنّ غلمانه كانوا يسكنونها، و هى مكانان، و للصالح دار بحارة الديلم كانت سكنه قبل الوزارة، و هى باقية إلى الآن و بها بعض ذرّيته، و المكان المعروف بخوخة الصالح نسبة إليه.

حارة البرقية: هذه الحارة عرفت بطائفة من طوائف العسكر فى الدولة الفاطمية، يقال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴

لها الطائفة البرقية، ذكرها المسبّحى . قال ابن عبد الظاهر: و لما نزل بالقاهرة- يعنى المعزّ لدين اللّه- اختطّت كلّ طائفة خطة عرفت بها، قال: و اختطت جماعة من أهل برقة الحارة المعروفة بالبرقية، انتهى. و إلى هذه الحارة تنسب الأمراء البرقية.

ذكر الأمراء البرقيّة و وزارة ضرغام

و ذلك أنّ الصالح طلائع بن رزيك كان قد أنشأ فى وزارته أمراء يقال لهم البرقيّة، و جعل ضرغاما مقدّمهم، فترقّى حتّى صار صاحب الباب، و طمع فى شاور السعدى لما ولى الوزارة بعد رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، فجمع رفقته و تخوّف شاور منه، و صار العسكر فرقتين: فرقة مع ضرغام و فرقة مع شاور. فلمّا كان بعد تسعة أشهر من وزارة شاور ثار ضرغام فى رمضان سنة ثمان و خمسين و خمسمائة، و صاح على شاور فأخرجه من القاهرة، و قتل ولده الأكبر المسمّى بطيّئ، و بقى شجاع المنعوت بالكامل، و خرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل الوزير رضوان بن و لخشى فإنه كان رفيقا له فى تلك الكرّة، و استقرّ ضرغام فى وزارة الخليفة العاضد لدين اللّه بعد شاور، و تلقّب بالملك المنصور، فشكر الناس سيرته، فإنه كان فارس عصره، و كان كاتبا جميل الصورة فكه المحاضرة عاقلا كريما لا يضع كرمه إلا فى سمعة ترفعه أو مداراة تنفعه إلا أنه كان أذنا مستحيلا على أصحابه، و إذا ظنّ فى أحد شرّا جعل الشكّ يقينا، و عجّل له العقوبة. و غلب عليه مع ذلك فى وزارته أخواه ناصر الدين همام و فخر الدين حسام، و أخذ يتنكّر لرفقته البرقيّة الذين قاموا بنصرته و أعانوه على إخراج شاور و تقليده للوزارة من أجل أنه بلغه عنهم أنّهم يحسدونه و يضعون منه، و أنّ منهم من كاتب شاور و حثّه على القدوم إلى القاهرة و وعده بالمعاونة له، فأظلم الجوّ بينه و بينهم، و تجرّد للإيقاع بهم على عادته فى أسرع العقوبة، و أحضرهم إليه فى دار الوزارة ليلا- و قتلهم بالسيف صبرا و هم: صبح بن شاهنشاه، و الطهر مرتفع المعروف بالجلواص، و عين الزمان، و على بن الزبد، و أسد الفازى و أقاربهم و هم نحو من سبعين أميرا سوى اتباعهم، فذهبت لذلك رجال الدولة و اختلّت أحوالها و ضعفت بذهاب أكابرها و فقد أصحاب الرأى و التدبير، و قصد الفرنج ديار مصر فخرج إليهم همام أخو ضرغام، و انهزم منهم، و قتل منهم عدّة، و نزلوا على حصن بلبيس ، و ملكوا بعض السور، ثمّ ساروا و عاد همام عودا رديئا، فبعث به ضرغام إلى الإسكندرية و بها الأمير مرتفع الجلواص، فأخذه العرب و قاده همام إلى أخيه، فضرب عنقه و صلبه على باب زويلة، فما هو إلا أن قدم رسل الفرنج على ضرغام فى طلب مال الهدنة المقرّر فى كلّ سنة- و هو ثلاثة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵

و ثلاثون ألف دينار- و إذا بالخبر قد ورد بقدوم شاور من الشام و معه أسد الدين شير كوه فى كثير من الغزّ، فأزعجه ذلك، و أصبح الناس يوم التاسع و العشرين من جمادى الأولى سنة تسع و خمسين و خمسمائة خائفين على أنفسهم و أموالهم، فجمعوا الأقوات و الماء و تحوّلوا من مساكنهم، و خرج همام بالعسكر أوّل يوم من جمادى الآخرة، فسار إلى بلبيس و كانت له وقعة مع شاور انهزم فيها، و صار إلى شاور و أصحابه جميع ما كان مع عسكر همام، و أسروا عدّة، و نزل شاور بمن معه إلى التاج ظاهر القاهرة فى يوم الخميس سادس جمادى الآخرة، فجمع ضرغام الناس، و ضمّ إليه الطائفة الريحانية و الطائفة الجيوشية بداخل القاهرة، و شاور مقيم بالتاج مدّة أيام- و طوالعه من العربان- فطارد عسكر ضرغام بأرض الطبّالة خارج القاهرة، ثمّ سار شاور و نزل بالمقس، فخرج إليه عسكر ضرغام، و حاربوه فانهزم هزيمة قبيحة، و سار إلى بركة الحبش، و نزل بالشرف الذى يعرف اليوم بالرصد، و ملك مدينة مصر، و أقام بها أياما، فأخذ ضرغام مال الأيتام الذى كان بمودع الحكم، فكرهه الناس و استعجزوه، و مالوا مع شاور، فتنكّر منهم ضرغام و تحدّث بإيقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له، و نزل شاور فى أرض اللوق خارج باب زويلة، و طارد رجال ضرغام و قد خلت المنصورة و الهلالية، و ثبت أهل اليانسية بها، و زحف إلى باب سعادة و باب القنطرة، و طرح النار فى اللؤلؤة و ما حولها من الدور، و عظمت الحروب بينه و بين أصحاب ضرغام، و فنى كثير من الطائفة الريحانية، فبعثوا إلى شاور و وعدوه بأنّهم عون له، فانحلّ أمر ضرغام، فأرسل العاضد إلى الرماة يأمرهم بالكفّ عن الرمى، فخرج الرجال إلى شاور و صاروا من جملته و فترت همة أهل القاهرة، و أخذ كلّ

منهم يعمل الحيلة فى الخروج إلى شاور، فأمر ضرغام بضرب الأبواق لتجتمع الناس فضربت الأبواق و الطبول ما شاء اللّه من فوق الأسوار فلم يخرج إليه أحد، و انفكّ عنه الناس، فسار إلى باب الذهب من أبواب القصر و معه خمسمائة فارس، فوقف و طلب من الخليفة أن يشرف عليه من الطاق، و تضرّع إليه و أقسم عليه بآبائه فلم يجبه أحد، و استمرّ واقفا إلى العصر و الناس تنحلّ عنه حتّى بقى فى نحو ثلاثين فارسا، فوردت عليه رقعة فيها خذ نفسك و انج بها، و إذا بالأبواق و الطبول قد دخلت من باب القنطرة و معها عساكر شاور، فمرّ ضرغام إلى باب زويلة، فصاح الناس عليه و لعنوه، و تخطّفوا من معه، و أدركه القوم فأردوه عن فرسه قريبا من الجسر الأعظم فيما بين القاهرة و مصر ، و احتزوا رأسه فى سلخ جمادى الآخرة، و فرّ منهم أخوه إلى جهة المطريّة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶

فأدركه الطلب ، و قتل عند مسجد تبر خارج القاهرة، و قتل أخوه الآخر عند بركة الفيل، فصار حينئذ ضرغام ملقى يومين، ثمّ حمل إلى القرافة و دفن بها، و كانت وزارته تسعة أشهر، و كان من أجلّ أعيان الأمراء و أشجع فرسانهم و أجودهم لعبا بالكرة و أشدّهم رميا بالسهام، و يكتب مع ذلك كتابة ابن مقلة و ينظم الموشّحات الجيدة، و لمّا جيء برأسه إلى شاور رفع إلى قفاه و طيف به، فقال الفقيه عمارة:

أرى جنك الوزارة صار سيفايحزّ بحدّه جيد الرقاب

كأنّك رائد البلوى و إلابشير بالمنيّة و المصاب

فكان كما قال عمارة فإن البلايا و المنايا من حينئذ تتابعت على دولة الخلفاء الفاطميين حتّى لم يبق منهم عين تطرف و للّه عاقبة الأمور.

حارة العطوفية: هذه الحارة تنسب إلى طائفة من طوائف العسكر يقال لها العطوفية، و قال ابن عبد الظاهر: العطوفية منسوبة لعطوف أحد خدّام القصر و هو عطوف غلام الطويلة، و كان قد خدم ستّ الملك أخت الحاكم، قال: و سكنت- يعنى الطائفة الجيوشية- بحارة العطوفية بالقاهرة، و للّه درّ الأديب إبراهيم المعمار إذ يقول مواليا يشتمل على ذكر حارات بالقاهرة و فيها تورية:

فى الجودرية رأيت صورة هلاليةللباطليّة تميل لا للعطوفيّة

لها من اللؤلؤة ثغرين منشيّهإن حرّكوا وجهها بنت الحسينيّة

و كانت العطوفية من أجلّ مساكن القاهرة، و فيها من الدور العظيمة و الحمامات و الأسواق و المساجد ما لا يدخل تحت حصر، و قد خربت كلّها و بيعت أنقاضها و بيوتها و منازلها، و أضحت أوحش من و تدعير فى قاع. و عطوف هذا كان خادما أسود قتله الحاكم بجماعة من الأتراك وقفوا له فى دهليز القصر و احتزّوا رأسه فى يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من صفر سنة إحدى و أربعمائة قاله المسبّحى.

حارة الجوّانية : كان يقال لهذه الحارة أوّلا حارة الروم الجوّانية، ثمّ ثقل على الألسنة ذلك فقال الناس الجوانية، و كان أيضا يقال لها حارة الروم العليا المعروفة بالجوّانية. و قال المسبّحى: و قد ذكر ما كتبه أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه من الأمانات فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷

سنة خمس و تسعين و ثلثمائة فذكر أنه كتب أمانا للعرافة الجوّانية، فدلّ أنّه كان من جملة الطوائف قوم يعرفون بالجوّانية، قال ابن عبد الظاهر: قال لى مؤلّفه القاضى زين الدين و فقه اللّه: إن الجوّانية منسوبة للأشراف الجوّانيين منهم الشريف النسابة الجوّانى. قال مؤلّفه رحمه اللّه: فعلى هذا يكون بفتح الجيم، فإن الجوّانى بفتح الجيم و تشديد الواو و فتحها و بعد الواو ألف ساكنة ثمّ نون نسبة إلى جوّان- على وزن حرّان- و هى قرية من عمل مدينة طيبة على صاحبها أفضل الصلاة و السلام. و على القول الأوّل تكون الجوّانية بفتح الجيم أيضا مع فتح الواو و تشديدها، فإن أهل مصر يقولون: لما خرج عن المدينة أو الدار برّا، و لمّا دخل جوّا بضم الجيم- و هو خطأ- و لهذا كان الورّاقون يكتبون حارة الروم البرّانية لأنها من خارج القصر، و يكتبون حارة الروم الجوّانية لأنّها من داخل القاهرة، و

لا يصار إليها إلا بعد المرور على القصر. و كان موضعها إذ ذاك من وراء القصر خلف دار الوزارة و الحجر ، فكأنها فى داخل البلد، و لذلك أصل. قال ابن سيده فى مادة (ج و) من كتاب المحكم: و جوّا البيت داخله، لفظة شاميّة، فتعيّن فتح الجيم من الجوّانية و لا عبرة بما تقوله العامّة من ضمّها.

و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانى ابن الحسن بن محمد الجوانى ابن عبيد اللّه الجوانى بن حسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، و قيل لمحمد بن عبد اللّه الجوّانىّ بسبب ضيعة من ضياع المدينة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام يقال لها الجوّانية، و كانت تسمّى البصرة الصغرى لخيراتها و غلالها، لا يطلب شىء إلا وجد بها، و هى قريبة من صرار ضيعة الإمام أبى جعفر محمد بن على الرضى. و كانت الجوّانية ضيعة لعبيد اللّه، فتوفى عنها فورثها بعده ولده و أزواجه، فاشترى محمد الجوّانىّ ولده بما حصل له بالميراث الباقى من الورثة، فحصلت له كاملة، فعرف بها فقيل: الجوّانى. قال: و لم تزل أجداد مؤلّفه ببغداد إلى حين قدوم ولده أسعد النحوىّ مع أبيه من بغداد إلى مصر، و مولده بالموصل فى سنة اثنتين و تسعين و أربعمائة.

حارة البستان: و يقال لها حارة بستان المصمودىّ و حارة الأكراد أيضا، و هى الآن من جملة الوزيرية التى تقدّم ذكرها.

حارة المرتاحية: هذه الحارة عرفت بالطائفة المرتاحية إحدى طوائف العسكر. قال ابن عبد الظاهر: خطّ باب القنطرة يعرف فى كتب الأملاك القديمة بالمرتاحية.

حارة الفرحية: بالحاء المهملة كانت سكن الطائفة الفرحية، و هى بجوار حارة

المرتاحية، فإلى يومنا هذا فيما بين سويقة أمير الجيوش و باب القنطرة زقاق يعرف بدرب الفرحية، و الفرحية كانت طائفة من جملة عبيد الشراء، و كانت عبيد الشراء عدّة طوائف و هم: الفرحية و الحسينية و الميمونية ينسبون إلى ميمون و هو أحد الخدّام.

حارة فرج بالجيم: كانت تعرف قديما بدرب النميرى، ثمّ عرفت بالأمير جمال الدين فرج من أمراء بنى أيوب. و هى الآن داخلة فى درب الطفل من خط قصر الشوك.

حارة قائد القوّاد: هذه الحارة تعرف الآن بدرب ملوخيا ، و كانت أوّلا تعرف بحارة قائد القوّاد، لأن حسين بن جوهر الملقّب قائد القوّاد كان يسكن بها فعرفت به. و هو حسين بن القائد جوهر أبو عبد اللّه الملقّب بقائد القوّاد. لما مات أبوه جوهر القائد خلع العزيز بالله عليه و جعله فى رتبة أبيه و لقّبه بالقائد بن القائد، و لم يتعرّض لشىء مما تركه جوهر، فلمّا مات العزيز و قام من بعده ابنه الحاكم استدناه ثم إنه قلّده البريد و الإنشاء فى شوّال سنة ستّ و ثمانين و ثلثمائة، و خلع عليه و حمله على فرس بموكب، و قاد بين يديه عدّة أفراس، و حمل معه ثيابا كثيرة. فاستخلف أبا منصور بشر بن عبيد اللّه بن سورين الكاتب النصرانىّ على كتابة الإنشاء، و استخلف على أخذ رقاع الناس و توقيعاتهم أمير الدولة الموصلى. و لما تقلّد برجوان النظر فى تدبير الأمور و جلس للوساطة بعد ابن عمّار. كان الكافة يلقونه فى داره و يركبون جميعا بين يديه من داره إلى القصر ما خلا القائد الحسين و محمد بن النعمان القاضى، فإنهما كانا يسلّمان عليه بالقصر فقط. فلما قتل الحاكم الأستاذ برجوان كما تقدّم خلع على القائد حسين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة تسعين و ثلثمائة ثوبا أحمر و عمامة زرقاء مذهّبة، و قلّده سيفا محلّى بذهب، و حمله على فرس بسرج و لجام من ذهب، و قاد بين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها، و حمل معه خمسين ثوبا صحاحا من كلّ نوع، و ردّ إليه التوقيعات و النظر فى أمور الناس و تدبير المملكة كما كان برجوان، و لم يطلق عليه اسم وزير، فكان يبكّر إلى القصر و معه خليفته الرئيس أبو العلاء فهد بن إبراهيم النصرانى- كاتب برجوان- فينظران فى الأمور ثمّ يدخلان و ينهيان الحال إلى الخليفة، فيكون القائد جالسا و فهد من خلفه قائما. و منع القائد الناس أن يلقوه فى الطريق أو يركبوا إليه فى داره و أنّ من كان له حاجة فليبلغه إياها بالقصر، و منع الناس من مخاطبته فى الرقاع بسيدنا، و أمر أن لا يخاطب و لا يكاتب إلا بالقائد فقط، و تشدّد فى ذلك لخوفه من غيرة الحاكم، حتّى أنّه رأى جماعة من القوّاد الأتراك قياما على الطريق ينتظرونه، فأمسك عنان فرسه و وقف و قال لهم: كلّنا عبيد مولانا صلوات اللّه عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹

و مماليكه، و لست و اللّه أبرح من موضعى أو تنصرفوا عنّى و لا يلقانى أحد إلا فى القصر، فانصرفوا و أقام بعد ذلك خدما من الصقالبة الطرّادين على الطريق بالنوبة لمنع الناس المجيء إلى داره و من لقائه إلا فى القصر، و أمر أبا الفتوح مسعود الصقلبى صاحب الستر أن يوصل الناس بأسرهم إلى الحاكم و أن لا يمنع أحدا عنه.

فلمّا كان فى سابع عشر جمادى الآخرة قرىء سجل على سائر المنابر بتلقيب القائد حسين بقائد القوّاد و خلع عليه، و ما زال إلى يوم الجمعة سابع شعبان سنة ثمان و تسعين و ثلاثمائة، فاجتمع سائر أهل الدولة فى القصر بعد ما طلبوا، و خرج الأمر إليهم أن لا يقام لأحد، و خرج خادم من عند الخليفة فأسرّ إلى صاحب الستر كلاما، فصاح: صالح بن علىّ، فقام صالح بن علىّ الرودباذى متقلّد ديوان الشام، فأخذ صاحب الستر بيده و هو لا يعلم هو و لا أحد ما يراد به، فأدخل إلى بيت المال و أخرج و عليه درّاعة مصمتة و عمامة مذهّبة و معه مسعود، فأجلسه بحضرة قائد القوّاد، و أخرج سجلا قرأه ابن عبد السميع الخطيب، فإذا فيه ردّ سائر الأمور التى ينظر فيها قائد القوّاد حسين بن جوهر إليه. فعند ما سمع من السجل ذكره قام و قبّل الأرض. فلما انتهت قراءة السجلّ قام قائد القوّاد و قبّل خدّ صالح و هنأه. و انصرف، فكان يركب إلى القصر و يحضر الأسمطة إلى اليوم الثالث من شوّال أمره الحاكم أن يلزم داره هو و صهره قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان و أن لا يركباهما و سائر أولادهما، فلبسا الصوف، و منع الناس من الاجتماع بهما، و صاروا يجلسون على حصر. فلمّا كان فى تاسع عشر ذى القعدة عفا عنهما الحاكم، و أذن لهما فى الركوب، فركبا إلى القصر بزيّهما من غير حلق شعر و لا تغيير حال الحزن، فلمّا كان فى حادى عشر جمادى الآخرة سنة تسع و تسعين و ثلاثمائة قبض على عبد العزيز بن النعمان، و طلب حسين بن جوهر ففرّ هو و ابنه فى جماعة، و كثر الصياح بدار عبد العزيز، و غلقت حوانيت القاهرة و أسواقها، فأفرج عنه و نودى أن لا يغلق أحد فردّ حسين بعد ثلاثة أيام بابنيه، و تمثلوا بحضرة الحاكم، فعفا عنهم و أمرهم بالمسير إلى دورهم بعد أن خلع على حسين و على صهره عبد العزيز و على أولادهما، و كتب لهما أمانان، ثمّ أعيد عبد العزيز فى شهر رمضان إلى ما كان يتقلّده من النظر فى المظالم، ثم ردّ الحاكم فى شهر ربيع الأوّل سنة أربعمائة على حسين بن جوهر و أولاده و صهره عبد العزيز ما كان لهم من الإقطاعات و قرىء لهم سجل بذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰

فلمّا كان ليلة التاسع من ذى القعدة فرّ حسين بأولاده و صهره و جميع أموالهم و سلاحهم، فسيّر الحاكم الخيل فى طلبهم نحو دجوة فلم يدركهم و أوقع الحوطة على سائر دورهم، و جعلت للديوان المفرد، و هو ديوان أحدثه الحاكم يتعلّق بما يقبض من أموال من يسخط عليه، و حمل سائر ما وجد لهم بعد ما ضبط، و خرجت العساكر فى طلب حسين و من معه، و أشيع أنّه قد صار إلى بنى قرّة بالبحيرة، فأنفذت إليه الكتب بتأمينه و استدعائه إلى الحضور، فأعاد الجواب بأنه لا يدخل ما دام أبو نصر ابن عبدون النصرانىّ الملقّب بالكافى ينظر فى الوساطة و يوقّع عن الخليفة، فإنّى أحسنت إليه أيام نظرى فسعى بى إلى أمير المؤمنين و نال منّى كلّ منال، و لا أعود أبدا و هو وزير. فصرف ابن عبدون فى رابع المحرّم سنة إحدى و أربعمائة، و قدم حسين بن جوهر و معه عبد العزيز بن النعمان و سائر من خرج معهما، فخرج جميع أهل الدولة إلى لقائه و تلقّته الخلع فأفيضت عليه و على أولاده و صهره، و قيّد بين أيديهم الدواب، فلمّا وصلوا إلى باب القاهرة ترجّلوا و مشوا و مشى الناس بأسرهم إلى القصر فصاروا بحضرة الحاكم، ثمّ خرجوا و قد عفا عنهم، و أذن لحسين أن يكاتب بقائد القوّاد و يكون اسمه تاليا للقبه، و أن يخاطب بذلك. و انصرف إلى داره فكان يوما عظيما، و حمل إليه جميع ما قبض له من مال و عقار و غيره، و أنعم عليه و واصل الركوب هو و عبد العزيز بن النعمان إلى القصر، ثم قبض عليه و على عبد العزيز و اعتقلا ثلاثة أيام، ثمّ حلفا أنّهما لا يغيبان عن الحضرة، و أشهدا على أنفسهما بذلك، و أفرج عنهما، و حلف لهما الحاكم فى أمان كتبه لهما. فلما كان فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة إحدى و أربعمائة ركب حسين و عبد العزيز على رسمهما إلى القصر، فلمّا خرج للسلام على الناس قيل للحسين و عبد العزيز و أبى على أخى الفضل: اجلسوا لأمر تريده الحضرة منكم، فجلس الثلاثة، و

انصرف الناس فقبض عليهم و قتلوا فى وقت واحد، و أحيط بأموالهم و ضياعهم و دورهم، و أخذت الأمانات و السجلات التى كتبت لهم. و استدعى أولاد عبد العزيز بن النعمان و أولاد حسين بن جوهر و وعدوا بالجميل و خلع عليهم، و جملوا و اللّه يفعل ما يشاء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱

حارة الأمراء: و يقال لها أيضا حارة الأمراء الأشراف الأقارب، و موضعها يعرف بدرب شمس الدولة، و سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

حارة الطوارق: و يقال لها أيضا حارة صبيان الطوارق، و هم من جملة طوائف العسكر، كانوا معدّين لحمل الطوارق. و موضع هذه الحارة فى طريق من سلك من الرقيق سوق الخلعيين داخل باب زويلة طالبا الباطلية بالزقاق الطويل الضيّق الذى يقال له اليوم حلق الجمل السالك إلى درب أرقطاى.

حارة الشرابية: عرفت بذلك لأنّها كانت موضع سكن الغلمان الشرابية إحدى طوائف العسكر، و كانت فيما بين الباطلية و حارة الطوارق.

حارة الدميرى و حارة الشاميين: هما من جملة العطوفية .

حارة المهاجرين: و موضعها الآن من جملة المكان الذى يعرف بالرقيق المعدّ لسوق الخلعيين بجوار باب زويلة، و كان بعد ذلك سوق الخشّابين، ثمّ هو الآن سوق الخلعيين.

و موضع هذه الحارة بجوار الخوخة التى كانت تعرف بالشيخ السعيد بن فشيرة النصرانىّ الكاتب. و هى الخوخة التى يسلك إليها من الزقاق المقابل لحمام الفاضل المعدّ لدخول النساء، و يتوصل منها إلى درب كوز الزير بحارة الروم، و قد صارت هذه الحارة تعرف بدرب ابن المجندار، و سيأتى ذكره إن شاء اللّه.

حارة العدوية: قال ابن عبد الظاهر: العدوية هى من باب الخشيبة إلى أوّل حارة زويلة عند حمّام الحسام الجلدكى الآن منسوبة لجماعة عدويين نزلوا هناك، و هذا المكان اليوم هو عبارة عن الموضع الذى تلقاه عند خروجك من زقاق حمّام خشيبة الذى يتوصّل إليه من سوق باب الزهومة، فإذا انتهيت إلى آخر هذا الزقاق و أخذت على يمينك صرت فى حارة العدويّة. و موضعها الآن من فندق بلال المغيثى إلى باب سر المارستان، و تدخل فى العدوية رحبة بيبرس التى فيها الآن فندق الرخام، عن يمينك إذا خرجت فى الرحبة المذكورة التى صارت الآن دربا إلى باب سرّ المارستان و ما عن يسارك إلى حمّام الكريك و حمام الجوينىّ الذى تقول له العامّة الجهينىّ، و إلى سوق الزجاجيين. و كلّ هذه المواضع هى من حقوق العدويّة و كانت العدويّة قديما واقعة فيما بين الميدان الذى يعرف اليوم بالخرشتف و حارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲

زويلة و بين سقيفة العداس و الصاغة القديمة التى صار موضعها الآن سوق الحريريين الشرابشيين برأس الوراقين و سوق الزجاجيين.

حارة العيدانية: كانت تعرف أوّلا بحارة البديعيين، ثم قيل لها بعد ذلك الحبّانية من أجل البستان الذى يعرف بالحبانية الجارى فى وقف الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، و يتوصّل إلى هذه الحارة من تجاه قنطرة آق سنقر، و بعض دورها الآن يشرف على بستان الحبانية، و بعضها يطل على بركة الفيل.

حارة الحمزيين: كانت أوّلا تعرف بالحبانية، ثمّ قيل لها حارة الحمزيين من أجل أن جماعة من الحمزيين نزلوا بها، منهم الحاج يوسف بن فاتن الحمزى، و الحمزيون أيضا ينسبون إلى حمزة بن أدركة السارى، خرج بخراسان فى أيام هارون بن محمد الرشيد، فعاث و أفسد و فضّ جموع عيسى بن علىّ عامل خراسان، و قتل منهم خلقا، و انهزم عيسى إلى بابل، ثمّ غرق حمزة بواد فى كرمان، فعرفت طائفته بالحمزية. و أخوه ضرغام بن فاتن بن ساعد الحمزىّ و الحاج عونى الطحان ابن يونس بن فاتن الحمزى و رضوان بن يوسف بن فاتن الحمزىّ الحمامى و أخوه سالم بن يوسف بن فاتن الحمزىّ، و كان هؤلاء بعد سنة ستّمائة، و هذه الحارة خارج باب زويلة. و

من بلاد أفريقية قرية يقال لها حمزى ينسب إليها محمد بن حمد بن خلف القيسىّ الحمزىّ من أهل القرية و قاضيها، توفى سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة، و لا يبعد أن تكون هذه الحارة نسبت إلى أهل قرية حمزة هذه لنزولهم بها كنزول بنى سوس و كتامة و غيرهم فى المواضع التى نسبت إليهم.

حارة بنى سوس: عرفت بطائفة من المصامدة يقال لهم بنو سوس كانوا يسكنون بها.

حارة اليانسية: تعرف بطائفة من طوائف العسكر يقال لها اليانسية منسوبة لخادم خصىّ من خدّام العزيز بالله يقال له أبو الحسن يأنس الصقلىّ، خلفه على القاهرة، فلما مات العزيز أقرّه ابنه الحاكم بأمر اللّه على خلافة القصور، و خلع عليه و حمله على فرسين، فلمّا كان فى المحرم سنة ثمان و ثمانين و ثلثمائة سار لولاية برقة بعد ما خلع عليه و أعطى خمسة آلاف دينار و عدّة من الخيل و الثياب. قال ابن عبد الظاهر: اليانسية خارج باب زويلة أظنها منسوبة ليأنس وزير الحافظ لدين اللّه الملقب بأمير الجيوش سيف الإسلام و يعرف بيانس الفاصد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳

و كان أرمنىّ الجنس، و سمّى الفاصد لأنه فصد الأمير حسن بن الحافظ و تركه محلولا فصاده حتّى مات. و له خبر غريب فى وفاته، كان الحافظ قد نقم عليه أشياء طلب قتله بها باطنا فقال لطبيبه: اكفنى أمره بمأكل أو مشرب، فأبى الطبيب ذلك خوفا أن يصير عند الحافظ بهذه العين و ربما قتله بها، و الحافظ يحثّه على ذلك فاتّفق ليانس الوزير المذكور أنه مرض بزحير ، و إن الحافظ خاطب الطبيب بذلك فقال: يا مولاى، قد أمكنتك الفرصة و بلغت مقصودك، و لو أنّ مولانا عادة فى هذه المرضة اكتسب حسن أحدوثة، و هذه المرضة ليس دواؤه منها إلّا الدعة و السكون، و لا شىء أضرّ عليه من الانزعاج و الحركة، فبمجرّد ما سمع بقصد مولانا له تحرّك و اهتمّ بلقاء مولانا و انزعج، و فى ذلك تلاف نفسه. ففعل الخليفة ذلك و أطال الجلوس عنده فمات . و هذا الخبر فيه أوهام منها أنه جعل اليانسية منسوبة ليانس الوزير، و قد كانت اليانسية قبل يانس هذا بمدّة طويلة، و منها أنه ادّعى أن حسن بن الحافظ مات من فصادة، و ليس كذلك، و إنما مات مسموما، و منها أنه زعم أن يأنس تولّى فصده و ليس كذلك، بل الذى تولى قتله بالسم أبو سعيد ابن فرقة، و منها أن الذى نقم عليه الحافظ من الأمراء فخانه فى ابنه حسن إنما هو الأمير المعظّم جلال الدين محمد المعروف بجلب راغب، و هذا نص الخبر فنزه بالك، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر وزارة أبى الفتح ناصر الجيوش يأنس الأرمنى

و كان من خبر ذلك أن الخليفة الآمر بأحكام اللّه أبا علىّ منصورا لما قتله النزارية فى ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة أقام هزبر الملوك جوامرد العادل برغش الأمير أبا الميمون عبد المجيد فى الخلافة كفيلا للحمل الذى تركه الآمر، و لقّب بالحافظ لدين اللّه، و لبس هزبر الملوك خلع الوزارة، فثار الجند و أقاموا أبا علىّ أحمد الملقّب بكتيفات ولدا لأفضل ابن أمير الجيوش فى الوزارة، و قتل هزبر الملوك و استولى كتيفات على الآمر، و قبض على الحافظ و سجنه بالقصر مقيّدا إلى أن قتل كتيفات فى المحرّم سنة ستّ و عشرين و خمسمائة. و بادر صبيان الخاص الذين تولّوا قتله إلى القصر، و دخلوا و معهم الأمير يأنس متولّى الباب إلى الخزانة التى فيها الحافظ، و أخرجوه إلى الشبّاك و أجلسوه فى منصب الخلافة و قالوا له: و اللّه ما حرّكنا على هذا إلا الأمير يأنس، فجازاه الحافظ بأن فوّض إليه الوزارة فى الحال، و خلع عليه فباشرها مباشرة جيّدة. و كان عاقلا مهابا متمسّكا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴

متحفّظا لقوانين الدولة، فلم يحدث شيئا و لا خرج عمّا يعيّنه الخليفة له إلا أنه بلغه عن أستاذ من خواصّ الخليفة شىء يكرهه فقبض عليه من القصر من غير مشاورة الخليفة، و ضرب عنقه بخزانة البنود، فاستوحش منه الخليفة و خشى من زيادة معناه. و كانت هذه الفعلة غلطة منه، ثمّ إنه خاف من صبيان الخاصّ أن يفتكوا به كما فتكوا بكتيفات، فتنكّر لهم، و تخوّفوه أيضا، فركب فى خاصّيته و

أركب العسكر، و ركب صبيان الخاص، فكانت بينهما وقعة قبالة باب التبّانين بين القصرين، قوى فيها يأنس، و قتل من صبيان الخاصّ ما يزيد على ثلثمائة رجل من أعيانهم، فيهم قتلة أبى علىّ كتيفات، و كانوا نحو الخمسمائة فارس، فانكسرت شوكتهم و ضعف جانبهم، و اشتدّ بأس يأنس و عظم شأنه، فثقل على الخليفة. و تحيّل منه فأحسّ بذلك، فأخذ كلّ منهما فى التدبير على الآخر، فأعجل يأنس و قبض على حاشية الخليفة، و منهم قاضى القضاة و داعى الدعاة أبو الفخر و أبو الفتح بن قادوس و قتلهما، فاشتدّ ذلك على الحافظ، و دعا طبيبه و قال: اكفنى أمر يأنس! فيقال أنّه سمّه فى ماء المستراح فانفتح دبره و اتّسع حتّى ما بقى يقدر على الجلوس، فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين قد أمكنتك الفرصة و بلغت مقصودك، فلو أنّ مولانا عاده فى هذه المرضة اكتسب حسن الأحدوثة، فإنّ هذا المرض ليس له دواء إلا الدّعة و السكون، و لا شىء عليه أضرّ من الحركة و الانزعاج، و هو إذا سمع بقصد مولانا له تحرّك و اهتمّ للقاء و انزعج، و فى ذلك تلاف نفسه. فنهض لعيادته، و عند ما بلغ ذلك يأنس قام ليلقاه و نزل عن الفراش و جلس بين يدى الخليفة، فأطال الخليفة جلوسه عنده و هو يحادثه، فلم يقم حتّى سقطت أمعاء يأنس، و مات من ليلته فى سادس عشرى ذى الحجة سنة ستّ و عشرين و خمسمائة، و كانت وزارته تسعة أشهر و أياما، و ترك ولدين كفلهما الحافظ و أحسن إليهما. و كان يأنس هذا مولى أرمنيّا لباديس جدّ عبّاس الوزير، فأهداه إلى الأفضل بن أمير الجيوش، و ترقّى فى خدمته إلى أن تأمّر، ثمّ ولى الباب و هى أعظم رتب الأمراء، و كنّى بأبى الفتح، و لقّب بالأمير السعيد، ثم لمّا ولى الوزارة نعت بناصر الجيوش سيف الإسلام، و كان عظيم الهمّة بعيد الغور كثير الشرّ شديد الهيبة .

ذكر الأمير حسن بن الخليفة الحافظ

و لمّا مات الوزير يأنس تولّى الخليفة الحافظ الأمور بنفسه، و لم يستوزر أحدا، و أحسن السيرة. فلمّا كان فى سنة ثمان و عشرين و خمسمائة عهد إلى ولده سليمان، و كان أسنّ أولاده و أحبّهم إليه، و أقامه مقام الوزير، فمات بعد شهرين من ولاية العهد، فجعل مكانه أخاه حيدرة فى ولاية العهد، و نصّبه للنظر فى المظالم، فشق ذلك على أخيه الأمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵

حسن- و كان كثير المال متّسع الحال له عدّة بلاد و مواشى و حاشية و ديوان مفرد- فسعى فى نقض ذلك بأن أوقع الفتنة بين الطائفة الجيوشية و الطائفة الريحانية، و كانت الريحانية قويّة الشوكة مهابة مخوفة الجانب، فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين، و صاح الجند: يا حسن يا منصور، يا للحسينية؛ و التقى الفريقان فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف نفس، فكانت هذه الوقعة أوّل مصائب الدولة الفاطمية من فقد رجالها و نقص عساكرها، فلم يبق من الطائفة الريحانية إلا من نجا بنفسه من ناحية المقس ، و ألقى نفسه فى بحر النيل.

و استظهر الأمير حسن و قام بالأمر، و انضمّ إليه أوباش الناس و دعّارهم، ففرّق فيهم الزرد و سمّاهم صبيان الزرد، و جعلهم خاصّته، فاحتفوا به و صاروا لا يفارقونه، فإن ركب أحاطوا به، و إن نزل لازموا داره، فقامت قيامة الناس منهم. و شرع فى تتبع الأكابر، فقبض على ابن العسّاف و قتله، و قصد أباه الخليفة الحافظ و أخاه حيدرة بالضرر حتّى خافا منه و تغيّبا، فجدّ فى طلب أخيه حيدرة، و هتك بأوباشه الذين اختارهم حرمة القصر، و خرق ناموسه، و سلّطهم يفتّشون القصر فى طلب الخليفة الحافظ و ابنه حيدرة، و اشتدّ بأسهم، و حسّنوا له كلّ رذيلة، و جرّوه على الأذى، فلم يجد الحافظ بدّا من مداراة حسن و تلافى أمره عساه ينصلح، و كتب سجلا بولايته العهد و أرسله إليه فقرىء على الناس، فما زاده ذلك إلا جرأة عليه و إفسادا له، و شدّد فى التضييق على أبيه و أخذ بأنفاسه. فبعث حينئذ الخليفة بالأستاذ ابن إسعاف إلى بلاد الصعيد ليجمع من يقدر عليه من الريحانيّة، فمضى و استصرخ الناس لنصرة الخليفة على ولده حسن، و جمع أمما لا يحصيها إلا اللّه، و سار بهم، فبلغ ذلك حسنا فزجّ عسكر اللقاء إسعاف، فالتقيا و كانت بينهما وقعة هبّت فيها ريح سوداء على عسكر إسعاف حتّى هزمتهم، و ركبهم عسكر حسن فلم ينج منهم إلا القليل، و غرق أكثرهم فى البحر و أخذ إسعاف

أسيرا، فحمل إلى القاهرة على جمل و فى رأسه طرطور لبد أحمر. فلمّا وصل بين القصرين رشق بالنشّاب حتّى هلك، و رمى من القصر الغربى بأستاذ آخر، فقتل، و قتل الأمير شرف الدين. فاشتدّ ذلك على الحافظ و خاف على نفسه؛ فكتب ورقة- و كاد ابنه بأن ألقى إليه تلك الورقة- و فيها: يا ولدى؛ أنت على كلّ حال ولدى، و لو عمل كلّ منّا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه، و لا يحملنى قلبى، و قد انتهى الأمر إلى أمراء الدولة و هم فلان و فلان، و قد شدّدت و طأتك عليهم و خافوك و هم معوّلون على قتلك، فخذ حذرك يا ولدى.

فعند ما وقف حسن على الورقة غضب و لم يتأنّ، و بعث إلى أولئك، فلمّا صاروا إليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶

أمر صبيان الزرد بقتلهم، فقتلوا عن آخرهم، و كانوا عدّة من أعيان الأمراء، و أحاط بدورهم و أخذ سائر ما فيها، فاشتدّت المصيبة و عظمت الرزيّة، و تخوّف من بقى من الجند و نفروا منه، فإنّه كان جريئا مفسدا شديد الفحص عن أحوال الناس و الاستقصاء لأخبارهم يريد إقلاب الدولة و تغييرها ليقدّم أوباشه، و أكثر من مصادرة الناس، و قتل قاضى القضاة أبا الثريّا نجم لأنه كان من خواصّ أبيه، و قتل جماعة من الأعيان، و ردّ القضاء لابن ميسّر، و تفاقم أمره و عظم خطبه و اشتدّت الوحشة بينه و بين الأمراء و الأجناد، و همّوا بخلع الحافظ و محاربة ابنه حسن، و صاروا يدا واحدة، و اجتمعوا بين القصرين و هم عشرة آلاف ما بين فارس و راجل، و سيّروا إلى الحافظ يشكون ما هم فيه من البلاء مع ابنه حسن و يطلبون منه أن يزيله من ولاية العهد، فعجز حسن عن مقاومتهم، فإنه لم يبق معه سوى الراجل من الطائفة الجيوشية و من يقول بقولهم من الغزّ الغرباء، فتحيّر و خاف على نفسه، فالتجأ إلى القصر و صار إلى أبيه الحافظ، فما هو إلا أن تمكّن منه أبوه، فقبض عليه و قيّده و بعث إلى الأمراء يخبرهم بذلك، فأجمعوا على قتله، فردّ عليهم أنه قد صرفه عنهم و لا يمكّنه أبدا من التصرّف، و وعدهم بالزيادة فى الأرزاق و الإقطاعات و أن يكفّوا عن طلب قتله، فألحّوا فى قتله و قالوا: إمّا نحن و إمّا هو.

اشتدّ طلبهم إياه حتّى أحضروا الأحطاب و النيران ليحرقوا القصر، و بالغوا فى التجرّؤ على الخليفة فلم يجد بدّا من إجابتهم إلى قتله، و سألهم أن يمهلوه ثلاثا، فأناخوا بين القصرين، و أقاموا على حالهم حتّى تنقضى الثلاث، فما وسع الحافظ إلا أن استدعى طبيبيه و هما أبو منصور اليهودىّ و ابن قرقة النصرانىّ، و بدأ بأبى منصور و فاوضه فى عمله سقية قاتله، فامتنع من ذلك و حلف بالتوراة أنه لا يعرف عمل شىء من ذلك، فتركه و أحضر ابن قرقة و كلّمه فى هذا فقال: الساعة، و لا يتقطّع منها جسده، بل تفيض النفس لا غير. فأحضر السقية من يومه، فبعثها إلى حسن مع عدّة من الصقالبة، و ما زالوا يكرهونه على شربها حتّى فعل، و مات فى العشرين من جمادى الآخرة سنة تسع و عشرين و خمسمائة، فبعث الحافظ إلى القوم سرّا يقول: قد كان ما أردتم، فامضوا إلى دوركم؛ فقالوا: لا بدّ أن يشاهده منّا من نثق به، و ندبوا منهم أميرا معروفا بالجرأة و الشرّ يقال له المعظّم جلال الدين محمد، و يعرف بجلب راغب الآمرى، فدخل إلى القصر و صار جنب حسن، فإذا به قد سجّى بثوب، فكشف عن وجهه و أخرج من وسطه آلة من حديد، و غرزه بها فى عدّة مواضع من بدنه إلى أن تيقّن أنه قد مات، و عاد إلى القوم و أخبرهم، فتفرّقوا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷

و عند ما سكنت الدهماء حقد الحافظ لابن قرفة و قتله بخزانة البنود، و أنعم بجميع ما كان له على أبى منصور اليهودى، و جعله رئيس الأطباء، فهذا ما كان من خبر يأنس و كيفيّة موته و خبر حسن و الخبر عن قتله.

حارة المنتجبية: قال ابن عبد الظاهر: بلغنى أنّ رجلا كان يتحجّب لشمس الدين قاضى زادة كان يقول: إنّ هذه الخطّة منسوبة لجدّة منتجب الدولة.

الحارة المنصورية: هذه الحارة كانت كبيرة متسعة جدا فيها عدّة مساكن السودان، فلمّا كانت واقعتهم فى ذى القعدة سنة أربع و ستّين و خمسمائة كما تقدّم فى ذكر حارة بهاء الدين، أمر صلاح الدين يوسف بن أيّوب بتخريب المنصورة هذه، و تعفية أثرها، فخرّبها

خطلبا بن موسى الملقّب صارم الدين، و عملها بستانا. و كان للسودان بديار مصر شوكة و قوّة، فتبعهم صلاح الدين ببلاد الصعيد حتّى أفناهم بعد أن كان لهم بديار مصر فى كلّ قرية و محلّة و ضيعة مكان مفرد لا يدخله وال و لا غيره احتراما لهم. و قد كانوا يزيدون على خمسين ألفا، و إذا ثاروا على وزير قتلوه، و كان الضرر بهم عظيما لامتداد أيديهم إلى أموال الناس و أهاليهم، فلمّا كثر بغيهم و زاد تعدّيهم أهلكهم اللّه بذنوبهم، و فى واقعة السودان و تخريب المنصورة و قتل مؤتمن الخلافة الذى تقدّم ذكره يقول العماد الأصفهانى الكاتب يخاطب بهاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب:

بالملك الناصر استنارتفى عصرنا أوجه الفضائل

يوسف مصر الذى إليه‌تشدّ آمالنا الرواحل

رأيك فى الدهر عن رزاياجلى مهماته الجلائل

أجريت نيلين فى ثراهانيل نجيع و نيل نائل

كم كرم من نداك جارو كم دم من عداك سائل

و كم معاد بلا معادو مستطيل بغير طائل

و حاسد كاسد المساعىو سائد نافق الوسائل

أقررت عين الإسلام حتّى‌لم يبق فيها قذى لباطل

و كيف يزهى بملك مصرمن يستقلّ ذنبا لنائل

و ما نفيت السودان حتّى‌حكمت البيض فى المقاتل

صيّرت رحب الفضا مضيقاعليهم كفّة لجائل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸ و كلّ رأى منهم كراو أرض مصر كلام واصل

و قد خلت منهم المغانىو أقفرت منهم المنازل

و ما أصيبوا إلا بطلّفكيف لو أمطروا بوابل؟

و قد تجلّى بالحقّ ما بالباطل فى مصر كان عاجل

و السود بالبيض قد تنحّوافهى بواديهم نوازل

مؤتمن القوم خان حتّى‌غالته من شرّه الغوائل

عاملكم بالخنا فأضحىو رأسه فوق رأس عامل

و حالف الذلّ بعد عزّو الدهر أحواله حوائل

يا مخجل البحر بالأيادىقد آن أن تفتح السواحل

نقدّس القدس من خباثأرجاس كفر غتم أراذل

و كان موضع المنصور على يمنة من سلك فى الشارع خارج باب زويلة. قال ابن عبد الظاهر: كانت للسودان حارة تعرف بهم تسمّى المنصورة خرّبها صلاح الدين، و أخذها خطلبا، فعمرها بستانا و حوضا، و هى إلى جانب الباب الحديد، يعنى الذى يعرف اليوم بالقوس عند رأس المنتجبية، فيما بينها و بين الهلالية، و قد حكر هذا البستان فى الأيام الظاهرية و بعضها يعنى المنصورة من جهة بركة الفيل إلى جانب بستان سيف الإسلام، و يسمّى الآن بحكر الغتمى، لأن الغتمى هذا كان شرع بستان سيف الإسلام فحكر فى هذه الجهة، و هى الآن أحكار الديوان السلطانى، و حكر الغتمى الذى كان بستان سيف الإسلام يعرف اليوم بدرب ابن البابا تجاه البندقدارية بجوار حمّام الفارقانى قريب من صليبة جامع ابن طولون.

حارة المصامدة: هذه الحارة عرفت بطائفة المصامدة أحد طوائف عساكر الخلفاء الفاطميين، و اختطّت فى وزارة المأمون البطائحى و

خلافة الآمر بأحكام اللّه بعد سنة خمس عشرة و خمسمائة. قال ابن عبد الظاهر: حارة المصامدة مقدّمهم عبد اللّه المصمودى. و كان المأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر بأحكام اللّه قدّمه و نوّه بذكره و سلّم له أبوابه للمبيت عليها، و أضاف إليه جماعة من أصحابه، فلما استخلص المصامدة و قرّبهم سيّر أبا بكر المصمودى ليختار لهم حارة، فتوجّه بالجماعة إلى اليانسية بالشارع، فلم يجد بها مكانا، و وجدها تضيق عنهم، فسيّر المهندسين لاختيار حارة لهم، فاتفقوا على بناء حارة ظاهر باب الحديد على يمنة الخارج على شاطىء بركة الفيل، فقال: بل تكون على يسرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹

الخارج و الفسح قدّامها إلى بركة الفيل. فبنيت الحارة على يسرة الخارج من الباب المذكور، و بنى بجانبها مسجد على زلاقة الباب المذكور، و بنى أبو بكر المصمودى مسجدا أيضا، و هذه فيما أعتقد هى الهلالية، و حذّر من بناء شىء قبالتها فى الفضاء الذى بينها و بين بركة الفيل لانتفاع الناس، بها و صار ساحل بركة الفيل من المسجد قبالة هذه الحارة إلى آخر حصن دويرة مسعود إلى الباب الحديد، و لم يزل ذلك إلى بعض أيام الخليفة الحافظ لدين اللّه. قال: و بنى فى صفّ هذه الحارة من قبليّها عدّة دور بحوانيت تحتها إلى أن اتّصل البناء بالمساجد الثلاثة الحاكميّة المعلّقة و القنطرة المعروفة بدار ابن طولون و بعدها بستان ذكر أنه كان فى جملة قاعات الدار المذكورة. قال: و أظنّ المساجد هى التى قبالة حوض الجاولى، قال: و بنى المأمون ظاهره حوضا و أجرى الماء له و ذلك قبالة مشهد محمد الأصغر و مشهد السيّدة سكينة. قال: و أظنّ هذا البستان هو الذى بنته شجر الدرّ بستانا و دارا و حمّامات قريب من مشهد السيّدة نفيسة، قال: و أمر المأمون بالنداء فى القاهرة مع مصر ثلاثة أيام بأنّ من كانت له دار فى الخراب أو مكان يعمر، و من عجز عن أن يعمره فليؤجّره من غير نقل شىء من أنقاضه، و من تأخّر بعد ذلك فلا حقّ له فى شىء منه و لا حكر يلزمه. و أباح تعمير ذلك جميعه بغير طلب بحقّ فيه، فطلب الناس كافة ما هو جار فى الديوان السلطانىّ و غيره، و عمروه حتّى صار البلدان لا يتخلّلهما داثر و لا دارس، و بنى فى الشارع يعنى خارج باب زويلة من الباب الجديد إلى الجبل عرضا و هو القلعة الآن. قال: و كان الخراب استولى على تلك الأماكن فى زمن المستنصر فى أيام وزارة البازورى حتّى أنه كان بنى حائطا يستر الخراب عن نظر الخليفة إذا توجّه من القاهرة إلى مصر، و بنى حائطا آخر عند جامع ابن طولون. قال: و عمر ذلك حتّى صار المتعيّشون بالقاهرة و المستخدمون يصلّون العشاء الأخيرة بالقاهرة و يتوجّهون إلى مساكنهم فى مصر لا يزالون فى ضوء و سرج و سوق موقود إلى باب الصفا و هو المعاصر الآن، و ذلك أنه يخرج من الباب الحديد الحاكمى على يمنة بركة الفيل إلى بستان سيف الإسلام و عدّة بساتين، و قبالة جميع ذلك حوانيت مسكونة عامرة بالمتعيّشين إلى مصر و المعاش مستمر الليل و النهار.

حارة الهلالية: ذكر ابن عبد الظاهر أنّها على يسرة الخارج من الباب الحديد الحاكمى.

حارة البيازرة: هذه الحارة خارج باب القنطرة على شاطىء الخليج من شرقيه فيما بين زقاق الكحل و باب القنطرة حيث المواضع التى تعرف اليوم ببركة جنادق و الكدّاشين، و إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰

قريب من حارة بهاء الدين، و اختطت هذه الحارة فى الأيام الآمرية، و ذلك أن زمام البيازرة شكا ضيق دار الطيور بمصر، و سأل أن يفسح للبيازرة فى عمارة حارة على شاطىء الخليج بظاهر القاهرة لحاجة الطيور و الوحوش إلى الماء، فأذن له فى ذلك، فاختطّوا هذه الحارة و جعلوا منازلهم مناظر على الخليج، و فى كلّ دار باب سرّ ينزل منه إلى الخليج و اتّصل بنا هذه الحارة بزقاق الكحل، فعرفت بهم و سميت بحارة البيازرة، واحدهم بازيار ، ثم إنّ المختار الصقلبى زمام القصر أنشأ بجوارها بستانا و بنى فيه منظرة عظيمة، و هذا البستان يعرف اليوم موضعه ببستان ابن صيرم خارج باب الفتوح، فلما كثرت العمائر فى حارة البيازرة أمر الوزير المأمون بعمل الأقنة لشىّ الطوب على شاطىء الخليج الكبير إلى حيث كان البستان الكبير الجيوشىّ الذى تقدّم ذكره فى ذكر مناظر الخلفاء و منتزهاتهم.

حارة الحسينية: عرفت بطائفة من عبيد الشراء يقال لهم الحسينية. قال المسبّحى فى حوادث سنة خمس و تسعين و ثلثمائة: و أمر بعمل

شونة ممّا يلى الجبل ملئت بالسنط و البوص و الحلفاء فابتدىء بعملها فى ذى الحجة سنة أربع و تسعين و ثلثمائة إلى شهر ربيع الأول سنة خمس و تسعين، فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد، و ظنّ كلّ من يتعلّق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أنّ هذه الشونة عملت لهم. ثمّ قويت الإشاعات و تحدّث العوام فى الطرقات أنها للكتّاب و أصحاب الدواوين و أسبابهم، فاجتمع سائر الكتّاب و خرجوا بأجمعهم فى خامس ربيع الأوّل و معهم سائر المتصرّفين فى الدواوين من المسلمين و النصارى إلى الرماحين بالقاهرة، و لم يزالوا يقبّلون الأرض حتّى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يدعون و يتضرّعون و يضجّون و يسألون العفو عنهم، و معهم رقعة قد كتبت عن جميعهم إلى أن دخلوا باب القصر الكبير و سألوا أن يعفى عنهم و لا يسمع فيهم قول ساع يسعى بهم، و سلّموا رقعتهم إلى قائد القوّاد الحسين بن جوهر، فأوصلها إلى أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه، فأجيبوا إلى ما سألوا، و خرج إليهم قائد القوّاد، فأمرهم بالانصراف و البكور لقراءة سجلّ بالعفو عنهم، فانصرفوا بعد العصر، و قرىء من الغد سجل كتب منه نسخة للمسلمين و نسخة للنصارى و نسخة لليهود بأمان لهم و العفو عنهم. و قال:

فى ربيع الآخر، و اشتدّ خوف الناس من أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه، فكتب ما شاء اللّه من الأمانات للغلمان الأتراك الخاصّية و زمامهم و أمرائهم من الحمدانية و الكجورية و الغلمان العرفان و المماليك و صبيان الدار و أصحاب الإقطاعات و المرتزقة و الغلمان الحاكميّة القدم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱

على اختلاف أصنافهم، و كتب أمان الجماعة من خدم القصر الموسومين بخدمة الحضرة بعد ما تجمّعوا و صاروا إلى تربة للعزيز باللّه و ضجوا بالبكاء و كشفوا رؤوسهم، و كتبت سجلّات عدّة بأمانات للديلم و الجبل و الغلمان الشرابية و الغلمان الريحانية و الغلمان البشارية و الغلمان المفرّقة العجم و غيرهم و النقباء و الروم المرتزقة، و كتبت عدّة أمانات للزويليين و البنادين و الطبّالين و البرقيين و العطوفيين و للعرافة الجوانية و الجودرية و للمظفّرية و للصنهاجيين و لعبيد الشراء الحسينية و للميمونية و للفرحية و أمان لمؤذنى أبواب القصر و أمانات لسائر البيارزة و الفهّادين و الحجّالين و أمانات أخر لعدّة أقوام، كلّ ذلك بعد سؤالهم و تضرّعهم. و قال: فى جمادى الآخرة و خرج أهل الأسواق على طبقاتهم كلّ يلتمس كتب أمان يكون لهم، فكتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق على طبقاتهم نسخة واحدة، و كان يقرأ جميعها فى القصر أبو علىّ أحمد بن عبد السميع العباسىّ، و تسلم أهل كل سوق ما كتب لهم، و هذه نسخة إحداها.

بعد البسملة: هذا كتاب من عبد اللّه و وليه المنصور أبى علىّ، الإمام الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين، لأهل مسجد عبد اللّه، أنكم من الآمنين بأمان اللّه، الملك الحق المبين، و أمان جدّنا محمد خاتم النبيين، و أبينا علىّ خير الوصيين، و آبائنا الذرّية النبويّة المهديين، صلى اللّه على الرسول و وصيه و عليهم أجمعين، و أمان أمير المؤمنين على النفس و الحال و الدم و المال، لا خوف عليكم، و لا تمتدّ يد بسوء إليكم إلّا فى حدّ يقام بواجبه، و حق يؤخذ بمستوجبه، فليوثق بذلك و ليعوّل عليه إن شاء اللّه تعالى. و كتب فى جمادى الآخرة سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة و الحمد للّه، و صلى اللّه على محمد سيد المرسلين، و على خير الوصيين، و على الأئمة المهديين ذرية النبوّة، و سلم تسليما كثيرا. و قال ابن عبد الظاهر:

فأمّا الحارات التى من باب الفتوح ميمنة و ميسرة للخارج منه، فالميمنة إلى الهليلجة، و الميسرة إلى بركة الأرمن برسم الريحانية، و هى الحسينية الآن، و كانت برسم الريحانية الغزاوية و المولدة و العجمان و عبيد الشراء، و كانت ثمان حارات و هى: حارة حامد، بين الحارتين، المنشية الكبيرة، الحارة الكبيرة، الحارة الوسطى، سوق الكبير، الوزيرية و للأجناد بظاهر القاهرة حارات و هى: حارة البيازرة و الحسينية جميع ذلك سكن الريحانية و سكن الجيوشية و العطوفية بالقاهرة، و بظاهرها الهلالية و الشوبك و حلب و الحبانية و المأمونية و حارة الروم و حارة المصامدة و الحارة الكبيرة و المنصورة الصغيرة و اليانسية و حارة أبى بكر و المقس و رأس التبان و الشارع. و لم يكن للأجناد فى هذا الوجه غير حارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲

عنتر للمؤمنين المترجلة، و كانت كل حارة من هذه بلدة كبيرة بالبزازين و العطارين و الجزارين و غيرهم، و الولاة لا يحكمون عليها، و لا يحكم فيها إلّا الأزمة و نوّابهم، و أعظم الجميع الحارة الحسينية التى هى آخر صف الميمنة إلى الهليلجة، و هى الحسينية الآن، لأنها كانت سكن الأرمن، فارسهم و راجلهم، و كان يجتمع بها قريب من سبعة آلاف نفس و أكثر من ذلك، و بها أسواق عدّة.

و قال فى موضع آخر: الحسينية منسوبة لجماعة من الأشراف الحسينيين، و كانوا فى الأيام الكاملية قدموا من الحجاز، فنزلوا خارج باب النصر بهذه الأمكنة و استوطنوها، و بنوا بها مدابغ صنعوا بها الأديم المشبه بالطائفى، فسمّيت بالحسينية، ثم سكنها الأجناد بعد ذلك و ابتنوا بها هذه الأبنية العظيمة، و هذا و هم، فإنه تقدّم أنّ جملة الطوائف فى الأيام الحاكمية الطائفة الحسينية، و تقدّم فيما نقله ابن عبد الظاهر أيضا أنّ الحسينية كانت عدّة حارات، و الأيام الكاملية، إنما كانت بعد الستمائة، و قد كانت الحسينية قبل ذلك بما ينيف عن مائتى سنة فتدبره.

و اعلم أنّ الحسينية شقتان، إحداهما ما خرج عن باب الفتوح، و طولها من خارج باب الفتوح إلى الخندق، و هذه الشقة هى التى كانت مساكن الجند فى أيام الخلفاء الفاطميين، و بها كانت الحارات المذكورة. و الشقة الأخرى ما خرج عن باب النصر و امتدّ فى الطول إلى الريدانية، و هذه الشقة لم يكن بها فى أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العيد تجاه باب النصر، و ما بين المصلى إلى الريدانية فضاء لا بناء فيه، و كانت القوافل إذا برزت تريد الحج تنزل هناك، فلما كان بعد الخمسين و أربعمائة و قدم بدر الجمالى أمير الجيوش، و قام بتدبير أمر الدولة الخليفة المنتصر بالله، أنشأ بحرى مصلى العيد خارج باب النصر تربة عظيمة، و فيها قبره هو و ولده الأفضل ابن أمير الجيوش، و أبو علىّ كتيفات بن الأفضل و غيره، و هى باقية إلى يومنا هذا. ثم تتابع الناس فى إنشاء الترب هناك حتى كثرت، و لم تزل هذه الشقة مواضع للترب، و مقابر أهل الحسينية و القاهرة إلى بعد السبعمائة، و لقد حدّثت عن المشيخة ممن أدرك، بأنّ ما بين مصلى الأموات التى خارج باب النصر و بين دار كهرداش التى تعرف اليوم بدار الحاجب؛ مكانا يعرف بالمراغة، معدّ لتمريغ الدّواب به، و أنّ ما فى صف المصلى من بحريها الترب فقط، و لم تعمر هذه الشقة إلا فى الدولة التركية، لا سيما لما تغلب التتر على ممالك الشرق و العراق، و جفل الناس إلى مصر، فنزلوا بهذه الشقة و بالشقة الأخرى، و عمروا بها المساكن، و نزل بها أيضا أمراء الدولة فصارت من أعظم عمائر مصر و القاهرة، و اتخذ الأمراء بها من بحريها فيما بين الريدانية إلى الخندق مناخات الجمال، و اصطبلات الخيل، و من ورائها الأسواق و المساكن العظيمة فى الكثرة، و صار أهلها يوصفون بالحسن، خصوصا لما قدمت الأويراتية.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۳

ذكر قدوم الأويراتية

و كان من خبر هذه الطائفة: أنّ بيدو بن طرغاى بن هولاكو لما قتل فى ذى الحجة، سنة أربع و تسعين و سبعمائة، و قام فى الملك من بعده على المغل الملك غازان محمود بن خر بنده بن إيغانى، تخوّف منه عدّة من المغل يعرفون بالأويراتية، و فرّوا عن بلاده إلى نواحى بغداد، فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاى، و جرت لهم خطوب آلت بهم إلى اللحاق بالفرات فأقاموا بها هنالك، و بعثوا إلى نائب حلب يستأذنوه فى قطع الفرات ليعبروا إلى ممالك الشام، فأذن لهم، و عدّوا الفرات إلى مدينة بهنسا، فأكرمهم نائبا و قام لهم بما ينبغى من العلوفات و الضيافات، و طولع الملك العادل زين الدين كتيفا، و هو يومئذ سلطان مصر و الشام بأمرهم، فاستشار الأمراء فيما يعمل بهم، فاتفق الرأى على استدعاء أكابرهم إلى الديار المصرية، و تفريق باقيهم فى البلاد الساحلية و غيرها من بلاد الشام، و خرج إليهم الأمير علم الدين سنجر الدوادارى، و الأمير شمس الدين سنقر الأعسر إلى دمشق، فجهزا أكابر الأويراتية نحو الثلاثمائة للقدوم على السلطان، و فرّقا من بقى منهم بالبقاع العزيزة و بلاد الساحل، و لما قرب الجماعة من القاهرة، و خرج الأمراء بالعسكر إلى لقائهم،

و اجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للنظر إليهم، فكان لـدخولهم يوم عظيم، و صاروا إلى قلعـة الجبل، فأنعم السـلطان على طرغاى مقـدّمهم بإمرة طبلخانـة، و على اللصوص بإمرة عشـرة، و أعطى البقية تقادما فى الحلقة و اقطاعات، و أجرى عليهم الرواتب، و أنزلوا بالحسـينية، و كانوا على غير الملـة الإسـلامية، فشق ذلك على الناس، و بلوامع ذلك منهم بأنواع من البلاء لسوء أخلاقهم و نفرة نفوسـهم و شدّة جبروتهم، و كان إذ ذاك بالقاهرة و مصـر غلاء كبير و فناء عظيم، فتضاعفت المضـرّة و اشـتدّ الأمر على الناس، و قال فى ذلك الأديب شمس الدين محمد بن دينار:

ربنا اكشف عنا العذاب فإنّاقد تلفنا فى الدولة المغلية

جاءنا المغل و الغلا فانصلقناو انطبخنا فى الدولة المغلية

و لما دخل شـهر رمضان من سـنة خمس و تسـعين و سـتمائة لم يصم أحد من الأويراتية، و قيل للسلطان ذلك، فأبى أن يكرههم على الإسـلام، و منع من معارضتهم و نهى أن يشوّش عليهم أحد، و أظهر العناية بهم، و كان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوّى بهم، فبالغ فى إكرامهم حتى أثر فى قلوب إمراء الدولـة منه احنـا و خشوا إيقـاعه بهم، فإن الأويراتيـة كانوا أهل جنس كتيفا، و كانوا مع ذلك صورا جميلـة، فافتتن بهم الأمراء و تنافسوا فى أولادهم من الـذكور و الإناث، و اتخـذوا منهم عدّة صيّروهم من جملة جندهم، و تعشّـقوهم، فكـان بعضـهم يسـتنشد من صـاحبه من اختص به و جعله محـل شـهوته، ثم ما قنع الأمراء ما كان منهم بمصـر حتى أرسـلوا إلى البلاد الشامية و استدعوا منهم طائفة كبيرة، فتكاثر نسلهم فى القاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۴

و اشـتدّت الرغبة من الكافة فى أولادهم على اختلاف الآراء فى الإناث و الذكور، فوقع التحاسد و التشاجر بين أهل الدولة إلى أن آل الأمر بسببهم و بأسباب أخر إلى خلع السلطان الملك العادل كتيفا من الملك، فى صفر سنة ست و تسعين و ستمائة.

فلما قام فى السـلطنة من بعـده الملك المنصور حسام الـدين لاجين، قبض على طرغاى مقدّم الأويراتية، و على جماعة من أكابرهم، و بعث بهم إلى الإسـكندرية فسـجنهم بها و قتلهم، و فرّق جميع الأويراتية على الأمراء، فاسـتخدموهم و جعلوهم من جندهم، فصار أهل الحسـينية لـذلك يوصـفون بـالحسن و الجمال البارع، و أدركنا من ذلك طرفا جيـدا، و كان للناس فى نكاح نسائهم رغبـة، و لآخرين شغف بأولادهم، و للّه در الشيخ تقىّ الدين السروجىّ إذ يقول من أبيات:

يا ساعى الشوق الذى مذ جرىجرت دموعى فهى أعوانه

خذ لى جوابا عن كتابى الذىإلى الحسينية عنوانه

فهى كما قد قيل وادى الحمىو أهلها فى الحسن غزلانه

أمشى قليلا و انعطف يسرةيلقاك درب طال بنيانه

و اقصد بصدر الدرب ذاك الذىبحسنه تحسّن جيرانه

سلم و قل يخشى مسن أى مسنىاشت حديثا طال كتمانه

و سل لى الوصل فإن قال بقفقل أوت قد طال هجرانه

و مـا برحوا يوصـفون بالزعـارة و الشـجاعة، و كـان يقـال لهم البـدورة، فيقال البـدر فلان، و البـدر فلان، و يعانون لباس الفتوّة و حمل السلاح، و يؤثر منهم حكايات كثيرة و أخبار جمة، و كانت الحسينية قد أربت فى عمارتها على سائر اخطاط مصر و القاهرة، حتى لقد قال لى ثقة ممن أدركت من الشـيخة: أنّه يعرف الحسينية عامرة بالأسواق و الدور، و سائر شوارعها كافة بازدحام الناس، و من الباعة و المـارة و أربـاب المعـايش، و أصـحاب اللهو و الملعوب، فيما بين الريدانيـة، محطـة المحمل يوم خروج الحاج من القاهرة، و إلى باب الفتوح، لا يسـتطيع الإنسـان أن يمرّ فى هـذا الشارع الطويل العريض طول هـذه المسافـة الكبيرة إلّا بمشـقة من الزحام، كما كنا نعرف شاعر بين القصـرين فيما أدركنا. و ما زال أمر الحسـينية متماسكا إلى أن كانت الحوادث و المحن منذ سنة ست و ثمانمائة و ما بعدها،

فخربت حاراتها، و نقضت مبانيها، و بيع ما فيها من الأخشاب و غيرها، و باد أهلها، ثم حدث بها بعد سنة عشرين و ثمانمائة آية من آيات اللّه تعالى، و ذلك أنّ فى أعوام بضع و ستين و سبعمائة، بدا بناحية برج الزيات فيما بين المطرية و سر ياقوس فساد الأرضة التى من شأنها العبث فى الكتب و الثياب، فأكلت لشخص نحو ألف و خمسمائة قتة دريس، فكنّا لا نزال نتعجب من ذلك، ثم فشت هناك و شنع عبثها فى سقوف الدور، و سرت حتى عاثت فى أخشاب سقوف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۵

الحسينية و غلات أهلها و سائر أمتعتهم، حتى أتلفت شيئا كثيرا، و قويت حتى صارت تأكل الجدران، فبادر أهل تلك الجهة إلى هدم ما قد بقى من الدور، خوفا عليها من الأرضة شيئا بعد شىء حتى قاربوا باب الفتوح و باب النصر، و قد بقى منها اليوم قليل من كثير يخاف إن استمرّت أحوال الإقليم على ما هى عليه من الفساد أن تدثر و تمحى آثارها، كما دثر سواها، و للّه در القائل:

و اللّه إن لم يداركها و قد رحلت‌بلمحة أو بلطف من لديه خفى

و لم يجد بتلافيها على عجل‌ما أمرها صائر إلّا إلى تلف

حارة حلب: هذه الحارة خارج باب زويلة، تعرف اليوم بزقاق حلب، و كانت قديما من جملة مساكن الأجناد. قال ياقوت فى باب حلب: الأوّل حلب المدينة المشهورة بالشام، و هى قصبة نواحى قنسرين و العواصم اليوم، الثانى حلب الساجود من نواحى حلب أيضا الثالث كفر حلب من قراها أيضا، الرابع محلة بظاهر القاهرة بالشارع من جهة الفسطاط. و اللّه تعالى أعلم.

ذكر اخطاط القاهرة و ظواهرها

قد تقدّم ذكر ما يطلق عليه حارة من الأخطاط، و نريد أن نذكر من الخطط ما لا يطلق عليه اسم حارة و لا درب، و هى كثيرة، و كل قليل تتغير أسماؤها، و لا بدّ من إيراد ما تيسر منها.

خط خان الوراقة: هذا الخط فيما بين حارة بهاء الدين و سويقة أمير الجيوش، و فى شرقيّة سوق المرجلين، و هو يشتمل على عدّة مساكن، و به طاحون، و كان موضعه قديما اصطبل الصبيان الحجرية لموقف خيولهم كما تقدّم، فلما زالت الدولة الفاطمية اختط مواضع للسكنى و قد شمله الخراب.

خط باب القنطرة: هذا الخط كان يعرف قديما بحارة المرتاحية و حارة الفرحية و الرماحين، و كان ما بين الرماحين الذى يعرف اليوم بباب القوس، داخل باب القنطرة، و بين الخليج، فضاء لا عمارة فيه، بطول ما بين باب الرماحين إلى باب الخوخة، و إلى باب سعادة، و إلى باب الفرج، و لم يكن إذ ذاك على حافة الخليج عمائر البتة، و إنما العمائر من جانب الكافورى و هى مناظر اللؤلؤة و ما جاورها من قبليها إلى باب الفرج، و تخرج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۶

العامّة عصريات كل يوم إلى شاطىء الخليج الشرقى تحت المناظر للتفرّج، فإن بر الخليج الغربىّ كان فضاء ما بين بساتين و برك، كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ثمانين و خمسمائة: فى شوّال قطع النيل الجسور و اقتلع الشجر، و غرّق النواحى و هدم المساكن، و أتلف كثيرا من النساء و الأطفال، و كثر الرخاء بمصر، فالقمح كل مائة أردب بثلاثين دينارا، و الخبز البايت ستة أرطال بربع درهم، و الرطب الأمهات ستة أرطال بدرهم، و الموز ستة أرطال بدرهم، و الرمان الجيد مائة حبة بدرهم، و الحمل الخيار بدرهمين، و التين ثمانية أرطال بدرهم، و العنب ستة أرطال بدرهم فى شهر بابه بعد انقضاء موسمه المعهود بشهرين، و الياسمين خمسة أرطال بدرهم، و آل أمر أصحاب البساتين إلى أن لا يجمعوا الزهر لنقص ثمنه عن أجرة جمعه، و ثمر الحناء عشرة أرطال بدرهم، و البسرة عشرة أرطال بدرهم من جيده، و المتوسط خمسة عشر رطلا بدرهم، و ما فى مصر إلّا متسخط بهذه النعمة.

قال: و لقد كنت فى خليج القاهرة من جهة المقس لانقطاع الطرق بالمياه، فرأيت الماء مملوء سمكا، و الزيادة قد طبقت الدنيا، و النخل مملوء تمرا، و المكشوف من الأرض مملوء ريحانا و بقولا، ثم نزلت فوصلت إلى المقس، فوجدت من القلعة التى بالمقس إلى منية السيرج غلالا قد ملأت صبرها الأرض، فلا يدرى الماشى أين يضع رجله، متصلا عرض ذلك إلى باب القنطرة، و على الخليج عند باب القنطرة من مراكب الغلة ما قد ستر سواحله و أرضه. قال: و دخلت البلد فرأيت فى السوق من الأخباز و اللحوم و الألبان و الفواكه ما قد ملأها، و هجمت منه العين على منظر ما رأيت قبله مثله. قال: و فى البلد من البغى و من المعاصى و من الجهر بها و من الفسق بالزنا و اللواط و من شهادة الزور و من مظالم الأمراء و الفقهاء، و من استحلال الفطر فى نهار رمضان و شرب الخمر فى ليله ممن يقع عليه اسم الإسلام، و من عدم النكير على ذلك جميعه ما لم يسمع و لم يعهد مثله، فلا حول و لا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم، و ظفر بجماعة مجتمعين فى حارة الروم يتغدّون فى قاعة فى نهار رمضان، فما كلموا، و بقوم مسلمين و نصارى اجتمعوا على شرب خمر فى ليل رمضان، فما أقيم فيهم حدّ، و خط باب القنطرة فيما بين حارة بهاء الدين و سويقة أمير الجيوش و ينتهى من قبليه إلى خط بين السورين.

خط بين السورين: هذا الخط من حدّ باب الكافورى فى الغرب إلى باب سعادة، و به الآن صفان من الأملاك، أحدهما مشرف على الخليج، و الآخر مشرف على الشارع المسلوك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۷

فيه، من باب القنطرة إلى باب سعادة، و يقال لهذا الشارع بين السورين، تسمية للعامة بها فاشتهر بذلك، و كان فى القديم بهذا الخط البستان الكافورى، يشرف عليه بحده الغربى ثمة مناظر اللؤلؤة، و قد بقيت منها عقود مبنية بالآجر، يمرّ السالك فى هذا الشارع من تحتها، ثم مناظر دار الذهب، و موضعها الآن دار تعرف بدار بهادر الأعسر، و على بابها بئر يستقى منها الماء فى حوض يشرب منه الدواب، و يجاورها قبو معقود يعرف بقبو الذهب، و هو من بقية مناظر دار الذهب، و بحدّ دار الذهب منظرة الغزالة، و هى بجوار قنطرة الموسكى، و قد بنى فى مكانها ربع يعرف إلى اليوم بربع غزالة، و دار ابن قرفة، و قد صار موضعها جامع ابن المغربى، و حمام ابن قرفة، و بقى منها البئر التى يستقى منها إلى اليوم بحمام السلطان، و عدّة دور كلها فيما يلى شقة القاهرة من صف باب الخوخة، و كان ما بين المناظر و الخليج براحا، و لم يكن شىء من هذه العمائر التى بحافة الخليج اليوم البتة، و كان الحاكم بأمر اللّه فى سنة إحدى و أربعمائة منع من الركوب فى المراكب بالخليج، و سدّ أبواب القاهرة التى تلى الخليج، و أبواب الدور التى هناك، و الطاقات المطلة عليه على ما حكاه المسبحىّ.

و قال ابن المأمون فى حوادث سنة ست عشرة و خمسمائة، و لما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة و المقام بها مدّة النيل على الحكم الأوّل، يعنى قبل أيام أمير الجيوش بدر و ابنه الأفضل، و إزالة ما لم تكن العادة جارية عليه من مضايقة اللؤلؤة بالبناء، و أنها صارت حارات تعرف بالفرحية و السودان و غيرهما، أمر حسام الملك متولى بابه بإحضار عرفاء الفرحية و الإنكار عليهم فى تجاسرهم على ما استجدّوه و أقدموا عليه، فاعتذروا بكثرة الرجال و ضيق الأمكنة عليهم، فبنوا لهم قبابا يسيرة، فتقدّم يعنى أمر الوزير المأمون إلى متولى الباب بالإنعام عليهم و على جميع من بنى فى هذه الحارة بثلاثة آلاف درهم، و أن يقسم بينهم بالسوية، و يأمرهم بنقل قسمهم، و أن يبنو لهم حارة قبالة بستان الوزير، يعنى ابن المغربىّ، خارج الباب الجديد من الشارع، خارج باب زويلة.

قال: و تحوّل الخليفة إلى اللؤلؤة بحاشيته، و أطلقت التوسعة فى كل يوم لما يخص الخاص و الجهات و الأستاذين من جميع الأصناف، و انضاف إليها ما يطلق كل ليلة عينا و ورقا و أطعمة للبائتين بالنوبة برسم الحرس بالنهار و السهر فى طول الليل، من باب قنطرة بهادر إلى مسجد الليمونة من البرين، من صبيان الخاص و الركاب و الرهجية و السودان و الحجاب، كل طائفة بنقيبها، و العرض من متولى الباب واقع بالعدة فى طرفى كل ليلة، و لا يمكن بعضهم بعضا من المنام و الرهجية تخدم على الدوام.

خط الكافورى: هذا الخط كان بستانا من قبل بناء القاهرة و تملك الدولة الفاطمية لديار مصر، أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج بن

جف، الملقب بالإخشيد، و كان بجانبه ميدان فيه الخيول، و له أبواب من حديد، فلما قدم جوهر القائد إلى مصر، جعل هذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۸

البستان من داخل القاهرة، و عرف ببستان كافور، و قيل له فى الدولة الفاطمية البستان الكافورى، ثم اختط مساكن بعد ذلك.

قال ابن زولاق فى كتاب سيرة الإخشيد: و لست خلون من شوّال سنة ثلاثين و ثلثمائة، سار الإخشيد إلى الشام فى عساكره، و استخلف أخاه أبا المظفر بن طغج. قال:

و كان يكره سفك الدماء، و لقد شرع فى الخروج إلى الشام فى آخر سفراته، و سار العسكر، و كان نازلا فى بستانه فى موضع القاهرة اليوم، فركب للمسير، فساعة خرج من باب البستان اعترضه شيخ يعرف بمسعود الصابونى، يتظلّم إليه، فنظر له، فتطير به و قال: خذوه ابطحوه، فبطح و ضرب خمس عشرة مقرعة و هو ساكت. فقال الإخشيد: هو ذا يتشاطر.

فقال له كافور: قد مات. فانزعج و استقال سفرته و عاد لبستانه، و أحضر أهل الرجل و استحلهم و أطلق لهم ثلاثمائة دينار، و حمل الرجل إلى منزله ميتا، و كانت جنازته عظيمة، و سافر الإخشيد فلم يرجع إلى مصر، و مات بدمشق. و قال فى كتاب تتمة كتاب أمراء مصر للكندى: و كان كافور الإخشيدى أمير مصر يواصل الركوب إلى الميدان و إلى بستانه فى يوم الجمعة و يوم الأحد و يوم الثلاثاء، قال: و فى غد هذا اليوم، يعنى يوم الثلاثاء، مات الأستاذ كافور الإخشيدى، لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع و خمسين و ثلثمائة، و يوم مات الأستاذ كافور الإخشيدى، خرج الغلمان و الجند إلى المنظرة و خرّبوا بستان كافور، و نهبوا دوابه و طلبوا مال البيعة.

و قال ابن عبد الظاهر: البستان الكافورى هو الذى كان بستانا لكافور الإخشيدى، و كان كثيرا ما يتنزه به، و بنيت القاهرة عنده، و لم يزل إلى سنة إحدى و خمسين و ستمائة، فاختطت البحرية و العزيزية به اصطبلات، و أزيلت أشجاره. قال: و لعمرى إنّ خرابه كان بحق، فإنه كان عرف بالحشيشة التى يتناولها الفقراء، و التى تطلع به يضرب بها المثل فى الحسن. قال شاعرهم نور الدين أبو الحسن على بن عبد اللّه بن على الينبعى لنفسه:

ربّ ليل قطعته و نديمىشاهدى هو مسمعى و سميرى

مجلسى مسجد و شربى من خضراء تزهو بحسن لون نضير

قال لى صاحبى و قد فاح منهانشرها مزريا بنشر العبير

أمن المسك؟ قلت ليست من المسك و لكنّها من الكافورى

و قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد بن محمد الأسدىّ الدمشقىّ، المعروف باليغمورى: أنشدنى الإمام العالم المعروف بجموع الفضائل، زين الدين أبو عبد اللّه محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الحنفى لنفسه، و هو أوّل من عمل فيها:

و خضراء كافورية بات فعلهاألبابنا فعل الرحيق المعتّق

إذ نفحتنا من شذاها بنفحةتدبّ لنا فى كل عضو و منطق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۹ غنيت بها عن شرب خمر معتّقو بالدلق عن لبس الجديد المزوّق

و أنشدنى الحافظ جلال الدين أبو المعز ابن أبى الحسن بن أحمد بن الصائغ المغربىّ لنفسه:

عاطنى خضراء كافوريةيكتب الخمر لها من جندها

أسكرتنا فوق ما تسكرناو ربحنا أنفسا من حدّها

و أنشدنى لنفسه:

قم عاطنى خضراء كافوريةقامت مقام سلافة الصهباء

يغدو الفقير إذا تناول درهمامنها له تيه على الأمراء

و تراه من أقوى الورى فإذا خلامنها عددناه من الضعفاء

و أنشدنى من لفظه لنفسه أيضا:

عاطيت من أهوى و قد زارنى كالبدر وافى ليلة البدر

و البحر قد مدّ على متنه‌شعاعه جسرا من التبر

خضراء كافورية رنحت‌أعطافه من شدّة السكر

يفعل منها درهم فوق ماتفعل أرطال من الخمر

فراح نشوانا بها غافلالا يعرف الحلو من المرّ

قال و قد نال بها أمره‌فبات مردودا إلى أمرى

قتلتنى قلت نعم سيدى‌قتلين بالسكر و بالبحر

قال: و أمر السلطان الملك الصالح، يعنى نجم الدين أيوب، الأمير جمال الدين أبا الفتح موسى بن يغمور، أن يمنع من يزرع فى الكافورى من الحشيشة شيئا، فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئا كثيرا، فأمر بأن يجمع فجمع و أحرق. فأنشدنى فى الواقعة الشيخ الأديب الفاضل شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف لنفسه، و ذلك فى ربيع الأوّل سنة ثلاث و أربعين و ستمائة:

صرف الزمان و حادث المقدورتركا نكير الخطب غير نكير

ما سالما حيا و لا ميتا و لاطودا سما بل دكدكا بالطور

لهفى و هل يجدى التهلف فى ذرى‌طرب الغنىّ و أنس كلّ فقير

أخت المذلة لارتكاب محرّم‌قطب السرور بأيسر الميسور

جمعت محاسن ما اجتمعن لغيرهامن كلّ شىء كان فى المعمور

 منها طعام و الشراب كلاهماو البقل و الريحان وقت حضور

هى روضة إن شئتها و رياضة‌يغنى بها عن روضة و خمور

ما فى المدامة كلّها منها سوى‌إثم المدام و صحبة المخمور

كلا و نكهة خمرة هى شاهدعدل على حدّ و جلد ظهور

أسفا لدهر غالها و لربماظلّ الكريم بذلة الماسور

جمعت له الأشهاد كرما أخضراكعروسة تجلى بخضر حرير

زفوا لها نارا فخلنا جنة‌برزت لنا قد زوّجت بالنور

ثم اكتست منها غلالة صفرة‌فى خضرة مقرونة بزفير

فكأنها لهب اللظى فى خضرة‌منها و طرف رمادها المنثور

جارى النضار على مذاب زمرّدتركا فتيت المسك فى الكافورى

للّه درك حية أو ميتة‌من منظر بهج بغير نظير

أوذيت غير ذميمة فسقى الحياتربا تضمّن منك ذوب عبير

عندى لذكرك ما بقيت مخلداسح الدموع و نفثة المصدور

ذكر كافور الإخشيدى

كان عبدا أسود خصيا، مثقوب الشفة السفلى، بطينا قبيح القدمين، ثقيل البدن، جلب إلى مصر و عمره عشر سنين فما فوقها، فى سنة

عشر و ثلثمائة، فلما دخل إلى مصر تمنى أن يكون أميرها، فباعه الذى جلبه لمحمد بن هاشم، أحد المتقبلين للضياع، فباعه لابن عباس الكاتب، فمرّ يوما بمصر على منجّم فنظر له فى نجومه و قال له: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، و تبلغ معه مبلغا عظيما، فدفع إليه درهمين لم يكن معه سواهما، فرمى بهما إليه و قال: أبشّرك بهذه البشارة و تعطينى درهمين؟ ثم قال له: و أزيدك، أنت تملك هذه البلد و أكثر منه، فاذكرنى.

و اتفق أنّ ابن عباس الكاتب أرسله بهدية يوما إلى الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد، و هو يومئذ أحد قوّاد تكين أمير مصر، فأخذ كافورا و ردّ الهدية، فترقّى عنده فى الخدم حتى صار من أخص خدمه.

و لما مات الإخشيد بدمشق، ضبط كافور الأمور و دارى الناس و وعدهم إلى أن سكنت الدهماء، بعد أن اضطرب الناس، و جهز أستاذه و حمله إلى بيت المقدس، و سار إلى مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۱

فدخلها. و قد انعقد الأمر بعد الإخشيد لابنه أبى القاسم أونوجور ، فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من دمشق بأنّ سيف الدولة علىّ بن حمدان أخذها و سار إلى الرملة، فخرج كافور بالعساكر و ضرب الدبابيد، و هى الطبول، على باب مضربه فى وقت كل صلاة، و سار فظفر و غنم ثم قدم إلى مصر و قد عظم أمره، فقام بخلافة أو نوجور، فخاطبه القوّاد بالأستاذ، و صار القوّاد يجتمعون عنده فى داره فيخلع عليهم و يحملهم و يعطيهم، حتى أنه وقع لجانك أحد القوّاد الإخشيدية فى يوم بأربعة عشر ألف دينار، فما زال عبدا له حتى مات، و انبسطت يده فى الدولة، فعزل و ولى و أعطى و حرم، و دعى له على المنابر كلها إلّا منبر مصر و الرملة و طبرية، ثم دعى له بها فى سنة أربعين و ثلثمائة، و صار يجلس للمظالم فى كل سبت، و يحضر مجلسه القضاة و الوزراء و الشهود و وجوه البلد، فوقع بينه و بين الأمير أونوجور، و تحرّر كل منهما من الآخر، و قويت الوحشة بينهما، و افترق الجند، فصار مع كل واحد طائفة، و اتفق موت أونوجور فى ذى القعدة سنة تسع و أربعين و ثلثمائة، و يقال أنه سمّه. فأقام أخاه أبا الحسن علىّ بن الإخشيد من بعده، و استبدّ بالأمر دونه، و أطلق له فى كل سنة أربعمائة ألف دينار، و استقل بسائر أحوال مصر و الشام، ففسد ما بينه و بين الأمير أبى الحسن علىّ، فضيّق عليه كافور و منع أن يدخل عليه أحد، فاعتل بعلة أخيه و مات، و قد طالت به فى محرّم سنة خمس و خمسين و ثلثمائة.

فبقيت مصر بغير أمير أياما لا يدعى فيها سوى للخليفة المطيع فقط، و كافور يدبر أمر مصر و الشام فى الخراج و الرجال، فلما كان لأربع بقين من المحرّم المذكور، أخرج كافور كتابا من الخليفة المطيع بتقليده بعد علىّ بن الإخشيد، فلم يغير لقبه بالأستاذ، و دعى له على المنبر بعد الخليفة، و كانت له فى أيامه قصص عظام، و قدم عسكر من المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ من المغرب إلى الواحات، فجهّز إليه جيشا أخرجوا العسكر و قتلوا منهم، و صارت الطبول تضرب على بابه خمس مرّات فى اليوم و الليلة، و عدّتها مائة طبلة من نحاس. و قدمت عليه دعاة المعز لدين اللّه من بلاد المغرب يدعونه إلى طاعته، فلاطفهم، و كان أكثر الإخشيدية و الكافورية و سائر الأولياء و الكتّاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز، و قصر مدّ النيل فى أيامه. فلم يبلغ تلك السنة سوى اثنى عشر ذراعا و أصابع، فاشتدّ الغلاء و فحش الموت فى الناس، حتى عجزوا عن تكفينهم و مواراتهم، و أرجف بمسير القرامطة إلى الشام، و بدت غلمانه تتنكر له، و كانوا ألفا و سبعين غلاما تركيا سوى الروم و المولدين، فمات لعشر بقين من جمادى الأوّل سنة سبع و خمسين و ثلاثمائة، عن ستين سنة، فوجد له من العين سبعمائة ألف دينار، و من الورق و الحلى و الجوهر و العنبر و الطيب و الثياب و الآلات و الفرش و الخيام و العبيد و الجوارى و الدواب ما قوّم بستمائة ألف ألف دينار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۲

و كانت مدّة تدبيره أمر مصر و الشام و الحرمين إحدى و عشرين سنة و شهرين و عشرين يوما، منها منفردا بالولاية بعد أولاد أستاذه سنتان و أربعة أشهر و تسعة أيام، و مات عن غير وصية و لا صدقة و لا مأثرة يذكر بها، و دعى له على المنابر بالكنية التى كناه بها الخليفة، و هى أبو المسك، أربع عشرة جمعة، و بعده اختلت مصر و كادت تدمر حتى قدمت جيوش المعز على يد القائد جوهر،

فصارت مصر دار خلافة، و وجد على قبره مكتوب:

ما بال قبرك يا كافور منفردابصائح الموت بعد العسكر اللجب

يدوس قبرك من أدنى الرجال و قدكانت أسود الشرى تخشاك فى الكثب

و وجد أيضا مكتوب:

انظر إلى غير الأيام ما صنعتأفنت أناسا بها كانوا و ما فنيت

دنياهم أضحكت أيام دولتهمحتى إذا فنيت ناحت لهم و بكت

خط الخرشتف: هذا الخط فيما بين حارة برجوان و الكافورى، و يتوصل إليه من بين القصرين، فيدخل له من قبو يعرف بقبو الخرشتف، و هو الذى كان يعرف قديما بباب التبانين، و يسلك من الخرشتف إلى خط باب سرّ المارستان، و إلى حارة زويلة، و كان موضع الخرشتف فى أيام الخلفاء الفاطميين ميدانا بجوار القصر الغربىّ و البستان الكافورىّ، فلما زالت الدولة اختطّ و صار فيه عدّة مساكن، و به أيضا سوق، و إنما سمّى بالخرشتف لأنّ المعز أوّل من بنى فيه الاصطبلات بالخرشتف، و هو ما يتحجر مما يوقد به على مياه الحمامات من الأزبال و غيرها. قال ابن عبد الظاهر: الحارة المعروفة بالخرشتف كانت قديما ميدانا للخلفاء، فلما ورد المعز بنوا به اصطبلات و كذلك القصر الغربىّ، و قد كان النساء اللاتى أخرجن من القصر يسكنّ بالقصر النافعى، فامتدّت الأيدى إلى طوبه و أخشابه، و بيعت و تلاشى حاله و بنى به و بالميدان اصطبلات و دويرات بالخرشتف، فسمى بذلك، ثم بنى به الأدر و الطواحين و غيرها، و ذلك بعد الستمائة، و أكثر أراضى الميدان حكر للأدر القطبية.

خط اصطبل القطبية : هذا الخط أيضا من جملة أراضى الميدان، و لما انتقلت القاعة التى كانت سكن أخت الحاكم بأمر اللّه بعد زوال الدولة الفاطمية، صارت إلى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب، فاستقرّ بها هو و ذريته، فصار يقال لها الدار القطبية، و اتخذ هذا المكان اصطبلا لهذه القاعة، فعرف باصطبل القطبية، ثم لما أخذ الملك المنصور قلاوون القاعة القطبية من مونسة خاتون، المعروفة بدار إقبال ابنة الملك العادل أبى بكر ابن أيوب، أخت المفضل قطب الدين أحمد المعروفة

بخاتون القطبية، و عملها المارستان المنصورى، بنى فى هذا الإصطبل المساكن، و صارت من جملة الخطط المشهورة، و يتوصل إليه من وسط سوق الخرشتف، و يسلك فيه من آخره إلى المدرسة الناصرية و المدرسة الظاهرية المستجدّة، و عمل على أوّله دربا يغلق و هو خط عامر.

خط باب سر المارستان: هذا الخط يسلك إليه من الخرشتف، و يصير السالك فيه إلى البندقانيين، و بعض هذا الخط و هو جله و معظمه من جملة اصطبل الجميزة الذى كان فيه خيول الدولة الفاطمية، و قد تقدّم ذكره. و موضع باب سر المارستان المنصورى هو باب الساباط، فلما زالت الدولة و اختط الكافورى و الخرشتف و اصطبل القطبية، صار هذا الخط واقعا بين هذه الأخطاط، و نسب إلى باب سر المارستان لأنه من هنالك، و أدركت بعض هذه الخطة و هى خراب، ثم أنشأ فيه القاضى جمال الدين محمود القيصرى محتسب القاهرة فى أيام ولايته. نظر المارستان، فى سنة إحدى و ثمانين و سبعمائة، الطاحون العظيمة ذات الأحجار، و الفرن و الربع، علوه فى المكان الخراب، و جعل ذلك جاريا فى جملة أوقاف المارستان المنصورى.

خط بين القصرين: هذا الخط أعمر أخطاط القاهرة و أنزهها، و قد كان فى الدولة الفاطمية فضاء كبيرا و براحا واسعا، يقف فيه عشرة آلاف من العسكر ما بين فارس و راجل، و يكون به طرادهم و وقوفهم للخدمة، كما هو الحال اليوم فى الرميلة تحت قلعة الجبل، فلما انقضت أيام الدولة الفاطمية و خلت القصور من أهاليها، و نزل بها أمراء الدولة الأيوبية و غيروا معالمها، صار هذا الموضع سوقا مبتذلا بعد ما كان ملاذا مبجلا، و قعد فيه الباعة بأصناف المأكولات، من اللحمان المتنوّعة و الحلاوات المصنعة و الفاكهة و غيرها، فصار منتزها تمر فيه أعيان الناس و أماثلهم فى الليل مشاة، لرؤية ما هناك من السرج و القناديل الخارجة عن الحدّ فى الكثرة، و لرؤية ما

تشتهى الأنفس و تلذ الأعين، مما فيه لذة للحواس الخمس، و كانت تعقد فيه عدّة حلق لقراءة السير و الأخبار و إنشاد الأشعار، و التفنن فى أنواع اللعب و اللهو، فيصير مجمعا لا يقدّر قدره، و لا يمكن حكايۀ و صفه، و سأتلو عليك من أنباء ذلك ما لا تجده مجموعا فى كتاب.

قال المسبّحى فى حوادث جمادى الآخرة سنۀ خمس و تسعين و ثلثمائۀ: و فيه منع كل أحد ممن يركب مع المكاريين أن يدخل من باب القاهرة راكبا، و لا المكاريين أيضا بحميرهم، و لا يجلس أحد على باب الزهومۀ من التجار و غيرهم، و لا يمشى أحد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۴

ملاصق القصر من باب الزهومۀ إلى أقصى باب الزمرّد ، ثم عفى عن المكاريين بعد ذلك و كتب لهم أمان قرىء.

و قال ابن الطوبر: و يبيت خارج باب القصر كل ليلۀ خمسون فارسا، فإذا أذّن بالعشاء الآخرة داخل القاعۀ، و صلّى الإمام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين و غيرهم، وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولۀ ابن الكركندى، فإذا علم بفراغ الصلاۀ أمر بضرب النوبات، من الطبل و البوق و توابعهما من عدّة وافرة بطريق مستحسنۀ ساعۀ زمانيۀ، ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمۀ، فيقول: أمير المؤمنين يردّ على سنان الدولۀ السلام، فيصقع و يغرس حربۀ على الباب ثم يرفعها بيده، فإذا رفعها أغلق الباب و سار إلى حوالى القصر سبع دورات، فإذا انتهى ذلك جعل على الباب البياتين و الفرّاشين المقدّم ذكرهم، و أفضى المؤذنون إلى خزانتهم هناك، و رميت السلسلۀ عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين، فينقطع المار من ذلك المكان إلى أن تضرب النوبۀ سحرا قريب الفجر، فتنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلۀ. انتهى.

و أخبرنى المشيخۀ أنه ما زال الرسم إلى قريب، أنه لا يمرّ بشارع بين القصرين حمل تبن و لا حمل حطب، و لا يستطيع أحد أن يسوق فرسا فيه، فإن ساق أحد أنكر عليه و خرق به.

و قال ابن سعيد فى كتاب المغرب: و المكان الذى كان يعرف فى القاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانىّ، لأنّ هناك ساحۀ متسعۀ للعسكر و المتفرّجين ما بين القصرين، و لو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمۀ القدر كاملۀ الهمۀ السلطانيۀ.

و قال ياقوت: و بين القصرين كان ببغداد بباب الطاق، يراد به قصر أسماء بنت المنصور، و قصر عبد اللّه بن المهدى، و كان يقال لهما أيضا بين القصرين. و بين القصرين بمصر و القاهرة، و هما قصران متقابلان بينهما طريق العامّۀ و السوق، عمرهما ملوك مصر المغاربۀ المتعلونۀ، الذين ادّعوا أنهم علويّۀ.

و حدّثنى الفاضل الرئيس تقىّ الدين عبد الوهاب، ناظر الخواص الشريفۀ، ابن الوزير الصاحب فخر الدين عبد اللّه بن أبى شاكر، أنه كان يشترى فى كل ليلۀ من بين القصرين بعد العشاء الآخرة، برسم الوزير الصاحب فخر الدين عبد اللّه بن خصيب، من الدجاج المطجن و القطا و فراخ الحمام و العصافير المقلاۀ بمبلغ مائتى درهم، و خمسين درهما فضۀ، يكون عنها يومئذ نحو من اثنى عشر مثقالا من الذهب، و أنّ هذا كان دأبه فى كل ليلۀ، و لا يكاد مثل هذا مع كثرته لرخاء الأسعار يؤثر نقصه، فيما كان هنالك من هذا الصنف، لعظم ما كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۵

يوضع فى بين القصرين من هذا النوع و غيره، و لقد أدركنا فى كل ليلۀ من بعد العصر يجلس الباعۀ بصنف لحمان الطيور التى تقلى صفا، من باب المدرسۀ الكاملية إلى باب المدرسۀ الناصريۀ، و ذلك قبل بناء المدرسۀ الظاهريۀ المستجدّۀ، فيباع لحم الدجاج المطجن، و لحم الأوز المطجن، كلّ رطل بدرهم، و تارۀ بدرهم و ربع، و تباع العصافير المقوّۀ كل عصفور بفلس، حسابا عن كل أربعۀ و عشرين بدرهم، و المشيخۀ تقول إنّا حينئذ فى غلاء، لكثرۀ ما تصف من سعۀ الأرزاق و رخاء الأسعار فى الزمن الذى أدركوه قبل الفناء الكبير، و مع ذلك فلقد وقع فى سنۀ ست و ثمانين شىء لا يكاد يصدّقه اليوم من لم يدرك ذلك الزمان، و هو أنّه: كان لنا من جيراننا بحارۀ برجوان، شخص يعانى الجنديۀ، و يركب الخيل، فبلغنى عن غلامه أنّه خرج فى ليلۀ من ليالى رمضان، و كان رمضان

إذ ذاك فى فصل الصيف، و معه رقيق له من غلمان الخيل، و أنهما سرقا من شارع بين القصرين، و ما قرب منه، بضعا و عشرين بطيخة خضراء، و بضعا و ثلاثين شقفة جبن، و الشقفة أبدا من نصف رطل إلى رطل، فما منّا إلّا من تعجب من ذلك، و كيف تهيأ لاثنين فعل هذا، و حمل هذا القدر يحتاج إلى دابتين، إلى أن قدّر اللّه تعالى لى بعد ذلك أن اجتمعت بأحد الغلامين المذكورين، و سألته عن ذلك فاعترف لى به، قلت: صف لى كيف عملتما، فذكر أنهما كانا يقفان على حانوت الجبان، أو مقعد البطيخىّ، و كان إذ ذاك يعمل من البطيخ فى بين القصرين مرصّات كثيرة جدّا، فى كل مرصّ ما شاء اللّه من البطيخ، قال: فإذا وقفنا قلب أحدنا بطيخة و قلب الآخر أخرى، فلشدّة ازدحام الناس يتناول أحدنا بطيخته بخفة يد و صناعة و يقوم، فلا يفطن به. أو يقلب أحدنا و رفيقه قائم من ورائه، و البياع مشغول البال لكثرة ما عليه من المشترين، و ما فى ذلك الشارع من غزير الناس، فيحذفها من تحته و هو جالس القرفصا، فإذا أحسّ بها رفيقه تناولها و مرّ. و كذلك كان فعلهم مع الجبانين، و كانوا كثيرا، فانظر- أعزك اللّه- إلى بضاعة يسرق منها مثل هذا القدر و لا يفطن به من كثرة ما هنالك من البضائع و لعظم الخلق.

و لقد حدّثنى غير واحد ممن قدم مع قاضى القضاة عماد الدين أحمد الكركىّ، أنّه لما قدموا من الكرك فى سنة اثنين و تسعين و سبعمائة، كادوا يذهلون عند مشاهدة بين القصرين.

و قال لى ابنه محب الدين محمد: أوّل ما شاهدّت بين القصرين، حسبت أنّ زفة أو جنازة كبيرة تمرّ من هنالك، فلما لم ينقطع المارة، سألت ما بال الناس مجتمعين للمرور من ههنا؟

فقيل لى: هذا دأب البلد دائما، و لقد كنا نسمع أنّ من الناس من يقوم خلف الشاب أو المرأة عند التمشى بعد العشاء بين القصرين و يجامع حتى يقضى و طره و هما ماشيان، من غير أن يدركهما أحد لشدّة الزحام، و اشتغال كل أحد بلهوه. و ما برحت أجد من الازدحام مشقة، حتى أفادنى بعض من أدركت أنّ من الرأى فى المشى أن يأخذ الإنسان فى مشيه نحو شماله، فإنه لا يجد من المشقة كما يجد غيره من الزحام، فاعتبرت ذلك آلاف مرّات فى عدّة سنين، فما أخطأ معى، و لقد كنت أكثر من تأمّل المارة بين القصرين، فإذا هم صفان،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۶

كلّ صف يمرّ من صوب شماله كالسيل إذا اندفع، و علّل هذا الذى أفادنى، أنّ القلب من يسار كل أحد، و الناس تميل إلى جهة قلوبهم، فلذلك صار مشيهم من صوب شمائلهم، و كذا صح لى مع طول الاعتياد. و لما حدثت هذه المحن بعد سنة ست و ثمانين و ثمانمائة، تلاشى أمر بين القصرين، و ذهب ما هناك، و ما أخوفنى أن يكون أمر القاهرة كما قيل:

هذه بلدة قضى اللّه يا صاح عليها كما ترى بالخراب

فقف العيس وقفة و ابك من كان بها من شيوخها و الشباب

و اعتبر إن دخلت يوما إليهافهى كانت منازل الأحباب

خط الخشيبة: هذا الخط يتوصل إليه من وسط سوق باب الزهومة، و يسلك فيه إلى الحارة العدوية حيث فندق الرخام برحبة بيبرس، و إلى درب شمس الدولة، و قيل له خط الخشيبة، من أجل أنّ الخليفة الظافر لما قتله نصر بن عباس و بنى على مكانه الذى دفنه فيه المسجد الذى يعرف اليوم بمسجد الخلعيين، و يعرف أيضا بمسجد الخلفاء، نصبت هناك خشبة حتى لا يمرّ أحد من هذا الموضع راكبا، فعرف بخشيبة تصغير خشبة، و ما زالت هناك حتى زالت الدولة الفاطمية، و قام السلطان صلاح الدين بسلطنة مصر، فأزال الخشيبة، و عرف هذا الخط بها إلى اليوم، و يقال له خط حمام خشيبة، من أجل الحمام التى هناك.

و لمقتل الظافر خبر يحسن ذكره هنا.

ذكر مقتل الخليفة الظافر

و كان من خبر الظافر أنه لما مات الخليفة الحافظ لدين اللّه أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر، فى ليلة الخميس، لخمس خلون من جمادى الآخرة، سنة أربع و أربعين و خمسمائة، بويع ابنه أبو المنصور إسماعيل، و لقب بالظافر بأمر اللّه، بوصية من أبيه له بالخلافة، و قام بتدبير الوزارة الأمير نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال، فلم يرض الأمير المظفر علىّ بن السلار والى الإسكندرية و البحيرة يومئذ بوزارة ابن مصال، و حشد و سار إلى القاهرة، ففرّ ابن مصال، و استقرّ ابن السلار فى الوزارة، و تلقّب بالعادل، فجهز العساكر لمحاربة ابن مصال، فحاربته و قتل، فقوى و استوحش منه الظافر، و خاف منه ابن السلار و احترز منه على نفسه، و جعل له رجالا- يمشون فى ركابه بالزرد و الخود، و عددهم ستمائة رجل بالنوبة، و نقل جلوس الظافر من القاعة إلى الإيوان فى البراح و السعة، حتى إذا دخل للخدمة يكون أصحاب الزرد معه، ثم تأكدت النفرة بينهما فقبض على صبيان الخاص و قتل أكثرهم، و فرّق باقيهم، و كانوا خمسمائة رجل، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن قتله ربيبه عباس بن تميم، بيد ولده نصر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۷

و استقرّ بعده فى وزارة الظافر، و كان بين ناصر الدين نصر بن عباس الوزير، و بين الظافر، مودّة أكيدة و مخالطة، بحيث كان الظافر يشتغل به عن كل أحد، و يخرج من قصره إلى دار نصر بن عباس التى هى اليوم المدرسة السيوفية، فخاف عباس من جرأة ابنه، و خشى أن يحمله الظافر على قتله، فيقتله كما قتل الوزير على بن السلار زوج جدّته أمّ عباس، فنهاه عن ذلك و ألحف فى تأنيبه، و أفرط فى لومه، لأنّ الأمراء كانوا مستوحشين من عباس و كارهين منه تقريبه أسامة بن منقذ، لما علموه من أنه هو الذى حسّن لعباس قتل ابن السلار كما هو مذكور فى خبره، و همّوا بقتله، و تحدّثوا مع الخليفة الظافر فى ذلك، فبلغ أسامة ما هم عليه، و كان غريبا من الدولة، فأخذ يغرى الوزير عباس بن تميم بابنه نصر، و يبالغ فى تقبيح مخالطته للظافر إلى أن قال لى مرة: كيف تصبر على ما يقول الناس فى حق ولدك، من أنّ الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء، فأثّر ذلك فى قلب عباس، و اتفق أنّ الظافر أنعم بمدينة قليوب على نصر بن عباس، فلما حضر إلى أبيه و أعلمه بذلك و أسامة حاضر، فقال له: يا ناصر الدين، ما هى بمهرك غالية، يعرّض له بالفحش، فأخذ عباس من ذلك ما أخذه، و تحدّث مع أسامة لثقته به فى كيفية الخلاص من هذا، فأشار عليه بقتل الظافر إذا جاء إلى دار نصر على عادته فى الليل، فأمره بمفاوضة ابنه نصر فى ذلك، فاغتنمها أسامة، و ما زال بنصر يشنع عليه و يحرّضه على قتل الظافر، حتى وعده بذلك.

فلما كان ليلة الخميس آخر المحرّم، من سنة تسع و أربعين و خمسمائة، خرج الظافر من قصره متنكرا و معه خادمان، كما هى عادته، و مشى إلى دار نصر بن عباس، فإذا به قد أعدّ له قوما، فعند ما صار فى داخل داره و ثبوا عليه و قتلوه هو و أحد الخادمين، و توارى عنهم الخادم الآخر، و لحق بعد ذلك بالقصر. ثم دفنوا الظافر و الخادم تحت الأرض، فى الموضع الذى فيه الآن المسجد، و كان سنّة يوم قتل، إحدى و عشرين سنة و تسعة أشهر و نصف، منها فى الخلافة بعد أبيه أربع سنين و ثمانية أشهر تنقص خمسة أيام، و كان محكوما عليه فى خلافته.

و فى أيامه ملك الفرنج مدينة عسقلان، و ظهر الوهن فى الدولة، و كان كثير اللهو و اللعب، و هو الذى أنشأ الجامع المعروف بجامع الفاكهيين.

و بلغ أهل القصر ما عمله نصر بن عباس من قتل الظافر، فكاتبوا طلائع بن رزبك، و كان على الأشمونين، و بعثوا إليه بشعور النساء يستصرخون به على عباس و ابنه، فقدم بالجموع، و فرّ عباس و أسامة و نصر، و دخل طلائع و عليه ثياب سود، و أعلامه و بنوده كلها سود، و شعور النساء التى أرسلت إليه من القصر على الرماح، فكان فألا عجيبا، فإنه بعد خمس عشرة سنة، دخلت أعلام بنى العباس السود من بغداد إلى القاهرة لما مات العاضد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۸

و استبد صلاح الدين بملك ديار مصر، و كان أوّل ما بدأ به طلائع أن مضى ماشيا إلى دار نصر، و أخرج الظافر و الخادم و غسلهما و

كفنهما، و حمل الظافر فى تابوت مغشّى، و مشى طلائع حافيا و الناس كلهم، حتى وصلوا إلى القصر، فصلّى عليه ابنه الخليفة الفائز و دفن فى تربة القصر.

خط سقيفة العدّاس : هذا الخط قيّما بين درب شمس الدولة و البندقانيين، كان يقال له أولا سقيفة العدّاس، ثم عرف بالصاغة القديمة، ثم عرف بالأساكفة، ثم هو الآن يعرف بالحريريين الشراريين، و بسوق الزجّاجين، و فيه يباع الزجاج. و هو خط عامر، و هذا العدّاس هو: على بن عمر بن العدّاس أبو الحسن. ضمن فى أيام المعز لدين اللّه كورة بوصير، فخلع عليه و جمله، و سار خليفته بالبنود و الطبول، فى جمادى الأولى سنة أربع و ستين و ثلثمائة.

فلما كان فى أوّل خلافة العزيز بالله بن المعز لدين اللّه، ولّاه الوساطة، و هى رتبة الوزارة، بعد موت الوزير يعقوب بن كلس، و لم يلقبه بالوزير، فجلس فى القصر لتسع عشر خلت من ذى الحجة، سنة إحدى و ثمانين و ثلثمائة، و أمر و نهى و نظر فى الأموال، و رتّب العمال، و أمر أن لا يطلق شىء إلا بتوقيعه، و لا ينفذ إلّا ما أمر به و قرّره، و أمره العزيز بالله أن لا يرتفق، أى يرتشى، و لا يرتزق، يعنى أنّه لا يقبل هدية، و لا يضيع دينارا و لا درهما، فأقام سنة و صرف فى أوّل المحرّم من سنة ثلاث و ثمانين، فقرّر فى ديوان الاستيفاء إلى أن كان جمادى الآخرة سنة ثلاث و تسعين و ثلثمائة حسن لأبى طاهر محمود النحوى الكاتب، و كان منقطعا إليه أن يلقى الحاكم بأمر اللّه، و يبلغه ما تشكوه الناس من تظافر النصارى، و غلبتهم على المملكة، و توازرهم، و أنّ فهد بن إبراهيم هو الذى يقوّى نفوسهم، و يفوّض أمر الأموال و الدواوين إليهم، و أنه آفة على المسلمين، و عدّة للنصارى، فوقف أبو طاهر للحاكم ليلا فى وقت طوافه فى الليل، و بلّغه ذلك.

ثم قال: يا مولانا إن كنت تؤثر جمع الأموال و إعزاز الإسلام، فأرنى رأس فهد بن إبراهيم فى طشت، و إلّا لم يتم من هذا شىء.

فقال له الحاكم: و يحك، و من يقوم بهذا الأمر الذى تذكره و يضمنه.

فقال: عبدك علىّ بن عمر بن العدّاس.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۹

فقال: و يحك، أو يفعل هذا؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: قل له يلقانى ههنا فى غد.

و مضى الحاكم، فجاء أبو طاهر إلى ابن العدّاس و أعلمه بما جرى. فقال: و يحك قتلتنى و قتلت نفسك. فقال: معاذ اللّه، أفنصبر لهذا الكلب الكافر على ما يفعل بالإسلام و المسلمين، و يتحكم فيهم من اللعب بالأموال، و اللّه إن لم تسع فى قتله ليسعين فى قتلك، فلما كان فى الليلة القابلة وقف علىّ بن عمر العدّاس للحاكم و وافقه على ما يحتاج إليه، فوعدوه بانجاز ما اتفقا عليه، و أمر بالكتمان و انصرف الحاكم. فلما أصبح ركب العداس إلى دار قائد القوّاد حسن بن جوهر القائد، فلقى عنده فهد بن إبراهيم، فقال له فهد: يا هذا، كم تؤذينى و تقدح فىّ عند سلطانى.

فقال العداس: و اللّه ما يقدح و لا يؤذينى عند سلطانى و يسعى علىّ غيرك. فقال فهد:

سلط اللّه على من يؤذى صاحبه فينا، و يسعى به سيف هذا الإمام الحاكم بأمر اللّه.

فقال العدّاس: آمين و عجّل ذلك و لا تمهله.

فقتل فهد فى ثامن جمادى الآخرة و ضربت عنقه، و كان له منذ نظر فى الرياسة خمس سنين و تسعة أشهر و اثنى عشر يوما، و قتل العداس بعده بتسعة و عشرين يوما، و استجيب دعاء كل منهما فى الآخر، و ذهبا جميعا، و لا يظلم ربك أحدا.

و ذلك أن الحاكم خلع على العداس فى رابع عشره، و جعله مكان فهد، و خلع على ابنه محمد بن علىّ، فهناه الناس، و استمرّ إلى خامس عشرى رجب منها، فضربت رقبة أبى طاهر محمود بن النحوى، و كان ينظر فى أعمال الشام لكثرة ما رفع عليه من التجبر و

العسف، ثم قتل العدّاس فى سادس شعبان سنة ثلاث و تسعين و ثلثمائة و أحرق بالنار.

خط البندقانيين: هذا الخط كان قديما إصطبل الجميزة، أحد إصطبلات الخلفاء الفاطميين، فلما زالت الدولة اختط و صارت فيه مساكن و سوق، من جملته عدّة دكاكين لعمل قسىّ البندق، فعرف الخط بالبندقانيين لذلك، ثم أنه احترق يوم الجمعة للنصف من صفر سنة إحدى و خمسين و سبعمائة و الناس فى صلاة الجمعة، فما قضى الناس الصلاة إلّا و قد عظم أمره، فركب إليه و إلى القاهرة و النيران قد ارتفع لهبها، و اجتمع الناس، فلم يعرف من أين كان ابتداء الحريق، و اتفق هبوب رياح عاصفة فحملت شرر النار إلى آمد بعيد، و وصلت أشعتها إلى أن رؤيت من القلعة، فركب الوزير منجك بمماليك الأمراء، و جمعت السقاءون لطفى النار فعجزوا عن اطفائها، و اشتدّ الأمر فركب الأمير شيخو و الأمير طاز

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۰

و الأمير مغلطاى أمير أخور، و ترجلوا عن خيولهم و منعوا النهابة من التعرّض إلى نهب البيوت التى احترقت، و عمّ الحريق دكاكين البندقانيين و دكاكين الرسامين و حوانيت الفقاعين و الفندق المجاور لها، و الربع علوّه، و عملت إلى الجانب الذى يلى بيت بيبرس ركن الدين الملقب بالملك المظفر، و الربع المجاور لعالى زقاق الكنيسة، فما زال الأمير شيخو واقفا بنفسه و مماليكه و معه الأمراء إلى أن هدم ما هنالك، و النار تأكل ما تمرّ به إلى أن وصلت إلى بئر الدلاء التى كانت تعرف قديما ببئر زويلة ، و منها كان يستقى لأصطبل الجميزة، فأحرقت ما جاور البئر من الأماكن إلى حوانيت الفكاه و الطباخ و ما يجاورهما من الحوانيت. و الربع المجاور لدار الجو كندار، و كادت أن تصل إلى دار القاضى علاء الدين علىّ بن فضل اللّه كاتب السرّ، المجاورة لحمام الشيخ نجم الدين ابن عبود، و لم يبق أحد فى ذلك الخط حتى حوّل متاعه خوفا من الحريق، فكان أهل البيت بينما هم فى نقل ثيابهم، و إذا بالنار قد أحاطت بهم فيتركون ما فى الدار و ينجون بأنفسهم، و الأمر يعظم و الهدم واقع فى الدور المجاورة لأماكن الحريق، خشية من تعلق النار بها، فسرى إلى جميع البلد إلى أن أتى الهدم على سائر ما كان هنالك، فأقام الأمر كذلك يومين و ليلتين و الأمراء وقوف، فلما خفّ انصرف الأمراء و وقف والى القاهرة و معه عدّة من الأمراء لطفى ما بقى، فاستمرّوا فى طفئه ثلاثة أيام أخر، و كان المصاب بهذا الحريق عظيما، تلف فيه للناس من المال و الثياب و المصاغ و غيره بالحريق و النهب ما لا يعلم قدره إلا اللّه، هذا مع ما كان فيه الأمراء من منع النّهابة و كفهم عن أموال الناس، إلا أنّ الأمر كان قد تجاوز الحدّ، و عطب بالنار جماعة كثيرة، و وصل حريق النار إلى قيسارية طشتمر و ربع بكتمر الساقى، فلما كفى اللّه أمر هذا الحريق، و أعان على طفئه بعد أن هدمت عدّة أماكن جليلة، ما بين رباع و حوانيت، وقع الحريق فى أماكن من داخل القاهرة و خارج باب زويلة ، و وجد فى بعض المواضع التى بها الحريق كعكات بزيت و قطران، فعلم أن هذا من فعل النصارى، كما وقع فى الحريق الذى كان فى أيام الملك الناصر، و قد ذكر فى خبر السيرة الناصرية، فنودى فى الناس أن يحترسوا على مساكنهم، فلم يبق أحد من الناس أعلاهم و أدناهم حتى أعدّ فى داره أوعية ملانة بالماء، ما بين أحواض و أزيار، و صاروا يتناوبون السهر فى الليل، و مع ذلك فلا يدرى أهل البيت إلّا و النار قد وقعت فى بيتهم، فيتداركون طفئها لئلا تشتعل و يصعب أمرها. و ترك جماعة من الناس الطبخ فى الدور، و تمادى ذلك فى الناس من نصف صفر إلى عاشر ربيع الأوّل، فأحضر الأمير سيف الدين تشتمرشاد الدواوين نشابة فى وسطها نقط قد وجدها فى سطح داره، فأراها للأمراء و هى محروقة النصل، فصدر أمر الوزير منجك للأمير علاء الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۱

علىّ بن الكورانى والى القاهرة، بالقبض على الحرافيش و تقييدهم و سجنهم، خوفا من غائلهم و نهبهم الناس عند وقوع الحريق، فتتبعهم و قبض عليهم فى الليل من بيوتهم و من الحوانيت، حتى خلت السكك، منهم.

ثم إن الأمراء كلموا الوزير فى أمرهم، فأمر بإطلاقهم، و نودى فى البلد أن لا يقيم فيها غريب، و طلبوا الخفراء و ولاة المراكز و أمروا بالاحتفاظ و تتبع الناس، و أخذ من تتوهم فيه ريبة أو يذكر بشىء من أمر هذا، و الحريق أمره فى تزايد، و صاروا إلى القاهرة من

ذلك فى تعب كبير لا ينام هو و لا أعوانه فى الليل البتة لكثرة الضجات فى الليل، و وقع حريق فى شونة حلفاء بمصر مجاورة لمطابخ السكر السلطانية، فركب القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص فى جماعة، و خرج عامّة أهل مصر، و تكاثروا على الشونة حتى طفئت، و وقع الحريق فى عدّة أماكن بمصر، و استمرّ للحريق بمصر و القاهرة مدّة شهر، من ابتدائه بالبندقانيين، و لم يعلم له سبب. و استمرّ كثر خط البندقانيين خرابا إلى أن عمر الأمير يونس النوروزىّ، دوادار الملك الظاهر برقوق، الربع فوق بئر الدلاء التى كانت تعرف ببئر زويلة، و أنشأ بجوار درب الأنجب الحوانيت و الرباع و القياسرية، فى سنة تسع و ثمانين و سبعمائة.

ثم أنشأ الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب ابن أخت الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، داره بجوار حمام ابن عبود، فاتصل ظهرها بدكاكين البندقانيين، فصار فيها ما كان من خراب الحريق هناك، حيث الحوض الذى أنشأه تجاه دار بيبرس. و لقد أدركنا فى خط البندقانيين عدّة كثيرة من الحوانيت التى يباع فيها الفقاع، تبلغ نحو العشرين حانوتا، و كانت من أنزه ما يرى فإنها، كانت كلها مرخمة بأنواع الرخام الملوّن، و بها مصانع من ماء تجرى إلى فوّارات تقذف بالماء على ذلك الرخام، حيث كيزان الفقاع مرصوصة فيستحسن منظرها إلى الغاية، لأنها من الجانبين، و الناس يمرّون بينهما، و كان بهذا الخط عدّة حوانيت لعمل قسىّ البندق، و عدّة حوانيت لرسم إشكال ما يطرّز بالذهب و الحرير، و قد بقيت من هذه الحوانيت بقايا يسيرة، و هو من اخطاط القاهرة الجسيمة.

خط دار الديباج: هذا الخط هو فيما بين خط البندقانيين و الوزيرية، و كان أوّلا يعرف بخط دار الديباج، لأن دار الوزير يعقوب بن كلس التى من جملتها اليوم المدرسة الصاحبية و درب الحريرى و المدرسة السيفية، عملت دارا ينسج فيها الديباج و الحرير برسم الخلفاء الفاطميين، و صارت تعرف بدار الديباج، فنسب إليها الخط إلى أن سكن هناك الوزير صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر، فى أيام العادل أبى بكر بن أيوب، فصار يعرف بخط سويقة الصاحب، و هو خط جسيم به مساكن جليلة و سوق و مدرسة.

خط الملحيين: هذا الخط فيما بين الوزيرية و البندقانيين من وراء دار الديباج، و تسميه العامّة خط طواحين الملوحيين بواو بعد اللام و قبل الحاء المهملة، و هو تحريف، و إنما هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۲

خط الملحيين، عرف بطائفة من طوائف العسكر فى أيام الخليفة المستنصر بالله يقال لها الملحية، و هم الذى قاموا بالفتنة فى أيام المستنصر إلى أن كان من الغلاء ما أوجب خراب البلاد و نهب خزائن الخليفة المستنصر، فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى القاهرة و تقلد وزارة المستنصر، و تجرد لإصلاح إقليم مصر، و تتبع المفسدين و قتلهم و سار فى سنة سبع و ستين و أربعمائة إلى الوجه البحرىّ و قتل لواته، و قتل مقدّمهم سليمان اللواتى و ولده، و استصفى أموالهم ثم توجه إلى دمياط و قتل فيها عدّة من المفسدين، فلما أصلح جميع البرج الشرقىّ عدّى إلى البرّ الغربىّ، و قتل جماعة من الملحية و أتباعهم بثغر الإسكندرية بعد ما أقام أياما محاصر البلد و هم يمتنعون عليه و يقاتلونه إلى أن أخذها عنوة، فقتل منهم عدّة كثيرة، و كان بهذا الخط عدّة من الطواحين، فسمى بخط طواحين الملحيين، و به إلى الآن يسير من الطواحين.

خط المسطاح: هذا الخط فيما بين خط الملحيين و خط سويقة الصاحب، و فيه اليوم سوق الرقيق الذى يعرف بسوق الحوار و المدرسة الحسامية و ما دار به، و يعرف بالمسطاح، و بخارج باب القنطرة قريب من باب الشعرية أيضا خط يعرف بالمسطاح.

خط قصر أمير سلاح: هذا الخط تجاه حمام البيسرى بين القصرين، يسلك فيه إلى مدرسة الطواشى سابق الدين، المعروفة بالسابقية، و كان يخرج منه إلى رحبة باب العيد من باب القصر، إلى أن هدمه الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، و بنى فى مكانه القيسارية المستجدّة بجوار مدرسته من رحبة باب العيد، فصار هذا الخط غير نافذ، و كان شارعا مسلوكا يمرّ فيه الناس و الدواب بالأحمال، فركب عليه جمال الدين المذكور دروبا لحفظ أمواله، و كان هذا الخط من أخص أماكن القصر الكبير الشرقى، فلما زالت الدولة الفاطمية و تفرّق أمراء صلاح الدين يوسف القصر، عرف هذا المكان بقصر شيخ الشيوخ بن حمويه الوزير لسكنه فيه، ثم عرف بعد ذلك بقصر أمير سلاح، و بقصر سابق الدين، و هو إلى الآن يعرف بذلك، و سبب شهرته بأمير سلاح أنه اتخذ به عمائر جليلة هى بيد

ورثته إلى الآن، و أمير سلاح هذا هو بكتاش الفخرىّ الأمير بدر الدين أمير سلاح الصالحى النجمى، كان أوّلا مملوكا لفخر الدين ابن الشيخ، فصار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، و تقدّم عنده من جملة من قدّمه من المماليك البحرية الذين ملكوا الديار المصرية من بعد انقضاء الدولة الأيوبية، و تأمّر فى أيام الملك الصالح، و تقدّم فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و استمر أميرا ما ينيف على الستين سنة، لم ينكب فيها قط، و عظم فى أيام الملك المنصور قلاون الألفىّ، بحيث أنّ الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۳

بديار مصر فى أيام قلاون، تجارى مرّة مع السلطان فى حديث الأمراء، فقال له المنصور:

أما اليوم فما بقى فى الأمراء خير أمير سلاح إذا قلت فارس خيل شجاع، ما يردّ وجهه من عدوّه، و إذا حلف ما يخون، و إذا قال صدق. فقال طرنطاى و اللّه يا خوند، له إقطاع عظيم ما كان يصلح إلّا لى. فاحمرّ وجه السلطان و غضب و قال له: و يلك إيّاك أن تتكلم بهذا، و اللّه مكان يصل فيه سيف أمير سلاح ما يصل نشابك و لا نشاب غيرك، و كان كريما شجاعا يسافر كل سنة مجرّدا بالعسكر فيصل إلى حلب للغارة و محاصرة قلاع العدوّ، فاشتهر بذلك فى بلاد العدو و عظم صيته و اشتدّت مهابته، و كانت له رغبة فى شراء المماليك و الخيول بأغلى القيم، و كان يبعث للأمراء المجرّدين معه النفقة، و يقوم لهم بالشعير و الأغنام، و بلغت مماليكه الغاية فى الحشمة، و كان إقطاع كل منهم فى السنة عشرين ألف درهم فضة، عنها يومئذ ألف مثقال من الذهب، و لكل من جنده خبز مبلغه فى السنة عشرة آلاف درهم، سوء كلفهم من الشعير و اللحم، و مع ذلك فكان خيرا دينّا له صدقات و معروف و إحسان كثير، و مات بعد ما ترك أمرته فى مرضه الذى ما فيه، للنصف من ربيع الآخر سنة ست و سبعمائة رحمه اللّه. و بهذا الخط عدّة دور جليلة يأتى ذكرها عند ذكر الدور من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

أولاد شيخ الشيوخ: جماعة أصلهم الذى ينتسبون إليه حمويه بن علىّ، يقال أنه من ولد رزم بن يونان، أحد قوّاد كسرى أنوشروان، و ولى قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان، و دبر دولته، و هو جدّ شيخ الإسلام محمد، و أخيه أبى سعد بنى حمويه بن محمد بن حمويه، و كان محمد و أبو سعد من ملوك خراسان، فتركا الدنيا و أقبلا على طريق الآخرة، و مات ركب الإسلام أبو سعد بنجران من قرى جوين فى سنة سبع و عشرين و خمسمائة، و مات أخوه شيخ الإسلام محمد بها فى سنة ثلاثين و خمسمائة، و ترك أبو سعد، زيد الدين أحمد و بنات، و ترك شيخ الإسلام محمد ولدا واحدا، و هو أبو الحسن علىّ، فتزوّج علىّ بن محمد بابنة عمه أبى سعد و رزق منها سعد الدين، و معين الدين حسنا، و عماد الدين عمر، و ترك زين الدين أحمد بن أبى سعد، ركن الدين أبا سعد، و عزيز الدين، و زين الدين القاسم، فقدّم عماد الدين عمر بن على بن محمد بن حمويه إلى دمشق، و صار شيخ الشيوخ بها، و قدم عليه ابنه شيخ الشيوخ صدر الدين علىّ، فلما مات عمر فى رجب سنة سبع و سبعين و خمسمائة بدمشق، أقرّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولده صدر الدين محمدا موضعه، و صار شيخ الشيوخ بدمشق، فتزوّج بابنة القاضى شهاب الدين ابن أبى عصرون، و رزق منها عشرة بنين، منهم عماد الدين عمر، و فخر الدين يوسف، و كمال الدين أحمد، و معين الدين حسن، فأرضعت أمّهم بنت أبى عصرون السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، فصار أخا لأولاد صدر الدين شيخ الشيوخ من الرضاعة، و قدم صدر الدين إلى القاهرة و ولى تدريس الشافعىّ بالقرافة، و مشيخة الخانقاه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۴

الصلاحية سعيد السعدا، ثم سافر فمات بالموصل فى رابع عشر جمادى الأولى سنة سبع عشرة و ستمائة، و استبدّ الملك الكامل بمملكة مصر بعد أبيه، فرقّى أولاد صدر الدين شيخ الشيوخ محمد بن جويه الأربعة، و بعث عماد الدين عمر فى الرسالة إلى الخليفة ببغداد، و جمع له بين رياسة العلم و القلم فى سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة، و لم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه، و ما زال على ذلك إلى أن مات الملك الكامل، و قام من بعده فى سلطنة مصر ابنه الملك العادل أبو بكر بن الكامل، فخرج إلى دمشق ليحضر إليه

الجواد مظفر الدين يونس بن مردود بن العادل أبى بكر بن أيوب نائب السلطنة بدمشق، فدسّ عليه من قتله على باب الجامع فى سادس عشرى جمادى الآخرة سنة ست و ثلاثين و ستمائة.

و أما فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين فإن الملك الكامل جعله أحد الأمراء، و ألبسه الشربوش و القباء و نادمه و بعثه فى الرسالة عنه إلى ملك الفرنج، ثم إلى أخيه المعظم بدمشق، ثم إلى الخليفة ببغداد، و أقامه يتحدّث بمصر فى تدبير المملكة و تحصيل الأموال، ثم بعثه حتى تسلم حران و الرها، و جهزه إلى مكة على عسكر فقاتل صاحبها الأمير راجح الدين بن قتادة، و أخذها بالسيف، و قتل عسكر اليمن، و ما زال مكرّما محترما حتى مات الملك الكامل، فقبض عليه العادل ابن الكامل و اعتقله، فلما خلع العادل بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب أطلقه و أمّره و بالغ فى الإحسان إليه، و بعثه على العساكر إلى الكرك، فأوقع بالخوارزمية و بدّد شملهم و كانوا قد قدموا من المشرق إلى غزة، و أقام الدعوة للصالح فى بلاد الشام و عاد، ثم قدّمه على العساكر فأخذ طبرية من الفرنج و هدمها، و أخذ عسقلان من الفرنج و هدم حصونها، و نازل حمص حتى أشرف على أخذها، ثم تقدّم على العساكر بقتال الفرنج بدمياط، فمات السلطان عند المنصورة، و قام بتدبير الدولة بعده خمسة و سبعين يوما إلى أن استشهد فى رابع ذى القعدة سنة سبع و أربعين و ستمائة، فحمل من المنصورة إلى القرافة فدفن بها.

و أما كمال الدين أحمد، فإن الملك الكامل استنابه بحران و الجزيرة، و ولى تدريس المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر، و تدريس الشافعيّ بالقرافة، و مشيخة الشيوخ بديار مصر، و قدّمه الملك الصالح نجم الدين أيوب على العساكر غير مرّة، و مات بغزة فى صفر سنة تسع و ثلاثين و ستمائة.

و أما معين الدين حسن فإنه وليّ مشيخة الشيوخ بديار مصر، و بعثه الملك الكامل فى الرسالة عنه إلى بغداد، ثم أقامه نائب الوزارة إلى أن مات، فاستوزره الملك الصالح نجم الدين أيوب فى ذى القعدة، سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، و جهّزه على العساكر فى هيئة الملوك إلى دمشق، فقاتل الصالح إسماعيل ابن العادل حتى ملكها، و مات بها فى ثانى عشرى رمضان سنة ثلاث و أربعين و ستمائة، و قد ذكرت أولاد شيخ الشيوخ فى كتاب تاريخ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۵

مصر الكبير، و استقصيت فيه أخبارهم و اللّه تعالى أعلم.

خط قصر بشتاك: هذا الخط من جملة القصر الكبير، و يتوصل إليه من تجاه المدرسة الكاملية حيث كان باب القصر المعروف بباب البحر، و هدمه الملك الظاهر بيبرس كما تقدّم فى ذكر أبواب القصر، و صار اليوم فى داخل هذا الباب حارة كبيرة فيها عدّة دور جليلة، منها قصر الأمير بشتاك، و به عرف هذا الخط.

و بشتاك هذا: هو الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى، قرّبه الملك الناصر محمد بن قلاون، و أعلى محله، و كان يسميه بعد موت الأمير بكتمر الساقى بالأمير فى غيبته، و كان زائد التيه لا يكلم استاداره و كاتبه الأبتر جان، و يعرف بالعربيّ و لا يتكلم به، و كان إقطاعه ست عشرة طبلخانة أكبر من إقطاع قوصون، و لما مات بكتمر الساقى ورثه فى جميع أحواله و اصطبله الذى على بركة الفيل، و فى امرأته أمّ أحمد، و اشترى جاريته خوبى بستة آلاف دينار، و دخل معها ما قيمته عشرة آلاف دينار، و أخذ ابن بكتمر عنده و زاد أمره و عظم محله، فثقل على السلطان و أراد الفتك به، فما تمكن، و توجه إلى الحجاز و أنفق فى الأمراء و أهل الركب و الفقراء و المجاورين بمكة و المدينة شيأ كثيرا إلى الغاية، و أعطى من الألف دينار إلى المائة دينار إلى الدينار، بحسب مراتب الناس و طبقاتهم، فلما عاد من الحجاز لم يشعر به السلطان إلّا و قد حضر فى نفر قليل من مماليكه و قال: إن أردت إمساكى فها أنا قد جئت إليك برقبتى، فغالطه السلطان و طيب خاطره، و كان يرمى بأوابد و دواهى من أمر الزنا و جرّده السلطان لإمساك تنكر نائب الشام، فحضر إلى دمشق بعد إمساكه هو و عشرة من الأمراء، فنزلوا القصر الأبلق، و حلف الأمراء كلهم للسلطان و لذريته، و استخرج و دائع تنكر و عرض حواصله و مماليكه و جواريه و خيله و سائر ما يتعلق به، و وسط طغاى و حفاى مملوكى تنكر فى سوق الخيل، و وسط

دران أيضا بحضوره يوم الموكب، و أقام بدمشق خمسة عشر يوما و عاد إلى القلعة و بقى فى نفسه من دمشق و ما تجاسر يفاتح السلطان فى ذلك، فلما مرض السلطان و أشرف على الموت، ألبس الأمير قوصون مماليكه، فدخل بشتاك، فعرف السلطان ذلك، فجمع بينهما و تصالحا قدّامه، و نص السلطان على أن الملك بعده لولده أبى بكر، فلم يوافق بشتاك و قال: لا أريد إلّا سيدى أحمد، فلما مات السلطان قام قوصون إلى الشباك و طلب بشتاك و قال له: يا أمير المؤمنين أناما يجىء منى سلطان، لأنى كنت أبيع الطسما و البرغالى و الكشاتوين، و أنت اشتريت منى، و أهل البلاد يعرفون ذلك، و أنت ما يجىء منك سلطان، لأنك كنت تبيع البوز و أنا اشتريت منك، و أهل البلاد يعرفون ذلك، و هذا أستاذنا هو الذى وصى لمن هو أخبر به من أولاده، و ما يسعنا إلّا امتثال أمره حيا و ميتا و أنا ما أخالفك إن أردت أحمد أو غيره، و لو أردت أن تعمل كل يوم سلطانا ما خالفتك. فقال بشتاك: هذا كله صحيح، و الأمر أمرك، و احضر المصحف و حلفا عليه و تعانقا، ثم قاما إلى رجلى السلطان فقبلاهما، و وضعا أبا بكر ابن السلطان على الكرسىّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۶

و قبّلا له الأرض و حلفا له، و تلقب بالملك المنصور، ثم إن بشتاكا طلب من السلطان الملك المنصور نيابة دمشق، فأمر له بذلك.

و كتب تقليده و برز إلى ظاهر القاهرة و أقام يومين، ثم طلع فى اليوم الثالث إلى السلطان ليودّعه، فوثب عليه الأمير قطلوبغا الفخرىّ و أمسك سيفه و تكاثروا عليه فأمسكوه و جهزوه إلى الإسكندرية، فاعتقل بها، ثم قتل فى الخامس من ربيع الأوّل سنة اثنين و أربعين و سبعمائة، لأوّل سلطنة الملك الأشرف كجك، و كان شابا أبيض اللون ظريفا مديد القامة نحيفا، خفيف اللحية كأنها عذار، على حركاته رشاقة حسن العمة يتعمم الناس على مثالها، و كان يشبّه بأبى سعيد ملك العراق إلّا أنه كان غير عفيف الفرج زائد الهرج و المرج لم يعف عن مليحة و لا قبيحة، و لم يدع أحدا يفوته، حتى يمسك نساء الفلاحين و زوجات الملاحين.

و اشتهر بذلك و رمى فيه بأوابد، و كان زائد البذخ منهمكا على ما يقتضيه عنفوان الشبيبة، كثير الصلف و التيه، لا يظهر الرأفة و لا الرحمة فى تأنيه، و لما توجه بأولاد السلطان ليفرّجهم فى دمياط كان يذبح لسماطه فى كل يوم خمسين رأسا من الغنم و فرسا لا بدّ منه، خارجا عن الأوز و الدجاج، و كان راتبه دائما كل يوم من الفحم برسم المشوى مبلغ عشرين درهما، عنها مثقال ذهب، و ذلك سوى الطوارىء، و أطلق له السلطان كل يوم بقجة قماش من اللفافة إلى الخف إلى القميص و اللباس و الملوطة و البغلطاق و القباء الفوقانى بوجه اسكندرانى على سنجاب طريق مطرّز مزركش رقيق، و كلوته و شاش، و لم يزل يأخذ ذلك كل يوم إلى أن مات السلطان، و أطلق له فى يوم واحد عن ثمن قرية تبنى بساحل الرملة مبلغ ألف درهم فضة، عنها يومئذ خمسون ألف مثقال من الذهب، و هو أوّل من أمسك بعد موت الملك الناصر. و قال الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى و من كتابه نقلت ترجمة بشتاك:

قال الزمان و ما سمعنا قولهو الناس فيه رهائن الأشراك

من ينصر المنصور من كيدى و قدصاد الردى بشتاك لى بشراك

خط باب الزهومة: هذا الخط عرف بباب الزهومة، أحد أبواب القصر الكبير الشرقى الذى تقدّم ذكره، فإنه كان هناك، و قد صار الآن فى هذا الخط سوق و فندق و عدّة آدر، يأتى ذكر ذلك كله فى موضعه إن شاء اللّه تعالى.

خط الزراكشة العتيق: هذا الخط فيما بين خط باب الزهومة و خط السبع خوخ، و بعضه من دار العلم الجديدة، و بعضه من جملة القصر النافعى، و بعضه من تربة الزعفران، و فيه اليوم فندق المهمندار الذى يدق فيه الذهب، و خان الخليلى، و خان منجك، و دار خواجا، و درب الحبش، و غير ذلك، كما ستقف عليه إن شاء اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۷

خط السبع خوخ العتيق : هذا الخط فيما بين خط اصطبل الطارمة و خط الزراكشة العتيق، كان فيه قديما أيام الخلفاء الفاطميين سبع خوخ يتوصل منها إلى الجامع الأزهر، فلما انقضت أيامهم اختط مساكن و سوقا يباع فيه الإبر التى يخاط بها و غير ذلك، فعرف

بالأبّارين.

خط اصطبل الطارمة : هذا الخط كان اصطبلا لخاص الخليفة يشرف عليه قصر الشوك و القصر النافعى، و قد تقدّم الكلام عليه، و كانت فيه طارمة يجلس الخليفة تحتها، فعرف بذلك، ثم هو الآن حارة كبيرة فيها عدّة من المساكن و به سوق و حمّام و مساجد، و هذا الخط فيما بين رحبة قصر الشوك و رحبة الجامع الأزهر، كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى فى ذكر الرحاب.

خط الأكفانيين: هذا الخط كان يعرف بخط الخرقيين جمع خرقة .

خط المناخ: هذا الخط فيما بين البرقية و العطوفية، كان مواضع طواحين القصر و قد تقدّم ذكره، ثم اختط بعد ذلك و صار حارة كبيرة، و هو الآن متداع للخراب.

خط سويقة أمير الجيوش: كان حارة الفرحية، و سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى فى الأسواق، و هذا الخط فيما بين حارة برجوان و خط خان الوراقة.

خط دكة الحسبة: هذا الخط يعرف اليوم بمكسر الحطب، و فيه سوق الأبازرة و هو فيما بين البندقانيين و المحمودية، و فيه عدّة أسواق و دور.

خط الفهادين: هذا الخط فيما بين الجوانية و المناخ.

خط خزانة البنود: هذا الخط فيما بين رحبة باب العيد و رحبة المشهد الحسينى، و كان موضعه خزانة تعرف بخزانة البنود، و كان أوّلا يعمل فيها السلاح، ثم صارت سجنا لأمراء الدولة و أعيانها، ثم أسكن فيها الفرنج إلى أن هدمها الأمير الحاج آل ملك، و حكر مكانها فبنى فيه الطاحون و المساكن كما تقدّم.

خط السفينة: هذا الخط فيما بين درب السلاحى من رحبة باب العيد، و بين خزانة البنود، كان يقف فيه المتظلمون للخليفة كما تقدّم ذكره، ثم اختط فصار فيه مساكن و هو خط صغير.

خط خان السبيل: هذا الخط خارج باب الفتوح، و هو من جملة أخطاط الحسينية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۸

قال ابن عبد الظاهر: خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين قراقوش، و أرصده لابنا السبيل و المسافرين بغير أجرة، و به بئر ساقية و حوض انتهى. و أدركنا هذا الخط فى غاية العمارة، يعمل فيه عرصة تباع بها الغلال، و كان فيه سوق يباع فيه الخشب و يجتمع الناس هناك بكرة كل يوم جمعة، فيباع فيه من الأوز و الدجاج ما لا يقدر قدره، و كانت فيه أيضا عدة مساكن ما بين دور و حوانيت و غيره، و قد اختل هذا الخط.

خط بستان ابن صيرم: هذا الخط أيضا خارج باب الفتوح مما يلى الخليج و زقاق الكحل، كان من جملة حارة البيازرة، فانشأه زمام القصر المختار الصقلبى بستانا، و بنى فيه منظرة عظيمة، فلما زالت الدولة الفاطمية استولى عليه الأمير جمال الدين سويخ بن صيرم أحد أمراء الملك الكامل فعرف به، ثم اختط و صار من أجل الأخطاط عمارة تسكنه الأمراء و الأعيان من الجند، ثم هو الآن آيل إلى الدثور.

خط قصر ابن عمار: هذا الخط من جملة حارة كتامة، و هو اليوم درب يعرف بالقماحين، و فيه حمام كرائى، و دار خوند شقرا، يسلك إليه من خط مدرسة الوزير كريم الدين بن غنام، و يسلك منه إلى درب المنصورى، و ابن عمار هذا هو أبو محمد الحسن بن عمار بن علىّ بن أبى الحسن الكلبى من بنى أبى الحسب، أحد أمراء صقلية، و أحد شيوخ كتامة، وصاه العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه لما احتضر هو و القاضى محمد بن النعمان على ولده أبى على منصور، فلما مات العزيز بالله و استخلف من بعده ابنه الحاكم بأمر اللّه، اشترط الكتاميون و هم يومئذ أهل الدولة أن لا ينظر فى أمورهم غير أبى محمد بن عمار بعدما تجمعوا، و خرج منهم طائفة نحو المصلى و سألوا صرف عيسى بن مشطورس، و أن تكون الوساطة لابن عمار، فندب لذلك و خلع عليه فى ثالث شوّال سنة خمس و

سبعين و ثلاثمائة و قلد بسيف من سيوف العزيز بالله، و حمل على فرس بسرج ذهب، و لقّب بأمين الدولة، و هو أوّل من لقب فى الدولة الفاطمية من رجال الدولة، و قيّد بين يديه بحدّة دواب، و حمل معه خمسون ثوبا من سائر البز الرفيع، و انصرف إلى داره فى موكب عظيم، و قرىء سجله، فتولى قراءته القاضى محمد بن النعمان بجلوسه للوساطة و تلقيبه بأمين الدولة، و الزم سائر الناس بالترجّل إليه، فترجّل الناس بأسرهم له من أهل الدولة، و صار يدخل القصر راكبا، و يشق الدواوين و يدخل من الباب الذى يجلس فيه خدم الخليفة الخاصة، ثم يعدل إلى باب الحجرة التى فيها أمير المؤمنين الحاكم فينزل على بابها و يركب من هناك، و كان الناس من الشيوخ و الرؤساء على طبقاتهم يبكرون إلى داره فيجلسون فى الدهاليز بغير ترتيب و الباب مغلق، ثم يفتح فيدخل إليه جماعة من الوجوه و يجلسون فى قاعة الدار على حصير و هو جالس فى مجلسه، و لا يدخل له أحد ساعة، ثم يأذن لوجوه من حضر كالقاضى و وجوه شيوخ كتامة و القوّاد فتدخل أعيانهم، ثم يأذن لسائر الناس فيزدحمون عليه، بحيث لا يقدر أحد أن يصل إليه، فمنهم من يومى بتقبيل الأرض و لا يردّ السلام على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۹

أحد، ثم يخرج فلا يقدر أحد على تقبيل يده سوى أناس بأعيانهم إلا أنهم يومئون إلى تقبيل الأرض، و شرف أكابر الناس بتقبيل ركابه، و أجلّ الناس من يقبل ركبته، و قرّب كتامة و أنفق فيهم الأموال، و أعطاهم الخيول، و باع ما كان بالاصطبلات من الخيل و البغال و النجب و غيرها، و كانت شيأ كثيرا، و قطع أكثر الرسوم التى كانت تطلق لأولياء الدولة من الأتراك، و قطع أكثر ما كان فى المطابخ، و قطع أرزاق جماعة، و فرّق كثيرا من جوارى القصر، و كان به من الجوارى و الخدم عشرة آلاف جارية و خادم، فباع من اختار البيع، و أعتق من سأل العتق طلبا للتوفير، و اصطنع أحداث المغاربة، فكثر عتيهم و امتدّت أيديهم إلى الحرام فى الطرقات، و شلّحوا الناس ثيابهم، فضج الناس منهم و استغاثوا إليه بشكايتهم، فلم يبد منه كبير نكير فأفرط الأمر حتى تعرّض جماعة منهم للغلمان الأتراك و أرادوا أخذ ثيابهم، فثار بسبب ذلك شرّ قتل فيه غلام من الترك، و حدث من المغاربة، فتجمع شيوخ الفريقين و اقتتلوا يومين آخرهما يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة، فلما كان يوم الخميس ركب ابن عمار لابسا آلة الحرب و حوله المغاربة، فاجتمع الأتراك و اشتدّت الحرب و قتل جماعة و جرح كثير فعاد إلى داره، و قام برجوان بنصرة الأتراك، فامتدّت الأيدى إلى دار ابن عمار و اصطبلاته و دار رشا غلامه، فنهبوا منها ما لا يحصى كثرة، فصار إلى داره بمصر فى ليلة الجمعة، لثلاث بقين من شعبان و اعتزل عن الأمر، فكانت مدّة نظره أحد عشر شهرا إلّا خمسة أيام، فأقام بداره فى مصر سبعة و عشرين يوما، ثم خرج إليه الأمر بعوده إلى القاهرة فعاد إلى قصره هذا ليلة الجمعة، الخامس و العشرين من رمضان، فأقام به لا يركب و لا يدخل إليه أحد إلّا أتباعه و خدمه، و أطلقت له رسومه و جراياته التى كانت فى أيام العزيز بالله، و مبلغها عن اللحم و التوابل و الفواكه خمسمائة دينار فى كل شهر، و فى اليوم سلة فاكهة بدينار، و عشرة أرطال شمع، و نصف حمل ثلج، فلم يزل بداره إلى يوم السبت الخامس من شوّال سنة تسعين و ثلثمائة، فأذن له الحاكم فى الركوب إلى القصر، و أن ينزل موضع نزول الناس، فواصل الركوب إلى يوم الاثنين رابع عشرة، فحضر عشية إلى القصر و جلس مع من حضر، فخرج إليه الأمر بالانصراف، فلما انصرف ابتدره جماعة من الأتراك وقفوا له فقتلوه و احتزوا رأسه و دفنوه مكانه، و حمل الرأس إلى الحاكم، ثم نقل إلى تربته بالقرافة فدفن فيها، و كانت مدّة حياته بعد عزله إلى أن قتل ثلاث سنين و شهرا واحدا و ثمانية و عشرين يوما، و هو من جملة وزراء الدولة المصرية، و ولى بعده برجوان، و قد مرّ ذكره.

ذكر الدروب و الأزقة

قد اشتملت القاهرة و ظواهرها من الدروب و الأزقة على شىء كثير، و الغرض ذكر ما يتيسر لى من ذلك:

درب الأتراك: هذا الدرب أصله من خط حارة الديلم، و هو من الدروب القديمة و قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۰

تقدّم ذكره فى الحارات، و يتوصل إليه من خطة الجامع الأزهر، و قد كان فيما أدركناه من أعمر الأماكن.

أخبرنى خادمنا محمد بن السعودى قال: كنت أسكن فى أعوام بضع و ستين و سبعمائة بدرب الأتراك، و كنت أعانى صناعة الخياطة، فجاءنى فى موسم عيد الفطر من الجيران أطباق الكعك و الخشكنانج على عادة أهل مصر فى ذلك، فملأت زيرا كبيرا كان عندى مما جاءنى من الخشكنانج خاصة، لكثرة ما جاءنى من ذلك، إذ كان هذا الخط خاصا بكثرة الأكابر و الأعيان، و قد خرب اليوم منه عدّة مواضع.

درب الأسوانى: ينسب إلى القاضى أبى محمد الحسن بن هبة اللّه الأسوانى، المعروف بابن عتاب.

درب شمس الدولة: هذا الدرب كان قديما يعرف بحارة الأمراء كما تقدّم، فلما كان مجيء الغز إلى مصر و استيلاء صلاح الدين يوسف على مملكة مصر، سكن فى هذا المكان الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن أيوب، فعرف به و سمى من حينئذ درب شمس الدولة، و به يعرف إلى اليوم: توران شاه الملقب بالملك المعظم شمس الدولة بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان، قدم إلى القاهرة مع أهله من بلاد الشام فى سنة أربع و ستين و خمسمائة، عندما تقلد صلاح الدين يوسف بن أيوب وزارة الخليفة العاضد لدين اللّه، بعد موت عمه أسد الدين شير كوه، و كانت له أعمال فى واقعة السودان تولّاها بنفسه، و اقتحم الهول، فكان أعظم الأسباب فى نصرة أخيه صلاح الدين و هزيمة السودان، ثم خرج إليهم بعد انهزامهم إلى الجيزة، فأفناهم بالسيف حتى أبادهم، و أعطاه صلاح الدين قوص و أسوان و عيداب، و جعلها له أقطاعا، فكانت عبرتها فى تلك السنة مائتى ألف و ستة و ستين ألف دينار، ثم خرج إلى غزو بلاد النوبة فى سنة ثمان و ستين، و فتح قلعة أبريم و سبى و غنم ثم عاد بعد ما أقطع أبريم بعض أصحابه، و خرج إلى بلاد اليمن فى سنة تسع و ستين و كان بها عبد النبىّ أبو الحسن علىّ ابن مهدى قد ملك زبيد و خطب لنفسه، و كان الفقيه عمارة قد انقطع إلى شمس الدولة، و صار يصف له بلاد اليمن و يرغّبه فى كثرة أموالها و يغربه بأهلها، و قال فيه قصيدته المشهورة التى أولها:

العلم مذ كان محتاج إلى القلمو شفرة السيف تستغنى عن القلم

فبعثه ذلك على المسير إلى بلاد اليمن فسار إليها فى مستهل رجب، و دخل مكة معتمرا و سار منها فنزل على زبيد فى سابع شوّال، و فى نهار الاثنين ثامن شوّال فتحها بالسيف و قبض على علىّ بن مهدى و أخوته و أقاربه، و استولى على ما كان فى خزائنه من مال، و تسلّم الحصون التى كانت بيده، و فى مستهل ذى القعدة توجه قاصدا عدن، و بذل لياسر بن بلال فى كل سنة ثلاثين ألف دينار و سلمها إليه، فما رغب فى ذلك، و كان قصده

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۱

أن يقيم بها نائبا عن المجلس الفخرىّ، فلما أبى ذلك نزل عليها فى يوم الجمعة تاسع عشرى ذى القعدة و ملكها فى ساعة بالسيف، و قبض على ياسر و إخوته و ولدى الداعى، فاحتوى على ما فيها و قبض على عبد النبىّ، و استولى أيضا على تعز و تفكر و صنعا و ظفار و غيرها من مدن اليمن و حصونها، و تلقب بالملك المعظم، و خطب لنفسه بعد الخليفة العباسىّ، و ما زال بها إلى سنة إحدى و سبعين فسار منها إلى لقاء أخيه صلاح الدين، و وصل إليه و ملّكه دمشق فى شهر ربيع الأوّل سنة اثنين و سبعين، فأقام بها إلى أن خرج السلطان صلاح الدين مرة من القاهرة إلى بلاد الشام فجهزه فى ذى القعدة سنة أربع و سبعين إلى مصر، و كان قد عمله نائبا ببعلبك، فاستناب عنه فيها و دخل إلى القاهرة، و أنعم عليه صلاح الدين بالإسكندرية، فسار إليها و أقام بها إلى أن توفى فى مستهل صفر سنة ست و سبعين و خمسمائة بالإسكندرية، فدفن بها، و كان كريما واسع العطاء، كثير الإنفاق، مات و عليه مائتا ألف دينار مصرية دينا، فقضاها عنه أخوه صلاح الدين، و كان سبب خروجه من اليمن أنه التاث بدنه بزبيد، فارتجل له سيف الدولة مبارك بن منقذ:

و إذا أراد اللّه سوءا بامرئو أراد أن يحييه غير سعيد

أغراه بالترحال من مصر بلاسبب و أسكنه بصقع زبيد

فخرج من اليمن كما تقدّم.

و حكى الأديب الفاضل مهذب الدين أبو طالب محمد بن على الحلى المعروف بابن الخيمى قال: رأيت فى النوم المعظم شمس الدولة و قد مدحته و هو فى القبر ميت، فلفّ كفنه و رماه إلىّ و أنشدنى:

لا تستقلنّ معروفا سمحت به‌ميتا و أمسيت عنه عاريا بدنى

و لا تظننّ جودى شابه بخل‌من بعد بذلى بملك الشام و اليمن

إنى خرجت عن الدنيا و ليس معى‌من كل ما ملكت كفى سوى كفنى

و هذا الدرب من أعمر أخطاط القاهرة، به دار عباس الوزير و جماعة كما تراه إن شاء اللّه تعالى.

درب ملوخيا: هذا الدرب كان يعرف بحارة قائد القوّاد كما تقدم، و عرف الآن بدرب ملوخيا، و ملوخيا كان صاحب ركاب الخليفة الحاكم بأمر اللّه، و يعرف بملوخيا الفرّاش، و قتله الحاكم و باشر قتله، و فى هذا الدرب مدرسة القاضى الفاضل، و قد اتصل به الآن الخراب.

درب السلسلة: هذا الدرب تجاه باب الزهومة، يعرف بالسلسلة التى كانت تمدّ كل ليلة بعد العشاء الآخرة كما تقدّم، و كان يعرف بدرب افتخار الدولة الأسعد، و عرف بسنان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۲

الدولة بن الكركندىّ و هو الآن درب عامر.

درب الشمسى: هذا الدرب بسوق المهامزيين تجاه قيسارية العصفر، عرف بالأمير علاء الدين كشنقدى الشمسىّ، أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و قتل على عكا فى سنة تسعين و ستمائة بيد الفرنج شهيدا، و كان هذا الدرب فى القديم موضعه دار الضرب، ثم صار من حقوق درب ابن طلائع بسوق الفرّايين، و قد هدم بعض هذا الدرب الأمير جمال الدين يوسف الاستادار ، لما اغتصب الحوانيت التى كانت على يمنة السالك من الخراطين إلى سوق الخيميين، و كانت فى وقف المعظم تمرتاش الحافظى كما سيأتى ذكره، عند ذكر مدرسته إن شاء اللّه تعالى.

درب بن طلائع: هذا الدرب على يسرة من سلك من سوق الفرّايين الآن، الذى كان يعرف قديما بالخرقيين، طالبا إلى الجامع الأزهر، و يسلك فى هذا الدرب إلى قيسارية السروج، و باب ممرّ حمّام الخرّاطين، و دار الأمير الدمر، و عرف هذا الدرب أوّلا بالأمير نور الدولة أبى الحسن علىّ بن نجا بن راجح بن طلائع، ثم عرف بدرب الجاولى الكبير، و هو الأمير عز الدين جاولى الأسدى، مملوك أسد الدين شير كوه بن شادى، ثم عرف بدرب العماد سنينات، ثم عرف بدرب الدمر، و به يعرف إلى الآن.

(الدمر أمير جان دار سيف الدين) أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاون، خرج إلى الحج فى سنة ثلاثين و سبعمائة، و كان أمير حاج الركب العراقى تلك السنة، يقال له محمد الحويج من أهل توريز، بعثه أبو سعيد ملك العراق إلى مصر، و خفّ على قلب الملك الناصر، ثم بلغه عنه ما يكرهه فأخرجه من مصر، و لما بلغه أنّ حويج فى هذه السنة أمير الركب العراقىّ، كتب إلى الشريف عطيفة أمير مكة أن يعمل الحيلة فى قتله بكل ما يمكن، فأطلع على ذلك ابنه مباركا و خواص قوّاده، فاستعدّوا لذلك، فلما وقف الناس بعرفة و عادوا يوم النحر إلى مكة، قصد العبيد إثارة فتنة و شرعوا فى النهب لينالوا غرضهم من قتل أمير الركب العراقىّ، فوقع الصارخ و ليس عند المصريين خبر مما كتبه السلطان، فنهض أمير الركب الأمير سيف الدين خاص ترك، و الأمير أحمد قريب السلطان، و الأمير الدمر أمير جان دار فى مماليكهم، و أخذ الدمر يسب الشريف رميته، و أمسك بعض قوّاده و أحدق به، فقام إليه الشريف عطيفة و لا طفه فلم يرجع، و كان حديد النفس شجاعا فأقدم إليهم و قد اجتمع قوّاد مكة و أشرافها و هم ملبسون يريدون الركب العراقىّ، و ضرب مبارك بن عطيفة بدبوس فأخطأه، و ضربه مبارك بحربة نفذت من صدره، فسقط عن فرسه إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۳

الأرض، فأرتج الناس و وقع القتال، فخرج أمير الركب العراقىّ و احترس على نفسه فسلم، و سقط فى يد أمير مكة إذ فات مقصوده، و

حصل ما لم يكن بإرادته، ثم سكنت الفتنة و دفن الدمر، و كان قتله يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة، فكأنما نادى منادى فى القاهرة و القلعة و الناس فى صلاة العيد بقتل الدمر و وقوع الفتنة بمكة، و لم يبق أحد حتى تحدّث بذلك، و بلغ السلطان فلم يكترث بالخبر.

و قال أين مكة من مصر، و من أتى بهذا الخبر، و استفيض هذا الخبر بقتل الدمر حتى انتشر فى إقليم مصر كله، فما هو إلّا أن حضر مبشر الحاج فى يوم الثلاثاء ثانى المحرّم سنة إحدى و ثلاثين و سبعمائة فاخبروا بالخبر مثل ما أشيع، فكان هذا من أغرب ما سمع به، و لما بلغ السلطان خبر قتل الدمر غضب غضبا شديدا، و صار يقوم و يقعد، و أبطل السماط و أمر فجرد من العسكر ألفا فارس كل منهم بخودة و جوشن و مائة فردة نشاب و فأس برأسين أحدهما للقطع و الآخر للهدم، و مع كل منهم جملان و فرسان و هجين، و رسم لأمير هذا العسكر أنه إذا وصل إلى ينبع و عدّاه، لا يرفع رأسه إلى السماء بل ينظر إلى الأرض و يقتل كل من يلقاه من العربان إلّا من علم أنّه أمير عرب، فإنه يقيده و يسجنه معه، و جرّد من دمشق ستمائة فارس على هذا الحكم، و طلب الأمير أيتمش أمير هذا الجيش و من معه من الأمراء و المقدّمين و قال له: بدار العدل يوم الخدمة: و إذا وصلت إلى مكة لا تدع أحدا من الأشراف و لا من القوّاد و لا من عبيدهم يسكن مكة، و ناد فيها من أقام بمكة حلّ دمه، و لا تدع شيئا من النخل حتى تحرقه جميعه، و لا تترك بالحجاز دمنة عامرة، و أخرب المساكن كلها، و أقم فى مكة بمن معك حتى أبعث إليك بعسكر ثانى، و كان القضاة حاضرين.

فقال قاضى القضاة جلال الدين القزوينىّ: يا مولانا السلطان، هذا حرم قد أخبر اللّه عنه أنّ من دخله كان آمنا، و شرّفه. فردّ عليه جوابا فى غضب. فقال الأمير أيتمش يا خوند، فإن حضر دمنة للطاعة و سأل الأمان؟ فقال أمّنه.

ثم لما سكن عنه الغضب كتب باستقرار أهل مكة و تأمينهم، و كتب أمانا نسخته: هذا أمان اللّه سبحانه و تعالى، و أمان رسوله صلى اللّه عليه و سلّم، و أماننا للمجلس العالى الأسدى دمنة بن الشريف نجم الدين محمد بن أبى نمر، بأن يحضر إلى خدمة الصنجق الشريف صحبة الجناب العالى السيفى أيتمش الناصرى، آمنا على نفسه و أهله و ماله و ولده و ما يتعلق به، لا يخشى حلول سطوة قاصمة، و لا يخاف مؤاخذة حاسمة، و لا يتوقع خديعة و لا مكرا، و لا يحذر سوأ و لا ضررا، و لا يستشعر مخافة و لا ضرارا، و لا يتوقع و جلا، و لا يرهب بأسا.

و كيف يرهب من أحسن عملا بل يحضر إلى خدمة الصنجق آمنا على نفسه و ماله و آله مطمئنا واثقا بالله و رسوله. و بهذا الأمان الشريف المؤكد الأسباب المبيض الوجه الكريم الأحساب، و كلما يخطر بباله أنا نؤاخذ به فهو مغفور، و للّه عاقبة الأمور، و له منّا الإقبال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۴

و التقديم، و قد صفحنا الصفح الجميل، و أنّ ربك هو الخلّاق العليم، فليثق بهذا الأمان الشريف و لا يسىء به الظنون، و لا يصغى إلى قول الذين لا يعلمون، و لا يستشير فى هذا الأمر إلّا نفسه، فيومه عندنا ناسخ لأمسه. و قد قال صلى اللّه عليه و سلّم: «يقول اللّه تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظنّ بى خيرا، فتمسك بعروة هذا الأمان فإنها وثقى، و اعمل عمل من لا يضل و لا يشقى، و نحن قد أمّنّاك فلا تخف، و رعينا لك الطاعة و الشرف، و عفا اللّه عما سلف، و من أمّناه فقد فاز، فطب نفسا و قرّ عينا، فأنت أمير الحجاز و الحمد للّه وحده».

و كان الدمر فيه شهامة و شجاعة و له سعادة طائلة ضخمة و متاجر و زراعات اقتنى بها أموالا جزيلة، و زوّج ابنه بابنة قاضى القضاة جلال الدين القزوينى.

درب قيطون: هذا الدرب بين قيسارية جهاركس و قيسارية أمير على، و هو نافذ إلى خلف مستوقد حمّام القاضى، و كان من حقوق درب الأسوانى.

درب السراج: هذا الدرب على يسرة من سلك من الجامع الأزهر طالبا درب الأسوانىّ، و خط الأكفانيين، و كان من جملة خط درب الأسوانى ثم أفرد فصار من خط الجامع الأزهر، و كان يعرف أوّلا بدرب السراج، ثم عرف بدرب الشامى، و هو الآن يعرف بدرب ابن

الصدر عمر.

درب القاضى: هذا الدرب يقابل مستوقد حمّام القاضى، على يمنة من سلك من درب الأسوانىّ إلى الجامع الأزهر، و هو من حقوق درب الأسوانى، كان يعرف أوّلا بزقاق عزاز، غلام أمير الجيوش شاور السعدى وزير العاضد، ثم عرف بالقاضى السعيد أبى المعالى هبة اللّه بن فارس، ثم عرف بزقاق ابن الإمام، و عرف أخيرا بدرب ابن لؤلؤ، و هو شمس الدين محمد بن لؤلؤ التاجر، بقيسارية جهاركس.

درب البيضاء: هو من جملة خط الأكفانيين الآن، المسلوك إليه من الجامع الأزهر و سوق الفرّايين، عرف بذلك لأنه كان به دار تعرف بالدار البيضاء.

درب المنقدى: هذا الدرب بين سوق الخيميين و سوق الخرّاطين، على يمنة من سلك من الخرّاطين إلى الجامع الأزهر، كان يعرف قديما بزقاق غزال، و هو صنيعة الدولة أبو الظاهر إسماعيل بن مفضل بن غزال، ثم عرف بدرب المنقدى، و هو الآن يعرف بدرب الأمير بكتمر استادار العلاى.

درب خرابة صالح: هذا الدرب على يسرة من سلك من أوّل الخرّاطين إلى الجامع الأزهر، كان موضعه فى القديم مارستانا، ثم صار مساكن، و عرف بخرابة صالح، و فيه الآن دار الأمير طينال التى صارت بيد ناصر الدين محمد البارزى كاتب السرّ، و فيه أيضا باب سوق الصنادقيين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۵

درب الحسام: هذا الدرب على يمنة من سلك من آخر سويقة الباطلية إلى الجامع الأزهر، عرف بحسام الدين لاجين الصفدى استادار الأمير منجك.

درب المنصورى: هذا الدرب بأوّل الحارة الصالحية تجاه درب أمير حسين، عرف أوّلا بدرب الجوهرى، و هو شهاب الدين أحمد بن منصور الجوهرى، كان حيا فى سنة ثمانين و ستمائة، و عرف أخيرا بدرب المنصورى، و هو الأمير قطلو بغا المنصورى حاجب الحجّاب فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين.

درب أمير حسين: هذا الدرب فى طريق من سلك من خط خان الدميرى طالبا إلى حارة الصالحية و حارة البرقية، استجدّه الأمير حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاون، و مات فى ليلة السبت رابع شهر ربيع الآخر سنة أربع و ستين و سبعمائة، و كان آخر من بقى من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون، و هو والد الملك الأشرف شعبان بن حسين.

درب القماحين: هذا الدرب كان يعرف بخط قصر ابن عمار، من جملة حارة كتامة، قريبا من الحارة الصالحية، و فيه اليوم دار خوند شقرا و حمام كراى وراء مدرسة ابن الغنام.

درب العسل: هذا الدرب على يمنة من خرج من خط السبع خوخ يريد المشهد الحسينى، كان يعرف أوّلا بخوخة الأمير عقيل ابن الخليفة المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، أوّل خلفاء الفاطميين بالقاهرة، و مات فى سنة أربع و سبعين و ثلاثمائة، هو و أخوه الأمير تميم بن المعز بالقاهرة، و دفنا بتربة القصر.

درب الجباسة: هذا الدرب تجاه من يخرج من سوق الأبارين إلى المشهد الحسينى، و هو من جملة القصر الكبير، و به دار خوخى التى تعرف اليوم بدار بهادر.

درب ابن عبد الظاهر: هذا الدرب بجوار فندق الذهب بخط الزراكشة العتيق، و فى صفه، و هو من حقوق دار العلم التى استجدّت فى خلافة الآمر و وزارة المأمون الباطيجى، فلما زالت الدولة اختط مساكن و سكن هناك القاضى محى الدين ابن عبد الظاهر فعرف به.

درب الخازن: هذا الدرب ملاصق لسور المدرسة الصالحية التى للحنابلة، و مجاور لباب سرّ قاعة مدرسة الحنابلة، و السبيل الذى على باب فندق مسرور الصغير، استجدّه الأمير علم الدين سنجر الخازن الأشرفىّ والى القاهرة، المنسوب إليه حكر الخازن بخط الصليبة، و

سنجر هذا كانت فيه حشمة و له ثروة زائدة، و يحب أهل العلم، تنقل فى المباشرات إلى أن صار والى القاهرة، فاشتهر بدقة الفهم و صدق الحدس الذى لا يكاد يخطئ، مع عقل و سياسة و إحسان إلى الناس، و عزل بالأمير قديدار و مات عن تسعين سنة فى ثامن جمادى الأولى سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۶

درب الحبيشى: هذا الدرب على يمنة من سلك من خط الزراكشة العتيق طالبا سوق الأبارين، و هو بجوار دار خواجا المجاورة لخان منجك، أصله من جملة القصر النافعى، و كان يعرف بخط القصر النافعى، ثم عرف بخط سوق الوراقين، و هو الآن يعرف بدرب الحبيشى، و هو الأمير سيف الدين بلبان الحبيشى أحد الأمراء الظاهرية ببيرس.

درب بقولا الصفار: بحارة الروم، كان يعرف بدرب الرومى الجزار.

درب دغمش: هذا الدرب ينفذ إلى الخوخة التى تخرج قبالة حمّام الفاضل المرسوم لدخول النساء، كان يعرف قديما بدرب دغمش، و يقال طغمش، ثم عرف بدرب كوز الزير، و يقال كوز الزيت، و يعرف بدرب القضاة بنى غثم من حقوق حارة الروم.

درب أرقطاى: هذا الدرب بحارة الروم، كان يعرف بدرب الشماع، ثم عرف بدرب شمخ، و هو تاج العرب شمخ الحلبى، ثم عرف بدرب المعظم، و هو الأمير عز الملك المعظم ابن قوام الدولة جبر، بجيم و باء موحدة، ثم عرف بدرب أرسل، و هو الأمير عز الدين أرسل بن قرأ رسلان الكاملى والد الأمير جاولى المعظمى، المعروف بجاولى الصغير، ثم عرف بدرب الباسعردى، و هو الأمير علم الدين سنجر الباسعردى أحد أكابر المماليك البحرية الصالحية النجمية، و ولى نيابة حلب، ثم عرف إلى الآن بدرب ابن أرقطاى، و العامّة تقول رقطاى بغير همز، و هو أرقطاى الأمير سيف الدين الحاج أرقطاى أحد مماليك الملك الأشرف خليل ابن قلاون، و صار إلى أخيه الملك الناصر محمد فجعله جمدارا و كان هو و الأمير أيتمش نائب الكرك بينهما أخوة، و لهما معرفة بلسان الترك القيجاقى، و يرجع إليهما فى الياسة التى هى شريعة جنكزخان التى تقول العامّة و أهل الجهل فى زماننا هذا حكم السياسة، يريدون حكم الياسة، ثم إن الملك الناصر أخرجه مع الأمير تنكر إلى دمشق، ثم استقرّ فى نيابة حمص لسبع مضين من رجب سنة عشر و سبعمائة، فباشرها مدّة ثم نقله إلى نيابة صفد فى سنة ثمان عشرة، فأقام بها و عمر فيها أملاكا و تربة، فلما كان فى سنة ست و ثلاثين طلب إلى مصر و جهز الأمير أيتمش أخوه مكانه و عمل أمير مائة بمصر، فلما توجه العسكر إلى اياس خرج معهم و عاد، فكان يعمل نيابة الغيبة إذا خرج السلطان للصيد، ثم أخرج إلى نيابة طرابلس عوضا عن طينال، فأقام بها إلى أن توجه الطنبغا إلى طشطمر نائب حلب، و كان معه بعسكر طرابلس، فلما جرى من هروب الطنبغا ما جرى، كان أرقطاى معه، فأمسك و اعتقل بسكندرية، ثم أفرج عن أرقطاى فى أوّل سلطنة الملك الصالح إسماعيل بوساطة الأمير ملكتمر الحجازى و جعل أميرا إلى أن مات الصالح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۷

و قام من بعده الملك الكامل شعبان و رسم له بنيابة حلب عوضا عن الأمير يلبغا اليحياوى، فحضر إليها فى جمادى الأولى سنة ست و أربعين، فأقام بها نحو خمسة أشهر، ثم طلب إلى مصر فحضر إليها فلم يكن غير قليل حتى خلع الكامل و تسلطن المظفر حاجى، و ولاه نيابة السلطنة بمصر فباشرها إلى أن خلع المظفر و أقيم فى السلطنة الملك الناصر، استعفى من النيابة و سأل نيابة حلب فأجيب و ولى نيابة حلب و خرج إليها، و ما زال فيها إلى أن نقل منها إلى نيابة دمشق، ففرح أهلها به و ساروا إلى حلب، فرحل عنها فنزل به مرض، و سار و هو مريض فمات بعين مباركة ظاهر حلب يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى سنة خمس و سبعمائة و قد أناف عن السبعين. فعاد أهل دمشق خائبين. و كان زكيا فطنا محجاجا لسنا مع عجمة فى لسانه، و له تبنيت مطبوع و ميل إلى الصور الجميلة ما يكاد يملك نفسه إذا شاهدها مع كرم فى المأكول.

درب البنادين: بحارة الروم، يعرف بالبنادين من جملة طوائف العساكر فى الدولة الفاطمية، ثم عرف بدرب أمير جاندار، و هو ينفذ إلى حمام الفاضل المرسوم بدخول الرجال، و أمير جاندار هذا هو الأمير علم الدين سنجر الصالحى المعروف بأمير جندار.

درب المكرّم: بحارة الروم يعرف بالقاضى المكرّم جلال الدين حسين بن ياقوت البزاز نسيب ابن سنا الملك.

درب الضيف: بحارة الديلم، عرف بالقاضى ثقة الملك أبى منصور نصر بن القاضى الموفق أمير الملك أبى الظاهر إسماعيل بن القاضى أمين الدولة أبى محمد الحسن بن على بن نصر بن الضيف. كان موجودا فى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة، و به أيضا رحبة تعرف برحبة الضيف منسوبة إليه.

درب الرصاصى: بحارة الديلم، هذا الدرب كان يعرف بحكر الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء، صهر بنى رزبك من وزراء الدولة الفاطمية، ثم عرف بحكر تاج الملك بدران بن الأمير سيف الدين المذكور، ثم عرف بالأمير عز الدين أيبك الرصاصى.

درب ابن المجاور: هذا الدرب على يسرة من دخل من أوّل حارة الديلم، كان فيه دار الوزير نجم الدين بن المجاور وزير الملك العزيز عثمان، عرف به و هو يوسف بن الحسين بن محمد بن الحسين أبو الفتح نجم الدين الفارسىّ الشيرازى، المعروف بابن المجاور، كان والده صوفيا من أهل فارس، ثم من شيراز، قدم دمشق و أقام فى دويرة الصوفية بها. و كان من الزهد و الدين بمكان، و أقام بمكة و بها مات فى رجب سنة ست و ثمانين و خمسمائة، و كان أخوه أبو عبد اللّه قد سمع الحديث و حدّث و قدم إلى القاهرة و مات بدمشق أوّل رمضان سنة خمس و عشرين و ستمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۸

درب الكهارية: هذا الدرب فيه المدرسة الكهارية بجوار حارة الجودرية المسلوك إليه من القماحين، و يتوصل منه إلى المدرسة الشريفية.

درب الصفيرة: بتشديد الفاء هذا الدرب بجوار باب زويلة، و هو من حقوق حارة المحمودية و كان نافذا إلى المحمودية، و هو الآن غير نافذ و أصله درب الصفيراء تصغير صفراء، هكذا يوجد فى الكتب القديمة، و قد دخل بجميع ما كان فيه من الدور الجليلة بالجامع المؤيدى.

درب الأنجب: هذا الدرب تجاه بئر زويلة التى من فوق فوهتها اليوم ربع يونس من خط البندقانيين، يعرف بالقاضى الأنجب أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن نصر بن علىّ، أحد الشهود فى أيام قاضى القضاة سنان الملك أبى عبد اللّه محمد بن هبة اللّه بن ميسر، و كان حيا فى سنة بضع و عشرين و خمسمائة، و ينسب إلى الحسين بن الأنجب المقدسىّ، أحد الشهود المعدّلين، و كان موجودا فى سنة ستمائة، ثم عرف هذا الدرب بأولاد العميد الدمشقىّ، فإنه كان مسكنهم، ثم عرف بالبساطىّ، و هو قاضى القضاة جمال الدين يوسف. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۳ ؛ ص۷۸

ب كنيسة جدة: بضم الجيم، هذا الدرب بالبندقانيين كان يعرف بدرب بنت جدّة، ثم عرف بدرب الشيخ السديد الموفق.

درب ابن قطز: هذا الدرب بجوار مستوقد حمّاد الصاحب و رباط الصاحب من خط سويقة الصاحب، عرف بناصر الدين بن بلغاق بن الأمير سيف الدين قطز المنصورىّ، و مات بعد سنة ثمان و تسعين و ستمائة.

درب الحريرى: هذا الدرب من جملة دار الديباج هو و درب ابن قطز المذكور قبله، و يتوصل إليه اليوم من أوّل سويقة الصاحب و فيه المدرسة القطبية، عرف بالقاضى نجم الدين محمد بن القاضى فتح الدين عمر المعروف بابن الحريرىّ، فإنه كان ساكنا فيه.

درب ابن عرب: هذا الدرب بخط سويقة الصاحب كان يعرف بدرب بنى أسامة الكتاب، أهل الإنشاء فى الدولة الفاطمية، ثم عرف بدرب بنى الزبير الأكابر الرؤساء فى الدولة الفاطمية، ثم سكنه القاضى علاء الدين علىّ بن عرب محتسب القاهرة فى أيام الأمير بليغاق وكيل بيت المال، فعرف به إلى اليوم، و ابن عرب هذا هو علاء الدين أبو الحسن علىّ بن عبد الوهاب بن عثمان بن علىّ بن محمد عرف بابن عرب، ولى الحسبة بالقاهرة فى آخر صفر سنة خمس و ستين و سبعمائة، و ولى وكالة بيت المال أيضا و توفى.

درب ابن مغش: هذا الدرب تجاه المدرسة الصاحبية، عرف أخيرا بتاج الدين موسى كاتب السعدىّ و ناظر الخاص فى الأيام الظاهرية برقوق، و له به دار مليحة، و كان ماجنا متهتكا يرمى بالسوء، و أما الديانة فإنه قبطىّ، و عنه أخذ سعد الدين إبراهيم بن غراب وظيفة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۹

ناظر الخاص، و عاقبه بين يديه، ثم صار يتردّد بعد ذلك إلى مجلسه، و هلك فى واقعة تيمور لنك بدمشق فى شعبان سنة ثلاث و ثمانمائة بعد ما احترق بالنار لما احترقت دمشق و أكل الكلاب بعضه.

درب مشترك: هذا الدرب يقرب من درب العدّاس تجاه الخط الذى كان يعرف بالمساطح، و فيه الآن سوق الجوارى، عرف أوّلا بدرب الأخنای قاضى القضاة برهان الدين المالكىّ، فإنه كان يسكن فيه، ثم هو الآن يقال له درب مشتكر و هذه كلمة تركية أصلها بلسانهم أج ترك بضم الهمزة و أشمامها، ثم جيم بين الجيم و الشين و معنى ذلك ثلاث و ترك بتاء مثناة من فوق ثم راء مهملة و كاف. و معناها النخل، و معنى هذا الاسم ثلاث نخيل، و عرّبته العامّة فقالت مشترك و هو مشترك السلاح دار الظاهر برقوق، فإنه سكن بها و مات فى سنة ۸۰۱.

درب العداس: هذا الدرب فيما بين دار الديباج و الوزيرية، عرف بعلىّ بن عمر العدّاس صاحب سقيفة العدّاس.

درب كاتب سيدى: هذا الدرب من جملة خط الملحيين، كان يعرف بدرب تقىّ الدين الأطربانى أحد موقعى الحكم عند قاضى القضاة تقىّ الدين الأخناوى ثم عرف بالوزير لصاحب علم الدين عبد الوهاب القبطىّ الشهير بكاتب سيدى.

الوزير كاتب سيدى: تسمى لما أسلم بعبد الوهاب بن القسيس، و تلقّب علم الدين، و عرف بين الكتاب الأقباط بكاتب سيدى و ترقى فى الخدم الديوانية حتى ولى ديوان المرتجع، و تخصص بالوزير الصاحب شمس الدين إبراهيم كاتب أرلان، فلما أشرف من مرضه على الموت عين للوزارة من بعده علم الدين هذا فولاه الملك الظاهر وظيفة الوزارة بعد موت الوزير شمس الدين فى سادس عشرى شعبان سنة تسع و ثمانين و سبعمائة. فباشر الوزارة إلى يوم السبت رابع عشرى رمضان سنة تسعين و سبعمائة، ثم قبض عليه و أقيم فى منصب الوزارة بدله الوزير الصاحب كريم الدين بن الغنام و سلمه إليه و كان قد أراد مصادرة كريم الدين فاتفق استقراره فى الوزارة و تمكنه منه، فألزمه بحمل مال قرّره عليه. فيقال أنه حمل فى هذا اليوم ثلثمائة ألف درهم عنها إذ ذاك نحو العشرة آلاف مثقال ذهبا، و مات بعد ذلك من هذه السنة. و كان كاتبا بليغا كتب بيده بضعا و أربعين رزمة من الورق، و كانت أيامه ساكنة و الأحوال متمشية و فيه لين.

درب مخلص: هذا الدرب بحارة زويلة، عرف بمخلص الدولة أبى الحيا مطرف المستنصرى، ثم عرف بدرب الرايض و هو الأمير طراز الدولة الرايض باصطبل الخلافة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۰

درب كوكب: هذا الدرب هو الآن زقاق شارع يسلك فيه من حارة زويلة إلى درب الصقالبة، عرف أوّلا بالقائد الأعز مسعود المستنصر، ثم عرف بكوكب الدولة ابن الحناكى.

درب الوشاقى: بحارة زويلة، عرف بالأمير حسام الدين سنقر الوشاقى المعروف بالأعسر، السلاح دار أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

درب الصقالبة: بحارة زويلة: عرف بطائفة الصقالبة أحد طوائف العساكر فى أيام الخلفاء الفاطميين و هم جماعة.

درب الكنجى: بحارة زويلة، كان يعرف بدرب حليلة، ثم عرف بالأمير شمس الدين سنقر شاه الكنجى الحاجب الظاهرىّ، قتله قلاون أوّل سلطنته.

درب رومية: هذا الدرب كان فى القديم فيما بين زقاق القابلة و درب الزراق، فزقاق القابلة فيه اليوم كنيسة اليهود بحارة زويلة، و يتوصل منه إلى السبع سقايات و دار بيبرس التى عرفت بدار كاتب السرّ ابن فضل اللّه تجاه حمام ابن عبود، و درب الزراق هو اليوم من جملة خط سويقة الصاحب، و بينهما الآن دور لا يوصل إليه إلّا بعد قطع مسافة، و درب رومية كان يعرف أوّلا بزقاق حسين بن إدريس العزيزى أحد اتباع الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه، ثم عرف بدرب رومية، و هو بجوار زقاق القابلة الذى عرف

بزقاق العسل، ثم عرف بزقاق المعصرة، و عرف اليوم بزقاق الكنيسة.

درب الخضيرى: هذا الدرب يقابل باب الجامع الأقمر البحرى و هو من جملة حقوق القصر الصغير الغربىّ، عرف بالأمير عز الدين ايدمر الخضيرىّ أحد أمراء الملك المنصور قلاوون.

درب شعلة: هو الشارع المسلوك فيه من باب درب ملوخيا إلى خط الفهادين و العطوفية، و قد خرب.

درب نادر: هذا الدرب بجوار المدرسة الجمالية فيما بين درب راشد و درب ملوخيا، عرف بسيف الدولة نادر الصقلبىّ، و توفى لاثنتى عشرة خلت من صفر سنة اثنين و ثمانين و ثلثمائة، فبعث إليه الخليفة العزيز بالله لكفنه خمسين قطعة من ديباج مثقل، و خلّف ثلثمائة ألف دينار عينا و آنية من فضة و ذهب و عبيدا و خيلا و غير ذلك مما بلغت قيمته نحو ثمانين ألف دينار، و كان أحد الخدام ذكره المسبحى فى تاريخه، و قد ذكر ابن عبد الظاهر: أنّ بالسويقة التى دون باب القنطرة دربا يعرف بدرب نادر، فلعله نسب إليه درب كان هناك فى القديم أيضا.

درب راشد: هذا الدرب تجاه خزانة البنود عرف بيمين الدولة راشد العزيزى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۱

درب النميرىّ: عرف بالأمير سيف المجاهدين محمد بن النميرىّ أحد أمراء الخليفة الحافظ لدين اللّه، و ولىّ عسقلان فى سنة ست و ثلاثين و خمسمائة، و كانت ولايتها أكبر من ولاية دمشق، و هذا الدرب كان ينفذ إلى درب راشد و هو الآن غير نافذ، و فى داخله درب يعرف بأولاد الداية طاهر و قاسم الأفضلين أحد أتباع الأفضل بن أمير الجيوش، و عرف الآن بدرب الطفل، و هو من جملة خطة قصر الشوك، فإنه قبالة باب قصر الشوك و بينهما سوقة رحبة الأيدمرى.

درب قراصيا: هذا الدرب من جملة الدروب القديمة، و كان تجاه باب قصر الزمرّد الذى فى مكانه اليوم المدرسة الحجازية، و هذا الدرب اليوم من جملة خطة رحبة باب العيد بجوار سجن الرحبة و قد هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار، و هدم كثيرا من دوره و عملها وكالة فمات و لم تكمل، و هى إلى الآن بغير تكملة، ثم كمله الملك المؤيد شيخ و جعله وقفا على جامعه و هو إلى الآن خان عامر.

درب السلامى: هذا الدرب من جملة خط رحبة باب العيد و فيه إلى اليوم أحد أبواب القصر المسمى بباب العيد، و العامّة تسميه القاهرة، و هذا الدرب يسلك منه إلى خط قصر الشوك و إلى المارستان العتيق الصلاحى و إلى دار الضرب و غير ذلك.

عرف بخواجا مجد الدين السلامى: إسماعيل بن محمد بن ياقوت الخواجا مجد الدين السلامى تاجر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان يدخل إلى بلاد الططر و يتجر و يعود بالرقيق و غيره، و اجتهد مع جويان إلى أن اتفق الصلح بين الملك الناصر و بين القان أبى سعيد، فانتظم ذلك بسفارته و حسن سعيه فازدادت و جاهته عند الملكين، و كان الملك الناصر يسفره و يقرّر معه أمورا فيتوجه و يقضيها على وفق مراده بزيادات، فأحبه و قرّبه و رتب له الرواتب الوافرة، فى كل يوم من الدراهم و اللحم و العليق و السكر و الحلواء و الكماج و الرقاق مما يبلغ فى اليوم مائة و خمسين درهما، عنها يومئذ ثمانية مثاقيل من الذهب، و أعطاه قرية أراك ببعلبك، و أعطى مماليكه إقطاعات فى الحلقة، و كان يتوجه إلى الأردن و يقيم فيه الثلاث سنين و الأربع و البريد لا ينقطع عنه، و تجهّز إليه التحف و الأقمشة ليفرّقها على من يراه من خواص أبى سعيد و أعيان الأردن، ثقة بمعرفته و درايته، و كان النشو ناظر الخاص لا يفارقه و لا يصبر عنه، و من أملاكه ببلاد المشرق السلامية و المأخوذة و المراوزة و المناصف، و لما مات الملك الناصر قلاوون تغير عليه الأمير قوصون و أخذ منه مبلغا يسيرا، و كان ذا عقل وافر و فكر مصيب و خبرة بأخلاق الملوك و ما يليق بخواطرها و دراسة بما يتحفها به من الرقيق و الجواهر، و نطق سعيد و خلق رضىّ و شكالة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۲

حسنة و طلعة بهية، و مات فى داره من درب السلامىّ هذا يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، و دفن

بتربته خارج باب النصر، و مولده فى سنة إحدى و سبعين و ستمائة بالسلّاميّة، بلدة من أعمال الموصل على يوم منها بالجانب الشرقيّ، و هى بفتح السين المهملة و تشديد اللام و بعد الميم ياء مثناة من تحت مشدّدة ثم تاء التأنيث.

درب خاص تركى: هذا الدرب برحبة باب العيد عرف بالأمير الكبير ركن الدين بيبرس المعروف بخاص التركى الكبير، أحد الأمراء الصالحية النجمية، أو بالأمير عز الدين أيبك، المعروف بخاص التركى الصغير، سلاح دار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى.

درب شاطى: هذا الدرب يتوصل منه إلى قصر الشوك، عرف بالأمير شرف الدين شاطى، السلاح دار فى أيام الملك المنصور قلاوون، و كان أميرا كبيرا مقدّما بالديار المصرية، و أخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الشام فأقام بدمشق، و كانت له حرمة وافرة و ديانة و فيه خير، و مات بها فى الحادى و العشرين من شعبان سنة اثنين و ثلاثين و سبعمائة.

درب الرشيدى: هذا الدرب مقابل باب الجوانية عرف بالأمير عز الدين أيدمر الرشيدى، مملوك الأمير بلبان الرشيدى، خوش داش الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى و ولى الأمير ايدمر هذا، استدارا لأستاذه بلبان، ثم ولى استدارا للأمير سلار، و مات فى تاسع عشر شوّال سنة ثمان و سبعمائة، و كان سكنه فى هذا الدرب و كان عاقلا ذا ثروة و جاه، و كان فى القديم موضع هذا الدرب براحا قدّام الحجر.

درب الفريحية: هذا الدرب على يمنة من خرج من الجملون الصغير طالبا درب الرشيدى المذكور، و هو من الدروب التى كانت فى أيام الخلفاء.

درب الأصفر: هذا الدرب تجاه خانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و موضع هذا الدرب هو المنحر الذى تقدّم ذكره.

درب الطاوس: هذا الدرب فى الحدرة التى عند باب سرّ المارستان المنصورى على يمنة من ابتدا الخروج منه، و كان موضعه بجوار باب الساباط أحد أبواب القصر الصغير، و قد تقدّم ذكره، و درب الطاوس أيضا بالقرب من درب العدّاس فيما بين باب الخوخة و الوزيرية.

درب ماينجار: هذا الدرب بجوار جامع أمير حسين من حكر جوهر النوبى خارج القاهرة، عرف بالأمير ما ينجار الرومىّ الواقدىّ أيام الملك الظاهر بيبرس، و قد خربت تلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۳

الديار فى سلطنة الملك المؤيد شيخ.

درب كوسا: هو الآن يسلك فيه على شاطىء الخليج الكبير من قنطرة الأمير حسين إلى قنطرة الموسكى، عرف بحسام الدين كوسا أحد مقدّمى الخلفاء فى أيام الملك المنصور قلاوون، مات بعد سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، و هذا الموضع تجاه دار الذهب التى تعرف اليوم بدار الأمير حسين الططرىّ السلاح دار الناصرىّ، و قد خربت أيضا.

درب الجاكى: هذا الدرب بالحكر عرف بالأمير شرف الدين إبراهيم بن علىّ بن الجنيد الجاكى المهمندار المنصورى، و قد دثر فى أيام المؤيد على يد الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج الاستادار، لما خرب ما هناك.

درب الحرامى: بالحكر، عرف بسعد الدين حسين بن عمر بن محمد الحرامى و ابنه محيى الدين يوسف، و كانا من أجناد الحلقة.

درب الزراق: بالحكر، عرف بالأمير عز الدين أيدمر الزراق، أحد الأمراء، ولّاه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون نيابة غزة فى سنة خمس و أربعين و سبعمائة، فأقام بها مدّة ثم استعفى بعد موت الملك الصالح و عاد إلى القاهرة، ثم توجه إلى دمشق للحوطة على موجود الخاصكية يلبغا اليحياوى فى الأيام المظفرية و عاد فلما ركب العسكر على المظفر لم يكن معه سوى الزراق واق سنقر و أيدمر الشمسى فنقم الخاصكية عليهم ذلك و أخرجوهم إلى الشام، فوصلوا إليها فى أوّل شوّال سنة ثمان و أربعين، فأقام الزراق

بدمشق، ثم ورد مرسوم السلطان حسن بتوجيههم إلى حلب فتوجه إليها على إقطاع و بها مات، و كان دينّا ليّنا فيه خير، و كان هذا الدرب عامرا و فيه دار الزراق الدار العظيمة، و قد خرب هذا الدرب و ما حوله منذ كانت الحوادث فى سنة ست و ثمانمائة ثم نقضت الدار فى أيام المؤيد شيخ، على يد ابن أبى الفرج.

زقاق طريف: بالطاء المهملة، هذا الزقاق من أزقة البرقية، عرف بالأمير فخر الدين طريف بن بكتوت، و كان يعرف بزقاق منار بن ميمون بن منار، توفى فى ذى الحجة سنة اثنتين و ثمانين و خمسمائة.

زقاق منعم: بحارة الديلم، كان يعرف بمساطب الديلم و الأتراك، ثم عرف بالأمير منعم الدولة باتكين بالبوسحاقى، ثم عرف بزقاق جمال الدولة، ثم بزقاق الجلاطى، ثم بزقاق الصهرجتى، و هو القاضى المنتخب ثقة الدولة أبو الفضل محمد بن الحسين بن هبة اللّه بن وهيب الصهرجتى، و كان حيّا فى سنة ستين و خمسمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۴

زقاق الحمام: بحارة الديلم، عرف قديما بخوخة المنقدى، ثم عرف بخوخة سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء، صهر بنى رزبك، ثم عرف بزقاق حمام الرصاصى، ثم عرف بزقاق المزار.

زقاق الحرون: بحارة الديلم، عرف بالأمير الأوحد سلطان الجيوش زرى الحرون، رفيق العادل بن السلاروز مصر فى أيام الخليفة الظافر بأمر اللّه، ثم عرف بابن مسافر عين القضاة، ثم عرف بزقاق القبة.

زقاق الغراب: بالجودرية، كان يعرف بزقاق أبى العز، ثم عرف بزقاق ابن أبى الحسن العقيلى، ثم قيل له زقاق الغراب، نسبة إلى أبى عبد اللّه محمد بن رضوان الملقب بغراب.

زقاق عامر: بالوزيرية، عرف بعامر القماح فى حارة الأقانصة.

زقاق فرج: بالجيم، من جملة أزقة درب ملوخيا، عرف بفرج مهتار الطشتخاناه للملك المنصور قلاوون، كان حيّا فى سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة.

زقاق حدرة: الزاهدى بحارة برجوان، عرفت بالأمير ركن الدين بيبرس الزاهدى الرمّاح الأحدب، أحد الأمراء و ممن له عدّة غزوات فى الفرنج، و لما تمالأ الأمراء على الملك السعيد ابن الظاهر و سبقهم إلى القلعة كان قدّامه بيبرس الزاهدى هذا، فسقط عن فرسه و خرجت له حدبة فى ظهره، و مات فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة و كان مكان هذه الحدرة إخصاصا، و هى الآن مساكن بينها زقاق يسلك فيه من رأس الحارة إلى رحبة الأفيال.

ذكر الخوخ

و القصد إيراد ما هو مشهور من الخوخ، أو لذكره فائدة، و إلّا فالخوخ و الدروب و الأزقة كثيرة جدا.

الخوخ السبع: كانت سبع خوخ فيما يقال متصلة باصطبل الطارمة، يتوصل منها الخلفاء إذا أرادوا الجامع الأزهر، فيخرجون من باب الديلم الذى هو اليوم باب المشهد الحسينىّ إلى الخوخ، و يعبرون منها إلى الجامع الأزهر، فإنه كان حينئذ فيما بين الخوخ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۵

و الجامع رحبة، كما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و كان هذا الخط يعرف أوّلا بخوخة الأمير عقيل، و لم يكن فيه مساكن، ثم عرف بعد انقضاء دولة الفاطميين بخط الخوخ السبع، و ليس لهذه الخوخ اليوم أثر البتة، و يعرف اليوم بالأبارين.

باب الخوخة: هو أحد أبواب القاهرة مما يلى الخليج فى حدّ القاهرة البحرى، يسلك إليه من سويقة الصاحب و من سويقة المسعودىّ، و كان هذا الباب يعرف أوّلا بخوخة ميمون دبه، و يخرج منه إلى الخليج الكبير. و ميمون دبه يكنّى بأبى سعيد، أحد خدام العزيز باللّه، كان خصيا.

خوخة ايدغمش: هذه الخوخة فى حكم أبواب القاهرة، يخرج منها إلى ظاهر القاهرة عند غلق الأبواب فى الليل و أوقات الفتن إذا غلقت الأبواب، فينتهى الخارج منها إلى الدرب الأحمر و اليانسية، و يسلك من هناك إلى باب زويلة، و يصار إليها من داخل القاهرة إما من سوق الرقيق أو من حارة الروم من درب أرقطاى، و هذه الخوخة بجوار حمّام أيدغمش. و هو ايدغمش الناصرى، الأمير علاء الدين، أصله من مماليك الأمير سيف الدولة بلبان الصالحىّ، ثم صار إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، فلما قدم من الكرك جعله أمير أخور عوضا عن الأمير بيبرس الحاجب، و لم يزل حتى مات الملك الناصر فقام مع قوصون و وافقه على خلع الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر، ثم لما هرب الطنبغا الفخرى اتفق الأمراء مع أدغمش على الأمير قوصون فوافقهم على محاربته، و قبض على قوصون و جماعته و جهزهم إلى الاسكندرية، و جهز من أمسك الطنبغا و من معه و أرسلهم أيضا إلى الإسكندرية، و صار ايدغمش فى هذه النوبة هو المشار إليه فى الحلّ و العقد، فأرسل ابنه فى جماعة من الأمراء و المشايخ إلى الكرك بسبب إحضار أحمد بن الملك الناصر محمد، فلما حضر أحمد من الكرك و تلقب بالملك الناصر و استقرّ أمره بمصر أخرج إيدغمش نائبا بحلب، فسار إلى عين جالوت ، و إذا بالفخرى قد صار إليه مستجيرا به، فآمنه و أنزله فى خيمة، فلما ألقى عنه سلاحه و اطمأنّ قبض عليه و جهز إلى الملك الناصر أحمر، و توجه إلى حلب فأقام بها إلى أن استقرّ الملك الصالح إسماعيل بن محمد فى السلطنة، نقله عن نيابة حلب إلى نيابة دمشق، فدخلها فى يوم العشرين من صفر سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، و ما زال بها إلى يوم الثلاثا ثالث جمادى الآخرة منها. فعاد من مطعم طيوره و جلس بدار السعادة حتى انقضت الخدمة، و أكل الطارى و تحدّث، ثم دخل إلى داره فإذا جواريه يختصمن، فضرب واحدة منهنّ ضربتين و شرع فى الضربة الثالثة فسقط ميتا، و دفن من الغد فى تربته خارج ميدان الحصى ظاهر دمشق، و كان جوادا كريما، و له مكانة عند الملك الناصر الكبير بحيث أنّه أمّر أولاده الثلاثة، و كان قد بعث الملك الصالح بالقبض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۶

عليه فبلغ القاصد موته فى قطيا فعاد.

خوخة الأرقى: بحارة الباطلية، يخرج منها إلى سوق الغنم و غيره و هى بجوار داره.

خوخة عسيلة: هذه الخوخة من الخوخ القديمة الفاطمية، و هى بحارة الباطلية مما يلى حارة الديلم فى ظهر الزقاق المعروف بخرابة العجيل بجوار دار الست حدق.

خوخة الصالحية: هذه الخوخة بجوار حبس الديلم، قريبة من دار الصالح طلائع بن رزبك التى هدمها ابن قايمار و عمرها، و كانت تعرف هذه الخوخة أوّلا بخوخة بحتكين، و هو الأمير جمال الدولة بحتكين الظاهرىّ، ثم عرفت بخوخة الصالح طلائع بن رزبك، لأنّ داره كانت هناك و بها كان سكنه قبل أن يلى وزارة الظافر.

خوخة المطوع: هذه الخوخة بحارة كتامة فى أوّلها مما يلى الجامع الأزهر، عند اصطبل الحسام الصفدى، عرفت بالمطوع الشيرازى.

خوخة حسين: هذه الخوخة فى الزقاق الضيق المقابل لمن يخرج من درب الأسوانىّ و يسلك فيه إلى حكر الرصاصىّ، بحارة الديلم، و يعرف هذا الزقاق بزقاق المزار، و فيه قبر تزعم العامّة و من لا علم عنده أنه قبر يحيى بن عقب، و أنه كان مؤدّبا للحسين بن علىّ بن أبى طالب، و هو كذب مختلق و أفك مفترى. كقولهم فى القبر الذى بحارة برجوان أنه قبر جعفر الصادق، و فى القبر الآخر أنه قبر أبى تراب النخشبىّ، و فى القبر الذى على يسرة من خرج من باب الحديد ظاهر زويلة أنه قبر زارع النوى و أنه صحابىّ، و غير ذلك من أكاذيبهم التى اتخذها لهم شياطينهم أنصابا ليكونوا لهم عزّا، و سيأتى الكلام على هذه المزارات فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

و حسين هذا: هو الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء، صهر بنى رزبك، و كان كرديا قدّمه الصالح بن رزبك ابن الصالح لما ولىّ الوزارة و نوه به، فلما مات و قام من بعده ابنه رزبك بن الصالح فى الوزارة، كان حسين هذا هو مدبر أمره بوصية الصالح، و استشار حسينا فى صرف شاور عن ولاية قوص، فأشار عليه بإبقائه، فأبى و ولى الأمير أبى الرفعة مكانه، و بلغ ذلك شاور فخرج من

قوص إلى طريق الواحات، فلما سمع رزبك بمسيره رأى فى النوم مناما عجيبا، فأخبر حسينا بأنه رأى مناما، فقال: إن بمصر رجلا يقال له أبو الحسن علىّ بن نصر الأرتاجىّ، و هو حاذق فى التعبير فأحضره. و قال: رأيت كأنّ القمر قد أحاط به حنش، و كأننى روّاس فى حانوت. فغالطه الأرتاجى فى تعبير الرؤيا و ظهر ذلك لحسين، فأمسك حتى خرج. و قال له: ما أعجبنى كلامك و اللّه، لا بدّ أن تصدقنى و لا بأس عليك. فقال: يا مولاى، القمر عندنا هو الوزير، كما أن الشمس الخليفة، و الحنش المستدير عليه حبس مصحف، و كونه روّاس اقبلها تجدها شر مصحفا، و ما وقع لى غير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۷

هذا. فقال حسين: اكتم هذا عن الناس. و أخذ حسين فى الاهتمام بأمره، و وطأ أنه يريد التوجه إلى مدينة الرسول صلى اللّه عليه و سلم، و كان قد أحسن إلى أهلها و حمل إليها مالا و قماشا و أودعه عند من يثق به، هذا و أمر شاور يقوى و يتزايد و يصل الأرجاف به إلى أن قرب من القاهرة، فصاح الصائح فى بنى رزبك و كانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس، فأوّل من نجا بنفسه حسين، و سار فسأل عنه رزبك فقالوا: خرج. فانقطع قلبه لأن حسينا كان مذكورا بالشجاعة مشهورا بها، و له تقدّم فى الدولة و مكانة و ممارسة للحروب و خبرة بها، و لم يثبت بعد خروج حسين بل انهزم إلى ظاهر اطفيح فقبض عليه ابن النيض مقدّم العرب و أحضره إلى شاور فحبسه، و صدقت رؤياه و مات حسين فى سنة

خوخة الحلبى: هذه الخوخة فى آخر اصطبل الطارمة بجوار حمّام الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ و فى ظهر داره.

سنجر الحلبىّ: أحد المماليك الصالحية، ترقّى فى الخدم إلى أن ولّاه الملك المظفر سيف الدين قطز نيابة دمشق، فلما قتل قطز على عين جالوت و قام من بعده فى السلطنة بالديار المصرية الملك الظاهر بيبرس، ثار سنجر بدمشق فى سنة ثمان و خمسين و ستمائة و دعا إلى نفسه، و تلقب بالملك المجاهد، و بقى أشهرا و الملك الظاهر يكاتب أمراء دمشق إلى أن خامروا على سنجر و حاصروه بقلعة دمشق أياما، فلما خشى أن يقبض عليه فرّ من القلعة إلى بعلبك، فجهز إليه الظاهر الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى و ما زال يحاصره حتى أخذه أسيرا، و بعث به إلى الديار المصرية، فاعتقله الظاهر و ما زال فى الاعتقال من سنة تسع و خمسين إلى سنة تسع و ثمانين و سبعمائة، مدّة تنيف على ثلاثين سنة، مدّة أيام الملك الظاهر و ولديه و أيام الملك المنصور قلاوون، فلما ولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون أخرجه من السجن و خلع عليه و جعله أحد الأمراء الأكابر على عادته، فلم يزل أميرا بمصر إلى أن مات على فراشه فى سنة اثنين و تسعين و سبعمائة، و قد جاوز تسعين سنة، و انحنى ظهره و تقوّس.

خوخة الجوهرة: هذه الخوخة بآخر حارة زويلة، عرفت اليوم بخوخة الوالى لقربها من دار الأمير علاء الدين الكورانىّ والى القاهرة، و كان من خير الولاة يحفظ كتاب الحاوى فى الفقه على مذهب الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه، و أقام فى ولاية القاهرة من محرّم سنة تسع و أربعين و سبعمائة بعد استدمر القلنجىّ و إلى القاهرة إلى

خوخة مصطفى: هذه الخوخة بآخر زقاق الكنيسة من حارة زويلة، يخرج منها إلى القبو الذى عند حمّام طاب الزمان المسلوك منه إلى قبو منظرة اللؤلؤة على الخليج، عرفت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۸

بالأمير فارس المسكين مصطفى أحد أمراء بنى أيوب الملوك، و هو أيضا صاحب هذا الحمّام.

خوخة ابن المأمون: هذه الخوخة فى حارة زويلة بالدرب الذى بقرب حمام الكوبك، و يقال لهذه الخوخة اليوم باب حارة زويلة، و أصلها خوخة فى درب ابن المأمون البطائحى.

خوخة كوتية أق سنقر: هذه الخوخة فى الزقاق الذى يظهر المدرسة الفهرية بآخر سويقة الصاحب، كان يسلك منها إلى الخليج من جوار باب الذهب، و موضعها بحذاء بيت القاضى أمين الدين ناظر الدولة، و لم تزل إلى أن بنى المهتار عبد الرحمن البابا داره بجوارها فى سنى بضع و تسعين و سبعمائة، فسدّها، و عرفت هذه الخوخة أخيرا بخوخة المسيرى، و هو قمر الدين بن السعيد المسيرى.

خوخة أمير حسين: هذه الخوخة من جملة الوزيرية، يخرج منها إلى تجاه قنطرة أمير حسين، فتحها الأمير شرف الدين حسين بن أبى بكر بن إسماعيل بن حيدرة بيك الرومى حين بنى القنطرة على الخليج الكبير، و أنشأ الجامع بحكر جوهر التوبى. و جرى فى فتح هذه الخوخة أمر لا بأس بإيراده: و هو أن الأمير حسين قصد أن يفتح فى السور خوخة لتمرّ الناس من أهل القاهرة فيها إلى شارع بين السورين ليعمر جامعه، فمنعه الأمير علم الدين سنجر الخازن و إلى القاهرة من ذلك إلّا بمشاورة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان للأمير حسين إقدام على السلطان، و له به مؤانسة، فعرّفه أنه أنشأ جامعا، و سأله أن يفسح له فى فتح مكان من السور ليصير طريقا نافذا يمرّ فيه الناس من القاهرة و يخرجون إليه، فأذن له فى ذلك و سمح به، فنزل إلى السور و خرق منه قدر باب كبير و دهن عليه رنكه بعد ما ركب هناك بابا و مرّ الناس منه، و اتفق أنه اجتمع بالخازن والى القاهرة و قال له على سبيل المداعبة: كم كنت تقول ما أخليك تفتح فى السور بابا حتى تشاور السلطان، ها أنا قد شاورته و فتحت بابا على رغم أنفك، فحنق الخازن من هذا القول و صعد إلى القلعة و دخل على السلطان و قال: يا خوند أنت رسمت للأمير شرف الدين أن يفتح فى السور بابا، و هو سور حصين على البلد. فقال السلطان: إنما شاورنى أن يفتح خوخة لأجل حضور الناس للصلاة فى جامعه. فقال الخازن: يا خوند ما فتح إلّا بابا يعادل باب زويلة، و عمل عليه رنكة، و قصد يعمل سلطانا على البارد، و ما جرت عادة أحد بفتح سور البلد. فأثر هذا الكلام من الخازن فى نفس السلطان أثرا قبيحا و غضب غضبا شديدا، و بعث إلى النائب و قد اشتدّ حنقه بأن يسفر حسين بن حيدر إلى دمشق، بحيث لا يبيت فى المدينة، فخرج من يومه من البلد بسبب ما تقدّم ذكره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۹

ذكر الرحاب

الرحبة بإسكان الحاء و فتحها: الموضع الواسع، و جمعها رحاب. اعلم أنّ الرحاب كثيرة لا تتغير إلّا بأن يبنى فيها، فتذهب و يبقى اسمها، أو يبنى فيها و يذهب اسمها و يجهل، و ربما انهدم بنيان و صار موضعه رحبة أو دارا أو مسجدا، و الغرض ذكر ما فيه فائدة.

رحبة باب العيد: هذه الرحبة كان أوّلها من باب الريح أحد أبواب القصر الذى أدركنا هدمه على يد الأمير جمال الدين الاستادار، فى سنة إحدى عشرة و ثمانمائة، و إلى خزانة البنود، و كانت رحبة عظيمة فى الطول و العرض، غاية فى الاتساع، يقف فيها العساكر فارسها و راجلها فى أيام مواكب الأعياد ينتظرون ركوب الخليفة و خروجه من باب العيد، و يذهبون فى خدمته لصلاة العيد بالمصلى خارج باب النصر، ثم يعودون إلى أن يدخل من الباب المذكور إلى القصر، و قد تقدّم ذكر ذلك، و لم تزل هذه الرحبة خالية من البناء إلى ما بعد الستمائة من الهجرة، فاختط فيها الناس و عمروا فيها الدور و المساجد و غيرها، فصارت خطة كبيرة من أجل أخطاط القاهرة، و بقى اسم رحبة باب العيد باقيا عليها لا تعرف إلّا به.

رحبة قصر الشوك: هذه الرحبة كانت قبلىّ القصر الكبير الشرقىّ، فى غاية الاتساع، كبيرة المقدار، و موضعها من حيث دار الأمير الحاج أل ملك بجوار المشهد الحسينىّ و المدرسة الملكية إلى باب قصر الشوك، عند خزانة البنود، و بينها و بين رحبة باب العيد خزانة البنود و السفينة، و كان السالك من باب الديلم الذى هو اليوم المشهد الحسينىّ إلى خزانة البنود يمرّ فى هذه الرحبة، و يصير سور القصر على يساره، و المناخ و دار افتكين على يمينه، و لا يتصل بالقصر بنيان البتة، و ما زالت هذه الرحبة باقية إلى أن خرب القصر بفناء أهله، فاختط الناس فيها شيئا بعد شىء حتى لم يبق منها سوى قطعة صغيرة تعرف برحبة الأيد مرى.

رحبة الجامع الأزهر: هذه الرحبة كانت أمام الجامع الأزهر و كانت كبيرة جدّا، تبتدىء من خط اصطبل الطارمة إلى الموضع الذى فيه مقعد الأكفانيين اليوم، و من باب الجامع البحرىّ إلى حيث الخرّاطين. ليس بين هذه الرحبة و رحبة قصر الشوك سوى اصطبل الطارمة، فكان الخلفاء حين يصلّون بالناس بالجامع الأزهر تترجل العساكر كلها و تقف فى هذه الرحبة حتى يدخل الخليفة إلى الجامع، و سيأتى ذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى عند ذكر الجوامع. و لم تزل هذه الرحبة باقية إلى أثناء الدولة الأيوبية، فشرع الناس فى

العمارة بها إلى أن بقى منها قدّام باب الجامع البحرى هذا القدر اليسير.

رحبة الحلىّ: هذه الرحبة الآن من خط الجامع الأزهر و من بقية رحبة الجامع التى تقدّم ذكرها، عرفت بالقاضى نجم الدين أبى العباس أحمد بن شمس الدين علىّ بن نصر اللّه بن مظفر الحلىّ، التاجر العادل لأنها تجاه داره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۰

رحبة البانياسى: هذه الرحبة بدرب الأتراك تجاه دار الأمير طيدمر الجمدار الناصرى، و عرفت بالأمير نجم الدين محمود بن موسى البانياسىّ، لأنّ داره كانت فيها، و مسجده المعلق هناك، و مات بعد سنة خمسمائة.

رحبة الأيدمرى: هذه الرحبة من جملة رحبة باب قصر الشوك، و عرفت بالأيدمرى لأنّ داره هناك.

و الأيدمرىّ: هذا مملوك عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس، ترقى فى الخدم حتى تأمّر فى أيام الملك الظاهر بيبرس، و علت منزلته فى أيام الملك المنصور قلاوون، و مات سنة سبع و ثمانين و ستمائة، و دفن بتربته فى القرافة بجوار الشافعى رضى اللّه عنه.

رحبة البدرى: هذه الرحبة يدخل إليها من رحبة الأيدمرى من باب قصر الشوك، و من جهة المارستان العتيق، و هى من جملة القصر الكبير، عرفت بالأمير بيدمر البدرى صاحب المدرسة البدرية، فإن داره هناك.

رحبة ضروط: هذه الرحبة بجوار دار أىّ ملك، و هى من جملة رحبة قصر الشوك، عرفت بالأمير ضروط الحاجب، فإنه كان يسكن هناك.

رحبة اقبغا: هذه الرحبة هى الآن سوق الخيميين، و هى من جملة رحبة الجامع الأزهر التى مرّ ذكرها، عرفت بالأمير اقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر، و صاحب المدرسة الأقبغاوية.

رحبة مقبل: هذه الرحبة كانت تعرف بخط بين المسجدين، لأنّ هناك مسجدين أحدهما يقابل الآخر، و يسلك من هذه الرحبة إلى سويقة الباطلية، و إلى زقاق تريده، و عرفت أخيرا بالأمير زين الدين مقبل الرومى أمير جاندار الملك برقوق.

رحبة ألدمر: هذه الرحبة فى الدرب أوّل سوق الفرّايين مما يلى الأكفانيين، عرفت بالأمير سيف الدين الدمر الناصرىّ المقتول بمكة.

رحبة قردية: هذه الرحبة بخط الاكفانين، تجاه دار الأمير قردية الجمدار الناصرىّ، و كانت هذه الدار تعرف قديما بالأمير سنجر الشكارى، و له أيضا مسجد معلق يدخل من تحته إلى الرحبة المذكورة، و هناك اليوم قاعة الذهب التى فيها الذهب الشريط لعمل المزركش.

رحبة المنصورىّ: قبالة دار المنصورىّ، عرفت بالأمير قطلوبغا المنصورى المقدّم ذكره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۱

رحبة المشهد: هذه الرحبة تجاه المشهد الحسينى، كانت رحبة فيما بين باب الديلم أحد أبواب القصر الذى هو الآن المشهد الحسينى و بين اصطبل الطارمة.

رحبة أبى البقاء: هذه الرحبة من جملة رحبة باب العيد تجاه باب قاعة ابن كتيلة بخط السفينة، عرفت بقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء محمد بن عبد البرّ بن يحيى بن علىّ بن تمام السبكىّ الشافعىّ، و مولده فى سنة سبع و سبعمائة، أحد العلماء الأكابر، تقلد قضاء القضاة بديار مصر و الشام و مات فى ... .

رحبة الحجازية: هذه الرحبة تجاه المدرسة الحجازية، و هى من جملة رحبة باب العيد، عرفت برحبة الحجازية.

رحبة قصر بشتاك: هذه الرحبة تجاه قصر بشتاك، و هى من جملة الفضاء الذى بين القصرين.

رحبة سلار: تجاه حمام البيسرى و دار الأمير سلار نائب السلطنة، هى أيضا من جملة الفضاء الذى كان بين القصرين.

رحبة الفخرى: هذه الرحبة بخط الكافورى تجاه دار الأمير سيف الدين قطلوبغا الطويل الفخرى السلاح دار الأشرفىّ، أحد أمراء

الملك الناصر محمد بن قلاوون.

رحبة الأكز: بخط الكافورى، هذه الرحبة تجاه دار الأمير سيف الدين الأكز الناصرى الوزير، و تعرف أيضا برحبة الأبوبكرى، لأنها تجاه دار الأمير سيف الدين الأبوبكرى السلاح دار الناصرىّ، و هى شارعة فى الطريق يسلك إليها من دار الأمير تنكز و يتوصل منها إلى دار الأمير مسعود و بقية الكافورى.

رحبة جعفر: هذه الرحبة تجاه حارة برجوان، يشرف عليها شباك مسجد تزعم العوام أن فيه قبر جعفر الصادق. و هو كذب مختلق، و أفك مفترى، ما اختلف أخف من أهل العلم بالحديث و الآثار و التاريخ و السير أنّ جعفر بن محمد الصادق عليه السلام مات قبل بناء القاهرة بدهر، و ذلك أنه مات سنة ثمان و أربعين و مائة، و القاهرة بلا خلاف اختطت فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة بعد موت جعفر الصادق بنحو مائتى سنة و عشر سنين، و الذى أظنه أن هذا موضع قبر جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى المكنّى بأبى محمد، الملقب بالمظفر، و لما ولى أخوه الأفضل ابن أمير الجيوش الوزارة من بعد أبيه جعل أخاه المظفر جعفرا يلى العلامة عنه، و نعت بالأجل المظفر سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل، أمير المؤمنين أبى محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى، و توفى ليلة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۲

الخميس لسبع خلون من جمادى الأولى سنة أربع عشرة و خمسمائة، مقتولا، يقال قتله خادمه جوهر بمباطنة من القائد أبى عبد اللّه محمد بن فاتك البطائحى، و يقال بل كان يخرج فى الليل يشرب، فجاء ليلة و هو سكران، فمازحه دراب حارة برجوان و ترامیا بالحجارة، فوقعت ضربة فى جنبه آلت به إلى الموت، و الذى نقل أنّه دفن بتربة أبيه أمير الجيوش فإما أن يكون دفن هنا أوّلا، ثم نقل أو لم يدفن هنا، و لكنه من جملة ما ينسب إليه، فإنه بجوار دار المظفر التى من جملتها دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى و ما قاربها، كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى عند ذكر دار المظفر.

رحبة الأفيال: هذه الرحبة من جملة حارة برجوان، يتوصل إليها من رأس الحارة، و يسلك فى حدرة الزاهدىّ إليها، و أدركتها ساحة كبيرة، و المشيخة تسميها رحبة الأفيال، و كذا يوجد فى مكاتيب الدور القديمة، و يقال أنّ الفيلة فى أيام الخلفاء كانت تربط بهذه الرحبة أمام دار الضيافة، و لم تزل خربة إلى ما بعد سنة سبعين و سبعمائة، فعمر بها دويرات و وجد فيها بئر متسعة ذات وجهين تشبه أن تكون البئر التى كانت سوّاس الفيلة يستقون منها، ثم طمت هذه البئر بالتراب.

رحبة مازن: هذه الرحبة بحارة برجوان تجاه باب دار مازن التى خربت، و فيها المسجد المعروف بمسجد بنى الكوبك.

رحبة أقوش: هذه الرحبة بحارة برجوان تجاه قاعة الأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرىّ، التى حل وقفها بهاء الدين محمد بن البرجى، ثم بيعت من بعده، و مات أقوش سنة خمس و سبعمائة.

رحبة برلغى: هذه الرحبة عند باب سرّ المدرسة القراسنقرية، تجاه دار الأمير سيف الدين برلغى الصغير، صهر الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و هذه الرحبة من جملة خط داء الوزارة.

رحبة لؤلؤ: هذه الرحبة بحارة الديلم فى الدرب الذى بخط ابن الزلابى، و هى تجاه دار الأمير بدر الدين لؤلؤ الزردكاش الناصرىّ، و هو من جملة من فرّ مع الأمير قراسنقر و أقوس الأفرم إلى ملك التتر بو سعيد.

رحبة كوكاى: هذه الرحبة بحارة زويلة، عرفت بالأمير سيف الدين كوكاى السلاح دار الناصرىّ، و فيها المدرسة القطبية الجديدة.

رحبة ابن أبى ذكرى: هذه الرحبة بحارة زويلة، و هى التى فيها البئر السائلة بالقرب من المدرسة العاشورية، عرفت بالأمير ابن أبى ذكرى، و هى من الرحاب القديمة التى كانت أيام الخلفاء، و بها الآن سوق حارة اليهود القرّايين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۳

رحبة بيبرس: هذه الرحبة يتوصل إليها من سويقة المسعودىّ، و من حمام ابن عبود، عرفت بالملك المظفر ركن الدين بيبرس

الجاشنكير، فإنّ بصدرها داره التى كانت سكنه قبل أن يتقلد سلطنة ديار مصر، و قد حلّ وقفها و بيعت.

رحبة بيبرس الحاجب: هذه الرحبة بخط حارة العدوية عند باب سر الصاغة، عرفت بالأمير بيبرس الحاجب، لأنّ داره بها، و بيبرس هذا هو الذى ينسب إليه غيط الحاجب بجوار قنطرة الحاجب، و بهذه الرحبة الآن فندق الأمير الطواشى زمام الدور السلطانية زين الدين مقبل، و به صار الآن هذا الخط يعرف بخط فندق الزمام، بعد ما كنا نعرفه يعرف بخط رحبة بيبرس الحاجب.

رحبة الموفق: تعرف هذه الرحبة بحارة زويلة تجاه دار الصاحب الوزير موفق الدين أبى البقاء هبة اللّه بن إبراهيم، المعروف بالموفق الكبير، و هى بالقرب من خوخة الموفق، المتوصل منها إلى الكافورى من حارة زويلة.

رحبة أبى تراب: هذه الرحبة فيما بين الخرشنف و حارة برجوان، تشبه أن تكون من جملة الميدان، ادركتها رحبة بها كيمان تراب، و سبب نسبتها إلى أبى تراب أن هناك مسجدا من مساجد الخلفاء الفاطميين، تزعم العامّة و من لا خلاق له أن به قبر أبى تراب النخشبىّ، و هذا القول من أبطل الباطل، و أقبح شىء فى الكذب، فإنّ أبا تراب النخشبى هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى، صحب حاتما الأصم و غيره، و هو من مشايخ الرسالة، و مات بالبادية نهشته السباع سنة خمس و أربعين و مائتين، قبل بناء القاهرة بنحو مائة و ثلاث سنين، و قد أخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب بن الخطباء المخزومى، خال أبى رحمه اللّه، قبل أن يختلط قال: أخبرنى مؤدّبى الذى قرأت عليه القرآن، أن هذا المكان كان كوما، و أن شخصا حفر فيه ليبنى عليه دارا فظهرت له شرافات، فمازال يتبع الحفر حتى ظهر هذا المسجد، فقال الناس: هذا أبو تراب، من حينئذ، و يؤيد ما قال: أنى أدركت هذا المسجد محفوفا بالكيمان من جهاته و هو نازل فى الأرض، ينزل إليه بنحو عشر درج، و ما برح كذلك إلى ما بعد سنة ثمانين و سبعمائة، فنقلت الكيمات التراب التى كانت هناك حوله، و عمر مكانها ما هنالك من دور، و عمل عليها درب من بعد سنة تسعين و سبعمائة، و زالت الرحبة و المسجد على حاله، و أنا قرأت على بابه فى رخامة قد نقش عليها بالقلم الكوفىّ عدّة اسطر، تتضمن أنّ هذا قبر أبى تراب حيدرة ابن المستنصر باللّه، أحد الخلفاء الفاطميين. و تاريخ ذلك فيما أظنّ بعد الأربعمائة، ثم لما كان فى سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة سوّلت نفس بعض السفهاء من العامّة له أن يتقرّب بزعمه إلى اللّه تعالى بهدم هذا المسجد و يعيد بناءه، فجبى من الناس مالا شحذه منهم و هدم المسجد، و كان بناء حسنا، و ردمه بالتراب نحو سبعة أذرع حتى ساوى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۴

الأرض التى تسلك المارّة منها، و بناه هذا البناء الموجود الآن، و بلغنى أن الرخامة التى كانت على الباب نصبوها على شكل قبر أحدثوه فى هذا المسجد، و باللّه ان الفتنة بهذا المكان الآخر من حارة برجوان الذى يعرف بجعفر الصادق لعظيمة، فإنهما صارا كالأنصاب التى كانت تتخذها مشركوا العرب، يلجأ إليهما سفهاء العامّة و النساء فى أوقات الشدائد، و ينزلون بهذين الموضعين كربهم و شدائدهم التى لا ينزلها العبد إلا باللّه ربه، و يسألون فى هذين الموضعين ما لا يقدر عليه إلا اللّه تعالى وحده، من وفاء الدين من غير جهة معينة، و طلب الولد و نحو ذلك، و يحملون النذور من الزيت و غيره إليهما، ظنا أن ذلك ينجيهم من المكاره، و يجلب إليهم المنافع، و لعمرى إن هى إلّا كرّة خاسرة، و للّه الحمد على السلامة.

رحبة أرقطاى: هذه الرحبة بحارة الروم قدّام دار الأمير الحاج أرقطاى نائب السلطنة بالديار المصرية.

رحبة ابن الضيف: هذه الرحبة بحارة الديلم، و هى من الرحاب القديمة، عرفت بالقاضى أمين الملك إسماعيل بن أمين الدولة الحسن بن علىّ بن نصر بن الضيف، و فى هذه الرحبة الدار المعروفة بأولاد الأمير طنبغا الطويل، بجوار حكر الرصاصىّ، و تعرف هذه الرحبة أيضا بحمدان البزاز و بابن المخزومى.

رحبة وزير بغداد: هذه الرحبة بدرب ملوخيا، عرفت بالأمير الوزير نجم الدين محمود بن علىّ بن شردين، المعروف بوزير بغداد، قدم إلى مصر يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، و هو و حسام الدين حسن بن محمد بن محمد الغورىّ الحنفىّ، فارّين من العراق بعد قتل موسى ملك التتر، فأنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون باقطاع أمرة تقدمة ألف. مكان الأمير طازبغا،

عند وفاته، فى ليلة السبت ثامن عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة. فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاون، و قام فى الملك من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر بن محمد، قلد الوزارة بالديار المصرية للأمير نجم الدين محمود وزير بغداد فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرّم سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة. و بنى له دار الوزارة بقلعة الجبل، و أدركناها دار النيابة و عمل له فيها شباك يجلس فيه، و كان هذا قد أبطله الملك الناصر محمد، و خربت قاعة الصاحب، فلم يزل إلى أن صرف فى أيام الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاون عن الوزارة، بالأمير ملكتمر السرجوانى فى مستهل رجب سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، ثم أعيد فى آخر ذى الحجة بعد تمنع منه، و اشترط أن يكون جمال الكفاة ناظر الخاص معه صفة مشير، فأجيب إلى ذلك.

فلما قبض على جمال الكفاة، صرف وزير بغداد و ولى بعده الوزارة الأمير سيف الدين ايتمش الناصرىّ، فى يوم الأربعاء ثانى عشرى ربيع الآخر سنة خمس و أربعين، بحكم استعفائه منها، فباشرها أيتمش قليلا و سأل أن يعفى من المباشرة فأعفى، و ذلك لقلة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۵

المتحصل و كثرة المصروف فى الأنعام على الجوارى و الخدّام و حواشيهم، و كانت الكلف فى كل سنة ثلاثين ألف ألف دينار، و المتحصل خمسة عشر ألف ألف، نحو النصف، و مرتب السكّر فى شهر رمضان كان ألف قنطار، فبلغ ثلاثة آلاف قناطر.

رحبة الجامع الحاكمى: هذه الرحبة من غير قاهرة المعز التى وضعها القائد جوهر، و كانت من جملة الفضاء الذى كان بين باب النصر و المصلى، فلما زاد أمير الجيوش بدر الجمالى فى مقدار السور صارت من داخل باب النصر الآن، و كانت كبيرة فيما بين الحجر و الجامع الحاكمى، و فيما بين باب النصر القديم و باب النصر الموجود الآن، ثم بنى فيها المدرسة القاصدية التى هى تجاه الجامع. و ما فى صفها إلى حمّام الجاولى، و بنى فيها الشيخ قطب الدين الهرماس دارا ملاصقة لجدار الجامع، ثم هدمت كما سيأتى فى خبرها إن شاء اللّه تعالى، عند ذكر الدور، و فى موضعها الآن الربع و الحوانيت سفله، و القاعة الجارى ذلك فى أملاك ابن الحاجب، و ادركت إنشاءها فيما بعد سنة ثلاثين، و هذه الرحبة تؤخذ أجرتها لجهة وقف الجامع.

رحبة كتبغا: هذه الرحبة من جملة اصطبل الجميزة، و هى الآن من خط الصيارف يسلك إليها من الجملون الكبير بسوق الشرابشيين، و من خط طواحين الملحيين و غيره، عرفت بالملك العادل زين الدين كتبغا، فإنها تجاه داره التى كان يسكنها، و هو أمير قبل أن يستقرّ فى السلطنة، و سكنها بنوه من بعده، فعرفت به، ثم حل وقفها فى زمننا و بيعت.

رحبة خوند: هذه الرحبة بآخر حارة زويلة، فيما بينها و بين سويقة المسعودىّ، يتوصل إليها من درب الصقالبة و من سويقة المسعودىّ، و هى من الرحاب القديمة، كانت تعرف فى أيام الخلفاء برحبة ياقوت، و هو الأمير ناصر الدولة ياقوت. والى قوص، أحد أجلّاء الأمراء، و لما قام طلائع ابن رزبك بالوزارة فى سنة تسع و أربعين و خمسمائة، هم ناصر الدولة ياقوت بالقيام عليه، فبلغ طلائع الملقب بالصالح بن رزبك ذلك فقبض عليه و على أولاده و اعتقلهم فى يوم الثلاثاء تاسع عشرى ذى الحجة سنة اثنتين و خمسين و خمسمائة، فلم يزل فى الاعتقال إلى أن مات فيه يوم السبت سابع عشر رجب سنة ثلاث و خمسين، فأخرج الصالح أولاده من الاعتقال و أمّرهم و أحسن إليهم، ثم عرفت هذه الرحبة من بعده بولده الأمير ربيع الإسلام محمد بن ياقوت، ثم عرفت فى الدولة الأيوبية برحبة ابن منقذ، و هو الأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، ثم عرفت برحبة الفلك المسيرىّ، و هو الوزير فلك الدين عبد الرحمن المسيرى، وزير الملك العادل أبى بكر بن الملك العادل بن أيوب، ثم عرفت الآن برحبة خوند، و هى الست الجليلة أردوتكين ابنة نوغيه السلاح دار، زوج الملك الأشرف خليل بن قلاون، و امرأة أخيه من بعده الملك الناصر محمد، و هى صاحبة تربة الست خارج باب القرافة، و كانت خيّرة و ماتت أيما فى سنة أربع و عشرين و سبعمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۶

رحبة قراسنقر: هذه الرحبة برأس حارة بهاء الدين، تجاه دار الأمير قراسنقر، و بها الآن حوض تشرب منه الدواب.

رحبة بيغرا: بدرب ملوخيا، عرفت بالأمير سيف الدين بيغرا، لأنها تجاه داره.

رحبة الفخرى: بدرب ملوخيا، عرفت بالأمير منكلى بغا الفخرىّ، صاحب التربة بظاهر باب النصر، لأنها تجاه داره.

رحبة سنجر: هذه الرحبة بحارة الصالحية فى آخر درب المنصورىّ، عرفت بالأمير سنجر الجمقدار علم الدين الناصرىّ، لأنها تجاه داره، ثم عرفت برحبة ابن طرغاى، و هو الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سيف الدين طرغاى الجاشنكير نائب طرابلس.

رحبة ابن علكان: هذه الرحبة بالجودرية فى الدرب المجاور للمدرسة الشريفية، عرفت بالأمير شجاع الدين عثمان بن علكان الكردىّ، زوج ابنة الأمير يازكوج الأسدىّ، و بابنه منها، الأمير أبو عبد اللّه سيف الدين محمد بن عثمان، و كان خيرا، استشهد على غزة بيد الفرنج فى غرّة شهر ربيع الأوّل، سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، و كانت داره و دار أبيه بهذه الرحبة، ثم عرفت بعد ذلك برحبة الأمير علم الدين سنجر الصيرفىّ الصالحىّ.

رحبة ازدمر: بالجودرية، هذه الرحبة بالدرب المذكور أعلاه، عرفت بالأمير عز الدين ازدمى الأعمى الكاشف، لأنها كانت أمام داره.

رحبة الاخناى: هذه الرحبة فيما بين دار الديباج و الوزيرية، بالقرب من خوخة أمير حسين، عرفت بقاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن قاضى القضاة علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران الأخناى المالكىّ، لأنها تجاه داره، و قد عمر عليها درب فى أعوام بضع و تسعين و سبعمائة.

رحبة باب اللوق: رحاب باب اللوق خمس رحاب، ينطلق عليها كلها الآن رحبة باب اللوق، و بها تجتمع أصحاب الحلق و أرباب الملاعب و الحرف، كالمشعبذين و المخايلين و الحواة و المتأففين و غير ذلك، فيحشر هنالك من الخلائق للفرجة و لعمل الفساد ما لا ينحصر كثرة، و كان قبل ذلك فى حدود ما قبل الثمانين و سبعمائة من سنىّ الهجرة، إنما تجتمع الناس لذلك فى الطريق الشارع المسلوك من جامع الطباخ بالخط المذكور إلى قنطرة قدادار.

رحبة التبن: هذه الرحبة قريبة من رحبة باب اللوق فى بحرى منشأة الجوّانية، شارعة فى الطريق العظمى المسلوك فيها من رحبة باب اللوق إلى قنطرة الدكة، و يتوصل إليها السالك من عدّة جهات، و كانت هذه الرحبة قديما تقف بها الجمال بأحمال التبن لتباع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۷

هناك، ثم اختطت و عمرت و صارت بها سويقة كبيرة عامرة بأصناف المأكولات، و الخط إنما يعرف برحبة التبن، و قد خرب بعد سنة ست و ثمانمائة.

رحبة الناصرية: هذه الرحبة كانت فيما بين الميدان السلطانىّ و البركة الناصرية أيام كانت تلك الخطة عامرة، و كان يتفق فى ليالى أيام ركوب السلطان إلى الميدان فى كل سنة من الاجتماع و الإنس ما ستقف على بعض و صفه عند ذكر المنتزهات إن شاء اللّه تعالى. و قد خربت الأماكن التى كانت هناك، و جهلت هذه الرحبة إلّا عند القليل من الناس.

رحبة ارغون ازكه: و العامّة تقول رحبة أزكى بياء، و هى رحبة كبيرة بالقرب من البركة الناصرية، و هذه الرحبة و ما حولها من جملة بستان الزهرىّ الآتى ذكره إن شاء اللّه فى الأحكار، و عرفت بالأمير ارغون أزكى.

ذكر الدور

قال ابن سيدة الدار: المحل يجمع البناء و العرصة التى هى من داريدور، لكثرة حركات الناس فيها، و الجمع أدور، و أدؤر، و ديار، و ديارة، و ديارات، و ديران، و دور، و دورات، و الدارة لغة فى الدار، و الدار البلد، و البيت من الشعر، ما زاد على طريقة واحدة. و هو مذكر يقع على الصغير و الكبير. و قد يقال للمبنىّ و البيت، أخص من غير الأبنية التى هى الأخبية بيت، و جمع البيت أبيات و أبابيت، و بيوت و بيوتات، و البيت أخص من الدار، فكلّ دار بيت، و لا ينعكس. و لم تكن العرب تعرف البيت إلّا الخباء، ثم لما سكنوا القرى و الأمصار و بنوا بالمدر و اللبن سموا منازلهم التى سكنوها دورا و بيوتا، و كانت الفرس لا تبيح شريف البنيان، كما لا تبيح شريف الأسماء إلّا لأهل البيوتات، كصنيعهم فى النواويس و الحمامات و القباب الخضر و الشرف على حيطان الدار و كالعقد على الدهليز.

دار الأحمدى: هذه الدار من جملة حارة بهاء الدين، و بها مشترف عال فوق بدنة من بدنات سور القاهرة، ينظر منه أرض الطبالة و خارج باب الفتوح، و هى إحدى الدور الشهيرة، عرفت بالأمير بيبرس الأحمدى.

بيبرس الأحمدى: ركن الدين أمير جاندار، تنقل فى الخدم أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن صار أمير جاندار أحد المقدّمين، فلما مات الملك الناصر قوى عزم قوصون على إقامة الملك المنصور أبى بكر بعد أبيه، و خالف بشتاك، فلما نسب المنصور إلى اللعب حضر إلى باب القصر بقلعة الجبل و قال: أىّ شىء هذا اللعب، فلما ولى الناصر أحمد أخرجه لنيابة صفد فأقام بها مدة، ثم أحس من الناصر أحمد بسوء فخرج من صفد بعسكره إلى دمشق، و ليس بها نائب، فهمّ الأمراء بإمساكه، ثم أخروا ذلك و أرسلوا إليه الإقامة، فقدم البريد من الغد بإمساكه، فكتب الأمراء من دمشق إلى السلطان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۸

يشفعون فيه، فعاد الجواب بأنه لا بدّ من القبض عليه و نهب ماله و قطع رأسه و إرساله، فأبوا من ذلك و خلعوا الطاعة و شقوا العصا جميعا، فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من مصر بخلع الناصر أحمد و إقامة الصالح إسماعيل فى الملك بدله، و الأحمدىّ مقيم بقصر تنكز من دمشق، فورد عليه مرسوم بنيابة طرابلس، فتوجه إليها و أقام بها نحو الشهرين، ثم طلب إلى مصر فسار إليها و أخرج لمحاصرة أحمد بالكرك، فحصره مدّة و لم ينل منه شيئا، ثم عاد إلى القاهرة فأقام بها حتى مات فى يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرّم سنة ست و أربعين و سبعمائة، و له من العمر نحو الثمانين سنة و كان أحد الأبطال الموصوفين بقوّة النفس و شدّة العزم و محبة الفقراء و إيثار الصالحين، و له مماليك قد عرفوا بالشجاعة و النجدة، و كان ممن يقتدى برأيه و تتبع آثاره لمعرفته بالأيام و الوقائع، و ما برحت ذريته بهذه الدار إلى الآن، و أظنها موقوفة عليهم.

دار قراسنقر: هذه الدار برأس حارة بها الدين، أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر، و بها كان سكنه، و هى إحدى الدور الجليلة، و وجد بها فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة لما أحيط بها، اثنان و ثلاثون ألف ألف دينار، و مائة ألف و خمسون ألف درهم فضة، و سروج مذهبة و غير ذلك، فحمل الجميع إلى بيت المال، و لم تزل جارية فى أوقاف المدرسة القراسنقرية إلى أن اغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، فيما اغتصب من الأوقاف، و جعلها وقفا على مدرسته التى أنشأها برحبة باب العيد، فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق و ارتجع جميع ما خلفه و صار فى جملة الأموال السلطانية، ثم أفرد من الأوقاف التى جعلها جمال الدين على مدرسته شيئا، و جعل باقيها لأولاده، و على تربته التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق بالصحراء تحت الجبل، خارج باب النصر، فلما قتل الملك الناصر فرج، صارت هذه الدار بيد الأمير طوغان الدوادار، و كانوا كسارق من سارق، و ما من قتيل يقتل إلّا و على ابن آدم الأوّل كفل منه، لأنه أوّل من سنّ القتل.

دار البلقينى: هذه الدار تجاه مدرسة شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى، من حارة بهاء الدين، أنشأها قاضى العساكر بدر الدين محمد بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينىّ الشافعىّ. و مات فى يوم الخميس لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و لم تكمل، فاشتراها أخوه قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام و كمّلها، و بها الآن سكنه، و هى من أجلّ، دور القاهرة صورة و معنا، و قد ذكرت الأخوين و أبيهما فى كتابى المنعوت بدرر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة، فانظر هناك أخبارهم.

دار منكوتمر: هذه الدار بحارة بهاء الدين، بجوار المدرسة المنكوتمرية، أنشأها الأمير منكوتمر نائب السلطنة بجوار مدرسته الآتى ذكرها عند ذكر المدارس إن شاء اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۹

تعالى، و هى من الدور الجليلة، و بها إلى اليوم بعض ذريته و هى وقف.

دار المظفر: هذه الدار كانت بحارة برجوان، أنشأها أمير الجيوش بدر الجمالى إلى أن مات، فلما ولى الوزارة من بعده ابنه الأفضل ابن

أمير الجيوش، و سكن دار القباب التى عرفت بدار الوزارة، و قد تقدّم ذكرها، صار أخوه المظفر أبو محمد جعفر بن أمير الجيوش بهذه الدار، فعرفت به، و قيل لها دار المظفر، و صارت من بعده دار الضيافة، كما مرّ فى هذا الكتاب. و آخر ما أعرفه أنها كانت ربعا و حمّاما و خرائب، فسقط الربع بعد سنة سبعين و سبعمائة، و كانت الحمام قد خربت قبل ذلك، فلم تزل خرابا إلى سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة، فشرع قاضى القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسىّ الحنفىّ فى عمارتها، فلما حفر أساس جداره القبلىّ ظهر تحت الردم عتبة عظيمة من حجر صوّان مانع، يشبه أن يكون عتبة دار المظفر، و كان الأمير جهاركس الخليلىّ إذ ذاك يتولى عمارة المدرسة التى أنشأها الملك الظاهر برقوق بخط بين القصرين، فبعث بالرجال لهذه العتبة و تكاثروا على جرّها إلى العمارة، فجعلها فى المزمّلة التى تشرب منها الناس الماء بدهليز المدرسة الظاهرية، و كمّل قاضى القضاة شمس الدين بناء داره، حيث كانت دار المظفر، فجاءت من أحسن دور القاهرة، و تحوّل إليها بأهله و ما زال فيها حتى مات بها، و هو متقلد وظيفة قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية، فى ليلة السبت الثامن عشر من ذى الحجة سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و له من العمر سبعون سنة و أشهر، و مولده بطرابلس الشام، و أخذ الفقه على مذهب أبى حنيفة رحمه اللّه، عن جماعة من أهل طرابلس.

ثم خرج منها إلى دمشق فقرأ على صدر الدين محمد بن منصور الحنفىّ، و وصل إلى القاهرة و قاضى الحنفية بها قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه التركمانىّ، فلازمه و ولّاه العقود و أجلسه ببعض حوانيت الشهود، فتكسب ممن تحمل الشهادة مدّة. و قرأ على قاضى القضاة سراج الهدى، و لازمه فولّاه نيابة القضاء بالشارع، فباشرها مباشرة مشكورة، و أجازه العلامة شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفىّ بالإفتاء و التدريس، فلما مات صدر الدين بن منصور قلده الملك الظاهر برقوق قضاء القضاة مكانه فى يوم الاثنين ثانى عشرى شهر ربيع الآخر سنة ست و ثمانين و سبعمائة، فباشر القضاء بعفة و صيانة و قوّة فى الأحكام لها النهاية و مهابة و حرمة و صولة تذعن لها الخاصة و العامّة، إلى أن صرف فى سابع عشر رمضان سنة إحدى و تسعين و سبعمائة بشيخنا قاضى القضاة مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم التركمانىّ، فلم يزل إلى أن عزل مجد الدين و ولى من بعده قاضى القضاة و ناظر الجيوش جمال الدين محمود القيصرىّ، و هو ملازم داره و ما بيده من التدريس، و هو على حال حسنة و تجلد من الكافة، إلى أن استدعاه السلطان فى يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين و سبعمائة، فقلّده وظيفة القضاء عوضا عن محمود القيصرى، فلم يزل حتى مات من عامه رحمه اللّه تعالى، و هذه الدار على يسرة من سلك من باب حارة برجوان طالبا المسجد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۰

المسمى بجعفر، و أما الحمّام فإنها فى مكانها اليوم ساحة بجوار دار قاضى القضاة شمس الدين، و من جملة حقوق دار المظفر رحبة الأفيال، و حدرة الزاهدى إلى الدار المعروفة بسكنى قريبا من حمّام الرومى.

دار ابن عبد العزيز: هذه الدار بحارة برجوان، على يمنة من سلك من باب الحارة طالبا حمّام الرومى، أيضا من جملة دار المظفر، كانت طاحونا، ثم خربت، فابتدأ عمارتها فخر الدين أبو جعفر محمد بن عبد اللطيف بن الكويك ناظر الأحباس، و مات و لم تكمل، فصارت لامرأته و ابنة عمه خديجة، فماتت فى رجب سنة اثنتين و ستين و سبعمائة، و قد تزوّجت من بعده بالقاضى الرئيس بدر الدين حسن بن عبد العزيز بن عبد الكريم ابن أبى طالب بن على بن عبد اللّه بن سيدهم النجمىّ السيروانى، فانتقلت إليه، و مات فى سنة أربع و سبعين و سبعمائة، فى العشرين من جمادى الأولى، و ورثه من بعد موته كريم الدين ابن أخيه.

و هو عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الكريم بن أبى طالب بن علىّ بن عبد اللّه بن سيدهم، و مات آخر ربيع الأوّل سنة سبع و ثمانمائة عن سبعين سنة، و ولى نظر الجيوش بديار مصر للظاهر برقوق، فباعها لقريبه شمس الدين محمد بن عبد اللّه بن عبد العزيز، و كملها و سكنها مدّة طويلة إلى أن باعها فى سنة خمس و تسعين و سبعمائة بألفى دينار ذهبا، لخوند فاطمة ابنة الأمير منجك، فوقفتها على عتقائها، و هى إلى اليوم بيدهم، و تعرف ببيت ابن عبد العزيز المذكور، لطول سكنه بها، و كان خيّرا عارفا يلى كتابة ديوان الجيش، و عدّة مباشرات، و مات ليلة الثانى عشر من صفر سنة ثمان و تسعين و سبعمائة.

دار الجمقدار : هذه الدار على يسرة من سلك من باب حارة برجوان تحت القبو طالبا حمام الرومى، عرفت بالأمير علم الدين سنجر الجمقدار، من الأمراء البرجية، و قدّمه الملك الناصر محمد تقدمة ألف بعد مجيئه من الكرك إلى مصر، ثم أخرجه إلى الشام فأقام بها إلى أن حضر قطلو بغا الفخرىّ فى نوبة أحمد بالكرك، فحضر معهم و استقرّ من الأمراء بالديار المصرية إلى أن مات يوم الجمعة تاسع رمضان سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و قد كبر و ارتعش و كان روميا ألثغ، صار لخالد بن الزراد المقدّم، فلما قبض عليه و مات فى ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة خمس و أربعين و سبعمائة تحت المقارع، ارتجعت عنه لديوان السلطان حسن فصارت فى يد ورثته إلى أن باع بعض أولاده اسهما منها، فاشتراها الأمير سودون الشيخونى نائب السلطنة، ثم تنقلت و بعضها وقف بيد أولاد السلطان حسن بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۱

محمد بن قلاوون إلى أن ملك ما تملك منها بالشراء قاضى القضاة عماد الدين أحمد بن عيسى الكركى و سكنها، إلى أن سافر، فصارت من بعده لورثته فباعوها للشيخ زين الدين أبى بكر القمنىّ، و هى بيده الآن.

دار أقوش: الرومى بحارة برجوان، هذه الدار من أجلّ دور القاهرة، و بابها من نحاس بديع الصنعة، يشبه باب المارستان المنصورى، و كان تجاهها اصطبل كبير يعلوه ربع فيه عدّة مساكن، عرفت بالأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرى، و توفى سنة سبع و سبعمائة، و هى مما وقفه على تربته بالقرافة، و قد خرب اصطبلها و علوه و بيع نقض ذلك و تداعت الدار أيضا للسقوط، فبيعت انقاضا و صارت من جملة الأملاك.

دار بنت السعيدى: هذه الدار بحارة برجوان، عرفت بقاعة حنيفة بنت السعيدى إلى أن اشتراها شهاب الدين أحمد بن طوغان دوادار الأمير سودون الشيخونى نائب السلطان، فى سنة تسع و تسعين و سبعمائة، فأخذ عدّة مساكن مما حولها، و هدمها و صيرها ساحة بها، فصارت من أعظم الدور اتساعا و زخرفة، و فيها آبار سبعة معينة، و فسقية ينقل إليها الماء بساقية على فوهة بئر، و ما زال صاحبها شهاب الدين فيها إلى أن سافر إلى الاسكندرية فى محرّم سنة ثمان و ثمانمائة، فمات رحمه اللّه، و انتقلت من بعده لغير واحد بالبيع.

دار الحاجب: هذه الدار فيما بين الخرشتف و حارة برجوان، كان مكانها من جملة الميدان، و كان يسلك من حارة برجوان فى طريق شارعه إلى باب الكافورىّ، فلما عمر الأمير بكتمر هذه الدار جعل اصطبلها حيث كانت الطريق، و ركّب بابا بخوجة مما يلى حارة برجوان، و اشترط عليه الناس أن لا يمنع المارّة من سلوك هذا المكان، فوفى بما اشترط، و ما برح الناس يمرّون من هذا الطريق فى وسط الاصطبل على باب داره، سالكين من حارة برجوان إلى الكافورى و الخرشتف، و منها إلى حارة برجوان، و أنا سلكت من هذه الطريق غير مرّة، و كان يقال لها خوخة الحاجب، ثم لما طال الأمد و ذهبت المشيخة نسيت هذه الطريق و قفل الباب، و انقطع سلوك الناس منه، و صارت تلك الطريق من جملة حقوق الدار، و ما برحت هذه الدار ينصب على بابها الطوارق دائما، كما كانت عادة دور الأمراء فى الزمن القديم، فلما تغيرت الرسوم و بطل ذلك قلعت الطوارق من جانبى الباب. و أعلى اسكفته، و باب هذه الدار تجاه باب الكافورىّ، و عرفت بالأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، صاحب الدار، خارج باب النصر و المدرسة بجواره، ثم حل وقفها سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة، و بيعت كما بيع غيرها من الأوقاف. و هناك ترى ترجمته.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۲

دار تنكز: هذه الدار بخط الكافورى، كانت للأمير ايبك البغدادى، و هى من أجلّ دور القاهرة و أعظمها، انشأها الأمير تنكز نائب الشام، و أظنه أوقفها فى جملة ما أوقف، و كان بها ولده، و سكنها قاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة، فأنفق فى زخرفها على ما أشيع سبعة عشر ألف درهم، عنها يومئذ ما ينيف عن سبعمائة دينار مصرية، و لم تزل هذه الدار وقفا إلى أن بيعت على أنها ملك فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة بدون ألف دينار، لزين الدين عبد الباسط بن خليل، فجدّد بناءها و بنى تجاهها جامعة.

تنكز الأشرفى: سيف الدين أبو سعيد خليل، جلبه إلى مصر و هو صغير الخواجا علاء الدين السوسىّ، فنشأ بها عند الملك الأشرف

خليل بن قلاوون، فلما ملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمّره أمرة عشرة، قبل توجهه إلى الكرك، و سافر معه إلى الكرك، و ترسل عنه منها إلى الأفرم، فاتهمه أنّ معه كتبا إلى الأمراء بالشام، و عرض عليه العقوبة فارجف منه و عاد إلى الناصر. فقال له: إن عدت إلى الملك فانت نائب دمشق، فلما عاد إلى الملك جهزه إلى دمشق فوصلها فى العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، فباشر النيابة و تمكن فيها و سار بالعساكر إلى ملطية و افتتحها فى محرّم سنة خمس عشرة، و عظم شأنه و أمّن الرعايا حتى لم يكن أحد من الأمراء يظلم ذميّا، فضلا عن مسلم، خوفا من بطشه، و شدّة عقوبته، و كان السلطان لا يفعل شيئا بمصر إلّا و يشاوره فيه و هو بالشام، و قدم غير مرّة على السلطان فاكرمه و أجله بحيث أنه انعم عليه فى قدومه إلى مصر سنة ثلاث و ثلاثين بما مبلغه ألف ألف درهم و خمسون ألف درهم، عنها خمسون ألف دينار و نيف، سوى الخيل، و زادت أملاكه و سعادته و أنشأ جامعا بدمشق بديع الوصف بهج الزى، و عدّة مواضع، و كان الناس فى أيامه قد أمنوا كل سوء، إلّا أنه كان يتخيل خيالا فيحتدّ خلقه و يشتدّ غضبه، فهلك بذلك كثير من الناس، و لا يقدر أحد أن يوضح له الصواب لشدّة هيبته، و كان إذا أغضب لا يرضى البتة بوجه، و إذا بطش كان بطشه الجبارين، و يكون الذنب صغيرا فلا يزال يكبره، حتى يخرج فى عقوبة فاعله عن الحدّ، و لم يزل إلى أن أشيع بدمشق أنه يريد العبور إلى بلاد الططر، فبلغ ذلك السلطان فتنكر له و جهز إليه من قبض عليه فى ثالث عشرى ذى الحجة سنة أربعين، و أحيط بماله و قدم الأمير بشتاك إلى دمشق لقبضه، و خرج إلى مصر و معه من مال تنكز و هو من الذهب العين ثلاثمائة ألف و ستة و ثلاثون ألف دينار، و من الدراهم الفضة ألف ألف و خمسمائة ألف درهم، و من الجوهر و اللؤلؤ و الزركش و القماش ثمانمائة حمل، ثم استخرج بعد ذلك من بقايا أمواله أربعون ألف دينار و ألف ألف و مائة ألف درهم، فلما وصل تنكز إلى قلعة الجبل جهز إلى الاسكندرية و اعتقل فيها نحو الشهر، و قتل فى محتبسه و دفن بها فى يوم الثلاثاء حادى عشرى المحرّم، سنة إحدى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۳

و أربعين و سبعمائة، و من الغريب أنه أمسك يوم الثلاثاء، و دخل مصر يوم الثلاثاء و دخل الاسكندرية يوم الثلاثاء و قتل يوم الثلاثاء، ثم نقل إلى دمشق فدفن بتربته جوار جامعه، ليلة الخامس من رجب سنة أربع و أربعين و سبعمائة، بعد ثلاث سنين و نصف بشفاعة ابنته.

دار أمير مسعود: هذه الدار بآخر خط الكافوريّ، عرفت بالأمير بدر الدين مسعود بن خطير الرومى، أحد الأمراء بمصر، أخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذى الحجة سنة أربعين و سبعمائة إلى نيابة غزة، ثم نقل منها إلى إمرة دمشق و ولى نيابة طرابلس، ثم أعيد إلى دمشق و أصله من أتباع الأمير تنكز، فشكره عند الملك الناصر و قدّمه حتى صار أميرا حاجبا فلما قتل تنكز أخرجه لنيابة غزة، و تنقل فى نيابة طرابلس ثلاث مرات إلى أن استعفى من النيابة، فأنعم عليه بإمرة فى دمشق، و على ولديه بامرة طبلخاناه ، و ما زال مقيما بها حتى مات فى سابع شوال سنة أربع و خمسين و سبعمائة بدمشق، و مولده بها ليلة السبت سابع جمادى الأولى سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة.

دار نائب الكرك: هذه الدار فيما بين خط الخرشتف و خط باب سر المارستان المنصورى، و هى من جملة أرض الميدان، عرفت بالأمير أقوش الأشرفيّ المعروف بنائب الكرك صاحب الجامع.

أقوش الأشرفى: جمال الدين، ولّاه الملك الناصر محمد بن قلاون نيابة دمشق بعد مجيئه من الكرك، و عزله تنكز بعد قليل، و اعتقله إلى شهر رجب سنة خمس عشرة و سبعمائة، ثم أفرج عنه و جعله رأس الميمنة، و صار يقوم له إذا قدم مميزا له عن غيره من الأمراء، و كان لا يلبس مصقولا، و يمشى من داره هذه إلى الحمّام و هو حامل المئزر و الطاسة وحده، فيدخل الحمام و يخرج عريانا، فاتفق مرة أنّ رجلا رآه فعرفه، و أخذ الحجر و حك رجله و غسله و هو لا يكلمه كلمة واحدة، فلما خرج و صار إلى داره، طلب الرجل و ضربه و قال له: أنا مالى مملوك، ما عندى غلام، مالى طاسة حتى تتجرأ علىّ أنت، و كان يتوجه إلى معبد له فى الجبل الأحمر و ينفرد فيه وحده اليومين و الثلاثة، و يدخل منه إلى القاهرة و هو ماش و ذيله على كتفه حتى يصل إلى داره، و باشر نظر المارستان

المنصورى مباشرة جيدة، ثم أخرجه السلطان إلى نيابة طرابلس فى أوّل سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة فأقام بها، ثم طلب الإقالة فأعفى و قبض عليه و اعتقل بقلعة دمشق، ثم نقل منها إلى صفد فحبس بها فى برج، ثم أخرج منها إلى الإسكندرية فمات بها معتقلا فى سنة ست و ثلاثين و سبعمائة.

و كان عسوفا جبارا فى بطشه، مات عدّة من الناس تحت الضرب قدّامه، و كان كريما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۴

سمحا إلى الغاية، و عرف بنائب الكرك لأنه أقام فى نيابتها من سنة تسعين و ستمائة إلى سنة تسع و سبعمائة.

دار ابن صغير: هذه الدار من جملة الميدان، و هى اليوم من خط باب سرّ المارستان المنصورى، أنشأها علاء الدين على بن نجم الدين عبد الواحد بن شرف الدين محمد بن صغير، رئيس الأطباء، و مات بحلب عند ما توجه إليها فى خدمة الملك الظاهر برقوق فى يوم الجمعة تاسع عشر ذى الحجة سنة ست و تسعين و سبعمائة. و دفن بها، ثم نقلته ابنته إلى القاهرة و دفنته بظاهرها.

دار بيبرس الحاجب: هذه الدار بخط حارة العدوية، و هى الآن من خط باب سر المارستان، عرفت بالأمير بيبرس الحاجب صاحب غيط الحاجب، فيما بين جسر بركة الرطلى و الجرف.

بيبرس الحاجب: الأمير ركن الدين، ترقى فى الخدم إلى أن صار أميراخور، فلما حضر الملك الناصر من الكرك عزله بالأمير ايدغمش، و عمله حاجبا، و ناب فى الغيبة عن الأمير تنكز بدمشق لما حج، ثم تجرّد إلى اليمن و عاد، فتنكر عليه السلطان و حبسه فى ذى القعدة سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و أفرج عنه فى رجب سنة خمس و ثلاثين، و جهزه من الإسكندرية إلى حلب فصار بها أميرا من أمرائها، ثم تنقل منها إلى أمرة بدمشق بعد عزل تنكز، فلم يزل بها إلى أن توجه الفخرىّ و طشتمر إلى مصر، فأقرّه على نيابة الغيبة بدمشق، و كان قد أسنّ و مات فى شهر رجب سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، و أدركنا له حفيدا يعرف بعلاء الدين أمير علىّ بن شهاب الدين أحمد بن بيبرس الحاجب، قرأ القراءات السبع على والده، و كان حسن الأداء للقراءة، مشهورا بالعلاج، يعالج بمائة و عشرة أرطال، مات و هو ساح فى سابع ربيع الآخر سنة إحدى و ثمانمائة.

دار عباس: هذه الدار كانت فى درب شمس الدولة، عرفت بالوزير عباس بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، أصله من المغرب و ترقى فى الخدم حتى ولى الغربية، و لقب بالأمير ركن الإسلام، و كانت أمّه تحت الأمير المظفر علىّ بن السلار والى البحيراء و الإسكندرية، فلما رحل علىّ بن السلار إلى القاهرة و أزال الوزير نجم الدين سليمان بن مصال من الوزارة و استقرّ مكانه فى وزارة الخليفة الظافر بأمر اللّه، و تلقب بالعادل، قدّمه لمحاربة ابن مصال فلم ينل غرضا، فخرج إليه عباس حتى ظفر به، و ولى ناصر الدين نصير بن عباس ولاية مصر بشفاعة جدّته أمّ عباس، فاختص به الخليفة الظافر و اشتغل به عمن سواه، و كان جريا مقداما، فخرج إليه أبو عباس بالعسكر لحفظ عسقلان من الفرنج و معه من الأمراء ملهم و الضرغام و أسامة بن منقذ، و كان أسامة خصيصا بعباس، فلما نزلوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۵

بلبيس تذاكر عباس و أسامة مصر و طيبها و ما هم خارجون إليه من مقاساة السفر و لقاء العدوّ، فتأوّه عباس أسفا على مفارقة لذّاته بمصر، و أخذ يثرب على العادل بن السلار، فقال له أسامة: لو أردت كنت أنت سلطان مصر. فقال: كيف لى بذلك؟ قال: هذا ولدك ناصر الدين بينه و بين الخليفة مودّة عظيمة، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع زوج أمّك، فإنه يحبك و يكرهه، فإذا أجابك فاقتله و صر فى منزلته، فأعجب عباس ذلك و جهز ابنه لتقرير ما أشار به أسامة، فسار إلى القاهرة و دخلها على حين غفلة من العادل، و اجتمع بالخليفة و فاوضه فيما تقرّر، فأجابه إليه و نزل إلى دار جدّته، و كان من قتله للعادل علىّ بن سلار ما كان، فماج الناس و سرح الطائر من القصر إلى عباس و هو على بلبيس فى الانتظار، فقام من فوره و دخل القاهرة سحر يوم الأحد ثانى عشر المحرّم سنة ثمان و أربعين و خمسمائة، فوجد عدّة من الأتراك قد نفروا و خرجوا يدا واحدة إلى الشام، فصار إلى القصر و خلع عليه

خلع الوزارة، فباشر الأمور و ضبط الأحوال و أكرم الأمراء و أحسن إلى الأجناد، و ازدادت مخالطة ولده للخليفة فخاف أن يقتله كما قتل ابن السلار، فما زال به حتى قتل الخليفة الظافر، كما تقدّم ذكره، و صار إلى القصر على العادة، فلما جلس فى مقطع الوزارة سأل الاجتماع على الخليفة، فدخل الزمام إلى دور الحرم فلم يجد الخليفة، فلما عاد إليه أحضر أخوى الظافر و اتهمهما بقتله و قتلهما قدّامه، و استدعى بولد الظافر عيسى و لقبه بالفائز بنصر اللّه، و كثرت النياحة على الظافر، و بحث أهل القصر على كيفية قتله، فكتبوا إلى طلائع بن رزبك و هو والى الأشمونين يستدعونه، فحشد و سار، فاضطرب عباس و كثرت مناكدة أهل القاهرة له، حتى أنّه مرّ يوما فرمى من طاقة تشرف على شارع بقدر مملوء طعاما حارّا، فعوّل على الفرار و خرج و معه ابنه و أسامة بن منقذ و جميع ما لهم من أتباع و مال و سلاح، و دخل طلائع إلى القاهرة و استقرّ فى وزارة الخليفة الفائز، فسير أهل القصر إلى الفرنج البريد بطلب عباس، فخرجوا إليه و كانت بينهم و بينه وقعة فرّ فيها أسامة فى جماعة إلى الشام، فظفر به الفرنج و قتلوه و أخذوا ابنه فى قفص من حديد، و جهزوه إلى القاهرة، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل سنة تسع و أربعين و خمسمائة، فلما وصل ابنه إلى القصر قتل و صلب على باب زويلة، و أحرق بعد ذلك، ثم عرفت هذه الدار بعد ذلك بدار تقيّ الدين صاحب حماه، ثم خربت و حكر مكانها، فصار يعرف بحكر صاحب حماه، و بنى فيه عدّة دور و موضعها الآن بداخل درب شمس الدولة بالقرب من حمّام عباس التى تعرف اليوم بحمام الكويك.

دار ابن فضل اللّه: هذه الدار فيما بين حارة زويلة و البندقانيين، كان موضعها من جملة اصطبل الجميزة، عرفت بابن فضل اللّه: و بنو فضل اللّه جماعة أوّلهم بمصر:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۶

شرف الدين: عبد الوهاب بن الصاحب جمال الدين أبى المآثر فضل اللّه ابن الأمير عز الدين الحلى بن دعجان العمرىّ، ولى كتابة السرّ للملك الناصر محمد بن قلاون، ثم صرفه عنها و ولاه كتابة السرّ بدمشق، فلم يزل بها حتى مات فى ثالث شهر رمضان سنة سبع عشرة و سبعمائة، و قد عمر و بلغ أربعا و تسعين سنة، و خلّف أموالا جمة، و رثاه الشهاب محمود، و قد ولى بعده و أرثاه علاء الدين علىّ بن غانم، و الجمال ابن نباتة، و كان فاضلا بارعا أديبا عاقلا و قورا ناهضا ثقة أمينا مشكورا، مليح الخط جيد الإنشاء، حدّث عن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام و غيره.

و منهم محيى الدين: يحيى بن الصاحب جمال الدين أبى المآثر فضل اللّه بن مجلى بن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبد اللّه بن علىّ بن محمد بن أبى بكر عبد اللّه بن عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب القرشىّ العدوىّ المرىّ، ولى كتابة السرّ بالديار المصرية عن الملك الناصر، نقل إليها من كتابة سرّ دمشق لما مرض علاء الدين باستدعائه إلى مصر، و أقيم بدله فى كتابة سرّ دمشق شرف الدين أبو بكر بن الشهاب محمود، و كان استقراره فى محرّم سنة ثلاثين و سبعمائة، فباشرها إلى ثانى عشر شعبان سنة اثنتين و ثلاثين، و نقل منها إلى كتابة السرّ بدمشق، و طلب شرف الدين بن الشهاب محمود فاستقرّ فى كتابة السرّ بمصر إلى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و ثلاثين، و طلب محيى الدين من دمشق هو و ابنه شهاب الدين أحمد، فوصلا إلى القاهرة غرّة جمادى الأولى، و خلع عليهما و رسم لهما بكتابة السرّ، و نقل ابن الشهاب محمود إلى كتابة السرّ بدمشق، فلم يزل محيى الدين يباشر كتابة السرّ هو و ابنه إلى أن كان من تنكز السلطان لولده شهاب الدين ما كان، و ذلك أنه كان استعفى من الوظيفة لثقل سمعه و كبر سنه، فأذن له أن يقيم ابنه القاضى شهاب الدين يباشر عنه، فصار الاسم لمحيى الدين و المباشر ابنه شهاب الدين إلى أن حضر الأمير تنكز نائب الشام إلى القلعة و سأل السلطان فى علم الدين محمد بن قطب الدين أحمد بن مفضل المعروف بابن القطب أن يوليه كتابة السرّ بدمشق، و كان السلطان لا يمنع تنكز شيئا يسأله، فخلع عليه و أقرّه فى ذلك عوضا عن جمال الدين عبد اللّه بن الأثير، فأخذ شهاب الدين ينقصه عند السلطان بأنه نصرانىّ الأصل، و ليس من أهل صناعة الإنشاء، و نحو ذلك، و السلطان مغض عنه غير ملتفت إلى ما يرمى به رعاية لتنكز، فلما كتب توقيع ابن القطب أراد تكثير الألقاب و الزيادة له فى المعلوم، فامتنع شهاب الدين من كتابة ذلك، و كان حادّ المزاج قوىّ

النفس شرس الأخلاق، ففاجأ السلطان بغلظة و مخاشنة فى القول، و كان من كلامه كيف تعمل قبطيا أسلميا كاتب السرّ و تزيد فى معلومه، و بالغ فى الجراءة حتى قال ما يفلح من يخدمك، و خدمتك علىّ حرام، و نهض قائما لشدّة حنقه، و كان هذا منه بحضرة الأمراء فغضبوا لذلك و هموا بضرب عنقه، فأغضى السلطان عنه و بلغ محيى الدين ما كان من ابنه فبادر إلى السلطان و قبل الأرض و اعترف بخطإ ابنه و اعتذر عن تأخره بثقل سمعه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۷

فرسم له أن يكون ابنه علاء الدين علىّ يدخل و يقرأ البريد، فاعتذر بأنه صغير لا يقوم بالوظيفة. فقال السلطان أنا أربيه مثل ما أعرف، فصار يخلف أباه كما كان شهاب الدين، و انقطع شهاب الدين فى منزله مدّة سنين إلى أن مات أبوه محيى الدين فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة بالقاهرة، عن ثلاث و تسعين سنة، و هو متمتع بحواسه، فدفن ظاهر القاهرة ثم نقل إلى تربتهم من سفح قاسيون بدمشق، و كان صدرا معظما رزينا كامل السؤدد حركا كاتبا بارعا دبر الأقاليم بكفايته و حسن سياسته، و وفور عقله و أمانته و شدّة تحرّزه، و له النظم و النثر البديع الرايق فمن شعره:

تضاحكنى ليلى فأحسب ثغرهاسنا البرق لكن أين منه سنا البرق

و أخفت نجوم الصبح حين تبسمتفقمت بفرعيها أشدّ على الشرق

و قلت سواء جنح ليل و شعرهاو لم أدر أنّ الصبح من جهة الفرق

علاء الدين: على بن يحيى بن فضل اللّه العمرىّ، استقل بوظيفة كتابة السرّ قبل موت أبيه محيى الدين، و خلع عليه يوم الاثنين رابع شهر رمضان سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، و له من العمر أربع و عشرون سنة، فخرج و فى خدمته الحاجب و الدوادار، و تقدّم أمر السلطان للموقعين بامتثال ما يأمرهم به عن السلطان، فشق ذلك على أخيه شهاب الدين و حسده، و ربما قيل أنه سمّه، فكان يعتريه دم منه إلى أن مات، ثم إنه كتب قصة يسأل فيها السفر إلى الشام، و شكا كثرة الكلفة، و كان قبل ذلك جرى ذكره فى مجلس السلطان فذمّه و تهدّده، فعند ما قرئت عليه قصته تحرّك ما كان ساكنا من غضبه، و رسم بإيقاع الحوطة عليه، فحمل من داره إلى قاعة الصاحب من قلعة الجبل فى رابع عشرى شعبان سنة تسع و ثلاثين، و خرج إليه الأمير طاجار الدوادار، و أمر به فعرّى من ثيابه ليضرب بالمقارع، فرفق به و لم يضر به و استكتبه خطه بحمل عشرة آلاف، فأحيط بداره و أخرج سائر ما وجد له و بيع عليه، و أرسل مملوكه إلى بلاد الشام فباع كل ما له فيها، و اقترض خمسين ألف درهم حتى حمل من ذلك كله مائة و أربعين ألف درهم، عنها سبعة آلاف دينار، فسكن أمره و خف الطلب عنه و أقام إلى ثالث عشر ربيع الآخر سنة أربعين مدّة سبعة أشهر و ثمانية عشر يوما، ففرج اللّه عنه بأمر عجيب، و هو أنّه لما كان يباشر عن أبيه وقع شخص من الكتاب بشىء زور، فرسم السلطان بقطع يده، فلم يزل شهاب الدين يتلطف فى أمره حتى عفا السلطان عنه من قطع يده، و أمر به فسجن طول هذه السنين إلى أن قدّر اللّه سبحانه أنه رفع قصة يسأل فيها العفو عنه، فلما قرئت على السلطان لم يعرفه، فسأل عن خبره و شأنه، فقيل له لا يعرف خبر هذا إلا شهاب الدين بن فضل اللّه، فبعث إليه بقاعة الصاحب يستخبره عنه، فطالعه بقصته، و ما كان منه، فألان اللّه له قلب السلطان و رسم بالإفراج عن الرجل و عن شهاب الدين و عن مملوكه، ففرّج اللّه عن الثلاثة، و نزل شهاب الدين إلى داره و أقام إلى أن قبض السلطان على الأمير تنكز نائب الشام، فاستدعى شهاب الدين إلى حضرته و حلفه و ولاه كتابة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۸

السرّ بدمشق عوضا عن شرف الدين خالد بن عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن خالد بن نصر المخزومىّ، المعروف بابن القيسرانىّ، فباشرها حتى مات بدمشق، و انفرد أخوه علاء الدين بكتابة السرّ إلى أن مات ليلة الجمعة التاسع و العشرين من شهر رمضان سنة تسع و ستين و سبعمائة بمنزله من القاهرة، عن سبع و خمسين سنة، و ترك ستة بنين و أربع بنات.

بدر الدين: محمد بن على بن يحيى بن فضل اللّه، ولّاه الملك الأشرف شعبان بن حسين كتابة السرّ، و أبوه فى مرض موته، يوم

الخميس ثامن عشرى شهر رمضان، سنة تسع و ستين و سبعمائة، و له من العمر تسع عشرة سنة، و جعل أخاه عز الدين حمزة نائبا عنه، فباشر إلى شوّال سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، فصرف بأوحد الدين عبد الواحد بن إسماعيل بن يس، و لزم داره فلم يره أحد البتة إلى أن مات أوحد الدين، فنزل إليه الأمير يونس الدوادار و استدعاه، فركب بثياب جلوسه من غير خف و لا فرجية و لا شاش و صعد إلى القلعة، فخلع عليه فى اليوم الرابع من ذى الحجة سنة ست و ثمانين، فلما ثار الأمير يلبغا الناصرى على الملك الظاهر و خلعه من الملك و أقام الملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان بن حسين و لقبه بالملك المنصور، ثم خرج الملك الظاهر برقوق من محبسه بالكرك و سار إلى محاربة الأمير تمربغا منطاش و معه المنصور حاجى، فخرج ابن فضل اللّه، فلما انهزم منطاش على شعجب و استولى برقوق على المنصور و الخليفة و القضاة و الخزائن، و كان ابن فضل اللّه و أخوه عز الدين فى من فرّ مع منطاش إلى دمشق، فأقام بها و استولى برقوق على تخت الملك بقلعة الجبل، فولى علاء الدين علىّ بن عيسى الكركى كتابة السرّ، و أخذ ابن فضل اللّه يتحيل فى الخروج من دمشق و سيّر إلى السلطان مطالعة فيها من شعره:

يقبل الأرض عبد بعد خدمتكمقد مسّه ضرر مثله ضرر

حصر و حبس و ترسيم أقام بهو فرقة الأهل و الأولاد و الفكر

لكنه و الورى مستبشرون بكميرجو بكم فرجا يأتى و ينتظر

و الشغل يقضى لأن الناس قد ندمواإذ عاينوا الجور من منطاش ينتشر

جورا كما فرّطوا فى حقكم و رأواظلما عظيما به الأكباد تنفطر

و اللّه إن جاءهم من بابكم أحدقاموا لكم معه بالروح و انتصروا

اللّه ينصركم طول المدا أبدايا من زمانهم من دهرنا غرر

قدم إلى القاهرة و معه أخوه عز الدين حمزة، و جمال الدين محمود القيصرى ناظر الجيش، و تاج الدين عبد الرحيم بن أبى شاكر، و شمس الدين محمد بن الصاحب، فما زال فى داره إلى أن سافر الملك الظاهر إلى بلاد الشام فى سنة ثلاث و تسعين، فتقدّم أمره إليه بالمسير مع العسكر، فسار بطالا، و قدّر اللّه تعالى ضعف علاء الدين الكركى، فولاه كتابة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۹

السرّ و صرف الكركى فى شوّال، و كانت هذه ولاية ثالثة، فباشر و تمكن هذه المرّة من سلطان تمكنا زائدا إلى أن سافر السلطان إلى البلاد الشامية فى سنة ست و تسعين، فمات بدمشق يوم الثلاثاء لعشرين من شوّال سنة ست و تسعين و سبعمائة، و دفن بترتبهم بسفح قاسيون، و مات أخوه حمزة بدمشق أيضا فى أوائل المحرم سنة سبع و تسعين و سبعمائة و دفن بها، و انقطع بموتهما هذا البيت فلم يبق من بعدهما إلّا كما قال اللّه سبحانه، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا. و من شعر البدر محمد بن فضل اللّه ما كتبه عنوانا لكتاب الملك الظاهر برقوق جوابا عن كتاب تمرلنك الوارد إلى مصر فى سنة ست و تسعين و سبعمائة و عنوانه:

سلام و إهداء السلام من البعددليل على حفظ المودّة و العهد

فافتتح البدر العنوان بقوله:

طويل حياة المرء كاليوم فى العدّفخبرته أن لا يزيد على العدّ

فلا بدّ من نقص لكل زيادةلأنّ شديد البطش يقتص للعبد

و كتب فيه من شعره أيضا جوابا عن كثرة تهديد تمرلنك و افتخاره:

السيف و الرمح و النشاب قد علمت منا الحروب فسل منها تلبيكا

إذ التقينا تجد هذا مشاهدةفى الحرب فأثبت فأمر اللّه آتيكا

بخدمة الحرمين اللّه شرّفنافضلا و ملّكنا الأمصار تمليكا

و بالجميل و حلو النصر عوّدناخذ التواريخ و اقرأها فتنبيكا

و الأنبياء لنا الركن الشديد و كم‌بجاههم من عدوّ راح مفكوكا

و من يكن ربه الفتاح ناصره‌ممن يخاف و هذا القول يكفيكا

و قال:

إذا المرء لم يعرف قبيح خطيئةو لا الذنب منه مع عظيم بليته

فذلك عين الجهل منه مع الخطاو سوف يرى عقباه عند منيته

و ليس يجازى المرء إلا بفعلهو ما يرجع الصياد إلا بنيته

و هذه الدار كانت موجودة قبل بنى فضل اللّه، و تعرف بدار ببرس، فعمر فيها محيى الدين و ابنه علاء الدين، و كانت من أبهج دور القاهرة و أعظمها، و ما زالت بيد أولاد بدر الدين و أخيه عز الدين حمزة إلى أن تغلب الأمير جمال الدين على أموال الخلق، فأخذ ابن أخيه الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب المعروف بسيدى أحمد بن أخت جمال الدين دار بنى فضل اللّه منهم، كما أخذ خاله دور الناس و أوقافهم و عوض أولاد ابن فضل اللّه عنها، و غيّر كثيرا من معالمها، و شرع فى الازدياد من العمارة اقتداء بخاله، فأخذ دورا كانت بجوار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۰

مستوقد حمام ابن عبود المقابلة لدار ابن فضل اللّه، و اغتصب لها الرخام و الأحجار و الأخشاب، و هدم عدّة دور و كثيرا من الترب بالقرافة، منها تربة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، و كانت عجيبة البناء، و أدخل ذلك فى عمارته المذكورة، و وسع فيها من جهة البندقانيين ما كان خرابا منذ الحريق الذى تقدّم ذكره، و أنشأ من هناك حوض ماء يشرب منه الدواب، فلما قارب إكمالها قبض الملك الناصر فرج على خاله جمال الدين يوسف استادار و قتله، و كان أحمد هذا ممن قبض عليه معه، فوضع الأمير تغرى بردى، و هو يومئذ أجلّ أمراء الناصر، يده على هذه الدار، و ما رضى بأخذها حتى طلب كتابها فإذا به قد تضمن أنّ أحمد قد وقف هذه الدار، فلم يزل بقضاة العصر حتى حكموا له بهذه الدار و جعلوها له بطريق من طرقهم، فأقام فيها حتى أخرجه الناصر لنيابة دمشق فى سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، فنزل بها الأمير دمرداش بإرث ابنة جمال الدين، و هى امرأة أحمد المذكور و لها منه أولاد، و أرادت استرجاع الدار كما فعلت فى مدرسة أبيها، و كان لها و لورثة تغرى بردى مخاصمات، و استقرّت لبنى تغرى بردى.

دار ببرس: هذه الدار فيما بين دار ابن فضل اللّه و السبع قاعات فى ظهر حارة زويلة، و قريبة من سويقة المسعودى، تشبه أن تكون من جملة اصطبل الجميزة، كانت دار الشريف بن تغلب صاحب المدرسة الشريفية برأس حارة الجودرية، ثم عرفت بالأمير ركن الدين ببرس الجاشنكير، فإنه كان يسكنها و هو أمير قبل أن يلى السلطنة، و جدّد رخامها من الرخام الذى دل عليه الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح، بالقصر الذى عرف بقصر أمير سلاح، من جملة قصر الخلفاء، كما سيأتى خبر ذلك عند ذكر الخانقاة الركنية ببيرس، فإن ببيرس هذا هو الذى أنشأها و لم تزل إلى أن هدمها ناصر الدين محمد بن البارزى الحموىّ كاتب السرّ بعد ما اشتراها نقضا، كما اشترى غيرها من الأوقاف، و ذلك فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة.

السبع قاعات: هذه الدار عرفت بالسبع قاعات، و هى يتوصل إليها من جوار دار ببرس المذكورة و من سويقة الصاحب، و قد صارت عدّة مساكن جليلة، و مكانها من جملة اصطبل الجميزة، أنشأها الوزير الصاحب علم الدين بن زنبور، و وقفها من جملة ما وقف، فلما قبض عليه الأمير صرغتمش فى حل أوقافه و وعد بالسبع قاعات خوند قطلوبنك ابنة الأمير تنكز الحسامىّ نائب الشام أمّ السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون، و لقّنه الشريفان، شرف الدين علىّ بن حسين بن محمد نقيب الأشراف، و أبو العباس الصفراوىّ، أنّ الناصر لما قبض على كريم الدين الكبير، بعث إلى كريم الدين من شهد عليه أنّ جميع ما صار بيده من

الأملاك وقفها و طلقها إنما هو من مال السلطان دون ماله، و شهد بذلك عند قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، فأثبت بهذه الشهادة أن أملاك كريم الدين جارية فى الأملاك السلطان، فأقرّ السلطان ما وقفه كريم الدين منها على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۱

حاله و سماه الوقف الناصرى، فلما جلس السلطان الملك الصالح بدار العدل، و حضر قاضى القضاة و الأمراء و غيرهم من أهل الدولة على العادة، تكلم الأمير صرغتمش مع قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن بدر الدين محمد بن جماعة فى حل أوقاف ابن زنبور، فإنها ملك السلطان و من ماله اشتراها، و ذكر قضية كريم الدين، فأجابه بأنّ تلك القضية كانت صحتها مشهورة، و ذلك أنّ خزائن السلطان و حواصله و أمواله كلها كانت بيد كريم الدين و فى داره، يتصرف فيها على ما يختاره، جعل له السلطان بتوكيله و الإذن له فى التصرّف، بخلاف ابن زنبور، فإنه كان يتصرّف فى ماله الذى اكتسبه من المتجر و غيره، فما وقفه و ثبت وقفه و حكم قضاة الإسلام بصحته لا سبيل إلى حله، و ساعده فى ذلك القاضى موفق الدين عبد اللّه الحنبلىّ، و تردّد الكلام بينهما فى ذلك، فاحتج عليهما الأمير صرغتمش بما لقناه الشريفان من مشاطرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه، عماله و أخذه من كل عامل نصف ماله، و أن مال الوزير جميعه من مال السلطان، فقال له ابن جماعة: يا أمير، إن كنت تبحث معنا فى هذه المسألة بحثنا معك، و إن كان أحد قد ذكرها لك فليحضر حتى نبحث معه فيها، فإنّ الذى ذكر لك هذه المسألة إنما قصد أن تصادر الناس و تأخذ أموالهم، فوافقه رفقته الثلاثة قضاة على قوله، و أراد ابن جماعة بقوله هذا التعريض بالشريفين و كان اختصاصهما بالأمير صرغتمش، و قيامهما على ابن زنبور مشهورا، فشق هذا على الأمير صرغتمش و انفض المجلس و قد اشتدّ حنقه لما ردّ عليه من كلامه و عورض فيه من مراده، فبعثت خوند أم السلطان إلى ابن جماعة تعرّفه ما وعدت به من مصير السبع قاعات إليها، و أكدت عليه فى أن لا يعارضها فى حلّ أوقاف ابن زنبور، فأجابها بتقبيح هذا، و خوّفها سوء عاقبته، فكفت عنه، و لقوّة غيظ الأمير صرغتمش مرض مرضا شديدا من انفتاح صدره و نفثه الدم، حتى خيف عليه الموت، ثم عوفى بعد ذلك بأيام، و ذلك كله فى سنة أربع و خمسين و سبعمائة، و استمرّت السبع قاعات وقفا بيد ذرية ابن زنبور إلى يومنا هذا، إلّا أنّ الأمير صرغتمش المذكور أخذ رخامها و وجد فيها شيئا كثيرا من صينىّ و نحاس و قماش و غير ذلك قد أخفى فى زواياها.

علم الدين: عبد اللّه بن تاج الدين أحمد بن إبراهيم، المعروف بابن زنبور، أوّل ما باشر به استيفاء الوجه القبلى شريكا لوهب بن سنجر، و طلع صحبته الأمير علم الدين عبد الرزاق كاشف الوجه القبلىّ، و نهض فيه، فلما كانت مصادرة ابن الجيعان كاتب الإصطبل، طلب السلطان سائر الكتاب، و كان منهم ابن زنبور، فعرضهم ليختار منهم فشكر الفخر ناظر الجيش منه و قال: هو ولد تاج الدين رفيقه و شكره الأكوز، فلما انفض المجلس طلبه و خلع عليه، فباشر نظر الإصطبل فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و نال فيه سعادة طائلة، و استمرّ إلى أن مات السلطان الملك الناصر محمد، و حكم الأمير ايدغمش، فباشر استيفاء الصحبة، فلما قبض على حمال الكفاة ناظر الخاص و ناظر الجيش و على الموفق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۲

ناظر الدولة و على الصفىّ ناظر البيوت، المعروف بكاتب قوصون، فى سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و مات حمال الكفاة فى العقوبة يوم الأحد سادس شهر ربيع الأوّل، عيّن ابن زنبور لوظيفة نظر الخاص، ثم قرّر فيها القاضى موفق الدين هبة اللّه بن إبراهيم ناظر الدولة، و كان ابن زنبور و هو مستوفى الصحبة، قد سيّره حمّال الكفاة قبل القبض عليه، لكشف القلاع الشامية، و معه جارا كتمر الحاجب إبعادا له، و كان الأمير أرغون العلائى يعنى به، فلما قبض على حمّال الكفاة، تحدّث له العلائى مع السلطان الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون فى نظر الخاص، فبعث فى طلبه، ثم لم يحضر إلّا بعد شهر، فتحدّث الوزير نجم الدين محمود بن علىّ المعروف بوزير بغداد مع السلطان فى ولاية الموفق نظر الخاص، فخلع عليه، و حضر ابن زنبور من الشام فباشر نظر الدولة علم الدين بن سهلوك و ابن زنبور على ما هى عادته فى استيفاء الصحبة، و نهض فى المباشرة و حصّل الأموال و دخل هو و الوزير نجم الدين و

شكيا، توقف الدولة من كثرة الإنعامات و الإطلاقات للخدم و الجوارى، و من يلوذ بهم، فتقرّر الحال مع الأمراء على كتابة أوراق بكلفة الدولة، فلما قرئت بمحضر من الأمراء بلغت الكلف ثلاثين ألف ألف درهم، و المتحصل خمسة عشر ألف درهم، فأبطل ما استجدّ بعد موت الملك الناصر بأسره، فلم يستمرّ غير شهر واحد حتى عاد الأمر على ما كان عليه، بحيث بلغ مصروف الحوائج خاناه فى كل يوم اثنين و عشرين ألف درهم، بعد ما كانت فى أيام الناصر محمد ثلاثة عشر ألف درهم، فلما مات الملك الصالح إسماعيل و أقيم فى الملك من بعده أخوه الملك الكامل سيف الدين شعبان بن محمد، صرف الموفق عن نظر الخاص و نقل ابن زنبور من استيفاء الصحبة إليها، و استقرّ فخر الدين السعيد فى استيفاء الصحبة، و ذلك فى ربيع الآخر سنة ست و أربعين و سبعمائة، فباشر ذلك إلى أخريات رجب نيفا و ثمانين يوما، فولى الملك الكامل نظر الخاص لفخر الدين ابن السعيد مستوفى الدولة، و أعاد ابن زنبور من نظر الخاص إلى استيفاء الدولة، فلما كان فى المحرّم سنة سبع و أربعين، أعيد نجم الدين وزير بغداد إلى الوزارة، و قرّر ابن زنبور فى نظر الدولة، فاستمرّ إلى أن قتل الكامل شعبان، و أقيم فى الملك من بعده أخوه الملك المظفر حاجى فى مستهل جمادى الآخرة سنة سبع و أربعين، فطلب ابن زنبور و أعيد إلى نظر الخاص، و قبض على فخر الدين بن السعيد، و طولب بالحمل، و أضيف إليه نظر الجيش، فباشر ذلك إلى سنة إحدى و خمسين، فأضيف إليه الوزارة فى يوم الخميس سابع عشرى ذى القعدة، و خلع عليه، و كان له يوم عظيم جدّا، فلما كان يوم السبت جلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة فى دست الوزارة، و استدعى جميع المباشرين و طلب المقدّم ابن يوسف و شدّ وسطه على ما كان عليه، و طلب المعاملين و سلفهم على اللحم و غيره، و استكتب المباشرين أنه لم يكن فى بيت المال و لا الاهرا من الدراهم و الغلال شىء البتة، و دخل بها و قرأها على السلطان و الأمراء، و شرع فى عرض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۳

أرباب الوظائف كلهم، و طلب حساب الأقاليم بأسرها، و ولى صهره فخر الدين ماجد فرويتة نظر البيوت، و أنفق جامكية شهر و حمل الرواتب إلى الدور السلطانية. و الأسمطة من السكر و الزيت و القلوبات و غير ذلك، و أقام بكتمر المومنى فى وظيفة شدّ الدواوين، و ألزم نفسه فى المجلس السلطانى بحضرة الأمراء، أنه يباشر الوزارة بغير معلوم، و قرّر ابنه فى ديوانه المماليك، و التزم أنّه لا يتناول معلوما بل يوفر المعلومين للسلطان، و أبطل رمى الشعير و البرسيم من بلاد مصر، و كان يحصل برميها ضرر كبير، فإن ذلك كان يحصل من سائر البلاد فيغرم على كل أردب أكثر من ثمنه، و التزم بتكفية بيت المال من الشعير و البرسيم بغير ذلك، فبطل على يديه، و كتب به مرسوم و كتب نقشا على حجر فى جانب باب القلعة من قلعة الجبل، و أمر بقياس أراضى الجيزة فجاء زيادتها عن الارتفاع الذى مضى ثلثمائة ألف درهم، و عنها خمسة عشر ألف دينار، فلم يزل إلى سابع عشرى شوّال سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، فأحيط به و قبض عليه حسدا له على ما صار إليه، و لم يجتمع لغيره فى الدولة التركية، و تولى القيام عليه الأمير صرغتمش لأنه علم أنه من جهة الأمير شيخو و يقوم له بجميع ما يختاره، و أعانه عليه الأمير طاز، و ما زال يدأب فى ذلك إلى أن عاد السلطان الملك الصالح من دمشق فى يوم الاثنين خامس عشرى شوّال سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة إلى قلعة الجبل، و عمل يوم الخميس سماطا مهما فى القلعة، و لما انفض السماط خلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء، و على الوزير و سائر المباشرين، فاتفق لما قدّره اللّه تعالى أنه حضر إلى الأمير صرغتمش و هو يومئذ رأس نوبة عشر تشريف، غيّر تشريفه و دون رتبته، فأخذه و دخل إلى الأمير شيخو و ألقى البلقجة قدّامه و قال: أنظر فعل الوزير معى و كشف الخلعة، فقال شيخو هذا غلط، فقام و قد أخذه من الغضب شبه الجنون و قال: هذا شغل الوزير و أنا ما اصبر على أن أهان لهذا الحدّ، و لا بدّ لى من القبض عليه و مهما شئت أنت افعل بى و خرج فإذا الوزير داخل لشيخو و عليه خلعة فصاح فى مماليكه، خذوه فكشفوا الخلعة عنه و سحبوه إلى بيت صرغتمش و سرّح مماليكه فى القبض على جميع حاشية الوزير، فقبض على سائر من يلوذ به لأنهم كانوا قد اجتمعوا بالقلعة، و خالطت العامّة المماليك فى القبض على الكتاب و أخذوا منهم فى ذلك اليوم شيئا كثيرا، حتى أن بعض الغلمان صار إليه فى ذلك اليوم ستة عشر دواة من دوى الكتاب، فلم يمكن منها أربابها إلّا بمال يأخذه على كل دواة، ما بين عشرين إلى خمسين درهما، و أمّا ما سلبوه من العمائم و الثياب و المهاميز الفضة فشىء

كثير، و خرج الأمير قشتمر الحاجب و غيره فى جماعة إلى دوره التى بالصوصة من مصر، فأوقعوا الحوطة على حريمه و أولاده و ختموا سائر بيوته و بيوت حواشيه، و كانوا قد اجتمعوا و تزينوا لقدوم رجالهم من السفر، و أنزل الوزير فى مكان مظلم من بيت صرغتمش، فلما أصبح طلب ولد الوزير و صار به صرغتمش إلى بيت أبيه و أحضر أمّه ليعاقبه و هى تنظره حتى يدلوه على المال، ففتحوا له خزانة وجد فيها خمسة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۴

عشر ألف دينار و خمسين ألف درهم فضة، و أخرج من بئر صندوق فيه ستة آلاف دينار و شىء من المصالح، و حضرت أحماله من السفر فوجد فيها ستة آلاف دينار و مائة و خمسون ألف درهم فضة، و غير ذلك من تحف و ثياب و أصناف، و ألزم والى مصر بإحضار بناته، فنودى عليهنّ فى مصر و القاهرة، و هجمت عدّة دور بسببهنّ و نال الناس من نكاية أعدائهم فى هذه الكائنة كل غرض، فإنه كان الرجل يتوجه إلى أحد من جهة صرغتمش و يرمى عدوّه بأنّ عنده بعض حواشى ابن زنبور، فيؤخذ بمجرّد التهمة، و لقى الناس من ذلك بلاء عظيما.

ثم حمل إلى داره و عرّى ليضرب، فدل على مكان استخرج منه نحو من خمسة و ستين ألف دينار، فضرب بعد ذلك، و عرّيت زوجته و ضرب ولده فوجد له شىء كثير إلى الغاية.

قال الصفدىّ خليل بن أيبك الملقب صلاح الدين فى كتاب أعيان العصر: و أمّا ما أخذ منه فى المصادرة فى حال حياته فنقلت من خط الشيخ بدر الدين الحمصىّ فى ورقة بخطه على ما أملاه القاضى شمس الدين محمد البهنسىّ، أوانى ذهب و فضة ستون قنطارا، جوهر ستون رطلا، لؤلؤ أردبان، ذهب مصكوك مائتا ألف و أربعة آلاف دينار، ضمن صندوق ستة آلاف حياصة، ضمن صناديق زركش ستة آلاف كلوته ذخائر، عدّة قماش بدنه، ألفان و ستمائة فرجية بسط، آلاف صنجة دراهم خمسون ألف درهم، شاشات ثلثمائة شاش، دواب عاملة سبعة آلاف حلابة، ستة آلاف خيل و بغال ألف، دراهم ثلاثة أرداب، معاصر سكر خمسة و عشرون معصرة، إقطاعات سبعمائة، كل إقطاع خمسة و عشرون ألف درهم، عبيد مائة، خدّام ستون، جوارى سبعمائة، أملاك القيمة عنها ثلاثمائة ألف دينار، مراكب سبعمائة، رخام القيمة عنه مائتا ألف درهم، نحاس قيمته أربعة آلاف دينار، سروج و بدلات خمسمائة، مخازن و متاجر أربعمائة ألف دينار، نطوع سبعة آلاف، دواب خمسمائة، بساتين مائتان، سواقى ألف و أربعمائة. و كان فى وقت القبض عليه أشدّ الناس قياما فى إفساد صورته الشريف شرف الدين علىّ بن الحسين نقيب الأشراف، و الشريف أبو العباس الصفراوى، و بدر الدين ناظر الخاص، و أمير المؤمنين، و الصوّاف، و استادار الأمير صرغتمش، فأوّل ما فتحوه من أبواب المكايد أن حسنوا الصرغتمش أن يأمر بالإشهاد عليه.

أن جميع ماله من الأملاك و البساتين و الأراضى و الوقف و الطلق جميعها من مال السلطان دون ماله، فصير إليه ابن الصدر عمر و شهود الخزانة، فاشهد عليه بذلك، ثم كتبوا فتى فى رجل يدعى الإسلام و يوجد فى بيته كنيسة و صلبان و شخوص من تصاوير النصارى، و لحم الخنزير، و زوجته نصرانية، و قد رضى لها بالكفر، و كذلك بناته و جواريه، و أنه لا يصلى و لا يصوم و نحو ذلك، و بالغوا فى تحسين قتله حتى قالوا لصرغتمش: و اللّه لو فتحت جزيرة قبرص ما كتب لك أجر من اللّه بقدر ما يؤجرك اللّه على ما فعلته مع هذا، فأخرج فى باشا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۵

و زنجير و ضرب فى رحبة قاعة الصاحب من القلعة بالمقارع، و توالت عقوبته، و أسلم لشادّ الدواوين ليعاقبه حتى يموت، فقام الأمير شيخو فى أمره، فردّه صرغتمش إلى داره و أكرمه و أقام عنده إلى سابع عشرى المحرّم سنة أربع و خمسين، فأخرجه من داره و تسلمه شادّ الدواوين و عاقبه عقوبة الموت فى قاعة الصاحب، فاتفق ركوب الأمير شيخو من داره إلى القلعة و ابن زنبور يعاقب، فغضب من ذلك و وقف و منع من ضربه، و بلغ الخبر صرغتمش فصعد إلى القلعة و جرى له مع شيخو عدّة مفاوضات كادت تفضى إلى فتنة، و

آل الأمر فيها إلى تسفير ابن زنبور إلى قوص، فأخرج من ليلته، و كانت مدّة شدّته ثلاثة أشهر، و أقام بمدينة قوص إلى أن عرض له مرض أقام به أحد عشر يوما و مات يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة سنة أربع و خمسين و سبعمائة، و له بالقاهرة السبيل الذى على يسرة من دخل من باب زويلة بجوار خزانة شمائل، و قد دخل فى الجامع المؤيدى.

دار الدوادار: هذه الدار فيما بين حارة زويلة و اصطبل الجميزة، و هى اليوم من جملة خط السبع قاعات عرفت ... .

دار فتح اللّه: هذه الدار اليوم بخط سويقة المسعودىّ، كان موضعها زقاقا يعرف بزقاق البناده، و فيه باب قاعة أنشأها سعد الدين إبراهيم بن عبد الوهاب بن النجيب أبى الفضائل الميمونىّ أحد مباشرى ديوان الجيش، و هى قاعة فى غاية الملاحة من جودة رخام و كثرة دهان و حسن ترتيب، و مات الميمونىّ فى ثانى ذى الحجة سنة خمس و تسعين و سبعمائة، فسكنها فتح اللّه بن معتصم و هو يومئذ رئيس الأطباء، فلما ولى كتابة السر شره إلى العمارة، فأخذ ما فى الزقاق المذكور من الدور شيئا بعد شىء، و أخرج منها سكانها و هدمها و ابتنى قاعة تجاه قاعة الميمونىّ، و جعل فيها بئرا و فسقية ماء، و بنى بها حمّاما، ثم أنشأ اصطبلا كبيرا لخيوله، و لم يقنع بذلك حتى حمل القضاة على الحكم له باستبدال دار الميمونىّ، و كانت وقفا على أولاد الميمونىّ و من بعدهم على الحرمين، فعمل له طرف فى جواز الاستبدال بها على ما صار القضاة يعتمدونه منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، فلما تم حكم القضاة له بتملكها غير بابها و زاد فى سعتها. و أضاف إليها عدّة مواضع مما بجوارها، و غرس فى جانبها عدّة أشجار و زرع كثيرا من الأزهار التى حملت إليه من بلاد الشام، و بالغ فى تحسين رخام هذه الدار، و أنشأ دهيشة كيسة إلى الغاية بوسطها فسقية ماء ينخرط إليها الماء من شاذروان عجيب الصنعة بهج الزىّ، و تشرف هذه الدهيشة على هذه الجنينة التى أبدع فيها كل الأبداع، و ركب علو هذه القاعة الأروقة العظيمة، و بنى بجوارها عدّة مساكن لمماليكه، و مسجدا معلقا كان يصلى فيه وراء إمام راتب قرّره له بمعلوم جار، فجاءت هذه الدار من أجلّ دور القاهرة و أبهجها، و وقف ذلك كله مع أشياء غيرها على تربته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۶

التى أنشأها خارج باب البرقية، و على عدّة جهات من البر فلما نكب أكره حتى رجع عن وقف هذه الدار على ما عينه فى كتاب وقفه، و جعلها وقفا على أولاد السلطان الملك المؤيد شيخ، فلما مات المؤيد عاد ذلك إلى وقف فتح اللّه.

فتح اللّه بن معتصم بن نفيس الإسرايلى الداودىّ العنانىّ التبريزىّ، رئيس الأطباء، و كاتب السرّ، ولد بتبريز فى سنة تسع و خمسين و سبعمائة، و كان قد قدم جدّه نفيس إلى القاهرة فى سنة أربع و خمسين، فأسلم و عظم بين الناس، ثم قدم فتح اللّه مع أبيه فنشأ بالقاهرة فى كفالة عمه، و نظر فى الطب و عاشر الفقهاء و اتصل بصحبة بعض الأمراء، فعرف منه أحد مماليكه، و كان يسمى بشيخ، فلما تأمّر شيخ قرّبه و أنكحه و فوّض إمر ديوانه، ثم مات عمه بديع ابن نفيس، فأقرّه الملك الظاهر برقوق مكانه فى رياسة الأطباء فباشرها مباشرة مشكورة، و اختص بالملك الظاهر برقوق اختصاصا كبيرا، فلما مات بدر الدين محمود الكلسانىّ قلده وظيفة كتابة السرّ، و خلع عليه فى يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى سنة إحدى و ثمانمائة، و مات الظاهر و قد جعله أحد أوصيائه، فما زال إلى أوائل ربيع الأوّل سنة ثمان و ثمانمائة فقبض عليه و استقرّ بدله فى كتابة السر سعد الدين إبراهيم بن غراب، و ضرب حتى حمل مالا ثم أفرج عنه فلزم داره إلى شهر رمضان، فحمل إلى دار الوزير فخر الدين ماجد بن غراب و ألزم بمال آخر، فحمله و أطلق، فقام الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى أمره، و ما زال بالملك الناصر فرج إلى أن أعاده إلى كتابة السرّ فى أوائل ذى الحجة فاستقرّ فيها، و تمكن من أعدائه و أراه اللّه مصارعهم، و اتسعت أحواله و انفرد بسلطانه و أنيط به جلّ الأمور، فأصبح عظيم المصر نافذ الأمر قائما بتدبير الدولة، لا يجد أحد من عظماء الدولة بدا من حسن سفارته، و أبدا للناس دينا و خيرا و تواضعا، و حسن وساطة بين الناس و بين السلطان، فلما كان من أمر الناصر و هزيمته على اللجون ما كان، وقع فتح اللّه مع الخليفة المستعين بالله العباسى ابن محمد المتوكل على اللّه و عدّة من كتاب الدولة فى قبضة الأميرين شيخ و نوروز، و ما زال عند هما حتى قتل الناصر و أقيم من بعده أمير المؤمنين المستعين بالله، و هو على حاله من نفوذ الكلمة و تدبير الأمور، فلما استبدّ الأمير شيخ بمملكة الديار المصرية و اعتقل الخليفة و تلقب بالملك المؤيد

شيخ فى شعبان سنة خمس عشرة و ثمانمائة، أقرّ فتح اللّه على رتبته، ثم قبض عليه يوم الخميس تاسع شوال، و عوقب غير مرّة، و أحيط بجميع أمواله و أسبابه و حواشيه، و بيع عليه بعض ما وجد له، و حمل ما تحصل منه فبلغ ما ينيف عن أربعين ألف دينار، سوى ما أخذ مما لم يبع، و هو ما يتجاوز ذلك، و ما زال فى العقوبة إلى أن خنق فى ليلة الأحد خامس عشر شهر ربيع سنة ست عشرة و ثمانمائة، و حمل من الغد إلى تربته فدفن بها، و كان رحمه اللّه من خير أهل زمانه رياضة و ديانة و طيب مقال، و تأله و تنسك و محبة لسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و حسن قيام مع السلطان فى أمر الناس، و به كفى اللّه عن الناس من شرّ الناصر فرج شيئا كثيرا، و قد ذكرته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۷

بأبسط من هذا فى كتابى «درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة»، و فى كتابى «خلاصة التبر فى أخبار كتاب السرّ».

دار ابن قرقه: هذه الدار من الدور القديمة، و هى بخط سويقة المسعودىّ إلى خط بين السورين، و قد تغيرت معالمها. قال ابن عبد الظاهر: دار ابن قرقة هى الآن سكن الأمير صارم الدين المسعودىّ والى القاهرة، بأوّل حارة زويلة من جهة باب الخوخة على يسرة السالك إلى داخل الحارة، و هى معروفة اليوم و إلى جانبها الحمام المعروفة بابن قرقة أيضا، و هذه الدار و الحمام أنشأهما أبو سعيد بن قرقة الحكيم، و باعهما فى حال مصادرته مما خرج عليه، فابتاعهما منه علم السعداء، ثم سكنها الكامل بن شاور، و هما من جهة الخليج. انتهى.

و هذه الدار و الحمام قد قدمتا و صار موضع الدار الجامع المعروف بجامع ابن المغربىّ برأس سويقة الصاحب و ما يجاوره من دور ابن أبى شاكر، و آخر ما بقى منها شىء، هدمه الوزير الصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن الوزير الصاحب فخر الدين عبد اللّه بن تاج الدين موسى بن أبى شاكر، فى رمضان سنة أربع و تسعين و سبعمائة.

و ابن قرقة: هذا كان يتولى الاستعمالات بدار الديباج و خزائن السلاح، و كان ماهرا فى علم الطب و الهندسة و نحو ذلك من علوم الأوائل، و قتله الخليفة الحافظ لدين اللّه من أجل أنه دبر السم لابنه حسن بن الحافظ، عندما تشاور و الجند و طلبوا من الخليفة قتل ابنه حسن كما تقدّم ذكره، فلما سكنت الدهماء قبض عليه الخليفة و اعتقله بخزانة البنود و قتله، فى سنة تسع و عشرين و خمسمائة.

دار خوند: هذه الدار من حقوق حارة زويلة، عرفت بالست الجليلة خوندار دوتكين ابنة نوغية السلاح دار الطرىّ، تزوّج بها الملك الأشرف خليل بن قلاون، و مات عنها فتزوّجها من بعده أخوه الملك الناصر محمد بن قلاون، و ولدت منه ولدين و ماتا، ثم طلقها و نزلت من القلعة فسكنت هذه الدار، و أنشأت لها تربة بالقرافة تعرف الآن بتربة الست، و جعلت لها عدّة أوقاف، و كانت من الخير على جانب عظيم، لها معروف و صدقات و إحسان عميم، و ماتت و لها ما ينيف على الألف، ما بين جارية و خادم أعتقتهم كلهم، و خلّفت أموالا تخرج عن الحدّ فى الكثرة، و كانت وفاتها فى ليلة السبت ثالث عشرى المحرم سنة أربع و عشرين و سبعمائة، و دفنت بتربتها، فتقدّم أمر السلطان للأمراء و القضاة لشهود جنازتها و حمل ما تركته من الأموال و الجواهر، و طلب أخوها جمال الدين خضر بن نوغية و صولح على إرثه منها بمائة و عشرين ألف درهم، عنها يومئذ سبعة آلاف دينار، و لم تزل هذه الدار إلى أن هدمت، فأخذها الأمير صلاح الدين محمد استادار السلطان ابن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه فى شهر رجب سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، و أدخلها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۸

فى داره التى أنشأها فجاءت من أجلّ دور القاهرة.

دار الذهب: هذه الدار خارج القاهرة، فيما بين باب الخوخة و باب سعادة، بناها الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى، و كان فيما بين باب القنطرة و باب الخوخة منظرة اللؤلؤة التى تقدّم ذكرها، عند ذكر مناظر الخلفاء، و يجاورها من حيزباب الخوخة دار الفلك، و بناها فلك الملك أحد الأستاذين الحاكمية، و يلاصقها دار الذهب هذه، و يجاور دار الذهب دار الشابورة، و

دار الذهب عرفت أخيرا بدار الأمير بها در الأعسر شادّ الدواوين، ثم الآن عرفت بدار الأمير الوزير المشير الأستادار فخر الدين عبد الغنى ابن الأمير الوزير استادار تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الأرمنىّ الأصل، و عنى بها و هدم كثيرا من الدور التى كانت تجاهها على برّ الخليج الشرقىّ، و أنشأ هناك دارا يتطرّق إليها من هذه الدار بساباط، و أنشأ بجوارها جامعه الآتى ذكره و حمامه، ثم هدم كثيرا من الدور التى كانت على الخليج و ما وراءها بتلك الأحكار التى فى الجانب الغربىّ من الخليج، و غرس فى أراضى تلك الدور الأشجار و جعلها بستانا تجاه داره، فمات قبل أن تكمل، و صار أكثر مواضع الدور التى خربها هناك كيمانا.

دار الحاجب: خارج باب النصر تجاه مصلى الأموات، هذه الدار أنشأها الأمير سيف الدين كهرداش المنصورىّ، أحد المماليك الزراقين، و هو الذى فتح جزيرة أرواد فى المراكب المتوجهة إلى بلاد الفرنج، و تولى عمارة مأذنة المدرسة المنصورية لما تهدّمت فى الزلزلة، و تقدم و كثرت أمواله و مات بدمشق فى سنة أربع عشرة و سبعمائة، فاشترى هذه الدار الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، و لم تزل بها ذريته من بعد الأمير جمال الدين عبد اللّه بن بكتمر، و الأمير ناصر الدين محمد بن عبد اللّه، و بها الآن ولدا الأمير ناصر الدين، و هما الأمير علىّ و عبد الرحمن، و ما برح هذا البيت فيه الأمرة و السعادة.

بكتمر الحاجب: الأمير سيف الدين، كان أميرا خور، ثم ولىّ شدّ الدواوين بدمشق فى نيابة الأفرم، و لم يكن لأحد معه كلام فى عزل و لا ولاية، ثم ولى الحجوبية، و توجه إلى صفد كاشفا على الأمير ناهض الدين عمر بن أبى الخير والى الولاة و شادّ الدواوين بها، و معه معين الدين بن حشيش، فحرّر الكشف و رفعه، حتى قال فيه زين الدين عمر بن حلاوات موقع صفد:

يا قاصدا صفدا فعد عن بلدةمن جور بكتمر الأمير خراب

لا شافع تغنى شفاعته و لاجار له مما جناه جناب

حشر و ميزان و نشر صحائفو جرائد معروضة و حساب

و بها زبانية تحثّ على الورىو سلاسل و مقامع و عقاب

ما فاتهم من كلّ ما و عدوا بهفى الحر إلّا راحم وهاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۹

و لما قدم الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك إلى دمشق، ولّاه الحجوبية، و دخل فى خدمته إلى مصر و هو حاجب، ثم أخرجه ثانيا نائبا إلى غزة فى سنة عشر و سبعمائة، فأقام بها قليلا و طلبه و ولّاه الوزارة بالديار المصرية عوضا عن الصاحب فخر الدين ابن الخليلىّ، فى رمضان سنة عشر، فباشر الوزارة إلى أن قبض عليه مستهل ربيع الأوّل سنة خمس عشرة، و اعتقل مدّة سنة و نصف و أخذ كير من ماله، ثم أفرج عنه و أخرج إلى صفد نائبا فى سنة ست عشرة، و أنعم عليه بمائة ألف درهم، عنها يومئذ خمسة آلاف دينار، فأقام بها عشرة أشهر و طلب إلى مصر فصار من الأمراء المشهورة، فإذا تكلم السلطان فى المشورة لا يردّ عليه غيره، لما عنده من المعرفة و الخبرة، و تزوّج بابنة الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك، و أولاده الذين ذكرنا منها، و سرق له مال كثير من خزانته بهذه الدار، ادّعى أنه مبلغ مائتى ألف درهم، و كان فى الباطن على ما قيل سبعمائة ألف درهم، فما جسر يتفوّه خوفا من السلطان، و كان إذ ذاك والى القاهرة الأمير سيف الدين قدادار، المنسوب إليه القنطرة على الخليج، فتقدّم أمر السلطان إليه بتتبع من سرق المال، فدسّ إليه الأمير بكتمر الساقى، و الوزير مغلطاى الجمالى، و القاضى فخر الدين ناظر الجيش فى السرّ، أن يتهاون فى أمر السرقة نكاية لبكتمر، و أخذوا يحتجون لكل من اتهم و يقولون للسلطان لعن اللّه ساعة هذه العملة، كل يوم يموت من الناس تحت المقارع عدّة، و إلى متى يقتل المتهم الذى لا ذنب له، فلما طار الأمر شكا بكتمر إلى السلطان فى دار العدل، فأحضر الوالى و سبّه السلطان، فقال يا خوند: اللصوص الذين أمسكتهم و عاقبتهم أقرّوا أن سيف الدين بخشى خزنداره، اتفق معهم على أخذ المال و جماعة من إلزامه الذين فى بابه. فقال السلطان للجمالى الوزير: احضر هؤلاء المذكورين و عاقبهم، فأخذ بخشى و عصره و كان عزيزا عند بكتمر، قد زوجه بابنته، و هو يثق بعقله و دينه و أمانته، فشق ذلك عليه و اغتم غما شديدا مات منه، فجاءة فيما بين الظهر إلى

العصر من يومه سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، و كان خبيرا بالأمور بصيرا بالحوادث طويل الروح فى الكلام لا يمل من تطويله، و لو قعد فى الحكم الواحد بين الأمير و اليهودى ثلاثة أيام، و لا يلحقه من ذلك سآمة البتة، مع معرفة تامّة و خبرة بالسياسة لم ير مثله فى حق أصحابه، لكثرة تذكرهم فى غيبتهم، و الفكر فى مصالحهم و تفقد أحوالهم، و من جفاه منهم عتب عليه، و كان سمحا بجاهه بخيلا بماله إلى الغاية، ساقط الهمة فى ذلك، و له متاجر و أملاك و سعادة لا تكاد تنحصر، و مع ذلك فله قدور يكريها لصلاقى الفول و الحمص و غير ذلك من العدد و الآلات، و يماحك على أجرها مماحكة يستحى من ذكرها، و أنشأ عدّة دور و اقتنى كثيرا من البساتين، و ولى من بعده ابنه الأمير جمال الدين عبد اللّه الإمرة، و كان حاجبا، و لأبيه فى سيرة البخل و الحرص الشديد تابعا و مقلدا، و تولى أمره الحاج غير مرّة، و خرج فى سنة ست و ثمانين و سبعمائة من القاهرة لولاية كشف الجسور بالغربية، فورد عليه كتاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۰

السلطان الملك الظاهر برقوق بالإنكار، و فيه تهديد مهول فداخله الخوف و مرض، فحمل فى محفة إلى القاهرة فدخلها يوم الأربعاء النصف من جمادى الأولى من تلك السنة، فمات من يومه و أخذ أقطاعه الأمير يودى، و صار ابنه ناصر الدين أحد الأمراء العشراوات، سالكا طريق أبيه و جدّه فى الإمساك إلى أن مات خامس عشرى شهر ربيع الآخر سنة اثنين و ثمانمائة، و دفن بتربتهم خارج باب النصر.

دار الجاولى: هذه الدار من جملة الحجر التى تقدّم ذكرها، و هى تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون، أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى و جعلها وقفا على المدرسة المعروفة بالجاولية بخط الكبش جوار الجامع الطولونى، و عرفت فى زماننا بقاعة البغادّة، لسكنى عبد الصمد الجوهرىّ البغدادىّ بها هو و أولاده فى سنة سبع و أربعين و سبعمائة إلى بعد سنة ست عشرة و ثمانمائة، و هى من الدور الجليلة، إلّا أنها قد تشعثت لطول الزمن.

دار أمير أحمد: هذه الدار بجوار دار الجاولىّ من غربيها، عرفت بأمير أحمد قريب الملك الناصر محمد بن قلاون، و عرفت فى زماننا بسكن أبو ذقن ناظر المواريث، و هى من جملة ما اغتصبه جمال الدين يوسف الأستادار من الدور الوقف، و جعلها لأخيه شمس الدين محمد البيرى قاضى حلب، و شيخ الخانقاه البيبرسية، فغير بابها و شرع فى عمارتها، فقبض عليه عند القبض على أخيه و هو بها.

دار اليوسفى: هذه الدار بجوار باب الجوّانية فيما بينها و بين الحوض المعدّ لشرب الدواب، أنشأها هى و الحوض الأمير سيف الدين بهادر اليوسفىّ السلاح دار الناصرىّ.

دار ابن البقرى: هذه الدار أنشأها الوزير الصاحب سعد الدين سعد اللّه بن البقرىّ بن أخت القاضى شمس الدين شاكر بن غزيل البقرىّ، صاحب المدرسة البقرية اظهر الإسلام و باشر فى الخدمة الديوانية إلى أن ولاه الملك الظاهر برقوق وظيفة نظر الديوان المفرد و نظر الخاص، عوضا عن الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن مكانس، فى ثالث شهر رمضان سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة، فباشر ذلك إلى تاسع شهر رمضان سنة خمس و ثمانين، فقبض عليه و نزل الأمير يونس الدوادار و الأمير قرقماش الخازندار إلى داره هذه و أحاط بها، و أخذ جميع ما فيها من المال و الثياب و الأوانى و الحلى و الجوارى و غير ذلك، و حمل إلى القلعة، فبلغ قيمة ما وجد بداره فى هذه النوبة مائتى ألف دينار، و سلم ابن البقرىّ لشادّ الدواوين بقاعة الصاحب من القلعة، فضرب بالمقارع نيفا و ثلاثين شيبا، و ولى موفق الدين أبو الفرج نظر الخاص، ثم أن الملك الظاهر لما عاد إلى المملكة، بعد ثورة الأمير بلبغا الناصرىّ و الأمير تمربغا منطاش عليه، و خلعه من الملك و سجنه بالكرك، ثم قيامه بأهل الكرك و دخوله إلى القاهرة و عوده إلى المملكة، ولى ابن البقرىّ الوزارة فى يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنين و تسعين و سبعمائة عوضا عن موفق الدين أبى الفرج، ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۱

صرف فى يوم الخميس لعشرين من شهر رمضان، و أعيد الوزير أبو الفرج و أحيط بدور ابن البقرىّ و أسلم هو و ابنه تاج الدين عبد

اللّه إلى الأمير ناصر الدين محمد بن اقبغا آض، فلما استقرّ الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدىّ فى الوزارة يوم الثلاثاء سابع عشرى ذى الحجة منها، عوضا عن الوزير أبى الفرج، اشترط على السلطان أمورا منها استخدام الوزراء المعزولين، فجلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة و بعث إلى من بالقاهرة من الوزراء المعزولين، و هم شمس الدين عبد اللّه المقسى، و علم الدين عبد الوهاب بن الطنساوىّ، المعروف بسنّ إبرة، و سعد الدين سعد اللّه بن البقرىّ، و موفق الدين أبو الفرج، و فخر الدين عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن ابراهيم بن مكانس، فأقرّ المقسىّ و سنّ إبرة معا فى نظر الدولة و أقرّ ابن البقرىّ ناظر البيوت و مستوفى الدولة، و قرّر أبا الفرج فى استيفاء الصحبة، و ابن مكانس فى استيفاء الدولة شريكا لابن البقرىّ، فكانوا يركبون فى خدمته دائما و يجلسون بين يديه، و ربما وقف ابن البقرىّ على قدميه بحضرته بعد أن كان ابن الحسام دواداره، و لا يزال قائما بين يديه، فعدّ الناس هذا من أعظم المحن التى لم يشاهد فى الدولة التركية مثلها، و هو أن يصير الرجل خادما لمن كان فى خدمته، فنعوذ باللّه من المحن، ثم إن الوزير ابن الحسام قبض على ابن البقرىّ و ألزمه بحمل سبعين ألف درهم، ثم أعيد إلى الوزارة بعد القبض على الصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن عبد اللّه بن موسى بن أبى بكر ابن أبى شاكر فى ذى القعدة سنة خمس و تسعين، و قبض عليه و على ولده فى حادى عشرى شهر ربيع الأوّل سنة ست و تسعين، و سلما مع عدّة من الكتاب لشادّ الدواوين، ثم أفرج عنهما على حمل مال، فلما ولى الأمير ناصر الدين محمد بن رجب بن كلفت الوزارة، بعد الوزير أبى الفرج، قرّر ابن البقرىّ فى نظر الدولة عوضا عن بدر الدين الأقفهسىّ، و استخدم بقية الوزراء كما فعل الوزير ابن الحسام، فلما خلع السلطان على الأمير ناصر الدين محمد بن تنكر و جعله استادار الأملاك فى رجب سنة سبع و تسعين، قرّر ابن البقرىّ ناظر الأملاك، و خلع عليه، فصار يتحدّث فى نظر الدولة و نظر الأملاك، فلما كان يوم الخميس رابع رجب سنة ثمان و تسعين أعيد إلى الوزارة و صرف عنها الأمير مبارك شاه ناظر الظاهرىّ، و استقرّ بدر الدين محمد بن محمد الطوخى فى نظر الدولة، ثم قبض عليه فى يوم الخميس رابع ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين، و أحيط بسائر ما قدر عليه من موجوده، و ولى الوزارة بعده ابن الطوخىّ، و عوقب عقابا شديدا فى دار الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ، ثم أخرج نهارا و هو عار مكشوف الرأس و بيده حبل يجرّبه و ثيابه مضمومة بيده الأخرى و الناس تراه من درب قراصيا برحبة باب العيد فى السوق إلى دار ابن الطبلاوىّ، و قد انتهك بدنه من شدّة الضرب، فسجن بدار هناك. ثم خنق فى ليلة الاثنين رابع جمادى الآخرة سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و كان أحد كتاب الدنيا الذين انتهت إليهم السيادة فى كتابة الرسوم الديوانية، مع عفة الفرج و جودة الرأى و حسن التدبير، إلّا أنه لم يؤت سعدا فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۲

وزارته، و ما برح ينكب كل قليل، و كان يظهر الإسلام و يكتب بخطه كتب الحديث و غيرها، و يتهم فى باطن الأمر بالتشدّد فى النصرانية، و ولى ابنه تاج الدين عبداللّه الوزارة و نظر الخاص، و مات قتيلا تحت العقوبة عند الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى سنة ثمان و ثمانمائة، و دار ابن البقرىّ هذه من أعظم دور القاهرة، و هى من جملة خط حارة الجوّانية فى أوّلها.

دار طولباى: هذه الدار بجوار حمّام الأعسر برأس حارة الجوّانية، تجاه درب الرشيدىّ، أنشأها الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير، ثم عرفت بخوند طولباى الناصرية جهة الملك الناصر.

طلنباى: و يقال دلبية، و يقال طلوبية ابنة طفاجى ابن هندر بن بكر بن دوشى خان ابن جنكزخان، ذات الستر الرفيع الخاتونى، كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون قد جهز الأمير إيدغدى الخوارزمىّ فى سنة ست عشرة و سبعمائة يخطب إلى أزبك ملك التتار بنتا من الذرية الجنكزية، فجمع أزبك أمراء التومانات و هم سبعون أميرا و كلمهم الرسول فى ذلك، فنفروا منه ثم اجتمعوا ثانيا بعدما وصلت إليهم هداياهم و أجابوا، ثم قالوا إلّا أن هذا لا يكون إلا بعد أربع سنين، سنة سلام، و سنة خطبة، و سنة مهاداة، و سنة زواج، و اشتطوا فى طلب المهر، فرجع السلطان عن الخطبة، ثم توجه سيف الدين طوخى بهدية و خلعة لأزبك، فلبسها و قال لطوخى: قد جهزت لأخى الملك الناصر ما كان طلب و عينت له بنتا من بيت جنكزخان من نسل الملك ياطرخان. فقال طوخى: لم يرسلنى

السلطان فى هذا.

فقال أزبك: أنا أرسلها إليه من جهتى، و أمر طوخى بحمل مهرها فاعتذر بعدم المال.

فقال: نحن نقترض من التجار، فاقترض عشرين ألف دينار و حملها، ثم قال لا بدّ من عمل فرح تجتمع فيه الخواتين، فاقترض مالا آخر نحو سبعة آلاف دينار، و عمل الفرح. و جهزت الخاتون طلنباى و معها جماعة من الرسل، و هم بانبجار من كبار المغل، و طقبغا و منعوش و طرحى و عثمان و بكتمر و قرطبا و الشيخ برهان الدين أمام الملك أزبك و قاضى حراى، فساروا فى زمن الخريف و أقلعوا فلم يجدوا ريحا تسير بهم، فأقاموا فى برّ الروم على مينا ابن مشتا خمسة أشهر، و قام بخدمتهم هو و الأشكرىّ ملك قسطنطينية، و أنفق عليهم الأشكرىّ ستين ألف دينار، فوصلوا إلى الإسكندرية فى شهر ربيع الأوّل سنة عشرين و سبعمائة، فلما طلعت الخاتون من المراكب حملت فى خركاة من الذهب على العجل، و جرّها المماليك إلى دار السلطنة بالإسكندرية، و بعث السلطان إلى خدمتها عدّة من الحجاب، و ثمانى عشرة من الحرم، و نزلت فى الحراقة، فوصلت إلى القلعة يوم الاثنين خامس عشرى ربيع الأوّل المذكور، و فرش لها بالمناظر فى الميدان دهليز أطلس معدنى، و مدّ لهم سماط، و فى يوم الخميس ثانى عشرية أحضر السلطان رسل أزبك، و وصل رسل ملك الكرج، و رسل الأشكرىّ بتقادمهم، ثم بعث إلى الميدان الأمير سيف الدين أرغون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۳

النائب، و الأمير بكتمر الساقى، و القاضى كريم الدين ناظر الخاص، فمشوا فى خدمة الخاتون إلى القلعة و هى فى عز، ثم عقد عليها يوم الاثنين سادس ربيع الآخر على ثلاثين ألف دينار، حالة المعجل منها عشرون ألفا، و عقد العقد قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، و قبل عن السلطان النائب أرغون، و بنى عليها، و أعاد الرسل بعد أن شملهم من الأنعام ما أربى على أملهم، و معهم هدية جليلة، فساروا فى شعبان، و تأخر قاضى حراى حتى حج و عاد فى سنة إحدى و عشرين، و ماتت فى رابع عشرى ربيع الآخر سنة خمس و ستين و سبعمائة، و دفنت بتربتها خارج باب البرقية بجوار تربة خوند طغاى أم أنوك.

دار حارس الطير: هذه الدار بداخل درب قراصيا بخط رحبة باب العيد، عرفت بالأمير سيف الدين سنبغا حارس الطير، ترقى فى الخدم إلى أن صار نائب السلطنة بديار مصر فى أيام السلطان حسن بن محمد بن قلاون بعد يلبغا روس، ثم عزل بالأمير قبلاى و جهز إلى نيابة غزة، فأقام بها شهرا و قبض عليه و حضر مقيدا إلى الإسكندرية فى شعبان سنة اثنين و خمسين و سبعمائة، فسجن بها مدّة ثم أخرج إلى القدس، فأقام بطالا مدّة، ثم نقل إلى نيابة غزة فى شعبان سنة ست و خمسين و سبعمائة.

الدار القردمية: هذه الدار خارج باب زويلة بخط الموّازيين من الشارع المسلوك فيه إلى رأس المنجبية، بناها الأمير الجاى الناصرىّ، مملوك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان من أمره أنه ترقى فى الخدم السلطانية حتى صار دوادار السلطان بغير أمرة، رفيقا للأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار، فلما مات بهاء الدين استقرّ مكانه بإمرة عشرة مدّة ثلاث سنين، ثم أعطى أمرة طبلخاناه، و كان فقيها حنفيا يكتب الخط المليح، و نسخ بخطه القرآن الكريم فى ربعة، و كان عفيفا عن الفواحش، حليما لا يكاد يغضب، مكبا على الاشتغال بالعلم، محبا لاقتناء الكتب، مواظبا على مجالسة أهل العلم، و بالغ فى إتقان عمارة هذه الدار بحيث أنه أنفق على بوّابتها خاصة مائة ألف درهم فضة، عنها يومئذ نحو الخمسة آلاف مثقال من الذهب، فلما تمّ بناؤها لم يمتع بها غير قليل، و مرض فمات فى أوائل شهر رجب، و قيل فى رمضان سنة اثنين و ثلاثين و سبعمائة، و هو كهل، فدفن بقرافة مصر.

فسكنها من بعده خوند عائشة خاتون المعروفة بالقردمية، ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون زمانا، فعرفت بها، و كانت هذه المرأة ممن يضرب بغناها و سعادتها المثل، إلّا أنها عمرت طويلا و تصرّفت فى مالها تصرّفا غير مرضىّ، فتلف فى اللهو حتى صارت تعدّ من جملة المساكين، و ماتت فى الخامس من جمادى الأولى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، و مخدّتها من ليف.

ثم سكن هذه الدار الأمير جمال الدين محمود بن علىّ الاستادار مدّة، و أنشأ تجاهها مدرسة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۴

دار الصالح: هذه الدار بحارة الديلم قريبا من السجن، و كانت دار الصالح طلائع بن رزبك يسكنها و هو أمير قبل أن يلى الوزارة، بناها فى سنة سبع و أربعين و خمسمائة، و بناها على ما هى عليه الآن.

دار بهادر: هذه الدار بالقاهرة جوار المشهد الحسينى، فى درب جرجى المقابل للابارين، المسلوك منه إلى دار الضرب و غيره، أنشأها الأمير بهادر رأس نوبة أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، و اتفق أنه كان ممن مالأ الأمير بدر الدين بيدرا على قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون، فلما قدّر اللّه بانتقاض أمر بيدر أو قتله، و إقامة الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أخيه الأشرف خليل، قبض على جماعة ممن وافق على قتل الملك الأشرف خليل، و قد تجمعت المماليك الأشرفية مع الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، و هو يومئذ وزير الديار المصرية فى دار النيابة من قلعة الجبل عند الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة، و إذا بالأمير بهادر المذكور قد حضر هو و الأمير جمال الدين أقوش الموصلى الحاجب المعروف بنميلة، و كانا قد اختفيا فرقا من سطوة الأشرفية حتى دبر أمرهما النائب، و أذن لهما فى طلوع القلعة، فما هو إلّا أن أبصرهما الأشرفية سلوا سيوفهم و ضربوا رقبتيهما فى أسرع وقت، فدهش الحاضرون و ما استطاعوا أن يتكلموا خوفا من الأشرفية، و اتفق فى بناء هذه الدار ما فيه عبرة لمن اعتبر، و ذلك أن بهادر هذا لما حفر أساسها وجد هناك قبورا كثيرة، فأخرج تلك العظام و رماها، فبلغ ذلك قاضى القضاة تقىّ الدين ابن دقيق العيد، فبعث إليه ينهاه عن نبش القبور و رمى العظام و يخوّفه عاقبة ذلك، فقال: إذا مت يجرّوا رجلى و يرمونى، فقال القاضى: لما أعيد عليه هذا الجواب: و قد يكون ذلك.

فقدّر اللّه أنه لما ضربت رقبته و رقبة أقوش ربط فى رجليهما حبل و جرّا من دار النيابة بالقلعة إلى المجاير بالكيمان، نعوذ بالله من سوء عاقبة القضاء، ثم عرفت هذه الدار ببيت الأمير جركتمر بن بهادر المذكور، و كان خصيصا بالأمير قوصون، فبعثه لقتل السلطان الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، لمّا نفاه إلى مدينة قوص بعد خلعه، فتولى قتله، فلما قبض على قوصون قبض على جركتمر فى ثانى شعبان سنة اثنين و أربعين و سبعمائة، و قتل بالإسكندرية هو و قوصون فى ليلة الثلاثاء ثامن عشر شوال، تولى قتلهما الأمير ابن طشتمر طلبة، و أحمد بن صبيح، و كان جركتمر هذا فيه أدب و حشمة، و أوّل أمره كان من أصحاب الأمير بيبرس الجاشنكيرى، فقدّمه و أعطاه أمرة عشرة، ثم اتصل بالأمير أرغون النائب، فأعطاه أمرة طبلخاناه، و كان يلعب بالأكرة و يجيد فى لعبها إلى الغاية.

ثم عرفت هذه الدار بالأمير سيف الدين بهادر المنجكى أستادار الملك الظاهر برقوق لسكنه بها، و تجديد عمارتها، و أنشأ بجوارها حماما و كانت وفاته يوم الاثنين الثانى من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۵

جمادى الآخرة سنة تسعين و سبعمائة، و هذه الدار باقية إلى اليوم تسكنها الأمراء.

دار البقر: هذه الدار خارج القاهرة فيما بين قلعة الجبل و بركة الفيل، بالخط الذى يقال له اليوم حدرة البقر، كانت دارا للأبقار التى برسم السواقى السلطانية، و منشرا للزبل، و فيه ساقية، ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاون أنشأها دارا و اصطبلا و غرس بها عدّة أشجار، و تولى عمارتها القاضى كريم الدين عبد الكريم الكبير، فبلغ المصروف على عمارتها ألف ألف درهم، و عرفت بالأمير طقتمر الدمشقىّ، ثم عرفت بدار الأمير طاش تمر حمص أخضر، و هذه الدار باقية إلى وقتنا هذا ينزلها أمراء الدولة.

قصر بكتمر الساقى: هذا القصر من أعظم مساكن مصر و أجلّها قدرا، و أحسنها بنيانا، و موضعه تجاه الكبش على بركة الفيل، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاون لسكن أجلّ أمراء دولته، الأمير بكتمر الساقى، و أدخل فيه أرض الميدان التى أنشأها الملك العادل كتبغا، و قصد أن يأخذ قطعة من بركة الفيل ليتسع بها الإصطبل الذى للأمير بكتمر بجوار هذا القصر، فبعث إلى قاضى القضاة شمس الدين الحريرىّ الحنفىّ ليحكم باستبدالها على قاعدة مذهبه، فامتنع من ذلك تنزها و تورّعا، و اجتمع بالسلطان و حدّثه فى ذلك، فلما رأى كثرة ميل السلطان إلى أخذ الأرض نهض من المجلس مغضبا و صار إلى منزله، فأرسل القاضى كريم الدين الكبير ناظر الخواص

إلى سراج الدين الحنفيّ عن أمر السلطان و قلده قضاء مصر منفردا عن القاهرة، فحكم باستبدال الأرض فى غرة رجب سنة سبع عشرة و سبعمائة، فلم يلبث سوى مدّة شهرين و مات فى أوّل شهر رمضان، فاستدعى السلطان قاضى القضاة شمس الدين الحريرىّ و أعاده إلى ولايته، و كمّل القصر و الإصطبل على هيئة قلّ ما رأت الأعين مثلها، بلغت النفقة على العمارة فى كل يوم مبلغ ألف و خمسمائة درهم فضة مع جاه العمل، لأنّ العجل التى تحمل الحجارة من عند السلطان، و الحجارة أيضا من عند السلطان، و الفعلة فى العمارة أهل السجون المقيدون من المحابيس، و قدّر لو لم يكن فى هذه العمارة جاه و لا سخرة لكان مصروفها فى كل يوم مبلغ ثلاثة آلاف درهم فضة، و أقاموا فى عمارته مدّة عشرة أشهر، فتجاوزت النفقة على عمارته مبلغ ألف ألف درهم فضة، عنها زيادة على خمسين ألف دينار، سوى ما حمل و سوى من سخر فى العمل، و هو بنحو ذلك.

فلما تمت عمارته سكنه الأمير بكتمر الساقى، و كان له فى إصطبله هذا مائة سطل نحاس لمائة سائس، كل سائس على ستة أرؤس خيل، سوى ما كان له فى الحشارات و النواحى من الخيل، و كان من المغرب يغلق باب إصطبله فلا يصير لأحد به حس، و لمّا تزوّج أنوك بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون بابنة الأمير بكتمر الساقى، فى سنة اثنين و ثلاثين و سبعمائة، خرج شوارها من هذا القصر، و كان عدّة الحمالين ثمانمائة حمّال.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۶

المساند الزركش على أربعين حمّالا، عدّتها عشرة مساند، و المدوّرات ستة عشر حمالا، و الكراسى اثنا عشر حمّالا، و كراسى لطاف أربعة حمالين، و فضيات تسعة و عشرون حمّالا، و سلم الدكك أربعة حمالين، و الدكك و التخوت الأبنوس المفضضة و الموشقة مائة و اثنين و ستين حمالا، و النحاس الشامى اثنين و عشرين حمّالا، و البعلبكى المدهون اثنى عشر حمّالا، و الخونجات و المحافى و الزبادى و النحاس تسعة و عشرين حمّالا، و صناديق الحوائج خاناه ستة حمالين، و غير ذلك تتمة العدّة، و البغال المحملة الفرش و اللحف و البسط، و الصناديق التى فيها المصاغ تسعة و تسعين بغلا.

قال العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدىّ: قال لى المهذب الكاتب: الزركش و المصاغ ثمانون قنطارا بالمصرى ذهب، و لمّا مات بكتمر هذا، صار هذا الوقف من بعده من جملة أوقافه، فتولى أمره و أمر سائر أوقافه أولاده، حتى انقرض أولاده و أولاد أولاده، فصار أمر الأوقاف إلى ابن ابنته، و هو أحمد بن محمد بن قرطاى، المعروف بأحمد بن بنت بكتمر، و هذا القصر فى غاية من الحسن، و لا ينزله إلّا أعيان الأمراء إلى أن كانت سنة سبع عشرة و ثمانمائة، و كان العسكر غائبا عن مصر مع الملك المؤيد شيخ فى محاربة الأمير نوروز الحافظى بدمشق، عمد هذا المذكور إلى القصر فأخذ رخامه و شبابيكه و كثيرا من سقوفه و أبوابه و غير ذلك، و باع الجميع، و عمل بدل ذلك الرخام البلاط، و بدّل الشبابيك الحديد بالخشب، و فطن به أعيان الناس فقصدوه و أخذوا منه أصنافا عظيمة بثمن و بغير ثمن، و هو الآن قائم البناء يسكنه الأمراء.

الدار البيسرية: هذه الدار بخط بين القصرين من القاهرة، كانت فى آخر الدولة الفاطمية، لما قويت شوكة الفرنج قد أعدّت لمن يجلس فيها من قصاد الفرنج، عندما؟؟؟ تقرّر الأمر معهم على أن يكون نصف ما يحصل من مال البلد للفرنج، فصار يجلس فى هذه الدار قاصد معتبر عند الفرنج يقبض المال، فلما زالت الدولة بالغز، ثم زالت دولة بنى أيوب، و ولى سلطنة مصر الملوك من الترك، إلى أن كانت أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، شرع الأمير ركن الدين بيبرس الشمسىّ الصالحىّ البخمىّ فى عمارتها، فى سنة تسع و خمسين و ستمائة، و تأنّق فى عمارتها و بالغ فى كثرة المصروف عليها، فأنكر الملك الظاهر ذلك من فعله و قال له: يا أمير بدر الدين، أىّ شىء خليت للغزاة و الترك؟ فقال:

صدقات السلطان، و اللّه يا خوند ما بنيت هذه الدار إلّا حتى يصل خبرها إلى بلاد العدوّ، و يقال بعض مماليك السلطان عمّر دارا غرم عليها مالا عظيما، فأعجب من قوله ذلك السلطان و أنعم عليه بألف دينار عينا، و عدّ هذا من أعظم أنعام السلطان، فجاء سعة هذه الدار باصطبلها و بستانها و الحمّام بجانبها نحو فدّانين، و رخامها من أبهج رخام عمل فى القاهرة، و أحسنه صنعة، فكثر تعجب الناس إذ

ذاك من عظمها لما كان فيه أمراء الدولة و رجالها حينئذ من الاقتصاد، حتى أن الواحد منهم إذا صار أميرا لا يتغير عن داره التى كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۷

يسكنها و هو من الأجناد، و عند ما كملت عمارة هذه الدار وقفها و أشهد عليه بوقفها اثنين و تسعين عدلا، من جملتهم قاضى القضاة تقىّ الدين ابن دقيق العيد، و قاضى القضاة تقىّ الدين بن بنت الأعز، و قاضى القضاة تقىّ الدين بن رزين، قبل ولايتهم القضاء فى حال تحملهم الشهادة، و ما زالت بيد ورثة بيسرى إلى سنة ثلاث و ثلاثين و سبعمائة.

فشرهت نفس الأمير قوصون إلى أخذها، و سأل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذلك فأذن له فى التحدّث مع ورثة بيسرى، فأرسل إليهم و وعدهم و منّاهم و أرضاهم حتى أذعنوا له، فبعث السلطان إلى قاضى القضاة شرف الدين الحرّانىّ الحنبلىّ يلتمس منه الحكم باستبدالها، كما حكم باستبدال بيت قتال السبع و حمامّه الذى أنشأ جامعه بخط خارج الباب الجديد من الشارع، فأجاب إلى ذلك، و نزل إليها علاء الدين بن هلال الدولة شادّ الدواوين، و معه شهود لقيمة، فقوّمت بمائة ألف درهم و تسعين ألف درهم نقرة، و تكون الغبطة للأيتام عشرة آلاف درهم نقرة لتتم الجملة مائتى ألف درهم نقرة، و حكم قاضى القضاة شرف الدين الحرّانىّ ببيعها و كان هذا الحكم مما شنع عليه فيه.

ثم اختلفت الأيدى فى الاستيلاء على هذه الدار، و اقتدى القضاة بعضهم ببعض فى الحكم باستبدالها، و آخر ما حكم به من استبدالها فى أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، فصارت من جملة الأوقاف الظاهرية برقوق، و هى الآن بيد ابنة بيرم، و كان لها باب بوّابته من أعظم ما عمل من البوابات بالقاهرة، و يتوصل إلى هذه الدار من هذا الباب، و هو بجوار حمام بيسرى من شارع بين القصرين، و قد بنى تجاه هذا الباب حوانيت حتى خفى و صار يدخل إلى هذه الدار من باب آخر بخط الخرشتف.

بيسرى: الأمير شمس الدين الشمسى الصالحى البخمى، أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية، تنقل فى الخدم حتى صار من أجلّ الأمراء فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ، و اشتهر بالشجاعة و الكرم و علو الهمة، و كانت له عدّة مماليك راتب كل واحد منهم مائة رطل لحم، و فيهم من له عليه فى اليوم ستين عليقة لخيله، و بلغ عليق خيله و خيل مماليكه فى كل يوم ثلاثة آلاف عليقة سوى علف الجمال، و كان ينعم بالألف دينار و بالخمسمائة غير مرّة، و لما فرّق الملك العادل كتبغا المماليك على الأمراء بعث إليه بستين مملوكا، فأخرج إليهم فى يومهم لكل واحد فرسين و بغلا و شكا إليه استادار مكثرة خرجه و حسن له الاقتصاد فى النفقة، فحنق عليه و عزله و أقام غيره، و قال لا يرنى وجهه أبدا، و لم يعرف عنه أنه شرب الماء فى كوز واحد مرّتين، و إنما يشرب كل مرّة فى كوز جديد، ثم لا يعاود الشرب منه، و تنكر عليه الملك المنصور قلاوون فسجنه فى سنة ثمانين و ستمائة، و ما زال فى سجنه إلى أن مات الملك المنصور و قام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل، فأفرج عنه فى سنة اثنين و تسعين و ستمائة بعد عوده من دمشق بشفاعة الأمير بيدرا و الأمير سنجر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۸

الشجاعىّ، و أمر أن يحمل إليه تشريف كامل و يكتب له منشور بإمرة مائة فارس، و أنه يلبس التشريف من السجن، فجهز التشريف و حمل إليه المنشور فى كيس حرير أطلس، و عظم فيه تعظيما زائدا و أثنى عليه ثناء جما، و سار إليه بيدر و الشجاعىّ و الدوادار و الأفرم إلى السجن ليمشوا فى خدمته إلى أن يقف بين يدى السلطان، فامتنع من لبس التشريف و التزم بأيمان مغلظة أنه لا يدخل على السلطان إلا بقيده و لباسه الذى كان عليه فى السجن، و تسامعت الأمراء و أهل القلعة بخروجه فهرعوا إليه، و كان لخروجه نهار عظيم، و دخل على السلطان بقيده فأمر به ففك بين يديه و أفيض عليه التشريف، فقبّل الأرض، و أكرمه السلطان و أمره فنزل إلى داره، و خرج الناس إلى رؤيته و سرّوا بخلاصه، فبعث إليه السلطان عشرين فرسا و عشرين اكديشا و عشرين بغلا، و أمر جميع الأمراء أن يبعثوا إليه، فلم يبق أحد حتى سير إليه ما يقدر عليه من التحف و السلاح، و بعث إليه أمير سلاح ألفى دينار عينا. و كانت مدّة سجنه إحدى عشرة سنة و أشهرا.

فصار يكتب بعد خروجه من السجن بيسرى الأشرفى بعد ما كان يكتب بيسرى الشمسىّ، و ما زال إلى أن تسلطن الملك المنصور لاجين، فأخذ الأمير منكرتمر يغريه بالأمير بيسرى و يخوّفه منه و أنه قد تعين للسلطنة، فعمله كاشف الجيزة و أمره أن يحضر الخدمة يومى الاثنين و الخميس بالقلعة، و يجلس رأس الميمنة تحت الطواشى حسام الدين بلال المغيثى لأجل كبره و تقدّمه، ثم زاد منكرتمر فى الإغراء به و السلطنة تستمهله إلى أن قبض عليه و سجنه فى سنة سبع و تسعين و ستمائة، و أحاط بسائر موجوده و حبس عدّة من مماليكه، فسر منكرتمر بمسكه سرورا عظيما، و استمرّ فى السجن إلى أن مات فى تاسع عشر شوّال سنة ثمان و تسعين و ستمائة و عليه ديون كثيرة، و دفن بتربته خارج باب النصر رحمه اللّه تعالى.

قصر بشتاك: هذا القصر هو الآن تجاه الدار البيسرية، و هو من جملة القصر الكبير الشرقىّ الذى كان مسكنا للخفاء الفاطميين، و يسلك إليه من الباب الذى كان يعرف فى أيام عمارة القصر الكبير فى زمن الخلفاء بباب البحر، و هو يعرف اليوم بباب قصر بشتاك، تجاه المدرسة الكاملية، و ما زال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ المعروف بأمير سلاح، و أنشأ دورا و اصطبلات و مساكن له و لحواشيه، و صار ينزل إليه هو و الأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الخدمة السلطانية بقلعة الجبل فى موكب عظيم زائد الحشمة، و يدخل كل منهما إلى داره، و كان موضع هذا القصر عدّة مساجد فلم يتعرّض لهدمها و أبقاها على ما هى عليه، فلما مات أمير سلاح و أخذ الأمير قوصون الدار البيسرية كما تقدّم ذكره، أحب الأمير بشتاك أن يكون له أيضا دار بالقاهرة، و ذلك أن قوصون و بشتاك كانا يتناظران فى الأمور و يتضادّان فى سائر الأحوال، و يقصد كل منهما أن يسامى الآخر و يزيد عليه فى التجمل، فأخذ بشتاك يعمل فى الاستيلاء على قصر أمير سلاح حتى اشتراه من ورثته، فأخذ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۹

من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قطعة أرض كانت داخل هذا القصر من حقوق بيت المال، و هدم دارا كانت قد أنشئت هناك. عرفت بدار قطوان الساقى، و هدم أحد عشر مسجدا و أربعة معابد كانت من آثار الخلفاء يسكنها جماعة الفقراء، و أدخل ذلك فى البناء إلّا مسجدا منها فإنه عمر، و يعرف اليوم بمسجد النجل، فجاء هذا القصر من أعظم مبانى القاهرة، فإن ارتفاعه فى الهواء أربعون ذراعا، و نزول أساسه فى الأرض مثل ذلك، و الماء يجرى بأعلاه، و له شبابيك من حديد تشرف على شارع القاهرة و ينظر من أعلاه عامّة القاهرة و القلعة و النيل و البساتين، و هو مشرق جليل مع حسن بنائه و تأنق زخرفته و المبالغة فى تزويقه و ترخيمه، و أنشأ أيضا فى أسفله حوانيت كان يباع فيها الحلوى و غيرها، فصار الأمر أخيرا كما كان أوّلا بتسمية الشارع بين القصرين، فإنه كان أوّلا كما تقدّم بالقاهرة القصر الكبير الشرقى الذى قصر بشتاك من جملته، و تجاهه القصر الغربىّ الذى الخرشتف من جملته، فصار قصر بشتاك و قصر بيسرى و ما بينهما من الشارع يقال له بين القصرين، و من لا علم له يظنّ إنما قيل لهذا الشارع بين القصرين لأجل قصر بيسرى و قصر بشتاك و ليس هذا بصحيح، و إنما قيل له بين القصرين قبل ذلك من حين بنيت القاهرة، فإنه كان بين القصرين القصر الكبير الشرقىّ و القصر الصغير الغربىّ، و قد تقدّم ذلك مشروحا مبينا.

و لما أكمل بشتاك بناء هذا القصر و الحوانيت التى فى أسفله و الخان المجاور له فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة لم يبارك له فيه و لا تمتع به، و كان إذا نزل إليه ينقبض صدره و لا تنبسط نفسه ما دام فيه حتى يخرج منه، فترك المجىء إليه فصار يتعاهده أحيانا فيعتريه ما تقدّم ذكره، فكرهه و باعه لزوجة بكتمر الساقى و تداوله ورثتها إلى أن أخذه السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، فاستقرّ بيد أولاده إلى أن تحكم الأمير الوزير المشير جمال الدين الأستادار فى مصر. أقام من شهد عند قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفى بأن هذا القصر يضرّ بالجار و المار، و أنه مستحق للإزالة و الهدم كما عمل ذلك فى غير موضع بالقاهرة، فحكم له باستبداله و صار من جملة أملاكه، فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق استولى على سائر ما تركه و جعل هذا القصر فيما عينه للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر، فاستمرّ فى جملة أوقاف التربة المذكورة إلى أن قتل الملك الناصر بدمشق فى حرب الأمير شيخ و الأمير نوروز، و قدم الأمير شيخ إلى مصر هو و الخليفة المستعين بالله العباسى ابن

محمد، وقف له من بقى من أولاد جمال الدين و أقاربه، و كان لأهل الدولة يومئذ بهم عناية قاضى القضاة صدر الدين علىّ بن الأدمىّ الحنفىّ بارتجاع أملاك جمال الدين التى وقفها على ما كانت عليه، فتسلمها أخوه و صار هذا القصر إليهم و هو الآن بيدهم.

قصر الحجازية: هذا القصر بخط رحبة باب العيد بجوار المدرسة الحجازية، كان يعرف أوّلا بقصر الزمرد فى أيام الخلفاء الفاطميين، من أجل أنّ باب القصر الذى كان يعرف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۰

بباب الزمرد كان هناك، كما تقدّم ذكره فى هذا الكتاب عند ذكر القصور، فلما زالت الدولة الفاطمية صار من جملة ما صار بيد ملوك بنى أيوب، و اختلفت عليه الأيدى إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين أمير مسعود بن خطير الحاجب من أولاد الملوك بنى أيوب، و استمرّ بيده إلى أن رسم بتسفيره من مصر إلى مدينة غزة، و استقرّ نائب السلطنة بها فى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة و كاتب الأمير سيف الدين قوصون عليه و ملّكه إيّاه، فشرع فى عمارة سبع قاعات لكل قاعة اصطبل و منافع و مرافق، و كانت مساحة ذلك عشرة أفدنة، فمات قوصون قبل أن يتم بناء ما أراد من ذلك، فصار يعرف بقصر قوصون إلى أن اشترته خوند تتر الحجازية ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون و زوج الأمير ملكتمر الحجازىّ، فعمرته عمارة ملوكية و تأنقت فيه تأنقا زائدا، و أجرت الماء إلى أعلاه، و عملت تحت القصر إصطبلا كبيرا لخيول خدّامها، و ساحة كبيرة يشرف عليها من شبابيك حديد، فجاء شيئا عجيبا حسنه، و أنشأت بجواره مدرستها التى تعرف إلى اليوم بالمدرسة الحجازية، و جعلت هذا القصر من جملة ما هو موقوف عليها، فلما ماتت سكنه الأمراء بالأجرة إلى أن عمر الأمير جمال الدين يوسف الأستادار داره المجاورة للمدرسة السابقية، و تولى استادارية الملك الناصر فرج، صار يجلس برحبة هذا القصر و المقعد الذى كان بها، و عمل القصر سجنا يحبس فيه من يعاقبه من الوزراء و الأعيان، فصار موحشا يروع النفوس ذكره لما قتل فيه من الناس خنقا و تحت العقوبة، من بعد ما أقام دهرا و هو مغنى صبابات و ملعب أتراب و موطن أفراح و دار عز و منزل لهو و محل أمانى النفوس و لذاتها، ثم لما فحش كلب جمال الدين و شنع شرهه فى اغتصاب الأوقاف أخذ هذا القصر يتشعث شىء من زخارفه، و حكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفى باستبداله، كما تقدّم الحكم فى نظائره، فقلع رخامه، فلما قتل صار معطلا مدّة، و همّ الملك الناصر فرج ببنائه رباطا، ثم انثنى عزمه عن ذلك، فلما عزم على المسير إلى محاربة الأمير شيخ و الأمير نوروز فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، نزل إليه الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم بن البشيرى و قلع شبابيكه الحديد لتعمل آلات حرب، و هو الآن بغير رخام و لا شبابيك، قائم على أصوله لا يكاد ينتفع به، إلا أن الأمير المشير بدر الدين حسن بن محمد الأستادار لما سكن فى بيت الأمير جمال الدين جعل ساحة هذا القصر اصطبلا لخيوله، و صار يحبس فى هذا القصر من يصادره أحيانا.

و فى رمضان سنة عشرين و ثمانمائة ذكر الأمير فخر الدين عبد الغنىّ بن أبى الفرج الأستادار، ما يجده المسجونون فى السجن المستجدّ، عند باب الفتوح، بعد هدم خزانة شمائل من شدّة الضيق و كثرة الغم، فعيّن هذا القصر ليكون سجنا لأرباب الجرائم، و أنعم على جهة وقف جمال الدين بعشرة آلاف درهم فلوسا عن أجرة سنتين، فشرعوا فى عمل سجن و أزالوا كثيرا من معالمه، ثم تركت على ما بقى فيه و لم يتخذ سجنا.

قصر يلبغا اليحياوى: هذا القصر موضعه الآن مدرسة السلطان حسن المطلة على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۱

الرميلة، تحت قلعة الجبل، و كان قصرا عظيما، أمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة ببنائه لسكن الأمير يلبغا اليحياوى، و أن يبنى أيضا قصر يقابله برسم سكنى الأمير الطنبغا المارديني، لتزايد رغبته فيهما و عظيم محبته لهما، حتى يكونا تجاهه و ينظر إليهما من قلعة الجبل، فركب بنفسه إلى حيث سوق الخيل من الرميلة تحت القلعة، و سار إلى حمام الملك السعيد، و عيّن اصطبل الأمير أيدغمش أميراخور، و كان تجاهها ليعمره هو و ما يقابله قصرين متقابلين و يضاف إليه إصطبل الأمير

طاشتمر الساقى، و اصطبل الجوق و أمر الأمير قوصون أن يشترى ما يجاور إصطبله من الأملاك و يوسع فى إصطبله، و جعل أمر هذه العمارة إلى الأمير اقبغا عبد الواحد، فوقع الهدم فيما كان بجوار بيت الأمير قوصون، و زيد فى الإصطبل و جعل باب هذا الإصطبل من تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة ، و أمر السلطان بالنفقة على العمارة من مال السلطان على يد النشو، و كان للملك الناصر رغبة كبيرة فى العمارة بحيث أنه أفرد لها ديوانا، و بلغ مصروفها فى كل يوم اثنى عشر ألف درهم نقرة، و أقل ما كان يصرف من ديوان العمارة فى اليوم برسم العمارة مبلغ ثمانية آلاف درهم نقرة، فلما كثر الاهتمام فى بناء القصرين المذكورين و عظم الاجتهاد فى عمارتهما و صار السلطان ينزل من القلعة لكشف العمل و يستحث على فراغهما، و أوّل ما بدىء به قصر يلبغا اليحياوى، فعمل أساسه حضيرة واحدة انصرف عليها وحدها مبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة، و لم يبق فى القاهرة و مصر صانع له تعلق فى العمارة إلّا و عمل فيها حتى كمل القصر، فجاء فى غاية الحسن، و بلغت النفقة عليه مبلغ أربعمائة ألف ألف و ستين ألف درهم نقرة، منها ثمن لازورد خاصة مائة ألف درهم.

فلما كملت العمارة نزل السلطان لرؤيتها، و حضر يومئذ من عند الأمير سيف الدين طرغاى نائب حلب تقدمة، من جملتها عشرة أزواج بسط أحدها حرير، و عدّة أوانى من بلور و نحوه، و خيل و بخاتى، فأنعم بالجميع على الأمير يلبغا اليحياوىّ، و أمر الأمير أقبغا عبد الواحد أن ينزل إلى هذا القصر و معه أخوان سلار برفقته، و سار أرباب الوظائف لعمل مهم، فبات النشو ناظر الخاص هناك لتعبية ما يحتاج إليه من اللحوم و التوابل و نحوها، فلما تهيأ ذلك حضر سائر أمراء الدولة من أوّل النهار و أقاموا بقصر يلبغا اليحياوى فى أكل و شرب و لهو، و فى آخر النهار حضرت إليهم التشاريف السلطانية، و عدّتها أحد عشر تشريفا برسم أرباب الوظائف، و هم: الأمير أقبغا عبد الواحد، و الأستادار، و الأمير قوصون الساقى،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۲

و الأمير بشتاك، و الأمير طقوزدمر أمير مجلس فى آخرين، و حضر لبقية الأمراء خلع و أقبية على قدر مراتبهم، فلبس الجميع التشاريف و الخلع و الأقبية و اركبوا الخيول المحضرة إليهم من الإصطبل السلطانىّ بسروج و كنابيش ما بين ذهب و فضة بحسب مراتبهم، و ساروا إلى منازلهم، و ذبح فى هذا المهمّ ستمائة رأس غنم و أربعون بقرة و عشرون فرسا، و عمل فيه ثلثمائة قنطار سكر برسم المشروب، فإن القوم يومئذ لم يكونوا يتظاهرون بشرب الخمر و لا شىء من المسكرات البتة، و لا يجسر أحد على عمله فى مهمّ البتة، و ما زالت هذه الدار باقية إلى أن هدمها السلطان الملك الناصر حسن، و أنشأ موضعها مدرسته الموجودة الآن.

إصطبل قوصون: هذا الإصطبل بجوار مدرسة السلطان حسن و له بابان، باب من الشارع بجوار حدرة البقر، و بابه الآخر تجاه باب السلسلة الذى يتوصل منه إلى الإصطبل السلطانىّ و قلعة الجبل، أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجمقدار، فأخذه منه الأمير سيف الدين قوصون و صرف له ثمنه من بيت المال، فزاد فيه قوصون إصطبل الأمير سنقر الطويل، و أمره الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة هذا الإصطبل، فبنى فيه كثيرا و أدخل فيه عدّة عمائر، ما بين دور و إصطبلات، فجاء قصرا عظيما إلى الغاية، و سكنه الأمير قوصون مدّة حياة الملك الناصر.

فلما مات السلطان و قام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر، عمل عليه قوصون و خلعه و أقام بعده بدله الملك الأشرف كجك بن الملك الناصر محمد، فلما كان فى سنة اثنين و أربعين و سبعمائة حدث فى شهر رجب منها فتنة بين الأمير قوصون و بين الأمراء، و كبيرهم أيدغمش أميراخور، فنادى أيدغمش فى العامة يا كسابه عليكم بإصطبل قوصون، إنهبوه، هذا و قوصون محصور بقلعة الجبل، فأقبلت العامّة من السؤال و الغلمان و الجند إلى إصطبل قوصون، فمنعهم المماليك الذين كانوا فيه و رموهم بالنشاب و أتلفوا منهم عدّة، فثارت مماليك الأمير يلبغا اليحياوى من أعلى قصر يلبغا، و كان بجوار قصر قوصون حيث مدرسة السلطان حسن، و رموا مماليك قوصون بالنشاب حتى انكفوا عن رمى النّهابة، فاقتحم غوغاء الناس إصطبل و قوصون و انتهبوا ما كان بركاب خاناته و حواصله، و كسروا باب القصر بالفؤس، و صعدوا إليه بعد ما تسلقوا إلى القصر من خارجه، فخرجت مماليك قوصون من الإصطبل

يدا واحدة بالسلاح و شقوا القاهرة و خرجوا إلى ظاهر باب النصر يريدون الأمراء الواصلين من الشام، فأتت النهابة على جميع ما فى إصطبل قوصون من الخيل و السروج و حواصل المال التى كانت بالقصر، و كانت تشتمل من أنواع المال و القماش

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۳

و الأوانى الذهب و الفضة على ما لا يحدّ و لا يعدّ كثرة.

و عندما خرجت العامّة بما نهبته، وجدت مماليك الأمراء و الأجناد قد وقفوا على باب الإصطبل فى الرميلة لانتظار من يخرج، و كان إذا خرج أحد بشىء من النهب أخذه منه أقوى منه، فإن امتنع من إعطائه قتل، و احتمل النهابة أكياس الذهب و نثروها فى الدهاليز و الطرق، و ظفروا بجواهر نفيسة و ذخائر ملوكية و أمتعة جليلة القدر و أسلحة عظيمة و أقمشة مثمنة، و جرّوا البسط الرومية و الأمدية و ما هو من عمل الشريف و تقاتلوا عليها و قطعوها قطعا بالسكاكين و تقاسموها، و كسّروا أوانى البلور و الصينى، و قطعوا سلاسل الخيل الفضة، و السروج الذهب و الفضة، و فكوا اللجم و قطعوا الخيم و كسروا الخركاوات و أتلفوا سترها و أغشيتها الأطلس و الزركفت.

و ذكر عن كاتب قوصون أنه قال: أما الذهب المكيّس و الفضة كان ينيف على أربعمائة ألف دينار، و أما الزركش و الحوايص و المعصبات ما بين خوانجات و أطباق فضة و ذهب، فإنه فوق المائة ألف دينار، و البلور و المصاغ المعمول برسم النساء فإنه لا يحصر، و كان هناك ثلاثة أكياس أطلس فيها جوهر قد جمعه فى طول أيامه، لكثرة شغفه بالجوهر، لم يجمع مثله ملك، كان ثمنه نحو المائة ألف دينار، و كان فى حاصله عدّة مائة و ثمانين زوج بسط، منها ما طوله من أربعين ذراعا إلى ثلاثين ذراعا عمل البلاد، و ستة عشر زوج من عمل الشريف بمصر، ثمن كل زوج اثنا عشر ألف درهم نقرة، منها أربعة أزواج بسط من حرير، و كان من جملة الخام نوبة خام جميعها أطلس معدنىّ قصب، جميع ذلك نهب و كسر و قطع و انحطّ سعر الذهب بديار مصر عقيب هذه النهبة من دار قوصون، حتى بيع المثقال بأحد عشر درهما لكثرته فى أيدى الناس، بعد ما كان سعر المثقال عشرين درهما و من حينئذ تلاشى أمر هذا القصر لزوال رخامه فى النهب، و ما برح مسكنا لأكابر الأمراء، و قد اشتهر أنه من الدور المشئومة، و قد أدركت فى عمرى غير واحد من الأمراء سكنه و آل أمره إلى ما لا خير فيه، و ممن سكنه: الأمير بركة الزينبىّ، و نهب نهبة فاحشة، و أقام أعوام خرابا لا يسكنه أحد، ثم أصلح و هو الآن من أجلّ دور القاهرة.

دار أرغون الكاملى: هذه الدار بالجسر الأعظم على بركة الفيل، أنشأها الأمير أرغون الكاملىّ فى سنة سبع و أربعين و سبعمائة، و أدخل فيها من أرض بركة الفيل عشرين ذراعا.

أرغون الكاملى: الأمير سيف الدين نائب حلب و دمشق، تبناه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون و زوّجه أخته من أمّه، بنت الأمير أرغون العلائى، فى سنة خمس و أربعين و سبعمائة. و كان يعرف أوّلا بأرغون الصغير، فلما مات الملك الصالح و قام من بعده فى مملكة مصر أخوه الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون، أعطاه أمرة مائة و تقدمة ألف، و نهى أن يدعى أرغون الصغير، و تسمّى أرغون الكاملى. فلمّا مات الأمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۴

قطليجا الحموىّ فى نيابة حلب، رسم له الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بنيابة حلب، فوصل إليها يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رجب سنة خمسين و سبعمائة، و عمل النيابة بها على أحسن ما يكون من الحرمة و المهابة، وهابه التركمان و العرب، و مشت الأحوال به.

ثم جرت له فتنة مع أمراء حلب، فخرج فى نفر يسير إلى دمشق، فوصلها لثلاث بقين من ذى الحجة سنة إحدى و خمسين، فأكرمه الأمير ايتمش الناصرىّ نائب دمشق و جهّزه إلى مصر، فأنعم عليه السلطان و أعاده إلى نيابة حلب فأقام بها إلى أن عزل ايتمش من نيابة دمشق، فى أوّل سلطنة الملك الصالح صالح بن قلاون، فنقل من نيابة حلب إلى نيابة دمشق، فدخلها فى حادى عشرى شعبان سنة اثنتين و خمسين، و أقام بها فلم يصف له بها عيش فاستعفى، فلم يجبّ و ما زال بها إلى أن خرج يلبغاروس و حضر إلى دمشق، فخرج

إلى اللّد، و استولى يلبغاروس على دمشق.

فلما خرج الملك الصالح من مصر و سار إلى بلاد الشام بسبب حركة يلبغاروس، تلقّاه أرغون و سار بالعساكر إلى دمشق، و دخل السلطان بعده و قد فرّ يلبغاروس، فقلّده نيابة حلب فى خامس عشرى شهر رمضان. و عاد السلطان إلى مصر، فلم يزل الأمير أرغون بحلب و خرج منها إلى الأبلستين فى طلب ابن دلغادر، و حرقها و حرق قراها و دخل إلى قيصرية و عاد إلى حلب فى رجب سنة أربع و خمسين.

فلما خلع الملك الصالح بأخيه الملك الناصر حسن فى شوال سنة خمس و خمسين طلب الأمير أرغون من حلب فى آخر شوّال، فحضر إلى مصر و عمل أمير مائة مقدّم ألف إلى تاسع صفر سنة ست و خمسين، فأمسك و حمل إلى الإسكندرية اعتقل فيها و عنده زوجته. ثم نقل من الإسكندرية إلى القدس فأقام بها بطالا، و بنى هناك تربة و مات بها يوم الخميس لخمس بقين من شوّال سنة ثمان و خمسين و سبعمائة.

دار طاز: هذه الدار بجوار المدرسة البندقدارية تجاه حمام الفارقانى، على يمنة من سلك من الصليبة يريد حدرة البقر و باب زويلة، أنشأها الأمير سيف الدين طاز فى سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، و كان موضعها عدّة مساكن، هدمها برضى أربابها و بغير رضاهم، و تولى الأمير منجك عمارتها و صار يقف عليها بنفسه حتى كملت، فجاءت قصرا مشيدا و اصطبلا كبيرا، و هى باقية إلى يومنا هذا يسكنها الأمراء. و فى يوم السبت سابع عشرى جمادى الآخرة سنة أربع و خمسين، عمل الأمير طاز فى هذه الدار وليمة عظيمة حضرها السلطان الملك الصالح صالح و جميع الأمراء، فلما كان وقت انصرافهم قدّم الأمير طاز للسلطان أربعة أفراس بسروج ذهب و كنابيش ذهب، و قدّم للأمير سنجر فرسين كذلك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۵

و للأمير صرغتمش فرسين، و لكل واحد من أمراء الألوف فرسا كذلك، و لم يعهد قبل هذا أن أحدا من ملوك الأتراك نزل إلى بيت أمير قبل الصالح هذا، و كان يوما مذكورا.

طاز: الأمير سيف الدين، أمير مجلس، اشتهر ذكره فى أيام الملك الصالح إسماعيل، و لم يزل أميرا إلى أن خلع الملك الكامل شعبان و أقيم المظفر حاجى، و هو أحد الأمراء الستة أرباب الحل و العقد، فلما خلع الملك المظفر و أقيم الملك الناصر حسن، زادت و جاهته و حرمته، و هو الذى أمسك الأمير يلبغاروس فى طريق الحجاز، و أمسك أيضا الملك المجاهد سيف الإسلام علىّ ابن المؤيد صاحب بلاد اليمن بمكة، و أحضره إلى مصر، و هو الذى قام فى نوبة السلطان حسن لما خلع و أجلس الملك الصالح صالح على كرسىّ الملك، و كان يلبس فى درب الحجاز عباءة و سرقولا و يخفى نفسه ليتجسس على أخبار يلبغاروس، و لم يزل على حاله إلى ثانى شوّال سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فخلع الصالح و أعيد الناصر حسن، فأخرج طاز إلى نيابة حلب و أقام بها.

دار صرغتمش: هذه الدار بخط بئر الوطاويط بالقرب من المدرسة الصرغتمشية المجاورة لجامع أحمد بن طولون من شارع الصليبة، كان موضعها مساكن فاشتراها الأمير صرغتمش و بناها قصرا و اصطبلا، فى سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، و حمل إليه الوزراء و الكتاب و الأعيان من الرخام و غيره شيئا كثيرا، و قد ذكر التعريف به عند ذكر المدرسة الصرغتمشية من هذا الكتاب فى ذكر المدارس، و هذه الدار عامرة إلى يومنا هذا يسكنها الأمراء، و وقع الهدم فى القصر خاصة فى شهر ربيع الآخر سنة سبع و عشرين و ثمانمائة.

دار الماس: هذه الدار بخط حوض ابن هنس فيما بينه و بين حدرة البقر بجوار جامع الماس، أنشأها الأمير الماس الحاجب، و اعتنى برخامها عناية كبيرة، و استدعى به من البلاد، فلما قتل فى صفر سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة، أمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بقلع ما فى هذه الدار من الرخام، فقلع جميعه و نقل إلى القلعة، و هذه الدار باقية إلى يومنا هذا ينزلها الأمراء.

دار بهادر المقدم: هذه الدار بخط الباطلية من القاهرة، أنشأها الأمير الطواشى سيف الدين بهادر مقدّم المماليك السلطانية، فى أيام

الملك الظاهر برقوق.

و بهادر هذا من مماليك الأمير يلبغا، و أقام فى تقدمة المماليك جميع الأيام الظاهرية، و كثر ماله و طال عمره حتى هرم، و مات فى أيام الملك الناصر فرج، و هو على أمرته و فى وظيفته تقدمة المماليك السلطانية، يوم الأحد سابع عشر رجب سنة اثنتين و ثمانمائة.

و موضع هذه الدار من جملة ما كان احترق من الباطلية فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدّم فى ذكر حارة الباطلية عند ذكر الحارات من هذا الكتاب، و لما مات المقدّم بهادر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۶

استقرّت من بعده منزلا لأمراء الدولة، و هى باقية على ذلك إلى يومنا هذا.

دار الست شقراء: هذه الدار من جملة حارة كتامة، و هى اليوم بالقرب من مدرسة الوزير الصاحب كريم الدين ابن غنام، بجوار حمام كراى، و هى من الدور الجليلة، عرفت بخوند الست شقراء ابنة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، و تزوّجها الأمير روس، ثم انحط قدرها و اتضعت فى نفسها إلى أن ماتت فى يوم الثلاثاء ثامن عشرى جمادى الأولى، سنة إحدى و تسعين و سبعمائة.

دار ابن عنان: هذه الدار بخط الجامع الأزهر، أنشأها نور الدين علىّ بن عنان التاجر، بقيسارية جهاركس من القاهرة، و تاجر الخاص الشريف السلطانىّ فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، كان ذا ثروة و نعمة كبيرة و مال متسع، فلما زالت دولة الأشرف أجمع، و داخله و هم، أظهر فاقة، و تذكّر أنه دفن مبلغا كبيرا من الألف مثقال ذهب فى هذه الدار، و لم يعلم به أحد سوى زوجته أمّ أولاده، فاتفق أنه مرض و خرس، و مرضت زوجته أيضا، فمات يوم الجمعة ثامن عشر شوّال سنة تسع و ثمانين و سبعمائة، و ماتت زوجته أيضا، فأسف أولاده على فقد ماله، و حفروا مواضع من هذه الدار فلم يظفروا بشىء البتة، و أقامت مدّة بأيديهم و هى من وقف أبيهم، و مات ولده شمس الدين محمد بن على بن عنان يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث و ثمانمائة، ثم باعوها سنة سبع عشرة و ثمانمائة، كما بيع غيرها من الأوقاف.

دار بهادر الأعسر: هذه الدار بخط بين السورين، فيما بين سويقة المسعودى من القاهرة و بين الخليج الكبير الذى يعرف اليوم بخليج اللؤلؤة، كان مكانها من جملة دار الذهب التى تقدّم ذكرها فى ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب، و إلى يومنا هذا بجوار هذه الدار قبو، فيما بينها و بين الخليج، يعرف بقبو الذهب، من جملة أقباء دار الذهب، و يمرّ الناس من تحت هذا القبو.

بهادر هذا: هو الأمير سيف الدين بهادر الأعسر اليحياوى، كان مشرفا بمطبخ الأمير سيف الدين فجا الأمير شكار ، ثم صار زردكاش الأمير الكبير يلبغا الخاصكى، و ولى بعد ذلك مهمندار السلطان بدار الضيافة، و ولى وظيفة شدّ الدواوين إلى أن قدم الأمير يلبغا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۷

الناصرى نائب حلب بعساكر الشام إلى مصر و أزال دولة الملك الظاهر برقوق، فى جمادى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، قبض عليه و نفاه من القاهرة إلى غزة، ثم عاد بعد ذلك إلى القاهرة و أقام بها إلى أن مات بهذه الدار فى يوم عيد الفطر سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، و حصرت تركته و كان فيها عدّة كتب فى أنواع من العلوم، و هذه الدار باقية إلى يومنا هذا و على بابها بئر بجانبها حوض يملأ لشرب الدواب منه.

دار ابن رجب: هذه الدار من جملة أراضى البستان الذى يقال له اليوم الكافورى، كان إصطبلا للأمير علاء الدين علىّ بن كلفت التركمانىّ شادّ الدواوين، فيما بين داره و دار الأمير تنكز نائب الشام. فلما استقر ناصر الدين محمد بن رجب فى الوزارة، أنشأ هذا الإصطبل مقعدا صار يجلس فيه، و قصرا كبيرا، و استولى من بعده على ذلك كله أولاده، فلما عمر الأمير جمال الدين يوسف الأستادار مدرسته بخط رحبة باب العيد، أخذ هذا القصر و الإصطبل فى جملة ما أخذ من أملاك الناس و أوقافهم. فلما قتله الملك الناصر فرج، و استولى على جميع ما خلفه أفرد هذا القصر و الإصطبل فيما أفرده للمدرسة المذكورة، فلم يزل من جملة أوقافها إلى أن قتل الملك الناصر فرج، و قدم الأمير شيخ نائب الشام إلى مصر، فلما جلس على تخت الملك و تلقب بالملك المؤيد فى غرّة شعبان

سنة خمس عشرة و ثمانمائة، وقف إليه من بقى من أولاد علاء الدين علىّ بن كلفت، و هما امرأتان، كانت إحداهما تحت الملك المؤيد قبل أن يلى نيابة طرابلس، و هو من جملة أمراء مصر فى أيام الملك الظاهر برقوق، و ذكرتا أن الأمير جمال الدين الاستادار أخذ وقف أبيهما بغير حق، و أخرجتا كتاب وقف أبيهما، ففوّض أمر ذلك لقاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقينىّ الشافعىّ، فلم يجد بيد أولاد جمال الدين مستندا، فقضى بهذا المكان لورثة ابن كلفت و بقائه على ما وقفه حسبما تضمنه كتاب وقفه، فتسلم مستحقوا وقف بن كلفت القصر و الاصطبل، و هو الآن بأيديهم، و بينهم و بين أولاد ابن رجب نزاع فى القصر فقط.

محمد بن رجب: ابن محمد بن كلفت الأمير الوزير ناصر الدين، نشأ بالقاهرة على طريقة مشكورة، فلما استقرّ ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى شادّ الدواوين بعد انتقال الأمير جمال الدين محمود بن علىّ من شدّ الدواوين إلى استادارية السلطان فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين و سبعمائة، أقام ابن رجب هذا استادارا عند الأمير سودون باق، و كانت أوّل مباشراته، ثم ولى شدّ الدواوين بعد الأمير ناصر الدين محمد بن اقبغا آص، فى سابع عشرى ذى الحجة، و عوّض فى شدّ الدواوين بشد دواليب الخاص، عوضا عن خاله الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام، عند انتقاله إلى الوزارة، فلم يزل إلى أن توجّه الملك الظاهر برقوق إلى الشام، و أقام الأمير محمود الاستادار، فقدم عليه ابن رجب بكتاب السلطان و هو مختوم، فإذا فيه أن يقبض على ابن رجب و يلزمه بحمل مبلغ مائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۸

و ستين ألف درهم نقرة، فقبض عليه فى رابع شهر رمضان سنة ثلاث و تسعين، و أخذ منه مبلغ سبعين ألف درهم نقرة.

فلما كان فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الآخر سنة ست و تسعين، صرف السلطان عن الوزارة الصاحب موفق الدين أبا الفرج، و استقرّ بابن رجب فى منصب الوزارة، و خلع عليه، فلم يغير زىّ الأمراء، و باشر الوزارة على قالب ضخم و ناموس مهاب، و صار أميرا وزيرا مدبرا لممالك، و سلك سيرة خاله الوزير ناصر الدين محمد بن الحسام فى استخدام كل من باشر الوزارة، فأقام الصاحب سعد الدين بن نصر اللّه ابن البقرىّ ناظر الدولة، و الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن الغنام ناظر البيوت، و الصاحب علم الدين عبد الوهاب سن إبرة مستوفى الدولة، و الصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن أبى شاكر رفيقا له فى استيفاء الدولة، و أنعم عليه بإمرة عشرين فارسا فى سادس شهر ربيع الآخر سنة سبع و تسعين، فلم يزل على ذلك إلى أن مات من مرض طويل فى يوم الجمعة لأربع بقين من صفر، سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، و هو وزير من غير نكبة، فكانت جنازته من الجنائز المذكورة، و قد ذكرته فى كتاب در العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة.

دار القليجى: هذه الدار من جملة خط قصر بشتاك، كانت أوّلا من بعض دور القصر الكبير الشرقىّ الذى تقدم ذكره عند ذكر قصور الخلفاء، ثم عرفت بدار حمال الكفاة، و هو القاضى جمال الدين إبراهيم المعروف بحمال الكفاة، ابن خالة النشو ناظر الخاص، كان أوّلا من جملة الكتاب النصارى، فأسلم و خدم فى بستان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى كان ميدانا للملك الظاهر بيبرس بأرض اللوق، ثم خدم فى ديوان الأمير بيدمر البدرىّ، فلما عرض السلطان دواوين الأمراء و اختار منهم جماعة، كان من جملة من اختاره السلطان حمال الكفاة هذا، فجعله مستوفيا إلى أن كات المهذب كاتب الأمير بكتمر الساقى، فولاه السلطان مكانه فى ديوان الأمير بكتمر، فخدمه إلى أن مات، فخدم بديوان الأمير بشتاك إلى أن قبض الملك الناصر على النشو ناظر الخاص ، ولّاه وظيفة نظر الخاص بعد النشو، ثم أضاف إليه وظيفة نظر الجيش بعد المكين بن قزوينة عند غضبه عليه و مصادرته، فباشر الوظيفتين إلى أن مات الملك الناصر، فاستمرّ فى أيام الملك المنصور أبى بكر، و الملك الأشرف كجك، و الملك الناصر أحمد، فلما ولى الملك الصالح إسماعيل جعله مشير الدولة مع ما بيده من نظر الخاص و الجيش، و كان الوزير إذ ذاك الأمير نجم الدين محمود وزير بغداد، و كتب له توقيع باستقراره فى وظيفة الإشارة، فعظم أمره و كثر حساده إلى أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۹

قبض عليه و ضرب بالمقارع، و خنق ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأوّل سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و دفن بجوار زاوية ابن عبود من القرافة، و كانت مدّة نظره فى الخاص خمس سنين و شهرين تنقص أياما، و كان مليح الوجه حسن العبارة كثير التصرّف ذكيا، يعرف باللسان التركىّ و يتكلم به، و يعرف باللسان النوبىّ و التكرورى.

و لم تزل هذه الدار بغير تكملة إلى أن ترأس القاضى شمس الدين محمد بن أحمد القليجىّ الحنفى، كان أولا يكتب على مبيضة الغزل، و هى يومئذ مضمنة لديوان السلطان، ثم اتصل بقاضى القضاة سراج الدين عمر بن إسحاق الهندى و خدمه فرفع من شأنه و استنابه فى الحكم، فعيب ذلك على الهندى، و قال فيه شمس الدين محمد بن محمد الصائغ الحنفى:

و لمّا رأينا كاتب المكس قاضياعلمنا بأنّ الدهر عاد إلى ورا

فقلت لصحبى ليس هذا تعجباو هل يجلب الهندىّ شيئا سوى الخرا

و ولى افتاء دار العلم، و ناب عن القضاة فى الحكم بعد مباشرة توقيع الحكم عدّة سنين، فعظم ذكره، و بعد صيته، و صار يتوسط بين القضاة و الأمراء فى حوائجهم، و يخدم أهل الدولة فيما يعنّ لهم من الأمور الشرعية، فصار كثير من أمور القضاة لا يقوم به غيره، حتى لقد كان شيخنا الأستاذ قاضى القضاة ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون يسميه دريد بن الصمة، يعنى أنه صاحب رأى القضاة، كما أن دريد ابن الصمة كان صاحب رأى هوازن يوم حنين سرّه بذلك، فلما فخم أمره أخذ هذه الدار، و قد تم بناء جدرانها، فرخّمها و بيضها، فجاءت فى أعظم قالب و أحسن هندام و أبهج زىّ، و سكنها إلى أن مات يوم الثلاثاء لعشرين من شهر رجب سنة سبع و تسعين و سبعمائة، بعدما وقفها، فاستمرّت فى يد أولاده مدّة إلى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار، كما أخذ غيرها من الدور.

دار بهادر المعزى: هذه الدار بدرب راشد المجاور لخزانة البنود من القاهرة، عمرها الأمير سيف الدين بهادر المعزى، كان أصله من أولاد مدينة حلب، من أبناء التركمان، و اشتراه الملك المنصور لاجين قبل أن يلى سلطنة مصر، و هو فى نيابة السلطنة بدمشق، فترقى حتى صار أحد أمراء الألوف إلى أن مات فى يوم الجمعة تاسع شعبان سنة تسع و ثلاثين و سبعمائة، عن ابنتين إحداهما تحت الأمير أسدمر المعزى، و الأخرى تحت مملوكه اقتمر، و ترك مالا كثيرا منه، ثلاث عشر ألف دينار، و ستمائة ألف درهم نقرة، و أربعمائة فرس، و ثلثمائة جمل، و مبلغ خمسين ألف اردب غلة، و ثمان حوايص ذهب، و ثلاث كلوتات زركش، و اثنى عشر طراز زركش، و عقارا كثيرا، فأخذ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما خلفه، و كان جميل الصورة، معروفا بالفروسية، و رمى فى القبق النشاب بيمينه و يساره، و لعب الرمح لعبا جيدا، و كان لين الجانب حلو الكلام جميل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۰

العشرة، إلّا أنه كان مقتّرا على نفسه فى مأكله و سائر أحواله لكثرة شحه، بحيث أنه اعتقل مرّة فجمع من راتبه الذى كان يجرى عليه و هو فى السجن مبلغ اثنى عشر ألف درهم نقرة، أخرجها معه من الاعتقال.

دار طينال: هذه الدار بخط الخرّاطين فى داخل الدرب الذى كان يعرف بخربة صالح، كان موضعها و ما حولها فى الدولة الفاطمية مارستانا، و أنشأ هذه الدار الأمير طينال، أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، أقامه ساقيا، ثم عمله حاجبا صغيرا، ثم أعطاه أمرة دكتمر، و جعله أمير مائة مقدّم ألف، فباشر ذلك مدّة ثم أخرجه لنيابة طرابلس. فأقام بها زمانا، ثم نقله إلى نيابة صفد فمات بها فى ثالث شهر ربيع سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، و كان تترىّ الجنس قصيرا إلى الغاية، مليح الوجه، مشكورا فى أحكامه، محبا لجمع المال، شحيحا، و هذه الدار تشتمل على قائمتين متجاورتين، و هى من الدور الجليلة، و لطينال أيضا قيسارية بسويقة أمير الجيوش.

دار الهرماس: هذه الدار كانت بجوار الجامع الحاكمى من قبلية شارعة فى رحبة الجامع، على يسرة من يمرّ إلى باب النصر، عمرها الشيخ قطب الدين محمد بن المقدسى المعروف بالهرماس، و سكنها مدّة، و كان أثيرا عند السلطان الملك الناصر الحسن بن محمد

بن قلاوون، له فيه اعتقاد كبير، فعظم عند الناس قدره، و اشتهر فيما بينهم ذكره إلى أن دبت بينه و بين الشيخ شمس الدين محمد بن النقاش عقارب الحسد، فسعى به عند السلطان إلى أن تغير عليه و أبعده، ثم ركب فى يوم سنة إحدى و ستين و سبعمائة من قلعة الجبل بعساكره إلى باب زويلة، فعند ما وصل إليه ترجل الأمراء كلهم عن خيولهم و دخلوا مشاة من باب زويلة كما هى العادة، و صار السلطان راكبا بمفرده، و ابن النقاش أيضا راكب بجانبه، و سائر الأمراء و المماليك مشاة فى ركابه على ترتيبهم إلى أن وصل السلطان إلى المارستان المنصورى بين القصرين، فنزل إليه و دخل القبة و زار قبر أبيه و جدّه و إخوته، و جلس، و قد حضر هناك مشايخ العلم و القضاة، فتذاكروا بين يديه مسائل علمية، ثم قام إلى النظر فى أمور المرضى بالمارستان، فدار عليهم حتى انتهى غرضه من ذلك، و خرج فركب و سار نحو باب النصر و الناس مشاة فى ركابه إلّا ابن النقاش فإنه راكب بجانبه إلى أن وصل إلى رحبة الجامع الحاكمى، فوقف تجاه دار الهرماس و أمر بهدمها، فهدمت و هو واقف، و قبض على الهرماس و ابنه و ضرب بالمقارع عدّة شيوب، و نفى من القاهرة إلى مصياف . فقال الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى فى ذلك:

قد ذاق هرماس الخسارةمن بعد عز و جساره

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۱ حسب البهتان يبقىأخرب اللّه دياره

فلما قتل السلطان فى سنة اثنين و ستين، عاد الهرماس إلى القاهرة و أعاد بعض داره، فلما كانت سنة ثمانين و سبعمائة صارت هذه الدار إلى الأمير جمال الدين عبد اللّه بن بكتمر الحاجب، فأنشأها قاعة و عدّة حوانيت و ربعا علوّ ذلك، و انتقل من بعده إلى أولاده، و هو بأيديهم إلى اليوم.

دار أوحد الدين: هذه الدار بداخل درب السلامى فى رحبة باب العيد، مقابل قصر الشوك و إلى جانب المارستان العتيق الصلاحىّ، كان موضعها من حقوق القصر الكبير، و صار أخيرا طاحونا، فهدمها القاضى أوحد الدين عبد الواحد أيام كان يباشر توقيع الأمير الكبير برقوق، بعد سنة ثمانين و سبعمائة، فلما حفر أساس هذه الدار و وجد فيه هيئة قبة معقودة من لبن، و فى داخلها إنسان ميت قد بليت أكفانه و صار عظما نخرا، و هو فى غاية طول القامة، يكون قدر خمسة أذرع، و عظام ساقيه خلاف ما عهد من الكبر، و دماغه عظيم جدا، فلما كملت هذه الدار سكنها أيام مباشرته وظيفة كتابة السر إلى أن مات بها، و قد حبسها على أولاده، فاستمرت بأيديهم إلى أن أخذها منهم الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، كما أخذ غيرها من الأوقاف، فاستمرّت فى جملة ما بيده إلى أن قتله الملك الناصر فرج، فقبضها فيما قبض مما خلف جمال الدين، فلما قتل الملك الناصر فرج و استقل الملك المؤيد شيخ بمملكة مصر استرجع أولاد جمال الدين ما كان أخذه الناصر من أملاك جمال الدين، و صارت بأيديهم إلى أن وقف له أولاد أوحد الدين فى طلب دار أبيهم، فعقد لذلك مجلس اجتمع فيه القضاة، فتبين أن الحق بيد أولاد أوحد الدين، فقضى بإعادة الدار إلى ما وقفها عليه أوحد الدين، فتسلمها أولاد أوحد الدين من ورثة جمال الدين، و هى الآن بأيديهم.

عبد الواحد بن إسماعيل بن ياسين الحنفىّ: أوحد الدين كاتب السر، ولد بالقاهرة و نشأ بها فى كنف قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه بن علىّ التركمانىّ الحنفىّ لصهارة كانت بين أبيه و بين التركمانية، و باشر توقيع الحكم مدة، و اتفق أن أميرا من أمراء الملك الأشرف شعبان بن حسين يعرف بيونس الرماح مات، فادّعى برقوق العثمانىّ أحد الممالك اليلبغاوية أنه ابن عم يونس هذا، و أنه يستحق إرثه لموته عن غير ولد، حضر إلى المدرسة الصالحية بين القصرين حيث يجلس القضاة للحكم بين الناس حتى يثبت ما ادّعاه، فلما أراد اللّه من اسعاد جدّ أوحد الدين لم يقف برقوق على أحد من موقعى الحكم إلا عليه، و أخبره بما يريد، فبادر إلى توريق سؤال باسم برقوق، و انهائه أنه ابن عمّ يونس الرماح، و أن عنده بينة تشهد بذلك، و دخل بهذا السؤال إلى قاضى القضاة، و أنهى العمل حتى ثبت أن برقوق ابن عم يونس يستحق ارثه، فلما فرغ من ذلك دفع برقوق إلى أوحد الدين مبلغ دراهم اجرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۲

توريقه كما هى عادة أهل مصر فى هذا، فامتنع من أخذها، و ألحف برقوق فى سؤاله، و هو يمتنع، فتقلد له برقوق المنة بذلك و

اعتقد أمانته و خيره، و صار لكثرة ركونه إليه إذا قدم فلاحوا إقطاعه يبعثهم إليه حتى يحاسبهم عما حملوه من الخراج، فلما قتل الملك الأشرف و ثارت المماليك، و كان من أمرهم ما كان إلى أن تغلّب برقوق و صار من جملة الأمراء و استولى على الاصطبل السلطانيّ فى شهر ربيع الآخر سنة تسع و سبعين و سبعمائة، و صار أميرا خور، أقام أوحد الدين موقعا عنده، و ما زال أمر برقوق يزداد قوّة حتى انبطت به أمور المملكة كلها، فصار أوحد الدين صاحب الحل و العقد، و كاتب السرّ بدر الدين محمد بن علىّ بن فضل اللّه اسما لا معنى له، إلى أن جلس الأمير برقوق على تخت المملكة فى شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، فقرّر القاضى أوحد الدين فى وظيفة كتابة السرّ عوضا عن ابن فضل اللّه، و خلع عليه فى يوم السبت ثانى عشر شوال من السنة المذكورة، فباشر كتابة السرّ على القالب الجائز، و ضبط الأمور أحسن ضبط، و عكف سائر الناس على بابه لتمكنه من سلطانه، و كان الأمير يونس الدوادار يرى أنه أكثر الناس من الأمراء تمكينا من السلطان، و جرت العادة بانتماء كاتب السرّ إلى الدوادار، فأحب أوحد الدين الاستبداد على الأمير يونس الدوادار، فقال السلطان سرّا فى غيبة يونس: أن السلطان يرسم بكتابة مهمات الدولة و أسرار المملكة إلى البلاد الشامية و غيرها، و الأمير الدوادار يريد من المملوك أن يطلع على ذلك، فلم يقدر المملوك على مخالفته، و لا أمكنه إعلامه إلّا بإذن، فأنفق السلطان من ذلك و قال: الحذر أن يطلع على شىء من مهمات السلطان أو أسراره. فقال:

أخاف منه إن سأل و لم أعلمه. فقال السلطان: ما عليك منه.

فرأى أنه قد تمكن حينئذ، فأمسك أياما. ثم أراد الازدياد من الاستبداد فقال للسلطان سرّا: قد رسم السلطان أن لا يطّلع أحد على سرّ السلطان، و لا يعرف بما يكتب من المهمات، و طائفة البريدية كلهم يمشون فى خدمة الدوادار، فإذا اقتضت آراء السلطان تسفير أحد منهم فى مهم يحتاج المملوك إلى استدعائه من خدمة الأمير الدوادار، فإذا التمس منى أنى أخبره بالمعنى الذى توجه فيه البريدى لا أقدر على إعلامه بذلك، و لا آمن إن كتمته، و انصرف. فلما كان من الغد و طلع الأمراء إلى الخدمة على العادة، قال السلطان للأمير يونس الدوادار: أرسل البريدية كلهم إلى كاتب السرّ ليمشوا و يركبوا معه، فلم يجد بدّا من إرسالهم، و حصل عنده من إرسالهم المقيم المقعد، فصار البريدية يركبون نوبا فى خدمة أوحد الدين، و يتصرف فى أمور الدولة وحده مع سلطانه، فانفرد بالكلمة، و خضع له الخاص و العام إلّا أنه نغّص عليه فى نفسه و مرض مرضا طويلا سقطت معه شهوة الطعام، بحيث أنه لم يكن يشتهى شيئا من الغداء، و تنوّع له المأكل من بين يديه لكى تميل نفسه إلى شىء منها، و متى تناول غذاء تقيأه فى الحال، و ما زال على ذلك إلى أن مات عن سبع و ثلاثين سنة، فى يوم السبت ثانى ذى الحجة سنة ست و ثمانين و سبعمائة، و دفن خارج باب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۳

النصر، فلم يتأخر أحد من الأمراء و الأعيان عن جنازته، و كان حسن السياسة، رضىّ الخلق، عاقلا، كثير السكون، جيد السيرة، جميل الصورة، حسن الهيئة، عارفا بأمر دنياه، محبا للمداراة، صاحب باطن، قليل العلم رحمه اللّه.

ربع الزيتى: هذا الربع كان بجوار قنطرة الحاجب التى على الخليج الناصرى، و كان يشتمل على عدّة مساكن ينزلها أهل الخلاعة للقصف، فإنه كان يشرف من جهاته الأربع على رياض و بساتين ففى شرقية غيط الزيتى، و قد خرب، و موضعه اليوم بركة ماء، و فى غربيه غيط الحاجب بيبرس، و أدركته عامرا و هو اليوم مزارع بعد ما كان له باب كبير بجانبه حوض ماء للسبيل، و عليه سياج من طين دائر به، و من قبلى، هذا الربع الخليج و قنطرة الحاجب و الجنينة التى بأرض الطبالة، و من بحر به بساتين تتصل بالبعل و كوم الريش، و ما زال هذا الربع معمورا باللذات آهلا بكثرة المسرّات إلى أن كانت سنة الغرقة، و هى سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فخربت دور كوم الريش و غيرها، و وصل ماء النيل إلى قنطرة الحاجب، فخرب ربع الزيتى و أهمل أمره حتى صار كوما عظيما تجاه قنطرة الحاجب، و غيط الحاجب، و سمعت من أدركته يخبر عن هذا الربع بعجائب من الملاذ التى كانت فيه، و كانت العامة تقول فى هزلها:

ستى أين كنتى و أين رحتى و أين جيتى قالت مع ربع الزيتى:

ثمّ انقضت تلك السنون و أهلهافكأنها و كأنّهم أحلام

الدار التى فى أوّل البرقية من القاهرة التى حيطانها حجارة بيض منحوتة: هذه الدار بقى منها جدار على يمين من سلك من المشهد الحسينىّ يريد باب البرقية، و بقى منها أيضا جدار على يمين من سلك من رحبة الأيدى مرىّ إلى باب البرقية، و هى دار الأمير صبيح بن شاهنشاه أحد أمراء الدولة الفاطمية فى أيام الصالح طلائع بن رزيك، و كانت فى غاية الكبر و التحسين. قال بعض أصحاب الصالح: يا مولانا أبقاك اللّه حتى تتم دار ابن شاهنشاه، و كان الضرغام قبل أن يلى وزارة مصر قد فرّس العادل أبا شجاع رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، فظهر منه فارسا فى غاية الفروسية، بحيث أنه قد حضر فى يوم عيد الحلقة و أخذ رمحا و حربة و قوسا و سهما، فأخذ الحلقة بالرمح، و رمى بالسهم فأصاب الغرض، و حذف بالحربة فأثبتها فى المرمى، و لعب بالرمح فى غاية الحسن.

ثم دخل صبيح ابن شاهنشاه فعمل مثل ذلك، فتحرّك الضرغام و كان يلبس عمامة بعذبة و إكمال واسعة على زىّ المصريين يومئذ، فتلثم بعذبته ولف أكمامه و أخذ رمحه و لعب به فى غاية الحسن، و طرد كذلك و دخل فى الحلقة و أخذها، فعجب منه كل من فى العسكر، فأخذ عند ذلك الأمير صبيح ابن شاهنشاه المبخرة و أتى إليه و قال: يا مولاى كفاك اللّه أمر العين، فإن هذا شىء ما يقدر عليه أحد، و جعل يدور حول فرسه و يبخره و الضرغام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۴

يتبسم و يعجبه ذلك، و بعد هذا كان قتل ابن شاهنشاه على يده فى سنة ثمان و خمسين و خمسمائة و لم تكمل هذه الدار.

دار التمر: هذه الدار بمدينة مصر من خارجها، فيما انحسر عنه ماء النيل بعد الخمسمائة من سنى الهجرة، و تعرف اليوم بصناعة التمر، تجاه الصاغة بخط سوق المعاريج، و من جملتها بيت برهان الدين إبراهيم الحلىّ و مدرسته، و هذه الدار وقفها القاضى عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ على فكاك الأسرى من المسلمين ببلاد الفرنج.

قال القاضى محى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر فى كتاب الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبد الرحيم: و من جملة بنائه دار التمر بمصر المحروسة، و لها دخل عظيم، يجمع و يشترى به الأسرى من بلاد الفرنج، و ذلك مستمرّ إلى هذا الوقت، و فى كل وقت يحضر بالأسارى فيلبسون و يطوفون و يدعون له، و سمعتهم مرارا يقولون: يا اللّه يا رحمن يا رحيم ارحم القاضى الفاضل عبد الرحيم.

و قال القاضى جمال الدين بن شيث: كان للقاضى الفاضل ربع عظيم يؤجره بمبلغ كبير، فلما عزم على الحج ركب و مرّ به و وقف عليه و قال: اللهم إنك تعلم أن هذا الخان ليس شىء أحب إلىّ منه، أو قال أعز علىّ منه، اللهم فاشهد أنى وقفته على فكاك الأسرى من بلاد الفرنج.

و قال ابن المتوّج: و من جملة الأوقاف الوقف الفاضلى، و هو الدار المشهورة بصناعة التمر الوقف على فكاك الأسرى من يد العدوّ، المشتملة على مخازن و أخصاص و شون و منازل علوية و حوانيت بمجازها و ظاهرها، و هى اثنا عشر حانوتا، و خمسة مقاعد، و ثمانية و خمسون مخزنا، و خمسة عشر خصا، و ست قاعات و ساحة، و ست شون، و خمسة و سبعون منزلا، و خمسة مقاعد علوية، الأجرة عن ذلك جميعه إلى آخر شعبان سنة تسع و ثمانين و ستمائة فى كل شهر ألف و مائة و ست و ثلاثون درهما نقرة، و استجدّ بها القاضى جمال الدين الوجيزى خليفة الحكم بمصر حين كان ينظر فى الأوقاف دارا من ريع الوقف، فأكلها البحر، فأمر ببناء زربية أمامها من مال الوقف.

عمارة أمّ السلطان: هذه العمارة من جملة المنحر كانت دارا تعرف بالأمير جمال الدين ايدغدى العزيزىّ و لها باب من الدرب الأصفر الذى هو الآن تجاه خانقاه بيبرس، و باب من المحايريين تجاه الجامع الأقمر. عرفت هذه الدار بالأمير مظفر الدين موسى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۵

الصالح على ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى، ثم خربت فأنسأتها خوند أم الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن فلاوون، و جعلت منها قيسارية بخط الركن المخلق يباع بها الجلود و يعلوها ربع جليل لسكن العامّة يشتمل على عدّة طباق، و وقفت ذلك على مدرستها بخط التبانة خارج باب زويلة، فلم تزل جارية فى وقفها إلى أن اغتصبها الوزير الأمير جمال الدين يوسف

الأستادار فيما أخذ من الأوقاف، و جعلها وقفا على مدرسته بخط رحبة باب العيد من القاهرة، و جعلت خوند بركة من جملة هذه الدار قاعة لم يعمر فيها سوى بوابتها لا غير، و هى أهلّ بوّابات الدور، و قد دخلت أيضا فيما أخذه جمال الدين و صارت بيد مباشرى مدرسته إلى أن أخذها السلطان الملك الأشرف أبو العزيز برسباى الدقماقى الظاهرىّ، و ابتدأ بعملها وكالة فى شوّال سنة خمس و عشرين و ثمانمائة، فكملت فى رجب سنة ست و عشرين، و غيّر من الطراز المنقوش فى الحجارة بجانبى باب الدخول، اسم شعبان بن حسين، و كتب برسباى، فجاءت من أحسن المبانى و يعلوها طباق للسكنى، و لم يسخر فى عمارتها أحد من الناس كما أحدثه ولاة السوء فى عمائرهم، بل كان العمال من البنايين و الفعلة و نحوهم يوفون أجورهم من غير عنف و لا عسف، فإنه كان القائم على عمارتها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيش، و هذه عادته فى أعماله أن لا يكلف فيها العمال غير طاقتهم، و يدفع إليهم أجورهم و اللّه أعلم.

ذكر الحمامات

قال ابن سيده: الحمّام و الحميم و الحميمة جميعا الماء الحار، و الحميمة أيضا المخض إذا سخن، و قد أحمّه و حمّه، و كلّما سخن فقد حمّ. قال ابن الأعرابى: و الحمائم جمع الحميم الذى هو الماء الجار، و هذا خطأ، لأن فعيلا لا يجمع على فعائل، و إنما هو جمع الحميمة الذى هو الماء الحار لغة فى الحميم مذكر، و هو أحد ما جاء من الأسماء على فعال، نحو القذاف و الجبان و الجمع حمّامات.

قال سيبويه: جمعوه بالألف و التاء و إن كان مذكرا، حيث لم يكسر جعلوا ذلك عوضا من التكسير. و الاستحمام الاغتسال بالماء الحار، و قيل هو الاغتسال بأىّ ماء كان، و الحميم العرق، و استحمّ الرجل عرق. و أمّا قولهم لداخل الحمام إذا خرج طاب حميمك، فقد يعنى به العرق، أى طاب عرقك، و إذا دعى له بطيب العرق، فقد دعى له بالصحة، لأنّ الصحيح يطيب عرقه.

و روى عن سفيان الثورى أنه قال: ما درهم ينفقه المؤمن هو فيه أعظم أجرا من درهم صاحب حمّام ليخليه له، و قال محمد بن إسحاق فى كتاب المبتدىء: إنّ أوّل من اتخذ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۶

الحمامات و الطلاء بالنورة سليمان بن داود عليهما السلام، و أنه لما دخل و وجد حميمة قال: اوّاه من عذاب اللّه أوّاه.

و ذكر المسبحىّ فى تاريخه: أنّ العزيز باللّه نزار بن المعز لدين اللّه، أوّل من بنى الحمامات بالقاهرة، و ذكر الشريف أسعد الجوّانى عن القاضى القضاعى أنه كان فى مصر الفسطاط ألف و مائة و سبعون حماما. و قال ابن المتوّج أن عدّة حمامات مصر فى زمنه بضع و سبعون حماما. و ذكر ابن عبد الظاهر أن عدّة حمامات القاهرة إلى آخر سنة خمس و ثمانين و ستمائة، تقرّب من ثمانين حماما، و أقل ما كانت الحمامات ببغداد فى أيام الخليفة الناصر أحمد بن المستنصر نحو الألف حمام.

حمّامى السيدة العمة: قال ابن عبد الظاهر: حمّامى الكافى يعرفان بحمامى السيدة العمة، و انتقلتا إلى الكامل بن شاور، ثم إلى ورثة الشريف ابن ثعلب، و هما الآن بأيديهم، و لا تدور إلّا الواحدة، و هاتان الحمامان كانتا على يمنة من يدخل من أول حارة الروم تجاه ربع الحاجب لؤلؤ، المعروف الآن بربع الزياتين، علو الفندق الذى بابه بسوق الشوّايين، و كانت إحداهما برسم الرجال و الأخرى برسم النساء، و قد خربتا و لم يبق لهما أثر البتة.

حمام الساباط: قال ابن عبد الظاهر: كان فى القصر الصغير باب يعرف بباب الساباط، كان الخليفة فى العيد يخرج منه إلى الميدان، و هو الخرشتف الآن، إلى المنحر لينحر فيه الضحايا. قلت حمام الساباط هذا يعرّف فى زمننا بحمّام المارستان المنصورى و هو برسم دخول النساء عند باب سرّ المارستان المنصورى، و هذا الحمّام هو حمّام القصر الصغير الغربى، و يعرف أيضا بحمّام الصنيمة، فلما زالت دولة الخلفاء الفاطميين من القاهرة، باعها القاضى مؤيد الدين أبو المنصور محمد بن المنذر بن محمد العدل الأنصارىّ الشافعىّ، وكيل بيت المال فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، للأمير عز الدين أيبك العزيزىّ هى و ساحات

تحاذيها بألف و مائتى دينار، فى ذى الحجة سنة تسعين و خمسمائة، ثم باعها الأمير عز الدين أيبك للشيخ أمين الدين قيمار بن عبد اللّه الحموىّ التاجر، بألف و ستمائة دينار، فورثها من بعده من استحق إرثه، ثم اشترى من الورثة نصفها الأمير الفارس صارم الدين خطلبا الكاملى العادلى، فى سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، و انتقلت أيضا منها حصة إلى ملك الأمير علاء الدين ايدكين البندقدارى الصالحى النجمى استادار الملك الظاهر بيبرس، فى سنة ثمان و سبعين و ستمائة، فلما تملك الملك المنصور قلاوون الألفى و انشأ المارستان الكبير المنصورى، صارت فيما هو موقوف عليه، و هى الآن فى أوقافه و لها شهرة فى حمامات القاهرة.

حمام لؤلؤ: هذه الحمام برأس رحبة الأيد مرى ملاصقة لدار السنانى، أنشأها الأمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۷

حسام الدين لؤلؤ الحاجب فى أيام ... .

حمام الصنيمة: هذه الحمّام كانت بالقرب من خزانة البنود، على يسرة من سلك فى رحبة باب العيد إلى قصر الشوك، و قد خربت، و عمل فى موضعها مبيضة للغزل، بالقرب من الجمالية.

حمام تتر: هذه الحمام كانت بخط دار الوزارة الكبرى، و قد خربت و صار مكانها دارا عرفت بالأمير الشيخ على، و هى الدار المجاورة للمدرسة النابلسية فى الزّقاق المقابل للخانقاه الصلاحية سعيد السعداء.

و تتر هذا: بتاءين مفتوحتين كل منهما منقوط بنقطتين من فوق، أحد مماليك أسد الدين شير كوه، عمّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، استولى على هذه الحمّام و كانت معدّة لدار الوزارة فى مدّة الدولة الفاطمية، فعرفت به و ما حولها، و إلى الآن يعرف ذلك الخط بخط خرائب تتر، و العامّة تقول خرائب التتر بالتعريف، و هو خطأ.

حمام كرجى: هذه الحمّام كانت بخط خرائب تتر أيضا فى جوار المدرسة النابلسية، تجاه باب الخانقاه الصلاحية، عرفت بالأمير علم الدين كرجى الأسدىّ، أحد الأمراء الأسدية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و قد خربت هذه الحمّام و بنى فى مكانها هذا البناء الذى تجاه باب الخانقاه بأوّل الزّقاق.

حمام كتيلة: هذه الحمّام كانت داخل باب الخوخة برأس سويقة الصاحب، عرفت أخيرا بالأمير صارم الدين ساروج شادّ الدواوين، ثم خربت فى أيام ... و مكانها الآن مسمط يذبح فيه الغنم و تسمط.

حمّام ابن أبى الدم: هذه الحمام كانت فيما بين سويقة المسعودى و باب الخوجة، أنشأها ابن أبى الدم اليهودى، أحد كتاب الإنشاء فى أيام الخليفة الحاكم، و تولى ابن خيران الديوان و نقل عنه أنه وسع بين السطور فى كتاب كتبه إلى الخليفة و هذه مكاتبة الأعلى إلى الأدنى، فلما حضر و أنكر عليه، ألحق بين السطر و السطر سطرا مناسبا للفظ و المعنى، من غير أن يظهر ذلك، فعفا عنه. و قد خربت و صار مكانها دربا فيه دور يعرف بسكن القاضى بدر الدين حسن البردينىّ، أحد خلفاء الحاكم العزيزى الشافعىّ، و أدركت بعض آثار هذه الحمام.

حمام الحصينية: هذه الحمام كانت فى سويقة الصاحب من داخل درب الحصينية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۸

الذى يعرف اليوم بدرب ابن عرب و قد خربت.

حمام الذهب: هذه الحمّام كانت بدار الذهب، أحد مناظر الخلفاء الفاطميين التى ذكرت فى المناظر من هذا الكتاب، و قد خربت هذه الحمّام و لم يبق لها أثر.

حمام ابن قرقة: هذه الحمّام كانت بخط سويقة المسعودى من حارة زويلة، أنشأها أبو سعيد بن قرقة الحكيم، متولى الاستعمالات بدار الديباج و خزائن السلاح فى الدولة الفاطمية، بجوار داره التى تقدّمت فى الدور من هذا الكتاب، ثم عرفت هذه الحمّام فى الدولة الأيوبية بالأمير صارم الدين المسعودى و إلى القاهرة، المنسوب إليه سويقة المسعودى المذكورة فى الأسواق من هذا الكتاب، ثم

خربت هذه الحمّام و عمل فى موضعها فندق عرف أخيرا بفندق عمار الحمّامى، بجوار جامع ابن المغربى من جانبه الغربىّ، و أخذت بئر هذه الحمّام، فعملت للحمام التى تعرف اليوم بحمّام السلطان.

حمّام السلطان: هذه الحمّام يتوصل إليها الآن من سويقة المسعودى، و من قنطرة الموسكى، و هى من الحمّامات القديمة عرفت فى الدولة الفاطمية بحمّام الأوحد، ثم عرفت فى الدولة الأيوبية بحمّام ابن يحيى، و هو القاضى المفضل هبة اللّه بن يحيى العدل، ثم عرفت بحمّام الطيبرسى، ثم هى الآن تعرف بحمّام السلطان.

حمّام خوند: هذه الحمّام بجوار رحبة خوند، المذكورة فى الرحاب من هذا الكتاب، و كانت برسم الدار التى تعرف الآن بدار خوندارد تكين، ثم أفردت و صارت إلى الآن حمّاما يدخله عامة الرجال فى أوائل النهاء، ثم تعقبهم النساء من بعد، إلى أن هدمها الأمير صلاح الدين محمد استادار السلطان ابن الأمير الوزير الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه فى شهر رجب سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، و عمل موضعها من جملة داره التى هناك.

حمّام ابن عبود: هذه الحمّام موضعها فيما بين اصطبل الجميزة المذكورة فى اصطبلات الخلفاء من هذا الكتاب، و بين رأس حارة زويلة، و هى من الحمامات القديمة، عرفت بحمّام الفلك، و هو القاضى فلك الملك العادل، ثم عرفت بالأمير علىّ بن أبى الفوارس، ثم عرفت بابن عبود، و هو الشيخ نجم الدين أبو علىّ الحسين بن محمد بن إسماعيل بن عبود القرشىّ الصوفىّ، مات فى يوم الجمعة ثالث عشرى شوال سنة اثنين و عشرين و سبعمائة بعد ما عظم قدره و نفذ فى أرباب الدولة نهيه و أمره، و هو صاحب الزاوية المعروفة بزاوية ابن عبود بلحف الجبل، قريبا من الدينورىّ من القرافة، فانظرها فى الزوايا من هذا الكتاب، و لم تزل هذه الحمام جارية فى أوقاف التربة المذكورة إلى أن تسلّط الأمير جمال الدين على أموال أهل مصر، فاغتصب ابن أخته الأمير شهاب الدين أحمد المعروف بسيدى أحمد ابن أخت جمال الدين هذه الحمام، و اغتصب دار ابن فضل اللّه التى تجاه هذه الحمام، و اغتصب آدرا أخر بجوارها، و عمر هناك دارا عظيمة كما قد ذكر فى الدور من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۹

حمّام الصاحب: هذه الحمام بسويقة الصاحب، عرفت بالصاحب الوزير صفىّ الدين عبد اللّه بن شكر الدمرى صاحب المدرسة الصاحبية التى بسويقة الصاحب، ثم تعطلت مدّة سنين، فلما ولى الأمير تاج الدين الشوبكى ولاية القاهرة فى أيام الملك المؤيد شيخ، جدّدها و أدار بها الماء فى سنة سبع عشرة و ثمانمائة.

حمّام السلطان: هذه الحمّام كان موضعها قديما من جملة دار الديباج، و هى الآن بخط بين العواميد من البندقانيين بجوار خوخة سوق الجوار، و مدرسة سيف الإسلام، أنشأها الأمير فخر الدين عثمان ابن قزل استادار السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و تنقلت إلى أن صارت فى أوقاف الملك الناصر محمد بن قلاوون.

حمّاما طغريك: هاتان الحمامان بجوار فندق فخر الدين بالقرب من سويقة حارة الوزيرية، أنشأهما الأمير حسام الدين طغريك المهرانىّ، أحد الأمراء الأيوبية.

حمام السوباشى: هذه الحمّام كانت بدرب طلائع بخط الخروقيين الذى يعرف اليوم بسوق الفرّايين، عرفت بالأمير الفارس همام الدين أبو سعيد برغش السوباشى، و اسمه عمرو بن كحت بن شيرك العزيزى والى القاهرة.

حمام عجينة: هذه الحمام كانت بخط الأكفانيين، انشأها الأمير فخر الدين أخو الأمير عز الدين موسك فى الدولة الأيوبية، و تنقلت حتى صارت بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ، مما أوقف عليهم، و عرفت أخيرا بحمام عجينة، ثم خربت بعد سنة أربعين و سبعمائة، و موضعها الآن خربة بجوار الفندق الكبير المعدّ لديوان المواريث.

حمّام درى: هذه الحمّام كانت بخط الأكفانيين الآن، عرفت بشهاب الدولة درى الصغير غلام المظفر ابن أمير الجيوش. قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب النقط لمعجم ما أشكل من الخطط. شهاب الدولة درى المعروف بالصغير المظفرى غلام المظفر

أمير الجيوش، كان أرمنيا و أسلم، و كان من المشددين فى مذهب الإماميۀ، و قرأ الجمل فى النحو للزجاجىّ، و كتاب اللمع لابن جنى، و كانت له خرائط من القطن الأبيض فى يديه و رجليه، و كان يتولى خزائن الكسوۀ، و لا يدخل على بسط السلطان و لا بسط الخليفۀ الحافظ لدين اللّه، و لا يدخل مجلسه إلا بتلك الخرائط فى رجليه، و لا يأخذ من أحد شيئا إلّا و فى يديه خريطۀ، يظنّ أنّ كل من لمسه نجّسه، وسوسۀ منه، فإذا اتفق أنه صافح أحد المومس رقعۀ بيده من غير خريطۀ، لا يمس ثوبه بها أبدا حتى يغسلها، فإن لمس ثوبه بها غسل الثوب، و كان الاستاذون المحنكون يرمون له فى بساط الخليفۀ الحافظ العنب، فإذا مشى عليه و انفجر و وصل ماۀه إلى رجليه سبهم و حرد، فيعجب الخليفۀ من ذلك و يضحك و لا يؤاخذه بما صدر منه، و مات بعد سنۀ ثلاث و ثلاثين و خمسمائۀ، و قد خربت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۰

هذه الحمام و لم يبق لها أثر يعرف.

حمّام الرصاصى: هذه الحمّام كانت بحارۀ الديلم، أنشأها الأمير سيف الدين حسن بن أبى الهيجاء المروانىّ، حامل السيف المنصور، و أوقفها هى و جميع الآدر المجاورۀ لها على أولاده و ذريته، فلما زالت الدولۀ الفاطميۀ عرفت بالأمير عز الدين أيبك الرصاصى، و لم تزل باقيۀ إلى بعد سنۀ أربعين و سبعمائۀ، ثم خربت.

حمام الجيوشى: هذه الحمام كانت بحارۀ برجوان، على يمنۀ من دخل من رأى الحارۀ، و كانت من حقوق دار المظفر المظفر ابن أمير الجيوش، ثم صارت بعد زوال الدولۀ الفاطميۀ من جملۀ ما أوقفه الملك العادل أبو بكر ابن أيوب على رباطه الذى كان بخط النخالين من فسطاط مصر، ثم وضع بنو الكويك أصهار قاضى القضاۀ عز الدين عبد العزيز بن جماعۀ أيديهم عليها فى جملۀ ما وضعوا أيديهم عليه من الأوقاف بحارۀ ابن جماعۀ، و انتفعوا بريعها مدّۀ سنين، ثم خربوها بعد سنۀ أربعين و سبعمائۀ، و موضعها الآن بجوار دار قاضى القضاۀ شمس الدين محمد الطرابلسى، و بعضها داخل فى الدار المذكورۀ، و بئرها بجوار القبو الذى يسلك من تحته إلى حمّام الرومى داخل حارۀ برجوان، و يعلو هذا العقد حاصل الماء الذى للحمام، و يمرّ على مجراه من حجرۀ مركّبۀ على جدار بجوار القبر إلى الحمام المذكورۀ، و آثار هذا الجدار باقيۀ إلى اليوم، و كان قد استأجر هذه البئر و القبور بعد تعطل الحمّام القاضى أبو الفداء تاج الدين إسماعيل بن أحمد بن الخطباء المخزومىّ، من مباشرى أوقاف رباط العادل، و بنى على البئر و بجوارها دارا سكنها مدّۀ أعوام، و أنشأ بابا على حاصل الماء المركب على القبور مشرفا عاليا، تأنّق فى ترخيمه و دهانه و كتب بدائره:

مشترف كم شبهوه الأدبالحسنه إذ جاء شيئا عجبا

فقال قوم قلعۀ مبنيۀو آخرون شبهوه مرقبا

و شاعر أعجبه ترخيمهفقال تلك روضۀ فوق الربا

و قائل ما ذا ترى تشبيههفقلت هذا منبر ابن الخطبا

ثم خربت هذه الدار بعد موت ابن الخطباء و احترقت فى سنۀ تسع و ثمانمائۀ، و آثارها باقيۀ و ما زال ابن الخطباء يدفع حكر هذه البئر و هذا القبو لجهۀ الرباط العادلى حتى خرب، و عفى أثره و جهل مكانه، و قد رأيته فى سنۀ أربع و تسعين و سبعمائۀ عامرا.

حمّام الرومى: هذه الحمّام بجوار حارۀ برجوان، عرفت بالأمير سنقر الرومى الصالحىّ أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، أنشأها بجوار اسطبله الذى يعرف اليوم باسطبل ابن الكويك، و ذلك تجاه رحبۀ داره التى عرفت بدار مازان، و وقف هذه الدار و الإسطبل و الحمّام المذكورۀ فى سنۀ اثنين و ستين و ستمائۀ، فأما الدار فإنها صارت أخيرا بيد رجل من عامۀ الناس يعرف بعيسى البناء، فباعها انقاضا بعد ما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۱

خرّبها فى سنۀ سبع و ثمانمائۀ لرجل من المباشرين، فهدمها ليعمرها عمارۀ جليلۀ، فلم يمهل و عاجله القضاء فمات، و صارت خربۀ

فابتاعها بعض الناس من ورثة المذكور و شرع فى عمارة شىء منها، و أما الإصطبل و الحمّام فوضع بنو الكويك أيديهم عليهما مدّة أعوام، حتى صارا ملكا لهم يورثان، و هما الآن بيد شرف الدين محمد بن محمد بن الكويك، و قد جعل ما يخصه من الحمّام وقفا على نفسه، ثم على اناس من بعده، و فى هذه الحمام حصة أيضا وقفها شيخنا برهان الدين إبراهيم الشامى الضرير على أمته و هى بيدها.

سنقر الرومى: الصالحىّ النجمىّ، أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية، ترقى عنده فى الخدم حتى صار جامدار، و كان من خوشداشية بيبرس البندقدارىّ و أصدقائه، فلما قتل الفارس أقطاى فى أيام الملك المعز أيبك التركمانى، و خرج البحرية من القاهرة إلى بلاد الشام، كان سنقر ممن خرج و رافق بيبرس و ارتفق بصحبته، و نال منه مالا- و ثيابا و غير ذلك، و تنقل معهم فى الكرك إلى أن كان من أمره فى الصيد مع صاحب الكرك، فطلب سنقر من بيبرس شيئا فلم يجبه و امتنع من إعطائه، فحنق و فارقه إلى مصر فأقام بها، ثم أن بيبرس قدم إلى مصر بعد ذلك و قد صار أميرا فلم يعبأ سنقر به و لا قدّم إليه شيئا كعادة الخواشداشية، فلما صار الأمر إلى بيبرس، و ملك بعد قطز، قدّم سنقر و أعطاه الإقطاعات الجليلة، و نوّه بقدره، فلم يرض، فصار إذا ورد عليه الإنعام السلطانىّ لا يأخذه بقبول، و يخلو كل وقت بجماعة بعد جماعة و يفرّق فيهم المال، فيبلغ ذلك السلطان و يغضى عنه، و ربما بعث إليه و حذره مع الأمير قلاوون و غيره فلم ينته، ثم أنه قتل مملوكين من مماليكه بغير ذنب، فعزّ قتلهما على السلطان فطلبه فى رابع عشرى ذى الحجة سنة ثلاث و ستين و ستمائة و اعتقله، فقال أريد أعرف ذنبى، فبعث إليه السلطان يعدّ ذنوبه. فتحسر و قال: أوّاه لو كنت حاضرا قتل الملك المظفر قطز، حتى أعاند فى الذى جرى، و كان كثيرا ما يقول ذلك، و بلغ هذا القول هذه السلطان فى حال أمرته فقال: أنت أخى، و تتحسر كونك ما قدرت أن تعين علىّ.

حمّاما سويد: هاتان الحمامان بآخر سويقة أمير الجيوس، عرفتا بالأمير عز الدين معالى بن سويد، و قد خربت إحداهما، و يقال أنها غارت فى الأرض و هلك فيها جماعة، و بقيت الأخرى و هى الآن بيد الخليفة أبى الفضل العباسىّ بن محمد المتوكل.

حمام طغلق: هذه الحمام بجوار درب المنصورى من خط حارة الصالحية، صارت أخيرا بيد ورثة الأمير قطلوبغا المنصورىّ حاجب الحجاب فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين، و كانت معدّة لدخول الرجال، ثم تعطلت بعد سنة تسعين و سبعمائة، و أخذ حاصلها، و عهدى بها بعد سنة ثمانمائة أطلالا واهية.

حمّام ابن علكان: هذه الحمّام كانت بحارة الجودرية، أنشأها الأمير شجاع الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۲

عثمان بن علكان، صهر الأمير الكبير فخر الدين عثمان بن قزل، ثم انتقلت إلى الأمير علم الدين سنجر الصيرفىّ الصالحىّ النجمىّ، و ما زالت إلى أن خربت بعد سنة أربعين و سبعمائة، فعمر مكانها الأمير ازدمر الكاشف إسطبلا بعد سنة خمسين و سبعمائة.

حمّام الصاحب: هذه الحمام بخط طواحين الملحيين.

حمّام كتبغا الأسدى: هذه الحمام موضعها الآن المدرسة الناصرية بخط بين القصرين.

حمّام ألتطمش خان: هذه الحمّام كانت بجوار ميضاة الملك ركن الدين الظاهر بيبرس، المجاورة للمدرسة الظاهرية بخط بين القصرين، أنشأتها الخاتون التطمش خان زوجة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، ثم خربت و صار موضعها زقاقا، فلما ولى كمال الدين عمر بن العديم قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية، فى سلطنة الملك الناصر فرج، شرع فى عمارة هذا الزقاق، فمات و لم يكمله، فوضع الأمير جمال الدين يده فى العمارة و أنشأها فندقا جعله وقفا فيما وقف على مدرسته التى أنشأها برحبة باب العيد، فلما قتله الملك الناصر فرج و استولى على جميع ما تركه، جعل هذا الفندق من جملة ما أرصده للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر.

حمّام القاضى: هذه الحمام من جملة خط درب الأسوانى، و هى من الحمامات القديمة، كانت تعرف بإنشاء شهاب الدولة بدر

الخاص، أحد رجال الدولة الفاطمية، ثم انتقلت إلى ملك القاضى السعيد أبى المعالى هبة اللّه بن فارس، و صارت بعده إلى ملك القاضى كمال الدين أبى حامد محمد ابن قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى، فعرفت بحمّام القاضى إلى اليوم، ثم باع ورثة أبى حامد منها حصة للأمير عز الدين أيدمر الحلىّ نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، و صارت منها حصة إلى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى، فجعلها وقفا على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر.

حمّام الخرّاطين: هذه الحمّام أنشأها الأمير نور الدين أبو الحسن علىّ بن نجا بن راجح بن طلائع، فعرفت بحمام ابن طلائع و كان بجوارها، ثم حمّام أخرى تعرف بحمّام السوباشى فخربت، و مستوقد حمام ابن طلائع هذه إلى الآن من درب ابن طلائع، الشارع بسوق الفرّايين الآن، و لها منه أيضا باب، و صارت أخيرا فى وقف الأمير علم الدين سنجر السرورى المعروف بالخياط والى القاهرة، و توفى فى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فاغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى جملة ما اغتصب من الأوقاف و الأملاك و غيرها، و جعلها وقفا على مدرسته برحبة باب العيد و هى الآن موقوفة عليها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۳

حمّام الخشيبة: هذه الحمام بجوار درب السلسلة، كانت تعرف بحمام قوّام الدولة خير، ثم صارت حماما لدار الوزير المأمون ابن البطائحى، فلما قتل الخليفة الآمر بأحكام اللّه و عملت خشيبة تمنع الراكب أن يمرّ من تجاه المشهد الذى بنى هناك، عرفت هذه الحمّام بخشيبة، تصغير خشبة، و قد تقدّم ذلك مسبوطا عند ذكر الأخطاط من هذه الكتاب.

قال ابن عبد الظاهر: مدرسة السيوفيين وقفها الأمير عز الدين فرج شاه على الحنفية، و كانت هذه الدار قديما تعرف بدار المأمون بن البطائحى، و حمام الخشيبة كانت لها، فبيعت، و هذه الحمّام هى الآن فى أوقاف خوند طغاى أم أنوك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على تربتها التى فى الصحراء خارج باب البرقية.

حمام الكويك: هذه الحمّام فيما بين حارة زويلة و درس شمس الدولة، أنشأها الوزير عباس أحد وزراء الدولة الفاطمية، لداره التى موضعها الآن درب شمس الدولة، ثم جدّدها شخص من التجار يعرف بنور الدين علىّ بن محمد بن أحمد بن محمود بن الكويك الربعى التكريتى، فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة، فعرفت به إلى اليوم.

حمّام الجوينى: هذه الحمّام بجوار حمام ابن الكويك، فيما بينها و بين البندقانيين، عرفت بالأمير عز الدين إبراهيم بن محمد بن الجوينى والى القاهرة فى أيام الملك العادل أبى بكر بن أيوب، توفى سلخ جمادى الأولى سنة إحدى و ستمائة، فإنه أنشأها بجوار داره، و العامّة تقول حمام الجهينىّ بهاء، و هو خطأ، و تنقلت إلى أن اشتراها القاضى أوحد الدين عبد الواحد بن ياسين كاتب السرّ الشريف فى أيام الملك الظاهر برقوق بطريق الوكالة عن الملك الظاهر، و جعلها وقفا على مدرسته العظمى بخط بين القصرين، و هى الآن فى جملة الموقوف عليها.

حمام القفاصين: هذه الحمام بالقرب من رأس حارة الديلم، أنشأها نجم الدين يوسف ابن المجاور وزير الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

حمّام الصغيرة: هذه الحمّام على يمنة من سلك من رأس حارة بهاء الدين، و هى تجاه دار قراسنقر، أنشأها الأمير فخر الدين بن رسول التركمانىّ. و رسول هذا جدّ ملوك اليمن الآن، و قد تعطلت هذه الحمام منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة.

حمّام الأعسر: هذه الحمّام موضعها من جملة دار الوزارة، و هى الآن بجوار باب الجوانية، أنشأها الأمير شمس الدين سنقر المعزى الظاهرى المنصورى.

سنقر الأعسر: كان أحد مماليك الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الشام، و جعله دواداره، فباشر الدوادارية لأستاذه بدمشق و نفسه تكبر عنها، فلما عزل أيدمر من نيابة الشام فى أيام الملك المنصور قلاوون و حضر إلى قلعة الجبل، اختار السلطان عدّة من مماليكه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۴

منهم سنقر الأعسر هذا، فاشتراه و ولّاه نيابة الاستادارية، ثم سيره فى سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة إلى دمشق، و أعطاه أمرة و ولاه شدّ الدواوين بها، و استادارا، فصارت له بالشام سمعة زائدة إلى أن مات قلاوون، و قام من بعده الأشرف خليل، و استوزر الوزير شمس الدين السلعوس، طلب سنقر إلى القاهرة و عاقبه و صادره، فتوصل حتى تزوّج بابنة الوزير على صداق مبلغه ألف و خمسمائة دينار، فأعاده إلى حالته و لم يزل إلى أن تسلطن الملك العادل كتبغا و استوزر الصاحب فخر الدين بن خليل، و قبض على سنقر و على سيف الدين استدمر و صادرهما، و أخذ من سنقر خمسمائة ألف درهم، و عزله عن شدّ الدواوين، و أحضره إلى القاهرة. فلما وثب الأمير حسام الدين لاجين على كتبغا و تسلطن، ولى سنقر الوزارة عوضا عن ابن خليل فى جمادى الأولى سنة ست و تسعين و سبعمائة، ثم قبض عليه فى ذى الحجة منها، و ذلك أنه تعاظم فى وزارته و قام بحق المنصب، يريد أن يتشبه بالشجاعى، و صار لا يقبل شفاعة أحد من الأمراء، و يخرق بنوابهم، و كان فى نفسه متعاظما و عنده شمم إلى الغاية مع سكون فى كلامه، بحيث أنه إذا فاوض السلطان فى مهمات الدولة كما هى عادة الوزراء لا يجيب السلطان بجواب شاف، و صار يتبين منه للسلطان قلة الاكتراث به، فأخذ فى ذمه و عيبه بما عنده من الكبر، و صادفه الغرض من الأمراء و شرعوا فى الحط عليه حتى صرف و قيد، فأرسل يسأل السلطان عن الذنب الذى أوجب هذه العقوبة، فقال: ماله عندى ذنب غير كبره، فإنى كنت إذا دخل إلىّ أحسب أنه هو السلطان و أنا الأعسر، فصدره منقام و حديثى معه كأنى أحدّث أستاذى، و قرّر من بعده فى الوزارة ابن الخليلى، فلما قتل لاجين و أعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك ثانيا أفرج عن سنقر الأعسر و عن جماعة من الأمراء، و أعاد الأعسر إلى الوزارة فى جمادى الأولى سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، و فى وزارته هذه كانت هزيمة الملك الناصر بعساكره من غازان، فتولى ناصر الدين الشيخى والى القاهرة جباية الأموال من التجار و أرباب الأموال، لأجل النفقة على العساكر، و قرّر فى وزارته على كل أردب غلة خروبة إذا طلع إلى الطحان، و قرّر أيضا نصف الشمسرة، و معناها أنه كان للمنادى على الثياب أجرة دلالته على كل ما مبلغه مائة درهم، درهمين، فيؤخذ منه درهم منهما و يفضل له درهم، و استخدم على هاتين الجهتين نحو مائتين من الأجناد البطالين، و تحصل فى بيت المال من أموال المصادرات مبلغ عظيم، ثم خرج الوزير بمائة من مماليك السلطان و توجه إلى بلاد الصعيد و قد وقعت له فى النفوس مهابة عظيمة، فكبس البلاد و أتلف كثيرا من المفسدين من أجل أنه لما حصلت وقعة غازان كثر طمع العربان فى المغل، و منعوا كثيرا من الخراج، و عصوا الولاة و قطعوا الطريق، و ما زال يسير إلى الأعمال القوصية، فلم يدع فرسا لفلاح، و لا قاض، و لا متعمم، حتى أخذه، و تتبع السلاح، ثم حضر بألف و ستين فرسا، و ثمانمائة و سبعين جملا، و ألف و ستمائة رمح، و ألف و مائتى سيف، و تسعمائة درقة، و ستة آلاف رأس غنم، و قتل عدّة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۵

الناس، فتمهدت البلاد و قبض الناس مغلهم بتمامه، و اتفقت واقعة النصارى التى ذكرت عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب فى أيامه، فأمر بالتاج ابن سعيد الدولة أحد مستوفى الدولة، و كان فيه زهو و حمق عظيم، و له اختصاص بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى، فعرّى و ضرب بالمقارع ضربا مبرحا، فأظهر الإسلام و هو فى العقوبة، فأمسك عنه. و ألزمه بحمل مال، فالتجأ إلى زاوية الشيخ نصر المنيحى و ترامى على الشيخ فقام فى أمره حتى عفى عنه، فكره الأمراء الأعسر لكثرة شممه و تعاظمه، فكلّموا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى، و إليه أمر الدولة فى ولاية الأمير عز الدين أيبك البغدادىّ الوزارة، و ساعدهم على ذلك الأمير سلار، فولى الأعسر كشف القلاع الشامية، و إصلاح أمورها، و ترتيب رجالها، و سائر ما يحتاج إليه. و خلع على الأمير أيبك خلع الوزارة فى آخر سنة سبعمائة، فلما عاد استقرّ أحد أمراء الألوف، و حج فى صحبة الأمير سلار و مات بالقاهرة بعد أمراض، فى سنة تسع و سبعمائة، و كان عارفا خيّرا مهابا، له سعادات طائلة، و مكارم مشهورة، و لحاشيته ثروة متسعة، و غالب مماليكه تأمّروا بعده، و ممن مدحه الوداعىّ و ابن الوكيل.

حمّام الحسام: هذه الحمّام بداخل باب الجوانية.

حمّام الصوفية: هذه الحمّام بجوار الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لصوفية الخانقاه، و هى إلى الآن جارية فى أوقافهم و لا يدخلها يهودىّ و لا نصرانى.

حمّام بهادر: هذه الحمّام موضعها من حملة القصر، و هى بجوار دار جرجى، أنشأها الأمير بهادر استادار الملك الظاهر برقوق، و قد تعطلت.

حماد الدود: هذه الحمّام خارج باب زويلة فى الشارع تجاه زقاق خان حلب، بجوار حوض سعد الدين مسعود بن هنس، عرفت بالأمير سيف الدين الدود الجاشنكيرىّ، أحد أمراء الملك المعز أيبك التركمانىّ، و خال ولده الملك المنصور نور الدين علىّ بن الملك المعز أيبك، فلما وثب الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة بديار مصر على الملك المنصور علىّ بن الملك المعز أيبك و اعتقله و جلس على سرير المملكة قبض على الأمير الدود فى ذى الحجة سنة سبع و خمسين و ستمائة و اعتقله، و هذه الحمّام إلى اليوم بيد ذرية الدود من قبل بناته موقوفة عليهم.

حمام ابن أبى الحوافر: هذه الحمّام خارج مدينة مصر بجوار الجامع الجديد الناصرىّ، كان موضعها و ما حولها عامرا بماء النيل، ثم انحصر عنه الماء و صار جزيرة، فبنى الناس عليها بعد الخمسمائة من سنى الهجرة، كما ذكر عند ذكر ساحل مصر من هذا الكتاب، و عرفت هذه الحمّام بالقاضى فتح الدين أبى العباس أحمد بن الشيخ جمال الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۶

أبى عمرو و عثمان بن هبة اللّه بن أحمد بن عقيل بن محمد بن أبى الحوافر رئيس الأطباء بديار مصر، و مات ليلة الخميس الرابع عشر من شهر رمضان سنة سبع و خمسين و ستمائة و دفن بالقرافة.

حمّام قتّال السبع: هذه الحمّام خارج باب القوس من ظاهر القاهرة فى الشارع المسلوك فيه من باب زويلة إلى صليبة جامع ابن طولون، و موضعها اليوم بجوار جامع قوصون، عمّرها الأمير جمال الدين أقوش المنصورىّ، المعروف بقتّال السبع الموصلى، بجانب داره التى هى اليوم جامع قوصون، فلما أخذ قوصون الدار المذكورة و هدمها و عمر مكانها هذا الجامع، أراد أخذ الحمّام، و كانت وقفا، فبعث إلى قاضى القضاة شرف الدين الحنبلىّ الحرّانىّ يلتمس منه حل وقفها، فأخرب منها جانبا و أحضر شهود القيمة فكتبوا محضرا يتضمن أنّ الحمام المذكورة خراب، و كان فيهم شاهد امتنع من الكتابة فى المحضر و قال: ما يسعنى من اللّه أن أدخل بكرة النهار فى هذا الحمام و أطهّر فيها، ثم أخرج منها و هى عامرة و أشهد بعد ضحوة نهار من ذلك اليوم أنها خراب، فشهد غيره، و أثبت قاضى القضاة الحنبلىّ المحضر المذكور و حكم ببيعها، فاشتراها الأمير قوصون من ورثة قتال السبع، و هى اليوم عامرة بعمارة ما حولها.

حمّام لؤلؤ: هذه الحمام برأس رحبة الأيدمرىّ، ملاصقة لدار السنانىّ من القاهرة، أنشأها الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب.

لؤلؤ الحاجب: كان أرمنىّ الأصل، و من جملة أجناد مصر فى أيام الخلفاء الفاطميين، فلما استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر، خدم تقدمة الأسطول، و كان حيثما توجه فتح و انتصر و غنم، ثم ترك الجندية و زوّج بناته و كنّ أربعا بجهاز كاف، و أعطى ابنيه ما يكفيهما، ثم شرع يتصدّق بما بقى معه على الفقراء بترتيب لا خلل فيه، و دواما لا سآمة معه، و كان يفرّق فى كل يوم اثنى عشر ألف رغيف مع قدور الطعام، و إذا دخل شهر رمضان أضعف ذلك، و تبتل للتفرقة من الظهر فى كل يوم إلى نحو صلاة العشاء الآخرة، و يضع ثلاثة مراكب طول كل مركب أحد و عشرون ذراعا مملوءة طعاما، و يدخل الفقراء أفواجا و هو قائم مشدود الوسط كأنه راعى غنم، و فى يده مغرفة و فى الأخرى جرّة سمن، و هو يصلح صفوف الفقراء و يقرّب إليهم الطعام و الودك، و يبدأ بالرجال ثم النساء ثم الصبيان، و كان الفقراء مع كثرتهم لا يزدحمون، لعلمهم أنّ المعروف يعمهم، فإذا انتهت حاجة الفقراء بسط سماطا للأغنياء تعجز الملوك عن مثله، و كان له مع ذلك على الإسلام منة توجب أن يترحم عليه المسلمون كلهم، و هى أنّ فرنج الشوبك و الكرك توجهوا نحو مدينة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لينبشوا قبره صلى اللّه عليه و سلم، و ينقلوه جسده الشريف

المقدّس إلى بلادهم و يدفنوه عندهم، و لا يمكنوا المسلمين من زيارته إلّا بجعل، فأنشأ البرنس أرباط صاحب الكرك سفنا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۷

حملها على البرّ إلى بحر القلزم، و أركب فيها الرجال، و أوقف مركبين على جزيرة قلعة القلزم تمنع أهلها من استقاء الماء، فاسرت الفرنج نحو عيذاب فقتلوا و أسروا و مضوا يريدون المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة و التسليم، و ذلك فى سنة ثمان و تسعين و خمسمائة، و كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على حران، فلما بلغه ذلك بعث إلى سيف الدولة ابن منقذ نائبه على مصر يأمره بتجهيز الحاجب لؤلؤ خلف العدوّ، فاستعدّ لذلك و أخذ معه قيودا و سار فى طلبهم إلى القلزم، و عمّر هناك مراكب و سار إلى أيلة، فوجد مراكب للفرنج فحرقها و أسر من فيها، و سار إلى عيذاب و تبع الفرنج حتى أدركهم، و لم يبق بينهم و بين المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة و التسليم إلا مسافة يوم، و كانوا ثلاثمائة و نيفا، و قد انضم إليهم عدّة من العربان المرتدّة، فعندما لحقهم لؤلؤ فرّت العربان فرقا من سطوته و رغبة فى عطيته، فإنه كان قد بذل الأموال حتى أنه علّق أكياس الفضة على رؤس الرماح، فلما فرّت العربان التجأ الفرنج إلى رأس جبل صعب المرتقى، فصعد إليهم فى عشرة أنفس و ضايقهم فيه، فخارت قواهم بعد ما كانوا معدودين من الشجعان و استسلموا، فقبض عليهم و قيّدهم و حملهم إلى القاهرة، فكان لدخولهم يوم مشهود، و تولى قتلهم الصوفية و الفقهاء و أرباب الديانة بعد ما ساق رجلين من أعيان الفرنج إلى منى و نحرهما هناك كما تنحر البدن التى تساق هديا إلى الكعبة، و لم يزل على فعل المعروف إلى أن مات رحمه اللّه فى صميم الفلا، و قد قرب منتهاه فى اليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ست و تسعين و خمسمائة، و دفن بتربته من القرافة، و هى التى حفر فيها البئر و وجد فى قعرها عند الماء اسطام مركب، و هذه الحمّام تفتح تارة و تغلق كثيرا، و هى باقية إلى يومنا هذا من جملة أوقاف الملك، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

ذكر القياسر

ذكر ابن المتوّج قياسر مصر و هى: قيسارية المحلى، و قيسارية الضيافة، وقف المارستان المنصورى، و قيسارية شبل الدولة، و قيسارية ابن الأرسوفى، و قيسارية ورثة الملك الظاهر بيبرس، و قيساريتا ابن ميسر، و قد خربت كلها.

قيسارية ابن قريش: هذه القيسارية فى صدر سوق الجملون الكبير بجوار باب سوق الورّاقين، و يسلك إليها من الجملون و من سوق الأخفافيين، المسلوك إليه من البندقانيين، و بعضها الآن سكن الأرمنيين و بعضها سكن البزازين.

قال ابن عبد الظاهر: استجدّها القاضى المرتضى ابن قريش فى الأيام الناصرية الصلاحية، و كان مكانها اسطبلا انتهى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۸

و هو القاضى المرتضى صفىّ الدين أبو المجد عبد الرحمن بن علىّ بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى، أحد كتاب الإنشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قتل شهيدا على عكا فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة ست و ثمانين و خمسمائة، و دفن بالقدس، و مولده فى سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و سمع السلفىّ و غيره.

قيسارية الشرب: هذه القيسارية بشارع القاهرة تجاه قيسارية جهاركس. قال ابن عبد الظاهر: وقفها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجماعة الصوفية، يعنى بخانقاه سعيد السعداء، و كانت إسطبلا. انتهى. و ما برحت هذه القيسارية مرعية الجانب إكراما للصوفية إلى أن كانت أيام الملك الناصر فرج، و حدثت الفتن و كثرت مصادرات التجار، انخرق ذاك السياج و عومل سكانها بأنواع من العسف، و هى اليوم من أعمر أسواق القاهرة.

قيسارية ابن أبى أسامة: هذه القيسارية بجوار الجملون الكبير على يسرة من سلك إلى بين القصرين، يسكنها الآن الخرد فوشية، وقفها الشيخ الأجل أبو الحسن علىّ بن أحمد بن الحسن بن أبى أسامة، لصاحب ديوان الإنشاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و كانت له رتبة خطيرة و منزلة رفيعة، و ينعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف، و لم يكن أحد شاركه فى هذا النعت بديار مصر فى زمانه،

و كان وقف هذه القيسارية فى سنة ثمان عشرة و خمسمائة، و توفى فى شوال سنة اثنين و عشرين و خمسمائة.

قيسارية سنقر الأشقر: هذه القيسارية على يسرة من يدخل من باب زويلة، فيما بين خزانة شمائل و درب الصغيرة، تجاه قيسارية الفاضل. أنشأها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الصالحىّ النجمىّ، أحد المماليك البحرية، و لم تزل إلى أن هدمت و أدخلت فى الجامع المؤيدى، لأيام من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة و ثمانمائة.

قيسارية أمير على: هذه القيسارية بشارع القاهرة تجاه الجملون الكبير، بجوار قيسارية جهاركس، يفصل بينهما درب قيطون، عرفت بالأمير علىّ بن الملك المنصور قلاون الذى عهد له بالملك، و لقبه بالملك الصالح، و مات فى حياة أبيه، كما قد ذكر فى فندق الملك الصالح.

قيسارية رسلان: هذه القيسارية فيما بين درب الصغيرة و الحجارين، أنشأها الأمير بهاء الدين رسلان الدوادار، و جعلها وقفا على خانقاه له بمنشأة المهرّانىّ، و كانت من أحسن القياسر، فلما عزم الملك المؤيد شيخ على بناء مدرسته هدمها فى جمادى الأولى سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، و عوّض أهل الخانقاه عنها خمسمائة دينار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۹

قيسارية جهاركس: قال ابن عبد الظاهر: بناها الأمير فخر الدين جهاركس فى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة، و كانت قبل ذلك يعرف مكانها بفندق الفراخ، و لم تزل فى يد ورثته، و انتقل إلى الأمير علم الدين أيتمش منها جزء بالميراث عن زوجته، و إلى بنت شومان من أهل دمشق، ثم اشتريت لوالدة خليل المسماة بشجر الدرّ الصالحية، فى سنة خمس و خمسين و ستمائة، و هى مع حسنها و اتقان بنائها كلها، تجرّد من الغضب جميع ما فيها، و ذكر بعض المؤرخين أن صاحبها جهاركس نادى عليها حين فرغت، فبلغت خمسة و تسعين ألف دينار على الشريف فخر الدين إسماعيل بن ثعلب، و قال لصاحبها: أنا انقدك ثمنها، أى نقد شئت، إن شئت ذهبا و إن شئت فضة، و إن شئت عروض تجارة، و قيسارية جهاركس تجرى الآن فى وقف الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة بعد سلار على ورثته.

و قال القاضى شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان:

جهاركس: بن عبد اللّه فخر الدين أبو المنصور الناصرىّ الصلاحىّ، كان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية، و كان كريما نبيل القدر علىّ الهمة، بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه، رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون: لم نر فى شىء من البلاد مثلها فى حسنها و عظمها و أحكام بنائها، و بنى بأعلاها مسجدا كبيرا و ربعا معلقا، و توفى فى بعض شهور سنة ثمان و ستمائة بدمشق، و دفن فى جبل الصالحية و تربته مشهورة هناك، رحمه اللّه، و جهاركس بفتح الجيم و الهاء و بعد الألف راء ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة.

و معناه بالعربىّ أربعة أنفس، و هو لفظ عجمىّ.

و قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمود اليغورىّ: سمعت الأمير الكبير الفاضل شرف الدين أبا الفتح عيسى بن الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم بن محمد بن أحمد الهكارىّ البحترىّ الطائىّ المقدسىّ بالقاهرة، و مولده سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة بالبيت المقدّس شرّفه اللّه تعالى، و توفى بدمشق فى ليلة الأحد تاسع عشرى ربيع الآخر سنة تسع و ستمائة، و دفن بسفح جبل قاسيون، رحمه اللّه. قال: حدّثنى الأمير صارم الدين خطلبا التبنينىّ صاحب الأمير فخر الدين أبى المنصور جهاركس بن عبد اللّه الناصرىّ الصلاحىّ رحمه اللّه. قال: بلغ الأمير فخر الدين، أن بعض الأجناد عنده فرس قد دفع له فيه ألف دينار و لم يسمح ببيعه، و هو فى غاية الحسن، فقال لى الأمير باخطلبا: إذا ركبنا و رأيت فى الموكب هذا الفرس نبهنى عليه حتى أبصره. فقلت: السمع و الطاعة.

فلما ركبنا فى الموكب مع الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر رحمه اللّه، رأيت الجندىّ على فرسه، فتقدّمت إلى الأمير فخر الدين و قلت له: هذا الجندىّ، و هذا الفرس راكبه، فنظر إليه و قال: إذا خرجنا من سماط السلطان فانظر أين الفرس و عرّفنى به. فلما دخلنا

إلى سماط الملك العزيز، عجّل الأمير فخر الدين و خرج قبل الناس، فلما بلغ إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۰

البـاب قـال لى أين الفرس؟ قلت: هـا هو مع الركـاب. دار فقـال لى: أدعه. فـدعوته إليه، فلما وقف بين يـديه و الفرس معه، أمره الأمير بأخـذ الغاشـيهٔ، و وضع الأمير رجله فى ركابه و ركبه و مضـى به إلى داره و أخـذ الفرس، فلما خرج صاحبه عرفه الركاب دار بما فعله الأمير فخر الدين، فسكت و مضى إلى بيته و بقى أياما و لم يطلب الفرس. فقال لى الأمير فخر الدين: يا خطلبا ما جاء صاحب الفرس و لا طلبه، اطلب لى صاحبه. قال: فاجتمعت به و أخبرته بأنّ الأمير يطلب الاجتماع به، فسارع إلى الحضور. فلما دخل عليه أكرمه الأمير و رفع مكانه و حدّثه و آنسه و بسطه و حضـر سـماطه فقرّبه و خصـصه من طعامه، فلما فرغ من الأكل قال له الأمير: يا فلان، ما بالك ما طلبت فرسك و له عندنا مدّهٔ؟ فقال: يا خوند، و ما عسـى أن يكون من هذا الفرس و ما ركبه الأمير إلّا و هو قد صلح له، و كلما صلح للمولى فهو على العبد حرام، و لقد شـرّفنى مولانا بأن جعلنى أهلا أن يتصـرّف فى عبده، و المملوك يحسب أن هذا الفرس قد أصابه مرض فمات، و أما الآن فقـد وقع فى محله، و عنـد أهله، و مولانا أحق به، و ما أسـعد المملوك إذا صـلح لمولانا عنده شـىء. فقال له الأـمير: بلغنى أنـك أعطيت فيه ألف دينار. قال كـذلك كان، قال: فلم لم تبعه؟ فقال: يا مولانا هـذا الفرس جعلته للجهاد، و أحسن ما جاهد الإنسان على فرس يعرفه و يثق به، و ما مقدار هذا الفرس له أسوهٔ.

فاسـتحسن الأمير همته و شـكره، ثم أشار إلىّ فتقدّمت إليه فقال لى فى أذنى: إذا خرج هذا الرجل فاخلع عليه الخلعهٔ الفلانيهٔ من أفخر ملبوس الأـمير، و أعطه ألف دينار و فرسه، فلما نهض الرجل أخـذته إلى الفرش خاناه و خلعت عليه الخلعـهٔ و دفعت إليه الكيس و فيه ألف دينار، فخدم و شـكر و خرج، فقدّم إليه فرسه و عليه سـرج خاص من سروج الأمير، و عدّهٔ فى غايهٔ الجودهٔ. فقيل: اركب فرسك. فقال: كيف أركبه و قد أخذت ثمنه، و هذه الخلعهٔ زيادهٔ على ثمنه. ثم رجع إلى الأمير فقبّل الأرض و قال: يا خوند، تشريف مولانا لا يردّ، و هـذا ثمن الفرس قـد أحضـره المملوك. فقال له الأمير فخر الـدين: يا هـذا نحن جرّبناك فوجدناك رجلا جيدا و لك همهٔ، و أنت أحق بفرسك، خذ هذا ثمنه و لا تبعه لأحد، فخدمه و شكره و دعا له و أخذ الفرس و الخلعهٔ و الألف دينار و انصرف.

و أخبرنى أيضـا الأـمير شـرف الـدين ابن أبى القـاسم قال: أخبرنى صارم الـدين التبنينى أيضا: أنّ الأمير فخر الـدين خـدم عنـده بعض الأجنـاد، فعرض عليه فأعجبه شـكله، و قال لـديوانه: اسـتخدموا هـذا الرجل. فتكلموا معه و قـدّروا له فى السـنهٔ اثنى عشـر ألف درهم، فرضـى الرجل و انتقل إلى حلقـهٔ الأمير قوصون و ضـرب خيمته و أحضـر بركه، فلما كان بعض الأيام رجع الأمير من الخدمـهٔ فعبر فى جنب خيمـهٔ هـذا الرجل، فرأى خيمـهٔ حسـنهٔ و خيلا جيادا و جمالا و بغالا و بركا فى غايـهٔ الجودهٔ. فقال: هـذا البرك لمن؟ فقيل هـذا برك فلان الذى خدم عند الأمير فى هذه الأيام. فقال: قولوا له ما لك عندنا شغل، تمضى فى حال سبيلك، فلما قيل للرجل ذلك أمر بأن تحط خيمته و أتى إلىّ و قال: يا مولانا، أنا رائح، و ها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۱

أنا قد حملت بركى، و لكن أشتهى منك أن تسأل الأمير ما ذنبى.

قال: فـدخلت إلى الأمير و أخبرته بما قال الرجل. فقال: و اللّه ما له عندى ذنب إلا أنّ هذا البرك و هذه الهمهٔ يسـتحق بها أضـعاف ما أعطى، فـأنكرت عليه كيف رضـى بهـذا القـدر اليسير و هو يسـتحق أن تكون أربعين ألف درهم، و تكون قليلـهٔ فى حقه، فـإذا خـدم بثلاثين ألف درهم يكون قد ترك لنا عشرهٔ آلاف درهم، فهذا ذنبه عندى.

فرجعت إلى الرجل فأعلمته بما قال الأمير فقال: إنما خـدمت عند الأمير و رضـيت بهذا القدر لعلمى أن الأمير إذا عرف حالى فيما بعد لا يقنع لى بهـذا الجارى، فكنت على ثقـهٔ من إحسان الأمير أبقاه اللّه، و أما الآن فلا أرضـى أن أخـدم إلا بثلاثين ألف درهم كما قال الأمير.

فرجعت إلى الأمير و أخبرته بما قال الرجل فقال: يجرى له ما طلب، و خلع عليه و أحسن إليه.

و كان الأمير فخر الدين جهاركس مقدّم الناصرية و الحاكم بديار مصر فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى أن مات العزيز، فمال الأمير فخر الدين جهاركس إلى ولاية ابن الملك العزيز، و فاوض فى ذلك الأمير سيف الدين يازكوج الأسدىّ، و هو يومئذ مقدّم الطائفة الأسدية، و كان الملك العزيز قد أوصى بالملك لولده محمد، و أن يكون الأمير الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدىّ مدبر أمره، فأشار يازكوج بإقامة الملك الأفضل علىّ بن صلاح الدين فى تدبير أمير ابن العزيز، فكره جهاركس ذلك، ثم أنهم أقاموا ابن العزيز و لقبوه بالملك المنصور و عمره نحو تسع سنين، و نصبوا قراقوش اتابكا، و هم فى الباطن يختلفون عليه، و ما زالوا يسعون عليه فى إبطال أمر قراقوش حتى اتفقوا على مكاتبة الأفضل المتقدّم ذكره، و حضوره إلى مصر و يعمل اتابكية المنصور مدّة سبع سنين حتى يتأهل بالاستبداد بالملك، بشرط أن لا يرفع فوق رأسه سنجق الملك، و لا يذكر اسمه فى خطبة، و لا سكة، فلما سار القاصد إلى الأفضل بكتب الأمراء، بعث جهاركس فى الباطن قصدا على لسانه و لسان الطائفة الصلاحية بكتبهم إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و كتب إلى الأمير ميمون القصرىّ صاحب نابلس يأمره بأن لا يطيع الملك الأفضل، و لا يحلف له، فاتفق خروج الملك الأفضل من صرخد ، و لقاه قاصد فخر الدين جهاركس فأخذ منه الكتب و قال: له ارجع فقد قضيت الحاجة، و سار إلى القاهرة و معه القاصد، فلما خرج الأمراء من القاهرة إلى لقائه ببلبيس، فعمل له فخر الدين سماطا احتفل فيه احتفالا زائدا لينزل عنده، فنزل عند أخيه الملك المؤيد نجم الدين مسعود، فشق ذلك على جهاركس، و جاء إلى خدمته، فلما فرغ من طعام أخيه صار إلى خيمة جهاركس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۲

و قعد ليأكل، فرأى جهاركس قاصده الذى سيره فى خدمة الأفضل، فدهش و أيقن بالشر، فللحال استأذن الأفضل أن يتوجه إلى العرب المختلفين بأرض مصر ليصلح بينهم، فأذن له و قام من فوره و اجتمع بالأمير زين الدين قراجا، و الأمير أسد الدين قراسنقر، و حسّن لهما مفارقة الأفضل، فسارا معه إلى القدس و غلبوا عليه، و وافقهم الأمير عز الدين أسامة، و الأمير ميمون القصرى، فقدم عليهم فى سبعمائة فارس، و لما صاروا كلمة واحدة كتبوا إلى الملك العادل يستدعونه للقيام باتابكية الملك المنصور محمد بن العزيز بمصر.

و أما الأفضل فإنه لما دخل من بلبيس إلى القهرة، قام بتدبير الدولة، و أمر الملك بحيث لم يبق للمنصور معه سوى مجرّد الاسم فقط، و شرع فى القبض على الطائفة الصلاحية أصحاب جهاركس، ففرّوا منه إلى جهاركس بالقدس، فقبض على من قدر عليه منهم و نهب أموالهم، فلما زالت دولة الأفضل من مصر بقدوم الملك العادل أبى بكر بن أيوب، استولى فخر الدين جهاركس على بانياس بأمر العادل، ثم انحرف عنه و كانت له أنباء إلى أن مات، فانقضى أمر الطائفة الصلاحية بموته و موت الأمير قارجا و موت الأمير أسامة، كما انقضى أمر غيرهم.

قيسارية الفاضل: هذه القيسارية على يمنة من يدخل من باب زويلة، عرفت بالقاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ، و هى الآن فى أوقاف المارستان المنصورىّ، أخبرنى شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد العزيز العذرىّ البشبيشىّ رحمه اللّه قال: أخبرنى القاضى بدر الدين أبو إسحاق إبراهيم بن القاضى صدر الدين أبى البركات أحمد بن فخر الدين أبى الروح عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن المعروف بابن الخشاب: أن قيسارية الفاضل وقفت بضع عشرة مرّة، منها مرّتين أو أكثر زف كتاب وقفها بالأغانى فى شارع القاهرة، و هى الآن تشتمل على قيسارية ذات بحرة ماء للوضوء بوسطها، و أخرى بجانبها، يباع فيها جهاز النساء و شوارهنّ، و يعلوها ربع فيه عدّة مساكن.

قيسارية بيبرس: هذه القيسارية على رأس باب الجودرية من القاهرة، كان موضعها دارا تعرف بدار الأنماط، اشتراها و ما حولها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرىّ قبل ولايته السلطنة، و هدمها و عمر موضعها هذه القيسارية و الربع فوقها، و تولى عمارة ذلك مجد الدين بن سالم الموقع، فلما كملت طلب سائر تجارة قيسارية جهاركس، و قيسارية الفاضل، و ألزمهم بإخلاء حوانيتهم من

القيساريتين، و سكناهم بهذه القيساريۀ، و أكرههم على ذلك و جعل أجرۀ كل حانوت منها مائۀ و عشرين درهما نقرۀ، فلم يسع التجار إلا استئجار حوانيتها، و صار كثير منهم يقوم بأجرۀ الحانوت الذى ألزم به فى هذه القيساريۀ من غير أن يترك حانوته الذى هو معه بإحدى القيساريتين المذكورتين، و نقل أيضا صناع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۳

الأخفاف و أسكنهم فى الحوانيت التى خارجها، فعمرت من داخلها و خارجها بالناس فى يومين، و جاء إلى مخدومه الأمير بيبرس و كان قد ولى السلطنۀ و تقلب بالملك المظفر و قال: بسعادۀ السلطان أسكنت القيساريۀ فى يوم واحد، فنظر إليه طويلا و قال: يا قاضى إن كنت أسكنتها فى يوم واحد فهى تخلو فى ساعۀ واحدۀ. فجاء الأمر كما قال، و ذلك أنه لما فرّ بيبرس من قلعۀ الجبل لم يبت فى هذه القيساريۀ لأحد من سكانها قطعۀ قماش، بل نقلوا كل ما كان لهم فيها و خلت حوانيتها مدّۀ طويلۀ، ثم سكنها صنّاع الأخفاف، كل حانوت بعشرۀ دراهم، و فى حوانيتها ما أجرته ثمانيۀ دراهم، و هى الآن جاريۀ فى أوقاف الخانقاه الركنيۀ بيبرس، و يسكنها صناع الأخفاف، و أكثر حوانيتها غير مسكون لخرابها و لقلۀ الاخفافيين، و يعرف الخط الذى هى فيه اليوم بالأخفافيين رأس الجودريۀ.

القيساريۀ الطويلۀ: هذه القيساريۀ فى شارع القاهرۀ بسوق الخردفوشيين، فيما بين سوق المهامزيين و سوق الجوخيين، و لها باب آخر عند باب سر حمّام الخرّاطين، كانت تعرف قديما بقيساريۀ السروج بناها ... .

قيساريۀ ... : هذه القيساريۀ تجاه قيساريۀ السروج المعروفۀ الآن بالقيساريۀ الطويلۀ، بعضها وقفه القاضى الأشرف بن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ، على ملء الصهريج بدرب ملوخيا، و بعضها وقف الصالح طلائع بن رزيك الوزير، و قد هدمت هذه القيساريۀ و بناها الأمير جانى بك دوادار السلطان الملك الأشرف برسباى الدقاقىّ الظاهرىّ، فى سنۀ ثمان و عشرين و ثمانمائۀ، تربيعۀ تتصل بالوراقين، و لها باب من الشارع، و جعل علوها طباقا، و على بابها حوانيت، فجاءت من أحسن المبانى.

قيساريۀ العصفر: هذه القيساريۀ بشارع القاهرۀ، لها باب من سوق المهامزيين، و باب من سوق الورّاقين، عرفت بذلك من أجل أن العصفر كان يدق بها. أنشأها الأمير علم الدين سنجر المسرورىّ المعروف بالخياط والى القاهرۀ، و وقفها فى سنۀ اثنتين و تسعين و ستمائۀ، و لم تزل باقيۀ بيد ورثته إلى أن ولى القاضى ناصر الدين محمد بن البارزىّ الحموىّ كتابۀ السرّ فى أيام المؤيد شيخ، فاستأجرها مدّۀ أعوام من مستحقيها، و نقل إليها العنبريين، فصارت قيساريۀ عنبر، و ذلك فى سنۀ ست عشرۀ و ثمانمائۀ، ثم انتقل منها أهل العنبر إلى سوقهم فى سنۀ ثمانى عشرۀ و ثمانمائۀ.

قيساريۀ العنبر: قد تقدّم فى ذكر الأسواق أنها كانت سجنا، و أن الملك المنصور قلاون عمّرها فى سنۀ ثمانين و ستمائۀ، و جعلها سوق عنبر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۴

قيساريۀ الفائزى: هذه القيساريۀ كانت بأوّل الخرّاطين مما يلى المهامزيين، لها باب من المهامزيين، و باب من الخرّاطين. أنشأها الوزير الأسعد شرف الدين أبو القاسم هبۀ اللّه بن صاعد بن وهيب الفارسىّ، كان من جملۀ نصارى صعيد مصر، و كتب على مبايض ناحيۀ سيوط بدرهم و ثلث فى كل يوم، ثم قدم إلى القاهرۀ و أسلم فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و خدم عند الملك الفائز إبراهيم بن الملك العادل، فنسب إليه و تولى نظر الديوان فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب مدّۀ يسيرۀ، ثم ولى بعض أعمال ديار مصر، فنقل عنه ما أوجب الكشف عليه، فندب موفق الدين الأمدىّ لذلك، فاستقرّ عوضه و سجنه مدّۀ، ثم أفرج عنه و سافر إلى دمشق و خدم بها الأمير جمال الدين يغمور نائب السلطنۀ بدمشق، فلما قدم الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب من حصن كيفا إلى دمشق بعد موت أبيه ليأخذ مملكۀ مصر، سار معه إلى مصر فى شوال سنۀ سبع و أربعين و ستمائۀ، فلما قامت شجرۀ بتدبير المملكۀ بعد قتل المعظم، تعلق بخدمۀ الأمير عز الدين آيبك التركمانىّ مقدّم العساكر إلى أن تسلطن، و تلقب بالملك المعز، فولاه الوزارۀ فى سنۀ ثمان و أربعين و ستمائۀ، فأحدث مظالم كثيرۀ و قرّر على التجار و ذوى اليسار أموالا تجبى

منهم، و أحدث التقويم و التصقيع على سائر الأملاك، و جبى منها مالا جزيلا، و رتّب مكوسا على الدواب من الخيل و الجمال و الحمير و غيرها، و على الرقيق من العبيد و الجوارى، و على سائر المبيعات، و ضمن المنكرات من الخمر و المزر و الحشيش و بيوت الزوانى بأموال، و سمى هذه الجهات بالحقوق السلطانية و المعاملات الديوانية، و تمكن من الدولة تمكنا زائدا إلى الغاية، بحيث أنه سار إلى بلاد الصعيد بعساكر لمحاربة بعض الأمراء، و كان الملك المعز أيبك يكاتبه بالمملوك، و كثر ماله و عقاره حتى أنه لم يبلغ صاحب قلم فى هذه الدول ما بلغه من ذلك، و اقتنى عدّة مماليك، منهم من بلغ ثمنه ألف دينار مصرية، و كان يركب فى سبعين مملوكا من مماليكه، سوى أرباب الأقلام و الأتباع، و خرج بنفسه إلى أعمال مصر و استخرج أموالها، و كان ينوب عنه فى الوزارة زين الدين يعقوب بن الزبير، و كان فاضلا يعرف اللسان التركىّ، فصار يضبط له مجالس الأمراء و يعرّفه ما يدور بينهم من الكلام، فلم يزل على تمكنه و بسط يده و عظم شأنه إلى أن قتل الملك المعز و قام من بعده ابنه الملك المنصور نور الدين علىّ، و هو صغير، فاستقرّ على عادته حتى شهد عليه الأمير سابق الدين بوزبا الصيرفىّ، و الأمير ناصر الدين محمد بن الأطروش الكردىّ أمير جاندار، أنه قال المملكة لا تقوم بالصبيان الصغار، و الرأى أن يكون الملك الناصر صاحب الشام ملك مصر، و أنه قد عزم على أن يسير إليه يستدعيه إلى مصر و يساعده على أخذ المملكة، فخافت أمّ السلطان منه و قبضت عليه و حبسته عندها بقلعة الجبل، و وكلت بعذابه الصارم أحمر عينه العمادىّ الصالحى، فعاقبه عقوبة عظيمة، و وقعت الحوطة على سائر أمواله و أسبابه و حواشيه، و أخذ خطه بمائة ألف دينار، ثم خنق لليال مضت من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۵

جمادى الأولى سنة خمس و خمسين و ستمائة، و لفّ فى نخ و دفن بالقرافة.

و استقرّ من بعده فى الوزارة قاضى القضاة بدر الدين السنجارىّ مع ما بيده من قضاء القضاة، و لم تزل هذه القيسارية باقية، و كانت تعرف بقيسارية النشاب إلى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، هى و الحوانيت على يمنة من سلك من الخرّاطين يريد الجامع الأزهر، و فيما بينهما كان باب هذه القيسارية، و كانت هذه الحوانيت تعرف بوقف تمرتاش، و هدم الجميع و شرع فى بنائه، فقتل قبل أن يكمل، و أخذه الملك الناصر فرح، فبنيت الحوانيت التى هى على الشارع بسوق المهامزيين، و صار ما بقى ساحة عمرها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى ناظر الجيش قيسارية يعلوها ربع، و بنى أيضا على حوانيت جمال الدين ربعا، و ذلك فى سنة خمس و عشرين و ثمانمائة. و قال الإمام عفيف الدين أبو الحسن علىّ بن عدلان يمدح الأسعد الفائزىّ رحمه اللّه ابن صاعد، و ابنه المرتضى:

مذ تولى أمورنالم أزل منه ذاهبه

و هو إن دام أمرهشدّة العيش ذاهبه

قيسارية بكتمر: هذه القيسارية بسوق الحريريين بالقرب من سوق الوراقين، كانت تعرف قديما بالصاغة، ثم صارت فندقا يقال له فندق حكم، و أصلها من جملة الدار العظمى التى تعرف بدار المأمون بن البطائحى، و بعضها المدرسة السيوفية. أنشأ هذه القيسارية الأمير بكتمر الساقى فى أيام الناصر محمد بن قلاوون.

قيسارية ابن يحيى: هذه القيسارية كانت تجاه باب قيسارية جهاركس، حيث سوق الطيور، و قاعات الحلوى، أنشأها القاضى المفضل هبة اللّه بن يحيى التميمىّ المعدّل، كان موثقا كاتبا فى الشروط الحكمية فى حدود سنة أربعين و خمسمائة فى الدولة الفاطمية، ثم صار من جملة العدول، و بقى إلى سنة ثمانين، و له ابن يقال له كمال الدين عبد المجيد القاضى المفضل، و لكمال الدين ابن يقال له جلال الدين محمد بن كمال الدين عبد المجيد بن القاضى المفضل هبة اللّه بن يحيى، مات فى آخر سنة ستين و سبعمائة، و قد خربت هذه القيسارية و لم يبق لها أثر.

قيسارية طاشتمر: هذه القيسارية بجوار الوراقين، لها باب كبير من سوق الحريريين، على يسرة من سلك إلى الزجاجين و باب من

الوراقين. أنشأها الأمير طاشتمر فى أعوام بضع و ثلاثين و سبعمائة، و سكنها عقادوا الأزرار حتى غصت بهم مع كبرها و كثرة حوانيتها، و كان لهم منظر بهيج، فإنّ أكثرهم من بياض الناس، و تحت يد كل معلم منهم عدّة صبيان من أولاد الأتراك و غيرهم فطالما مررت منها إلى سوق الوراقين، و داخلنى حياء من كثرة من أمرّ به هناك، ثم لما حدثت المحن فى سنة ست و ثمانمائة تلاشى أمرها و خرب الربع الذى كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۶

علوها، و بيعت أنقاضه، و بقيت فيها اليوم بقية يسيرة.

قيسارية الفقراء: هذه القيسارية خارج باب زويلة بخط تحت الربع أنشأها .

قيسارية بشتاك: خارج باب زويلة بخط تحت الربع، أنشأها الأمير بشتاك الناصرىّ و هى الآن .

قيسارية المحسنى: خارج باب زويلة تحت الربع، أنشأها الأمير بدر الدين بيلبك المحسنى، والى الإسكندرية، ثم والى القاهرة، كان شجاعا مقداما، فأخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الشام و بها مات فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، فأخذ ابنه الأمير ناصر الدين محمد بن بيلبك المحسنى إمرته، فلما مات الملك الناصر قدم إلى القاهرة و ولاه الأمير قوصون ولاية القاهرة فى سابع عشر صفر سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، فلما قبض على قوصون فى يوم الثلاثاء آخر شهر رجب منها، أمسك ابن المحسنى و أعيد نجم الدين إلى ولاية القاهرة، ثم عزل من يومه و ولى الأمير جمال الدين يوسف والى الجيزة، فأقام أربعة أيام و عزل بطلب العامّة عزله و رجمه، فأعيد نجم الدين.

قيسارية الجامع الطولونى: هذه القيسارية كان موضعها فى القديم من جملة قصر الإمارة الذى بناه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، و كان يخرج منه إلى الجامع من باب فى جداره القبلىّ، فلما خرب صار ساحة أرض، فعمر فيها القاضى تاج الدين المناوى خليفة الحكم عن قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة قيسارية فى سنة خمسين و سبعمائة من فائض مال الجامع الطولونى، فكمل فيها ثلاثون حانوتا، فلما كانت ليلة النصف من شهر رمضان من هذه السنة، رأى شخص من أهل الخير رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى منامه و قد وقف على باب هذه القيسارية و هو يقول: بارك اللّه لمن يسكن هذه القيسارية، و كرّر هذا القول ثلاث مرّات. فلما قص هذه الرؤيا رغب الناس فى سكناها، و صارت إلى اليوم هى و جميع ذلك السوق فى غاية العمارة، و فى سنة ثمانى عشرة و ثمانمائة أنشأها قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينىّ من مال الجامع المذكور قيسارية أخرى، فرغب الناس فى سكناها لوفور العمارة بذلك الخط.

قيسارية ابن ميسر الكبرى: هذه القيسارية أدركتها بمدينة مصر فى خط سويقة وردان، و هى عامرة يباع بها القماش الجديد من الكتان الأبيض و الأزرق و الطرح، و تمضى تجار القاهرة إليها فى يومى الأحد و الأربعاء لشراء الأصناف المذكورة، و ذكر ابن المتوّج أن لها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۷

خمسة أبواب، و أنها وقف، ثم وقعت الحوطة عليها فجرت فى الديوان السلطانىّ، و قصدوا بيعها مرارا فلم يقدر أحد على شرائها، و كان بها عمد رخام، فأخذها الديوان و عوّضت بعمد كدان، و أنه شاهدها مسكونة جميعها، عامرة. انتهى. و قد خرب ما حولها بعد سنة ستين و سبعمائة، و تزايد الخراب حتى لم يبق حولها سوى كيمان، فعمل لها باب واحد، و تردّد الناس إليها فى اليومين المذكورين لا غير، فلما كانت الحوادث منذ سنة ست و ثمانمائة و استولى الخراب على أقليم مصر تعطلت هذه القيسارية ثم هدمت فى سنة ست عشرة و ثمانمائة.

قيسارية عبد الباسط: هذه القيسارية برأس الخرّاطين من القاهرة، كان موضعها يعرف قديما بعقبة الصباغين، ثم عرف بالقشاشين، ثم عرف بالخرّاطين، و كان هناك مارستان و وكالة فى الدولة الفاطمية، و أدركنا بها حوانيت تعرف بوقف تمرتاش المعظمىّ، فأخذها الأمير جمال الدين الأستادار فيما أخذ من الأوقاف، فلما قتل أخذ الناصر فرج جانبا منها و جدّد عمارتها و وقفها على تربة أبيه الظاهر

برقوق، ثم أخذها زين الدين عبد الباسط بن خليل فى أيام المؤيد شيخ، و عمل فى بعضها هذه القيسارية و علوها، و وقفها على مدرسته و جامعه، ثم أخذ السلطان الملك الأشرف برسباى بقية الحوانيت من وقف جمال الدين و جدّد عمارتها فى سنة سبع و عشرين و ثمانمائة.

ذكر الخانات و الفنادق

خان مسرور: خان مسرور مكانان، أحدهما كبير و الآخر صغير، فالكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الحريريين، كان موضعه خزانة الدرق التى تقدّم ذكرها فى خزائن القصر، و الصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر، كان ساحة يباع فيها الرقيق، بعد ما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق.

قال ابن الطوير: خزانة الدرق كانت فى المكان الذى هو خان مسرور، و هى برسم استعمالات الأساطيل من الكبورة الخرجية و الخود الجلودية و غير ذلك.

و قال ابن عبد الظاهر فندق مسرور؛ مسرور هذا من خدّام القصر، خدم الدولة المصرية و اختص بالسلطان صلاح الدين رحمه اللّه، و قدّمه على حلقته، و لم يزل مقدّما فى كل وقت، و له برّ و إحسان و معروف، و يقصد فى كل حسنة و أجر و برّ، و بطل الخدمة فى الأيام الكاملية، و انقطع إلى اللّه تعالى و لزم داره، ثم بنى الفندق الصغير إلى جانبه، و كان قبل بنائه ساحة يباع فيها الرقيق، اشترى ثلثها من والدى رحمه اللّه، و الثلثين من ورثة ابن عنتر، و كان قد ملك الفندق الكبير لغلامه ريحان و حبسه عليه، ثم من بعده على الأسرى و الفقراء بالحرمين، و هو مائة بيت إلّا بيتا، و به مسجد تقام فيه الجماعة و الجمع، و لمسرور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۸

المذكور برّ كثير بالشام و بمصر، و كان قد وصى أن تعمل داره و هى بخط حارة الأمراء مدرسة، و يوقف الفندق الصغير عليها، و كانت له ضيعة بالشام بيعت للأمير سيف الدين أبى الحسن القيمرىّ بجملة كبيرة، و عمرت المدرسة المذكورة بعد وفاته. انتهى.

و قد أدركت فندق مسرور الكبير فى غاية العمارة، تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم، و كان فيه أيضا مودع الحكم الذى فيه أموال اليتامى و الغياب، و كان من أجلّ الخانات و أعظمها، فلما كثرت المحن بخراب بلاد الشام منذ سنة تيمورلنك، و تلاشت أحوال إقليم مصر، قلّ التجار و بطل مودع الحكم، فقلّت مهابة هذا الخان و زالت حرمته و تهدّمت عدّة أماكن منه، و هو الآن بيد القضاة.

فندق بلال المغيثى: هذا الفندق فيما بين خط حمّام خشيبة و حارة العدوية، أنشأه الأمير الطواشى أبو المناقب حسام الدين بلال المغيثى، أحد خدّام الملك المغيث صاحب الكرك، كان حبشىّ الجنس، حالك السواد، خدم عدّة من الملوك، و استقرّ لالا الملك الصالح علىّ بن الملك المنصور قلاوون، و كان معظما إلى الغاية، يجلس فوق جميع أمراء الدولة، و كان الملك المنصور قلاوون إذا رآه يقول: رحم اللّه أستاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب، أنا كنت أحمل شارموزة هذا الطواشى حسام الدين كلما دخل إلى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده، فأقدّمها له، و كان كثير البرّ و الصدقات و له أموال جزيلة، و مدحه عدّة من الشعراء، و أجاز على المديح، و تجاوز عمره ثمانين سنة، فلما خرج الملك الناصر محمد بن قلاون لقتال التتر فى سنة تسع و تسعين و ستمائة سافر معه، فمات بالسوادة و دفن بها، ثم نقل منها بعد وقعة شقحب إلى تربته بالقرافة فدفن هناك، و ما برح هذا الفندق يودع فيه التجار و أرباب الأموال صناديق المال، و لقد كنت أدخل فيه فإذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير و كبير، لا يفضل عنها من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه، و تشتمل هذه الصناديق من الذهب و الفضة على ما يجلّ وصفه، فلما أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل الزمام الفندق بالقرب منه، و أنشأ الأمير قلمطاى الفندق بالزجاجين، و أخذ الأمير يلبغا السالمىّ أموال الناس فى واقعة تيمورلنك فى سنة ثلاث و ثمانمائة، تلاشى أمر هذا الفندق و فيه إلى الآن بقية.

فندق الصالح: هذا الفندق بجوار باب القوس الذى كان أحد بابى زويلة، فمن سلك اليوم من المسجد المعروف بسام بن نوح يريد باب زويلة، صار هذا الفندق على يساره، و أنشأه هو و ما يعلوه من الربع، الملك الصالح علاء الدين علىّ بن السلطان الملك المنصور قلاون، و كان أبوه لما عزم على المسير إلى محاربة التتر ببلاد الشام، سلطنه و أركبه بشعار السلطنة من قلعة الجبل فى شهر رجب سنة تسع و سبعين و ستمائة، و شق به شارع القاهرة من باب النصر إلى أن عاد إلى قلعة الجبل، و أجلسه على مرتبته، و جلس إلى جانبه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۹

فمرض عقيب ذلك و مات ليلة الجمعة الرابع من شعبان، فأظهر السلطان لموته جزعا مفرطا و حزنا زائدا، و صرخ بأعلى صوته و اولداه، و رمى كلوتته عن رأسه إلى الأرض و بقى مكشوف الرأس إلى أن دخل الأمراء إليه و هو مكشوف الرأس يصرخ و اولداه، فعندما عاينوه كذلك ألقوا كلوتاتهم عن رؤوسهم و بكوا ساعة، ثم أخذ الأمير طرنطاى النائب شاش السلطان من الأرض و ناوله للأمير سنقر الأشقر، فأخذه و مشى و هو مكشوف الرأس، و باس الأرض و ناول الشاش للسلطان، فدفعه و قال: ايش أعمل بالملك بعد ولدى، و امتنع من لبسه، فقبّل الأمراء الأرض يسألون السلطان فى لبس شاشه، و يخضعون له فى السؤال ساعة حتى أجابهم و غطى رأسه، فلما أصبح خرجت جنازته من القلعة و معها الأمراء من غير حضور السلطان، و صاروا بها إلى تربة أمه المعروفة خاتون، قريبا من المشهد النفيسىّ، فواروه و انصرفوا، فلما كان يوم السبت ثانية، نزل السلطان من القلعة و عليه البياض تحزنا على ولده، و سار و معه الأمراء بثياب الحزن إلى قبر ابنه و أقيم العزاء لموته عدّة أيام.

خان السبيل: هذا الخان خارج باب الفتوح، قال ابن عبد الظاهر: خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش بن عبد اللّه الأسدىّ خادم أسد الدين شيركوه، و عتيقه لأبناء السبيل و المسافرين بغير أجرة، و به بئر ساقية و حوض.

و

قراقوش هذا: هو الذى بنى السور المحيط بالقاهرة و مصر و ما بينهما، و بنى قلعة الجبل، و بنى القناطر التى بالجيزة على طريق الأهرام، و عمر بالمقس رباطا، و أسره الفرنج فى عكا و هو واليها، فافتكه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعشرة آلاف دينار، و توفى مستهل رجب سنة سبع و سبعين و خمسمائة، و دفن بسفح الجبل المقطم من القرافة.

خان منكورش: هذا الخان بخط سوق الخيميين بالقرب من الجامع الأزهر. قال ابن عبد الظاهر: خان منكورش بناه الأمير ركن الدين منكورش زوج أمّ الأوحد بن العادل، ثم انتقل إلى ورثته، ثم انتقل إلى الأمير صلاح الدين أحمد بن شعبان الأبلى. فوقفه، ثم تحيل ولده فى إبطال وقفه، فاشتراه منه الملك الصالح بعشرة آلاف دينار مصرية، و جعله مرصدا لوالدة خليل، ثم انتقل عنها. انتهى.

قال مؤلفه: و منكورش هذا كان أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و تقدّم حتى صار أحد الأمراء الصالحية، و عرف بالشجاعة و النجدة، و إصابة الرأى و جودة الرمى و ثبات الجأش، فلما مات فى شوّال سنة سبع و سبعين و خمسمائة، أخذ إقطاعه الأمير ياركوج الأسدىّ، و هذا الخان الآن يعرف بخان النشارين، على يسرة من سلك من الخراطين إلى الخيميين، و هو وقف على جهات برّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۰

فندق ابن قريش: هذا الفندق، قال ابن عبد الظاهر: فندق ابن قريش استجدّه القاضى شرف الدين إبراهيم بن قريش، كاتب الإنشاء، و انتقل إلى ورثته. انتهى.

إبراهيم بن عبد الرحمن بن علىّ بن عبد العزيز بن علىّ بن قريش: أبو إسحاق القرشىّ المخزومىّ المصرىّ الكاتب شرف الدين، أحد الكتاب المجيدين خطا و إنشاء، خدم فى دولة الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و فى دولة ابنه الملك الكامل محمد بديوان الإنشاء، و سمع الحديث بمكة و مصر، و حدّث، و كانت ولادته بالقاهرة فى أوّل يوم من ذى القعدة سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و قرأ القرآن و حفظ كثيرا من كتاب المهذب فى الفقه على مذهب الإمام الشافعىّ، و برع فى الأدب، و كتب بخطه ما يزيد على أربعمائة

مجلد، و مات فى الخامس و العشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث و أربعين و ستمائة.

وكالة قوصون: هذه الوكالة فى معنى الفنادق و الخانات، ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت و الشيرج و الصابون و الدبس و الفستق و الجوز و اللوز و الخرنوب و الرب و نحو ذلك، و موضعها فيما بين الجامع الحاكمىّ و دار سعيد السعداء، كانت أخيرا دارا تعرف بدار تعويل البوعانى، فأخربها و ما جاورها الأمير قوصون، و جعلها فندقا كبيرا إلى الغاية، و بدائره عدة مخازن، و شرط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة على ذلك، و لا يخرج أحد من مخزنه، فصارت هذه المخازن تتوارث لقلة أجرتها و كثرة فوائدها، و قد أدركنا هذه الوكالة، و أن رؤيتها من داخلها و خارجها لتدهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع و ازدحام الناس و شدّة أصوات العتالين عند حمل البضائع و نقلها لمن يبتاعها، ثم تلاشى أمرها منذ خربت الشام فى سنة ثلاث و ثمانمائة على يد تيمورلنك، و فيها إلى الآن بقية، و يعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلثمائة و ستين بيتا، أدركناها عامرة كلها، و يحزر أنها تحوى نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل و امرأة و صغير و كبير، فلما كانت هذه المحن فى سنة ست و ثمانمائة، خرب كثير من هذه البيوت و كثير منها عامر آهل.

فندق دار التفاح: هذه الدار هى فندق تجاه باب زويلة، يرد إليه الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة، و من التفاح و الكمثرى و السفرجل الواصل من البلاد الشامية، إنما يباع فى وكالة قوصون إذا قدم، و منها ينقل إلى سائر أسواق القاهرة و مصر و نواحيهما، و كان موضع دار التفاح هذه فى القديم من جملة حارة السودان التى عملت بستانا فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. و أنشأ هذه الدار الأمير طقوزدمر بعد سنة أربعين و سبعمائة، و وقفها على خانقاه بالقرافة، و بظاهر هذه الدار عدّة حوانيت تباع فيها الفاكهة تذكر رؤيتها و شمّ عرفها الجنة لطيبها و حسن منظرها، و تأنق الباعة فى تنضيدها، و احتفافها بالرياحين و الأزهار، و ما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل إلى الفواكه حرّ الشمس، و لا يزال ذلك الموضع غضا طريا إلّا أنه قد اختل منذ سنة ست

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۱

و ثمانمائة، و فيه بقية ليست بذاك، و لم تزل إلى أن هدم علو الفندق و ما بظاهره من الحوانيت فى يوم السبت سادس عشر شعبان، سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و ذلك أن الجامع المؤيدىّ جاءت شبابيكه الغربية من جهة دار التفاح، فعمل فيها كما صار يعمل فى الأوقاف، و حكم باستبدالها و دفع فى ثمن نقضها ألف دينار إفريقية، عنها مبلغ ثلاثين ألف مؤيدىّ فضة، و يتحصل من أجرتها إلى أن ابتدئ بهدمها فى كل شهر سبعة آلاف درهم فلوسا، عنها ألف مؤيدى، فاستشنع هذا الفعل و مات الملك المؤيد و لم تكمل عمارة الفندق.

وكالة باب الجوّانية: هذه الوكالة تجاه باب الجوّانية من القاهرة، فيما بين درب الرشيدى و وكالة قوصون، كان موضعها عدّة مساكن، فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن علىّ الأستادار بهدمها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة، و بناها فندقا و ربعا بأعلاه، فلما كملت رسم الملك الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة يرد إليها ما يصل إلى القاهرة و ما يرد من صنف متجر الشام فى البحر، كالزيت و الرب و الدبس، و يصير ما يرد فى البرّ يدخل به على عادته إلى وكالة قوصون، و جعلها وقفا على المدرسة الخانقاه التى أنشأها بخط بين القصرين، فاستمرّ الأمر على ذلك إلى اليوم.

خان الخليلى: هذا الخان بخط الزراكشة العتيق، كان موضعه تربة القصر التى فيها قبور الخلفاء الفاطميين المعروفة بتربة الزعفران، و قد تقدّم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب. أنشأه الأمير جهاركس الخليلىّ أميراخور الملك الظاهر برقوق، و أخرج منها عظام الأموات فى المزابل على الحمير و ألقاها بكيمان البرقية، هوانا بها، فإنه كان يلوذ به شمس الدين محمد بن أحمد القليجى الذى تقدّم ذكره فى ذكر الدور من هذا الكتاب و قال له: إن هذه عظام الفاطميين، و كانوا كفارا رفضة، فاتفق للخليلىّ فى موته أمر فيه عبرة لأولى الألباب، و هو أنه لما ورد الخبر بخروج الأمير بلبغا الناصرىّ نائب حلب، و مجيء الأمير منطاش نائب ملطية إليه، و مسيرهما

بالعساكر إلى دمشق، أخرج الملك الظاهر برقوق خمسمائة من المماليك، و تقدّم لعدّة من الأمراء بالمسير بهم، فخرج الأمير الكبير ايتمش الناصريّ و الأمير جهاركس الخليل هذا، و الأمير يونس الدوادار، و الأمير أحمد بن بلبغا الخاصكيّ، و الأمير ندكار الحاجب، و ساروا إلى دمشق، فلقيهم الناصرى ظاهر دمشق، فانكسر عسكر السلطان لمخامرة ابن بلبغا و ندكار، و فرّ أيتمش إلى قلعة دمشق، و قتل الخليليّ فى يوم الاثنين حادى عشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و ترك على الأرض عاريا و سوءته مكشوفة، و قد انتفخ و كان طويلا عريضا إلى أن تمزق و بلى عقوبة من اللّه تعالى بما هتك من رمم الأئمة و أبنائهم، و لقد كان عفا اللّه عنه عارفا خبيرا بأمر دنياه، كثير الصدقة، و وقف هذا الخان و غيره على عمل خبز يفرّق بمكة على كل فقير، منه فى اليوم رغيفان، فعمل ذلك مدّة سنين، ثم لما عظمت الأسعار بمصر و تغيرت نقودها، من سنة ست و ثمانمائة، صار يحمل إلى مكة مال و يفرّق بها على الفقراء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۲

فندق طرنطاى: هذا الفندق كان بخارج باب البحر ظاهر المقس، و كان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام، و كان فيه ستة عشر عمودا من رخام طول، كل عمود ستة أذرع بذراع العمل، فى دور ذراعين، و يعلوه ربع كبير، فلما كان فى واقعة هدم الكنائس و حريق القاهرة و مصر فى سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، قدم تاجر بعد العصر بزيت، وزن فى مكسه عشرين ألف درهم نقرة، سوى أصناف أخر قيمتها مبلغ تسعين ألف درهم نقرة، فلم يتهيأ له الفراغ من نقل الزيت إلى داخل هذا الفندق إلّا بعد العشاء الآخرة، فلما كان نصف الليل، وقع الحريق بهذا الفندق فى ليلة من شهر ربيع الآخر منها، كما كان يقع فى غير موضع من فعل النصارى، فأصبح و قد احترق جميعه حتى الحجارة التى كان مبنيا بها، و حتى الأعمدة المذكورة، و صارت كلها جيرا و احترق علوه، و أصبح التاجر يستعطى الناس و موضع هذا الفندق.

ذكر الأسواق

قال ابن سيدة: و السوق التى يتعامل فيها تذكر و تؤنث، و الجمع أسواق، و فى التنزيل:

إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ و السوقة لغة فيها، و السوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان، الذكر و الأنثى فى ذلك سواء.

و قد كان بمدينة مصر و القاهرة و ظواهرها من الأسواق شىء كثير جدّا، قد باد أكثرها، و كفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقص، اثنان و خمسون سوقا، أدركناها عامرة، فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا، و هذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربيّ، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة و مصر، و سأذكر من أخبار الأسواق ما أجد سبيلا إلى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

القصبة: قال ابن سيدة: قصبة البلد، مدينته، و قيل معظمه. و القصبة هى أعظم أسواق مصر، و سمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول: أنّ القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت، كأنهم يعنون ما بين أوّل الحسينية مما يلى الرمل إلى المشهد النفيسيّ، و من اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لا يكاد أن ينكر هذا الخبر. و قد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت غاصة بأنواع المآكل و المشارب و الأمتعة، تبهج رؤيتها و يعجب الناظر هيئتها، و يعجز العادّ عن إحصاء ما فيها من الأنواع، فضلا عن إحصاء ما فيها من الأشخاص، و سمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد و يقولون: يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان و المزابل، يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون و الجبانون و الطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن، و التى يوضع فيها الجبن، و التى تأكل فيها الفقراء الطغام بحوانيت الطباخين، و ما يستعمله بياعوا الجبن من الخيط و الحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف، و ما يستعمله العطارون من القراطيس و الورق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۳

الفوىّ، و الخيوط التى تشدّ بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب و الأفاوية و غيرها، فإن هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق و أخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل، و من أدرك الناس قبل هذه المحن و أمعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة و الترف لم يستكثر ما ذكرناه.

و قد اختلّ حال القصبة و خرب و تعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت بعد ما كانت مع سعتها تضيق بالباعة، فيجلسون على الأرض فى طول القصبة بأطباق الخبز و أصناف المعايش. و يقال لهم أصحاب المقاعد، و كل قليل يتعرّض الحكام لمنعهم و إقامتهم من الأسواق لما يحصل بهم من تضييق الشوارع و قلة بيع أرباب الحوانيت، و قد ذهب و اللّه ما هناك و لم يبق إلا القليل، و فى القصبة عدّة أسواق، منها ما خرب، و منها ما هو باق، و سأذكر منها ما يتيسر إن شاء اللّه تعالى.

سوق باب الفتوح: هذا السوق فى داخل باب الفتوح، من حدّ باب الفتوح الآن إلى رأس حارة بهاء الدين. معمور الجانبين بحوانيت اللحامين و الخضريين و الفاميين و الشرايحية و غيرهم، و هو من أجلّ أسواق القاهرة و أعمرها، يقصده الناس من أقطار البلاد لشراء أنواع اللحمان الضأن و البقر و المعز، و لشراء أصناف الخضراوات، و ليس هو من الأسواق القديمة، و إنما حدث بعد زوال الدولة الفاطمية عند ما سكن قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين، و قد تناقص عما كان فيه منذ عهد الحوادث، و فيه إلى الآن بقية صالحة.

سوق المرحلين: هذا السوق أدركته من رأس حارة بهاء الدين إلى بحرى المدرسة الصيرمية معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة بر حالات الجمال و أقتابها، و سائر ما تحتاج إليه، يقصد من سائر إقليم مصر، خصوصا فى مواسم الحج. فلو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل و أكثر فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك لكثرة ذلك عند التجار فى الحوانيت بهذا السوق و فى المخازن.

فلما كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة و كثر سفر الملك الناصر فرج بن برقوق إلى محاربة الأمير شيخ و الأمير نوروز بالبلاد الشامية، صار الوزراء يستدعون ما يحتاج إليه الجمال من الرحال و الأقتاب و غيرها، فإما لا يدفع ثمنها أو يدفع فيها الشىء اليسير من الثمن، فاختلّ من ذلك حال المرحلين و قلت أموالهم بعد ما كانوا مشتهرين بالغناء الوافر و السعادة الطائلة، و خرب معظم حوانيت هذا السوق، و تعطل أكثر ما بقى منها، و لم يتأخر فيه سوى القليل.

سوق خان الروّاسين: هذا السوق على رأس سويقة أمير الجيوش، قيل له ذلك من أجل أن هناك خانا تعمل فيه الرءوس المغمومة، و كان من أحسن أسواق القاهرة فيه عدّة من البياعين، و يشتمل على نحو العشرين حانوتا مملوءة بأصناف المآكل، و قد اختلّ و تلاشى أمره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۴

سوق حارة برجوان: هذا السوق من الأسواق القديمة، و كان يعرف فى القديم أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش، و ذلك أنّ أمير الجيوش بدر الجمالى لما قدم إلى مصر فى زمن الخليفة المستنصر، و قد كانت الشدّة العظمى، بنى بحارة برجوان الدار التى عرفت بدار المظفر، و أقام هذا السوق برأس حارة برجوان. قال ابن عبد الظاهر: و السويقة المعروفة بأمير الجيوش معروفة بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر، و هى من باب حارة برجوان إلى قريب الجامع الحاكمى، و هكذا تشهد مكاتيب دور حارة برجوان القديمة، فإنّ فيها و الحدّ القبلىّ ينتهى إلى سويقة أمير الجيوش، و سوق حارة برجوان هو فى الحدّ القبلىّ من حارة برجوان، و أدركت سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة، ما برحنا و نحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة فنقول: بحارة برجوان حمّامات، يعنى حمامى الرومى و حمام سويد فإنه كان يدخل إليها من داخل الحارة، و بها فرنان، و لها السوق الذى لا يحتاج ساكنها إلى غيره، و كان هذا السوق من سوق خان الروّاسين إلى سوق الشماعين، معمور الجانبين بالعدّة الوافرة من بياعى لحم الضأن السليخ، و بياعى اللحم السميط، و بياعى اللحم البقرى، و به عدّة كثيرة من الزياتين، و كثير من الجبانين و الخبازين

و اللبانين و الطباخين و الشوّايين و البواردية و العطارين و الخضريين، و كثير من بياعى الأمتعة، حتى أنه كان به حانوت لا يباع فيه إلّا حوائج المائدة و هى: البقل و الكرّاث و الشمار و النعناع، و حانوت لا يباع فيه إلا الشيرج و القطن فقط برسم تعمير القناديل التى تسرج فى الليل. و سمعت من أدركت أنه كان يشترى من هذا الحانوت فى كل ليلة شيرج مما يوضع فى القناديل بثلاثين درهما فضة، عنها يومئذ دينار و نصف.

و كان يوجد بهذا السوق لحم الضأن النىء و المطبوخ إلى ثلث الليل الأوّل، و من قبل طلوع الفجر بساعة، و قد خرب أكثر حوانيت هذا السوق، و لم يبق لها أثر، و تعطل بأسره بعد سنة ست و ثمانمائة، و صار أوحش من وتد فى قاع بعد أن كان الإنسان لا يستطيع أن يمرّ فيه من ازدحام الناس ليلا و نهارا إلّا بمشقة، و كان فيه قبانىّ برسم وزن الأمتعة و المال و البضائع، لا يتفرّغ من الوزن و لا يزال مشغولا به، و معه من يستحثه ليزن له. فلما كان بعد سنة عشر و ثمانمائة أنشأ الأمير طوغان الدوادار بهذا السوق مدرسة و عمّر ربعا و حوانيت، فتحابى بعض الشىء و قبض على طوغان فى سنة ست عشرة و ثمانمائة، و لم تكمل عمارة السوق و فيه الآن بقية يسيرة.

سوق الشماعين: هذا السوق من الجامع الأقمر إلى سوق الدجاجين، كان يعرف فى الدولة الفاطمية بسوق القماحين، و عنده بنى المأمون بن البطائحى الجامع الأقمر باسم الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و بنى تحت الجامع دكاكين و مخازن من جهة باب الفتوح،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۵

و أدركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية و الفانوسية و الطوافات، لا تزال حوانيته مفتحة إلى نصف الليل، و كان يجلس به فى الليل بغايا يقال لهنّ زعيرات الشماعين، لهنّ سيما يعرفن بها، و زىّ يتميزن به، و هو لبس الملاءات الطرح و فى أرجلهنّ سراويل من أديم أحمر، و كنّ يعانين الزعارة و يقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم، و فيهنّ من تحمل الحديد معها. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۳ ؛ ص۱۷۵

كان يباع فى هذا السوق فى كل ليلة من الشمع بمال جزيل، و قد خرب و لم يبق به إلّا نحو الخمس حوانيت بعد ما أدركتها تزيد على عشرين حانوتا، و ذلك لقلة ترف الناس و تركهم استعمال الشمع، و كان يعلق بهذا السوق الفوانيس فى موسم الغطاس، فتصير رؤيته فى الليل من أنزه الأشياء، و كان به فى شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يشترى و يكتى من الشموع الموكبية التى تزن الواحدة منهنّ عشرة أرطال فما دونها، و من المزهرات العجيبة الزىّ المليحة الصنعة، و من الشمع الذى يحمل على العجل و يبلغ وزن الواحدة منها القنطار و ما فوقه، كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح، فيمرّ فى ليالى شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه، و قد تلاشى الحال فى جميع ما قلنا لفقر الناس و عجزهم.

سوق الدجاجين: هذا السوق كان مما يلى سوق الشماعين إلى سوق قبو الخرشتف، كان يباع فيه من الدجاج و الأوز شىء كثير جليل إلى الغاية، و فيه حانوت فيه العصافير التى يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها، فيباع منها فى كل يوم عدد كثير جدّا، و يباع العصفور منها بفلس، و يخدع الصبىّ بأنه يسبح، فمن أعتقه دخل الجنة، و لكل واحد حينئذ رغبة فى فعل الخير، و كان يوجد فى كل وقت بهذه الحوانيت من الأقفاص التى بها هذه العصافير آلاف، و يباع بهذا السوق عدّة أنواع من الطير، و فى كل يوم جمعة يباع فيه بكرة أصناف القمارى و الهزارات و الشحارير و اللبغاء و السّمّان، و كنا نسمع أن من السّمّان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم، و كذلك بقية طيور المسموع يبلغ الواحد منها نحو الألف، لتنافس الناس فيها و توفر عدد المعتنين بها، و كان يقال لهم غواة طيور المسموع سيما الطواشية، فإنه كان يبلغ بهم الترف أن يقتنوا السّمّان و يتأنقوا فى أقفاصه و يتغالوا فى أثمانه حتى بلغنا أنه بيع طائر من السمان بألف درهم فضة، عنها يومئذ نحو الخمسين دينارا من الذهب، كل ذلك لإعجابهم بصوته، و كان صوته على وزن قول القائل: «طقطلق وعوع» و كلما كثر صياحه كانت المغالاة فى ثمنه، فاعتبر بما قصصته عليك حال الترف الذى كان فيه أهل مصر، و لا تتخذ حكاية ذلك هزؤا تسخر به، فتكون ممن لا تنفعه المواعظ بل يمرّ بالآيات معرضا غافلا فتحرم الخير.

و كان بهذا السوق قيسارية عملت مرّة سوقا للكتبيين، و لها باب من وسط سوق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۶

الدجاجين، و باب من الشارع الذى يسلك فيه من بين القصرين إلى الركن المخلق، فاتفق أن ولى نيابة النظر فى المارستان المنصورى عن الأمير الكبير ايتمش النحاسى الظاهرىّ أمير يعرف بالأمير خضر ابن التنكزية، فهدم هذا السوق و القيسارية و ما يعلوها، و أنشأ هذه الحوانيت و الرباع التى فوقها تجاه ربع الكامل الذى يعلو ما بين درب الخضيرى و قبو الخرشتف، فلما كمل أسكن فى الحوانيت عدّة من الزياتين و غيرهم، و بقى من الدجاجين بهذا السوق بقية قليلة.

سوق بين القصرين: هذا السوق أعظم أسواق الدنيا فيما بلغنا، و كان فى الدولة الفاطمية براحا واسعا يقف فيه عشرة آلاف ما بين فارس و راجل، ثم لما زالت الدولة ابتذل و صار سوقا يعجز الواصف عن حكاية ما كان فيه، و قد تقدّم ذكره فى الخطط من هذا الكتاب، و فيه إلى الآن بقية تحزننى رؤيتها إذ صارت إلى هذه القلة.

سوق السلاح: هذا السوق فيما بين المدرسة الظاهرية ببرس و بين باب قصر بشتاك، استجدّ فيما بعد الدولة الفاطمية فى خط بين القصرين. و جعل لبيع القسىّ و النشاب و الزرديات و غير ذلك من آلات السلاح، و كان تجاهه خان يقابل الخان الذى هو الآن بوسط سوق السلاح، و على بابه من الجانبين حوانيت تجلس فيها الصيارف طول النهار، فإذا كان عصريات كل يوم جلس أرباب المقاعد تجاه حوانيت الصيارف لبيع أنواع من المآكل، و يقابلهم تجاه حوانيت سوق السلاح أرباب المقاعد أيضا، فإذا أقبل الليل أشعلت السرج من الجانبين و أخذ الناس فى التمشى بينهما على سبيل الاسترواح و التنزه، فيمرّ هنالك من الخلاعات و المجون ما لا يعبر عنه بوصف، فلما أنشأ الملك الظاهر برقوق المدرسة الظاهرية المستجدّة صارت فى موضع الخان و حوانيت الصرف تجاه سوق السلاح، و قلّ ما كان هناك من المقاعد و بقى منها شىء يسير.

سوق القفيصات: بصيغة الجمع، و التصغير هكذا يعرف كأنه جمع قفيص، فإنه كله معدّ لجلوس أناس على تخوت تجاه شبابيك القبة المنصورية، و فوق تلك التخوت أقفاص صغار من حديد مشبك فيها الطرائف من الخواتيم و الفصوص و أساور النسوان و خلاخيلهنّ و غير ذلك، و هذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التى هى عليها مباشر المارستان المنصورى، و أصل هذه الأرض كانت من حقوق أرض موقوفة على جامع المقس، فدخل بعضها فى القبة المنصورية، و صار بعضها كما ذكرنا و إلى اليوم يدفع من وقف المارستان حكر هذه الأرض لجامع المقس، و لما ولى نظر المارستان الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك فى سنة ست و عشرين و سبعمائة، عمل فيه أشياء من ماله، منها خيمة ذرعها مائة ذراع، نشرها من أوّل جدار القبة المنصورية بحذاء المدرسة الناصرية إلى آخر حدّ المدرسة المنصورية بجوار الصاغة، فصارت فوق مقاعد الأقفاص تظلهم من حرّ الشمس، و عمل لها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۷

حبالا تمدّ بها عند الحرّ و تجمع بها إذا امتدّ الظل، و جعلها مرتفعة فى الجوّ حتى ينحرف الهواء، ثم لما كان شهر جمادى الأولى سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة نقلت الأقفاص منه إلى القيسارية التى استجدّت تجاه الصاغة.

سوق باب الزهومة: هذا السوق عرف بذلك من أجل أنه كان هناك فى الأيام الفاطمية باب من أبواب القصر يقال له باب الزهومة، تقدّم ذكره فى ذكر أبواب القصر من هذا الكتاب. و كان موضع هذا السوق فى الدولة الفاطمية سوق الصيارف، و يقابله سوق السيوفيين، من حيث الخشيبة إلى نحو رأس سوق الحريريين اليوم، و سوق العنبر الذى كان إذ ذاك سجنا يعرف بالمعونة، و يقابل السيوفيين إذ ذاك سوق الزجاجين، و ينتهى إلى سوق القشاشين الذى يعرف اليوم بالخرّاطين، فلما زالت الدولة الفاطمية تغير ذلك كله، فصار سوق السيوفيين من جوار الصاغة إلى درب السلسلة، و بنى فيما بين المدرسة الصالحية و بين الصاغة سوق فيه حوانيت مما يلى المدرسة الصالحية، يباع فيها الأمشاط بسوق الأمشاطيين، و فيه حوانيت فيما بين الحوانيت التى يباع فيها الأمشاط و بين الصاغة، بعضها سكن الصيارف، و بعضها سكن النقليين، و هم الذين يبيعون الفستق و اللوز و الزبيب و نحوه، و فى وسط هذا البناء سوق الكتبيين، يحيط به سوق الأمشاطيين و سوق النقليين، و جميع ذلك جار فى أوقاف المارستان المنصورى.

و كان سوق باب الزهومة من أجلّ أسواق القاهرة أفخرها، موصوفا بحسن المآكل و طيبها، و اتفق فى هذا السوق أمر يستحسن ذكره لغرابته فى زمننا، و هو أنه عبر متولى الحسبة بالقاهرة فى يوم السبت سادس عشر شهر رمضان سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة على رجل بواردىّ بهذا السوق، يقال له محمد بن خلف، عنده مخزن فيه حمام وزرازير متغيرة الرائحة، لها نحو خمسين يوما، فكشف عنها فبلغت عدّتها أربعة و ثلاثين ألفا و مائة و ستة و تسعين طائرا، من ذلك حمام ألف و مائة و ستة و تسعون، و زرازير ثلاثة و ثلاثون ألفا كلها متغيرة اللون و الريح، فأدبه و شهره و فيه إلى الآن بقايا.

سوق المهامزيين: هذا السوق مما استجدّ بعد زوال الدولة الفاطمية، و كان بأوّله حبس المعونة، الذى عمله الملك المنصور قلاوون سوق العنبر، و يقابله المارستان و الوكالة و دار الضرب، فى الموضع الذى يعرف اليوم بدرب الشمسىّ، و ما بحذائه من الحوانيت إلى حمّام الخرّاطين، و ما تجاه ذلك. و هذا السوق معدّ لبيع المهاميز، و أدركت الناس و هم يتخذون المهماز كله قالبه و سقطه من الذهب الخالص، و من الفضة الخالصة، و لا يترك ذلك إلا من يتورع و يتدين فيتخذ القالب من الحديد و يطليه بالذهب أو الفضة، و يتخذ السقط من الفضة، و قد اضطرّ الناس إلى ترك هذا، فقلّ من بقى سقط مهمازه فضة، و لا يكاد يوجد اليوم مهماز من ذهب، و كان يباع بهذا السوق البدلات الفضة التى كانت برسم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۸

لجم الخيل، و تعمل تارة من الفضة المجراة بالمينا، و تارة بالفضة المطلية بالذهب، فيبلغ زنة ما فى البدلة من خمسمائة درهم فضة إلى ما دونها، و قد بطل ذلك. و كان يباع به أيضا سلاسل الفضة و مخاطم الفضة المطلية، تجعل تحت لجم الحجور من الخيل خاصة، فيركب بها أعيان الموقعين و أكابر الكتاب من القبط و رؤساء التجار، و قد بطل ذلك أيضا.

و يباع فيه أيضا الدوى و الطرف التى فيها الفضة و الذهب كسكاكين الأقلام و نحوها، و كانت تجار هذا السوق تعدّ من بياض العامّة، و يتصل بسوق المهامزيين هذا.

سوق اللجميين: و يباع فيه آلات اللجم و نحوها مما يتخذ من الجلد، و فى هذا السوق أيضا عدّة وافرة من الطلائين و صناع الكفت برسم اللجم و الركب و المهاميز و نحو ذلك.

و عدّة من صناع مياتر السروج و قرابسها، و أدركت السروج تعمل ملوّنة ما بين أصفر و أزرق، و منها ما يعمل من الدبل، و منها ما يعمل سيورا من الجلد البلغارى الأسود، و يركب بهذه السروج السود القضاة و مشايخ العلم اقتداء بعادة بنى العباس فى استعمال السواد، على ما جدّده بديار مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد زوال الدولة الفاطمية.

و أدركت السروج التى تركب بها الأجناد و الكتاب، يعمل للسرج فى قربوسه ستة أطواق من فضة مقبلة مطلية بالذهب، و معقربات من فضة، و لا يكاد أحد يركب فرسا بسرج سادج إلا أن يكون من القضاة و مشايخ العلم و أهل الورع، فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق اتخذ سائر الأجناد السروج المغرقة، و هى التى جميع قرابسها من ذهب أو فضة، إما مطلية أو سادجة، و كثر عمل ذلك حتى لم يبق من العسكر فارس إلا و سرجه كما ذكرنا. و بطل السرج المسقط، فلما كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة غلب على الناس الفقر، و كثرت الفتن، فقلّت سروج الذهب و الفضة، و بقى منها إلى اليوم بقايا يركب بها أعيان الأمراء و أماثل المماليك.

سوق الجوخيين: هذا السوق يلى سوق اللجميين، و هو معدّ لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج لعمل المقاعد و الستائر و ثياب السروج و غواشيها، و أدركت الناس و قلما تجد فيهم من يلبس الجوخ، و إنما يكون من جملة ثياب الأكابر، جوخ لا يلبس إلا فى يوم المطر، و إنما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب و الفرنج و أهل الإسكندرية و بعض عوام مصر، فأما الرؤساء و الأكابر و الأعيان فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه إلّا فى وقت المطر، فإذا ارتفع المطر نزع الجوخ.

و أخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب بن الخطبا المخزومى، خال أبى رحمه اللّه، قال: كنت أنوب فى حسبة القاهرة عن القاضى ضياء الدين المحتسب، فدخلت عليه يوما و أنا لابس جوخة لها وجه صوف مربع فقال لى:

و كيف ترضى أن تلبس الجوخ، و هل الجوخ إلّا لأجل البغلة؟! ثم أقسم عليّ أن أخلعها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۹

و ما زال بى حتى عرّفته أنى اشتريتها من بعض تجار قيساريهٔ الفاضل، فاستدعاه فى الحال و دفعها إليه و أمره بإحضار ثمنها. ثم قال لى: لا تعد إلى لبس الجوخ، استهجانا له. فلما كانت هذه الحوادث و غلت الملابس دعت الضرورهٔ أهل مصر إلى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه، و صار معظم الناس يلبسون الجوخ، فتجد الأمير و الوزير و القاضى و من دونهم ممن ذكرنا لباسهم الجوخ، و لقد كان الملك الناصر فرج ينزل أحيانا إلى الإصطبل و عليه قجون من جوخ، و هو ثوب قصير الكمين و البدن، يخاط من الجوخ بغير بطانهٔ من تحته و لا غشاء من فوقه، فتداول الناس لبسه، و اجتلب الفرنج منه شيئا كثيرا لا توصف كثرته و محل بيعه بهذا السوق، و يلى سوق الجوخيين هذا:

سوق الشرابشيين: و هذا السوق مما أحدث بعد الدولهٔ الفاطميهٔ، و يباع فيها الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء و الوزراء و القضاهٔ و غيرهم، و إنما قيل له سوق الشرابشيين لأنه كان من الرسم فى الدولهٔ التركيهٔ أنّ السلطان و الأمراء و سائر العساكر إنما يلبسون على رؤوسهم كلوتهٔ صفراء مضرّبهٔ تضريبا عريضا، و لها كلاليب بغير عمامهٔ فوقها، و تكون شعورهم مضفورهٔ مدلاهٔ بدبوقهٔ، و هى فى كيس حرير إمّا أحمر أو أصفر، و أوساطهم مشدودهٔ ببنود من قطن بعلبكىّ مصبوغ، عوضا عن الحوائص، و عليهم أقبيهٔ إمّا بيض أو مشجرهٔ أحمر و أزرق، و هى ضيقهٔ الأكمام على هيئهٔ ملابس الفرنج اليوم، و إخفافهم من جلد بلغارىّ أسود، و فى أرجلهم من فوق الخف سقمان، و هو خف ثان، و من فوق القبا كمران بحلق و أبزيم و صوالق بلغارى كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبهٔ غلهٔ، مغروز فيه منديل طوله ثلاثهٔ أذرع، فلم يزل هذا زيهم منذ استولوا بديار مصر على الملك، من سنهٔ ثمان و أربعين و ستمائهٔ، إلى أن قام فى المملكهٔ الملك المنصور قلاوون، فغيّر هذا الزىّ بأحسن منه، و لبسوا الشاشات، و أبطلوا لبس الكم الضيق، و اقترح كل أحد من المنصوريهٔ ملابس حسنهٔ، فلما ملك ابنه الأشرف خليل، جمع خاصكيته و مماليكه و تخير لهم الملابس الحسنهٔ، و بدّل الكلوتات الجوخ و الصفر، و رسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بالكلوتات الزركش و الطرازات الزركش و الكنابيش الزركش و الأقبيهٔ الأطلس المعدنى، حتى يميز الأمير بلبسه عن غيره، و كذلك فى الملبوس الأبيض أن يكون رفيعا، و اتخذ السروج المرصعهٔ و الأكوار المرصعهٔ، فعرفت بالأشرفيهٔ، و كانت قبل ذلك سروجهم بقرابيس كبار شنعهٔ، و ركب كبار بشعهٔ، فلما ملك ديار مصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، استجدّ العمائم الناصريهٔ، و هى صغار.

فلما قام الأمير يلبغا العمرىّ الخاصكىّ عمل الكلوتات اليلبغاويهٔ، و كانت كبارا، و استجدّ الأمير سلار فى أيام الملك الناصر محمد القباء الذى يعرف بالسلارى، و كان قبل ذلك يعرف ببغلو طاق، فلما تملك الملك الظاهر برقوق عمل هذه الكلوتات الجركسيهٔ، و هى أكبر من اليلبغاويهٔ، و فيها عوج. و أما الخلع، فإن السلطان كان إذا أمّر أحدا من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۰

الأتراك ألبسه الشربوش، و هو شىء يشبه التاج، كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس بغير عمامهٔ، و يلبس معه على قدر رتبته، إمّا ثوب بخ، أو طرد وحش، أو غيره، فعرف هذا السوق بالشرابشيين نسبهٔ إلى الشرابيش المذكورهٔ، و قد بطل الشربوش فى الدولهٔ الجركسيهٔ.

و كان بهذا السوق عدّهٔ تجار لشراء التشاريف و الخلع و بيعها على السلطان فى ديوان الخاص و على الأمراء، و ينال الناس من ذلك فوائد جليلهٔ، و يقتنون بالمتجر فى هذا الصنف سعادات طائلهٔ، فلما كانت هذه الحوادث منع الناس من بيع هذا الصنف إلّا للسلطان، و صار يجلس به قوم من عمال ناظر الخاص لشراء سائر ما يحتاج إليه، و من اشترى من ذلك شيئا سوى عمال السلطان فله من العقاب ما قدّر عليه، و الأمر على هذا إلى يومنا الذى نحن فيه.

و أوّل من عملته خلع عليه من أهل الدول جعفر بن يحيى البرمكىّ، و ذلك أنّ أمير المؤمنين هارون الرشيد قال فى اليوم الذى انعقد له فيه الملك: يا أخى يا جعفر، قد أمرت لك بمقصورهٔ فى دارى، و ما يصلح لها من الفراش، و عشر جوارتكن فيها ليلهٔ مبيتك

عندنا.

فقال: يا أمير المؤمنين ما من نعمة متواترة، و لا فضل متظاهر إلّا و رأى أمير المؤمنين أجمل و أتم، ثم انصرف و قد خلع عليه الرشيد، و حمل بين يديه مائة بدرة دراهم و دنانير، و أمر الناس فركبوا إليه حتى سلموا عليه، و أعطاه خاتم الملك ليختم به على ما يريد، فبلغ بذلك صيته أقطار الأرض، و وصل إلى ما لم يصل إليه كاتب بعده، فاقتدى بالرشيد من بعده، و خلعوا على أولياء دولتهم و ولاة أعمالهم، و استمرّ ذلك إلى اليوم.

و أوّل ما عرف شدّ السيوف فى أوساط الجند: أنّ سيف الدين غازى بن عماد الدين أتابك زنكى بن أق سنقر صاحب الموصل، أمر الأجناد أن لا يركبوا إلا بالسيوف فى أوساطهم، و الدبابيس تحت ركبهم، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف، و هو أيضا أوّل من حمل على رأسه الصنجق فى ركوبه، و غازى هذا هو أخو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، و مات فى آخر جمادى الآخرة سنة أربع و أربعين و خمسمائة، و ولى الموصل بعده أخوه قطب الدين مودود.

سوق الحوائصيين: هذا السوق يتصل بوسق الشرابشيين، و تباع فيه الحوائص، و هى التى كانت تعرف بالمنطقة فى القديم، فكانت حوائص الأجناد أوّلا أربعمائة درهم فضة و نحوها، ثم عمل المنصور قلاوون حوائص الأمراء الكبار ثلثمائة دينار، و أمراء الطبلخانات مائتى دينار، و مقدّمى الحلقة من مائة و سبعين إلى مائة و خمسين دينارا، ثم صار الأمراء و الخاصكية فى الأيام الناصرية و ما بعدها يتخذون الحياصة من الذهب، و منها ما هو مرصع بالجوهر، و يفرّق السلطان فى كل سنة على المماليك من حوائص الذهب و الفضة شيئا كثيرا، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن ولى الناصر فرج، فلما كان فى أيام الملك المؤيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۱

شيخ، قلّ ذلك، و وجد فى تركة الوزير الصاحب علم الدين عبد اللّه بن زنبور لما قبض عليه ستة آلاف حياصة، و ستة آلاف كلوتة جهاركس، و ما برح تجار هذا السوق من بياض العامة، و قد قلّ تجار هذا السوق فى زمننا و صار أكثر حوانيته يباع فيها الطواقى التى يلبسها الصبيان، و صارت الآن من ملابس الأجناد.

سوق الحلاويين: هذا السوق معدّ لبيع ما يتخذ من السكر حلوى، و إنما يعرف اليوم بحلاوة منوّعة، و كان من أبهج الأسواق لما يشاهد فى الحوانيت التى بها من الأوانى و آلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة ذات القيم الكبيرة، و من الحلاوات المصنعة عدّة ألوان، و تسمى المجمعة، و شاهدت بهذا السوق السكّر ينادى عليه كل قنطار بمائة و سبعين درهما، فلما حدثت المحن و غلا السكر لخراب الدواليب التى كانت بالوجه القبلىّ، و خراب مطابخ السكر التى كانت بمدينة مصر، قلّ عمل الحلوى، و مات أكثر صناعها، و لقد رأيت مرّة طبقا فيه نقل و عدّة شقاف من خزف أحمر فى بعضها لبن و فى بعضها أنواع الأجبان، و فيما بين الشقاف الخيار و الموز و كل ذلك من السكر المعمول بالصناعة، و كانت أيضا لهم عدّة أعمال من هذا النوع يحير الناظر حسنها، و كان هذا السوق فى موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظرا، فإنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول و سباع و قطاط و غيرها، تسمى العلاليق، واحدها علاقة ترفع بخيوط على الحوانيت، فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل، تشترى للأطفال، فلا يبقى جليل و لا حقير حتى يبتاع منها لأهله و أولاده، و تمتلىء أسواق البلدين مصر و القاهرة و أريافهما من هذا الصنف، و كذلك يعمل فى موسم نصف شعبان، و قد بقى من ذلك إلى اليوم بقية غير طائلة، و كذلك كانت تروق رؤية هذا السوق فى موسم عيد الفطر لكثرة ما يوضع فيه من حب الخشكنانج. و قطع البسندود و المشاش، و يشرع فى عمل ذلك من نصف شهر رمضان فتملأ منه أسواق القاهرة و مصر و الأرياف، و لم ير فى موسم سنة سبع عشرة و ثمانمائة من ذلك شىء بالأسواق البتة، فسبحان محيل الأحوال لا إله إلا هو.

سوق الشوّايين: هذا السوق أوّل سوق وضع بالقاهرة، و كان يعرف بسوق الشرايحيين، و هو من باب حارة الروم إلى سوق الحلاويين، و ما زال يعرف بسوق الشرايحيين إلى أن سكن فيه عدّة من بياعى الشواء، فى حدود السبعمائة من سنى الهجرة، فزالت عنه النسبة إلى الشرايحيين و عرف بالشوّايين، و هو الآن سكن المتعيشين، و انتقل سوق الشرايحيين فى زماننا إلى خارج باب زويلة و عرف

بالبسطيين، كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى. قال ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز، و فى شهر صفر من سنة خمس و ستين و ثلاثمائة أنشئ سوق الشرايحيين بالقاهرة، و ذكر ذلك ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة. و كان فى القديم باب زويلة الذى وضعه القائد جوهر عند رأس حارة الروم، حيث العقد المجاور الآن للمسجد الذى عرف اليوم بسام بن نوح، و كان بجواره باب آخر موضعه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۲

الآن سوق الماطيين، فلما نقل أمير الجيوش باب زويلة إلى حيث هو الآن، اتسع ما بين سوق الشرايحيين المذكور و بين باب زويلة الكبير، و صار الآن فيه سوق الغرابليين، و فيه عدّة حوانيت تعمل مناخل الدقيق و الغرابيل، و يقابلهم عدّة حوانيت يصنع فيها الأغلاق المعروفة بالضبب، و ما بعد ذلك إلى باب زويلة، فيه كثير من الحوانيت يجلس ببعضها عدّة من الجبانين لبيع أنواع الجبن المجلوب من البلاد الشامية، و أدركنا هناك إلى أن حدثت المحن من ذلك شيئا كثيرا يتجاوز الحد فى الكثرة، و فى بعض تلك الحوانيت قوم يجلسون لعلاج من عساه ينصدع له عظم أو ينكسر أو يصيبه جرح يعرفون بالمجبرين، و هناك منهم بقية إلى يومنا هذا، و بقية الحوانيت ما بين صيارفة و بياعى طرف و متعيشين فى المآكل و غيرها.

فهذه قصبة القاهرة، و ما فى ظاهر باب زويلة فإنه خارج القاهرة و اللّه تعالى أعلم.

الشارع خارج باب زويلة

هذا الشارع هو تجاه من خرج من باب زويلة، و يمتدّ فيما بين الطريق السالك ذات اليمين إلى الخليج ، و بين الطريق المسلوك فيه ذات اليسار إلى قلعة الجبل. و لم يكن هذا الشارع موجودا على ما هو عليه الآن عند وضع القاهرة، و إنما حدث بعد وضعها بعدّة أعوم على غير هذه الهيئة، فلما كثرت العمائر خارج باب زويلة بعد سنة سبعمائة من سنى الهجرة صار على ما هو عليه الآن، فأما أوّل أمره: فإن الخليفة الحاكم بأمر اللّه أنشأ الباب الجديد على يسرة الخارج من باب زويلة، على شاطىء بركة الفيل، و هذا الباب أدركت عقده عند رأس المنجبية بجوار سوق الطيور، ثم لما اختطت حارة اليانسية و حارة الهلالية صار ساحل بركة الفيل قبالتها، و اتصلت العمائر من الباب الجديد إلى الفضاء الذى هو الآن خارج المشهد النفيسىّ، فلما كانت الشدّة العظمى فى خلافة المستنصر و خربت القطائع و العسكر، صارت مواضعها خرابا إلى خلافة الآمر بأحكام اللّه، فعمر الناس حتى صارت مصر و القاهرة لا يتخللهما خراب، و بنى الناس فى الشارع من الباب الجديد إلى الجبل عرضا حيث قلعة الجبل الآن، و بنى حائط يستر خراب القطائع و العسكر، فعمر من الباب الجديد طولا إلى باب الصفا بمدينة مصر، حتى صار المتعيشون بالقاهرة و المستخدمون يصلون العشاء الآخرة بالقاهرة و يتوجهون إلى سكنهم فى مصر و لا يزالون فى ضوء و سرج و سوق موقود من الباب الجديد خارج باب زويلة إلى باب الصفا، حيث الآن كوم الجارح، و المعاش مستمرّ فى الليل و النهار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۳

و وقف القاضى الرئيس المختار العدل زكىّ الدين أبو العباس أحمد بن مرتضى بن سيد الأهل بن يوسف، حصة من البستان الكبير المعروف يومئذ بالمخاريق الكبرى، الكائن فيما بين القاهرة و مصر بعدوة الخليج على الفربات، و شرط أنّ الناظر يشترى فى كل فصل من فصول الشتاء من قماش الكتان الخام أو القطن ما يراه، و يعمل ذلك جبابا و بغالطيقا محشوّة قطنا، و تفرّق على الأيتام الذكور و الإناث الفقراء غير البالغين بالشارع الأعظم، خارج باب زويلة، فيدفع لكل واحد جبة واحدة أو بغلطاقا، فإن تعذر ذلك كان على الأيتام المتصفين بالصفات المذكورة بالقاهرة و مصر و قرافتيهما، و كان هذا الوقف فى سنة ستين و ستمائة.

فلما كثرت العمائر خارج باب زويلة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون بعد سنة سبعمائة، صار هذا الشارع أوّله تجاه باب زويلة و آخره فى الطول الصليبة التى تنتهى إلى جامع ابن طولون و غيره، لكنهم لا يريدون بالشارع سوى إلى باب القوس الذى بسوق

الطيوريين، و هو الباب الجديد، و بعد باب القوس سوق الطيوريين، ثم سوق جامع قوصون و سوق حوض ابن هنس و سوق ربع طفجى، و هذه أسواق بها عدّة حوانيت، لكنها لا- تنتهى إلى عظم أسواق القاهرة، بل تكون أبدا دونها بكثير، فهذا حال القصبة و الشارع خارج باب زويلة، و قد بقيت عدّة أسواق فى جانبى القصبة، و لها أبواب شارعة و فيها أسواق أخر فى نواحى القاهرة، و مسالكها سيأتى ذكرها بحسب القدرة إن شاء اللّه تعالى.

سويقة أمير الجيوش: هذه السويقة الآن فيما بين حارة برجوان و حارة بهاء الدين، كانت تعرف بسوق الخروقيين فيما بعد زوال الدولة الفاطمية، و فى هذا السوق عمر الأمير مازكوج الأسدى مدرسته المعروفة الآن بالأكجية، و أدركت الناس إلى هذا الزمن الذى نحن فيه لا يعرفون هذا السوق إلّا بسوق أمير الجيوش، و يعبّرون عنه بصيغة التصغير، و لا أعرف لهم مستندا فى ذلك، و الذى تشهد به الأخبار أن سوق أمير الجيوش هو السوق الذى برأس حارة برجوان، و يمتدّ إلى رأس سويقة أمير الجيوش الآن، و هذه السويقة من أكبر أسواق القاهرة، بها عدّة حوانيت، فيها الرفاءون و الحباكون، و عدّة حوانيت للرسامين، و عدّة حوانيت للفرّايين، و عدّة حوانيت للخياطين، و معظمها لسكن البزازين و الخلعيين، و فيها عدّة من بياعى الأقباع، و يباع فى هذا السوق سائر الثياب المخيطة و الأمتعة من الفرش و نحوها. و هو شارع من شوارع القاهرة، يسلك فيه من باب الفتوح و بين القصرين و باب النصر إلى باب القنطرة و شاطىء النيل و غيره، و كان ما بعد هذا السوق إلى باب القنطرة معمور الجانبين بالحوانيت المعدّة لبيع الظرائف و المغازل و الكتان و الأنواع من المأكل و العطر و غيره، و قد خرب أكثر هذه الحوانيت فى سنى المحنة و ما بعدها، و لسويقة أمير الجيوش عدّة قياسر و فنادق و اللّه أعلم.

سوق الجملون الصغير: هذا السوق يسلك فيه من رأس سويقة أمير الجيوش إلى باب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۴

الجوانية و باب النصر و رحبة باب العيد، و هو مجاور لدرب الفرحية، و فيه المدرسة الصيرمية، و باب زيادة الجامع الحاكمى، و كان أوّلا يعرف بالأمراء القرشيين بنى النورى، ثم عرف بالجملون الصغير، و بجملون ابن صيرم، و هو الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم، أحد الأمراء فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و إليه تنسب المدرسة الصيرمية، و الخط المعروف خارج باب الفتوح ببستان ابن صيرم، و أدركت هذا الجملون معمور الجانبين من أوّله إلى آخره بالحوانيت، ففى أوّله كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان من الخام و الأزرق و أنواع الطرح و أصناف ثياب القطن، و ينادى فيه على الثياب بحراج حراج، و فيه عدّة من الخياطين، و عدّة من البابية المعدّين لغسل الثياب و صقالها، و بآخره كثير من الضبيين بحيث لو أراد أحد أن يشترى منه ألف ضبة فى يوم لما عسر عليه ذلك، فلما حدثت المحن خرب هذا السوق بخلوّ حوانيته، و صار مقفرا من ساكنيه، ثم إنه عمر بعد سنة عشر و ثمانمائة، و فيه الآن نفر من البزازين و قليل ممن سواهم.

سوق المحايريين: هذا السوق فيما بين الجامع الأقمر و بين جملون ابن صيرم، يسلك فيه من سوق حارة برجوان و من سوق الشماعين إلى الركن المخلق و رحبة باب العيد، و هو من شوارع القاهرة المسلوكة، و فيه عدّة حوانيت لعمل المحاير التى يسافر فيها إلى الحجاز و غيره، و كان فيه تاجران قد تراضيا على ما يشتريانه من المحاير المعرّضة للبيع، و لهذا السوق موسم عظيم عند سفر الحاج و عند سفر الناس إلى القدس.

و بلغنى عن شيخ كان بهذا السوق أنه أوصى بعض صبيانه فقال له: يا بنىّ لا تراع أحدا فى بيع، فإنه لا يحتاج إليك إلّا مرّة فى عمره، فخذ عدلك فى ثمن المحارة، فإنك لا تخشى من عوده مرّة أخرى إليك، و سوف إذا عاد من سفره إما إلى الحجاز أو القدس فإنه يحتاج إلى بيعها، فتراقد عليه فى ثمنها و اشترها بالرخيص.

و كذلك يفعل أهل هذا السوق إلى اليوم، فإنهم لا يراعون بائعا و لا مشتريا، إلا أن سوقهم لم يبق كما أدركناه، فإنه حدث سوق آخر يباع فيه المحاير بسوق الجامع الطولونى، و صار بسوق الخيميين أيضا صناع للمحاير، و بلغنى أنّ بالمحايريين هذا أوقف أهل

مصر امرأة من جريد مؤتزرة، بيدها ورقة فيها سب الخليفة الحاكم بأمر اللّه و لعنه، عندما منع النساء من الخروج فى الطرقات، فعندما مرّ من هناك حسبها امرأة تسأله حاجة. فأمر بأخذ الورقة منها، فإذا فيها من السب ما أغضبه، فأمر بها أن تؤخذ، فإذا هى من جريد قد ألبس ثيابا و عمل كهيئة امرأة، فاشتدّ عند ذلك غضبه و أمر العبيد بإحراق مدينة مصر فأضرموا فيها النار. و لم أقف على هذا الخبر مسطورا، و قد ذكر المسبحىّ حريق الحاكم بأمر اللّه لمصر و لم يذكر قصة المرأة.

الصاغة: هذا المكان تجاه المدارس الصالحية بخط بين القصرين. قال ابن عبد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۵

الظاهر: الصاغة بالقاهرة كانت مطبخا للقصر، يخرج إليه من باب الزهومة، و هو الباب الذى هدم و بنى مكانه قاعة شيخ الحنابلة من المدارس الصالحية، و كان يخرج من المطبخ المذكور مدّة شهر رمضان ألف و مائتا قدر من جميع الألوان فى كل يوم، تفرّق على أرباب الرسوم و الضعفاء، و سمّى باب الزهومة، أى باب الزفر، لأنه لا يدخل باللحم و غيره إلا منه، فاختص بذلك. انتهى.

و الصاغة الآن وقف على المدارس الصالحية، وقفها الملك السعيد بركة خان المسمى بناصر الدين محمد ولد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى على الفقهاء المقرّرين بالمدارس الصالحية.

سوق الكتبيين: هذا السوق فيما بين الصاغة و المدرسة الصالحية، أحدث فيما أظن بعد سنة سبعمائة، و هو جار فى أوقاف المارستان المنصورى، و كان سوق الكتب قبل ذلك بمدينة مصر تجاه الجانب الشرقى من جامع عمرو بن العاص فى أوّل زقاق القناديل، بجوار دار عمرو، و أدركته و فيه بقية بعد سنة ثمانين و سبعمائة، و قد دثر الآن فلا يعرف موضعه، و كان قد نقل سوق الكتبيين من موضعه الآن بالقاهرة إلى قيسارية كانت فيما بين سوق الدجاجين المجاور للجامع الأقمر، و بين سوق الحصريين المجاور للركن المخلق، و كان يعلو هذه القيسارية ربع فيه عدّة مساكن، فتضرّرت الكتب من نداوة أقبية البيوت و فسد بعضها، فعادوا إلى سوق الكتب الأوّل حيث هو الآن، و ما برح هذا السوق مجمعا لأهل العلم يتردّدون إليه. و قد أنشدت قديما لبعضهم:

مجالسة السوق مذمومةو منها مجالس قد تحتسب

فلا تقربنّ غير سوق الجيادو سوق السلاح و سوق الكتب

فهاتيك آلة أهل الوغىو هاتيك آلة أهل الأدب

سوق الصنادقيين: هذا السوق تجاه المدرسة السيوفية، كان موضعه فى القديم من جملة المارستان، ثم عرف بفندق الدبابليين، و قيل له الآن سوق الصنادقيين، و فيه تباع الصناديق و الخزائن و الأسرّة مما يعمل من الخشب، و كان ما بظاهرها قديما يعرف بسكن الدجاجين، و أدركناه يعرف بسوق السيوفيين، و كان فيه عدّة طباخين لا يزال دخان كوانينهم منعقدا لكثرته. حتى قال لى شيخنا قاضى القضاة مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم الحنفى:

أن قاضى القضاة جلال الدين جاد اللّه قال له: هذا السوق قطب دائرة الدخان، و فى سوق الصنادقيين إلى الآن بقية.

سوق الحريريين: هذا السوق من باب قيسارية العنبر إلى خط البندقانيين، كان يعرف قديما بسقيفة العداس، ثم عمل صاغة القاهرة، ثم سكن هناك الأساكفة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۶

قال ابن عبد الظاهر: و كانت الصاغة قديما فيما تقدّم مكان الأساكفة الآن، و هو إلى الآن معروف بالصاغة القديمة، و كان يعرف بسقيفة العداس، كذا رأيت فى كتب الأملاك، و عرف هذا السوق فى زماننا بالحريريين الشراربيين، و عرف بعضه بسوق الزجاجين، و كان يسكن فيه أيضا الأساكفة، فلما أنشأ الأمير يونس الدوادار القيسارية على بئر زويلة بخط البندقانيين فى أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، نقل الأساكفة من هذا الخط، و نقل منه أيضا بياعى أخفاف النساء إلى قيساريته و حوانيته المذكورة.

سوق العنبريين: هذا السوق فيما بين سوق الحريريين الشراربيين و بين قيسارية العصفر، و هو تجاه الخرّاطين، كان فى الدولة الفاطمية

مكانه سجنا لأرباب الجرائم يعرف بحبس المعونة، و كان شنيع المنظر ضيقا لا يزال من يجتاز عليه يجد منه رائحة منكرة، فلما كان فى الدولة التركية و صار قلاوون من جملة الأمراء الظاهرية ببيرس، صار يمرّ من داره إلى قلعة الجبل على حبس المعونة هذا فيشمّ منه رائحة رديئة و يسمع منه صراخ المسجونين و شكواهم الجوع و العرى و القمل، فجعل على نفسه أنّ اللّه تعالى جعل له من الأمر شيئا أن يبنى هذا الحبس مكانا حسنا، فلما صار إليه ملك ديار مصر و الشام هدم حبس المعونة و بناه سوقا ليسكنه بياعى العنبر، و كان للعنبر إذ ذاك بديار مصر نفاق، و للناس فيه رغبة زائدة، لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة و إن سفلت إلّا و لها قلادة من عنبر، و كان يتّخذ منه المخادّ و الكلل و الستور و غيرها، و تجار العنبر يعدّون من بياض الناس، و لهم أموال جزيلة، و فيه رؤساء و أجلّاء، فلما صار الملك إلى الملك الناصر محمد بن قلاون جعل هذا السوق و ما فوقه من المساكن وقفا على الجامع الذى أنشأه بظاهر مصر جوار موردة الخلفاء المعروف بالجامع الجديد الناصرى، و هو جار فى أوقافه إلى يومنا هذا، إلّا أن العنبر من بعد سنة سبعين و سبعمائة كثر فيه الغش حتى صار اسما لا معنى له، و قلّت رغبة الناس فى استعماله، فتلاشى أمر هذا السوق بالسنة لما كان، ثم لما حدثت المحن بعد سنة ست و ثمانمائة قلّ ترفّه أهل مصر عن استعمال الكثير من العنبر، فطرق هذا السوق ما طرق غيره من أسواق البلد، و بقيت فيه بقية يسيرة إلى أن خلع الخليفة المستعين باللّه العباسى بن محمد فى سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و كان نظر الجامع الجديد بيده و بيد أبيه الخليفة المتوكل على اللّه محمد، فقصد بعض سفهاء العامّة يكاتبه بتعطيل هذا السوق، فاستأجر قيسارية العصفر و نقل سوق العنبر إليها، و صار معطلا نحو سنتين، ثم عاد أهل العنبر إلى هذا السوق على عادتهم فى سنة ثمان عشرة و ثمانمائة.

سوق الخرّاطين: هذا السوق يسلك فيه من سوق المهامزيين إلى الجامع الأزهر و غيره، و كان قديما يعرف بعقبة الصباغين، ثم عرف بسوق القشاشين، و كان فيما بين دار الضرب و الوكالة الآمرية و بين المارستان، ثم عرف الآن بسوق الخرّاطين، و كان سوقا كبيرا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۷

معمورا لجانبين بالحوانيت المعدّة لبيع المهد الذى يربى فيه الأطفال، و حوانيت الخرّاطين، و حوانيت صناع السكاكين، و صناع الدوى، يشتمل على نحو الخمسين حانوتا، فلما حدثت المحن تلاشى هذا السوق، و اغتصب الأمير جمال الدين يوسف الاستادار منه عدّة حوانيت، من أوّله إلى الحمام التى تعرف بحمام الخرّاطين، و شرع فى عمارتها، فعوجل بالقتل قبل إتمامها، و قبض عليها الملك الناصر فرج فيما أحاط به من أمواله و أدخلها فى الديوان.

فقام بعمارة الحوانيت التى تجاه قيسارية العصفر من درب الشمسى إلى أوّل الخرّاطين القاضى الرئيس تقىّ الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر، فلما كملت جعلها الملك الناصر فيما هو موقوف على ترتبته التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر، و أفرد الحمّام و بعض الحوانيت القديمة للمدرسة التى أنشأها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار برحبة باب العيد، و ما يقابل هذه الحوانيت هو و ما فوقه وقف على المدرسة القراسنقرية و غيرها، و هو متخرّب متهدّم.

سوق الجملون الكبير: هذا السوق بوسط سوق الشرابشيين، يتوصل منه إلى البندقانيين و إلى حارة الجودرية و غيرها، أنشئ فيه حوانيت سكنها البزازون، وقفه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون على تربة مملوكه بلبغا التركمانىّ عند ما مات فى سنة سبع و سبعمائة، ثم عمل عليه بابان بطرفيه بعد سنة تسعين و سبعمائة، فصارت تغلق فى الليل، و كان فيما أدركناه شارعا مسلوكا طول الليل، يجلس تجاه صاحب العسس، الذى عرفته العامة فى زماننا بوالى الطوف، من بعد صلاة العشاء فى كل ليلة، و ينصب قدّامه مشعل يشعل بالنار طول الليل، و حوله عدّة من الأعوان و كثير من السقائين و النجارين و القصارين و الهدّادين بنوب مقرّرة لهم، خوفا من أن يحدث بالقاهرة فى الليل حريق فيتداركون إطفاءه، و من حدث منه فى الليل خصومة، أو وجد سكران، أو قبض عليه من السرّاق، تولى أمره والى الطوف و حكم فيه بما يقتضيه الحال. فلما كانت الحوادث بطل هذا الرسم فى جملة ما بطل، و هذا السوق الآن جار فى وقف ... .

سوق الفرّايين: هذا السوق يسلك فيه من سوق الشرابشيين إلى الأكفانيين و الجامع الأزهر و غير ذلك. كان قديما يعرف بسوق

الخروقيين، ثم سكن فيه صناع الفراء و تجّاره، فعرف بهم، و صار بهذا السوق فى أيام الملك الظاهر برقوق من أنواع الفراء ما يجلّ أثمانها و تتضاعف قيمها، لكثرة استعمال رجال الدولة من الأمراء و المماليك لبس السمور و الوشق و القماقم و السنجاب، بعد ما كان ذلك فى الدولة التركية من أعز الأشياء التى لا يستطيع أحد أن يلبسها، و لقد أخبرنى الطواشى الفقيه الكاتب الحاسب الصوفىّ زين الدين مقبل الرومىّ الجنس المعروف بالشامى، عتيق السلطان الملك الناصر الحسين بن محمد بن قلاون: أنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۸

وجب فى تركة بعض أمراء السلطان حسن قباء بفرو قاقم، فاستكثر ذلك عليه و تعجب منه، و صار يحكى ذلك مدّة لعزّة هذا الصنف و احترامه، لكونه من ملابس السلطان و ملابس نسائه، ثم تبذلت الأصناف المذكورة حتى صار يلبس السمور آحاد الأجناد و آحاد الكتاب، و كثير من العوام، و لا تكاد امرأة من نساء بياض الناس تخلو من لبس السمور و نحوه، و إلى الآن عند الناس من هذا الصنف و غيره من الفرو شىء كثير.

سوق البخانقيين: هذا السوق فيما بين سوق الجملون الكبير و بين قيسارية الشرب الآتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى عند ذكر القياسر. و باب هذا السوق شارع من القصبة، و يعرف بسوق الخشيبة تصغير خشبة، فإنه عمل على بابه المذكور خشبة تمنع الراكب من التوصل إليه، و يسلك من هذا السوك إلى قيسارية الشرب و غيرها. و هو معمور الجانبين بالحوانيت المعدّة لبيع الكوافى و الطواقى التى تلبسها الصبيان و البنات، و بظاهر هذا السوق أيضا فى القصبة عدّة حوانيت لبيع الطواقى و عملها، و قد كثر لبس رجال الدولة من الأمراء و المماليك و الأجناد و من يتشبه بهم للطواقى فى الدولة الجركسية، و صاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة، و يمرّون كذلك فى الشوارع و الأسواق و الجوامع و المواكب لا يرون بذلك بأسا بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس عارا و فضيحة، و نوّعوا هذه الطواقى ما بين أخضر و أحمر و أزرق و غيره من الألفوان، و كانت أوّلا ترتفع نحو سدس ذراع، و يعمل أعلاها مدوّرا مسطحا، فحدث فى أيام الملك الناصر فرج منها شىء عرف بالطواقى الجركسية، يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثى ذراع، و أعلاها مدوّر مقبب، و بالغوا فى تبطين الطاقية بالورق و الكتيرة، فيما بين البطانة المباشرة للرأس و الوجه الظاهر للناس، و جعلوا من أسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الأسود يقال له القندس، فى عرض نحو ثمن ذراع، يصير دائرا بجبهة الرجل و أعلى عنقه، و هم على استعمال هذا الزىّ إلى اليوم، و هو من أسمج ما عانوه، و يشبه الرجال فى لبس ذلك بالنساب لمعنيين، أحدهما أنه فشا فى أهل الدولة محبة الذكران، ليستملن قلوب رجالهنّ، فاقتدى بفعلهنّ فى ذلك عامة نساء البلد. و ثانيهما ما حدث بالناس من الفقر و نزل بهم من الفاقة، فاضطرّ حال نساء أهل مصر إلى ترك ما أدركنا فيه النساء من لبس الذهب و الفضة و الجواهر و لبس الحرير، حتى لبسن هذه الطواقى و بالغن فى عملها من الذهب و الحرير و غيره، و تواصين على لبسها، و من تأمل أحوال الوجود عرف كيف تنشأ أمور الناس فى عاداتهم و أخلاقهم و مذاهبهم.

سوق الخلعيين: هذا السوق فيما بين قيسارية الفاضل الآتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى، و بين باب زويلة الكبير، و كان يعرف قديما بالخشابين، و عرف اليوم بالزقيق تصغير زقاق، و عرف أيضا بسوق الخلعيين، كأنه جمع خلعىّ، و الخلعىّ فى زماننا هو الذى يتعاطى بيع الثياب الخليع، و هى التى قد لبست، و هذا السوق اليوم من أعمر أسواق القاهرة لكثرة ما يباع فيه من ملابس أهل الدولة و غيرهم، و أكثر ما يباع فيه الثياب المخيطة، و هو معمور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۹

الجوانب بالحوانيت، و يسلك فيه من القصبة ليلا و نهارا إلى حارة الباطلية. و خوخة أيدغمش و غير ذلك، و فى داخل القاهرة أيضا عدّة أسواق و قد خرب الآن أكثرها.

سويقة الصاحب: هذه السويقة يسلك إليها من خط البندقانيين و من باب الخوخة و غير ذلك، و هى من الأسواق القديمة كانت فى الدولة الفاطمية تعرف بسويقة الوزير، يعنى أبا الفرج يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز الذى تنسب إليه حارة

الوزيريـة، فإنها كانت على باب داره التى عرفت بعـده فى الدولـة الفاطميـة بـدار الديباج، و صار موضـعها الآن المدرسة الصاحبية، ثم صارت تعرف بسويقة دار الديباج يعنى دار الطراز، ينسج فيها الديباج الذى هو الحرير، و قيل لذلك الموضع كله خط دار الديباج، ثم عرف هـذا السوق بالسوق الكبير فى أخريات الدولـة الفاطميـة، فلما ولى صـفىّ الدين عبد اللّه بن شـكر الدميرى وزارة الملك العادل أبى بكر بن أيوب سـكن فى هـذا الخط، و أنشأ به مدرسـته التى تعرف إلى اليوم بالمدرسـة الصاحبيـة، و أنشأ به أيضا رباطه و حمامه المجاورين للمدرسـة المذكورة، عرفت من حينئذ هذه السويقة بسويقة الصاحب المذكور، و اسـتمرّت تعرف بذلك إلى يومنا هذا، و لم تزل من الأسواق المعتبرة، يوجد فيها أكثر ما يحتاج إليه من المآكل، لوفور نعم من يسكن هنالك من الوزراء و أعيان الكتاب، فلما حدثت المحن طرقها ما طرق غيرها من أسواق القاهرة فاختلت عما كانت و فيها بقية.

سوق البندقانيين: هذا السوق يسـلك إليه من سوق الزجاجين و من سويقة الصاحب و من سوق الأبزاريين و غيره، و كان يعرف قديما بسوق بئر زويلـة، و كـان هنـاك بئر قديمـة تعرف ببئر زويلـة برسم اصـطبل الجميزة الـذى كـان فيه خيول الخلفـاء الفـاطميين، و صار موضـعه خط البندقانيين بعد ذلك كما ذكر عند اصـطبلات الخلفاء الفاطميين من هذا الكتاب، و موضع هذه البئر اليوم قيسارية يونس و الربع الـذى يعلوهـا، و بقى منهـا موضع ركب عليه حجر و أعـدّت لمـلء السـقائين منهـا، فلمـا زالت الدولـة و اختط موضع اصـطبل الجميزة الـدور و غيرها، و عرف موضع الاصـطبل بالبنـدقانيين، قيل لهذا السوق سوق البندقانيين، و أدركته سوقا كبيرا معمور الجانبين بالحوانيت التى قـد تهدّم أعلاها منذ كان الحريق بالبندقانيين فى سـنة إحدى و خمسـين و سـبعمائة، كما ذكر فى خط البندقانيين عند ذكر الأخطـاط من هـذا الكتـاب، و فى هـذا السوق كثير من أربـاب المعـاش المعـدّين لبيع المأكولات من الشواء و الطعام المطبوخ و أنواع الأجبان و الألبان و البوارد و الخبز و الفواكه، و عدّة كثيرة من صـناع قسىّ البندق، و كثير من الرسامين، و كثير من بياعى الفقاع. فلما حدثت المحن بعد سنة ست و ثمانمائة اختلّ هذا السوق خللا كبيرا و تلاشى أمره.

سوق الأخفـافيين: هـذا السوق بجوار سوق البنـدقانيين، يبـاع فيه الآـن خفاف النسوان و نعالهنّ، و هو سوق مسـتجدّ أنشأه الأمير يونس النوروزىّ دوادار الملك الظاهر برقوق فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۰

سنة بضع و ثمانين و سـبعمائة، و نقل إليه الأخفافيين بياعى أخفاف النساء من خط الحريريين و الزجاجين، و كان مكانه مما خرب فى حريق البنـدقانيين، فركب بعض القيساريـة على بئر زويلـة و جعل بابها تجاه درب الأنجب، و بنى بأعلاها ربعا كبيرا فيه عدّة مساكن، و جعـل الحوانيت بظاهرها و بظاهر درب الأنجب، و بنى فوقها أيضا عـدّة مساكن، فعمر ذلك الخط بعمارة هـذه الأماكن، و به إلى الآن سكن بياعى أخفاف النساء و نعالهنّ، التى يقال للنعل منها سر موزه، و هو لفظ فارسىّ معناه رأس الخف، فإن سر رأس و موزه خف.

سوق الكفتيين: هذا السوق يسـلك إليه من البندقانيين و من حارة الجودرية و من الجملون الكبير و غيره، و يشـتمل على عدّة حوانيت لعمل الكفت، و هو ما تطعّم به أوانى النحاس من الـذهب و الفضة، و كان لهذا الصـنف من الأعمال بديار مصـر رواج عظيم، و للناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة، أدركنا من ذلك شيئا لا يبلغ وصفه واصف لكثرته، فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة و مصر من عدّة قطع نحاس مكفت، و لا بدّ أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت.

و الدكة: عبارة عن شـىء شـبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج و الأبنوس، أو من خشب مدهون، و فوق الدكة دست طاسات من نحاس أصـفر مكفت بالفضـة، و عـدّة الـدست سـبع قطع بعضـها أصـغر من بعض، تبلغ كبراها ما يسع نحو الأردب من القمـح، و طول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض إصـبعين، و مثل ذلك دست أطباق عدّتها سـبعة بعضـها فى جوف بعض، و يفتـح أكبرهـا نحو الـذراعين و أكثر، و غير ذلك من المنابر و السـرج و أحقاق الأشـنان و الطشت و الإبريق و المبخرة، فتبلغ قيمـة الدكـة من النحـاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهبا، و كانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار تجهز فى شورتها عند بناء الزوج عليها سبع دكك، دكة من فضة، و دكة من كفت، و دكة من نحاس أبيض، و دكة من خشب

مدهون، و دكة من صيني، و دكة من بلور، و دكة كداهي: و هي آلات من ورق مدهون تحمل من الصين، أدركنا منها في الدور شيئا كثيرا، و قد عدم هذا الصنف من مصر إلّا شيئا يسيرا. حدثني القاضي الفاضل الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزوميّ رحمه اللّه قال: تزوّج القاضي علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة بامرأة من بنات التجار، تعرف بست العمائم، فلما قارب البناء عليها و الدخول بها، حضر إليه في يوم وكيلها و أنا عنده، فبلّغه سلامها عليه و أخبره أنها بعثت إليه بمائة ألف درهم فضة خالصة ليصلح بها لها ما عساه اختلّ من الدكة الفضة، فأجابه إلى ما سأل و أمره باحضار الفضة، فاستدعى الخدم من الباب فدخلوا بالفضة في الحال، و بالوقت أمر المحتسب بصناع الفضة و طلائها، فاحضروا و شرعوا في إصلاح ما أرسلته ست العمائم من أواني الفضة و إعادة طلائها بالذهب، فشاهدنا من ذلك منظرا بديعا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۱

و أخبرني من شاهد جهاز بعض بنات السلطان حسن بن محمد بن قلاوون و قد حمل في القاهرة عند ما زفت على بعض الأمراء في دولة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، فكان شيئا عظيما، من جملته دكة من بلور تشتمل على عجائب، منها زير من بلور قد نقش بظاهره صور ثابتة على شبه الوحوش و الطيور، و قدر هذا الزير ما يسع قربة ماء، و قد قلّ استعمال الناس في زمننا هذا للنحاس المكفت، و عزّ وجوده، فإن قوما لهم عدّة سنين قد تصدّوا لشراء ما يباع منه و تنحية الكفت عنه طلبا للفائدة، و بقي بهذا السوق إلى يومنا هذا بقية من صناع الكفت قليلة.

سوق الأقباعيين: بخط تحت الربع خارج باب زويلة، مما يلي الشارع المسلوك فيه إلى قنطرة الخرق، ما كان منه على يمنة السالك إلى قنطرة الخرق، فإنه جار في وقف الملك الظاهر بيبرس، هو و ما فوقه على المدرسة الظاهرية بخط بين القصرين، و على أولاده. و لم يزل إلى يوم السبت خامس شهر رمضان سنة عشرين و ثمانمائة، فوقع الهدم فيه ليضاف إلى عمارة الملك المؤيد شيخ المجاورة لباب زويلة، و ما كان من هذا السوق على يسرة من سلك إلى القنطرة، فإنه جار في وقف اقبغا عبد الواحد على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر، و بعضه وقف امرأة تعرف بدنيا.

سويقة السقطيين: هذا السوق خارج باب زويلة بجوار دار التفاح، أنشأه الأمير اقبغا عبد الواحد و هو جار في وقفه.

سويق خزانة البنود: هذه السويقة على باب درب راشد، و تمتدّ إلى خزانة البنود، و كانت تعرف أوّلا بسويقة ريدان الصقلبي المنسوب إليه الريدانية خارج باب النصر.

سويقة المسعودي: هذه السويقة من حقوق حارة زويلة بالقاهرة، تنسب إلى الأمير صارم الدين قايماز المسعودىّ، مملوك الملك المسعود أقسيس بن الملك الكامل. و ولي المسعودي هذا ولاية القاهرة، و كان ظالما غاشما جبارا، من أجل أنه كان في دار ابن فرقة التي من جملتها جامع ابن المغربي، و بيت الوزير ابن أبي شاكر، ثم إن فتح الدين بن معتصم الداودي التبريزي كاتب السر جدّدها في سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، لأنه كان يسكن هناك.

و مات المسعودىّ في يوم الاثنين النصف من ذي الحجة سنة أربع و ستين و ستمائة، ضربه شخص في دار العدل بسكين، كان يريد أن يقتل بها الأمير عز الدين الحلي نائب السلطنة، فوقعت في فؤاد المسعودىّ فمات لوقته.

سويقة طغلق: هذه السويقة على رأس الحارة الصالحية مما يلي الجامع الأزهر، عرفت بالأمير سيف الدين طغلق السلاح دار، صاحب حمام طغلق التي بالقرب من الجامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۲

الأزهر على باب درب المنصوري، و صاحب دار طغلق التي عرفت اليوم بدار المنصوري في الدرب المذكور، و أوّل ما عمرت هذه السويقة لم يكن فيها غير أربع حوانيت، ثم عمرت عمارة كبيرة لمّا خربت سويقة الصالحية التي كانت مما يلي باب البرقية في حدود سنة ثمانين و سبعمائة، ثم تلاشت من سنة ست و ثمانمائة كما تلاشى غيرها من الأسواق، و بقي فيها يسير جدّا.

سويقة الصوّانى: هذه السويقة خارج باب النصر و باب الفتوح، بخط بستان ابن صيرم، عرفت بالأمير علاء الدين أبى الحسن علىّ بن مسعود الصوّانىّ، مشدّ الدواوين فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى، و قيل بل قراجا الصوّانى، أحد مقدّمى الحلقة فى أيام الملك المنصور قلاوون، و كان فى حدود سنة إحدى و ثمانين و ستمائة موجودا، و كانت داره هناك، و كان أيضا فى أيام الملك المنصور قلاون، الأمير زين الدين أبو المعالى أحمد بن شرف الدين أبى المفاخر محمد الصوّانى شادّ الدواوين، و كان يسكن بمدينة مصر، و الأمير علم الدين سنجر الصوّانى أحد الأمراء المقدّمين الألوف فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، و الملك المظفر بيبرس، و هو صاحب البئر التى بالباطلية المعروفة ببئر الدرابزين، و عز الدين أيبك الصوّانى.

سويقة البلشون: هذه السويقة خارج باب الفتوح، عرفت بسابق الدين سنقر البلشون، أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب و سلاح درايته، و كان له أيضا بستان بالمقس خارج القاهرة من جوار الدكة يعرف ببستان البلشون.

سويقة اللفت: هذه السويقة كانت خارج باب النصر من ظاهر القاهرة، حيث البئر التى فى شمال مصلى الأموات، المعروف ببئر اللفت. تجاه دار ابن الحاجب، كانت تشتمل على عدّة حوانيت يباع فيها اللفت و الكرنب، و يحمل منها إلى سائر أسواق القاهرة، و يباع اليوم فى بعض هذه الحوانيت الدريس لعلف الدواب.

سويقة زاوية الخدّام: هذه السويقة خارج باب النصر بحرىّ سويقة اللفت، كان فيها عدّة حوانيت يباع فيها أنواع المآكل، فلما كانت سن ست و ثمانمائة خربت، و لم يبق فيها سوى حوانيت لا طائل بها.

سويقة الرملة: هذه السويقة كانت فيما بين سويقة زاوية الخدّام و جامع آل ملك حيث مصلى الأموات، التى هناك كان فيها عدّة حوانيت مملوءة بأصناف المآكل، قد خرب سائرها و لم يبق لها أثر البتة.

سويقة جامع آل ملك: أدركتها إلى سنة ست و ثمانمائة، و هى من الأسواق الكبار، فيها غالب ما يحتاج إليه من الإدام، و قد خربت لخراب ما يجاورها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۳

سويقة أبى ظهير: كانت تلى سويقة جامع آل ملك أدركتها عامرة.

سويقة السنابطة: كانت هناك، عرفت بقوم من أهل سنباط سكنوا بها، أدركتها أيضا عامرة.

سويقة العرب: هذه السويقة كانت تتصل بالريدانية، خربت فى الغلاء الكائن فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، و أدركت حوانيت هذه السويقة، و هى خالية من السكان إلّا يسيرا، و عقودها من اللبن، و يقال له و ما وراءه خراب الحسينية، و كانت فى غاية العمارة، و كان بأوّلها مما يلى الحسينية فرن، أدركته عامر إلى ما بعد سنة تسعين و سبعمائة، بلغنى أنه كان قبل ذلك فى أعوام ستين و سبعمائة يخبز فيه كل يوم نحو سبعة آلاف رغيف، لكثرة من حوله من السكان، و تلك الأماكن اليوم لا ساكن فيها إلّا اليوم، و لا يسمع بها إلّا الصدى.

سويقة العزى: هذه السويقة خارج باب زويلة قريبا من قلعة الجبل، كانت من جملة المقابر التى خارج القاهرة، فيما بين الباب الحديد و الحارات و بركة الفيل، و بين الجبل الذى عليه الآن قلعة الجبل، فلما اختطت هذه الجهة كما تقدّم ذكره عند ذكر ظواهر القاهرة، عرفت هذه السويقة بالأمير عز الدين أيبك العزى نقيب الجيوش، و استشهد على عكا عند ما فتحها الأشرف خليل بن قلاوون فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين و ستمائة، و هذه السويقة عامرة بعمارة ما حولها.

سويقة العياطين: هذه السويقة بخط المقس بالقرب من باب البحر، عرفت بالفقير المعتقد مسعود بن محمد بن سالم العياط لسكنه بالقرب منها، و له هناك مسجد بناه فى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، و أخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسن بن عمر الشهرزورىّ وكيل أبى رحمه اللّه: أن النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، طرح على أهل هذه السويقة عدّة أمطار عسل قصب، و ألزمهم فى ثمن كل قنطار بعشرين درهما، فوقفوا إلى السلطان و عيطوا حتى أعفاهم من ذلك، فقيل لها من

حينئذ سويقة العياطين، و لفظة عياط عند أهل مصر بمعنى صيّاح، و العياط الصيّاح، و أصل ذلك فى اللغة أن العطعطة تتابع الأصوات و اختلافها فى الحرب، و هى أيضا حكاية أصوات المجان إذا قالوا عيط محيط، و ذلك إذا غلبوا قوما، و قد عطعطوا أو عطعط بالذئب إذا قال له عاط عاط، فحرّف عامّة مصر ذلك و جعلوا العياط الصيّاح، و اشتقوا منه الفعل فأعرف ذلك.

سويقة العراقيين: هذه السويقة بمدينة مصر الفسطاط، و إنما عرفت بذلك لأن قريبا الأزديّ و زحافا الطائيّ، و كانا من الخوارج، خرجا على زياد ابن أميـة بالبصـرة، فاتهم زياد بهما جماعـة من الأزد، و كتب إلى معاوية بن أبى سـفيان يسـتأذنه فى قتلهم، فأمر بتغربهم عن أوطانهم، فسيّرهم إلى مصر و أميرها مسلمة بن مخلد، و ذلك فى سنة ثلاث و خمسين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۴

و كـان عـددهم نحوا من مـائتين و ثلاـثين، فـأنزلوا بالظاهر أحـد خطط مصـر، و كان إذ ذاك طرقا، أراد أن يسـدّ بهم ذلك الموضع، فنزلوا فى الموضع المعروف بكوم سراج، و كان فضاء، فبنوا لهم مسجدا و اتخذوا سوقا لأنفسهم، فسمى سويقة العراقيين.

ذكر العوائد التى كانت بقصبة القاهرة

إعلم أن قصبة القاهرة ما برحت محترمة، بحيث أنه كان فى الدولة الفاطمية إذا قدم رسول متملّك الروم، ينزل من باب الفتوح و يقبل الأرض و هو ماش إلى أن يصل إلى القصر، و كـذلك كان يفعل كل من غضب عليه الخليفة، فإنه يخرج إلى باب الفتوح و يكشـف رأسه و يستغيث بعفو أمير المؤمنين حتى يؤذن له بالمصير إلى القصر، و كان لها عوايد منها:

أن السـلطان من ملوك بنى أيوب و من قام بعـدهم من ملوك الترك، لا بـدّ إذا اسـتقرّ فى سـلطنة ديار مصـر أن يلبس خلعة السـلطان بظاهر القاهرة، و يـدخل إليها راكبا و الوزير بين يـديه على فرس، و هو حامل عهـد السـلطان الـذى كتبه له الخليفة بسـلطنة مصـر على رأسـهم، و قد أمسكه بيديه، و جميع الأمراء و رجال العساكر مشاة بين يديه منذ يدخل إلى القاهرة من باب الفتوح، أو من باب النصر، إلى أن يخرج من باب زويلة. فإذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء و بقية العسكر.

و منها أنه لا يمرّ بقصبة القاهرة حمل تبن، و لا حمل حطب، و لا يسوق أحد فرسا بها، و لا يمرّ بها سقّاء إلّا و راويته مغطاة.

و من رسم أربـاب الحوانيت أن يعـدّوا عنـد كـل حـانوت زيرا مملوءا بالماء مخافـة أن يحـدث الحريق فى مكان فيطفأ بسـرعة، و يلزم صـاحب كـل حانوت أن يعلق على حانوته قنـديلا طول الليل يسـرج إلى الصـباح، و يقام فى القصـبة قوم يكنسون الأزبال و الأتربـة و نحوها، و يرشون كل يوم، و يجعل فى القصـبة طول الليل عـدّة من الخفراء يطوفون بها لحراسـة الحوانيت و غيرها، و يتعاهـد كل قليل بقطع ما عساه تربى من الأوساخ فى الطرقات حتى لا تعلو الشوارع.

و أوّل من ركب بخلع الخليفة فى القاهرة السـلطان الملك الناصـر صـلاح الدين يوسف بن أيوب. قال القاضـى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ستين و خمسمائة، تاسع شهر رجب وصلت الخلع التى كانت نفذت إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمد بن زنكى من الخليفة ببغداد، و هى جبة سوداء و طوق ذهب، فلبسها نور الدين بدمشق إظهارا لشعارها، و سيّرها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها، و كانت أنفذت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۵

له خلعة ذكر أنه استقصـرها و استزراها و استصـغرها دون قدره، و استقرّ السلطان صلاح الدين بداره، و باتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك برأس الطابية، فلما كان العاشـر منه خرج قاضى القضاة و الشهود و المقرئون و الخطباء إلى خيمته، و استقرّ المسير بالخلعة، و هو من الأصـحاب النجميـة، و زينت البلـد ابتهاجـا بهـا، و فيه ضـربت النوب الثلاـث بالباب الناصـرى على الرسم النورى فى كل يوم، فأما دمشق فـالنوب المضـروبة بهـا خمس على رسم قـديم، لأن الأتابكيـة لها قواعـد و رسوم مسـتقرّة بينهم فى بلادهم. و فى حادى عشـرة ركب السلطان بالخلع و شق بين القصرين و القاهرة، و لما بلغ باب زويلة نزع الخلع و أعادها إلى داره، ثم شمّر للعب الأكرة، و لم يزل

الرسم كذلك فى ملوك بنى أيوب حتى انقضت أيامهم و قام من بعدهم مماليكهم الأتراك، فجروا فى ذلك على عادة ملوك بنى أيوب إلى أن قام فى مملكة مصر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ و قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله، و هو آخر خلفاء بنى العباس ببغداد، و قدم على الملك الظاهر أبو العباس، أحمد بن الخليفة الظاهر بالله بن الخليفة الناصر، فى شهر رجب سنة تسع و خمسين و ستمائة، فتلقاه و أكرمه و بايعه و لقبه بالخليفة المستنصر بالله، و خطب باسمه على المنابر، و نقش السكة باسمه، فلما كان فى يوم الاثنين الرابع من شعبان، ركب السلطان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير من ظاهر القاهرة، و لبس خلعة الخليفة، و هى جبة سوداء و عمامة بنفسجية و طوق من ذهب و سيف بدّاويّ، و جلس مجلسا عاما حضر فيه الخليفة و الوزير القضاة و الأمراء و الشهود، و صعد القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب السرّ منبرا نصب له و قرأ تقليد السلطان الذى عهد به إليه الخليفة، و كان بخط ابن لقمان و من إنشائه، ثم ركب السلطان بالخلعة و الطوق و دخل من باب النصر و شق القاهرة، و قد زينت له، و حمل الوزير الصاحب بهاء الدين محمد بن علىّ بن حنا التقليد على رأسه قدّام السلطان، و الأمراء و من دونهم مشاة بين يديه حتى خرج من باب زويلة إلى قلعة الجبل، فكان يوما مشهودا.

و فى ثالث شوّال سنة اثنتين و ستين و ستمائة، سلطن الملك الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان، و أركبه بشعار السلطنة و مشى قدّامه و شق القاهرة كما تقدّم و سائر الأمراء مشاة من باب النصر إلى قلعة الجبل، و قد زينت القاهرة، و آخر من ركب بشعار السلطنة و خلعة الخلافة و التقليد، السلطان الناصر محمد بن قلاوون، عند دخوله إلى القاهرة من البلاد الشامية بعد قتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، و استيلائه على المملكة، فى ثامن جمادى الأولى سنة ثمان و تسعين و ستمائة.

و قال المسبّحى فى حوادث سنة اثنتين و ثمانين و ثلاثمائة نودى فى السقائين أن يغطوا روايا الجمال و البغال لئلا تصيب ثياب الناس.

و قال: فى سنة ثلاث و ثمانين و ثلاثمائة أمر العزيز بالله أمير المؤمنين بنصب أزيار الماء مملوءة ماء على الحوانيت، و وقود المصابيح على الدور و فى الأسواق. و فى ثالث ذى الحجة سنة إحدى و تسعين و ثلاثمائة أمر أمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۶

المؤمنين الحاكم بأمر اللّه الناس بأن يقدوا القناديل فى سائر البلد على جميع الحوانيت، و أبواب الدور، و المحال و السكك الشارعة. و غير الشارعة، ففعل ذلك، و لازم الحاكم بأمر اللّه الركوب فى الليل، و كان ينزل كل ليلة إلى موضع موضع، و إلى شارع شارع، و إلى زقاق زقاق، و كان قد ألزم الناس بالوقيد، فتناظر وافية و استكثروا منه فى الشوارع و الأزقة و زينت القياسر و الأسواق بأنواع الزينة، و صار الناس فى القاهرة و مصر طول الليل فى بيع و شراء، و أكثروا أيضا من وقود الشموع العظيمة، و أنفقوا فى ذلك أموالا عظيمة جللة لأجل التلاهى، و تبسطوا فى المآكل و المشارب و سماع الأغانى، و منع الحاكم الرجال المشاة بين يديه من المشى بقربة، و زجرهم و انتهرهم و قال: لا تمنعوا أحدا منى، فأحدق الناس به و أكثروا من الدعاء له، و زينت الصاغة و خرج سائر الناس بالليل للتفرّج، و غلب النساء الرجال على الخروج بالليل، و عظم الازدحام فى الشوارع و الطرقات، و أظهر الناس اللهو و الغناء و شرب المسكرات فى الحوانيت و بالشوارع من أوّل المحرّم سنة إحدى و تسعين و ثلاثمائة، و كان معظم ذلك من ليلة الأربعاء تاسع عشرة إلى ليلة الاثنين رابع عشرية، فلما تزايد الأمر و شنع أمر الحاكم بأمر اللّه أن لا تخرج امرأة من العشاء، و متى ظهرت امرأة بعد العشاء نكّل بها، ثم منع الناس من الجلوس فى الحوانيت فامتنعوا، و لم يزل الحاكم على الركوب فى الليل إلى آخر شهر رجب، ثم نودى فى شهر رجب سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة أن لا يخرج أحد بعد عشاء الآخرة، و لا يظهر لبيع و لا شراء، فامتنع الناس.

و فى سنة خمس و أربعمائة تزايد فى المحرّم منها وقوع النار فى البلد و كثر الحريق فى عدّة أماكن، فأمر الحاكم بأمر اللّه الناس باتخاذ القناديل على الحوانيت و أزيار الماء مملوءة ماء، و بطرح السقائف التى على أبواب الحوانيت، و الرواشن التى تظلّ الباعة، فأزيل جميع ذلك من مصر و القاهرة.

ذكر ظواهر القاهرة المعزية

اعلم أن القاهرة المعزية يحصرها أربع جهات و هى: الجهة الشرقية، و الجهة الغربية، و الجهة الشمالية التى تسميها أهل مصر البحرية، و الجهة الجنوبية التى تعرف فى أرض مصر بالقبلية.

فأما الجهة الشرقية فإنها من سور القاهرة الذى فيه الآن باب البرقية و الباب الجديد و الباب المحروق، و تنتهى هذه الجهة إلى الجبل المقطم. و أما الجهة الغربية فإنها من سور القاهرة الذى فيه باب القنطرة و باب الخوخة و باب سعادة، و تنتهى هذه الجهة إلى شاطىء النيل. و أما الجهة القبلية فإنها من سور القاهرة الذى فيه باب زويلة، و تنتهى هذه الجهة إلى حدّ مدينة مصر. و أما الجهة البحرية فإنها من سور القاهرة الذى فيه باب النصر و باب الفتوح، و تنتهى هذه الجهة إلى بركة الجب التى تعرف اليوم ببركة الحاج، و قد كانت هذه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۷

الجهة الشرقية عند ما وضعت القاهرة فضاء فيما بين السوروبين الجبل لا بنيان فيه البتة، و ما زال على هذا إلى أن كانت الدولة التركية، فقيل لهذا الفضاء الميدان الأسود، و ميدان القبق، و سيرد ذكر هذا الميدان إن شاء اللّه تعالى.

فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون، عمل هذا الميدان مقبرة لأموات المسلمين، و بنيت فيه الترب الموجودة الآن كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب، و كانت الجهة الغربية تنقسم قسمين، أحدهما برّ الخليج الشرقىّ، و الآخر برّ الخليج الغربىّ، فأما برّ الخليج الشرقى، فكان عليه بستان الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد و ميدانه، و عرف هذا البستان بالكافورى، فلما اختط القائد جوهر القاهرة أدخل هذا البستان فى سور القاهرة، و جعل بجانبه الميدان الذى يعرف اليوم بالخرشتف، فصارت القاهرة تشرف من غربيها على الخليج، و بنيت على هذا الخليج مناظر و هى: منظرة اللؤلؤة، و منظرة دار الذهب، و منظرة غزالة، كما ذكر عند ذكر المناظر من هذا الكتاب. و كان فيما بين البستان الكافورى و المناظر المذكورة و بين الخليج، شارع تجلس فيه عامة الناس للتفرّج على الخليج و ما وراءه من البساتين و البرك، و يقال لهذا الشارع اليوم بين السورين، و يتصل بالبستان الكافورى و ميدان الإخشيد بركة الفيل، و بركة قارون، و يشرف على بركة قارون الدور التى كانت متصلة بالعسكر ظاهر مدينة فسطاط مصر، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، عند ذكر البرك و عند ذكر العسكر. و أما برّ الخليج الغربىّ، فإن أوّله الآن من موردة الخلفاء فيما بين خط الجامع الجديد خارج مصر و بين منشأة المهرانىّ، و آخره أرض التاج و الخمس وجوه و ما بعدها من بحرىّ القاهرة، و كان أوّل هذا الخليج عند وضع القاهرة بجانب خط السبع سقايات، و كان ما بين خط السبع سقايات و بين المعاريج بمدينة مصر غامرا بماء النيل، كما ذكر فى ساحل مصر من هذا الكتاب، و كانت القنطرة التى يفتح سدّها عند وفاء النيل ست عشرة ذراعا خلف السبع سقايات، كما ذكر عند ذكر القناطر من هذا الكتاب، و كان هناك منظرة السكرة التى يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج، و لها بستان عظيم، و يعرف موضعه اليوم بالمريس، و يتصل ببستان منظرة السكرة جنان الزهرى، و هى من خط قناطر السباع الموجودة الآن بحذاء خط السبع سقايات إلى أراضى اللوق، و يتصل بالزهرى عدّة بساتين إلى المقس، و قد صار موضع الزهرى و ما كان بجواره على برّ الخليج من البساتين يعرف بالحكورة، من أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى وقتنا هذا، كما ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب.

و كان الزهرىّ و ما بجواره من البساتين التى على برّ الخليج الغربى و المقس، كل ذلك مطلّ على النيل، و ليس لبرّ الخليج الغربىّ كبير عرض، و إنما يمرّ النيل فى غربىّ البساتين على الموضع الذى يعرف اليوم باللوق إلى المقس، فيصير المقس هو ساحل القاهرة، و تنتهى المراكب إلى موضع جامع المقس الذى يعرف اليوم بجامع المقسى، فكان ما بين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۸

الجامع المذكور و منية عقبة التى ببرّ الجيزة بحر النيل، و لم يزل الأمر على ذلك إلى ما بعد سنة سبعمائة. إلّا أنه كان قد انحسر ماء النيل بعد الخمسمائة من سنى الهجرة عن أرض بالقرب من الزهرىّ، و انحسر أيضا عن أرض تجاه البعل الذى فى بحرى القاهرة،

عرفت هذه الأرض بجزيرة الفيل، و ما برح ماء النيل ينحسر عن شيء بعد شيء إلى ما بعد سنة سبعمائة، فبقيت عدّة رمال فيما بين منشأة المهرانيّ و بين جزيرة الفيل، و فيما بين المقس و ساحل النيل، عمر الناس فيها الأملاك و المناظر و البساتين من بعد سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، و حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون فيها الخليج المعروف اليوم بالخليج الناصريّ، فصار برّ الخليج الغربيّ بعد ذلك أضعاف ما كان أوّلا من أجل انطراد ماء النيل عن برّ مصر الشرقيّ، و عرف هذا البرّ اليوم بعدّة مواضع، و هى فى الجملة خط منشأة المهرانيّ، و خط المريس، و خط منشأة الكتبة، و خط قناطر السباع، و خط ميدان السلطان، و خط البركة الناصرية، و خط الحكورة، و خط الجامع الطبرسى، و ربع بكتمر، و زريبة السلطان، و خط باب اللوق، و قنطرة الخرق، و خط بستان العدّة، و خط زريبة قوصون، و خط حكر ابن الأثير، و فم الخور، و خط الخليج الناصرى، و خط بولاق، و خط جزيرة الفيل، و خط الدكة، و خط المقس، و خط بركة قرموط، و خط أرض الطبالة، و خط الجرف، و أرض البعل، و كوم الريش، و ميدان القمح، و خط باب القنطرة، و خط باب الشعرية، و خط باب البحر، و غير ذلك. و سيأتى من ذكر هذه المواضع ما يكفى و يشفى إن شاء اللّه تعالى.

و كانت جهة القاهرة القبلية من ظاهرها ليس فيها سوى بركة الفيل و بركة قارون، و هى فضاء يرى من خرج من باب زويلة عن يمينه الخليج و موردة السقائين، و كانت تجاه باب الفتوح، و يرى عن يساره الجبل، و يرى تجاهه قطائع ابن طولون التى تتصل بالعسكر، و يرى جامع ابن طولون و ساحل الحمراء الذى يشرف عليه جنان الزهريّ، و يرى بركة الفيل التى كان يشرف عليها الشرف الذى فوقه قبة الهواء، و يعرف اليوم هذا الشرف بقلعة الجبل، و كان من خرج من مصلى العيد بظاهر مصر يرى بركتى الفيل و قارون و النيل.

فلما كانت أيام الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبى على منصور بن العزيز بالله أبى منصور نزار بن الإمام المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، عمل خارج باب زويلة بابا عرف بالباب الجديد، و اختط خارج باب زويلة عدّة من أصحاب السلطان، فاختطت المصامدة حارة المصامدة، و اختطت اليانسية و المنجبية و غيرهما كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، فلما كانت الشدّة العظمى فى خلافة المستنصر بالله، اختلت أحوال مصر و خربت خرابا شنيعا، ثم عمر خارج باب زويلة فى أيام الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و وزارة المأمون محمد بن فاتك بن البطائحيّ بعد سنة خمسمائة، فلما زالت الدولة الفاطمية، هدم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حارة المنصورة التى كانت سكن العبيد خارج باب زويلة، و عملها بستانا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۹

فصار ما خرج عن باب زويلة بساتين إلى المشهد النفيسيّ، و بجانب البساتين طريق يسلك منها إلى قلعة الجبل التى أنشأها السلطان صلاح الدين المذكور على يد الأمير بهاء الدين قراقوش الأسديّ، و صار من يقف على باب جامع ابن طولون يرى باب زويلة، ثم حدثت العمائر التى هى الآن خارج باب زويلة بعد سنة سبعمائة، و صار خارج باب زويلة الآن ثلاثة شوارع، أحدها ذات اليمين، و الآخر ذات الشمال، و الشارع الثالث تجاه من خرج من باب زويلة، و هذه الشوارع الثلاثة تشتمل على عدّة أخطاط.

فأما ذات اليمين فإن من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يمينه شارعا سالكا ينتهى به فى العرض إلى الخليج، حيث القنطرة التى تعرف بقنطرة الخرق، و ينتهى به فى الطول من باب زويلة إلى خط الجامع الطولونى، و جميع ما فى هذا الطول و العرض من الأماكن كان بساتين إلى ما بعد السبعمائة. و فى هذه الجهة اليمنى، خط دار التفاح، و سوق السقطيين، و خط تحت الربع، و خط القشاشين، و خط قنطرة الخرق، و خط شق الثعبان، و خط قنطرة آقسنقر، و خط الحبانية، و بركة الفيل، و خط قبو الكرمانيّ، و خط قنطرة طقزدمر، و المسجد المعلق، و خط قنطرة عمر شاه، و خط قناطر السباع، و خط الجسر الأعظم، و خط الكبش، و الجامع الطولونى، و خط الصليبة، و خط الشارع، و ما هناك من الحارات التى ذكرت عند ذكر الحارات من هذا الكتاب.

و أما ذات اليسار، فإن من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يساره شارعا ينتهى به فى العرض إلى الجبل، و ينتهى به فى الطول إلى القرافة، و جميع ما فى هذه الجهة اليسرى كان فضاء لا عمارة فيه البتة، إلى ما بعد سنة خمسمائة من الهجرة، فلما عمر الوزير الصالح طلائع بن رزيك جامع الصالح الموجود الآن خارج باب زويلة، صار ما وراءه إلى نحو قطائع ابن طولون مقبرة لأهل القاهرة، إلى أن

زالت دولة الخلفاء الفاطميين، و أنشأ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة الجبل على رأس الشرف المطلّ على القطائع، و صار يسلك إلى القلعة من هذه الجهة اليسرى فيما بين المقابر و الجبل، ثم حدثت بعد المحن هذه العمائر الموجودة هناك شيئا بعد شيء، من سنة سبعمائة، و صار في هذه الشقة خط سوق البسطيين، و خط الدرب الأحمر، و خط جامع المارديني، و خط سوق الغنم، و خط التبانة، و خط باب الوزير، و قلعة الجبل، و الرميلة، و خط القبيبات، و خط باب القرافة.

و أما ما هو تجاه من خرج من باب زويلة فيعرف بالشارع، و قد تقدّم ذكره عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب، و هو ينتهي بالسالك إلى خط الصليبة المذكورة آنفا، و إلى خط الجامع الطولونيّ، و خط المشهد النفيسي، و إلى العسكر، و كوم الجارح، و غير ذلك من بقية خطط ظواهر القاهرة و مصر، و كانت جهة القاهرة البحرية من ظاهرها فضاء ينتهي إلى بركة الجب، و إلى منية الاصبغ التي عرفت بالخندق، و إلى منية مطر التي تعرف بالمطرية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۰

و إلى عين شمس، و ما وراء ذلك، إلّا أنه كان تجاه القاهرة بستان ريدان، و يعرف اليوم بالريدانية، و عند مصلّى العيد خارج باب النصر حيث يصلى الآن على الأموات، كان ينزل هناك من يسافر إلى الشام.

فلما كان قبل سنة خمسمائة، و مات أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة سبع و ثمانين و أربعمائة، بنى خارج باب النصر له تربة دفن فيها و بنى أيضا خارج باب الفتوح منظرة قد ذكر خبرها عند ذكر المناظر من هذا الكتاب، و صار أيضا فيما بين باب الفتوح و المطرية بساتين قد تقدّم خبرها، ثم عمرت الطائفة الحسينية بعد سنة خمسمائة خارج باب الفتوح عدّة منازل، اتصلت بالخندق، و صار خارج باب النصر مقبرة إلى ما بعد سنة سبعمائة، فعمر الناس به حتى اتصلت العمائر من باب النصر إلى الريدانية، و بلغت الغاية من العمارة، ثم تناقصت من بعد سنة تسع و أربعين و سبعمائة إلى أن فحش خرابها من حين حدثت المحن في سنة ست و ثمانمائة، فهذا حال ظواهر القاهرة منذ اختطت و إلى يومنا هذا، و يحتاج ما ذكر هنا إلى مزيد بيان و اللّه أعلم.

ذكر ميدان القبق

هذا الموضع خارج القاهرة من شرقيها، فيما بين النقرة التي ينزل من قلعة الجبل إليها، و بين قبة النصر التي تحت الجبل الأحمر، و يقال له أيضا الميدان الأسود، و ميدان العيد، و الميدان الأخضر، و ميدان السباق، و هو ميدان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ الصالحيّ النجميّ، بنى به مصطبة في المحرّم من سنة ست و ستين و ستمائة، عند ما احتفل برمي النشاب و أمور الحرب، و حثّ الناس على لعب الرمح و رمي النشاب و نحو ذلك، و صار ينزل كل يوم إلى هذه المصطبة من الظهر، فلا يركب منها إلى العشاء الآخرة، و هو يرمي و يحرّض الناس على الرمي و النضال و الرهان، فما بقي أمير و لا مملوك إلّا و هذا شغله، و توفر الناس على لعب الرمح و رمي النشاب، و ما برح من بعده من أولاده و الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفيّ الصالحيّ النجميّ، و الملك الأشرف خليل بن قلاوون يركبون في الموكب لهذا الميدان، و تقف الأمراء و المماليك السلطانية تسابق بالخيل فيه قدّامهم، و تنزل العساكر فيه لرمي القبق.

و القبق عبارة عن خشبة عالية جدّا، تنصب في براح من الأرض، و يعمل بأعلاها دائرة من خشب، و تقف الرماة بقسيّها و ترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمرّ من داخلها إلى غرض هناك، تمرينا لهم على إحكام الرمي. و يعبّر عن هذا بالقبق، في لغة الترك.

قال جامع السيرة الظاهرية: و في سابع عشر المحرّم من سنة سبع و ستين و ستمائة، حثّ السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ جميع الناس على رمي النشاب و لعب الرمح، خصوصا خواصه و مماليكه، و نزل إلى الفضاء بباب النصر ظاهر القاهرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۱

و يعرف بميدان العيد، و بنى مصطبة هناك، و أقام ينزل في كل يوم من الظهر، و يركب منها عشاء الآخرة، و هو واقف في الشمس

يرمى و يحرّض النـاس على الرمى و الرهـان، فما بقى أمير و لا مملوك إلا و هـذا شـغله، و اسـتمرّ الحال فى كل يوم على ذلك حتى صـارت تلـك الأمكنـة لا تسع الناس، و ما بقى لأحـد شـغل إلّا لعب الرمـح و رمى النشاب. و فى شـهر رمضان سـنة اثنتين و سـبعين و ستمائة، تقدّم السـلطان الملك الظاهر إلى عساكره بالتأهب للركوب و اللعب بالقبق و رمى النشاب، و اتفقت نادرة غريبة، و هو أنه أمر برش الميـدان الأسـود تحت القلعـة لأجـل الملعب، فشـرع الناس فى ذلك، و كان يوما شديـد الحرّ، فأمر السـلطان بتبطيل الرش رحمة للنـاس، و قال: الناس صـيام و هـذا يوم شديـد الحرّ، فبطل الرش، و أرسل اللّه تعالى مطرا جودا اسـتمرّ ليلتين و يوما حتى كثر الوحل و تلبـدت الأـرض و سـكن العجـاج و برد الجوّ و لطف الهواء، فوكـل السـلطان من يحفظه من السوق فيه يوم اللعب، و هو يوم الخميس السادس و العشـرون من شـهر رمضان، و أمر بركوب جماعـة لطيفـة من كل عشـرة اثنان، و كذلك من كل أمير، و من كل مقدّم لئلا تضـيق الـدنيا بهم. فركبوا فى أحسن زىّ، و أجمل لباس، و أكمل شـكل، و أبهى منظر، و ركب السـلطان و معه من خواصه و مماليكه ألوف، و دخلوا فى الطعان بالرماح، فكل من أصاب خلع عليه السلطان، ثم ساق فى مماليكه الخواص خاصة، و رتبهم أجمل ترتيب، و انـدفق بهم انـدفاق البحر، فشاهد الناس أبهة عظيمة، ثم أقيم القبق و دخل الناس لرمى النشاب، و جعل لمن أصاب من المفاردة رجال الحلقة و البحرية الصالحية و غيرهم بغلطاقا بسنجاب، و للأمراء فرسا من خيله الخاص بتشاهيره و مراواته الفضية و الذهبية و مزاخمه، و ما زال فى هـذه الأيام على هـذه الصورة يتنوّع فى دخوله و خروجه، تارة بالرماح، و تارة بالنشاب، و تارة بالـدبابيس، و تارة بالسـيوف مسـلولة، و ذلك أنه ساق على عادته فى اللعب و سلّ سـيفه، و سلّ مماليكه سـيوفهم، و حمل هو و مماليكه حملـة رجل واحـد، فرأى الناس منظرا عجيبا، و أقام على ذلك كل يوم من بكرة النهار إلى قريب المغرب، و قد ضربت الخيام للنزول للوضوء و الصلاة، و تنوّع الناس فى تبـديل العـدد و الآلات، و تفاخروا و تكاثروا، فكانت هـذه الأيام من الأيام المشـهودة، و لم يبق أحد من أبناء الملوك، و لا وزير، و لا أمير كبير و لا صـغير، و لا مفردى، و لا مقـدّم من مقدّمى الحلقة، و مقدّمى البحرية الصالحية، و مقدّمى المماليك الظاهرية البحريـة، و لا صاحب شـغل، و لا حامل عصا فى خدمـة السـلطان على بابه، و لا حامل طير فى ركاب السـلطان، و لا أحـد من خواص كتاب السـلطان، إلّا و شـرّف بما يليق به على قدر منصبه، ثم تعدّى إحسان السـلطان لقضاة الإسـلام و الأئمة و شـهود خزانة السلطان، فشـرّفهم جميعهم، ثم الولاـة كلهم، و أصـبحوا بكرة يوم الأحـد ثامن عشـرى شـهر رمضان لابسـين الخلع جميعهم فى أحسن صورة و أبهـج زى و أبهى شـكل و أجمل زينـة، بالكلوتات الزركش بالـذهب، و الملابس التى ما سـمع بأن أحـدا جاد بمثلها، و هى ألوف، و خدم الناس جميعهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۲

و قبلوا الأـرض و عليهم الخلع، و ركبوا و لعبوا نهـارهم على العـادة، و الأـموال تفرّق و الأسـمطة تصف، و الصـدقات تنفق، و الرقـاب تعتق. و مـا زال إلى أن أهـلّ هلاـل شوّال، فقـام الناس و طلعوا للهناء، فجلس لهم، و عليهم خلعه، ثم ركب يوم العيـد إلى مصـلاه فى خيمـة بشـعار السـلطنة و أبّهـة الملك، فصـلى ثم طلع قلعـة الجبل و جلس على الأسـمطة، و كان الاحتفال بها كبيرا، و أكل الناس، ثم انتهبه الفقراء، و قام إلى مقرّ سـلطانه بالقبة السـعيدة، و قد غلقت و فرشت بأنواع السـتور و الكلل و الفرش، و كان قد تقدّم إلى الأمراء بإحضـار أولاـدهم، فأحضـروا، و خلع عليهم الخلع المفصـلة على قـدرهم، فلمـا كـان هـذا اليوم أحضـروا و ختنوا بـأجمعهم بين يـدى السـلطان، و أخرجوا فحملوا فى المحفات إلى بيوتهم، و عمّ الهناء كل دار، ثم أحضـر الأمير نجم الـدين خضـر ولد السـلطان، فختن و رمى للناس جملة من الأموال اجتمع منها خزانة ملك كبير، فرّقت على من باشر الختان من الحكماء و المزينين و غيرهم.

و انقضت هذه الأيام، و جرى السلطان فيها على عادته كما كان، من كونه لم يكلّف أحدا من خلق اللّه تعالى بهدية يهديها، و لا تحفة يتحفه بها فى مثل هـذه المسـرّة، كما جرت عادة من تقدّمه من الملوك، و لم يبق من لا شـمله إحسانه غير أرباب الملاهى و الأغانى، فإنه كان فى أيامه لم ينفق لهم مبلغ البتة.

و ممن لعب بهـذا الميـدان القبق، السـلطان الملك الأشـرف خليل بن قلاوون، و عمل فيه المهمّ الذى لم يعمل فى دولة ملوك الترك

بمصر مثله، و ذلك أن خوندار دوتكين ابنة نوكيه، و يقال نوغية السلحدارية، اشتملت من السلطان الملك الأشرف على حمل، فظنّ أنها تلد ابنا ذكرا يرث الملك من بعده، فأخذ عند ما قاربت الوضع فى الاحتفال، و رسم لوزيره الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس أن يكتب إلى دمشق بعمل مائة شمعدان نحاس مكفت بألقاب السلطان، و مائة شمعدان أخر، منها خمسون من ذهب، و خمسون من فضة، و خمسين سرجا من سروج الزركش، و مائة و خمسين سرجا من المخيش، و ألف شمعة و أشياء كثيرة غير ذلك، فقدّر اللّه تعالى أنها ولدت بنتا، فانقبض لذلك و كره إبطال ما قد اشتهر عنه عمله، فأظهر أنه يريد ختان أخيه محمد، و ابن أخيه مظفر الدين موسى بن الملك الصالح علىّ بن قلاوون، فرسم لنقيب الجيش و الحجاب بإعلام الأمراء و العسكر أن يلبسوا كلهم آلة الحرب من السلاح الكامل، هم و خيولهم، و يصيروا بأجمعهم كذلك فى الميدان الأسود خارج باب النصر، فاهتم الأمراء و العسكر اهتماما كبيرا لذلك، و أخذوا فى تحسين العدد و بالغوا فى التأنق، و تنافسوا فى إظهار التجمل الزائد، و خرج فى اليوم الرابع من إعلام الأمراء السوقة، و نصبوا عدّة صواوين فيها سائر البقول و المآكل، فصار بالميدان سوق عظيم، و نزل السلطان من قلعة الجبل بعساكره و عليهم لامة الحرب، و قد خرج سائر من فى القاهرة و مصر من الرجال و النساء إلّا من خلفه العذر لرؤية السلطان، فأقام السلطان يومه، و حصل فى ذلك اليوم للناس بهذا الاجتماع من السرور ما يعزّ وجود مثله، و أصبح السلطان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۳

و قد استعدّ العسكر بأجمعه لرمى القبق، و رسم للحجاب بأن لا يمنعوا أحدا من الجند، و لا من المماليك، و لا من غيرهم من الرمى، و رسم للأمير بيسرى و الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح، أن يتقدّما الناس فى الرمى، فاستقبل الأمير بيسرى القبق و تحته سرج قد صنع قربوسه الذى من خلفه وطيئا، فصار مستلقيا على قفاه، و هو يرمى و يصيب يمنة و يسرة، و الناس بأسرهم قد اجتمعوا للنظر حتى ضاق بهم الفضاء، فلما فرغ دخل أمير سلاح من بعده، و تلاه الأمراء على قدر منازلهم واحدا واحدا، فرموا. ثم دخل بعد الأمراء مقدّموا الحلقة، ثم الأجناد و السلطان يعجب برميهم، و تزايد سروره حتى فرغ الرمى، فعاد إلى مخيّمه و دار السقاة على الأمراء بأوانى الذهب و الفضة و البلور يسقون السكّر المذاب، و شرب الأجناد من أحواض قد ملئت من ذلك، و كانت عدّتها مائة حوض، فشربوا و لهوا و استمرّوا على ذلك يومين، و فى اليوم الثالث ركب السلطان و استدعى الأمير بيسرى و أمره بالرمى، فسأل السلطان أن يعفيه من الرمى، و يمنّ عليه بالتفرّج فى رمى النشاب من الأمراء و غيرهم، فأعفاه و وقف مع السلطان فى منزلته، و تقدّم طفج، و عين الغزال، و أمير عمر، و كيلكدى، و قشتمر العجمى، و برلغى، و أعناق الحسامى، و بكتوت، و نحو الخمسين من أمراء السلطان الشبان الذين أنشأهم من خاصكيته، و عليهم تتريات حرير أطلس بطرازات زركش و كلوتات زركش و حوائص ذهب، و كانوا من الجمال البارع بحيث يذهب حسنهم الناظر، و يدهش جمالهم الخاطر، فتعاظمت مسرّة السلطان برؤيتهم، و كثر إعجابه، و داخله العجب و استخفه الطرب، و ارتجب الدنيا بكثرة من حضر هناك من أرباب الملاهى و الأغانى و أصحاب الملعوب.

فلما انقضى اللعب، عاد السلطان إلى دهليزه فى زينته، و مرح فى مشيته تيها و صلفا، فما هو إلّا أنّ عبر الدهليز و الناس من الطرب و السرور فى أحسن شىء يقع فى العالم، و إذا بالجوّ قد أظلم، و ثار ريح عاصف أسود إلى أن طبق الأرض و السماء، و قلع سائر تلك الخيم، و ألقى الدهليز السلطانىّ، و تزايد حتى أن الرجل لا يرى من بجانبه، فاختلط الناس و ماجوا و لم يعرف الأمير من الحقير، و أقبلت السوقة و العامّة تنهب، و ركب السلطان يريد النجاة بنفسه إلى القلعة، و تلاحق العسكر به و اختلفوا فى الطرق لشدّة الهول، فلم يعبر إلى القلعة حتى أشرف على التلف، و حصل فى هذا اليوم من نهب الأموال و انتهاك الحرم و النساء ما لا يمكن وصفه، و ما ظنّ كل أحد إلّا أنّ الساعة قد قامت، فتنغص سرور الناس و ذهب ما كان هناك، و ما استقرّ السلطان بالقلعة حتى سكن الريح و ظهرت الشمس و كأن ما كان لم يكن، فأصبح السلطان و طلب أرباب الملاهى بأجمعهم، و حضر الأمراء الختان أخيه و ابن أخيه، و عمل مهمّ عظيم فى القاعة التى أنشأها بالقلعة، و عرفت بالأشرفية، و قد ذكر خبر هذا المهمّ عند ذكر القلعة من هذا الكتاب.

و ما برح هذا الميدان فضاء من قلعة الجبل إلى قبة النصر ليس فيه بنيان، و للملوك فيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۴

من الأعمال ما تقدّم ذكره إلى أن كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون، فترك النزول إليه و بنى مسطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش، و صار ينزل هنالك، ثم ترك تلك المسطبة فى سنة عشرين و سبعمائة، و عاد إلى ميدان القبق هذا و ركب إليه على عادة من تقدّمه من الملوك، إلى أن بنيت فيه التربة شيئا بعد شىء حتى انسدّت طريقه، و اتصلت المبانى من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج باب البرقية، و بطل السباق منه، و رمى القبق فيه، من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب، و أنا أدركت عواميد من رخام قائمة بهذا الفضاء تعرف بين الناس بعواميد السباق، بين كل عمودين مسافة بعيدة، و ما برحت قائمة هنالك إلى ما بعد سنة ثمانين و سبعمائة، فهدمت عند ما عمّر الأمير يونس الدوادار الظاهرىّ تربته تجاه قبة النصر، ثم عمّر أيضا الأمير قجماس ابن عمّ الملك الظاهر برقوق تربة هنالك، و تتابع الناس فى البنيان إلى أن صار كما هو الآن و اللّه أعلم.

ذكر برّ الخليج الغربى

اشارة

قد تقدّم أنّ هذا الخليج حفر قبل الإسلام بدهر، و أن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه جدّد حفره فى عام الرمادة، بإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، حتى صبّ ماء النيل فى بحر القلزم ، و جرت فيه السفن بالغلال و غيرها حتى عبرت منه إلى البحر الملح، و أنه ما برح على ذلك إلى سنة خمسين و مائة، فطمّ و لم يبق منه إلا ما هو موجود الآن، إلّا أنّ فم هذا الخليج الذى يصبّ فيه الماء من بحر النيل، لم يكن عند حفره هذا الفم الموجود الآن، و لست أدرى أين كان فمه عند ابتداء حفره فى الجاهلية، فإن مصر فتحت و ماء النيل عند الموضع الذى فيه الآن جامع عمرو بن العاص بمصر، و جميع ما بين الجامع و ساحل النيل الآن انحسر عنه الماء بعد الفتح، و آخر ما كان ساحل مصر من عند سوق المعاريج الذى هو الآن بمصر إلى تجاه الكبش من غربيه، و جميع ما هو الآن موجود من الأرض التى فيما بين خط السبع سقايات إلى سوق المعاريج انحسر عنه الماء شيئا بعد شىء، و غرس بساتين، فعمل عبد العزيز بن مروان أمير مصر قنطرة على فم هذا الخليج فى سنة تسع و ستين من الهجرة بأوّله، عند ساحل الحمراء، ليتوصل من فوق هذه القنطرة إلى جنان الزهرىّ الآتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى. و موضع هذه القنطرة بداخل حكر أقبغا المجاور لخط السبع سقايات، و ما برحت هذه القنطرة عندها السدّ الذى يفتح عند الوفاء إلى ما بعد الخمسمائة من الهجرة، فانحسر ماء النيل عن الأرض، و غرست بساتين، فعمل الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى هذه القنطرة التى تعرف اليوم بقنطرة السدّ، خارج مصر، ليتوصل من فوقها إلى بستان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۵

الخشاب، و زيد فى طول الخليج ما بين قنطرة السباع الآن و بين قنطرة السدّ المذكورة، و صار ما فى شرقيه مما انحصر عنه الماء بستانا عرف ببستان الحارة، و ما فى غربيه يعرف ببستان المحلىّ، و كان بطرف خط السبع سقايات كنيسة الحمراء، و عدّة كنائس أخر، بعضها الآن بحكر أقبغا، تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمىّ، لسكناه بها عند ما هدمت بعد سنة عشرين و سبعمائة، و ما برحت هذه البساتين موجودة إلى أن استولى عليها الأمير أقبغا عبد الواحد استدار الملك الناصر محمد بن قلاون، و قلع أخشابها و أذن للناس فى عمارتها، فحكرها الناس و بنوا فيها الآدر و غيرها، فعرفت بحكر أقبغا.

و بأوّل هذا الخليج الآن من غربيه منشأة المهرانىّ، و قد تقدّم خبرها فى هذا الكتاب عند ذكر مدينة مصر، و يجاور منشأة المهرانىّ بستان الخشاب، و بعضه الآن يعرف بالمريس، و بعضه عمله الملك الناصر محمد بن قلاون ميدانا يشرف على النيل من غربيه، و

يعرف ساحل النيل هناك بموردة الجبس، كما ذكر عند ذكر الميادين من هذا الكتاب، و يجاور بستان الخشاب جنان الزهريّ، و هذه المواضع التى ذكرت كلها مما انحسر عنه النيل، ما خلا جنان الزهريّ، فإنها من قبل ذلك، و ستقف على خبرها و خبر ما يجاورها من الأحكار إن شاء اللّه تعالى.

ذكر الأحكار التى فى غربىّ الخليج

قال ابن سيده: الاحتكار، جمع الطعام و نحوه مما يؤكل و احتباسه انتظار وقت الغلاء به. و الحكرة و الحكر جميعا: ما احتكر و حكره يحكره حكرا ظلمه و تنقصه و أساء معاشرته.

انتهى.

فالتحكير على هذا: المنع. فقول أهل مصر: حكر فلان أرض فلان، يعنون منع غيره من البناء عليها.

حكر الزهريّ: هذا الحكر يدخل فيه جميع برّ ابن التبان الآتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و شق الثعبان، و بطن البقرة، و سويقة القيمرىّ، و سويقة صفية، و بركة الشقاف، و بركة السباعين، و قنطرة الخرق، و حدرة المرادنيين، و حكر الحلبىّ، و حكر البواشقىّ، و حكر كرجى و ما بجانبه إلى قناطر السباع، و ميدان المهارى إلى الميدان الكبير السلطانىّ بموردة الجبس. و كان هذا قديما يعرف بجنان الزهريّ، ثم عرف ببستان الزهرى.

قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ الغرباء: عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف الزهريّ، يكنى أبا العباس، و أمّه أم عثمان بنت عثمان بن العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، مدنىّ قدم مصر، و ولى الشرط بفسطاط مصر، و حدّث يروى عن مالك بن أنس و سفيان بن عيينة، روى عنه من أهل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۶

مصر أصبغ بن الفرج، و سعيد بن أبى مريم، و عثمان بن صالح، و سعيد بن عفير، و غيرهم. و هو صاحب الجنان التى بالقنطرة، قنطرة عبد العزيز بن مروان، تعرف بجنان الزهريّ، و هو حبس على ولده إلى اليوم. و كان كتاب حبس الجنان عند جدّى يونس بن عبد الأعلى وديعة عليه، مكتوب وديعة لولد ابن العباس الزهرىّ لا يدفع لأحد إلّا أن يغرى به سلطان، و الكتاب عندى إلى الآن. توفى عبد الوهاب بن موسى بمصر فى رمضان سنة عشرة و مائتين.

و قال القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة بن جعفر القضاعىّ فى كتاب معرفة الخطط و الآثار: حبس الزهرىّ هو الجنان التى عند القنطرة بالحمراء، و هو عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز الزهرىّ، قدم مصر و ولى الشرط بها، و الجنان حبس على ولده.

و قال القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوّج فى كتاب إيقاظ المتغفل و اتعاظ المتأمّل: حبس الزهرىّ فذكره ثم قال: و هذا الحبس أكثر الآن أحكار، ما بين بركة الشقاف و خليج شق الثعبان و قد استولى وكيل بيت المال على بعضه، و باع من أرضه و آجرّ منها، و اجتمع هو و محبسه بين يدى اللّه عز و جلّ. انتهى.

و لما طال الأمد صار للزهرىّ عدّة بساتين، منها بستان أبى اليمان، و بستان السراج، و بستان الحبانية، و بستان عزاز، و بستان تاج الدولة قيماز، و بستان الفرغانىّ، و بستان أرض الطيلسان، و بستان البطرك، و غيط الكردىّ، و غيط الصفار، ثم عرف ببرّ ابن التبان بعد ذلك.

قال القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر فى كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة: شاطىء الخليج المعروف ببرّ التبان.

ابن التبان المذكور: هو رئيس المراكب فى الدولة المصرية، و كان له قدر و أبهة فى الأيام الآمرية و غيرها، و لما كان فى الأيام الآمرية، تقدّم إلى الناس بالعمارة قبالة الخرق غربىّ الخليج، فأوّل من ابتدأ و عمر الرئيس ابن التبان، فإنه أنشأ مسجدا و بستانا و دارا،

فعرفت تلك الخطة به إلى الآن، ثم بنى سعد الدولة والى القاهرة، و ناهض الدولة علىّ، و عدىّ الدولة أبو البركات محمد بن عثمان، و جماعة من فراشى الخاص. و اتصلت العمارة بالآجرّ و السقوف النقية و الأبواب المنظومة من باب البستان، المعروف بالعدّة على شاطىء الخليج الغربىّ، إلى البستان المعروف بأبى اليمن. ثم ابتنى جماعة غيرهم ممن يرغب فى الأجرة و الفرجة على التراع التى تتصرّف من الخليج إلى الزهرىّ و البساتين من المنازل و الدكاكين شيئا كثيرا، و هى الناحية المعروفة الآن بشق الثعبان و سويقة القيمرىّ، إلى أن وصل البناء إلى قبالة البستان المعروف بنور الدولة الربعىّ، و هذا البستان معروف فى هذا الوقت بالخطة المذكورة، و هو متلاشى الحال بسبب ملوحة بئره، و بستان نور الدولة هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۷

الآن الميدان الظاهرىّ و المناظر به، و تفرّقت الشوارع و الطرق، و سكنت الدكاكين و الدور، و كثر المترّددون إليه و المعاش فيه، إلى أن استناب والى القاهرة بها نائبا عنه، ثم تلاشت تلك الأحوال و تغيرت إلى أن صارت أطلالا، و عفت تلك الآثار. ثم بعد ذلك حكر آدر أو بساتين، و بنى على غير تلك الصفة المقدّم ذكرها، و بنى على ما هو عليه، ثم حكر بستان الزهرىّ آدرا، و لم يبق منه إلّا قطعة كبيرة بستانا، و هو الآن أحكار تعرف بالزهرىّ، و يعرف البرّ جميعه ببرّ ابن التبان إلى هذا الوقت، و ولايته تعرف بولاية الحكمر، و بنى به حمام الشيخ نجم الدين بن الرفعة، و حمام تعرف بالقيمرى، و حمام تعرف بحمّام الداية انتهى.

و بستان أبى اليمان يعرف اليوم مكانه بحكر أقبغا، و فيه جامع الست مسكة، و سويقة السباعين. و بستان السراج فى أرض باب اللوق، يعرف موضعه الآن بحكر الخليلىّ، و يأتى ذكرهما إن شاء اللّه تعالى. و قيماز هو تاج الدولة، صهر الأمير بهرام الأرمنىّ، وزير الخليفة الحافظ لدين اللّه، و قتل عند دخول الصالح طلائع بن رزيك إلى القاهرة فى سنة تسع و أربعين و خمسمائة، و عزاز هو غلام الوزير شاور بن مجير السعدىّ، وزير الخليفة العاضد لدين اللّه.

حكر الخليلى: هذا الحكر هو الخط الذى بقرب سويقة السباعين و جامع الست مسكة، و هو بجوار حكر الزهرىّ، و كان بستانا يعرف ببستان أبى اليمان، و منهم من يكتب بستان أبى اليمن بغير ألف بعد الميم، ثم عرف ببستان ابن جن حلوان، و هو الجمال محمد بن الزكى يحيى بن عبد المنعم بن منصور التاجر. فى ثمرة البساتين عرف بابن جن حلوان، فى سنة إحدى و تسعين و ستمائة، و حدّ هذا البستان القبلىّ إلى الخليج، و كان فيه بابه و الهماليا و الحدّ البحرىّ ينتهى إلى غيظ قيماز، و الشرقىّ إلى الآدر المحتكرة، و الغربىّ ينتهى إلى قطعة تعرف قديما بابن أبى التاج. ثم عرف ببستان ابن السراج، و استأجره ابن جن حلوان من الشيخ نجم الدين بن الرفعة الفقيه المشهور فى سنة ثمان و ثمانين و ستمائة، فعرف به. ثم إن هذا البستان حكر بعد ذلك فعرف بحكر الخليلىّ و هو ... .

حكر قوصون: هذا الحكر مجاور لقناطر السباع، كان بساتين، أحدهما يعرف بالمخاريق الكبرى، و الآخر يعرف بالمخاريق الصغرى، فأمّا المخاريق الكبرى: فإن القاضى الرئيس الأجل المختار العدل الأمين زكىّ الدين أبا العباس أحمد بن مرتضى بن سيد الأهل بن يوسف، وقف حصة من جميع البستان المذكور الكبير، المعروف بالمخاريق الكبرى، الذى بين القاهرة و مصر بعدوة الخليج، فيما بين البستانين المعروف أحدهما بالمخاريق الصغرى، و يعرف قديما بالشيخ الأجل ابن أبى أسامة، ثم عرف بغيره، و البستان الذى يعرف بدويرة دينار، يفصل بينهما الطريق بخط بستان الزهرىّ، و بستان أبى اليمن،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۸

و كنائس النصارى قبالة جماميز السعدية و السبع سقايات، و لهذا البستان حدود أربعة: القبلىّ ينتهى إلى الخليج الفاصل بينه و بين المواضع المعروفة بجماميز السعدية و السبع سقايات، و الحدّ الشرقىّ ينتهى إلى البستان المعروف بالمخاريق الصغرى المقابل للمجنونة، و البحرىّ ينتهى إلى البستان المعروف قديما بابن أبى أسامة، الفاصل بينه و بين بستان أبى اليمن المجاور للزهرىّ، و الحدّ الغربىّ ينتهى إلى الطريق.

و جعل هذا البستان على القربات بعد عمارته، و شرط أن الناظر يشترى فى كل فصل من فصول الشتاء ما يراه من قماش الكتان الخام

أو القطن، و يصنع ذلك جبابا و بغالطيق محشوّة قطنا، و يفرّقها على الأيتام الذكور و الإناث الفقراء غير البالغين بالشارع الأعظم، خارج باب زويلة، لكل واحد جبة أو بغلطاق، فإن تعذر ذلك كان على الأيتام المتصفين بالصفة المذكورة بالقاهرة و مصر و قرافتيهما، فإن تعذر ذلك كان للفقراء و المساكين أينما وجدوا. و تاريخ كتاب هذا الوقف فى ذى الحجة سنة ستين و ستمائة، و أما المخاريق الصغرى فإنه بعدوة الخليج قبالة المجنونة بالقرب من بستان أبى اليمن، ثم عرف أخيرا ببستان بهادر رأس نوبة، و مساحته خمسة عشر فدّانا، فاشتراه الأمير قوصون و قلع غروسه، و أذن للناس فى البناء عليه، فحكروه و بنوا فيه الآدر و غيرها، و عرف بحكر قوصون.

حكر الحلبىّ: هذا الحكر الآن يعرف بحكر بيبرس الحاجب، و هو مجاور للزهرى، و لبركة الشقاف من غربيها، و أصله من جملة أراضى الزهرى، اقتطع منه و باعه القاضى مجد الدين ابن الخشاب وكيل بيت المال لابنتى السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاون، فى سنة أربع و تسعين و ستمائة، و كان يعرف حين هذا البيع ببستان الجمال بن جن حلوان، و بغيط الكردىّ، و ببستان الطيلسان، و ببستان الفرغانىّ، و حدّ هذه القطعة القبلىّ إلى بركة الطوّابين، و إلى الهدير الصغير. و الحدّ البحرىّ ينتهى إلى بستان الفرغانىّ و إلى بستان البواشقىّ. و الحدّ الشرقىّ إلى بركة الشقاف و إلى الطريق الموصلة إلى الهدير الصغير.

و الحدّ الغربىّ إلى بستان الفرغانىّ. ثم انتقل هذا البستان إلى الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون و حكره فعرف به.

حكر البواشقىّ: عرف بالأمير أزدمر البواشقىّ مملوك الرشيدىّ الكبير، أحد المماليك البحرية الصالحية، و ممن قام على الملك المعز أيبك عند ما قتل الأمير فارس الدين أقطاى فى ذى القعدة سنة إحدى و خمسين و ستمائة، و خرج إلى بلاد الروم، ثم عرف الآن بحكر كرجى، و هو بجوار حكر الحلبىّ المعروف بحكر بيبرس.

حكر أقبغا: هذا الحكر بجوار السبع سقايات، بعضه بجانب الخليج الغربىّ، و بعضه بجانب الخليج الشرقىّ، كان بستانا يعرف قديما بجنان الحارة، و يسلك إليه من خط قناطر السباع على يمنة السالك طالبا السبع سقايات، بالقرب من كنيسة الحمراء، و كان بعضه

بستانا يعرف ببستان المحلى، و هو الذى فى غربىّ الخليج، و كان بستان جنان الحارة بجوار بركة قارون، و ينتهى إلى حوض الدمياطىّ الموجود الآن على يمنة من سلك من خط السبع سقايات إلى قنطرة السدّ، فاستولى عليه الأمير أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، و أذن للناس فى تحكيره، فحكر و بنى فيه عدّة مساكن. و إلى يومنا هذا يجبى حكره و يصرف فى مصارف المدرسة الأقبغاوية المجاورة للجامع الأزهر بالقاهرة، و أوّل من عمر فى حكر أقبغا هذا أستادار الأمير جنكل بن البابا، فتبعه الناس. و فى موضع هذا الحكر كانت كنيسة الحمراء التى هدمها العامّة فى أيام الملك الناصر، محمد بن قلاون كما ذكر عند ذكر الكنائس من هذا الكتاب.

و هى اليوم زاوية تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمى، و قد ذكرت فى الزوايا أيضا، و هذا الحكر لما بنى الناس فيه عرف بالآدر لكثرة من سكن فيه من التتر و الوافدية من أصحاب الأمير جنكل بن البابا، و عمر تجاه هذا الحكر الأمير جنكل حمامين هما هنالك إلى اليوم، و انتشأ بعمارة هذا الحكر بظاهره سوق و جامع، و عمر ما على البركة أيضا، و اتصلت العمارة منه فى الجانبين إلى مدينة مصر، و اتصلت به عمائر أيضا ظاهر القاهرة بعد ما كان موضع هذا الحكر مخوفا، يقطع فيه الزعار الطريق على المارّة من القاهرة إلى مصر، و كان والى مصر يحتاج إلى أن يركز جماعة من أعوانه بهذا المكان لحفظ من يمرّ من المفسدين، فصار لما حكر كأنه مدينة كبيرة، و هو إلى الآن عامر و أكثر من يسكنه الأمراء و الأجناد، و هذا الحكر كان يعرف قديما بالحمراء الدنيا، و قد ذكر خبر الحمراوات الثلاث عند ذكر خطط مدينة فسطاط مصر من هذا الكتاب، و فى هذا الحكر أيضا كانت قنطرة عبد العزيز بن مروان التى بناها على الخليج ليتوصل منها إلى جنان الزهرىّ، و بعض هذا الحكر مما انحسر عنه النيل، و هى القطعة التى تلى قنطرة السدّ.

حكر الست حدق: هذا الحكر يعرف اليوم بالمريس، و كان بساتين، من بعضها بستان الخشاب، فعرف بالست حدق من أجل أنها أنشأت هناك جامعا كان موضعه منظرة السكرة، فبنى الناس حوله، و أكثر من كان يسكن هناك السودان، و به يتخذ المزور مأوى أهل الفواحش و القاذورات، و صار به عدّة مساكن و سوق كبير، يحتاج محتسب القاهرة أن يقيم به نائبا عنه للكشف عما يباع فيه من المعايش، و قد أدركنا المريس على غاية من العمارة، إلّا أنه قد اختلّ منذ حدثت الحوادث من سنة ست و ثمانمائة، و به إلى الآن بقية من فساد كبير.

حكر الست مسكة: هذا الحكر بسويقة السباعين بقرب جوار حكر الست، حدق، عرف بالست مسكة لأنها أنشأت به جامعا، و هذا الحكر كان من جملة الزهريّ، ثم أفرد و صار بستانا تنقل إلى جماعة كثيرة، فلما عمرت الست مسكة فى هذا الحكر الجامع بنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۰

الناس حوله حتى صار متصلا بالعمارة من سائر جهاته، و سكنه الأمراء و الأعيان و أنشأوا به الحمّامات و الأسواق و غير ذلك.

و كانت حدق و مسكة من جوارى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، نشأتا فى داره و صارتا قهرمانتين لبيت السلطان يقتدى برأيهما فى عمل الأعراس السلطانية و المهمات الجليلة التى تعمل فى الأعياد و المواسم، و ترتيب شؤون الحريم السلطانىّ، و تربية أولاد السلطان، و طال عمرهما و صار لهما من الأموال الكثيرة، و السعادات العظيمة ما يجلّ وصفه، و صنعا برّا و معروفا كبيرا، و اشتهرتا و بعد صيتهما و انتشر ذكر هما.

حكر طقزدمر: هذا الحكر كان بستانا مساحته نحو الثلاثين فدّانا، فاشتراه الأمير طقزدمر الحموىّ نائب السلطنة بديار مصر و دمشق، و قلع أخشابه و أذن للناس فى البناء عليه، فحركوه و أنشأوا به الدور الجليلة، و اتصلت عمارة الناس فيه بسائر العمائر من جهاته، و أنشأ الأمير طقزدمر فيه أيضا على الخليج قنطرة ليمرّ عليها من خط المسجد المعلق إلى هذا الحكر، و صار هذا الحكر مسكن الأمراء و الأجناد، و به السوق و الحمّامات و المساجد و غيرها، و هو مما عمر فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و مات طقز دمر فى ليلة الخميس مستهلّ جمادى الآخرة سنة ست و أربعين و سبعمائة.

اللوق: يقال لاق الشيء يلوقه لوقا و لوّقه، لتينه. و فى الحديث الشريف لا آكل إلّا ما لوّق لى، و لواق أرض معروفة. قاله ابن سيده: فكأن هذه الأرض لما انحسر عنها ماء النيل كانت أرضا لينة، و إلى الآن فى أراضى مصر ما إذا نزل عنها ماء النيل لا تحتاج إلى الحرث للينها، بل تلاق لوقا، فصواب هذا المكان أن يقال فيه أراضى اللوق بفتح اللام، إلّا أن الناس إنما عهدناهم يقولون قديما باب اللوق و أراضى باب اللوق بضم اللام، و يجوز أن يكون من اللق بضم اللام و تشديد القاف. قال ابن سيده: و اللق كل أرض ضيقة مستطيلة، و اللق الأرض المرتفعة، و منه كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج لا تدع خقا و لا لقا إلا زرعته، حكاه الهوريّ، فى الغريبين. انتهى. و الخقّ بضم الخاء المعجمة و تشديد القاف، الغدير إذا جفّ. و قيل الخق ما اطمأنّ من الأرض، و اللق ما ارتفع منها، و أراضى اللوق هذه كانت بساتين و مزروعات، و لم يكن بها فى القديم بناء البتة، ثم لما انحسر الماء عن منشأة الفاضل عمر فيها كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، و يطلق اللوق فى زمننا على المكان الذى يعرف اليوم بباب اللوق، المجاور لجامع الطباخ المطلّ على بركة الشقاف، و ما يسامته إلى الخليج الذى يعرف اليوم بخليج فم الخور، و ينتهى اللوق من الجانب الغربىّ إلى منشأة المهرانىّ، و من الجانب الشرقىّ إلى الدكة بجوار المقس، و كان القاضى الفاضل قد اشترى قطعة كبيرة من أراضى اللوق هذه من بيت المال و غيره بجمل كبيرة من المال، و وقفها على العين الزرقاء بالمدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۱

و التسليم، و عرفت هذه الأرض ببستان ابن قريش، و بعضها دخل فى الميدان الظاهرىّ، و عوّض عنها أراض بأكثر من قيمتها، و كان متحصل هذا الوقف يحمل فى كل سنة إلى المدينة لتنظيف العين و تنظيف مجاريها، و أما الجانب الغربىّ من خليج فم الخور المعروف اليوم بحكر ابن الأثير، و بسويقة الموفق، و موردة الملح، و ساحل بولاق، كله فإنه محدث، عمّر بعد سنة سبعمائة كما

ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى قريبا.

فإنّ النيل كان يمرّ من ساحر الحمراء بغربىّ الزهرى على الأراضى التى لما انحسر عنها عرفت بأراضى اللوق، إلى أن ينتهى إلى ساحل المقس، و كانت طاقات المناظر التى بالدكة تشرف على النيل الأعظم، و لا يحول بنيها و بين رؤية برّ الجيزة شىء، و يمرّ النيل من الكدة إلى المقس، و يمتدّ إلى زريبة جامع المقس الذى هو الآن على الخليج الناصرىّ. فلما انحسر ماء النيل عن أراضى اللوق، اتصلت بالمقس و صارت عدّة أماكن تعرف بظاهر اللوق، و هى بستان ابن ثعلب، و منشأة ابن ثعلب، و باب اللوق، و حكر قردمية، و حكر كريم الدين، و رحبة التبن، و بستان السعيدىّ، و بركة قرموط، و خور الصعبىّ، و صار بين اللوق و بين منشأة المهرانىّ التى هى بأوّل برّ الخليج الغربىّ منشأة الفاضل، و المنشأة المستجدّة، و حكر الخليلىّ، و حكر الساباط، و يعرف بحكر بستان القاصد، و حكر كريم الدين الصغير، و حكر المطوع، و حكر العين الزرقاء. و فى غربىّ هذه المواضع على شاطىء النيل زريبة قوصون، و موردة البلاط، و موردة الجبس، و خط الجامع الطيبرسىّ، و زريبة السلطان، و ربع بكتمر.

و أوّل ما بنيت الدور للسكن فى اللوق أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و ذلك أنه جهز كشافه من خواصه مع الأمير جمال الدين الرومى السلاح دار، و الأمير علاء الدين أق سنقر الناصرىّ، ليعرف أخبار هولاكو، و معهم عدّة من العربان، فوجدوا طائفة من التتر مستأمنين و قد عزموا على قصد السلطان بمصر، و ذلك أن الملك بركة خان ملك التتر كان قد بعثهم نجدة لهولاكو، فلما وقع بينهما، كتب إليهم بركة يأمرهم بمفارقة هولاكو و المصير إليه، فإن تعذر عليهم ذلك صاروا إلى عسكر مصر، فإنه كان قد ركن إلى الملك الظاهر، و تردّدت القصّاد بينهم بعد واقعة بغداد و رحيل هولاكو عن حلب، فاختلف هولاكو مع ابن عمه بركة خان و تواقعا، فقتل ولد هولاكو فى المصاف، و انهزم عسكره و فرّ إلى قلعة فى بحيرة أذربيجان، فلما وردت الأخبار بذلك إلى مصر، كتب السلطان إلى نوّاب الشام بإكرامهم و تجهيز الإقامات لهم، و بعث إليهم بالخلع و الإنعامات، فوصلوا إلى ظاهر القاهرة و هم نيف على مائتى فارس بنسائهم و أولادهم فى يوم الخميس رابع عشرى ذى الحجة سنة ستين و ستمائة، فخرج السلطان يوم السبت سادس عشرية إلى لقائهم بنفسه و معه العساكر، فلم يبق أحد حتى خرج لمشاهدتهم، فاجتمع عالم عظيم تبهر رؤيتهم العقول، و كان يوما مشهودا. فأنزلهم السلطان فى دور كان قد أمر بعمارتها من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۲

أجلهم فى أراضى اللوق، و عمل لهم دعوة عظيمة هناك، و حمل إليهم الخلع و الخيول و الأموال، و ركب السلطان إلى الميدان و أركبهم معه للعب الأكرة، و أعطى كبراءهم أمريات، فمنهم من عمله أمير مائة، و منهم دون ذلك، و نزل بقيتهم من جملة البحرية، و صار كل منهم من سعة الحال كالأمير، فى خدمته الأجناد و الغلمان، و أفرد لهم عدّة جهات برسم مرتبهم، و كثرت نعمهم، و تظاهروا بدين الإسلام، فلما بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء، وفد عليه منهم جماعة بعد جماعة، و هو يقابلهم بمزيد الأحسان، فتكاثروا بديار مصر، و تزايدت العمائر فى اللوق و ما حوله، و صار هناك عدّة أحكار عامرة آهلة إلى أن خربت شيئا بعد شىء، و صارت كيمانا، و فيها ما هو عامر إلى يومنا هذا، و لما قدمت رسل القان بركة فى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، أنزلهم السلطان الملك الظاهر باللوق، و عمل لهم فيه مهما، و صار يركب فى كل سبت و ثلاثاء للعب الأكرة باللوق فى الميدان. و فى سادس ذى الحجة من سنة إحدى و ستين قدم من المغل و البهادرية زيادة على ألف و ثلثمائة فارس، فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهاليهم و أولادهم، و فى شهر رجب سنة إحدى و ستين و سبعمائة قدمت رسل الملك بركة، و رسل الأشكرى، فعملت لهم دعوة عظيمة باللوق.

فأما

بستان ابن ثعلب فإنه كان بستانا عظيم القدر، مساحته خمسة و سبعون فدانا، فيه سائر الفواكه بأسرها، و جميع ما يزدرع من الأشجار و النخل و الكروم، و النرجس و الهليون و الورد، و النسرين و الياسمين و الخوخ، و الكمثرى و النارنج و الليمون التفاحىّ، و الليمون

الراكب، و المختن و الجميز و القراصيا، و الرمان و الزيتون و التوت الشاميّ و المصريّ، و المرسين و التامر حنا و ألبان تعرف اليوم ببركة قرموط، و الأرض التى تعرف اليوم بالخور، قبالة الأرض المعروفة بالبيضاء بجوار بستان السراج، و بستان الزهريّ، و بستان البورجى، فيما بين هذه البساتين و بين خليج الدكة و المقس، و كان على بستان ابن ثعلب سور مبنيّ، و له باب جليل. و حدّه القبليّ إلى منشأة ابن ثعلب، و حدّه البحريّ إلى الأرض المجاورة للميدان السلطانيّ الصالحيّ، و إلى أرض الجزائر، و فى هذا الحدّ أرض الخور، و هى من حقوقه. و حدّه الشرقيّ إلى بستان الدكة، و بستان الأمير قراقوش، و حدّه الغربيّ إلى الطريق المسلوك فيها إلى موردة السقائين قبالة بستان السراج، و موردة السقائين هذه موضع قنطرة الخرق الآن.

و ابن ثعلب هذا هو الشريف الأمير الكبير فخر الدين إسماعيل بن ثعلب الجعفريّ الزينبيّ، أحد أمراء مصر فى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب و غيره، و صاحب المدرسة الشريفية بجوار درب كركامة، على رأس حارة الجودرية من القاهرة، و انتقل من بعده إلى ابنه الأمير حصن الدين ثعلب، فاشتراه منه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بثلاثة آلاف دينار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۳

مصرية، فى شهر رجب سنة ثلاث و أربعين و ستمائة، و كان باب هذا البستان فى الموضع الذى يقال له اليوم باب اللوق، و كان هذا البستان ينتهى إلى خليج الخور، و آخره من المشرق ينتهى إلى الدكة بجوار المقس، ثم انقسم بعد ذلك قطعا و حكرت أكثر أرضه، و بنى الناس عليها الدور و غيرها، و بقيت منه إلى الآن قطعة عرفت ببستان الأمير أرغون، النائب بديار مصر أيام الملك الناصر، ثم عرف بعد ذلك ببستان ابن غراب، و هو الآن على شاطىء الخليج الناصريّ، على يمنة من سلك من قنطرة قدادار بشاطئ الخليج من جانبه الشرقى، إلى بركة قرموط، و بقيت من بستان ابن ثعلب قطعة تعرف ببستان بنت الأمير بيبرس إلى الآن، و هو وقف، و من جملة بستان ابن ثعلب أيضا الموضع الذى يعرف ببركة قرموط، و الموضع المعروف بفم الخور.

و أما

منشأة ابن ثعلب: فإنها بالقرب من باب اللوق، و حكرت فى أيام الشريف فخر الدين بن ثعلب المذكور، فعرفت به، و هى تعرف اليوم بمنشأة الجوّانية، لأنّ جوّانية الفم.

كانوا يسكنون فيها، فعرفت بهم، و أدركتها فى غاية العمارة بالناس و المساكن و الحوانيت و غيرها، و قد اختلت بعد سنة ست و ثمانمائة، و أكثرها الآن زرائب للبقر.

و أما باب اللوق: فإنه كان هناك إلى ما بعد سنة أربعين و سبعمائة بمدّة، باب كبير عليه طوارق حربية مدهونة، على ما كانت العادة فى أبواب القاهرة و أبواب القلعة و أبواب بيوت الأمراء، و كان يقال له باب اللوق، فلما أنشأ القاضى صلاح الدين بن المغربيّ قيساريته التى بباب اللوق، و جعلها البيع غزل الكتان، هدم هذا الباب و جعله فى الركن من جدار القيسارية القبليّ، مما يلى الغربيّ، و هذا هو باب الميدان الذى أنشأه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لما اشترى بستان ابن ثعلب، و قد ذكر خبر هذا الميدان عند ذكر الميادين من هذا الكتاب.

و أما

حكر قردمية: فإنه على يمنة من سلك من باب اللوق المذكور إلى قنطرة قدادار، و كان من جملة بستان ابن ثعلبة، فحكر و صار أخيرا بيد ورثة الأمير قوصون، و كان حكرا عامرا إلى ما بعد سنة تسع و أربعين و سبعمائة، فخرب عند وقوع الوباء الكبير بمصر، و حفرت أراضيه و أخذ طينها، فصارت بركة ماء عليها كيمان، خلف الدور التى على الشارع المسلوك فيه إلى قنطرة قدادار.

و أما

حكر كريم الدين: فإنه على يسرة من سلك من باب اللوق إلى رحبة التبن، و إلى الدكة، و كان يعرف قبل كريم الدين بحكر

الصهيونيّ، و هذا الحكر الآن آيل إلى الدثور.

و أما

رحبة التبن: فإنها فى بحرى منشأة الجوانية، شارعة فى الطريق العظمى التى يسلك فيها إلى قنطرة الدكة من رحبة باب اللوق، عرفت بذلك لأنه كانت أحمال التبن تقف بها لتباع هناك، فإن القاهرة كانت توقر من مرور أحمال التبن و الحطب و نحو هما بها، ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۴

اختطت من جملة ما اختط فى غربىّ الخليج، و صار بها عدّة مساكن و سوق كبير، و قد أدركته غاصا بالعمارة، و إنما اختلّ هذا الخط من سنة ست و ثمانمائة.

و أما

بستان السعيدىّ: فإنه يشرف على الخليج الناصرىّ فى هذا الوقت، و أدركنا ما حوله عامرا، و قد خربت الدور التى كانت هناك من جهة الطريق الشارع من باب اللوق إلى الدكة، و بها بقية آئلة إلى الدثور.

و أما

بركة قرموط: فإنها من حقوق بستان ابن ثعلب، و لما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ، رمى فيها ما خرج عند حفره من الطين، و أدركناها من أعمر بقعة فى أرض مصر، و هى الآن خراب، كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب.

و أما

الخور: فإن الخور فى اللغة مصبّ الماء، و هو هنا اسم للأرض التى ما بين الخليج الناصرىّ و الخليج الذى يعرف بفم الخور، و جميع هذه الأرض من جملة بستان ابن ثعلبة، و كان يعرف بالخور الصعبىّ، لأنه كانت به مناظر تعرف بمناظر الصعبىّ، تشرف على النيل، و كان على شاطىء الخليج الكبير فى هذا الجانب الغربىّ الذى نحن فى ذكره، بجوار بستان الخشاب الذى كان يتوصل إليه من قنطرة السدّ، و بعضه الآن الميدان السلطانىّ، بستان يعرف بالجزيرة، يعنى بستان الجزيرة المعروف بالصعبىّ، و كان من البساتين الجليلة.

و هذا الصعبىّ: هو الشيخ كريم الدولة، عبد الواحد بن محمد بن علىّ الصعبىّ، مات فى شهر رمضان سنة ثلاث و ستمائة بمصر، و كان له أخ يعرف بعبد العظيم بن محمد الصعبىّ.

و لما انحسر ماء النيل عن الرملة التى قيل لها منية بولاق، تجاه المقس، و عمرت هناك الدور، اتصلت من قبليها بالخور، و أنشئ بشاطئ النيل الذى بالخور دور تجلّ عن الوصف، و انتظمت صفا واحدا من بولاق إلى منشأة المهرانىّ و موردة الحلفاء، و من موردة الحلفاء على ساحل مصر الجديد إلى دير الطين غربىّ بركة الحبش، لو أحصى ما أنفق على بناء هذه الدور لقام بخراج مصر أيام كانت عامرة، و قد خرب معظمها من سنة ست و ثمانمائة، و قد تقدّم ذكر منشأة الفاضل.

و أما

حكر الساباط، و حكر كريم الدين الصغير، و حكر المطوع، و حكر المطوع، و حكر العين الزرقاء، فإنها بالقرب من الميدان الكبير السلطانىّ، و قد خربت بعد ما كانت عامرة بالدور و المنتزهات.

بستان العدّة: هذا المكان من جملة الأحكار التى فى غربىّ الخليج، و هو بجوار قنطرة الخرق، و بجوار حكر النوبىّ، قريب من باب اللوق تجاه الدور المطلة على الخليج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۵

من شرقيه، المقابلة، لباب سعادة و حارة الوزيرية. كان بستانا جليلا، وقفه الأمير فارس المسلمين بدر بن رزيك، أخو الصالح طلائع بن رزيك، صاحب جامع الصالح، خارج باب زويلة، ثم أنه خرب فحكر و بنى عليه عدّة مساكن، و حكره يتعاطاه ورثة فارس المسلمين.

حكر جوهر النوبى: هذا الحكر تجاه الحارة الوزيرية من برّ الخليج الغربىّ، فى شرقىّ بستان العدّة، و يسلك منه إلى قنطرة أمير حسين

من طريق تجاه باب جامع أمير حسين، الذى تعلوه المئذنة، و ما زال بستانا إلى نحو سنة ستين و ستمائة، فحكر و بنى فيه الدور فى أيام الظاهر بيبرس، و عرف بجوهر النوبىّ أحد الأمراء فى الأيام الكاملية، و قد تقدّم بديار مصر تقدّما زائدا. و كان خصيا، و هو ممن ثار على الملك العادل أبى بكر بن الكامل و خلعه، فلما كان ملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بعد أخيه العادل، قبض على جوهر فى سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة.

حكر خزائن السلاح: هذا الحكر كان يعرف قديما بحكر الأوسية، و هو فيما بين الدكة و قنطرة الموسكى، وقفه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب على مصالح خزائن السلاح، و هو و عدّة أماكن بمدينة مصر مع مدينة قليوب و أراضيها، فى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة و ستمائة، و ظهر كتاب الوقف المذكور من الخزائن السلطانية فى جمادى الأولى سنة خمس عشرة و سبعمائة، فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و قد خرب أكثر هذا الحكر و صار كيمانا.

حكر تكان: هذا الحكر بجوار سويقة العجمىّ الفاصلة بينه و بين حكر خزائن السلاح، و كان يعرف قديما بحكر كوبيج. و حدّه القبلىّ ينتهى إلى حكر ابن الأسد جفريل، و الحدّ البحرى ينتهى إلى حكر العلائىّ، و الحدّ الشرقىّ ينتهى إلى حكر البغدادية، و الحدّ الغربىّ ينتهى إلى حكر خزائن السلاح و سويقة العجمىّ.

و تكان هو الأمير سيف الدين تكان، و يقال تكام بالميم عوضا عن النون، و هذا الحكر استقرّ أخيرا فى أوقاف خوندارد و تكين ابنه نوكيه السلاح دار، زوجة الملك الأشرف خليل بن قلاون، على تربتها التى أنشأتها خارج باب القرافة، التى تعرف اليوم بتربة الست، و قد خرب هذا الحكر و بيعت أنقاضه فى أعوام بضع و تسعين و سبعمائة، و جعل بعضه بستانا فى سنة ست و تسعين و سبعمائة.

حكر ابن الأسد جفريل: هذا الحكر فى قبلىّ حكر تكان، كان بستانا فحكر و عرف بالأمير شمس الدين موسى بن الأمير أسد الدين جفريل، أحد أمراء الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بمصر.

حكر البغدادية: هذا الحكر بجوار خليج الذكر، كان من أعظم البساتين فى الدولة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۶

الفاطمية، فأزال الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب أشجاره و نخله، و جعله ميدانا. ثم حكر و صارت فيه عدّة مساكن، و هو الآن خراب يباب، لا يأويه إلّا البوم و الرخم.

حكر خطلبا: هذا الحكر حدّه القبلىّ إلى الخليج، و حدّه البحرىّ إلى الكوم الفاصل بينه و بين حكر الأوسية، المعروف بالجاولىّ، و حدّه الشرقىّ إلى بستان الجليس الذى عرف بابن منقذ، و الحدّ الغربىّ إلى زقاق هناك. و كان هذا الحكر بستانا اشتراه جمال الدين الطواشىّ ، من جمال الدين عمر بن ناصح الدين داود بن إسماعيل الملكىّ الكاملىّ، فى سنة ست عشرة و ستمائة. ثم ابتاعه منه الطواشىّ محى الدين صندل الكاملىّ فى سنة عشرين و ستمائة، و باعه الأمير الفارس صارم الدين خطلبا الكاملىّ فى سنة إحدى و عشرين و ستمائة فعرف به.

و هو خطلبا بن موسى الأمير صارم الدين الفارسىّ التبتى الموصلىّ الكاملىّ، استقرّ فى ولاية القاهرة سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم أضيفت له ولاية الفيوم فى سنة سبع و سبعين و خمسمائة، ثم صرف عنها و سار متسلمة إلى اليمن ليتسلمها، فتسلمها فى جمادى الأولى، و سار هو فى سادس شوال منها واليا على مدينة زبيد باليمن، و معه خمسمائة رجل، و رفيقه الأمير باخل، فبلغت النفقة عليه عشرين ألف دينار، و كتب للطواشية بنفقة عشرة دنانير لكل منهم على اليمن، فأقام باليمن مدّة، ثم قدم إلى القاهرة و صار من أصحاب الأمير فخر الدين جهاركس، و تأخر إلى أيام الملك الكامل، و صار من أمرائه بالقاهرة إلى أن مات فى ثالث شعبان سنة خمس و ثلاثين و ستمائة.

حكر ابن منقذ: هذا الحكر خارج باب القنطرة بعدوة خليج الذكر، و كان بستانا يعرف ببستان الشريف الجليس، و يعرف أيضا بالبطائحىّ، ثم عرف بالأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، نائب الملك المعز سيف الإسلام ظهير الدين طفتكين بن نجم

الدين أيوب بن شادى على مملكة اليمن، و انتقل بعد ابن منقذ إلى الشيخ عبد المحسن بن عبد العزيز بن علىّ المخزومىّ، المعروف بابن الصيرفىّ، فوقفه على جهات تؤول أخيرا إلى الفقراء و المساكين المقيمين بمشهد السيدة نفيسة، و الفقراء و المساكين المعتقلين فى حبوس القاهرة، فى سنة ثلاث و أربعين و ستمائة، ثم أزيلت أنشاب هذا البستان و حكرت أرضه و بنيت الدور و المساكن عليها، و هو الآن خراب.

حكر فارس المسلمين بدر بن رزيك: هذا الحكر تجاه منظرة اللؤلؤة، كان من جملة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۷

البركة المعروفة ببطن البقرة، ثم حكر و بنى فيه و أكثره الآن خراب.

حكر شمس الخواص مسرور: هذا الحكر فيما بين خليج الذكر و حكر ابن منقذ، كان بستانا لشمس الخواص مسرور الطواشى، أحد الخدّام الصالحية، مات فى نصف شوال سنة سبع و أربعين و ستمائة بالقاهرة، ثم حكر و بنى فيه الدور، و موضعه الآن كيمان.

حكر العلائى: هذا الحكر يجاور حكر تكان من بحريه، و كان بستانا جليل القدر، ثم حكر و صار بعضه وقف تذكاريى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس، وقفته فى سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة على نفسها، ثم من بعدها على الرباط الذى أنشأته داخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، و هو الرباط المعروف برواق البغدادية، و على المسجد الذى بحكر سيف الإسلام خارج باب زويلة، و على تربتها التى بجوار جامع ابن عبد الظاهر بالقرافة، و صار بعض هذا الحكر فى وقف الأمير سيف الدين بهادر العلائىّ متولى البهنساء، و كان وقفه فى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، فعرف بالحكر العلائى المذكور، و أدركت هذا الحكر و هو من أعمر الأحكار، و فيه درب الأمير عز الدين أيدمر الزرّاق، أمير جاندار و والى القاهرة، و داره العظيمة و مساكنه الكثيرة، فلما حدثت المحن منذ سنة ست و ثمانمائة خرب هذا الحكر و أخذت أنقاضه، و بقيت دار الزرّاق إلى سنة سبع عشرة و ثمانمائة، فشرع فى الهدم فيها لأجل أنقاضها الجليلة.

حكر الحريرى: هذا الحكر بجوار حكر العلائىّ المذكور من حدّه البحرىّ، و هو من جملة الأرض المعروفة بالأرض البيضاء، و كان بستانا، ثم حكر و صار فى وقف خزائن السلاح، و أدركناه عامرا و فيه سوق يعرف بالسويقة البيضاء، كانت بها عدّة حوانيت، و قد خرب هذا الحكر، و هذا الحريرىّ هو الصاحب محيى الدين.

حكر المساح: عرف بالأمير شمس الدين سنقر المساح، أحد أمراء الظاهر بيبرس، قبض عليه فى عدّة من الأمراء فى ذى الحجة سنة تسع و ستين و ستمائة.

الدكة: هذا المكان كان بستانا من أعظم بساتين القاهرة، فيما بين أراضى اللوق و المقس، و به منظرة للخلفاء الفاطميين تشرف طاقاتها على بحر النيل العظيم، و لا يحول بينها و بنى برّ الجيزة شىء، فلما زالت الدولة الفاطمية تلاشى أمر هذا البستان و خرب، فحكر موضعه و بنى الناس فيه، فصار خطة كبيرة كأنه بلد جليل، و صار به سوق عظيم، و سكنه الكتاب و غيرهم من الناس، و أدركته عامرا، ثم إنه خرب منذ سنة ست و ثمانمائة، و به الآن بقية عما قليل تدثر كما دثر ما هنالك و صار كيمانا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۸

ذكر المقس و فيه الكلام على المكس و كيف كان أصله فى أوّل الإسلام

اعلم أن المقس قديم، و كان فى الجاهلية قرية تعرف بأمّ دنين، و هى الآن محلة بظاهر القاهرة فى برّ الخليج الغربىّ، و كان عند وضع القاهرة هو ساحل النيل، و به أنشأ الإمام المعز لدين اللّه أبو معدّ الصناعة التى ذكرت عند ذكر الصناعات من هذا الكتاب، و به أيضا أنشأ الإمام الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور جامع المقس الذى تسميه عامّة أهل مصر فى زمننا بجامع المقسىّ، و هو الآن يطلّ على الخليج الناصرىّ. قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر، و قد ذكر مسير عمرو بن العاص رضى

اللّه عنه إلى فتح مصر: فتقدّم عمرو بن العاص رضى اللّه عنه لا يدافع إلّا بالأمر الخفيف، حتى أتى بلبيس، فقاتلوه بها نحوا من شهر، حتى فتح اللّه سبحانه و تعالى عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أمّ دنين، فقاتلوه بها قتالا شديدا، و أبطأ عليه الفتح، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه يستمدّه، فأمدّه بأربعة آلاف، تمام ثمانية آلاف، فقاتلهم، و ذكر تمام الخبر. و قال القاضى أبو عبد اللّه القضاعىّ: المقس كانت ضيعة تعرف بأمّ دنين، و إنما سمّيت المقس لأنّ العاشر كان يقعد بها، و صاحب المكس، فقيل المكس، فقلب فقيل المقس. قال المؤلف رحمه اللّه: الماكس هو العشار، و أصل المكس فى اللغة الجباية. قال ابن سيدة فى كتاب المحكم: المكس الجباية، مكسه يمكسه مكسا، و المكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية، و يقال للعشار صاحب مكس، و المكس انتقاص الثمن فى البياعة. قال الشاعر:

أفى كلّ أسواق العراق أتاوةٌ و فى كلّ ما باع امرؤ مكس درهم

ألا ينتهى عنا رجال و تتّقىمحارمنا لا يدرأ الدّم بالدّمّ

الأتاوة الخراج و مكس درهم أى نقص درهم فى بيع و نحوه. قال: و عشر القوم يعشرهم عشرا و عشورا، و عشرهم أخذ عشر أموالهم، و عشر المال نفسه، و عشره كذلك، و العشّار قابض العشر. و منه قول عيسى بن عمرو لابن هبيرة و هو يضرب بين يديه بالسياط:

تاللّه إن كانت إلّا ثيابا فى أسفاط قبضها عشّاروك. و قال الجاحظ: ترك الناس مما كان مستعملا فى الجاهلية أمورا كثيرة، فمن ذلك تسميتهم للأتاوة بالخراج، و تسميتهم لما يأخذه السلطان من الحلوان و المكس بالرشوة، و قال الخارجىّ: أفى كلّ أسواق العراق أتاوة. البيت و كما قال العبدىّ فى الجارود:

اكابن المعلى خلتنا أما حسبتناصواريّ نعطى الماكسين مكوسا

الصوارىّ: الملاحون، و المكس: ما يأخذ العشار انتهى.

و يقال أن قوم شعيب عليه السلام، كانوا مكاسين، لا يدعون شيئا إلا مكّسوه. و منه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۹

قيل للمكس النجس، لقوله تعالى: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ و ذكر أحمد بن يحيى البلاذرىّ، عن سفيان الثورىّ، عن إبراهيم بن مهاجر، قال: سمعت زياد بن جرير يقول: أنا أوّل من عشّر فى الإسلام. و عن سفيان عن عبد اللّه بن خالد عن عبد الرحمن بن معقل قال:

سألت زياد بن جرير من كنتم تعشرون؟ فقال: ما كنا نعشر مسلما و لا معاهدا، بل كنا نعشر تجار أهل الحرب كما كانوا يعشرونا إذا أتيناهم. و قال عبد الملك بن حبيب السلمىّ فى كتاب سيرة الإمام العدل. فى مال اللّه، عن السائب بن يزيد أنه قال: كنت على سوق المدينة فى زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فكنا نأخذ من القبط العشر. و قال ابن شهاب: كان ذلك يؤخذ منهم فى الجاهلية، فألزمهم ذلك عمر بن الخطاب، و عن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما قال: إن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كان يأخذ بالمدينة من القبط من الحنطة و الزبيب نصف العشر، يريد بذلك أن يكثر الحمل إلى المدينة من الحنطة و الزبيب، و كان يأخذ من القطنية العشر. و قال مالك رحمه اللّه: و السّنّة أنّ ما أقام الذمّة فى بلادهم التى صالحوا عليها فليس عليهم فيها إلّا الجزية، إلّا أن يتجروا فى بلاد المسلمين و يختلفوا فيها، فيؤخذ منهم العشر فيما يديرون من التجارة، و إن اختلفوا فى العام الواحد مرارا إلى بلاد المسلمين، فعليهم كلما اختلفوا العشر، و إذا اتجر الذمىّ فى بلاده من أعلاها إلى أسفلها و لم يخرج منها إلى غيرها فليس عليه شىء، مثل أن يتجر الذمىّ الشامى فى جميع الشام أو الذمىّ المصرىّ فى جميع مصر، أو الذمىّ العراقىّ فى جميع العراق، و ليس العمل عندنا على قول عمر بن عبد العزيز لزريق بن حيان: و اكتب لهم بما يؤخذ منهم كتابا إلى مثله من الحول، و من مرّ بك من أهل الذمّة فخذ مما يديرون من التجارات من كل عشرين دينارا دينارا، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير، فإن نقص منها ثلث دينار، فدعها و لا تأخذ منها شيئا، و العمل على أن يأخذ منهم العشر و إن خرجوا فى السنة مرارا من كلّ ما أتجروا به قل أو كثر، و هذا قول

ربيعة و ابن هرمز.

و قال القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الحضرمىّ أحد أصحاب الإمام أبى حنيفة رضى اللّه عنه فى كتاب الرسالة إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، و هو كتاب جليل القدر، حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر قال: سمعت أبى يذكر قال: سمعت زياد بن جرير قال: أوّل من بعث عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه منا على العشور أنا، فأمرنى أن لا أفتش أحدا، و ما مرّ علىّ من شىء أخذت من حساب أربعين درهما درهما من المسلمين، و أخذت من أهل الذمّة من عشرين واحدا، و ممن لا ذمّة له العشر، و أمرنى أن أغلّظ على نصارى بنى تغلب قال: إنهم قوم من العرب و ليسوا من أهل الكتاب، فلعلهم يسلمون.

قال: و كان عمر رضى اللّه عنه قد اشترط على نصارى بنى تغلب أن لا ينصّروا أولادهم.

و حدّثنا أبو حنيفة عن الهيثم عن أنس بن سيرين عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه قال:

بعثنى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه على العشور، و كتب لى عهدا أن آخذ من المسلمين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۰

مما اختلفوا به لتجاراتهم ربع العشر، و من أهل الذمّة نصف العشر، و من أهل الحرب العشر.

و حدّثنا عاصم بن سليمان الأحول عن الحسن قال: كتب أبو موسى الأشعرىّ إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما، أنّ تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أهل الحرب فيأخذون منهم العشر، فكتب إليه عمر رضى اللّه عنه فخذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، و خذ من أهل الذمّة نصف العشر، و من المسلمين من كلّ أربعين درهما درهما، و ليس فيما دون المائتين شىء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، فما زاد فبحسابه.

و حدّثنا عبد الملك بن جريج عن عمرو بن شعيب قال: إنّ أهل منبج قوما من أهل الشرك وراء البحر، كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، دعنا ندخل أرضك تجارا و تعشرنا، قال فشاور عمر رضى اللّه عنه أصحاب النبى صلى اللّه عليه و سلم فى ذلك، فأشاروا عليه به، فكانوا أول من عشره من أهل الحرب.

و حدّثنا السدّىّ بن إسماعيل عن عامر الشعبىّ عن زياد بن جرير الأسدىّ قال: إن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بعثه على عشور العراق و الشام، و أمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر، و من أهل الذمّة نصف العشر، و من أهل الحرب العشر، فمرّ عليه رجل من بنى تغلب من نصارى العرب و معه فرس فقوّمها بعشرين ألفا، فقال أمسك الفرس و أعطنى ألفا، أو خذ منى تسعة عشر ألفا و أعطنى الفرس. قال: فأعطاه ألفا و أمسك الفرس. قال: ثم مرّ عليه راجعا فى سنته فقال: أعطنى ألفا أخرى فقال له التغلبىّ: كلّما مررت بك تأخذ منى ألفا؟ قال نعم، فرجع التغلبىّ إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فوافاه بمكة و هو فى بيت له، فاستأذن عليه، فقال: من أنت فقال: أنا رجل من نصارى العرب، و قصّ عليه قصته.

فقال له عمر رضى اللّه عنه كفيت و لم يزده على ذلك. قال: فرجع الرجل إلى زياد بن جرير و قد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا، فوجد كتاب عمر رضى اللّه عنه قد سبق إليه: من مرّ عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلّا أن تجد فضلا.

قال: فقال الرجل قد و اللّه كانت نفسى طيبة أن أعطيك ألفا، و أنى أشهد اللّه تعالى أنى برىء من النصرانية، و أنى على دين الرجل الذى كتب إليك هذا الكتاب.

و حدّثنى يحيى بن سعيد عن زريق بن حيان، و كان على مكس مصر، فذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه أن أنظر من مرّ عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم، و ما ظهر لك من التجارات من كلّ أربعين دينارا دينارا، فما نقص فبحسابه حتى تبلغ عشرين دينارا، فإن نقصت فدعها و لا تأخذ منها، و إذا مرّ عليك أهل الذمة فخذ مما يديرون من تجاراتهم من كل عشرين دينارا دينارا، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم دعها لا تأخذ منها شيئا، و اكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم إلى مثلها من الحول.

و حدّثنى أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال: إذا مرّ أهل الذمّة بالخمر للتجارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۱

أخذ من قيمتها نصف العشر و لا يقبل قول الذمىّ فى قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الذمّة يقوّمانها عليه، فيؤخذ نصف العشر من الذمىّ.

و حدّثنا قيس بن الربيع عن أبى فزارة عن يزيد بن الأصم عن عبد اللّه بن الزبير رضى اللّه عنهما أنه قال: إن هذه المعاصر و القناطر سحت لا يحلّ أخذها. فبعث عمّالا إلى اليمن و نهاهم أن يأخذوا من عاصر أو قنطرة أو طريق شيئا. فقدموا فاستقلّ المال فقالوا: نهيتنا. فقال: خذوا كما كنتم تأخذون.

و حدّثنا محمد بن عبيد اللّه عن أنس بن سيرين قال: أرادوا أن يستعملونى على عشور الأبلة فأبيت، فلقينى أنس بن مالك رضى اللّه عنه فقال: ما يمنعك قلت العشور أخبث ما عمل عليه الناس. قال: فقال لى لم لا تفعل؟ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه صنعه، فجعل على أهل الإسلام ربع العشر، و على أهل الذمّة نصف العشر، و على أهل المنزل ممن ليس له ذمة العشر.

و قال أبو الحسن المسعودىّ أنّ كيقباذ أحد ملوك الفرس أوّل من أخذ العشر من الأرض و عمر بلاد بابل و مملكة الفرس، و رأيت فى التوراة التى فى يد اليهود أنّ أوّل من أخرج العشر من مواشيه و زروعه و جميع ما له خليل اللّه إبراهيم عليه السلام، و كان يدفع ذلك إلى ملك أورشليم التى هى أرض القدس، و اسمه ملكى صادق، فلما مات الخليل إبراهيم صلوات اللّه عليه و سلامه، اقتدى به بنوه فى ذلك من بعده، و صاروا يدفعون العشر من أموالهم إلى أن بعث اللّه تعالى موسى عليه السلام، فأوجب على بنى إسرائيل إخراج العشر فى كل ما ملكت أيمانهم من جميع أموالهم بأنواعها، و جعل ذلك حقا لسبط لاوى الذين هم قرابة موسى عليه السلام.

و قال ابن يونس فى تاريخ مصر: كان ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى اللّه عنه أحد من شهد فتح مصر من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم واليا لعمرو بن العاص رضى اللّه عنه على المكس، و كان زريق بن حيان على مكس إبلة فى خلافة عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه.

قال مؤلفه رحمه اللّه: و مع ذلك فقد كان أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل.

روى ابن قتيبة فى كتاب الغريب أن النبى صلى اللّه عليه و سلم قال: «لعن اللّه سهيلا، كان عشارا باليمن فمسخه اللّه شهابا».

و روى ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن ميمون عن أبى إبراهيم المعافرىّ عن خالد بن ثابت: أنّ كعبا أوصاه و تقدّم إليه حين مخرجه مع عمرو بن العاص أن لا يقرب المكس.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۲

فهذا أعزّك اللّه معنى المكس عند أهل الإسلام، لا ما أحدثه الظالم هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، وزير الملك المعز ايبك التركمانىّ، أوّل من أقام من ملوك الترك بقلعة الجبل من المظالم التى سمّاها الحقوق السلطانية و المعاملات الديوانية، و تعرف اليوم بالمكوس، فذلك الرجس النجس الذى هو أقبح المعاصى و الذنوب الموبقات، لكثرة مطالبات الناس له و ظلاماتهم عنده، و تكرّر ذلك منه و انتهاكه للناس و أخذ أموالهم بغير حقها، و صرفها فى غير وجهها، و ذلك الذى لا يقرّ به متق. و على آخذه لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين.

و لنرجع إلى الكلام فى المقس فنقول: من الناس من يسميه المقسم بالميم بعد السين.

قال ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة: و سمعت من يقول أنه المقسم، قيل لأن قسمة الغنائم عند الفتوح كانت به، و لم أره مسطورا. و قال العماد محمد بن أبى الفرج محمد بن حامد الكاتب الأصفهانىّ فى كتاب سنا البرق الشامىّ: و جلس الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى البرج الذى بجوار جامع المقس فى السابع و العشرين من شوال سنة ست و تسعين و خمسمائة، و هذا المقسم على شاطىء النيل يزار، و هناك مسجد يتبرّك به الأبرار، و هو المكان الذى قسمت فيه الغنائم عند

استيلاء الصحابة رضى اللّه عنهم على مصر، فلما أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بإدارة السور على مصر و القاهرة، تولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش، و جعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقسم، و بنى فيه برجا مشرفا على النيل، و بنى مسجدا جامعا، و اتصلت العمارة منه إلى البلد، و جامعه تقام فيه الجمعة و الجماعات، و هذا البرج عرف بقلعة قراقوش، و ما برح هنالك إلى أن هدمه الصاحب الوزير شمس الدين عبد اللّه المقسىّ وزير الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون، فى سنة بضع و سبعين و سبعمائة، عندما جدّد جامع المقس الذى أنشأه الخليفة الحاكم بأمر اللّه، فصار يعرف بجامع المقسىّ، هذا إلى اليوم، و ما برح جامع المقس هذا يشرف على النيل الأعظم إلى ما بعد سنة سبعمائة بعدّة أعوام.

قال جامع السيرة الطولونية: و ركب أحمد بن طولون فى غداة باردة إلى المقس، فأصاب بشاطئ النيل صيادا عليه خلق لا يواريه منه شىء، و معه صبىّ له فى مثل حاله و قد ألقى شبكته فى البحر، فلما رآه رقّ لحاله و قال: يا نسيم ادفع إلى هذا عشرين دينارا، فدفعها إليه و لحق ابن طولون، فسار أحمد بن طولون و لم يبعد و رجع فوجد الصياد ميتا و الصبىّ يبكى و يصيح، فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله و أخذ الدنانير منه، فوقف بنفسه عليه و سأل الصبىّ عن أبيه فقال له: هذا الغلام، و أشار إلى نسيم الخادم، دفع إلى أبى شيئا فلم يزل يقلّبه حتى وقع ميتا. فقال: فتشه يا نسيم، فنزل و فتشه فوجد الدنانير معه بحالها، فحرّض الصبىّ أن يأخذها فأبى و قال: هذه قتلت أبى، و إن أخذتها قتلتنى، فأحضر ابن طولون قاضى المقس و شيوخه و أمرهم أن يشتروا للصبىّ دارا بخمسمائة دينار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۳

تكون لها غلة، و أن تحبس عليه، و كتب اسمه فى أصحاب الجرايات و قال: أنا قتلت أباه لأنّ الغنى يحتاج إلى تدريج و إلّا قتل صاحبه، هذا كان يجب أن يدفع إليه دينارا بعد دينار حتى تأتيه هذه الحملة على تفرقة فلا تكثر فى عينه.

و قال القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ رحمه اللّه فى تعلق المتجدّدات لسنة سبع و سبعين و خمسمائة، و فيه يعنى يوم الثلاثاء لست بقين من المحرّم، ركب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أعز اللّه نصره لمشاهدة ساحل النيل، و كان قد انحسر و تشمر عن المقس و ما يليه، و بعد عن السور و القلعة المستجدّين بالمقس، و أحضر أرباب الخبرة و استشارهم، فأشير عليه بإقامة الجراريف لرفع الرمال التى قد عارضت جزائرها طريق الماء و سدّته و وقفت فيه، و كان الأفضل بن أمير الجيوش لما تربى قدّام دار الملك جزيرة رمل كما هى اليوم، أراد أن يقرب البحر و ينقل الجزيرة، فأشير عليه بأن يبنى مما يلى الجزيرة أنفا خارجا فى البحر ليلقى التيار و ينقل الرمل، فعسر هذا و عظمت غرامته، فأشار عليه ابن سيد بأن يأخذ قصارى فخار تثقب و يعمل تحتها رؤوس برابخ و تلطخ بالزفت و تكبّ القصارى عليها و تدفن فى الرمل، فإذا أراد النيل و ركبها، نزل من خروق القصارى إلى الرءوس، فأدارها الماء و منعتها القصارى أن تنحدر، و دامت حركة الرمل بتحريك الماء للرؤوس، فانتقل الرمل، و ذكر أنّ للزفت خاصية فى تحويل الرمل قال: و فى هذا الوقت احترق النيل و صار البحر مخايض يقطعها الراجل، و توحل فيه المراكب، و تشمر الماء عن ساحل المقس و مصر، و ربّى جزائر رملية أشفق منها على المقياس لئلا يتقلص النيل عنه، و يحتاج إلى عمل غيره، و خشى منها أيضا على ساحل المقس لكون بنيان السور كان اتصل بالماء، و قد تباعد الآن عن السور، و صار المدّقوّته من برّ الغرب، و وقع النظر فى إقامة جراريف لقطع الجزائر التى رباها البحر، و عمر أنوف خارجة فى بر الجيزة ليميل بها الماء إلى هذا الجانب، و لم يتم شىء من ذلك.

و قال ابن المتوّج فى سنة خمسين و ستمائة: انتهى النيل فى احتراقه إلى أربعة أذرع و سبعة عشر أصبعا، و انتهى فى زيادته إلى ثمانية عشر ذراعا، و كان مثل ذلك فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاون، و كان نيلا عظيما سدّ فيه باب المقس، يعنى الباب الذى يعرف اليوم بباب البحر عند المقس، و فى سنة اثنتين و ستين و ستمائة أحضر إلى الملك الظاهر بيبرس طفل وجد ميتا بساحل المقس، له رأسان و أربعة أعين و أربعة أرجل و أربعة أيد، و أخبرنى وكيل أبى الشيخ المعمر حسام الدين حسن بن عمر السهروردىّ رحمه اللّه، و مولده سنة اثنتين و سبعمائة بالمقس، أنه يعرف باب البحر هذا، إذا خرج منه الإنسان فإنه يرى برّ الجيزة، لا يحول بينه و بينها حائل، فإذا زاد ماء النيل صار الماء عند الوكالة التى هى الآن خارج باب البحر المعروفة بوكالة الجبن، و إذا كان أيام احتراق

النيل بقيت الرمال تجاه باب البحر، و ذلك قبل أن يحفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ، فلما حفر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۴

الخليج المذكور، أنشأ الناس البساتين و الدور كما يجيء إن شاء اللّه تعالى ذكره، و أدركنا المقس خطة فى غاية العمارة بها عدّة أسواق، و يسكنها أمم من الأكراد و الأجناد و الكتاب و غيرهم، و قد تلاشت من بعد سنة سبع و سبعين و سبعمائة، عند حدوث الغلاء بمصر فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين، فلما كانت المحن منذ سنة ست و ثمانمائة خربت الأحكار و المقس و غيره، و فيه إلى الآن بقية صالحة، و به خمسة جوامع تقام بها الجمعة، و عدّة أسواق، و معظمه خراب.

ذكر ميدان القمح

هذا المكان خارج باب القنطرة، يتصل من شرقية بعدوة الخليج، و من غربيه بالمقس، و بعضهم يسميه ميدان الغلة، و كان موضعا للغلال أيام كان المقس ساحل القاهرة، و كانت صبر القمح و غيره من الغلال توضع من جانب المقس إلى باب القنطرة عرضا، و تقف المراكب من جامع المقس إلى منية الشيرج طولا، و يصير عند باب القنطرة فى أيام النيل من مراكب الغلة و غيرها ما يستر الساحل كله.

قال ابن عبد الظاهر: المكان المعروف بميدان الغلة و ما جاوره إلى ما وراء الخليج، لما ضعف أمر الخلافة و هجرت الرسوم القديمة من التفرّج فى اللؤلؤة و غيرها، بنت الطائفة الفرحية الساكنون بالمقس، لأنهم ضاق بهم المقس، قبالة اللؤلؤة حارة سميت بحارة اللصوص، بسبب تعدّيهم فيها مع غيرهم إلى أن غيروا تلك المعالم، و قد كان ذلك قديما بستانا سلطانيا يسمّى بالمقسى، أمر الظاهر بن الحاكم بنقل أنشابه و حفره و جعله بركة قدّام اللؤلؤة مختلطة بالخليج، و كان للبستان المقدّم ذكره ترعة من البحر يدخل منها الماء إليه، و هو خليج الذكر الآن، فأمر بإبقائها على حالها مسلطة على البركة و الخليج يستنقع الماء فيها، فلما نسى ذلك على ما ذكرناه، عمد المذكورون و غيرهم إلى اقتطاع البركة من الخليج و جعلوا بينها و بين الخليج جسرا، و صار الماء يصل إليها من الترعة دون الخليج، و صارت منتزها للسودان المذكورين فى أيام النيل و الربيع، و لما كانت الأيام الآمرية أحبّ إعادة النزهة، فتقدّم وزيره المأمون بن البطائحىّ بإحضار عرفاء السودان المذكورين و أنكر عليهم، ذلك، فاعتذروا بكثرة الرمال، فأمر بنقل ذلك و أعطاهم أنعاما، فبنوا حارة بالقرب من دار كافور التى أسكنت بها الطائفة المأمونية قبالة بستان الوزير، و من المساجد الثلاثة المعلقة فى شرقيها، ثم أحضر الأبقار من البساتين و العدد و الآلات و نقض الجسر الذى بين البركة و الخليج، و عمّق البركة إلى أن صار الخليج مسلطا عليها. قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى، هذه البركة عرفت ببطن البقرة، و قد ذكر خبرها عند ذكر البرك من هذا الكتاب، و قد صار هذا الميدان اليوم سوقا تباع فيه القشة من النحاس العتيق و الحصر و غير ذلك، و فى بعضه سوق الغزل و به جامع يشرف على الخليج، و سكن هناك طائفة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۵

المشارقة الحياك، و فيه سوق عامر بالمعايش.

ذكر أرض الطبالة

هذه الأرض على جانب الخليج الغربىّ بجوار المقس، كانت من أحسن منتزهات القاهرة، يمرّ النيل الأعظم من غربيها عندما يندفع من ساحل المقس، حيث جامع المقس الآن، إلى أن ينتهى إلى الموضع الذى يعرف بالجرف على جانب الخليج الناصرىّ، بالقرب من بركة الرطلىّ، و يمرّ من الجرف إلى غربىّ البعل، فتصير أرض الطبالة نقطة وسط، من غربيها النيل الأعظم، و من شرقيها الخليج، و من

قبليها البركة المعروفة ببطن البقرة، و البساتين التى آخرها حيث الآن باب مصر بجوار الكبارة، و حيث المشهد النفيسىّ، و من بحريها أرض البعل و منظرة البعل و منظرة التاج و الخمس وجوه و قبة الهواء، فكانت رؤية هذه الأرض شيئا عجيبا فى أيام الربيع، و فيها يقول سيف الدين على بن قزل المشدّ:

إلى طبالة يعزون أرضالها من سندس الريحان بسط

و قد كتب الشقيق بها سطوراو أحسن شكلها للطل نقط

رياض كالعرائس حين تجلىيزين وجهها تاج و قرط

و إنما قيل لها أرض الطبالة: لأنّ الأمير أبا الحارث أرسلان البساسيرى، لما غاضب الخليفة القائم بأمر اللّه العباسىّ و خرج من بغداد يريد، الانتماء إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة، أمدّه الخليفة المستنصر بالله و وزيره الناصر لدين اللّه عبد الرحمن البازورىّ حتى استولى على بغداد، و أخذ قصر الخلافة، و أزال دولة بنى العباس منها، و أقام الدولة الفاطمية هناك، و سيّر عمامة القائم و ثيابه و شباكه الذى كان إذا جلس يستند إليه، و غير ذلك من الأموال و التحف إلى القاهرة فى سنة خمسين و أربعمائة، فلما وصل ذلك إلى القاهرة سرّ الخليفة المستنصر سرورا عظيما، و زينت القاهرة و القصور و مدينة مصر و الجزيرة، فوقفت نسب طبالة المستنصر، و كانت امرأة مرجلة تقف تحت القصر فى المواسم و الأعياد و تسير أيام الموكب و حولها طائفتها و هى تضرب بالطبل، و تنشد، فأنشدت و هى واقفة تحت القصر:

يا بنى العباس ردّواملك الأمر معدّ

ملّككم ملك معارو العوارى تستردّ

فأعجب المستنصر ذلك منها و قال لها تمنى، فسألت أن تقطع الأرض المجاورة للمقس، فأقطعها هذه الأرض. و قيل لها من حينئذ أرض الطبالة، و أنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى تعرف بتربة نسب. قال ابن عبد الظاهر: أرض الطبالة منسوبة إلى امرأة مغنية تعرف بنسب، و قيل بطرب، مغنية المستنصر. قال: فوهبها هذه الأرض المعروفة بأرض الطبالة، و حكرت و بنيت آدرا و بيوتا، و كانت من ملح القاهرة و بهجتها، انتهى. ثم أن أرض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۶

الطبالة خربت فى سنة ست و تسعين و ستمائة عند حدوث الغلاء و الوباء فى سلطنة الملك العادل كتبغا، حتى لم يبق فيها إنسان يلوح، و بقيت خرابا إلى ما بعد سنة إحدى عشرة و سبعمائة، فشرع الناس فى سكناها قليلا قليلا، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب، فما زال بالمهندسين حتى مرّوا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوّابين التى تعرف اليوم ببركة الحاجب، و ببركة الرطلىّ، فمرّوا به من هناك حتى صبّ فى الخليج الكبير من آخر أرض الطبالة، فعمر الأمير بكتمر المذكور هناك القنطرة التى تعرف بقنطرة الحاجب على الخليج الناصرىّ، و أقام جسرا من القنطرة المذكورة إلى قريب من الجرف، فصار هذا الجسر فاصلا بين بركة الحاجب و الخليج الناصرىّ، و أذن للناس فى تحكيره فبنوا عليه و على البركة الدور، و عمرت بسبب ذلك أرض الطبالة، و صار بها عدّة حارات منها: حارة العرب، و حارة الأكراد، و حارة البزازرة، و حارة العياطين، و غير ذلك. و بقى فيها عدّة أسواق و حمّام و جوامع تقام بها الجمعة، و أقبل الناس على التنزه بها أيام النيل و الربيع، و كثرت الرغبات فيها لقربها من القاهرة، و ما برحت على غاية من العمارة إلى أن حدث الغلاء فى سنة سبع و سبعين و سبعمائة أيام الأشرف شعبان بن حسين، فخرب كثير من حارات أرض الطبالة، و بقيت منها بقية إلى أن دثرت منذ سنة ست و ثمانمائة، و صارت كيمانا، و بقى فيها من العامر الآن الاملاك المطلة على البركة التى ذكرت عند ذكر البرك من هذا الكاتب، و فيها بقعة تعرف بالجنينة تصغير جنة من أخبث بقاع الأرض، يعمل فيها بمعاصى اللّه عز و جلّ، و تعرف ببيع الحشيشة التى يبتلعها اراذل الناس، و قد فشت هذه الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشوّا زائدا، و ولع بها أهل الخلاعة و السخف ولوعا كثيرا، و تظاهروا

بها من غير احتشام بعدما أدركناها تعدّ من أرذل الخبائث و أقبح القاذورات، و ما شيء في الحقيقة أفسد لطباع البشر منها، و لاشتهارها في وقتنا هذا، عند الخاص و العام بمصر و الشام و العراق و الروم، تعين ذكرها، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر حشيشة الفقراء

قال الحسن بن محمد في كتاب السوانح الأدبية في مدائح القنبية: سألت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازيّ الحيدريّ ببلدة تستر في سنة ثمان و خمسين و ستمائة، عن السبب في الوقوف على هذا العقار و وصوله إلى الفقراء خاصة، و تعدّيه إلى العوام عامّة، فذكر لي أن شيخه شيخ الشيوخ حيدرا رحمه اللّه، كان كثير الرياضة و المجاهدة، قليل الاستعمال للغذاء، قد فاق في الزهادة و برز في العبادة، و كان مولده بنشاور من بلاد خراسان، و مقامه بجبل بين نشاور و مارماه و كان قد اتخذ بهذا الجبل زاوية و في صحبته جماعة من الفقراء، و انقطع في موضع منها و مكث بها أكثر من عشر سنين لا يخرج منها، و لا يدخل عليه أحد غيري للقيام بخدمته. قال: ثم أن الشيخ طلع ذات يوم و قد اشتدّ الحرّ وقت القائلة منفردا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۷

بنفسه إلى الصحراء، ثم عاد و قد علا وجهه نشاط و سرور، بخلاف ما كنا نعهده من حاله قبل، و أذن لأصحابه في الدخول عليه، و أخذ يحادثهم، فلما رأينا الشيخ على هذه الحالة من المؤانسة بعد إقامته تلك المدّة الطويلة في الخلوة و العزلة، سألناه عن ذلك فقال: بينما أنا في خلوتي إذ خطر ببالي الخروج إلى الصحراء منفردا، فخرجت فوجدت كل شيء من النبات ساكنا لا يتحرّك لعدم الريح و شدّة القيظ، و مررت بنبات له ورق، فرأيته في تلك الحال يميس بلطف و يتحرّك من غير عنف، كالثمل النشوان، فجعلت أقطف منه أوراقا و آكلها، فحدث عندي من الارتياح ما شاهدتموه، و قوموا بنا حتى أوقفكم عليه لتعرفوا شكله.

قال: فخرجنا إلى الصحراء، فأوقفنا على النبات، فلما رأيناه قلنا هذا نبات يعرف بالقنب، فأمرنا أن نأخذ من ورقه و نأكله، ففعلنا، ثم عدنا إلى الزاوية فوجدنا في قلوبنا من السرور و الفرح ما عجزنا عن كتمانه، فلما رآنا الشيخ على الحالة التي وصفنا، أمرنا بصيانة هذا العقار، و أخذ علينا الأيمان أن لا نعلم به أحدا من عوامّ الناس، و أوصانا أن لا نخفيه عن الفقراء، و قال إن اللّه تعالى قد خصكم بسرّ هذا الورق ليذهب بأكله همومكم الكثيفة، و يجلو بفعله أفكاركم الشريفة، فراقبوه فيما أودعكم، و راعوه فيما استرعاكم. قال الشيخ جعفر: فزرعتها بزاوية الشيخ حيدر بعد أن وقفنا على هذا السرّ في حياته، و أمرنا بزرعها حول ضريحه بعد وفاته، و عاش الشيخ حيدر بعد ذلك عشر سنين و أنا في خدمته لم أره يقطع أكلها في كل يوم، و كان يأمرنا بتقليل الغذاء و أكل هذه الحشيشة، و توفي الشيخ حيدر سنة ثمان عشرة بزاويته في الجبل، و عمل على ضريحه قبة عظيمة، و أتته النذور الوافرة من أهل خراسان و عظموا قدره و زاروا قبره، و احترموا أصحابه، و كان قد أوصى أصحابه عند وفاته أن يوقفوا ظرفاء أهل خراسان و كبراءهم على هذا العقار و سرّه، فاستعملوه.

قال: و لم تزل الحشيشة شائعة ذائعة في بلاد خراسان و معاملات فارس، و لم يكن يعرف أكلها أهل العراق حتى ورد إليها صاحب هرمز، و محمد بن محمد صاحب البحرين، و هما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد فارس في أيام الملك الإمام المستنصر باللّه، و ذلك في سنة ثمان و عشرين و ستمائة، فحملها أصحابهما معهم و أظهروا للناس أكلها، فاشتهرت بالعراق و وصل خبرها إلى أهل الشام و مصر و الروم فاستعملوها. قال: و في هذه السنة ظهرت الدراهم ببغداد، و كان الناس ينفقون القراضة، و قد نسب إظهار الحشيشة إلى الشيخ حيدر الأديب محمد بن عليّ بن الأعمى الدمشقيّ في أبيات و هي:

دع الخمر و اشرب من مدامة حيدرمعنبرة خضراء مثل الزبرجد

يعاطيكها ظبي من الترك أغيديميس على غصن من البان أملد

فنحسبها في كفه إذ يديرهاكرقم عذار فوق خدّ مورّد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۸ يرنحها أدنى نسيم تنسّمتفتهفو إلى برد النسيم المردّد

و تشدو على أغصانها الورق فى الضحىفيطربها سجع الحمام المغرّد

و فيها معان ليس فى الخمر مثلهافلا تستمع فيها مقالا مفند

هى البكر لم تنكح بماء سحابةو لا عصرت يوما برجل و لا يد

و لا عبث القسيس يوما بكأسهاو لا قرّبوا من دنها كل مقعد

و لا نصّ فى تحريمها عند مالكو لا حدّ عند الشافعىّ و أحمد

و لا أثبت النعمان تنجيس عينهافخذها بحدّ المشرفىّ المهند

و كف أكفّ الهمّ بالكف و استرحو لا تطرح يوم السرور إلى غد

و كذلك نسب إظهارها إلى الشيخ حيدر الأديب أحمد بن محمد بن الرسّام الحلبىّ فقال:

و مهفهف بادى النفار عهدتهلا ألتقيه قط غير معبس

فرأيته بعض الليالى ضاحكاسهل العريكة ريضا فى المجلس

فقضيت منه مآربى و شكرتهإذ صار من بعد التنافر مؤنسى

فأجابنى لا تشكرنّ خلائقىو اشكر شفيعك فهو خمر المفلس

فحشيشة الأفراح تشفع عندناللعاشقين ببسطها للأنفس

و إذا هممت بصيد ظبى نافرفاجهد بأن يرعى حشيش القنبس

و اشكر عصابة حيدر إذ أظهروالذوى الخلاعة مذهب المتخمّس

ودع المعطّل للسرور و خلنىمن حسن ظنّ الناس بالمتنمّس

و قد حدّثنى الشيخ محمد الشيرازىّ القلندرى أنّ الشيخ حيدرا لم يأكل الحشيشة فى عمره البتة، و إنما عامّة أهل خراسان نسبوها إليه لاشتهار أصحابه بها، و أن إظهارها كان قبل وجوده بزمان طويل، و ذلك أنه كان بالهند شيخ يسمى بيررطن، هو أوّل من أظهر لأهل الهند أكلها، و لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك، ثم شاع أمرها فى بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن، ثم فشا إلى أهل فارس، ثم ورد خبرها إلى أهل العراق و الروم و الشام و مصر، فى السنة التى قدّمت ذكرها. قال: و كان بيررطن فى زمن الأكاسرة، و أدرك الإسلام و أسلم، و أنّ الناس من ذلك الوقت يستعملونها، و قد نسب إظهارها إلى أهل الهند علىّ بن مكىّ فى أبيات أنشدنيها من لفظه و هى:

ألا فاكفف الأحزان عنى مع الضرّبعذراء زفّت فى ملاحفها الخضر

تجلت لنا لما تحلّت بسندسفجلّت عن التشبيه فى النظم و النثر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۹ بدت تملأ الأبصار نورا بحسنهافأخجل نور الروض و الزهر بالزهر

عروس يسرّ النفس مكنون سرّهاو تصبح فى كل الحواس إذا تسرى

فللذوق منها مطعم الشهد رائقاو للشم منها فائق المسك بالنشر

و فى لونها للطرف أحسن نزهةيميل إلى رؤياه من سائر الزهر

تركّب من قان و أبيض فانثنتتيه على الأزهار عالية القدر

فيكسف نور الشمس حمرة لونهاو تخجل من مبيضّه طلعة البدر

علت رتبة فى حسنها و كأنهازبرجد روض جاده وابل القطر

تبدّت فأبدت ما أجنّ من الهوىو جاءت فولت جند همى و الفكر

جميلة أوصاف جليلة رتبةتغالت فغالى فى مدائحها شعرى

فقم فانف جيش الهمّ و اكفف يد العنابهندية أمضى من البيض و السمر

بهندية فى أصل إظهار أكلهاإلى الناس لا هندية اللون كالسّمر

تزيل لهيب الهمّ عنّا بأكلهاو تهدى لنا الأفراح فى السرّ و الجهر

قال: و أنا أقول إنه قديم معروف منذ أوجد اللّه تعالى الدنيا، و قد كان على عهد اليونانيين، و الدليل على ذلك ما نقله الأطباء فى كتبهم عن بقراط و جالينوس من مزاج هذا العقار و خواصه، و منافعه و مضارّه، قال ابن جزلة فى كتاب منهاج البيان: القنب الذى هو ورق الشهدانج، منه بستانىّ و منه برّىّ، و البستانىّ أجوده، و هو حار يابس فى الدرجة الثالثة، و قيل حرارته فى الدرجة الأولى، و يقال أنه بارد يابس فى الدرجة الأولى، و البرىّ منه حار يابس فى الدرجة الرابعة. قال: و يسمى بالكفّ. أنشدنى تقىّ الدين الموصلى:

كف كفّ الهموم بالكفّ فالكفّ شفاء للعاشق المهموم

بابنة القنّب الكريمة لا بابنة كرم بعد البنت الكروم

قال: و الفقراء إنما يقصدون استعماله مع ما يجدون من اللذة تجفيفا للمنىّ، و فى إبطاله قطع لشهوة الجماع كى لا تميل نفوسهم إلى ما يوقع فى الزنا. و قال بعض الأطباء:

ينبغى لمن يأكل الشهدانج أو ورقه، أن يأكله مع اللوز أو الفستق أو السكر أو العسل أو الخشخاش، و يشرب بعده السكنجبين ليدفع ضرره، و إذا قلى كان أقلّ لضرره، و لذلك جرت العادة قبل أكله أن يقلى، و إذا أكل غير مقلىّ كان كثير الضرر، و أمزجة الناس تختلف فى أكله، فمنهم من لا يقدر أن يأكله مضافا إلى غيره، و منهم من يضيف إليه السكر أو العسل أو غيره من الحلاوات. و قرأت فى بعض الكتب أن جالينوس قال إنها تبرىء من التخمة، و هى جيدة للهضم، و ذكر ابن جزلة فى كتاب المنهاج أن بزر شجر القنب البستانىّ هو الشهدانج، و ثمره يشبه حب السمنة، و هو حب يعصر منه الدهن. و حكى عن حنين بن إسحاق أنّ شجرة البرى تخرج فى القفار المنقطعة على قدر ذراع، و ورقه يغلب عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۰

البياض. و قال يحيى بن ماسويه فى كتاب تدبير أبدان الأصحاء: أنّ من غلب على بدنه البلغم ينبغى أن تكون أغذيته مسخنة مجففة، كالزبيب و الشهدانج.

و قال صاحب كتاب إصلاح الأدوية: أنّ الشهدانج يدرّ البول، و هو عسر الانهضام، ردىء الخلط للمعدة. قال: و لم أجد لإزالة الزفر من اليد أبلغ من غسلها بالحشيشة، و رأيت من خواصها أن كثيرا من ذوات السموم كالحية و نحوها إذا شمت ريحها هربت، و رأيت أن الإنسان إذا أكلها و وجد فعلها فى نفسه، و أحبّ أن يفارقه فعلها قطر فى منخريه شيئا من الزيت، و أكل من اللبن الحامض. و مما يكسر قوّة فعلها و يضعفه السباحة فى الماء الجارى، و النوم يبطله.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: دع نزاهة القوم، فما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم، و لقد حدّثنى القاضى الرئيس تاج الدين إسماعيل بن عبد الوهاب بن الخطباء المخزومىّ، قبل اختلاطه، عن الرئيس علاء الدين بن نفيس: أنه سئل عن هذه الحشيشة فقال: اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة و الرذالة، و كذلك جرّبنا فى طول عمرنا من عاناها فإنه ينحط فى سائر أخلاقه إلى ما لا يكاد أن يبقى له من الإنسانية شىء البتة.

و قد قال ابن البيطار فى كتاب المفردات: و من القنب نوع ثالث يقال له القنب الهندىّ، و لم أره بغير مصر، و يزرع فى البساتين و يقال له الحشيشة عندهم أيضا، و هو يسكر جدّا إذا تناول منه الإنسان قدر درهم أو درهمين، حتى أنّ من أكثر منه يخرجه إلى حدّ الرعونة، و قد استعمله قوم فاختلت عقولهم، و أدّى بهم الحال إلى الجنون، و ربما قتلت.

و رأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء شتى، فمنهم من يطبخ الورق طبخا بليغا و يدعكه باليد دعكا جيدا، حتى يتعجن، و يعمل منه أقراصا، و منهم من يجففه قليلا- ثم يحمصه و يفركه باليد، و يخلط به قليل سمسم مقشور و سكّر و يستفه و يطيل مضغه، فإنهم

يطربون عليه و يفرحون كثيرا، و ربما أسكرهم فيخرجون به إلى الجنون أو قريب منه، و هذا ما شاهدته من فعلها، و إذا خيف من الإكثار منه فليبادر إلى القيء بسمن و ماء سخن، حتى تنقى منه المعدة، و شراب الحماض لهم فى غاية النفع، فانظر كلام العارف فيها و احذر من إفساد بشريّتك و تلاف أخلاقك باستعمالها، و لقد عهدناها و ما يرمى بتعاطيها إلّا أراذل الناس، و مع ذلك فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة، و كان قد تتبع الأمير سودون الشيخونىّ رحمه اللّه الموضع الذى يعرف بالجنينة من أرض الطبالة و باب اللوق و حكر و اصل ببولاق، و أتلف ما هنالك من هذه الشجرة الملعونة، و قبض على من كان يبتلعها من أطراف الناس و رذلائهم و عاقب على فعلها بقلع الأضراس، فقلع أضراس كثير من العامّة فى نحو سنة ثمانين و سبعمائة، و ما برحت هذه الخبيثة تعدّ من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد أحمد بن أويس فارا من تيمورلنك إلى القاهرة فى سنة خمس و تسعين و سبعمائة، فتظاهر أصحابه بأكلها، و شنع الناس عليهم و استقبحوا ذلك من فعلهم و عابوه عليهم، فلما سافر من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۱

القاهرة إلى بغداد و خرج منها ثانيا و أقام بدمشق مدّة، تعلم أهل دمشق من أصحابه التظاهر بها. و قدم إلى القاهرة شخص من ملاحدة العجم صنع الحشيشة بعسل، خلط فيها عدّة أجزاء مجففة، كعرف اللفاح و نحوه، و سمّاها العقدة و باعها بخفية، فشاع أكلها و فشا فى كثير من الناس مدّة أعوام، فلما كان فى سنة خمس عشرة و ثمانمائة شنع التجاهر بالشجرة الملعونة، فظهر أمرها و اشتهر أكلها و ارتفع الاحتشام من الكلام بها، حتى لقد كادت أن تكون من تحف المترفين، و بهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، و ارتفع ستر الحياء و الحشمة من بين الناس، و جهروا بالسوء من القول، و تفاخروا بالمعايب، و انحطوا عن كل شرف و فضيلة، و تحلوا بكل ذميمة من الأخلاق و رذيلة، فلولا الشكل لم تقض لهم بالإنسانية، و لو لا الحس لما حكمت عليهم بالحيوانية، و قد بدأ المسخ فى الشمائل و الأخلاق المنذر بظهوره على الصور و الذوات، عافانا اللّه تبارك و تعالى من بلائه، و أرض الطبالة الآن بيد ورثة الحاجب.

ذكر أرض البعل و التاج

اشارة

قال ابن سيده: البعل، الأرض المرتفعة التى لا يصيبها المطر إلّا مرّة واحدة فى السنة.

و قيل: البعل، كلّ شجر أو زرع لا يسقى. و قيل: البعل: ما سقته السماء، و قد استبعل الموضع.

و البعل: من النخل ما شرب بعروقه من غير سقى و لا ماء سماء. و قيل هو ما اكتفى بماء السماء، و البعل ما أعطى من الأتاوة على سقى النخل، و استبعل الموضع و النخل صار بعلا. و أرض البعل هذه بجانب الخليج، تتصل بأرض الطبالة، كانت بستانا يعرف بالبعل، و فيه منظرة أنشأه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ، و جعل على هذا البستان سورا، و إلى جانب بستان البعل هذا بستان التاج، و بستان الخمس وجوه، و قد ذكرت مناظر هذه البساتين و ما كان فيها للخلفاء الفاطميين من الرسوم عند ذكر المناظر من هذا الكتاب. و أرض البعل فى هذا الوقت مزرعة تجاه قنطرة الأوز التى على الخليج. يخرج الناس للتنزه هناك أيام النيل و أيام الربيع، و كذلك أرض التاج فإنها اليوم قد زالت منها الأشجار و استقرّت من أراضى المنية الخراجية، و فى أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنين، له ساق طويل و زهره شبه اللينوفر، و إذا أشرقت الشمس انفتح فصار منظرا أنيقا، و إذا غربت الشمس انضم. و يذكر أنّ من العصافير نوعا صغيرا يجلس العصفور منه فى دار البشنينة، فإذا أقبل الليل انضمت عليه و غطست فى الماء فبات فى جوفها آمنا إلى أن تشرق الشمس، فتصعد البشنينة و تنفتح فيطير العصفور، و هو شىء ما برحنا نسمعه. و هذا البشنين يصنع من زهره دهن يعالج به فى البرسام و ترطيب الدماغ فينجع، و أصله يعرف بالبيارون، يجمعه الأعراب و يأكلونه نيئا و مطبوخا، و هو يميل إلى الحرارة يسيرا، و يزيد فى الباه، و يسخّن المعدة و يقوّيها، و يقطع الزحير، ذكر ذلك ابن البيطار فى كتاب المفردات، و فى أيام الربيع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۲

تزرع هذه الأراضى فتذكّر بحسنها و نضارتها جنة الخلد التى وعد المتقون. و أدركت بهذه الأرض بقايا نخل و أشجار و قد تلفت.

ذكر ضواحى القاهرة

قال ابن سيده: ضواحى كل شىء نواحيه البارزة للشمس، و الضواحى من النخيل ما كان خارج السور على صفة عالية لأنها تضحى للشمس. و فى كتاب النبىّ صلى اللّه عليه و سلم لأهل بدر:

«لكم الصامتة من النخل و لنا الضاحية من البعل» يعنى بالصامتة: ما أطاف به سور المدينة، و ضواحى الروم ما ظهر من بلادهم و برز. و يقال فى زماننا لما خرج عن القاهرة مما هو فى جنبتى الخليج من القرى ضواحى القاهرة، و قد عرفت أصل ذلك من اللغة، و تعرف البلاد التى من الضواحى فى غربىّ الخليج من القرى ضواحى القاهرة، و قد عرفت أصل ذلك من اللغة، و تعرف البلاد التى من الضواحى فى غربىّ الخليج بالحبس الجيوشىّ، و هى: بهتين، و الأميرية، و المنية. و كان أيضا بناحية الجيزة من جملة الحبس الجيوشىّ ناحية سفط و نهيا و وسيم، حبس هذه البلاد أمير الجيوش بدر الجمالىّ على عقبه. فلما زالت الدولة الفاطمية جعل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و سلّمه له فى سنة سبع و ثمانين و خمسمائة، و أفرد لديوان الأسطول من الأبواب الديوانية الزكاة التى كانت تجبى من الناس بمصر، و الحبس الجيوشى بالبرّين و النطرون و الخراج، و ما معه من ثمن القرظ، و ساحل السنط، و المراكب الديوانية، و أشنأ و طنتدى و أحيل ورثة أمير الجيوش على غير الحبس الذى لهم، ثم أفتى الفقهاء ببطلان الحبس، و قبضت النواحى و صارت من جملة أموال الخراج، فعرفت ببلاد الملك، و هذه الضواحى الآن منها ما هو وقف و منها ما هو فى الديوان السلطانىّ، و خراجها يتميز على غيرها من النواحى، و يزرع أكثرها من الكتان و المقاثى و غيرها.

ذكر منية الأمراء

قال ياقوت فى كتاب المشترك: المنية ثلاثة و أربعون موضعا، و جميعها بمصر غير واحدة، و بمصر من القرى المسماة بهذا الاسم ما يقارب المائتين. قال: و منية الشيرج، و يقال لها منية الأمير و منية الأمراء، بليدة فيها أسواق على فرسخ من القاهرة فى طريق الإسكندرية. و ذكر الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ النسابة: أن قتلى أهل الشام الذين قتلوا فى وقعة الخندق، بين مروان بن الحكم و عبد الرحمن بن جحدم أمير مصر، فى سنة خمس و ستين من الهجرة، دفنوا حيث موضع منية الشيرج هذه، و كانوا نحوا من الثمانمائة.

و قال ابن عبد الظاهر: منية الأمراء من الحبس الجيوشىّ الشرقىّ الذى كان حبسه أمير الجيوش، ثم ارتجع. و فى كل سنة يأكل البحر منها جانبا، و يجدّد جامعها و دورها حتى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۳

صار جامعها القديم و دورها فى برّ الجيزة، و غلب البحر عليها، و هذه المنية من محاسن منتزهات القاهرة، و كانت قد كثرت العمائر بها و اتخذها الناس منزل قصف و دار لعب و لهو و مغنى صبابات، و بها كان يعمل عيد الشهيد الذى تقدّم ذكره عند ذكر النيل من هذا الكتاب، لقربها من ناحية شبرا، و بها سوق فى كل يوم أحد يباع فيه البقر و الغنم و الغلال، و هو من أسواق مصر المشهورة، و أكثر من كان يسكن بها النصارى، و كانت تعرف بعصر الخمر و بيعه، حتى أنه لما عظمت زيادة ماء النيل فى سنة ثمان عشرة و سبعمائة، و كانت الغرقة المشهورة و غرقت شبرا و المنية، تلف فيها من جرار الخمر ما ينيف على ثمانين ألف جرّة مملوءة بالخمر، و باع نصرانىّ واحد مرّة فى يوم عيد الشهيد بها خمرا باثنى عشر ألف درهم فضة، عنها يومئذ نحو الستمائة دينار، و كسر منها الأمير بلبغا السالمىّ فى صفر سنة ثلاث و ثمانمائة ما ينيف على أربعين ألف جرّة مملوءة بالخمر.

و ما برحت تغرق فى الأنيال العالية إلى أن عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة الجسر من بولاق إلى المنيـة، كما ذكر عنـد ذكر الجسور من هذا الكتاب. فأمن أهلها من الغرق، و أدركناها عامرة بكثرة المساكن و الناس و الأسواق و المناظر، و تقصـد للنزهـة بها أيام النيل و الربيع، لا سيما فى يومى الجمعـة و الأحد، فإنه كان للناس بها فى هذين اليومين مجتمع ينفق فيه مال كثير، ثم لما حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، الحّ المناسر بالهجوم عليها فى الليل و قتلوا من أهلها عدّة، فارتحل الناس منها و خلت أكثر دورها، و تعطلت حتى لم يبق بها سوى طاحون واحدة لطحن القمح، بعد ما كان بها ما ينيف على ثمانين طاحونة، و بها الآن بقية و هى جارية فى الديوان السلطانى المعروف بالمفرد.

ذكر كوم الريش

هـذا اسم لبلـد فيما بين أرض البعل و منية الشـيرج. كان النيل يمرّ بغربيها بعد مروره بغربىّ أرض البعل، و أدركت آثار الجروف باقية من غربىّ البعل، و غربىّ كوم الريش إلى أطراف المنيـة، حتى تغيرت الأحوال من بعـد سـنة ست و ثمانمائـة، ففاض ماء النيل فى أيام الزيادة و نزل فى الـدرب الـذى كان يسـلك فيه من أرض الطبالـة إلى المنيـة، فانقطع هـذا الدرب و ترك الناس سـلوكه، و كان كوم الريش من أجلّ منتزهات القاهرة، و رغب أعيان الناس فى سكناها للتنزه بها.

و أخبرنى شـيخنا قاضـى القضاة مجد الدين إسـماعيل بن إبراهيم الحنفى، و خال أبى تاج الدين إسماعيل بن أحمد بن الخطباء، أنهما أدركا بكوم الريش عـدّة أمراء يسـكنون فيها دائما، و أنه كان من جملة من يسـكن فيها دائما نحو الثمانمائة من الجند السـلطانى، و أنا أدركت بها سوقا عامرا بالمعايش بأنواعها من المآكل، لا أعرف اليوم بالقاهرة مثله فى كثرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۴

المآكل، و أدركت بها حمّاما و جامعين تقام بهما الجمعة، و موقف مكارية، و منارة لا يقدر الواصف أن يعبر عن حسـنها لما اشتملت عليه من كل معنى رائق بهـج، و ما برحت على ذلك إلى أن حدثت المحن من سـنة ست و ثمانمائة، فطرقها أنواع الرزايا حتى صارت بلاقع ، و جهلت طرقها و تغيرت معاهدها و نزل بها من الوحشة ما أبكانى، و أنشدت فى رؤيتها عندما شاهدتها خرابا:

قفرا كأنك لم تكن تلهو بهافى نعمة و أوانس أتراب

و كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى و هى ظالمة، إنّ أخذه أليم شديد.

ذكر بولاق

اشارة

قد تقدّم فى غير موضع من هذا الكتاب أن ساحل النيل كان بالمقس، و أن الماء انحسـر بعد سـنة سبعين و خمسمائة عن جزيرة عرفت بجزيرة الفيل، و تقلص ماء النيل عن سور القاهرة الـذى ينتهى إلى المقس، و صارت هناك رمال و جزائر، ما من سـنة إلّا و هى تكثر، حتى بقى مـاء النيـل لا يمرّ بها إلا أيام الزيادة فقط. و فى طول السـنة ينبت هناك البوص و الحلفاء، و تنزل المماليك السـلطانية لرمى النشاب فى تلك التلال الرمل. فلما كان سنة ثلاث عشرة و سبعمائة رغب الناس فى العمارة بديار مصر، لشغف السلطان الملك الناصر بهـا و مواظبته عليهـا، فكأنما نودى فى القاهرة و مصـر أن لا يتأخر أحـد من الناس عن إنشاء عمارة، وجـدّ الأمراء و الجنـد و الكتّاب و التجّار و العامّـة فى البنـاء، و صـارت بولاق حينئـذ تجاه بولاق التكرور، يزرع فيها القصب و القلقاس على ساقيـة تنقل الماء من النيل، حيث جـامع الخطيرى الآن، فعمّر هناك رجل من التجار منظرة، و أحاط جـدارا على قطعـة أرض غرس فيها عـدّة أشـجار و تردّد إليها للنزهة.

فلما مات انتقلت إلى ناصر الدين محمد بن الجوكندار، فعمر الناس بجانبها دورا على النيل و سكنوا و رغبوا فى السكنى هناك، فامتدّت المناظر على النيل من الدار المذكورة إلى جزيرة الفيل، و تفاخروا فى إنشاء القصور العظيمة هناك، و غرسوا من ورائها البساتين العظيمة، و أنشأ القاضى ابن المغربىّ رئيس الأطباء بستانا، اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى، بنحو مائة ألف درهم فضة. و كثر التنافس بين الناس فى هذه الناحية، و عمروها حتى انتظمت العمارة فى الطول على حافة النيل، من منية الشيرج إلى موردة الحلفاء، بجوار الجامع الجديد خارج مصر، و عمر فى العرض على حافة النيل الغربية، من تجاه الخندق بحرىّ القاهرة، إلى منشأة المهرانىّ. و بقيت هذه المسافة العظيمة كلها بساتين و أحكارا عامرة بالدور و الأسواق و الحمّامات و المساجد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۵

و الجوامع و غيرها، و بلغت بساتين جزيرة الفيل خاصة ما ينيف على مائة و خمسين بستانا، بعد ما كانت فى سنة إحدى عشرة و سبعمائة نحو العشرين بستانا.

و أنشأ القاضى الفاضل جلال الدين القزوينىّ، و ولده عبد اللّه، دارا عظيمة على شاطىء النيل بجزيرة الفيل، عند بستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب. و أنشأ الأمير عز الدين الخطيرىّ جامعة ببولاق على النيل، و أنشأ بجواره ربعين. و أنشأ القاضى شرف الدين بن زنبور بستانا، و أنشأ القاضى فخر الدين المعروف بالفخر ناظر الجيش بستانا، و حكر الناس حول هذه البساتين و سكنوا هناك، ثم حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرىّ سنة خمس و عشرين و سبعمائة، فعمر الناس على جانبى هذا الخليج، و كان أوّل من عمر بعد حفر الخليج الناصرىّ المهاميزى، أنشأ بستانا و مسجدا هما موجودان إلى اليوم، و تبعه الناس فى العمارة حتى لم يبق فى جميع هذه المواضع مكان بغير عمارة، و بقى من يمرّ بها يتعجب، إذ ما بالعهد من قدم، بينما هى تلال رمل و حلافى، إذ صارت بساتين و مناظر و قصورا و مساجد و أسواقا و حمامات و أزقة و شوارع، و فى ناحية بولاق هذه كان خص الكيالة الذى يؤخذ فيه مكس الغلة إلى أن أبطله الملك الناصر محمد بن قلاوون، كما ذكر فى الروك الناصرىّ من هذا الكتاب. و لما كانت سنة ست و ثمانمائة انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق، و لم يزل يبعد حتى صار على ما هو عليه الآن، و ناحية بولاق الآن عامرة، و تزايدت العمائر بها، و تجدّد فيها عدّة جوامع و حمّامات و رباع و غيرها.

ذكر ما بين بولاق و منشأة المهرانى

و كان فيما بين بولاق و منشأة المهرانى خط فم الخور، و خط حكر ابن الأثير، و خط زريبة قوصون، و خط الميدان السلطانىّ بموردة الملح، و خط منشأة الكتبة.

فأمّا

فم الخور، فكان فيه من المناظر الجليلة الوصف عدّة تشرف على النيل، و من ورائها البساتين، و يفصل بين البساتين و الدور المطلة على النيل شارع مسلوك، و أنشئ هناك حمّام و جامع و سوق، و قد تقدّم ذكر الخور، و أنشأ هناك القاضى علاء الدين بن الأثير دارا على النيل، و كان إذ ذاك كاتب السرّ، و بنى الناس بجواره، فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير، و اتصلت العمارة من بولاق إلى فم الخور، و من فم الخور إلى حكر ابن الأثير، و ما برح فيه من مساكن الأكابر من الوزراء و الأعيان، و من الدور العظيمة ما يتجاوز الوصف.

و أما

الزريبة فإن الملك الناصر محمد بن قلاوون، لما وهب البستان الذى كان بالميدان الظاهرىّ للأمير قوصون أنشأ قدّامه على النيل زريبة، و وقفها، فعمر الناس هناك حتى انتظمت العمارة من حكر ابن الأثير إلى الزريبة، و عمر هناك حمّام و سوق كبير، و طواحين

و عدّة مساكن اتصلت باللوق.

و أما

زريبة السلطان، فإن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما عمر ميدان المهارى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۶

المجاور لقناطر السباع الآن، أنشأ زريبة فى قبلىّ الجامع الطيبرسىّ، و حفر لأجل بناء هذه الزريبة البركة المعروفة الآن بالبركة الناصرية، حتى استعمل طينها فى البناء، و أنشأ فوق هذه الزريبة دار وكالة و ربعين عظيمين، جعل أحدهما وقفا على الخانقاه التى أنشأها بناحية سرياقوس، و أنعم بالآخر على الأمير بكتمر الساقى، فأنشأ الأمير بكتمر بجواره حمّامين، إحداهما برسم الرجال و الأخرى برسم النساء، فكثر بناء الناس فيما هنالك حتى اتصلت العمارة من بحرىّ الجامع الطيبرسىّ بزريبة قوصون، و صار هناك أزقة و شوارع و دروب و مساكن، من وراء المناظر المطلة على النيل، تتصل بالخليج. و أكثر الناس من البناء فى طريق الميدان السلطانىّ، فصارت العمائر منتظمة من قناطر السباع إلى الميدان، من جهاته كلها، و تنافس الناس فى تلك الأماكن و تغالوا فى أجرها.

و عمر المكين إبراهيم بن قزوينة ناظر الجيش فى قبلىّ زريبة السلطان، حيث كان بستان الخشاب، دارا جليلة. و عمر أيضا صلاح الدين الكحال، و الصاحب أمين الدين عبد اللّه بن الغنام، و عدّة من الكتاب، فقيل لهذه الخطة منشأة الكتاب، و أنشأ فيها الصاحب أمين الدين خانقاه بجوار داره، و عمر أيضا كريم الدين الصغير، حتى اتصلت العمارة بمنشأة المهرانى، فصار ساحل النيل من خط دير الطين قبلىّ مدينة مصر إلى منية الشيرج بحرىّ القاهرة، مسافة لا تقصر عن أزيد من نصف بريد بكثير، كلها منتظمة بالمناظر العظيمة، و المساكن الجليلة، و الجوامع، و المساجد، و الخوانك، و الحمامات، و غيرها من البساتين، لا تجد فيما بين ذلك خرابا البتة، و انتظمت العمارة من وراء الدور المطلة على النيل حتى أشرفت على الخليج.

فبلغ هذا البرّ الغربىّ من وفور العمارة و كثرة الناس و تنافسهم فى الإقبال على اللذات و تأنقهم فى الانهماك فى المسرّات ما لا يمكن وصفه، و لا يتأتى شرحه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله و حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، و تقلص ماء النيل عن البرّ الشرقىّ، و كثرت حاجات الناس و ضروراتهم، و تساهل قضاة المسلمين فى الاستبدال فى الأوقاف و بيع نقضها، اشترى شخص الربعين و الحمامين و دار الوكالة التى ذكرت على زريبة السلطان بجوار الجامع الطيبرسىّ، فى سنة سبع و ثمانمائة، و هدم ذلك كله و باع أنقاضه، و حفر الأساسات و استخرج ما فيها من الحجر و عمله جيرا، فنال من ذلك ربحا كثيرا، و تتابع الهدم فى شاطىء النيل و باع الناس أنقاض الدور، فرغب فى شرائها الأمراء و الأعيان و طلاب الفوائد من العامة، حتى زال جميع ما هنالك من الدور العظيمة و المناظر الجليلة، و صار الساحل من منشأة المهرانىّ إلى قريب من بولاق كيمانا موحشة، و خرائب مقفرة، كأن لم تكن مغنى صبابات، و موطن أفراح، و ملعب أتراب، و مرتع غزلان تفتن النساك هناك، و تعيد الحليم سفيها سنة اللّه فى الذين خلوا من قبل، و إنى إذا تذكرت ما صارت إليه أنشد قول عبد اللّه بن المعتز:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۷ سلام على تلك المعاهد و الرباسلام وداع لا سلام قدوم

و صار بهذا العهد ما بين أوّل بولاق من قبليه، إلى أطراف جزيرة الفيل عامرا، من غربيه المفضى إلى النيل، و من شرقيه الذى ينتهى إلى الخليج، إلّا أنّ النيل قد نشأت فيه جزائر و رمال بعد بها الماء عن البرّ الشرقىّ، و كثر العناء لبعده، و فى كل عام تكثر الرمال و يبعد الماء عن البرّ، و للّه عاقبة الأمور. فهذا حال الجهة الغربية من ظواهر القاهرة فى ابتداء وضعها، و إلى وقتنا هذا، و بقى من ظواهر القاهرة الجهة القبلية و الجهة البحرية، و فيهما أيضا عدّة أخطاط تحتاج إلى شرح و تبيان، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

ذكر خارج باب زويلة

اعلم أنّ خارج باب زويلة جهتان، جهة تلى الخليج، و جهة تلى الجبل. فأما الجهة التى تلى الخليج، فقد كانت عند وضع القاهرة

بساتين كلها، فيما بين القاهرة إلى مصر.

و عندى فيما ظهر لى، أنّ هذه الجهة كانت فى القديم غامرة بماء النيل، و ذلك أنه لا خلاف بين أهل مصر قاطبة أنّ الأراضى التى هى من طين أبليز لا تكون إلّا من أرض ماء النيل، فإنّ أرض مصر تربة رملة سبخة، و ما فيها من الطين طرح بعلوها عند زيادة ماء النيل، مما يحمله من البلاد الجنوبية من مسيل الأودية، فلذلك يكون لون الماء عند الزيادة متغيرا، فإذا مكث على الأرض قعد ما كان فى الماء من الطين على الأرض، فسماه أهل مصر إبليز، و عليه تزرع الغلال و غيرها، و ما لا يشمله ماء النيل من الأرض لا يوجد فيه هذا الطين البتة، و أنت إن عرفت أخبار مصر بتأمّلك ما تضمنه هذا الكتاب، ظهر لك أن موضع جامع عمرو بن العاص رضى اللّه عنه كان كروما مشرفة على النيل، و أن النيل انحسر بعد الفتح عما كان تجاه الحصن الذى يقال له قصر الشمع، و عما هو الآن تجاه الجامع، و ما زال ينحسر شيئا بعد شيء حتى صار الساحل بمصر من عند سوق المعاريج الآن إلى قريب من السبع سقايات، و جميع الأراضى التى فيها الآن المراغة خارج مصر إلى نحو السبع سقايات، و ما يقابل ذلك من برّ الخليج الغربىّ كان غامرا بالماء كما تقدّم، و كان فى الموضع الذى تجاه المشهد المعروف بزيد، و تسميه العامة الآن مشهد زين العابدين، بساتين، شرقيها عند المشهد النفيسىّ، و غربيها عند السبع سقايات، منها بساتين عرفت بجنان بنى مسكين، و عندها بنى كافور الإخشيدى داره على البركة التى تجاه الكبش، و تعرف اليوم ببركة قارون، و منها بستان يعرف ببستان ابن كيسان، ثم صار صاغة، و هو الآن يعرف ببستان الطواشى، و منها بستان عرف آخرا بجنان الحارة، و هو من حوض الدمياطى الذى بقرب قنطرة السدّ الآن إلى السبع سقايات، و بقرب السبع سقايات بركة الفيل، و يشرف على بركة الفيل بساتين من دائرها، و إلى وقتنا هذا عليها بستان يعرف بالحبانية، و هم بطن من درما بن عمرو بن عوف بن ثعلبة بن سلامان بن بعل بن عمرو بن الغوث بن طى، فدرما فخذ من طىّ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۸

و الحبانيون بطن من درما، و بستان الحبانية فصل الناس بينه و بين البركة بطريق تسلك فيها المارة، و كان من شرقىّ بركة الفيل أيضا بساتين، منها بستان سيف الإسلام، فيما بين البركة و الجبل الذى عليه الآن قلعة الجبل، و موضعه الآن المساكن التى من جملتها درب ابن البابا إلى زقاق حلب، و حوض ابن هنس، و عدّة بساتين أخر إلى باب زويلة.

و كذلك شقة القاهرة الغربية كانت أيضا بساتين، فوضع حارة الوزيرية إلى الكافورىّ كان ميدان الإخشيد، و بجانب الميدان بستانه الذى يقال له اليوم الكافورى، و ما خرج عن باب الفتوح إلى منية الأصبغ الذى يعرف اليوم بالخندق، كان ذلك كله بساتين على حافة الخليج الشرقية، و قد ذكرت هذه المواضع فى هذا الكتاب مبينة، و عند التأمل يظهر أن الخليج الكبير عند ابتداء حفره كان أوّله إمّا عند مدينة عين شمس، أو من بحريها، لأجل أن القطعة التى بجانب هذا الخليج من غربيه، و القطعة التى هى بشرقيه، فيما بين عين شمس و موردة الحلفاء خارج مدينة فسطاط مصر، جميعهما طين إبليز، و الطين المذكور لا يكون إلا من حيث يمرّ ماء النيل، فتعين أنّ ماء النيل كان فى القديم على هذه الأرض التى بجانبى الخليج، فينتج أن أوّل الخليج كان عند آخر النيل من من الجهة البحرية، و ينتهى الطين إلى نحو مدينة عين شمس من الجانب الشرقىّ، و يصير ما بعد الخندق فى الجهة البحرية رملا لا طين فيه، و هذا بين لمن تأمله و تدبره، و فى هذه الجهة التى تلى الخليج خارج باب زويلة حارات قد ذكرت عند ذكر الحارات من هذا الكتاب، و بقيت هناك أشياء نحتاج أن نعرّف بها و هى:

حوض ابن هنس: و هو حوض ترده الدواب، و ينقل إليه الماء من بئر، و به صارت تلك الخطة تعرف، و هى تلى حارة حلب، و يسلك إليها من جانبه، و هو وقف الأمير سعد الدين مسعود بن الأمير بدر الدين هنس بن عبد اللّه، أحد الحجاب الخاص فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سلخ شعبان سنة سبع و أربعين و ستمائة، و عمل بأعلاه مسجدا مرتفعا و ساقية ماء على بئر معين، و مات يوم السبت عاشر شوّال سنة سبع و أربعين و ستمائة، و دفن بجوار الحوض، و كان هذا الحوض قد تعطل فى عصرنا، فجدّده الأمير تتر أحد الأمراء الكبار فى الدولة المؤيدية، فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و مات هنس أمير جندار السلطان الملك العزيز

عثمان فى سنة إحدى و تسعين و خمسمائة.

مناظر الكبش: هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونىّ، مشرفة على البركة التى تعرف اليوم ببركة قارون عند الجسر الأعظم، الفاصل بين بركة الفيل و بركة قارون، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى أعوام بضع و أربعين و ستمائة. و كان حينئذ ليس على بركة الفيل بناء، و لا فى المواضع التى فى برّ الخليج الغربىّ من قنطرة السباع إلى المقس سوى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۹

البساتين، و كانت الأرض التى من صليبة جامع ابن طولون إلى باب زويلة بساتين، و كذلك الأرض التى من قناطر السباع إلى باب مصر بجوار الكبارة ليس فيها إلّا البساتين، و هذه المناظر تشرف على ذلك كله من أعلى جبل يشكر، و ترى باب زويلة و القاهرة، و ترى باب مصر و مدينة مصر، و ترى قلعة الروضة و جزيرة الروضة، و ترى بحر النيل العظيم و برّ الجيزة. فكانت من أجلّ منتزهات مصر، و تأنق فى بنائها أو سماها الكبش، فعرفت بذلك إلى اليوم. و ما زالت بعد الملك الصالح من المنازل الملوكية، و بها أنزل الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد العباسىّ، لما وصل من بغداد إلى قلعة الجبل و بايعه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بالخلافة، فأقام بها مدّة ثم تحوّل منها إلى قلعة الجبل، و سكن بمناظر الكبش أيضا الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان فى أوّل خلافته، و فيها أيضا كانت ملوك حماه من بنى أيوب تنزل عند قدومهم إلى الديار المصرية، و أوّل من نزل منهم فيها الملك المنصور لما قدم على الملك الظاهر بيبرس فى المحرّم سنة ثلاث و سبعين و ستمائة، و معه ابنه الملك الأفضل نور الدين علىّ، و ابنه الملك المظفر تقىّ الدين محمود، فعندما حلّ بالكبش أتاه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى بالسماط فمدّه بين يديه، و وقف كما يفعل بين يدى الملك الظاهر، فامتنع الملك المنصور من الرضى بقيامه على السماط، و ما زال به حتى جلس. ثم وصلت الخلع و المواهب إليه و إلى ولده و خواصه.

و فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة أنزل بهذه المناظر نحو ثلاثمائة من مماليك الأشرف خليل بن قلاوون، عندما قبض عليهم بعد قتل الأشرف المذكور، ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاوون هدم هذه المناظر المذكورة، فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، و بناها بناء آخر، و أجرى الماء إليها و جدّد بها عدّة مواضع، و زاد فى سعتها، و أنشأ بها اصطبلا تربط فيه الخيول، و عمل زفاف ابنته على ولد الأمير أرغون نائب السلطنة بديار مصر، بعدما جهزها جهازا عظيما منه: بشخاناه، و داير بيت، و ستارات طرّز ذلك بثمانين ألف مثقال ذهب مصرىّ، سوى ما فيه من الحرير و أجرة الصناع، و عمل سائر الأوانى من ذهب و فضة، فبلغت زنة الأوانى المذكورة ما ينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب، و تناهى فى هذا الجهاز و بالغ فى الإنفاق عليه حتى خرج عن الحدّ فى الكثرة، فإنها كانت أوّل بناته، و لما نصب جهازها بالكبش نزل من قلعة الجبل و صعد إلى الكبش، و عاينه و رتبه بنفسه، و اهتم فى عمل العرس اهتماما ملوكيا، و ألزم الأمراء بحضوره فلم يتأخر أحد منهم عن الحضور، و نقط الأمراء الأغانى على مراتبهم، من أربعمائة دينار كل أمير إلى مائتى دينار، سوى الشقق الحرير، و استمرّ الفرح ثلاثة أيام بلياليها، فذكر الناس حينئذ أنه لم يعمل فيما سلف عرس أعظم منه، حتى حصل لكل جوقة من جوق الأغانى اللاتى كنّ فيه خمسمائة دينار مصرية، و مائة و خمسون شقة حرير، و كان عدّة جوق الأغانى التى قسم عليهنّ ثمان جوق من أغانى القاهرة، سوى جوق الأغانى السلطانية و أغانى الأمراء، و عدّتهن عشرون جوقة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۰

لم يعرف ما حصل لهذه العشرين جوقة من كثرة ما حصل و لما انقضت أيام العرس أنعم السلطان لكل امرأة من نساء الأمراء بتعبية قماش على مقدارها، و خلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء و الكتاب و غيرهم، فكان مهما عظيما تجاوز المصروف فيه حدّ الكثرة.

و سكن هذه المناظر أيضا الأمير صرغتمش فى أيام السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، و عمر الباب الذى هو موجود

الآن و بدنتى الحجر اللتين بجانبى باب الكبش بالحدرة، ثم أن الأمير بلبغا العمرى المعروف بالخاصكيّ سكنه إلى أن قتل فى سنة ثمان و ستين و سبعمائة، فسكنه من بعده الأمير استدمر إلى أن قبض عليه الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون و أمر بهدم الكبش فهدم، و أقام خرابا لا ساكن فيه إلى سنة خمس و سبعين و سبعمائة، فحكره الناس و بنوا فيه مساكن و هو على ذلك إلى اليوم.

خط درب ابن البابا: هذا الخط يتوصل إليه من تجاه المدرسة البندقدارية بجوار حمام الفارقانى، و يسلك فيه إلى خط واسع يشتمل على عدّة مساكن جليلة، و يتوصل منه إلى الجامع الطولونىّ و قناطر السباع و غير ذلك، و كان هذا الخط بستانا يعرف ببستان أبى الحسين بن مرشد الطائىّ، ثم عرف ببستان تامش، ثم عرف أخيرا ببستان سيف الإسلام طفتكين بن أيوب، و كان يشرف على بركة الفيل، و له دهاليز واسعة عليها جواسق تنظر إلى الجهات الأربع، و يقابله حيث الدرب الآن المدرسة البندقدارية و ما فى صفها إلى الصليبة بستان، يعرف ببستان الوزير ابن المغربىّ، و فيه حمّام مليحة، و يتصل ببستان ابن المغربىّ بستان عرف أخيرا ببستان شجر الدر، و هو حيث الآن سكن الخلفاء بالقرب من المشهد النفيسىّ، و يتصل ببستان شجر الدر بساتين إلى حيث الموضع المعروف اليوم بالبكارة من مصر، ثم أن بستان سيف الإسلام حكره أمير يعرف بعلم الدين الغتمى، فبنى الناس فيه الدور فى الدولة التركية، و صار يعرف الغتمى، و هو الآن يعرف بدرب ابن البابا، و هو الأمير الجليل الكبير جنكلى بن محمد بن البابا بن جنكلى بن خليل بن عبد اللّه بدر الدين العجلىّ، رأس الميمنة و كبير الأمراء الناصرية محمد بن قلاون بعد الأمير جمال الدين نائب الكرك، قدم إلى مصر فى أوائل سنة أربع و سبعمائة بعد ما طلبه الملك الأشرف خليل بن قلاوون، و رغبه فى الحضور إلى الديار المصرية، و كتب له منشورا باقطاع جيد، و جهزه إليه فلم يتفق حضوره إلا فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان مقامه بالقرب من آمد، فاكرمه و عظمه و أعطاه أمرة، و لم يزل مكرّما معظما، و فى آخر وقته بعد خروج الأمير أرغون النائب من مصر كان السلطان يبعث إليه الذهب مع الأمير بكتمر الساقى و غيره، و يقول له لا تبس الأرض على هذا، و لا تنزله فى ديوانك، و كان أوّلا يجلس رأس الميمنة ثانى نائب الكرك، فلما سار نائب الكرك لنيابة طرابلس جلس الأمير جنكلى رأس الميمنة، و زوّج السلطان ابنه إبراهيم بن محمد بن قلاوون بابنة الأمير بدر الدين، و ما زال معظما فى كل دولة، بحيث أن الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون كتب له عنه الأتابكى الوالدى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۱

البدرى، و زادت و جاعته فى أيامه إلى أن مات، يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة، سنة ست و أربعين و سبعمائة. و كان شكلا مليحا حليما، كثير المعروف و الجود، عفيفا لا يستخدم مملوكا أمرد البتة، و اقتصر من النساء على امرأته التى قدمت معه إلى مصر، و منها أولاده، و كان يحب العلم و أهله و يطارح بمسائل علمية، و يعرف ربع العبادات، و يجيده و يتكلم على الخلاف فيه، و يميل إلى الشيخ تقىّ الدين أحمد بن تيمية، و يعادى من يعاديه، و يكرم أصحابه و يكتب كلامه، مع كثرة الإحسان إلى الناس بماله و جاهه، و كان ينتسب إلى إبراهيم بن أدهم، و هو من محاسن الدولة التركية رحمه اللّه.

حكر الخازن: هذا المكان فيما بين بركة الفيل و خط الجامع الطولونى، كان من جملة البساتين ثم صار إصطبلا للجوق الذى فيه خيول المماليك السلطانية، فلما تسلطن الملك العادل كتبغا اخرج منه الخيول و عمله ميدانا يشرف على بركة الفيل، فى سنة خمس و تسعين و ستمائة، و نزل إليه و لعب فيه بالاكرة أيام سلطنته كلها إلى أن خلعه الملك المنصور لاجين، و قام فى الملك من بعده، فأهمل أمره و عمر فيه الأمير علم الدين سنجر الخازن و إلى القاهرة بيتا، فعرف من حينئذ بحكر الخازن، و تبعه الناس فى البناء هناك، و أنشأوا فيه الدور الجليلة، فصار من أجلّ الأخطاط و أعمرها، و أكثر من يسكن به الأمراء و المماليك.

سنجر الخازن: الأمير علم الدين الأشرفىّ، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، و تنقل فى أيام ابنه الملك الأشرف خليل، و صار أحد الخزان، فعرف بالخازن. ثم ولى شدّ الدواوين مع الصاحب أمين الدين، و انتقل منها إلى ولاية البهنسا، ثم إلى ولاية القاهرة، و

شدّ الجهات. فباشر ذلك بعقل و سياسة و حسن خلق و قلة ظلم و محبة للستر، و تغافل عن مساوىء الناس، و إقالة عثرات ذوى الهيآت مع العصبية و المعرفة و كثرة المال وسعة الحال و اقتناء الأملاك الكثيرة، ثم أنه صرف عن ولاية القاهرة بالأمير قدادار فى شهر رمضان سنة أربع و عشرين و سبعمائة، فوجد الناس من عزله بقدادار شدّة، و ما زال بالقاهرة إلى أن مات ليلة السبت ثامن جمادى الأولى سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة، فوجد له أربعة عشر ألف أردب غلة عتيقة و أموال كثيرة، و له من الآثار مسجد بناه فوق درب استجدّه بحكر الخازن، و خانقاه بالقرافة، دفن فيها عفا اللّه عنه.

ربع البزادرة: هذا الربع تحت قلعة الجبل بسوق الخيل، عمر بعد سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، و كان مكانه لا عمارة فيه، فبنى الأجناد بجواره عدّة مساكن و استجدّوا حكرين من جواره، فامتدّت العمائر إلى تربة شجر الدر حيث كان البستان المعروف بشجر الدر، و هناك الآن سكن الخلفاء، و امتدّت العمائر من تربة شجر الدر إلى المشهد النفيسىّ، و مرّوا من تجاه المشهد بالعمائر إلى أن اتصلت بعمائر مصر و باب القرافة.

خط قناطر السباع: كان هذا الخط فى أوّل الإسلام يعرف بالحمراء، نزل فيه طائفة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۲

تعرف ببنى الأزرق و بنى روبيل، ثم دثرت هذه الخطة و بقيت صحراء فيها ديارات و كنائس للنصارى تعرف بكنائس الحمراء، فلما زالت دولة بنى أمية و دخل أصحاب بنى العباس إلى مصر فى سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، نزلوا فى هذه الخطة و عمروا بها فصارت تتصل بالعسكر، و قد تقدّم خبر العسكر فى هذا الكتاب، فلما خرب العسكر و صار هذا المكان بساتين و غيرها إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون البركة الناصرية، و انشأ ميدان المهارى و الزريبة و الربعين بجوار الجامع الطيبرسىّ على شاطىء النيل؛ بنى الناس فى حكر أقبغا و اتصلت العمائر من خط السبع سقايات و خط قناطر السباع حتى اتصلت بالقاهرة و مصر و القرافة، و ذلك كله من بعد سنة عشرين و سبعمائة.

بئر الوطاويط: هذه البئر أنشأها الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، المعروف بابن خترابه، لينقل منها الماء إلى السبع سقايات التى أنشأها و حبسها لجميع المسلمين، التى كانت بخط الحمراء، و كتب عليها بسم اللّه الرحم الرحيم، للّه الأمر من قبل و من بعد، و له الشكر و له الحمد، و منه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، و ما وفقه له من البناء لهذه البئر و جريانها إلى السبع سقايات، التى أنشأها و حبسها لجميع المسلمين، و حبسه و سبله وقفا مؤبدا لا يحل تغييره و لا العدول بشىء من مائه، و لا ينقل و لا يبطل و لا يساق إلّا إلى حيث مجراه، إلى السقايات المسبلة، فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه، إن اللّه سميع عليم. و ذلك فى سنة خمس و خمسين و ثلاثمائة، و صلى اللّه على نبيه محمد و آله و سلم، فلما طال الأمر خربت السقايات، و إلى اليوم، يعرف موضعها بخط السبع سقايات، و بنى فوق البئر المذكورة و تولد فيها كثرة من الوطاويط، فعرفت ببئر الوطاويط، و لما أكثر الناس من بناء الأماكن فى أيام الناصر محمد بن قلاوون، عمر هذا المكان و عرف إلى اليوم بخط بئر الوطاويط، و هو خط عامر، فهذا ما فى جهة الخليج مما خرج عن باب زويلة.

و أما جهة الجبل فإنها كانت عند وضع القاهرة صحراء، و أوّل من أعلم أنه عمر خارج باب زويلة من هذه الجهة الصالح طلائع بن رزيك، فإنه أنشأ الجامع الذى يقال له جامع الصالح، و لم يكن بين هذا الجامع و بين هذا الشرف الذى عليه الآن قلعة الجبل بناء البتة، إلّا أن هذا الموضع الآن عمل الناس فيه مقبرة، فيما بين جامع الصالح و بين هذا الشرف من حين بنيت الحارات خارج باب زويلة، فلما عمرت قلعة الجبل عمر الناس بهذه شيئا بعد شىء، و ما برح من بنى هناك يجد عند الحفر رمم الأموات، و قد صارت هذه الجهة فى الدولة التركية لا سيما بعد سنة ثلاث عشرة و سبعمائة من أعمر الأخطاط، و أنشأ فيها الأمراء الجوامع و الدور الملوكية، و تحدّدت هناك عدّة أسواق، و صار الشارع خارج باب زويلة يفصل بين هذه الجهة و بين الجهة التى من حدّ الخليج، و كلتا هاتين الجهتين الآن عامرة، و فى جهة الجبل خط البسطيين، و خط الدرب الأحمر، و خط سوق الغنم، و خط جامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۳

المـاردينى، و خـط التبانـة، و خـط بـاب الوزير، و خـط المصـنع، و خـط سويقـة العزى، و خط مدرسـة الجابى، و خط الرميلـة، و خط القبيبات، و خط باب القرافة.

ذكر خارج باب الفتوح

اشارة

اعلم أن خـارج باب الفتوح إلى الخنـدق كان كله بساتين، و تمتـدّ البساتين من الخنـدق بحافتى الخليـج إلى عين شـمس، فيقابل باب الفتوح من خارجه المنظرة المقـدّم ذكرها عنـد ذكر المناظر التى كانت للخلفاء من هـذا الكتاب، ويلى هذه المنظرة بسـتان كبير عرف بالبسـتان الجيوشـىّ، أوّله من عنـد زقاق الكحل إلى المطرية، و يقابله فى برّ الخليج الغربىّ بسـتان آخر يتوصل إليه من باب القنطرة، و ينتهى إلى الخنـدق، و قـد ذكر خبر هـذين البسـتانين عنـد ذكر مناظر الخلفاء، و كان بين هذين البسـتانين بسـتان الخندق، و كان على حافة الخليج من شـرقيه فيما بين زقاق الكحل و باب القنطرة، حيث المواضع التى تعرف اليوم ببركة جناق و بالكداسين إلى قريب من حارة بهاء الـدين، حارة تعرف بحارة البيازرة، اختطت فى نحو من سـنة عشـرين و خمسـمائة، و كانت مناظرها تشـرف على الخليج، و بجوارها بسـتان مختار الصـقلبىّ، و عرف بعد ذلك ببسـتان ابن صـيرم الذى حكر و بنيت فيه المساكن الكثيرة بعد ذلك، و كان أيضا خارج باب الفتوح حارة الحسـينية، و هم الريحانيـة إحدى طوائف عسـكر الخلفاء الفاطميين، و هذه الحارة اختطت بعد الشدّة العظمى التى كانت بمصـر فى خلافة المستنصـر، فصارت على يمين من خرج من باب الفتوح إلى صحراء الهليلج، و يقابلها حارة أخرى تنتهى إلى بركة الأرمن التى عند الخندق، و تعرف اليوم ببركة قراجا، و قد ذكرت هذه الحارات عند ذكر حارات القاهرة و ظواهرها من هذا الكتاب.

ذكر الخندق

هـذا الموضع قريـة خارج باب الفتوح كانت تعرف أوّلا بمنية الأصـبغ، ثم لما اختط القائد جوهر القاهرة أمر المغاربة أن يحفروا خندقا من جهـة الشـام، من الجبـل إلى الإبليز، عرضه عشـرة أذرع فى عمق مثلهـا، فبـدىء به يوم السـبت حادى عشـرى شـعبان سـنة ستين و ثلاثمائة، و فرغ فى أيـام يسـيرة، و حفر خنـدقا آخر قـدّامه و عمقه، و نصب عليه باب يـدخل منه، و هو الباب الـذى كان على ميـدان البستان الذى للأخشيد، و قصد أن يقاتل القرامطة من وراء هذا الخندق، فقيل له من حينئذ الخندق، و خندق العبيد، و الحفرة، ثم صار بستانا جليلا من جملة البساتين السلطانية فى أيام الخلفاء الفاطميين، و أدركناها من منتزهات القاهرة البهجة إلى أن خربت.

قال ابن عبـد الحكم: و كان عمر بن الخطاب رضـى اللّه عنه قـد أقطع ابن سـندر منية الأصـبغ، فحاز لنفسه منها ألف فدّان، كما حدّثنا يحيى بن خالد عن الليث بن سعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۴

رضـى اللّه عنه، و لم يبلغنا أن عمر بن الخطاب رضـى اللّه عنه أقطع أحدا من الناس شيئا من أرض مصر، إلّا ابن سندر، فإنه أقطعه منية الأصـبغ، فلم تزل له حتى مات، فاشتراها الأصـبغ بن عبد العزيز من ورثته، فليس بمصر قطيعة أقدم منها و لا أفضل، و كان سبب إقطاع عمر رضـى اللّه عنه ما أقطعه من ذلك كما حدّثنا عبد الملك بن مسـلمة عن ابن لهيعة عن عمرو بن شعيبة عن أبيه عن جدّه، أنه كان لزنباع بن روح الجـذامىّ غلام يقال له سـندر، فوجده يقبل جارية له، فجبه وجدع أنفه و أذنه، فأتى سـندر رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سلم، فأرسـل إلى زنبـاع فقـال: «لا- تحملوهم من العمـل مـا لا- يطيقون، و أطعموهم ممـا تأكلون، و ألبسوهم مما تلبسون، فإن رضـيتم

فامسكوا، و إن كرهتم فبيعوا و لا تعذبوا خلق اللّه، و من مثّل به أو أحرق بالنار فهو حرّ، و هو مولى اللّه و رسوله، فأعتق سندر فقال: أوص بى يا رسول اللّه. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «أوصى بك كل مسلم» فلما توفى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أتى سندر أبا بكر رضى اللّه عنه فقال: احفظ فيّ وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. فعاله أبو بكر رضى اللّه عنه حتى توفى. ثم أتى عمر رضى اللّه عنه فقال: احفظ فى وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فقال عمر رضى اللّه عنه: نعم إن رضيت أن تقيم عندى أجريت عليك ما كان يجرى عليك أبو بكر رضى اللّه عنه، و إلا فانظر أىّ موضع أكتب لك. فقال سندر: مصر، لأنها أرض ريف، فكتب له إلى عمرو بن العاص: احفظ فيه وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. فلما قدم إلى عمرو رضى اللّه عنه، أقطع له أرضا واسعة و دارا، فجعل سندر يعيش فيها، فلما مات قبضت فى مال اللّه تعالى.

قال عمرو بن شعيب: ثم اقطعها عبد العزيز بن مروان الأصبغ بعد، فهى من خير أموالهم. قال: و يقال سندر و ابن سندر، و قال ابن يونس مسروح بن سندر الخصىّ مولى زنباع بن روح بن سلامة الجذامىّ، يكنّى أبا الأسود، له صحبة قدم مصر بعد الفتح بكتاب عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بالوصاة، فأقطع منية الأصبغ بن عبد العزيز. روى عنه أهل مصر حديثين، روى عنه مزيد بن عبد اللّه البرنىّ، و ربيعة بن لقيط التجيبىّ، و يقال سندر الخصىّ، و ابن سندر أثبت، توفى بمصر فى أيام عبد العزيز بن مروان.

و يقال كان مولاه وجده يقبّل جارية له فجبه وجدع أنفه و أذنيه، فأتى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فشكا ذلك إليه، فأرسل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إلى زنباع فقال: لا تحملوهم يعنى العبيد، ما لا يطيقون، و أطعموهم مما تأكلون. فذكر الحديث بطوله، و ذكر عن عثمان بن سويد بن سندر، أنه أدرك مسروح بن سندر الذى جدعه زنباع بن روح، و كان جدّه لأمه، فقال: كان ربما تغدّى معى بموضع من قرية عثمان و اسمها سمسم، و كان لابن سندر إلى جانبها قرية يقال لها قلون، قطيعة، و كان له مال كثير من رقيق و غير ذلك، و كان ذا دهاء منكرا جسيما، و عمر حتى أدرك زمان عبد الملك بن مروان، و كان لروح بن سلامة أبى زنباع، فورثه أهل التعدد بروح يوم مات، و قال القضاعىّ: مسروح بن سندر الخصىّ، و يكنى أبا الأسود، له صحبة، و يقال له سندر، و دخل مصر بعد الفتح سنة اثنتين و عشرين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۵

و قال الكندىّ فى كتاب الموالى، قال: أقبل عمرو بن العاص رضى اللّه عنه يوما يسير و ابن سندر معه، فكان ابن سندر و نفر معه يسيرون بين يدى عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، و أثاروا الغبار، فجعل عمرو عمامته على طرف أنفه ثم قال: اتقوا الغبار فإنه أوشك شىء دخولا و أبعده خروجا، و إذا وقع على الرثة صار نسمة. فقال بعضهم لأولئك النفر تنحوا، ففعلوا إلّا ابن سندر، فقيل له ألا تتنحى يا ابن سندر؟ فقال عمرو: دعوه فإن غبار الخصى لا يضرّ، فسمعها ابن سندر فغضب و قال: أما و اللّه لو كنت من المؤمنين ما آذيتنى. فقال عمرو: يغفر اللّه لك، أنا بحمد اللّه من المؤمنين. فقال ابن سندر: لقد علمت أنى سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أن يوصى بى فقال: أوصى بك كل مؤمن.

و قال ابن يونس: اصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم يكنى أبا ريان، حكى عنه أبو حبرة عبد اللّه بن عباد المغافرىّ، و عون بن عبد اللّه و غيره، توفى ليلة الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست و ثمانين، قبل أبيه. و قال أبو الفجر علىّ بن الحسين الأصبهانىّ فى كتاب الأغانى الكبير عن الرياشىّ أنه قال عن سكينة بنت الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام، أن أبا عذرتها عبد اللّه بن الحسين بن علىّ، ثم خلفه عليها العثمانى، ثم مصعب بن الزبير، ثم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان. قال: و كان يتولى مصر، فكتبت إليه سكينة أنّ مصر أرض و خمة، فبنى لها مدينة تسمى بمدينة الأصبغ، و بلغ عبد الملك تزوّجه أباها، فنفس بها عليه و كتب إليه: اختصر مصرا و سكينة، فبعث إليه بطلاقها و لم يدخل بها، و متعها بعشرين ألف دينار. قلت فى هذا الخبر أوهام، منها أن الأصبغ لم يل مصر، و إنما كان مع أبيه عبد العزيز بن مروان، و منها أنّ الذى بناه الأصبغ لسكينة، منية الأصبغ هذه و ليست مدينة، و منها أن الأصبغ لم يطلّق سكينة، و إنما مات عنها قبل أن يدخل عليها. و قال ابن زولاق فى كتاب إتمام كتاب الكندىّ فى أخبار أمراء

مصر:

و فى شوّال، يعنى من سنة ستين و ثلاثمائة كثر الأرجاف بوصول القرامطة إلى الشام، و رئيسهم الحسن بن محمد الأعسم، و فى هذا الوقت ورد الخبر بقتل جعفر بن فلاح، قتله القرامطة بدمشق، و لما قتل ملكت القرامطة دمشق و صاروا إلى الرملة، فانحاز معاذ بن حيان إلى يافا متحصنا بها، و فى هذا الوقت تأهب جوهر القائد لقتال القرامطة، و حفر خندقا و عمل عليه بابا، و نصب عليه بابى الحديد اللذين كانا على ميدان الإخشيد، و بنى القنطرة على الخليج، و حفر خندق السرى بن الحكم و فرّق السلاح على رجال المغاربة و المصريين، و وكل بأبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات خادما يبيت معه فى داره و يركب معه حيث كان، و أنفذ إلى ناحية الحجاز فتعرّف خبر القرامطة، و فى ذى الحجة كبس القرامط القلزم و أخذوا و اليها، ثم دخلت سنة إحدى و ستين و ثلاثمائة، و فى المحرّم بلغت القرامطة عين شمس، فاستعدّ جوهر للقتال لشعر بقين من صفر، و غلق أبواب الطابية و ضبط الداخل و الخارج، و أمر الناس بالخروج إليه و أن يخرج الأشراف كلهم، فخرج إليه أبو جعفر مسلم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۶

و غيره بالمضارب، و فى مستهلّ ربيع الأول التحم القتال مع القرامطة على باب القاهرة، و كان يوم جمعة، فقتل من الفريقين جماعة و أسر جماعة و أصبحوا يوم السبت متكافئين، ثم غدوا يوم الأحد للقتال و سار الحسن الأعسم بجميع عساكره و مشى للقتال على الخندق و الباب مغلق، فلما زالت الشمس فتح جوهر الباب و اقتتلوا قتالا شديدا، و قتل خلق كثير، ثم ولى الأعسم منهزما و لم يتبعه القائد جوهر و نهب سواد الأعسم بالجب، و وجدت صناديقه و كتبه، و انصرف فى الليل على طريق القلزم، و نهب بنو عقيل و بنو طيّ كثيرا من سواده. و هو مشغول بالقتال، و كان جميع ما جرى على القرمطى بتدبير جوهر و جوائز انفذها، و لو أراد أخذ الأعسم فى انهزامه لأخذه، و لكن الليل حجز فكره جوهر اتباعه خوفا من الحيلة و المكيدة، و حضر القتال خلق من رعية مصر و أمر جوهر بالنداء فى المدينة، من جاء بالقرمطيّ أو برأسه فله ثلاثمائة ألف درهم، و خمسون خلعة، و خمسون سرجا محلى على دوابها، و ثلاث جوائز، و مدح بعضهم القائد جوهرا بأبيات منها:

كأنّ طراز النصر فوق جبينه‌يلوح و أرواح الورى بيمينه

و لم يتفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة، و منها فارقهم من كان قد اجتمع إليهم من الكافورية و الإخشيدية، فقبض جوهر على نحو الألف منهم و سجنهم مقيدين.

و قال ابن زولاق فى كتاب سيرة الإمام المعز لدين اللّه، و من خطّه نقلت، و فى هذا الشهر يعنى المحرّم، سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة، تبسطت المغاربة فى نواحى القرافة و المغاير و ما قابرها، فنزلوا فى الدور و أخرجوا الناس من دورهم، و نقلوا السكان و شرعوا فى السكنى فى المدينة، و كان المعز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة، فخرج الناس و استغاثوا بالمعز، فأمرهم أن يسكنوا نواحى عين شمس، و ركب المعز بنفسه حتى شاهد المواضع التى ينزلون فيها، و أمر لهم بمال يبنون به، و هو الموضع الذى يعرف اليوم بالخندق و الحفرة و خندق العبيد، و جعل لهم واليا و قاضيا، ثم سكن أكثرهم بالمدينة مخالطين لأهل مصر، و لم يكن القائد جوهر يبيحهم سكنى المدينة و لا المبيت بها، و حظر ذلك عليهم، و كان مناديه ينادى كل عشية لا يبيتن أحد فى المدينة من المغاربة.

و قال ياقوت: منية الأصبغ تنسب إلى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، و لا يعرف اليوم بمصر موضع يعرف بهذا الاسم، و زعموا أنها القرية المعروفة بالخندق قريبا من شرقىّ القاهرة. و قال ابن عبد الظاهر: الخندق هو منية الأصبغ، و هو الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان. قال مؤلفه رحمه اللّه: و قد و هم ابن عبد الظاهر فجعل أن الخندق احتفره العزيز بالله، و إنما احتفره جوهر كما تقدّم، و أدركت الخندق قرية لطيفة يبرز الناس من القاهرة إليها ليتنزهوا بها فى أيام النيل و الربيع، و يسكنها طائفة كبيرة، و فيها بساتين عامرة بالنخيل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۷

الفخر و الثمار، و بها سوق و جامع تقام به الجمعة، و عليه قطعة أرض من أرض الخندق يتولاها خطيبة، فلما كانت الحوادث و المحن

من سنة ست و ثنمانمائة، خربت قرية الخندق و رحل أهلها منها و نقلت الخطبة من جامعة إلى جامع بالحسينية، و بقى معطلا من ذكر اللّه تعالى و إقامة الصلاة مدّة، ثم فى شعبان سنة خمس عشرة و ثمانمائة، هدمه الأمير طوغان الدوادار و أخذ عمده و خشبه، فلم يبق إلا بقية أطلاله، و كانت قرية الخندق كأنها م حسنها ضرّة لكوم الريش، و كانت تجاهها من شرقيها فخربتا جميعا.

صحراء الإهليلج: هذه البقعة شرقىّ الخندق فى الرمل، و إليها كانت تنتهى عمارة الحسينية من جهة باب الفتوح، و كان بها شجر الإهليلج الهندىّ، فعرفت بذلك، و أظن أن هذا الإهليلج كان من جملة بستان ريدان الذى يعرف اليوم موضعه بالريدانية.

ذكر خارج باب النصر

أما خارج القاهرة من جهة باب النصر، فإنه عند ما وضع القائد جوهر القاهرة، كان فضاء ليس فيه سوى مصلّى العيد الذى بناه جوهر، و هذا المصلّى اليوم يصلّى على من مات فيه، و ما برح ما بين هذا المصلى و بستان ريدان الذى يعرف اليوم بالريدانية لا عمارة فيه، إلى أن مات أمير الجيوش بدر الجمالىّ فى سنة سبع و ثمانين و أربعمائة، فدفن خارج باب النصر بحرىّ المصلى، و بنى على قبره تربة جليلة، و هى باقية إلى اليوم هناك، فتتابع بناء الترب من حينئذ خارج باب النصر، فيما بين التربة الجيوشية و الريدانية، و قبر الناس موتاهم هناك لا سيما أهل الحارات التى عرفت خارج باب الفتوح بالحسينية، و هى الريدانية، و حارة البزادرة و غيرها، و لم تزل هذه الجهة مقبرة إلى ما بعد السبعمائة بمدّة، فرغب الأمير سيف الدين الحاج آل ملك فى البناء هناك، و أنشأ الجامع المعروف به فى سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و عمر دارا و حمّاما، فاقتدى الناس به و عمروا هناك، و كان قد بنى تجاه المصلى قبل ذلك الأمير سيف الدين كهرداس المنصورى دارا تعرف اليوم بدار الحاجب، فسكن فى هذه الجهة أمراء الدولة و عملوا فيما بين الريدانية و الخندق مناخات الجمال، و هى باقية هناك، فصارت هذه الجهة فى غاية العمارة، و فيها من باب النصر إلى الريدانية سبعة أسواق جليلة، يشتمل كل سوق منها على عدّة حوانيت كثيرة، فمنها: سوق اللفت، و هو تجاه باب بيت الحاجب الآن، عند البئر، كان فيه من جانبيه حوانيت يباع فيها اللفت، و من هذا السوق يشترى أهل القاهرة هذا الصنف و الكرنب، و تعرف هذه البئر إلى اليوم ببئر اللفت، و يليها سويقة زاوية الخدّام، و أدركت بهذه السويقة بقية صالحة، و يلى ذلك سوق جامع آل ملك، و كان سوقا عامرا فيه غالب ما يحتاج إليه من المآكل و الأدوية و الفواكه و الخضر و غيرها، و أدركته عامرا. و يليه سويقة السنابطة، عرفت بقوم من أهل ناحية سنباط سكنوا بها، و كانت سوقا كبيرا، و أدركته عامرا. و يليها سويقة أبى ظهير، و أدركتها عامرة، و يليها سويقة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۸

العرب، و كانت تتصل بالريدانية، و تشتمل على حوانيت كثيرة جدّا أدركتها عامرة، و ليس فيها سكان، و كانت كلها من لبن معقود عقودا، و كان بأوّل سويقة العرب هذه فرن أدركته عامرا آهلا، بلغنى أنه كان يخبز فيه أيام عمارة هذا السوق و ما حوله كل يوم نحو السبعة آلاف رغيف، و كان من وراء هذا السوق أحواش فيها قباب معقودة من لبن، أدركتها قائمة و ليس فيها سكان، و كان من جملة هذه الأحواش حوش فيه أربعمائة قبة يسكن فيها البزادرة و المكارية، أجرة كل قبة در همان فى كل شهر، فيتحصل من هذا الحوش فى كل شهر مبلغ ثمانمائة درهم فضة، و كان يعرف بحوش الأحمدىّ. فلما كان الغلاء فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين سنة سبع و سبعين و سبعمائة، خرب كثير مما كان بالقرب من الريدانية، و اختلّت أحوال هذه الجهة إلى أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فتلاشت و هدمت دورها و بيعت أنقاضها، و فيها بقية آئلة إلى الدثور.

الريدانية

كانت بستانا لريدان الصقلبىّ، أحد خدّام العزيز بالله نزار بن المعز، كان يحمل المظلة على رأس الخليفة، و اختص بالحاكم، ثم قتله فى يوم الثلاثاء لعشر بقين من ذى الحجة سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة وريدان إن كان اسما عربيا، فإنه من قولهم ريح ريدة، ورادة،

و ريدانة، أى لينة الهبوب، و قيل ريح ريدة كثيرة الهبوب.

ذكر الخلجان التى بظاهر القاهرة

اشارة

اعلم أن الخليج جمعه خلجان، و هو نهر صغير يختلج من نهر كبير أو من بحر، و أصل الخلج الانتزاع. خلجت الشيء من الشيء إذا انتزعته، و بأرض مصر عدّة خلجان، منها بظاهر القاهرة خليج مصر، و خليج فم الخور، و خليج الذكر، و الخليج الناصرىّ، و خليج قنطرة الفخر، و سترى من أخبارها ما فيه كفاية إن شاء اللّه تعالى.

ذكر خليج مصر

هذا الخليج بظاهر مدينة فسطاط مصر، و يمرّ من غربىّ القاهرة، و هو خليج قديم احتفره بعض قدماء ملوك مصر، بسبب هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّه و سلامه عليهما، حين أسكنها و ابنها إسماعيل خليل اللّه إبراهيم عليهما الصلاة و السلام بمكة، ثم تمادت الدهور و الأعوام فجدّد حفره ثانيا بعض من ملك مصر من ملوك الروم بعد الإسكندر، فلما جاء اللّه سبحانه بالإسلام، و له الحمد و المنة، و فتحت أرض مصر على يد عمرو بن العاص، جدّد حفره بإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فى عام الرمادة، و كان يصب فى بحر القلزم فتسير فيه السفن إلى البحر الملح، و تمرّ فى البحر إلى الحجاز و اليمن و الهند، و لم يزل على ذلك إلى أن قام محمد بن عبد اللّه بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۹

حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب بالمدينة النبوية، و الخليفة حينئذ بالعراق أبو جعفر عبد اللّه بن محمد المنصور، فكتب إلى عامله على مصر يأمره بطمّ خليج القلزم حتى لا تحمل الميرة من مصر إلى المدينة، فطمّه و انقطع من حينئذ اتصاله ببحر القلزم و صار على ما هو عليه الآن، و كان هذا الخليج أوّلا يعرف بخليج مصر، فلما أنشأ جوهر القائد القاهرة بجانب هذا الخليج من شرقيه، صار يعرف بخليج القاهرة، و كان يقال له أيضا خليج أمير المؤمنين، يعنى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، لأنه الذى أشار بتجديد حفره، و الآن تسميه العامة بالخليج الحاكمىّ، و تزعم أن الحاكم بأمر اللّه أبا علىّ منصورا احتفره، و ليس هذا بصحيح. فقد كان هذا الخليج قبل الحاكم بمدد متطاولة، و من العامة من يسميه خليج اللؤلؤة أيضا.

و سأقص عليك من أخبار هذا الخليج ما وقفت عليه من الأنباء.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى أخبار طيطوس بن ماليا بن كلكن بن خربتا بن ماليق بن تدراس بن صابن مرقونس بن صابن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح، و جلس على سرير الملك بعد أبيه ماليا، و كان جبارا جريئا شديد البأس مهابا، فدخل عليه الأشراف و هنوه و دعوا له، فأمرهم بالإقبال على مصالحهم و ما يعنيهم، و وعدهم بالإحسان، و القبط تزعم أنه أوّل الفراعنة بمصر، و هو فرعون إبراهيم عليه السلام، و أن الفراعنة سبعة هو أوّلهم، و أنه استخف بأمر الهياكل و الكهنة، و كان من خبر إبراهيم عليه السلام معه، أن إبراهيم لما فارق قومه أشفق من المقام بالشام، لئلا يتبعه قومه و يردّوه إلى النمرود، لأنه كان من أهل كونا من سواد العراق، فخرج إلى مصر و معه سارّة امرأته و ترك لوطا بالشام.

و سار إلى مصر، و كانت سارّة أحسن نساء وقتها، و يقال أنّ يوسف عليه السلام ورث جزأ من جمالها، فلما سار إلى مصر، رأى الحرس المقيمون على أبواب المدينة سارة، فعجبوا من حسنها، و رفعوا خبرها إلى طيطوس الملك و قالوا: دخل إلى البلد رجل من أهل الشرق معه امرأة لم ير أحسن منها و لا أجمل.

فوجّه الملك إلى وزيره فأحضر إبراهيم صلوات اللّه عليه و سأله عن بلده، فأخبره.

و قال: ما هذه المرأة منك؟ فقال أختي. فعرّف الملك بذلك فقال: مره أن يجئني بالمرأة حتى أراها. فعرّفه ذلك، فامتغص منه و لم تمكنه مخالفته، و علم أن اللّه تعالى لا يسوؤه في أهله، فقال لسارة: قومي إلى الملك، فإنه قد طلبك مني. قالت: و ما يصنع بي الملك و ما رآني قبل قال: أرجو أن يكون لخير. فقامت معه حتى أتوا قصر الملك، فأدخلت عليه، فنظر منها منظرا راعه و فتنته، فأمر بإخراج إبراهيم عليه السلام فأخرج، و ندم على قوله إنها أخته، و إنما أراد أنها أخته في الدين، و وقع في قلب إبراهيم عليه السلام ما يقع في قلب الرجل على أهله، و تمنى أنه لم يدخل مصر فقال: اللهم لا تفضح نبيك في أهله. فراودها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۰

الملك عن نفسها فامتنعت عليه، فذهب ليمدّ يده إليها فقالت: إنك إن وضعت يدك عليّ أهلكت نفسك، لأنّ لي ربا يمنعني منك. فلم يلتفت إلى قولها و مدّ يده إليها، فجفت يده و بقي حائرا. فقال لها: أزيلي عني ما قد أصابني. فقالت: على أن لا تعاود مثل ما أتيت.

قال: نعم. فدعت اللّه سبحانه و تعالى فزال عنه و رجعت يده إلى حالها. فلما وثق بالصحة راودها و مناها و وعدها بالإحسان، فامتنعت و قالت: قد عرفت ما جرى. ثم مدّ يده إليها فجفت و ضربت عليه أعضاؤه و عصبه، فاستغاث بها و أقسم بالآلهة أنها إن أزالت عنه ذلك فإنه لا يعاودها. فسألت اللّه تعالى، فزال عنه ذلك و رجع إلى حاله فقال: إنّ لك لربا عظيما لا يضيعك، فأعظم قدرها و سألها عن إبراهيم فقالت: هو قريبي و زوجي. قال: فإنه قد ذكر أنك أخته. قالت: صدق، أنا أخته في الدين، و كل من كان على ديننا فهو أخ لنا. قال: نعم الدين دينكم.

و وجه إلى ابنته جوريا، و كانت من الكمال و العقل بمكان كبير، فألقى اللّه تعالى محبة سارة في قلبها، فكانت تعظمها و أضافتها أحسن ضيافة، و وهبت لها جوهرا و مالا فأتت به إبراهيم عليه السلام فقال لها: ردّيه فلا حاجة لنا به. فردّته، و ذكرت ذلك جوريا لأبيها.

فعجب منهما و قال: هذا كريم من أهل بيت الطهارة، فتحيلي في برّها بكل حيلة، فوهبت لها جارية قبطية من أحسن الجواري يقال لها آجر، و هي هاجر أم إسماعيل عليه السلام، و جعلت لها سلالا من الجلود، و جعلت فيها زاد و حلوى و قالت: يكون هذا الزاد معك، و جعلت تحت الحلوى جوهرا نفيسا و حليا مكللا فقالت سارة: أشاور صاحبي. فأتت إبراهيم عليه السلام و استأذنته فقال: إذا كان مأكولا فخذيه. فقبلته منها.

و خرج إبراهيم، فلما مضى و أمعنوا في السير، أخرجت سارة بعض تلك السلال فأصابت الجوهر و الحلى، فعرّفت إبراهيم عليه السلام ذلك، فباع بعضه و حفر من ثمنه البئر التي جعلها للسبيل، و فرّق بعضه في وجوه البرّ، و كان يضيف كل من مرّ به، و عاش طيطوس إلى أو وجهت هاجر من مكة تعرّفه أنها بمكان جدب و تستغيثه، فأمر بحفر نهر في شرقيّ مصر بسفح الجبل حتى ينتهي إلى مرقى السفن في البحر الملح، فكان يحمل إليها الحنطة و أصناف الغلات، فتصل إلى جدّة و تحمل من هناك على المطايا، فأحيا بلد الحجاز مدّة، و يقال إنما حلّيت الكعبة في ذلك العصر مما أهداه ملك مصر، و قيل أنه لكثرة ما كان يحمله طوطيس إلى الحجاز سمته العرب و جرهم الصادوق، و يقال أنه سأل إبراهيم عليه السلام أن يبارك له في بلده فدعا بالبركة لمصر، و عرّفه أن ولده سيملكها و يصير أمرها إليهم قرنا بعد قرن.

و طوطيس أوّل فرعون كان بمصر، و ذلك أنه أكثر من القتل حتى قتل قراباته و أهل بيته و بني عمه و خدمه و نساءه، و كثيرا من الكهنة و الحكماء، و كان حريصا على الولد فلم يرزق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۱

ولدا غير ابنته جوريا، أو جورياق، و كانت حكيمة عاقلة تأخذ على يده كثيرا و تمنعه من سفك الدماء، فأبغضته ابنته و أبغضه جميع

الخاصة و العامة، فلما رأت أمره يزيد خافت على ذهاب ملكهم فسمته و هلك، و كان ملكه سبعين سنة، و اختلفوا فيمن يملك بعده، و أرادوا أن يقيموا واحدا من ولد اتريب، فقال بعض الوزراء و دعا لجورياق، فتمّ لها الأمر و ملكت.

فهذا كان أوّل أمر هذا الخليج.

ثم حفره مرّة ثانية أدريان قيصر، أحد ملوك الروم، و من الناس من يسميه أندرويانوس، و منهم من يقول هوريانوس، قال فى تاريخ مدينة رومة، و ولى الملك أدريان قيصر أحد ملوك الروم، و كانت ولايته إحدى و عشرين سنة، و هو الذى درس اليهود مرّة ثانية إذ كانوا راموا النفاق عليه، و هو الذى جدّد مدينة يروشالم، يعنى مدينة القدس، و أمر بتبديل اسمها و أن تسمى إيليا. و قال علماء أهل الكتاب عن أدريان هذا: و غزا القدس و أخربه فى الثانية من ملكه، و كان ملكه فى سنة تسع و ثلاثين و أربعمائة من سنى الإسكندر، و قتل عامة أهل القدس، و بنى على باب مدينة القدس منارا و كتب عليه: هذه مدينة إيليا، و يسمى موضع هذا العمود الآن محراب داود. ثم سار من القدس إلى باب فحارب ملكها و هزمه و عاد إلى مصر، فحفر خليجا من النيل إلى بحر القلزم، و سارت فيه السفن و بقى رسمه عند الفتح الإسلامىّ، فحفره عمرو بن العاص، و أصاب أهل مصر منه شدائد و ألزمهم بعبادة الأصنام، ثم عاد إلى بلاده بممالك الروم فابتلى بمرض أعيى الأطباء، فخرج يسير فى البلاد يبتغى من يداويه، فمرّ على بيت المقدس و كان خرابا ليس فيه غير كنيسة للنصارى، فأمر ببناء المدينة و حصنها و أعاد إليها اليهود، فأقاموا بها و ملّكوا عليهم رجلا منهم.

فبلغ ذلك أدريان قيصر فبعث إليهم جيشا لم يزل يحاصرهم حتى مات اكثرهم جوعا و عطشا و أخذها عنوة، فقتل من اليهود ما لا يحصى كثرة، و أخرب المدينة حتى صارت تلالا عامرة فيها البتة، و تتبع اليهود يريد أن لا يدع منهم على وجه الأرض أحدا، ثم أمر طائفة من اليونانيين فتحوّلوا إلى مدينة القدس و سكنوا فيها، فكان بين خراب القدس الخراب الثانى على يد طيطوس و بين هذا الخراب ثلاث و خمسون سنة، فعمرت القدس باليونان، و لم يزل قيصر هذا ملكا حتى مات، فهذا خبر حفر هذا الخليج فى المرّة الثانية، فلما جاء الإسلام جدّد عمرو بن العاص حفره.

قال ابن عبد الحكم ذكر حفر خليج أمير المؤمنين رضى اللّه عنه: حدّثنا عبد اللّه بن صالح عن الليث بن سعد قال: إنّ الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فى سنة الرمادة، فكتب رضى اللّه عنه إلى عمرو بن العاص و هو بمصر، من عبد اللّه عمر أمير المؤمنين، إلى العاصى ابن العاصى سلام. أما بعد: فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت و من معك، أن أهلك أنا و من معى، فيا غوثاه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۲

ثم يا غوثاه يردّد ذلك. فكتب إليه عمرو: من عبد اللّه عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين، أما بعد: فيا لبيك ثم يا لبيك، قد بعثت إليك بعير أوّلها عندك و آخرها عندى، و السلام عليك و رحمة اللّه و بركاته.

فبعث إليه بعير عظيمة، فكان أوّلها بالمدينة و آخرها بمصر يتبع بعضها بعضا. فلما قدمت على عمر رضى اللّه عنه، وسّع بها على الناس، و دفع إلى أهل كل بيت بالمدينة و ما حولها بعيرا بما عليه من الطعام، و بعث عبد الرحمن بن عوف و الزبير بن العوّام و سعد بن أبى وقاص يقسّمونها على الناس، فدفعوا إلى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام، ليأكلوا الطعام، و يأتدموا بلحمه، و يحتذوا بجلده، و ينتفعوا بالوعاء الذى كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره. فوسّع اللّه بذلك على الناس، فلما رأى ذلك عمر رضى اللّه عنه، حمد اللّه و كتب إلى عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو و جماعة من أهل مصر معه، فقدموا عليه. فقال عمر: يا عمرو، إنّ اللّه قد فتح على المسلمين مصر، و هى كثيرة الخير و الطعام، و قد ألقى فى روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين و التوسعة عليهم حين فتح اللّه عليهم مصر، و جعلها قوّة لهم و لجميع المسلمين، أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة و مكة، فإن حمله الطهر يبعد، و لا نبلغ به ما نريد، فانطلق أنت و أصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم، فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر، فثقل ذلك عليهم و قالوا: نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر، فنرى أن

تعظّم ذلك على أمير المؤمنين و تقول له: إنّ هـذا أمر لا يعتدل و لا يكون و لا نجد إليه سبيلا. فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضـحك عمر رضى اللّه عنه حين رآه و قال:

و الـذى نفسـى بيـده لكأنى أنظر إليك يا عمرو و إلى أصـحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج، فثقل ذلك عليهم و قالوا يـدخل من هـذا ضـرر على أهل مصـر، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين و تقول له، إنّ هـذا أمر لا يعتدل و لا يكون، و لا نجد إليه سبيلا.

فعجب عمرو من قول عمرو قـال: صـدقت و اللّه يـا أمير المؤمنين، لقـد كـان الأـمر على مـا ذكرت. فقال له عمر رضـى اللّه عنه: انطلق بعزيمة منى حتى تجدّ فى ذلك، و لا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء اللّه تعالى.

فانصـرف عمرو و جمع لـذلك من الفعلـة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج فى حاشـية الفسـطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فسـاقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السـفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينـة و مكـة، فنفع اللّه بـذلك أهل الحرمين، و سـمى خليـج أمير المؤمنين، ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعـد عمر بن عبـد العزيز، ثم ضـيعه الولاة بعد ذلك فتركه و غلب عليه الرمل فانقطع، فصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۳

قـال: و يقـال إنّ عمر رضـى اللّه عنه قال لعمرو حين قـدم عليه: يا عمرو إنّ العرب قـد تشاءمت بى وكادت أن تغلب على رحلى، و قد عرفت الـذى أصابهـا، و ليس جنـد من الأجناد أرجى عنـدى أن يغيث اللّه بهم أهل الحجاز من جنـدك، فإن اسـتطعت أن تحتال لهم حيلـة حتى يغيثهم اللّه تعـالى. فقـال عمرو: مـا شـئت يـا أمير المؤمنين، قـد عرفت أنه كـانت تأتينـا سـفن فيهـا تجار من أهل مصـر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج و استدّ و تركه التجار، فإن شئت أن نحفره فننشىء فيه سفنا يحمل فيها الطعام إلى الحجاز فعلته. فقال عمر رضى اللّه عنه: نعم فافعل.

فلما خرج عمرو من عند عمر بن الخطاب رضـى اللّه عنه، ذكر ذلك لرؤساء أهل أرضه من قبط مصـر فقالوا له: ما ذا جئت به، أصـلح اللّه الأمير، تريد أن تخرج طعام أرضك و خصبها إلى الحجاز و تخرب هذه، فإن استطعت فاستقل من ذلك. فلما ودّع عمر رضى اللّه عنه قال له: يا عمرو انظر إلى ذلك الخليـج و لا تنسين حفره. فقال له: يا أمير المؤمنين إنه قـد انسـدّ، و تدخل فيه نفقات عظيمة. فقال له: أمّـا و الـذى نفسـى بيـده إنى لأظنـك حين خرجت من عنـدى حـدّثت بـذلك أهل أرضك فعظموه عليك و كرهوا ذلك، أعزم عليك إلّا ما حفرته و جعلت فيه سـفنا. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنه متى ما يجد أهل الحجاز طعام مصر و خصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا إلى الجهاد. قال: فإنى سأجعل من ذلك أمرا، لا يحمل فى هذا البحر إلّا رزق أهل المدينة و أهل مكة. فحفره عمرو و عالجه و جعل فيه السـفن. قال: و يقال أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كتب إلى عمرو بن العاص: إلى العاصى ابن العاصى، فإنك لعمرى لاـ تبـالى إذا سـمنت أنت و من معك أن أعجف أنا و من معى، فيا غوثاه و يا غوثاه. فكتب إليه عمرو: أما بعـد فيا لبيك ثم يا لبيك، أتتك عير أوّلها عنـدك و آخرها عنـدى، مع أنى أرجو أن أجد السبيل إلى أن أحمل إليك فى البحر، ثم إن عمرا ندم على كتابه فى الحمل إلى المدينة فى البحر. و قال: إن أمكنت عمر من هذا خرّب مصر و نقلها إلى المدينة. فكتب إليه: إنى نظرت فى أمر البحر فإذا هو عسر و لا يلتأم و لا يستطاع. فكتب إليه عمر رضى اللّه عنه: إلى العاصى ابن العاصى، قد بلغنى كتابك، تعتلّ فى الذى كنت كتبت إلىّ به من أمر البحر، و أيم اللّه لتفعلنّ أو لأقلعن بأذنك و لأبعثن من يفعل ذلك. فعرف عمرو أنه الجدّ من عمر رضى اللّه عنه، ففعل. فبعث إليه عمر رضى اللّه عنه أن لا ندع بمصر شيئا من طعامها و كسوتها و بصلها و عدسها و خلها إلّا بعثت إلينا منه.

قال: و يقال إن الذى دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من القبط، فقال لعمرو:

أ رأيت إن دللتك على مكان تجرى فيه السـفن حتى تنتهى إلى مكة و المدينة، أ تضع عنى الجزية و عن أهل بيتى؟ فقال: نعم. فكتب بـذلك إلى عمر بن الخطـاب رضـى اللّه عنه. فكتب إليه أن أفعـل، فلما قـدمت السـفن خرج عمر رضـى اللّه عنه حاجا أو معتمرا فقال

للناس:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۴

سيروا بنا ننظر إلى السفن التى سيرها اللّه تعالى إلينا من أرض فرعون حتى أتتنا. فأتى الجار و قال: اغتسلوا من ماء البحر فإنه مبارك، فلما قدمت السفن الجار و فيها الطعام، صكّ عمر رضى اللّه عنه للناس بذلك الطعام صكوكا، فتبايع التجار الصكوك بينهم قبل أن يقبضوها، فلقى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه العلاء بن الأسود رضى اللّه عنه فقال: كم ربح حكيم بن حزام؟ فقال: ابتاع من صكوك الجار بمائة ألف درهم و ربح عليها مائة ألف، فلقيه عمر رضى اللّه عنه فقال له: يا حكيم كم ربحت؟ فأخبره بمثل خبر العلاء. قال عمر رضى اللّه عنه: فبعته قبل أن تقبضه؟ قال نعم. قال عمر رضى اللّه عنه: فإنّ هذا بيع لا يصح فارددْه.

فقال حكيم: ما علمت أن هذا بيع لا يصح، و ما أقدر على ردّه. فقال عمر رضى اللّه عنه: لا بدّ. فقال حكيم: و اللّه ما أقدر على ذلك، و قد تفرّق و ذهب، و لكن رأس مالى و ربحى صدقة.

و قال القضاعىّ فى ذكر الخليج: أمر عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه عمرو بن العاص عام الرمادة بحفر الخليج الذى بحاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت عليه الحول حتى جرت فيه السفن، و حمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة و مكة، فنفع اللّه تعالى بذلك أهل الحرمين، فسمى خليج أمير المؤمنين.

و ذكر الكندىّ فى كتاب الجند العربىّ أن عمرا حفره فى سنة ثلاث و عشرين، و فرغ منه فى ستة أشهر، و جرت فيه السفن و وصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع، ثم بنى عليه عبد العزيز بن مروان قنطرة فى ولايته على مصر. قال: و لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز، ثم أضاعته الولاة بعد ذلك فترك و غلب عليه الرمل، فانقطع و صار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم.

و قال ابن قديد: أمر أبو جعفر المنصور بسدّ الخليج حين خرج عليه محمد بن عبد اللّه بن حسن بالمدينة ليقطع عنه الطعام، فسدّ إلى الآن.

و ذكر البلاذرى أن أبا جعفر المنصور لما ورد عليه قيام محمد بن عبد اللّه قال: يكتب الساعة إلى مصر أن تقطع الميرة عن أهل الحرمين، فإنهم فى مثل الحرجة إذا لم تأتهم الميرة من مصر.

و قال ابن الطوير و قد ذكر ركوب الخليفة لفتح الخليج، و هذا الخليج هو الذى حفره عمرو بن العاص لما ولى على مصر فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه من بحر فسطاط مصر الحلو، و ألحقه بالقلزم بشاطئ البحر الملح، فكانت مسافته خمسة أيام، لتقرب معونة الحجاز من ديار مصر فى أيام النيل، فالمراكب النيلية تفرّغ ما تحمله من ديار مصر بالقلزم، فإذا فرغت حملت ما فى القلزم مما وصل من الحجاز و غيره إلى مصر، و كان مسلكا للتجار و غيرهم فى وقته المعلوم، و كان أوّل هذا الخليج من مصر يشق الطريق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۵

الشارع المسلوك منه اليوم إلى القاهرة، حافا بالقريوص الذى عليه البستان المعروف بابن كيسان ماداً، و آثاره اليوم مادة باقية إلى الحوض المعروف بسيف الدين حسين صار ابن رزيك، و البستان المعروف بالمشتهى، و فيه آثار المنظرة التى كانت معدّة لجلوس الخليفة لفتح الخليج من هذا الطريق، و لم تكن الآدر المبنية على الخليج، و لا شىء منها هناك، و ما برح هذا الخليج منتزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة، إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف الآن بالخليج الناصرىّ.

قال المسبحىّ: و فى هذا الشهر، يعنى المحرّم، سنة إحدى و أربعمائة، منع الحاكم بأمر اللّه من الركوب فى القوارب إلى القاهرة فى الخليج، و شدّد فى المنع، و سدّت أبواب القاهرة التى يتطرّق منها إلى الخليج، و أبواب الطاقات من الدور التى تشرف على الخليج، و كذلك أبواب الدور و الخوخ التى على الخليج.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات حوادث سنة أربع و تسعين و خمسمائة: و نهى عن ركوب المتفرّجين فى المراكب فى الخليج، و عن إظهار المنكر، و عن ركوب النساء مع الرجال، و علّق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم. قال: و فى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان، ظهر فى هذه المدّة من المنكرات ما لم يعهد فى مصر فى وقت من الأوقات، و من الفواحش ما خرج من الدور إلى الطرقات، و جرى الماء فى الخليج بنعمة اللّه تعالى بعد القنوط، و وقوف الزيادة فى الذراع السادس عشر، فركب أهل الخلاعة و ذوو البطالة فى مراكب فى نهار شهر رمضان و معهم النساء الفواجر، و بأيديهنّ المزاهر يضربن بها، و تسمع أصواتهنّ و وجوههنّ مكشوفة، و حرفاؤهنّ من الرجال معهنّ فى المراكب لا- يمنعون عنهنّ الأيدى و لا- الأبصار، و لا- يخافون من أمير و لا مأمور شيئا من أسباب الإنكار، و توقع أهل المراقبة، ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة.

و قال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون: و فى سنة ست و سبعمائة، رسم الأميران بيبرس و سلار بمنع الشخاتير و المراكب من دخول الخليج الحاكمىّ و التفرّج فيه، بسبب ما يحصل من الفساد و التظاهر بالمنكرات اللاتى تجمع الخمر آلات الملاهى، و النساء المكشوفات الوجوه المتزينات بأفخر زينة، من كوافى الزركش و القنابيز و الحلى العظيم، و يصرف على ذلك الأموال الكثيرة، و يقتل فيه جماعة عديدة، و رسم الأميران المذكوران لمتولى الصناعة بمصر، أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور إلّا ما كان فيه غلة أو متجرا و ما ناسب ذلك، فكان هذا معدودا من حسناتهما، و مسطورا فى صحائفهما.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: أخبرنى شيخ معمر ولد بعد سنة سبعمائة يعرف بمحمد المسعودى، أنه أدرك هذا الخليج و المراكب تمرّ فيه بالناس للنزهة، و أنها كانت تعبر من تحت باب القنطرة غادية و رائحة، و الآن لا يمرّ بهذا الخليج من المراكب إلّا ما يحمل متاعا

من متجر أو نحوه، و صارت مراكب النزهة و التفرج إنما تمرّ فى الخليج الناصرىّ فقط، و على هذا الخليج الكبير فى زماننا هذا أربع عشرة قنطرة، يأتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى فى القناطر، و حافتا هذا الخليج الآن معمورتان بالدور، و سيأتى إن شاء اللّه ذكر ذلك فى مواضعه من هذا الكتاب.

و قال ابن سعد: و فيها خليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافى:

ما زالت الأنحاء تأخذهحتى غدا كذؤابة النجم

و قلت فى نور الكتان الذى على جانبى هذا الخليج:

انظر إلى النهر و الكتان يرمقهمن جانبيه بأجفان لها حدق

قد سلّ سيفا عليه للصبا شطبفقابلته بأحداق بها أرق

و أصبحت فى يد الأرواح تنسجهاحتى غدت حلقا من فوقها حلق

فقم نزرها و وجه الأرض متضحأو عند صفرته إن كنت تغتبق

قال و قد ذكر مصر و لا- ينكر فيها إظهار أوانى الخمر و لا آلات الطرب ذوات الأوتار، و لا تبرّج النساء العواهر، و لا غير ذلك مما ينكر فى غيرها، و قد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة و مصر، و معظم عمارته فيما يلى القاهرة، فرأيت فيه من ذلك العجائب، و ربما وقع فيه قتل بسبب السكر، فيمنع فيه الشرب، و ذلك فى بعض الأحيان، و هو ضيق و عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب و التحكم و المجانة، حتى أن المحتشمين و الرؤساء لا- يجيزون العبور به فى مركب، و للسرج فى جانبيه بالليل منظر فتّان و كثيرا ما يتفرّج فيه أهل الستر، و فى ذلك أقول:

لا تركبنّ فى خليج مصرإلّا إذا يسدل الظلام

فقد علمت الذى عليهمن عالم كلهم طغام

صفان للحرب قد أظلّاسلاح ما بينهم كلام

يا سيدى لا تسر إليه‌إلّا إذا هوّم النيام

و الليل ستر على التصابى‌عليه من فضله لثام

و السرج قد بدّدت عليه‌منها دنانير لا ترام

و هو قد امتدّ و المبانى‌عليه فى خدمة قيام

للّه كم دوحة جنيناهناك أثمارها الآثام

و قال ابن عبد الظاهر عن مختصر تاريخ ابن المأمون، أنّ أوّل من رتب حفر خليج القاهرة على الناس المأمون بن البطائحىّ، و كذلك على أصحاب البساتين فى دولة الأفضل،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۷

و جعل عليه واليا بمفرده، و للّه در الأسعد بن خطير المماتى حيث يقول:

خليج كالحسام له صقالو لكن فيه للرائى مسرّه

رأيت به الملاح تجيد عوماكأنهم نجوم فى مجرّه

و قال بهاء الدين أبو الحسن علىّ بن الساعاتى فى يوم كسر الخليج:

إنّ يوم الخليج يوم من الحسن بديع المرئىّ و المسموع

كم لديه من ليث غاب صؤولو مهاة مثل الغزال المروع

و على السدّ عزة قبل أن تملكه ذلة المحب الخضوع

كسروا جسره هناك فحاكى كسر قلب يتلوه فيض دموع

ذكر خليج فم الخور و خليج الذكر

قال ابن سيده فى كتاب المحكم. فى اللغة الخور مصب الماء فى البحر، و قيل هو خليج من البحر، و الخور المطمئن من الأرض، و خليج فم الخور يخرج الآن من بحر النيل و يصب فى الخليج الناصرىّ ليقوّى جرى الماء فيه و يغزره، و كان قبل أن يحفر الخليج الناصرىّ يمدّ خليج الذكر، و كان أصله ترعة يدخل منها ماء النيل للبستان الذى عرف بالمقسى ثم وسّع.

قال ابن عبد الظاهر: و كان يخرج من البحر للمقسىّ الماء فى البرابخ، فوسّعه الملك الكامل، و هو خليج الذكر. و يقال أنّ خليج الذكر حفره كافور الإخشيدى، فلما زال البستان المقسىّ فى أيام الخليفة الظاهر بن الحاكم و جعله بركة قدّام المنظرة المعروفة باللؤلؤة، صار يدخل الماء إليها من هذا الخليج، و كان يفتح هذا الخليج قبل الخليج الكبير، و لم يزل حتى أمر الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة أربع و عشرين و سبعمائة بحفره فحفر و أوصل بالخليج الكبير، و شرع الأمراء و الجند فى حفره من أخريات جمادى الآخرة، فلما فتح كادت القاهرة أن تغرق، فسدّت القنطرة التى عليه فهدمها الماء، و من حينئذ عزم السلطان على حفر الخليج الناصرى، و أنا أدركت آثاره، و فيه ينبت القصب المسمى بالفارسىّ.

و أخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسين بن عمر الشهرزورىّ أنه يعرف خليج الذكر هذا و فيه الماء، و سبح فيه غير مرّة، و أرانى آثاره، و كان الماء يدخل إليه من تحت قنطرة الدكة الآتى ذكرها فى القناطر إن شاء اللّه تعالى، و على خليج فم الخور الآن قنطرة، و على خليج الذكر قنطرة يأتى ذكرهما إن شاء اللّه تعالى عند ذكر القناطر، و إنما قيل له خليج الذكر لأن بعض أمراء الملك الظاهر ركن الدين بيبرس كان يعرف بشمس الدين الذكر الكركىّ، كان له فيه أثر من حفره، فعرف به، و كان للناس عند هذا الخليج مجتمع يكثر فيه لهوهم و لعبهم.

قال المسبحىّ و فى يوم الثلاثاء لخمس بقين منه، يعنى المحرّم، سنة خمس عشرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۸

و أربعمائة، كان ثالث الفتح، فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى و المسلمين فى الخيام المنصوبة و غيرها خلق كثير للأكل و الشرب و اللهو، و لم يزالوا هناك إلى أن انقضى ذلك اليوم، و ركب أمير المؤمنين، يعنى الظاهر لاعزاز دين اللّه أبا الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه، فى مركبه إلى المقس، و عليه عمامة شرب مفوّطة بسواد، و ثوب ديبقى من شكل العمامة، و دار هناك طويلا- و عاد إلى قصره سالما، و شوهد من سكر النساء و تهتكهن و حملهن فى قفاف الحمالين سكارى، و اجتماعهن مع الرجال أمر يقبح ذكره.

ذكر الخليج الناصرىّ

هذا الخليج يخرج من بحر النيل و يصب فى الخليج الكبير، و كان سبب حفره أنّ الملك الناصر محمد بن قولان، لما أنشأ القصور و الخانقاه بناحية سرياقوس، و جعل هناك ميدانا يسرح إليه، و أبطل ميدان القبق المعروف بالميدان الأسود ظاهر باب النصر من القاهر، و ترك المسطبة التى بناها بالقرب من بركة الحبش لمطعم الطيور و الجوارح، اختار أن يحفر خليجا من بحر النيل لتمرّ فيه المراكب إلى ناحية سر ياقوس، لحمل ما يحتاج إليه من الغلال و غيرها، فتقدّم إلى الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة بديار مصر بالكشف عن عمل ذلك، فنزل من قلعة الجبل بالمهندسين و أرباب الخبرة إلى شاطىء النيل، و ركب النيل، فلم يزل القوم فى فحص و تفتيش إلى أن وصلوا بالمراكب إلى موردة البلاط من أراضى بستان الخشاب، فوجدوا ذلك الموضع أوطأ مكان يمكن أن يحفر، إلّا أن فيه عدّة دور، فاعتبروا فم الخليج من موردة البلاط، و قدّروا أنه إذا حفر مرّ الماء فيه من موردة البلاط إلى الميدان الظاهرىّ الذى أنشأه الملك الناصر بستانا، و يمرّ من البستان إلى بركة قرموط حتى ينتهى إلى ظاهر باب البحر، و يمرّ من هناك على أرض الطبالة فيصب فى الخليج الكبير، فلما تعين لهم ذلك، عاد النائب إلى القلعة و طالعه بما تقرّر، فبرز أمره لسائر أمراء الدولة بإحضاء الفلاحين من البلاد الجارية فى إقطاعاتهم، و كتب إلى ولاة الأعمال بجمع الرجال لحفر الخليج، فلم يمض سوى أيام قلائل حتى حضر الرجال من الأعمال، و تقدّم إلى النائب بالنزول للحفر و معه الحجاب، فنزل لعمل ذلك، وقاس المهندسون طول الحفر من موردة البلاط حيث تعين فم الخليج إلى أن يصب فى الخليج الكبير، و ألزم كل أمير من الأمراء بعمل أقصاب فرضت له، فلما أهلّ شهر جمادى الأولى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، وقع الشروع فى العمل، فبدأوا بهدم ما كان هناك من الأملاك التى من جهة باب اللوق إلى بركة قرموط، و حصل الحفر فى البستان الذى كان للنائب، فأخذوا منه قطعة، و رسم أن يعطى أرباب الأملاك أثمانها، فمنهم من باع ملكه و أخذ ثمنه من مال السلطان، و منهم من هدم داره و نقل أنقاضها، فهدمت عدّة دور و مساكن جليلة، و حفر فى عدّة بساتين، فانتهى العمل فى سلخ جمادى الآخرة على رأس شهرين، و جرى الماء فيه عند زيادة النيل، فأنشأ الناس عدّة سواق و جرت فيه السفن بالغلال و غيرها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۹

فسّر السلطان بذلك، و حصل للناس رفق، و قويت رغبتهم فيه، فاشتروا عدّة أراض من بيت المال غرست فيها الأشجار و صارت بساتين جليلة، و أخذ الناس فى العمارة على حافتى الخليج، فعمر ما بين المقس و ساحل النيل ببولاق، و كثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوّله بموردة البلاط إلى حيث يصب فى الخليج الكبير بأرض الطبالة، و صارت البساتين من وراء الأملاك المطلة على الخليج، و تنافس الناس فى السكنى هناك، و أنشأوا الحمّامات و المساجد و الأسواق، و صار هذا الخليج مواطن أفراح و منازل لهو و مغنى صبابات و ملعب أتراب و محل تيه و قصف، فيما يمرّ فيه من المراكب و فيما عليه من الدور، و ما برحت مراكب النزهة تمرّ فيه بأنواع الناس على سبيل اللهو إلى أن منعت المراكب منه بعد قتل الأشرف، كما يرد عند ذكر القناطر إن شاء اللّه تعالى.

ذكر خليج قنطرة الفخر

هـذا الخليج يبتدئ من الموضع الذى كان ساحل النيل ببولاق، و ينتهى إلى حيث يصب فى الخليج الناصـرىّ، و يصب أيضا فى خليج لطيف تسقى منه عدّة بساتين، و كل من هذين الخليجين معمور الجانبين بالأملاك المطلق عليه، و البساتين و جميع المواضع التى يمرّ فيها الخليج الناصـرىّ، و أرض هذين الخليجين كانت غامرة بالماء، ثم انحسر عنها الماء شيئا بعد شىء، كما ذكر فى ظواهر القاهرة، و هذا الخليج حفر بعد الخليج الناصرىّ.

ذكر القناطر

اشارة

اعلم أن قناطر الخليـج الكبير عـدّتها الآن أربع عشـرة قنطرة، و على خليـج فم الخور قنطرة واحـدة، و على خليج الذكر قنطرة واحدة، و على الخليج الناصرىّ خمس قناطر، و على بحر أبى المنجا قنطرة عظيمة، و بالجيزة عدّة قناطر.

ذكر قناطر الخليج الكبير

قـال القضـاعى: القنطرتـان اللتان على هـذا الخليـج، يعنى خليـج مصـر الكبير، أما التى فى طرف الفسـطاط بالحمراء القصوى، فإن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بناها فى سـنة تسع و ستين، و كتب عليها اسـمه، و ابتنى قناطر غيرها، و كتب على هـذه القنطرة المـذكورة، هـذه القنطرة أمر بهـا عبـد العزيز بن مروان الأمير، اللهمّ بـارك له فى أمره كله، و ثبت سـلطانه على مـا ترضـى، و أقرّ عينه فى نفسه و حشـمه أمين. و قام ببنائها سـعد أبو عثمان، و كتب عبد الرحمن فى صـفر سنة تسع و ستين، ثم زاد فيها تكين أمير مصر فى سنة عثمان عشرة و ثلثمائة، و رفع سمكها، ثم زاد عليها الإخشيد فى سنة إحدى و ثلاثين و ثلثمائة، ثم عمرت فى أيام العزيز بالله.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۰

و قال ابن عبد الظاهر: و هذه القنطرة ليس لها أثر فى هذا الزمان، قلت موضعها الآن خلف خط السبع سقايات، و هذه القنطرة هى التى كانت تفتح عند وفاء النيل فى زمن الخلفاء، فلما انحسـر النيل عن ساحل مصر اليوم، أهملت هذه القنطرة، و عملت قنطرة السدّ عند فم بحر النيل، فإن النيل كان قد ربى الجرف، حيث غيط الجرف الذى على يمنة من سلك من المراغة إلى باب مصر بجوار الكبارة.

قنطرة السـد: هـذه القنطرة موضـعها ممـا كـان غـامرا بماء النيل قـديما، و هى الآن يتوصل من فوقها إلى منشأة المهرانىّ و غيرها من برّ الخليـج الغربىّ، و كان النيل عند إنشائها يصل إلى الكوم الأحمر الذى هو جانب الخليج الغربىّ الآن، تجاه خط بين الزقاقين، فإن النيل كان قد ربى جرفا قدّام الساحل القديم، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، فأهملت القنطرة الأولى لبعد النيل، و قدّمت هذه القنطرة إلى حيث كان النيل ينتهى، و صار يتوصل منها إلى بستان الخشاب الذى موضعه اليوم يعرف بالمريس و ما حوله، و كان الذى أنشأها الملـك الصالـح نجم الـدين أيوب بن الملـك الكامـل محمـد بن العادل أبى بكر بن أيوب، فى أعوام بضع و أربعين و سـتمائة، و لها قوسـان، و عرفت الآـن بقنطرة السـدّ، من أجل أن النيل لما انحسـر عن الجانب الشـرقىّ و انكشـفت الأراضـى التى عليها الآن، خط بين الزقاقين إلى موردة الحلفاء، و موضع الجامع الجديـد إلى دار النحاس، و ما وراء هذه الأماكن إلى المراغة و باب مصـر بجوار الكبارة، و انكشف من أراضـى النيل أيضا الموضع الذى يعرف اليوم بمنشأة المهرانىّ، و صار ماء النيل إذا بدت زيادته يجعل عند هذه القنطرة سـدّ من التراب حتى يسـند الماء إليه إلى أن تنتهى الزيادة إلى ست عشـرة ذراعا، فيفتـح السدّ حينئذ و يمرّ الماء فى الخليج الكبير كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، و الأمر على هذا إلى اليوم.

قناطر السباع: هذه القناطر جانبها الذى يلى خط السبع سقايات من جهة الحمراء القصوى، و جانبها الآخر من جهة جنان الزهرىّ، و أوّل من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و نصب عليها سباعا من الحجارة، فإن رنكه كان على شكل سبع، فقيل لها قناطر السباع من أجل ذلك، و كانت عالية مرتفعة، فلما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون الميدان السلطانىّ فى موضع بستان الخشاب، حيث موردة البلاط، و تردّد إليه كثيرا، و صار لا يمرّ إليه من قلعة الجبل حتى يركب قناطر السباع، فتضرّر من علوّها و قال لومراء أنّ هذه القنطرة حين أركب إلى الميدان و أركب عليها يتألم ظهرى من علوّها، و يقال أنه أشاع هذا، و القصد إنما هو كراهته لنظر أثر أحد من الملوك قبله، و بغضه أن يذكر لأحد غيره شيء يعرف به، و هو كلما يمرّ بها يرى السباع التى هى رنك الملك الظاهر، فأحب أن يزيلها لتبقى القنطرة منسوبة إليه و معروفة به، كما كان يفعل دائما فى محو آثار من تقدّمه و تخليد ذكره، و معرفة الآثار به و نسبتها له، فاستدعى الأمير علاء الدين علىّ بن حسن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۱

المروانىّ والى القاهرة و شادّ الجهات، و أمره بهدم قناطر السباع، و عمارتها أوسع مما كانت بعشرة أذرع، و أقصر من ارتفاعها الأوّل، فنزل ابن المروانىّ و أحضر الصناع و وقف بنفسه حتى انتهى فى جمادى الأولى سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة فى أحسن قالب على ما هى عليه الآن، و لم يضع سباع الحجر عليها، و كان الأمير الطنبغا الماردينىّ قد مرض و نزل إلى الميدان السلطانىّ، فأقام به و نزل إليه السلطان مرارا، فبلغ الماردينىّ ما يتحدّث به العامّة من أن السلطان لم يخرّب قناطر السباع إلا حتى تبقى باسمه، و أنه رسم لابن المروانىّ أن يكسر سباع الحجر و يرميها فى البحر، و اتفق أنه عوفى عقيب الفراغ من بناء القنطرة، و ركب إلى القلعة، فسرّبه السلطان، و كان قد شغفه حبا، فسأله عن حاله و حادثه إلى أن جرى ذكر القنطرة، فقال له السلطان: أعجبتك عمارتها، فقال و اللّه يا خوند: لم يعمل مثلها، و لكن ما كملت. فقال كيف، قال السباع التى كانت عليها لم توضع مكانها، و الناس يتحدّثون أن السلطان له عرض فى إزالتها لكونها رنك سلطان غيره، فامتغص لذلك و أمر فى الحال بإحضار ابن المروانىّ و ألزمه بإعادة السباع على ما كانت عليه، فبادر إلى تركيبها فى أماكنها، و هى باقية هناك إلى يومنا هذا إلّا أنّ الشيخ محمدا المعروف بصائم الدهر شوّه صورها كما فعل بوجه أبى الهول، ظنا منه أن هذا الفعل من جملة القربات و للّه در القائل:

و إنما غاية كلّ من وصل صيدا بنى الدنيا بأنواع الحيل

قنطرة عمر شاه: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل منها إلى برّ الخليج الغربىّ.

قنطرة طقزدمر: هذه القنطرة على الخليج الكبير بخط المسجد المعلق، يتوصل منها إلى برّ الخليج الغربىّ، و حكر قوصون و غيره.

قنطرة اق سنقر: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل إليها من خط قبو الكرمانىّ، و من حارة البديعيين التى تعرف اليوم بالحبانية، و يمرّ من فوقها إلى برّ الخليج الغربىّ، و عرفت بالأميراق سنقرشادّ العمائر السلطانية فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، عمرها لما أنشأ الجامع بالبركة الناصرية، و مات بدمشق سنة أربعين و سبعمائة.

قنطرة باب الخرق: يقال للأرض البعيدة التى تخرقها الريح لاستوائها، الخرق. و هذه القنطرة على الخليج الكبير، كان موضعها ساحلا و موردة للسقائين فى أيام الخلفاء الفاطميين، فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب الميدان السلطانىّ بأرض اللوق، و عمريه المناظر فى سنة تسع و ثلاثين و ستمائة، أنشأ هذه القنطرة ليمرّ عليها إلى الميدان المذكور، و قيل قنطرة باب الخرق.

قنطرة الموسكى: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل إليها من باب الخوخة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۲

و باب القنطرة، و يمرّ فوقها إلى برّ الخليج الغربىّ، أنشأها الأمير عز الدين موسك، قريب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و كان خيّرا يحفظ القرآن الكريم و يواظب على تلاوته، و يحب أهل العلم و الصلاح، و يؤثرهم، و مات بدمشق يوم الأربعاء ثامن عشرى شعبان سنة أربع و ثمانين و خمسمائة.

قنطرة الأمير حسين: هذه القنطرة على الخليج الكبير، و يتوصل منها إلى برّ الخليج الغربيّ، فلما أنشأ الأمير سيف الدين حسين بن أبى بكر بن إسماعيل بن حيدر بك الروميّ الجامع المعروف بجامع الأمير حسين فى حكر جوهر النوبيّ، أنشأ هذه القنطرة ليصل من فوقها إلى الجامع المذكور، و كن يتوصل إليها من باب القنطرة، فثقل عليه ذلك و احتاج إلى أن فتح فى السور الخوخة المعروفة بخوخة الأمير حسين من الوزيرية، فصارت تجاه هذه القنطرة، و قد ذكر خبرها عند ذكر الخوخ من هذا الكتاب، و اللّه تعالى أعلم.

قنطرة باب القنطرة: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل إليها من القاهرة، و يمرّ فوقها إلى المقس و أرض الطبالة، و أوّل من بناها القائد جوهر لما نزل بمناخه و أدار السور عليه و بنى القاهرة، ثم قدم عليه القرطمىّ، فاحتاج إلى الاستعداد لمحاربته، فحفر الخندق و بنى هذه القنطرة على الخليج عند باب جنان أبى المسك كافور الإخشيدىّ، الملاصق للميدان و البستان الذى للأمير أبى بكر محمد الإخشيد، ليتوصل من القاهرة إلى المقس، و ذلك فى سنة ثنتين و ستين و ثلثمائة، و بها تسمى باب القنطرة، و كانت مرتفعة بحيث تمرّ المراكب من تحتها و قد صارت فى هذا الوقت قريبة من أرض الخليج لا يمكن المراكب العبور من تحتها، و تسدّ بأبواب خوفا من دخول الزعار إلى القاهرة.

قنطرة باب الشعرية: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يسلك إليها من باب الفتوح، و يمشى من فوقها إلى أرض الطبالة، و تعرف اليوم بقنطرة الخرّوبىّ.

القنطرة الجديدة: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل إليها من زقاق الكحل و خط جامع الظاهر، و يتوصل منها إلى أرض الطبالة و إلى منية الشيرج و غير ذلك، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة عند ما انتهى حفر الخليج الناصرىّ، و كان ما على جانبى الخليج من القنطرة الجديدة هذه إلى قناطر الإوز عامرا بالأملاك، ثم خربت شيئا بعد شىء من حين حدث فصل الباردة بعد سنة ستين و سبعمائة، و فحش الخراب، هناك منذ كانت سنة الشراقى فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة سبع و سبعين و سبعمائة، فلما غرقت الحسينية بعد سنة الشراقى خربت المساكن التى كانت فى شرقىّ الخليج، ما بين القنطرة الجديدة و قناطر الإوز، و أخذت أنقاضها و صارت هذه البرك الموجودة الآن.

قناطر الإوز: هذه القناطر على الخليج الكبير، يتوصل إليها من الحسينية، و يسلك من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۳

فوقها إلى أراضى البعل و غيرها، و هى أيضا مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و أدركت هناك أملاكا مطلّة على الخليج بعد سنة ثمانين و سبعمائة، و هذه القناطر من أحسن منتزهات أهل القاهرة أيام الخليج، لما يصير فيه من الماء، و لما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة، إلّا أنها الآن قد خربت. و تجاه هذه القنطرة منظرة البعل التى تقدّم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء، و بقيت آثارها إلى الآن، أدركناها يعطن فيها الكتان، و بها عرفت الأرض التى هناك، فسميت إلى الآن بأرض البعل، و كان هناك صف من شجر السنط قد امتدّ من تجاه قناطر الإوز إلى منظرة البعل، و صار فاصلا بين مزرعتين يجلس الناس تحته فى يومى الأحد و الجمعة للنزهة، فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم و نسائهم ما لا يقع عليه بصر، و يباع هناك مآكل كثيرة، و كان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك، أدركتها و قد استؤجرت بخمس آلاف درهم فى السنة، عنها يومئذ نحو مائتين و خمسين مثقالا من الذهب، على أنه لا يباع فيما السمك إلّا نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك، و لم يزل هذا السنط إلى نحو سنة تسعين و سبعمائة، فقطع. و إلى اليوم تجتمع الناس هناك، و لكن شتان بين ما أدركنا و بين ما هو الآن، و قيل لها قناطر الإوز.

قناطر بنى وائل: هذه القناطر على الخليج الكبير تجاه التاج، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و عرفت بقناطر بنى وائل من أجل أنه كان بجانبها عدّة منازل يسكنها عرب ضعاف بالجانب الشرقىّ، يقال لهم بنو وائل، و لم يزالوا هناك إلى نحو سنة تسعين و سبعمائة، و كان بجانب هذه القناطر من الجانب الغربىّ مقعد أحدثه الوزير الصاحب سعد الدين نصر اللّه

بن البقرىّ لأخذ المكوس، و استمرّ مدّة ثم خرب، و لم ير أحسن منظرا من هذه القنطرة فى أيام النيل و زمن الربيع.

قنطرة الأميريـة: هـذه القنطرة هى آخر ما على الخليـج الكبير من القناطر بضواحى القاهرة، و هى تجاه الناحيـة المعروفـة بالأميريـة، فيما بينها و بين المطرية، أنشأها الملك الناصـر محمد بن قلاون فى سـنة خمس و عشرين و سبعمائة، و عند هذه القنطرة ينسدّ ماء النيل إذا فتـح الخليـج عنـد وفاء زيادة النيل ست عشـرة ذراعا، فلا يزال الماء عند سدّ الأميرية هذا إلى يوم النوروز، فيخرج والى القاهرة، إليه و يشهد على مشايخ أهل الضواحى بتغليق أراضى نواحيهم بالرىّ، ثم يفتح هذا السدّ فيمرّ الماء إلى جسر شيبين القصر، و يسدّ عليه حتى يروى ما على جانبى الخليـج من البلاد، فلا يزال الماء واقفا عند سدّ شـيبين إلى يوم عيد الصـليب، و هو اليوم السابع عشـر من النوروز، فيفتـح حينئـذ بعد شـمول الرىّ جميع تلك الأراضـى، و ليس بعد قنطرة الأميرية هذه قنطرة سوى قنطرة ناحية سـرياقوس، و هى أيضـا إنشاء الملك الناصـر محمد بن قلاون، و بعد قنطرة سـرياقوس جسـر شـيبين القصر، و سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى عند ذكر الجسور من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۴

قنطرة الفخر: هـذه القنطرة بجـوار مـوردة البلاـط مـن أراضـى بسـتان الخشـاب برأس الميـدان، و هى أوّل قنطرة عمرت على الخليج الناصـرىّ على فمه، أنشأها القاضـى فخر الدين محمد بن فضل اللّه بن خروف القبطىّ، المعروف بالفخر ناظر الجيش فى سنة خمس و عشـرين و سـبعمائة، عند انتهاء حفر الخليج الناصرىّ، و مات فى رجب سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و قد أناف على السبعين سنة، و تمكن فى الرياسة تمكنا كبيرا.

قنطرة قدادار: هذه القنطرة على الخليج الناصـرىّ، يتوصل إليها من اللوق، و يمشـى فوقها إلى برّ الخليج الناصرىّ مما يلى الفيل، و أوّل مـا وضـعت كانت تجاه البسـتان الـذى كان ميـدانا فى زمن الملك الظاهر ركن الـدين بيبرس، إلى أن أنشأ الملك الناصـر محمـد بن قلاـون الميـدان الموجود الآـن بموردة البلاط من جملـة أراضـى بسـتان الخشاب، فغرس فى الميـدان الظاهرىّ الأشـجار و صار بسـتانا عظيما، كما ذكر ذلك فى موضـعه من هذا الكتاب، و عرفت هذه القنطرة بالأمير سيف الدين قدادار مملوك الأمير برلغى، و كان من خبره أنه تنقل فى الخـدم حتى ولىّ الغربية من أراضـى مصـر فى سـنة ثلاث و عشـرين و سـبعمائة، فلقى أهل البلاد منه شـرّا كثيرا، ثم انتقل إلى ولاية البحيرة، فلما كان فى سـنة أربع و عشـرين كثرت الشـناعة فى القاهرة بسـبب الفلوس، و تعنت الناس فيها، و امتنعوا من أخـذها حتى وقف الحال و تحسن السـعر، و كان حينئـذ يتقلـد الوزارة الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالىّ، و يتقلد ولاية القاهرة الأمير علم الدين سـنجر الخازن، فلما توجه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون من قلعة الجبل إلى السرحة بناحية سرياقوس، بلغه توقف الحال و طمع السوقة فى الناس، و أن متولى القاهرة فيه لين و انه قليل الحرمة على السوقة، و كان السلطان كثير النفور من العامّة، شديد البغض لهم، و يريـد كـل وقت من الخـازن أن يبطش بـالحرافيش و يؤثر فيهم آثـارا قبيحـة، و يشـهر منهم جماعـة، فلم يبلغ من ذلك غرضه، فكرهه و اسـتدعى الأمير أرغون نائب السلطنة و تقدّم إليه بالأغلاظ فى القول على الخازن بسبب فساد حال الناس، و همّ ببروز أمره بـالقبض عليه و أخـذ ماله، فما زال به النائب حتى عفا عنه. و قال السـلطان يعزله و يولى من ينفع فى مثل هـذا الأمر، فاختار ولاية قـدادار عوضه، لما يعرف من يقظته و شـهامته و جراءته على سـفك الـدماء، فاسـتدعاه من البحيرة و ولاه ولايـة القاهرة فى أوّل شـهر رمضان من السنة المذكورة.

فأوّل ما بدأ به أن أحضـر الخبازين و الباعة و ضـرب كثيرا منهم بالمقارع ضربا مبرّحا، و سمر عدّة منهم فى دراريب حوانيتهم، و نادى فى البلد من ردّ فلسا سـمّر، ثم عرض أهل السجن و وسط جماعة من المفسدين عند باب زويلة، فهابته العامّة و ذعروا منه، و أخذ يتتبع من عصر خمرا، و أحضر عريف الحمالين و ألزمه بإحضار من كان يحمل العنب، فلما حضروا عنده استملاهم أسماء من يشترى العنب و مواضع مساكنهم، ثم أحضر خفراء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۵

الحارات و الأخطاط، و لم يزل بهم حتى دلوه على سائر من عصر الخمر، فاشتهر ذلك بين الناس و خافوه، فحوّل أهل حارة زويلة و أهل حارتى الروم و الديلم و غير ذلك من الأماكن ما عندهم من الخمر و صبوها فى البلاليع و الأقنية، و ألقوها فى الأزقة، و بذلوا المال لمن يأخذها منهم، فحصل لكثير من العامّة و الأطراف منها شىء كثير، حتى صارت تباع كل جرّة خمر بدرهم، و يمرّ الناس بأبواب الدور و الأزقة فترى من جرار الخمر شيئا كثيرا، و لا يقدر أحد أن يتعرّض لشىء منها، ثم ركب و كبس خط باب اللوق و أخذ منه شيئا كثيرا من الحشيش، و أحرقه عند باب زويلة، و استمرّ الحال مدّة شهر، ما من يوم إلّا و يهرق فيه خمر عند باب زويلة، و يحرق حشيش، فطهر اللّه به البلد من ذلك جميعه، و تتبع الزعّار و أهل الفساد فخافوه و فرّوا من البلد، فصار السلطان يشكره و يثنى عليه لما يبلغه من ذلك، و أما العامّة فإنه ثقل عليها و كرهته، حتى أنه لما تأمّر ابن الأمير بكتمر الساقى و ركب إلى القبة المنصورية على العادة، و معه أبوه النائب و سائر الأمراء، صاحت العامّة للأمير بكتمر الساقى يا أمير بكتمر بحياة ولدك أعزل هذا الظالم، ورد علينا و إلينا، يعنون الخازن، فلما عرّف بكتمر السلطان ذلك أعجبه و قال: يا أمير ما تخشى العامّة و السوقة، إلّا ظالما مثل هذا، ما يخاف اللّه تعالى، و زاد إعجاب السلطان به حتى قال له: لا تشاور فى أمر المفسدين، فلم يغترّ بذلك، و رفع إليه جميع ما يتفق له و شاوره فى كل جليل و حقير، و قال له إن جماعة من الكتاب و التجار قد عصر و الخمر، و استأذنه فى طلبهم و مصادرتهم، فتقدّم له بمشاورة النائب فى ذلك و إعلامه أن السلطان قد رسم بالكشف عمن عصر من الكتاب و التجار الخمر، فلما صار إلى النائب و عرّفه الخبر، أهانه و قال: إن السلطان لا يرضى بكبس بيوت الناس و هتك حرمهم و سترهم و إقامة الشناعات، و قام من فوره إلى السلطان و عرّفه ما يكون فى فعل ذلك من الفساد الكبير، و ما زال به حتى صرف رأيه عما أشار به قدادار من كبس الدور، و أخذ الناس فى مماقته و الإخراق به فى كل وقت، فإنه كان يعنى بالخازن و لم يعجبه عزله عن الولاية، فكثر جورقدادار و زاد تتبعه للناس، و نادى أن لا يعمل أحد حلقة فيما بين القصرين و لا يسمر هناك، و أمر أن لا يخرج أحد من بيته بعد عشاء الآخرة، و أقام عنه نائبا من بطالى الحسينية ضمن المسطبة، منه فى كل يوم بثلاثمائة درهم، و انحصر الناس منه و ضاقوا به ذرعا لكثرة ما هتك أستارهم، و خرق بكثير من المستورين، و تسلطت المستصنعة و أرباب المظالم على الناس، و كانوا إذا رأوا سكران أوشموا منه رائحة خمر أحضروه» إليه، فتوقى الناس شرّه و شكاه الأمراء غير مرّة إلى السلطان، فلم يلتفت لما يقال فيه، و النائب مستمرّ على الإخراق به إلى أن قبض عليه السلطان، فخلا الجوّ لقدادار، و أكثر من سفك الدماء و إتلاف النفوس و التسلط على العامّة لبغضهم إياه، و السلطان يعجبه منه ذلك بحيث أنه أبرز مرسوما لسائر عماله و ولاته إن أحدا منهم لا يقتص ممن وجب عليه القصاص فى النفس أو القطع إلا أن يشاور فيه و يطالع بأمره، ما خلا قدادار مستولى القاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۶

فإنه لا يشاور على مفسد و لا غيره و يده مطلقة فى سائر الناس، فدهى الناس منه بعظائم، و شرع فى كبس بيوت السعداء، و مشت جماعة من المستصنعين فى البلد و كتبوا الأوراق و رموها فى بيوت الناس بالتهديد، فكثرت أسباب الضرر و كثر بلاء الناس به، و تعنت على الباعة، و نادى أن لا يفتح أحد حانوته بعد عشاء الآخرة، فامتنع الناس من الخروج بالليل حتى كانت المدينة فى الليل موحشة، و استجدّ على كل حارة دربا، و ألزم الناس بعمل ذلك، فجبيت بهذا السبب دراهم كثيرة، و صار الخفراء فى الليل يدورون معهم الطبول فى كل خط، فظفر بإنسان قد سرق شيئا من بيت فى الليل و تزيا بزى النساء، فسمّره على باب زويلة، و ما زال على ذلك حتى كثرت الشناعة، فعزله السلطان فى سنة تسع و عشرين بناصر الدين بن الحسنىّ، فأقام إلى أيام الحج و سافر إلى الحجاز و رجع و هو ضعيف، فمات فى سادس عشر صفر سنة ثلاثين و سبعمائة.

قنطرة الكتبة: هذه القنطرة على الخليج الناصرىّ بخط بركة قرموط، عرفت بذلك لكثرة من كان يسكن هناك من الكتاب، أنشأها القاضى شمس الدين عبد اللّه بن أبى سعيد بن أبى السرور الشهير بغبريال بن سعيد ناظر الدولة، و ولى تظر الدواوين بدمشق فى سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، إليها من نظر البيوت بديار مصر، ثم استدعى من دمشق و قرر فى وظيفة ناظر النظار شريكا للقاضى شهاب

الدين الأفقهسىّ، و استقرّ كريم الدين الصغير مكانه ناظرا بدمشق، و ذلك فى شهر رمضان سنة أربع و عشرين و سبعمائة، ثم صرف غبريال من النظر بديار مصر و سفر إلى دمشق فى ثامن عشر صفر سنة ست و عشرين، و طلب كريم الدين الصغير من دمشق، ثم قرّر فى مكان غبريال فى وظيفة النظر بديار مصر الخطير، كاتب أرغون أخو الموفق و أعيد غبريال إلى نظر دمشق و مات بدمشق بعد ما صودر و أخذ منه نحو ألفى درهم، فى سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و ادركنا الأملاك منتظمة بجانبى هذا الخليج من أوّله بموردة البلاط إلى هذه القنطرة، و من هذه القنطرة إلى حيث يصب فى الخليج الكبير، فلما كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، شرع الناس فى هدم ما على هذا الخليج من المناظر البهجة و المساكن الجليلة، و بيع أنقاضها، حتى ذهب ما كان على هذا الخليج من المنازل ما بين قنطرة الفخر التى تقدّم ذكرها، و آخر خط بركة قرموط، و أصبحت موحشة قفراء، بعد ما كانت مواطن أفراح و مغنى صبابات، لا يأويها إلّا الغربان و البوم، سنة اللّه فى الذين خلوا من قبل.

قنطرة المقسىّ: هذه القنطرة على خليج فم الخور، و هو الذى يخرج من بحر النيل و يلتقى مع الخليج الناصرىّ عند الدكة، فيصيران خليجا واحدا يصب فى الخليج الكبير، كان موضعها جسرا يستند عليه الماء إذا بدت الزيادة إلى أن تكمل أربعة عشر ذراعا، فيفتح و يمرّ الماء فيه إلى الخليج الناصرىّ و بركة الرطلىّ، و يتأخر فتح الخليج الكبير حتى يرقى الماء ستة عشر ذراعا، فلما انطرد ماء النيل عن البرّ الشرقىّ، بقى تاجه هذا الخليج فى أيام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۷

احتراق النيل رملة لا يصل إليها الماء إلّا عند الزيادة، و صار يتأخر دخول الماء فى الخليج مدّة، و إذا كسر سدّ الخليج الكبير عند الوفاء، مرّ الماء هذا الخليج مرورا قليلا، و ما زال موضع هذه القنطرة سدّا إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبى الفرج عبد اللّه المقسىّ، فى أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به، و اتصلت العمائر أيضا بجانبى هذا الخليج من حيث يبتدئ إلى أن يلتقى مع الخليج الناصرىّ، ثم خرب أكثر ما عليه من العمائر و المساكن بعد سنة ست و ثمانمائة، و كان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصرىّ فى أيام النيل مرور فى المراكب للنزهة، يخرجون فيه عن الجدّ بكثرة التهتك و التمتع بكل ما يلهى، إلى أن ولى أمر الدولة بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين، الأميران برقوق و بركة، فقام الشيخ محمد المعروف بصائم الدهر فى منع المراكب من المرور بالمتفرّجين فى الخليج، و استفتى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينىّ، فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك فى المراكب من الحرمات و يتجاهر به من الفواحش و المنكرات، فبرز مرسوم الأميرين المذكورين بمنع المراكب من الدخول إلى الخليج، و ركّبت سلسلة على قنطرة المقسىّ هذه فى شهر ربيع الأول سنة إحدى و ثمانين و سبعمائة، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج إلّا أن يكون فيها غلة أو متاع، فقلق الناس لذلك و شق عليهم و قال الشهاب أحمد بن العطار الدنيسرىّ فى ذلك:

حديث فم الخور المسلسل ماؤه‌بقنطرة المقسىّ قد سار فى الخلق

ألا فاعجبوا من مطلق و مسلسل‌يقول لقد أوقفتم الماء فى حلقى

و قال:

تسلسلت قنطرة المقسىّ مما قد جرى و المنع أضحى شاملا

و قال أهل طبنة فى مجنهم‌قوموا بنا نقطع السلاسلا

و لم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق، فى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، فأذن فى دخولها و هى مستمرّة إلى وقتنا هذا.

قنطرة باب البحر: هذه القنطرة على الخليج الناصرى، يتوصل إليها من باب البحر و يمرّ الناس من فوقها إلى بولاق و غيره، و هى مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون عند انتهاء حفر الخليج الناصرىّ، فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و قد كان موضعها فى

القديم غامرا بالماء عند ما كان جامع المقس مطلا على النيل، فلما انحسر الماء عن برّ القاهرة صار ما قدّام باب البحر رملة، فإذا وقف الإنسان عند باب البحر رأى البرّ الغربيّ، لا يحول بينه و بين رؤيته بنيان و لا غيره، فإذا كان أوان زيادة ماء النيل صار الماء إلى باب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۸

البحر، و ربما جلفط فى بعض السنين خوفا من غرق المقس، ثم لما طال المدى غرق خارج باب البحر بأرض باطن اللوق، و غرس فيه الأشجار فصار بساتين و مزارع، و بقى موضع هذه القنطرة جرفا، و رمى الناس عليه التراب فصار كوما يشنق عليه أرباب الجرائم، ثم نقل ما هنالك من التراب و أنشئت هذه القنطرة و نودى فى الناس بالعمارة، فأوّل ما بنى فى غربيّ هذه القنطرة مسجد المهاميزىّ و بستانه، ثم تتابع الناس فى العمارة حتى انتظم ما بين شاطىء النيل ببولاق و باب البحر عرضا، و ما بين منشأة المهرانى و منية الشيرج طولا، و صار ما بجانبى الخليج معمورا بالدور و من ورائها البساتين و الأسواق و الحمّامات و المساجد، و تقسمت الطرق و تعدّدت الشوارع و صار خارج القاهرة من الجهة الغربية عدّة مدائن.

قنطرة الحاجب: هذه القنطرة على الخليج الناصرى، يتوصل إليها من أرض الطبالة، و يسير الناس عليها إلى منية الشيرج و غيرها، أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب فى سنة ست و عشرين و سبعمائة، و ذلك أنه كانت أرض الطبالة بيده، فلما شرع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى حفر الخليج الناصرىّ، التمس بكتمر من المهندسين إذا وصلوا بالحفر إلى حيث الجرف أن يمرّوا به على بركة الطوّابين التى تعرف اليوم ببركة الرطلىّ، و ينتهوا من هناك إلى الخليج الكبير، ففعلوا ذلك و كان قصدهم أولا أنه إذا انتهى الحفر إلى الجرف مرّوا فيه إلى الخليج الكبير من طرف البعل، فلما تهيأ لبكتمر ذلك عمرت له أراضى الطبالة كما يأتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى عند ذكر البرك، فعمرت هذه القنطرة فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و أسند إليها جسرا عمله حاجزا بين بركة الحاجب المعروفة ببركة الرطلىّ و بين الخليج الناصرىّ، و سيرد ذكره إن شاء اللّه تعالى عند ذكر الجسور، و لما عمرت هذه القنطرة اتصلت العمائر فيما بينها و بين كوم الريش، و عمر قبالتها ربع عرف بربع الزيتىّ، و كان على ظهر القنطرة صفان من حوانيت، و عليها سقيفة تقى حرّ الشمس و غيره، فلما غرق كوم الريش فى سنة بضع و ستين و سبعمائة صار هذا الكوم الذى خارج القنطرة، و من تحت هذه القنطرة يصب الخليج الناصرىّ فى الخليج الكبير، و يمرّ إلى حيث القنطرة الجديدة و قناطر الأوز و غيرها، كما تقدّم ذكره.

قنطرة الدكة: هذه القنطرة كانت تعرف بقنطرة الدكة، ثم عرفت بقنطرة التركمانىّ من أجل أن الأمير بدر الدين التركمانىّ عمرها، و هذه القنطرة كانت على خليج الذكر، و قد انطم ما تحتها و صارت معقودة على التراب لتلاف خليج الذكر، و للّه در ابراهيم المعمار حيث يقول:

يا طالب الدّكّة نلت المنىو فزت منها ببلوغ الوطر

قنطرة من فوقها دكّةمن تحتها تلقى خليج الذكر

قناطر بحر أبى المنجا: هذه القناطر من أعظم قناطر مصر و أكبرها، أنشأها السلطان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۹

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى سنة خمس و ستين و ستمائة، و تولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الأقرم.

قناطر الجيزة: قال فى كتاب عجائب البنيان: أن القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة. و من أعمال الجبارين، و هى نيف و أربعون قنطرة، عمرها الأمير قراقوش الأسدىّ، و كان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة، و أخذ حجرها فبنى منه هذه القناطر و بنى سور القاهرة و مصر و ما بينهما، و بنى قلعة الجبل، و كان خصيا روميا سامى الهمة، و هو صاحب الأحكام المشهورة و الحكايات المذكورة، و فيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالفاشوش فى أحكام قراقوش، و فى سنة تسع و تسعين و خمسمائة تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده، فسدّها رجاء أن يحبس الماء، فقويت عليها جرية الماء، فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر و انشقت، و مع ذلك فما روى ما رجا أن يروى، و فى سنة ثمان و

سبعمائة رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمّها، فعمر ما خرب منها و أصلح ما فسد فيها، فحصل النفع بها. و كان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفا من حجارة، ابتدأ به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر، كأنه جبل ممتدّ على الأرض مسيرة ستة أميال، حتى يتصل بالقناطر.

ذكر البرك

قال ابن سيده: البركة مستنقع الماء، و البركة شبه حوض يحفر فى الأرض. انتهى.

و قد رأيت بخط معتبر ما مثاله: و ملؤا البركة ماء، فنصب الماء و كسر الراء و فتح الكاف و التاء.

بركة الحبش: هذه البركة كانت تعرف ببركة المغافر، و تعرف ببركة حمير، و تعرف أيضا باصطبل قرّة، و عرفت أيضا باصطبل قامش، و هى من أشهر برك مصر، و هى فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها، فيما بين الجبل و النيل، و كانت من الموات، فاستنبطها قرّة بن شريك العنبسىّ أمير مصر و أحياها و غرسها قصبا، فعرفت باصطبل قرّة، و عرفت أيضا باصطبل قامش، و تنقلت حتى صارت تعرف ببركة الحبش. و دخلت فى ملك أبى بكر المارداني فجعلها وقفا، ثم أرصدت لبنى حسن و بنى حسين ابنى علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، فلم تزل جارية فى الأوقاف عليهم إلى وقتنا هذا.

قال أبو بكر الكندىّ فى كتاب الأمراء: و قدم قرّة بن شريك من وفادته فى سنة ثلاث و تسعين فاستنبط الإصطبل لنفسه من الموات و أحياه و غرسه قصبا، فكان يسمى اصطبل قرّة، و يسمى أيضا اصطبل القامش، يعنون القصب، كما يقولون قامش مروان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۰

و قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر. و كان الإصطبل للأزد فاشتراه منهم الحكم بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، فبناه و كان يجرى على الذى يقرأ فى المصحف الذى وضعوه فى المسجد الذى يقال له مصحف أسماء، من كراه فى كل شهر ثلاثة دنانير، فلما حيزت أموالهم، يعنى أموال بنى أمية، و ضمت إلى مال اللّه، حيز الإصطبل فيما حيز و كتب بأمر المصحف إلى أمير المؤمنين أبى العباس السفاح، فكتب أن أقرّوا مصحفهم فى مسجدهم على حاله، و أجروا على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر من مال اللّه تعالى.

و قال القضاعىّ: بركة الحبش كانت تعرف ببركة المغافر و حمير، و تعرف باصطبل قامش، و كانت فى ملك أبى بكر محمد بن علىّ المارداني، بجميع ما تشتمل عليه من المزارع و الجنان خلا الجنان التى فى شرقيها، و أظنها الجنان المنسوبة إلى وهب بن صدقة، و تعرف بالحبش، فإنى رأيت فى شرط هذه البركة أن الحدّ الشرقىّ ينتهى إلى الفضاء الفاصل بينها و بين الجنان المعروفة بالحبش، فدلّ على أن الجنان خارجة عنها.

و ذكر ابن يونس فى تاريخه: أن فى قبلىّ بركة الحبش جنانا تعرف بقتادة بن قيس بن حبشىّ الصدفىّ شهد فتح مصر، و الجنان تعرف بالحبش، و به تعرف بركة الحبش، و ذكر بعض هذا الشرط أنّ الحدّ البحرى ينتهى إلى البئر الطولونية و إلى البئر المعروفة بموسى بن أبى خليد، و هذه البئر هى البير المعروفة بالنعش. و رأيت فى كتاب شرط هذه البركة أنها محبسة على البئرين اللتين استنبطهما أبو بكر المارداني فى بنى وائل بحضرة الخليج و القنطرة المعروفة، أحدهما بالفندق و الأخرى بالعتيق، و على السرب الذى يدخل منه الماء إلى البئر الحجارة المعروفة بالروا، التى فى بنى وائل، ذات القناطر التى يجرى فيها الماء إلى المصنعة التى بحضرة العقبة التى يصار منها إلى يحصب، و هى المصنعة المعروفة بدليله، و على القنوات المتصلة بها التى تصب إلى المصنعة ذات العمد الرخام القائمة فيها، المعروفة بسمينة، و هى التى فى وسط يحصب. و يقال أن هناك كانت سوق ليحصب، و ذكر فى هذا الشرط دارا له فى موضع السقاية المعروفة بسقاية زوف، و شرط أن تنشأ هذه الدار مصنعة على مثل هذه المصنعة المقدّم ذكرها، المعروفة بسمينة، و هى سقاية زوف اليوم، و على القناة التى يجرى فيها الماء إلى مصنعة ذكر أنّه كان أنشأها عند البئر المعروفة اليوم ببئر القبة، و الحوض الذى

هناك بحضرة المسجد المعروف بمسجد القبة، و كانت هذه المصنعة تسمى ريا، و جعل هذا الحبس أيضا على البئر التى له بالحبانية بحضرة الخندق، و ذكر أنها تعرف بالقبانية، و أن ماءها يجرى إلى المصنعة المقابلة للميدان من دار الإمارة فى طريق المصلى القديم، ثم إلى المصنعة التى تحت مسجده المقابل لدار عبد العزيز، ثم إلى المصنعة المقابلة لمسجد التربة المجاورة لمسجد الأخضر، و تاريخ هذا الشرط شهر رمضان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۱

سنة سبع و ثلاثمائة، و جعل ما يفضل عن جميع ذلك مصروفا فى ابتياع بقر و كباش تذبح و يطبخ لحمها، و يبتاع أيضا معها خبز برّ و دراهم و أكسية و أعبية و يتصدّق بذلك على الفقراء و المساكين بالمغافر و غيرها من القبائل بمصر، و كان بناؤه السقايتين اللتين بالموقف و السقايات التى بالمغافر و بزوف و بيحصب و بنى وائل، و عمل المجارى فى سنة أربع، و قيل فى سنة ثلاثمائة و قد حبس أبو بكر على الحرمين ضياعا كان ارتفاعها نحو مائة و ألف دينار، و منها سيوط و أعمالها و غيرها. انتهى.

و فى تواريخ النصارى: أن الأمير أحمد بن طولون صادر البطريق ميخائيل بطرك اليعاقبة على عشرين ألف دينار، فباع النصارى رباع الكنائس بالاسكندرية و أرض الحبش بظاهر مصر و الكنيسة المجاورة للمعلقة بقصر الشمع بمصر لليهود. قلت هكذا فى تواريخهم، و لا أعلم كيف ملكوا أرض الحبش، فلعلّ المارداني هو الذى اشتراها، ثم وقفها.

و قال ابن المتوج: بركة الحبش هذه البركة مشهورة فى مكانها، و قد اتصل ثبوت وقفها عند قاضى القضاة بدر الدين أبى عبد اللّه محمد بن سعد اللّه بن جماعة رحمة اللّه عليه، على أنها وقف على الأشراف الأقارب و الطالبيين نصيف، بينهما بالسوية، النصف الأوّل على الأقارب و النصف الآخر على الطالبيين، و ثبت قبله عند قاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن يوسف بن الحسن السنجارىّ أن النصف منها وقف على الأشراف الأقارب بالاستفاضة، بتاريخ ثالث عشر ربيع الأوّل سنة أربعين و ستمائة، و هم الأقارب الحسينيون، و هو إذ ذاك قاضى القضاة بالقاهرة و الوجه البحرىّ، و ما مع ذلك من البلاد الشامية المضافة إلى ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب، و ثبت عند قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رحمه اللّه تعالى، و كان قاضى القضاة بمصر و الوجه القبلىّ، و خطيب مصر بالاستفاضة أيضا، أن البركة المذكورة وقف على الأشراف الطالبيين بتاريخ التاسع و العشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربعين و ستمائة، و بعدهما قاضى القضاة وجيه الدين البهنسىّ فى ولايته، ثم نفذهما بعد تنفيذ وجيه الدين المذكور فى شعبان سنة ثلاث عشرة و سبعمائة قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن جماعة، و هو حاكم الديار المصرية، خلا ثغر الإسكندرية، و يأتى أصل خبر هذه البركة مبينا مشروحا من أصلها فى مكانه إن شاء اللّه تعالى.

قال: فمن جملة الأوقاف بركة الأشراف المشهورة ببركة الحبش، و هذه البركة حدودها أربعة، الحدّ القبلىّ ينتهى بعضه إلى أرض العدوية، يفصل بينهما جسر هناك و باقية إلى غيطان بساتين الوزير، و الحدّ البحرىّ ينتهى بضعه إلى أبنية الآدر التى هناك المطلة عليها، و إلى الطريق، و إلى الجسر الفاصل بينها، و بين بركة الشعيبية. و الحدّ الشرقىّ إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۲

حدّ بساتين الوزير المذكورة، و الحدّ الغربىّ ينتهى إلى بعضه إلى بحر النيل و إلى أراضى دير الدين و إلى بعض حقوق جزيرة ابن الصابونىّ و جسر بستان المعشوق الذى هو من حقوق الجزيرة المذكورة، و هذه البركة وقف الأشراف الأقارب و الطالبيين نصفين بينهما بالسوية، و الذى شاهدته من أمرها أنى وقفت على أسجال قاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن يوسف السنجارىّ رحمة اللّه تعالى تعالى عليه تاريخه ثانى عشر ربيع الآخر سنة أربعين و ستماة، و هو حين ذاك حاكم القاهرة و الوجه البحرىّ على محضر شهد فيه بالاستفاضة، أن نصف هذه البركة وقف على الأشراف الأقارب الحسينيين، و ثبت ذلك عنده، و رأيت أسجال الشيخ قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رحمه اللّه على محضر شهد فيه بالاستفاضة، و هو حين ذلك قاضى مصر و الوجه القبلىّ، و أشهد عليه أن ثبت عنده أن البركة المذكورة جميعها وقف على الأشراف الطالبيين، و تاريخ اسجالة التاسع و العشرون من شهر ربيع

الآخر سنة أربعين و ستمائة، ثم نفذهما جميعا فى تاريخ واحد قاضى القضاة وجيه الدين البهنسىّ، و هو قاضى القضاة حين ذاك، ثم نفذهما قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن جماعة، و هو قاضى القضاة بالديار المصرية، و استقرّ النصف من ربع هذه البركة على الأشراف الأقارب مع قلتهم، و النصف على الأشراف الطالبيين مع كثرتهم، و تنازعوا غير مرّة على أن تكون بينهم الجميع بالسوية، فلم يقدروا على ذلك، و عقد لهم مجل غير مرّة فلم يقدروا على تغييره، و أحسن ما وصفت به بركة الحبش قول عيسى بن موسى الهاشمىّ أمير مصر و قد خرج إلى الميدان الذى بطرف المقابر فقال لمن معه: أ تتأملون الذى أرى، قالوا و ما الذى يرى الأمير؟ قال: أرى ميدان رهان و جنان نخل و بستان شجر و منازل سكنى و ذروة جبل و جبانة أموات و نهر أعجاجا و أرض زرع و مراعى ماشية و مرتع خيل و ساحل بحر و صائد نهر و قانص وحش و ملاح سفينة و حادى إبل و مفازة رمل و سهلا و جبلا، فهذه ثمانية عشر منتزها فى أقلّ من ميل فى ميل، و أين هذه الأوقاف من وصف بعضهم قصر أنس بالبصرة فى قوله:

زر وادى القصر نعم القصر و الوادىلا بدّ من زورة من غير ميعاد

زره فليس له شىء يشاكلهمن منزل حاضر إن شئت أوبادى

تلقى به السفن و الأعياس حاضرةو الضب و النون و الملاح و الحادى

و قال:

زر وادى القصر نعم القصر و الوادىو حبذا أهله من حاضر بادى

تلقى قراقرة و العيس واقفةو الضب و النون و الملاح و الحادى

هكذا أنشدهما أبو الفرج الأصبهانىّ رحمه اللّه تعالى فى كتاب الأغانى، و نسبهما لابن عيينة بن المنهال بن محمد بن أبى عيينة بن المهلب بن أبى صفرة، شاعر من ساكنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۳

البصرة، و قيل أن اسمه عذرة، و قيل اسمه أبو عيينة، و كنيته أبو المنهال، و كان بعد المائتين، و أنشد أبو العلاء المعرّى فى رسالة الصاهل و الساحج:

يا صاح ألمم بأهل القصر و الوادىو حبذا أهله من حاضر بادى

ترى قراقرة و العيس واقفةو الضب و النون و الملاح و الحادى

و قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ. و فى هذا الوقت من السنة يعنى أيام النيل، تكون أرض مصر أحسن شىء منظرا، و لا سيما منتزهاتها المشهورة و دياراتها المطروقة، كالجزيرة و الجيزة و بركة الحبش و ما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة و القصف، و يتناوبها ذوو الآداب و الظرف، و اتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش و افترشنا من زهرها أحسن بساط، و استظللنا من دوحها بأوفى رواق، فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقدام شموسا فى خلع بدور، و جسوم نار فى غلائل نور إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء. و نشبت نار الشفق بفحمة الظلماء، فقال بعضهم: و هو أمية المذكور من قوله المشهور:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۳ ؛ ص۲۷۳

للّه يومى ببركة الحبشو اوفق بين الضياء و الغبش

و النيل تحت الرياح مضطرب كصارم فى يمين مرتعش

و نحن فى روضة مفوّفةدبّج بالنّور عطفها و وشى

قد نسجتها يد الغمام لنافنحن من نسجها على فرش

فعاطنى الراح إنّ تاركهامن سورة الهمّ غير منتعش

و أثقل الناس كلهم رجلدعاه داعى الهوى فلم يطش

فأسقنى بالكبار مترعةفهنّ أشفى لشدّة العطش

و قال أيضا:

علل فؤادك باللذات و الطربو باكر الرّاح بالبانات و النخب

أما ترى البركة الغناء لابسةو شيا من النور حاكته يد السحب

و أصبحت من جديد الروض فى حلل قد أبرز القطر منها كل محتجب

من سوسن شرق بالطلّ محجرهو أقحوان شهىّ الظلم و الشنب

فانظر إلى الورد يحكى خدّ محتشمو نرجس ظلّ يبدى لحظ مرتقب

و النيل من ذهب يطفو على ورقو الرامح من ورق يطفو على ذهب

و ربّ يوم نقعنا فيه غلتنابحاجم من فم الإبريق ملتهب

شمس من الرّاح حيانا بها قمرموف على غصن يهتز فى كثب

أرخى ذؤابه و انهزّ منعطفاكصعدة الرمح فى مسودة العذب

فاطرب و دونكها فاشرب فقد بعثتعلى التصابى دواعى اللهو و الطرب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۴

و قال:

يا نزهة الرصد المصرى قد جمعتمن كلّ شىء حلا فى جانب الوادى

فذا غدير و ذا روض و ذا جبلو الضب و النون و الملاح و الحادى

و قال ابراهيم بن الرفيق فى تاريخه: حدّثنى محمد الكهينىّ، و كان أديبا فاضلا، قد سافر و رأى بلدان المشرق قال: ما رأيت قطّ أجمل من أيام النوروز، و الغيطاس، و الميلاد، و المهرجان، و عيد الشعانين، و غير ذلك من أيام اللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم، رغبة فى القصف و العزف، و ذلك أنه لا يبقى صغير و لا كبير إلّا خرج إلى بركة الحبش متنزها، فيضربون عليها المضارب الجليلة، و السرادقات و القباب، و الشراعات، و يخرجون بالأهل و الولد، و منهم من يخرج بالقينات المسمعات المماليك و المحرّرات، فيأكلون و يشربون و يسمعون و يتفكهون و ينعمون، فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتى فارس من عبيده بالعسس عليهم فى كل ليلة، إلى أن يقضوا من اللهو و النزهة إربهم و ينصرفوا فيسكرون و ينامون كما ينام الإنسان فى بيته، و لا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة، و يركب الأمير تميم فى عشارى و يتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة و طعاما و مشروبا، فإن كانت الليالى مقمرة، و إلّا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا، فإذا مرج على طائفة و استحسن من غنائهم صوتا، أمرهم بإعادته و سألهم عما عز عليهم، فيأمر لهم به، و يأمر لمن يغنى لهم. و ينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامّة ليله، ثم ينصرف إلى قصوره و بساتينه التى على هذه البركة، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى هذه الأيام، و يتفرّق الناس.

و قال محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى الحنفىّ، و توفى بدمشق سنة إحدى و خمسين و ستمائة، يصف بركة الحبش فى أيام الربيع:

إذا زيّن الحسناء قرط فهذهيزينها من كلّ ناحية قرط

ترقرق فيها أدمع الطلّ غدوةفقلت لآل قد تضمنها قرط

و قال ابن سعيد فى كتاب المغرب: و خرجت مرّة حيث بركة الحبش التى يقول فيها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ عفا اللّه عنه:

للّه يومى ببركة الحبشو الأفق بين الضياء و الغبش

و النيل تحت الرياح مضطرب كصارم فى يمين مرتعش

و عاينت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظر، ثم زرتها أيام غاص الماء، و بقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط و الكتان تفتن الناظر، و فيها أقول:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۵ يا بركة الحبش التى يومى بهاطول الزمان مبارك و سعيد

حتى كأنك فى البسيطة جنةو كأن دهرى كله بك عيد

يا حسن ما يبدو بك الكتان فىنواره أوزرّه معقود

و الماء منك سيوفه مسلولةو القرط فيك رواقه ممدود

و كأنّ أبراجا عليك عرائس جليت و طيرك حولها غرّيد

يا ليت شعرى هل زمانك عائدفالشوق فيه مبدئ و معيد

و كان ماء النيل يدخل إلى بركة الحبش من خليج بنى وائل، و كان خليج بنى وائل مما يلى باب مصر من الجهة القبلية، الذى يعرف إلى يومنا هذا بباب القنطرة، من أجل أن هذه القنطرة كانت هناك. قال ابن المتوج: و رأيت ماء النيل فى زمن النيل يدخل من تحته إلى خليج بنى وائل. قلت و فى أيام الناصر محمد بن قلاون استولى النشو ناظر الخاص على بركة الحبش، و صار يدفع إلى الأشراف من بيت المال مالا فى كل سنة، فلما مات الناصر و قام من بعده ابنه المنصور أبو بكر أعيدت لهم.

ذكر الماردانىّ

هو أبو بكر محمد بن علىّ بن محمد بن رستم بن أحمد. و قيل محمد بن علىّ بن أحمد بن عيسى بن رستم. و قيل محمد بن علىّ بن أحمد بن إبراهيم بن الحسين بن عيسى بن رستم الماردانىّ، أحد عظماء الدنيا. ولد بنصيبين لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و خمسين و مائتين، و قدم إلى مصر فى سنة اثنتين و سبعين و مائتين، و خلف أباه علىّ بن أحمد الماردانىّ أيام نظره فى أمور أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، و سنّه يومئذ خمس عشرة سنة، و كان معتدل الكتابة ضعيف الحظ من النحو و اللغة، و مع ذلك فكان يكتب الكتب إلى الخليفة، فمن دونه على البديهة من غير نسخة، فيخرج الكتاب سليما من الخلل. و لما قتل أبوه فى سنة ثمانين و مائتين، استوزره هارون بن خمارويه، فدبّر أمر مصر إلى أن قدم محمد بن سليمان الكاتب من بغداد إلى مصر، و أزال دولة بنى طولون، و حمل رجالهم إلى العراق، فكان أبو بكر ممن حمله، فأقام ببغداد إلى أن قدم صحبة العساكر لقتال خباسة، فدبر أمر البلد و أمر و نهى، و حدّث بمصر عن أحمد بن عبد الجبار العطاردىّ و غيره، بسماعه منهم فى بغداد، و كان قليل الطلب للعلم، تغلب عليه محبة الملك و طلب السيادة، و مع ذلك كان يلازم تلاوة القرآن الكريم و يكثر من الصلاة و يواظب على الحج، و ملك بمصر من الضياع الكبار ما لم يملكه أحد قبله، و بلغ ارتفاعه فى كل سنة أربعمائة ألف دينار سوى الخراج، و وهب و أعطى و ولى و صرف و أفضل و منع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۶

و رفع و وضع، و حج سبعا و عشرين حجة، أنفق فى كل حجة منها مائة و خمسين ألف دينار، و كان تكين أمير مصر يشيعه إذا خرج للحج و يتلقاه إذا قدم، و كان يحمل إلى الحجاز جميع ما يحتاج إليه، و يفرّق بالحرمين الذهب و الفضة و الثياب و الحلوى و الطيب و الحبوب، و لا يفارق أهل الحجاز إلّا و قد أغناهم. و قيل مرّة و هو بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة و السلام، ما بات فى هذه الليلة أحد بمكة و المدينة و أعمالهما إلّا و هو شبعان من طعام أبى بكر الماردانىّ.

و لما قدم الأمير محمد بن طغج الإخشيد إلى مصر استتر منه، فإنه كان منعه من دخول مصر، و جمع العساكر لقتاله، فاجتمع له زيادة على ثلاثين ألف مقاتل، و حارب بهم بعد موت تكين أمير مصر، و مرّت به خطوب لكثرة فتن مصر إذ ذاك، و أحرقت دوره و دور

أهله و مجاوريه، و أخذت أمواله و استتر فقبض على خليفته و عماله، فكتب إلى بغداد يسأل إمارة مصر، و كتب محمد بن تكين بالقدس يسأل ذلك، فعاد الجواب بإمارة ابن تكين، و أن يكون الماردانيّ يدبر أمر مصر و يولى من شاء، فظهر عند ذلك من الاستتار و أمر و نهى و دبر أمر البلد، و صار الجيش بأسره يغدو إلى بابه، فأنفق فى جماعة، و اصطنع قوما، و قتل عدّة من أصحاب ابن تكين، و كان محمد بن تكين بالقدس، و أمر مصر كله للماردانيّ بمفرده و معه أحمد بن كيغلغ، و قد قدم من بغداد بولاية ابن تكين على مصر، و ولاية أبى بكر الماردانيّ تدبير الأمور، فاستمال أبو بكر أحمد بن كيغلغ حتى صار معه على ابن تكين و حاربه، و كان من أمره ما كان إلى أن قدمت عساكر الإخشيد، فقام أبو بكر لمحاربتهم، و منع الإخشيد من مصر، فكان الإخشيد غالبا له و دخل البلد فاستتر منه أبو بكر إلى أن دلّ عليه فأخذ و سلمه إلى الفضل بن جعفر بن الفرات، فلما صار إلى ابن الفرات قال له: إيش هذا الاستيحاش و التستر، و أنت تعلم أن الحج قد أظلّ و يحتاج لإقامة الحج، فقال به أبو بكر: إن كان إليّ فخمسة عشر ألف دينار، فقال ابن الفرات: أيش، خمسة عشر ألف دينار؟ قال ما عندى غير هذا، فقال ابن الفرات: بهذا ضربت وجه السلطان بالسيف، و منعت أمير البلد من الدخول.

ثم صاح يا شاذن خذه إليك فأقيم و أدخل إلى بيت، و كان يومئذ صائما، فامتنع من تناول الطعام و الشراب و لزم تلاوة القرآن و الصلاة طول يومه و ليلته، و أصبح فامتنع ابن الفرات من الأكل إجلالا له، فلما كان وقت الفطر من الليلة الثانية، امتنع أبو بكر من الفطر كما امتنع فى الليلة الأولى، فامتنع ابن الفرات أيضا من الأكل و قال: لا آكل أبدا أو يأكل أبو بكر، فلما بلغ ذلك أبا بكر أكل، فأخذ ابن الفرات فى مصادرته و قبض على ضياعه التى بالشام و مصر، و تتبع أسبابه. ثم خرج به معه إلى الشام و عاد به إلى مصر، ثم خرج به ثانيا إلى الشام، فمات الفضل بن الفرات بالرملة، و رجع أبو بكر إلى مصر فردّ إليه الإخشيد أمور مصر كلها، و خلع على ابنه، و تقلد السيف، و لبس المنطقة، و لبس أبو بكر الدراعة تنزها، ثم تنكر عليه الإخشيد و قبضه فى سنة إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة، و جعله فى دار و أعدّ له فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۷

من الفرش و الآلات و الأوانى و الملبوس و الطيب و الطرائف و أنواع المآكل و المشارب ما بلغ فيه الغاية، و تفقدها بنفسه و طافها كلها، فقيل له عملت هذا كله لمحمد بن علىّ الماردانيّ؟

فقال: نعم، هذا ملك و أردت أن لا يحتقر بشىء لنا، و لا يحتاج أن يطلب حاجة إلّا وجدها، فإنه إن فقد عندنا شيئا مما يريده استدعى به من داره، فنسقط نحن من عينيه عند ذلك، فلم يزل معتقلا حتى خرج الإخشيد إلى لقاء أمير المؤمنين المتقى للّه، فحمله معه، و لما مات الإخشيد بدمشق كان أبو بكر بمصر، فقام بأمر أونوجور بن الإخشيد و قبض على محمد بن مقاتل وزير الإخشيد، و أمر و نهى و صرّف الأور إلى أن كانت واقعة غلبون و اتصال أبى بكر به، فلما عادت الإخشيدية قبض على أبى بكر و نهبت دوره و أحرق بعضها و أخذ ابنه، و قام أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات بأمر الوزارة، فعند ما قدم كافور الإخشيدى من الشام بالعساكر التى كانت مع الإخشيد أطلق أبا بكر و أكرمه و ردّ ضياعه و ضياع ابنه، فلما ماتت أمّ ولده لحقه كافور و معه الأمير أونوجور عند المقابر و ترجلا له و عزياه، ثم ركبا معه حتى صليا عليها، فلما مرض مرض موته، عاده كافور مرارا إلى أن مات فى شهر شوال سنة خمس و أربعين و ثلاثمائة، فدفن بداره. ثم نقل إلى المقابر، و كانت فضائله جمة منها:

أنه أقام أربعين سنة يصوم الدهر كله، و يركب كل يوم إلى المقابر بكرة و عشية، فيقف له الموكب حتى يمضى إلى تربة أولاده و أهله فيقرأ عندهم و يدعو لهم، و ينصرف إلى المساجد فى الصحراء فيصلى بها و الناس وقوف له، إلّا أنه كان فى غاية العجلة لا يراجع فيما يريده و لو كان ما كان، و لما أراد المقتدر أن يقيم وزيرا كتبت رقعة فيها أسماء جماعة، و أنفذت إلى علىّ بن عيسى ليشير بواحد منهم، و كان أبو بكر ممن كتب معهم اسمه، فكتب تحت كل اسم واحد منهم ما يستحقه من الوصف، و كتب تحت اسم أبى بكر محمد بن علىّ الماردانيّ: مترف عجول، و بنى أبو بكر السقايات و المساجد فى المغافر و فى يحصب و بنى وائل، و ليس

لشيء منها اليوم أثر يعرف، و مرّت به في هذا الكتاب أخبار، و قد أفرد له ابن زولاق سيرة كبيرة، و هذا منها و اللّه أعلم.

ذكر بساتين الوزير

هذه البساتين في الجهة القبلية من بركة الحبش، و هي قرية فيها عدّة مساكن و بساتين كثيرة، و بها جامع تقام فيه الجمعة، و عرفت بالوزير أبي الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن محمد المغربيّ، و بنو المغربيّ أصلهم من البصرة، و صاروا إلى بغداد، و كان أبو الحسن عليّ بن محمد تخلف على ديوان المغرب ببغداد، فنسب به إلى المغرب، و ولد ابنه الحسين بن عليّ ببغداد فتقلد أعمالا كثيرة منها: تدبير محمد بن ياقوت عند استيلائه على أمر الدولة ببغداد، و كان خال ولده عليّ، و هو أبو عليّ هارون بن عبد العزيز الأوراجيّ، الذي مدحه أبو الطيب المتنبي من أصحاب أبي بكر محمد بن رائق، فلما لحق ابن رائق ما لحقه بالموصل، صار الحسين بن عليّ بن المغربي

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۸

إلى الشام، و لقي الإخشيد و أقام عنده و صار ابنه أبو الحسن عليّ بن الحسين ببغداد، فأنفذ الإخشيد غلامه فاتك المجنون فحمله و من يليه إلى مصر، ثم خرج ابن المغربيّ من مصر إلى حلب و لحق به سائر أهله و نزلوا عند سيف الدولة أبي الحسن عليّ بن عبد اللّه بن حمدان مدّة حياته، و تخصص به الحسين بن عليّ بن محمد المغربيّ، و مدحه أبو نصر بن نباتة، و تخصص أيضا عليّ بن الحسين بسعد الدولة بن حمدان، و مدحه أبو العباس النامي، ثم شجر بينه و بين ابن حمدان ففارقه و صار إلى بكجور بالرقة، فحسن له مكاتبة العزيز بالله نزار و التحيز إليه، فلما وردت على العزيز مكاتبة بكجور قبله و استدعاه، و خرج من الرقة يريد دمشق، فوافاه عبد العزيز بولاية دمشق و خلفه فتسلمها و خرج لمحاربة ابن حمدان بحلب بمشورة عليّ بن المغربيّ، فلم يتم له أمر و تأخر عنه من كاتبه فقال لابن المغربيّ:

غررتني فيما أشرت به عليّ. و تنكر له ففرّ منه إلى الرقة، و كانت بين بكجور و بين ابن حمدان خطوب آلت إلى قتل ابن بكجور، و مسير ابن حمدان إلى الرقة، ففرّ ابن المغربيّ منها إلى الكوفة و كاتب العزيز بالله يستأذنه في القدوم، فأذن له، و قدم إلى مصر في جمادى الأولى سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة، و خدم بها و تقدّم في الخدم، فحرّض العزيز على أخذ حلب، فقلد ينجوتكين بلاد الشام و ضم إليه أبا الحسن بن المغربيّ ليقوم بكتابته و نظر الشام و تدبير الرجال و الأموال، فسار إلى دمشق في سنة ثلاث و ثمانين و ثلاثمائة، و خرج إلى حلب و حارب أبا الفضائل بن حمدان و غلامه لؤلؤ، فكاتب لؤلؤ أبا الحسن بن المغربيّ و استماله حتى صرف ينجوتكين عن محاربة حلب و عاد إلى دمشق، و بلغ ذلك العزيز بالله فاشتدّ حنقه على ابن المغربيّ و صرفه بصالح بن عليّ الروذباديّ، و استقدم ابن المغربيّ إلى مصر، و لم يزل بها حتى مات العزيز بالله و قام من بعده ابنه الحاكم بأمر اللّه أبو عليّ منصور، فكان هو و ولده أبو القاسم حسين من جلسائه، فلما شرع الحاكم بأمر اللّه في قتل رجال الدولة من القوّاد و الكتاب و القضاة، قبض على عليّ و محمد ابني المغربيّ و قتلهما، ففرّ منه أبو القاسم حسين بن عليّ بن المغربيّ إلى حسان بن مفرّج بن الجرّاح، فأجاره و قلد الحاكم يارجتكين الشام، فخافه ابن جرّاح لكثرة عساكره، فحسن له ابن المغربيّ مهاجمته، فطرق يارجتكين في مسيره على غفلة و أسره و عاد إلى الرملة، فشن الغارات على رساتيقها، و خرج العسكر الذي بالرملة فقاتل العرب قتالا شديدا كادت العرب أن تنهزم لولا ثبتها ابن المغربيّ، و أشار عليهم بإشهار النداء بإباحة النهب و الغنيمة، فثبتوا و نادوا في الناس فاجتمع لهم خلق كثير، و زحفوا إلى الرملة فملكوها و بالغوا في النهب و الهتك و القتل، فانزعج الحاكم لذلك انزعاجا عظيما، و كتب إلى مفرّج بن جرّاح يحذره سوء العاقبة و يلزمه بإطلاق يارجتكين من يد حسان ابنه. و إرساله إلى القاهرة، و وعده على ذلك بخمسين ألف دينار، فبادر ابن المغربيّ لما بلغه ذلك إلى حسان و ما زال يغريه بقتل يارجتكين حتى أحضره و ضرب عنقه، فشق ذلك على مفرّج، و علم أنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۹

فسد ما بينهم و بين الحاكم، فأخذ ابن المغربيّ يحسن لمفرّج خلع طاعة الحاكم و الدعاء لغيره إلى أن استجاب له، فراسل أبا الفتوح الحسن بن جعفر العلويّ أمير مكة يدعوه إلى الخلافة، و سهل له الأمر و سير إليه بابن المغربيّ يحثه على المسير، و جرّأه على أخذ مال تركه بعض المياسير، و نزع المحاريب الذهب و الفضة المنصوبة على الكعبة و ضربها دنانير و دراهم و سماها الكعبية، و خرج ابن المغربيّ من مكة فدعا العرب من سليم و هلال و عوف بن عامر، ثم سار به و بمن اجتمع عليه من العرب حتى نزل الرملة، فتلقاه بنو الجرّاح و قبلوا له الأرض و سلموا عليه بإمرة المؤمنين، و نادى في الناس بالأمان، و صلّى بالناس الجمعة فامتغص الحاكم لذلك و أخذ في استمالة حسان و مفرّج و غير هما، و بذل لهم الأموال، فتنكروا على أبي الفتوح، و قلد أيضا مكة بعض بني عمّ أبي الفتوح فضعف أمره و أحسن من حسان بالغدر، فرجع إلى مكة و كاتب الحاكم و اعتذر إليه فقبل عذره و أما ابن المغربيّ فإنه لما انحلّ أمر أبي الفتوح و رأى ميل بني الجرّاح إلى الحاكم كتب إليه:

و أنت و حسبي أنت تعلم أنّ لي‌لسانا أمام المجد يبني و يهدم

و ليس حليما من تباس يمينه‌فيرضى و لكن من تعض فيحلم

فسير إليه أمانا بخطه، و توجه ابن المغربيّ قبل وصول أمان الحاكم إليه إلى بغداد، و بلغ القادر بالله خبره فاتهمه بأنه قدم في فساد الدولة العباسية، فخرج إلى واسط و استعطف القادر فعطف عليه، و عاد إلى بغداد ثم مضى إلى قرواش بن المقلد أمير العرب و سار معه إلى الموصل، فأقام بها مدّة، و خافه وزير قرواش فأخرجه إلى ديار بكر فأقام عند أميرها نصير الدولة أبي نصر أحمد بن مروان الكرديّ، و تصرّف له و كان يلبس في هذه المدّة المرقعة و الصوف، فلما تصرّف غير لباسه و انكشف حاله فصار كمن قيل فيه و قد ابتاع غلاما تركيا كان يهواه قبل أن يبتاعه:

تبدّل من مرقعة و نسك‌بأنواع الممسّك و الشفوف

و عنّ له غزال ليس يحوي‌هواه و لا رضاه بلبس صوف

فعاد أشدّ ما كان انتهاكاكذاك الدهر مختلف الصروف

و أقام هناك مدّة طويلة في أعلى حال و أجل رتبة و أعظم منزلة، ثم كوتب بالمسير إلى الموصل ليستوزره صاحبها، فسار عن ميافارقين و ديار بكر إلى الموصل، فتقلد وزارتها و تردّد إلى بغداد في الوساطة بين صاحب الموصل و بين السلطان أبي عليّ بن سلطان الدولة أبي شجاع بن بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة أبي شجاع بن ركن الدولة أبي عليّ بن بويه، و اجتمع برؤساء الديلم و الأتراك، و تحدّث في وزارة الحضرة حتى تقلدها بغير خلع و لا لقب و لا مفارقة الدراعة، في شهر رمضان سنة خمس عشرة و أربعمائة، فأقام شهورا و أغرى رجال الدولة بعضهم ببعض، و كانت أمور طويلة آلت إلى خروجه من الحضرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۰

إلى قرواش، فتجدّد للقادر بالله فيه سوء ظنّ بسبب ما أثاره من الفتنة العظيمة بالكوفة، حتى ذهبت فيها عدّة نفوس و أموال، ففرّ إلى أبي نصر بن مروان فأكره و أقطعه ضياعا و أقام عنده، فكوتب من بغداد بالعود إليها، فبرز عن ميافارقين يريد المسير إلى بغداد، فسمّ هناك و عاد إلى المدينة فمات بها، لأيام خلت من شهر رمضان سنة ثمان عشرة و أربعمائة، و مولده بمصر ليلة الثالث عشر من ذي الحجة سنة سبعين و ثلاثمائة.

و كان أسمر شديد السمرة، بساطا عالما بليغا مترسلا متفننا في كثير من العلوم الدينية و الأدبية و النحوية، مشارا إليه في قوّة الذكاء و الفطنة و سرعة الخاطر و البديهة، عظيم القدر صاحب سياسة و تدبير و حيل كثيرة و أمور عظام، دوّخ الممالك و قلّب الدول، و سمع الحديث و روى و صنف عدّة تصانيف، و كان ملولا حقودا لا تلين كبده و لا تنحلّ عقده. و لا يحنى عوده و لا ترجى و عوده، و له رأي يزين له العقوق و يبغض إليه رعاية الحقوق، كأنه من كبره قد ركب الفلك و استولى على ذات الحبك، و كان بمصر من بني المغربيّ أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين المغربيّ، قد قتل الحاكم جدّه محمدا مع أبيه عليّ بن الحسين كما

تقدّم، فلما نشأ أبو جعفر سار إلى العراق و خدم هناك و تنقلت به الأحوال، ثم عاد إلى مصر و اصطنعه الوزير البارزيّ و ولاه ديوان الجيش، و كانت السيدة أم المستنصر بالله تعنى به، فلما مات الوزير البارزيّ و ولى بعده الوزير أبو الفرج عبد اللّه بن محمد البابليّ، قبض عليه فى جملة أصحاب البارزيّ و اعتقله، فتقرّرت له الوزارة و هو فى الاعتقال، و خلع عليه فى الخامس و العشرين من شهر ربيع الآخر سنة خمسين و أربعمائة، و لقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد، صفيّ أمير المؤمنين و خالصته، فما تعرّض لأحد و لا فعل فى البابليّ ما فعله البابليّ فيه و فى أصحاب البارزيّ، فأقام سنتين و شهورا و صرف فى تاسع شهر رمضان سنة اثنتين و خمسين و أربعمائة، و كان الوزراء إذا صرفوا لم يتصرّفوا، فاقترح أبو الفرج بن المغربيّ لما صرف أن يتولى بعض الدواوين، فولى ديوان الإنشاء الذى يعرف اليوم بوظيفة كتابة السرّ، و هو الذى استنبط هذه الوظيفة بديار مصر و استحدث استخدام الوزراء بعد صرفهم عن الوزارة، و لم يزل نابه القدر إلى أن توفى سنة ثمان و سبعين و أربعمائة.

بركة الشعيبية: هذه البركة موضعها خلف جسر الأفرم، فيما بينه و بين الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد، و كانت تجاور بركة الحبش من بحريها، و قد انقطع عنها الماء و صارت بساتين و مزارع و غير ذلك. قال ابن المتوّج: بركة الشعيبية بظاهر مصر، كان يدخل إليها ماء النيل، و كان لها خليجان أحدهما من قبليها و هو الآن بجوار منظرة الصاحب تاج الدين بن حنا، المعروفة بمنظرة المعشوق، و الثانى من بحريها، و يقال له خليج بنى وائل، عليه قنطرة بها عرف باب القنطرة بمصر، و كان يجرى فيهما الماء من النيل إليها، فكان الماء يدخل إليها فى كل سنة و يعمها و يدخل إليها الشخاتير، و كان بدائرها من جانبها الشرقيّ أدر كثيرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۱

و كانت نزهة المصريين، فلما استأجرها الأمير عز الدين أيبك الأفرم من الناظر عليها من جهة الحكم العزيزى، حازها بالجسور عن الماء و غرس فيها الأشجار و الكروم و حفر الآبار، و هذه البركة مساحتها أربعة و خمسون فدّانا، و لها حدود أربعة، الحدّ القبليّ، ينتهى بعضه إلى بعض أرض المعشوق الجارى فى وقف ابن الصابونى، و إلى الجسر الفاصل بينها و بين بركة الحبش، و فى هذا الجسر الآن قنطرة يدخل إليها الماء من خليج بركة الأشراف، و الحدّ البحريّ: كان ينتهى بعضه إلى منظرة قاضى القضاة بدر الدين السنجاريّ، و إلى جسره.

و الحدّ الشرقيّ: ينتهى إلى الآدر التى كانت مطلة عليها، و قد خرب أكثرها، و كانت مسكن أعيان المصريين من القضاة و الكتاب. و الحدّ الغربيّ: ينتهى إلى جرف النيل، و لما استأجرها الأفرم شرط له خمسة أفدنة يعمر عليها و يؤجرها لمن يعمر عليها، منها فدّان واحد من بحريها، و فدّانان من غربيها ملاصقان لجدار البساتين، و فدّانان بالجرف الذى من حقوقها.

فلما مات الأفرم طمع الأمير علم الدين الشجاعى فى ورثته و فى الوقف و أربابه، فغضب أرض الجرف و جملتها فدّانان، ثم تركها، فلما كان فى أثناء دولة الناصر محمد بن قلاون و وزارة الأعسر بيعت أرضها لأرباب الأبنية التى عليها، و هذه البركة وقفها الخطير بن مماتى، و دخل معهم بنو الشعيبية لاختلاط أنسابهم بالتناسل. و قال فى موضع آخر: و من جملة الأوقاف بركة الخطير بن مماتى المشهورة ببركة الشعيبية، و مساحة أرضها أربعون و خمسون فدّانا و ربع، و لها حدود أربعة، القبليّ: من البركة الصغرى منها إلى الجسر الفاصل بينها و بين بركة الحبش، و فيه قنطرة يمرّ منها الماء إلى هذه البركة، و باقى هذا الحدّ إلى بعض أبنية مناظر المعشوق، و من جملة حقوق هذا الوقف المجاز المستطيل المسلوك فيه إلى المنظرة المذكورة، و منه دهليزها الإيوان البحرى، و هذا جميعه رأيته ترعة من تراع هذه البركة المذكورة، يمرّ الماء فيها فى زمن النيل إليها، و كان باقى هذه المنظرة دارا مطلة على بحر النيل من شرقيها، و على هذه الترعة من بحريها، ثم ملكها الصاحب تاج الدين بن حنا و هدمها و ردم الخليج و عمر المنظرة و الحمام و البيوت الموجودة الآن، و باقى ذلك كله فى أرض ابن الصابونيّ. و حدّ هذه البركة من الجهة البحرية: إلى الطريق الآن، و كان فيه جسر يعرف بجسر الحيات، كان يفصل بين هذه البركة و بين بركة شطا، و كان فيه قنطرة يجرى الماء فيها من هذه البركة إلى بركة شطا، و كان فى هذا الحدّ ترعة أخرى يجرى الماء فيها فى زمن النيل من البحر إلى هذه البركة، و رأيته يجرى فيها، و رأيت الشخاتير تدخل

فيها إلى هذه البركة، و أما حدّها الشرقيّ: فإنه كان إلى أبنية الآدر المطلة على هذه البركة، و أمّا حدّها الغربى فإنه كان إلى بحر النيل، و لم تزل كذلك إلى أن استأجرها الأمير عز الدين أيبك الأفرم، فردم هذه الترعة و بنى حيطان هذا البستان و جسر عليه و زرع فيه الشتول و الخضراوات، و أقام على ذلك عدّة سنين، ثم استأجره إجارة ثانية، و اشترط البناء على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۲

ثلاثة أفدنة فى جانبه الغربيّ، و فدّان فى جانبه البحريّ، فعمر الناس و استغنى عن الجسور و رخص على الناس حتى رغبوا فى العمارة، و آجر كل مائة ذراع من ذلك بعشرة دراهم نقرة، و عمر البئر المشهورة ببئر السواقى، فعمرت أحسن عمارة، فلما توفى توفى الأفرم طمع الشجاعيّ فى أرباب الوقف و فى ورثته، و نزع منهم الفدادين المطلة على بحر النيل، و ابتاع ذلك من وكيل بيت المال، و أعانه عليه قوم آخرون يجتمعون عند اللّه تعالى.

ذكر المعشوق

اعلم أنّ المعشوق اسم لمكان فيه أشجار بظاهر مصر، من جملة خطة راشدة، عرف أوّلا- بجنان كهمس بن معمر، ثم عرف بجنان الماردانى، ثم عرف بجنان الأمير تميم بن المعز لدين اللّه، ثم جدّده الأفضل بن أمير الجيوش فعرف به، و أجرا صار من وقف ابن الصابونيّ، فأخذه الصاحب تاج الدين محمد بن حنا، و عمر به مناظر و أوصى بعمارة رباط للآثار النبوية، و أن توقف عليه. فلما أنشئ الرباط المذكور أرصد لمصالحه. و هو الآن وقف عليه، و أرض هذا البستان مما وقفه ابن الصابونيّ على بنيه و على رباطه المجاور، لقيه الإمام الشافعيّ رضى اللّه تعالى عنه بالقرافة، و بنو الصابونيّ يستأدون من المتحدّث على رباط الآثار شيئا فى كل سنة عن حكر أرض بستان المعشوق. قال القضاعيّ فى ذكر خطة راشدة: و منها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة، و الجنان المعروفة كانت تعرف بكهمس بن معمر، ثم عرفت بالماردانيّ، و هو المعروف الآن بالأمير تميم بن المعز.

هذا و قد بنى المعتمد على اللّه أحمد بن المتوكل فى الجانب الشرقيّ من سرّ من رأى قصر أسماه المعشوق، و أقام به، و بين بغداد و تكريت منزلة فيها آثار بناء و قصور تسمى العاشق و المعشوق، و فيه أنشد الشريف زهرة بن علىّ بن زهرة بن الحسن الحسينيّ، و قد اجتاز به يريد الحج:

قد رأيت المعشوق و هو من الهجر بحال تنبو النواظر عنه

أثّر الدهر فيه آثار سوءقد أدالت يد الحوادث منه

و قال ابن يونس: كهمس بن معمر بن محمد بن معمر بن حبيب، يكنّى أبا القاسم، كان أبوه بصريا، و ولد هو بمصر، و كان عاقلا، و كانت القضاة تقبله، حدّث عن محمد بن رمح، و عيسى بن حماد زغبة، و سلمة بن شبيب و نحوهم، توفى فى يوم الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة و ثلاثمائة.

و قال ابن خلكان: تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهديّ، كان أبوه صاحب الديار المصرية و المغرب، و هو الذى بنى القاهرة المعزية، و كان تميم فاضلا شاعرا ماهرا لطيفا ظريفا، و لم يل المملكة، لأنّ ولاية العهد كانت لأخيه العزيز، فوليها بعد أبيه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۳

و أشعاره كلها حسنة، و كانت وفاته فى ذى القعدة سنة أربع و سبعين و ثلاثمائة، و قد ذكر كلا من الماردانيّ و ابن حنا و الأفضل. و أما ابن مماتى فإنه أسعد بن مهذب بن زكريا بن قدامة بن نينا شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى المليح الكاتب المصرى، فأصله من نصارى أسيوط من صعيد مصر، و اتصل جدّه أبو المليح بأمير الجيوش بدر الجمالىّ وزير مصر فى أيام الخليفة المستنصر بالله، و كتب فى ديوان مصر، و ولى استيفاء الديوان، و كان جوادا ممدوحا انقطع إليه أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكيسة الشاعر، فمن قوله فيه لما مات:

طويت سماء المكرمات و كوّرت شمس المديح

و تناثرت شهب العلامن بعد موت أبى المليح

ما كان بالنكس الدنيء من الرجال و لا الشحيح

كفر النصارى بعد ماعذروا به دون المسيح

و رثاه جماعة من الشعراء، و لما مات ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا ديوان الجيش بمصر فى آخر الدولة الفاطمية، فلما قدم الأمير أسد الدين شيركوه و تقلد وزارة الخليفة العاضد شدّد على النصارى و أمرهم بشدّ الزنانير على أوساطهم، و منعهم من إرخاء الذؤابة التى تسمى اليوم بالعذبة، فكتب لأسد الدين:

يا أسد الدين و من عدلهيحفظ فينا سنّة المصطفى

كفى غيارا شدّ أوساطنافما الذى أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبته، و لا مكنه من إرخاء الذؤابة، و عند ما آيس من ذلك أسلم، فقدّم على الدواوين حتى مات، فخلفه ابنه أبو المكارم أسعد بن مهذب الملقب بالخطير على ديوان الجيش، و استمرّ فى ذلك مدّة أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و أيام ابنه الملك العزيز عثمان، و ولى نظر الدواوين أيضا، و اختص بالقاضى الفاضل، و حظى عنده، و كان يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه، و صنف عدّة مصنفات منها: تلقين اليقين فيه الكلام على حديث بنى الإسلام على خمس. و كتاب حجة الحق على الخلق فى التحذير من سوء عاقبة الظلم. و هو كبير، و كان السلطان صلاح الدين يكثر النظر فيه، و قال فيه القاضى الفاضل: وقفت من الكتب على ما لا تحصى عدّته، فما رأيت و اللّه كتابا يكون قبالة باب منه، و إنه و اللّه من أهمّ ما طالعه الملوك و كتاب قوانين الدواوين، صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر و رسومها و أصولها و أحوالها و ما يجرى فيها، و هو أربعة أجزاء ضخمة، و الذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد اختصره منه غير المصنف، فإنّ ابن مماتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر، و مساحة كل ضيعة، و قانون ريها و متحصلها من عين و غلة، و نظّم سيرة السلطان صلاح الدين يوسف، و نظم كليلة و دمنة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۴

و له ديوان شعر، و لم يزل بمصر حتى ملك السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، و وزر له صفىّ الدين علىّ بن عبد اللّه بن شكر، فخافه الأسعد لما كان يصدر منه فى حقه من الإهانة، و شرع الوزير ابن شكر فى العمل عليه، و رتب له مؤامرات و نكبه و أحال عليه الأجناد، ففرّ من القاهرة و سقط فى حلب، فخدم بها حتى مات فى يوم الأحد سلخ جمادى الأولى سنة ست و ستمائة، عن اثنتين و ستين سنة.

و كان سبب تلقيب أبى مليح بمماتى، أنه كان عنده فى غلاء مصر فى أيام المستنصر قمح كثير، و كان يتصدّق على صغار المسلمين و هو إذ ذاك نصرانىّ، و كان الصغار إذا رأوه قالوا مماتى فلقب بها و من شعره:

تعاتبنى و تنهى عن أمورسبيل الناس أن ينهوك عنها

أ تقدر أن تكون كمثل عينىو حقك ما علىّ أضرّ منها

و قال فى اترجة كانت بين يدى القاضى الفاضل و هو معنى بديع:

للّه بل للحسن أترجة تذكر الناس بأمر النعيم

كأنها قد جمعت نفسهامن هيبة الفاضل عبد الرحيم

بركة شطا: هذه البركة موضعها الآن كيمان، على يسرة من يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر طالبا جسر الأفرم و رباط الآثار، كان الماء يعبر إليها من خليج بنى وائل، و موضعه على يمنة من يخرج من باب القنطرة المذكورة، و كان عليه قنطرة بناها العزيز بالله بن المعز، و بها سمى باب القنطرة هذا.

قال ابن المتوج: بركة شطا بظاهر مصر على يسرة من مرّ من باب القنطرة، و كان الماء يدخل إليها من خليج بنى وائل من برابخ بالسور المستجدّ، و من بركة الشعيبية من قنطرة فى وسط الجسر المعروف بجسر الحيات، الذى كان يفصل بين البركتين المذكورتين، و كان بوسطها مسجد يعرف بمسجد الجلالة، بقناطر بوسطها، كان يسلك عليها إليه، و كان يطلّ على بركة شطا آدر خربت بانقطاع الماء عنها، و كان إلى جانبها بستان فيه منظرة و درابة و طاحون و حمّام، و بظاهر بابه حوض سبيل، وقف ذلك المخلص الموقع و قد خرب.

بركة قارون: هذه البركة موضعها الآن فيما بين حدرة ابن قميحة خلف جامع ابن طولون، و بين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة و بركة الفيل، و عليها الآن عدّة آدر، و تعرف ببركة قراجا، و كان عليها عدّة عمائر جليلة فى قديم الزمان عند ما عمّر العسكر و القطائع، فلما خرب العسكر و القطائع كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، خرب ما كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۵

من الدور على هذه البركة أيضا، حتى أنه كان من خرج من مصلى مصر القديم، و موضعه الآن الكوم الذى يطلّ على قبر القاضى بكار بالقرافة الكبرى، يرى بركة الفيل و قارون و النيل، و لم يزل ما حول هذه البركة خرابا إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاون البركة الناصرية فى أراضى الزهرى، و كانت واقعة الكنائس فى سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، فصار جانب هذه البركة الذى يلى خط السبع سقايات مقطع طريق، فيه مركز يقيم فيه من جهة متولى مصر من يحرس المارة من القاهرة إلى مصر، و لم يكن هناك شىء من الدور، و إنما كان هناك بستان بجوار حوض الدمياطىّ الموجود الآن تجاه كوم الأسارى على يمنة من خرج و سلك من السبع سقايات إلى قنطرة السدّ، و يشرف هذا البستان على هذه البركة، فحكر أقبغا عبد الواحد مكانه، و صارت فيه الدور الموجودة الآن كما ذكر عند حكر أقبغا فى ذكر الأحكار.

قال القضاعىّ: دار الفيل هى الدار التى على بركة قارون، ذكر بنو مسكين أنها من حبس جدّهم، و كان كافور أمير مصر اشتراها و بنى فيها دارا ذكر أنه أنفق عليها مائة ألف دينار، ثم سكنها فى رجب سنة ست و أربعين و ثلاثمائة، و ذكر اليمنىّ أنه انتقل إليها فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة، و أنه كان أدخل فيها عدّة مساجد و مواضع اغتصبها من أربابها، و لم يقم فيها غير أيام قلائل، ثم أرسل إلى أبى جعفر مسلم الحسينىّ ليلا فقال له:

امض بى إلى دارك، فمضى به، فمرّ على دار فقال: لمن هذه؟ فقال: لغلامك نحرير التربية، فدخلها و أقام فيها شهورا إلى أن عمروا له دار خمارويه المعروفة بدار الحرم، و سكنها، و قيل أن سبب انتقاله من جنان بنى مسكين بخار البركة. و قيل و باء وقع فى غلمانه، و قيل ظهر له بهاجان. و كانت دار الفيل هذه ينظر منها جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة.

قال أبو عمر الكندىّ فى كتاب الموالى: و منهم أبو غنيم مولى مسلمة بن مخلد الأنصارىّ، كان شريفا فى الموالى، و ولاه عبد العزيز بن مروان الجزيرة، ثم عزله عنها، و كان يجلس فى داره التى يقال لها دار الفيل فينظر إلى الجزيرة فيقول لإخوانه: أخبرونى بأعجب شىء فى الدنيا. قالوا: منارة الإسكندرية. قال: ما أصبتم شيئا. قال: فيقولون له فقناة قرطاجنة. فيقول: ما صنعتم شيئا. قالوا: فما تقول أنت؟ قال: العجب أنى أنظر إلى الجزيرة و لا أقدر أدخلها، و على هذه البركة الآن عدّة آدر جليلة و جامع و حمام و غير ذلك، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

بركة الفيل: هذه البركة فيما بين مصر و القاهرة، و هى كبيرة جدّا، و لم يكن فى القديم عليها بنيان، و لما وضع جوهر القائد مدينة القاهرة كانت تجاه القاهرة، ثم حدثت حارة السودان و غيرها خارج باب زويلة، و كان ما بين حارة السودان و حارة اليانسية و بين بركة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۶

الفيل فضاء، ثم عمر الناس حول بركة الفيل بعد الستمائة حتى صارت مساكنها أجلّ مساكن مصر كلها.

قال ابن سعيد و قد ذكر القاهرة: و أعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر، و المناظر فوقها كالنجوم، و عادة السلطان أن يركب فيها بالليل، و تسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم و قدرتهم، فيكون بذلك لها منظر عجيب. و فيها أقول:

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت‌بها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هى و الأبصار ترمقهاكواكب قد أداروها على القمر

و نظرت إليها و قد قابلتها الشمس بالغدوّ فقلت:

انظر إلى بركة الفيل التى نحرت‌لها الغزالة نحرا من مطالعها

و خلّ طرفك محفوفا ببهجتهاتهيم وجدا و حبا فى بدائعها

و ماء النيل يدخل إلى بركة الفيل من الموضع الذى يعرف اليوم بالجسر الأعظم تجاه الكبش، و بلغنى أنه كان هناك قنطرة كبيرة فهدمت و عمل مكانها هذه المجاديل الحجر التى يمرّ عليها الناس، و يعبر ماء النيل إلى هذه البركة أيضا من الخليج الكبير من تحت قنطرة تعرف قديما و حديثا بالمجنونة، و هى الآن لا تشبه القناطر، و كأنها سرب يعبر منه الماء، و فوقه بقية عقد من ناحية الخليج، كان قد عقده الأمير الطيبرس و بنى فوقها منتزها، فقال فيه علم الدين بن الصاحب:

و لقد عجبت من الطبرس و صحبهو عقولهم بعقوده مفتونه

عقدوا عقودا لا تصحّ لأنهمعقدوا لمجنون على مجنونه

و كان الطيبرس هذا يعتريه الجنون، و اتفق أنّ هذا العقد لم يصح و هدم، و آثاره باقية إلى اليوم.

بركة الشقاف: هذه البركة فى برّ الخليج الغربىّ بجوار اللوق، و عليها الجامع المعروف بجامع الطباخ، فى خط باب اللوق، و كانت هذه البركة من جملة أراضى الزهرىّ، كما ذكر فى حكر الزهرىّ عند ذكر الأحكار، و كان عليها فى القديم عدّة مناظر منها: منظرة الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، و ذلك أيام كانت أراضى اللوق مواضع نزهة قبل أن تحتكر و تبنى دورا، و ذلك بعد سنة ستمائة. و اللّه تعالى أعلم.

بركة السباعين: عرفت بذلك لأنه اتخذ عليها دار للسباع، و هى موجودة هناك إلى يومنا هذا، و هى من جملة حكر الزهرىّ، و عليها الآن دور. و لم تحدث بها العمارة إلا بعد سنة سبعمائة، و إنما كان جميع ذلك الخط و ما حوله من منشأة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۷

المهرانىّ إلى المقس بساتين ثم حكرت.

بركة الرطلى: هذه البركة من جملة أرض الطبالة، عرفت ببركة الطوّابين، من أجل أنه كان يعمل فيها الطوب، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ، التمس الأمير بكتمر الحاجب من المهندسين أن يجعلوا حفر الخليج على الجرف إلى أن يمرّ بجانب بركة الطوّابين هذه، و يصب من بحرىّ أرض الطبالة فى الخليج الكبير، فوافقوه على ذلك، و مرّ الخليج من ظاهر هذه البركة كما هو اليوم، فلما جرى ماء النيل فيه روى أرض البركة، فعرفت ببركة الحاجب.

فإنها كانت بيد الأمير بكتمر الحاجب المذكور، و كان فى شرقىّ هذه البركة زاوية بها نخل كثير و فيها شخص يصنع الأرطال الحديد التى تزن بها الباعة، فسماها الناس بركة الرطلىّ نسبة لصانع الأرطال، و بقيت نخيل الزاوية قائمة بالبركة إلى ما بعد سنة تسعين و سبعمائة، فلما جرى الماء فى الخليج الناصرىّ و دخل منه إلى هذه البركة، عمل الجسر بين البركة و الخليج، فحكره الناس و بنوا فوقه الدور، ثم تتابعوا فى البناء حول البركة حتى لم يبق بدائرها خلو، و صارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصرىّ فتدورها تحت البيوت و هى مشحونة بالناس، فتمرّ هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف، و تظاهر الناس فى المراكب بأنواع المنكرات من شرب المسكرات و تبرّج النساء الفاجرات و اختلاطهنّ بالرجال من غير إنكار، فإذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرط و غيره، فيجتمع فيها من الناس فى يومى الأحد و الجمعة عالم لا يحصى لهم عدد، و أدركت بهذه البركة من بعد سنة سبعين و سبعمائة

إلى سنة ثمانمائة أوقاتا انكفت فيها عمن كان بها أيدى الغير، و رقدت عن أهاليها أعين الحوادث، و ساعدهم الوقت إذ الناس ناس و الزمان زمان، ثم لما تكدّر جوّ المسرّات و تقلص ظل الرفاهة، و انهلت سحائب المحن من سنة ست و ثمانمائة، تلاشى أمرها، و فيها إلى الآن بقية صبابة و معالم أنس و آثار تنبىء عن حسن عهد، و للّه در القائل:

فى أرض طبالتنا بركةمدهشة للعين و العقل

ترجح فى ميزان عقلى على كلّ بحار الأرض بالرطل

البركة المعروفة

ببطن البقرة: هذه البركة كانت فيما بين أرض الطبالة و أراضى اللوق، يصل إليها ماء النيل من الخور فيعبر فى خليج الذكر إليها، و كانت تجاه قصر اللؤلؤة و دار الذهب فى برّ الخليج الغربىّ، و أوّل ما عرفت من خبر هذه البركة أنها كانت بستانا كبيرا فيما بين المقس و جنان الزهرىّ، عرف بالبستان المقسىّ نسبة إلى المقس، و يشرف على بحر النيل من غربيه، و على الخليج الكبير من شرقيه، فلما كان فى أيام الخليفة الظاهر لاعزاز دين اللّه أبى هاشم علىّ بن الحاكم بأمر اللّه، أمر بعد سنة عشر و أربعمائة بإزالة إنشاب هذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۸

البستان، و أن يعمل بركة قدّام المنظرة التى تعرف باللؤلؤة، فلما كانت الشدّة العظمى فى زمن الخليفة المستنصر بالله، هجرت البركة و بنى فى موضعها عدّة أماكن عرفت بحارة اللصوص إذ ذاك، فلما كان فى أيام الخليفة الآمر بأحكام اللّه و وزارة الأجل المأمون محمد بن فاتك البطائحىّ، د أزيلت الأبنية و عمق حفر الأرض و سلط عليها ماء النيل من خليج الذكر، فصارت بركة عرفت ببطن البقرة، و ما برحت إلى ما بعد سنة سبعمائة، و كان قد تلاشى أمرها منذ كانت الغلوة فى زمن الملك العادل كتبغا، سنة سبع و تسعين و ستمائة، فكان من خرج من باب القنطرة يجد عن يمينه أرض الطبالة من جانب الخليج الغربىّ إلى حدّ المقس، و يجد بطن البقرة عن يساره من جانب الخليج الغربىّ إلى حدّ المقس، و بحر النيل الأعظم يجرى فى غربىّ بطن البقرة على حافة المقس إلى غربىّ أرض الطبالة، و يمرّ من حيث الموضع المعروف اليوم بالجرف إلى غربىّ البعل، و يجرى إلى منية الشيرج، فكان خارج القاهرة أحسن منتزه فى مصر من الأمصار، و موضع بطن البقرة يعرف اليوم بكوم الجاكى، المجاور لميدان القمح، و ما جاور تلك الكيمان و الخراب إلى نحو باب اللوق، و حدّثنى غير واحد ممن لقيت من شيوخ المقس عن مشاهدة آثار هذه البركة، و أخبرنى عمن شاهد فيها الماء، و إلى زمننا هذا موضع من غربىّ الخليج فيما يلى ميدان القمح يعرف ببطن البقرة، بقية من تلك البركة يجتمع فيه الناس للنزهة.

بركة جناق: هذه البركة خارج باب الفتوح، كانت بالقرب من منظرة باب الفتوح التى تقدّم ذكرها فى المناظر، و كان ما حولها بساتين، و لم يكن خارج باب الفتوح شىء من هذه الأبنية، و إنما كان هناك بساتين، فكانت هذه البركة فيما بين الخليج الكبير و بستان ابن صيرم، فلما حكر بستان ابن صيرم و عمر فى مكانه الآدر و غيرها، و عمر الناس خارج ابن الفتوح، عمر ما حول هذه البركة بالدور، و سكنها الناس و هى إلى الآن عامرة، و تعرف ببركة جناق.

بركة الحجاج: هذه البركة فى الجهة البحرية من القاهرة، على نحو بريد منها، عرفت أوّلا بجب عميرة، ثم قيل لها أرض الجب، و عرفت إلى اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البرّ بها عند مسيرهم من القاهرة، و عند عودهم، و بعض من لا معرفة له بأحوال أرض مصر يقول: جب يوسف عليه السلام، و هو خطأ لا أصل له، و ما برحت هذه البركة منتزها لملوك القاهرة.

قال ابن يونس عميرة ابن تميم بن جزىء التجيبىّ: من بنى القرناء صاحب الجب المعروف بجب عميرة فى الموضع الذى يبرز إليه الحاج من مصر لخروجهم إلى مكة، و قال أبو عمر الكندىّ فى كتاب الخندق: أن فرسان الخندق من جب عميرة بن تميم بن جزء، و صاحب جب عميرة من بنى القرناء طعن فى تلك الأيام فارتث فمات بعد ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۹

و قال فى كتاب الأمراء: ثم أن أهل الحوف خرجوا على ليث بن الفضل أمير مصر، و كان السبب فى ذلك أن ليثا بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم، فانتقصوا من القصب أصابع، فتظلم الناس إلى ليث فلم يسمع منهم، فعسكروا و ساروا إلى الفسطاط، فخرج إليهم ليث فى أربعة آلاف من جند مصر، ليومين بقيا من شعبان، سنة ست و ثمانين و مائة، فالتقى مع أهل الحوف لاثنتى عشرة خلت من شهر رمضان، فانهزم الجيش عن ليث و بقى فى مائتين أو نحوها، فحمل عليهم بمن معه فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة، و كان التقاؤهم فى أرض جب عميرة، و بعث ليث إلى الفسطاط بثمانين رأسا، و رجع إلى الفسطاط. و قال: المسبحىّ و لاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع و ثمانين و ثلاثمائة، عرض أمير المؤمنين العزيز بالله عساكره بظاهر القاهرة عند سطح الجب، فنصب له مضرب ديباج رومىّ فيه ألف ثوب مفوّفة فضة، و نصبت له فازة مستقلة و قبة مثقلة بالجوهر، و ضرب لابنه المنصور مضرب آخر، و عرضت العساكر فكانت عدّتها مائة عسكر، و أقبلت أسارى الروم و عدّتها مائتان و خمسون، فطيف بهم، و كان يوما عظيما حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار إلى صلاة المغرب.

و قال ابن ميسر: كان من عادة أمير المؤمنين المستنصر بالله أن يركب فى كل سنة على النجب مع النساء و الحشم إلى جب عميرة، و هو موضع نزهة بهيئة، أنه خارج للحج على سبيل الهزء و المجانة و معه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء، و يسقيه الناس. و قال أبو الخطاب بن دحية، و خطب لبنى عبيد ببغداد أربعين جمعة، و ذلك للمستنصر، بل للبطال المستهتر، أنشده العقيلىّ صبيحة يوم عرفة:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماءو لا تضحّى ضحى إلّا بصهباء

و أدرك حجيج الندامى قبل نفرهمإلى منى قصفهم مع كلّ هيفاء

و وصل ألف القطع للضرورة، و هو جائز، فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى و تساق، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق، فأقام بها سوق الفسوق على ساق، و فى ذلك العام أخذ اللّه و أخذ أهل مصر بالسنين، حتى بيع القرص فى أيا من بالثمن الثمين.

و قال القاضى الفاضل فى حوادث المحرّم سنة سبع و سبعين و خمسمائة، و فيه خرج السلطان يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى بركة لجب للصيد و لعب الأكرة، و عاد إلى القاهرة فى سادس يوم من خروجه، و ذكر من ذلك كثيرا عن السلطان صلاح الدين و ابنه الملك العزيز عثمان.

و قال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاون: و فى حوادث صفر سنة اثنتين و عشرين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۰

و سبعمائة، و فهى ركب السلطان إلى بركة الحجاج للرمى على الكراكى، و طلب كريم الدين ناظر الخاص، و رسم أن يعمل فيها أحواشا للخيل و الجمال، و ميدانا، و للأمير بكتمر الساقى مثله، فأقام كريم الدين بنفسه فى هذا العمل، و لم يدع أحدا من جميع الصناع المحتاج إليهم يعمل فى القاهرة عملا فكان فيها نحو الألفى رجل، و مائة زوج بقر، حتى تمت المواضع فى مدّة قريبة، و ركب السلطان إليها و أمر بعمل ميدان لنتاج الخيل، فعمل، و ما برح الملوك يركبون إلى هذه البركة لرمى الكراكى، و هم على ذلك إلى هذا الوقت، و قد خربت المبانى التى أنشأها الملك الناصر و أدركنا بهذه البركة مراحا عظيما للأغنام التى يعلفها التركمانىّ حب القطن و غيره من العلف، فتبلغ الغاية فى السمن، حتى أنه يدخل بها إلى القاهرة محمولة على العجل لعظم جنتها و ثقلها و عجزها عن المشى، و كان يقال كبش بركاوىّ نسبة إلى هذه البركة، و شاهدت مرّة كبشا من كباش هذه البركة، و زنت شقته اليمنى فبلغت زنتها خمسة و سبعين رطلا سوى الأليّة، و بلغنى عن كبش أنه وزن ما فى بطنه من الشحم خاصة، فبلغ أربعين رطلا، و كانت ألايا تلك الكباش تبلغ الغاية فى الكبر، و قد بطل هذا من القاهرة منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، حتى لا يكاد يعرفه اليوم إلا أفراد من الناس.

و بركة الحجاج اليوم أرباب دركها قوم من العرب يعرفون ببنى صبرة، و قال الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ فى كتاب الجوهر

المكنون فى معرفة القبائل و البطون: بنو بطيخ بطن من لخم، و هم ولد بطيخ بن مغالة بن دعجمان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أريش بن أراش بن جديلة بن لخم، و فخذها بنو صبرة بن بطيخ، و لهم حارة مجاورة للخطمة المعروفة اليوم بكوم دينار السايس، و صبرة فى خندف و فى قيس و نزار و يمن، فالتى فى خندف فى بنى جعفر الطيار، بنو صبرة بن جعفر بن داود بن محمد بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب فخذ، و التى فى قيس، بنو صبرة بن بكر بن أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان فخذ، و أما التى فى نزار ففى شيبان، بنو صبرة بن عوف بن محكم بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علىّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذ، و ما التى فى يمن ففى لخم و جذام، فأما التى فى لخم: فبنو صبرة بن بطيخ بن مغالة بن دعجان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أريش بن أراش بن جديلة بن لخم، و أما التى فى جذام فبنو صبرة بن نصيرة بن عطفان بن سعد بن إياس بن حرام بن جذام، و إليه يرجع الصبريون، و هم بالشام و اللّه تعالى أعلم.

بركة قرموط: هذه البركة فيما بين اللوق و المقس، كانت من جملة بستان ابن ثعلب، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرى من موردة البلاط، رمى ما خرج من الطين فى هذه البركة، و بنى الناس الدور على الخليج، فصارت البركة من ورائها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۱

و عرفت تلك الخطة كلها ببركة قرموط، و أدركنا بها ديارا جليلة تناهى أربابها فى أحكام بنائها و تحسين سقوفها، و بالغوا فى زخرفتها بالرخام و الدهان، و غرسوا بها الأشجار و أجروا إليها المياه من الآبار، فكانت تعدّ من المساكن البديعة النزهة، و أكثر من كان يسكنها الكتاب مسلموهم و نصاراهم، و هم فى الحقيقة المترفون أولو النعمة، فكم حوت تلك الديار من حسن و مستحسن، و أنى لأذكرها و ما مررت بها قد إلّا و تبين لى من كل دار هناك آثار النعم، أما روائح تقالى المطابخ أو عبير بخور العود و النّد، أو نفحات الخمر، أو صوت غناء، أو دقّ هاون و نحو ذلك مما يبين عن ترف سكان تلك الديار و رفاهة عيشهم و غضارة نعمهم، ثم هى الآن موحشة خراب، قد هدمت تلك المنازل و بيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، فزالت الطرق و جهلت الأزقة و انكشفت البركة، و بقى حولها بساتين خراب، و بلغنى أن المراكب كانت تعبر إلى هذه البركة للتنزه، و ما أحسب ذلك كان، فإنها كانت من جملة البستان، و لم ينقل إنه كان يقربها خليج سوى الخور، و يبعد أن يصل إليها، و اللّه أعلم.

و قرموط هذا هو أمين الدين قرموط مستوفى الخزانة السلطانية.

بركة قراجا: هذه البركة خارج الحسينية، قريبا من الخندق، عرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى، أحد أمراء مصر، أنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون بالإمرة فى سنة سبع عشرة و سبعمائة.

البركة الناصرية: هذه البركة من جملة جنان الزهرىّ، فلما خربت جنان الزهرىّ صار موضعها كوم تراب إلى أن أنشأ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ميدان المهارى، فى سنة عشرين و سبعمائة، و أراد بناء الزريبة بجانب الجامع الطبرسىّ، احتاج فى بنائها إلى طين، فركب و عين مكان هذه البركة، و أمر الفخر ناظر الجيش فكتب أوراقا بأسماء الأمراء، و انتدب الأمير بيبرس الحاجب فنزل بالمهندسين فقاسوا دور البركة و وزع على الأمراء بالأقصاب، فنزل كل أمير و ضرب خيمة لعمل ما يخصه، فابتدؤا العمل فى يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، فتمادى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرىّ، و كان إذ ذاك فى تلك الأرض عدّة كنائس، و لم يكن هناك شىء من العمائر التى هى اليوم حول البركة الناصرية، و لا من العمائر التى فى خط قناطر السباع و لا فى خط السبع سقايات إلى قنطرة السدّ، و إنما كانت بساتين و كنائس و ديورة للنصارى، فاستولى الحفر على ما حول كنيسة الزهرىّ و صارت فى وسط الحفر، حتى تعلقت، و كان القصد أن تسقط من غير تعمد هدمها، فأراد اللّه تعالى هدمها على يد العامّة كما ذكر فى خبرها عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب، فلما تمّ حفر البركة نقل ما خرج منها من الطين إلى الزريبة، و أجرى إليها الماء من جوار الميدان السلطانىّ الكائن بأراضى بستان الخشاب عند

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۲

موردة البلاط، فلما امتلأتا بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة، فحكر الناس ما حولها و بنوا عليها الدور العظيمة، و ما برح خط البركة الناصرية عامرا إلى أن كانت الحوادث من سنة ست و ثمانمائة، فشرع الناس فى هدم ما عليها من الدور، فهدم كثيرا مما كان هناك، و الهدم مستمرّ إلى يومنا هذا.

ذكر الجسور

الجسر بفتح الجيم، الذى تسميه العامّة جسرا، عن ابن دريد، و قال الخليل: الجسر و الجسر لغتان، و هو القنطرة و نحوها مما يعبر عليه. و قال ابن سيده: و الجسر الذى يعبر عليه، و الجمع القليل أجسر. قال:

إنّ فراخا كفراخ الأوكربأرض بغداد وراء الأجسر

و الكثير جسور.

جسر الأفرم: هذا الجسر بظاهر مدينة مصر، فيما بين المدرسة المعزية برحبة الحناء قبلىّ مصر، و بين رباط الآثار النبوية، كان موضعه فى أوّل الإسلام غامرا بماء النيل، ثم انحسر عنه الماء فصار فضاء إلى بحرىّ خليج بنى وائل، ثم ابتنى الناس فيه مواضع، و كان هناك الهرى قريبا من الخليج، ثم صار موضع جسر الأفرم هذا ترعة يدخل منها ماء النيل إلى البركة الشعيبية، فلما استأجر الأمير عز الدين أيبك الأفرم بركة الشعيبية و جعلها بستانا، كما تقدّم ذكره فى البرك، ردم هذه الترعة و بنى حيطان البستان و جسر عليه، فأقام على ذلك سنين، ثم لما استأجر أرض البركة بعد ما غرسها بالأشجار إجارة ثانية، اشترط البناء على ثلاثة أفدنة فى جانب البستان الغربىّ، و فدّان فى جانبه البحرىّ، و نادى فى الناس بتحكيره، و أرخص سعر الحكر، و جعل حكر كلّ مائة ذراع عشرة دراهم، فهرع الناس إليه و احتكروا منه المواضع، و بنوا فيها الدور المطلة على النيل، فاستغنى بالعمائر عن عمر الجسر فى كلّ سنة بين البحر و البستان الذى أنشأه، و بقى اسم الجسر عليه إلى يومنا هذا، إلا أن الآدر التى كانت هناك خربت منذ انطرد النيل عن البرّ الغربىّ، بعد ما بلغ ذلك الخط الغاية فى العمارة، و كان سكن الوزراء و الأعيان من الكتاب و غيرهم.

الجسر الأعظم: هذا الجسر فى زماننا هذا قد صار شارعا مسلوكا يمشى فيه من الكبش إلى قناطر السباع، و أصله جسر يفصل بين بركة قارون و بركة الفيل، و بينهما سرب يدخل منه الماء، و عليه أحجار يراها من يمرّ هناك، و بلغنى أنه كان من قنطرة مرتفعة، فلما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون الميدان السلطانىّ عند موردة البلاط، أمر بهدم القنطرة فهدمت، و لم يكن إذ ذاك على بركة الفيل من جهة الجسر الأعظم مبان، و إنما كانت ظاهرة يراها المارّ، ثم أمر السلطان بعمل حائط قصير بطولها، فأقيم الحائط و صفر بالطين الأصفر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۳

ثم حدثت الدور هناك.

الجسر بأرض الطبالة: هذا الجسر يفصل بين بركة الرطلىّ و بين الخليج الناصرىّ، أقامه الأمير الوزير سيف الدين بكتمر الحاجب فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، لما انتهى حفر الخليج الناصرىّ، و أذن للناس فى البناء عليه، فحكر و بنيت فوقه الدور، فصارت تشرف على بركة الرطلىّ و على الخليج، و تجتمع العامّة تحت مناظر الجسر و تمرّ بحافة الخليج للنزهة، فكثر اغتياظ غوغاء الناس و فساقهم بهذا الجسر إلى اليوم، و هو من أنزه فرج القاهرة لولا ما عرف به من القاذورات الفاحشة.

الجسر من بولاق إلى منية الشيرج: كان السبب فى عمل هذا الجسر أن ماء النيل قويت زيادته فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، حتى أخرق من ناحية بستان الخشاب، و دخل الماء إلى جهة بولاق، و فاض إلى باب اللوق حتى اتصل بباب البحر و بساتين الخور، فهدمت عدّة دور كانت مطلة على البحر، و كثير من بيوت الحكورة، و امتدّ الماء إلى ناحية منية الشيرج، فقام الفخر ناظر الجيش بهذا الأمر، و

عرّف السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون أن متى غفل دخل الماء إلى القاهرة و غرق أهلها و مساكنها، فركب السلطان إلى البحر و معه الأمراء، فرأى ما هاله، و فكر فيما يدفع ضرر النيل عن القاهرة، فاقتضى رأيه عمل جسر عند نزول الماء، و انصرف، فقويت الزيادة و فاض الماء على منشأة المهرانيّ و منشأة الكتبة، و غرّق بساتين بولاق و الجزيرة حتى صار ما بين ذلك ملقة واحدة، و ركب الناس المراكب للفرجة، و مرّوا بها تحت الأشجار و صاروا يتناولون الثمار بأيديهم و هم فى المراكب، فتقدّم السلطان المتولى القاهرة و متولى مصر يبث الأعوان فى القاهرة و مصر لردّ الحمير و الجمال التى تنقل التراب إلى الكيمان، و ألزمهم بإلقاء التراب بناحية بولاق، و نودى فى القاهرة و مصر، من كان عنده تراب فليرمه بناحية بولاق و فى الأماكن التى قد علا عليها الماء، فاهتمّ الناس من جهة زيادة الماء اهتماما كبيرا خوفا أن يخرق الماء و يدخل إلى القاهرة، و ألزم أرباب الأملاك التى ببولاق و الخور و المناشئ أن يقف كلّ واحد على إصلاح مكانه، و يحترس من عبور الماء على غفلة، فتطلب كلّ أحد من الناس الفعلة من غوغاء الناس لنقل التراب، حتى عدمت الحرافيش، و لم تكن توجد لكثرة ما أخذهم الناس لنقل التراب و رميه، و تضرّرت الآدر القريبة من البحر بنزولها، و غرقت الأقصاب و القلقاس و النيلة و سائر الدواليب التى بأعمال مصر، فلما انقضت أيام الزيادة ثبت الماء و لم ينزل فى أيام نزوله، ففسدت مطامير الغلات و مخازنها و شونها، و تحسن سعر السكّر و العسل، و تأخر الزرع عن أوانه لكثرة ما مكث الماء، فكتب لولاة الأعمال بكسر الترع و الجسور كى ينصرف الماء عن أراضى الزرع إلى البحر الملح، و احتاج الناس إلى وضع الخراج عن بساتين بولاق و الجزيرة، و مسامحتهم بنظير ما فسد من الغرق، و فسدت عدّة بساتين إلى أن أذن اللّه تعالى بنزول الماء، فسقط كثير من الدور، و أخذ السلطان فى عمل الجسور، و استدعى المهندسين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۴

و أمرهم بإقامة جسر يصدج الماء عن القاهرة خشية أن يكون نيل مثل هذا، و كتب بإحضار خولة البلاد، فلما تكاملوا أمرهم فساروا إلى النيل و كشفوا الساحل كله، فوجدوا ناحية الجزيرة مما يلى المنية قد صارت أرضها وطيئة، و من هناك يخاف على البلد من الماء، فلما عرّفوا السلطان بذلك أمر بإلزام من له دار على النيل بمصر أو منشأة المهرانيّ أو منشأة الكتاب أو بولاق أن يعمر قدّامها على البحر زريبة، و أنه لا يطلب منهم عليها حكر، و نودى بذلك، و كتب مرسوم بمسامحتهم من الحكر عن ذلك، فشرع الناس فى عمل الزرابى، و تقدّم إلى الأمراء بطلب فلاحى بلادهم و إحضارهم بالبقر و الجراريف لعمل الجسر من بولاق إلى منية الشيرج، و نزل المهندسون فقاسوا الأرض و فرضوا لكل أمير أقصابا معينة، و ضرب كلّ أمير خيمته و خرج لمباشرة ما عليه من العمل، فأقاموا فى عمله عشرين يوما حتى فرغ، و نصبت عندهم الأسواق، فجاء ارتفاعه من الأرض أربع قصبات فى عرض ثمانى قصبات، فانتفع الناس به انتفاعا كبيرا، و قدّر اللّه سبحانه و تعالى أن الزرع فى تلك السنة حسن إلى الغاية، و أفلح فلاحا عجيبا، و انحط السعر لكثرة ما زرع من الأراضى، و خصب السنة، و كان قد اتفق فى سنة سبع عشرة و سبعمائة غرق ظاهر القاهرة أيضا، و ذلك أن النيل و فى ستة عشر ذراعا فى ثالث عشر جمادى الأولى و هو التاسع و العشرون من شهر أبيب أحد شهور القبط، و لم يعهد مثل ذلك، فإن الأنيال البدرية يكون و فاؤها فى العشر الأول من مسرى، فلما كسر سدّ الخليج توقفت الزيادة مدّة أيام، ثم زاد و توقف إلى أن دخل تاسع توت، و الماء على سبعة عشر ذراعا و ستة أصابع، ثم زاد فى يوم تسعة أصابع، و استمرّت الزيادة حتى صار على ثانية عشر ذراعا و ستة أصابع، ففاض الماء و انقطع طريق الناس فيما بين القاهرة و مصر، و فيما بين كوم الريش و المنية، و خرج من جانب المنية و غرّقها، فكتب بفتح جميع الترع و الجسور بسائر الوجه القبلىّ و البحرىّ، و كسر بحر أبى المنجا و فتح سدّ بلبيس و غيره قبل عيد الصليب، و غرقت الأقصاب و الزراعات الصيفية، و عمّ الماء ناحية منية الشيرج، و ناحية شبر، فخربت الدور التى هناك، و تلف للناس مال كثير، من جملته زيادة على ثمانين ألف جرّة خمر فارغة تكسرت فى نايحة المنية و شبرا عند هجوم الماء، و تلفت مطامير الغلة من الماء، حتى بيع قدح القمح بفلس، و الفلس يومئذ جزء من ثمانية و أربعين جزأ من درهم، و صار من بولاق إلى شبرا بحرا واحدا تمرّ فيه المراكب للنزهة فى بساتين الجزيرة إلى شبرا، و تلفت الفواكه و المشمومات، و قلت الخضر التى يحتاج إليها فى الطعام، و غرقت

منشأة المهرانيّ، و فاض الماء من عند خانقاه رسلان، و أفسد بستان الخشاب و اتصل الماء بالجزيرة التى تعرف بجزيرة الفيل إلى شبرا، و غرقت الأقصاب التى فى الصعيد، فإن الماء أقام عليها ستة و خمسين يوما، فعصرت كلها عسلا فقط، و خربت سائر الجسور و علاها الماء، و تأخر هبوطه عن الوقت المعتاد، فسقطت عدّة دور بالقاهرة و مصر، و فسدت منشأة الكتاب المجاورة لمنشأة المهرانيّ، فلذلك عمل السلطان الجسر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۵

المذكور خوفا على القاهرة من الغرق.

الجسر بوسط النيل: و كان سبب عمل هذا الجسر، أن ماء النيل قوى رميه على ناحية بولاق، و هدم جامع الخطيرى، ثم جدّد و قوّيت عمارته و تيار البحر لا يزداد من ناحية البرّ الشرقيّ إلّا قوة، فأهمّ الملك الناصر أمره و كتب فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة بطلب المهندسين من دمشق و حلب و البلاد الفراتية، و جمع المهندسين من أعمال مصر كلها قبليها و بحريها، فلما تكاملوا عنده ركب بعساكره من قلعة الجبل إلى شاطىء النيل، و نزل فى الحراقة و بين يديه الأمراء و سائر أرباب الخبرة من المهندسين، و جولة الجسور، و كشف أمر شطوط النيل، فاقتضى الحال أن يعمل جسرا فيما بين بولاق و ناحية أنبوبه من البرّ الغربى، ليردّ قوّة التيار عن البرّ الشرقيّ إلى البرّ الغربيّ، و عاد إلى القلعة فكتبت مراسيم إلى ولاة الأعمال بإحضار الرجال صحبة المشدّين، و استدعى شادّ العمائر السلطانية و أمره بطلب الحجارين، و قطع الحجر من الجبل، و طلب رئيس البحر و شادّ الصناعة لإحضار المراكب، فلم يمض سوى عشرة أيام حتى تكامل حضور الرجال مع الشادّين من الأقاليم، و ندب السلطان لهذا العمل الأمير أقبغا عبد الواحد، و الأمير برصبغا الحاجب، فبرز لذلك و أحضر والى القاهرة و والى مصر، و أمرا بجمع الناس و تسخير كل أحد للعمل، فركبا و أخذا الحرافيش من الأماكن المعروفة بهم، و قبضا على من وجد فى الطرقات و فى المساجد و الجوامع، و تتبّعاهم فى الأسحار، و وقع الاهتمام الكبير فى العمل من يوم الأحد عاشر ذى القعدة، و كانت أيام القيظ، فهلك فيه عدّة من الناس، و الأمير أقبغا فى الحراقة يستحث الناس على إنجاز العمل، و المراكب تحمل الحجر من الفص الكبير إلى موضع الجسر، و فى كل قليل يركب السلطان من القلعة و يقف على العمل، و يهين أقبغا و يسبه و يستحثه حتى تمّ العمل للنصف من ذى الحجة، و كانت عدّة المراكب التى غرقت فيه و هى مشحونة بالحجارة اثنى عشر مركبا، كل مركب منها تحمل ألف أردب غلة، و عدّة المراكب التى ملئت بالحجر حتى ردم و صار جسرا، ثلاثة و عشرون ألف مركب، سوى ما عمل فيه من آلات الخشب و السرياقات، و حفر فى الجزيرة خليج وطئ، فلما جرى النيل فى أيام الزيادة مرّ فى ذلك الخليج و لم يتأثر الجسر من قوّة التيار، و صارت قوّة جرى النيل من ناحية أنبوبة بالبرّ الغربيّ و من ناحية التكروريّ أيضا، فسرّ السلطان بذلك و أعجبه إعجابا كثيرا، و كان هذا الجسر سبب انطراد الماء عن برج القاهرة حتى صار إلى ما صار إليه الآن.

الجسر فيما بين الجيزة و الروضة: كان السبب المقتضى لعمل هذا الجسر، أن الملك الناصر لما عمل الجسر فيما بين بولاق و ناحية أنبوبة و ناحية التكروريّ، انطرد ماء النيل عن برّ القاهرة، و انكشفت أراض كثيرة، و صار الماء يحاض من برّ مصر إلى المقياس، و انكشف من قبالة منشأة المهرانيّ إلى جزيرة الفيل و إلى منية الشيرج، و صار الناس يجدون مشقّة لبعد الماء عن القاهرة، و غلت روايا الماء حتى بيعت كلّ راوية بدر همين بعد ما كانت بنصف و ربع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۶

درهم، فشكا الناس ذلك إلى الأمير أرغون العلائيّ والى السلطان الملك الكامل شعبان بن الملك الناصر محمد بن قلاون، فطلب المهندسين و رئيس البحر، و ركب السلطان بأمرائه من القلعة إلى شاطىء النيل، فلم يتهيأ عمل لما كان من ابتداء زيادة النيل، إلّا أنّ الرأى اقتضى نقل التراب و الشقاف من مطابخ السكّر التى كانت بمصر و إلقاء ذلك بالروضة. لعمل الجسر، فنقل شىء عظيم من التراب فى المراكب إلى الروضة، و عمل جسر من الجزيرة إلى نحو المقياس، فى طول نحو ثلثى ما بينهما من المسافة، فعاد الماء إلى جهة مصر عودا يسيرا و عجزوا عن إيصال الجسر إلى المقياس لقلة التراب، و قويت الزيادة حتى علا الماء الجسر بأسره، و اتفق قتل

الملك الكامل بعد ذلك، و سلطنة أخيه الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاون أول جمادى الآخرة سنة سبع و أربعين و سبعمائة. فلما دخلت سنة ثمان و أربعين، وقف جماعة من الناس للسلطان فى أمر البحر و استغاثوا من بعد الماء و انكشاف الأراضى من تحت البيوت، و غلاء الماء فى المدينة، فأمر بالكشف عن ذلك، فنزل المهندسون و اتفقوا على إقامة جسر ليرجع الماء عن برّ الجيزة إلى برّ مصر و القاهرة، و كتبوا تقدير ما يصرف فيه مائة و عشرين ألف درهم فضة، فأمر بجبايتها من أرباب الأملاك التى على شط النيل، و أن يتولى القاضى ضياء الدين يوسف بن أبى بكر المحتسب جبايتها و استخراجها، فقيست الدور و أخذ عن كل ذراع من أراضيها خمسة عشر درهما، و تولى قياسها أيضا المحتسب و والى الصناعة، فبلغ قياسها سبعة آلاف و ستمائة ذراع، و جبى نحو السبعين ألف درهم، فاتفق عزل الضيّاء عن الحسبة، و نظر المارستان المنصورىّ، و نظر الجوالى، و ولاية ابن الأطروش مكانه، ثم قتل الملك المظفر و ولاية أخيه الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون سلطنة مصر بعده، فى شهر رمضان منها، فلما كانت فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة وقع الاهتمام بعمل الجسر، فنزل الأمير بلبغا أروس نائب السلطنة، و الأمير منجك الاستادار، و كان قد عزل من الوزارة، و الأمير قيلاى الحاجب، و جماعة من الأمراء و معهم عدّة من المهندسين إلى البحر فى الحراريق، و المراكب إلى برّ الجيزة، و قاسوا ما بين برّ الجيزة و المقياس، و كتب تقدير المصروف نحو المائة و الخمسين ألف درهم، و ألف خشبة من الخشب، و خمسمائة صار، و ألف حجر فى طول ذراعين و عرض ذراعين، و خمسة آلاف شنفة، و غير ذلك من أشياء كثيرة.

فركب النائب و الوزير و الأمير شيخو و الأمراء إلى الجيزة، و أعادوا النظر فى أمر الجسر و معهم أرباب الخبرة، فالتزم الأمير منجك بعمل الجسر، و أن يتولى جباية المصروف عليه من سائر الأمراء و الأجناد و الكتاب و أرباب الأملاك، بحيث أنه لا يبقى أحد حتى يؤخذ منه، فرسم لكتاب الجيش بكتابة أسماء الجند، و قرّر على كلّ مائة دينار من الإقطاعات درهم واحد، و على كلّ أمير من خمسة آلاف درهم إلى أربعة آلاف درهم، و على كلّ كاتب أمير ألف، مائتا درهم، و كاتب أمير الطبلخانات مائة درهم، و على كلّ حانوت من حوانيت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۷

التجار درهم، و على كلّ دار در همان، و على كلّ بستان الفدّان من عشرين درهما إلى عشرة دراهم، و على كلّ طاحون خمسة دراهم. عن الحجر، و على كلّ صهريج فى تربة بالقرافة أو فى ظاهر القاهرة أو فى مدرسة من عشرة دراهم إلى خمسة دراهم، و على كل تربة من ثلاثة دراهم إلى در همين، و على أصحاب المقاعد و المتعيشين فى الطرقات شىء، و كشفت البساتين و الدور التى استجدّت من بولاق إلى منية الشيرج، و التى استجدّت فى الحكورة، و التى استجدّت على الخليج الناصرىّ، و على بركة الحاجب، و فى حكر أخى صاروجا، و قيست أراضيها كلها، و أخذ عن كلّ ذراع منها خمسة عشر درهما، و أخذ عن كلّ قمين من أقمنة الطوب شىء، و عن كلّ فاخورة من الفواخير شىء، و فرض على كلّ وقف بالقاهرة و مصر و القرافتين من الجوامع و المساجد و الخوانك و الزوايا و الربط شىء، و كتب إلى ولاة الأعمال بالجباية من ديورة النصارى و كنائسهم من مائتى درهم إلى مائة درهم، و قرّر على الفنادق و الخانات التى بالقاهرة و مصر شىء، و قرّر على ضامنة الأغانى مبلغ خمسين ألف درهم، و أقيم لكل جهة شادّ و صيرفى و كتّاب و غير ذلك من المستحثين من الأعوان، فنزل من ذلك بالناس بلاء كبير و شدّة عظيمة، فإنه أخذ حتى من الشيخ و العجوز و الأرملة، و جبى المال منهم بالعسف، و أبطل كثير منهم سببه لسعيه فى الغرامة و دهى الناس مع الغرامة، يتسلط الظلمة من العرفاء و الضمان و الرسل، فكان يغرم كلّ أحد للقابض و الشادّ و الصيرفىّ و الشهود سوى ما قرّر عليه جملة دراهم، فكثر كلام الناس فى الوزير حتى صاروا يلهجون بقولهم هذه سخطة مرصص نزلت من السماء على أهل مصر، و قاسوا شدّة أخرى فى تحصيل الأصناف التى يحتاج إليها، و نزل الوزير منجك و ضرب له خيمة على جانب الروضة، و نادى فى الحرافيش و الفعلة، من أراد العمل يحضر و يأخذ أجرته درهما و نصفا و ثلاثة أرغفة، فاجتمع إليه عالم كثير، و جعل لهم شيئا يستظلون به من حرّ الشمس، و أحسن إليهم، و رتب عدّة مراكب لنقل الحجر، و أقام عدة من الحجارين فى لجبل لقطع الحجر، و جمالا- و حميرا تنقلها من الجبل إلى البحر، ثم

تحمل من البرّ فى المراكب إلى برّ الجيزة، و ابتدأ بعمل الجسر من الروضة إلى ساقية علم الدين بن زنبور، و عارضه بجسر آخر من بستان التاج إسحاق إلى ساقية ابن زنبور، و أقام أخشابا من الجهتين، وردم بينهما بالتراب و الحجر و الحلفاء، و رتب الجمال السلطانية لقطع الطين من برّ الروضة و حمله إلى وسط الجسر، و أمر أن لا يبقى بالقاهرة و مصر صانع إلا حضر العمل، و ألزم من كان بالقرب من داره كوم تراب أن ينقله إلى الجسر، فغرم كل واحد من الناس فى نقل التراب من ألف درهم درهم إلى خمسمائة درهم، و كان كلّ ما ينقل فى المراكب من الحجر و غيره يرمى فى وسط جسر المقياس، و تحمله الجمال إلى الجسر، ثم اقتضى الرأى حفر خليج يجرى الماء فيه عند زيادة النيل لتضعف قوّة التيار عن الجسر، فأحضرت الأبقار و الجراريف و الرجال لأجل ذلك، و ابتدؤوا حفره من رأس موردة الحلفاء تحت الدور إلى بولاق، و كانت الزيادة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۸

قد قرب أوانها فما انتهى الحفر حتى زاد ماء النيل و جرى فيه، فسرّ الناس به سرورا كبيرا، و انتهى عمل الجسر فى أربعة أشهر.

إلا أنّ الشناعة قويت على الوزير، و بلّغ الأمراء النائب ما يقال عن منجك من كثرة جباية الأموال، فحدّثه فى ذلك و منعه، فاعتذر بأنه لم يسخر أحدا و لا استعمل الناس إلّا بالأجرة، و أن فى هذا العمل للناس عدّة منافع، و ما علىّ من قول أصحاب الأغراض الفاسدة، و نحو ذلك، و تمادى على ما هو عليه، فلما جرى الماء فى الخليج الذى حفر تحت البيوت من موردة الحلفاء إلى بولاق، مرّت فيه المراكب بالناس للفرجة، و احتاج منجك إلى نقل خيمته من برّ الروضة إلى برّ الجيزة، و أحضر المراكب الكبار و ملأها بالحجارة، و غرّق منها عشرة مراكب فى البحر، و ردم التراب عليها إلى أن كمل نحو ثلثى العمل، فقويت زيادة الماء و بطل العمل.

فلما كثرت الزيادة جمع منجك الحرافيش و الأسرى، و ردم على الجسر التراب و قوّاه، فتحامل الماء عن البرّ الغربىّ إلى البرّ الشرقىّ و مرّ من تحت الميدان السلطانىّ و زريبة قوصون إلى بولاق، فصار معظمه من هذه المواضع، و حصل الغرض بكون الماء بالقرب من القاهرة، و انتهى طول جسر منجك إلى مائتين و تسعين قصبة فى عرض ثمان قصبات، و ارتفاع أربع قصبات، و الجسر الذى من الروضة إلى المقياس طوله مائتان و ثلاثون قصبة، و عدّة ما رمى فى هذا العمل من المراكب المشحونة بالحجر اثنا عشر ألف مركب سوى التراب. و غير ذلك، و كان ابتداء العمل فى مستهل المحرّم و انتهاؤه فى سلخ ربيع الآخر، و لم تنحصر الأموال التى جبيت بسببه، فإنه لم يبق بالقاهرة و مصر دار و لا فندق و لا حمّام و لا طاحون و لا وقف جامع أو مدرسة أو مسجد أو زاوية و لا رزقة و لا كنيسة إلّا وجبى منه، فكان الرجل الواحد يغرم العشرة دراهم، و من خصه درهمان يحتاج إلى غرامة أمثالهما و أضعافهما، و ناهيك بمال يجبى من الديار المصرية على هذا الحكم كثرة، و قد بقيت من جسر منجك هذا بقية هى معروفة اليوم فى طرف الجزيرة الوسطى.

جسر الخليلى: هذا الجسر فيما بين الروضة من طرفها البحرىّ و بين جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى، تجاه الخور، و كان سبب عمله أن النيل لما قوى رمى تياره على برّ القاهرة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و قام فى عمل الجسر ليصير رمى التيار من جهة البرّ الغربىّ كما تقدّم ذكره، انطرد الماء عن برّ القاهرة و انكشف ما تحت الدور من منشأة المهرانىّ إلى منية الشيرج، و عمل منجك الجسر الذى مرّ ذكره ليعود الماء فى طول السنة إلى برّ القاهرة، فلم يتهيأ كما كان أوّلا، و جرى فى الخليج الذى احتفره تحت الدور من موردة الحلفاء بمصر إلى بولاق، و صار تجاه هذا الخليج جزيرة، و الماء لا يزال ينطرد فى كلّ سنة عن برّ القاهرة إلى أن استبدّ بتدبير مصر الأمير الكبير برقوق.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۹

فلما دخلت سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، قصد الأمير جهاركس الخليلىّ عمل جسر ليعود الماء إلى برّ القاهرة و يصير فى طول السنة هناك، و يكثر النفع به فيرخص الماء المحمول فى الروايا و يقرب مرسى المراكب من البلد و غير ذلك من وجوه النفع، فشرع فى العمل أوّل شهر ربيع الأوّل، و أقام الخوازيق من خشب السنط، طول كلّ خازوق منها ثمانية أذرع، و جعلها صفين فى طول ثلاثمائة

قصبة و عرض عشر قصبات، و سمر فيها أفلاق النخل الممتدّة، و ألقى بين الخوازيق ترابا كثيرا، و انتصب هناك بنفسه و مماليكه، و لم يجب من أحد مالا البتة، فانتهى عمله فى أخريات شهر ربيع الآخر، و حفر فى وسط البحر خليجا من الجسر إلى زريبة قوصون، و قال شعراء العصر فى ذلك شعرا كثيرا، منهم عيسى بن حجاج:

جسر الخليليّ المقرّ لقد رساكالطود وسط النيل كيف يريد

فإذا سألتم عنهما قلنا لكمذا ثابت دهرا و ذاك يزيد

و قال الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار:

شكت النيل أرضهللخليلى فأحصره

و رأى الماء خائفاأن يطاها فجسره

و قال:

رأى الخليليّ قلب الماء حين طغىبنى على قلبه جسرا و حيّره

رأى ترمّل أرضيه و وحدتهاو النيل قد خاف يغشاها فجسّره

و مع ذلك ما ازداد الماء إلّا انطرادا عن برّ القاهرة و مصر، حتى لقد انكشف بعد عمل هذا الجسر شىء كثير من الأراضى التى كانت عامرة بماء النيل، و بعد النيل عن القاهرة بعدا لم يعهد فى الإسلام مثله قط.

جسر شيبين: أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، بسبب أنّ أقليم الشرقية كانت له سدود كلها موقوفة على فتح بحر أبى المنجا، و فى بعض السنين تشرّق ناحية شيبين و ناحية مرصفا و غير ذلك من النواحى التى أراضيها عالية، فشكا الأمير بشتاك من تشريق بعض بلاده التى فى تلك النواحى، فركب السلطان من قلعة الجبل و معه المهندسون و خولة البلاد، و كانت له معرفة بأمور العمائر، و حدس جيد، و نظر سعيد و رأى مصيب، فسار لكشف تلك النواحى حتى اتفق الرأى على عمل الجسر من عند شيبين القصر إلى بنها العسل، فوقع الشروع فى عمله و جمع له من رجال البلاد اثنى عشر ألف رجل، و مائتى قطعة جرّافة، و أقام فيه القناطر فصار محبسا لتلك البلاد، و إذا فتح بحر أبى المنجا امتلأت الاملاق بالماء، و أسند على هذا الجسر، و فى أوّل سنة عمل هذا الجسر أبطل فتح بحر أبى المنجا تلك السنة، فتح من جسر شيبين هذا، و حصل هذا الجسر نفع كبير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۰

لبلاد العلو، و استبحر منه عدّة بلاد وطيئة، و العمل على هذا الجسر إلى يومنا هذا. و اللّه أعلم.

جسرا مصر و الجيزة: اعلم أن الماء فى القديم كان محيطا بجزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة طول السنة، و كان فيما بين ساحل مصر و بين الروضة جسر من خشب، و كذلك فيما بين الروضة و برّ الجيزة جسر من خشب يمرّ عليهما الناس و الدواب، من مصر إلى الروضة، و من الروضة إلى الجيزة، و كان هذان الجسران من مراكب مصطفة بعضها بحذاء بعض و هى موثقة، و من فوق المراكب أخشاب ممتدّة فوقها تراب، و كان عرض الجسر ثلاث قصبات.

قال القضاعيّ: و أما الجسر فقال بعضهم رأيت فى كتاب، ذكر أنه خط أبى عبد اللّه بن فضالة، صفة الجسر و تعطيلة و إزالته، و أنه لم يزل قائما إلى أن قدم المأمون مصر، و كان غريبا، ثم أحدث المأمون هذا الجسر الموجود اليوم الذى تمرّ عليه المارّة و ترجع من الجسر القديم، فبعد أن خرج المأمون عن البلد أتت ريح عاصفة فقطعت الجسر الغربىّ، فصدمت سفنه الجسر المحدث، فذهبا جميعا، فبطل الجسر القديم و أثبت الجديد، و معالم الجسر القديم معروفة إلى هذه الغاية.

و قال ابن زولاق فى كتاب إتمام أمراء مصر: و لعشر خلون من شعبان سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة سارت العساكر لقتال القائد جوهر، و نزلوا الجزيرة بالرجال و السلاح و العدّة، و ضبطوا الجسرين، و ذكر ما كان منهم إلى أن قال فى عبور جوهر: أقبلت العساكر فعبرت الجسر أفواجا أفواجا، و أقبل جوهر فى فرسانه إلى المناخ موضع القاهرة. و قال فى كتاب سيرة المعز لدين اللّه: و فى مستهلّ

رجب سنة أربع و ستين و ثلاثمائة صلح جسر الفسطاط، و منع الناس من ركوبه، و كان قد أقام سنين معطلا. و قال ابن سعيد فى كتاب المغرب: و ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدّا من الفسطاط إلى الجزيرة، و هو غير طويل، و من الجانب الآخر إلى البرّ الغربىّ، المعروف ببرّ الجيزة، جسر آخر من الجزيرة إليه، و أكثر جواز الناس بأنفسهم و دوابهم فى المراكب، لأنّ هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان، و لا يجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط و الجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان، يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب، و كان رأس هذا الجسر الذى ذكره ابن سعيد حيث المدرسة الخرّوبية، من إنشاء البدر أحمد بن محمد الخرّوبىّ التاجر، على ساحل مصر قبلىّ خط دار النحاس، و ما برح هذا الجسر إلى أن خرّب الملك المعز ايبك التركمانىّ قلعة الروضة، بعد سنة ثمان و أربعين و ستمائة، فأهمل.

ثم عمره الملك الظاهر ركن الدين بيبرس على المراكب، و عمله من ساحل مصر إلى الروضة، و من الروضة إلى الجيزة، لأجل عبور العسكر عليه لما بلغه حركة الفرنج، فعمل ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۱

الجسر من قليوب إلى دمياط: هذا الجسر أنشأه السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورىّ، المعروف بالجاشنكير، فى أخريات سنة ثمان و سبعمائة، و كان من خبره: أنه ورد القصاد بموافقة صاحب قبرس عدّة من ملوك الفرنج على غزو دمياط، و أنهم أخذوا ستين قطعة، فاجتمع الأمراء و اتفقوا على إنشاء جسر من القاهرة إلى دمياط خوفا من حركة الفرنج فى أيام النيل، فيتعذر الوصول إلى دمياط، و عين لعمل ذلك الأمير أقوش الورمىّ الحسامىّ، و كتب الأمراء إلى بلادهم بخروج الرجال و الأبقار، و رسم للولاة بمساعدة أقوش، و أن يخرج كلّ وال إلى العمل برجال عمله و أبقارهم، فما وصل أقوش إلى ناحية فارسكور حتى وجد ولاة الأعمال قد حضروا بالرجال و الأبقار، فرتب الأمور. فعمل فيه ثلاثمائة جرّافة بستمائة رأس بقر، و ثلاثين ألف رجل، و أقام أقوش الحرمة، و كان عبوسا قليل الكلام مهابا إلى الغاية، فجدّ الناس فى العمل لكثرة من ضربه بالمقارع، أو خزم أنفه، أو قطع أذنه، أو أخرق به، إلى أن فرغ فى نحو شهر واحد، فجاء من قليوب إلى دمياط مسافة يومين فى عرض أربع قصبات من أعلاه، و ست قصبات من أسفله، و مشى عليه ستة رؤوس من الخيل صفا واحدا، فعمّ النفع به و سلك عليه المسافرون بعد ما كان يتعذر السلوك أيام النيل، لعموم الماء الأراضى. و اللّه تعالى أعلم.

و قد وجد بخط المصنف رحمه اللّه فى أصله هنا ما صورته

أمراء الغرب ببيروت بيت حشمة و مكارم، و مقامهم بجبال الغرب من بلاد بيروت، و لهم خدم على الناس و تفضيل، و هم ينسبون إلى الحسين بن إسحاق بن محمد التنوخىّ الذى مدحه أبو الطيب المتنبى بقوله:

سدوا بابن إسحاق الحسين فصافحتو قاربها كيزانها و النّمارق

ثم كان كرامة بن بجير بن علىّ بن إبراهيم بن الحسين بن إسحاق بن محمد التنوخىّ، فهاجر إلى الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكى، فأقطعه الغرب و ما معه بإمرته، فسمّى أمير الغرب، و كان منشوره بخط العماد الأصفهانىّ الكاتب، فتحضر الأمير كرامة بعد البداوة، و سكن حصن بلجمور من نواحى إقطاعه، و يعلو على تل أعمال بغير بناء، ثم أنشأ أولاده هناك حصنا و ما زالوا به، و كان كرامة ثقيلا على صاحب بيروت، و ذلك أيام الفرنج، فأراد أخذه مرارا فلم يجد إليه سبيلا، فأخذ فى الحيلة عليه، و هادن أولاده و سألهم حتى نزلوا إلى الساحل و ألفوا الصيد بالطير و غيره، فراسلهم حتى صار يصطاد معهم و أكرمهم و حباهم و كساهم، و ما زال يستدرجهم مرّة بعد، مرّة، ثم أخرج ابنه معه و هو شاب و قال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۲

قد عزمت على زواجه، ثم دعا ملوك الساحل و أولاد كرامة الثلاثة، فأتوه و تأخر أصغر أولاد كرامة مع أمّه بالحصن فى عدّة قليلة،

فامتلأ الساحل بالشوانى و المدينة بالفرنج، و تلقوهم بالشمع و الأغانى، فلما صاروا فى القلعة و جلسوا مع الملوك غدر بهم و أمسكهم و أمسك غلمانهم و غرّقهم، و ركب بجموعه ليلا إلى الحصن، فأجفل الفلاحون و الحريم و الصبيان إلى الجبال و الشعر و الكوف، و بلغ من بالحصن أن أولاد كرامة الثلاثة قد غرقوا، ففتحوه و خرجت أمّهم و معها ابنها حجى بن كرامة و عمره سبع سنين، و لم يبق من بينهم سواه، فأدرك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب و توجه إليه، لما فتح صيدا و بيروت، و باس رجله فى ركابه، فلمس بيده رأسه و قال له: أخذنا ناركَ، طيّب قلبكَ، انت مكان أبيكَ.

و أمر له بكتابة أملاك أبيه بستين فارسا.

فلما كانت أيام المنصور قلاون، ذكر أولاد تغلب بن مسعر الشجاعىّ أن بيد الخليفة أملا كاعظيمة بغير استحقاق، و من جملتهم أمراء الغرب، فحملوا إلى مصر، و رسم السلطان باقطاع أملاك الجبلية مع بلاد طرابلس لأمرائها و جندها، فأقطعت لعشرين فارسا من طرابلس، فلما كانت أيام الأشرف خليل بن قلاون، قدموا مصر و سألوا أن يخدموا على أملاكهم بالعدّة، فرسم لهم و أن يزيدوها عشرة أرماح، فلما كان الروك الناصرىّ و نيابة الأمير تنكر بالشام، و ولاية علاء الدين بن سعيد، كشف تلك الجهات، رسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون أن يستمرّ عليها بستين فارسا، فاستمرّت على ذلك. ثم كان منهم الأمير ناصر الدين الحسين بن خضر بن محمد بن حجى بن كرامة بن بجير بن علىّ، المعروف بابن أمير الغرب، فكثرت مكارمه و إحسانه و خدمته كلّ من يتوجه إلى تلك الناحية، و كانت إقامته بقرية أعبية بالجبل، و له دار حسنة فى بيروت، و اتصلت خدمته إلى كل غادورائح، و باد الأكابر و الأعيان مع رياسة كبيرة و معرفة عدّة صنائع يتقنها، و كتابة جيدة، و ترسل عدّة قصائد، و مولده فى محرّم سنة ثمان و ستين و ستمائة، و توفى للنصف من شوال سنة إحدى و خمسين و سبعمائة. انتهى.

و وجد بخطه أيضا من أخبار اليمن ما مثاله: كان ابتداء دولة بنى زياد، أن محمد بن إبراهيم بن عبد اللّه بن زياد سلمه المأمون مع عدّة من بنى أمية إلى الفضل بن سهل بن ذى الرياستين، فورد على المأمون اختلال اليمن، فثنى الفضل على محمد هذا، فبعثه المأمون أميرا على اليمن، فحج و مضى إلى اليمن، و نتج بها من بعد محاربته العرب، و ملك اليمن و بنى مدينة زبيد فى سنة ثلاث و مائتين، و بعث مولاه جعفرا بهدية جليلة إلى المأمون فى سنة خمس، و عاد إليه فى سنة ست و معه من جهة المأمون ألفا فارس، فقوى ابن زياد و ملك جميع اليمن، و قلد جعفر الجبال، و بنى بها مدينة الدمجرة، فظهرت كفاءة جعفر لكثرة دهائه، فقتله ابن زياد، ثم مات محمد بن زياد، فملك بعده ابنه إبراهيم، ثم ملك بعده ابنه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم، و طالت مدّته و مات سنة إحدى و سبعين و ثلاثمائة و ترك طفلا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۳

اسمه زياد، فأقيم بعده و كفلته أخته هند ابنة إسحاق، و تولى معها رشد عبد أبى الجيش حتى مات، فولى بعد رشد عبده حسين بن سلامة، و كان عفيفا، فوزر لهند و لأخيها حتى ماتا، ثم انتقل الملك إلى طفل من آل زياد، و قام بأمره عمته و عبد الحسين بن سلامة اسمه مرجان، و كان لمرجان عبدان قد تغلبا على أمره يقال لأحدهما قيس و للآخر نجاح، فتنافسا على الوزارة، و كان قيس عسوفا، و نجاح رقيقا، و كان مرجان سيدهما يميل إلى قيس، و عمة الطفل تميل إلى نجاح، فشكا قيس ذلك إلى مرجان، فقبض على الملك الطفل إبراهيم و على عمته تملك، فبنى قيس عليهما جدارا، فكان إبراهيم آخر ملوك اليمن من آل زياد، و كان القبض عليه و على عمته سنة سبع و أربعمائة، فكانت مدّة بنى زياد مائتى سنة و أربعا و ستين سنة، فعظم قتل إبراهيم و عمته تملك على نجاح و جمع الناس، و حارب قيسا بزبيد حتى قتل قيس، و ملك نجاح المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتى عشرة، و قال لسيده مرجان: ما فعلت بمواليك و موالينا؟ فقال: هم فى ذلك الجدار، فأخرجهما و صلى عليهما و دفنهما و بنى عليهما مسجدا، و جعل سيده مرجان موضعهما فى الجدار، و وضع معه جثة قيس و بنى عليهما الجدار، و استبدّ نجاح بمملكة اليمن، و ركب بالمظلة و ضربت السكة باسمه، و نجاح مولى مرجان، و مرجان مولى حسين بن سلامة، و حسين مولى رشد، و رشد مولى بنى زياد، و لم يزل نجاح ملكا حتى

مات سنة اثنتين و خمسين و أربعمائة، سمته جارية أهداها إليه الصليحيّ و ترك من الأولاد عدّة.

فملك منهم سعيد الأحوال و إخوته عدّة سنين حتى استولى عليهم الصليحيّ فهربوا إلى دهلك، ثم قدم منهم جياش بن نجاح إلى زبيد متنكرا، و أخذ منها وديعة و عاد إلى دهلك، فقدمها أخوه سعيد الأحوق بعد ذلك و اختفى بها، و استدعى أخاه جياشا و سارا فى سبعين رجلا يوم التاسع من ذى القعدة سنة ثلاث و سبعين، و قصدوا الصليحيّ و قد سار إلى الحج، فوافوه عند بئر أمّ معبد و قتلوه فى ثانى عشرى ذى القعدة المذكور، و قتل معه ابنه عبد اللّه، و احتز سعيد رأسيهما، و احتاط على امرأته أسماء بنت شهاب، و عاد إلى زبيد و معه أخوه جياش و الرأسان بين أيديهما على هودج أسماء، و ملك اليمن، فجمع المكرم ابن أسماء فى سنة خمس و سبعين و سار من الجبال إلى زبيد و قاتل سعيدا، ففرّ سعيد، و ملك المكرم و اسمه أحمد، و أنزل رأس الصليحيّ و أخيه و دفنهما، و ولى زبيد خاله أسعد بن شهاب، و ماتت أسماء أمّه بعد ذلك فى صنعاء سنة سبع و سبعين.

ثم عاد ابنا نجاح إلى زبيد و ملكاها فى سنة تسع و سبعين، ففرّ أسعد بن سهاب، ثم غلبهما أحمد المكرم بن علىّ الصليحيّ، و قتل سعيد بن نجاح فى سنة إحدى و ثمانين، و فرّ أخوه جياش إلى الهند، ثم عاد و ملك زبيد فى سنة إحدى و ثمانين المذكورة، فولدت له جاريته الهندية ابنه الفاتك بن جياش، و بقى المكرم فى الجبال يغير على بلاد جياش، و جياش يملك تهامة حتى مات آخر سنة ثمان و تسعين، فملك بعده ابنه فاتك، و خالف عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۴

أخوه إبراهيم، و مات فاتك سنة ثلاث و خمسمائة، فملك بعده ابنه منصور بن فاتك، و هو صغير فثار عليه عمه إبراهيم فلم يظفر، و ثار بزبيد عبد الواحد بن جياش و ملكها، فسار إليه عبد فاتك و استعادها، ثم مات منصور و ملك بعده ابنه فاتك بن منصور، ثم ملك بعده ابن عمه فاتك بن محمد بن فاتك بن جياش فى سنة إحدى و ثلاثين و خمسمائة، حتى قتل سنة ثلاث و خمسين و خمسمائة، و هو آخر ملوك بنى نجاح، فتغلب على اليمن علىّ بن مهدىّ فى سنة أربع و خمسين.

و أما الصليحيّ: فإنه علىّ بن القاضى محمد بن على، كان أبوه فى طاعته أربعون ألفا فأخذ ابنه التشيع عن عامر بن عبد اللّه الرواحيّ، أحد دعاة المستضىء، و صحبه حتى مات، و قد أسند إليه أمر الدعوة، فقام بها و صار دليلا لحاج اليمن عدّة سنين، ثم ترك الدلالة فى سنة تسع و عشرين و أربعمائة، و صعد رأس جبل مسار فى ستين رجلا، و جمع حتى ملك اليمن فى سنة خمس و خمسين، و أقام على زبيد أسعد بن شهاب بن علىّ الصليحيّ، و هو أخو زوجته و ابن عمه، ثم انه حج فقتله بنو نجاح فى ذى القعدة سنة ثلاث و سبعين، و استقرّت التهائم لبنى نجاح، و استقرّت صنعاء لأحمد بن علىّ الصليحيّ المقتول، و تلقب بالملك المكرم. ثم جمع و قصد سعيد بن نجاح بزبيد و قاتله و هزمه إلى دهلك، و ملك زبيد فى سنة خمس و سبعين، فعاد سعيد و ملك زبيد فى سنة تسع و سبعين، فأتاه المكرم فقتله فى سنة إحدى و ثمانين، فملك جياش أخو سعيد و مات المكرم بصنعاء سنة أربعة و ثمانين، فملك بعده أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن علىّ الصليحيّ فى سنة أربع و ثمانين حتى مات سنة خمس و تسعين، و هو آخر الصليحيين، فملك بعده علىّ بن إبراهيم بن نجيب الدولة، فقدم من مصر إلى جبال اليمن فى سنة ثلاث عشرة و خمسمائة، و قام بأمر الدعوة و المملكة التى كانت بيد سبأ، ثم قبض عليه بأمر الخليفة الآمر بأحكام اللّه الفاطمىّ بعد سنة عشرين و خمسمائة، و انتقل الملك و الدعوة إلى الزريع بن عباس بن المكرم، و آل الزريع من إل عدن، و هم من حمدان، ثم من جشم، و بنوا المكرم يعرفون بآل الذنب. و كانت عدن للزريع بن عباس و أحمد بن مسعود بن المكرم، فقتلا على زبيد، و ولى بعدهما ولداهما أبو السعود بن زريع و أبو الغارات بن مسعود، ثم استولى على الملك و الدعوة سبأ بن أبى السعود بن زريع حتى مات سنة ثلاث و ثلاثين و خمسمائة، فولى بعده ولده الأعز علىّ بن سبأ، و كان مقامه بالرمادة، فمات بالسل، و ملك أخوه المعظم محمد فى سنة ثمان و ثلاثين.

و ولى من الصليحيين أيضا المملكة السيدة سنة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحيّ، زوجة أحمد المكرم، و لقبت بالحرّة، و مولدها سنة أربعين و أربعمائة، و ربتها أسماء بنت شهاب، و تزوّجها الملك المكرم أحمد بن أسماء، و هو ابن على الصليحيّ، سنة

إحدى و ستين، و ولاها الأمر فى حياته، فقامت بتدبير المملكة و الحروب، و أقبل زوجها على لذاته حتى مات، و تولى ابن عمه سبأ، فاستمرّت فى الملك حتى مات سبأ، و تولى ابن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۵

نجيب الدولة حتى ماتت سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة، و شاركه فى الملك المفضل أبو البركات بن الوليد الحميرىّ، و كان يحكم بين يدى الملكة الحرّة، و هى من وراء الحجاب، و مات المفضل فى رمضان سنة أربع و ثلاثين و خمسمائة، و ملك بلاده ابنه الملك المنصور، و منصور بن المفضل، حتى ابتاع منه محمد بن سبأ بن أبى السعود معاقل الصليحيين، و عدّتها ثمانية و عشرون حصنا بمائة ألف دينار، فى سنة سبع و أربعين و خمسمائة، و بقى المنصور بعد حتى مات بعد ما ملك نحو ثمانين سنة.

و أما علىّ بن مهدىّ: فإنه حميرىّ من سواحل زبيد، كان أبوه مهدىّ رجلا صالحا، و نشأ ابنه على طريقة حسنة، و حج و وعظ، و كان فصيحا حسن الصوت عالما بالتفسير و غيره، يتحدّث بالمغيبات فتكون كما يقول، و له عدّة أتباع كثيرة و جموع عديدة، ثم قصد الجبال و أقام بها إلى سنة إحدى و أربعين و خمسمائة، ثم عاد إلى أملاكه و وعظ، ثم عاد إلى الجبال و دعا إلى نفسه فأجابه بطن من خولان فسماهم الأنصارى، و سمّى من صعد معه من تهامة المهاجرين، و ولّى على خولان سبأ، و على المهاجرين رجلا آخر، و سمّى كلا منهما شيخ الإسلام، و جعلهما نقيبين على طائفتيهما فلا يخاطبه أحد غيرهما و هما يوصلان كلامه إلى من تحت أيديهما، و أخذ يغادى الغارات و يراوحها على التهائم حتى أجلى البوادى، ثم حاصر زبيد حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بنى نجاح، فحارب ابن مهدىّ عبد فاتك حتى غلبهم و ملك زبيد يوم الجمعة رابع عشر رجب سنة أربع و خمسين و خمسمائة، فبقى على الملك شهرين و أحدا و عشرين يوما و مات.

فملك بعده ابنه مهدىّ ثم عبد الغنىّ بن مهدىّ، و خرجت المملكة عن عبد الغنىّ إلى أخيه عبد اللّه، ثم عادت إلى عبد الغنىّ، و استقرّ حتى سار إليه توران شاه بن أيوب من مصر فى سنة تسع و ستين و خمسمائة و فتح اليمن و أسر عبد الغنىّ، و هو آخر ملوك بنى مهدىّ، يكفر بالمعاصى و يقتل من يخالف اعتقاده و يستبيح وطء نسائهم و استرقاق أولادهم، و كان حنفى الفروع، و لأصحابه فيه غلوّ زائد، و من مذهبه قتل من شرب الخمر و من سمع الغناء.

ثم ملك توران شاه بن أيوب عدن من ياسر، و ملك بلاد اليمن كلها و استقرّت فى ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و عاد شمس الدولة توازن شاه بن أيوب إلى مصر فى شعبان سنة ست و سبعين، و استخلف على عدم عز الدين عثمان بن الزنجيلى، و على زبيد حطان بن كليل بن منقد الكافى، فمات شمس الدولة بالإسكندرية، فاختلف نوّابه، فبعث السلطان صلاح الدين يوسف جيشا فاستولى على اليمن، ثم بعث فى سنة ثمان و سبعين أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب، فقدم إليها و قبض على حطان بن كليل بن منقد و أخذ أمواله و فيها سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبا عينا، و سجنه فكان آخر العهد به، و نجا عثمان بن الزنجيلىّ بأمواله إلى الشام فظفر بها سيف الإسلام، و صفت له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۶

مملكة اليمن حتى مات بها فى شوال سنة ثلاث و تسعين. فأقيم بعده ابنه الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بن أيوب، فجعظ و ادّعى أنه أموىّ، و خطب لنفسه بالخلافة و عمل طول كمه عشرين ذراعا، فثار عليه مماليكه و قتلوه فى سنة تسع و تسعين، و أقاموا بعده أخاه الناصر، و مات بعد أربع سنين فقام من بعده زوج أمّه غازى بن حزيل أحد الأمراء، فقتله جماعة من العرب، و بقى اليمن بغير سلطان، فتغلبت أمّ الناصر على زبيد، فقدم سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن أيوب إلى اليمن، فعبر يحمل ركوته على كتفه فملكته أم الناصر البلاد و تزوّجت به، فاشتدّ ظلمه و عتوّه إلى أن قدم الملك المسعود أقسيس بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من مصر فى سنة اثنتى عشرة و ستمائة، فقبض عليه و حمله إلى مصر فأجرى له الكامل ما يقوم به إلى أن استشهد على المنصورة سنة سبع و أربعين و ستمائة، و أقام المسعود باليمن و حج ملك مكة أيضا فى شهر ربيع الأوّل سنة عشرين و ستمائة، و عاد إلى اليمن ثم

خرج عنها و استخلف عليها استاداره علىّ بن رسول، فمات بمكة سنة ست و عشرين، فقام علىّ بن رسول على ملك اليمن حتى مات فى سنة تسع و عشرين، و استقرّ عوضه ابنه عمر بن علىّ بن رسول و تلقب بالمنصور حتى قتل سنة ثمان و أربعين، و استقرّ بعده ابنه المظفر يوسف بن عمر بن علىّ بن رسول و صفا له اليمن و طالت أيامه انتهى ما ذكره المصنف بخطه فى تاريخه، عفا اللّه عنه و أرضاه و جعل الجنة مقرّه و مثواه.

و وجد بخطه أيضا ما مثاله: السلطان محمد بن طغلق شاه، و طغلق يلقب غياث الدين، و هو مملوك السلطان علاء الدين محمود بن شهاب الدين مسعود ملك الهند، مقرّ ملكه مدينة دهلى و جميع البلاد برّا و بحرا بيده، إلّا الجزائر المغلغلة فى البحر، و أما الساحل فلم يبق منه قيد شبر إلا و هو بيده، و أوّل ما فتح مملكة تكنك، عدّة قراها مائة ألف قرية و تسعمائة قرية، فتح بلاد حاجنكيز، و بها سبعون مدينة جليلة كلها بنادر على البحر، فتح بلاد لنكوتى و هى كرسىّ تسعة ملوك، ثم فتح بلاد دواكير و بها أربع و ثمانون قلعة كلها جليلات المقدار، و بها ألف ألف قرية و مائتا ألف قرية، ثم فتح بلاد و رسمند و كان بها ستة ملوك، ثم فتح بلاد المعبر و هم أقليم جليل له سبعون مدينة بنادر على البحر، و جملة ما بيده ثلاثة و عشرون إقليما، و هى: أقليم دهلى، و أقليم الدواكير، و إقليم الملثان، و إقليم كهران، و إقليم سامان، و إقليم سوستان، و إقليم وجا، و إقليم هاسى، و إقليم سرسينى، و إقليم المعبر، و إقليم تكنك كحرات، و إقليم بداون، و إقليم عوض، و إقليم التيوج، و إقليم لنكوتى، و إقليم بهار، و إقليك كره، و إقليم ملاوه، و إقليم بهادر، و إقليم كلافور، و إقليم حاجنكيز، و إقليم بليخ، و إقليم و رسمند. و هذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة، و مائتى مدينة دهلى دور عمرانها أربعون ميلا، و جملة ما يطلق عليه اسم دهلى إحدى و عشرون مدينة، و فى دهلى ألف مدرسة كلها للحنفية إلّا واحدة فإنها للشافعية، و نحو سبعين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۷

مارستان، و فى بلادها من الخوانك و الربط نحو ألفين، و بها جامع ارتفاع مئذنته ستمائة ذراع فى الهواء، و للسلطان خدمة مرّتين فى كلّ يوم بكرة و بعد العصر، و رتب الأمراء على هذه الأنواع، أعلاهم قدرا الخانات ثم الملوك ثم الأمراء ثم الأسفهسلارية ثم اجلند، و فى خدمته ثمانون خانا، و عسكره تسعمائة ألف فارس، و له ثلاثة آلاف فيل تلبس فى الحروب البرك اصطونات الحديد المذهب، و تلبس فى أيام السلم جلال الديباج و أنواع الحرير و تزين بالقصور و الأسرّة المصفحة و يشدّ عليها بروج الخشب يركب فيها الرجال للحرب، فيكون على الفيل من عشرة رجال إلى ستة، و له عشرون ألف مملوك أتراك، و عشرة آلاف خادم خصىّ، و ألف خازندار، و ألف مشبقدار، و مائتا ألف عبد ركابية تلبس السلاح و تمشى بركابه و تقاتل رجالة بين يديه، و الاسفهسلارية لا يؤهل منهم أحد لقرب السلطان، و إنما يكون منهم نوع الولاة، و الخان يكون له عشرة آلاف فارس، و للملك ألف، و للأمير مائة فارس، و للاسفسلار دون ذلك، و لكلّ خان عبرة لكّين كلّ لك مائة ألف تنكة، كلّ تنكة ثمانية دراهم، و لكلّ ملك من ستين ألف تنكة إلى خمسين ألف تنكة، و لكل أمير من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة، و لكلّ اسفهسلار من عشرين ألف تنكة إلى ما حولها، و لكلّ جندىّ من عشرة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، و لكلّ مملوك من خمسة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، سوى طعامهم و كساويهم و عليقهم، و لكلّ عبد فى الشهر منان من الحنطة و الأرز، فى كلّ يوم ثلاثة أستار لحم و ما يحتاج إليه، و فى كلّ شهر عشر تنكات بيضاء، و فى كلّ سنة أربع كساو. و للسلطان دار طراز فيها أربعة آلاف قزّاز لعمل أنواع القماش، سوى ما يحمل له من الصين و العراق و الإسكندرية، و يفرّق كلّ سنة مائتى ألف كسوة كاملة، فى فصل الربيع مائة ألف، و فى فصل الخريف مائة ألف، ففى الربيع غالب الكسوة من عمل الإسكندرية، و فى الخريف كلها حرير من عمل دار الطراز بدهلى و قماش الصين و العراق، و يفرّق على الخوانك و الربط الكساوى، و له أربعة آلاف زركشىّ تعمل الزركش، و يفرّق كلّ سنة عشرة آلاف فرس مسرجة و غير مسرجة سوى ما يعطى الأجناد من البراذين، فإنه بلا حساب يعطى جشارات، و مع هذا فالخيل عنده غالية مطلوبة، و للسلطان نائب من الخانات يسمى ابريت، اقطاعه قدر إقليم بحر العراق، و وزير إقطاعه كذلك، و له أربعة نوّاب مسمى كلّ واحد منهم من أربعين ألف تنكة إلى عشرين ألف

تنكة، و له أربعة ربيسان أى كتاب سرّ، لكلّ واحد منهم ثلاثمائة كاتب، و لكل كاتب إقليم عشرة آلاف تنكة، و لصدر جهان و هو قاضى القضاة قرى يتحصل منها نحو ستين ألف تنكة، و لصدر الإسلام و هو أكبر نوّاب القاضى، و لشيخ الإسلام و هو شيخ الشيوخ مثل ذلك، و للمحتسب ثمانية آلاف تنكة، و له ألف طبيب و مائتا طبيب، و عشرة آلاف بزدار تركب الخيل و تحمل طيور الصيد، و له ثلاثة آلاف سوّاق لتحصيل الصيد، و خمسمائة نديم، و ألفان و مائتان للملاهى سوى مماليكه، و هم ألف مملوك، و ألف شاعر باللغات العربية و الفارسية و الهندية، يجرى عليهم ديوانه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۸

و متى غنى أحد منهم لغيره قتله، و لكلّ نديم قريتان أو قرية، و من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة إلى عشرين ألف تنكة، سوى الخلع و الكساوى و الافتقادات، و يمدّ فى وقت كلّ خدمة فى المرتين من كلّ يوم سماط يأكل منه عشرون ألفا مثل الخانات و الملوك و الأمراء و الاسفهسلارية و أعيان الأجناد، و له طعام خاص، يأكل معه الفقهاء و عدّتهم مائتا فقيه فى الغداء و العشاء، فيأكلون و يتباحثون بين يديه، و يذبح فى مطابخه كلّ يوم ألفان و خمسمائة رأس من البقر، و ألفا رأس من الغنم، سوى الخيل و أنواع الطير، و لا يحضر مجلسه من الجند إلّا الأعيان، و من دعته ضرورة إلى الحضور، و الندماء و أرباب الأغانى يحضرون بالنوبة، و كذلك الربيسان و الأطباء و نحوهم لكلّ طائفة نوبة تحضر فيها للخدمة، و الشعراء تحضر فى العيدين و المواسم و أوّل شهر رمضان، و إذا تجدّد نصر على عدوّ أو فتوح و نحو ذلك مما يهنّى به السلطان.

و أمور الجند و العامّة مرجعها إلى ابريت، و أمر القضاة كلهم مرجعه إلى صدر جهان، و أمر الفقهاء إلى شيخ الإسلام، و أمر الواردين و الوافدين و الأدباء و الشعراء إلى الربيسان، و هم كتاب السرّ. و جهز هذا السلطان مرّة أحد كتاب سرّه إلى السلطان أبى سعيد رسولا، و بعث معه ألف ألف تنكة ليتصدّق بها فى مشاهد العراق، و خمسمائة فرس، فقدم بغداد و قد مات أبو سعيد، و كان هذا السلطان ترعد الفرائض لمهابته و تزلزل الأرض لموكبه، يجلس بنفسه لإنصاف رعيته و لقراءة القصص عليه جلوسا عامّا، و لا يدخل أحد عليه و معه سلاح و لو السكين و يجلس، و عنده سلاح كامل لا يفارقه أبدا، و إذا ركب فى الحرب فلا يمكن وصف هيبته، و له أعلام سود فى أوساطها تبابين من ذهب تسير عن يمينه، و أعلام حمر فيها تبابين من ذهب تسير عن يساره، و معه مائتا جمل نقارات، و أربعون جملا كوسات كبارا، و عشرون بوقا، و عشرة صنوج، و يدق له خمس نوب كلّ يوم، و إذا خرج إلى الصيد كان فى جف و عدّة من معه زيادة على مائة ألف فارس و مائتى فيل و أربعة قصور خشب على ثمانمائة جمل، كلّ قصر منها على مائتى جمل كلها ملبسة حريرا مذهبا، كلّ قصر طبقتان، سوى الخيم و الجركاوات، و إذا انتقل من مكان إلى مكان للنزهة يكون معه نحو ثلاثين ألف فارس و ألف جنيب مسرجة ملجمة بالذهب المرصع بالجوهر و الياقوت، و إذا خرج فى قصره من موضع إلى آخر يمرّ راكبا و على رأسه الحبر، و السلاح دارية وراءه بأيديهم السلاح، و حوله نحو اثنا عشر ألف مملوك مشاة، لا يركب منهم إلّا حامل الحبر و السلاح دارية و الجمدارية حملة القماش، و إذا خرج للحرب أو سفر طويل حمل على رأسه سبع حبورة، منها اثنان مرصعان ليس لهما قيمة، و له فخامة عظيمة و قوانين و أوضاع جليلة، و الخانات و الملوك و الأمراء لا يركب أحد منهم فى السفر و الحضر إلّا بالأعلام، و أكثر ما يحمل الخان سبعة أعلام، و أكثر ما يحمل الأمير ثلاثة، و أكثر ما يجرّه الخان فى الحضر عشرة جنائب، و أكثر ما يجرّ الأمير فى الحضر جنيبان، و أما فى السفر فحسبما يختار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۹

و كان للسلطان برّ و إحسان، و فيه تواضع، و لقد مات عنده رجل فقير فشهد جنازته و حمل نعشه على عنقه، و كان يحفظ القرآن العزيز العظيم و الهداية فى فقه الحنفية، و يجيد علم المعقول، و يكتب خطا حسنا، و لذته فى الرياضة و تأديب النفس، و يقول الشعر و يباحث العلماء و يؤاخذ الشعراء و يأخذ بأطراف الكلام على كلّ من حضر على كثرة العلماء عنده، و العلماء تحضر عنده و تفطر فى رمضان معه بتعيين صدر جهان لهم فى كلّ ليلة، و كان لا يترخص فى محذور و لا يقرّ على منكر و لا يتجاسر أحد فى بلاده أن

يتظاهر بمحرّم، و كان يشدّد فى الخمر و يبالغ فى العقوبة على من يتعاطاه من المقرّبين منه، و عاقب بعض أكابر الخانات على شرب الخمر و قبض عليه و أخذ أمواله و جملتها أربعمائة ألف ألف مثقال و سبعة و ثلاثون ألف ألف مثقال ذهبا أحمر، زنتها ألف و سبعمائة قنطار بالمصرىّ، و له وجوه برّ كثيرة منها: أنه يتصدّق فى كلّ يوم بلكّين، عنهما من نقد مصر ألف و ستمائة ألف درهم، و ربما بلغت صدقته فى يوم واحد خمسين لكّا، و يتصدّق عند كلّ رؤية هلال شهر بلكين دائما، و عليه راتب لأربعين ألف فقير، كلّ واحد منهم درهم فى كلّ يوم، و خمسة أرطال برّ و أرز، و قرّر ألف فقيه فى مكاتب لتعليم الأطفال القرآن، و أجرى عليهم الأرزاق، و كان لا يدعى بدهلى سائلا بل يجرى على الجميع الأرزاق، و يبالغ فى الإحسان إلى الغرباء، و قدم عليه رسول من أبى سعيد مرّة بالسلام و التودّد، فخلع عليه و أعطاه حملا من المال، فلما أراد الانصراف أمره أن يدخل الخزانة و يأخذ ما يختار، فلم يأخذ غير مصحف، فسأله عن ذلك فقال: قد أغنانى السلطان بفضله، و لم أجد أشرف من كتاب اللّه، فزاد إعجابه به و أعطاه مالا جملته ثمانمائة تومان، و التومان عشرة آلاف دينار، و كلّ دينار ستة دراهم، تكون جملة ذلك ثمانية آلاف ألف دينار، عنها ثمانية و أربعون ألف ألف درهم.

و قصده شخص من بلاد فارس و قدّم له كتبا فى الحكمة منها كتاب الشفاء لابن سينا، فأعطاه جوهرا بعشرين ألف مثقال من الذهب، و قصده آخر من بخارى بحملى بطيخ أصفر فتلف غالبه حتى لم يبق منه إلا اثنتان و عشرون بطيخة، فأعطاه ثلاثة آلاف مثقال ذهبا، و كان قد التزم أن لا ينطق فى إطلاقاته بأقل من ثلاثة آلاف مثقال ذهبا، و بعث ثلاث لكوك ذهبا إلى بلاد ما وراء النهر ليفرّق على العلماء لكّ، و على الفقراء لكّ، و يبتاع له حوائج بلك، و بعث للبرهان الضياء عزه جى شيخ سمرقند بأربعين ألف تنكة، و كان لا يفارق العلماء سفرا و حضرا، و منار الشرع فى أيامه قائم، و الجهاد مستمرّ، فبلغ مبلغا عظيما فى إعلاء كلمة الإيمان، فنشر الإسلام فى تلك الأقطار و هدم بيوت النيران و كسر الندود و الأصنام و اتصل به الإسلام إلى أقصى الشرق، و عمر الجوامع و المساجد، و أبطل التثويب فى الآذان و لم يخل له يوم من الأيام من بيع آلاف من الرقيق لكثرة السبى، حتى أن الجارية لا يتعدّى ثمنها بمدينة دهلى ثمان تنكات، و السرّية خمس عشرة تنكة، و العبد المراهق أربعة دراهم، و مع رخص قيمة الرقيق فإنه تبلغ قيمة الجارية الهندية عشرين ألف تنكة، لحسنها و لطف خلقها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۰

و حفظها القرآن و كتابتها الخط، و روايتها الأشعار و الأخبار، و جودة غنائها و ضربها بالعود و لعبها بالشطرنج، و هن يتفاخرن فتقول الواحدة آخذ قلب سيدى فى ثلاثة أيام، فتقول الأخرى أنا آخذ قلبه فى يوم، فتقول الأخرى أنا أخذ قلبه فى ساعة، فتقول الأخرى أنا آخذ قلبه فى طرفة عين، و كان ينعم على جميع من فى خدمته من أرباب السيوف و الأقلام بكلّ جليل من البلاد و الأموال و الجواهر و الخيول المجللة بالذهب و غير ذلك، إلّا الفيلة فإنه لا يشاركه فيها أحد، و للثلاثة آلاف فيل راتب عظيم، فأكثرها مؤنة له فى كلّ يوم أربعون رطلا من أرز، و ستون رطلا من شعير، و عشرون رطلا من سمن، و نصف حمل من حشيش، و قيّمها جليل القدر، إقطاعه مثل إقليم العراق، و إذا وقف السلطان للحرب كان أهل العلم حوله و الرماة قدّامه و خلفه، و أمامه الفيلة كما تقدّم عليها الفيالة، و قدّامها العبيد المشاة، و الخيل فى الميمنة و الميسرة، فتهيأ له من النصر ما لا تهيأ لأحد ممن تقدّمه، ففتح الممالك و هدم قواعد الكفار و محا صور معابدهم، و أبطل فخرهم، و كان يجلس كلّ يوم ثلاثاء جلوسا عامّا على تخت مصفح بالذهب، و على رأسه حبر فى موكب عظيم، و ينادى مناديه من له شكوى فى شخص، فينظر فى ظلامات الناس، و كان لا يوجد بدهلى فى أيامه خمر البتة.

و أوّل من ملك مدينة دهلى قطب الدين أيبك، و ذلك أن شهاب الدين محمد بن سالم بن الحسين، أحد الملوك الغورية، فتح الهند بعد عدّة حروب، و أقطع مملوكه أيبك هذا مدينة دهلى، فبعث أيبك عسكرا عليه محمد بن بختيار، فأخذ إلى تخوم الصين، و ذلك كله فى سنة سبع و أربعين و خمسمائة، ثم ولى بعده ايتمش بن أيبك أربعين سنة، فقام بعده ابنه علاء الدين علىّ بن ايتمش بن أيبك، ثم أخوه معز الدين بن أيتمش، ثم أخته رضية خاتون فأقامت ثلاث سنين، ثم أخوها ناصر الدين بن ايتمش فأقام أربعا و

عشرين سنة، ثم قام بعده مملوكه غياث الدين بليان سبعا و عشرين سنة، ثم بعده معز الدين نيابا خمس سنين، ثم ابنه شمس الدين كيمورس سبعة أشهر، ثم خرج الملك عن بيت السلطان شمس الدين ايتمش، و قويت التركمان العلجية و كانوا أمراء يقال للواحد منهم خان، و استبدّ كبيرهم جلال الدين فيروز سبع سنين، ثم ابن أخيه علاء الدين محمود بن شهاب مسعود اثنتين و عشرين سنة، و مات سنة خمس عشرة و سبعمائة، ثم ابنه شهاب الدين عمر بن محمود بن مسعود سنة واحدة، و لقب غياث الدين، ثم أخوه قطب الدين مبارك بن محمود أربع سنين و قتل سنة عشرين و سبعمائة، ثم علاء الدين خسر و مملوك علاء الدين محمود سبعة أشهر، و ملك غياث الدين طغلق شاه مملوك السلطان علاء الدين محمود بن مسعود فى أوّل شعبان سنة عشرين و سبعمائة، ثم ملك بعده ابنه محمد بن طغلق شاه صاحب الترجمة. هذا آخر ما وجد بخطه رحمه اللّه تعالى.

و وجد بخطه أيضا رحمه اللّه تعالى: ما أحسن قول الأديب محمد بن حسن بن شاور النقيب:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۱ مشت أيامكم لا بل نراهاجرت جريا على غير اعتياد

و ما عقدت نواصيها بخيرو لا كانت تعدّ من الجياد

بخشان: مدينة فيما وراء النهر بها معدن اللعل البدخشانىّ، و هو المسمى بالبلخش، و بها معدن اللازورد الفائق، و هما فى جبل بها يحفر عليهما فى معادنهما، فيوجد اللازورد بسهولة، و لا يوجد اللعل إلا بتعب كبير و إنفاق زائد، و قد لا يوجد بعد التعب الشديد و النفقة الكثيرة، و لهذا عز وجوده و غلت قيمته.

و أقصر ليل بلغار بالبحرين أربع ساعات و نصف، و أقصر ليل أفتكون ثلاث ساعات و نصف، فهو أقصر من ليل بلغار بساعة واحدة، و بين بلغار و أفتكون مسافة عشرين يوما بالسير المعتاد. انتهى.

السلطانية من عراق العجم، بناها السلطان محمد خدابنده أوكانيق بن أرغون بن ابغا بن هولاكو، و خدابنده ملك بعد أخيه محمود غازان، و ملك بعد خدابنده ابنه السلطان أبو سعيد بهادر خان، و كان الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا مع قائد السلطان محمد بن طشتمر بن استيمر بن عترجى، و مذ مات أبو سعيد لم يجمع بعده على طاعة ملك، بل تفرّقوا و قام فى كلّ ناحية قائم. انتهى.

و وجد بخطه أيضا ما نصه: و للّه در أبى إسحاق الأديب حيث قال:

إذا كنت قد أيقنت أنك هالكفمالك مما دون ذلك تشفق

و مما يشين المرء ذا الحلم أنّه‌يرى الأمر حتما واقعا ثم يقلق

و حيث يقول:

و من طوى الخمسين من عمره‌لاقى أمورا فيه مستنكرة

و إن تخطاها رأى بعدهامن حادثات الدهر ما لم يره

انتهى ما وجد بخطه فى أصله.

ذكر الجزائر

اشارة

اعلم أن الجزائر التى هى الآن فى بحر النيل كلها حادثة فى الملة الإسلامية، ما عدا الجزيرة التى تعرف اليوم بالروضة تجاه مدينة مصر، فإن العرب لما دخلوا مع عمرو بن العاص إلى مصر، و حاصروا الحصن الذى يعرف اليوم بقصر الشمع فى مصر، حتى فتحه اللّه تعالى عنوة على المسلمين، كانت هذه الجزيرة حينئذ تجاه القصر، و لم يبلغنى إلى الآن متى حدثت، و أما غيرها من الجزائر فكلها قد تجدّدت بعد فتح مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۲

و يقال و اللّه أعلم، أنّ بلهيت الذى يعرف اليوم بأبى الهول، طلسم وضعه القدماء لقلب الرمل عن برّ مصر الغربىّ الذى يعرف اليوم ببرّ الجيزة، و أنه كان فى البرّ الشرقىّ بجوار قصر الشمع صنم من حجارة على مسامتة أبى الهول، بحيث لو امتدّ خيط من رأس أبى الهول و خرج على استواء، لسقط على رأس هذا الصنم، و كان مستقبل المشرق، و أنه وضع أيضا لقلب الرمل عن البرّ الشرقىّ، فقدّر اللّه سبحانه و تعالى أن كسر هذا الصنم على يد بعض أمراء الملك الناصر محمد بن قلاون، فى سنة إحدى عشرة و سبعمائة، و حفر تحته حتى بلغ الحفر إلى الماء، ظنا أنه يكون هناك كنز، فلم يوجد شىء، و كان هذا الصنم يعرف عند أهل مصر بسريّة أبى الهول، فكان عقيب ذلك غلبة النيل على البرّ الشرقىّ، و صارت هذه الجزائر الموجودة اليوم، و كذلك قام شخص من صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر فى تغيير المنكر أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، فشوّه وجوه سباع الحجر التى على قناطر السباع خارج القاهرة، و شوّه وجه أبى الهول، فغلب الرمل على أراضى الجيزة، و لا ينكر ذلك، فللّه فى خليقته أسرار يطلع عليها من يشاء من عباده، و الكلّ بخلقه و تقديره.

و قد ذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب أخبار مصر، فى خبر الواحات الداخلة، أن فى تلك الصحارى كانت أكثر مدن ملوك مصر العجيبة و كنوزهم، إلا أن الرمال غلبت عليها. قال: و لم يبق بمصر ملك إلّا و قد عمل للرمال طلسما لدفعها، ففسدت طلسماتها لقدم الزمان.

و ذكر ابن يونس عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال: إنى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر، قال ابن سالم: فقلت له ما يخرجنا منها يا أبا محمد أ عدوّ؟ قال:

لا و لكنكم يخرجكم منها نيلكم، هذا يغور فلا تبقى منه قطرة، حتى تكون فيه الكثبان من الرمل، و تأكل سباع الأرض حيتانه.

و قال الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير قال: إنّ الصحابىّ حدّثه أنه سمع كعبا يقول: ستعرك العراق عرك الأديم، و تفت مصر فت البعرة. قال الليث: و حدّثنى رجل عن وهب المعافرىّ أنه قال: و تشق الشام شق الشعرة، و سأذكر من خبر هذه الجزائر المشهورة ما وصلت إلى معرفته إن شاء اللّه تعالى.

ذكر الروضة

اشارة

اعلم أنّ الروضة تطلق فى زماننا هذا على الجزيرة التى بين مدينة مصر و مدينة الجيزة، و عرفت فى أوّل الإسلام بالجزيرة، و بجزيرة مصر، ثم قيل لها جزيرة الحصن، و عرفت إلى اليوم بالروضة، و إلى هذه الجزيرة انتقل المقوقس لما فتح اللّه تعالى على المسلمين القصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۳

و صار بها هو و من معه من جموع الروم و القبط، و بها أيضا بنى أحمد بن طولون الحصن، و بها كانت الصناعة، يعنى صناعة السفن الحربية، أى كانت بها دار الصناعة، و بها كان الجنان و المختار، و بها كان الهودج الذى بناه الخليفة الآمر بأحكام اللّه لمحبوبته البدوية، و بها بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الصالحية، و بها إلى اليوم مقياس النيل، و سأورد من أخبار الروضة هنا ما لا تجده مجتمعا فى غير هذا الكتاب.

قال ابن عبد الحكم و قد ذكر محاصرة المسلمين للحصن: فلما رأى القوم الجدّ من المسلمين على فتح الحصن و الحرص، و رأوا

صبرهم على القتال و رغبتهم فيه، خافوا أن يظهروا عليهم، فتنحى المقوقس و جماعة من أكابر القبط و خرجوا من باب الحصن القبلىّ، و دونهم جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم و أمروا بقطع الجسر، و ذلك فى جرى النيل، و تخلف فى الحصن بعد المقوقس الأعرج، فلما خاف فتح باب الحصن خرج هو و أهل القوّة و الشرف و كانت سفنهم ملصقة بالحصن، ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة.

قال: و كان بالجزيرة يعنى بعد فتح مصر فى أيام عبد العزيز بن مروان أمير مصر، خمسمائة فاعل معدّة لحريق يكون فى البلد أو هدم.

و قال القضاعىّ جزيرة فسطاط مصر. قال الكندىّ: بنيت بالجزيرة الصناعة فى سنة أربع و خمسين، و حصن الجزيرة بناه أحمد بن طولون فى سنة ثلاث و ستين و مائتين ليحرز فيه حرمه و ماله، و كان سبب ذلك مسير موسى بن بغا العراقىّ من العراق واليا على مصر، و جميع أعمال ابن طولون، و ذلك فى خلافة المعتمد على اللّه. فلما بلغ أحمد بن طولون مسيرة، استعدّ لحربه و منعه من دخول أعماله، فلما بلغ موسى بن بغا إلى الرقة تثاقل عن المسير لعظم شأن ابن طولون و قوّته، ثم عرضت لموسى علة طالت به و كان بها موته، و ثاوره الغلمان و طلبوا منه الأرزاق، و كان ذلك سبب تركه المسير، فلم يلبث موسى بن بغا أن مات و كفى ابن طولون أمره، و لم يزل هذا الحصن على الجزيرة حتى أخذه النيل شيئا بعد شىء، و قد بقيت منه بقايا متقطعة إلى الآن، و قد اختصر القاضى القضاعىّ رحمه اللّه فى ذكر سبب بناء ابن طولون حصن الجزيرة.

و قد ذكر جامع سيرة ابن طولون أن صاحب الزنج لما قدم البصرة فى سنة أربع و خمسين و مائتين، و استعجل أمره، أنفذ إليه أمير المؤمنين المعتمد على اللّه تعالى، أبو العباس أحمد ابن أمير المؤمنين، المتوكل على اللّه جعفر بن المعتصم بن الرشيد رسولا فى حمل أخيه الموفق بالله أبى أحمد طلحة من مكة إليه، و كان الخليفة المهتدى بالله محمد بن الواثق بن المعتصم نفاه إليها، فلما وصل إليه جعل العهد بالخلافة من بعده لابنه المفوّض، و بعد المفوّض تكون الخلافة للموفق طلحة، و جعل غرب الممالك الإسلامية للمفوّض،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۴

و شرقها للموفق، و كتب بينهما بذلك كتابا ارتهن فيه أيمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط، و كان الموفق يحسد أخاه المعتمد على الخلافة و لا يراه أهلا لها، فلما جعل المعتمد الخلافة من بعده لابنه ثم للموفق بعده، شق ذلك عليه و زاد فى حقده، و كان المعتمد متشاغلا بملاذّ نفسه من الصيد و اللعب و التفرّد بجواريه، فضاعت الأمور و فسد تدبير الأحوال و فاز كلّ من كان متقلدا عملا بما تقلده، و كان فى الشروط التى كتبها المعتمد بين المفوّض و الموفق، أنه ما حدث فى عمل كلّ واحد منهما من حدث كانت النفقة عليه من مال خراج قسمه، و استخلف على قسم ابنه المفوّض موسى بن بغا، فاستكتب موسى بن بغا عبيد اللّه بن سليمان بن وهب، و انفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق، و تقدّم إلى كلّ منهما أن لا ينظر فى عمل الآخر، و خلد كتاب الشروط بالكعبة، و أفرد الموفق لمحاربة صاحب الزنج و أخرجه إليه و ضم معه الجيوش، فلما كبر أمره و طالت محاربته أياه، و انقطعت موادّ خراج المشرق عن الموفق، و تقاعد الناس عن حمل المال الذى كان يحمل فى كلّ عام، و احتجوا بأشياء، دعت الضرورة الموفق إلى أن كتب إلى أحمد بن طولون، و هو يومئذ أمير مصر، فى حمل ما يستعين به فى حروب صاحب الزنج، و كانت مصر فى قسم المفوّض، لأنها من الممالك الغربية، إلّا أن الموفق شكا فى كتابه إلى ابن طولون شدّة حاجته إلى المال بسبب ما هو بسبيله، و أنفذ مع الكتاب تحريرا خادم المتوكل ليقبض منه المال، فما هو إلّا أن ورد تحرير على ابن طولون بمصر، و إذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه، يأمره فيه بحمل المال إليه على رسمه مع ما جرى الرسم بحمله مع المال فى كلّ سنة، من الطراز و الرقيق و الخيل و الشمع و غير ذلك، و كتب أيضا إلى أحمد بن طولون كتابا فى السرّ، أنّ الموفق إنما أنفذ تحريرا إليك عينا و مستقصيا على أخبارك، و أنه قد كاتب بعض أصحابك فاحترس منه و احمل المال إلينا و عجل إنفاذه، و كان تحرير لما قدم إلى مصر أنزله أحمد بن طولون معه فى داره بالميدان، و منعه من الركوب و لم يمكنه من الخروج من الدار التى أنزله بها حتى سار من مصر، و تلطف فى الكتب التى أجاب بها

الموفق، و لم يزل بتحرير حتى أخذ جميع ما كان معه من الكتب التى وردت من العراق إلى مصر، و بعث معه إلى الموفق ألف ألف دينار و مائتى ألف دينار، و ما جرى الرسم بحمله من مصر، و أخرج معه العدول و سار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش، و أرسل إلى ماخور متولى الشام، فقدم عليه بالعريش، و سلّمه إليه هو و المال و أشهد عليه بتسليم ذلك و رجع إلى مصر، و نظر فى الكتب التى أخذها من تحرير، فإذا هى إلى جماعة من قوّاده باستمالتهم إلى الموفق، فقبض على أربابها و عاقبهم حتى هلكوا فى عقوبته، فلما وصل جواب ابن طولون إلى الموفق و معه المال، كتب إليه كتابا ثانيا يستقل فيه المال و يقول: إن الحساب يوجب أضعاف ما حملت، و بسط لسانه بالقول، و التمس فيمن معه من يخرج إلى مصر و يتقلدها عوضا عن ابن طولون فلم يجد أحدا عوضه، لما كان من كيس أحمد بن طولون و ملاطفته وجوه الدولة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۵

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال: و أىّ حساب بينى و بينه، أو حال توجب مكاتبتى بهذا أو غيره، و كتب إليه بعد البسملة: وصل كتاب الأمير أيده اللّه تعالى و فهمته، و كان، أسعده اللّه، حقيقا بحسن التخير لمثلى و تصييره إياى عمدته التى يعتمد عليها، و سيفه الذى يصول به، و سنانه الذى يتقى الأعداء بحدّه، لأنى دائب فى ذلك و جعلته و كدى، و احتملت الكلف العظام و المؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة، و استدعاء كلّ منعوت بغنى و كفاية، بالتوسعة عليهم و تواصل الصلات، و المعاون لهم، صيانة لهذه الدولة و ذبا عنها، و حسما لأطماع المتشوّفين لها و المنحرفين عنها، و من كانت هذه سبيله فى الموالاة، و منهجه فى المناصحة، فهو حرىّ أن يعرف له حقه و يوفر من الإعظام قدره، و من كلّ حال جليلة حظه و منزلته، فعو ملت بضدّ ذلك من المطالبة بحمل ما أمر به و الجفاء فى المخاطبة بغير حال توجب ذلك، ثم أكلف على الطاعة جعلا، و ألزم فى المناصحة ثمنا، و عهدى بمن أستدعى ما استدعاه الأمير من طاعته، أن يستدعيه بالبذل و الإعطاء و الإرغاب و الإرضاء و الإكرام، لا أن يكلّف و يحمل من الطاعة مؤنة و ثقلا، و إنى لا أعرف السبب الذى يوجب الوحشة و يوقعها بينى و بين الأمير أيده اللّه تعالى، و لا ثم معاملة تقتضى معاملة أو تحدث منافرة، لأن العمل الذى أنا بسبيله لغيره، و المكاتبة فى أموره إلى من سواه، و لا أنا من قبله، فإنه و الأمير جعفر المفوّض أيده اللّه تعالى، قد اقتسما الأعمال و صار لكلّ واحد منهما قسم قد انفرد به دون صاحبه، و أخذت عليه البيعة فيه أنه من نقض عهده أو أخفر ذمّته و لم يف لصاحبه بما أكد على نفسه، فالأمّة بريئة منه و من بيعته، و فى حلّ وسعة من خلفه، و الذى عاملنى به الأمير من محاولة صرفى مرّة و إسقاط رسمى أخرى، و ما يأتيه و يسومنيه ناقض لشرطه مفسد لعهده، و قد التمس أوليائى و أكثروا الطلب فى إسقاط اسمه و إزالة رسمه، فآثرت الإبقاء و إن لم يؤثره، و استعملت الأناة إذ لم تستعمل معى، و رأيت الاحتمال و الكظم أشبه بذوى المعرفة و الفهم، فصبرت نفسى على أحرّ من الجمر، و أمرّ من الصبر، و على ما لا يتسع به الصدر. و الأمير أيده اللّه تعالى أولى من أعاننى على ما أوثره من لزوم عهده، و أتوخاه من تأكيد عقده بحسن العشرة و الإنصاف و كف الأذى و المضرّة، و أن لا يضطرّنى إلى ما يعلم اللّه عزّ و جلّ كرهى له، أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة و العساكر المتضاعفة التى قد ضرّست رجالها من الحروب و جرت عليهم محن الخطوب مصر وفا إلى نقضها، فعندنا و فى حيزنا من يرى أنه أحق بهذا الأمر و أولى من الأمير، و لو أمنونى على أنفسهم، فضلا عن أن يعثروا منى على ميل، أو قيام بنصرتهم، لاشتدّت شوكتهم و لصعب على السلطان معاركتهم، و الأمير يعلم أن بإزائه منهم واحدا قد كبر عليه و فض كلّ جيش أنهضه إليه، على أنه لا ناصر له إلّا لفيف البصرة و أوباش عامّتها، فكيف من يجدر كنا منيعا و ناصرا مطيعا، و ما مثل الأمير فى أصالة رأيه يصرف مائة ألف عنان عدّة له، فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك، فإن يكن من الأمير أعتاب أو رجوع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۶

إلى ما هو أشبه به و أولى، و إلّا رجوت من اللّه عز و جلّ كفاية أمره و حسم مادّة شرّه، و أجراءنا فى الحياطة على أجمل عادته عندنا و السلام.

فلما وصل الكتاب إلى الموفق أقلقه و بلغ منه مبلغا عظيما، و أغاظه غيظا شديدا، و أحضر موسى بن بغا و كان عون الدولة و أشدّ أهلها بأسا و إقداما، فتقدّم إليه فى صرف أحمد بن طولون عن مصر و تقليدها ماخور، فامتثل ذلك و كتب إلى ماخور كتاب التقليد و أنفذه إليه، فلما وصل إليه الكتاب توقف عن إرساله إلى أحمد بن طولون لعجزه عن مناهضته، و خرج موسى بن بغا عن الحضرة مقدّرا أنه يدور عمل المفوّض ليحمل الأموال منه، و كتب إلى ماخور أمير الشام، و إلى أحمد بن طولون أمير مصر، لما بلغه من توقف ما خور عن مناهضته يأمرهما بحمل الأموال، و عزم على قصد مصر و الإيقاع بابن طولون و استخلاف ماخور عليها، فسار إلى الرقة و بلغ ذلك ابن طولون فأقلقه و غمه، لا لأنه يقصر عن موسى بن بغا، لكن لتحمله هتك الدولة، و أن يأتى سبيل من قاوم السلطان و حاربه و كسر جيوشه، إلّا أنه لم يجد بدّا من المحاربة ليدفع عن نفسه، و تأمّل مدينة فسطاط مصر فوجدها لا تؤخذ إلّا من جهة النيل، فأراد لكبر همته و كثرة فكره فى عواقب الأمور، أن يبنى حصنا على الجزيرة التى بين الفسطاط و الجيزة ليكون معقلا لحرمه و ذخائره. ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتى من البر، و قد زاد فذكره فيمن يقدم من النيل، فأمر ببناء الحصن على الجزيرة، و اتخذ مائة مركب حربية سوى ما ينضاف إليها من العلابيات و الحمائم و العشاريات و السنابيك و قوارب الخدمة، و عمد إلى سدّ وجه البحر الكبير، و أن يمنع ما يجىء إليه من مراكب طرسوس و غيرها من البحر الملح إلى النيل، بأن توقف هذه المراكب الحربية فى وجه البحر الكبير، خوفا مما سيجىء من مراكب طرسوس، كما فعل محمد بن سليمان من بعده بأولاده، كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، و جعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة، و أنفذ إلى الصعيد و إلى أسفل الأرض بمنع من يحمل الغلال إلى البلاد، ليمنع من يأتى من البرّ الميرة، و أقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر، و قد اضطربت عليه الأتراك و طالبوه بأرزاقهم مطالبة شديدة، بحيث استتر منهم كاتبه عبيد اللّه بن سليمان لتعذر المال عليه، و خوفه على نفسه منهم، فخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعته ضرورة الحال إلى الرجوع، فعاد إلى الحضرة و لم يقم بها سوى شهرين و مات من علة، فى صفر سنة أربع و ستين و مائتين، هذا و أحمد بن طولون يجدّ فى بناء الحصن على الجزيرة، و قد ألزم قوّاده و ثقاته أمر الحصن، و فرّقه عليهم قطعا، قام كلّ واحد بما لزمه من ذلك، و كدّ نفسه فيه، و كان يتعاهدهم بنفسه فى كلّ يوم، و هو فى غفلة عما صنعه اللّه تعالى له من الكفاية و الغنى عما يعانيه، و من كثرة ما بذل فى هذا العمل، قدّر أنّ كلّ طوبة منه وقفت عليه بدرهم صحيح، و لما تواترت الأخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل، و تصدّق بمال كثير شكرا للّه تعالى على ما منّ به عليه من صيانته عما يقبح فيه عنه إلّا حدوثة، و ما رأى الناس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۷

شيئا كان أعظم من عظيم الجدّ فى بناء هذا الحصن، و مباكرة الصناع له فى الأسحار حتى فرغوا منه، فإنهم كان يخرجون إليه من منازلهم فى كلّ بكرة من تلقاء أنفسهم من غير استحثاث، لكثرة ما سخا به من بذل المال، فلما انقطع البناء لم ير أحد من الصناع التى كانت فيه مع كثرتها، كأنما هى نار صبّ عليها ماء فطفئت لوقتها، و وهب للصناع مالا جزيلا و ترك لهم جميع ما كان سلفا معهم، و بلغ مصروف هذا الحصن ثمانين ألف دينار ذهبا.

و كان مما حمل أحمد بن طولون على بناء الحصن، أن الموفق أراد أن يشغل قلبه، فسرقت نعله من بيت حظية لا يدخله إلّا ثقاته، و بعث الموفق إليه. فقال له الرسول: من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذى تعرفه، أليس هو بقادر على أخذ روحك، فو اللّه أيها الأمير لقد قام عليه أخذ هذه النعل بخمسين ألف دينار، فعند ذلك أمر ببناء الحصن.

و قال أبو عمر الكندىّ فى كتاب أمراء مصر: و تقدّم أبو أحمد الموفق إلى موسى بن بغا فى صرف أحمد بن طولون عن مصر و تقليدها ماخور التركىّ، فكتب موسى بن بغا بذلك إلى ماخور و هو والى دمشق يومئذ، فتوقف لعجزه عن مقاومة أحمد بن طولون، فخرج موسى بن بغا فنزل الرقة، و بلغ ابن طولون أنه سائر إليه، و لم يجد بدّا من محاربته، فأخذ أحمد بن طولون فى الحذر منه و ابتدأ فى ابتناء الحصن الذى بالجزيرة التى بين الجسرين، و رأى أن يجعله معقلا لماله و حرمه، و ذلك فى سنة ثلاث و ستين و مائتين، و اجتهد أحمد بن طولون فى بناء المراكب الحربية، و أطافها بالجزيرة، و أظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه، و أقام موسى

بن بغا بالرقة عشرة أشهر، و أحمد بن طولون فى إحكام أموره، و اضطربت أصحاب موسى بن بغا عليه و ضاق بهم منزلهم، و طالبوا موسى بالمسير أو الرجوع إلى العراق، فبينا هو كذلك توفى موسى بن بغا فى سنة أربع و ستين و مائتين. و قال محمد بن داود لأحمد بن طولون و فين تحامل:

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملاساقيه زرقا إلى الكعبين و العقب

بنى الجزيرة حصنا يستجن به‌بالعسف و الضرب و الصناع فى تعب

و راقب الجيزة القصوى فخندقهاو كاد يصعق من خوف و من رعب

له مراكب فوق النيل راكدةفما سوى القار للنظار و الخشب

ترى عليها لباس الذل مذ بنيت‌بالشطّ ممنوعة من عزّة الطلب

فما بناها لغزو الروم محتسبالكن بناها غداة الروع و العطب

و قال سعيد بن القاضى من أبيات:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۸ و إن جئت رأس الجسر فانظر تأمّلاـإلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر

ترى أثرا لم يبق من يستطيعه‌من الناس فى بدو البلاد و لا حضر

مآثر لا تبلى و إن باد أهلهاو مجد يؤدّى وارثيه إلى الفخر

و ما زال حصن الجزيرة هذا عامرا أيام بنى طولون، و عملت فيه صناعة مصر التى تنشأ فيها المراكب الحربية، فاستمرّ صناعة إلى أن تقلد الأمير محمد بن طغج الإخشيد إمارة مصر من قبل أمير المؤمنين الراضى بالله، و سير مراكب من الشأم، عليها صاعد بن الكلكم، فدخل تنيس و سارت مقدّمته فى البر، و دخل صاعد دمياط و سار فهزم جيش مصر الذى جهزه أحمد بن كيغلغ إليه، بتدبير محمد بن علىّ الماردانىّ على بحيرة نوسا، و أقبل فى مراكبه إلى الفسطاط، فكان بالجزيرة، و قدم محمد بن طغج و تسلم البلد لست بقين من رمضان سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة و فرّ منه جماعة إلى الفيوم، فخرج إليهم صاعد بن الكلكم فى مراكبه و واقعهم بالفيوم، فقتل فى عدّة من أصحابه، و قدمت الجماعة فى مراكب ابن كلكم فأرسوا بجزيرة الصناعة و حرّقوها، ثم مضوا إلى الإسكندرية و ساروا إلى برقة فقال محمد بن طغج الصناعة هنا خطأ و أمر بعمل صناعة فى برّ مصر.

و حكى ابن زولاق فى سيرة محمد بن طغج أنه قال: اذكر أنى كنت آكل مع أبى منصور تكين أمير مصر، و جرى ذكر الصناعة فقال تكين: صناعة يكون بيننا و بينها بحر خطأ، فأشارت الجماعة بنقلها فقال: إلى أىّ موضع؟ فأردت أن أشير عليه بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان، ثم سكت و قلت أدع هذا الرأى لنفى إذا ملكت مصر، فبلغت ذلك و الحمد للّه وحده. و لما أخذ محمد بن طغج دار خديجة كان يتردّد إليها حتى عملت، فلما ابتدءوا بإنشاء المراكب فيها صاحت به امرأة فقال: خذوها، فساروا بها إلى داره، فأحضرها مسار و استخبرها عن أمرها فقالت: ابعث معى من يحمل المال، فأرسل معها جماعة إلى دار خديجة هذه، فدلتهم على مكان استخرجوا منه عينا و ورقا و حليا و ثيابا و عدّة ذخائر لم ير مثلها، و صاروا بها إلى محمد بن طغج، فطلب المرأة ليكافئها على ما كان منها فلم توجد، فكان هذا أوّل مال وصل إلى محمد بن طغج بمصر. قال: و استدعى محمد بن طغج الإخشيد صالح بن نافع و قال له: كان فى نفسى إذا ملكت مصر أن أجعل صناعة العمارة فى دار ابنة الفتح، و أجعل موضع الصناعة من الجزيرة بستانا أسميه المختار، فاركب و خط لى بستانا و دارا، و قدّر لى النفقة عليهما، فركب صالح بجماعة و خطوا بستانا فيه دار للغلمان و دار للنوبة و خزائن للكسوة و خزائن للطعام، و صوّروه و أتوا به فاستحسنه و قال: كم قدّرتم النفقة؟ قالوا ثلاثين ألف دينار. فاستكثرها، فلم يزالوا يضعون من التقدير حتى صار خمسة آلاف دينار، فأذن فى عمله.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۹

و لما شرعوا فيه ألزمهم المال من عندهم، فقسّط على جماعة، و فرغ من بنائه، فاتخذه الإخشيد منتزها له و صار يفاخر به أهل العراق، و كان نقل الصناعة من الجزيرة إلى ساحل النيل بمصر فى شعبان خمس و عشرين و ثلاثمائة، فلم يزل البستان المختار منتزها إلى أن زالت الدولة الإخشيدية و الكافورية، و قدمت الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلى مصر، فكان يتنزه فيه المعز لدين اللّه معدّ، و ابنه العزيز بالله نزار، و صارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس، لها وال و قاض، و كان يقال القاهرة و مصر و الجزيرة، فلما كانت أيام استيلاء الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدرا الجمالى، و حجره على الخلفاء، أنشأ فى بحرىّ الجزيرة مكانا نزها سماه الروضة، و تردّد إليها تردّدا كثيرا، فكان يسير فى العشاريات الموكبيات من دار الملك التى كانت سكنه بمصر، إلى الروضة. و من حينئذ صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة، فلما قتل الأفضل بن أمير الجيوش، و استبدّ الخليفة الآمر بأحكام اللّه أبو علىّ منصور بن المستعلى بالله، أنشأ بجوار البستان المختار من جزيرة الروضة مكانا لمحبوبته العالية البدوية، سماه الهودج.

الهودج: قال ابن سعيد فى كتاب المحلّى بالأشعار عن تاريخ القرطبىّ: قد أكثر الناس فى حديث البدوية و ابن مياح من بنى عمها و ما يتعلق بذلك من ذكر الخليفة الآمر بأحكام اللّه، حتى صارت رواياتهم فى هذا الشأن كأحاديث البطال و ألف ليلة و ليلة و ما أشبه ذلك، و الاختصار منه أن يقال أنّ الخليفة الآمر كان قد ابتلى بعشق الجوارى العربيات، و صارت له عيون فى البوادى، فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب و أظرف نسائهم، شاعرة جميلة، فيقال أنه تزيا بزىّ بداة الأعراب و صار يجول فى الأحياء إلى أن انتهى إلى حيها، و بات هناك فى ضائفة، و تحيل حتى عاينها، فما ملك صبره، و رجع إلى مقرّ ملكه و سرير خلافته، فأرسل إلى أهلها يخطبها فأجابوه إلى ذلك و زوّجوها منه، فلما صارت إلى القصور صعب عليها مفارقة ما اعتادت، و أحبت أن تسرّح طرفها فى الفضاء و لا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة، فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج، و كان على شاطىء النيل فى شكل غريب، و كان بالإسكندرية القاضى مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد، قد استولى على أمورها و صار قاضيها و ناظرها، و لم يبق لأحد معه فيها كلام، و ضمن أموالها بحملة يحملها، و كان ذا مروءة عظيمة يحتذى أفعال البرامكة، و للشعراء فيه مدائح كثيرة، و ممن مدحه ظافر الحدّاد، و أمية بن أبى الصلت، و جماعة، و كان الأفضل بن أمير الجيوش إذا أراد الاعتناء بأحد كتب معه كتابا إلى ابن حديد هذا، فيغنيه بكثرة عطائه، و كان له بستان يتفرّج فيه، به جرن كبير من رخام قطعة واحدة، ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته، و كان يجد فى نفسه برؤية هذا الجرن زيادة على أهل النعم، و يباهى به أهل عصره، فوشى به للبدوية محبوبة الخليفة، فطلبته من الخليفة، فأنفذ فى الحال بإحضاره، فلم يسع ابن حديد إلّا أن قلعه من مكانه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۰

و بعث به و فى نفسه حزازة من أخذه منه، و خدم البدوية و خدم جميع من يلوذ بها، حتى قالت: هذا الرجل أخجلنا بكثرة هداياه و تحفه، و لم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا، فلما بلغه ذلك عنها قال: ما لى حاجة بعد الدعاء للّه تعالى بحفظ مكانها و طول حياتها، غير ردّ الجرن الذى أخذ من دارى التى بنيتها فى أيامهم من نعمهم إلى مكانه، فلما سمعت هذا عنه تعجبت منه و أمرت بردّ الجرن إليه، فقيل له قد وصلت إلى حدّ أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب، فنزلت همتك إلى قطعة حجر. فقال: أنا أعرف بنفسى، ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب فى أخذ ذلك الجرن من مكانه، و قد بلغها اللّه أملها، و بقيت البدوية متعلقة الخاطر بابن عمّ لها ربيت معه يعرف بابن ميّاح، فكتبت إليه و هى بقصر الخليفة الآمر:

يا ابن ميّاح إليك المشتكى‌مالك من بعدكم قد ملك

كنت فى حيى مرأ مطلقانائلا ما شئت منكم مدركا

فأنا الآن بقصر مؤصدلا أرى إلّا حبيسا ممسكا

كم تثنينا بأغصان اللواحيث لا نخشى علينا دركا

و تلاعبنا بر ملات الحمى‌حيثما شاء طليق سلكا

فأجابها:

بنت عمى و التى غذيتهابالهوى حتّى علا و احتنكا

بحت بالشكوى و عندى ضعفهالو غدا ينفع منها المشتكى

ما لك الأمر إليه يشتكى‌هالك و هو الذى قد هلكا

شأن داود غدا فى عصرنامبديا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الآمر فقال: لولا أنه أساء الأدب فى البيت الرابع لرددتها إلى حيه و زوّجتها به.

قال القرطبىّ و للناس فى طلب ابن ميّاح و اختفائه أخبار تطور، و كان من عرب طىء فى عصر الخليفة الآمر طراد بن مهلهل، فلما بلغه قضية الآمر مع العالية البدوية قال:

ألا أبلغوا الآمر المصطفى‌مقال طراد و نعم المقال

قطعت الأليفين عن إلفهبها سمر الحىّ بين الرجال

كذا كان آباؤك الأقدمون‌سألت فقل لى جواب السؤال

فلما بلغ الآمر شعره قال: جواب السؤال قطع لسانه على فضوله، و أمر بطلبه فى أحياء العرب ففرّ و لم يقدر على، فقالت العرب: ما أخسر صفقة طراد، باع أبيات الحىّ بثلاثة أبيات، و لم يزل الآمر يتردّد إلى الهودج بالروضة للنزهة فيه، إلى أن ركب من القصر بالقاهرة يريد الهودج فى يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة، فلما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۱

كان برأس الجسر وثب عليه قوم من النزارية قد كمنوا له فى فرن تجاه رأس الجسر بالروضة، و ضربوه بالسكاكين حتى أثخنوه و جرحوا جماعة من خدّامه، فحمل إلى منظرة اللؤلؤة بشاطئ الخليج و قد مات.

ذكر قلعة الروضة

اعلم أنه ما برحت جزيرة الروضة منتزها ملوكيا و مسكنا للناس كما تقدّم ذكره، إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب سلطنة مصر، فأنشأ القلعة بالروضة، فعرفت بقلعة المقياس، و بقلعة الروضة، و بقلعة الجزيرة، و بالقلعة الصالحية، و شرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان، و ابتدأ بنيانها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشرة، و فى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور و القصور و المساجد التى كانت بجزيرة الروضة، و تحوّل الناس من مساكنهم التى كانوا بها، و هدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس و أدخلها فى القلعة، و أنفق فى عمارتها أموالا جمة، و بنى فيها الدور و القصور، و عمل لها ستين برجا، و بنى بها جامعا، و غرس بها جميع الأشجار، و نقل إليها عمد الصوّان من البرابى و عمد الرخام، و شحنها بالأسلحة و آلات الحرب، و ما يحتاج إليه من الغلال و الأزواد و الأقوات، خشية من محاصرة الفرنج، فإنهم كانوا حينئذ على عزم قصد بلاد مصر، و بالغ فى إتقانها مبالغة عظيمة، حتى قيل أنه استقام كل حجر فيها بدينار، و كل طوبة بدرهم، و كان الملك الصالح يقف بنفسه و يرتب ما يعمل، فصارت تدهش من كثرة زخرفتها، و تحير الناظر إليها من حسن سقوفها المزينة، و بديع رخامها.

و يقال أنه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة، كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره و طيب طعمه، و خرّب الهودج و البستان المختار و هدّم ثلاثة و ثلاثين مسجدا عمرها خلفاء مصر و سراة المصريين لذكر اللّه تعالى و إقامة

الصلوات، و اتفق له فى عدم بعض هذه المسجد خبر غريب، قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد الأسدى، الشهير باليغمورى: سمعت الأمير الكبير الجواد جمال الدين أبا الفتح موسى بن الأمير شرف الدين يغمور بن جلدك بن عبد اللّه قال: و من عجيب ما شاهدته من الملك الصالح أبى الفتوح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل رحمه اللّه تعالى أنه أمرنى أن أهدم مسجدا كان فى جوار داره بجزيرة مصر، فأخرت ذلك و كرهت أن يكون هدمه على يدىّ، فأعاد الأمر و أنا أكاسر عنه، و كأنه فهم منى ذلك، فاستدعى بعض خدمه من نوّابى و أنا غائب و أمره أن يهدم ذلك المسجد، و أنيبنى فى مكانه قاعة، و قدّر له صفتها، فهدم ذلك المسجد و عمر تلك القاعة مكانه، و كملت، و قدمت الفرنج إلى الديار المصرية، و خرج الملك الصالح مع عساكره إليهم، و لم يدخل تلك القاعة التى بنيت فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۲

المكان الذى كان مسجدا، فتوفى السلطان فى المنصورة، و جعل فى مركب و أتى به إلى الجزيرة، فجعل فى تلك القاعة التى بنيت مكان المسجد مدّة إلى أن بنيت له التربة التى فى جنب مدارسه بالقاهرة فى جانب القصر، عفا اللّه عنه، و كان النيل عند ما عزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة من الجانب الغربىّ، فيما بين الروضة و برّ الجيزة، و قد انطرد عن برّ مصر و لا يحيط بالروضة إلا فى أيام الزيادة، فلم يزل يغرّق السفن فى البرّ الغربىّ، و يحفر فيما بين الروضة و مصر ما كان هناك من الرمال، حتى عاد ماء النيل إلى برّ مصر، و استمرّ هناك فأنشأ جسرا عظيما ممتدّا من برّ مصر إلى الروضة، و جعل عرضه ثلاث قصبات، و كان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة، و جعل عرضه ثلاث قصبات، و كان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة يترجلون عن خيولهم عند البرّ، و يمشون فى طول هذا الجسر إلى القلعة، و لا يمكن أحد من العبور عليه راكبا سوى السلطان فقط، و لما كملت تحوّل إليها بأهله و حرمه، و اتخذها دار ملك، و أسكن فيها معه مماليكه البحرية، و كانت عدّتهم نحو الألف مملوك.

قال العلامة علىّ بن سعيد فى كتاب المغرب: و قد ذكر الروضة، هى أمام الفسطاط، فيما بينها و بين مناظر الجيزة، و بها مقياس النيل، و كانت منتزها لأهل مصر، فاختارها الصالح بن الكامل سرير السلطنة و بنى بها قلعة مسوّرة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك، لم ترعينى أحسن منه، و فى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الآمر خليفة مصر لزوجته البدوية التى هام فى حبها، و المختار بستان الإخشيد. و قصره، و له ذكر فى شعر تميم بن المعز و غيره، و لشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار منها قول أبى الفتح بن قادوس الدمياطىّ:

أرى سرح الجزيرة من بعيدكأحداق تغازل فى المغازل

كانّ مجرّة الجوز أحاطتو أثبتت المنازل فى المنازل

و كنت أشق فى بعض الليالى بالفسطاط على ساحلها فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدرىّ اللون، و لم انفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة، و فى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها، و هو من أعظم السلاطين همة فى البناء، و أبصرت فى هذه الجزيرة إيوانا لجلوسه لم ترعينى مثاله، و لا أقدّر ما أنفق عليه، و فيه من صفائح الذهب و الرخام الأبنوسىّ و الكافورىّ و المجزع ما يذهل الأفكار و يستوقف الأبصار و يفضل عما أحاط به السور، أرض طويلة، و فى بعضها حاظر حظر به على أصناف الوحوش التى يتفرّج عليها السلطان، و بعدها مروج ينقطع فيها مياه النيل فينظر بها أحسن منظر، و قد تفرّجت كثيرا فى طرف هذه الجزيرة مما يلى برّ القاهرة، فقطعت فيه عشيات مذهبات لم تزل لأحزان الغربة مذهبات، و إذا زاد النيل فصل ما بينها و بين الفسطاط

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۳

بالكلية، و فى أيام احتراق النيل يتصل برّها ببرّ الفسطاط من جهة خليج القاهرة، و يبقى موضع الجسر فيه مراكب، و ركبت مرّة هذا

النيل أيام الزيادة مع الصاحب المحسن محيى الدين بن ندا وزير الجزيرة، و صعدنا إلى جهة الصعيد، ثم انحدرنا و استقبلنا هذه الجزيرة، و أبراجها تتلالأ و النيل قد انقسم عنها فقلت:

تأمّل لحسن الصالحية إذ بدتو أبراجها مثل النجوم تلالا

و للقلعة الغرّاء كالبدر طالعاتفرّج صدر الماء عنه هلالا

و وافى إليها النيل من بعد غايةكما زار مشغوف يروم وصالا

و عانقها من فرط شوق لحسنهافمدّ يمينا نحوها و شمالا

جرى قادما بالسعد فاختط حولهامن السعد أعلاما فزاد دلالا

و لم تزل هذه القلعة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب، فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى أوّل ملوك الترك بمصر أمر بهدمها، و عمر منها مدرسته المعروفة بالمعزية فى رحبة الحناء بمدينة مصر، و طمع فى القلعة من له جاه، فأخذ جماعة منها عدّة سقوف و شبابيك كثيرة و غير ذلك، و بيع من أخشابها و رخامها أشياء جليلة، فلما صارت مملكة مصر إلى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى، اهتم بعمارة قلعة الروضة، و رسم للأمير جمال الدين موسى بن يغمور أن يتولى إعادتها كما كانت، فأصلح بعض ما تهدّم فيها، و رتب فيها الجاندارية، و أعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة، و أمر بأبراجها ففرّقت على الأمراء، و أعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاون الألفىّ، و البرج يليه للأمير عز الدين الحلىّ، و البرج الثالث من بروج الزاوية للأمير عز الدين أرغان، و أعطى برج الزاوية الغربىّ للأمير بدر الدين الشمسى، و فرّقت بقية الأبراج على سائر الأمراء، و رسم أن تكن بيتوتات جميع الأمراء و اصطبلاتهم فيها، و سلم المفاتيح لهم.

فلما تسلطن الملك المنصور قلاون الألفىّ و شرع فى بناء المارستان و القبلة و المدرسة المنصورية، نقل من قلعة الروضة هذه ما يحتاج إليه من عمد الصوّان و عمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة فى البرابى، و أخذ منها رخاما كثيرا و أعتابا جليلة مما كان فى البرابى و غير ذلك، ثم أخذ منها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ما احتاج إليه من عمد الصوّان فى بناء الإيوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل، و الجامع الجديد الناصرى ظاهر مدينة مصر، و أخذ غير ذلك حتى ذهبت كأن لم تكن، و تأخر منها عقد جليل تسميه العامّة القوس، كان مما يلى جانبها الغربىّ، أدركناه باقيا إلى نحو سنة عشرين و ثنمانمائة، و بقى من أبراجها عدّة قد انقلب أكثرها، و بنى الناس فوقها دورهم المطلة على النيل.

قال ابن المتوّج: ثم اشترى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب جزيرة مصر المعروفة اليوم بالروضة فى شعبان سنة ست و ستين و خمسمائة، و إنما سميت بالروضة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۴

لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها، و بحر النيل حائز لها و دائر عليها، و كانت حصينة، و فيها من البساتير و العمائر و الثمار ما لم يكن فى غيرها، و لما فتح عمرو بن العاص مصر تحصن الروم بها مدّة، فلما طال حصارها و هرب الروم منها خرّب عمرو بن العاص بعض أبراجها و أسوارها، و كانت مستديرة عليها، و استمرّت إلى أن عمر حصنها أحمد بن طولون فى سنة ثلاث و ستين و مائتين، و لم يزل هذا الحصن حتى خرّبه النيل، ثم اشتراها الملك المظفر تقىّ الدين عمر المذكور و بقيت على ملكه إلى أن سيّر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر و معه عمه الملك العادل، و كتب إلى الملك المظفر بأن يسلم لهما البلاد و يقدم عليه إلى الشأم، فلما ورد عليه الكتاب و وصل ابن عمه الملك العزيز و عمه الملك العادل شق عليه خروجه من الديار المصرية، و تحقق أنه لا عود له إليها أبدا، فوقف هذه المدرسة التى تعرف اليوم فى مصر بالمدرسة التقوية، التى كانت تعرف بمنازل العزو، وقف عليها الجزيرة بكمالها، و سافر إلى عمه فملكه حماه، و لم يزل الحال كذلك إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاستأجر الجزيرة من القاضى فخر الدين أبى محمد، عبد العزيز بن قاضى القضاة عماد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن

عبد العلىّ بن عبد القادر السكرىّ مدرّس المدرسة المذكورة لمدّة ستين سنة فى دفعتين، كل دفعة قطعة، فالقطعة الأولى من جامع غين إلى المناظر طولا- و عرضا، من البحر إلى البحر و استأجر القطعة الثانية و هى باقى أرض الجزيرة بما فيها من النخل و الجميز و الغروس، فإنه لما عمر الملك الصالح مناظر قلعة الجزيرة قطعت النخيل و دخلت فى العمائر، و أمّا الجميز، فإنه كان بشاطئ بحر النيل صف جميز يزيد على أربعين شجرة، و كان أهل مصر فرجهم تحتها فى زمن النيل و الربيع، قطعت جميعها فى الدولة الظاهرية، و عمر بها شوانى عوض الشوانى التى كان قد سيرها إلى جزيرة قبرس، ثم سلم المدرّس التقوية القطعة المستأجرة من الجزيرة أوّلا فى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، و بقى بيد السلطان القطعة الثانية، و قد خربت قلعة الروضة و لم يبق منها سوى أبراج قد بنى الناس عليها، و بقى أيضا عقد باب من جهة الغرب يقال له باب الإصطبل، و عادت الروضة بعد هدم القلعة منها منتزها يشتمل على دور كثيرة و بساتين عدّة و جوامع تقام بها الجماعات و الأعياد و مساجد، و قد خرب أكثر مساكن الروضة، و بقى فيها إلى اليوم بقايا. و بطرف الروضة المقياس الذى يقاس فيه ماء النيل اليوم، و يقال له المقياس الهاشمىّ، و هو آخر مقياس بنى بديار مصر.

قال أبو عمر الكندىّ: و ورد كتاب المتوكل على اللّه بابتناء المقياس الهاشمىّ للنيل، و بعزل النصارى عن قياسه، فجعل يزيد بن عبد اللّه بن دينار أمير مصر، أبا الردّاد المعلم، و أجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج فى كل شهر سبعة دنانير، و ذلك فى سنة سبع و أربعين و مائتين، و علامة وفاء النيل ستة عشر ذراعا، أن يسبل أبو الردّاد قاضى البحر الستر الأسود الخليفىّ على شباك المقياس، فإذا شاهد الناس هذا الستر قد أسبل تباشروا بالوفاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۵

و اجتمعوا على العادة للفرجة من كل صوب، و ما أحسن قول شهاب الدين بن العطار فى تهتك الناس يوم تخليق المقياس:

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم‌ما أحسن الستر قالوا العفو مأمول

ستر الإله علينا لا يزال فماأحلى تهتكنا و الستر مسبول

جزيرة الصابونى: هذه الجزيرة تجاه رباط الآثار، و الرباط من جملتها، وقفها أبو الملوك نجم الدين أيوب بن شادى و قطعة من بركة الحبش، فجعل نصف ذلك على الشيخ الصابونى و أولاده، و النصف الآخر على صوفية بمكان بجوار قبة الإمام الشافعىّ رضى اللّه تعالى عنه، يعرف اليوم بالصابونى.

جزيرة الفيل: هذه الجزيرة هى الآن بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة، و تتصل بمنية الشيرج من بحريها، و يمرّ النيل من غربيها، و بها جامع تقام به الجمعة، و سوق كبير و عدّة بساتين جليلة، و موضعها كله مما كان غامرا بالماء فى الدولة الفاطمية. فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل، و ترك فى مكانه فربا عليه الرمل، و انطرد عنه الماء، فصارت جزيرة فيما بين المنية و أرض الطبالة سماها الناس جزيرة الفيل، و صار الماء يمرّ من جوانبها، فغربيها تجاه برّ مصر الغربىّ، و شرقيها تجاه البعل، و الماء فى بينها و بين البعل الذى هو الآن قبالة قناطر الأوز، فإنّ الماء كان يمرّ بالمقس من تحت زريبة جامع المقس الموجود الآن على الخليج الناصرىّ، و من جامع المقس على أرض الطبالة إلى غربىّ المصلى، حتى ينتهى من تجاه التاج إلى المنية، و صارت هذه الجزيرة فى وسط النيل، و ما برحت تتسع إلى أن زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فوقفها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعىّ رضى اللّه عنه، و كثرت أطيانها بانحسار النيل عنها فى كل سنة.

فلما كان فى أيام الملك المنصور قلاون الألفى تقرّب مجد الدين أبو الروح عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن بن الخشاب المتحدّث فى الأحباس، إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ، بأنّ فى أطياب هذه الجزيرة زيادة على ما وقفه السلطان صلاح الدين، فأمر بقياس ما تجدّد بها من الرمال و جعلها لجهة الوقف الصلاحىّ، و أقطع الأطياب القديمة التى كانت فى الوقف و جعلها هى التى زادت، فلما أمر الملك المنصور قلاون بعمل المارستان المنصورى وقف بقية الجزيرة عليه، فغرس الناس بها الغروس و صارت بساتين و سكن الناس من المزارعين هناك، فلما كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاون بعد عوده إلى قلعة الجبل من الكركل، و انحسر

النيل عن جانب المقس الغربيّ و صار ما هنالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة الفيل المذكورة، و من قبليها بأراضي اللوق، افتتح الناس باب العمارة بالقاهرة و مصر فعمروا فى تلك الرمال المواضع التى تعرف اليوم ببولاق خارج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۶

المقس، و أنشأوا بجزيرة الفيل البساتين و القصور، و استجدّا ابن المغربيّ الطبيب بستانا اشتراه منه القاضي كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى، بنحو المائة ألف درهم فضة، عنها زهاء خمسة آلاف مثقال ذهبا، و تتابع الناس فى إنشاء البساتين حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة و حكر، ما كان منها وقفا على المدرسة المجاورة للشافعيّ رضى اللّه عنه، و ما كان فيها من وقف المارستان، و غرس ذلك كله بساتين، فصارت تنيف على مائة و خمسين بستانا إلى سنة وفاة الملك الناصر محمد بن قلاون، و نصب فيها سوق كبير يباع فيه أكثر ما يطلب من المآكل، و ابتنى الناس بها عدّة دور و جامعا فبقيت قرية كبيرة و ما زالت فى زيادة و نموّ، فأنشأ قاضي القضاة جلال الدين القزوينى رحمه اللّه الدار المجاورة لبستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب على النيل، فجاءت فى غاية من الحسن، فلما عزل عن قضاء القضاة و سار إلى دمشق اشتراها الأمير بشتاك بثلاثين ألف درهم، و خربها و أخذ منها رخاما و شبابيك و أبوابا، ثم باع باقى نقضها بمائة ألف درهم، فربح الباعة فى ذلك شيئا كثيرا، و نودى على زر بيتها فحكرت و عمر عليها الناس عدّة أملاك، و اتصلت العمارة بالأملاك من هذه الزريبة إلى منية الشيرج، ثم خربت شيئا بعد شيء، و بقى ما على هذه الزريبة من الأملاك، و هى تعرف اليوم بدار الطنبدىّ التاجر. و أما بساتين الجزيرة فلم تزل عجبا من عجائب الدنيا من حسن المنظر و كثرة المتحصل، إلى أن حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فتلاشت و خرب كثير منها لغلوّ العلوفات من الفول و التبن و شدّة ظلم الدولة و تعطل معظم سوقها، و فيها إلى الآن بقية صالحة.

جزيرة أروى: هذه الجزيرة تعرف بالجزيرة الوسطى، لأنها فيما بين الروضة و بولاق، و فيما بين برّ القاهرة و برّ الجيزة، لم ينحسر عنها الماء إلا بعد سنة سبعمائة، و أخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب بن الخطباء المخزومىّ، عن الطبيب الفاضل شمس الدين محمد بن الأكفانى، أنه كان يمرّ بهذه الجزيرة أوّل ما انكشفت، و يقول هذه الجزيرة تصير مدينة، أو قال تصير بلدة، على الشك منى، فاتفق ذلك و بنى الناس فيها الدور الجليلة، و الأسواق و الجامع و الطاحون و الفرن، و غرسوا فيها البساتين و حفروا الآبار، و صارت من أحسن منتزهات مصر، يحف بها الماء، ثم صار ينكشف ما بينها و بين برّ القاهرة، فإذا كانت أيام زيادة ماء النيل أحاط الماء بها، و فى بعض السنين يركبها الماء فتمرّ المراكب بين دورها و فى أزقتها. ثم لما كثر الرمل فيما بينها و بين البرّ الشرقىّ، حيث كان خط الزريبة. و فم الخور، قلّ الماء هناك و تلاشت مساكن هذه الجزيرة، منذ كانت الحوادث فى سنة ست و ثمانمائة، و فيها إلى اليوم بقايا حسنة.

الجزيرة التى عرفت بحليمة: هذه الجزيرة خرجت فى ستة سبع و أربعين و سبعمائة، ما بين بولاق و الجزيرة الوسطى، سمتها العامّة بحليمة، و نصبوا فيها عدّة أخصاص، بلغ مصروف الخص الواحد منها ثلاثة آلاف درهم نقرة، فى ثمن رخام و دهان، فكان فيها من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۷

هذه الأخصاص عدّة وافرة، و زرع حول كل خص من المقائى و غيرها ما يستحسن، و أقام أهل الخلاعة و المجون هناك، و تهتكوا بأنواع المحرّمات، و تردّد إلى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة أن لا يثبت بها أحد، و بلغ أجرة كل قصبة بالقياس فى هذه الجزيرة، و فى الجزيرة التى عرفت بالطمية فيما بين مصر و الجيزة، مبلغ عشرين درهما نقرة، فوقف الفدّان هناك بمبلغ ثمانية آلاف درهم نقرة، و نصبت فى هذه الأفدنة الأخصاص المذكورة، و كان الانتفاع بها فيما ذكر نحو ستة أشهر من السنة، فعلى ذلك يكون الفدّان فيها بمبلغ ستة عشر ألف درهم نقرة، و أتلف الناس هناك من الأموال ما يجل وصفه، فلما كثر تجاهرهم بالقبيح، قام الأمير أرغون العلائىّ مع الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاون فى هدم هذه الأخصاص التى بهذه الجزيرة قياما زائدا، حتى أذن له فى ذلك، فأمر والى مصر و القاهرة فنزلا على حين غفلة، و كبسا الناس و أراقا الخمور و حرّقا الأخصاص، فتلف للناس فى النهب و

الحريق، و غير ذلك شيء كثير إلى الغاية و النهاية. و في هذه الجزيرة يقول الأديب إبراهيم المعمار:

جزيرة البحر جنّتبها عقول سليمة

لما حوت حسن مغنىببسطة مستقيمة

و كم يخوضون فيهاو كم مشوا بنميمة

و لم تزل ذا احتمالما تلك إلّا حليمة

ذكر السجون

قال ابن سيده: السجن، الحبس، و السجان صاحب السجن، و رجل سجين مسجون.

قال: و حبسه يحبسه حبسا فهو محبوس و حبيس، و احتبسه و حبسه أمسكه عن وجهه. و قال سيبويه: حبسه، ضبطه، و احتبسه، اتخذه حبسا، و المحبس و المحبسة و المحتبس، اسم الموضع. و قال بعضهم: المحبس يكون مصدرا كالحبس، و نظيره إلى اللّه مرجعكم، أي رجوعكم. و يسألونك عن المحيض أي الحيض. و روى الإمام أحمد و أبو داود من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه رضى اللّه عنهم قال: إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم حبس في تهمة يوما و ليلة» فالحبس الشرعيّ ليس هو السجن في مكان ضيق، و إنما هو تعويض الشخص و منعه من التصرّف بنفسه، سواء كان في بيت أو مسجد، أو كان يتولى نفس الخصم أو وكيله عليه، و ملازمته له، و لهذا سماه النبيّ صلى اللّه عليه و سلم أسيرا، كما روى أبو داود و ابن ماجه عن الهرماس بن حبيب عن أبيه رضى اللّه عنهما. قال: «أتيت النبيّ صلى اللّه عليه و سلم بغريم لي فقال لي:

الزمه، ثم قال لي يا أخا بني تميم ما تريد أن تفعل بأسيرك» و في رواية ابن ماجه ثمّ مرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بي آخر النهار فقال: «ما فعل أسيرك يا أخا بني تميم» و هذا كان هو الحبس على عهد النبيّ صلى اللّه عليه و سلم، و أبي بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، و لم يكن له محبس معدّ لحبس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۸

الخصوم، و لكن لما انتشرت الرعية في زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، ابتاع من صفوان بن أمية رضى اللّه عنه دارا بمكة بأربعة آلاف درهم، و جعلها سجنا يحبس فيها.

و لهذا تنازع العلماء، هل يتخذ الإمام حبسا على قولين؟ فمن قال لا يتخذ حبسا، احتج بأنه لم يكن لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و لا لخليفته من بعده حبس، و لكن يعوقه بمكان من الأمكنة، أو يقيم عليه حافظا، و هو الذي يسمى الترسيم، أو يأمر غريمه بملازمته. و من قال له أن يتخذ حبسا، احتج بفعل عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، و مضت السنة في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و أبي بكر و عمر و عثمان و عليّ، رضى اللّه عنهم، أنه لا يحبس على الديون، و لكن يتلازم الخصمان.

و أوّل من حبس على الدين، شريح القاضي، و أمّا الحبس الذي هو الآن، فإنه لا يجوز عند أحد من المسلمين، و ذلك أنه يجمع الجمع الكثير في موضع يضيق عنهم، غير متمكنين من الوضوء و الصلاة، و قد يرى بعضهم عورة بعض، و يؤذيهم الحرّ في الصيف، و البرد في الشتاء، و ربما يحبس أحدهم السنة و أكثر و لا جدة له، و أنّ أصل حبسه على ضمان، و أمّا سجون الولاة فلا يوصف ما يحلّ بأهلها من البلاء، و اشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان في الحديد حتى يشحذوا و هم يصرخون في الطرقات الجوع، فما تصدّق به عليهم لا ينالهم منه إلّا ما يدخل بطونهم، و جميع ما يجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجان و أعوان الوالي، و من لم يرضهم بالغوا في عقوبته، و هم مع ذلك يستعملون في الحفر و في العمائر و نحو ذلك من الأعمال الشاقة، و الأعوان تستحثهم، فإذا انقضى عملهم ردّوا إلى السجن في حديدهم من غير أن يطعموا شيئا. إلى غير ذلك مما لا يسع حكايته هنا. و قد قيل أن أوّل من وضع السجن و الحرس معاوية. و قد كان في مدينة مصر و في القاهرة عدّة سجون، و هي حبس المعونة بمصر، و حبس الصيار بمصر، و

خزانة البنود بالقاهرة، و حبس المعونة بالقاهرة، و خزانة شمائل، و حبس الديلم، و حبس الرحبة، و الجب بقلعة الجبل.

حبس المعونة بمصر: و يقال أيضا: دار المعونة، كانت أوّلا تعرف بالشرطة، و كانت قبلىّ جامع عمرو بن العاص، و أصله خطّه قيس بن سعد بن عبادة الأنصارىّ رضى اللّه عنهم، اختطها فى أول الإسلام، و قد كان موضعها فضاء. و أوصى فقال: إن كنت بنيت بمصر دارا و استعنت فيها بمعونة المسلمين فهى للمسلمين، ينزلها ولاتهم. و قيل بل كانت هى و دار إلى جانبها لنافع بن عبد قيس الفهرىّ، و أخذها منه قيس بن سعد و عوّضه دارا بزقاق القناديل. ثم عرفت بدار الفلفل لأنّ أسامة بن زيد التنوخىّ صاحب خراج مصر، ابتاع من موسى بن وردان فلفلا بعشرين ألف دينار، كان كتب فيه الوليد بن عبد الملك ليهديه إلى صاحب الروم، فخزّنه فيها، فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه حين تولى الخلافة، فكتب أن تدفع إليه. ثم صارت شرطة و دار الصرف، فلما فرغ عيسى بن يزيد الجلودىّ من زيادة عبد اللّه بن طاهر فى الجامع بنى شرطة فى سنة ثلاث عشرة و مائتين، فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۹

خلافة المأمون، و نقش فى لوح كبير نصبه على باب الجامع الذى يدخل منه إلى الشرطة ما نصه: بركة من اللّه لعبده عبد اللّه الإمام المأمون أمير المؤمنين، أمر بإقامة هذه الدار الهاشمية المباركة على يد عيسى بن يزيد الجلودىّ، مولى أمير المؤمنين، سنة ثلاث عشرة و مائتين، و لم يزل هذا اللوح على باب الشرطة إلى صفر سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة، فقلعه يانس العزيزى و صارت حبسا يعرف بالمعونة، إلى أن ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فجعله مدرسة، و هى التى تعرف اليوم بالشريفية.

حبس الصيّار: هذا الحبس كان بمصر يحبس فيه الولاة بعد ما عمل حبس المعونة مدرسة، و كان بأوّل الزقاق الذى فيه هذا الحبس حانوت يسكنه شخص يقال له منصور الطويل، و يبيع فيه أصناف السوقة، و يعرف هذا الرجل بالصيار من أجل أنه كانت له فى هذا الزقاق قاعة يخزن فيها أنواع الصير المعروف بالملوحة، فقيل لهذا الحبس حبس الصيار، و نشأ لمنصور الصيار هذا ولد عرف بين الشهود بمصر بشرف الدين بن منصور الطويل، فلما أحدث الوزير شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ المظالم فى سلطنة الملك المعز أيبك التركمانىّ، خدم شرف الدين هذا على المظالم فى جباية التسقيع و التقويم، ثم خدم بعد إبطال ذلك فى مكس القصب و الرمّان، فلما تولى قضاء القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، تأذى عنده بما باشره من هذه المظالم، و ما زال هذا الحبس موجودا إلى أن خربت مصر فى الزمان الذى ذكرناه، فخرب و بقى موضعه و ما حوله كيمانا.

خزانة البنود: هذه الخزانة بالقاهرة هى الآن زقاق يعرف بخط خزانة البنود، على يمنة من سلك من رحبة باب العيد يريد درب ملوخيا و غيره، و كانت أوّلا فى الدولة الفاطمية خزانة من جملة خزائن القصر يعمل فيها السلاح، يقال أن الخليفة الظاهر بن الحاكم أمر بها، ثم أنها احترقت فى سنة إحدى و ستين و أربعمائة، فعملت بعد حريقها سجنا يسجن فيه الأمراء و الأعيان، إلى أن انقرضت الدولة فأقرّها ملوك بنى أيوب سجنا، ثم عملت منزلا للأمراء من الفرنج يسكنون فيها بأهاليهم و أولادهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون بعد حضوره من الكرك، فلم يزالوا بها إلى أن هدمها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بديار مصر، فى سنة أربع و أربعين و سبعمائة، فاختط الناس موضعها دورا، و قد ذكرت فى هذا الكتاب عند ذكر خزائن القصر.

حبس المعونة من القاهرة: هذا المكان بالقاهرة، موضعه الآن قيسارية العنبر برأس الحريريين، كان يسجن فيه أرباب الجرائم من السرّاق و قطاع الطريق و نحوهم فى الدولة الفاطمية، و كان حبسا حرجا ضيقا شنيعا يشم من قربه رائحة كريهة، فلما ولى الملك الناصر محمد بن قلاون مملكة مصر هدمه و بناه قيسارية للعنبر، و قد ذكر عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۰

خزانة شمائل: هذه الخزانة كانت بجوار باب زويلة، على يسرة من دخل منه بجوار السور، عرفت بالأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و كانت من أشنع السجون و أقبحها منظرا، يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السرّاق و قطاع الطريق، و من يريد السلطان إهلاكه من المماليك و أصحاب الجرائم العظيمة، و كان السجان بها

يوظف عليه والى القاهرة شيئا يحمله من المال له فى كل يوم، و بلغ ذلك فى أيام الناصر فرج مبلغا كبيرا، و ما زالت هذه الخزانة على ذلك إلى أن هدمها الملك المؤيد شيخ المحمودىّ فى يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول، سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، و أدخلها فى جملة ما هدمه من الدور التى عزم على عمارة أماكنها مدرسة.

و شمائل هذا: هو الأمير علم الدين، قدم إلى القاهرة و هو من فلاحى بعض قرى مدينة حماه فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل، فخدم جاندار فى الركاب السلطانى إلى أن نزل الفرنج على مدينة دمياط فى سنة خمس عشرة و ستمائة، و ملكوا البرّ و حصروا أهلها و حالوا بينهم و بين من يصل إليهم، فكان شمائل هذا يخاطر بنفسه و يسبح فى الماء بين المراكب و يردّ على السلطان الخبر، فتقدّم عند السلطان و حظى لديه حتى أقامه أمير جاندار، و جعله من أكبر أمرائه، و نصه سيف نقمته، و ولاه ولاية القاهرة، فباشر ذلك إلى أن مات السلطان و قام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر، فلما خلع بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب نقم على شمائل.

المقشرة: هذا السجن بجوار باب الفتوح، فيما بينه و بين الجامع الحاكمى، كان يقشر فيه القمح، و من جملته برج من أبراج السور على يمنة الخارج من باب الفتوح، استجدّ بأعلاه دور لم تزل إلى أن هدمت خزانة شمائل، فعين هذا البرج و المقشرة لسجن أرباب الجرائم، و هدمت الدور التى كانت هناك فى شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة، و عمل البرج و المقشرة سجنا و نقل إليه أرباب الجرائم، و هو من أشنع السجون و أضيقها، يقاسى فيه المسجونون من الغمّ و الكرب ما لا يوصف، عافانا اللّه من جميع بلائه.

الجب بقلعة الجبل: هذا الجب كان بقلعة الجبل يسجن فيه الأمراء، و ابتدئ عمله فى سنة إحدى و ثمانين و ستمائة، و السلطان حينئذ الملك المنصور قلاون، و لم يزل إلى أن هدمه الملك الناصر محمد بن قلاون فى يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى، سنة تسع و عشرين و سبعمائة، و ذلك أنّ شادّ العمائر نزل إليه ليصلح عمارته فشاهد أمرا مهولا من الظلام و كثرة الوطاويط و الروائح الكريهة، و اتفق مع ذلك أن الأمير بكتمر الساقى كان عنده شخص يسخر به و يمازحه، فبعث به إلى الجب و دلى فيه، ثم أطلعه من بعد ما بات به ليلة، فلما حضر إلى بكتمر أخبره بما عاينه من شناعة الجب، و ذكر ما فيه من القبائح المهولة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۱

و كان شادّ العمائر فى المجلس فوصف ما فيه الأمراء الذين بالجب من الشدائد، فتحدّث بكتمر مع السلطان فى ذلك فأمر بإخراج الأمراء منه، و ردم و عمّر فوقه أطباق المماليك، و كان الذى ردم به هذا الجب، النقض الذى هدم من الإيوان الكبير المجاور للخزانة الكبرى، و اللّه أعلم بالصواب.

ذكر المواضع المعروفة بالصناعة

لفظ الصناعة بكسر الصاد مأخوذ من قولك صنعه يصنعه صنعا، فهو مصنوع، و صنيع عمله و اصطنعه اتخذه. و الصناعة ما يستصنع من أمر، هذا أصل الكلمة من حيث اللغة، و أمّا فى العرف فالصناعة اسم لمكان قد أعدّ لإنشاء المراكب البحرية التى يقال لها السفن، واحدتها سفينة، و هى بمصر على قسمين: نيلية و حربية.

فالحربية هى التى تنشأ لغزو العدوّ و تشحن بالسلاح و آلات الحرب و المقاتلة، فتمرّ من ثغر الإسكندرية و ثغر دمياط و تنيس و الفرما إلى جهاد أعداء اللّه من الروم و الفرنج، و كانت هذه المراكب الحربية يقال لها الأسطول، و لا أحسب هذا اللفظ عربيا.

و أمّا المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمرّ فى النيل، صاعدة إلى أعلى الصعيد و منحدرة إلى أسفل الأرض، لحمل الغلال و غيرها، و لما جاء اللّه تعالى بالإسلام لم يكن البحر يركب للغزو فى حياة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و خلافة أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، و أوّل من ركب البحر فى الإسلام للغزو، العلاء بن الحضرمىّ رضى اللّه عنه، و كان على البحرين من قبل أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، فأحب أن يؤثر فى الأعاجم أثرا يعز اللّه به الإسلام على يديه، فندب أهل البحرين إلى فارس فبادروا إلى ذلك، و فرّقهم

أجنادا، على أحدها الجارود بن المعلى رضى اللّه عنه، و على الثانى سوار بن همام رضى اللّه عنه، و على الثالث خليد بن المنذر بن ساوى رضى اللّه عنه، و جعل خليدا على عامة الناس، فحملهم فى البحر إلى فارس بغير إذن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، و كان عمر رضى اللّه عنه لا يأذن لأحد فى ركوب البحر غازيا، كراهة للتغرير بجنده، اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و خليفته أبى بكر رضى اللّه عنه، فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا فى اصطخر و بإزائهم أهل فارس عليهم الهربذ، فحالوا بين المسلمين و بين سفنهم، فقام خليد فى الناس فقال: أما بعد، فإنّ اللّه تعالى إذا قضى أمرا جرت المقادير على مطيته، و أنّ هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم، و إنما جئتم لمحاربتهم، و السفن و الأرض بعد الآن لمن غلب، فاستعينوا بالصبر و الصلاة و إنها لكبيرة إلّا على الخاشعين. فأجابوه إلى القتال و صلوا الظهر، ثم ناهزوهم فاقتتلوا قتالا شديدا فى موضع يدعى طاوس، فقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قبلها، و خرج المسلمون يريدون البصرة إذ غرقت سفنهم و لم يجدوا فى الرجوع إلى البحر سبيلا، فإذا بهم و قد أخذت عليهم الطرق، فعسكروا و امتنعوا، و بلغ ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۲

عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فاشتدّ غضبه على العلاء رضى اللّه عنه، و كتب إليه بعزله و توعده و أمره بأثقل الأشياء عليه و أبغض الوجوه إليه، بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه و قال: الحق بسعد بن أبى وقاص بمن معك، فخرج رضى اللّه عنه من البحرين بمن معه نحو سعد رضى اللّه عنه، و هو يومئذ على الكوفة، و كان بينهما تباين و تباعد، و كتب عمر رضى اللّه عنه إلى عتبة بن غزوان بأنّ العلاء بن الحضرمىّ حمل جندا من المسلمين فى البحر فأقطعهم إلى فارس و عصانى، و أظنه لم يرد اللّه عز و جلّ بذلك، فخشيت عليهم أن لا ينصروا و أن يغلبوا، فاندب لهم الناس و ضمهم إليك من قبل أن يجتاحوا، فندب عتبة رضى اللّه عنه الناس و أخبرهم بكتاب عمر رضى اللّه عنه، فانتدب عاصم بن عمرو، و عرفجة بن هرثمة، و حذيفة بن محصن، و مجراة بن ثور، و نهار بن الحارث، و الترجمان بن فلان، و الحصين بن أبى الحرّ، و الأحنف بن قيس، و سعد بن أبى العرجاء، و عبد الرحمن بن سهل، و صعصعة بن معاوية رضى اللّه تعالى عنهم. فساروا من البصرة فى اثنى عشر ألفا على البغال يجنبون الخيل، و عليهم أبو سبرة بن أبى رهم رضى اللّه عنهم، فساحل بهم حتى التقى أبو سبرة و خليد حيث أخذت عليهم الطرق، و قد استصرخ أهل اصطخر أهل فارس كلهم فأتوهم من كل وجه و كورة، فالتقوا هم و أبو سبرة فاقتتلوا، ففتح اللّه على المسلمين و قتل المشركون، و عاد المسلمون بالغنائم إلى البصرة، و رجع أهل البحرين إلى منازلهم.

فلما فتح اللّه تعالى الشأم ألح معاوية بن أبى سفيان و هو يومئذ على جند دمشق و الأردن، على عمر رضى اللّه عنه فى غزو البحر و قرب الروم من حمص. و قال: إنّ قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم و صياح دجاجهم، حتى إذا كاد ذلك يأخذ بقلب عمر رضى اللّه عنه اتهم معاوية لأنه المشير، و أحب عمر رضى اللّه عنه أن يردعه فكتب إلى عمرو بن العاص و هو على مصر، أن صف لى البحر و راكبه، فإنّ نفسى تنازعنى إليه و أنا أشتهى خلافها. فكتب إليه: يا أمير المؤمنين، إنى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلّا السماء و الماء، إن ركد حزّن القلوب، و إن زلّ أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، و الشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق و إن نجا برق.

فلما جاءه كتاب عمرو، كتب رضى اللّه عنه إلى معاوية: لا و الذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا، إنّا قد سمعنا أنّ بحر الشأم يشرف على أطول شىء فى الأرض، يستأذن اللّه تعالى فى كل يوم و ليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود فى هذا البحر الكافر المستصعب، و تاللّه لمسلم واحد أحب إلىّ مما حوته الروم، فإياك أن تعرض لى و قد تقدّمت إليك، و قد علمت ما لقى العلاء منى و لم أتقدّم إليه فى مثل ذلك.

و عن عمر رضى اللّه عنه أنه قال: لا يسألنى اللّه عز و جلّ عن ركوب المسلمين البحر أبدا.

و روى عنه ابنه عبد اللّه رضى اللّه عنهما أنه قال: لولا آية فى كتاب اللّه تعالى لعلوت راكب البحر بالدرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۳

ثم لما كانت خلافة عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، غزا المسلمون فى البحر، و كان أوّل من غزا فيه معاوية بن أبى سفيان، و ذلك أنه لم يزل بعثمان رضى اللّه عنه حتى عزم على ذلك، فأخره و قال: تنتخب الناس و لا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله و أعنه. ففعل و استعمل على البحر عبد اللّه بن قيس الحاسى خليفة بنى فزارة، فغزا خمسين غزوة من بين شاتية و صائفة فى البرّ و البحر، و لم يغرق فيه أحد و لم ينكب، و كان يدعو اللّه تعالى أن يرزقه العافية فى جنده و لا يبتليه بمصاب أحد منهم، حتى إذا أراد اللّه عز و جلّ أن يصيبه فى جنده خرج فى قارب طليعته فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم، فثار به الروم و هجموا عليه فقاتلهم فأصيب وحده، ثم قاتل الروم أصحابه فأصيبوا.

و غزا عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح فى البحر لما أتاه قسطنطين بن هرقل سنة أربع و ثلاثين فى ألف مركب يريد الإسكندرية، فسار عبد اللّه فى مائتى مركب أو تزيد شيئا و حاربه، فكانت وقعة ذات الصوارى التى نصر اللّه تعالى فيها جنده و هزم قسطنطين و قتل جنده، و أغزى معاوية أيضا عقبة بن عامر الجهنىّ رضى اللّه عنه فى البحر، و أمره أن يتوجه إلى رودس، فسار إليها.

و نزل الروم على البرلس فى سنة ثلاث و خمسين فى إمارة مسلمة بن مخلد الأنصارىّ رضى اللّه عنه على مصر، فخرج إليهم المسلمون فى البرّ و البحر، فاستشهد وردان مولى عمرو بن العاص فى جمع كثير من المسلمين، و بعث عبد الملك بن مروان لما ولى الخلافة إلى عامله على إفريقية حسان بن النعمان يأمره باتخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية.

و منها كانت غزوة صقلية فى أيام زيادة اللّه الأوّل بن إبراهيم بن الأغلب على شيخ الفتيا أسد بن الفرات، و نزل الروم تنيس فى سنة إحدى و مائة فى إمارة بشر بن صفوان الكلبىّ على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك، فاستشهد جماعة من المسلمين، و قد ذكر فى أخبار الإسكندرية و دمياط و تنيس و الفرما من هذا الكتاب جملة من نزلات الروم و الفرنج عليها، و ما كان فى زمن الإنشاء، فانظره تجده إن شاء اللّه تعالى. و قد ذكر شيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة وليّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمىّ الإشبيلى، تعليل امتناع المسلمين من ركوب البحر للغزو فى أوّل الأمر فقال:

و السبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أوّل الأمر مهرة فى ثقافته و ركوبه، و الروم و الفرنجة لممارستهم أحواله و مرباهم فى التقلب على أعواده مرنوا عليه، و أحكموا الدربة بثقافته، فلما استقرّ الملك للعرب و شمخ سلطانهم، و صارت أمم العجم خولا لهم و تحت أيديهم، و تقرّب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته، و استخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما، و تكرّرت ممارستهم البحر و ثقافته، استحدثوا بصرا بها، فتاقت أنفسهم إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۴

الجهاد فيه، و أنشأوا السفن و الشوانى و شحنوا الأساطيل بالرجال و السلاح، و أمطوها العساكر و المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، و اختصوا بذلك من ممالكهم و ثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر و على ضفته، مثل الشام و إفريقية و المغرب و الأندلس.

و أوّل ما أنشئ الأسطول بمصر فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على اللّه أبى الفضل جعفر بن المعتصم، عند ما نزل الروم دمياط فى يوم عرفة سنة ثمان و ثلاثين و مائتين، و أمير مصر يومئذ عنبسة بن إسحاق، فملكوها و قتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين، و سبوا النساء و الأطفال، و مضوا إلى تنيس فأقاموا باشتومها. فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول و صار من أهمّ ما يعمل بمصر، و أنشئت الشوانى برسم الأسطول، و جعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البرّ، و انتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية و جميع أنواع المحاربة، و انتخب له القوّاد العارفون بمحاربة العدوّ، و كان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم و لا جاهل بأمور الحرب، هذا و للناس إذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء اللّه و إقامة دينه، لا جرم أنه كان لخدّام الأسطول حرمة و مكانة، و لكل أحد من الناس رغبة فى أنه يعدّ من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقرّ فيه، و كان من غزو الأسطول بلاد العدوّ ما قد شحنت به كتب التواريخ.

فكانت الحرب بين المسلمين و الروم سجالا، ينال المسلمون من العدوّ و ينال العدوّ منهم، و يأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الإسلام بلاد العدوّ، فإنها كانت تسير من مصر و من الشام و من أفريقية، فلذلك احتاج خلفاء الإسلام إلى الفداء، و كان أوّل فداء وقع بمال فى الإسلام أيام بنى العباس، و لم يقع فى أيام بنى أمية فداء مشهور، و إنما كان يفادى بالنفر بعد النفر فى سواحل الشأم و مصر و الإسكندرية و بلاد ملطية و بقية الثغور الخزرية، إلى أن كانت خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد.

الفداء الأوّل: باللامش من سواحل البحر الرومىّ قريبا من طرسوس فى سنة تسع و ثمانين و مائة، و ملك الروم يومئذ تقفور بن اشبراق، و كان ذلك على يد القاسم بن الرشيد و هو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين فى أعمال حلب، ففودى بكل أسير كان ببلاد الروم من ذكر أو أنثى، و حضر هذا الفداء من أهل الثغور و غيرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف إنسان، بأحسن ما يكون من العدد و الخيل و السلاح و القوّة، قد أخذوا السهل و الجبل و ضاق بهم الفضاء، و حضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزىّ، معهم أسارى المسلمين، فكان عدّة من فودى به من المسلمين فى اثنى عشر يوما ثلاثة آلاف و سبعمائة أسير، و أقام ابن الرشيد باللامش أربعين يوما قبل الأيام التى وقع فيها الفداء و بعدها، و قال مروان بن أبى حفصة فى هذا الفداء يخاطب الرشيد من أبيات:

و فكّت بك الأسرى التى شيدت بهامحابس ما فيها حميم يزورها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۵ على حين أعيى المسلمين فكاكهاو قالوا سجون المشركين قبورها

الفداء الثانى: كان فى خلافة الرشيد أيضا باللامش فى سنة اثنتين و تسعين و مائة، و ملك الروم تقفور، و كان القائم به ثابت بن نصر بن مالك الخزاعىّ أمير الثغور الشامية، حضره ألوف من الناس، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين و خمسمائة من ذكر و أنثى.

الفداء الثالث: وقع فى خلافة الواثق باللامش، فى المحرّم سنة إحدى و ثلاثين و مائتين، و ملك الروم ميخائيل بن نوفيل، و كان القائم به خاقان التركى، و عدّة من فودى به من المسلمين فى عشرة أيام أربعة آلاف و ثلاثمائة و اثنان و ستون من ذكر و أنثى، و حضر مع خاقان أبو رملة، من قبل قاضى القضاة أحمد بن أبى داود يمتحن الأسرى وقت المفاداة، فمن قال منهم بخلق القرآن فودى به و أحسن إليه، و من أبى ترك بأرض الروم، فاختار جماعة من الأسرى الرجوع إلى أرض النصرانية على القول بذلك، و خرج من الأسرى مسلم بن أبى مسلم الحرمى، و كان له محل فى الثغور، و كتب مصنفه فى أخبار الروم و ملوكهم و بلادهم، فنالته محن على القول بخلق القرآن ثم تخلص.

الفداء الرابع: فى خلافة المتوكل على اللّه باللامش أيضا، فى شوّال سنة إحدى و أربعين و مائتين، و الملك ميخائيل، و كان القائم به سيف خادم المتوكل، و حضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمىّ القاضى، و علىّ بن يحيى الأرمنىّ أمير الثغور الشامية، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفى رجل و مائة امرأة، و كان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الإسلام مائة رجل و نيف، فعوّضوا مكانهم عدّة أعلاج، إذ كان الفداء لا يقع على نصرانىّ و لا ينعقد.

الفداء الخامس: فى خلافة المتوكل، و ملك الروم ميخائيل أيضا باللامش، مستهل صفر سنة ست و أربعين و مائتين، و كان القائم به علىّ بن يحيى الأرمنىّ أمير الثغور، و معه نصر بن الأزهر الشيعىّ من شيعة بنى العباس، المرسل إلى الملك فى أمر الفداء من قبل المتوكل، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين و ثلاثمائة و سبعة و ستين من ذكر و أنثى.

الفداء السادس: كان فى أيام المعتز، و الملك على الروم بسيل، على يد شفيع الخادم فى سنة ثلاث و خمسين و مائتين.

الفداء السابع: فى خلافة المعتضد باللامش، فى شوّال سنة ثلاث و ثمانين و مائتين، و ملك الروم اليون بن بسيل، و كان القائم به أحمد بن طغان أمير الثغور الشامية و انطاكية، من قبل الأمير أبى الجيش خماوريه بن أحمد بن طولون، و كانت الهدنة لهذا الفداء وقعت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۶

فی سنهٔ اثنتین و ثمانین و مائتین، فقتل أبو الجیش بدمشق فی ذی القعدهٔ من هذه السنهٔ، و تم الفداء فی إمارهٔ ولده جیش بن خمارویه، و کانت عدّهٔ من فودی به من المسلمین فی عشرهٔ أیام ألفین و أربعمائهٔ و خمسهٔ و تسعین من ذکر و أنثی، و قیل ثلاثهٔ آلاف.

الفداء الثامن: فی خلافهٔ المکتفی باللامش، فی ذی القعدهٔ سنهٔ اثنتین و تسعین و مائتین، و ملک الروم الیون أیضا، و کان القائم به رستم بن نزدوی أمیر الثغور الشامیهٔ، و کانت عدهٔ من فودی به من المسلمین فی أربعهٔ أیام ألفا و مائهٔ و خمسهٔ و خمسین من ذکر و أنثی، و عرف بفداء الغدر، و ذلک أن الروم غدروا و انصرفوا ببقیهٔ الأسارى.

الفداء التاسع: فی خلافهٔ المکتفی، و ملک الروم ألیون باللامش أیضا، فی شوّال سنهٔ خمس و تسعین و مائتین، و القائم به رستم، و کانت عدّهٔ من فودی به من المسلمین ألفین و ثمانمائهٔ و اثنین و أربعین من ذکر و أنثی.

الفداء العاشر: فی خلافهٔ المقتدر باللامش، فی شهر ربیع الآخر سنهٔ خمس و ثلاثمائهٔ، و ملک الروم قسطنطین بن الیون بن بسیل، و هو صغیر فی حجر أرمانوس، و کان القائم بهذا الفداء مونس الخادم، و بشیر الخادم الأفشینی أمیر الثغور الشامیهٔ و انطاکیهٔ و المتوسط له، و المعاون علیه أبو عمیر عدیّ بن أحمد بن عبد الباقی التمیمیّ الأدنیّ من أهل أدنهٔ، و عدّهٔ من فودی به من المسلمین فی ثمانیهٔ أیام ثلاثهٔ آلاف و ثلاثمائهٔ و ستهٔ و ثلاثون من ذکر و أنثی.

الفداء الحادی عشر: فی خلافهٔ المقتدر، و ملک أرمانوس و قسنطیطین علی الروم، و کان باللامش فی شهر رجب سنهٔ ثلاث عشرهٔ و ثلاثمائهٔ، و القائم به مفلح الخادم الأسود المقتدری، و بشیر خلیفهٔ شمل الخادم علی الثغور الشامیهٔ، و عدّهٔ من فودی به من المسلمین فی تسعهٔ عشر یوما، ثلاثهٔ آلاف و تسعمائهٔ و ثلاثهٔ و ثلاثون من ذکر و أنثی.

الفداء الثانی عشر: فی خلافهٔ الراضی باللامش، فی سلخ ذی القعدهٔ، و أیام من ذی الحجهٔ، سنهٔ ست و عشرین و ثلاثمائهٔ و الملکان علی الروم قسطنطین و أرمانوس، و القائم به ابن ورقاء الشیبانیّ، من قبل الوزیر أبی الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات، و بشیر الشملیّ أمیر الثغور الشامیهٔ، و عدّهٔ من فودی به من المسلمین فی ستهٔ عشر یوما، ستهٔ آلاف و ثلاثمائهٔ و نیف من ذکر و أنثی، و بقی فی أیدی الروم من المسلمین الأسری ثمانمائهٔ رجل ردّوا، ففودی بهم فی عدّهٔ مرار، و زیدوا فی الهدنهٔ بعد انقضاء الفداء مدّهٔ ستهٔ أشهر لأجل من تخلف فی أیدی الروم من المسلمین، حتی جمع الأسارى منهم.

الفداء الثالث عشر: فی خلافهٔ المطیع باللامش، فی شهر ربیع الأوّل سنهٔ خمس و ثلاثین و ثلاثمائهٔ و الملک علی الروم قسطنطین، و القائم به نصر الشملی من قبل سیف

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۳، ص: ۳۳۷

الدولهٔ أبی الحسن علیّ بن حمدان، صاحب جند حمس و جند قنسرین و دیار بکر و دیار مصر و الثغور الشامیهٔ و الخزریهٔ، و کانت عدّهٔ من فودی به من المسلمین ألفین و أربعمائهٔ و اثنین و ثمانین من ذکر و أنثی، و فضل للروم علی المسلمین قرضا مائتان و ثلاثون لکثرهٔ من کان فی أیدیهم، فوفاهم سیف الدولهٔ ذلک و حمله إلیهم، و کان الذی شرع فی هذا الفداء الأمیر أبو بکر محمد بن طفج الإخشید أمیر مصر و الشام و الثغور الشامیهٔ، و کان أبو عمیر عدیّ بن أحمد بن عبد الباقی الأدنیّ شیخ الثغور، قدم إلیه و هو بدمشق فی ذی الحجهٔ سنهٔ أربع و ثلاثین و ثلاثمائهٔ، و معه رسول ملک الروم فی إتمام هذا الفداء، و الإخشید شدید العلهٔ، فتوفی یوم الجمعهٔ لثمان خلون من ذی الحجهٔ منها، و سار أبو المسک کافور الإخشیدیّ بالجیش راجعا إلی مصر، و حمل معه أبا عمیر و رسول ملک الروم إلی فلسطین، فدفع إلیهما ثلاثین ألف دینار من مال الفداء، فسارا إلی مدینهٔ صور و رکبا البحر إلی طرسوس، فلما وصلا کاتب نصر الشملی أمیر الثغور سیف الدولهٔ بن حمدان، و دعا له علی منابر الثغور، فجدّ فی إتمام هذا الفداء، فنسب إلیه. و وقعت أفدیهٔ أخری لیس لها شهرهٔ.

فمنها: فداء فى خلافة المهدى محمد، على يد النقاش الأنطاكى، و فداء فى أيام الرشيد فى شوّال سنة إحدى و ثمانين و مائة، على يد عياض بن سنان أمير الثغور الشامية، و فداء فى أيام الأمين، على يد ثابت بن نصر، فى ذى القعدة سنة أربع و تسعين و مائة، و فداء فى أيام الأمين، على يد ثابت بن نصر أيضا، فى ذى القعدة سنة إحدى و مائتين، و فداء فى أيام المتوكل سنة سبع و أربعين و مائتين، على يد محمد بن على، و فداء فى أيام المعتمد، على يد شفيع، فى شهر رمضان سنة ثمان و خمسين و مائتين، و فداء كان فى الإسكندرية فى شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و أربعين و ثلاثمائة، خرج فيه أبو بكر محمد بن علىّ الماردانىّ من مصر، و معه الشريف أبو القاسم الرئيس، و القاضى أبو حفص عمر بن الحسين العباسى، و حمزة بن محمد الكتانى فى جمع كبير، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين ستين نفسا بين ذكر و أنثى.

فلما سار الروم إلى البلاد الشامية بعد سنة خمسين و ثلاثمائة، اشتدّ أمرهم بأخذهم البلاد، و قويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعزل لدين اللّه، و أنشأ المراكب الحربية، و اقتدى به بنوه و كان لهم اهتمام بأمور الجهاد و اعتناء بالأسطول، و واصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر و اسكندرية و دمياط من الشوانى الحربية و الشلنديات و المسطحات، و تسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور و عكا و عسقلان، و كانت جريدة قوّاد الأسطول فى آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدوّنة، منهم عشرة أعيان يقال لهم القوّاد، واحدهم قائد، و تصل جامكية كلّ واحد منهم إلى عشرين دينارا، ثم إلى خمسة عشر دينارا، ثم إلى عشرة دنانير، ثم إلى ثمانية، ثم إلى دنارين، و هى أقلها. و لهم إقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيها من النطرون، فيصل دينارهم بالمناسبة إلى نصف دينار، و كان يعين من القوّاد العشرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۸

واحد فيصير رئيس الأسطول، و يكون معه المقدم و القاوش، فإذا ساروا إلى الغزو كان هو الذى يقلع بهم، و به يقتضى الجميع، فيرسون بإرسائه و يقلعون بإقلاعه، و لا بدّ أن يقدم على الأسطول أمير كبير من أعيان أمراء الدولة و أقواهم نفسا، و يتولى النفقة فى غزاة الأسطول الخليفة بنفسه بحضور الوزير، فإذا أراد أراد النفقة فيما تعين من عدّة المراكب السائرة، و كانت فى أيام المعز لدين اللّه تزيد على ستمائة قطعة، و آخر ما صارت إليه فى آخر الدولة نحو الثمانين شونة، و عشر مسطحات، و عشر حمالة، فما تقصر عن مائة قطعة، فيتقدّم إلى النقباء بإحضار الرجال، و فيهم من كان يتمعش بمصر و القاهرة، و فيهم من هو خارج عنهما، فيجتمعون. و كانت لهم المشاهرة و الجرايات فى مدّة أيام سفرهم، و هم معروفون عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء، واحدهم نقيب، و لا يكره أحد على السفر، فإذا اجتمعوا أعلم النقباء المقدّم، فأعلم بذلك الوزير، فطالع الوزير الخليفة بالحال، فقرّر يوما للنفقة، فحضر الوزير بالاستدعاء من ديوان الإنشاء على العادة، فيجلس الخليفة على هيئته فى مجلسه، و يجلس الوزير فى مكانه، و يحضر صاحبا ديوان الجيش، و هما المستوفى و الكاتب، و المستوفى هو أمير هما، فيجلس من داخل عتبة المجلس، و هذه رتبة له يتميز بها، و يجلس بجانبه من وراء العتبة كاتب الجيش فى قاعة الدار على حصر مفروشة، و شرط هذا المستوفى أن يكون عدلا و من أعيان الكتّاب، و يسمى اليوم فى زمننا ناظر الجيش، و أما كاتب الجيش فإنه كان فى غالب الأمر يهوديا، و للمجلس الذى فيه الخليفة و الوزير انطاع تصب عليها الدراهم، و يحضر الوزانون ببيت المال لذلك، فإذا تهيأ الإنفاق أدخل الغزاة مائة مائة، فيقفون فى أخريات من هو واقف فى الخدمة من جانب واحد، نقابة نقابة، و تكون أسماؤهم قد رتبت فى أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة، فيستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق المنفق عليهم واحدا واحدا، فإذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هو فيه إلى الجانب الآخر، فإذا تكملت عشرة، وزن الوزانون لهم النفقة، و كانت مقرّرة لكلّ واحد خمسة دنانير صرف ستة و ثلاثين درهما بدينار، فيسلمها لهم النقيب و تكتب باسمه و بيده، و تمضى النفقة هكذا إلى آخرها.

فإذا تم ذلك ركب الوزير من بين يدى الخليفة و انفضّ ذلك الجمع، فيحمل إلى الوزير من القصر مائدة يقال لها غداء الوزير، و هى سبع مجنقات أوساط، إحداها بلحم الدجاج و فستق، معمولة بصناعة محكمة، و البقية شواء، و هى مكمورة بالأزهار. فتكون النفقة

على ذلك مدّة أيام متوالية مرّة و متفرّقة مرّة، فإذا تكاملت النفقة و تجهزت المراكب و تهيأت للسفر، ركب الخليفة و الوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة، و كان هناك على شاطىء النيل بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداع الأسطول و لقائه إذا عاد، فإذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۹

جلس للوداع جاءت القوّاد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات فى البحر بين يديه، و هى مزينة بأسلحتها و لبودها و ما فيها من المنجنيقات، فيرمى بها و تنحدر المراكب و تقلع، و تفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدوّ، ثم يحضر المقدّم و الرئيس إلى بين يدى الخليفة فيودّعهما و يدعو للجماعة بالنصرة و السلامة، و يعطى للمقدم مائة دينار، و للرئيس عشرين دينارا، و ينحدر الأسطول إلى دمياط و من هناك يخرج إلى بحر الملح، فيكون له ببلاد العدوّ صيت عظيم و مهابة قوية، و العادة أنه إذا غنم الأسطول ما عسى أن يغنم، لا يتعرّض السلطان منه إلى شىء البتة إلّا ما كان من الأسرى و السلاح، فإنه للسلطان، و ما عداهما من المال و الثياب و نحو هما فإنه لغزاة الأسطول، لا يشاركهم فيه أحد، فإذا قدم الأسطول خرج الخليفة أيضا إلى منظرة المقس و جلس فيها للقائه، و قدم الأسطول مرّة بألف و خمسمائة أسير، و كانت العادة أن الأسرى ينزل بهم فى المناخ، و تضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى، و يمضى بالنساء و الأطفال إلى القصر بعد ما يعطى منهم الوزير طائفة، و يفرّق ما بقى من النساء على الجهات و الأقارب، فيستخدمونهنّ و يربونهنّ حتى يتقنّ الصنائع، و يدفع الصغار من الأسرى إلى الاستادين فيربونهم و يتعلمون الكتابة و الرماية، و يقال لهم الترابى، و فيهم من صار أميرا من صبيان خاص الخليفة، من الأسرى من كان يستراب به فيقتل، و من كان منهم شيخا لا ينتفع به ضربت عنقه و ألقى فى بئر كانت فى خرائب مصر، تعرف ببئر المنامة، و لم يعرف قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت أسيرا من الفرنج بمال و لا بأسير مثله، و كان المنفق فى الأسطول كلّ سنة خارجا عن العدد و الآلات.

و لم يزل الأسطول على ذلك إلى أن كانت وزارة شاور، و نزل مرى ملك الفرنج على بركة الحبش، فأمر شاور بتحريق مصر و تحريق مراكب الأسطول، فحرّقت و نهبها العبيد فيما نهبوا، فلما كان زوال الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، اعتنى أيضا بأمر الأسطول و أفرد له ديوانا عرف بديوان الأسطول، و عين لهذا الديوان الفيوم بأعمالها، و الحبس الجيوشى فى البرّين الشرقىّ و الغربىّ، و هو من البرّ الشرقىّ بهتين و الأميريّة و المنية، و من البرّ الغربىّ ناحية سفط و نهيا و وسيم و البساتين خارج القاهرة، و عين له أيضا الخراج، و هو أشجار من سنط لا تحصى كثرة، فى البهنساوية و سفط ريشين و الأشمونين و الأسيوطية و الأخميمية و القوصية، لم تزل بهذه النواحى لا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه، و كان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار، و قد ذكر خبر هذا الخراج فى ذكر أقسام مال مصر من هذا الكتاب، و عين له أيضا النطرون، و كان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار، ثم أفرد لديوان الأسطول مع ما ذكر الزكاة التى كانت تجبى بمصر، و بلغت فى سنة زيادة على خمسين ألف دينار، و أفرد له المراكب الديوانية و ناحية أشناى و طنبدى، و سلّم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، فأقام فى مباشرته و عمالته صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر، و تقرّر ديوان الأسطول الذى ينفق فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۰

رجاله نصف و ربع دينار، بعد ما كان نصف و ثمن دينار.

فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، استمرّ الحال فى الأسطول قليلا ثم قلّ الاهتمام به، و صار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه طلب له الرجا لو قبض عليهم من الطرقات و قيدوا فى السلاسل نهارا و سجنوا فى الليل حتى لا يهربوا، و لا يصرف لهم إلّا شىء قليل من الخبز و نحوه، و ربما أقاموا الأيام بغير شىء كما يفعل بالأسرى من العدوّ فصارت خدمة الأسطول عارا يسبّ به الرجال، و إذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولىّ، غضب غضبا شديدا، بعد ما كان خدّام الأسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل اللّه، و الغزاة فى أعداء اللّه، و يتبرّك بدعائهم الناس.

ثم لما انقرضت دولة بنى أيوب و تملك الأتراك المماليك مصر، أهملوا أمر الأسطول إلى أن كانت أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ، فنظر فى أمر الشوانى الحربية، و استدعى برجال الأسطول، و كان الأمراء قد استعملوهم فى الحراريق و غيرها، و ندبهم للسفر و أمر بمدّ الشوانى و قطع الأخشاب لعمارتها و إقامتها على ما كانت عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، و احترز على الخراج و منع الناس من التصرّف فى أعواد العمل، و تقدّم بعمارة الشوانى فى ثغرى الإسكندرية و دمياط، و صار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر و يرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشوانى و مصالحها، و استدعى بشوانى الثغور إلى مصر فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق و الطرائد، فإنها كانت عدّة كثيرة، و ذلك فى شوال سنة تسع و ستين و ستمائة، ثم سارت تريد قبرس، و قد عمل ابن حسون رئيس الشوانى فى أعلامها الصلبان، يريد بذلك أنها تفى إذا عبرت البحر على الفرنج حتى تطرقهم على غفلة، فكره الناس منه ذلك، فلما قاربت قبرس تقدّم ابن حسون فى الليل ليهجهم المينا فصدم الشونة المقدّمة شعبا فانكسرت، و تبعتها بقية الشوانى فتكسرت الشوانى كلها، و علم بذلك متملك قبرس فأسر كلّ من فيها، و أحاط بما معهم و كتب إلى السلطان يقرّعه و يوبخه، و أن شوانيه قد تكسرت، و أخذ ما فيها و عدّتها إحدى عشرة شونة، و أسر رجالها.

فحمد السلطان اللّه تعالى و قال: الحمد للّه، منذ ملكنى اللّه تعالى ما خذل لى عكسر، و لا ذلّت لى راية، و ما زلت أخشى العين، فالحمد للّه تعالى، بهذا و لا بغيره، و أمر بإنشاء عشرين شونة، و أحضر خمس شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر، و لازم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كلّ يوم فى مدّة شهر المحرّم سنة سبعين و ستمائة إلى أن تنجزت، فلما كان فى نصف المحرّم سنة إحدى و سبعين و ستمائة، زاد النيل حتى لعبت الشوانى بين يديه، فكان يوما مشهودا، فى سنة اثنتين و تسعين و ستمائة تقدّم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون إلى الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۱

بتجهيز أمير الشوانى، فنزل إلى الصناعة و استدعى الرئيس و هيأ جميع ما تحتاج إليه الشوانى حتى كملت عدّتها، نحو ستين شونة، و شحنها بالعدد و آلات الحرب، و رتب بها عدّة من المماليك السلطانية، و ألبسهم السلاح، فأقبل الناس لمشاهدتهم من كلّ أوب قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام، و صنعوا لهم قصورا من خشب و أخصاص القش على شاطىء النيل خارج مدينة مصر و بالروضة، و اكتروا الساحات التى قدّام الدور و الزرابى بالمائتى درهم، كلّ زريبة ما دونها، بحيث لم يبق بيت بالقاهرة و مصر إلا و خرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك، فصار جمعا عظيما، و ركب السلطان من قلعة الجبل بكرة، و الناس قد ملأ و أما بين المقياس إلى بستان الخشاب إلى بلاق، و ونف السلطان و نائبه الأمير بيدر و بقية الأمراء قدّام دار النحاس، و منع الحجاب من التعرّض لطرد العامّة، فبرزت الشوانى واحدة بعد واحدة، و قد عمل فى كل شونة برج و قلعة تحاصر، و القتال عليها ملح، و النفط يرمى عليها، و عدّة من النقابين فى أعمال الحيلة، فى النقب، و ما منهم إلّا من أظهر فى شونته عملا معجبا و صناعة غريبة يفوق بها على صاحبه، و تقدّم ابن موسى الراعى و هو فى مركب نيلية فقرأ قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [هود/ ۴۱] ثم تلاها بقراءة قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ [آل عمران/ ۲۶] إلى آخر الآية، هذا و الشوانى تتواصل بمحاربة بعضها بعضا إلى أن أذن لصلاة الظهر، فمضى السلطان بعسكره عائد إلى القلعة، فأقام الناس بقية يومهم و تلك الليلة على ما هم عليه من اللهو فى اجتماعهم، و كان شيئا يجلّ وصفه، و أنفق فيه مال لا يعدّ، بحيث بلغت أجرة المركب فى هذا اليوم ستمائة درهم فما دونها، و كان الرجل الواحد يؤخذ منه أجرة ركوبه فى المركب خمسة دراهم، و حصل لعدّة من النواتية أجرة مراكبهم عن سنة فى هذا اليوم، و كان الخبز يباع اثنا عشر رطلا بدرهم، فلكثرة اجتماع الناس بمصر بيع سبعة أرطال بدرهم، فبلغ خبر الشوانى إلى بلاد الفرنج فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح.

فلما كان المحرّم سنة اثنتين و سبعمائة فى سلطنة الناصر محمد بن قلاون، جهزت الشوانى بالعدد و السلاح و النفطية و الأزودة، و عين لها جماعة من أجناد الحلقة، و ألزم كلّ أمير بإرسال رجلين من عدّته، و ألزم أمراء الطبلخاناه و العشروات بإخراج كلّ أمير من عدّته

رجلا، و ندب الأمير سيف الدين كهرداش المنصوريّ الزراق إلى السفر بهم و معه جماعة من مماليك السلطان الزراقين، و زينت الشوانى أحسن زينة، فخرج معظم الناس لرؤيتها و أقاموا يومين بلياليهما على الساحل بالبرّين، و كان جمعا عظيما إلى الغاية، و بلغت أجرة المركب الصغير مائة درهم لأجل الفرجة، ثم ركب السلطان بكرة يوم السبت ثانى عشر المحرّم و معه الأمير سلار النائب، و الأمير بيبرس الجاشنكير، و سائر الأمراء، و العسكر، فوقفت المماليك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۲

على البرّ نحو بستان الخشاب، و عدّى الأمراء فى الحراريق إلى الروضة، و خرجت الشوانى واحدة بعد واحدة، فلعبت منها ثلاثة و خرجت الرابعة و فيها الأمير أقوش القارى من مينا الصناعة حتى توسط البحر، فلعب بها الريح إلى أن مالت و انقلبت، فصار أعلاها أسفلها فتداركها الناس و رفعوا ما قدروا عليه من العدد و السلاح، و سلمت الرجال فلم يعدم منهم سوى أقوش وحده، فتنكد الناس و عاد الأمراء إلى القلعة بالسلطان، و جهز شونة عوضا عن التى غرقت و ساروا إلى مينا طرابلس، ثم ساروا و معهم عدّة من طرابلس فأشرقوا من الغد على جزيرة أرواد من أعمال قبرس، و قاتلوا أهلها و قتلوا أكثرهم و ملكوها فى يوم الجمعة ثامن عشرى صفر، و استولوا على ما فيها و هدموا أسوارها و عادوا إلى طرابلس، و أخرجوا من الغنائم الخمس للسلطان، و اقتسموا ما بقى منها، و كان معهم مائتان و ثمانون أسيرا، فسرّ السلطان بذلك سرورا كثيرا.

صناعة المقس: قال ابن أبى طيّ فى تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين اللّه، أنه أنشأ دار الصناعة التى بالمقس، و أنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على ميناء. و قال المسبحى: أن العزيز بالله بن المعز هو الذى بنى دار الصناعة التى بالمقس، و عمل المراكب التى لم ير مثلها فيما تقدم كبرا و وثاقة و حسنا. و قال فى حوادث سنة ست و ثمانين و ثلاثمائة: و وقعت نار فى الأسطول وقت صلاة الجمعة، لست بقين من شهر ربيع الآخر، فأحرقت خمس عشاريات و أتت على جميع ما فى الأسطول من العدّة و السلاح و اتهموا الروم النصارى، و كانوا مقيمين بدار ماتك بجوار الصناعة التى بالمقس، و حملوا على الروم هم و جموع من العامّة معهم، فنهبوا أمتعة الروم و قتلوا منهم مائة رجل و سبعة رجال، و طرحوا جثثهم فى الطرقات، و أخذ من بقى فحبس بصناعة المقس، ثم حضر عيسى بن نسطورس خليفة أمير المؤمنين العزيز بالله فى الأموال و وجوهها بديار مصر و الشام و الحجاز، و معه يانس الصقلبيّ، و هو يومئذ خليفة العزيز بالله على القاهرة عند مسيره إلى الشام، و معهما مسعود الصقلبيّ متولى الشرطة، و أحضروا الروم من الصناعة فاعترفوا بأنهم الذين أحرقوا الأسطول، فكتب بذلك إلى العزيز بالله و هو مبرّز يريد السفر إلى الشام، و ذكر له فى الكتاب خبر من قتل من الروم و ما نهب، و أنه ذهب فى النهب ما يبلغ تسعين ألف دينار، فطاف أصحاب الشرط فى الأسواق بسجل فيه الأمر برد ما نهب من دار ماتك و غيرها، و التوعد لمن ظهر عنده منه شيء، و حفظ أبو الحسن يانس البلد و ضبط الناس، و أمر عيسى بن نسطورس أن يمدّ للوقت عشرون مركبا، و طرح الخشب و طلب الصناع و بات فى الصناعة، و جدّ الصناع فى العمل، و أغلب أحداث الناس و عامّتهم يلعبون برءوس القتلى و يجرّون بأرجلهم فى الأسواق و الشوارع، ثم قرنوا بعضهم إلى بعض على ساحل النيل بالمقس و أحرقوا يوم السبت، و ضرب بالحرس على البلد، أن لا يتخلف أحد ممن نهب شيئا حتى يحضر ما نهبه و يردّه، و من علم عليه بشيء أو كتم شيئا أو جحده أو أخره، حلت به العقوبة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۳

الشديدة، و تتبع من نهب فقبض على عدّة قتل منهم عشرون رجلا ضربت أعناقهم، و ضرب ثلاثة و عشرون رجلا بالسياط، و طيف بهم و فى عنق كلّ واحد رأس رجل ممن قتل من الروم، و حبس عدّة أناس، و أمر بمن ضربت أعناقهم فصلبوا عند كوم دينار، و ردّ المصريون إلى المطبق، و كان ضرب من ضرب من النهابة و قتل من قتل منهم برقاع كتبت لهم، تناول كلّ واحد منهم رقعة فيها مكتوب إما بقتل أو ضرب، فأمضى فيهم بحسب ما كان فى رقاعهم من قتل أو ضرب، و اشتدّ الطلب على النهاية فكان الناس يدل بعضهم على بعض، فإذا أخذ أحد ممن اتهم بالنهب حلف بالأيمان المغلظة أنه ما بقى عنده شيء.

و جدّ عيسى بن نسطورس فى عمل الأسطول و طلب الخشب، فلم يدع عند أحد خشبا علم به إلّا أخذه منه، و تزايد إخراج النهابة لما نهبوه، فكانوا يطرحونه فى الأزقة و الشوارع خوفا من أن يعرفوا به، و حبس كثير ممن أحضر شيئا أو عرف عليه من النهب، فلما كان يوم الخميس ثامن جمادى الأولى ضربت أعناقهم كلهم على يد أبى أحمد جعفر صاحب يانس، فإنه قدم فى عسكر كثير من اليانسية حتى ضربت أعناق الجماعة، و أغلقت الأسواق يومئذ و طاف متولى الشرطة و بين يديه أرباب النفط بعددهم و النار مشتعلة، و اليانسية ركاب بالسلاح، و قد ضرب جماعة و شهرهم بين يديه و هم ينادى عليهم هذا جزاء من أثار الفتن و نهب حريم أمير المؤمنين، فمن نظر فليعتبر فما تقال لهم عثرة و لا ترحم لهم عبرة فى كلام كثير من هذا الجنس، فاشتدّ خوف الناس و عظم فزعهم، فلما كان من الغد نودى: معاشر الناس قد آمن اللّه من أخذ شيئا أو نهب شيئا على نفسه و ما له، فليردّ من بقى عنده شىء من النهب، و قد أجلناكم من اليوم إلى مثله، و فى سابع جمادى الآخرة نزل ابن نسطورس إلى الصناعة و طرح مركبين فى غاية الكبر من التى استعملها بعد حريق الأسطول، و فى غرّة شعبان نزل أيضا و طرح بين يديه أربعة مراكب كبارا من المنشأة بعد الحريق، و اتفق موت العزيز باللّه و هو سائر إلى الشام فى مدينة بلبيس.

فلما قام من بعده ابنه الحاكم بأمر اللّه فى الخلافة أمر فى خامس شوال بحط الذين صلبهم ابن نسطورس، فتسلمهم أهلهم و أعطى لأهل كلّ مصلوب عشرة دنانير برسم كفنه و دفنه، و خلع على عيسى بن نسطورس و أقرّه فى ديوان الخاص، ثم قبض عليه فى ليلة الأربعاء سابع المحرّم سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة و اعتقله إلى ليلة الاثنين سابع عشريه، فأخرجه الأستاذ برجوان و هو يومئذ يتولى تدبير الدولة إلى المقس، و ضرب عنقه، فقال و هو ماض إلى المقس: كلّ شىء قد كنت أحسبه إلّا موت العزيز باللّه، و لكن اللّه لا يظلم أحدا، و اللّه إنى لأذكر و قد ألقيت السهام للقوم المأخوذين فى نهب دار ماتك، و فى بعضها مكتوب يقتل و فى أخرى يضرب، فأخذ شاب ممن قبض عليه رقعة منها منها فجاء فيها يقتل، فأمرت به إلى القتل، فصاحت أمّه و لطمت وجهها و حلفت أنها و هو ما كانا ليلة النهب فى شىء من أعمال مصر، و إنما ورد أمصر بعد النهب بثلاثة أيام، و ناشدتنى اللّه تعالى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۴

أن أجعله من جملة من يضرب بالسوط، و أن يعفى من القتل، فلم ألتفت إليها و أمرت بضرب عنقه، فقالت أمّه: إن كنت لا بدّ قاتله فاجعله آخر من يقتل لأتمتع به ساعة، فأمرت به فجعل أوّل من ضرب عنقه، فلطخت بدمه و جمهها و سبقتنى و هى منبوشة الشعر ذاهلة العقل إلى القصر، فلما وافيت قالت لى أقتلته؟ كذلك. يقتلك اللّه، فأمرت بها فضربت حتى سقطت إلى الأرض، ثم كان من الأمر ما ترون مما أنا صائر إليه، و كان خبره عبرة لمن اعتبر، و فى نصف شعبان سنة ثمان و تسعين و ثلاثمائة ركب الحاكم بأمر اللّه إلى صناعة المقس لتطرح المراكب بين يديه.

صناعة الجزيرة: هذه الصناعة كانت بجزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة، و هى أوّل صناعة عملت بفسطاط مصر، بنيت فى سنة أربع و خمسين من الهجرة، و كان قبل بنائها هناك خمسمائة فاعل تكون مقيمة أبدا معدّة لحريق يكون فى البلاد أو هدم، ثم اعتنى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بإنشاء المراكب الحربية فى هذه الصناعة و أطافها بالجزيرة، و لم تزل هذه الصناعة إلى أيام الملك الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد، فأنشأ صناعة بساحل فسطاط مصر، و جعل موضع هذه الصناعة البستان المختار كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب،

صناعة مصر: هذه الصناعة كانت بساحل مصر القديم، يعرف موضعها بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان، امرأة الأمير أحمد بن طولون، إلى أن قدم الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد أميرا على مصر من قبل الخليفة الراضى، عوضا عن أحمد بن كيغلغ فى سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة، و قد كثرت الفتن، فلم يدخل عيسى بن أحمد السلمىّ أبو مالك كبير المغاربة فى طاعته، و مضى و معه بحكم و علىّ بن بدر و نظيف النوشرىّ و علىّ المغربىّ إلى الفيوم، فبعث إليهم الإخشيد صاعدين الكلكم بمراكبه، فقاتلوه و قتلوه و أخذوا مراكبه، و ركب فيها علىّ بن بدر و بحكم و قدموا مدينة مصر أوّل يوم من ذى القعدة، فأرسوا بجزيرة الصناعة، و ركب

الإخشيد فى جيشه و وقف حيالهم، و النيل بينهم و بينه، فكره ذلك و قال:

صناعة يحول بينها و بين صاحبها الماء ليست بشىء، فأقام بحكم و علىّ بن بدر إلى آخر النهار و مضوا إلى جهة الإسكندرية و عاد الإخشيد إلى داره فأخذ فى تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة إلى دار خديجة بنت الفتح، فى شعبان سنة خمس و عشرين و ثلاثمائة و كان إذ ذاك عندها سلّم ينزل منه إلى الماء، و عند ما ابتدأ فى إنشاء المراكب بها صاحت به امرأة فأمر بأخذها إليه، فسألته أن يبعث معها من يحمل المال، فسيّر معها طائفة، فأتت بهم إلى دار خديجة هذه و دلتهم على موضع منها فأخرجوا منه عينا و ورقا و حليا و غيره، و طلبت المرأة فلم توجد و لا عرف لها خبر، و كانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ فى الجزيرة و فى صناعتها إلى أيام الخليفة الآمر بأحكام اللّه تعالى، فلما ولى المأمون بن البطائحىّ أنكر ذلك و أمر أن يكون إنشاء الشوانى و المراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر هذه، و أضاف إليها دار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۵

الزبيب، و أنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم تقدمة الأسطول ورميه، فأقرّ إنشاء الحربيات و الشلنديات بصناعة الجزيرة، و كان لهذه الصناعة دهليز ماد بمساطب مفروشة بالحصر العبدانية بسطا و تازيرا، و فيها محل ديوان الجهاد، و كان يعرف فى الدولة الفاطمية أن لا يدخل من باب هذه الصناعة أحد راكبا إلّا الخليفة و الوزير إذا ركبا فى يوم فتح الخليج عند وفاء النيل، فإن الخليفة كان يدخل من بابها و يشقّها راكبا و الوزير معه حتى يركب النيل إلى المقياس، كما قد ذكر فى موضعه من ذا الكتاب، و لم تزل هذه الصناعة عامرة إلى ما قبل سنة سبعمائة، ثم صارت بستانا عرف ببستان ابن كيسان، ثم عرف فى زمننا ببستان الطواشىّ، و كان فيما بين هذه الصناعة و الروضة بحر، ثم تربى جرف عرف موضعه بالجرف، و أنشئ هناك بستان عرف ببستان الجرف، و صار فى جملة أوقاف خانقاه المواصلة، و قيل لهذا الجرف بين الزقاقين، و كان فيه عدّة دور و حمّام و طواحين و غير ذلك، ثم خرّب من بعد سنة ست و ثمانمائة، و خرب بستان الجرف أيضا، و إلى اليوم بستان الطواشى فيه بقية، و هو على يسرة من يريد مصر من طريق المراغة، و بظاهره حوض ماء ترده الدواب، و من وراء البستان كيمان فيها كنيسة للنصارى. قال ابن المتوّج: و كان مكان بستان ابن كيسان صناعة العمارة، و أدركت فيه بابها، و بستان الجرف المقابل لبستان ابن كيسان كان مكانه بحر النيل، و إن الجرف تربى به.

ذكر الميادين

ميدان ابن طولون: كان قد بناه و تأنق فيه تأنقا زائدا، و عمل فيه المناخ و بركة الزئبق و القبة الذهبية، و قد ذكر خبر هذا الميدان عند ذكر القطائع من هذا الكتاب.

ميدان الإخشيد: هذا الميدان أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد أمير مصر، بجوار بستانه الذى يعرف اليوم فى القاهرة بالكافورىّ، و يشبه أن يكون موضع هذا الميدان اليوم حيث المكان المعروف بالبندقانيين و حامة الوزيرية، و ما جاور ذلك. و كان لهذا البستان بابان من حديد قلعهما القائد جوهر عند ما قدم القرمطىّ إلى مصر يريد أخذها، و جعلهما على باب الخندق الذى حفره بظاهر القاهرة قريبا من مدينة عين شمس، و ذلك فى سنة ستين و ثلاثمائة و كان هذا الميدان من أعظم أماكن مصر، و كانت فيه الخيول السلطانية فى الدولة الإخشيدية.

ميدان القصر: هذا الميدان موضعه الآن فى القاهرة، يعرف بالخرنشف، عمل عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافورىّ، و لم يزل ميدانا للخلفاء الفاطميين، يدخل إليه من باب التبانين الذى موضعه الآن يعرف بقبو الخرنشف، فلما زالت الدولة الفاطمية تعطل و بقى إلى أن بنى به الغز اصطبلات بالخرنشف، ثم حكر و بنى فيه، فصار من أخطاط القاهرة.

ميدان قراقوش: هذا الميدان خارج باب الفتوح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۶

ميدان الملك العزيز: هذا الميدان كان بجوار خليج الدكر، و كان موضعه بستانا. قال القاضى الفاضل فى متجددات ثالث عشرى شهر رمضان، سنة أربع و تسعين و خمسمائة:

خرج أمر الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، بقطع النخل المثمر المستغل تحت اللؤلؤة بالبستان المعروف بالبغدادية، و هذا البستان كان من بساتين القاهرة الموصوفة، و كان منظره من المناظر المستحسنة، و كان له مستغل، و كان قد عنى الأوّلون به لمجاورته اللؤلؤة، و أطلال جميع مناظرها عليه، و جعل هذا البستان ميدانا و حرث أرضه و قطع ما فيه من الأصول. انتهى.

ثم حكر الناس أرض هذا البستان و بنوا عليها، و هو الآن داثر فيه كيمان و أتربة انتهى.

الميدان الصالحىّ: هذا الميدان كان بأراضى اللوق من برّ الخليج الغربىّ، و موضعه الآن من جامع المطباخ بباب اللوق إلى قنطرة قدادار التى على الخليج الناصرىّ، و من جملته الطريق المملوكة الآن من باب اللوق إلى القنطرة المذكورة، و كان أوّلا بستانا يعرف ببستان الشريف ابن ثعلب، فاشتراه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، بثلاثة آلاف دينار مصرية، من الأمير حصن الدين ثعلب بن الأمير فخر الدين إسماعيل بن ثعلب الجعفرىّ، فى شهر رجب سنة ثلاث و أربعين و ستمائة، و جعله ميدانا و أنشأ فيه مناظر جليلة تشرف على النيل الأعظم، و صار يركب إليه و يلعب فيه بالكرة، و كان عمل هذا الميدان سببا لبناء القنطرة التى يقال لها اليوم قنطرة الخرق على الخليج الكبير لجوازه عليها، و كان قبل بنائها موضعها موردة سقائى القاهرة، و ما برح هذا الميدان تلعب فيه الملوك بالكرة من بعد الملك الصالح إلى أن انحسر ماء النيل من تجاهه، و بعد عنه، فأنشأ الملك الظاهر ميدانا على النيل.

و فى سلطنة الملك المعز عز الدين أيبك التركمانىّ الصالحىّ النجمىّ، قال له منجمه أنّ امرأة تكون سببا فى قتله، فأمر أن تخرب الدور و الحوانيت التى من قلعة الجبل بالتبانة إلى باب زويلة، و إلى باب الخرق و إلى باب اللوق إلى الميدان الصالحىّ، و أمر أن لا يترك باب مفتوح بالأماكن التى يمرّ عليها يوم ركوبه إلى الميدان، و لا تفتح أيضا طاقة، و ما زال باب هذا الميدان باقيا و عليه طوارق مدهونة إلى ما بعد سنة أربعين و سبعمائة، فأدخله صلاح الدين بن المغربىّ فى قيسارية الغزل التى أنشأ هناك، و لأجل هذا الباب قيل لذلك الخط باب اللوق، و لما خرب هذا الميدان حكر و بنى موضعه ما هنالك من المساكن، و من جملته حكر مرادى، و هو على يمنة من سلك من جامع الطباخ إلى قنطرة قدادار، و هو فى أوقاف خانقاه قوصون و جامع قوصون بالقرافة، و هذا الحكر اليوم قد صار كيمانا بعد كثرة العمارة به.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۷

الميدان الظاهرىّ: هذا الميدان كان بطرف أراضى اللوق يشرف على النيل الأعظم، و موضعه الآن تجاه قنطرة قدادار من جهة باب اللوق، أنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ الصالحىّ، لما انحسر ماء النيل و بعد عن ميدان أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب، و ما زال يلعب فيه بالكرة هو و من بعده من ملوك مصر، إلى أن كانت سنة أربع عشرة و سبعمائة، فنزل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون إليه و خرّب مناظره و عمله بستانا من أجل بعد البحر عنه، و أرسل إلى دمشق فحمل إليه منها سائر أصناف الشجر، و أحضر معها خولة الشام و المطعمين، فغرسوها فيه و طعموها، و ما زال بستانا عظيما، و منه تعلم الناس بمصر تطعيم الأشجار فى بساتين جزيرة الفيل، و جعل السلطان فواكه هذا البستان مع فواكه البستان الذى أنشأه بسرياقوس تحمل بأسرها إلى الشراب خاناه السلطانية بقلعة الجبل، و لا يباع منا شىء البتة، و تصرف كلفهما من الأموال الديوانية، فجادت فواكه هذين البستانين و كثرت حتى حاكت بحسنها فواكه الشام لشدجة العناية و الخدمة بهما، ثم إنّ السلطان لما اختص بالأمير قوصون أنعم بهذا البستان عليه، فعمر تجاهه الزريبة التى عرفت بزريبة قوصون على النيل، و بنى الناس الدور الكثيرة هناك سميا لما حفر الخليج الناصرى، فإن العمارة عظمت فيما بين هذا البستان و البحر و فيما بينه و بين القاهرة و مصر، ثم إنّ هذا البستان خرب لتلاشى أحواله بعد قوصون، و حكرت

أرضه و بنى الناس فوقها الدور التى على يسرة من صعد القنطرة من جهة باب اللوق يريد الزريبة، ثم لما خرب خط الزريبة خرب ما عمر بأرض هذا البستان من الدور، منذ سنة ست و ثمانمائة و اللّه تعالى أعلم.

ميدان بركة الفيل: هذا الميدان كان مشرفا على بركة الفيل قبالة الكبش، و كان أوّلا اصطبل الجوق برسم خيول المماليك السلطانية، إلى أن جلس الأمير زين الدين كتبغا على تخت الملك و تلقب بالملك العادل، بعد خلعه الملك الناصر محمد بن قلاون فى المحرّم سنة أربع و تسعين و ستمائة، فلما دخلت سنة خمس و تسعين كان الناس فى أشدّ ما يكون من غلاء الأسعار و كثرة الموتان، و السلطان خائف على نفسه و متحرّز من وقوع فتنة، و هو مع ذلك ينزل من قلعة الجبل إلى الميدان الظاهرىّ بطرف اللوق، فحسن بخاطره أن يعمل إصطبل الجوق المذكور ميدانا عوضا عن ميدان اللوق، و ذكر ذلك للأمراء فأعجبهم ذلك، فأمر بإخراج الخيل منه و شرعه فى عمله ميدانا، و بادر الناس من حينئذ إلى بناء الدور بجانبه، و كان أوّل من أنشأ هناك الأمير علم الدين سنجر الخازن فى الموضع الذى عرف اليوم بحكر الخازن، و تلاه الناس فى العمارة و الأمراء، و صار السلطان ينزل إلى هذا الميدان من القلعة فلا يجد فى طريقه أحدا من الناس سوى أصحاب الدكاكين من الباعة لقلة الناس و شغلهم بما هم فيه من الغلاء و الوباء، و لقد رآه شخص من الناس و قد نزل إلى الميدان و الطرقات خالية فأنشد ما قيل فى الطبيب ابن زهر:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۸ قل للغلا أنت و ابن زهربلغتما الحدّ و النهايه

ترفقا بالورى قليلافى واحد منكما كفايه

و ما برح هذا الميدان باقيا إلى أن عمّر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل، فأدخل فيه جميع أرض هذا الميدان، و جعله إصطبل الأمير بكتمر الساقى، فى سنة سبع عشرة و سبعمائة، و هو باق إلى وقتنا هذا.

ميدان المهارى: هذا الميدان بالقرب من قناطر السباع فى برّ الخليج الغربىّ، كان من جملة جنان الزهرىّ، أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة عشرين و سبعمائة، و من وراء هذا الميدان بركة ماء كان موضعها كرم القاضى الفاضل رحمة اللّه عليه.

قال جامع السيرة الناصرية: و كان الملك الناصر محمد بن قلاون له شغف عظيم بالخيل، فعمل ديوانا ينزل فيه كلّ فرس بشأنه و اسم صاحبه و تاريخ الوقت الذى حضر فيه، فإذا حملت فرس من خيول السلطان أعلم به و ترقب الوقت الذى تلد فيه، و استكثر من الخيل حتى احتاج إلى مكان برسم نتاجها، فركب من قلعة الجبل فى سنة عشرين و سبعمائة، و عين موضعا يعمله ميدانا برسم المهارى، فوقع اختياره على أرض بالقرب من قناطر السباع، و ما زال واقفا بفرسه حتى حدّد الموضع و شرع فى نقل الطين البليز إليه، و زرعه من النخل و غيره، و ركب على الآبار التى فيه السواقى، فلم يمض سوى أيام حتى ركب إليه و لعب فيه بالكرة مع الخاصكية، و رتب فيه عدّة حجور للنتاج و أعدّلها سوّاسا و أميرا خورية و سائر ما يحتاج إليه، و بنى فيه أماكن و لازم الدخول إليه فى ممرّه إلى الميدان الذى أنشأه على النيل بموردة الملح.

فلما كان بعد أيام و أشهر حسن فى نفسه أن يبنى تجاه هذا الميدان على النيل الأعظم بجوار جامع الطيبرسى زريبة، و يبرز بالمناظر التى ينشئها فى الميدان إلى قرب البحر، فنزل بنفسه و تحدّث فى ذلك، فكثّر المهندسون المصروف فى عينه و صعّبوا الأمر من جهة قلة الطين هناك، و كان قد أدركه السفر للصعيد، فترك ذلك و ما برحت الخيول فى هذا الميدان إلى أن مات الملك الظاهر برقوق فى سنة إحدى و ثمانمائة، و استمرّ بعده فى أيام ابنه الملك الناصر فرج، إلّا أنه تلاشى أمره عما كان قبل ذلك، ثم انقطعت منه الخيول و صار براحا خاليا.

ميدان سرياقوس: كان هذا الميدان شرقىّ ناحية سرياقوس بالقرب من الخانقاه، أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى ذى الحجة سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، و بنى فيه قصورا جليلة و عدّة منازل للأمراء، و غرس فيه بستانا كبيرا نقل إليه من دمشق سائر الأشجار التى تحمل الفواكه، و أحضر معها خولة بلاد الشام حتى غرسوها و طعموا الأشجار، فأفلح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۹

فيه الكرم و السفرجل و سائر الفواكه، فلما كمل فى سنة خمس و عشرين خرج و معه الأمراء و الأعيان و نزل القصور التى هناك، و نزل الأمراء و الأعيان على منازلهم فى الأماكن التى بنيت لهم، و استمرّ يتوجه إليه فى كلّ سنة و يقيم به الأيام و يلعب فيه بالكرة إلى أن مات، فعمل ذلك أولاده الذين ملكوا من بعده.

فكان السلطان يخرج فى كل سنة من قلعة الجبل بعد ما تنقضى أيام الركوب إلى الميدان الكبير الناصرىّ و على النيل، و معه جميع أهل الدولة من الأمراء و الكتاب و قاضى العسكر و سائر أرباب الرتب، و يسير إلى السرحة بناحية سرياقوس و ينزل بالقصور و يركب إلى الميدان هناك للعب الكرة، و يخلع الأمراء و سائر أهل الدولة، و يقيم فى هذه السرحة أياما، فيمرّ للناس فى إقامتهم بهذه السرحة أوقات لا يمكن وصف ما فيها من المسرّات، و لا حصر ما ينفق فيها من المآكل و الهبات من الأموال، و لم يزل هذا الرسم مستمرّ إلى سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و هى آخر سرحة سار إليها السلطان بسرياقوس، و من هذه السنة انقطع السلطان الملك الظاهر برقوق عن الحركة لسرياقوس، فإنه اشتغل فى سنة ثمانمائة بتحرّك المماليك عليه من وقت قيام الأمير على باى إلى أن مات.

و قام من بعده ابنه الملك الناصر فرج، فما صفا الوقت فى أيامه من كثرة الفتن و تواتر الغلوات و المحن، إلى أن نسى ذلك و أهمل أمر الميدان و القصور و خرب، و فيه إلى اليوم بقية قائمة. ثم بيعت هذه القصور فى صفر سنة خمس و عشرين و ثمانمائة بمائة دينار، لينقض خشبها و شبابيكها و غيرها، فنقضت كلها، و كان من عادة السلطان إذا خرج إلى الصيد لسرياقوس أو شبرا أو البحيرة أنه ينعم على أكابر أمراء الدولة قدرا و سنّا، كلّ واحد بألف مثقال ذهبا، و برذون خاص مسرج و لمجم، و كنبوش مذهب، و كان من عادته إذا مرّ فى متصيدانه بإقطاع أمير كبير قدّم له من الغنم و الإوز و الدجاج و قصب السكر و الشعير ما تسمو همة مثله إليه، فيقبله السلطان منه و ينعم بخلعة كاملة، و ربما أمر لبعضهم بمبلغ مال.

و كانت عادة الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث يركب فى المدينة و خلفه جنيب، و أما أكابرهم فيركب بجنيبين، هذا فى المدينة و الحاضرة، و هكذا يكون إذا خرج إلى سرياقوس و غيرها من نواحى الصعيد، و يكون فى الخروج إلى سرياقوس و غيرها من الأسفار لكلّ أمير طلب يشتمل على أكثر مماليكه، و قدّامهم خزانة محمولة على جمل واحد يجرّه راكب آخر على جمل، و المال على جملين، و ربما زاد بعضهم على ذلك. و أمام الخزانة عدّة جنائب تجرّ على أيدى مماليك ركّاب خيل و هجن، و ركّاب من العرب على هجن، و أمامها الهجن بأكوارها مجنوبة، و للطبلخانات قطار واحد، و هو أربعة، و مركوب الهجان و المال قطاران، و ربما زاد بعضهم، و عدد الجنائب فى كثرتها و قلتها إلى رأى الأمير وسعة نفسه، و الجنائب منها ما هو مسرح ملجم، و منها ما هو بعباءة لا غير، و كان يضاهى بعضهم بعضا فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۰

الملابس الفاخرة و السروج المحلاة و العدد الملحية.

و كان من رسوم السلطان فى خروجه إلى سرياقوس و غيرها من الأسفار أن لا يتكلف إظهار كلّ شعار السلطنة، بل يكون الشعار فى موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدّم عليهم و استاداره، و أمامهم الخزائن و الجنائب و الهجن، و أما هو نفسه فإنه يركب و معه عدّة كبيرة من الأمراء الكبار و الصغار من الغرباء و الخواص، و جملة من خواص مماليكه، و لا يركب فى السير برقبة و لا بعصائب، بل يتبعه جنائب خلفه، و يقصد فى الغالب تأخير النزول إلى الليل، فإذا جاء الليل حملت قدّامة فوانيس كثيرة و مشاعل، فإذا قارب مخيمه تلقى بشموع موكبية فى سمعدانات كفت، و صاحت الجاويشية بين يديه، و نزل الناس كافة إلّا حملة السلاح، فإنهم وراءه، و الوشاقية أيضا وراءه، و تمشى الطبر دارية حوله حتى إذا وصل القصور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم نزل عن فرسه و دخل إلى الشقة، و هى خيمة مستديرة متسعة، ثم منها إلى شقة مختصرة، ثم منها إلى اللاجوق، و بدائر كلّ خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه، و فى صدر اللاجوق قصر صغير من خشب برسم المبيت فيه، و ينصب بإزاء الشقة الحمّام بقدور الرصاص، و الحوض على هيئة الحمام المبنىّ فى المدن، إلّا أنه مختصر. فإذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة، و طاف بالجميع الحرس، و

تدور الزفة حول الدخليز فى كلّ ليلة، و تدور بسرياقوس حول القصر فى كلّ ليلة مرّتين، الأولى منذ يأوى إلى النوم، و الثانية عند قعوده من النوم، و كلّ زفة يدور بها أمير جاندار، و هو من أكابر الأمراء، و حوله الفوانيس و المشاعل و الطبول و البياتة، و ينام على باب الدهليز النقباء و أرباب النوب من الخدم، و يصحب السلطان فى السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معهم مارستان لكثرة من معه من الأطباء و أرباب الكحل و الجراح و الأشربة و العقاقير، و ما يجرى مجرى ذلك، و كل من عاده طبيب و وصف له ما يناسبه، يصرف له من الشراب خاناه أو الدواء خاناه المحمولين فى الصحبة.

و اللّه أعلم.

الميدان الناصرىّ: هذا الميدان من جملة أراضى بستان الخشاب، فيما بين مدينة مصر و القاهرة، و كان موضعه قديما غامرا بماء النيل، ثم عرف ببستان الخشاب، فلما كانت سنة أربع عشرة و سبعمائة هدم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون الميدان الظاهرىّ، و غرس فيه أشجارا كما تقدّم، و أنشأ هذا الميدان من أراضى بستان الخشاب، فإنه كان حينئذ مطلا على النيل، و تجهز فى سنة ثمان عشرة و سبعمائة للركوب إليه، و فرّق الخيول على جميع الأمراء و استجدّ ركوب الأوجاقية بكوا فى الزركس على صفة الطاسات فوق رؤوسهم، و سمّاهم الجفتاوات، فيركب منهم اثنان بثوبى حرير أطلس أصفر، و على رأس كلّ منهما كوفية الذهب، و تحت كل واحد فرس أبيض بحلية ذهب، و يسيران معا بين يدى السلطان فى ركوبه من قلعة الجبل، إلى الميدان، و فى عودته منه إلى القلعة، و كان السلطان إذا ركب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۱

إلى هذا الميدان للعب الأكرة يفرّق حوائص ذهب على الأمراء المقدّمين، و ركوبه إلى هذا الميدان دائما يوم السبت فى قوّة الحرّ بعد وفاء النيل مدّة شهرين من السنة، فيفرّق فى كلّ ميدان على اثنين بالنوبة، فمنهم من تجىء نوبته بعد ثلاث سنين أو أربع سنين، و كان من مصطلح الملوك أن تكون تفرقة السلطان الخيول على الأمراء فى وقتين، أحدهما عند ما يخرج إلى مرابط خيله فى الربيع عند اكتمال تربيعها، و فى هذا الوقت يعطى أمراء المئين الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة، و يعطى أمراء الطبلخانات خيلا عريا. و الوقت الثانى يعطى الجميع خيولا مسرجة ملجمة بلا كنابيش، بفضة خفيفة، و ليس لأمراء العشروات خظ فى ذلك إلّا ما يتفقدهم به على سبيل الأنعام، و لخاصكية السلطان المقرّبين من أمراء المئين و أمراء الطبلخانات زيادة كثيرة من ذلك، بحيث يصل إلى بعضهم المائة فرس فى السنة.

و كان من شعار السلطان أن يركب إلى اليميدان و فى عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب، فتستر من تحت أذنى الفرس إلى حيث السرج، و يكون قدّامه اثنان من الأوشاقية راكبين على حصانين اشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به، كأنهما معدّان لأن يركبهما، و على الأوشاقيين المذكورين قبا آن اصفران من حرير بطراز مزركش بالذهب، و على رأسهما قبعان مزركشان، و غاشية السرج محمولة أمام السلطان، و هى أديم مزركش مذهب يحملها بعض الركابدارية قدّامة و هو ماش فى وسط الموكب، و يكون قدّامة فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها إلا طراب، بل ما يقرع بالمهابة سامعة، و من خلف السلطان الجنائب، و على رأسه العصائب السلطانية، و هى صفر مطرزة بذهب بألقابه و اسمه، و هذا لا يختص بالركوب إلى الميدان، بل يعمل هذا الشعار أيضا إذا ركب يوم العيد أو دخل إلى القاهرة أو إلى مدينة من مدن الشام، و يزداد هذا الشعار فى يوم العيدين و دخول المدينة برفع المظلة على رأسه، و يقال لها الحبر، و هو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة و طائر من فضة مذهبة، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر، و هو راكب فرسه إلى جانب السلطان، و يكون أرباب الوظائف و السلاحدارية كلهم خلف السلطان، و يكون حوله و أمامه الطبردارية، و هم طائفة من الاكراد ذوى الإقطاعات و الأمرة، و يكونون مشاة و بأيديهم الأطباء المشهورة.

ذكر قلعة الجبل

اشارة

قال ابن سيده فى كتاب المحكم: القلعة بتحريك القاف و اللام و العين و فتحها، الحصن الممتنع فى جبل، و جمعها قلاع و قلع، و أقلعوا بهذه البلاد بنوها فجعلوها كالقلعة.

و قيل: القلعة بسكون اللام، حصن مشرف، و جمعه قلوع، و هذه القلعة على قطعة من الجبل و هى تتصل بجبل المقطم، و تشرف على القاهرة و مصر و النيل و القرافة، فتصير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۲

القاهرة فى الجهة البحرية منها، و مدينة مصر و القرافة الكبرى و بركة الحبش فى الجهة القبلية الغربية، و النيل الأعظم فى غربيها، و جبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية. و كان موضعها أوّلا يعرف بقبة الهواء، ثم صار من تحته ميدان أحمد بن طولون، ثم صار موضعها مقبرة فيها عدّة مساجد، إلى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، أوّل الملوك بديار مصر، على يدّ الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدىّ فى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و صارت من بعده دار الملك بديار مصر إلى يومنا هذا، و هى ثامن موضع صار دار المملكة بديار مصر. و ذلك أن دار الملك كانت أوّلا قبل الطوفان مدينة أمسوس، ثم صار تخت الملك بعبد الطوفان بمدينة منف إلى أن خرّبها بخت نصر، ثم لما ملك الإسكندر بن فيليبس سار إلى مصر و جدّد بناء الإسكندرية فصارت دار المملكة من حينئذ بعد مدينة منف الإسكندرية، إلى أن جاء اللّه تعالى بالإسلام، و قدم عمرو بن العاص رضى اللّه عنه بجيوش المسلمين إلى مصر و فتح الحصن و اختط مدينة فسطاط مصر، فصارت دار الإمارة من حينئذ بالفسطاط إلى أن زالت دولة بنى أمية، و قدمت عساكر بنى العباس إلى مصر و بنوا فى ظاهر الفسطاط العسكر، فصار الأمراء من حينئذ تارة ينزلون فى العسكر و تارة فى الفسطاط، إلى أن بنى أحمد بن طولون القصر و الميدان، و أنشأ القطائع بجانب العسكر، فصارت القطائع منازل الطولونية إلى أن زالت دولتهم، فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون بالعسكر إلى أن قدم جوهر القائد من بلاذ المغرب بعساكر المعز لدين اللّه و بنى القاهرة المعزية، فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة و مقرّ الإمامة و منزل الملك، إلى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فلما استبدّ بعدهم بأمر سلطنة مصر بنى قلعة الجبل هذه و مات، فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و اقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده إلى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية و ملكوا مصر من بعدهم، فاستقرّوا بقلعة الجبل إلى يومنا هذا، و سأجمع إن شاء اللّه تعالى من أخبار قلعة الجبل هذه و ذكر من ملكها ما فيه كفاية. و اللّه أعلم.

اعلم أن أوّل ما عرف من خبر موضع قلعة الجبل، أنه كان فيه قبة تعرف بقبة الهواء، قال أبو عمرو الكندىّ فى كتاب أمراء مصر: و ابتنى حاتم بن هرثمة القبة التى تعرف بقبة الهواء، و هو أوّل من ابتناها، و ولى مصر إلى أن صرف عنها فى جمادى الآخرة سنة خمس و تسعين و مائة. قال: ثم مات عيسى بن منصور أمير مصر فى قبة الهواء بعد عزله، لاحدى عشرة خلت من شهر ربيع الآخر، سنة ثلاث و ثلاثين و مائتين، و لما قدم أمير المؤمنين المأمون إلى مصر فى سنة سبع عشرة و مائتين، جلس بقبة الهواء هذه، و كان بحضرته سعيد بن عفير، فقال المأمون: لعن اللّه فرعون حيث يقول: أليس لى ملك مصر، فلو رأى العراق و خصبها. فقال سعيد بن عفير: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا، فإن اللّه عز و جل قال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۳

وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف/ ۱۳۷] فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمّره اللّه هذا بقيته ثم قال سعيد: لقد بلغنا أن أرضا لم تكن أعظم من مصر، و جميع أهل الأرض يحتاجون إليها، و كانت الأنهار بقناطر و جسور بتقدير، حتى أنّ الماء يجرى تحت منازلهم و أفنيتهم، يرسلونه متى شاؤوا و يحبسونه متى شاؤوا، و كانت البساتين متصلة لا تنقطع، و لقد كانت

الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر، و كانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر، و فى قبة الهواء حبس المأمون الحارث بن مسكين. قال الكندىّ فى كتاب الموالى: قدم المأمون مصر و كان بها رجل يقال له الحضرمىّ، يتظلم من ابن أسباط و ابن تميم، فجلس الفضل بن مروان فى المسجد الجامع، و حضر مجلسه يحيى بن أكثم و ابن أبى داود، و حضر إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد، و كان على مظالم مصر، و حضر جماعة من فقهاء مصر و أصحاب الحديث، و أحضر الحارث بن مسكين ليولى قضاء مصر، فدعاه الفضل بن مروان، فبينما هو يكلمه إذ قال الحضرمىّ للفضل: سل أصلحك اللّه الحارث عن ابن أسباط و ابن تميم. قال: ليس لهذا أحضرناه. قال: أصلحك اللّه سله، فقال الفضل للحارث: ما تقول فى هذين الرجلين فقال: ظالمين غاشمين. قال: ليس لهذا أحضرناك، فاضطرب المسجد و كان الناس متوافرين، فقام الفضل و صار إلى المأمون بالخبر و قال:

خفت على نفسى من ثوران الناس مع الحارث، فأرسل المأمون إلى الحارث فدعاه، فابتدأه بالمسألة فقال: ما تقول فى هذين الرجلين؟ فقال: ظالمين غاشمين. قال: هل ظلماك بشىء؟ قال: لا. قال: فعاملتهما؟ قال: لا. قال: فكيف شهدت عليهما؟ قال: كما شهدت أنك أمير المؤمنين و لم أرك قط إلّا الساعة، و كما شهدت أنك غزوت و لم أحضر غزوك. قال: اخرج من هذه البلاد فليست لك ببلاد، و بع قليلك و كثيرك، فإنك لا تعاينها أبدا.

و حبسه فى رأس الجبل فى قبة ابن هرثمة، ثم انحدر المأمون إلى البشرود و أحضره معه، فلما فتح البشرود أحضر الحارث، فلما دخل عليه سأله عن المسألة التى سأله عنها بمصر، فردّ عليه الجواب بعينه، فقال: فأىّ شىء تقول فى خروجنا هذا؟ قال: أخبرنى عبد الرحمن بن القاسم عن مالك، أنّ الرشيد كتب إليه فى أهل دهلك يسأله عن قتالهم فقال: إن كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان فلا يحلّ قتالهم، و إن كانوا إنما شقوا العصا فقتالهم حلال. فقال المأمون: أنت تيس و مالك أتيس منك، ارجل عن مصر. قال: يا أمير المؤمنين إلى الثغور؟ قال الحق بمدينة السلام. فقال له أبو صالح الحرّانىّ: يا أمير المؤمنين تغفر زلته؟ قال: يا شيخ تشفعت فارتفع.

و لما بنى أحمد بن طولون القصر و الميدان تحت قبة الهواء هذه، كان كثيرا ما يقيم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۴

فيها، فإنها كانت تشرف على قصره، و اعتنى بها الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، و جعل لها الستور الجليلة و الفرش العظيمة، فى كلّ فصل ما يناسبه. فلما زالت دولة بنى طولون و خرب القصر و الميدان، كانت قبة الهواء مما خرب، كما تقدّم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب، ثم عمل موضع قبة الهواء مقبرة و بنى فيها عدّة مساجد.

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ النسابة فى كتاب النقطة فى الخطط: و المساجد المبنية على الجبل، المتصلة باليحاميم المطلة على القاهرة المعزية التى فيها المسجد المعروف بسعد الدولة، و الترب التى هناك، تحتوى القلعة التى بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجميع، و هى التى نعتها بالقاهرة، و بنيت هذه القلعة فى مدّة يسيرة، و هذه المساجد هى مسجد سعد الدولة، و مسجد معز الدولة. والى مصر، و مسجد مقدّم بن عليان من بنى بويه الديلمىّ، و مسجد العدّة بناه أحد الأستاذين الكبار المستنصرية، و هو عدّة الدولة، و كان بعد مسجد معز الدولة، و مسجد عبد الجبار بن عبد الرحمن بن شبل بن علىّ رئيس الرؤساء. و كافى الكفاة أبى يعقوب بن يوسف، الوزير بهمدان، ابن علىّ. بناه و انتقل بالإرث إلى ابن عمه القاضى الفقيه أبى الحجاج يوسف بن عبد الجبار بن شبل، و كان من أعيان السادة، و مسجد قسطة، و كان غلاما أرمنيا من غلمان المظفر بن أمير الجيوش، مات مسموما من أكلة هريسة.

و قال الحافظ أبو الطاهر السلفىّ: سمعت أبا منصور قسطة الأرمنىّ والى الاسكندرية يقول: كان عبد الرحمن خطيب ثغر عسقلان يخطب بظاهر البلد فى عيد من الأعياد، فقيل له: قد قرب منا العدو. فنزل عن المنبر و قطع الخطبة، فبلغه أن قوما من العسكرية عابوا عليه فعله، فخطب فى الجمعة الأخرى داخل البلد فى الجامع خطبة بليغة قال فيها: قد زعم قوم أن الخطيب فزع، و عن المنبر نزع، و ليس ذلك عارا على الخطيب، فإنما ترسه الطيلسان و حسامه اللسان، و فرسه خشب لا تجرى من الفرسان، و إنما العار على من تقلد

الحسام و سنّ السنان، و ركب الجياد الحسان، و عند اللقاء يصيح إلى عسقلان.

و كان قسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين إلى العدل، المثابرين على مطالعة الكتب، و أكثر ميله إلى التواريخ و سير المتقدّمين، و كان مسجده بعد مسجد شقيق الملك، و مسجد الديلميّ، و كان على قرنة الجبل المقابل للقلعة من شرقيها إلى البحريّ، و قبره قدّام الباب.

و تربة و لخشى الأمير والد السلطان رضوان بن ولخشى، المنعوت بالأفضل، كان من الأعيان الفضاء الأدباء، ضرب على طريقة ابن البوّاب، و أبى عليّ بن مقلة، و كتب عدّة ختمات، و كان كريما شجاعا يلقّب فحل الأمراء، و كانت هذه التربة آخر الصف، و مسجد شقيق الملك الأستاذ خسروان صاحب بيت المال أضيف إلى سور القلعة البحرى إلى المغرب قليلا، و مسجد أمين الملك صارم الدولة مفلح صاحب الملجس الحافظيّ كان بعد مسجد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۵

القاضى أبى الحجاج، المعروف بمسجد عبد الجبار، و هو فى وسط القلعة، بعده تربة لاون أخى يانس، و مسجد القاضى النبيه، كان لمام الدولة غنّام، و مات رسولا ببلاد الشام، و شراه منه و أنشأه القاضى النبيه، و قبره به، و كان القاضى من الأعيان.

و قال ابن عبد الظاهر: أخبرنى والدى قال: كنا نطلع إليها، يعنى إلى المساجد التى كانت موضع قلعة الجبل، قبل أن تسكن فى ليالى الجمع، نبيت متفرّجين كما نبيت فى جواسق الجبل و القرافة.

قال مؤلفه رحمه اللّه: و بالقلعة الآن مسجد الردينيّ، و هو أبو الحسن على بن مرزوق بن عبد اللّه الردينيّ الفقيه المحدّث المفسر، كان معاصرا لأبى عمر و عثمان بن مرزوق الحوفيّ، و كان ينكر على أصحابه، و كانت كلمته مقبولة عند الملوك، و كان يأوى بمسجد سعد الدولة، ثم تحوّل منه إلى مسجد عرف بالردينيّ، و هو الموجود الآن بداخل قلعة الجبل، و عليه وقف بالإسكندرية، و فى هذا المسجد قبر يزعمون أنه قبره، و فى كتب المزارات بالقرافة، أنّه توفى و دفن بها فى سنة أربعين و خمسمائة، بخط سارية شرقيّ تربة الكيروانيّ، و اشتهر قبره بإجابة الدعاء عنده.

ذكر بناء قلعة الجبل

و كان سبب بنائها أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، لما أزال الدولة الفاطمية من مصر و استبدّ بالأمر، لم يتحوّل من دار الوزارة بالقاهرة، و لم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر، و من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سلطان الشام، رحمة اللّه عليه، فامتنع أوّلا من نور الدين بأن سير أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب فى سنة تسع و ستين و خمسمائة، إلى بلاد اليمن لتصير له مملكة تعصمه من نور الدين، فاستولى شمس الدولة على ممالك اليمن، و كفى اللّه تعالى صلاح الدين أمر نور الدين و مات فى تلك السنة، فحلاله الجوّ و أمن جانبه، و أحبّ أن يجعل لنفسه معقلا بمصر، فإنه كان قد قسم القصرين بين أمرائه و أنزلهم فيهما، فيقال أنّ السبب الذى دعاه إلى اختيار مكان قلعة الجبل، أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم و ليلة، فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين و ليلتين، فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك، و أقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدىّ، فشرع فى بنائها و بنى سور القاهرة الذى زاده فى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و هدم ما هنالك من المساجد و أزال القبور و هدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر، و كانت كثيرة العدد، و نقل ما وجد بها من الحجارة و بنى به السور و القلعة و قناطر الجيزة، و قصد أن يجعل السور يحيط بالقاهرة و القلعة و مصر، فمات السلطان قبل أن يتم الغرض من السور و القلعة، فأهمل العمل إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۶

و استنابته فى مملكة مصر و جعله ولىّ عهد، فأتم بناء القلعة و أنشأ بها الآدر السلطانية، و ذلك فى سنة أربع و ستمائة، و ما برح

يسكنها حتى مات، فاستمرّت من بعده دار مملكة مصر إلى يومنا هذا، و قد كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يقيم بها أياما، و سكنها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين فى أيام أبيه مدّة، ثم انتقل منها إلى دار الوزارة.

قال ابن عبد الظاهر: و سمعت حكاية تحكى عن صلاح الدين أنه طلعها و معه أخوه الملك العادل، فلما رآها التفت إلى أخيه و قال: يا سيف الدين، قد بنيت هذه القلعة لأولادك. فقال: يا خوند منّ اللّه عليك أنت و أولادك و أولاد أولادك بالدنيا. فقال: ما فهمت ما قلت لك، أنا نجيب ما يأتى لى أولاد نجباء، و أنت غير نجيب فأولادك يكونون نجباء، فسكت.

قال مؤلفه رحمه اللّه: و هذا الذى ذكره صلاح الدين يوسف من انتقال الملك عنه إلى أخيه و أولاد أخيه ليس هو خاصا بدولته، بل اعتبر ذلك فى الدول تجد الأمر ينتقل عن أولاد القائم بالدولة إلى بعض أقاربه، هذا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم هو القائم بالملة الإسلامية، و لما توفى صلى اللّه عليه و سلم انتقل أمر القيام بالملة الإسلامية بعده إلى أبى بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، و اسمه عبد اللّه بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرّة بن كعب بن لؤىّ، فهو رضى اللّه عنه يجتمع من النبى صلى اللّه عليه و سلم، فى مرّة بن كعب، ثم انتقل الأمر بعد الخلفاء الراشدين رضى اللّه عنهم إلى بنى أمية كان القائم بالدولة الأموية معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية، فلم تفلح أولاده و صارت الخلافة إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية، فتوارثها بنو مروان حتى انقضت دولتهم بقيام بنى العباس رضى اللّه عنه، فكان أول من قام من بنى العباس عبد اللّه بن محمد السفاح، و لما مات انتقلت الخلافة من بعده إلى أخيه أبى جعفر عبد اللّه بن محمد المنصور، و استقرّت فى بنيه إلى أن انقرضت الدولة العباسية من بغداد.

و كذا وقع فى دول العجم أيضا، فأول ملوك بنى بوبه، عماد الدين أبو علىّ الحسن بن بويه، و القائم من بعده فى السلطنة أخوه حسن بن بويه، و أوّل ملوك بنى سلجوق، طغريل، و القائم من بعده فى السلطنة ابن أخيه ألب‌أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق، و أوّل قائم بدولة بنى أيوب، السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و لما مات اختلف أولاده فانتقل ملك مصر و الشام و ديار بكر و الحجاز و اليمن إلى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و استمرّ فيهم إلى أن انقرضت الدولة الأيوبية، فقام بمملكة مصر المماليك الأتراك، و أوّل من قام منهم بمصر الملك المعز أيبك، فلما مات لم يفلح ابنه علىّ فصارت المملكة إلى قطز، و أوّل من قام بالدولة الجركسية الملك الظاهر برقوق، و انتقلت المملكة من بعد ابنه الملك الناصر فرج إلى الملك المؤيد شيخ المحمودىّ الظاهرىّ، و قد جمعت فى هذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۷

فصلا كبيرا، و قلما تجد الأمر بخلاف ما قلته لك و للّه عاقبة الأمور.

قال ابن عبد الظاهر: و الملك الكامل هو الذى اهتم بعمارتها و عمارة أبراجها، البرج الأحمر و غيره، فكملت فى سنة أربع و ستمائة، و تحوّل إليها من دار الوزارة و نقل إليها أولاد العاضد و أقاربه و سجنهم فى بيت فيها، فلم يزالوا فيه إلى أن حوّلوا منه فى سنة إحدى و سبعين و ستمائة. قال: و فى آخر سنة اثنتين و ثمانين و سنمائة شرع السلطان الملك المنصور قلاون فى عمارة برج عظيم على جانب باب السرّ الكبير، و بنى علوه مشترفات و قاعات مرخمة لم ير مثلها، و سكنها فى صفر سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، و يقال أن قراقوش كان يستعمل فى بناء القلعة و السور خمسين ألف أسير.

البئر التى بالقلعة: هذه البئر من العجائب، استنبطها قراقوش. قال ابن عبد الظاهر:

و هذه البئر من عجائب الأبنية، تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها، و تدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها، و لها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز، و جميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء، و قيل أن أرضها مسامّة أرض بركة الفيل و ماؤها عذب. سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء ماؤها حلوا، فأراد قراقوش أو نوّا به الزيادة فى مائها، فوسع نقر الجبل فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها. و ذكر القاضى ناصر الدين شافع بن علىّ فى كتاب عجائب البنيان، أنه ينزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلاثمائة درجة.

ذكر صفة القلعة

و صفة قلعة الجبل أنها بناء على نشزعال، يدور بها سور من حجر بأبراج و بدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق، ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج الغلال، و يدخل إلى القلعة من بابين، أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة، و يقال له الباب المدرّج، و بداخله يجلس والى القلعة، و من خارجه تدق الخليلية قبل المغرب. و الباب الثانى باب القرافة، و بين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت، و بجانبها القبلىّ سوق للمآكل، و يتوصل من هذه الساحة إلى دركاه جليلة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول، و فى وسط الدركاه باب القلعة، و يدخل منه فى دهليز فسيح إلى ديار و بيوت و إلى الجامع الذى تقام به الجمعة، و يمشى من دهليز باب القلعة فى مداخل أبواب إلى رحبة فسيحة فى صدرها الإيوان الكبير المعدّ لجلوس السلطان فى يوم المواكب، و إقامة دار العدل. و بجانب هذه الرحبة ديار جليلة، و يمرّ منها إلى باب القصر الأبلق، و بين يدى باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة بالقصر، و كان بجانب هذه الرحبة محاذيا لباب القصر خزانة القصر، و يدخل من باب القصر فى دهاليز خمسة إلى قصر عظيم، و يتوصل منه إلى الإيوان الكبير بباب خاص، و يدخل منه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۸

أيضا إلى قصور ثلاثة، ثم إلى دور الحرم السلطانية، و إلى البستان و الحمّام و الحوش، و باقى القلعة فيه دور و مساكن للمماليك السلطانية و خواص الأمراء بنسائهم و أولادهم و مماليكهم و دواوينهم و طشتخاناتهم و فرشخاناتهم و شربخاناتهم و مطابخهم و سائر وظائفهم، و كانت أكابر أمراء الألوف و أعيان أمراء الطبلخاناه و العشراوات تسكن بالقلعة إلى آخر أيام الناصر محمد بن قلاون، و كان بها أيضا طباق المماليك السلطانية و دار الوزارة، و تعرف بقاعة الصاحب، و بها قاعة الإنشاء و ديوان الجيش و بيت المال و خزانة الخاص، و بها الدور السلطانية من الطشتخاناه و الركابخاناه و الحوائجخاناه و الزردخاناه، و كان بها الجب الشنيع لسجن الأمراء، و بها دار النيابة، و بها عدّة أبراج يحبس بها الأمراء و المماليك، و بها المساجد و الحوانيت و الأسواق، و بها مساكن تعرف بخرائب التتر، كانت قدر حارة خرّبها الملك الأشرف برسباى فى ذى القعدة سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة، و من حقوق القلعة الإصطبل السلطانىّ، و كان ينزل إليه السلطان من جانب إيوان القصر، و من حقوقها أيضا الميدان، و هو فاصل بين الإصطبلات و سوق الخيل من غربيه، و هو فسيح المدى و فيه يصلى السلطان صلاة العيدين، و فيه يلعب بالأكرة مع خواصه، و فيه تعمل المدّات أوقات المهمات أحيانا، و من رأى القصور و الإيوان الكبير و الميدان الأخضر و الجامع يقرّ لملوك مصر بعلوّ الهمم و سعة الإنفاق و الكرم.

باب الدرفيل: هذا الباب بجانب خندق القلعة، و يعرف أيضا بباب المدرج، و كان يعرف قديما بباب سارية، و يتوصل إليه من تحت دار الضيافة و ينتهى منه إلى القرافة، و هو فيما بين سور القلعة و الجبل.

و الدرفيل هو الأمير حسام الدين لاجين الأيدمرىّ، المعروف بالدرفيل، دوادار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، مات فى سنة اثنتين و سبعين و ستمائة.

دار العدل القديمة: هذه الدار موضعها الآن تحت القلعة، يعرف بالطبلخاناه، و الذى بنى دار العدل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، فى سنة إحدى و ستين و ستمائة، و صار يجلس بها لعرض العساكر فى كلّ اثنين و خميس، و ابتدأ بالحضور فى أوّل سنة اثنتين و ستين و ستمائة، و صار يجلس بها لعرض العساكر فى كلّ اثنين و خميس، و ابتدأ بالحضور فى أوّل سنة اثنتين و ستين و ستمائة، فوقف إليه ناصر الدين محمد بن أبى نصر و شكا أنه أخذ له بستان فى أيام المعز أيبك، و هو بأيدى المقطعين، و أخرج كتابا مثبتا و أخرج من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۹

ديوان الجيش ما يشهد بأن البستان ليس من حقوق الديوان، فأمر بردّه عليه فتسلمه.

و أحضرت مرافعة فى ورقة مختومة رفعها خادم أسود فى مولاه القاضى شمس الدين شيخ الحنابلة، تضمنت أنه يبغض السلطان و يتمنى زوال دولته، فإنه لم يجعل للحنابلة مدرّسا فى المدرسة التى أنشأها بخط بين القصرين، و لم يولّ قاضيا حنبليا، و ذكر عنه أمورا قادحة، فبعث السلطان الورقة إلى الشيخ، فحضر إليه و حلف أنه ما جرى منه شيء، و أن هذا الخادم طردته فاختلق عليّ ما قال. فقبل السلطان عذره و قال: و لو شتمتنى أنت فى حلّ، و أمر بضرب الخادم مائة عصا. و غلت الأسعار بمصر حتى بلغ أردب القمح نحو مائة درهم، و عدم الخبز، فنادى السلطان فى الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة، و نزل فى يوم الخميس سابع ربيع الآخر منها و جلس بدار العدل هذه و نظر فى أمر السعر و أبطل التسعير، و كتب مرسوما إلى الأمراء ببيع خمسمائة أردب، فى كلّ يوم ما بين مائتين إلى ما دونهما، حتى لا يشترى الخزان شيئا، و أن يكون البيع للضعفاء و الأرامل فقط دون من عداهم، و أمر الحجاب فنزلوا تحت القلعة و كتبوا أسماء الفقراء الذين تجمعوا بالرميلة، و بعث إلى كلّ جهة من جهات القاهرة و مصر و ضواحيهما حاجبا لكتابة أسماء الفقراء، و قال: و اللّه لو كان عندى غلة تكفى هؤلاء لفرّقتها، و لما انتهى إحضار الفقراء أخذ منهم لنفسه ألوفا، و جعل باسم ابنه الملك السعيد ألوفا، و أمر ديوان الجيش فوزع باقيهم، على كلّ أمير من الفقراء بعدّة رجاله، ثم فرّق ما بقى على الأجناد، و مفاردة الحلقة، و المقدّمين، و البحرية، و جعل طائفة التركمان ناحية و طائفة الأكراد ناحية، و قرّر لكلّ واحد من الفقراء كفايته لمدّة ثلاثة أشهر، فلما تسلم الأمراء و الأجناد ما خصهم من الفقراء فرّق من بقى منهم على الأكابر و التجار و الشهود، و عين لأرباب الزوايا مائة أردب قمح فى كلّ يوم، تخرج من الشون السلطانية إلى جامع أحمد بن طولون و تفرّق على من هناك، ثم قال: هؤلاء المساكين الذين جمعناهم اليوم و مضى النهار لا بدّ لهم من شيء، و أمر ففرّق فى كلّ منهم نصف درهم ليتقوّت به فى يومه، و يستمرّ له من الغد ما تقرّر، فأنفق فيهم جملة مال، و أعطى للصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن حنا طائفة كبيرة من العميان، و أخذ الأتابك سيف الدين أقطاى طائفة التركمان، و لم يبق أحد من الخواص و الأمراء الحواشى و لا- من الحجاب و الولاة و أرباب المناصب و ذوى المراتب و أصحاب الأموال حتى أخذ جماعة من الفقراء على قدر حاله.

و قال السلطان للأمير صارم الدين المسعودىّ والى القاهرة: خذ مائة فقير و أطعمهم للّه تعالى. فقال: نعم قد أخذتهم دائما. فقال له السلطان هذا شيء فعلته ابتداء من نفسك، و هذه المائة خذها لأجلى. فقال للسلطان: السمع و الطاعة، و أخذ مائة فقير زيادة على المائة التى عينت له، و انقضى النهار فى هذا العمل و شرع الناس فى فتح الشون و المخازن و تفرقة الصدقات على الفقراء، فنزل سعر القمح و نقص الأردب عشرين درهما، و قلّ وجود

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۰

الفقراء إلى أن جاء شهر رمضان، و جاء المغلّ الجديد، فأوّل يوم من بيع الجديد نقص سعر أردب القمح أربعين درهما ورقا، و فى اليوم الذى جلس فيه السلطان بدار العدل للنظر فى أمور الأسعار قرئت عليه قصة ضمان دار الضرب، و فيها أنه قد توقفت الدراهم و سألوا إبطال الناصرية، فإن ضمانهم بمبلغ مائتى ألف و خمسين ألف درهم، فوقع عليها يحط عنهم منها مبلغ خمسين ألف درهم و قال: نحط هذا و لا نؤذى الناس فى أموالهم.

و فى مستهل شهر رجب منها جلس أيضا بدار العدل، فوقف له بعض الأجناد بصغير يتيم ذكر أنه وصيه، و شكا من قضيته. فقال السلطان لقاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، أنّ الأجناد إذا مات أحد منهم استولى خجداشه على موجوده، فيموت الوصىّ، و يكبر اليتيم فلا يجد له مالا، و تقدّم إليه أن لا يمكّن وصيا من الانفراد بتركة ميت، و لكن يكون نظر القاضى شاملا له، و تصير أموال الأيتام مضبوطة بأمناء الحكم. ثم أنه استدعى نقباء العساكر و أمرهم بذلك، فاستمرّ الحال فيه على ما ذكر.

و فى خامس عشرى شعبان سنة ثلاث و ستين و ستمائة، جلس بدار العدل و استدعى تاج الدين ابن القرطبىّ و قال له: قد أضجرتنى مما تقول عندى مصالح لبيت المال، فتحدّث الآن بما عندك، فتكلّم فى حق قاضى القضاة تاج الدين، و فى حق متولى جزيرة سواكن، و فى حق الأمراء، و أنهم إذا مات منهم أحد أخذ ورثته أكثر من استحقاقهم، فأنكر عليه و أمر بحبسه، و تحدّث السلطان فى

أمر الأجناد و أنه إذا مات أحدهم فى مواطن الجهاد لا يصل إليه شاهد حتى يشهد عليه بوصيته، و أنه يشهد بعض أصحابه، فإذا حضر إلى القاهرة لا تقبل شهادته، و كان الجندىّ فى ذلك الوقت لا تقبل شهادته، فرأى السلطان أن كلّ أمير يعين من جماعته عدّة ممن يعرف خيره و دينه ليسمع قولهم، و ألزم مقدّمى الأجناد بذلك، فشرع قاضى القضاة فى اختيار رجال جياد من الأجناد و عينهم لقبول شهادتهم، ففرحت العساكر بذلك.

و جلس أيضا فى تاسع عشرية بدار العدل فوقف له شخص و شكا أن الأملاك الديوانية لا يمكن أحد من سكانها أن ينتقل منها، فأنكر السلطان ذلك و أمر أن من انقضت مدّة إجارته و أراد الخلوّ فلا يمنع من ذلك، و له فى ذلك عدّة أخبار كلها صالحة، رحمه اللّه تعالى.

و ما برحت دار العدل هذه باقية إلى أن استجدّ السلطان الملك المنصور قلاون الإيوان فهجرت دار العدل هذه إلى أن كانت سنة اثنتين و عشرين و سبعمائة، فهدمها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، و عمل موضعها الطبلخاناه، فاستمرّت طبلخاناه إلى يومنا، إلّا أنه كان فى أيام عمارتها إنما يجلس بها دائما فى أيام الجلوس نائب دار العدل و معه القضاة، و موقع دار العدل و الأمراء، فينظر نائب دار العدل. فى أمور المتظلمين، و تقرأ عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۱

القصص، و كان الأمر على ذلك فى أيام الظاهر بيبرس و أيام ابنه الملك السعيد بركة، ثم أيام الملك المنصور قلاون.

الإيوان: المعروف بدار العدل، هذا الإيوان أنشأه السلطان الملك المنصور قلاون الألفىّ الصالحىّ النجمىّ، ثم جدّده ابنه السلطان الملك الأشرف خليل، و استمرّ جلوس نائب دار العدل به، فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاون الروك أمر بهدم هذا الإيوان، فهدم و أعاد بناءه على ما هو عليه الآن، و زاد فيه، و أنشأ به قبة جليلة، و أقام به عمدا عظيمة نقلها إليه من بلاد الصعيد و رخمه، و نصب فى صدره سرير الملك، و عمله من العاج و الأبنوس، و رفع سمك هذا الإيوان و عمل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة، و جعل بالإيوان باب سرّ من داخل القصر، و عمل باب الإيوان مسبوكا من حديد بصناعة بديعة تمنع الداخل إليه، و له منه باب يغلق، فإذا أراد أن يجلس فتح حتى ينظر منه و من تخاريم الحديد بقية العسكر الواقفين بساحة الإيوان، و قرّر للجلوس فيه بنفسه يوم الاثنين و يوم الخميس، فاستمرّ الأمر على ذلك، و كان أوّلا دون ما هو اليوم، فوسع فى قبته و زاد فى ارتفاعه و جعل قدّامه دركاة كبيرة، فجاء من أعظم المبانى الملوكية، و أوّل ما جلس فيه عند انتهاء عمل الروك بعد ما رسم لنقيب الجيش أن يستدعى سائر الأجناد، فلما تكامل حضورهم جلس و عين أن يحضر فى كلّ يوم مقدّما ألوف بمضافيهما، فكان المقدّم يقف بمضافيه و يستدعى بمضافيه من تقدمته على قدر منازلهم، فيتقدّم الجندىّ إلى السلطان فيسأله أنت ابن من و مملوك من، ثم يعطيه مثالا، و استمرّ على ذلك من مستهل المحرّم سنة خمس عشرة و سبعمائة إلى مستهل صفر منها، و ما برح بعد ذلك يواظب على الجلوس به فى يومى الاثنين و الخميس، و عنده أمراء الدولة و القضاة و الوزير و كاتب السرّ و ناظر الجيش و ناظر الخاص و كتاب الدست، و تقف الأجناد بين يديه على قدر أقدارهم، فلما مات الملك الناصر اقتدى به فى ذلك أولاده من بعده، و استمرّوا على الجلوس بالإيوان إلى أن استبدّ بمملكة مصر الملك الظاهر برقوق، فالتزم ذلك أيضا، إلّا أنه صار يجلس فيه إذا طلعت الشمس جلوسا يسيرا يقرأ عليه فيه بعض قصص لا لمعنى سوى إقامة رسوم المملكة فقط، و كان من قبله من ملوك بنى قلاون إنما يجلسون بالإيوان سحرا على الشمع، و كان موضع جلوس السلطان فى الإيوان للنظر فى المظالم، فأعرض الملك الظاهر عن ذلك و جعل لنفسه يومين يجلس فيهما بالإصطبل السلطانىّ للحكم بين الناس، كما سيأتى ذكره عن قريب إن شاء اللّه تعالى، و صار الإيوان فى أيام الظاهر برقوق و أيام ابنه الملك الناصر فرج، و أيام الملك المؤيد شيخ، إنما هو شىء من بقايا الرسوم الملوكية لا غير.

ذكر النظر فى المظالم

اشارة

اعلم أنّ النظر فى المظالم عبارة عن قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، و زجر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۲

المتنازعين عن التجاحد بالهيبة، و كان من شروط الناظر فى المظالم أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع، لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحماة، و تثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفتى الفريقين، و أن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين، و هى خطة حدثت لفساد الناس، و هى كلّ حكم يعجز عنه القاضى، فينظر فيه من هو أقوى منه يدا.

و أوّل من نظر فى المظالم من الخلفاء، أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه. و أوّل من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة النظر، عبد الملك بن مروان، فكان إذا وقف منها على مشكل، و احتاج فيها إلى حكم ينفذ، ردّه إلى قاضيه ابن إدريس الأزدىّ، فينفذ فيه أحكامه. و كان ابن إدريس هو المباشر، و عبد الملك الآمر، ثم زاد الجور، فكان عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه أوّل من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردّها، ثم جلس لها خلفاء بنى العباس، و أوّل من جلس منهم المهدىّ محمد، ثم الهادى موسى، ثم الرشيد هارون، ثم المأمون عبد اللّه، و آخر من جلس منهم المهتدىّ باللّه محمد بن الواثق، و أوّل من أعلم أنه جلس بمصر من الأمراء للنظر فى المظالم، الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، فكان يجلس لذلك يومين فى الأسبوع، فلما مات و قام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه، جعل على المظالم بمصر محمد بن عبيدة بن حرب، فى شعبان سنة ثلاث و سبعين و مائتين، ثم جلس لذلك الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدىّ، و ابتدأ ذلك فى سنة أربعين و ثلاثمائة و هو يومئذ خليفة الأمير أبى القاسم أونوجور بن الإخشيد، فعقد مجلسا صار يجلس فيه كلّ يوم سبت، و يحضر عنده الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، و سائر القضاة و الفقهاء و الشهود، و وجوه البلد، و ما برح على ذلك مدّة أيامه بمصر إلى أن مات، فلم ينتظم أمر مصر بعده إلى أن قدم القائد أبو الحسين جوهر بجيوش المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، فكان يجلس للنظر فى المظالم و يوقع على رقاع المتظلمين، فمن توقيعاته بخطه على قصة رفعت إليه، سوء الاجترام أوقع بكم طول الانتقام، و كفر الأنعام أخركم من حفظ الذمام، فالواجب فيكم ترك الإيجاب، و اللازم لكم ملازمة الاجتناب، لأنكم بدأتم فأسأتم، و عدتم فتعدّيتم، فابتداؤكم ملوم و عودكم مذموم، و ليس بينهما فرجة تقتضى إلّا الذم لكم و الإعراض عنكم، ليرى أمير المؤمنين رأيه فيكم.

و لما قدم المعز لدين اللّه، إلى مصر و صارت دار خلافة، استقرّ النظر فى المظالم، مدّة يضاف إلى قاضى القضاة، و تارة ينفرد بالنظر فيه أحد عظماء الدولة، فلما ضعف جانب المستنصر باللّه أبى تميم معدّ بن الظاهر، و كانت الشدّة العظمى بمصر، قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى القاهرة و ولى الوزارة، فصار أمر الدولة كله راجعا إليه، و اقتدى به من بعده من الوزراء، و كان الرسم فى ذلك أن الوزير صاحب السيف يجلس للمظالم بنفسه، و يجلس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۳

قبالته قاضى القضاة، و بجانبه شاهدان معتبران، و يجلس بجانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق، و يليه صاحب ديوان المال، و يقف بين يدى الوزير صاحب البلاد و اسفهسلار العساكر، و بين أيديهما الحجاب و النوّاب على طبقاتهم، و يكون هذا الجلوس يومين فى الأسبوع، و آخر من تقلد المظالم فى الدولة الفاطمية، رزيك بن الوزير الأجلّ، الملك الصالح طلائع بن رزيك، فى وزارة أبيه، و كتب له سجل عن الخليفة منه، و قد قلدك أمير المؤمنين النظر فى المظالم و إنصاف المظلوم من الظالم، و كانت الدولة إذا خلت من وزير صاحب سيف، جلس للنظر فى المظالم صاحب الباب فى باب الذهب من القصر، و بين يديه الحجاب و النقباء، و ينادى مناد بحضرته يا أرباب الظلامات، فيحضرون إليه، فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت إلى الولاة أو القضاة رسالة بكشفها، و من تظلم من أهل النواحى التى خارج القاهرة و مصر. فإنه يحضر قصة فيها شرح ظلامته، فيتسلمها الحاجب منه حتى تجتمع القصص فيدفعها إلى

الموقّع بالقلم الدقيق، فيوقع عليها، ثم تحمل بعد توقيعه عليها إلى الموقّع بالقلم الجليل، فيبسط ما أشار إليه الموقع بالقلم الدقيق، ثم تحمل التواقيع فى خريطة إلى ما بين يدى الخليفة فيوقع عليها، ثم تخرج فى خريطتها إلى الحاجب فيقف على باب القصر و يسلم كلّ توقيع إلى صاحبه.

و أوّل من بنى دار العدل من الملوك، السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمة اللّه تعالى عليه بدمشق، عند ما بلغه تعدّى ظلم نوّاب أسد الدين شير كوه بن شادى إلى الرعية، و ظلمهم الناس، و كثرة شكواهم إلى القاضى كمال الدين الشهرزورىّ، و عجزه عن مقاومتهم، فلما بنيت دار العدل أحضر شير كوه نوّابه و قال: إن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلّا بسببى، و اللّه لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحد منكم لأصلبنه، فامضوا إلى كلّ من كان بينكم و بينه منازعة فى ملك أو غيره فافصلوا الحال معه و أرضوه بكلّ طريق أمكن و لو أتى على جميع ما بيدى. فقالوا إن الناس إذا علموا بذلك اشتطوا فى الطلب. فقال: لخروج أملاكى عن يدى أسهل علىّ من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم، أو يساوى بينى و بين أحد من العامّة فى الحكومة. فخرج أصحابه و عملوا ما أمرهم به من إرضاء أخصامهم، و أشهدوا عليهم. فلما جلس نور الدين بدار العدل فى يومين من الأسبوع، و حضر عنده القاضى و الفقهاء، أقام مدّة لم يحضر أحد يشكو شير كوه، فسأل عن ذلك فعرّف بما جرى منه و من نوّابه، فقال الحمد للّه الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا. و جلس أيضا السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى يومى الاثنين و الخميس لإظهار العدل، و لما تسلطن الملك المعز أيبك التركمانىّ أقام الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ فى نيابة السلطنة بديار مصر، فواظب الجلوس فى المدارس الصالحية بين القصرين و معه نوّاب دار العدل ليرتب الأمور و ينظر فى المظالم، فنادى بإراقة الخمور و إبطال ما عليها من المقرّر، و كان قد كثر الإرجاف بمسير الملك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۴

الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الشام لأخذ مصر، فلما انهزم الملك الناصر و استبدّ الملك المعز أيبك، أحدث وزيره من المكوس شيئا كثيرا، ثم إنّ الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ بنى دار العدل و جلس بها للنظر فى المظالم. كما تقدّم، فلما بنى الإيوان الملك الناصر محمد بن قلاون واظب الجلوس يوم الاثنين و الخميس فيه، و صار يفصل فيه الحكومات فى الأحايين إذا أعيى من دونه فصلها، فلما استبدّ الملك الظاهر برقوق بالسلطنة عقد لنفسه مجلسا بالإصطبل السلطانىّ من قلعة الجبل، و جلس فيه يوم الأحد ثامن عشرى شهر رمضان سنة تسع و ثمانين و سبعمائة، و واظب ذلك فى يومى الأحد و الأربعاء، و نظر فى الجليل و الحقير، ثم حوّل ذلك إلى يومى الثلاثاء و السبت، و أضاف إليهما يوم الجمعة بعد العصر، و ما زال على ذلك حتى مات، فلما ولى ابنه الملك الناصر فرج بعده و استبدّ بأمره، جلس للنظر فى المظالم بالإصطبل اقتداء بأبيه، و صار كاتب السرّ فتح الدين فتح اللّه يقرأ القصص عليه، كما كان يقرؤها على أبيه، فانتفع أناس و تضرّر آخرون بذلك، و كان الضرر أضعاف النفع، ثم لما استبدّ الملك المؤيد شيخ بالمملكة جلس أيضا للنظر فى المظالم كما جلسا، و الأمر على ذلك مستمرّ إلى وقتنا هذا، و هو سنة تسع عشرة و ثمانمائة.

و قد عرف النظر فى المظالم منذ عهد الدولة التركية بديار مصر و الشام بحكم السياسة، و هو يرجع إلى نائب السلطنة و حاجب الحجاب، و والى البلد و متولى الحرب بالأعمال، و سيرد إن شاء اللّه تعالى الكلام فى حكم السياسة عن قريب.

ذكر خدمة الإيوان المعروف بدار العدل

كانت العادة أنّ السلطان يجلس بهذا الإيوان بكرة الاثنين و الخميس طول السنة خلا شهر رمضان، فإنه لا يجلس فيه هذا المجلس، و جلوسه هذا إنما هو للمظالم، و فيه تكون الخدمة العامّة و استحضار رسل الملوك غالبا، فإذا جلس للمظالم كان جلوسه على كرسىّ

إذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجله، و هو منصوب إلى جانب المنبر الذى هو تخت الملك و سرير السلطنة، و كانت العادة أوّلا أن يجلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة عن يمينه، و أكبرهم الشافعىّ، و هو الذى يلى السلطان، ثم إلى جانب الشافعىّ الحنفىّ، ثم المالكىّ، ثم الحنبلىّ، و إلى جانب الحنبلىّ الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر فى الحسبة بالقاهرة، و يجلس على يسار السلطان كاتب السرّ، و إن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفا على بعد مع بقية أرباب الوظائف، و إن كان نائب السلطنة، فإنه يقف مع أرباب الوظائف، و يقف من وراء السلطان صفان عن يمينه و يساره من السلاحدارية و الجمدارية و الخاصكية، و يجلس على بعد بقدر خمسة عشر ذراعا عن يمنته و يسرته ذو و السنّ و القدر من أكابر أمراء المئين، و يقال لهم أمراء المشورة، و يليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء و أرباب الوظائف، و هم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۵

وقوف، و بقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، و يقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب و الدواداريّة، لإعطاء قصص الناس و إحضار الرسل و غيرهم من الشكاة و أصحاب الحوائج و الضرورات، فيقرأ كاتب السرّ و موقعو الدست القصص على السلطان، فإن احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية و القضايا الدينية، و ما كان متعلقا بالعسكر فإن كانت القصص فى أمراء الإقطاعات قرأها ناظر الجيش، فإن احتاج إلى مراجعة فى أمر العسكر تحدّث مع الحاجب و كاتب الجيش فيه، و ما عدا ذلك يأمر فيه السلطان بما يراه، و كانت العادة الناصرية أن تكون الخدمة فى هذا الإيوان على ما تقدّم ذكره فى بكرة يوم الاثنين، و أما بكرة يوم الخميس فإن الخدمة على مثل ذلك، إلّا أنّه لا يتصدّى السلطان فيه لسماع القصص، و لا يحضره أحد من القضاة و لا الموقعين و لا كاتب الجيش، إلا إن عرضت حاجة إلى طلب أحد منهم، و هذا القعود عادته طول السنة ما عدا رمضان.

و قد تغير بعد الأيام الناصرية هذا الترتيب، فصارت قضاة القضاة تجلس عن يمنة السلطان و يسرته، فيجلس الشافعىّ عن يمينه و يليه المالكىّ و يليه قاضى العسكر، ثم محتسب القاهرة، ثم مفتى دار العدل الشافعىّ. و يجلس الحنفىّ عن يسرة السلطان، و يليه الحنبلىّ، و صارت القصص تقرأ و القضاة و ناظر الجيش يحضرون فى يوم الخميس أيضا، و كانت العادة أيضا أنه إذا ولى أحد المملكة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون، فإنه عند ولايته يحضر الأمراء إلى داره بالقلعة و تفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء، و من تحتها فرجية خضراء و عمامة سوداء مدوّرة، و يقلد بالسيف العربىّ المذهب، و يركب فرس النوبة و يسير و الأمراء بين يديه، و الغاشية قدّامه، و الجاويشية تصيح، و الشبابة السلطانية ينفخ بها، و الطبردارية حواليه إلى أن يعبر من باب النحاس إلى درج هذا الإيوان، فينزل عن الفرس و يصعد إلى التخت فيجلس عليه، و يقبّل الأمراء الأرض بين يديه، ثم يتقدّمون إليه و يقبلون يده على قدر رتبهم، ثم مقدمو الحلقة، فإذا فرغوا حضر القضاة و الخليفة، فتفاض التشاريف على الخليفة، و يجلس مع السلطان على التخت، و يقلد السلطان المملكة بحضور القضاة و الأمراء، و يشهد عليه بذلك، ثم ينصرف و معه القضاة، فيمدّ السماط للأمراء، فإذا انقضى أكلهم قام السلطان و دخل المقصورة و انصرف الأمراء.

و مما قيل فى هذا الإيوان لمّا بناه السلطان الملك الناصر:

شرّفت إيوانا جلست بصدرهفشرحت بالإحسان منه صدورا

قد كاد يستعلى الفراقد رفعةإذ حاز منك الناصر المنصورا

ملك الزمان و من رعية ملكهمن عدله لا يظلمون نقيرا

لا زال منصور اللواء مؤيداأبد الزمان و ضدّه مقهورا

و قيل أيضا:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۶ يا ملكا أطلع من وجههإيوانه لما بدا بدرا

أنسيتنا بالعدل كسرى و لن نرضى لنا جبرا به كسرا

القصر الأبلق: هذا القصر يشرف على الإصطبل، أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى شعبان سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، و انتهت عمارته فى سنة أربع عشرة، و أنشأ بجواره جنينة، و لما كمل عمل فيه سماطا حضره الأمراء و أهل الدولة، ثم أفيضت عليهم الخلع و حمل إلى كلّ أمير من أمراء المئين و مقدّمى الألوف ألف دينار، و لكلّ من مقدّمى الحلقة خمسمائة درهم، و لكلّ من أمراء الطبلخاناه عشرة آلاف درهم فضة، عنها خمسمائة دينار، فبلغت النفقة على هذا المهم خمسمائة ألف ألف درهم و خمسمائة ألف درهم.

و كانت العادة أن يجلس السلطان بهذا القصر كلّ يوم للخدمة ما عدا يومى الاثنين و الخميس، فإنه يجلس للخدمة بدار العدل، كما تقدّم ذكره، و كان يخرج إلى هذا القصر المطلّ على الإصطبل، و تارة يقعد دونه على الأرض و الأمراء وقوف على ما تقدّم، خلا أمراء المشورة و القرباء من السلطان فإنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس، و لا يحضر هذا المجلس من الأمراء الكبار إلّا من دعت الحاجة إلى حضوره، و لا يزال السلطان جالسا إلى الثالثة من النهار، فيقوم و يدخل إلى قصوره الجوّانية، ثم إلى دار حريمه و نسائه، ثم يخرج فى أخريات النهار إلى قصوره الجوّانية فينظر فى مصالح ملكه، و يعبر إليه إلى قصوره الجوّانية خاصته من أرباب الوظائف فى الأشغال المتعلقة به، على ما تدعو الحاجة إليه، و يقال لها خدمة القصر، و هذا القصر تجاه بابه رحبة يسلك إليها من الرحبة التى تجاه الإيوان، فيجلس بالرحبة التى على باب القصر خواص الأمراء قبل دخولهم إلى خدمة القصر، و يمشى من باب القصر فى دهاليز مفروشة بالرخام، قد فرش فوقه أنواع البسط إلى قصر عظيم البناء شاهق فى الهواء، بإيوانين أعظمهما الشمالىّ، يطلّ منه على الإصطبلات السلطانية، و يمتدّ النظر إلى سوق الخيل و القاهرة و ظواهرها إلى نحو النيل و ما يليه من بلاد الجيزة و قراها، و فى الإيوان الثانى القبلىّ باب خاص لخروج السلطان و خواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام الموكب، و يدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوّانية، منها واحد مسامت لأرض هذا القصر، و اثنان يصعد إليهما بدرج، فى جميعها شبابيك حديد تشرف على مثل منظرة القصر الكبير، و فى هذه القصور كلها مجارى الماء مرفوعا من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقرّه إلى موضع ثم إلى آخر حتى ينتهى الماء إلى القلعة و يدخل إلى القصور السلطانية و إلى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان، فيجرى الماء فى دورهم، و تدور به حماماتهم، و هو من عجائب الأعمال لرفعته من الأرض إلى السماء قريبا من خمسمائة ذراع من مكان إلى مكان، و يدخل من هذه القصور إلى دور الحريم، و هذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود و الحجر الأسفر، موزرة من داخلها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۷

بالرخام و الفصوص المذهبة المشجرة بالصدف و المعجون و أنواع الملوّنات، و سقوفها كلها مذهبة قد موّهت باللازورد، و النور يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسىّ الملوّن كقطع الجوهر المؤلفة فى العقود، و جميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول إليها من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله، و تشرف الدور السلطانية من بعضها على بساتين و أشجار و ساحات للحيوانات البديعة و الأبقار و الأغنام و الطيور الدواجن، و سيأتى إن شاء اللّه تعالى ذكر هذه القصور و البساتين و الأحواش مفصلا. و كان بهذا القصر الأبلق رسوم و عوايد تغير كثير منها و بطل معظمها، و بقيت إلى الآن بقايا من شعار المملكة و رسوم السلطنة، و سأقص من أنباء ذلك إن شاء اللّه تعالى ما لا تراه بغير هذا الكتاب مجموعا، و اللّه يؤتى فضله من يشاء.

الأسمطة السلطانية: و كانت العادة أن يمدّ بالقصر فى طرفى النهار من كلّ يوم أسمطة جليلة لعامّة الأمراء خلا البرّانيين، و قليل ما هم. فبكرة يمدّ سماط أوّل لا يأكل منه السلطان، ثم ثان بعده يسمى الخاص، قد يأكل منه السلطان و قد لا يأكل، ثم ثالث بعده و يسمى الطارئ و منه مأكول السلطان. و أما فى آخر النهار فيمتدّ سماطان، الأوّل و الثانى المسمى بالخاص، ثم إن استدعى بطارىء حضّر، و إلّا فلا. ما عدا المشوىّ فإنه ليس له عادة محفوظة النظام، بل هو على حسب ما يرسم به، و فى كلّ هذه الأسمطة يؤكل ما عليها و يفرّق نوالات، ثم يسقى بعدها الأقسماء المعمولة من السكر و الأفاويه المطيبة بماء الورد المبرّدة، و كانت العادة أن يبيت فى كلّ ليلة بالقرب من السلطان أطباق فيها أنواع من المطجنات و البوارد و القطر و القشطة و الجبن المقلىّ و الموز و السكباج، و أطباق فيها من

الأقسماء و الماء البارد برسم أرباب النوبة فى السهر حول السلطان، ليتشاغلوا بالمأكول و المشروب عن النوم، و يكون الليل مقسوما بينهم بساعات الرمل، فإذا انتهت نوبة نبهت التى تليها، ثم ذهبت هى فنامت إلى الصباح، هكذا أبدا سفرا أو حضرا، و كانت العادة أيضا أن يبيت فى المبيت السلطانىّ من القصر أو المخيم إن كان فى السرحة المصاحف الكريمة لقراءة من يقرأ من أرباب النوبة، و يبيت أيضا الشطرنج ليتشاغل به عن النوم. و بلغ مصروف السماط فى كلّ يوم عيد الفطر من كلّ سنة، خمسين ألف درهم، عنها نحو ألفين و خمسمائة دينار، تنهبه الغلمان و العامّة، و كان يعمل فى سماط الملك الظاهر برقوق فى كل يوم خمسة آلاف رطل من اللحم، سوى الأوز و الدجاج، و كان راتب المؤيد شيخ فى كلّ يوم لسماطه و داره ثمانمائة رطل من اللحم، فلما كان فى المحرّم سنة ست و عشرين و ثمانمائة، سأل الملك الأشرف برسباى عن مقدار ما يطبخ له فى كلّ يوم بكرة و عشيا فقيل له: ستمائة رطل فى الوجبتين، فأمر أن يطبخ بين يديه، لأنه بلغه أنه يوخذ مما ذكر لشادّ الشرابخاناه، و نحوه مائة و عشرون رطلا، فجعل راتب اللحم فى كل يوم بزيادة أيام الخدمة، و نقصان أيام عدة الخدمة، خمسمائة رطل و ستة أرطال عن وجبتى الغداء و العشاء، و من الدجاج ستة و عشرين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۸

طائرا و لعمل المأمونية رطلين و نصفا من السكر، و ما يعمل برسم الجمدارية فإنه بعسل النحل.

ذكر العلامة السلطانية

قد جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به، فأمّا مناشير الأمراء و الجند و كلّ من له إقطاع فإنه يكتب عليه علامته، و كتبها الملك الناصر محمد بن قلاون، اللّه أملى، و عمل ذلك الملوك بعده إلى اليوم، و أما تقاليد النوّاب، و تواقيع أرباب المناصب من القضاة و الوزراء و الكتاب، و بقية أرباب الوظائف، و تواقيع أرباب الرواتب و الإطلاقات، فإنه يكتب عليها اسمه و اسم أبيه إن كان أبوه ملكا، فيكتب مثلا محمد بن قلاون، أو شعبان بن حسين، أو فرج بن برقوق، و إن لم يكن أبوه ممن تسلطن كبرقوق أو شيخ، فإنه يكتب اسمه فقط، و مثاله برقوق، أو شيخ. و أما كتب البريد و خلاص الحقوق و الظلامات، فإنه يكتب أيضا عليها اسمه، و ربما كرّم المكتوب إليه فكتب إليه أخوه فلان، أو والده فلان، و أخوه يكتب للأكابر من أرباب الرتب و الذى يعلم عليه السلطان، أما إقطاع فالرسم فيه أن يقال خرج الأمر الشريف، و أما وظائف و رواتب و إطلاقات، فالرسم فى ذلك أن يقال رسم بالأمر الشريف، و أعلى ما يعلم عليه ما افتتح بخطبة أولها الحمد للّه، ثم ما افتتح بخطبة أوّلها أما بعد حمد اللّه، حتى يأتى على خرج الأمر فى المناشير، أو رسم بالأمر فى التواقيع، ثم بعد هذا أنزل الرتب، و هو أن يفتتح فى المناشير، خرج الأمر و فى التواقيع رسم بالأمر، و تمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد للّه. أوّل الخطبة، أن تطغر بالسواد و تتضمن اسم السلطان و ألقابه، و قد بطلت الطغرافى وقتنا هذا، و كانت العادة أن يطالع نوّاب المملكة السلطان بما يتجدّد عندهم تارة على أيدى البريدية، و تارة على أجنحة الحمام، فتعود إليهم الأجوبة السلطانية و عليها العلامة، فإذا ورد البريدىّ أحضره أمير جاندار، و هو من أمراء الألوف، و الدوادار و كاتب السرّ بين يدى السلطان، فيقبّل البريدىّ الأرض، و يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدى، ثم يناول للسلطان فيفتحه، و يجلس حينئذ كاتب السرّ و يقرأ على السلطان سرّا، فإن كان أحد من الأمراء حاضرا تنحى حتى يفرغ من القراءة، و يأمر السلطان فيه بأمر، و إن كان الخبر على أجنحة الحمام، فإنه يكتب فى ورق صغير خفيف و يحمل على الحمام الأزرق، و كان لحمام الرسائل مراكز كما كان للبريد مراكز، و كان بين كلّ مركزين من البريد أميال، و فى كلّ مركز عدّة خيول كما بيناه فى ذكر الطريق فيما بين مصر و الشام، و كانت مراكز الحمام كلّ مركز منها ثلاثة مراكز من مراكز البريد، فلا يتعدّى الحمام ذلك المركز، و ينقل عند نزوله المركز على ما على جناحه إلى طائر حتى يسقط بقلعة الجبل، فيحضره البرّاج، و يقرأ كاتب السرّ البطاقة، و كلّ هذا مما يعلم عليه بالقصر، و مما كان يحضر إلى القصر بالقلعة فى كلّ يوم ورقة الصباح، يرفعها والى القاهرة و والى مصر، و تشتمل على إنهاء ما تجدّد فى كل يوم و ليلة بحارات البلدين و

أخطاطهما من حريق أو قتل قتيل أو سرقة سارق و نحو ذلك، ليأمر السلطان فيه بأمره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۹

الأشرفية: هذا القصر المعروف بالأشرفية أنشأ الملك الأشرف خليل بن قلاون فى سنة اثنتين و تسعين و ستمائة، و لما فرغ صنع به مهما عظيما لم يعمل مثله فى الدولة التركية، و ختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاون، و ابن أخيه الأمير موسى بن الصالح علىّ بن قلاون، و جمع سائر أرباب الملاهى، و جميع الأمراء، و وقف الخزانداريـة بأكياس الـذهب، فلما قام الأمراء من الخاصـكية للرقص، نثر الخزانداريـة على كـلّ من قام للرقص حتى فرغ الختان، فأنعم على كلّ أمير من الأمراء بفرس كامل القماش، و ألبس خلعـة عظيمـة، و أنعم على عـدّة منهم كلّ واحـد بألف دينار و فرس، و أنعم على ثلاثين من الأمراء الخاصـكية لكل واحـد مبلغ خمسـة آلاف دينار، و أنعم على البليبـل المغنى بـألف دينـار، و كان الـذى عمل فى هـذا المهم من الغنم ثلاثـة آلاف رأس، و من البقر ستمائة رأس، و من الخيـل خمسـمائة أكـديس، و من السـكر برسم المشـروب ألف قنطار و ثمانمائـة قنطار، و برسم الحلوى مائـة و سـتون قنطارا، و بلغت النفقة على هذا المهمّ فى عمل السماط و المشروب و الأقبية و الطراز و السروج و ثياب النساء مبلغ ثلاثمائة ألف دينار عينا.

البيسـرية: و من جملة دور القلعة قاعة البيسـرية، أنشأها السـلطان الملك الناصـر حسن بن محمد بن قلاون، و كان ابتداء بنائها فى أوّل يوم من شـعبان سنة إحدى و ستين و سبعمائة، و نهاية عمارتها فى ثامن عشرى ذى الحجة من السنة المذكورة، فجاءت من الحسن فى غايـة لم ير مثلها، و عمل لهـذه القاعـة من الفرش و البسط ما لا تـدخل قيمته تحت حصـر، فمن ذلك تسـعة و أربعون ثريا برسم وقود القناديـل، جملـة مـا دخل فيها من الفضـة البيضاء الخالصـة المضـروبة مائتا ألف و عشـرون ألف درهم، و كلها مطليـة بالطهب، و جاء ارتفاع بناء هـذه القاعـة طولا فى السـماء ثمانية و ثمانين ذراعا، و عمل السـلطان بها برجا يبيت فيه، من العاج و الأبنوس، مطعّم يجلس بين يديه، و أكناف و باب يدخل منه إلى أرض كذلك، و فيه مقرنص قطعة واحدة يكاد يذهل الناظر إليه، بشبابيك ذهب خالص، و طرازات ذهب مصوغ، و شـرافات ذهب مصوغ، و قبة مصوغة من ذهب صـرف، فيه ثمانية و ثلاثون ألف مثقال من الذهب، و صـرف فى مؤنه و أجره تتمة ألف درهم فضة، عنها خمسون ألف دينار، ذهبا، و بصدر إيوان هذه القاعة شباك حديد يقارب باب زويلة يطل على جنينة بديعة الشكل.

الدهيشة: عمّرها السـلطان الملك الصالح عماد الدين إسـماعيل بن محمد بن قلاون، فى سـنة خمس و أربعين و سـبعمائة، و ذلك أنه بلغه عن الملـك المؤيـد عمـاد الـدين صاحب حماه أنه عمر بحماه دهيشـة لم يبن مثلها، فقصـد مضاهاته، و بعث الأمير أقجبا و ابجيج المهنـدس لكشف دهيشـة حمـاه، و كتب لنـائب حلب و نـائب دمشق بحمل ألفى حجر بيض، و ألفى حجر حمر من حلب و دمشق، و حشرت الجمال لحملها حتى وصلت إلى قلعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۰

الجبل، و صـرف فى حمولة كلّ حجر من حلب اثنا عشر درهما، و من دمشق ثمانية دراهم، و استدعى الرخام من سائر الأمراء و جميع الكتاب، و رسم بإحضار الصـناع للعمل، و وقع الشـروع فيها حتى تمت فى شهر رمضان منها، و قد بلغ مصروفها خمسمائة ألف درهم، سوى مـا قـدم من دمشق و حلب و غير هما، و عمل لها من الفرش و البسط و الآلات ما يجلّ وصـفه، و حضـر بها سائر الأغانى، و كان مهما عظيما.

السـبع قاعات: هذه القاعات تشـرف على الميدان و باب القرافة، عمّرها الملك الناصـر محمد بن قلاون، و أسكنها سراريه، و مات عن ألف و مائتى و صيفة مولدة، سوى من عداهنّ من بقية الأجناس.

الجامع بالقلعة: هذا الجامع أنشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة ثمان عشرة و سبعمائة، و كان قبل ذلك هناك جامع دون هذا، فهدمه السـلطان و هدم المطبخ و الحوائجخاناه و الفراشخاناه، و عمله جامعا، ثم أخربه فى سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة، و بناه هـذا البناء، فلما تم بناؤه جلس فيه و اسـتدعى جميع مؤذنى القاهرة و مصـر، و جميع القرّاء و الخطباء، و عرضوا بين يـديه، و سـمع

تأذينهم و خطابتهم و قراءتهم، فاختار منهم عشرين مؤذنا رتبهم فيه، و قرّر فيه درس فقه، و قارئا يقرأ فى المصحف، و جعل عليه أوقافا تكفيه و تفيض، و صار من بعده من الملوك يخرجون أيام الجمع إلى هذا الجامع و يحضر خاصة الأمراء معه من القصر، و يجيء باقيهم من باب الجامع، فيصلى السلطان عن يمين المحراب فى مقصورة خاصة به، و يجلس عنده أكابر خاصته، و يصلى معه الأمراء خصتهم و عامّتهم خارج المقصورة عن يمنتها و يسرتها على مراتبهم، فإذا انقضت الصلاة دخل إلى قصوره و دور حرمه، و تفرّق كلّ أحد إلى مكانه.

و هذا الجامع متسع الأرجاء مرتفع البناء، مفروش الأرض بالرخام، مبطن السقوف بالذهب، و بصدره قبة عالية يليها مقصورة مستورة، هى و الرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنعة، و يحف صحنه رواقات من جهاته.

الدار الجديدة: هذه الدار عند باب سرّ القلعة المطل على سوق الخيل، عمّرها الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ فى سنة أربع و ستين و ستمائة، و عمل بها فى جمادى الأولى منها دعوة للأمراء عند فراغها.

خزانة الكتب: وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة إحدى و تسعين و ستمائة، فتلف بها من الكتب فى الفقه و الحديث و التاريخ و عامة العلوم شىء كثير جدا، كان من ذخائر الملوك، فانتهبها الغلمان و بيعت أوراقا محرّقة، ظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم و غيرها، و أخذوها بأبخس الأثمان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۱

القاعة الصالحية: عمّرها الملك الصالح نجم الدين أيوب، و كانت سكن الملوك إلى أن أحترقت فى سادس ذى الحجة سنة أربع و ثمانين و ستمائة، و احترق معها الخزانة السلطانية.

باب النحاس: هذا الباب من داخل الستارة، و هو أجل أبواب الدور السلطانية، عمّره الناصر محمد بن قلاون، و زاد فى سعة دهليزه.

باب القلة: عرف بذلك من أجل أنه كان هناك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس، و هدمها الملك المنصور قلاون فى يوم الأحد عاشر شهر رجب سنة خمس و ثمانين و ستمائة، و بنى مكانها قبة، فرغت عمارتها فى شوّال منها، ثم هدمها الملك الناصر محمد بن قلاون و جدّد باب القلة على ما هو عليه الآن، و عمل له بابا ثانيا.

الرفرف: عمّره الملك الأشرف خليل بن قلاون، و جعله عاليا يشرف على الجيزة كلها، و بيّضه و صوّر فيه أمراء الدولة و خواصها، و عقد عليه قبة على عمد، و زخرفها، و كان مجلسا يجلس فيه السلطان، و استمرّ جلوس الملوك به حتى هدمه الملك الناصر حمد بن قلاون فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، و عمل بجواره برجا بجوار الإصطبل، نقل إليه المماليك.

الجب: كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء، و كان مهولا مظلما كثير الوطاويط كريه الرائحة، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشدّ منه، عمره الملك المنصور قلاون فى سنة إحدى و ثمانين و ستمائة، فلم يزل إلى أن قام الأمير بكتمر الساقى فى أمره مع الملك الناصر محمد بن قلاون، حتى أخرج من كان فيه من المحابيس و نقلهم إلى الأبراج وردمه، و عمّر فوق الردم طباقا، فى سنة تسع و عشرين و سبعمائة.

الطبلخاناه تحت القلعة: ذكر هشام بن الكلبىّ: أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه لما قدم الشام، تلقاه المقلسون من أهل الأديان بالسيوف و الريحان، فكره عمر رضى اللّه عنه النظر إليهم و قال: ردّوهم. فقال له أبو عبيدة بن الجرّاح رضى اللّه عنه، إنها سنة الأعاجم، فإن منعتهم ظنوا أنه نقض لعهدهم. فقال عمر رضى اللّه عنه: دعوهم و التقليس: الضرب بالطبل أو الدف.

و هذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت القلعة فيما بين باب السلسلة و باب المدرج، كانت دار العدل القديمة التى عمرها الملك الظاهر بيبرس، و تقدّم خبرها. فلما كانت سنة اثنتين و عشرين و سبعمائة، هدمها الناصر محمد بن قلاون و بناها هذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت قلعة الجبل، فيما بين باب السلسلة و باب المدرج، و صار ينزل إلى عمارتها كلّ قليل، و تولى شدّ العمارة بها آق سنقر شادّ العمائر، و وجد فى أساسها أربعة قبور كبار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۲

المقدار عليها قطع رخام منقوش عليها أسماء المقبورين و تاريخ وفاتهم، فنبشوا و نقلوا قريبا من القلعة، فكانوا خلقا كبيرا عظيما فى الطول و العرش، على بعضهم ملاءة ديبقية ملوّنة، ساعة مستها الأيدى تمزقت و تطايرت هباء، و فيهم اثنان عليهما آلة الحرب و عدّة الجهاد، و بهما آثار الدماء و الجراحات، و فى وجه أحد هما ضربة سيف بين عينيه، و الجرح مسدود بقطنة، فلما أمسكت القطنة و رفعت عن الجرح فوق الحاجب، نبع من تحتها دم يظنّ أنه جرح طرىّ، فكان فى ذلك موعظة و ذكرى، و كانت الطبلخاناه ساحة بغير سقف، فلما ولى الأمير سودون داز أمير أخور، و سكن الإصطبل السلطانىّ، عمّر هذه الطباق فوق الطباق، و كان الغرض من عمارتها صحيحا، فإن المدرسة الأشرفية كانت حينئذ قائمة تجاه الطبلخاناه، و لما كان زمان الفتن بين أمراء الدولة، تحصن فوقها طائفة ليرموا على الإصطبل و القلعة، فأراد بناء هذه الطباق فوق الطباق أن يجعل بها رماة، حتى لا يقدر أحد يقيم فوق المدرسة الأشرفية، و قد بطل ذلك، فإن الملك الناصر فرج بن برقوق هدم المدرسة الأشرفية، كما ذكر فى هذا الكتاب عند ذكر المدارس.

الطباق بساحة الإيوان: عمّرها الملك الناصر محمد بن قلاون، و أسكنها المماليك السلطانية، و عمر حارة تختص بهم، و كانت الملوك تعنى بها غاية العناية، حتى أن الملك المنصور قلاون كان يخرج فى غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك، و يأمر بعرضه عليه و يتفقد لحمهم و يختبر طعامهم فى جودته و رداءته، فمتى رأى فيه عيبا اشتدّ على المشرف و الاستادار و نهر هما و حلّ بهما منه أىّ مكروه، و كان يقول: كلّ الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال و عقار، و أنا عمّرت أسوارا و عملت حصونا مانعة لى و لأولادى و للمسلمين، و هم المماليك، و كانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطبقات لا تبرح فيها، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاون سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة فى النهار و لا يبتوا إلا بها، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها، ثم أنّ الملك الناصر محمد بن قلاون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يوما فى الأسبوع، فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدّام، ثم يعودون آخر نهارهم، و لم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام بنى قلاون، و كانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، أوّلها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان و نزله فى طبقات جنسه و سلمه لطواشىّ برسم الكتابة، فأوّل ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، و كانت كلّ طائفة لها فقيه يحضر إليها كلّ يوم و يأخذ فى تعليمها كتاب اللّه تعالى و معرفة الخط و التمرّن بآداب الشريعة، و ملازمة الصلوات و الأذكار، و كان الرسم إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شبّ الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئا من الفقه، و أقرأه فيه مقدّمة، فإذا صار إلى سنّ البلوغ أخذ فى تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام و لعب الرمح و نحو ذلك، فيتسلم كلّ طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج إليه، و إذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمى النشاب لا يجسر جندى و لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۳

أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم، فينقل إذن إلى الخدمة و يتنقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا و قد تهذبت أخلاقه و كثرت آدابه، و امتزج تعظيم الإسلام و أهله بقلبه، و اشتدّ ساعده فى رماية النشاب، و حسن لعبه بالرمح، و مرن على ركوب الخيل، و منهم من يصير فى رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر، هذا و لهم أزمّة من الخدّام، و أكابر من رؤوس النوب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى، و يؤاخذونه أشدّ المؤاخذة، و يناقشونه على حركاته و سكناته، فإن عثر أحد من مؤدّبيه الذى يعلّمه القرآن، أو الطواشىّ الذى هو مسلّم إليه، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبا، أو أخلّ برسم، أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه، و بلغ من تأديبهم أن مقدّم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدّمى الطباق فى السحر، يشاور على مملوك أنه يغتسل من جنابة، فيبعث من يكشف عن سبب جنابته، إن كان من احتلام فينظر فى سراويله، هل فيه جنابة أم لا، فإن لم يجد به جنابة جاءه الموت من كلّ مكان، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، و قادة يجاهدون فى سبيل اللّه، و أهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل، و يردعون من جارة أو تعدّى، و كانت

لهم الإدرارات الكثيرة من اللحوم و الأطعمة و الحلاوات و الفواكه و الكسوات الفاخرة و المعاليم من الذهب و الفضة، بحيث تتسع أحوال غلمانهم، و يفيض عطاؤهم على من قصدهم.

ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق، راعى الحال فى ذلك بعض الشيء إلى أن زالت دولته فى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، فلما عاد إلى المملكة رخص للمماليك فى سكنى القاهرة، و فى التزوّج، فنزلوا من الطباق من القلعة و نكحوا نساء أهل المدينة، و اخلدوا إلى البطالة، و نسوا تلك العوائد، ثم تلاشت الأحوال فى أيام الناصر فرج بن برقوق، و انقطعت الرواتب من اللحوم و غيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم، و رتب لكلّ واحد منهم فى اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس، فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المصلوق، عجزا عن شراء اللحم و غيره، و هذا و بقى الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة و وقاد فى تنور خباز، و محوّل ماء فى غيط أشجار و نحو ذلك، و استقرّ رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم، بل يتركون و شؤونهم، فبدّلت الأرض غير الأرض، و صارت المماليك السلطانية أرذل الناس و أدناهم و أخسهم قدرا، و أشحهم نفسا، و أجهلهم بأمر الدنيا، و أكثرهم إعراضا عن الدين، ما فيهم إلّا من هو أزنى من قرد، و ألص من فأرة، و أفسد من ذئب، لا- جرم أن خربت أرض مصر و الشام، من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات، بسوء إبالة الحكام، و شدّة عبث الولاة، و سوء تصرّف أولى الأمر، حتى أنه ما من شهر إلّا و يظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه، و بلغت عدّة المماليك السلطانية فى أيام الملك المنصور قلاون ستة آلاف و سبعمائة، فأراد ابنه الأشرف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۴

خليل تكميل عدّتها عشرة آلاف مملوك، و جعلهم طوائف، فأفرد طائفتى الأرمن و الجركس و سماها البرجية لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة، فبلغت عدّتهم ثلاثة آلاف و سبعمائة، و أفرد جنس الخطا و القبجاق و أنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية و الزمرذية، و جعل منهم جمدارية و سقاة، و سماهم خاصكية، و عمل البرجية سلاحدارية و جمقدارية و جاشنكيرية و أوشاقية، ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاون بجلب المماليك من بلاد أزبك و بلاد توريز و بلاد الروم و بغداد، و بعث فى طلبهم و بذل الرغائب للتجار فى حملم إليه، و دفع فيهم الأموال العظيمة، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامّة الأصناف دفعة واحدة فى يوم واحد، و لم يراع عادة أبيه و من كان قبله من الملوك فى تنقل المماليك فى أطوار الخدم حتى يتدرب و يتمرّن، كما تقدّم، و فى تدريجه من ثلاثة دنانير فى الشهر إلى عشرة دنانير، ثم نقله من الجامكية إلى وظيفة من وظائف الخدمة، بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة، فأتاه من المماليك شيء كثير رغبة فيما لديه، حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذى يجلبه إلى مصر، و بلغ ثمن المملوك فى أيامه إلى مائة ألف درهم فما دونها، و بلغت نفقات المماليك فى كلّ شهر إلى سبعين ألف درهم، ثم تزايدت حتى صارت فى سنة ثمان و أربعين و سبعمائة مائتين و عشرين ألف درهم.

دار النيابة: كان بقلعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاون فى سنة سبع و ثمانين و ستمائة، سكنها الأمير حسام الدين طرنطاى، و من بعده من نوّاب السلطنة، و كانت النوّاب تجلس بشباكها حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و أبطل النيابة و أبطل الوزارة أيضا، فصار موضع دار النيابة ساحة، فلما مات الملك الناصر أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره فى نيابة السلطنة، فلم تكمل حتى قبض عليه، فولى نيابة السلطنة الأمير طشتمر حمص أخضر و قبض عليه، فتولى بعد نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آق سنقر فى أيام الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاون، فجلس بها فى يوم السبت أوّل صفر سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة فى شباك دار النيابة، و هو أوّل من جلس بها من النوّاب بعد تجديدها، و توارثها النوّاب بعده، و كانت العادة أن يركب جيوش مصر يومى الاثنين و الخميس فى الموكب تحت القلعة، فيسيرون هناك من رأس الصوة إلى باب القرافة، ثم تقف العسكر مع نائب السلطنة و ينادى على الخيل بينهم، و ربما نودى على كثير من آلات الجند و الخيم و الجركاوات و الأسلحة، و ربما نودى على كثير من العقار، ثم يطلعون إلى الخدمة السلطانية بالإيوان بالقلعة على ما تقدّم ذكره، فإذا

مثل النائب فى حضرة السلطان، وقف فى ركن الإيوان إلى أن تنقضى الخدمة، فيخرج إلى دار النيابة و الأمراء معه، و يمدّ السماط بين يديه كما يمدّ سماط السلطان، و يجلس جلوسا عاما للناس، و يحضره أرباب الوظائف، و تقف قدّامه الحجاب، و تقرأ القصص، و تقدّم إليه الشكاة، و يفصل أمورهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۵

فكان السلطان يكتفى بالنائب و لا يتصدّى لقراءة القصص عليه و سماع الشكوى، تعويلا منه على قيام النائب بهذا الأمر، و إذا قرئت القصص على النائب نظر، فإن كان مرسومه يكفى فيها أصدره عنه، و ما لا يكفى فيه إلّا مرسوم السلطان أمر بكتابته عن السلطان و أصدره، فيكتب ذلك و ينبه فيه على أنه بإشارة النائب، و يميز عن نوّاب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه بكافل المملكة الشريفة الإسلامية، و ما كان من الأمور التى لا بدّ له من إحاطة علم السلطان بها، فإنه إما أن يعلمه بذلك منه إليه وقت الاجتماع به، أو يرسل إلى السلطان من يعلمه به، و يأخذ رأيه فيه و كان ديوان الإقطاع، و هو الجيش فى زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عند النائب، و لا اجتماع إلّا به، و لا يجتمع ناظر الجيش بالسلطان فى أمر من الأمور، فلما أبطل الملك الناصر محمد بن قلاون النيابة، صار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان، و استمرّ ذلك بعد إعادة النيابة، و كان الوزير و كاتب السرّ يراجعان النائب فى بعض الأمور دون بعض، ثم اضمحلت نيابة السلطنة فى أيام الناصر محمد بن قلاون، و تلاشت أوضاعها، فلما مات أعيدت بعده و لم تزل إلى أثناء أيام الظاهر برقوق، و آخر من وليها على أكثر قوانينها الأمير سودون الشيخىّ، و بعده لم يل النيابة أحد فى الأيام الظاهرية، ثم إن الناصر فرج بن برقوق أقام الأمير تمراز فى نيابة السلطنة، فلم يسكن دار النيابة فى القلعة، و لا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب، و لم يل النيابة بعد تمراز أحد إلى يومنا هذا، و كانت حقيقة النائب أنه السلطان الثانى، و كانت سائر نوّاب الممالك الشامية و غيرها تكاتبه فى غالب ما تكاتب فيه السلطان، و يراجعونه فيه، كما يراجع السلطان، و كان يستخدم الجند و يخرج الإقطاعات من غير مشاورة، و يعين الأمر لكن بمشاورة السلطان، و كان النائب هو المتصرّف المطلق التصرّف فى كلّ أمر، فيراجع فى الجيش و المال و الخبر، و هو البريد، و كلّ ذى وظيفة لا يتصرّف إلّا بأمره، و لا يفصل أمرا معضلا إلّا مراجعته، و هو الذى يستخدم الجند و يرتب فى الوظائف إلّا ما كان منها جليلا كالوزارة و القضاء و كتابة السرّ و الجيش، فإنه يعرض على السلطان من يصلح، و كان قل أن لا يجاب فى شىء يعينه، و كان من عدا نائب السلطنة بديار مصر يليه فى رتبة النيابة، و كلّ نوّاب الممالك تخاطب بملك الأمراء إلّا نائب السلطنة بمصر فإنه يسمى كافل الممالك، تمييزا له و إبانة عن عظيم محله، و بالحقيقة ما كان يستحق اسم نيابة السلطنة بعد النائب بمصر سوى نائب الشام بدمشق فقط، و إنما كانت النيابة تطلق أيضا على أكابر نوّاب الشام، و ليس لأحد منهم من التصرّف ما كان لنائب دمشق، إلّا أن نيابة السلطنة بحلب تلى رتبة نيابة السلطنة بدمشق، و قد اختلت الآن الرسوم، و اتضعت الرتب، و تلاشت الأحوال، و عادت أسماء لا معنى لها، و خيالات حاصلها عدم. و اللّه يفعل ما يشاء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۶

ذكر جيوش الدولة التركية و زيّها و عوايدها

اشارة

اعلم أنه قد كان بقلعة الجبل مكان معدّ لديوان الجيش، و أدركت منه بقية إلى أثناء دولة الظاهر برقوق، و كان ناظر الجيش، و سائر كتاب الجيش لا يبرحون فى أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش، و كانت لهذا الديوان عوايد قد تغير أكثرها و نسى غالب رسومه، و كانت جيوش الدولة التركية بديار مصر على قسمين، منهم من هو بحضرة السلطان، و منهم من هو فى أقطار المملكة و

بلادها و سكان بادية كالعرب و التركمان.

و جندها مختلط من أتراك و جركس و روم و أكراد و تركمان، و غالبهم من المماليك المبتاعين، و هم طبقات، أكابرهم من له إمرة مائة فارس، و تقدمة ألف فارس، و من هذا القبيل تكون أكابر النوّاب، و ربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس و العشرين. ثم أمراء الطبلخاناه، و معظمهم من تكون له إمرة أربعين فارسا، و قد يوجد فيهم من له أزيد من ذلك إلى السبعين، و لا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين. ثم أمراء العشراوات، ممن تكون له إمرة عشرة، و ربما كان فيهم من له عشرون فارسا و لا يعدّون فى أمراء العشراوات. ثم جند الحلقة، و هؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان، كما أنّ مناشير الأمراء من السلطان، و أما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم، و كان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الإقطاع و لأجناده الثلثان، فلا يمكن الأمير و لا مباشروه أن يشاركوا أحدا من الأجناد فيما يخصهم إلّا برضاهم، و كان الأمير لا يخرج أحدا من أجناده حتى يتبين للنائب موجب يقتضى إخراجه، فحينئذ يخرجه نائب السلطان و يقيم عند الأمير عوضه، و كان لكل أربعين جنديا من جند الحلقة مقدّم عليهم، ليس له عليهم حكم إلّا إذا خرج العسكر لقتال، فكانت مواقف اوربعين مع مقدّمهم و ترتيبهم فى موقفهم إليه و يبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر أمراء المئنى المقدّمين من السلطان مائتى ألف دينار جيشية، و ربما زاد على ذلك، و أما غيرهم فدون ذلك، يعبر أقلها إلى ثمانين ألف دينار و ما حولها. و أمّا الطبلخاناه فمن ثلاثين ألف دينار إلى ثلاثة و عشرين ألف دينار، و أما العشراوات فأعلاها سبعة آلاف دينار إلى ما دونها، و أما إقطاعات أجناد الحلقة فأعلاها ألف و خمسمائة دينار، و هذا القدر و ما حوله إقطاعات أعيان مقدّمى الحلقة، ثم بعد ذلك الأجناد بابات، حتى يكون أدناهم مائتين و خمسين دينارا، و سيرد تفصيل ذلك إن شاء اللّه تعالى و أما إقطاعات جند الأمراء فإنها على ما يراه الأمير من زيادة بينهم و نقص.

و أما إقطاعات الشام فإنها لا تقارب هذا، بل تكون على الثلثين مما ذكرنا، ما خلا نائب السلطنة بدمشق فإنه يقارب إقطاعه أعلى إقطاعات أكابر أمراء مصر المقرّبين.

و جميع جند الأمراء تعرض بديوان الجيش و يثبت اسم الجندى و حليته، و لا يستبدل أميره به غير إلّا بتنزيل من عوّض به و عرضه.

و كانت للأمراء على السلطان فى كلّ سنة ملابس ينعم بها عليهم، و لهم فى ذلك حظ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۷

وافر، و ينعم على أمراء المئين بخيول مسرجة ملجمة، و من عداهم بخيول عرى، و يميز خاصتهم على عامتهم، و كان لجميع الأمراء من المئين و الطبلخاناه و العشراوات على السلطان الرواتب الجارية فى كلّ يوم، من اللحم و توابله كلها و الخبز، و الشعير لعليق الخيل، و الزيت.

و لبعضهم الشمع و السكّر و الكسوة فى كلّ سنة. و كذلك لجميع مماليك السلطان و ذوى الوظائف من الجند، و كانت العادة إذا نشأ لأحد الأمراء ولد، أطلق له دنانير و لحم و خبز و عليق، حتى يتأهل للإقطاع فى جملة الحلقة، ثم منهم من ينتقل إلى إمرة عشرة أو إلى إمرة طبلخاناه، بحسب الحظ، و اتفق للأميرين طرنطاى و كتبغا أنّ كلا منهما زوّج ولده بابنة الآخر، و عمل لذلك المهم العظيم، ثم سأل الأمير طرنطاى، و هو إذ ذاك نائب السلطان، الأمير بيلبك الأيدمرىّ و الأمير طيبرس أن يسألا السلطان الملك المنصور قلاون فى الإنعام على ولده و ولد الأمير كتبغابا قطاعين فى الحلقة، فقال لهما: و اللّه لو رأيتهما فى مصاف القتال يضربان بالسيف، أو كانا فى زحف قدّامى، أستقبح أن أعطى لهما أخبازا فى الحلقة، خشية أن يقال أعطى الصبيان الأخباز، و لم يجب سؤالهما هذا. و هم من قد عرفت.

لكن كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه اللّه، إذا مات الجندىّ أعطى إقطاعه لولده، فإن كان صغيرا رتب معه من يلى أمره حتى يكبر، فكان أجناده يقولون:

الإقطاعات أملاكنا يرثها أولادنا الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها. و به اقتدى كثير من ملوك مصر فى ذلك. و للأمراء المقدّمين

حوائص ذهب فی وقت الرکوب إلی المیدان، و لکلّ أمیر من الخواص علی السلطان مرتب من السکر و الحلوی فی شهر رمضان، و لسائرهم الأضحیة فی عید الأضحی علی مقادیر رتبهم، و لهم البرسیم لتربیع دوابهم، و یکون فی تلک المدجة بدل العلیق المرتب لهم، و کانت الخیول السلطانیة تفرّق علی الأمراء مرّتین فی کلّ سنة، مرّة عند ما یخرج السلطان إلی مرابط خیوله فی الربیع عند اکتمال تربیعها، و مرّة عند لعبه بالأکرة فی المیدان. و لخاصة السلطان المقرّبین زیادة کثیرة من ذلک، بحیث یصل إلی بعضهم فی السنة مائة فرس، و یفرّق السلطان أیضا الخیول علی الممالیک السلطانیة فی أوقات أخر، و ربما یعطی بعض مقدّمی الحلقة، و من نفق له فرس من الممالیک، یحضر من لحمه و الشهادة بأنه نفق، فیعطی بدله. و لخاصة السلطان المقرّبین أنعام من الإنعامات، کالعقارات و الأبنیة الضخمة التی ربما أنفق علی بعضها زیادة علی مائة ألف دینار، و وقع هذا فی الأیام الناصریة مرارا، کما ذکر عند ذکر الدول من هذا الکتاب، و لهم أیضا کساوی القماش المنوّع، و لهم عند سفرهم إلی الصید و غیره العلوفات و الأنزال، و کانت لهم آداب لا یخلّون بها، منها أنهم إذا أدخلوا إلی الخدمة بالإیوان أو القصر، وقف کلّ أمیر فی مکانه المعروف به، و لا یجسر أحد منهم و لا من الممالیک أن یحدّث رفیقه فی الخدمة و لا بکلمة واحدة، و لا یلتفت إلی نحوه أیضا، و لا یجسر أحد منهم و لا من الممالیک أن یجتمع بصاحبه فی نزهة و لا فی رمی النشاب و لا غیر ذلک، و من بلغ السلطان

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۳، ص: ۳۷۸

عنه أنه اجتمع بآخر نفاه أو قبض علیه.

و اختلف زی الأمراء و العساکر فی الدولة الترکیة، و قد بینا ما کان علیه زیّهم حتی غیره الملک المنصور قلاون عند ذکر سوق الشرابشیین، و صار زیهم إذا دخلوا إلی الخدمة، بالأقبیة التتریة و الکلاوات فوقها، ثم القباء الإسلامیّ فوقها، و علیه تشدّ المنطقة و السیف.

و یتمیز الأمراء و المقدّمون و أعیان الجند بلبس أقبیة قصیرة الأکمام فوق ذلک، و تکون أکمامها أقصر من القباء التحتانیّ، بلا تفاوت کبیر فی قصر الکمّ و الطول، و علی رؤوسهم کلهم کلوتات صغار غالبها من الصوف الملطیّ الأحمر، و تضرب و یلف فوقها عمائم صغار، ثم زادوا فی قدر الکلوتات و ما یلفّ فوقها فی أیام الأمیر بلبغا الخاصکیّ، القائم بدولة الأشرف شعبان بن حسین، و عرفت بالکلوتات الطرخانیة، و صاروا یسمون تلک الصغیرة ناصریة، فلما کانت أیام الظاهر برقوق بالغوا فی کبر الکلوتات، و عملوا فی شدّتها عوجا، و قیل لها کلوتات جرکسیة، و هم علی ذلک إلی الیوم. و من زیهم لبس المهماز علی الإخفاف، و یعمل المندیل فی الحیاصة علی الصولق من الجانب الأیمن، و معظم حوائص الممالیک فضة، و فیهم من کان یعملها من الذهب، و ربما عملت بالیشم و کانت حوائص أمراء المئین الأکابر، التی تخرج إلیهم مع الخلع السلطانیة من خزانة الخاص، یرصّع ذهبها بالجواهر. و کان معظم العسکر یلبس الطراز، و لا یکفت مهمازه بالذهب، و لا یلبس الطراز إلّا من له إقطاع فی الحلقة، و أما من هو بالحامکیة أو من أجناد الأمراء، فلا یکفت مهمازه بالذهب و لا یلبس طرازا، و کانت العساکر من الأمراء و غیرهم تلبس المنوّع من الکمخا و الخطای و الکبخی و المخمل و الإسکندرانیّ و الشرب و من النصافی و الأصواف الملوّنة. ثم بطل لبس الحریر فی أیام الظاهر برقوق، و اقتصروا إلی الیوم علی لبس الصوف الملوّن فی الشتاء، و لبس النصافی المصقول فی الصیف.

و کانت العادة أن السلطان یتولی بنفسه استخدام الجند، فإذا وقف قدّامه من یطلب الإقطاع المحلول، و وقع اختیاره علی أحد، أمر ناظر الجیش بالکتابة له، فیکتب ورقة مختصرة تسمی المثال، مضمونها حیز فلان کذا، ثم یکتب فوقه اسم المستقرّ له، و یناولها السلطان فیکتب علیها بخطه، یکتب و یعطیها الحاجب لمن رسم له، فیقبّل الأرض، ثم یعاد المثال إلی دیوان الجیش فیحفظ شاهدا عندهم، ثم تکتب مربعة مکملة بخطوط جمیع مباشری دیوان الإقطاع، و هم کتاب دیوان الجیش، فیرسمون علاماتهم علیها، ثم تحمل إلی دیوان الإنشاء و المکاتبات، فیکتب المنشور و یعلّم علیه السلطان کما تقدّم ذکره، ثم یکمل المنشور بخطوط کتاب دیوان الجیش بعد المقابلة علی حجة أصله.

و استجدّ السلطان الملك المنصور قلاون طائفة سمّاها البحرية، و هى أن البحرية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۹

الصالحية لما تشتتوا عند قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك، بقيت أولادهم بمصر فى حالة رذيلة، فعندما أفضت السلطنة إلى قلاون جمعهم و رتب لهم الجوامك و العليق و اللحم و الكسوة، و رسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة، و سمّاهم البحرية، و إلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية.

و أما البلاد الشامية، فليس للنائب بالمملكة مدخل فى تأمير أمير عوض أمير مات، بل إذا مات أمير سواء كان كبيرا أو صغيرا طولع السلطان بموته فأمّر عوضه، إما ممن فى حضرته و يخرجه إلى مكان الخدمة، أو ممن هو فى مكان الخدمة، أو ينقل من بلد آخر، من يقع اختياره عليه. و أما جند الحلقة فإنهم إذا مات أحدهم استخدم النائب عوضه، و كتب المثال على نحو من ترتيب السلطان، ثم كتب المربعة و جهزها مع البريد إلى حضرة السلطان فيقابل عليها فى ديوان الإقطاع، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها يكتب، فتكتب المربعة من ديوان الإقطاع، ثم يكتب عليها المنشور كما تقدّم فى الجند الذين بالحضرة، و إن لم يمضها السلطان أخرج الإقطاع لمن يريد. و من مات من الأمراء و الجند قبل استكمال مدّة الخدمة حوسب ورثته على حكم الاستحقاق، ثم إمّا يرتجع منهم أو يطلق لهم على قدر حصول العناية بهم، و إقطاعات الأمراء و الجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء، و منها ما هو نقد على جهات يتناولها منها، و لم يزل الحال على ذلك حتى راك الملك الناصر محمد بن قلاون البلاد كما تقدّم فى أوّل هذا الكتاب، عند الكلام على الخراج و مبلغه، فأبطل عدّة جهات من المكوس و صارت الإقطاعات كلها بلادا، و الذى استقرّ عليه الحال فى إقطاعات الديار المصرية مما رتبه الملك الناصر محمد بن قلاون فى الروك الناصرىّ، و هو عدة الجيوش المنصورة بالديار المصرية أربعة و عشرون ألف فارس، تفصيل ذلك: أمراء الألوف و مماليكهم ألفان و أربعمائة و أربعة و عشرون فارسا، تفصيل ذلك: نائب و وزير و ألوف خاصكية ثمانية أمراء، و ألوف خرجية أربعة عشر أميرا، و مماليكهم ألفان و أربعمائة فارس. أمراء طبلخاناه و مماليكهم ثمانية آلاف و مائتا فارس، تفصيل ذلك: خاصكية أربعة و خمسون أميرا، و خرجية مائة و ستة و أربعون أميرا، و مماليكهم ثمانية آلاف فارس.

كشاف و ولاة بالأقاليم خمسمائة و أربعة و سبعون، تفصيل ذلك: ثغر الإسكندرية واحد، و البحيرة واحد، و الغربية واحد، و الشرقية واحد، و المنوفيه واحد و قطيا واحد، و كاشف الجيزة واحد، و الفيوم واحد، و البهنسا واحد، و الأشمونين واحد، وقوص واحد، واسوان واحد، و كاسف الوجه البحرىّ واحد، و كاشف الوجه القبلىّ واحد. و مماليكهم خمسمائة و ستون. أمراء العشراوات و مماليكهم ألفان و مائتا فارس، تفصيل ذلك: خاصكية ثلاثون، و خرجية مائة و سبعون أميرا، و مماليكهم ألفان.

ولاة الأقاليم سبعة و سبعون أميرا، تفصيلهم: أشمون الرّمان واحد، و قليوب واحد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۰

و الجيزة واحد، و تروجا واحد، و حاجب الإسكندرية واحد، و اطفيح واحد، و منفلوط واحد، و مماليكهم سبعون فارسا.

مقدّموا الحلقة و الأجناد أحد عشر ألفا و مائة و ستة و سبعون فارسا، تفصيل ذلك:

مقدّموا المماليك السلطانية أربعون، مقدّموا الحلقة مائة و ثمانون، نقباء الألوف أربعة و عشرون نقيبا، مماليك السلطان و أجناد الحلقة عشرة آلاف و تسعمائة و اثنان و ثلاثون فارسا، تفصيل ذلك: مماليك السلطان ألفا مملوك، أجناد الخلقة ثمانية آلاف و تسعمائة و اثنان و ثلاثون فارسا.

عبرة ذلك الخاصكية، الألوف و النائب و الوزير، كلّ منهم مائة ألف دينار، و كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع ألف ألف درهم، بما فيه من ثمن الغلال، كلّ أردب واحد من القمح بعشرين درهما، و الحبوب كلّ أردب منها بعشرة دراهم، من ذلك الكلف مائة ألف درهم، و الخالص تسعمائة ألف درهم.

الألوف الخرجية، كلّ منهم خمسة و ثمانون ألف دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع ثمانمائة ألف و خمسون ألفا، بما فيه من

ثمن الغلال على ما شرح فيه، من ذلك الكلف سبعون ألف درهم، و الخالص لكلّ منهم سبعمائة و ثمانون ألف درهم.

الطبلخاناه الخاصكية، كلّ منهم أربعون ألف دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع أربعمائة ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه، من ذلك الكلف خمسة و ثلاثون ألف درهم، و الخالص لكلّ منهم ثلاثمائة و خمسة و ستون ألف درهم.

الطبلخاناه الخرجية ثلاثون ألف دينار، كلّ دينار ثمانية دراهم، الارتفاع مائتا ألف و أربعون ألف درهم، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلف أربعة و عشرون ألف درهم، و الخالص مائتا ألف و ستة عشر ألف درهم.

العشراوات الخاصكية كل منهم عشرة آلاف دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع مائة ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلف سبعة آلاف درهم، و الخالص لكلّ منهم ثلاثة و تسعون ألف درهم.

العشراوات الخرجية كلّ منهم سبعة آلاف دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع سبعون ألف درهم، بما فيه من ثمن الغلال، على ما شرح. من ذلك الكلف خمسة آلاف درهم، و الخالص لكلّ منهم خمسة و ستون ألف درهم.

الكشّاف لكلّ منهم عشرون ألف دينار، كلّ دينار ثمانية دراهم، الارتفاع مائة ألف و ستون ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلفة خمسة عشر ألف درهم، و الخالص مائة ألف و خمسة و أربعون ألف درهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۱

الولاة الاصطبلخاناه، كلّ منهم خمسة عشر ألف دينار، كلّ دينار ثمانية دراهم، الارتفاع مائة و عشرون ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلف عشرة آلاف درهم، و الخالص لكلّ منهم مائة ألف و عشرة آلاف درهم.

الولاة العشراوات، لكلّ منهم خمسة آلاف دينار، كلّ دينار سبعة دراهم، الارتفاع خمسة و ثلاثون ألف درهم، بما فيه من ثمن المغل على ما شرح، من ذلك الكلف ثلاثة آلاف درهم، و الخالص لكلّ منهم اثنان و ثلاثون ألف درهم.

مقدّمو مماليك السلطان، كلّ منهم ألف و مائتا دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع اثنا عشر ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلف ألف درهم، و الخالص لكلّ منهم أحد عشر ألف درهم.

مقدّموا الحلقة، كلّ منهم ألف دينار، كلّ دينار تسعة دراهم، الارتفاع تسعة آلاف درهم بما فيه من ثمن الغلال، من ذلك الكلف تسعمائة درهم، و الخالص لكلّ منهم ثمانية آلاف درهم و مائة درهم.

نقباء الألوف لكل منهم أربعمائة دينار، كلّ دينار تسعة دراهم، الارتفاع ثلاثة آلاف و ستمائة درهم، بما فيه من ثمن الغلال، من ذلك الكلف أربعمائة درهم، و الخالص لكلّ منهم ثلاثة آلاف و مائتا درهم.

مماليك السلطان ألفان، بابة أربعمائة مملوك، لكلّ منهم ألف و خمسمائة دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، عنها لأخمسة عشر ألف درهم، بابة خمسمائة مملوك، كل واحد ألف و ثلثمائة دينار، سعره عشرة دراهم، عنها ثلاثة عشر ألف درهم، بابة خمسمائة مملوك، لكل منهم ألف دينار و مائتا دينار، عنها اثنا عشر ألف درهم. بابة ستمائة مملوك، لكل واحد ألف دينار، عنها عشرة آلاف درهم.

اجناد الحلقة ثمانئة آلاف و تسعمائة و اثنان و ثلاثون فارسا، بابه ألف و خمسمائة فارس لكلّ منهم تسعمائة دينة بتسعة آلاف درهم، بابة ألف و ثلاثمائة و خمسين جنديا لكلّ منهم ثمانمائة دينار بثمانية آلاف درهم، بابة ألف و ثلاثمائة و خمسين جنديا كل منهم سبعمائة دينار عنها سبعة آلاف درهم. بابة ألف و ثلاثمائة جندىّ لكلّ منهم ستمائة دينار بستة آلاف درهم، بابة ألف و ثلاثمائة كلّ منهم بخمسمائة دينار بخمسة آلاف درهم. بابة ألف و مائة جندىّ لكلّ منهم أربعمائة دينار بأربعة آلاف درهم، بابة ألف و اثنين و ثلاثين جنديا لكل منهم ثلاثمائة دينار سعر عشرة دراهم عنها ثلاثة آلاف درهم.

و أرباب الوظائف من الأمراء بعد النيابة و الوزارة، أمير سلاح و الدوادار، و الحجبة، و أمير جاندار، و الاستادار، و المهندار، و نقيب الجيوش، و الولاة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۲

فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاون، حدث بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن إقطاعه لآخر بمال، أو مقايضة الإقطاعات بغيرها فكثر الدخيل فى الأجناد بذلك، و اشترت السوقة و الأراذل الإقطاعات، حتى صار فى زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف و صناعات، و خربت منهم أراضى إقطاعاتهم. و أوّل ما حدث ذلك أن السلطان الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاون، لما تسلطن فى شهر ربيع الآخر سنة ست و أربعين و سبعمائة، تمكن منه الأمير شجاع الدين أغرلوشادّ الدواوين، و استجدّ أشياء منها المقايضة بالإقطاعات فى الحلقة، و النزول عنها. فكان من أراد مقايضة أحد بإقطاعه، حمل كلّ منهما مالا لبيت المال يقرّر عليهما، و من اختار حيزا بالحلقة، يزن على قدر عبرته فى عبرته فى السنة دنانير يحملها لبيت المال، فإن كانت عبرة الحيز الذى يريده خمسمائة دينار فى السنة، حمل خمسمائة دينار، و من أراد النزول عن إقطاعه حمل مالا لبيت المال بحسب ما يقرّر عليه اغرلو، و أفرد لذلك و لما يؤخذ من طالبى الوظائف و الولايات ديوانا سمّاه ديوان البدل، و كان يعين فى المنشور الذى يخرج بالمقايضة، المبلغ الذى يقوم به كلّ من الجنديين، و كان ابتداء هذا فى جمادى الأولى من السنة المذكورة، فقام الأمراء فى ذلك مع السلطان حتى رسم بإبطاله، فلما ولى الأمير منجك اليوسفىّ الوزارة و سيره فى المال، فتح فى سنة تسع و أربعين باب النزول و المقايضات، فكان الجندىّ يبيع إقطاعه لكلّ من بذل له فيه مالا، فأخذ كثير من العامّة الإقطاعات، فكان يبذل فى الإقطاع مبلغ عشرين ألف درهم، و أقل منه على قدر متحصله، و للوزير رسم معلوم، ثم منع من ذلك، فلما كانت نيابة الأمير سيف الدين قيلاى فى سنة ثلاث و خمسين، مشى أحوال الأجناد فى المقايضات و النزولات، فاشترى الإقطاعات الباعة و أصحاب الصنائع، و بيعت تقادم الحلقة، و انتدب لذلك جماعة عرفت بالمهيسين بلغت عدّتهم نحو الثلاثمائة مهيس، و صاروا يطوفون على الأجناد و يرغبونهم فى النزول عن إقطاعاتهم أو المقايضة بها، و جعلوا لهم على كلّ ألف درهم مائة درهم، فلما فحش الأمر أبطل الأمير شيخون العمرى النزولات و المقايضات عندما استقرّ رأس نوبة، و استقل بتدبير أمور الدولة، و تقدّم لمباشرى ديوان الجيش أن لا يأخذوا رسم المنشور و المحاسبة سوى ثلاثة دراهم، بعد ما كانوا يأخذون عشرين درهما.

ذكر الحجبة

و كانت رتبة الحجبة فى الدولة التركية جليلة، و كانت تلى رتبة نيابة السلطنة، و يقال لأكبر الحجبة حاجب الحجاب. و موضوع الحجبة أن متوليها بنصف من الأمراء و الجند، تارة بنفسه و تارة بمشاورة السلطان و تارة بمشاورة النائب، و كان إليه تقديم من يعرض و من يردّ، و عرض الجند، فإن لم يكن نائب السلطنة فإنه هو المشار إليه فى الباب، و القائم مقام النوّاب فى كثير من الأمور، و كان حكم الحاجب لا يتعدّى النظر فى مخاصمات الأجناد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۳

و اختلافهم فى أمور الإقطاعات و نحو ذلك، و لم يكن أحد من الحجاب فيما سلف يتعرّض للحكم فى شىء من الأمور الشرعية، كتداعى الزوجين و أرباب الديون، و إنما يرجع ذلك إلى قضاة الشرع، و لقد عهدنا دائما أن الواحد من الكتاب أو الضمان و نحوهم، يفرّ من باب الحاجب و يصير إلى باب أحد القضاة و يستجير بحكم الشرع فلا يطمع أحد بعد ذلك فى أخذه من باب القاضى، و كان فيهم من يقيم الأشهر و الأعوام فى ترسيم القاضى حماية له من أيدى الحجاب، ثم تغير ما هنالك و صار الحاجب اليوم اسما لعدّة جماعة من الأمراء، ينتصبون للحكم بين الناس لا لغرض إلّا لتضمين أبوابهم بمال مقرّر فى كلّ يوم على رأس نوبة النقباء، و فيهم غيروا حد ليس لهم على الأمرة إقطاع، و إنما يرتزقون من مظالم العباد، و صار الحاجب اليوم يحكم فى كلّ جليل و حقير من الناس، سواء كان الحكم شرعيا أو سياسيا بزعمهم، و إن تعرّض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب، لم يمكّن من ذلك، و نقيب الحاجب اليوم مع رذالة الحاجب و سفالته، و تظاهره من المنكر بما لم يكن يعهد مثله، يتظاهر به أطراف

السوقة، فإنه يأخذ الغريم من باب القاضى و يتحكم فيه من الضرب و أخذ المال بما يختار، فلا ينكر ذلك أحد البتة، و كانت أحكام الحجاب أوّلا يقال لها حكم السياسة، و هى لفظة شيطانية لا يعرف أكثر أهل زمننا اليوم أصلها، و يتماهلون فى التلفظ بها و يقولون: هذا الأمر مما لا يمشى فى الأحكام الشرعية، و إنما هو من حكم السياسة، و يحسبونه هينا، و هو عند اللّه عظيم، و سأبين معنى ذلك، و هو فصل عزيز.

ذكر أحكام السياسة

اعلم أن الناس فى زمنا، بل و منذ عهد الدولة التركية بديار مصر و الشام، يرون أن الأحكام على قسمين: حكم الشرع، و حكم السياسة. و لهذه الجملة شرح، فالشريعة هى ما شرّع اللّه تعالى من الدين و أمر به، كالصلاة و الصيام و الحج و سائر أعمال البرّ، و اشتقّ الشرع من شاطىء البحر، و ذلك أن الموضع الذى على شاطىء البحر تشرع فيه الدواب، و تسميه العرب الشريعة، فيقولون للإبل إذا وردت شريعة الماء و شربت: قد شرع فلان إبله، و شرّعها، بتشديد الراء إذا أوردها شريعة لماء، و الشريعة و الشراع و الشرعة، المواضع التى ينحدر الماء فيها. و يقال: شرّع الدين يشرّعه شرعا بمعنى سنّه. قال اللّه تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً [الشورى/ ۱۳] و يقال: ساس الأمر سياسة، بمعنى قام به. و هو سائس من قوم ساسة و سوس، و سوّسه القوم. جعلوه يسوسهم، و السوس الطبع و الخلق، فيقال: الفصاحة من سوسه و الكرم من سوسه، أى من طبعه. فهذا أصل وضع السياسة فى اللغة. ثم رسمت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب و المصالح و انتظام الأحوال.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۴

و السياسة نوعان: سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهى من الأحكام الشرعية، علمها من علمها، و جهلها من جهلها. و قد صنف الناس فى السياسة الشرعية كتبا متعدّدة. و النوع الآخر سياسة ظالمة، فالشريعة تحرّمها و ليس ما يقوله أهل زماننا فى شىء من هذا، و إنما هى كلمة مغليّة، أصلها ياسه، فحرّفها أهل مصر و زادوا بأوّلها سينا فقالوا سياسة، و أدخلوا عليها الألف و اللام فظنّ من لا علم عنده أنها كلمة عربية، و ما الأمر فيها إلّا ما قلت لك.

و اسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر و الشام. و ذلك أن جنكز خان القائم بدولة التتر فى بلاد الشرق، لما غلب الملك أونك خان و صارت له دولة، قرّر قواعد و عقوبات أثبتها فى كاتب، سمّاه ياسه، و من الناس من يسميه يسق، و الأصل فى اسمه ياسه، و لما تمم وضعه كتب ذلك نقشا فى صفائح الفولاذ، و جعله شريعة لقومه فالتموه بعده حتى قطع اللّه دابرهم. و كان جنكز خان لا يتدين بشىء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره، فصار الياسه حكما بتّا بقى فى أعقابه لا يخرجون عن شىء من حكمه.

و أخبرنى العبد الصالح الداعى إلى اللّه تعالى، أبو هاشم أحمد بن البرهان، رحمه اللّه:

أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد، و من جملة ما شرعه جنكزخان فى الياسه أن: من زنى قتل، و لم يفرق بين المحصن و غير المحصن. و من لاط قتل، و من تعمّد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد، أو دخل بين اثنين و هما يتخاصمان و أعان أحد هما على الآخر قتل. و من بال فى الماء أو على الرماد قتل. و من أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة. و من أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل و من وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب و لم يردّه على من كان فى يده قتل. و أنّ الحيوان تكتّف قوائمه و يشقّ بطنه و يمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه. و أنّ من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح.

و من وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه و هو يكرّ أو يفرّ فى حالة القتال و كان وراءه أحد، فإنه ينزل و يناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل و لم يناوله قتل. و شرط أن لا يكون على أحد من ولد علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه مؤنة و لا كلفة، و أن لا يكون

على أحد من الفقراء و لا القرّاء و لا الفقهاء و لا الأطباء و لا من عداهم من أرباب العلوم و أصحاب العبادة و الزهد و المؤذنين و مغسلى الأموات كلفة و لا مؤنة، و شرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، و جعل ذلك كله قربة إلى اللّه تعالى، و ألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أوّلا، و لو أنه أمير، و من يناوله أسير. و ألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء و غيره يراه، بل يشركه معه فى أكله. و ألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه، و لا يتخطى أحد نارا و لا مائدة و لا الطبق الذى يؤكل عليه، و أنّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۵

من مرّ بقوم و هم يأكلون فله أن ينزل و يأكل معهم من غير إذنهم، و ليس لأحد منعه.

و ألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده فى الماء، و لكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به، و منعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى، و منه أن يقال لشيء أنه نجس، و قال: جميع الأشياء طاهرة، و لم يفرق بين طاهر و نجس. و ألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب، و منعهم من تفخيم الألفاظ و وضع الألقاب، و إنما يخاطب السلطان و من دونه و يدعى باسمه فقط، و ألزم القائم بعده بعرض العساكر و أسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال. و أنّه يعرض كلّ ما سافر به عسكره، و ينظر حتى الإبرة و الخيط، فمن وجده قد قصر فى شيء مما يحتاج إليه عند عرضه أياه عاقبه. و ألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر و الكلف فى مدّة غيبتهم فى القتال، و جعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان و يؤدّونها إليه. و ألزمهم عند رأس كلّ سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهنّ لنفسه و أولاده.

و رتب لعساكره أمراء و جعلهم أمراء ألوف و أمراء مئين و أمراء عشراوات، و شرّع أن أكبر الأمراء إذا أذنب و بعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين يدى الرسول و هو ذليل خاضع، حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة، و لو كانت بذهاب نفسه. و ألزمهم أن لا يتردّد الأمراء لغير الملك، فمن تردّد منهم لغير الملك قتل، و من تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل. و ألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة، و جعل حكم الياسه لولده جقتاى بن جنكز خان، فلما مات التزم من بعده من أولاده و أتباعهم حكم الياسه، كالتزام أوّل المسلمين حكم القرآن، و جعلوا ذلك دينا لم يعرف عن أحد منهم خالفته بوجه.

فلما كثرت وقائع التتر فى بلاد المشرق و الشمال و بلاد القبجاق، و أسروا كثيرا منهم و باعوهم، تنقلوا فى الأقطار، و اشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية، و منهم من ملك ديار مصر، و أوّلهم المعز أيبك. ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت، و هزم التتار و أسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر و الشام، ثم كثرت الوافدية فى أيام الملك الظاهر بيبرس و ملؤوا مصر و الشام، و خطب للملك بركة بن يوشى بن جنكز خان على منابر مصر و الشام و الحرمين، فغصت أرض مصر و الشام بطوائف المغل، و انتشرت عاداتهم بها و طرائقهم، هذا و ملوك مصر و أمراؤها و عساكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من جنكز خان و بنيه، و امتزج بلحمهم و دمهم مهابتهم و تعظيمهم، و كانوا إنما ربّوا بدار الإسلام و لقّنوا القرآن و عرفوا أحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق و الباطل، و ضموا الجيد إلى الردىء، و فوّضوا القاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة و الصوم و الزكاة و الحج، و ناطوبه أمر الأوقاف و الأيتام، و جعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية، كتداعى الزوجين و أرباب الديون و نحو ذلك، و احتاجوا فى ذات أنفسهم إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۶

الرجوع لعادة جنكز خان و الاقتداء بحكم الياسة، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم، و الأخذ على يد قويهم، و انصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى الياسة، و جعلوا إليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف فى أمور الإقطاعات، لينفذ ما استقرّت عليه أوضاع الديوان و قواعد الحساب، و كانت من أجلّ القواعد و أفضلها حتى تحكم القبط فى

الأموال و خراج الأراضى، فشرّعوا فى الديوان ما لم يأذن به اللّه تعالى، ليصير لهم ذلك سبيلا إلى أكل مال اللّه تعالى بغير حقه، و كان مع ذلك يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور.

هذا و ستر الحياء يومئذ مسدول، و ظلّ العدل صاف، و جناب الشريعة محترم، و ناموس الحشمة مهاب، فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق، و لا يخرج عن قضية الحياء، إن لم يكن له وازع من دين، كان له ناه من عقل. ثم تقلص ظلّ العدل، و سفرت أوجه الفجور، و كشّر الجور أنيابه، و قلت المبالاة، و ذهب الحياء و الحشمة من الناس، حتى فعل من شاء ما شاء، و تعدّت منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست و ثمانمائة الحجاب، و هتكوا الحرمة، و تحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى، و تسلطوا على الناس مقتا من اللّه لأهل مصر و عقوبة لهم بما كسبت أيديهم، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون.

و كان أوّل ما حكم الحجاب فى الدولة التركية بين الناس بمصر، أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاون، استدعى الأمير شمس الدين آق سنقر الناصرىّ، نائب طرابلس، ليوليه نيابة السلطنة بديار مصر عوضا عن الأمير سيف الدين بيغوا، أميرا حاجبا كبيرا، يحكم بين الناس، فخلع عليه فى جمادى الأولى سنة ست و أربعين و سبعمائة، فحكم بين الناس كما كان نائب السلطنة يحكم، و جلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال و نحوهم، فاستمرّ ذلك. ثم رسم فى جمادى الآخرة منها أن يكون الأمير رسلان يصل حاجبا مع بيغوا يحكم بالقاهرة على عادة الحجاب، فلما انقضت دولة الكامل بأخيه الملك المظفر حاجى بن محمد، استقرّ الأمير سيف الدين أرقطاى نائب السلطنة، فعاد أمر الحجاب إلى العادة القديمة، إلى أن كانت ولاية الأمير سيف الدين جرجى الحجابة فى أيام السلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاون، فرسم له أن يتحدّث فى أرباب الديون و يفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة، و لم تكن عادة الحجاب فيما تقدّم أن يحكموا فى الأمور الشرعية، و كان سبب ذلك و وقوف تجار العجم للسلطان بدار العدل فى أثناء سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، و ذكروا أنهم ما خرجوا من بلادهم إلّا لكثرة ما ظلمهم التتار و جاروا عليهم، و أن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدّة بضائع و أكلوا أثمانها، ثم هم يثبتون على يد القاضى الحنفىّ أعسارهم، و هم فى سجنه، و قد أفلس بعضهم فرسم للأمير جرجى بإخراج غرمائهم من السجن و خلاص ما فى قبلهم للتجار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۷

و أنكر على قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه التركمانىّ الحنفىّ ما عمله، و منع من التحدث فى أمر التجار و المدينين، فأخرج جرجى غرماء التجار من السجن و عاقبهم، حتى أخذ للتجار أموالهم منهم شيئا بعد شىء، و تمكن الحجاب من حينئذ من التحكم على الناس بما شاؤوا.

أمير جاندار: موضوع أمير جاندار، التسلم لباب السلطان، و لرتبة البرد دارية، و طوائف الركابية، و الحرامانية، و الجندارية. و هو الذى يقدم البريد إذا قدم مع الدوادار و كاتب السرّ، و إذا أراد السلطان تقرير أحد من الأمراء على شىء أو قتله بذنب، كان ذلك على يد أمير جاندار، و هو أيضا المتسلم للزردخاناه، و كانت أرفع السجون قدرا، و من اعتقل بها لا تطول مدّته بها، بل يقتل أو يخلى سبيله، و هو الذى يدور بالزفة حول السلطان فى سفره مساء و صباحا.

الأستادار: إليه أمر البيوت السلطانية كلها من المطابخ و الشراب خاناه و الحاشية و الغلمان، و هو الذى كان يمشى بطلب السلطان فى السرحات و الأسفار، و له الحكم فى غلمان السلطان و باب داره، و إليه أمور الجاشنكيرية. و إن كان كبيرهم نظيره فى الأمرة من ذوى المئين، و له أيضا الحديث المطلق و التصرّف التام فى استدعاء ما يحتاجه كلّ من فى بيت من بيوت السلطان من النفقات و الكساوى، و ما يجرى مجرى ذلك.

و لم تزل رتبة الأستادار على ذلك حتى كانت أيام الظاهر برقوق، فأقام الأمير جمال الدين محمود بن علىّ بن اصفر عيّنه استادارا و ناط به تدبير أموال المملكة، فتصرّف فى جميع ما يرجع إلى أمر الوزير و ناظر الخاص، و صارا يتردّدان إلى بابه و يمضيان الأمور برأيه، فجلت من حينئذ رتبة الأستادار، بحيث أنه صار فى معنى ما كان فيه الوزير فى أيام الخلفاء، سيما إذا اعتبرت حال الأمير جمال

الدين يوسف الاستادار فى أيام الناصر فرج بن برقوق، كما ذكرناه عند ذكر المدارس من هذا الكتاب، فإنك تجده إنما كان كالوزير العظيم، لعموم تصرّفه و نفوذ أمره فى سائر أحوال المملكة، و استقرّ ذلك لمن ولى الاستادارية من بعده، و الأمر على هذا إلى اليوم.

أمير سلاح: هذا الأمير هو مقدّم السلاحدارية، و المتولى لحمل سلاح السلطان فى المجامع الجامعة، و هو المتحدّث فى السلاح خاناه و ما يستعمل بها و ما يقدم إليها و يطلق منها، و هو أبدا من أمراء المئين.

الدوادار: و من عادة الدولة أن يكون بها من أمرائها من يقال له الدوادار، و موضوعه لتبليغ الرسائل عن السلطان، و ابلاغ عامّة الأمور، و تقديم القصص إلى السلطان، و المشاورة على من يحضر إلى الباب، و تقديم البريد هو أمير جاندار و كاتب السرّ، و هو الذى يقدم إلى السلطان كل ما تؤخذ عليه العلامة السلطانية من المناشير و التواقيع و الكتب، و كان يخرج عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۸

السلطان بمرسوم مما يكتب، فيعين رسالته فى المرسوم، و اختلفت آراء ملوك الترك فى الدوادار، فتارة كان من أمراء العشراوات و الطبلخاناه، و تارة كان من أمراء الألوف.

فلما كانت أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون، ولى الأمير اقتمر الحنلىّ وظيفة الدوادارية، و كان عظيما فى الدولة، فصار يخرج المراسيم السلطانية بغير مشاورة، كما يخرج نائب السلطنة، و يعين فى المرسوم إذ ذاك انه كتب برسالته، ثم نقل إلى نيابة السلطنة و أقام الأشرف عوضة الأمير طاش تمر الدوادار، و جعله من أكبر أمراء الألوف، فاقتدى به الملك الظاهر برقوق و جعل الأمير يونس الدوادار من أكبر أمراء الألوف، فعظمت منزلته و قويت مهابته، ثم لما عادت الدولة الظاهرية بعد زوالها، ولى الدوادارية الأمير بوطا، فتحكم تحكما زائدا عن المعهود فى الدوادارية، و تصرّف كتصرّف النوّاب، و ولّى و عزل و حكم فى القضايا المعضلة، فصار ذلك من بعده عادة لمن ولى الدوادارية، سيما لما ولى الأمير يشبك و الأمير حكم الدوادارية فى أيام الناصر فرج، فإنهما تحكمت فى جليل أمور الدولة و حقيرها، من المال و البريد و الأحكام و العزل و الولاية، و ما برح الحال على هذا فى الأيام الناصرية، و كذلك الحال فى الأيام المؤيدية يقارب ذلك.

نقابة الجيوش: هذه الرتبة كانت فى الدولة التركية من الرتب الجليلة، و يكون متوليها كأحد الحجاب الصغار، و له تحلية الجند فى عرضهم، و معه يمشى النقباء، فإذا طلب السلطان أو النائب أو حاجب الحجاب أميرا أو جنديا، كان هو المخاطب فى الإرسال إليه، و هو الملزوم بإحضاره، و إذا أمر أحد منهم بالترسيم على أمير أو جندىّ، كان نقيب الجيش هو الذى يرسم عليه، و كان من رسمه أنه هو الذى يمشى بالحراسة السلطانية فى الموكب حالة السرحة، و فى مدّة السفر، ثم انحطت اليوم هذه الرتبة، و صار نقيب الجيش عبارة عن كبير من النقباء المعدّين لترويع خلق اللّه تعالى، و أخذ أموالهم بالباطل على سبيل القهر، عند طلب أحد إلى باب الحاجب، و يضيفون إلى أكلهم أموال الناس بالباطل افتراءهم على اللّه تعالى بالكذب، فيقولون على المال الذى يأخذونه باطلا هذا حق الطريق، و الويل لمن نازعهم فى ذلك، و هم أحد أسباب خراب الإقليم كما بين فى موضعه من هذا الكتاب، عند ذكر الأسباب التى أوجبت خراب الإقليم.

الولاية: و هى التى يسميها السلف الشرطة، و بعضهم يقول صاحب العسس، و العسس الطواف بالليل لتتبع أهل الريب يقال: عس يعس عسا و عسسا. و أوّل من عس بالليل عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه، أمره أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه بعس المدينة. خرّج أبو داود عن الأعمش عن زيد قال: أتى عبد اللّه بن مسعود فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا، فقال عبد اللّه رضى اللّه عنه: إنّا قد نهينا عن التجسس، و لكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به. و ذكر الثعلبىّ عن زيد بن وهب أنه قال: قيل لابن مسعود رضى اللّه عنه، هل لك فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۹

الوليد بن عتبة تقطر لحيته خمرا؟ فقال: إنّا قد نهينا عن التجسس، فإن ظهر لنا شىء نأخذ به، و كان عمر رضى اللّه عنه يتولى فى

خلافته العسس بنفسه، و معه مولاه أسلم رضى اللّه عنه، و كان ربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف رضى اللّه عنه.

قاعة الصاحب: و كانت وظيفة الوزارة أجلّ رتب أرباب الأقلام، لأنّ متوليها ثانى السلطان إذ أنصف و عرف حقه، إلّا أن ملوك الدولة التركية قدّموا رتبة النيابة على الوزارة، فتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها، و وليها فى الدولة التركية أناس من أرباب السيوف و أناس من أرباب الأقلام، فصار الوزير إذا كان من أرباب الأقلام يطلق عليه اسم الصاحب، بخلاف ما إذا كان من أرباب السيوف فإنه لا يقال له الصاحب، و أصل هذه الكلمة فى إطلاقها على الوزير، أنّ الوزير إسماعيل بن عباد كان يصحب مؤيد الدولة أبا منصور بويه بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمىّ، صاحب بلاد الرّىّ، و كان مؤيد الدولة شديد الميل إليه و المحبة له، فسماه الصاحب، و كان الوزير حينئذ أبو الفتح علىّ بن العميد يعاديه لشدّة تمكنه من مؤيد الدولة، فتلقب الوزراء بعد ابن عباد بالصاحب، و لا أعلم أحدا من وزراء خلفاء بنى العباس، و لا وزراء الخلفاء الفاطميين قيل له الصاحب، و قد جمعت فى وزراء الإسلام كتابا جليل القدر، و أفردت وزراء مصر فى تصنيف بديع، و الذى أعرف، أنّ الوزير صفىّ الدين عبد اللّه بن شكر وزير العادل و الكامل من ملوك مصر من بنى أيوب، كان يقال له الصاحب، و كذلك من بعده من وزراء مصر إلى اليوم.

و كان وضع الوزير أنّه أقيم لنفاذ كلمة السلطان و تمام تصرّفه، غير أنها انحطت عن ذلك بنيابة السلطنة، ثم انقسم ما كان للوزير إلى ثلاثة هم: الناظر فى المال، و ناظر الخاص، و كاتب السرّ، فإنه يوقع فى دار العدل ما كان يوقع فيه الوزير بمشاورة و استقلال.

ثم تلاشت الوزارة فى أيام الظاهر برقوق بما أحدثه من الديوان المفرد، و ذلك أنه لما ولى السلطنة أفرد إقطاعه لما كان أميرا قبل سلطنته، و جعل له ديوانا سمّاه الديوان المفرد، و أقام فيه ناظرا و شاهدين و كتابا، و جعل مرجع هذا الديوان إلى الأستادار، و صرف ما يتحصل منه فى جوامكك مماليكك استجدّها شيئا بعد شىء حتى بلغت خمسة آلاف مملوك، و أضاف إلى هذا الديوان كثيرا من أعمال الديار المصرية، و بذلك قوى جانب الاستادار، و ضعفت الوزارة حتى صار الوزير قصار نظره التحدّث فى أمر المكوس، فيستخرجها من جهاتها و يصرفها فى ثمن اللحم و حوايج المطبخ و غير ذلك، و لقد كان الوزير الصاحب سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ يقول: الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش، يشترى اللحم و الحطب و حوايج الطعام، و ناظر الخاص غلام صلف يشترى الحرير و الصوف و النصافى و السنجاب، و أمّا ما كان للوزراء و نظار الخاص فى القديم فقد بطل، و لقد صدق فيما قال، فإنّ الأمر على هذا.

و ما رأينا الوزارة من بعد انحطاط رتبتها يرتفع قدر متوليها إلّا إذا أضيفت إلى الأستادارية، كما وقع للأمير جمال الدين يوسف الأستادار، و الأمير فخر الدين عبد الغنىّ بن أبى الفرج.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۰

و أما من ولى الوزارة بمفردها، سيما من أرباب الأقلام، فإنما هو كاتب كبير يتردّد ليلا و نهارا إلى باب الأستادار، و يتصرّف بأمره و نهيه، و حقيقة الوزارة اليوم أنها انقسمت بين أربعة و هم: كاتب السرّ، و الأستادار، و ناظر الخاص، و الوزير. فأخذ كاتب السرّ من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات و العزل و نحو ذلك فى دار العدل و فى داره. و أخذ الأستادار التصرّف فى نواحى أرض مصر، و التحدّث فى الدواوين السلطانية، و فى كشف الأقاليم، و ولاة النواحى، و فى كثير من أمور أرباب الوظائف، و أخذ ناظر الخاص جانبا كبيرا من الأموال الديوانية السلطانية، ليصرفها فى تعلقات الخزانة السلطانية، و بقى للوزير شىء يسير جدّا من النواحى، و التحدّث فى المكوس، و بعض الدواوين، و مصارف المطبخ السلطانى و السواقى، و أشياء أخر، و إليه مرجع ناظر الدولة، و شادّ الدواوين، و ناظر بيت المال، و ناظر الأهراء و مستوفى الدولة، و ناظر الجهات، و أمّا ناظر البيوت و ناظر الإصطبلات، فإنه أمرهما يرجع إلى غيره. و اللّه أعلم.

نظر الدولة: هذه الوظيفة يقال لمتوليها ناظر النظار، و يقال له ناظر المال، و هو يعرف اليوم بناظر الدولة، و تلى رتبته رتبة الوزارة، فإذا غاب الوزير و تعطلت الوزارة من وزير، قام ناظر الدولة بتدبير الدولة، و تقدّم إلى شادّ الدواوين بتحصيل الأموال و صرفها فى النفقات

و الكلف، و اقتصر الملك الناصر محمد بن قلاون على ناظر الدولة مدّة أعوام من غير تولية وزير، و مشّى أمور الدولة على ذلك حتى مات، و لا بدّ أن يكون مع ناظر الدولة مستوفون يضبطون كلّيّات المملكة و جزئياتها، و رأس المستوفين مستوفى الصحبة، و هو يتحدّث فى سائر المملكة مصرا و شاما، و يكتب مراسيم يعلّم عليها السلطان، فتكون تارة بما يعمل فى البلاد، و تارة بالإطلاقات، و تارة باستخدام كتّاب فى صغار الأعمال، و من هذا النحو و ما يجرى مجراه. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۳ ؛ ص ۳۹۰

وان النظر: و هى وظيفة جليلة تلى نظر الدولة، و بقية المستوفين كلّ منهم حديثه مقيد، لا يتعدّى حديثه قطرا من أقطار المملكة، و هذا الديوان، أعنى ديوان النظر، هو أرفع دواوين المال، و فيه تثبت التواقيع و المراسيم السلطانية، و كلّ ديوان من دواوين المال إنما هو فرع هذا الديوان، و إليه يرفع حسابه و تتناهى أسبابه، و إليه يرجع أمر الاستيمار الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأقلام و غيرهم. مياومة و مشاهرة و مسانهة من الرواتب، و كانت أرزاق ذوى الأقلام مشاهرة من مبلغ عين و غلة، و كان لأعيانهم الرواتب الجارية فى اليوم من اللحم بتوابله أو غير توابله، و الخبز و العليق لدوابهم، و كان لأكابرهم السكر و الشمع و الزيت و الكسوة فى كلّ سنة و الأضحية، و فى شهر رمضان السكر و الحلوى، و أكثرهم نصيبا الوزير، و كان معلومه فى الشهر مائتين و خمسين دينارا جيشية، مع الأصناف المذكورة و الغلة، و تبلغ نظير المعلوم. ثم ما دون ذلك من المعلوم لمن عدا الوزير و ما دون دونه، و كان معلوم القضاة و العلماء أكثره خمسون دينارا فى كلّ شهر، مضافا لما بيدهم من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۱

المدارس التى يستدرون من أوقافها، و كان أيضا يصرف على سبيل الصدقات الجارية و الرواتب الدارة على جهات، ما بين مبلغ و غلة و خبز و لحم و زيت و كسوة و شعير، هذا سوى الأرض من النواحى التى يعرف المرتب عليها بالرزق الإحباسية، و كانوا يتوارثون هذه المرتبات ابنا عن أب، و يرثها الأخ عن أخيه، و ابن العم عن ابن العمّ، بحيث أنّ كثيرا ممن مات و خرج ادراره من مرتبة لأجنبىّ، لما جاء قريبه و قدّم قصته يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه، أعيد إليه ذلك المرتب ممن كان خرج باسمه.

نظر البيوت: كان من الوظائف الجليلة، و هى وظيفة متوليها منوط بالأستادار، فكلّ ما يتحدّث فيه أستادار السلطان فإنه يشاركه فى التحدّث، و هذا كان أيام كون الأستادار و نظره لا يتعدّى بيوت السلطان، و ما تقدّم ذكره، فأما منذ عظم قدر الأستادار و نفذت كلمته فى جمهور أموال الدولة، فإن نظر البيوت اليوم شىء لا معنى له.

نظر بيت المال: كان وظيفة جليلة معتبرة، و موضوع متوليها التحدّث فى حمول المملكة مصرا و شاما إلى بيت المال بقلعة الجبل، و فى صرف ما ينصرف منه، تارة بالوزن، و تارة بالتسبيب بالأقلام، و كان أبدا يصعد ناظر بيت المال و معه شهود بيت المال و صيرفىّ بيت المال و كاتب المال إلى قلعة الجبل، و يجلس فى بيت المال، فيكون له هناك أمر و نهى و حال جليلة لكثرة الحمول الواردة، و خروج الأموال المصروفة فى الرواتب لأهل الدولة، و كانت أمرا عظيما، بحيث أنها بلغت فى السنة نحو أربعمائة ألف دينار، و كان لا يلى نظر بيت المال إلا من هو من ذوى العدالات المبرزة، ثم تلاشى المال و بيت المال، و ذهب الاسم و المسمّى، و لا يعرف اليوم بيت المال من القلعة، و لا يدرى ناظر بيت المال من هو.

نظر الإصطبلات: هذه الوظيفة جليلة القدر إلى اليوم، و موضوعها الحديث فى أموال الإصطبلات و المناخات و عليقها و أرزاق من فيها من المستخدمين، و ما بها من الاستعمالات و الإطلاق، و كل ما يبتاع لها أو يبتاع بها، و أوّل من استجدّها الملك الناصر محمد بن قلاون، و هو أوّل من زاد فى رتبة أمير اخور و اعتنى بالأوجاقية و العرب الركابة، و كان أبوه المنصور قلاون يرغب فى خيل برقة أكثر من خيل العرب، و لا يعرف عنه أنه اشترى فرسا بأكثر من خمسة آلاف درهم، و كان يقول خيل برقة نافعة، و خيل العرب زينة، بخلاف الناصر محمد، فإنه شغف باستدعاء الخيول من عرب آل مهنا و آل فضل و غيرهم، و بسببها كان يبالغ فى إكرام العرب و يرغبهم فى أثمان خيولهم حتى خرج عن الحدّ فى ذلك، فكثرت رغبة آل مهنا و غيرهم فى طلب خيول من عداهم من العربان، و

تتبعوا عتاق الخيل من مظانها، و سمحوا بدفع الأثمان الزائدة على قيمتها حتى أتتهم طوائف العرب بكرائم خيولهم، فتمكنت آل مهنا من السلطان و بلغوا فى أيامه الرتب العلية، و كان لا يحب خيول برقة، و إذا أخذ منها شيئا أعدّه للتفرقة على الأمراء البرّانيين، و لا يسمح بخيول آل مهنا إلّا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۲

لأعز الأمراء و أقرب الخاصكية منه، و كان جيد المعرفة بالخيل، شياتها و أنسابها، لا يزال يذكر أسماء من أحضرها إليه و مبلغ ثمنها، فلما اشتهر عنه ذلك جلب إليه أهل البحرين و الحساء و القطيف و أهل الحجاز و العراق كرائم خيولهم، فدفع لهم فى الفرس من عشرة آلاف درهم إلى عشرين إلى ثلاثين ألف درهم، عنها ألف و خمسمائة مثقال من الذهب، سوى ما ينعم به على مالكه من الثياب الفاخرة له و لنسائه، و من السكر و نحوه، فلم تبق طائفة من العرب حتى قادت إليه عتاق خيلها، و بلغ من رغبة السلطان فيها أنه صرف فى أثمانها دفعة واحدة من جهة كريم الدين ناظر الخاص ألف ألف درهم فى يوم واحد، و تكرّر هذا منه غير مرّة، و بلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا السنتين ألف درهم و السبعين ألف درهم، و اشترى كثيرا من الحجور بالثمانين ألفا و التسعين ألفا، و اشترى بنت الكرشاء بمائة ألف درهم، عنها خمسة آلاف مثقال من الذهب، هذا سوى الإنعامات بالضياع من بلاد الشام، و كان من عنايته بالخيل لا- يزال يتفقدها بنفسه، فإذا أصيب منها فرس أو كبر سنه بعث به إلى الجشار ، و تنزى الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه، و كتّاب الإصطبل تؤرّخ تاريخ نزوها، و اسم الحصان، و الحجرة، فتوالدت عنده خيول كثيرة اغتنى بها عن الجلب، و مع ذلك فلم تكن عنده فى منزلة ما يجلب منها، و بهذا ضخمت سعادة آل مهنا و كثرت أموالهم و ضياعهم، فعزّ جانبهم و كثر عددهم و هابهم من سواهم من العرب، و بلغت عدّة خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس، و كان يعرضها فى كلّ سنة و يدوّغ أولادها بين يديه و يسلمها للعربان الركابة، و ينعم على الأمراء الخاصكية بأكثرها، و يتبجح بها و يقول: هذه فلانة بنت فلان، و هذا فلان بن فلانة، و عمره كذا، و شراء أم هذا كذا و كذا، كان لا يزال يؤكد على الأمراء فى تضمير الخيول، و يلزم كلّ أمير أن يضمر أربعة أفراس، و يتقدّم لأمير اخور أن يضمر للسلطان عدّة منها و يوصيه بكتمان خبرها، ثم يشيع أنها لأيدغمش أمير اخور، و يرسلها مع الخيل فى حلبة السباق خشية أن يسبقها فرس أحد من الأمراء فلا يحتمل ذلك، فإنه ممن لا يطيق شيئا ينقص ملكه، و كان السباق فى كلّ سنة بميدان القبق، ينزل بنفسه و تحضر الأمراء بخيولها المضمرة، فيجريها و هو على فرسه حتى تنقضى نوبها، و كانت عدّتها مائة و خمسين فرسا فما فوقها، فاتفق أنه كان عند الأمير قطلو بغا الفخرىّ حصان أدهم سبق خيل مصر كلها فى ثلاث سنين متوالية أيام السباق، و بعث إليه الأمير مهنا فرسا شهباء على أنها إن سبقت خيل مصر فهى للسلطان، و إن سبقها فرس ردّت إليه و لا يركبها عند السابق إلّا بدوىّ قادها، فركب السلطان للسباق فى أمرائه على عادته و وقف معه سليمان و موسى ابنا مهنا، و أرسلت الخيول من بركة الحاج على عادتها و فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۳

فرس مهنا، و قد ركبها البدوىّ عريا بغير سرج، فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى و هى عرى بغير سرج، و البدوىّ عليها بقميص و طاقية، فلما وقفت بين يدى السلطان صاح البدوىّ: السعادة لك اليوم يا مهنا، لا شقيت. فشق على السلطان أن خيله سبقت، و أبطل التضمير من خيله، و صارت الأمراء تضمر على عادتها، و مات الناصر محمد عن أربعة آلاف و ثمانمائة فرس، و ترك زيادة على خمسة آلاف من الهجن الأصائل و النوق المهريات و القرشيات، سوى أتباعها. و بطل بعده السباق، فلما كانت أيام الظاهر برقوق عنى بالخيل أيضا و مات عن سبعة آلاف فرس و خمسة عشر ألف جمل.

ديوان الإنشاء: و كان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ديوان الإنشاء، يجلس فيه كاتب السرّ، و عنده موقعو الدرج و موقعو الدست فى أيام المواكب طول النهار، و يحمل إليهم من المطبخ السلطانىّ المطاعم، و كانت الكتب الواردة و تعليق ما يكتب من الباب السلطانىّ موضوعة بهذه القاعة، و أنا جلست بها عند القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه العمرىّ أيام مباشرتى التوقيع السلطانىّ،

إلى نحو السبعين و السبعمائة، فلما زالت دولة الظاهر برقوق ثم عادت اختلت أمور كثيرة منها أمر قاعة الإنشاء بالقلعة، و هجرت و أخذ ما كان فيها من الأوراق، و بيعت بالقنطار، و نسى رسمها، و كتابة السرّ رتبة قديمة، و لها أصل فى السنّة، فقد خرّج أبو بكر عبد اللّه بن أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانىّ فى كتاب المصاحف من حديث الأعمش، عن ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت رضى اللّه عنه قال: قال لى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «إنها تأتينى كتب لا أحب أن يقرأها كلّ أحد، فهل تستطيع أن تعلّم كتاب العبرانية أو قال السريانية» فقلت نعم. قال: فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة، و لم يزل خلفاء الإسلام يختارون لكتابة سرّهم الواحد بعد الواحد، و كان موضوع كتابة السرّ فى الدولة التركية على ما استقرّ عليه الأمر فى أيام الناصر محمد بن قلاون، أنّ لمتوليها المسمى بكاتب السرّ و بصاحب ديوان الإنشاء، و من الناس من يقول ناظر ديوان الإنشاء، قراءة الكتب الواردة على السلطان و كتابة أجوبتها، إما بخطه أو بخط كتاب الدست أو كتاب الدرج بحسب الحال، و له تفسير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها، و له تصريف المراسيم ورودا و صدورا، و له الجلوس بين يدى السلطان بدار العدل لقراءة القصص و التوقيع عليها بخطه فى المجلس. فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة، و صار إليه التحدّث فى مجلس السلطان عند عقد المشورة و عند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم، و له التوسط بين الأمراء و السلطان فيما يندب إليه عند الاختلاف أو التدبير، و إليه ترجع أمور القضاة و مشايخ العلم و نحوهم فى سائر المملكة مصرا و شاما، فيمضى من أمورهم ما أحب و يشاور السلطان فيما لا بدّ من مشاورته فيه، و كانت العادة أن يجلس تحت الوزير، فلما عظم، تمكن القاضى فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ من الدولة، جلس فوق الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم البشيرى، فاستمرّ ذلك لمن بعده و رتبة كاتب السرّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۴

أجلّ الرتب، و ذلك أنها منتزعة من الملك.

فإن الدولة العباسية صار خلفاؤها فى أوّل أمرهم منذ عهد أبى العباس السفاح إلى أيام هارون الرشيد يستبدّون بأمورهم، فلما صارت الخلافة إلى هارون ألقى مقاليد الأمور إلى يحيى بن جعفر البرمكىّ، فصار يحيى يوقع على رقاع الرافعين بخطه فى الولايات و إزالة الظلامات و إطلاق الأرزاق و العطيات، فجلّت لذلك رتبته، و عظمت من الدولة مكانته، و كان هو أوّل من وقع من وزراء خلفاء بنى العباس، و صار من بعده من الوزراء يوقعون على القصص كما كان يوقع، و ربما انفرد رجل بديوان السرّ و ديوان الترسل، ثم أفردت فى أخريات دولة بنى العباس و استقلّ بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزراء، و كانوا ببغداد يقال لهم كتاب الإنشاء، و كبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء، و يطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء، و تارة كاتب السرّ، و مرجع هذا الديوان إلى الوزير، و كان يقال له الديوان العزيز، و هو الذى يخاطبه الملوك فى مكاتبات الخلفاء. و كان فى الدولة السلجوقية يسمى ديوان الإنشاء بديوان الطغرا، و إليه ينسب مؤيد الدين الطغرائى و الطغراهى طرّة المكتوب، فيكتب أعلى من البسملة بقلم غليظ القاب الملك، و كانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير و الكتب، و يستغنى بها عن علامة السلطان، و هى لفظة فارسية، و فى بلاد المغرب يقال لرئيس ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلى، و أما مصر فإنه كان بها فى القديم لما كانت دار إمارة ديوان البريد، و يقال لمتوليه صاحب البريد، و إليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدى أصحاب البريد من الكتب، و هو الذى يطالع بأخبار مصر، و كان لأمراء مصر كتاب ينشئون عنهم الكتب و الرسائل إلى الخليفة و غيره، فلما صارت مصر دار خلافة كان القائد جوهر يوقع على قصص الرافعين إلى أن قدم المعز لدين اللّه، فوقع و جعل أمر الأموال و ما يتعلق بها إلى يعقوب بن كلس، و عسلوج بن الحسن، فوليا أموال الدولة، ثم فوّض العزيز بالله أمر الوزارة ليعقوب بن كلس، فاستبدّ بجميع أحوال المملكة، و جرى مجرى يحيى بن جعفر البرمكىّ، و كان يوقع.

و مع ذلك ففى أمراء الدولة من يلى البريد، و جرى الأمر فيما بعد على أن الوزراء يوقعون، و قد يوقع الخليفة بيده، فلما كانت أيام المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر و صرف أبا جعفر محمد بن جعفر بن المغربىّ عن وزارته، أفرد له ديوان الإنشاء فوليه مدّة طويلة، و أدرك أيام أمير الجيوش بدر الجمالىّ، و صار يلى ديوان الإنشاء بعده الأكابر إلى أن انقرضت الدولة، و هو بيد القاضى

الفاضل عبد الرحيم بن عليّ البيسانى، فاقتدت بهم الدولة الأيوبية، ثم الدولة التركية فى ذلك، و صار الأمر على هذا إلى اليوم، و صار متولى رتبة كتابة السرّ أعظم أهل الدولة، إلّا أنه فى الدولة التركية يكون معه من الأمراء واحد يقال له الدوادار، منزلته منزلة صاحب البريد فى الزمن الأوّل، و منزلة كاتب السرّ منزلة صاحب ديوان الإنشاء، إلّا أنّه يتميز بالتوقيع على القصص، تارة بمراجعة السلطان و تارة بغير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۵

مراجعة، فلذلك يحتاج إليه سائر أهل الدولة من أرباب السيوف و الأقلام، و لا يستغنى عن حسن سفارته نائب الشام، فمن دونه، و للّه الأمر كله.

و أما فى الدولة الأيوبية فإن كتاب الدرج كانوا فى الدولة الكاملية قليلين جدا و كانوا فى غاية الصيانة و النزاهة و قلة الخلطة بالناس، و اتفق أنّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير كان من جملتهم، فسمع الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه أنه يحضر فى السماعات، فصرفه من ديون الإنشاء و قال: هذا الديوان لا يحتمل مثل هذا. و كانت العادة أن لا يحضر كتاب الإنشاء الديوان يوم الجمعة، فعرض للملك الصالح فى بعض أيام الجمع شغل مهم، فطلب بعض الموقعين فلم يجد أحدا منهم، فقيل له أنهم لا يحضرون يوم الجمعة، فقال: استخدموا فى الديوان كاتبا نصرانيا يقعد يوم الجمعة لمهم يطرأ، فاستخدم الأمجد بن العسال كاتب الدرج لهذا المعنى.

نظر الجيش: قد تقدّم أنّه كان يجلس بالقلعة دواوين الجيش فى أيام الموكب، و تقدّم فى ذكر الإقطاعات و ذكر النيابة ما يدل على حال متولى نظر الجيش، و لا بدّ مع ناظر الجيش أن يكون من المستوفين، من يضبط كليّات المملكة و جزئياتها فى الإقطاعات و غيرها.

نظر الخاص: هذه الوظيفة و إن كان لها ذكر قديم من عهد الخلفاء الفاطميين، فإن متوليها لم يبلغ من جلالة القدر ما بلغ إليه فى الدولة التركية، و ذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاون لما أبطل الوزارة، و أقام القاضى كريم الدين الكبير فى وظيفة نظر الخاص، صار متحدّثا فيما هو خاص بمال السلطان، يتحدّث فى مجموع الأمر الخاص بنفسه، و فى القيام بأخذ رأيه فيه، فبقى تحدّثه فيه و بسببه كأنه هو الوزير، لقربه من السلطان و زيادة تصرّفه. و إلى ناظر الخاص التحدّث فى الخزانة السلطانية، و كانت بقلعة الجبل، و كانت كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة، و كان نظر الخزانة منصبا جليلا، إلى أن استحدثت وظيفة نظر الخاص فضعف أمر نظر الخزانة، و أمر الخزانة أيضا، و صارت تسمى الخزانة الكبرى، و هو اسم أكبر من مسماه، و لم يبق بها إلّا خلع يخلع منها أو ما يحضر إليها و يصرف أوّلا فأوّلا، و صار نظر الخزانة مضافا إلى ناظر الخاص، و كان الرسم أن لا يلى نظر الخزانة إلّا القضاة أو من يلحق بهم، و ما برحت الخزانة بقلعة الجبل حتى عملها الأمير منطاش سجنا لمماليك الظاهر برقوق، فى سنة تسعين و سبعمائة، فتلاشت من حينئذ و نسى أمرها، و صارت الخلع و نحوها عند ناظر الخاص فى داره، و كانت لأهل الدولة فى الخلع عوايد و هم على ثلاثة أنواع، أرباب السيوف و الأقلام و العلماء، فأما أرباب السيوف فكانت خلع أكابر أمراء المئين الأطلس الأحمر الرومىّ، و تحته الأطلس الأصفر الرومىّ، و على الفوقانىّ طرز زركش ذهب، و تحته سنجاب، و له سجف من ظاهره، مع الغشاء قندس و كلوتة زركش بذهب و كلاليب ذهب و شاش لانس رفيع موصول به، فى طرفيه حرير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۶

أبيض مرقوم بألقاب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملوّن، مع منطقة ذهب، ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرهم، فأعلاها ما عمل بين عمدها بواكر وسطى و مجنبتان بالبلخس و الزمرّد و اللؤلؤ، ثم ما كان ببيكارية واحدة مرصعة، ثم ما كان ببيكارية واحدة غير مرصعة. و أما من تقلد ولاية كبيرة منهم فإنه يزاد سيفا محلى بذهب يحضر من السلاح خاناه، و يحليه ناظر الخلوص، و يزاد فرسا مسرجا ملجما بكنبوش ذهب، و الفرس من الإصطبل، و قماشه من الركاب خاناه، و مرجع العمل فى سروج الذهب و الكنابيش إلى ناظر الخاص.

و كان رسم صاحب حماه من أعلى هذه الخلع، و يعطى بدل الشاش اللانس شاش من عمل الإسكندرية حرير شبيه بالطول، و ينسج بالذهب يعرف بالمثمر، و يعطى فرسين أحد هما كما ذكر و الآخر يكون عوض كنبوشه زنارى أطلس أحمر، و كانت لنائب الشام على ما استقرّ فى أيام الناصر محمد بن قلاون مثل هذا، وزيد لتنكر تركيبة زركش ذهب دائرة بالقباء الفوقانىّ.

و دون هذه الرتبة فى الخلع نوع يسمّى طرزوحش، يعمل بدار الطراز التى كانت بالإسكندرية و بمصر و بدمشق، و هو مجوّخ جاخات كتابة بألقاب السلطان، و جاخات طرزوحش، و جاخات ألوان ممتزجة بقصب مذهب، يفصل بين هذه الجاخات نقوش و طراز، هذا يكون من القصب، و ربما كبر بعضهم فركب عليه طرازا مزركشا بالذهب، و عليه فرو سنجاب و قندس كما تقدّم، و تحت القباء الطرزوحش قباء من المقترح الإسكندرانى الطرح، و كلوتة زركش بكلاليب و شاش على ما تقدّم، و حياصة ذهب، فتارة تكون ببيكارية و تارة لا يكون بها بيكارية، و هذه لأصاغر أمراء المئين و من يلحق بهم.

و دون هذه الرتبة فى الخلع، كمخا عليه نقش من لون آخر غير لونه، و قد يكون من نوع لونه بتفاوت بينهما، و تحته سنجاب بقندس، و البقية كما تقدّم، إلا أن الحياصة و الشاش لا يكونان بأطراف رقم، بل تكون مجوّخة بأخضر و أصفر مذهب، و الحياصة لا تكون ببيكارية.

و دون هذه المرتبة، كمخا تكون واحدة بسنجاب مقندس، و البقية على ما ذكر، و تكون الكلوتة خفيفة الذهب، و جانباها يكاد أن يكونان خاليين بالجملة، و لا حياصة له.

و دون هذه الرتبة، مجوّم، لون واحد، و البقية على ما ذكر خلا الكوتة و الكلاليب.

و دون هذه الرتبة مجوم مقندس، و هو قباء ملوّن بجاخات من أحمر و أخضر و أزرق و غير ذلك من الألوان، بسنجاب و قندس و تحته قباء إمّا أزرق أو أخضر، و شاش أبيض بأطراف من نسبة ما تقدّم ذكره، ثم دون هذا من هذا النوع.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۷

و أما الوزراء و الكتاب فأجلّ ما كانت خلعهم الكمخا الأبيض المطرّز برقم حرير ساذج، و سنجاب مقندس، و تحته كمخا أخضر و بقيار، كان من عمل دمياط مرقوم، و طرحه. ثم دون هذه الرتبة عدم السنجاب، بل يكون القندس بدائر الكمين و طول الفرج، و دونها ترك الطرحة، و دونها أن يكون التحتانىّ مجوما و دون هذا أن يكون الفوقانىّ من الكمخا لكنه غير أبيض، و دونه أن يكون الفوقانىّ مجوما أبيض، و دونه أن يكون تحته عنابىّ.

و أما القضاة و العلماء فإن خلعهم من الصوف بغير طراز، و لهم الطرحة، و أجلّهم أن يكون أبيض و تحته أخضر، ثم ما دون ذلك و كانت العادة أن أهبة الخطباء و هى السواد تحمل إلى الجوامع من الخزانة، و هى دلق مدوّر و شاش أسود و طرحة سوداء و علمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب، و ثياب المبلغ قدّام الخطيب مثل ذلك خلا الطرحة، و كانت العادة إذا خلقت الأهبة المذكورة أعيدت إلى الخزانة و صرف عوضها، و كانت للسلطان عادات بالخلع: تارة فى ابتداء سلطنته، و تشمل حينئذ الخلع سائر أرباب المملكة، بحيث خلع فى يوم واحد عند إقامة الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاون ألف و مائتا تشريف فى وقت لعبه بالكرة، على أناس جرت عوايدهم بالخلع فى ذلك الوقت، كالجوكندارية و الولاة، و من له خدمة فى ذلك. و تارة فى أوقات الصيد عند ما يسرح، فإذا حصل أحد شيئا مما يصيده خلع عليه، و إذا أحضر أحد إليه غزالا أو نعاما خلع عليه قباء مسجفا مما يناسب خلعة مثله على قدره، و كذلك يخلع على البزدارية و جملة الجوارح و من يجرى مجراهم عند كلّ صيد. و كانت العادة أيضا أن ينعم على غلمان الطشت خاناه و الشراب خاناه و الفراش خاناه و من يجرى مجراهم فى كلّ سنة عند أوان الصيد.

و كانت العادة أن من يصل إلى الباب من البلاد أو يرد عليه أو يهاجر من مملكة أخرى إليه أن ينعم عليه مع الخلع بأنواع الإدرارات و الأرزاق و الإنعامات، و كذلك التجار الذين يصلون إلى السلطان و يبيعون عليه لهم مع الخلع الرواتب الدائمة من الخبز و اللحم و التوابل و الحلوى و العليق و المسامحات، بنظير كلّ ما يباع من الرقيق المماليك و الجوارى، مع ما يسامحون به أيضا من حقوق أخرى

تطلق، و كلّ واحد من التجار إذا باع على السلطان و لو رأسا واحدا من الرقيق، فله خلعة مكملة بحسبه خارجا عن الثمن و عما ينعم به عليه، أو يسفر به من مال السبيل على سبيل القرض ليتاجر به.

و أما جلّابة الخيل من عرب الحجاز و الشام و البحرين و برقة و بلاد المغرب، فإن لهم الخلع و الرواتب و العلوفات و الأنزال و رسوم الإقامات، خارجا عن مسامحات تكتب لهم بالمقرّرات عن تجارة يتجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول، و كان يثمّن الفرس بأزيد من قيمته، حتى ربما بلغ ثمنه على السلطان الذى يأخذه محضره نظير قيمته عليه عشر مرّات،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۸

غير الخلع و سائر ما ذكر، و لم يبق اليوم سوى ما يخلع على أرباب الدولة، و قد استجدّ فى الأيام الظاهرية، و كثر فى أيام الناصر فرج نوع من الخلع يقال له الجبة، يلبسه الوزير و نحوه من أرباب الرتب العلية، جعلوا ذلك ترفعا عن لبس الخلعة، و لم تكن الملوك تلبس من الثياب إلا المتوسط، و تجعل حوائصها بغير ذهب، فلم تزد حياصة الناصر محمد على مائة درهم فضة، و لم يزد أيضا سقط سرجه على مائة درهم فضة على عباءة صوف تدمرى أو شامى. فلما كانت دولة أولاده بالغوا فى الترف و خالفوا فيه عوايد أسلافهم، ثم سلك الظاهر برقوق فى ملابسه بعض ما كان عليه الملوك الأكابر لا كله، و ترك لبس الحرير.

الميدان بالقلعة: هذا الميدان من بقايا ميدان أحمد بن طولون الذى تقدّم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب، ثم بناه الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة إحدى عشرة و ستمائة، و عمر إلى جانبه بركا ثلاثا لسقيه و أجرى الماء إليها، ثم تعطل هذا الميدان مدّة، فلما قام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر محمد بن الكامل محمد اهتم به، ثم اهتم به الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل اهتماما زائدا، و جدّد له ساقية أخرى، و أنشأ حوله الأشجار، فجاء من أحسن شىء يكون إلى أن مات، فتلاشى أمر الميدان بعده و هدمه الملك المعز أيبك سنة إحدى و خمسين و ستمائة. و عفت آثاره. فلما كانت سنة اثنتى عشرة و سبعمائة ابتدأ الملك الناصر محمد بن قلاون عمارته، فاقتطع من باب الإصطبل إلى قريب باب القرافة، و أحضر جميع جمال الأمراء فنقلت إليه الطين حتى كساه كله، و زرعه و حفر به الآبار و ركب عليها السواقى، و غرس فيه النخل الفاخر و الأشجار المثمرة، و أدار عليه هذا السور الحجر الموجود الآن، و بنى حوضا للسبيل من خارجه، فلما كمل ذلك نزل إليه و لعب فيه الكرة مع أمرائه و خلع عليهم، و استمرّ يلعب فيه يومى الثلاثاء و السبت، و صار القصر الأبلق يشرف على هذا الميدان، فجاء ميدانا فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائه، و إذا ركب السلطان إليه نزل من درج تلى قصره الجوّانى، فينزل السلطان إلى الإصطبل الخاص، ثم إلى هذا الميدان و هو راكب و خواص الأمراء فى خدمته، فيعرض الخيول فى أوقات الإطلاقات و يلعب فيه الكرة، و كان فيه عدّة أنواع الوحوش المستحسنة المنظر، و كانت تربط به أيضا الخيول للتفسح، و فى هذا الميدان يصلى السلطان أيضا صلاة العيدين، و يكون نزوله إليه فى يوم العيد، و صعوده من باب خاص من دهليز القصر غير المعتاد النزول منه، فإذا ركب من باب قصره و نزل إلى منفذه من الإصطبل إلى هذا الميدان، ينزل فى دهليز سلطانىّ قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة، فيصلّى و يسمع الخطبة، ثم يركب و يعود إلى الإيوان الكبير و يمدّ به السماط و يخلع على حامل القبة و الطير و على حامل السلام و الاستادار و الجاشنكير و كثير من أرباب الوظائف، و كانت العادة أن تعدّ للسلطان أيضا خلعة العيد، على أنه يلبسها كما كانت العادة فى أيام الخلفاء، فينعم بها على بعض أكابر أمراء المئين، و لم يزل الحال على هذا إلى أن كانت سنة ثمانمائة، فصلّى الملك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۹

الظاهر برقوق صلاة عيد النجر بجامع القلعة، لتخوّفه بعد واقعة الأمير على باى، فهجر الميدان و استمرّت صلاة العيد بجامع القلعة من عامئذ طول الأيام الناصرية و المؤيدية.

الحوش: ابتدئ العمل فيه على أيام الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، و كان قياسه أربعة فدادين، و كان موضعه بركة عظيمة قد قطع ما فيها من الحجر لعمارة قاعات القلعة، حتى صارت غورا كبيرا، و لما شرع فى العمل، رتب على كلّ

أمير من أمراء المئين مائة رجل و مائة بهيمة، لنقل التراب برسم الردم، و على كلّ أمير من أمراء الطبلخاناه بحسبه، و ندب الأمير أقبغا عبد الواحد شاد العمل، فحضر من عند كلّ من الأمراء أستاداره و معه جنده ودوا به للعمل، و أحضر الأسارى، و سخّر والى القاهرة و والى مصر الناس، و أحضرت رجال النواحى، و جلس أستاذار كلّ أمير فى خيمة و وزع العمل عليهم بالأقصاب، و وقف الأمير أقبغا يستحث الناس فى سرعة العمل، و صار الملك الناصر يحضر فى كلّ يوم بنفسه، فنال الناس من العمل ضرر زائد، و أخرق أقبغا بجماعة من أماثل الناس، و مات كثير من الرجال فى العمل لشدّة العسف و قوّة الحرّ، و كان الوقت صيفا، فانتهى عمله فى ستة و ثلاثين يوما، و أحضر إليه من بلاد الصعيد و من الوجه البحرىّ ألفى رأس غنم و كثيرا من الأبقار البلق لتوقف فى هذا الحوض، فصار مراح غنم و مربط بقر، و أجرى الماء إلى هذا الحوش من القلعة، و أقام الأغنام حوله، و تتبع فى كلّ المراحات من عيذاب وقوص إلى ما دونهما من البلاد، حتى يؤخذ ما بهما من الأغنام المختارة، و جلبها من بلاد النوبة و من اليمن، فبلغت عدّتها بعد موته ثلاثين ألف رأس سوى اتباعها، و بلغ البقل الأخضر الذى يشترى لفراخ الإوز فى كلّ يوم خمسين درهما، عنها زيادة على مثقالين من الذهب.

فلما كانت أيام الظاهر برقوق عمل المولد النبوىّ بهذا الحوض فى أوّل ليلة جمعة من شهر ربيع الأوّل فى كلّ عام، فإذا كان وقت ذلك ضربت خيمة عظيمة بهذا الحوض، و جلس السلطان و عن يمينه شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصر البلقينىّ، و يليه الشيخ المعتقد إبراهيم برهان الدين بن محمد بن بهادر بن أحمد بن رفاعة المغربىّ، و يليه ولد شيخ الإسلام، و من دونه و عن يسار السلطان الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن سلامة التوزرىّ المغربىّ، و يليه قضاة القضاة الأربعة، و شيوخ العلم، و يجلس الأمراء على بعد من السلطان، فإذا فرغ القرّاء من قراءة القرآن الكريم، قام المنشدون واحدا بعد واحد، و هم يزيدون على عشرين منشدا، فيدفع لكلّ واحد منهم صرّة فيها أربعمائة درهم فضة، و من كلّ أمير من أمراء الدولة شقة حرير، فإذا انقضت صلاة المغرب مدّت أسمطة الأطعمة الفائقة، فأكلت و حمل ما فيها، ثم مدّت أسمطة الحلوى السكرية من الجوارشات و العقائد و نحوها، فتؤكل و تخطفها الفقهاء، ثم يكون تكميل إنشاد المنشدين و وعظهم إلى نحو ثلث الليل، فإذا فرغ المنشدون قام القضاة و انصرفوا، و أقيم السماع بقية الليل،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۰

و استمرّ ذلك مدّة أيامه، ثم أيام ابنه الملك الناصر فرج.

ذكر المياه التى بقلعة الجبل

و جميع مياه القلعة من ماء النيل، تنقل من موضع إلى موضع حتى تمرّ فى جميع ما يحتاج إليه بالقلعة، و قد اعتنى الملوك بعمل السواقى التى تنقل الماء من بحر النيل إلى القلعة عناية عظيمة، فأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة أربع سواق على بحر النيل، تنقل الماء إلى السور، ثم من السور إلى القلعة. و عمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر بيبرس بجوار زاوية تقىّ الدين رجب، التى بالرميلة تحت القلعة إلى بئر الإصطبل. فلما كانت سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، عزم الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان إلى الجبل الأحمر المطلّ على القاهرة، ليسوق الماء إلى الميدان الذى عمله بالقلعة، و يكون حفر الخليج فى الجبل، فنزل لكشف ذلك و معه المهندسون، فجاء قياس الخليج طولا اثنين و أربعين ألف قصبة، فيمرّ الماء فيه من حلوان حتى يحاذى القلعة، فإذا حاذاها بنى هناك خبايا تحمل الماء إلى القلعة، ليصير الماء بها غزيرا كثيرا دائما صيفا و شتاء لا ينقطع، و لا يتكلف لحلمه و نقله، ثم يمرّ من محاذاة القلعة حتى ينتهى إلى الجبل الأحمر فيصبّ من أعلاه إلى تلك الأرض حتى تزرع، و عند ما أراد الشروع فى ذلك طلب الأمير سيف الدين قطاوبك بن قراسنقر الجاشنكير، أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق، بعد ما فرغ من بناء القناة و ساق العين إلى القدس، فحضر و معه الصناع الذين عملوا قناة عين بيت المقدس على خيل البريد إلى قلعة الجبل، فأنزلوا، ثم أقيمت لهم الجرايات و الرواتب و توجهوا إلى حلوان، و وزنوا مجرى الماء و عادوا إلى السلطان و صوّبوا رأيه فيما قصد و التزموا بعمله،

فقال: كم تريدون؟ قالوا: ثمانين ألف دينار. فقال: ليس هذا بكثير.

فقال: كم تكون مـدّة العمل فيه حتى يفرغ؟ قالوا: عشـر سـنين. فاسـتكثر طول المدّة. و يقال أنّ الفخر ناظر الجيش هو الذى حسن لهم أن يقولوا هذه المدّة، فإنه لم يكن من رأيه عمل هذا الخليج، و ما زال يخيل للسـلطان من كثرة المصروف عليه و من خراب القرافة ما حمله على صـرف رأيه عن العمـل، و أعـاد قطلوبـك و الصـناع إلى دمشـق، فمـات قطلوبـك عقيب ذلـك فى سـنة تسع و عشـرين و سبعمائة فى ربيع الأوّل.

فلمـا كـانت سـنة إحـدى و أربعين و سـبعمائة، اهتم الملـك الناصـر بسوق المـاء إلى القلعـة و تكثيره بها لأجل سـقى الأشـجار و ملء الفسـاقى، و لأجـل مراحـات الغنم و الأبقار، فطلب المهندسـين و البنائين و نزل معهم و سار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل إلى القلعـة، حتى انتهى إلى الساحـل، فـأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقـة، فيجتمع الماء من بئرين و يصـير ماء واحدا يجرى إلى القلعة، فيسـقى الميدان و غيره، فعمل ذلك، ثم أحبّ الزيادة فى الماء أيضا، فركب و معه المهندسون إلى بكرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۱

الجيش، و أمر بحفر خليج صـغير يخرج من البحر و يمرّ إلى حائط الرصد، و ينقر فى الحجر تحت الرصد عشـر آبار يصبّ فيها الخليج المـذكور، و يركّب على الآبـار السواقى لتنقل الماء إلى القناطر العتيقـة التى تحمل الماء إلى القلعـة. زيادة لمائها، و كان فيما بين أوّل هـذا المكان الـذى عيّن لحفر الخليـج و بين آخره تحت الرشـد، أملاك كثيرة. و عدّة بساتين، فندب الأمير أقبغا عبد الوحد لحفر هذا الخليج و شـراء الأملاك من أربابها، فحفر الخليج و أجراه فى وسط بسـتان الصاحب بهاء الدين بن حنا، و قطع أنشابه و هدم الدور، و جمع عامّـة الحجارين لقطع الحجر، و نقر الآبار، و صار السـلطان يتعاهـد النزول للعمل كلّ قليل، فعمل عمق الخليـج من فم البحر أربع قصـبات، و عمق كلّ بئر فى الحجر أربعين ذراعا، فقدّر اللّه تعالى موت الملك الناصـر قبر تمام هذا العمل، فبطل ذلك و انطمّ الخليج بعـد ذلـك، و بقيت منه إلى اليوم قطعـة بجوار رباط الآثار، و ما زالت الحائط قائمـة من حجر فى غايـة الإتقان من إحكام الصـناعة. و جودة البناء عند سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد، قائما من الأرض فى طول الجرف إلى أعلاه، حتى هدمه الأمير يلبغا السالمىّ فى سـنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، و أخذ ما كان به من الحجر فرمّ به القناطر التى تحمل إلى اليوم حتى يصل إلى القلعة، و كانت تعرف بسواقى السلطان، فلما هدمت جهل أكثر الناس أمرها و نسوا ذكرها.

المطبـخ: كان أوّلا موضـعه فى مكان الجامع، فأدخله السـلطان الملك الناصـر محمد بن قلاون فيما زاده فى الجامع، و بنى هذا المطبخ الموجود الآن، و عمل عقوده بالحجارة خوفا من الحريق، و كانت أحوال المطبخ متسعة جدا سيما فى سلطنة الأشرف خليل بن قلاون، فإنه تبسط فى المآكل و غيرها، حتى لقد ذكر جماعة من الأعيان أنهم أقاموا مدّة سـفرهم معه يرسلون كلّ يوم عشرين درهما فيشترى لهم بها مما يأخذه الغلمان، أربع خوافق صينى مملوءة طعاما مفتخرا بالقلوبات و نحوها، فى كلّ خافقية ما ينيف على خمسة عشر رطل لحم، أو عشـرة أطيـار دجار سـمان، و بلغ راتب الحوايـج خاناه فى أيام الملك العادل كتبغا كلّ يوم عشـرين ألف رطل لحم، و راتب البيوت و الجرايات غير أرباب الرواتب فى كلّ يوم سـبعمائة أردب قمحا، و اعتبر القاضى شرف الدين عبد الوهاب النشو ناظر الخاص أمر المطبـخ السـلطانىّ فى سـنة تسع و ثلاثين و سـبعمائة، فوجد عدّة الدجاج الذى يذبح فى كلّ يوم للسـماط و المخاطى التى تخص السلطان و يبعث بها إلى الأمراء سبعمائة طائر، و بلغ مصروف الحوايج خاناه فى كلّ يوم ثلاثة عشر ألف درهم، فأكثر أولاد الناصر من مصـروفها حتى توقفت أحوال الدولـة فى أيـام الصالـح إسـماعيل، و كتبت أوراق بكلف الدولـة فى سـنة خمس و أربعين و سـبعمائة، فبلغت فى السـنة ثلاثين ألف ألف درهم، و منها مصروف الحوايج خاناه فى كلّ يوم اثنان و عشرون ألف درهم. و بلغ فى أيام الناصر محمـد بن قلاـون راتب السـكّر فى شـهر رمضان خاصـة من كل سـنة، ألف قنطار، ثم تزايـد حتى بلغ فى شـهر رمضان سـنة خمس و أربعين و سبعمائة ثلاثة آلاف قنطار، عنها ستمائة ألف درهم، عنها ثلاثون ألف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۲

دينار مصرية، و كان راتب الدور السلطانية فى كل يوم من أيام شهر رمضان ستين قنطارا من الحلوى برسم التفرقة للدور و غيرها، و كانت الدولة قد توقفت أحوالها فوفر من المصروف فى كلّ يوم أربعة آلاف رطل لحم، و ستمائة كماجة سميذ، و ثلاثمائة أردب من الشعير، و مبلغ ألفى درهم فى كلّ شهر و أضيف إلى ديوان الوزارة سوق الخيل و الدواب و الجال، و كانت بيد عدّة أجناد عوّضوا عنها إقطاعات بالنواحى.

و اعتبر فى سنة ست و أربعين و سبعمائة متحصل الحاج علىّ الطباخ، فوجد له على المعاملين فى كل يوم خمسمائة درهم، و لابنه أحمد فى كلّ يوم ثلاثمائة درهم سوى الأطعمة المفتخرة و غيرها، و سوى ما كان يتحصّل له فى عمل المهمات مع كثرتها، و لقد تحصل له من ثمن الروس و الأكارع و سقط الدجاج و الأوز فى مهم عمله للأمير بكتمر الساقى، ثلاثة و عشرون ألف درهم، عنها نحو ألفين و مائتى دينار، فأوقعت الحوطة عليه و صودر، فوجد له خمسة و عشرون دارا على البحر و فى عدّة أماكن. و اعتبر مصروف الحوائج خاناه فى سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، فكان فى كلّ يوم اثنين و عشرين ألف رطل من اللحم.

أبراج الحمام: كان بالقلعة أبراج برسم الحمام التى تحمل البطائق، و بلغ عدّتها على ما ذكره ابن عبد الظاهر فى كتاب تمائم الحمائم، إلى آخر جمادى الآخرة سنة سبع و ثمانين و ستمائة، ألف طائر و تسعمائة طائر، و كان بها عدّة من المقدّمين، لكلّ مقدّم منهم جزء معلوم، و كانت الطيور المذكورة لا تبرح فى الأبراج بالقلعة، ما عدا طائفة منها فإنها فى برج بالبرقية خارج القاهرة، يعرف ببرج الفيوم، رتبه الأمير فخر الدين عثمان بن قزل أستادار الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و قيل له برج الفيوم، فإن جميع الفيول كانت فى إقطاع ابن قزل، و كانت البطائق ترد إليه من الفيوم، و يبعثها من القاهرة إلى الفيوم من هذا البرج، فاستمرّ هذا البرج يعرف بذلك. و كان بكلّ مركز حمام فى سائر نواحى المملكة مصرا و شاما، ما بين أسوان إلى الفرات، فلا تحصى عدّة ما كان منها فى الثغور و الطرقات الشامية و المصرية، و جميعها تدرج و تنقل من القلعة إلى سائر الجهات، و كان لها بغال الحمل من الإصطبلات السلطانية، و جاميكات البرّاجين و العلوفات تصرف من الأهراء السلطانية، فتبلغ النفقة عليها من الأموال ما لا يحصى كثرة، و كانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع ويبة فول فى كلّ يوم، و كانت العادة أن لا تحمل البطاقة إلّا فى جناح الطائر، لأمور منها حفظ البطاقة من المطر و قوّة الجناح، ثم إنهم عملوا البطاقة فى الذنب، و كانت العادة إذا بطق من قلعة الجبل إلى الإسكندرية فلا يسرّح الطائر إلّا من منية عقبة بالجيزة، و هى أوّل المراكز، و إذا سرّح إلى الشرقية لا يطلق إلّا من مسجد تبر خارج القاهرة، و إذا سرّح إلى دمياط لا يسرّح إلّا من ناحية بيسوس، و كان يسير مع البرّاجين من يوصلهم إلى هذه الأماكن من الجاندارية، و كذلك كانت العادة فى كلّ مملكة يتوخى الإبعاد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۳

فى التسريح عن مستقر الحمّام، و القصد بذلك أنها لا ترجع إلى أبراجها من قريب، و كان يعمل فى الطيور السلطانية علائم، و هى داغات فى أرجلها أو على مناقيرها، و يسميها أرباب الملعوب الاصطلاح، و كان الحمام إذا سقط بالبطاقة لا يقطع البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطة، و كانت لهم عناية شديدة بالطائر، حتى أن السلطان إذا كان يأكل و سقط الطائر لا يمهل حتى يفرغ من الأكل، بل يحل البطاقة و يترك الأكل، و هكذا إذا كان نائما لا يمهل بل ينبه.

قال ابن عبد الظاهر: و هذا الذى رأينا عليه ملوكنا، و كذلك فى الموكب و فى لعب الأكرة، لأنه بلمحة يفوت و لا يستدرك المهم العظيم، إمّا من واصل أو هارب، و إمّا من متجدّد فى الثغور. قال: و ينبغى أن تكتب البطائق فى ورق الطير المعروف بذلك، و رأيت الأوائل لا يكتبون فى أولها بسملة، و تؤرّخ بالساعة و اليوم لا بالسنين، و أنا أورخها بالسنة، و لا يكثر فى نعوت المخاطب فيها، و لا يذكر حشو فى الألفاظ، و لا يكتب إلّا لبّ الكلام و زبدته، و لا بدّ و أن يكتب سرّح الطائر و رفيقه، حتى إن تأخر الواحد ترقّب حضوره، أو تطلب و لا يعمل للبطائق هامش و لا تجمّل، و يكتب آخرها حسبلة، و لا تعنون إلّا إذا كانت منقولة، مثل أن تسرّح إلى

السلطان من مكان بعيد، فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد، و كلّ وال تصل إليه يكتب فى ظهرها أنها وصلت إليه و نقلها، حتى تصل مختومة.

قال: و مما شاهدته و توليت أمره، أنّه فى شهور سنة ثمان و ثمانين و ستمائة، حضر من جهة نائب الصبيبة نيف و أربعون طائرا صحبة البرّاجين، و وصل كتابه أنه درجها إلى مصر، فأقامت مدّة لم يكن شغل تبطق فيه فقال برّاجوها: قد أزفّ الوقت عليها فى القرنصة، و جرى الحديث مع الأمير بيدار نائب السلطنة، فتقرّر كتب بطائق على عشرة منها بوصولها لا غير، و سرّحت يوم أربعاء جميعها، فاتفق وقوع طائرين منها، فأحضرت بطائقهما و حصل الاستهزاء بها، فلما كان بعد مدّة وصل كتاب السلطان أنها وصلت إلى الصبيبة فى ذلك اليوم بعينه، و بطق بذلك فى ذلك اليوم بعينه إلى دمشق، و وصل الخبر إلى دمشق فى يوم واحد، و هذا مما أنا مصرّفه و حاضره و المشير به. قال مؤلفه رحمه اللّه: قد بطل الحمام من سائر المملكة إلّا ما ينقل من قطيا إلى بلبيس و من بلبيس إلى قلعة الجبل، و لا تسل بعد ذلك عن شيء. و كأنى بهذا القدر و قد ذهب، و لا حول و لا قوّة إلّا باللّه العلىّ العظيم.

ذكر ملوك مصر منذ بنيت قلعة الجبل

اشارة

اعلم أن الذين و لوا أرض مصر فى الملة الإسلامية على ثلاثة أقسام. القسم الأول:

من ولى بفسطاط مصر، منذ فتح اللّه تعالى أرض مصر، على أيدى العرب أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و رضى عنهم و تابعيهم فصارت دار إسلام، إلى أن قدم القائد أبو الحسين جوهر من بلاد إفريقية بعساكر مولاه المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ و بنى القاهرة، و هؤلاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۴

يقال لهم امراء مصر، و مدّتهم ثلاثمائة و سبع و ثلاثون سنة و سبعة أشهر و ستة عشر يوما أوّلها يوم الجمعة مستهل المحرم، سنة عشرين من الهجرة، و آخرها يوم الاثنين سادس عشر شعبان، سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة. و عدّة هؤلاء الأمراء مائة و اثنا عشر أميرا.

القسم الثانى: من ولىّ بالقاهرة منذ بنيت إلى أن مات الإمام العاضد لدين اللّه أبو محمد عبد اللّه رحمه اللّه، و هؤلاء يقال لهم الخلفاء الفاطميون، و مدّتهم بمصر مائتا سنة و ثمانى سنين و أربعة أشهر و اثنان و عشرون يوما، أوّلها يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان، سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة، و آخرها يوم الأحد عاشر المحرّم، سنة سبع و ستين و خمسمائة.

و عدّة هؤلاء الخلفاء أحد عشر خليفة.

و القسم الثالث: من ملك مصر بعد موت العاضد إلى وقتنا هذا الذى نحن فيه، و يقال لهم الملوك و السلاطين، و هم ثلاثة أقسام: القسم الأول ملوك بنى أيوب، و هم أكراد.

و القسم الثانى البحرية و أولادهم، و هم مماليك أتراك لبنى أيوب. و القسم الثالث مماليك أولاد البحرية، و هم جراكسة، و قد تقدّم فى هذا الكتاب ذكر الأمراء و الخلفاء، و ستقف إن شاء اللّه تعالى على ذكر من ملك من الأكراد و الأتراك و الجراكسة، و تعرف أخبارهم على ما شرطنا من الاختصار، إذ قد وضعت لبسط ذلك كتابا سميته كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، و جردت تراجمهم فى كتاب التاريخ الكبير المقفى، فتطلبهما تجد فيهما ما لا تحتاج بعده إلى سواهما فى معناهما.

ذكر من ملك مصر من الأكراد

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى الأكراد، فذكر العجم أنّ الأكراد فضل طعم الملك بيوراسف، و ذلك أنه كان يأمر أن يذبح له كلّ يوم إنسانان و يتخذ طعامه من لحومهما، و كان له وزير يسمى أرماييل، و كان يذبح واحدا و يستحيى واحدا و يبعث به إلى جبال فارس، فتوالدوا فى الجبال و كثروا.

و من الناس من ألحقهم بإماء سليمان بن داود عليهما السلام، حين سلب ملكه و وقع على نسائه المنافقات الشيطان الذى يقال له الجسد، و عصم اللّه تعالى منه المؤمنات، فعلق منه المنافقات، فلما ردّ اللّه تعالى على سليمان عليه السلام ملكه، و وضع هؤلاء الإماء الحوامل من الشيطان قال: أكردوهم إلى الجبال و الأودية، فربتهم أمّهاتهم و تناكحوا و تناسلوا، فذلك بدء نسب الأكراد.

و الأكراد عند الفرس من ولد كرد بن اسفندام بن منوشهر، و قيل هم ينسبون إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر، و قيل هم من ولد عمر و مزيقيا بن عامر ابن ماء السماء، و قيل من بنى حامد بن طارق، من بقية أولاد حميد بن زهير بن الحارث بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۵

أسد بن عبد العزى بن قصىّ. و هذه أقوال الفقهاء لهم ممن أراد الحظوة لديهم لما صار الملك إليهم.

و إنما هم قبيل من قبائل العجم، و هم قبائل عديدة: كورانية بنو كوران و هذبانية و بشتوية و شاصنجانية و سرنجية و بزولية و مهرانية و زردارية و كيكانية و جاك و كرودنيلية و رواديـة و دسنية و هكارية و حميدية و وركجية و مروانية و جلانية و سنيكية و جونى. و تزعم المروانية أنها من بنى مروان بن الحكم، و يزعم بعض الهكارية أنها من ولد عتبة بن أبى سفيان بن حرب.

و أوّل من ملك مصر من الأكراد الأيوبية.

السلطان الملك الناصر صلاح الدين: أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أبى الشكر أيوب بن شادى بن مروان الكردىّ، من قبيل الروادية، أحد بطون الهذبانية. نشأ أبوه أيوب و عمه أسد الدين شير كوه ببلد دوين من أرض أذربيجان من جهة أرّان و بلاد الكرج، و دخلا بغداد و خدما مجاهد الدين بهروز، شحنة بغداد، فبعث أيوب إلى قلعة تكريت و أقامه بها مستحفظا لها، و معه أخوه شير كوه و هو أصغر منه سنا، فخدم أيوب الشهيد زنكى لما انهزم، فشكر له خدمته، و اتفق بعد ذلك أنّ شير كوه قتل رجلا بتكريت فطرد هو و أخوه أيوب من قلعتها، فمضيا إلى زنكى بالموصل فآواهما و أقطعهما إقطاعا عنده، ثم رتب أيوب بقلعة بعلبك مستحفظا، ثم أنعم عليه بإمرة، و اتصل شير كوه بنور الدين محمود بن زنكى فى أيام أبيه و خدمه، فلما ملك حلب بعد أبيه كان لنجم الدين أيوب عمل كثير فى أخذ دمشق لنور الدين، فتمكنا فى دولته، حتى بعث شير كوه مع الوزير شاور بن مجير السعدىّ إلى مصر، فسار صلاح الدين فى خدمته من جملة أجناده، و كان من أمر شير كوه ما كان حتى مات.

فأقيم بعده فى وزارة العاضد ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب فى يوم الثلاثاء خامس عشرى جمادى الآخرة، سنة أربع و ستين و خمسمائة، و لقبه بالملك الناصر، و أنزله بدار الوزارة من القاهرة، فاستمال قلوب الناس و أقبل على الجدّ و ترك اللهو و تعاضد هو و القاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ رحمه اللّه على إزالة الدولة الفاطمية، و ولى صدر الدين بن درباس قضاء القضاة، و عزل قضاة الشيعة، و بنى بمدينة مصر مدرسة للفقهاء المالكية، و مدرسة للفقهاء الشافعية، و قبض على أمراء الدولة و أقام أصحابه عوضهم، و أبطل المكوس بأسرها من أرض مصر، و لم يزل يدأب فى إزالة الدولة حتى تم له ذلك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۶

و خطب لخليفة بغداد المستنصر بأمر اللّه أبى محمد بن الحسن العباسىّ، و كان العاضد مريضا فتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام، و استبدّ صلاح الدين بالسلطنة من أوّل سنة سبع و ستين و خمسمائة، و استدعى أباه نجم الدين أيوب و إخوته من بلاد الشام، فقدموا عليه بأهاليهم.

و تأهب لغزو الفرنج و سار إلى الشوبك و هى بيد الفرنج، فواقعهم و عاد إلى أيلة فجبى الزكوات من أهل مصر و فرّقها على أصنافها،

و رفع إلى بيت المال سهم العاملين و سهم المؤلفة و سهم المقاتلة و سهم المكاتبين، و أنزل الغز بالقصر الغربيّ و أحاط بأموال القصر و بعث بها إلى الخليفة ببغداد، و إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بالشام، فأتته الخلع الخليفية فلبسها، و رتب نوب الطبلخاناه فى كلّ يوم ثلاث مرّات، ثم سار إلى الإسكندرية، و بعث ابن أخيه تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب على عسكر إلى برقة، و عاد إلى القاهرة. ثم سار فى سنة ثمان و خمسين إلى الكرك و هى بيد الفرنج فحصرها و عاد بغير طائل، فبعث أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن أيوب إلى بلاد النوبة، فأخذ قلعة إبريم و عاد بغنائم و سبى كثير، ثم سار لأخذ بلاد اليمن فملك زبيد و غيرها، فلما مات نور الدين محمود بن زنكى توجه السلطان صلاح الدين فى أوّل صفر سنة سبعين إلى الشام و ملك دمشق بغير مانع، و أبطل ما كان يؤخذ بها من المكوس كما أبطلها من ديار مصر، و أخذ حمص و حماه، و حاصر حلب و بها الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن العادل نور الدين محمود بن زنكى، فقاتله أهلها قتالا شديدا، فرحل عنها إلى حمص و أخذ بعلبك بغير حصار، ثم عاد إلى حلب، فوقع الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام مع المعرّة و كفر طاب، و لهم ما بأيديهم، و عاد فأخذ بغزاس بعد حصار، و أقام بدمشق، و ندب قراقوس التقويّ لأخذ بلاد المغرب، فأخذ أيجلن و عاد إلى القاهرة. و كانت بين السلطان و بين الحبيين وقعة هزمهم فيها و حصرهم بحلب أياما، و أخذ بزاعة و منبج و عزاز، ثم عاد إلى دمشق.

و قدم القاهرة فى سادس عشرى ربيع الأوّل سنة اثنتين و سبعين بعد ما كانت لعساكره حروب كثيرة مع الفرنج، فأمر ببناء سور يحيط بالقاهرة و مصر و قلعة الجبل، و أقام على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الأسديّ، فشرع فى بناء قلعة الجبل و عمل السور و حفر الخندق حوله، و بدأ السلطان بعمل مدرسة بجوار قبر الإمام الشافعيّ رضى اللّه عنه فى القرافة، و عمل مارستانا بالقاهرة، و توجه إلى الإسكندرية فصام بها شهر رمضان، و سمع الحديث على الحافظ أبى طاهر أحمد السلفيّ، و عمر الأسطول و عاد إلى القاهرة، و أخرج قراقوش التقويّ إلى بلاد المغرب، و أمر بقطع ما كان يؤخذ من الحجاج، و عوّض أمير مكة عنه فى كلّ سنة ألفى دينار و ألف أردب غلة، سوى إقطاعه بصعيد مصر و باليمن، و مبلغه ثمانية آلاف أردب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۷

ثم سار من القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث و سبعين إلى عسقلان و هى بيد الفرنج، و قتل و أسر و سبى و غنم، و مضى يريدهم بالرملة فقاتل البرنس أرياط متملك الكرك قتالا شديدا، ثم عاد إلى القاهرة، ثم سار منها فى شعبان يريد الفرنج و قد نزلوا على حماه حتى قدم دمشق و قد رحلوا عنها، فواصل الغارات على بلاد الفرنج و عساكره تغزو بلاد المغرب، ثم فتح بيت الأحزان من عمل صفد و أخذه من الفرنج عنوة، و سار فى سنة ست و سبعين لحرب فتح الدين فليح أرسلان صاحب قونيه من بلاد الروم، و عاد ثم توجه إلى بلاد الأرمن، و عاد فخرّب حصن بهنسا و مضى إلى القاهرة فقدمها فى ثالث عشر شعبان.

ثم خرج إلى الإسكندرية و سمع بها موطأ الإمام مالك على الفقيه أبى طاهر بن عوف، و أنشأ بها مارستانا و دارا للمغاربة و مدرسة، و جدّد حفر الخليج و نقل فوهته، ثم مضى إلى دمياط و عاد إلى القاهرة، ثم سار فى خامس المحرّم سنة ثمان و سبعين على إيلة، فأغار على بلاد الفرنج و مضى إلى الكرك، فعاثت عساكره ببلاد طبرية و عكا، و أخذ الشقيف من الفرنج، و نزل السلطان بدمشق و ركب إلى طبرية فواقع الفرنج، و عاد فتوجه إلى حلب و نازلها ثم مضى إلى البيرة على الفرات، و عدّى إلى الرها فأخذها، و ملك حرّان و الرقّة و نصيبين، و حاصر الموصل فلم ينل منها غرضا، فنازل سنجار حتى أخذها، ثم مضى على حرّان إلى آمد فأخذها و سار على عين تاب إلى حلب، فملكها فى ثامن عشر صفر سنة تسع و سبعين، و عاد إلى دمشق و عبر الأران و حرّق بيسان على الفرنج و خرّب لهم عدّة حصون و عاد إلى دمشق، ثم سار إلى الكرك فلم ينل منها غرضا، و عاد ثم خرج فى سنة ثمانين من دمشق فنازل الكرك، ثم رحل عنها إلى نابلس فحرّقها و أكثر من الغارات حتى دخل دمشق، ثم سار منها إلى حماه و مضى حتى بلغ حرّان، و نزل على الموصل و حصرها، ثم سار عنها إلى خلاط فلم يملكها، فمضى حتى أخذ ميافارقين و عاد إلى الموصل، ثم رحل عنها و قد مرض إلى حرّان، فتقرّر الصلح مع المواصلة على أن خطبوا له بها و بديار بكر و جميع البلاد الأرتقية، و ضرب السكة فيها باسمه، ثم سار إلى

دمشق فقدمها فی ثانی ربیع الأوّل سنهٔ اثنتین و ثمانین، و خرج منها فی أوّل سنهٔ ثلاث و ثمانین، و نازل الکرک و الشوبک و طبریهٔ، فملک طبریهٔ فی ثالث عشری ربیع الآخر من الفرنج، ثم واقعهم علی حطین و هم فی خمسین ألفا، فهزمهم بعد وقائع عدیدهٔ و أسر منهم عدّهٔ ملوک، و نازل عکا حتی تسلمها فی ثانی جمادی الأولی، و أنقذ منها أربعهٔ آلاف أسیر مسلم من الأسر، و أخذ مجدل یافا و عدّهٔ حصون، منها الناصریهٔ و قیساریهٔ و حیفا و صفوریهٔ و الشقیف و الغولهٔ و الطور و سبسطیهٔ

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۳، ص: ۴۰۸

و نابلس و تبنین و صرخد و صیدا و بیروت و جبیل، و أنقذ من هذه البلاد زیادهٔ علی عشرین ألف أسیر مسلم کانوا فی أسر الفرنج، و أسر من الفرنج مائهٔ ألف إنسان، ثم ملک منهم الرملهٔ و بلد الخلیل علیه السلام و بیت لحم من القدس و مدینهٔ عسقلان و مدینهٔ غزهٔ و بیت جبریل، ثم فتح بیت المقدس فی یوم الجمعهٔ سابع عشری رجب و أخرج منه ستین ألفا من الفرنج بعد ما أسر ستهٔ عشر ألفا ما بین ذکر و أنثی، و قبض من مال المفاداهٔ ثلاثمائهٔ ألف دینار مصریهٔ، و أقام الجمعهٔ بالأقصی و بنی بالقدس مدرسهٔ للشافعیهٔ، و قرّر علی من یرد کنیسهٔ قمامهٔ من الفرنج قطیعهٔ یؤدیها، ثم نازل عکا و صور و نازل فی سنهٔ أربع و ثمانین حصن کوکب، و ندب العساکر إلی صفد و الکرک و الشوبک.

و عاد إلی دمشق فدخلها سادس ربیع الأوّل و قد غاب عنها فی هذه الغزوهٔ أربعهٔ عشر شهرا و خمسهٔ أیام، ثم خرج منها بعد خمسهٔ أیام فشنّ الغارات علی الفرنج و أخذ منهم أنطرسوس و خرّب سورها و حرّقها و أخذ جبلهٔ و اللاذقیهٔ و صهیون و الشغر و بکاس و بقراص، ثم عاد إلی دمشق آخر شعبان بعد ما دخل حلب، فملکت عساکره الکرک و الشوبک و السلع فی شهر رمضان، و خرج بنفسه إلی صفد و ملکها من الفرنج فی رابع عشر شوّال، و ملک کوکب فی نصف ذی القعدهٔ و سار إلی القدس، و مضی بعد النحر إلی عسقلان و نزل بعکا و عاد إلی دمشق أوّل صفر سنهٔ خمس و ثمانین، ثم سار منها فی ثالث ربیع الأوّل و نازل شقیف أرنون و حارب الفرنج حروبا کثیرهٔ، و مضی إلی عکا و قد نزل الفرنج علیها و حصروا من بها من المسلمین، فنزل بمرج عکا و قاتل الفرنج من أوّل شعبان حتی انقضت السنهٔ.

و قد خرج الألمان من قسطنطینیهٔ فی زیادهٔ ألف ألف یرید بلاد الإسلام، فاشتدّ الأمر و دخلت سنهٔ ست و ثمانین و السلطان بالخرّوبهٔ علی حصار الفرنج، و الإمداد تصل إلیه، و قدم الألمان طرسوس یرید بیت المقدس، فخرّب السلطان سور طبریهٔ و یافا و أرسوف و قیساریهٔ و صیدا و جبیل، و قوی الفرنج بقدوم ابن الألمان إلیهم تقویهٔ لهم، و قد مات أبوه بطرسوس و ملک بعده، فقدّر اللّه تعالی موته أیضا علی عکا، و دخلت سنهٔ سبع و ثمانین، فملک الفرنج عکا فی سابع عشر جمادی الآخرهٔ و أسروا من بها من المسلمین و حاربوا السلطان و قتلوا جمیع من أسروه من المسلمین و ساروا إلی عسقلان فرحل السلطان فی أثرهم و واقعهم بأرسوف، فانهزم من معه و هو ثابت حتی عادوا إلیه، فقاتل الفرنج و سبقهم إلی عسقلان و خرّبها، ثم مضی إلی الرملهٔ و خرّب حصنها و خرّب کنیسهٔ له و دخل القدس

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۳، ص: ۴۰۹

فأقام بها إلی عاشر رجب سنهٔ ثمان و ثمانین، ثم سار إلی یافا فأخذها بعد حروب و عاد إلی القدس و عقد الهدنهٔ بینه و بین الفرنج مدّهٔ ثلاث سنین و ثلاثهٔ أشهر، أوّلها حادی عشر شعبان، علی أنّ للفرنج من یافا إلی عکا إلی صور و طرابلس و أنطاکیهٔ، و نودی بذلک، فکان یوما مشهودا، و عاد السلطان إلی دمشق فدخلها خامس عشری شوّال و قد غاب عنها أربع سنین، فمات بها فی یوم الأربعاء سابع عشری صفر سنهٔ تسع و ثمانین و خمسمائهٔ، عن سبع و خمسین سنهٔ، منها مدّهٔ ملکه بعد موت العاضد، اثنتان و عشرون سنهٔ و ستهٔ عشر یوما، فقام من بعده بمصر ولده.

السلطان الملک العزیز عماد الدین أبو الفتح عثمان : و قد کان یومئذ ینوب عنه بمصر و هو مقیم بدار الوزارهٔ من القاهرهٔ، و عنده جلّ عساکر أبیه من الأسدیهٔ و السلاحیهٔ و الأکراد، فأتاه ممن کان عند أخیه الملک الأفضل علیّ، الأمیر فخر الدین جهارکس، و الأمیر

فارس الدين ميمون القصرىّ، و الأمير شمس الدين سنقر الكبير، و هم عظماء الدولة، فأكرمهم. و قدم عليه القاضى الفاضل فبالغ فى كرامته، و تنكر ما بينه و بين أخيه الأفضل، فسار من مصر لمحاربته و حصره بدمشق، فدخل بينهما العادل أبو بكر حتى عاد العزيز إلى مصر على صلح فيه دخل، فلم يتم ذلك، و توحش ما بينهما و خرج العزيز ثانيا إلى دمشق، فدبر عليه عمه العادل حتى كاد أن يزول ملكه و عاد خائفا، فسار إليه الأفضل و العادل حتى نزلا بلبيس، فجرت أمور آلت إلى الصلح، و أقام العادل مع العزيز بمصر، و عاد الأفضل إلى مملكته بدمشق، فقام العادل بتدبير أمور الدولة، و خرج بالعزيز لمحاربة الأفضل فحصراه بدمشق حتى أخذاها منه بعد حروب و بعثاه إلى صرخد، و عاد العزيز إلى مصر و أقام العادل بدمشق حتى مات العزيز فى ليلة العشرين من محرّم سنة خمس و تسعين و خمسمائة، عن سبع و عشرين سنة و أشهر، منها مدّة سلطنته بعد أبيه ست سنين تنقص شهرا واحدا، فأقيم بعده ابنه.

السلطان الملك المنصور ناصر الدين محمد : و عمره تسع سنين و أشهر بعهد من أبيه، و قام بأمور الدولة بهاء الدين قراقوش الأسدىّ الأتابك، فاختلف عليه أمراء الدولة و كاتبوا الملك الأفضل علىّ بن صلاح الدين، فقدم من صرخد فى خامس ربيع الأوّل، فاستولى على الأمور و لم يبق للمنصور معه سوى الاسم، ثم سار به من القاهرة فى ثالث رجب يريد أخذ دمشق من عمه العادل بعد ما قبض على عدّة من الأمراء، و قد توجه العادل إلى ماردين، فحصر الأفضل دمشق، و قد بلغ العادل خبره فعاد و سار يريده حتى دخل دمشق، فجرت حروب كثيرة آلت إلى عود الأفضل إلى مصر بمكيدة دبرها عليه العادل، و خرج العادل فى أثره و واقعه على بلبيس فكسره فى سادس ربيع الآخر سنة ست و تسعين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۰

و التجأ إلى القاهرة و طلب الصلح، فعوّضه العادل صرخد و دخل إلى القاهرة فى يوم السبت ثامن عشره، و أقام بأتابكية المنصور ثم خلعه فى يوم الجمعة حادى عشر شوّال، و كانت سلطنته سنة و ثمانية أشهر و عشرين يوما، و استبدّ بالسلطنة بعده عمّ أبيه.

السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب : فخطب له بديار مصر و بلاد الشام و حرّان و الرها و ميافارقين، و أخرج المنصور و إخوته من القاهرة إلى الرها، و استناب ابنه الملك الكامل محمدا عنه، و عهد إليه بعده بالسلطنة، و حلف له الأمراء، فسكن قلعة الجبل و استمرّ أبوه فى دار الوزارة، و فى أيامه توقفت زيادة النيل و لم يبلغ سوى ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع، و شرقت أراضى مصر إلّا الأقل، و غلت او سعار و تعذر وجود الأقوات حتى أكلت الجيف، و حتى أكل الناس بعضهم بعضا، و تبع ذلك فناء كبير و امتدّ ذلك ثلاث سنين، فبلغت عدّة من كفنه العادل وحده من الأموات فى مدّة يسيرة نحو مائتى ألف و عشرين ألف إنسان، فكان بلاء شنيعا، و عقب ذلك تحرّك الفرنج على بلاد المسلمين فى سنة تسع و تسعين، فكانت معهم عدّة حروب على بلاد الشام آلت إلى أن عقد العادل معهم الهدنة، فعاودوا الحرب فى سنة ستمائة و عزموا على أخذ القدس، و كثر عيثهم و فسادهم، و كانت لهم و للمسلمين شؤون آلت إلى نزولهم على مدينة دمياط فى رابع ربيع الأوّل سنة خمس عشرة و ستمائة، و العادل يومئذ بالشام، فخرج الملك الكامل لمحاربتهم، فمات العادل بمرج الصفر فى يوم الخميس سابع جمادى الآخرة منها و حمل إلى دمشق، فكانت مدّة سلطنته بديار مصر تسع عشرة سنة و شهرا واحدا و تسعة عشر يوما و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد : بعهد أبيه. فأقام فى السلطنة عشرين سنة و خمسة و أربعين يوما و مات بدمشق يوم الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس و ثلاثين و ستمائة. و أقيم بعده ابنه.

السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر: فاشتغل باللهو عن التدبير، و خرجت عنه حلب، و استوحش منه الأمراء لتقريبه الشباب، و سار أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشرق إلى دمشق و أخذها فى أوّل جمادى الأولى سنة ست و ثلاثين، و جرت له أمور آخرها أنه سار إلى مصر فقبض الأمراء على العادل و خلعوه يوم الجمعة ثامن ذى القعدة سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، فكانت سلطنته سنتين و ثلاثة أشهر و تسعة. و قام بعده بالسلطنة أخوه.

السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب : فاستولى على قلعة الجبل فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۱

يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة و جلس على سرير الملك بها، و كان قد خطب له قبل قدومه، فضبط الأمور و قام بأعباء المملكة أتم قيام، و جمع الأموال التى أتلفها أخوه، و قبض على الأمراء و نظر فى عمارة أرض مصر، و حارب عربان الصعيد، و قدّم مماليكه و أقامهم أمراء، و بنى قلعة الروضة و تحوّل من قلعة الجبل إليها و سكنها، و ملك مكة و بعث لغزو اليمن، و عمر المدارس الصالحية بين القصرين من القاهرة، و قرّر بها دروسا أربعة للشافعية و الحنفية و المالكية و الحنابلة، و فى أيامه نزل الفرنج على دمياط فى ثالث عشرى صفر سنة سبع و أربعين و عليهم الملك روادفرنس و ملكوها، و كان السلطان بدمشق، فقدم عند ما بلغه حركة الفرنج و نزل أشموم طناح و هو مريض، فمات بناحية المنصورة مقابل الفرنج، فى يوم الأحد رابع عشر شعبان منها، و كانت مدّة سلطنته بعد أخيه تسع سنين و ثمانية أشهر و عشرين يوما، فقامت أمّ ولده خليل و اسمها شجرة الدرّ بالأمر، و كتمت موته و استدعت ابنه توران شاه من حصن كيفا و سلمت إليه مقاليد الأمور. فقام من بعده ابنه.

السلطان الملك المعظم غياث الدين توران شاه: و قد سار من حصن كيفا فى نصف شهر رمضان فمرّ على دمشق و تسلطن بقلعتها فى يوم الاثنين لليلتين بقيتا منه، و ركب إلى مصر فنزل الصالحية طرف الرمل لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة، فأعلن حينئذ بموت الصالح و لم يكن أحد قبل ذلك يتفوّه بموت السلطان، بل كانت الأمور على حالها و الخدمة تعمل بالدهليز و السماط يمدّ و شجرة الدرّ تدبر أمور الدولة، و توهم الكافة أن السلطان مريض ما لأحد عليه سبيل، و لا وصول، ثم سار المعظم من الصالحية إلى المنصورة، فقدمها يوم الخميس حادى عشريه، فأساء تدبير نفسه و تهدّد البحرية حتى خافوه، و هم يومئذ جمرة العسكر، فقتلوه بعد سبعين يوما فى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرّم سنة ثمان و أربعين و ستمائة، و بموته انقضت دولة بنى أيوب من ديار مصر بعد ما أقامت إحدى و ثمانين سنة و سبعة عشر يوما، و ملك منهم ثمانية ملوك.

ذكر دولة المماليك البحرية

و هم الملوك الأتراك، و كان ابتداء أمر هذه الطائفة، أنّ السلطان الملك الصالح نجم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۲

الدين أيوب، كان قد أقرّه أبوه السلطان الملك الكامل محمد ببلاد الشرق، و جعل ابنه العادل أبا بكر وليّ عهده فى السلطنة بمصر، فلما مات قام من بعده العادل فى السلطنة، و تنكر ما بينه و بين ابن عمه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب، و هو نائب دمشق، فاستدعى الصالح نجم الدين من بلاد الشرق و رتب ابنه المعظم ثوران شاه على بلاد الشرق، و أقرّه بحصن كيفا، و قدم دمشق و ملكها، فكاتبه أمراء مصر تحثه على أخذها من أخيه العادل، و خامر عليه بعضهم، فسار من دمشق فى رمضان سنة ست و ثلاثين، فانزعج العادل انزعاجا كبيرا و كتب إلى الناصر داود صاحب الكرك، فسار إليه ليعاونه على أخيه الصالح، فاتفق مسير الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب من حماه و أخذه دمشق للملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل محمد، فى سابع عشرى صفر سنة سبع و ثلاثين، و الملك الصالح نجم الدين أيوب يومئذ على نابلس، فانحلّ أمره و فارقه من معه حتى لم يبق معه إلّا مماليكه، و هم نحو الثمانين، و طائفة من خواصه نحو العشرين، و أما الجميع فإنهم مضوا إلى دمشق و كان الناصر داود قد فارق العادل و سار من القاهرة مغاضبا له إلى الكرك، و مضى إلى الصالح نجم الدين أيوب و قبضه بنابلس فى ثانى عشر ربيع الأول منها و سجنه بالكرك، فأقام مماليك الصالح بالكرك حتى خلص من سجنه فى سابع عشرى شهر رمضان منها، فاجتمع عليه مماليكه و قد عظمت مكانتهم عنده، و كان من أمره ما كان حتى ملك مصر، فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرّق عنه الأكراد، و أكثر من شرائهم و جعلهم أمراء دولته و خاصته و بطانته و المحيطين بدهليزه، إذا سافر و أسكنهم معه فى قلعة الروضة، و سماهم

البحريـة، و كـانوا دون الألـف مملوك، قيـل ثمانمائـة، و قيل سـبعمائة و خمسون، كلهم أتراك. فلما مات الملك الصالـح بالمنصورة أحس الفرنج بشـيء من ذلك، فركبوا من مدينة دمياط و ساروا على فارسكور، و واقعوا العسكر فى يوم الثلاثاء أوّل شهر رمضان سنة سبع و أربعين، و نزلوا بقريـة شـرمشاح، ثم بالبرمون، و نزلوا تجاه المنصورة، فكانت الحروب بين الفريقين إلى خامس ذى القعدة، فلم يشـعر المسـلمون إلّا و الفرنـج معهم فى المعسـكر، فقتل الأمير فخر الـدين بن شـيخ الشـيوخ، و انهزم الناس، و وصل روادفرنس ملك الفرنج إلى باب قصـر السـلطان، فبرزت البحرية و حملوا على الفرنج حملة منكرة حتى أزاحوهم و ولوا، فأخذتهم السيوف و الدبابيس و قتـل من أعيانهم ألف و خمسـمائة، فظهرت البحريـة من يومئـذ و اشـتهرت، ثم لما قـدم الملك المعظم توران شاه أخـذ فى تهـديد شجرة الدرّ و مطالبتها بمال أبيه، فكاتبت البحرية تذكرهم بما فعلته من ضـبط المملكة حتى قدم المعظم، و ما هى فيه من الخوف منه، فشق ذلك عليهم، و كان قـد وعـد الفارس أقطاى المتوجه إليه من المنصورة لاسـتدعائه من حصن كيفا بإمرة، فلم يف له، فتنكر له و هو من أكـابر البحريـة، و أعرض مع ذلـك عن البحريـة و أطرح جانب الأمراء و غيرهم حتى قتلوه، و أجمعوا على أن يقيموا بعـده فى السلطنة سرّية أستاذهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۳

الملكـة عصـمة الدين أم خليل شـجرة الدر الصالحية: فأقاموها فى السـلطنة و حلفوا لها فى عاشـر صـفر، و رتبوا الأمير عز الدين أيبك التركمانىّ الصالحىّ أحد البحرية مقدّم العسكر، و سار عز الدين أيبك الرومىّ من العسـكر إلى قلعة الجبل، و أنهى ذلك إلى شـجرة الدرّ، فقامت بتدبير المملكة و علمت على التواقيع بما مثاله والدة خليل، و نقش على السـكة اسمها و مثاله، المستعصمة الصالحية ملكة المسـلمين والـدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين، و كانت البحرية قد تسـلمت مدينة دمياط من الملك روادفرنس بعد ما قرّر على نفسه أربعمائة ألف دينار، و عاد العسـكر من المنصورة إلى القاهرة فى تاسع صـفر و حلفوا لشجرة الدرّ فى ثالث عشره، فخلعت عليهم و أنفقت فيهم الأموال، و لم يوافق أهل الشام على سـلطنتها، و طلبوا الملك الناصـر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب فسار إليهم بدمشق و ملكها، فانزعج العسـكر بالقاهرة، و تزوّج الأمير عز الدين أيبك التركمانىّ بالملكة شـجرة الدرّ، و نزلت له عن السلطنة و كانت مدّتها ثمانين يوما. و ملك بعدها.

السـلطان الملك المعز عز الدين أيبك الجاشـنكير التركمانىّ الصالحىّ : أحد المماليك الأتراك البحرية، و كان قد انتقل إلى الملك الصالح من أولاد ابن التركمانىّ، فعرف بالتركمانىّ، و رقّاه فى خدمه حتى صار من جملة الأمراء و رتبة جاشـنكيره ، فلما مات الصالح و قدّمته البحرية عليهم فى سـلطنة شـجرة الدرّ، كتب إليهم الخليفة المسـتعصم من بغداد يذمّهم على إقامة امرأة، و وافق مع ذلك أخذ الناصـر لدمشق، و حركتهم لمحاربته، فوقع الاتفاق على إقامة أيبك فى السـلطنة، فأركبوه بشعار السلطنة فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر سـنة ثمان و أربعين و سـتمائة، و لقبوه بالملك المعز، و جلس على تخت الملك بقلعة الجبل، فورد الخبر من الغد بأخذ الملك المغيث عمر بن العادل الصـغير الكرك و الشوبك، و أخذ الملك السـعيد قلعة الصبيبة، فاجتمع رأى الأمراء على إقامة الأشـرف مظفر الدين موسـى بن الناصـر، و يقال المسـعود يوسف بن الملك المسـعود يوسف، و يقال طسـز، و يقال أيضا اقسيس بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، شـريكا للمعز فى السلطنة، فأقاموه معه و عمره نحو ست سنين، فى خامس جمادى الأولى، و صـارت المراسـيم تـبرز عن الملكين، إلّـا أن الأـمر و النهى للمعز، و ليس للأشـرف سوى مجرّد الاـسم، و ولى المعز الوزارة لشـرف الـدين أبى سـعيد هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، و هو أوّل قبطىّ ولىّ وزارة مصـر، و خرج المعز بالعساكر و عربان مصـر لمحاربة الناصـر يوسف فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۴

ثالث ذى القعدة، و خيم بمنزلة الصالحية و ترك الأشـرف بقلعة الجبل، و اقتتل مع الناصـر فى عاشره، فكانت النصرة له على الناصر، و عاد فى ثانى عشـره، فنزل بالناس من البحريـة بلاء لا يوصف ما بين قتل و نهب و سبى، بحيث لو ملك الفرنـج بلاد مصـر ما زادوا فى

الفساد على ما فعله البحريّة، و كان كبراؤهم ثلاثة، الأمير فارس الدين أقطاى، و ركن الدين بيبرس البند قداريّ، و بليان الرشيديّ، ثم فى محرّم سنة تسع و أربعين خرج المعز بالأشرف و العساكر فنزل بالصالحيّة و أقام بها نحو سنتين، و الرسل تتردّد بينه و بين الناصر، و أحدث الوزير الأسعد هبة اللّه الفائزيّ مظالم لم تعهد بمصر قبله، فورد الخبر فى سنة خمسين بحركة التتر على بغداد، فقطع المعز من الخطبة اسم الأشرف و انفرد بالسلطنة و قبض على الأشرف و سجنه، و كان الأشرف موسى آخر ملوك بنى أيوب بمصر، ثم إن المعز جمع الأموال فأحدث الوزير مكوسا كثيرة سماها الحقوق السلطانية، و عاد المعز إلى قلعة الجبل فى سنة إحدى و خمسين و أوقع بعرب الصعيد و قبض على الشريف حصن الدين ثعلب بن ثعلب، و أذلّ سائر عرب الوجهين القبليّ و البحريّ و أفناهم قتلا و أسرا و سبيا، و زاد فى القطيعة على من بقى منهم حتى ذلوا و قلوا، ثم قتل الفارس أقطاى، ففرّ منه معظم البحريّة، بيبرس و قلاون فى عدد كثير منهم إلى الشام و غيرها، و لم يزل إلى أن قتلته شجرة الدرّ فى الحمام ليلة الأربعاء رابع عشرى ربيع الأوّل سنة خمس و خمسين و ستمائة، فكانت مدّته سبع سنين تنقص ثلاثة و ثلاثين يوما، و كان ظلوما غشوما سفاكا للدماء، أفنى عوالم كثيرة بغير ذنب و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك المنصور نور الدين علىّ بن المعز أيبك : فى يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأوّل و عمره خمس عشرة سنة، فدبر أمره نائب أبيه الأمير سيف الدين قطز، ثم خلعه فى يوم السبت رابع عشرى ذى القعدة سنة سبع و خمسين و ستمائة، فكانت مدّته سنتين و ثمانية أشهر و ثلاثة أيام، و قام من بعده.

السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز : فى يوم السبت، و أخرج المنصور بن المعز منفيا هو و أمّه إلى بلاد الأشكريّ، و قبض على عدّة من الأمراء، و سار فأوقع بجمع هولاكو على عين جالوت و هزمهم فى يوم الجمعة خامس عشرى رمضان، سنة ثمان و خمسين، و قتل منهم و أسر كثيرا بعد ما ملكوا بغداد و قتلوا الخليفة المستعصم باللّه عبد اللّه، و أزالوا دولة بنى العباس و خرّبوا بغداد و ديار بكر و حلب و نازلوا دمشق فملكوها، فكانت هذه الوقعة أوّل هزيمة عرفت للتتر منذ قاموا، و دخل المظفر قطز إلى دمشق و عاد منها يريد مصر، فقتله الأمير ركن الدين بيبرس البندقداريّ قريبا من المنزلة الصالحيّة فى يوم السبت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۵

نصف ذى القعدة منها، فكانت مدّته سنة تنقص ثلاثة عشر يوما، و قام من بعده.

السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البند قداريّ الصالحيّ :

التركيّ الجنس أحد المماليك البحريّة، و جلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان و خمسين، فلم يزل حتى مات بدمشق فى يوم الخميس سابع عشرى المحرّم، سنة ست و سبعين و ستمائة، فكانت مدّته سبع عشرة سنة و شهرين و اثنى عشر يوما، و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة قان : و هو يومئذ بقلعة الجبل ينوب عن أبيه، و قد عهد إليه بالسلطنة و زوّجه بابنة الأمير سيف الدين قلاون الألفيّ، فجلس على التخت فى يوم الخميس سادس عشرى صفر، سنة ست و سبعين، إلى أن خلعه الأمراء فى سابع ربيع الآخر سنة ثمان و سبعين، و كانت مدّته سنتين و شهرين و ثمانية أيام، لم يحسن فيها تدبير ملكه، و أوحش ما بينه و بين الأمراء. فأقيم بعده أخوه.

السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس : و عمره سبع سنين و أشهر، و قام بتدبيره الأمير قلاون أتابك العساكر، ثم خلعه بعد مائة يوم و بعث به إلى الكرم، فسجن مع أخيه بركة بها. و قام من بعده.

السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون الألفيّ العلائيّ الصالحيّ : أحد المماليك الأتراك البحريّة، كان قبجاقى الجنس من قبيلة مرج أغلى، فجلب صغيرا و اشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقى العادلىّ بألف دينار، و صار بعد موته إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة سبع و أربعين و ستمائة، فجعله من جملة البحريّة، فتنقلت به الأحوال حتى صار أتابك العساكر فى أيام العادل

سلامش، و ذكر اسمه مع العادل على المنابر، ثم جلس على التخت بقلعة الجبل فى يوم الأحد العشرين من شهر رجب سنة ثمان و سبعين، و تلقب بالملك المنصور و أبطل عدّة مكوس، فثار عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بدمشق و تسلطن و لقب نفسه بالملك الكامل، فى يوم الجمعة رابع عشرى ذى الحجة، فبعث إليه و هزمه و استعاد دمشق، ثم قدمت التتر إلى بلاد حلب و عاثوا بها، فتوجه إليهم السلطان بعساكره و أوقع بهم على حمص فى يوم الخميس رابع عشرى رجب، سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۶

ثمانين و ستمائة، و هزمهم بعد مقتلة عظيمة و عاد إلى قلعة الجبل، و توجه فى سنة أربع و ثمانين حتى نازل حصن المرقب ثمانية و ثلاثين يوما و أخذه عنوة من الفرنج، و عاد إلى القلعة، ثم بعث العسكر فغزا بلاد النوبة فى سنة سبع و ثمانين و عاد بغنائم كثيرة، ثم سار فى سنة ثمان و ثمانين لغزو الفرنج بطرابلس، فنازلها أربعة و ثلاثين يوما حتى فتحها عنوة فى رابع ربيع الآخر و هدمها جميعها، و أنشأ قريبا منها مدينة طرابلس الموجودة الآن، و عاد إلى قلعة الجبل و بعث لغزو النوبة ثانيا عسكرا فقتلوا و أسروا و عادوا، ثم خرج لغزو الفرنج بعكا، و هو مريض، فمات خارج القاهرة ليلة السبت سادس ذى القعدة سنة تسع و ثمانين و ستمائة، فكانت مدّته إحدى عشرة سنة و شهرين و أربعة و عشرين يوما. و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل: فى يوم الأحد سابع ذى القعدة المذكور، و سار لفتح عكا فى ثالث ربيع الأوّل سنة تسعين و ستمائة، و نصب عليها اثنين و تسعين منجنيقا و قاتل من بها من الفرنج أربعة و أربعين يوما حتى فتحها عنوة، فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، و هدمها كلها بما فيها، و حرّقها و أخذ صور و حيفا و عتليت و انطرسوس و صيدا، و هدمها و أجلى الفرنج من الساحل فلم يبق منهم أحد و للّه الحمد، و توجه إلى دمشق و عاد إلى مصر فدخل قلعة الجبل يوم الاثنين تاسع شعبان، ثم خرج فى ثامن ربيع الآخر سنة إحدى و تسعين و ستمائة بعد ما نادى بالنفير للجهاد، فدخل دمشق و عرض العساكر و مضى منها فمرّ على حلب و نازل قلعة الروم، و نصب عليها عشرين منجنيقا حتى فتحها بعد ثلاثة و ثلاثين يوما عنوة، و قتل من بها من النصارى الأرمن و سبى نساءهم و أولادهم، و سماها قلعة المسلمين، فعرفت بذلك، و عاد إلى مصر فدخل قلعة الجبل فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة، و سار فى رابع المحرّم سنة اثنتين و تسعين حتى بلغ مدينة قوص من صعيد مصر، و نادى فيها بالتجهز لغزو اليمن، و عاد ثم سار مخفا على الهجن فى البريّة إلى الكرك، و مضى إلى دمشق فقدمها فى تاسع جمادى الآخرة، و قصد غزو بهنسا و أخذها من الأرمن، فقدموا إليه و سلموها من تلقاء أنفسهم و سلموا أيضا مرعش و تل حمدون، و مضى من دمشق فى ثانى رجب، و عبر من حمص إلى سلمية و هجم على الأمير مهنا بن عيسى و قبضه و إخوته و حملهم فى الحديد إلى قلعة الجبل، و عاد إلى دمشق ثم رجع إلى مصر فقدم قلعة الجبل فى ثامن عشرى رجب، ثم توجه للصيد فبلغ الطرّانة، و انفرد فى نفر يسير ليصطاد، فاقتحم عليه الأمير بيدار فى عدّة معه و قتلوه فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، فكانت مدّته ثلاث سنين و شهرين و أربعة أيام، ثم حمل و دفن بمدرسة الأشرفية و أقيم من بعده أخوه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۷

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون : و عمره سبع سنين، و قام الأمير زين الدين كتبغا بتدبيره، ثم خلعه بعد سنة تنقص ثلاثة أيام، و قام من بعده.

السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورىّ: أحد مماليك الملك المنصور قلاون، و جلس على التخت بقلعة الجبل فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرّم، سنة أربع و تسعين، و تلقب بالملك العادل، فكانت أيامه شرّ أيام لما فيها من قصور مدّ النيل و غلاء الأسعار و كثرة الوباء فى الناس، و قدوم الأويراتية . فقام عليه نائبه الأمير حسام الدين لاجين و هو عائد من دمشق بمنزلة العرجاء، فى يوم الاثنين ثامن عشرى المحرّم سنة ست و تسعين، ففرّ إلى دمشق و استولى لاجين على الأمر، فكانت مدّته سنتين و سبعة عشر يوما، و قدم لاجين بالعسكر إلى مصر و قام فى السلطنة:

السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوريّ: أحد مماليك المنصور قلاون، و جلس على التخت بقلعة الجبل و تلقب بالملك المنصور فى يوم الاثنين ثامن عشرى المحرّم المذكور، و استناب مملوكه منكوتمر فنفرت القلوب عنه حتى قتل فى ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فكانت مدّته سنتين و شهرين و ثلاثة عشر يوما، و دبر الأمراء بعده أمور الدولة حتى قدم من الكرك.

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون: و أعيد إلى السلطنة مرّة ثانية فى يوم الاثنين سادس جمادى الأولى، و قام بتدبير الأمور الأميران سلار نائب السلطنة، و بيبرس الجاشنكير أستادار، حتى سار كأنه يريد الحج، فمضى إلى الكرك و انخلع من السلطنة، فكانت مدّته تسع سنين و ستة أشهر و ثلاثة عشر يوما، فقام من بعده.

السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير: أحد مماليك المنصور قلاون، فى يوم السبت ثالث عشرى ذى الحجة، سنة ثمان و سبعمائة، حتى فرّ من قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان، سنة تسع و سبعمائة، فكانت مدّته عشرة أشهر و أربعة و عشرين يوما. ثم قدم من الشام فى العساكر:

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون: و أعيد إلى السلطنة مرّة ثالثة فى يوم الخميس ثانى شوّال منها، فاستبدّ بالأمر حتى مات فى ليلة الخميس حادى عشرى ذى الحجة، سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و كانت مدّته الثالثة اثنتين و ثلاثين سنة و شهرين و خمسة و عشرين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۸

يوما، و دفن بالقبة المنصورية على أبيه، و أقيم بعده ابنه.

السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر: بعهد أبيه فى يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة، و قام الأمير قوصون بتدبير الدولة، ثم خلعه بعد تسعة و خمسين يوما، فى يوم الأحد لعشرين من صفر سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، و أقام بعده أخاه:

السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاون: و لم يكمل له من العمر ثمان سنين فتنكرت قلوب الأمراء على قوصون و حاربوه و قبضوا عليه كما ذكر فى ترجمته، و خلعوا الأشرف فى يوم الخميس أوّل شعبان، فكانت مدّته خمسة أشهر و عشرة أيام، و قام الأمير أيدغمش بأمر الدولة، و بعث يستدعى من بلاد الكرم:

السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاون: و كان مقيما بقلعة الكرك من أيام أبيه، فقدم على البريد فى عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشرى شهر رمضان، و عبر الدور من قلعة الجبل بمن قدم معه، و احتجب عن الأمراء و لم يخرج لصلاة العيد، و لا حضر السماط على العادة إلى أن لبس شعار السلطنة، و جلس على التخت فى يوم الاثنين عاشر شوّال، و قلوب الأمراء نافرة منه لإعراضه عنهم، فساءت سيرته، ثم خرج إلى الكرك فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة، و استخلف الأمير آق سنقر السلاريّ نائب الغيبة. فلما وصل قبة النصر نزل عن فرسه و لبس ثياب العرب و مضى مع خواصه أهل الكرك على البريد، و ترك الأطلاب فسارت على البرّ حتى وافته بالكرك، فردّ العسكر إلى بلد الخليل و أقام بقلعة الكرك، و تصرّف أقبح تصرّف، فخلعه الأمراء فى يوم الأربعاء حادى عشرى المحرّم، سنة ثلاث و أربعين، فكانت مدّته ثلاثة أشهر و ثلاثة عشر يوما. و أقاموا بعده أخاه.

السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل: فى يوم الخميس ثانى عشرى المحرّم المذكور، و قام الأمير أرغون زوج أمّه بتدبير المملكة مع مشاركة عدّة من الأمراء، و سارت الأمراء و العساكر لقتال الناصر أحمد فى الكرك حتى أخذ و قتل، فلما أحضرت رأسه إلى السلطان الصالح و رآها فزع، و لم يزل يعتاده المرض حتى مات ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست و أربعين و سبعمائة، فكانت مدّته ثلاث سنين و شهرين و أحد عشر يوما. و قام بعده أخوه.

السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان: بعهد أخيه و جلس على التخت من غد، فأوحش ما بينه و بين الأمراء حتى ركبوا عليه، فركب لقتالهم فلم يثبت من معه و عاد إلى القلعة منهزما، فتبعه الأمراء و خلعوه، و ذلك فى يوم الاثنين مستهلّ جمادى الآخرة سنة

سبع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۹

و أربعين و سبعمائة، فكانت مدّته سنة و ثمانية و خمسين يوما. فأقيم بعده أخوه.

السلطان الملك المظفر زين الدين حاجى: من يومه، فساءت سيرته و انهمك فى اللعب، فركب الأمراء عليه، فركب إليهم و حاربهم فخانه من معه و تركوه حتى أخذ و ذبح فى يوم الأحد، ثانى عشر رمضان، سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، و كانت مدّته سنة و ثلاثة أشهر و اثنى عشر يوما. و أقيم من بعده أخوه.

السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المعالى حسن بن محمد: فى يوم الثلاثاء رابع عشرة، و عمره إحدى عشرة سنة، فلم يكن له من الأمر شىء، و القائم بالأمر الأمير شيخو العمرىّ، فلما أخذ فى الاستبداد بالتصرّف خلع و سجن فى يوم اثنين ثامن عشرى جمادى الآخرة، سنة اثنتين و خمسين، فكانت مدّته أربع سنين تنقص خمسة عشر يوما، منها تحت الحجر ثلاث سنين و نيف، و مدّة استبداده نحو من تسعة أشهر. و أقيم من بعده أخوه.

السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح: فى يوم الاثنين المذكور، فكثر لهوه و خرج عن الحدّ فى التبذل و اللعب، فثار عليه الأميران شيخو و طاز و قبضا عليه و سجناه بالقلعة، فى يوم الاثنين ثانى شوّال، سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فكانت مدّته ثلاث سنين و ثلاثة أشهر و ثلاثة أيام.

و أعيد السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون: فى يوم الاثنين المذكور، فأقام حتى قام عليه مملوكه الأمير يلبغا الخاصكىّ و قتله فى ليلة الأربعاء، تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين و ستين، فكانت مدّته هذه ست سنين و سبعة أشهر و سبعة أيام.

و أقيم من بعده ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاون: و عمره أربع عشرة سنة، فى يوم الأربعاء المذكور، و قام بالأمر الأمير يلبغا، ثم خلعه و سجنه بالقلعة فى يوم الاثنين رابع عشر شعبان، سنة أربع و ستين و سبعمائة.

و أقام بعده السلطان الملك الأشرف زين الدين أبا المعالى شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاون: و عمره عشر سنين، فى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان المذكور، و لم يل من بنى قلاون من أبوه لم يتسلطن سواه، فأقام تحت حجر يلبغا حتى قتل يلبغا فى ليلة الأربعاء عاشر ربيع الآخر، سنة ثمان و ستين و سبعمائة، فأخذ يستبدّ بملكه حتى انفرد بتدبيره، إلى أن قتل فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة، سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، بعد ما أقيم بدله ابنه فى السلطنة، فكانت مدّته أربع عشرة سنة و شهرين و خمسة عشر يوما.

فقام بالأمر ابنه السلطان الملك المنصور علاء الدين علىّ بن شعبان بن حسين: و عمره

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۰

سبع سنين، فى يوم السبت ثالث ذى القعدة المذكور، و أبوه حىّ، فلم يكن حظه من السلطنة سوى الاسم حتى مات فى يوم الأحد، ثالث عشرى صفر سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة، فكانت مدّته خمس سنين و ثلاثة أشهر و عشرين يوما.

فأقيم بعده أخوه السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى: فى يوم الاثنين رابع عشرى صفر المذكور، فقام بأمر الملك و تدبير الأمور الأمير الكبير برقوق، حتى خلعه فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، فكانت مدّته سنة و شهرين ينقصان أربعة أيام، و به انقضت دولة المماليك البحرية الأتراك و أولادهم، و مدّتهم مائة و ست و ثلاثون سنة و سبعة أشهر و تسعة أيام، أوّلها يوم الخميس عاشر صفر سنة ثمان و أربعين و ستمائة، و آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، و عدّتهم أربعة و عشرون ذكرا، ما بين رجل و صبىّ، و امرأة واحدة، و أوّلهم امرأة و آخرهم صبىّ و لما أقيم الناصر حسن بعد أخيه المظفر حاجى طلب المماليك الجراكسة الذين قرّبهم المظفر بسفارة الأمير أغرلو، فإنه كان يدّعى أنه كان جركسىّ الجنس،

و جلبهم من أماكن حتى ظهروا فى الدولة و كبرت عمائمهم و كلوتاتهم، فأخرجوا منفيين أنحس خروج، فقدموا على البلاد الشامية و اللّه تعالى أعلم.

ذكر دولة المماليك الجراكسة

و هم و اللاض و الروس أهل مدائن عامرة، و جبال ذات أشجار، و لهم أغنام و زروع، و كلهم فى مملكة صاحب مدينة سراى قاعدة خوارزم، و ملوك هذه الطوائف لملك سراى كالرعية، فإن داروه و هادوه كفّ عنهم، و إلّا غزاهم و حصهم، و كم مرجة قتلت عساكره منهم خلائق، و سبت نساءهم و أولادهم، و جلبتهم رقيقا إلى الأقطار، فأكثر المنصور قلاون من شرائهم، و جعلهم و طائفة اللاض جميعا فى أبراج القلعة، و سماهم البرجية، فبلغت عدّتهم ثلاثة آلاف و سبعمائة، و عمل منهم أوشاقية و جمقدارية و جاشنكيرية و سلاحدارية، و أوّلهم:

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص: أخذ من بلاد الجركس و بيع ببلاد القرم، فجلبه خواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى القاهرة، فاشتراه منه الأمير الكبير يلبغا الخاصكيّ و أعتقه و جعله من جملة مماليكه الأجلاب، فيعرف ببرقوق العثمانيّ. فلما قتل يلبغا أخرج الملك الأشرف الأجلاب من مصر، فسار منهم برقوق إلى الكرك، فأقام فى عدّة منهم مسجونا بها عدّة سنين، ثم أفرج عنه و عمن كان معه، فمضوا إلى دمشق و خدموا عند الأمير منجك نائب الشام حتى طلب الأشرف اليلبغاوية، فقدم برقوق فى جملتهم و استقرّ فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۱

خدمة ولدى السلطان علىّ و حاجى مع من استقرّ من خشداشيته ، فعرفوا باليلبغاوية إلى أن خرج السلطان إلى الحج، فثاروا بعد سفره و سلطنوا ابنه عليا، و حكم فى الدولة منهم الأمير قرطاى الشهابىّ، فثار عليه خشداشية أينبك البدرىّ، فأخرجه إلى الشام و قام بعده بتدبير الدولة، و خرج إلى الشام فثارت عليه اليلبغاوية و فيهم برقوق، و قد صار من جملة الأمراء، فعاد قبل وصوله بلبيس، ثم قبض عليه، و قام بتدبير الدولة غير واحد فى أيام يسيرة، فركب برقوق فى يوم الأحد ثالث عشرى ربيع الآخر سنة تسع و سبعين و سبعمائة، وقت الظهيرة، فى طائفة من خشداشيته و هجم على باب السلسلة و قبض على الأمير يلبغا الناصرىّ، و هو القائم بتدبير الدولة، و ملك الإصطبل و ما زال به حتى خلع الصالح حاجى و تسلطن فى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة وقت الظهر، فغير العوائد و أفنى رجال الدولة، و استكثر من جلب الجراكسة إلى أن ثار عليه الأمير يلبغا الناصرىّ، و هو يومئذ نائب حلب، و سار إليه ففرّ من قلعة الجبل فى ليلة الثلاثاء خامس جمادى الأولى سنة إحدى و تسعين، و ملك الناصرىّ القلعة و أعاد الصالح حاجى و لقبه بالملك المنصور، و قبض على برقوق و بعثه إلى الكرك فسجنه بها، فثار الأمير منطاش على الناصرى و قبض عليه و سجنه بالإسكندرية، و خرج يريد محاربة برقوق و قد خرج من سجن الكرك، و سار إلى دمشق فى عسكر، فحاربه برقوق على شقحب ظاهر دمشق و ملك ما معه من الخزائن، و أخذ الخليفة و السلطان حاجى و القضاة و سار إلى مصر، فقدمها يوم الثلاثاء رابع عشر صفر سنة اثنتين و تسعين، و استبدّ بالسلطنة حتى مات ليلة الجمعة للنصف من شوّال سنة إحدى و ثمانمائة، فكانت مدّته أتابكا و سلطانا إحدى و عشرين سنة و عشرة أشهر و ستة عشر يوما، خلع فيها ثمانية أشهر و تسعة أيام. و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج: فى يوم الجمعة المذكور، و عمره نحو العشر سنين، فدبر أمر الدولة الأمير الكبير ايتمش، ثم ثار به الأمير يشبك و غيره، ففرّ إلى الشام و قتل بها، و لم تزل أيام الناصر كلها كثيرة الفتن و الشرور و الغلاء و الوباء، و طرق بلاد الشام فيها الأمير تيمورلنك فخرّبها كلها و حرّقها، و عمها بالقتل و النهب و الأسر حتى فقد منها جميع أنواع الحيوانات، و تمزق أهلها فى جميع أقطار الأرض، ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء، فاشتدّ بها الغلاء على من تراجع إليها من أهلها، و شنع موتهم، و استمرّت بها مع ذلك الفتن، و قصر مدّ النيل بمصر حتى شرقت الأراضى إلّا قليلا، و عظم الغلاء و الفناء، فباع

أهل الصعيد أولادهم من الجوع، و صاروا أرقاء مملوكين، و شمل الخراب الشنيع عامّة أرض مصر و بلاد الشام من حيث يصب النيل من الجنادل إلى حيث مجرى الفرات، و ابتلى مع ذلك بكثرة فتن الأميرين نوروز الحافظى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۲

و شيخ المحمودىّ، و خروجهما ببلاد الشام عن طاعته، فتردّد لمحاربتهما مرارا حتى هزماه ثم قتلاه بدمشق، فى ليلة السبت سادس عشر صفر سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فكانت مدّته منذ مات أبوه إلى أن فرّ فى يوم الأحد خامس عشرى ربيع الأول سنة ثمان و ثمانمائة، و اختفى، و أقيم بعده أخوه عبد العزيز، و لقب الملك المنصور ست سنين و خمسة أشهر و أحد عشر يوما، و أقام الناصر فى الاختفاء سبعين يوما ثم ظهر فى يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة، و استولى على قلعة الجبل و استبدّ بملكه أقبح استبداد، إلى أن توجه لحرب نوروز و شيخ و قاتلهما على اللجون، فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرّم، سنة خمس عشرة، فانهزم إلى دمشق و هما فى إثره، و قد صار الخليفة المستعين بالله فى قبضتهما و معه مباشر و الدولة، فنزلا على دمشق و حصراه، ثم ألزما الخليفة بخلعة من السلطنة فلم يجد بدّا من ذلك و خلعه فى يوم السبت خامس عشرية، و نودى بذلك فى الناس، فكانت مدّته الثانية ست سنين و عشرة أشهر سواء.

و أقيم من بعده الخليفة المستعين بالله أمير المؤمنين أبو الفضل العباس بن محمد العباسى: و أصل هؤلاء الخلفاء بمصر، أنّ أمير المؤمنين المستعصم بالله عبد اللّه آخر خلفاء بنى العباس، لما قتله هولاكو بن تولى بن جنكزخان فى صفر سنة ست و خمسين و ستمائة ببغداد و خلت الدنيا من خليفة، و صار الناس بغير إمام قرشىّ إلى سنة تسع و خمسين، فقدم الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد بن الخليفة الناصر العباسىّ من بغداد إلى مصر، فى يوم الخميس تاسع رجب منها، فركب السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى لقائه و صعد به قلعة الجبل، و قام بما يجب من حقه و بايعه بالخلافة و بايعه الناس، و تلقب بالمستنصر، ثم توجّه لقتال التتر ببغداد فقتل فى محاربتهم، لأيام خلت من المحرّم سنة ستين و ستمائة، فكانت خلافته قريبا من سنة.

ثم قدم من بعده الأمير أبو العباس أحمد بن أبى علىّ الحسن بن أبى بكر من ذرية الخليفة الراشد بالله أبى جعفر منصور بن المسترشد، فى سابع عشرى ربيع الأوّل، فأنزله السلطان فى برج بقلعة الجبل و أجرى عليه ما يحتاج إليه، ثم بايعه فى يوم الخميس ثامن المحرّم سنة إحدى و ستين بعد ما أثبت نسبه على قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، و لقّبه بالحاكم بأمر اللّه، و بايعه الناس كافة، ثم خطب من الغد و صلى بالناس الجمعة فى جامع القلعة، و دعى له من يومئذ على منابر أراضى مصر كلها قبل الدعاء للسلطان، ثم خطب له على منابر الشام، و استمرّ الحال على الدعاء له و لمن جاء من بعده من الخلفاء، و ما زال بالبرج إلى أن منعه السلطان من الاجتماع بالناس فى المحرّم سنة ثلاث و ستين، فاحتجب و صار كالمسجون زيادة على سبع و عشرين سنة، بقية أيام الظاهر بيبرس و أيام ولديه محمد بركة و سلامش، و أيام قلاون. فلما صارت السلطنة إلى الأشرف خليل بن قلاون أخرجه من سجنه مكرّما، فى يوم الجمعة العشرين من شهر رمضان، سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۳

تسعين و ستمائة، و أمره فصعد منبر الجامع بالقلعة و خطب و عليه سواده، و قد تقلد سيفا محلّى، ثم نزل فصلى بالناس صلاة الجمعة قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة، و خطب أيضا خطبة ثالثة فى يوم الجمعة تاسع عشرى ربيع الأوّل سنة إحدى و تسعين، و حج سنة أربع و تسعين، ثم منع من الاجتماع بالناس، فامتنع حتى أفرج عنه المنصور لاجين فى سنة ست و تسعين و أسكنه بمناظر الكبش، و أنعم عليه بكسوة له و لعياله، و أجرى عليه ما يقوم به، و خطب بجامع القلعة خطبة رابعة و صلى بالناس الجمعة، ثم حج سنة سبع و تسعين، و توفى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى، سنة إحدى و سبعمائة، فكانت خلافته مدّة أربعين سنة ليس له فيها أمر و لا نهى، إنما حظه أن يقال أمير المؤمنين، و كان قد عهد إلى ابنه الأمير أبى عبد اللّه محمد المستمسك، ثم من بعده لأخيه أبى الربيع سليمان المستكفى، فمات المستمسك فى حياته، و اشتدّ جزعه عليه، فعهد لابنه إبراهيم بن محمد المستمسك.

فلما مات الحاكم أقيم من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بعده له، فشهد وقعة شقجب مع الملك الناصر محمد بن قلاون و عليه سواده، و قد أرخى له عذبة طويلة و تقلد سيفا عربيا محلى، ثم تنكر عليه و سجنه فى برج بالقلعة نحو خمسة أشهر، و أفرج عنه و أنزله إلى داره قريبا من المشهد النفيسىّ بتربة شجرة الدر، فأقام نحو ستة أشهر و أخرجه إلى قوص فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و قطع راتبه و أجرى له بقوص ما يتقوّت به، فمات بها فى خامس شعبان سنة أربعين.

و عهد إلى ولده، فلم يمض الملك الناصر محمد عهده، و بويع ابن أخيه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المستمسك بن أحمد الحاكم بيعة خفية لم تظهر، فى يوم الاثنين خامس عشرى شعبان المذكور، و أقام الخطباء أربعة أشهر لا يذكرون فى خطبهم الخليفة، ثم خطب له فى يوم الجمعة سابع ذى القعدة منها، و لقب بالواثق بالله، فلما مات الناصر محمد و أقيم بعده ابنه المنصور أبو بكر استدعى أبو القاسم أحمد بن أبى الربيع سليمان، و أقيم فى الخلافة و لقب بالحاكم بعد ما كان يلقب بالمستنصر، و كنى بأبى العباس، فى يوم السبت سلخ ذى الحجة سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و فاستمرّ حتى مات فى يوم الجمعة رابع شعبان، سنة ثمان و أربعين و سبعمائة.

فأقيم بعده أخوه المعتضد بالله أبو بكر، و كنيته أبو الفتح بن أبى الربيع سليمان، فى يوم الخميس سابع عشرة و استقرّ مع ذلك فى نظر مشهد السيدة نفيسة رضى اللّه عنها ليستعين بما يريد إلى ضريحها من نذر العامّة على قيام أوده، فإن مرتب الخلفاء كان على مكس الصاغة، و حسبه أن يقوم بما لا بدّ منه فى قوتهم، فكانوا أبدا فى عيش غير موسع، فحسنت حال المعتضد بما يبيعه من الشمع المحمول إلى المشهد النفيسىّ و نحوه إلى أن توفى يوم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۴

الثلاثاء عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث و ستين، و كان يبلغ بالكاف، و حج مرّتين إحداهما سنة أربع و خمسمين، و الثانية سنة ستين.

فأقيم بعده ابنه المتوكل على اللّه أبو عبد اللّه محمد بعهده إليه فى يوم الخميس ثانى عشرة، و خلع عليه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد بن الملك المظفر حاجى، و فوّض إليه نظر المشهد، و نزل إلى داره فلم يزل حتى تنكر له الأمير أينبك فى أوّل ذى القعدة سنة ثمان و سبعين بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين، و أخرجه ليسير إلى قوص.

و أقام عوضه فى الخلافة ابن عمه زكريا بن إبراهيم بن محمد فى ثالث عشرى صفر سنة تسع و سبعين، و كان قد أمر بردّ المتوكل من نفيه، فردّ إلى منزله من يومه، فأقام به حتى رضى عنه أينبك و أعاده فى العشرين من ربيع الأوّل منها إلى خلافته، ثم سخط عليه الظاهر برقوق و سجنه مقيدا فى يوم الاثنين أوّل رجب سنة خمس و ثمانين، و قد وشى به أنه يريد الثورة و أخذ الملك.

و أقيم بعده فى الخلافة الواثق بالله أبو حفص عمر بن المعتصم أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحاكم، فى يوم الاثنين المذكور، فما زال خليفة حتى مات يوم السبت تاسع شوّال سنة ثمان و ثمانين. فأقام الظاهر بعده فى الخلافة أخاه زكريا بن إبراهيم فى يوم الخميس ثامن عشريه، و لقب بالمستعصم، و ركب بالخلعة و بين يديه القضاة من القلعة إلى منزله، فلما أشرف الظاهر برقوق على زوال ملكه و قرب الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب بالعساكر، استدعى المتوكل على اللّه من محبسه و أعاده إلى الخلافة، و خلع عليه فى يوم الأربعاء أوّل جمادى الأولى سنة إحدى و تسعين، و بالغ فى تعظيمه، و أنعم عليه، فلم يزل على خلافته حتى توفى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب سنة ثمان و ثمانمائة، و هو أوّل من اتسعت أحواله من الخلفاء بمصر، و صار له إقطاعات و مال.

فأقيم فى الخلافة بعده ابنه المستعين بالله أبو الفضل العباس، و خلع عليه فى يوم الاثنين رابع شعبان بالقلعة بين يدى الناصر فرج بن برقوق، و نزل إلى داره ثم سار مع الناصر إلى الشام، و حضر معه وقعة اللجون حتى انهزم، فدعاه الأميران شيخ و نوروز فمضى من موقفه إليهما و معه مباشر و الدولة، فأنزلاه و وكلا به و سارا به لحصار الناصر، ثم ألزماه حتى خلعه من السلطنة، و أقامه شيخ فى السلطنة و بايعه و من معه، فى يوم السبت خامس عشرى المحرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و بعث إلى نوروز و هو بشمالىّ دمشق حتى بايعه، فنالوا بإقامته أغراضهم من قتل الناصر و انتظام أمرهم، ثم سار به شيخ إلى مصر و أقام نوروز بدمشق، فلما قدم به أسكنه

القلعة و نزل هو بالحراقة من باب السلسلة، و قام بجميع الأمور و ترك الخليفة فى غاية الحصر، حتى استبدّ بالسلطنة، فكانت مدّة الخليفة منذ أقاموه سلطانا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۵

سبعة أشهر و خمسة أيام، و نقل الخليفة إلى بعض دور القلعة و وكل به من يحفظه و أهله و قام من بعده بالسلطانة.

السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودىّ: أحد مماليك الظاهر برقوق، فى يوم الاثنين أوّل شعبان سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فسجن الخليفة فى برج بالقلعة ثم حمله إلى الإسكندرية، فسجنه بها، و لم يزل سلطانا حتى مات فى يوم الاثنين ثامن المحرّم سنة أربع و عشرين، فكانت مدّته ثمان سنين و خمسة أشهر و ستة أيام. فأقيم بعده ابنه.

السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد: و عمره سنة واحدة و نصف، فقام بأمره الأمير ططر، و فرّق ما جمعه المؤيد من الأموال، و خرج بالمظفر يريد محاربة الأمراء بالشام، فظفر بهم، و خلع المظفر، و كانت مدّته ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام. و قام بعده.

السلطان الملك الظاهر أبو الفتح ططر: أحد مماليك الظاهر برقوق، و جلس على التخت بقلعة دمشق فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان، سنة أربع و عشرين، و قدم إلى قلعة الجبل و هو موعوك البدن، فى يوم الخميس رابع شوّال، فثقل فى مرضه من يوم الاثنين ثانى عشرية حتى مات فى الأحد، رابع عشرى ذى الحجة، فكانت مدّته ثلاثة أشهر و يومين، فأقيم بعده ابنه.

السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد: و عمره نحو عشر سنين، فقام بأمره الأمير برسباى الدقاقىّ، ثم خلعه بعد أربعة أشهر و أربعة أيام. و قام من بعده.

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى: أحد مماليك الظاهر برقوق، و جلس على تخت الملك فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر، سنة خمس و عشرين و ثمانمائة.

هذا آخر الجزء الثالث من أصل مصنفه الإمام المقريزىّ رحمه اللّه تعالى و رضى عنه.

و وجد على هامش بعض النسخ ما صورته: و توفى الأشرف برسباى ثالث عشر ذى الحجة، سنة إحدى و أربعين و ثمانمائة، فكانت مدّته ست عشرة سنة و تسعة شهور، ثم قام من بعده ولده: الملك العزيز يوسف، و سنّه نحو خمس عشرة سنة، ثم خلع فى تاسع عشر ربيع الأوّل سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، فكانت مدّته نحو ثلاثة أشهر.

و قام من بعده الملك الظاهر جقمق فى تاسع عشر ربيع المذكور، و خلع نفسه من الملك فى مرض موته، و تولى بعده بعهده ولده. الملك المنصور عثمان فى حادى عشرى المحرّم سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، فكانت مدّة الظاهر جقمق أربع عشرة سنة و نحو عشرة شهور، ثم خلع ولده المنصور عثمان فى سابع ربيع الأوّل سنة سبع و خمسين و ثمانمائة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۶

فأقام فى الملك أحدا و أربعين يوما، و تولى عوضه الملك الأشرف أينال: فى ثامن من ربيع الأوّل سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، و خلع نفسه فى مرض موته فى جمادى الأولى سنة خمس و ستين و ثمانمائة، فكانت مدّته ثمان سنين و شهرين، و تولى بعده ولده الملك المؤيد أحمد ثم خلع فى ثامن عشر رمضان سنة خمس و ستين و ثمانمائة، فكانت مدّته أربعة أشهر.

و تولى الملك الظاهر خشقدم تاسع عشر رمضان، سنة خمس و ستين و ثمانمائة، و مات عشر شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و سبعين، فكانت مدّته نحو ست سنين و نصف.

ثم تولى الملك الظاهر بلباى فى حادى عشر الشهر المذكور، ثم خلع فى سابع جمادى الأولى من السنة المذكورة، فكانت مدّته ستة و خمسين يوما. ثم تولى الملك الظاهر تمربغا فى ثامن جمادى الأولى المذكور، ثم خلع فى العشر الأول من شهر رجب الفرد، سنة اثنتين و سبعين و ثمانمائة، و كانت مدّته نحو تسعة و خمسين يوما، و تولى الملك الأشرف قايتباى فى ثانى عشر رجب من السنة

المذكورة، و توفى فى ثانى عشرى ذى القعدة سنة إحدى و تسعمائة، فكانت مدّته تسعا و عشرين سنة و أربعة شهور و أياما.

و تولى بعده ولده الملك الناصر محمد فى التاريخ المذكور، ثم قتل بالجيزة فى آخر يوم الأربعاء، النصف من ربيع الأوّل سنة أربع و تسعمائة، فكانت مدّته سنتين و ثلاثة أشهر و أياما. ثم تولى خاله الملك الظاهر قانصوه الأشرفىّ قايتباى فى ضحوة يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأوّل المذكور، ثم خلع فى سابع ذى الحجة سنة خمس و تسعمائة، فكانت مدّته نحو عشرين شهرا. و تولى عوضه الملك الأشرف جان بلاط الأشرفىّ قايتباى، و أتانا خبرة بمنزله الجديدة فى العود من المدينة الشريفة، فى يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة سنة خمس و تسعمائة، فكانت مدّته ستة شهور و أياما، ثم خلع فى يوم السبت ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ست و تسعمائة و تولى الملك العادل طومان باى الأشرفىّ قايتباى ثم خلع سلخ رمضان من السنة المذكورة، فكانت مدّته نحو مائة يوم، و تولى بعده الملك الأشرف قانصوه الغورىّ الأشرفىّ قايتباى مستهل شوال من السنة المذكورة، انتهى و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

تم الجزء الثالث، و يليه الجزء الرابع و أوله: «ذكر المساجد الجامعة».

الجزء الرابع

ذكر المساجد الجامعة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم اعلم أن أرض مصر لما فتحت فى سنة عشرين من الهجرة، و اختط الصحابة رضى اللّه عنهم فسطاط مصر كما تقدّم، لم يكن بالفسطاط غير مسجد واحد، و هو الجامع الذى يقال له فى مدينة مصر الجامع العتيق، و جامع عمرو بن العاص. و ما برح الأمر على هذا إلى أن قدم عبد اللّه بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما من العراق، فى طلب مروان بن محمد فى سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، فنزل عسكره فى شمالىّ الفسطاط، و بنوا هناك الأبنية، فسمى ذلك الموضع بالعسكر، و أقيمت هناك الجمعة فى مسجد، فصارت الجمعة تقام بمسجد عمرو بن العاص و بجامع العسكر، إلى أن بنى الأمير أحمد بن طولون جامعه على جبل يشكر، فى سنة تسع و خمسين و مائتين، حين بنى القطائع، فتلاشى من حينئذ جامع العسكر، و صارت الجمعة تقام بجامع عمرو و بجامع ابن طولون، إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد القيروان بالمغرب، و معه عساكر مولاه المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، فبنى القاهرة و بنى الجامع الذى يعرف بالجامع الأزهر فى سنة ستين و ثلاثمائة، فكانت الجمعة تقام فى جامع عمرو، و جامع ابن طولون، و الجامع الأزهر، و جامع القرافة الذى يعرف اليوم بجامع الأولياء. ثم إنّ العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين اللّه، بنى فى ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح الجامع الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم، فى سنة ثمانين و ثلاثمائة، و أكمله ابنه الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور، و بنى جامع المقس، و جامع راشدة، فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع كلها إلى أن انقرضت دولة الخلفاء الفاطميين، فى سنة سبع و ستين و خمسمائة، فبطلت الخطبة من الجامع الأزهر، و استمرّت فيما عداه.

فلما كانت الدولة التركية حدث بالقاهرة و القرافة و مصر و ما بين ذلك عدّة جوامع، أقيمت فيها الجمعة، و ما برح الأمر يزداد حتى بلغ عدد المواضع التى تقام بها الجمعة، فيما بين مسجد تبر خارج القاهرة من بحريها إلى دير الطين قبلىّ مدينة مصر، زيادة على مائة موضع. و سيأتى من ذكر ذلك ما فيه كفاية إن شاء اللّه تعالى.

و قد بلغت عدّة المساجد التى تقام بها الجمعة مائة و ثلاثين مسجدا. منها: بمدينة مصر: جامع عمرو بن العاص، و الجامع الجديد، و المدرسة المعزية، و جامع ابن اللبان،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴

و جامع القرّاء، و جامع تقىّ الثمار، و جامع راشدة، و جامع الفيلة، و جامع دير الطين، و جامع بساتين الوزير.

و منها بالقرافة: جامع الأولياء، و جامع الأفرم، و خانكاه بكتمر، و جامع ابن عبد الظاهر، و جامع الجوّانى، و جامع الضراب، و جامع

قوصون، و جامع الشافعيّ، و جامع الديلميّ، و جامع محمود، و جامع بقرب تربة الست.

و منها بالروضة: جامع المقياس، و جامع عين، و جامع الرئيس، و جامع الأباريقيّ، و جامع المقسيّ.

و منها بالحسينية خارج القاهرة: جامع أحمد الزاهد، و جامع آل ملك، و جامع كزاى، و جامع الكافوريّ، بالقرب من السميساطية، و جامع الخندق، و جامع نائب الكرك، و جامع سويقة الجميزة، و جامع قيدار، و جامع ابن شرف الدين، و جامع الظاهر، و جامع الحاج كمال التاجر، تجدّد هو و جامع سويقة الجميزة فى أيام الظاهر برقوق.

و منها خارج القاهرة مما يلى النيل: جامع كوم الريش، جامع جزيرة الفيل، جامع أمين الدين بن تاج الدين موسى، جامع الفخر على النيل، جامع الأسيوطى، جامع الواسطيّ، جامع ابن بدر، جامع الخطيرى، جامع ابن غازى، جامع المقس، جامع ابن التركمانيّ، جامع بنت التركمانيّ، جامع الطواشى، جامع باب الرخاء، جامع الزاهد، جامع ميدان القمح، جامع صاروجا، جامع ابن زيد، جامع بركة الرطليّ، جامع الكيمختى، جامع باب الشعرية، جامع ابن مياله، جامع ابن المغربيّ، جامع العجميّ بقنطرة الموسكى، الجامع المعلق بقنطرة الموسكى أيضا، جامع الجاكى بسويقة الريش، جامع السروجيّ بسويقة الريش أيضا، جامع البكجريّ، جامع ابن حسون بالدكة، جامع ابن المغربيّ على الخليج، جامع الطباخ بخط اللوق، جامع الست نصيرة بخط باب اللوق حيث كان الكوم، فحفر فإذا بقبر عرف بالست نصيرة، و عمل عليه مسجد و أقيمت به الجمعة فى أيام الظاهر برقوق. جامع شاكر بجوار قنطرة قدادار عمّر سنة ست و عشرين و ثمانمائة، جامع غيط القاصد خلف قنطرة قدادار، جامع الجزيرة الوسطى، جامع كريم الدين بخط الزريبة، جامع ابن غلامها بخط الزريبة أيضا، الجامع الأخضر، جامع سويقة الموفق، جامع سلطان شاه بباب الخرق، جامع زين الدين الخشاب خارج باب الروق، كان زاوية للفقراء فأقيمت به الجمعة بعد سنة ثمانمائة، جامع منكلى بسويقة القيمريّ.

و منها فيما بين القاهرة و مصر: جامع بشتاك، جامع الإسماعيليّ على البركة الناصرية، جامع الست مسكة، جامع آق سنقر بمجرى السقائين، جامع الشيخ محمد بن حسن الحنفيّ، جامع ست حدق بالمريس، جامع الطيبرسيّ، جامع الرحمة عمارة الصاحب أمين الدين عبد اللّه بن غنام، جامع منشأة المهرانيّ، جامع يونس بالسبع سقايات على البركة، جامع بركة الاستادار بحدرة ابن قيحة، جامع ابن طولون، جامع المشهد النفيسيّ، جامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵

البقليّ بالقبيبات، جامع شيخو، جامع قانباى برلس، سويقة منعم، جامع الماس، جامع قوصون، جامع الصالح بمدرسة الناصر حسن بسوق الخيل، جامع الجاى، جامع المارديني، جامع أصلم.

و منها بقلعة الجبل: الجامع الناصريّ، جامع التوبة، جامع الإصطبل، الجامع المؤيدى.

و منها: خارج القاهرة بالترب و ما قرب من القلعة: تربة جوش، و تربة الظاهر برقوق، و تربة طشتمر حمص أخضر بالصحراء، جامع الخضرى، جامع التوبة، الجامع المؤيدى.

و منها بالقاهرة: الجامع الأزهر، و الجامع الحاكميّ، و الجامع الأقمر، و مدرسة الظاهر برقوق، و المدرسة الصالحية، و الحجازية، و المشهد الحسينيّ، و جامع الفاكهانى، و الزمامية، و الصاحبية، و البوبكرية، و الجامع المؤيديّ، و الأشرفية، و جامع الدوادارى قريبا من البرقية، و جامع التوبة بالبرقية، مدرسة ابن البقريّ، و الباسطية.

ذكر الجوامع

اشارة

اعلم أنه لما اتصلت مبانى القاهرة المعزية بمبانى مدينة فسطاط مصر، بحيث صارتا كأنهما مدينة واحدة، و اتخذ أهل القاهرة و أهل

مصر القرافتين لدفن أمواتهم، ذكرت ما فى هذه المواضع الأربع من المساجد الجامعة، و أضفت إليها ما فى جزيرة فسطاط مصر التى يقال لها الروضة من الجوامع أيضا، فإنها منتزه أهل البلدين، و جمعت إلى ذلك ما فى ظواهر القاهرة و مصر من الجوامع، مع التعريف بحال من أسسها. و بالله التوفيق.

الجامع العتيق

اشارة

هذا الجامع بمدينة فسطاط مصر، و يقال له تاج الجوامع، و جامع عمرو بن العاص، و هو أوّل مسجد أسس بديار مصر فى الملة الإسلامية بعد الفتح.

خرّج الحافظ أبو القاسم بن عساكر من حديث معاوية بن قرّة قال: قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: من صلّى صلاة مكتوبة فى مسجد مصر من الأمصار، كانت له كحجة متقبلة، فإن صلّى تطوّعا كانت له كعمرة مبرورة.

و عن كعب: من صلّى فى مسجد مصر من الأمصار صلاة فريضة، عدلت حجة متقبلة، و من صلّى صلاة تطوع عدلت عمرة متقبلة، فإن أصيب فى وجهه ذلك، حرّم لحمه و دمه على النار أن تطعمه، و ذنبه على من قتله.

و أول مسجد بنى فى الإسلام مسجد قبا، ثم مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. قال هشام بن عمار: حدّثنا المغيرة بن المغيرة، حدّثنا يحيى بن عطاء الخراسانىّ عن أبيه. قال: لما افتتح عمر البلدان، كتب إلى أبى موسى و هو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة، و يتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة. و كتب إلى سعد بن أبى وقاص و هو على الكوفة بمثل ذلك، و كتب إلى عمرو بن العاص و هو على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶

مصر بمثل ذلك، و كتب إلى أمراء أجناد الشام أن لا يتبدّدوا إلى القرى، و أن ينزلوا المدائن، و أن يتخذوا فى كلّ مدينة مسجدا واحدا، و لا تتخذ القبائل مساجد، فكان الناس متمسكين بأمر عمر و عهده.

و قال أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص الكندىّ، فى كتاب أخبار مسجد أهل الراية الأعظم: و أوّل أمره و بنائه و زيادة الأمراء فيه و غيرهم، و مجالس الحكام و الفقهاء منه و غير ذلك، قال هبيرة بن أبيض عن شيخه تجيب: أن قيسبة بن كلثوم التجيبىّ أحد بنى سوم، سار من الشام إلى مصر مع عمرو بن العاص، فدخلها فى مائة راحلة و خمسين عبدا و ثلاثين فرسا، فلما أجمع المسلمون و عمرو بن العاص على حصار الحصن، نظر قيسبة بن كلثوم فرأى جنانا تقرب من الحصن، فعرّج إليها فى أهله و عبيده، فنزل و ضرب فيها فسطاطه و أقام فيها طول حصارهم الحصن حتى فتحه اللّه عليهم ثم خرج قيسبة مع عمرو إلى الإسكندرية و خلف أهله فيها، ثم فتح اللّه عليهم الإسكندرية، و عاد قيسبة إلى منزله هذا فنزله، و اختط عمرو بن العاص داره مقابل تلك الجنان التى نزلها قيسبة، و تشاور المسلمون أين يكون المسجد الجامع، فرأوا أن يكون منزل قيسبة، فسأله عمرو فيه و قال: أنا أختط لك يا أبا عبد الرحمن حيث أحببت. فقال قيسبة: لقد علمتم يا معاشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل و ملكته، و إنى أتصدّق به على المسلمين و ارتحل، فنزل مع قومه بنى سوم و اختط فيهم، فبنى مسجدا فى سنة إحدى و عشرين من الهجرة، و فى ذلك يقول أبو قبان بن نعيم بن بدر التجيبى:

و بابليون قد سعدنا بفتحهاو حزنا لعمر اللّه فيأ و مغنما

و قيسبة الخير بن كلثوم داره‌أباح حماها للصلاة و سلّما

فكلّ مصلّ فى فنانا صلاته‌تعارف أهل المصر ما قلت فاعلما

و قال أبو مصعب قيس بن سلمة الشاعر فى قصيدته التى امتدح فيها عبد الرحمن بن قيسبة:

و أبوك سلّم داره و أباحهالجباه قوم ركّع و سجود

و قال الليث بن سعد: كان مسجدنا هذا حدائق و أعنابا. و قال الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ: و من جملة مزارعها جامع مصر، و قد بقى إلى الآن من جملة الأنشاب التى كانت فى البستان فى موضع الجامع، شجرة زنزلخت، و هى باقية إلى الآن خلف المحراب الكبير و الحائط الذى به المنبر، و من العلماء من قال: إنّ هذه الشجرة باقية من عهد موسى عليه السلام، و كان لها نظير شجرة أخرى فى الورّاقين، احترقت فى حريق مصر سنة أربع و ستين و خمسمائة، و ظهر بالجامع العتيق بئر البستان التى كانت به، و هى اليوم يستقى منها الناس الماء بموضع حلة الفقيه ابن الجيزىّ المالكىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷

قال الكندىّ: و قال يزيد بن أبى حبيب: سمعت أشياخنا ممن حضر مسجد الفتح يقولون: وقف على إقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلا من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فيهم الزبير بن العوام، و المقداد، و عبادة بن الصامت، و أبو الدرداء، و فضالة بن عبيد، و عقبة بن عامر، رضى اللّه عنهم. و فى رواية أسس مسجدنا هذا أربعة من الصحابة، أبو ذر، و أبو بصيرة، و محمية بن جزء الزبيدىّ و نبيه بن صواب.

و قال عبد اللّه بن أبى جعفر: أقام محرابنا هذا عبادة بن الصامت، و رافع بن مالك، و هما نقيبان. و قال داود بن عقبة: أن عمرو بن العاص بعث ربيعة بن شرحبيل بن حسنة، و عمرو بن علقمة القرشىّ، ثم العدوىّ، يقيمان القبلة، و قال لهما: قوما إذا زالت الشمس.

أو قال: انتصفت الشمس، فاجعلاها على حاجبيكما ففعلا.

و قال الليث: إنّ عمرو بن العاص كان يمدّ الحبال حتى أقيمت قبلة المسجد. و قال عمرو بن العاص: شرّقوا القبلة تصيبوا الحرم. قال: فشرّقت جدّا، فلما كان قرّة بن شريك تيامن بها قليلا، و كان عمرو بن العاص إذا صلّى فى مسجد الجامع يصلى ناحية الشرق إلّا الشىء اليسير، و قال رجل من تجيب: رأيت عمرو بن العاص دخل كنيسة فصلّى فيها و لم ينصرف عن قبلتهم إلّا قليلا، و كان الليث و ابن لهيعة إذا صليا تيامنا، و كان عمر بن مروان عمّ الخلفاء إذا صلّى فى المسجد الجامع تيامن. و قال يزيد بن حبيب فى قوله تعالى: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها، هى قبلة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم التى نصبها اللّه عز و جل مقابل الميزاب، و هى قبلة أهل مصر و أهل الغرب، و كان يقرأها فلنولينك قبلة نرضاها بالنون. و قال هكذا أقرأناها أبو الخير.

و قال الخليل بن عبد اللّه الأزدىّ: حدّثنى رجل من الأنصار أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أتاه جبريل فقال: ضع القبلة و أنت تنظر إلى الكعبة، ثم قال بيده، فأماط كلّ جبل بينه و بين الكعبة، فوضع المسجد و هو ينظر إلى الكعبة، و صارت قبلته إلى الميزاب.

و قال ابن لهيعة: سمعت أشياخنا يقولون: لم يكن لمسجد عمرو بن العاص محراب مجوّف، و لا أدرى بناه مسلمة أو بناه عبد العزيز. و أوّل من جعل المحراب قرّة بن شريك.

و قال الواقدىّ: حدّثنا محمد بن هلال قال: أوّل من أحدث المحراب المجوّف عمر بن عبد العزيز، ليالى بنى مسجد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و ذكر عمر بن شيبة أن عثمان بن مظعون تفل فى القبلة فأصبح مكتئبا، فقالت له امرأته: ما لى أراك مكتئبا؟ قال: لا شىء إلّا أنى تفلت فى القبلة و أنا أصلى، فعمدت الى القبلة فغسلتها، ثم عملت خلوقا فخلقتها، فكانت أوّل من خلق القبلة.

و قال أبو سعيد سلف الحميرىّ: أدركت مسجد عمرو بن العاص طوله خمسون ذراعا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸

فى عرض ثلاثين ذراعا، و جعل الطريق يطيف به من كلّ جهة، و جعل له بابان يقابلان دار عمرو بن العاص، و جعل له بابان فى بحريه، و بابان فى غربيه، و كان الخارج إذا خرج من زقاق القناديل وجد ركن المسجد الشرقىّ محاذيا لركن دار عمرو بن العاص الغربىّ، و ذلك قبل أن أخذ من دار عمرو بن العاص ما أخذ، و كان طوله من القبلة إلى البحرى مثل طول دار عمرو بن العاص، و

كان سقفه مطاطأ جدّا و لا صحن له، فإذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كلّ ناحية، و بينه و بين دار عمرو سبع أذرع.

قلت: و أوّل من جلس على منبر أو سرير ذى أعواد ربيعة بن محاسن. و قال القضاعيّ فى كتاب الخطط: و كان عمرو بن العاص قد اتخذ منبرا، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يعزم عليه فى كسره و يقول: أما يحسبك أن تقوم قائما و المسلمون جلوس تحت عقبيك، فكسره. قال مؤلفه رحمه اللّه: و فى سنة إحدى و ستين و مائة، أمر المهدىّ محمد بن أبى جعفر المنصور بتقصير المنابر و جعلها بقدر منبر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. قال القضاعيّ: و أوّل من صلّى عليه من الموتى داخل الجامع، أبو الحسين سعيد بن عثمان صاحب الشرط، فى النصف من صفر، و كانت وفاته فجأة، فأخرج ضحوة يوم الأحد السادس عشر من صفر، و صلّى عليه خلف المقصورة و كبّر عليه خمسا، و لم يعلم أحد قبله صلّى عليه فى الجامع. و ذكر عمر بن شيبة فى تاريخ المدينة، أنّ أوّل من عمل مقصورة بلبن، عثمان بن عفان، و كانت فيها كوى تنظر الناس منها إلى الإمام، و أن عمر بن عبد العزيز عملها بالساج. قال القضاعيّ: و لم تكن الجمعة تقام فى زمن عمرو بن العاص بشىء من أرض مصر إلّا فى هذا الجامع. قال أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس: جاء نفر من بحافق إلى عمرو بن العاص فقالوا: إنا نكون فى الريف، أفنجمع فى العيدين الفطر و الأضحى و يؤمّنا رجل منا؟ قال: نعم. قالوا: فالجمعة؟ قال: لا، و لا يصلى الجمعة بالناس إلّا من أقام الحدود و آخذ بالذنوب و أعطى الحقوق.

و أوّل من زاد فى هذا الجامع مسلمة بن مخلد الأنصارىّ سنة ثلاث و خمسين و هو يومئذ أمير مصر من قبل معاوية. قال الكندىّ فى كتاب أخبار مسجد أهل الراية: و لما ضاق المسجد بأهله شكى ذلك إلى مسلمة بن مخلد، و هو الأمير يومئذ، فكتب فيه إلى معاوية بن أبى سفيان، فكتب إليه يأمره بالزيادة فيه، فزاد فيه من شرقيه مما يلى دار عمرو بن العاص، و زاد فيه من بحريه، و لم يحدث فيه حدثا من القبلىّ و لا من الغربىّ، و ذلك فى سنة ثلاث و خمسين، و جعل له رحبة فى البحرىّ منه كان الناس يصيفون فيها، و لا طه بالنورة و زخرف جدرانه و سقوفه، و لم يكن المسجد الذى لعمر، و جعل فيه نورة و لا زخرف، و أمر بابتناء منار المسجد الذى فى الفسطاط، و أمر أن يؤذنوا فى وقت واحد، و أمر مؤذنى الجامع أن يؤذنوا للفجر إذا مضى نصف الليل، فإذا فرغوا من أذانهم أذن كلّ مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد. قال ابن لهيعة فكان لأذانهم دوىّ شديد، فقال عابد بن هشام الأزدىّ: ثم السلامانىّ لمسلمة بن مخلد:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹ لقد مدّت لمسلمة الليالىعلى رغم العداة من الأمان

و ساعده الزمان بكلّ سعدو بلغه البعيد من الأمانى

أ مسلم فارتقى لا زلت تعلوعلى الأيام مسلم و الزمان

لقد أحكمت مسجدنا فأضحى كأحسن ما يكون من المبانى

فتاه به البلاد و ساكنوهاكما تاهت بزينتها الغوانى

و كم لك من مناقب صالحاتو أجدل بالصوامع للأذان

كأنّ تجاوب الأصوات فيهاإذا ما الليل ألقى بالجران

كصوت الرعد خالطه دوىّو أرعب كلّ مختطف الجنان

و قيل أنّ معاوية أمره ببناء الصوامع للأذان، قال: و جعل مسلمة للمسجد الجامع أربع صوامع فى أركانه الأربع، و هو أوّل من جعلها فيه، و لم تكن قبل ذلك. قال: و هو أوّل من جعل فيه الحصر، و إنما كان قبل ذلك مفروضا بالحصباء، و أمر أن لا يضرب بناقوس عند الأذان يعنى الفجر، و كان السلّم الذى يصعد منه المؤذنون فى الطريق، حتى كان خالد بن سعيد، فحوّله داخل المسجد.

قال القاضى القضاعيّ: ثم إن عبد العزيز بن مروان هدمه فى سنة تسع و سبعين من الهجرة، و هو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، و زاد فيه من ناحية الغرب، و أدخل فيه الرحبة التى كانت فى بحريه، و لم يجد فى شرقيه موضعا يوسعه به. و ذكر أبو عمر الكندىّ فى كتاب الأمراء أنه زاد فيه من جوانبه كلها، و يقال أنّ عبد العزيز بن مروان لما أكمل بناء المسجد

خرج من دار الذهب عند طلوع الفجر، فدخل المسجد فرأى فى أهله خفة، فأمر بأخذ الأبواب على من فيه، ثم دعا بهم رجلا رجلا، فيقول للرجل: أ لك زوجة؟ فيقول لا، فيقول زوّجوه، أ لك خادم؟ فيقول لا، فيقول أخدموه. أ حججت؟ فيقول: لا. فيقول أحجوه. أ عليك دين؟ فيقول: نعم. فيقول إقضوا دينه. فأقام المسجد بعد ذلك دهرا عامرا و لم يزل إلى اليوم. و ذكر أن عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان فى ولايته على مصر، من قبل أخيه الوليد، أمر برفع سقف المسجد الجامع، و كان مطاطأ، و ذلك فى سنة تسع و ثمانين. ثم إن قرّة بن شريك العبسىّ هدمه مستهلّ سنة اثنتين و تسعين بأمر الوليد بن عبد الملك، و هو يومئذ أمير مصر من قبله، و ابتدأ فى بنيانه فى شعبان من السنة المذكورة، و جعل على بنائه يحيى بن حنظلة، مولى بنى عامر بن لؤىّ، و كانوا يجمعون الجمعة فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه، و ذلك فى شهر رمضان سنة ثلاث و تسعين، و نصب المنبر الجديد فى سنة أربع و تسعين، و نزع المنبر الذى كان فى المسجد، و ذكر أنّ عمرو بن العاص كان جعله فيه، فلعله بعد وفاة عمر بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰

الخطاب رضى اللّه عنه. و قيل هو منبر عبد العزيز بن مروان، و ذكر أنه حمل إليه من بعض كنائس مصر، و قيل أنّ زكريا بن برقنى ملك النوبة أهداه إلى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، و بعث معه نجاره حتى ركبه، و اسم هذا النجار بقطر من أهل دندرة، و لم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد قرّة بن شريك فى الجامع، فنصب منبرا سواه على ما تقدّم شرحه، و لم يكن يخطب فى القرى إلّا على العصا إلى أن ولى عبد الملك بن موسى بن نصير اللخمى مصر، من قبل مروان بن محمد، فأمر باتخاذ المنابر فى القرى، و ذلك فى سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، و ذكر أنه لا يعرف منبرا أقدم منه، يعنى من منبر قرّة بن شريك بعد منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فلم يزل كذلك إلى أن قلع و كسر فى أيام العزيز بالله بنظر الوزير يعقوب بن كلس، فى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الأوّل سنة تسع و سبعين و ثلاثمائة و جعل مكانه منبر مذهب، ثم أخرج هذا المنبر إلى الإسكندرية و جعل فى جامع عمرو بها، و أنزل إلى الجامع المنبر الكبير الذى هو به الآن، و ذلك فى أيام الحاكم بأمر اللّه فى شهر ربيع الأوّل سنة خمس و أربعمائة، و صرف بنو عبد السميع عن الخطابة، و جعلت خطابة الجامع العتيق لجعفر بن الحسن بن خداع الحسينىّ، و جعل إلى أخيه الخطابة بالجامع الأزهر، و صرف بنو عبد السميع بن عمر بن الحسين بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن العباس من جميع المنابر بعد أن أقاموا هم، و سلفهم فيها ستين سنة. و فى شهر ربيع الأوّل من هذه السنة وجد المنبر الجديد الذى نصب فى الجامع قد لطخ بعذرة، فوكّل به من يحفظه و عمل له غشاء من أدم مذهب فى شعبان من هذه السنة، و خطب عليه ابن خداع و هو مغشى، و زيادة قرّة من القبلىّ و الشرقىّ، و أخذ بعض دار عمرو و ابنه عبد اللّه بن عمرو فأدخله فى المسجد، و أخذ منهما الطريق الذى بين المسجد و بينهما، و عوّض ولد عمرو ما هو فى أيديهم اليوم من الرباع، و أمر قرّة بعمل المحراب المجوّف على ما تقدّم شرحه، و هو المحراب المعروف بعمرو، لأنه فى سمت محراب المسجد القديم الذى بناه عمرو، و كانت قبلة المسجد القديم عند العمد المذهبة فى صف التوابيت اليوم، و هى أربعة عمد، اثنان فى مقابلة اثنين، و كان قرّة أذهب رؤوسها، و كانت مجالس قيس، و لم يكن فى المسجد عمد مذهبة غيرها، و كانت قديما حلقة أهل المدينة، ثم روق أكثر العمد و طوّق فى أيام الإخشيد سنة أربع و عشرين و ثلاثمائة، و لم يكن للجامع أيام قرّة بن شريك غير هذا المحراب، فأمّا المحراب الأوسط الموجود اليوم فعرف بمحراب عمر بن مروان عمّ الخلفاء، و هو أخو عبد الملك و عبد العزيز، و لعله أحدثه فى الجدار بعد قرّة، و قد ذكر قوم أن قرة عمل هذين المحرابين، و صار للجامع أربعة أبواب، و هى الأبواب الموجودة فى شرقيه الآن، آخرها باب إسرائيل و هو باب النحاسين، و فى غربيه أربعة أبواب شارعة فى زقاق كان يعرف بزقاق البلاط، و فى بحريه ثلاثة أبواب، و بيت المال الذى فى علو الفوّارة بالجامع بناه أسامة بن زيد التنوخىّ متولى الخراج بمصر، سنة سبع و تسعين فى أيام سليمان بن عبد الملك، و أمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱

مصر يومئذ عبد الملك بن رفاعة الفهمىّ، و كان مال المسلمين فيه، و طرق المسجد فى ليلة سنة خمس و أربعين و مائة فى ولاية

يزيد بن حاتم المهلبيّ من قبل المنصور، طرقه قوم ممن كان بايع عليّ بن محمد بن عبد اللّه بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و كان أوّل علويّ قدم مصر، فنهبوا بيت المال ثم تضاربوا عليه بسيوفهم، فلم يصل إليهم منه إلّا اليسير، فأنفذ إليهم يزيد من قتل منهم جماعة و انهزموا، فنهبوا بيت المال ثم تضاربوا عليه بسيوفهم، فلم يصل إليهم منه إلّا اليسير، فأنفذ إليهم يزيد من قتل منهم جماعة و انهزموا، و ذكر أن هذا المكان تسوّر عليه لص فى إمارة أحمد بن طولون و سرق منه بدرتى دنانير، فظفر به أحمد بن طولون و اصطنعه و عفا عنه.

و فى سنة ثمان و سبعين و ثلاثمائة أمر العزيز باللّه بعمل الفوّارة تحت قبة بيت المال، فعملت و فرغ منها فى شهر رجب سنة تسع و سبعين و ثلاثمائة، ثم زاد فيه صالح بن عليّ بن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما، و هو يومئذ أمير مصر من قبل أبى العباس السفاح، فى مؤخرة أربع أساطين، و ذلك فى سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، و هو أوّل من ولى مصر لبنى العباس. فيقال أنه أدخل فى الجامع دار الزبير بن العوّام رضى اللّه عنه، و كانت غربيّ دار النحاس، و كان الزبير تخلى عنها و وهبها لمواليه، لخصومة جرت بين غلمانه و غلمان عمرو بن العاص، و اختط الزبير فيما يلى الدار المعروفة به الآن، ثم اشترى عبد العزيز بن مروان دار الزبير من مواليه، فقسّمها بين ابنه الأصبغ و أبى بكر، فلما قدم صالح بن عليّ أخذها عن أمّ عاصم بنت عاصم بن أبى بكر، و عن طفل يتيم و هو حسان بن الأصبغ فأدخلها فى المسجد، و باب الكحل من هذه الزيادة، و هو الباب الخامس من أبواب الجامع الشرقية الآن، و عمر صالح بن عليّ أيضا مقدّم المسجد الجامع عند الباب الأوّل موضع البلاطة الحمراء، ثم زاد فيه موسى بن عيسى الهاشميّ، و هو يومئذ أمير مصر من قبل الرشيد فى شعبان سنة خمس و سبعين و مائة، الرحبة التى فى مؤخره، و هى نصف الرحبة المعروفة بأبى أيوب، و لما ضاق الطريق بهذه الزيادة أخذ موسى بن عيسى دار الربيع بن سليمان الزهريّ شركة بنى مسكين بغير عوض للربيع، و وسع بها الطريق و عوّض بنى مسكين، و وصل عبد اللّه بن طاهر بن الحسين بن مصعب مولى خراعة أميرا من قبل المأمون فى شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة و مائتين، و توجه إلى الإسكندرية مستهلّ صفر سنة اثنتى عشرة و مائتين، و رجع إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة، و أمر بالزيادة فى المسجد الجامع، فزيد فيه مثله من غربيه، و عاد ابن طاهر إلى بغداد لخمس بقين من رجب من السنة المذكورة، و كانت زيادة ابن طاهر المحراب الكبير و ما فى غربيه إلى حدّ زيادة الخازن، فأدخل فيه الزقاق المعروف أوّلا بزقاق البلاط، و قطعة كبيرة من دار الرمل، و رحبة كانت بين يدى دار الرمل، و دورا ذكرها القضاعيّ.

و ذكر بعضهم أن موضع فسطاط عمرو بن العاص حيث المحراب و المنبر، قال: و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲

الذى تمم زيادة عبد اللّه بن طاهر بعد مسيره إلى بغداد، عيسى بن يزيد الجلوديّ، و تكامل ذرع الجامع، سوى الزيادتين، مائة و تسعين ذراعا بذراع العمل طولا، فى مائة و خمسين ذراعا عرضا. و يقال أنّ ذرع جامع ابن طولون مثل ذلك سوى الرواق المحيط بجوانبه الثلاثة.

و نصب عبد اللّه بن طاهر اللوح الأخضر، فلما احترق الجامع احترق ذلك اللوح، فجعل أحمد بن محمد العجيفيّ هذا اللوح مكان ذلك، و هو هذا اللوح الأخضر الباقى إلى اليوم، و رحبة الحارث هى الرحبة البحرية من زيادة الخازن، و كانت رحبة يتبايع الناس فيها يوم الجمعة، و ذكر أبو عمر الكندىّ فى كتاب الموالى: أن أبا عمرو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف مولى محمد بن ريان بن عبد العزيز بن مروان، لما ولى القضاء من قبل المتوكل على اللّه فى سنة سبع و ثلاثين و مائتين، أمر ببناء هذه الرحبة ليتسع الناس بها، و حوّل سلّم المؤذنين إلى غربيّ المسجد، و كان عند باب إسرائيل، و بلّط زيادة بن طاهر، و أصلح بنيان السقف، و بنى سقاية فى الحذائين، و أمر ببناء الرحبة الملاصقة لدار الضرب ليتسع الناس بها، و زيادة أبى أيوب أحمد بن محمد بن شجاع ابن أخت أبى الوزير أحمد بن خالد، صاحب الخراج فى أيام المعتصم، كان أبو أيوب هذا أحد عمال الخراج زمن أحمد بن طولون، و زيادته فى بقية الرحبة المعروفة برحبة أبى أيوب. و المحراب المنسوب إلى أبى أيوب هو الغربيّ من هذه الزيادة عند شباك الحذائين، و كان

بناؤها فى سنة ثمان و خمسين و مائتين، و يقال أن أبا أيوب مات فى سجن أحمد بن طولون بعد أن نكبه و اصطفى أمواله، و ذلك فى سنة ست و ستين و مائتين، و أدخل أبو أيوب فى هذه الزيادة أماكن ذكرها. قال:

و كان قد وقع فى مؤخر المسجد الجامع حريق، فعمر و زيدت هذه الزيادة فى أيام أحمد بن طولون، و وقع فى الجامع فى ليلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنة خمس و سبعين و مائتين، حريق أخذ من بعد ثلاث حنايا من باب إسرائيل إلى رحبة الحارث بن مسكين، فهلك فيه أكثر زيادة عبد اللّه بن طاهر و الرواق الذى عليه اللوح الأخضر، فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارته على يد أحمد بن محمد العجيفىّ، فأعيد على ما كان عليه، و أنفق فيه ستة آلاف و أربعمائة دينار، و كتب اسم خمارويه فى دائر الرواق الذى عليه اللوح الأخضر، و هى موجودة الآن، و كانت عمارته فى السنة المذكورة. و أمر عيسى النوشرى فى ولايته الثانية على مصر، فى سنة أربع و تسعين و مائتين، بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات، فكان يفتح للصلاة فقط، و أقام على ذلك أياما، فضجّ أهل المسجد ففتح لهم.

و زاد أبو حفص العباسىّ فى أيام نظره فى قضاء مصر، خلافة لأخيه محمد، الغرفة التى يؤذن فيها المؤذنون فى السطح، و كانت ولايته فى رجب من سنة ست و ثلاثين و ثلاثمائة و كان إمام مصر و الحرمين، و إليه إقامة الحج، و لم يزل قاضيا بمصر خلافة لأخيه إلى أن صرف من القضاء بالخصيبىّ، فى ذى الحجة سنة تسع و ثلاثين و ثلاثمائة و توفى فى سنة اثنتين و أربعين و ثلاثمائة بعد قدومه من الحج، ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد اللّه الخازن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳

رواقا واحدا من دار الضرب، و هو الرواق ذو المحراب و الشباكين المتصل برحبة الحارث، و مقداره تسع أذرع، و كان ابتداء ذلك فى رجب سنة سبع و خمسين و ثلاثمائة و مات قبل تمام هذه الزيادة، و تممها ابنه علىّ بن محمد، و فرغت فى العشر الأخر من شهر رمضان سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة. و زاد فيه الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس بأمر العزيز باللّه، الفوّارة التى تحت قبة بيت المال، و هو أوّل من عمل فيه فوّارة، و زاد فيه أيضا مساقف الخشب المحيطة بها على يد المعروف بالمقدسىّ الأطروش، متولى مسجد بيت المقدس، و ذلك فى سنة ثمان و سبعين و ثلاثمائة و نصب فيها حباب الرخام التى للماء. و فى سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة جدّد بياض المسجد الجامع و قلع شىء كثير من الفسيفساء الذى كان فى أروقته، و بيض مواضعه، و نقشت خمسة ألواح و ذهّبت و نصبت على أبوابه الخمسة الشرقية، و هى التى عليها الآن، و كان ذلك على يد برجوان الخادم، و كان اسمه ثابتا فى الألواح فقلع بعد قتله.

و قال المسبحىّ فى تاريخه، و فى سنة ثلاث و أربعمائة أنزل من القصر إلى الجامع العتيق بألف و مائتين و ثمانية و تسعين مصحفا، ما بين ختمات و ربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب، و مكن الناس من القراءة فيها، و أنزل إليه أيضا بتور من فضة عمله الحاكم بأمر اللّه برسم الجامع، فيه مائة ألف درهم فضة، فاجتمع الناس و علّق بالجامع بعد أن قلعت عتبتا الباب حتى أدخل به، و كان من اجتماع الناس لذلك ما يتجاوز الوصف.

قال القضاعىّ: و أمر الحاكم بأمر اللّه بعمل الرواقين اللذين فى صحن المسجد الجامع، و قلع عمد الخشب و جسر الخشب التى كانت هناك، و ذلك فى شعبان سنة ست و أربعمائة، و كانت العمد و الجسر قد نصبها أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، فى سنة سبع و خمسين و مائتين، زمن أحمد بن طولون، لأنّ الحرّ اشتدّ على الناس فشكوا ذلك إلى ابن طولون، فأمر بنصب عمد الخشب و جعل عليها الستائر فى السنة المذكورة، و كان الحاكم قد أمر بأن تدهن هذه العمد الخشب بدهن أحمر و أخضر، فلم يثبت عليها، ثم أمر بقلعها و جعلها بين الرواقين. و أوّل ما عملت المقاصير فى الجوامع فى أيام معاوية بن أبى سفيان، سنة أربع و أربعين، و لعل قرّة بن شريك لما بنى الجامع بمصر عمل المقصورة. و فى سنة إحدى و ستين و مائة، أمر المهدىّ بنزع المقاصير من مساجد الأمصار، و بتقصير المنابر، فجعلت على مقدار منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أعيدت بعد ذلك. و لما ولى مصر موسى بن أبى العباس

من أهل الشاش، من قبل أبى جعفر اشناس، أمر المعتصم أن يخرج المؤذنون إلى خارج المقصورة، و هو أوّل من أخرجهم، و كانوا قبل ذلك يؤذنون داخلها، ثم أمر الإمام المستنصر بالله بن الظاهر بعمل الحجر المقابل للمحراب، و بالزيادة فى المقصورة فى شرقيها و غربيها، حتى اتصلت بالحذائين من جانبيها، و بعمل منطقة فضة فى صدر المحراب الكبير أثبت عليها اسم أمير المؤمنين، و جعل لعمودى المحراب أطواق فضة، و جرى ذلك على يد عبد اللّه بن محمد بن عبدون، فى شهر رمضان سنة ثمان و ثلاثين و أربعمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴

قال مؤلفه رحمه اللّه: و لم تزل هذه المنطقة الفضة إلى أن استبدّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر، بعد موت الخليفة العاضد لدين اللّه، فى محرّم سنة سبع و ستين و خمسمائة، فقلع مناطق الفضة من الجوامع بالقاهرة، و من جامع عمرو بن العاص بمصر، و ذلك فى حادى عشر شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة.

قال القضاعىّ: و فى شهر رمضان من سنة أربعين و أربعمائة جدّدت الخزانة التى فى ظهر دار الضرب فى طريق الشرطة، مقابلة لظهر المحراب الكبير، و فى شعبان من سنة إحدى و أربعين و أربعمائة أذهب بقية الجدار القبلىّ حتى اتصل الإذهاب من جدار زيادة الخازن إلى المنبر، و جرى ذلك على يد القاضى أبى عبد اللّه أحمد بن محمد بن يحيى بن أبى زكريا.

و فى شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين و أربعين و أربعمائة، عملت لموقف الإمام فى زمن الصيف مقصورة خشب و محراب ساج منقوش بعمودى صندل، و تقلع هذه المقصورة فى الشتاء إذا صلّى الإمام فى المقصورة الكبيرة.

و فى شعبان سنة أربع و أربعين و أربعمائة، زيد فى الخزانة مجلس من دار الضرب، و طريق المستحم، و زخرف هذا المجلس و حسّن، و جعل فيه محراب و رخّم بالرخام الذى قلع من المحراب الكبير حين نصب عبد اللّه بن محمد بن عبدون منطقة الفضة فى صدر المحراب الكبير، و جرت هذه الزيادة على يد القاضى أبى عبد اللّه أحمد بن محمد بن يحيى.

و فى ذى الحجة من سنة اثنتين و أربعين و أربعمائة، عمر القاضى أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن أبى زكريا غرفة المؤذنين بالسطح، و حسّنها و جعل لها روشنا على صحن الجامع، و جعل بعدها ممرقا ينزل منه إلى بيت المال، و جعل للسطح مطلعا من الخزانة المستجدّة فى ظهر المحراب الكبير، و جعل له مطلعا آخر من الديوان الذى فى رحبة أبى أيوب.

و فى شعبان من سنة خمس و أربعين و أربعمائة، بنيت المئذنة التى فيما بين مئذنة غرفة و المئذنة الكبيرة، على يد القاضى أبى عبد اللّه أحمد بن زكريا. انتهى ما ذكره القضاعىّ.

و فى سنة أربع و ستين و خمسمائة تمكن الفرنج من ديار مصر و حكموا فى القاهرة حكما جائرا، و ركبوا المسلمين بالأذى العظيم، و تيقنوا أنه لا حامى للبلاد من أجل ضعف الدولة، و انكشفت لهم عورات الناس، فجمع مرى ملك الفرنج بالساحل جموعه، و استجدّ قوما قوّى بهم عساكره، و سار إلى القاهرة من بلبيس بعد أن أخذها و قتل كثيرا من أهلها، فأمر شاور بن مجير السعدىّ و هو يومئذ مستول على ديار مصر وزارة للعاضد بإحراق مدينة مصر، فخرج إليها فى اليوم التاسع من صفر من السنة المذكورة عشرون ألف قارورة نفط،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵

و عشرة آلاف مشعل مضرمة بالنيران، و فرّقت فيها. و نزل مرى بجموع الفرنج على بركة الحبش، فلما رأى دخان الحريق تحوّل من بركة الحبش و نزل على القاهرة مما يلى باب البرقية، و قاتل أهل القاهرة و قد انحشر الناس فيها، و استمرّت النار فى مصر أربعة و خمسين يوما، و النهابة تهدم ما بها من المبانى و تحفر لأخذ الخبايا إلى أن بلغ مرى قدوم أسد الدين شيركوه بعسكر من جهة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام، فرحل فى سابع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، و تراجع المصريون شيئا بعد شىء إلى مصر، و تشعث الجامع، فلما استبدّ السلطان صلاح الدين بمملكة مصر بعد موت العاضد، جدّد الجامع العتيق بمصر فى سنة ثمان و ستين و خمسمائة، و أعاد صدر الجامع و المحراب الكبير و رخمه و رسم عليه اسمه، و جعل فى سقاية قاعة الخطابة قصبة إلى

السطح، يرتفق بها أهل السطح، و عمر المنظرة التى تحت المئذنة الكبيرة، و جعل لها سقاية، و عمر فى كنف دار عمرو الصغرى البحرىّ مما يلى الغربىّ، قصبة أخرى إلى محاذاة السطح، و جعل لها ممشاة من السطح إليها يرتفق بها أهل السطح، و عمر غرفة الساعات و حرّرت، فلم تزل مستمرّة إلى أثناء أيام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانىّ، أوّل من ملك من المماليك، و جدّد بياض الجامع و أزال شعثه، و جلى عمده، و أصلح رخامه، حتى صار جميعه مفروشا بالرخام و ليس فى سائر أرضه شىء بغير رخام حتى تحت الحصر.

و لما تقلد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز أبى القاسم خلف بن رشيد الدين محمود بن بدر، المعروف بابن بنت الأعز العلائى الشافعىّ، قضاء القضاة بالديار المصرية، و نظر الأحباس فى ولايته الثانية أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البند قدارىّ، كشف الجامع بنفسه، فوجد مؤخره قد مال إلى بحريه، و وجد سوره البحرىّ قد مال و انقلب علوه عن سمت سفله، و رأى فى سطح الجامع غرفا كثيرة محدثة، و بعضها مزخرف، فهدم الجميع و لم يدع بالسطح سوى غرفة المؤذنين القديمة و ثلاث خزائن لرؤساء المؤذنين لا- غير، و جمع أرباب الخبرة فاتفق الرأى على إبطال جريان الماء إلى فوّارة الفسقية، و كان الماء يصل إليها من بحر النيل، فأمر بإبطاله لما كان فيه من الضرر على جدر الجامع، و عمر بغلات بالزيادة البحرية تشدّ جدار الجامع البحرىّ، و زاد فى عمد الزيادة ما قوّى به البغلات المذكورة، و سدّ شباكين كانا فى الجدار المذكور ليتقوّى بذلك، و أنفق المصروف على ذلك من مال الأحباس، و خشى أن يتداعى الجامع كله إلى السقوط، فحدّث الصاحب الوزير بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حنا فى مفاوضة السلطان فى عمارة ذلك من بيت المال، فاجتمعا معا بالسلطان الملك الظاهر بيبرس و سألاه فى ذلك، فرسم بعمارة الجامع، فهدم الجدار البحرىّ من مقدّم الجامع، و هو الجدار الذى فيه اللوح الأخضر، و حط اللوح و أزيلت العمد و القواصر العشر، و عمر الجدار المذكور و أعيدت العمد و القواصر كما كانت، و زيد فى العمد أربعة قرن، بها أربعة مما هو تحت اللوح الأخضر، و الصف الثانى منه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶

و فصل اللوح الأخضر أجزاء و جدّد غيره و أذهب و كتب عليه اسم السلطان الملك الظاهر، و جليت العمد كلها و بيض الجامع بأسره، و ذلك فى شهر رجب سنة ست و ستين و ستمائة، و صلّى فيه شهر رمضان بعد فراغه، و لم تتعطل الصلاة فيه لأجل العمارة.

و لما كان فى شهور سنة سبع و ثمانين و ستمائة، شكا قاضى القضاة تقىّ الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن بنت الأعز للسلطان الملك المنصور قلاون، سوء حال جامع عمرو بمصر، و سوء حال الجامع الأزهر بالقاهرة، و أن الأحباس على أسوأ الأحوال، و أن مجد الدين بن الحباب أخرب هذه الجهة لما كان يتحدّث فيها، و تقرّب بجزيرة الفيل الوقف الصلاحىّ على مدرسة الشافعية إلى الأمير علم الدين الشجاعىّ، و ذكر له بأن فى أطيانها زيادة، فقاسوا ما تجدّد بها من الرمال و جعلوه للوقف، و أقطعوا الأطيان القديمة الجارية فى الوقف، و تقرّب أيضا إليه بأن فى الأحباس زيادة، من جملتها بالأعمال الغربية ما مبلغه فى السنة ثلاثون ألف درهم، و أن ذلك لجهة عمارة الجامعين، و سأل السلطان فى إعادة ذلك و إبطال ما أقطع منه، فلم يجب إلى ذلك، و أمر الأمير حسام الدين طرنطاى بعمارة الجامع الأزهر، و الأمير عز الدين الأفرم بعمارة جامع عمرو، فحضر الأفرم إلى الجامع بمصر و رسم على مباشرى الأحباس، و كشف المساجد لغرض كان فى نفسه، و بيض الجامع و جرّد نصف العمد التى فيه، فصار العمود نصفه الأسفل أبيض و باقيه بحاله، و دهن واجهة غرفة الساعات بالسيلقون، و أجرى الماء من البئر التى بزقاق الأقفال إلى فسقية الجامع، ورمى ما كان بالزيادات من الأتربة، و بطر العوام به فيما فعله بالجامع، فصاروا يقولون نقل الديماس من البحر إلى الجامع، لكونه دهن الغرفة بالسيلقون، و ألبس العواميد للشيخ العريان، لكونه جرّد نصفها التحتانىّ، فصار أبيض الأسفل أسمر الأعلى، كما كان الشيخ العريان، فإن نصفه الأسفل كان مستورا بمئزر أبيض، و أعلاه عريان، و لم يفعل بالجامع سوى ما ذكر.

و لما حدثت الزلزلة فى سنة اثنتين و سبعمائة، تشعث الجامع، فاتفق الأمير أن بيبرس الجاشنكير، و هو يومئذ أستادار الملك الناصر محمد بن قلاون، و الأمير سلار، و هو نائب السلطنة، و إليهما تدبير الدولة، على عمارة الجامعين بمصر و القاهرة، فتولى الأمير ركن

الدين بيبرس عمارة الجامع الحاكميّ بالقاهرة، و تولى الأمير سلار عمارة جامع عمرو بمصر، فاعتمد سلار على كاتبه بدر الدين بن الخطاب، فهدم الحدّ البحريّ من سلّم السطح إلى باب الزيادة البحرية و الشرقية، و أعاده على ما كان عليه، و عمل بابين جديدين للزيادة البحرية و الغربية، و أضاف إلى كلّ عمود من الصف الأخير المقابل للجدار الذى هدمه عمودا آخر تقوية له، و جرّد عمد الجامع كلها و بيض الجامع بأسره، و زاد فى سقف الزيادة الغربية رواقين، و بلط سفل ما أسقف منها، و خرّب بظاهر مصر و بالقرافتين عدّة مساجد و أخذ عمدها ليرخم بها صحن الجامع، و قلع من رخام الجامع الذى كان تحت الحصر كثيرا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷

من الألواح الطوال، ورص الجميع عند باب الجامع المعروف بباب الشراربيين، فنقل من هناك إلى حيث شاء، و لم يعمل منه فى صحن الجامع شيء البتة، و كان فيما نقل من ألواح الرخام ما طوله أربعة أذرع فى عرض ذراع و سدس، ذهب بجميع ذلك. و لما ولى علاء الدين بن مروانة نيابة دار العدل، قسم جامعى مصر و القاهرة، فجعل جامع القاهرة مع نبيه الدين بن السعرتيّ، و جامع عمرو مع بهاء الدين بن السكريّ، فسقفت الزيادة البحرية الشرقية، و كانت قد جعلت حاصلا للحصر، و جعل لها دار بزين بين البابين يمنع الجانبين من المارّ، من باب الجامع إلى باب الزيادة المسلوك منه إلى سوق النحاسين، و بلط أرضها، و رقع بعض رخام صحن الجامع، و بلط المجازات، و عمل عضائد أعتاب تحوز الصحن عن مواضع الصلاة. و لما كان فى شهور سنة ست و تسعين و ستمائة، اشترى الصاحب تاج الدين دارا بسوق الأكفانيين و هدمها، و جعل مكانها سقاية كبيرة، و رفعها إلى محاذاة سطح الجامع، و جعل لها ممشى يتوصل إليها من سطح الجامع، و عمل فى أعلاها أربعة بيوت يرتفق بهم فى الخلاء، و مكانا برسم أزيار الماء العذب، و هدم سقاية الغرفة التى تحت المئذنة المعروفة بالمنظرة، و بناها برجا كبيرا من الأرض إلى العلوّ، حيث كان أوّلا، و جعل بأعلى هذا البرج بيتا مرتفقا يختص بالغرفة المذكورة، كما كان أوّلا، و بيتا ثانيا من خارج الغرفة يرتفق به من هو خارج الغرفة ممن يقرب منها. و عمر القاضى صدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن البارنباريّ، سقاية فى ركن دار عمرو البحريّ الغربيّ من داره الصغرى، بعد ما كانت قد تهدّمت، فأعادها كأحسن ما كانت، ثم إن الجامع تشعث و مالت قواصره و لم يبق إلا أن يسقط، و أهل الدولة بعد موت الملك الظاهر برقوقا فى شغل من اللهو عن عمل ذلك، فانتدب الرئيس برهان الدين إبراهيم بن عمر بن علىّ المحلىّ رئيس التجار يومئذ بديار مصر، لعمارة الجامع بنفسه و ذويه، و هدم صدر الجامع بأسره فيما بين المحراب الكبير إلى الصحن طولا و عرضا و أزال اللوح الأخضر و أعاد البناء كما كان أوّلا، و جدّد لوحا أخضر بدل الأوّل و نصبه كما كان، و هو الموجود الآن، و جرّد العمد كلها، و تتبع جدار الجامع فرمّ شعثها كله، و أصلح من رخام الصحن ما كان قد فسد، و من السقوف ما كان قد و هى، و بيض الجامع كله، فجاء كما كان و عاد جديدا بعد ما كاد أن يسقط، و لا أقام اللّه عز و جل هذا الرجل مع ما عرف من شحه و كثرة ضنته بالمال، حتى عمره. فشكر اللّه سعيه و بيض محياه، و كان انتهاء هذا العمل فى سنة أربع و ثمانمائة، و لم يتعطل منه صلاة جمعة و لا جماعة فى مدّة عمارته.

قال ابن المتوج إن ذرع هذا الجامع اثنان و أربعون ألف ذراع بذراع البز المصرىّ القديم، و هو ذراع الحصر المستمرّ إلى الآن، فمن ذلك مقدّمة ثلاثة عشر ألف ذراع و أربعمائة و خمسة و عشرون ذراعا، و مؤخره مثل ذلك، و صحنه سبعة آلاف و خمسمائة ذراع، و كلّ من جانبيه الشرقىّ و الغربىّ ثلاثة آلاف و ثمانمائة و خمسة و عشرون ذراعا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸

و ذرعه كله بذراع العمل ثمانية و عشرون ألف ذراع، و عدد أبوابه ثلاثة عشر بابا، منها فى القبلىّ باب الزيز لخته الذى يدخل منه الخطيب، كان به شجرة زيزلخت عظيمة، قطعت فى سنة ست و ستين و سبعمائة، و فى البحرى ثلاثة أبواب، و فى الشرقىّ خمسة، و فى الغربىّ أربعة، و عدد عمده ثلاثمائة و ثمانية و سبعون عمودا، و عدد مآذنه خمس، و به ثلاث زيادات، فالبحرية الشرقية كانت لجلوس قاضى القضاة بها فى كل أسبوع يومين، و كان بهذا الجامع القصص.

قال القضاعيّ: روى نافع عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال: لم يقص فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا أبى بكر و لا عمر و لا عثمان رضى اللّه عنهم، و إنما كان القصص فى زمن معاوية رضى اللّه عنه. و ذكر عمر بن شيبة قال: قيل للحسن متى أحدث القصص؟ قال: فى خلافة عثمان بن عفان. قيل: من أوّل من قص؟ قال: تميم الدارى.

و ذكر عن ابن شهاب قال: أوّل من قص فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تميم الدارى، استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته، فاذن له أن يذكر فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر، فاستأذن تميم عثمان بن عفان رضى اللّه عنه فى ذلك فأذن له أن يذكر يومين فى الجمعة، فكان تميم يفعل ذلك.

و روى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أنّ عليا رضى اللّه عنه قنت، فدعا على قوم من أهل حربه، فبلغ ذلك معاوية، فأمر رجلا يقص بعد الصبح و بعد المغرب يدعو له و لأهل الشام، قال يزيد: و كان ذلك أول القصص.

و روى عن عبد اللّه بن مغفل قال: أمّنا علىّ رضى اللّه عنه فى المغرب، فلما رفع رأسه من الركعة الثالثة ذكر معاوية أوّلا، و عمرو بن العاص ثانيا، و أبا الأعور، يعنى السلمىّ ثالثا، و كان أبو موسى الرابع.

و قال الليث بن سعد: هما قصصان، قصص العامّة، و قصص الخاصة، فأما قصص العامّة فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم و يذكرهم، فذلك مكروه و لمن فعله و لمن استمعه، و أما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية، ولّى رجلا على القصص، فإذا سلّم من صلاة الصبح جلس و ذكر اللّه عز و جل و حمده و مجده و صلّى على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و دعا للخليفة و لأهل ولايته و لحشمه و جنوده، و دعا على أهل حربه و على المشركين كافة.

و يقال أن أوّل من قص بمصر سليمان بن عتر التجيبى، فى سنة ثمان و ثلاثين، و جمع له القضاء إلى القصص، ثم عزل عن القضاء و أفرد بالقصص، و كانت ولايته على القصص و القضاء سبعا و ثلاثين سنة، منها سنتان قبل القضاء. و يقال أنه كان يختم القرآن فى كلّ ليلة ثلاث مرّات، و كان يجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم، و يسجد فى المفصل، و يسلّم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹

تسليمة واحدة، و يقرأ فى الركعة الأولى بالبقرة، و فى الثانية بقل هو اللّه أحد، و يرفع يديه فى القصص إذا دعا. و كان عبد الملك بن مروان شكا إلى العلماء ما انتشر عليه من أمور رعيته و تحوّفه من كلّ وجه. فأشار عليه أبو حبيب الحمصىّ القاضى بأن يستنصر عليهم برفع يديه إلى اللّه تعالى، فكان عبد الملك يدعو و يرفع يديه، و كتب بذلك إلى القصاص فكانوا يرفعون أيديهم بالغداة و العشى.

و فى هذا الجامع مصحف أسماء، و هو الذى تجاه المحراب الكبير. قال القضاعيّ:

كان السبب فى كتب هذا المصحف، أنّ الحجاج بن يوسف الثقفىّ كتب مصاحف و بعث بها إلى الأمصار، و وجه إلى مصر بمصحف منها، فغضب عبد العزيز بن مروان من ذلك، و كان الوالى يومئذ من قبل أخيه عبد الملك و قال: يبعث إلى جند أنا فيه بمصحف؟ فأمر فكتب له هذا المصحف الذى فى المسجد الجامع اليوم، فلما فرغ منه قال: من وجد فيه حرفا خطأ فله رأس أحمر و ثلاثون دينارا، فتداوله القرّاء، فأتى رجل من قراء الكوفة اسمه زرعة بن سهل الثقفىّ فقرآه تهجيا، ثم جاء إلى عبد العزيز بن مروان فقال له: إنى قد وجدت فى المصحف حرفا خطأ. فقال: مصحفى؟ قال نعم. فنظر فإذا فيه إنّ هذا أخى له تسع و تسعون نعجة. فإذا هى مكتوبة نجعة، قد قدّمت الجيم قبل العين، فأمر بالمصحف فأصلح ما كان فيه، و أبدلت الورقة، ثم أمر له بثلاثين دينارا و برأس أحمر، و لما فرغ من هذا المصحف كان يحمل إلى المسجد الجامع غداة كلّ جمعة، من دار عبد العزيز، فيقرأ فيه ثم يقص ثم يردّ إلى موضعه. فكان أوّل من قرأ فيه عبد الرحمن بن حجيرة الخولانىّ، لأنه كان يتولى القصص و القضاء يومئذ، و ذلك فى سنة ست و سبعين، ثم تولى بعده القصص أبو الخير مرثد بن عبد اللّه اليزنىّ، و كان قاضيا بالاسكندرية قبل ذلك، ثم توفى عبد العزيز فى سنة ست و ثمانين، فبيع هذا المصحف فى ميراثه، فاشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار، ثم توفى أبو بكر فاشترته أسماء ابنة أبى بكر بن عبد العزيز بسبعمائة دينار، فأمكنت الناس منه و شهرته، فنسب إليها. فلما توفيت أسماء اشتراه أخوها الحكم بن عبد العزيز بن مروان من

ميراثها بخمسمائة دينار، فأشار عليه توبة بن نمر الحضرميّ القاضي، و هو متولى القصص يومئذ بالمسجد الجامع، بعد عقبة بن مسلم الهمدانيّ، و إليه القضاء. و ذلك فى سنة ثمان عشرة و مائة، فجعله فى المسجد الجامع، و أجرى على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر من غلة الإصطبل، فكان توبة أوّل من قرأ فيه بعد أن أقرّ فى الجامع، و تولى القصص بعد توبة أبو اسماعيل خير بن نعيم الحضرميّ القاضي، فى سنة عشرين و مائة، و جمع له القضاء و القصص، فكان يقرأ فى المصحف قائما، ثم يقص و هو جالس، فهو أوّل من قرأ فى المصحف قائما، و لم تزل الأئمة يقرءون فى المسجد الجامع فى هذا المصحف فى كلّ يوم جمعة، إلى أن ولى القصص أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانيّ، فى سنة اثنتين و ثمانين و مائة فقرأ فيه يوم الاثنين، و كان قد جعل المطلب الخزاعيّ أمير مصر، من قبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰

المأمون، رزق أبى رجب العلاء عشرة دنانير على القصص، و هو أوّل من سلّم فى الجامع تسليمتين بكتاب ورد من المأمون يأمر فيه بذلك، و صلّى خلفه محمد بن إدريس الشافعيّ حين قدم إلى مصر، فقال: هكذا تكون الصلاة، ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب و لا أحسن.

و لما ولى القصص حسن بن الربيع بن سليمان، من قبل عنبسة بن إسحاق أمير مصر، من قبل المتوكل فى سنة أربعين و مائتين، أمر أن تترك قراءة بسم اللّه الرحمن الرحيم فى الصلاة، فتركها الناس. و أمر أن تصلّى التراويح خمس تراويح، و كانت تصلّى قبل ذلك ست تراويح، و زاد فى قراءة المصحف يوما، فكان يقرأ يوم الاثنين و يوم الخميس و يوم الجمعة.

و لما ولى حمزة بن أيوب بن إبراهيم الهاشميّ القصص بكتاب من المكتفى، فى سنة اثنتين و تسعين و مائتين، صلّى فى مؤخر المسجد حين نكس، و أمر أن يحمل إليه المصحف ليقرأ فيه، فقيل له انه لم يحمل المصحف إلى أحد قبلك، فلو قمت و قرأت فيه فى مكانه.

فقال: لا- أفعل، و لكن ائتونى به فإن القرآن علينا أنزل، و إلينا أتى. فأتى به، فقرأ فيه فى المؤخر و هو أوّل من قرأ فى المصحف فى المؤخر، و لم يقرأ فى المصحف بعد ذلك فى المؤخر إلى أن تولى أبو بكر محمد بن الحسن السوسيّ الصلاة و القصص، فى اليوم العشرين من شعبان، سنة ثلاث و أربعمائة، فنصب المصحف فى مؤخر الجامع حيال الفوّارة و قرأ فيه أيام نكس الجامع، فاستمرّ الأمر على ذلك إلى الآن.

و لما تولى القصص أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن مسلم الملطيّ، فى سنة إحدى و ثلاثمائة عزم على القراءة فى المصحف فى كلّ يوم، فتكلم علىّ بن قديد فى ذلك و منع منه و قال: أعزم على أن يخلق المصحف و يقطعه، أيرى عبد العزيز بن مروان حيا فيكتب له مثله، فرجع إلى القراءة ثلاثة أيام.

و كان قد حضر إلى مصر رجل من أهل العراق و أحضر مصحفا ذكر أنه مصحف عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و أنه الذى كان بين يديه يوم الدار، و كان فيه أثر الدم، و ذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر، و دفع المصحف إلى عبد اللّه بن شعيب المعروف بابن بنت وليد القاضي، فأخذه أبو بكر الخازن و جعله فى الجامع، و شهره و جعل عليه خشبا منقوشا، و كان الإمام يقرأ فيه يوما، و فى مصحف أسماء يوما، و لم يزال على ذلك إلى أن رفع هذا المصحف و اقتصر على القراءة فى مصحف أسماء، و ذلك فى أيام العزيز باللّه، لخمس خلون من المحرّم سنة ثمان و سبعين و ثلاثمائة. و قد أنكر قوم أن يكون هذا المصحف مصحف عثمان رضى اللّه عنه، لأن نقله لم يصح، و لم يثبت بحكاية رجل واحد. و رأيت أنا هذا المصحف و على ظهر مما نسخته: بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه رب العالمين، هذا المصحف الجامع لكتاب اللّه جل ثناؤه و تقدّست أسسماؤه، حمله المبارك مسعود بن سعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱

الهيتيّ لجماعة المسلمين القرّاء للقرآن التالين له، المتقرّبين إلى اللّه جلّ ذكره بقراءته، و المتعلمين له، ليكون محفوظا أبدا ما بقى

ورقه، و لم يذهب اسمه ابتغاء ثواب اللّه عز و جلّ، و رجاء غفرانه، و جعله عدّة ليوم فقره و فاقته و حاجته إليه، أنا له اللّه ذلك برأفته، و جعل ثوابه بينه و بين جماعة من نظر فيه، و قد درس ما بعد هذا الكلام من ظهر المصحف، و المندرس يشبه أن يكون: و تبصر فى ورقه، و قصد بابداعه فسطاط مصر فى المسجد الجامع، جامع المسلمين العتيق، ليحفظ حفظ مثله مع سائر مصاحف المسلمين، فرحم اللّه من حفظه و من قرأ فيه و من عنى به، و كان ذلك فى يوم الثلاثاء مستهل ذى القعدة سنة سبع و أربعين و ثلاثمائة و صلّى اللّه على محمد سيد المرسلين و على آله و سلّم تسليما كثيرا، و حسبنا اللّه و نعم الوكيل.

قال ابن المتوّج: و دليل بطلان ما قاله هذا المعترض، ظهور التعصب على عثمان رضى اللّه عنه من تجيب و خلفائهم، أن الناس قد جرّبوا هذا المصحف، و هو الذى على الكرسىّ الغربىّ من مصحف أسماء، أنه ما فتح قط إلّا و حدث حادث فى الوجود لتحقيق ما حدث أوّلا. و اللّه أعلم.

قال القضاعىّ: ذكر المواضع المعروفة بالبركة من الجامع يستحبّ الصلاة و الدعاء عندها. منها البلاطة التى خلف الباب الأوّل فى مجلس ابن عبد الحكم، و منها باب البرادع، روى عن رجل من صلحاء المصريين يقال له أبو هارون الخرقىّ قال: رأيت اللّه عز و جلّ فى منامى، فقلت له يا رب أنت ترانى و تسمع كلامى؟ قال: نعم. ثم قال أ تريد أن أريك بابا من أبواب الجنة؟ قلت نعم. يا رب، فأشار إلى باب أصحاب البرادع أو الباب الأقصى مما يلى رحبة حارث، و كان أبو هارون هذا يصلى الظهر و العصر فيما بينهما.

و قال ابن المتوّج: و عند المحراب الصغير الذى فى جدار الجامع الغربىّ، ظاهر المقصورة، فيما بين بابى الزيادة الغربية الدعاء عنده مستجاب. قال: من ذلك باب مقصورة عرفة، و منها عند خرزة البئر التى بالجامع، و منها قبال اللوح الأخضر، و منها زاوية فاطمة، و يقال أنها فاطمة ابنة عفان، لمّا وصى والدها أن تترك للّه فى الجامع فتركت فى هذا المكان فعرف بها، و منها سطح الجامع و الطواف به سبع مرّات، يبدأ بالأولى من باب الخزانة الأولى التى يستقبلها الداخل من باب السطح، و هو يتلو إلى أن يصل إلى زاوية السطح التى عند المئذنة المعروفة بعرفة، يقف عندها ثم يدعو بما أراد، ثم يمرّ و هو يتلو إلى أن يصل إلى الركن الشرقىّ عند المئذنة المشهورة بالكبيرة، ثم يدعو بما أراد و يمرّ إلى الركن البحرىّ الشرقىّ، فيقف محاذيا لغرفة المؤذنين و يدعو، ثم يمرّ و هو يتلو إلى المكان الذى ابتدأ منه. يفعل ذلك سبع مرّات، فإنّ حاجته تقضى.

قال القضاعىّ: و لم يكن الناس يصلّون بالجامع بمصر صلاة العيد، حتى كانت سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲

ست، و يقال سنة ثمان و ثلاثمائة. فصلّى فيه رجل يعرف بعلىّ بن أحمد بن عبد الملك الفهمىّ، يعرف بابن أبى شيخة صلاة الفطر، و يقال أنه خطب من دفتر نظرا، و حفظ عنه اتقوا اللّه حق تقاته و لا تموتن إلّا و أنتم مشركون. فقال بعض الشعراء:

و قام فى العيد لنا خاطبفحرّض الناس على الكفر

و توفى سنة تسع و ثلاثمائة.

و بالجامع زوايا يدرّس فيها الفقه: منها زاوية الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه، يقال أنه درّس بها الشافعىّ فعرفت به، و عليها أرض بناحية سندبيس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، و لم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء و جلة العلماء. و منها الزاوية المجدية بصدر الجامع، فيما بين المحراب الكبير و محراب الخمس، داخل المقصورة الوسطى بجوار المحراب الكبير، رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبى المحاسن مهلب بن حسن بن بركات بن علىّ بن غياث المهلبىّ الأزدىّ البهنسىّ الشافعىّ، وزير الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب بحرّان، و قرّر فى تدريسها قريبه قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسىّ، و عمل على هذه الزاوية عدّة أوقاف بمصر و القاهرة، و يعدّ تدريسها من المناصب الجليلة، و توفى المجد فى صفر سنة ثمان و عشرين و ستمائة بدمشق، عن ثلاث و ستين سنة. و منها الزاوية الصاحبية، حول عرفة رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد بن بهاء الدين بن حنا، و جعل لها مدرّسين أحدهما مالكىّ و الآخر

شافعيّ، و جعل عليها وقفا بظاهر القاهرة بخط البراذعيين. و منها الزاوية الكمالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يدخل إليه من سوق الغزل، رتبها كمال الدين السمنوديّ، و عليها فندق بمصر موقوف عليها. و منا الزاوية التاجية، أمام المحراب الخشب، رتبها تاج الدين السطحيّ، و جعل عليها دورا بمصر موقوفة عليها. و منها الزاوية المعينية فى الجانب الشرقيّ من الجامع، رتبها معين الدين الدهر و طيّ، و عليها وقف بمصر. و منها الزاوية العلائية، تنسب لعلاء الدين الضرير، و هى فى صحن الجامع، و هى لقراءة ميعاد. و منها الزاوية الزينية، رتبها الصاحب زين الدين بقراءة ميعاد أيضا، ذكر ذلك ابن المتوّج. و أخبرنى المقرئ الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد اللّه بن الحسن الأوحديّ رحمه اللّه قال:

أخبرنى المؤرّخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، قال: أخبرنى العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفيّ، أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء، الكائن فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة، بضعا و أربعين حلقة لإقراء العلم، لا تكاد تبرح منه. قال ابن المأمون: حدّثنى القاضى المكين بن حيدرة و هو من أعيان الشهود بمصر، أن من جملة الخدم التى كانت بيد والده مشارقة الجامع العتيق، و أنّ القومة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳

بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود عنده، إلى أن يعملوا ثمانية عشر ألف فتيلة، و أن المطلق برسمه خاصة فى كلّ ليلة ترسم وقوده أحد عشر قنطار أو نصف زيتا طيبا.

ذكر المحاريب التى بديار مصر و سبب اختلافها و تعيين الصواب فيها و تبيين الخطأ منها

اعلم أن محاريب ديار مصر التى يستقبلها المسلمون فى صلواتهم أربعة محاريب.

أحدها

محراب الصحابة رضى اللّه عنهم، الذى أسسوه فى البلاد التى استوطنوها، و البلاد التى كثر ممرّهم بها من إقليم مصر، و هو محراب المسجد الجامع بمصر، المعروف بجامع عمرو، و محراب المسجد الجامع بالجيزة، و بمدينة بلبيس، و بالإسكندرية، و قوص، و أسوان، و هذه المحاريب المذكورة على سمت واحد، غير أن محاريب ثغر أسوان أشدّ تشريقا من غيرها، و ذلك أن أسوان مع مكة شرّفها اللّه تعالى فى الإقليم الثانى، و هو الحدّ الغربيّ من مكة بغير ميل إلى الشمال، و محراب بلبيس مغرّب قليلا.

و المحراب الثانى محراب مسجد أحمد بن طولون، و هو منحرف عن سمت محراب الصحابة، و قد ذكر فى سبب انحرافه أقوال منها: أنّ أحمد بن طولون لما عزم على بناء هذا المسجد، بعث إلى محراب مدينة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أخذ سمته، فإذا هو مائل عن خط سمت القبلة المستخرج بالصناعة نحو العشر درج إلى جهة الجنوب، فوضع حينئذ محراب مسجده هذا مائلا عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب بنحو ذلك، اقتداء منه بمحراب مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و قيل: أنه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى منامه، و خط له المحراب، فلما أصبح وجد النمل قد أطاف بالمكان الذى خطه له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المنام. و قيل غير ذلك.

و أنت إن صعدت إلى سطح جامع ابن طولون، رأيت محرابه مائلا عن محراب جامع عمرو بن العاص إلى الجنوب، و رأيت محراب المدارس التى حدثت إلى جانبه قد انحرفت عن محرابه إلى جهة الشرق، و صار محراب جامع عمرو فيما بين محراب ابن طولون و المحاريب الأخر، و قد عقد مجلس بجامع ابن طولون فى ولاية قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة، حضره علماء الميقات، منهم الشيخ تقيّ الدين محمد بن محمد بن موسى الغزوليّ، و الشيخ أبو الطاهر محمد بن محمد، و نظروا فى محرابه، فأجمعوا على أنه منحرف عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب مغربا بقدر أربع عشرة درجة، و كتب بذلك محضر و أثبت على ابن جماعة.

و المحراب الثالث: محراب جامع القاهرة، المعروف بالجامع الأزهر، و ما فى سمته من بقية محاريب القاهرة، و هى محاريب يشهد الامتحان بتقدّم واضعها فى معرفة استخراج القبلة، فإنها على خط سمت القبلة من غير ميل عنه و لا انحراف البتة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴

و المحراب الرابع: محاريب المساجد التى فى قرى بلاد الساحل، فإنها تخالف محاريب الصحابة، إلّا أنّ محراب جامع منية غمر قريب من سمت محاريب الصحابة، فإن الوزير أبا عبد اللّه محمد بن فاتك المنعوت بالمأمون البطائحىّ، وزير الخليفة الآمر بأحكام اللّه أبى علىّ منصور بن المستعلى بالله، أنشأ جامعا بمنية زفتا فى سنة ست عشرة و خمسمائة، فجعل محرابه على سمت المحاريب الصحيحة. و فى قرافة مصر بجوار مسجد الفتح عدّة مساجد تخالف محاريب الصحابة مخالفة فاحشة، و كذلك بمدينة مصر الفسطاط غير مسجد على هذا الحكم. فأما محاريب الصحابة التى بفسطاط مصر و الإسكندرية، فإن سمتها يقابل مشرق الشتاء، و هو مطالع برج العقرب مع ميل قليل إلى ناحية الجنوب، و محاريب مساجد القرى و ما حول مسجد الفتح بالقرافة، فإنها تستقبل خط نصف النهار الذى يقال له خط الزوال، و تميل عنه إلى جهة المغرب، و هذا الاختلاف بين هذين المحرابين اختلاف فاحش يفضى إلى إبطال الصلاة. و قد قال ابن عبد الحكم: قبلة أهل مصر أن يكون القطب الشمالىّ على الكتف الأيسر، و هذا سمت محاريب الصحابة. قال:

و إذا طلعت منازل العقرب و تكملت صورته، فمحاذاته سمت القبلة لديار مصر و برقة و إفريقية و ما والاها، و فى الفرقدين و القطب الشمالىّ كفاية للمستدلين، فإنهم إن كانوا مستقبلين فى مسيرهم من الجنوب جهة الشمال، استقبلوا القطب و الفرقدين، و إن كانوا سائرين إلى الجنوب من الشمال استدبروها، و إن كانوا سائرين إلى الشرق من المغرب جعلوها على الأذن اليسرى، و إن كانوا سائرين من الشرق إلى المغرب جعلوها على الأذن اليمنى، و إن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الجنوب و الصبا جعلوها على الكتف الأيسر، و إن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الجنوب و الدبور جعلوها على الكتف الأيمن، و إن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الشمال و الدبور جعلوها على الحاجب الأيمن، و إن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الشمال و الصبا جعلوها على الحاجب الأيسر. و إذا عرف ذلك فإنه يستحيل تصويب محرابين مختلفين فى قطر واحد إذا زاد اختلافهما على مقدار ما يتسامح به فى التيامن و التياسر، و بيان ذلك أن كلّ قطر من أقطار الأرض كبلاد الشام و ديار مصر و نحوهما من الأقطار، قطعة من الأرض واقعة فى مقابلة جزء من الكعبة، و الكعبة تكون فى جهة من جهات ذلك القطر، فإذا اختلف محرابان فى قطر واحد، فإنا نتيقن أن أحدهما صواب و الآخر خطأ، إلّا أن يكون القطر قريبا من مكّة، و خطته التى هو محدود بها متسعة اتساعا كثيرا يزيد على الجزء الذى يخصه لو وزعت الكعبة أجزاء متماثلة، فإنه حينئذ يجوز التيامن و التياسر فى محاريبه، و ذلك مثل بلاد البجة، فإنها على الساحل الغربىّ من بحر القلزم، و مكة واقعة فى شرقيها ليس بينهما إلّا مسافة البحر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵

فقط و ما بين جدّة و مكة من البرّ، و خطة بلاد البجة مع ذلك واسعة مستطيلة على الساحل، أوّلها عيذاب، و هى محاذية لمدينة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و تميل عنها فى الجنوب ميلا قليلا، و المدينة شامية عن مكة بنحو عشرة أيام، و آخر بلاد البجة من ناحية الجنوب سواكن، و هى مائلة فى ناحية الجنوب عن مكة ميلا كثيرا، و هذا المقدار من طول بلاد البجة يزيد على الجزء الذى يخص هذه الخطة من الأرض لو وزعت الأرض أجزاء متساوية إلى الكعبة، فيتعين و الحالة هذه التيامن أو التياسر فى طرفى هذه البلاد لطلب جهة الكعبة.

و أما إذا بعد القطر عن الكعبة بعدا كثيرا، فإنه لا يضرّ اتساع خطته، و لا يحتاج فيه إلى تيامن و لا تياسر، لاتساع الجزء الذى يخصه من الأرض، فإن كلّ قطر منها له جزء يخصه من الكعبة، من أجل أن الكعبة من البلاد المعمورة كالكرة من الدائرة، فالأقطار كلها فى استقبال الكعبة، محيطة بها كاحاطة الدائرة بمركزها، و كل قطر فإنه يتوجه إلى الكعبة فى جزء يخصه، و الأجزاء المنقسمة إذا قدّرت الأرض كالدائرة فإنها تتسع عند المحيط و تتضايق عند المركز، فإذا كان القطر بعيدا عن الكعبة فإنه يقع فى متسع الحدّ و لا يحتاج فيه

إلى تيامن و لا تياسر، و بخلاف ما إذا قرب القطر من الكعبة، فإنه يقع فى متضايق الجزء و يحتاج عند ذلك إلى تيامن أو تياسر، فإنّ فرضنا أن الواجب إصابة عين الكعبة فى استقبال الصلاة لمن بعد عن مكة، و قد علمت ما فى هذه المسألة من الاختلاف بين العلماء، فإنه لا يتسامح فى اختلاف المحاريب بأكثر من قدر التيامن و التياسر الذى لا يخرج عن حدّ الجهة، فلو زاد الاختلاف حكم ببطلان أحد المحرابين، و لا بدّ اللهمّ إلّا أن يكونا فى قطرين بعيدين بعضهما من بعض، و ليسا على خط واحد من مسامته الكعبة، و ذلك كبلاد الشام و ديار مصر، فإن البلاد الشامية لها جانبان و خطتها متسعة مستطيلة فى شمال مكة، و تمتدّ أكثر من الجزء الخاص بها بالنسبة إلى مقدار بعدها عن الكعبة، و وفى هذين القطرين يجرى ما تقدّم ذكره فى أرض البجة، إلّا أنّ التيامن و التياسر ظهوره فى البلاد الشامية أقل من ظهوره فى أرض البجة، من أجل بعد البلاد الشامية عن الكعبة، و قرب أرض البجة، و ذلك أن البلاد الشامية وقعت فى متسع الجزء الخاص بها، فلم يظهر أثر التيامن و التياسر ظهورا كثيرا كظهوره فى أرض البجة، لأنّ البلاد الشامية لها جانب شرقىّ و جانب غربىّ و وسط، فجانبها الغربىّ هو أرض بيت المقدس و فلسطين إلى العريش، أوّل حدّ مصر، و هذا الجانب من البلاد الشامية يقابل الكعبة على حدّ مهب النكباء التى بين الجنوب و الصبا، و أمّا جانب البلاد الشامية الشرقىّ، فإنه ما كان مشرّقا عن مدينة دمشق إلى حلب و الفرات، و ما يسامت ذلك من بلاد الساحل، و هذه الجهة تقابل الكعبة مشرقا عن أوسط مهب الجنوب قليلا، و أما وسط بلاد الشام فإنها دمشق و ما قاربها، و تقابل الكعبة على وسط مهب الجنوب، و هذا هو سمت مدينة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مع ميل يسير عنه إلى ناحية المشرق.

و أما مصر فإنها تقابل الكعبة فيما بين الصبا و مهب النكباء التى بين الصبا و الجنوب،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶

و لذلك لما اختلف هذان القطران، أعنى مصر و الشام فى محاذاة الكعبة، اختلفت محاريبهما، و على ذلك وضع الصحابة رضى اللّه عنهم محاريب الشام و مصر على اختلاف السمتين، فأما مصر بعينها و ضواحيها و ما هو فى حدّها أو على سمتها أو فى البلاد الشامية و ما فى حدّها أو على سمتها، فإنه لا يجوز فيها تصويب محرابين مختلفين اختلافا بينا، فإن تباعد القطر عن القطر بمسافة قريبة أو بعيدة، و كان القطران على سمت واحد فى محاذاة الكعبة لم يضرّ حينئذ تباعدهما، و لا تختلف محاريبهما، بل تكون محاريب كلّ قطر منهما على حدّ واحد و سمت واحد، و ذلك كمصر و برقة و أفريقية و صقلية و الأندلس، فإن هذه البلاد و ان تباعد بعضها عن بعض فإنها كلها تقابل الكعبة على حدّ واحد، و سمتها جميعها سمت مصر من غير اختلاف البتة، و قد تبين بما تقرّر حال الأقطار المختلفة من الكعبة فى وقوعها منها.

و أما اختلاف محاريب مصر فإن له أسبابا، أحدها حمل كثير من الناس قوله صلّى اللّه عليه و سلّم، الذى رواه الحافظ أبو عيسى الترمذىّ، من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه «ما بين المشرق و المغرب قبلة على العموم» و هذا الحديث قد روى موقوفا على عمر و عثمان و علىّ و ابن عباس و محمد ابن الحنفية رضى اللّه عنهم، و روى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه مرفوعا. قال أحمد بن حنبل: هذا فى كلّ البلدان. قال: هذا المشرق و هذا المغرب و ما بينهما قبلة، قيل له: فصلاة من صلّى بينهما جائزة؟ قال: نعم، و ينبغى أن يتحرّى الوسط، و قال أحمد بن خالد قول عمر: ما بين المشرق و المغرب قبلة، قاله: بالمدينة فمن كانت قبلته مثل قبلة المدينة فهو فى سعة مما بين المشرق و المغرب، و لسائر البلدان من السعة فى القبلة مثل ذلك بين الجنوب و الشمال. و قال أبو عمر بن عبد البرّ: لاختلاف بين أهل العلم فيه. قال مؤلفه رحمه اللّه: إذا تأمّلت وجدت هذا الحديث يختص بأهل الشام و المدينة. و ما على سمت تلك البلاد شمالا و جنوبا فقط، و الدليل على ذلك أنه يلزم من حمله على العموم إبطال التوجه إلى الكعبة فى بعض الأقطار، و اللّه سبحانه قد افترض على الكافة أن يتوجهوا إلى الكعبة فى الصلاة حيثما كانوا بقوله تعالى: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة/ ۱۴۴] و قد عرفت إن كنت تمهرت فى معرفة البلدان و حدود الأقاليم أن الناس فى توجههم إلى الكعبة كالدائرة حول المركز، فمن كان فى الجهة الغربية من الكعبة فإن جهة قبلة صلاته إلى المشرق، و من كان فى الجهة الشرقية من

الكعبة فإنه يستقبل فى صلاته جهة المغرب، و من كان فى الجهة الشمالية من الكعبة فإنه يتوجه فى صلاته إلى جهة الجنوب، و من كان فى الجهة الجنوبية من الكعبة كانت صلاته إلى جهة الشمال، و من كان من الكعبة فيما بين المشرق و الجنوب فإن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷

قبلته فيما بين الشمال و المغرب، و من كان من الكعبة فيما بين الجنوب و المغرب فإن قبلته فيما بين الشمال و المشرق، و من كان من الكعبة فيما بين المشرق و الشمال فقبلته فيما بين الجنوب و المغرب، و من كان من الكعبة فيما بين الشمال و المغرب فقبلته فيما بين الجنوب و المشرق. فقد ظهر ما يلزم من القول بعموم هذا الحديث من خروج أهل المشرق الساكنين به، و أهل المغرب أيضا عن التوجه إلى الكعبة فى الصلاة عينا وجهة، لأنّ من كان مسكنه من البلاد ما هو فى أقصى المشرق من الكعبة، لو جعل المشرق عن يساره و المغرب عن يمينه لكان إنما يستقبل حينئذ جنوب أرضه و لم يستقبل قط عين الكعبة و لا جهتها، فوجب و لا بدّ حمل الحديث على أنه خاص بأهل المدينة و الشام، و ما على سمت ذلك من البلاد، بدليل أن المدينة النبوية واقعة بين مكة و بين أوسط الشام على خط مستقيم، و الجانب الغربىّ من بلاد الشام التى هى أرض المقدس و فلسطين يكون عن يمين من يستقبل بالمدينة الكعبة، و الجانب الشرقىّ الذى هو حمص و حلب و ماو إلى ذلك واقع عن يسار من استقبل الكعبة بالمدينة، و المدينة واقعة فى أواسط جهة الشام على جهة مستقيمة، بحيث لو خرج خط من الكعبة و مرّ على استقامة إلى المدينة النبوية لنفذ منها إلى أوسط جهة الشام سواء، و كذلك لو خرج خط من مصلّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و توجه على استقامة، لوقع فيما بين الميزاب من الكعبة و بين الركن الشامىّ، فلو فرضنا أن هذا الخط خرق الموضع الذى وقع فيه من الكعبة و مرّ لنفذ إلى بيت المقدس على استواء من غير ميل و لا انحراف البتة، و صار موقع هذا الخط فيما بين نكباء الشمال و الدبور، و بين القطب الشمالى. و هو إلى القطب الشمالىّ أقرب و أميل، و مقابلته ما بين أوسط الجنوب و نكباء الصبا و الجنوب، و هو إلى الجنوب أقرب، و المدينة النبوية، مشرّقة عن هذا السمت، و مغرّبة عن سمت الجانب الآخر من بلاد الشام، و هو الجانب الغربىّ تغريبا يسيرا، فمن يستقبل مكة بالمدينة يصير المشرق عن يساره و المغرب عن يمينه، و ما بينهما فهو قبلته، و تكون حينئذ الشام بأسرها و جملة بلادها خلفه، فالمدينة على هذا فى أوسط جهات البلاد الشامية.

و يشهد بصدق ذلك ما رويناه من طريق مسلم رحمه اللّه عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما قال: رقيت على بيت أختى حفصة، فرأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قاعدا لحاجته، مستقبل الشام مستدبر القبلة، و له أيضا من حديث ابن عمر بينا الناس فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد أنزل عليه الليلة و قد أمر أن يستقبل الكعبة فاستدار إلى الكعبة.

فهذا أعزك اللّه أوضح دليل أنّ المدينة بين مكة و الشام على حدّ واحد، و أنها فى أوسط جهة بلاد الشام، فمن استقبل بالمدينة الكعبة فقد استدبر الشام، و من استدبر بالمدينة الكعبة فقد استقبل الشام، و يكون حينئذ الجانب الغربىّ من بلاد الشام و ما على سمته من البلاد جهة القبلة عندهم أن يجعل الواقف مشرق الصيف عن يساره، و مغرب الشتاء عن يمينه، فيكون ما بين ذلك قبلته. و تكون قبلة الجانب الشرقى من بلاد الشام و ما على سمت ذلك من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸

البلدان، أن يجعل المصلى مغرب الصيف عن يمينه، و مشرق الشتاء عن يساره، و ما بينهما قبلته. و يكون أوسط البلاد الشامية التى هى حدّ المدينة النبوية قبلة المصلى بها، أن يجعل مشرق الاعتدال عن يساره، و مغرب الاعتدال عن يمينه، و ما بينهما قبلة له، فهذا أوضح استدلال على أن الحديث خاص بأهل المدينة، و ما على سمتها من البلاد الشامية، و ما وراءها من البلدان المسامتة لها.

و هكذا أهل اليمن و ما على سمت اليمن من البلاد، فإن القبلة واقعة فيما هنالك بين المشرق و المغرب لكن على عكس وقوعها فى البلاد الشامية، فإنه تصير مشارق الكواكب فى البلاد الشامية التى على يسار المصلى، واقعة عن يمين المصلى فى بلاد اليمن، و كذلك كل ما كان من المغرب عن يمين المصلى بالشام، فإنه ينقلب عن يسار المصلى باليمن، و كلّ من قام ببلاد اليمن مستقبلا

الكعبة فإنه يتوجه إلى بلاد الشام فيما بين المشرق و المغرب، و هذه الأقطار سكانها هم المخاطبون بهذا الحديث، و حكمه لازم لهم، و هو خاص بهم دون من سواهم من أهل الأقطار الأخر، و من أجل حمل هذا الحديث على العموم كان السبب فى اختلاف محاريب مصر.

السبب الثانى: فى اختلاف محاريب مصر، أن الديار المصرية افتتحها المسلمون كانت خاصة بالقبط و الروم مشحونة بهم، و نزل الصحابة رضى اللّه عنهم من أرض مصر فى موضع الفسطاط الذى يعرف اليوم بمدينة مصر و بالإسكندرية، و تركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط، كما تقدّم فى موضعه من هذا الكتاب، و لم يسكن أحد من المسلمين بالقرى، و إنما كانت رابطة تخرج إلى الصعيد حتى إذا جاء أوان الربيع انتشر الأتباع فى القرى لرعى الدواب، و معهم طوائف من السادات، و مع ذلك فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه ينهى الجند عن الزرع، و يبعث إلى أمراء الأجناد بإعطاء الرعية أعطياتهم و أرزاق عيالهم، و ينهاهم عن الزرع.

روى الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الحكم فى كتاب فتوح مصر، من طريق ابن وهب، عن حيوة بن شريح، عن بكر بن عمر، و عن عبد اللّه بن هبيرة: أن عمر بن الخطاب أمر بناذره أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدّمون إلى الرعية، أنّ عطاءهم قائم، و أنّ أرزاق عيالهم سابل، فلا يزرعون و لا يزارعون. قال ابن وهب: و أخبرنى شريك بن عبد الرحمن المرادىّ قال: بلغنا أن شريك بن سميّ الغطفانىّ أتى إلى عمرو بن العاص فقال: إنكم لا تعطونا ما يحسبنا، أفتأذن لى بالزرع؟ فقال له عمرو: ما أقدر على ذلك. فزرع شريك من غير إذن عمرو، فلما بلغ ذلك عمرا كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سميّ الغطفانىّ حرث بأرض مصر، فكتب إليه عمر أن ابعث إلىّ به، فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو، أقرأه شريكا. فقال شريك لعمرو: و قتلتنى يا عمرو. فقال عمرو: ما أنا بالذى قتلتك، أنت صنعت هذا بنفسك. فقال له: إذا كان هذا من رأيك فأذن لى بالخروج من غير كتاب، و لك علىّ عهد اللّه أن أجعل يدى فى يده، فأذن له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹

بالخروج، فلما وقف على عمر قال: تؤمننى يا أمير المؤمنين؟ قال: و من أىّ الأجناد أنت؟

قال: من جند مصر، قال: فلعلك شريك بن سميّ الغطفانىّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: لأجعلنك نكالا لمن خلفك. قال: أو تقبل منى ما قبل اللّه تعالى من العباد؟ قال:

و تفعل؟ قال: فكتب إلى عمرو بن العاص أن شريك بن سميّ جاءنى تائبا فقبلت منه.

قال: و حدّثنا عبد اللّه بن صالح بن عبد الرحمن بن شريح عن أبى قبيل، قال: كان الناس يجتمعون بالفسطاط إذا قفلوا، فإذا حضر مرافق الريف خطب عمرو بن العاص الناس فقال: قد حضر مرافق الريف ربيعكم فانصرفوا، فإذا حمض اللبن و اشتدّ العود و كثر الذباب فحىّ على فسطاطكم، و لا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه و أهزل جواده.

و قال ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال: كان عمرو يقول للناس إذا قفلوا من غزوهم: أنه قد حضر الربيع، فمن أحبّ منكم أن يخرج بفرسه يربعه فليفعل، و لا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه و أهزل فرسه، فإذا حمض اللبن و كثر الذباب و لوى العود فارجعوا إلى قيروانكم.

و عن ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحميرىّ عن بجير بن ذاخر المعافرىّ قال: رحت أنا و والدى إلى صلاة الجمعة تهجيرا، و ذلك بعد حميم النصارى بأيام يسيرة، فأطلنا الركوع إذا أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس، فذعرت فقلت: يا أبت من هؤلاء؟ فقال: يا بنىّ هؤلاء الشرط فأقام المؤذنون الصلاة، فقام عمرو بن العاص على المنبر فرأيت رجلا ربعة قصير القامة، وافر الهامة، أدعج أبلج، عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تأتلق، عليه حلة و عمامة وجبة، فحمد اللّه و أثنى عليه حمدا موجزا، و صلّى على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و وعظ الناس و أمرهم و نهاهم، فسمعته يحض على الزكاة و صلة الأرحام، و يأمر بالاقتصاد و ينهى عن الفضول و كثرة العيال، و إخفاض الحال فى ذلك فقال: يا معشر الناس إيّاكم و خلالا أربعا، فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، و إلى الضيق بعد

السعة، و إلى الذلة بعد العزة، إياكم و كثرة العيال، و إخفاض الحال، و تضييع المال، و القيل بعد القال، فى غير درك و لا نوال. ثم أنه لا بدّ من فراغ يؤول إليه المرء فى توديع جسمه و التدبير لشأنه و تخليته بين نفسه و بين شهواتها، و من صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد و النصيب الأقل، و لا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه، فيجوز من الخير عاطلا، و عن حلال اللّه و حرامه غافلا. يا معشر الناس: إنه قد تدلت الجوزاء و ذلت الشعرى، و أقلعت السماء و ارتفع الوباء، و قلّ الندى و طاب المرعى، و وضعت الحوامل و درجت السخائل، و على الراعى بحسن رعيته حسن النظر، فحىّ لكم على بركة اللّه تعالى إلى ريفكم، فنالوا من خيره و لبنه و خرافه و صيده، و اربعوا خيلكم و أسمنوها و صنونوها و أكرموها، فإنها جنتكم من عدوّكم، و بها مغانمكم و أنفالكم، و استوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا، و إياكم و المومسات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰

المعسولات، فإنهنّ يفسدن الدين و يقصرن الهمم. حدّثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إنّ اللّه سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لهم فيكم صهرا و ذمّة، فكفوا أيديكم، و عفوا فروجكم، و غضوا أبصاركم» و لا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه و أهزل فرسه، و اعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك، و اعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، و تشوّق قلوبهم إليكم، و إلى داركم معدن الزرع و المال و الخير الواسع و البركة النامية، و حدّثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إذا فتح اللّه عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال له أبو بكر رضى اللّه عنه: و لم يا رسول اللّه؟ قال: «لأنهم و أزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة» فاحمدوا اللّه معشر الناس على ما أولاكم، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود و سخن الماء و كثرت الذباب و حمض اللبن و صوّح البقل و انقطع الورد من الشجر، فحىّ إلى فسطاطكم، على بركة اللّه، و لا يقدمن أحد منكم ذو عيال إلا و معه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته، أقول قولى هذا و استحفظ اللّه عليكم.

قال فحفظت ذلك عنه. فقال والدى بعد انصرافنا إلى المنزل لما حكيت له خطبته أنه يا بنىّ يحذر الناس إذا انصرفوا إليه على الرباط كما حذرهم على الريف و الدعة. قال: و كان إذا جاء وقت الربيع كتب لكلّ قوم بربيعهم و لبنهم إلى حيث أحبوا، و كانت القرى التى يأخذ فيها معظمهم منوف و سمنود و أهناس و طحا، و كان أهل الراية متفرّقين، فكان آل عمرو بن العاص و آل عبد اللّه بن سعد يأخذون فى منوف و وسيم، و كانت هذيل تأخذ فى ببا و بوصير، و كانت عدوان تأخذ فى بوصير و قرى عكّ، و الذى يأخذ فيه معظمهم بوصير و منوف و سندبيس و ارتيب، و كانت بلى تأخذ فى منف و طرّانية، و كانت فهم تأخذ فى اتريب و عين شمس و منوف، و كانت مهرة جذام تأخذ فى مناونمى و بسطة و وسيم، و كانت لخم تأخذ فى الفيوم و طرّانية و قريط، و كانت جذام تأخذ فى قريط و طرّانية، و كانت حضر موت تأخذ فى ببا و عين شمس و اتريب، و كانت مراد تأخذ فى منف و الفيوم و معهم عبس بن زوف، و كانت حمير تأخذ فى بوصير و قرى أهناس، و كانت خولان تأخذ فى قرى أهناس و القيس و البهنسا، و آل وعلة يأخذون فى سفط من بوصير، و آل ابرهة يأخذون فى منف و غفار، و أسلم يأخذون مع وائل من جذام و سعد فى بسطة و قريط و طرّانية، و آل يسار بن ضبة فى أتريب، و كانت المعافر. تأخذ فى أتريب و سخا و منوف، و كانت طائفة من تجيب و مراد يأخذون باليدقون، و كان بعض هذه القبائل ربما جاور بعضا فى الربيع، و لا يوقف فى معرفة ذلك على أحد إلا أن معظم القبائل كانوا يأخذون حيث وصفنا، و كان يكتب لهم بالربيع فيربعون ما أقاموا و باللبن، و كان لغفار و ليث أيضا مربع باتريب. قال: و أقامت مدلج بخربتا فاتخذوها منزلا، و كان معهم نفر من حمير حالفوهم فيها، فهى منازلهم. و رجعت خشين و طائفة من لخم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱

و جذام فنزلوا أكناف ضان و أبليل و طرانية، و لم تكن قيس بالحوف الشرقىّ قديما، و إنما أنزلهم به ابن الحبحاب، و ذلك أنه وفد إلى هشام بن عبد الملك فأمر له بفريضة خمسة آلاف رجل، فجعل ابن الحبحاب الفريضة فى قيس، و قدم بهم فأنزلهم الجوف

الشرقيّ بمصر، فانظر أعزك اللّه ما كان عليه الصحابة و تابعوهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف، و مع ذلك فكانت القرى كلها فى جميع الإقليم أعلاه و أسفله مملوءة بالقبط و الروم، و لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة، و عند ما أنزل عبيد اللّه بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقيّ، فلما كان فى المائة الثانية من سنى الهجرة، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر و نواحيها، و ما برحت القبط تنقض و تحارب المسلمين إلى ما بعد المائتين من سنى الهجرة.

قال أبو عمرو محمد بن يوسف الكندىّ فى كتاب أمراء مصر: و فى امرة الحرّ بن يوسف أمير مصر، كتب عبيد اللّه بن الحبحاب صاحب خراج مصر إلى هشام بن عبد الملك، بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كلّ دينار قيراطا، فنقضت كورة تنو و نمى و قريط و طرانية و عامّة الحوف الشرقيّ، فبعث إليهم الحرّ بأهل الديوان فحاربوهم فقتل منهم خلق كثير، و ذلك أوّل نقض القبط بمصر، و كان نقضهم فى سنة تسع و مائة، و رابط الحرّ بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر، ثم نقض أهل الصعيد و حارب القبط عمالهم فى سنة إحدى و عشرين و مائة، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر أهل الديوان، فقتلوا من القبط ناسا كثيرا، فظفر بهم و خرج بحنس، و هو رجل من القبط من سمنود، فبعث إليه عبد الملك بن مروان موسى بن نصير أمير مصر فقتل بحنس فى كثير من أصحابه، و ذلك فى سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، و خالفت القبط أيضا برشيد، فبعث إليهم مروان بن محمد الحمار لما دخل مصر، فارّا من بنى العباس، عثمان بن أبى سبعة، فهزمهم و خرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا، و نابذوا العمال و أخرجوهم فى سنة خمسين و مائة، و صاروا إلى شبراسنباط، و انضم إليهم أهل البشرود و الأوسية و النخوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبىّ على أهل الديوان و وجوه أهل مصر، فخرجوا إليهم و لقيهم القبط و قتلوا من المسلمين، فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط و انصرف العسكر إلى مصر منهزما.

و فى ولاية موسى بن علىّ بن رباح على مصر، خرج القبط ببلهيت فى سنة ست و خمسين و مائة، فخرج إليهم عسكر فهزمهم، ثم نقضت القبط فى جمادى الأولى سنة ست عشرة و مائتين مع من نقض من أهل أسفل الأرض من العرب، و أخرجوا العمال و خلعوا الطاعة لسوء سيرة العمال فيهم، فكانت بينهم و بين الجيوش حروب امتدّت إلى أن قدم الخليفة عبد اللّه أمير المؤمنين المأمون إلى مصر، لعشر خلون من المحرّم، سنة سبع عشرة و مائتين، فعقد على جيش بعث به إلى الصعيد و ارتحل هو إلى سخا، و أوقع الأفشين بالقبط

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲

فى ناحية البشرود حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم بقتل الرجال و بيع النساء و الأطفال، فبيعوا و سبى أكثرهم، و تتبع كلّ من يوما إليه بخلاف، فقتل ناسا كثيرا، و رجع إلى الفسطاط فى صفر، و مضى إلى حلوان، و عاد لثمان عشرة خلت من صفر فكان مقامه بالفسطاط و سخا و حلوان تسعة و أربعين يوما. فانظر أعزك اللّه كيف كانت إقامة الصحابة، إنما هى بالفسطاط و الإسكندرية، و أنه لم يكن لهم كثير إقامة بالقرى، و أن النصارى كانوا متمكنين من القرى، و المسلمون بها قليل، و أنهم لم ينتشروا بالنواحى إلا بعد عصر الصحابة و التابعين، يتبين لك أنهم لم يؤسسوا فى القرى و النواحى مساجد، و تفطن لشىء آخر، و هو أن القبط ما برحوا كما تقدّم يثبتون لمحاربة المسلمين، دالة منهم بما هم عليه من القوة و الكثرة، فلما أوقع بهم المأمون الوقعة التى قلنا غلب المسلمون على أماكنهم من القرى لما قتلوا منهم و سبوا، و جعلوا عدّة من كنائس النصارى مساجد، و كنائس النصارى مؤسسة على استقبال المشرق و استدبار المغرب، زعما منهم أنهم أمروا باستقبال مشرق الاعتدال، و أنه الجنة، لطلوع الشمس منه، فجعل المسلمون أبواب الكنائس محاريب عند ما غلبوا عليها.

و صيروها مساجد، فجاءت موازية لخط نصف النهار، و صارت منحرفة عن محاربى الصحابة انحرافا كثيرا يحكم بخطئها و بعدها عن الصواب كما تقدّم.

السبب الثالث: تساهل كثير من الناس فى معرفة أدلة القبلة، حتى أنك لتجد كثيرا من الفقهاء لا يعرفون منازل القمر صورة و حسابا، و

قد علم من له ممارسة بالرياضيات أن بمنازل القمر يعرف وقت الحسر و انتقال الفجر فى المنازل، و ناهيك بما يترتب على معرفة ذلك من أحكام الصلاة و الصيام، و هذه المنازل التى للقمر من بعض ما يستدل به على القبلة، و الطرقات، و هى من مبادى العلم، و قد جهلوه، فمن أعوزه الأدنى فحرىّ به أن يجهل ما هو أعلى منه و أدق.

السبب الرابع: الاعتذار بنجم سهيل، فإن كثيرا ما يقع الاعتذار عن مخالفة محاريب المتأخرين بأنها بنيت على مقابلة سهيل، و من هناك يقع الخطأ، فإن هذا أمر يحتاج فيه إلى تحرير، و هو أن دائرة سهيل مطلعها جنوب مشرق الشتاء قليلا، و توسطها فى أوسط الجنوب، و غروبها يميل عن أوسط الجنوب قليلا، فلعل من تقدّم من السلف أمر ببناء المساجد فى القرى على مقابلة مطالع سهيل، و مطلعه فى سمت قبلة مصر تقريبا، فجهل من قام بأمر البنيان فرق ما بين مطالع سهيل و توسطه و غروبه، و تساهل فوضع المحراب على مقابلة توسط سهيل، و هو أوسط الجنوب، فجاء المحراب حينئذ منحرفا عن السمت الصحيح انحرافا لا يسوغ التوجه إليه البتة.

السبب الخامس: أن المحاريب الفاسدة بديار مصر أكثرها فى البلاد الشمالية التى تعرف بالوجه البحرىّ، و الذى يظهر أن الغلط دخل على من وضعها من جهة ظنه أن هذه

البلاد لها حكم بلاد الشام، و ذلك أن بلاد مصر التى فى الساحل كثيرة الشبه ببلاد الشام فى كثرة أمطارها و شدّة بردها، و حسن فواكهها، فاستطرد الشبه حتى فى المحاريب و وضعها على سمت المحاريب الشامية، فجاء شيئا خطأ، و بيان ذلك أن هذه البلاد ليست بشمالية عن الشام حتى يكون حكمها فى استقبال الكعبة كالحكم فى البلاد الشامية، بل هى مغرّبة عن الجانب الغربىّ من الشام بعدّة أيام، و سمتاهما مختلفان فى استقبال الكعبة، لاختلاف القطرين، فإن الجانب الغربىّ من الشام كما تقدّم يقابل ميزاب الكعبة على خط مستقيم، و هو حيث مهب النكباء التى بين الشمال و الدبور ، و وسط الشام كدمشق و ما والاها شمال مكة من غير ميل، و هم يستقبلون أوسط الجنوب فى صلاتهم، بحيث يكون القطب الشمالىّ المسمى بالجدى وراء ظهورهم، و المدينة النبوية بين هذا الحدّ من الشام و بين مكة مشرّقة عن هذا الحدّ قليلا، فإذا كانت مصر مغرّبة عن الجانب الغربىّ من الشام بأيام عديدة، تعين و وجب أن تكون محاريبها و لا بدّ مائلة إلى جهة المرق بقدر بعد مصر و تغريبها عن أوسط الشام، و هذا أمر يدركه الحس و يشهد لصحته العيان، و على ذلك أسس الصحابة رضى اللّه عنهم المحاريب بدمشق و بيت المقدس مستقبلة ناحية الجنوب، و أسسوا المحاريب بمصر مستقبلة المشرق مع ميل يسير عنه إلى ناحية الجنوب، فرض- رحمه اللّه- نفسك فى التمييز، و عوّد نظرك التأمّل، و أربأ بنفسك أن تقاد كما تقاد البهيمة بتقليدك من لا يؤمن عليه الخطأ. فقد نهجت لك السبيل فى هذه المسألة، و ألنت لك من القول، و قرّبت لك حتى كأنك تعاين الأقطار، و كيف موقعها من مكة. ولى هنا مزيد بيان، فيه الفرق بين إصابة العين و إصابة الجهة، و هو أن المكلف لو وقف و فرضنا أنه خرج خط مستقيم من بين عينيه و مرّ حتى اتصل بجدار الكعبة من غير ميل عنها إلى جهة من الجهات، فإنه لا بدّ أن ينكشف لبصره مدى عن يمينه و شماله، ينتهى بصره إلى غيره إن كان لا ينحرف عن مقابلته، فلو فرضنا امتداد خطين من كلا عينى الواقف، بحيث يلتقيان فى باطن الرأس على زاوية مثلثة، و يتصلان بما انتهى إليه البصر من كلا الجانبين، لكان ذلك شكلا مثلثا يقسمه الخط الخارج من بين العينين إلى الكعبة بنصفين، حتى يصير ذلك الشكل بين مثلثين متساويين، فالخط الخارج من بين عينى مستقبل الكعبة الذى فرق بين الزاويتين، هو مقابلة العين التى اشترط الشافعىّ رحمه اللّه وجوب استقباله من الكعبة عند الصلاة، و منتهى ما يكشف بصر المستقبل من الجانبين، هو حدّ مقابلة الجهة التى قال جماعة من علماء الشريعة بصحة استقباله فى الصلاة، و الخطان الخارجان من العينين إلى طرفيه هما آخر الجهة من اليمين و الشمال، فمهما وقعت صلاة المستقبل على الخط الفاصل بين الزاويتين، كان قد استقبل عين الكعبة، و مهما وقعت صلاته منحرفة عن يمين الخط أو يساره بحيث لا يخرج استقباله عن منتهى حدّ الزاويتين المحدودتين بما يكشف بصره من الجانبين، فإنه مستقبل جهة الكعبة، و إن خرج

استقباله عن حدّ الزاويتين من أحد الجانبين، فإنه يخرج فى استقباله عن حدّ جهة الكعبة، و هذا الحدّ فى الجهة يتسع ببعد المدى، و يضيق بقربه، فأقصى ما ينتهى إليه اتساعه ربع دائرة الأفق، و ذلك أن الجهات المعتبرة فى الاستقبال أربع، المشرق و المغرب و الجنوب و الشمال، فمن استقبل جهة من هذه الجهات كان أقصى ما ينتهى إليه سعة تلك الجهة ربع دائرة الأفق، و إن انكشف لبصره أكثر من ذلك فلا عبرة به من أجل ضرورة تساوى الجهات، فإنا لو فرضنا إنسانا وقف فى مركز دائرة و استقبل جزأ من محيط الدائرة، لكانت كلّ جهة من جهاته الأربع التى هى وراءه و أمامه و يمينه و شماله، تقابل ربعا من أرباع الدائرة، فتبين بما قلنا أن أقصى ما ينتهى إليه اتساع الجهة قدر ربع دائرة الأفق، فأىّ جزء من أجزاء دائرة الأفق، قصده الواقف بالاستقبال فى بلد من البلدان، كانت جهة ذلك الجزء المستقبل ربع دائرة الأفق، و كان الخط الخارج من بين عينى الواقف إلى وسط تلك الجهة هو مقابلة العين، و منتهى الربع من جانبيه يمنة و يسرة هو منتهى الجهة التى قد استقبلها، فما خرج من محاريب بلد من البلدان عن حدّ جهة الكعبة لا تصح الصلاة لذلك المحراب بوجه من الوجوه، و ما وقع فى جهة الكعبة صحت الصلاة إليه عند من يرى أنّ الفرض فى استقبال الكعبة إصابة جهتها، و ما وقع فى مقابلة عين الكعبة فهو الأسدّ الأفضل الأولى عند الجمهور.

و إن أنصفت علمت أنه مهما وقع الاستقبال فى مقابلة جهة الكعبة، فإنه يكون سديدا، و أقرب منه إلى الصواب ما وقع قريبا من مقابلة العين يمنة أو يسرة، بخلاف ما وقع بعيدا عن مقابلة العين، فإنه بعيد من الصواب، و لعله هو الذى يجرى فيه الخلاف بين علماء الشريعة و اللّه أعلم.

و حيث تقرّر الحكم الشرعىّ بالأدلة السمعية و البراهين العقلية فى هذه المسألة، فاعلم أن المحاريب المخالفة لمحاريب الصحابة التى بقرافة مصر و بالوجه البحرىّ من ديار مصر، واقعة فى آخر جهة الكعبة من مصر، و خارجة عن حدّ الجهة، و هى مع ذلك فى مقابلة ما بين البجة و النوبة، لا فى مقابلة الكعبة، فإنها منصوبة على موازاة خط نصف النهار، و محاريب الصحابة على موازاة مشرق الشتاء تجاه مطالع العقرب مع ميل يسير عنها إلى ناحية الجنوب، فإذا جعلنا مشرق الشتاء المذكور مقابلة عين الكعبة لأهل مصر، و فرضنا جهة ذلك الجزء ربع دائرة الأفق، صار سمت المحاريب التى هى موازية لخط نصف النهار خارجا عن جهة الكعبة، و الذى يستقبلها فى الصلاة يصلى إلى غير شطر المسجد الحرام، و هو خطر عظيم فاحذره.

و اعلم أن صعيد مصر واقع فى جنوب مدينة مصر، وقوص واقعة فى شرقىّ الصعيد، و فيما بين مهب ريح الجنوب و الصبا من ديار مصر، فالمتوجه من مدينة قوص إلى عيذاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵

يستقبل مشرق الشتاء، سواء إلى أن يصل إلى عيذاب و لا يزال كذلك إذا سار من عيذاب حتى ينتهى فى البحر إلى جدّة، فإذا سار من جدّة فى البرّ استقبل المشرق كذلك حتى يحل بمكة، فإذا عاد من مكة استقبل المغرب، فاعرف من هذا أن مكة واقعة فى النصف الشرقىّ من الربع الجنوبىّ بالنسبة إلى أرض مصر، و هذا هو سمت محاريب الصحابة التى بديار مصر و الإسكندرية، و هو الذى يجب أن يكون سمت جميع محاريب إقليم مصر.

برهان آخر: و هو أن من سار من مكة يريد مصر على الجادّة، فإنه يستقبل ما بين القطب الشمالىّ الذى هو الجدى، و بين مغرب الصيف مدّة يومين، و بعض اليوم الثالث، و فى هذه المدّة يكون مهب النكباء التى بين الشمال و المغرب تلقاء وجهه، ثم يستقبل بعد ذلك فى مدّة ثلاثة أيام أوسط الشمال، بحيث يبقى الجدى تلقاء وجهه إلى أن يصل إلى بدر، فإذا سار من بدر إلى المدينة النبوية صار مشرق الصيف تلقاء وجهه تارة و مشرق الاعتدال تارة إلى أن ينتهى إلى المدينة، فإذا رجع من المدينة إلى الصفراء، استقبل مغرب الشتاء إلى أن يعدل إلى ينبع، فيصير تارة يسير شمالا و تارة يسير مغربا، و يكون ينبع من مكة على حد النكباء التى بين الشمال و مغرب الصيف، فإذا سار من ينبع استقبل ما بين الجدى و مغرب الثريا، و هو مغرب الصيف، و هبت النكباء تلقاء وجهه إلى أن يصل إلى مدين، فإذا سار من مدين استقبل تارة الشمال و أخرى مغرب الصيف حتى يدخل إيلة، و من إيلة لا يزال يستقبل مغرب الاعتدال

تارة و يميل عنه إلى جهة الجنوب مع استقبال مغرب الشتاء أخرى، إلى أن يصل إلى القاهرة و مصر، فلو فرضنا خطا خرج من محاريب مصر الصحيحة التى وضعها الصحابة، و مرّ على استقامة من غير ميل و لا انحراف لا تصل بالكعبة و لصق بها.

و اعلم أن أهل مصر و الإسكندرية و بلاد الصعيد و أسفل الأرض و برقة و إفريقية و طرابلس المغرب و صقلية و الأندلس و سواحل المغرب إلى السوس الأقصى و البحر المحيط و ما على سمت هذه البلاد، يستقبلون فى صلاتهم من الكعبة ما بين الركن الغربىّ إلى الميزاب، فمن أراد أن يستقبل الكعبة فى شىء من هذه البلاد فليجعل بنات نعش إذا غربت خلف كتفه الأيسر، و إذا طلعت على صدغه الأيسر، و يكون الجدى على أذنه اليسرى، و مشرق الشمس تلقاء وجهه أو ريح الشمال خلف أذنه اليسرى، أو ريح الدبور خلف كتفه الأيمن، أو ريح الجنوب التى تهب من ناحية الصعيد على عينه اليمنى، فإنه حينئذ يستقبل من الكعبة سمت محاريب الصحابة الذين أمرنا اللّه باتباع سبيلهم، و نهانا عن مخالفتهم بقوله عز و جل:

وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً [النساء/ ۱۵۵]

ألهمنا اللّه بمنه اتباع طريقهم، و صيرنا بكرمه من حزبهم و فريقهم إنه على كلّ شىء قدير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶

جامع العسكر

اشارة

هذا الجامع بظاهر مصر، و هو حيث الفضاء الذى هو اليوم فيما بين جامع أحمد بن طولون و كوم الجارح بظاهر مدينة مصر، و كان إلى جانب الشرطة و الدار التى يسكنها أمراء مصر، و من هذه الدار إلى الجامع باب، و كان يجمع فيه الجمعة، و فيه منبر و مقصورة، و هذا الجامع بناه الفضل بن صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس فى ولايته إمارة مصر، ملاصقا لشرطة العسكر التى كانت يقال لها الشرطة العليا، فى سنة تسع و ستين و مائة، فكانوا يجمعون فيه، و كانت ولاية الفضل إمارة مصر من قبل المهدىّ محمد بن أبى جعفر المنصور على الصلاة و الخراج، فدخلها سلخ المحرّم سنة تسع و ستين و مائة، فى عسكر من الجند عظيم أتى بهم من الشام، و مصر تضطرم لما كان فى الحوف، و لخروج دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، فقام فى ذلك و جهز الجنود حتى أسر دحية و ضرب عنقه فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة، و كان يقول أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامى فى أمر دحية، و قد عجز عنه غيرى، حتى كفيت أهل مصر أمره، فعزله موسى الهادى لما استخلف بعد موت أبيه المهدىّ، بعد ما أقرّه فندم الفضل على قتل دحية و أظهر توبة و سار إلى بغداد، فمات عن خمسين سنة، فى سنة اثنتين و سبعين و مائة، و لم يزل الجامع بالعسكر إلى أن ولى عبد اللّه بن طاهر بن الحسين بن مصعب مولى خزاعة على صلاة مصر و خراجها، من قبل عبد اللّه أمير المؤمنين المأمون فى ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة و مائتين، فزاد فى عمارته، و كان الناس يصلون فيه الجمعة قبل بناء جامع أحمد بن طولون، و لم يزل هذا الجامع إلى ما بعد الخمسمائة من سنى الهجرة. قال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة سبع عشرة و خمسمائة، و كان يطلق فى الأربع ليالى الوقود، و هى مستهلّ رجب و نصفه، و مستهلّ شعبان و نصفه، برسم الجوامع الستة، الأزهر و الأنور و الأقمر بالقاهرة، و الطولونىّ و العتيق بمصر، و جامع القرافة و المشاهد التى تتضمن الأعضاء الشريفة، و بعض المساجد التى يكون لأربابها و جاهة جملة كثيرة من الزيت الطيب، و يختص بجامع راشدة و جامع ساحل الغلة بمصر، و الجامع بالمقس يسير، و يعنى بجامع ساحل الغلة جامع العسكر، فإنّ العسكر حينئذ كان قد خرب و حملت أنقاضه، و صار الجامع بساحل مصر، و هو الساحل القديم المذكور فى موضعه من هذا الكتاب.

ذكر العسكر

كان مكان العسكر فى صدر الإسلام يعرف بعد الفتح بالحمراء القصوى، و هى كما تقدّم خطة بنى الأزرق و خطة بنى روبيل و خطة بنى يشكر بن جزيلة من لخم، ثم دثرت هذه الحمراء و صارت صحراء، فلما زالت دولة بنى أمية و دخلت المسودة إلى مصر فى طلب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷

مروان بن محمد الجعدىّ، فى سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، و هى خراب فضاء يعرف بعضه بجبل يشكر، نزل صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس، و أبو عون عبد الملك بن يزيد بعسكرهما فى هذا الفضاء، و أمر عبد الملك أبو عون أصحابه بالبناء فيه، فبنوا. و سمى من يومئذ بالعسكر، و صار أمراء مصر إذا قدموا ينزلون فيه من بعد أبى عون. و قال الناس من عهده كنا بالعسكر، خرجنا إلى العسكر، و كنت فى العسكر. فصارت مدينة الفسطاط و العسكر. و نزل الأمراء من عهد أبى عون بالعسكر، فلما ولى يزيد بن حاتم إمارة مصر، و قام علىّ بن محمد بن عبد اللّه بن حسن و طرق المسجد، كتب أبو جعفر المنصور إلى يزيد بن حاتم يأمره أن يتحوّل من العسكر إلى الفسطاط، و أن يجعل الديوان فى كنائس القصر، و ذلك فى سنة ست و أربعين و مائة، إلى أن قدم الأمير أبو العباس أحمد بن طولون من العراق أميرا على مصر، فنزل بالعسكر بدار الإمارة التى بناها صالح بن علىّ بعد هزيمة مروان و قتله، و كان لها باب إلى الجامع الذى بالعسكر، و كان الأمراء ينزلون بهذه الدار إلى أن نزلها أحمد بن طولون، ثم تحوّل منها إلى القطائع، و جعلها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون عند إمارته على مصر ديوانا للخراج، ثم فرّقت حجرا حجرا بعد دخول محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر، و زوال دولة بنى طولون، و سكن محمد بن سليمان أيضا بدار فى العسكر عند المصلّى القديم، و نزلها الأمراء من بعده إلى أن ولى الإخشيد محمد بن طغج فنزل بالعسكر أيضا، و لما بنى أحمد بن طولون القطائع اتصلت مبانيها بالعسكر، و بنى الجامع على جبل يشكر، فعمر ما هناك عمارة عظيمة، بحيث كانت هناك دار على بركة قارون أنفق عليها كافور الإخشيدىّ مائة ألف دينار، و سكنها. و كان هناك مارستان أحمد بن طولون أنفق عليه و على مستغله ستين ألف دينار.

و قدمت عساكر المعز لدين اللّه مع كاتبه و غلامه جوهر القائد فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة و العسكر عامر، غير أنه منذ بنى أحمد بن طولون القطائع هجر اسم العسكر، و صار يقال مدينة الفسطاط و القطائع، فلما خرّب محمد بن سليمان الكاتب قصر ابن طولون و ميدانه، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، صارت القطائع فيها المساكن الجليلة، حيث كان العسكر، و أنزل المعز لدين اللّه عمه أبا علىّ فى دار الإمارة، فلم يزل أهله بها إلى أن خربت القطائع فى الغلاء الكائن بمصر فى خلافة المستنصر، أعوام بضع و خمسين و أربعمائة. فيقال أنه كان هنالك ما ينيف على مائة ألف دار، و لا ينكر ذلك. فانظر ما بين سفح الجبل حيث القلعة الآن، و بين ساحل مصر القديم الذى يعرف اليوم بالكبارة، و ما بين كوم الجارح من مصر، و قناطر السباع، فهناك كانت القطائع و العسكر، و يخص العسكر من ذلك ما بين قناطر السباع و حدرة ابن قميحة إلى كوم الجارح، حيث الفضاء الذى يتوسط فيما بين قنطرة السدّ و باب المخدم من جهة القرافة، فهناك كان العسكر. و لما استولى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸

الخراب فى المحنة زمن المستنصر، أمر الوزير الناصر للدين عبد الرحمن البازورىّ ببناء حائط يستر الخراب إذا توجه الخليفة إلى مصر، فيما بين العسكر و القطائع و بين الطريق، و أمر فبنى حائط آخر عند جامع ابن طولون. فلما كان فى خلافة الآمر بأحكام اللّه أبى علىّ منصور بن المستعلى باللّه، أمر وزيره أبو عبد اللّه محمد بن فاتك المنعوت بالمأمون البطائحىّ، فنودى مدّة ثلاثة أيام فى القاهرة و مصر، بأن من كان له دار فى الخراب أو مكان يعمره، و من عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره، من غير نقل شىء من أنقاضه، و من تأخر بعد ذلك فلا حق له و لا حكر يلزمه، و أباح تعمير جميع ذلك بغير طلب حق، فعمر الناس ما كان منه مما يلى القاهرة، من حيث مشهد السيدة نفيسة إلى ظاهر باب زويلة، و نقلت أنقاض العسكر، فصار الفضاء الذى يوصل إليه من مشهد السيدة نفيسة، و من الجامع الطولونىّ، و من قنطرة السدّ، و يسلك فيه إلى حيث كوم الجارح. و العامر الآن من العسكر جبل يشكر الذى فيه جامع ابن

طولون و ما حوله إلى قناطر السباع. كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى.

جامع ابن طولون

اشارة

هذا الجامع موضعه يعرف بجبل يشكر. قال ابن عبد الظاهر: و هو مكان مشهور بإجابة الدعاء، و قيل أنّ موسى عليه السّلام ناجى ربه عليه بكلمات. و ابتدأ فى بناء هذا الجامع الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بعد بناء القطائع، فى سنة ثلاث و ستين و مائتين.

قال جامع السيرة الطولونية: كان أحمد بن طولون يصلّى الجمعة فى المسجد القديم الملاصق للشرطة، فلما ضاق عليه بنى الجامع الجديد، مما أفاء اللّه عليه من المال الذى وجده فوق الجبل فى الموضع المعروف بتنور فرعون، و منه بنى العين. فلما أراد بناء الجامع قدّر له ثلاثمائة عمود، فقيل له: ما تجدها، أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف و الضياع الخراب، فتحمل ذلك، فأنكر ذلك و لم يختره، و تعذب قلبه بالفكر فى أمره، و بلغ النصرانىّ الذى تولى له بناء العين، و كان قد غضب عليه و ضربه و رماه فى المطبق الخبر.

فكتب إليه يقول: أنا أبنيه لك كما تحب و تختار بلا عمد إلّا عمودى القبلة، فأحضره و قد طال شعره حتى نزل على وجهه، فقال له: ويحك ما تقول فى بناء الجامع؟ فقال: أنا أصوّره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد إلّا عمودى القبلة. فأمر بأن تحضر له الجلود، فأحضرت، و صوّره له فأعجبه و استحسنه، و أطلقه و خلع عليه، و أطلق له للنفقة عليه مأئة ألف دينار. فقال له: أنفق، و ما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك. فوضع النصرانىّ يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه، و هو جبل يشكر، فكان ينشر منه و يعمل الجيرو يبنى إلى أن فرغ من جميعه، و بيّضه و خلّقه و علّق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال، و فرش فيه الحصر، و حمل إليه صناديق المصاحف، و نقل إليه القرّاء و الفقهاء، و صلّى فيه بكار بن قتيبة القاضى، و عمل الربيع بن سليمان بابا فيما روى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «من بنى للّه مسجدا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹

و لو كمفحص قطاة، بنى اللّه له بيتا فى الجنة». فلما كان أوّل جمعة صلاها فيه أحمد بن طولون و فرغت الصلاة، جلس محمد بن الربيع خارج المقصورة، و قام المستملى و فتح باب المقصورة، و جلس أحمد بن طولون، و لم ينصرف و الغلمان قيام و سائر الحجاب حتى فرغ المجلس، فلما فرغ المجلس خرج إليه غلام بكيس فيه ألف دينار و قال: يقول لك الأمير نفعك اللّه بما علّمك، و هذه لأبى طاهر، يعنى ابنه، و تصدّق أحمد بن طولون بصدقات عظيمة فيه، و عمل طعاما عظيما للفقراء و المساكين، و كان يوما عظيما حسنا.

وراح أحمد بن طولون و نزل فى الدار التى عملها فيه للإمارة، و قد فرشت و علّقت و حملت إليها الآلات و الأوانى و صناديق الأشربة و ما شاكلها، فنزل بها أحمد و جدّد طهره و غير ثيابه و خرج من بابها إلى المقصورة، فركع و سجد شكرا للّه تعالى على ما أعانه عليه من ذلك و يسره له. فلما أراد الانصراف، خرج من المقصورة حتى أشرف على الفوّارة، و خرج إلى باب الريح. فصعد النصرانىّ الذى بنى الجامع و وقف إلى جانب المركب النحاس و صاح: يا أحمد بن طولون، يا أمير الأمان، عبدك يريد الجائزة و يسأل الأمان، أن لا يجرى عليه مثل ما جرى فى المرّة الأولى. فقال له أحمد بن طولون: انزل فقد أمّنك اللّه، و لك الجائزة. فنزل و خلع عليه و أمر له بعشرة آلاف دينار، و أجرى عليه الرزق الواسع إلى أن مات. وراح أحمد بن طولون فى يوم الجمعة إلى الجامع، فلما رقى الخطيب المنبر و خطب، و هو أبو يعقوب البلخىّ، دعا للمعتمد و لولده، و نسى أن يدعو لأحمد بن طولون، و نزل عن المنبر، فأشار أحمد إلى نسيم الخادم أن أضربه خمسمائة سوط. فذكر الخطيب سهوه و هو على مراقى المنبر، فعاد و قال: الحمد للّه، و صلّى اللّه على محمد وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [طه/ ۱۱۵] اللهمّ و أصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين. و

زاد فى الشكر و الدعاء له بقدر الخطبة ثم نزل، فنظر أحمد إلى نسيم أن أجعلها دنانير، و وقف الخطيب على ما كان منه، فحمد اللّه تعالى على سلامته و هنأه الناس بالسلامة.

و رأى أحمد بن طولون الصنّاع يبنون فى الجامع عند العشاء، و كان فى شهر رمضان فقال: متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم و أولادهم، اصرفوهم العصر. فصارت سنّة إلى اليوم بمصر. فلما فرغ شهر رمضان، قيل له: قد انقضى شهر رمضان فيعودون إلى رسمهم. فقال: قد بلغنى دعاؤهم، و قد تبرّكت به، و ليس هذا مما يوفر العمل علينا. و فرغ منه فى شهر رمضان سنة خمس و ستين و مائتين، و تقرّب الناس إلى ابن طولون بالصلاة فيه، و ألزم أولادهم كلهم صلاة الجمعة فى فوّارة الجامع، ثم يخرجون بعد الصلاة إلى مجلس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰

الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم، مع كلّ واحد منهم ورّاق و عدّة غلمان. و بلغت النفقة على هذا الجامع فى بنائه مائة ألف دينار و عشرين ألف دينار. و يقال أنّ أحمد بن طولون رأى فى منامه كأنّ اللّه تعالى قد تجلّى و وقع نوره على المدينة التى حول الجامع، إلّا الجامع فإنه لم يقع عليه من النور شىء، فتألم و قال: و اللّه ما بنيته إلّا للّه خالصا، و من المال الحلال الذى لا شبهة فيه. فقال له معبّر حاذق: هذا الجامع يبقى و يخرب كل ما حوله، لأنّ اللّه تعالى قال: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا [الأعراف/ ۱۴۳] فكل شىء يقع عليه جلال اللّه عز و جل لا يثبت. و قد صحّ تعبير هذه الرؤيا، فإن جميع ما حول الجامع خرب دهرا طويلا، كما تقدّم فى موضعه من هذا الكتاب، و بقى الجامع عامرا، ثم عادت العمارة لما حوله كما هى الآن.

قال القضاعىّ رحمه اللّه، و ذكر أن السبب فى بنائه، أنّ أهل مصر شكوا إليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده و سودانه، فأمر بإنشاء المسجد الجامع بجبل يشكر بن جديلة من لخم، فابتدأ بنيانه فى سنة ثلاث و ستين و مائتين، و فرغ منه سنة خمس و ستين و مائتين، و قيل أنّ أحمد بن طولون قال: أريد أن أبنى بناء، إن احترقت مصر بقى، و إن غرقت بقى.

فقيل له: يبنى بالجير و الرماد و الآجر الأحمر القوىّ النار إلى السقف، و لا يجعل فيه أساطين رخام، فإنه لا صبر لها على النار، فبناه هذا البناء و عمل فى مؤخره ميضأة و خزانة شراب فيها جميع الشرابات و الأدوية، و عليها خدم و فيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة، و بناه على بناء جامع سامراء، و كذلك المنارة، و علّق فيه سلاسل النحاس المفرغة، و القناديل المحكمة، و فرشه بالحصر العبدانية و السامانية.

حديث الكنز: قال جامع السيرة: لما ورد على أحمد بن طولون كتاب المعتمد بما استدعاه من ردّ الخراج بمصر إليه، و زاده المعتمد مع ما طلب الثغور الشامية، رغب بنفسه عن المعادن و مرافقها، فأمر بتركها، و كتب بإسقاطها فى سائر الأعمال، و منع المتقبلين من الفسخ على المزارعين، و خطر الارتفاق على العمال، و كان قبل إسقاط المرافق بمصر، قد شاور عبد اللّه بن دسومة فى ذلك، و هو يومئذ أمين على أبى أيوب متولى الخراج. فقال:

إن أمننى الأمير تكلمت بما عندى. فقال له: قد أمنك اللّه عز و جلّ. فقال: أيها الأمير، إنّ الدنيا و الآخرة ضرّتان و الحازم من لم يخلط إحداهما مع الأخرى، و المفرّط من خلط بينهما، فيتلف أعماله و يبطل سعيه، و أفعال الأمير أيّده اللّه الخير و توكله توكل الزهاد، و ليس مثله من ركب خطة لم يحكمها، و لو كنا نثق بالنصر دائما طول العمر، لما كان شىء عندنا آثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل بعمارة الآجل، و لكن الإنسان قصير العمر، كثير المصائب، مدفوع إلى الآفات، و ترك الإنسان ما قد أمكنه و صار فى يده تضييع، و لعل الذى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱

حماه، نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده، فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو، و يجتمع للأمير أيده اللّه بما قد عزم على إسقاطه من المرافق فى السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار، و إنّ فسخ ضياع الأمراء و المتقبلين فى هذه السنة، لأنها سنة ظمأ توجب الفسيخ، زاد مال البلد و توفر توفرا عظيما ينضاف إلى مال المرافق، فيضبط به الأمير أيّده اللّه أمر دنياه، و هذه طريقة أمور الدنيا و

أحكام أمور الرياسة و السياسة، و كلّ ما عدل الأمير أيده اللّه إليه من أمر غير هذا، فهو مفسد لدنياه، و هذا رأيي، و الأمير أيده اللّه على ما عساه يراه.

فقال له: ننظر فى هذا إن شاء اللّه. و شغل قلبه كلامه، فبات تلك الليلة بعد أن مضى أكثر الليل يفكر فى كلام ابن دسومة، فرأى فى منامه رجلا- من إخوانه الزهاد بطرسوس و هو يقول له: ليس ما أشار به عليك من استشرته فى أمر الارتفاق و الفسخ برأى تحمد عاقبته، فلا تقبله. و من ترك شيئا للّه عز و جلّ عوّضه اللّه عنه، فأمض ما كنت عزمت عليه.

فلما أصبح أنفذ الكتب إلى سائر الأعمال بذلك، و تقدّم به فى سائر الدواوين بإمضائه، و دعا بابن دسومة فعرّفه بذلك، فقال له: قد أشار عليك رجلان، الواحد فى اليقظة و الآخر ميت فى النوم، و أنت إلى الحيّ أقرب و بضمانه أوثق. فقال: دعنا من هذا، فلست أقبل منك.

و ركب فى غد ذلك اليوم إلى نحو الصعيد، فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى الأرض يد فرس بعض غلمانه، و هو رمل، فسقط الغلام فى الرمل، فإذا بفتق، ففتح فأصيب فيه من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار، و هو الكنز الذى شاع خبره، و كتب به إلى العراق أحمد بن طولون بخير المعتمد به و يستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البرّ و غيرها، فبنى منه المارستان، ثم أصاب بعده فى الجبل مالا- عظيما، فبنى منه الجامع و وقف جميع ما بقى من المال فى الصدقات، و كانت صدقاته و معروفه لا تحصى كثرة. و لما انصرف من الصحراء و حمل المال أحضر ابن دسومة و أراه المال و قال له: بئس الصاحب و المستشار أنت، هذا أوّل بركة مشورة الميت فى النوم، و لو لا أننى أمنتك لضربت عنقك، و تغيّر عليه و سقط محله عنده، و رفع إليه بعد ذلك أنه قد أجحف بالناس و ألزمهم أشياء ضجوا منها، فقبض عليه و أخذ ماله و حبسه، فمات فى حبسه. و كان ابن دسومة واسع الحيلة بخيل الكف زاهدا فى شكر الشاكرين، لا يهش إلى شيء من أعمال البرّ. و كان أحمد بن طولون من أهل القرآن، إذا جرت منه إساءة استغفر و تضرّع.

و قال ابن عبد الظاهر: سمعت غير واحد يقول إنه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء هذا الجامع، أسرّ للناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب. فقال رجل: محرابه صغير،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲

و قال آخر: ما فيه عمود. و قال آخر: ليست له ميضأة. فجمع الناس و قال: أما المحراب فإنى رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قد خطه لى، فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذى خطه لى، و أما العمد فإنى بنيت هذا الجامع من مال حلال و هو الكنز، و ما كنت لأشوبه بغيره، و هذه العمد إمّا أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهته عنها، و أما الميضأة فإنى نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها، و ها أنا أبنيها خلفه، ثم أمر ببنائها. و قيل أنه لما فرغ من بنائه رأى فى منامه كأن نارا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله، فلما أصبح قص رؤياه، فقيل له: أبشر بقبول الجامع، لأنّ النار كانت فى الزمان الماضى إذا قبل اللّه قربانا نزلت نار من السماء أخذته، و دليله قصة قابيل و هابل. قال: و رأيت من يقول أنه عمّر ما حوله حتى كان خلفه مسطبة ذراع فى ذراع، أجرتها فى كلّ يوم اثنا عشر درهما، فى بكرة النهار، لشخص يبيع الغزل و يشتريه، و الظهر لخباز، و العصر لشيخ يبيع الحمص و الفول.

و قيل عن أحمد بن طولون أنه كان لا يعبث بشيء قط، فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده و أخرجه و مدّه و استيقظ لنفسه و علم أنه قد فطن به، و أخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته، فطلب المعمار على الجامع و قال: تبنى المنارة التى للتأذين هكذا، فبنيت على تلك الصورة، و العامّة يقولون أن العشارى الذى على المنارة المذكورة يدور مع الشمس، و ليس صحيحا و إنما يدور مع دوران الرياح، و كان الملك الكامل قد اعتنى بوقودها ليلة النصف من شعبان، ثم أبطلها. و قال المسبحيّ: إن الحاكم أنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف و أربعة عشر مصحفا. و فى سنة ست و سبعين و ثلاثمائة فى ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى، احترقت الفوّارة التى كانت بجامع ابن طولون فلم يبق منها شيء، و كانت فى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها، و هى مذهبة على عشر عمد رخام و ستة عشر عمود رخام فى جوانبها، مفروشة كلها بالرخام، و تحت القبة قصعة رخام فسحتها أربعة أذرع، فى وسطها فوّارة

تفور بالماء، و فى وسطها قبة مزوّقة يؤذن فيها، و فى أخرى على سلمها، و فى السطح علامات الزوال، و السطح بدرابزين ساج، فاحترق جميع هذا فى ساعة واحدة. و فى المحرّم سنة خمس و ثمانين و ثلاثمائة أمر العزيز بالله بن المعز ببناء فوّارة عوضا عن التى احترقت، فعمل ذلك على يد راشد الحنفىّ، و تولى عمارتها ابن الرومية و ابن البناء، و ماتت أمّ العزيز فى سلخ ذى القعدة من السنة و اللّه أعلم.

تجديد الجامع: و كان من خبر جامع ابن طولون أنه لما كان غلاء مصر فى زمان المستنصر، و خربت القطائع و العسكر، عدم الساكن هناك و صار ما حول الجامع خرابا، و توالت الأيام على ذلك و تشعث الجامع و خرب أكثره، و صار أخيرا ينزل فيه المغاربة بأباعرها و متاعها عند ما تمرّ بمصر أيام الحج، فهيأ اللّه جلّ جلاله لعمارة هذا الجامع، أن كان بين الملك الأشرف خليل بن قلاون و بين الأمير بيدر أمور موشحة تزايدت و تأكدت،

إلى أن جمع بيدر من يثق به و قتل الأشرف بناحية تروجه فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى عند ذكر مدرسته، و كان ممن وافق الأمير بيدرا على قتل الأشرف، الأمير حسام الدين لاجين المنصورىّ، و الأمير قراسنقر، فلما قتل بيدر فى محاربة مماليك الأشرف له، فرّ لاجين و قراسنقر من المعركة، فاختفى لاجين بالجامع الطولونىّ، و قراسنقر فى داره بالقاهرة، و صار لاجين يتردّد بمفرده من غير أحد معه فى الجامع و هو حينئذ خراب لا ساكن فيه، و أعطى اللّه عهدا إن سلّمه اللّه من هذه المحنة و مكنه من الأرض أن يجدّد عمارة هذا الجامع و يجعل له ما يقوم به، ثم إنه خرج منه فى خفية إلى القرافة فأقام بها مدّة، و راسل قراسنقر فتحيل فى لحاقه به، و عملا أعمالا إلى أن اجتمعا بالأمير زين الدين كتبغا المنصورى، و هو إذ ذاك نائب السلطنة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و القائم بأمور الدولة كلها، فأحضرهما إلى مجلس السلطان بقلعة الجبل بعد أن أتقن أمرهما مع الأمراء و مماليك السلطان، فخلع عليهما و صار كلّ منهما إلى داره و هو آمن، فلم تطل أيام الملك الناصر فى هذه الولاية حتى خلعه الأمير كتبغا و جلس على تخت الملك، و تلقب بالملك العادل، فجعل لاجين نائب السلطنة بديار مصر، و جرت أمور اقتضت قيام لاجين على كتبغا و هم بطريق الشام، ففرّ كتبغا إلى دمشق و استولى لاجين على دست المملكة، و سار إلى مصر و جلس على سرير الملك بقلعة الجبل، و تلقب بالملك المنصور فى المحرّم من سنة ست و تسعين و ستمائة، فأقام قراسنقر فى نيابة السلطنة بديار مصر، و أخرج الناصر محمد بن قلاون من قلعة الجبل إلى كرك الشوبك، فجعله فى قلعتها، و أعانه أهل الشام على كتبغا حتى قبض عليه و جعله نائب حماه، فأقام بها مدّة سنين بعد سلطنة مصر و الشام و خلع على الأمير علم الدين سنجر الدوادارىّ و أقامه فى نيابة دار العدل، و جعل إليه شراء الأوقاف على الجامع الطولونىّ، و صرف إليه كلّ ما يحتاج إليه فى العمارة، و أكد عليه فى أن لا يسخّر فيه فاعلا- و لا- صانعا، و أن لا يقيم مستحثا للصناع، و لا يشترى لعمارته شيئا مما يحتاج إليه من سائر الأصناف إلّا بالقيمة التامة، و أن يكون ما ينفق على ذلك من ماله، و أشهد عليه بوكالته، فابتاع منية أندونة من أراضى الجيزة، و عرفت هذه القرية بأندونة، كاتب بمصر كان نصرانيا فى زمن أحمد بن طولون، و ممن نكبه و أخذ منه خمسين ألف دينار، و اشترى أيضا ساحة بجوار جامع أحمد بن طولون مما كان فى القديم عامرا ثم خرب، و حكرها و عمر الجامع، و أزال كلّ ما كان فيه من تخريب، و بلطه و بيضه و رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة التى عمل أهل مصر عليها الآن، و درسا يلقى فيه تفسير القرآن الكريم، و درسا لحديث النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و درسا للطب، و قرّر للخطيب معلوما، و جعل له إماما راتبا، و مؤذنين و فرّاشين و قومة، و عمل بجواره مكتبا لإقراء أيتام المسلمين كتاب اللّه عز و جلّ، و غير ذلك من أنواع القربات و وجوه البرّ، فبلغت النفقة على عمارة الجامع و ثمن مستغلاته عشرين ألف دينار، فلما شاء اللّه سبحانه أن يهلك لاجين، زيّن له

سوء عمله، عزل الأمير قراسنقر من نيابة السلطنة، فعزله و ولى مملوكه منكوتمر، و كان عسوفا عجولا حادّا، و لاجين مع ذلك يركن

إليه و يعوّل فى جميع أموره عليه و لا يخالف قوله و لا ينقض فعله، فشرع منكوتمر فى تأخير أمراء الدولة من الصالحية و المنصورية، و أعجل فى إظهار التهجم لهم و الإعلان بما يريده من القبض عليهم و إقامة أمراء غيرهم، فتوحشت القلوب منه و تمالأت على بغضه، و مشى القوم بعضهم إلى بعض و كاتبوا إخوانهم من أهل البلاد الشامية، حتى تمّ لهم ما يريدون، فواعد جماعة منهم إخوانهم على قتل السلطان لاجين و نائبه منكوتمر، فما هو إلّا أن صلّى السلطان العشاء الآخرة من ليلة الجمعة العاشر من شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و تسعين و ستمائة، و إذا بالأمير كرجى و كان ممن هو قائم بين يديه، تقدّم ليصلح الشمعة، فضربه بسيف قد أخفاه معه أطار به زنده، و انقض عليه البقية ممن واعدوهم بالسيوف و الخناجر، فقطعوه قطعا، و هو يقول اللّه اللّه، و خرجوا من فورهم إلى باب القلة من قلعة الجبل، فإذا بالأمير طفج قد جلس فى انتظارهم و معه عدّة من الأمراء، و كانوا إذ ذاك يبيتون بالقلعة دائما، فأمروا بإحضار منكوتمر من دار النيابة بالقلعة و قتلوه بعد مضىّ نصف ساعة من قتل أستاذه الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورىّ رحمه اللّه. فلقد كان مشكور السيرة.

و فى سنة سبعة و ستين و سبعمائة جدّد الأمير يلبغا العمرىّ الخاصكىّ درسا بجامع ابن طولون، فيه سبعا مدرّسين للحنفية، و قرّر لكلّ فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهما و أردب قمح، فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية. و أوّل من ولّى نظره بعد تجديده الأمير علم الدين سنجر الجاولىّ و هو إذ ذاك دوادار السلطان الملك المنصور لاجين، ثم ولّى نظره قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، ثم من بعده الأمير مكين فى أيام الناصر محمد بن قلاون، فجدّد فى أوقافه طاحونا و فرنا و حوانيت. فلما مات وليه قاضى القضاة عز الدين بن جماعة، ثم ولّاه الناصر للقاضى كريم الدين الكبير، فحدّد فيه مئذنتين، فلما نكبه السلطان عاد نظره إلى قاضى القضاة الشافعىّ، و ما برح إلى أيام الناصر حسن بن محمد بن قلاون، فولّاه للأمير صرغتمش، و توفر فى مدّة نظره من مال الوقف مائة ألف درهم فضة، و قبض عليه و هى حاصلة، فباشره قاضى القضاة إلى أيام الأشرف شعبان بن حسين، ففوّض نظره إلى الأمير الجاى اليوسفىّ إلى أن غرق، فتحدّث فيه قاضى القضاة الشافعىّ إلى أن فوّض السلطان الملك الظاهر برقوق نظره إلى الأمير قطلو بغا الصفوىّ، فى العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، و كان الأمير منطاش مدّة تحكمه فى الدولة فوّضه إلى المذكور فى أواخر شوّال سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، ثم عاد نظره إلى القضاة بعد الصفوىّ و هو بأيديهم إلى اليوم. و فى سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة جدّد الرواق البحرىّ الملاصق للمئذنة، الحاج عبيد اللّه محمد بن عبد الهادى الهويدىّ البازدار مقدّم الدولة. و جدّد ميضأة بجانب الميضأة القديمة، و كان عبيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵

هذا بازدارا، ثم ترقّى حتى صار مقدّم الدولة، فى شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، ثم ترك زىّ المقدّمين و تزيّا بزىّ الأمراء، و حاز نعمة جليلة و سعادة طائلة حتى مات يوم السبت رابع عشر صفر سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة.

ذكر دار الإمارة

و كان بجوار الجامع الطولونىّ دار أنشأها الأمير أحمد بن طولون عندما بنى الجامع، و جعلها فى الجهة القبلية، و لها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة بجوار المحراب و المنبر، و جعل فى هذه الدار جميع ما يحتاج إليه من الفرش و الستور و الآلات، فكان ينزل بها إذا راح إلى صلاة الجمعة، فإنها كانت تجاه القصر و الميدان، فيجلس فيها و يجدّد وضوءه و يغير ثيابه، و كان يقال لها دار الإمارة، و موضعها الآن سوق الجامع حيث البزازين و غيرهم، و لم تزل هذه الدار باقية إلى أن قدم الإمام المعز لدين اللّه أبو تميم معدّ من بلاد المغرب، فكان يستخرج فيها أموال الخراج. قال الفقيه الحسن بن إبراهيم بن زولاق فى كتاب سيرة المعز: و لست عشرة بقيت من المحرّم، يعنى من سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة قلّد المعز لدين اللّه الخراج و جميع وجوه الأعمال و الحسبة و السواحل و الأعشار و الجوالى و الأحباس و المواريث و الشرطيين، و جميع ما ينضاف إلى ذلك، و ما يطرأ فى مصر و سائر الأعمال، أبا الفرج

يعقوب بن يوسف بن كلس، و عسلوج بن الحسن، و كتب لهما سجلا بذلك قرىء يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون، و جلسا غد هذا اليوم فى دار الإمارة فى جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع و سائر وجوه الأعمال، ثم خربت هذه الدار فيما خرب من القطائع و العسكر، و صار موضعها ساحة إلى أن حكرها الدويدارىّ عند تجديد عمارة الجامع كما تقدّم، و قد ذكر بناء القيسارية فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الأسواق.

ذكر الأذان بمصر و ما كان فيه من الاختلاف

اعلم أن أوّل من أذن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بلال بن رباح، مولى أبى بكر الصدّيق رضى اللّه عنهما، بالمدينة الشريفة و فى الأسفار، و كان ابن أمّ مكتوم و اسمه عمرو بن قيس بن شريح من بنى عامر بن لؤىّ، و قيل اسمه عبد اللّه، و أمّه أمّ مكتوم، و اسمها عاتكة بنت عبد اللّه بن عنكثة من بنى مخزوم، ربما أذن بالمدينة، و أذن أبو محذورة، و اسمه أوس، و قيل سمرة بن معير بن لوذان بن ربيعة بن معير بن عريج بن سعد بن جمح، و كان استأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى أن يؤذن مع بلال، فأذن له و كان يؤذن فى المسجد الحرام، و أقام بمكة و مات بها و لم يأت المدينة.

قال ابن الكلبىّ: كان أبو محذورة لا يؤذن للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة إلّا فى الفجر، و لم يهاجر و أقام بمكة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۶

و قال ابن جريج: علّم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أبا محذورة الأذان بالجعرانة حين قسم غنائم حنين، ثم جعله مؤذنا فى المسجد الحرام.

و قال الشعبىّ: أذن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بلال و أبو محذورة و ابن أمّ مكتوم، و قد جاء أن عثمان بن عفان رضى اللّه عنه كان يؤذن بين يدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عند المنبر، و قال محمد بن سعد عن الشعبىّ: كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاثة مؤذنين، بلال و أبو محذورة و عمرو بن أمّ مكتوم، فإذا غاب بلال أذن أبو محذورة، و إذا غاب أبو محذورة أذن ابن أمّ مكتوم.

قلت: لعلّ هذا كان بمكة. و ذكر ابن سعد أنّ بلالا أذن بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى بكر رضى اللّه عنه، و أن عمر رضى اللّه عنه أراده أن يؤذن له فأبى عليه فقال له: إلى من ترى أن أجعل النداء؟ فقال: إلى سعد القرظ فإنه قد أذن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فدعاه عمر رضى اللّه عنه فجعل النداء إليه و إلى عقبه من بعده، و قد ذكر أن سعد القرظ كان يؤذن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقباء.

و ذكر أبو داود فى «مراسيله» و الدار قطنىّ فى «سننه»، قال بكير بن عبد اللّه الأشج:

كانت مساجد المدينة تسعة سوى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، كلهم يصلون بأذان بلال رضى اللّه عنه. و قد كان عند فتح مصر الأذان إنما هو بالمسجد الجامع المعروف بجامع عمرو، و به صلاة الناس بأسرهم، و كان من هدى الصحابة و التابعين رضى اللّه عنهم المحافظة على الجماعة و تشديد النكير على من تخلف عن صلاة الجماعة. قال أبو عمرو الكندى فى ذكر من عرّف على المؤذنين بجامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر، و كان أوّل من عرّف على المؤذنين أبو مسلم سالم بن عامر بن عبد المرادىّ، و هو من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد أذن لعمر بن الخطاب، سار إلى مصر مع عمرو بن العاص يؤذن له حتى افتتحت مصر، فأقام على الأذان و ضمّ إليه عمرو بن العاص تسعة رجال يؤذنون هو عاشرهم، و كان الأذان فى ولده حتى انقرضوا.

قال أبو الخير: حدّثنى أبو مسلم و كان مؤذنا لعمرو بن العاص، أن الأذان كان أوّله لا إله إلا اللّه، و آخره لا إله إلّا اللّه، و كان أبو مسلم يوصى بذلك حتى مات و يقول: هكذا كان الأذان. ثم عرّف عليهم أخوه شرحبيل بن عامر و كانت له صحبة، و فى عرافته زاد مسلمة بن مخلد فى المسجد الجامع و جعل له المنار، و لم يكن قبل ذلك، و كان شرحبيل أوّل من رقى منارة مصر للأذان، و أن

مسلمة بن مخلد اعتكف فى منارة الجامع، فسمع أصوات النواقيس عالية بالفسطاط فدعا شرحبيل بن عامر، فأخبره بما ساءه من ذلك. فقال شرحبيل: فإنى أمدّد بالأذان من نصف الليل إلى قرب الفجر، فإنهم أيها الأمير أن ينقسوا إذا أذنت، فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان، و مدّد شرحبيل و مطط أكثر الليل إلى أن مات شرحبيل سنة خمس و ستين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۷

و ذكر عن عثمان رضى اللّه عنه أنه أوّل من رزق المؤذنين، فلما كثرت مساجد الخطبة أمر مسلمة بن مخلد الأنصارىّ فى إمارته على مصر ببناء المنار فى جميع المساجد خلا مساجد تجيب و خولان، فكانوا يؤذنون فى الجامع أوّلا فإذا فرغوا أذن كلّ مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد، فكان لأذانهم دوىّ شديد. و كان الأذان أوّلا بمصر كأذان أهل المدينة، و هو اللّه أكبر اللّه أكبر و باقيه كما هو اليوم، فلم يزل الأمر بمصر على ذلك فى جامع عمرو بالفسطاط، و فى جامع العسكر، و فى جامع أحمد بن طولون و بقية المساجد إلى أن قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين اللّه و بنى القاهرة، فلما كان فى يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة تسع و خمسين و ثلاثمائة، صلّى القائد جوهر الجمعة فى جامع أحمد بن طولون، و خطب به عبد السميع بن عمر العباسىّ بقلنسوة و سبنى و طيلسان دبسىّ، و أذن المؤذنون حىّ على خير العمل، و هو أوّل ما أذن به بمصر، و صلّى به عبد السميع الجمعة فقرأ سورة الجمعة إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ و قنت فى الركعة الثانية و انحط إلى السجود و نسى الركوع، فصاح به علىّ بن الوليد قاضى عسكر جوهر بطلت الصلاة أعد ظهرا أربع ركعات، ثم أذن بحىّ على خير العمل فى سائر مساجد العسكر إلى حدود مسجد عبد اللّه، و أنكر جوهر على عبد السميع أنه لم يقرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم فى كلّ سورة، و لا قرأها فى الخطبة، فأنكره جوهر و منعه من ذلك.

و لأربع بقين من جمادى الأولى المذكور، أذّن فى الجامع العتيق بحىّ على خير العمل، و جهروا فى الجامع بالبسملة فى الصلاة، فلم يزل الأمر على ذلك طول مدّة الخلفاء الفاطميين، إلّا أن الحاكم بأمر اللّه فى سنة أربعمائة أمر بجمع مؤذنى القصر و سائر الجوامع، و حضر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقىّ، و قرأ أبو علىّ العباسىّ سجلا فيه الأمر بترك حىّ على خير العمل فى الأذان، و أن يقال فى صلاة الصبح الصلاة خير من النوم، و أن يكون ذلك من مؤذنى القصر عند قولهم السلام على أمير المؤمنين و رحمة اللّه، فامتثل ذلك. ثم عاد المؤذنون إلى قول حىّ على خير العمل فى ربيع الآخر سنة إحدى و أربعمائة، و منع فى سنة خمس و أربعمائة مؤذنى جامع القاهرة و مؤذنى القصر من قولهم بعد الأذان السلام على أمير المؤمنين، و أمرهم أن يقولوا بعد الأذان، الصلاة رحمك اللّه. و لهذا الفعل أصل. قال الواقدىّ: كان بلال رضى اللّه عنه يقف على باب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيقول: السلام عليك يا رسول اللّه، و ربما قال: السلام عليك بأبى أنت و أمى يا رسول اللّه، حىّ على الصلاة حىّ على الصلاة، السلام عليك يا رسول اللّه.

قال البلاذرىّ و قال غيره: كان يقول السلام عليك يا رسول اللّه و رحمة اللّه و بركاته، حىّ على الصلاة حىّ على الفلاح، الصلاة يا رسول اللّه. فلما ولى أبو بكر رضى اللّه عنه الخلافة كان سعد القرظ يقف على بابه فيقول: السلام عليك يا خليفة رسول اللّه و رحمة اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۸

و بركاته، حى على الصلاة حىّ على الفلاح، الصلاة يا خليفة رسول اللّه. فلما استخلف عمر رضى اللّه عنه كان سعد يقف على بابه فيقول: السلام عليك يا خليفة خليفة رسول اللّه و رحمة اللّه، حىّ على الصلاة حىّ على الفلاح، الصلاة يا خليفة خليفة رسول اللّه. فلما قال عمر رضى اللّه عنه للناس: أنتم المؤمنين و أنا أميركم. فدعى أمير المؤمنين، استطالة لقول القائل يا خليفة خليفة رسول اللّه، و لمن بعده خليفة خليفة رسول اللّه. كان المؤذن يقول:

السلام عليك أمير المؤمنين و رحمة اللّه و بركاته، حىّ على الصلاة حىّ على الفلاح، الصلاة يا أمير المؤمنين. ثم إن عمر رضى اللّه عنه أمر المؤذن فزاد فيها رحمك اللّه. و يقال أنّ عثمان رضى اللّه عنه زادها، و ما زال المؤذنون إذا أذنوا سلموا على الخلفاء و أمراء الأعمال، ثم يقيمون الصلاة بعد السلام، فيخرج الخليفة أو الأمير فيصلى بالناس. هكذا كان العمل مدّة أيام بنى أمية، ثم مدّة خلافة

بنى العباس أيام كانت الخلفاء و أمراء الأعمال تصلى بالناس.

فلما استولى العجم و ترك خلفاء بنى العباس الصلاة بالناس، ترك ذلك كما ترك غيره من سنن الإسلام، و لم يكن أحد من الخلفاء الفاطميين يصلى بالناس الصلوات الخمس فى كل يوم، فسلم المؤذنون فى أيامهم على الخليفة بعد الأذان للفجر فوق المنارات، فلمّا انقضت أيامهم و غير السلطان صلاح الدين رسومهم لم يتجاسر المؤذنون على السلام عليه احتراما للخليفة العباسىّ ببغداد، فجعلوا عوض السلام على الخليفة السلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و استمرّ ذلك قبل الأذان للفجر فى كلّ ليلة بمصر و الشام و الحجاز، و زيد فيه بأمر المحتسب صلاح الدين عبد اللّه البرلسىّ، الصلاة و السلام عليك يا رسول اللّه، و كان ذلك بعد سنة ستين و سبعمائة، فاستمرّ ذلك.

و لمّا تغلب أبو علىّ بن كتيفات بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ على رتبة الوزارة فى أيام الحافظ لدين اللّه أبى الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله، فى سادس عشر ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و سجن الحافظ و قيده و استولى على سائر ما فى القصر من الأموال و الذخائر، و حملها إلى دار الوزارة، و كان إماميا متشدّدا فى ذلك، خالف ما عليه الدولة من مذهب الإسماعيلية، و أظهر الدعاء للإمام المنتظر، و أزال من الأذان حىّ على خير العمل، و قولهم محمد و علىّ خير البشر، و أسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الذى تنتسب إليه الإسماعيلية، فلما قتل فى سادس عشر المحرّم سنة ست و عشرين و خمسمائة، عاد الأمر إلى الخليفة الحافظ و أعيد إلى الأذان ما كان أسقط منه.

و أوّل من قال فى الأذان بالليل محمد و علىّ خير البشر، الحسين المعروف بأمير كابن شكنبه، و يقال أشكنبه، و هو اسم أعجمىّ معناه الكرش، و هو علىّ بن محمد بن علىّ بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۹

إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب، و كان أوّل تأذينه بذلك فى أيام سيف الدولة بن حمدان بحلب فى سنة سبع و أربعين و ثلاثمائة. قاله الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ النسابة، و لم يزل الأذان بحلب يزاد فيه حىّ على خير العمل، و محمد و علىّ خير البشر إلى أيام نور الدين محمود. فلما فتح المدرسة الكبيرة المعروفة بالحلاوية، استدعى أبا الحسن علىّ بن الحسن بن محمد البلخىّ الحنفىّ إليها، فجاء و معه جماعة من الفقهاء و ألقى بها الدروس، فلما سمع الأذان أمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان و قال لهم: مروهم يؤذنوا الأذان المشروع، و من امتنع كبوه على رأسه. فصعدوا و فعلوا ما أمرهم به، و استمرّ الأمر على ذلك.

و أمّا مصر فلم يزل الأذان بها على مذهب القوم إلى أن استبدّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بسلطنة ديار مصر، و أزال الدولة الفاطمية فى سنة سبع و ستين و خمسمائة، و كان ينتحل مذهب الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه، و عقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعرى رحمه اللّه، فأبطل من الأذان قول حىّ على خير العمل، و صار يؤذن فى سائر إقليم مصر و الشام بأذان أهل مكة، و فيه تربيع التكبير و ترجيع الشهادتين، فاستمرّ الأمر على ذلك إلى أن بنت الأتراك المدارس بديار مصر و انتشر مذهب أبى حنيفة رضى اللّه عنه فى مصر، فصار يؤذن فى بعض المدارس التى للحنيفة بأذان أهل الكوفة، و تقام الصلاة أيضا على رأيهم، و ما عدا ذلك فعلى ما قلنا، إلّا أنه فى ليلة الجمعة إذا فرغ المؤذنون من التأذين سلموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو شىء أحدثه محتسب القاهرة صلاح الدين عبد اللّه بن عبد اللّه البرلسىّ بعد سنة ستين و سبعمائة، فاستمرّ إلى أن كان فى شعبان سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و متولى الأمر بديار مصر الأمير منطاش، القائم بدولة الملك الصالح المنصور، أمير حاج المعروف بحاجى بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون. فسمع بعض الفقراء الخلاطين سلام المؤذنين على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى ليلة جمعة، و قد استحسن ذلك طائفة من إخوانه فقال لهم: أ تحبون أن يكون هذا السلام فى كلّ أذان؟ قالوا: نعم. فبات تلك الليلة و أصبح متواجدا يزعم أنه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى منامه، و أنه أمره أن يذهب إلى المحتسب فيبلغه عنه أن يأمر المؤذنين بالسلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى كلّ أذان، فمضى إلى محتسب القاهرة و هو يومئذ نجم الدين محمد الطنبدىّ و كان شيخا جهولا و بلهانا

مهولا سيء السيرة فى الحسبة و القضاء، متهافتا على الدرهم و لو قاده إلى البلاء، لا يحتشم من أخذ البرطيل و الرشوة، و لا يراعى فى مؤمن إلّا و لا ذمّة قد ضرى على الآثام، و تجسد من أكل الحرام، يرى أن العلم إرخاء العذبة و لبس الجبة، و يحسب أنّ رضى اللّه سبحانه فى ضرب العباد بالدرة و ولاية الحسبة، لم تحمد الناس قط أياديه، و لا شكرت أبدا مساعيه، بل جهالاته شائعة و قبائح أفعاله ذائعة، أشخص غير مرّة إلى مجلس المظالم، و أوقف مع من أوقف للمحاكمة بين يدى السلطان من أجل عيوب فوادح، حقق فيها شكاته عليه القوادح، و ما زال فى السيرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۰

مذموما و من العامّة و الخاصة ملوما. و قال له: رسول اللّه يأمرك أن تتقدّم لسائر المؤذنين بأن يزيدوا فى كل أذان قولهم الصلاة و السلام عليك يا رسول اللّه، كما يفعل فى ليالى الجمع، فأعجب الجاهل هذا القول، و جهل أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لا يأمر بعد وفاته إلّا بما يوافق ما شرّعه اللّه على لسانه فى حياته، و قد نهى اللّه سبحانه و تعالى فى كتابه العزيز عن الزيادة فيما شرعه حيث يقول: أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ [الشورى/ ۲۱] و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إياكم و محدثات الأمور» فأمر بذلك فى شعبان من السنة المذكورة، و تمت هذه البدعة و استمرّت إلى يومنا هذا فى جميع ديار مصر و بلاد الشام، و صارت العامّة و أهل الجهالة ترى أن ذلك من جملة الأذان الذى لا يحلّ تركه، و أدّى ذلك إلى أن زاد بعض أهل الإلحاد فى الأذان ببعض القرى السلام بعد الأذان على شخص من المعتقدين الذين ماتوا، فلا حول و لا قوّة إلّا باللّه، و إنّا للّه و إنّا إليه راجعون.

و أما التسبيح فى الليل على المآذن، فإنه لم يكن من فعل سلف الأمّة، و أوّل ما عرف من ذلك أن موسى بن عمران صلوات اللّه عليه، لما كان ببنى إسرائيل فى التيه بعد غرق فرعون و قومه، اتخذ بوقين من فضة مع رجلين من بنى إسرائيل، ينفخان فيهما وقت الرحيل و وقت النزول، و فى أيام الأعياد، و عند ثلث الليل الأخير من كلّ ليلة، فتقوم عند ذلك طائفة من بنى لاوى سبط موسى عليه السّلام و يقولون نشيدا منزلا بالوحى، فيه تخويف و تحذير و تعظيم للّه تعالى، و تنزيله له تعالى، إلى وقت طلوع الفجر، و استمر الحال على هذا كلّ ليلة مدّة حياة موسى عليه السّلام، و بعده أيام يوشع بن نون، و من قام فى بنى إسرائيل من القضاة إلى أن قام بأمرهم داود عليه السّلام و شرع فى عمارة بيت المقدس، فرتّب فى كلّ ليلة عدّة من بنى لاوى يقومون عند ثلث الليل الآخر، فمنهم من يضرب بالآلات كالعود و السطير و البربط و الدف و المزمار. و نحو ذلك، و منهم من يرفع عقيرته بالنشائد المنزلة بالوحى على نبىّ اللّه موسى عليه السّلام، و النشائد المنزلة بالوحى على داود عليه السّلام. و يقال أنّ عدد بنى لاوى هذا كان ثمانين و ثلاثين ألف رجل، قد ذكر تفصيلهم فى كتاب الزبور، فإذا قام هؤلاء ببيت المقدس، قام فى كلّ محلة من محال بيت المقدس رجال يرفعون أصواتهم بذكر اللّه سبحانه من غير آلات، فإنّ الآلات كانت مما يختص ببيت المقدس فقط، و قد نهوا عن ضربها فى غير البيت، فيتسامع من قرية بيت المقدس، فيقوم فى كلّ قرية رجال يرفعون أصواتهم بذكر اللّه تعالى حتى يهمّ الصوت بالذكر جميع قرى بنى إسرائيل و مدنهم، و ما زال الأمر على ذلك فى كلّ ليلة إلى أن خرّب بخت نصر بيت المقدس و جلا بنى إسرائيل إلى بابل، فبطل هذا العمل و غيره من بلاد بنى إسرائيل مدّة جلائهم فى بابل سبعين سنة، فلما اعاد بنو إسرائيل من بابل و عمروا البيت العمارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۱

الثانية، أقاموا شرائعهم و عاد قيام بنى لاوى بالبيت فى الليل، و قيام أهل محال القدس و أهل القرى و المدن على ما كان العمل عليه أيام عمارة البيت الأولى، و استمرّ ذلك إلى أن خرب القدس بعد قتل نبىّ اللّه يحيى بن زكريا، و قيام اليهود على روح اللّه و رسوله عيسى ابن مريم صلوات اللّه عليهم على يد طيطش، فبطلت شرائع بنى إسرائيل من حينئذ و بطل هذا القيام فيما بطل من بلاد بنى إسرائيل.

و أما فى الملة الإسلامية فكان ابتداء هذا العمل بمصر، و سببه أن مسلمة بن مخلد أمير مصر بنى منارا لجامع عمرو بن العاص، و اعتكف فيه فسمع أصوات النواقيس عالية، فشكا ذلك إلى شرحبيل بن عامر عريف المؤذنين فقال: إنى أمدّد الأذان من نصف الليل

إلى قرب الفجر، فإنهم أيها الأمير أن ينقسوا إذا أذنت. فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان، و مدّد شرحبيل و مطط أكثر الليل، ثم إن الأمير أبا العباس أحمد بن طولون كان قد جعل فى حجرة تقرب منه رجالا تعرف بالمكبرين، عدّتهم اثنا عشر رجلا، يبيت فى هذه الحجرة كلّ ليلة أربعة يجعلون الليل بينهم عقبا، فكانوا يكبرون و يسبحون و يحمدون اللّه سبحانه فى كلّ وقت و يقرءون القرآن بألحان، و يتوسلون و يقولون قصائد زهية، و يؤذنون فى أوقات الأذان، و جعل لهم أرزاقا واسعة تجرى عليهم. فلما مات أحمد بن طولون و قام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه، أقرّهم بحالهم و أجراهم على رسمهم مع أبيه، و من حينئذ اتخذ الناس قيام المؤذنين فى الليل على المآذن، و صار يعرف ذلك بالتسبيح. فلما ولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر و ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدبانىّ المارانىّ الشافعىّ، كان من رأيه و رأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرىّ فى الأصول، فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده، حتى يكفّر من خالفه، و تقدّم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا فى وقت التسبيح على المآذن بالليل بذكر العقيدة التى تعرف بالمرشدة، فواظب المؤذنون على ذكرها فى كلّ ليلة بسائر جوامع مصر و القاهرة إلى وقتنا هذا. و مما أحدث أيضا، التذكير فى يوم الجمعة من أثناء النهار بأنواع من الذكر على المآذن، ليتهيأ الناس لصلاة الجمعة، و كان ذلك بعد السبعمائة من سنى الهجرة. قال ابن كثير رحمه اللّه فى يوم الجمعة سادس ربيع الآخر سنة أربع و أربعين و سبعمائة، رسم بأن يذكر بالصلاة يوم الجمعة فى سائر مآذن دمشق كما يذكر فى مآذن الجامع الأموىّ، ففعل ذلك.

الجامع الأزهر

هذا الجامع أوّل مسجد أسس بالقاهرة، و الذى أنشأه القائد جوهر الكاتب الصقلىّ، مولى الإمام أبى تميم معدّ الخليفة أمير المؤمنين المعز لدين اللّه لما اختط القاهرة، و شرع فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع و خمسين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۲

و ثلاثمائة، و كمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة إحدى و ستين و ثلاثمائة و جمع فيه، و كتب بدائر القبة التى فى الرواق الأوّل، و هى على يمنة المحراب و المنبر، ما نصه بعد البسملة: مما أمر ببنائه عبد اللّه و وليه أبو تميم معدّ الإمام المعز لدين اللّه أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه و على آبائه و أبنائه الأكرمين، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلىّ، و ذلك فى سنة ستين و ثلاثمائة. و أوّل جمعة جمعت فيه فى شهر رمضان لسبع خلون منه سنة إحدى و ستين و ثلاثمائة. ثم إن العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين اللّه جدّد فيه أشياء، و فى سنة ثمان و سبعين و ثلاثمائة سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس الخليفة العزيز بالله فى صلة رزق جماعة من الفقهاء، فأطلق لهم ما يكفى كلّ واحد منهم من الرزق الناض، و أمر لهم بشراء دار و بنائها، فبنيت بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع و تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلّى العصر، و كان لهم أيضا من مال الوزير صلة فى كلّ سنة، و كانت عدتهم خمسة و ثلاثين رجلا، و خلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر، و حملهم على بغلات. و يقال أنّ بهذا الجامع طلسما، فلا يسكنه عصفور، و لا يفرّخ به، و كذا سائر الطيور من الحمام و اليمام و غيره، و هو صورة ثلاثة طيور منقوشة، كلّ صورة على رأس عمود، فمنها صورتان فى مقدّم الجامع بالرواق الخامس، منهما صورة فى الجهة الغربية فى العمود، و صورة فى أحد العمودين اللذين على يسار من استقبل سدّة المؤذنين، و الصورة الأخرى فى الصحن فى الأعمدة القبلية مما يلى الشرقية، ثم إن الحاكم بأمر اللّه جدّده و وقف على الجامع الأزهر و جامع المقس و الجامع الحاكمىّ و دار العلم بالقاهرة رباعا بمصر، و ضمّن ذلك كتابا نسخته: هذا كتاب، أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقىّ، على جميع ما نسب إليه مما ذكر و وصف فيه، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه و قضائه بفسطاط مصر، فى شهر رمضان سنة أربعمائة، أشهدهم و هو يومئذ قاضى، عبد اللّه و وليه المنصور أبى علىّ الإمام الحاكم بأمر اللّه المؤمنين بن الإمام العزيز بالله صلوات اللّه عليهما على القاهرة المعزية و مصر و الإسكندرية و الحرمين حرسهما اللّه، و أجناد الشام و الرقة و الرحبة و نواحى المغرب، و سائر أعمالهنّ و ما فتحه اللّه و يفتحه لأمير

المؤمنين من بلاد الشرق و الغرب، بمحضر رجل متكلم أنّه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة، و الحصص الشائعة، التى يذكر جميع ذلك، و يحدد فى هذا الكتاب، و أنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، و الجامع براشدة، و الجامع بالمقس، اللذين أمر بإنشائهما و تأسيس بنائهما، و على دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها، و الكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب، و منها ما يخص الجامع الأزهر و الجامع براشدة و دار الحكمة بالقاهرة المحروسة. مشاعا، جميع ذلك غير مقسوم، و منها ما يخص الجامع بالمقس، على شرائط يجرى ذكرها، فمن ذلك ما تصدّق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، و الجامع براشدة، و دار الحكمة بالقاهرة المحروسة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۳

جميع الدار المعروفة بدار الضرب، و جميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف، و جميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة، الذى كله بفسطاط مصر، و من ذلك ما تصدّق به على جامع المقس، جميع أربعة الحوانيت و المنازل التى علوها و المخزنين الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية فى جانب المغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق، و هاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار، و من ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية، أيضا بالموضع المعروف بحمام الفار، و تعرف هذه الحوانيت بحصص القيسىّ، بحدود ذلك كله، و أرضه و بنائه و سفله و علوه و غرفه و مرتفقاته و حوانيته و ساحاته و طرقه و ممرّاته و مجارى مياهه، و كل حق هو له داخل فيه و خارج عنه، و جعل ذلك كله صدقة موقوفة محرّمة محبسة بتة بتلة، لا يجوز بيعها و لا هبتها و لا تمليكها، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب، لا يوهنها تقادم السنين، و لا تغير بحدوث حدث، و لا يستثنى فيها و لا يتأوّل، و لا يستفتى بتجدّد تحبيسها مدى الأوقات، و تستمرّ شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث اللّه الأرض و السماوات، على أن يؤجر ذلك فى كلّ عصر من ينتهى إليه ولايتها و يرجع إليه أمرها، بعد مراقبة اللّه و اجتلاب ما يوفر منفعتها من إشهارها عند ذوى الرغبة فى إجارة أمثالها، فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة و بقاء العين و مرمّته من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه.

و ما فضل كان مقصوما على ستين سهما فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور فى هذا الإشهاد، الخمس، و الثمن، و نصف السدس، و نصف التسع، يصرف ذلك فيما فيه عمارة له و مصلحة، و هو من العين المعزىّ الوازن ألف دينار واحدة و سبعة و ستون دينارا و نصف دينار و ثمن دينار، من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة و ثمانون دينارا، و من ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانيّة تكون عدّة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك، و من ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كلّ سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة و ثمانية دنانير، و من ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج و فراخها اثنا عشر دينارا و نصف و ربع دينار، و من ذلك لثمن عود هندىّ للبخور فى شهر رمضان و أيام الجمع مع ثمن الكافور و المسك، و أجرة الصانع خمسة عشر دينارا، و من ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلىّ سبعة دنانير، و من ذلك لكنس هذا الجامع و نقل التراب و خياطة الحصر و ثمن الخيط و أجرة الخياطة خمسة دنانير، و من ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة و عشرين رطلا بالرطل الفلفلىّ دينار واحد، و من ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلىّ نصف دينار، و من ذلك لثمن أردبين ملحقا للقناديل ربع دينار، و من ذلك ما قدّر لمؤنة النحاس و السلاسل و التنانير و القباب التى فوق سطح الجامع أربعة و عشرون دينارا، و من ذلك لثمن سلب ليف و أربعة أحبل و ست دلاء أدم نصف دينار، و من ذلك لثمن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۴

قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار، و من ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة و عشرة أرطال قنب لتعليق القناديل و لثمن مائتين مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد و ربع دينار، و من ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع و يصبّ فيها الماء مع الجرة حملها ثلاثة دنانير، و من ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل و مائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة و ثلاثون دينارا

و نصف، و من ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة و هم ثلاثة و أربعة قومة و مسة عشر مؤذنا خمسمائة دينار و ستة و خمسون دينارا و نصف، منها للمصلين لكلّ رجل منهم ديناران و ثلثا دينار و ثمن دينار فى كلّ شهر من شهور السنة، و المؤذنون و القومة لكلّ رجل منهم ديناران فى كلّ شهر، و من ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كلّ سنة أربعة و عشرون دينارا، و من ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع و نقل ما يخرج منه من الطين و الوسخ دينار واحد، و من ذلك لمرمّة ما يحتاج إليه فى هذا الجامع فى سطحه و أترابه و حياطته و غير ذلك مما قدّر لكلّ سنة ستون دينارا، و من ذلك لثمن مائة و ثمانين حمل تبن و نصف حمل جارية لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير و نصف و ثلث دينار، و من ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير، و من ذلك لثمن فدّانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين فى النة سبعة دنانير، و من ذلك لأجرة متولى العلف و أجرة السقاء و الحبال و القواديس و ما يجرى مجرى ذلك خمسة عشر دينارا و نصف، و من ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع اننا عشر دينارا. و إلى هنا انقضى حديث الجامع الأزهر، و أخذ فى ذكر جامع راشدة و دار العلم و جامع المقس، ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير، و تسعة و ثلاثون قنديلا فضة، فللجامع الأزهر تنوران و سبعة و عشرون قنديلا، و منها لجامع راشدة تنور و اثنا عشر قنديلا، و شرط أن تعلق فى شهر رمضان و تعاد إلى مكان جرت عادتها أن تحفظ به، و شرط شروطا كثيرة فى الأوقاف منها: أنه إذا فضل شىء و اجتمع يشترى به ملك، فإن عاز شيئا و استهدم و لم يف الريع بعمارته بيع و عمر به، و أشياء كثيرة، و حبس فيه أيضا عدّة آدر و قياسر لا فائدة فى ذكرها، فإنها مما خربت بمصر.

قال ابن عبد الظاهر عن هذا الكتاب: و رأيت منه نسخة، و انتقلت إلى قاضى القضاة تقىّ الدين بن رزين، و كان بصدر هذا الجامع فى محرابه منطقة فضة، كما كان فى محراب جامع عمرو بن العاص بمصر، قلع ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب فى حادى عشر ربيع الأوّل سنة تسع و ستين و خمسمائة، لأنه كان فيها انتهاء خلفاء الفاطميين، فجاء وزنها خمسة آلاف درهم نقرة، و قلع أيضا المناطق من بقية الجوامع. ثم أن المستنصر جدّد هذا الجامع أيضا، و جدّده الحافظ لدين اللّه، و أنشأ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربىّ الذى فى مقدّم الجامع بداخل الرواقات، عرفت بمقصورة فاطمة، من أجل أن فاطمة الزهراء رضى اللّه تعالى عنها رؤيت بها فى المنام، ثم أنه جدّد فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۵

قال القاضى محى الدين بن عبد الظاهر فى كتاب سيرة الملك الظاهر: لما كان يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الأوّل سنة خمس و ستين و ستمائة، أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة، و سبب ذلك أن الأمير عز الدين أيدمر الحلىّ كان جار هذا الجامع من مدّة سنين، فرعى وفقه اللّه حرمة الجار، و رأى أن يكون كما هو جاره فى دار الدنيا، أنه غدا يكون ثوابه جاره فى تلك الدار، و رسم بالنظر فى أمره و انتزع له أشياء مغصوبة كان شىء منها فى أيدى جماعة، و حاط أموره حتى جمع له شيئا صالحا، و جرى الحديث فى ذلك، فتبرّع الأمير عز الدين له بجملة مستكثرة من المال الجزيل، و أطلق له من السلطان جملة من المال، و شرع فى عمارته فعمّر الواهى من أركانه و جدارنه و بيّضه و أصلح سقوفه و بلطه و فرشه و كساه، حتى عاد حرما فى وسط المدينة، و استجدّ به مقصورة حسنة، و آثر فيه آثارا صالحة يثيبه اللّه عليها، و عمل الأمير بيلبك الخازندار فيه مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعىّ رحمه اللّه، و رتب فى هذه المقصورة محدّثا يسمع الحديث النبوىّ و الرقائق، و وقف على ذلك الأوقاف الدارّ، و رتب به سبعة لقراءة القرآن، و رتب به مدرّسا أثابه اللّه على ذلك. و لما تكمّل تجديده تحدّث فى إقامة جمعة فيه، فنودى فى المدينة بذلك، و استخدم له الفقيه زين الدين خطيبا، و أقيمت الجمعة فيه فى اليوم المذكور، و حضر الأتابك فارس الدين، و الصاحب بها الدين علىّ بن حنا، و ولده الصاحب فخر الدين محمد، و جماعة من الأمراء و الكبراء، و أصناف العالم على اختلافهم، و كان يوم جمعة مشهودا، و لما فرغ من الجمعة جلس الأمير عز الدين الحلىّ و الأتابك و الصاحب و قرىء القرآن و دعى للسلطان، و قام الأمير عز الدين و دخل إلى داره و دخل معه الأمراء، فقدّم لهم كلّ ما تشتهى الأنفس و تلذ الأعين، و انفصلوا، و كان

قد جرى الحديث فى أمر جواز الجمعة فى الجامع و ما ورد فيه. من أقاويل العلماء، و كتب فيها فتيا أخذ فيها خطوط العلماء بجواز الجمعة فى هذا الجامع و إقامتها، فكتب جماعة خطوطهم فيها، و أقيمت صلاة الجمعة به و استمرّت، و وجد الناس به رفقا و راحة لقربه من الحارات البعيدة من الجامع الحاكمىّ.

قال و كان سقف هذا الجامع قد بنى قصيرا فزيد فيه بعد ذلك و على ذراعا، و استمرّت الخطبة فيه حتى بنى الجامع الحاكمىّ، فانتقلت الخطبة إليه، فإن الخليفة كان يخطب فيه خطبة و فى الجامع الأزهر خطبة، و فى جامع ابن طولون خطبة، و فى جامع مصر خطبة، و انقطعت الخطبة من الجامع الأزهر لما استبدّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطنة، فإنه قلد وظيفة القضاء لقاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، و هو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد كما هو مذهب الإمام الشافعىّ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر و أقرّ الخطبة بالجامع الحاكمىّ من أجل أنه أوسع. فلم يزل الجامع الأزهر معطلا من إقامة الجمعة فيه مائة عام، من حين استولى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۶

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى أن أعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدّم ذكره. ثم لما كانت الزلزلة بديار مصر فى ذى الحجة سنة اثنتين و سبعمائة، سقط الجامع الأزهر و الجامع الحاكمىّ و جامع مصر و غيره، فتقاسم أمراء الدولة عمارة الجوامع، فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمىّ، و تولى الأمير سلار عمارة الجامع الأزهر، و تولى الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار عمارة جامع الصالح، فجدّدوا مبانيها و أعادوا ما تهدّم منها. ثم جدّدت عمارة الجامع الأزهر على يد القاضى نجم الدين محمد بن حسين بن علىّ الأسعردىّ، محتسب القاهرة، فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة. ثم جدّدت عمارته فى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، عند ما سكن الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرىّ، فى دار الأمير فخر الدين أبان الزاهدىّ الصالحىّ النجمىّ بخط الأبارين بجوار الجامع الأزهر، بعد ما هدمها و عمرها داره التى تعرف هناك إلى اليوم بدار بشير الجامدار، فأحب لقربه من الجامع أن يؤثر فيه أثرا صالحا، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى عمارة الجامع، و كان أثيرا عنده خصيصا به، فأذن له فى ذلك.

و كان قد استجدّ بالجامع عدّة مقاصير و وضعت فيه صناديق و خزائن حتى ضيقته، فأخرج الخزائن و الصناديق و نزع تلك المقاصير، و تتبع جدرانه و سقوفه بالإصلاح حتى عادت كأنها جديدة، و بيّض الجامع كله و بلطه، و منع الناس من المرور فيه، و رتب فيه مصحفا و جعل له قارئا، و أنشأ على باب الجامع القبلىّ حانوتا لتسبيل الماء العذب فى كلّ يوم، و عمل فوقه مكتب سبيل لإقراء أيتام المسلمين كتاب اللّه العزيز، و رتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كلّ يوم، و أنزل إليه قدورا من نحاس جعلها فيه، و رتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية يجلس مدرّسهم لإلقاء الفقه فى المحراب الكبير، و وقف على ذلك أوقافا جليلة باقية إلى يومنا هذا، و مؤذنو الجامع يدعون فى كلّ جمعة و بعد كلّ صلاة للسلطان حسن إلى هذا الوقت الذى نحن فيه.

و فى سنة أربع و ثمانين و سبعمائة ولى الأمير الطواشى بهادر المقدّم على المماليك السلطانية نظر الجامع الأزهر، فتنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق بأنّ من مات من مجاورى الجامع الأزهر عن غير وارث شرعىّ و ترك موجودا فإنه يأخذه المجاورون بالجامع، و نقش ذلك على حجر عند الباب الكبير البحرىّ. و فى سنة ثمانمائة هدمت منارة الجامع، و كانت قصيرة، و عمّرت أطول منها، فبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم نقرة، و كملت فى ربيع الآخر من السنة المذكورة، فعلّقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر، و أوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها إلى أسفلها، و اجتمع القرّاء و الوعاظ بالجامع و تلوا ختمة شريفة، و دعوا للسلطان فلم تزل هذه المئذنة إلى شوّال سنة سبع عشرة و ثمانمائة، فهدمت لميل ظهر فيها، و عمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۷

البحريّ، بعد ما هدم الباب و أعيد بناؤه بالحجر، و ركبت المنارة فوق عقده، و أخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التى كانت تجاه قلعة الجبل، و هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق، و قام بعمارة ذلك الأمير تاج الدين التاج الشوبكيّ والى القاهرة و محتسبها، إلى أن تمت فى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، فلم تقم غير قليل و مالت حتى كادت تسقط، فهدمت فى صفر سنة سبع و عشرين، و أعيدت. و فى شوّال منها ابتدئ بعمل الصهريج الذى بوسط الجامع، فوجد هناك آثار فسقية ماء، و وجد أيضا رمم أموات، و تمّ بناؤه فى ربيع الأوّل، و عمل بأعلاه مكان مرتفع له قبة يسبل فيه الماء، و غرس بصحن الجامع أربع شجرات، فلم تفلح و ماتت، و لم يكن لهذا الجامع ميضأة عندما بنى، ثم عملت ميضأته حيث المدرسة الأقبغاوية إلى أن بنى الأمير أقبغا عبد الواحد مدرسته المعروفة بالمدرسة الأقبغاوية هناك، و أما هذه الميضأة التى بالجامع الآن فإن الأمير بدر الدين جنكل بن البابا بناها، ثم زيد فيها بعد سنة عشر و ثمانمائة ميضأة المدرسة الأقبغاوية.

و فى سنة ثمان عشرة و ثمانمائة ولى نظر هذا الجامع الأمير سودوب القاضى حاجب الحجاب، فجرت فى أيام نظره حوادث لم يتفق مثلها، و ذلك أنه لم يزل فى هذا الجامع منذ بنى عدّة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، و بلغت عدّتهم فى هذه الأيام سبعمائة و خمسين رجلا- ما بين عجم و زيالعة، و من أهل ريف مصر و مغاربة، و لكلّ طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن و دراسته و تلقينه و الاشتغال بأنواع العلوم الفقه و الحديث و التفسير و النحو، و مجالس الوعظ و حلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الإنس بالله و الارتياح و ترويح النفس ما لا يجده فى غيره، و صار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البرّ من الذهب و الفضة و الفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة اللّه تعالى، و كلّ قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة و الخبز و الحلاوات، لا- سيما فى المواسم. فأمر فى جمادى الأولى من هذه السنة بإخراج المجاورين من الجامع و منعهم من الإقامة فيه، و إخراج ما كان لهم فيه من صناديق و خزائن و كراسى المصاحف، زعما منه أن هذا العمل مما يثاب عليه، و ما كان إلّا من أعظم الذنوب و أكثرها ضررا، فإنه حلّ بالفقراء بلاء كبير من تشتت شملهم و تعذر الأماكن عليهم، فساروا فى القرى و تبذلوا بعد الصيانة، و فقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن و دراسة العلم و ذكر اللّه، ثم لم يرضه ذلك حتى زاد فى التعدّى، و أشاع أن أناسا يبيتون بالجامع و يفعلون فيه منكرات، و كانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس فى الجامع ما بين تاجر و فقيه و جندىّ و غيرهم، منهم من يقصد بمبيته البركة، و منهم من لا يجد مكانا يأويه، و منهم من يستروح بمبيته هناك خصوصا فى ليالى الصيف و ليالى شهر رمضان، فإنه يمتلئ صحنه و أكثر رواقاته. فلما كانت ليلة الأحد الحادى عشر من جمادى الآخرة، طرق الأمير سودوب الجامع بعد العشاء الآخرة و الوقت صيف، و قبض على جماعة و ضربهم فى الجامع، و كان قد جاء معه من الأعوان و الغلمان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۸

و غوغاء العامّة و من يريد النهب جماعة، فحلّ بمن كان فى الجامع أنواع البلاء، و وقع فيهم النهب، فأخذت فرشهم و عمائمهم، و فتشت أوساطهم و سلبوا ما كان مربوطا عليها من ذهب و فضة، و عمل ثوبا أسود للمنبر و علمين مزوّقين، بلغت النفقة على ذلك خمسة عشر ألف درهم، على ما بلغنى، فعاجل اللّه الأمير سودوب و قبض عليه السلطان فى شهر رمضان و سجنه بدمشق.

جامع الحاكم

هذا الجامع بنى خارج باب الفتوح، أحد أبواب القاهرة، و أوّل من أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه معدّ، و خطب فيه و صلّى بالناس الجمعة، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر اللّه. فما وسّع أمير الجيوش بدر الجمالىّ القاهرة و جعل أبوابها حيث هى اليوم، صار جامع الحاكم داخل القاهرة، و كان يعرف أوّلا بجامع الخطبة، و يعرف اليوم بجامع الحاكم، و يقال له الجامع الأنور.

قال الأمير مختار عز الملك محمد بن عبيد اللّه بن أحمد المسبحىّ فى تاريخ مصر:

و فيه يعنى شهر رمضان، سنة ثمانين و ثلاثمائة خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة مما يلى باب الفتوح من خارجه، و بدىء بالبناء

فيه، و تحلق فيه الفقهاء الذين يتحلقون فى جامع القاهرة، يعنى الجامع الأزهر، و خطب فيه العزيز بالله. و قال فى حوادث سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة لأربع خلون من شهر رمضان، صلّى العزيز بالله فى جامعه صلاة الجمعة، و خطب، و كان فى مسيره بين يديه أكثر من ثلاثة آلاف، و عليه طيلسان و بيده القضيب، و فى رجله الحذاء. و ركب لصلاة الجمعة فى رمضان سنة ثلاث و ثمانين و ثلاثمائة إلى جامعه و معه ابنه منصور، فجعلت المظلة على منصور و سار العزيز بغير مظلة.

و قال فى حوادث سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة: و أمر الحاكم بأمر اللّه أن يتم بناء الجامع الذى كان الوزير يعقوب بن كلس بدأ فى بنيانه عند باب الفتوح، فقدّر للنفقة عليه أربعون ألف دينار، فابتدىء فى العمل فيه. و فى صفر سنة إحدى و أربعمائة زيد فى منارة جامع باب الفتوح، و عمل لها أركان طول كلّ ركن مائة ذراع، و فى سنة ثلاث و أربعمائة أمر الحاكم بأمر اللّه بعمل تقدير ما يحتاج إليه جامع باب الفتوح من الحصر و القناديل و السلاسل، فكان تكسير ما ذرع للحصر ستة و ثلاثين ألف ذراع، فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار.

قال: و تمّ بناء الجامع الجديد بباب الفتوح، و علّق على سائر أبوابه ستور ديبقية عملت له، و علّق فيه تنانير فضة عدّتها أربع، و كثير من قناديل فضة، و فرش جميعه بالحصر التى عملت له، و نصب فيه المنبر و تكامل فرشه و تعليقه، و أذن فى ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ثلاث و أربعمائة لمن بات فى الجامع الأزهر أن يمضوا إليه، فمضوا. و صار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۹

الناس طول ليلتهم يمشون من كلّ واحد من الجامعين إلى الآخر بغير مانع لهم، و لا اعتراض من أحد من عسس القصر، و لا أصحاب الطوف إلى الصبح. و صلّى فيه الحاكم بأمر اللّه بالناس صلاة الجمعة، و هى أوّل صلاة أقيمت فيه بعد فراغه. و فى ذى القعدة سنة أربع و أربعمائة حبس الحاكم عدّة قياسر و أملاك على الجامع الحاكمىّ بباب الفتوح. قال ابن عبد الظاهر: و على باب الجامع الحاكمىّ مكتوب أنّه أمر بعمله الحاكم أبو علىّ المنصور فى سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة، و على منبره مكتوب أنه أمر بعمل هذا المنبر للجامع الحاكمىّ المنشأ بظاهر باب الفتوح فى سنة ثلاث و أربعمائة، و رأيت فى سيرة الحاكم، و فى يوم الجمعة أقيمت الجمعة فى الجامع الذى كان الوزير أنشأه بباب الفتوح. و رأيت فى سيرة الوزير المذكور، فى يوم الأحد عاشر رمضان سنة تسع و سبعين و ثلاثمائة خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة خارج الطابية مما يلى باب الفتوح. قال: و كان هذا الجامع خارج القاهرة، فجدّد بعد ذلك باب الفتوح، و على البدنة التى تجاور باب الفتوح و بعض البرج مكتوب: إنّ ذلك بنى سنة ثلاثين و أربعمائة فى زمن المستنصر بالله، و وزارة أمير الجيوش، فيكون بينهما سبع و ثمانون سنة. قال: و الفسقية وسط الجامع بناها الصاحب عبد اللّه بن علىّ بن شكر و أجرى الماء إليها، و أزالها القاضى تاج الدين بن شكر، و هو قاضى القضاة فى سنة ستين و ستمائة، و الزيادة التى إلى جانبه قيل إنها بناء ولده الظاهر علىّ و لم يكملها، و كان قد حبس فيها الفرنج فعملوا فيها كنائس، هدمها الملك الناصر صلاح الدين، و كان قد تغلب عليها و بنيت إصطبلات. و بلغنى أنها كانت فى الأيام المتقدّمة قد جعلت أهراء للغلال.

فلما كان فى الأيام الصالحية و وزارة معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ للملك الصالح أيوب ولد الكامل، ثبت عند الحاكم أنها من الجامع، و أن بها محرابا، فانتزعت و أخرج الخيل منها و بنى فيها ما هو الآن فى الأيام المعزية على يد الركن الصيرفىّ، و لم يسقف. ثم جدّد هذا الجامع فى سنة ثلاث و سبعمائة. و ذلك أنه لما كان يوم الخميس ثالث عشرى ذى الحجة سنة اثنتين و سبعمائة، تزلزلت أرض مصر و القاهرة و أعمالهما و رجل كلّ ما عليهما و اهتز، و سمع للحيطان قعقعة، و للسقوف قرقعة، و مارت الأرض بما عليها و خرجت عن مكانها، و تخيل الناس أن السماء قد انطبقت على الأرض، فهربوا من أماكنهم و خرجوا عن مساكنهم، و برزت النساء حاسرات، و كثر الصراخ و العويل، و انتشرت الخلائق فلم يقدر أحد على السكون و القرار لكثرة ما سقط من الحيطان، و خرّ من السقوف و المآذن و غير ذلك من الأبنية، و فاض ماء النيل فيضا غير المعتاد، و ألقى ما كان عليه من المراكب التى بالساحل قدر رمية سهم، و انحسر عنها فصارت على الأرض بغير ماء، و اجتمع العالم فى الصحراء خارج القاهرة و باتوا ظاهر باب البحر بحرمهم و

أولادهم فى الخيم، و خلت المدينة و تشعثت جميع البيوت حتى لم يسلم و لا بيت من سقوط أو تسقط أو ميل، و قام الناس فى الجوامع يبتهلون و يسألون اللّه سبحانه طول يوم الخميس و ليلة الجمعة و يوم الجمعة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۰

فكان مما تهدّم فى هذه الزلزلة: الجامع الحاكمىّ، فإنه سقط كثير من البدنات التى فيه، و خرب أعالى المئذنتين، و تشعثت سقوفه و جدرانه، فانتدب لذلك الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير و نزل إليه و معه القضاة و الأمراء، فكشفه بنفسه و أمر برمّ ما تهدّم منه، و إعادة ما سقط من البدنات. فأعيدت و فى كلّ بدنة منها طاق، و أقام سقوف الجامع و بيّضه حتى عاد جديدا، و جعل له عدّة أوقاف بناحية الجيزة و فى الصعيد و فى الإسكندرية، تغلّ كلّ سنة شيئا كثيرا، و رتب فيه دروسا أربعة لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، و درسا لإقراء الحديث النبوىّ، و جعل لكل درس مدرّسا و عدة كثيرة من الطلبة، فرتّب فى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعىّ، و فى تدريس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجىّ الحنفىّ، و فى تدريس المالكية قاضى القضاة زين الدين علىّ بن مخلوف المالكىّ، و فى تدريس الحنابلة قاضى القضاة شرف الدين الجوّانىّ، و فى درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعودا الحارثىّ، و فى درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان، و فى درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفىّ، و فى التصدير لإفادة العلوم علاء الدين علىّ بن إسماعيل القونوىّ، و فى مشيخة الميعاد المجد عيسى بن الخشاب، و عمل فيه خزانة كتب جليلة، و جعل فيه عدّة متصدّرين لتلقين القرآن الكريم، و عدّة قرّاء يتناوبون قراءة القرآن، و معلما يقرئ أيتام المسلمين كتاب اللّه عز و جلّ، و حفر فيه صهريجا بصحن الجامع ليملأ فى كل سنة من ماء النيل، و يسبل منه الماء فى كلّ يوم و يستقى منه الناس يوم الجمعة، و أجرى على جميع من قرّره فيه معاليم داره، و هذه الأوقاف باقية إلى اليوم، إلّا أن أحوالها اختلت كما اختلّ غيرها، فكان ما أنفق عليه زيادة على أربعين ألف دينار.

و جرى فى بنائه لهذا الجامع أمر يتعجب منه، و هو ما حدّثنى به شيخنا الشيخ المعروف المسند المعمر أبو عبد اللّه محمد بن ضرغام بن شكر المقرى بمكة، فى سنة سبع و ثمانين و سبعمائة قال: أخبرنى من حضر عمارة الأمير بيبرس للجامع الحاكمىّ عند سقوطه فى سنة الزلزلة، أنّه لما شرع البناة فى ترميم ما و هى من المئذنة التى هى من جهة باب الفتوح، ظهر لهم صندوق فى تضاعيف البنيان، فأخرجه الموكل بالعمارة و فتحه، فإذا فيه قطن ملفوف على كف إنسان بزنده و عليه أسطر مكتوبة لم يدر ما هى، و الكف طرية كأنها قريبة عهد بالقطع، ثم رأيت هذه الحكاية بخط مؤلف السيرة الناصرية موسى بن محمد بن يحيى، أحد مقدّمى الحلقة. ثم جدّد هذا الجامع و بلط جميعه فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى ولايته الثانية، على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس فى سنة ستين و سبعمائة، و وقف قطعة أرض على الهرماس و أولاده، و على زيادة فى معلوم الإمام بالجامع، و على ما يحتاج إليه فى زيت الوقود و مرمّة فى سقفه و جدرانه، و جرى فى عمارة الجامع على يد الهرماس ما حدّثنى به الشيخ المعمر شمس الدين محمد بن علىّ إمام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۱

الجامع الطيبرسىّ بشاطئ النيل، قال: أخبرنى محمد بن عمر البوصيرىّ قال: حدّثنا قطب الدين محمد الهرماس، أنه رأى بالجامع الحاكمىّ حجرا ظهر من مكان قد سقط منقوش عليه هذه الأبيات الخمسة:

إنّ الذى أسررت مكنون اسمهو كتمته كيما أفوز بوصله

مال له جذر تساوى فى الهجاطرفاه يضرب بعضه فى مثله

فيصير ذاك المال إلّا أنّهفى النصف منه تصاب أحرف كله

و إذا نطقت بربعه متكلمامن بعد أوّله نطقت بكله

لا نقط فيه إذا تكامل عدّهفيصير منقوطا بجملة شكله

قال و هذه الأبيات لغز فى الحجر المكرّم.

و قال العلامة شمس الدين محمد بن النقاش فى كتاب العبر فى أخبار من مضى و غبر:

و فى هذه السنة، يعنى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، صودر الهرماس و هدمت داره التى بناها أمام الجامع الحاكمىّ، و ضرب و نفى هو و ولده. فلما كان يوم الثلاثاء التاسع و العشرون من ذى القعدة استفتى السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى وقف حصة طندتا، و هى الأرض التى كان قد سأله الهرماس أن يقفها على مصالح الجامع الحاكمىّ فعين له خمسمائة و ستين فدّانا من طين طندتا، و طلب الموقعين و أمرهم أن يكتبوا صورة وقفها و يحضروه ليشهدوا عليه به، و كان قد تقرّر من شروطه فى أوقافه ما قيل أنه رواية عن أبى حنيفة رحمة اللّه تعالى عليه، من أنّ للواقف أن يشترط فى وقفه التغيير و الزيادة و النقص و غير ذلك، فأحضر الكركىّ الموقع إليه الكتاب مطويا، فقرأ منه طرّته و خطبته و أوّله، ثم طواه و أعاده إليه مطويا و قال: اشهدوا بما فيه دون قراءة و تأمل، فشهدوا هم بالتفصيل الذى كتبوه و قرّروه مع الهرماس، و لما اطلع السلطان على ذلك بعد نفى الهرماس طلب الكركىّ و سأله عن هذه الواقعة فأجاب بما قد ذكرنا و اللّه أعلم بصحة ذلك. غير أن المعلوم المقرّر أن السلطان ما قصد إلّا مصالح الجامع، نعم سأله أزدمر الخازندار، هل وقفت حصة لطيفة على أولاد الهرماس فإنه قد ذكر ذلك؟ فقال: نعم أنا وقفت عليهم جزأ يسيرا لم أعلم مقداره، و أما التفصيل المذكور فى كتاب الوقف فلم أتحققه و لم أطلع عليه، فاستفتى المفتين فى هذه الواقعة، فأمّا المفتون كابن عقيل و ابن السبكىّ و البلقينىّ و البسطامىّ و الهندىّ و ابن شيخ الجبل و البغدادىّ و نحوهم، فأجابوا ببطلان الحكم المترتب على هذه الشهادة الباطلة، و بطلان التنفيذ، و كان الحنفىّ حكم و البقية نفذوا، و أما الحنفىّ فقال: إنّ الوقف إذا صدر صحيحا على الأوضاع الشرعية فإنه لا يبطل بما قاله الشاهد، و هو جواب عن نفس الواقعة، و أما الشافعىّ فكتب ما مضمونه: إنّ الحنفىّ إن اقتضى مذهبه بطلان ما صححه أوّلا نفذ بطلانه، و حاصل ذلك أن القضاة أجابوا بالصحة، و المفتين أجابوا بالبطلان. فطلب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۲

السلطان المفتين و القضاة، فلم يحضر من الحكام غير نائب الشافعىّ، و هو تاج الدين محمد بن إسحاق بن المناوىّ، و القضاة الثلاثة الشافعىّ و الحنفىّ و الحنبلىّ و جدوا مرضى لم يمكنهم الحضور إلى سرياقوس، فإن السلطان كان قد سرح إليها على العادة فى كلّ سنة، فجمعهم السلطان فى برج من القصر الذى بميدان سرياقوس عشاء الآخرة، و ذكر لهم القضية و سألهم عن حكم اللّه تعالى فى الواقعة. فأجاب الجميع بالبطلان، غير المناوى فإنه قال:

مذهب أبى حنيفة أن الشهادة الباطلة إذا اتصل بها الحكم صح و لزم. فصرخت عليه المفتون شافعيهم و حنفيهم. أمّا شافعيهم فإنه قال: ليس هذا مذهبك و لا مذهب الجمهور، و لا هو الراجح فى الدليل و النظر. و قال له ابن عقيل: هذا مما ينقض به الحكم لو حكم به حاكم و ادّعى قيام الإجماع على ذلك. و قال له سراج الدين البلقينىّ: ليس هذا مذهب أبى حنيفة، و مذهبه فى العقود و الفسوخ ما ذكرت من أن حكم الحاكم يكون هو المعتمد فى التحليل و التحريم، و أمّا الأوقاف و نحوها فحكم الحاكم فيها لا أثر له كمذهب الشافعىّ، و ادّعوا أن الإجماع قائم على ذلك، و قاموا على المناوىّ فى ذلك قومة عظيمة فقال: نحن نحكم بالظاهر. فقالوا له: ما لم يظهر الباطن بخلافه. فقال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: نحن نحكم بالظاهر. قالوا هذا الحديث كذب على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و إنما الحديث الصحيح حديث: «إنما أنا بشر، و لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض الحديث» قال المناوىّ: الأحكام ما هى بالفتاوى. قالوا له: فبماذا تكون؟ أفى الوجود حكم شرعىّ بغير فتوى من اللّه و رسوله؟ و كان قد قال فى مجلس ابن الدريهم: القائم على نفيس اليهودىّ المدعوّ برأس الجالوت بين اليهود لا يلتفت لقول المفتى. فقيل له: فى هذا المجلس ها أنت قد قلت مرّتين أنّ المفتين لا يعتبر قولهم، و أنّ الفتاوى لا يعتدّ بها، و قد أخطأت فى ذلك أشدّ الخطأ، و أنبأت عن غاية الجهل، فإن منصب الفتوى أوّل من قام به ربّ العالمين إذ قال فى كتابه المبين:

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ [النساء/ ۱۷۶] و قال يوسف عليه السّلام:

قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ [يوسف/ ۴۱] و قال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم لعائشة رضى اللّه عنها: «قد أفتانى اللّه ربى فيما استفتيته» و كلّ حكم جاء على سؤال سائل تكفل ببيانه قرآن أو سنة فهو فتوى، و القائم به مفت، فكيف تقول لا يلتفت إلى الفتوى أو إلى المفتين؟ فقال سراج الدين الهندىّ و غيره: هذا كفر، و مذهب أبى حنيفة أن من استخف بالفتوى أو المفتين فهو كافر، فاستدرك نفسه بعد ذلك و قال: لم أرد إلّا أنّ الفتوى إذا خالف المذهب فهى باطلة. قالوا له: و أخطأت فى ذلك أيضا، لأنّ الفتوى قد تخالف المذهب المعين و لا تخالف الحق فى نفس الأمر. قال: فأردت بالفتوى التى تخالف الحقّ. قالوا: فأطلقت فى موضع التقييد و ذلك خطأ. فقال السلطان حينئذ: فإذا قدّر هذا و ادّعيت أن الفتوى لا أثر لها، فنبطل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۳

المفتين و الفتوى من الوجود. فتلكأ و حار و قال: كيف أعمل فى هذا؟ فتبين لبعض الحاضرين أنه استشكل المسألة، و لم يتبين له وجهها. فقال: لا شك أنّ مولانا السلطان لم ينكر صدور الوقف، و إنما أنكر المصارف، و أن تكون الجهة التى عينها هى هرماس و شهوده و قضاته، و للسلطان أن يحكم فيها بعلمه، و يبطل ما قرّروه من عند أنفسهم. قال: كيف يحكم لنفسه؟ قيل له: ليس هذا حكما لنفسه، لأنه مقرّ بأصل الوقف، و هو للمستحقين ليس له فيه شىء، و إنما بطل وصف الوقف، و هو المصرف الذى قرّر على غير جهة الوقف، و له أن يوقع الشهادة على نفسه بحكم أن مصرّف هذا الوقف الجهة الفلانية دون الفلانية.

و لم يزالوا يذكرون له أوجها تبين بطلان الوقف إمّا بأصله أو بوصفه إلى أن قال: يبطل بوصفه دون أصله، و أذعن لذلك بعد إتعاب من العلماء. و إزعاج شديد من السلطان فى بيان وجوه ذكروها تبين وجه الحق، و أنه إنما وقفه على مصالح الجامع المذكور. و هذا مما لا يشك فيه عاقل و لا يرتاب. فالتفت بعد ذلك و قال للحاضرين: كيف نعمل فى إبطاله؟

فقالوا: بما قرّرناه من إشهاد السلطان على نفسه بتفصيل صحيح، و أنه لم يزل كذلك منذ صدر منه الوقف إلى هذا الحدّ، و غير ذلك من الوجوه. فجعل يوهم السلطان أن الشهود الذين شهدوا فى هذا الوقف متى بطل هذا الوقف ثبت عليهم التساهل و جرحوا بذلك، و قدح ذلك فى عدالتهم، و متى جرحوا الآن لزم بطلان شهادتهم فى الأوقاف المتقدّمة على هذا التاريخ، و خيل بذلك للسلطان حتى ذكر له إجماع المسلمين على أن جرح الشاهد لا ينعطف على ما مضى من شهاداته السالفة و لو كفر، و العياذ باللّه، و هذا مما لا خلاف فيه.

ثم استقرّ رأيه على أن يبطله بشاهدين يشهدان أن السلطان لمّا صدر منه هذا الوقف كان قد اشترط لنفسه التغيير و التبديل و الزيادة و النقص و قام على ذلك.

قال مؤلفه رحمه اللّه: انظر تثبت القضاة، و قايس بين هذه الواقعة و ما كان من تثبت القاضى تاج الدين المناوى، و هو يومئذ خليفة الحكم و مصادمته الجبال، و بين ما ستقف عليه من التساهل و التناقض فى خبر أوقاف مدرسة جمال الدين يوسف الأستادار، و ميّز بعقلك فرق ما بين القضيتين. و هذه الأرض التى ذكرت هى الآن بيد أولاد الهرماس بحكم الكتاب الذى حاول السلطان نقضه، فلم يوافق المناوىّ. و الجامع الآن متهدّم و سقوفه كلها ما من زمن إلّا و يسقط منها الشىء بعد الشىء فلا يعاد، و كانت ميضأة هذا الجامع صغيرة بجوار ميضأته الآن، فيما بينها و بين باب الجامع، و موضعها الآن مخزن تعلوه طبقة عمرها شخص من الباعة يعرف بابن كرسون المراحلىّ، و هذه الميضأة الموجودة الآن أحدثت و أنشأ الفسقية التى فيها ابن كرسون فى أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، و بيّض مئذنتى الجامع، و استجدّ المئذنة التى بأعلى الباب المجاور للمنبر رجل من الباعة، و كملت فى جمادى الآخرة سنة سبع و عشرين و ثمانمائة، و خرق سقف الجامع حتى صار المؤذنون ينزلون من السطح إلى الدكة التى يكبرون فوقها وراء الإمام.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۴

«هيئة صلاة الجمعة فى أيام الخلفاء الفاطميين» قال المسبحىّ: و فى يوم الجمعة غرّة رمضان سنة ثمانين و ثلاثمائة ركب العزيز باللّه إلى جامع القاهرة بالمظلة المذهبة و بين يديه نحو خمسة آلاف ماش، و بيده القضيب، و عليه الطيلسان و السيف. فخطب و صلّى

صلاة الجمعة و انصرف، فأخذ رقاع المتظلمين بيده و قرأ منها عدّة فى الطريق، و كان يوما عظيما ذكرته الشعراء. قال ابن الطوير: إذا انقضى ركوب أوّل شهر رمضان استراح فى أوّل جمعة، فإذا كانت الثانية ركب الخليفة إلى الجامع الأنور الكبير فى هيئة المواسم بالمظلة و ما تقدّم ذكره من الآلات، و لباسه فيه ثياب الحرير البيض توقيرا للصلاة من الذهب، و المنديل و الطيلسان المقوّر الشعرىّ، فيدخل من باب الخطابة و الوزير معه بعد أن يتقدّمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال، و هو المقدّم ذكره فى الأستاذين، و بين يديه الفرش المختصة بالخليفة إذا صار إليه فى هذا اليوم، و هو محمول بأيدى الفرّاشين المميزين، و هو ملفوف فى العراضى الديبقية، فيفرش فى المحراب ثلاث طرّاحات أماسامان، أو ديبقىّ أبيض، أحسن ما يكون من صنفهما، كلّ منهما منقوش بالحمرة. فتجعل الطرّاحات متطابقات، و يعلّق ستران يمنة و يسرة، و فى الستر الأيمن كتابة مرقومة بالحرير الأحمر واضحة، منقوطة أوّلها البسملة و الفاتحة و سورة الجمعة، و فى الستر الأيسر مثل ذلك، و سورة إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قد أسبلا و فرشا فى التعليق بجانبى المحراب لاصقين بجسمه، ثم يصعد قاضى القضاة المنبر و فى يده مدخنة لطيفة خيزران يحضرها إليه صاحب بيت المال فيها جمرات، و يجعل فيها ندّ مثلث لا يشمّ مثله إلّا هناك، فيجز الذروة التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة، و يكرّر ذلك ثلاث دفعات، فيأتى الخليفة فى هيئة موقرة من الطبل و البوق، و حوالى ركابه خارج أصحاب الركاب القرّاء، و هم قرّاء الحضرة من الجانبين يطرّبون بالقراءة نوبة بعد نوبة، يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسىّ على ما تقدّم طول طريقه إلى قاعة الخطابة من الجامع، ثم تحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب و اسفهسلار العساكر، و من داخلها إلى آخرها صبيان الخاص و غيرهم ممن يجرى مجراهم، و من داخلها من باب خروجه إلى المنبر واحد فواحد، فيجلس فى القاعة، و إن احتاج إلى تجديد وضوء فعل، و الوزير فى مكان آخر، فإذا أذّن بالجمعة دخل إليه قاضى القضاة فقال له: السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى و رحمة اللّه و بركاته، الصلاة يرحمك اللّه. فيخرج ماشيا و حواليه الأستاذون المحنكون، و الوزير وراءه، و من يليهم من الخواص و بأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص، و هم أمراء و عليهم هذا الاسم، فيصعد المنبر إلى أن يصل إلى الذروة تحت تلك القبة المبخرة، فإذا استوى جالسا و الوزير على باب المنبر و وجهه إليه، فيشير إليه بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه، فيقبل يديه و رجليه بحيث يراه الناس، ثم يزرر عليه تلك القبة لأنها كالهودج، ثم ينزل مستقبلا، فيقف ضابطا لباب المنبر، فإن لم يكن ثمّ وزير صاحب سيف، زرّر عليه قاضى القضاة كذلك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۵

و وقف صاحب الباب ضابطا للمنبر.

فيخطب خطبة قصيرة من مسطور يحضر إليه من ديوان الإنشاء، يقرأ فيها آية من القرآن الكريم، و لقد سمعته مرّة فى خطابته بالجامع الأزهر و قد قرأ فى خطبته رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَ عَلى والِدَىَ الآية، ثم يصلى على أبيه و جدّه، يعنى بهما محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم و علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و يعظ الناس وعظا بليغا قليل اللفظ، و تشتمل الخطبة على ألفاظ جزلة، و يذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه فقال: و أنا أسمعه، اللهمّ و أنا عبدك و ابن عبدك لا أملك لنفسى ضرّا و لا نفعا، و يتوسل بدعوات فخمة تليق بمثله، و يدعو للوزير إن كان، و للجيوش بالنصر و التأليف، و للعساكر بالظفر و على الكافرين، و المخالفين بالهلاك و القهر، ثم يختم بقوله اذكروا اللّه يذكركم. فيطلع إليه من زرّر عليه و يفك ذلك التزرير و ينزل القهقرى، و سبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور لا كعادة الخطباء، فينزل الخليفة و يصير على تلك الطرّاحات الثلاث فى المحراب وحده إماما، و يقف الوزير و قاضى القضاة صفا، و من ورائهما الأستاذون المحنكون و الأمراء المطوّقون و أرباب الرتب من أصحاب السيوف و الأقلام و المؤذنون وقوف، و ظهورهم إلى المقصورة لحفظه، فإذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضى فأسمع القاضى المؤذنين و أسمع المؤذنون الناس، هذا و الجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه، فيقرأ ما هو مكتوب فى الستر الأيمن فى الركعة الأولى، و فى الركعة الثانية ما هو مكتوب فى الستر الأيسر، و ذلك على طريق التذكار خيفة الارتجاج، فإذا فرغ خرج الناس و ركبوا أوّلا فأوّلا و عاد طالبا

القصر و الوزير وراءه، و ضربت البوقات و الطبول فى العود، فإذا أتت الجمعة الثانية ركب إلى الجامع الأزهر من القشاشين على المنوال الذى ذكرناه و القالب الذى وصفناه، فإذا كانت الجمعة الثالثة أعلم بركوبه إلى مصر للخطابة فى جامعها، فيزين له من باب القصر أهل القاهرة إلى جامع ابن طولون، و يزين له أهل مصر من جامع ابن طولون إلى الجامع بمصر، يرتب ذلك والى مصر، كلّ أهل معيشة فى مكان، فيظهر المختار من الآلات و الستور المثمنات و يهتمون بذلك ثلاثة أيام بلياليهنّ و الوالى مارّ و عائد بينهم، و قد ندب من يحفظ الناس و متاعهم، فيركب يوم الجمعة المذكور شاقا لذلك كله على الشارع الأعظم إلى مسجد عبد اللّه الخراب اليوم، إلى دار الأنماط إلى الجامع بمصر، فيدخل إليه من المعونة، و منها باب متصل بقاعة الخطيب بالزيّ الذى تقدّم ذكره فى خطبة الجامعين بالقاهرة، و على ترتيبهما. فإذا قضى الصلاة عاد إلى القاهرة من طريقه بعينها شاقا بالزينة إلى أن يصل إلى القصر، و يعطى أرباب المساجد التى يمرّ عليها كلّ واحد دينارا.

و قال ابن المأمون: و وصل من الطراز الكسوة المختصة بغرّة شهر رمضان و جمعتيه برسم الخليفة للغرّة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة، و برسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها و طيلسانها بياض، و برسم الجامع الأنور للجمعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۶

الثانية بدلة منديلها و طيلسانها شعرىّ، و ما هو برسم أخى الخليفة للغرّة خاصة بدلة مذهبة، و برسم أربع جهات للخليفة أربع حلل مذهبات، و برسم الوزير للغرّة خلعة مذهبة مكملة موكبية، و برسم الجمعتين بدلتان حريرتان، و لم يكن لغير الخليفة و أخيه و الوزير فى ذلك شىء فنذكره.

جامع راشدة

هذا الجامع عرف بجامع راشدة لأنه فى خطة راشدة. قال القضاعىّ: خطة راشدة بن أدوب بن جديلة من لخم، هى متاخمة للخطة التى قبلها إلى الدير المعروف كان بأبى تكموس، ثم هدم و هو الجامع الكبير الذى براشدة، و قد دثرت هذه الخطة، و منها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة، و الجنان التى كانت تعرف بكهمس بن معر، ثم عرفت بالماردانىّ، و هى اليوم تعرف بالأمير تميم.

و قال المسبحىّ فى حوادث سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة، و ابتدئ بناء جامع راشدة فى سابع عشر ربيع الآخر، و كان مكانه كنيسة حولها مقابر لليهود و النصارى، فبنى بالطوب ثم هدم و زيد فيه و بنى بالحجر، و أقيمت به الجمعة، و قال: فى سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة و فيه، يعنى شهر رمضان، فرش جامع راشدة و تكامل فرشه و تعليق قناديله و ما يحتاج إليه، و ركب الحاكم بأمر اللّه عشية يوم الجمعة الخامس عشر منه و أشرف عليه.

و قال: فى سنة ثمان و تسعين و ثلاثمائة و فيه، يعنى شهر رمضان، صلّى الحاكم بجامعه الذى أنشأه براشدة صلاة الجمعة، و خطب. و فى شهر رمضان سنة أربعمائة أنزل بقناديل و تنور من فضة زنتها ألوف كثيرة، فعلّقت بجامع راشدة. و فى سنة إحدى و أربعمائة هدم و ابتدئ فى عمارته من صفر، و فى شهر رمضان سنة ثلاث و أربعمائة صلّى الحاكم فى جامع راشدة صلاة الجمعة و عليه عمامة بغير جوهر، و سيف محلى بفضة بيضاء دقيقة، و الناس يمشون بركابه من غير أن يمنع أحد منه، و كان يأخذ قصصهم و يقف وقوفا طويلا لكلّ منهم، و اتفق يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة سنة أربع عشرة و أربعمائة أن خطب فيه خطبتان معا على المنبر، و ذلك أنّ أبا طالب علىّ بن عبد السميع العباسىّ استقرّ فى خطابته بإذن قاضى القضاة أبى العباس أحمد بن محمد بن العوّام، بعد سفر العفيف البخارىّ إلى الشام، فتوصل ابن عصفورة إلى أن خرج له أمر أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين اللّه أبى الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه، أن يخطب. فصعدا جميعا المنبر و وقف أحدهما دون الآخر و خطبا معا، ثم بعد ذلك استقرّ أبو طالب خطيبا، و أن يكون ابن عصفورة يخلفه. و قال ابن المتوّج: هذا الجامع فيما بين دير الطين و الفسطاط، و هو مشهور الآن بجامع راشدة، و ليس بصحيح. و إنما

جامع راشـدة كان جامعا قديم البناء بجوار هذا الجامع، عمر فى زمن الفتح، عمرته راشدة، و هى قبيلة من القبائل كقبيلة تجيب و مهرة نزلت فى هذا المكان، و عمروا فيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۷

جامعا كبيرا أدركت أنا بعضه و محرابه، و كان فيه نخل كثير من نخل المقل، و من جملة ما رأيت فيه نخلة من المقل عددت لها سبعة رؤوس مفرّعـة منها، فذاك الجامع هو المعروف بجامع راشدة، و أما هذا الموجود الآن فمن عمارة الحاكم، و لم يكن فى بناء الجوامع أحسن من بنائه، و قيل عمرته حظية الخليفة و كان اسـمها راشدة و ليس بصـحيح، و الأوّل هو الصحيح. و فيه الآن نخل و سدر و بئر و ساقية رجل، و هو مكان خلوة و انقطاع و محل عبادة و فراغ من تعلقات الدنيا.

قال مؤلفه: هذا و هم من ابن المتوّج فى موضعين: أولهما أن راشدة عمرت هذا الجامع فى زمن فتح مصر، و هذا قول لم يقله أحد من مؤرخى مصر، فهـذا الكنـدىّ، ثم القضاعىّ، و عليهما يعوّل فى معرفة خطط مصـر. و من قبلهما ابن عبد الحكم، لم يقل أحد منهم أن راشدة عمرت زمن الفتح مسـجدا، و لا يعرف من هذا السـلف رحمهم اللّه فى جند من أجناد الأمصار التى فتحتها الصـحابة رضى اللّه عنهم أنهم أقاموا خطبتين فى مسـجد واحد، و قد حكينا ما تقدّم عن المسـبحىّ و هو مشاهد ما نقله من بناء الجامع المذكور فى موضع الكنيسـة بأمر الحاكم بأمر اللّه، و تغييره لبنائه غير مرّة، و تبعه القضاعىّ على ذلك، و قـد عدّ القضاعىّ و الكندىّ فى كتابيهما المذكور فيهما خطط مصر ما كان بمصر من مساجد الخطبة القديمة و المحدثة، و ذكرا مساجد راشدة، و لم يذكرا فيها جامعا اختطته راشدة، و ذكرا هذا الدير، و عين القضاعىّ اسمه، هدم و بنى فى مكانه جامع راشدة، و ناهيك بهما معرفة لآثار مصر و خططها.

و الوهم الثانى: الاسـتدلال على الوهم الأوّل بمشاهدة بقايا مسـجد قديم و لا أدرى كيف يسـتدل بذلك، فمن أنكر أن يكون قد كان هناك مسجد، بل المدّعى أنه كان لراشدة مساجد، لكن كونها اختطت جامعا هذا غير صحيح. و قال ابن أبى طىّ فى أخبار سنة ثلاث و تسـعين و ثلاثمائة فى كتابه تاريخ حلب: كانت النصارى اليعقوبية قد شـرعوا فى إنشاء كنيسة كانت قد اندرست لهم بظاهر مصر فى الموضع المعروف براشـدة، فثار قوم من المسـلمين و هـدموا مـا بنى النصـارى و أنهى إلى الحـاكم ذلك، قيل له إنّ النصارى ابتـدأوا بناءها، و قال النصارى إنها كانت قبل الإسـلام، فأمر الحاكم الحسـين بن جوهر بالنظر فى حال الفريقين، فمال فى الحكم مع النصارى، و تبين للحاكم ذلك، فأمر أن تبنى تلك الكنيسـة مسـجدا جامعا، فبنى فى أسـرع وقت، و هو جامع راشـدة. و راشـدة اسم للكنيسـة، و كان بجواره كنيسـتان إحداهما لليعقوبية و الأخرى للنسطورية، فهدمتا أيضا و بنيتا مسجدين، كان فى حارة الروم بالقاهرة آدر للروم و كنيسـتان لهم، فهـدمتا و جعلتـا مسـجدين أيضا، و حوّل الروم إلى الموضع المعروف بالحمراء و أسـس الروم ثلاث كنائس عوضا عما هدم لهم، و هذا أيضا مصرّح بأن جامع راشدة أسسه الحاكم، و فيه وهم لكونه جعل راشدة اسما للكنيسة، و إنما راشدة اسم لقبيلة من العرب نزلوا عند الفتح هناك فعرفت تلك البقاع بخطة راشدة، و قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۸

جـدّد جامع راشـدة مرارا، و أدركته عامرا تقام فيه الجمعـة و يمتلئ بالناس لكثرة من حوله من السـكان، و إنما تعطل من إقامة الجمعة بعد حوادث سـنة ست و ثمانمائة. و قال الشـريف محمد بن أسـعد الجوّانىّ النسابة: راشدة بطن من لخم، و هم ولد راشدة بن الحارث بن أدّ بن جديلـة من لخم بن عـدىّ بن الحـارث بن مرّة بن أدد، و قيـل راشـدة بن أدوب، و يقـال لراشـدة خالفـة، و لهم خطـة بمصـر بالجبـل المعروف بالرصـد، المطلّ على بركـة الحبش، و قـد دثرت الخطـة و لم يبق فى موضـعها إلّا الجامع الحاكمىّ المعروف بجامع راشدة.

جامع المقس

هـذا الجـامع أنشـأه الحاكم بأمر اللّه على شاطىء النيل بالمقس فى لأنّ المقس كان خطـة كبيرة، و هى بلـد قـديم من قبل الفتـح، كما

تقدّم ذكر ذلك فى هذا الكتاب.

و قال فى الكتاب الذى تضمن وقف الحاكم بأمر اللّه الأماكن بمصر على الجوامع، كما ذكر فى خبر الجامع الأزهر ما نصه: و يكون جميع ما بقى مما تصدّق به على هذه المواضع، يصرف فى جميع ما يحتاج إليه فى جامع المقس المذكور، من عمارته، و من ثمن الحصر العبدانية و المظفورة، و ثمن العود للبخور، و غيره على ما شرح من الوظائف فى الذى تقدّم، و كان لهذا الجامع نخل كثير فى الدولة الفاطمية، و يركب الخليفة إلى منظرة كانت بجانبه عند عرض الأسطول فيجلس بها لمشاهدة ذلك كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر المناظر، و فى سنة سبع و ثمانين و خمسمائة انشقت زريبة من هذا الجامع فى شهر رمضان لكثرة زيادة ماء النيل، و خيف على الجامع السقوط فأمر بعمارتها. و لما بنى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب هذا السور الذى على القاهرة، و أراد أن يوصله بسور مصر من خارج باب البحر إلى الكوم الأحمر، حيث منشأة المهرانىّ اليوم، و كان المتولى لعمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدىّ، أنشأ بجوار جامع المقس برجا كبيرا عرف بقلعة المقس فى مكان المنظرة التى كانت للخلفاء، فلما كان فى سنة سبعين و سبعمائة جدّد بناء هذا الجامع الوزير الصاحب شمس الدين عبد اللّه المقسىّ، و هدم القلعة و جعل مكانها جنينة، و اتهمه الناس بأنه وجد هنالك مالا كثيرا، و أنه عمر منه الجامع المذكور، فصار العامّة اليوم يقولون جامع المقسىّ، و يظنّ من لا علم عنده أن هذا الجامع من إنشائه، و ليس كذلك، بل إنما جدّده و بيضه، و قد انحسر ماء النيل عن تجاه هذا الجامع كما ذكر فى خبر بولاق و المقس، و صار هذا الجامع اليوم على حافة الخليج الناصرىّ، و أدركنا ما حوله فى غاية العمارة، و قد تلاشت المساكن التى هناك و بها إلى اليوم بقية يسيرة، و نظر هذا الجامع اليوم بيد أولاد الوزير المقسىّ، فإنه جدّده و جعل عليه أوقافا لمدرّس و خطيب و قومة و مؤذنين و غير ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۹

و قال جامع السيرة الصلاحية: و هذا المقسم على شاطىء النيل يزار، و هناك مسجد يتبرّك به الأبرار، و هو المكان الذى قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضى اللّه عنهم على مصر، فلما أمر السلطان صلاح الدين بإدارة السور على مصر و القاهرة، تولى ذلك بهاء الدين قراقوش و جعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقس، و بنى فيه برجا يشرف على النيل، و بنى مسجده جامعا، و اتصلت العمارة منه إلى البلد، و صار تقام فيه الجمع و الجماعات.

العزيز بالله: أبو النصر نزار بن المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، ولد بالمهدية من بلاد أفريقية فى يوم الخميس الرابع عشر من المحرّم سنة أربع و أربعين و ثلاثمائة، و قدم مع أبيه إلى القاهرة، و ولى العهد. فلما مات المعز لدين اللّه أقيم من بعده فى الخلافة يوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة خمس و ستين و ثلاثمائة فأذعن له سائر عساكر أبيه و اجتمعوا عليه، و سيّر بذهب إلى بلاد المغرب، فرّق فى الناس، و اقرّ يوسف بن ملكين على ولاية إفريقية، و خطب له بمكة، و وافى الشام عسكر القرامطة فصاروا مع أفتكين التركىّ، و قوى بهم و ساروا إلى الرملة و قاتلوا عساكر العزيز بيافا، فبعث العزيز جوهر القائد بعساكر كثيرة و ملك الرملة و حاصر دمشق مدّة، ثم رحل عنها بغير طائل، فأدركه القرامطة و قاتلوه بالرملة و عسقلان نحو سبعة عشر شهرا، ثم خلص من تحت سيوف افتكين و سار إلى العزيز فوافاه و قد برز من القاهرة، فسار معه و دخل العزيز إلى الرملة و أسر أفتكين فى المحرّم سنة ثمان و ستين و ثلاثمائة فأحسن إليه و أكرمه إكراما زائدا.

فكتب إليه الشريف أبو إسماعيل إبراهيم الرئيس يقول: يا مولانا لقد استحق هذا الكافر كلّ عذاب، و العجب من الإحسان إليه؟ فلما لقيه قال: يا إبراهيم قرأت كتابك فى أمر أفتكين، و أنا أخبرك. اعلم أنا قد وعدناه الإحسان و الولاية، فلما قبل و جاء إلينا نصب فازاته و خيامه حذاءنا، و أردنا منه الانصراف فلج و قاتل، فلما ولى منهزما و سرت إلى فازاته و دخلتها سجدت للّه شكرا و سألته أن يفتح لى بالظفر به، فجىء به بعد ساعة أسيرا، أ ترى يليق بى غير الوفاء.

و لما وصل العزيز إلى القاهرة اصطنع افتكين و واصله بالعطايا و الخلع، حتى قال لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز

باللّه، و نظرى إليه بما غمرنى من فضله و إحسانه، فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حيدرة: يا عمّ أحبّ أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، و أرى عليهم الذهب و الفضة و الجواهر، و لهم الخيل و اللباس و الضياع و العقار، و أن يكون ذلك كله من عندى. و مات بمدينة بلبيس من مرض طويل بالقولنج و الحصاة، فى اليوم الثامن و العشرين من شهر رمضان سنة ست و ثمانين و ثلاثمائة فحمل إلى القاهرة و دفن بتربة القصر مع آبائه. و كانت مدّة خلافته بعد أبيه المعز إحدى و عشرين سنة و خمسة أشهر و نصفا، و مات و عمره اثنتان و أربعون سنة و ثمانية أشهر و أربعة عشر يوما. و كان نقش

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۰

خاتمة: بنصر العزيز الجبار ينتصر الإمام نزار. و لما مات و حضر الناس إلى القصر للتعزية أفحموا عن أن يوردوا فى ذلك المقام شيئا، و مكثوا مطرقين لا ينبسون، فقام صبىّ من أولاد الأمراء الكنانيين و فتح باب التعزية و أنشد:

أنظر إلى العلياء كيف تضامو مآتم الأحساب كيف تقام

خبرننى ركب الركاب و لم يدعللسفر وجه ترحل فأقاموا

فاستحسن الناس إيراده و كأنه، طرّق لهم كيف يوردون المراثى، فنهض الشعراء و الخطباء حينئذ و عزوا و أنشد كلّ واحد ما عمل فى التعزية، و خلّف من الأولاد ابنه المنصور، و ولى الخلافة من بعده، و ابنة تدعى سيدة الملك، و كان أسمر طوالا، أصهب الشعر، أعين أشهل عريض المنكبين، شجاعا كريما حسن العفو و القدرة، لا يعرف سفك الدماء البتة، مع حسن الخلق و القرب من الناس، و المعرفة بالخيل و جوارح الطير، و كان محبا للصيد مغرىّ به حريصا على صيد السباع، و وزر له يعقوب بن كلس اثنتى عشرة سنة و شهرين و تسعة عشر يوما، ثم من بعده علىّ بن عمر العدّاس سنة واحدة، ثم أبو الفضل جعفر بن الفرات سنة، ثم أبو عبد اللّه الحسين بن الحسن البازيار سنة و ثلاثة أشهر، ثم أبو محمد بن عمار شهرين، ثم الفضل بن صالح الوزيرىّ أياما، ثم عيسى بن نسطورس سنة و عشرة أشهر.

و كانت قضاته: أبو طاهر محمد بن أحمد، أبو الحسن علىّ بن النعمان، ثم أبو عبد اللّه محمد بن النعمان. و خرج إلى السفر أوّلا فى صفر سنة سبع و ستين، و عاد من العباسية و خرج ثانيا و ظفر بأفتكين، و خرج ثالثا فى صفر سنة اثنتين و سبعين، و رجع بعد شهر إلى قصره بالقاهرة، و خرج رابعا فى ربيع الأوّل سنة أربع و ستين، فنزل منية الأصبغ و عاد بعد ثمانية أشهر و اثنى عشر يوما، و خرج خامسا فى عاشر ربيع الآخر سنة خمس و ثمانين، فأقام مبرّزا أربعة عشر شهرا و عشرين يوما، و مات فى هذه الخرجة ببلبيس. و هو أوّل من اتخذ من أهل بيته وزيرا، أثبت اسمه على الطرز، و قرن اسمه باسمه، و أوّل من لبس منهم الخفين و المنطقة، و أوّل من اتخذ منهم الأتراك و اصطنعهم و جعل منهم القوّاد، و أوّل من رمى منهم بالنشاب، و أوّل من ركب منهم بالذؤابة الطويلة و الحنك و ضرب الصوالجة و لعب بالرمح، و أوّل من عمل مائدة فى الشرطة السفلى فى شهر رمضان يفطر عليها أهل الجامع العتيق، و أقام طعاما فى جامع القاهرة لمن يحضر فى رجب و شعبان و رمضان، و اتخذ الحمير لركوبه إياها، و كانت أمّه أمّ ولد اسمها درزارة، و كان يضرب بأيامه المثل فى الحسن، فإنها كانت كلها أعيادا و أعراسا لكثرة كرمه و محبته للعفو و استعماله لذلك، و لا أعلم له بمصر من الآثار غير تأسيس الجامع الحاكمىّ، و ما عدا ذلك فذهب اسمه و محى رسمه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۱

الحاكم بأمر اللّه: أبو علىّ منصور بن العزيز باللّه نزار بن المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، ولد بالقصر من القاهرة المعزية، ليلة الخميس الثالث و العشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس و سبعين و ثلاثمائة فى الساعة التاسعة، و الطالع من برج السرطان سبع و عشرون درجة، و سلّم عليه بالخلافة فى مدينة بلبيس بعد الظهر من يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضان سنة ست و ثمانين و ثلاثمائة و سار إلى القاهرة فى يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة و العزيز فى قبة على ناقة بين يديه، و على الحاكم دراعة مصمت و عمامة فيها الجوهر، و بيده رمح و قد تقلد السيف. و لم يفقد من جميع ما كان مع العساكر شىء، و دخل القصر قبل صلاة المغرب، و أخذ فى جهاز أبيه

العزيز بالله و دفنه، ثم بكر سائر أهل الدولة إلى القصر يوم الخميس، و قد نصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة مذهبة فى الإيوان الكبير، و خرج من قصره راكبا عليه معممة الجوهر و الناس وقوف فى صحن الإيوان، فقبلوا له الأرض و مشوا بين يديه حتى جلس على السرير، فوقف من رسمه الوقوف، و جلس من له عادة أن يجلس، و سلّم الجميع عليه بالإمامة و اللقب الذى اختير له، و هو الحاكم بأمر اللّه، و كان سنّه يومئذ إحدى عشرة سنة و خمسة أشهر و ستة أيام، فجعل أبا محمد الحسن بن عمار الكندىّ واسطة، و لقب بأمين الدولة، و أسقط مكوسا كانت بالساحل، و ردّ إلى الحسين بن جوهر القائد البريد و الإنشاء، فكان يخلفه ابن سورين، و أقرّ عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص، و قلد سليمان بن جعفر بن فلاح الشام، فخرج ينجو تكين من دمشق و سار منها لمدافعة سليمان بن جعفر بن فلاح، فبلغ الرملة و انضمّ إليه ابن الجرّاح الطائىّ فى كثير من العرب، و واقع ابن فلاح فانهزم و فرّ، ثم أسر فحمل إلى القاهرة و أكرم، و اختلف أهل الدولة على ابن عمار، و وقعت حروب آلت إلى صرفه عن الوساطة. و له فى النظر أحد عشر شهرا غير خمسة أيام، فلزم داره و أطلقت له رسوم و جرايات، و أقيم الطواشى برجوان الصقلىّ مكانه فى الوساطة لثلاثة بقين من رمضان سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة فجعل كاتبه فهد بن إبراهيم يوقع عنه، و لقبه بالرئيس، و صرف سليمان بن فلاح عن الشام بجيش بن الصمصامة، و قلد فحل بن إسماعيل الكتامىّ مدينة صور، و قلد يانس الخادم برقة، و ميسور الخادم طرابلس، و يمنا لخادم غزة و عسقلان، فواقع جيش الروم على فاهية و قتل منهم خمسة آلاف رجل، و غزا إلى أن دخل مرعش، و قلد وظيفة قضاء القضاء أبا عبد اللّه الحسين بن على بن النعمان فى صفر سنة تسع و ثمانين و ثلاثمائة بعد موت قاضى القضاة محمد بن النعمان، و قتل الأستاذ برجوان لاربع بقين من ربيع الآخر سنة تسع و ثمانين و ثلاثمائة، و له فى النظر سنتان و ثمانية أشهر غير يوم واحد، و ردّ النظر فى أمور الناس و تدبير المملكة و التوقيعات إلى الحسين بن جوهر، و لقب بقائد القوّاد، فخلفه الرئيس بن فهد، و اتخذ الحاكم مجلسا فى الليل يحضر فيه عدّة من أعيان الدولة، ثم أبطله و مات جيش بن الصمصامة فى ربيع الآخر سنة تسعين و ثلثمائة، فوصل ابنه بتركته إلى القاهرة و معه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۲

درج بخط أبيه فيه وصية، و ثبت بما خلفه مفصلا، و أن ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه، لا يستحق أحد من أولاده منه درهما، و كان مبلغ ذلك نحو المأئتى ألف دينار، و ما بين عين و متاع و دواب، قد أوقف جميع ذلك تحت القصر، فأخذ الحاكم الدرج و نظره ثم أعاده إلى أولاد جيش و خلع عليهم و قال لهم بحضرة وجوه الدولة: قد وقفت على وصية أبيكم رحمه اللّه و ما وصى به من عين و متاع، فخذوه هنيئا مباركا لكم فيه. فانصرفوا بجميع التركة، و ولى دمشق فحل بن تميم، و مات بعد شهور فولى علىّ بن فلاح، و ردّ النظر فى المظالم لعبد العزيز بن محمد بن النعمان، و منع الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته بسيدنا و مولانا إلّا أمير المؤمنين وحده، و أبيح دم من خالف ذلك، و فى شوّال قتل ابن عمار.

و فى سنة إحدى و تسعين و اصل الحاكم الركوب فى الليل كل ليلة، فكان يشق الشوارع و الأزقة، و بالغ الناس فى الوقود و الزينة، و أنفقوا الأموال الكثيرة فى المآكل و المشارب و الغناء و اللهو، و كثر تفرّجهم على ذلك حتى خرجوا فيه عن الحدّ، فمنع النساء من الخروج فى الليل، ثم منع الرجال من الجلوس فى الحوانيت. و فى رمضان سنة اثنتين و تسعين قلّد تموصلت بن بكّار دمسق، عوضا عن ابن فلاح، و ابتدأ فى عمارة جامع راشدة فى سنة ثلاث و تسعين، و قتل فهد بن إبراهيم و له منذ نظر فى الرياسة خمس سنين و تسعة أشهر و اثنا عشر يوما، فى ثامن جمادى الآخرة منها، و أقيم فى مكانه علىّ بن عمر العدّاس، و سار الأمير ما روح لإمارة طبرية، و وقع الشروع فى إتمام الجامع خارج باب الفتوح، و قطع الحاكم الركوب فى الليل، و مات تموصلت فولى دمشق بعده مفلح اللحيانىّ الخادم، و قتل علىّ بن عمر العدّاس و الأستاذ زيدان الصقلىّ و عدّة كثيرة من الناس، و قلد إمارة برقة صندل الأسود فى المحرّم سنة أربع و تسعين، و صرف الحسين بن النعمان عن القضاء فى رمضان منها، و كانت مدّة نظره فى القضاء خمس سنين و ستة أشهر و ثلاثة و عشرين يوما، و إليه كانت الدعوة أيضا، فيقال له قاضى القضاة و داعى الدعاة، و قلد عبد العزيز بن محمد بن النعمان وظيفة

القضاء و الدعوة، مع ما بيده من النظر فى المظالم. و فى سنة خمس و تسعين أمر النصارى و اليهود بشدّ الزنار و لبس الغيار، و منع الناس من أكل الملوخية و الجرجير و التوكلية و الدلينس، و ذبح الأبقار السليمة من العاهة إلّا فى أيام الأضحية، و منع من بيع الفقاع و عمله البتة، و أن لا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر، و أن لا تكشف امرأة وجهها فى طريق، و لا خلف جنازة، و لا تتبرّج، و لا يباع شىء من السمك بغير قشر، و لا يصطاده أحد من الصيادين، و تتبع الناس فى ذلك كله و شدّد فيه، و ضرب جماعة بسبب مخالفتهم ما أمروا به و نهوا عنه مما ذكر، و خرجت العساكر لقتال بنى قرّة أهل البحيرة، و كتب على أبواب المساجد و على الجوامع بمصر و على أبواب الحوانيت و الحجر و المقابر سبّ السلف و لعنهم، و أكره الناس على نقش ذلك و كتابته بالأصباغ فى سائر المواضع، و أقبل الناس من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۳

سائر النواحى فدخلوا فى الدعوة و جعل لهم يومان فى الأسبوع، و كثر الازدحام و مات فيه جماعة، و منع الناس من الخروج بعد المغرب فى الطرقات، و أن لا- يظهر أحد بها لبيع و لا- شراء، فخلت الطرق من المارّة و كسرت أوانى الخمور و أريقت من سائر الأماكن، و اشتدّ خوف الناس بأسرهم، و قويت الشناعات و زاد الاضطراب، فاجتمع كثير من الكتاب و غيرهم تحت القصر و ضجوا يسألون العفو، فكتب عدّة أمانات لجميع الطوائف من أهل الدولة و غيرهم من الباعة و الرعية، و أمر بقتل الكلاب فقتل منها ما لا ينحصر حتى فقدت، و فتحت دار الحكمة بالقاهرة و حمل إليها الكتب و دخل إليها الناس، فاشتدّ الطلب على الركابية المستخدمين فى الركاب، و قتل منهم كثير، عفى عنهم و كتب لهم أمان، و منع الناس كافة من الدخول من باب القاهرة، و منع الناس من المشى ملاصق القصر، و قتل قاضى القضاة حسين بن النعمان و أحرق بالنار، و قتل عددا كثيرا من الناس ضربت أعناقهم.

و فى سنة ست و تسعين خرج أبو ركوة يدعو إلى نفسه و ادّعى أنه من بنى أمية، فقام بأمره بنو قرّة لكثرة ما أوقع بهم الحاكم و بايعوه، و استجاب له لواته و مزاته و زنادة، و أخذ برقة و هزم جيوش الحاكم غير مرّة، و غنم ما معهم، فخرج لقتاله القائد فضل بن صالح فى ربيع الأوّل و واقعه، فانهزم منه فضل و اشتدّ الاضطراب بمصر، و تزايدت الأسعار و اشتدّ الاستعداد لمحاربة أبى ركوة، و نزلت العساكر بالجيزة، و سار أبو ركوة فواقعه القائد فضل و قتل عدّة ممن معه، فعظم الأمر و اشتدّ الخوف و خرج الناس فباتوا بالشوارع. خوفا من هجوم عساكر أبى ركوة، و استمرّت الحروب فانهزم أبو ركوة فى ثالث ذى الحجة إلى الفيوم، و تبعه القائد فضل بعد أن بعث إلى القاهرة بستة آلاف رأس و مائة أسير إلى أن قبض عليه ببلاد النوبة، و أحضر إلى القاهرة فقتل بها، و خلع على القائد فضل، و سيّرت البشائر بقتله إلى الأعمال.

و فى سنة سبع و تسعين أمر بمحوسبّ السلف فمحى سائر ما كتب من ذلك، و غلت الأسعار لنقص ماء النيل، فإنه بلغ ستة عشر أصبعا من سبعة عشر ذراعا، نقص، و مات ينجو تكين فى ذى الحجة، و اشتدّ الغلاء فى سنة ثمان و تسعين، و ولى علىّ بن فلاح دمشق، و قبض جميع ما هو محبس على الكنائس، و جعل فى الديوان، و أحرق عدّة صلبان على باب الجامع بمصر، و كتب إلى سائر الأعمال بذلك.

و فى سادس عشر رجب قرّر مالك بن سعيد الفارقىّ فى وظيفة قضاء القضاة، و تسلم كتب الدعوة التى تقرأ بالقصر على الأولياء، و صرف عبد العزيز بن النعمان عن ذلك، و صرف قائد القوّاد الحسين بن جوهر عما كان يليه من النظر فى سابع شعبان، و قرّر مكانه صالح بن علىّ الروذبادىّ، و قرّر فى ديوان الشام مكانه أبو عبد اللّه الموصلىّ الكاتب، و أمر حسين بن جوهر و عبد العزيز بلزوم دورهما، و منعا من الركوب و سائر أولادهما، ثم عفا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۴

عنهما بعد أيام، و أمر بالركوب. و توقفت زيادة النيل فاستسقى الناس مرّتين، و أمر بإبطال عدّة مكوس، و تعذر وجود الخبز لغلائة و قلته، و فتح الخليج فى رابع توت، و الماء على خمسة عشر ذراعا فاشتدّ الغلاء.

و فى تاسع المحرّم و هو نصف توت نقص ماء النيل و لم يوف ستة عشر ذراعا، فمنع الناس من التظاهر بالغناء و من ركوب البحر للتفرّج، و منع من بيع المسكرات، و منع الناس كافة من الخروج قبل الفجر و بعد العشاء إلى الطرقات و اشتدّ الأمر على الكافة لشدّة ما داخلهم من الخوف مع شدّة الغلاء، و تزايد الأمراض فى الناس و الموت.

فلما كان فى رجب انحلت الأسعار، و قرىء سجل فيه يصوم الصائمون على حسابهم و يفطرون، و لا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون و مفطرون، و صلاة الخمسين للذى جاءهم فيها يصلون، و صلاة الضحى و صلاة التراويح لا مانع لهم منها و لا هم عنها يدفعون، يخمّس فى التكبير على الجنائز المخمسون، و لا يمنع من التربيع عليها المربعون، يؤذن بحىّ على خير العمل المؤذنون، و لا يؤذى من بها لا يؤذنون، لا يسب أحد من السلف، و لا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف، و الحالف منهم بما حلف، لكلّ مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده. و لقب صالح بن علىّ الروذبادىّ بثقة ثقات السيف و القلم، و أعيد القاضى عبد العزيز بن النعمان إلى النظر فى المظالم، و تزايدت الأمراض و كثر الموت و عزت الأدوية، و أعيدت المكوس التى رفعت، و هدمت كنائس كانت بطريق المقس، و هدمت كنيسة كانت بحارة الروم من القاهرة، و نهب ما فيها، و قتل كثير من الخدّام و من الكتاب و من الصقالية، بعد ما قطعت أيدى بعضهم من الكتاب بالشطور على الخشبة من وسط الذراع، و قتل القائد فضل بن صالح فى ذى القعدة، و فى حادى عشر صفر صرف صالح بن علىّ الروذبادىّ، و قرّر مكانه ابن عبدون النصرانىّ الكاتب فوقّع عن الحاكم، و نظر و كتب بهدم كنيسة قماسة، و جدّد ديوان يقال له الديوان المفرد برسم من يقبض ماله من المقتولين و غيرهم، و كثرت الأمراض و عزت الأدوية، و شهر جماعة وجد عندهم فقاع و ملوخية و دلينس و ضربوا، و عدم دائر القصر و اشتدّ الأمر على النصارى و اليهود فى إلزامهم لبس الغيار، و كتب إبطال أخذ الخمس و النجاوى و الفطرة، و فرّ الحسين بن جوهر و أولاده، و عبد العزيز بن النعمان، و فرّ أبو القاسم الحسين بن المغربىّ، و كتب عدّة أمانات لعدّة طوائف من شدّة خوفهم، و قطعت قراءة مجالس الحكمة بالقصر، و وقع التشديد فى المنع من المسكرات، و قتل كثير من الكتاب و الخدّام و الفرّاشين، و قتل صالح بن علىّ الروذبادىّ فى شوّال.

و فى رابع المحرّم سنة إحدى و أربعمائة، صرف الكافى بن عبدون عن النظر و التوقيع، و قرّر بدله أحمد بن محمد القشورىّ الكاتب فى الوساطة و السفارة، و حصر الحسين بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۵

جوهر و عبد العزيز بن النعمان إلى القاهرة، فأكرما. ثم صرف ابن القشورىّ بعد عشرة أيام من استقراره و ضربت عنقه، و قرّر بدله زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصرانىّ، و لقّب بالشافى، و منع الناس من الركوب فى المراكب فى الخليج، و سدّت أبواب الدور التى على الخليج و الطاقات المطلة عليه، و أضيف إلى قاضى القضاة مالك بن سعيد النظر فى المظالم، و أعيدت مجالس الحكمة، و أخذ مال النجوى، و قتل ابن عبدون و أخذ ماله، و ضرب جماعة و شهروا من أجل بيعهم الملوخية و السمك الذى لا قشر له، و بسبب بيع النبيذ، و قتل الحسين بن جوهر و عبد العزيز بن النعمان فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة إحدى و أربعمائة، و أحيط بأموالهما، و أبطلت عدّة مكوس، و منع الناس من الغناء و اللهو و من بيع المغنيات و من الاجتماع بالصحراء. و فى هذه السنة خلع حسان بن مفرّج بن دغفل بن الجرّاح طاعة الحاكم، و أقام أبا الفتوح حسين بن جعفر الحسنىّ أمير مكة خليفة، و بايعه و دعا الناس إلى طاعته و مبايعته، و قاتل عساكر الحاكم. و فى سنة اثنتين و أربعمائة منع من بيع الزبيب و كوتب بالمنع من حمله، و ألقى فى بحر النيل منه شىء كثير، و أحرق شىء كثير، و منع النساء من زيارة القبور، فلم ير فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة، و منع من الاجتماع على شاطىء النيل للتفرّج، و منع من بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها. و منع من عصره و طرح كثير منه و ديس فى الطرقات، و غرّق كثير منه فى النيل، و منع من حمله و قطعت كروم الجيزة كلها، و سيّر إلى الجهات بذلك.

و فى سنة ثلاث و أربعمائة نزع السعر و ازدحم الناس على الخبز، و فى ثانى ربيع الأوّل منها هلك عيسى بن نسطورس، فأمر النصارى بلبس السواد و تعلق صلبان الخشب فى أعناقهم، و أن يكون الصليب ذراعا فى مثله، و زنته خمسة أرطال، و أن يكون مكشوفا بحيث

يراه النـاس، و منعوا من ركوب الخيـل، و أن يكون ركوبهم البغـال و الحمير بسـروج الخشب و السـيور السود بغير حليـة، و أن يسـدّوا الزنانير و لا يسـتخدموا مسلما و لا يشتروا عبدا و لا أمة، و تتبعت آثارهم فى ذلك، فأسلم منهم عدّة، و قرّر حسين بن طاهر الوزان فى الوساطـة و التوقيع عن الحـاكم فى تـاسع عشـرى ربيع الأوّل منهـا، و لقب أمين الأمنـاء، و نقش الحاكم على خاتمه: بنصـر اللّه العظيم الولىّ ينتصر الإمام أبو على. و ضرب جماعة بسبب اللعب بالشطرنج، و هدمت الكنائس و أخذ جميع ما فيها و مالها من الرباع، و كتب بـذلك إلى الأعمال فهـدمت بها، و فيها لحق أبو الفتح بمكة و دعا للحاكم و ضـرب السـكة باسـمه، و أمر الحاكم أن لا يقبّل أحد له الأرض، و لا يقبّل ركابه، و لا يده عند السـلام عليه فى المواكب، فإنّ الانحناء إلى الأرض لمخلوق من صـنيع الروم، و أن لا يزاد على قولهم السـلام على أمير المؤمنين و رحمة اللّه و بركاته، و لا يصـلّى أحد عليه فى مكاتبة و لا مخاطبة، و يقتصـر فى مكاتبته على سلام اللّه و تحياته. و نوامى بركاته على أمير المؤمنين، و يـدعى له بما يتفق من الـدعاء لا غير، فلم يقل الخطباء يوم الجمع سوى اللهمّ صـلّ على محمد المصطفى، و سلّم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۶

على أمير المؤمنين علىّ المرتضـى، اللهمّ و سـلّم على أمراء المؤمنين آبـاء أمير المؤمنين، اللهمّ اجعـل أفضـل سـلامك على عبـدك و خليفتـك، و منع من ضـرب الطبول و الأبواق حول القصـر، فصاروا يطوفون بغير طبل و لا بوق، و كثرت إنعامات الحاكم فتوقف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان فى إمضائها، فكتب إليه الحاكم بخطه بعد البسملة، الحمد للّه كما هو أهله:

أصبحت لا أرجو و لا أتقىإلّا إلهى و له الفضل

جدّى نبىّ و إمامى أبىو دينى الإخلاص و العدل

المـال مـال اللّه عز و جـلّ، و الخلق عبـاد اللّه، و نحن أمناؤه فى الأرض، أطلق أرزاق الناس و لا تقطعها و السـلام و ركب الحاكم يوم عيـد الفطر إلى المصـلى بغير زينـة و لا- جنائب و لا أبهـة، سوى عشـرة أفراس تقاد بسـروج و لجم محلاة بفضـة بيضاء خفيفـة، و بنود ساذجـة و مظلـة بيضـاء بغير ذهب عليه بيـاض، بغير طرز و لا- ذهب و لا- جوهر فى عمـامته، و لم يفرش المنبر، و منع النـاس من سـبّ السـلف، و ضـرب فى ذلك و شهر و صلّى صلاة عيد النحر كما صلّى صلاة عيد الفطر من غير أبهة، و نحر عنه عبد الرحمن بن الياس بن أحمد بن المهدىّ، و أكثر الحاكم من الركوب إلى الصحراء بحذاء فى رجله و فوطة على رأيه.

و فى سـنة أربع و أربعمائـة ألزم اليهود أن يكون فى أعنـاقهم جرس إذا دخلوا الحمـام، و أن يكون فى أعنـاق النصارى صـلبان، و منع النـاس من الكلاـم فى النجوم، و أقيم المنجمون من الطرقـات و طلبوا فتغيبوا و نفوا، و كـثرت هبـات الحـاكم و صـدقاته و عتقه، و أمر اليهود و النصارى بالخروج من مصـر إلى بلاد الروم و غيرها، و أقيم عبـد الرحيم بن الياس ولىّ العهد، و أمر أن يقال فى السـلام عليه، السلام على ابن عمّ أمير المؤمنين، و ولىّ عهد المسلمين و صار يجلس بمكان فى القصر، و صار الحاكم يركب بدراعة صوف بيضاء، و يتعمم بفوطـة. و فى رجله خـذاء عربىّ بقبـالين، و عبـد الرحيم يتولى النظر فى أمور الدولـة كلها، و أفرط الحاكم فى العطاء و ردّ ما كان أخذ من الضياع و الأملاك إلى أربابها، و فى ربيع الآخر أمر بقطع يدى أبى القاسم الجرجانىّ، و كان يكتب للقائد غين، ثم قطع يـد غين فصـار مقطوع اليـدين، و بعث إليه الحاكم بعـد قطع يـديه بألف من الـذهب و الثياب، ثم بعـد ذلك أمر بقطع لسانه، فقطع. و أبطـل عـدّة مكوس، و قتـل الكلاـب كلهـا، و أكثر من الركوب فى الليل، و منع النساء من المشـى فى الطرقات، فلم تر امرأة فى طريق البتة، و أغلقت حماماتهنّ، و منع الأساكفة من على خفافهنّ، و تعطلت حوانيتهم، و اشـتدّت الإشاعة بوقوع السـيف فى الناس، فتهاربوا و غلفت الأسواق، فلم يبع شـىء. و دعى لعبد الرحيم بن الياس على المنابر، و ضـربت السـكة باسـمه بولاية العهد، و فى سـنة خمس و أربعمائة قتل مالك بن سعيد الفارقىّ، فى ربيع الآخر، و كانت مدّة نظره فى قضاء القضاة ست سنين و تسعة أشهر و عشرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۷

أيام، و بلغ إقطاعه فى السـنة خمسة عشر ألف دينار، و تزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب فى كلّ يوم عدّة مرّات، و اشترى الحمير

و ركبها بدل الخيل.

و فى جمادى الآخرة منها قتل الحسين بن طاهر الوزان، فكانت مدّة نظره فى الوساطة سنتين و شهرين و عشرين يوما، فأمر أصحاب الدواوين بلزوم دواوينهم، و صار الحاكم يركب حمارا بشاشية مكشوفة بغير عمامة، ثم أقام عبد الرحيم بن أبى السيد الكاتب و أخاه أبا عبد اللّه الحسين فى الوساطة و السفارة، و أقرّ فى وظيفة قضاء القضاة أحمد بن محمد بن أبى العوام، و خرج الحاكم عن الحدّ فى العطاء حتى أقطع نواتية المراكب و المشاعلية، و بنى قرّة، فما أقطع الإسكندرية و البحيرة و نواحيهما، و قتل ابنى أبى السيد فكانت مدّة نظرهما اثنتين و ستين يوما، و قلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات، ثم قتله فى اليوم الخامس من ولايته، و غلب بنو قرّة على الإسكندرية و أعمالها، و أكثر الحاكم من الركوب فركب فى يوم ستة مرّات، مرّة على فرس، و مرّة على حمار، و مرّة فى محفة تحمل على الأعناق، و مرّة فى عشارى فى النيل بغير عمامة، و أكثر من إقطاع الجند و العبيد الإقطاعات، و أقام ذا الرياستين قطب الدولة أبا الحسن علىّ بن جعفر بن فلاح فى الوساطة و السفارة، و ولى عبد الرحيم بن الياس دمشق، فسار إليها فى جمادى الآخرة سنة تسع و أربعمائة، فأقام فيها شهرين ثم هجم عليه قوم فقتلوا جماعة ممن عنده، و أخذوه فى صندوق و حملوه إلى مصر، ثم أعيد إلى دمشق فأقام بها إلى ليلة عيد الفطر و أخرج منها. فلما كان لليلتين بقيتا من شوّال سنة عشر و أربعمائة، فقد الحاكم و قيل أن أخته قتلته و ليس بصحيح، و كان عمره ستا و ثلاثين سنة و سبعة أشهر، و كانت مدّة خلافته خمسا و عشرين سنة و شهرا، و كان جوادا سفاكا للدماء، قتل عددا لا يحصى، و كانت سيرته من أعجب السير، و خطب له على منابر مصر و الشام و أفريقية و الحجاز، و كان يشتغل بعلوم الأوائل، و ينظر فى النجوم و عمل رصدا و اتخذ بيتا فى المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك، و يقال أنه كان يعتريه جفاف فى دماغه، فلذلك كثر تناقضه، و ما أحسن ما قال فيه بعضهم، كانت أفعاله لا تعالى، و أحلام وساوسه لا تؤوّل، و قال المسبحىّ و فى محرّم سنة خمس عشرة و أربعمائة قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى، فأقرّ بأنه قتل الحاكم بأمر اللّه فى جملة أربعة أنفس تفرّقوا فى البلاد، و أظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم، و قطعة من الفوطة التى كانت عليه، فقيل له لم قتلته؟ فقال: غيرة للّه و للإسلام. فقيل له: كيف قتلته؟ فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده فقتل نفسه. و قال هكذا قتلته. فقطع رأسه و أنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه، و هذا هو الصحيح فى خبر قتل الحاكم، لا ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته.

جامع الفيلة

هذا الجامع بسطح الجرف المطلّ على بركة الحبش المعروف الآن بالرصد، بناه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۸

الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ فى شعبان سنة ثمان و سبعين و أربعمائة، و بلغت النفقة على بنائه ستة آلاف دينار، و إنما قيل له جامع الفيلة لأنّ فى قبلته تسع قباب فى أعلاه ذات قناطر، إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدّرعين على فيلة، كالتى كانت تعمل فى المواكب أيام الأعياد، و عليها السرير و فوقها المدّرعون أيام الخلفاء، و لما كمل أقام فى خطابته الشريف الزكىّ أمين الدولة أبا جعفر محمد بن محمد بن هبة اللّه بن علىّ الحسينىّ الأفطسىّ النسابة الكاتب الشاعر الطرابلسىّ، بعد صرفه من قضاء الغربية، فلما رقى المنبر أوّل خطبة أقيمت فى هذا الجامع قال: بسم اللّه الحمد للّه، و أرتج عليه فلم يدر ما يقول، و كان هناك الشيخ أبو القاسم علىّ بن منجب بن الصيرفىّ الكاتب، و ولده مختص الدولة أبو المجد، و أبو عبد اللّه بن بركات النحوىّ، و وجوه الدولة. فلما أضجر من حضر نزل عن المنبر و قد حمّ، فتقدّم قيم الجامع و صلّى و مضى الشريف إلى داره فاعتلّ و مات.

و كان قد ولى قضاء عسقلان و غيرها، ثم قدم إلى مصر فولى الحكم بالمحلة، و ولى ديوان الأحباس، و كان أحد الأعيان الأدباء العارفين بالنسب، و من الشعراء المجيدين و النحاة اللغويين، ولد بطرابلس الشام فى سنة اثنتين و ستين و أربعمائة، و قدم إلى القاهرة فى سنة إحدى و خمسمائة، و مدح الأفضل، و مات فى سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة و خمسمائة، و قد ترشح للنقابة بمصر و لم ينلها

مع تطلعه إليها، و ذيل كتاب أبى الغنائم الزيدىّ النسابة، و من شعره بديها، و قد نام مع جاريته على سطوح فطلع القمر عليهما فارتاعا من كشف الجيران عليهما:

و لمّا تلاقينا و غاب رقيبناورمت التشكى فى خلو و فى سرّ

بدا ضوء بدر فافترقنا لضوئهفيا من رأى بدرا ينمُّ على بدر

و أهل المطالب يذكرون أنّ الأفضل وجد بموضع الصهريج مطلبا، فختم عليه أشهرا إلى أن نقله و عمله صهريجا و بنى عليه هذا المسجد، و هذا الشرف الذى عليه جامع الفيلة منظرة فى غاية الحسن، لأنّ فى قبليه بركة الحبش و بستان الوزير المغربىّ و العدوية و دير النسطورية و بئر أبى سلامة، و هى بئر مدوّرة برسم الغنم، و بئر النعش، كان يستقى منها أصحاب الزوايا، و هى بجوار عفصة الصغرى، و هى بئر أبى موسى بن أبى خليد، و سميت بئر النعش لأنها على هيئة النعش، و ماؤها يهضم الطعام و هو أصح الأمواه، و شرقىّ هذا الجبل: جبل المقطعم و الجبانة و المغافر و القرافة و آخر الأكحول و ريحان و رعين و الكلاع و الأكسوع، و غربىّ هذا الجبل: المعشوق و النيل و بستان اليهودىّ إلى القبلة، و طموه و الأهرام و راشدة، و بحرىّ هذا الجبل بستان الأمير تميم، و قنطرة خليج بنى وائل، و دير المعدّلين، و عقبة بحصب، و محرى قسطنطين، و الشرف و غير ذلك. و هذا الجامع لا- تقام فيه اليوم جمعة و لا جماعة لخراب ما حوله من القرافة و راشدة، و ينزل فيه أحيانا طائفة من العرب بإبلهم يقال لهم المسلمية، و عما قليل يدثر كما دثر غيره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۹

جامع المقياس

هذا الجامع بجوار مقياس النيل من جزيرة الفسطاط أنشأه ... .

الجامع الأقمر

قال ابن عبد الظاهر: كان مكانه علافون، و الحوض مكان المنظرة، فتحدث الخليفة الآمر مع الوزير المأمون بن البطائحىّ فى إنشائه جامعا، فلم يترك قدّام القصر دكانا، و بنى تحت الجامع المذكور فى أيامه دكاكين و مخازن من جهة باب الفتوح، لا من صوب القصر، و كمل الجامع المذكور فى أيامه، و ذلك فى سنة تسع عشرة و خمسمائة، و ذكر أن اسم الآمر و المأمون عليه. و قال غيره: و اشترى له حمّام شمول و دار النحاس بمصر، و حبسهما على سدنته و وقود مصابيحه و من يتولى أمره و يؤذن فيه، و ما زال اسم المأمون و الآمر على لوح فوق المحراب، و فيه تجديد الملك الظاهر بيبرس للجامع المذكور، و لم تكن فيه خطبة، لكنّه يعرف بالجامع الأقمر. فلما كان فى شهر رجب سنة تسع و تسعين و سبعمائة، جدّده الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا بن عبد اللّه السالمىّ، أحد المماليك الظاهرية، و أنشأ بظاهر بابه البحرىّ حوانيت يعلوها طباق، و جدّد فى صحن الجامع بركة لطيفة يصل إليها الماء من ساقية، و جعلها مرتفعة ينزل منها الماء إلى من يتوضأ من بزابيز نحاس، و نصب فيه منبرا، فكانت أوّل جمعة جمعت فيه رابع شهر رمضان من السنة المذكورة، و خطب فيه شهاب الدين أحمد بن موسى الحلبىّ أحد نوّاب القضاة الحنفية، و أرتج عليه، و استمرّ إلى أن مات فى سابع عشرى شهر ربيع الأول سنة إحدى و ثمانمائة، و بنى على يمنة المحراب البحرىّ مئذنة، و بيّض الجامع كله و دهن صدره بلازورد و ذهب. فقلت له: قد أعجبنى ما صنعت بهذا الجامع ما خلا تجديد الخطبة فيه و عمل بركة الماء. فإنّ الخطبة غير محتاج إليها هاهنا لقرب الخطب من هذا الجامع، و بركة الماء تضيق الصحن. و قد أنشأت ميضأة بجوار بابه الذى من جهة الركن المخلق، فاحتجّ لعمل المنبر بأن ابن الطوير قال فيه كتاب نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين، عند ذكر جلوس الخليفة فى المواليد الستة: و يقدّم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك، ثم يحضر خطيب الجامع الأقمر فيخطب كذلك. قال: فهذا أمر قد كان فى الدولة

الفاطمية، و ما أنا بالذى أحدثته، و أما البركة ففيها عون على الصلاة لقربها من المصلين، و جعل فوق المحراب لوحا مكتوبا فيه ما كان فيه أوّلا، و ذكر فيه تجديده لهذا الجامع، و رسم فيه نعوته و ألقابه، و جدّد أيضا حوض هذا الجامع الذى تشرب منه الدواب، و هو فى ظهر الجامع تجاه الركن المخلق، و بئر هذا الجامع قديمة قبل الملة الإسلامية، كانت فى دير من ديارات النصارى بهذا الموضع.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۰

فلما قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين اللّه فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة أدخل هذا الدير فى القصر، و هو موضع الركن المخلق تجاه الحوض المذكور، و جعل هذه البئر مما ينتفع به فى القصر، و هى تعرف ببئر العظام، و ذلك أن جوهر انقل من الدير المذكور عظاما كانت فيه من رمم قوم يقال أنهم من الحواريين، فسميت بئر العظام، و العامّة تقول إلى اليوم بئر المعظمة، و هى بئر كبيرة فى غاية السعة، و أوّل ما أعرف من إضافتها إلى الجامع الأقمر، أنّ العماد الدمياطىّ ركب على فوهتها هذه المحال التى بها الآن، و هى من جيد المحال، و كان تركيبها بعد السبعمائة فى أيام قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة الشافعىّ، و بهذا الجامع درس من قديم الزمان، و لم تزل مئذنته التى جدّدها السالمىّ و البركة إلى سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فولى نظر الجامع بعض الفقهاء، فرأى هدم المئذنة من أجل ميل حدث بها، فهدمها و أبطل الماء من البركة لإفساد الماء بمروره جدار الجامع القبلىّ، و الخطبة قائمة به إلى الآن.

الآمر بأحكام اللّه: أبو علىّ المنصور بن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر لاعزاز دين اللّه أبى الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه أبى علىّ منصور، ولد يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرّم سنة تسعين و أربعمائة، و بويع له بالخلافة يوم مات أبوه و هو طفل له من العمر خمس سنين و أشهر و أيام، فى يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس و تسعين، أحضره الأفضل بن أمير الجيوش و بايع له و نصبه مكان أبيه، و نعته بالآمر بأحكام اللّه، و ركب الأفضل فرسا و جعل فى السرج شيئا و أركبه عليه لينمو شخص الآمر، و صار ظهره فى حجر الأفضل، فلم يزل تحت حجره حتى قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة و خمسمائة، فاستوزر بعده القائد أبا عبد اللّه محمد بن فاتك البطائحىّ، و لقّبه بالمأمون، فقام بأمر دولته إلى أن قبض عليه فى ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة و خمسمائة، فتفرّغ الآمر لنفسه و لم يبق له ضدّ و لا مزاحم، و بقى بغير وزير، و أقام صاحبى ديوان أحدهما جعفر بن عبد المنعم، و الآخر سامرىّ يقال له أبو يعقوب إبراهيم، و معهما مستوف يعرف بابن أبى نجاح كان راهبا، ثم تحكم هذا الراهب فى الناس و تمكن من الدواوين، فابتدأ فى مطالبة النصارى، و حقق فى جهاتهم الأموال و حملها أوّلا فأوّلا، ثم أخذ فى مصادرة بقية المباشرين و المعاملين و الضمناء و العمال، و زاد إلى أن عمّ ضرره جميع الرؤساء و القضاة و الكتاب و السوقة، بحيث لم يخل أحد من ضرره.

فلما تفاقم أمره قبض عليه الآمر و ضرب بالنعال حتى مات بالشرطة، فجر إلى كرسىّ الجسر و سمّر على لوح و طرح فى النيل، و حذف حتى خرج إلى البحر الملح. فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و ثب جماعة على الآمر و قتلوه، كما ذكر عند خبر الهودج، و كان كريما سمحا إلى الغاية، كثير النزهة محبا للمال و الزينة، و كانت أيامه كلها لهوا و عيشة راضية لكثرة عطائه و عطاء حواشيه، بحيث لم يوجد بمصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۱

و القاهرة إذ ذاك من يشكو زمانه البتة إلى أن نكّد بالراهب على الناس، فقبحت سيرته و كثر ظلمه و اغتصابه للأموال.

و فى أيامه ملك الفرنج كثيرا من المعاقل و الحصون بسواحل الشام، فملكت عكا فى شعبان سنة سبع و تسعين، و غزة فى رجب سنة اثنتين و خمسمائة، و طرابلس فى ذى الحجة منها، و بانياس و جبيل و قلعة تبنين فيها أيضا، و ملكوا صور فى سنة ثمان عشرة و خمسمائة، و كثرت المرافعات فى أيامه، و أحدثت رسوم لم تكن، و عمر الهودج بالروضة، و دكة ببركة الحبش، و عمر تنيس و دمياط، و جدّد قصر القرافة، و كانت نفسه تحدّثه بالسفر و الغارة إلى بغداد، و من شعره فى ذلك:

دع اللوم عنى لست منى بموثقفلا بدّلى من صدمة المتحقق

و أسقى جيادى من فرات و دجلةو أجمع شمل الدين بعد التفرّق

و قال:

أما و الذى حجت إلى ركن بيتهجراثيم ركبان مقلدة شهبا

لاقتحمنّ الحرب حتى يقال لىملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا

و ينزل روح اللّه عيسى ابن مريمفيرضى بنا صحبا و نرضى به صحبا

و كان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن و يكتب خطا ضعيفا، و هو الذى جدّد رسوم الدولة و أعاد إليها بهجتها بعد ما كان الأفضل أبطل ذلك، و نقل الدواوين و الأسمطة من القصر بالقاهرة إلى دار الملك بمصر، كما ذكر هناك. و قضاته ابن ذكا النابلسىّ، ثم نعمة اللّه بن بشير، ثم الرشيد محمد بن قاسم الصقلىّ، ثم الجليس بن نعمة اللّه بن بشير النابلسىّ، ثم صرفه ثانيا بمسلم بن الرسغىّ، و عزله بأبى الحجاج يوسف بن أيوب المغربىّ، ثم مات فولى محمد بن هبة اللّه بن ميسر، و كتاب إنشائه سنا الملك أبو محمد الزبيدىّ الحسنىّ، و الشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة، و تاج الرياسة أبو القاسم بن الصيرفىّ، و ابن أبى الدم اليهودىّ. و كان نقش خاتمه: الإمام الآمر بأحكام اللّه أمير المؤمنين. و وقع فى آخر أيامه غلاء قلق الناس منه، و كان جريئا على سفك الدماء و ارتكاب المحظورات و استحسان القبائح، و قتل و عمره أربع و ثلاثون سنة و تسعة أشهر و عشرون يوما، منها مدّة خلافته تسع و عشرون سنة و ثمانية أشهر و نصف، و ما زال محجورا عليه حتى قتل الأفضل، و كان يركب للنزهة دائما عند ما استبدّ، فى يومى السبت و الثلاثاء، و يتحوّل فى أيام النيل بحرمه إلى اللؤلؤة على الخليج، و اختص بغلاميه برغش و هزار الملوك.

يلبغا السالمىّ: أبو المعالى عبد اللّه الأمير سيف الدين الحنفىّ الصوفى الظاهرىّ، كان اسمه فى بلاده يوسف، و هو حرّ الأصل، و آباؤه مسلمون. فلما جلب من بلاد المشرق سمى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۲

يلبغا، و قيل له السالمىّ نسبة إلى سالم، تاجره الذى جلبه، فترقّى فى خدم السلطان الملك الظاهر برقوق إلى أن ولّاه نظر خانقاه الصلاح سعيد السعداء، فى ثامن عشر جمادى الآخرة سنة سبع و تسعين و سبعمائة، فأخرج كتاب الوقف و قصد أن يعمل بشرط الواقف، و أخرج منها جماعة من بياض الناس، فجرت أمور ذكرت فى خبر الخانقاه. و فى سابع عشرى صفر سنة ثمانمائة، أنعم عليه الملك الظاهر بإمرة عشرة عوضا عن الأمير بهادر فطيلس، ثم نقله إلى أمرة طبلخاناه، ثم جعله ناظرا على الخانقاه الشيخونية بالصليبة، فى تاسع شعبان سنة إحدى و ثمانمائة، فعسف بمباشر بها و أراد حملهم على مرّ الحق، فنفرت منه القلوب، و لما مرض الظاهر جعله أحد الأوصياء على تركته، فقام بتحليف المماليك السلطانية للملك الناصر فرج بن برقوق، و الإنفاق عليهم بحضرة الناصر، فأنفق عليهم كل دينار من حساب أربعة و عشرين درهما، و لما انقضت النفقة نودى فى البلدان أنّ صرف كل دينار ثلاثون درهما، و من امتنع نهب ماله و عوقب، فحصل للناس من ذلك شدّة، و كان قد كثر القبض على الأمراء بعد موت الظاهر، فتحدّث مع الأمير الكبير ايتمش القائم بتدبير دولة الناصر فرج بعد موت أبيه فى أن يكون على كلّ أمير من المقدّمين خمسون ألف درهم، و على كلّ أمير من الطبلخاناه عشرون ألف درهم، و على كلّ أمير عشرة خمسة آلاف درهم، و على كلّ أمير خمسة ألفا درهم و خمسمائة درهم. فرسم بذلك و عمل به مدّة ايام الناصر، و حصل به رفق للأمراء و مباشريهم، ثم خلع عليه و استقرّ أستادار السلطان عوضا عن الأمير الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الملكىّ، فى يوم الاثنين ثالث عشرى ذى القعدة من السنة المذكورة، فأبطل تعريف منية بنى خصيب، و ضمان العرصة، و أخصاص الكيالين، و كتب بذلك مرسوما سلطانيا و بعث به إلى والى الأشمونين، و أبطل وفر الشون السلطانية، و ما كان مقرّرا على البرددار و هو فى الشهر سبعة آلاف درهم، و ما كان مقرّرا على مقدّم المستخرج، و هو فى الشهر ثلاثة آلاف درهم، و كانت سماسرة الغلال تأخذ ممن يشترى شيئا من الغلة على كلّ أردب در همين سمسرة، و كيالة و لواحة و أمانة،

فألزمهم أن لا يأخذوا عن كل أردب سوى نصف درهم، و هدّد على ذلك بالغرامة و العقوبة.

و ركب فى صفر سنة ثلاث و ثمانمائة إلى ناحية المنية و شبرا الخيمة من الضواحى بالقاهرة، و كسر منها ما ينيف على أربعين ألف جرّة خمر، و خرّب بها كنيسة كانت للنصارى، و حمل عدّة جرار فكسرها تحت قلعة الجبل، و على باب زويلة، و شدّد على النصارى، فلم يمكنه أمراء الدولة من حملهم على الصغار و المذلة فى ملبسهم، و أمر فضرب الذهب كلّ دينار زنته مثقال واحدا، و أراد بذلك إبطال ما حدث من المعاملة بالذهب الإفرنجيّ، فضرب ذلك و تعامل الناس به مدّة، و صار يقال دينار سالميّ إلى أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۳

ضرب الناصر فرج دنانير و سماها الناصرية، و صار يحكم فى الأحكام الشرعية، فقلق منه أمراء الدولة و قاموا فى ذلك، فمنع من الحكم إلّا فيما يتعلق بالديوان المفرد و غيره مما هو من لوازم الأستادار، و أخذ فى مخاشنة الأمراء عند ما عاد الناصر فرج و قد انهزم من تيمور لنك، و شرع فى إقامة شعار المملكة و النفقة على العساكر التى رجعت منهزمة، فأخذ من بلاد الأمراء و بلاد السلطان عن كلّ ألف دينار فرسا أو خمسمائة درهم ثمنها، و جبى من أملاك القاهرة و مصر و ظواهرهما أجرة شهر، و أخذ من الرزق عن كلّ فدّان عشرة دراهم، و عن الفدّان من القصب المزروع و القلقاس و النيلة نحو مائة درهم، وجبى من البساتين عن كلّ فدّان مائة درهم، و قام بنفسه و كبس الحواصل ليلا و نهارا و معه جماعة من الفقهاء و غيرهم، و أخذ مما فيها من الذهب و الفضة و الفلوس نصف ما يجد، سواء كان صاحب المال غائبا أو حاضرا، فعمّ ذلك أموال التجار و الأيتام و غيرهم من سائر من وجد له مال، و أخذ ما كان فى الجوامع و المدارس و غيرها من الحواصل، فشمل الناس من ذلك ضرر عظيم، و صار يؤخذ من كل مائة درهم ثلاثة دراهم عن أجرة صرف، و ستة دراهم عن أجرة الرسول، و عشرة دراهم عن أجرة نقيب، فنفرت منه القلوب و انطلقت الألسن بذمّه و الدعاء عليه، و عرض مع ذلك الجند و ألزم من له قدرة على السفر بالتجهز للسفر إلى الشام لقتال تيمور لنك، و من وجده عاجزا عن السفر ألزمه بحمل نصف متحصل إقطاعه، فقبض عليه فى يوم الاثنين رابع عشر رجب سنة ثلاث و ثمانمائة، و سلّم للقاضى سعد الدين إبراهيم بن غراب، و قرّر مكانه فى الاستادارية، فلم يزل إلى يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، فأمر بإطلاقه بعد أن حصر و أهين إهانة كبيرة، ثم قبض عليه و ضرب ضربا مبرّحا حتى أشفى على الموت، و أطلق فى نصف ذى القعدة و هو مريض، فأخرج إلى دمياط و أقام بها مدّة، ثم أحضر إلى القاهرة و قلّد وظيفة الوزارة فى سنة خمس و ثمانمائة، و جعل مشيرا، فأبطل مكوس البحيرة و هو ما يؤخذ على ما يذبح من البقر و الغنم، و استعمل فى أموره العسف، و ترك مداراة الأمراء، و استعجل فقبض عليه و عوقب و سجن إلى أن أخرج فى رمضان سنة سبع و ثمانمائة و قلّد وظيفة الإشارة، و كانت للأمير جمال الدين يوسف الأستادار، فلم يترك عادته فى الإعجاب برأيه و الاستبداد بالأمور، و استعجال الأشياء قبل أوانها، فقبض عليه فى ذى الحجة منها و سلّم للأمير جمال الدين يوسف، فعاقبه و بعث به إلى الإسكندرية، فسجن بها إلى أن سعى جمال الدين فى قتله بمال بذله للناصر فيه حتى أذن له فى ذلك، فقتل خنقا عصر يوم الجمعة و هو صائم السابع عشر من جمادى الآخرة، سنة إحدى عشرة و ثمانمائة رحمه اللّه، و كان كثير النسك من الصلاة و الصوم و الصدقة، لا يخلّ بشىء من نوافل العبادات، و لا يترك قيام الليل سفرا و لا حضرا، و لا يصلى قط إلّا بوضوء جديد، و كلما أحدث توضأ، و إذا توضأ صلّى ركعتين، و كان يصوم يوما و يفطر يوما، و يخرج فى كثرة الصدقات عن الحدّ، و يقرأ فيه كلّ ثلاثة أيام ختمة، و لا يترك أوراده فى حال من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۴

الأحوال مع المروءة و الهمة، و سمع كثيرا من الحديث، و قرأ بنفسه على المشايخ، و كتب الخط المليح، و قرأ القراءات السبع، و عرف التصوّف و الفقه و الحساب و النجوم، إلّا أنه كان متهوّرا فى أخذ الأموال عسوفا لجوجا مصمما لا ينقاد إلى أحد، و يستبدّ برأيه فيغلط غلطات لا تحتمل، و يستخف بغيره، و يعجب بنفسه، و يريد أن يجعل غاية الأمور بدايتها، فلذلك لم يتمّ له أمر.

هذا الجامع بالقاهرة فى وسط السوق الذى كان يعرف قديما بسوق السرّاجين، و يعرف اليوم بسوق الشوّايين، كان يقال له الجامع الأفخر، و يقال له اليوم جامع الفاكهيين، و هو من المساجد الفاطمية، عمره الخليفة الظافر بنصر اللّه أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين اللّه أبى الميمون عبد المجيد بن الآمر بأحكام اللّه منصور، و وقف حوانيته على سدنته و من يقرأ فيه. قال ابن عبد الظاهر: بناه الظافر، و كان قبل ذلك زريبة تعرف بدار الكباش، و بناه فى سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة، و سبب بنائه أن خادما رأى من مشرف عال ذباحا و قد أخذ رأسين من الغنم، فذبح أحدهما ورمى سكينته و مضى ليقضى حاجته، فأتى رأس الغنم الآخر و أخذ السكين بفمه و رماها فى البالوعة، فجاء الجزّار يطوف على السكين، فلم يجدها، و أما الخادم فإنه استصرخ و خلصه منه، و طولع بهذه القضية أهل القصر، فأمروا بعمله جامعا، و يسمى الجامع الأفخر، و به حلقة تدريس و فقهاء و متصدّرون للقرآن، و أوّل ما أقيمت به الجمعة فى ... .

جامع الصالح

اشارة

هذا الجامع من المواضع التى عمرت فى زمن الخلفاء الفاطميين، و هو خارج باب زويلة. قال ابن عبد الظاهر: كان الصالح طلائع بن رزيك لما خيف على مشهد الإمام الحسين رضى اللّه عنه إذ كان بعسقلان من هجمة الفرنج، و عزم على نقله، قد بنى هذا الجامع ليدفنه به، فلما فرغ منه لم يمكنه الخليفة من ذلك و قال: لا يكون إلّا داخل القصور الزاهرة، و بنى المشهد الموجود الآن و دفن به، و تمّ الجامع المذكور، و استمرّ جلوس زين الدين الواعظ به، و حضور الصالح إليه. فيقال أنّ الصالح لما حضرته الوفاة جمع أهله و أولاده و قال لهم فى جملة وصيته: ما ندمت قط فى شىء عملته إلّا فى ثلاثة، الأوّل بنائى هذا الجامع على باب القاهرة، فإنه صار عونا لها. و الثانى: توليتى لشاور الصعيد الأعلى.

و الثالث: خروجى إلى بلبيس بالعساكر و إنفاقى الأموال الجمة، و لم أتم بهم إلى الشام و أفتح بيت المقدس و استأصل ساقة الفرنج. و كان قد أنفق فى العساكر فى تلك الدفعة مائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۵

ألف دينار، و بنى فى الجامع المذكور صهريجا عظيما، و جعل ساقية على الخليج قريب باب الخرق تملأ الصهريج المذكور أيام النيل، و جعل المجارى إليه، و أقيمت الجمعة فيه فى الأيام المعزية فى سنة بضع و خمسين و ستمائة بحضور رسول بغداد الشيخ نجم الدين عبد اللّه البادرانىّ، و خطب به أصيل الدين أبو بكر الأسعردىّ، و هى إلى الآن، و لما حدثت الزلزلة سنة اثنتين و سبعمائة تهدّم، فعمر على يد الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار.

طلائع بن رزيك: أبو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، قدم فى أوّل أمره إلى زيارة مشهد الإمام علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه بأرض النجف من العراق فى جماعة من الفقراء، و كان من الشيعة الإمامية، و إمام مشهد علىّ رضى اللّه عنه يومئذ السيد ابن معصوم، فزار طلائع و أصحابه و باتوا هنالك، فرأى ابن معصوم فى منامه علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه و هو يقول له: قد ورد عليك الليلة أربعون فقيرا، من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من أكبر محبينا، قل له اذهب فقد ولياك مصر. فلما أصبح أمر أن ينادى: من فيكم طلائع بن رزيك فليقم إلى السيد ابن معصوم. فجاء طلائع و سلّم عليه، فقصّ عليه ما رأى، فسار حينئذ إلى مصر و ترقى فى الخدم حتى ولى منية بنى خصيب، فلما قتل نصر بن عباس، الخليفة الظافر، بعث نساء القصر إلى طلائع يستغثن به فى الأخذ بثار الظافر، و جعلن فى طىّ الكتب شعور النساء، فجمع طلائع عندما وردت عليه الكتب الناس، و سار يريد القاهرة لمحاربة الوزير عباس، فعندما قرب من البلد فرّ عباس و دخل طلائع إلى القاهرة، فخلع عليه خلع الوزارة و نعت بالملك

الصالح فارس المسلمين نصير الدين، فباشر البلاد أحسن مباشرة، و استبدّ بالأمر لصغر سنّ الخليفة الفائز بنصر اللّه إلى أن مات، فأقام من بعده عبد اللّه بن محمد و لقبه بالعاضد لدين اللّه، و بايع له، و كان صغيرا لم يبلغ الحلم، فقويت حرمة طلائع و ازداد تمكنه من الدولة، فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم، و استبداده بالأمر دونهم، فوقف له رجال بدهاليز القصر و ضربوه حتى سقط على الأرض على وجهه، و حمل جريحا لا يعى إلى داره، فمات يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان سنة ست و خمسين و خمسمائة، و كان شجاعا كريما جوادا فاضلا محبا لأهل الأدب جيد الشعر، رجل وقته فضلا و عقلا و سياسة و تدبيرا، و كان مهابا فى شكله، عظيما فى سطوته، و جمع أموالا عظيمة، و كان محافظا على الصلوات فرائضها و نوافلها، شديد المغالات فى التشيع، صنف كتابا سماه الاعتماد فى الردّ على أهل العناد، جمع له الفقهاء و ناظرهم عليه، و هو يتضمن إمامة علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و الكلام على الأحاديث الواردة فى ذلك، و له شعر كثير يشتمل على مجلدين فى كلّ فن، فمنه فى اعتقاده:

يا أمة سلكت ضلالا بيناحتى استوى إقرارها و جحودها

ملتم إلى أنّ المعاصى لم يكنإلّا بتقدير الإله وجودها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۶ لو صح ذا كان الإله بزعمكممنع الشريعة أن تقام حدودها

حاشا و كلّا أنّ يكون إلهنايهنى عن الفحشاء ثم يريدها

و له قصيدة سماها الجوهرية، فى الردّ على القدرية، و جدّد الجامع الذى بالقرافة الكبرى، و وقف ناحية بلقس على أن يكون ثلثاها على الأشراف من بنى حسن و بنى حسين ابنى علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، و سبع قراريط منها على أشراف المدينة النبوية، و جعل فيها قيراطا على بنى معصوم إمام مشهد علىّ رضى اللّه عنه، و لما ولى الوزارة مال على المستخدمين بالدولة و على الأمراء، و أظهر مذهب الإمامية و هو مخالف لمذهب القوم، و باع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقرّرة، و جعل مدة كلّ متولى ستة أشهر، فتضرّر الناس من كثرة تردّد الولاة على البلاد، و تعبوا من ذلك، و كان له مجلس فى الليل يحضره أهل العلم و يدوّنون شعره، و لم يترك مدّة أيامه غزو الفرنج و تسيير الجيوش لقتالهم فى البرّ و البحر، و كان يخرج البعوث فى كل سنة مرارا، و كان يحمل فى كلّ عام إلى أهل الحرمين مكة و المدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة و غيرها، حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها، و الأقلام و المداد و آلات النساء، و يحمل كلّ سنة إلى العلويين الذين بالمشاهد جملا كبيرة، و كان أهل العلم يغدون إليه من سائر البلاد، فلا يخيب أمل قاصد منهم.

و لما كان فى الليلة التى قتل صبيحتها قال: فى هذه الليلة ضرب فى مثلها أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و أمر بقربة ممتلئة فاغتسل و صلّى على رأى الإمامية مائة و عشرين ركعة، أحيا بها ليله، و خرج ليركب فعثر و سقطت عمامته عن رأسه و تشوّشت، فقعد فى دهليز دار الوزارة و أمر بإحضار ابن الضيف، و كان يتعمم للخلفاء و الوزراء، و له على ذلك الجارى الثقيل، فلما أخذ فى إصلاح العمامة قال رجل للصالح:

نعيذ بالله مولانا، و يكفيه هذا الذى جرى أمرا يتطير منه، فإن رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل، فقال: الطيرة من الشيطان، ليس إلى تأخير الركوب سبيل، و ركب فكان من ضربه ما كان، و عاد محمولا فمات منها كما تقدّم.

ذكر الأحباس و ما كان يعمل فيها

اعلم أن الأحباس فى القديم لم تكن تعرف إلّا فى الرباع و ما يجرى مجراها من المبانى، و كلها كانت على جهات برّ. فأما المسجد الجامع العتيق بمصر، فكان يلى إمامته فى الصلوات الخمس، و الخطابة فيه يوم الجمعة، و الصلاة بالناس صلاة الجمعة أمير البلد، فتارة يجمع للأمير بين الصلاة و الخراج، و تارة يفرد الخراج عن الأمير، فيكون الأمير إليه أمر الصلاة بالناس و الحرب، و الآخر أمر الخراج، و هو دون مرتبة أمير الصلاة و الحرب، و كان الأمير يستخلف عنه فى الصلاة صاحب الشرطة إذا شغله أمر، و لم يزل الأمر على ذلك

إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۷

أن ولى مصر عنبسة بن إسحاق بن شمر من قبل المستنصر بن المتوكل على الصلاة و الخراج، فقدمها لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمان و ثلاثين و مائتين، و أقام إلى مستهل رجب سنة اثنتين و أربعين و مائتين، و صرف فكان آخر من ولى مصر من العرب، و آخر أمير صلّى بالناس فى المسجد الجامع، و صار يصلّى بالناس رجل يرزق من بيت المال، و كذلك المؤذنون و نحوهم، و أما الأراضى فلم يكن سلف الأمّة من الصحابة و التابعين يتعرّضون لها، و إنما حدث ذلك بعد عصرهم، حتى أنّ أحمد بن طولون لما بنى الجامع و المارستان و السقاية، و حبس على ذلك الأحباس الكثيرة، لم يكن فيها سوى الرباع و نحوها بمصر، و لم يتعرّض إلى شىء من أراضى مصر البتة، و حبس أبو بكر محمد بن علىّ المارداني بركة الحبش و سيوط و غيرهما على الحرمين و على جهات برّ، و حبس غيره أيضا.

فلما قدمت الدولة الفاطمية من الغرب إلى مصر، بطل تحبيس البلاد، و صار قاضى القضاة يتولى أمر الأحباس من الرباع، و إليه أمر الجوامع و المشاهد، و صار للإحباس ديوان مفرد، و أوّل ما قدم المعز أمر فى ربيع الآخر سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة بحمل مال الأحباس من المودع إلى بيت المال الذى لوجوه البرّ، و طولب أصحاب الأحباس بالشرائط ليحملوا عليها. و ما يجب لهم فيها، و للنصف من شعبان ضمن الأحباس محمد بن القاضى أبى الطاهر محمد بن أحمد بألف ألف و خمسمائة ألف درهم فى كلّ سنة، يدفع إلى المستحقين حقوقهم و يحمل ما بقى إلى بيت المال. و قال ابن الطوير: الخدمة فى ديوان الأحباس و هو أوفر الدواوين مباشرة، و لا يخدم فيه إلّا أعيان كتّاب المسلمين من الشهود المعدّلين، بحكم أنها معاملة دينية، و فيها عدّة مدبرين ينوبون عن أرباب هذه الخدم فى إيجاب أرزاقهم من ديوان الرواتب، و ينجزون لهم الخروج بإطلاق أرزاقهم، و لا يوجب لأحد من هؤلاء خرج إلّا بعد حضور ورقة التعريف، من جهة مشارف الجوامع و المساجد باستمرار خدمته ذلك الشهر جميعه، و من تأخر تعريفه تأخر الإيجاب له، و إن تمادى ذلك استبدل به، أو توفر ما باسمه لمصلحة أخرى، خلا جوارى المشاهد فإنها لا توفر، لكنها تنقل من مقصر إلى ملازم، و كان يطلق لكل مشهد خمسون درهما فى الشهر برسم الماء لزوّارها، و يجرى من معاملة سواقى السبيل بالقرافة و النفقة عليها من ارتفاعه، فلا تخلو المصانع و لا الأحواض من الماء أبدا، و لا يعترض أحد من الانتفاع به، و كان فيه كاتبان و معينان.

و قال المسبحى فى حوادث سنة ثلاث و أربعمائة: و أمر الحاكم بأمر اللّه بإثبات المساجد التى لا غلة لها، و لا أحد يقوم بها، و ماله منها غلة لا تقوم بما يحتاج إليه، فأثبت فى عمل، و رفع إلى الحاكم بأمر اللّه، فكانت عدّة المساجد على الشرح المذكور ثمانمائة و ثلاثين مسجدا، و مبلغ ما تحتاج إليه من النفقة فى كلّ شهر تسعة آلاف و مائتان و عشرون درهما. على أنّ لكلّ مسجد فى كلّ شهر اثنى عشر درهما. و قال فى حوادث سنة خمس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۸

و أربعمائة: و قرىء يوم الجمعة ثامن عشرى صفر سجل بتحبيس عدّة ضياع، و هى: اطفيح وصول و طوخ و ست ضياع أخر، و عدّة قياسر و غيرها على القرّاء و الفقهاء و المؤذنين بالجوامع، و على المصانع و القوّام بها، و نفقة المارستانات و أرزاق المستخدمين فيها و ثمن الأكفان.

و قال الشريف بن أسعد الجوّانىّ: كان القضاة بمصر إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يوما على المساجد و المشاهد بمصر و القاهرة يبدأون بجامع المقس، ثم القاهرة، ثم المشاهد، ثم القرافة، ثم جامع مصر، ثم مشهد الرأس لنظر حصر ذلك و قناديله و عمارته و ما تشعث منه، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية. فلما استقرّت دولة بنى أيوب أضيفت الأحباس أيضا إلى القاضى، ثم تفرّقت جهات الأحباس فى الدولة التركية و صارت إلى يومنا هذا ثلاث جهات: الأولى تعرف بالأحباس، و يلى هذه الجهة دوادار السلطان، و هو أحد الأمراء و معه ناظر الأحباس، و لا يكون إلّا من أعيان الرؤساء، و بهذه الجهة ديوان فيه عدّة كتاب و

مدبر، و أكثر ما فى ديوان الأحباس الرزق الإحباسية، و هى أراض من أعمال مصر على المساجد و الزوايا للقيام بمصالحها، و على غير ذلك من جهات البرّ، و بلغت الرزق الإحباسية فى سنة أربعين و سبعمائة عند ما حرّرها النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، مائة ألف و ثلاثين ألف فدّان، عمل النشو بها أوراقا، و حدّث السلطان فى إخراجها عمن هى باسمه و قال: جميع هذه الرزق أخرجها الدواوين بالبراطيل و التقرّب إلى الأمراء و الحكام، و أكثرها بأيدى أناس من فقهاء الأرياف لا يدرون الفقه، يسمون أنفسهم الخطباء، و لا يعرفون كيف يخطبون و لا يقرءون القرآن، و كثير منها بأسماء مساجد و زوايا معطلة و خراب، و حسن له أن يقيم شادّا و ديوانا يسير فى النواحى و ينظر فى المساجد التى هى عامرة، و يصرف لها من رزقها النصف، و ما عدا ذلك يجرى فى ديوان السلطان. فعاجله اللّه و قبض عليه قبل عمل شىء من ذلك.

الجهة الثانية تعرف بالأوقاف الحكمية بمصر و القاهرة، ويلى هذه الجهة قاضى القضاة الشافعىّ، و فيها ما حبس من الرباع على الحرمين و على الصدقات و الأسرى و أنواع القرب، و يقال لمن يتولى هذه الجهة ناظر الأوقاف، فتارة ينفرد بنظر أوقاف مصر و القاهرة رجل واحد من أعيان نوّاب القاضى، و تارة ينفرد بأوقاف القاهرة ناظر من الأعيان، و يلى نظر أوقاف مصر آخر، و لكلّ من أوقاف البلدين ديوان فيه كتّاب و جباة، و كانت جهة عامرة يتحصل منها أموال جمة، فيصرف منها لأهل الحرمين أموال عظيمة فى كلّ سنة، تحمل من مصر إليهم مع من يثق به قاضى القضاة، و تفرّق هناك صررا، و يصرف منها أيضا بمصر و القاهرة لطلبة العلم و لأهل الستر و للفقراء شىء كثير، إلّا أنها اختلت و تلاشت فى زمننا هذا، و عما قليل إن دام ما نحن فيه لم يبق لها أثر البتة، و سبب ذلك أنه ولى قضاء الحنفية كمال الدين عمر بن العديم فى أيام الملك الناصر فرج، و ولاية الأمير جمال الدين يوسف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۹

تدبير الأمور و المملكة، فتظاهرا معا على إتلاف الأوقاف، فكان جمال الدين إذا أراد أخذ وقف من الأوقاف، أقام شاهدين يشهدان بأن هذا المكان يضرّ بالجار و المارّ، و أن الحظ فيه.

أن يستبدل به غيره، فيحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم باستبدال ذلك، و شره جمال الدين فى هذا الفعل كما شره فى غيره، فحكم له المذكور باستبدال القصور العامرة، و الدور الجليلة بهذه الطريقة، و الناس على دين ملكهم، فصار كلّ من يريد بيع وقف أو شراء وقف سعى عند القاضى المذكور بجاه أو مال، فيحكم له بما يريد من ذلك، و استدرج غيره من القضاة إلى نوع آخر، و هو أن تقام شهود القيمة فيشهدون بأن هذا الوقف ضارّ بالجار و المار، و أن الحظ و المصلحة فى بيعه أنقاضا، فيحكم قاض شافعىّ المذهب ببيع تلك الأنقاض. و استمرّ الأمر على هذا إلى وقتنا هذا الذى نحن فيه، ثم زاد بعض سفهاء قضاة زمننا فى المعنى و حكم ببيع المساجد الجامعة إذا خرب ما حولها، و أخذ ذريعة واقفها ثمن أنقاضها، و حكم آخر منهم ببيع الوقف و دفع الثمن لمستحقه من غير شراء بدل، فامتدّت الأيدى لبيع الأوقاف حتى تلف بذلك سائر ما كان فى قرافتى مصر من الترب، و جميع ما كان من الدور الجليلة، و المساكن الأنيقة، بمصر الفسطاط و منشأة المهرانىّ و منشأة الكتاب و زريبة قوصون و حكر ابن الأثير و سويقة الموفق، و ما كان فى الحكورة من ذلك، و ما كان بالجوّانية و العطوفية و غيرها من حارات القاهرة و غيرها، فكان ما ذكر أحد أسباب الخراب، كما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب.

الجهة الثالثة: الأوقاف الأهلية، و هى التى لها ناظر خاص، إمّا من أولاد الواقف أو من ولاة السلطان أو القاضى، و فى هذه الجهة الخوانك و المدارس و الجوامع و الترب، و كان متحصلها قد خرج عن الحدّ فى الكثرة لما حدث فى الدولة التركية من بناء المدارس و الجوامع و الترب و غيرهما، و صاروا يفردون أراضى من أعمال مصر و الشامات، و فيها بلاد مقرّرة، و يقيمون صورة يتملكونها بها و يجعلونها وقفا على مصارف كما يريدون، فلما استبدّ الأمير برقوق بأمر بلاد مصر قبل أن يتلقب باسم السلطنة، همّ بارتجاع هذه البلاد و عقد مجلسا فيه شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينىّ، و قاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء، و غيره. فلم يتهيأ له ذلك، فلما جلس على تخت الملك صار أمراؤه يستأجرون هذه النواحى من جهات الأوقاف، و يؤجرونها للفلاحين بأزيد مما

استأجروا، فلما مات الظاهر فحش الأمر فى ذلك و استولى أهل الدولة على جميع الأراضى الموقوفة بمصر و الشامات، و صار أجودهم من يدفع فيها لمن يستحق ريعها عشر ما يحصل له، و إلّا فكثير منهم لا يدفع شيئا البتة، لا سيما ما كان من ذلك فى بلاد الشام، فإنه استهلك و أخذ، و لذلك كان أسوأ الناس حالا فى هذه المحن التى حدثت منذ سنة ست و ثمانمائة الفقهاء، لخراب الموقوف عليها و بيعه و استيلاء أهل الدولة على الأراضى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۰

الجامع بجوار تربة الشافعىّ بالقرافة

هذا الجامع كان مسجدا صغيرا، فلما كثر الناس بالقرافة الصغرى عندما عمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة بجوار قبر الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه، و جعل لها مدرّسا و طلبة، زاد الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى المسجد المذكور، و نصب به منبرا و خطب فيه، و صليت الجمعة به فى سنة سبع و ستمائة.

جامع محمود بالقرافة

هذا المسجد قديم و الخطبة فيه متجدّدة، و ينسب لمحمود بن سالم بن مالك الطويل، من أجناد السرىّ بن الحكم أمير مصر بعد سنة مائتين من الهجرة. قال القضاعىّ: المسجد المعروف بمحمود، يقال أن محمودا هذا كان رجلا جنديا من جند السرىّ بن الحكم أمير مصر، و أنه هو الذى بنى هذا المسجد، و ذلك أنّ السرىّ بن الحكم ركب يوما فعارضه رجل فى طريقه فكلمه و وعظه بما غاظه، فالتفت عن يمينه فرأى محمودا، فأمره بضرب عنق الرجل ففعل. فلما رجع محمود إلى منزله تفكر و ندم و قال: رجل يتكلم بموعظة بحق فيقتل بيدى و أنا طائع غير مكره على ذلك، فهلا امتنعت، و كثر أسفه و بكاؤه و آلى على نفسه أن يخرج من الجندية و لا يعود فيها، و لم ينم ليلته من الغمّ و الندم، فلما أصبح غدا إلى السرىّ فقال له: إنى لم أنم فى هذه الليلة على قتل الرجل، و أنا أشهد اللّه عز و جلّ و أشهدك أنى لا أعود فى الجندية، فأسقط اسمى منهم، و إن أردت نعمتى فهى بين يديك، و خرج من بين يديه و حسنت توبته و أقبل على العبادة، و اتخذ المسجد المعروف بمسجد محمود و أقام فيه.

و قال ابن المتوج: المسجد الجامع المشهور بسفح المقطم، هذا الجامع من مساجد الخطبة، و هو بسفح الجبل المقطم بالقرافة الصغرى، و أوّل من خطب فيه السيد الشريف شهاب الدين الحسين بن محمد قاضى العسكر، و المدرّس بالمدرسة الناصرية الصلاحية بجوار جامع عمرو، و به عرفت بالشريفية و سفير الخلافة المعظمة، و توفى فى شوّال سنة خمس و خمسين و ستمائة، و كان أيضا نقيب الأشراف.

جامع الروضة بقلعة جزيرة الفسطاط

قال ابن المتوج: هذا الجامع عمره السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، و كان أمام بابه كنيسة تعرف بابن لقلق بترك اليعاقبة، و كان بها بئر مالحة، و ذلك مما عدّ من عجائب مصر أن فى وسط النيل جزيرة بوسطها بئر مالحة، و هذه البئر التى رأيتها كانت قبالة باب المسجد الجامع، و إنما ردمت بعد ذلك، و هذا الجامع لم يزل بيد بنى الرّدّاد و لهم نوّاب عنهم فيه، ثم لما كانت أيام السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودىّ هدم هذا الجامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۱

فى شهر رجب سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة، و وسعه بدور كانت إلى جانبه، و شرع فى عمارته فمات قبل الفراغ منه.

جامع غين بالروضة

قال ابن المتوّج: المسجد الجامع بروضة مصر يعرف بجامع غين، و هو القديم، و لم تزل الخطبة قائمة فيه إلى أن عمر جامع المقياس فبطلت الخطبة منه، و لم تزل الخطبة بطالة منه إلى الدولة الظاهرية، فكثرت عمائر الناس حوله فى الروضة و قلّ الناس فى القلعة، و صاروا يجدون مشقة فى مشيهم من أوائل الروضة، و عمر الصاحب محيى الدين أحمد ولد الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا داره على خوخة الفقيه نصر قبالة هذا الجامع، فحسن له إقامة الجمعة فى هذا الجامع لقربه منه و من الناس، فتحدّث مع والده فشاور السلطان الملك الظاهر بيبرس، فوقع منه بموقع لكثرة ركوبه بحر النيل و اعتنائه بعمارة الشوانى و لعبها فى البحر، و نظره إلى كثرة الخلائق بالروضة، و رسم بإقامة الخطبة فيه مع بقاء الخطبة بجامع القلعة لقوّة نيته فى عمارتها على ما كانت عليه، فأقيمت الخطبة به فى سنة ستين و ستمائة، و ولى خطابته أقضى القضاة جمال الدين بن الغفارىّ، و كان ينوب بالجيزة فى الحكم، ثم ناب فى الحكم بمصر عن قاضى القضاة وجيه الدين البهنسىّ، و كان إمامه فى حال عطلته من الخطبة، فلما أقيمت فيه الخطبة أضيفت إليه الخطابة فيه مع الإمامة. غين أحد خدّام الخليفة الحاكم بأمر اللّه، خلع عليه فى تاسع ربيع الآخر سنة اثنتين و أربعمائة، و قلده سيفا و أعطاه سجلا قرىء فإذا فيه أنه لقب بقائد القوّاد، و أمر أن يكتب بذلك و يكاتب به، و ركب و بين يديه عشرة أفراس بسروجها و لجمها، و فى ذى القعدة من السنة المذكورة أنفذ إليه الحاكم خمسة آلف دينار، و خمسة و عشرين فرسا بسروجها و لجمها، و قلده الشرطتين و الحسبة بالقاهرة و مصر و الجيزة، و النظر فى أمور الجميع و أموالهم و أحوالهم كلها، و كتب له سجلا بذلك قرىء بالجامع العتيق، فنزل إلى الجامع و معه سائر العسكر و الخلع عليه، و حمل على فرسين، و كان فى سجله مراعاة أمر النبيذ و غيره من المسكرات، و تتبع ذلك و التشديد فيه، و فى المنع من عمل الفقاع و بيعه، و من أكل الملوخيا و السمك الذى لا قشر له، و المنع من الملاهى كلها، و التقدّم بمنع النساء من حضور الجنائز، و المنع من بيع العسل، و أن لا يتجاوز فى بيعه أكثر من ثلاثة أرطال لمن لا يسبق إليه ظنه أن يتخذ منه مسكرا، فاستمرّ ذلك إلى غرّة صفر سنة أربع و أربعمائة، فصرف عن الشرطتين و الحسبة بمظفر الصقلىّ. فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر منها، أمر بقطع يدى كاتبه أبى القاسم علىّ بن أحمد الجرجانىّ فقطعتا جميعا، و ذلك أنه كان يكتب عند السيدة الشريفة أخت الحاكم، فانتقل من خدمتها إلى خدمة غين خوفا على نفسه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۲

من خدمتها، فسخطت لذلك، فبعث إليها يستعطفها و يذكر فى رقعته شيئا وقفت عليه، فارتابت منه فظنت أن ذلك حيلة عليها، و أنفذت الرقعة فى طىّ رقعتها إلى الحاكم، فلما وقف عليها اشتدّ غضبه و أمر بقطع يديه جميعا فقطعتا، و قيل بل كان غين هو الذى يوصل رقاع عقيل صاحب الخبر إلى الحاكم فى كلّ يوم، فيأخذها من عقيل و هى مختومة بخاتمه و يدفعها لكاتبه أبى القاسم الجرجانىّ، حتى يخلو له وجه الحاكم فيأخذها حينئذ من كاتبه و يوقفه عليها، و كان الجرجانىّ يفك الختم و يقرأ الرقاع، فلما كان فى يوم من الأيام فك رقعة فوجد فيها طعنا على غين أستاذه، و قد ذكر فيها بسوء، فقطع ذلك الموضع و أصلحه و أعاد ختم الرقعة، فبلغ ذلك عقيلا صاحب الخبر فبعث إلى الحاكم يستأذنه فى الاجتماع به خلوة فى أمر مهم، فأذن له، و حدّثه بالخبر، فأمر حينئذ بقطع يدى الجرجانىّ فقطعتا، ثم بعد قطع يديه بخمسة عشر يوما فى ثالث جمادى الأولى، قطعت يد غين الأخرى، و كان قد أمر بقطع يده قبل ذلك بثلاث سنين و شهر، فصار مقطوع اليدين معا، و لما قطعت يده حملت فى طبق إلى الحاكم، فبعث إليه بالأطباء و وصله بألوف من الذهب و عدّة من أسفاط ثياب، و عاده جميع أهل الدولة، فلما كان ثالث عشره أمر بقطع لسانه فقطع و حمل إلى الحاكم، فسيّر إليه الأطباء و مات بعد ذلك.

جامع الأفرم

قال ابن المتوّج: هذا الجامع بسفح الرصد، عمره الأمير عز الدين أيبك بن عبد اللّه المعروف بالأفرم أمير جاندار الملكىّ الصالحىّ

النجميّ، فى شهور سنة ثلاث و ستين و ستمائة، لما عمر المنظرة هناك، و عمر بجوارها رباطا للفقراء، و قرّرهم عدّة تنعقد بهم الجمعة، و قرّر إقامتهم فيه ليلا و نهارا، و قرّر كفايتهم و إعانتهم على الإقامة، و عمر لهم هذا الجامع يستغنون به عن السعى إلى غيره، و ذكر أن الأفرم أيضا عمر مسجدا بجسر الشعيبية فى شعبان سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، جامعا هدم فيه عدّة مساجد.

الجامع بمنشأة المهرانىّ

قال ابن المتوّج: و السبب فى عمارة هذا الجامع، أن القاضى الفاضل كان له بستان عظيم فيما بين ميدان اللوق و بستان الخشاب، الذى أكله البحر، و كان يمير مصر و القاهرة من ثماره و أعنابه، و لم تزل الباعة ينادون على العنب رحم اللّه الفاضل يا عنب إلى مدّة سنين عديدة بعد أن أكله البحر، و كان قد عمر إلى جانبه جامعا و بنى حوله، فسميت بمنشأة الفاضل، و كان خطيبه أخا الفقيه موفق الدين بن المهدوىّ الديباجىّ العثمانىّ، و كان قد عمر بجواره دارا و بستانا و غرس فيه أشجارا حسنة، و دفع إليه ألف دينار مصرية فى أوّل الدولة الظاهرية، و كان الصرف قد بلغ فى ذلك الوقت كل دينار ثمانية و عشرين درهما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۳

و نصف درهم نقرة ، فاستولى البحر على الجامع و الدار و المنشأة، و قطع جميع ذلك حتى لم يبق له أثر، و كان خطيبه موفق الدين يسكن بجوار الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن حنا، و يتردّد إليه و إلى والده محيى الدين، فوقف و ضرع إليهما و قال: أكون غلام هذا الباب و يخرب جامعى، فرحمه الصاحب و قال: السمع و الطاعة يدبر اللّه، ثم فكر فى هذه البقعة التى فيها هذا الجامع الآن، و كانت تعرف بالكوم الأحمر، مرصدة لعمل أقمنة الطوب الآجرية، سميت بالكوم الأحمر، و كان الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن حنا، قد عمر منظرة قبالة هذا الكوم، و هى التى صارت دار ابن صاحب الموصل، و كان فخر الدين كثير الإقامة فيها مدّة الأيام المعزية، فقلق من دخان الأقمنة التى على الكوم الأحمر، و شكا ذلك لوالده و لصهره الوزير شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، فأمرا بتقويمه، فقوّم ما بين بستان الحلىّ و بحر النيل و ابتاعه الصاحب بهاء الدين، فلما مات ولده فخر الدين و تحدّث مع الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع هناك، ملّكه هذه القطعة من الأرض، فعمر السلطان بها هذا الجامع و وقف عليه بقية هذه الأرض المذكورة، فى شهر رمضان سنة إحدى و سبعين و ستمائة، و جعل النظر فيه لأولاده و ذريته، ثم من بعدهم لقاضى القضاة الحنفىّ، و أوّل من خطب فيه الفقيه موفق الدين محمد بن أبى بكر المهدوىّ العثمانىّ الديباجىّ إلى أن توفى يوم الأربعاء، ثالث عشر شوّال سنة خمس و ثمانين و ستمائة، و قد تعطلت إقامة الجمعة من هذا الجامع لخراب ما حوله، و قلة الساكنين هناك، بعد أن كانت تلك الخطة فى غاية العمارة، و كان صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب قد عزم على نقل هذا الجامع من مكانه، فاخترمته المنية قبل ذلك.

جامع دير الطين

قال ابن المتوّج: هذا الجامع بدير الطين فى الجانب الشرقىّ، عمره الصاحب تاج الدين بن الصاحب فخر الدين ولد الصاحب بهاء الدين، المشهور بابن حنا، فى المحرّم سنة اثنتين و سبعين و ستمائة، و ذلك أنه لما عمر بستان المعشوق و مناظره و كثرت إقامته بها، و بعد عليه الجامع، و كان جامع دير الطين ضيقا لا يسع الناس، فعمر هذا الجامع و عمر فوقه طبقة يصلى فيها و يعتكف إذا شاء، و يخلو بنفسه فيها. و كان ماء النيل فى زمنه يصل إلى جدار هذا الجامع، و ولى خطابته للفقيه جمال الدين محمد ابن الماشطة، و منعه من لبس السواد لأداء الخطبة، فاستمرّ إلى حين وفاته فى عاشر رجب سنة تسع و سبعمائة، و أوّل خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة سابع صفر سنة اثنتين و سبعين و ستمائة، و قد ذكرت ترجمة الصاحب تاج الدين عند ذكر رباط الآثار من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۴

محمد بن علىّ بن محمد بن سليم بن حنا: أبو عبد اللّه الوزير الصاحب فخر الدين بن الوزير الصاحب بهاء الدين، ولد فى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، و تزوّج بابنة الوزير الصاحب شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، و ناب عن والده فى الوزارة، و ولى ديوان الأحباس و وزارة الصحبة فى أيام الظاهر بيبرس، و سمع الحديث بالقاهرة و دمشق، و حدّث، و له شعر جيد، و درس بمدرسة أبيه الصاحب بهاء الدين التى كانت فى زقاق القناديل بمصر، و كان محبا لأهل الخير و الصلاح مؤثرا لهم متفقدا لأحوالهم، و عمر رباطا حسنا بالقرافة الكبرى، رتب فيه جماعة من الفقراء، و من غريب ما يتعظ به الأريب أن الوزير الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير، الذى كان بنو حنا يعادونه، و عنه أخذوا الوزارة، مات فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان و ستين و ستمائة بالسجن، فأخرج كما تخرج الأموات الطرحاء على الطرقات من الغرباء، و لم يشيع جنازته أحد من الناس مراعاة للصاحب بن حنا، و كان فخر الدين هذا يتنزه فى أيام الربيع بمنية القائد، و قد نصبت له الخيام، و أقيمت المطابخ و بين يديه المطربون، فدخل عليه البشير بموت الوزير يعقوب بن الزبير، و أنه أخرج إلى المقابر من غير أن يشيع جنازته أحد من الناس، فسرّ بذلك و لم يتمالك نفسه و أمر المطربين فغنوه، ثم قام على رجليه و رقص هو و سائر من حضره، و أظهر من الفرح و الخلاعة ما خرج به عن الحدّ، و خلع على البشير بموت المذكور خلعا سنية، فلم يمض على ذلك سوى أقلّ من أربعة أشهر و مات فى حادى عشرى شعبان من السنة المذكورة، ففجع به أبوه، و كانت له جنازة عظيمة، و لما دلّى فى لحده قام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرىّ، صاحب البردة، فى ذلك الجمع الموفور بتربة ابن حنا من القرافة و أنشد:

نم هنيئا محمد بن علىّبجميل قدّمت بين يديكا

لم تزل عوننا على الدهر حتّىغلبتنا يد المنون عليكا

أنت أحسنت فى الحياة إلينا أحسن اللّه فى الممات إليكا

فتباكى الناس، و كان لها محل كبير ممن حضر رحمة اللّه عليهم أجمعين. و فى هذا الجامع يقول السراج الورّاق:

بنيتم على تقوى من اللّه مسجداو خير مبانى العابدين المساجد

فقل فى طراز معلم فوق بركةعلى حسنها الزاهى لها البحر حاسد

لها حلل حسنى و لكن طرازهامن الجامع المعمور بالله واحد

هو الجامع الإحسان و الحسن الذىأقرّ له زيد و عمرو و خالد

و قد صافحت شهب الدجى شرفاتهفما هى بين الشهب إلّا فراقد

و قد أرشد الضلال عالى مناره‌فلا حائر عنه و لا عنه حائد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۵ و نالت نواقيس الديارات وجمؤو خوف فلم يمدد إليهنّ ساعد

فتبكى عليهنّ البطاريق فى الدجىو هنّ لديهم ملقيات كواسد

بذا قضت الأيام ما بين أهلهامصائب قوم عند قوم فوائد

جامع الظاهر

هذا الجامع خارج القاهرة، و كان موضعه ميدانا، فأنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ جامعا. قال جامع السيرة الظاهرية: و فى ربيع الآخر، يعنى سنة خمس و ستين و ستمائة، اهتمّ السلطان بعمارة جامع بالحسينية، و سير الأتابك فارس الدين أقطاى المستعرب، و الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا، و جماعة من المهندسين، لكشف مكان يليق أن يعمل جامعا، فتوجهوا لذلك و اتفقوا على مناخ الجمال السلطانية. فقال السلطان لا و اللّه لا جعلت الجامع مكان الجمال، و أولى ما جعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة و هو نزهتى، فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر، ركب السلطان و صحبته خواصه و الوزير

الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا و القضاة و نزل إلى ميدان قراقوش، و تحدّث فى أمره و قاسه و رتب أموره و أمور بنائه، و رسم بأن يكون بقية الميدان وقفا على الجامع يحكر، و رسم بين يديه هيئة الجامع، و أشار أن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية، و أن يكون على محرابه قبة على قد رقبة الشافعىّ رحمة اللّه عليه، و كتب فى وقته الكتب إلى البلاد بإحضار عمد الرخام من سائر البلاد، و كتب بإحضار الجمال و الجواميس و الأبقار و الدواب من سائر الولايات، و كتب بإحضار الآلات من الحديد و الأخشاب النقية برسم الأبواب و السقوف و غيرها، ثم توجه لزيارة الشيخ الصالح خضر بالمكان الذى أنشأه له، و صلّى الظهر هناك، ثم توجه إلى المدرسة بالقاهرة فدخلها و الفقهاء و القرّاء على حالهم، و جلس بينهم، ثم تحدّث و قال: هذا مكان قد جعلته للّه عز و جلّ، و خرجت عنه وقفا للّه، إذا مت لا تدفنونى هنا. و لا تغيروا معالم هذا المكان فقد خرجت عنه للّه تعالى. ثم قام من إيوان الحنفية و جلس بالمحراب فى إيوان الشافعية، و تحدّث و سمع القرآن و الدعاء، و رأى جميع الأماكن، و دخل إلى قاعة ولده الملك السعيد المبنية قريبا منها، ثم ركب إلى قلعة الجبل و ولى عدّة مشدّين على عمارة الجامع، و كان إلى جانب الميدان قاعة و منظرة عظيمة بناها السلطان الملك الظاهر، فلما رسم ببناء الجامع طلبها الأمير سيف الدين قشتمر العجمىّ من السلطان فقال: الأرض قد خرجت عنها لهذا الجامع، فاستأجرها من ديوانه، و البناء و الأصناف و هبتك إياها، و شرع فى العمارة فى منتصف جمادى الآخرة منها.

و فى أوّل جمادى الآخرة سنة ست و ستين و ستمائة سار السلطان من ديار مصر يريد بلاد الشام، فنزل على مدينة يافا و تسلمها من الفرنج بأمان، فى يوم الأربعاء العشرين من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۶

جمادى الآخرة المذكور، و سير أهلها فتفرّقوا فى البلاد، و شرع فى هدمها و قسم أبراجها على الأمراء، فابتدأ فى ذلك من ثانى عشريه، و قاسوا شدّة فى هدمها لحصانتها و قوّة بنائها، لا سيما القلعة، فإنها كانت حصينة عالية الارتفاع و لها أساسات إلى الأرض الحقيقة، و باشر السلطان الهدم بنفسه و بخواصه و مماليكه، حتى غلمان البيوتات التى له، و كان ابتداء هدم القلعة فى سابع عشريه، و نقضت من أعلاها و نظفت زلاقتها، و استمرّ الأجناد فى ذلك ليلا و نهارا، و أخذ من أخشابها جملة، و من ألواح الرخام التى وجدت فيها، و وسق منها مركبا من المراكب التى وجدت فى يافا و سيرها إلى القاهرة، و رسم بأن يعمل من ذلك الخشب مقصورة فى الجامع الظاهرىّ بالميدان من الحسينية، و الرخام يعمل بالمحراب، فاستعمل كذلك.

و لما عاد السلطان إلى مصر فى حادى عشرى ذى الحجة منها و قد فتح فى هذه السفرة يافا و طرابلس و أنطاكية و غيرها، أقام إلى أن أهلت سنة سبع و ستين و ستمائة، فلما كملت عمارة الجامع فى شوّال منها ركب السلطان و نزل إلى الجامع و شاهده، فرآه فى غاية ما يكون من الحسن و أعجبه نجازه فى أقرب وقت و مدّة مع علوّ الهمة، فخلع على مباشريه، و كان الذى تولى بناءه الصاحب بهاء الدين بن حنا، و الأمير علم الدين سنجر السرورىّ متولى القاهرة، و زار الشيخ خضرا و عاد إلى قلعته، و فى شوّال منها تمت عمارة الجامع الظاهرىّ و رتب به خطيبا حنفىّ المذهب، و وقف عليه حكر ما بقى من أرض الميدان، و نزل السلطان إليه و رتب أوقافه و نظر فى أموره.

بيبرس: الملك الظاهر ركن الدين البندقدارىّ، أحد المماليك البحرية الذين اختص بهم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و أسكنهم قلعة الروضة، كان أوّلا- من مماليك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ، فلما سخط عليه الملك الصالح أخذ مماليكه و منهم الأمير بيبرس هذا، و ذلك فى سنة أربع و أربعين و ستمائة، و قدّمه على طائفة من الجمدارية، و ما زال يترقى فى الخدم إلى أن قتل المعز أيبك التركمانىّ الفارس أقطاى الجمدار فى شعبان سنة اثنتين و خمسين و ستمائة، و كانت البحرية قد انحازت إليه فركبوا فى نحو السبعمائة، فلما ألقيت إليهم رأس أقطاى تفرّقوا و اتفقوا على الخروج إلى الشام، و كانت أعيانهم يومئذ بيبرس البندقدارىّ، و قلاون الألفىّ، و سنقر الأشقر، و بيسرى، و تراموق، و تنكز، فساروا إلى الملك الناصر صاحب الشام. و لم يزل بيبرس ببلاد الشام إلى أن قتل المعز أيبك، و قام من بعده ابنه المنصور علىّ، و قبض عليه نائبه

الأمير سيف الدين قطز و جلس على تخت المملكة، و تلقب بالملك المظفر، فقدم عليه بيبرس فأمّره المظفر قطز، و لما خرج قطز إلى ملاقاة التتار و كان من نصرته عليهم ما كان، رحل إلى دمشق فوشى إليه بأن الأمير بيبرس قد تنكر له و تغير عليه، و أنه عازم على القيام بالحرب، فأسرع قطز بالخروج من دمشق إلى جهة مصر و هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۷

مضمر لبيبرس السوء، و علم بذلك خواصه فبلغ ذلك بيبرس فاستوحش من قطز و أخذ كلّ منهما يحترس من الآخر على نفسه، و ينتظر الفرصة، فبادر بيبرس و واعد الأمير سيف الدين بلبان الرشيديّ، و الأمير سيف الدين بيدغان الركنيّ المعروف بسم الموت، و الأمير سيف الدين بلبان الهارونيّ، و الأمير بدر الدين آنص الأصبهانيّ، فلما قربوا فى مسيرهم من القصر بين الصالحية و السعيدية عند القرين، انحرف قطز عن الدرب للصيد، فلما قضى منه و طره و عاد و الأمير بيبرس يسايره هو و أصحابه، طلب بيبرس منه امرأة من سبى التتار فأنعم عليه بها، فتقدّم ليقبل يده و كانت إشارة بينه و بين أصحابه، فعند ما رأوا بيبرس قد قبض على يد السلطان المظفر قطز، بادر الأمير بكتوت الجوكندار و ضربه بسيف على عاتقه أبانه و اختطفه الأمير آنص و ألقاه عن فرسه إلى الأرض، و رماه بهادر المغربيّ بسهم فقتله، و ذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة سنة ثمان و خمسين و ستمائة، و مضوا إلى الدهليز للمشورة، فوقع الاتفاق على الأمير بيبرس، فتقدّم إليه أقطاء المستعرب الجمدار المعروف بالأتابك و بايعه و حلف له، ثم بقية الأمراء و تلقب بالملك الظاهر، و ذلك بمنزلة القصير.

فلما تمت البيعة و حلف الأمراء كلهم قال له الأمير أقطاى المستعرب: ياخوند ، لا يتم لك أمر إلّا بعد دخولك إلى القاهرة و طلوعك إلى القلعة، فركب من وقته و معه الأمير قلاون و الأمير بلبان الرشيديّ و الأمير بيلبك الخارندار، و جماعة يريدون قلعة الجبل، فلقيهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبيّ نائب الغيبة عن المظفر قطز، و قد خرج لتلقيه، فأخبروه بما جرى و حلفوه، فتقدّمهم إلى القلعة و وقف على بابها حتى وصلوا فى الليل فدخلوا إليها، و كانت القاهرة قد زينت لقدوم السلطان الملك المظفر قطز، و فرح الناس بكسر التتار و عود السلطان، فما راعهم و قد طلع النهار إلّا و المشّا علىّ ينادى معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر و ادعوا لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس، فدخل على الناس من ذلك غمّ شديد و وجل عظيم، خوفا من عود البحرية إلى ما كانوا عليه من الجور و الفساد و ظلم الناس. فأوّل ما بدأ به الظاهر أنه أبطل ما كان قطز أحدثه من المظالم عند سفره، و هو تصقيع الأملاك و تقويمها و أخذ زكاة ثمنها فى كل سنة، و جباية دينار من كلّ إنسان، و أخذ ثلث التركات الأهلية، فبلغ ذلك فى السنة ستمائة ألف دينار. و كتب بذلك مسموحا قرىء على المنابر فى صبيحة دخوله إلى القلعة، و هو يوم الأحد سادس عشر ذى القعدة المذكور، و جلس بالإيوان و حلّف العساكر، و استناب الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار بالديار المصرية، و استقرّ الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا على عادته، و الأمير جمال الدين أقوش التجيبيّ أستادارا، و الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحيّ أمير جاندار، و الأمير لاجين الدرفيل و بلبان الروميّ دواداريّة، و الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوريّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۸

أميراخور على عادته، و بهاء الدين علىّ بن حنا وزيرا، و الأمير ركن الدين التاجى الركنيّ و الأمير سيف الدين بكجريّ حجابا، و رسم بإحضار البحرية الذين تفرّقوا فى البلاد بطالين، و سير الكتب إلى الأقطار بما تجدّد له من النعم، و دعاهم إلى الطاعة، فأذعنوا له و انقادوا إليه.

و كان الأمير علم الدين سنجر الحلبيّ نائب دمشق لما قتل قطز جمع الناس و حلّفهم، و تلقب بالملك المجاهد، و ثار علاء الدين الملقب بالملك السعيد بن صاحب الموصل فى حلب و ظلم أهلها، و أخذ منهم خمسين ألف دينار، فقام عليه جماعة و مقدّمهم الأمير حسام الدين لاجين العزيزيّ و قبضوا عليه، فسير الظاهر إلى لاجين بنيابة حلب.

فلما دخلت سنة تسع و خمسين قبض الظاهر على جماعة من الأمراء المعزية، منهم الأمير سنجر الغتميّ، و الأمير بهادر المعزيّ، و

الشجاع بكتوت، و وصل إلى السلطان الإمام أبو العباس أحمد بن الخليفة الظاهر العباسيّ من بغداد، فى تاسع رجب، فتلقاه السلطان فى عساكره و بالغ فى إكرامه و أنزله بالقلعة، و حضر سائر الأمراء و المقدّمين و القضاة و أهل العلم و المشايخ بقاعة الأعمدة من القلعة بين يدى أبى العباس، فتأدّب السلطان الظاهر و لم يجلس على مرتبة و لا فوق كرسيّ، و حضر العربان الذين قدموا من العراق، و خادم من طواشية بغداد، و شهدوا بأن العباس أحمد ولد الخليفة الظاهر بن الخليفة الناصر، و شهد معهم بالاستفاضة الأمير جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر، و علم الدين بن رشيق، و صدر الدين موهوب الجزريّ، و نجيب الدين الحرّانيّ، و سديد الزمنتيّ نائب الحكم بالقاهرة عند قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعيّ، و أسجل على نفسه بثبوت نسب أبى العباس أحمد، و هو قائم على قدميه، و لقّب بالإمام المستنصر بالله، و بايعه الظاهر على كتاب اللّه و سنة نبيه، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و الجهاد فى سبيل اللّه، و أخذ أموال اللّه بحقها و صرفهاف ى مستحقها، فلما تمت البيعة قلد المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر أمر البلاد الإسلامية، و ما سيفتحه اللّه على يديه من بلاد الكفار، و بايع الناس المستنصر على طبقاتهم، و كتب إلى الأطراف بأخذ البيعة له، و إقامة الخطبة باسمه على المنابر، و نقشت السكة فى ديار مصر باسمه، و اسم الملك الظاهر معا. فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، خطب الخليفة بالناس فى جامع القلعة، و ركب السلطان فى يوم الاثنين رابع شعبان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير ظاهر القاهرة، و أفيضت عليه الخلع الخليفة، و هى جبة سوداء و عمامة بنفسجية و طوق من ذهب، و قلد بسيف عربيّ، و جلس مجلسا عاما حضره الخليفة و الوزير و سائر القضاة و الأمراء و الشهود، و صعد القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السرّ منبرا نصب له، و قرأ تقليد السلطان المملكة، و هو بخطه من إنشائه، ثم ركب السلطان بالخلعة و الطوق و دخل من باب النصر، و شق القاهرة و قد زينت له، و حمل الصاحب بهاء الدين بن حنا التقليد على رأسه قدّام السلطان، و الأمراء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۹

مشاة بين يديه، و كان يوما مشهودا.

و أخذ السلطان فى تجهيز الخليفة ليسير إلى بغداد، فرتب له الطواشى بهاء الدين صندلا الصالحىّ شرابيا، و الأمير سابق الدين بوزيا الصيرفىّ أتابكا، و الأمير جعفرا أستادارا، و الأمير فتح الدين بن الشهاب أحمد أمير جاندار، و الأمير ناصر الدين بن صيرم خازندار، و الأمير سيف الدين بلبان الشمسيّ و فارس الدين أحمد بن أزدمر اليغموريّ دواداريه، و القاضى كمال الدين محمد السنجاريّ وزيرا، و شرف الدين أبا حامد كاتبا، و عين له خزانة و سلاحخاناه و مماليك عدّتهم نحو الأربعين، منهم سلاحدارية و جمدارية و زردكاشية و رمحدارية، و جعل له طشطخاناه و فراشخاناه و شرابخاناه، و إماما و مؤذنا و سائر أرباب الوظائف، و استخدم له خمسمائة فارس، و كتب لمن قدم معه من العراق بإقطاعات، و أذن له فى الركوب و الحركة حيث اختار، و حضر الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، و أخوه الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة، و أخوهما المظفر، فأكرمهم السلطان و أقرّهم على ما بأيديهم، و كتب لهم تقاليد و جهزهم فى خدمة الخليفة، و سار الخليفة فى سادس شوّال و السلطان فى خدمته إلى دمشق، فنزل السلطان فى القلعة، و نزل الخليفة فى التربة الناصرية بجبل الصالحية، و بلغت نفقة السلطان على الخليفة ألف ألف و ستين ألف دينار، و خرج من دمشق فى ثالث عشر ذى القعدة و معه الأمير بلبان الرشيدىّ، و الأمير سنقر الرومىّ، و طائفة من العسكر، و أوصاهما السلطان أن يكونا فى خدمة الخليفة حتى يصل إلى الفرات، فإذا عبر الفرات أقاما بمن معهما من العسكر بالبرّ الغربىّ من جهات حلب لانتظار ما يتجدّد من أمر الخليفة، بحيث إن احتاج إليهم ساروا إليه، فسار إلى الرحبة و تركه أولاد صاحب الموصل و انصرفوا إلى بلادهم، و سار إلى مشهد علىّ فوجد الإمام الحاكم بأمر اللّه قد جمع سبعمائة فارس من التركمان و هو على عانة، ففارقه التركمان و صار الحاكم إلى المستنصر طائعا له، فأكرمه و أنزله معه و سارا إلى عانة، و رحلا إلى الحديثة، و خرجا منها إلى هيت، و كانت له حروب مع التتار فى ثالث محرّم سنة ستين و ستمائة، قتل فيها أكثر أصحابه، و فرّ الحاكم و جماعة من الأجناد، و فقد المستنصر فلم يوقف له على خبر، فحضر الحاكم إلى قلعة الجبل و بايعه السلطان و الناس، و استمرّ بديار مصر فى مناظر الكبش، و هو جدّ الخلفاء

الموجودين اليوم.

و فى سنة ست و ستين قرّر الظاهر بديار مصر أربعة قضاة، و هم شافعىّ و مالكىّ و حنفىّ و حنبلىّ، فاستمرّ الأمر على ذلك إلى اليوم، و حدث غلاء شديد بمصر، و عدمت الغلة، فجمع السلطان الفقراء و عدّهم و أخذ لنفسه خمسمائة فقير يمونهم، و لا بنه السعيد بركة خان خمسمائة فقير، و للنائب بيلبك الخازندار ثلاثمائة فقير، و فرّق الباقى على سائر الأمراء، و رسم لكلّ إنسان فى اليوم برطلى خبز، فلم ير بعد ذلك فى البلد أحد من الفقراء يسأل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۰

و فى ثالث شوّال سنة اثنتين و ستين، أركب السلطان ابنه السعيد بركة بشعار السلطنة، و مشى قدّامه و شق القاهرة و الكل مشاة بين يديه من باب النصر إلى قلعة الجبل، و زينت البلد، و فيها رتب السلطان لعب القبق بميدان العيد خارج باب النصر، و ختن الملك السعيد و معه ألف و ستمائة و خمسة و أربعون صبيا من أولاد الناس، سوى أولاد الأمراء و الأجناد، و أمر لكلّ صغير منهم بكسوة على قدره، و مائة درهم، و رأس من الغنم، فكان مهما عظيما، و أبطل ضمان المزر، و جهاته، و أمر بحرق النصارى فى سنة ثلاث و ستين، فتشفع فيهم على أن يحملوا خمسين ألف دينار فتركوا. و فى سنة أربع و ستين افتتح قلعة صفد، و جهز العساكر إلى سيس و مقدّمهم الأمير قلاون الألفىّ، فحصر مدينة ابناس و عدّه قلاع. و فى سنة خمس و ستين أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر، و فتح يافا و الشقيف و أنطاكية. و فى سنة سبع و ستين حج فسار على غزة إلى الكرك، و منها إلى المدينة النبوية، و غسل الكعبة بماء الورد بيده، و رجع إلى دمشق فأراق جميع الخمور، و قدم إلى مصر فى سنة ثمان و ستين.

و فى سنة سبعين خرج إلى دمشق. و فى سنة إحدى و سبعين خرج من دمشق سائقا إلى مصر، و معه بيسرى و أقوش الرومىّ و جرسك الخازندار و سنقر الألفىّ، فوصل إلى قلعة الجبل، و عاد إلى دمشق فكانت مدّة غيبته أحد عشر يوما، و لم يعلم بغيبته من فى دمشق حتى حضر، ثم خرج سائقا من دمشق يريد كبس التتار، فخاض الفرات و قدّامه قلاون و بيسرى، و أوقع بالتتار على حين غفلة، و قتل منهم شيئا كثيرا، و ساق خلفهم بيسرى إلى سروج و تسلم السلطان البيرة. و وقع بمصر فى سنة اثنتين و سبعين و باء هلك به خلق كثير.

و فى سنة ثلاث و سبعين غزا السلطان سيس و افتتح قلاعا عديدة. و فى سنة أربع و سبعين تزوّج السعيد بن السلطان بابنة الأمير قلاون و خرج العسكر إلى بلاد النوبة، فواقع ملكهم و قتل منهم كثيرا و فرّ باقيهم. و فى سنة خمس و سبعين سار السلطان لحرب التتار، فواقعهم على الأبلستين و قد انضم إليهم الروم، فانهزموا و قتل منهم كثير، و تسلم السلطان قيسارية و نزل فيها بدار السلطان، ثم خرج إلى دمشق فوعك بها من إسهال و حمى مات منها يوم الخميس تاسع عشرى محرّم سنة ست و سبعين و ستمائة، و عمره نحو من سبع و خمسين سنة، و مدّة ملكه سبع عشرة سنة و شهران.

و كان ملكا جليلا عسوفا عجولا كثير المصادرات لرعيته و دواوينه، سريع الحركة، فارسا مقداما، و ترك من الذكور ثلاثة: السعيد محمد بركة خان، و ملك بعده، و سلامش و ملك أيضا، و المسعود خضر. و من البنات سبع بنات، و كان طويلا مليح الشكل.

و فتح اللّه على يديه مما كان مع الفرنج قيسارية و أرسوف و صفد و طبرية و يافا و الشقيف و أنطاكية و بقراص و القصير و حصن الأكراد و القرين و حصن عكا و صافيتا و مرقية و حلبا.

و ناصف الفرنج على المرقب و بانياس و انطرسوس، و أخذ من صاحب سيس، دريساك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۱

و دركوس و تلميش و كفر دين و رعبان و مرزبان و كينوك و أدنة و المصيصة.

و صار إليه من البلاد التى كانت مع المسلمين، دمشق و بعلبك و عجلون و بصرى و صرخد و الصلت و حمص و تدمر و الرحبة و تل ناشر و صهيون و بلاطيس و قلعة الكهف و القدموس و العليقة و الخوابى و الرصافة و مصياف و القليعة و الكرك و الشوبك.

و فتح بلاد النوبة و برقة و عمر الحرم النبوىّ، و قبة الصخرة ببيت المقدس، و زاد فى أوقاف الخليل عليه السّلام، و عمر قناطر شبرامنت بالجيزية، و سور الإسكندرية، و منار رشيد، و ردم فم بحر دمياط، و وعر طريقه، و عمر الشوانى و عمر قلعة دمشق و قلعة الصبيبة، و قلعة بعلبك، و قلعة الصلت، و قلعة صرخد، و قلعة عجلون، و قلعة بصرى، و قلعة شيزر و قلعة حمص، و عمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة، و الجامع الكبير بالحسينية خارج القاهرة، و حفر خليج الإسكندرية القديم، و باشره بنفسه، و عمر هناك قرية سماها الظاهرية، و حفر بحر أشموم طناح على يد الأمير بلبان الرشيدىّ، و جدّد الجامع الأزهر بالقاهرة، و أعاد إليه الخطبة، و عمر بلد السعيدية من الشرقية بديار مصر، و عمر القصر الأبلق بدمشق و غير ذلك.

و لما مات كتم موته الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار عن العسكر، و جعله فى تابوت و علقه ببيت من قلعة دمشق، و أظهر أنه مريض، و رتب الأطباء يحضرون على العادة، و أخذ العساكر و الخزائن و معه محفة محمولة فى الموكب محترمة، و أوهم الناس أن السلطان فيها و هو مريض، فلم يجسر أحد أن يتفوّه بموت السلطان، و سار إلى أن وصل إلى قلعة الجبل بمصر و أشيع موته رحمه اللّه تعالى.

جامع ابن اللبان

هذا الجامع بجسر الشعيبية المعروف بجسر الأفرم، عمره الأمير عز الدين أيبك الأفرم فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة. قال ابن المتوّج: و كان سبب عمارته أنه لما كثرت الخلائق فى خطة هذا الجامع، قصد الأفرم أن يجعل خطبة فى المسجد المعروف بمسجد الجلالة الذى ببركة الشقاف ظاهر سور الفسطاط المستجدّ، و أن يزيد فيه و يعمره كما يختار، فمنعه الفقيه مؤتمن الدين الحارث بن مسكين و ردّه عن غرضه، فحسن له الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا عمارة هذا الجامع فى هذه البقعة، لقربه منه فعمره فى شعبان سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، لكنه هدم بسببه عدّة مساجد، و عرف هذا الجامع فى زمننا هذا بالشيخ محمد بن اللبان الشافعىّ، لإقامته فيه، و أدركناه عامرا، و قد انقطعت منه فى هذه المحن إقامة الجمعة و الجماعة لخراب ما حوله و بعد البحر عنه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۲

الجامع الطيبرسىّ

هذا الجامع عمره الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش، بشاطئ النيل فى أرض بستان الخشاب، و عمر بجواره خانقاه فى جمادى الأولى سنة سبع و سبعمائة، و كان من أحسن منتزهات مصر و أعمرها، و قد خرب ما حوله من الحوادث و المحن التى بعد سنة ست و ثمانمائة، بعد ما كانت العمارة منه متصلة إلى الجامع الجديد بمصر، و منه إلى الجامع الخطيرىّ ببولاق، و يركب الناس المراكب للفرجة من هذا الجامع إلى الجامعين المذكورين، مصعدين و منحدرين فى النيل، و يجتمع بهذا الجامع الناس للنزهة، فتمرّ به أوقات و مسرّات لا يمكن وصفها، و قد خرب هذا الجامع و أقفر من المساكين، و صار مخوفا بعد ما كان ملهى و ملعبا، سنة اللّه فى الذين خلوا من قبل، و لطيبرس هذا المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر من القاهرة.

الجامع الجديد الناصرىّ

هذا الجامع بشاطئ النيل من ساحل مصر الجديد، عمره القاضى فخر الدين محمد بن فضل اللّه ناظر الجيش باسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، و كان الشروع فيه يوم التاسع من المحرّم سنة إحدى عشرة و سبعمائة، و انتهت عمارته فى ثامن صفر سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، و أقيم فى خطابته قاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الشافعىّ، و رتب فى إمامته الفقيه تاج

الدين بن مرهف، فأوّل ما صلّى فيه صلاة الظهر من يوم الخميس ثامن صفر المذكور، و أقيمت فيه الجمعة يوم الجمعة تاسع صفر، و خطب عن قاضى القضاة بدر الدين ابنه جمال الدين، و لهذا الجامع أربعة أبواب، و فيه مائة و سبعة و ثلاثون عمودا، منها عشرة من صوّان فى غاية السمك و الطول، و جملة ذرعه أحد عشر ألف ذراع و خمسمائة ذراع بذراع العمل، من ذلك طوله من قبليه إلى بحريه مائة و عشرون ذراعا، و عرضه من شرقيه إلى غربيه مائة ذراع، و فيه ستة عشر شباكا من حديد، و هو يشرف من قبليه على بستان العالمة، و ينظر من بحريه بحر النيل، و كان موضع هذا الجامع فى القديم غامرا بماء النيل، ثم انحسر عنه النيل و صار رملة فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب، يمرّغ الناس فيها دوابهم أيام احتراق النيل، فلما عمر الملك الصالح قلعة الروضة و حفر البحر، طرح الرمل فى هذا الموضع، فشرع الناس فى العمارة على الساحل، و كان موضع هذا الجامع شونة، و قد ذكر خبر ذلك عند ذكر الساحل الجديد بمصر فانظره، و ما برح هذا الجامع من أحسن منتزهات مصر إلى أن خرب ما حوله، و فيه إلى الآن بقية و هو عامر.

محمد بن قلاون: السلطان الملك الناصر أبو الفتح ناصر الدين بن الملك المنصور،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۳

كان يلقب بحرفوش، و أمّه أشلون ابنة شنكاى، ولد يوم السبت النصف من المحرّم سنة أربع و ثمانين و ستمائة بقلعة الجبل من ديار مصر، و ولى الملك ثلاث مرّات، الأولى بعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل بن قلاون فى رابع عشر المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، و عمره تسع سنين، تنقص يوما واحدا، فأقام فى الملك سنة إلّا ثلاثة أيام و خلع بمملوك أبيه كتبغا المنصورىّ، يوم الأربعاء حادى عشر المحرّم سنة أربع و تسعين و ستمائة، و أعيد إلى المملكة ثانيا بعد قتل الملك المنصور لاجين يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فأقام عشر سنين و خمسة أشهر و ستة عشر يوما، و عزل نفسه و سار إلى الكرك، فولى الملك من بعده الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و تلقب بالملك المظفر فى يوم السبت ثالث عشرى شوّال سنة ثمان و سبعمائة، ثم حضر من الكرك إلى الشام و جمع العساكر، فخامر على بيبرس معظم جيش مصر، و انحل أمره فترك الملك فى يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان سنة تسع و سبعمائة، و طلع الملك الناصر إلى قلعة الجبل يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، و استولى على ممالك مصر و الشام و الحجاز، فأقام فى الملك من غير منازع له فيه إلى أن مات بقلعة الجبل فى ليلة الخميس الحادى و العشرين من ذى الحجة، سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و عمره سبع و خمسون سنة و أحد عشر شهرا و خمسة أيام، و له فى ولايته الثالثة مدّة اثنتين و ثلاثين سنة و شهرين و عشرين يوما، و جملة إقامته فى الملك عن المدد الثلاث ثلاث و أربعون سنة و ثمانية أشهر و تسعة أيام.

و لما مات ترك ليلته و من الغد حتى تمّ الأمر لابنه أبى بكر المنصور فى يوم الخميس المذكور، ثم أخذ فى جهازه فوضع فى محفة بعد العشاء الآخرة بساعة و حمل على بغلين و أنزل من القلعة إلى الإصطبل السلطانىّ، و سار به الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدىّ أمير جاندار، و الأمير نجم الدين أيوب والى القاهرة، و الأمير قطلوبغا الذهبىّ، و علم دار خوطا جار الدوادار و عبروا به إلى القاهرة من باب النصر، و قد غلقت الحوانيت كلها و منع الناس من الوقوف للنظر إليه، و قدّام المحفة شمعة واحدة فى يد علمدار، فلما دخلوا به من باب النصر كان قدامه مسرجة فى يد شاب و شمعة واحدة، و عبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاون، و كان الأمير علم الدين سنجر الجاولىّ ناظر المارستان قد جلس و معه القضاة الأربعة و شيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس، و الشيخ ركن الدين عمر ابن الشيخ إبراهيم الجعبرىّ، فحطت المحفة و أخرج منها فوضع بجانب الفسقية التى بالقبة، و أمر ابن أبى الظاهر مغسّل الأموات بتغسيله، فقال: هذا ملك و لا أنفرد بتغسيله إلّا أن يقوم أحد منكم و يجرّده على الدكه، فإنى أخشى أن يقال كان معه فص أو خاتم أو فى عنقه خرزة، فقام قطلوبغا الذهبىّ و علمدار و جرّداه مع الغاسل من ثيابه، فكان على رأسه قبع أبيض من قطن ثيابه، و على بدنه بغلطاق صدر أبيض و سراويل، فنزعا و ترك القميص عليه، و غسل به، و وجد فى رجله الموجوعة بخشان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۴

مفتوحان، فغسل من فوق القميص و كفن فى نصفية، و عملت له أخرى طرّاحة و مخدّة، و وضع فى تابوت من خشب، و صلّى عليه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة الشافعيّ بمن حضر، و أنزل إلى قبر أبيه فى سحلية من خشب قد ربطت بحبل، و نزل معه إلى القبر الغاسل و الأمير سنجر الجاولىّ، و دفع إلى الغاسل ثلاثمائة درهم، فباع ما نابه من الثياب بثلاثة عشر درهما سوى القبع، فإنه فقد، و ذكر الغاسل أنه كان محنكا بخرقة معقدة بثلاث عقد، فسبحان من لا يحول و لا يزول، هذا ملك أعظم المعمور من الأرض، مات غريبا و غسل طريحا و دفن وحيدا، إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب.

و فى ليلة السبت: قرأ القرّاء عند القبر بالقبة القرآن، و حضر بعض الأمراء، و ترك من الأولاد اثنى عشر ولدا ذكرا، و هم: أحمد، و هو أسنهم و كان بالكرك، و أبو بكر و تسلطن من بعده، و شقيقه رمضان، و يوسف، و إسماعيل، و تسلطن أيضا، و شعبان و تسلطن، و حسين، و كجك و تسلطن، و أمير حاج، و حسن و يدعى قمارى و تسلطن، و صالح و تسلطن، و محمد. و ترك من البنات ثمانيا متزوّجات سوى من خلف من الصغار، و خلف من الزوجات جاريته طغاى، و إمّة الأمير تنكز نائب الشام. و مات و ليس له نائب بديار مصر و لا وزير و لا حاجب متصرّف، سوى أن برسبغا الحاجب تحكم فى متعلقات أمور الإقطاعات، و ليس معه عصا الحجوبية، و بدر الدين بكتاش نقيب الجيوش، و أقبغا عبد الواحد أستادار السلطان و مقدّم المماليك، و بيبرس الأحمدىّ أمير جاندار، و نجم الدين أيوب والى القاهرة، و جمال الدين حمال الكفاه ناظر الجيوش، و الموفق ناظر الدولة، و صارم الدين أزبك شادّ الدواوين، و عز الدين عبد العزيز بن جماعة قاضى القضاة بديار مصر، و نائب دمشق الأمير ألطنبغا، و نائب ... الأمير طشتمر حمص أخضر، و نائب طرابلس الحاج أرقطاى، و نائب صفد الأمير أصلم، و نائب غزة الأمير اق سنقر السلارىّ، و صاحب حماه الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن المؤيد إسماعيل.

و الأمراء مقدّموا الألوف بديار مصر يوم وفاته خمسة و عشرون أميرا. و هم: بدر الدين جنكلى بن البابا، و الحاج آل ملك، و بيبرس الأحمدىّ، و علم الدين سنجر الجاولىّ، و سيف الدين كوكاى، و نجم الدين محمود وزير بغداد، هؤلاء برّانية كبار، و الباقى مماليكه و خواصه و هم: ولده الأمير أبو بكر، و الأمير قوصون، و الأمير بشتاك، و طقزدمر، و أقبغا عبد الواحد الأستادار، و أيدغمش أميراخور، و قطلوبغا الفخرىّ، و يلبغا اليحياوىّ، و ملكتمر الحجازىّ، و ألطنبغا المارداني، و بهادر الناصرىّ، و آق سنقر الناصرىّ، و قمارى الكبير، و قمارى أمير شكار، و طرغاى، و أرتبغا أمير جاندار، و برسيغا الحاجب، و بلدغى ابن العجوز أمير سلاح، و بيغرا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۵

و كان السلطان أبيض اللون قد و خطه الشيب، و فى عينيه حول، و برجله اليمنى ريح شوكة تنغص عليه أحيانا و تؤلمه، و كان لا يكاد يمس بها الأرض و لا يمشى إلّا متكئا على أحدا و متوكئا على شىء، و لا يصل إلى الأرض إلّا أطراف أصابعه، و كان شديد البأس جيد الرأى، يتولى الأمور بنفسه، و يجود لخواصه، و كان مهابا عند أهل مملكته، بحيث أنّ الأمراء إذا كانوا عنده بالخدمة لا يجسر أحد أن يكلم آخر كلمة واحدة، و لا يلتفت بعضهم إلى بعض خوفا منه، و لا يمكن واحدا منهم أن يذهب إلى بيت أحد البتة، لا فى وليمة و لا ـ غيرها، فإن فعل أحد منهم شيئا من ذلك قبض عليه و أخرجه من يومه منفيا، و كان مسدّدا عارفا بأمور رعيته و أحوال مملكته، و أبطل نيابة السلطنة من ديار مصر من سنة سبع و عشرين و سبعمائة، و أبطل الوزارة و صار يتحدّث بنفسه فى الجليل من الأمور و الحقير، و يستجلب خاطر كل أحد من صغير و كبير لا سيما حواشيه، فلذلك عظمت حاشية المملكة و أتباع السلطنة و تخوّلوا فى النعم الجزيلة، حتى الخولة و الكلابزية و الأسرى من الأرمن و الفرنج، و أعطى البازدارية الأخباز فى الحلقة، فمنهم من كان إقطاعه الألف دينار فى السنة، و زوّج عدّة منهم بجواريه، و أفنى خلقا كثيرا من الأمراء بلغ عددهم نحو المائتى أمير، و كان إذا كبر أحد من أمرائه قبض عليه و سلبه نعمته، و أقام بدله صغيرا من مماليكه إلى أن يكبر، فيمسكه و يقيم غيره، ليأمن بذلك شرّهم. و كان كثير التخيل حازما، حتى أنه إذا تخيل من ابنه قتله، و فى آخر أيامه شره فى جمع المال، فصادر كثيرا من الدواوين و الولاة و غيرهم، ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال، و كان مخادعا كثير الحيل، لا يقف عند قول و لا يوف بعهد و لا يبرّ فى يمين،

و كان محبا للعمارة، و عمر عدّة أماكن منها: جامع قلعة الجبل، و هدمه مرّتين، و عمر القصر الأبلق بالقلعة و معظم الأماكن التى بالقلعة، و عمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من بحر النيل إلى القلعة على السور، و عمر الميدان تحت القلعة و مناظر الميدان على النيل، و عمر قناطر السباع على الخليج و مناظر سرياقوس و الخانقاه بسرياقوس، و حفر الخليج الناصرىّ بظاهر القاهرة، و عمر الجامع الجديد على شاطىء النيل بظاهر مصر، و جدّد جامع الفيلة الذى بالرصد، و المدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة، و غير ذلك مما يرد فى موضعه من هذا الكتاب، و ما زال يعمر منذ عاد إلى ولاية الملك فى المرّة الثالثة إلى أن مات، و بلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة، عنها ثلاثمائة و خمسون دينارا، سوى من يسخره من المقيدين و غيرهم فى عمل ما يعمره، و حفر عدّة من الخلجانات و الترع، و أقام الجسور بالبلاد حتى أنه كان ينصرف من الأخباز على ذلك ربع متحصل الإقطاعات، و حفر خليج الإسكندرية و بحر المحلة مرّتين، و بحر اللبينىّ بالجيزة، و عمل جسر شيبين، و عمل جسر أحباس بالشرقية و القليوبية مدّة ثلاث سنين متوالية، فلم ينجع، فأنشأه بنيانا، بالطوب و الجير، و أنفق فيه أموالا عظيمة، و راك ديار مصر و بلاد الشام، و عرض الجيش بعد حضوره فى سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۶

اثنتى عشرة و سبعمائة، و قطع ثمانمائة من الجند، ثم قطع فى مرّة أخرى ثلاثة و أربعين جنديا فى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و قطع ثمانمائة من الجند، ثم قطع فى مرّة أخرى ثلاثة و أربعين جنديا فى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، ثم قطع خمسة و ستين أيضا فى رمضان سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، قبل وفاته بشهرين.

و فتح من البلاد جزيرة أرواد فى سنة اثنتين و سبعمائة، و فتح ملطية فى سنة خمس عشرة و سبعمائة، و فتح أناس فى ربيع الأوّل سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة و خرّبها، ثم عمرها الأرمن فأرسل إليها جيشا فأخذها و معها عدّة بلاد من بلاد الأرم فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و أقام بها نائبا من أمراء حلب، و عمر قلعة جعبر بعد أن دثرت، و ضربت السكة باسمه فى شوّال سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، قبل موته تولى ذلك الشيخ حسن بن حسين بحضور الأمير شهاب الدين أحمد قريب السلطان، و قد توجه من مصر بهذا السبب، و خطب له أيضا فى أرتنا ببلاد الروم، و ضربت السكة باسمه، و كذلك بلاد ابن قرمان و جبال الأكراد و كثير من بلاد الشرق، و كان من الذكاء المفرط على جانب عظيم، يعرف مماليك أبيه و مماليك الأمراء بأسمائهم و وقائعهم، و له معرفة تامّة بالخيل و قيمها مع الحشمة و السيادة، لم يعرف عنه قط أنه شتم أحدا من خلق اللّه و لا سفه عليه و لا كلمه بكلمة سيئة، و كان يدعو الأمراء أرباب الأشغال بألقابهم، و كانت همته علية و سياسته جيدة و حرمته عظيمة إلى الغاية، و معرفته بمهادنة الملوك لا مرمى وراءها، يبذل فى ذلك من الأموال ما لا يوصف كثرة، فكان كتّابه ينفذ أمره فى سائر أقطار الأرض كلها، و هو مع ما ذكرنا مؤيد فى كلّ أموره مظفر فى جميع أحواله مسعود فى سائر حركاته، ما عانده أحد أو أضمر له سوأ إلّا و ندم على ذلك أو هلك، و اشتهر فى حياته بديار مصر أنه إن وقعت قطرة من دمه على الأرض لا يطلع نيل مصر مدّة سبع سنين، فمتعه اللّه من الدنيا بالسعادة العظيمة فى المدّة الطويلة مع كثرة الطمأنينة و الأمن وسعة الأموال، و اقتنى كلّ حسن و مستحسن من الخيل و الغلمان و الجوارى، و ساعده الوقت فى كلّ ما يحب و يختار إلى أن أتاه الموت.

الجامع بالمشهد النفيسىّ

قال ابن المتوّج: هذا الجامع أمر بإنشائه الملك الناصر محمد بن قلاون، فعمر فى شهور سنة أربع عشرة و سبعمائة، و ولى خطابته علاء الدين محمد بن نصر اللّه بن الجوهرىّ شاهد الخزانة السلطانية، و أوّل خطبته فيه يوم الجمعة ثامن صفر من السنة المذكورة، و حضر أمير المؤمنين المستكفى باللّه أبو الربيع سليمان و ولده و ابن عمه و الأمير كهرداش متولى شدّ العمائر السلطانية، و عمارة هذا الجامع و رواقاته و الفسقية المستجدّة، و قيل أن جميع المصروف على هذا الجامع من حاصل المشهد النفيسىّ، و ما يدخل إليه من النذور و من

الفتوح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۷

جامع الأمير حسين

هذا الجامع كان موضعه بستانا بجوار غيظ العدّة، أنشأه الأمير حسين بن أبى بكر بن إسماعيل بن حيدر بك مشرف الرومىّ، قدم مع أبيه من بلاد الروم إلى ديار مصر فى سنة خمس و سبعين و ستمائة، و تخصص بالأمير حسام الدين لاجين المنصورىّ، قبل سلطنته، فكانت له منه مكانة مكينة، و صار أمير شكار، و كان فيه برّ و له صدقة و عنده تفقد لأصحابه، و أنشأ أيضا القنطرة المعروفة بقنطرة الأمير حسين على خليج القاهرة، و فتح الخوخة فى سور القاهرة بجوار الوزيرية، و جرى عليه من أجل فتحها ما قد ذكر عند ذكرها فى الخوخ من هذا الكاتب، و توفى فى سابع المحرّم سنة تسع و عشرين و سبعمائة، و دفن بهذا الجامع.

جامع الماس

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة، بناه الأمير سيف الدين الماس الحاجب، و كمل فى سنة ثلاثين و سبعمائة، و كان الماس هذا أحد مماليك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، فرقاه إلى أن صار من أكبر الأمراء، و لما أخرج الأمير أرغون إلى نيابة حلب و بقى منصب النيابة شاغرا عظمت منزلة الماس، و صار فى منزلة النيابة، إلّا أنه لم يسمّ بالنائب، و يركب الأمراء الأكابر و الأصاغر فى خدمته، و يجلس فى باب القلة من قلعة الجبل فى منزلة النائب، و الحجاب وقوف بين يديه، و ما برح على ذلك حتى توجه السلطان إلى الحجاز فى سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، فتركه فى القلعة هو و الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك، و الأمير أقبغا عبد الواحد، و الأمير طشتمر حمص أخضر، هؤلاء الأربعة لا غير، و بقية الأمراء إما معله فى الحجاز، و إما فى إقطاعاتهم، و أمرهم أن لا يدخلوا القاهرة حتى يحضر من الحجاز، فلما قدم من الحجاز نقم عليه و أمسكه فى صفر سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة، و كان لغضب السلطان عليه أسباب منها، أنه لما أقام فى غيبة السلطان بالقلعة كان يراسل الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك و يواده، و بدت منه فى مدّة الغيبة أمور فاحشة من معاشرة الشباب و من كلام فى حق السلطان، فوشى به أقبغا، و كان مع ذلك قد كثر ماله و زادت سعادته، فهوى شابا من أبناء الحسينية يعرف بعمير، و كان ينزل إليه و يجمع الاويراتية و يحضر الشباب و يشرب، فحرّك ذلك عليه ما كان ساكنا. و يقال أن السلطان لما مات الأمير بكتمر الساقى وجد فى تركته جزدان فيه جواب الماس إلى بكتمر الساقى، اننى حافظ القلعة إلى أن يرد علىّ منك ما أعتمده. فلما وقف السلطان على ذلك أمر النشو بن هلال الدولة و شاهد الخزانة بإيقاع الحوطة على موجوده، فوجدا له ستمائة ألف درهم فضة، و مائة ألف درهم فلوسا، و أربعة آلاف دينار ذهبا، و ثلاثين حياصة ذهبا كاملة بكفتياتها و خلعها، و جواهر و تحفا، و أقام الماس عند أقبغا عبد الوحد ثلاثة أيام، و قتل خنقا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۸

بمحبسه فى الثانى عشر من صفر سنة أربعة و ثلاثين و سبعمائة، و حمل من القلعة إلى جامعه فدفن به، و أخذ جميع ما كان فى داره من الرخام فقلع منها و كان رخاما فاخرا إلى الغاية، و كان أسمر طوالا غتميا لا يفهم شيئا بالعربىّ، ساذجا يجلس فى بيته فوق لباد على ما اعتماده، و بهذا الجامع رخام كثير نقله من جزائر البحر و بلاد الشام و الروم.

جامع قوصون

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة، ابتدأ عمارته الأمير قوصون فى سنة ثلاثين و سبعمائة، و كان موضعه دارا بجوار حارة المصامدة من جانبها الغربىّ، تعرف بدار أقوش نميله، ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلىّ، فأخذها من ولده و هدمها و تولى

بناءه شادّ العمائر، و استعمل فيه الأسرى، كان قد حضر من بلاد توريز بناء فبنى مئذنتى هذا الجامع على مثالث المئذنة التى عملها خواجا على شاه، وزير السلطان أبى سعيد فى جامعه بمدينة توريز، و أوّل خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثلاثين و سبعمائة، و خطب يومئذ قاضى القضاة جلال الدين القزوينىّ بحضور السلطان، و لما انقضت صلاة الجمعة أركبه الملك الناصر بغلة بخلعة سنية، ثم منعه السلطان الملك الناصر أن يستقرّ فى خطابته، فولى فخر الدين شكر.

قوصون: الأمير الكبير سيف الدين، حضر من بلاد بركة إلى مصر صحبة خوند ابنة أزبك امرأة الملك الناصر محمد بن قلاون فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين و سبعمائة، و معه قليل عصىّ و طسما و نحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم ليتجر فيه، فطاف بذلك فى أسواق القاهرة و تحت القلعة و فى داخل قلعة الجبل، فاتفق. فى بعض الأيام أنه دخل إلى الإصطبل السلطانىّ ليبيع ما معه، فأحبه بعض الأوشاقية و كان صبيا جميلا- طويلا- له من العمر ما يقارب الثمانى عشرة سنة، فصار يتردّد إلى الأوشاقىّ إلى أن رآه السلطان، فوقع منه بموقع، فسأل عنه فعرّف بأنه يحضر ليبيع ما معه، و أن بعض الأوشاقية تولع به، فأمر بإحضاره إليه و ابتاع منه نفسه ليصير من جملة المماليك السلطانية، فنزله من جملة السقاة و شغف به و أحبه حبا كثيرا، فأسلمه للأمير بكتمر الساقى و جعله أمير عشرة، ثم أعطاه أمرة طبلخاناه، ثم جعله أمير مائة مقدّم ألف، و رقاه حتى بلغه أعلى المراتب، فأرسل إلى البلاد و أحضر إخوته، سوسون و غيره من أقاربه، و أمر الجميع و اختص به السلطان، بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله، و زوّجه بابنته، و تزوّج السلطان أخته، فلما احتضر السلطان جعله وصيا على أولاده، و عهد لابنه أبى بكر فأقيم فى الملك من بعده، و أخذ قوصون فى أسباب السلطنة، و خلع أبا بكر المنصور بعد شهرين و أخرج إلى مدينة قوص ببلاد الصعيد، ثم قتله، و أقام كجك ابن السلطان و له من العمر خمس سنين، و لقبه بالملك الأشرف، و تقلد نيابة السلطنة بديار مصر، فأمّر من حاشيته و أقاربه ستين أميرا، و أكثر من العطاء و بذل

الأموال و الأنعام، فصار أمر الدولة كله بيده، هذا و أحمد بن السلطان الملك الناصر مقيم بمدينة الكرك، فخافه قوصون و أخذ فى التدبير عليه فلم يتم له ما أراد من ذلك، و حرّك على نفسه ما كان ساكنا، فطلب أحمد الملك لنفسه و كاتب الأمراء و النوّاب بالمملكة الشامية و المصرية فأذعنوا إليه، و كان بمصر من الأمراء الأمير أيدغمش و الأمير آل ملك و قمارى و المارداني و غيرهم، فتخيل قوصون منهم و أخذ فى أسباب القبض عليهم، فعلموا بذلك و خافوا الفوت فركبوا لحربه و حصروه بقلعة الجبل حتى قبضوا عليه فى ليلة الأربعاء آخر شهر رجب سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، و نهبت داره و سائر دور حواشيه و أسبابه، و حمل إلى الاسكندرية صحبة الأمير قبلاى فقتل بها، و كان كريما يفرّق فى كل سنة للأضحية ألف رأس غنما، و ثلاثمائة بقرة، و يفرّق ثلاثين حياصة ذهبا، و يفرّق كلّ سنة عدّة أملاك فيها ما يبلغ ثمنه ثلاثين ألف درهم، و له من الآثار بديار مصر سوى هذا الجامع الخانقاه بباب القرافة، و الجامع تجاهها، و داره التى بالرميلة تحت القلعة تجاه باب السلسلة و حكر قوصون.

جامع المارداني

هذا الجامع بجوار خط التبانة خارج باب زويلة، كان مكانه أوّلا مقابر أهل القاهرة، ثم عمر أماكن. فلما كان فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، أخذت الأماكن من أربابها و تولى شراءها النشو. فلم ينصف فى أثمانها، و هدمت و بنى مكانها هذا الجامع، فبلغ مصروفه زيادة على ثلاثمائة ألف درهم، عنها نحو خمسة عشر ألف دينار، سوى ما حمل إليه من الأخشاب و الرخام و غيره من جهة السلطنة، و أخذ ما كان فى جامع راشدة من العمد فعملت فيه، و جاء من أحسن الجوامع، و أوّل خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة رابع عشرى رمضان سنة أربعين و سبعمائة، و خطب فيه الشيخ ركن الدين عمر بن إبراهيم الجعبرىّ، و لم يتناول معلوما.

ألطنبغا المارداني الساقى: أمّره الملك الناصر محمد بن قلاون، و قدّمه و زوّجه ابنته، فلما مات السلطان و تلوى بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر، ذكر أنه و شى بأمره إلى الأمير قوصون و قال: قد عزم على إمساككك. فتحيل قوصون و خلع أبا بكر و قتله بقوص،

هذا مع أن الطنبغا كان قد عظم عند المنصور أكثر مما كان عند أبيه، فلما أقيم الأشرف كجك و ماج الناس و حضر الأمير قطلوبغا من الشام و شغب الأمراء على قوصون، كان ألطبغا أصل ذلك كله، ثم نزل إلى الأمير أيدغمش أمير أخور و اتفق معه على أن يقبض على قوصون، و طلع إلى قوصون و شاغله و خذله عن الحركة طول الليل و الأمراء الكبار المشايخ عنده، و ما زال يساهره حتى نام، و كان من قيالم الأمراء و ركوبهم عليه ما كان، إلى أن أمسك و أخرج إلى الاسكندرية، و لما قدم ألطنبغا نائب الشام و أقام، تقدّم المارداني و قبض على سيفه و لم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۰

يجسر غيره على ذلك، فقويت بهذه الحركان نفسه و صار يقف فوق التمرتاشيّ و هو اغاته فشق ذلك عليه و كتم فى نفسه إلى أن ملك الصالح إسماعيل، فتمكن حينئذ التمرتاشيّ و صار الأمر له، و عمل على المارداني فلم يشعر بنفسه إلا و قد أخرج على خمسة أرؤس من خيل البريد إلى نيابة حماه فى شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث و أربعين، فسار إليها و بقى فيها نحو شهرين إلى أن مات ايدغمش نائب الشام، و نقل طقزدمر من نيابة حلب إلى نيابة دمشق، فنقل المارداني من نيابة حماه إلى نيابة حلب، و سار إليها فى أوّل رجب من السنة المذكورة، و جاء الأمير يلبغا اليحياوي إلى نيابة حماه، فأقام المارداني يسيرا فى حلب و مرض و مات مستهلّ صفر سنة أربع و أربعين و سبعمائة، و كان شابا طويلا رقيقا حول الصورة، لطيفا معشق الخطرة كريما صائب الحدس عاقلا.

جامع أصلم

هذا الجامع داخل الباب المحروق، أنشأه الأمير بهاء الدين أصلم السلاحدار فى سنة ست و أربعين و سبعمائة.

أصلم: أحد مماليك الملك المنصور قلاون الألفيّ، فلما فرّقت المماليك السلطنية فى نيابة كتبغا بعد قتل الملك الأشرف خليل بن قلاون، و سلطنة الناصر محمد بن قلاون، كان أصلم من نصيب الأمير سيف الدين أقوش المنصوريّ، ثم انتقل إلى الأمير سلار، فلما حضر الملك الناصر محمد من الكرك بعد سلطنة بيبرس الجاشنكير، خرج إليه أصلم بمنجا الملك و بشره بهروب بيبرس، فأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم تنقل إلى أن صار أمير مائة مقدّم ألف، و خرج فى التجريدة إلى اليمن، فلما عاد اعتقله السلطان خمس سنين لكلام نقل عنه، ثم أخرجه و أعاده إلى منزلته، ثم جهزه لنيابة صفد، و مات الناصر و أصلم بصفد، فخرج الأمير قوصون مع الطنبغا نائب الشام إلى حلب لإمساك طشتمر، فسار إلى قارى ثم رجع و انضمّ إلى الفخريّ و أقام عنده على خان لاجين، و توجه معه صحبة عساكر الشام إلى مصر، فرسم له الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاون بامرة مائة فى مصر على عادته، و كان أحد المشايخ، و يجلس رأس الحلقة، و يجيد رمى النشاب مع سلامة صدر و خير إلى أن مات فى يوم السبت عاشر شعبان سنة سبع و أربعين و سبعمائة، و نشأ بجوار هذا الجامع دارا سنية، و حوض ماء للسبيل، و بهذا الجامع درس و له أوقاف، و هو من أحسن الجوامع.

جامع بشتاك

هذا الجامع خارج القاهرة بخط قبو الكرمانيّ على بركة الفيل، عمره الأمير بشتاك، فكمل فى شعبان سنة ست و ثلاثين و سبعمائة، و خطب فيه تاج الدين عبد الرحيم بن قاضى القضاة جلال الدين القزوينيّ، فى يوم الجمعة سابع عشرة، و عمر تجاهه خانقاه على الخليج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۱

الكبير، و نصب بينهما ساباطا يتوصل به من أحدهما إلى الآخر، و كان هذا الخط يسكنه جماعة من الفرنج و الأقباط، و يرتكبون من القبائح ما يليق بهم، فلما عمر هذا الجامع و أعلن فيه بالأذان و إقامة الصلوات، اشمأزت قلوبهم لذلك و تحوّلوا من هذا الخط، و هو من أبهج الجوامع و أحسنها رخاما، و أنزهها. و ادركناه إذا قويت زيادة ماء النيل فاضت بركة الفيل و غرّقته فيصير لجة ماء، لكن منذ انحسر ماء النيل عن البلد إلى جهة الغرب بطل ذلك، و له من الآثار سوى ذلك، قصر بشتاك بين القصرين، و قد تقدّم ذكره.

جامع آق سنقر

هذا الجامع بسويقة السباعين على البركة الناصرية، عمره الأمير آق سنقر شادّ العمائر السلطانية، و إليه تنسب قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير بخط قبو الكرمانىّ، قبالة الحبانية، و أنشأ أيضا دارا جليلة و حمامين بخط البركة الناصرية، و كان من جملة الأوشاقية فى أوّل أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، ثم عمله أمير أخور و نقله منها فجعله شادّ العمائر السلطانية، و أقام فيها مدّة فأثرى ثراء كبيرا، و عمر ما ذكر، و جعل على الجامع عدّة أوقاف، فعزل و صودر و الخرج من مصر إلى حلب، ثم نقل منها إلى دمشق، فمات بها فى سنة أربعين و سبعمائة.

جامع آق سنقر

هذا الجامع قريب من قلعة الجبل فيما بين باب الوزير و التبانة، كان موضعه فى القديم مقابر أهل القاهرة، و أنشأه الأمير آق سنقر الناصرىّ، و بناه بالحجر و جعل سقوفه عقودا من حجارة، و رخمه و اهتمّ فى ثنائه اهتماما زائدا حتى كان يقعد على عمارته بنفسه، و يشيل التراب مع الفعلة بيده، و يتأخر عن غدائه اشتغالا بذلك، و أنشأ بجانبه مكتبا لإقراء أيتام المسلمين القرآن، و حانوتا لسقى الناس الماء العذب، و وجد عند حفر أساس هذا الجامع كثيرا من الأموات، و جعل عليه ضيعة من قرى حلب، تغلّ فى السنة مائة و خمسين ألف درهم فضة، عنها نحو سبعة آلاف دينار، و قرّر فيه درسا فيه عدّة من الفقهاء، و ولى الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان الشافعىّ خطابته، و أقام له سائر ما يحتاج إليه من أرباب الوظائف، و بنى بجواره مكانا ليدفن فيه، و نقل إليه ابنه فدفنه هناك، و هذا الجامع من أجلّ جوامع مصر، إلّا أنه لما حدثت الفتن ببلاد الشام و خرجت النوّاب عن طاعة سلطان مصر منذ مات الملك الظاهر برقوق، امتنع حضور مغلّ وقف هذا الجامع لكونه فى بلاد حلب، فتعطل الجامع من أرباب وظائفه إلّا الاذان و الصلاة. و إقامة الخطبة فى الجمع و الأعياد، و لما كانت سنة خمس عشرة و ثمانمائة أنشأ فى وسطه الأمير طوغان الدوادار بكرة ماء، و سقفها و نصب عليها عمدا من رخام لحمل السقف، أخذها من جامع الخندق، فهدم الجامع بالخندق من أجل ذلك، و صار الماء ينقل إلى هذه البركة من ساقية الجامع التى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۲

كانت للميضأة، فلما قبض الملك المؤيد شيخ الظاهرىّ على طوغان فى يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأولى، سنة ست عشرة و ثمانمائة، و أخرجه إلى الاسكندرية و اعتقله بها، أخذ شخص الثور الذى كان يدير الساقية، فإن طوغان كان أخذه منه بغير ثمن كما هى عادة أمرائنا، فبطل الماء من البركة.

آق سنقر: السلارىّ، الأمير شمس الدين أحد مماليك السلطان الملك المنصور قلاون، و لما فرّقت المماليك، فى نيابة كتبغا على الأمراء، صار الأمير آق سنقر إلى الأمير سلار، فقيل له السلارىّ لذلك، و لما عاد الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك اختص به و رقاه فى الخدم حتى صار أحد الأمراء المقدّمين، و زوّجه بابنته و أخرجه لنيابة صفد، فباشرها بعفة إلى الغاية، ثم نقله من نيابة صفد إلى نيابة غزة، فلما مات الناصر و أقيم من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر، و خلع بالأشرف كجك و جاء الفخرىّ لحصار الكرك، قام آق سنقر بنصرة أحمد ابن السلطان فى الباطن، و توجه الفخرىّ إلى دمشق لما توجه الطنبغا إلى حلب ليطرد طشتمر نائب حلب، فاجتمع به و قوّى عزمه، و قال له توجه أنت إلى دمشق و املكها و أنا أحفظ لك غزة، و قام فى هذه الواقعة قياما عظيما و أمسك الدروب، فلم يحضر أحد من الشام أو مصر من البريد و غيره إلّا و قبض عليه و حمل إلى الكرك، و حلف الناس للناصر أحمد، و قام بأمره ظاهرا و باطنا، ثم جاء إلى الفخرىّ و هو على خان لاجين و قوّى عزمه و عضده، و ما زال عنده بدمشق إلى أن جاء الطنبغا من حلب و التقوا، و هرب الطنبغا فاتبعه اق سنقر إلى غزة و أقام بها، و وصلت العساكر الشامية إلى مصر، فلما أمسك الناصر

أحمد طشتمر النائب و توجه به إلى الكرك، أعطى نيابة ديار مصر لآق سنقر، فباشر النيابة و أحمد فى الكرك إلى أن ملك الملك الصالح إسماعيل بن محمد، فأقرّه على النيابة و سار فيها سيرة مشكورة، فكان لا يمنع أحدا شيئا طلبه كائنا من كان، و لا يردّ سائلا يسأل و لو كان ذلك غير ممكن، فارتزق الناس فى أيامه و اتسعت أحوالهم، و تقدّم من كان متأخرا حتى كان الناس يطلبون ما لا حاجة لهم به، ثم إن الصالح أمسكه هو و بيغرا أمير جاندار، و أولاجا الحاجب، و قراجا الحاجب، من أجل أنهم نسبوا إلى الممالاة و المداجاة مع الناصر أحمد، و ذلك يوم الخميس رابع المحرّم سنة أربع و أربعين و سبعمائة، و كان ذلك آخر العهد به، و استقرّ بعده فى النيابة الحاج آل ملك، ثم أفرج عن بيغرا، و أولاجا، و قراجا فى شهر رمضان سنة خمس و أربعين و سبعمائة.

جامع آل ملک

هذا الجامع فى الحسينية خارج باب النصر، أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك، و كمل و أقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة تاسع جمادى الأول سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و هو من الجوامع المليحة، و كانت خطته عامرة بالمساكن و قد خربت.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۳

آل ملك: الأمير سيف الدين أصله مما أخذ فى أيام الملك الظاهر من كسب الأبلستين لما دخل إلى بلاد الروم فى سنة ست و سبعين و ستمائة، و صار إلى الأمير سيف الدين قلاون و هو أمير قبل سلطنته، فأعطاه لابنه الأمير علىّ، و ما زال يترقى فى الخدم إلى أن صار من كبار الأمراء المشايخ رؤوس المشورة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و كان لما خلع الناصر و تسلطن بيبرس يتردّد بينهما من مصر إلى الكرك، فأعجب الناصر عقله و تأنيه، و سير من الكرك يقول للمظفر لا يعود يجىء إلىّ رسولا غير هذا فلما قدم الناصر إلى مصر عظمه و لم يزل كبيرا موقرا مبجلا فلما ولى الناصر أحمد السلطنة أخرجه إلى نيابة خماه، فأقام بها إلى أن تولى الصالح اسماعيل، فأقدمه إلى مصر و أقام بها على حاله إلى أن أمسك الأمير آق سنقر السلارىّ نائب السلطنة بديار مصر، فولاه النيابة مكانه، فشدّد فى الخمر إلى الغاية، و حدّ شاربها و هدم خزانة البنود و أراق خمورها، و بنى بها مسجدا و سكرها للناس، فسكنت إلى اليوم كما تقدّم ذكره، و أمسك الزمام زمانا، و كان يجلس للحكم فى الشباك بدار النيابة من قلعة الجبل طول نهاره لا يملّ ذلك و لا يسأم، و تروح أرباب الوظائف و لا يبقى عنده إلا النقباء البطالة، و كان له فى قلوب الناس مهابة و حرمة إلى أن تولى الكامل شعبان، فأخرجه أوّل سلطنته إلى دمشق نائبا بها عوضا عن الأمير طقزدمر، فلما كان فى أوّل الطريق حضر إليه من أخذه و توجه به إلى صفد نائبا بها، فدخلها آخر ربيع الآخر سنة سبع و أربعين و سبعمائة، ثم سأل الحضور إلى مصر فرسم له بذلك، فلما توجه و وصل إلى غزة أمسكه نائبها و وجهه إلى الاسكندرية فى سنة سبع و أربعين، فخنق بها. و كان خيرا فيه دين و عبادة يميل إلى أهل الخير و الصلاح، و تعتقد بركته، و خرّج له أحمد بن أيبك الدمياطىّ مشيخة، و حدّث بها و قرئت عليه مرّات و هو جالس فى شباك النيابة بقلعة الجبل، و عمر هذا الجامع و دارا مليحة عند المشهد الحسينىّ من القاهرة، و مدرسة بالقرب منها، و كان بركة من أحسن ما يكون، و خيله مشهورة موصوفة، و كان يقول كل أمير لا يقوّم رمحه و يسكب الذهب إلى أن يساوى السنان ما هو أمير، رحمة اللّه عليه.

جامع الفخر

فى ثلاثة مواضع، فى بولاق خارج القاهرة، و فى الروضة تجاه مدينة مصر، و فى جزيرة الفيل على النيل ما بين بولاق و منية السيرج. أمّا جامع الفخر بناحية بولاق فإنه موجود تقام فيه الجمعة إلى اليوم، و كان أوّلا عند ابتداء بنائه يعرف موضعه بخط خص الكيالة، و هو مكان كان يؤخذ فيه مكس الغلال المبتاعة، و قد ذكر ذلك عند ذكر أقسام مال مصر من هذا الكاتب. و جامع الروضة باق تقام فيه الجمعة. و أما الجامع بجزيرة الفيل فإنه كان باقيا إلى نحو سنة تسعين و سبعمائة، و صليت فيه الجمعة غير مرّة، ثم خرب و موضعه باق بجوار دار تشرف على النيل تعرف بدار الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن قطينة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۴

قريبا من الدار الحجازية.

و الفخر: هذا هو محمد بن فضل اللّه القاضى فخر الدين ناظر الجيش، المعروف بالفخر، كان فى نصرانيته متألها، ثم أكره على الإسلام فامتنع و همّ بقتل نفسه، و تغيب أياما ثم أسلم و حسن إسلامه، و أبعد النصارى و لم يقرّب أحدا منهم، و حج غير مرّة، و تصدّق فى آخر عمره مدّة فى كل شهر بثلاثة آلاف درهم نقرة، و بنى عدّة مساجد بديار مصر، و أنشأ عدّة أحواض ماء للسبيل فى الطرقات، و بنى مارستانا بمدينة الرملة، و مارستانا بمدينة بلبيس، و فعل أنواعا من الخير، و كان حنفىّ المذهب، و زار القدس عدّة مرار، و أحرم مرّة من القدس بالحج، و سار إلى مكة محرما، و كان إذا خدمه أحد مرّة واحدة صار صاحبه طول عمره، و كان كثير الإحسان، لا يزال فى قضاء حوائج الناس مع عصبية شديدة لأصحابه، و انتفع به خلق كثير لوجاهته عند السلطان، و إقدامه عليه، بحيث لم يك لأحد من أمراء الدولة عند الملك الناصر محمد بن قلاون ماله من الإقدام، و لقد قال السلطان مرّة لجندى طلب منه إقطاعا: لا تطوّل، و اللّه لو أنك ابن قلاون ما أعطاك القاضى فخر الدين حيزا يغلّ أكثر من ثلاثة آلاف درهم، و قال له السلطان فى يوم من الأيام و هو بدار العدل: يا فخر الدين تلك القضية طلعت فاشوش. فقال له: ما قلت لك أنها عجوز نحس. يريد بذلك بنت كوكاى امرأة السلطان عند ما ادّعت أنها حبلى، و له من الأخبار كثير.

و كان أوّلا- كاتب المماليك السلطانية، ثم صار من كتابة المماليك إلى وظيفة نظر الجيش، و نال من الوجاهة ما لم ينله غيره فى زمانه، و كان الأمير أرغون نائب السلطنة بديار مصر يكرهه، و إذا جلس للحكم يعرض عنه و يدير كتفه إلى وجه الفخر، فعمل عليه الفخر حتى سار للحج، فقال للسلطان: يا خوند ما يقتل الملوك إلّا النوّاب، بيدرا قتل أخاك الملك الأشرف، و لاجين قتل بسبب نائبه منكوتمر، و خيل للسلطان إلى أن أمر بمسير الأمير أرغون من طريق الحجاز إلى نيابة حلب، و حسن للسلطان أن لا يستوزر أحدا بعد الأمير الجمالىّ، فلم يول أحدا بعده الوزارة، و صارت المملكة كلها من أحوال الجيوش، و أمور الأموال و غيرها متعلقة بالفخر، إلى أن غضب عليه السلطان و نكبه و صادره على أربعمائة ألف درهم نقرة، و ولى وظيفة نظر الشيخ قطب الدين موسى بن شيخ السلامية، ثم رضى عن الفخر و أمر بإعادة ما أخذ منه من المال إليه، و هو أربعمائة ألف درهم نقرة، فامتنع و قال: أنا خرجت عنها للسلطان فليبين بها جامعا، و بنى بها الجامع الناصرىّ المعروف الآن بالجامع الجديد خارج مدينة مصر بموردة الحلفاء، و زار مرّة القدس و عبر كنيسة قمامة فسمع و هو يقول عند ما رأى الضوء بها: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا. و باشر آخر عمره بغير معلوم، و كان لا يأخذ من ديوان السلطان معلوما سوى كماجة، و يقول أتبرّك بها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۵

و لما مات فى رابع عشر رجب سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة و له من العمر ما ينيف على سبعين سنة، و ترك موجودا عظيما إلى الغاية. قال: السلطان، لعنه اللّه، خمس عشرة سنة ما يدعنى أعمل ما أريد، و أوصى للسلطان بمبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة، فأخذ من تركته أكثر من ألف ألف درهم نقرة، و من حين مات الفخر كثر تسلط السلطان الملك الناصر، و أخذه أموال الناس، و إلى الفخر تنسب قنطرة الفخر التى على فم الخليج الناصرىّ المجاور لميدان السلطان بموردة الجبس، و قنطرة الفخر التى على الخليج المجاور للخليج الناصرىّ، و أدركت ولده فقيرا يتكفف الناس بعد مال لا يحدّ كثرة.

جامع نائب الكرك

هذا الجامع بظاهر الحسينية مما يلى الخليج، كان عامرا و عمر ما حوله عمارة كبيرة، ثم خرب بخراب ما حوله من عهد الحوادث فى سنة ست و ثمانمائة، عمره الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك، و قد تقدّم ذكره عند ذكر الدور من هذا الكتاب.

جامع الخطيرىّ ببولاق

هذا الجامع موضعه الآن بناحية بولاق خارج القاهرة، كان موضعه قديما مغمورا بماء النيل إلى نحو سنة سبعمائة، فلما انحسر ماء النيل عن ساحل المقس صار ما قدّام المقس رمالا لا يعلوها ماء النيل إلّا أيام الزيادة، ثم صارت بحيث لا يعلوها الماء البتة، فزرع موضع هذا الجامع بعد سنة سبعمائة، و صار منتزها يجتمع عنده الناس، ثم بنى هناك شرف الدين بن زنبور ساقية و عمر بجوارها رجل يعرف بالحاج محمد بن عز الفرّاش دارا تشرف على النيل، و تردّد إليها، فلما مات أخذها شخص يقال له تاج الدين بن الأزرق ناظر الجهات و سكنها، فعرفت بدار الفاسقين لكثرة ما يجرى فيها من أنواع المحرّمات، فاتفق أن النشو ناظر الخاص قبض على ابن الأزرق و صادره، فباع هذه الدار فى جملة ما باعه من موجوده، فاشتراها منه الأمير عز الدين أيدمر الخطيرىّ و هدمها و بنى مكانها هذا الجامع و سماه جامع التوبة، و بالغ فى عمارته و تأنق فى رخامه، فجاء من أجلّ جوامع مصر و أحسنها، و عمل له منبرا من رخام فى غاية الحسن، و ركب فيه عدّة شبابيك من حديد تشرف على النيل الأعظم، و جعل فيه خزانة كتب جليلة نفيسة، و رتب فيه درسا للفقهاء الشافعية، و وقف عليه عدّة أوقاف منها: دار العظيمة التى هى فى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، و كان جملة ما أنفق فى هذا الجامع أربعمائة ألف درهم نقرة، و كملت عمارته فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و أقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة عشرى جمادى الآخر، فلما خلص ابن الأزرق من المصادرة، حضر إلى الأمير الخطيرىّ و ادّعى أنه باع داره و هو مكره، فدفع إليه ثمنها مرّة ثانية، ثم إن البحر قوى على هذا الجامع و هدمه، فأعاد بناءه بجملة كثيرة من المال، و رمى قدّام زريبته ألف مركب مملوءة بالحجارة، ثم انهدم بعد موته و أعيدت زريبته.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۶

ايدمر الخطيرىّ: الأمير عز الدين، مملوك شرف الدين أوحد بن الخطيرىّ، الأمير مسعود بن خطير، انتقل إلى الملك الناصر محمد بن قلاون فرقاه حتى صار أحد أمراء الألوف، بعد ما حبسه بعد مجيئه من الكرك إلى مصر مدّة، ثم أطلقه و عظم مقداره إلى أن بقى يجلس رأس الميسرة و معه أمرة مائة و عشرين فارسا، و كان لا يمكنه السلطان من المبيت فى داره بالقاهرة، فينزل إليها بكرة و يطلع إلى القلعة بعد العصر كذا أبدا، فكانوا يرون ذلك تعظيما له، و كان منوّر الشيبة كريما يحب التزوّج الكثير و الفخر، بحيث أنه لما زوّج السلطان ابنته بالأمير قوصون ضرب دينارين وزنهما أربعمائة مثقال ذهبا، و عشرة آلاف درهم فضة برسم نقوط امرأته فى العرس إذا طلعت إلى زفاف ابنة السلطان على قوصون، و قيل له مرّة هذا السّكّر الذى يعمل فى الطعام ما يضرّ أن يعمل غير مكرّر، فقال لا يعمل إلّا مكرّرا، فإنه يبقى فى نفسى أنه غير مكرّر، و كان لا يلبس قباء مطرّزا و لا مصقولا، و لا يدع أحدا عنده يلبس ذلك، و كان يخرج الزكاة، و انشأ بجانب هذا الجامع ربعا كبيرا تنافس الناس فى سكناه، و لم يزل على حاله حتى مات يوم الثلاثاء مستهلّ شهر رجب سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و دفن بتربته خارج باب النصر، و لم يزل هذا الجامع مجمعا يقصده سائر الناس للتنزه فيه على النيل، و يرغب كل أحد فى السكنى بجواره، و بلغت الأماكن التى بجواره من الأسواق و الدور الغاية فى العمارة، حتى صار ذلك الخط أعمر أخطاط مصر و أحسنها، فلما كانت سنة ست و ثمانمائة انحسر ماء النيل عما تجاه جامع الخطيرىّ، و صار رملة لا يعلوها الماء إلّا فى أيام الزيادة، و تكاثر الرمل تحت شبابيك الجامع، و قربت من الأرض بعد ما كان الماء تحته لا يكاد يدرك قراره، و هو الآن عامر، إلّا أن الاجتماعات التى كانت فيه قبل انحسار النيل عما قبالته قلت، و اتضع حال ما يجاوره من السوق و الدور، و للّه عاقبة الأمور.

جامع قيدان

هذا الجامع خارج القاهرة على جانب الخليج الشرقىّ ظاهر باب الفتوح مما يلى قناطر الإوز تجاه أرض البعل، كان مسجدا قديم البناء فجدّده الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى محرّم سنة سبع و تسعين و خمسمائة، و جدّد حوض السبيل الذى فيه، ثم إن الأمير

مظفر الدين قيدان الرومىّ عمل به منبرا لإقامة الخطبة يوم الجمعة، و كان عامرا بعمارة ما حوله، فلما حدث الغلاء فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين خرب كثير من تلك النواحى، و بيعت أنقاضها، و كانت الغرقة أيضا، فصار ما بين القنطرة الجديدة المجاورة لسوق جامع الظاهر، و بين قناطر الأوز المقابلة لأرض البعل يبابا لا عامر له و لا ساكن فيه، و خرب أيضا ما وراء ذلك من شرقيه إلى جامع نائب الكرك، و تعطل هذا الجامع و لم يبق منه غير جدر آئلة إلى العدم، ثم جدّده مقدّم بعض المماليك السلطانية فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۷

حدود الثلاثين و الثمانمائة، ثم وسع فيه الشيخ أحمد بن محمد الأنصارىّ العقاد الشهير بالأزرارىّ، و مات فى ثانى عشر ربيع الأوّل سنة ثلاث و أربعين و ثمانمائة.

جامع الست حدق

هذا الجامع بخط المريس فى جانب الخليج الكبير مما يلى الغرب، بالقرب من قنطرة السدّ التى خارج مدينة مصر، أنشأته الست حدق دادة الملك الناصر محمد بن قلاون، و أقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و إلى حدق هذه ينسب حكر الست حدق الذى ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب.

جامع ابن غازى

هذا الجامع خارج باب البحر من القاهرة بطريق بولاق، أنشأه نجم الدين بن غازى دلال المماليك، و أقيمت فيه الخطبة فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى، سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و إلى اليوم تقام فيه الجمعة، و بقية الأيام لا يزال مغلق الأبواب لقلة السكان حوله.

جامع التركمانىّ

هذا الجامع فى المقس، و هو من الجوامع المليحة البناء، أنشأه الأمير بدر الدين محمد التركمانىّ، و كان ما حوله عامرا عمارة زائدة، ثم تلاشى من الوقت الذى كان فيه الغلاء زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين، و ما برح حاله يختل إلى أن كانت الحوادث و المحن من سنة ست و ثمانمائة، فخرب معظم ما هنالك، و فيه إلى اليوم بقايا عامر لا سيما بجوار هذا الجامع.

التركمانىّ محمد، و ينعت بالأمير بدر الدين محمد بن الأمير فخر الدين عيسى التركمانىّ، كان أوّلا شادّا، ثم ترقى فى الخدم حتى ولى الجيزة، و تقدّم فى الدولة الناصرية، فولاه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون شادّ الدواوين، و الدولة حينئذ ليس فيها وزير، فاستقلّ بتدبير الدولة مدّة أعوام، و كان يلى نظر الدولة تلك الأيام كريم الدين الصغير، فغص به و ما زال يدبر عليه حتى أخرجه السلطان من ديار مصر، و عمله شادّ الدواوين بطرابلس، فأقام هناك مدّة سنتين ثم عاد إلى القاهرة بشفاعة الأمير تنكز نائب الشام، و ولى كشف الوجه البحرىّ مدّة، ثم أعطى أمرة طبلخاناه، و أعطى أخوه علىّ أمرة عشرة، و ولده إبراهيم أيضا أمرة عشرة، و كان مهابا صاحب حرمة باسطة و كلمة نافذة، و مات عن سعادة طائلة بالمقس فى ربيع الأوّل سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة و هو أمير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۸

جامع شيخو

هذا الجامع بسويقة منعم، فيما بين الصليبة و الرميلة تحت قلعة الجبل، أنشأه الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصرىّ، رأس نوبة الأمراء

فى سنة ست و خمسين و سبعمائة، و رفق بالناس فى العمل فيه و أعطاهم أجورهم، و جعل فيه خطبة و عشرين صوفيا، و أقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومىّ الحنفىّ شيخهم، ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع نقل حضور الأكمل و الصوفية إليها، و زاد عدّتهم، و هذا الجامع من أجلّ جوامع ديار مصر.

شيخو: الأمير الكبير سيف الدين، أحد مماليك الناصر محمد بن قلاون، حظى عند الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاون، و زادت وجاهته حتى شفع فى الأمراء و أخرجهم من سجن الإسكندرية، ثم إنه استقرّ فى أوّل دولة الملك الناصر حسن أحد أمراء المشورة، و فى آخر الأمر كانت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان فى أيام الخدمة، و صار زمام الدولة بيده، فساسها أحسن سياسة بسكون و عدم شرّ، و كان يمنع كل حزب من الوثوب على الآخر، فعظم شأنه إلى أن رسم السلطان بإمساك الأمير يلبغاروس نائب السلطنة بديار مصر و هو مسافر بالحجاز، و كان شيخو قد خرج متصيدا إلى ناحية طنان بالغربية، فلما كان يوم السبت رابع عشرى شوّال سنة إحدى و خمسين و سبعمائة، أمسك السلطان الأمير منجك الوزير، و حلّف الأمراء لنفسه، و كتب تقليد شيخو بنيابة طرابلس، و جهزه إليه مع الأمير سيف الدين طينال الجاشنكير، فسار إليه و سفره من برّا، فوصل إلى دمشق ليلة الثلاثاء رابع ذى القعدة، فظهر مرسوم السلطان بإقامة شيخو فى دمشق على إقطاع الأمير بيلبك السالمىّ، و بتجهيز بيلبك إلى القاهرة، فخرج بيلبك من دمشق و أقام شيخو على إقطاعه بها، فما وصل بيلبك إلى القاهرة إلّا و قد وصل إلى دمشق و أقام شيخو على إقطاعه بها، فما وصل و تقييد مماليكه و اعتقالهم بقلعة دمشق، فأمسك و جهّز مقيدا، فلما وصل إلى قطيا توجهوا به إلى الإسكندرية، فلم يزل معتقلا بها إلى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن، و تولى أخوه الملك الصالح صالح، فأفرج عن شيخو و منجك الوزير و عدّة من الأمراء، فوصلوا إلى القاهرة فى رابع شهر رجب سنة اثنتين و خمسين و سبعمائة، و أنزل فى الأشرفية بقلعة الجبل، و استمرّ على عادته، و خرج مع الملك الصالح إلى الشام فى واقعة يلبغاروس، و توجه إلى حلب هو و الأمير طاز و أرغون الكاملىّ خلف يلبغاروس، و عاد مع السلطان إلى القاهرة و صمم حتى أمسك يلبغاروس و من معه من الأمراء بعد ما و صلوا إلى بلاد الروم، و حزت رؤسهم، و أمسك أيضا ابن دلغار و أحضر إلى القاهرة و وسّط و علّق على باب زويلة، ثم خرج بنفسه فى طلب الأحدب الذى خرج بالصعيد و تجاوز فى سفره قوص، و أمسك عدّة كثيرة و وسّطهم حتى سكنت الفتن بأرض مصر، و ذلك فى آخر سنة أربع و خمسين و أوّل سنة خمس و خمسين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۹

ثم خلع الملك الصالح و أقام بدله الملك الناصر حسنا فى ثانى شوّال، و أخرج الأمير طاز من مصر إلى حلب نائبا بها و معه إخوته، و صارت الأمور كلها راجعة إليه، و زادت عظمته و كثرت أمواله و أملاكه و مستأجراته حتى كاد يكاثر أمواج البحر بما ملك، و قيل له قارون عصره. و عزيز مصره، و أنشأ خلقا كثيرا، فقوى بذلك حزبه و جعل فى كل مملكة من جهته عدّة أمراء، و صارت نوّابه بالشام و فى كل مدينة أمراء كبار، و خدموه حتى قيل كان يدخل كل يوم ديوانه من إقطاعه و أملاكه و مستأجراته بالشام و ديار مصر مبلغ مائتى ألف درهم نقرة، و أكثر، و هذا شىء لم يسمع بمثله فى الدولة التركية، و ذلك سوى الإنعامات السلطانية و التقادم التى ترد إليه من الشام و مصر، و ما كان يأخذ من البراطيل على ولاية الأعمال، و جامعه هذا و خانقاهه التى بخط الصليبة لم يعمر مثلهما قبلهما، و لا عمل فى الدولة التركية مثل أوقافهما، و حسن ترتيب المعاليم بهما، و لم يزل على حاله إلى أن كان يوم الخميس ثامن شعبان سنة ثمان و خمسين و سبعمائة، فخرج عليه شخص من المماليك السلطانية المرتجعة عن الأمير منجك الوزير يقال له باى، فجاء و هو جالس بدار العدل و ضربه بالسيف فى وجهه و فى يده، فارتجت القلعة كلها و كثر هرج الناس حتى مات من الناس جماعة من الزحمة و ركب من الأمراء الكبار عشرة و هم بالسلاح عليهم إلى قبة النصر خارج القاهرة، ثم أمسك باى فجاء و قرّر فلم يعترف بشىء على أحد و قال: أنا قدّمت إليه قصة لينقلنى من الجامكية إلى الإقطاع فما قضى شغلى، فأخذت فى نفسى من ذلك، فسجن مدّة ثم سمّر و طيف به الشوارع، و بقى شيخو عليلا من تلك الجراحة لم يركب إلى أن مات ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة، سنة

ثمان و خمسين و سبعمائة، و دفن بالخانقاه الشيخونية و قبره بها يقرأ عنده القرآن دائما.

جامع الجاكىّ

هذا الجامع كان بدرب الجاكى عند سويقة الريش من الحكر فى برّ الخليج الغربىّ، أصله مسجد من مساجد الحكر، ثم زاد فيه الأمير بدر الدين محمد بن إبراهيم المهمندار، و جعله جامعا و أقام فيه منبرا فى سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، فصار أهل الحكر يصلون فيه الجمعة إلى أن حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فخرب الحكر و بيعت أنقاض معظم الدور التى هناك، و تعطل هذا الجامع من ذكر اللّه و إقامة الصلاة لخراب ما حوله، فحكم بعض قضاة الحنفية ببيع هذا الجامع، فاشتراه شخص من الوعاظ يعرف بالشيخ أحمد الواعظ الزاهد صاحب جامع الزاهد بخط المقس، و هدمه و أخذ أنقاضه فعملها فى جامعه الذى بالمقس فى أوّل سنة سبع عشرة و ثمانمائة.

جامع التوبة

هذا الجامع بجوار باب البرقية فى خط بين السورين، كان موضعه مساكن أهل الفساد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۰

و أصحاب الرأى، فلما أنشأ الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالىّ خانقاهه المعروفة بالجمالية قريبا من خزانة البنود بالقاهرة، كره مجاورة هذه الأماكن لداره و خانقاهه، فأخذها و هدمها و بنى هذا الجامع فى مكانها، و سماه جامع التوبة، فعرف بذلك إلى اليوم، و هو الآن تقام فيه الجمعة، غير أنه لا يزال طول الأيام مغلق الأبواب لخلوّه من ساكن، و قد خرب كثير مما يجاوره، و هناك بقايا من أماكن.

جامع صاروجا

هذا الجامع مطلّ على الخليج الناصرىّ بالقرب من بركة الحاجب التى تعرف ببركة الرطلى، كان خطة تعرف بجامع العرب، فأنشأ بها هذا الجامع ناصر الدين محمد أخو الأمير صار و جانقيب الجيش، بعد سنة ثلاثين و سبعمائة، و كانت تلك الخطة قد عمرت عمارة زائدة، و أدركت منها بقية جيدة إلى أن دثرت، فصارت كيمانا، و تقام الجمعة إلى اليوم فى هذا الجامع أيام النيل.

جامع الطباخ

هذا الجامع خارج القاهرة بخط باب اللوق، بجوار بركة الشقاف، كان موضعه و موضع بركة الشقاف من جملة الزهرىّ، أنشأه الأمير جمال الدين أقوش، و جدّده الحاج على، الطباخ فى المطبخ السلطانىّ أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و لم يكن له وقف، فقام بمصالحه من ماله مدّة، ثم إنه صودر فى سنة ست و أربعين و سبعمائة، فتعطل مدّة نزول الشدّة بالطباخ، و لم تقم فيه تلك المدّة الصلاة.

علىّ بن الطباخ: نشأ بمصر و خدم الملك الناصر محمد بن قلاون. و هو بمدينة الكرك، فلما قدم إلى مصر جعله خوان سلار، و سلمه المطبخ السلطانىّ، فكثر ماله لطول مدّته. و كثرة تمكنه، و لم يتفق لأحد من نظرائه ما اتفق له من السعادة الطائلة، و ذلك أن الأفراح و ما كان يصنع من المهمات و الأعراس و نحوها مما كان يعمل فى الدور السلطانية و عند الأمراء و المماليك و الحواشى مع كثرة ذلك فى طول تلك الأعوام، كانت كلها إنما يتولى أمرها هو بمفرده، فما اتفق له فى عمل مهم ابن بكتمر الساقى على ابنة الأمير تنكز نائب الشام، أن السلطان الملك الناصر استدعاه آخر النهار الذى عمل فيه المهم المذكور و قال له: يا حاج علىّ، اعمل لى الساعة لونا

من طعام الفلاحين، و هو خروج رميس يكون ملهوج، فولى و وجهه معبس، فصاح به السلطان ويلك مالك معبس الوجه؟ فقال: كيف ما أعبس و قد حرمتنى الساعة عشرين ألف درهم نقرة؟ فقال: كيف حرمتك؟ قال: قد تجمع عندى رؤس غنم و بقر و أكارع و كروش و أعضاد و سقط دجاج و أوز و غير ذلك مما سرقته من المهمّ، و أريد أقعد و أبيعه، و قد قلت لى أطبخ و بينما أفرغ من الطبيخ تلف الجميع، فتبسم السلطان و قال له: رح أطبخ و ضمان الذى ذكرت علىّ، و أمر بإحضار والى القاهرة و مصر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۱

فلما حضرا ألزمهما بطلب أرباب الزفر إلى القلعة و تفرقة ما ناب الطباخ من المهمّ عليهم، و استخراج ثمنه، فللحال حضر المذكورون و بيع عليهم ذلك فبلغ ثمنه ثلاثة و عشرين ألف درهم نقرة، و هذا مهمّ واحد من ألوف مع الذى كان له من المعاليم و الجرايات و منافع المطبخ. و يقال أنه كان يتحصل له من المطبخ السلطانى فى كل يوم على الدوام و الاستمرار مبلغ خمسمائة درهم نقرة، و لولده أحمد مبلغ ثلاثمائة درهم نقرة، فلما تحدّث النشو فى الدولة خرّج عليه تخاريج و أغرى به السلطان، فلم يسمع فيه كلاما، و ما زال على حاله إلى أن مات الملك الناصر و قام من بعده أولاده الملك المنصور أبو بكر، و الملك الأشرف كجك، و الملك الناصر أحمد، و الملك الصالح إسماعيل، و الملك الكامل شعبان، فصادره فى سنة ست و أربعين و سبعمائة، و أخذ منه مالا كثيرا، و مما وجد له خمس و عشرون دارا مشرفة على النيل و غيره، فتفرقت حواشى الملك الكامل أملامه، فأخذت أم السلطان ملكه الذى كان على البحر، و كانت دارا عظيمة جدّا، و أخذت أنقاض داره التى بالمحمودية من القاهرة و أقيم عوضه بالمطبخ السلطانىّ و ضرب ابنه أحمد.

جامع الأسيوطىّ

هذا الجامع بطرف جزيرة الفيل مما يلى ناحية بولاق، كان موضعه فى القديم غامرا بماء النيل، فلما انحسر عن جزيرة الفيل و عمرت ناحية بولاق، أنشأ هذا الجامع القاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عمر السيوطىّ ناظر بيت المال، و مات فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة، ثم جدّد عمارته بعد ما تهدّم و زاد فيه ناصر الدين محمد بن محمد بن عثمان بن محمد المعروف بابن البارزىّ الحموىّ كاتب السرّ، و أجرى فيه الماء و أقام فيه الخطبة يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة، فجاء فى أحسن هندام و أبدع زىّ، و صلّى فيه السلطان الملك المؤيد شيخ الجمعة فى أول جمادى الآخرة سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة.

جامع الملك الناصر حسن

هذا الجامع يعرف بمدرسة السلطان حسن، و هو تجاه قلعة الجبل فيما بين القلعة و بركة الفيل، و كان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى الذى تقدّم ذكره عند ذكر الدور، و ابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع و خمسين و سبعمائة، و أوسع دوره و عمله فى أكبر قالب و أحسن هندام و أضخم شكل، فلا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع، أقامت العمارة فيه مدّة ثلاث سنين لا تبطل يوما واحدا، و أرصد لمصروفها فى كل يوم عشرون ألف درهم، عنها نحو ألف مثقال ذهبا. و لقد أخبرنى الطواشى مقبل الشامىّ: أنه سمع السلطان حسنا يقول: انصرف على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان الكبير مائة ألف درهم نقرة، و هذا القالب مما رمى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۲

قال: و سمعت السلطان يقول لولا أن يقال ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه، و فى هذا الجامع عجائب من البنيان منها: أن ذراع إيوانه الكبير خمسة و ستون ذراعا فى مثلها، و يقال أنه أكبر من إيوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمسة أذرع، و منه القبلة العظيمة التى لم يبن بديار مصر و الشام و العراق و المغرب و اليمن مثلها، و منها المنبر

الرخام الذى لا نظير له، و منها البوّابة العظيمة، و منها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع إلى غير ذلك. و كان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع مناير يؤذن عليها، فتمت ثلاث مناير إلى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و ستين و سبعمائة، فسقطت المنارة التى على الباب، فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك و من غير الأيتام، و سلّم من الأيتام ستة أطفال، فأبطل السلطان بناء هذه المنارة و بناء نظيرتها، و تأخر هناك منارتان هما قائمتان إلى اليوم، و لما سقطت المنارة المذكورة لهجت عامّة مصر و القاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة، فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علىّ بن محمد السبكىّ فى سقوطها:

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتىبشيره بمقال سار كالمثل

إنّ المنارة لم تسقط لمنقصةلكن لسرّ خفىّ قد تبيّن لى

من تحتها قرىء القرآن فاستمعتفالوجد فى الحال أدّها إلى الميل

لو أنزل اللّه قرآنا على جبل تصدّعت رأسه من شدّة الوجل

تلك الحجارة لم تنقضّ بل هبطتمن خشية اللّه لا للضعف و الخلل

و غاب سلطانها فاستوحشت و رمتبنفسها لجوى فى القلب مشتعل

فالحمد للّه حظّ العين زال بماقد كان قدّره الرحمن فى الأزل

لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسةشيدت بنيانها بالعلم و العمل

و دمت حتى ترى الدنيا بها امتلأتعلما فليس بمصر غير مشتغل

فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة و ثلاثين يوما، و مات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع، فأتمه من بعده الطواشى بشير الجمدار، و كان قد جعل السلطان على هذا الجامع أوقافا عظيمة جدّا، فلم يترك منها إلّا شىء يسير و أقطع أكثر البلاد التى وقفت عليه بديار مصر و الشام لجماعة من الأمراء و غيرهم، و صار هذا الجامع ضدّا لقلعة الجبل، قلما تكون فتنة بين أهل الدولة إلّا و يصعد عدّة من الأمراء و غيرهم إلى أعلاه و يصير الرمى منه على القلعة، فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق و أمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها إلى المنارتين و البيوت التى كان يسكنها الفقهاء، و يتوصل من هذه الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة، و هدمت البسطة العظيمة و الدرج التى كانت بجانبى هذه البسطة التى كانت قدّام باب الجامع، حتى لا يمكن الصعود إلى الجامع، و سدّ من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله، و فتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۳

ليتوصل منه إلى داخل الجامع عوضا عن الباب المسدود، فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة، و امتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين، و بقى الأذان على درج هذا الباب، و كان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الأحد ثامن صفر سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة، ثم لما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة اشترى هذا الباب النحاس و التنور النحاس الذى كان معلقا هناك بخمسمائة دينار، و نقلا فى يوم الخميس سابع عشرى شوّال سنة تسع عشرة و ثمانمائة، فركب الباب على البوّابة و علق التنور تجاه المحراب، فلما كان فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس و عشرين و ثمانمائة، أعيد الأذان فى المئذنتين كما كان، و أعيد بناء الدرج و البسطة، و ركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد، و استمرّ الأمر على ذلك.

الملك الناصر أبو المعالى الحسن بن محمد بن قلاون: جلس على تخت الملك و عمره ثلاث عشرة سنة فى يوم الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان و أربعين و سبعمائة بعد أخيه الملك المظفر حاجى، و أركب من باب الستارة بقلعة الجبل و عليه شعار السلطنة و فى ركابه الأمراء إلى أن نزل بالإيوان السلطانىّ، و مدبر و الدولة يومئذ الأمير يلبغاروس، و الأمير ألجيبغا المظفرىّ، و الأمير شيخو، و الأمير طاز، و أحمد شادّ الشرابخاناه، و أرغون الإسماعيلىّ فخلع على يلبغاروس و استقرّ فى نيابة السلطنة بديار مصر، عوضا عن الحاج

أرقطاى، و قرّر أرقطاى فى نيابة السلطنة بحلب، و خلع على الأمير سيف الدين منجك اليوسفىّ و استقرّ فى الوزارة و الاستادارية، و قرر الأمير أرغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق.

فلما دخلت سنة تسع و أربعين، كثر انكشاف الأراضى من ماء النيل بالبرّ الشرقىّ فيما يلى بولاق إلى مصر، فاهتم الأمراء بسدّ البحر مما يلى الجيزة، و فوّض ذلك للأمير منجك، فجمع مالا كثيرا و أنفقه على ذلك، فلم يفد، فقبض على منجك فى ربيع الأوّل، و حدث الوباء العظيم فى هذه السنة، و أخرج أحمد شادّ الشرابخاناه لنيابة صفد، و ألجيبغا لنيابة طرابلس، فاستمرّ أجليبغا بها إلى شهر ربيع الأوّل سنة خمسين، فركب إلى دمشق و قتل أرغون شاه بغير مرسوم، فأنكر عليه و أمسك و قتل بدمشق. و فى سنة إحدى و خمسين سار من دمشق عسكر عدّته أربعة آلاف فارس، و من حلب ألفا فارس إلى مدينة سنجار، و معهم عدّة كثيرة من التركمان، فحصروها مدّة حتى طلب أهلها الأمان، ثم عادوا. و ترشد السلطان و استبدّ بأمره و قبض على منحك و يلبغاروس، و قبض بمكة على الملك المجاهد صاحب اليمن، و قيد و حمل إلى القاهرة، فأطلق ثم سجن بقلعة الكرك.

فلما كان يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة ركب الأمراء على السلطان و هم: طاز و إخوته و يبلغا الشمسىّ، و يبغوا، و وقفوا تحت القلعة و صعد الأمير طاز و هو لابس إلى القلعة فى عدّة وافرة، و قبض على السلطان و سجنه بالدور، فكانت مدّة ولايته ثلاث سنين و تسعة أشهر، و أقيم بدله أخوه الملك الصالح صالح فأقام السلطان حسن مجمعا على الاشتغال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۴

بالعلم، و كتب بخطه نسخة من كتاب دلائل النبوّة للبيهقىّ إلى يوم الاثنين ثانى شوّال سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فأقامه الأمير شيخو العمرىّ فى السلطنة، و قبض على الصالح، و كانت مدّة سجنه ثلاث سنين و ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما، فرسم بإمساك الأمير طاز و إخراجه لنيابة حلب. و فى ربيع الأول سنة سبع و خمين هبت ريح عاصفة من ناحية الغرب من أوّل النهار إلى آخر الليل، اصفرّ منها الجوّ، ثم احمرّ، ثم اسودّ فتلف منها شىء كثير.

و فى شعبان سنة تسع و خمسين ضرب الأمير شيخو بعض المماليك بسيف فلم يزل عليلا حتى مات. و فى سنة تسع و خمسين كان ضرب الفلوس الجدد، فعمل كلّ فلس زنة مثقال، و قبض على الأمير طاز نائب حلب و سجن بالإسكندرية، و قرّر مكانه فى نيابة حلب الأمير منجك اليوسفىّ، و أمسك الأمير صرغتمش فى شهر رمضان منها، و كانت حرب بين مماليكه و مماليك السلطان، انتصر فيها المماليك السلطانية، و قبض على عدّة أمراء، فأنعم السلطان على مملوكه يلبغا العمرىّ الخاصكىّ بتقدمة ألف عوضا عن تنكر بغا الماردانىّ أمير مجلس بحكم وفاته. و فى سنة ستين فرّ منجك من حلب، فلم يوقف له على خبر، فأقرّ على نيابة حلب الأمير بيدمر الخوارزمىّ، و سار لغزو سيس فأخذ أدنه بأمان و أخذ طرسوس و المصيصة و عدّة بلاد و أقام بها نوّابا و عاد، فلما كانت سنة اثنتين و ستين عدّى السلطان إلى برّ الجيزة و أقام بناحية كوم برا مدّة طويلة لوباء كان بالقاهرة، فتنكر الحال بينه و بنى الأمير يلبغا إلى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى، فركب السلطان فى جماعة ليكبس على الأمير يلبغا، و كان قد أحسن بذلك و خرج عن الخيام و كمن بمكان و هو لابس فى جماعته، فلم يظفر السلطان به، و رجع فثار به يلبغا فانكسر بمن معه و فرّ يريد قلعة الجبل، فتبعه يلبغا و قد انضم إليه جمع كثير، و دخل السلطان إلى القلعة فلم يثبت، و ركب معه أيدمر الدوادار ليتوجه إلى بلاد الشام، و نزل إلى بيت الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشىّ أمير حاجب، فبعث فى الحال إلى الأمير يبلغا يعلمه بمجىء السلطان إليه، فبعث من قبضه هو و الأمير أيدمر، و من حينئذ لم يوقف له على خبر البتة مع كثرة فحص أتباعه و حواشيه عن قبره و ما آل إليه أمره، فكانت مدّة ولايته هذه الثانية ست سنين و سبعة أشهر و أياما، و كان ملكا حازما مهابا شجاعا صاحب حرمة وافرة و كلمة نافذة و دين متين، حلف غير مرّة أنه ما لاط و لا شرب خمرا و لا زنى، إلّا أنه كان يبخل و يعجب بالنساء، و لا يكاد يصبر عنهنّ، و يبالغ فى إعطائهنّ المال، و عادى فى دولته أقباط مصر، و قصد اجتثات أصلهم، و كره المماليك، و شرع فى إقامة أولاد الناس أمراء، و ترك عشرة بنين و ست بنات، و كان أشقر أنمش، و قتل و له من العمر بضع و عشرون سنة، و لم يكن قبله و لا بعده فى الدولة التركية مثله.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۵

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف الآن بجامع الأولياء، و هو القرافة الكبرى، و كان موضعه يعرف فى القديم عند فتح مصر بخطة المغافر، و هو مسجد بنى عبد اللّه بن مانع بن مورع يعرف بمسجد القبة. قال القضاعىّ: كان القرّاء يحضرون فيه، ثم بنى عليه المسجد الجامع الجديد، بنته السيدة المعزية فى سنة ست و ستين و ثلاثمائة و هى أمّ العزيز بالله نزار ولد المعز لدين اللّه، أمّ ولد من العرب يقال لها تغريد، و تدعى درزان، و بنته على يد الحسن بن عبد العزيز الفارسىّ المحتسب فى شهر رمضان من السنة المذكورة، و هو على نحو بناء الجامع الأزهر بالقاهرة، و كان بهذا الجامع بستان لطيف فى غربيه و صهريج، و بابه الذى يدخل منه ذو المصاطب الكبير الأوسط تحت المنار العالى الذى عليه مصفح بالحديد إلى حضرة المحراب، و المقصورة من عدّة أبواب، و عدّتها أربعة عشر بابا مربعة مطوّبة الأبواب، قدّام كلّ باب قنطرة قوس على عمودى رخام ثلاثة صفوف، و هو مكندج مزوّق باللازورد و الزنجفر و الزنجار و أنواع الأصباغ، و فيه مواضع مدهونة، و السقوف مزوّقة ملوّنة كلها، و الحنايا و العقود التى على العمد مزوّقة بأنواع الأصباغ من صنعة البصريين و بنى المعلم المزوّقين شيوخ الكتامىّ و النازوك، و كان قبالة الباب السابع من هذه الأبواب قنطرة قوس مزوّقة فى منحنى حافتيها شاذوران مدرّج بدرج و آلات سود و بيض و حمر و خضر و زرق و صفر، إذا تطلع إليها من وقف فى سهم قوسها شائلا رأسه إليها ظنّ أن المدرّج المزوّق كأنه خشب كالمقرنص، و إذا أتى إلى أحد قطرى القوس نصف الدائرة و وقف عند أوّل القوس منها و رفع رأسه، رأى ذلك الذى توهمه مسطحا لا نتوء فيه، و هذه من أفخر الصنائع عند المزوّقين، و كانت هذه القنطرة من صنعة بنى المعلم، و كان الصناع يأتون إليها ليعملوا مثلها، فما يقدرون، و قد جرى مثل ذلك للقصير و ابن عزيز فى أيام البازورىّ سيد الوزراء الحسن بن علىّ بن عبد الرحمن، و كان كثيرا ما يحرّض بينهما و يغرى بعضهما على بعض لانه كان أحبّ ما إليه كتاب مصوّرا، أو النظر إلى صورة، أو تزويق.

و لما استدعى ابن عزيز من العراق فأفسده، و كان قد أتى به فى محاربة القصير لأنّ القصير كان يشتط فى أجرته و يلحق عجب فيه صنعته، و هو حقيق بذلك لأنه فى عمل الصورة كابن مقلة فى الخط، و ابن عزيز كابن البوّاب، و قد أمعن شرح ذلك فى الكتاب المؤلف فيه، و هو طبقات المصوّرين المنعوت، بضوء النبراس و أنس الجلاس فى أخبار المزوّقين من الناس، و كان البازورىّ قد أحضر بمجلسه القصير و ابن عزيز فقال ابن عزيز:

أنا أصوّر صورة إذا رآها الناظر ظنّ أنها خارجة من الحائط. فقال القصير: لكن أنا أصوّرها فإذا نظرها الناظر ظنّ أنها داخلة فى الحائط، فقالوا هذا أعجب، فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به، فصوّرا صورة راقصتين فى صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين، هذه ترى كأنها داخلة فى الحائط، و تلك ترى كأنها خارجه من الحائط، فصوّر القصير راقصة بثياب بيض فى صورة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۶

حنية دهنها أسود كأنها داخلة فى صورة الحنية، و صوّر ابن عزيز راقصة بثياب حمر فى صورة جنية صفراء كأنها بارزة من الحنية، فاستحسن البازورىّ ذلك و خلع عليهما و وهبهما كثيرا من الذهب.

و كان بدار النعمان بالقرافة من عمل الكتامىّ صورة يوسف عليه السّلام فى الجب و هو عريان، و الجب كله أسود، إذا نظره الإنسان ظنّ أن جسمه باب من دهن لون الجبّ، و كان هذا الجامع من محاسن البناء، و كان بنو الجوهرىّ، يعظمون بهذا الجامع على كرسىّ فى الثلاثة أشهر، فتمرّ لهم مجالس مبجلة تروق و تشوق، و يقوم خادمهم و زهر البان، و هو شيخ كبير و معه زنجلة إذا توسط أحدهم فى الوعظ و يقول:

و تصدّقى لا تأمنى أن تسألىفإذا سالت عرفت ذلّ السائل

و يدور على الرجال و النساء فيلقى له فى الزنجلة ما يسره اللّه تعالى، فإذا فرغ من التطواف وضع الزنجلة أمام الشيخ، فإذا فرغ من وعظه فرّق على الفقراء ما قسم لهم، و أخذ الشيخ ما قسم له، و هو الباقى، و نزل عن الكرسىّ. و كان جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع و يجلسون به فى ليالى الصيف للحديث فى القمر فى صحنه، و فى الشتاء ينامون عند المنبر، و كان يحصل لقيمه القاضى أبى حفص الأشربة و الحلوى و غير ذلك.

قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ النسابة: حدّثنى الأمير أبو علىّ تاج الملك جوهر المعروف بالشمس الجيوشىّ قال: اجتمعنا ليلة جمعة جماعة من الأمراء، بنو معز الدولة، و صالح، و حاتم، و راجح، و أولادهم، و غلمانهم، و جماعة ممن يلوذ بنا، كابن الموفق و القاضى ابن داود، و أبى المجد بن الصيرفىّ، و أبى الفضل روزبة، و أبى الحسن الرضيع، فعملنا سماطا و جلسنا و استدعينا بمن فى الجامع و أبى حفص، فأكلنا و رفعنا الباقى إلى بيت الشيخ أبى حفص قيم الجامع، ثم تحدّثنا و نمنا، و كانت ليلة باردة، فنمنا عند المنبر و إذا إنسان نصف الليل ممن نام فى هذا الجامع من عابرى السبيل قد قام قائما و هو يلطم على رأسه و يصيح وامالاه وا مالاه، فقلنا له: ويلك ما شأنك و ما الذى دهاك و من سرقك و ما سرق لك؟ فقال: يا سيدى أنا رجل من أهل طرا يقال لى أبو كريت الحاوى، أمسى علىّ الليل و نمت عندكم و أكلت من خيركم، وسع اللّه عليكم، ولى جمعة أجمع فى سلتى من نواحى طرا و الحىّ الكبير و الجبل، كل غريبة من الحيات و الأفاعى ما لم يقدر عليه قط حاو غيرى، و قد انفتحت الساعة السلة و خرجت الأفاعى و أنا نائم لم أشعر. فقلت له:

إيش تقول: فقال: أى و اللّه يا للنجدات، فقلنا: يا عدوّ اللّه أهلكتنا و معنا صبيان و أطفال؟ ثم إنّا نبهنا الناس و هربنا إلى المنبر و طلعنا و ازدحمنا فيه، و منا من طلع على قواعد العمد فتسلق و بقى واقفا، و أخذ ذلك الحاوى يحسس و فى يده كنف الحيات و يقول: قبضت الرقطاء، ثم يفتح السلة و يضع فيها، ثم يقول قبضت أم قرنين و يفتح و يضع فيها، و يقول قبضت الفلانىّ و الفلانية من الثعابين و الحيات و هى معه بأسماء، و يقول أبو تليس و أبو زعير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۷

و نحن و نقول ايه؟ إلى أن قال: بس انزلوا ما بقى علىّ همّ، ما بقى يهمكم كبير شىء، قلنا كيف؟ قال ما بقى إلّا البتراء و رأسين انزلوا، فما عليكم منهما. قلنا كذا عليك لعنة اللّه يا عدوّ اللّه لا نزلنا للصبح فالمغرور من تغرّه. و صحنا بالقاضى أبى حفص القيم فأوقد الشمعة و لبس صباغات الخطيب خوفا على رجليه، و جاء فنزلنا فى الضوء و طلعنا المئذنة فنمنا إلى بكرة، و تفرّق شملنا بعد تلك الليلة، و جمع القاضى القيم عياله ثانى يوم و أدخلوا عصيا تحت المنبر و سعفا و شالوا الحصر فلم يظهر لهم شىء، و بلغ الحديث والى القرافة ابن شعلة الكتامىّ، فأخذ الحاوى فلم يزل به حتى جمع ما قدر عليه و قال: ما أخليه إلّا إلى السلطان، و كان الوزير إذ ذاك يانس الأرمنىّ.

و هذه القضية تشبه قضية جرت لجعفر بن الفضل بن الفرات وزير مصر المعروف بابن جرابة، و ذلك أنه كان يهوى النظر إلى الحيات و الأفاعى و العقارب و أم أربعة و أربعين و ما يجرى هذا المجرى من الحشرات، و كان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات و لها قيم فرّاش حاو من الحواة، و معه مستخدمون برسم الخدمة و نقل السلال و حطها، و كان كلّ حاو فى مصر و أعمالها يصيد ما يقدر عليه من الحيات، و يتباهون فى ذوات العجب من أجناسها، و فى الكبار و فى الغريبة المنظر، و كان الوزير يثبهم على ذلك أو فى ثواب، و يبذل لهم الجمل حتى يجتهدوا فى تحصيلها، و كان له وقت يجلس فيه على دكه مرتفعة و يدخل المستخدمون و الحواة فيخرجون ما فى السلل و يطرحونه على ذلك الرخام، و يحرّشون بين الهوام و هو يتعجب من ذلك و يستحسنه، فلما كان ذات يوم أنفذ رقعة إلى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب و كان من أعيان كتاب أيامه و ديوانه، و كان عزيزا عنده، و كان يسكن إلى جوار دار ابن الفرات يقول له فيها: نشعر الشيخ الجليل أدام اللّه سلامته، أنه لما كان البارحة عرض علينا الحواة الحشرات الجارى بها العادات، انساب إلى داره منها الحية البتراء، و ذات القرنين، و العقربان الكبير، و أبو صوفة، و ما حصلوا لنا إلّا بعد عناء و مشقة و بجملة بذلناها

للحواة، و نحن نأمر الشيخ وفقه اللّه بالتقدّم إلى حاشيته و صبيته بصون ما وجد منها إلى أن تنفذ الحواة لأخذها و ردّها إلى سللها، فلما وقف ابن المدبر على الرقعة قلبها و كتب فى ذيلها، أتانى أمر سيدنا الوزير خلد اللّه نعمته و حرس مدّته بما أشار إليه فى أمر الحشرات، و الذى يعتمد عليه فى ذلك أن الطلاق يلزمه ثلاثا إن بات هو و أحد من أهله فى الدار و السلام.

و فى سنة ست عشرة و خمسمائة أمر الوزير أبو عبد اللّه محمد بن فاتك المنعوت بالأجلّ المأمون البطائحىّ، و كيله أبا البركات محمد بن عثمان، برمّ شعث هذا الجامع و أن يعمر بجانبه طاحونا للسبيل، و يبتاع لها الدواب و يتخير من الصالحين الساكنين بالقرافة من يجعله أمينا عليها، و يطلق له ما يكفيه مع علف الدواب و جميع المؤن، و يشترط عليه أن يواسى بين الضعفاء و يحمل عنهم كلفة طحن أقواتهم، و يؤدّى الأمانة فيها، و لم يزل هذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۸

الجامع على عمارته إلى أن احترق فى السنة التى احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع و ستين و خمسمائة، عند نزول مرى ملك الفرنج على القاهرة و حصارها كما تقدّم ذكره عند ذكر خراب الفسطاط من هذا الكتاب، و كان الذى تولى إحراق هذا الجامع ابن سماقة بإشارة الأستاذ مؤتمن الخلافة جوهر، و هو الذى أمر المذكور بحريق جامع عمرو بمصر، و سئل عن ذلك فقال: لئلا يخطب فيه لبنى العباس. و لم يبق من هذا الجامع بعد حريقه سوى المحراب الأخضر، و كان مؤذن هذا الجامع فى أيام المستنصر ابن بقاء المحدّث ابن بنت عبد الغنىّ بن سعيد الحافظ، ثم جدّدت عمارة هذا الجامع فى أيام المستنصر بعد حريقه، و أدركته لما كانت القرافة الكبرى عامرة بسكنى السودان التكارررة، و هو مقصود للبركة. فلما كانت الحوادث و المحن فى سنة ست و ثمانمائة، قلّ الساكن بالقرافة و صار هذا الجامع طول الأيام مغلوقا، و ربما أقيمت فيه الجمعة.

جامع الجيزة

بناه محمد بن عبد اللّه الخازن فى المحرّم سنة خمسين و ثلاثمائة بأمر الأمير علىّ بن عبد اللّه بن الإخشيد، فتقدّم كافور إلى الخازن ببنائه، فإنه كان قد هدمه النيل و سقط فى سنة أربعين و ثلاثمائة، و عمل له مستغلا، و كان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد جامع همدان، و هو مسجد مزاحف بن عامر بن بكتل، و قيل أن عقبة بن عامر فى إمرته على مصر أمرهم أن يجمعوا فيه. قال التميمىّ: و شارف بناء جامع الجيزة مع أبى بكر الخازن أبو الحسن بن جعفر الطحاوىّ، و احتاجوا إلى عمد للجامع، فمضى الخازن فى الليل إلى كنيسة بأعمال الجيزة فقلع عمدها و نصب بدلها أركانا، و حمل العمد إلى الجامع، فترك أبو الحسن بن الطحاوىّ الصلاة فيه مذ ذاك تورّعا. قال التميمى: و قد كان يعنى ابن الطحاوىّ يصلى فى جامع الفسطاط القديم و بعض عمده أو أكثرها و رخامه من كنائس الإسكندرية و أرياف مصر، و بعضه بناء قرّة بن شريك عامل الوليد بن عبد الملك.

جامع منجك

هذا الجامع يعرف موضعه بالثغرة تحت قلعة الجبل خارج باب الوزير، أنشأه الأمير سيف الدين منجك اليوسفىّ فى مدّة وزارته بديار مصر فى سنة إحدى و خمسين و سبعمائة، و صنع فيه صهريجا، فصار يعرف إلى اليوم بصهريج منجك، و رتب فيه صوفية و قرّر لهم فى كل يوم طعاما و لحما و خبزا، و فى كلّ شهر معلوما، و جعل فيه منبرا و رتب فيه خطيبا يصلى بالناس فيه صلاة الجمعة، و جعل على هذا الموضع عدّة أوقاف منها ناحية بلقينة بالغربية، و كانت مرصدة برسم الحاشية، فقوّمت بخمسة و عشرين ألف دينار فاشتراها من بيت المال و جعلها وقفا على هذا المكان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۹

منجك: الأمير سيف الدين اليوسفىّ، لما امتنع أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاون بالكرك و قام فى مملكة مصر بعده أخوه

الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، و كان من محاصرته بالكرك ما كان إلى أن أخذ، فتوجه إليه و قطع رأسه و أحضرها إلى مصر، و كان حينئذ أحد السلاحدارية، فأعطى إمرة بديار مصر و تنقل فى الدول إلى أن كانت سلطنة الملك المظفر حاجى بن الملك الناصر محمد بن قلاون، فأخرجه من مصر إلى دمشق و جعله حاجبا بها موضع ابن طغريل، فلما قتل الملك المظفر و أقيم بعده أخوه الملك الناصر حسن أقيم الأمير سيف الدين يلبغاروس فى نيابة السلطنة بديار مصر، و كان أخا منجك، فاستدعاه من دمشق و حضر إلى القاهرة فى ثامن شوّال سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، فرسم له بإمرة تقدمة ألف، و خلع عليه خلع الوزارة فاستقرّ وزيرا و أستادارا، و خرج فى دست الوزارة و الأمراء فى خدمته من القصر إلى قاعة الصاحب بالقلعة، فجلس بالشباك و نفذ أمور الدولة، ثم اجتمع الأمراء و قرأ عليهم أوراقا تتضمن ما على الدولة من المصروف، و وفر من جامكية المماليك مبلغ ستين ألف درهم فى الشهر، و قطع كثيرا من جوامك الخدم و الجوارى و البيوتات السلطانية، و نقص رواتب الدور من زوجات السلطان و جواريه، و قطع رواتب الأغانى، و عرض الإسطبل السلطانىّ و قطع منه عدّة أميراخورية و سراخورية و سوّاس و غلمان، و وفر من راتب الشعير نحو الخمسين إردبا فى كل يوم، و قطع جميع الكلابزية و كانوا خمسين جوقة، و أبقى منهم جوقتين، و وفر جماعة من الأسرى و العتالين و المستخدمين فى العمائر، و أبطل العمارة من بيت السلطان، و كانت الحوائجخاناه تحتاج فى كل يوم إلى أحد و عشرين ألف درهم نقرة، فاقتطع منها مبلغ ثلاثة آلاف درهم، و بقى مصروفها فى اليوم ثمانية عشر ألف درهم نقرة، فاقتطع منها مبلغ ثلاثة آلاف درهم، و بقى القاضى موفق الدين ناظر الدولة و على القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخواص، و رسم أن لا يستقرّ فى المعاملات سوى شاهد واحد و عامل و شاد بغير معلوم، و أغلظ على الكتاب و الدواوين و هدّدهم و توعدهم فخافوه، و اجتمع بعضهم ببعض و اشتوروا فى أمرهم و اتفقوا على مال يتوزعونه بينهم على قدر حال كل منهم و حملوه إلى منجك سرّا، فلم يمض من استقراره فى الوزارة شهر حتى صار الكتاب و أرباب الدواوين أحباءه و أخلّاءه، و تمكنوا منه أعظم ما كانوا قبل وزارته، و حسنوا له أخذ الأموال، فطلب ولاة الأقاليم و قبض على أقبغا والى الغربية و ألزمه بحمل خمسمائة ألف درهم نقرة، و ولى عوضه الأمير استدمر القلنجىّ، ثم صرفه و ولى بدله قطليجا مملوك بكتمر، و استقرّ باستدمر القلنجى فى ولاية القاهرة، و أضاف له التحدّث فى الجهات، و ولى البحرية لرجل من جهته، و ولى قوص لآخر و أوقع الحوطة على موجود إسماعيل الواقدى متولى قوص، و أخذ جميع خواصه، و ولى طغاى كشف الوجه القبلىّ عوضا عن علاء الدين علىّ بن الكورانىّ، و ولى ابن المزوق قوص و أعمالها، و ولى مجد الدين موسى الهدبانىّ الأشمونين عوضا عن ابن الأزكشىّ، و تسامعت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۰

الولاة و أرباب الأعمال بأن الوزير فتح باب الأخذ على الولايات، فهرع الناس إليه من جهات مصر و الشام و حلب و قصدوا بابه، و رتب عنده جماعة برسم قضاء الأشغال، فأتاهم أصحاب الأشغال و الحوائج، و كان السلطان صغيرا حظه من السلطنة أن يجلس بالإيوان يومين فى الأسبوع و يجتمع أهل الحل و العقد مع سائر الأمراء فيه، فإذا انقضت خدمة الإيوان خرج الأمير منكليبغا الفخرىّ، و الأمير بيغرا، و الأمير يبلغا تتر و المجدىّ، و أرلان و غيرهم من الأمراء، و يدخل إلى القصر الأمير يلبغاروس نائب السلطنة، و الأمير سيف الدين منجك الوزير، و الأمير سيف الدين شيخو العمرىّ، و الأمير الجيبغا المظفرىّ، و الأمير طيبرق، و يتفق الحال بينهم على ما يرونه، هذا و الوزير أخو النائب متمكن تمكنا زائدا، و قدم من دمشق جماعة للسعى عند الوزير فى وظائف منهم ابن السلعوس و صلاح الدين بن المؤيد و ابن الأجل و ابن عبد الحق، و تحدّثوا مع ابن الأطروش محتسب القاهرة فى أغراضهم، فسعى لهم حتى تقرّروا فيما عينوا.

و لما دخلت سنة تسع و أربعين عرف الوزير السلطان و الأمراء أنه لما ولى الوزارة لم يجد فى الإهراء و لا فى بيت المال شيئا، و سأل أن يكون هذا بمحضر من الحكام، فرسم للقضاة بكشف ذلك فركبوا إلى الإهراء بمصر، و إلى بيت المال بقلعة الجبل، و قد حضر الدواوين و سائر المباشرين و أشهدوا عليهم أن الأمير منجك لما باشر الوزارة لم يكن بالإهراء و لا ببيت المال قدح غلة و لا دينار و

لا- درهم، و قرئت المحاضر على السلطان و الأمراء، فلما كان بعد ذلك توقف أمر الدولة على الوزير فشكا إلى الأمراء من كثرة الرواتب، فاتفق الرأى على قطع نحو ستين سوّاقا، فقطعهم و وفر لحومهم و عليقهم و سائر ما باسمهم من الكساوى و غيرها، و قطع من العرب الركابة و النجابة، و من أرباب الوظائف فى بيت السلطان، و من الكتاب و المباشرين ما جملته فى اليوم أحد عشر ألف درهم و فتح باب المقايضات باقطاعات الأجناد، و باب النزول عن الإقطاعات بالمال، فحصل من ذلك مالا كثيرا، و حكم على أخيه نائب السلطنة بسبب ذلك، و صار الجندىّ يبيع إقطاعه لكل من أراد، سواء كان المنزول له جنيدا أو عامّيا، و بلغ ثمن الإقطاع من عشرين ألف درهم إلى ما دونها. و أخذ يسعى أن تضاف وظيفة نظر الخاص إلى الوزارة، و أكثر من الحط على ناظر الخاص، فاحترس ابن زنبور منه و شرع فى إبعاده مرّة بعد مرّة مع الأمير شيخو، فمنع شيخو منجك من التحدّث فى الخاص و خرج عليه فشق ذلك على منجك و افترقا عن غير رضى، فتغير يلبغاروس النائب على شيخو رعاية لأخيه. و سأل أن يعفى من النيابة، و يعفى منجك من الوزارة، و استقراره فى الأستادارية و التحدّث فى عمل حفر البحر، و أن يستقرّ أستدمر العمرىّ المعروف برسلان بصل فى الوزارة، فطلب و كان قد حضر من الكشف و ألبس خلع الوزارة فى يوم الاثنين الرابع و العشرين من شهر ربيع الأوّل، و كان منجك قد عزل من الوزارة فى ثالث ربيع الأوّل المذكور، و تولى أمر شدّ البحر، فجبى من الأجناد من كل مائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۱

دينار درهما، و من التجار و المتعيشين فى مصر و القاهرة من كل واحد عشرة دراهم إلى خمسة دراهم إلى درهم، و من أصحاب الأملاك و الدور فى مصر و القاهرة على كل قاعة ثلاثة دراهم، و على كل طبقة درهمين، و على كل مخزن أو اصطبل درهما، و جعل المستخرج فى خان مسرور بالقاهرة، و المشدّ على المستخرج الأمير بيلك، فجبى مال كبير، و أما استدمر فإن أحوال الدولة توقفت فى أيامه، فسأل فى الإعفاء فأعفى و أعيد منجك إلى الوزارة بعد أربعين يوما، و قد تمنع تمنعا كبيرا، و لما عاد إلى الوزارة فتح باب الولايات بالمال، فقصده الناس و سعوا عنده، فولى و عزل و أخذ فى ذلك مالا كثيرا. فيقال أنه أخذ من الأمير مازان لما نقله من المنوفية إلى الغربية، و من ابن الغسانىّ لما نقله من الأشمونين إلى البهنساوية، و من ابن سلمان لما ولاه منوف ستة آلاف دينار، و وفر إقطاع شادّ الدواوين و جعله باسم المماليك السلطانية، و وفر جوامكهم و رواتبهم، و شرع أوباش الناس فى السعى عنده فى الوظائف و المباشرات بمال، و أتوه من البلاد فقضى أشغالهم و لم يردّ أحدا طلب شيئا، و وقع فى أيامه الفناء العظيم، فانحلت إقطاعات كثيرة، فاقتضى رأى الوزير أن يوفر الجوامك و الرواتب التى للحاشية، و كتب لسائر أرباب الوظائف و أصحاب الأشغال و المماليك السلطانية مثالات بقدر جوامك كل منهم، و كذلك لأرباب الصدقات، فأخذ جماعة من الأقباط و من الكتاب و من الموقعين إقطاعات فى نظير جوامكهم، و توفر فى الدولة مال كبير عن الجوامك و الرواتب.

و لما دخلت سنة خمسين رسم الأمير منجك الوزير لمتولى القاهرة بطلب أصحاب الأرباع، و كتابة جميع أملاك الحارات و الأزقة، و سائر أخطاط مصر و القاهرة، و معرفة أسماء سكانها، و الفحص عن أربابها ليعرف من توفر عنه ملك بموته فى الفناء، فطلبوا الجميع و أمعنوا فى النظر، فكان يوجد فى الحارة الواحدة و الزقاق الواحد ما يزيد على عشرين دارا خالية لا يعرف أربابها، فختموا على ما وجدوه من ذلك و من الفنادق و الخانات و المخازن حتى يحضر أربابها. و فى شعبان عزل ولاة الأعمال و أحضرهم إلى القاهرة، و ولى غيرهم و أضاف إلى كل وال كشف الجسور التى فى عمله، و ضمن الناس سائر جهات القاهرة و مصر، بحيث أنه لا يتحدّث أحد معه من المقدّمين و الدواوين و الشادّين، و زاد فى المعاملات ثلاثمائة ألف درهم، و خلع عليه و نودى له بمصر و القاهرة، فاشتدّ ظلمه و عسفه و كثرت حوادثه. فلما كانت ليالى عيد الفطر، عرّف الوزير الأمراء أن سماط العيد ينصرف عليه جملة و لا ينتفع به أحد، فأبطله و لم يعمل تلك السنة. و فى ذى القعدة توقف حال الدولة و وقف مماليك السلطان و سائر المعاملين و الحوائجكاشية، و انزعج السلطان و الأمراء بسبب ذلك على الوزير، فاحتج بكثرة الكلف، و طلب الموفق ناظر الدولة فقال: إن الإنعامات قد كثرت و الكلف تزايدت، و قد كانت الحوائجخاناه فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون فى اليوم ينصرف فيها مبلغ ثلاثة عشر ألف درهم،

و اليوم ينصرف فيها اثنان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۲

و عشرون ألف درهم، فكتبت أوراق بمتحصل الدولة و مصروفها، و بمتحصل الخاص و مصروفه، فجاءت أوراق الدولة و متحصلها عشرة آلاف ألف درهم، و كلفها أربعة عشر ألف ألف درهم و ستمائة ألف درهم، و وجد الأنعام من الخاص و الجيش بما خرج من البلاد زيادة على إقطاعات الأمراء، فكان زيادة على عشرين ألف دينار سوى جملة من الغلال، و أن الذى استجدّ على الدولة من حين وفاة الملك الناصر فى ذى الحجة سنة إحدى و أربعين إلى مستهل المحرّم سنة خمسين و سبعمائة. و كانت جملة الإنعامات و الإقطاعات بنواحى الصعيد و الفيوم و بلاد الملك و الوجه البحرىّ و ما أعطى من الرزق للخدّام و الجوارى سبعمائة ألف ألف و ألف ألف و ستمائة ألف، معينة بأسماء أربابها من أمير و خادم و جارية، و كانت النساء قد أسرفن فى عمل القمصان و البغالطيق، حتى كان يفضل من القميص كثير على الأرض، و سعة الكم ثلاثة أذرع، و يسمينه البهطلة، و كان يغرم على القميص ألف درهم و أكثر، و بلغ إزار المرأة إلى ألف درهم، و بلغ الخف و السرموزة إلى خمسمائة درهم، و ما دونها إلى مائة درهم. فأمر الوزير منجك بقطع أكمام النساء و أخرق بهنّ، و أمر الوالى بتتبع ذلك، و نودى بمنع النساء من عمل ذلك، و قبض على جماعة منهنّ، و ركب على سور القاهرة صور نساء عليهنّ تلك القمصان بهيئة نساء قد قتلن عقوبة على ذلك، فانكففن عن لبسها، و منع الأساكفة من عمل الأخفاف المثمنة، و نودى فى القياسر من باع إزار حرير ماله للسلطان، فنودى على إزار ثمنه سبعمائة و عشرون درهما فبلغ ثمانين درهما و لم يجسر أحد أن يشتريه، و بالغ الوزير فى الفحص عن ذلك حتى كشف دكاكين غسالى الثياب و قطع ما وجد من ذلك، فامتنع النساء من لبس ما أحدثنه من تلك المنكرات، و لما عظم ضرر الفار أيضا من كثرة شكاية الناس فيه، فلم يسمع فيه الوزير قولا، و قام فى أمره الأمير مغلطاى أميراخور، فاستوحش منه الوزير، و اتفق أنه كان قد حج محمد بن يوسف مقدّم الدولة فى محمل كبير بلغ عليق جماله فى اليوم مائتى عليقة، و لما قدم فى المحرّم مع الحاج أهدى للنائب و للوزير و للأمير طاز و للأمير صرغتمش هدايا جليلة، و لم يهد للأمير شيخو، و لا للأمير مغلطاى شيئا، ثم لما عاب عليه الناس ذلك أهدى بعد عدّة أيام للأمير شيخو هديه فردّها عليه، ثم أنه أنكر على الوزير فى مجلس السلطان ما يفعله ولاة البر و ما عليه مقدّم الدولة من كثرة المال، و أغلظ فى القول، فرسم بعزل الولاة و القبض على المقدّم محمد بن يوسف و ابن عمه المقدّم أحمد بن زيد، فلم يسع الوزير غير السكوت.

فلما كان فى رابع عشرى شوّال سنة إحدى و خمسين، قبض على الوزير منجك و قيد و وقعت الحوطة على سائر حواصله، فوجدت له زردخاناه حمل خمسين جملا و لم يظهر من النقد كثير مال، فأمر بعقوبته. فلما خوّف أقرّ بصندوق فيه جوهر و قال: سائر ما كان يتحصل لى من النقد كنت اشترى به أملاكا و ضياعا و أصناف المتاجر، فأحيط بسائر أمواله و حمل إلى الإسكندرية مقيدا، و استقرّ الأمير بلبان السنانىّ نائب الكبيرة أستادارا عوض منجك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۳

بعد حضوره منها، و أضيفت الوزارة إلى القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص، فلم يزل منجك مسجونا بالإسكندرية إلى أن خلع الملك الناصر حسن و أقيم بدله فى المملكة أخوه الملك الصالح صالح، فأمر بالإفراج عن الأمير شيخو و الأمير منجك فحضرا إلى القاهرة فى رجب سنة اثنتين و خمسين، و لما استقرّ الأمير منجك بالقاهرة بعث إليه الأمير شيخو خمس رؤوس خيل و ألفى دينار، و بعث إليه جميع الأمراء بالتقادم، و أقام بطالا يجلس على حصير فوقه ثوب سرج عتيق، و كلما أتاه أحد من الأمراء يبكى و يتوجع و يقول أخذ جميع مالى حتى صرت على الحصير، ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجونا فى قيد هدّد بالقتل إن لم يبع أملاكه، و أنّه خشى على نفسه القتل، فوكل فى بيعها. فكتب له الفقهاء لا يصح بيع المكره. و دار على الأمراء و ما زال بهم حتى تحدّثوا له مع السلطان فى ردّ أملاكه عليه، فعارضهم الأمير صرغتمش، ثم رضى أن يردّ عليه من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه، فاستردّ عدّة أملاك و أقام إلى أن قام يلبغاروس بحلب فاختفى منجك و طلب فلم يوجد، و أطلق النداء عليه بالقاهرة و مصر و هدّد من

أخفاه، و ألزم عربان العائد باقتفاء أثره فلم يوقف له على خبر، و كبس عليه عدّة أماكن بالقاهرة و مصر و فتش عليه حتى فى داخل الصهريج الذى بجامعه فأعيى أمره، و أدرك السلطان السفر لحرب يلبغاروس فشرع فى ذلك إلى يوم الخميس رابع شعبان، فخرج الأمير طاز بمن معه.

و فى يوم الاثنين سابعه، عرض الأمير شيخو و الأمير صرغتمش أطلابهما، و قد وصل الأميرا طاز إلى بلبيس فحضر إليه من أخبره أنه رأى بعض أصحاب منجك، فسير إليه و أحضره و فتشه فوجد معه كتاب منجك إلى أخيه يلبغاروس، و فيه أنه مختف عند الحسام الصفدىّ استداره، فبعث الكتاب إلى الأمير شيخو فوافاه و الأطلاب خارجة، فاستدعى بالحسام و سأله فأنكر فعاقبه الأمير صرغتمش فلم يعترف، فركب إلى بيت الحسام بجوار الجامع الأزهر و هجمه فإذا بمنجك و معه مملوك، فكتفه و سار به مشهورا بين الناس و قد هرعوا من كلّ مكان إلى القلعة، فسجن بالإسكندرية إلى أن شفع فيه الأمير شيخو فأفرج عنه فى ربيع الأوّل سنة خمس و خمسين، و رسم أن يتوجه إلى صفد بطالا، فسار إليها من غير أن يعبر إلى القاهرة، فلما خلع الملك الصالح صالح و أعيد السلطان حسن فى شوّال منها، نقل منجك من صفد و أنعم عليه بنيابة طرابلس عوضا عن أيتمش الناصرىّ، فسار إليها و أقام بها إلى أن قبض على الأمير طاز نائب حلب فى سنة تسع و خمسين، فولى منجك عوضا عنه و لم يزل بحلب إلى أن فرّ منها فى سنة ستين، فلم يعرف له خبر، و عوقب بسببه خلق كثير، ثم قبض عليه بدمشق فى سنة إحدى و ستين فحمل إلى مصر و عليه بشت صوف عسلىّ، و على رأسه مئزر صوف، فلم يؤاخذه السلطان و أعطاه إمرة طبلخاناه ببلاد الشام، و جعله طرخاناه يقيم حيث شاء من البلاد الإسلامية، و كتب له بذلك.

فلما قتل السلطان حسن و أقيم من بعده فى المملكة الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى فى جمادى الأولى سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۴

اثنتين و ستين، خامر الأمير بيدمر نائب الشام على الأمير يلبغا العمرىّ القائم بتدبير دولة الملك المنصور، و وافقه جماعة من الأمراء منهم الأمير منجك، فخرج الأمير يلبغا بالمنصور و العساكر من قلعة الجبل إلى البلاد الشامية، فوافى دمشق و مشى الناس بينه و بين الأمير بيدمر حتى تمّ الصلح، و حلف الأمير يلبغا أنه لا يؤذى بيدمر و لا منجك، فنزلا من قلعة دمشق و قيدهما و بعث بهما إلى الإسكندرية فسجنا بها إلى أن خلع الأمير يلبغا المنصور و أقام بدله الملك الأشرف شعبان بن حسين و قتل الأمير يلبغا، فأفرج الملك الأشرف عن منجك و ولاه نيابة السلطنة بدمشق عوضا عن الأمير علىّ المارداني فى جمادى الأولى سنة تسع و ستين، فلم يزل فى نيابة دمشق إلى أن حضر إلى السلطان زائرا فى سنة سبعين بتقادم كثيرة جليلة، و عاد إلى دمشق و أقام بها إلى أن استدعاه السلطان فى سنة خمس و سبعين إلى مصر و فوّض إليه نيابه السلطنة بديار مصر، و عمله أتابك العساكر و جعل تدبير المملكة إليه، و أن يخرج الأمّهات للبلاد الشامية، و أن يولى ولاة أقاليم مصر و الكشاف و يخرج الإقطاعات بمصر من عبرة ستمائة دينار إلى ما دونها، و كانت عادة النوّاب قبله أن لا يخرج من الإقطاعات إلّا ما عبرته أربعمائة دينار فما دونها، فعمل النيابة على قالب جائر و حرمة وافرة إلى أن مات حتف أنفه فى يوم الخميس التاسع و العشرين من ذى الحجة سنة ست و سبعين و سبعمائة، و له من العمر نيف و ستون سنة، و شهد جنازته سائر الأعيان، و دفن بتربته المجاورة لجامعه هذا، و له سوى الجامع المذكور من الآثار بديار مصر خان منجك فى القاهرة، و دار منجك برأس سويقة العزى بالقرب من مدرسة السلطان حسن، و له بالبلاد الشامية عدّة آثار من خانات و غيرها رحمه اللّه.

الجامع الأخضر

هذا الجامع خارج القاهرة بخط فم الخور، عرف بذلك لأنّ بابه و قبته فيهما نقوش و كتابات خضر، و الذى أنشأه خازندار الأمير شيخو و اسمه ... .

جامع البكجرىّ

هذا الجامع بحكر البكجريّ قريبا من الدكة، تعطلت الصلاة فيه منذ خربت تلك الجهات.

جامع السروجيّ

هذا الجامع بحكر ... .

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۵

جامع كرجى

هذا الجامع بحكر أقوش.

جامع الفاخريّ

هذا الجامع بسويقة الخادم الطواشى شهاب الدين فاخر المنصوريّ مقدّم المماليك السلطانية، و مات فى سابع ذى الحجة سنة سبع و ثمانمائة، و كان ذا مهابة و أخلاق حسنة مع سطوة شديدة، و لهم بلبان الفاخريّ الأمير سيف الدين نقيب الجيوش، مات فى سنة سبع و تسعين و ستمائة، و ولى نقابة الجيش بعد طيبرس الوزيريّ، و كان جوادا عارفا بأمر الأجناد خيرا كثير الترف.

جامع ابن عبد الظاهر

هذا الجامع بالقرافة الصغرى قبليّ قبر الليث بن سعد، كان موضعه يعرف بالخندق، أنشأه القاضى فتح الدين محمد بن عبد اللّه بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر الجذاميّ السعديّ الروحيّ من ولد روح بن زنباع الجذاميّ، بجوار قبر أبيه، و أوّل ما أقيمت به الخطبة فى يوم الجمعة الرابع و العشرين من صفر سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، و كان يوما مشهودا لكثرة من حضر من الأعيان. ولد بالقاهرة فى ربيع الآخر سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة، و سمع من ابن الجميزيّ و غيره، و حدّث و كتب فى الإنشاء، و ساد فى دولة المنصور قلاون بعقله و رأيه و همته، و تقدّم على والده القاضى محيى الدين و هو ماهر فى الإنشاء و الكتابة، بحيث كان من جملة من يصرّفهم بأمره و نهيه، و كان الملك المنصور يعتمد عليه و يثق به، و لما ولى القاضى فخر الدين بن لقمان الوزارة قال له الملك المنصور: من يلى عوضك كتابة السرّ؟ فقال القاضى: فتح الدين بن عبد الظاهر، فولّاه كتابة السرّ عوضا عن ابن لقمان، و تمكن من السلطان و حظى عنده، حتى أنّ الوزير فخر الدين بن لقمان ناول السلطان كتابا فأحضر ابن عبد الظاهر لقراءته على عادته، فلما أخذ الكتاب من السلطان أمر الوزير أن يتأخر حتى يقرأه فتأخر الوزير، ثم إن ابن لقمان صرف عن الوزارة و أعيد إلى ديوان الإنشاء فتأدّب معه، فلما ولى وزارة الملك الأشرف خليل بن قلاون شمس الدين بن السلعوس قال لفتح الدين: اعرض علىّ كل يوم ما تكتبه. فقال: لا سبيل لك إلى ذلك و لا يطلع على أسرار السلطان إلّا هو، فإن اخترتم و إلّا عينوا عوضى، فلما بلغ السلطان ذلك قال: صدق و لم يزل على حاله إلى أن مات، و أبوه حيّ بدمشق فى النصف من شهر رمضان سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، فوجد فى تركته قصيدة مرثية قد عملها فى رفيقه تاج الدين أحمد بن سعيد بن محمّد بن الأثير لما مرض و طال مرضه، فاتفق أن عوفى ابن الأثير و لم يتأخر ابن عبد الظاهر بعد عافيته سوى ليال يسيرة و مرض و مات، فرثاه ابن الأثير بعد موته و ولى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۶

وظيفة كتابة السرّ عوضا عنه، و لم يكن ابن عبد الظاهر مجيدا فى صناعة الإنشاء إلّا أنه دبر الديوان و باشره أحسن مباشرة و من شعره:

إن شئت تنظرنى و تنظر حالتىفانظر إذا هبّ النسيم قبولا

فتراه مثلى رقة و لطافةو لأجل قلبك لا أقول عليلا

فهو الرسول إليك منى ليتنى كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

و لم يزل هذا الجامع عامرا إلى أن حدثت المحن فى سنة ست و ثمانمائة، و اختلت القرافة لخراب ما حوله، و هو اليوم قائم على أصوله.

جامع بساتين الوزير التى على بركة الحبس جامع الخندق

هذا الجامع بناحية الخندق خارج القاهرة، و لم يزل عامرا بعمارة الخندق، فلما خربت مساكن الخندق تلاشى أمره و نقلت منه الجمعة و بقى معطلا إلى شعبان سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فأخذ الأمير طوغان الحسنىّ الدوادار عمده الرخام و سقوفه و ترك جدرانه و منارته، و هى باقية و عما قليل تدثر كما دثر غيرها مما حولها.

جامع جزيرة الفيل جامع الطواشى

هذا الجامع خارج القاهرة فيما بين باب الشعرية و باب البحر، أنشأه الطواشى جوهر السحرتىّ اللالا، و هو من خدّام الملك الناصر محمد بن قلاون، ثم إنه تأمّر فى تاسع عشرى شهر رجب سنة خمس و أربعين و سبعمائة.

جامع كراى

هذا الجامع بالريدانية خارج القاهرة، عمره الأمير سيف الدين كراى المنصورىّ فى سنة إحدى و سبعمائة لكثرة ما كان هناك من السكان، فلما خربت تلك الأماكن تعطل هذا الجامع و هو الآن قائم و جميع ما حوله داثر، و عما قليل يدثر.

جامع القلعة

هذا الجامع بقلعة الجبل أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة ثمان عشرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۷

و سبعمائة، و كان أوّلا مكانه جامع قديم و بجواره المطبخ السلطانىّ و الحوائجخاناه و الفراشخاناه، فهدم الجميع و أدخلها فى هذا الجامع، و عمره أحسن عمارة و عمل فيه من الرخام الفاخر الملوّن شيئا كثيرا، و عمر فيه قبة جليلة و جعل عليه مقصورة من حديد بديعة الصنعة، و فى صدر الجامع مقصورة من حديد أيضا برسم صلاة السلطان، فلما تمّ بناؤه جلس فيه السلطان بنفسه و استدعى جميع المؤذنين بالقاهرة و مصر و سائر الخطباء و القرّاء، و أمر الخطباء فخطب كلّ منهم بين يديه، و قام المؤذنون فأذنوا، و قرأ القرّاء، فاختار الخطيب جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن القسطلانىّ خطيب جامع عمرو و جعله خطيبا بهذا الجامع، و اختار عشرين مؤذنا رتبهم فيه، و جعل به قراء و درسا و قارىء مصحف، و جعل له من الأوقاف ما يفضل عن مصارفه، فجاء من أجلّ جوامع مصر و أعظمها و به إلى اليوم يصلى سلطان مصر صلاة الجمعة، و الذى يخطب فيه و يصلى بالناس الجمعة قاضى القضاة الشافعىّ.

جامع قوصون

هذا الجامع داخل باب القرافة تجاه خانقاه قوصون، أنشأه الأمير سيف الدين قوصون، و عمر بجانبه حماما، فعمرت تلك الجهة من القرافة بجماعة الخانقاه و الجامع، و هو باق إلى يومنا.

جامع كوم الريش

هذا الجامع عمارة دولات شاه.

جامع الجزيرة الوسطى

أنشأه الطواشى مثقال خادم تذكار ابنة الملك الظاهر بيبرس و هو عامر إلى يومنا هذا.

جامع ابن صارم

هذا الجامع بخط بولاق خارج القاهرة أنشأه محمد بن صارم شيخ بولاق فيما بين بولاق و باب البحر.

جامع الكيمختى

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الجنيّة، و هو بجانب موضع الكيمخت على شاطىء الخليج من جملة أرض الطبالة، كان موضعه دارا اشتراها معلم الكيمخت، و كان يعرف بالحموىّ، و عملها جامعا فضمن المعلم بعده رجل يعرف بالرومى فوقف عليه مواضع و جدّد له مئذنة فى جمادى الأولى سنة اثنتين و ثمانمائة، و وسع فى الجامع قطعة كانت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۸

منشرا، و كان قبل ذلك قد جدّد عمارته شخص يعرف بالفقيه زين الدين ريحان بعد سنة تسعين و سبعمائة، و عمر بجانبه مساكن، و هو الآن عامر بعمارة ما حوله.

جامع الست مسكة

هذا الجامع بالقرب من قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير خارج القاهرة، أنشأته الست مسكة جارية الملك الناصر محمد بن قلاون، و أقيمت فيه الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و قد ذكرت مسكة هذه عند ذكر الأحكار.

جامع ابن الفلك

هذا الجامع بسويقة الجميزة من الحسينية خارج القاهرة، أنشأه مظفر الدين بن الفلك.

جامع التكرورىّ

هذا الجامع فى ناحية بولاق التكرورىّ، و هذه الناحية من جملة قرى الجيزة، كانت تعرف بمنية بولاق، ثم عرف ببولاق التكرورىّ، فإنه كان نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد اللّه التكرورىّ، و كان يعتقد فيه الخير و جرّبت بركة دعائه و حكيت عنه كرامات كثيرة، منها أن امرأة خرجت من مدينة مصر تريد البحر، فأخذ السودان ابنها و ساروا به فى مركب و فتحوا القلع، فجرت السفينة و تعلقت المرأة بالشيخ تستغيث به، فخرج من مكانه حتى وقف على شاطىء النيل و دعا اللّه سبحانه و تعالى فسكن الريح و وقفت السفينة عن السير، فنادى من فى المركب يطلب منهم الصبىّ فدفعوه إليه و ناوله لأمّه، و كان بمصر رجل دباغ أتاه عفص فأخذه منه أصحاب السلطان، فأتى إلى الشيخ و شكا إليه ضرورته، فدعا ربه فردّ اللّه عليه عفصه بسؤال أصحاب السلطان له فى ذلك، و كان يقال له لم لا تسكن المدينة فيقول: إنى أشمّ رائحة كريهة إذا دخلتها. و يقال أنه كان فى خلافة العزيز بن المعز، و أن الشريف محمد

بن أسعد الجوانيّ جمع له جزأ فى مناقبه، و لما مات بنى عليه قبة و عمل بجانبه جامع جدّده و وسعه الأمير محسن الشهابيّ مقدّم المماليك، و ولى تقدمة المماليك عوضا عن الطواشى عنبر السحرتيّ، أوّل صفر سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة و مات فى ... ثم أن النيل مال على ناحية بولاق هذه فيما بعد سنة تسعين و سبعمائة، و أخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن، فخاف أهل البلدان أن يأخذ ضريح الشيخ و الجامع لقربهما منه، فنقلوا الضريح و الجامع إلى داخل البلد و هو باق إلى يومنا هذا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۹

جامع البرقية

هذا الجامع بالقرب من باب البرقية بالقاهرة، عمره الأمير مغلطاى الفخرىّ أخو الأمير الماس الحاجب، و كمل فى المحرّم سنة ثلاثين و سبعمائة، و كان ظالما عسوفا متكبرا جبارا، قبض عليه مع أخيه الماس فى سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة و قتل معه.

جامع الحرّانىّ

هذا الجامع بالقرافة الصغرى فى بحرى الشافعيّ، عمره ناصر الدين بن الحرّانيّ الشرابيشيّ فى سنة تسع و عشرين و سبعمائة.

جامع بركة

هذا الجامع بالقرب من جامع ابن طولون، يعرف خطه بحدرة ابن قميحة، عمره شخص من الجند يعرف ببركة، كان يباشر أستادارية الأمراء و مات بعد سنة إحدى و ثمانمائة.

جامع بركة الرطلىّ

هذا الجامع كان يعرف موضعه ببركة الفول من جملة أرض الطبالة، فلما عمرت بركة الرطلىّ كما تقدّم ذكره أنشئ هذا الجامع، و كان ضيقا قصير السقف، و فيه قبة تحتها قبر يزار، و هو قبر الشيخ خليل بن عبد ربه خادم الشيخ عبد العال، و توفى فى المحرّم سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، فلما سكن الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم بن بركة البشرىّ بجوار هذا الجامع هدمه و وسع فيه و بناه هذا البناء فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة. و ولد البشرىّ فى سابع ذى القعدة سنة ست و ستين و سبعمائة، و تنقل فى الخدم الديوانية حتى ولى نظر الدولة إلى أن قتل الأمير جمادى الدين يوسف الأستادار، فاستقرّ بعده فى الوزارة بسفارة فتح الدين فتح اللّه بن كاتب السرّ فى يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، فباشر الوزارة بضبط جيد لمعرفته الحساب و الكتابة، إلّا أنها كانت أيام محن احتاج فيها إلى وضع يده و أخذ الأموال بأنواع الظلم، فلما قتل الملك الناصر فرج و استبدّ الملك المؤيد شيخ صرفه عن الوزارة فى يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ست عشرة و ثمانمائة، و دفن بالقرافة، و هذا الجامع عامر بعمارة ما حوله.

جامع الضوة

هذا الجامع فيما بين الطبلخاناه السلطانية و باب القلعة المعروف بباب المدرّج على رأس الضوّة، أنشأه الأمير الكبير شيخ المحمودى لما قدم من دمشق بعد قتل الملك الناصر فرج، و إقامة الخليفة أمير المؤمنين المستعين بالله العباسيّ ابن محمد فى سنة خمس عشرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۰

و ثمانمائة، و سكن بالإصطبل السلطانيّ فشرع فى بناء دار يسكنها، فلما استبدّ بسلطنة مصر و تلقب بالملك المؤيد استغنى عن هذه الدار، و كانت لم تكمل، فعملها جامعا و خانقاه، و صارت الجمعة تقام به.

جامع الحوش

هذا الجامع فى داخل قلعة الجبل بالحوش السلطانىّ، أنشأه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، فصار يصلى فيه الخدّام و أولاد الملوك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون إلى أن قتل الناصر فرج.

جامع الاصطبل

هذا الجامع فى الإصطبل السلطانىّ من قلعة الجبل عمره ... .

جامع ابن التركمانىّ

هذا الجامع بالمقس خارج القاهرة.

جامع ...

هذا الجامع بخط السبع سقايات فيما بين القاهرة و مصر يطلّ على بركة قارون أنشأه ... .

جامع الباسطىّ

هذا الجامع فى بولاق خارج القاهرة، أدركت موضعه و هو مطلّ على النيل طول السنة، أنشأه شخص من عرض الفقهاء يعرف ... فى سنة سبع عشرة و ثمانمائة.

جامع الحنفىّ

هذا الجامع خارج القاهرة أنشأه الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن علىّ الحنفىّ، فى سنة سبع عشرة و ثمانمائة.

جامع ابن الرفعة

هذا الجامع خارج القاهرة بحكر الزهرىّ، أنشأه الشيخ فخر الدين عبد المحسن بن الرفعة بن أبى المجد العدوىّ.
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۱

جامع الإسماعيلىّ

أنشأه الأمير أرغون الإسماعيلىّ على البركة الناصرية فى شعبان سنة ثمان و أربعين و سبعمائة.

جامع الزاهد

هذا الجامع بخط المقس خارج القاهرة، كان موضعه كوم تراب فنقله الشيخ المعتقد أحمد بن ... المعروف بالزاهد، و أنشأ موضعه هذا الجامع، فكمل فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، و هدم بسببه عدّة مساجد قد خرب ما حولها، و بنى بأنقاضها هذا الجامع، و كان ساكنا مشهورا بالخير يعظ الناس بالجامع الأزهر و غيره، و لطائفة من الناس فيه عقيدة حسنة، و لم يسمع عنه إلّا خير،

مات يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الأوّل سنة تسع عشرة و ثمانمائة، أيام الطاعون و دفن بجامعه.

جامع ابن المغربيّ

هذا الجامع بالقرب من بركة قرموط مطلّ على الخليج الناصريّ، أنشأه صلاح الدين يوسف بن المغربيّ رئيس الأطباء بديار مصر و بنى بجانبه قبة دفن فيها و عمل به درسا و قرّاء و منبرا يخطب عليه فى يوم الجمعة، و كان عامرا بعمارة ما حوله، فلما خرب خط بركة قرموط تعطل و هو آيل إلى أن ينقض و يباع كما بيعت أنقاض غيره.

جامع الفخريّ

هذا الجامع بجوار دار الذهب التى عرفت بدار بها در الأعسر المجاورة لقبو الذهب من خط بين السورين فيما بين الخوخة و باب سعادة، و يتوصل إليه أيضا من درب العدّاس المجاورة لحارة الوزيرية، أنشأه الأمير فخر الدين عبد الغنيّ بن الأمير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الأستادار فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و خطب فيه يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة المذكورة، و عمل فيه عدّة دروس، و أوّل من خطب فيه الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن محمد البارنباريّ الشافعيّ، ثم تركه تنزها عنه، و فى يوم الأحد ثامن شهر رمضان جلس فيه الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم البرماويّ الشافعيّ للتدريس، و أضيف إليه مشيخة التصوّف، و قرّر قاضى القضاة شمس الدين محمد الديريّ المقدسيّ الحنفيّ فى تدريس الحنفية، و فى تدريس المالكية قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه بن مقداد المالكى، و حضر البرماويّ وظيفة التصوّف بعد عصر يومه، فمات الأمير فخر الدين فى نصف شوّال منها و لم يكمل فدفن هناك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۲

الجامع المؤيدى

هذا الجامع بجوار باب زويلة من داخله، كان موضعه خزانة شمائل حيث يسجن أرباب الجرائم، و قيسارية سنقر الأشقر، و درب الصفيرة، و قيسارية بهاء الدين أرسلان.

أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحموديّ الظاهرى، فهو الجامع لمحاسن البنيان، الشاهد بفخامة أركانه و ضخامة بنيانه، أن منشئه سيد ملوك الزمان، يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس و إيوان كسرى أنو شروان، و يستصغر من تأمل بديع أسطوانه الخورنق و قصر غمدان، و يعجب من عرف أوّليته من تبديل الأبدال، و تنقل الأمور من حال إلى حال بينا هو سجن تزهق فيه النفوس و يضام المجهود، إذ صار مدارس آيات و موضع عبادات و محل سجود، فاللّه يعمره ببقاء منشئه و يعلى كلمة الأيمان بدوام ملك بانيه.

همم الملوك إذا أراد و اذكرهامن بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا و كم‌ملك محاه حوادث الأزمان

إنّ البناء إذا تعاظم قدرهأضحى يدل على عظيم الشان

و أوّل ما ابتدئ به فى أمر هذا الجامع، أن رسم فى رابع شهر ربيع الأوّل سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، بانتقال سكان قيسارية سنقر الأشقر التى كانت تجاه قيسارية الفاضل، ثم نزل جماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل، و ابتدئ فى الهدم فى القيسارية المذكورة، و ما يجاورها، فهدمت الدور التى كانت هناك فى درب الصفيرة، و هدمت خزانة شمائل فوجد بها من رمم القتلى و رؤوسهم شىء كثير، و أفرد لنقل ما خرج من التراب عدّة من الجمال و الحمير بلغت علائقهم فى كل يوم خمسمائة عليقة. و كان

السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان حبس فى خزانة شمائل هذه أيام تغلّب الأمير منطاش و قبضه على المماليك الظاهرية، فقاسى فى ليلة من البق و البراغيث شدائد، فنذر للّه تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا للّه عز و جلّ، و مدرسة لأهل العلم، فاختار لذلك هذه البقعة وفاء لنذره.

و فى رابع جمادى الآخرة كان ابتداء حفر الأساس، و فى خامس صفر سنة تسع عشرة و ثمانمائة. وقع الشروع فى البناء، و استقرّ فيه بضع و ثلاثون بنّاء، و مائة فاعل، و وفيت لهم و لمباشريهم أجورهم من غير أن يكلف أحد فى العمل فوق طاقته، و لا سخّر فيه أحد بالقهر، فاستمرّ العمل إلى يوم الخميس سابع عشر ربيع الأوّل، فأشهد عليه السلطان أنه وقف هذا مسجدا للّه تعالى، و وقف عليه عدّة مواضع بديار مصر و بلاد الشام، و تردّد ركوب السلطان إلى هذه العمارة عدّة مرار. و فى شعبان طلبت عمد الرخام و ألواح الرخام لهذا الجامع، فأخذت من الدور و المساجد و غيرها، و فى يوم الخميس سابع عشرى شوّال نقل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۳

باب مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاون و التنور النحاس المكفت إلى هذه العمارة، و قد اشتراهما السلطان بخمسمائة دينار، و هذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع، و هذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب، و كان الملك الظاهر برقوق قد سدّ باب مدرسة السلطان حسن و قطع البسطة التى كانت قدّامه كما تقدّم، فبقى مصراعا الباب و السدّ من ورائهما حتى نقلا مع التنور الذى كان معلقا هناك. و فى ثامن عشرية دفنت ابنة صغيرة للسلطان فى موضع القبة الغربية من هذا الجامع، و هى ثانى ميت دفن بها، و انعقدت جملة ما صرف فى هذه العمارة إلى سلخ ذى الحجة سنة تسع عشرة على أربعين ألف دينار، ثم نزل السلطان فى عشرى المحرّم إلى هذه العمارة و دخل خزانة الكتب التى عملت هناك، قد حمل إليها كتبا كثيرة فى أنواع العلوم، كانت بقلعة الجبل، و قدّم له ناصر الدين محمد البارزىّ كاتب السرّ خمسمائة مجلد، قيمتها ألف دينار، فأقرّ ذلك بالخزانة و أنعم على ابن البارزىّ بأن يكون خطيبا و خازن المكتب هو و من بعده من ذرّيته.

و فى سابع عشر شهر ربيع الآخر منها سقط عشرة من الفعلة، مات منهم أربعة و حمل ستة بأسوإ حال. و فى يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى أقيمت الجمعة به، و لم يكمل منه سوى الإيوان القبلىّ، و خطب و صلّى بالناس عز الدين عبد السلام المقدسىّ أحد نوّاب القضاة الشافعية نيابة عن ابن البارزىّ كاتب السرّ. و فى يوم السبت خامس شهر رمضان منها ابتدئ بهدم ملك بجوار ربع الملك الظاهر بيبرس، مما اشتراه الأمير فخر الدين عبد الغنىّ بن أبى الفرج الاستادار ليعمل ميضأة، و استمرّ العمل هناك و لازم الأمير فخر الدين الإقامة بنفسه، و استعمل مماليكه و الزامه فيه وجدّ فى العمل كلّ يوم، فكملت فى سلخه بعد خمسة و عشرين يوما، و وقع الشروع فى بناء حوانيت على بابها من جهة تحت الربع، و يعلوها طباق، و بلغت النفقة على الجامع إلى أخريات شهر رمضان هذا، سوى عمارة الأمير فخر الدين المذكور، زيادة على سبعين ألف دينار، و تردّد السلطان إلى النظر فى هذا الجامع غير مرّة. فلما كان فى أثناء شهر ربيع الآخر سنة إحدى و عشرين ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع إعوجاج إلى جهة دار التفاح، فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة الهدم، و عرض على السلطان فرسم بهدمها، فوقع الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشرية، و استمرّ فى كل يوم، فسقط يوم الخميس سادس عشرية منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة، هلك تحته رجل، فغلق باب زويلة خوفا على المارّة من يوم السبت إلى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى، مدّة ثلاثين يوما، و لم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة. و قال أدباء العصر فى سقوط المنارة المذكورة شعرا كثيرا، منه ما قاله حافظ الوقت شهاب الدين أحمد بن علىّ بن حجر الشافعىّ رحمه اللّه:

لجامع مولانا المؤيد رونق‌منارته تزهو من الحسن و الزين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۴ تقول و قد مالت عليهم تمهّلوافليس على جسمى أضرّ من العين

فتحدّث الناس أنه فى قوله بالعين قصد التورية لتخدم فى العين التى تصيب الأشياء فتتلفها، و فى الشيخ بدر الدين محمود العينتابىّ فإنه

يقال له العينىّ أيضا.

فقال المذكور يعارضه:

منارة كعروس الحسن إذ جليتو هدمها بقضاء اللّه و القدر

قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلطما أوجب الهدم إلّا خشية الحجر

يعرّض بالشهاب ابن حجر و كل منهما لم يصب الغرض، فإن العينىّ بدر الدين محمودا ناظر الأحباس، و الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر، كل منهما ليس له فى المئذنة تعلق حتى تخدم التورية، و أقعد منهما بالتورية من قال:

على البرج من بابى زويلة أسّستمنارة بيت اللّه و المعهد المنجى

فأخلى بها البرج اللعين أمالهاألا فاصرخوا يا قوم باللّعن للبرج

و ذلك أن الذى ولى تدبير أمر الجامع المؤيدىّ هذا، و ولى نظر عمارته بهاء الدين محمد بن البرجىّ، فخدمت التورية فى البرجى كما ترى، و تداول هذا الناس فقال آخر:

عتبنا على ميل المنار زويلةو قلنا تركت الناس بالميل فى هرج

فقال قرينى برج نحس أمالنىفلا بارك الرحمن فى ذلك البرج

و قال الأديب شمس الدين محمد بن أحمد بن كمال الجوجرىّ أحد الشهود:

منارة لثواب اللّه قد بنيتفكيف هدّت فقالوا نوضح الخبرا

أصابت العين أحجارا بها انفلقتو نظرة العين قالوا تفلق الحجرا

و قال آخر:

منارة قد هدمت بالقضاو الناس فى هرج و فى رهج

أمالها البرج فمالت بهفلعنة اللّه على البرج

و فى ثالث جمادى الأولى سنة اثنتين و عشرين استقرّ الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علىّ بن حجر فى تدريس الشافعية، و الشيخ يحيى بن محمد بن أحمد العجيسىّ البجائىّ المغربىّ فى تدريس المالكية، و عز الدين عبد العزيز بن علىّ بن الفخر البغدادىّ فى تدريس الحنابلة، و خلع عليهم بحضرة السلطان، فدرس ابن حجر بالمحراب فى يوم الخميس ثالث عشرة، و نزل السلطان و أقبل ليحضر عنده، و هو فى إلقاء الدرس و منعه من القيام له، فلم يقم و استمرّ فيما هو بصدده، و جلس السلطان عنده مليا، ثم درّس يحيى

المغربىّ فى يوم الخميس خامس عشرة، و درّس فيه أيضا الفخر البغدادىّ، و حضر معهما قضاة القضاة و المشايخ. و فى سابع عشرة استقرّ بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد العينتابىّ ناظر الأحباس فى تدريس الحديث النبوىّ، و استقرّ شمس الدين محمد بن يحيى فى تدريس القراءات السبع. و فى يوم الجمعة حادى عشرة شوّال منها نزل السلطان إلى هذا الجامع و قد تقدّم إلى المباشرين من أمسه بتهيئة السماط العظيم للمدّة فيه، و السّكّر الكثير لتملأ البركة التى بالصحن من السّكّر المذاب و الحلوى الكثيرة، فهيىء ذلك كله و جلس السلطان بكرة النهار بالقرب من البركة فى الصحن على تخت، و استعرض الفقهاء فقرّر من وقع اختياره عليه فى الدروس، و مدّ السماط العظيم بأنواع المطاعم، و ملئت البركة بالسّكّر المذاب، فأكل الناس و نهبوا و ارتووا من السّكّر المذاب و حملوا منه و من الحلوى ما قدروا عليه. ثم طلب قاضى القضاة شمس الدين محمد بن سعد الديرىّ الحنفىّ و خلع عليه كاملية صوف بفرو سمور، و استقرّ فى مشيخة التصوّف و تدريس الحنفية، و جلس بالمحراب و السلطان عن يمينه و يليه ابنه المقام الصارمىّ إبراهيم، و عن يساره قضاة القضاة و مشايخ العلم، و حضر أمراء الدولة و مباشروها، فألقى درسا مفيدا إلى أن قرب وقت الصلاة، فدعا بفض المجلس، ثم حضرت الصلاة فصعد ناصر الدين محمد بن البارزىّ كاتب السرّ المنبر فخطب و صلّى، ثم خلع عليه و استقرّ

خطيبا و خازن الكتب، و خلع على شهاب الدين أحمد الأذرعيّ الإمام و استقرّ فى إمامة الخمس و ركب السلطان و كان يوما مشهودا. و لما مات المقام الصارميّ إبراهيم بن السلطان دفن بالقبة الشرقية و نزل السلطان حتى شهد دفنه فى يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث و عشرين، و أقام حتى صلّى به الخطيب محمد البارزيّ كاتب السرّ صلاة الجمعة بعد ما خطب خطبة بليغة، ثم عاد إلى القلعة و أقام القرّاء على قبره يقرءون القرآن أسبوعا و الأمراء و سائر أهل الدولة يتردّدون إليه، و كانت ليالى مشهودة. و فى يوم السبت آخره استقرّ فى نظر الجامع المذكور الأمير مقبل الدوادار و كاتب السرّ ابن البارزيّ، فنزلا إليه جميعا و تفقدا أحواله و نظرا فى أموره، فلما مات ابن البارزى فى ثامن شوّال منها انفرد الأمير مقبل بالتحدّث إلى أن مات السلطان فى يوم الاثنين ثامن المحرّم سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، فدفن بالقبة الشرقية و لم تكن عمرت، فشرع فى عمارتها حتى كملت فى شهر ذى القعدة منها، و كذلك الدرج التى يصعد منها إلى باب هذا الجامع من داخل باب زويلة، لم تعمل إلّا فى شهر رمضان منها، و بقيت بقايا كثيرة من حقوق هذا الجامع لم تعمل منها القبة التى تقابل القبة المدفون تحتها السلطان و البيوت المعدّة لسكن الصوفية و غير ذلك، فأفرد لعمارتها نحو من عشرين ألف دينار و استقرّ نظر هذا الجامع بعد موت السلطان بيد كاتب السرّ.

الجامع الأشرفيّ

هذا الجامع فيما بين المدرسة السيوفية و قيسارية العنبر، كان موضعه حوانيت تعلوها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۶

رباع و من ورائها ساحات كانت قياسر بعضها وقف على المدرسة القطبية، فابتدأ الهدم فيها بعد ما استبدلت بغيرها أوّل شهر رجب سنة ست و عشرين و ثمانمائة، و بنى مكانها، فلما عمر الإيوان القبليّ أقيمت به الجمعة فى سابع جمادى الأولى سنة سبع و عشرين، و خطب به الحمويّ الواعظ و قد ولى الخطابة المذكورة.

الجامع الباسطيّ

هذا الجامع بخط الكافوريّ من القاهرة، كان موضعه من جملة أراضى البستان، ثم صار مما اختط كما تقدّم ذكره، فأنشأه القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقيّ ناظر الجيوش فى سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة، و لم يسخر أحدا فى عمله بل وفّى لهم أجورهم حتى كمل فى أحسن هندام و أكيس قالب و أبدع زيّ ترتاح النفوس لرؤيته و تبتهج عند مشاهدته، فهو الجامع الزاهر و المعبد الباهى الباهر، ابتدئ فيه بإقامة الجمعة فى يوم الجمعة الثانى من صفر سنة ثلاث و عشرين، و رتب فى خطابته فتح الدين أحمد بن محمد بن النقاش أحد شهود الحوانيت و موقعى القضاة، ثم رتب به صوفية، و ولى مشيخة التصوّف عز الدين عبد السلام بن داود بن عثمان المقدسيّ الشافعيّ، أحد نوّاب الحكم، فكان ابتداء حضورهم بعد عصر يوم السبت أوّل شهر رجب منها، و أجرى للفقراء الصوفية الخبز فى كلّ يوم، و المعلوم فى كلّ شهر، و بنى لهم مساكن و حفر صهريجا يملأ من ماء النيل و يسبل فى كل يوم، فعمّ نفعه و كثر خيره. ثم تجدّد فى بولاق جامع ابن الجابى و جامع ابن السنيتيّ، و تجدّد فى مصر جامع الحسنات بخط دار النحاس، و فى حكر الصبان الجامع المعروف بالمستجد، و بجامع الفتح، و فى حارة الفقراء جامع عبد اللطيف الطواشيّ الساقى. و تجدّد فى خارج القاهرة بسويقة صفية جامع ابن درهم و نصف، و فى خط معدّية فريج جماع كزل بغا، و فى رأس درب النيدىّ جامع حارس الطير، و فى سويقة عصفور جامع القاضى أمين الدين بجانب زاوية الفقيه المعتقد أبى عبد اللّه محمد الفارقانيّ، بنى فى سنة اثنتين و ثلاثين و ثمانمائة، و بخط البراذعيين و رأس حارة الحرمين جامع الحاج محمد المعروف بالمسكين مهتار ناظر الخاص. و تجدّد فى المراغة جامع الشيخ أبى بكر المعرّف، بناه الحاج أحمد القماح، و أقيمت خطبة بخانكاه الأمير جانى بك الأشرفيّ خارج باب زويلة، و توفى يوم الخميس سابع عشرى ربيع الأوّل سنة إحدى و ثلاثين و ثمانمائة، و بخط باب اللوق جامع مقدّم السقائين قريبا من جامع الست

نصرة، و بخط تحت الربع خارج باب زويلة جامع.

و تجدّد بالصحراء قريبا من تربة الظاهر برقوق خطبة فى تربة السلطان الملك الأشرف برسباى الدقاقىّ. و تجدد فى آخر سويقة أمير الجيوش بالقاهرة جامع أنشأه الفقير المعتقد محمد الغمرىّ، و أقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة رابع ذى الحجة سنة ثلاث و أربعين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۷

و ثمانمائة قبل أن يكمل. و تجدّد فى زاوية الشيخ أبى العباس البصير التى عند قنطرة الخرق خطبة. و تجدّد فى حدرة الكماجيين من أراضى اللوق خطبة بزاوية مطلة على غيط العدّة، و تجدّد بالصحراء خطبة فى تربة الأمير مشير الدولة كافور الزمام، و توفى فى خامس عشر ربيع الآخر سنة ثلاثين و ثمانمائة. و تجدّد بخط الكافورىّ خطبة أحدثها بنو وفاء فى جامع لطيف جدّا. و تجدّد بمدرسة ابن البقرىّ من القاهرة أيضا خطبة فى أيام المؤيد شيخ. و تجدّد بحارة الديلم خطبة فى مدرسة أنشأها الطواشى مشير الدولة المذكور. و تجدّد عند قنطرة قدادار خطبة أنشأها شاكر البناء، و خطبة بالقرب منها فى جامع أنشأه الحاج إبراهيم البرددار الشهير بالحمصانىّ، أحد الفقراء الأحمدية السطوحية فى حدود الثلاثين و الثمانمائة.

ذكر مذاهب أهل مصر و نحلهم منذ افتتح عمرو بن العاص رضى اللّه عنه أرض مصر إلى أن صاروا إلى اعتقاد مذاهب الأئمة رحمهم اللّه تعالى، و ما كان من الأحداث فى ذلك

اعلم أن اللّه عز و جل لما بعث نبينا محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم رسولا إلى كافة الناس جميعا عربهم و عجمهم، و هم كلهم أهل شرك و عبادة لغير اللّه تعالى إلا بقايا من أهل الكتاب، كان من أمره صلّى اللّه عليه و سلّم مع قريش ما كان حتى هاجر من مكة إلى المدينة، فكانت الصحابة رضوان اللّه عليهم حوله صلّى اللّه عليه و سلّم يجتمون إليه فى كلّ وقت مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشة و قلة القوت، فمنهم من كان يحترف فى الأسواق، و منهم من كان يقوم على نخله، و يحضر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى كل وقت، و منهم طائفة عند ما تجد أدنى فراغ مما هم بسبيله من طلب القوت، فإذا سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن مسألة، أو حكم بحكم، أو أمر بشىء، أو فعل شيأ وعاه من حضر عنده من الصحابة، وفات من غاب عنه علم ذلك، ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قد خفى عليه ما علمه حمل بن مالك بن النابغة، من الأعراب من هذيل، فى دية الجنين و خفى عليه. و كان يفتى فى زمن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من الصحابة أبو بكر و عمر و عثمان و علىّ و عبد الرحمن بن عوف و عبد اللّه بن مسعود و أبىّ بن كعب و معاذ بن جبل و عمار بن ياسر و حذيفة بن اليمان و زيد بن ثابت و أبو الدرداء و أبو موسى الأشعرىّ و سلمان الفارسىّ رضى اللّه عنهم.

فلما مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و استخلف أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، تفرّقت الصحابة رضى اللّه عنهم، فمنهم من خرج لقتال مسيلمة و أهل الردّة، و منهم من خرج لقتال أهل الشام، و منهم من خرج لقتال أهل العراق، و بقى من الصحابة بالمدينة مع أبى بكر رضى اللّه عنه عدّة، فكانت القضية إذا نزلت بأبى بكر رضى اللّه عنه قضى فيها بما عنده من العلم بكتاب اللّه أو سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن لم يكن عنده فيها علم من كتاب اللّه و لا من سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، سأل من بحضرته من الصحابة رضى اللّه عنهم عن ذلك، فإن وجد عندهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۸

علما من ذلك رجع إليه و إلّا اجتهد فى الحكم.

و لما مات أبو بكر و ولى أمر الأمّة من بعده عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فتحت الأمصار و زاد تفرّق الصحابة رضى اللّه عنهم فيما افتتحوه من الأقطار، فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو غيرها من البلاد، فإن كان عند الصحابة الحاضرين لها فى ذلك أثر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، حكم به، و إلّا اجتهد أمير تلك البلدة فى ذلك، و قد يكون فى تلك القضية حكم عن النبى صلّى اللّه عليه

و سلّم موجود عند صاحب آخر، و قد حضر المدنيّ ما لم يحضر المصريّ، و حضر المصريّ ما لم يحضر الشامى، و حضر الشاميّ ما لم يحضر البصريّ، و حضر البصريّ ما لم يحضر الكوفيّ، و حضر الكوفيّ ما لم يحضر المدنيّ. كلّ هذا موجود فى الآثار، و فيما علم من مغيب بعض الصحابة عن مجلس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى بعض الأوقات، و حضور غيره. ثم مغيب الذى حضر أمس و حضور الذى غاب، فيدرى كلّ واحد منهم ما حضر، و يفوته ما غاب عنه، فمضى الصحابة رضى اللّه عنهم على ما ذكرنا، ثم خلف بعدهم التابعون الآخرون عنهم و كل طبقة من التابعين فى البلاد التى تقدّم ذكرها، فإنما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة، فكانوا لا يتعدّون فتاويهم إلّا اليسير مما بلغهم عن غير من كان فى بلادهم من الصحابة، رضى اللّه عنهم، كاتباع أهل المدينة فى الأكثر فتاوى عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما، و اتباع أهل الكوفة فى الأكثر فتاوى عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه، و اتباع أهل مكة فى الأكثر فتاوى عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما، و اتباع أهل مصر فى الأكثر فتاوى عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما، ثم أتى من بعد التابعين رضى اللّه عنهم فقهاء الأمصار، كأبى حنيفة و سفيان و ابن أبى ليلى بالكوفة، و ابن جريج بمكة، و مالك و ابن الماجشون بالمدينة، و عثمان البتيّ و سوار بالبصرة، و الأوزاعيّ بالشام، و الليث بن سعد بمصر. فجروا على تلك الطريق من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده، فيما كان عندهم و اجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم، و هو موجود عند غيرهم.

و أما مذاهب أهل مصر: فقال أبو سعيد بن يونس: إن عبيد بن مخمر المغافريّ يكنى أبا أمية، رجل من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، شهد فتح مصر، روى عنه أبو قبيل. يقال أنه كان أوّل من أقرأ القرآن بمصر. و ذكر أبو عمرو الكنديّ أن أبا ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة مولى الملامس الحضرميّ كان فقيها عفيفا شريفا، ولد سنة عشر و مائة، و كان أوّل الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الخمسين و مائة، و توفى سنة ثمان و ثمانين و مائة، و ذكر عن أبى قبيل و غيره أن يزيد بن أبى حبيب أوّل من نشر العلم بمصر فى الحلال و الحرام، و فى رواية ابن يونس و مسائل الفقه، و كانوا قبل ذلك إنما يتحدّثون فى الفتن و الترغيب. و عن عون بن سليمان الحضرميّ قال: كان عمر بن عبد العزيز قد جعل الفتيا بمصر إلى ثلاثة رجال، رجلان من الموالى و رجل من العرب، فأما العربيّ فجعفر بن ربيعة، و أما المولیان فيزيد بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۹

أبى حبيب، و عبد اللّه بن أبى جعفر. فكان العرب انكروا ذلك، فقال عمر بن عبد العزيز:

ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا و أنتم لا تسمون. و عن ابن أبى قديد كانت البيعة إذا جاءت للخليفة أوّل من يبايع عبد اللّه بن أبى جعفر و يزيد بن أبى حبيب ثم الناس بعد. و قال أبو سعيد بن يونس فى تاريخ مصر عن حيوة بن شريح قال: دخلت على حسين بن شفى بن مانع الأصبحيّ و هو يقول: فعل اللّه بفلان. فقلت: ما له؟ فقال: عمد إلى كتابين كان شفى سمعهما من عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما، أحدهما قضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى كذا، و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كذا، و الآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة، فأخذهما فرمى بهما بين الخولة و الرباب. قال أبو سعيد بن يونس: يعنى بقوله الخولة و الرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما يلى الفسطاط يجوز من تحتهما لكبرهما المراكب. و ذكر أبو عمرو الكنديّ أن أبا سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق، أوّل من رحل من أهل مصر إلى العراق فى طلب الحديث، توفى سنة أربع و ثمانين و مائة انتهى. و كان حال أهل الإسلام من أهل مصر و غيرها من الأمصار فى أحكام الشريعة على ما تقدّم ذكره، ثم كثر الترحل إلى الآفاق و تداخل الناس و التقوا و انتدب أقوام لجمع الحديث النبوىّ و تقييده، فكان أوّل من دوّن العلم محمد بن شهاب الزهريّ، و كان أوّل من صنف و بوّب سعيد بن عروبة و الربيع بن صبيح بالبصرة، و معمر بن راشد باليمن، و ابن جريج بمكة، ثم سفيات الثوريّ بالكوفة، و حماد بن سلمة بالبصرة، و الوليد بن مسلم بالشام، و جرير بن عبد الحميد بالرىّ، و عبد اللّه بن المبارك بمرو و خراسان، و هشيم بن بشير بواسط، و تفرّد بالكوفة أبو بكر بن أبى شيبة بتكثير الأبواب و جودة التصنيف و حسن التأليف، فوصلت أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من البلاد البعيدة إلى من لم تكن عنده، و قامت الحجة على من بلغه شيء منها، و

جمعت الأحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأوّلة من الأحاديث، و عرف الصحيح من السقيم، و زيف الاجتهاد المؤدّى إلى خلاف كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و إلى ترك عمله، و سقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن ببلوغه إليه، و قيام الحجة عليه، و على هذا الطريق كان الصحابة رضى اللّه عنهم و كثير من التابعين يرحلون فى طلب الحديث الواحدة الأيام الكثيرة، يعرف ذلك من نظر فى كتب الحديث، و عرف سير الصحابة و التابعين. فلما قام هارون الرشيد فى الخلافة، و ولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة رحمه اللّه تعالى بعد سنة سبعين و مائة، فلم يقلد ببلاد العراق و خراسان و الشام و مصر إلّا من أشار به القاضى أبو يوسف رحمه اللّه، و اعتنى به، و كذلك لما قام بالأندلس الحكم المرتضى بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بعد أبيه، و تلقب بالمنتصر فى سنة ثمانين و مائة، اختص بيحيى بن يحيى بن كثير الأندلسىّ، و كان قد حج و سمع الموطأ من مالك إلّا أبوابا، و حمل عن ابن وهب و عن ابن القاسم و غيره علما كثيرا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۰

و عاد إلى الأندلس، فنال من الرياسة و الحرمة ما لم ينله غيره، و عادت الفتيا إليه و انتهى السلطان و العامّة إلى بابه، فلم يقلد فى سائر أعمال الأندلس قاض إلّا بإشارته و اعتنائه، فصاروا على رأى مالك بعد ما كانوا على رأى الأوزاعىّ، و قد كان مذهب الإمام مالك أدخله إلى الأندلس زياد بن عبد الرحمن الذى يقال له بسطور، قبل يحيى بن يحيى، و هو أوّل من أدخل مذهب مالك الأندلس، و كانت إفريقية الغالب عليها السنن و الآثار إلى أن قدم عبد اللّه بن فروج أبو محمد الفارسىّ بمذهب أبى حنيفة، ثم غلب أسد بن الفرات بن سنان قاضى افريقية بمذهب أبى حنيفة، ثم لما ولى سحنون بن سعيد التنوخىّ قضاء افريقية، بعد ذلك نشر فيهم مذهب مالك و صار القضاء فى أصحاب سحنون دولا يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشول إلى أن تولى القضاء بها بنو هاشم، و كانوا مالكية، فتوارثوا القضاء كما تتوارث الضياع.

ثم إن المعز بن باديس حمل جميع أهل إفريقية على التمسك بمذهب مالك و ترك ما عداه من المذاهب، فرجع أهل إفريقية و أهل الأندلس كلهم إلى مذهب مالك إلى اليوم، رغبة فيما عند السلطان، و حرصا على طلب الدنيا، إذ كان القضاء و الافتاء جميع تلك المدن و سائر القرى لا يكون إلّا لمن تسمى بالفقه على مذهب مالك، فاضطرّت العامّة إلى أحكامهم و فتاواهم، ففشا هذا المذهب هناك فشوّا طبق تلك الأقطار، كما فشا مذهب أبى حنيفة ببلاد المشرق، حيث أن أبا حامد الاسفرايىنىّ لما تمكن من الدولة فى أيام الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد، قرّر معه استخلاف أبى العباس أحمد بن محمد البارزىّ الشافعىّ عن أبى محمد بن الأكفانىّ الحنفىّ قاضى بغداد، فأجيب إليه بغير رضى الأكفانىّ و كتب أبو حامد إلى السلطان محمود بن سبكتكين و أهل خراسان أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية إلى الشافعية، فاشتهر ذلك بخراسان و صار أهل بغداد حزبين، و قدم بعد ذلك أبو العلاء صاعد بن محمد قاضى نيسابور و رئيس الحنفية بخراسان، فأتاه الحنفية فثارت بينهم و بين أصحاب أبى حامد فتنة ارتفع أمرها إلى السلطان، فجمع الخليفة القادر الأشراف و القضاة و أخرج إليهم رسالة تتضمن: أن الاسفرايىنىّ أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح و الشفقة و الأمانة، و كانت على أصول الدخل و الخيانة، فلما تبين له أمره و وضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزىّ الحكم بالحضرة من الفساد و الفتنة و العدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من إيثار الحنفية و تقليدهم و استعمالهم، صرف البارزىّ و أعاد الأمر إلى حقه و أجراه على قديم رسمه، و حمل الحنفيين على ما كانوا عليه من العناية و الكرامة و الحرمة و الإعزاز، و تقدّم إليهم بأن لا يلقوا أبا حامد و لا يقضوا له حقا و لا يردّوا عليه سلاما، و حلع على أبى محمد الأكفانىّ، و انقطع أبو حامد عن دار الخلافة، و ظهر التسخط عليه و الانحراف عنه و ذلك فى سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة و اتصل ببلاد الشام و مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۱

أوّل من قدم بعلم مالك: إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح، و كان فقيها روى عنه الليث و ابن وهب و رشيد بن سعد، و توفى بالإسكندرية سنة ثلاث و ستين و مائة، ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم، فاشتهر مذهب مالك بمصر

أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر اصحاب مالك بمصر، و لم يكن مذهب أبى حنيفة رحمه اللّه يعرف بمصر. قال ابن يونس: و قدم إسماعيل بن اليسع الكوفىّ قاضيا بعد ابن لهيعة، و كان من خير قضاتنا، غير أنه كان يذهب إلى قول أبى حنيفة، و لم يكن أهل مصر يعرفون مذهب أبى حنيفة، و كان مذهبه إبطال الأحباس، فثقل أمره على أهل مصر و سئموه، و لم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم الشافعىّ محمد بن ادريس إلى مصر مع عبد اللّه بن العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس فى سنة ثمان و تسعين و مائة، فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها كبنى عبد الحكم و الربيع بن سليمان و أبى إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى، و أبى يعقوب يوسف بن يحيى البويطىّ، و كتبوا عن الشافعىّ ما ألفه، و عملوا بما ذهب إليه، و لم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر و ذكره ينتشر.

قال أبو عمرو الكندىّ فى كتاب أمراء مصر: و لم يزل أهل مصر على الجهر بالبسملة فى الجامع العتيق إلى سنة ثلاث و خمسين و مائتين. قال: و منع أرجون صاحب شرطة مزاحم بن خاقان أمير مصر من الجهر بالبسملة فى الصلوات بالمسجد الجامع، و أمر الحسين بن الربيع إمام المسجد الجامع بتركها، و ذلك فى رجب سنة ثلاث و ستين و مائتين، و لم يزل أهل مصر على الجهر بها فى المسجد الجامع منذ الإسلام إلى أن منع منها أرجون.

قال: و أمر أن تصلّى التراويح فى شهر رمضان خمس تراويح، و لم يزل أهل مصر يصلون ست تراويح حتى جعلها أرجون خمسا فى شهر رمضان سنة ثلاث و خمسين و مائتين، و منع من التثويب، و أمر بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد، و أمر بالتغليس بصلاة الصبح، و ذلك أنهم أسفروا بها، و ما زال مذهب مالك و مذهب الشافعىّ رحمهما اللّه تعالى يعمل بهما أهل مصر، و يولى القضاء من كان يذهب إليهما أو إلى مذهب أبى حنيفة رحمه اللّه، إلى أن القائد جوهر من بلاد إفريقية فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة بجيوش مولاه المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ و بنى مدينة القاهرة.

فمن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة و عمل به فى القضاء و الفتيا و أنكر ما خالفه، و لم يبق مذهب سواه، و قد كان التشيع بأرض مصر معروفا قبل ذلك. قال أبو عمرو الكندىّ فى كتاب الموالى عن عبد اللّه بن لهيعة أنه قال: قال يزيد بن أبى حبيب: نشأت بمصر و هى علوية، فقلبتها عثمانية. و كان ابتداء التشيع فى الإسلام أن رجلا من اليهود فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه أسلم، فقيل له عبد اللّه بن سبأ، و عرف بابن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۲

السوداء، و صار ينتقل من الحجاز إلى أمصار المسلمين يريد إضلالهم، فلم يطق ذلك فرجع إلى كيد الإسلام و أهله، و نزل البصرة فى سنة ثلاث و ثلاثين فجعل يطرح على أهلها مسائل و لا يصرّح، فأقبل عليه جماعة و مالوا إليه و أعجبوا بقوله، فبلغ ذلك عبد اللّه بن عامر و هو يومئذ على البصرة، فأرسل إليه فلما حضر عنده سأله ما أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغبت فى الإسلام و فى جوارك. فقال ما شىء بلغنى عنك، أخرج عنى. فخرج حتى نزل الكوفة، فأخرج منها فسار إلى مصر و استقرّ بها و قال فى الناس العجب ممن يصدّق أن عيسى يرجع و يكذب أن محمدا يرجع، و تحدّث فى الرجعة حتى قبلت منه، فقال بعد ذلك:

أنه كان لكل نبىّ وصىّ، و علىّ بن أبى طالب وصىّ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى أن على بن أبى طالب وصيه فى الخلافة على أمّته، و اعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، فانهضوا فى هذا الأمر و ابدؤوا بالطعن على أمرائكم، فأظهروا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر تستميلوا به الناس، و بث دعاته و كاتب من مال إليه من أهل الأمصار و كاتبوه و دعوا فى السرّ إلى ما عليه رأيهم، و صاروا يكتبون إلى الأمصار كتبا يضعونها فى عيب ولاتهم، فيكتب أهل كل مصر منهم إلى أهل المصر الآخر بما يضعون حتى ملوا بذلك الأرض إذاعة، و جاء إلى أهل المدينة من جميع الأمصار، فأتوا عثمان رضى اللّه عنه فى سنة خمسة و ثلاثين و أعلموه ما أرسل به أهل الأمصار من شكوى عمالهم، فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة، و أسامة بن زيد إلى البصرة، و عمار بن ياسر إلى مصر، و عبد اللّه بن عمر إلى الشام، لكشف سير العمال. فرجعوا إلى عثمان إلّا عمارا و

قالوا: ما أنكرنا شيئا. و تأخر عمار فورد الخبر إلى المدينة بأنه قد استماله عبد اللّه ابن السوداء فى جماعة، فأمر عثمان عماله أن يوافوه بالموسم، فقدموا عليه و استشاروه، فكلّ أشار برأى، ثم قدم المدينة بعد الموسم فكان بينه و بين علىّ بن أبى طالب كلام فيه بعض الجفاء بسبب إعطائه أقاربه و رفعه لهم على من سواهم، و كان المنحرفون عن عثمان قد تواعدوا يوما يخرجون فيه بأمصارهم إذ سار عنها الأمراء، فلم يتهيأ لهم الوثوب، و عند ما رجع الأمراء من الموسم تكاتب المخالفون فى القدوم إلى المدينة لينظروا فيما يريدون، و كان أمير مصر من قبل عثمان رضى اللّه عنه، عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح العامرىّ، فلما خرج فى شهر رجب من مصر فى سنة خمس و ثلاثين استخلف بعده عقبة بن عامر الجهنىّ فى قول الليث بن سعد. و قال يزيد بن أبى حبيب: بل استخلف على مصر السائب بن هشام العامرىّ و جعل على الخراج سليم بن عنز التجيبىّ، فانتزى محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف فى شوّال من السنة المذكورة، و أخرج عقبة بن عامر من الفسطاط، و دعا إلى خلع عثمان رضى اللّه عنه، و اسعر البلاد و حرّض على عثمان بكلّ شىء يقدر عليه، فكان يكتب الكتب على لسان أزواج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و يأخذ الرواحل فيضمرها و يجعل رجالا على ظهور البيوت و وجوههم إلى وجه الشمس لتلوح وجوههم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۳

تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر، ثم يرسلون رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم، و قد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا ليس عندنا خبر الخبر فى الكتب، فيجىء رسول أولئك الذين دس فيذكر مكانهم فيتلقاهم ابن أبى حذيفة و الناس يقولون:

نتلقى رسل أزواج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا لقوهم قالوا لهم ما الخبر؟ قالوا: لا خبر عندنا، عليكم بالمسجد ليقرأ عليكم كتاب أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعا ليس فيه تقصير، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول: إنا نشكو إلى اللّه و إليكم ما عمل فى الإسلام و ما صنع فى الإسلام، فيقوم أولئك الشيوخ من نواحى المسجد بالبكاء فيبكون، ثم ينزل عن المنبر و يتفرّق الناس بما قرىء عليهم.

فلما رأت ذلك شيعة عثمان رضى اللّه عنه اعتزلوا محمد بن أبى حذيفة و نابذوه، و هم معاوية بن خديج، و خارجة بن حذافة، و بسر بن أرطاة، و مسلمة بن مخلد، و عمرو بن قحزم الخولانىّ، و مقسم بن بجرة، و حمزة بن سرح بن كلال، و أبو الكنود سعد بن مالك الأزدىّ، و خالد بن ثابت الفهمىّ، فى جمع كثير و بعثوا سلمة بن مخزمة التجيبىّ إلى عثمان ليخبره بأمرهم و بصنيع ابن أبى حذيفة، فبعث عثمان رضى اللّه عنه سعد بن أبى وقاص ليصلح أمرهم، فبلغ ذلك ابن أبى حذيفة فخطب الناس و قال: ألا إن الكذا و الكذا قد بعث إليكم سعد بن مالك ليقلّ جماعتكم و يشتت كلمتكم و يوقع التجادل بينكم، فانفروا إليه، فخرج منهم مائة أو نحوها، و قد ضرب فسطاطه و هو قائل:

فقلبوا عليه فسطاطه و شجوه و سبوه، فركب راحلته و عاد راجعا من حيث جاء. و قال:

ضربكم اللّه بالذلّ و الفرقة، و شتت أمركم، و جعل بأسكم بينكم، و لا أرضاكم بأمير، و لا أرضاه عنكم. و أقبل عبد اللّه بن سعد حتى بلغ جسر القلزم، فإذا بخيل لابن أبى حذيفة، فمنعوه أن يدخل فقال: ويلكم دعونى أدخل على جندى فأعلمهم بما جئت به، فإنى قد جئتهم بخير. فأبوا أن يدعوه فقال: و اللّه لوددت أنى دخلت عليهم و أعلمتهم بما جئت به ثم مت، فانصرف إلى عسقلان. و أجمع محمد بن أبى حذيفة على بعث جيش إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه فقال: من يتشرّط فى هذا البعث؟ فكثر عليه من يشترط. فقال: إنما يكفينا منكم ستمائة رجل، فشرّط من أهل مصر ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس و على جماعتهم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ، و هم كنانة بن بشر بن سليمان التجيبىّ، و عروة بن سليم الليثىّ، و أبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعىّ، و سودان بن ريان الأصبحىّ، و ذرع بن يشكر النافعىّ، و سجن رجال من أهل مصر فى دورهم منهم: فلما بلغ ذلك كنانة بن بشر و كان رأس الشيعة الأولى، دفع عن معاوية ما كره، ثم قتل عثمان رضى اللّه عنه فى ذى الحجة سنة خمس و ثلاثين، فدخل الركب إلى مصر

و هم يرتجزون:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۴ خذها إليك و أحذرنّ أبا الحسن‌إنا نمرّ الحرب إمرار الوسن بالسيف كى تخمد نيران الفتن فلما دخلوا المسجد صاحوا إنا لسنا قتلة عثمان و لكن اللّه قتله. فلما رأى ذلك شيعة عثمان قاموا و عقدوا لمعاوية بن خديج عليهم و بايعوه على الطلب بدم عثمان، فسار بهم معاوية إلى الصعيد، فبعث إليهم ابن أبى حذيفة فالتقوا بدقناس من كورة البهنسا فهزم أصحاب ابن أبى حذيفة، و مضى معاوية حتى بلغ برقة، ثم رجع إلى الاسكندرية فبعث ابن أبى حذيفة بجيش آخر عليهم قيس بن حرمل فاقتتلوا بخربتا أوّل شهر رمضان سنة ست و ثلاثين، فقتل قيس و سار معاوية بن أبى سفيان إلى مصر، فنزل سلمنت من كورة عين شمس فى شوّال، فخرج إليه ابن أبى حذيفة فى أهل مصر، فمنعوه أن يدخلها، فبعث إليه معاوية إنّا لا نريد قتال أحد إنما جئنا نسأل القود لعثمان، ادفعوا إلينا قاتليه عبد الرحمن بن عديس و كنانة بن بشر، و هما رأس القوم، فامتنع ابن أبى حذيفة و قال لو طلبت منا جديا أرطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك. فقال معاوية بن أبى سفيان لابن أبى حذيفة: اجعل بيننا و بينكم رهنا، فلا يكون بيننا و بينكم حرب. فقال ابن أبى حذيفة: فإنى أرضى بذلك، فاستخلف ابن أبى حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخرمة و خرج فى الرهن، هو و ابن عيسى. و كنانة بن بشر و أبو شمر بن أبرهة و غيرهم من قتلة عثمان، فلما بلغوا لدّ سجنهم بها معاوية و سار إلى دمشق، فهربوا من السجن، غير أبى شمر بن أبرهة فإنه قال:

لا أدخله أسيرا و أخرج منه آبقا، و تبعهم صاحب فلسطين فقتلهم، و اتبع عبد الرحمن بن عديس رجل من الفرس فقال له عبد الرحمن بن عديس: اتق اللّه فى دمى فإنى بايعت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم تحت الشجرة، فقال له: الشجر فى الصحراء كثير فقتله.

و قال محمد بن أبى حذيفة فى الليلة التى قتل فى صباحها عثمان: فإن يكن القصاص لعثمان فسنقتل من الغد، فقتل من الغد، و كان قتل ابن أبى حذيفة و عبد الرحمن بن عديس و كنانة بن بشر و من كان معهم من الرهن فى ذى الحجة سنة ست و ثلاثين. فلما بلغ علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه مصاب بن أبى حذيفة، بعث قيس بن سعد بن عبادة الأنصارىّ على مصر و جمع له الخراج و الصلاة، فدخلها مستهلّ شهر ربيع الأوّل سنة سبع و ثلاثين، و استمال الخارجية بخربتا و دفع إليهم أعطياتهم، و وفد عليه وفدهم فأكرمهم و أحسن إليهم، و مصر يومئذ من جيش علىّ رضى اللّه عنه إلّا أهل خربتا الخارجين بها. فلما ولى على رضى اللّه عنه قيس بن سعد، و كان من ذوى الرأى، جهد معاوية بن أبى سفيان و عمرو بن العاص على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها، فامتنع عليهما بالدهاء و المكايدة، فلم يقدرا على أن يلجأ مصر حتى كان معاوية قيسا من قبل علىّ رضى اللّه عنه، فكان معاوية يحدّث رجالا من ذوى رأى قريش فيقول: ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلىّ من مكايدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى، قلت لأهل الشام لا تسبوا قيسا و لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۵

تدعوا إلى غزوة، فإن قيسا لنا شيعة تأتينا كتبه و نصيحته سرّا، ألا ترون ما ذا يفعل بإخوانكم النازلين عنده بخربتا يجرى عليهم أعطياتهم و أرزاقهم و يؤمّن سربهم و يحسن إلى كل راكب يأتيه منهم. قال معاوية: و طفقت أكتب بذلك إلى شيعتى من أهل العراق، فسمع بذلك جواسيس علىّ بالعراق فأنهاه إليه محمد بن أبى بكر، و عبد اللّه بن جعفر، فاتّهم قيسا فكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا، و بخربتا يومئذ عشرة آلاف، فأبى قيس أن يقاتلهم و كتب إلى علىّ رضى اللّه عنه أنهم وجوه أهل مصر و أشرافهم، و أهل الحفاظ منهم، و قد رضوا منى بأن أو من سربهم و اجرى عليهم أعطياتهم و أرزاقهم، و قد علمت أن هواهم مع معاوية، فلست بكائدهم بأمر أهون علىّ و عليك من الذى أفعل بهم، و هم أسود العرب، منهم بسر بن أرطاة، و سلمة بن مخلد، و معاوية بن خديج. فأبى عليه إلّا قتالهم، فأبى قيس أن يقاتلهم. و كتب إلى علىّ رضى اللّه عنه، إن كنت تهتمنى فاعزلنى و ابعث غيرى. و كتب معاوية رضى اللّه عنه إلى بعض بنى أمية بالمدينة: أن جرى اللّه قيس بن سعد خيرا فإنه قد كف عن إخواننا من أهل مصر الذين قاتلوا فى دم عثمان، و اكتموا ذلك فإننى أخاف أن يعزله على إن بلغه ما بينه و بين شيعتنا، حتى بلغ عليا رضى اللّه عنه ذلك فقال: من معه من

رؤساء أهل العراق و أهل المدينة بدّل قيس و تحوّل. فقال عليّ ويحكم إنه لم يفعل فدعونى. قالوا:

لتعزلنه، فإنه قد بدّل. فلم يزالوا به حتى كتب إليه إنى قد احتجت إلى قربك، فاستخلف على عملك و اقدم. فلما قرأ الكتاب قال: هذا من مكر معاويـة، و لو لا الكذب لمكرت به مكرا يدخل عليه بيته، فوليها قيس بن سـعد إلى أن عزل عنها أربعة أشـهر و خمسة أيام، و صرف لخمس خلون من رجب سـنة سبع و ثلاـثين، ثم وليهـا الاـشتر مالك بن الحارث بن عبـد يغوث النخعىّ من قبل أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضـى اللّه عنه، و ذلك أن عبد اللّه بن جعفر كان إذا أراد أن لا يمنعه علىّ شيئا قال له بحق جعفر. فقال له أسألك بحق جعفر الا بعثت الاشتر إلى مصر، فإن ظهرت فهو الذى تحب و إلّا استرحت منه. و يقال:

كان الأشتر قد ثقل على علىّ رضـى اللّه عنه و أبغضه و قلاه فولاه و بعثه، فلما قدم مصـر لقى بما يلقى العمال به هناك، فشـرب شـربة عسل فمات. فلما أخبر علىّ بـذلك قال لليـدين و للفم، و سـمع عمرو بن العاص بموت الأشتر فقال: إن للّه جنودا من عسل. أو قال إنّ للّه جنودا من العسل.

ثم وليها محمد بن أبى بكر الصدّيق من قبل علىّ رضـى اللّه عنهم، و جمع له صلاتها و خراجها، فدخلها للنصف من شهر رمضان سنة سبع و ثلاثين، فلقيه قيس بن سعد فقال له:

إنه لا يمنعنى نصـحى لك عزله إياىّ، و لقد عزلنى عن غير وهن و لا عجز، فاحفظ ما أوصـيك به. يدم صـلاح حالك: دع معاوية بن خديـج و مسـلمة بن مخلد و بسـر بن أرطاة و من ضوى إليهم على ما هم عليه، لا تكفهم عن رأيهم، فإن أتوك و لم يفعلوا فاقبلهم، و إن تخلفوا عنك فلا تطلبهم، و انظر هذا الحىّ من مضر، فأنت أولى بهم منى، فألن لهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۶

جناحك و قرّب عليهم مكانك و ارفع عنهم حجابك، و انظر هذا الحىّ من مدلج، فدعهم و ما غلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم، و أنزل الناس من بعد على قدر منازلهم، فإن استطعت أن تعود المرضى و تشهد الجنائز فافعل، فإنّ هذا لا ينقصك و لن تفعل، إنك و اللّه ما علمت لتظهر الخيلاء و تحب الرياسـة و تسـارع إلى ما هو ساقط عنك، و اللّه موفقك. فعمل محمـد بخلاف ما أوصاه به قيس، فبعث إلى ابن خديج و الخارجة معه يدعوهم إلى بيعته، فلم يجيبوه. فبعث إلى دور الخارجة فهدمها و نهب أموالهم و سجن ذراريهم فنصبوا له الحرب و هموا بـالنهوض إليه. فلمـا علم أنه لا قوّة له بهم أمسك عنهم ثم صالحهم على أن يسـيرهم إلى معاويـة، و أن ينصب لهم جسر انتقيوس يجوزون عليه و لا يدخلون الفسطاط، ففعلوا و لحقوا بمعاوية.

فلما أجمع علىّ رضى اللّه عنه و معاوية على الحكمين أغفل علىّ أن يشترط على معاوية أن لا يقاتل أهل مصر. فلما انصرف علىّ إلى العراق بعث معاويـة رضـى اللّه عنه عمرو بن العاص رضـى اللّه عنه فى جيوش أهل الشام إلى مصـر، فاقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه أهل مصر، و دخل عمرو بأهل الشام الفسطاط، و تغيب محمد بن أبى بكر، فأقبل معاوية بن خديج فى رهط ممن يعينه على من كان يمشى فى قتـل عثمـان، و طلب ابن أبى بكر فـدلتهم عليه امرأة. فقال: احفظونى فى أبى بكر، فقال معاويـة بن خديـج: قتلت ثمانين رجلا من قومى فى عثمان، و أترككك و أنت صاحبه؟ فقتله ثم جعله فى جيفة حمار ميت، فأحرقه بالنار، فكانت ولاية محمد بن أبى بكر خمسـة أشـهر، و مقتله لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان و ثلاثين. ثم ولى عمرو بن العاص مصر من بعده، فاستقبل بولايته هذه الثانية شهر ربيع الأوّل، و جعل إليه الصـلاة و الخراج، و كانت مصـر قـد جعلها معاوية له طعمة بعد عطاء جندها و النفقة على مصـلحتها، ثم خرج إلى الحكومة و اسـتخلف على مصر ابنه عبد اللّه بن عمرو، و قتل خارجة بن حذافة و رجع عمرو إلى مصر فأقام بها، و تعاقد بنو ملجم عبـد الرحمن و قيس و يزيـد على قتـل علىّ رضـى اللّه عنه و عمرو و معاويـة رضـى اللّه عنهمـا، و تواعـدوا على ليلـة من رمضان سـنة أربعين، فمضـى كـل منهم إلى صـاحبه، فلما قتل علىّ بن أبى طالب رضـى اللّه عنه و اسـتقرّ الأمر لمعاويـة كانت مصـر جنـدها و أهل شوكتهـا عثمانيـة، و كثير من أهلهـا علويـة. فلما مات معاويـة و مات ابنه يزيـد بن معاويـة كان على مصـر سـعيد بن يزيـد الأزدىّ على صلاتها، فلم يزل أهل مصـر على الشـنان له، و الإعراض عنه، و التكبر عليه، منـذ ولاه يزيـد بن معاويـة حتى مات يزيد فى سـنة أربع و

ستين. و دعا عبد اللّه بن الزبير إلى نفسه، فقامت الخوارج بمصر فى أمره، و أظهروا دعوته كانوا يحسبونه على مذهبهم، و أوفدوا منهم وفدا إليه، فسار منهم نحو الألفين من مصر و سألوه أن يبعث إليهم بأمير يقومون معه و يوازرونه، و كان كريب بن أبرهة الصباح و غيره من أشراف مصر يقولون: ما ذا نرى من العجب أن هذه الطائفة المكتتمة تأمر فينا و تنهى و نحن لا نستطيع أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۷

نردّ أمرهم، و لحق بابن الزبير ناس كثير من أهل مصر، و كان أوّل من قدم مصر برأى الخوارج حجر بن الحارث بن قيس المذحجىّ، و قيل حجر بن عمرو، و يكنى بأبى الورد، و شهد مع علىّ صفين، ثم صار من الخوارج و حضر مع الحرورية النهروان، فخرج و صار إلى مصر برأى الخوارج و أقام بها حتى خرج منها إلى ابن الزبير فى إمارة مسلمة بن مخلد الأنصارىّ على مصر. فلما مات يزيد بن معاوية و بويع ابن الزبير بعده بالخلافة، بعث إلى مصر بعبد الرحمن بن جحدم الفهرىّ، فقدمها فى طائفة من الخوارج فوثبوا على سعيد بن يزيد فاعتزلهم، و استمرّ ابن جحدم، و كثرت الخوارج بمصر منها و ممن قدم من مكة، فأظهروا فى مصر التحكيم و دعوا إليه، فاستعظم الجند ذلك و بايعه الناس على غلّ فى قلوب ناس من شيعة بنى أمية، منهم كريب بن أبرهة، و مقسم بن بجرة، و زياد بن حناطة التجيبىّ، و عابس بن سعيد و غيرهم، فصار أهل مصر حينئذ ثلاث طوائف، علوية و عثمانية و خوارج. فلما بويع مروان بن الحكم بالشام فى ذى القعدة سنة أربع و ستين كانت شيعته من أهل مصر مع ابن جحدم، فكاتبوه سرّا حتى أتى مصر فى أشراف كثيرة، و بعث ابنه عبد العزيز بن مروان فى جيش إلى إيلة ليدخل من هناك مصر، و أجمع ابن جحدم على حربه و منعه، فحفر الخندق فى شهر، و هو الخندق الذى بالقرافة، و بعث بمراكب فى البحر ليخالف إلى عيالات أهل الشام، و قطع بعثا فى البرّ و جهز جيشا آخر إلى إيلة لمنع عبد العزيز من المسير منها، فغرقت المراكب و نجا بعضها و انهزمت الجيوش و نزل مروان عين شمس، فخرج إليه ابن جحدم فى أهل مصر، فتحاربوا و استجرّ القتل فقتل من الفريقين خلق كثير، ثم إن كريب بن أبرهة و عابس بن سعيد و زياد بن حناطة و عبد الرحمن بن موهب المغافرىّ دخلوا فى الصلح بين أهل مصر و بين مروان، فتم و دخل مروان إلى الفسطاط لغرّة جمادى الأولى سنة خمس و ستين، فكانت ولاية ابن جحدم تسعة أشهر، و وضع العطاء فبايعه الناس إلّا نفرا من المغافر قالوا لا نخلع بيعة ابن الزبير، فقتل منهم ثمانين رجلا- قدّمهم رجلا- رجلا فضرب أعناقهم و هم يقولون إنا قد بايعنا ابن الزبير طائعين، فلم نكن لننكث بيعته، و ضرب عنق الأكدر بن حمام بن عامر سيد لخم و شيخها، و حضر هو و أبوه فتح مصر، و كانا ممن ثار إلى عثمان رضى اللّه عنه، فتنادى الجند قتل الأكدر، فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه، فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفا، و خشى مروان و أغلق بابه حتى أتاه كريب بن أبرهة و ألقى عليه رداءه و قال للجند: انصرفوا أنا له جار، فما عطف أحد منهم و انصرفوا إلى منازلهم، و كان للنصف من جمادى الآخرة، و يومئذ مات عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فلم يستطع أحد أن يخرج بجنازته إلى المقبرة لشغب الجند على مروان، و من حينئذ غلبت العثمانية على مصر فتظاهروا فيها بسب علىّ رضى اللّه عنه، و انكفت السنة العلوية و الخوارج.

فلما كانت ولاية قرّة بن شريك العبسىّ على مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۸

سنة تسعين، خرج إلى الإسكندرية فى سنة إحدى و تسعين، فتعاقدت السراة من الخوارج بالإسكندرية على الفتك به، و كانت عدّتهم نحوا من مائة، فعقدوا لرئيسهم المهاجر بن أبى المثنى التجيبىّ، أحد بنى فهم عليهم عند منارة الإسكندرية و بالقرب منهم رجل يكنى أبا سليمان، فبلغ قرّة ما عزموا عليه، فأتى لهم قبل أن يتفرّقوا فأمر بحبسهم فى أصل منارة الإسكندرية، و أحضر قرّة وجوه الجند فسألهم فأقرّوا فقتلهم، و مضى رجل ممن كان يرى رأيهم إلى أبى سليمان فقتله، فكان يزيد بن أبى حبيب إذا أراد أن يتكلم بشىء فيه تقية من السلطان تلفت و قال: احذروا أبا سليمان، ثم قال الناس كلهم من ذلك اليوم أبو سليمان. فلما قام عبد اللّه بن يحيى الملقب بطالب الحق فى الحجاز على مروان بن محمد الجعدىّ، قدم إلى مصر داعيته و دعا الناس فبايع له ناس من تجيب و غيرهم، فبلغ ذلك حسان

بن عتاهية صاحب الشرطة فاستخرجهم، فقتلهم حوثرة بن سهيل الباهلىّ أمير مصر من قبل مروان بن محمد، فلما قتل مروان و انقضت أيام بنى أمية ببنى العباس فى سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، خمدت جمرة أصحاب المذهب المروانىّ و هم الذين كانوا يسبون علىّ بن أبى طالب و يتبرّؤون منه، و صاروا منذ ظهر بنو العباس يخافون القتل و يخشون أن يطلع عليهم أحد إلّا طائفة كانت بناحية الواحات و غيرها، فإنهم أقاموا على مذهب المروانية دهرا حتى فنوا، و لم يبق لهم الآن بديار مصر وجود البتة.

فلما كان فى إمارة حميد بن قحطبة على مصر من قبل أبى جعفر المنصور، قدم إلى مصر علىّ بن محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب داعية لأبيه و عمه، فذكر ذلك لحميد فقال: هذا كذب، و دسّ إليه أن تغيّب، ثم بعث إليه من الغد فلم يجده، فكتب بذلك إلى أبى جعفر المنصور فعزل حميدا و سخط عليه فى ذى القعدة سنة أربع و أربعين و مائة، و ولى يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة، فظهرت دعوة بنى حسن بن علىّ بمصر، و تكلم الناس بها و بايع كثير منهم لعلىّ بن محمد بن عبد اللّه، و هو أوّل علوىّ قدم مصر، و قام بأمر دعوته خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفىّ، و كان جدّه ربيعة بن حبيش من خاصة علىّ بن أبى طالب و شيعته، و حضر الدار فى قتل عثمان رضى اللّه عنه، فاستشار خالد أصحابه الذين بايعوا له، فأشار عليهم بعضهم أن يبيت يزيد بن حاتم فى العسكر، و كان الأمراء قد صاروا منذ قدمت عساكر بنى العباس ينزلون فى العسكر الذى بنى خارج الفسطاط من شماليه، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، و أشار عليه آخرون أن لا يحوز بيت المال، و أن يكون خروجهم فى الجامع، فكره خالد أن يبيت يزيد بن حاتم، و خشى على اليمانية، و خرج منهم رجل قد شهد أمرهم حتى أتى إلى عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج و هو يومئذ على الفسطاط، فخبّره أنهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۹

الليلة يخرجون، فمضى عبد اللّه إلى يزيد بن حاتم و هو بالعسكر، فكان من أمرهم ما كان لعشر من شوّال سنة خمس و أربعين و مائة، فانهزموا. ثم قدمت الخطباء برأس إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين فى ذى الحجة من السنة المذكورة إلى مصر و نصبوه فى المسجد الجامع، و قامت الخطباء فذكروا أمره، و حمل علىّ بن محمد إلى أبى جعفر المنصور و قيل إنه اختفى عند عسامة بن عمرو بقرية طره، فمرض بها و مات فقبر هناك، و حمل عسامة إلى العراق فحبس إلى أن ردّه المهدىّ محمد بن أبى جعفر إلى مصر، و ما زالت شيعة علىّ بمصر إلى أن ورد كتاب المتوكل على اللّه إلى مصر يأمر فيه بإخراج آل أبى طالب من مصر إلى العراق، فأخرجهم إسحاق بن يحيى الختلىّ أمير مصر و فرّق فيهم الأموال ليتجملوا بها، و أعطى كل رجل ثلاثين دينارا، و المرأة خمسة عشر دينارا، فخرجوا لعشر خلون من رجب سنة ست و ثلاثين و مائتين، و قدموا العراق فأخرجوا إلى المدينة فى شوّال منها، و استتر من كان بمصر على رأى العلوية، حتى أن يزيد بن عبد اللّه أمير مصر ضرب رجلا من الجند فى شىء وجب عليه فأقسم عليه بحق الحسن و الحسين إلا عفا عنه، فزاده ثلاثين درة، و رفع ذلك صاحب البريد إلى المتوكل، فورد الكتاب على يزيد بضرب ذلك الجندىّ مائة سوط، فضربها و حمل بعد ذلك إلى العراق فى شوّال سنة ثلاث و أربعين و مائتين، و تتبع يزيد الروافض فحملهم إلى العراق، و دل فى شعبان على رجل يقال له محمد بن علىّ بن الحسن بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، أنه بويع له، فأحرق الموضع الذى كان به و أخذه فأقرّ على جمع من الناس بايعوه، فضرب بعضهم بالسياط، و أخرج العلوى هو و جمع من آل أبى طالب إلى العراق فى شهر رمضان.

و مات المتوكل فى شوّال، فقام من بعده ابنه محمد المستنصر، فورد كتابه إلى مصر بأن لا يقبل علوىّ ضيعة، و لا يركب فرسا، و لا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، و أن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلّا العبد الواحد، و من كان بينه و بين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه و لم يطالب ببينة، و كتب إلى العمال بذلك، و مات المستنصر فى ربيع الآخر، و قام المستعين، فأخرج يزيد ستة رجال من الطالبيين إلى العراق فى رمضان سنة خمسين و مائتين، ثم أخرج ثمانية منهم فى رجب سنة إحدى و خمسين، و خرج جابر بن الوليد المدلجىّ بأرض الإسكندرية فى ربيع الآخر سنة اثنتين و خمسين، و اجتمع إليه كثير من بنى

مدلج فبعث إليه محمد بن عبيد اللّه بن يزيد بجيش من الإسكندرية فهزمهم و ظفر بما معهم، و قوى أمره و أتاه الناس من كلّ ناحية، و ضوى إليه كل من يومى إليه بشدّة و نجدة، فكان ممن أتاه عبد اللّه المريسىّ و كان لصا خبيثا، و لحق به جريج النصرانىّ و كان من شرار النصارى. و أولى بأسهم، و لحق به أبو حرملة فرج النوبىّ و كان فاتكا فعقد له جابر على سنهور و سخا و شرقيون و بنا، فمضى أبو حرملة فى جيش عظيم، فأخرج العمال و جبى الخراج و لحق به عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۰

محمد بن عبد اللّه بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب الذى يقال له ابن الأرقط، فقوّده أبو حرملة و ضم إليه الأعراب و ولاه بنا و بوصير و سمنود، فبعث يزيد أمير مصر بجمع من الأتراك فى جمادى الآخرة فقاتلهم ابن الأرقط و قتل منهم، ثم ثبتوا له فانهزم و قتل من أصحابه كثير و أسر منهم كثير، و لحق ابن الأرقط بأبى حرملة فى شرقيون فصار إلى عسكر يزيد فانهزم أبو حرملة. و قدم مزاحم بن خاقان من العراق فى جيش، فحارب أبا حرملة حتى أسر فى رمضان، و استأمن ابن الأرقط، فأخذ و أخرج إلى العراق فى ربيع الأوّل سنة ثلاث و خمسين و مائتين ففرّ منهم، ثم ظفر به و حبس، ثم حمل إلى العراق فى صفر سنة خمس و خمسين و مائتين بكتاب ورد على أحمد بن طولون، و مات أبو حرملة فى السجن لأربع بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث و خمسين، و أخذ جابر بعد حروب و حمل إلى العراق فى رجب سنة أربع و خمسين، و خرج فى إمرة أرجون التركىّ رجل من العلويين يقال له بغا الأكبر، و هو أحمد بن إبراهيم بن عبد اللّه بن طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن بن حسين بن علىّ بالصعيد، فحاربه أصحاب أرجون و فرّ منهم فمات، ثم خرج بغا الأصغر و هو أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن طباطبا فيما بين الإسكندرية و برقة فى جمادى الأولى سنة خمس و خمسين و مائتين، و الأمير يومئذ أحمد بن طولون، و سار فى جمع إلى الصعيد فقتل فى الحرب و أتى برأسه إلى الفسطاط فى شعبان و خرج ابن الصوفىّ العلوىّ بالصعيد و هو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد اللّه بن محمد بن عمر بن علىّ بن أبى طالب، و دخل اسنا فى ذى القعدة سنة خمس و خمسين، و نهبها و قتل أهلها، فبعث إليه ابن طولون بجيش فحاربوه فهزمهم فى ربيع الأوّل سنة ست و خمسين بهو، فبعث ابن طولون إليه بجيش آخر فالتقيا بأخميم فى ربيع الآخر فانهزم ابن الصوفىّ و ترك جميع ما معه و قتلت رجالته، فأقام ابن الصوفىّ بالواح سنتين ثم خرج إلى الأشمونين فى المحرّم سنة تسع و خمسين و سار إلى أسوان لمحاربة أبى عبد الرحمن العمرىّ، فظفر به العمرىّ و بجميع جيشه و قتل منهم مقتلة عظيمة، و لحق ابن الصوفىّ بأسوان فقطع لأهلها ثلاثمائة ألف نخلة، فبعث إليه ابن طولون بعثا فاضطرب أمره مع أصحابه فتركهم و مضى إلى عيذاب، فركب البحر إلى مكة فقبض عليه بها و حمل إلى ابن طولون فسجنه ثم أطلقه فصار إلى المدينة و مات بها.

و فى إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون أنكر رجل من أهل مصر أن يكون أحد خيّرا من أهل البيت، فوثبت إليه العامّة فضرب بالسياط يوم الجمعة فى جمادى الأولى سنة خمس و ثمانين و مائتين. و فى إمارة ذكا الأعور على مصر كتب على أبواب الجامع العتيق ذكر الصحابة و القرآن فرضيه جمع من الناس و كرهه آخرون، فاجتمع الناس فى رمضان سنة خمس و ثلاثمائة إلى دار ذكا يتشكرونه على ما أذن لهم فيه، فوثب الجند بالناس فنهب قوم و جرح آخرون و محى ما كتب على أبواب الجامع، و نهب الناس فى المسجد و الأسواق، و أفطر الجند يومئذ و ما زال أمر الشيعة يقوى بمصر إلى أن دخلت سنة خمسين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۱

و ثلاثمائة، ففى يوم عاشوراء كانت منازعة بين الجند و بين جماعة من الرعية عند قبر كلثوم العلوية بسبب ذكر السلف و النوح، قتل فيها جماعة من الفريقين، و تعصب السودان على الرعية، فكانوا إذا لقوا أحدا قالوا له: من خالك؟ فإن لم يقل معاوية و إلّا بطشوا به و شلحوه، ثم كثر القول معاوية خال علىّ، و كان على باب الجامع العتيق شيخان من العامّة يناديان فى كل يوم جمعة فى وجوه الناس من الخاص و العام، معاوية خالى و خال المؤمنين، و كاتب الوحى، و رديف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و كان هذا أحسن ما يقولونه، و إلّا فقد كانوا يقولون معاوية خال علىّ من هاهنا، و يشيرون إلى أن أصل الإذن، و يلقون أبا جعفر مسلما الحسينىّ فيقولون

له ذلك فى وجهه، و كان بمصر أسود يصيح دائما معاوية خال علىّ، فقتل بتنيس أيام القائد جوهر.

و لما ورد الخبر بقيام بنى حسن بمكة و محاربتهم الحاج و نهبهم، خرج خلق من المصريين فى شوّال فلقوا كافور الإخشيدىّ بالميدان ظاهر مدينة مصر و ضجوا و صاحوا معاوية خال علىّ، و سألوه أن يبعث لنصرة الحاج على الطالبيين. و فى شهر رمضان سنة ثلاث و خمسين و ثلاثمائة أخذ رجل يعرف بابن أبى الليث الملطىّ ينسب إلى التشيع فضرب مائتى سوط و درة، ثم ضرب فى شوّال خمسمائة سوط و درة، و جعل فى عنقه غل و حبس و كان يتفقد فى كلّ يوم لئلا يخفف عنه و يبصق فى وجهه، فمات فى محبسه فحمل ليلا و دفن، فمضت جماعة إلى قبره لينبشوه و بلغوا إلى القبر فمنعهم جماعة من الإخشيدية و الكافورية، فأبوا و قالوا هذا قبر رافضىّ، فثارت فتنة و ضرب جماعة و نهبوا كثيرا حتى تفرّق الناس.

و فى سنة ست و خمسين كتب فى صفر على المساجد ذكر الصحابة و التفضيل، فأمر الأستاذ كافور الإخشيدىّ بإزالته، فحدّثه جماعة فى إعادة ذكر الصحابة على المساجد فقال:

ما أحدث فى أيامى ما لم يكن و ما كان فى أيام غيرى فلا أزيله، و ما كتب فى أيامى أزيله، ثم أمر من طاف و أزاله من المساجد كلها. و لما دخل جوهر القائد بعساكر المعز لدين اللّه إلى مصر و بنى القاهرة أظهر مذهب الشيعة و أذن فى جميع المساجد الجامعة و غيرها حىّ على خير العمل، و أعلن بتفضيل علىّ بن أبى طالب على غيره، و جهر بالصلاة عليه و على الحسن و الحسين و فاطمة الزهراء رضوان اللّه عليهم، فشكا إليه جماعة من أهل المسجد الجامع أمر عجوز عمياء تنشد فى الطريق، فأمر بها فحبست فسرّ الرعية بذلك و نادوا بذكر الصحابة و نادوا معاوية خال علىّ و خال المؤمنين، فأرسل جوهر حين بلغه ذلك رجلا إلى الجامع فنادى: أيها الناس أقلوا القول و دعوا الفضول، فإنما حبسنا العجوز صيانة لها، فلا ينطقن أحد إلّا حلّت به العقوبة الموجعة، ثم أطلق العجوز.

و فى ربيع الأوّل سنة اثنتين و ستين عزر سليمان بن عروة المحتسب جماعة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۲

الصيارفة فشغبوا و صاحوا معاوية خال علىّ بن أبى طالب، فهمّ جوهر أن يحرق رحبة الصيارفة، لكن خشى على الجامع، و أمر الإمام بجامع مصر أن يجهر بالبسملة فى الصلاة و كانوا لا يفعلون ذلك، و زيد فى صلاة الجمعة القنوت فى الركعة الثانية، و أمر فى المواريث بالردّ على ذوى الأرحام، و أن لا يرث مع البنت أخ و لا أخت و لا عم و لا جدّ و لا ابن أخ و لا ابن عم، و لا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلّا الزوج أو الزوجة و الأبوان و الجدّة، و لا يرث مع الأمّ إلّا من يرث مع الولد، و خاطب أبو الطاهر محمد بن أحمد قاضى مصر القائد جوهرا فى بنت و أخ، و أنه كان حكم قديما للبنت بالنصف و للأخ بالباقى، فقال لا أفعل فلما ألح عليه قال: يا قاضى هذا عداوة لفاطمة عليها السلام، فأمسك أبو الطاهر و لم يراجعه بعد فى ذلك، و صار صوم شهر رمضان و الفطر على حساب لهم، فأشار الشهود على القاضى أبى الطاهر أن لا يطلب الهلال، لأنّ الصوم و الفطر على الرؤية قد زال، فانقطع طلب الهلال من مصر و صام القاضى و غيره مع القائد جوهر كما يصوم، و أفطروا كما يفطر. و لما دخل المعز لدين اللّه إلى مصر و نزل بقصره من القاهرة المعزية، أمر فى رمضان سنة اثنتين و ستين و ثلاثمائة فكتب على سائر الأماكن بمدينة مصر خير الناس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام. و فى صفر سنة خمس و ستين و ثلاثمائة جلس علىّ بن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر و أملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت، و يعرف هذا المختصر بالاقتصار، و كان جمعا عظيما و أثبت أسماء الحاضرين.

و لما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز بالله نزار بن المعز رتب فى داره العلماء من الأدباء و الشعراء و الفقهاء و المتكلمين، و أجرى لجميعهم الأرزاق، و ألف كتابا فى الفقه و نصب له مجلسا و هو يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء و جماعة من المتكلمين و أهل الجدل، و تجرى بينهم المناظرات، و كان يجلس أيضا فى يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه، و يحضر عنده القضاة و الفقهاء و القرّاء و النحاة و أصحاب الحديث و وجوه أهل العلم و الشهود، فإذا انقضى المجلس من القراءة قام الشعراء لإنشاد مدائحهم

فيه، و جعل للفقهاء فى شهر رمضان الأطعمة، و ألف كتابا فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين اللّه و من ابنه العزيز بالله، و هو مبوّب على أبواب الفقه يكون قدره مثل نصف صحيح البخارىّ، ملكته و وقفت عليه، و هو يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية، و كان يجلس لقراءة هذا الكتاب على الناس بنفسه و بين يديه خواص الناس و عوامّهم و سائر الفقهاء و القضاة و الأدباء، و أفتى الناس به و درّسوا فيه بالجامع العتيق، و أجرى العزيز بالله لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير و يلازمونه أرزاقا تكفيهم فى كلّ شهر، و أمر لهم ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلّى صلاة العصر، و كان لهم من مال الوزير أيضا صلة فى كلّ سنة، و عدّتهم خمسة و ثلاثون رجلا، و خلع عليهم العزيز

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۳

بالله فى يوم عيد الفطر و حملهم على بغال.

و فى سنة اثنتين و سبعين و ثلاثمائة أمر العزيز بن المعز بقطع صلاة التروايح من جميع البلاد المصرية. و فى سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة ضرب رجل بمصر و طيف به المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس رحمه اللّه. و فى شهر ربيع الأوّل سنة خمس و ثمانين و ثلاثمائة جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسىّ بالقصر فى القاهرة لقراءة علوم أهل البيت على الرسم المتقدّم له و لأخيه بمصر، و لأبيه بالمغرب، فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا. و فى جمادى الأولى سنة إحدى و تسعين و ثلاثمائة قبض على رجل من أهل الشام سئل عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، فقال لا أعرفه، فاعتقله قاضى القضاة الحسن بن النعمان قاضى أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه على القاهرة المعزية و مصر و الشامات و الحرمين و المغرب، و بعث إليه و هو فى السجن أربعة من الشهود و سألوه، فأقرّ بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أنه نبىّ مرسل، و سئل عن علىّ بن أبى طالب فقال لا أعرفه، فأمر قائد القوّاد الحسين بن جوهر بإحضاره، فخلا به و رفق فى القول له فلم يرجع عن إنكاره معرفة علىّ بن أبى طالب، فطولع الحاكم بأمره فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه و صلب. و فى سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة قبض على ثلاثة عشر رجلا و ضربوا و شهروا على الجمال و حبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى.

و فى سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة قرىء سجل فى الجوامع بمصر و القاهرة و الجزيرة بأن تلبس النصارى و اليهود الغيار و الزنار، و غيارهم السواد غيار العاصين العباسيين، و أن يشدّوا الزنار و فيه وقوع و فحش فى حق أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، و قرىء سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخيا المحببة كانت لمعاوية بن أبى سفيان، و منعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضى اللّه عنها، و من المتوكلية المنسوبة إلى المتوكل، و المنع من عجين الخبز بالرجل، و المنع من أكل الدلينس و من ذبح البقر إلّا ذا عاهة ما، عدا أيام النحر، فإنه يذبح فيها البقر فقط، و الوعيد للنخاسين متى باعوا عبدا أو أمة لذمىّ، و قرىء سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر فى أوّل الساعة السابعة، و يؤذن لصلاة العصر فى أوّل الساعة التاسعة، و قرىء أيضا سجل بالمنع من عمل الفقاع و بيعه فى الأسواق لما يؤثر عن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه من كراهية شرب الفقاع، و ضرب فى الطرقات و الأسواق بالحرس، و نودى أن لا يدخل أحد الحمام إلّا بمئزر، و لا تكشف امرأة وجهها فى طريق، و لا خلف جنازة، و لا تتبرّج، و لا يباع شىء من السمك بغير قشر، و لا يصطاده أحد من الصيادين، و قبض على جماعة وجدوا فى الحمام بغير مئزر فضربوا و شهروا. و كتب فى صفر من هذه السنة على سائر المساجد و على الجامع العتيق بمصر من ظاهره و باطنه من جميع جوانبه، و على أبواب الحوانيت و الحجر و على المقابر و الصحراء سبّ السلف و لعنهم، و نقش ذلك و لوّن بالأصباغ و الذهب، و عمل ذلك على أبواب الدور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۴

و القياسر، و أكره الناس على ذلك، و تسارع الناس إلى الدخول فى الدعوة، فجلس لهم قاضى القضاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان، فقدموا من سائر النواحى و الضياع، فكان للرجال يوم الأحد، و للنساء يوم الأربعاء، و للأشراف و ذوى الأقدار يوم الثلاثاء، و ازدحم الناس على الدخول فى الدعوة، فمات عدّة من الرجال و النساء. و لما وصلت قافلة الحاج مرّ بهم من سبّ العامّة و بطشهم ما لا

يوصف، فإنهم أرادوا حمل الحاج على سبّ السلف فأبوا، فحلّ بهم مكروه شديد. و فى جمادى الآخرة من هذه السنة فتحت دار الحكمة بالقاهرة و جلس فيها القرّاء، و حملت الكتب إليها من خزائن القصور، و دخل الناس إليها و جلس فيها القرّاء و الفقهاء و المنجمون و النحاة و أصحاب اللغة و الأطباء، و حصل فيها من الكتب فى سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعا، و أجرى على من فيها من الخدّام و الفقهاء الأرزاق السنية، و جعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر و الأقلام و المحابر و الورق. و فى يوم عاشوراء من سنة ست و تسعين و ثلاثمائة كان من اجتماع الناس ما جرت به العادة، و أعلن بسبّ السلف فيه، فقبض على رجل نودى عليه هذا جزاء من سبّ عائشة و زوجها صلّى اللّه عليه و سلّم، و معه من الرعاع ما لا يقع عليه حصروهم يسبون السلف، فلما تمّ النداء عليه ضرب عنقه، و استهل شهر رجب من هذه السنة بيوم الأربعاء، فخرج أمر الحاكم بأمر اللّه أن يؤرّخ بيوم الثلاثاء، و فى سنة سبع و تسعين و ثلاثمائة قبض على جماعة ممن يعمل الفقاع و من السماكين و من الطباخين و كبست الحمامات فأخذ عدّة ممن وجد بغير مئزر، فضرب الجميع لمخالفتهم الأمر و شهروا. و فى تاسع ربيع الآخر أمر الحاكم بأمر اللّه بمحو ما كتب على المساجد و غيرها من سبّ السلف، و طاف متولى الشرطة و ألزم كل أحد بمحو ما كتب على المساجد من ذلك، ثم قرىء سجل فى ربيع الآخر سنة تسع و تسعين و ثلاثمائة بأن لا يحمل شىء من النبيذ و المزر، و لا يتظاهر به و لا بشىء من الفقاع و الدلينس و السمك الذى لا قشر له و الترمس العفن، و قرىء سجل فى رمضان على سائر المنابر بأنه يصوم الصائمون على حسابهم و يفطرون، و لا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون و مفطرون، صلاة الخمس الدين، فبما جاءهم فيها يصلون، و صلاة الضحى و صلاة التراويح لا مانع لهم منها.

و لا هم عنها يدفعون، يخمّس فى التكبير على الجنائز المخمسون، و لا يمنع من التربيع عليها المربّعون، يؤذن بحىّ على خير العمل المؤذنون، و لا يؤذى من بها لا يؤذنون، و لا يسب أحد من السلف، و لا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف، و الحالف منهم بما حلف، لكلّ مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده، و إلى اللّه ربه معاده عنده كتابه و عليه حسابه.

و فى صفر سنة أربعمائة شهر جماعة بعد ما ضربوا بسبب بيع الفقاع و الملوخيا و الدلينس و الترمس.

و فى تاسع عشر شهر شوّال أمر الحاكم بأمر اللّه برفع ما كان يؤخذ من الخمس و الزكاة و الفطرة و النجوى، و أبطل قراءة مجالس الحكمة فى القصر، و أمر بردّ التثويب فى الأذان،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۵

و أذّن للناس فى صلاة الضحى و صلاة التراويح، و أمر المؤذنين بأسرهم فى الأذان بأن لا يقولوا حىّ على خير العمل، و أن يقولوا فى الأذان للفجر الصلاة خير من النوم، ثم أمر فى ثانى عشرى ربيع الآخر سنة ثلاث و أربعمائة بإعادة قول حىّ على خير العمل فى الأذان، و قطع التثويب و ترك قولهم الصلاة خير من النوم، ثم أمر فى ثانى عشرى ربيع الآخر سنة ثلاث و أربعمائة بإعادة قول حىّ على خير العمل فى الأذان، و قطع التثويب و ترك قولهم الصلاة خير من النوم، و منع من صلاة الضحى، و صلاة التراويح، و فتح باب الدعوة، و أعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت، و كان بين المنع من ذلك و الأذن فيه خمسة أشهر، و ضرب فى جمادى من هذه السنة جماعة و شهروا بسبب بيع الملوخيا و السمك الذى لا قشر له و شرب المسكرات، و تتبع السكارى فضيق عليهم.

و فى يوم الثلاثاء سابع عشرى شعبان سنة إحدى و أربعمائة وقع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقىّ إلى سائر الشهود و الأمناء بخروج الأمر المعظم، بأن يكون الصوم يوم الجمعة و العيد يوم الأحد. و فى شعبان سنة اثنتين و أربعمائة قرىء سجل يشدّد فيه النكير على بيع الملوخيا و الفقاع و السمك الذى لا قشر له، و منع النساء من الاجتماع فى المآتم و من اتباع الجنائز، و أحرق الحاكم بأمر اللّه فى هذا الشهر الزبيب الذى وجد فى مخازن التجار، و أحرق ما وجد من الشطرنج، و جمع صيادى السمك و حلّفهم بالأيمان المؤكدة أن لا يصطادوا سمكا بغير قشر، و من فعل ذلك ضربت عنقه، و أحرق فى خمسة عشر يوما ألفين و ثمانمائة و أربعين قطعة زبيب بلغ ثمن النفقة عليها خمسمائة دينار، و منع من بيع العنب إلّا أربعة أرطال فما دونها، و منع من اعتصاره، و طرح عنبا كثيرا فى الطرقات و أمر بدوسه، فامتنع الناس من التظاهر بشىء من العنب فى الأسواق، و اشتدّ الأمر فيه، و غرق منه ما حمل فى النيل، و أحصى ما بالجيزة

من الكروم، فقطف ما عليها من العنب و طرح ما جمعه من ذلك تحت أرجل البقر لتدوسه، و فعل مثل ذلك فى جهات كثيرة، و ختم على مخازن العسل، و غرّق منه فى أربعة أيام خمسة آلاف جرّة و إحدى و خمسين جرّة فيها العسل، و غرق من عسل النحل قدر إحدى و خمسين زيرا. و فى جمادى الآخرة سنة ثلاث و أربعمائة، اشتدّ الإنكار على الناس بسبب بيع الفقاع و الزبيب و السمك الذى لا قشر له، و قبض على جماعة وجد عندهم زبيب فضربت أعناقهم و سجنت عدّة منهم و أطلقوا. و فى شوّال اعتقل رجل ثم شهر و نودى عليه هذا جزاء من سبّ أبا بكر و عمر و يثير الفتن، فاجتمع خلق كثير بباب القصر فاستغاثوا، لا طاقة لنا بمخالفة المصريين و لا بمخالفة الحشوية من العوام، و لا صبر لنا على ما جرى، و كتبوا قصصا فصرفوا و وعدوا بالمجيء فى غد، فبات كثير منهم بباب القصر، و اجتمعوا من الغد فصاحوا و ضجوا فخرج إليهم قائد القوّاد غين، فنهاهم و أمرهم عن أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أن يمضوا إلى معايشهم، فانصرفوا إلى قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقىّ و شكوا إليه، فتبرّم من ذلك فمضوا و فيهم من يسب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۶

السلف و يعرّض بالناس، فقرىء سجل فى القصر بالترحم على السلف من الصحابة، و النهى عن الخوض فى ذلك، و ركب مرّة فرأى لوحا على قيسارية فيه سب السلف فأنكره، و ما زال واقفا حتى قلع و ضرب بالحرس فى سائر طرقات مصر و القاهرة، و قرىء سجل بتتبع الألواح المنصوبة على سائر أبواب القياسر و الحوانيت و الدور و الخانات و الأرباع المشتملة على ذكر الصحابة و السلف الصالح، رحمهم اللّه، بالسب و اللعن، و قلع ذلك و كسره و تعفية أثره، و محو ما على الحيطان من هذه الكتابة، و إزالة جميعها من سائر الجهات حتى لا يرى لها أثر فى جدار و لا نقش فى لوح، و حذّر فيه من المخالفة، و هدّد بالعقوبة، ثم انتقض ذلك كله و عاد الأمر إلى ما كان عليه إلى أن قتل الخليفة الآمر بأحكام اللّه أبو علىّ منصور بن المستعلى باللّه أبى القاسم أحمد بن المستنصر باللّه أبى تميم معدّ.

و ثار أبو علىّ أحمد الملقب كتيفات ابن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش، و استولى على الوزارة فى سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و سجن الحافظ لدين اللّه أبا الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن الخليفة المستنصر باللّه، و أعلن بمذهب الإمامية و الدعوة للإمام المنتظر، و ضرب دراهم نقشها: اللّه الصمد الإمام محمد. و رتب فى سنة خمس و عشرين أربعة قضاة، اثنان أحدهما إمامىّ و الآخر إسماعيلىّ، و اثنان أحدهما مالكىّ و الآخر شافعىّ، فحكم كل منهما بمذهبه و ورّث على مقتضاه، و أسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق و أبطل من الأذان حىّ على خير العمل، و قولهم محمد و علىّ خير البشر، فلما قتل فى المحرّم سنة ست و عشرين عاد الأمر إلى ما كان عليه من مذهب الإسماعيلية.

و ما برح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من دمشق، عليها أسد الدين شيركوه، و ولى وزارة مصر للخليفة العاضد لدين اللّه أبى محمد عبد اللّه بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين اللّه، و مات، فقام فى الوزارة بعده ابن أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى جمادى الآخرة سنة أربع و ستين و خمسمائة، و شرع فى تغيير الدولة و إزالتها، و حجر على العاضد و أوقع بأمراء الدولة و عساكرها، و أنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية، و مدرسة للفقهاء المالكية، و صرف قضاة مصر الشيعة كلهم، و فوّض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارانىّ الشافعىّ، فلم يستنب عنه فى إقليم مصر إلّا من كان شافعىّ المذهب، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك و الشافعىّ، و اختفى مذهب الشيعة و الإسماعيلية و الإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها، و كذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر حنيفا فيه تعصب، فنشر مذهب أبى حنيفة رحمه اللّه ببلاد الشام، و منه كثرت الحنفية بمصر، و قدم إليها أيضا عدّة من بلاد الشرق، و بنى لهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية بالقاهرة، و ما زال مذهبهم ينتشر و يقوى و فقهاؤهم تكثر بمصر و الشام من حينئذ.

و أما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن علىّ بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۷

إسماعيل الأشعريّ، تلميذ أبى على الجبائيّ، و شرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر، كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعيّ من القرافة، و المدرسة الناصرية التى عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر، و المدرسة المعروفة بالقمحية بمصر، و خانكاه سعيد السعداء بالقاهرة. فاستمرّ الحال على عقيدة الأشعريّ بديار مصر و بلاد الشام و أرض الحجاز و اليمن و بلاد المغرب أيضا، لإدخال محمد بن تومرت رأى الأشعريّ إليها، حتى أنه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد، بحيث أن من خالفه ضرب عنقه، و الأمر على ذلك إلى اليوم، و لم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة و أحمد بن حنبل، ثم اشتهر مذهب أبى حنيفة و أحمد بن حنبل فى آخرها.

فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ، ولى بمصر و القاهرة أربعة قضاة، و هم شافعيّ و مالكيّ و حنفيّ و حنبليّ. فاستمرّ ذلك من سنة خمس و ستين و ستمائة، حتى لم يبق فى مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة، و عقيدة الأشعريّ، و عملت لأهلها المدارس و الخوانك و الزوايا و الربط فى سائر ممالك الإسلام، و عودى من تمذهب بغيرها، و أنكر عليه، و لم يولّ قاض و لا قبلت شهادة أحد و لا قدّم للخطابة و الإمامة و التدريس أحد ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب، و أفتى فقهاء هذه الأمصار فى طول هذه المدّة بوجوب اتباع هذه المذاهب و تحريم ما عداها، و العمل على هذا إلى اليوم، و إذ قد بينا الحال فى سبب اختلاف الأمّة منذ توفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أن استقرّ العمل على مذهب مالك و الشافعيّ و أبى حنيفة و أحمد بن حنبل، رحمة اللّه عليهم، فلنذكر اختلاف عقائد أهل الإسلام منذ كان إلى أن التزم الناس عقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعريّ رحمه اللّه و رضى عنه.

ذكر فرق الخليقة و اختلاف عقائدها و تباينها

اعلم أن الذين تكلموا فى أصول الديانات قسمان، هما من خالف ملة الإسلام، و من أقرّ بها. فأما المخالفون لملة الإسلام فهم عشر طوائف: الأولى الدهرية، و الثانية أصحاب العناصر. و الثالثة الثنوية: و هم المجوس، و يقولون بأصلين هما النور و الظلمة، و يزعمون أن النور هو يزدان، و الظلمة هو أهرمن، و يقرّون بنبوّة إبراهيم عليه السّلام، و هم ثمان فرق: الكيومرتية أصحاب كيومرت الذى يقال أنه آدم. و الزروانية أصحاب زروان الكبير، و الزرادشتية أصحاب زراداشت بن بيورشت الحكيم، و الثنوية أصحاب الاثنين الأزليين.

و المانوية أصحاب مانى الحكيم. و المزركية أصحاب مزرك الخارجى. و البيصانية أصحاب بيصان القائل بالأصلين القديمين. و الفرقونية القائلون بالأصلين. و أنّ الشرّ خرج على أبيه و أنه تولد من فكرة فكرها فى نفسه، فلما خرج على أبيه الذى هو الإله بزعمهم عجز عنه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۸

ثم وقع الصلح بينهما على يد الندمات و هم الملائكة، و منهم من يقول بالتناسخ، و منهم من ينكر الشرائع و الأنباء، و يحكمون العقول، و يزعمون أن النفوس العلوية تفيض عليهم الفضائل.

و الطائفة الرابعة الطبائعيون.

و الطائفة الخامسة الصابئة القائلون بالهياكل و الأرباب السماوية و الأصنام الأرضية، و إنكار النبوّات، و هم أصناف و بينهم و بين الحنفاء مناظرات و حروب مهلكة، و تولدت من مذاهبهم الحكمة الملطية، و منهم أصحاب الروحانيات، و هم عباد الكواكب و أصنامها التى عملت على تمثالها، و الحنفاء هم القائلون بأن الروحانيات منها ما وجودها بالقوّة، و منها ما وجودها بالفعل، فما هو بالقوّة يحتاج إلى من يوجده بالفعل. و يقرّون بنبوّة إبراهيم، و أنه منهم. و هم طوائف: الكاظمة أصحاب كاظم بن تارح، و من قوله أنّ الحق فى الجمع بين شريعة إدريس و شريعة نوح و شريعة إبراهيم عليهم السّلام، و منهم البيدانية: أصحاب بيدان الأصغر، و من قوله اعتقاد نبوّة من يفهم عالم الروح، و أن النبوّة من أسرار الإلهية. و منهم القنطارية: أصحاب قنطار بن أرفخشد، و يقرّ بنبوّة نوح. و من فرق

الصابئة أصحاب الهياكل: و يرون أن الشمس إله كلّ إله. و الحرّانية: و من قولهم المعبود واحد بالذات و كثير بالأشخاص فى رأى العين، و هى المدبرات السبع من الكواكب و الأرضية الجزئية و العالمة الفاضلة.

و الطائفة السادسة اليهود. و السابعة النصارى.

و الثامنة أهل الهند القائلون بعبادة الأصنام، و يزعمون أنها موضوعة قبل آدم، و لهم حكم عقلية و أحكام وضعها الشلم، أعظم حكامهم، و المهندم قبله، و البراهمة قبل ذلك.

فالبراهمة أصحاب برهام أوّل من أنكر نبوّة البشر، و منهم البردة زهاد عباد رجال الرماد الذى يهجرون اللذات الطبيعية، و أصحاب الرياضة التامّة، و أصحاب التناسخ، و هم أقسام أصحاب الروحانية و البهادرية و الناسوتية و الباهرية و الكابلية، أهل الجبل. و منهم الطبسيون أصحاب الرياضة الفاعلة، حتّى أن منهم من يجاهد نفسه حتى يسلطها على جسده، فيصعد فى الهواء على قدر قوّته، و فى اليهود عباد النار و عباد الشمس و القمر و النجوم و عباد الأوثان.

و الطائفة التاسعة الزنادقة و هم طوائف منهم القرامطة.

و العاشرة الفلاسفة أصحاب الفلسفة، و كلمة فيلسوف معناها محب الحكمة، فإن فيلو محب، و سوفا حكمة، و الحكمة قولية و فعلية، و علم الحكماء انحصر فى أربعة أنواع:

الطبيعىّ و المدنىّ و الرياضىّ و الإلهىّ. و المجموع ينصرف إلى علم ما، و علم كيف، و علم

كم، فالعلم الذى يطلب فيه ماهيات الأشياء هو الإلهىّ، و الذى يطلب فيه كيفيات الأشياء هو الطبيعىّ، و الذى يطلب فيه كميات الأشياء هو الرياضىّ. و وضع بعد ذلك أرسطو صنعة المنطق، و كانت بالقوّة فى كلام القدماء، فأظهرها و رتبها. و اسم الفلاسفة يطلق على جماعة من الهند، و هم الطبسيون و البراهمة، و لهم رياضة شديدة، و ينكرون النبوّة أصلا، و يطلق أيضا على العرب بوجه أنقص، و حكمتهم ترجع إلى أفكارهم و إلى ملاحظة طبيعية، و يقرّون بالنبوّات، و هم أضعف الناس فى العلوم، و من الفلاسفة حكماء الروم، و هم طبقات، فمنهم أساطين الحكمة، و هم أقدمهم، و منهم المشاؤون و أصحاب الرواق، و أصحاب أرسطو، و فلاسفة الإسلام. فمن فلاسفة الروم الحكماء السبعة، أساطين الحكمة، أهل ملطية و قونية و هم: تاليس الملطىّ، و انكساغورس، و انكسمالس، و ابنادفيس، و فيثاغورس، و سقراط، و أفلاطون. و دون هؤلاء فلوطس، و بقراط، و ديمقراطيس، و أسعر و النساس.

و منهم حكماء الأصول من القدماء، و لهم القول بالسيمياء، و لهم أسرار الخواص و الحيل و الكيمياء و الأسماء الفعالة و الحروف، و لهم علوم توافق علوم الهند، و علوم اليونانيين، و ليس من موضوع كتابنا هذا ذكر تراجمهم، فلذلك تركناها.

القسم الثانى فرق أهل الإسلام. الذى عناهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: «ستفترق أمّتى ثلاثا و سبعين فرقة، اثنتان و سبعون هالكة، و واحدة ناجية» و هذا الحديث أخرجه أبو داود و الترمذىّ و ابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «افترقت اليهود على إحدى و سبعين أو اثنتين و سبعين فرقة، و تفرّقت النصارى على إحدى و سبعين أو اثنتين و سبعين فرقة، و تفترق أمّتى على ثلاث و سبعين فرقة» قال البيهقىّ حسن صحيح، و أخرجه الحاكم و ابن حبان فى صحيحه بنحوه، فأخرجه فى المستدرك من طريق الفضل بن موسى، عن محمد بن عمر، عن أبى سلمة عن أبى هريرة به، و قال هذا حديث كثير فى الأصول، و قد روى عن سعد بن أبى وقاص، و عبد اللّه بن عمر، و عوف بن مالك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمثله، و قد احتج مسلم بمحمد بن عمر، و عن أبى سلمة عن أبى هريرة، و اتفقا جميعا على الاحتجاج بالفضل بن موسى و هو ثقة.

و اعلم أن فرق المسلمين خمسة: أهل السنة، و المرجئة، و المعتزلة، و الشيعة، و الخوارج. و قد افترقت كلّ فرقة منها على فرق، فأكثر افتراق أهل السنة فى الفتيا و نبذ يسير من الاعتقادات، و بقية الفرق الأربع منها من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد، و منهم من يخالفهم الخلاف القريب، فأقرب فرق المرجئة من قال: الإيمان إنما هو التصديق بالقلب و اللسان معا فقط، و أن الأعمال إنما هى

فرائض الإيمان و شرائعه فقط، و أبعدهم أصحاب جهم بن صفوان و محمد بن كرام. و أقرب فرق المعتزلة أصحاب الحسين النجار و بشر بن غياث المريسيّ، و أبعدهم أصحاب أبى الهذيل العلاف. و أقرب مذاهب الشيعة أصحاب الحسن بن صالح بن حيّ، و أبعدهم الإمامية. و أما الغالية فليسوا بمسلمين و لكنهم أهل ردّة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۰

و شرك. و أقرب فرق الخوارج أصحاب عبد اللّه بن يزيد الإباضيّ، و أبعدهم الأزارقة. و أما البطيخية و من جحد شيئا من القرآن أو فارق الإجماع من العجاردة و غيرهم فكفار بإجماع الأمّة، و قد انحصرت الفرق الهالكة فى عشر طوائف:

الفرقة الأولى المعتزلة: الغلاة فى نفى الصفات الإلهية، القائلون بالعدل و التوحيد، و أن المعارف كلها عقلية، حصولا و وجوبا، قبل الشرع و بعده، و أكثرهم على أن الإمامة بالاختيار، و هم عشرون فرقة: إحداها الواصلية: أصحاب واصل بن عطاء أبى حذيفة الغزال، مولى بنى ضبة، و قيل مولى بنى مخزوم. ولد بالمدينة سنة ثمانين، و نشأ بالبصرة، و لقى أبا هاشم عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية، و لازم مجلس الحسن بن الحسين البصريّ، و أكثر من الجلوس بسوق الغزل ليعرف النساء المتعففات فيصرف إليهنّ صدقته، فقيل له الغزال من أجل ذلك، و كان طويل العنق جدّا، حتى عابه عمرو بن عبيد بذلك فقال: من هذه عنقه لا خير عنده. فلما برع واصل، قال عمر: و ربما أخطأت الفراسة. و كان يلثغ بالراء، و مع ذلك كان فصيحا لسنا مقتدرا على الكلام، قد أخذ بجوامعه، فلذلك أمكنه أن أسقط حرف الراء من كلامه، و اجتناب الحروف صعب جدّا، لا سيما مثل الراء لكثرة استعمالها، و له رسالة طويلة لم يذكر فيها حرف الراء، أحد بدائع الكلام، و كان لكثرة صمته يظنّ به الخرس، توفى سنة إحدى و ثلاثين و مائة، و له كتاب المنزلة بين المنزلتين، و كتاب الفتيا، و كتاب التوحيد. و عنه أخذ جماعة، و أخباره كثيرة، و يقال لهم أيضا الحسنية، نسبة إلى الحسن البصريّ. و أخذ واصل العلم عن أبى هاشم عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية، و خالفه فى الإمامة، و اعتزاله يدور على أربع قواعد هى: نفى الصفات، و القول بالقدر، و القول بمنزلة بين المنزلتين، و أوجب الخلود فى النار على من ارتكب كبيرة. فلما بلغ الحسن البصريّ عنه هذا قال: هؤلاء اعتزلوا، فسموا من حينئذ المعتزلة. و قيل أن تسميتهم بذلك حدثت بعد الحسن، و ذلك أن عمرو بن عبيد لما مات الحسن و جلس قتادة مجلسه اعتزله فى نفر معه، فسماهم قتادة المعتزلة. القاعدة الرابعة القول بأن إحدى الطائفتين من أصحاب الجمل و صفين مخطئة لا بعينها، و كان فى خلافة هشام بن عبد الملك.

و الثانية العمروية: أصحاب عمرو، و من قوله ترك قول علىّ بن أبى طالب و طلحة و الزبير رضى اللّه عنهم. و قال ابن منبه: اعتزل عمرو بن عبيد و أصحاب له الحسن، فسموا المعتزلة.

و الثالثة الهذلية: اتباع أبى الهذيل محمد بن الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، أخذ عن عثمان بن خالد الطويل، عن واصل بن عطاء، و نظر فى الفلسفة و وافقهم فى كثير و قال:

جميع الطاعات من الفرائض و النوافل إيمان، و انفرد بعشر مسائل و هى: أن علم اللّه و قدرته و حياته هى ذاته، و أثبت إرادات لا محل لها يكون البارى مريدا لها. و قال: بعض كلام اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۱

لا فى محل، و هو قوله كن. و بعضه فى محل، كالأمر و النهى. و قال فى أمور الآخرة.

كمذهب الجبرية. و قال تنتهى مقدورات اللّه حتى لا يقدر على إحداث شىء و لا على إفناء شىء و لا إحياء شىء و لا إماتة شىء، و تنقطع حركات أهل الجنة و النار و يصيرون إلى سكون دائم. و قال: الاستطاعة عرض من الأعراض نحو السلامة، و الصحة. و فرّق بين أعمال القلوب و أعمال الجوارح و قال: تجب معرفة اللّه قبل ورود السمع. و أن المرء المقتول إن لم يقتل مات فى ذلك الوقت، و لا يزاد العلم و لا ينقص بخلاف الرزق. و قال: إرادة اللّه عين المراد، و الحجة لا تقوم فيما غاب إلّا بخبر عشرين.

و الرابعة النظامية: اتباع إبراهيم بن سيار النظّام، بتشديد الظاء المعجمة، زعيم المعتزلة و أحد السفهاء، انفرد بعدّة مسائل و هى: قوله أنّ

اللّه تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور و المعاصى، و أنها غير مقدورة للّه. و قال: ليس للّه إرادة، و أفعال العباد كلها حركات، و النفس و الروح هو الإنسان، و البدن إنما هو آلة فقط، و أن كل ما جاوز القدرة من الفعل فهو من اللّه، و هو فعله، و أنكر الجوهر الفرد، و أحدث القول بالطفرة، و قال: الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت، و زعم أنّ اللّه خلق الموجودات دفعة على ما هى عليه، و أن الإعجاز فى القرآن من حيث الإخبار عن الغيب فقط، و أنكر أن يكون الإجماع حجة، و طعن فى الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم. و قال قبحه اللّه: أبو هريرة أكذب الناس، و زعم أنه ضرب فاطمة ابنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و منع ميراث العترة، و أوجب معرفة اللّه بالفكر قبل ورود الشرع، و حرّم نكاح الموالى العربيات. و قال: لا تجوز صلاة التراويح، و نهى عن ميقات الحج، و كذب بانشقاق القمر، و أحال رؤية الجنّ، و زعم أن من سرق مائتى دينار فما دونها لم يفسق، و أن الطلاق بالكتابة لا يقع و إن كان بتيّة، و أنّ من نام مضطجعا لا ينتقض و ضوءه ما لم يخرج منه الحدث. و قال: لا يلزم قضاء الصلوات إذا فاتت.

و الخامسة الإسوارية: اتباع أبى علىّ عمرو بن قائد الإسوارىّ، القائل أن اللّه تعالى لا يقدر أن يفعل ما علم أنه لا يفعله. و السادسة الإسكافية: اتباع أبى جعفر محمد بن عبد اللّه الإسكافىّ، و من قوله أنّ اللّه تعالى لا يقدر على ظلم العقلاء، و يقدر على ظلم الأطفال و المجانين، و أنه لا يقال أنّ اللّه خالق المعازف و الطنابير و إن كان هو الذى خلق أجسامها.

و السابعة الجعفرية: اتباع جعفر بن حرب بن ميسرة، و من قوله أنّ فى فسّاق هذه الأمّة من هو شرّ من اليهود و النصارى و المجوس، و أسقط الحدّ عن شارب الخمر، و زعم أن الصغائر من الذنوب توجب تخليد فاعلها فى النار، و أنّ رجلا- لو بعث رسولا إلى امرأة ليخطبها فجاءته فوطئها من غير عقد لم يكن عليه حدّ، و يكون وطؤه إياها طلاقا لها.

و الثامنة البشرية: اتباع بشر بن المعتمر، و من قوله الطعم و اللون و الرائحة و الإدراكات كلها من السمع، يجوز أن تحصل متولدة، و صرف الاستطاعة إلى سلامة البنية و الجوارح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۲

و قال: لو عذب اللّه الطفل الصغير لكان ظالما، و هو يقدر على ذلك. و قال: إرادة اللّه من جملة أفعال، ثم هى تنقسم إلى صفة فعل و صفة ذات. و قال: باللطف المخزون، و أن اللّه لم يخلقه لأنّ ذلك يوجب عليه الثواب، و أن التوبة الأولى متوقفة على الثانية، و أنها لا تنفع إلّا بعدم الوقوع فى الذى وقع فيه، فإن وقع لم تنفعه التوبة الأولى.

و التاسعة المزدارية: أتباع أبى موسى عيسى بن صبيح المعروف بالمزدار، تلميذ بشر بن المعتمر، و كان زاهدا، و قيل له راهب المعتزلة، و انفرد بمسائل منها. قوله أنّ اللّه قادر على أن يظلم و يكذب، و لا يطعن ذلك فى الربوبية، و جوّز وقوع الفعل الواحد من فاعلين على سبيل التولد، و زعم أن القرآن مما يقدر عليه، و أن بلاغته و فصاحته لا تعجز الناس بل يقدرون على الإتيان بمثلها و أحسن منها، و هو أصل المعتزلة فى القول بخلق القرآن. و قال: من أجاز رؤية اللّه بالإبصار بلا كيف فهو كافر، و الشاكّ فى كفره كافر أيضا.

و العاشرة الهشامية: أتباع هشام بن عمرو الفوطىّ، الذى يبالغ فى القدر و لا ينسب إلى اللّه فعلا من الأفعال، حتى أنه أنكر أن يكون اللّه هو الذى ألف بين قلوب المؤمنين، و أنه يحب الإيمان للمؤمنين، و أنه أضل الكافرين. و عاند ما فى القرآن من ذلك و قال: لا تنعقد الإمامية فى زمن الفتنة و اختلاف الناس، و أن الجنة و النار غير مخلوقتين. و منع أن يقال حسبنا اللّه و نعم الوكيل، و قال لأن الوكيل دون الموكل، و قال: لو أسبغ أحد الوضوء، و دخل فيه الصلاة بنيّة القربة للّه تعالى، و العزم على إتمامها، و ركع و سجد مخلصا فى ذلك كله، إلّا أنّ اللّه علم أنه يقطعها فى آخرها، فإن أوّل صلاته معصية. و منع أن يكون البحر انفلق لموسى، و أن عصاه انقلبت حية، و أن عيسى أحيى الموتى، بإذن اللّه، و أن القمر انشق للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنكر كثيرا من الأمور التى تواترت، كحصر عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و قتله بالغلبة. و قال: إنما جاءته شرذمة قليلة تشكو عمّاله و دخلوا عليه و قتلوه، فلا يدرى قاتله. و قال: إنّ طلحة و الزبير و علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، ما جاؤوا للقتال فى حرب الجمل، و إنما برزوا للمشاورة، و تقاتل أتباع

الفريقين فى ناحية أخرى، و أن الأمّة إذا اجتمعت كلها و تركت الظلم و الفساد احتاجت إلى إمام يسوسها، فأما إذا عصت و فجرت و قتلت و اليها فلا تنعقد الإمامة لأحد، و بنى على ذلك أنّ إمامة علىّ رضى اللّه عنه لم تنعقد، لأنها كانت فى حال الفتنة بعد قتل عثمان، و هو أيضا مذهب الأصم و واصل بن عطاء و عمرو بن عبيد، و أنكر افتضاض الأبكار فى الجنة، و أنكر أن الشيطان يدخل فى الإنسان و إنما يوسوس له من خارج، و اللّه يوصل وسوسته إلى قلب ابن آدم. و قال: لا يقال خلق اللّه الكافر، لأنه اسم العبد و الكفر جميعا، و أنكر أن يكون فى أسماء اللّه الضارّ النافع.

و الحادية عشر الحائطية: اتباع أحمد بن حائط أحد أصحاب إبراهيم بن سيار النظّام و له بدع شنيعة منها: أنّ للخلق إلهين، أحدهما خالق و هو الإله القديم، و الآخر مخلوق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۳

و هو عيسى ابن مريم، و زعم أن المسيح ابن اللّه، و أنه هو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة، و أنه هو المعنىّ بقول اللّه تعالى فى القرآن: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ [البقرة/ ۲۱۰] و زعم فى قول النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه خلق آدم على صورته» أن معناه خلقه إياه على صورة نفسه. و أن معنى قوله عليه السلام: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» إنما أراد به عيسى، و زعم أن فى الدواب و الطيور و الحشرات حتى البق و البعوض و الذباب أنبياء لقول اللّه سبحانه: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ [فاطر/ ۲۴] و قوله تعالى: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ [الانعام/ ۳۸] و لقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو لا أن الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها» و ذهب مع ذلك إلى القول بالتناسخ، و زعم أن اللّه ابتدأ الخلق فى الجنة، و إنما خرج من خرج منها بالمعصية، و طعن فى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من أجل تعدّد نكاحه و قال: إنّ أبا ذر الغفارىّ أنسك و أزهد منه قبحه اللّه، و زعم أنّ كل من نال خيرا فى الدنيا إنما هو بعمل كان منه، و من ناله مرض أو آفة فبذنب كان منه، و زعم أن روح اللّه تناسخت فى الأئمة.

و الثانية عشر الحمارية: أتباع قوم من معتزلة عسكر مكرم، و من مذهبهم أن الممسوخ إنسان كافر معتقد الكفر، و أن النظر أوجب المعرفة، و هو لا فاعل له، و كذلك الجماع أوجب الولد، فشكّ فى خالق الولد، و أنّ الإنسان يخلق أنواعا من الحيوانات بطريق التعفين، و زعموا أنه يجوز أن يقدر اللّه العبد على خلق الحياة و القدرة.

و الثالثة عشر المعمرية: أتباع معمر بن عباد السلمىّ، و هو أعظم القدرية غلوّا، و بالغ فى رفع الصفات و القدرة بالجملة، و انفرد بمسائل منها: أنّ الإنسان يدبر الجسد و ليس بحال فيه، و الإنسان عنده ليس بطويل و لا عريض، و لا ذى لون و تأليف و حركة، و لا حال و لا متمكن، و أنّ الإنسان شىء غير هذا الجسد، و هو حىّ عالم قادر مختار، و ليس هو بمتحرّك و لا ساكن. و لا متلوّن و لا يرى و لا يلمس و لا يحلّ موضعا و لا يحويه مكان، فوصف الإنسان بوصف الإلهية عنده، فإن مدبر العالم موصوف عنده كذلك، و زعم أن الإنسان منعم فى الحياة و موزر فى النار، و ليس هو فى الجنة و لا فى النار حالا و لا متمكنا. و قال: أنّ اللّه لم يخلق غير الأجسام، و الأعراض تابعة لها متولدة منها، و أنّ الأعراض لا تتناهى فى كل نوع، و أنّ الإرادة من اللّه للشىء غير اللّه و غير خلقه، و أنّ اللّه ليس بقديم، لأنّ ذلك أخذ من قدم يقدم فهو قديم.

و الرابعة عشر الثمانية: أتباع ثمامة بن أشرس النميرىّ، و جمع بين النقائض و قال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۴

العلوم كلها ضرورية، فكلّ من لم يضطرّ إلى معرفة اللّه فليس بمأمور بها، و هو كالبهائم و نحوها، و زعم أن اليهود و النصارى و الزنادقة يصيرون يوم القيامة ترابا كالبهائم لا نواب لهم و لا عقاب عليهم البتة، لأنهم غير مأمورين، إذ هم غير مضطرّين إلى معرفة اللّه تعالى، و زعم أنّ الأفعال كلها متولدة لا فاعل لها، و أنّ الاستطاعة هى السلامة و صحة الجوارح، و أن العقل هو الذى يحسن و يقبح، تجب معرفة اللّه قبل ورود الشرع و أن لا فعل للإنسان إلّا الإرادة، و ما عداها فهو حدث.

و الخامسة عشر الجاحظية: أتباع أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، و له مسائل تميز بها عن أصحابه منها: أن المعارف كلها ضرورية، و ليس شيء من ذلك من أفعال العباد، و إنما هى طبيعية، و ليس للعباد كسب سوى الإرادة، و أنّ العباد لا يخلدون فى النار بل يصيرون من طبيعتها، و أنّ اللّه لا يدخل أحدا النار، و إنما النار تجذب أهلها بنفسها و طبيعتها، و أن القرآن المنزل من قبيل الأجساد، و يمكن أن يصير مرّة رجلا و مرّة حيوانا، و أن اللّه لا يريد المعاصى، و أنه لا يرى، و أن اللّه يريد بمعنى أنه لا يغلط، و لا يصح فى حقه السهو فقط، و أنه يستحيل العدم على الجواهر من الأجسام.

و السادسة عشر الخياطية: أصحاب أبى الحسين بن أبى عمرو الخياط شيخ أبى القاسم الكعبىّ من معتزلة بغداد، زعم أن المعدوم شيء، و أنه فى العدم جسم إن كان فى حدوثه جسما، و عرض إن كان فى حدوثه عرضا.

و السابعة عشر الكعبية: أتباع أبى القاسم عبد اللّه بن أحمد بن محمود البلخىّ المعروف بالكعبىّ من معتزلة بغداد، انفرد بأشياء منها: أن إرادة اللّه ليست صفة قائمة بذاته، و لا هو مدبر لذاته، و لا إرادته حادثة فى محل، و إنما يرجع ذلك إلى العلم فقط، و السمع و البصر يرجع إلى ذلك أيضا، و أنكر الرؤية و قال: إذا قلنا أنه يرى المرئيات فإنما ذلك يرجع إلى علمه بها و تمييزها قبل أن يوجد.

و الثامنة عشر الجبائية: أتباع أبى علىّ محمد بن عبد الوهاب الجبائىّ، من معتزلة البصرة، تفرّد بمقالات منها. أنّ اللّه تعالى يسمى مطيعا للعبد إذا فعل ما أراد العبد منه، و أن اللّه محبل للنساء بخلق الولد فيهنّ، و أن كلام اللّه عرض يوجد فى أمكنة كثيرة، و فى مكان بعد مكان من غير أن يعدم من مكانه الأوّل، ثم يحدث فى الثانى و كان يقف فى فضل علىّ على أبى بكر، و فضل أبى بكر على علىّ، و مع ذلك يقول إنّ أبا بكر خير من عمر و عثمان، و لا يقول أن عليا خير من عمر و عثمان.

و التاسعة عشرة البهشمية: أتباع أبى هاشم عبد السلام بن أبى علىّ الجبائى، انفرد ببدع فى مقالاته، منها القول باستحقاق الذم من غير ذنب، و زعم أن القادر منا يجوز أن يخلو عن الفعل و الترك، و أن القادر المأمور المنهىّ إذا لم يفعل فعلا و لا ترك يكون عاصيا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۵

مستحق العقاب و الذم، لا- على الفعل لأنه لم يفعل ما أمر به، و أن اللّه يعذب الكافرين و العصاة لا على فعل مكتسب، و لا على محدث منه. و قال: التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على قبيح آخر يعلمه أو يعتقده قبيحا، و إن كان حسنا، و أنّ التوبة لا تصح مع الإصرار على منع حسنة واجبة عليه، و أن توبة الزانى بعد ضعفه عن الجماع لا تصح، و زعم أن الطهارة غير واجبة، و إنما أمر العبد بالصلاة فى حال كونه متطهرا و أن الطهارة تجزىء بالماء المغصوب، و لا تجزىء الصلاة فى الأرض المغصوبة، و زعم أن الزنج و الترك و الهنود قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، و قال أبو علىّ و ابنه أبو هاشم: الإيمان هو الطاعات المفروضة.

و الفرقة العشرون من المعتزلة الشيطانية: أتباع محمد بن نعمان المعروف بشيطان الطاق، و هو من الروافض، شارك كلّا من المعتزلة و الروافض فى بدعهم، و قلما يوجد معتزلىّ إلّا و هو رافضىّ، إلّا قليلا منهم، انفرد بطامّة، و هى أنّ اللّه لا يعلم الشيء إلّا قدّره و أراده، و أما قبل تقديره فيستحيل أن يعلّمه، و لو كان عالما بأفعال عباده لاستحال أن يمتحنهم و يختبرهم، و للمعتزلة إسام منها الثنوية، سموا بذلك لقولهم الخير من اللّه و الشرّ من العبد، و منهم الكيسانية، و الناكتية، و الأحمدية، و الوهمية، و البترية و الواسطية، و الواردية. سموا بذلك لقولهم لا يدخل المؤمنون النار، و إنما يردون عليها. و من أدخل النار لا يخرج منها قط، و منهم الحرقية. لقولهم الكفار لا تحرق إلّا مرّة، و المفنية القائلون بفناء الجنة و النار. و الواقفية القائلون بالوقف فى خلق القرآن. و منهم اللفظية القائلون ألفاظ القرآن غير مخلوقة. و الملتزقة القائلون اللّه بكل مكان. و القبرية القائلون بإنكار عذاب القبر.

الفرقة الثانية المشبهة: و هم يغلون فى إثبات صفات اللّه تعالى ضدّ المعتزلة، و هم سبع فرق: الهاشمية: أتباع هشام بن الحكم، و يقال لهم أيضا الحكمية، و من قولهم الإله تعالى كنور السبكية الصافية يتلألأ من جوانبه، و يرمون مقاتل بن سليمان بأنه قال: هو لحم و دم على صورة الإنسان، و هو طويل عريض عميق، و أن طوله مثل عرضه و عرضه مثل عمقه، و هو ذو لون و طعم و رائحة، و هو سبعة أشبار يشبر نفسه، و لم يصح هذا القول عن مقاتل.

و الجولقيـة: أتبـاع هشام بن سالم الجوالقيّ، و هو من الرافضـة أيضا، و من شـنيع قوله أن اللّه تعالى على صورة الإنسان، نصـفه الأعلى موف و نصـفه الأسـفل مصـمت، و له شـعر أسود، و ليس بلحم و دم، بـل هو نور ساطع، و له خمس حواس كحواس الإنسان، و يـد و رجل و فم و عيون و أذن و شعر أسود لا الفرج و اللحية.

و البيانية: أتباع بيان بن سمعان القائل هو على صورة الإنسان، و يهلك كله إلّا وجهه، لظاهر الآية كلّ شيء هالك إلّا وجهه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۶

و المغيريـة أتبـاع مغيرة بن سـعيد العجليّ، و هو أيضـا من الروافض، و من شـنائعه قوله أن أعضاء معبودهم على صورة حروف الهجاء، فالألـف على صـورة قـدميه، و زعم أنه رجـل من نور على رأسه تـاج من نور، و زعم أن اللّه كتب بإصـبعه أعمـال العبـاد من طاعـة و معصـية، و نظر فيهما و غضب من معاصـيهم فعرق، فاجتمع من عرقه بحران عذب و مالح، و زعم أنه بكلّ مكان، لا يخلو عنه مكان. و المنهالية أصحاب منهال بن ميمون. و الزرارية أتباع زرارة بن أعين.

و اليونسـية أتبـاع يـونس بـن عبـد الرحمن القميّ، و كلهم من الروافض، و سـيأتى ذكرهم إن شـاء اللّه تعـالى، و منهم أيضـا السابيـة و الشاكية و العملية و المسـتثنية و البدعية و العشرية و الأتربة، و منهم الكرّامية أتباع محمد بن كرّام السجستانيّ و هم طوائف الهيضمية و الإسحاقية و الجندية و غير ذلك، إلا أنهم يعدّون فرقة واحدة، لأنّ بعضهم لا يكفر بعضا و كلهم مجسمة، إلّا أن فيهم من قال: هو قائم بنفسه، و منهم من قال هو أجزاء مؤتلفة، و له جهات و نهايات، و من قول الكرّامية أن الإيمان هو قول مفرد، و هو قول لا إله إلّا اللّه، و سواء اعتقـد أو لا، و زعموا أن اللّه جسم و له حدّ و نهاية من جهة السـفل، و تجوز عليه ملاقاة الأجسام التى تحته، و إنه على العرش و العرش مماس له، و أنه محل الحوادث من القول و الإرادة و الإدراكات و المرئيات و المسـموعات، و أن اللّه لو علم أحدا من عباده لا يؤمن به، لكان خلقه إياهم عبثا، و أنه يجوز أن يعزل نبيا من الأنبياء و الرسل، و يجوز عندهم على الأنبياء كل ذنب لا يوجب حدّا و لا يسـقط عدالة، و أنه يجب على اللّه تعالى تواتر الرسل، و أنه يجوز أن يكون إمامان فى وقت واحد، و أن عليا و معاوية كانا إمامين فى وقت واحـد، إلّـا أن عليـا كـان على السـنة و معاويـة على خلافهـا، و انفرد ابن كرّام فى الفقه بأشـياء منهـا أنّ المسافر يكفيه من صـلاة الخوف تكبيرتان، و أجاز الصـلاة فى ثوب مسـتغرق فى النجاسـة، و زعم أن الصـلاة و الصوم و الزكاة و الحج و سائر العبادات تصـح بغير نيـة، و تكفى نية الإسـلام، و أن النية تجب فى النوافل، و أنه يجوز الخروج من الصـلاة بالأكل و الشـرب و الجماع عمدا، ثم البناء عليها، و زعم بعض الكرّامية أن للّه علمين أحدهما يعلم به جميع المعلومات و الآخر يعلم به العلم الأوّل.

الفرقة الثالثة القدرية: الغلاة فى إثبات القدرة للعبد فى إثبات الخلق و الإيجاد، و أنه لا يحتاج فى ذلك إلى معاونة من جهة اللّه تعالى.

الفرقـة الرابعـة المجبرة: الغلاـة فى نفى اسـتطاعة العبـد قبـل الفعـل و بعـده و معه، و نفى الاختيـار له، و نفى الكسب، و هاتان الفرقتان متضادّتان، ثم افترقت المجبرة على ثلاث فرق.

الجهمية أتباع جهم بن صفوان الترمذىّ مولى راسب، و قتل فى آخر دولة بنى أميّة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۷

و هو ينفى الصـفات الإلهية كلها و يقول لا يجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها خلقه، و أن الإنسان لا يقدر على شيء، و لا يوصف بالقدرة و لا الاسـتطاعة، و أن الجنة و النار يفنيان و تنقطع حركات أهلهما، و أن من عرف اللّه و لم ينطق بالإيمان لم يكفر، لأن العلم لا يزول بالصـمت، و هو مؤمن مع ذلك. و قـد كفّره المعتزلـة فى نفى الاسـتطاعة، و كفّره أهل السـنة بنفى الصـفات و خلق القرآن، و نفى الرؤيـة، و انفرد بجواز الخروج على السـلطان الجـائر، و زعم أن علم اللّه حـادث لا- بصـفة يوصف بها غيره. و البكريـة: أتبـاع بكر ابن أخت عبـد الواحـد، و هـو يوافق النظّام فى أن الإنسـان هو الروح، و يزعم أن البـارى تعـالى يرى فى القيامـة فى صورة يخلقها و يكلم الناس منها، و أن صاحب الكبيرة منافق فى الـدرك الأسـفل من النار، و حاله أسوأ من حال الكافر، و حرّم أكل الثوم و البصل، و أوجب الوضوء من قرقرة البطن.

و الضرارية: أتباع ضرار بن عمر، و انفرد بأشياء منها أن اللّه تعالى يرى فى القيامة بحاسة زائدة سادسة، و أنكر قراءة ابن مسعود، و شكّ فى دين عامّة المسلمين، و قال لعلهم كفار، و زعم أن الجسم أعراض مجتمعة، كما قالت النجارية، و من جملة المجبرة.

البطيخية: أتباع إسماعيل البطيخىّ. و الصباحية: أتباع أبى صباح بن معمر. و الفكرية، و الخوفية.

الفرقة الخامسة المرجئة: الإرجاء، إمّا مشتق من الرجاء لأنّ المرجئة يرجون لأصحاب المعاصى الثواب من اللّه تعالى، فيقولون لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، أو يكون مشتقا من الإرجاء و هو التأخير، لأنهم أخروا حكم أصحاب الكبائر إلى الآخرة، و حقيقة المرجئة أنهم الغلاة فى إثبات الوعد و الرجاء، و نفى الوعيد و الخوف عن المؤمنين، و هم ثلاثة أصناف: صنف جمعوا بين الرجاء و القدر، و هم غيلان و أبو شمر من بنى حنيفة. و صنف جمعوا بين الإرجاء و الجبر، مثل جهم بن صفوان.

و صنف قال بالأرجاء المحض، و هم أربع فرق.

اليونسية أتباع يونس بن عمرو، و هو غير يونس بن عبد الرحمن القمىّ الرافضىّ، زعم أن الإيمان معرفة اللّه و الخضوع له و المحبة و الإقرار بأنه واحد ليس كمثله شىء.

و الغسانية: أتباع غسان بن أبان الكوفىّ المنكر نبوّة عيسى عليه السّلام، و تلمذ لمحمد بن الحسن الشيبانىّ، و مذهبه فى الإيمان كمذهب يونس إلّا أنه يقول كل خصلة من خصال الإيمان تسمى بعض الإيمان، و يونس يقول كل خصلة ليست بإيمان و لا بعض إيمان، و زعم غسان أن الإيمان لا يزيد و لا ينقص، و عند أبى حنيفة رحمه اللّه الإيمان معرفة بالقلب و إقرار باللسان، فلا يزيد و لا ينقص كقرص الشمس.

و الثوبانية أتباع ثوبان المرجى. ثم الخارجىّ المعتزلىّ، و كان يقال له جامع النقائص،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۸

هاجر الخصائص، و من قوله الإيمان هو المعرفة و الإقرار، و الإيمان فعل ما يجب فى العقل فعله، فأوجب الإيمان بالعقل قبل ورود الشرع، و فارق الغسانية و اليونسية فى ذلك.

و التؤمنية: أتباع أبى معاذ التؤمنىّ الفيلسوف، زعم أن من ترك فريضة لا يقال له فاسق على الإطلاق، و لكن ترك الفريضة فسق، و زعم أن هذه الخصال التى تكون جملتها إيمانا، فواحدة ليست بإيمان، و لا بعض إيمان، و أن من قتل نبيا كفر لا لأجل القتل بل لاستخفافه به و بغضه له.

و من فرق المرجئة، المريسية: أتباع بشر بن غياث المريسىّ، كان عراقىّ المذهب فى الفقه، تلميذ للقاضى أبى يوسف يعقوب الحضرمىّ، و قال بنفى الصفات و خلق القرآن، فأكفرته الصفاتية بذلك، و زعم أن أفعال العباد مخلوقة للّه تعالى، و لا استطاعة مع الفعل، فأكفرته المعتزلة بذلك. و زعم أن الإيمان هو التصديق بالقلب، و هو مذهب ابن الربوبدى، و لما ناظره الشافعىّ فى مسألة خلق القرآن و نفى الصفات قال له: نصفك كافر لقولك بخلق القرآن. و نفى الصفات، و نصفك مؤمن لقولك بالقضاء و القدر و خلق اكتساب العباد. و بشر معدود من المعتزلة لنفيه الصفات و قوله بخلق القرآن.

و من فرق المرجئة الصالحية، أتباع صالح بن عمرو بن صالح و الجحدرية أتباع جحدر بن محمد التميمىّ و الزيادية أتباع محمد بن زياد الكوفىّ و الشبيبية أتباع محمد بن شبيب و النقاضية و البهشمية. و من المرجئة جماعة من الأئمة، كسعيد بن جبير، و طلق بن حبيب، و عمرو بن مرّة، و محارب بن دثار، و عمرو بن ذر، و حماد بن سليمان، و أبى مقاتل. و خالفوا القدرية و الخوارج و المرجئة فى أنهم لم يكفروا بالكبائر، و لا حكموا بتخليد مرتكبها فى النار، و لا سبوا أحدا من الصحابة، و لا وقعوا فيهم.

و أوّل من وضع الإرجاء أبو محمد الحسن بن محمد المعروف بابن الحنفية بن علىّ بن أبى طالب، و تكلم فيه و صارت المرجئة بعده أربعة أنواع: الأوّل مرجئة الخوارج، الثانى مرجئة القدرية، الثالث مرجئة الجبرية، الرابع مرجئة الصالحية. و كان الحسن بن محمد ابن الحنفية يكتب كتبه إلى الأمصار يدعو إلى الإرجاء، إلّا أنه لم يؤخر العمل عن الإيمان كما قال بعضهم، بل قال أداء الطاعات و ترك

المعاصى ليس من الإيمان، لا يزول بزوالها. و قال ابن قتيبة أوّل من وضع الإرجاء بالبصرة حسان بن بلال بن الحارث المزنىّ، و ذكر بعضهم أن أوّل من وضع الإرجاء أبا سلت السمان، و مات سنة اثنتين و خمسين و مائة.

الفرقة السادسة الحرورية: الغلاة فى إثبات الوعيد و الخوف على المؤمنين، و التخليد فى النار مع وجود الإيمان، و هم قوم من النواصب الخوارج، و هم مضادّون المرجئة فى النفى و الإثبات و الوعد و الوعيد، و من مفرداتهم أن من ارتكب كبيرة فهو مشرك، و مذهب عامّة الخوارج أنه كافر و ليس بمشرك. و قال بعضهم هو منافق فى الدرك الأسفل من النار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۹

فعند الحرورية أن الاسم يتغير بارتكاب الكبيرة الواحدة فلا يسمى مؤمنا بل كافرا مشركا، و الحكم فيه أنه يخلد فى النار، و اتفقوا على أن الإيمان هو اجتناب كل معصية، و قيل لهم الحرورية لأنهم خرجوا إلى حروراء لقتال علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و عدّتهم اثنا عشر ألفا، ثم سار علىّ رضى اللّه عنه إليهم و ناظرهم، ثم قاتلهم و هم أربعة آلاف، فانضم إليهم جماعة حتى بلغوا اثنى عشر ألفا.

الفرقة السابعة النجارية: أتباع الحسن بن محمد بن عبد اللّه النجار أبى عبد اللّه، كان حائكا، و قيل أنه كان يعمل الموازين، و أنه كان من أهل قمّ، كان من جملة المجبرة و متكلميهم، و له مع النظّام عدّة مناظرات منها أنه ناظرة مرّة فلما لم يلحن بحجته رفسه النظّام و قال له: قم أخزى اللّه من ينسبك إلى شىء من العلم و الفهم، فانصرف محموما و اعتلّ حتى مات، و هم أكثر معتزلة الرىّ و جهاتها، و هم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء و القدر، و اكتساب العباد، و فى الوعد و الوعيد، و إمامة أبى بكر رضى اللّه عنه، و يوافقون المعتزلة فى نفى الصفات و خلق القرآن، و فى الرؤية، و هم ثلاث فرق البرغوثية و الزعفرانية و المستدركة.

الفرقة الثامنة الجهمية: أتباع جهم بن صفوان، و هم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء و القدر مع ميل إلى الجبر، و ينفون الصفات و الرؤية، و يقولون بخلق القرآن، و هم فرقة عظيمة و عدادهم فى المعطلة المجبرة.

الفرقة التاسعة الروافض: الغلاة فى حب علىّ بن أبى طالب، و بغض أبى بكر و عمر و عثمان و عائشة و معاوية فى آخرين من الصحابة رضى اللّه عنهم أجمعين، و سموا رافضة لأنّ زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، امتنع من لعن أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، و قال: هما وزيرا جدّى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. فرفضوا رأيه، و منهم من قال لأنهم رفضوا رأى الصحابة رضى اللّه عنهم، حيث بايعوا أبا بكر و عمر رضى اللّه عنهما. و قد اختلف الناس فى الإمام بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فذهب الجمهور إلى أنه أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، و قال العباسية و الربوبدية أتباع أبى هريرة الربوبدىّ، و قيل أتباع أبى العباس الربوبدىّ، هو العباس بن عبد المطلب رضى اللّه عنه، لأنه العمّ و الوارث، فهو أحق من ابن العمّ. و قال العثمانية و بنو أمية هو عثمان بن عفان رضى اللّه تعالى عنه، و ذهب آخرون إلى غير ذلك. و قال الرافضة هو علىّ بن أبى طالب، ثم اختلفوا فى الإمامة اختلافا كثيرا، حتى بلغت فرقهم ثلاثمائة فرقة، و المشهور منها عشرون فرقة.

الزيدية و الصباحية أقرّوا إمامة أبى بكر رضى اللّه عنه، و رأوا أنه لا نص فى إمامة علىّ رضى اللّه عنه، و اختلفوا فى إمامة عثمان رضى اللّه عنه، فأنكرها بعضهم و أقرّ بعضهم أنه الإمام بعد عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، لكن قالوا علىّ أفضل من أبى بكر، و إمامة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۰

المفضول جائزة، و قال الغلاة هو علىّ بالنص، ثم الحسن و بعده الحسين، و صار بعد الحسين الأمر شورى. و قال بعضهم لم يرد النص إلّا بإمامة علىّ فقط، و قال آخرون نص على علىّ بالوصف لا بالعين و الاسم. و قال بعضهم قد جاء النص على إمامة اثنى عشر آخرهم المهدىّ المنتظر.

و فرقهم العشرون هى: الإمامية: و هم مختلفون فى الإمامة بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فزعم أكثرهم أن الإمامة فى علىّ بن أبى طالب و أولاده بنص النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و أن الصحابة كلهم قد ارتدّوا إلّا عليا و ابنيه الحسن و الحسين و أبا ذر الغفارىّ

و سلمان الفارسيّ و طائفة يسيرة.

و أوّل من تكلم فى مذهب الإمامية عليّ بن إسماعيل بن هيثم التمار، و كان من أصحاب عليّ بن أبى طالب، و ذهبت القطعية منهم إلى أن الإمامة فى عليّ، ثم فى الحسن، ثم فى الحسين، ثم فى عليّ بن الحسين، ثم فى محمد بن عليّ، ثم فى جعفر بن محمد، ثم فى موسى بن جعفر، ثم فى عليّ بن موسى. و قطعوا الإمامة عليه فسموا القطعية لذلك، و لم يكتبوا إمامة محمد بن موسى، و لا إمامة الحسن بن محمد بن عليّ بن موسى، و قالت الناووسية جعفر بن محمد لم يمت و هو حيّ ينتظر، و قالت المباركية أتباع مبارك الإمام بعد جعفر بن محمد ابنه إسماعيل بن جعفر، ثم محمد بن إسماعيل. و قالت الشميطية أتباع يحيى بن شميط الأحمسيّ، كان مع المختار قائدا من قوّاده، فأنفذه أميرا على جيش البصرة يقاتل مصعب بن الزبير، فقتل بالمدار: الإمامة بعد جعفر فى ابنه محمد و أولاده، و قالت المعمرية أتباع معمر: الإمامة بعد جعفر فى ابنه عبد اللّه بن جعفر و أولاده. و يقال لهم الفطحية، لأنّ عبد اللّه بن جعفر كان أفطح الرجلين. و قالت الواقفية: الإمام بعد جعفر ابنه موسى بن جعفر و هو حيّ لم يمت، و هو الإمام المنتظر، و سموا الواقفية لوقوفهم على إمامة موسى. و قالت الزرارية أتباع زرارة بن أعين الإمام: بعد جعفر ابنه عبد اللّه، إلّا أنّه سأله عن مسائل فلم يمكنه الجواب عنها فادّعى إمامة موسى بن جعفر من بعد أبيه. و قالت المفضلية أتباع المفضل بن عمرو: الإمام بعد جعفر ابنه موسى، و أنه مات فانتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن موسى. و قالت المفوّضة من الإمامية: إن اللّه تعالى خلق محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم و فوّض إليه خلق العالم و تدبيره. و قال بعضهم بل فوّض ذلك إلى عليّ بن أبى طالب.

و الفرقة الثانية من فرق الروافض: الكيسانية، أتباع كيسان مولى عليّ بن أبى طالب، و أخذ عن محمد ابن الحنفية، و قيل بل كيسان اسم المختار بن عبيد الثقفيّ الذى قام لأخذ ثأر الحسين رضى اللّه عنه. زعموا أن الإمام بعد عليّ ابنه محمد ابن الحنفية، لأنه أعطاه الراية يوم الجمل، و لأنّ الحسين أوصى إليه عند خروجه إلى الكوفة، ثم اختلفوا فى الإمام بعد ابن الحنفية، فقال بعضهم رجع الأمر بعده إلى أولاد الحسن و الحسين، و قيل بل انتقل إلى أبى هاشم عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية، و قالت الكربية أتباع أبى كرب بأن ابن الحنفية حيّ لم يمت، و هو الإمام المنتظر. و من قول الكيسانية أن البدا جائز على اللّه، و هو كفر صريح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۱

و الفرقة الثالثة الخطابية: أتباع أبى الخطاب محمد بن أبى ثور، و قيل محمد بن أبى يزيد الأجدع، و مذهبه الغلوّ فى جعفر بن محمد الصادق، و هو أيضا من المشبهة، و أتباعه خمسون فرقة، و كلهم متفقون على أن الأئمة مثل عليّ و أولاده كلهم أنبياء، و أنه لا بدّ من رسولين لكلّ أمّة، أحدهما ناطق و الآخر صامت، فكان محمد ناطقا و عليّ صامتا، و أن جعفر بن محمد الصادق كان نبيا، ثم انتقلت النبوّة إلى أبى الخطاب الأجدع، و جوّزوا كلهم شهادة الزور لموافقيهم، و زعموا أنهم عالمون بما هو كائن إلى يوم القيامة، و قالت المعمرية: منهم الإمام بعد أبى الخطاب رجل اسمه معمر، و زعموا أن الدنيا لا تفنى، و أن الجنة هى ما يصيبه الإنسان من الخير فى الدنيا، و النار ضدّ ذلك، و أباحوا شرب الخمر و الزنى و سائر المحرّمات، و دانوا بترك الصلاة، و قالوا بالتناسخ، و أن الناس لا يموتون و إنما ترفع أرواحهم إلى غيرهم. و قالت البزيغية منهم: أن جعفر بن محمد إله و ليس هو الذى يراه الناس و إنما تشبه على الناس، و زعموا أن كلّ مؤمن يوحى إليه، و أنّ منهم من هو خير من جبريل و ميكائيل و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و زعموا أنهم يرون أمواتهم بكرة و عشيا. و قالت العميرية منهم أتباع عمير بن بيان العجلىّ مثل ذلك كله، و خالفوهم فى أن الناس لا يموتون، و افترقت الخطابية بعد قتل أبى الخطاب فرقا، منها فرقة زعمت أن الإمام بعد أبى الخطاب، عمير بن بيان العجلىّ، و مقالتهم كمقالة البزيغية، إلّا أن هؤلاء اعترفوا بموتهم و نصبوا خيمة على كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة جعفر الصادق، فبلغ ذلك يزيد بن عمير، فصلب عمير بن بيان فى كناسة الكوفة، و من فرقهم المفضلية، أتباع مفضل الصيرفىّ، زعم أن جعفر بن محمد إله، فطرده و لعنه، و زعمت الخطابية بأجمعها أن جعفر بن محمد الصادق أودعهم جلدا يقال له جفر، فيه كلّ ما يحتاجون إليه من علم الغيب و تفسير القرآن، و زعموا لعنهم اللّه، أن قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً معناه عائشة أمّ المؤمنين رضى اللّه عنها، القائلون

بإمامته و إمامة من اجتمع فيه ست خصال، العلم و الزهد و الشجاعة، و أن يكون من أولاد فاطمة الزهراء رضى اللّه عنها حسنيا أو حسينيا، و منهم من زاد صباحة الوجه، و أن لا يكون فيه آفة، و هم يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها إلّا فى مسألة الإمامة، و أخذ مذهب زيد بن علىّ عن واصل بن عطاء، و كان يفضل عليا على أبى بكر و عمر مع القول بإمامتهما، و هم أربع فرق: الجارودية، أتباع أبى الجارود، و يكنّى أبا النجم زياد بن المنذر العبدىّ، زعم أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم نص على إمامة علىّ بالوصف لا بالتسمية، و أن الناس كفروا بتركهم مبايعة علىّ رضى اللّه عنه، و الحسن و الحسين و أولادهما. و الجريرية أتباع سليم بن جرير، و من قوله لم يكفر الناس بتركهم مبايعة علىّ، بل أخطأوا بترك الأفضل و هو علىّ، و كفّروا الجارودية بتكفيرهم الصحابة، إلا أنهم كفّروا عثمان بن عفان بالأحداث التى أحدثها و قالوا: لم ينص علىّ على إمامة أحد، و صار الأمر من بعده شورى، و منهم البترية أتباع الحسن بن صالح بن كثير الأبتر، و قولهم أنّ عليا أفضل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۲

و أولى بالإمامة، غير أن أبا بكر كان إماما، و لم تكن إمامته خطأ و لا كفرا، بل ترك علىّ الإمامة له، و أما عثمان فيتوقف فيه. و منهم اليعقوبية أتباع يعقوب، و هم يقولون بإمامة أبى بكر و عمر، و يتبرّؤون ممن تبرّأ منهما، و ينكرون رجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة، و يتبرّؤون ممن دان بها، إلّا أنهم متفقون على تفضيل علىّ على أبى بكر و عمر من غير تفسيقهما و لا تكفيرهما و لا لعنهما و لا الطعن على أحد من الصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين.

و الفرقة الخامسة السبائية: أتباع عبد اللّه بن سبأ الذى قال شفاها لعلىّ بن أبى طالب:

أنت الإله، و كان من اليهود. و يقول فى يوشع بن نون مثل قوله ذلك فى علىّ، و زعم أن عليا لم يقتل و أنه حىّ لم يمت، و أنه فى السحاب، و أن الرعد صوته و البرق سوطه، و أنه ينزل إلى الأرض بعد حين. قبحه اللّه.

و الفرقة السادسة: الكاملية أتباع أبى كامل، اكفر جميع الصحابة بتركهم بيعة علىّ، و كفر عليا بتركه قتالهم، و قال بتناسخ الأنوار الإلهية فى الأئمة.

و الفرقة السابعة: البيانية، أتباع بيان بن سمعان، زعم أن روح الإله حل فى الأنبياء، ثم فى علىّ، و بعده فى محمد ابن الحنفية، فى ابنه أبى هاشم عبد اللّه بن محمد، ثم حل بعد أبى هاشم فى بيان بن سمعان، يعنى نفسه، لعنه اللّه.

و الفرقة الثامنة: المغيرية، أتباع مغيرة بن سعيد العجلىّ، مولى خالد بن عبد اللّه، طلب الإمامة لنفسه بعد محمد بن عبد اللّه بن الحسن، فخرج على خالد بن عبد اللّه القسرىّ بالكوفة فى عشرين رجلا فعطعطوا به، فقال خالد أطعمونى ماء و هو على المنبر، فعير بذلك. و المغيرة هذا قال بالتشبيه الفاحش، و ادّعى النبوّة، و زعم أن معجزته علمه بالاسم الأعظم، و أنه يحيى الموتى، و زعم أن اللّه لما أراد أن يخلق العالم كتب بإصبعه أعمال عباده، فغضب من معاصيهم، فعرق فاجتمع من عرقه بحران أحدهما مالح و الآخر عذب، فخلق من البحر العذب الشيعة، و خلق الكفرة من البحر الملح، و زعم أن المهدىّ يخرج و هو محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب.

و الفرقة التاسعة: الهشامية، و هم صنفان: أحدهما أتباع هشام بن الحكم، و الثانى أتباع هشام الجولقىّ، و هما يقولان لا تجوز المعصية على الإمام، و تجوز على الأنبياء، و أن محمدا عصى ربه فى أخذ الفداء من أسرى بدر كذبا، لعنهما اللّه، و هما أيضا مع ذلك من المشبهة.

و الفرقة العاشرة: الزرارية، أتباع زرارة بن أعين، أحد الغلاة فى الرفض، و يزعم مع ذلك أن اللّه تعالى لم يكن فى الأزل عالما و لا قادرا حتى اكتسب لنفسه جميع ذلك.

قبحه اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۳

و الفرقة الحادية عشر: الجناحية، أتباع عبد اللّه بن معاوية ذى الجناحين بن أبى طالب، و زعم أنه إله، و أن العلم ينبت فى قلبه كما تنبت الكمأة، و أن روح الإله دارت فى الأنبياء كما كانت فى علىّ و أولاده، ثم صارت فيه، و مذهبهم استحلال الخمر و الميتة و نكاح المحارم، و أنكروا القيامة، و تأوّلوا قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ [المائدة/ ۹۳] و زعموا أن كل ما فى القرآن من تحريم الميتة و الدم و لحم الخنزير كناية عن قوم يلزم بغضهم، مثل أبى بكر و عمر و عثمان و معاوية، و كل ما فى القرآن من الفرائض التى أمر اللّه بها، كناية عمن يلزم موالاتهم، مثل علىّ و الحسن و الحسين و أولادهم.

و الثانية عشر: المنصورية، أتباع أبى منصور العجلىّ، أحد الغلاة المشبهة، زعم أن الإمامة انتقلت إليه بعد محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، و أنه عرج به إلى السماء بعد انتقال الإمامة إليه، و أن معبوده مسح بيده على رأسه و قال له: يا بنىّ بلغ عنى آية الكسف الساقط من السماء فى قوله تعالى: وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ الآية [الطور/ ۴۴] و زعم أن أهل الجنة قوم تجب موالاتهم مثل علىّ بن أبى طالب و أولاده، و أن أهل النار قوم تجب معاداتهم مثل أبى بكر و عمر و عثمان و معاوية رضى اللّه عنهم.

و الثالثة عشر: الغرابية، زعموا، لعنهم اللّه، أن جبريل أخطأ، فإنه أرسل إلى علىّ بن أبى طالب، فجاء إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و جعلوا شعارهم إذا اجتمعوا أن يقولوا: العنوا صاحب الريش، يعنون جبريل عليه السّلام و عليهم اللعنة.

و الرابعة عشر: الذمّية، بفتح الذال المعجمة، زعموا، أخزاهم اللّه، أن علىّ بن أبى طالب بعثه اللّه نبيا، و أنه بعث محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم ليظهر أمره، فادّعى النبوّة لنفسه، و أرضى عليا بأن زوّجه ابنته و موّله، و منهم العليانية: أتباع عليان بن ذراع السدوسىّ، و قيل الأسدىّ، كان يفضل عليا على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و يزعم أن عليا بعث محمدا، و كان، لعنه اللّه، يذم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، لزعمه أن محمدا بعث ليدعو إلى علىّ، فدعا إلى نفسه، و من العليانية من يقول بإلهية محمد و علىّ جميعا، و يقدّمون محمدا فى الإلهية، و يقال لهم الميمية، و منهم من قال بإلهية خمسة و هم أصحاب الكساء، محمد و علىّ و فاطمة و الحسن و الحسين، و قالوا خمستهم شىء واحد، و الروح حالة فيهم بالسوية، لا فضل لواحد منهم على الآخر، و كرهوا أن يقولوا فاطمة بالهاء، فقالوا فاطم، قال بعضهم:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۴ تولیت بعد اللّه فى الدين خمسةنبيا و سبطيه و شيخا و فاطما

و الخامسة عشر: اليونسية، أتباع يونس بن عبد اللّه القمىّ، أحد الغلاة المشبهة.

و السادسة عشر: الرزامية، أتباع رزام بن سابق، زعم أن الإمامة انتقلت بعد علىّ بن أبى طالب إلى ابنه محمد ابن الحنفية، ثم إلى ابنه أبى هاشم، ثم إلى علىّ بن عبد اللّه بن عباس بالوصية، ثم إلى ابنه محمد بن علىّ، فأوصى بها محمد إلى أبى العباس عبد اللّه بن محمد السفاح الظالم، المتردّد فى المذاهب، الجاهل بحقوق أهل البيت.

و السابعة عشر: الشيطانية، أتباع محمد بن النعمان شيطان الطاق، و قد شارك المعتزلة و الرافضة فى جميع مذهبهم، و انفرد بأعظم الكفر قاتله اللّه، و هو أنه زعم أن اللّه لا يعلم الشىء حتى يقدّره، و قبل ذلك يستحيل علمه.

و الثامنة عشر: البسلمية، و هم من الراوندية، زعموا أن الإمامة بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صارت فى علىّ و أولاده الحسن و الحسين و محمد ابن الحنفية، ثم فى أبى هاشم عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية، و انتقلت منه إلى علىّ بن عبد اللّه بن عباس بوصيته إليه، ثم إلى أبى العباس السفاح، ثم إلى أبى سلمة صاحب دولة بنى العباس، و قام بناحية كش فيما وراء النهر رجل من أهل مرو أعور يقال له هاشم، ادّعى أن أبا سلمة كان إلها انتقل إليه روح اللّه، ثم انتقل إليه بعده، فانتشرت دعوته هناك، و احتجب عن أصحابه و اتخذ له وجها من ذهب، فعرف بالمصيغ، ثم إن أصحابه طلبوا رؤيته فوعدهم أن يريهم نفسه إن لم يحترقوا، و عمل تجاه مرآه مرآة محرقة تعكس شعاع الشمس، فلما دخلوا عليه احترق بعضهم و رجع الباقون، و قد فتنوا و اعتقدوا أنه إله لا تدركه الأبصار،

و نادوا فی حروبهم بإلهیته.

و التاسعة عشر: الجعفریة.

و العشرون: الصباحیة، و هم و الزیدیة أمثل الشیعة، فإنهم یقولون بإمامة أبی بکر، و أنه لا نص فی إمامة علیّ، مع أنه عندهم أفضل، و أبو بکر مفضول.

و من فرق الروافض، الخلویة و الشاعیة و الشریکیة، یزعمون أن علیا شریک محمد صلّی اللّه علیه و سلّم. و التناسخیة القائلون أن الأرواح تتناسخ، و اللاعنة و المخطئة الذین یزعمون أن جبریل أخطأ، و الإسحاقیة و الخلفیة الذین یقولون لا تجوز الصلاة خلف غیر الإمام.

و الرجعیة القائلون سیرجع علیّ بن أبی طالب و ینتقم من أعدائه. و المتربصیة الذین یتربصون خروج المهدیّ. و الأمریة و الجبیة و الجلالیة و الکریبیة، أتباع أبی کریب الضریر.

و الحزنیة أتباع عبد اللّه بن عمرو الحزنیّ.

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۴، ص: ۱۸۵

الفرقة العاشرة الخوارج: و یقال لهم النواصب، و الحروریة نسبة إلی حروراء، موضع خرج فیه أوّلهم علی علیّ رضی اللّه عنه، و هم الغلاة فی حب أبی بکر و عمر و بغض علیّ بن أبی طالب رضوان اللّه علیهم أجمعین، و لا أجهل منهم، فإنهم القاسطون المارقون، خرجوا علی علیّ رضی اللّه عنه و انفصلوا عنه بالجملة و تبرّءوا منه، و منهم من صحبه و منهم من کان فی زمنه، و هم جماعة قد دوّن الناس أخبارهم و هم عشرون فرقة:

الأولی یقال لهم الحکمیة، لأنهم خرجوا علی علیّ رضی اللّه عنه فی صفین، و قالوا لا حکم إلا للّه و لا حکم للرجال، و انحازوا عنه إلی حروراء، ثم إلی النهروان، و سبب ذلک أنهم حملوه علی التحاکم إلی من حکم بکتاب اللّه، فلما رضی بذلک و کانت قضیة الحکمین أبی موسی الأشعریّ، و هو عبد اللّه بن قیس، و عمرو بن العاص، غضبوا من ذلک و نابذوا علیا و قالوا فی شعارهم، لا حکم إلّا للّه و لرسوله، و کان إمامهم فی التحکیم عبد اللّه بن الکوّاء.

و الثانیة الأزارقة أتباع أبی راشد نافع بن الأزرق بن قیس بن نهار بن إنسان بن أسد بن صبرة بن ذهل بن الدول بن حنیفة، الخارج بالبصرة فی أیام عبد اللّه بن الزبیر، و هم علی التبرّی من عثمان و علیّ و الطعن علیهما، و أن دار مخالفیهم دار کفر، و أن من أقام بدار الکفر فهو کافر، و أن أطفال مخالفیهم فی النار، و یحل قتلهم، و أنکروا رجم الزانی و قالوا:

من قذف محصنة حدّ، و من قذف محصنا لا یحدّ، و یقطع السارق فی القلیل و الکثیر.

و الثالثة النجدات، و لم یقل فیهم النجدیة، لیفرّق بینهم و بین من انتسب إلی بلاد نجد، فإنهم أتباع نجد بن عویمر، و هو عامر الحنفیّ الخارج بالیمامة، و کان رأسا ذا مقالة مفردة، و تسمّی بأمیر المؤمنین، و بعث عطیة بن الأسود إلی سجستان فأظهر مذهبه بمرو، فعرفت أتباعه بالعطویة، و مذهبهم أن الدین أمران، أحدهما معرفة اللّه تعالی و معرفة رسوله و تحریم دماء المسلمین و أموالهم. و الثانی الإقرار بما جاء من عند اللّه تعالی جملة، و ما سوی ذلک من التحریم و التحلیل و سائر الشرائع، فإن الناس یعذرون بجهلها، و أنه لا یأثم المجتهد إذا أخطأ و أن من خالف أن یعذب المجتهد، فقد کفر و استحلوا دماء أهل الذمّة فی دار التقیة، و قالوا من نظر نظرة محرّمة أو کذب کذبة أو أصرّ علی صغیرة و لم یتب منها فهو کافر، و من زنی أو سرق أو شرب خمرا من غیر أن یصرّ علی ذلک فهو مؤمن غیر کافر.

و الرابعة الصفریة أتباع زیاد بن الأصفر، و یقال أتباع النعمان بن صفر، و قیل بل نسبوا إلی عبد اللّه بن صفار، و هو أحد بنی مقاعس، و هو الحارث بن عمرو بن کعب بن سعد بن زید مناة بن تمیم بن أدّ بن طابخة بن الیاس بن مضر بن نزار، و قیل عبد اللّه بن الصفار من بنی صویمر بن مقاعس، و قیل سموا بذلک لصفرة علتهم، و زعم بعضهم أن الصفریة بکسر الصاد، و قد وافق الصفریة الأزارقة فی

جميع بدعهم إلّا فى قتل الأطفال، و يقال للصفرية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۶

أيضا الزيادية، و يقال لهم أيضا النكار من أجل أنهم ينقصون نصف علىّ و ثلث عثمان، و سدس عائشة رضى اللّه عنهم.

و الخامسة العجاردة أتباع عبد الكريم بن عجرد.

و السادسة الميمونية أتباع ميمون بن عمران، و هم طائفة من العجاردة، وافقوا الأزارقة إلّا فى شيئين، أحدهما قولهم تجب البراءة من الأطفال حتى يبلغوا و يصفوا الإسلام، و الثانى استحلال أموال المخالفين لهم، فلم تستحل الميمونية مال أحد خالفهم ما لم يقتل المالك، فإذا قتل صار ماله فيئا، إلّا أنهم ازدادوا كفرا على كفرهم، و أجازوا نكاح بنات البنات و بنات البنين و بنات أولاد الإخوة و بنات أولاد الأخوات فقط.

و السابعة الشعيبية، و هم طائفة من العجاردة وافقوا الميمونية فى جميع بدعهم إلّا فى الاستطاعة و المشيئة، فإن الميمونية مالت إلى القدرية.

و الثامنة الحمزية، أتباع حمزة بن أدرك الشامىّ الخارج بخراسان فى خلافة هارون بن محمد الرشيد، و كثر عيثه و فساده، ثم فض جموع عيسى بن علىّ عامل خراسان و قتل منهم خلقا كثيرا، فانهزم منه عيسى إلى كابل، و آل أمر حمزة إلى أن غرق فى كرمان بواد هناك، فعرفت أصحابه بالحمزية، و كان يقول بالقدر فكفرته الأزارقة بذلك، و قال أطفال المشركين فى النار، فكفّرته القدرية بذلك، و كان لا يستحل غنائم أعدائه بل يأمر بإحراق جميع ما يغنمه منهم.

و التاسعة الحازمية، و هم فرقة من العجاردة، قالوا فى القدر و المشيئة كقول أهل السنة، و خالفوا الخوارج فى الولاية و العداوة، فقالوا لم يزل اللّه تعالى محبا لأوليائه و مبغضا لأعدائه.

و العاشرة المعلومية مع المجهولية، تباينا فى مسألتين إحداهما قالت المعلومية: من لم يعرف اللّه تعالى بجميع أسمائه فهو كافر، و قالت المجهولية: لا يكون كافرا. و الثانية وافقت المعلومية أهل السنة فى مسألة القدر و المشيئة، و المجهولية وافقت القدرية فى ذلك.

و الحادية عشر الصلتية، أتباع عثمان بن أبى الصلت، و هم طائفة من العجاردة انفردوا بقولهم: من أسلم تولىناه لكن نتبرّأ من أطفاله، لأنه ليس للأطفال إسلام حتى يبلغوا.

و الثانية عشر و الثالثة عشر الأحسنية و المعبدية، و هما فرقتان من الثعالبة أتباع ثعلبة بن عامر، و كان ثعلبة هذا مع عبد الكريم بن عجرد ثم اختلفا فى الأطفال. فقال عبد الكريم:

نتبرّأ منهم قبل البلوغ، و قال ثعلبة لا نتبرّأ منهم بل نقول نتولى الصغار. فلم تزل الثعالبة على هذا إلى أن خرج رجل عرف بالأخنس فقال: نتوقف عن جميع من فى دار التقية إلّا من عرفنا منه إيمانا فإنا نتولاه، و من عرفنا منه كفرا تبرّأ منه، و لا يجوز أن نبدأ حدا بقتال،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۷

فتبرّأت منه الثعالبة و سموه بالأخنس لأنه خنس منهم، أى رجع عنهم، ثم خرجت فرقة من الثعالبة قيل لها المعبدية أتباع معبد، فخالفت الثعالبة فى أخذ الزكاة من العبيد و البهائم و كفّرت كلّ فرقة منهما الأخرى.

و الرابعة عشر الشيبانية، أتباع شيبان بن سلمة الخارج فى أيام أبى مسلم الخراسانىّ القائم بدعوة الخلفاء العباسيين، و كان معه. فتبرّأت منه الثعالبة لمعاونته لأبى مسلم، و هو أوّل من أظهر القول بالتشبيه تعالى اللّه عن ذلك.

و الخامسة عشر الشبيبية، أتباع شبيب بن يزيد بن أبى نعيم الخارج فى خلافة عبد الملك بن مروان، و صاحب الحروب العظيمة مع الحجاج بن يوسف الثقفىّ، و هم على ما كانت عليه الحكمية الأولى، إلّا أنهم انفردوا عن الخوارج بجواز إمامة المرأة و خلافتها، و استخلف شبيب هذا أمّه غزالة فدخلت الكوفة و قامت خطيبة و صلت الصبح بالمسجد الجامع، فقرأت فى الركعة الأولى بالبقرة، و فى الثانية بآل عمران، و أخبار شبيب طويلة.

و السادسة عشر الرشيدية: أتباع رشيد، يقال لهم أيضا العشرية من أجل أنهم كانوا يأخذون نصف العشر مما سقت الأنهار، فقال لهم زياد بن عبد الرحمن يجب فيه العشر، فتبرّأت كل فرقة من الأخرى و كفّرتها بذلك.

و السابعة عشر المكرمية: أتباع أبى المكرم، و من قوله تارك الصلاة كافر، و ليس كفره لترك الصلاة، لكن لجهله بالله، و كذا قوله فى سائر الكبائر.

و الثامنة عشر الحفصية: أتباع حفص بن المقدام أحد أصحاب عبد اللّه بن أباض، تفرّد بقوله من عرف اللّه تعالى و كفر بما سواه من رسول و غيره فهو كافر و ليس بمشرك، فأنكر ذلك الإباضية و قالوا بل هو مشرك.

و التاسعة عشر الإباضية، أتباع عبد اللّه بن أباض من بنى مقاعس، و اسمه الحرث بن عمرو، و يقال بل ينسبون إلى أباض بضم الهمزة، و هى قرية بالعرض من اليمامة نزل بها نجد بن عامر، و خرج عبد اللّه بن أباض فى أيام مروان، و كان من غلاة الحكمة.

و الفرقة العشرون اليزيدية، أتباع يزيد بن أبى أنيسة، و كان أباضيا، فانفرد ببدعة قبيحة، و هى أن اللّه تعالى سيبعث رسولا من العجم و ينزل عليه كتابا جملة واحدة ينسخ به شريعة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

و من فرق الخوارج أيضا الحارثية، و الأصومية، أتباع يحيى بن أصوم، و البيهسية أتباع أبى البيهس الهيصم بن خالد من بنى سعيد بن ضبعة، كان فى زمن الحجاج، و قتل بالمدينة و صلب، و اليعقوبية أتباع يعقوب بن علىّ الكوفىّ، و من فرقهم الفضلية، أتباع فضل بن عبد اللّه، و الشمراخية أتباع عبد اللّه بن شمراخ، و الضحاكية أتباع الضحاك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۸

و الخوارج يقال لهم الشراة، و أحدهم شارى، مشتق من شرى الرجل إذا ألح، أو معناه يستشرى بالشرّ، أو من قول الخوارج شرينا أنفسنا لدين اللّه فنحن لذلك شراة، و قيل أنه من قولهم شاريته أى لاحجته و ماريته، و قيل شرى الرجل غضبا إذا استطار غضبا، و قيل لهم هذا لشدّة غضبهم على المسلمين.

ذكر الحال فى عقائد أهل الإسلام، منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى أن انتشر مذهب الأشعرية

اعلم أن اللّه تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم رسولا إلى الناس جميعا، وصف لهم ربهم سبحانه و تعالى، بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز الذى نزل به على قلبه صلّى اللّه عليه و سلّم الروح الأمين و بما أوحى إليه ربه تعالى، فلم يسأله صلّى اللّه عليه و سلّم أحد من العرب بأسرهم، قرويهم و بدويهم عن معنى شىء من ذلك، كما كانوا يسألونه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أمر الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و غير ذلك مما للّه فيه سبحانه أمر و نهى، و كما سألوه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أحوال القيامة و الجنة و النار، إذ لو سأله إنسان منهم عن شىء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى أحكام الحلال و الحرام، و فى الترغيب و الترهيب، و أحوال القيامة و الملاحم و الفتن، و نحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث، معاجمها و مسانيدها و جوامعها، و من أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوىّ، و وقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح و لا سقيم عن أحد من الصحابة رضى اللّه عنهم، و على اختلاف طبقاتهم و كثرة عددهم، أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن معنى شىء مما وصف الربّ، سبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم، و على لسان نبيه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، بل كلهم فهموا معنى ذلك و سكتوا عن الكلام فى الصفات، نعم و لا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، و إنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم و القدرة و الحياة و الإرادة و السمع و البصر و الكلام و الجلال و الإكرام و الجود و الإنعام و العز و العظمة، و ساقوا الكلام سوقا واحدا. و هكذا أثبتوا رضى اللّه عنهم ما أطلقه اللّه سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه و اليد و نحو ذلك، مع نفى مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رضى اللّه عنهم بلا- تشبيه، و نزهوا من غير تعطيل، و لم يتعرّض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شىء من هذا، و رأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، و لم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية اللّه تعالى، و

على إثبات نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، سوى كتاب اللّه، و لا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية و لا مسائل الفلسفة، فمضى عصر الصحابة رضى اللّه عنهم على هذا إلى أن حدث فى زمنهم القول بالقدر، و أنّ الأمر أنفة، أى أنّ اللّه تعالى لم يقدّر على خلقه شيئا مما هم عليه.

و كان أوّل من قال بالقدر فى الإسلام، معبد بن خالد الجهنىّ، و كان يجالس الحسن بن الحسين البصرىّ، فتكلم فى القدر بالبصرة، و هلك أهل البصرة مسلكه لما رأوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۹

عمرو بن عبيد ينتحله، و أخذ معبد هذا الرأى عن رجل من الأساورة يقال له أبو يونس سنسويه، و يعرف بالإسوارىّ، فلما عظمت الفتنة به عذبه الحجاج و صلبه بأمر عبد الملك بن مروان سنة ثمانين، و لما بلغ عبد اللّه بن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما مقالة معبد فى القدر تبرّأ من القدرية، و اقتدى بمعبد فى بدعته هذه جماعة، و أخذ السلف رحمهم اللّه فى ذمّ القدرية، و حذروا منهم كما هو معروف فى كتب الحديث، و كان عطاء بن يسار قاضيا يرى القدر، و كان يأتى هو و معبد الجهنىّ إلى الحسن البصرىّ فيقولان له: إنّ هؤلاء يسفكون الدماء و يقولون: إنما تجرى أعمالنا على قدر اللّه، فقال: كذب أعداء اللّه، فطعن عليه بهذا، و مثله. و حدث أيضا فى زمن الصحابة رضى اللّه عنهم مذهب الخوارج، و صرّحوا بالتكفير بالذنب و الخروج على الإمام و قتاله، فناظرهم عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما فلم يرجعوا إلى الحق، و قاتلهم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و قتل منهم جماعة كما هو معروف فى كتب الأخبار، و دخل فى دعوة الخوارج خلق كثير، و رمى جماعة من أئمة الإسلام بأنهم يذهبون إلى مذهبهم، و عدّ منهم غير واحد من رواة الحديث كما هو معروف عند أهله، و حدث أيضا فى زمن الصحابة رضى اللّه عنهم مذهب التشيع لعلىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و الغلوّ فيه، فلما بلغه ذلك أنكره و حرّق بالنار جماعة ممن غلا فيه و أنشد:

لمّا رأيت الأمر أمرا منكرا اجّجت نارى و دعوت قنبرا

و قام فى زمنه رضى اللّه عنه عبد اللّه بن وهب بن سبأ، المعروف بابن السوداء السبأى، و أحدث القول بوصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعلىّ بالإمامة من بعده، فهو وصىّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و خليفته على أمّته من بعده بالنص، و أحدث القول برجعة علىّ بعد موته إلى الدنيا، و برجعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أيضا، و زعم أنّ عليا لم يقتل، و أنه حىّ و أن فيه الجزء الإلهىّ، و أنه هو الذى يجىء فى السحاب، و أن الرعد صوته و البرق سوطه، و أنه لا بدّ أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جورا. و من ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة، و صاروا يقولون بالوقف، يعنون أن الإمامة موقوفة على أناس معينين، كقول الإمامية بأنها فى الأئمة الاثنى عشر، و قول الإسماعيلية بأنها فى ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، و عنه أيضا أخذوا القول بفيئة الإمام، و القول برجعته بعد الموت إلى الدنيا، كما تعتقده الإمامية إلى اليوم فى صاحب السرداب، و هو القول بتناسخ الأرواح، و عنه أخذوا أيضا القول بأن الجزء الإلهىّ يحلّ فى الأئمة بعد علىّ بن أبى طالب، و أنهم بذلك استحقوا الإمامة بطريق الوجوب، كما استحق آدم عليه السّلام سجود الملائكة، و على هذا الرأى كان اعتقاد دعاة الخلفاء الفاطميين ببلاد مصر، و ابن سبأ هذا هو الذى أثار فتنة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه حتى قتل: كما ذكر فى ترجمة ابن سبأ من كتاب التاريخ الكبير المقفى؛ و كان له عدّة أتباع فى عامّة الأمصار، و أصحاب كثيرون فى معظم الأقطار، فكثرت لذلك الشيعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۰

و صاروا ضدّا للخوارج، و ما زال أمرهم يقوى و عددهم يكثر.

ثم حدث بعد عصر الصحابة رضى اللّه عنهم، مذهب جهم بن صفوان ببلاد المشرق، فعظمت الفتنة به. فإنه نفى أن يكون للّه تعالى صفة، و أورد على أهل الإسلام شكوكا أثر فى الملة الإسلامية آثارا قبيحة، تولد عنها بلاء كبير. و كان قبيل المائة من سنى الهجرة، فكثر أتباعه على أقواله التى تؤول إلى التعطيل، فأكبر أهل الإسلام بدعته و تمالؤا على إنكارها و تضليل أهلها. و حذروا من الجهمية و

عادوهم فى اللّه و ذمّوا من جلس إليهم، و كتبوا فى الردّ عليهم ما هو معروف عند أهله، و فى أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال، منذ زمن الحسن بن الحسين البصرىّ رحمه اللّه، بعد المائتين من سنى الهجرة، و صنفوا فيه مسائل فى العدل و التوحيد و إثبات أفعال العباد، و أن اللّه تعالى لا يخلق الشرّ و جهلوا بأن اللّه لا يرى فى الآخرة، و أنكروا عذاب القبر على البدن، و أعلنوا بأن القرآن مخلوق محدث، إلى غير ذلك من مسائلهم، فتبعهم خلائق فى بدعهم، و أكثروا من التصنيف فى نصرة مذهبهم بالطرق الجدلية، فنهى أئمة الإسلام عن مذهبهم، و ذمّوا علم الكلام، و هجروا من ينتحله، و لم يزل أمر المعتزلة يقوى و أتباعهم تكثر و مذهبهم ينتشر فى الأرض.

ثم حدث مذهب التجسيم المضادّ لمذهب الاعتزال، فظهر محمد بن كرّام بن عراق بن حزابة، أبو عبد اللّه السجستانىّ، زعيم الطائفة الكرّامية بعد المائتين من سنى الهجرة، و أثبت الصفات حتى انتهى فيها إلى التجسيم و التشبيه، و حج و قدم الشام و مات بزغرة، فى صفر سنة ست و خمسين و مائتين، فدفن بالمقدس، و كان هناك من أصحابه زيادة على عشرين ألفا على التعبد و التقشف، سوى من كان منهم ببلاد المشرق، و هم لا يحصون لكثرتهم، و كان إماما لطائفتى الشافعية و الحنفية، و كانت بين الكرّامية بالمشرق و بين المعتزلة مناظرات و مناكرات و فتن كثيرة متعدّدة أزماتها. هذا و أمر الشيعة يفشو فى الناس حتى حدث مذهب القرامطة، المنسوبين إلى حمدان الأشعث المعروف بقرمط، من أجل قصر قامته و قصر رجليه و تقارب خطوه، و كان ابتداء أمر قرمط هذا فى سنة أربع و ستين و مائتين، و كان ظهوره بسواد الكوفة فاشتهر مذهبه بالعراق، و قام من القرامطة ببلاد الشام صاحب الحال و المدّثر و المطوّق، و قام بالبحرين منهم أبو سعيد الجنابىّ من أهل جنابة، و عظمت دولته و دولة بنيه من بعده، حتى أوقعوا بعساكر بغداد و أخافوا خلفاء بنى العباس، و فرضوا الأموال التى تحمل إليهم فى كل سنة على أهل بغداد و خراسان و الشام و مصر و اليمن، و غزوا بغداد و الشام و مصر و الحجاز، و انتشرت دعاتهم بأقطار الأرض، فدخل جماعات من الناس فى دعوتهم و مالوا إلى قولهم الذى سموه علم الباطن، و هو تأويل شرائع الإسلام و صرفها عن ظواهرها إلى أمور زعموها من عند أنفسهم، و تأويل آيات القرآن و دعوا هم فيها تأويلا بعيدا انتحلوا القول به بدعا ابتدعوها بأهوائهم، فضلوا و أضلوا عالما كثيرا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۱

هذا و قد كان المأمون عبد اللّه بن هارون الرشيد سابع خلفاء بنى العباس ببغداد، لما شغف بالعلوم القديمة. بعث إلى بلاد الروم من عرّب له كتب الفلاسفة و أتاه بها فى أعوام بضع عشرة سنة و مائتين من سنى الهجرة، فانتشرت مذاهب الفلاسفة فى الناس، و اشتهرت كتبهم بعامّة الأمصار، و أقبلت المعتزلة و القرامطة و الجهمية و غيرهم عليها، و أكثروا من النظر فيها و التصفح لها، فانجرّ على الإسلام و أهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء و المحنة فى الدين، و عظم بالفلسفة ضلال أهل البدع و زادتهم كفرا إلى كفرهم. فلما قامت دولة بنى بويه ببغداد فى سنة أربع و ثلاثين و ثلاثمائة و استمرّوا إلى سنة سبع و ثلاثين و أربعمائة، و أظهروا مذهب التشيع، قويت بهم الشيعة و كتبوا على أبواب المساجد فى سنة إحدى و خمسين و ثلاثمائة لعن اللّه معاوية بن أبى سفيان، و لعن من أغضب فاطمة، و من منع الحسن أن يدفن عند جدّه، و من نفى أبا ذر الغفارىّ، و من أخرج العباس من الشورى.

فلما كان الليل حكه بعض الناس، فأشار الوزير المهلبىّ أن يكتب بإذن معز الدولة، لعن اللّه الظالمين لأهل البيت، و لا يذكر أحد فى اللعن غير معاوية. ففعل ذلك و كثرت ببغداد الفتن بين الشيعة و السنية، و جهر الشيعة فى الأذان بحىّ على خير العمل فى الكرخ، و فشا مذهب الاعتزال بالعراق و خراسان و ما وراء النهر، و ذهب إليه جماعة من مشاهير الفقهاء، و قوى مع ذلك أمر الخلفاء الفاطميين بأفريقية و بلاد المغرب، و جهروا بمذهب الإسماعيلية و بثوا دعاتهم بأرض مصر، فاستجاب لهم خلق كثير من أهلها، ثم ملكوها سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة و بعثوا بعساكرهم إلى الشام فانتشرت مذاهب الرافضة فى عامّة بلاد المغرب و مصر و الشام و ديار بكر و الكوفة و البصرة و بغداد، و جميع العراق، و بلاد خراسان، و ما وراء النهر مع بلاد الحجاز و اليمن و البحرين، و كانت بينهم و بين أهل السنة من الفتن و الحروب و المقاتل ما لا يمكن حصره لكثرته، و اشتهرت مذاهب الفرق من القدرية و الجهمية و المعتزلة و الكرّامية

و الخوارج و الروافض و القرامطة و الباطنية، حتى ملأت الأرض، و ما منهم إلّا من نظر فى الفلسفة و سلك من طرقها ما وقع عليه اختياره، فلم تبق مصر من الأمصار و لا قطر من الأقطار، إلا و فيه طوائف كثيرة ممن ذكرنا.

و كان أبو الحسن علىّ بن إسماعيل الأشعرىّ قد أخذ عن أبى علىّ محمد بن عبد الوهاب الجبائىّ، و لازمه عدّة أعوام، ثم بدا له فترك مذهب الاعتزال و سلك طريق أبى محمد عبد اللّه بن محمد بن سعيد بن كلاب، و نسج على قوانينه فى الصفات و القدر، و قال بالفاعل المختار، و ترك القول بالتحسين و التقبيح العقليين، و ما قيل فى مسائل الصلاح و الأصلح، و أثبت أن العقل لا يوجب المعارف قبل الشرع، و أن العلوم و إن حصلت بالعقل فلا تجب به، و لا يجب البحث عنها إلّا بالسمع، و أن اللّه تعالى لا يجب عليه شىء، و أن النبوّات من الجائزات العقلية و الواجبات السمعية إلى غير ذلك من مسائله التى هى موضوع أصول الدين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۲

و حقيقة مذهب الأشعرىّ: رحمه اللّه، أنه سلك طريقا بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال، و بين الإثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم، و ناظر على قوله هذا و احتج لمذهبه، فمال إليه جماعة و عوّلوا على رأيه، منهم القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانىّ المالكىّ، و أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك، و الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الأسفراينىّ، و الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علىّ بن يوسف الشيرازىّ، و الشيخ أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالىّ، و أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانىّ، و الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازىّ، و غيرهم ممن يطول ذكره، و نصروا مذهبه و ناظروا عليه و جادلوا فيه و استدلوا له فى مصنفات لا تكاد تحصر، فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرىّ فى العراق من نحو سنة ثمانين و ثلاثمائة و انتقل منه إلى الشام، فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر، كان هو و قاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانىّ على هذا المذهب، قد نشآ عليه منذ كانا فى خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق، و حفظ صلاح الدين فى صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورىّ، و صار يحفظها صغار أولاده، فلذلك عقدوا الخناصر و شدّوا البنان على مذهب الأشعرىّ، و حملوا فى أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب، ثم فى أيام مواليهم الملوك من الأتراك، و اتفق مع ذلك توجه أبى عبد اللّه محمد بن تومرت أحد رجالات المغرب إلى العراق، و أخذ عن أبى حامد الغزالىّ مذهب الأشعرىّ، فلما عاد إلى بلاد المغرب و قام فى المصامدة يفقههم و يعلمهم، وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامّتهم، ثم مات فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن علىّ القيسىّ، و تلقب بأمير المؤمنين، و غلب على ممالك المغرب هو و أولاده من بعد مدّة سنين، و تسموا بالموحدين، فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت، إذ هو عندهم الإمام المعلوم، المهدىّ المعصوم، فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها إلّا اللّه خالقها سبحانه و تعالى، كما هو معروف فى كتب التاريخ، فكان هذا هو السبب فى اشتهار مذهب الأشعرىّ و انتشاره فى أمصار الإسلام، بحيث نسى غيره من المذاهب، و جهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه، إلّا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبى عبد اللّه أحمد بن محمد بن حنبل رضى اللّه عنه، فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف، لا يرون تأويل ما ورد من الصفات، إلى أن كان بعد السبعمائة من سنى الهجرة، اشتهر بدمشق و أعمالها تقىّ الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحكم بن عبد السلام بن تيمية الحرّانىّ، فتصدّى للانتصار لمذهب السلف و بالغ فى الردّ على مذهب الأشاعرة، و صدع بالنكير عليهم و على الرافضة، و على الصوفية، فافترق الناس فيه فريقان، فريق يقتدى به و يعوّل على أقواله و يعمل برأيه، و يرى أنه شيخ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۳

الإسلام و أجلّ حفاظ أهل الملّة الإسلامية. و فريق يبدّعه و يضلله و يزرى عليه بإثباته الصفات، و ينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف، و منها ما زعموا أنه خرق فيه الإجماع، و لم يكن له فيه سلف، و كانت له و لهم خطوب كثيرة، و حسابه و حسابهم على اللّه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء، و له إلى وقتنا هذا عدّة أتباع بالشام و قليل بمصر.

هـذا و بين الأشاعرة و الماتريديـة أتباع أبى منصور محمـد بن محمـد بن محمود الماتريدىّ، و هم طائفة الفقهاء الحنفية مقلد و الإمام أبى حنيفـة النعمان بن ثابت، و صاحبيه أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الحضـرمىّ، و محمد بن الحسن الشـيبانىّ رضـى اللّه عنهم، من الخلاف فى العقائد ما هو مشـهور فى موضـعه، و هو إذ تتبع يبلغ بضع عشرة مسألة، كان بسببها فى أوّل الأمر تباين و تنافر، و قدح كل منهم فى عقيدة الآخر، إلّا أن الأمر آل آخرا إلى الإغضاء، و للّه الحمد.

فهـذا أعز اللّه بيان ما كانت عليه عقائـد الأمّة من ابتداء الأمر إلى وقتنا هذا، قد فصّـلت فيه ما أجمله أهل الأخبار، و أجملت ما فصـلوا، فدونك طالب العلم تناول ما قد بذلت فيه جهدى و أطلت بسببه سهرى و كدّى فى تصفح دواوين الإسلام و كتب الأخبار، فقد وصل إليك صفوا و نلته عفوا بلا تكلف مشقة و لا بذل مجهول، و لكن اللّه يمنّ على من يشاء من عباده.

أبو الحسن علىّ بن إسـماعيل بن أبى بشـر إسـحاق بن سـالم بن إسـماعيل بن عبـد اللّه بن موسـى بن بلالـ بن أبى بردة عـامر بن أبى موسـى، و اسـمه عبد اللّه بن قيس «الأشـعرىّ» البصـرىّ، ولد سـنة ست و ستين و مائتين، و قيل سـنة سبعين، و توفى ببغداد سنة بضع و ثلاـثين و ثلاثمائـة و قيـل سـنة أربع و عشـرين و ثلاثمائـة، سـمع زكريا الساجى، و أبا خليفـة الجمحىّ، و سـهل بن نوح، و محمـد بن يعقوب القمرىّ، و عبـد الرحمن بن خلف الضبىّ المصـرىّ، و روى عنهم فى تفسـيره كثيرا، و تلمـذ لزوج أمّه أبى علىّ محمد بن عبد الوهاب الجبائىّ، و اقتـدى برأيه فى الاعتزال عـدّة سـنين حتى صار من أئمـة المعتزلة، ثم رجع عن القول بخلق القرآن و غيره من آراء المعتزلة، و صـعد يوم الجمعة بجامع البصـرة كرسـيا و نادى بأعلى صوته، من عرفنى فقد عرفنى، و من لم يعرفنى فأنا أعرّفه بنفسى، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن و أن اللّه لا يرى بالإبصار، و أن أفعال الشرّ أنا أفعلها، و أنا تائب مقلع معتقد الردّ على المعتزلة، مبين لفضائحهم و معايبهم، و أخـذ من حينئـذ فى الردّ عليهم، و سـلك بعض طريق أبى محمد عبد اللّه بن محمد بن سـعيد بن كلاب القاطن، و بنى على قواعـده. و صـنف خمسـة و خمسـين تصـنيفا منها. كتاب اللمع، و كتاب الموجز، و كتاب إيضاح البرهان، و كتاب التبيين على أصول الدين، و كتاب الشرح و التفصيل فى الردّ على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۴

أهل الإفك و التضليل، و كتاب الإبانة، و كتاب تفسير القرآن، يقال أنه فى سبعين مجلدا.

و كانت غلته من ضـيعة وقفها بلال بن أبى بردة على عقبه، و كانت نفقته فى السنة سبعة عشر درهما، و كانت فيه دعابة و مزح كثير. و قال مسـعود بن شـيبة فى كتاب التعليم: كان حنفىّ المذهب، معتزلىّ الكلام، لأنه كان ربيب أبى علىّ الجبائىّ، و هو الذى رباه و علمه الكلاـم، و ذكر الخطيب أنه كـان يجلس أيـام الجمعـات فى حلقـة أبى إسـحاق المروزىّ الفقيه فى جامع المنصور. و عن أبى بكر بن الصيرفىّ: كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر اللّه تعالى الأشعرىّ فحجزهم فى أقماع السماسم.

و جملـة عقيدته أنّ اللّه تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، حىّ بحياة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سـميع يسـمع، بصـير يبصـر، و أن صـفاته أزليـة قائمـة بذاته تعالى، لا يقال هى هو، و لا هى غيره، و لا هى هو، و لا غيره. و علمه واحد يتعلق بجميع المعلومات، و قدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصح وجوده، و إرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص، و كلامه واحد هو أمر و نهى و خبر و اسـتخبار و وعد و وعيـد، و هـذه الوجوه راجعة إلى اعتبارات فى كلامه، لا إلى نفس الكلام و الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء، دلالات على الكلام الأزلىّ، فالمـدلول و هو القرآن المقروء، قـديم أزلىّ، و الدلالـة و هى العبارات، و هى القراءة، مخلوقة محدثة. قال: و فرق بين القراء و المقروء، و التلاوة و المتلوّ، كمـا فرق بين الـذكر و المـذكور. قال: و الكلام معنى قائم بالنفس، و العبارة دالـة على ما فى النفس، و إنما تسـمى العبارة كلاما مجازا. قال و أراد اللّه تعالى جميع الكائنات خيرها و شـرّها، و نفعها و ضرّها، و مال فى كلامه إلى جواز تكليف ما لا يطاق، لقوله أنّ الاستطاعة مع الفعل، و هو مكلف بالفعل قبله، و هو غير مستطيع قبله على مذهبه. قال و جميع أفعال العباد مخلوقـة مبدعـة من اللّه تعالى، مكتسـبة للعبـد، و الكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قـدرة العبد. قال: و الخالق هو اللّه تعالى، حقيقة لا يشاركه فى الخلق غيره، فأخص وصفه هو القدرة و الاختراع، و هذا تفسير اسمه البارئ.

قال و كلّ موجود يصح أن يرى، و اللّه تعالى موجود، فيصح أن يرى، و قد صح السمع بأن المؤمنين يرونه فى الدار الأخرى فى الكتاب و السنة، و لا يجوز أن يرى فى مكان، و لا صورة مقابلة، و اتصال شعاع، فإن ذلك كله محال، و ماهية الرؤية له فيها رأيان، أحدهما: أنه علم مخصوص يتعلق بالوجود دون العدم، و الثانى أنه إدراك وراء العلم، و أثبت السمع و البصر صفتين أزليتين هما إدراكان وراء العلم، و أثبت اليدين و الوجه صفات خبرية، ورد السمع بها، فيجب الاعتراف به، و خالف المعتزلة فى الوعد و الوعيد و السمع و العقل من كل وجه. و قال: الإيمان هو التصديق بالقلب و القول باللسان و العمل بالأركان فروع الإيمان، فمن صدّق بالقلب أى أقرّ بوحدانية اللّه تعالى و اعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاؤا به فهو مؤمن، و صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۵

حكمه إلى اللّه، أما أن يغفر له برحمته أو يشفع له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و إمّا أن يعذبه بعدله ثم يدخله الجنة برحمته و لا يخلد فى النار مؤمن. قال و لا أقول أنه يجب على اللّه سبحانه قبول توبته بحكم العقل، لأنه هو الموجب، لا يجب عليه شىء أصلا، بل قد ورد السمع بقبول توبة التائبين، و إجابة دعوة المضطرّين، و هو المالك لخلقه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم النار لم يكن جورا، و لو أدخلهم الجنة لم يكن حيفا، و لا يتصوّر منه ظلم، و لا ينسب إليه جور، لأنه المالك المطلق، و الواجبات كلها سمعية فلا يوجب العقل شيئا البتة، و لا يقتضى تحسينا و لا تقبيحا، فمعرفة اللّه تعالى و شكر المنعم، و إثابة الطائع، و عقاب العاصى، كلّ ذلك بحسب السمع دون العقل، و لا يجب على اللّه شىء لا صلاح و لا أصلح و لا لطف بل الثواب و الصلاح و اللطف و النعم كلها تفضل من اللّه تعالى، و لا يرجع إليه تعالى نفع و لا ضرّ، فلا ينتفع بشكر شاكر، و لا يتضرّر بكفر كافر، بل يتعالى و يتقدّس عن ذلك، و بعث الرسل جائز لا واجب و لا مستحيل، فإذا بعث اللّه تعالى الرسول و أيده بالمعجزة الخارقة للعادة و تحدّى و دعا الناس، وجب الإصغاء إليه و الاستماع منه و الامتثال لأوامره و الانتهاء عن نواهيه، و كرامات الأولياء حق، و الإيمان بما جاء فى القرآن و السنة من الأخبار عن الأمور الغائبة عنا مثل اللوح و القلم و العرش و الكرسىّ و الجنة و النار حق و صدق، و كذلك الأخبار عن الأمور التى ستقع فى الآخرة، مثل سؤال القبر و الثواب و العقاب فيه و الحشر و المعاد و الميزان و الصراط و انقسام فريق فى الجنة و فريق فى السعير، كلّ ذلك حق و صدق يجب الإيمان و الاعتراف به. و الإمامة تثبت بالاتفاق و الاختيار دون النص و التعيين على واحد معين، و الأئمة مترتبون فى الفضل ترتبهم فى الإمامة. قال و لا أقول فى عائشة و طلحة و الزبير رضى اللّه عنهم إلّا أنّهم رجعوا عن الخطأ، و أقول أن طلحة و الزبير من العشرة المبشرين بالجنة، و أقول فى معاوية و عمرو بن العاص أنهما بغيا على الإمام الحق علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، فقاتلهم مقاتلة أهل البغى، و أقول أن أهل النهروان الشراة هم المارقون عن الدين، و أن عليا رضى اللّه عنه كان على الحق فى جميع أحواله، و الحق معه حيث دار.

فهذه جملة من أصول عقيدته التى عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، و التى من جهر بخلافها أريق دمه، و الأشاعرة يسمون الصفاتية لإثباتهم صفات اللّه تعالى القديمة، ثم افترقوا فى الألفاظ الواردة فى الكتاب و السنة، كالاستواء و النزول و الإصبع و اليد و القدم و الصورة و الجنب، و المجىء على فرقتين، فرقة تؤول جميع ذلك على وجوه محتملة اللفظ، و فرقة لم يتعرّضوا للتأويل و لا صاروا إلى التشبيه، و يقال لهؤلاء الأشعرية الأسرية، فصار للمسلمين فى ذلك خمسة أقوال: أحدها اعتقاد ما يفهم مثله من اللغة، و ثانيها السكوت عنها مطلقا، و ثالثها السكوت عنها بعد نفى إرادة الظاهر، و رابعها حملها على المجاز، و خامسها حملها على الاشتراك، و لكلّ فريق أدلة و حجاج تضمنتهما كتب أصول

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۶

الدين، و لا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربك، و لذلك خلقهم و اللّه يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

فصل: اعلم أن اللّه سبحانه طلب من الخلق معرفته بقوله تعالى: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات/ ۵۶] قال ابن عباس و غيره يعرفون، فخلق تعالى الخلق و تعرّف إليهم بألسنة الشرائع المنزلة، فعرفه من عرفه، سبحانه، منهم على ما عرّفهم فيما تعرّف به

إليهم، و قد كان الناس قبل إنزال الشرائع الرسل عليهم السلام، علمهم بالله تعالى إنما هو بطريق التنزيه له عن سمات الحدوث، و عن التركيب، و عن الافتقار. و يصفونه سبحانه بالاقتدار المطلق، و هذا التنزيه هو المشهور عقلا، و لا يتعدّاه عقل أصلا، فلما أنزل اللّه شريعته على رسوله محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و أكمل دينه، كان سبيل العارف بالله أن يجمع فى معرفته بالله بين معرفتين، إحداهما المعرفة التى تقتضيها الأدلة العقلية، و الأخرى المعرفة التى جاءت بها الاخبارات الإلهية، و أن يردّ علم ذلك إلى اللّه تعالى، و يؤمن به و بكل ما جاءت به الشريعة على الوجه الذى أراده اللّه تعالى، من غير تأويل بفكره و لا تحكم فيه برأيه، و ذلك أن الشرائع إنما أنزلها اللّه تعالى لعدم استقلال العقول البشرية بإدراك حقائق الأشياء على ما هى عليه فى علم اللّه، و أنّى لها ذلك و قد تقيدت بما عندها من إطلاق ما هنالك، فإن وهبها علما بمراده من الأوضاع الشرعية، و منحها الاطلاع على حكمه فى ذلك، كان من فضله تعالى، فلا يضيف العارف هذه المنة إلى فكره، فإن تنزيهه لربه تعالى بفكره و يجب أن يكون مطابقا لما أنزله سبحانه على لسان رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم من الكتاب و السنة، و إلّا فهو تعالى منزه عن تنزيه عقول البشر بأفكارها، فإنها مقيدة بأوطارها، فتنزيهها كذلك مقيد بحسبها و بموجب أحكامها و آثارها، إلّا إذا خلت عن الهوى فإنها حينئذ يكشف اللّه لها الغطاء عن بصائرها، و يهديها إلى الحق، فتنزه اللّه تعالى عن التنزيهات العرفية بالأفكار العادية، و قد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة فى الصفات و نقلها و تبليغها من غير خلاف بينهم فى ذلك، ثم أجمع أهل الحق منهم على أن هذه الأحاديث مصروفة عن احتمال مشابهة الخلق، لقول اللّه تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى/ ۱۱] و لقول اللّه تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ [الاخلاص/ ۲] و هذه السورة يقال لها سورة الاخلاص، و قد عظم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم شأنها، و رغّب أمته فى تلاوتها، حتى جعلها تعدل ثلث القرآن من أجل أنها شاهدة بتنزيه اللّه تعالى، و عدم الشبه و المثل له سبحانه، و سميت سورة الإخلاص لاشتمالها على إخلاص التوحيد للّه عن أن يشوبه ميل إلى تشبيهه بالخلق، و أمّا الكاف التى فى قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى/ ۱۱] فإنها زائدة، و قد تقرّر أن الكاف و المثل فى كلام العرب اتيا للتشبيه، فجمعهما اللّه تعالى ثم نفى بهما عنه ذلك، فإذا ثبت إجماع المسلمين على جواز رواية هذه الأحاديث و نقلها، مع إجماعهم على أنها مصروفة عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۷

التشبيه، لم يبق فى تعظيم اللّه تعالى بذكرها إلّا نفى التعطيل، لكون أعداء المرسلين سموا ربهم سبحانه أسماء نفوا فيها صفاته العلا، فقال قوم من الكفار هو طبيعة، و قال آخرون منهم هو علة، إلى غير ذلك من إلحادهم فى أسمائه سبحانه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الأحاديث المشتملة على ذكر صفات اللّه العلا، و نقلها عنه أصحابه البررة، ثم نقلها عنهم أئمة المسلمين حتى انتهت إلينا، و كلّ منهم يرويها بصفتها من غير تأويل لشىء منها، مع علمنا أنهم كانوا يعتقدون أن اللّه سبحانه و تعالى ليس كمثله شىء و هو السميع البصير، ففهمنا من ذلك أن اللّه تعالى أراد بما نطق به رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم من هذه الأحاديث، و تناولها عنه الصحابة رضى اللّه عنهم و بلغوها لأمّته، أن يغص بها فى حلوق الكافرين، و أن يكون ذكرها نكتا فى قلب كلّ ضال معطل مبتدع يقفو أثر المبتدعة من أهل الطبائع و عباد العلل، فلذلك وصف اللّه تعالى نفسه الكريمة بها فى كتابه، و وصفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أيضا بما صح عنه و ثبت، فدل على أن المؤمن إذا اعتقد أن اللّه ليس كمثله شىء و هو السميع البصير، و أنه أحد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد، كان ذكره لهذه الأحاديث تمكين الإثبات، و شجا فى حلوق المعطلة، و قد قال الشافعىّ: رحمه اللّه «الإثبات أمكن» نقله الخطابىّ و لم يبلغنا عن أحد من الصحابة و التابعين و تابعيهم أنهم أوّلوا هذه الأحاديث، و الذى يمنع من تأويلها إجلال اللّه تعالى عن أن تضرب له الأمثال، و أنه إذا نزل القرآن بصفة من صفات اللّه تعالى، كقوله سبحانه: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [الفتح/ ۱۰] فإن نفس تلاوة هذا يفهم منها السامع المعنى المراد به، و كذا قوله تعالى: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ [المائدة/ ۶۴] عند حكايته تعالى عن اليهود نسبتهم إياه إلى البخل فقال تعالى: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ [المائدة/ ۶۴] فإن نفس تلاوة هذا مبينة للمعنى المقصود، و أيضا فإن تأويل هذه الأحاديث يحتاج أن يضرب للّه تعالى فيها المثل نحو قولهم فى قوله تعالى: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ

اسْتَوى [طه/ ۵] الاستواء الاستيلاء، كقولك استوى الأمير على البلد، و أنشدوا:

قد استوى بشر على العراق فلزمهم تشبيه البارى تعالى ببشر، و أهل الإثبات نزهو إجلال اللّه عن أن يشبهوه بالأجسام حقيقة و لا مجازا، و علموا مع ذلك أن هذا النطق يشتمل على كلمات متداولة بين الخالق و خلقه، و تحرّجوا أن يقولوا مشتركة، لأن اللّه تعالى لا شريك له، و لذلك: لم يتأول السلف شيئا من أحاديث الصفات، مع علمنا قطعا أنها عندهم مصروفة عما يسبق إليه ظنون الجهال من مشابهتها الصفات المخلوقين، و تأمّل تجد اللّه تعالى لمّا ذكر المخلوقات المتولدة من الذكر و الأنثى فى قوله سبحانه: جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً [الشورى/ ۱۱] يذرؤكم فيه علم سبحانه ما يخطر بقلوب الخلق، فقال عز من قائل: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى: ۱۱].

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۸

و اعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك و علوّ اليد على جميع الأمم، و جلالة الخطر فى أنفسها، بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار و الأسياد، و كانوا يعدّون سائر الناس عبيدا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب، و كانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا، تعاظمهم الأمر و تضاعفت لديهم المصيبة، و راموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى، و فى كل ذلك يظهر اللّه تعالى الحق، و كان من قائميهم سنفاد و اشنيس و المقفع و بابك و غيرهم، و قبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب خداشا، و أبو مسلم السروح، فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام و استمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و استبشاع ظلم علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى، فقوم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر يدعى المهدىّ، عنده حقيقة الدين إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين عن كفار، إذ نسبوا أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الكفر، و قوم خرجوا إلى القول بادعاء النبوّة لقوم سموهم به، و قوم سلكوا بهم إلى القول بالحلول و سقوط الشرائع، و آخرون تلاعبوا بهم فأوجبوا عليهم خمسين صلاة فى كل يوم و ليلة، و آخرون قالوا بل هى سبع عشرة صلاة فى كل صلاة خمس عشرة ركعة، و هو قول عبد اللّه بن عمرو بن الحارث الكندىّ، قبل أن يصير خارجيا صفريا، و قد أظهر عبد اللّه بن سبأ الحميرىّ اليهودىّ الإسلام ليكيد أهله، فكان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و احرق علىّ رضى اللّه عنه منهم طوائف أعلنوا بإلهيته، و من هذه الأصول حدثت الإسماعيلية و القرامطة.

و الحق الذى لا ريب فيه أن دين اللّه تعالى ظاهر لا باطن فيه، و جوهر لا سرّ تحته، و هو كله لازم كل أحد لا مسامحة فيه، و لم يكتم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الشريعة و لا كلمة، و لا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ولد عمّ على شىء من الشريعة، كتمه عن الأحمر و الأسود و رعاة الغنم، و لا كان عنده صلّى اللّه عليه و سلّم سرّ و لا رمز و لا باطن غير ما دعا الناس كلها إليه، و لو كتم شيئا لما بلغ كما أمر، و من قال هذا فهو كافر بإجماع الأمّة، و أصل كلّ بدعة فى الدين البعد عن كلام السلف و الانحراف عن اعتقاد الصدر الأوّل، حتى بالغ القدرىّ فى القدر فجعل العبد خالقا لأفعاله، و بالغ الجبرىّ فى مقابلته فسلب عنه الفعل و الاختيار، و بالغ المعطل فى التنزيه فسلب عن اللّه تعالى صفات الجلال و نعوت الكمال، و بالغ المشبه فى مقابلته فجعله كواحد من البشر، و بالغ المرجئ فى سلب العقاب، و بالغ المعتزلىّ فى التخليد فى العذاب، و بالغ الناصبىّ فى دفع علىّ رضى اللّه عنه عن الإمامة، و بالغت الغلاة حتى جعلوه إلها، و بالغ السنىّ فى تقديم أبى بكر رضى اللّه عنه، و بالغ الرافضىّ فى تأخيره حتى كفره، و ميدان الظنّ واسع و حكم الوهم غالب، فتعارضت الظنون و كثرت الأوهام و بلغ كل فريق فى الشرّ و العناد و البغى و الفساد إلى أقصى غاية، و أبعد نهاية، و تباغضوا و تلاعنوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۹

و استحلوا الأموال و استباحوا الدماء، و انتصروا بالدول و استعانوا بالملوك، فلو كان أحدهم إذا بالغ فى أمر نازع الآخر فى القرب منه،

فإن الظنّ لا يبعد عن الظنّ كثيرا و لا ينتهى فى المنازعة إلى الطرف الآخر من طرفى التقابل، لكنهم أبو إلّا ما قدّمناه ذكره من التدابر و التقاطع، و لا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربك.

ذكر المدارس

اشارة

قال ابن سيده: درس الكتاب يدرسه درسا و دراسة، و دارسه من ذلك كأنه عاوده، حتى انقاد لحفظه. و قرىء بهما و ليقولوا درست و دارست ذاكرتهم، و حكى درست أى قرئت و قرىء درست أى هذه أخبار قد عفت و انمحت، و درّست أشدّ مبالغة، و الدراس المدارسة، و قال ابن جنى: و درسته إياه و أدرسته، و من الشاذ قراءة ابن حيوة، و بما كنتم تدرسون، و المدارس الموضع الذى يدرس فيه، و قد ذكر الواقدىّ أن عبد اللّه ابن أمّ مكتوم قدم مهاجرا إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضى اللّه عنهما، و قيل قدم بعد بدر بيسير، فنزل دار القرّاء، و لما أراد الخليفة المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أبى أحمد طلحة بن المتوكل على اللّه جعفر بناء قصره فى الشماسية ببغداد، استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد، فسئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبنى فيه دورا و مساكن و مقاصير، يرتب فى كل موضع رؤساء كلّ صناعة و مذهب من مذاهب العلوم النظرية و العملية، و يجرى عليهم الأرزاق السنية، ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه.

و المدارس مما حدث فى الإسلام، و لم تكن تعرف فى زمن الصحابة و لا التابعين، و إنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة، و أوّل من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها بالمدرسة البيهقية، و بنى بها أيضا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، و بنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، و بنى بها أيضا المدرسة السعيدية، و بنى بها أيضا مدرسة رابعة، و أشهر ما بنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد، لأنّها أوّل مدرسة قرّر بها للفقهاء معاليم، و هى منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبى علىّ الحسن بن علىّ بن إسحاق بن العباس الطوسىّ، وزير ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق فى مدينة بغداد، و شرع فى بنائها فى سنة سبع و خمسين و أربعمائة، و فرغت فى ذى القعدة سنة تسع و خمسين و أربعمائة، و درس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازىّ الفيروزآبادى، صاحب كتاب التنبيه فى الفقه على مذهب الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه و رحمه، فاقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق و خراسان و ما وراء النهر و فى بلاد الجزيرة و ديار بكر. و أمّا مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين، و مذهبهم مخالف لهذه الطريقة، و إنما هم شيعة إسماعيلية كما تقدّم، و أوّل ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر، فى خلافة العزيز بالله نزار بن المعز،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۰

و وزارة يعقوب بن كلس، فعمل ذلك بالجامع الأزهر كما تقدّم ذكره، ثم عمل فى دار الوزير يعقوب بن كاس مجلس يحضره الفقهاء، فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم، و عمل أيضا مجلس بجامع عمرو بن العاص من مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير، ثم بنى الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور بن العزيز دار العلم بالقاهرة كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، فلما انقرضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر، و أقام بها مذهب الإمام الشافعىّ، و مذهب الإمام مالك، و اقتدى بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، فإنه بنى بدمشق و حلب و أعمالهما عدّة مدارس للشافعية و الحنفية، و بنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر. و أوّل مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضا، ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة، ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس بالقاهرة و مصر و غيرهما من أعمال مصر و بالبلاد الشامية و الجزيرة أولاده، و أمراؤه، ثم حذا حذوهم من ملك مصر

بعدهم من ملوك الترك و أمرائهم و أتباعهم إلى يومنا هذا، و سأذكر ما بديار مصر من المدارس، و أعرّف بحال من بناها على ما اعتدته فى هذا الكتاب من التوسط دون الإسهاب، و بالله استعين.

المدرسة الناصرية

بجوار الجامع العتيق من مدينة مصر من قبليه، هذه المدرسة عرفت أوّلا- بالمدرسة الناصرية، ثم عرفت بابن زين التجار، و هو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقىّ، المعروف بابن زين التجار، أحد أعيان الشافعية. درّس بهذه المدرسة مدّة طويلة، و مات فى ذى القعدة سنة إحدى و تسعين و خمسمائة، ثم عرفت بالمدرسة الشريفة، و هى إلى الآن تعرف بذلك، و كان موضعها يقال له الشرطة، و ذكر الكندىّ أنها خطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارىّ، و عرفت بدار الفلفل. و قال ابن عبد الحكم كانت فضاء قبل ذلك، و قيل كانت هى و الدار التى إلى جانبها لنافع بن عبد اللّه بن قيس الفهرىّ، فأخذها منه قيس بن سعد، و سمّيت دار الفلفل لأن أسامة بن زيد التنوخىّ صاحب الخراج بمصر، ابتاع من موسى بن وردان فلفلا بعشرين ألف دينار ليهديه إلى صاحب الروم، فخزّنه فيها، و لما فرغ عيسى بن يزيد الجلودىّ من بناء زيادة الجامع، بنى هذه الدار شرطة فى سنة ثلاث عشرة و مائتين، ثم صارت سجنا تعرف بالمعونة، فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى أوّل المحرّم سنة ست و ستين و خمسمائة، و أنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية، و كان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد، و كان هذا من أعظم ما نزل بالدولة، و هى أوّل مدرسة عملت بديار مصر، و لما كملت وقف عليها الصاغة، و كانت بجوارها، و قد خربت و بقى منها شىء يسير قرأت عليها اسم الخليفة العزيز بالله، و وقف عليها أيضا قرية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۱

تعرف ... و أول من ولى التدريس بها ابن زين التجار، فعرفت به، ثم درس بها بعدد ابن قطيطة بن الوزان، ثم من بعده كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ، و بعده الشريف القاضى شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن الحسين بن محمد الحنفىّ قاضى العسكر الأرموى، فعرفت به. و قيل لها المدرسة الشريفة من عهده إلى اليوم، و لو لا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت، فإن الكيمان ملاصقة لها بعد ما كان حولها أعمر موضع فى الدنيا، و قد ذكر حبس المعونة عند ذكر السجون من هذا الكتاب.

المدرسة القمحية

هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق بمصر، كان موضعها يعرف بدار الغزل، و هو قيسارية يباع فيها الغزل، فعدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و أنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية، و كان الشروع فيها للنصف من المحرّم سنة ست و ستين و خمسمائة، و وقف عليها قيسارية الورّاقين، و علوها بمصر، و ضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية، و رتب فيها أربعة من المدرّسين عند كل مدرّس عدّة من الطلبة، و هذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكية، و يتحصل لهم من ضيعتهم التى بالفيوم قمح يفرّق فيهم، فلذلك صارت لا تعرف إلّا بالمدرسة القمحية إلى اليوم، و قد أحاط بها الخراب، و لو لا ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت. و فى شعبان سنة خمس و عشرين و ثمانمائة أخرج السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقىّ ناحيتى الاعلام و الحنبوشية، و كانتا من وقف السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على هذه المدرسة، و أنعم بهما على مملوكين من مماليكه ليكونا إقطاعا لهما.

مدرسة يازكوج

هذه المدرسة بسوق الغزل فى مدينة مصر، و هى مدرسة معلقة بناها ... .

مدرسة ابن الأرسوفيّ

هذه المدرسة كانت بالبزازين التى تجاور خط النخالين بمصر، عرفت بابن الأرسوفيّ التاجر العسقلانيّ، و كان بناؤها فى سنة سبعين و خمسمائة، و هو عفيف الدين عبد اللّه بن محمد الأرسوفيّ، مات بمصر فى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الأوّل سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۲

مدرسة منازل العز

هذه المدرسة كانت من دور الخلفاء الفاطميين، بنتها أمّ الخليفة العزيز باللّه بن المعز، و عرفت بمنازل العز، و كانت تشرف على النيل، و صارت معدّة لنزهة الخلفاء، و ممن سكنها ناصر الدولة حسين بن حمدان إلى أن قتل، و كان بجانبها حمّام يعرف بحمّام الذهب من جملة حقوقها، و هى باقية. فلما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف، أنزل فى منازل العز الملك المظفر تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فسكنها مدّة، ثم إنه اشتراها و الحمّام و الإصطبل المجاور لها من بيت المال فى شهر شعبان سنة ست و ستين و خمسمائة، و أنشأ فندقين بمصر بخط الملاحين، و أنشأ ربعا بجوار أحد الفندقين، و اشترى جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة، فلما أراد أن يخرج من مصر إلى الشام وقف منازل العز على فقهاء الشافعية، و وقف عليها الحمّام و ما حولها، و عمر الاصطبل فندقا عرف بفندق النخلة و وقفه عليها، و وقف عليها الروضة، و درّس بها شهاب الدين الطوسيّ و قاضى القضاة عماد الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد العليّ السكريّ، و عدّة من الأعيان. و هى الآن عامرة بعمارة ما حولها.

الملك المظفر تقيّ الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان، و هو ابن أخى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قدم إلى القاهرة فى ... و استنابه السلطان على دمشق فى المحرّم سنة إحدى و سبعين، ثم نقله إلى نيابة حماه، و سلّم إليه سنجار لما أخذها فى ثانى رمضان سنة ثمان و سبعين، فأقام بها و لحق السلطان على حلب فقدم عليه فى سابع صفر سنة تسع و سبعين، فأقام إلى أن بعثه إلى القاهرة نائبا عنه بديار مصر عوضا عن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، فقدمها فى شهر رمضان سنة تسع و سبعين، و أنعم عليه بالفيوم و أعمالها مع القايات و بوش، و أبقى عليه مدينة حماه. ثم خرج بعساكر مصر إلى السلطان و هو بدمشق فى سنة ثمانين لاجل أخذ الكرك من الفرنج، فسار إليها و حصرها مدّة ثم رجع مع السلطان إلى دمشق، و عاد إلى القاهرة فى شعبان و قد أقام السلطان على مملكة مصر ابنه الملك العزيز عثمان، و جعل الملك المظفر كافلا له و قائما بتدبير دولته، فلم يزل على ذلك إلى جمادى الأولى سنة اثنتين و ثمانين، فصرف السلطان أخاه الملك العادل عن حلب و أعطاه نيابة مصر، فغضب الملك المظفر و عبر بأصحابه إلى الجيزة يريد المسير إلى بلاد المغرب و اللحاق بغلامه بهاء الدين قراقوش التقوىّ، فبلغ السلطان ذلك فكتب إليه و لم يزل به حتى زال ما به، و سار إلى السلطان فقدم عليه دمشق فى ثالث عشرى شعبان، فأقرّه على حماه و المعرّة و منبج، و أضاف إليه ميافارقين، فلحق به أصحابه ما خلا مملوكه زين الدين بوزيا، فإنه سار إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۳

بلاد المغرب، و كانت له فى أرض مصر و بلاد الشام أخبار و قصص، و عرفت له مواقف عديدة فى الحرب مع الفرنج، و آثار فى المصافات، و له فى أبواب البرّ أفعال حسنة، و له بمدينة الفيوم مدرستان إحداهما للشافعية و الأخرى للمالكية، و بنى مدرسة بمدينة الرها، و سمع الحديث من السلفيّ و ابن عوف، و كان عنده فضل و أدب، و له شعر حسن، و كان جوادا شجاعا مقداما شديد البأس عظيم الهمة كثير الإحسان، و مات فى نواحى خلاط ليلة الجمعة تاسع شهر رمضان سنة سبع و ثمانين و خمسمائة، و نقل إلى حماه فدفن بها فى تربة بناها على قبره ابنه الملك المنصور محمد.

مدرسة العادل

هذه المدرسة بخط الساحل بجوار الربع العادلىّ من مدينة مصر الذى وقف على الشافعىّ، عمرها الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، درس بها قاضى القضاة تقىّ الدين أبو علىّ الحسين بن شرف الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن الفقيه جلال الدين أبى محمد عبد اللّه بن نجم بن شاس بن نزار بن عشائر بن عبد اللّه بن محمد بن شاس. فعرفت به، و قيل لها مدرسة ابن شاس إلى اليوم، و هى عامرة، و عرف خطها بالقشاشين و هى للمالكية.

مدرسة ابن رشيق

هذه المدرسة للمالكية، و هى بخط حمّام الريش من مدينة مصر، كان الكاتم من طوائف التكرور لما وصلوا إلى مصر فى سنة بضع و أربعين و ستمائة، قاصدين الحج، دفعوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالا بناها به، و درّس بها فعرفت به، و صار لها فى بلاد التكرور سمعة عظيمة، و كانوا يبعثون إليها فى غالب السنين المال.

المدرسة الفائزية

هذه المدرسة فى مصر بخط ... أنشأها الصاحب شرف الدين هبة اللّه بن صاعد بن وهيب الفائزىّ قبل وزارته، فى سنة ست و ثلاثين و ستمائة، و درّس بها القاضى محيى الدين عبد اللّه بن قاضى القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة، ثم قاضى القضاة صدر الدين موهوب الجزرىّ، و هى للشافعية.

المدرسة القطبية

هذه المدرسة بالقاهرة فى خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريرىّ، كانت هى
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۴
و المدرسة السيفية من حقوق دار الديباج التى تقدّم ذكرها، و أنشأ هذه المدرسة الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدبانىّ، فى سنة سبعين و خمسمائة، و جعلها وقفا على الفقهاء الشافعية، و هو أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

المدرسة السيوفية

هذه المدرسة بالقاهرة، و هى من جملة دار الوزير المأمون البطائحىّ، وقفها السلطان السيد الأجل الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب على الحنفية، و قرّر فى تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتى، و رتب له فى كل شهر أحد عشر دينارا، و باقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه للطلبة الحنفية المقرّرين عنده على قدر طبقاتهم، و جعل النظر للجبتى، و من بعده إلى من له النظر فى أمور المسلمين، و عرفت بالمدرسة السيوفية، من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها، و هى الآن تجاه سوق الصنادقيين، و قدوهم القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر فإنه قال فى كتاب الروضة الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة: مدرسة السيوفية و هى للحنفية، وقفها عز الدين فرحشاه قريب صلاح الدين و ما أدرى كيف وقع له هذا الوهم، فإن كتاب وقفها موجود، قد وقفت عليه و لخصت منه ما ذكرته، و فيه أن واقفها السلطان صلاح الدين و خطه على كتاب الوقف و نصه: الحمد للّه و به توفيقى، و تاريخ هذا الكتاب تاسع عشرى شعبان سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و وقف على مستحقيها اثنين و ثلاثين حانوتا بخط سويقة أمير الجيوش و باب الفتوح و حارة برجوان، و ذكر فى آخر كتاب وقفها أن الواقف أذن لمن حضر مجلسه من العدول فى الشهادة و

القضاء على لفظه بما تضمنه المسطور، فشهدوا بذلك و أثبتوا شهادتهم آخره، و حكم حاكم المسلمين على صحة هذا الوقف بعد ما خاصم رجل من أهل هذا الوقف فى ذلك، و أمضاه. لكنه لم يذكر فى الكاتب اسجال القاضى بثبوته بل ذكر رسم شهادة الشهود على الواقف، و هم علىّ بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصارىّ الدمشقىّ، و القاسم بن يحيى بن عبد اللّه بن قاسم الشهرزورىّ، و عبد اللّه بن عمر بن عبد اللّه الشافعىّ، و عبد الرحمن بن علىّ بن عبد العزيز بن قريش المخزومىّ، و موسى بن حكر بن موسك الهدبانىّ فى آخرين. و هذه المدرسة هى أوّل مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر، و هى باقية بأيديهم.

المدرسة الفاضلية

هذه المدرسة بدرب ملوخيا من القاهرة، بناها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ، بجوار داره، فى سنة ثمانين و خمسمائة، و وقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية و المالكية، و جعل فيها قاعة للإقراء، أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبىّ ناظم الشاطبية، ثم تلميذه أبو عبد اللّه محمد بن عمر القرطبىّ، ثم الشيخ علىّ بن موسى الدهان و غيرهم، و رتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامة الاسكندرانىّ، و وقف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۵

بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم، يقال أنها كانت مائة ألف مجلد، و ذهبت كلها. و كان أصل ذهابها أن الطلبة التى كانت بها، لما وقع الغلاء بمصر فى سنة أربع و تسعين و ستمائة، و السلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصورىّ، مسهم الضرّ، فصاروا يبيعون كلّ مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعارية، فتفرّقت، و بها إلى الآن مصحف قرآن كبير القدر جدّا، مكتوب بالخط الأوّل الذى يعرف بالكوفىّ، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان، و يقال أن القاضى الفاضل اشتراه بنيف و ثلاثين ألف دينار، على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و هو فى خزانة مفردة له بجانب المحراب من غربيه، و عليه مهابة و جلالة، و إلى جانب المدرسة كتّاب برسم الأيتام، و كانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة و أجلها، و قد تلاشت لخراب ما حولها.

عبد الرحيم: بن علىّ بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد القاضى الفاضل محيى الدين أبو علىّ ابن القاضى الأشرف اللخمىّ العسقلانىّ البيسانىّ المصرىّ الشافعىّ، كان أبوه يتقلد قضاء مدينة بيسان، فلهذا نسبوا إليها، و كانت ولادته بمدينة عسقلان فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع و عشرين و خمسمائة، ثم قدم القاهرة و خدم الموفق يوسف بن محمد بن الجلال، صاحب ديوان الإنشاء فى أيام الحافظ لدين اللّه، و عنه أخذ صناعة الإنشاء، ثم خدم بالإسكندرية مدّة، فلما قام بوزارة مصر العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، خرج أمره إلى والى الإسكندرية بتسييره إلى الباب، فلما حضر استخدمه بحضرته و بين يديه فى ديوان الجيش، فلما مات الموفق بن الجلال فى سنة ست و ستين و خمسمائة، و كان القاضى الفاضل ينوب عنه فى ديوان الإنشاء، عينه الكامل بن شاور و سعى له عند أبيه الوزير شاور بن مجير، فأقرّه عوضا عن ابن الجلال فى ديوان الإنشاء، فلما ملك أسد الدين شيركوه احتاج إلى كاتب فأحضره، و أعجبه اتقانه و سمته و نصحه، فاستكتبه إلى أن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب، فاستخلصه و حسن اعتقاده فيه، فاستعان به على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية حتى تم مراده، فجعله وزيره و مشيره، بحيث كان لا يصدر أمرا إلا عن مشورته، و لا ينفذ شيئا إلا عن رأيه، و لا يحكم فى قضية إلا بتدبيره، فلما مات صلاح الدين استمرّ على ما كان عليه عند ولده الملك العزيز عثمان فى المكانة و الرفعة، و تقلد الأمر، فلما مات العزيز و قام من بعده ابنه الملك المنصور بالملك و دبر أمره عمه الأفضل، كان معهما على حاله إلى أن وصل الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام لأخذ ديار مصر، و خرج الأفضل لقتاله، فمات منكوبا أحوج ما كان إلى الموت عند تولى الإقبال و إقبال الإدبار فى سحر يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر سنة ست و تسعين و خمسمائة، و دفن بتربته من القرافة الصغرى.

قال ابن خلكان وزر للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و تمكن منه غاية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۶

التمكن، و برز فى صناعة الإنشاء و فاق المتقدّمين، و له فيه الغرائب مع الإكثار. أخبرنى أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره، أنّ مسودّات رسائله فى المجلدات و التعليقات فى الأوراق، إذا جمعت ما تقصر عن مائة، و هو مجيد فى أكثرها. و قال عبد اللطيف البغدادىّ: دخلنا عليه فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس و قلب، و هو يكتب و يملى على اثنين، و وجهه و شفتاه تلعب ألوان الحركات لقوّة حرصه فى إخراج الكلام، و كأنه يكتب بجملة أعضائه، و كان لغرام فى الكتابة و تحصيل الكتب، و كان له الدين و العفاف و التقى و المواظبة على أوراد الليل، و الصيام و قراءة القرآن، و كان قليل اللذات كثير الحسنات دائم التهجد، و يشتغل بعلوم الأدب و تفسير القرآن، غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو، و لكن قوّة الدراية توجب له قلة اللحن، و كان لا يكاد يضيع من زمانه شيئا إلّا فى طاعة، و كتب فى الإنشاء ما لم يكتبه غيره.

و حكى لى ابن القطان أحد كتابه قال: لما خطب صلاح الدين بمصر للإمام المستضىء بأمر اللّه، تقدّم إلى القاضى الفاضل بأن يكاتب الديوان العزيز و ملوك الشرق، و لم يكن يعرف خطابهم و اصطلاحهم، فأوغر إلى العماد الكاتب أن يكتب، فكتب و احتفل و جاء بها مفضوضة ليقرأها الفاضل متبجحا بها فقال: لا أحتاج أن أقف عليها، و أمر بختمها و تسليمها إلى النجاب و العماد يبصر. قال: ثم أمرنى أن ألحق النجاب ببلبيس و أن أفض الكتب و أكتب صدورها و نهايتها، ففعلت و رجعت بها إليه، فكتب على حذوها و عرضها على السلطان فارتضاها و أمر بإرسالها إلى أربابها مع النجاب، و كان متقللا فى مطعمه و منكحه و ملبسه، و لباسه البياض لا يبلغ جميع ما عليه دينارين، و يركب معه غلام و ركابىّ، و لا يمكن أحدا أن يصحبه، و يكثر زيارة القبور و تشييع الجنائز و عيادة المرضى، و له معروف فى السرّ و العلانية، و أكثر أوقاته يفطر بعد ما يتهوّر الليل، و كان ضعيف البنية رقيق الصورة له حدبة يغطيها الطيلسان، و كان فيه سوء خلق يكمد به فى نفسه و لا يضرّ أحدا به، و لأصحاب الأدب عنده نفاق يحسن إليهم و لا يمنّ عليهم، و يؤثر أرباب البيوت و الغرباء، و لم يكن له انتقام من أعدائه إلا بالإحسان إليهم أو بالإعراض عنهم، و كان دخله فى كلّ سنة من إقطاع و رباع و ضياع خمسين ألف دينار سوى متاجره للهند و المغرب و غيرهما، و كان يقتنى الكتب من كل فنّ و يجتلبها من كل جهة، و له نسّاخ لا يفترون، و مجلدون لا يبطلون. قال لى بعض من يخدمه فى الكتب: أنّ عددها قد بلغ مائة ألف و أربعة و عشرين ألفا، و هذا قبل موته بعشرين سنة. و حكى لى ابن صورة الكتبىّ: أن ابنه القاضى الأشرف التمس منى أن أطلب له نسخة الحماسة ليقرأها، فأعلمت القاضى الفاضل، فاستحضر من الخادم الحماسات، فأحضر له خمسا و ثلاثين نسخة، و صار ينفض نسخة نسخة و يقول: هذه بخط فلان، و هذه عليها خط فلان، حتى أتى على الجميع و قال: ليس فيها ما يصلح للصبيان، و أمرنى أن أشترى له نسخة بدينار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۷

المدرسة الأزكشية

هذه المدرسة بالقاهرة على رأس السوق الذى كان يعرف بالخروقيين، و يعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش، بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدىّ، مملوك أسد الدين شيركوه، و أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و جعلها وقفا على الفقهاء من الحنفية فقط، فى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة، و كان أيازكوج رأس الأمراء الأسدية بديار مصر فى أيام السلطان صلاح الدين، و أيام ابنه الملك العزيز عثمان، و كان الأمير فخر الدين جهاركس رأس الصلاحية، و لم يزل على ذلك إلى أن مات فى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر سنة تسع و تسعين و خمسمائة، و دفن بسفح المقطم بالقرب من رباط الأمير فخر الدين بن قزل.

المدرسة الفخرية

هذه المدرسة بالقاهرة فيما بين سويقة الصاحب و درب العدّاس، عمرها الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومىّ، أستادار الملك الكامل محمد بن العادل، و كان الفراغ منها فى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، و كان موضعها أخيرا يعرف بدار الأمير حسام الدين ساروح بن أرتق شادّ الدواوين، و مولد الأمير فخر الدين فى سنة إحدى و خمسين و خمسمائة بحلب، و تنقل فى الخدم حتى صار أحد الأمراء بديار مصر، و تقدّم فى أيام الملك الكامل، و صار أستاداره و إليه أمر المملكة و تدبيرها إلى أن سافر السلطان من القاهرة يريد بلاد المشرق، فمات بحرّان بعد مرض طويل فى ثامن عشر ذى الحجة سنة تسع و عشرين و ستمائة، و كان خيّرا كثير الصدقة يتفقد أرباب البيوت، و له من الآثار سوى هذه المدرسة المسجد الذى تجاهها، و له أيضا رباط بالقرافة و إلى جانبه كتاب سبيل، و بنى بمكة رباطا.

المدرسة السيفية

هذه المدرسة بالقاهرة فيما بين خط البندقانيين و خط الملحيين، و موضعها من جملة دار الديباج، قال ابن عبد الظاهر كانت دارا و هى من المدرسة القطبية، فسكنها شيخ الشيوخ، يعنى صدر الدين محمد بن حموية، و بنيت فى وزارة صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكران سيف الإسلام، و وقفها و ولى فيها عماد الدين ولد القاضى صدر الدين، يعنى ابن درباس، و سيف الإسلام هذا اسمه طفتكين بن أيوب.

طفتكين: ظهير الدين سيف الإسلام الملك المعز بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان الأيوبىّ، سيّره أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بلاد اليمن فى سنة سبع و سبعين و خمسمائة، فملكها و استولى على كثير من بلادها، و كان شجاعا كريما مشكور السيرة حسن السياسة، قصده الناس من البلاد الشاسعة يستمطرون إحسانه و برّه، و سار إليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۸

شرف الدين بن عنين و مدحه بعدّة قصائد بديعة، فأجزل صلاته و أكثر من الإحسان إليه، و اكتسب من جهته مالا وافرا، و خرج من اليمن، فلما قدم إلى مصر و السلطان إذ ذاك الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع زكاة ما معه من المتجر فعمل:

ما كلّ من يتسمى بالعزيز لهاأهل و لا كلّ برق سحبه غدقه

بين العزيزين فرق فى فعالهماهذّاك يعطى و هذا يأخذ الصدقه

و توفى سيف الإسلام فى شوّال سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة بالمنصورة، و هى مدينة باليمن اختطها رحمه اللّه تعالى.

المدرسة العاشورية

هذه المدرسة بحارة زويلة من القاهرة، بالقرب من المدرسة القطبية الجديدة و رحبة كوكاى. قال ابن عبد الظاهر: كانت دار اليهودىّ ابن جميع الطبيب، و كان يكتب لقراقوش، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروج الأسدىّ، زوجة الأمير أيازكوج الأسدىّ، و وقفتها على الحنفية، و كانت من الدور الحسنة، و قد تلاشت هذه المدرسة و صارت طول الأيام مغلوقة لا تفتح إلّا قليلا، فإنها فى زقاق لا يسكنه إلّا اليهود و من يقرب منهم فى النسب.

المدرسة القطبية

هذه المدرسة فى أوّل حارة زويلة برحبة كوكاى، عرفت بالست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون، المعروفة بدار إقبال العلائى، ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و شقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد، و إليه نسبت، و كانت ولادتها فى سنة

ثلاث و ستمائة، و وفاتها ليلة الرابع و العشرين من ربيع الآخر سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، و كانت قد سمعت الحديث و خرّج لها الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد الظاهرىّ أحاديث ثمانيات حدّثت بها، و كانت عاقلة دينة فصيحة، لها أدب و صدقات كثيرة، و تركت مالا- جزيلا- و أوصت ببناء مدرسة يجعل فيها فقهاء و قرّاء، و يشترى لها وقف يغلّ، فبنيت هذه المدرسة، و جعل فيها درس للشافعية و درس للحنفية. و قرّاء، و هى إلى اليوم عامرة.

المدرسة الخرّوبية

هذه المدرسة على شاطىء النيل من مدينة مصر، أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبىّ، لما أنشأ بيتا كبيرا مقابل بيت أخيه عز الدين قبليه على شاطىء النيل، و جعل فيه هذه المدرسة، و هى ألطف من مدرسة أخيه، و بجنبها مكتب سبيل، و وقف عليها أوقافا، و جعل بها مدرّس حديث فقط، مات بمكة فى آخر المحرّم سنة خمس و ثمانين و سبعمائة.
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۹

مدرسة المحلىّ

هذه المدرسة على شاطىء النيل داخل صناعة التمر ظاهر مدينة مصر، أنشأها رئيس التجار برهان الدين إبراهيم بن عمر بن علىّ المحلىّ ابن بنت العلامة شمس الدين محمد بن اللبان، و ينتمى فى نسبه إلى طلحة بن عبيد اللّه، أحد العشرة رضى اللّه عنهم، و جعل هذه المدرسة بجوار داره التى عمرها فى مدّة سبع سنين، و أنفق فى بنائها زيادة على خمسين ألف دينار، و جعل بجوارها مكتب سبيل، لكن لم يجعل بها مدرّسا و لا طلبة، و توفى ثانى عشرى ربيع الأوّل سنة ست و ثمانمائة عن مال عظيم، أخذ منه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق مائة ألف دينار، و كان مولده سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و لم يكن مشكور السيرة فى الديانة، و له من المآثر تجديد جامع عمرو بن العاص، فإنه كان قد تداعى إلى السقوط، فقام بعمارته حتى عاد قريبا مما كان عليه، شكر اللّه له ذلك.

المدرسة الفارقانية

هذه المدرسة بابها شارع فى سويقة حارة الوزيرية من القاهرة، فتحت فى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى سنة ست و سبعين و ستمائة، و بها درس للطائفة الشافعية، و درس للطائفة الحنفية، أنشأها الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانىّ السلاحدار، كان مملوكا للأمير نجم الدين أمير حاجب، ثم انتقل إلى الملك الظاهر بيبرس، فترقّى عنده فى الخدم حتى صار أحد الأمراء الأكابر، و ولاه الأستادارية، و ناب عنه بديار مصر مدّة غيبته، و قدّمه على العساكر غير مرّة، و فتح له بلاد النوبة، و كان و سيما جسيما شجاعا مقداما حازما، صاحب دراية بالأمور و خبرة بالأحوال و التصرّفات، مدبرا للدول، كثير البرّ و الصدقة، و لما مات الملك الظاهر و قام من بعده فى ملك مصر ابنه الملك السعيد بركة قان، ولّاه نيابة السلطنة بديار مصر بعد موت الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار، فأظهر الحزم و ضم إليه طائفة منهم شمس الدين أقوش، و قطليجا الرومىّ، و سيف الدين قليج البغدادىّ، و سيف الدين بيجو البغدادىّ، و سيف الدين شعبان أمير شكار، و بكتمر السلاحدار، و كانت الخاصكية تكرهه فاتفقوا مع مماليك بيلبك الخازندار على القبض عليه، و تحدّثوا مع الملك السعيد فى ذلك، و ما زالوا به حتى قبضوا عليه بمساعدة الأمير سيف الدين كوندك الساقى لهم، و كان قد ربى مع السعيد فى المكتب، فلم يشعر و هو قاعد بباب القلة من القلعة إلّا و قد سحب و ضرب و نتفت لحيته و جرّ، و قد ارتكب فى إهانته أمر شنيع، إلى البرج فسجن به ليالى قليلة، أخرج منه ميتا فى أثناء سنة ست و سبعين و ستمائة، و جهل قبره.

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة خارج باب زويلة من خط حارة حلب بجوار حمّام قمارى، بناها
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۰
الحكيم مهذب الدين أبو سعيد محمد بن علم الدين بن أبى الوحش بن أبى الخير بن أبى سليمان بن أبى حليقة، رئيس الأطباء، كان جدّه الرشيد أبو الوحش نصرانيا متقدّما فى صناعة الطب، فأسلم ابنه علم الدين فى حياته، و كان لا يولد له ولد فيعيش، فرأت أمّه و هى حامل به قائلا- يقول: هيئوا له حلقة فضة قد تصدّق بوزنها، و ساعة يوضع من بطن أمّه تثقب أذنه و توضع فيها الحلقة. ففعلت ذلك فعاش، فعاهدت أمّه أباه أن لا يقلعها من أذنه، فكبر و جاءته أولاد و كلهم يموت، فولد له ابنه مهذب الدين أبو سعيد، فعمل له حلقة فعاش، و كان سبب اشتهاره بأبى حليقة أن الملك الكامل محمد بن العادل أمر بعض خدّامه أن يستدعى بالرشيد الطبيب من الباب، و كان جماعة من الأطباء بالباب، فقال الخادم من هو منهم؟ فقال السلطان أبو حليقة، فخرج فاستدعاه بذلك، فاشتهر بهذا الاسم، و مات الرشيد فى سنة ست و سبعين و ستمائة.

المدرسة الخرّوبية

هذه المدرسة بظاهر مدينة مصر تجاه المقياس بخط كرسىّ الجسر، أنشأها كبير الخرابية بدر الدين محمد بن محمد بن علىّ الخروبىّ، بفتح الخاء المعجمة و تشديد الراء المهملة و ضمها ثم واو ساكنة بعدها باء موحدة ثم ياء آخر الحروف، التاجر فى مطابخ السكّر، و فى غيرها بعد سنة خمسين و سبعمائة، و جعل مدرّس الفقه بها الشيخ بهاء الدين عبد اللّه بن عبد الرحمن بن عقيل، و المعيد الشيخ سراج الدين عمر البلقينى، و مات سنة اثنتين و ستين و سبعمائة، و أنشأ أيضا ربعين بخط دار النحاس من مصر البلقينى، و مات سنة و ربعين مقابل المقياس بالقرب من مدرسته، و لبدر الدين هذا أخ من أبيه أسنّ منه يقال له صلاح الدين أحمد بن محمد بن علىّ الخرّوبىّ، عاش بعد أخيه و أنجب فى أولاده، و أدركت لهم أولادا نجباء، و كان أوّلا قليل المال، ثم تموّل و أنشأ تربة كبيرة بالقرافة، فيما بين تربة الإمام الشافعىّ و تربة الليث بن سعد، مقابل السروتين، و جدّدها حفيده نور الدين علىّ بن عز الدين محمد بن صلاح الدين، و أضاف إليها مطهرة حسنة، و مات سنة تسع و ستين و سبعمائة، و شرط بدر الدين فى مدرسته أن لا يلى بها أحد من العجم. وظيفة من الوظائف. فقال فى كل وظيفة منها، و يكون من العرب دون العجم، و كانت له مكارم، جهز مرّة ابن عقيل إلى الحج بنحو خمسمائة دينار.

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة بخط الشون قبلىّ دار النحاس من ظاهر مدينة مصر، أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن علىّ الخرّوبىّ، و هى أكبر من مدرسة عمه بدر الدين، إلّا أنه مات سنة ست و سبعين و سبعمائة قبل استيفاء ما أراد أن يجعل فيها، فليس لها مدرّس و لا طلبة، و مولده سنة ست عشرة و سبعمائة، و نشأ فى دنيا عريضة رحمه اللّه تعالى.
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۱

المدرسة الصاحبية البهائية

هذه المدرسة كانت بزقاق القناديل من مدينة مصر، قرب الجامع العتيق، أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حنا فى سنة أربع و خمسين و ستمائة، و كان إذ ذاك زقاق القناديل أعمر أخطاط مصر، و إنما قيل له زقاق القناديل من أجل أنه كان

سكن الأشراف، و كانت أبواب الدور يعلق على كلّ باب منها قنديل. قال القضاعيّ: و يقال أنه كان به مائة قنديل توقد كلّ ليلة على أبواب الأكابر.

و ابن حنا هذا هو عليّ بن محمد بن سليم- بفتح السين المهملة و كسر اللام ثم ياء آخر الحروف بعدها ميم- ابن حنا- بحاء مهملة مكسورة ثم نون مشدّدة مفتوحة بعدها ألف- الوزير الصاحب بهاء الدين، ولد بمصر في سنة ثلاث و ستمائة، و تنقلت به الأحوال في كتابة الدواوين إلى أن ولي المناصب الجليلة، و اشتهرت كفايته و عرفت في الدولة نهضته و درايته، فاستوزره السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ في ثامن شهر ربيع الأوّل سنة تسع و خمسين و ستمائة، بعد القبض على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، و فوّض إليه تدبير المملكة و أمور الدولة كلها، فنزل من قلعة الجبل بخلع الوزارة و معه الأمير سيف الدين بلبان الروميّ الدوادار، و جميع الأعيان و الأكابر، إلى داره، و استبدّ بجميع التصرّفات، و أظهر عن حزم و عزم و جودة رأي، و قام بأعباء الدولة من ولايات العمال و عزلهم من غير مشاورة السلطان و لا اعتراض أحد عليه، فصار مرجع جميع الأمور إليه و مصدرها عنه، و منشأ ولايات الخطط و الأعمال من قلمه، و زوالها عن أربابها لا يصدر إلا من قبله، و ما زال على ذلك طول الأيام الظاهرية، فلما قام الملك السعيد بركة قان بأمر المملكة بعد موت أبيه الملك الظاهر، أقرّه على ما كان عليه في حياة والده، فدبر الأمور و ساس الأحوال، و ما تعرّض له أحد بعداوة و لا- سوء، مع كثرة من كان يناويه من الأمراء و غيرهم إلّا و صدّه اللّه عنه، و لم يجد ما يتعلق به عليه، و لا ما يبلغ به مقصوده منه، و كان عطاؤه واسعا و صلاته و كلفه للأمراء و الأعيان و من يلوذ به، و يتعلق بخدمته تخرج عن الحدّ في الكثرة، و تتجاوز القدر في السعة مع حسن ظنّ بالفقراء و صدق العقيدة في أهل الخير و الصلاح، و القيام بمعونتهم و تفقد أحوالهم و قضاء أشغالهم، و المبادرة إلى امتثال أوامرهم، و العفة عن الأموال، حتى أنه لم يقبل من أحد في وزارته هدية إلّا أن تكون هدية فقير أو شيخ معتقد يتبرّك بما يصل من أثره، و كثرة الصدقات في السرّ و العلانية، و كان يستعين على ما التزمه من المبرّات و لزمه من الكلف بالمتاجر، و قد مدحه عدّة من الناس فقبل مديحهم و أجزل جوائزهم، و ما أحسن قول الرشيد الفارقيّ فيه:

و قائل قال لي نبه لنا عمرافقلت إنّ عليا قد تنبه لي

مالي إذا كنت محتاجا إلى عمرمن حاجة فلينم حسبي انتباه علي

و قول سعد الدين بن مروان الفارقيّ في كتاب الدرج المختص به أيضا:

يمم عليا فهو بحر الندىو ناده في المضلع المعضل

فرفده بحر على مجدبو وفده مفض إلى مفصل

يسرع إن سيل نداه و هل أسرع من سيل أتى من علي

إلّا أنه أحدث في وزارته حوادث عظيمة، و قاس أراضي الأملاك بمصر و القاهرة و أخذ عليها مالا، و صادر أرباب الأموال و عاقبهم حتى مات كثير منهم تحت العقوبة، و استخرج حوالي الذمّة مضاعفة، و رزيء بفقد ولديه الصاحب فخر الدين محمد، و الصاحب زين الدين، فعوّضه اللّه عنهما بأولادهما، فما منهم إلا نجيب صدر رئيس فاضل مذكور، و ما مات حتى صار جدّ جدّ، و هو على المكانة وافر الحرمة، في ليلة الجمعة مستهلّ ذي الحجة سنة سبع و سبعين و ستمائة، و دفن بتربته من قرافة مصر، و وزر من بعده الصاحب برهان الدين الخضر بن حسن بن عليّ السنجاريّ، و كان بينه و بين ابن حنا عداوة ظاهرة و باطنة، و حقود بارزة و كامنة، فأوقع الحوطة على الصاحب تاج الدين محمد بن حنا بدمشق، و كان مع الملك السعيد بها، و أخذ خطه بمائة ألف دينار، و جهزه على البريد إلى مصر، ليستخرج منه و من أخيه زين الدين أحمد، و ابن عمه عز الدين تكملة ثلثمائة ألف دينار، و أحيط بأسبابه و من يلوذ به من أصحابه و معارفه و غلمانه، و طولبوا بالمال.

و أوّل من درّس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين محمد، ابن بانيها الوزير الصاحب بهاء الدين إلى أن مات يوم الاثنين حادي

عشرى شعبان سنهٔ ثمان و ستين و ستمائهٔ، فوليها من بعده ابنه محيى الدين أحمد بن محمد إلى أن توفى يوم الأحد ثامن شعبان سنهٔ اثنتين و سبعين و ستمائهٔ، فدرّس فيها بعده الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين إلى أن مات فى يوم الأربعاء سابع صفر سنهٔ أربع و سبعمائهٔ، فدرّس بها ولده الصاحب شرف الدين و توارثها أبناء الصاحب يلون نظرها و تدريسها إلى أن كان آخرهم صاحبنا الرئيس شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن الصاحب بهاء الدين، وليها بعد أبيه عز الدين، و وليها عز الدين بعد بدر الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الصاحب بهاء الدين، فلما مات صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب لليلهٔ بقيت من جمادى الآخرهٔ سنهٔ ثلاث عشرهٔ و ثمانمائهٔ، وضع بعض نوّاب القضاهٔ يده على ما بقى لها من وقف، و أقامت هذه المدرسهٔ مدّهٔ أعوام معطلهٔ من ذكر اللّه و إقام الصلاهٔ، لا يأويها أحد لخراب ما حولها، و بها شخص يبيت بها كى لا يسرق ما بها من أبواب و رخام، و كان لها خزانهٔ كتب جليلهٔ فنقلها شمس الدين محمد بن الصاحب و صارت تحت يده إلى أن مات، فتفرّقت فى أيدى الناس، و كان قد عزم على نقلها إلى شاطىء النيل بمصر، فمات قبل ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۳

و لما كان فى سنهٔ اثنتى عشرهٔ و ثمانمائهٔ، أخذ الملك الناصر فرج بن برقوق عمد الرخام التى كانت بهذه المدرسهٔ، و كانت كثيرهٔ العدد جليلهٔ القدر، و عمل بدلها دعائم تحمل السقوف إلى أن كانت أيام الملك المؤيد الشيخ، و ولى الأمير تاج الدين الشوبكىّ الدمشقى ولايهٔ القاهرهٔ و مصر و حسبهٔ البلدين و شدّ العمائر السلطانيهٔ، فهدم هذه المدرسهٔ فى أخريات سنهٔ سبع عشرهٔ و أوائل سنهٔ ثمانى عشرهٔ و ثمانمائهٔ، و كانت من أجلّ مدارس الدنيا و أعظم مدرسهٔ بمصر، يتنافس الناس من طلبهٔ العلم فى النزول بها و يتشاحنون فى سكنى بيوتها، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبهٔ العلم و الثلاثهٔ، ثم تلاشى أمرها حتى هدمت و سيجهل عن قريب موضعها، و للّه عاقبهٔ الأمور.

المدرسهٔ الصاحبيهٔ

هذه المدرسهٔ بالقاهرهٔ فى سويقهٔ الصاحب، كان موضعها من جملهٔ دار الوزير يعقوب بن كلس، و من جملهٔ دار الديباج، أنشأها الصاحب صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر، و جعلها وقفا على المالكيهٔ، و بها درس نحو و خزانهٔ كتب، و ما زالت بيد أولاده.

فلما كان فى شعبان سنهٔ ثمان و خمسين و سبعمائهٔ، جدّد عمارتها القاضى علم الدين إبراهيم بن عبد اللطيف بن إبراهيم المعروف بابن الزبير، ناظر الدولهٔ فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون، و استجدّ فيها منبرا فصار يصلّى بها الجمعهٔ إلى يومنا هذا، و لم يكن قبل ذلك بها منبر و لا تصلّى فيها الجمعهٔ.

عبد اللّه بن علىّ بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور بن إبراهيم بن عمار بن منصور بن علىّ صفىّ الدين أبو محمد الشنيبىّ الدميرىّ المالكىّ، المعروف بابن شكر، ولد بناحيهٔ دميرهٔ إحدى قرى مصر البحريهٔ فى تاسع صفر سنهٔ ثمان و أربعين و خمسمائهٔ، و مات أبوه فتزوّجت أمّه بالقاضى الوزير الأعز فخر الدين مقدام ابن القاضى الأجل أبى العباس أحمد بن شكر المالكىّ، فرباه و نوّه باسمه لأنه كان ابن عمه، فعرف به و قيل له ابن شكر، و سمع صفىّ الدين من الفقيه أبى الظاهر إسماعيل بن مكىّ بن عوف، و أبى الطيب عبد المنعم بن يحيى و غيره، و حدّث بالقاهرهٔ و دمشق، و تفقه على مذهب مالك، و برع فيه، و صنف كتابا فى الفقه كان كلّ من حفظه نال منه خطأ وافرا، و قصد بذلك أن يتشبه بالوزير عون الدين بن هبيرهٔ، كانت بدايهٔ أمره أنه لما سلّم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و أفرد له من الأبواب الديوانيهٔ الزكاهٔ بمصر و الجبس الجيوشى بالبرّين و النطرون و الخراج و ما معه من ثمن القرظ و ساحل السنط و المراكب الديوانيهٔ و اسنا و طنبدى، استخدم العادل فى مباشرهٔ ديوان هذه المعاملهٔ الصفىّ بن شكر هذا، و كان ذلك فى سنهٔ سبع و ثمانين و خمسمائهٔ، و من حينئذ اشتهر ذكره و تخصص بالملك العادل، فلما استقل بمملكهٔ مصر فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۴

سنة ست و تسعين و خمسمائة عظم قدره، ثم استوزره بعد الصنيعة بن النجار، فحل عنده محل الوزراء الكبار و العلماء المشاورين، و باشر الوزارة بسطوة و جبروت و تعاظم، و صادر كتاب الدولة و استصفى أموالهم، ففرّ منه القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل إلى بغداد، و استشفع بالخليفة الناصر، و أحضر كتابه إلى الملك العادل يشفع فيه، و هرب منه القاضى علم الدين إسماعيل بن أبى الحجاج صاحب ديوان الجيش، و القاضى الأسعد أسعد بن مماتى صاحب ديوان المال، و التجآ إلى الملك الظاهر بحلب، فأقاما عنده حتى ماتا، و صادر بنى حمدان و بنى الحباب و بنى الجليس، و أكابر الكتاب، و السلطان لا يعارضه فى شىء، و مع ذلك فكان يكثر التغضب على السلطان و يتجنى عليه و هو يحتمله إلى أن غضب فى سنة سبع و ستمائة، و حلف أنه ما بقى يخدم، فلم يحتمله، و ولى الوزارة عوضا عنه القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر، و أخرجه من مصر بجميع أمواله و حرمه و غلمانه، و كان نقله على ثلاثين جملا، و أخذ أعداؤه فى إغراء السلطان به و حسنوا له أن يأخذ ماله، فأبى عليهم و لم يأخذ منه شيئا، و سار إلى آمد فأقام بها عند ابن أرتق إلى أن مات الملك العادل فى سنة خمسين و ستمائة، فطلبه الملك الكامل محمد بن الملك العادل لما استبدّ بسلطنة ديار مصر بعد أبيه، و هو فى نوبة قتال الفرنج على دمياط حين رأى أن الضرورة داعية لحضوره بعد ما كان يعاديه، فقدم عليه فى ذى القعدة منها و هو بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط، فتلقاه و أكرمه و حادثه فيما نزل به من موت أبيه و محاربة الفرنج و مخالفة الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب، و اضطراب أرض مصر بثورة العربان، و كثرة خلافهم، فشجعه و تكفل له بتحصيل المال و تدبير الأمور، و سار إلى القاهرة فوضع يده فى مصادرات أرباب الأموال بمصر و القاهرة من الكتاب و التجار، و قرّر على الأملاك مالا، و أحدث حوادث كثيرة، و جمع مالا عظيما أمدّ به السلطان، فكثر تمكنه منه و قويت يده و توفرت مهابته، بحيث أنه لما انقضت نوبة دمياط و عاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل كان ينزل إليه و يجلس عنده بمنظرته التى كانت على الخليج، و يتحدّث معه فى مهمات الدولة، و لم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة و هو وزير فى يوم الجمعة ثامن شعبان سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، و كان بعيد الغور جماعا للمال ضابطا له من الإنفاق فى غير واجب، قد ملأت هيبته الصدور، و انقاد له على الرغم و الرضى الجمهور، و أخمد جمرات الرجال، و أضرم رمادا لم يخطر إيقاده على بال، و بلغ عند الملك الكامل بحيث أنه بعث إليه بابنيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، و الملك العادل أبى بكر ليزوراه فى يوم عيد فقاما على رأسه قياما، و أنشد زكىّ الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن وهيب القوصىّ قصيدة زاد فيها حين رأى الملكين قياما على رأسه:

لو لم تقم للّه حقّ قيامهما كنت تقعد و الملوك قيام

و قطع فى وزارته الأرزاق، و كانت جملتها أربعمائة ألف دينار فى السنة، و تسارع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۵

أرباب الحوائج و الأطماع و من كان يخافه إلى بابه، و ملؤا طرقاته و هو يهينهم، و لا يحفل بشيخ منهم و هو عالم، و أوقع بالرؤساء و أرباب البيوت حتى استأصل شأفتهم عن آخرهم، و قدّم الأراذل فى مناصبهم، و كان جلدا قويا حل به مرّة دوسطاريا قوية و أزمنت فيئس منه الأطباء، و عند ما اشتدّ به الوجع و أشرف على الهلاك، استدعى بعشرة من وجوه الكتاب كانوا فى حبسه و قال: أنتم فى راحة و أنا فى الألم، كلّا و اللّه، و استحضر المعاصير و آلات العذاب و عذبهم فصاروا يصرخون من العذاب و هو يصرخ من الألم طول الليل إلى الصبح، و بعد ثلاثة أيام ركب و كان يقول كثيرا: لم يبق فى قلبى حسرة إلّا كون البيسانىّ لم تتمرّغ شيبته على عتباتى، يعنى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ، فإنه مات قبل وزارته، و كان دريّ اللون تعلوه حمرة، و مع ذلك فكان طلق المحيا حلو اللسان حسن الهيئة، صاحب دهاء مع هوج، و خبث فى طيش، و رعونة مفرطة، و حقد لا تخبو ناره، ينتقم و يظنّ أنه لم ينتقم، فيعود، و كان لا ينام عن عدوّه و لا يقبل معذرة أحد، و يتخذ الرؤساء كلهم أعداءه و لا يرضى لعدوّه بدون الهلاك و الاستئصال، و لا يرحم أحدا إذا انتقم منه، و لا يبالى بعاقبة، و كان له و لأهله كلمة يرونها و يعملون بها. كما يعمل بالأقوال الإلهية، و هى إذا كنت دقماقا فلا

تكن وتدا، و كان الواحد منهم يعيدها فى اليوم مرّات و يجعلها حجة عند انتقامه، و كان قد استولى على الملك العادل ظاهرا و باطنا، و لا يمكن أحدا من الوصول إليه، حتّى الطبيب و الحاجب و الفرّاش عليهم عيون له لا يتكلم أحد منهم فضل كلمة خوفا منه، و كان أكبر أغراضه إبادة أرباب البيوت و محو آثارهم و هدم ديارهم و تقريب الأسقاط و شرار الفقهاء، و كان لا يأخذ من مال السلطان فلسا و لا ألف دينار، و يظهر أمانة مفرطة، فإذا لاح له مال عظيم احتجنه، و بلغ إقطاعه فى السنة مائة ألف دينار و عشرين ألف دينار، و كان قد عمى فأخذ يظهر جلدا عظيما و عدم استكانة، و إذا حضر إليه الأمراء و الأكابر و جلسوا على خوانه يقول: قدّموا اللون الفلانىّ للأمير فلان و الصدر فلان، و القاضى فلان، و هو يبنى أموره فى معرفة مكان المشار إليه برموز و مقدّمات، يكابر فيها دوائر الزمان، و كان يتشبه فى ترسله بالقاضى الفاضل، و فى محاضراته بالوزير عون الدين بن هبيرة، حتى اشتهر عنه ذلك، و لم يكن فيه أهلية هذا لكنه كان من دهاة الرجال، و كان إذا لحظ شخصا لا يقنع له إلا بكثرة الغنى و نهاية الرفعة، و إذا غضب على أحد لا يقنع فى شأنه إلا بمحو أثره من الوجود، و كان كثيرا ما ينشد:

إذا حقّرت امرأ فاحذر عداوتهمن يزرع الشوك لم يحصد به عنبا

و ينشد كثيرا:

تودّ عدوّى ثمّ تزعم أننىصديقك إنّ الرأى عنك لعازب

و أخذه مرّة مرض من حمى قوية، و حدث به النافض، و هو فى مجلس السلطان ينفذ الأشغال، فما تأثر و لا ألقى جنبه إلى الأرض حتى ذهبت و هو كذلك، و كان يتعزز على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۶

الملوك الجبابرة، و تقف الرؤساء على بابه من نصف الليل و معهم المشاعل و الشمع، و عند الصباح يركب فلا يراهم و لا يرونه، لأنه إمّا أن يرفع رأسه إلى السماء تيها، و إمّا أن يعرّج إلى طريق غير التى هم بها، و إمّا أن يأمر الجنادرة التى فى ركابه بضرب الناس و طردهم من طريقه. و يكون الرجل قد وقف على بابه طول الليل، إمّا من أوّله أو من نصفه بغلمانه و دوابه، فيطرد عنه و لا يراه، و كان له بوّاب يأخذ من الناس مالا كثيرا و مع ذلك يهينهم إهانة مفرطة، و عليه للصاحب فى كل يوم خمسة دنانير، منها ديناران برسم الفقاع، و ثلاثة دنانير برسم الحلوى، و كسوة غلمانه و نفقاته عليه أيضا، و مع ذلك اقتنى عقارا و قرى، و لما كان بعد موت الصاحب قدم من بغداد رسول الخليفة الظاهر، و هو محيى الدين أبو المظفر بن الجوزىّ، و معه خلعة الخليفة للملك الكامل، و خلع لأولاده، و خلعة للصاحب صفىّ الدين، فلبسها فخر الدين سليمان كاتب الإنشاء، و قبض الملك الكامل على أولاده تاج الدين يوسف، و عز الدين محمد و حبسهما، و أوقع الحوطة على سائر موجوده رحمه اللّه و عفا عنه.

المدرسة الشريفية

هذه المدرسة بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة، وقفها الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الدولة فخر العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبى جميل دحية بن جعفر بن موسى بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه، الجعفرىّ الزينبىّ، أمير الحاج و الزائرين، و أحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية، و تمت فى سنة اثنتى عشرة و ستمائة، و هى من مدارس الفقهاء الشافعية.

قال ابن عبد الظاهر: و جرى له فى وقفها حكاية مع الفقيه ضياء الدين بن الورّاق، و ذلك أن الملك العادل سيف الدين أبا بكر، يعنى ابن أيوب، لما ملك مصر و كان قد دخلها على أنه نائب للملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، فقوى عليه و قصد الاستبداد بالملك، فأحضر الناس للحلف، و كان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الورّاق، فقوى عليه و قصد الاستبداد بالملك، فأحضر الناس للحلف، و كان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الورّاق، فلما شرع الناس فى الحلف قال الفقيه ضياء الدين:

ما هذا الحلف، بالأمس حلفتم للمنصور، فإن كانت تلك الأيمان باطلة، فهذه باطلة، و إن كانت تلك صحيحة فهذه باطلة.

فقال الصاحب صفيّ الدين بن شكر للعادل: أفسد عليك الأمور هذا الفقيه. و كان الفقيه لم يحضر إلى ابن شكر و لا سلّم عليه، فأمر العادل بالحوطة على جميع موجود الفقيه و ماله و أملاكه، و اعتقاله بالرصد مرسما عليه فيه، لأنه كان مسجده، فأقام مدّة سنين على هذه الصورة، فلما كان فى بعض الأيام وجد غرّة من المترسمين فحضر إلى دار الوزارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۷

بالقاهرة، فبلغ العادل حضوره، فخرج إليه. فقال له الفقيه: اعلم و اللّه أنى لا حاللتك و لا أبرأتك، أنت تتقدّمنى إلى اللّه فى هذه المدّة، و أنا بعدك أطالبك بين يدى اللّه تعالى. و تركه و عاد إلى مكانه، فحضر الشريف فخر الدين بن ثعلب إلى الملك العادل فوجده متألما حزينا، فسأله، فعرّفه. فقال: يا مولانا و لم تجرّد السم فى نفسك؟ فقال: خذ كل ما وقعت الحوطة عليه و كلّ ما استخرج من أجرة أملاكه و طيب خاطره، و أما الفقيه ضياء الدين فإنه أصبح و حضرت إليه جماعة من الطلبة للقراءة عليه. فقال لهم: رأيت البارحة النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يقول: يكون فرجك على يد رجل من أهل بيتى صحيح النسب، فبينما هم فى الحديث و إذا بغبرة ثارت من جهة القرافة، فانكشفت عن الشريف ابن ثعلب و معه الموجود كله، فلما حضر عرّفه الجماعة المنام، فقال: يا سيدى اشهد على أن جميع ما أملكه وقف و صدقة، شكرا لهذه الرؤيا. و خرج عن كل ما يملكه، و كان من جملة ذلك المدرسة الشريفية لأنها كانت مسكنه و وقف عليها أملاكه، و كذلك فعل فى غيرها، و لم يحالل الفقيه الملك العادل، و مات الملك العادل بعد ذلك، و مات الفقيه بعده بمدّة، و مات الشريف إسماعيل بن ثعلب بالقاهرة فى سابع عشر رجب سنة ثلاث عشرة و ستمائة.

المدرسة الصالحية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقيّ، فبنى فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب هاتين المدرستين، فابتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ثالث عشر ذى الحجة سنة تسع و ثلاثين و ستمائة، و دك أساس المدارس فى رابع عشر ربيع الآخر سنة أربعين، و رتب فيها دروسا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة إحدى و أربعين و ستمائة، و هو أوّل من عمل بديار مصر دروسا أربعة فى مكان، و دخل فى هذه المدارس باب القصر المعروف بباب الزهومة، و موضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن، ثم اختط ما وراء هذه المدارس فى سنة بضع و خمسين و ستمائة، و جعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية، و أوّل من درّس بها من الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن علىّ بن سرور المقدسىّ الحنبلىّ الصالحىّ، و فى يوم السبت ثالث عشرى شوّال سنة ثمان و أربعين و ستمائة، أقام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانىّ الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ الصالحىّ فى نيابة السلطنة بديار مصر، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية هذه مع نوّاب دار العدل، و انتصب لكشف المظالم، و استمرّ جلوسه بها مدّة. ثم إن الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس، وقف الصاغة التى تجاهها، و أماكن بالقاهرة و بمدينة المحلة الغربية، و قطع أراضى جزائر بالأعمال الجيزية و الأطفيحية على مدرسين أربعة، عند كل مدرّس معيدان و عدّة طلبة. و ما يحتاج إليه من أئمة و مؤذنين و قومة و غير ذلك، و ثبت وقف ذلك على يد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۸

قاضى القضاة تقىّ الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعىّ، و نفذه قاضى القضاة شمس الدين أبو البركات محمد بن هبة اللّه بن شكر المالكىّ، و ذلك فى سنة سبع و سبعين و ستمائة، و هى جارية فى وقفها إلى اليوم. فلما كان فى يوم الجمعة حادى عشرى ربيع الأوّل سنة ثلاثين و سبعمائة، رتب الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك جمال الدين الغزاوىّ خطيبا بإيوان الشافعية من هذه المدرسة، و جعل له فى كل شهر خمسين درهما، و وقف عليه و على مؤذنين وقفا جاريا، فاستمرّت الخطبة هناك إلى يومنا هذا.

قبة الصالح: هذه القبة بجوار المدرسة الصالحية، كان موضعها قاعة شيخ المالكية، بنتها عصمة الدين والدة خليل شجرة الدر، لأجل مولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما مات، و هو على مقاتلة الفرنج بناحية المنصورة، فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع و أربعين و ستمائة، فكتمت زوجته شجرة الدر موته خوفا من الفرنج و لم تعلم بذلك أحدا سوى الأمير فخر الدين بن يوسف بن شيخ الشيوخ، و الطواشى جمال الدين محسن فقط، فكتما موته عن كلّ أحد، و بقيت أمور الدولة على حالها، و شجرة الدرّ تخرج المناشير و التواقيع و الكتب و عليها علامة بخط خادم يقال له سهيل، فلا يشك أحد فى أنه خط السلطان، و أشاعت أن السلطان مستمرّ المرض و لا يمكن الوصول إليه، فلم يجسر أحد أن يتفوّه بموت السلطان إلى أن أنفذت إلى حصن كيفا و أحضرت الملك المعظم توران شاه بن الصالح، و أما الملك الصالح فإن شجرة الدرّ أحضرته فى حراقة من المنصورة إلى قلعة الروضة تجاه مدينة مصر من غير أن يشعر به أحد إلّا من أيتمنته على ذلك، فوضع فى قاعة من قاعات قلعة الروضة إلى يوم الجمعة السابع و العشرين من شهر رجب سنة ثمان و أربعين و ستمائة، فنقل إلى هذه القبة بعد ما كانت شجرة الدرّ قد عمرتها على ما هى عليه، و خلعت نفسها من سلطنة مصر و نزلت عنها لزوجها عز الدين أيبك قبل نقله، فنقله الملك المعز أيبك و نزل و معه الملك الأشرف موسى ابن الملك المسعود و سائر المماليك البحرية و الجمدارية و الأمراء من قلعة الجبل إلى قلعة الروضة، و أخرج الملك الصالح فى تابوت و صلّى عليه بعد صلاة الجمعة، و سائر الأمراء و أهل الدولة قد لبسوا البياض حزنا عليه، و قطع المماليك شعور رؤوسهم و ساروا به إلى هذه الدولة قد لبسوا البياض حزنا عليه، السلطانان و نزلا إلى القبة، و حضر القضاة و سائر المماليك و أهل الدولة و كافة الناس و غلقت الأسواق بالقاهرة و مصر، و عمل عزاء للملك الصالح بين القصرين بالدفوف مدّة ثلاثة أيام، آخرها يوم الاثنين. و وضع عند القبر سناجق السلطان و بقجته و تركاشه و قوسه، و رتب عنده القرّاء على ما شرطت شجرة الدرّ فى كتاب وقفها، و جعلت النظر فيها للصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا و ذريته، و هى بيدهم إلى اليوم، و ما أحسن قول الأديب جمال الدين أبى المظفر عبد الرحمن بن أبى سعيد محمد بن محمد بن عمر بن أبى القاسم بن تخمش الواسطىّ، المعروف بابن السنيرة الشاعر، لما مرّ هو و الأمير نور الدين تكريت بالقاهرة بين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۹

القصرين و نظر إلى تربة الملك الصالح هذه، و قد دفن بقاعة شيخ المالكية فأنشد:

بنيت لأرباب العلوم مدارسالتنجو بها من هول يوم المهالك

و ضاقت عليك الأرض لم تلق منزلاتحلّ به إلّا إلى جنب مالك

و ذلك أن هذه القبة التى فيها قبر الملك الصالح، مجاورة لإيوان الفقهاء المالكية المنتمين إلى الإمام مالك بن أنس رضى اللّه عنه، فقصد التورية بمالك الإمام المشهور، و مالك خازن النار، أعاذنا اللّه منها.

المدرسة الكاملية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، و تعرف بدار الحديث الكاملية، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان فى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، و هى ثانى دار عملت للحديث. فإن أوّل من بنى دارا على وجه الأرض، الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار و وقفها على المشتغلين بالحديث النبوىّ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، و وقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنشف، و يمتدّ إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر، و هذا الربع من إنشاء الملك الكامل، و كان موضع من جملة القصر الغربىّ، ثم صار موضعا يسكنه القماحون. و كان موضع المدرسة سوقا للرقيق و دارا تعرف بابن كستول.

و أوّل من ولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علىّ بن دحية، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن علىّ

بن دحيـة، ثم الحافظ عبد العظيم المندرىّ، ثم الرشـيد العطار. و ما برحت بيد أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث و المحن منذ سـنة ست و ثمانمائة، فتلاشت كما تلاشـى غيرها، و ولى تدريسها صبىّ لا يشارك الأناسىّ إلّا بالصورة، و لا يمتاز عن البهيمة إلّا بالنطق، و استمرّ فيها دهرا لا يدرّس بها حتى نسيت أو كادت تنسى دروسها، و لا حول و لا قوّة إلّا بالله.

الملـك الكامـل: ناصـر الـدين أبو المعالى محمـد بن الملك العادل سـيف الـدين أبى بكر محمـد بن نجم الـدين أيوب بن شادى بن مروان الكردىّ الأـيوبىّ، خـامس ملـوك بنى أيـوب الأـكراد بـديار مصـر، ولـد فى خـامس عشـرى ربيع الأـوّل سـنة ست و سـبعين و خمسـمائة، و خلف أباه الملك العادل على بلاد الشرق، فلما استولى على مملكة مصر، قدم الملك الكامل إلى القاهرة فى سنة ست و تسـعين و خمسـمائة، و نصـبه أبوه نائبا عنه بديار مصـر، و أقطعه الشرقية و جعله ولىّ عهده، و حلف له الأمراء، و أسكنه قلعة الجبل، و سكن العادل فى دار الوزارة بالقاهرة و صار يحكم بـديار مصـر مـدّة غيبة الملك العادل ببلاد الشام و غيرها بمفرده. فلما مات الملك العـادل ببلاـد الشـام، اسـتقل الملك الكامل بمملكـة مصـر فى جمادى الآخرة سـنة خمس عشـرة و سـتمائة و هو على محاربـة الفرنج بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۰

و قد ملكوا البرّ الغربىّ. فثبت لقتالهم مع ما حدث من الوهن بموت السلطان، و ثارت العربان بنواحى أرض مصر و كثر خلافهم و اشتدّ ضررهم، و قام الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبى الحسين علىّ بن أحمد الهكارىّ، المعروف بابن المشطوب، و كان أجـلّ الأـمراء الأكـابر، و له لفيف من الأـكراد الهكاريـة، يريـد خلع الملـك الكامل و تمليك أخيه الملك الفائز إبراهيم بن العادل، و وافقه على ذلك كثير من الأمراء، فلم يجـد الكامل بـدّا من الرحيل فى الليل جريـدة، و سار من العادليـة إلى أشـموم طناح و نزل بها و أصـبح العسـكر بغير سـلطان، فركب كل واحـد هواه و لم يعرّج واحـد منهم على آخر، و تركوا أثقالهم و سائر ما معهم، فاغتنم الفرنج الفرصة و عبروا إلى برّ دمياط و اسـتولوا على جميع ما تركه المسـلمون، و كان شـيئا عظيما، و همّ الملك الكامل بمفارقة أرض مصر، ثم إن اللّه تعالى ثبته و تلاحقت العساكر، و بعـد يومين قـدم عليه أخوه الملك المعظم عيسـى صاحب دمشق باشـموم، فاشـتدّ عضـده بأخيه، و أخرج ابن المشـطوب من العسـكر إلى الشام، ثم أخرج الفائز إبراهيم إلى الملوك الأيوبيـة بالشام و الشـرق يسـتنفرهم لجهاد الفرنج، و كتب الملك الكامل إلى أخيه الملك الأشرف موسى شاه يستحثه على الحضور، و صدّر المكاتبة بهذه الأبيات:

يا مسعدى إن كنت حقا مسعفىفانهض بغير تلبث و توقف

و احثث قلوصك مرقلا أو موجفا بتجشم فى سيرها و تعسف

و اطو المنازل ما استطعت و لا تنخإلّا على باب المليك الأشرف

و اقر السلام عليه من عبد لهمتوقع لقدومه متشوّف

و إذا وصلت إلى حماه فقل لهعنى بحسن توصل و تلطف

إن تأت عبدك عن قليل تلقهما بين كلّ مهند و مثقف

أو تبط عن إنجاده فلقاؤهبك فى القيامة فى عراص الموقف

و جدّ الكامل فى قتال الفرنج و أمر بالنفير فى ديار مصـر، و أتته الملوك من الأطراف، فقدّر اللّه أخذ الفرنج لدمياط بعد ما حاصروها ستة عشـر شـهرا و اثنين و عشـرين يوما، و وضعوا السيف فى أهلها، فرحل الكامل من أشموم و نزل بالمنصورة و بعث يستنفر الناس، و قوى الفرنج حتى بلغت عدّتهم نحو المائتى ألف راجل، و عشرة آلاف فارس، و قدم عامّة أهل أرض مصر، و أتت النجدات من البلاد الشامية و غيرها، فصار المسلمون فى جمع عظيم إلى الغاية بلغت عدّة فرسانهم خاصة نحو الأربعين ألفا، و كانت بين الفريقين خطوب آلت إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۱

وقوع الصلح، و تسلم المسلمون مدينة دمياط فى تاسع عشرى رجب سنة ثمان عشرة و ستمائة، بعد ما أقامت بيد الفرنج سنة و أحد عشر شهرا تنقص ستة أيام، و سار الفرنج إلى بلادهم، و عاد السلطان إلى قلعة الجبل. و أخرج كثيرا من الأمراء الذين وافقوا ابن المشطوب من القاهرة إلى الشام، و فرّق أخبازهم على مماليكه، ثم تخوّف من أمرائه فى سنة إحدى و عشرين بميلهم إلى أخيه الملك المعظم، فقبض على جماعة منهم و كاتب أخاه الملك الأشرف فى موافقته على المعظم، فقويت الوحشة بين الكامل و المعظم، و اشتدّ خوف الكامل من عسكره و همّ أن يخرج من القاهرة لقتال المعظم فلم يجسر على ذلك، و قدم الأشرف إلى القاهرة فسرّ بذلك سرورا كثيرا و تحالفا على المعاضدة، و سافر من القاهرة فمال مع المعظم، فتحير الكامل فى أمره و بعث إلى ملك الفرنج يستدعيه إلى عكا، و وعده بأن يمكنه من بلاد الساحل، و قصد بذلك أن يشغل سرّ أخيه المعظم.

فلما بلغ ذلك المعظم خطب للسلطان جلال الدين الخوارزميّ و بعث يستنجد به على الكامل، و أبطل الخطبة للكامل، فخرج الكامل من القاهرة يريد محاربته فى رمضان سنة أربع و عشرين، و سار إلى العباسة، ثم عاد إلى قلعة الجبل و قبض على عدّة من الأمراء و مماليك أبيه لمكاتبتهم المعظم، و أنفق فى العسكر، فاتفق موت الملك المعظم فى سلخ ذى القعدة، و قيام ابنه الملك الناصر داود بسلطنة دمشق، و طلبه من الكامل الموادعة، فبعث إليه خلعة سنية و سنجقا سلطانيا و طلب منه أن ينزل له عن قلعة الشوبك، فامتنع الناصر من ذلك، فوقعت المنافرة بينهما و عهد الملك الكامل إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب و أركبه بشعار السلطنة و أنزله بدار الوزارة، و خرج من القاهرة فى العساكر يريد دمشق، فأخذنا بلس و القدس، فخرج الناصر داود من دمشق و معه عمه الأشرف، و سارا إلى الكامل يطلبان منه الصلح، فلما بلغ ذلك الكامل رحل من نابلس يريد القاهرة، فقدمها الناصر و الأشرف، و أقام بها الناصر و سار الأشرف و المجاهد إلى الكامل فأدركاه بتل العجوز، فأكرمهما و قرّر مع الأشرف انتزاع دمشق من الناصر و إعطاءها للأشرف، على أن يكون للكامل ما بين عقبة أفيق إلى القاهرة، و للأشرف من دمشق إلى عقبة أفيق، و أن يعين بجماعة من ملوك بنى أيوب، فاتفق قدوم الملك الأنبرطور إلى عكا باستدعاء الملك الكامل له، فتحير الكامل فى أمره لعجزه عن محاربته و أخذ يلاطفه، و شرع الفرنج فى عمارة صيدا و كانت مناصفة بين المسلمين و الفرنج و سورها خراب، فلما بلغ الناصر موافقة الأشرف للكامل عاد من نابلس إلى دمشق و استعدّ للحرب، فسار إليه الأشرف من تل العجوز و حاصره بدمشق، و أقام الكامل بتل العجوز و قد تورط مع الفرنج فلم يجد بدّا من إعطائهم القدس على أن لا يجدّد سوره و أن تبقى الصخرة و الأقصى مع المسلمين، و يكون حكم قرى القدس إلى المسلمين، و أن القرى التى فيما بين عكا و يافا و بين لد و القدس للفرنج، و انعقدت الهدنة على ذلك لمدّة عشر سنين و خمسة أشهر و أربعين يوما، أولها ثامن ربيع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۲

الأوّل سنة ست و عشرين، و نودى فى القدس بخروج المسلمين منه و تسليمه إلى الفرنج، فكان أمرا مهولا من شدّة البكاء و الصراخ، و خرجوا بأجمعهم فصاروا إلى مخيم الكامل و أذنوا على بابه فى غير وقت الأذان، فشق عليه ذلك و أخذ منهم الستور و قناديل الفضة و الآلات و زجرهم، و قيل لهم امضوا حيث شئتم، فعظم على المسلمين هذا و كثر الإنكار على الملك الكامل و شنعت المقالة فيه، و عاد الأنبرطور إلى بلاده بعد ما دخل القدس، و كان مسيره فى آخر جمادى الآخرة سنة ست و عشرين. و سيّر الكامل إلى الآفاق بتسكين قلوب المسلمين و انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس، و رحل من تل العجوز يريد دمشق و الأشرف على محاصرتها، فجدّ فى القتال و اشتدّ الأمر على الناصر إلى أن ترامى فى الليل على الملك الكامل، فأكرمه و أعاده إلى قلعة دمشق، و بعث من تسلمها منه و عوّضه عن دمشق الكرك و الشوبك و الصلت و البلقاء و الأغوار و نابلس و أعمال القدس، ثم ترك الشوبك للكامل مع عدّة مما ذكر، و تسلم الكامل دمشق فى أوّل شعبان و أعطاها للأشرف، و أخذ منه ما معه من بلاد الشرق، و هى حران و الرّها و سروج و غير ذلك، ثم سار الكامل فأخذ حماه و توجه منها فقطع الفرات، ثم سار إلى جعبر و الرقة و دخل حران و الرّها و رتب أمورها، و أتته الرسل من ماردين و آمد و الموصل و أربل و غير ذلك، و أقيمت له الخطبة بماردين، و بعث يستدعى عساكر الشام لقتال الخوارزميّ

و هو بخلاط، ثم رحل الكامل من حرّان لأمور حدثت و سار إلى مصر فدخلها فى شهر رجب سنة سبع و عشرين، و قد تغير على ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب و خلعه من ولاية العهد، و عهد إلى ابنه الملك العادل أبى بكر، ثم سار إلى الإسكندرية فى سنة ثمان و عشرين، ثم عاد إلى مصر و حفر بحر النيل فيما بين المقياس و برّ مصر، و عمل فيه بنفسه و استعمل فيه الملوك من أهله و الأمراء و الجند، فصار الماء دائما فيما بين مصر و المقياس، و انكشف البرّ فيما بين المقياس و الجيزة فى أيام احتراق النيل، و خرج من القاهرة إلى بلاد الشام فى آخر جمادى الآخرة سنة تسع و عشرين، و استخلف على ديار مصر ابنه العادل و أسكنه قلعة الجبل، و أخذ الصالح معه فدخل دمشق من طريق الكرك، و خرج منها لقتال التتر، و جعل ابنه الصالح على مقدّمته، فسار إلى حران فرحل التتر عن خلاط، ثم رحل إلى الرها و سار إلى آمد و نازلها حتى أخذها، و أنعم على ابنه الصالح بحصن كيفا، و بعثه إليه و عاد إلى مصر فى سنة ثلاثين، فقبض على عدّة من الأمراء.

ثم خرج فى سنة إحدى و ثلاثين إلى دمشق و سار منها و دخل الدربند، و قد أعجبته كثرة عساكره، فإنه اجتمع معه ثمانية عشر طلبا لثمانية عشر ملكا. و قال هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام، و نزل على النهر الأزرق بأوّل بلد الروم، و قد نزلت عساكر الروم و أخذت عليه رأس الدربند و منعوه فتحير لقلة الأقوات عنده و لاختلاف ملوك بنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۳

أيوب عليه، و رحل إلى مصر و قد فسد ما بينه و بين الأشرف و غيره، و أخذ ملك الروم الرها و حران بالسيف، فتجهز الكامل و خرج بعساكره من القاهرة فى سنة ثلاث و ثلاثين و سار إلى الرها و نازلها حتى أخذها و هدم قلعتها، و أخذ حران بعد قتال شديد، و بعث بمن كان فيها من الروم إلى القاهرة فى القيود و كانوا زيادة على ثلاثة آلاف نفس، ثم خرج إلى دنيسر و عاد إلى دمشق و سار منها إلى القاهرة فدخلها فى سنة أربع و ثلاثين، ثم خرج فى سنة خمس و ثلاثين و نزل على دمشق و قد امتنعت عليه، فضايقها حتى أخذها من أخيه الملك الصالح إسماعيل، و عوّضه عنها بعلبك و بصرى و غيرهما فى تاسع عشر جمادى الأولى، و نزل بالقلعة و أخذ يتجهز لأخذ حلب، و قد نزل به زكام فدخل فى ابتدائه الحمّام فاندفعت الموادّ إلى معدته فتورم و ثارت فيه حمّى، فنهاه الأطباء عن القىء و حذروه منه فلم يصبر و تقيأ فمات لوقته فى آخر نهار الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس و ثلاثين و ستمائة، عن ستين سنة منها ملكه أرض مصر نحو أربعين سنة، استبدّ فيها بعد موت أبيه مدّة عشرين سنة و خمسة و أربعين يوما.

و كان يحب العلم و أهله و يؤثر مجالستهم، و شغف بسماع الحديث النبوىّ، و حدّث و بنى دار الحديث الكاملية بالقاهرة، و كان يناظر العلماء و يمتحنهم بمسائل غريبة من فقه و نحو، فمن أجاب عنها حظى عنده، و كان يبيت عنده بقلعة الجبل عدّة من أهل العلم على أسرّة بجانب سريره ليسامروه، و كان للعلم و الأدب عنده نفاق، فقصده الناس لذلك، و صار يطلق الأرزاق الدارة لمن يقصده لهذا، و كان مهابا حازما سديد الرأى حسن التدبير عفيفا عن الدماء، و كان يباشر أمور مملكته بنفسه من غير اعتماد على وزير و لا غيره، و لم يستوزر بعد الصاحب صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر أحدا، و إنما كان ينتدب من يختاره لتدبير الأشغال و يحضر عنده الدواوين و يحاسبهم بنفسه، و إذا ابتدأت زيادة النيل خرج و كشف الجسور و رتب الأمراء لعملها، فإذا انتهى عمل الجسور خرج ثانيا و تفقدها بنفسه، فإن وقف فيها على خلل عاقب متوليها أشدّ العقوبة، فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة جيدة، و كان يخرج من زكوات الأموال التى تجبى من الناس سهمى الفقراء و المساكين، و يعين مصرف ذلك لمستحقيه شرعا، و يفرز منه معاليم الفقهاء و الصلحاء، و كان يجلس كلّ ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم فيجتمعون عنده للمناظرة، و كان كثير السياسة حسن المداراة، و أقام على كل طريق خفراء لحفظ المسافرين، إلّا أنه كان مغرما بجمع المال مجتهدا فى تحصيله، و أحدث فى البلاد حوادث سماها الحقوق لم تعرف قبله، و من شعره قوله رحمه اللّه تعالى:

إذا تحققتم ما عند صاحبكممن الغرام فداك القدر يكفيه

أنتم سكنتم فؤادى و هو منزلكمو صاحب البيت أدرى بالذى فيه

و قال له الطبيب علم الدين أبو النصر جرجس بن أبى حليقة فى اليوم الذى مات فيه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۴

كيف نوم السلطان فى ليلته فأنشد:

يا خليليّ خبرانى بصدق‌كيف طعم الكرى فإنى نسيت

و دفن أوّلا بقلعة دمشق، ثم نقل إلى جوار جامع بنى أمية و قبره هناك رحمه اللّه تعالى.

المدرسة الصيرمية

هذه المدرسة من داخل باب الجملون الصغير بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش، فيما بينها و بين الجامع الحاكمىّ، بجوار الزيادة، بناها الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم، أحد أمراء الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب، و توفى فى تاسع عشر صفر سنة ست و ثلاثين و ستمائة.

المدرسة المسرورية

هذه المدرسة بالقاهرة داخل درب شمس الدولة، كانت دار شمس الخواص مسرور، أحد خدّام القصر، فجعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته، و أن يوقف الفندق الصغير عليها، و كان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام كانت بيده بيعت بعد موته، و تولى ذلك القاضى كمال الدين خضر، و درّس فيها، و كان مسرور ممن اختص بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فقدّمه على حلقته و لم يزل مقدّما إلى الأيام الكاملية، فانقطع إلى اللّه تعالى و لزم داره إلى أن مات، و دفن بالقرافة إلى جانب مسجده، و كان له برّ و إحسان و معروف، و من آثاره بالقاهرة فندق يعرف اليوم بخان مسرور الصفدىّ و له ربع بالشارع.

المدرسة القوصية

هذه المدرسة بالقاهرة فى درب سيف الدولة بالقرب من درب ملوخيا، أنشأها الأمير الكردىّ والى قوص.

مدرسة بحارة الديلم المدرسة الظاهرية

هذه المدرسة بالقاهرة من جملة خط بين القصرين، كان موضعها من القصر الكبير يعرف بقاعة الخيم، و قد تقدّم ذكرها فى أخبار القصر. و مما دخل فى هذه المدرسة باب الذهب المذكور فى أبواب القصر، فلما أوقع الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ الحوطة على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۵

القصور و المناظر، كما تقدّم ذكره، نزل القاضى كمال الدين ظاهر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال، و قوّم قاعة الخيم هذه، و ابتاعها الشيخ شمس الدين محمد بن العماد إبراهيم المقدسىّ شيخ الحنابلة و مدرّس المدرسة الصالحية النجمية، ثم باعها المذكور للسلطان، فأمر بهدمها و بناء موضعها مدرسة، فابتدىء بعمارتها فى ثانى ربيع الآخر سنة ستين و ستمائة، و فرغ منها فى سنة اثنتين و ستين و ستمائة، و لم يقع الشروع فى بنائها حتى رتب السلطان وقفها، و كان بالشام، فكتب بما رتبه إلى الأمير جمال الدين بن يغمور، و أن لا يستعمل فيها أحدا بغير أجرة، و لا ينقص من أجرته شيئا، فلما كان يوم الأحد خامس صفر سنة اثنتين و ستين و ستمائة، اجتمع أهل العلم بها و قد فرغ منها و حضر القرّاء و جلس أهل الدروس كلّ طائفة فى إيوان، منها الشافعية بالإيوان القبلىّ و مدرّسهم الشيخ تقىّ الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموىّ، و الحنفية بالإيوان البحرىّ و مدرّسهم الصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبىّ، و أهل الحديث بالإيوان الشرقىّ و مدرّسهم الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطىّ، و

القرّاء بالقراءات السبع بالإيوان الغربيّ و شيخهم الفقيه كمال الدين المحلىّ، و قرّروا كلهم الدروس و تناظروا فى علومهم، ثم مدّت الأسمطة لهم فأكلوا، و قام الأديب أبو الحسين الجزار فأنشد:

ألا هكذا يبنى المدارس من بنىو من يتغالى فى الثواب و فى الثنا

لقد ظهرت للظاهر الملك همةبها اليوم فى الدارين قد بلغ المنا

تجمّع فيها كلّ حسن مفرّقفراقت قلوبا للأنام و أعينا

و مذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النفيسة منها فى سرور و فى هنا

و ما هى إلّا جنة الخلد أزلفتله فى غد فاختار تعجيلها هنا

و قال السراج الورّاق أيضا قصيدة منها:

مليك له فى العلم حبّ و أهلهفلله حبّ ليس فيه ملام

فشيّدها للعلم مدرسة غداعراق إليها شيّق و شآم

و لا تذكرن يوما نظّاميّة لهافليس يضاهى ذا النظّام نظّام

و لا تذكرن ملكا فيبرس مالكو كلّ مليك فى يديه غلام

و لما بناها زعزعت كلّ بيعةمتى لاح صبح فاستقرّ ظلام

و قد برزت كالروض فى الحسن انبأتبأنّ يديه فى النوال غمام

الم تر محرابا كأنّ أزاهراتفتّح عنهنّ الغداة كمام

و قال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب:

قصد الملوك حماك و الخلفاءفافخر فإن محلك الجوزاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۶ أنت الذى أمراؤه بين الورىمثل الملوك و جنده أمراء

ملك تزينت الممالك باسمهو تجمّلت بمديحه الفصحاء

و ترفّعت لعلاه خير مدارسحلّت بها العلماء و الفضلاء

يبقى كما يبقى الزمان و ملكهباق له و لحاسديه فناء

كم للفرنج و للتتار ببابهرسل مناها العفو و الإعفاء

و طريقه لبلادهم موطوءةو طريقهم لبلاده عذراء

دامت له الدنيا و دام خلداما أقبل الإصباح و الإمساء

فلما فرغ هؤلاء الثلاثة من إنشادهم أفيضت عليهم الخلع، و كان يوما مشهودا، و جعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم، و بنى بجانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب اللّه تعالى، و أجرى لهم الجرايات و الكسوة، و أوقف عليها ربع السلطان خارج باب زويلة فيما بين باب زويلة و باب الفرج، و يعرف ذلك الخط اليوم به فيقال خط تحت الربع، و كان ربعا كبيرا لكنه خرب منه عدّة دور فلم تعمر، و تحت هذا الربع عدّة حوانيت هى الآن من أجلّ الأسواق، و للناس فى سكناها رغبة عظيمة و يتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه إلى الحاكم، و هذه المدرسة من أجلّ مدارس القاهرة، إلّا أنها قد تقادم عهدها فرثت و بها إلى الآن بقية صالحة، و نظرها تارة يكون بيد الحنفية و أحيانا بيد الشافعية، و ينازع فى نظرها أولاد الظاهر فيدفعون عنه، و للّه عاقبة الأمور.

المدرسة المنصورية

هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصوريّ بخط بين القصرين بالقاهرة، أنشأها هى و القبة التى تجاهها و المارستان،

الملك المنصور قلاون الألفيّ الصالحيّ، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعيّ، و رتب بها دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، و درسا للطب، و رتب بالقبة درسا للحديث النبويّ، و درسا لتفسير القرآن الكريم، و ميعادا، و كانت هذه التداريس لا يليها إلّا أجل الفقهاء المعتبرين، ثم هى اليوم كما قيل:

تصدّر للتدريس كلّ مهوّس‌بليسد يسمى بالفقيه المدرّس

فحقّ لأهل العلم أن يتمثلوابيت قديم شاع فى كلّ مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالهاكلاها و حتّى سامها كلّ مفلس

القبة المنصورية: هذه القبة تجاه المدرسة المنصورية، و هما جميعا من داخل باب المارستان المنصوريّ، و هى من أعظم المبانى الملوكية و أجلّها قدرا، و بها قبر تضمن الملك المنصور سيف الدين قلاون، و ابنه الملك الناصر محمد بن قلاون، و الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاون. و بها قاعة جليلة فى وسطها فسقية يصل إليها الماء من قوّارة بديعة الزى، و سائر هذه القاعة مفروش بالرخام الملوّن، و هذه القاعة معدّة لإقامة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۷

الخدّام الملوكية الذين يعرفون اليوم فى الدولة التركية بالطواشية، و أحدهم طواشى، و هذه لفظة تركية، أصلها بلغتهم طابوشى، فتلاعبت بها العامة و قالت طواشى، و هو الخصىّ، و لهؤلاء الخدّام فى كلّ يوم ما يكفيهم من الخبز النقىّ و اللحم المطبوخ، و فى كلّ شهر من المعاليم الوافرة ما فيه غنية لهم، و أدركتهم و لهم حرمة وافرة و كلمة نافذة و جانب مرعىّ، و يعدّ شيخهم من أعيان الناس، يجلس على مرتبة، و بقية الخدّام فى مجالسهم لا يبرحون فى عبادة، و كان يستقرّ فى وظائف هذه الخدمة أكابر خدّام السلطان، و يقيمون عنهم نوّابا يواظبون الإقامة بالقبة، و يرون مع سعة أحوالهم و كثرة أموالهم من تمام فخرهم و كمال سيادتهم، انتماءهم إلى خدمة القبة المنصورية، ثم تلاشى الحال بالنسبة إلى ما كان، و الخدّام بهذه القاعة إلى اليوم، و قصد الملوك بإقامة الخدّام فى هذه القاعة التى يتوصل إلى القبة منها، إقامة ناموس الملك بعد الموت كما كان فى مدّة الحياة، و هم إلى اليوم لا يمكنون أحدا من الدخول إلى القبة، إلّا من كان من أهلها، و للّه دريحى بن حكم البكرىّ الجيانىّ المغربىّ الملقب بالغزال لجماله حيث يقول:

أرى أهل الثراء إذا توفوابنوا تلك المقابر بالصخور

أبو إلّا مباهاة و تيهاعلى الفقراء حتى فى القبور

و فى هذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة، و تعرف بدروس وقف الصالح، و ذلك أنّ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاون، قصد عمارة مدرسة فاخترمته المنية دون بلوغ غرضه، فقام الأمير ارغون العلائىّ زوج أمه فى وقف قرية تعرف بدهمشا الحمام من الأعمال الشرقية عن أمّ الملك الصالح، فاثبته بطريق الوكالة عنها، و رتب ما كان الملك الصالح إسماعيل قرّره فى حياته لو أنشأ مدرسة، و جعل ذلك الأمير أرغون مرتبا لمن يقوم به فى القبة المنصورية، و هو وقف جليل يتحصل منه فى كل سنة نحو الأربعة آلاف دينار ذهبا. ثم لما كانت الحوادث و خربت الناحية المذكورة، تلاشى أمر وقف الصالح و فيه إلى اليوم بقية، و كان لا يلى تدريس دروسه إلا قضاة القضاة، فوليه الآن الصبيان و من لا يؤهل لو كان الإنصاف له. و فى هذه القبة أيضا قرّاء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل و النهار، و هم من جهة ثلاثة أوقاف، فطائفة من جهة وقف الملك الصالح إسماعيل، و طائفة من جهة الوقف السيفىّ، و هو منسوب إلى الملك المنصور سيف الدين أبى بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاون. و بهذه القبة إمام راتب يصلّى بالخدّام و القرّاء و غيرهم الصلوات الخمس، و يفتح له باب فيما بين القبة و المحراب يدخل منه من يصلّى من الناس، ثم يغلق بعد انقضاء الصلاة. و بهذه القبة خزانة جليلة كان فيها عدّة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم، مما وقفه الملك المنصور و غيره، و قد ذهب معظم هذه الكتب و تفرّق فى أيدى الناس. و فى هذه القبة خزانة بها ثياب المقبورين بها، و لهم فرّاش معلوم بمعلوم لتعهدهم، و يوضع ما يتحصل من مال أوقاف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۸

المارستان بهذه القبة تحت أيدى الخدّام، و كانت العادة أنه إذا أمّر السلطان أحدا من أمراء مصر و الشام فإنه ينزل من قلعة الجبل و عليه التشريف و الشر بوش و توقد له القاهرة، فيمرّ إلى المدرسة الصالحية بين القصرين، و عمل ذلك من عهد سلطنة المعز أيبك و من بعده، فنقل ذلك إلى القبة المنصورية و صار الأمير يحلف عند القبر المذكور، و يحضر تحليفه صاحب الحجاب، و تمدّ أسمطة جليلة بهذه القبة، ثم ينصرف الأمير و يجلس له فى طول شارع القاهرة إلى القلعة أهل الأغانى لتزفه فى نزوله و صعوده، و كان هذا من جملة منتزهات القاهرة، و قد بطل ذلك منذ انقرضت دولة بنى قلاون. و من جملة أخبار هذه القبة: أنه لما كان فى يوم الخميس مستهل المحرّم سنة تسعين و ستمائة، بعث الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون بجملة مال تصدّق به فى هذه القبة، ثم أمر بنقل أبيه من القلعة، فخرج سائر الأمراء و نائب السلطنة الأمير بيدرا بدر الدين، و الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس التنوخىّ، و حضروا بعد صلاة العشاء الآخرة و مشوا بأجمعهم قدّام تابوت الملك المنصور إلى الجامع الأزهر، و حضر فيه القضاة و مشايخ الصوفية، فتقدّم قاضى القضاة تقىّ الدين بن دقيق العيد و صلّى على الجنازة، و خرج الجميع أمامها إلى القبة المنصورية حتى دفن فيها، و ذلك فى ليلة الجمعة ثانى المحرّم، و قيل عاشره، ثم عاد الوزير و النائب من الدهليز خارج القاهرة إلى القبة المنصورية لعمل مجتمع بسبب قراءة ختمة كريمة فى ليلة الجمعة ثامن عشرى صفر منها، و حضر المشايخ و القرّاء و القضاة فى جمع موفور، و فرّق فى الفقراء صدقات جزيلة، و مدّت أسمطة كثيرة، و تفرّقت الناس أطعمتها حتى امتلأت الأيدى بها، و كانت إحدى الليالى الغرّ، كثر الدعاء فيها للسلطان و عساكر الإسلام بالنصر على أعداء الملة، و حضر الملك الأشرف بكرة يوم الجمعة إلى القبة المنصورية و فرّق مالا كثيرا، و كان الملك الأشرف قد برز يريد المسير لجهاد الفرنج و أخذ مدينة عكا، فسار لذلك و عاد فى العشرين من شعبان و قد فتح اللّه له مدينة عكا عنوة بالسيف و خرّب أسوارها، و كان عبوره إلى القاهرة من باب النصر و قد زينت القاهرة زينة عظيمة، فعند ما حاذى باب المارستان نزل إلى القبة المنصورية و قد غصت بالقضاة و الأعيان و القرّاء و المشايخ و الفقهاء، فتلقوة كلهم بالدعاء حتى جلس فأخذ القرّاء فى القراءة، و قام نجم الدين محمد بن فتح الدين محمد بن عبد اللّه بن مهلهل بن غياث بن نصر المعروف بابن العنبرىّ الواعظ، و صعد منبرا نصب له فجلس عليه و افتتح ينشد قصيدة تشتمل على ذكر الجهاد و ما فيه من الأجر، فلم يسعد فيها بحظ، و ذلك أنه افتتحها بقوله:

زرو الديك وقف على قبريهمافكأننى بك قد نقلت إليهما

فعند ما سمع الأشرف هذا البيت تطير منه و نهض قائما و هو يسب الأمير بيدرا نائب السلطنة لشدّة حنقه و قال: ما وجد هذا شيئا يقوله سوى هذا البيت فاخذ بيدرا فى تسكين حنقه و الاعتذار له عن ابن العنبرىّ، بأنه قد انفرد فى هذا الوقت بحسن الوعظ و لا نظير له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۹

فيه، إلّا أنه لم يرزق سعادة فى هذا الوقت، فلم يصغ السلطان إلى قوله و سار فانفض المجلس على غير شىء، و صعد السلطان إلى قلعة الجبل، ثم بعد أيام سأل السلطان عن وقف المارستان و أحب أن يجدّد له وقفا من بلاد عكا التى افتتحها بسيفه، فاستدعى القضاة و شاورهم فيما همّ به من ذلك، فرغّبوه فيه و حثوه على المبادرة إليه، فعين أربع ضياع من ضياع عكار و صور ليقفها على مصالح المدرسة و القبة المنصورية ما تحتاج إليه من ثمن زيت و شمع و مصابيح و بسط و كلفة الساقية، و على خمسين مقرئا يرتبون لقراءة القرآن الكريم بالقبة، و إمام راتب يصلّى بالناس الصلوات الخمس فى محراب القبة، و ستة خدّام يقيمون بالقبة، و هى الكابرة و تل الشيوخ و كردانة و ضواحيها من عكا و من ساحل صور معركة و صدفين، و كتب بذلك كتاب وقف و جعل النظر فى ذلك لوزيره الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس.

فلما تمّ ذلك تقدّم بعمل مجتمع بالقبة لقراءة ختمة كريمة. و ذلك ليلة الاثنين رابع ذى القعدة سنة تسعين و ستمائة، فاجتمع القرّاء و الوعاظ و المشايخ و الفقراء و القضاة لذلك، و خلع على عامة أرباب الوظائف و الوعاظ، و فرّقت فى الناس صدقات جمة و عمل

مهم عظيم احتفل فيه الوزير احتفالا زائدا، و بات الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة و الأمير الوزير شمس الدين محمد بن السلعوس بالقبة، و حضر السلطان و معه الخليفة الحاكم بأمر اللّه أحمد و عليه سواده، فخطب الخليفة خطبة بليغة حرّض فيها على أخذ العراق من التتار، فلما فرغ من المهمّ أفاض السلطان على الوزير تشريفا سنيا، و فى يوم الخميس حادى عشر ربيع الأوّل سنة إحدى و تسعين و ستمائة، اجتمع القرّاء و الوعاظ و الفقهاء و الأعيان بالقبة المنصورية لقراءة ختمة شريفة، و نزل السلطان الملك الأشرف و تصدّق بمال كثير، و آخر من نزل إلى القبة المنصورية من ملوك بنى قلاون السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، و حضر عنده بالقبة مشايخ العلم و بحثوا فى العلم، و زار قبر أبيه و جدّه، ثم خرج فنظر فى أمر المرضى بالمارستان و توجه إلى قلعة الجبل.

هذه المدرسة بجوار القبة المنصورية من شرقيها، كان موضعها حمّاما، فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورىّ بإنشاء مدرسة موضعها، فابتدىء فى عملها و وضع أساسها و ارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها، فكان من خلعه ما كان، فلما عاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون إلى مملكة مصر، فى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، أمر بإتمامها، فكملت فى سنة ثلاث و سبعمائة، و هى من أجلّ مبانى القاهرة، و بابها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم، فإنه من الرخام الأبيض البديع الزىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۴ ؛ ص۲۲۹

فائق الصناعة، و نقل إلى القاهرة من مدينة عكا، و ذلك أن الملك الأشرف خليل بن قلاون لما فتح عكا عنوة فى سابع عشر جمادى الأولى، سنة تسعين و ستمائة، أقام الأمير علم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۰

الدين سنجر الشجاعىّ لهدم أسوارها و تخريب كنائسها، فوجد هذه البوّابة على باب كنيسة من كنائس عكا، و هى من رخام، قواعدها و أعضادها و عمدها، كل ذلك متصل بعضه ببعض، فحمل الجميع إلى القاهرة و أقام عنده إلى أن قتل الملك الأشرف، و تمادى الحال على هذا أيام سلطنة الملك الناصر محمد الأولى، فلما خلع و تملك كتبغا، أخذ دار الأمير سيف الدين بلبان الرشيدىّ ليعملها مدرسة، فدل على هذه البوّابة فأخذها من ورثة الأمير بيدرا، فإنها كانت قد انتقلت إليه، و عملها كتبغا على باب هذه المدرسة. فلما خلع من الملك و أقيم الناصر محمد، اشترى هذه المدرسة قبل إتمامها و الإشهاد بوقفها، و ولى شراءها وصيه قاضى القضاة زين الدين علىّ بن مخلوف المالكىّ، و أنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة، لكنها دون قبة أبيه، و لما كملت نقل إليها أمّه بنت سكباى بن قراجين، و وقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشيين من القاهرة، و الربع الذى يعلوها، و كان يعرف بالدهيشة، و وقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة، و دار الطعم خارج مدينة دمشق، فلما مات ابنه انوك من الخاتون طغاى فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأوّل سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و عمره ثمانى عشرة سنة، دفنه بهذه القبة و عمل عليها وقفا يختص بها، و هو باق إلى اليوم يصرف لقرّاء و غير ذلك.

و أوّل من رتّب فى تدريس المدرسة الناصرية من المدرّسين، قاضى القضاة زين الدين علىّ بن مخلوف المالكىّ، ليدرّس فقه المالكية بالإيوان الكبير القبلى، و قاضى القضاة شرف الدين عبد الغنىّ الحرّانىّ، ليدرّس فقه الحنابلة بالإيوان الغربىّ، و قاضى القضاة أحمد بن السروجىّ الحنفىّ، ليدرّس فقه الحنفية بالإيوان الشرقىّ، و الشيخ صدر الدين محمد بن المرحل المعروف بابن الوكيل الشافعىّ، ليدرّس فقه الشافعية بالإيوان البحرىّ. و قرّر عند كلّ مدرّس منهم عدّة من الطلبة، و أجرى عليهم المعاليم، و رتب بها إماما يؤمّ بالناس فى الصلوات الخمس، و جعل بها خزانة كتب جليلة، و أدركت هذه المدرسة و هى محترمة إلى الغاية، يجلس بدهليزها عدّة من الطواشية، و لا يمكن غريب أن يصعد إليها، و كان يفرّق بها على الطلبة و القرّاء و سائر أرباب الوظائف بها السكّر فى كلّ شهر، لكل أحد منهم نصيب، و يفرّق عليهم لحوم الأضاحى فى كلّ سنة، و قد بطل ذلك و ذهب ما كان لها من الناموس، و هى اليوم عامرة من أجلّ المدارس.

المدرسة الحجازية

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة، بجوار قصر الحجازية، كان موضعها بابا من أبواب القصر يعرف بباب الزمرّذ، أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية، ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، زوجة الأمير بكتمر الحجازىّ، و به عرفت.

و جعلت بهذه المدرسة درسا للفقهاء الشافعية، قرّرت فيه شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۱

عمر بن رسلان البلقينىّ، و درسا للفقهار المالكية، و جعلت بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة، و رتبت لها إماما راتبا يقيم بالناس الصلوات الخمس، و جعلت بها خزانة كتب، و أنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، و رتبت بشباك هذه القبة عدّة قرّاء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلا- و نهارا، و أنشأت بها منارا عاليا من حجارة ليؤذن عليه، و جعلت بجوار المدرسة مكتبا للسبيل فيه عدّة من أيتام المسلمين، و لهم مؤدّب يعملهم القرآن الكريم، و يجرى عليهم فى كلّ يوم لكل منهم من الخبز النقىّ خمسة أرغفة، و مبلغ من الفلوس، و يقام لكل منهم بكسوتى الشتاء و الصيف، و جعلت على هذه الجهات عدّة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية، و كان يفرّق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك و الخشكنانك، و فى عيد الأضحى اللحم، و فى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام، و قد بطل ذلك و لم يبق غير المعلوم فى كل شهر، و هى من المدارس الكبسة، و عهدى بها محترمة إلى الغاية يجلس عدّة من الطواشية، و لا يمكنون أحدا من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية إلّا القرّاء فقط وقت قراءتهم خاصة. و اتفق مرّة أن شخصا من القرّاء كان فى نفسه شىء من أحد رفقائه، فأتى إلى كبير الطواشية بهذه القبة و قال له: أن فلانا دخل اليوم إلى القبة و هو بغير سراويل، فغضب الطواشى من هذا القول و عدّ ذلك ذنبا عظيما و فعلا محذورا، و طلب ذلك المقرئ و أمر به فضرب بين يديه و صار يقول له: تدخل على خوند بغير سراويل، و همّ بإخراجه من وظيفة القراءة لو لا ما حصل من شفاعة الناس فيه، و كان لا يلى نظر هذه المدرسة إلّا الأمراء الأكابر، ثم صار يليها الخدّام و غيرهم، و كان إنشاؤها فى سنة احدى و ستين و سبعمائة، و لما ولى الأمير جمال الدين يوسف البجاسىّ وظيفة أستادارية السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق، و عمر بجانب هذه المدرسة البجاسىّ وظيفة أستادارية السلطان الملك الناصر فرج بن برقوقو، و عمر بجانب هذه المدرسة داره، ثم مدرسته، صار يحبس فى المدرسة الحجازية من يصادره أو يعاقبه حتى امتلأت بالمسجونين و الأعوان المرسمين عليهم، فزالت تلك الأبهة و ذهب ذلك الناموس، و اقتدى بجمال الدين من سكن بعده من الأستادارية فى داره، و جعلوا هذه المرسة سجنا، و مع ذلك فهى من أبهج مدارس القاهرة إلى الآن.

المدرسة الطيبرسية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر من القاهرة، و هى غريبة مما يلى الجهة البحرية، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارىّ نقيب الجيوش، و جعلها مسجدا للّه تعالى زيادة فى الجامع الأزهر، و قرّر بها درسا للفقهاء الشافعية، و أنشأ بجوارها ميضأة و حوض ماء سبيل ترده الدواب، و تأنق فى رخامها و تذهيب سقوفها حتى جاءت فى أبدع زى و أحسن قالب و أبهج ترتيب، لما فيها من إتقان العمل و جودة الصناعة بحيث أنه لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام، فان جميعه أشكال المحاريب، و بلغت النفقة عليها جملة كثيرة، و انتهت عمارتها فى سنة تسع و سبعمائة، و لها بسط تفرش فى يوم الجمعة كلها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۲

منقوشة بأشكال المحاريب أيضا، و فيها خزانة كتب و لها إمام راتب.

طيبرس: بن عبد اللّه الوزيرىّ، كان فى ملك الأمير بدر الدين بيلبك مملوك الخارندار الظاهرىّ نائب السلطنة، ثم انتقل إلى الأمير

بدر الدين بيدرا، و تنقل فى خدمته حتى صار نائب الصبيبة، و رأى مناما للمنصور لاجين يدل على أنه يصير سلطان مصر، و ذلك قبل أن يتقلد السلطنة و هو نائب الشام، فوعده إن صارت إليه السلطنة أن يقدّمه و ينوّه به، فلما تملك لاجين استدعاه و ولاه نقابة الجيش بديار مصر عوضا عن بلبان الفاخرىّ، فى سنة سبع و تسعين و ستمائة، فباشر النقابة مباشرة مشكورة إلى الغاية، من إقامة الحرمة و أداء الأمانة و العفة المفرطة، بحيث أنه ما عرف عنه أنه قبل من أحد هدية البتة مع التزام الديانة و المواظبة على فعل الخير و الغنى الواسع، و له من الآثار الجميلة الجامع و الخانقاه بأراضى بستان الخشاب المطلة على النيل خارج القاهرة، فيما بينها و بين مصر بجوار المنشأة، و هو أوّل من عمر فى أراضى بستان الخشاب، و قد تقدّم ذكر ذلك، و من آثاره أيضا هذه المدرسة البديعة الزى، و له على كل من هذه الأماكن أوقاف جليلة، و لم يزل فى نقابة الجيش إلى أن مات فى العشرين من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة و سبعمائة، و دفن فى مكان بمدرسته هذه، و قبره بها إلى وقتنا هذا، و وجد له من بعده مال كثير جدّا، و أوصى إلى الأمير علاء الدين علىّ الكوارنىّ، و جعل الناظر على وصيته الأمير أرغون نائب السلطنة، و اتفق انه لما فرغ من بناء هذه المدرسة أحضر إليه مباشروه حساب مصروفها، فلما قدّم إليه استدعى بطشت فيه ماء و غسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شىء منها و قال: شىء خرجنا عنه للّه تعالى لا نحاسب عليه، و لهذه المدرسة شبابيك فى جدار الجامع تشرف عليه، و يتوصل من بعضها إليه، و ما عمل ذلك حتى استفتى الفقهاء فيه فأفتوه بجواز فعله، و قد تداولت أيدى نظار السوء على أوقاف طيبرس هذا فخرب أكثرها و خرب الجامع و الخانقاه، و بقيت هذه المدرسة عمرها اللّه بذكره.

المدرسة الأقبغاوية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر على يسرة من يدخل إليه من بابه الكبير البحرىّ، و هى تشرف بشبابيك على الجامع مركبة فى جداره، فصارت تجاة المدرسة الطيبرسية. كان موضعها دار الأمير الكبير عز الدين أيدمر الحلىّ نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس، و ميضأة للجامع، فأنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد بن قلاون، و جعل بجوارها قبة و منارة من حجارة منحوتة، و هى أوّل مئذنة عملت بديار مصر من الحجر بعد المنصورية، و إنما كانت قبل ذلك تبنى بالآجر، بناها هى و المدرسة المعلم ابن السيوفىّ رئيس المهندسين فى الأيام الناصرية، و هو الذى تولى بناء جامع المارديني خارج باب زويلة، و بنى مئذنته أيضا. و هى مدرسة مظلمة ليس عليها من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۳

بهجة المساجد و لا أنس بيوت العبادات شىء البتة، و ذلك أن أقبغا عبد الواحد اغتصب أرض هذه المدرسة بأن أقرض ورثة أيدمر الحلىّ مالا، و أمهل حتى تصرّفوا فيه ثم أعسفهم فى الطلب و ألجأهم إلى أن أعطوه دارهم، فهدمها و بنى موضعها هذه المدرسة، و أضاف إلى اغتصاب البقعة أمثال ذلك من الظلم، فبناها بأنواع من الغصب و العسف، و أخذ قطعة من سور الجامع حتى ساوى بها المدرسة الطيبرسية، و حشر لعملها الصناع من البنائين و النجارين و الحجارين و المرخمين و الفعلة، و قرّر مع الجميع أن يعمل كل منهم فيها يوما فى كلّ أسبوع بغير أجرة، فكان يجتمع فيها فى كل أسبوع سائر الصناع الموجودين بالقاهرة و مصر، فيجدّون فى العمل نهارهم كله بغير أجرة، و عليهم مملوك من مماليكه ولّاه شدّ العمارة، لم ير الناس أظلم منه و لا أعتى و لا أشدّ بأسا و لا أقسى قلبا و لا أكثر عنتا، فلقى العمال منه مشقات لا توصف، و جاء مناسبا مولاه. و حمل مع هذا إلى هذه العمارة سائر ما يحتاج إليه من الأمتعة و أصناف الآلات و أنواع الاحتياجات من الحجر و الخشب و الرخام و الدهان و غيره من غير أن يدفع فى شىء منه ثمنا البتة، و إنما كان يأخذ ذلك إما بطريق الغصب من الناس، أو على سبيل الخيانة من عمائر السلطان. فإنه كان من جملة ما بيده شدّ العمائر السلطانية، و ناسب هذه الأفعال أنه ما عرف عنه قط أنه نزل إلى هذه العمارة إلّا و ضرب فيها من الصناع عدّة ضربا مؤلما، فيصير ذلك الضرب زيادة على عمله بغير أجرة، فيقال فيه: كملت خصالك هذه بعمارى.

فلما فرغ من بنائها جمع فيها سائر الفقهاء و جميع القضاة، و كان الشريف شرف الدين علىّ بن شهاب الدين الحسين بن محمد بن الحسين نقيب الأشراف و محتسب القاهرة حينئذ، يؤمّل أن يكون مدرّسها، و سعى عنده فى ذلك فعمل بسطا على قياسها بلغ ثمنها ستة آلاف درهم فضة، و رشاه بها ففرشت هناك، و لما تكامل حضور الناس بالمدرسة و فى الذهن أنّ الشريف يلى التدريس، و عرف أنه هو الذى أحضر البسط التى قد فرشت، قال الأمير أقبغا لمن حضر: لا أولى فى هذه الأيام أحدا، و قام فتفرّق الناس، و قرّر فيها درسا للشافعية ولى تدريسه ... و درسا للحنفية ولى تدريسه ... و جعل فيها عدّة من الصوفية و لهم شيخ، و قرّر بها طائفة من القرّاء يقرءون القرآن بشباكها، و جعل فيها عدّة من الصوفية و لهم و فرّاشين و قومة و مباشرين، و جعل النظر للقاضى الشافعىّ بديار مصر، و شرط فى كتاب وقفه أن لا يلى النظر أحد من ذريته، و وقف على هذه الجهات حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع، و قرية بالوجه القبلى. و هذه المدرسة عامرة إلى يومنا هذا، إلّا أنه تعطل منها الميضأة و أضيفت إلى ميضأة الجامع لتغلّب بعض الأمراء بمواطأة بعض النظار على بئر الساقية التى كانت برسمها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۴

اقبغا عبد الواحد: الأمير علاء الدين، أحضره إلى القاهرة التاجر عبد الواحد بن بدال، فاشتراه منه الملك الناصر محمد بن قلاون و لقبه باسم تاجره الذى أحضره، فحظى عنده و عمله شادّ العمائر، فنهض فيها نهضة أعجب منه السلطان و عظمه حتى عمله أستادار السلطان بعد الأمير مغلطاى الجمالىّ، فى المحرّم سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و ولاه مقدّم المماليك، فقويت حرمته و عظمت مهابته حتى صار سائر من فى بيت السلطان يخافه و يخشاه، و ما برح على ذلك إلى أن مات الملك الناصر و قام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر، فقبض عليه فى يوم الاثنين سلخ المحرّم سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، و أمسك أيضا ولديه و أحيط بماله و سائر أملاكه، و رسم عليه الأمير طيبغا المجدىّ و بيع موجوده من الخيل و الجمال و الجوارى و القماش و الأسلحة و الأوانى، فظهر له شىء عظيم إلى الغاية، من ذلك أنه بيع بقلعة الجبل، و بها كانت تعمل حلقات مبيعة سراويل امرأته بمبلغ مائتى ألف درهم فضة، عنها نحو عشرة آلاف دينار ذهب، و بيع له أيضا قبقاب و شرموزة و خف نسائىّ بمبلغ خمسة و سبعين ألف درهم فضة، عنها زيادة على ثلاثة آلاف دينار، و بيعت بدلة مقانع بمائة ألف درهم، و كثرت المرافعات عليه من التجار و غيرهم، فبعث السلطان إليه شادّ الدواوين يعرّفه أنه أقسم بتربة الشهيد، يعنى أباه، أنه متى لم يعط هؤلاء حقهم و إلّا سمّرتك على جمل و طفت بك المدينة، فشرع أقبغا فى استرضائهم و أعطاهم نحو المائتى ألف درهم فضة، ثم نزل إليه الوزير نجم الدين محمود بن سرور المعروف بوزير بغداد و معه الحاج إبراهيم بن صابر مقدّم الدولة، لمطالبته بالمال، فأخذا منه لؤلؤا و جواهر نفيسة و صعدا بها إلى السلطان، و كان سبب هذه النكبة أنه كان قد تحكم فى أمور الدولة السلطانية و أرباب الأشغال أعلاهم و أدناهم بما اجتمع له من الوظائف، و كان عنده فرّاش غضب عليه و أوجعه ضربا، فانصرف من عنده و خدم فى دار الأمير أبى بكر ولد السلطان، فبعث أقبغا يستدعى بالفرّاش إليه، فمنعه منه أبو بكر و أرسل إليه مع أحد مماليكه يقول له:

إنى أريد أن تهبنى هذا الغلام و لا تشوّش عليه، فلما بلّغه المملوك الرسالة اشتدّ حنقه و سبه سبا فاحشا و قال له: قل لأستاذك يسيّر الفرّاش و هو جيد له. و كان قبل ذلك اتفق أن الأمير أبا بكر خرج من خدمة السلطان إلى بيته، فإذا الأمير أقبغا قد بطح مملوكا و ضربه، فوقف أبو بكر بنفسه و سأل أقبغا فى العفو عن المملوك و شفع فيه، فلم يلتفت أقبغا إليه و لا نظر إلى وجهه، فخجل أبو بكر من الناس لكونه وقف قائما بين يدى أقبغا و شفع عنده فلم يقم من مجلسه لوقوفه، بل استمرّ قاعدا و أبو بكر واقف على رجليه، و لا قبل مع ذلك شفاعته، و مضى و فى نفسه منه حنق كبير. فلما عاد إليه مملوكه و بلّغه كلام أقبغا بسبب هذا الفرّاش، أكد ذلك عنده ما كان من الأحنة، و أخذ فى نفسه إلى أن مات أبوه الملك الناصر و عهد إليه من بعده، و كان قد التزم أنه إن ملّكه اللّه، ليصادرنّ أقبغا و ليضربنّه بالمقارع.

و قال للفراش: اقعد فى بيتى، و إذا حضر أحد لأخذك عرفت ما أعمل معه. و أخذ أقبغا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۵

يترقب الفرّاش، و أقام أناسا للقبض عليه فلم يتهيأ له مسكه.

فلما أفضى الأمر إلى أبى بكر، استدعى الأمير قوصون و كان هو القائم حينئذ بتدبير أمور الدولة، و عرّفه ما التزمه من القبض على أقبغا و أخذ ماله و ضربه بالمقارع، و ذكر له و لعدّة من الأمراء ما جرى له منه، و كان لقوصون بأقبغا عناية، فقال للسلطان: السمع و الطاعة، يرسم السلطان بالقبض عليه و مطالبته بالمال، فإذا فرغ ماله يفعل السلطان ما يختاره. و أراد بذلك تطاول المدّة فى أمر أقبغا، فقبض عليه و وكل به رسل ابن صابر، حتى أنه بات ليلة قبض عليه من غير أن يأكل شيئا، و فى صبيحة تلك الليلة تحدّث الأمراء مع السلطان فى نزوله إلى داره محتفظا به حتى يتصرّف فى ماله و يحمله شيئا بعد شىء، فنزل مع المجدى و باع ما يملكه و أورد المال. فلما قبض على الحاج إبراهيم بن صار و أقيم ابن شمس موضعه، أرسله السلطان إلى بيت أقبغا ليعصره و يضربه بالمقارع و يعذبه، فبلغ ذلك الأمير قوصون، فمنع منه و شنّع على السلطان كونه أمر بضربه بالمقارع، و أمر بمراجعته، فحنق من ذلك و أطلق لسانه على الأمير قوصون، فلم يزل به من حضره من الأمراء حتى سكت على مضض.

و كان قوصون يدبر فى انتقاض دولة أبى بكر إلى أن خلعه و أقام بعده أخاه الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاون، و عمره نحو السبع سنين، و تحكم فى الدولة. فأخرج أقبغا هو و ولده من القاهرة و جعله من جملة أمراء الدولة بالشام، فسار من القاهرة فى تاسع ربيع الأوّل سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة على حيز الأمير مسعود بن خطير بدمشق و معه عياله، فأقام بها إلى أن كانت فتنة الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاون و عصيانه بالكرك على أخيه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاون، فاتهم أقبغا بأنه بعث مملوكا من مماليكه إلى الكرك، و أن الناصر أحمد خلع عليه، و ضربت البشائر بقلعة الكرك و أشاع أن أمراء الشام قد دخلوا فى طاعته و حلفوا له، و أن أقبغا قد بعث إليه مع مملوكه يبشره بذلك، فلما وصل إلى الملك الصالح كتاب عساف أخى شطى بذلك، وصل فى وقت وروده كتاب نائب الشام الأمير طقزدمر يخبر فيه بأن جماعة من أمراء الشام قد كاتبوا أحمد بالكرك و كاتبهم، و قد قبض عليهم و من جملتهم أقبغا عبد الواحد، فرسم بحمله مقيدا، فحمل من دمشق إلى الإسكندرية و قتل بها فى آخر سنة أربع و أربعين و سبعمائة.

و كان من الظلم و الطمع و التعاظم على جانب كبير، و جمع من الأموال شيئا كثيرا، و أقام جماعة من أهل الشرّ لتتبع أولاد الأمراء و تعرّف أحوال من افتقر منهم أو احتاج إلى شىء، فلا يزالون به حتى يعطوه مالا على سبيل القرض بفائدة جزيلة إلى أجل، فإذا استحق المال أعسفه فى الطلب و ألجأه إلى بيع ماله من الأملاك، و حلها إن كانت وقفا بعنايته به، و عين لعمل هذه الحيل شخصا يعرف بابن القاهرىّ، و كان إذا دخل لأحد من القضاة فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۶

شراء ملك أو حل وقف لا يقدر على مخالفته و لا يجد بدّا من موافقته. و من غريب ما يحكى عن طمع أقبغا، أن مشدّ الحاشية دخل عليه و فى إصبعه خاتم بفص أحمر من زجاج له بريق، فقال له أقبغا: إيش هو هذا الخاتم، فأخذ يعظمه و ذكر أنه من تركة أبيه. فقال: بكم حسبوه عليك؟ فقال: بأربعمائة درهم. فقال: أرنيه. فناوله إياه فأخذه و تشاغل عنه ساعة ثم قال له: و اللّه فضيحة أن نأخذ خاتمك، و لكن خذه أنت و هات ثمنه، و دفعه إليه و ألزمه بإحضار الأربعمائة درهم، فما وسعه إلّا أن أحضرها إليه، فعاقبه اللّه بذهاب ماله و غيره، و موته غريبا.

المدرسة الحسامية

هذه المدرسة بخط المسطاح من القاهرة قريبا من حارة الوزيرية، بناها الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورىّ نائب السلطنة بديار مصر، إلى جانب داره، و جعلها برسم الفقهاء الشافعية، و هى فى وقتنا هذا تجاه سوق الرقيق، و يسلك منها إلى درب العدّاس و إلى

حارة الوزيرية و إلى سويقة الصاحب و باب الخوخة و غير ذلك، و كان بجانبها طبقة لخياط فطلبت منه بثلاثة أمثال ثمنها فلم يبعها، و قيل لطرنطاى لو طلبته لاستحيى منك، فلم يطلبه و تركه و طبقته و قال: لا أشوّش عليه.

طرنطاى: بن عبد اللّه الأمير حسام الدين المنصوريّ، رباه الملك المنصور قلاون صغيرا و رقاه فى خدمه إلى أن تقلد سلطنة مصر، فجعله نائب السلطنة بديار مصر عوضا عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحيّ، و خلع عليه فى يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة ثمان و سبعين و ستمائة، فباشر ذلك مباشرة حسنة إلى أن كانت سنة خمس و ثمانين، فخرج من القاهرة بالعساكر إلى الكرك و فيها الملك المسعود نجم الدين خضر و أخوه بدر الدين سلامش، ابنا الملك الظاهر بيبرس، فى رابع المحرّم، و سار إليها فوافاه الأمير بدر الدين الصوّانيّ بعساكر دمشق فى ألفى فارس، و نازلا الكرك و قطعا الميرة عنها و استفسدا رجال الكرك حتى أخذا خضرا و سلامش بالأمان فى خامس صفر، و تسلم الأمير عز الدين طرنطاى الموصليّ نائب الشوبك مدينة الكرك و استقرّ فى نيابة السلطنة بها، و بعث الأمير طرنطاى بالبشارة إلى قلعة الجبل، فوصل البريد بذلك فى ثامن صفر، ثم قدم بابنى الظاهر، فخرج السلطان إلى لقائه فى ثانى عشر ربيع الأوّل و أكرم الأمير طرنطاى و رفع قدره ثم بعثه إلى أخذ صهيون و بها سنقر الأشقر، فسار بالعساكر من القاهرة فى سنة ست و ثمانين، و نازلها و حصرها حتى نزل إليه سنقر بالأمان و سلّم إليه قلعة صهيون، و سار به إلى القاهرة، فخرج السلطان إلى لقائه و أكرمه.

و لم يزل على مكانته إلى أن مات الملك المنصور و قام فى السلطنة بعده ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون، فقبض عليه فى يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة سنة تسع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۷

و ثمانين، و عوقب حتى مات يوم الاثنين خامس عشرة بقلعة الجبل، و بقى ثمانية أيام بعد قتله مطروحا بحبس القلعة، ثم أخرج فى ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة و قد لف فى حصير و حمل على جنوية إلى زاوية الشيخ أبى السعود بالقرافة، فغسله الشيخ عمر السعودىّ شيخ الزواية و كفنه من ماله و دفنه خارج الزاوية ليلا، و بقى هناك إلى سلطنة العادل كتبغا، فأمر بنقل جثته إلى تربته التى أنشأها بمدرسته هذه.

و كان سبب القبض عليه و قتله، أن الملك الأشرف كان يكرهه كراهة شديدة، فإنه كان يطرح جانبه فى أيام أبيه، و يغض منه و يهين نوّابه و يؤذى من يخدمه، لأنه كان يميل إلى أخيه الملك الصالح علاء الدين علىّ بن قلاون، فلما مات الصالح علىّ و انتقلت ولاية العهد إلى الأشرف خليل بن قلاون، مال إليه من كان ينحرف عنه فى حياة أخيه إلّا طرنطاى، فإنه ازداد تماديا فى الإعراض عنه و جرى على عادته فى أذى من ينسب إليه، و أغرى الملك المنصور بشمس الدين محمد بن السلعوس ناظر ديوان الأشرف حتى ضربه و صرفه عن مباشرة ديوانه، و الأشرف مع ذلك يتأكد حنقه عليه و لا يجد بدّا من الصبر إلى أن صار له الأمر بعد أبيه، و وقف الأمير طرنطاى بين يديه فى نيابة السلطنة على عادته و هو منحرف عنه لما أسلفه من الإساءة عليه، و أخذ الأشرف فى التدبير عليه إلى أن نقل له عنه أنه يتحدّث سرّا فى إفساد نظام المملكة و إخراج الملك عنه، و أنه قصد أن يقتل السلطان و هو راكب فى الميدان الأسود الذى تحت قلعة الجبل عند ما يقرب من باب الإصطبل، فلم يحتمل ذلك.

و عندها سير أربعة ميادين و الأمير طرنطاى و من وافقه عند باب سارية حتى انتهى إلى رأس الميدان و قرب من باب الإصطبل، و فى الظنّ أنه يعطف إلى باب سارية ليكمل التسيير على العادة، فعطف إلى جهة القلعة و أسرع و دخل من باب الإصطبل، فبادر الأمير طرنطاى عندما عطف السلطان و ساق فيمن معه ليدركوه، ففاتهم و صار بالإصطبل فيمن خف معه من خواصه، و ما هو إلّا أن نزل الأشرف من الركوب فاستدعى بالأمير طرنطاى، فمنعه الأمير زين الدين كتبغا المنصوريّ عن الدخول إليه و حذره منه و قال له: و اللّه إنى أخاف عليك منه فلا تدخل عليه إلا فى عصبة تعلم أنهم يمنعونك منه إن وقع أمر تكرهه، فلم يرجع إليه و غرّه أن أحدا لا يجسر عليه لمهابته فى القلوب و مكانته من الدولة، و أن الأشرف لا يبادره بالقبض عليه و قال لكتبغا: و اللّه لو كنت نائما ما جسر خليل

ينبهنى. و قام و مشى إلى السلطان و دخل و معه كتبغا، فلما وقف على عادته بادر إليه جماعة قد أعدّهم السلطان و قبضوا عليه، فأخذه اللكم من كلّ جانب و السلطان يعدّد ذنوبه و يذكر له إساءته و يسبه.

فقال له يا خونـد: هـذا جميعه قـد عملته معك، و قـدّمت الموت بين يـدىّ، و لكن و اللّه لتندمنّ من بعدى. هذا و الأيدى تتناوب عليه حتى أنّ بعض الخاصـكية قلع عينه و سـحب إلى السـجن، فخرج كتبغـا و هو يقول: إيش أعمل و يكرّرها، فأدركه الطلب و قبض عليه أيضا، ثم آل آمر كتبغا بعد ذلك إلى أن ولى سلطنة مصر، و أوقع الأشرف الحوطة على أموال طرنطاى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۸

و بعث إلى داره الأمير علم الـدين سـنجر الشـجاعىّ، فوجـد له من العين سـتمائة ألف دينار، و من الفضة سـبعة عشـر ألف رطل و مائة رطل مصرى، عنها زيادة على مائة و سبعين قنطارا فضة سوى الأوانى، و من العدد و الأسلحة و الأقمشة و الآلات و الخيول و المماليك مـا يتعـذر إحصـاء قيمته، و من الغلات و الأملاك شـىء كثير جـدّا، و وجـد له من البضائع و الأموال المسـفرة على اسـمه و الودائع و المقارضات و القنود و الأعسال و الأبقار و الأغنام و الرقيق و غير ذلك شـىء يجل وصـفه، هذا سوى ما أخفاه مباشروه بمصر و الشام، فلما حملت أمواله إلى الأشرف جعل يقلبها و يقول:

من عاش بعد عدوّهيوما فقد بلغ المنى

و اتفق بعـد موت طرنطاى أن ابنه سأل الـدخول على السـلطان الأشـرف فأذن له، فلما وقف بين يـديه جعل المنديل على وجهه و كان أعمى، ثم مـدّ يـده و بكى و قـال: شـىء للّه، و ذكر أنّ لأـهله أياما مـا عنـدهم ما يأكلونه، فرق له و أفرج عن أملاك طرنطاى و قال: تبلغوا بريعها، فسبحان من بيده القبض و البسط.

المدرسة المنكوتمرية

هذه المدرسة بحارة بهاء الدين من القاهرة، بناها بجوار داره الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامىّ نائب السلطنة بديار مصر، فكملت فى صـفر سـنة ثمان و تسـعين و ستمائة، و عمل بها درسا للمالكية قرّر فيه الشيخ شمس الدين محمد بن أبى القاسم بن عبد السلام بن جميـل التونسـىّ المـالكىّ، و درسـا للحنفيـة درّس فيه ... و جعل فيها خزانـة كتب و جعل عليها وقفا ببلاد الشام، و هى اليوم بيـد قضاة الحنفية يتولون نظرها، و أمرها متلاش و هى من المدارس الحسنة.

منكوتمر: هو أحـد مماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورىّ، ترقى فى خدمته و اختص به اختصاصا زائدا إلى أن ولى مملكة مصر بعد كتبغا، فى سنة ست و تسعين و ستمائة، فجعله أحد الأمراء بديار مصر، ثم خلع عليه خلع نيابة السلطنة عوضا عن الأمير شمس الـدين قراسـنقر المنصورىّ، يوم الأربعـاء النصف من ذى القعـدة، فخرج سـائر الأـمراء فى خـدمته إلى دار النيابـة و باشـر النيابة بتعـاظم كـثير، و أعطى المنصب حقه من الحرمـة الوافرة و المهابـة التى تخرج عن الحـدّ، و تصـرّف فى سـائر أمور الدولـة من غير أن يعارضه السلطان فى شىء البتة، و بلغت عبرة إقطاعه فى السنة زيادة على مائة ألف دينار.

و لما عمل الملك المنصور الروك المعروف بالروك الحسامىّ، فوّض تفرقة منالات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۹

إقطاعات الأجناد له، فجلس فى شباك دار النيابة بقلعة الجبل، و وقف الحجاب بين يديه، و أعطى لكل تقدمة منالات، فلم يجسر أحد أن يتحـدّث فى زيـادة و لا نقصان خوفا من سوء خلقه و شـدّة حمقه، و بقى أياما فى تفرقـة المنالات و الناس على خوف شديـد. فإنّ أقـلّ الإقطاعـات كـان فى أيـام الملـك المنصور قلاـون عشـرة آلاـف درهم فى السـنة، و أكثره ثلاـثين ألف درهم. فرجع فى الروك الحسامىّ أكثر إقطاعات الحلقـة إلى مبلغ عشـرين ألف درهم و ما دونها، فشق ذلك على الأجناد، و تقـدّم طائفة منهم و رموا منالاتهم التى فرّقت عليهم، لأن الواحـد منهم وجد مناله بحق النصف مما كان له قبل الروك، و قالوا لمنكوتمر: إما أن تعطونا ما يقوم بكلفنا و

إلّا فخذوا أخبازكم و نحن نخدم الأمراء أو نصير بطالين. فغضب منكوتمر و أخرق بهم و تقدّم إلى الحجاب فضربوهم، و أخذوا سيوفهم و أودعوهم السجون، و أخذ يخاطب الأمراء بفحش و يقول: أيما قوّاد شكا من خبزه؟ و يقول نقول للسلطان فعلت به، و فعلت إيش يقول للسلطان، إن رضى يخدم و إلّا إلى لعنة اللّه، فشق ذلك على الأمراء و أسرّوا له الشرّ، ثم إنه لم يزل بالسلطان حتى قبض على الأمير بدر الدين بيسرى، و حسن له إخراج أكابر الأمراء من مصر، فجرّدهم إلى سيس، و أصبح و قد خلا له الجوّ، فلم يرض بذلك حتى تحدّث مع خوشداشيته بأنه لا بدّ أن ينشئ له دولة جديدة و يخرج طفجى و كرجى من مصر، ثم إنه جهز حمدان بن صلغاى إلى حلب فى صورة أنه يستعجل العساكر من سيس، و قرّر معه القبض على عدّة من الأمراء، و أمّر عدّة أمراء جعلهم له عدّة و ذخرا، و تقدّم إلى الصاحب فخر الدين الخليلىّ بأن يعمل أوراقا تتضمن أسماء أرباب الرواتب ليقطع أكثرها، فلم تدخل سنة ثمان و تسعين حتى استوحشت خواطر الناس بمصر و الشام من منكوتمر، وزاد حتى أراد السلطان أن يبعث بالأمير طغا إلى نيابة طرابلس، فتنصل طغا من ذلك، فلم يعفه السلطان منه، و ألح منكوتمر فى إخراجه و أغلظ للأمير كرجى فى القول، و حط على سلار و بيبرس الجاشنكير و أنظارهم، و غض منهم، و كان كرجى شرس الأخلاق ضيق العطن سريع الغضب، فهمّ غير مرّة بالفتك بمنكوتمر، و طفجى يسكن غضبه، فبلغ السلطان فساد قلوب الأمراء و العسكر، فبعث قاضى القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن الرومىّ الحنفىّ إلى منكوتمر يحدّثه فى ذلك و يرجعه عما هو فيه، فلم يلتفت إلى قوله و قال: أنا مالى حاجة بالنيابة، أريد أخرج مع الفقراء فلما بلغ السلطان عنه ذلك استدعاه و طيب خاطره و وعده بسفر طفجى بعد أيام، ثم القبض على كرجى بعده، فنقل هذا للأمراء، فتحالفوا و قتلوا السلطان كما قد ذكر فى خبره، و أوّل من بلغه خبر مقتل السلطان الأمير منكوتمر، فقام إلى شباك النيابة بالقلعة فرأى باب القلة و قد انفتح و خرج الأمراء و الشموع تقد و الضجة قد ارتفعت فقال: و اللّه قد فعلوها، و أمر فغلقت أبواب دار النيابة، و ألبس مماليكه آلة الحرب، فبعث الأمراء إليه بالأمير الحسام أستادار، فعرّفه بمقتل السلطان و تلطف به حتى نزل و هو مشدود الوسط بمنديل، و سار به إلى باب القلة و الأمير طفجى قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۰

جلس فى مرتبة النيابة، فتقدّم إلى طفجى و قبل يده، فقام إليه و أجلسه بجانبه، و قام الأمراء فى أمر منكوتمر يشفعون فيه، فأمر به إلى الجب و أنزلوه فيه، و عندما استقرّ به أدليت له القفة التى نزل فيها، و تصايحوا عليه بالصعود فطلع عليهم، و إذا كرجى قد وقف على رأس الجبّ فى عدّة من المماليك السلطانية، فأخذ يسب منكوتمر و يهينه و ضربه بلت ألقاه، و ذبحه بيده على الجبّ و تركه و انصرف، فكان بين قتل أستاذه و قتله ساعة من الليل، و ذلك فى ليلة الجمعة عاشر ربيع الأوّل سنة ثمان و تسعين.

المدرسة القراسنقرية

هذه المدرسة تجاه خانقاه الصلاح سعيد السعداء، فيما بين رحبة باب العيد و باب النصر، كان موضعها و موضع الربع الذى بجانبها الغربىّ مع خانقاه بيبرس، و ما فى صفها إلى حمام الأعسر و باب الجوّانية، كلّ ذلك من دار الوزارة الكبرى التى تقدّم ذكرها، أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورىّ نائب السلطنة، سنة سبعمائة. و بنى بجوار بابها مسجدا معلقا و مكتبا لإقراء أيتام المسلمين كتاب اللّه العزيز، و جعل بهذه المدرسة درسا للفقهاء، و وقف على ذلك داره التى بحارة بهاء الدين و غيرها، و لم يزل نظر هذه المدرسة بيد ذرّية الواقف إلى سنة خمس عشرة و ثمانمائة، ثم انقرضوا. و هى من المدارس المليحة، و كنا نعهد البريدية إذا قدموا من الشام و غيرها لا ينزلون إلّا فى هذه المدرسة حتى يتهيأ سفرهم، و قد بطل ذلك من سنة تسعين و سبعمائة.

قراسنقر بن عبد اللّه: الأمير شمس الدين الجوكندار المنصورىّ، صار إلى الملك المنصور قلاون و ترقى فى خدمته إلى أن ولاه نيابة السلطنة بحلب فى شعبان سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الباشقردىّ، فلم يزل فيها إلى أن مات الملك المنصور و قام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل بن قلاون، فلما توجه الأشرف إلى فتح قلعة الروم عاد بعد فتحها إلى حلب

و عزل قراسنقر عن نيابتها، و ولى عوضه الأمير سيف الدين بلبان الطناحيّ، و ذلك فى أوائل شعبان سنة إحدى و تسعين، و كانت ولايته على حلب تسع سنين. فلما خرج السلطان من مدينة حلب خرج فى خدمته و توجه مع الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة بديار مصر فى عدّة من الأمراء لقتال أهل جبال كسروان، فلما عاد سار مع السلطان من دمشق إلى القاهرة و لم يزل بها إلى أن ثار الأمير بيدرا على الأشرف، فتوجه معه و أعان على قتله، فلما قتل بيدرا فرّ قراسنقر و لاجين فى نصف المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة. و اختفيا بالقاهرة إلى أن استقرّ الأمر للملك الناصر محمد بن قلاون، و قام فى نيابة السلطنة و تدبير الدولة الأمير زين الدين كتبغا، فظهرا فى يوم عيد الفطر و كانا عند فرارهما يوم قتل بيدرا أطلعا الأمير بيحاص الزينىّ مملوك الأمير كتبغا نائب السلطنة على حالهما، فأعلم استاذه بأمرهما و تلطف به حتى تحدّث فى شأنهما مع السلطان، فعفا عنهما،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۱

ثم تحدّث مع الأمير بكتاش الفخرىّ إلى أن ضمن له التحدّث مع الأمراء، و سعى فى الصلح بينهما و بين الأمراء و المماليك حتى زالت الوحشة، و ظهرا من بيت الأمير كتبغا، فأحضرهما بين يدى السلطان و قبلا الأرض و أفيضت عليهما التشاريف و جعلهما أمراء على عادتهما، و نزلا إلى دورهما فحمل إليهما الأمراء ما جرت العادة به من التقادم، فلم يزل قراسنقر على إمرته إلى أن خلع الملك الناصر محمد بن قلاون من السلطنة و قام من بعده الملك العادل زين الدين كتبغا، فاستمرّ على حاله إلى أن ثار الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بديار مصر على الملك العادل كتبغا بمنزلة العوجاء من طريق دمشق، فركب معه قراسنقر و غيره من الأمراء إلى أن فرّ كتبغا، و استمرّ الأمر لحسام الدين لاجين و تلقب بالملك المنصور، فلما استقرّ بقلعة الجبل خلع على الأمير قراسنقر و جعله نائب السلطنة بديار مصر فى صفر سنة ست و تسعين و ستمائة، فباشر النيابة إلى يوم الثلاثاء للنصف من ذى القعدة، فقبض عليه و أحيط بموجوده و حواصله و نوّابه و دواوينه بديار مصر و الشام، و ضيق عليه و استقرّ فى نيابة السلطنة بعده الأمير منكوتمر، و عدّ السلطان من أسباب القبض عليه إسرافه فى الطمع و كثرة الحمايات و تحصيل الأموال على سائر الوجوه، مع كثرة ما وقع من شكاية الناس من مماليكه و من كاتبه شرف الدين يعقوب، فإنه كان قد تحكم فى بيته تحكما زائدا، و عظمت نعمته و كثرت سعادته، و أسرف فى اتخاذ المماليك و الخدم، و انهمك فى اللعب الكثير، و تعدّى طوره و قراسنقر لا يسمع فيه كلاما، و حدّثه السلطان بسببه و أغلظ فى القول و ألزمه بضربه و تأديبه أو إخراجه من عنده، فلم يعبأ بذلك. و ما زال قراسنقر فى الاعتقال إلى أن قتل الملك المنصور لاجين و أعيد الملك الناصر محمد بن قلاون إلى السلطنة فأفرج عنه و عن غيره من الأمراء و رسم له بنيابة الصبيبة فخرج إليها ثم نقل منها إلى نيابة حماه بعد موت صاحبها الملك المظفر تقىّ الدين محمود بسفارة الأمير بيبرس الجاشنكير، و الأمير سلار، ثم نقل من نيابة حماه بعد ملاقاة التتر إلى نيابة حلب، و استقرّ عوضه فى نيابة حماه الأمير زين الدين كتبغا الذى تولى سلطنة مصر و الشام، و ذلك فى سنة تسع و تسعين و ستمائة، و شهد وقعة شقحب مع الملك الناصر محمد بن قلاون، و لم يزل على نيابة حلب إلى أن خلع الملك الناصر و تسلطن الملك المظفر بيبرس الجاشنكير و صاحب الناصر فى الكرك، فلما تحرّك لطلب الملك و استدعى نوّاب الممالك، أجابه قراسنقر و أعانه برأيه و تدبيره، ثم حضر إليه و هو بدمشق و قدّم له شيئا كثيرا و سار معه إلى مصر حتى جلس على تخت ملكه بقلعة الجبل، فولاه نيابة دمشق عوضا عن الأمير عز الدين الأفرم فى شوّال سنة تسع و سبعمائة، و خرج إليها فسار إلى غزة فى عدّة من النوّاب و قبضوا على المظفر بيبرس الجاشنكير و سار به هو و الأمير سيف الدين الحاج بهادر إلى الخطارة، فتلقاهم الأمير استدمر كرجى، فتسلم منهم بيبرس و قيده و أركبه بغلا و أمر قراسنقر و الحاج بهادر بالسير إلى مصر، فشق على قراسنقر تقييد بيبرس، و توهم الشرّ من الناصر، و انزعج لذلك انزعاجا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۲

كثيرا و ألقى كلوتته عن رأسه إلى الأرض و قال لفرّاشه: الدنيا فانية، يا ليتنا متنا و لا رأينا هذا اليوم، فترجل من حضر من الأمراء و رفعوا كلوتته و وضعوها على رأسه، و رجع من فوره و معه الحاج بهادر إلى ناحية الشام و قد ندم على تشييع المظفر بيبرس، فجدّ فى

سيره إلى أن عبر دمشق، و فى نفس السلطان منه كونه لم يحضر مع بيبرس، و كان قد أراد القبض عليه، فبعث الأمير نوغاى القبجاقىّ أميرا بالشام ليكون له عينا على الأمير قراسنقر، ففطن قراسنقر لذلك و شرع نوغاى يتحدّث فى حق قراسنقر بما لا يليق حتى ثقل عليه مقامه، فقبض عليه بأمر السلطنة و سجن بقلعة دمشق، ثم إن السلطان صرفه عن نيابة دمشق و ولاه نيابة حلب بسؤاله، و ذلك فى المحرّم سنة إحدى عشرة و سبعمائة، و كتب السلطان إلى عدّة من الأمراء بالقبض عليه مع الأمير أرغون الدوادار، فلم يتمكن من التحدّث فى ذلك لكثرة ما ضبط قراسنقر أموره و لازمه عند قدومه عليه بتقليد نيابة حلب، بحيث لم يتمكن أرغون من الحركة إلى مكان إلّا و قراسنقر معه، فكثر الحديث بدمشق أن أرغون إنما حضر لمسك قراسنقر، حتى بلغ ذلك الأمراء، و سمعه قراسنقر، فاستدعى بالأمراء و حضر الأمير أرغون فقال قراسنقر: بلغنى كذا و ها أنا أقول إن كان حضر معك مرسوم بالقبض علىّ فلا حاجة إلى فتنة، أنا طائع السلطان، و هذا سيفى خذه، و مدّ يده و حل سيفه من وسطه. فقال أرغون و قد علم أن هذا الكلام مكيدة و أن قراسنقر لا يمكن من نفسه: إنى لم أحضر إلا بتقليد الأمير نيابة حلب بمرسوم السلطان، و سؤال الأمير، و حاشا للّه أن السلطان يذكر فى حق الأمير شيئا من هذا. فقال قراسنقر: غدا نركب و نسافر. و انفض المجلس فبعث إلى الأمراء أن لا يركب أحد منهم لوداعه، و لا يخرج من بيته، و فرّق ما عنده من الحوائص و من الدراهم على مماليكه ليتحملوا به على أوساطهم، و أمرهم بالاحتراس، و قدّم غلمانه و حواشيه فى الليل و ركب وقت الصباح فى طلب عظيم، و كانت عدّة مماليكه ستمائة مملوك قد جعلهم حوله ثلاث حلقات، و أركب أرغون إلى جانبه و سار على غير الجادّة حتى قارب حلب، ثم عبرها فى العشرين من المحرّم و أعاد أرغون بعد ما أنعم عليه بألف دينار و خلعة و خيل و تحف، و أقام بمدينة حلب خائفا يترقب، و شرع يعمل الحيلة فى الخلاص، و صادق العربان، و اختص بالأمير حسام الدين مهنا أمير العرب و بابنه موسى، و أقدمه إلى حلب و أوقفه على كتب السلطان إليه بالقبض عليه، و أنه لم يفعل ذلك و لم يزل به حتى أفسد ما بينه و بين السلطان، ثم أنه بعث يستأذن السلطان فى الحج، فأعجب السلطان ذلك و ظنّ أنه بسفره يتم له التدبير عليه لما كان فيه من الاحتراز الكبير، و أذن له فى السفر و بعث إليه بألفى دينار مصرية، فخرج من حلب و معه أربعمائة مملوك معدّة بالفرس و الجنيب و الهجن، و سار حتى قارب الكرك، فبلغه أن السلطان كتب إلى النوّاب و أخرج عسكرا من مصر إليه، فرجع من طريق السماوة إلى حلب و بها الأمير سيف الدين قرطاى نائب الغيبة، فمنعه من العبور إلى المدينة و لم يمكن أحدا من مماليك قراسنقر أن يخرج إليه، و كانت مكاتبة السلطان قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۳

قدمت عليه بذلك، فرحل حينئذ إلى مهنا أمير العرب و استجار به، فأكرمه و بعث إلى السلطان يشفع فيه، فلم يجد السلطان بدّا من قبول شفاعة مهنا، و خيّر قراسنقر فيما يريد، ثم أخرج عسكرا من مصر و الشام لقتال مهنا، و أخذ قراسنقر فبلغه ذلك فاحترس على نفسه و كتب إلى السلطان يسأله فى صرخد، و قصد بذلك المطاولة، فأجابه إلى ذلك و مكنه من أخذ حواصله التى بحلب، و أعطى مملوكه ألف دينار، فلما قدم عليه لم يطمئن و عبر إلى بلاد الشرق فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، فى عدّة من الأمراء يريد خربندا، فلما وصل إلى الرحبة بعث بابنه فرج و معه شىء من أثقاله و خيوله و أمواله إلى السلطان بمصر، ليعتذر من قصده خربندا، و رحل بمن معه إلى ماردين فتلقاه المغل، و قام له نوّاب خربندا بالإقامات إلى أن قرب الأردوا، فركب خربندا إليه و تلقاه و أكرمه و من معه و أنزلهم منزلا يليق بهم، و أعطى قراسنقر المراغة من عمل أذربيجان، و أعطى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم همدان، و ذلك فى أوائل سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، فلم يزل هناك إلى أن مات خربندا و قام من بعده أبو سعيد بركة بن خربندا، فشق ذلك على السلطان و أعمل الحيلة فى قتل قراسنقر و الأفرم و سير إليهما الفداوية، فجرت بينهم خطوب كثيرة، و مات قراسنقر بالإسهال ببلد المراغة فى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، يوم السبت سابع عشرى شوّال، قبل موت السلطان بيسير، فلما بلغ السلطان موته فى حادى عشر ذى القعدة عند ورود الخبر إليه قال:

ما كنت أشتهى يموت إلّا من تحت سيفى، و أكون قد قدرت عليه و بلغت مقصودى منه، و ذلك أنه كان قد جهز إليه عددا كثيرا من

الفداوية، قتل منهم بسببه مائة و عشرون فداويا بالسيف، سوى من فقد و لم يوقف له على خير، و كان قراسنقر جسيما جليلا صاحب رأى و تدبير و معرفة، و بشاشة وجه، و سماحة نفس، و كرم زائد، بحيث لا يستكثر على أحد شيئا مع حسن الشاكلة و عظم المهابة و السعادة الطائلة، و بلغت عدّة مماليكه ستمائة مملوك، ما منهم إلا- من له نعمة ظاهرة و سعادة وافرة، و له من الآثار بالقاهرة هذه المدرسة و دار جليلة بحارة بهاء الدين فيها كان سكنه.

المدرسة الغزنوية

هذه المدرسة برأس الموضع المعروف بسويقة أمير الجيوش تجاه المدرسة اليازكوجية، بناها الأمير حسام الدين قايماز النجمىّ، مملوك نجم الدين أيوب، والد الملوك، و أقام بها الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن يوسف بن علىّ بن محمد الغزنوىّ البغدادىّ المقرئ الفقيه الحنفىّ، و درس بها فعرفت به، و كان إماما فى الفقه و سمع على الحافظ السلفىّ و غيره، و قرأ بنفسه و سكن مصر آخر عمره، و كان فاضلا حسن الطريقة متدينا، و حدّث بالقاهرة بكتاب الجامع لعبد الرزاق بن همام، فرواه عنه جماعة، و جمع كتابا فى الشيب و العمر، و قرأ عليه أبو الحسن السخاوىّ، و أبو عمرو بن الحاجب، و مولده ببغداد فى ربيع الأوّل سنة اثنتين و عشرين و خمسمائة، و توفى بالقاهرة يوم الاثنين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۴

النصف من ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين و خمسمائة، و هى من مدارس الحنفية.

المدرسة البوبكرية

هذه المدرسة بجوار درب العباسى قريبا من حارة الوزيرية بالقاهرة، بناها الأمير سيف الدين اسنبغا بن الأمير سيف الدين بكتمر البوبكرى الناصرىّ، و وقفها على الفقهاء الحنفية، و بنى بجانبها حوض ماء للسبيل و سقاية و مكتبا للأيتام، و ذلك فى سنة اثنتين و سبعين و سبعمائة، و بنى قبالتها جامعا، فمات قبل إتمامه و كان يسكن دار بدر الدين الأمير طرنطاى المجاورة للمدرسة الحسامية، تجاه سوق الجوارى، فلذلك أنشأ هذه المدرسة بهذا المكان لقربه منه، ثم لما كانت سنة خمس عشرة و ثمانمائة، جدّد بهذه المدرسة منبرا و صار يقام بها الجمعة. اسنبغا بن بكتمر الأمير ... .

المدرسة البقرية

هذه المدرسة فى الزقاق الذى تجاه باب الجامع الحاكمىّ المجاور للمنبر، و يتوصل من هذا الزقاق إلى ناحية العطوف، بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل، تصغير غزال، المعروف بابن البقرىّ، أحد مسالمة القبط و ناظر الذخيرة فى أيام الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاون، و هو خال الوزير الصاحب سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ، و أصله من قرية تعرف بدار البقر، إحدى قرى الغربية، نشأ على دين النصارى، و عرف الحساب و باشر الخراج إلى أن أقدمه الأمير شرف الدين بن الأزكشىّ استادار السلطان و مشير الدولة فى أيام الناصر حسن، فاسلم على يديه، و خاطبه بالقاضى شمس الدين، و خلع عليه و استقرّ به فى نظر الذخيرة السلطانية، و كان نظرها حينئذ من الرتب الجليلة، و أضاف إليه نظر الأوقاف و الأملاك السلطانية، و رتبه مستوفيا بمدرسة الناصر حسن، فشكرت طريقته و حمدت سيرته و أظهر سيادة و حشمة، و قرّب أهل العلم من الفقهاء، و تفضل بأنواع من البرّ، و أنشأ هذه المدرسة فى أبدع قالب و أبهج ترتيب، و جعل بها درسا للفقهاء الشافعية، و قرّر فى تدريسها شيخنا سراج الدين عمر بن علىّ الأنصارىّ، المعروف بابن الملقن الشافعىّ، و رتب فيها ميعادا و جعل شيخه صاحبنا الشيخ كمال الدين بن موسى الدميرىّ الشافعىّ، و جعل إمام الصلوات بها المقرئ الفاضل زين الدين أبا بكر بن الشهاب أحمد النحوىّ، و كان الناس يرحلون إليه فى شهر رمضان لسماع قراءته فى صلاة

التراويح لشجا صوته، و طيب نغمته، و حسن أدائه، و معرفته بالقراءات السبع و العشر و الشواذ، و لم يزل ابن البقرىّ على حال السيادة و الكرامة إلى أن مرض مرض موته، فأبعد عنه من يلوذ به من النصارى، و أحضر الكمال الدميرىّ و غيره من أهل الخير، فما زالوا عنده حتى مات و هو يشهد شهادة الإسلام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۵

فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، و دفن بمدرسته هذه و قبره بها تحت قبة فى غاية الحسن، و ولى نظر الذخيرة بعده أبو غالب، ثم استجدّ فى هذه المدرسة منبر و أقيمت بها الجمعة فى تاسع جمادى الأولى سنة أربع و عشرين و ثمانمائة بإشارة علم الدين داود الكوبر كاتب السرّ.

المدرسة القطبية

هذه المدرسة بأوّل حارة زويلة مما يلى الخرنشف فى رحبة كوكاى، عرفت بالست الجليلة عصمة الدين خاتون مؤنسة القطبية، المعروفة بدار إقبال العلائى، ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى، و كان وقفها فى سنة خمس و ستمائة، و بها درس للفقهاء الشافعية، و تصدير قراءات و فقهاء يقرءون.

مدرسة ابن المغربىّ

هذه المدرسة آخر درب الصقالبة فيما بين سويقة المسعودىّ و حارة زويلة، بناها صلاح الدين يوسف بن ... ابن المغربى رئيس الأطباء، تجاه داره، و مات قبل إكمالها فدفن بعد موته فى قبة تجاه جامعه المطلّ على الخليج الناصرىّ بقرب بركة قرموط، و صارت هذه المدرسة قائمة بغير إكمال إلى أن هدمها بعض ذريته فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، و باع أنقاضها فصار موضعها طاحونة.

المدرسة البيدرية

هذه المدرسة برحبة الأيدمرىّ بالقرب من باب قصر الشوك، فيما بينه و بين المشهد الحسينىّ، بناها الأمير بيدر الأيدمرىّ.

المدرسة البديرية

هذه المدرسة بجوار باب سرّ المدرسة الصالحية النجمية، كان موضعها من جملة تربة القصر التى تقدّم ذكرها، فنبش شخص من الناس يعرف بناصر الدين محمد بن محمد بن بدير العباسىّ ما هنالك من قبور الخلفاء، و أنشأ هذه المدرسة فى سنة ثمان و خمسين و سبعمائة، و عمل فيها درس فقه للفقهاء الشافعية، درس فيه شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينىّ، و هى مدرسة صغيرة لا يكاد يصعد إليها أحد، و العباسىّ هذا من قرية بطرف الرمل يقال لها العباسية، و له فى مدينة بلبيس مدرسة و قد تلاشت بعد ما كانت عامرة مليحة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۶

المدرسة الملكية

هذه المدرسة بخط المشهد الحسينىّ من القاهرة، بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار تجاه داره، و عمل فيها درسا للفقهاء الشافعية، و خزانة كتب معتبرة، و جعل لها عدّة أوقاف، و هى إلى الآن من المدارس المشهورة، و موضعها من جملة رحبة قصر الشوك، و قد تقدّم ذكرها عند ذكر الرحاب من هذا الكتاب، ثم صار موضع هذه المدرسة دارا تعرف بدار ابن كرمون صهر

الملك الصالح.

المدرسة الجمالية

هذه المدرسة بجوار درب راشد من القاهرة على باب الزقاق المعروف قديما بدرب سيف الدولة نادر، بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالىّ، و جعلها مدرسة للحنفية، و خانقاه للصوفية، و ولى تدريسها و مشيخة التصوّف بها الشيخ علاء الدين علىّ بن عثمان التركمانىّ الحنفىّ، و تداولها ابنه قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه التركمانىّ الحنفىّ، و ابنه قاضى القضاة صدر الدين محمد بن عبد اللّه بن علىّ التركمانىّ الحنفىّ، ثم قريبهم حميد الدين حماد، و هى الآن بيد ابن حميد الدين المذكور، و كان شأن هذه المدرسة كبيرا يسكنها أكابر فقهاء الحنفية، و تعدّ من أجلّ مدارس القاهرة، و لها عدّة أوقاف بالقاهرة و ظواهرها و فى البلاد الشامية، و قد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولاة أمرها، و تخريبهم أوقافها، و تعطل منها حضور الدرس و التصوّف، و صارت منزلا يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى اسم الفقه، و قرب الخراب منها، و كان بناؤها فى سنة ثلاثين و سبعمائة.

مغلطاى: ابن عبد اللّه الجمالىّ، الأمير علاء الدين، عرف بخرز، و هى بالتركية عبارة عن الديك بالعربية، اشتراه الملك الناصر محمد بن قلاون و نقله و هو شاب من الجامكية إلى الأمرة على إقطاع الأمير صارم الدين إبراهيم الإبراهيمىّ نقيب المماليك السلطانية، المعروف بزير الأمرة، فى صفر سنة ثمان عشرة و سبعمائة، و صار السلطان ينتدبه فى التوجه إلى المهمات الخاصة به، و يطلعه على سرّه، ثم بعثه أمير الركب إلى الحجاز فى هذه السنة، فقبض على الشريف أسد الدين رميثة بن أبى نمىّ صاحب مكة، و أحضره إلى قلعة الجبل فى ثامن عشر المحرّم سنة تسع عشرة و سبعمائة مع الركب، فأنكر عليه السلطان سرعة دخوله لما أصاب الحاج من المشقة فى الإسراع بهم، ثم إنه جعل إستادار السلطان لما قبض على القاضى كريم الدين عبد الكريم بن المعلم هبة اللّه ناظر الخواص، عند وصوله من دمشق بعد سفره إليها لإحضار شمس الدين غبريال، فيوم حضر خلع عليه و جعل استادارا عوضا عن الأمير سيف الدين بكتمر العلائىّ، و ذلك فى جمادى الأولى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، ثم أضاف إليه الوزارة و خلع عليه فى يوم الخميس ثامن رمضان سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۷

أربع و عشرين عوضا عن الصاحب أمين الملك عبد اللّه بن الغنام بعد ما استعفى من الوزارة، اعتذر بأنه رجل غتمىّ، فلم يعفه السلطان و قال: أنا أخلى من يباشر معك و يعرّفك ما تعمل، و طلب شمس الدين غبريال ناظر دمشق منها و جعله ناظر الدولة، رفيقا للوزير الجمالىّ، فرفعت قصة إلى السلطان و هو فى القصر من القلعة، فيها الحط على السلطان بسبب تولية الجمالىّ الوزارة و الماس حاجبا، و أنه بسبب ذلك أضاع أوضاع المملكة و أهانها و فرّط فى أموال المسلمين و الجيش، و أن هذا لم يفعله أحد من الملوك، فقد وليت الحجابة لمن لا يعرف يحكم و لا يتكلم بالعربىّ و لا يعرف الإحكام الشرعية، و وليت الوزارة و الاستادارية لشاب لا يعرف يكتب اسمه، و لا يعرف ما يقال له، و لا يتصرّف فى أمور المملكة و لا فى الأموال الديوانية إلا أرباب الأقلام، فإنهم يأكلون المال و يحيلون على الوزير. فلما وقف السلطان عليها، أوقف عليها القاضى فخر الدين محمد بن فضل اللّه، المعروف بالفخر ناظر الجيش. فقال: هذه ورقة الكتّاب البطالين، ممن انقطع رزقه و كثر حسده، و قرّر مع السلطان أن يلزم الوزير ناظر الدولة و ناظر الخواص بإحضار أوراق فى كل يوم تشتمل على أصل الحاصل، و ما حمل فى ذلك اليوم من البلاد و الجهات، و ما صرف.

و أنه لا يصرف لأحد شىء البتة إلّا بأمر السلطان و علمه.

فلما حضر الوزير الجمالىّ أنكر عليه السلطان و قال له: إن الدواوين تلعب بك، و أمر فأحضر التاج إسحاق، و غبريال، و مجد الدين بن لعيبة، و قرّر معهم أن يحضروا آخر كلّ يوم أوراقا بالحاصل و المصروف، و قد فصلت بأسماء ما يحتاج إلى صرفه و إلى شرائه و بيعه، فصاروا يحضرون كلّ يوم الأوراق إلى السلطان و تقرأ عليه، فيصرف ما يختار و يوقف ما يريد، و رسم أيضا أن مال الجيزة كله

يحمل إلى السلطان و لا يصرف منه شيء.

ثم لما كانت الفتنة بثغر الإسكندرية بين أهلها و بين الفرنج، و غضب السلطان على أهل الإسكندرية، بعث بالجماليّ إليها، فسار من القاهرة في أثناء رجب سنة سبع و عشرين و سبعمائة، و دخل إليها فجلس بالخمس و استدعى بوجوه أهل البلد، و قبض على كثير من العامّة، و وسط بعضهم و قطع أيدى جماعة و أرجلهم، و صادر أرباب الأموال حتى لم يدع أحدا له ثروة، حتى ألزمه بمال كثير، فباع الناس حتى ثياب نسائهم في هذه المصادرة، و أخذ من التجار شيئا كثيرا مع ترفقه بالناس فيما يرد عليه من الكتب بسفك الدماء، و أخذ الأموال، ثم أحضر العدد التي كانت بالثغر مرصدة برسم الجهاد، فبلغت ستة آلاف عدّة، و وضعها في حاصل و ختم عليه و خرج من الإسكندرية بعد عشرين يوما و قد سفك دماء كثيرة، و أخذ منها مائتي ألف دينار للسلطان و عاد إلى القاهرة، فلم يزل على حاله إلى أن صرف عن الوزارة في يوم الأحد ثاني شوّال سنة ثمان و عشرين، و رسم أن توفر وظيفة الوزارة من ولاية وزير، فلم يستقرّ أحد في الوزارة و بقي الجماليّ على وظيفة الأستادارية، و كان سبب عزله عن الوزارة توقف حال الدولة و قلة الواصل إليها، فعمل عليه الفخر ناظر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۸

الجيش و التاج إسحاق بسبب تقديمه لمحمد بن لعيبة، فإنه كان قد استقرّ في نظر الدولة و الصحبة و البيوت و تحكم في الوزير و تسلم قياده، فكتبت مرافعات في الوزير و أنه أخذ مالا كثيرا من مال الجيزة، فخرج الأمير أيتمش المجدىّ بالكشف عليه، و همّ السلطان بإيقاع الحوطة به، فقام في حقه الأمير بكتمر الساقي حتى عفى عنه و قبض على كثير من الدواوين.

ثم إنه سافر إلى الحجاز، فلما عاد توفي بسطح عقبة إيلة في يوم الأحد سابع عشر المحرّم سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة. فصبّر و حمل إلى القاهرة و دفن بهذه الخانقاه في يوم الخميس حادي عشري المحرّم المذكور بعد ما صلّى عليه بالجامع الحاكمىّ، و ولي السلطان بعده الأستادارية الأمير أقبغا عبد الواحد، و كان ينوب عن الجماليّ في الأستادارية الطنقش مملوك الأفرم، نقله إليها من ولاية الشرقية، و كان الجماليّ حسن الطباع يميل إلى الخير مع كثرة الحشمة، و مما شكر عليه في وزارته أنه لم يبخل على أحد بولاية مباشرة، و أنشأ ناسا كثيرا، و قصد من سائر الأعمال، و كان يقبل الهدايا و يحب التقادم، فحلت له الدنيا و جمع منها شيئا كثيرا، و كان إذا أخذ من أحد شيئا على ولاية لا يعزله حتى يعرف أنه قد اكتسب قدر ما وزنه له، و لو أكثر عليه في السعي، فإذا عرف أنه أخذ ما غرمه عزله و ولي غيره، و لم يعرف عنه أنه صادر أحدا و لا اختلس مالا، و كانت أيامه قليلة الشرّ، إلّا أنه كان يعزل و يولي بالمال، فتزايد الناس في المناصب، و كان له عقب بالقاهرة غير صالحين و لا مصلحين.

المدرسة الفارسية

هذه المدرسة بخط الفهادين من أوّل العطوفية بالقاهرة، كان موضعها كنيسة تعرف بكنيسة الفهادين، فلما كانت واقعة النصارى في سنة ست و خمسين و سبعمائة، هدمها الأمير فارس الدين البكىّ، قريب الأمير سيف الدين آل ملك الجو كندار، و بنى هذه المدرسة و وقف عليها وقفا يقوم بما تحتاج إليه.

المدرسة السابقية

هذه المدرسة داخل قصر الخلفاء الفاطميين من جملة القصر الكبير الشرقىّ الذى كان داخل دار الخلافة، و يتوصل إلى هذه المدرسة الآن من تجاه حمّام البيسرىّ بخط بين القصرين، و كان يتوصل إليها أيضا من باب القصر المعروف بباب الريح من خط الركن المخلق، و موضعه الآن قيسارية الأمير جمال الدين يوسف الأستادار. بنى هذه المدرسة الطواشي الأمير سابق الدين مثقال الأنوكىّ مقدّم المماليك السلطانية الأشرفية، و جعل بها درسا للفقهاء الشافعية، قرّر في تدريسه شيخنا شيخ الشيوخ سراج الدين عمر بن علىّ

الأنصاريّ، المعروف بابن الملقن الشافعيّ، و جعل فيها تصدير قراءات و خزانة كتب، و كتابا يقرأ فيه أيتام المسلمين، و بنى بينها و بين داره التى تعرف بقصر سابق الدين حوض ماء للسبيل، هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار لما بنى داره المجاورة لهذه المدرسة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۹

ولى سابق الدين تقدمة المماليك بعد الطواشى شرف الدين مختصر الطغتمرىّ، فى صفر سنة ثلاث و ستين و سبعمائة، ثم تنكر عليه الأمير يلبغا الخاصكىّ القائم بدولة الملك الأشرف شعبان بن حسين و ضربه ستمائة عصا و سجنه و نفاه إلى أسوان، فى آخر شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و ستين، فلم يكن غير قليل حتى قتل الأمير يلبغا، فاستدعى الأشرف سابق الدين من قوص، و صرف ظهير الدين مختارا المعروف بشاذروان عن التقدمة، و أعاده إليها، فاستمرّ إلى أن مات سنة ست و سبعين و سبعمائة.

المدرسة القيسرانية

هذه المدرسة بجوار المدرسة الصاحبية بسويقة الصاحب، فيما بينها و بين باب الخوخة، كانت دارا يسكنها القاضى الرئيس شمس الدين محمد بن إبراهيم القيسرانىّ أحد موقعى الدست بالقاهرة، فوقفها قبل موته مدرسة، و ذلك فى ربيع الأوّل سنة إحدى و خمسين و سبعمائة، و توفى سنة اثنتين و خمسين و سبعمائة، و كان حشما كبير الهمة، سعى بالأمير سيف الدين بهادر الدمرداشىّ فى كتابة السرّ بالقاهرة، مكان علاء الدين علىّ بن فضل اللّه العمرىّ، فلم يتم ذلك، و مات الأمير بهادر فانحط جانبه، و كانت دنياه واسعة جدّا، و له عدّة مماليك يتوصل بهم إلى السعى فى أغراضه عند أمراء الدولة، و كان ينسب إلى شح كبير.

المدرسة الزمامية

هذه المدرسة بخط رأس البندقانيين من القاهرة، فيما بين البندقانيين و سويقة الصاحب، بناها الأمير الطواشى زين الدين مقبل الرومىّ، زمام الآدر الشريفة للسلطان الظاهر برقوق فى سنة سبع و تسعين و سبعمائة، و جعل بها درسا و صوفية و منبرا يخطب عليه فى كل جمعة، و بينها و بين المدرسة الصاحبية دون مدى الصوت، فيسمع كلّ من صلّى بالموضعين تكبير الآخر، و هذا و أنظاره بالقاهرة من شنيع ما حدث فى غير موضع، و لا حول و لا قوّة إلّا باللّه العلىّ العظيم على إزالة هذه المبتدعات.

المدرسة الصغيرة

هذه المدرسة فيما بين البندقانيين و طواحين الملحيين، و يعرف خطها ببيت محب الدين ناظر الجيوش، و يعرف أيضا بخط بين العواميد، بنتها الست أيديكن زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصرىّ، فى سنة إحدى و خمسين و سبعمائة.

مدرسة تربة أمّ الصالح

هذه المدرسة بجوار المدرسة الأشرفية بالقرب من المشهد النفيسىّ، فيما بين القاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۰

و مصر، موضعها من جملة ما كان بستانا، أنشأها الملك المنصور قلاون، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ فى سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة، برسم أمّ الملك الصالح علاء الدين علىّ بن الملك المنصور قلاون، فلما كمل بناؤها نزل إليها الملك المنصور و معه ابنه الصالح علىّ، و تصدّق عند قبرها بمال جزيل، و رتب لها وقفا حسنا على قرّاء و فقهاء. و غير ذلك. و كانت وفاتها فى سادس عشر شوّال سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة.

مدرسة ابن عرّام

هذه المدرسة بجوار جامع الأمير حسين بحكر جوهر النوبيّ من برّ الخليج الغربيّ خارج القاهرة، أنشأها الأمير صلاح الدين خليل بن عرّام، و كان من فضلاء الناس، تولى نيابة الإسكندرية و كتب تاريخا و شارك فى علوم، فلما قتل الأمير بركة بسجن الإسكندرية ثارت مماليكه على الأمير الكبير برقوق حنقا لقتله، فأنكر الأمير برقوق قتله و بعث الأمير يونس النوروزيّ دواداره لكشف ذلك، فنبش عنه قبره فإذا فيه ضربات عدّة إحداهنّ فى رأسه، فاتهم ابن عرّام بقتله من غير إذن له فى ذلك، فأخرج بركة من قبره و كان بثيابه من غير غسل و لا كفن، و غسله و كفنه، و أحضر ابن عرّام معه فسجن بخزانة شمائل داخل باب زويلة من القاهرة، ثم عصر و أخرج يوم الخميس خامس عشر رجب سنة اثنتين و ثمانين و سبعمائة، من خزانة شمائل، و أمر به فسمّر عريان بعد ما ضرب عند باب القلة بالمقارع ستة و ثمانين بحضرة الأمير قطلودمر الخازندار، و الأمير مامور حاجب الحجاب، فلما أنزل من القلعة و هو مسمر على الجمل أنشد:

لك قلبى بحلّه فدمى لم تحلّهلك من قلبى المكان فلم لا تحلّه

قال إن كنت مالكا فلى الأمر كلّه و ما هو إلّا أن وقف بسوق الخيل تحت القلعة و إذا بمماليك بركة قد أكبت عليه تضربه بسيوفها حتى تقطع قطعا و حز رأسه، و علّق على باب زويلة و تلاعبت أيديهم، فأخذوا حد أذنه، و أخذوا حد رجله، و اشترى آخر قطعة من لحمه و لاكها، ثم جمع ما وجد منه و دفن بمدرسته هذه. فقال فى ذلك صاحبنا الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار:

بدت أجزاء عرّام خليلمقطعة من الضرب الثقيل

و أبدت أبحر الشعر المراثىمحرّرة بتقطيع الخليل

المدرسة المحمودية

هذه المدرسة بخط الموازنيين خارج باب زويلة تجاه دار القردمية، يشبه أن موضعها كان فى القديم من جملة الحارة التى كانت تعرف بالمنصورية، أنشأها الأمير جمال الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۱

محمود بن علىّ الأستادار فى سنة سبع و تسعين و سبعمائة، و رتب بها درسا، و عمل فيها خزانة كتب لا يعرف اليوم بديار مصر و لا الشام مثلها، و هى باقية إلى اليوم لا يخرج لأحد منها كتاب إلّا أن يكون فى المدرسة، و بهذه الخزانة كتب الإسلام من كلّ فنّ، و هذه المدرسة من أحسن مدارس مصر.

محمود بن علىّ بن أصفر، عينه الأمير جمال الدين الأستادار ولى شدّ باب رشيد بالإسكندرية مدّة، و كانت واقعة الفرنج بها فى سنة سبع و ستين و سبعمائة، و هو مشدّ، فيقال إنّ ماله الذى وجد له حصله يومئذ، ثم إنه سار إلى القاهرة فلما كانت أيام الظاهر برقوق خدم أستادارا عند الأمير سودون باق، ثم استقرّ شادّ الدواوين إلى أن مات الأمير بهادر المنجكىّ أستادار السلطان، فاستقرّ عوضا عنه فى وظيفة الأستادارية يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين و سبعمائة، ثم خلع عليه فى يوم الخميس خامسة، و استقرّ مشير الدولة، فصار يتحدّث فى دواوين السلطنة الثلاثة، و هى الديوان المفرد الذى يتحدّث فيه الأستادار، و ديوان الوزارة و يعرف بالدولة، و ديوان الخاص المتعلق بنظر الخواص، و عظم أمره و نفذت كلمته لتصرّفه فى سائر أمور المملكة. فلما زالت دولة الملك الظاهر برقوق بحضور الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب، فى يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة سنة إحدى و تسعين و سبعمائة بعساكر الشام إلى القاهرة، و اختفى الظاهر ثم أمسكه، هرب هو و ولده، فنهبت دوره، ثم إنه ظهر من الاستتار فى يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة، و قدّم للأمير يلبغا الناصرىّ مالا كثيرا فقبض عليه و قيده و سجنه بقلعة الجبل و أقيم بدله فى الأستادارية الأمير علاء الدين أقبغا

الجوهرىّ. فلما زالت دولة يلبغا الناصرىّ بقيام الأمير منطاش عليه، قبض على أقبغا الجوهرىّ فيمن قبض عليه من الأمراء، و أفرج عن الأمير محمود فى يوم الاثنين ثامن شهر رمضان، و ألبسه قباء مطرّزا بذهب و أنزله إلى داره، ثم قبض عليه و سجن بخزانة الخاص فى يوم الأحد سادس عشر ذى الحجة فى عدّة من الأمراء و المماليك، عند عزم منطاش على السفر لحرب برقوق عند خروجه من الكرك و مسيره إلى دمشق، فكانت جملة ما حمله الأمير محمود من الذهب العين للأمير يلبغا الناصرىّ و للأمير منطاش ثمانية و خمسين قنطارا من الذهب المصرىّ، منها ثمانية عشر قنطارا فى ليلة واحدة، فلم يزل فى الاعتقال إلى أن خرج المماليك مع الأمير بوطا فى ليلة الخميس ثانى صفر سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، فخرج معهم و أقام بمنزله إلى أن عاد الملك الظاهر برقوق إلى المملكة فى رابع عشر صفر، فخلع عليه و استقرّ أستادار السلطان على عادته فى يوم الاثنين تاسع عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة، عوضا عن الأمير قرقماس الطشتمرىّ بعد وفاته، ثم خلع على ولده الأمير ناصر الدين محمد بن محمود فى يوم الخميس ثانى عشرى صفر سنة أربع و تسعين و سبعمائة، و استقرّ نائب السلطنة بثغر الإسكندرية عوضا عن الأمير ألطنبغا المعلم، فقويت حرمة الأمير محمود و نفذت كلمته إلى يوم الاثنين حادى عشر رجب من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۲

السنة المذكورة، فثار عليه المماليك السلطانية بسبب تأخر كسوتهم، و رموه من أعلى القلعة بالحجارة و أحاطوا به و ضربوه يريدون قتله، لو لا أن شاء اللّه أغاثه بوصول الخبر إلى الأمير الكبير ايتمش، و كان يسكن قريبا من القلعة، فركب بنفسه و ساق حتى أدركه و فرّق عنه المماليك، و سار به إلى منزله حتى سكنت الفتنة، ثم شيعه إلى داره. فكانت هذه الواقعة مبدأ انحلال أمره، فإن السلطان صرفه عن الأستادارية و ولى الأمير الوزير ركن الدين عمر بن قايماز فى يوم الخميس رابع عشرة، و خلع على الأمير محمود قباء بطرز ذهب، و استقرّ على أمرته، ثم صرف ابن قايماز عن الأستادارية و أعيد محمود فى يوم الاثنين خامس عشر رمضان، و أنعم على ابن قايماز بإمرة طلبخاناه، فجدّد بثغر الإسكندرية دار ضرب عمل فيها فلوس ناقصة الوزن، و من حينئذ اختل حال الفلوس بديار مصر. ثم لما خرج الملك الظاهر إلى البلاد الشامية فى سنة ست و تسعين، سار فى ركابه، ثم حضر إلى القاهرة فى يوم الأربعاء سابع صفر سنة سبع و تسعين و سبعمائة قبل حضور السلطان، و كان دخوله يوما مشهودا، فلما عاد السلطان إلى قلعة الجبل حدث منه تغير على الأمير محمود فى يوم السبت ثالث عشرى ربيع الأوّل، و همّ بالإيقاع به، فلما صار إلى داره بعث إليه الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ يطلب منه خمسمائة ألف دينار، و إن توقف يحيط به و يضربه بالمقارع، فنزل إليه و قرّر الحال على مائة و خمسين ألف دينار، فطلع على العادة إلى القلعة فى يوم الاثنين خامس عشريه، فسبه المماليك السلطانية و رجموه، ثم إن السلطان غضب عليه و ضربه فى يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر بسبب تأخر النفقة، و أخذ أمره ينحل، فولى السلطان الأمير صلاح الدين محمد ابن الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير تنكز أستادارية الأملاك السلطانية، فى يوم الاثنين خامس رجب، و ولى علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ فى رمضان التحدّث فى دار الضرب بالقاهرة و الإسكندرية، و التحدّث فى المتجر السلطانىّ، فوقع بينه و بين الأمير محمود كلام كثير و رافعه ابن الطبلاوىّ بحضرة السلطان، و خرّج عليه من دار الضرب ستة آلاف درهم فضة، فألزم السلطان محمودا بحمل مائة و خمسين ألف دينار، فحملها و خلع عليه عند تكميله حملها فى يوم الأحد تاسع عشرى رمضان، و خلع أيضا على ولده الأمير ناصر الدين، و على كاتبه سعد الدين إبراهيم بن غراب الإسكندرانىّ، و على الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ، ثم إن محمود أوعك بدنه فنزل إليه السلطان فى يوم الاثنين ثالث عشر ذى القعدة يعوده، فقدّم له عدّة تقادم قبل بعضها و ردّ بعضها، و تحدّث الناس أنه استقلها. فلما كان يوم السبت سادس صفر سنة ثمان و تسعين بعث السلطان إلى الأمير محمود الطواشى شاهين الحسنى فأخذ زوجتيه و كاتبه سعد الدين إبراهيم بن غراب، و أخذ مالا و قماشا على حمالين و صار بهما إلى القلعة، هذا و محمود مريض لازم الفراش، ثم عاد من يومه و أخذ الأمير ناصر الدين محمد بن محمود و حمله إلى القلعة، ثم نزل ابن غراب و معه الأمير الى باى الخازندار فى يوم الأحد سابعه، و أخذا من ذخيرة بدار محمود خمسين ألف دينار، و فى يوم الخميس حادى عشرة صرف محمود عن الأستادارية و استقرّ عوضه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۳

الأمير سيف الدين قطلوبك العلائيّ أستادار الأمير الكبير ايتمش، و قرّر سعد الدين بن غراب ناظر الديوان المفرد، فاجتمع مع ابن الطبلاويّ على عداوة محمود و السعى فى إهلاكه، و سلّم ابن محمود إلى ابن الطبلاويّ فى تاسع عشر ربيع الأوّل ليستخلص منه مائة ألف دينار، و نزل الطواشى صندل المنجكيّ، و الطواشى شاهين الحسنيّ فى ثالث عشرية، و معهما ابن الطبلاويّ، فأخذا من خربة خلف مدرسة محمود زيرين كبيرين و خمسة أزيار صغارا وجد فيها ألف ألف درهم فضة، فحملت إلى القلعة، و وجد أيضا بهذه الخربة جرّتان فى إحداهما ستة آلاف دينار و فى الأخرى أربعة آلاف درهم فضة و خمسمائة درهم، و قبض على مباشرى محمود و مباشرى ولده، و عوقب محمود، ثم أوقعت الحوطة على موجود محمود فى يوم الخميس سابع جمادى الأولى، و رسم عليه ابن الطبلاويّ فى داره، و أخذ مماليكه و أتباعه، و لم يدع عنده غير ثلاث مماليك صغار، و ظهرت أموال محمود شيئا بعد شىء، ثم سلّم إلى الأمير فرج شادّ الدواوين فى خامس جمادى الآخرة فنقله إلى داره و عاقبه و عصره فى ليلته، ثم نقل فى شعبان إلى دار ابن الطبلاويّ فضربه و سعطه و عصره، فلم يعترف بشىء، و حكى عنه أنه قال لو عرفت أنى أعاقب ما اعترفت بشىء من المال، و ظهر منه فى هذه المحنة ثبات و جلد و صبر مع قوّة نفس و عدم خضوع، حتى أنه كان يسب ابن الطبلاويّ إذا دخل إليه و لا يرفع له قدرا، ثم إن السلطان استدعاه إلى ما بين يديه يوم السبت أوّل صفر سنة تسع و تسعين، و حضر سعد الدين بن غراب فشافهه بكل سوء و رافعه فى وجهه حتى استغضب السلطان على محمود، و أمر بمعاقبته حتى يموت، فأنزل إلى بيت الأمير حسام الدين حسين ابن أخت الفرس شادّ الدواوين، و كان أستادار محمود، فلم يزل عنده فى العقوبة إلى أن نقل من داره إلى خزانة شمائل فى ليلة الجمعة ثالث جمادى الأولى و هو مريض، فمات بها فى ليلة الأحد تاسع رجب سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و دفن من الغد بمدرسته و قد أناف على الستين سنة، و كان كثير الصلاة و العبادة مواظبا على قيام الليل، إلّا أنه كان شحيحا مسيكا شرها فى الأموال، رمى الناس منه فى رماية البضائع بداوه إذا نسبت إلى ما حدث من بعده، كانت عافية و نعمة، و أكثر من ضرب الفلوس بديار مصر حتى فسد بكثرتها حال إقليم مصر، و كان جملة ما حمل من ماله بعد نكبته هذه مائة قنطار ذهبا و أربعين قنطارا، عنها ألف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار عينا، و ألف ألف درهم فضة، و أخذ له من البضائع و الغلال و القنود و الأعسال ما قيمته ألف ألف درهم و أكثر.

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة بحارة حلب خارج القاهرة عند حمام قمارىّ، بناها الحكيم مهذب الدين محمد بن أبى الوحش المعروف بابن أبى حليقة، تصغير حلقة، رئيس الأطباء بديار مصر، ولى رياسة الأطباء فى حادى عشر رمضان سنة أربع و ثمانين و ستمائة، و استقرّ مدرّس الطب بالمارستان المنصورىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۴

المدرسة السعدية

هذه المدرسة خارج القاهرة بقرب حدرة البقر على الشارع المسلوك فيه من حوض ابن هنس إلى الصليبة، و هى فيما بين قلعة الجبل و بركة الفيل، كان موضعها يعرف بخط بستان سيف الإسلام، و هى الآن فى ظهر بيت قوصون المقابل لباب السلسلة من قلعة الجبل، بناها الأمير شمس الدين سنقر السعدىّ نقيب المماليك السلطانية، فى سنة خمس عشرة و سبعمائة، و بنى بها أيضا رباطا للنساء، و كان شديد الرغبة فى العمائر محبا للزراعة، كثير المال ظاهر الغنى، و هو الذى عمر القرية التى تعرف اليوم بالنحريرية من أعمال الغربية، و كان إقطاعه، ثم إنه أخرج من مصر بسبب نزاع وقع بينه و بين الأمير قوصون فى أرض أخذها منه، فسار إلى طرابلس و بها مات فى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة.

المدرسة الطفجية

هذه المدرسة بخط حدرة البقر أيضا، أنشأها الأمير سيف الدين طفجى الأشرفىّ، و لها وقف جيد.

طفجى: الأمير سيف الدين، كان من جملة مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاون، ترقّى فى خدمته حتى صار من جملة أمراء ديار مصر، فلما قتل الملك الأشرف قام طفجى فى المماليك الأشرفية و حارب الأمير بيدرا المتولى لقتل الأشرف حتى أخذه و قتله، فلما أقيم الملك الناصر محمد بن قلاون فى المملكة بعد قتل بيدرا، صار طفجى من أكابر الأمراء، و استمرّ على ذلك بعد خلع الملك الناصر بكتبغا مدّة أيامه إلى أن خلع الملك العادل كتبغا و قام فى سلطنة مصر الملك المنصور لاجين، و ولى مملوكه الأمير سيف الدين منكوتمر نيابة السلطنة بديار مصر، فأخذ يواحش أمراء الدولة بسوء تصرّفه، و اتفق أن طفجى حج فى سنة سبع و تسعين و ستمائة، فقرّر منكوتمر مع المنصور أنه إذا قدم من الحج يخرجه إلى طرابلس و يقبض على أخيه الأمير سيف الدين كرجى، فعندما قدم طفجى من الحجاز فى صفر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، رسم له بنيابة طرابلس، فثقل عليه ذلك و سعى بإخوته الأشرفية حتى أعفاه السلطان من السفر، فسخط منكوتمر و أبى الإسفر طفجى و بعث إليه يلزمه بالسفر، و كان لاجين منقادا لمنكوتمر لا يخالفه فى شىء، فتواعد طفجى و كرجى مع جماعة من المماليك و قتلوا لاجين، و تولى قتله كرجى، و خرج فإذا طفجى فى انتظاره على باب القلة من قلعة الجبل، فسرّ بذلك و أمر بإحضار من بالقلعة من الأمراء، و كانوا حينئذ يبيتون بالقلعة دائما، و قتل منكوتمر فى تلك الليلة و عزم على أنه يتسلطن و يقيم كرجى فى نيابة السلطنة، فخذله الأمراء. و كان الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح قد خرج فى غزاة و قرب حضوره، فاستمهلوه بما يريد إلى أن يحضر، فأخر سلطنته و بقى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۵

الأمراء فى كل يوم يحضرون معه فى باب القلة، و يجلس فى مجلس النيابة و الأمراء عن يمينه و شماله، و يمدّ سماط السلطان بين يديه، فلما حضر أمير سلاح بمن معه من الأمراء، نزل طفجى و الأمراء إلى لقائهم بعد ما امتنع امتناعا كثيرا، و ترك كرجى يحفظ القلعة بمن معه من المماليك الأشرفية، و قد نوى طفجى الشرّ للأمراء الذين قد خرج إلى لقائهم، و عرف ذلك الأمراء المقيمون عنده فى القلعة، فاستعدّوا له. و سار هو و الأمراء إلى أن لقوا الأمير بكتاش و معه من الأشرفية أربعمائة فارس تحفظه حتى يعود من اللقاء إلى القلعة، فعندما وافاه بقبة النصر و تعانقا أعلمه بقتل السلطان، فشقّ عليه، و للوقت جرّد الأمراء سيوفهم و ارتفعت الضجة، فساق طفجى من الحلقة و الأمراء وراءه إلى أن أدركه قراقوش الظاهرىّ و ضربه بسيف ألقاه عن فرسه إلى الأرض ميتا، ففرّ كرجى، ثم أخذ و قتل و حمل طفجى فى مزبلة من مزابل الحمّامات على حمار إلى مدرسته هذه فدفن بها، و قبره هناك إلى اليوم.

و كان قتله فى يوم الخميس سادس عشر ربيع الأوّل سنة ثمان و تسعين و ستمائة، بعد خمسة أيام من قتل لاجين و منكوتمر.

المدرسة الجاولية

هذه المدرسة بجوار الكبش، فيما بين القاهرة و مصر، أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولىّ فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، و عمل بها درسا و صوفية، و لها إلى هذه الأيام عدّة أوقاف.

سنجر بن عبد اللّه الأمير علم الدين الجاولىّ، كان مملوك جاولى أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس، و انتقل بعد موت الأمير جاولى إلى بيت قلاون، و خرج فى أيام الأشرف خليل بن قلاون إلى الكرك، و استقرّ فى جملة البحرية بها إلى أيام العادل كتبغا، فحضر من عند نائب الكرك و معه حوائجخاناه، فرفعه كتبغا و أقامه على الخوشخاناه السلطانية، و صحب الأمير سلار و واخاه فتقدّم فى الخدمة، و بقى أستادارا صغيرا فى أيام بيبرس و سلار، فصار يدخل على السلطان الملك الناصر و يخرج و يراعى مصالحه فى أمر الطعام و يتقرّب إليه، فلما حضر من الكرك جهزه إلى غزة نائبا فى جمادى الأولى سنة إحدى عشرة و سبعمائة، عوضا عن الأمير سيف الدين

قطلوا أقتمر عبد الخالق بعد إمساكه، و أضاف إليه مع غزة الساحل و القدس و بلد الخليل و جبل نابلس، و أعطاه إقطاعا كبيرا بحيث كان للواحد من مماليكه إقطاع يعمل عشرين ألفا و خمسة و عشرين ألفا، و عمل نيابة غزة على القالب الجائر إلى أن وقعت بينه و بين الأمير تنكز نائب الشام بسبب دار كانت له تجاه جامع تنكز خارج دمشق من شمالها، أراد تنكز أن يبتاعها منه فأبى عليه، فكتب فيه إلى الملك الناصر محمد بن قلاون فأمسكه فى ثامن عشرى شعبان سنة عشرين و سبعمائة، و اعتقله نحوا من ثمان سنين، ثم أفرج عنه فى سنة تسع و عشرين، و أعطاه أمرة أربعين، ثم بعد مدّة أعطاه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۶

أمرة مائة و قدّمه على ألف و جعله من أمراء المشورة، فلم يزل على هذا إلى أن مات الملك الناصر، فتولى غسله و دفنه. فلما ولى الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاون سلطنة مصر أخرجه إلى نيابة حماه، فأقام بها مدّة ثلاثة أشهر ثم نقله إلى نيابة غزة، فحضر إليها و أقام بها نحو ثلاثة أشهر أيضا، ثم أحضره إلى القاهرة و قرّره على ما كان عليه، و ولى نظر المارستان بعد نائب الكرك عند ما أخرج إلى نيابة طرابلس، ثم توجه لحصار الناصر أحمد بن محمد بن قلاون و هو ممتنع فى الكرك، فأشرف عليه فى بعض الأيام الناصر أحمد من قلعة الكرك و سبه و شيخه، فقال له الجاولىّ: نعم أنا شيخ نحس، و لكن الساعة ترى حالك مع الشيخ النحس، و نقل المنجنيق إلى مكان يعرفه و رمى به فلم يخطئ القلعة و هدم منها جانبا، و طلع بالعسكر و أمسك أحمد و ذبحه صبرا. و بعث برأسه إلى الصالح إسماعيل، و عاد إلى مصر فلم يزل على حاله إلى أن مات فى منزله بالكبش يوم الخميس تاسع رمضان سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و دفن بمدرسته، و كانت جنازته حافلة إلى الغاية.

قد سمع الحديث و روى و صنف شرحا كبيرا على مسند الشافعىّ رحمه اللّه، و أفتى فى آخر عمره على مذهب الشافعىّ، و كتب خطه على فتاوى عديدة، و كان خبيرا بالأمور، عارفا بسياسة الملك، كفوا لما وليه من النيابات و غيرها، لا يزال يذكر أصحابه فى غيبتهم عنه و يكرمهم إذا حضروا عنده، و انتفع به جماعة من الكتاب و العلماء و الأكابر، و له من الآثار الجميلة الفاضلة جامع بمدينة غزة فى غاية الحسن، و له بها أيضا حمّام مليح، و مدرسة للفقهاء الشافعية، و خان للسبيل، و هو الذى مدّن غزة و بنى بها أيضا مارستانا، و وقف عليه عن الملك الناصر أوقافا جليلة، و جعل نظره لنواب غزة و عمر بها أيضا الميدان و القصر، و بنى ببلد الخليل عليه السّلام جامعا سقفه منه حجر نقر، و عمل الخان العظيم بقاقون، و الخان بقرية الكثيب، و القناطر بغابة أرسوف، و خان رسلان فى حمراء بيسان، و دارا بالقرب من باب النصر داخل القاهرة، و دارا بجوار مدرسته على الكبش، و سائر عمائره ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة، و كان ينتمى إلى الأمير سلار و يجل ذكره.

المدرسة الفارقانية

هذه المدرسة خارج باب زويلة من القاهرة، فيما بين حدرة البقر و صليبة جامع ابن طولون، و هى الآن بجوار حمّام الفارقانىّ تجاه البندقدارية، بناها و الحمام المجاور لها الأمير ركن الدين بيبرس الفارقانىّ، و هو غير الفارقانىّ المنسوب إليه المدرسة الفارقانية بحارة الوزيرية من القاهرة.

المدرسة البشيرية

هذه المدرسة خارج القاهرة بحكر الخازن المطل على بركة الفيل، كان موضعها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۷

مسجدا يعرف بمسجد سنقر السعدىّ الذى بنى المدرسة السعدية، فهدمه الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرىّ، و بنى موضعه هذه المدرسة فى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، و جعل بها خزانة كتب، و هى من المدارس اللطيفة.

المدرسة المهمندارية

هذه المدرسة خارج باب زويلة فيما بين جامع الصالح و قلعة الجبل، يعرف خطها اليوم بخط جامع المارداني خارج الدرب الأحمر، و هى تجاه مصلّى الأموات على يمنة من سلك من الدرب الأحمر طالبا جامع المارداني، و لها باب آخر فى حارة اليانسية بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزي المهمندار، و نقيب الجيوش فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و جعلها مدرسة و خانقاه، و جعل طلبة درسها من الفقهاء الحنفية، و بنى إلى جانبها القيسارية و الربع الموجودين الآن.

مدرسة ألجاى

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، كان موضعها و ما حولها مقبرة، و يعرف الآن خطها بخط سويقة العزى، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين الجاى فى سنة ثمان و ستين و سبعمائة، و جعل بها درسا للفقهاء الشافعية، و درسا للفقهاء الحنفية، و خزانة كتب، و أقام بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة، و هى من المدارس المعتبرة الجليلة، و درّس بها شيخنا جلال الدين البنانى الحنفى، و كانت سكنه.

ألجاى بن عبد اللّه اليوسفى الأمير سيف الدين، تنقل فى الخدم حتى صار من جملة الأمراء بديار مصر، فلما أقام الأمير الأستدمر الناصرى بأمر الدولة بعد قتل الأمير يلبغا الخاصكى العمرى، فى شوّال سنة ثمان و ستين و سبعمائة، قبض على الجاى فى عدّة من الأمراء و قيدهم و بعث بهم إلى الإسكندرية، فسجنوا إلى عاشر صفر سنة تسع و ستين، فأفرج الملك الأشرف شعبان بن حسين عنه و أعطاه أمرة مائة، و تقدمة ألف، و جعله أمير سلاح برّانى، ثم جعله أمير سلاح أتابك العساكر، و ناظر المارستان المنصورى عوضا عن الأمير منكلى بغا الشمسى، فى سنة أربع و سبعين و سبعمائة، و تزوّج بخوند بركة أم السلطان الملك الأشرف، فعظم قدره و اشتهر ذكره، و تحكم فى الدولة تحكما زائدا إلى يوم الثلاثاء سادس المحرّم سنة خمس و سبعين و سبعمائة، فركب يريد محاربة السلطان بسبب طلبه ميراث أمّ السلطان بعد موتها، فركب السلطان و أمراؤه و بات الفريقان ليلة الأربعاء على الاستعداد للقتال إلى بكرة نهار الأربعاء تواقع الجاى مع أمراء السلطان إحدى عشرة وقعة انكسر فى آخرها الجاى و فرّ إلى جهة بركة الحبش، و صعد من الجبل من عند الجبل الأحمر إلى قبة النصر و وقف هناك، فاشتدّ على السلطان فبعث إليه خلعة بنيابة حماه، فقال لا أتوجه إلّا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۸

و معى مماليكى كلهم و جميع أموالى، فلم يوافقه السلطان على ذلك، و بات الفريقان على الحرب، فانسلّ أكثر مماليك الجاى فى الليل إلى السلطان، و عند ما طلع النهار يوم الخميس بعث السلطان عساكره لمحاربة الجاى بقبة النصر، فلم يقاتلهم و ولى منهزما و الطلب وراءه إلى ناحية الخرقانية بشاطئ النيل، قريبا من قليوب، فتحير و قد أدركه العسكر، فألقى نفسه بفرسه فى البحر يريد النجاة إلى البرّ الغربىّ فغرق بفرسه. ثم خلص الفرس و هلك الجاى، فوقع النداء بالقاهرة و ظواهرها على إحضار مماليكه، فأمسك منهم جماعة و بعث السلطان الغطاسين إلى البحر تتطلبه فتبعوه حتى أخرجوه إلى البرّ فى يوم الجمعة تاسع المحرّم سنة خمس و سبعين و سبعمائة، فحمل فى تابوت على لباد أحمر إلى مدرسته هذه و غسل و كفن و دفن بها، و كان مهابا جبارا عسوفا عتيا، تحدّث فى الأوقاف فشدّد على الفقهاء و أهان جماعة منهم، و كان معروفا بالإقدام و الشجاعة.

مدرسة أمّ السلطان

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، يعرف خطها الآن بالتبانة، و موضعها كان قديما مقبرة لأهل القاهرة، أنشأتها الست الجليلة الكبرى بركة أمّ السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة إحدى و سبعين و سبعمائة، و عملت بها درسا

للشافعية، و درسا للحنفية، و على بابها حوض ماء للسبيل. و هى من المدارس الجليلة، و فيها دفن ابنها الملك الأشرف بعد قتله.

بركة: الست الجليلة خوند أمّ الملك الأشرف شعبان بن حسين، كانت أمة مولدة، فلما أقيم ابنها فى مملكة مصر عظم شأنها و حجت فى سنة سبعين و سبعمائة بتجمل كثير و برج زائد، و على محفتها العصائب السلطانية و الكؤسات تدق معها، و سار فى خدمتها من الأمراء المقدّمين: بشتاك العمرىّ رأس نوبة، و بهادر الجمالىّ، و مائة مملوك من المماليك السلطانية أرباب الوظائف، و من جملة ما كان معها قطار جمال محملة محائر قد زرع فيها البقل و الخضراوات إلى غير ذلك مما يجل وصفه، فلما عادت فى سنة إحدى و سبعين و سبعمائة خرج السلطان بعساكره إلى لقائها، و سار إلى البويب فى سادس عشر المحرّم، و تزوّجت بالأمير الكبير الجاى اليوسفىّ، و بها طال و استطال، ماتت فى ثامن عشر ذى القعدة سنة أربع و سبعين و سبعمائة، و كانت خيرة عفيفة لها برّ كثير و معروف معروف، تحدّث الناس بحجتها عدّة سنين لما كان لها من الأفعال الجميلة فى تلك المشاهد الكريمة، و كان لها اعتقاد فى أهل الخير و محبة فى الصالحين، و قبرها موجود بقبة هذه المدرسة، و أسف السلطان على فقدها، و وجد وجدا كبيرا لكثرة حبه لها، و اتفق أنها لما ماتت أنشد الأديب شهاب الدين أحمد بن يحيى الأعرج السعدى:

فى ثامن العشرين من ذى قعدةكانت صبيحة موت أمّ الأشرف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۹ فاللّه يرحمها و يعظم أجرهو يكون فى عاشور موت اليوسفىّ فكان كما قال؛ و غرق الجاى اليوسفىّ كما تقدّم ذكره فى يوم عاشوراء.

المدرسة الأيتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبانة، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين ايتمش البجاسىّ، ثم الظاهرىّ فى سنة خمس و ثمانين و سبعمائة، و جعل بها درس فقه للحنفية، و بنى بجانبها فندقا كبيرا يعلوه ربع، و من ورائها خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل و ربعا، و هى مدرسة ظريفة.

ايتمش بن عبد اللّه الأمير الكبير سيف الدين البجاسىّ ثم الظاهرىّ، كان أحد المماليك اليلبغاوية.

المدرسة المجدية الخليلية

هذه المدرسة بمصر، يعرف موضعها بدرب البلاد، عمرها الشيخ الإمام مجد الدين أبو محمد عبد العزيز بن الشيخ الإمام أمين الدين أبى علىّ الحسين بن الحسن بن إبراهيم الخليلىّ الدارىّ، فتمت فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث و ستين و ستمائة، و قرّر فيها مدرّسا شافعيا و معيدين و عشرين نفرا طلبة، و إماما راتبا، و مؤذنا، و قيما لكنسها و فرشها و وقود مصابيحها. و إدارة ساقيتها، و أجرى الماء إلى فسقيتها، و وقف عليها غيطا بناحية بارنبار من أعمال المزاحميتين، و بستانا بمحلة الأمير من المزاحميتين بالغربية، و غيطا بناحية نطوبس، و ربع غيط بظاهر ثغر رشيد، و بستانا و نصف بستان بناحية بلقس، و رباعا بمدينة مصر.

و مجد الدين هذا هو والد الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلىّ، و درّس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين إلى حين وفاته، و توفى مجد الدين بدمشق فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمانين و ستمائة، و كان مشهورا بالصلاح.

المدرسة الناصرية بالقرافة

هذه المدرسة بجوار قبة الإمام محمد بن إدريس الشافعىّ رضى اللّه عنه من قرافة مصر، أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، و رتب بها مدرّسا يدرّس الفقه على مذهب الشافعىّ، و جعل له فى كل شهر من المعلوم عن التدريس أربعين دينارا، معاملة صرف كل دينار ثلاثة عشر درهما و ثلث درهم، و عن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير، و رتب له من

الخبز فى كل يوم ستين رطلا بالمصرىّ، و راويتين من ماء النيل، و جعل فيها معيدين و عدّة من الطلبة، و وقف عليها حمّاما بجوارها، و فرنا تجاهها، و حوانيت بظاهرها، و الجزيرة التى يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۰

و ولى تدريسها جماعة من الأكابر الأعيان، ثم خلت من مدرّس ثلاثين سنة، و اكتفى فيها بالمعيدين و هم عشرة أنفس، فلما كانت سنة ثمان و سبعين و ستمائة ولى تدريسها قاضى القضاة تقىّ الدين محمد بن رزين الحموىّ بعد عزله من وظيفة القضاء، و قرّر له نصف المعلوم. فلما مات وليها الشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد بربع المعلوم، فلما ولى الصاحب برهان الدين الخضر السنجارىّ التدريس قرّر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف.

المدرسة المسلمية

هذه المدرسة بمدينة مصر فى خط السيوريين، أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلّم- بضم الميم و فتح السين المهملة و تشديد اللام- البالسىّ الأصل ابن بنت كبير التجار شمس الدين محمد بن بسير- بفتح الباء أوّل الحروف و كسر السين المهملة ثم ياء آخر الحروف بعدها راء- و مات فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، قبل أن تتمّ. فوصى بتكملتها و أفرد لها مالا و وقف عليها دورا و أرضا بناحية قليوب، و شرط أن يكون فيها مدرس مالكىّ و مدرّس شافعىّ و مؤدّب أطفال و غير ذلك، فكملها مولاه و وصيه الكبير كافور الخصىّ الرومىّ بعد وفاة استاذه، و هى الآن عامرة، و بلغ ابن مسلَّم هذا من وفور المال و عظم السعادة ما لم يبلغه أحد ممن أدركناه، بحيث أنه جاء نصيب أحد أولاده نحو مائتى ألف دينار مصرية، و كان كثير الصدقات على الفقراء، مقترا على نفسه إلى الغاية، و له أيضا مطهرة عظيمة بالقرب من جامع عمرو بن العاص، و نفعها كبير، و له أيضا دار جليلة على ساحل النيل بمصر، و كان أبوه تاجرا سفارا بعد ما كان حمالا، فصاهر ابن بسير و رزق محمدا هذا من ابنته، فنشأ على صيانة و رزق الحظ الوافر فى التجارة و فى العبيد، فكان يبعث أحدهم بمال عظيم إلى الهند، و يبعث آخر بمثل ذلك إلى بلاد التكرور ، و يبعث آخر إلى بلاد الحبشة، و يبعث عدّة آخرين إلى عدّة جهات من الأرض، فما منهم من يعود إلّا و قد تضاعفت فوائد ماله أضعافا مضاعفة.

مدرسة اينال

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من باب حارة الهلالية بخط القماحين، كان موضعها فى القديم من حقوق حارة المنصورة، أوصى بعمارتها الأمير الكبير سيف الدين اينال اليوسفىّ، أحد المماليك البلبغاوية. فابتدأ بعملها فى سنة أربع و تسعين، و فرغت فى سنة خمس و تسعين و سبعمائة، و لم يعمل فيها سوى قرّاء يتناوبون قراءة القرآن على قبره، فإنه لما مات فى يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع و تسعين و سبعمائة دفن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۱

خارج باب النصر حتى انتهت عمارة هذه المدرسة، فنقل إليها و دفن فيها.

و إينال هذا ولى نيابة حلب و صار فى آخر عمره أتابك العساكر بديار مصر حتى مات، و كانت جنازته كثيرة الجمع مشى فيها السلطان الملك الظاهر برقوق و العساكر.

مدرسة الأمير جمال الدين الأستادار

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة، كان موضعها قيسارية يعلوها طباق كلها وقف، فأخذها و هدمها و ابتدأ بشق الأساس فى يوم السبت خامس جمادى الأولى سنة عشر و ثمانمائة، و جمع لها الآلات من الأحجار و الأخشاب و الرخام و غير ذلك، و كان

بمدرسة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون التى كانت بالصوة تجاه الطبلخاناه من قلعة الجبل، بقية من داخلها، فيها شبابيك من نحاس مكفت بالذهب و الفضة و أبواب مصفحة بالنحاس البديع الصنعة المكفت، و من المصاحف و الكتب فى الحديث و الفقه و غيره من أنواع العلوم جملة، فاشترى ذلك من الملك الصالح المنصور حاجى بن الأشرف بمبلغ ستمائة دينار، و كانت قيمتها عشرات أمثال ذلك، و نقلها إلى داره. و كان مما فيها عشرة مصاحف طول كل مصحف منها أربعة أشبار إلى خمسة فى عرض يقرب من ذلك، أحدها بخط ياقوت، و آخر بخط ابن البوّاب، و باقيها بخطوط منسوبة، و لها جلود فى غاية الحسن معمولة فى أكياس الحرير الأطلس، و من الكتب النفيسة عشرة أحمال جميعها مكتوب فى أوّله الإشهاد على الملك الأشرف بوقف ذلك، و مقرّه فى مدرسته.

فلما كان يوم الخميس ثالث شهر رجب سنة إحدى عشرة و ثمانمائة و قد انتهت عمارتها، جمع بها الأمير جمال الدين القضاة و الأعيان، و أجلس الشيخ همام الدين محمد بن أحمد الخوارزميّ الشافعيّ على سجادة المشيخة و عمله شيخ التصوّف، و مدرّس الشافعية، و مدّ سماطا جليلا أكل عليه كلّ من حضر، و ملأ البركة التى توسط المدرسة ماء قد أذيب فيه سكر مزج بماء الليمون، و كان يوما مشهودا، و قرّ فى تدريس الحنفية بدر الدين محمود بن محمد المعروف بالشيخ زاده الخرزيانيّ، و فى تدريس المالكية شمس الدين محمد بن البساطيّ، و فى تدريس الحنابلة فتح الدين أبا الفتح محمد بن نجم الدين محمد بن الباهليّ، و فى تدريس الحديث النبويّ شهاب الدين أحمد بن عليّ بن حجر، و فى تدريس التفسير شيخ الإسلام قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن البلقينيّ. فكان يجلس من ذكرنا واحدا بعد واحد فى كل يوم إلى أن كان آخرهم شيخ التفسير، و كان مسك الختام، و ما منهم إلّا من يحضر معه و يلبسه ما يليق به من الملابس الفاخرة، و قرّر عند كلّ من المدرّسين الستة طائفة من الطلبة، و أجرى لكل واحد ثلاثة أرطال من الخبز فى كل يوم، و ثلاثين درهما فلوسا فى كل شهر، و جعل لكل مدرّس ثلاثمائة درهم فى كل شهر، و رتب بها إماما وقومة و مؤذنين و فرّاشين و مباشرين، و أكثر من وقف الدور عليها، و جعل فائض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۲

وقفها مصروفا لذريته، فجاءت فى أحسن هندام و أتم قالب و أفخر زيّ و أبدع نظام، إلّا أنها و ما فيها من الآلات و ما وقف عليها أخذ من الناس غصبا، و عمل فيها الصناع بأبخس أجرة مع العسف الشديد.

فلما قبض عليه السلطان و قتله فى جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، و استولى على أمواله، حسّن جماعة للسلطان أن يهدم هذه المدرسة و رغبوه فى رخامها، فإنه غاية فى الحسن، و أن يسترجع أوقافها، فإن متحصلها كثير. فمال إلى ذلك و عزم عليه. فكرّه ذلك للسلطان الرئيس فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ، و استشنع أن يهدم بيت بنى على اسم اللّه يعلن فيه بالأذان خمس مرّات فى اليوم و الليلة، و تقام به الصلوات الخمس فى جماعة عديدة، و يحضره فى عصر كل يوم مائة و بضعة عشر رجلا يقرءون القرآن فى وقت التصوّف، و يذكرون اللّه و يدعونه، و تتحلق به الفقهاء لدرس تفسير القرآن الكريم و تفسير حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و فقه الأئمة الأربعة، و يعلّم فيه أيتام المسلمين كتاب اللّه عز و جلّ، و يجرى على هؤلاء المذكورين الأرزاق فى كل يوم، و من المال فى كل شهر، و رأى أن إزالة مثل هذا وصمة فى الدين، فتجرّد له و ما زال بالسلطان يرغّبه فى إبقائها على أن يزال منها اسم جمال الدين و تنسب إليه، فإنه من الفتن هدم مثلها. و نحو ذلك، حتّى رجع إلى قوله و فوّض أمرها إليه، فدبر ذلك أحسن تدبير.

و هو أنّ موضع هذه المدرسة كان وقفا على بعض الترب، فاستبدل به جمال الدين أرضا من جملة أراضى الخراج بالجيزة، و حكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم بصحة الاستبدال، و هدم البناء و بنى موضعه هذه المدرسة، و تسلّم متولى موضعها الأرض المستبدل بها، إلى أن قتل جمال الدين و أحيط بأمواله، فدخل فيما أحيط به هذه الأرض المستبدل بها، و ادّعى السلطان أن جمال الدين افتأت عليه فى أخذ هذه الأرض، و أنه لم يأذن فى بيعها من بيت المال، فأفتى حينئذ محمد شمس الدين المدنيّ المالكيّ بأن بناء هذه المدرسة الذى وقفه جمال الدين على الأرض التى لم يملكها بوجه صحيح لا يصح، و أنه باق على ملكه إلى حين موته،

فندب عند ذلك شهود القيمة إلى تقويم بناء المدرسة، فقوّموها باثنى عشر ألف دينار ذهبا، و أثبتوا محضر القيمة على بعض القضاة، فحمل المبلغ إلى أولاد جمال الدين حتى تسلموه و باعوا بناء المدرسة للسلطان، ثم استردّ السلطان منهم المبلغ المذكور و أشهد عليه أنه وقف أرض هذه المدرسة بعد ما استبدل بها، و حكم حاكم حنفيّ بصحة الاستبدال، ثم وقف البناء الذى اشتراه و حكم بصحته أيضا، ثم استدعى بكتاب وقف جمال الدين و لخصه، ثم مزقه و جدّد كتاب وقف يتضمن جميع ما قرّره جمال الدين فى كتاب وقفه من أرباب الوظائف و مالهم من الخبز فى كل يوم و من المعلوم فى كل شهر، و أبطل ما كان لأولاد جمال الدين من فائض الوقف، و أفرد لهذه المدرسة مما كان جمال الدين جعله وقفا عليها عدّة مواضع تقوم بكفاية مصروفها، و زاد فى أوقافها أرضا بالجيزة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۳

و جعل ما بقى من أوقاف جمال الدين على هذه المدرسة، بعضه وقفا على أولاده، و بعضه وقفا على التربة التى أنشأها فى قبة أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر، و حكم القضاة الأربعة بصحة هذا الكتاب بعد ما حكموا بصحة كتاب وقف جمال الدين، ثم حكموا ببطلانه، ثم لما تمّ ذلك محى من هذه المدرسة اسم جمال الدين ورنكه، و كتب اسم السلطان الملك الناصر فرج بدائر صحنها من أعلاه، و على قناديلها و بسطها و سقوفها، ثم نظر السلطان فى كتبها العلمية الموقوفة بها فأقرّ منها جملة كتب بظاهر كل سفر منها فصل يتضمن وقف السلطان له، و حمل كثير من كتبها إلى قلعة الجبل، و صارت هذه المدرسة تعرف بالناصرية بعد ما كان يقال لها الجمالية.

و لم تزل على ذلك حتى قتل الناصر و قدم الأمير شيخ إلى القاهرة و استولى على أمور الدولة، فتوصل شمس الدين محمد أخو جمال الدين و زوّج ابنته لشرف الدين أبى بكر بن العجميّ موقع الأستادار الأمير شيخ، حتى أحضر قضاة القضاة و حكم الصدر علىّ بن الأدمىّ قاضى القضاة الحنفيّ بردّ أوقاف جمال الدين إلى ورثته من غير استيفاء الشروط فى الحكم بل تهوّر فيه و جازف. و لذلك أسباب منها: عناية الأمير شيخ بجمال الدين الأستادار، فإنه لما انتقل إليه إقطاع الأمير بحاس بعد موت الملك الظاهر برقوق، استقرّ جمال الدين استاداره كما كان أستادار بحاس، فخدمه خدمة بالغة، و خرج الأمير شيخ إلى بلاد الشام و استقرّ فى نيابة طرابلس، ثم فى نيابة الشام، و خدمة جمال الدين له و لحاشيته و من يلوذ به مستمرّة، و أرسل مرّة الأمير شيخ من دمشق بصدر الدين بن الأدمىّ المذكور فى الرسالة إلى الملك الناصر و جمال الدين حينئذ عزيز مصر، فأنزله و أكرمه و أنعم عليه و ولاه قضاء الحنفية و كتابة السرّ بدمشق، و أعاده إليه و ما زال معتنيا بأمور الأمير شيخ، حتى أنه اتهم بأنه قد مالأه على السلطان، فقبض عليه السلطان الملك الناصر بسبب ذلك و نكبه، فلما قتل الناصر و استولى الأمير شيخ على الأمور بديار مصر، ولى قضاء الحنفية بديار مصر لصدر الدين علىّ بن الأدمىّ المذكور، و ولى أستاداره بدر الدين حسن بن محب الدين الطرابلسىّ أستادار السلطان، فخدم شرف الدين أبو بكر بن العجميّ زوج ابنة أخى جمال الدين عنده موقعا، و تمكن منه فأغراه بفتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ حتى أثخن جراحه عند الملك المؤيد شيخ، و نكبه بعد ما تسلطن، و استعان أيضا بقاضى القضاة صدر الدين بن الأدمىّ، فإنه كان عشيره و صديقه من أيام جمال الدين، ثم استمال ناصر الدين محمد بن البارزىّ موقع الأمير الكبير شيخ، فقام الثلاثة مع شمس الدين أخى جمال الدين حتى أعيد إلى مشيخة خانكاه بيبرس و غيرها من الوظائف التى أخذت منه، عند ما قبض عليه الملك الناصر و عاقبه، و تحدّثوا مع الأمير الكبير فى ردّ أوقاف جمال الدين إلى أخيه و أولاده، فإن الناصر غصبها منهم و أخذ أموالهم و ديارهم بظلمه إلى أن فقدوا القوت، و نحو هذا من القول حتى حرّكوا منه حقدا كامنا على الناصر، و علموا منه عصبته لجمال الدين هذا، و غرض القوم فى الباطن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۴

تأخير فتح الدين و الإيقاع به، فإنه ثقل عليهم وجوده معهم، فأمر عند ذلك الأمير الكبير بعقد مجلس حضره قضاة القضاة و الأمراء و أهل الدولة عنده بالحراقة من باب السلسلة، فى يوم السبت تاسع عشرى شهر رجب سنة خمس عشرة، و تقدّم أخو جمال الدين ليدّعى على فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ، و كان قد علم بذلك و وكل بدر الدين حسنا البردينىّ أحد نوّاب الشافعية فى سماع الدعوى و

ردّ الأجوبة، فعند ما جلس البردينيّ للمحاكمة مع أخى جمال الدين، نهره الأمير الكبير و أقامه و أمر بأن يكون فتح اللّه هو الذى يدّعى عليه، فلم يجد بدّا من جلوسه، فما هو إلّا أن ادّعى عليه أخو جمال الدين بأنه وضع يده على مدرسة أخيه جمال الدين و أوقافه بغير طريق، فبادر قاضى القضاة صدر الدين علىّ بن الأدميّ الحنفيّ و حكم برفع يده و عود أوقاف جمال الدين و مدرسته إلى ما نص عليه جمال الدين، و نفذ بقية القضاة حكمه و انفضوا على ذلك، فاستولى أخو جمال الدين و صهره شرف الدين على حاصل كبير كان قد اجتمع بالمدرسة من فاضل ربعها و من مال بعثه الملك الناصر إليها، و فرّقوه حتى كتبوا كتابا اخترعوه من عند أنفسهم جعلوه كتاب وقف المدرسة، زادوا فيه أن جمال الدين اشترط النظر على المدرسة لأخيه شمس الدين المذكور و ذريته، إلى غير ذلك مما لفقوه بشهادة قوم استمالوهم فمالوا، ثم أثبتوا هذا الكتاب على قاضى القضاة صدر الدين بن الأدميّ، و نفذه بقية القضاة، فاستمرّ الأمر على هذا البهتان المختلق و الإفك المفترى مدّة، ثم ثار بعض صوفية هذه المدرسة و أثبت محضرا بأن النظر لكاتب السرّ، فلما ثبت ذلك نزعت يد أخى جمال الدين عن التصرّف فى المدرسة، و تولى نظرها ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السرّ، و استمر الأمر على هذا، فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمه به فى تناقض القضاة و حكمهم بإبطال ما صححوه، ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه، كل ذلك ميلا مع الجاه و حرصا على بقاء رياستهم، ستكتب شهادتهم و يسألون.

المدرسة الصرغتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة بجوار جامع الأمير أبى العباس أحمد بن طولون، فيما بينه و بين قلعة الجبل، كان موضعها قديما من جملة قطائع ابن طولون، ثم صار عدّة مساكن، فأخذها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرىّ رأس نوبة النوب و هدمها و ابتدأ فى بناء المدرسة يوم الخميس من شهر رمضان سنة ست و خمسين و سبعمائة، و انتهت فى جمادى الأولى سنة سبع و خمسين، و قد جاءت من أبدع المبانى و أجلها و أحسنها قالبا و أبهجها منظرا، فركب الأمير صرغتمش فى يوم الثلاثاء تاسعه و حضر إليه الأمير سيف الدين شيخو العمرىّ مدبر الدولة، و الأمير طاشتمر القاسمىّ حاجب الحجاب، و الأمير توقتاى الدوادار، و عامّة أمراء الدولة، و قضاة القضاة الأربعة، و مشايخ العلم، و رتب مدرّس الفقه بها قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر العميد بن العميد أمير غازى الاتقانىّ، فألقى القوام الدرس، ثم مدّ سماط جليل بالهمة الملوكية، و ملئت البركة التى بها سكّرا قد أذيب بالماء،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۵

فأكل الناس و شربوا و أبيح ما بقى من ذلك للعامّة فانتهبوه، و جعل الأمير صرغتمش هذه المدرسة وقفا على الفقهاء الحنفية الآفاقية، و رتب بها درسا للحديث النبوىّ، و أجرى لهم جميعا المعاليم من وقف رتّبه لهم، و قال أدباء العصر فيها شعرا كثيرا. فقال العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفيّ:

ليهنك يا صرغتمش ما بنيتهلآخراك فى دنياك من حسن بنيان

به يزدهى الترخيم كالزهر بهجةفللّه من زهر و للّه من بانى

و خلع فى هذا اليوم على القوام خلعة سنية و أركبه بغلة رائعة، و أجازه بعشرة آلاف درهم على أبيات مدحه بها فى غاية السماجة و هى:

أ رأيتم من حاز الرتباو أتى قربا و نفى ريبا

فبدا علما و سما كرماو ما قدما و لقد غلبا

بتقى و هدى و ندا و جدافعدا و سدى و جبى و حبا

بدى سننا أحيى سنناحلّى زمنا عند الأدبا

هذا صرغتمش قد سكبتأيام إمارته السحبا

و أزال الجدب إلى خصبو الضنك إلى رغد قلبا

بإعانة جبّار ربىذى العرش و قد بذل النشبا

ملك فطن ركن لسنحسن بسن ربى الأدبا

لك الكبرا ملك الأمراملك العلما ملك الأدبا

بحر طام غيث هامقد رسام حامى الغربا

ببشاشته و سماحتهو حماسته جلّى الكربا

و ديانته و صيانتهو أمانته حاز الرتبا

أبهى أصلا أسنى نسلاأعطى فضلا مأوى الغربا

نعم المأوى مصر لمّاشملت قوما نبلا نجبا

فنمت نورا و سمت نوراو علت دورا و أرت طربا

نسقت دررا و سقت دررا و دعت غررا و حوت أدبا

و خطابته افتخرت و علتو سمت وزرت و حوت أدبا

جدّد درسا ثم اجن جنّىمنها و منى فمعى طلبا

من نازعنى نسبى علنافاراب لنا نعمت نسبا

كنون أبا لحنفية ثمّ قوام الدين بدا لقبا

عش فى رحب لترى عجبامن منتجب عجب عجبا

صرغتمش: الناصرىّ الأمير سيف الدين رأس نوبة، جلبه الخواجا الصوّاف فى سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۶

سبع و ثلاثين و سبعمائة، فاشتراه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون بمائتى ألف درهم فضة، ثمنها يومئذ نحو أربعة آلاف مثقال ذهبا، و خلع على الخواجا تشريفا كاملا بحياصة ذهب، و كتب له توقيعا بمسامحة مائة ألف درهم من متجره، فلم يعبأ به السلطان، و صار فى أيامه من جملة الجمدارية، و حكى عن القاضى شرف الدين عبد الوهاب ناظر الخاص أنّ السلطان أنعم على صرغتمس هذا بعشر طاقات أديم طائفىّ، فلما جاء إلى النشو تردّد إليه مرارا حتى دفعها إليه، و لم يزل خامل الذكر إلى أن كانت أيام المظفر حاجى بن محمد بن قلاون، فبعثه مسفرا مع الأمير فخر الدين إياز السلاح دار لما استقرّ فى نيابة حلب، فلما عاد من حلب ترقى فى الخدمة و تمكن عند المظفر و توجه فى خدمة الصالح بن محمد بن قلاون إلى دمشق فى نوبة يلبغاروس، و صار السلطان يرجع إلى رأيه، فلما عاد من دمشق أمسك الوزير علم الدين عبد اللّه بن زنبور بغير أمر السلطان و أخذ أمواله، و عارض فى أمره الأمير شيخو و الأمير طاز، و من حينئذ عظم و لم يزل حتى خلع السلطان الملك الصالح و أعيد الناصر حسن بن محمد بن قلاون، فلما أخرج الأمير شيخو انفرد صرغتمش بتدبير أمور المملكة و فخم قدره و نفذت كلمته، فعزل قضاة مصر و الشام و غيّر النوّاب بالمماليك، و السلطان يحقد عليه إلى أن أمسكه فى العشرين من شهر رمضان سنة تسع و خمسين، و قبض معه على الأمير طشتمر القاسمىّ حاجب الحجاب، و الأمير ملكتمر المحمدىّ و جماعة و حملهم إلى الإسكندرية فسجنوا بها، و بها مات صرغتمش بعد شهرين و اثنى عشر يوما من سجنه فى ذى الحجة سنة تسع و خمسين و سبعمائة. و كان مليح الصورة جميل الهيئة، يقرأ القرآن الكريم و يشارك فى الفقه على مذهب الحنفية، و يبالغ فى التعصب لمذهبه، و يقرّب العجم و يكرمهم و يجلهم إجلالا زائدا، و يشدو طرفا من النحو، و كانت أخلاقه شرسة و نفسه قوية، فإذا بحث فى الفقه أو اللغة اشتط، و لما تحدّث فى الأوقاف و فى البريد خاف الناس منه، فلم يكن أحد يركب خيل البريد إلّا بمرسومه، و منع كل من يركب البريد أن يحمل معه قماشا و دراهم على خيل البريد، و اشتدّ فى أمر الأوقاف فعمرت فى

مباشرته، و لما قبض عليه أخذ السلطان أمواله و كانت شيئا كثيرا يكلّ عنه الوصف.

ذكر المارستانات

اشارة

قال الجوهريّ فى الصحاح: و المارستان بيت المرضى، معرّب عن ابن السكيت، و ذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب أخبار مصر: أن الملك مناقيوش بن أشمون أحد ملوك القبط الأول بأرض مصر، أوّل من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى، و أودعها العقاقير و رتب فيها الأطباء و أجرى عليهم ما يسعهم، و مناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة أخميم، و بنى مدينة سنتريه. و قال زاهد العلماء أبو سعيد منصور بن عيسى: أوّل من اخترع المارستان و أوجده بقراط بن أبو قليدس، و ذلك أنه عمل بالقرب من داره فى موضع من بستان كان له، موضعا مفردا للمرضى، و جعل فيه خدما يقومون بمداواتهم و سماه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۷

اصدولين، أى مجمع المرضى، و أوّل من بنى المارستان فى الإسلام و دار المرضى الوليد بن عبد الملك، و هو أيضا أوّل من عمل دار الضيافة، و ذلك فى سنة ثمان و ثمانين، و جعل فى المارستان الأطباء و أجرى لهم الأرزاق، و أمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا، و أجرى عليهم، و على العميان الأرزاق. و قال جامع السيرة الطولونية: و قد ذكر بناء جامع ابن طولون و عمل فى مؤخره ميضأة و خزانة شراب، فيها جميع الشرابات و الأدوية، و عليها خدم، و فيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة.

مارستان ابن طولون

هذا المارستان موضعه الآن فى أرض العسكر، و هى الكيمان و الصحراء التى فيما بين جامع ابن طولون و كوم الجارح، و فيما بين قنطرة السدّ التى على الخليج ظاهر مدينة مصر، و بين السور الذى يفصل بين القرافة و بين مصر. و قد دثر هذا المارستان فى جملة ما دثر و لم يبق له أثر. و قال أبو عمر الكندىّ فى كتاب الأمراء: و أمر أحمد بن طولون أيضا ببناء المارستان للمرضى، فبنى لهم فى سنة تسع و خمسين و مائتين. و قال جامع السيرة الطولونية: و فى سنة إحدى و ستين و مائتين بنى أحمد بن طولون المارستان، و لم يكن قبل ذلك بمصر مارستان، و لما فرغ منه حبس عليه دار الديوان و دوره فى الأساكفة و القيسارية و سوق الرقيق، و شرط فى المارستان أن لا يعالج فيه جندىّ و لا مملوك، و عمل حمّامين للمارستان، إحداهما للرجال و الأخرى للنساء، حبسهما على المارستان و غيره، و شرط أنه إذا جىء بالعليل تنزع ثيابه و نفقته و تحفظ عند أمين المارستان، ثم يلبس ثيابا و يفرش له و يغدى عليه و يراح بالأدوية و الأغذية و الأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فرّوجا و رغيفا أمر بالانصراف و أعطى ماله و ثيابه، و فى سنة اثنتين و ستين و مائتين كان ما حبسه على المارستان و العين و المسجد فى الجبل الذى يسمى بتنور فرعون، و كان الذى أنفق على المارستان و مستغله ستين ألف دينار، و كان يركب بنفسه فى كل يوم جمعة و يتفقد خزائن المارستان و ما فيها و الأطباء، و ينظر إلى المرضى و سائر الأعلّاء و المحبوسين من المجانين، فدخل مرّة حتى وقف بالمجانين، فناداه واحد منهم مغلول: أيّها الأمير اسمع كلامى، ما أنا بمجنون، و إنما عملت علىّ حيلة، و فى نفسى شهوة رمانة عريشية أكبر ما يكون، فأمر له بها من ساعته، ففرح بها و هزها فى يده ورازها ثم غافل أحمد بن طولون و رمى بها فى صدره، فنضحت على ثيابه، و لو تمكنت منه لأتت على صدره، فأمرهم أن يحتفظوا به، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر فى المارستان.

مارستان كافور

هذا المارستان بناه كافور الإخشيدىّ، و هو قائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور بن محمد الإخشيد بمدينة مصر فى سنة ست و أربعين و ثلاثمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۸

مارستان المغافر

هذا المارستان كان فى خطة المغافر التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر و بين مصلّى خولان التى بالقرافة، بناه الفتح بن خاقان فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على اللّه، و قد باد أثره.

المارستان الكبير المنصورىّ

هذا المارستان بخط بين القصرين من القاهرة، كان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس بعد زوال الدولة الفاطمية، و بدار موسك، ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و صار يقال لها لدار القطبية، و لم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها الملك المنصور قلاون الألفىّ الصالحىّ من مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل المعروفة بالقطبية، و عوّضت عن ذلك قصر الزمرّد برحبة باب العيد فى ثامن عشرى ربيع الأوّل سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة، بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ مدبر الممالك، و رسم بعمارتها مارستانا و قبة و مدرسة، فتولى الشجاعىّ أمر العمارة، و أظهر من الاهتمام و الاحتفال ما لم يسمع بمثله حتى تم الغرض فى أسرع مدّة، و هى أحد عشر شهرا و أيام، و كان ذرع هذه الدار عشرة آلاف و ستمائة ذراع و خلفت ست الملك بها ثمانية آلاف جارية و ذخائر جليلة، منها قطعة ياقوت أحمر زنتها عشرة مثاقيل، و كان الشروع فى بنائها مارستانا أوّل ربيع الآخر سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة.

و كان سبب بنائه أنّ الملك المنصور لما توجه و هو أمير إلى غزاة الروم فى أيام الظاهر بيبرس سنة خمس و سبعين و ستمائة، أصابه بدمشق قولنج عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ، و ركب حتى شاهد المارستان فأعجب به، و نذران آتاه اللّه الملك أن يبنى مارستانا، فلما تسلطن أخذ فى عمل ذلك فوقع الاختيار على الدار القطبية، و عوّض أهلها عنها قصر الزمرّذ، و ولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ أمر عمارته، فأبقى القاعة على حالها و عملها مارستانا، و هى ذات إيوانات أربعة، بكلّ إيوان شاذروان، و بدور قاعتها فقية يصير إليها من الشاذروانات الماء، و اتفق أن بعض الفعلة كان يحفر فى أساس المدرسة المنصورية فوجد حق اشنان من نحاس، و وجد رفيقه قمقما نحاسا مختوما برصاص، فأحضرا ذلك إلى الشجاعىّ، فإذا فى الحق فصوص ماس و ياقوت و بلخش و لؤلؤ ناصع يدهش الأبصار، و وجد فى القمقم ذهبا، كان جملة ذلك نظير ما غرم على العمارة، فحمله إلى أسعد الدين كوهيا الناصرىّ العدل، فرفعه إلى السلطان. و لما نجزت العمارة وقف عليها الملك المنصور من الأسلاك بديار مصر و غيرها ما يقارب ألف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۹

ألف درهم فى كلّ سنة، و رتب مصارف المارستان و القبة و المدرسة و مكتب الأيتام، ثم استدعى قدحا من شراب المارستان و شربه و قال: قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى، و جعلته وقفا على الملك و المملوك و الجندىّ و الأمير و الكبير و الصغير و الحرّ و العبد الذكور و الإناث، و رتب فيه العقاقير و الأطباء و سائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض، و جعل السلطان فيه فرّاشين من الرجال و النساء لخدمة المرضى، و قرّر لهم المعاليم، و نصب الأسرّة للمرضى و فرشها بجميع الفرش المحتاج إليها فى المرض، و أفرد لكل طائفة من المرضى موضعا، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات و نحوها، و أفرد قاعة للرمدى، و قاعة للجرحى، و قاعة لمن به إسهال، و قاعة للنساء، و مكانا للمبرودين ينقسم بقسمين قسم للرجال و قسم للنساء، و جعل الماء يجرى فى جميع هذه

الأماكن، و أفرد مكانا لطبخ الطغام و الأدوية و الأشربة، و مكانا لتركيب المعاجين و الأكحال و الشيافات و نحوها، و مواضع يخزن فيها الحواصل، و جعل مكانا يفرق فيه الأشربة و الأدوية، و مكانا يجلس فيه رئيس اطباء لإلقاء درس طب، و لم يحص عدّة المرضى بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنيّ و فقير، و لا حدّد مدّة لإقامة المريض به، بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه، و وكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحيّ أمير جندار فى وقف ما عينه من المواضع، و ترتيب أرباب الوظائف و غيرهم، و جعل النظر لنفسه أيام حياته، ثم من بعده لأولاده، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعيّ، فضمن وقفه كتابا تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشرى صفر سنة ثمانين و ستمائة، و لما قرىء عليه كتاب الوقف قال للشجاعيّ: ما رأيت خط الأسعد كاتبى مع خطوط القضاة، أبصر إيش فيه زغل حتى ما كتب عليه، فما زال يقرّب لذهنه أن هذا مما لا يكتب عليه إلّا قضاة الإسلام حتى فهم ذلك، فبلغ مصروف الشراب منه فى كل يوم خمسمائة رطل سوى السكّر، و رتب فيه عدّة ما بين أمين و مباشر، و جعل مباشرين للإدارة، و هم الذين يضبطون ما يشترى من أوصناف، و ما يحضر منها إلى المارستان، و مباشرين لاستخراج مال الوقف، و مباشرين فى المطبخ، و مباشرين فى عمارة الأوقاف التى تتعلق به، و قرّر فى القبة خمسين مقرئا يتناوبون قراءة القرآن ليلا و نهارا، و رتب بها إماما راتبا، و جعل بها رئيسا للمؤذنين عند ما يؤذنون فوق منارة ليس فى إقليم مصر أجلّ منها، و رتب بهذه القبة درسا لتفسير القرآن فيه مدرّس و معيدان و ثلاثون طالبا، و درس حديث نبويّ، و جعل بها خزانة كتب و ستة خدّام طواشية لا يزالون بها، و رتب بالمدرسة إماما راتبا و متصدّرا لإقراء القرآن، و دروسا أربعة للفقه على المذاهب الأربعة، و رتب بمكتب السبيل معلمين يقرءان الأيتام، و رتب للأيتام رطلين من الخبز فى كلّ يوم لكلّ يتيم، مع كسوة الشتاء و الصيف.

فلما ولى الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك نظر المارستان، أنشأ به قاعة للمرضى، و نحت الحجارة المبنيّ بها الجدر كلها حتى صارت كأنها جديدة، و جدّد تذهيب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۰

الطراز بظاهر المدرسة و القبة، و عمل خمية تظل الأقفاص طولها مائة ذراع، قام بذلك من ماله دون مال الوقف، و نقل أيضا حوض ماء كان برسم شرب البهائم من جانب باب المارستان و أبطله لتاذى الناس بنتن رائحة ما يجتمع قدّامه من الأوساخ، و أنشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض المذكور، و قد تورّع طائفة من أهل الديانة عن الصلاة فى المدرسة المنصورية و القبة، و عابوا المارستان لكثرة عسف الناس فى عمله، و ذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارستانا ندب الطواشى حسام الدين بلالا- المغيثيّ للكلام فى شرائها، فساس الأمر فى ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون ببيعها على أن تعوّض عنها بدار تلمها و عيالها، فعوّضت قصر الزمرّذ برحبة باب العيد مع مبلغ مال حمل إليها، و وقع البيع على هذا، فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعيّ للعمارة، فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة، و أخذ ثلاثمائة أسير و جمع صناع القاهرة و مصر و تقدّم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم فى الدار القطبية، و منعهم أن يعملوا لأحد فى المدينتين شغلا، و شدّد عليهم فى ذلك، و كان مهابا، فلازموا العمل عنده، و نقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوّان و العمد الرخام و القواعد و الأعتاب و الرخام البديع و غير ذلك، و صار يركب إليها كلّ يوم و ينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان، و يعود إلى المارستان فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا فى عملهم، و أوقف مماليكه بين القصرين، فكان إذا مرّ أحد و لو جلّ ألزموه أن يرفع حجرا و يلقيه فى موضع العمارة، فينزل الجنديّ و الرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك، فترك أكثر الناس المرور من هناك، و رتبوا بعد الفراغ من العمارة، و ترتيب الوقف فتيا صورتها ما يقول أئمة الدين فى موضع أخرج أهله منه كرها، و عمر بمستحثين يعسفون الصناع، و أخرب ما عمره الغير و نقل إليه ما كان فيه فعمر به، هل تجوز الصلاة فيه أم لا- فكتب جماعة من الفقهاء لا تجوز فيه الصلاة، فما زال المجد عيسى بن الخشاب حتى أوقف الشجاعيّ على ذلك، فشق عليه، و جمع القضاة و مشايخ العلم بالمدرسة المنصورية و أعلمهم بالفتيا فلم يجبه أحد منهم بشيء سوى الشيخ محمد المرجانيّ فإنه قال: أنا أفتيت بمنع الصلاة فيها، و أقول الآن أنه يكره الدخول من بابها، و نهض قائما فانفض الناس. و

اتفق أيضا أن الشجاعيّ ما زال بالشيخ محمد المرجانيّ، يلح فى سؤاله أن يعمل ميعاد وعظ بالمدرسة المنصوريّة حتى أجاب بعد تمنع شديد، فحضر الشجاعيّ و القضاة، و أخذ المرجانيّ فى ذكر ولاة الأمور من الملوك و الأمراء و القضاة، و ذمّ من يأخذ الأراضى غصبا، و يستحث العمال فى عمائره و ينقص من أجورهم و ختم بقوله تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا [الفرقان/ ۲۷] و قام، فسأله الشجاعيّ الدعاء له فقال: يا علم الدين قد دعا لك و دعا عليك من هو خير منى، و ذكر قول النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللهمّ من ولى من أمر أمّتى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۱

شيئا فرفق بهم فارفق به و من شق عليهم فاشقق عليه» و انصرف. فصار الشجاعيّ: من ذلك فى قلق، و طلب الشيخ تقيّ الدين محمد بن دقيق العيد و كان له فيه اعتقاد حسن و فاوضه فى حديث الناس فى منع الصلاة فى المدرسة، و ذكر له أن السلطان إنما أراد محاكاة نور الدين الشهيد و الاقتداء به لرغبته فى عمل الخير، فوقع الناس فى القدح فيه، و لم يقدحوا فى نور الدين. فقال له: إن نور الدين أسر بعض ملوك الفرنج و قصد قتله، ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع و خمسمائة ألف دينار حتى أطلقه، فمات فى طريقه قبل وصوله مملكته، و عمر نور الدين بذلك المال مارستانه بدمشق من غير مستحث، فمن أين يا علم الدين تجد مالا مثل هذا المال و سلطانا مثل نور الدين، غير أن السلطان له نيته، و أرجو له الخير بعمارة هذا الموضع، و أنت إن كان وقوفك فى عمله بنية نفع الناس فلك الأجر، و إن كان لأجل أن يعلم أستاذك علوّ همتك فما حصلت على شيء. فقال الشجاعيّ: اللّه المطلع على النيات، و قرّر ابن دقيق العيد فى تدريس القبة.

قال مؤلفه: إن كان التحرّج من الصلاة لأجل أخذ الدار القطبية من أهلها بغير رضاهم و إخراجهم منها بعسف و استعمال أنقاض القلعة بالروضة، فلعمرى ما تملك بنى أيوب الدار القطبية و بناؤهم قلعة الروضة و إخراجهم أهل القصور من قصورهم التى كانت بالقاهرة و إخراج سكان الروضة من مساكنهم، إلّا كأخذ قلاون الدار المذكورة و بنائها بما هدمه من القلعة المذكورة و إخراج مؤنسة و عيالها من الدار القطبية، و أنت إن أمعنت النظر و عرفت ما جرى تبين لك أن ما القوم إلّا سارق من سارق، و غاصب من غاصب، و إن كان التحرّج من الصلاة لأجل عسف العمال و تسخير الرجال، فشيء آخر بالله عرّفنى، فإنى غير عارف من منهم لم يسلك فى أعماله هذا السبيل، غير أن بعضهم أظلم من بعض، و قد مدح غير واحد من الشعراء هذه العمارة، منهم شرف الدين البوصيرىّ فقال:

و مدرسة ود الخورنق أنّهلديها خطير و السدير غدير

مدينة علم و المدارس حولهاقرى أو نجوم بدر هنّ منير

تبدّت فأخفى الظاهرية نورهاو ليس يظهر للنجوم ظهور

بناء كأنّ النحل هندس شكلهو لانت له كالشمع فيه صخور

بناها سعيد فى بقاع سعيدةبها سعدت قبل المدارس نور

و من حيثما وجّهت وجهك نحوهاتلقّتك منها نضرة و سرور

إذا قام يدعو اللّه فيها مؤذنفما هو إلّا للنجوم سمير

المارستان المؤيدى

هذا المارستان فوق الصوّة تجاه طبلخاناه قلعة الجبل، حيث كانت مدرسة الأشرف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۲

شعبان بن حسين التى هدمها الناصر فرج بن برقوق، و بابه هو حيث كان باب المدرسة، إلّا أنه ضيق عما كان، أنشأه المؤيد شيخ فى مدّة أوّلها جمادى الآخرة سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و آخرها رجب سنة ثلاث و عشرين، و نزل فيه المرضى فى نصف شعبان،

و عملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدىّ المجاور لباب زويلة، فلما مات الملك المؤيد فى ثامن المحرّم سنة أربع و عشرين تعطل قليلا، ثم سكنه طائفة من العجم المستجدّين فى ربيع الأوّل منها، و صار منزلا للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان، ثم عمل فيه منبر و رتب له خطيب و إمام و مؤذنون و بوّاب و قومة، و أقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس و عشرين و ثمانمائة، فاستمرّ جامعا تصرف معاليم أرباب وظائفه المذكورين من وقف الجامع المؤيدى.

ذكر المساجد

اشارة

قال ابن سيده: المسجد الموضع الذى يسجد فيه. و قال الزجاج: كلّ موضع يتعبد فيه فهو مسجد، ألا ترى أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا» و قوله عز و جلّ: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ [البقرة/ ۱۱۴] المعنى على هذا المذهب أنه من أظلم ممن خالف قبلة الإسلام، و قد كان حكمه أن لا يجىء على مفعل، لأن حق اسم المكان و المصدر من فعل يفعل أن يجىء على مفعل، و لكنه أحد الحروف التى شذت فجاءت على مفعل. قال سيبويه: و أما المسجد فإنهم جعلوه اسما للبيت، و لم يأت على فعل يفعل، كما قال فى المدق: أنه اسم للجود، يعنى أنه ليس على الفعل، و لو كان على الفعل لقيل مدق لأنه آلة و الآلات تجىء على مفعل كمخزن و مكنس و مكسح، و المسجدة الجمرة المسجود عليها، و قوله تعالى و إن المساجد للّه، قيل هى مواضع السجود من الإنسان، الجبهة و اليدان و الركبتان و الرجلان. و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ فى كتاب النقط على الخطط عن القاضى أبى عبد اللّه القضاعىّ: أنه كان فى مصر الفسطاط من المساجد ستة و ثلاثون ألف مسجد. و قال المسبحىّ فى حوادث سنة ثلاث و أربعمائة: و أحصى أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه المساجد التى لا غلة لها فكانت ثمانمائة مسجد، فأطلق لها فى كلّ شهر من بيت المال تسعة آلاف و مائتين و عشرين درهما، و فى سنة خمس و أربعمائة حبس الحاكم بأمر اللّه سبع ضياع منها، اطفيح و طوخ على القرّاء.

و المؤذنين بالجوامع، و على ملء المصانع و المارستان، و فى ثمن الأكفان. و ذكر ابن المتوّج أن عدّة المساجد بمصر فى زمنه أربعمائة و ثمانون مسجدا ذكرها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۳

المسجد بجوار دير البعل

قد تقدّم فى أخبار الكنائس و الديارات من هذا الكتاب خبر دير البعل، و أنه يعرف بدير الفطير، و لما كان فى سنة خمس و سبعين و ستمائة خرج جماعة من المسلمين إلى دير البعل فرأوا آثار محاريب بجوار الدير فعرّفوا الصاحب بهاء الدين بن حنا ذلك، فسير المهندسين لكشف ما ذكر، فعادوا إليه و أخبروه أنه آثار مسجد، فشاور الملك الظاهر بيبرس و عمره مسجدا بجانب الدير، و هو عامر إلى الآن، و بتّ به و هو من أحسن مشترقات مصر، و له وقف جيد و مرتب يقوم به نصارى الدير.

مسجد ابن الجباس

هذا المسجد خارج باب زويلة بالقرب من مصلّى الأموات دون باب اليانسية، عرف بالشيخ أبى عبد اللّه محمد بن علىّ بن أحمد بن محمد بن جوشن المعروف بابن الجباس بجيم و باء موحدة بعدها ألف و سين مهملة- القرشىّ العقيلىّ الفقيه الشافعىّ المقرئ، كان فاضلا صالحا زاهدا عابدا مقرئا، كتب بخطه كثيرا و سمع الحديث النبوىّ، و مولده يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة اثنتين و

ثلاثين و ستمائة بالقاهرة، و وفاته ...

مسجد ابن البناء

هذا المسجد داخل باب زويلة، و تسميه العوامّ سام بن نوح النبيّ عليه السّلام، و هو من مختلفاتهم التى لا أصل لها، و إنما يعرف بمسجد ابن البناء، و سام بن نوح لعله لم يدخل أرض مصر البتة، فإن اللّه سبحانه و تعالى لما نجّى نبيه نوحا من الطوفان خرج معه من السفينة أولاده الثلاثة، و هم سام و حام و يافث، و من هذه الثلاثة ذرأ اللّه سائر بنى آدم كما قال تعالى: وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ [الصافات/ ۷۷] فقسم نوح الأرض بين أولاده الثلاثة، فصار لسام بن نوح العراق و فارس إلى الهند ثم إلى حضر موت و عمان و البحرين و عالج و يبرين و الدوووبار و الدهناء و سائر أرض اليمن و الحجاز، و من نسله الفرس و السريانيون و العبرانيون و العرب و النبط و العماليق. و صار لحام بن نوح الجنوب مما يلى أرض مصر مغرّبا إلى المغرب الأقصى، و من نسله الحبشة و الزنج و القبط سكان مصر و أهل النوبة و الأفارقة أهل إفريقية و أجناس البربر، و صار ليافث بن نوح بحر الخرز مشرّقا إلى الصين، و من نسله الصقالبة و الفرنج و الروم و الغوط و أهل الصين و اليونانيون و الترك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۴

و قد بلغنى أن هذا المسجد كان كنيسة لليهود القرّايين تعرف بسام بن نوح، و أن الحاكم بأمر اللّه أخذ هذه الكنيسة لما هدم الكنائس و جعلها مسجدا، و تزعم اليهود القرّايون الآن بمصر أن سام بن نوح مدفون هنا، و هم إلى الآن يحلفون من أسلم منهم بهذا المسجد.

أخبرنى به قاضى اليهود إبراهيم بن فرج اللّه بن عبد الكافى الداودىّ العانانىّ، و ليس هذا بأوّل شىء اختلقته العامّة.

و ابن البناء: هذا هو محمد بن عمر بن أحمد بن جامع بن البناء أبو عبد اللّه الشافعىّ المقرئ، سمع من القاضى مجلى، و أبى عبد اللّه الكيزانىّ و غيره، و حدّث و أقرأ القرآن، و انتفع به جماعة. و هو منقطع بهذا المسجد، و كان يعرف خطه بخط بين البابين، ثم عرف بخط الأقفاليين، ثم هو الآن يعرف بخط الضبيين و باب القوس. و مات ابن البناء هذا فى العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر سنة إحدى و تسعين و خمسمائة، و اتفق لى عند هذا المسجد أمر عجيب، و هو أنى مررت من هناك يوما أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، و القاهرة يومئذ لا يمرّ الإنسان بشارعها حتى يلقى عناء من شدّة ازدحام الناس لكثرة مرورهم ركبانا و مشاة، فعند ما حاذيت أوّل هذا المسجد إذا برجل يمشى أمامى و هو يقول لرفيقه: و اللّه يا أخى ما مررت بهذا المكان قط إلّا و انقطع نعلى، فو اللّه ما فرغ من كلامه حتى وطئ شخص من كثرة الزحام على مؤخر نعله و قد مدّ رجله ليخطو فانقطع تجاه باب المسجد، فكان هذا من عجائب الأمور و غرائب الاتفاق.

مسجد الحلبيين

هذا المسجد فيما بين باب الزهومة و درب شمس الدولة، على يسرة من سلك من حمّام خشيبة طالبا البندقانيين. بنى على المكان الذى قتل فيه الخليفة الظاهر نصر بن عباس الوزير و دفنه تحت الأرض، فلما قدم طلائع بن رزيك من الأشمونين إلى القاهرة باستدعاء أهل القصر له ليأخذ بثار الخليفة، و غلب على الوزارة، استخرج الظافر من هذا الموضع و نقله إلى تربة الصر و بنى موضعه هذا المسجد و سماه المشهد، و عمل له بابين أحدهما هذا الباب الموجود، و الباب الثانى كان يتوصل منه إلى دار المأمون البطائحىّ التى هى اليوم مدرسة تعرف بالسيوفية. و قد سدّ هذا الباب، و ما برح هذا المسجد يعرف بالمشهد إلى أن انقطع فيه محمد بن أبى الفضل بن سلطان بن عمار بن تمام أبو عبد اللّه الحلبىّ الجعبرىّ المعروف بالخطيب، و كان صالحا كثير العبادة زاهدا منقطعا عن الناس، و رعا و سمع الحديث و حدّث، و كان مولده فى شهر رجب سنة أربع و عشرين و ستمائة بقلعة جعبر، و وفاته بهذا المسجد، و قد طالت إقامته فيه يوم الاثنين سادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، و دفن بمقابر باب النصر رحمه اللّه، و هذا المسجد من

أحسن مساجد القاهرة و أبهجها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۵

مسجد الكافوريّ

هذا المسجد كان فى البستان الكافوريّ من القاهرة بناه الوزير المأمون أبو عبد اللّه محمد بن فاتك البطائحيّ، فى سنة ست عشرة و خمسمائة، و تولى عمارته وكيله أبو البركات محمد بن عثمان، و كتب اسمه عليه، و هو باق إلى اليوم بخط الكافوريّ، و يعرف هناك بمسجد الخلفاء، و فيه نخل و شجر و هو مرخم برخام حسن.

مسجد رشيد

هذا المسجد خارج باب زويلة بخط تحت الربع على يسرة من سلك من دار التفاح يريد قنطرة الخرق، بناه رشيد الدين البهائيّ.

المسجد المعروف بزرع النوى

هذا المسجد خارج باب زويلة بخط سوق الطيور، على يسرة من سلك من رأس المنجبية طالبا جامع قوصون و الصليبة، و تزعم العامّة أنه بنى على قبر رجل يعرف بزرع النوى، و هو من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و هذا أيضا من افتراء العامّة الكذب، فإن الذين أفردوا أسماء الصحابة رضى اللّه عنهم كالإمام أبى عبد اللّه محمد بن إسماعيل البخاريّ فى تاريخه الكبير، و ابن أبى خيثمة، و الحافظ أبى عبد اللّه بن منذر، و الحافظ أبى نعيم الأصفهانيّ، و الحافظ أبى عمر بن عبد البرّ، و الفقيه الحافظ أبى محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم، لم يذكر أحد منهم صحابيا يعرف بزرع النوى. و قد ذكر فى أخبار القرافة من هذا الكتاب من قبر بمصر من الصحابة، و ذكر فى أخبار مدينة فسطاط مصر أيضا من دخل مصر من الصحابة، و ليس هذا منهم، و هذا إن كان هناك قبر فهو لأمين الأمناء أبى عبد اللّه الحسين بن طاهر الوزان، و كان من أمره أن الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبا عليّ منصور بن العزيز بالله خلع عليه للوساطة بينه و بين الناس، و التوقيع عن الحضرة فى شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث و أربعمائة، و كان قبل ذلك يتولى بيت المال فاستخدم فيه أخاه أبا الفتح مسعودا، و كان قد ظفر بمال يكون عشرات و صياغات و أمتعة و طرائف و فرش و غير ذلك فى عدّة آدر بمصر، و جميعه مما خلفه قائد القوّاد الحسين بن جوهر القائد، فباع المتاع و أضاف ثمنه إلى العين، فحصل منه مال كثير، و طالع الحاكم بأمر اللّه به أجمع لورثة قائد القوّاد، و لم يتعرّض منه لشىء، و كثرت صلات الحاكم و عطاؤه و توقيعاته، فانطلق فى ذلك فاتصل به عن أمين الأمناء بعض التوقف، فخرجت إليه رقعة بخطه فى الثامن و العشرين من شهر رجب سنة ثلاث و أربعمائة نسختها، بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمد للّه كما هو أهله:

أصبحت لا أرجو و لا أتقىإلّا إلهى و له الفضل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۶ جدّى نبيّ و إمامى أبىو دينى الإخلاص و العدل

ما عندكم ينفد و ما عند اللّه باق، المال مال اللّه عز و جلّ، و الخلق عيال اللّه، و نحن أمناؤه فى الأرض، أطلق أزراق الناس و لا تقطعها و السلام. و لم يزل على ذلك إلى أن بطل أمره فى جمادى الآخرة من سنة خمس و أربعمائة، و ذلك أنه ركب مع الحاكم على عادته، فلما حصل بحارة كتامة خارج القاهرة ضرب رقبته هناك و دفن فى هذا الموضع تخمينا، و استحضر الحاكم جماعة الكتّاب بعد قتله و سأل رؤساء الدواوين عما يتولاه كل واحد منهم، و أمرهم بلزوم دواوينهم و توفرهم على الخدمة، و كانت مدّة نظر ابن الوزان فى الوساطة و التوقيع عن الحضرة، و هى رتبة الوزارة، سنتين و شهرين و عشرين يوما، و كان توقيعه عن الحضرة الإمامية الحمد للّه و عليه توكلى.

مسجد الذخيرة

هذا المسجد تحت قلعة الجبل بأوّل الرميلة تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاون التى تلى بابها الكبير الذى سدّه الملك الظاهر برقوق، أنشأه ذخيرة الملك جعفر متولى الشرطة. قال ابن المأمون فى تاريخه: فى هذه السنة، يعنى سنة ست عشرة و خمسمائة، استخدم ذخيرة الملك جعفر فى ولاية القاهرة و الحسبة بسجل أنشأه ابن الصيرفىّ، و جرى من عسفه و ظلمه ما هو مشهور، و بنى المسجد الذى ما بين الباب الجديد إلى الجبل الذى هو به معروف، و سمّى مسجد لا بالله، بحكم أنه كان يقبض الناس من الطريق و يعسفهم، فيحلفونه و يقولون له لا بالله، فيقيدهم و يستعملهم فيه بغير أجرة، و لم يعمل فيه منذ أنشأه إلّا صانع مكره، أو فاعل مقيد، و كتبت عليه هذه الأبيات المشهورة:

بنى مسجدا للّه من غير حلهو كانّ بحمد اللّه غير موفق

كمطعمة الأيتام من كدّ فرجهالك الويل لا تزنى و لا تتصدّقى

و كان قد أبدع فى عذاب الجناة و أهل الفساد، و خرج عن حكم الكتّاب فابتلى بالأمراض الخارجة عن المعتاد، و مات بعد ما عجل اللّه له ما قدّمه، و تجنب الناس تشييعه و الصلاة عليه، و ذكر عنه فى حالتى غسله و حلوله بقبره ما يعيذ اللّه كلّ مسلم من مثله. و قال ابن عبد الظاهر: مسجد الذخيرة تحت قلعة الجبل، و ذكر ما تقدّم عن ابن المأمون.

مسجد رسلان

هذا المسجد بحارة اليانسية، عرف بالشيخ الصالح رسلان لإقامته به، و قد حكيت عنه كرامات، و مات به فى سنة إحدى و تسعين و خمسمائة، و كان يتقوّت من أجرة خياطته للثياب، و ابنه عبد الرحمن بن محمد بن رسلان أبو القاسم كان فقيها محدّثا مقرئا، مات فى سنة سبع و عشرين و ستمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۷

مسجد ابن الشيخىّ

هذا المسجد بخط الكافورىّ مما يلى باب القنطرة وجهة الخليج مجاور لدار ابن الشيخى، أنشأه المهتار ناصر الدين محمد بن علاء الدين علىّ الشيخىّ مهتار السلطان بالإصطبلات السلطانية، و قرّر فيه شيخنا تقىّ الدين محمد بن حاتم، فكان يعمل فيه ميعادا يجتمع الناس فيه لسماع وعظه، و كان ابن الشيخى هذا حشما فخورا خيّرا يحب أهل العلم و الصلاح، و يكرمهم. و لم نر بعده فى رتبته مثله، و مات ليلة الثلاثاء أوّل يوم من شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة.

مسجد يانس

هذا المسجد كان تجاه باب سعادة خارج القاهرة. قال ابن المأمون فى تاريخه: و كان الأجلّ المأمون يعنى الوزير محمد بن فاتك البطائحىّ، قد ضم إليه عدّة من مماليك الأفضل بن أمير الجيوش، من جملتهم يانس، و جعله مقدّما على صبيان جلسه، و سلّم إليه بيت ماله، و ميزه فى رسومه. فلما رأى المذكور فى ليلة النصف من شهر رجب، يعنى سنة ست عشرة و خمسمائة، ما عمل فى المسجد المستجدّ قبالة باب الخوخة من الهمة و وفور الصدقات و ملازمة الصلوات، و ما حصل فيه من المثوبات، كتب رقعة يسأل فيها أن يفسح له فى بناء مسجد بظاهر باب سعادة، فلم يجبه المأمون إلى ذلك و قال له: ما ثم مانع من عمارة المساجد، و أرض اللّه واسعة، و إنما هذا الساحل فيه معونة للمسلمين و موردة للسقائين، و هو مرسى مراكب الغلة، و المضرّة فى مضايقة المسلمين فيه منه، و لو لم

يكن المسجد المستجدّ قبالة باب الخوخة محرسا لما استجدّ، حتى إنّا لم نخرج بساحته الأولى، فإن أردت أن تبنى قبليّ مسجد الريفى أو على شاطىء الخليج فالطريق ثم سهلة. فقبّل الأرض و امتثل الأمر، فلما قبض على المأمون و أمّر الخليفة يانس المذكور و لم يزل ينقله إلى أن استخدمه فى حجبة بابه، سأله فى مثل ذلك فلم يجبه، إلى أن أخذ الوزارة فبناه فى المكان المذكور. و كانت مدّته يسيرة، فتوفى قبل إتمامه و إكماله، فكمله أولاده بعد وفاته.

انتهى. و قد تقدّم خبر وزارة أبى الفتح ناظر الجيوش يانس الأرمنىّ هذا عند ذكر الحارة اليانسية من هذا الكتاب.

مسجد باب الخوخة

هذا المسجد تجاه باب الخوخة بجوار مدرسة أبى غالب. قال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة ست عشرة و خمسمائة: و لما سكن المأمون الأجلّ دار الذهب و ما معها، يعنى فى أيام النيل للنزهة عند سكن الخليفة الآمر بأحكام اللّه بقصر اللؤلؤة المطل على الخليج، رأى قبالة باب الخوخة محرسا، فاستدعى وكيله و أمره بأن يزيل المحرس المذكور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۸

و يبنى موضعه مسجدا، و كان الصناع يعملون فيه ليلا و نهارا، حتى أنه تفطر بعد ذلك و احتيج إلى تجديده.

المسجد المعروف بمعبد موسى

هذا المسجد بخط الركن المخلق من القاهرة تجاه باب الجامع الأقمر المجاور لحوض السبيل، و على يمنة من سلك من بين القصرين طالبا حبة باب العيد. أوّل من اختطه القائد جوهر عندما وضع القاهرة. قال ابن عبد الظاهر: و لما بنى القائد جوهر القصر دخل فيه دير العظام، و هو المكان المعروف الآن بالركن المخلق، قبالة حوض الجامع الأقمر، و قريب دير العظام، و المصريون يقولون بئر العظمة، فكره أن يكون فى القصر دير فنقل العظام التى كانت به و الرّمم إلى دير بناه فى الخندق، لأنه كان يقال إنها كانت عظام جماعة من الحواريين، و بنى مكانها مسجدا من داخل السور، يعنى سور القصر. و قال جامع سيرة الظاهر بيبرس: و فى ذى الحجة سنة ستين و ستمائة ظهر بالمسجد الذى بالركن المخلق من القاهرة حجر مكتوب عليه. هذا معبد موسى بن عمران عليه السلام، فجدّدت عمارته و صار يعرف بمعبد موسى من حينئذ، و وقف عليه ربع بجانبه، و هو باق إلى وقتنا هذا.

مسجد نجم الدين

هذا المسجد ظاهر باب النصر، أنشأه الملك الأفضل نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شادى يعقوب بن مروان الكردىّ، والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و جعل إلى جانبه حوض ماء للسبيل ترده الدواب فى سنة ست و ستين و خمسمائة، و نجم الدين هذا قدم هو و أخوه أسد الدين شيركوه من بلاد الأكراد إلى بغداد، و خدم بها و ترقى فى الخدم حتى صار دزدارا بقلعة تكريت و معه أخوه، ثم إنه انتقل عنها إلى خدمة الملك المنصور عماد الدين أتابك زنكى بالموصل، فخدمه حتى مات، فتعلق بخدمة ابنه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى فرقّاه و أعطاه بعلبك، و حج من دمشق سنة خمس و خمسمائة، فلما قدم ابنه صلاح الدين يوسف بن أيوب معه عمه أسد الدين شيركوه من عند نور الدين محمود إلى القاهرة، و صار إلى وزارة العاضد بعد موت شيركوه، قدم عليه أبوه نجم الدين فى جمادى الآخرة سنة خمس و ستين و خمسمائة، و خرج العاضد إلى لقائه و أنزله بمناظر اللؤلؤة، فلما استبدّ صلاح الدين بسلطنة مصر بعد موت الخليفة العاضد أقطع أباه نجم الدين الإسكندرية البحيرة إلى أن مات بالقاهرة، فى يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى الحجة، سنة ثمان و ستين و خمسمائة، و قيل فى ثامن عشرة من سقطة عن ظهر فرسه خارج باب النصر، فحمل إلى داره فمات بعد أيام، و كان خيّرا جوادا متدينا محبا لأهل العلم و الخير، و ما مات حتى رأى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۹

من أولاده عدّة ملوك، و صار يقال له أبو الملوك، و مدحه العماد الأصبهانيّ بعدّة قصائد، و رثاه الفقيه عمارة بقصيدته التى أوّلها:

هى الصدمة الأولى فمن بان صبرهعلى هول ملقاه تعاظم أمره

مسجد صواب

هذا المسجد خارج القاهرة بخط الصليبة، عرف بالطواشى شمس الدين صواب مقدّم المماليك السلطانية، و مات فى ثامن رجب سنة اثنتين و أربعين و ستمائة، و دفن به و كان خيرا دينا فيه صلاح.

المسجد بجوار المشهد الحسينيّ

هذا المسجد أنهيّ فى مستهل شهر رجب سنة اثنتين و ستين و ستمائة، للملك الظاهر ركن الدين بيبرس، و هو بدار العدل، أن مسجدا على باب مشهد السيد الحسين عليه السلام، و إلى جانبه مكان من حقوق القصر بيع و حمل ثمنه للديوان، و هو ستة آلاف درهم، فسأل السلطان عن صورة المسجد و هذا الموضع، و هل كل منهما بمفرده أو عليهما حائط دائر، فقيل له إن بينهما زرب قصب، فأمر بردّ المبلغ و أبقى الجميع مسجدا، و أمر بعمارة ذلك مسجدا للّه تعالى.

مسجد الفجل

هذا المسجد بخط بين القصرين تجاه بيت البيسرىّ، أصله من مساجد الخلفاء الفاطميين، أنشأه على ما هو عليه الآن الأمير بشتاك أخذ قصر أمير سلاح، و دار أقطوان الساقى، و أحد عشر مسجدا، و أربعة معابد كانت من عمارة الخلفاء و أدخلها فى عمارته التى تعرف اليوم بقصر بشتاك، و لم يترك من المساجد و المعابد سوى هذا المسجد فقط، و يجلس فيه بعض نوّاب القضاة المالكية للحكم بين الناس، و تسميه العامّة مسجد الفجل، و تزعم أن النيل الأعظم كان يمرّ بهذا المكان، و أن الفجل كان يغسل موضع هذا المسجد فعرف بذلك، و هذا القول كذب لا أصل له، و قد تقدّم فى هذا الكتاب ما كان عليه موضع القاهرة قبل بنائها، و ما علمت أن النيل كان يمرّ هناك أبدا، و بلغنى أنه عرف بمسجد الفجل من أجل أن الذى كان يقوم به كان يعرف بالفجل، و اللّه أعلم.

مسجد تبر

هذا المسجد خارج القاهرة مما يلى الخندق، عرف قديما بالبئر، و الجميزة، و عرف بمسجد تبر، و تسميه العامّة مسجد التبن و هو خطأ، و موضعه خارج القاهرة قريبا من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۰

المطرية. قال القضاعيّ: مسجد تبر بنى على رأس إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، أنفذه المنصور فسرقه أهل مصر و دفنوه هناك، و ذلك فى سنة خمس و أربعين و مائة، و يعرف بمسجد البئر و الجميزة. و قال الكندىّ فى كتاب الأمراء: ثم قدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب فى ذى الحجة سنة خمس و أربعين و مائة، لينصبوه فى المسجد الجامع، و قامت الخطباء فذكروا أمره.

و تبر هذا أحد الأمراء الأكابر فى أيام الأستاذ كافور الإخشيدىّ، فلما قدم جوهر القائد من المغرب بالعساكر ثار تبر الإخشيدىّ هذا فى جماعة من الكافورية و الإخشيدية و حاربه، فانهزم بمن معه إلى أسفل الأرض، فبعث جوهر يستعطفه فلم يجب و أقام على الخلاف، فسير إليه عسكرا حاربه بناحية صهرجت فانكسر و صار إلى مدينة صور التى كانت على الساحل فى البحر، فقبض عليه بها و أدخل

إلى القاهرة على فيل، فسجن إلى صفر سنة ستين و ثلاثمائة، فاشتدّت المطالبة عليه، و ضرب بالسياط و قبضت أمواله، و حبس عدّة من أصحابه بالمطبق فى القيود إلى ربيع الآخر منها، فجرح نفسه و أقام أياما مريضا و مات، فسلخ بعد موته و صلب عند كرسى الجبل. و قال ابن عبد الظاهر أنه حشى جلدة تبنا و صلب، فربما سمت العامّة مسجده بذلك لما ذكرناه، و قيل أن تبرا هذا خادم الدولة المصرية، و قبره بالمسجد المذكور. قال مؤلفه: هذا وهم و إنما هو تبر الإخشيدىّ.

مسجد القطبية

هذا المسجد كان حيث المدرسة المنصورية بين القصرين و اللّه أعلم.

ذكر الخوانك

اشارة

الخوانك جمع خانكاه، و هى كلمة فارسية معناها بيت، و قيل أصلها خونقاه، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك. و الخوانك حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة، و جعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة اللّه تعالى. قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرىّ رحمه اللّه: اعلموا أن المسلمين بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لم يتسمّ أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم الصحابة، و لما أدرك أهل العصر الثانى، سمّى من صحب الصحابة التابعين، و رأوا ذلك أشرف سمة. ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس و تباينت المراتب، فقيل لخواص خواص الناس ممن لهم شدّة عناية بأمر الدين الزهّاد و العبّاد، ثم ظهرت البدع و حصل التداعى بين الفرق، فكلّ فريق ادّعوا أنّ فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع اللّه الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوّف، و اشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۱

قال: و هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال رجل صوفىّ، و للجماعة الصوفية، و من يتوصل إلى ذلك يقال له متصوّف، و للجماعة المتصوّفة، و ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس و لا اشتقاق، و او ظهر فيه أنه كاللّقب، فأمّا قول من قال أنه من الصوف، و تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص، فذلك وجه، و لكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف. و من قال: إنهم ينسبون إلى صفة مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفىّ. و من قال إنه من الصفاء، فاشتقاق الصوفىّ من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة، و قول من قال أنه مشتق من الصف، فكأنهم فى الصف الأوّل بقلوبهم من حيث المحاضرة مع اللّه تعالى، فالمعنى صحيح، لكنّ اللغة لا تقتضى هذه النسبة من الصف، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ و استحقاق اشتقاق، و اللّه أعلم. و قال الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردىّ رحمه اللّه: و الصوفىّ يضع الأشياء فى مواضعها، و يدبر الأوقات و الأحوال كلها بالعلم، يقيم الخلق مقامهم، و يقيم أمر الحق مقامه، و يستر ما ينبغى أن يستر، و يظهر ما ينبغى أن يظهر، و يأتى بالأمور من مواضعها بحضور عقل و صحة توحيد و كمال معرفة و رعاية صدق و إخلاص، فقوم من المفتونين لبسوا ألبسة الصوفية لينسبوا إليهم و ما هم منهم بشىء، بل هم فى غرور و غلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيا تارة و دعوة أخرى، و ينتهجون مناهج أهل الإباحة و يزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى اللّه تعالى، و أن هذا هو الظفر بالمراد و الارتسام بمراسم الشريعة، رتبة العوام و القاصرين الإفهام، و هذا هو عين الإلحاد و الزندقة و الإبعاد، و للّه در القائل:

تنازع الناس فى الصوفىّ و اختلفوافيه و ظنوه مشتقا من الصوف

و لست انحل هذا الاسم غير فتى‌صافى و صوفى حتى سمّى الصوفى

قال مؤلفه: ذهب و اللّه ما هنالك و صارت الصوفية. كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى:

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليوم سوى ستة بغير زياده

و هى نيك العلوق و السكر و السطلة و الرقص و الغنا و القياده

و إذا ما هذى و أبدى اتحاداو حلولا من جهله أو إعاده

و أتى المنكرات عقلا و شرعافهو شيخ الشيوخ ذو السجّاده

ثم تلاشى الآن حال الصوفية و مشايخها حتى صاروا من سقط المتاع، لا ينسبون إلى علم و لا ديانة، و إلى اللّه المشتكى. و أوّل من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۲

و ذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرّغوا للعبادة و ليس لهم تجارات و لا غلات، فبنى لهم دورا و أسكنهم فيها و جعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم و مشرب و ملبس و غيره، فجاء يوما ليزورهم فسأل عنهم فإذا عبد اللّه بن عامر عامل البصرة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه قد دعاهم. فأتاه فقال له: يا ابن عامر ما تريد من هؤلاء القوم؟ قال: أريد أن أقرّبهم فيشفعوا فأشفعهم، و يسألوا فأعطيهم، و يشيروا علىّ فأقبل منهم. فقال: لا و لا كرامة، فتأتى إلى قوم قد انقطعوا إلى اللّه تعالى فتدنسهم بدنياك و تشركهم فى أمرك، حتى إذا ذهبت أديانهم أعرضت عنهم فطاحوا لا- إلى الدنيا و لا إلى الآخرة، قوموا فارجعوا إلى مواضعكم. فقاموا، فأمسك ابن عامر فما نطق بلفظة. ذكره أبو نعيم.

الخانكاه الصلاحية، دار سعيد السعداء، دويرة الصوفية

هذه الخانكاه بخط رحبة باب العيد من القاهرة، كانت أوّلا دارا تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء، و هو الأستاذ قنبر، و يقال عنبر. و ذكر ابن ميسر أن اسمه بيان، و لقبه سعيد السعداء، أحد الأستاذين المحنكين خدّام القصر، عتيق الخليفة المستنصر، قتل فى سابع شعبان سنة أربع و أربعين و خمسمائة، و رمى برأسه من القصر، ثم صلبت جثته بباب زويلة من ناحية الخرق، و كانت هذه الدار مقابل دار الوزارة. فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها و فتح من دار الوزارة إليها سردابا تحت الأرض ليمرّ فيه، ثم سكنها الوزير شاور بن مجير فى أيام وزارته، ثم ابنه الكامل. فلما استبدّ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد، و غير رسوم الدولة الفاطمية، و وضع من قصر الخلافة، و أسكن فيه أمراء دولته الأكراد، عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، و وقفها عليهم فى سنة تسع و ستين و خمسمائة، و ولى عليهم شيخا، و وقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة، و قيسارية الشراب بالقاهرة، و ناحية دهمر، و من البهنساوية، و شرط أنّ من مات من الصوفية و ترك عشرين دينارا فما دونها كانت للفقراء، و لا يتعرّض لها الديوان السلطانىّ، و من أراد منهم السفر يعطى تسفيره، و رتّب للصوفية فى كلّ يوم طعاما و لحما و خبزا، و بنى لهم حمّاما بجوارهم، فكانت أوّل خانكاه عملت بديار مصر. و عرفت بدويرة الصوفية، و نعت شيخها بشيخ الشيوخ، و استمرّ ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث و المحن منذ سنة ست و ثمانمائة، و اتضعت الأحوال و تلاشت الرتب، فلقب كل شيخ خانكاه بشيخ الشيوخ، و كان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم و الصلاح و ترجى بركتهم، و ولى مشيختها الأكابر و الأعيان كأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه، مع ما كان لهم من الوزارة و الإمارة و تدبير الدولة و قيادة الجيوش و تقدمة العساكر. و وليها ذو الرياستين الوزير الصاحب قاضى القضاة تقىّ الدين عبد الرحمن بن ذى الرياستين الوزير الصاحب قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۳

الأعز، و جماعة من الأعيان، و نزل بها الأكابر من الصوفية.

و أخبرنى الشيخ أحمد بن علىّ القصار رحمه اللّه: أنه أدرك الناس فى يوم الجمعة يأتون من مصر إلى القاهرة ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء عند ما يتوجهون منها إلى صلاة الجمعة بالجامع الحاكمىّ، كى تحصل لهم البركة و الخير بمشاهدتهم، و كان لهم فى يوم الجمعة هيئة فاضلة، و ذلك أنه يخرج شيخ الخانقاه منها و بين يديه خدّام الربعة الشريفة قد حملت على رأس أكبرهم، و الصوفية مشاة بسكون و خفر إلى باب الجامع الحاكمىّ الذى يلى المنبر، فيدخلون إلى مقصورة كانت هناك على يسرة الداخل من الباب المذكور تعرف بمقصورة البسملة، فإنه بها إلى اليوم بسملة قد كتبت بحروف كبار، فيصلى الشيخ تحية المسجد تحت سحابة منصوبة له دائما، و تصلى الجماعة، ثم يجلسون و تفرّق عليهم أجزاء الربعة فيقرؤون القرآن حتى يؤذن المؤذنون، فتؤخذ الأجزاء منهم و يشتغلون بالتركع و استماع الخطبة، و هم منصتون خاشعون، فإذا قضيت الصلاة و الدعاء بعدها قام قارىء من قرّأ الخانقاه و رفع صوته بقراءة ما تيسر من القرآن، و دعا للسلطان صلاح الدين، و لواقف الجامع و لسائر المسلمين، فإذا فرغ قام الشيخ من مصلاه و سار من الجامع إلى الخانقاه و الصوفية معه كما كان توجههم إلى الجامع، فيكون هذا من أجمل عوايد القاهرة، و ما برح الأمر على ذلك إلى أن ولى الأمير يلبغا السالمىّ نظر الخانقاه المذكورة فى يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة سنة سبع و تسعين و سبعمائة، فنزل إليها و أخرج كتاب الوقف، و أراد العمل بما فيه من شرط الواقف، فقطع من الصوفية المنزلين بها عشرات ممن له منصب و من هو مشهور بالمال، و زاد الفقراء المجرّدين و هم المقيمون بها فى كلّ يوم رغيفا من الخبز، فصار لكلّ مجرّد أربعة أرغفة بعد ما كانت ثلاثة، و رتب بالخانقاه وظيفتى ذكر بعد صلاة العشاء الآخرة و بعد صلاة الصبح، فكثر النكير على السالمىّ ممن أخرجهم، و زاد الإشلاء.

فقال بعض أدباء العصر فى ذلك:

يا أهل خانقة الصلاح أراكمما بين شاك للزمان و شاتم

يكفيكم ما قد أكلتم باطلامن وقفها و خرجتم بالسّالم

و كان سبب ولاية السالمىّ نظر الخانقاه المذكورة، أن العادة كانت قديما أنّ الشيخ هو الذى يتحدّث فى نظرها، فلما كانت أيام الظاهر برقوق ولى مشيختها شخص يعرف بالشيخ محمد البلالىّ قدم من البلاد الشامية، و صار للأمير سودون الشيخونىّ نائب السلطنة بديار مصر فيه اعتقاد، فلما سعى له فى المشيخة و استقرّ فيها بتعيينه، سأله أن يتحدّث فى النظر إعانة له، فتحدّث، و كانت عدّة الصوفية بها نحو الثلاثمائة رجل، لكلّ منهم فى اليوم ثلاثة أرغفة زنتها ثلاثة أرطال خبز، و قطعة لحم زنتها ثلث رطل فى مرق، و يعمل لهم الحلوى فى كلّ شهر، و يفرّق فيهم الصابون، و يعطى كلّ منهم فى السنة عن ثمن كسوة قدر أربعين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۴

درهما، فنزّل الأمير سودون عندهم جماعة كثيرة عجز ريع الوقف عن القيام لهم بجميع ما ذكر، فقطعت الحلوى و الصابون و الكسوة، ثم إن ناحية دهمر و شرقّت فى سنة تسع و تسعين لقصور ماء النيل، فوقع العزم على غلق مطبخ الخانقاه و إبطال الطعام، فلم تحتمل الصوفية ذلك و تكرّرت شكواهم للملك الظاهر برقوق، فولّى الأمير يلبغا السالمىّ النظر، و أمره أن يعمل بشرط الواقف.

فلما نزل إلى الخانقاه و تحدّث فيها، اجتمع بشيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينىّ و أوقفه على كتاب الوقف، فأفتاه بالعمل بشرط الواقف، و هو أن الخانقاه تكون وقفا على الطائفة الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة و القاطنين بالقاهرة و مصر، فإن لم يوجدوا كانت على الفقراء من الفقهاء الشافعية و المالكية الأشعرية الاعتقاد، ثم إنه جمع القضاة و شيخ الإسلام و سائر صوفية الخانقاه بها و قرأ عليهم كتاب الوقف، و سأل القضاة عن حكم اللّه فيه، فانتدب للكلام رجلان من الصوفية، هما زين الدين أبو بكر القمنىّ، و شهاب الدين أحمد العبادىّ الحنفىّ، و ارتفعت الأصوات و كثر اللغط، فأشار القضاة على السالمىّ أن يعمل بشرط الواقف و انصرفوا، فقطع منهم نحو الستين رجلا منهم المذكوران، فامتعض العبادىّ و غضب من ذلك و شنّع بأنّ السالمىّ قد كفر، و بسط

لسانه بالقول فيه، و بدت منه سماجات فقبض عليه السالميّ و هو ماش بالقاهرة، فاجتمع عدّة من الأعيان و فرّقوا بينهما، فبلغ ذلك السلطان فأحضر القضاة و الفقهاء و طلب العبادىّ فى يوم الخميس ثامن شهر رجب و ادّعى عليه السالميّ، فاقتضى الحال تعزيره، فعزر و كشف رأسه و أخرج من القلعة ماشيا بين يدى القضاة و والى القاهرة إلى باب زويلة، فسجن بحبس الديلم، ثم نقل منه إلى حبس الرحبة، فلما كان يوم السبت حادى عشرة، استدعى إلى دار قاضى القضاة جمال الدين محمود القيصرىّ الحنفىّ، و ضرب بحضرة الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ والى القاهرة نحو الأربعين ضربة بالعصا تحت رجليه، ثم أعيد إلى الحبس، و أفرج عنه فى ثامن عشرة بشفاعة شيخ الإسلام فيه، و لما جدّد الأمير يلبغا السالميّ الجامع الأقمر، و عمل له منبرا و أقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و ثمانمائة، الزم الشيخ بالخانقاه و الصوفية أن يصلوا الجمعة به، فصاروا يصلّون الجمعة فيه إلى أن زالت أيام السالميّ، فتركوا الاجتماع بالجامع الأقمر، و لم يعودوا إلى ما كانوا عليه من الاجتماع بالجامع الحاكميّ، و نسى ذلك. و لم يكن بهذه الخانقاه مئذنة، و الذى بنى هذه المئذنة شيخ ولى مشيختها فى سنة بضع و ثمانين و سبعمائة، يعرف بشهاب الدين أحمد الأنصارىّ، و كان الناس يمرّون فى صحن الخانقاه بنعالهم، فجدّد شخص من الصوفية بها يعرف بشهاب الدين أحمد العثمانىّ هذا الدرابزين و غرس فيه هذه الأشجار، و جعل عليها وقفا لمن يتعاهدها بالخدمة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۵

خانقاه ركن الدين بيبرس

هذه الخانقاه من جملة دار الوزارة الكبرى التى تقدّم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب، و هى أجلّ خانقاه بالقاهرة بنيانا، و أوسعها مقدارا و أتقنها صنعة، بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورىّ قبل أن يلى السلطنة، و هو أمير. فبدأ فى بنائها فى سنة ست و سبعمائة، و بنى بجانبها رباطا كبيرا يتوصل إليه من داخلها، و جعل بجانب الخانقاه قبة بها قبره، و لهذه القبة شبابيك تشرف على الشارع المسلوك فيه من رحبة باب العيد إلى باب النصر، من جملتها الشباك الكبير الذى حمله الأمير أبو الحارث البساسيرىّ من بغداد، لما غلب الخليفة القائم العباسىّ و أرسل بعمامته و شباكه الذى كان بدار الخلافة فى بغداد، و تجلس الخلفاء فيه، و هو هذا الشباك كما ذكر فى أخبار دار الوزارة من هذا الكتاب. فلما ورد هذا الشباك من بغداد عمل بدار الوزارة و استمر فيها إلى أن عمر الأمير بيبرس الخانقاه المذكورة فجعل هذا الشباك بقبة الخانقاه، و هو بها إلى يومنا هذا، و إنه لشباك جليل القدر. حشم يكاد يتبين عليه أبهة الخلافة. و لما شرع فى بنائها رفق بالناس و لا طفهم و لم يعسف فيها أحدا فى بنائها و لا أكره صانعا و لا غصب من آلاتها شيئا، و إنما اشترى دار الأمير عز الدين الأفرم التى كانت بمدينة مصر، و اشترى دار الوزير هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، و أخذ ما كان فيهما من الأنقاض، و اشترى أيضا دار الأنماط التى كانت برأس حارة الجودرية من القاهرة و نقضها و ما حولها، و اشترى أملاكا كانت قد بنيت فى أرض دار الوزارة من ملاكها بغير إكراه و هدمها، فكان قياس أرض الخانقاه و الرباط و القبة نحو فدّان و ثلث.

و عندما شرع فى بنائها حضر إليه الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير بكتاش الفخرىّ أمير سلاح، و أراد التقرّب لخاطره، و عرّفه أن بالقصر الذى فيه سكن أبيه مغارة تحت الأرض كبيرة يذكر أنّ فيها ذخيرة من ذخائر الخلفاء الفاطميين، و أنهم لما فتحوها لم يجدوا بها سوى رخام كثير فسدّوها و لم يتعرّضوا لشىء مما فيها، فسرّ بذلك و بعث عدّة من الأمراء فتحوا المكان فإذا فيه رخام جليل القدر عظيم الهيئة، فيه ما لا يوجد مثله لعظمه، فنقله من المغارة و رخم منه الخانقاه و القبة و داره التى بالقرب من البندقانيين و حارة زويلة، و فضل منه شىء كثير عهدى أنه مختزن بالخانقاه، و أظنه أنه باق هناك. و لما كملت فى سنة تسع و سبعمائة، قرّر بالخانقاه أربعمائة صوفىّ، و بالرباط مائة من الجند و أبناء الناس الذين قعد بهم الوقت، و جعل بها مطبخا يفرّق على كلّ منهم فى كلّ يوم اللحم و الطعام و ثلاثة أرغفة من خبز البرّ، و جعل لهم الحلوى، و رتب بالقبة درسا للحديث النبوىّ له مدرّس، و عنده عدّة من المحدّثين، و

رتب القرّاء بالشباك الكبير يتناوبون القراءة فيه ليلا و نهارا، و وقف عليها عدّة ضياع بدمشق و حماه و منية المخلص

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۶

بالجيزة من أرض مصر و بالصعيد و الوجه البحرىّ و الربع و القيسارية بالقاهرة.

فلما خلع من السلطنة و قبض عليه الملك الناصر محمد بن قلاون و قتله، أمر بغلقها فغلقت، و أخذ سائر ما كان موقوفا عليها و محا اسمه من الطراز الذى بظاهرها فوق الشبابيك، و أقامت نحو عشرين سنة معطلة، ثم إنه أمر بفتحها فى أوّل سنة ست و عشرين و سبعمائة، ففتحت، و أعاد إليها ما كان موقوفا عليها، و استمرّت إلى أن شرقت أراضى مصر لقصور مدّ النيل أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، فبطل طعامها و تعطل مطبخها، و استمرّ الخبز و مبلغ سبعة دراهم لكلّ واحد فى الشهر بدل الطعام، ثم صار لكلّ واحد منهم فى الشهر عشرة دراهم، فلما قصر مدّ النيل فى سنة ست و تسعين و سبعمائة، بطل الخبز أيضا و غلق المخبز من الخانقاه، و صار الصوفية يأخذون فى كلّ شهر مبلغا من الفلوس معاملة القاهرة، و هم على ذلك إلى اليوم. و قد أدركتها و لا- يمكّن بوّابها غير أهلها من العبور إليها و الصلاة فيها لما لها فى النفوس من المهابة، و يمنع الناس من دخولها حتى الفقهاء و الأجناد، و كان لا ينزل بها أمرد، و فيها جماعة من أهل العلم و الخير، و قد ذهب ما هنالك فنزل بها اليوم عدّة من الصغار و من الأساكفة و غيرهم من العامّة، إلّا أن أوقافها عامرة و أرزاقها دارّة بحسب نقود مصر، و من حسن بناء هذه الخانقاه أنه لم يحتج فيها إلى مرمّة منذ بنيت إلى وقتنا هذا، و هى مبنية بالحجر و كلها عقود محكمة بدل السقوف الخشب، و قد سمعت غير واحد يقول إنه لم تبن خانقاه أحسن من بنائها.

الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورىّ: اشتراه الملك المنصور قلاون صغيرا و رقاه فى الخدم السلطانية إلى أن جعله أحد الأمراء، و أقامه جاشنكير و عرف بالشجاعة. فلما مات الملك المنصور خدم ابنه الملك الأشرف خليلا إلى أن قتله الأمير بيدرا بناحية تروجة، فكان أوّل من ركب على بيدرا فى طلب ثار الملك الأشرف، و كان مهابا بين خشداشيته فركبوا معه، و كان من نصرتهم على بيدرا و قتله ما قد ذكر فى موضعه، فاشتهر ذكره و صار أستادار السلطان فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون فى سلطنته الثانية، رفيقا للأمير سلار نائب السلطنة، و به قويت الطائفة البرجية من المماليك و اشتدّ بأسهم، و صار الملك الناصر تحت حجر بيبرس و سلار إلى أن أنف من ذلك و سار إلى الكرك، فأقيم بيبرس فى السلطنة يوم السبت ثالث عشرى شوّال سنة ثمان و سبعمائة، فاستضعف جانبه و انحط قدره و نقصت مهابته، و تغلب عليه الأمراء و المماليك، و اضطربت أمور المملكة لمكان الأمير سلار و كثرة حاشيته و ميل القلوب إلى الملك الناصر، و فى أيامه عمل الجسر من قليوب إلى مدينة دمياط و هو مسيرة يومين طولا فى عرض أربع قصبات من أعلاه، و ست قصبات من أسفله، حتى أنه كان يسير عليه ستة من الفرسان معا بحذاء بعضهم، و أبطل سائر الخمارات من السواحل و غيرها من بلاد الشام، و سامح بما كان من المقرّر عليها للسلطان، و عوّض الأجناد بدله، و كبست أماكن الريب و الفواحش بالقاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۷

و مصر، و أريقت الخمور و ضرب أناس كثير فى ذلك بالمقارع، و تتبع أماكن الفساد و بالغ فى إزالته، و لم يراع فى ذلك أحدا من الكتاب و لا- من الأمراء، فخف المنكر و خفى الفساد، إلا- أن اللّه أراد زوال دولته، فسوّلت له نفسه أن بعث إلى الملك الناصر بالكرك يطلب منه ما خرج به معه من الخيل و المماليك، و حمل الرسول إليه بذلك مشافهة أغلظ عليه فيها، فحنق من ذلك و كاتب نوّاب الشام و أمراء مصر فى السرّ يشكو ما حلّ به، و ترفق بهم و تلطف بهم فرقوا له و امتعضوا لما به، و نزل الناصر من الكرك و برز عنها، فاضطرب الأمر بمصر و اختلّ الحال من بيبرس و أخذ العسكر يسير من مصر إلى الناصر شيئا بعد شىء، و سار الناصر من ظاهر الكرك يريد دمشق فى غرّة شعبان سنة تسع و سبعمائة، فعندما نزل الكسوة خرج الأمراء و عامّة أهل دمشق إلى لقائه، و معهم شعار السلطنة، و دخلوا به إلى المدينة و قد فرحوا به فرحا كثيرا، فى ثانى عشر شعبان، و نزل بالقلعة و كاتب النوّاب فقدموا عليه و

صارت ممالك الشام كلها تحت طاعته يخطب له بها و يجبى إليه مالها، ثم خرج من دمشق بالعساكر يريد مصر، و أمر بيبرس كلّ يوم فى نقص إلى أن كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان، فترك بيبرس المملكة و نزل من قلعة الجبل و معه خواصه إلى جهة باب الفراقة، و العامّة تصيح عليه و تسبه و ترجمه بالحجارة، عصبية للملك الناصر و حبا له، حتّى سار عن القرافة، و دعا الحرس بالقلعة فى يوم الأربعاء للملك الناصر، فكانت مدّة سلطنة بيبرس عشرة أشهر و أربعة و عشرين يوما، و قدم الملك الناصر إلى قلعة الجبل أوّل يوم من شوّال، و جلس على تخت المملكة و استولى على السلطنة مرّة ثالثة، و نزل بيبرس بأطفيح ثم سار منها إلى أخميم، فلما صار بها تفرّق عنه من كان معه من الأمراء و المماليك فصاروا إلى الملك الناصر، فتوجه فى نفر يسير على طريق السويس يريد بلاد الشام فقبض عليه شرقىّ غزة و حمل مقيدا إلى الملك الناصر، فوصل قلعة الجبل يوم الأربعاء ثالث عشر ذى القعدة، و أوقف بين يدى السلطان و قبّل الأرض، فعنفه و عدّد عليه ذنوبا و وبخه، ثم أمر به فسجن فى موضع إلى ليلة الجمعة خامس عشرة، و فيها لحق بربه تعالى، فحمل إلى القرافة و دفن فى تربة الفارس أقطاى، ثم نقل منها بعد مدّة إلى تربته بسفح المقطم فقبر بها زمانا طويلا، ثم نقل منها ثالث مرّة إلى خانقاهه و دفن بقبتها، و قبره هناك إلى يومنا هذا.، و أدركت بالخانقاه المذكورة شيخا من صوفيتها أخبرنى أنه حضر نقله من ترتبه بالقرافة إلى قبة الخانقاه، و أنه تولى وضعه فى مدفنه بنفسه، و كان رحمه اللّه خيّرا عفيفا كثير الحياء وافر الحرمة جليل القدر عظيما فى النفوس مهاب السطوة فى أيام أمرته، فلما تلقب بالسلطنة و وسم باسم الملك، اتضع قدره و استضعف جانبه، و طمع فيه، و تغلب عليه الأمراء و المماليك، و لم تنجح مقاصده و لا سعد فى شىء من تدبيره إلى أن انقضت أيامه و أناخ به حمامه. رحمه اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۸

الخانقاه الجمالية

هذه الخانقاه بالقرب من درب راشد، يسلك إليها من رحبة باب العيد، بناها الأمير الوزير مغلطاى الجمالىّ فى سنة ثمانين و سبعمائة، و قد تقدّم ذكرها عند ذكر المدارس من هذا الكتاب.

الخانقاه الظاهرية

هذه الخانقاه بخط بين القصرين فيما بين المدرسة الناصرية و دار الحديث الكاملية، أنشأها الملك الظاهر برقوق فى سنة ست و ثمانين و سبعمائة، و قد ذكرت عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب.

الخانقاه الشرابيشية

هذه الخانقاه فيما بين الجامع الأقمر و حارة برجوان فى آخر المنحر الذى كان للخلفاء، و هو يعرف اليوم بالدرب الأصفر، و يتوصل منها إلى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، و بابها الأصلىّ من زقاق ضيق بوسط سوق حارة برجوان، أنشأها الصدر الأجل نور الدين علىّ بن محمد بن محاسن الشرابيشىّ، و كان من ذوى الغنى و اليسار، صاحب ثراء متسع، وله عدّة أوقاف على جهات البرّ و القربات و مات فى ... .

الخانقاه المهمندارية

هذه الخانقاه خارج باب زويلة فيما بين رأس حارة اليانسية و جامع المارديني، بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزىّ المهمندار، و نقيب الجيوش، فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و قد ذكرت فى المدارس من هذا الكتاب.

خانقاه بشتاک

هذه الخانقاه خارج القاهرة على جانب الخليج من البرّ الشرقيّ تجاه جامع بشتاک، أنشأها الأمير سيف الدين بشتاک الناصريّ، و كان فتحها أوّل يوم من ذى الحجة سنة ست و ثلاثين و سبعمائة، و استقرّ فى مشيختها شهاب الدين القدسيّ، و تقرّر عنده عدّة من الصوفية و أجرى لهم الخبز و الطعام فى كلّ يوم، فاستمرّ ذلک مدّة ثم بطل، و صار يصرف لأربابها عوضا عن ذلک فى كلّ شهر مبلغ، و هى عامرة إلى وقتنا هذا، و قد نسب إليها جماعة منهم الشيخ الأديب البارع بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبدر البشتكى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۹

خانقاه ابن غراب

هذه الخانقاه خارج القاهرة على الخليج الكبير من برّه الشرقيّ بجوار جامع بشتاک من غربيه، أنشأها القاضى الأمير سعد الدين إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب الإسكندرانيّ، ناظر الخاص و ناظر الجيوش و أستادار السلطان، و كاتب السرّ، و أحد أمراء الألوف الأكابر، أسلم جد غراب و باشر بالإسكندرية حتى ولى نظر الثغر، و نشأ ابنه عبد الرزاق هناک، فولى أيضا نظر الإسكندرية، و ولد له ماجد و إبراهيم. فلما تحكم الأمير جمال الدين محمود بن علىّ فى الأموال أيام الملک الظاهر برقوق، اختص بإبراهيم و حمله إلى القاهرة و هو صبىّ و اعتنى به و استكتبه فى خاص أمواله حتى عرفها، فتنكر محمود عليه لأمر بدا منه فى ماله، و همّ به فبادر إلى الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ و ترامى عليه، و هو يومئذ قد نافس محمودا فأوصله بالسلطان و أمكنه من سماع كلامه، فملأ أذنه بذكر أموال محمود و وغر صدره عليه حتى نكبه و استصفى أمواله، كما ذكر فى خبره عند ذكر مدرسة محمود من هذا الكتاب، و ولى ابن غراب نظر الديوان المفرد فى حادى عشر صفر سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، و عمره عشرون سنة أو نحوها، و هى أوّل وظيفة وليها، فاختص بابن الطبلاوىّ و لازمه و ملأ عينه بكثرة المال، فتحدّث له فى وظيفة نظر الخاص عوضا عن سعد الدين أبى الفرج بن تاج الدين موسى، فوليها فى تاسع عشر ذى القعدة، و غص بمكان ابن الطبلاوىّ فعمل عليه عند السلطان حتى غيره عليه و ولاه أمره، فقبض عليه فى داره و على سائر أسبابه فى شعبان فى سنة ثمانمائة، ثم أضيف إليه نظر الجيوش عوضا عن شرف الدين محمد الدمامينىّ فى تاسع ذى القعدة سنة ثمانمائة، فعفّ عن تناول الرسوم و أظهر من الفخر و الحشمة و المكارم أمرا كبيرا، و قدّر اللّه موت السلطان فى شوّال سنة إحدى و ثمانمائة بعد ما جعله من جملة أوصيائه، فباطن الأمير يشبک الخازندار على إزالة الأمير الكبير أيتمش القائم بدولة الناصر فرج بن برقوق، و عمل لذلک أعمالا حتى كانت الحرب بعد موت السلطان الملک الظاهر بين الأمير أيتمش و بين الأمير يشبک، فى ربيع الأوّل سنة اثنتين و ثمانمائة، التى انهزم فيها أيتمش و عدّة من الأمراء إلى الشام، و تحكم الأمير يشبک فاستدعى عند ذلک ابن غراب أخاه فخر الدين ماجدا من الإسكندرية، و هو يلى نظرها إلى قلعة الجبل، و فوّضت إليه وزارة الملک الناصر فرج بن برقوق، فقاما بسائر أمور الدولة إلى أن ولى الأمير يلبغا السالمىّ الأستادارية، فسلک معه عادته من المنافسة، و سعى به عند الأمير يشبک حتى قبض عليه، و تقلد وظيفة الأستادارية عوضا عن السالمىّ فى رابع عشر رجب سنة ثلاث و ثمانمائة، مضافا إلى نظر الخاص و نظر الجيوش، فلم يغير زىّ الكتاب، و صار له ديوان كدواوين الأمراء، و دقت الطبول على بابه، و خاطبه الناس و كاتبوه بالأمير، و سار فى ذلک سيرة ملوكية من كثرة العطاء و زيادة الأسمطة و الاتساع فى الأمور، و الازدياد من المماليک

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۰

و الخيول، و الاستكثار من الخول و الحواشى، حتى لم يكن أحد يضاهيه فى شىء من أحواله، إلى أن تنازع الأميران حكم و سودون طاز مع الأمير يشبک، فكان هو المتولى كبر تلک الحروب، ثم إنه خرج من القاهرة مغاضبا لأمراء الدولة، و صار إلى ناحية تروجة يريد جمع العربان و محاربة الدولة، فلم يتم له ذلک. و عاد فدخل القاهرة على حين غفلة، فنزل عند جمال الدين يوسف الأستادار،

فقام بإصلاح أمره مع الأمراء حتى حصل له الغرض، فظهر و استولى على ما كان عليه إلى أن تنكرت رجال الدولة على الملك الناصر فرج، فقام مع الأمير يشبك بحرب السلطان إلى أن انهزم الأمير يشبك بأصحابه إلى الشام، فخرج معه فى سنة تسع و ثمانمائة، و أمدّه و من معه بالأموال العظيمة حتى صاروا عند الأمير شيخ نائب الشام، و استفز العساكر لقتال الملك الناصر و حرّضهم على المسير إلى حربه، و خرج من دمشق مع العساكر يريد القاهرة، و كان من وقعة السعيدية ما كان على ما هو مذكور فى خبر الملك الناصر عند ذكر الخانقاه الناصرية من هذا الكتاب، فاختفى الأمير يشبك و طائفة من الأمراء بالقاهرة، و لحق ابن غراب بالأمير اينال پاى بن قجماس، و هو يومئذ أكبر الأمراء الناصرية، و ملأ عينه بالمال، فتوسط له مع الملك الناصر حتى أمنه و أصبح فى داره و جميع الناس على بابه، ثم تقلد وظيفة نظر الجيوش و اختص بالسلطان، و ما زال به حتى استرضاه على الأمير يشبك و من معه من الأمراء، و ظهروا من الاستتار و صاروا بقلعة الجبل، فخلع عليهم السلطان و أمّرهم و صاروا إلى دورهم، فثقل على ابن غراب مكان فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ، فسعى به حتى قبض عليه و ولى مكانه كتابة السرّ ليتمكن من أغراضه. فلما استقرّ فى كتابة السرّ أخذ فى نقض دولة الناصر إلى أن تم له مراده، و صارت الدولة كلها على الناصر، فخلا به و خيل له و حسّن له الفرار، فانقاد له و ترامى عليه، فأعدّ له رجلين أحدهما من مماليكه و معهما فرسان، و وقفا بهما وراء القلعة، و خرج الناصر وقت القائلة و معه مملوك من مماليكه يقال له بيغوت، و ركبا الفرسين و سارا إلى ناحية طرا، ثم عادا مع قاصدى ابن غراب فى مركب من المراكب النيلية ليلا إلى دار ابن غراب و نزلا عنده، و قد خفى ذلك على جميع أهل الدولة، و قام ابن غراب بتولية عبد العزيز بن برقوق و أجلسه على تخت الملك عشاء، و لقبه بالملك المنصور، و دبر الدولة كما أحب مدّة سبعين يوما إلى أن أحس من الأمراء بتغير، فأخرج الناصر ليلا و جمع عليه عدّة من الأمراء و المماليك و ركب معه بلامة الحرب إلى القلعة، فلم يلبث أصحاب المنصور و انهزموا و دخل الناصر إلى القلعة و استولى على المملكة ثانيا، فألقى مقاليد الدولة إلى ابن غراب و فوّض إليه ما وراء سريره و نظمه فى خاصته، و جعله من أكابر الأمراء و ناط به جميع الأمور، فأصبح مولى نعمة كلّ من السلطان و الأمراء، يمنّ عليهم بأنه أبقى لهم مهجهم، و أعاد إليهم سائر ما كانوا قد سلبوه من ملكهم، و أمدّهم بما له وقت حاجتهم وفاقتهم إليه، و يفخر و يتكثر بأنه أقام دولة و أزال دولة، ثم أزال ما أقام و أقام ما أزال من غير حاجة و لا ضرورة ألجأته إلى شىء من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۱

ذلك، و أنه لو شاء أخذ الملك لنفسه، و ترك كتابة السرّ لغلامه و أحد كتابه فخر الدين بن المزوق ترفعا عنها و احتقارا بها، و لبس هيئة الأمراء، و هى الكلوتة و القباء و شدّ السيف فى وسطه، و تحوّل من داره التى على بركة الفيل إلى دار بعض الأمراء بحدرة البقر، فغاضبه القضاة، و كان عند الانتهاء الانحطاط، و نزل به مرض الموت فنال فى مرضه من السعادة ما لم يسمع بمثله لأحد من أبناء جنسه، و صار الأمير يشبك و من دونه من الأمراء يتردّدون إليه، و أكثرهم إذا دخل عليه وقف قائما على قدميه حتى ينصرف إلى أن مات يوم الخميس تاسع عشر شهر رمضان سنة ثمان و ثمانمائة، و لم يبلغ ثلاثين سنة.

و كانت جنازته أحد الأمور العجيبة بمصر لكثرة من شهدها من الأمراء و الأعيان و سائر أرباب الوظائف، بحيث استأجر الناس السقائف و الحوانيت لمشاهدتها، و نزل السلطان للصلاة عليه، و صعد إلى القلعة، فدفن خارج باب المحروق، و كان من أحسن الناس شكلا و أحلاهم منظرا و أكرمهم يدا مع تدين و تعفف عن القاذورات، و بسط يد بالصدقات، إلّا أنه كان غدّارا لا يتوانى عن طلب عدوّه، و لا يرضى من نكبته بدون إتلاف النفس، فكم ناطح كبشا و تل عرشا و عالج جبالا شامخة و اقتلع دولا من أصولها الراسخة، و هو أحد من قام بتخريب إقليم مصر، فإنه ما زال يرفع سعر الذهب حتى بلغ كلّ دينار إلى مائتى درهم و خمسين درهما من الفلوس، بعد ما كان بنحو خمسة و عشرين درهما، ففسدت بذلك معاملة الإقليم و قلت أمواله و غلت أسعار المبيعات، و ساءت أحوال الناس، إلى أن زالت البهجة و انطوى بساط الرقة، و كاد الإقليم يدمر كما ذكر ذلك عند ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب مصر من هذا الكتاب، عفا اللّه عنه و سامحه، فلقد قام بمواراة آلاف من الناس الذين هلكوا فى زمان المحنة، سنة ست و سنة سبع و ثمانمائة، و

تكفينهم، فلم ينس اللّه له ذلك و ستره كما ستر المسلمين، و ما كان ربك نسيا.

الخانقاه البندقدارية

هذه الخانقاه بالقرب من الصليبة، كان موضعها يعرف قديما بدويرة مسعود، و هى الآن تجاه المدرسة الفارقانية و حمّام الفارقانى. أنشأها الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ الصالحىّ النجمىّ، و جعلها مسجدا للّه تعالى، و خانقاه، و رتب فيها صوفية و قرّاء فى سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، و فى سنة ثمان و أربعين و ستمائة استنابه الملك المعز أيبك، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نوّاب دار العدل، و إلى أيدكين هذا ينسب الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ، لأنه كان أوّلا مملوكه، ثم انتقل منه إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فعرف بين المماليك البحرية ببيبرس البندقدارىّ، و عاش أيدكين إلى أن صار بيبرس سلطان مصر و ولاه نيابة السلطنة بحلب، فى سنة تسع و خمسين و ستمائة، و كان الغلاء بها شديدا، فلم تطل أيامه و فارقها بدمشق بعد محاربة سنقر الأشقر و القبض عليه، فى حادى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۲

عشر صفر سنة تسع و خمسين و ستمائة، فأقام فى النيابة نحو شهر، و صرفه الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرىّ. فلما خرج السلطان إلى الشام فى سنة إحدى و ستين و ستمائة، و أقام بالطور، أعطاه أمرة بمصر و طبلخاناه فى ربيع الآخر منها، و مات فى ربيع الآخر سنة أربع و ثمانين و ستمائة، و دفن بقبة هذه الخانقاه.

خانقاه شيخو

هذه الخانقاه فى خط الصليبة خارج القاهرة تجاه جامع شيخو، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين شيخو العمرىّ فى سنة ست و خمسين و سبعمائة، كان موضعها من جملة قطائع أحمد بن طولون، و آخر ما عرف من خبره أنه كان مساكن للناس، فاشتراها الأمير شيخو من أربابها و هدمها فى المحرّم من هذه السنة، فكانت مساحة أرضها زيادة على فدّان، فاختط فيها الخانقاه و حمّامين و عدّة حوانيت يعلوها بيوت لسكنى العامّة، و رتب بها دروسا عدّة، منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة، و هم الشافعية و الحنفية و المالكية و الحنابلة، و درسا للحديث النبوىّ، و درسا لإقراء القرآن بالروايات السبع، و جعل لكلّ درس مدرّسا و عنده جماعة من الطلبة، و شرط عليهم حضور الدرس و حضور وظيفة التصوّف، و أقام شيخنا أكمل الدين محمد بن محمود فى مشيخة الخانقاه، و مدرّس الحنفية، و جعل إليه النظر فى أوقاف الخانقاه، و قرّر فى تدريس الشافعية الشيخ بهاء الدين أحمد بن علىّ السبكىّ، و فى تدريس المالكية الشيخ خليلا، و هو متجند الشكل و له إقطاع فى الحلقة. و فى تدريس الحنابلة قاضى القضاة موفق الدين الحنبلىّ، و رتب لكل من الطلبة فى اليوم الطعام و اللحم و الخبز، و فى الشهر الحلوى و الزيت و الصابون، و وقف عليها الأوقاف الجليلة، فعظم قدرها و اشتهر فى الأقطار ذكرها، و تخرّج بها كثير من أهل العلم، و أربت فى العمارة على كل وقف بديار مصر إلى أن مات الشيخ أكمل الدين فى شهر رمضان سنة ست و ثمانين و سبعمائة، فوليها من بعده جماعة، و لما حدثت المحن كان بها مبلغ كبير من المال الذى فاض عن مصروفها، فأخذه الملك الناصر فرج، و أخذت أحوالها تتناقص حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف بها عدّة أشهر، و هى إلى اليوم على ذلك.

الخانقاه الجاولية

هذه الخانقاه على جبل يشكر بجوار مناظر الكبش، فيما بين القاهرة و مصر، أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولىّ فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، و قد تقدّم ذكرها فى المدارس.

خانقاه الجيبغا المظفرى

هـذه الخانقاه خارج باب النصـر فيما بين قبـة النصـر و تربة عثمان بن جوشن السـعودىّ، أنشأها الأمير سـيف الدين الجيبغا المظفرىّ، و كان بها عدّة من الفقراء يقيمون بها و لهم فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۳

شيـخ، و يحضـرون فى كـل يوم وظيفـة التصوّف، و لهم الطعـام و الخبز، و كان بجانبها حوض ماء لشـرب الـدواب، و سـقّاية بها الماء العـذب لشـرب الناس، و كتّاب يقرأ فيه أطفال المسـلمين الأيتام كتاب اللّه تعالى، و يتعلمون الخط، و لهم فى كلّ يوم الخبز و غيره، و مـا برحت على ذلك إلى أن أخرج الأمير برقوق أوقافها، فتعطلت و أقام بها جماعـة من الناس مـدّة ثم تلاشـى أمرها، و هى الآن باقية من غير أن يكون فيها سكان، و قد تعطل حوضها و بطل مكتب السبيل.

الجيبغا المظفرىّ: الخاصـكى، تقدّم فى أيام الملك المظفر حاجى بن الملك الناصـر محمد بن قلاون، تقدّما كثيرا، بحيث لم يشاركه أحـد فى رتبته. فلما قام الملك الناصـر حسن بن محمد بن قلاون فى السـلطنة أقرّه على رتبته، و صار أحد أمراء المشورة الذين يصدر عنهم الأمر و النهى، فلما اختلف أمراء الدولة أخرج إلى دمشق فى ربيع الأوّل سنة تسع و أربعين و سبعمائة، و أقام بدمشق إلى شعبان، و سـار إلى نيابـة طرابلس عوضا عن الأمير بـدر الـدين مسـعود بن الخطيرىّ، فلم يزل على نيابتها إلى شـهر ربيع الأوّل سـنة خمسـين و سبعمائـة، فكتب إلى الأـمير أرغون شـاه نـائب دمشق يسـتأذنه فى التصـيد إلى النـاعم ، فـأذن له و سـار من طرابلس و أقـام على بحيرة حمص أياما يتصـيد، ثم ركب ليلا بمن معه و ساق إلى خان لاجين ظاهر دمشق، فوصـله أوّل النهار و أقام به يومه، ثم ركب منه بمن معه ليلاـ و طرق أرغون شاه و هو بالقصـر الأبلق، و قبض عليه و قيـده فى ليلـة الخميس ثالث عشـرى شـهر ربيع الأوّل، و أصـبح و هو بسوق الخيـل، فاسـتدعى الأـمراء و أخرج لهم كتـاب السـلطان بإمساك أرغون شاه، فأذعنوا له و اسـتولى على أموال أرغون شاه. فلما كان يوم الجمعة رابع عشريه، أصبح أرغون شاه مذبوحا، فأشاع الجيبغا أن أرغون شاه ذبح نفسه، و فى يوم الثلاثاء أنكر الأمراء أمره و ثاروا لحربه، فركب و قاتلهم و انتصـر عليهم و قتل جماعة منهم و أخذ الأموال و خرج من دمشق و سار إلى طرابلس، فأقام بها، و ورد الخبر من مصـر إلى دمشق بإنكار كل ما وقع و الاجتهاد فى مسك الجيبغا، فخرجت عساكر الشام إليه ففرّ من طرابلس، فأدركه عسكر طرابلس عند بيروت و حاربوه حتى قبضوا عليه، و حمل إلى عسـكر دمشق فقيد و سـجن بقلعة دمشق فى ليلة السـبت سادس عشر ربيع الآخر، هو و فخر الدين إياس، ثم وسط بمرسوم السـلطان تحت قلعة دمشق بحضور عساكر دمشق، و وسط معه الأمير فخر الدين إياس و علقا على الخشب، فى ثامن عشـر ربيع الآخر سـنة خمسـين و سبعمائة، و عمره دون العشرين سنة، فما طرّ شاربه و كأنه البدر حسنا و الغصن اعتدالا.

خانقاه سرياقوس

هذه الخانقاه خارج القاهرة من شماليها على نحو بريد منها، بأوّل تيه بنى إسرائيل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۴

بسماسم سرياقوس، أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، و ذلك أنه لما بنى الميدان و الأحواش فى بركة الجبّ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر بركة الجب، اتفق أنه ركب على عادته للصيد هناك، فأخذه ألم عظيم فى جوفه كاد يأتى عليه و هو يتجلـد و يكتم ما به حتى عجز، فنزل عن الفرس و الألم يتزايـد به، فنـذر للّه إن عافاه اللّه ليبنين فى هـذا الموضع موضـعا يعبـد اللّه تعالى فيه، فخف عنه ما يجده، و ركب فقضـى نهمته من الصيد و عاد إلى قلعة الجبل، فلزم الفراش مدّة أيام ثم عوفى، فركب بنفسه و معه عـدّة من المهندسـين، و اختط على قـدر ميل من ناحية سـرياقوس هذه الخانقاه، و جعل فيها مائة خلوة لمائة صوفىّ، و بنى بجانبها

مسجدا تقام به الجمعة، و بنى بها حمّاما و مطبخا، و كان ذلك فى ذى الحجة سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة. فلما كانت سنة خمس و عشرين و سبعمائة، كمل ما أراد من بنائها، و خرج إليها بنفسه و معه الأمراء و القضاة و مشايخ الخوانك، و مدّت هناك أسمطة عظيمة بداخل الخانقاه فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، و تصدّر قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعىّ لإسماع الحديث النبوىّ، و قرأ عليه ابنه عز الدين عبد العزيز عشرين حديثا تساعيا، و سمع السلطان ذلك، و كان جمعا موفورا، و أجاز قاضى القضاة الملك الناصر و من حضر برواية ذلك. و جميع ما يجوز له روايته، و عند ما انقضى مجلس السماع قرّر السلطان فى مشيخة هذه الخانكاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائى، و لقّبه بشيخ الشيوخ، فصار يقال له ذلك و لكلّ من ولى بعده، و كان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ إلّا شيخ خانقاه سعيد السعداء، و أحضرت التشاريف السلطانية فخلع على قاضى القضاة بدر الدين، و على ولده عز الدين، و على قاضى القضاة المالكية، و على الشيخ مجد الدين أبى حامد موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائى شيخ الشيوخ، و على الشيخ علاء الدين القونوىّ شيخ خاقناه سعيد السعداء، و على الشيخ قوام الدين أبى محمد عبد المجيد بن أسعد بن محمد الشيرازىّ، شيخ الصوفية بالجامع الجديد الناصرىّ، خارج مدينة مصر، و على جماعة كثيرة. و خلع على سائر الأمراء و أرباب الوظائف، و فرّق بها ستين ألف درهم فضة و عاد إلى قلعة الجبل، فرغب الناس فى السكنى حول هذه الخانقاه و بنو الدور و الحوانيت و الخانات، حتى صارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاه سرياقوس، و تزايد الناس بها حتى أنشئ فيها سوى حمّام الخانقاه عدّة حمّامات، و هى إلى اليوم بلدة عامرة، و لا يؤخذ بها مكس البتة مما يباع من سائر الأصناف احتراما لمكان الخانقاه، و يعمل هناك فى يوم الجمعة سوق عظيم ترد الناس إليه من الأماكن البعيدة، يباع فيه الخيل و الجمال و الحمير و البقر و الغنم و الدجاج و الأوز و أصناف الغلات و أنواع الثياب و غير ذلك، و كانت معاليم هذه الخانكاه من أسنى معلوم بديار مصر، يصرف لكل صوفىّ فى اليوم من لحم الضأن السليج رطل قد طبخ فى طعم شهىّ، و من الخبز النقىّ أربعة أرطال و يصرف له فى كل شهر مبلغ أربعين درهما فضة عنها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۵

ديناران و رطل حلوى و رطلان زيتا من زيت الزيتون، و مثل ذلك من الصابون، و يصرف له ثمن كسوة فى كلّ سنة، و توسعة فى كل شهر رمضان، و فى العيدين، و فى مواسم رجب و شعبان و عاشوراء، و كلما قدمت فاكهة يصرف له مبلغ لشرائها، و بالخانقاه خزانة بها السكّر و الأشربة و الأدوية، و بها الطبائعىّ و الجرائحىّ و الكحال و مصلح الشعر، و فى كلّ رمضان يفرّق على الصوفية كيزان لشرب الماء، و تبيّض لهم قدورهم النحاس، و يعطون حتى الأسنان لغسل الأيدى من وضر اللحم، يصرف ذلك من الوقف لكل منهم، و بالحمّام الحلاق لتدليك أبدانهم و حلق رؤوسهم، فكان المنقطع بها لا يحتاج إلى شىء غيرها و يتفرّغ للعبادة، ثم استجدّ بعد سنة تسعين و سبعمائة بها حمّام أخرى برسم النساء، و ما برحت على ما ذكرنا إلى أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فبطل الطعام و صار يصرف لهم فى ثمنه مبلغ من نقد مصر، و هى الآن على ذلك، و أدركت من صوفيتها شخصا شيخا يعرف بأبى طاهر، ينام أربعين يوما بلياليها لا يستيقظ فيها البتة، ثم يستيقظ أربعين يوما لا ينام فى ليلها و لا نهارها، أقام على ذلك عدّة أعوام، و خبره مشهور عند أهل الخانقاه، و أخبرنى أنه لم يكن فى النوم إلّا كغيره من الناس، ثم كثر نومه حتى بلغ ما تقدّم ذكره، و مات بهذه الخانقاه فى نحو سنة ثمانمائة، و مما قيل فى الخانقاه و ما أنشأه السلطان بها:

سر نحو سرياقوس و انزل بفنأرجاءها يا ذا النّهى و الرشد

تلق محلا للسرور و الهنافيه مقام للتقى و الزهد

نسيمه يقول فى مسيرهتنبهى يا عذبات الرند

و روضه الريان من خليجهيقول دع ذكر أراضى نجد

خانقاه أرسلان

هذه الخانقاه فيما بين القاهرة و مصر من جملة أراضى منشأة المهرانىّ، أنشأها الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار.

أرسلان: الأمير بهاء الدين الدوادار الناصرىّ، كان أوّلا عند الأمير سلار أيام نيابته مصر، خصيصا به حظيا عنده. فلما قدم الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك بعساكر الشام، و نزل بالريدانية ظاهر القاهرة فى شهر رمضان سنة تسع و سبعمائة، أطلع أرسلان على أن جماعة قد اتفقوا على أن يهجموا على السلطان و يفتكوا به يوم العيد، أوّل شوّال، فجاء إليه و عرّفه الحال و قال له: اخرج الساعة و اطلع القلعة و املكها. فقام السلطان و فتح باب سر الدهليز و خرج من غير الباب، و صعد قلعة الجبل و جلس على سرير الملك، فرعى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۶

السلطان له هذه المناصحة، و لما أخرج الأمير عز الدين أيدمر الدوادار من وظيفته، رتّب أرسلان فى الدوادارية، و كان يكتب خطا مليحا، و درّبه القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر و خرّجه، و هذبه، فصار يكتب بخطه إلى كتاب السرّ عن السلطان فى المهمات بعبارة مسدّدة وافية بالمقصود، و استولى على السلطان بحيث لم يكن لغيره فى أيامه ذكر، و لم يشتهر فخر الدين و كريم الدين بعظمة إلّا بعده، و اجتهدا فى إبعاده فما قدرا على ذلك، و فى أيام توليته الدوادارية السلطانية أنشأ هذه الخانكاه على شاطىء النيل، و كان ينزل فى كل ليلة ثلاثاء إليها من القلعة و يبيت بها، و يحتفل الناس للحضور إليها، و يرسل عن السلطان إلى مهنا أمير العرب، و نفع الناس نفعا كبيرا و قلدهم منا جسيمة، و مات فى ثالث عشرى شهر رمضان سنة سبع عشرة و سبعمائة، فوجد فى تركته ألف ثوب أطلس، و نفائس كثيرة، و عدّة تواقيع و مناشير معلمة، فأنكر السلطان معرفتها و نسب إليها اختلاسها، و أوّل من ولى مشيختها تقىّ الدين أبو البقاء محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الرحيم الشريف الحسينىّ القنائى الشافعىّ، جدّ الشيخ عبد الرحيم القنائىّ الصالح المشهور، و أبوه ضياء الدين جعفر، كان فقيها شافعيا، و كان أبو البقاء هذا عالما عارفا زاهدا قليل التكلف متقللا من الدنيا، سمع الحديث و أسمعه، و ولد فى سنة خمس و أربعين و ستمائة، و مات ليلة الاثنين رابع عشر جمادى الأولى، سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، و دفن بالقرافة، فتداول مشيختها القضاة الأخنائية إلى أن كانت آخرا بيد شيخنا قاضى القضاة صدر الدين عبد الوهاب بن أحمد الأخنائىّ. فلما مات فى سنة تسع و ثمانين و سبعمائة، تلقاها عنه عز الدين بن الصاحب، ثم وليها من بعده ابنه شمس الدين محمد بن الصاحب، رحمه اللّه.

خانقاه بكتمر

هذه الخانقاه بطرف القرافة فى سفح الجبل مما يلى بركة الحبش، أنشأها الأمير بكتمر الساقى، و ابتدأ الحضور بها فى يوم الثلاثاء ثامن شهر رجب سنة ست و عشرين و سبعمائة، و أوّل من استقرّ فى مشيختها الشمسىّ شمس الدين الرومىّ، و رتب له عن معلوم المشيخة فى كل شهر مائة درهم، و عن معلوم الإمامة مبلغ خمسين درهما، و رتب معه عشرين صوفيا لكل منهم فى الشهر مبلغ ثلاثين درهما، فجاءت من أجلّ ما بنى بمصر، و رتب بها صوفية و قرّاء، و قرّر لهم الطعام و الخبز فى كل يوم، و الدراهم و الحلوى و الزيت و الصابون فى كل شهر، و بنى بجانبها حمّاما، و أنشأ هناك بستانا، فعمرت تلك الخطة و صار بها سوق كبير و عدّة سكان، و تنافس الناس فى مشيختها إلى أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فبطل الطعام و الخبز منها و انتقل السكان منها إلى القاهرة و غيرها، و خربت الحمام و البستان و صار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ من نقد مصر، و أقام فيها رجل يحرسها، و تمزق ما كان فيها من الفرش و الآلات النحاس و الكتب و الربعات و القناديل النحاس المكفت و القناديل الزجاج المذهب، و غير ذلك من الأمتعة و النفائس الملوكية، و خرب ما حولها لخلوّه من السكان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۷

بكتمر الساقى: الأمير سيف الدين، كان أحد مماليك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، فلما استقرّ الملك الناصر محمد بن قلاون فى المملكة بعد بيبرس، أخذه فى جملة من أخذ من مماليك بيبرس و رقاه حتى صار أحد الأمراء الأكابر، و كتب إلى الأمير تنكز نائب السلطنة بدمشق بعد أن قبض على الأمير سيف الدين طغاى الكبير يقول له: هذا بكتمر الساقى يكون لك بدلا من طغاى، اكتب إليه بما تريد من حوائجك، فعظم بكتمر و علا محله و طار ذكره، و كان السلطان لا يفارقه ليلا و لا نهارا إلّا إذا كان فى الدور السلطانية، ثم زوّجه بجاريته و حظيته، فولدت لبكتمر ابنه أحمد، و صار السلطان لا يأكل إلّا فى بيت بكتمر مما تطبخه له أمّ أحمد فى قدر من فضة، و ينام عندهم و يقوم، و اعتقد الناس أن أحمد ولد السلطان لكثرة ما يطيل حمله و تقبيله، و لما شاع ذكر بكتمر و تسامع الناس به قدّموا إليه غرائب كلّ شىء، و أهدوا إليه كل نفيس، و كان السلطان إذا حمل إليه أحد من النوّاب تقدمة لا بدّ أن يقدّم لبكتمر مثلها أو قريبا منها، و الذى يصل إلى السلطان يهب له غالبه، فكثرت أمواله و صارت إشارته لا تردّ، و هو عبارة عن الدولة، و إذا ركب كان بين يديه مائتا عصا نقيب، و عمر له السلطان القصر على بركة الفيل.

و لما مات بطريق الحجاز فى سنة ثلاث و ثلاثين و سبعمائة، خلف من الأموال و القماش و الأمتعة و الأصناف و الزردخاناه ما يزيد على العادة و الحدّ، و يستحى العاقل من ذكره، فأخذ السلطان من خيله أربعين فرسا و قال: هذه لى ما وهبته إياها، و بيع الباقى من الخيل على ما أخذه الخاصكية بثمن بخس بمبلغ ألف ألف درهم فضة، و مائتى ألف درهم و ثمانين ألف درهم فضة، خارجا عما فى الجشارات، و أنعم السلطان بالزردخاناه و السلاحخاناه التى له على الأمير قوصون بعد ما أخذ منها سرجا واحدا و سيفا، القيمة عن ذلك ستمائة ألف دينار، و أخذ له السلطان ثلاثة صناديق جوهرا مثمنا لا تعلم قيمة ذلك، و بيع له من الصينى و الكتب و الختم و الربعات، و نسخ البخارىّ و الدوايات الفولاذ و المطعمة و البصم بسقط الذهب و غير ذلك، و من الوبر و الأطلس و أنواع القماش السكندرىّ و البغدادىّ و غير ذلك شىء كثير إلى الغاية المفرطة، و دام البيع لذلك مدّة شهور.

و امتنع القاضى شرف الدين النشو ناظر الخاص من حضور البيع و استعفى من ذلك، فقيل له لأىّ شىء فعلت ذلك؟ قال: ما أقدر أصبر على غبن ذلك، لأن المائة درهم تباع بدرهم. و لما خرج مع السلطان إلى الحجاز خرج بتجمل زائد و حشمة عظيمة و هو ساقة الناس كلهم، و كان ثقله و جماله نظير ما للسلطان، و لكن يزيد عليه بالزركش و آلات الذهب، و وجد فى خزانته بطريق الحجاز بعد موته خمسمائة تشريف، منها ما هو أطلس بطرز زركش و ما دون ذلك من خلع أرباب السيوف و أرباب الأقلام، و وجد معه قيود و جنازير، و تنكر السلطان له فى طريق الحجاز و استوحش كلّ منهما من صاحبه، فاتفق أنهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۸

فى العود مرض ولده أحمد و مرض من بعده، فمات ابنه قبله بثلاثة أيام، فحمل فى تابوت مغشى بجلد جمل، و لما مات بكتمر دفن مع ولده بنخل، و حث السلطان فى المسير و كان لا ينام فى تلك السفرة إلّا فى برج خشب، و بكتمر عنده، و قوصون على الباب و الأمراء المشايخ كلهم حول البرج بسيوفهم، فلما مات بكتمر ترك السلطان ذلك، فعلم الناس أن احترازه كان خوفا من بكتمر. و يقال أن السلطان دخل عليه و هو مريض فى درب الحجاز فقال له: بينى و بينك اللّه. فقال له: كل من فعل شيئا يلتقيه. و لما مات صرخت زوجته أمّ ابنه أحمد و بكت و أعولت إلى أن سمعها الناس تتكلم بالقبيح فى حق السلطان، من جملته: أنت تقتل مملوككك، أنا ابنى ايش كان؟ فقال لها: بس، تفشرين، هاتى مفاتيح صناديقه، فأنا أعرف كل شىء أعطيته من الجواهر. فرمت بالمفاتيح إليه فأخذها، و لما وصل السلطان إلى قلعة الجبل أظهر الحزن و الندامة عليه، و أعطى أخاه قمارى أمرة مائة و تقدمة ألف، و كان يقول ما بقى يجيئنا مثل بكتمر، و أمر فحملت جثته و جثة ابنه إلى خانقاهه هذه و دفنتا بقبتها، و بدت من السلطان أمور منكرة بعد موت بكتمر، فإنه كان يحجر على السلطان و يمنعه من مظالم كثيرة، و كان يتلطف بالناس و يقضى حوائجهم و يسوسهم أحسن سياسة، و لا يخالفه السلطان فى شىء، و مع ذلك فلم يكن له حماية و لا رعاية و لا لغلمانه ذكر، و من المغرب يغلق باب إصطبله، و كان ممّا له على السلطان من المرتب فى كل يوم مخفيتان، يأخذ عنهما من بيت المال كل يوم سبعمائة درهم، عن كل مخفية ثلاثمائة و خمسين درهما، و كان

السلطان إذا أنعم على أحد بشيء أو ولّاه وظيفة قال له: روح إلى الأمير بكتمر و بوس يده، و كان جيد الطباع حسن الأخلاق لين الجانب سهل الانقياد رحمه اللّه.

خانقاه قوصون

هذه الخانقاه فى شمالىّ القرافة مما يلى قلعة الجبل تجاه جامع قوصون، أنشأها الأمير سيف الدين قوصون، و كملت عمارتها فى سنة ست و ثلاثين و سبعمائة، و قرّر فى مشيختها الشيخ شمس الدين أبا الثناء محمود بن أبى القاسم أحمد الأصفهانىّ، و رتب له معلوما سنيا من الدراهم و الخبز و اللحم و الصابون و الزيت و سائر ما يحتاج إليه، حتى جامكية غلام بغلته، و استقرّ ذلك فى الوقف من بعده لكل من ولى المشيخة بها، و قرّر بها جماعة كثيرة من الصوفية، و رتب لهم الطعام و اللحم و الخبز فى كل يوم، و فى الشهر المعلوم من الدراهم و من الحلوى و الزيت و الصابون، و ما زالت على ذلك إلى أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فبطل الطعام و الخبز منها و صار يصرف لمستحقيها مال من نقد مصر، و تلاشى أمرها من بعد ما كانت من أعظم جهات البرّ، و أكثرها نفعا و خيرا، و قد تقدّم ذكر قوصون عند ذكر جامعه من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۹

خانقاه طغاى النجمىّ

هذه الخانقاه بالصحراء خارج باب البرقية فيما بين قلعة الجبل و قبة النصر، أنشأها الأمير طغاى تمر النجمىّ، فجاءت من المبانى الجليلة، و رتب بها عدّة من الصوفية و جعل شيخهم الشيخ برهان الدين الرشيدى، و بنى بجانبها حمّاما و غرس فى قبليها بستانا، و عمل بجانب الحمّام حوض ماء للسبيل ترده الدواب، و وقف على ذلك عدّة أوقاف، ثم إن الحمّام و الحوض تعطلا مدّة. فلما ماتت أرزباى زوجة القاضى فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ فى سنة ثمان و ثمانمائة، دفنها خارج باب النصر و أحبّ أن يبنى على قبرها و يوقف عليها أوقافا، ثم بدا له فنقلها إلى هذه الخانقاه و دفنها بالقبة التى فيها، و أدار الساقية و ملأ الحوض و رتب لقرّاء هذه الخانقاه معلوما، و عزم على تجديد ما تشعث من بنائها و إدارة حمامها، ثم بدا له فأنشأ بجانب هذه الخانقاه تربة و نقل زوجته مرّة ثالثة إليها، و جعل أملاكه وقفا على تربته.

طغاى تمر النجمىّ: كان دوادار الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاون، فلما مات الصالح استقرّ على حاله فى أيام أخويه الملك الكامل شعبان، و الملك المظفر حاجى، و كان من أحسن الأشكال و أبدع الوجوه، تقدّم فى الدول و صارت له وجاهة عظيمة، و خدمه الناس و لم يزل على حاله إلى أن لعب به أغرلوا فيمن لعب و أخرجه إلى الشام و ألحقه بمن أخذه من غزة، و ذلك فى أوائل جمادى الآخرة سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، و طغاى هذا أوّل دوادار أخذ أمرة مائة و تقدمة ألف، و ذلك فى أوّل دولة المظفر حاجى، و لما كانت واقعة الأمير ملكتمر الحجازىّ و الأمير آق سنقر و عدّة من الأمراء فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، رمى طغاى تمر سيفه و بقى بغير سيف بعض يوم، ثم إن المظفر أعطاه سيفه و استمرّ فى الدوادارية نحو شهر، و أخرج هو و الأمير نجم الدين محمود الوزير، و الأمير سيف الدين بيدمر البدرىّ على الهجن إلى الشام، فأدركهم الأمير سيف الدين منجك و قتلهم فى الطريق.

خانقاه أمّ أنوك

هذه الخانقاه خارج باب البرقية بالصحراء، التى أنشأتها الخاتون طغاى تجاه تربة الأمير طاشتمر الساقى، فجاءت من أجلّ المبانى، و جعلت بها صوفية و قرّاء، و وقفت عليها الأوقاف الكثيرة، و قرّرت لكل جارية من جواريها مرتبا يقوم بها.

طغاى الخونـدة الكبرى: زوجـة السـلطان الملـك الناصـر محمـد بن قلاـون، و أمّ ابنه الأـمير أنوك، كـانت من جملـة إمائه، فأعتقها و تزوّجها، و يقال أنها أخت الأمير أقبغا عبد الواحد، و كانت بديعة الحسن باهرة الجمال، رأت من السعادة ما لم يره غيرها من نساء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۰

الملوك الترك بمصـر، و تنعمت فى ملاذّ ما وصل سواها لمثلها، و لم يـدم السـلطان على محبة امرأة سواها، و صارت خونده بعد ابنه توكاى و أكبر نسائه، حتى من ابنـة الأمير تنكز. و حـج بها القاضـى كريم الدين و احتفل بأمرها و حمل لها البقول فى محاير طين على ظهور الجمـال، و أخـذ لهـا الأبقـار الحلابـة، فسـارت معهـا طول الطريق لأجـل اللبن الطرىّ، و عمل الجبن، و كان يقلى لها الجبن فى الغداء و العشاء، و ناهيك بمن وصل إلى مداومة البقل و الجبن فى كل يوم، و هما أخس ما يؤكل، فما عساه يكون بعد ذلك. و كان القاضـى كريم الـدين، و الأـمير مجلس، و عـدّة من الأـمراء يترجلون عنـد النزول و يمشون بين يـدى محفتها و يقبلون الأرض لها كما يفعلون بالسلطان، ثم حج بها الأمير بشتاك فى سنة تسع و ثلاثين و سبعمائة، و كان الأمير تنكز إذا جهز من دمشق تقدمة إلى السلطان لا بدّ أن يكون لخوند طغاى منها جزء وافر، فلما مات السـلطان الملك النصار اسـتمرّت عظمتها من بعده إلى أن ماتت فى شـهر شوّال سنـة تسع و أربعين و سـبعمائة، أيام الوباء، عن ألف جاريـة، و ثمانين خادما خصـيا، و أموال كثيرة جـدّا، و كانت عفيفـة طاهرة كثيرة الخير و الصـدقات و المعروف، جهزت سائر جواريها و جعلت على قبر ابنها بقبـة المدرسـة الناصـرية بين القصـرين قرّاء، و وقفت على ذلك وقفا، و جعلت من جملته خبزا يفرّق على الفقراء، و دفنت بهذه الخانقاه، و هى من أعمر الأماكن إلى يومنا هذا.

خانقاه يونس

هذه الخانقاه من جملة ميدان القبق بالقرب من قبة النصر خارج باب النصر، أدركت موضعها و به عوامید تعرف بعوامید السباق، و هى أوّل مكـان بنى هناك، أنشأها الأمير يونس النوروزىّ الـدوادار كان من مماليك الأمير سـيف الـدين جرجى الإدريسـىّ، أحـد الأمراء الناصـرية، و أحـد عتقائه، فترقى فى الخـدم من آخر أيام الملك الناصـر محمد بن قلاون إلى أن صار من جملة الطائفة اليلبغاوية، فلما قتل الأمير يلبغا الخاصكىّ خدم بعده الأمير استدمر الناصرىّ الأتابك، و صار من جملة دواداريته، و ما زال يتنقل فى الخدم إلى أن قام الأمير برقوق بعد قتل الملك الأشـرف شعبان، فكان ممن أعانه و قاتل معه، فرعى له ذلك و رقّاه إلى أن جعله أمير مائة مقدّم ألف، و جعله دواداره لما تسـلطن، فسـلك فى رياسـته طريقة جليلة، و لزم حالة جميلة من كثر الصـيام و الصـلاة، و إقامة الناموس الملوكىّ، و شدّة المهابة، و الإعراض عن اللعب، و مداومة العبوس، و طول الجلوس، و قوّة البطش لسـرعة غضبه، و محبة الفقراء، و حضور السماع و الشغف به، و إكرام الفقهاء و أهل العلم.

و أنشأ بالقاهرة ربعا و قيسـاريـة بخط البنـدقانيين، و تربة خارج باب الوزير تحت القلعة، و أنشأ بظاهر دمشق مدرسة بالشـرف الأعلى، و أنشأ خانا عظيما خارج مدينة غزة، و جعل بجانب هذه الخانقاه مكتبا يقرأ فيه أيتام المسلمين كتاب اللّه تعالى، و بنى بها صهريجا ينقل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۱

إليه مـاء النيـل، و مـا زال على وفور حرمته و نفوذ كلمته إلى أن خرج الأـمير يلبغا الناصـرىّ نائب حلب على الملك الظاهر برقوق، فى سنـة إحدى و تسـعين و سـبعمائة، و جهز السـلطان الأمير أيتمش، و الأمير يونس هذا، و الأمير جهاركس الخليلىّ، و عدّة من الأمراء و المماليك لقتاله، فلقوه بـدمشق و قاتلوه فهزمهم، و قتل الخليلىّ و فرّ أيتمش إلى دمشق، و نجا يونس بنفسه يريـد مصـر، فأخـذه الأمير عيفا بن شـطى أمير الأمراء و قتله يوم الثلاثاء ثانى عشـرى شـهر ربيع الآخر، سـنة إحدى و تسـعين و سبعمائة، و لم يعرف له قبر بعد ما أعدّ لنفسه عدّة مدافن فى غير ما مدينة من مصر و الشام.

خانقاه طيبرس

هذه الخانقاه من جملة أراضى بستان الخشاب، فيما بين القاهرة و مصر على شاطىء النيل، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش فى سنة سبع و سبعمائة، بجوار جامعه المقدّم ذكره عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب. و قرّر بها عدّة من الصوفية، و جعل لهم شيخا و أجرى لهم المعاليم، و لم تزل عامرة إلى أن حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فابتاع شخص الوكالة و الربعين المعروفين بربع بكتمر و الحمامين، و نقض ذلك فخرب الخط و صار مخوفا. فلما كان فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، نقل الحضور من هذه الخانقاه إلى المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر، و هى الآن بصدد أن تدثر و تمحى آثارها.

خانقاه أقبغا

هذه الخانقاه هى موضع من المدرسة الأقبغاوية بجوار الجامع الأزهر، أفرده الأمير أقبغا عبد الواحد و جعل فيه طائفة يحضرون وظيفة التصوّف، و أقام لهم شيخا و أفرد لهم وقفا يختص بهم، و هى باقية إلى يومنا هذا، و له أيضا خانقاه بالقرافة.

الخانقاه الخروبية

هذه الخانقاه بساحل الجيزة تجاه المقياس، كانت منظرة من أعظم الدور و أحسنها، أنشأها زكىّ الدين أبو بكر بن علىّ الخرّوبىّ كبير التجار، ثم توارثها من بعده أولاد الخرّوبىّ التجار بمصر، فلم تزل بأيديهم، إلى أن نزلها السلطان المؤيد شيخ فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رجب الفرد، سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة، و أقام بها فاقتضى رأيه أن يجعلها خانقاه، فاستدعى بابن الخرّوبىّ ليشتريها منه، فتبرّع بما يخصه منها، و صار إليه باقيها، فتقدّم إلى الأمير سيف الدين أبى بكر بن المسروق الاستادار بعملها خانقاه، و سار منها فى يوم الأربعاء سادس عشرة، فأخذ الأمير أبو بكر فى عملها حتى كملت فى آخر السنة، و استقرّ فى مشيختها شمس الدين محمد بن الحمتى الدمشقىّ الحنبلىّ، و خلع عليه يوم السبت سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة، و رتب له فى كل يوم عشرة مؤيدية، عنها مبلغ
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۲
سبعين درهما فلوسا، سوى الخبز و السكن، و قرّر عنده عشرة من الفقراء لكل منهم مع الخبز مؤيدىّ فى كل يوم، فجاءت من أحسن شىء.

ذكر الربط

اشارة

الربط جمع رباط، و هو دار يسكنها أهل طريق اللّه. قال ابن سيده: الرباط من الخيل، الخمس فما فوقها. و الرباط و المرابطة ملازمة ثغر العدوّ، و أصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطا. و ربما سميت الخيل نفسها رباطا، و الرباط و الرباط المواظبة على الأمر. قال الفارسىّ هو ثان من لزوم الثغر، و لزوم الثغر ثان من رباط الخيل و قوله تعالى: وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا قيل معناه جاهدوا، و قيل واظبوا على مواقيت الصلاة. و قال أبو حفص السهروردىّ فى كتاب عوارف المعارف: و أصل الرباط ما تربط فيه الخيول، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، و المقيم فى الرباط على طاعة اللّه يدفع بدعائه البلاء عن العباد، و البلاد. و روى داود بن صالح قال: قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخى، هل تدرى فى أىّ شىء نزلت هذه الآية: اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا قلت: لا. قال: يا ابن أخى لم يكن فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم غزو تربط فيه الخيل، و لكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة، فالرباط جهاد النفس، و المقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه، و اجتماع أهل الربط إذ صح على الوجه الموضوع له الربط، و تحقق أهل الربط بحسن المعاملة و رعاية الأوقات، و توقى ما يفسد الأعمال، و يصحح الأحوال،

عادت البركة على البلاد و العباد، و شرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق، و فتح المعاملة مع الحق، و ترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب، و حبس النفس عن المخالطات، و اجتناب التبغات، و مواصلة الليل و النهار بالعبادة متعوّضا بها عن كل عادة، و الاشتغال بحفظ الأوقات و ملازمة الأوراد و انتظار الصلوات، و اجتناب الغفلات، ليكون بذلك مرابطا مجاهدا. و الرباط هو بيت الصوفية و منزلهم، و لكل قوم دار، و الرباط دارهم، و قد شابهوا أهل الصفة فى ذلك، فالقوم فى الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد و عزم واحد و أحوال متناسبة، و وضع الرباط لهذا المعنى. قال مؤلفه رحمه اللّه:

و لاتخاذ الربط و الزوايا أصل من السنة، و هو أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل و لا مال مكانا من مسجده، كانوا يقيمون به عرفوا بأهل الصفة.

رباط الصاحب

هذا الرباط مطل على بركة الحبش، أنشأه الصاحب فخر الدين أبو عبد اللّه محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين أبى الحسن علىّ بن محمد بن سليم بن حنا، و وقف عليه أبوه الصاحب بهاء الدين بعد موته عقارا بمدينة مصر، و شرط أن يسكنه عشرة من الفقراء المجرّدين غير المتأهلين، و ذلك فى ذى الحجة سنة ثمان و ستين و ستمائة، و هو باق إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۳

يومنا هذا، و ليس فيه أحد، و يستأدى ريع وقفه من لا يقوم بمصالحه.

رباط الفخرى

هذا الرباط خارج باب الفتوح فيما بينه و بين النصر، بناه الأمير عز الدين أيبك الفخرىّ، أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس.

رباط البغدادية

هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، حيث كان المتجر الذى ذكر عند ذكر القصر من هذا الكتاب، و من الناس من يقول رواق البغدادية، و هذا الرباط بنته الست الجليلة تذكارياى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس فى سنة أربع و ثمانين و ستمائة، للشيخة الصالحة زينت ابنة أبى البركات، المعروفة ببنت البغدادية، فأنزلتها به و معها النساء الخيرات، و ما برح إلى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير، و له دائما شيخه تعظ النساء و تذكرهنّ و تفقههنّ، و آخر من أدركنا فيه الشيخة الصالحة سيدة نساء زمانها أمّ زينب فاطمة بنت عباس البغدادية، توفيت فى ذى الحجة سنة أربع عشرة و سبعمائة، و قد أنافت على الثمانين، و كانت فقيهة وافرة العلم، زاهدة قانعة باليسير، عابدة واعظة حريصة على النفع و التذكير، ذات إخلاص و خشية، و أمر بالمعروف، انتفع بها كثير من نساء دمشق و مصر، و كان لها قبول زائد و وقع فى النفوس، و صار بعدها كلّ من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها البغدادية، و أدركنا الشيخة الصالحة البغدادية أقامت به عدّة سنين على أحسن طريقة إلى أن ماتت يوم السبت لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ست و تسعين و سبعمائة، و أدركنا هذا الرباط و تودع فيه النساء اللاتى طلّقن أو هجرن حتى يتزوّجن أو يرجعن إلى أزواجهنّ صيانة لهنّ، لما كان فيه من شدّة الضبط و غاية الاحتراز و المواظبة على وظائف العبادات، حتى أن خادمة الفقيرات به كانت لا تمكن أحدا من استعمال إبريق ببزبوز، و تؤدّب من خرج عن الطريق بما تراه، ثم لما فسدت الأحوال من عهد حدوث المحن بعد سنة ست و ثمانمائة، تلاشت أمور هذا الرباط و منع مجاوروه من سجن النساء المعتدّات به، و فيه إلى الآن بقايا من خير، و يلى النظر عليه قاضى القضاة الحنفىّ.

رباط الست كليلة

هذا الرباط خارج درب بطوط من جملة حكر سنجر اليمنىّ، ملاصقة للسور الحجر بخط سوق الغنم و جامع أصلم، وقفه الأمير علاء الدين البراباه على الست كليلة، المدعوّة دولاى، ابنة عبد اللّه التتارية، زوج الأمير سيف الدين البرلىّ السلاحدار الظاهرىّ، و جعله مسجدا و رباطا، و رتب فيه إماما و مؤذنا، و ذلك فى ثالث عشرى شوّال سنة أربع و تسعين و ستمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۴

رباط الخازن

هذا الرباط بقرب قبة الإمام الشافعىّ رحمة اللّه عليه. من قرافة مصر، بناه الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه الخازن. والى القاهرة، و فيه دفن، و هذا الخازن هو الذى ينسب إليه حكر الخازن خارج القاهرة.

الرباط المعروف برواق ابن سليمان

هذا الرواق بحارة الهلالية خارج باب زويلة، عرف بأحمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن إبراهيم بن أبى المعالى بن العباس الرحبى البطائحىّ الرفاعىّ، شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بديار مصر، كان عبدا صالحا له قبول عظيم من أمراء الدولة و غيرهم، و ينتمى إليه كثير من الفقراء الأحمدية، و روى الحديث عن سبط السلفىّ و حدّث، و كانت وفاته ليلة الاثنين سادس ذى الحجة سنة إحدى و تسعين و ستمائة بهذا الرواق.

رباط داود بن إبراهيم

هذا الرباط بخط بركة الفيل بنى فى سنة ثلاث و ستين و ستمائة.

رباط ابن أبى المنصور

هذا الرباط بقرافة مصر عرف، بالشيخ صفىّ الدين الحسين بن علىّ بن أبى المنصور الصوفىّ المالكىّ، كان من بيت وزارة، فتجرّد و سلك طريق أهل اللّه على يد الشيخ أبى العباس أحمد بن أبى بكر الجزار التحيبىّ المغربىّ، و تزوّجابنته و عرف بالبركة، و حكيت عنه كرامات، و صنف كتاب الرسالة ذكر فيها عدّة من المشايخ، و روى الحديث و حدّث و شارك فى الفقه و غيره، و كانت ولادته فى ذى القعدة سنة خمس و تسعين و خمسمائة، و وفاته برباطه هذا يوم الجمعة ثانى عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة.

رباط المشتهى

هذا الرباط بروضة مصر يطل على النيل و كان به الشيخ المسلك ... و للّه درّ شيخنا العارف الأديب شهاب الدين أحمد بن أبى العباس الشاطر الدمنهورىّ حيث يقول:

بروضة المقياس صوفيّةهم منية الخاطر و المشتهى

لهم على البحر أياد علتو شيخهم ذاك له المنتهى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۵

و قال الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفيّ:

يا ليلة مرّت بنا حلوةإن رمت تشبيها لها عبتها

لا يبلغ الواصف فى وصفهاحدّا و لا يلقى له منتهى

بت مع المعشوق فى روضةو نلت من خرطومه المشتهى

رباط الآثار

هـذا الرباط خارج مصر بالقرب من بركـة الحبش مطلّ على النيل و مجاور للبسـتان المعروف بالمعشوق. قال ابن المتوّج: هـذا الرباط عمره الصاحب تاج الـدين محمـد بن الصاحب فخر الدين محمد ولد الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا بجوار بسـتان المعشوق، و مات رحمه اللّه قبل تكملته، و وصّى أن يكمل من ريع بستان المعشوق، فإذا كملت عمارته يوقف عليه و وصّى الفقيه عز الدين بن مسكين فعمر فيه شيئا يسيرا و أدركه الموت إلى رحمـة اللّه تعالى، و شـرع الصاحب ناصـر الدين محمد ولد الصاحب تاج الدين فى تكملته، فعمر فيه شيئا جيدا انتهى.

و إنما قيل له رباط الآثار لأنّ فيه قطعـة خشب و حديد يقال أن ذلك من أثار رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم، اشتراها الصاحب تاج الـدين المـذكور بمبلغ ستين ألف درهم فضـة من بنى إبراهيم أهل ينبع، و ذكروا أنها لم تزل عنـدهم موروثـة من واحد إلى آخر إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و حملهـا إلى هـذا الربـاط و هى به إلى اليوم يتبرّك الناس بها و يعتقـدون النفع بها، و أدركنا لهـذا الرباط بهجـة، و للناس فيه اجتماعات، و لساكنه عدّة منافع ممن يتردّد إليه أيام كان ماء النيل تحته دائما. فلما انحسـر الماء من تجاهه و حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة قلّ تردّد الناس إليه، و فيه إلى اليوم بقيـة، و لما كانت أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمـد بن قلاـون قرّر فيه درسا للفقهاء الشافعيـة، و جعل له مـدرّسا، و عنـده عـدّة من الطلبـة، و لهم جار فى كل شـهر من وقف وقفه عليهم و هو باق أيضا، و فى أيام الملك الظاهر برقوق وقف قطعة أرض لعمل الجسر المتصل بالرباط، و لهذا الرباط حزانة كتب و هو عامر بأهله.

الوزير الصاحب: تاج الـدين محمـد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين علىّ بن سـليم بن حنا، ولد فى سابع شعبان سـنة أربعين و سـتمائة، و سـمع من سـبط السلفىّ و حدّث و انتهت إليه رياسة عصره، و كان صاحب صيانة و سؤدد و مكارم، و شاكلـة حسـنة و بزة فـاخرة إلى الغايـة، و كـان يتنـاهى فى المطاعم و الملابس و المناكـح و المساكن، و يجود بالصـدقات الكثيرة مع التواضع و محبـة الفقراء و أهل المصـلاح و المبالغـة فى اعتقادهم، و نال فى الـدنيا من العز و الجاه ما لم يره جدّه الصاحب الكبير بهاء الدين، بحيث أنّه لما تقلد الوزير الصاحب فخر الدين بن الخليلىّ الوزارة، و سار من قلعة الجبل و عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۶

تشـريف الوزارة إلى بيت الصاحب تاج الـدين و قبل يـده و جلس بين يـديه، ثم انصـرف إلى داره، و ما زال على هذا القدر من وفور العز إلى أن تقلد الوزارة فى يوم الخميس رابع عشـرى صـفر سـنة ثلاث و تسعين و ستمائة، بعد قتل الوزير الأمير سنجر الشجاعىّ، فلم ينجب، و توقفت الأـحوال فى أيـامه حتى احتـاج إلى إحضـار تقاوى النواحى المرصـدة بها للتخضـير و اسـتهلكها، ثم صـرف فى يوم الثلاثاء خامس عشـرى جمادى الأولى سنة أربع و تسعين و ستمائة بفخر الدين عثمان بن الخليلىّ، و أعيد الوزارة مرّة ثانية، فلم ينجح، و عزل و سـلّم مرّة للشـجاعىّ فجرّده من ثيابه و ضربه شيبا واحدا بالمقارع فوق قميصه، ثم أفرج عنه على مال، و مات فى رابع جمادى الآخرة سـنة سبع و سبعمائة، و دفن فى تربتهم بالقرافة، و كان له شعر جيد، و للّه درّ شيخنا الأديب جلال الدين محمد بن خطيب داريا الدمشقىّ البيسانىّ حيث يقول فى الآثار:

يا عين إن بعد الحبيب و دارهو نأت مرابعه و شطّ مزاره

فلقد ظفرت من الزمان بطائل‌إن لم تريه فهذه آثاره

و قد سبقه لذلك الصلاح خليل بن أيبك الصفدىّ فقال:

أكرم بآثار النبىّ محمدمن زاره استوفى السرور مزاره

يا عين دونك فانظرى و تمتعى‌إن لم تريه فهذه آثاره

و اقتدى بهما فى ذلك أبو الحزم المدنىّ فقال:

يا عين كم ذا تسفحين مدامعاشوقا لقرب المصطفى و دياره

إن كان صرف الدهر عاقك عنهمافتمتعى يا عين فى آثاره

رباط الأفرم

هذا الرباط بسفح الجرف الذى عليه الرصد، و هو يشرف على بركة الحبش، و كان من أحسن منتزهات أهل مصر. أنشأه الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير خازندار الصالحىّ النجمىّ، و رتب فيه صوفية و شيخا و إماما، و جعل فيه منبرا يخطب عليه للجمعة. و العيدين، و قرّر لهم معاليم من أوقاف أرصدها لهم، و ذلك فى سنة ثلاث و ستين و ستمائة، و هو باق إلّا أنّه لم يبق به ساكن لخراب ما حوله، و له إلى اليوم متحصل من وقفه، و الأفرم هذا هو الذى ينسب إليه جسر الأفرم خارج مصر، و قد ذكر عند ذكر الجسور من هذا الكتاب.

الرباط العلائى

هذا الرباط خارج مصر بخط بين الزقاقين شرقىّ الخليج الكبير، يعرف اليوم بخانقاه المواصلة، و هو آيل إلى الدثور لخراب ما حوله، أنشأه الملك علاء الدين أبو الحسن علىّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۷

ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة، بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، بجوار داره و حمّامه و طاحونه، و جعل له فيه مدفنا و وقف عليه بستان الجرف و بستانا بناحية شبرا، و عدّة حصص من قرى فلسطين و الساحل، و أحكارا و دورا بجانب الرباط. و مات يوم الجمعة ثامن ربيع الآخر سنة إحدى و ثلاثين و سبعمائة، و مولده يوم الجمعة ثامن عشرى المحرّم سنة سبع و خمسين و ستمائة، بجزيرة ابن عمرو، و كان من الحلقة و سمع الحديث من النجيب الحرّانىّ، و ابن عرنين، و ابن علاف. و دفن فيه و به إلى الآن بقية، و يحضره الفقهاء يوما فى الأسبوع و هم عشرة شيخهم منهم و منهم قارىء ميعاد و قرّاء، و كان أوّلا معمورا بسكنى أهله دائما فيه، و فى هذا الوقت لا يمكن سكناه لكثرة الخوف من السرّاق.

ذكر الزوايا

زاوية الدمياطىّ

هذه الزاوية فيما بين خط السبع سقايات و قطرة السدّ خارج مصر إلى جانب حوض السبيل المعدّ لشرب الدواب، أنشأها الأمير عز الدين أيبك الدمياطىّ الصالحىّ النجمىّ، أحد الأمراء المقدّمين الأكابر فى أيام الملك الظاهر بيبرس، و بها دفن لمّا مات بالقاهرة ليلة الأربعاء تاسع شعبان سنة ست و تسعين و ستمائة، و إلى الآن يعرف الحوض المجاور لها بحوض الدمياطى.

زاوية الشيخ خضر

هذه الزاوية خارج باب الفتوح من القاهرة بخط زقاق الكحل. تشرف على الخليج الكبير، عرفت بالشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانىّ العدوىّ، شيخ السلطان الملك الظاهر بيبرس، كان أوّلا قد انقطع بجبل المزة خارج دمشق، فعرفه الأمير سيف الدين قشتمر العجمىّ و تردّد إليه فقال له: لا بدّ أن يتسلطن الأمير بيبرس البندقارىّ، فأخبر بيبرس بذلك، فلما صارت المملكة إليه بعد قتل الملك المظفر قطز، اشتمل على اعتقاده و قرّبه، و بنى له زاوية بجبل المزة، و زاوية بظاهر بعلبك، و زاوية بحماه، و زاوية بحمص، و هذه الزاوية خارج القاهرة. و وقف عليها أحكارا تغل فى السنة نحو الثلاثين ألف درهم، و أنزله بها و صار ينزل إليه فى الأسبوع مرّة أو مرّتين و يطلعه على غوامض أسراره و يستشيره فى أموره، و لا يخرج عما يشير به، و يأخذه معه فى أسفاره، و أطلق يده و صرّفه فى مملكته، فهدم كنيسة اليهود بدمشق، و هدم كنيسة للنصارى بالقدس، كانت تعرف بالمصلبة، و عملها زاوية، و قتل قسيسها بيده، و هدم كنيسة للروم بالإسكندرية كانت من كراسى النصارى، و يزعمون أن بها رأس يحيى بن زكريا، و عملها مسجدا سماه الخضر، فاتقى جانبه الخاص

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۸

و العام حتى الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار نائب السلطنة، و الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا، و ملوك الأطراف، و كان يكتب إلى صاحب حماه و جميع الأمراء إذا طلب حاجة ما مثاله: الشيخ خضر نياك الحمارة، و كان ربع القامة كث اللحية يتعمم، عسراوىّ و فى لسانه عجمة، مع سعة صدر و كرم شمائل و كثرة عطاء من تفرقة الذهب و الفضة، و عمل الأسمطة الفاخرة، و كانت أحواله عجيبة لا- تتكيف، و أقوال الناس فيه مختلفة، منهم من يثبت صلاحه و يعتقده، و منهم من يرميه بالعظائم. و كان يخبر السلطان بأمور تقع، منها أنه لما حاصر أرسوف و هى أوّل فتوحاته، قال له: متى نأخذ هذه المدينة؟ فعين له يوما يأخذها فيه، فأخذها فى ذلك اليوم بعينه، و اتفق له مثل ذلك فى فتح قيسارية، فلذلك كثر اعتقاده فيه، و ما أحسن قول الشريف محمد بن رضوان الناسخ فى ملازمة السلطان له أسفاره:

ما الظاهر السلطان إلّا مالك الدنيا بذاك لنا الملاحم تخبر

و لنا دليل واضح كالشّمس فىوسط السماء لكلّ عين تنظر

لما رأينا الخضر يقدم جيشهأبدا علمنا أنّه الإسكندر

و ما برح على رتبته إلى ثامن عشر شوّال سنة إحدى و سبعين ستمائة، فقبض عليه و اعتقل بقلعة الجبل و منح الناس من الاجتماع به. و يقال أن ذلك بسبب أنّ السلطان كان أعطاه تحفا قدمت من اليمن، منها كرّ يمنىّ مليح إلى الغاية، فأعطاه خضر لبعض المردان، فبلغ ذلك الأمير بدر الدين الخازندار النائب، و كان قد ثقل عليه بكثرة تسلطه، حتى لقد قال له مرّة بحضرة السلطان: كأنك تشفق على السلطان و على أولاده مثل ما فعل قطز بأولاد المعز، فأسرّها فى نفسه، و بلغ خبر الكرّ اليمنىّ إلى السلطان، فاستدعاه و حضر جماعة حاققوه على أمور كثيرة منكرة، كاللواط و الزنا و نحوه، فاعتقله و رتب له ما يكفيه من مأكول و فاكهة و حلوى، و لما سافر السلطان إلى بلاد الروم قال خضر لبعض أصحابه إنّ السلطان يظهر على الروم و يرجع إلى دمشق فيموت بها بعد أن أموت أنا بعشرين يوما. فكان كذلك، و مات خضر فى محبسه بقلعة الجبل فى سادس المحرّم أو سابعه من سنة ست و سبعين و ستمائة، و قد أناف على الخمسين، فسلّم إلى أهله و حملوه إلى زاويته هذه و دفنوه فيها، و كان السلطان قد كتب بالانفراج عنه، فقدم البريد بعد موته، و مات السلطان بدمشق فى سابع عشرى المحرّم المذكور بعد خضر بعشرين يوما، و هذه الزاوية باقية إلى اليوم.

زاوية ابن منظور

هذه الزاوية خارج القاهرة بخط الدكة بجوار المقس، عرفت بالشيخ جمال الدين محمد بن أحمد بن منظور بن يس بن خليفة بن عبد الرحمن أبو عبد اللّه الكتانىّ العسقلانىّ الشافعىّ الصوفىّ، الإمام الزاهد، كانت له معارف و اتباع و مريدون و معرفة بالحديث، حدّث

عن أبى الفتوح الجلالىّ و روى عنه الدمياطىّ و الدوادارىّ و عدّة من الناس، و نظر فى الفقه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۹

و اشتهر بالفضيلة، و كانت له ثروة و صدقات. و مولده فى ذى القعدة سنة سبع و تسعين و خمسمائة، و وفاته بزاويته فى ليلة الثانى و العشرين من شهر رجب الفرد، سنة ست و تسعين و ستمائة، و كانت هذه الزاوية أوّلا تعرف بزاوية شمس الدين بن كرا البغدادىّ.

زاوية الظاهرى

هذه الزاوية خارج باب البحر ظاهر القاهرة عند جمّام طرغاى على الخليج الناصرىّ، كانت أوّلا تشرف طاقاتها على بحر النيل الأعظم، فلما انحسر الماء عن ساحل المقس، و حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ صارت تشرف على الخليج المذكور من برّه الشرقىّ، و اتصلت المناظر هناك إلى أن كانت الحوادث من سنة ست و ثمانمائة، فخربت حمّام طرغاى و بيعت أنقاضها و أنقاض كثير مما كان هناك من المناظر، و أنشئ هناك بستان عرف أوّلا بعبد الرحمن صيرفىّ الأمير جمال الدين الأستادار، لأنه أوّلا أنشأه ثم انتقل عنه.

و الظاهرىّ هذا هو أحمد بن محمد عبد اللّه أبو العباس جمال الدين الظاهرىّ، كان أبوه محمد بن عبد اللّه عتيق الملك الظاهر شهاب الدين غازى، و برع حتى صار إماما حافظا و توفى ليلة الثلاثاء لاربع بقين من ربيع الأوّل سنة ست و تسعين و ستمائة بالقاهرة، و دفن بتربته خارج باب النصر. و ابنه عثمان بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه فخر الدين بن جمال الدين الظاهرىّ الحلبىّ، الإمام العلامة المحدّث الصالح، ولد فى سنة سبعين و ستمائة، و أسمعه أبو بديار مصر و الشام، و كان مكثرا و مات بزاويته هذه فى سنة ثلاثين و سبعمائة.

زاوية الجميزة

هذه الزاوية موضعها من جملة أراضى الزهرىّ، و هى الآن خارج باب زويلة بالقرب من معدّية فريج، أنشأها الأمير سيف الدين جيرك السلاحدار المنصورىّ أحد أمراء الملك المنصور قلاون، فى سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة، و جعل فيها عدّة من الفقراء الصوفية.

زاوية الحلاوى

هذه الزاوية بخط الأبارين من القاهرة بالقرب من الجامع الأزهر، أنشأها الشيخ مبارك الهندىّ السعودىّ الحلاوىّ، أحد الفقراء من أصحاب الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر البارينىّ الواسطىّ، فى سنة ثمان و ثمانين و ستمائة، و أقام بها إلى أن مات و دفن فيها، فقام من بعده ابنه الشيخ عمر بن علىّ بن مبارك، و كانت له سماعات و مرويات، ثم قام من بعده ابنه شيخنا جمال الدين عبد اللّه بن الشيخ عمر بن علىّ بن الشيخ مبارك الهندىّ، و حدّث فسمعنا عليه بها إلى أن مات فى صفر سنة ثمان و ثمانمائة، و بها الآن ولده، و هى من الزوايا المشهورة بالقاهرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۰

زاوية نصر

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، أنشأها الشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنبجىّ الناسك القدوة، و حدّث بها عن إبراهيم بن خليل و غيره، و كان فقيها معتزلا عن الناس متخليا للعبادة، يتردّد إليه أكابر الناس و أعيان الدولة، و كان للأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فيه اعتقاد كبير، فلما ولى سلطنة مصر أجلّ قدره و أكرم محله، فهرع الناس إليه و توسلوا به فى حوائجهم، و كان يتغالى فى

محبة العارف محيى الدين محمد بن عربى الصوفيّ، و لذلك كانت بينه و بين شيخ الإسلام أحمد بن تيمية مناكرة كبيرة، و مات رحمه اللّه عن بضع و ثمانين سنة، فى ليلة السابع و العشرين من جمادى الآخرة، سنة تسع عشرة و سبعمائة و دفن بها.

زاوية الخدّام

هذه الزاوية خارج باب النصر، فيما بين شقة باب الفتوح من الحسينية و بين شقة الحسينية خارج باب النصر، أنشأها الطواشى بلال الفرّاجيّ و جعلها وقفا على الخدّام الحبش الأجناد، فى سنة سبع و أربعين و ستمائة.

زاوية تقى الدين

هذه الزاوية تحت قلعة الجبل، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاون بعد سنة عشرين و سبعمائة، لسكنى الشيخ تقيّ الدين رجب بن أشيرك العجميّ، و كان وجيها محترما عند أمراء الدولة، و لم يزل بها إلى أن مات يوم السبت ثامن شهر رجب سنة أربع عشرة و سبعمائة، و ما زالت منزلا لفقراء العجم إلى وقتنا هذا.

زاوية الشريف مهدى

هذه الزاوية بجوار زاوية الشيخ تقيّ الدين المذكور، بناها الأمير صرغتمش فى سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة.

زاوية الطراطرية

هذه الزاوية بالقرب من موردة البلاط، بناها الملك الناصر محمد بن قلاون بوساطة القاضى شرف الدين النشو ناظر الخاص برسم الشيخين الأخوين محمد و أحمد المعروفين بالطراطرية، فى سنة أربعين و سبعمائة، و كانا من أهل الخير و الصلاح، و نزلا أوّلا فى مقصورة بالجامع الأزهر، فعرفت بهما، ثم عرفت بعدهما بمقصورة الحسام الصفدىّ والد
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۱
الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن الحسام، و هذه المقصورة بآخر الرواق الأوّل مما يلى الركن الغربيّ، و لم تزل هذه الزاوية عامرة إلى أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، و خرب خط زريبة قوصون و ما فى قبليه إلى منشأة المهرانيّ، و ما فى بحريه إلى قرب بولاق.

زاوية القلندرية

القلندرية طائفة تنتمى إلى الصوفية، و تارة تسمى أنفسها ملامتية، و حقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات و المخاطبات، و قلت أعمالهم من الصوم و الصلاة إلّا الفرائض، و لم يبالوا بتناول شىء من اللذات المباحة، و اقتصروا على رعاية الرخصة، و لم يطلبوا حقائق العزيمة، و التزموا أن لا يدّخروا شيئا، و تركوا الجمع و الاستكثار من الدنيا و لم يتقشفوا و لا زهدوا و لا تعبدوا، و زعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع اللّه تعالى، و اقتصروا على ذلك و ليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيب القلوب.
و الفرق بين الملامتيّ و القلندريّ، أن الملامتيّ يعمل فى كتم العبادات، و القلندريّ يعمل فى تخريب العادات، و الملامتيّ يتمسك بكل أبواب البرّ و الخير و يرى الفضل فيه، إلّا أنه يخفى أحواله و أعماله، و يوقف نفسه موقف العوام فى هيئته، و ملبوسه تسترا للحال، حتى لا يفطن له، و هو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات. و القلندريّ لا يتقيد بهيئة و لا يبالى بما يعرف من حاله و ما لا

يعرف، و لا ينعطف إلّا على طيب القلوب، و هو رأس مال.

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة من الجهة التى فيها الترب و المقابر التى تلى المساكن، أنشأها الشيخ حسن الجوالقىّ القلندرىّ، أحد فقراء العجم القلندرية على رأى الجوالقة، و لما قدم إلى ديار مصر تقدّم عند أمراء الدولة التركية، و أقبلوا عليه و اعتقدوه فأثرى ثراء زائدا فى سلطنة الملك العادل كتبغا، و سافر معه من مصر إلى الشام، فاتفق أن السلطان اصطاد غزالا و دفعه إليه ليحمله إلى صاحب حماه، فلما أحضره إليه ألبسه تشريفا من حرير طرز وخش و كلوتة زركش، فقدم بذلك على السلطان، فأخذ الأمراء فى مداعبته و قالوا له على سبيل الإنكار: كيف تلبس الحرير و الذهب و هما حرام على الرجال؟ فأين التزهد و سلوك طريق الفقراء و نحو ذلك؟ فعندما حضر صاحب حماه إلى مجلس السلطان على العادة قال له: يا خوند أيش عملت معى، الأمراء أنكروا علىّ، و الفقراء تطالبنى. فأنعم عليه بألف دينار، فجمع الفقراء و الناس و عمل وقتا عظيما بزاوية الشيخ علىّ الحريرىّ خارج دمشق، و كان سمح النفس جميل العشرة لطيف الروح، يحلق لحيته و لا يعتم، ثم إنه ترك الحلق و صارت له لحية و تعمم عمامة صوفية، و كانت له عصبة، و فيه مروءة و عصبية، و مات بدمشق فى سنة اثنتين و عشرين و سبعمائة.

و ما زالت هذه الزاوية منزلا لطائفة القلندرية، و لهم بها شيخ، و فيها منهم عدد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۲

موفور، و فى شهر ذى القعدة سنة إحدى و ستين و سبعمائة، حضر السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون بخانقاه أبيه الملك الناصر فى ناحية سرياقوس خارج القاهرة، و مدّ له شيخ الشيوخ سماطا كان من جملة من وقف عليه بين يدى السلطان الشريف علىّ شيخ زاوية القلندرية هذه، فاستدعاه السلطان و أنكر عليه حلق لحيته، و استتابه و كتب له توقيعا سلطانيا منع فيه هذه الطائفة من تحليق لحاهم، و أنّ من تظاهر بهذه البدعة قوبل على فعله المحرّم، و أن يكون شيخا على طائفته كما كان ما دام و داموا متمسكين بالسنة النبوية، و هذه البدعة لها منذ ظهرت ما يزيد على أربعمائة سنة، و أوّل ما ظهرت بدمشق فى سنة بضع عشرة و ستمائة، و كتب إلى بلاد الشام بإلزام القلندرية بترك زىّ الأعاجم و المجوس، و لا يمكن أحد من الدخول إلى بلاد الشام حتى يترك هذا الزىّ المبتدع و اللباس المستبشع، و من لا- يلتزم بذلك يعزر شرعا و يقلع من قراره قلعا فنودى بذلك فى دمشق و أرجائها يوم الأربعاء سادس عشر ذى الحجة.

قبة النصر

هذه القبة زاوية يسكنها فقراء العجم، و هى خارج القاهرة بالصحراء تحت الجبل الأحمر بآخر ميدان القبق من بحريه، جدّدها الملك الناصر محمد بن قلاون على يد الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك.

زاوية الركراكى

هذه الزاوية خارج القاهرة فى أرض المقس، عرفت بالشيخ المعتقد أبى عبد اللّه محمد الركراكىّ المغربىّ المالكىّ، لإقامته بها، و كان فقيها مالكيا متصدّيا لأشغال المغاربة، يتبرّك الناس به إلى أن مات بها يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى سنة أربع و تسعين و سبعمائة، و دفن بها. و الركراكىّ نسبة إلى ركراكة، بلدة بالمغرب هى أحد مراسى سواحل المغرب بقرب البحر المحيط، تنزل فيه السفن فلا تخرج إلّا بالرياح العاصفة فى زمن الشتاء عند تكدّر الهواء.

زاوية إبراهيم الصائغ

هذه الزاوية بوسط الجسر الأعظم تطلّ على بركة الفيل، عمرها الأمير سيف الدين طغاى بعد سنة عشرين و سبعمائة، و أنزل فيها فقيرا

عجميا من فقراء الشيخ تقيّ الدين رجب يعرف بالشيخ عز الدين العجميّ، و كان يعرف صناعة الموسيقى و له نغمة لذيذة و صوت مطرب و غناء جيد، فأقام بها إلى أن مات فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، فغلب عليها الشيخ إبراهيم الصائغ إلى أن مات، يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب سنة أربع و خمسين و سبعمائة، فعرفت به.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۳

زاوية الجعبرى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، تنسب إلى الشيخ برهان الدين بن معضاد بن شدّاد بن ماجد الجعبرىّ، المعتقد الواعظ، كان يجلس للوعظ فتجتمع إليه الناس و يذكرهم و يروى الحديث، و يشارك فى علم الطب و غيره من العلوم، و له شعر حسن، و روى عن السخاوىّ، و حدّث عن البزاركىّ، و كان له أصحاب يبالغون فى اعتقاده و يغلون فى أمره، و كان لا يراه أحد إلّا أعظم قدره و أجله و أثنى عليه، و حفظت عنه كلمات طعن عليه بسببها، و عمر حتى جاوز الثمانين سنة، فلما مرض أمر أن يخرج به إلى مكان قبره، فلما وقف عليه قال: قبير و حال دبير. و مات بعد ذلك بيوم، فى يوم السبت رابع عشرى المحرّم سنة سبع و ثمانين و ستمائة، و الجعابرة عدّة منهم.

زاوية أبى السعود

هذه الزاوية خارج باب القنطرة من القاهرة على حافة الخليج، عرفت بالشيخ المبارك أيوب السعودىّ، كان يذكر أنه رأى الشيخ أبا السعود بن أبى العشائر و سلك على يديه، و انقطع بهذه الزاوية و تبرّك الناس به و اعتقدوا إجابة دعائه، و عمّر و صار يحمل لعجزه عن الحركة حتى مات عن مائة سنة، أوّل صفر سنة أربع و عشرين و سبعمائة.

زاوية الحمصى

هذه الزاوية خارج القاهرة بخط حكر خزائن السلاح و الأوسية على شاطىء خليج الذكر من أرض المقس بجوار الدكة، أنشأها الأمير ناصر الدين محمد، و يدعى طيقوش ابن الأمير فخر الدين الطنبغا الحمصى، أحد الأمراء فى الأيام الناصرية، كان أبوه من أمراء الظاهر بيبرس، و رتب بهذه الزاوية عشرة من الفقراء شيخهم منهم، و وقف عليها عدّة أماكن فى جوارها، و حصة من قرية بورين من قرى ساحل الشام. و غير ذلك، فى سنة تسع و سبعمائة، فلما خرب ما حولها و ارتدم خليج الذكر تعطلت، و هى الآن قد عزم مستحقو ريعها على هدمها لكثرة ما أحاط بها من الخراب من سائر جهاتها، و صار السلوك إليها مخوفا بعد ما كانت تلك الخطة فى غاية العمارة، و فى جمادى سنة عشرين و سبعمائة هدمت.

زاوية المغربل

هذه الزاوية خارج القاهرة بدرب الزراق من الحكر، عرفت بالشيخ المعتقد علىّ المغربل، و مات فى يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، و لما كانت الحوادث من سنة ست و ثمانمائة خربت الحكورة و هدم درب الزراق و غيره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۴

زاوية القصرى

هذه الزاوية بخط المقس خارج القاهرة، عرفت بالشيخ أبى عبد اللّه محمد بن موسى عبد اللّه بن حسن القصرى الرجل الصالح الفقيه

المالكيّ المغربيّ، قدم من قصر كتامة بالمغرب إلى القاهرة و انقطع بهذه الزاوية على طريقة جميلة من العبادة، و طلب العلم إلى أن مات بها فى التاسع من شهر رجب سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة.

زاوية الجاكى

هذه الزاوية فى سويقة الريش من الحكورة خارج القاهرة بجانب الخليج الغربيّ، عرفت بالشيخ المعتقد حسين بن إبراهيم بن عليّ الجاكى، و مات بها فى يوم الخميس العشرين من شوّال سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و دفن خارج باب النصر، و كانت جنازته عظيمة جدّا، و أقام الناس يتبرّكون بزيارة قبره إلى أن كانت سنة سبع عشرة و ثمانمائة، فأقبل الناس إلى زيارة قبره و كان لهم هناك مجتمع عظيم فى كلّ يوم، و يحملون النذور إلى قبره، و يزعمون أن الدعاء عنده لا يردّ فتنة أضلّ الشيطان بها كثيرا من الناس، و هم على ذلك إلى يومنا هذا.

زاوية الأبناسيّ

هذه الزاوية بخط المقس، عرفت بالشيخ الفقيه برهان الدين إبراهيم بن حسين بن موسى بن أيوب الأبناسيّ الشافعيّ، قدم من الريف و برع فى الفقه، و اشتهر بسلامة الباطن، و عرف بالخير و الصلاح، و كتب على الفتوى، و درس بالجامع الأزهر و غيره، و تصدّى لأشغال الطلبة عدّة سنين، و ولى مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، و طلبه الأمير سيف الدين برقوق و هو يومئذ أتابك العساكر حتى يقلده قضاء القضاة بديار مصر، فغيب فرارا من ذلك و تنزها عنه، إلى أن ولى غيره، و كانت ولادته قبيل سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و وفاته بمنزلة المويلح من طريق الحجاز بعد عوده من الحج، فى ثامن المحرّم سنة اثنتين و ثمانمائة، و دفن بعيون القصب.

زاوية اليونسية

هذه الزاوية خارج القاهرة بالقرب من باب اللوث تنزلها الطائفة اليونسية، و أحدهم يونسيّ- بضم الياء المعجمة باثنتين من تحتها و بعد الياء واو ثم نون بعدها سين مهملة فى آخرها ياء آخر الحروف- نسبة إلى يونس، و يونس المنسوب إليه الطائفة اليونسية غير واحد، فمنهم يونس بن عبد الرحمن القميّ مولى آل يقطين، و هو الذى يزعم أن معبوده على عرشه تحمله ملائكته، و إن كان هو أقوى منها، كالكركيّ تحمله رجلاه و هو أقوى منهما، و قد كفر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۵

من زعم ذلك، فإن اللّه تعالى هو الذى يحمل العرش و حملته، و هذه الطائفة اليونسية من غلاة الشيعة و اليونسية أيضا فرقة من المرجئة ينتمون إلى يونس السموىّ، و كان يزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله و الخضوع له، و هو ترك الاستكبار عليه و المحبة له، فمن اجتمعت فيه هذه الخلال فهو مؤمن، و زعم أن إبليس كان عارفا بالله غير أنه كفر باستكباره عليه، و لهم يونس بن يونس بن مساعد الشيبانىّ، ثم المخارقىّ شيخ الفقراء اليونسية، شيخ صالح له كرامات مشهورة، و لم يكن له شيخ بل كان مجذوبا جذب إلى طريق الخير توفى بأعمال دارا فى سنة تسع عشرة و سبعمائة، و قد ناهز تسعين سنة، و قبره مشهور يزار و يتبرّك به، و إليه تنسب هذه الطائفة اليونسية.

زاوية الخلاطى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة بالقرب من زاوية الشيخ نصر المنجىّ، عرفت ... و كانت لهم وجاهة، منهم ناصر الدين محمد بن علاء الدين علىّ بن محمد بن حسين الخلاطىّ، مات فى نصف جمادى الأولى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة و دفن بها.

الزاوية العدوية

هذه الزاوية بالقرافة، تنسب إلى الشيخ عدىّ بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان الهكارىّ القرشىّ الأموىّ. و كان قد صحب عدّة من المشايخ، كعقيل المنبجىّ، و حماد الدباس، و عبد القادر السهروردىّ، و عبد القادر الجيلىّ. ثم انقطع فى جبل الهكارية من أعمال الموصل، و بنى له زاوية، فمال إليه أهل تلك النواحى كلها ميلا لم يسمع لأرباب الزوايا مثله، حتى مات سنة سبع و قيل سنة خمس و خمسين و خمسمائة، و دفن فى زاويته، و قدم ابن أخيه إلى هذه البلاد، و هو زين الدين، فأكرم و أنعم عليه بإمرة، ثم تركها و انقطع فى قرية بالشام تعرف ببيت فار، على هيئة الملوك من اقتناء الخيول المسوّمة و المماليك و الجوارى و الملابس، و عمل الأسمطة الملوكية، فافتتن به بعض نساء الطائفة القيمرية. و بالغت فى تعظيمه، و بذلت له أموالا عظيمة، و حاشيتها تلومها فيه، فلا تصغى إلى قولهم، فاحتالوا حتى أوقفوها عليه و هو عاكف على المنكرات، فما زادها ذلك إلّا ضلالا و قالت: أنتم تنكرون هذا عليه. إنما الشيخ يتدلل على ربه، و أتاه الأمير الكبير علم الدين سنجر الدوادار و معه الشهاب محمود لتحليفه فى أوّل دولة الأشرف خليل بن قلاون إلى قريته، فإذا هو كالملك فى قلعته، للتجمل الظاهر و الحشمة الزائدة، و الفرش الأطلس، و آنية الذهب و الفضة و النضار الصينىّ، و أشياء تفوت العدّ، إلى غير ذلك من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۶

الأشربة المختلفة الألوان، و الأطعمة المنوّعة. فلما دخلا عليه لم يحتفل بهما، و قبّل الأمير سنجريده و هو جالس لم يقم، و بقى قائما قدامه يحدثه، و زين الدين يسأله ساعة، ثم أمره أن يجلس فجلس على ركبتيه متأدّبا بين يديه، فلما حلفاه أنعم عليهما بما يقارب خمسة عشر ألف درهم، و تخلف من طائفته الشيخ عز الدين أميران، و أنعم عليه بإمرة دمشق، ثم نقل إلى إمرة بصفد، ثم أعيد إلى دمشق و ترك الإمرة و انقطع بالمرّة، و تردّد إليه الأكراد من كل قطر و حملوا إليه الأموال، ثم أنه أراد أن يخرج على السلطان بمن معه من الأكراد فى كلّ بلد، فباعوا أموالهم و اشتروا الخيل و الملاح، و وعد رجاله بنيابات البلاد، و نزل بأرض اللجون. فبلغ ذلك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، فكتب إلى الأمير تنكز نائب الشام بكشف أخبارهم، و أمسك السلطان من كان بهذه الزاوية العدوية، و درك على أمير طبر، و اختلفت الأخبار فقيل أنهم يريدون سلطنة مصر، و قيل يريدون ملك اليمن، فقلق السلطان لأمرهم و أهمه إلى أن أمسك الأمير تنكز عز الدين المذكور و سجنه فى سنة ثلاث و ثلاثين و سبعمائة حتى مات، و فرّق الأكراد، و لو لم يتدارك لأوشك أن يكون لهم نوبة.

زاوية السدّار

هذه الزاوية برأس حارة الديلم، بناها الفقير المعتقد علىّ بن السدّار فى سنة سبعين و سبعمائة، و توفى سنة ثلاث و سبعين و سبعمائة.

ذكر المشاهد التى يتبرّك الناس بزيارتها مشهد زين العابدين

اشارة

هذا المشهد فيما بين الجامع الطولونىّ و مدينة مصر، تسميه العامّة مشهد زين العابدين، و هو خطأ، و إنما هو مشهد رأس زيد بن علىّ المعروف بزين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام، و يعرف فى القديم بمسجد محرس الخصىّ.

قال القضاعىّ: مسجد محرس الخصىّ بنى على رأس زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب حين أنفذه هشام بن عبد الملك إلى مصر، و نصب على المنبر بالجامع، فسرقه أهل مصر و دفنوه فى هذا الموضع.

و قال الكندىّ فى كتاب الأمراء: و قدم إلى مصر فى سنة اثنتين و عشرين و مائة أبو الحكم بن أبى الأبيض القيسىّ خطيبا برأس زيد بن علىّ رضوان اللّه عليه، يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة، و اجتمع الناس إليه فى المسجد.

و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ فى كتاب الجوهر المكنون فى ذكر القبائل و البطون: و بنو زيد بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۷

الشهيد بالكوفة، و لم يبق له عليه السلام غير رأسه التى بالمشهد الذى بين الكومين بمصر بطريق جامع ابن طولون و بركة الفيل، و هو من الخطط، يعرف بمسجد محرس الخصىّ، و لما صلب كشفوا عورته فنسج العنكبوت فسترها. ثم إنه بعد ذلك أحرق و ذرى فى الريح و لم يبق منه إلّا رأسه التى بمصر، و هو مشهد صحيح لأنه طيف بها بمصر، ثم نصبت على المنبر بالجامع بمصر فى سنة اثنتين و عشرين و مائة، فسرقت و دفنت فى هذا الموضع إلى أن ظهرت، و بنى عليها مشهد.

و ذكر ابن عبد الظاهر أن الأفضل بن أمير الجيوش لما بلغته حكاية رأس زيد أمر بكشف المسجد، و كان وسط الأكوام، و لم يبق من معالمه إلّا محراب، فوجد هذا العضو الشريف. قال محمد بن منجب بن الصيرفىّ: حدّثنى الشريف فخر الدين أبو الفتوح ناصر الزيدىّ خطيب مصر، و كان من جملة حضر الكشف قال: لما خرج هذا العضو رأيته، و هو هامة وافرة، و فى الجبهة أثر فى سعة الدرهم، فضمّخ و عطّر و حمل إلى دار حتى عمر هذا المشهد، و كان وجد أنه يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأوّل سنة خمس و عشرين و خمسمائة، و كان الوصول به فى يوم الأحد، و وجدانه فى يوم الأحد.

زيد بن على: بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، و كنيته أبو الحسن الإمام، الذى تنسب إليه الزيدية إحدى طوائف الشيعة، سكن المدينة و روى عن أبيه علىّ بن الحسين الملقب زين العابدين، و عن أبان بن عثمان، و عبيد اللّه بن أبى رافع، و عروة بن الزبير و روى عنه محمد بن شهاب الزهرىّ، و زكريا بن أبى زائدة، و خلق ذكره ابن حبان فى الثقات. و قال: رأى جماعة من الصحابة، و قيل لجعفر بن محمد الصادق عن الرافضة أنهم يتبرّؤن من عمك زيد. فقال: برىء اللّه ممن تبرّأ من عمى، كان و اللّه أقرأنا لكتاب اللّه، و أفقهنا فى دين اللّه، و أوصلنا للرحم، و اللّه ما ترك فينا لدينا و لا لآخرة مثله.

و قال أبو إسحاق السبيعىّ: رأيت زيد بن علىّ فلم أر فى أهله مثله، و لا أعلم منه، و لا أفضل، و كان أفصحهم لسانا، و أكثرهم زهدا و بيانا.

و قال الشعبىّ: و اللّه ما ولد النساء أفضل من زيد بن علىّ، و لا أفقه و لا أشجع و لا أزهد. و قال أبو حنيفة: شاهدت زيد بن علىّ كما شاهدت أهله، فما رأيت فى زمانه أفقه منه، و لا أعلم، و لا أسرع جوابا، و لا أبين قولا لقد كان منقطع القرين. و قال الأعمش: ما كان فى أهل زيد بن علىّ مثل زيد، و لا رأيت فيهم أفضل منه، و لا أفصح و لا أعلم و لا أشجع، و لقد و فى له من تابعه لإقامتهم على المنهج الواضح. و سئل جعفر بن محمد الصادق عن خروجه فقال: خرج على ما خرج عليه آباؤه و كان يقال لزيد حليف القرآن، و قال خلوت بالقرآن ثلاث عشرة سنة أقرأه و أتدبره، فما وجدت فى طلب الرزق رخصة، و ما وجدت، ابتغوا من فضل اللّه إلّا العبادة و الفقه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۸

و قال عاصم بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب: لقد أصيب عندكم رجل ما كان فى زمانكم مثله، و لا أراه يكون بعده مثله، زيد بن علىّ، لقد رأيته و هو غلام حدث، و إنه ليسمع الشىء من ذكر اللّه فيغشى عليه حتى يقول القائل ما هو بعائد إلى الدنيا. و كان نقش خاتم زيد، اصبر تؤجر اصدق تنج، و قرأ مرّة قوله تعالى: وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ [محمد/ ۳۸] فقال: إنّ هذا لوعيد و تهديد من اللّه. ثم قال: اللهمّ لا تجعلنا ممن تولى عنك فاستبدلت به بدلا. و كان إذا كلمه إنسان و خاف أن يهجم على أمر يخاف منه مأثما، قال له: يا عبد اللّه أمسك أمسك، كف كف، إليك إليك، عليك بالنظر لنفسك. ثم يكف عنه و لا يكلمه.

و قد اختلف فى سبب قيام زيد و طلبه الأمر لنفسه، فقيل أن زيد بن علىّ، و داود بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس، و محمد بن عمر بن علىّ بن أبى طالب، قدموا على خالد بن عبد اللّه القسرىّ بالعراق فأجازهم و رجعوا إلى المدينة، فلما ولى يوسف بن عمر العراق بعد عزل خالد، كتب إلى هشام بن عبد الملك و ذكر له أن خالد ابتاع أرضا بالمدينة من زيد بعشرة آلاف دينار، ثم ردّ الأرض عليه. فكتب هشام إلى عامل المدينة أن يسيرهم إليه، ففعل. فسألهم هشام عن ذلك، فأقرّوا بالجائزة و أنكروا ما سوى ذلك، و حلفوا فصدّقهم، و أمرهم بالمسير إلى العراق ليقابلوا خالدا، فساروا على كره و قابلوا خالدا فصدّقهم و عادوا نحو المدينة. فلما نزلوا القادسية راسل أهل الكوفة زيدا فعاد إليهم، و قيل بل ادّعى خالد القسرىّ أنه أودع زيدا و داود بن علىّ و نفرا من قريش مالا. فكتب يوسف بن عمر بذلك إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأحضرهم هشام من المدينة و سيرهم إلى يوسف ليجمعهم و خالدا، فقدموا عليه، فقال يوسف لزيد: إن خالدا زعم أنه أودع عندك مالا. فقال زيد:

كيف يودعنى و هو يشتم آبائى على منبره؟ فأرسل إلى خالد فأحضره فى عباءة و قال له: هذا زيد قد أنكر أنّك أودعته شيئا. فنظر خالد إليه و إلى داود و قال ليوسف: أ تريد أن تجمع إثمك مع إثمنا فى هذا؟ كيف أودعه و أنا أشتم آباءه و أشتمه على المنبر؟ فقال زيد لخالد: ما دعاك إلى ما صنعت؟ فقال: شدّد علىّ العذاب فادّعيت ذلك، و أملت أن يأتى اللّه بفرج قبل قدومك.

فرجعوا و أقام زيد و داود بالكوفة، و قيل أن يزيد بن خالد القسرىّ هو الذى ادّعى أن المال وديعة عند زيد، فلما أمرهم هشام بالمسير إلى العراق إلى يوسف استقالوه خوفا من شرّ يوسف و ظلمه. فقال: أنا أكتب إليه بالكف عنكم و ألزمهم بذلك. فساروا على كره، فجمع يوسف بينهم و بين يزيد فقال يزيد: ليس لى عندهم قليل و لا كثير. فقال له يوسف:

أ تهزأ بأمير المؤمنين؟ فعذبه يومئذ عذابا كاد يهلكه، ثم أمر بالقرشيين فضربوا، و ترك زيدا.

ثم اتسحلفهم و أطلقهم فلحقوا بالمدينة، و أقام زيد بالكوفة، و كان زيد قال لهشام لما أمره

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۹

بالمسير إلى يوسف: و اللّه ما آمن من إن بعثتنى إليه أن لا نجتمع أنا و أنت حبيبين أبدا. قال:

لا بدّ من المسير إليه. فسار إليه.

و قيل كان السبب فى ذلك أن زيدا كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسين بن علىّ فى وقوف علىّ رضى اللّه عنه، فزيد يخاصم عن بنى حسين، و جعفر يخاصم عن بنى حسن، فكانا يبلغان كل غاية، و يقومان فلا يعيدان مما كان بينهما، حرفا، فلما مات جعفر نازعه عبد اللّه بن الحسن بن الحسن، فتنازعا يوما بين يدى خالد بن عبد الملك بن الحارث بالمدينة، فأغلظ عبد اللّه لزيد و قال: يا ابن السندية. فضحك زيد و قال:

قد كان إسماعيل عليه السلام ابن أمة، و مع ذلك فقد صبرت أمى بعد وفاة سيدها. و لم يصبر غيرها، يعنى فاطمة بنت الحسين أمّ عبد اللّه، فإنها تزوّجت بعد أبيه الحسن بن الحسن. ثم إنّ زيدا ندم و استحيى من فاطمة، فإنها عمته، و لم يدخل إليها زمانا. فأرسلت إليه: يا ابن أخى إنى لأعلم أن أمّك عندك كأمّ عبد اللّه عنده، و قالت لعبد اللّه: بئسما قلت لأمّ زيد، أما و اللّه لنعم دخيلة القوم كانت، و ذكر أن خالدا قال لهما: اغدوا علينا غدا فلست ابن عبد الملك إن لم أفصل بينكما، فباتت المدينة تغلى كالمرجل. يقول قائل: قال زيد كذا، و يقول قائل: قال عبد اللّه كذا، فلما كان من الغد جلس خالد فى المسجد و اجتمع الناس، فمن بين شامت و مهموم، فدعا بهما خالد و هو يحبّ أن يتشاتما، فذهب عبد اللّه يتكلم، فقال زيد: لا تعجّل يا أبا محمد، أعتق زيد كلّ ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا. ثم أقبل إلى خالد فقال له: لقد جمعت ذرية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر و لا عمر. فقال خالد: أما لهذا السفيه أحد؟ فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حزم فقال: يا ابن أبى تراب و ابن حسين السفيه، أما ترى، لوال عليك حقا و لا طاعة؟ فقال زيد: اسكت أيها القحطانىّ، فإنّا لا نجيب مثلك. قال: و لم ترغب عنى؟ فو اللّه إنى لخير منك و خير من أبيك، و أمى خير من أمّك، فتضاحك زيد و قال: يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب أفتذهب الأحساب؟ فوا اللّه ليذهب

دين القوم و ما تـذهب أحسابهم. فقام عبـد اللّه بن واقد بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب فقال: كذبت و اللّه أيها القحطانىّ، فو اللّه لهو خير منك نفسا و أبا و أمّا و محتدا، و تناوله بكلام كثير و أخذ كفا من حصباء و ضرب بها الأرض و قال: و اللّه إنه ما لنا على هذا من صبر و قام.

ثم شـخص زيـد إلى هشام بن عبـد الملك، فجعل هشام لا يأذن له، و هو يرفع إليه القصـص، فكلما رفع قصة يكتب هشام فى أسـفلها ارجع إلى منزلك. فيقول زيـد: و اللّه لا أرجع إلى خالـد أبـدا، ثم إنه أذن له يوما بعـد طول حبس، فصـعد زيـد و كان بائنا فوقف فى بعض الـدرج و هو يقول: و اللّه لا يحب الـدنيا أحد إلّا ذلّ، ثم صـعد و قد جمع له هشام أهل الشام، فسلّم ثم جلس، فرمى عليه هشام طويلة، فحلف لهشام على شـىء. فقال هشام: لا أصدّقك. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ اللّه لم يرفع أحدا عن أن يرضـى باللّه، و لم يضـع أحدا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۰

عن أن لا يرضـى بـذلك منه. فقال هشام: أنت زيـد المؤمّل للخلافة، و ما أنت و الخلافة، لا أمّ لك و أنت ابن أمة. فقال زيد: لا أعلم أحـدا عنـد اللّه أفضل من نبىّ بعثه، و لقد بعث اللّه نبيا و هو ابن أمة، و لو كان به تقصـير عن منتهى غاية لم يبعث، و هو إسـماعيل بن إبراهيم، و النبوّة أعظم منزلـة من الخلافـة عنـد اللّه، ثم لم يمنعه اللّه من أن جعله أبا للعرب، و أبا لخير البشـر، محمد صـلّى اللّه عليه و سلّم، و ما يقصّر برجل أبوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و بعد أمى فاطمة لا أفخر بأم.

فوثب هشام من مجلسه و تفرّق الشاميون عنه، و قال لحاجبه: لا يبيت هذا فى عسكرى أبدا.

فخرج زيد و هو يقول: ما كره قوم قط جرّ السيوف إلّا ذلوا، و سار إلى الكوفة. فقال:

له محمـد بن عمر بن علىّ بن أبى طالب: أذكرك اللّه يا زيد لما لحقت بأهلك و لا تأت أهل الكوفة، فإنهم لا يفون لك، فلم يقبل و قال: خرج بنا هشام أسراء على غير ذنب من الحجاز إلى الشام، ثم إلى الجزيرة، ثم إلى العراق، ثم إلى تيس ثقيف، يلعب بنا. و أنشد:

بكرت تخوّفنى الحتوف كأننىأصبحت عن عرض الحياة بمعزل

فأجبتها إنّ المنية منزللا بدّ أن أسقى بكاس المنهل

إنّ المنية لو تمثل مثّلتمثلى إذا نزلوا بصيق المنزل

فاثنى حبالك لا أبا لك و اعلمىأنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

أستودعك اللّه، و إنى أعطى اللّه عهدا، إن دخلت يدى فى طاعة هؤلاء ما عشت.

و فارقه و أقبل إلى الكوفة فأقام بها مستخفيا يتنقل فى المنازل، فأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه، فبايعه جماعة من وجوه أهل الكوفة، و كـانت بيعته: إنا نـدعوكم إلى كتاب اللّه و سـنة نبيه، و جهاد الظالمين، و الـدفع عن المستضـعفين، و إعطاء المحرومين، و قسم هـذا الفىء بين أهله بالسواء، و ردّ المظالم، و أفعال الخير، و نصـرة أهل البيت، أ تبايعون على ذلك؟ فإذا قالوا نعم وضع يـده على أيديهم، و يقول: عليك عهـد اللّه و ميثاقه و ذمّته و ذمّـة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم، لتؤمنن ببيعتى، و لتقاتلنّ عدوّى، و لتنصـحنّ لى فى السرّ و العلانيـة، فـإذا قـال نعم مسـح يـده على يـده ثم قال: اللهمّ فاشـهد. فبايعه خمسـة عشـر ألفا، و قيل أربعون ألفا، و أمر أصـحابه بالاستعداد، فأقبل من يريد أن يفى و يخرج معه يستعدّ و يتهيأ، فشاع أمره فى الناس، هذا على قول من زعم أنه أتى الكوفة من الشام و اختفى بها يبايع الناس.

و أما على قول من زعم أنه أتى إلى يوسف بن عمر لمرافعة خالد بن عبد اللّه القسرىّ أو ابنه يزيد بن خالد، فإنه قال: أقام زيد بالكوفة ظـاهرا و معه داود بن علىّ بن عبـد اللّه بن عبـاس، و أقبلت الشـيعة تختلـف إليه و تـأمره بـالخروج و يقولون: إنـا لنرجو أن تكون أنت المنصور، و أنّ هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية، فأقام بالكوفة و يوسف بن عمر يسأل عنه فيقال هو هاهنا، و يبعث إليه ليسير فيقول نعم و يعتـلّ بالوجع، فمكث ما شاء اللّه، ثم أرسل إليه يوسف بالمسير عن الكوفـة، فاحتـج بأنه يحاكم آل طلحـة بن عبيـد اللّه بملك

بينهما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۱

بالمدينة، فأرسل إليه ليوكل وكيلا و يرحل عنها، فلما رأى الجدّ من يوسف فى أمره سار حتى أتى القادسية، و قيل الثعلبية، فتبعه أهل الكوفة و قالوا له: نحن أربعون ألفا لم يتخلف عنك أحد، نضرب عنك بأسيافنا، و ليس هاهنا من أهل الشام إلّا عدّة يسيرة و بعض قبائلنا يكفيهم بإذن اللّه، و حلفوا له بالأيمان المغلظة، فجعل يقول: إنى أخاف أن تخذلونى و تسلمونى كفعلكم بأبى و جدّى، فيحلفون له، فقال له داود بن علىّ: لا يغرّك يا ابن عمى هؤلاء، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك، جدّ علىّ بن أبى طالب حتى قتل، و الحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه و انتزعوا رداءه و جرحوه، أو ليس قد أخرجوا جدّك الحسين و حلفوا له ثم خذلوه و أسلموه و لم يرضوا بذلك حتى قتلوه، فلا ترجع معهم.

فقالوا: يا زيد إنّ هذا لا يريد أن تظهر أنت، و يزعم أنه و أهل بيته أولى بهذا الأمر منكم.

فقال زيد لداود: إن عليا كان يقاتله معاوية بذهبه، و إنّ الحسين قاتله يزيد، و الأمر مقبل عليهم. فقال له داود: إنى أخاف إن رجعت معهم أن لا يكون أحد أشدّ عليك منهم، و أنت أعلم، و مضى داود إلى المدينة و رجع زيد إلى الكوفة.

فأتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و حقه فأحسن ثم قال له:

نشدتك اللّه كم بايعك؟ قال: أربعون ألفا. قال: فكم بايع جدّك؟ قال: ثمانون ألفا. قال:

فكم حصل معه؟ قال: ثلثمائة. قال: نشدتك اللّه أنت خير أم جدّك؟ قال: جدّى. قال:

فهذا القرن خير أم ذلك القرن؟ قال: ذلك القرن. قال: أفتطمع أن يفى لك هؤلاء و قد غدر أولئك بجدّك؟ قال: قد بايعونى و وجبت البيعة فى عنقى و عنقهم. قال: أفتأذن لى أن أخرج من هذا البلد، فلا آمن أن يحدث حدث فأهلك نفسى. فأذن له فخرج إلى اليمامة.

و كتب عبد اللّه بن الحسن بن الحسن إلى زيد: أما بعد، فإن أهل الكوفة نفج العلانية حور السريرة هوج فى الرد، أجزع فى اللقاء، تقدمهم ألسنتهم و لا تتابعهم قلوبهم، و لقد تواترت كتبهم إلىّ بدعوتهم فصممت عن ندائهم، و ألبست قلبى غشاء عن ذكرهم يأسا منهم و إطراحا لهم، و ما لهم مثل إلّا ما قال علىّ بن أبى طالب صلوات اللّه عليه: إن أهملتم خضتم، و إن خوّرتم خرتم، و إن اجتمع الناس و يتجهز للخروج، و تزوّج بالكوفة امرأتين، و كان ينتقل تارة عند هذه فى بنى سلمة قومها، و تارة عند هذه فى الأزد قومها، و تارة فى بنى عبس، و تارة فى بنى تغلب، و غيرهم إلى أن ظهر فى سنة اثنتين و عشرين و مائة، فأمر أصحابه بالاستعداد، و أخذ من كان يريد الوفاء بالبيعة يتجهز، فبلغ ذلك يوسف بن عمر، فبعث فى طلب زيد فلم يوجد، و خاف زيد أن يؤخذ، فتعجل قبل الأجل الذى جعله بينه و بين أهل الكوفة، و على الكوفة يومئذ الحكم بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۲

الصلت فى ناس من أهل الشام، و يوسف بن عمر بالحيرة.

فلما علم أصحاب زيد أن يوسف بن عمر قد بلغه الخبر و أنه يبحث عن زيد، اجتمع إلى زيد جماعة من رؤوسهم فقالوا: رحمك اللّه ما قولك فى أبى بكر و عمر، فقال زيد رحمهما اللّه و غفر لهما، ما سمعت أحدا من أهل بيتى يقول فيهما إلّا خيرا، و إنّ أشدّ ما أقول فيما ذكرتم إنا كنا أحق بسلطان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الناس أجمعين، فدفعونا عنه، و لم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا، و قد ولّوا فعدلوا فى الناس و عملوا بالكتاب و السنة. قالوا فلم يظلمك هؤلاء إذا، كان أولئك لم يظلموا، و إذا كان هؤلاء لم يظلموا، فلم تدعو إلى قتالهم؟ فقال: إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك، هؤلاء ظالمون لى و لأنفسهم و لكم، و إنما ندعوهم إلى كتاب اللّه و سنة نبيه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و الى السنن أن تحيى، و إلى البدع أن تطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، و إن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه و نكثوا بيعته و قالوا: قد سبق الإمام، يعنون محمدا الباقر، و كان قد مات. و قالوا جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه، فسماهم زيد

الرافضة، و هم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة حين فارقوه، و كانت طائفة قد أتت جعفر بن محمد الصادق قبل قيام زيد و أخبروه ببيعته فقال: بايعوه، لهو و اللّه أفضلنا و سيدنا. فعادوا و كتموا ذلك، و كان زيد قد واعد أصحابه أوّل ليلة من صفر، فبلغ ذلك يوسف بن عمر، فبعث إلى الحكم عامله على الكوفة يأمره بأن يجمع الناس بالمسجد الأعظم يحصرهم فيه، فجمعهم، و طلبوا زيدا فخرج ليلا من دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاريّ، و كان بها، و رفعوا النيران و نادوا يا منصور حتى طلع الفجر، فلما أصبحوا نادى أصحاب زيد بشعارهم و ثاروا، فأغلق الحكم دروب السوق و أبواب المسجد على الناس، و بعث إلى يوسف بن عمر و هو بالحيرة فأخبره الخبر، فأرسل إليه خمسين فارسا ليعرفوا الخبر، فساروا حتى عرفوا الخبر و عادوا إليه، فسارت الحيرة بأشراف الناس، و بعث ألفين من الفرسان و ثلاثمائة رجالة معهم النشاب، و أصبح زيد فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتى رجل و ثمانية عشر رجلا، فقال: سبحان اللّه أين الناس؟ فقيل إنهم فى المسجد الأعظم محصورون. فقال: و اللّه ما هذا بعذر لمن بايعنا. و أقبل فلقيه على جبانة الصايديين خمسمائة من أهل الشام فحمل عليهم فيمن معه حتى هزمهم، و انتهى إلى دار أنس بن عمر الأزدىّ، و كان فيمن بايعه و هو فى الدار، فنودى فلم يجب، فناداه زيد فلم يخرج إليه. فقال زيد: ما أخلفكم قد فعلتموها، اللّه حسيبكم. ثم سار و يوسف بن عمر ينظر إليه و هو فى مائتى رجل، فلو قصده زيد لقتله، و الريان يتبع آثار زيد بالكوفة فى أهل الشام، فأخذ زيد فى المسير حتى دخل الكوفة، فسار بعض أصحابه إلى الجبانة و واقعوا أهل الشام، فأسر أهل الشام منهم رجلا و مضوا به إلى يوسف بن عمر فقتله، فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال: قد فعلوها، حسبى اللّه، و سار و هو يهزم من لقيه حتى انتهى إلى باب المسجد، فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الباب و يقولون: يا أهل المسجد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۳

اخرجوا من الذل إلى العز، اخرجوا إلى الدين و الدنيا، فإنكم لستم فى دين و لا دنيا. و زيد يقول: و اللّه ما خرجت و لا قمت مقامى هذا حتى قرأت القرآن، و أتقنت الفرائض، و أحكمت السنن و الآداب، و عرفت التأويل كما عرفت التنزيل، و فهمت الناسخ و المنسوخ، و المحكم و المتشابه، و الخاص و العام، و ما تحتاج إليه الأمّة فى دينها مما لا بدّ لها منه و لا غنى لها عنه، و إنى لعلى بينة من ربى، فرماهم أهل المسجد بالحجارة من فوق المسجد، فانصرف زيد فيمن معه، و خرج إليه ناس من أهل الكوفة، فنزل دار الرزق فأتاه الريان و قاتله، و خرج أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شىء ظنا، فلما كان من الغد أرسل يوسف بن عمر عدّة عليهم العباس بن سعد المزنىّ، فلقيهم زيد فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم أصحاب العباس و قتل منهم نحو من سبعين، فلما كان العشىّ عبّى يوسف بن عمر الجيوش و سرّحهم، فالتقاهم زيد بمن معه و حمل عليهم حتى هزمهم و هو يتبعهم، فبعث يوسف طائفة من الماشية فرموا أصحاب زيد و هو يقاتل حتى دخل الليل، فرمى بسهم فى جبهته اليسرى ثبت فى دماغه، فرجع أصحابه، و لا يظنّ أهل الشام أنهم رجعوا للمساء و الليل، فأنزلوا زيدا فى دار و أتوه بطبيب فانتزع النصل فضج زيد و مات، رحمه اللّه، لليلتين خلتا من صفر سنة اثنتين و عشرين و مائة، و عمره اثنتان و أربعون سنة.

و لما مات اختلف أصحابه فى أمره، فقال بعضهم نطرحه فى الماء. و قال بعضهم بل نحز رأسه و نلقيه فى القتلى. فقال ابنه يحيى بن زيد: و اللّه لا يأكل لحم أبى الكلاب.

و قال بعضهم ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين و نجعل عليه الماء، ففعلوا ذلك و أجروا عليه الماء، و كان معه مولى سندىّ فدلّ عليه، و قيل رآهم قصّار فدل عليه، و تفرّق الناس من أصحاب زيد، و سار ابنه يحيى نحو كربلاء، و تتبع يوسف بن عمر الجرحى فى الدور حتى دلّ على زيد فى يوم جمعة، فأخرجه و قطع رأسه و بعث به إلى هشام بن عبد الملك، فدفع لمن وصل به عشرة آلاف درهم، و نصبه على باب دمشق، ثم أرسله إلى المدينة و سار منها إلى مصر، و أما جسده فإن يوسف بن عمر صلبه بالكناسة و معه ثلاثة ممن كانوا معه، و أقام الحرس عليه، فمكث زيد مصلوبا أكثر من سنتين حتى مات هشام و ولى الوليد من بعده، و بعث إلى يوسف بن عمر أن أنزل زيدا و أحرقه بالنار، فأنزله و أحرقه و ذرّى رماده فى الريح، و كان زيد لما صلب و هو عريان استرخى بطنه

على عورته حتى ما يرى من سوءته شيء، و مرّ زيد مرّة بمحمد ابن الحنفية فنظر إليه و قال: أعيذك بالله أن تكون زيد بن علىّ المصلوب بالعراق، و قال عبد اللّه بن حسين بن عليج بن الحسين بن علىّ: سمعت أبى يقول: اللهمّ إنّ هشاما رضى بصلب زيد فاسلبه ملكه، و إن يوسف بن عمر أحرق زيدا اللهمّ فسلط عليه من لا يرحمه، اللهمّ و أحرق هشاما فى حياته إن شئت، و إلّا فأحرقه بعد موته. قال فرأيت و اللّه هشاما محرقا لما أخذ بنو العباس دمشق، و رأيت يوسف بن عمر بدمشق مقطعا، على كلّ باب من أبواب دمشق منه عضو. فقلت يا أبتاه وافقت دعوتك ليلة القدر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۴

فقال لا يا بنىّ، بل صمت ثلاثة أيام من شهر رجب، و ثلاثة أيام من شعبان، و ثلاثة أيام من شهر رمضان، كنت أصوم الأربعاء و الخميس و الجمعة، ثم أدعو اللّه عليهما من صلاة العصر يوم الجمعة حتى أصلى المغرب، و بعد قتل زيد انتقض ملك بنى أمية و تلاشى إلى أن أزالهم اللّه تعالى ببنى العباس.

و هذا المشهد باق بين كيمان مدينة مصر يتبرّك الناس بزيارته و يقصدونه لا سيما فى يوم عاشوراء، و العامّة تسميه زين العابدين، و هو وهم، و إنما زين العابدين أبوه، و ليس قبره بمصر، بل قبره بالبقيع، و لما قتل الإمام زيد سوّدت الشيعة، أى لبست السواد، و كان أوّل من سوّد على زيد شيخ بنى هاشم فى وقته الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، و رثاه بقصيدة طويلة، و شعره حجة احتج به سيبويه، توفى سنة تسع و عشرين و مائة.

مشهد السيدة نفيسة

قال الشريف النقيب النسابة شرف الدين أبو علىّ محمد بن أسعد بن علىّ بن معمر بن عمر الحسينىّ الجوانىّ المالكىّ فى كتاب الروضة الأنيسة بفضل مشهد السيدة نفيسة رضى اللّه عنها: نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام، أمّها أمّ ولد، و أخوتها القاسم و محمد و علىّ و إبراهيم و زيد و عبيد اللّه و يحيى و إسماعيل و إسحاق و أمّ كلثوم، أولاد الحسن بن زيد بن الحسن بن علىّ، فأمّهم أمّ سلمة، و اسمها زينب ابنة الحسن بن الحسن بن علىّ، و أمّها أمّ ولد تزوّج أمّ كلثوم أخت نفيسة، عبد اللّه بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهم، ثم خلف عليها الحسن بن زيد بن علىّ بن الحسن بن علىّ. و أما علىّ و إبراهيم و زيد أخوة نفيسة من أبيها، فأمّهم أمّ ولد تدعى أمّ عبد الحميد، و أما عبيد اللّه بن الحسن بن زيد فأمّه الزائدة بنت بسطام بن عمير بن قيس الشيبانىّ، و أما إسماعيل و إسحاق فهما لأمى ولد، و كان إسماعيل من أهل الفضل و الخير، صاحب صوم و نسك، و كان يصوم يوما و يفطر يوما. و أما يحيى بن زيد فله مشهد معروف بالمشاهد، يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و تزوّج بنفيسة رضى اللّه عنها إسحاق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام، و كان يقال له إسحاق المؤتمن، و كان من أهل الصلاح و الخير و الفضل و الدين، روى عنه الحديث، و كان ابن كاسب إذا حدّث عنه يقول: حدّثنى الثقة الرضى إسحاق بن جعفر، و كان له عقب بمصر منهم بنو الرقى، و بحلب بنو زهرة. و ولدت نفيسة من إسحاق ولدين هما القاسم و أمّ كلثوم لم يعقبا.

و أما جدّ نفيسة و هو زيد بن الحسن بن علىّ، فروى عن أبيه و عن جابر و ابن عباس، و روى عنه ابنه، و كانت بينه و بين عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية خصومة وفدا لأجلها على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۵

الوليد بن عبد الملك، و كان يأتى الجمعة من ثمانية أميال، و كان إذا ركب نظر الناس إليه و عجبوا من عظم خلقه و قالوا: جدّه رسول اللّه. و كتب إليه الوليد بن عبد الملك يسأله أن يبايع لابنه عبد العزيز و يخلع سليمان بن عبد الملك، ففرق منه و أجابه، فلما استخلف سليمان وجد كتاب زيد بذلك إلى الوليد، فكتب إلى أبى بكر بن حزم أمير المدينة: ادع زيد بن الحسن فأقره الكتاب، فإن

عرفه فاكتب إليّ، و إن هو نكل فقدّمه فأصب يمينه عند منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إنه ما كتبه و لا أمر به، فخاف زيدا للّه و اعترف. فكتب بذلك أبو بكر، فكتب سليمان أن يضربه مائة سوط و أن يدرعه عباءة و يمشيه حافيا، فحبس عمر بن عبد العزيز الرسول و قال: حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب به فى حق زيد. فقال للرسول: لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض. فمات سليمان و أحرق عمر الكتاب.

و أما والد نفيسة و هو الحسن بن زيد، فهو الذى كان والى المدينة النبوية من قبل أبى جعفر عبد اللّه بن محمد المنصور، و كان فاضلا أديبا عالما، و أمّه أمّ ولد. توفى أبوه و هو غلام، و ترك عليه دينا أربعة آلاف دينار، فحلّف الحسن ولده أن لا يظل رأسه سقف إلّا سقف مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو بيت رجل يكلمه فى حاجة حتى يقضى دين أبيه، فوفاه و قضاه بعد ذلك. و من كرمه أنه أتى بشاب شارب متأدّب، و هو عامل على المدينة فقال: يا ابن رسول اللّه لا أعود و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أقيلوا ذوى الهيآت عثراتهم» و أنا ابن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، و قد كان أبى مع أبيك، كما قد علمت. قال: صدقت، فهل أنت عائد؟ قال: لا و اللّه. فأقاله و أمر له بخمسين دينارا و قال له: تزوّج بها وعد إليّ. فتاب الشاب و كان الحسن بن زيد يجرى عليه النفقة.

و كانت نفيسة من الصلاح و الزهد على الحدّ الذى لا مزيد عليه، فيقال أنها حجت ثلاثين حجة، و كانت كثيرة البكاء، تديم قيام الليل و صيام النهار، فقيل لها: ألا ترفقين بنفسك؟ فقالت: كيف أرفق بنفسى و أمامى عقبة لا يقطعها إلّا الفائزون. و كانت تحفظ القرآن و تفسيره، و كانت لا تأكل إلا فى كلّ ثلاث ليال أكلة واحدة، و لا تأكل من غير زوجها شيئا، و قد ذكر أنّ الإمام الشافعيّ محمد بن إدريس كان زارها و هى من وراء الحجاب و قال لها: ادعى لى، و كان صحبته عبد اللّه بن عبد الحكم. و ماتت رضى اللّه عنها بعد موت الإمام الشافعيّ رحمة اللّه عليه بأربع سنين، لأنّ الشافعيّ توفى سلخ شهر رجب سنة أربع و مائتين.

و قيل أنها كانت فيمن صلّى على الإمام الشافعيّ. و توفيت السيدة نفيسة فى شهر رمضان سنة ثمان و مائتين، و دفنت فى منزلها، و هو الموضع الذى به قبرها الآن، و يعرف بخط درب السباع، و درب بزرب. و أراد إسحاق بن الصادق و هو زوجها أن يحملها ليدفنها بالمدينة، فسأله أهل مصر أن يتركها و يدفنها عندهم لأجل البركة، و قبر السيدة نفيسة أحد المواضع المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۴ ؛ ص۳۲۵

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۶

المعروفة بإجابة الدعاء بمصر، و هى أربعة مواضع: سجن نبيّ اللّه يوسف الصدّيق عليه السلام، و مسجد موسى صلوات اللّه عليه، و هو الذى بطرا، و مشهد السيدة نفيسة رضى اللّه عنها، و المخدع الذى على يسار المصلّى فى قبلة مسجد الإقدام بالقرافة. فهذه المواضع لم يزل المصريون ممن أصابته مصيبة أو لحقته فاقة أو جائحة يمضون إلى أحدها، فيدعون اللّه تعالى فيستجيب لهم، مجرّب ذلك. انتهى.

و يقال أنها حفرت قبرها هذا و قرأت فيه تسعين و مائة ختمة، و أنها لما احتضرت خرجت من الدنيا و قد انتهت فى حزبها إلى قوله تعالى: قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ [الأنعام/ ۱۲] ففاضت نفسها رحمها اللّه تعالى مع قوله الرحمة، و يقال أن الحسن بن زيد والد السيدة نفيسة كان مجاب الدعوة ممدوحا، و أن شخصا و شى به إلى أبى جعفر المنصور أنه يريد الخلافة لنفسه، فإنه كان قد انتهت إليه رياسة بنى حسن، فأحضره من المدينة و سلبه ماله، ثم إنه ظهر له كذب الناقل عنه، فمنّ عليه و ردّه إلى المدينة مكرّما، فلما قدمها بعث إلى الذى و شى به بهدية و لم يعتبه على ما كان منه. و يقال أنه كان مجاب الدعوة، فمرّت به امرأة و هو فى الأبطح، و معها ابن لها على يدها فاختطفه عقاب، فسألت الحسن بن زيد أن يدعو اللّه لها بردّه، فرفع يديه إلى السماء و دعا ربه، فإذا بالعقاب قد ألقى الصغير من غير أن يضرّه بشيء، فأخذته أمّه. و كان يعدّ بألف من الكرام.

و لما قدمت السيدة نفيسة إلى مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر نزلت بالمنصوصة، و كان بجوارها دار فيها قوم من أهل الذمّة، و لهم

ابنة مقعدة لم تمش قط، فلما كان فى يوم من الأيام ذهب أهلها فى حاجة من حوائجهم و تركوا المقعدة عند السيدة نفيسة، فتوضأت وصبت من فضل وضوئها على الصبية المقعدة و سمت اللّه تعالى، فقامت تسعى على قدميها ليس بها بأس البتة، فلما قدم أهلها و عاينوها تمشى أتوا إلى السيدة نفيسة و قد تيقنوا أنّ مشى ابنتهم كان ببركة دعائها، و أسلموا بأجمعهم على يديها، فاشتهر ذلك بمصر و عرف أنه من بركاتها. و توقف النيل عن الزيادة فى زمنها فحضر الناس إليها و شكوا إليها ما حصل من توقف النيل، فدفعت قناعها إليهم و قالت لهم: ألقوه فى النيل، فألقوه فيه، فزاد حتى بلغ اللّه به المنافع. و أسر ابن لامرأة ذمّية فى بلاد الروم، فأتت إلى السيدة نفيسة و سألتها الدعاء أن يردّ اللّه ابنها عليها، فلما كان الليل لم تشعر الذمّية إلّا بابنها و قد هجم عليها دارها، فسألته عن خبره فقال: يا أمّاه لم أشعر إلّا و يد قد وقعت على القيد الذى كان فى رجلىّ و قائل يقول: أطلقوه قد شفعت فيه نفيسة بنت الحسن. فو الذى يحلف به يا أمّاه لقد كسر قيدى و ما شعرت بنفسى إلّا و أنا واقف بباب هذه الدار. فلما أصبحت الذمّية أتت إلى السيدة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۷

نفيسة و قصت عليها الخبر و أسلمت هى و ابنها و حسن إسلامهما.

و ذكر غير واحد من علماء الأخبار بمصر أن هذا قبر السيدة نفيسة بلا خلاف، و قد زار قبرها من العلماء و الصالحين خلق لا يحصى عددهم. و يقال أن أوّل من بنى على قبر السيدة نفيسة عبيد اللّه بن السرى بن الحكم أمير مصر، و مكتوب فى اللوح الرخام الذى على باب ضريحها، و هو الذى كان مصفحا بالحديد بعد البسملة ما نصه، نصر من اللّه و فتح قريب، لعبد اللّه و وليه معدّ أبى تميم الإمام المستنصر باللّه أمير المؤمنين، صلوات اللّه عليه و على آبائه الطاهرين و أبنائه المكرّمين، أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين و هادى دعاة المؤمنين عضّد اللّه به الدين و أمتع بطول بقائه المؤمنين و أدام قدرته و أعلى كلمته، و شدّ عضده بولده الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين، زاد اللّه فى علائه و أمتع المؤمنين بطول بقائه فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و ثمانين و أربعمائة، و القبة التى على الضريح جدّدها الخليفة الحافظ لدين اللّه فى سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة، و أمر بعمل الرخام الذى بالمحراب.

مشهد السيدة كلثوم

هى كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، موضعه بمقابر قريش بمصر بجوار الخندق، و هى أمّ جعفر بن موسى بن إسماعيل بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، كانت من الزاهدات العابدات.

سنا و ثنا

يقال أنهما من أولاد جعفر بن محمد الصادق، كانتا تتلوان القرآن الكريم فى كلّ ليلة، فماتت إحداهما، فصارت الأخرى تتلو و تهدى ثواب قراءتها لأختها حتى ماتت.

ذكر مقابر مصر و القاهرة المشهورة

القبر مدفن الإنسان، و جمعه قبور، و المقبرة موضع القبر. قال سيبويه: المقبرة ليس على الفعل، و لكنه اسم، و قبره يقبره: دفنه. و أقبره جعل له قبرا. و اعلم أنّ لأهل مدينة مصر و لأهل القاهرة عدّة مقابر و هى: القرافة، فما كان منها فى سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى، و ما كان منها فى شرقىّ مصر بجوار المساكن يقال له القرافة الكبرى، و فى القرافة الكبرى كانت مدافن أموات المسلمين منذ افتتحت أرض مصر و اختط العرب مدينة الفسطاط، و لم يكن لهم مقبرة سواها، فلما قدم القائد جوهر من قبل المعز لدين اللّه و

بنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۸

القاهرة و سكنها الخلفاء، اتخذوا بها تربة عرفت بتربة الزعفران، قبروا فيها أمواتهم، و دفن رعيتهم من مات منهم فى القرافة إلى أن اختطت الحارات خارج باب زويلة، فقبر سكانها موتاهم خارج باب زويلة مما يلى الجامع، فيما بين جامع الصالح و قلعة الجبل، و كثرت المقابر بها عند حدوث الشدّة العظمى أيام الخليفة المستنصر، ثم لما مات أمير الجيوش بدر الجمالىّ دفن خارج باب النصر، فاتخذ الناس هنالك مقابر موتاهم، و كثرت مقابر أهل الحسينية فى هذه الجهة، ثم دفن الناس الأموات خارج القاهرة فى الموضع الذى عرف بميدان القبق، فيما بين قلعة الجبل و قبة النصر، و بنوا هناك الترب الجليلة، و دفن الناس أيضا خارج القاهرة فيما بين باب الفتوح و الخندق، و لكل مقبرة من هذه المقابر أخبار سوف أقص عليك من أنبائها ما انتهت إلى معرفته قدرتى إن شاء اللّه تعالى. و يذكر أهل العناية بالأمور المتقادمة أن الناس فى الدهر الأوّل لم يكونوا يدفنون موتاهم إلى أن كان زمن دونای الذى يدعى سيد البشر لكثرة ما علّم الناس من المنافع، فشكا إليه أهل زمانه ما يأتذون به من خبث موتاهم، فأمرهم أن يدفنوهم فى خوابى و يسدّوا رؤسها، ففعلوا ذلك، فكان دونای أوّل من دفن الموتى، و ذكر أن دونای هذا كان قبل آدم بدهر طويل مبلغه عشرون ألف سنة، و هى دعوى لا تصح، و فى القرآن الكريم ما يقتضى أن قابيل ابن آدم أوّل من دفن الموتى، و اللّه أصدق القائلين. و قد قال الشافعىّ رحمه اللّه: و أكره أن يعظّم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا مخافة الفتنة عليه و على من بعده.

ذكر القرافة

روى الترمذىّ من حديث أبى طيبة عبد اللّه بن مسلم، عن عبد اللّه بن بريدة، عن أبيه رفعه: من مات من أصحابى بأرض بعث قائدا و نورا لهم يوم القيامة. قال: و هذا حديث غريب. و قد روى عن أبى طيبة، عن ابن بريدة مرسلا، و هذا أصح، قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر: حدّثنا عبد اللّه بن صالح، حدّثنا الليث ابن سعد قال: سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك و قال: أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب بذلك إلى عمر رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر سله لم أعطاك به ما أعطاك و هى لا تزدرع و لا يستنبط بها ماء. و لا ينتفع بها. فسأله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أنّ فيها غراس الجنة، فكتب بذلك إلى عمر رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر إنّا لا نعلم غراس الجنة إلّا المؤمنين، فأقبر فيها من مات قبلك من المسلمين و لا تبعه بشىء. فكان أوّل من دفن فيها رجل من المغافر يقال له عامر، فقيل عمرت. فقال المقوقس لعمرو: و ما ذلك، و لا على هذا عاهدتنا، فقطع لهم الحدّ الذى بين المقبرة و بينهم.

و عن ابن لهيعة أن المقوقس قال لعمرو: إنا لنجد فى كتابنا أن ما بين هذا الجبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۹

و حيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة. فكتب بقوله إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فقال:

صدق، فاجعلها مقبرة للمسلمين، فقبر فيها ممن عرف من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خمسة نفر، عمرو بن العاص السهمىّ، و عبد اللّه بن حذافة السهمىّ، و عبد اللّه بن جزء الزبيدىّ، و أبو بصيرة الغفارىّ، و عقبة بن عامر الجهنىّ. و يقال و مسلمة بن مخلد الأنصارىّ انتهى.

و يقال أن عامرا هو الذى كان أوّل من دفن بالقرافة، قبره الآن تحت حائط مسجد الفتح الشرقىّ. و قالت فيه امرأة من العرب:

قامت بواكيه على قبرهمن لى من بعدك يا عامر

تركتنى فى الدار ذا غربةقد ذلّ من ليس له ناصر

و روى أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ مصر من حديث حرملة بن عمران قال: حدّثنى عمير بن أبى مدرك

الخولانيّ عن سفيان بن وهب الخولانيّ قال: بينما نحن نسير مع عمرو بن العاص في سفح هذا الجبل و معنا المقوقس، فقال له عمرو: يا مقوقس ما بال جبلكم هذا أقرع ليس عليه نبات و لا شجر على نحو بلاد الشام؟ فقال: لا أدرى، و لكنّ اللّه أغنى أهله بهذا النيل عن ذلك، و لكنه نجد تحته ما هو خير من ذلك.

قال: و ما هو؟ قال ليدفنن تحته أو ليقبرنّ تحته قوم يبعثهم اللّه يوم القيامة لا حساب عليهم، قال عمرو: اللهمّ اجعلنى منهم. قال حرملة بن عمران: فرأيت قبر عمرو بن العاص، و قبر أبى بصيرة، و قبر عقبة بن عامر فيه. و خرّج أبو عيسى الترمذيّ من حديث أبى طيبة عبد اللّه بن مسلم، عن عبد اللّه بن بريدة، عن أبيه رفعه: «من مات من أصحابى بأرض بعث قائدا لهم و نورا يوم القيامة»، و قال القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعيّ: القرافة هم بنو غض بن سيف بن وائل بن المغافر، و فى نسخة بنو غصن. و قال أبو عمرو الكنديّ: بنو جحض بن سيف بن وائل بن الجيزيّ بن شراحيل بن المغافر بن يغفر. و قيل أن قرافة اسم أمّ عزافر، و جحض ابنى سيف بن وائل بن الجيزيّ. قد صحف القضاعيّ فى قوله غصن بالغين المعجمة، و الأقرب ما قاله الكنديّ، لأنه أقعد بذلك. و قال ياقوت و القرافة- بفتح القاف وراء مخففة و ألف خفيفة و فاء- الأوّل مقبرة بمصر مشهورة مسماة بقبيلة من المغافر يقال لهم بنو قرافة، الثانى القرافة محلة بالإسكندرية منسوبة إلى القبيلة أيضا. و قال الشريف محمد بن أسعد الجوانيّ فى كتاب النقط: و قد ذكر جامع القرافة الذى يقال له اليوم جامع الأولياء، و كان جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع و يجلسون فى ليالى الصيف يتحدّثون فى القمر، فى صحنه، و فى الشتاء ينامون عند المنبر، و كان يحصل لقيمه الأشربة و الحلوى و الجرايات، و كان الناس يحبون هذا الموضع و يلزمونه لأجل من يحضر من الرؤساء، و كانت الطفيلية يلزمون المبيت فيه ليالى الجمع، و كذلك أكثر المساجد التى بالقرافة و الجبل و المشاهد لأجل ما يحمل إليها و يعمل فيها من الحلاوات و اللحومات و الأطعمة، و قال موسى بن محمد بن سعيد فى كتاب المعرب عن أخبار المغرب: و بت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۰

ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط، و هى فى شرقيها بها منازل الأعيان بالفسطاط و القاهرة، و قبور عليها مبان معتنى بها، و فيها القبة العالية العظيمة المزخرفة التى فيها قبر الإمام الشافعيّ رضى اللّه عنه، و بها مسجد جامع و ترب كثيرة عليها أوقاف للقرّاء، و مدرسة كبيرة للشافعية، و لا تكاد تخلو من طرب، و لا سيما فى الليالى المقمرة، و هى معظم مجتمعات أهل مصر، و أشهر منتزهاتهم و فيها أقول:

إنّ القرافة قد حوت ضدّين من‌دنيا و أخرى فهى نعم المنزل

يغشى الخليع بها السماع مواصلاو يطوف حول قبورها المتبتل

كم ليلة بتنا بها و نديمنالحن يكاد يذوب منه الجندل

و البدر قد ملأ البسيطة نورهفكأنما قد فاض منه جدول

و بدا يضاحك أوجها حاكينهلما تكامل وجهه المتهلل

و فوق القرافة من شرقيها جبل المقطم، و ليس له علوّ و لا عليه اخضرار، و إنما يقصد للبركة، و هو نبيه الذكر فى الكتب، و فى سفحه مقابر أهل الفسطاط و القاهرة، و الإجماع على أنه ليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها و لا أبهى و لا أعظم و لا أنظف من أبنيتها و قبابها و حجرها، و لا أعجب تربة منها، كأنها الكافور و الزعفران مقدّسة فى جميع الكتب، و حين تشرف عليها تراها كأنها مدينة بيضاء، و المقطم عال عليها كأنه حائط من ورائها، و قال شافع بن علىّ:

تعجبت من أمر القرافة إذ غدتعلى وحشة الموتى لها قلبنا يصبو

فألفيتها مأوى الأحبة كلهمو مستوطن الأحباب يصبو له القلب

و قال الأديب أبو سعيد محمد بن أحمد العميدىّ:

إذا ما ضاق صدرى لم أجد لى‌مقرّ عبادة إلّا القرافه

لئن لم يرحم المولى اجتهادىو قلة ناصرى لم ألف رأفه

و اعلم أن الناس فى القديم إنما كانوا يقبرون موتاهم فيما بين مسجد الفتح و سفح المقطم، و اتخذوا الترب الجليلة أيضا فيما بين مصلّى خولان و خط المغافر التى موضعها الآن كيمان تراب، و تعرف الآن بالقرافة الكبرى. فلما دفن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ابنه فى سنة ثمان و ستمائة بجوار قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعىّ، و بنى القبة العظيمة على قبر الشافعىّ، و أجرى لها الماء من بركة الحبش بقناطر متصلة منها، نقل الناس الأبنية من القرافة الكبرى إلى ما حول الشافعىّ، و أنشأوا هناك الترب، فعرفت بالقرافة الصغرى، و أخذت عمائرها فى الزيادة و تلاشى أمر تلك، و أما القطعة التى تلى قلعة الجبل فتجدّدت بعد السبعمائة من سنى الهجرة، و كان ما بين قبة الإمام الشافعىّ، رحمة اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۱

عليه، و باب القرافة ميدانا واحدا تتسابق فيه الأمراء و الأجناد، و يجتمع الناس هنالك للتفرّج على السباق، فتصير الأمراء تسابق على حدة، و الأجناد تسابق فى جهة و هم منفردون عن الأمراء، و الشرط فى السباق من تربة الأمير بيدرا إلى باب القرافة، ثم استجدّ أمراء دولة الناصر محمد بن قلاون فى هذه الجهة الترب، فبنى الأمير يلبغا التركمانىّ، و الأمير طقتمر الدمشقىّ، و الأمير قوصون و غيرهم من الأمراء، و تبعهم الجند و سائر الناس، فبنوا الترب و الخوانك و الأسواق و الطواحين و الحمامات، حتى صارت العمارة من بركة الحبش إلى باب القرافة، و من حدّ مساكن مصر إلى الجبل، و انقسمت الطرق فى القرافة و تعدّدت بها الشوارع، و رغب كثير من الناس فى سكناها العظم القصور التى أنشأت بها، و سميت بالترب، و لكثرة تعاهد أصحاب الترب لها و تواتر صدقاتهم و مبرّاتهم لأهل القرافة، و قد صنف الناس فيمن قبر بالقرافة، و أكثروا من التأليف فى ذلك، و لست بصدد شىء مما صنفوا فى ذلك، و إنما غرضى أن أذكر ما تشتمل عليه القرافة. و فى سنة ثلاث و ثلاثين و أربعمائة ظهر بالقرافة شىء يقال له القطربة، تنزل من جبل المقطم، فاختطفت جماعة من أولاد سكانها حتى رحل أكثرهم خوفا منها، و كان شخص من أهل كبارة مصر يعرف بحميد الفوّال خرج من أطفيح على حماره، فلما وصل إلى حلوان عشاء رأى امرأة جالسة على الطريق فشكت إليه ضعفا و عجزا، فحملها خلفه فلم يشعر بالحمار إلّا و قد سقط، فنظر إلى المرأة فإذا بها قد أخرجت جوف الحمار بمخاليبها، ففرّ و هو يعدو إلى والى مصر و ذكر له الخبر، فخرج بجماعته إلى الموضع فوجد الدابة قد أكل جوفها، ثم صارت بعد ذلك تتبع الموتى بالقرافة و تنبش قبورهم و تأكل أجوافهم و تتركهم مطروحين، فامتنع الناس من الدفن فى القرافة زمنا حتى انقطعت تلك الصورة.

ذكر المساجد الشهيرة بالقرافة الكبيرة

اشارة

اعلم أن القرافة بمصر اسم لموضعين، القرافة الكبيرة حيث الجامع الذى يقال له جامع الأولياء، و القرافة الصغيرة و بها قبر الإمام الشافعىّ، و كانتا فى أوّل الأمر خطتين لقبيلة من اليمن هم من المغافر بن يغفر، يقال لهم بنو قرافة. ثم صارت القرافة الكبيرة جبانة، و هى حيث مصلّى خولان و البقعة و ما هو حول جامع الأولياء، فإنه كان يشتمل على مساجد و ربط و سوق و عدّة مساكن، منها ما خرب و منها ما هو باق، و سترى من ذلك ما يتيسر ذكره.

مسجد الأقدام

هذا المسجد بالقرافة بخط المغافر. قال القضاعىّ: ذكر الكندىّ أن الجند بنوع و ليس من الخطط، و سمى بالأقدام لأنّ مروان بن الحكم لما دخل مصر و صالح أهلها و بايعوه، امتنع من بيعته ثمانون رجلا من المغافر سوى غيرهم، و قالوا لا ننكث بيعة ابن الزبير،

فأمر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۲

مروان بقطع أيديهم و أرجلهم و قتلهم على بئر المغافر فى هذا الموضع، فسمى المسجد بهم لأنه بنى على آثارهم. و الآثار الأقدام، يقال جئت على قدم فلان أى على أثره، و قيل بل أمرهم بالبراءة من علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه فلم يتبرّؤوا منه فقتلهم هناك. و قيل إنما سمى مسجد الأقدام لأنّ قبيلتين اختلفتا فيه، كلّ تدّعى أنه من خطتها، فقيس ما بينه و بين كلّ قبيلة بالأقدام و جعل لأقربهما منه. و القديم من هذا المسجد هو محرابه و الأروقة المحيطة به، و أما خارجه فزيادة الإخشيد، و الزيادة الجديدة التى فى بحريه لسمعون الملقب بسهم الدولة متولى الستارة، و كان من أهل السنة و الخير. و يقال إنما سمى مسجد الأقدام لأنه كان يتداوله العباد، و كانت حجارته كذانا ، فأثر فيها موضع أقدامهم، فسمى لذلك مسجد الأقدام.

مسجد الرصد

هذا المسجد بناه الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ بعد بنائه للجامع المعروف بجامع الفيلة، لأجل رصد الكواكب بالآلة التى يقال لها ذات الحلق، كما ذكر فيما تقدّم.

مسجد شقيق الملك

هذا المسجد بجوار مسجد الرصد، بناه شقيق الملك خسروان صاحب بيت المال، أحد خدّام القصر فى أيام الخليفة الحافظ لدين اللّه فى سنة إحدى و أربعين و خمسمائة، و عمل فيه للحافظ ضيافة عظيمة حضر فيها بنفسه، و معه الأمراء و الأستاذون و كافة الرؤساء، و كان فيه كرم و سموّ همة، و كان لمساجد القرافة و الجبل عنده روزنامج بأسماء أربابها، فينفد إليهم فى أيام العنب و التين لكلّ مسجد قفص رطب، و يرسل فى كلّ ليلة من ليالى الوقود لكلّ مسجد خروف شواء و سطل جوذآب و جام حلوى، و لا سيما إذا كان بائتا فى هذا المسجد، فإنه لا يأكل حتى يسير ذلك لمن اسمه عنده، و كان يعمل جفان القطائف المحشوّة باللوز و السكر و الكافور و المسك، و فيها ما فيه بدل اللوز الفستق، و يستدعى من لا يقدر على ذلك من أهل الجبل و القرافة و ذوى البيوت المنقطعين و يأمر إذا حضروا بسكب الحلو و الشيرج عليه بالجرار، و يأمرهم بالأكل منه، و الحمل معهم، و كان أحبهم إليه من يأكل طعامه و يستدعى برّه و أنعامه رحمه اللّه.

مسجد الانطاكىّ

هذا المسجد كان أيضا بالرصد، و ما برحت هذه المساجد الثلاثة بالرصد يسكنها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۳

الناس إلى ما بعد سنة ثمانين و سبعمائة، ثم خربت و صار الرصد من الأماكن المخوفة بعد ما أدركته منتزها للعامّة.

مسجد النارنج

هذا المسجد عامر إلى يومنا هذا فيما بين الرصد و القرافة الكبرى، بجانب سقاية ابن طولون المعروفة بعفصة الكبرى، غربيها إلى البحرىّ قليلا، و هو المطلّ على بركة الحبش شرقىّ الكتفى و قبلىّ القرافة. بنته الجهة الآمرية المعروفة بجبهة الدار الجديدة فى سنة اثنتين و عشرين و خمسمائة، أخرجت له اثنى عشر ألف دينار على يد الأستاذين افتخار الدولة يمن، و معز الدولة الطويل، المعروف بالوحش. و تولى العمارة و الإنفاق عليه الشريف أبو طالب موسى بن عبد اللّه بن هاشم بن مشرف بن جعفر بن المسلم بن عبيد اللّه

بن جعفر بن محمد بن إبراهيم بن محمد اليمانيّ بن عبيد اللّه بن موسى الكاظم الحسينيّ الموسويّ، المعروف بابن أخى الطيب بن أبى طالب الورّاق، و سمى مسجد النارنج لأنّ نارنجه لا ينقطع أبدا.

مسجد الأندلس

هذا المسجد فى شرقيّ القرافة الصغرى بجانب مسجد الفتح، فى الموضع الذى يعرف عند الزوّار بالبقعة، و هو مصلّى المغافر على الجنائز. و يقال أنه بنى عند فتح مصر، و قيل بنى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، ثم بنته جهة مكنون، و اسمها علم الآمرية أمّ ابنة الآمر التى يقال لها ست القصور، فى سنة ست و عشرين و خمسمائة، على يد المعروف بالشيخ أبى تراب.

و جهة مكنون هذه: كان الخليفة الآمر بأحكام اللّه كتب صداقها و جعل المقدّم منه أربعة عشر ألف دينار، و كان لها صدقات و برّ و خير و فضل، و عندها خوف من اللّه، و كانت تبعث إلى الأشراف بصلات جزيلة، و ترسل إلى أرباب البيوت و المستورين أموالا كثيرة، و لما وهب الآمر لهزار الملوك و لبرغش فى كلّ يوم مائتى ألف دينار عينا، لكل منهما مائة ألف دينار، حضر، إليها عشاء على عادته، فأغلقت باب مقصورتها قبل دخوله و قالت له:

و اللّه ما تدخل إلىّ أو تهب لى مثل ما وهبت لواحد من غلاميك. فقال: الساعة: ثم استدعى بالفرّاشين فحضروا فقال: هاتوا مائة ألف دينار الساعة، و لم يزل واقفا إلى أن حضرت عشرة كيسة فى كل كيس عشرة آلاف دينار، و يحمل عشرة من الفرّاشين. ففتحت له الباب و دخل إليها. و مكنون هذا هو الأستاذ الذى كان برسم خدمتها، و يقال له مكنون القاضى لسكونه و هدئه، و كان فيه خبر و برّ كبير، و بجانب مسجد الأندلس هذا رباط من غريبه بنته جهة مكنون هذه فى سنة ست و عشرين و خمسمائة، برسم العجائز الأرامل. فلما كان فى

سنة أربع و سبعين و خمسمائة، بنى الحاجب لؤلؤ العادلىّ برحبة الأندلس و الرباط بستانا و أحواضا و مقعدا، و جمع بين مصلّى الأندلس و بين الرباط بحائط بينهما، و عمل ذلك لحلول العفيف حاتم بن مسلم المقدسىّ الشافعىّ به، و لما مات السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ بدمشق فى المحرّم سنة ست و سبعين و ستمائة، و قام من بعده فى السلطنة ابنه الملك السعيد محمد بركة خان، عمل لأبيه عزاء بالأندلس هذا، فاجتمع هناك القرّاء و الفقهاء و أقيمت المطابح و هيئت المطاعم الكثيرة و فرّقت على الزوايا و مدّت أسمطة عظيمة بالخيام التى ضربت حول الأندلس، فأكل الناس على اختلاف طبقاتهم، و قرأ القرّاء ختمة شريفة، و عدّ هذا الوقت من المهمات العظيمة المشهورة بديار مصر، و كان ذلك فى المحرّم سنة سبع و سبعين و ستمائة، على رأس سنة من موت الملك الظاهر، فقال فى ذلك القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر.

يا أيها الناس اسمعواقولا بصدق قد كسى

إنّ عزا السلطان فىغرب و شرق ما نسى

أ ليس ذا مأتمهيعمل فى الأندلس

ثم عمل بعد ذلك مجتمع فى المدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعىّ من القرافة، و مجتمع بجامع ابن طولون، و مجتمع بجامع الظاهر من الحسينية خارج القاهرة، و مجتمع بالمدرسة الظاهرية بين القصرين، و مجتمع بالمدرسة الصالحية، و مجتمع بدار الحديث الكاملية، و مجتمع بالخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء، و مجتمع بالجامع الحاكمىّ، و أقيم فى كلّ واحد من هذه المجتمعات الأطعمة الكثيرة، و عمل للتكاررة خوان، و للفقراء خوان، حضره كثير من أهل الخيل و الصلاح فقيل فى ذلك:

فشكرا لها أوقات برّ نقبلتلقد كان فيها الخير و البرّ أجمعا

لقد عمّت النعمى بها كلّ موطنسقتها الغوادى مربعا ثم مربعا

و لما مضى السلطان لما يمض جودهو خلّف فينا برّه متنوّعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
فدام له منّا الدعاء مكرّرامدى دهرنا و اللّه يسمع من دعا

مسجد البقعة

هذا المسجد مجاور لمسجد الفتح من غربيه، بناه الأمير أبو منصور صافى الأفضلى.

مسجد الفتح

هذا المسجد المشهور بجوار قبر الناطق، بناه شرف الإسلام سيف الإمام يانس الرومىّ وزير مصر، و سمى بالفتح لأن منه كان انهزام الروم إلى قصر الشمع حين قدم الزبير بن
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۵
العوّام، و المقداد بن الأسود فيمن سواهما مددا لعمرو بن العاص، و كان الفتح، و يقال أنّ محرابه اللطيف الذى بجانبه الشرقىّ قديم، و أنّ تحت حائطه الشرقىّ قبر عامر الذى كان أوّل من دفن بالقرافة، و محراب مسجد الفتح منحرف عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب انحرافا كثيرا، كما ذكر عند ذكر محاريب مصر من هذا الكتاب، و استشهد يومئذ جماعة دفنوا فى مجرى الحصا، فكان يرى على قبورهم فى الليل نور.

مسجد أمّ عباس جهة العادل بن السلار

هذا المسجد كان بجوار مصلّى خولان بالمغافر غربىّ المقابر، بنته بلاوة زوج العادل بن السلار سلطان مصر، فى خلافة الظافر سنة سبع و أربعين و خمسمائة، على يد المعروف بالشريف عز الدولة الرضوىّ بن القفاص، و كانت بلاوة مغربية، و هى أمّ الوزير عباس الصنهاجىّ البادیسىّ و قد دثر هذا المسجد.

مسجد الصالح

هذا المسجد كان بخط جامع القرافة المعروف بجامع الأولياء، عرف بمسجد بنى عبيد اللّه، و بمسجد القبة، و بمسجد العزاء، و الذى بناه الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر، و كان فى أعلاه مناظر و عمارته متقنة الزىّ، و أدركته عامرا إلى ما بعد سنة ثمانمائة.

مسجد ولىّ عهد أمير المؤمنين

هو الأمير أبو هاشم العباس بن شعيب بن داود المهدىّ، أحد الأقارب فى الأيام الحاكمية، كان إلى جانب مسجد الصالح، و بجانبه تربته، و كان المسجد من حجر و بابه محمول على أربع حنايا، و تحت الحنايا باب المسجد، و فى شرقيه أيضا أربع حنايا، و كانت دار أبى هاشم هذا بمصر دار الأفراح، و من ولده الشريف الأمير الكبير أبو الحسن علىّ ابن الأمير عباس بن شعيب بن أبى هاشم المذكور، و يعرف بالشريف الطويل و بالنباش.

مسجد الرحمة

هذا المسجد كان فى صدر القرافة الكبرى بالقرب من تربة ركن الإسلام محمود ابن أخت الملك الصالح طلائع بن رزيك. قال

الكنـديّ: و منها مسـجد القرافـة، و هو بنو محصن بن سـيف بن وائل بن الجيزيّ، قبليّ القرافـة على يمينك إذا أممت مسـجد الأقـدام، مقـابله فسـقية صـغيرة، و له منـارة، يعرف بمسـجد الرحمـة، و عرف هـذا المسـجد بأبى تراب الصوّاف وكيل الجهـة التى بنت مسـجد الأنـدلس و رباطه، و مسـجد رقيـة. و أبو تراب هذا تولى بناءه، و كان يقوم بخدمته الشـيخ نسـيم، و أبو تراب هو الذى أخرج إليه ولد الآمر فى قفة من خوص، فيها حوائج طبيخ من كرّاث و بصل و جزر و هو طفل فى القماط فى أسفل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۶

القفة، و الحوائج فوقه، و وصل به إلى القرافة و أرضعته المرضعة بهذا المسجد و خفى أمره عن الحافظ حتى كبر، و صار يسمى قفيفة. فلما حان نفعه نمّ عليه أبو عبـد اللّه الحسـين بن أبى الفضل عبـد اللّه بن الحسـين الجوهرىّ الواعظ، بعد ما مات الشـيخ أبو تراب، عند الحافظ. فأخـذ الصبىّ و قصـده فمـات. و خلع على ابن الجوهرىّ، ثم نفى إلى دميـاط فمـات بهـا فى جمـادى سـنة ثمان و عشـرين و خمسمائة.

مسجد مكنون

هو بجانب مسجد الرحمة، بناه الأستاد مكنون القاضى الذى تقدّم ذكره فى مسجد الأندلس.

مسجد جهة ريحان

هذا المسـجد كان فى وجه مسـجد أبى تراب قبالة دار البقر من القرافة الكبرى، و جدّده أستاذ الجهة الحافظية، و اسمه ريحان، فى سنة اثنتين و أربعين و خمسمائة.

مسجد جهة بيان

هـذا المسـجد كان فى بطحاء مسـجد الأقـدام بجوار ترب المادرانيين، بنته الجهـة الحافظيـة المعروفة بجهة بيان الحسامىّ، على يد أبى الفضـل الصـعيدىّ المعروف بـابن الموفق، و حكى الخليفـة عن هـذه الجهـة خبرا عجيبا. قال القاضـى المكين أبو الطاهر إسـماعيل بن سلامـة: قـال لى أمير المؤمنين الحافظ يوما: يا قاضـى أبا الطاهر. قلت لبيك يا أمير المؤمنين. قال: أحـدّثك بحـديث عجيب قلت نعم. قـال لمـا جرى من أبى علىّ بن الأفضـل مـا جرى بينمـا أنا فى الموضع الـذى كنت معتقلا فيه، رأيت كأنى قـد جلست فى مجلس من مجالس القصـر أعرفه، و كان الخلافـة قد أعيدت إلىّ، و كأنّ المغنيات قد دخلن يهنيننى و يغنين بين يدى، و فى جملتهنّ جارية معها عود، يعنى هذه الجارية المذكورة، فأنشأت تغنى قول أبى العتاهية:

أتته الخلافة منقادةإليه تجرّر أذيالها

فلم تك تصلح إلّا لهو لم يك يصلح إلّا لها

و لو نالها أحد غيرهلزلزلت الأرض زلزالها

و كأنى قمت إلى خزانة بالمجلس أخذت منها حقة فيها جوهر. فملأت فمها منه، ثم استيقظت. فو اللّه يا قاضـى ما كان إلّا يومان حتى كسـر علىّ الحبس لمـا قتـل أبـو علىّ بن الأفضـل و قيـل لى السـلام على أمير المـؤمنين، فلمـا خرجت و أقمت أيامـا جلست فى ذلك المجلس الذى رأيته فى النوم، و دخل الجوارى يهنيننى، فغنت إحداهنّ و هى ذات عود ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۷

الصوت بعينه، فقلت لها: على رسـلك حتى نقضـى نحن أيضا من حقك ما يجب علينا، و قمت إلى الخزانـة و أخـذت الحق الذى فيه الجوهر، ثم جئت إليهـا و قلت لهـا افتحى فـاك، ففتحته، و حشوته جوهرا و قلت لها إنّ لك علينا فى كلّ سـنة فى مثل هـذا اليوم مثل

ذلك.

مسجد توبة

هو ابن ميسرة الكتاميّ، مغنى المستنصر، كان فى شرقيّ الأقهوب، و قبالته تربة تنسب إلى الطبالة صاحبة أرض الطبالة، و كلاهما فى القرافة الكبرى.

مسجد درى

هذا المسجد كان فى القرافة الكبرى فى رحبة الأقهوب، بناه شهاب الدولة درى، غلام المظفر أخى الأفضل ابن أمير الجيوش، فى سنة ثلاث و ثلاثين و خمسمائة، و كان أرمنيا فأسلم و صار من المتشدّدين فى مذهب الإمامية، و قرأ الجمل للزجاجيّ فى النحو، و اللمع لابن جنى، و كانت له خرائط من القطن الأبيض يلبسها فى يديه و رجليه، و كان يتولى خزائن الكسوات، و لا يدخل على بسط السلاطين و لا على بسط الخليفة الحافظ لدين اللّه، و لا يدخل مجلسه إلّا بالخرائط فى رجليه، و لا يأخذ من أحد رقعة إلّا و فى يده خريطة، يظنّ أنّ من لمسه نجسه، وسوسة منه. فإن اتفق أنه صافح أحدا، أو أمسك رقعة بيده من غير خريطة، لا يمس ثوبه و لا بدنه حتى يغسلها، فإن مس ثوبه غسل الثوب. و كان الأستاذون يعبثون به و يرمون فى بساط الخليفة الحافظ العنب، فإذا مشى عليه و انفجر و وصل ماؤه إلى رجليه سبهم و حرد، فيضحك الخليفة و لا يؤاخذه، و عمل مرّة الوزير رضوان بن ولخشيّ دواة حليتها ألف دينار مرصعة، فدخل عليه شهاب الدولة درى الصغير هذا، و قد أحضرت الدواة المذكورة، فقال له: يا مولانا أحسن من مداد هذه الدواة و وقع على هذه، فيكون ذلك زكاتها إذ للّه فيه رضى و لنبيه، و ناوله رقعة الشريف القاضى سنا الملك أسعد الجوّانيّ النحويّ، يطلب فيها راتبا لابنه الشريف أبى عبد اللّه محمد فى الشهر ثلاثة دنانير، فوقع عليها. فلما كان فى الليل رأى فى نومه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه و هو يقول: جزاك اللّه خيرا على فعلك اليوم.

مسجد ست غزال

هذا المسجد كان فى القرافة الكبرى بجوار تربة النعمان، بنته ست غزال فى سنة ست و ثلاثين و خمسمائة، و كانت غزال هذه صاحبة دواة الخليفة، لا تعرف شيئا إلّا أحكام الدوى و الليق و مسح الأقلام و الدواة، و كان برسم خدمتها الأستاذ مأمون الدولة الطويل.
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۸

مسجد رياض

هو لوقافة الحافظ لدين اللّه، كانت تقف بين يديه بالقصر، و كان بجوار المصنعة الصغرى الطولونية التى يجىء الماء إليها من عفصة الكبرى، و كان فيه حوش به عدّة بيوت للنساء المنقطعات.

مسجد عظيم الدولة

هذا المسجد كان معلقا بخط سوق القرافة الكبرى، واكن عظيم الدولة هذا صقلبيا صاحب الستر و حامل المظلة، و كان بجوار هذا المسجد مسجد التمساح، و مسجد السدرة، و مسجد جهة مراد، و كان القاضى أبو عبد اللّه محمد بن أبى الفرج هبة اللّه بن الميسر، لما عمل قدّامة منارة النحاس الرومية ذات السواعد، و اجتاز بها من تحت سدرة المسجد فى ليلة الوقود، نصف شهر رجب سنة ثلاثين و خمسمائة، عاقتها السدرة فأمر بقطع بعضها، فقيل له: لا تفعل، فإنّ قطع السدر محذور. و قد روى أبو داود فى كتاب السنن له، أن

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من قطع سدرة صوّب اللّه رأسه فى النار» فقطعها على ركوب نصف شعبان، فما أسنى و صرف فىّ المحرّم و فنى إلى تنيس و قتل.

مسجد أبى صادق

هذا المسجد كان غربىّ مسجد الأقدام، بناه ابن سعدون أبو الحسن علىّ بن محمد البغدادىّ، بعد سنة عشرين و أربعمائة، و جدّده أخوه أبو عبد اللّه الحسين بن محمد بن الحسن بن سعدون البغدادىّ سنة ثلاث و أربعين و أربعمائة، و هو مسجد أبى صادق مرشد المدينىّ المالكىّ المحدّث، و كان قارىء المصحف بالجامع، و مصليا به، و مصدّرا فيه لإقراء السبع، و كان فيه حنة على الحيوانات لا سيما على القطط و الكلاب، و كان مشارف الجامع و جعل عليه جاريا من الغدد كلّ يوم لأجل القطط، و كان عند داره بزقاق الأقفال من مصر كلاب يطعمها و يسقيها، و ربما تبع دابته منها شيء يمشى معه فى الأسواق، قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ النسابة فى كتاب النقط على الخطط: حدّثنى الشيخ منجب غلام أبى صادق قال: كان لمولاى الشيخ أبى صادق كلب لا يفارقه أبدا، إذا كان راكبا يمشى خلفه، فإذا وقفت بغلته قام تحت يديها، فإذا رآه الناس قالوا هذا أبو صادق و كلبه.

و حدّثنى قال: ولدت كلبة فى مستوقد حمّام، و كان المؤذن يأتى خلف مولاى سحرا كل يوم لقراءة المصحف، و كان مولاى يأخذ فى كمه كلّ يوم رغيفا، فإذا حاذى موضع الكلبة قلع طيلسانه و قطع الخبز للكلبة و يرمى لها بنفسه إلى أن تأكل، ثم يستدعى الوقاد و يعطيه قيراطا و يقول له: اغسل قدحها و املأه ماء حلوا، و يستحلفه على ذلك. فلما كبر أولادها صار يأخذ بعد رغيفين إلى أن كبروا و تفرّقوا. و حدّثنى قال: كان قد جعل كراء حانوت برسم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۹

القطاط بالجامع العتيق من الأحباس، و كان يؤتى بالغدد مقطعة، فيجلس و يقسم عليها، و إن قطة كانت تحمل شيئا من ذلك و تمضى به، و فعلت ذلك مرارا، فقال مولاى للشيخ أبى الحسن بن فرج امض خلف هذه القطة و انظر إلى أين تؤدّى ذلك، فمضى ابن فرج فإذا بها تؤدّيه إلى أولادها، فعاد إليه و أخبره، فكان بعد ذلك يقطع غددا صغارا على قدر مساغ القطط الصغار، و غددا كبار للكبار، و يرسل بجزء الصغار إليهم إلى أن كبروا،

مسجد الفرّاش

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى، بناه أحمد فرّاش الأفضل بن أمير الجيوش، و بجواره مسجد بناء زيد بن حسام، و مسجد الإجابة القديم، و تربة العطار، و دار البقر، و قناطر الأطفيحىّ، كلّ ذلك بالقرب من جامع القرافة.

مسجد تاج الملوك

هذا المسجد قدّام دار النعمان و تربته من القرافة الكبرى، بناه تاج الملوك بدران بن أبى الهيجاء الكردىّ المارداني، و هو أخو سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء، صهر بنى رزيك، و كان مجتمع أهل مصر عنده فى الأعياد و المواسم و ليالى الوقود.

مسجد الثمار

هذا المسجد كان ملاصقا للزيادة التى فى بحرىّ مسجد الأقدام، و فيه قبور بنى الثمار.

مسجد الحجر

هذا المسجد كان بحرىّ مسجد عمار بن يونس مولى المغافر، و شرقىّ قصر الزجاج من القرافة الكبرى، بنته مولاة علىّ بن يحيى بن طاهر المعروف بابن أبى الخارجىّ الموصلىّ، فى ربيع الأوّل سنة ثلاثين و أربعمائة.

مسجد القاضى يونس

هذا المسجد كان غربىّ مسجد الحجر المذكور، بناه الشيخ عدى الملك بن عثمان صاحب دار الضيافة، ثم صار بيد قاضى القضاة بمصر، الموفق كمال الدين أبى الفضائل يونس بن محمد بن الحسن المعروف بجوامرد، خطيب القدس القرشىّ، و كان من الأعيان، و لم يشرب قط من ماء النيل بل من ماء الآبار، و لم يأكل قط للسلطان خبزا، و كان يروى الحديث عن جده.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۰

مسجد الوزيرية

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى، و له منارة بجوار باب رباط الحجازية، و كانت الحجازية واعظة زمانها، و كانت من الخيّرات، لها القبول التام، و تدعى أمّ الخير، و كان لها من الصيت كما كان لابن الجوهرىّ، و كانت على غاية من الكرم و حسن الأخلاق و الشيم، و من مكارم أخلاقها و حسن طباعها و كياسة انطباعها ما حكاه الجوّانىّ النسابة فى كتاب النقط على الخطط قال: حدّثنى الشيخ أبو الحسن بن السراج المؤذن بالجامع بمصر قال: كان قدّام الباب الأوّل من أبواب جامع مصر يباع رطب يقعد على الأرض و بين يديه اقفاص رطب من أحسن الأرطاب، فبينما الحجازية الواعظة هذه ذات يوم قد قاربت الخروج من باب الجامع، و هى فى حفدتها و جواريها، و إذا ذلك الرطاب ينادى على قفص رطب قدّامه، معاشر الناس اشتروا الطيبة الحجازية على أربعة، على أربعة. يريد على أربعة أرطال رطب بدرهم. فلما سمعته الحجازية وقفت قبل أن تخرج من باب الجامع و أنفذت إليه بعض الجوارى فصاحت به، فلما أتاها قالت له: يا أخى قولك الحجازية على أربعة مشكل، لا ترجع تنادى كذا، و هذا رباعى هدية منى لك ربح هذا القفص، و لا تناد كذا، فأخذه و قبل يدهل و قال السمع و الطاعة.

مسجد ابن العكر

هذا المسجد غربىّ مسجد أبى صادق، بحضرة مسجد الأقدام، قبالة قصر الكتفى و بحذاء مسجد النارنج. بناه القاضى العادل بن العكر.

مسجد ابن كباس

هذا المسجد كان مجاور للقناطر الأطفيحية على يسار من أمّ طريق الجامع، بناه القاضى ابن كباس.

مسجد الشهمية

هذا المسجد كان شرقىّ مسجد الأقدام، و غربىّ قناطر ابن طولون، مجاورا لتربة القاضى ابن قابوس، كان يعرف بمسجد الفقاعة من الكلاع، و يعرف أيضا بمسجد شادن الفضلىّ، غلام الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات.

مسجد زنكادة

هذا المسجد كان غربىّ مسجد عمار بن يونس، بناه زنكادة المخنث بعد ما تاب فى سنة خمس و ثلاثين و خمسمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۱

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الأولياء، و هو مسجد بنى عبد اللّه بن مانع بن مزروع، و يعرف بمسجد القبة، و قد ذكر عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب.

مسجد الأطفيحىّ

هذا المسجد كان فى البطحاء، بحرىّ مجرى جامع الفيلة إلى الشرق، مخالطا لخطط الكلاع و رعين و الأكنوع و الأكحول. و يقال له مسجد و حاطة بن سعد الأطفيحىّ، من أهل أطفيح، شيخ له سمت، و كتب الحديث فى سنة ثمان و خمسين و أربعمائة، و ما قبلها، و سمع من الحباك و هو فى طبقته، و هو رفيق الفرّاء و ابن مشرف و ابن الحظية و أبى صادق، و سلك طريق أهل القناعة و الزهد و العزلة كأبى العباس ابن الحظية و كان الأفضل الكبير شاهنشاه صاحب مصر قد لزمه، و اتخذ السعى إليه مفرتضا، و الحديث معه شهوة. و غرضا لا ينقطع عنه. و كان فكه الحديث، قد وقف من أخبار الناس و الدول على القديم و الحديث، و قصده الناس لأجل حلول السلطان عنده لقضاء حوائجهم فقضاها، و صار مسجده موئلا للحاضر و البادى. و صدى لإجابة صوت النادى، و شكا الشيخ إلى الأفضل تعذر الماء و وصوله إليه، فأمر ببناء القناطر التى كانت فى عرض القرافة من المجرى الكبيرة الطولونية، فبنيت إلى المسجد الذى به الأطفيحىّ، و مضى عليها من النفقة خمسة آلاف دينار، و عمل الأطفيحىّ صهريج ماء شرقىّ المسجد، عظيما محكم الصنعة، و حمّاما و بستانا كان به نخلة سقطت بعد سنة خمسين و خمسمائة. و عمل الأفضل له مقعدا بحذاء المسجد إلى الشرق، علو زيادة فى المسجد شرقيه، و قاعة صغيرة مرخمة إذا جاء عنده جلس فيها و خلا بنفسه و اجتمع معه و حادثه، و كان هذا المقعد على هيئة المنظرة بغير ستائر، كلّ من قصد الأطفيحىّ من الكتفى يراه، و كان الأفضل لا يأخذه عنه القرار، يخرج فى أكثر الأوقات من دار الملك باكرا أو ظهرا أو عصرا بغتة، فيترجل و يدق الباب و قارا للشيخ، كما كان الصحابة رضى اللّه عنهم يقرعون أبواب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بظفر الإبهام و المسبحة، كما يحصب بهما الحاصب، فإن كان الشيخ يصلى لا يزال واقفا حتى يخرج من الصلاة و يقول من فيقول ولدك شاهنشاه. فيقول نعم. ثم يفتح فيصافحه الأفضل و يمرّ بيده التى لمس بها يد الشيخ على وجهه، و يدخل فيقول الشيخ: نصرك اللّه، أيدك اللّه، سدّدك اللّه، هذه الدعوات الثلاثة لا غير أبدا. فيقول الأفضل آمين، و بنى له الأفضل المصلّى ذات المحاريب الثلاثة شرقىّ المسجد إلى القبلىّ قليلا، و يعرف بمصلّى الأطفيحىّ، كان يصلّى فيه على جنائز موتى القرافة، و كان سبب اختصاص الأفضل بهذا الشيخ، أنه لما كان محاصرا نزار بن المستنصر بالإسكندرية، و ناصر الدولة أفتكين الأرمنىّ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر، و كانت أمّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۲

الأفضل إذ ذاك و هى عجوز لها سمت و وقار، تطوف كلّ يوم و فى الجمعة الجوامع و المساجد و الرباطات و الأسواق، و تستقص الأخبار، و تعلم محب ولدها الأفضل من مبغضه، و كان الأطفيحىّ قد سمع بخبرها، فجاءت يوم جمعة إلى مسجده و قالت له: يا سيدى ولدى فى العسكر مع الأفضل، اللّه يأخذ لى الحق منه، فإنى خائفة على ولدى، فادع اللّه لى أن يسلمه. فقال لها الشيخ: يا أمة اللّه أما تستحيين تدعين على سلطان اللّه فى أرضه، المجاهد عن دينه، اللّه تعالى ينصره و يظفره و يسلّمه، و يسلم ولدك، ما هو إن شاء اللّه إلّا منصور مؤيد مظفر، كأنك به و قد فتح الإسكندرية و أسر أعداءه و أتى على أحسن قضية و أجمل طوية، فلا تشغلى لك سرّا، فما يكون إلّا خيرا إن شاء اللّه تعالى، ثم إنها اجتازت بعد ذلك بالفار الصيرفىّ بالقاهرة بالسرّاجين، و هو والد الأمير عبد الكريم الآمرىّ صاحب السيف، و كان عبد الكريم قد ولى مصر بعد ذلك فى الأيام الحافظية، و كان عبد الكريم هذا له فى أيام الآمر وجاهة عظيمة و صولة، ثم افتقر.

فوقفت أمّ الأفضل على الصيرفيّ تصرف دينارا و تسمع ما يقول، لأنه كان إسماعيليا متغاليا، فقالت له: ولدى مع الأفضل؛ و ما أدرى ما خبره. فقال لها الفار المذكور، لعن اللّه المذكور الأرمنيّ الكلب العبد السوء ابن العبد السوء، مضى يقاتل مولاه و مولى الخلق، كأنك و اللّه يا عجوز برأسه جائزا من هاهنا على رمح قدّام مولاه نزار و مولاى ناصر الدولة إن شاء اللّه تعالى، و اللّه يلطف بولدك، من قال لك تخليه يمضى مع هذا الكلب المنافق، و هو لا يعرف من هى.

ثم وقفت على ابن بابان الحلبيّ و كان بزازا بسوق القاهرة فقالت له مثل ما قالت للفار الصيرفيّ ... و قال لها مثل ما قال لها. فلما أخذ الأفضل نزارا و ناصر الدولة و فتح الإسكندرية، حدّثته والدته الحديث و قالت: إن كان لك أب بعد أمير الجيوش فهذا الشيخ الأطفيحيّ. فلما خلع عليه المستعلى بالقصر و عاد إلى دار الملك بمصر، اجتاز بالبزازين يوما، فلما نظر إلى ابن بابان الحلبيّ قال: انزلوا بهذا فنزلوا به، فقال: رأسه. فضربت عنقه تحت دكانه. ثم قال لعبد على أحد مقدّمى ركابه: قف هاهنا لا يضيع له شىء إلى أن يأتى أهله فيتسلموا قماشه، ثم وصل إلى دكان الفار الصيرفيّ فقال: انزلوا بهذا، فنزلوا به، فقال: رأسه. فضربت عنقه تحت دكانه. و قال ليوسف الأصغر أحد مقدّمى الركاب اجلس على حانوته إلى أن يأتى أهله و يتسلموا موجوده، و إياك و ماله و صندوقه، و إن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه، كان لنا خصم أخذناه و قد فعلنا به ما يردع غيره عن فعله، و ما لنا ماله، و لا فقر أهله، ثم أتى الأفضل إلى الشيخ أبى طاهر الأطفيحيّ و قرّبه و خصصه إلى أن كان من أمره مما شرحناه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۳

مسجد الزيات

هذا المسجد مجاور بيت الخوّاص غربيه. و مسجد ابن أبى الردّاد، يعرف بمسجد الأنطاكيّ، و مسجد الفاخوريّ. يعرف بمسجد البطحاء، و مسجد ابن أبى الصغير، قبليّ مسجد بنى مانع، و هو جامع القرافة، و مسجد الشريفة بنى فى سنة إحدى و خمسمائة، و مسجد ابن أبى كامل الطرابلسيّ، كان بحارة الفرن بناه الأعز بن أبى كامل، و المعبد الذى كان على رأس العقبة التى يتوصل منها إلى الرصد، بناه أبو محمد عبد اللّه الطباخ، و يقال أنه كان بالقرافة اثنا عشر ألف مسجد.

القصر المعروف بباب ليون بالشرف: هذا القصر كان على طرف الجبل بالشرف الذى يعرف اليوم ... . و جاء الفتح و هو مبنيّ بالحجارة، ثم صار فى موضعه مسجد عرف بمسجد المقس، و المقس ضيعة كانت تعرف بأمّ دنين، سميت المقس لأنّ العاشر كان يقعد بها، و صاحب المكس، فقلب فقيل المقس، و ليون اسم بلد بمصر بلغة السودان و الروم، و قد ذكر المقس عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر الجواسيق التى بالقرافة

اشارة

قال ابن سيده: الجوسق، الحصن. و قيل هو شبيه بالحصن معرّب، و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانيّ النسابة فى كتاب النقط على الخطط: الجواسق بالقرافة و الجبانة كانت تسمى القصور، و كان بالقرافة قصر الكتفيّ، و قصر بنى كعب، و قصر بنى عقبة، و قصر أبى قبيل، و قصر العزيز، و قصر البغداديّ، و قصر يشب، و قصر ابن كرامة.

جوسق بنى عبد الحكم: كان جوسقا كبيرا له حوش، و كان فى وسط القرافة بحضرة مسجد بنى سريع الذى يقال له الجامع العتيق، و هو أحد الجواسق الثلاثة، و هو جوسق عبد اللّه بن عبد الحكم الفقيه الإمام، و جدّد هذا الجوسق ابن اللهيب المغربى.

جوسق بنى غالب، و يعرف ببنى بابشاد: كان بالمغافر، بنى فى سنة ثلاث و خمسين و أربعمائة، و إلى جانبه قبر الشيخ أبى الحسن

طاهر بن بابشاد.

جوسق ابن ميسر: كان بجوار جوسق بنى غالب، بناه أبو عبد اللّه محمد ابن القاضى أبى الفرج هبة اللّه، و كان أبو الفرج هو الخطيب بجامع مصر، و يوم الغدير، و هو شافعىّ المذهب، و هو هبة اللّه بن الميسر. و ذلك فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة و خمسمائة، و أبو عبد اللّه هذا هو الذى كان بعد ذلك قاضى القضاة بمصر، و هو الذى حبس القياسر التى كانت فى القشاشين بمصر، و كان يحمل قدّامه المنارة الرومية النحاس ذات السواعد التى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۴

عليها الشمع ليالى الوقودات، و كان فيه كرم، سمع بأن المادرانىّ عمل فى أيامه الكعك الصغير المحشوّ بالسكر المسمى أفطن له، فأمر هو بعمل لب الفستق الملبس بالسكر الأبيض الفانيذ المطيب بالمسك، و عمل منه فى أوّل الحال شيئا عوّض لبه لب ذهب فى صحن واحد، فمضى فيه جملة، و خطف قدّامه، تخاطفه الحاضرون. و لم يعد لعمله بل الفستق الملبس. و هو أوّل من أخرجه بمصر، و كان قد سمع فى سيرة أبى بكر المادرانىّ أنه عمل هذا الأفطن له، و جعل فى كلّ واحد خمسة دنانير، و وقف أستاذ على السماط فقال لأحد الجلساء: افطن له. و كان على السماط عدّة صحون من ذلك الجنس، لكن ما فيها ما فيه دنانير إلّا صحن واحد، فلما رمز الأستاذ لأحد الجلساء على سماط المادرانىّ بقوله افطن له، و أشار إلى الصحن، تناول الرجل منه فأصاب لك، فاعتمد له جملة، و رآه الناس و هو إذا أكل يخرج شيئا من فمه و يجمع بيده و يحط فى حجره، فتنبهوا و تزاحموا عليه. فقيل لذلك المعمول من ذلك الوقت أفطن له، و قتل هذا القاضى فى تنيس فى أيام بهرام الوزير النصرانىّ الأرمنى، سنة ست و عشرين و خمسمائة.

جوسق ابن مقشر: كان جوسقا طويلا ذا تربة إلى جانبه.

جوسق الشيخ أبى محمد: عامل ديوان الأشراف الطالبيين، و جوسق ابن عبد المحسن بخط الأكحول، و جوسق البغدادىّ الجرجراى، كان قبره إلى جانبه، خرب فى سنة عشرين و خمسمائة، و جوسق الشريف أبى إسماعيل إبراهيم بن نسيب الدولة الكلتمىّ الموسوى نقيب مصر.

جوسق المادرانىّ: هذا الجوسق لم يبق من جواسق القرافة غيره، و هو جوسق كبير جدّا على هيئة الكعبة بالقرب من مصلى خولان فى بحريه، على جانبه الممرّ من مقطع الحجارة، بناه أبو بكر محمد بن علىّ المادرانىّ فى وسط قبورهم من الجبانة، و كان الناس يجتمعون عند هذا الجوسق فى الأعياد، و يوقد جميعه فى ليلة النصف من شعبان كل سنة وقودا عظيما، و يتحلق القرّاء حوله لقراءة القرآن، فيمرّ للناس هنالك أوقات فى تلك الليلة و فى الأعياد بديعة حسنة.

جوسق حب الورقة: كان هذا الجوسق بحضرة تربة ابن طباطبا، أدركته عامرا، و قد خرب فيما خرّبه السفهاء من ترب القرافة و جواسقها، زعما منهم أن فيها خبايا، و كان أكابر أمراء المغافر و من بعدهم و من يجرى مجراهم، لكلّ منهم جوسق بالقرافة يتنزه فيه و يعبد اللّه تعالى هناك، و كان من هذه الجواسق ما تحته حوض ماء لشرب الدواب و فسقية و بستان، و كان بالقرافة عدّة قصور، و هى التى تسمى بالجواسق، لها مناظر و بساتين، إلّا أن الجواسق أكثرها بغير بساتين و لا بئر، بل مناظر مرتفعة، و يقال لها كلها قصور.

قصر القرافة: بنته السيدة تغريد أمّ العزيز بالله فى سنة ست و ستين و ثلاثمائة، على يد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۵

الحسن بن عبد العزيز الفارسىّ المحتسب، هو و الحمّام الذى كان فى غربيه، و بنت البئر و البستان المعروف بالتاج، المعروف بحصن أبى المعلوم، و بنت جامع القرافة، ثم جدّده الآمر بأحكام اللّه و بيضه فى سنة عشرين و خمسمائة، و عمل شرقىّ بابه مصطبة للصوفية، و كان مقدّمهم الشيخ أبو إسحاق إبراهيم المعروف بالمادح، و كان الآمر يجلس فى الطاق بالمنظر الذى بناه بأعلى القصر، و يرقص أهل الطريقة قدّامه، و قد ذكر هذا القصر عند ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب، و لم يزل هذا القصر إلى ربيع الآخر سنة سبع و ستين و خمسمائة.

ذكر الرباطات التى كانت بالقرافة

كان بالقرافة الكبيرة عدّة دور يقال للدار منها رباط، على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، يكون فيها العجائز و الأرامل العابدات، و كانت لها الجرايات و الفتوحات، و كان لها المقامات المشهورة من مجالس الوعظ.

رباط بنت الخوّاص: كان تجاه مسجد بيد الفقيه مجلى بن جميع بن نجا الشافعيّ، مؤلف كتاب الذخائر، و قاضى القضاة بمصر.

رباط الأشراف: كان برحبة جامع القرافة، يعرف بالقرّاء، و ببنى عبد اللّه، و بمسجد القبة، و هو شرقيّ بستان ابن نصر، بناه أبو بكر محمد بن علىّ المادرانيّ و وقفه على نساء الأشراف.

رباط الأندلس: بنته الجهة المعروفة بجهة مكنون الآمرية كما تقدّم.

رباط ابن العكاريّ: كان بحضرة مسجد بنى سريع المعروف بالجامع العتيق.

رباط الحجازية: بنته و حبسته على الحجازية، فوز جارية علىّ بن أحمد الجرجراى الوزير، هو و المسجد الذى تقدّم ذكره.

رباط رياض: كان بجوار مسجد الحاجة رياض.

ذكر المصلّيات و المحاريب التى بالقرافة

و كان فى القرافة عدّة مصلّيات و عدّة محاريب.

منها:

مصلّى الشريفة: كان بدرب القرافة بحدرة الجباسين و خطة الصدف، بناه أبو محمد عبد اللّه بن الأرسوفيّ الشاميّ التاجر، سنة سبع و سبعين و خمسمائة.

مصلّى المغافر: و هو الأندلس، جدّده ابن بركك الإخشيديّ، ثم بنته جهة مكنون الآمرية فى سنة ست و عشرين و خمسمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۶

مصلّى عقبة القرافة، يعرف بمصلّى الأندلسيّ: كان ذا مصطبة مربعة على يسرة الطالع إلى القرافة، بناه يوسف بن أحمد الأندلسيّ الأنصاريّ، فى شهر رمضان سنة خمس عشرة و خمسمائة.

مصلّى القرافة: جدّده الفقيه ابن الصباغ المالكيّ، فى سنة عشرين و خمسمائة، و كان بحضرة مسجد أبى تراب تجاه دار التبر.

مصلّى الفتح: كان ملاصقا لمسجد الفتح، بناه أبو محمد القلعيّ المغربيّ المنجم الحافظيّ.

مصلّى جهة العادل: أبى الحسن بن السلار وزير مصر.

مصلّى الأطفيحيّ: بجوار مسجد الأطفيحيّ الذى تقدّم ذكره.

مصلّى الجرجانيّ: بناه الوزير علىّ بن أحمد الجرجانيّ، و كانت بالقرافة الكبرى و الجبانة عدّة محاريب خربت كلها.

مصلّى خولان: هذه المصلّى عرفت بطائفة من العرب الذين شهدوا فتح مصر يقال لهم خولان، و هم من قبائل اليمن، و اسمه نكل بن عمرو بن مالك بن زيد بن عريب، و فى هذه المصلّى مشهد الأعياد، و يؤمّ الناس و يخطب لهم بها فى يوم العيد خطيب جامع عمرو بن العاص، و ليست هذه المصلّى هى التى أنشأها المسلمون عند فتح أرض مصر، و إنما كانت مصلّى العيد فى أوّل الإسلام غير هذه. قال القضاعى: مصلّى العيد كان مصلى عمرو بن العاص مقابل اليحموم، و هو الجبل المطلّ على القاهرة. فلما ولى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح مصر، أمر بتحويله. فحوّل إلى موضعه المعروف اليوم بالمصلّى القديم عند درب السباع، ثم زاد فيه عبد اللّه بن طاهر سنة عشر و مائتين، ثم بناه أحمد بن طولون فى سنة ست و خمسين و مائتين، و اسمه باق عليه إلى اليوم.

قال الكندىّ: و لما قدم شفى الأصبحيّ إلى مصر، و أهل مصر قد اتخذوا مصلّى بحذاء ساقية أبى عون عند العسكر قال: ما لهم وضعوا

مصلّاهم فى الجبل الملعون و تركوا الجبل المقدّس، يعنى المقطم. قال: فقدّموا مصلّاهم إلى موضعه الذى هو به اليوم، يعنى المصلّى القديم المذكور. و قال الكندىّ: ثم ضاق المصلّى بالناس فى إمارة عنبسة بن إسحاق الضبىّ على مصر، فى أيام المتوكل على اللّه، فأمر عنبسة بابتناء المصلّى الجديد، فابتدىء ببنائه فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة أربعين و مائتين، و صلّى فيه يوم النحر من هذه السنة.

و عنبسة هو آخر عربىّ ولى مصر، و آخر أمير صلّى بالناس فى المسجد، و هو المصلّى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۷

الذى بالصحراء عند الجارودىّ، ثم جدّده الحاكم و زاد فيه و جعل له قبة، و ذلك فى سنة ثلاث و أربعمائة، و كان أمراء مصر إذا خرجوا إلى صلاة العيد بالمصلّى أوقفوا جيشا فى سفح الجبل مما يلى بركة الحبش، ليراعى الناس حتى ينصرفوا من الصلاة، خوفا من البجة. فإنهم قدموا غير مرّة ركبانا على النجب حتى كبسوا الناس فى مصلاهم و قتلوا و نهبوا ثم رجعوا من حيث أتوا، فخرج عبد الحميد بن عبد اللّه بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب غضبا للّه و للمسلمين مما أصابهم من البجة، فكمن لهم بالصعيد فى طريقهم حتى أقبلوا كعادتهم فى أخذ الناس فى مصلّى العيد، فكبسهم و قتل الأعور رئيسهم بعد ما أقبلوا إلى المصلّى فى العيد، فى سنة ست و خمسين و مائتين، و أميره مصر أحمد بن طولون على النجب، و كبسوا الناس فى مصلّاهم و قتلوا و نهبوا منهم و عادوا سالمين، ثم دخل العمرىّ إلى بلاد البجة غازيا، فقتل منهم مقتلة عظيمة و ضايقهم فى بلادهم إلى أن أعطوه الجزية، و لم يكونوا أعطوا أحدا قبله الجزية، و سار فى المسلمين و أهل الذمّة سيرة حسنة، و سالم النوبة إلى أن بدأ النوبة بالغدر فى الموضع المعروف بالمريس، فمال عليهم و حاربهم و خرّب ديارهم و سبى منهم عالما كثيرا، حتى كان الرجل من أصحابه يبتاع الحاجة من الزيات و البقال بنوبىّ أو نوبية لكثرتهم معهم، فجاؤا إلى أحمد بن طولون و شكوا له من العمرىّ، فبعث إليه جيشا ليحاربه، فأوقع بالجيش و هزمهم، و كانت لهم أنباء و قصص إلى أن قتله غلامان من أصحابه و أحضرا رأسه إلى أحمد بن طولون، فأنكر فعلهما و ضرب أعناقهما و غسل الرأس و دفنه.

ذكر المساجد و المعابد التى بالجبل و الصحراء

و كان بجبل المقطم و بالصحراء التى تعرف اليوم بالقرافة الصغرى عدّة مساجد و عدّة مغاير، ينقطع العباد بها، و منها ما قد دثر و منه شىء قد بقى أثره.

مسجد التنور: هذا المسجد فى أعلى جبل المقطم من وراء قلعة الجبل فى شرقيها، أدركته عامرا و فيه من يقيم به. قال القضاعىّ: المسجد المعروف بالتنور بالجبل، هو موضع تنور فرعون، كان يوقد له عليه، فإذا رأوا النار عملوا بركوبه فاتخذوا له ما يريد، و كذلك إذا ركب منصرفا من عين شمس. ثم بناه أحمد بن طولون مسجدا فى صفر سنة تسع و خمسين و مائتين، و وجدت فى كتاب قديم أنّ يهودا بن يعقوب أخا يوسف عليه السلام، لما دخل مع إخوته على يوسف و جرى من أمر الصواع ما جرى، تأخر عن إخوته و أقام فى ذروة الجبل المقطم فى هذا المكان، و كان مقابلا لتنور فرعون الذى كان يوقد له فيه النار. ثم خلا ذلك الموضع إلى زمن أحمد بن طولون، فأخبر بفضل الموضع و بمقام يهودا فيه، فابتنى فيه هذا المسجد و المنارة التى فيه، و جعل فيه صهريجا فيه الماء، و جعل الإنفاق عليه مما وقفه على البيمارستان بمصر و العين التى بالمغافر و غير ذلك. و يقال أنّ تنور فرعون لم يزل فى هذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۸

الموضع بحاله إلى أن خرج إليه قائد من قوّاد أحمد بن طولون يقال له وصيف قاطرميز، فهدمه و حفر تحته، و قدّر أن تحته مالا فلم يجد فيه شيئا، و زال رسم التنور و ذهب، و أنشد أبو عمرو الكندىّ فى كتاب أمراء مصر من أبيات لسعيد القاضى:

و تنور فرعون الذى فوق قلةعلى جبل عال على شاهق و عر

بنى مسجدا فيه يروق بناءهو يهدى به فى الليل إن ضلّ من يسرى

تخال سنا قنديله و ضياءهسهيلا إذا ما لاح فى الليل للسفر

القرقوبىّ: قال القضاعىّ المسجد المعروف بالقرقوبىّ، هو على قرنة الجبل المطل على كهف السودان، بناه أبو الحسن القرقوبىّ الشاهد، وكيل التجار بمصر، فى سنة خمس عشرة و أربعمائة، و كان فى موضعه محراب حجارة يعرف بمحراب ابن الفقاعىّ الرجل الصالح، و هو على يسار المحراب.

مسجد أمير الأمراء: رفق المستنصرىّ على قرنة الجبل البحرية المطلة على وادى مسجد موسى عليه السلام.

كهف السودان: مغار فى الجبل لا يعلم من أحدثه، و يقال أن قوما من السودان نقروه فنسب إليهم، و كان صغيرا مظلما، فبناه الأحدب الأندلسىّ القزاز، و زاد فى سفله مواضع نقرها، و بنى علوه. و يقال أنه أنفق فيه أكثر من ألف دينار، و وسع المجاز الذى يسلك منه إليه، و عمل الدرج النقر التى يصعد عليها إليه، و بدأ فى بنيانه مستهل سنة إحدى و عشرين و أربعمائة، و فرغ منه فى شعبان من هذه السنة.

العارض: هذا المكان مغارة فى الجبل، عرفت بأبى بكر محمد جدّ مسلم القارى، لأنه نقرها، ثم عمرت بأمر الحاكم بأمر اللّه، و أنشئت فيها منارة هى باقية إلى اليوم، و تحت العارض قبر الشيخ العارف عمر بن الفارض رحمه اللّه، و للّه در القائل:

جزبا لقرافة تحت ذيل العارضو قل السلام عليك يا ابن الفارض

و قد ذكر القضاعىّ أربع عشرة مغارة فى الجبل، منها. ما هو باق، و ليس فى ذكرها فائدة.

اللؤلؤة: هذا المكان مسجد فى سفح الجبل منها. باق إلى يومنا هذا، كان مسجدا خرابا، فبناه الحاكم بأمر اللّه و سماه اللؤلؤة، قيل كان بناؤه فى سنة ست و أربعمائة، و هو بناء حسن.

مسجد الهرعاء: فيما بين اللؤلؤة و مسجد محمود، و هو مسجد قديم يتبرّك بالصلاة فيه، و قد ذكر مسجد محمود عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب، لأنه تقام فيه الجمعة.

دكة القضاة: قال القضاعىّ: هى دكة مرتفعة عن المساجد فى الجبل، كان القضاة بمصر يخرجون إليها لنظر الأهلّة كل سنة، ثم بنى عليها مسجد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۹

مسجد فائق: مولى خمارويه بن أحمد بن طولون، كان فى سفح الجبل مما يلى طريق مسجد موسى عليه السلام.

مسجد موسى: بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات.

مسجد زهرون بالصحراء: هو مسجد أبى محمد الحسن بن عمر الخولانىّ، ثم عرف بابن المبيض، و كان زهرون قيمه فنسب إليه.

مسجد الفقاعىّ: هو أبو الحسن علىّ بن الحسن بن عبد اللّه، كان أبوه فقاعيا بمصر، و هو مسجد كبير بناه كافور الإخشيدىّ، ثم جدّده و زاد فيه مسعود بن محمد صاحب الوزير أبى القاسم علىّ بن أحمد الجرجرائّ، و كان فى وسط هذا المسجد محراب مبنىّ بطوب يقال أنه من بناء حاطب بن أبى بلتعة رسول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى المقوقس، و يقال أنه أوّل محراب اختط فى مصر، و كان أبو الحسن التميمىّ قد زاد فيه ببناء قبل ذلك.

مسجد الكنز: هذا المسجد كان شرقىّ الخندق و بحرىّ قبر ذى النون المصرىّ، و كان مسجدا صغيرا يعرف بالزمام، و مات قبل تمامه، فهدمه أبو طاهر محمد بن علىّ القرشىّ القرقوبىّ و وسعه و بناه، و حكى أنه لما هدمه رأى قائلا يقول فى المنام: على أذرع من هذا المسجد كنز، فاستيقظ و قال: هذا من الشيطان، فرأى هذا القائل ثلاث مرّات، فلما أصبح أمر بحفر الموضع فإذا فيه قبر، و ظهر له لوح كبير تحته ميت فى لحد كأعظم ما يكون من الناس جثة و رأسا، و أكفانه طرية لم يبل منها إلا ما يلى جمجمة الرأس، فإنه رأى شعر رأسه قد خرج من الكفن، و إذا له جمة، فراعه ما رأى و قال: هذا هو الكنز بلا شك، و أمر بإعادة اللوح و التراب كما كان، و أخرج

القبر عن سائر الحيطان، و أبرزه للناس فصار يزار و يتبرّك به.

مسجد فى غربىّ الخندق: أنشأه أبو الحسن بن النجار الزيات فى سنة إحدى و أربعين و أربعمائة.

مسجد لؤلؤ الحاجب: بالقرافة الصغرى، بنى بجانبه مقبرة، و حفر عندها بئرا حتى انتهى الحفار إلى قرب الماء، فقال الحفار: إنى أجد فى البئر شيئا كأنه حجر. فقال له لؤلؤ تسبب فى قلعه، فلما قلعه فار الماء و أخرجه، و إذا هو اسطام مركب، و هو الخشبة التى تبنى عليها السفينة، و هذا يصدّق ما قاله أرسطاطاليس فى كتاب الآثار العلوية، قال: إن أهل مصر يسكنون فيما انحسر عنه البحر الأحمر، يعنى بحر الشام، و قد ذكر خبر لؤلؤ هذا عند ذكر حمام لؤلؤ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۰

مقام المؤمن: قيل أنه مؤمن آل فرعون، لأنه أقام فيه، و هذا بعيد من الصحة.

قناطر ابن طولون و بئره: هذه القناطر قائمة إلى اليوم من بئر أحمد بن طولون التى عند بركة الحبش، و تعرف هذه البئر عندنا ببئر عفصة، و لا تزال هذه القناطر إلى أثناء القرافة الكبرى، و من هناك خفيت لتهدّمها، و هى من أعظم المبانى.

قال القضاعىّ: قناطر أحمد بن طولون و بئره بظاهر المغافر، كان السبب فى بنائها هذه القناطر أن أحمد بن طولون ركب فمرّ بمسجد الأقدام وحده، و تقدّم عسكره و قد كدّه العطش، و كان فى المسجد خياط فقال: يا خياط أعندك ماء؟ فقال: نعم. فأخرج له كوزا فيه ماء و قال: اشرب و لا تمدّ، يعنى لا تشرب كثيرا، فتبسم أحمد بن طولون و شرب فمدّ فيه حتى شرب أكثره، ثم ناوله إياه و قال: يا فتى سقيتنا و قلت لا تمدّ. فقال: نعم، أعزك اللّه، موضعنا ههنا منقطع، و إنما أخيط جمعتى حتى أجمع ثمن راوية. فقال هل:

و الماء عندكم ههنا معوز؟ فقال: نعم. فمضى أحمد بن طولون، فلما حصل فى داره قال:

جيؤنى بخياط فى مسجد الأقدام. فما كان بأسرع من أن جاؤوا به، فلما رأه قال: سر مع المهندسين حتى يخطّوا عندك موضع سقاية و يجروا الماء، و هذه ألف دينار خذها، و ابتدأ فى الأنفاق و أجرى على الخياط فى كلّ شهر عشرة دنانير و قال له: بشرنى ساعة يجرى الماء فيها، فجدّوا فى العمل، فلمّا جرى الماء أتاه مبشرا، فخلع عليه و حمله و اشترى له دارا يسكنها، و أجرى عليه الرزق السنىّ الدارّ، و كان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خليد المعروفة بالنعش. فقال: هذه العين لا تعرف أبدا إلّا بأبى خليد، و إنى أريد أن أستنبط بئرا، فعدل عن العين إلى الشرق فاستنبط بئره هذه و بنى عليها القناطر، و أجرى الماء إلى الفسقية التى بقرب درب سالم.

و قال جامع السيرة الطولونية: و أما رغبته فى أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة واضحة، فمن ذلك بناء الجامع و البيمارستان، ثم العين التى بناها بالمغافر، و بناها بنية صحيحة و رغبة قوية حتى أنها ليس لها نظير، و لهذا اجتهد المادرانيون و أنفقوا الأموال الخطيرة ليحكوها، فأعجزهم ذلك لأنها وقعت فى موضع جيرانه كلهم محتاجون إليها، و هى مفتوحة طول النهار لمن كشف وجهه للأخذ منها، و لمن كان له غلام أو جارية، و الليل للفقراء و المساكين، فهى حياة و معونة. و اتخذ لها مستغلا فيه فضل و كفاية لمصالحها، و الذى تولى لأحمد بن طولون بناء هذه العين رجل نصرانىّ حسن الهندسة حاذق بها، و إنه دخل إلى أحمد بن طولون فى عشية من العشايا فقال له: إذا فرغت مما تحتاج إليه فأعلمنى لنركب إليها فنراها، فقال: يركب الأمير إليها فى غد، فقد فرغت، و تقدّم النصرانىّ فرأى موضعا بها يحتاج إلى قصرية جير و أربع طوبات، فبادر إلى عمل ذلك، و أقبل أحمد بن طولون يتأمّل العين فاستحسن جميع ما شاهده فيها، ثم أقبل إلى الموضع الذى فيه قصرية الجير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۱

فوقف بالاتفاق عليها، فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحمد، و لسوء ظنه قدّر أنّ ذلك لمكروه أراده به النصرانىّ، فأمر به فشق عنه ما عليه من الثياب و ضربه خمسمائة سوط، و أمر به إلى المطبق، و كان المسكين يتوقع من الجائزة مثل ذلك دنانير، فاتفق له اتفاق سوء. و انصرف أحمد بن طولون و أقام النصرانىّ إلى أن أراد أحمد بن طولون بناء الجامع، فقدّر له ثلاثمائة عمود فقيل له ما تجدها، أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف و الضياع الخراب، فتحمل ذلك. فأنكره و لم يختره، و تعذب قلبه بالفكر فى أمره، و بلغ

النصرانيّ و هو فى المطبق الخبر، فكتب إليه: أنا أبنيه لك كما تحب و تختار بلا عمد إلّا عمودى القبلة، فأحضره و قد طال شعره حتى تدلى على وجهه، فبناه.

قال: و لما بنى أحمد بن طولون هذه السقاية بلغه أن قوما لا يستحلون شرب مائها، قال محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم الفقيه: كنت ليلة فى دارى إذ طرقت بخادم من خدّام أحمد بن طولون فقال لى: الأمير يدعوك، فركبت مذعورا مرعوبا، فعدل بى عن الطريق فقلت: أين تذهب بى، فقال: إلى الصحراء و الأمير فيها. فأيقنت بالهلاك و قلت للخادم:

اللّه اللّه فىّ، فإنى شيخ كبير ضعيف مسنّ، فتدرى ما يراد منى فارحمنى. فقال لى: احذر أن يكون لك فى السقاية قول. و سرت معه و إذا بالمشاعل فى الصحراء و أحمد بن طولون راكب على باب السقاية و بين يديه الشمع، فنزلت و سلمت عليه فلم يردّ علىّ، فقلت: أيّها الأمير إنّ الرسول أعنتنى و كدّنى و قد عطشت فيأذن لى الأمير فى الشرب، فأراد الغلمان أن يسقونى فقلت: أنا آخذ لنفسى، فاستقيت و هو يرانى، و شربت و ازددت فى الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت: أيها الأمير سقاك اللّه من أنهار الجنة، فلقد أرويت و أغنيت، و لا أدرى ما أصف أطيب الماء، فى حلاوته و برده أم صفاءه أم طيب ريح السقاية، قال: فنظر إلىّ و قال:

أريدك لأمر و ليس هذا وقته، فاصرفوه. فصرفت. فقال لى الخادم: أصبت. فقلت:

أحسن اللّه جزاءك، فلو لاك لهلكت. و كان مبلغ النفقة على هذه العين فى بنائها و مستغلها أربعين ألف دينار، و أنشد أبو عمرو الكندىّ فى كتاب الأمراء لسعيد القاص أبياتا فى رثاء دولة بنى طولون، منها فى العين و السقاية:

و عين معين الشرب عين زكيةو عين أجاج للرّواة و للطهر

كأنّ وفود النيل فى جنباتهاتروح و تغدو بين مدّ إلى جزر

فأركك بها مستنبطا لمعينهامن الأرض من بطن عميق إلى ظهر

بناء لو أنّ الجنّ جاءت بمثلهلقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

يمرّ على أرض المغافر كلهاو شعبان و الأحمور و الحىّ من بشر

قبائل لا نوء السحاب يمدّهاو لا النيل يرويها و لا جدول يجرى

و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ النسابة فى كتاب الجوهر المكنون فى ذكر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۲

القبائل و البطون: سريع فخذ من الأشعريين، هم ولد سريع بن ماتع من بنى الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و هم رهط أبى قبيل التابعىّ، الذى خطته اليوم الكوم، شرقىّ قناطر سقاية أحمد بن طولون، المعروفة بعفصة الكبيرة بالقرافة.

الخندق: هذا الخندق كان بقرافة مصر، قد دثر، و على شفيره الغربىّ قبر الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه، و كان من النيل إلى الجبل، حفر مرّتين، مرّة فى زمن مروان بن الحكم، و مرّة فى خلافة الأمين محمد بن هارون الرشيد. ثم حفره أيضا القائد جوهر. قال القضاعىّ: الخندق هو الخندق الذى فى شرقىّ الفسطاط فى المقابر، كان الذى أثار حفره مسير مروان بن الحكم إلى مصر، و ذلك فى سنة خمس و ستين، و على مصر يومئذ عبد الرحمن بن عقبة بن جحدم الفهرىّ، من قبل عبد اللّه بن الزبير رضى اللّه عنه. فلما بلغه مسير مروان إلى مصر أعدّ و استعدّ و شاور الجند فى أمره، فأشاروا عليه بحفر الخندق، و الذى أشار به عليه ربيعة بن حبيش الصدفىّ، فأمر ابن جحدم بإحضار المحاريث من الكور لحفر الخندق على الفسطاط، فلم تبق قرية من قرى مصر إلا حضر من أهلها النفر، و كان ابتداء حفره غرّة المحرّم سنة خمس و ستين، فما كان شىء أسرع من فراغهم منه، حفروه فى شهر واحد. و كانت الحرب من ورائه يغدون إليها و يروحون، فسميت تلك الأيام أيام الخندق و التراويح، لرواحهم إلى القتال، و كانت المغافر أكثر قبائل أهل مصر عددا، كانوا عشرين ألفا، و نزل مروان عين شمس لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس و ستين، فى اثنى عشر ألفا، و قيل فى عشرين

ألفا، فخرج أهل مصر إلى مروان فحاربوه يوما واحدا بعين شمس، ثم تحاجزوا و رجع أهل مصر إلى خندقهم فتحصنوا به، و صحبتهم جيوش مروان على باب الخندق، فاصطف أهل مصر على الخندق، فكانوا يخرجون إلى أصحاب مروان فيقاتلونهم نوبا نوبا، و أقاموا على ذلك عشرة أيام و مروان مقيم بعين شمس، و كتب مروان إلى شيعته من أهل مصر، كريب بن أبرهة بن الصباح الحميرىّ، و زياد بن حناطة التجيبىّ، و عابس بن سعيد المرادىّ يقول: إنكم ضمنتم لى ضمانا لم تقوموا به، و قد طالت الأيام و الممانعة، فقام كريب و زياد و عابس إلى ابن جحدم فقالوا له: أيّها الأمير إنه لا قوام لنا بما ترى، و قد رأينا أن نسعى فى الصلح بينك و بين مروان و قد مل الناس الحرب و كرهوها، و قد خفنا أن يسلمك الناس إلى مروان فيكون محكما فيك، فقال: و من لى بذلك؟ فقال كريب: أنا لك به، فسعى كريب و صاحباه فى الصلح على أمان كتبه مروان لأهل مصر و غيرهم ممن شرب ماء النيل، و على أن يسلم لابن جحدم من بيت المال عشرة آلاف دينار، و ثلاثمائة ثوب بقطرية، و مائة ريطة، و عشرة أفراس، و عشرين بغلا، و خمسين بعيرا. فتم الصلح على ذلك، و دخل مروان الفسطاط مستهل جمادى الأولى سنة خمس و ستين، فنزل دار الفلفل و دفع إلى ابن جحدم جميع ما صالحه عليه، و سار ابن جحدم إلى الحجاز و لم يلق كلّ واحد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۳

منهما الآخر، و تفرّق المصريون و أخذوا فى دفن قتلاهم و البكاء عليهم، فسمع مروان البكاء فقال: ما هذه النوادب؟ فقيل: على القتلى. قال: لا أسمع نائحة تنوح إلّا أحللت بمن هى فى داره العقوبة. فسكتن عند ذلك و دفن أهل مصر قتلاهم فيما بين الخندق و المقطم، و هى المقابر التى يسميها المصريون مقابر الشهداء، و دفن أهل الشام قتلاهم فيما بين الخندق و منية الأصبغ، و كان قتلى أهل مصر ما بين الستمائة إلى السبعمائة، و قتلى أهل الشام نحو الثلاثمائة، و لما برز مروان من الفسطاط سائرا إلى الشام، سمع وجبة النساء يندبن قتلاهنّ، قال: ويحهن ما هذا؟ قالوا: النساء على مقابرهنّ يندبن قتلاهنّ، فعرّج عليهنّ، فأمر بالانصراف. قالوا: كذا هنّ كلّ يوم. قال: فامنعوهنّ إلّا من سبب، و خرج مروان من مصر إلى الشام لهلال رجب سنة خمس و ستين، و كان مقامه بالفسطاط شهرين، و استخلف ابنه عبد العزيز على مصر، و ضم إليه بشر بن مروان، و كان حدثا، ثم ولى عبد الملك بشرا بعد ذلك البصرة، قال: ثم دثر هذا الخندق إلى أيام خلع الأمين بمصر و بيعة المأمون، و ولى البلد عباد بن محمد بن حبان مولى كندة من قبل المأمون، فكتب الأمين بمصر إلى أهل الحوفين فى القيام ببيعته و قتال: عباد و أهل مصر. فتجمع أهل الحوف لذلك و استعدّوا، و بلغ أهل مصر فأشاروا على عباد بحفر الخندق، فحفروا خندقا من النيل إلى الجبل و احتفروا هذا الخندق العتيق، فكان القتال عليه أياما متفرّقة إلى أن قتل الأمين و تمت بيعة المأمون، ثم لم يحفر بعد ذلك إلى يومنا هذا.

و ذكر ابن زولاق أن القائد جوهرا لما اختط القاهرة و كثر الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر، حفر خندق السرىّ بن الحكم بباب مدينة مصر، و عمل عليه بابا فى ذى القعدة سنة ستين و ثلاثمائة، و حفر خندقا فى وسط مقبرة مصر، و هو الخندق الذى حفره ابن جحدم، ابتدأ حفره من بركة الحبش حتى وصله بخندق عبد الرحمن بن جحدم، حتى بلغ به قبر محمد بن إدريس الشافعىّ، ثم حفر من الجبل إلى أن وصل الخندق ابن جحدم وسط المقابر، و بدأ به يوم السبت التاسع من شوّال سنة إحدى و ستين و ثلاثمائة، و فرغ منه فى مدّة يسيرة.

القباب السبع: هذه القباب بآخر القرافة الكبرى مما يلى مدينة مصر. قال ابن سعيد فى كتاب المغرب: و القباب السبع المشهورة بظاهر الفسطاط، هى مشاهد على سبعة من بنى المغربىّ قتلهم الخليفة الحاكم بعد فرار الوزير أبى القاسم الحسين بن علىّ بن المغربىّ إلى أبى الفتوح حسن بن جعفر بمكة، و فى ذلك يقول أبو القاسم بن المغربىّ:

إذا شئت أن ترنو إلى الطّف باكيافدونك فانظر، نحو أرض المقطّم

تجد من رجال المغربىّ عصابةمضمّخة الأجسام من حلل الدّم

فكم تركوا محراب آى معطّلو كم تركوا من سورة لم تختم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۴

و قد ذكرت أخبار بنى المغربىّ عند ذكر بساتين الوزير من بركة الحبش، و يتعلق بهذا الموضع من خبرهم أن أبا الحسن علىّ بن الحسين بن علىّ بن محمد بن المغربىّ، لما خرج من بغداد و صار إلى مصر فى أيام العزيز بالله بن المعز لدين اللّه فى سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة رتب له فى كلّ سنة ستة آلاف دينار، و صار من شيوخ الدولة. فقال يوما لمؤدّب ولده أبى القاسم حسين، و هو علىّ بن منصور بن طالب، المعروف بأبى الحسن دوخلة بن القادح سرّا: أنا أخاف همة ابنى أبى القاسم أن تنزو به إلى أن يوردنا مورد الأصدر عنه، فإن كانت الأنفاس مما تحفظ و تكتب فاكتبها و احفظها و طالعنى بها. فقال أبو القاسم فى بعض الأيام لمؤدّبه هذا: إلى متى نرضى بالخمول الذى نحن فيه؟ فقال له: و أىّ خمول هذا، تأخذون من مولانا فى كل سنة ستة آلاف دينار، و أبوكم من شيوخ الدولة؟ فقال: أريد أن تصار إلى أبوابنا الكتائب و المواكب و المقانب، و لا أرضى بأن يجرى علينا كالولدان و النسوان، فأعاد ذلك على أبيه فقال: ما أخوفنى أن يخضب أن أبو القاسم هذه من هذه، و قبض على لحيته و هامته، و علم ذلك أبو القاسم فصارت بينه و بين مؤدّبه وحشة، و كان ذلك فى خلافة الحاكم بأمر اللّه منصور بن العزيز، و تحدّث القائد أبى عبد اللّه الحسين بن جوهر، و كان الحاكم قد أكثر من قتل رؤساء دولته، و صار يبعث إلى القائد كلما قتل رئيسا برأسه و يقول: هذا عدوّى و عدوّك، فقبض على أبى الحسن علىّ بن الحسين المغربىّ والد الوزير أبى القاسم الحسين، و على أخيه أبى عبد اللّه محمد بن الحسين، و على محسن و محمد أخوى الوزير المذكور، لثلاث خلون من ذى القعدة سنة أربعمائة، و فرّ الوزير أبو القاسم الحسين بن المغربىّ من مصر فى زىّ حمّال، لليال من ذى القعدة، و لحق بحسان بن الجرّاح، و كان من أمره ما كان.

ذكر الأحواض و الآبار التى بالقرافة

حوض القرافة: أمر ببنائه السيدة ست الملك، عمّة الحاكم بأمر اللّه، ابنة المعز لدين اللّه، فى شعبان سنة ست و ستين و ثلاثمائة و اختلّ فى أيام العادل أبى الحسن بن السلار وزير مصر فى سنة ست و أربعين و خمسمائة، فأمر بعمارته، ثم انشق فى سنة ثمانين و خمسمائة، فجدّده القاضى السعيد ثقة الثقات ذو الرّياستين، أبو الحسن علىّ بن عثمان بن يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن أحمد بن يعقوب بن مسلم بن منبه، أحد بنى عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم المخزومىّ، صاحب النظر فى ديوان مصر، و مصنف كتاب المنهاج فى أحكام الخراج. و هو كتاب جليل الفائدة، و لم تزل آثار هذا القاضى حميدة و مقاصده سديدة، و عنده نخوة قرشية، و مروءة و عصبية، و هو و إن طاب أصولا، فقد زكا فروعا، و إن تفرّقت فى سواه فضائل فقد جمعها اللّه فيه جميعا، و لم يزل مذ كان يسعى فى الأمانة على صراط مستقيم، آخذا بقوله تعالى أخبارا عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۵

الكريم ابن الكريم اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم.

الحوض بجوار قصر القرافة: فى ظهر الحمّام العزيزى بحضرة فرن القرافة، أمرت ببنائه أمّ الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه، و اسمها السيدة رصد، على يد وكيلها الشريف المحدّث أبى إبراهيم أحمد بن القاسم بن الميمون بن حمزة الحسينىّ العبدلىّ شيخ الفرّاء، و ابن الخطاب و الفلكىّ.

حوض بحضرة الأشعوب: و هو قصر بنى عقيب.

حوض فى داخل قصر أبى المعلوم: مجاور للبئر الكبيرة ذات الدواليب، بناه المحتسب الفارسىّ مع عمارة البئر و الميضأة فى أيام السيدة أمّ العزيز، و يقال أن الحوض و البئر من بناء المادرانىّ، و إنما جدّدته عمة الحاكم.

حوض: بقصر بنى كعب و بجانبه بئر، أنشأه الحاجب لؤلؤ، و هو من حقوق قصر بنى كعب، و قد خربت هذه الأحواض و دثرت.

ذكر الآبار التى ببركة الحبش و القرافة

بئر أبى سلامة: و تعرف ببئر الغنم، و هى قبلىّ النوبية، و موضعها أحسن موضع فى البركة، و هى التى عنى أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بقوله:

للّه يومى ببركة الحبش و الأفق بين الضياء و الغبش

و النيل تحت الرياح مضطرب كصارم فى يمين مرتعش

و نحن فى روضة مفوّفة دبج بالنور عطفها و وشى

قد نسجتها يد الغمام لنافنحن من نسجها على فرش

و أثقل الناس كلهم رجل دعاه داعى الهوى فلم يطش

فعاطنى الراح إنّ تاركهامن سورة الهمّ غير منتعش

و اسقنى بالكبار مترعةفهنّ أشفى لشدّة العطش

بئر غربىّ دير مرحنا و بستان العبيدىّ: و دير مرحنا يعرف اليوم فى زماننا بدير الطين، و هو عامر بالنصارى.

بئر الدرج: شرقىّ بساتين الوزير، لها درج ينزل به إليها، عملها الحاكم بأمر اللّه، و شرقيها قبور النصارى، و بعدهم إلى جهة الجبل قبور اليهود، و البستان المجاور لعفصة الصغرى أوّل بركة الحبش على لسان الجبل الخارج إلى البركة، مجاورة لبئر النعش و بئر السقايين، و هى المعروفة ببئر أبى موسى خليد، و قد صار هذا البستان إلى المهذب بن الوزير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۶

بئر الزقاق: شرقىّ بئر عفصة الصغرى، و الزقاق معروف إذ ذاك فى الجبل، و فى أوّله بئر مربعة كان يسقى منها البقر و الغنم.

ذكر السبعة التى تزار بالقرافة

اعلم أن زيارة القرافة كانت أوّلا يوم الأربعاء، ثم صارت ليلة الجمعة، و أمّا زيارة يوم السبت فقيل إنها قديمة، و قيل متأخرة، و أوّل من زار يوم الأربعاء و ابتدأ بالزيارة من مشهد السيدة نفيسة، الشيخ الصالح أبو محمد عبد اللّه بن رافع بن يزحم بن رافع السارعىّ الشافعىّ المغافرىّ الزوّار، المعروف بعابد، و مولده سنة إحدى و ستين و خمسمائة، و وفاته بالهلالية خارج باب زويلة، فى ليلة الثانى و العشرين من شعبان سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة. و دفن بسفح المقطم على تربة بنى نهار، بحرىّ تربة الردينىّ. و أوّل من زار ليلة الجمعة، الشيخ الصالح المقرى أبو الحسن علىّ بن أحمد بن جوشن المعروف بابن الجباس، والد شرف الدين محمد بن علىّ بن أحمد بن الجباس، فجمع الناس و زار بهم فى ليلة الجمعة فى كلّ أسبوع، و زار معه فى بعض الليالى السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و مشى معه أكابر العلماء. و كان سبب تجرّد أبى الحسن بن الجباس و انقطاعه إلى اللّه تعالى، أنه دولب مطبخ سكّر شركة رجل، فوقف عليهما مال للديوان، فسجنا بالقصر، فقرأ ابن الجباس فى بعض الليالى سورة الرعد، فسمعه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فقام حتى وقف عليه و سأله عن خبره، فأعلمه بأنه سجن على مبلغ كذا، فأمر بالإفراج عنه، فأبى إلّا أن يفرج عن رفيقه أيضا، فأفرج عنهما جميعا.

و اتفق أنه مرّ فى بعض ليالى الزيارة بزاوية الفخر الفارسىّ، فخرج و قال له: ما هذه البدعة؟

فى غد أبطلها. ثم دخل الزاوية و خرج بعد ساعة و أمر بردّ ابن الجباس، فلما جاءه قال: دم على ما أنت عليه، فإنى رأيت الساعة قوما فقالوا: هل تعطينا ما يعطينا ابن الجباس فى ليالى الجمع؟ فعلمت أن ذلك هو الدعاء و القراءة. و أمّا زيارة يوم السبت، فقد تقدّم أنه اختلف فيها، و حكى الموفق بن عثمان عن القضاعىّ أنه كان يحث على زيارة سبعة قبور، و أن رجلا شكا إليه ضيق حاله. و الدين. فقال له: عليك بزيارة سبعة قبور. أوّلهم: الشيخ أبو الحسن علىّ بن محمد بن سهل بن الصائغ الدينورىّ، و توفى ليلة الثلاثاء، لثلاث

عشرة بقيت من شهر رجب سنة إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة. و الثانى: عبد الصمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن إبراهيم البغدادىّ، صاحب الخلفاء، و توفى سنة خمس و ثلاثين و ثلاثمائة.

و الثالث: أبو إبراهيم إسماعيل بن ... المزنىّ، و توفى سنة أربع و ستين و مائتين.

و الرابع: القاضى بكار بن قتيبة، و توفى سنة سبعين و مائتين. و الخامس: القاضى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۷

المفضل بن فضالة، و توفى سنة اثنتين و خمسين و مائتين. و السادس: القاضى أبو بكر عبد الملك بن الحسن القمنىّ، و توفى فى ذى الحجة سنة اثنتين و ثلاثين و أربعمائة. و السابع:

أبو الفيض ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصرىّ، و توفى سنة خمس و أربعين و مائتين.

و كانوا أوّلا يزورون بعد صلاة الصبح و هم مشاة على أقدامهم إلى أن كانت أيام شيخ الزوّار محمد العجمىّ السعودىّ، فزار راكبا فى يوم السبت بعد طلوع الشمس، لأنّ رجليه كانتا معوجتين لا يستطيع المشى عليهما، و ذلك فى أواخر سنة ثمانمائة، و توفى فى عاشر شهر رمضان سنة تسع و ثمانمائة. فجاء بعده الزائر شمس الدين محمد بن عيسى المرجوشىّ السعودىّ، و محيى الدين عبد القادر بن علاء الدين محمد بن علم الدين بن عبد الرحمن الشهير بابن عثمان، ففعلا ذلك، و مات ابن عثمان فى سابع شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فاستمرّت الزيارة على ذلك.

و قد حكى صاحب كتاب محاسن الأبرار و مجالس الأخيار سبعة غير من ذكرنا و سماهم المحققين و هم: صلة بن مؤمّل، و أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن علىّ بن جعفر الخوارزمىّ، و سالم العفيف، و أبو الفضل بن الجوهرىّ، و أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن الحسين، عرف بالبزار، و أبو الحسن علىّ، عرف بطير الوحش، و أبو الحسن علىّ بن صالح الأندلسىّ الكحال، و ذكر أيضا سبعة أخر و هم: عقبة بن عامر الجهنىّ، و الإمام أبو عبد اللّه محمد بن إدريس الشافعىّ، و أبو بكر الدقاق، و أبو إبراهيم إسماعيل المزنىّ، و أبو العباس أحمد الجزار، و الفقيه ابن دحية، و الفقيه ابن فارس اللخمىّ، و زيارتهم يوم الجمعة بعد صلاة الصبح، و العمل عليها فى الزيارة الآن، إلّا أنهم يجتمعون طوائف، لكلّ طائفة شيخ، و يقيمون مناور كبارا و صغارا و يخرجون فى ليالى الجمع و فى كلّ سبت بكرة النهار، و فى كلّ يوم أربعاء بعد الظهر، و هم يذكرون اللّه، فيزورون. و يجتمع معهم من الرجال و النساء خلائق لا تحصى، و منهم من يعمل ميعاد وعظ، و يقال لشيخ كل طائفة الشيخ الزائر، فتمرّ لهم فى الزيارة أمور منها ما يستحسن و منها ما ينكر، و لكلّ عبد ما نوى.

فمن أشهر مزارات القرافة:

قبر الإمام أبى عبد اللّه محمد بن إدريس الشافعىّ.

رحمة اللّه و رضوانه عليه، و توفى يوم الجمعة آخر يوم من شهر رجب، سنة أربع و مائتين بفسطاط مصر، و حمل على الأعناق حتى دفن فى مقبرة بنى زهرة، أولاد عبد اللّه بن عبد الرحمن بن عوف الزهرىّ رضى اللّه عنه، و عرفت أيضا بتربة أولاد ابن عبد الحكم.

قال القضاعىّ: و قد جرّب الناس خير هذه التربة المباركة و القبر المبارك، و ينقل عن المزنىّ أنه قال فيه:

سقى اللّه هذا القبر من وبل مزنهمن العفو ما يغنيه عن طلل المزن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۸ لقد كان كفؤا للعداة و معقلاو ركنا لهذا الدين بل أيّما ركن

هكذا وقفت عليه، ثم رأيت بعد ذلك أن المزنىّ، رحمه اللّه، لما دفن مرّ رجل على قبره و إذا بهاتف يقول: فذكر البيتين. و قال آخر:

للّه درّ الثرى كم ضمّ من كرمبالشافعىّ حليف العلم و الأثر

يا جوهر الجوهر المكنون من مضرو من قريش و من ساداتها الأخر

لما توليت ولّى العلم مكتئباو ضرّ موتك أهل البدو و الحضر

و لآخر:

أكرم به رجلا ما مثله رجل‌مشارك لرسول اللّه فى نسبه

أضحى بمصر دفينا فى مقطمهانعم المقطّم و المدفون فى تربهٔ

و مناقب الشافعیّ رحمه اللّه کثیرهٔ، قد صنف الأئمهٔ فیها عدّهٔ مصنفات، و له فی تاریخی الکبیر المقفی ترجمهٔ کبیرهٔ، و من أبدع ما حکی من مناقبه: أنّ الوزیر نظام الملک أبا علیّ الحسن بن علیّ بن إسحاق، لما بنی المدرسهٔ النظامیهٔ ببغداد فی سنهٔ أربع و سبعین و أربعمائهٔ، أحب أن ینقل الإمام الشافعیّ من مقبرته بمصر إلی مدرسته، و کتب إلی أمیر الجیوش بدر الجمالیّ وزیر الإمام المستنصر باللّه معدّ یسأله فی ذلک، و جهز له هدیهٔ جلیلهٔ، فرکب أمیر الجیوش فی موکبه و معه أعیان الدولهٔ و وجوه المصریین من العلماء و غیرهم، و قد اجتمع الناس لرؤیته، فلما نبش القبر شق ذلک علی الناس، و ماجوا و کثر اللغط و ارتفعت الأصوات و هموا برجم أمیر الجیوش و الثورهٔ به، فسکّتهم و بعث یعلم الخلیفهٔ أمیر المؤمنین المستنصر بصورهٔ الحال، فأعاد جوابه بإمضاء ما أراد نظام الملک، فقرىء کتابه بذلک علی الناس عند القبر و طردت العامّهٔ و الغوغاء من حوله، و وقع الحفر حتی انتهوا إلی اللحد، فعندما أرادوا قلع ما علیه من اللبن خرج من اللحد رائحهٔ عطرهٔ أسکرت من حضر فوق القبر حتی وقعوا صرعی، فما أفاقوا إلّا بعد ساعهٔ، فاستغفروا مما کان منهم و أعادوا ردم القبر کما کان و انصرفوا، و کان یوما من الأیام المذکورهٔ، و تزاحم الناس علی قبر الشافعیّ یزورونه مدّهٔ أربعین یوما بلیالیها، حتی کان من شدّهٔ الازدحام لا یتوصل إلیه إلّا بعناء و مشقهٔ زائدهٔ، و کتب أمیر الجیوش محضرا بما وقع و بعث به و بهدیهٔ عظیمهٔ مع کتابه إلی نظام الملک، فقرىء هذا المحضر و الکتاب بالنظامیهٔ ببغداد، و قد اجتمع العالم علی اختلاف طبقاتهم لسماع ذلک، فکان یوما مشهودا ببغداد، و کتب نظام الملک إلی عامّهٔ بلدان المشرق من حدود الفرات إلی ما وراء النهر بذلک، و بعث مع کتبه بالمحضر و کتاب أمیر الجیوش، فقرئت فی تلک الممالک بأسرها، فزاد قدر الإمام الشافعیّ عند کافهٔ أهل الأقطار، و عامّهٔ جمیع أهل الأمصار بذلک.

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۴، ص: ۳۵۹

و قد أوردت فی کتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء و الأحوال و الحفدهٔ و المتاع صلّی اللّه علیه و سلّم، نظیر هذه الواقعهٔ، وقع لضریح رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و لم یزل قبر الشافعیّ یزار و یتبرّک به إلی أن کان یوم الأحد لسبع خلت من جمادی الأولی سنهٔ ثمان و ستمائهٔ، فانتهی بناء هذه القبهٔ التی علی ضریحه، و قد أنشأها الملک الکامل المظفر المنصور أبو المعالی ناصر الدین محمد ظهیر أمیر المؤمنین ابن السلطان الملک العادل سیف الدین أبی بکر بن أیوب، و بلغت النفقهٔ علیها خمسین ألف دینار مصریهٔ، و أخرج فی وقت بنائها بعظام کثیرهٔ من مقابر کانت هناک، و دفنت فی موضع من القرافهٔ، و بهذه القبهٔ أیضا قبر السلطان الملک العزیز عثمان بن السلطان صلاح الدین یوسف بن أیوب، و قبر أمّه شمسهٔ، و قیل فیها عدّهٔ أشعار، منها قول الأدیب الکاتب ضیاء الدین أبی الفتح موسی بن ملهم:

مررت علی قبّهٔ الشافعیّ‌فعاین طرفی علیها العشاری

فقلت لصحبی لا تعجبوافإنّ المراکب فوق البحار

و قال علاء الدین أبو علیّ عثمان بن إبراهیم النابلسی:

لقد أصبح الشافعیّ الإمام فینا له مذهب مذهب

و لو لم یکن بحر علم لماغدا و علی قبره مرکب

و قال آخر:

أتیت لقبر الشافعیّ أزوره‌تعرّضنا فلک و ما عنده بحر

فقلت تعالی اللّه تلک إشارهٔ‌تشیر بأنّ البحر قد ضمّه القبر

و قال شرف الدين أبو عبد اللّه محمد بن سعيد بن حماد البوصيرىّ صاحب البردة:

بقبة قبر الشافعىّ سفينةرست فى بناء محكم فوق جلمود

و مذ غاض طوفان العلوم بقبره استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى و منها

قبر الإمام الليث بن سعد: رحمه اللّه، قد اشتهر قبره عند المتأخرين، و أوّل ما عرفته من خبر هذا القبر أنه وجدت مصطبة فى آخر قباب الصدف، و كانت قباب الصدف أربعمائة قبة فيما يقال، عليها مكتوب الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصرىّ مفتى أهل مصر، كما ذكر فى كتاب هادى الراغبين فى زيارة قبور الصالحين، لأبى محمد عبد الكريم بن عبد اللّه بن عبد الكريم بن علىّ بن محمد بن علىّ بن طلحة، و فى كتاب مرشد الزوّار للموفق ابن عثمان. و ذكر الشيخ محمد الأزهرىّ فى كتابه فى الزيارة: أن أوّل من بنى عليه و حيز كبير التجار أبو زيد المصرىّ، بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۰

سنة أربعين و ستمائة، و لم يزل البناء يتزايد إلى أن جدّد الحاج سيف الدين المقدّم عليه قبته فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون، قبيل سنة ثمانين و سبعمائة، ثم جدّدت فى أيام الناصر فرج بن الظاهر برقوق، على يد الشيخ أبى الخير محمد ابن الشيخ سليمان المادح، فى محرّم سنة إحدى عشرة و ثمانمائة. ثم جدّدت فى سنة اثنتين و ثلاثين و ثمانمائة على يد امرأة قدمت من دمشق فى أيام المؤيد شيخ، عرفت بمرحبا بنت إبراهيم بن عبد الرحمن، أخت عبد الباسط. و كان لها معروف و برّ، توفيت فى تاسع عشرى ذى القعدة سنة أربعين و ثمانمائة، و يجتمع بهذ القبة فى ليلة كلّ سبت جماعة من القرّاء، فيتلون القرآن الكريم تلاوة حسنة حتى يختسموا ختمة كاملة عند السحر، و يقصد المبيت عندهم للتبرّك بقراءة القرآن عدّة من الناس، ثم تفاحش الجمع، و أقبل النساء و الأحداث و الغوغاء، فصار أمرا منكرا، لا ينصتون لقراءة و لا يتعظون بمواعظ، بل يحدث منهم على القبور ما لا يجوز. ثم زادوا فى التعدّى حتى حفروا ما هنالك خارج القبة من القبور، و بنوا مبانى اتخذوها مراحيض و سقايات ماء، و يزعم من لا علم عنده أن هذه القراءة فى كل ليلة سبت عند قبر الليث بزعمهم قديمة من عهد الإمام الشافعىّ، و ليس ذلك بصحيح، و إنما حدثت بعد السبعمائة من سنى الهجرة، بمنام ذكر بعضهم أنه رآه، و كانوا إذ ذاك يجتمعون للقراءة عند قبر أبى بكر الأدفوىّ.

ذكر المقابر خارج باب النصر

اعلم أن المقابر التى هى الآن خارج باب النصر، إنما حدثت بعد سنة ثمانين و أربعمائة، و أوّل تربة بنيت هناك تربة أمير الجيوش بدر الجمالىّ لما مات و دفن فيها، و كان خطها يعرف برأس الطابية، قال الشريف أمين الدولة أبو جعفر محمد بن هبة اللّه العلوىّ الأفطسىّ، و قد مرّ بتربة الأفضل:

أجرى دما أجفانيهجدث برأس الطابيه

صدع الزمان صفاتيه .....

بال و ما بليت أياديه علىّ الباقيه

و يخارج باب النصر فى أوائل المقابر قبر زينب بنت أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن جعفر ابن الحنفية، يزار و تسميه العامّة مشهد الست زينب، ثم تتابع دفن الناس موتاهم فى الجهة التى هى اليوم من بحرى مصلّى الأموات إلى نحو الريدانية، و كان ما فى شرقىّ هذه المقبرة إلى الجبل براحا واسعا يعرف بميدان القبق، و ميدان العيد، و الميدان الأسود، و هو ما بين قلعة الجبل إلى قبة النصر تحت الجبل الأحمر. فلما كان بعد سنة عشرين و سبعمائة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۱

ترك الملك الناصر محمد بن قلاون النزول إلى هذا الميدان و هجره، فأوّل من ابتدأ فيه بالعمارة الأمير شمس الدين قراسنقر، فاختط

تربته التى تجاور اليوم تربـة الصوفيـة، و بنى حوض ماء للسبيل، و جعل فوقه مسـجدا، و هذا الحوض بجوار باب تربة الصوفية، أدركته عامرا هو و ما فوقه، و قد تهدّم و بقيت منه بقية. ثم عمر بعده نظام الدين آدم أخو الأمير سيف الدين سلار، تجاه تربة قراسنقر مدفنا و حوض ماء للسبيل و مسـجدا معلقا، و تتابع الأمراء و الأجناد و سـكان الحسـينية فى عمارة الترب هناك، حتى انسدّت طريق الميدان، و عمروا الجوّانية أيضا، و أخذ صوفية الخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء قطعة قدر فدّانين، و أداروا عليها سورا من حجر، و جعلوها مقبرة لمن يموت منهم، و هى باقيـة إلى يومنا هـذا، و قـد وسـعوا فيها بعـد سـنة تسـعين و سـبعمائة بقطعـة من تربة قراسـنقر، و ما برح الناس يقصـدون تربـة الصوفيـة هذه لزيارة من فيها من الأموات، و يرغبون فى الدفن بها، إلى أن تولى مشـيخة الخانقاه الشـيخ شـمس الدين محمد البلالىّ، فسـمح لكلّ أحد أن يقبر ميته بها على مال يأخذه منه، فقبر بها كثير من أعوان الظلمة، و من لم يشكر طريقته، فصارت مجمع نسوان، و مجلس لعب.

و عمر أيضـا بجوار تربـة الصوفيـة الأـمير مسـعود بن خطير تربـة، و عمل لها منارة من حجارة لا نظير لها فى هيئتها، و هى باقيـة. و عمر أيضا مجد الدين السـلامىّ تربة، و عمر الأمير سيف الدين كوكاى تربة، و عمر الأمير طاجاى الدوادار على رأس القبق مقابل قبة النصر تربة، و عمر الأمير سـيف الدين طشـتمر الساقى على الطريق تربة، و بنى الأمراء إلى جانبه عدّة ترب، و بنى الطواشى محسن البهاء تربة عظيمـة، و بنت خونـد طغاى تربـة تجاه تربـة طشـتمر الساقى، و جعلت لها وقفا. و بنى الأمير طغاى تمر النجمىّ الـدوادار تربة، و جعلها خانقاه، و أنشأ بجوارها حمّاما و حوانيت، و أسـكنها للصوفية و القرّاء، و بنى الأمير منكلى بغا الفخرىّ تربة، و الأمير طشتمر طلليه تربة، و الأمير أرنان تربة، و بنى كثير من الأمراء و غيرهم الترب، حتى اتصـلت العمارة من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج باب البرقية. و ما مات الملك الناصـر حتى بطل من الميـدان السـباق بالخيل، و منعت طريقه من كثرة العمائر، و أدركت بعـد سـنة ثمانين و سـبعمائة عدّة عواميد من رخام منصوبة يقال لها عواميد السباق، فيما بين قبة النصر و قريب من القلعة.

و أوّل من عمر فى البراح الذى كان فيه عواميد السـباق، الأمير يونس الدوادار، فى أيام الملك الظاهر، تربته الموجودة هناك. ثم عمر الأمير فجماس ابن عمّ الملك الظاهر برقوق تربـة بجانب تربـة يونس، و أحيط على قطعة كبيرة حائط، و قبر فيها من مات من مماليك السـلطان، و قبر فيها الشيخ علاء الدين السيرامىّ شيخ الخانقاه. الظاهرية، و الشيخ المعتقد طلحة، و الشيخ المعتقد أبو بكر البجائى. فلما مرض الملك الظاهر برقوف أوصى أن يدفن تحت أرجل هؤلاء الفقراء. و أن يبنى على قبره تربة، فدفن حيث أوصى، و أخذت قطعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۲

مساحتها عشـرة آلاف ذراع و جعلت خانقاه، و جعل فيها قبـة على قبر السـلطان و قبور الفقراء المـذكورين، و تجـدّد من حينئـذ هناك عـدّة ترب جليلـة، حتى صار الميدان شوارع و أزقة، و نقل الملك الناصـر فرج بن برقوق سوق الجمال و سوق الحمير من تحت القلعة إلى تجاه التربـة التى عمرها على قبر أبيه، فاسـتمرّ ذلك أياما فى سـنة أربع عشـرة و ثمانمائـة، ثم أعيـدت الأسواق إلى مكانها، و كان قصـده أن يبنى هنـاك خانـا كبيرا ينزل فيه المسـافرون، و يجعـل بجانبه سوقا، و بنى طاحونا و حمّاما و فرنا لتعمر تلك الجهـة بالناس، فمات قبل بناء الخان، و خلت الحمّام و الطاحون و الفرن بعد قتله.

ذكر كنائس اليهود

اشارة

قال اللّه عز و جل: لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَ هُمْ بِبَعْضٍ لَهُـدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَـلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً [الحج/ ۴۰] قال المفسـرون: الصوامع للصابئين، و البيع للنصارى، و الصـلوات كنائس اليهود، و المساجد للمسـلمين. قاله ابن قتيبة: و الكنيس كلمة عبرانيـة معناها بالعربية الموضع الذى يجتمع فيه للصـلاة، و لهم بديار مصـر عدة كنائس، منها كنيسة دموة بالجيزة، و كنيسة جوجر من

القرى الغربية، و بمصر الفسطاط كنيسة بخط المصاصة فى درب الكرمة، و كنيستان بخط قصر الشمع، و بالقاهرة كنيسة بالجودرية، و فى حارة زويلة خمس كنائس.

كنيسة دموه: هذه الكنيسة أعظم مبعد لليهود بأرض مصر، فإنهم لا يختلفون فى أنها الموضع الذى كان يأوى إليه موسى بن عمران صلوات اللّه عليه، حين كان يبلغ رسالات اللّه عز و جلّ إلى فرعون مدّة مقامة بمصر، منذ قدم من مدين إلى أن خرج ببنى إسرائيل من مصر. و يزعم يهود أنها بنيت هذا البناء الموجود بعد خراب بيت المقدس الخراب الثانى على يد طيطش ببعض و أربعين سنة، و ذلك قبل ظهور الملة الإسلامية بما ينيف على خمسمائة سنة، و بهذه الكنيسة شجرة زيزلخت فى غاية الكبر لا يشكون فى أنها من زمن موسى عليه السلام، و يقولون أنّ موسى عليه السلام غرس عصاه فى موضعها فأنبت اللّه هناك هذه الشجرة، و أنها لم تزل ذات أغصان نضرة، و ساق صاعد فى السماء، مع حسن استواء، و ثخن فى استقامة، إلى أن أنشأ الملك الأشرف شعبان بن حسين مدرسته تحت القلعة، فذكر له حسن هذه الشجرة، فتقدّم بقطعها لينتفع بها فى العمارة، فمضوا إلى ما أمروا به من ذلك، فأصبحت و قد تكوّرت و تعقفت و صارت شنيعة المنظر فتركوها، و استمرّت كذلك مدّة، فاتفق أن زنى يهودى بيهودية تحتها، فتهدّلت أغصانها و تحاتّ ورقها و جفت حتى لم يبق بها ورقة خضراء، و هى باقية كذلك إلى يومنا هذا و لهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۳

بأهاليهم إليها فى عيد الخطاب، و هو فى شهر سيوان، و يجعلون ذلك بدل حجهم إلى القدس، و قد كان لموسى عليه السلام أنباء قد قصها اللّه تعالى فى القرآن الكريم و فى التوراة، و روى أهل الكتاب و علماء الأخبار من المسلمين كثيرا منها، و سأقص عليك فى هذا الموضع منها ما فيه كفاية، إذ كان ذلك من شرط هذا الكتاب.

موسى بن عمران: و فى التوراة عمرام بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّه و سلامه عليهم، أمّه يوحانذ بنت لاوى، فهى عمة عمران والد موسى، ولد بمصر فى اليوم السابع من شهر آذار سنة ثلاثين و مائة لدخول يعقوب على يوسف عليهما السلام بمصر، و كان بنو إسرائيل منذ مات لاوى بن يعقوب فى سنة أربع و تسعين لدخول يعقوب مصر فى البلاء مع القبط، و ذلك أن يوسف عليه السلام لما مات فى سنة ثمانين من قدوم يعقوب مصر، كان الملك إذ ذاك بمصر دارم بن الريان، و هو الفرعون الرابع عندهم، و تسميه القبط دريموس، فاستوزر بعده رجلا من الكهنة يقال له بلاطس، فحمله على أذى الناس و خالف ما كان عليه يوسف، و ساءت سيرة الملك حتى اغتصب كلّ امرأة جميلة بمدينة منف و غيرها من النواحى، فشق ذلك من فعله على الناس و همّوا بخلعه من الملك، فقام الوزير بلاطس فى الوساطة بينه و بين الناس و أسقط عنهم الخراج لثلاث سنين، و فرّق فيهم مالا حتى سكنوا، و اتفق أن رجلا من الإسرائيليين ضرب بعض سدنة الهياكل فأدماه، و عاب دين الكهنة، فغضب القبط و سألوا الوزير أن يخرج بنى إسرائيل من مصر، فأبى. و كان دارم الملك قد خرج إلى الصعيد، فبعث إليه يخبره بأمر الإسرائيلىّ و ما كان من القبط فى طلبهم إخراج بنى إسرائيل من مصر، فأرسل إليه أن لا يحدث فى القوم حدثا دون موافاته، فشغب القبط و أجمعوا على خلع الملك و إقامة غيره، فسار إليهم الملك و كانت بينه و بينهم حروب قتل فيها خلق كثير، ظفر فيها الملك و صلب ممن خالفه بحافتى النيل طوائف لا تحصى، و عاد إلى أكثر مما كان عليه من ابتزاز النساء و أخذ الأموال و استخدام الأشراف الوجوه من القبط و من بنى إسرائيل، فأجمع الكلّ على ذمّه.

و اتفق أنه ركب فى النيل فهاجت به الريح و أغرقه اللّه و من معه، و لم توجد جثته إلّا عند شطنوف.

فأقام الوزير من بعده فى الملك ابنه معاديوش، و كان صبيا، و يسميه بعضهم معدان، فاستقام الأمر له و ردّ النساء اللاتى اغتصبهنّ أبوه، و هو خامس الفراعنة، فكثر بنو إسرائيل فى زمنه و لهجوا بثلب الأصنام و ذمّها، و هلك بلاطس الوزير و قام من بعده فى الوزارة كاهن يقال له أملاده، فأمر بإفراد بنى إسرائيل ناحية فى البلد، بحيث لا يختلط بهم غيرهم، فأقطعوا موضعا فى قلبىّ مدينة منف، صاروا إليه و بنوا فيه معبدا كانوا يتلون به صحف إبراهيم عليه السلام، فخطب رجل من القبط بعض نسائهم فأبوا أن ينكحوه، و قد كان

هويها. فأكبر القبط فعلهم و صاروا إلى الوزير و شكوا من بنى إسرائيل و قالوا: هؤلاء قوم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۴

يعيبوننا و يرغبون عن مناكحتنا، و لا نحب أن يجاورونا ما لم يدينوا بديننا. فقال لهم الوزير: قد علمتم إكرام طوطيس الملك لجدّهم و نهر اوش من بعده، و قد علمتم بركة يوسف حتى جعلتم قبره وسط النيل فأخصب جانبا مصر بمكانه، و أمرهم بالكف عن بنى إسرائيل، فأمسكوا إلى أن احتجب معدان و قام من بعده فى الملك ابنه اكسامس الذى يسميه بعضهم كاسم ابن معدان بن الريان بن الوليد بن دومع العمليقىّ، و هو السادس من فراعنة مصر، و كان أوّلهم يقال له فرعان، فصار اسما لكلّ من تجبر و علا أمره، و طالت أيام كاسم و مات وزير أبيه، فأقام من بعده رجلا من بيت المملكة يقال له ظلما بن قومس، و كان شجاعا ساحرا كاهنا كاتبا حكيما دهيا متصرّفا فى كل فنّ، و كانت نفسه تنازعه الملك، و يقال أنه من ولد أشمون الملك، و قيل من ولد صا. فأحبه الناس، و عمر الخراب و بنى مدنا من الجانبين، و رأى فى نجومه أنّه سيكون حدث و شدّة، و سكا القبط إليه من الإسرائيليين فقال: هم عبيدكم. فكان القبطىّ إذا أراد حاجة سخّر الإسرائيلىّ و ضربه فلا يغير عليه أحد و لا ينكر عليه ذلك. فإن ضرب الإسرائيلىّ أحدا من القبط قتل البتة، و كذلك كانت تفعل نساء القبط بالنساء الإسرائيليات، فكانت أوّل شدّة و ذلّ أصاب بنى إسرائيل و كثر ظلمهم و أذاهم من القبط، و استبدّ الوزير ظلما بأمر البلد كما كان العزيز مع نهراوش.

و توفى اكسامس الملك، فأنّهم ظلمان بأنه سمّه، تركب فى سلاحه و أقام لاطس الملك مكان أبيه، و كان ابنه جريئا معجبا، فصرف ظلما بن قومس عما كان عليه من خلافته، و استخلف رجلا يقال له لاهوق من ولد صا، و أنفذ ظلما عاملا على الصعيد و سير معه جماعة من الإسرائيليين، و زاد تجبره و عتوّه، و أمر الناس جميعا أن يقوموا على أرجلهم فى مجلسه، و مدّ يده إلى الأموال و منع الناس من فضول ما بأيديهم، و قصرهم على القوت، و ابتز كثيرا من النساء و فعل أكثر مما فعله ملك تقدّمه، و استعبد بنى إسرائيل فأبغضه الخاص و العام، و كان ظلما لما صرف عن الوزارة و خرج إلى الصعيد، أراد إزالة الملك و الخروج عن طاعته، فجبى المال و امتنع من حمله، و أخذ المعادن لنفسه و همّ أن يقيم ملكا من ولد قبطرين و يدعو الناس إلى طاعته، ثم انصرف عن ذلك و دعا لنفسه، و كاتب الوجوه و الأعيان، فافترق الناس و تطاول كل واحد من أبناء الملوك إلى الملك و طمع فيه، و يقال أنّ روحانيا ظهر لظلما و قال له: إن أطعتنى قلدتك مصر زمانا طويلا، فأجابه و قرّب إليه أشياء منها غلام من بنى إسرائيل، فصار عونا له، و بلغ الملك خبر خروج ظلما عن طاعته، فوجّه إليه قائدا قلده مكانه و أمره أن يقبض على ظلما. و يبعث به إليه موثقا، فسار إليه و خرج ظلما للقائه و حاربه فظفر به و استولى على ما معه، فجهز إليه الملك قائدا آخر فهزمه و سار فى إثره و قد كثف جمعه، فبرز إليه الملك و احتربا، فكانت لظلما على الملك، فقتله و استولى على مدينة منف و نزل قصر المملكة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۵

و هذا هو فرعون موسى عليه السلام، و بعضهم يسميه الوليد بن مصعب، و قيل هو من العمالقة و هو سابع الفراعنة. و يقال أنه كان قصيرا طويل اللحية أشهل العينين صغير العين اليسرى، فى جبينه شامة، و كان أعرج، و قيل أنه كان يكنّى بأبى مرّة، و أن اسمه الوليد بن مصعب، و أنه أوّل من خضب بالسواد لما شاب، دله عليه إبليس. و قيل أنه كان من القبط، و قيل أنه دخل منف على أتان يحمل النطرون ليبيعه، و كان الناس قد اضطربوا فى تولية الملك، فحكّموه و رضوا بتولية من يوليه عليهم، و ذلك أنهم خرجوا إلى ظاهر مدينة منف ينتظرون أوّل من يظهر عليهم ليحكّموه، فكان هو أوّل من أقبل بحماره، فلما حكّموه و رضوا بحكمه أقام نفسه ملكا عليهم، و انكر قوم هذا و قالوا: كان القوم أدهى من أن يقلدوا ملكهم من هذه سبيله فلمّا جلس فى الملك اختلف الناس عليه فبذل لهم الأموال، و قتل من خالفه بمن أطاعه حتى اعتدل أمره، و رتب المراتب و شيد الأعمال و بنى المدن و خندق الخنادق و بنى بناحية العريش حصنا، و كذلك على جميع حدود مصر، و استخلف هامان، و كان يقرب منه فى نسبه، و أثار الكنوز و صرفها فى بناء المدائن و العمارات، و حفر خليج سردوس و غيره، و بلغ الخراج بمصر فى زمنه سبعة و تسعين ألف ألف دينار بالدينار الفرعونىّ، و

هو ثلاثة مثاقيل.

و فرعون هو أوّل من عرّف العرفاء على الناس، و كان ممن صحبه من بنى إسرائيل رجل يقال له أمرى، و هو الذى يقال له بالعبرانية عمرام، و بالعربية عمران بن قاهث بن لاوى، و كان قدم مصر مع يعقوب عليه السلام فجعله حرسا لقصره يتولى حفظه، و عنده مفاتيحه و أغلاقه بالليل، و كان فرعون قد رأى فى كهانته و نجومه أنه يجرى هلاكه على يد مولود من الإسرائيليين، فمنعهم من المناكحة ثلاث سنين التى رأى أن ذلك المولود يولد فيها، فأتت امرأة أمرى إليه فى بعض الليالى بشىء قد أصلحته له فواقعها، فاشتملت منه على هارون، و ولدته لثلاث و سبعين من عمره، فى سنة سبع و عشرين و مائة لقدوم يعقوب إلى مصر، ثم أتته مرّة أخرى فحملت بموسى لثمانين سنة من عمره، و رأى فرعون فى نجومه أنه قد حمل بذلك المولود، فأمر بذبح الذكران من بنى إسرائيل، و تقدّم إلى القوابل بذلك، فولد موسى عليه السلام فى سنة ثلاثين و مائة لقدوم يعقوب إلى مصر، و فى سنة أربع و عشرين و أربعمائة لولادة إبراهيم الخليل عليه السلام، و لمضىّ ألف و خمسمائة و ست سنين من الطوفان، و كان من أمره ما قصه اللّه سبحانه من قذف أمّه له فى التابوت، فألقاه النيل إلى تحت قصر الملك، و قد أرصدت أمّه أخته على بعد لتنظر من يلتقطه، فجاءت ابنة فرعون إلى البحر مع جواريها فرأته و استخرجته من التابوت فرحمته و قالت: هذا من العبرانيين من لنا بظئر ترضعه؟ فقالت لها أخته أنا آتيك بها، و جاءت بأمّه فاسترضعتها له ابنة فرعون إلى أن فصل، فأتت به إلى ابنة فرعون و سمته موسى و تبنته، و نشأ عندها، و قيل بل أخذته امرأة فرعون و استرضعت أمّه و منعت فرعون من قتله إلى أن كبر و عظم شأنه فردّ إليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۶

فرعون كثيرا من أمره و جعله من قوّاده، و كانت له سطوة، ثم وجهه لغزو اليونانيين و قد عاثوا فى أطراف مصر، فخرج فى جيش كثيف و أوقع بهم فأظفره اللّه و قتل منهم كثيرا و أسر كثيرا و عاد غانما، فسرّ ذلك فرعون و أعجب به هو و امرأته، و استولى موسى و هو غلام على كثير من أمر فرعون، فأراد فرعون أن يستخلفه، حتى قتل رجلا من أشراف القبط له قرابة من فرعون فطلبه، و ذلك أنه خرج يوما يمشى فى الناس و له صولة بما كان له فى بيت فرعون من المربى و الرضاع، فرأى عبرانيا يضرب، فقتل المصرىّ الذى ضربه و دفنه، و خرج يوما آخر فإذا برجلين من بنى إسرائيل و قد سطا أحدهما على الآخر، فزجره. فقال له: و من جعل لك هذا، أ تريد أن تقتلنى كما قتلت المصرىّ بالأمس، و نما الخبر إلى فرعون فطلبه، و ألقى اللّه فى نفسه الخوف لما يريد من كرامته، فخرج من منف ولحق بمدين عند عقبة أيلة، و بنو مدين أمّة عظيمة من بنى إبراهيم عليه السلام، كانوا ساكنين هناك، و كان فراره و له من العمر أربعون سنة، فنزل عند بيرون، و هو شعيب عليه السلام من ولد مدين بن إبراهيم، و كان من تزويجه ابنته و رعايته غنمه ما كان، فأقام هنالك تسعا و ثلاثين سنة نكح فيها صفوراء ابنة شعيب، و بنوا إسرائيل مع فرعون و أهل مصر كما قال تعالى: «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ و يستعبدونهم» .

فلما مضى من سنة الثمانين لموسى شهر و أسبوع، كلمه اللّه جلّ اسمه، و كان ذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر نيسان، و أمره أن يذهب إلى فرعون، و شدّ عضده بأخيه هارون و أيده بآيات منها قلب العصا حية و بياض يده من غير سوء و غير ذلك من الآيات العشر التى أحلها اللّه بفرعون و قومه، و كان مجىء الوحى من اللّه تعالى إليه و هو ابن ثمانين سنة، ثم قدم مصر فى شهر أيار و لقى أخاه هارون، فسرّ به و أطعمه جلبانا فيه ثريد، و تنبأ هارون و هو ابن ثلاث و ثمانين سنة، و غدا به إلى فرعون و قد أوحى إليهما أن يأتيا إلى فرعون ليبعث معهما بنى إسرائيل فيستنقذ أنهم من هلكة القبط و جور الفراعنة، و يخرجون إلى الأرض المقدّسة التى وعدهم اللّه بملكها على لسان إبراهيم و إسحاق و يعقوب، فأبلغا ذلك بنى إسرائيل عن اللّه، فأمنوا بموسى و اتبعوه، ثم حضرا إلى فرعون فأقاما ببابه أياما و على كل منهما جبة صوف، و مع موسى عصاه، و هما لا يصلان إلى فرعون لشدّة حجابه، حتى دخل عليه مضحك كان يلهو به فعرّفه أن بالباب رجلين يطلبان الاذن عليك، بزعمان أن إلههما قد أرسلهما إليك، فأمر بإدخالهما. فلما دخلا عليه خاطبه موسى بما قصه اللّه فى كتابه، و أراه آية العصا و آيته فى بياض اليد، فغاظ فرعون ما قاله موسى و همّ بقتله، فمنعه اللّه سبحانه بأن

رأى صورة قد أقبلت و مسحت على أعينهم فعموا، ثم أنه لما فتح عن عينيه أمر قوما آخرين بقتل موسى فأتتهم نار أحرقتهم، فازداد غيظه و قال لموسى: من أين ذلك هذه النواميس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۷

العظام؟ اسحرة بلدى علموك هذا أم تعلمته بعد خروجك من عندنا؟ فقال: هذا ناموس السماء و ليس من نواميس الأرض. قال فرعون: و من صاحبه؟ قال: صاحب البنية العليا.

قال: بل تعلمتها من بلدى، و أمر بجمع السحرة و الكهنة و أصحاب النواميس و قال:

اعرضوا علىّ أرفع أعمالكم فإنى أرى نواميس هذا الساحر رفيعة جدّا. فعرضوا عليه أعمالهم فسرّه ذلك، و أحضر موسى و قال له: لقد وقفت على سحرك و عندى من يفوق عليك.

فواعدهم يوم الزينة، و كان جماعة من البلد قد اتبعوا موسى فقتلهم فرعون، ثم إنه جمع بين موسى و بين سحرته، و كانوا مائتى ألف و أربعين ألفا يعملون من الأعمال ما يحير العقول و يأخذ القلوب، من دخن ملوّنات ترى الوجوه مقلوبة مشوّهة، منها الطويل و العريض و المقلوب جبهته إلى أسفل. و لحيته إلى فوق، و منها ما له قرون و منها ما له خرطوم و أنياب ظاهرة كأنياب الفيلة، و منها ما هو عظيم فى قدر الترس الكبير، و منها ما له آذان عظام و شبه وجوه القرود بأجساد عظيمة تبلغ السحاب و أجنحة مركبة على حيات عظيمة تطير فى الهواء، و يرجع بعضها على بعض فيبتلعه، و حيات يخرج من أفواهها نار تنتشر فى الناس، و حيات تطير و ترجع فى الهواء و تنحدر على كلّ من حضر لتبتلعه. فيتهارب الناس منها، و عصى تحلق فى الهواء فتصير حيات برؤس و شعور و أذناب تهمّ بالناس أن تنهشهم، و منها ما له قوائم، و منها تماثيل مهولة، و عملوا له دخنا تغشى أبصار الناس عن النظر فلا يرى بعضهم بعضا، و دخنا تطهر صورا كهيئة النيران فى الجوّ على دواب يصدم بعضها بعضا و يسمع لها ضجيج، و صورا خضرا على دواب خضر، و صورا سودا على دواب سود هائلة.

فلما رأى فرعون ذلك سرّه ما رأى هو و من حضره و اغتم موسى و من آمن به، حتى أوحى اللّه إليه لا تخف إنك أنت الأعلى، و ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا. و كان للحسرة ثلاثة رؤساء، و يقال بل كانوا سبعين رئيسا، فأسرّ إليهم موسى: قد رأيت ما صنعتم، فإن قهرتكم أ تؤمنون بالله؟ فقالوا نفعل. فغاظ فرعون مسارّة موسى لرؤساء السحرة، هذا و الناس يسخرون من موسى و أخيه و يهزؤون بهما، و عليهما دراعتان من صوف و قد احتز ما بليف، فلوّح موسى بعصاه حتى غابت عن الأعين و أقبلت فى هيئة تنين عظيم له عينان يتوقدان، و النار تخرج من فيه و منخريه، فلا يقع على أحد إلّا برص، و وقع من ذلك على ابنة فرعون فبرصت، و صار التنين فاغرا فاه فالتقط جميع ما عملته السحرة، و مائتى مركب كانت مملوءة حبالا و عصيا و سائر من فيها من الملاحين، و كانت فى النهر الذى يتصل بدار فرعون، و ابتلع عمدا كثيرة و حجارة قد كانت حملت إلى هناك ليبنى بها، و مرّ التنين إلى قصر فرعون ليبتلعه، و كان فرعون جالسا فى قبة على جانب القصر ليشرف على عمل السحرة، فوضع نابه تحت القصر و رفع نابه الآخر إلى أعلاه، و لهب النار يخرج من فيه حتى أحرق مواضع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۸

من القصر، فصاح فرعون مستغيثا بموسى عليه السلام، فزجر موسى التنين فانعطف ليبتلع الناس، ففرّوا كلهم من بين يديه، و انساب يريدهم. فأمسكه موسى و عاد فى يده عصا كما كان، و لم ير الناس من تلك المراكب و ما كان فيها من الحبال و العصىّ و الناس، و لا من العمد و الحجارة و ما شربه من ماء النهر حتى بانت أضه أثرا.

فعند ذلك قالت السحرة: ما هذه من عمل الآدميين، و إنّما هو من فعل جبار قدير على الأشياء. فقال لهم موسى: أوفوا بعهدكم و إلّا سلطته عليكم يبتلعكم كما ابتلع غيركم، فآمنوا بموسى و جاهروا فرعون و قالوا: هذا من فعل إله السماء و ليس هذا من فعل أهل الأرض. فقال: قد عرفت أنكم قد واطأتموه علىّ و على ملكى حسدا منكم لى، و أمر فقطعت أيديهم و أرجلهم من خلاف و صلبوا، و

جاهرته امرأته و المؤمن الذى كان يكتم إيمانه، و انصرف موسى فأقام بمصر يدعو فرعون أحد عشر شهرا، من شهر أيار إلى شهر نيسان المستقبل و فرعون لا يجيبه، بل اشتدّ جوره على بنى إسرائيل و استعبادهم و اتخاذهم سخريا فى مهنة الأعمال، فأصابت فرعون و قومه الجوائح العشر، واحدة بعد أخرى، و هو يثبت لهم عند وقوعها و يفزع إلى موسى فى الدعاء بانجلائها، ثم يلح عند انكشافها، فإنها كانت عذابا من اللّه عز و جلّ، عذّب اللّه بها فرعون و قومه.

فمنها أنّ ماء مصر صار دما حتى هلك أكثر أهل مصر عطشا، و كثرت عليهم الضفادع حتى و سخت جميع مواضعهم و قذرت عليهم عيشهم و جميع مآكلهم، و كثر البعوض حتى حبس الهواء و منع النسيم، و كثر عليهم ذباب الكلاب حتى جرّح أبدانهم و نغص عليهم حياتهم، و ماتت دوابهم و أغنامهم فجأة، و عمّ الناس الجرب و الجدرىّ حتى زاد منظرهم قبحا على مناظر الجذمىّ، و نزل من السماء برد مخلوط بصواعق أهلك كل ما أدركه من الناس و الحيوانات. و ذهب بجميع الثمار، و كثر الجراد و الجنادب التى أكلت الأشجار و استقصت أصول النبات، و أظلمت الدنيا ظلمة سوداء غليظة حتى كانت من غلظها تحسّ بالأجسام، و بعد ذلك كله نزل الموت فجأة على بكور أولادهم بحيث لم يبق لأحد منهم ولد بكر إلّا فجع به فى تلك الليلة، ليكون لهم فى ذلك شغل عن بنى إسرائيل، و كانت الليلة الخامسة عشر من شهر نيسان سنة إحدى و ثمانين لموسى، فعند ذلك سارع فرعون إلى ترك بنى إسرائيل، فخرج موسى عليه السلام من ليلته هذه و معه بنو إسرائيل من عين شمس، و فى التوراة أنهم أمروا عند خروجهم أن يذبح أهل كل بيت حملا من الغنم إن كان كفايتهم، أو يشتركون مع جيرانهم إن كان أكثر، و أن ينضحوا من دمه على أبوابهم ليكون علامة، و أن يأكلوا شواه رأسه و أطرافه و معاه و لا يكسروا منه عظما، و لا يدعوا منه شيئا خارج البيوت، و ليكن خبزهم فطيرا. و ذلك فى اليوم الرابع عشر من فصل الربيع، و ليأكلوا بسرعة و أوساطهم مشدودة و خفافهم فى أرجلهم و عصيهم فى أيديهم، و يخرجوا ليلا. و ما فضل من عشائهم ذلك أحرقوه بالنار، و شرّع هذا عيدا لهم و لأعقابهم، و يسمى هذا عيد الفصح،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۹

و فيها أنهم أمروا أن يستعيروا منهم حليا كثيرا يخرجون به، فاستعاروه و خرجوا فى تلك الليلة بما معهم من الدواب و الأنعام، و أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، استخرجه موسى من المدفن الذى كان فيه بإلهام من اللّه تعالى، و كانت عدّتهم ستمائة ألف رجل محارب سوى النساء و الصبيان و الغرباء، و شغل القبط عنهم بالمآتم التى كانوا فيها على موتاهم، فساروا ثلاث مراحل ليلا و نهارا حتى وافوا إلى فوهة الجبروت، و تسمى نار موسى، و هو ساحل البحر بجانب الطور، فانتهى خبرهم إلى فرعون فى يومين و ليلة، فندم بعد خروجهم و جمع قومه و خرج فى كثرة كفاك عن مقدارها قول اللّه عز و جل أخبارا عن فرعون أنه قال عن بنى إسرائيل و عدّتهم ما قد ذكر على ما جاء فى التوراة، أن هؤلاء لشرذمة قليلون، و أنهم لنا لغائظون، و لحق بهم فى اليوم الحادى و العشرين من نيسان، فأقام العسكران ليلة الواحد و العشرين على شاطىء البحر، و فى صبيحة ذلك اليوم أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه و يقتحمه، ففلق اللّه لبنى إسرائيل البحر اثنى عشر طريقا، عبر كلّ سبط من طريق، و صارت المياه قائمة عن جانبهم كأمثال الجبال، و صيرقاع البحر طريقا مسلوكا لموسى و من معه، و تبعهم فرعون و جنوده، فلما خاض بنو إسرائيل إلى عدوة الطور انطبق البحر على فرعون و قومه، فأغرقهم اللّه جميعا و نجا موسى و قومه، و نزل بنو إسرائيل جميعا فى الطور و سجوا مع موسى بتسبيح طويل قد ذكر فى التوراة، و كانت مريم أخت موسى و هارون تأخذ الدف بيديها، و نساء بنى إسرائيل فى أثرها بالدفوف و الطبول، و هى ترتل التسبيح لهنّ.

ثم ساروا فى البرّ ثلاثة أيام، و أقفرت مصر من أهلها، و مرّ موسى بقومه ففنى زادهم فى اليوم الخامس من أيار فضجوا إلى موسى، فدعا ربه فنزل لهم المنّ من السماء، فلما كان اليوم الثالث و العشرون من أيار عطشوا و ضجوا إلى موسى، فدعا ربه ففجر له عينا من الصخرة، و لم يزل يسير بهم حتى وافوا طور سينين غرّة الشهر الثالث لخروجهم من مصر، فأمر اللّه موسى بتطهير قومه و استعدادهم لسماع كلام اللّه سبحانه، فطهرهم ثلاثة أيام، فلما كان فى اليوم الثالث و هو السادس من الشهر، رفع اللّه الطور و أسكنه نوره و ظلل

حواليه بالغمام و أظهر فى الآفاق الرعود و البروق و الصواعق، و أسمع القوم من كلامه عشر كلمات و هى: أنا اللّه ربكم واحد لا يكم لكم معبود من دونى، لاـ تحلف باسم ربك كاذبا، اذكر يوم السبت و احفظه، برّ والديك و أكرمهما، لاـ تقتل النفس، لا تزن، لا تسرق، لاـ تشهد بشهادة زور، لا تحسد أخاك فيما رزقه. فصاح القوم و ارتعدوا و قالوا لموسى: لا طاقة لنا باستماع هذا الصوت العظيم، كن السفير بيننا و بين ربنا، و جميع ما يأمرنا به سمعنا و أطعنا، فأمرهم بالإنصراف و صعد موسى إلى الجبل فى اليوم الثانى عشر، فأقام فيه أربعين يوما، و دفع اللّه إليه اللوحين الجوهر المكتوب عليهما العشر كلمات و نزل فى اليوم الثانى و العشرين من شهر تموز، فرأى العجل، فارتفع الكتاب و ثقلا على يديه فألقاهما و كسرهما، ثم برد العجل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۰

و ذرّاه على الماء و قتل من القوم من استحق القتل، و صعد إلى الجبل فى اليوم الثالث و العشرين من تموز ليشفع فى الباقين من القوم، و نزل فى اليوم الثانى من أيلول بعد الوعد من اللّه له بتعويضه لوحين آخرين مكتوبا عليهما ما كان فى اللوحين الأوّلين، فصعد إلى الجبل و أقام أربعين ليلة أخرى، و ذلك من ثالث أيلول إلى اليوم الثانى عشر من تشرين، ثم أمره اللّه بإطلاح القبة و كان طولها ثلاثين ذراعا فى عرض عشرة أذرع و ارتفاع عشرة أذرع، و لها سرادق مضروب حواليها مائة ذراع فى خمسين ذراعا و ارتفاع خمسة أذرع. فأخذ القوم فى إصلاحها و ما تزين به من الستور من الذهب و الفضة و الجواهر ستة أشهر الشتاء كله، و لما فرغ منها نصبت فى اليوم الأوّل من نيسان فى أوّل السنة الثانية، و يقال أنّ موسى عليه السلام حارب هنالك العرب، مثل طسم و جديس و العماليق و جرهم و أهل مدين حتى أفناهم جميعا، و أنه وصل إلى جبل فاران، و هو مكة، فلم ينج منهم إلّا من اعتصم بملك اليمن أو انتمى إلى بنى إسماعيل عليه السلام، و فى ثلثى الشهر الباقى من هذه السنة ظعن القوم فى برّية الطور بعد أن نزلت عليهم التوراة، و جملة شرائعها ستمائة و ثلاث عشرة شريعة، و فى آخر الشهر الثالث حرّمت عليهم أرض الشام أن يدخلوها، و حكم اللّه تعالى عليهم أن يتيهوا فى البرّية أربعين سنة، لقولهم نخاف أهلها لأنهم جبارون، فأقاموا تسع عشرة سنة فى رقيم، و تسع عشرة سنة فى أحد، و أربعين موضعا مشروحة فى التوراة، و فى اليوم السابع من شهر أيلول من السنة الثانية خسف اللّه بقارون و بأوليائه بدعاء موسى عليه السلام عليهم لما كذبوا، و فى شهر نيسان من السنة الأربعين توفيت مريم ابنة عمران أخت موسى عليه السلام، و لها مائة و ست و عشرون سنة.

و فى شهر آب منها مات هارون عليه السلام و له مائة و ثلاث و عشرون سنة، ثم كان حرب الكنعانيين و سيحون و العوج صاحب البثنية من أرض حوران. فى الشهور التى بعد ذلك إلى شهر شباط، فلما أهلّ شباط أخذ موسى فى إعادة التوراة على القوم، و أمرهم بكتب نسختها و قراءتها و حفظ ما شاهدوه من آثاره و ما أخذوه عنه من الفقه، و كان نهاية ذلك فى اليوم السادس من آذار، و قال لهم فى اليوم السابع منه: إنى فى يومى هذا استوفيت عشرين و مائة سنة، و إنّ اللّه قد عرّفنى أنه يقبضنى فيه، و قد أمرنى أن أستخلف عليكم يوشع بن نون و معه السبعون رجلاـ الذين اخترتهم قبل هذا الوقت، و معهم العازر بن هارون أخى فاسمعوا له و أطيعوا، و أنا أشهد عليكم اللّه الذى لا إله إلّا هو، و الأرض و السماوات، أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا و لا تبدّلوا شرائع التوراة بغيرها، ثم فارقهم و صعد الجبل فقبضه اللّه تعالى هناك و أخفاه، و لم يعلم أحد منهم قبره و لا شاهده، و كان بين وفاة موسى و بين الطوفان ألف و ستمائة و ست و عشرون سنة، و ذلك فى أيام منوجهر ملك الفرس، و زعم قوم أن موسى كان ألثغ، فمنهم من جعل ذلك خلقة، و منهم من زعم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۱

أنه إنما اعتراه حين قالت امرأة فرعون لفرعون لا تقتل طفلا لا يعرف الجمر من التمر.

فلما دعا له فرعون بهما جميعا تناول جمرة فأهوى بها إلى فيه، فاعتراه من ذلك ما اعتراه، و ذكر محمد بن عمر الواقدىّ: أن لسان موسى كانت عليه شامة فيها شعرات، و لا يدل القرآن على شىء من ذلك، فليس فى قوله تعالى: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي [طه/ ۲۷]

دليل على شيء من ذلك دون شيء، فأقاموا بعده ثلاثين يوما يبكون عليه إلى أن أوحى اللّه تعالى إلى يوشع بن نون بترحيلهم، فقادهم و عبر بهم الأردن في اليوم العاشر من نيسان، فوافوا أريحا، فكان منهم ما هو مذكور في مواضعه، فهذه جملة خبر موسى عليه السلام.

كنيسة جوجر: هذه الكنيسة من أجلّ كنائس اليهود، و يزعمون أنها تنسب لنبيّ اللّه إلياس عليه السلام، و أنه ولد بها و كان يتعاهدها في طول إقامته بالأرض إلى أن رفعه اللّه إليه الياس: هو فينحاس بن العازر بن هارون عليه السلام، و يقال الياسين بن ياسين عيزار بن هارون، و يقال هو إلياهو، و هي عبرانية معناها قادر أزليّ، و عرّب فقيل إلياس، و يذكر أهل العلم من بني إسرائيل أنه ولد بمصر، و خرج به أبوه العازر من مصر مع موسى عليه السلام و عمره نحو الثلاث سنين، و أنه هو الخضر الذي وعده اللّه بالحياة، و أنه لما خرج بلعام بن باعورا ليدعو على موسى، صرف اللّه لسانه حتى يدعو على نفسه و قومه، و كان من زنا بني إسرائيل بنساء الأمورانيين و أهل مواب ما كان، فغضب اللّه تعالى عليهم و أوقع فيهم الوباء، فمات منهم أربعة و عشرون ألفا إلى أن هجم فينحاس هذا على خباء فيه رجل على امرأة يزني بها، فنظمهما جميعا برمحه و خرج و هو رافعهما و شهرهما غضبا للّه، فرحمهم اللّه سبحانه و رفع عنهم الوباء، و كانت له أيضا آثار مع نبي اللّه يوشع بن نون، و لما مات يوشع قام من بعده فينحاس هذا هو و كالأب بن يوفنا، فصار فينحاس إماما و كالأب يحكم بينهم، و كانت الأحداث في بني إسرائيل، فساح إلياس و لبس المسوح و لزم القفار، و قد وعده اللّه عز و جل في التوراة بدوام السلامة، فأوّل ذلك بعضهم بأنه لا يموت، فامتدّ عمره إلى أن ملك يهوشا فاط بن أسا بن افيا بن رحبم بن سليمان بن داود عليهما السلام على سبط يهودا في بيت المقدس، و ملك أحؤب بن عمرى على الأسباط من بني إسرائيل بمدينة شمرون، المعروفة اليوم بنابلس، و ساءت سيرة أحؤب حتى زادت في القبح على جميع من مضى قبله من ملوك بني إسرائيل، و كان أشدّهم كفرا و أكثرهم ركونا للمنكر، بحيث أربى في الشرّ على أبيه و على سائر من تقدّمه، و كانت له امرأة يقال لها سيصيال ابنة أشاعل ملك صيدا، أكفر منه باللّه، و أشدّ عتوّا و استكبارا، فعبدا وثن بعل الذي قال اللّه فيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۲

جلّ ذكره أ تدعون بعلا و تذرون أحسن الخالقين اللّه ربكم و ربّ آبائكم الأوّلين، و أقاما له مذبحا بمدينة شمرون، فأرسل اللّه عز و جل إلى أحؤب عبده إلياس رسولا لينهاه عن عبادة وثن بعل، و يأمره بعبادة اللّه تعالى وحده، و ذلك قول اللّه عز و جل من قائل: وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ [الصافات/ ۱۲۳- ۱۲۶] و لما أيس من أيمانهم باللّه و تركهم عبادة الوثن، أقسم في مخاطبته أحؤب أن لا يكون مطر و لا ندا، ثم تركه. فأمره اللّه سبحانه أن يذهب ناحية الأردن، فمكث هناك مختفيا، و قد منع اللّه قطر السماء حتى هلكت البهائم و غيرها، فلم يزل إلياس مقيما في استتاره إلى أن جف ما كان عنده من الماء، و في طول إقامته كان اللّه جلّ جلاله يبعث إليه بغربان تحمل له الخبز و اللحم.

فلما جف ماؤه الذي كان يشرب منه لامتناع المطر أمره اللّه أن يسير إلى بعض مدائن صيدا، فخرج حتى وافى باب المدينة، فإذا امرأة تحتطب، فسألها ماء يشربه و خبزا يأكله، فأقسمت له أن ما عندها إلّا مثل غرفة دقيق في إناء، و شيء من زيت في جرّة، و أنها تجمع الحطب لتقتات منه هي و ابنها، فبشرها إلياس عليه السلام و قال لها لا تجزعي و افعلي ما قلت لك، و اعملي لي خبزا قليلا قبل أن تعملي لنفسك و لولدك، فإن الدقيق لا يعجز من الإناء، و لا الزيت من الجرّة حتى ينزل المطر، ففعلت ما أمرها به و أقام عندها، فلم ينقص الدقيق و لا الزيت بعد ذلك إلى أن مات ولدها و جزعت عليه، فسأل إلياس ربه تعالى فأحيى الولد، و أمره اللّه أن يسير إلى أحؤب ملك بني إسرائيل لينزل المطر عند إخباره له بذلك، فسار إليه و قال له: أجمع بني إسرائيل و أبناء بعال. فلما اجتمعوا قال لهم إلياس: إلى متى هذا الضلال، إن كان الرب اللّه فاعبدوه، و إن كان بعال هو اللّه فارجعوا بنا إليه، و قال:

ليقرّب كلّ منا قربانا، فأقرّب أنا للّه، و قرّبوا أنتم لبعال، فمن تقبل منه قربانه و نزلت نار من السماء فأكلته فإلهه الذي يعبد فلما رضوا

بذلك أحضروا ثورين و اختاروا أحدهما و ذبحوه، و صاروا ينادون عليه يال بعال يال بعال، و إلياس يسخر بهم و يقول: لو رفعتم أصواتكم قليلا فلعلّ إلهكم نائم أو مشغول، و هم يصرخون و يجرحون أيديهم بالسكاكين، و دماءهم تسيل.

فلما أيسوا من أن تنزل النار و تأكل قربانهم، دعا إلياس القوم إلى نفسه، و أقام مذبحا و ذبح ثوره و جعله على المذبح و صبّ الماء فوقه ثلاث مرّات، و جعل حول المذبح خندقا محفورا، فلم يزل يصب الماء فوق اللحم حتى امتلأ الخندق من الماء، و قام يدعو اللّه عزّ اسمه و قال فى دعائه: اللهمّ أظهر لهذه الجماعة أنك الربّ، و أنى عبدك عامل بأمرك. فأنزل اللّه سبحانه نارا من السماء أكلت القربان و حجارة المذبح التى كان فوقها اللحم و جميع الماء الذى صبّ حوله. فسجد القوم أجمعون و قالوا نشهد أن الربّ اللّه. فقال إلياس: خذوا أبناء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۳

بعال، فأخذوا و جيء بهم فذبحهم كلهم ذبحا، و قال لأحؤب انزل و كل و اشرب، فإن المطر نازل، فنزل المطر على ما قال، و كان الجهد قد اشتدّ لانقطاع المطر مدّة ثلاث سنين و أشهر، و غزر المطر حتى لم يستطع أحؤب أن ينصرف لكثرته.

فغضبت سيصيال امرأة احؤب لقتل أبناء بعال و حلفت بآلهتها لتجعلنّ روح إلياس عوضهم، ففزع إلياس و خرج إلى المفاوز و قد اغتم غما شديدا، فأرسل اللّه إليه ملكا معه خبز و لحم و ماء، فأكل و شرب و قوّاه اللّه حتى مكث بعد هذه الأكلة أربعين يوما لا يأكل و لا يشرب، ثم جاءه الوحى بأن يمضى إلى دمشق، فسار إليها و صحب اليسع بن شابات، و يقال ابن حظور، فصار تلميذ، فخرج من أريحا و معه اليسع حتى وقف على الأردن، فنزع رداءه و لفه و ضرب به ماء الأردن فافترق الماء عن جانبيه، و صار طريقا. فقال إلياس حينئذ لليسع اسأل ما شئت قبل أن يحال بينى و بينك. فقال اليسع: أسأل أن يكون روحك فىّ مضاعفا.

فقال: لقد سألت جسيما، و لكن إن أبصرتنى إذا رفعت عنك يكون ما سألت، و إن لم تبصرنى لم يكن. و بينما هما يتحدّثان إذ ظهر لهما كالنار، فرّق بينهما و رفع إلياس إلى السماء، و اليسع ينظره. فانصرف و قام فى النبوّة مقام إلياس، و كان رفع إلياس فى زمن يهورام بن يهوشافاط، و بين وفاة موسى عليه السلام و بين آخر أيام يهورام خمسمائة و سبعون سنة، و مدّة نبوّة موسى عليه السلام أربعون سنة، فعلى هذا يكون مدّة عمر إلياس من حين ولد بمصر إلى أن رفع بالأردن إلى السماء ستمائة سنة. و بضع سنين، و الذى عليه علماء أهل الكتاب و جماعة من علماء المسلمين، أنّ إلياس حىّ لم يمت، إلّا أنهم اختلفوا فيه، فقال بعضهم أنه هو فينحاس كما تقدّم ذكره، و منع هذا جماعة و قالوا هما اثنان، و اللّه أعلم.

كنيسة المصاصة: هذه الكنيسة يجلّها اليهود، و هى بخط المصاصة من مدينة مصر، و يزعمون أنها رممت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، و موضعها يعرف بدرب الكرمة، و بنيت فى سنة خمس عشرة و ثلثمائة للإسكندر، و ذلك قبل الملة الإسلامية بنحو ستمائة و إحدى و عشرين سنة، و يزعم اليهود أن هذه الكنيسة كانت مجلسا لنبىّ اللّه إلياس.

كنيسة الشاميين: هذه الكنيسة بخط قصر الشمع من مدينة مصر، و هى قديمة مكتوب على بابها بالخط العبرانىّ حفرا فى الخشب، أنها بنيت فى سنة ست و ثلاثين و ثلاثمائة للإسكندر، و ذلك قبل خراب بيت المقدس الخراب الثانى الذى خرّبه طيطش بنحو خمس و أربعين سنة، و قبل الهجرة بنحو ستمائة سنة، و بهذه الكنيسة نسخة من التوراة لا يختلفون فى أنها كلها بخط عزرا النبىّ الذى يقال له بالعربية العزيز.

كنيسة العراقيين: هذه الكنيسة أيضا بخط قصر الشمع.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۴

كنيسة بالجودرية: هذه الكنيسة بحارة الجودرية من القاهرة، و هى خراب منذ أحرق الخليفة الحاكم بأمر اللّه حارة الجودرية على اليهود، كما تقدّم ذكر ذلك فى الحارات فانظره.

كنيسة القرّائين: هذه الكنيسة كان يسلك إليها من تجاه باب سرّ المارستان المنصورىّ فى حدرة ينتهى إليها بحارة زويلة، و قد سدّت

الخوخة التى كانت هناك، فصار لا يتوصل إليها إلّا من حارة زويلة، و هى كنيسة تختص بطائفة اليهود القرّائين.

كنيسة دار الحدرة: هذه الكنيسة بحارة زويلة فى درب يعرف الآن بدرب الرايض، و هى من كنائس ... .

كنيسة الربانيين: هذه الكنيسة بحارة زويلة بدرب يعرف الآن بدرب البنادين، يسلك منه إلى تجاه السبع قاعات، و إلى سويقة المسعودىّ و غيرها، و هى كنيسة تختص بالربانيين من اليهود.

كنيسة ابن شميخ: هذه الكنيسة بجوار المدرسة العاشورية من حارة زويلة، و هى مما يختص به طائفة القرّائين.

كنيسة السمرة: هذه الكنيسة بحارة زويلة فى خط درب ابن الكورانىّ، تختص بالسمرة، و جميع كنائس القاهرة المذكورة محدثة فى الإسلام بلا خلاف.

ذكر تاريخ اليهود و أعيادهم

قد كانت اليهود أوّلا تؤرخ بوفاة موسى عليه السلام، ثم صارت تؤرخ بتاريخ الإسكندر بن فيلبش، و شهور سنتهم اثنا عشر شهرا، و أيام السنة ثلاثمائة و أربعة و خمسون يوما. فأما الشهور فإنها تشرى، مر حشوان، كسليو، طبيث، شفط، آذر، نيس، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول. و أيام سنتهم أيام سنة القمر، و لو كانوا يستعملونها على حالها لكانت أيام سنتهم و عدد شهورهم شيئا واحدا، و لكنه لما خرج بنو إسرائيل من مصر مع موسى عليه السلام إلى التيه، و تخلصوا من عذاب فرعون، و ما كانوا فيه من العبودية، و ائتمروا بما أمروا به كما وصف فى السّفر الثانى من التوراة، اتفق ذلك ليلة اليوم الخامس عشر من نيس، و القمر تام الضوء، و الزمان ربيع. فأمروا بحفظ هذا اليوم كما قال فى السفر الثانى من التوراة، احفظوا هذا اليوم سنة لخلوفكم إلى الدهر فى أربعة عشر من الشهر الأوّل، و ليس معنى الشهر الأوّل هذا شهر تشرى، و لكنه عنى به شهر نيس، من أجل أنهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۵

أمروا أن يكون شهر الناسخ رأس شهورهم و يكون أوّل السنة، فقال موسى عليه السلام للشعب: اذكروا اليوم الذى خرجتم فيه من التعبد، فلا تأكلوا خميرا فى هذا اليوم فى الشهر الذى ينضر فيه الشجر. فلذلك اضطرّوا إلى استعمال سنة الشمس ليقع اليوم الرابع عشر من شهر نيس فى أوان الربيع حين تورق الأشجار و تزهو الثمار، و إلى استعمال سنة القمر ليكون جرمه فيه بدرا تام الضوء فى برج الميزان، و أحوجهم ذلك إلى إلحاق الأيام التى يتقدّم بها عن الوقت المطلوب بالشهور إذا استوفيت أيام شهر واحد، فألحقوها بها شهرا تاما سمّوه آذار الأوّل، و سموا آذار الأصل آذار الثانى، لأنه ردف سميا له و تلاه، و سموا السنة الكبسة عبورا، اشتقاقا من معبار، و هى المرأة الحبلى بالعبرانية، لأنهم شبهوا دخول الشهر الزائد فى السنة بحمل المرأة ما ليس من جملتها، و لهم فى استخراج ذلك حسابات كثيرة مذكورة فى الأزباج.

و هم فى عمل الأشهر مفترقون فرقتين، إحداهما الربانية: و استعمالهم إيّاها على وجه الحساب بمسير الشمس و القمر الوسط، سواء رؤى الهلال أو لم ير، فان الشهر عندهم هو مدّة مفروضة تمضى من لدن الاجتماع الكائن بين الشمس و القمر فى كل شهر، و ذلك أنهم كانوا وقت عودهم من الجالية ببابل إلى بيت المقدس ينصبون على رؤس الجبال دبادب، و يقيمون رقباء للفحص عن الهلال، و ألزموهم بإيقاد النار و تدخين دخان يكون علامة لحصول الرؤية، و كانت بينهم و بين السامرة العداوة المعروفة، فذهبت السامرة و رفعوا الدخان فوق الجبل قبل الرؤية بيوم، و والوا بين ذلك شهورا، اتفق فى أوائلها أن السماء كانت متغيمة، حتى فطن لذلك من فى بيت المقدس، و رأوا الهلال غداة اليوم الرابع أو الثالث من الشهر مرتفعا عن الأفق من جهة المشرق، فعرفوا أن السامرة فتنتهم، فالتجأوا إلى أصحاب التعاليم فى ذلك الزمان ليأمنوا بما يتلقونه من حسابهم مكايد الأعداء، و اعتلوا لجواز العمل بالحساب و نيابته عن العمل بالرؤية بعلل ذكروها، فعمل أصحاب الحساب لهم الأدوار، و علّموهم استخراج الاجتماعات و رؤية الهلال، و أنكر بعض الربانية حديث القرباء و رفعهم الدخان، و زعموا أن سبب استخراج هذا الحساب هو أن علماءهم علموا أن آخر أمرهم إلى الشتات، فخافوا

إذا تفرّقوا فى الأقطار و عوّلوا على الرؤية أن تختلف عليهم فى البلدان المختلفة فيتشاجروا، فلذلك استخرجوا هذه الحسابات و اعتنى بها اليعازر بن فروح، و أمروهم بالتزامها و الرجوع إليها حيث كانوا.

و الفرقة الثانية هم الميلادية الذين يعملون مبادى الشهور من الاجتماع، و يسمّون القرّاء و الأسمعية، لأنهم يراعون العمل بالنصوص دون الالتفات إلى النظر و القياس، و لم يزالوا على ذلك إلى أن قدم عاتان رأس الجالوت من بلاد المشرق فى نحو الأربعين و مائة من الهجرة إلى دار السلام بالعراق، فاستعمل الشهور برؤية الأهلة على مثل ما شرع فى الإسلام، و لم يبال أى أىّ يوم وقع من الأسبوع، و ترك حساب الربانيين، و كبس الشهور بأن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۶

نظر كل سنة إلى زرع الشعير بنواحى العراق و الشام فيما بين أوّل شهر نيسن إلى أن يمضى منه أربعة عشر يوما، فإن وجد باكورة تصلح للفريك و الحصاد ترك السنة بسيطة، و إن وجدها لم تصلح لذلك كبسها حينئذ، و تقدّمت المعرفة بهذه الحالة، و إنّ من أخذ برأيه يخرج لسبعة تبقى من شفط، فينظر بالشام و البقاع المشابهة له فى المزاج إلى زرع الشعير، فإن وجد السفا و هو شوك السنبل قد طلع، عدّ منه إلى الفاسح خمسين يوما، و إن لم يره طالعا كبسها بشهر، فبعضهم يردف الكبس بشفط، فيكون فى السنة شفط و شفط مرّتين، و بعضهم يردفه بآذر فيكون آذر و آذر فى السنة مرّتين، و أكثر استعمال العانانية لشفط دون آذر، كما أن الربانية تستعمل آذر دون غيره.

فمن يعتمد من الربانية عمل الشهور بالحساب يقول: إن شهر تشرى لا يكون أوّله يوم الأحد و الأربعاء، و عدّته عندهم ثلاثون يوما أبدا، و فيه عيد رأس السنة، و هو عيد البشارة بعتق الأرقاء، و هذه العيد فى أوّل يوم منه، و لهم أيضا فى اليوم العاشر منه صوم الكبور، و معناه الاستغفار، و عند الربانيين أن هذا الصوم لا يكون أبدا يوم الأحد و لا الثلاثاء و لا الجمعة، و عند من يعتمد فى الشهور الرؤية أن ابتداء هذا الصوم من غروب الشمس فى ليلة العاشر إلى غروبها من ليلة الحادى عشر، و ذلك أربع و عشرون ساعة. و الربانيون يجعلون مدّة الصوم خمسا و عشرين ساعة، إلى أن تشتبك النجوم، و من لم يصم منهم هذا الصوم قتل شرعا، و هم يعتقدون أن اللّه يغفر لهم فيه جميع الذنوب ما خلا الزنا بالمحصنات، و ظلم الرجل أخاه، و جحد الربوبية، و فيه أيضا عيد المظلة، و هو سبعة أيام يعيدون فى أولها و لا يخرجون من بيوتهم كما هو العمل يوم السبت و عدّة أيام المظلة إلى آخر اليوم الثانى و العشرين، تمام سبعة أيام، و اليوم الثامن يقال له عيد الاعتكاف، و هم يجلسون فى هذه الأيام السبعة التى أوّلها خامس عشر تشرى تحت ظلال سعف النخل الأخضر و أغصان الزيتون و نحوها من الأشجار التى لا- يتناثر ورقها على الأرض، و يرون أن ذلك تذكار منهم لإظلال اللّه آباءهم فى التيه بالغمام، و فيه أيضا عيد القرّائين خاصة صوم فى اليوم الرابع و العشرين منه، يعرف بصوم كدليا، و عند الربانيين يكون هذا الصوم فى ثالثه.

و شهر مر حشوان ربما كان ثلاثين يوما، و ربما كان تسعة و عشرين يوما، و ليس فيه عيد.

و كسليو ربما كان ثلاثين يوما، و ربما كان تسعة و عشرين يوما و ليس فيه عيد، إلّا أن الربانيين يسرجون على أبوابهم ليلة الخامس و العشرين منه، و هو مدّة أيام يسمونها الحنكة، و هو أمر محدث عندهم، و ذلك أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس، و قتل من كان فيه من بنى إسرائيل، و افتض أبكارهم، فوثب عليه أولاد كاهنهم و كانوا ثمانية فقتله

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۷

أصغرهم، و طلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلّا يسيرا، و زعوه على عدد ما يوقدونه من السرج فى كل ليلة إلى ثمان ليال، فاتخذوا هذه الأيام عيدا و سموها أيام الحنكة، و هى كلمة مأخوذة من التنظيف، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار أشياع ذلك الجبار، و القرّاء لا يعملون ذلك لأنهم لا يعوّلون على شىء من أمر البيت الثانى.

و شهر طبيث عدد أيامه تسعة و عشرون يوما، و فى عاشره صوم سببه أنه فى ذلك اليوم كان ابتداء محاصرة بخت نصر لمدينة بيت

المقدس، و محاصرة طيطش لها أيضا فى الخراب الثانى.

و شفط أيامه أبدا ثلاثون يوما و ليس فيه عيد. و شهر آذر عند الربانيين كما تقدّم يكون مرّتين فى كلّ سنة فآذر الأوّل عدد أيامه ثلاثون يوما إن كانت السنة كبيسة، و إن كانت بسيطة فأيامه تسعة و عشرون يوما، و ليس فيه عيد عندهم. و آذر الثانى أيامه تسعة و عشرون يوما أبدا و فيه عند الربانيين صوم الفوز فى اليوم الثالث عشر منه، و الفوز فى اليوم الرابع عشر و اليوم الخامس عشر، و أما القرّاؤون فليس عندهم فى السنة شهر آذر سوى مرّة واحدة، و يجعلون صوم الفور فى ثالث عشرة و بعده إلى الخامس عشر، و هذا أيضا محدث، و ذلك أن بخت نصر لما أجلى بنى إسرائيل من بيت المقدس و خرّبه ساقهم جلاية إلى بلاد العراق، و أسكنهم فى مدينة خى التى يقال لها أصبهان، فلما ملك أزد شير بن بابك ملك الفرس، و تسمية اليهود أحشوارش، كان له وزير يسمى هيمون، و كان لليهود حينئذ حبر يقال له مردوخاى، فبلغ أزدشير أن له ابنة عمّ جميلة الصورة، فتزوّجها و حظيت عنده، و استدنى مردوخاى ابن عمها و قرّبه، فحسده الوزير هيمون و عمل على هلاكه و هلاك اليهود الذين فى مملكة أزدشير، و رتب مع نوّاب أزدشير فى سائر أعماله أن يقتلوا كلّ يهودىّ عندهم فى يوم عينه لهم، و هو الثالث عشر من آذر، فبلغ ذلك مردوخاى فأعلم ابنة عمه بما دبره الوزير و حثها على إعمال الحيلة فى تخليص قومها من الهلكة، فأعلمت أزدشير بحسد الوزير لمردوخاى على قربه من الملك و إكرامه، و ما كتب به إلى العمال من قتل اليهود، و ما زالت به تغريه على الوزير إلى أن أمر بقتله، و قتل أهله، و كتب لليهود أمانا، فاتخذ اليهود هذا اليوم من كلّ سنة عيدا و صاموه شكرا للّه تعالى، و جعلوا من بعده يومين اتخذوهما أيام فرح و سرور و لهو و مهاداة من بعضهم لبعض، و هم على ذلك إلى اليوم، و ربما صوّر بعضهم فى هذا اليوم صورة هيمون الوزير، و هم يسمونه هامان، فإذا صوّروه ألقوه بعد العبث به فى النار حتى يحترق.

و شهر نيسن عدد أيامه ثلاثون يوما أبدا، و فيه عيد الفاسح الذى يعرف اليوم عند النصارى بالفسح، و يكون فى الخامس عشر منه، و هو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير و ينظفون بيوتهم من أجل أن اللّه سبحانه خلص بنى إسرائيل من أسر فرعون فى هذه الأيام حتى

خرجوا من مصر مع نبى اللّه موسى بن عمران عليه السلام، و تبعهم فرعون فأغرقه اللّه و من معه، و سار موسى ببنى إسرائيل إلى التيه، و لما خرجوا من مصر مع موسى كانوا يأكلون اللحم و الخبز و الفطير و هم فرحون بخلاصهم من يد فرعون، فأمروا باتخاذ الفطير و أكله فى هذه الأيام ليذكروا أنه ما منّ اللّه عليهم به من انقاذهم من العبودية، و فى آخر هذه الأيام السبعة كان غرق فرعون، و هو عندهم يوم كبير، و لا يكون أوّل هذا الشهر عند الربانيين أبدا يوم الاثنين و لا يوم الأربعاء و لا يوم الجمعة، و يكون أوّل الخمسينيات من نصفه.

و شهر أيار عدد أيامه تسعة و عشرون يوما، و فيه عيد الموقف، و هو حج الأسابيع، و هى الأسابيع التى فرضت على بنى إسرائيل فيها الفرائض، و يقال لهذا العيد فى زمننا عيد العنصرة، و عيد الخطاب، و يكون بعد عيد الفطر و فيه خوطب بنو إسرائيل فى طور سيناء، و يكون هذا العيد فى السادس منه، و فيه أيضا يوم الخميس و هو آخر الخمسينيات، و لا يكون عيد العنصرة عند الربانيين أبدا يوم الثلاثاء و لا يوم الخميس و لا يوم السبت. و شهر تموز أيامه تسعة و عشرون يوما، و ليس فيه عيد، لكنهم يصومون فى تاسعه لأنّ فيه هدم سور بيت المقدس عند محاصرة بخت نصر له، و الربانيون خاصة يصومون يوم السابع عشر منه، لأنّ فيه هدم طيطش سور بيت المقدس و خرّب البيت الخراب الثانى.

و شهر آب ثلاثون يوما، و فيه عيد القرّائين، صوم فى اليوم السابع و اليوم العاشر، لأنّ بيت المقدس خرب فيهما على يد بخت نصر، و فيه أيضا كان إطلاق بخت نصر النار فى مدينة القدس و فى الهيكل، و يصوم الربانيون اليوم التاسع منه، لأنّ فيه خرب البيت على يد طنطش الخراب الثانى.

و شهر أيلول تسعة و عشرون يوما أبدا، و ليس فيه عيد و اللّه تعالى أعلم.

ذكر معنى قولهم يهودى

اعلم أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلوات اللّه عليهم أجمعين، سماه اللّه إسرائيل، و معنى ذلك الذى رأسه القادر، و كان له من الولد اثنا عشر ذكرا يقال لكلّ واحد منهم سبط، و يقال لمجموعهم الأسباط، و هذه أسماؤهم روبيل، و شمعون، و لاوى، و يهوذا، و يساخر، و زبولون. و الستة أشقاء، أمّهم ليا بنت لابان بن بتويل بن ناحور أخى إبراهيم الخليل. و كان و اشار، ودان، و نفتالى، و يوسف، و بنيامين. فلما كبر هؤلاء الأسباط الاثنا عشر قدّم عليهم أبوهم يعقوب و هو إسرائيل، ابنه يهوذا، و جعله حاكما على إخوته الأحد عشر سبطا، فاستمرّ رئيسا و حاكما على إخوته إلى أن مات، فورثت أولاد يهوذا رياسة الأسباط من بعده، إلى أن أرسل اللّه تعالى موسى ابن عمران بن قاهاث بن لاوى بن يعقوب إلى فرعون، بعد وفاة يوسف بن يعقوب عليهما السلام، بمائة و أربع و أربعين سنة، و هم رؤساء الأسباط. فلما نجى اللّه موسى و قومه بعد غرق فرعون و من معه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۹

رتّب عليه السلام بنى إسرائيل الاثنى عشر سبطا أربع فرق، و قدّم على جميعهم سبط يهوذا، فلم يزل سبط يهوذا مقدّما على سائر الأسباط أيام حياة موسى عليه السلام، و أيام حياة يوشع بن نون. فلما مات يوشع، سأل بنو إسرائيل اللّه تعالى و ابتهلوا إليه فى قبة الشمشار أن يقدّم عليهم واحدا منهم، فجاء الوحى من اللّه بتقديم عثنيئال بن قناز من سبط يهوذا، فتقدّم على سائر الأسباط، و صار بنو يهوذا مقدّمين على سائر الأسباط من حينئذ إلى أن ملّك اللّه على بنى إسرائيل نبيه داود، و هو من سبط يهوذا، فورث ملك بنى إسرائيل من بعده ابنه سلمان بن داود عليهما السلام. فلما مات سليمان افترق ملك بنى إسرائيل من بعده، و صار لمدينة شمرون التى يقال لها اليوم نابلس عشرة أسباط، و بقى بمدينة القدس سبطان. هما سبط يهوذا و سبط بنيامين، و كان يقال لسكان شمرون بنو إسرائيل و يقال لسكان القدس بنو يهوذا، إلى أن انقرضت دولة بنى إسرائيل من مدينة شمرون بعد مائتين و إحدى و خمسين سنة، فصاروا كلهم بالقدس تحت طاعة الملوك من بنى يهودا، إلى أن قدم بخت نصر و خرّب القدس وجلا جميع بنى إسرائيل إلى بابل، فعرفوا هناك بين الأمم ببنى يهوذا، و استمرّ هذا سمة لهم بين الأمم بعد ذلك إلى أن جاء اللّه بالإسلام، فكان يقال للواحد منهم يهوذى بذال معجمة نسبة إلى سبط يهوذا، و تلاعب العرب بذلك على عادتهم فى التلاعب بالأسماء المعجمة، و قالوها بدال مهملة، و سموا طائفة بنى إسرائيل اليهود، و بهذه اللغة نزل القرآن، و يقال أنّ أوّل من سمّى بنى إسرائيل اليهود بخت نصر، و اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون.

ذكر معتقد اليهود و كيف وقع عندهم التبديل

اعلم أن اللّه سبحانه لما أنزل التوراة على نبيه موسى عليه السلام، ضمنها شرائع الملة الموسوية، و أمر فيها أن يكتب لكلّ من يلى أمر بنى إسرائيل كتاب يتضمن أحكام الشريعة لينظر فيه. و يعمل به، و سمى هذا الكتاب بالعبرانية مشنا، و معناه استخراج الأحكام من النص الإلهىّ، و كتب موسى عليه السلام، بخط يده مشنا كأنه تفسير لما فى التوراة من الكلام الإلهىّ، فلما مات موسى عليه السلام، و قام من بعده بأمر بنى إسرائيل يوشع بن نون، و من بعده إلى أن كانت أيام يهوياقيم ملك القدس، غزاهم بخت نصر الغزوة الأولى، و هم يكتبون لكل من ملكهم مشنا، ينقلونها من المشنا التى بخط موسى و يجعلونها باسمه، فلما جلا بخت نصر يهوياقيم الملك و معه أعيان بنى إسرائيل و كبراء بيت المقدس، و هم فى زيادة على عشرة آلاف نفس، ساروا و معهم نسخ المشنا التى كتبت لسائر ملوك بنى إسرائيل بأجمعها إلى بلاد المشرق، فلما سار بخت نصر من باب الكرّة الثانية لغزو القدس، و خرّبه، و جلا جميع من فيه و فى بلاد بنى إسرائيل من الأسباط الاثنى عشر إلى باب أقاموا بها، و بقى القدس خرابا لا ساكن فيه مدّة سبعين سنة، ثم عادوا من بابل بعد سبعين سنة و عمروا القدس، و جدّدوا بناء البيت ثانيا و معهم جميع نسخ المشنا التى خرجوا بها أوّلا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۰

فلما مضت من عمارة البيت الثانى بعد الجلايـة ثلاثمائة و نيف من السنين، اختلف بنو إسرائيل فى دينهم اختلافا كثيرا، فخرج طائفة من آل داود عليه السلام من بيت المقدس و ساروا إلى الشرق، كما فعل آباؤهم أوّلا، و أخذوا معهم نسخا من المشنا التى كتبت للملوك من مشنا موسى التى بخطه، و عملوا بما فيها ببلاد الشرق، من حين خرجوا من القدس إلى أن جاء اللّه بدين الإسلام، و قدم عانان رأس الجالوت من المشرق إلى العراق فى خلافة أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور، سنة ست و ثلاثين و مائة من سنى الهجرة المحمدية.

و أما الذين أقاموا بالقدس من بنى إسرائيل بعد خروج من ذكرنا إلى الشرق من آل داود، فإنهم لم يزالوا فى افتراق و اختلاف فى دينهم إلى أن غزاهم طيطش، و خرّب القدس الخراب الثانى بعد قتل يحيى بن زكريا و رفع المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، و سبى جميع من فيه و فى بلاد بنى إسرائيل بأسرهم، و غيب نسخ المشنا التى كانت عندهم، بحيث لم يبق معهم من كتب الشريعة سوى التوراة، و كتب الأنبياء، و تفرّق بنو إسرائيل من وقت تخريب طيطش بيت المقدس فى أقطار الأرض، و صاروا ذمّة إلى يومنا هذا، ثم إن رجلين ممن تأخروا إلى قبيل تخريب القدس يقال لهما شماى و هلال، نزلا مدينة طبرية و كتبا كتابا سمياه مشنا، باسم مشنا موسى عليه السلام، و ضمنا هذا المشنا الذى وضعاه أحكام الشريعة، و وافقهما على وضع ذلك عدّة من اليهود، و كان شماى و هلال فى زمن واحد، و كانا فى أواخر مدّة تخريب البيت الثانى، و كان لهلال ثمانون تلميذا، أصغرهم يوحانان بن زكاى، و أدرك يوحانان بن زكاى خراب البيت الثانى على يد طيطش، و هلال و شماى أقوالهما مذكورة فى المشنا، و هى فى ستة أسفار تشتمل على فقه التوراة، و إنما رتبها النوسىّ من ولد داود النبىّ بعد تخريب طيطش للقدس بمائة و خمسين سنة، و مات شماى و هلال و لم يكملا المشنا فأكمله رجل منهم يعرف بيهودا من ذرية هلال و حمل اليهود على العمل بما فى هذا المشنا، و حقيقته أنه يتضمن كثيرا مما كان فى مشنا النبىّ موسى عليه السلام، و كثيرا من آراء أكابرهم. فلما كان بعد وضع هذا المشنا بنحو خمسين سنة، قام طائفة من اليهود يقال لهم السنهدوين، و معنى ذلك الأكابر، و تصرّفوا فى تفسير هذا المشنا برأيهم، و عملوا عليه كتابا اسمه التلمود، أخفوا فيه كثيرا مما كان فى ذلك المشنا، و زادوا فيه أحكاما من رأيهم، و صاروا منذ وضع هذا التلمود الذى كتبوه بأيديهم و ضمنوه ما هو من رأيهم ينسبون ما فيه إلى اللّه تعالى، و لذلك ذمّهم اللّه فى القرآن الكريم بقوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ [البقرة/ ۷۹] و هذا التلمود نسختان مختلفتان فى الأحكام، و العمل إلى اليوم على هذا التلمود عند فرقة الربانيين بخلاف القرّائين، فإنهم لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۱

يعتقدون العمل بما فى هذا التلمود. فلما قدم عانان رأس الجالوت إلى العراق، أنكر على اليهود عملهم بهذا التلمود، و زعم أن الذى بيده هو الحق، لأنه كتب من النسخ التى كتبت من مشنا موسى عليه السلام الذى بخطه، و الطائفة الربانيون، و من وافقهم لا يعوّلون من التوراة التى بأيديهم إلّا على ما فى هذا التلمود، و ما خلف ما فى التلمود لا يعبأون به، و لا يعوّلون عليه، كما أخبر تعالى إذ يقول حكاية عنهم: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [الزخرف/ ۲۲] و من اطلع على ما بأيديهم و ما عندهم من التوراة تبين له أنهم ليسوا على شىء، و أنهم إن يتبعون إلّا الظنّ و ما تهوى الأنفس، و لذلك لما نبغ فيهم موسى بن ميمون القرطبىّ، عوّلوا على رأيه، و عملوا بما فى كتاب الدلالة و غيره من كتبه، و هم على رأيه إلى زمننا.

ذكر فرق اليهود الآن

اعلم أن اليهود الذين قطعهم اللّه فى الأرض أمما أربع فرق، كلّ فرقة تخطّىء الطوائف الأخر، و هى طائفة الربانيين، و طائفة القرّائين، و طائفة العانانية، و طائفة السمرة. و هذا الاختلاف حدث لهم بعد تخريب بخت نصر بيت المقدس و عودهم من أرض بابل بعد

الجلايـة إلى القـدس، و عمارة البيت ثانيا. و ذلك أنهم فى إقامتهم بالقـدس أيام العمارة الثانيـة افترقوا فى دينهم، و صاروا شـيعا. فلما ملكهم اليونان بعد الإسـكندر بن فيلبش، و قام بأمرهم فى القدس هور قانوس بن شـمعون بن مشيثا، و استقام أمره فسمى ملكا، و كان قبـل ذلك هو و جميع من تقـدّمه ممن ولى أمر اليهود فى القـدس بعـد عودهم من الجلايـة إنما يقال له الكوهن الأكبر، فاجتمع لهور قانوس منزلة الملك و منزلة الكهونية، و اطمأنّ اليهود فى أيامه و أمنوا سائر أعدائهم من الأمم، فبطروا معيشـتهم و اختلفوا فى دينهم و تعـادوا بسـبب الاختلاـف، و كان من جملـة فرقهم إذ ذاك طائفـة يقال لهم الفروشـيم، و معناه المعتزلـة، و من مـذهبهم القول بما فى التوراة على معنى ما فسـره الحكماء من أسـلافهم. و طائفـة يقال لهم الصدوفيـة بفاء، نسـبوا إلى كبير لهم يقال له صـدوف، و مذهبهم القول بنص التوراة و ما دلّ عليه القول الإلهىّ فيها دون ما عـداه من الأقوال، و طائفـة يقال لهم الجسديم، و معناه الصـلحاء، و مذهبهم الاشـتغال بالنسك و عبادة اللّه سـبحانه و الأخذ بالأفضل و الأسـلم فى الدين، و كانت الصدوفية تعادى المعتزلة عداوة شديدة، و كان الملك هور قانوس أوّلا على رأى المعتزلـة، و هو مـذهب آبائه، ثم إنه رجع إلى مـذهب الصدوفيـة و باين المعتزلة و عاداهم، و نادى فى سائر مملكته بمنع الناس جملة من تعلم رأى المعتزلة، و الأخذ عن أحد منهم، و تتبعهم و قتل منهم كثيرا. و كانت العامّة بأسرها مع المعتزلة، فثارت الشرور بين اليهود و اتصلت الحروب بينهم، و قتل بعضهم بعضا إلى أن خرب البيت على يد طيطش الخراب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۲

الثانى بعـد رفع عيسـى صـلوات اللّه عليه، و تفرّق اليهود من حينئـذ فى أقطار الـدنيا و صاروا ذمّة، و النصارى تقتلهم حيثما ظفرت بهم إلى أن جاء اللّه بالملة الإسلامية، و هم فى تفرّقهم ثلاث فرق، الربانيون و القرّاء و السمرة.

فأما الربانية: فيقالهم بنو مشـنو، و معنى مشـنو الثانى، و قيل لهم ذلك لأنهم يعتبرون أمر البيت الذى بنى ثانيا بعد عودهم من الجلاية و خرّبه طيطش و ينزلونه فى الاحترام و الإكرام و التعظيم منزلة البيت الأوّل الذى ابتدأ عمارته داود و أتمه ابنه سـليمان عليهما السلام، و خرّبه بخت نصـر. فصار كأنه يقال لهم أصحاب الدعوة الثانية، و هذه الفرقة هى التى كانت تعمل بما فى المشنا الذى كتب بطبرية بعد تخريـب طيطش القـدس، و تعوّل فى أحكـام الشـريعة على مـا فى التلمـود إلى هـذا الـوقت الـذى نحـن فيـه، و هى بعيـدة عن العمل بالنصوص الإلهية متبعة لآراء من تقدّمها من الأحبار، و من اطلع على حقيقة دينها، تبين له أن الذى ذمّهم اللّه به فى القرآن الكريم حق لا مريـة فيه، و أنه لا يصـح لهم من اسم اليهودية إلّا مجرّد الانتماء فقط، لا إنهم فى الإتباع على الملة الموسوية، لا سـيما منذ ظهر فيهم موسـى بن ميمون القرطبىّ بعـد الخمسـمائة من سـنى الهجرة المحمدية، فإنه ردّهم مع ذلك معطلة، فصاروا فى أصول دينهم و فروعه أبعد الناس عما جاء به أنبياء اللّه تعالى من الشرائع الإلهية.

و أما القرّاء: فإنهم بنو مقرا، و معنى مقرا الـدعوة، و هم لا يعوّلون على البيت الثانى جملـة، و دعوتهم إنما هى لما كان عليه العمل مدّة البيت الأـوّل، و كـان يقال لهم أصـحاب الـدعوة الأولى، و هم يحكمون نصوص التوراة و لا يلتفتون إلى قول من خالفها، و يقفون مع النص دون تقليد من سـلف، و هم مع الربانيين من العداوة بحيث لا يتناكحون و لا يتجاورون و لا يدخل بعضـهم كنيسة بعض، و يقال للقرّائين أيضا المبادية، لأنهم كانوا يعملون مبادى الشـهور من الاجتماع الكائن بين الشـمس و القمر، و يقال لهم أيضا الأسمعية، لأنهم يراعون العمل بنصوص التوراة دون العمل بالقياس و التقليد.

و أما العانانيـة: فإنهم ينسـبون إلى عانان رأس الجالوت الذى قدم من المشـرق فى أيام الخليفة أبى جعفر المنصور، و معه نسخ المشـنا الذى كتب من الخط الذى كتب من خط النبىّ موسى، و أنه رأى ما عليه اليهود من الربانيين و القرّائين يخالف ما معه، فتجرّد لخلافهم و طعن عليهم فى دينهم، و ازدرى بهم، و كان عظيما عندهم يرون أنه من ولد داود عليه السـلام، و على طريق فاضـلة من النسك على مقتضـى ملتهم، بحيث يرون أنه لو ظهر فى أيـام عمـارة البيت لكـان نبيـا، فلم يقـدروا على منـاظرته، لما أوتى مع ما ذكرنا من تقريب الخليفة له و إكرامه، و كان مما خالف فيه اليهود اسـتعمال الشـهور برؤية الأهلة على مثل ما شرع فى الملة الإسلامية، و لم يبال فى أىّ يوم وقع من الأسبوع، و ترك حساب الربانيين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۳

و كبس الشهور و خطأهم فى العمل بذلك، و اعتمد على كشف زرع الشعير، و أجمل القول فى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، و أثبت نبوّة نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال: هو نبىّ أرسل إلى العرب، إلّا أن التوراة لم تنسخ، و الحق أنه أرسل إلى الناس كافة صلّى اللّه عليه و سلّم.

ذكر السمرة: اعلم أن طائفة السمرة ليسوا من بنى إسرائيل البتة، و إنما هم قوم قدموا من بلاد المشرق و سكنوا بلاد الشام و تهوّدوا، و يقال أنهم من بنى سامرك بن كفركا بن رمى، و هو شعب من شعوب الفرس، خرجوا إلى الشام و معهم الخيل و الغنم و الإبل و القسىّ و النشاب و السيوف و المواشى، و منهم السمرة الذين تفرّقوا فى البلاد. و يقال أن سليمان بن داود لما مات افترق ملك بنى إسرائيل من بعده، فصار رحبعم بن سليمان على سبط يهودا بالقدس، و ملك يربعم بن نياط على عشرة أسباط من بنى إسرائيل، و سكن خارجا عن القدس، و اتخذ عجلين دعا الأسباط العشرة إلى عبادتهما من دون اللّه إلى أن مات، فولىّ ملك بنى إسرائيل من بعده عدّة ملوك على مثل طريقته فى الكفر بالله و عبادة الأوثان، إلى أن ملكهم عمرى بن نوذب من سبط منشا بن يوسف، فاشترى مكانا من رجل اسمه شامر بقنطار فضة، و بنى فيه قصرا و سماه باسم اشتقه من اسم شامر الذى اشترى منه المكان، و صير حول هذا القصر مدينة و سماها مدينة شمرون، و جعلها كرسىّ ملكه إلى أن مات، فاتخذها ملوك بنى إسرائيل من بعده مدينة للملك، و ما زالوا فيها إلى أن ولى هو شاع بن إيلاء و هم على الكفر بالله، و عبادة وثن بعل و غيره من الأوثان، مع قتل الأنبياء، إلى أن سلط اللّه عليهم سنجاريب ملك الموصل، فحاصرهم بمدينة شمرون ثلاث سنين، و أخذ هو شاع أسيرا و جلاه و معه جميع من فى شمرون من بنى إسرائيل، و أنزلهم بهراه و بلخ و نهاوند و حلوان، فانقطع من حينئذ ملك بنى إسرائيل من مدينة شمرون بعد ما ملكوا من بعد سليمان عليه السلام مدّة مائتى سنة و إحدى و خمسين سنة، ثم إن سنجاريب ملك الموصل نقل إلى شمرون كثيرا من أهل كوشا و بابل و حماه، و أنزلهم فيها ليعمروها، فبعثوا إليه يشكون من كثرة هجوم الوحش عليهم يشمرون، فسير إليهم من علمهم التوراة، فتعلموها على غير ما يجب، و صاروا يقرءونها ناقصة أربعة أحرف، الألف و الهاء و الخاء و العين، فلا ينطقون بشىء من هذه الأحرف فى قراءتهم التوراة، و عرفوا بين الأمم بالسامرة لسكناهم بمدينة شمرون.

و شمرون هذه هى مدينة نابلس، و قيل لها سمرون بسين مهملة، و لسكانها سامرة، و يقال معنى السمرة حفظة و نواطير، فلم تزل السمرة بنابلس إلى أن غزا بخت نصر القدس و أجلى اليهود منه إلى بابل، ثم عادوا بعد سبعين سنة و عمروا البيت ثانيا إلى أن قام الإسكندر من بلاد اليونان، و خرج يريد غزو الفرس، فمرّ على القدس و خرج منه يريد عمان، فاجتاز على نابلس و خرج إليه كبير السمرة بها، و هو سنبلاط السامرىّ، فأنزله و صنع له و لقوّاده و عظماء أصحابه صنيعا عظيما، و حمل إليه أموالا جمة و هدايا جليلة، و استأذنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۴

فى بناء هيكل للّه على الجبل الذى يسمى عندهم طوربريك، فأذن له و سار عنه إلى محاربة دارا ملك الفرس، فبنى سنبلاط هيكلا شبيها بهيكل القدس، ليستميل به اليهود، و موّه عليهم بأن طوربريك هو الموضع الذى اختاره اللّه تعالى و ذكره فى التوراة بقوله فيها: اجعل البركة على طوربريك، و كان سنبلاط قد زوّج ابنته بكاهن من كهان بيت المقدس يقال له منشا، فمقت اليهود منشا على ذلك، و أبعدوه و حطوه عن مرتبته عقوبة له على مصاهرة سنبلاط، فأقام سنبلاط منشا زوج ابنته كاهنا فى هيكل طوربريك، و آتته طوائف من اليهود و ضلوا به، و صاروا يحجون إلى هيكله فى الأعياد، و يقرّبون قرا بينهم إليه، و يحملون إليه نذورهم و أعشارهم، و تركوا قدس اللّه و عدلوا عنه فكثرت الأموال فى هذا الهيكل، و صار ضدّ البيت المقدس، و استغنى كهنته و خدّامه و عظم أمر منشا و كبرت حالته. فلم تزل هذه الطائفة تحج إلى طور بريك حتى كان زمن هور قانوس بن شمعون الكوهن، من بنى حشمتاى فى بيت المقدس، فسار إلى بلاد السمرة و نزل على مدينة نابلس و حصرها مدّة و أخذها عنوة، و خرّب هيكل طور بريك إلى أساسه، و

كانت مدّة عمارته مائتى سنة، و قتل من كان هناك من الكهنة، فلم تزل السمرة بعد ذلك إلى يومنا هذا تستقبل فى صلاتها حيثما كانت من الأرض طور بريك بجبل نابلس، و لهم عبادات تخالف ما عليه اليهود، و لهم كنائس فى كل بلد تخصهم، و السمرة ينكرون نبوّة داود و من تلاه من الأنبياء، و أبوا أن يكون بعد موسى عليه السلام نبىّ و جعلوا رؤساءهم من ولد هارون عليه السلام، و أكثرهم يسكن فى مدنية نابلس، و هم كثير فى مدائن الشام، و يذكر أنهم الذين يقولون لا مساس، و يزعمون أن نابلس هى بيت المقدس، و هى مدينة يعقوب عليه السلام، و هناك مراعيه.

و ذكر المسعودىّ أن السمرة صنفان متباينان، أحدهما يقال له الكوشان، و الآخر الروشان، أحد الصنفين يقول بقدم العالم. و السامرة تزعم أن التوراة التى فى أيدى اليهود ليست التوراة التى أوردها موسى عليه السلام و يقولون توراة موسى حرّفت و غيّرت و بدّلت، و أن التوراة هى ما بأيديهم دون غيرهم. و ذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيروتىّ أنّ السامرة تعرف بالأمساسية. قال: و هم الأبدال الذين بدّلهم بخت نصر بالشام حين أسر اليهود و أجلاها، و كانت السامرة أعانوه و دلوه على عورات بنى إسرائيل، فلم يحربهم و لم يقتلهم و لم يسبهم و أنزلهم فلسطين من تحت يده، و مذاهبهم ممتزجة من اليهودية و المجوسية، و عامّتهم يكونون بموضع من فلسطين يسمى نابلس، و بها كنائسهم، و لا يدخلون حدّ بيت المقدس منذ أيام داود النبى عليه السلام، لأنهم يدّعون إنه ظلم و اعتدى و حوّل الهيكل المقدّس من نابلس إلى إيليا، و هو بيت المقدس، و لا يمسون الناس، و إذا مسوهم اغتسلوا، و لا يقرّون بنبوّة من كان بعد موسى عليه السلام من أنبياء بنى إسرائيل.

و فى شرح الإنجيل: إنّ اليهود انقسمت بعد أيام داود إلى سبع فرق.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۵

الكتاب: و كانوا يحافظون على العادات التى أجمع عليها المشايخ مما ليس فى التوراة.

و المعتزلة: و هم الفريسيون، و كانوا يظهرون الزهد و يصومون يومين فى الأسبوع، و يخرجون العشر من أموالهم، و يجعلون خيوط القرمز فى رؤس ثيابهم، و يغسلون جميع أوانيهم، و يبالغون فى إظهار النظافة.

و الزنادقة: و هم من جنس السامرة، و هم من الصدوفية، فيكفرون بالملائكة و البعث بعد الموت و بجميع الأنبياء ما خلا موسى فقط، فإنهم يقرّون بنبوّته.

و المتظهرون: و كانوا يغتسلون كلّ يوم و يقولون لا يستحق حياة الأبد إلّا من يتطهر كلّ يوم.

و الإسابيون: و معناه الغلاظ الطباع، و كانوا يوجبون جميع الأوامر الإلهية، و ينكرون جميع الأنبياء سوى موسى عليه السلام، و يتعبدون بكتب غير الأنبياء.

و المتقشفون: و كانوا يمنعون أكثر المآكل و خاصة اللحم، و يمنعون من التزوّج بحسب الطاقة، و يقولون بأن التوراة ليست كلها لموسى، و يتمسكون بصحف منسوبة إلى أخنوخ و إبراهيم عليه السلام، و ينظرون فى علم النجوم و يعملون بها.

و الهيرذوسيون: سموا أنفسهم بذلك لموالاتهم هيرذوس ملكهم، و كانوا يتبعون التوراة و يعملون بما فيها انتهى.

و ذكر يوسف بن كريون فى تاريخه أن اليهود كانوا فى زمن ملكهم هور قانوس، يعنى فى زمن بناء البيت بعد عودهم من الجلاية ثلاث فرق: الفروشيم: و معناه المعتزلة، و مذهبهم القول بما فى التوراة و ما فسره الحكماء من سلفهم. و الصدوفية: أصحاب رجل من العلماء يقال له صدوف، و مذهبهم القول بنص التوراة و ما دلت عليه دون غيره.

و الجسديم و معناه الصلحاء، و هم المشتغلون بالعبادة و النسك، الآخذون فى كل أمر بالأفضل و الأسلم فى الدين انتهى. و هذه الفرقة هى أصل فرقتى الربانيين و القرّاء.

فصل: زعم بعضهم أن اليهود عانانية و شمعونية، نسبة إلى شمعون الصدّيق، ولى القدس عند قدوم أبى الإسكندر، و جالوتية و فيومية و سامرية و عكبرية و أصبهانية و عراقية و مغاربة و شرشتانية و فلسطينية و مالكية و ربانية. فالعانانية تقول بالتوحيد و العدل و نفى

التشبيه، و الشمعونية تشبه، و تبالغ الجالوتية فى التشبيه، و أما الفيومية فإنها تنسب إلى أبى سعيد الفيومىّ، و هم يفسرون التوراة على الحروف المقطعة. و السامرية ينكرون كثيرا من شرائعهم و لا يقرّون بنبوّة من جاء بعد يوشع، و العكبرية أصحاب أبى موسى البغدادىّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۶

العبكرىّ، و إسماعيل العكبرىّ، يخالفون أشياء من السبت و تفسير التوراة، و الأصبهانية أصحاب أبى عيسى الأصبهانى، و ادّعى النبوّة و أنه عرج به إلى السماء فمسح الرب على رأسه، و إنه رأى محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم فآمن به، و يزعم يهود أصبهان أنه الدجال، و أنه يخرج من ناحيتهم، و العراقية تخالف الخراسانية فى أوقات أعيادهم و مدد أيامهم، و الشرشتانية أصحاب شرشتان، زعم أنه ذهب من التوراة ثمانون سوقة، أى آية، و ادّعى أن للتوراة تأويلا باطنا مخالفا للظاهر، و أما يهود فلسطين فزعموا أن العزير ابن اللّه تعالى، و أنكر أكثر اليهود هذا القول، و المالكية تزعم أن اللّه تعالى لا- يحيى يوم القيامة من الموتى إلّا من احتج عليه بالرسل و الكتب، و مالك هذا هو تلميذ عانان. و الربانية تزعم أن الحائض إذا مست ثوبا بين ثياب وجب غسل جميعها، و العراقية تعمل رؤس الشهور بالأهلة، و آخرون بالحساب يعملون و اللّه أعلم.

فصل: و هم يوجبون الإيمان باللّه وحده و بموسى عليه السلام و بالتوراة، و لا بدّ لهم من درسها و تعلمها، و يغتسلون و يتوضؤون و لا يمسحون رؤوسهم فى وضوئهم، و يبدؤون بالرجل اليسرى، و فى شىء منه خلاف بينهم، و عانان يرى أن الاستنجاء قبل الوضوء، و يرى أشمعث أن الاستنجاء بعد الوضوء، و لا- يتوضؤون بما تغير لونه أو طعمه أو ريحه، و لا- يجيزون الطهارة من غدير ما لم يكن عشرة أذرع فى مثلها، و النوم قاعدا لا ينقض الوضوء عندهم ما لم يضع جنبه الأرض، إلّا العانانية فإن مطلق النوم عندهم ينقض، و من أحدث فى صلاته من قىء أو رعاف أو ريح انصرف و توضأ و بنى على صلاته، و لا تجوز صلاة الرجل فى أقلّ من ثلاثة أثواب، قميص و سراويل و ملاءة يتردّى بها، فإن لم يجد الملاءة صلّى جالسا، فإن لم يجد القميص و السراويل صلّى بقلبه، و لا تجوز صلاة المرأة فى أقل من أربعة أثواب، و عليهم فريضة ثلاث صلوات فى اليوم و الليلة، عند الصبح و بعد الزوال إلى غروب الشمس و وقت العتمة إلى ثلث الليل، و يسجدون فى دبر كل صلاة سجدة طويلة، و فى يوم السبت و أيام الأعياد يزيدون خمس صلوات على تلك الثلاث. و لهم خمسة أعياد:

عيد الفطر: و هو الخامس عشر من نيسن، يقيمون سبعة أيام لا يأكلون سوى الفطير، و هى الأيام التى تخلصوا فيها من فرعون و أغرقه اللّه.

و عيد الأسابيع: بعد الفطير بسبعة أسابيع، و هو اليوم الذى كلم اللّه تعالى فيه بنى إسرائيل من طور سيناء.

وعيد رأس الشهر: و هو أوّل تشرى، و هو الذى فدى فيه إسحاق عليه السلام من الذبح، و يسمونه عيد رأس هشايا، أى رأس الشهر. و عيد صوماريا: يعنى الصوم العظيم.

و عيد المظلة: يستظلون سبعة أيام بقضبان الآس و الخلاف. و يجب عليهم الحج فى كل سنة ثلاث مرّات لما كان الهيكل عامرا، و يوجبون صوم أربعة أيام. أوّلها: سابع عشر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۷

تموز من الغروب إلى الغروب، و عند العانانية هو اليوم الذى أخذ فيه بخت نصر البيت.

و الثانى: عشر آب. و الثالث: عاشر كانون الأول. و الرابع: ثالث عشر آذار. و يتشدّدون فى أمر الحائض بحيث يعتزلونها و ثيابها و أوانيها و ما مسته من شىء فإنه ينجّس و يجب غسله، فإن مست لحم القربان أحرق بالنار، و من مسها أو شيئا من ثيابها وجب عليه الغسل، و ما عجنته أو خبزته أو طبخته أو غسلته فكله نجس حرام على الطاهرين حلّ للحيض، و من غسل ميتا نجس سبعة أيام لا يصلى فيها، و هم يغسلون موتاهم و لا يصلون عليهم، و يوجبون إخراج العشر من جميع ما يملك، و لا يجب حتى يبلغ وزنه أو عدده مائة، و لا يخرج العشر إلّا مرّة واحدة، ثم لا يعاد إخراجه، و لا يصح النكاح عندهم إلّا بولىّ و خطبة و ثلاثة شهود و مهر مائتى درهم

للبكر، و مائة للثيب لا أقل من ذلك، و يحضر عند عقد النكاح كأس خمر وباقة مرسين، فيأخذ الإمام الكأس و يبارك عليه و يخطب خطبة النكاح ثم يدفعه إلى الختن و يقول: قد تزوّجت فلانة بهذه الفضة أو بهذا الذهب و هو خاتم فى يده، و بهذا الكأس من الخمر، و بمهر كذا، و يشرب جرعة من الخمر، ثم ينهضون إلى المرأة و يأمرونها أن تأخذ الخاتم و المرسلين و الكأس من يد الختن، فإذا أخذت و شربت جرعة وجب عقد النكاح، و يضمن أولياء المرأة البكارة، فإذا زفت إليه وكّل الوليّ من يقف بباب الخلوة و قد فرشت ثياب بيض حتى يشاهد الوكيل الدم، فإن لم توجد بكرا رجمت، و لا يجوز عندهم نكاح الإماء حتى يعتقن، ثم ينكحن، و العبد يعتق بعد خدمته لسنين معلومة، و هى ست سنين، و منهم من يجوّز بيع صغار أولاده إذا احتاج، و لا يجوّزون الطلاق إلا بفاحشة أو سحر أو رجوع عن الدين، و على من طلق خمسة و عشرون درهما للبكر، و نصف ذلك للثيب، و ينزل فى كتابها طلاقها بعد أن يقول الزوج أنت طالق منى مائة مرّة، و مختلعة منى، و فى سعة أن تتزوّجى من شئت، و لا يقع طلاق الحامل أبدا، نعم، إلّا أن يجوّزوه و يراجع الرجل امرأته ما لم تتزوج، فإن تزوّجت حرّمت عليه إلى الأبد. و الخيار بين المتبايعين ما لم ينقل المبيع إلى البائع. و الحدود عندهم على خمسة أوجه، حرق و رجم و قتل و تعزير و تغريم، فالحرق على من زنى بأمّ امرأته أو ربيبته أو بامرأة أبيه أو امرأة ابنه، و القتل على من قتل. و الرجم على المحصن إذا زنى أو لاط، و على المرأة إذا مكنت من نفسها بهيمة. و التعزير على من قذف، و التغريم على من سرق، و يرون أن البينة على المدّعى، و اليمين على من أنكر.

و عندهم أنّ من أتى بشىء من سبعة و ثلاثين عملا فى يوم السبت أو ليلته استحق القتل و هى: كرب الأرض، و زرعها، و حصاد الزرع، و سياقة الماء إلى الزرع، و حلب اللبن، و كسر الحطب، و إشعال النار، و عجن العجين، و خبزه، و خياطة الثوب، و غسله، و نسج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۸

سلكين، و كتابة حرفين أو نحوهما، و أخذ الصيد، و ذبح الحيوان، و الخروج من القرية، و الانتقال من بيت إلى آخر، و البيع، و الشراء، و الدق، و الطحن، و الاحتطاب، و قطع الخبز، و دق اللحم، و إصلاح النعل إذا انقطعت، و خلط علف الدابة، و لا يجوز للكاتب أن يخرج يوم السبت من منزله و معه قلمه، و لا الخياط و معه إبرته، و كل من عمل شيئا استحق به القتل فلم يسلم نفسه فهو ملعون .

ذكر قبط مصر و دياناتهم القديمة، و كيف تنصروا ثم صاروا ذمّة للمسلمين، و ما كان لهم فى ذلك من القصص و الأنباء، و ذكر الخبر عن كنائسهم و دياراتهم، و كيف كان ابتداؤها و مصير أمرها

اشارة

اعلم أن جميع أهل الشرائع اتباع الأنبياء عليهم السلام من المسلمين و اليهود و النصارى قد أجمعوا على أن نوحا عليه السلام هو الأب الثانى للبشر، و أن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه، و منه ذرأ اللّه تعالى جميع أولاد آدم، فليس أحد من بنى آدم إلّا و هو من أولاد نوح، و خالفت القبط و المجوس و أهل الهند و الصين ذلك، فأنكروا الطوفان و زعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم بابل و ما وراءه من البلاد الغربية فقط، و أن أولاد كيومرت الذى هو عندهم الإنسان الأوّل كانوا بالبلاد الشرقية من بابل، فلم يصل الطوفان إليهم و لا إلى الهند و الصين. و الحق ما عليه أهل الشرائع، و أن نوحا عليه السلام لما أنجاه اللّه و من معه بالسفينة نزل بهم و هم ثمانون رجلا سوى أولاده، فماتوا بعد ذلك و لم يعقبوا، و صار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة، و يؤيد هذا قول اللّه تعالى عن نوح:

وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ [الصافات/ ۷۷] و كان من خبر ذلك أن أولاد نوح الثلاثة، و هم سام و حام و يافث اقتسموا الأرض. فصار لبنى سام بن نوح أرض العراق و فارس إلى الهند، ثم إلى حضرموت و عمان و البحرين. و عالج و يبرين و وبار و الدو والد هنا و

جميع أرض اليمن و أرض الحجاز.

و صار لبنى حام بن نوح جنوب الأرض مما يلى أرض مصر مغربا إلى بلاد المغرب الأقصى.

و صار لبنى يافث بن نوح بحر الخزر مشرقا إلى الصين.

فكان من ذريـة سام بن نوح القضاعيون و الفرس و السـريانيون و العبرانيون و العرب المسـتعربة و النبط و عاد و ثمود و الأمورانيون و العماليق و أمم الهند و أهل السند و عدّة أمم قد بادت.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۹

و كانت ذريـة حام بن نوح من أربعـة أولاده الـذين هم: كوش و مصـرايم و قفط و كنعان، فمن كوش الحبشة و الزنج، و من مصـرايم قبط مصـر و النوبة، و من قفط الأفارقة أهل إفريقية و من جاورهم إلى المغرب الأقصـى، و من كنعان أمم كانت بالشام حاربهم موسى بن عمران عليه السـلام و قومه من بنى إسرائيل، و منهم أجناس عديدة من البربر درجوا. و كانت مساكن بنى حام من صيدا إلى أرض مصر، ثم إلى آخر إفريقية نحو البحر المحيط، و انتشروا فيما بين ذلك إلى الجنوب و هم ثلاثون جنسا.

و كان من ذرية يافث بن نوح: الصقلب و الفرنجة و الغالليون من قبائل الروم و الغوط و أهل الصين و قوم عرفوا بالمادنيين و اليونانيون و الروم الفريقيون و قبائـل الأـتراك و يـأجوج و مـأجوج و أهـل قبرس و ردوس، و عـدّة بنى يـافث خمسـة عشـر جنسا، سـكنوا القطر الشماليّ إلى البحر المحيط، فضاقت بهم بلادهم و لم تسعهم لكثرتهم، فخرجوا منها و تغلبوا على كثير من بلاد بنى سام بن نوح.

و ذكر الأسـتاذ إبراهيم بن وصـيف شاه الكاتب، أنّ القبط تنسب إلى قبطيم بن مصـرايم بن مصر بن حام بن نوح، و أن قبطيم أوّل من عمل العجائب بمصـر و أثار بها المعادن و شق الأنهار لما ولى أرض مصـر بعد أبيه مصرايم، و أنه لحق بلبلة الألسن، و خرج منها و هو يعرف اللغـة القبطيـة، و أنه ملك مـدّة ثمانين سـنة و مات، فاغتمّ لموته بنوه و أهله و دفنوه فى الجانب الشـرقىّ من النيل بسـرب تحت الجبل الكبير، فقام من بعـده فى ملك مصـر ابنه قفطيم بن قبطيم، و زعم بعض النسابة أن مصـر بن حام بن نوح، و يقال له مصـرايم، و يقال بل مصـريم بن هرمس بن هردوس جـدّ الإسـكندر، و قيل بل قفط بن حام بن نوح نكـح بخت بنت يتاويل بن ترسل بن يافث بن نوح، فولدت له بوقير، و قبط أبا قبط مصـر. قال ابن إسـحاق: و من هاهنا قالوا إن مصـر بن حام بن نوح، و إنما هو مصر بن هرمس بن هردوس بن ميطون بن رومى بن ليطى بن يونان، و به سـميت مصـر، فهى مقدونية، و قيل القبط من ولد قبط بن مصـر بن قفط بن حام بن نوح، و بمصر هذا سميت مصر.

ذكر ديانة القبط قبل تنصرهم

اعلم أن قبط مصر كانوا فى غابر الدهر أهل شرك بالله، يعبدون الكواكب و يقرّبون قرابينهم و يقيمون على أسمائها التماثيل، كما هى أفعال الصابئة. و ذكر ابن وصـيف شاه: أن عبادة الأصـنام أوّل ما عرفت بمصـر أيام قفطريم بن قبطيم بن مصـرايم بن بيصر بن حام بن نوح، و ذلك أن إبليس أثار الأصـنام التى غرّقها الطوفان و زين للقبط عبادتها، و أن البودشير بن قبطيم أوّل من تكهن و عمل بالسحر، و أن مناوش بن منقاوش أوّل من عبد البقر من أهل مصر. و ذكر الموفق أحمد بن أبى القاسم بن خليفة المعروف بابن أبى أصيبعة أنه كان للقبط مذهب مشهور من مذاهب الصابئة، و لهم هياكل على أسماء الكواكب يحج إليها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۰

النـاس من أقطـار الأـرض، و كـانت الحكمـاء و الفلاسـفة ممن سواهم تتهافت عليهم و تريـد التقرّب إليهم، لما كان عنـدهم من علوم السـحر و الطلسمات و الهندسة و النجوم و الطب و الحساب و الكيمياء، و لهم فى ذلك أخبار كثيرة، و كانت لهم لغة يختصون بها، و كانت خطوطهم ثلاثة أصـناف: خط العامّة، و خط الخاصة، و هو خط الكهنة المختصر، و خط الملوك. و قال ابن وصيف شاه: كانت كهنة مصر أعظم الكهان قدرا و أجلها علما بالكهانة، و كانت حكماء اليونانيين تصفهم بذلك و تشهد لهم به، فيقولون اختبرنا حكماء

مصر بكذا و كذا، و كانوا ينحون بكهانتهم نحو الكواكب و يزعمون أنها هى التى تفيض عليهم العلوم و تخبرهم بالغيوب، و هى التى تعلمهم أسرار الطوالع و صفة الطلاسم، و تدلهم على العلوم المكتومة و الأسماء الجليلة المخزونة، فعملوا الطلسمات المشهورة و النواميس الجليلة، و ولدوا الأشكال الناطقة و صوّروا الصور المتحرّكة، و بنوا العالى من البنيان، و زبروا علومهم فى الحجارة، و عملوا من الطلسمات ما دفعوا به الأعداء عن بلادهم، فحكمهم باهرة، و عجائبهم ظاهرة، و كانت أرض مصر خمسا و ثمانين كورة منها: أسفل الأرض خمس و أربعون كورة، و منها بالصعيد أربعون كورة، و كان فى كل كورة رئيس من الكهنة و هم السحرة، و كان الذى يتعبد منهم للكواكب السبعة السيارة سبع سنين يسمونه باهر، و الذى يتعبد منهم لها تسعا و أربعين سنة لكلّ كوكب سبع سنين يسمونه قاطر، و هذا يقوم له الملك إجلالا و يجلسه معه إلى جانبه، و لا يتصرّف إلّا برأيه، و تدخل الكهنة و معهم أصحاب الصنائع فيقفون حذاء القاطر، و كان كلّ كاهن منهم ينفرد بخدمة كوكب من الكواكب السبعة السيارة لا يتعدّاه إلى سواه، و يدعى بعبد ذلك الكوكب فيقال: عبد القمر، عبد عطارد، عبد الزهرة، عبد الشمس، عبد المريخ، عبد المشترى، عبد زحل. فإذا وقفوا جميعا قال القاطر لأحدهم: أين صاحبك اليوم؟ فيقول فى برج كذا و درجة كذا و دقيقة كذا. ثم يقول للآخر كذلك، فيجيبه حتى يأتى على جميعهم، و يعرف أماكن الكواكب من فلك البروج ثم يقول للملك ينبغى أن تعمل اليوم كذا، أو تأكل كذا، أو تجامع فى وقت كذا، أو تركب وقت كذا، إلى آخر ما يحتاج إليه، و الكاتب قائم بين يديه يكتب ما يقول، ثم يلتفت القاطر إلى أهل الصناعات و يخرجهم إلى دار الحكمة فيضعون أيديهم فى الأعمال التى يصلح عملها فى ذلك اليوم، ثم يؤرخ ما جرى فى ذلك اليوم فى صحيفة و تخزن فى خزائن الملك، و كان الملك إذا همه أمر جمع الكهان خارج مدينة منف، و قد اصطف الناس لهم بشارع المدينة، ثم يدخل الكهان ركبانا على قدر مراتبهم و الطبل بين أيديهم، و ما منهم إلّا من أظهر أعجوبة قد عملها، فمنهم من يعلو وجهه نور كهيئة نور الشمس لا يقدر أحد على النظر إليه، و منهم من على بدنه جواهر مختلفة الألوان قد نسجت على ثوب، و منهم من يتوشح بحيات عظيمة، و منهم من يعقد فوقه قبة من نور، إلى غير ذلك من بديع أعمالهم، و يصيرون كذلك إلى حضرة الملك فيخبرهم بما نزل به، فيجيلون رأيهم فيه حتى يتفقوا على ما يصرفونه به،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۱

و هذا أعزك اللّه من خبرهم لما كان الملك فيهم، فلما استولت العماليق على ملك مصر و ملكتها الفراعنة، ثم تداولتها من بعدهم أجناس أخر، تناقصت علوم القبط شيئا بعد شىء إلى أن تنصروا، فغادروا عوائد أهل الشرك، و اتبعوا ما أمروا به من دين النصرانية، كما ستقف عليه تلو هذا إن شاء اللّه تعالى.

ذكر دخول قبط مصر فى دين النصرانية

اعلم أن النصارى اتباع عيسى نبىّ اللّه ابن مريم عليه السلام، سموا نصارى، لأنهم ينتسبون إلى قرية الناصرة من جبل الجليل، بالجيم، و يعرف هذا الجبل بجبل كنعان، و هو الآن فى زمننا من جملة معاملة صفد، و الأصل فى تسميتهم نصارى: أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام لما ولدته أمّه مريم ابنة عمران ببيت لحم خارج مدينة بيت المقدس، ثم سارت به إلى أرض مصر و سكنتها زمانا، ثم عادت به إلى أرض بنى إسرائيل قومها، نزلت قرية الناصرة، فنشأ عيسى بها و قيل له يسوع الناصرىّ، فلما بعثه اللّه تعالى رسولا إلى بنى إسرائيل، و كان من شأنه ما ستراه، إلى أن رفعه اللّه إليه، تفرّق الحواريون، و هم الذين آمنوا به، فى أقطار الأرض يدعون الناس إلى دينه، فنسبوا إلى ما نسب إليه نبيهم عيسى ابن مريم، و قيل لهم الناصرية، ثم تلاعب العرب بهذه الكلمة و قالوا نصارى.

قال ابن سيده: و نصرى و ناصرة و نصورية: قرية بالشام، و النصارى منسوبون إليها، هذا قول أهل اللغة، و هو ضعيف. إلّا أن نادر النسب يسيغه، و أما سيبويه فقال: أما النصارى فذهب الخليل إلى أنه جمع نصرى و نصران، كما قالوا ندمان و ندامى و لكنهم حذفوا إحدى اليائين كما حذفوا من أثقية و أبدلوا مكانها ألفا. قال: و أما الذى نوجهه نحن عليه فإنه جاء على نصران، لأنه قد تكلم به،

فكأنك جمعت و قلت نصارى كما قلت ندامى، فهذا أقيس، و الأوّل مذهب، و إنما كان أقيس لأنا لم نسمعهم قالوا نصرى، و التنصر الدخول فى دين النصرانية، و نصره جعله كذلك، و الأنصر الأقلف، و هو من ذلك، لأنّ النصارى قلف، و فى شرح الإنجيل أن معنى قرية ناصرة الجديدة، و النصرانية التجدّد، و النصرانىّ المجدّد، و قيل نسبوا إلى نصران، و هو من أبنية المبالغة، و معناه أن هذا الدين فى غير عصابة صاحبه، فهو دين من ينصره من أتباعه. و إذا تقرّر هذا فاعلم «أنّ المسيح روح اللّه و كلمته ألقاها إلى مريم» (عيسى) و أصل اسمه بالعبرانية التى هى لغة أمّه و آبائها إنما هو ياشوع، و سمته النصارى يسوع، و سماه اللّه تعالى و هو أصدق القائلين عيسى، و معنى يسوع فى اللغة السريانية المخلّص، قاله فى شرح الإنجيل، و نعته بالمسيح، و هو الصدّيق، و قيل لأنه كان لا يمسح بيده صاحب عاهة إلّا برأ، و قيل لأنه كان يمسح رؤوس اليتامى، و قيل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۲

لأنه خرج من بطن أمّه ممسوحا بالدهن، و قيل لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه عند ولادته صونا له من مس الشيطان، و قيل المسيح اسم مشتق من المسح، أى الدهن، لأنّ روح القدس قام بجسد عيسى مقام الدهن الذى كان عند بنى إسرائيل يمسح به الملك، و يمسح به الكهنوت، و قيل لأنه مسح بالبركة، و قيل لأنه أمسح الرجلين، ليس لرجليه أخمص، و قيل لأنه يمسح الأرض بسياحته، لا يستوطن مكانا، و قيل هى كلمة عبرانية أصلها ماسيح، فتلاعبت بها العرب و قالت مسيح.

و كان من خبره عليه السلام أن مريم ابنة عمران بينما هى فى محرابها إذ بشرها اللّه تعالى بعيسى، فخرجت من بيت المقدس و قد اغتسلت من المحيض فتمثل لها الملك بشرا فى صورة يوسف بن يعقوب النجار أحد خدّام القدس، فنفخ فى جيبها فسرت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى كما تحمل النساء، بغير ذكر، بل حلت نفخة الملك منها محل اللقاح، ثم وضعت بعد تسعة أشهر و قيل بل وضعت فى يوم حملها بقرية بيت لحم من عمل مدينة القدس فى يوم الأربعاء خامس عشرى كانون الأوّل، و تاسع عشرى كيهك سنة تسع عشرة و ثلاثمائة للإسكندر، فقدمت رسل ملك فارس فى طلبه و معهم هدية لها فيها ذهب و مرّ و لبان، فطلبه هيرودس ملك اليهود بالقدس ليقتله، و قد أنذر به، فسارت أمه مريم به و عمره سنتان على حمار و معها يوسف النجار حتى قدموا إلى أرض مصر فسكنوها مدّة أربع سنين، ثم عادوا، و عمر عيسى ست سنين، فنزلت به مريم قرية الناصرة من جبل الجليل فاستوطنتها فنشأ بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة، فسار هو و ابن خالته يحيى بن زكريا عليهما السلام إلى نهر الأردن، فاغتسل عيسى فيه فحلت عليه النبوّة، فمضى إلى البرّية و أقام بها أربعين يوما لا يتناول طعاما و لا شرابا فأوحى اللّه إليه بأن يدعو بنى إسرائيل إلى عبادة اللّه تعالى، فطاف القرى و دعا الناس إلى اللّه تعالى، و أبرأ الأكمه و الأبرص و أحيى الموتى بإذن اللّه، و بكّت اليهود و أمرهم بالزهد فى الدنيا و التوبة من المعاصى، فآمن به الحواريون و كانوا قوما صيادين و قيل قصارين و قيل ملاحين و عددهم اثنا عشر رجلا و صدقوا بالإنجيل الذى أنزله اللّه تعالى عليه، و كذّبه عامّة اليهود و ضللوه و اتهموه بما هو برىء منه، فكانت له و لهم عدّة مناظرات آلت بهم إلى أن اتفق أحبارهم على قتله، و طرقوه ليلة الجمعة، فقيل أنه رفع عند ذلك، و قيل بل أخذوه و أتوا به إلى بلاطس النبطىّ شحنة القدس من قبل الملك طيباريوس قيصر، و راودوه على قتله و هو يدفعهم عنه حتى غلبوه على رأيه، بأن دينهم اقتضى قتله، فأمكنهم منه، و عندما أدنوه من الخشبة ليصلبوه رفعه اللّه إليه، و ذلك فى الساعة السادسة من يوم الجمعة خامس عشر شهر نيسن، و تاسع عشرى شهر برمهات، و خامس عشر شهر آذار، و سابع عشر شهر ذى القعدة، و له من العمر ثلاث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۳

و ثلاثون سنة و ثلاثة أشهر، فصلبوا الذى شبه لهم، و صلبوا معه لصين و سمروهم بمسامير الحديد، و اقتسم الجند ثياب المصلوب، فغشيت الأرض ظلمة دامت ثلاث ساعات حتى صار النهار شبه الليل و رؤيت النجوم، و كان مع ذلك هزة و زلزلة، ثم أنزل المصلوب عن الخشبة بكرة يوم السبت و دفن تحت صخرة فى قبر جديد، و وكل بالقبر من يحرسه لئلا يأخذ المقبور أصحابه، فزعم النصارى أن المقبور قام من قبره ليلة الأحد سحرا، و دخل عشية ذلك اليوم على الحواريين و حادثهم و وصاهم، ثم بعد الأربعين يوما من قيامه

صعد إلى السماء و الحواريون يشاهدونه، فاجتمعوا بعد رفعه بعشرة أيام فى علية صيون التى يقال لها اليوم صهيون خارج القدس، و ظهرت لهم خوارق، فتكلموا بجميع الألسن فآمن بهم فيما يذكر زيادة على ثلاثة آلاف إنسان . فأخذهم اليهود و حبسوهم، فظهرت كرامتهم و فتح اللّه لهم باب السجن ليلا ، فخرجوا إلى الهيكل و طفقوا يدعون الناس، فهمّ اليهود بقتلهم، و قد آمن بهم نحو الخمسة آلاف إنسان، فلم يتمكنوا من قتلهم، فتفرّق الحواريون فى أقطار الأرض يدعون إلى دين المسيح ، فسار بطرس رأس الحواريين و معه شمعون الصفا إلى أنطاكية و رومية، فاستجاب لهم بشر كثير، و قتل فى خامس أبيب، و هو عيد القصرية. و سار أندراوس أخوه إلى نيقية و ما حولها، فآمن به كثير، و مات فى بزنطية فى رابع كيهك، و سار يعقوب بن زبدى أخو يوحنا الإنجيلىّ إلى بلد ابدينية، فتبعه جماعة و قتل فى سابع عشر برمودة، و سار يوحنا الإنجيلىّ إلى آسيا و أفسيس و كتب انجيله باليونانىّ بعد ما كتب متى و مرقص و لوقا أناجيلهم، فوجدهم قد قصروا فى أمور فتكلم عليها، و كان ذلك بعد رفع المسيح بثلاثين سنة، و كتب ثلاث رسائل و مات، و قد أناف على مائة سنة، و سار فيلبس إلى قيسارية و ما حولها و قتل بها فى ثامن هاتور، و قد اتبعه جماعات من الناس.

و سار برتولوماوس إلى أرمينية و بلاد البربر و واحات مصر، فآمن به كثير، و قتل و سار توما إلى الهند فقتل هناك. و سار متى العشار إلى فلسطين و صور و صيدا و مدينة بصرى و كتب إنجيله بالعبرانىّ بعد رفع المسيح بتسع سنين، و نقله يوحنا إلى اللغة الرومية، و قتل متى بقرطاجنة فى ثامن عشر بابه بعد ما استجاب له بشر كثير. و سار يعقوب بن حلفا إلى بلاد الهند و رجع إلى القدس و قتل فى عاشر امشير. و سار يهوذا بن يعقوب من أنطاكية إلى الجزيرة فآمن به كثير من الناس و مات فى ثانى أبيب. و سار شمعون إلى سميساط و حلب و منبج و بزنطية و قتل فى سابع أبيب. و سارميتاس إلى بلاد الشرق و قتل فى ثامن عشر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۴

برمهات. و سار بولص الطرسوسىّ إلى دمشق و بلاد الروم و رومية فقتل فى خامس أبيب.

و تفرّق أيضا سبعون رسولا أخر فى البلاد، فآمن بهم الخلائق، و من هؤلاء السبعين:

مرقص الإنجيلىّ، و كان اسمه أوّلا يوحنا، فعرف ثلاثة ألسن، الفرنجىّ و العبرانىّ و اليونانىّ، و مضى إلى بطرس برومية و صحبه و كتب الإنجيل عنده بالفرنجية بعد رفع المسيح باثنتى عشرة سنة، و دعا الناس برومية و مصر و الحبشة و النوبة، و أقام حنانيا أسقفا على الإسكندرية، و خرج إلى برقة فكثرت النصارى فى أيامه، و قتل فى ثانى عيد الفسح بالإسكندرية. و من السبعين أيضا لوقا الإنجيلىّ الطبيب، تلميذ بولص، كتب الإنجيل باليونانية عن بولص بالإسكندرية بعد رفع المسيح بعشرين سنة، و قيل باثنتين و عشرين سنة، و لما فرّ بطرس رأس الحواريين من حبس رومية و نزل بأنطاكية أقام بها داريوس بطركا، و أنطاكية أحد الكراسى الأربعة التى للنصارى و هى: رومية و الإسكندرية و القدس و أنطاكية، فأقام داريوس بطرك أنطاكية سبعا و عشرين سنة و هو أوّل بطاركتها، و توارث من بعده البطاركة بها البطركية واحدا بعد واحد. و دعا شمعون الصفا برومية خمسا و عشرين سنة، فآمنت به بطركية و سارت إلى القدس، و كشفت عن خشبات الصليب و سلمتها إلى يعقوب بن يوسف الأسقف و بنت هناك كنيسة و عادت إلى رومية، و قد اشتدّت على دين النصرانية، فآمن معها عدّة من أهلها. و اجتمع الرسل بمدينة رومية و وضعوا القوانين و أرسلوها على يد قليموس تلميذ بطرس، فكتبوا فيها عدد الكتب التى يجب قبولها من العتيقة و الجديدة، فأمّا العتيقة فالتوراة، و كتاب يوشع بن نون، و كتاب القضاة، و كتاب راغون، و كتاب يهوديت، و سير الملوك، و سفر بنيامين، و كتب المقانين، و كتاب عزرة، و كتاب أستير، و قصة هامان، و كتاب أيوب، و كتاب مزامير داود، و كتب سليمان بن داود، و كتب الأنبياء و هى ستة عشر كتابا، و كتاب يوشع بن شيراخ، و أما الكتب الحديثة:

فالأناجيل الأربعة، و كتاب القليتليقون، و كتاب بولص، و كتاب الأبركسيس، و هو قصص الحواريين، و كتاب قليموس، و فيه ما أمر به الحواريون و ما نهوا عنه.

و لما قتل الملك نيرون قيصر بطرس رأس الحواريين برومية، أقيم من بعده أريوس بطرك رومية، و هو أوّل بطرك صار على رومية،

فأقام فى البطركية اثنتى عشرة سنة، و قام من بعده البطاركة بها واحدا بعد واحد إلى يومنا هذا الذى نحن فيه.

و لما قتل يعقوب اسقف القدس على يد اليهود، هدموا بعده البيعة و أخذوا خشبة الصليب و الخشبتين معها و دفنوها و ألقوا على موضعها ترابا كثيرا، فصار كوما عظيما حتى أخرجتها هيلانة أم قسطنطين كما ستراه قريبا إن شاء اللّه تعالى. و أقيم بعد قتل يعقوب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۵

سمعان ابن عمه أسقف القدس، فمكث اثنتين و أربعين سنة أسقفا. و مات، فتداول الأساقفة بعده الأسقفية بالقدس واحدا بعد آخر.

و لما أقام مرقص حنانيا و يقال أنانيو بطرك الإسكندرية، جعل معه اثنى عشر قسا و أمرهم إذا مات البطرك أن يجعلوا عوضه واحدا منهم، و يقيموا بدل ذلك القس واحدا من النصارى حتى لا يزالوا أبدا اثنى عشر قسا، فلم تزل البطاركة تعمل من القسوس إلى أن اجتمع ثلاثمائة و ثمانية عشر كما ستراه إن شاء اللّه تعالى، و كان بطرك الإسكندرية يقال له البابا من عهد حنانيا هذا أوّل بطاركة الإسكندرية إلى أن أقيم ديمتريوس، و هو الحادى عشر من بطاركة الإسكندرية، و لم يكن بأرض مصر أساقفة، فنصب الأساقفة بها و كثروا، فغزاها فى بطركيته هرقل، و صار الأساقفة يسمون البطرك الأب، و القسوس و سائر النصارى يسمون الأسقف الأب، و يجعلون لفظة البابا تختص ببطرك الإسكندرية، و معناها أبو الآباء، ثم انتقل هذا الاسم عن كرسى الإسكندرية إلى كرسى رومية، من أجل أنه كرسى بطرس رأس الحواريين، فصار بطرك رومية يقال له البابا، و استمرّ على ذلك إلى زمننا الذى نحن فيه، و أقام أنانيو و هو حنانيا فى بطركية الإسكندرية اثنتين و عشرين سنة و مات فى عشرى هاتور، سنة سبع و ثمانين لظهور المسيح، فأقيم بعده مينيو، فأقام اثنتى عشرة سنة و تسعة أشهر و مات، و فى أثناء ذلك ثار اليهود على النصارى و أخرجوهم من القدس، فعبروا الأردن و سكنوا تلك الأماكن، فكان بعد هذا بقليل خراب القدس و جلاية اليهود و قتلهم على يد طيطش. و يقال طيطوس، بعد رفع المسيح بنحو أربع و أربعين سنة، فكثرت النصارى فى أيام بطركية مينيو و عاد كثير منهم إلى مدينة القدس بعد تخريب طيطش لها و بنوا بها كنيسة و أقاموا عليها سمعان أسقفا، ثم أقيم بعد مينيو فى الإسكندرية فى البطركية كرتيانو، و فى أيام الملك انديانوس قيصر أصاب النصارى منه بلاء كثير، و قتل منهم جماعة كثيرة، و استعبد باقيهم، فنزل بهم بلاء لا يوصف فى العبودية حتى رحمهم الوزراء و أكابر الروم و شفعوا فيهم، فمنّ عليهم قيصر و أعتقهم، و مات كرتيانو بطرك الإسكندرية فى حادى عشر برمودة بعد ما دبر الكرسىّ إحدى عشرة سنة، و كان حميد السيرة، فقدم بعده ايريمو، فأقام اثنتى عشرة سنة، و مات فى ثالث مسرى، و اشتدّ الأمر على النصارى فى أيام الملك أريدويانوس و قتل منهم خلائق لا يحصى عددهم، و قدم مصر فأفنى من بها من النصارى، و خرّب ما بنى فى مدينة القدس من كنيسة النصارى و منعهم من التردّد إليها، و أنزل عوضهم بالقدس اليونانيين، و سمى القدس إيليا، فلم يتجاسر نصرانى أن يدنو من القدس، و أقيم بعد موت إيريمو بطرك الإسكندرية بسطس، فأقام إحدى عشرة سنة، و مات فى ثانى عشر بؤنة، فخلف بعده أرمانيون فأقام عشر سنين و أربعة أشهر و مات فى عاشر بابة، فأقيم بعده موقيانو بطرك الإسكندرية تسع سنين و ستة أشهر و مات فى سادس طوبه، فقدم بعده على الإسكندرية كلوتيانو فأقام أربع عشرة سنة و مات فى تاسع أبيب، و فى أيامه اشتدّ الملك أوليانوس قيصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۶

على النصارى و قتل منهم خلقا كثيرا، و قدّم على كرسىّ الإسكندرية بعد كلوتيانو غرنبو بطركا، فأقام اثنتى عشرة سنة و مات فى خامس أمشير، و فى أيام بطركيته اتفق رأى البطاركة بجميع الأمصار على حساب فصح النصارى و صومهم، و رتبوا كيف يستخرج، و وضعوا حساب الأبقطى، و به يستخرجون معرفة وقت صومهم و فصحهم، و استمرّ الأمر على ما رتبوه فيما بعد، و كانوا قبل ذلك يصومون بعد الغطاس أربعين يوما كما صام المسيح عليه السلام، و يفطرون. و فى عيد الفسح يعملون الفسح مع اليهود فنقل هؤلاء البطاركة الصوم و أوصلوه بعيد الفسح، لأنّ عيد الفسح كانت فيه قيامة المسيح من الأموات بزعمهم، و كان الحواريون قد أمروا أن لا يغير عن وقته و أن يعملوه كلّ سنة فى ذلك الوقت، ثم أقيم بكرسى الإسكندرية بعد غرنبو فى البطركية بوليانوس، فأقام عشر سنين و مات فى ثامن برمهات، فاستخلف بعده ديمتريوس، فأقام بعده فى البطركية ثلاثا و ثلاثين سنة و مات، و كان فلاحا أميّا و له زوجة

ذكر عنه أنه لم يجامعها قط، و فى أيامه أثار الملك سوريانوس قيصر على النصارى بلاء كبيرا فى جميع مملكته، و قتل منهم خلقا كثيرا، و قدم مصر و قتل جميع من فيها من النصارى و هدم كنائسهم، و بنى بالإسكندرية هكيلا لأصنامه، ثم أقيم بعده فى بطركية الإسكندرية باركلا، فأقام ست عشرة سنة و مات فى ثامن كيهك، فلقى النصارى من الملك مكسيموس قيصر شدّة عظيمة، و قتل منهم خلقا كثيرا، فلما ملك فيلبش قيصر، أكرم النصارى و قدّم على بطركية الإسكندرية ديوسيوس، فأقام تسع عشرة سنة و مات فى ثالث توت، و فى أيامه كان الراهب انطونيوس المصرىّ، و هو أوّل من ابتدأ بلبس الصوف، و ابتدأ بعمارة الديارات فى البرارى، و أنزل بها الرهبان، و لقى النصارى من الملك داقيوس قيصر شدّة، فإنه أمرهم أن يسجدوا لأصنامه، فأبوا من السجود لها فقتلهم أبرح قتلة، و فرّ منه الفتية أصحاب الكهف من مدينة أفسس و اختفوا فى مغارة فى جبل شرقىّ المدينة، و ناموا فضرب اللّه على آذانهم فلم يزالوا نائمين ثلاثمائة سنين و ازدادوا تسعا، فقام من بعده بالإسكندرية مكسيموس و أقام بطركا اثنتى عشرة سنة و مات فى رابع عشر برمودة، فأقيم بعده تؤوبا بطركا مدّة سبع سنين و تسعة أشهر و مات، و كانت النصارى قبله تصلّى بالإسكندرية خفية من الروم خوفا من القتل، فلاطف تؤوبا الروم و أهدى إليهم تحفا جليلة حتى بنى كنيسة مريم بالإسكندرية، فصلى بها النصارى جهرا، و اشتدّ الأمر على النصارى فى أيام الملك طيباريوس قيصر، و قتل منهم خلقا كثيرا، فلما كانت أيام دقلطيانوس قيصر خالف عليه أهل مصر و الإسكندرية، فقتل منهم خلقا كثيرا، و كتب بغلق كنائس النصارى، و أمر بعبادة الأصنام، و قتل من امتنع منها، فارتدّ خلائق كثيرة جدّا، و أقام فى البطركية بعد تؤوبا بطرس، فأقام إحدى عشرة سنة و قتل فى الإسكندرية بالسيف، و قتل معه امرأته و ابنتاه لامتناعهم من السجود للأصنام، فقام بعده تلميذه ارشلاوش، فأقام ستة أشهر و مات، و بدقلطيانوس هذا و قتله لنصارى مصر يؤرخ قبط مصر إلى يومنا هذا، كما قد ذكرناه فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۷

تاريخ القبط عند ذكر التواريخ من هذا الكتاب، فراجعه. ثم قام من بعده مكسيمانوس قيصر، فاشتدّ على النصارى و قتل منهم خلقا كثيرا، حتى كانت القتلى منهم تحمل على العجل و ترمى فى البحر، ثم قام بعد أرشلاوش فى بطركية الإسكندرية اسكندروس تلميذ بطرس الشهيد، فأقام ثلاثا و عشرين سنة و مات فى ثانى عشرى برمودة، و فى بطركيته كان مجمع النصارى بمدينة نيقية، و فى أيامه كتب النصارى و غيرهم من أهل رومية إلى قسطنطين، و كان على مدينة بزنطية يحثونه على أن ينقذهم من جور مكسيمانوس، و شكوا إليه عتوّه، فأجمع على المسير لذلك، و كانت أمّه هيلانى من أهل قرى مدينة الرها قد تنصرت على يد أسقف الرها، و تعلمت الكتب، فلما مرّ بقريتها قسطس صاحب شرطة دقلطيانوس رآها فأعجبته فتزوّجها و حملها إلى بزنطية، مدينته، فولدت له قسطنطين، و كان جميلا، فأنذر دقلطيانوس منجموه بأن هذا الغلام قسطنطين سيملك الروم و يبدّل دينهم، فأراد قتله، ففرّ منه إلى الرها و تعلم بها الحكمة اليونانية حتى مات دقلطيانوس، فعاد إلى بزنطية فسلمها له أبوه قسطس و مات، فقام بأمرها بعد أبيه إلى أن استدعاه أهل رومية، فأخذ يدبر فى مسيره، فرأى فى منامه كواكب فى السماء على هيئة الصليب، و صوت من السماء يقول له احمل هذه العلامة تنتصر على عدوّك، فقص رؤياه على أعوانه و عمل شكل الصليب على أعلامه و بنوده و سار لحرب مكسيمانوس برومية، فبرز إليه و حاربه فانتصر قسطنطين عليه و ملك رومية و تحوّل منها فجعل دار ملكه قسطنطينية، فكان هذا ابتداء رفع الصليب و ظهوره فى الناس، فاتخذه النصارى من حينئذ و عظموه حتى عبدوه، و أكرم قسطنطين النصارى و دخل فى دينهم بمدينة نيقوميديا فى السنة الثانية عشرة من ملكه على الروم، و أمر ببناء الكنائس فى جميع ممالكه و كسر الأصنام، و هدم بيوتها، و عمل المجمع بمدينة نيقية، و سببه أن الإسكندروس بطرك الإسكندرية منع آريوس من دخول الكنيسة و حرمه لمقاتلته، و نقل عن بطرس الشهيد بطرك إسكندرية أنه قال عن آريوس أنّ إيمانه فاسد، و كتب بذلك إلى جميع البطاركة، فمضى آريوس إلى الملك قسطنطين و معه أسقفان، فاستغاثوا به و شكوا الإسكندروس فأمر بإحضاره من الإسكندرية، فحضر هو و آريوس و جمع له الأعيان من النصارى ليناظروه، فقال آريوس كان الأب إذ لم يكن الابن، ثم أحدث الابن فصار كلمة له، فهو محدث مخلوق فوّض إليه الأب كلّ شىء، فخلق الابن المسمى بالكلمة

كلّ شيء من السماوات و الأرض و ما فيهما، فكان هو الخالق بما أعطاه الأب، ثم إن تلك الكلمة تجسدت من مريم و روح القدس فصار ذلك مسيحا، فإذا المسيح معنيان كلمة و جسد، و هما جميعا مخلوقان. فقال الإسكندروس أيما أوجب، عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا؟

فقال آريوس بل عبادة من خلقنا أوجب. فقال الإسكندروس: فإن كان الابن خلقنا كما وصفت و هو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق، بل تكون عبادة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۸

الخالق كفرا و عبادة المخلوق إيمانا، و هذا أقبح القبيح، فاستحسن الملك قسطنطين كلام اسكندروس و أمره أن يحرم آريوس فحرمه. و سأل اسكندروس الملك أن يحضر الأساقفة، فأمر بهم فأتوه من جميع ممالكه، و اجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقية و عدّتهم ألفان و ثلاثمائة و أربعون أسقفا مختلفون فى المسيح، فمنهم من يقول الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة أخرى فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها، و هذه مقالة سيليوس الصعيدىّ و من تبعه، و منهم من قال إن مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر بل مرّ بأحشائها كمرور الماء بالميزاب، و هذا قول إليان و من تبعه، و منهم من قال المسيح بشر مخلوق و أن ابتداء الابن من مريم، ثم إنه اصطفى فصحبته النعمة الإلهية بالمحبة و المشيئة، و لذلك سمى ابن اللّه تعالى عن ذلك، و مع ذلك فاللّه واحد قيوم و أنكر هؤلاء الكلمة و الروح فلم يؤمنوا بهما، و هذا قول بولص السميساطىّ بطرك أنطاكية و أصحابه، و منهم من قال الآلهة ثلاثة صالح و طالح و عدل بينهما، و هذا قول مرقيون و أتباعه، و منهم من قال المسيح و أمه إلهان من دون اللّه، و هذا قول المرائمة من فرق النصارى، و منهم من قال بل اللّه خلق الابن و هو الكلمة فى الأزل كما خلق الملائكة روحا طاهرة مقدّسة بسيطة مجرّدة عن المادّة، ثم خلق المسيح فى آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة، فاتحد الابن المخلوق فى الأزل بإنسان المسيح فصارا واحدا، و منهم من قال الابن مولود من الأب قبل كل الدهور، غير مخلوق، و هو جوهر من جوهره، و نور من نوره، و أن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا و هو المسيح، و هذا قول الثلاثمائة و ثمانية عشر، فتحير قسطنطين فى اختلافهم و كثر تعجبه من ذلك و أمر بهم فأنزلوا فى أماكن و أجرى لهم الأرزاق و أمرهم أن يتناظروا حتى يتبين له صوابهم من خطأهم، فثبت الثلاثمائة و ثمانية عشر على قولهم المذكور و اختلف باقيهم فمال قسطنطين إلى قول الأكثر و أعرض عما سواه و أقبل على الثلاثمائة و أمر لهم بكراسى و أجلسهم عليها، و دفع إليهم سيفه و خاتمه، و بسط أيديهم فى جميع مملكته، فباركوا عليه و وضعوا له كتاب قوانين الملوك و قوانين الكنيسة، و فيه ما يتعلق بالمحاكمات و المعاملات و المناكحات، و كتبوا بذلك إلى سائر المماليك، و كان رئيس هذا المجمع الإسكندروس بطرك الإسكندرية، و اسطارس بطرك أنطاكية، و مقاريوس أسقف القدس، و وجه سلطوس بطرك رومية بقسيسين اتفقا معهم على حرمان آريوس فحرموه و نفوه، و وضع الثلاثمائة و ثمانية عشر الأمانة المشهورة عندهم، و أوجبوا أن يكون الصوم متصلا بعيد الفسح على ما رتبه البطاركة فى أيام الملك أوراليانوس قيصر كما تقدّم، و منعوا أن يكون للأسقف زوجة، و كان الأساقفة قبل ذلك إذا كان مع أحدهم زوجة لا يمنع منها إذا عمل أسقفا بخلاف البطرك، فإنه لا يكون له امرأة البتة، و انصرفوا من مجلس قسطنطين بكرامة جليلة، و الإسكندروس هذا هو الذى كسر الصنم النحاس الذى كان فى هيكل زحل بالإسكندرية، و كانوا يعبدونه و يجعلون له عيدا فى ثانى عشر هتور، و يذبحون له الذبائح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۹

الكثيرة، فأراد الإسكندروس كسر هذا الصنم فمنعه أهل الإسكندرية، فاحتال عليهم و تلطف فى حيلته إلى أن قرب العيد، فجمع الناس و وعظهم و قبح عندهم عبادة الصنم و حثهم على تركه، و أن يعمل هذا العيد لميكائيل رئيس الملائكة الذى يشفع فيهم عند الإله، فإن ذلك خير من عمل العيد للصنم، فلا يتغير عمل العيد الذى جرت عادة أهل البلد بعمله، و لا تبطل ذبائحهم فيه، فرضى الناس بهذا و وافقوه على كسر الصنم، فكسره و أحرقه و عمل بيته كنيسة على اسم ميكائيل، فلم تزل هذه الكنيسة بالإسكندرية إلى أن حرّقها

جيوش الإمام المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، لما قدموا فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة و استمرّ عيد ميكائيل عند النصارى بديار مصر باقيا يعمل فى كلّ سنة.

و فى السنة الثانية و العشرين من ملك قسطنطين سارت أمّه هيلانى إلى القدس و بنت به كنائس للنصارى، فدلها مقاريوس الأسقف على الصليب و عرّفها ما عملته اليهود، فعاقبت كهنة اليهود حتى دلوها على الموضع، فحفرته فإذا قبر و ثلاث خشبات، زعموا أنهم لم يعرفوا الصليب المطلوب من الثلاث خشبات إلّا بأن وضعت كل واحدة منها على ميت قد بلى، فقام حيا عندما وضعت عليه خشبة منها، فعملوا لذلك عيدا مدّة ثلاثة أيام عرف عندهم بعيد الصليب، و من حينئذ عبد النصارى الصليب، و عملت له هيلانى غلافا من ذهب و بنت كنيسة القيامة التى تعرف اليوم بكنيسة قمامة، و أقامت مقاريوس الأسقف على بناء بقية الكنائس، و عادت إلى بلادها، فكانت مدّة ما بين ولادة المسيح و ظهور الصليب ثلاثمائة و ثمان و عشرين سنة، ثم قام فى بطركية الإسكندرية بعد اسكندروس تلميذه ايناسيوس الرسولىّ، فأقام ستا و أربعين سنة و مات بعد ما ابتلى بشدائد، و غاب عن كرسيه ثلاث مرّات، و فى أيامه جرت مناظرات طويلة مع أوسانيوس للأسقف آلت إلى ضربه و فراره، فإنه تعصب لآريوس و قال: إنه لم يقل إن المسيح خلق الأشياء، و إنما قال به خلق كل شىء لأنه كلمة اللّه التى بها خلق السماوات و الأراض، و إنما خلق اللّه تعالى جميع الأشياء بكلمته، فالأشياء به كوّنت لا أنه كوّنها، و إنما الثلاثمائة و ثمانية عشر تعدّوا عليه، و فى أيامه تنصر جماعة من اليهود و طعن بعضهم فى التوراة التى بأيدى اليهود، و أنهم نقصوا منها، و أن الصحيحة هى التى فسرها السبعون، فأمر قسطنطين اليهود بإحضارها، و عاقبهم على ذلك حتى دلوه على موضعها بمصر، فكتب بإحضارها فحملت إليه، فإذا بينها و بين توراة اليهود نقص ألف و ثلاثمائة و تسع و ستين سنة، زعموا أنهم نقصوها من مواليد من ذكر فيها لأجل المسيح، و فى أيامه بعثت هيلانى بمال عظيم إلى مدينة الرها فبنى به كنائسها العظيمة، و أمر قسطنطين بإخراج اليهود من القدس و ألزمهم بالدخول فى دين النصرانية، و من امتنع منهم قتل، فتنصر كثير منهم و امتنع أكثرهم فقتلوا، ثم امتحن من تنصر منهم بأن جمعهم يوم الفسح فى الكنيسة و أمرهم بأكل لحم الخنزير، فأبى أكثرهم أن يأكل منه، فقتل منهم فى ذلك اليوم خلائق كثيرة جدّا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۰

و لما قام قسطنطين بن قسطنطين فى الملك بعد أبيه، غلبت مقالة آريوس على القسطنطينية و أنطاكية و الإسكندرية، و صار أكثر أهل الإسكندرية و أرض مصر آريوسيين و منانيين، و استولوا على ما بها من الكنائس، و مال الملك إلى رأيهم، و حمل الناس عليه، ثم رجع عنه و زعم ابريس أسقف القدس أنه ظهر من السماء على القبر الذى بكنيسة القيامة شبه صليب من نور فى يوم عيد العنصرة، لعشرة أيام من شهر أيار فى الساعة الثالثة من النهار، حتى غلب نوره على نور الشمس، و رآه جميع أهل القدس عيانا، فأقام فوق القبر عدّة ساعات و الناس تشاهده، فآمن يومئذ من اليهود و غيرهم عدّة آلاف كثيرة. ثم لما ملك موليهانوس ابن عم قسطنطين اشتدّت نكايته للنصارى و قتل منهم خلقا كثيرا، و منعهم من النظر فى شىء من الكتب، و أخذ أوانى الكنائس و الديارات، و نصب مائدة كبيرة عليها أطعمة مما ذبحه لأصنامه، و نادى من أراد المال فليضع البخور على النار، و ليأكل من ذبائح الحنفاء، و يأخذ ما يريد من المال، فامتنع كثير من الروم و قالوا نحن نصارى، فقتل منهم خلائق و محا الصليب من أعلامه و بنوده، و فى أيامه سكن القدّيس أريانوس برّية الأردن و بنى بها الديارات، و هو أوّل من سكن برّية الأردن من النصارى. فلما ملك يوسيانوس على الروم و كان متنصرا، عاد كل من كان فرّ من الأساقفة إلى كرسيه، و كتب إلى أبناسيوس بطرك الإسكندرية أن يشرح له الأمانة المستقيمة، فجمع الأساقفة و كتبوا له أن يلزم أمانة الثلاثمائة و ثمانية عشر. فثار أهل الإسكندرية على إيناسيوس ليقتلوه، ففرّ. و أقاموا بدله لوقيوس، و كان آريوسيا، فاجتمع مع الأساقفة بعد خمسة أشهر و حرموه و نفوه، و أعادوا ايناسيوس إلى كرسيه، فأقام بطركا إلى أن مات، فخلفه بطرس ثم وثب الآريسيون عليه بعد سنتين ففرّ منهم و أعادوا لوقيوس، فأقام بطركا ثلاث سنين، و وثب عليه أعداؤه ففرّ منهم، فردّوا بطرس فى العشرين من أمشير، فأقام سنة. و قدم فى أيام واليس ملك الروم آريوس أسقف أنطاكية إلى الإسكندرية بإذن الملك، و

أخرج منها جماعة من الروم، و حبس بطرس بطركها و نصب بدله آريوس السميساطيّ، ففرّ بطرس من الحبس إلى رومية و استجار ببطركها، و كان واليس آريوسيا، فسار إلى زيارة كنيسة مارتوما بمدينة الرها و نفى أسقفها و جماعة معه إلى جزيرة رودس، و نفى سائر الأساقفة لمخالفتهم لرأيه ما عدا اثنين، و أقام في بطركية الإسكندرية طيماتاوس، فأقام سبع سنين و مات. و في أيامه كان المجمع الثاني من مجامع النصارى بقسطنطينية في سنة اثنتي عشرة و مائة لدقلطيانوس، فاجتمع مائة و خمسون أسقفا و حرموا مقدينون عدوّ روح القدس، و كلّ من قال بقوله. و سبب ذلك أنه قال أنّ روح القدس مخلوق، و حرموا معه غير واحد لعقائد شنيعة تظاهروا بها في المسيح، و زاد الأساقفة في الأمانة التي رتبها الثلاثمائة و ثمانية عشر: و نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب، قلت تعالى اللّه عما يقولون علوّا كبيرا، و حرّموا أن يزاد فيها بعد ذلك شيء أو ينقص منها شيء، و كان هذا المجمع بعد مجمع نيقية بثمان و خمسين سنة، و في

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۱

أيامه بنيت عدّة كنائس بالإسكندرية، و استتيب جماعة كثيرة من مقالة آريوس، و في أيامه أطلق للأساقفة و الرهبان أكل اللحم يوم الفسح ليخالفوا الطائفة المنانية، فإنهم كانوا يحرّمون أكل اللحم مطلقا، و ردّ الملك أغراديانوس كلّ من نفاه واليس من الأساقفة، و أمر أن يلزم كلّ واحد دينه ما خلا المنانية، ثم أقيم بكرسي الإسكندرية تاوفيلا، فأقام سبعا و عشرين سنة و مات في ثامن عشر بابه، و في أيامه ظهر الفتية أهل الكهف، و كان تاوداسيوس إذ ذاك ملكا على الروم، فبنى عليهم كنيسة و جعل لهم عيدا في كل سنة، و اشتدّ الملك تاوداسيوس على الأريسيين و ضيّق عليهم، و أمر فأخذت منهم كنائس النصارى بعد ما حكموها نحو أربعين سنة، و أسقط من جيشه من كان آريوسيا، و طرد من كان في ديوانه و خدمه منهم، و قتل من الحنفاء كثيرا، و هدم بيوت الأصنام بكلّ موضع، و في أيامه بنيت كنيسة مريم بالقدس، و في أيام الملك ارغاديوس بنى دير القصر المعروف الآن بدير البغل في جبل المقطم شرقيّ طرا خارج مدينة فسطاط مصر. ثم أقيم في بطركية الإسكندرية كرلص، فأقام اثنتين و ثلاثين سنة و مات في ثالث أبيب، و هو أوّل من أقام القومة في كنائس الإسكندرية و أرض مصر. و في أيامه كان المجمع الثالث من مجامع النصارى بسبب نسطورس بطرك قسطنطين، فإنه منع أن تكون مريم أمّ عيسى و قال: إنما ولدت مريم إنسانا اتحد بمشيئة الإله، يعني عيسى، فصار الاتحاد بالمشيئة خاصة لا بالذات، و أن إطلاق الإله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة و الكرامة، و قال: إن المسيح حلّ فيه الابن الأزليّ و إني أعبده لأنّ الإله حلّ فيه، و إنه جوهران و أقنومان و مشيئة واحدة، و قال في خطبته يوم الميلاد: أن مريم ولدت إنسانا، و أنا لا أعتقد في ابن شهرين و ثلاثة الإلهية، و لا أسجد له سجودي للإله، و كان هذا هو اعتقاد تادروس و ديوادارس الأسقفين، و كان من قولهما أن المولود من مريم هو المسيح، و المولود من الأب هو الابن الأزليّ، و أنه حلّ في المسيح فسمي ابن اللّه بالموهبة و الكرامة، و أن الاتحاد بالمشيئة و الإرادة، و أثبتوا للّه تعالى عن قولهم ولدين، أحدهما بالجوهر و الآخر بالنعمة، فلما بلغ كرلص بطرك الإسكندرية مقالة نسطورس كتب إليه يرجعه عنها فلم يرجع، فكتب إلى أكليمس بطرك رومية، و إلى يوحنا بطرك أنطاكية، و إلى يونانيوس أسقف القدس يعرّفهم بذلك، فكتبوا بأجمعهم إلى نسطورس ليرجع عن مقالته فلم يرجع، فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينة أفسس، فاجتمع بها مائتا أسقف، و لم يحضر يوحنا بطرك أنطاكية، و امتنع نسطورس من المجيء إليهم بعد ما كرّروا الإرسال في طلبه غير مرّة، فنظروا في مقالته و حرموه و نفوه، فحضر بعد ذلك يوحنا فعز عليه فصل الأمر قبل قدومه و انتصر لنسطورس و قال قد حرموه بغير حق، و تفرّقوا من أفسس على شرّ، ثم اصطلحوا و كتب المشرقيون صحيفة بأمانتهم و بحرمان نسطورس، و بعثوا بها إلى كرلص فقبلها و كتب إليهم بأن أمانته على ما كتبوا، فكان بين المجمع الثاني و بين هذا المجمع خمسون، و قيل خمس و خمسون سنة، و أما نسطورس فإنه نفي إلى صعيد مصر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۲

فنزل مدينة اخميم و أقام بها سبع سنين و مات، فدفن بها، و ظهرت مقالته فقبلها برصوما أسقف نصيبين، و دان بها نصارى أرض

فارس و العراق و الموصل و الجزيرة إلى الفرات، و عرفوا إلى اليوم بالنسطورية.

ثم قدّم تاوداسيوس ملك الروم فى الثانية من ملكه ديسقورس بطركا بالإسكندرية، فظهر فى أيامه مذهب أوطاخى، أحد القنوميين بالقسطنطينية، و زعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لأجسادنا، و أن الابن لم يأخذ من مريم شيئا، فاجتمع عليه مائة و ثلاثون أسقفا و حرموه، و اجتمع بالإسكندرية كثير من اليهود فى يوم الفسح و صلبوا صنما على مثال المسيح و عبثوا به، فثار بينهم و بين النصارى شرّ قتل فيه بين الفريقين خلق كثير، فبعث إليهم ملك الروم جيشا قتل أكثر يهود الإسكندرية، و كان المجمع الرابع من مجامع النصارى بمدينة خلقدونية، و سببه أن ديسقورس بطرك الإسكندرية قال أن المسيح جوهر من جوهرين، و قنوم من قنومين، و طبيعة من طبيعتين، و مشيئة من مشيئتين، و كان رأى مرقيانوس ملك الروم أنه جسد، و أهل مملكته أنه جوهران و طبيعتان و مشيئتان و قنوم واحد، فلما رأى الأساقفة أن هذا رأى الملك خافوه فوافقوه على رأيه ما خلا ديسقورس و ستة أساقفة، فإنهم لم يوافقوا الملك، و كتب من عداهم من الأساقفة خطوطهم بما اتفقوا عليه، فبعث ديسقورس يطلب منهم الكتاب ليكتب فيه، فلما وصل إليه كتابهم كتب فيه أمانته هو، و حرمهم و كل من يخرج عنها، فغضب الملك مرقيانوس و همّ بقتله، فأشير عليه بإحضاره و مناظرته، فأمر به فحضر و حضر ستمائة و أربعة و ثلاثون أسقفا، فأشار الأساقفة و البطاركة على ديسقورس بموافقة رأى الملك، و استمراره على رياسته، فدعا للملك، و قال لهم:

الملك لا يلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته و تدبيرها، و يدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة، فإنهم يعرفون الكتب، و لا يكون له هوى مع أحد، و يتبع الحق، فقالت بلخارية زوجة الملك مرقيانوس و كانت جالسة بإزائه، ياديسقورس قد كان فى زمان أمى إنسان قوىّ الرأس مثلك، و حرموه و نفوه عن كرسيه، تعنى يوحنا فم الذهب بطرك قسطنطينية، فقال لها قد عملت ما جرى لأمّك و كيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه إلى أن مضت إلى جسد يوحنا فم الذهب و استغفرت فعوفيت، فحنقت من قوله و لكمته فانقلع له ضرسان، و تناولته أيدى الرجال فنتفوا أكثر لحيته، و أمر الملك بحرمانه و نفيه عن كرسيه، فاجتمعوا عليه و حرموه و نفوه، و أقيم عوضه برطاوس، و من هذا المجمع افترق النصارى و صاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك، و يعقوبية على رأى ديسقورس، و ذلك فى سنة ثلاث و تسعين و مائة لدقلطيانوس، و كتب مرقيانوس إلى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل، فكان بين المجمع الثالث و بين هذا المجمع إحدى و عشرون سنة، و أما ديسقورس فإنه أخذ ضرسيه و شعر لحيته و أرسلها إلى الإسكندرية و قال: هذه ثمرة تعبى على الأمانة، فتبعه أهل إسكندرية و مصر، و توجه فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۳

نفيه فعبر على القدس و فلسطين و عرّفهم مقالته فتبعوه، و قالوا بقوله، و قدّم عدّة أساقفة يعقوبية، و مات و هو منفىّ فى رابع توت، فكانت مدّة بطركيته أربع عشرة سنة، و بقى كرسىّ المملكة بغير بطرك مدّة مملكة مرقيانوس، و قيل بل قدّم برطاوس، و قد اختلف فى تسمية اليعقوبية بهذا، فقيل إن ديسقورس كان يسمى قبل بطركية يعقوب، و أنه كان يكتب و هو منفىّ إلى أصحابه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفىّ يعقوب، و قيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب، و كان يرسله و هو منفىّ إلى أصحابه فنسبوا إليه، و قيل بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية، و كان على رأى ديسقورس، فكان ساويرس يبعث يعقوب إلى النصارى و يثبتهم على أمانة ديسقورس فنسبوا إليه، و قيل بل كان يعقوب كثير العبادة و الزهد يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البراذعىّ من أجل ذلك، و أنه كان يطوف البلاد و يردّ الناس إلى مقالة ديسقورس، فنسب من اتبع رأيه إليه و سموا يعقوبية. و يقال ليعقوب أيضا يعقوب السروجىّ.

و فى أيام مرقيانوس كان سمعان الحبيس صاحب العمود، و هو أوّل راهب سكن صومعة، و كان مقامه بمغارة فى جبل أنطاكية، و لما مات مرقيانوس وثب أهل الإسكندرية على برطاوس البطرك و قتلوه فى الكنيسة و حملوا جسده إلى الملعب الذى بناه بطليموس و أحرقوه بالنار من أجل أنه ملكىّ الاعتقاد فكانت مدّة بطركيته ست سنين، و أقاموا عوضه طيماتاوس، و كان يعقوبيا، فأقام ثلاث سنين، و قدم قائد من قسطنطينية فنفاه، و أقام عوضه ساويرس، و كان ملكيا، فأقام اثنتين و عشرين سنة و مات فى سابع مسرى. فلما ملك

زنبون بن لاون الروم، أكرم اليعقوبية و أعزهم لأنه كان يعقوبيا، و كان يحمل إلى دير يوقنا كلّ سنة ما يحتاج إليه من القمح و الزيت، و هرب ساويرس من كرسيّ الإسكندرية إلى وادى هيب، و رجع طيماتاوس من نفيه، فأقام بطركا سنتين و مات. فأقيم بعده بطرس فأقام ثمانى سنين و سبعة أشهر و ستة أيام و مات فى رابع هتور، فأقيم بعده اثناسيوس، فأقام سبع سنين و مات فى العشرين من توت، و فى أيامه احترق الملعب الذى بناه بطلميوس. و أقيم يوحنا فى بطركية الإسكندرية، و كان يعقوبيا، فأقام تسع سنين و مات فى رابع بشنس، فخلا الكرسيّ بعده سنة، ثم أقيم يوحنا الحبيس، فأقام إحدى و عشرين سنة و مات فى سابع عشرى بشنس. فأقيم بعده ديسقورس الجديد، فأقام سنتين و خمسة أشهر و مات فى سابع عشر بابه، و كتب إيليا بطرك القدس إلى نسطاس ملك الروم بأن يرجع عن مقالة اليعقوبية إلى مقالة الملكية، و بعث إليه جماعة من الرهبان بهدية سنية، فقبل هديته و أجاز الرهبان بجوائز جليلة و جهز له مالا جزيلا لعمارة الكنائس و الديارات و الصدقات، فتوجه ساويرس إلى نسطاس و عرّفه أن الحق هو اعتقاد اليعقوبية، فأمر أن يكتب إلى جميع مملكته بقبول قول ديسقورس و ترك المجمع الخلقدونيّ، فبعث إليه بطرك أنطاكية بأن هذا الذى فعلته غير واجب، و أن المجمع الخلقدونيّ هو الحق، فغضب الملك و نفاه و أقام بدله، فأمر إيليا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۴

بطرك القدس بجمع الرهبان و رؤساء الديارات، فاجتمع له منهم عشرة آلاف نفس و حرموا نسطاس الملك، و من يقول بقوله، فأمر نسطاس بنفى إيليا إلى مدينة إيلة، فاجتمع بطاركة الملكية و أساقفتهم و حرموا الملك نسطاس و من يقول بقوله، و فى أيام نسطايوس الملك ألزم الحنفاء أهل حرّان و هم الصابئة بالتنصر، فتنصر كثير منهم، و قتل أكثرهم على امتناعهم من دين النصرانية، و ردّ جميع من نفاه نسطاس من الملكية، فإنه كان ملكيا، و أقيم طيماتاوس فى بطركية الإسكندرية، و كان يعقوبيا، فأقام ثلاث سنين و نفى، و أقيم بدله أبو لينايوس و كان ملكيا، فجدّ فى رجوع النصارى بأجمعهم إلى رأى الملكية، و بذل جهده فى ذلك و ألزم نصارى مصر بقبول الأمانة المحدثة. فوافقوه و وافقه رهبان ديارات بومقار بوادى هبيب، هذا و يعقوب البراذعيّ يدور فى كلّ موضع و يثبت أصحابه على الأمانة التى زعم أنها مستقيمة، و أمر الملك جميع الأساقفة بعمل الميلاد فى خامس عشرى كانون الأوّل، و بعمل الغطاس لست تخلو من كانون الثانى، و كان كثير منهم يعمل الميلاد و الغطاس فى يوم واحد، و هو سادس كانون الثانى، و على هذا الرأى الأرمن إلى يومنا هذا، و فى هذه الأيام ظهر يوحنا النحويّ بالإسكندرية و زعم أن الأب و الابن و روح القدس ثلاثة آلهة و ثلاث طبائع و جوهر واحد، و ظهر يوليان و زعم أن جسد المسيح نزل من السماء و أنه لطيف روحانيّ لا يقبل الآلام إلّا عند مقارفة الخطيئة، و المسيح لم يقارف خطيئته، فلذلك لم يصلب حقيقة و لم يتألم و لم يمت، و إنما ذلك كله خيال، فأمر الملك البطرك طيماتاوس أن يرجع إلى مذهب الملكية فلم يفعل، فأمر بقتله. ثم شفع فيه و نفى و أقيم بدله بولص، و كان ملكيا، فأقام سنتين فلم يرضه اليعاقبة، و قيل أنهم قتلوه و صيروا عوضه بطركا ديلوس، و كان ملكيا فأقام خمس سنين فى شدّة من التعب و أرادوا قتله فهرب، و أقام فى هربه خمس سنين و مات، فبلغ ملك الروم يوسطيانوس أن اليعقوبية قد غلبوا على الإسكندرية و مصر، و أنهم لا يقبلون بطاركته، فبعث أثولينايوس أحد قوّاده و ضم إليه عسكرا كبيرا إلى الإسكندرية، فلما قدمها و دخل الكنيسة نزع عنه ثياب الجند و لبس ثياب البطاركة و قدّس، فهمّ ذلك الجمع برجمه فانصرف. و جمع عسكره و أظهر أنه قد أتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس، و ضرب الجرس فى الإسكندرية يوم الأحد، فاجتمع الناس إلى الكنيسة حتى لم يبق أحد، فطلع المنبر و قال: يا أهل الإسكندرية، إن تركتم مقالة اليعقوبية و إلّا أخاف أن يرسل الملك فيقتلكم و يستبيح أموالكم و حريمكم، فهموا برجمه، فأشار إلى الجند فوضعوا السيف فيهم، فقتل من الناس ما لا يحصى عدده، حتى خاض الجند فى الدماء، و قيل إنّ الذى قتل يومئذ مائتا ألف إنسان، و فرّ منهم خلق إلى الديارات بوادى هبيب، و أخذ الملكية كنائس اليعاقبة، و من يومئذ صار كرسيّ اليعقوبية فى دير بومقار بوادى هبيب.

و فى أيامه ثارت السامرة على أرض فلسطين و هدموا كنائس النصارى، و أحرقوا ما فيها، و قتلوا جماعة من النصارى، فبعث الملك جيشا قتلوا من السامرة خلقا كثيرا، و وضع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۵

من خراج فلسطين جملة، و جدّد بناء الكنائس و أنشأ مارستانا ببيت المقدس للمرضى، و وسع فى بناء كنيسة بيت لحم، و بنى ديرا بطور سيناء، و عمل عليه حصنا حوله عدّة قلالى و رتب فيها حرسا لحفظ الرهبان. و فى أيامه كان المجمع الخامس من مجامع النصارى، و سببه أن أريحانس أسقف مدينة منبج قال بتناسخ الأرواح، و قال كلّ من أسقف أنقرة و أسقف المصيصة و أسقف الرها أن جسد المسيح خيال لا حقيقىّ، فحملوا إلى القسطنطينية و جمع بينهم و بين بطركها أوطس و ناظرهم و أوقع عليهم الحرمان، فأمر الملك أن يجمع لهم مجمع، و أمر بإحضار البطاركة و الأساقفة، فاجتمع مائة و أربعون أسقفا و حرموا هؤلاء الأساقفة و من يقول بقولهم، فكان بين المجمع الرابع الخلقدونىّ و بين هذا المجمع مائة و ثلاث و ستون سنة. و لما مات القائد الذى عمل بطرك الإسكندرية بعد سبع عشرة سنة، أقيم بعده يوحنا، و كان منانيا، فأقام ثلاث سنين و مات، و قدّم اليعاقبة بطركا اسمه تاوداسيوس، أقام مدّة اثنتين و ثلاثين سنة، و قدّم الملكية بطركا اسمه داقيوس، فكتب الملك إلى متولى الإسكندرية أن يعرض على بطرك اليعاقبة أمانة المجمع الخلقدونىّ، فإن لم يقبلها أخرجه، فعرض عليه ذلك فلم يقبله، فأخرجه و أقام بعده بولص التنيسىّ فلم يقبله أهل الإسكندرية، و مات فغلقت كنائس القبط اليعاقبة، و أصابهم من الملكية شدائد كثيرة، و استجدّ اليعاقبة بالإسكندرية كنيستين فى سنة ثمان و أربعين و مائتين لدقلطيانوس، و مات تاوداسيوس ثامن عشرى بؤنة بعد اثنتين و ثلاثين سنة من بطركيته، منها مدة أربع سنين مدة نفيه فى صعيد مصر و أقيم بعده بطرس و كان يعقوبيا فى خفية بدير الزجاج بالإسكندرية قدّمه ثلاثة أساقفة، فأقام سنتين و مات فى خامس عشرى بؤنة ... من اليعاقبة سنة واحدة.

و فى سنة إحدى و ثمانين و ثمانمائة، أقيم داميانو بطركا بالإسكندرية، و كان يعقوبيا، فأقام ستا و ثلاثين سنة و مات، فى ثامن عشرى بؤنة، و فى أيامه خربت الديارات، و أقام الملكية لهم بالإسكندرية بطركا منانيا اسمه أتناس، فأقام خمس سنين و مات، فأقيم بعده يوحنا و كان منانيا، و لقب القائم بالحق، فأقام خمسة أشهر و مات، فأقيم بعده يوحنا القائم بالأمر، و كان ملكيا فأقام إحدى عشرة سنة و مات، و فى أيام الملك طيباريوس ملك الروم بنى النصارى بالمدائن، مدائن كسرى، هيكلا، و بنوا أيضا بمدينة واسط هيكلا آخر. و فى أيام الملك موريق قيصر، زعم راهب اسمه مارون، أن المسيح عليه السلام طبيعتان و مشيئة واحدة و اقنوم واحد، فتبعه على رأيه أهل حماه و قنسرين و العواصم و جماعة من الروم و دانوا بقوله، فعرفوا بين النصارى بالمارونية، فلما مات مارون بنوا على اسمه دير مارون بحماه.

و فى أيام فوقا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام و مصر، فخرّبوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۶

كنائس القدس و فلسطين و عامّة بلاد الشام، و قتلوا النصارى بأجمعهم، و أتوا إلى مصر فى طلبهم، فقتلوا منهم أمّة كبيرة و سبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر، و ساعدهم اليهود فى محاربة النصارى و تخريب كنائسهم، و أقبلوا نحو الفرس من طبرية و جبل الجليل و قرية الناصرة و مدينة صور و بلاد القدس، فنالوا من النصارى كلّ منال، و أعظموا النكاية فيهم، و خرّبوا لهم كنيستين بالقدس، و حرّقوا أماكنهم، و أخذوا قطعة من عود الصليب، و أسروا بطرك القدس و كثيرا من أصحابه، ثم مضى كسرى بنفسه من العراق لغزو قسطنطينية تخت ملك الروم، فحاصرها أربع عشرة سنة، و فى أيام فوقا أقيم يوحنا الرحوم بطرك الإسكندرية على الملكية، فدبر أرض مصر كلها عشر سنين و مات بقبرص، و هو فارّ من الفرس، فخلا كرسىّ اسكندرية من البطركية سبع سنين لخلوّ أرض مصر و الشام من الروم، و اختفى من بقى بها من النصارى خوفا من الفرس، و قدّم اليعاقبة نسطاسيوس بطركا، فأقام اثنتى عشرة سنة و مات فى ثانى عشرى كيهك، سنة ثلاثين و ثلاثمائة لدقلطيانوس، فاستردّ ما كانت الملكية قد استولت عليه من كنائس اليعاقبة، و رمّ ما شعثه الفرس منها، و كانت إقامته بمدينة الإسكندرية، فأرسل إليه انباسيوس بطرك أنطاكية هدية صحبة عدّة كثيرة من الأساقفة، ثم قدم عليه زائرا فتلقاه و سرّ بقدومه، و صارت أرض مصر فى أيامه جميعها يعاقبة لخلوّها من الروم، فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة

صور و راسلوا بقيتهم فى بلادهم، و تواعدوا على الإيقاع بالنصارى و قتلهم، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفا، و هدموا كنائس النصارى خارج صور، فقوى النصارى عليهم و كاثروهم، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة و قتل منهم خلق كثير، و كانه هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية و غلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام و مصر و يجدّد ما خرّبه الفرس منها، فخرج إليه اليهود من طبرية و غيرها و قدّموا له الهدايا الجليلة و طلبوا منه أن يؤمّنهم و يحلف لهم على ذلك، فأمّنهم و حلف لهم، ثم دخل القدس و قد تلقاه النصارى بالأناجيل و الصلبان و البخور و الشموع المشعلة، فوجد المدينة و كنائسها و قمامتها خرابا، فساءه ذلك و توجع له، و أعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس و إيقاعهم بالنصارى و تخريبهم الكنائس، و أنهم كانوا أشدّ نكاية لهم من الفرس، و قاموا قياما كبيرا فى قتلهم عن آخرهم، و حثوا هرقل على الوقيعة بهم، و حسنوا له ذلك، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم و حلفه، فأفتاه رهبانهم و بطاركتهم و قسيسوهم بأنه لا حرج عليه فى قتلهم، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمّنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، و أنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا و يلزموا النصارى بصوم جمعة فى كلّ سنة عنه على ممرّ الزمان و الدهور، فمال إلى قولهم و أوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر و الشام منهم إلّا من فرّ و اختفى، فكتب البطارقة و الأساقفة إلى جميع البلاد بإلزام النصارى بصوم أسبوع فى السنة، فالتزموا صومه إلى اليوم، و عرفت عندهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۷

بجمعة هرقل، و تقدّم هرقل بعمارة الكنائس و الديارات و أنفق فيها مالا كبيرا. و فى أيامه أقيم ادراسلون بطرك اليعاقبة بالإسكندرية، فأقام ست سنين و مات فى ثامن طوبه، فخربت الديارات فى مدّة بطركيته، و أقيم بعده على اليعاقبة بنيامين، فعمر الدير الذى يقال له دير أبو بشاى، و دير سيدة أبو بشاى، و هما فى وادى هبيب، فأقام تسعا و ثلاثين سنة، ملك الفرس منها مصر عشر سنين، ثم قدم هرقل فقتل الفرس بمصر و أقام فيرش بطرك الإسكندرية، و كان منانيا، و طلب بنيامين ليقتله فلم يقدر عليه لفراره منه، و كان هرقل مارونيا فظفر بمينا أخى بنيامين فأحرقه بالنار عداوة لليعاقبة، و عاد إلى القسطنطينية فأظهر اللّه دين الإسلام فى أيامه، و خرج ملك مصر و الشام من يد النصارى، و صار النصارى ذمّة للمسلمين، فكانت مدّة النصارى منذ رفع المسيح إلى أن فتحت مصر و صار النصارى من القبط ذمّة للمسلمين ... منها مدّة كونهم تحت أيدى الروم يقتلونهم أبرح قتل بالصلب و التحريق بالنار و الرجم بالحجارة و تقطيع الأعضاء ... و منها مدّة استيلائهم بتنصر الملوك.

ذكر دخول النصارى من قبط مصر فى طاعة المسلمين و أدائهم الجزية، و اتخاذهم ذمّة لهم، و ما كان فى ذلك من الحوادث و الأنباء

اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى، و هم على قسمين متباينين فى أجناسهم و عقائدهم، أحدهما أهل الدولة و كلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، و رأيهم و ديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية، و كانت عدّتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومىّ. و القسم الآخر عامّة أهل مصر، و يقال لهم القبط، و أنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطىّ من الحبشىّ من النوبىّ من الإسرائيلىّ الأصل من غيره، و كلهم يعاقبة، فمنهم كتاب المملكة و منهم التجار و الباعة، و منهم الأساقفة و القسوس و نحوهم، و منهم أهل الفلاحة و الزرع، و منهم أهل الخدمة و المهنة، و بينهم و بين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم، و يوجب قتل بعضهم بعضا، و يبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جدّا، فإنهم فى الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها و أسفلها، فلما قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين معه إلى مصر، قاتلهم الروم حماية لملكهم و دفعا لهم عن بلادهم، فقاتلهم المسلمون و غلبوهم على الحصن كما تقدّم ذكره، فطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية فصالحهم عليها و أقرّهم على ما بأيديهم من الأراضى و غيرها، و صاروا معه عونا للمسلمين على الروم، حتى هزمهم اللّه تعالى و أخرجهم من أرض مصر، و كتب عمرو لبنيامين بطرك اليعاقبة أمانا فى سنة عشرين من الهجرة، فسرّه ذلك و قدم على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۸

عمرو و جلس على كرسيّ بطركيته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة، منها فى ملك فارس لمصر عشر سنين، و باقيها بعد قدوم هرقل إلى مصر، فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر و دياراتها كلها، و انفردوا بها دون الملكية، و يذكر علماء الأخبار من النصارى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، لما فتح مدينة القدس كتب للنصارى أمانا على أنفسهم و أولادهم و نسائهم و أموالهم و جميع كنائسهم لا تهدم و لا تسكن، و أنه جلس فى وسط صحن كنيسة القمامة، فلما حان وقت الصلاة خرج و صلّى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده، ثم جلس و قال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى، و قالوا ههنا صلّى عمر، و كتب كتابا يتضمن أنه لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة إلّا واحد واحد، و لا يجتمع المسلمون بها للصلاة فيها، و لا يؤذنون عليها، و أنه أشار عليه البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجدا، و كان فوقها تراب كثير، فتناول عمر رضى اللّه عنه من التراب فى ثوبه، فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق منه شىء، و عمر المسجد الأقصى أمام الصخرة، فلما كانت أيام عبد الملك بن مروان أدخل الصخرة فى حرم الأقصى، و ذلك سنة خمس و ستين من الهجرة، ثم إن عمر رضى اللّه عنه أتى بيت لحم و صلّى فى كنيسته عند الخشبة التى ولد فيها المسيح، و كتب سجلا بأيدى النصارى أن لا يصلى فى هذا الموضع أحد من المسلمين إلّا رجل بعد رجل، و لا يجتمعوا فيه للصلاة، و لا يؤذنوا عليه، و لما مات البطرك بنيامين فى سنة تسع و ثلاثين من الهجرة بالإسكندرية فى إمارة عمرو الثانية، قدّم اليعاقبة بعده أغانو فأقام سبع عشرة سنة و مات سنة ست و خمسين، و هو الذى بنى كنيسة مرقص بالإسكندرية، فلم تزل إلى أن هدمت فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و كان فى أيامه الغلاء مدّة ثلاث سنين، و كان يهتم بالضعفاء، فأقيم بعده إيساك و كان يعقوبيا، فأقام سنتين و أحد عشر شهرا و مات، فقدّم اليعاقبة بعده سيمون السريانىّ، فأقام سبع سنين و نصفا و مات، و فى أيامه قدم رسول أهل الهند فى طلب أسقف يقيمه لهم، فامتنع من ذلك حتى يأذن له السلطان، و أقام غيره و خلا بعد موته كرسى الإسكندرية ثلاث سنين بغير بطرك، ثم قدّم اليعاقبة فى سنة إحدى و ثمانين الإسكندروس، فقام أربعا و عشرين سنة و نصفا، و قيل خمسا و عشرين سنة و مات سنة ست و مائة، و مرّت به شدائد صودر فيها مرّتين، أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار، و فى أيامه أمّر عبد العزيز بن مروان، فأمر بإحصاء الرهبان فأحصوا و أخذت منهم الجزية عن كلّ راهب دينار، و هى أوّل جزية أخذت من الرهبان.

و لما ولى مصر عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان اشتدّ على النصارى، و اقتدى به قرّة بن شريك أيضا فى ولايته على مصر، و أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها، و كان عبد اللّه بن الحبحاب متولى الخراج قد زاد على القبط قيراطا فى كلّ دينار، فانتقض عليه عامّة الحوف الشرقىّ من القبط، فحاربهم المسلمون و قتلوا منهم عدّة وافرة فى سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۹

سبع و مائة، و اشتدّ أيضا أسامة بن زيد التنوخىّ متولى الخراج على النصارى، و أوقع بهم و أخذ أموالهم، و وسم أيدى الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب و اسم ديره و تاريخه، فكل من وجده بغير و سم قطع يده، و كتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى و ليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير، ثم كبس الديارات و قبض على عدّة من الرهبان بغير وسم، فضرب أعناق بعضهم و ضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب، ثم هدمت الكنائس و كسرت الصلبان و محيت التماثيل و كسرت الأصنام بأجمعها، و كانت كثيرة فى سنة أربع و مائة، و الخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك، فلما قام هشام بن عبد الملك فى الخلافة، كتب إلى مصر بأن يجرى النصارى على عوايدهم و ما بأيديهم من العهد، فقدم حنظلة بن صفوان أميرا على مصر فى ولايته الثانية، فتشدّد على النصارى و زاد فى الخراج، و أحصى الناس و البهائم، و جعل على كلّ نصرانىّ و سما صورة أسد، و تتبعهم، فمن وجده بغير وسم قطع يده، ثم أقام اليعاقبة بعد موت الإسكندروس بطركا اسمه قسيما، فأقام خمسة عشر شهرا و مات، فقدّموا بعده تادرس فى سنة تسع و مائة بعد إحدى عشرة سنة. و فى أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحمراء ظاهر مدينة مصر، فى سنة سبع عشرة و مائة، فقام جماعة من المسلمين على الوليد بن رفاعة أمير مصر بسببها.

و فی سنهٔ عشرین و مائهٔ قدّم الیعاقبهٔ میخائیل بطرکا، فأقام ثلاثا و عشرین سنهٔ و مات.

و فی أیامه انتقض القبط بالصعید و حاربوا العمال فی سنهٔ إحدی و عشرین، فحوربوا و قتل کثیر منهم، ثم خرج بجنس بسمنود و حارب و قتل فی الحرب، و قتل معه قبط کثیر فی سنهٔ اثنتین و ثلاثین و مات، ثم خالفت القبط برشید، فبعث إلیهم مروان بن محمد لما قدم مصر و هزمهم و قبض عبد الملک بن موسی بن نصیر أمیر مصر علی البطرک میخائیل، فاعتقله و ألزمه بمال، فسار بأساقفته فی أعمال مصر یسأل أهلها، فوجدهم فی شدائد، فعاد إلی الفسطاط و دفع إلی عبد الملک ما حصل له، فأفرج عنه، فنزل به بلاء کبیر من مروان، و بطش به و بالنصاری، و أحرق مصر و غلاتها و أسر عدّهٔ من النساء المترهبات ببعض الدیارات، و راود واحدهٔ منهنّ عن نفسها، فاحتالت علیه و دفعته عنها بأن رغبته فی دهن معها إذا ادّهن به الإنسان لا یعمل فیه السلاح، و أوثقته بأن مکنته من التجربهٔ فی نفسها، فتمت حیلتها علیه، و أخرجت زیتا ادّهنت به، ثم مدّت عنقها فضربها بسیفه أطار رأسها، فعلم أنها اختارت الموت علی الزنا، و ما زال البطرک و النصاری فی الحدید مع مروان إلی أن قتل ببوصیر، فأفرج عنهم. و أما الملکیهٔ فإن ملک الروم لاون أقام قسیما بطرک الملکیهٔ بالإسکندریهٔ فی سنهٔ سبع و مائهٔ، فمضی و معه هدیهٔ إلی هشام بن عبد الملک، فکتب له بردّ کنائس الملکیهٔ إلیهم، فأخذ من الیعاقبهٔ کنیسهٔ البشارهٔ، و کان الملکیهٔ أقاموا سبعا و سبعین سنهٔ بغیر بطرک فی مصر، من عهد عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه إلی خلافهٔ هشام بن عبد الملک، فغلب الیعاقبهٔ فی هذه المدّهٔ علی جمیع کنائس مصر و أقاموا بها منهم أساقفهٔ،

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۴، ص: ۴۱۰

و بعث إلیهم أهل بلاد النوبهٔ فی طلب أساقفهٔ، فبعثوا إلیهم من أساقفهٔ الیعاقبهٔ، فصارت النوبهٔ من ذلک العهد یعاقبهٔ.

ثم لما مات میخائیل قدّم الیعاقبهٔ فی سنهٔ ست و أربعین و مائهٔ انبامسنا، فأقام سبع سنین و مات. و فی أیامه خرج القبط بناحیهٔ سخا و أخرجوا العمال فی سنهٔ خمسین و مائهٔ و صاروا فی جمع، فبعث إلیهم یزید بن حاتم بن قبیصهٔ أمیر مصر عسکرا، فأتاهم القبط لیلا و قتلوا عدّهٔ من المسلمین و هزموا باقیهم، فاشتدّ البلاء علی النصاری و احتاجوا إلی أکل الجیف، و هدمت الکنائس المحدثهٔ بمصر، فهدمت کنیسهٔ مریم المجاورهٔ لأبی شنودهٔ بمصر، و هدمت کنائس محارس قسطنطین، فبذل النصاری لسلیمان بن علیّ أمیر مصر فی ترکها خمسین ألف دینار، فأبی، فلما ولی بعده موسی بن عیسی أذن لهم فی بنائها فبنیت کلها بمشورهٔ اللیث بن سعد، و عبد اللّه بن لهیعهٔ قاضی مصر، و احتجا بأنّ بناءها من عمارهٔ البلاد، و بأن الکنائس التی بمصر لم تبن إلّا فی الإسلام فی زمن الصحابهٔ و التابعین، فلما مات انبامسنا قدّم الیعاقبهٔ بعده یوحنا، فأقام ثلاثا و عشرین سنهٔ و مات. و فی أیامه خرج القبط ببلهیت سنهٔ ست و خمسین فبعث إلیهم موسی بن علیّ أمیر مصر و هزمهم، و قدّم بعده الیعاقبهٔ مرقص الجدید، فأقام عشرین سنهٔ و سبعین یوما و مات. و فی أیامه کانت الفتنهٔ بین الأمین و المأمون، فانتهبت النصاری بالإسکندریهٔ و أحرقت لهم مواضع عدیدهٔ، و أحرقت دیارات وادی هبیب و نهبت، فلم یبق بها من رهبانها إلّا نفر قلیل. و فی أیامه مضی بطرک الملکیهٔ إلی بغداد و عالج بعض خطایا أهل الخلیفهٔ، فإنه کان حاذقا بالطب، فلما عوفیت کتب له بردّ کنائس الملکیهٔ التی تغلب علیها الیعاقبهٔ بمصر، فاستردّها منهم، و أقام فی بطرکیهٔ الملکیهٔ أربعین سنهٔ و مات، ثم قدّم الیعاقبهٔ بعد مرقص یعقوب فی سنهٔ إحدی عشرهٔ و مائتین، فأقام عشر سنین و ثمانیهٔ أشهر و مات. و فی أیامه عمرت الدیارات و عاد الرهبان إلیها، و عمرت کنیسهٔ بالقدس لمن یرد من نصاری مصر، و قدم علیه دیونوسیس بطرک أنطاکیهٔ، فأکرمه حتی عاد إلی کرسیه، و فی أیامه انتقض القبط فی سنهٔ ست عشرهٔ و مائتین، فأوقع بهم الأفشین حتی نزلوا علی حکم أمیر المؤمنین عبد اللّه المأمون، فحکم فیهم بقتل الرجال و بیع النساء و الذریهٔ فبیعوا، و سبی أکثرهم، و من حینئذ ذلت القبط فی جمیع أرض مصر، و لم یقدر أحد منهم بعد ذلک علی الخروج علی السلطان، و غلبهم المسلمون علی عامّهٔ القری، فرجعوا من المحاربهٔ إلی المکایدهٔ و استعمال المکر و الحیلهٔ و مکایدهٔ المسلمین، و عملوا کتاب الخراج، فکانت لهم و للمسلمین أخبار کثیرهٔ یأتی ذکرها إن شاء اللّه تعالی.

ثم قدّم الیعاقبهٔ سیماون بطرکا فی سنهٔ اثنتین و عشرین و مائتین، فأقام سنهٔ و مات، و قیل بل أقام سبعهٔ أشهر و ستهٔ عشر یوما، فخلا کرسیّ البطارکهٔ بعده سنهٔ و سبعهٔ و عشرین یوما، و قدّم الیعاقبهٔ یوساب فی دیر بومقار بوادی هبیب فی سنهٔ سبع و عشرین و مائتین،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۱

فأقام ثمانى عشرة سنة و مات. و فى أيامه قدم مصر يعقوب مطران الحبشة و قد نفته زوجة ملكهم. و أقامت عوضه أسقفا، فبعث ملك الحبشة يطلب إعادته من البطرك، فبعث به إليه و بعث أيضا عدّة أساقفة إلى إفريقية. و فى أيامه مات بطرك أنطاكية الوارد إلى مصر فى السنة الخامسة عشرة من بطركيته. و فى أيامه أمر المتوكل على اللّه فى سنة خمس و ثلاثين و مائتين أهل الذمّة بلبس الطيالسة العسلية و شدّ الزنانير و ركوب السروج بالركب الخشب، و عمل كرتين فى مؤخر السرج، و عمل رقعتين على لباس رجالهم تخالفان لون الثوب، قدر كلّ واحدة منهما أربع أصابع، و لون كلّ واحدة منهما غير لون الأخرى، و من خرج من نسائهم تلبس إزارا عسليا، و منعهم من لباس المناطق، و أمر بهدم بيعهم المحدثة، و بأخذ العشر من منازلهم، و أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب، و نهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان، و لا يعلمهم مسلم، و نهى أن يظهروا فى شعانينهم صليبا، و أن لا يشعلوا فى الطريق نارا، و أمر بتسوية قبورهم مع الأرض، و كتب بذلك إلى الآفاق، ثم أمر فى سنة تسع و ثلاثين أهل الذمّة بلبس دراعتين عسليتين على الذراريع و الأقبية، و بالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال و الحمير دون الخيل و البراذين. فلما مات يوساب فى سنة اثنتين و أربعين و مائتين خلا الكرسىّ بعده ثلاثين يوما، و قدّم اليعاقبة قسيسا بدير بحنس يدعى بميكائيل فى البطركية، فأقام سنة و خمسة أشهر و مات، فدفن بدير بومقار، و هو أوّل بطرك دفن فيه، فخلا الكرسىّ بعده أحدا و ثمانين يوما، ثم قدّم اليعاقبة فى سنة أربع و أربعين و مائتين شماسا بدير بومقار اسمه قسيما، فأقام فى البطركية سبع سنين و خمسة أشهر و مات، فخلا الكرسىّ بعده أحدا و خمسين يوما. و فى أيامه أمر نوفيل بن ميخائيل ملك الروم بمحو الصور من الكنائس، و أن لا تبقى صورة فى كنيسة، و كان سبب ذلك أنه بلغه عن قيم كنيسة أنه عمل فى صورة مريم عليها السلام شبه ثدى يخرج منه لبن ينقط فى يوم عيدها، فكشف عن ذلك فإذا هو مصنوع ليأخذ به القيم المال، فضرب عنقه و أبطل الصور من الكنائس، فبعث إليه قسيما بطرك اليعاقبة و ناظره حتى سمح بإعادة الصور على ما كانت عليه، ثم قدّم اليعاقبة ساتير بطركا، فأقام تسع عشرة سنة و مات، فأقيم يوسانيوس فى أوّل خلافة المعتز، فأقام إحدى عشرة سنة و مات، و عمل فى بطركيته مجارى تحت الأرض بالإسكندرية يجرى بها الماء من الخليج إلى البيوت.

و فى أيامه قدم أحمد بن طولون مصر أميرا عليها، ثم قدّم اليعاقبة ميخائيل فأقام خمسا و عشرين سنة و مات بعد ما ألزمه أحمد بن طولون بحمل عشرين ألف دينار، باع فيها رباع الكنائس الموقوفة عليها، و أرض الحبش ظاهر فسطاط مصر، و باع الكنيسة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود، و قرّر الديارية على كلّ نصرانىّ قيراطا فى السنة، فقام بنصف المقرّر عليه. و فى أيامه قتل الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، فلما مات شغر كرسىّ الإسكندرية بعده من البطاركة أربع عشرة سنة، و فى يوم الاثنين ثالث شوّال سنة ثلاثمائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۲

أحرقت الكنيسة الكبرى المعروفة بالقيامة فى الإسكندرية، و هى التى كانت هيكل زحل، و كانت من بناء كلابطرة. و فى سنة إحدى و ثلاثمائة قدّم اليعاقبة غبريال بطركا، فأقام إحدى عشرة سنة و مات، و أخذت فى أيامه الديارية على الرجال و النساء، و قدّم بعده اليعاقبة فى سنة إحدى عشرة و ثلاثمائة قسيما فأقام اثنتى عشرة سنة و مات. و فى يوم السبت النصف من شهر رجب سنة اثنتى عشرة و ثلاثمائة أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق، و نهبوا ما فيها من الآلات و الأوانى و قيمتها كثيرة جدّا، و نهبوا ديرا للنساء بجوارها، و شعثوا كنائس النسطورية و اليعقوبية. و فى سنة ثلاث عشرة و ثلاثمائة قدم الوزير علىّ بن عيسى بن الجرّاح إلى مصر، فكشف البلد و ألزم الأساقفة و الرهبان و ضعفاء النصارى بأداء الجزية، فأدّوها، و مضى طائفة منهم إلى بغداد و استغاثوا بالمقتدر بالله، فكتب إلى مصر بأن لا يؤخذ من الأساقفة و الرهبان و الضعفاء جزية، و أن يجروا على العهد الذى بأيديهم. و فى سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة قدّم اليعاقبة بطركا اسمه ... فأقام عشرين سنة و مات، و فى أيامه ثار المسلمون بالقدس سنة خمس و عشرين و ثلاثمائة و حرّقوا كنيسة القيامة و نهبوها و خرّبوا منها ما قدروا عليه. و فى يوم الاثنين آخر شهر رجب سنة ثمان و عشرين و ثلاثمائة مات سعيد بن بطريق

بطرك الإسكندرية على الملكية بعد ما أقام فى البطركية سبع سنين و نصفا فى شرور متصلة مع طائفته، فبعث الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد أبا الحسين من قوّاده فى طائفة من الجند إلى مدينة تنيس، حتى ختم على كنائس الملكية و أحضر آلاتها إلى الفسطاط، و كانت كثيرة جدّا فافتكها الأسقف بخمسة آلاف دينار باعوا فيها من وقف الكنائس، ثم صالح طائفته و كان فاضلا و له تاريخ مفيد، و ثار المسلمون أيضا بمدينة عسقلان و هدموا كنيسة مريم الخضراء، و نهبوا ما فيها، و أعانهم اليهود حتى أحرقوها، ففرّ أسقف عسقلان إلى الرملة و أقام بها حتى مات، و قدّم اليعاقبة فى سنة خمس و أربعين و ثلاثمائة تاوفانيوس بطركا، فأقام أربع سنين و ستة أشهر و مات، فأقيم بعده مينا، فأقام إحدى عشرة سنة و مات، فخلا الكرسىّ بعده سنة، ثم قدّم اليعاقبة افراهام بعده مينا، فأقام ست و ستين و ثلاثمائة فأقام ثلاث سنين و ستة أشهر و مات مسموما من بعض كتاب النصارى، و سببه أنه منعه من التسرّى، فخلا الكرسى بعده ستة أشهر، و أقيم فيلاياوس فى سنة تسع و ستين، فأقام أربعا و عشرين سنة و مات، و كان مترفا. و فى أيامه أخذت الملكية كنيسة السيدة المعروفة بكنيسة البطرك، تسلمها منهم بطرك الملكية أرسانيوس فى أيام العزيز بالله نزار بن المعز، و فى سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة قدّم اليعاقبة زخريس بطركا، فأقام ثمانى و عشرين سنة، منها فى البلايا مع الحاكم بأمر اللّه أبى علىّ منصور بن العزيز بالله تسع سنين، اعتقله فيها ثلاثة أشهر، و أمر به فألقى للسباع هو و سوسنة النوبىّ، فلم تضرّه، فيما زعم النصارى. و لما مات خلا الكرسىّ بعده أربعة و سبعين يوما، و فى بطركيته نزل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۳

بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها، و ذلك أن كثيرا منهم كان قد تمكن فى أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء و تعاظموا لاتساع أحوالهم و كثرة أموالهم، فاشتدّ بأسهم و تزايد ضررهم و مكايدتهم للمسلمين، فأغضب الحاكم بأمر اللّه ذلك، و كان لا يملك نفسه إذا غضب، فقبض على عيسى بن نسطورس النصرانىّ، و هو إذ ذاك فى رتبة تضاهى رتب الوزراء و ضرب عنقه، ثم قبض على فهد بن إبراهيم النصرانىّ كاتب الأستاذ برجوان و ضرب عنقه، و تشدّد على النصارى و ألزمهم بلبس ثياب الغيار، و شدّ الزنار فى أوساطهم و منعهم من عمل الشعانين و عيد الصليب و التظاهر بما كانت عادتهم فعله فى أعيادهم من الاجتماع و اللهو، و قبض على جميع ما هو محبس على الكنائس و الديارات و أدخله فى الديوان، و كتب إلى أعماله كلها بذلك، و أحرق عدّة صلبان كثيرة، و منع النصارى من شراء العبيد و الإماء، و هدم الكنائس التى بخط راشدة ظاهر مدينة مصر، و أخرب كنائس المقس خارج القاهرة، و أباح ما فيها للناس، فانتهبوا منها ما يجل وصفه، و هدم دير القصير و انهب العامة ما فيه، و منع النصارى من عمل الغطاس على شاطىء النيل بمصر، و أبطل ما كان يعمل فيه من الاجتماع للهو، و ألزم رجال النصارى بتعليق الصلبان الخشب التى زنة كل صليب منها خمسة أرطال فى أعناقهم، و منعهم من ركوب الخيل، و جعل لهم أن يركبوا البغال و الحمير بسروج و لجم غير محلاة بالذهب و الفضة، بل تكون من جلود سود، و ضرب بالحرس فى القاهرة و مصر أن لا يركب أحد من المكارية ذمّيا، و لا يحمل نوتىّ مسلم أحدا من أهل الذمة، و أن تكون ثياب النصارى و عمائهم شديدة السواد، و ركب سروجهم من خشب الجميز، و أن يعلق اليهود فى أعناقهم خشبا مدوّرا زنة الخشبة منها خمسة أرطال، و هى ظاهرة فوق ثيابهم، و أخذ فى هدم الكنائس كلها و أباح ما فيها، و ما هو محبس عليها للناس نهبا و إقطاعا، فهدمت بأسرها و نهب جميع أمتعتها و أقطع أحباسها، و بنى فى مواضعها المساجد، و أذن بالصلاة فى كنيسة شنودة بمصر، و أحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع، و أكثر الناس من رفع القصص بطلب كنائس أعمال مصر و دياراتها، فلم يردّ قصة منها إلّا و قد وقع عليها بإجابة رافعها لما سأل، فأخذوا أمتعة الكنائس و الديارات و باعوا بأسواق مصر ما وجدوا من أوانى الذهب و الفضة و غير ذلك، و تصرّفوا فى أحباسها، و وجد بكنيسة شنودة مال جليل، و وجد فى المعلقة من المصاغ و ثياب الديباج أمر كثير جدّا إلى الغاية، و كتب إلى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس و الديارات فعمّ الهدم فيها من سنة ثلاث و أربعمائة حتى ذكر من يوثق به فى ذلك أن الذى هدم إلى آخر سنة خمس و أربعمائة بمصر و الشام و أعمالهما من الهياكل التى بناها الروم نيف و ثلاثون ألف بيعة، و نهب ما فيها من آلات الذهب و الفضة، و قبض على أوقافها، و كانت أوقافا جليلة على مبان عجيبة، و ألزم

النصارى أن تكون الصلبان فى أعناقهم إذا دخلوا الحمام، و ألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم الأجراس إذا دخلوا الحمام، ثم ألزم اليهود و النصارى بخروجهم كلهم من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۴

أرض مصر إلى بلاد الروم، فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة و استغاثوا و لاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفى، و فى هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى.

و فى سنة سبع و أربعمائة و ثب بعض أكابر البلغر على ملكهم قمطورس فقتله و ملك عوضه، و كتب إلى باسيل ملك قسطنطينية بطاعته فأقرّه، ثم قتل بعد سنة فسار الملك باسيل إليهم فى شوّال سنة ثمان و أربعمائة و استولى على مملكة البلغر و أقام فى قلاعها عدّة من الروم، و عاد إلى قسطنطينية فاختلط الروم بالبغر و نكحوا منهم و صاروا يدا واحدة بعد شدّة العداوة، و قدّم اليعاقبة عليهم سابونين بطركا بالإسكندرية فى سنة إحدى و عشرين و أربعمائة، فى يوم الأحد ثالث عشرى برمهات، فأقام خمس عشرة سنة و نصفا و مات فى طوبه، و كان محبا للمال، و أخذ الشرطونية فخلا الكرسىّ بعده سنة و خمسة أشهر، ثم قدّم اليعاقبة أخر سطوديس بطركا فى سنة تسع و ثلاثين و أربعمائة، فأقام ثلاثين سنة و مات بالمعلقة من مصر، و هو الذى جعل كنيسة بومرقوره بمصر، و كنيسة السيدة بحارة الروم من القاهرة فى أيام بطركيته، فلم يقم بعده بطرك اثنين و سبعين يوما، ثم أقام اليعاقبة كيرلص، فأقام أربع عشرة سنة و ثلاثة أشهر و نصفا و مات بكنيسة المختار من جزيرة مصر المعروفة بالروضة، فى سلخ ربيع الآخر سنة خمس و ثمانين و أربعمائة، و عمل بدلة للبطاركة من ديباج أزرق و بلارية ديباج أحمر بتصاوير ذهب، و قطع الشرطونية فلم يول بعده بطرك مدّة مائة و أربعة و عشرين يوما، ثم أقيم ميخائيل الحبيس بسنجار فى سنة اثنتين و ثمانين و أربعمائة، فأقام تسع و سنين و ثمانية أشهر و مات فى المعلقة بمصر، و كان المستنصر بالله لما نقص نيل مصر بعثه إلى بلاد الحبشة بهدية سنية، فتلقاه ملكها و سأله عن سبب قدومه، فعرّفه نقص النيل و ضرر أهل مصر بسبب ذلك، فأمر بفتح سدّ يجرى منه الماء إلى أرض مصر، ففتح و زاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع، و استمرّت الزيادة حتى رويت البلاد و زرعت، ثم عاد البطرك فخلع عليه المستنصر و أحسن إليه.

و فى سنة اثنتين و تسعين و أربعمائة قدّم اليعاقبة مقارى بطركا بدير بومقار، و كمل بالإسكندرية و عاد إلى مصر، ثم مضى إلى دير بومقار فقدّس به ثم جاء إلى مصر فقدّس بالمعلقة، فأقام ستا و عشرين سنة و أحدا و أربعين يوما و مات. فخلت مصر من بطرك اليعاقبة سنتين و شهرين، و فى أيامه حدثت زلزلة عظيمة بمصر هدم فيها كنيسة المختار بالروضة، و اتهم الأفضل بن أمير الجيوش بهدمها، فإنها كانت فى بستانه. و فى أيامه أبطل عوايد كثيرة للنصارى، فبطلت بعده. ثم قدّم اليعاقبة غيريال المكنى بأبى العلا صاعد بن تربك الشماس بكنيسة مرقوريوس فى سنة خمس و عشرين و خمسمائة بالمعلقة، و كمل بالإسكندرية و قدّس بالأديرة بوادى هبيب، و أقام أربع عشرة سنة و مات، فخلا بعده كرسىّ اليعاقبة ثلاثة أشهر.

ثم قدّم اليعاقبة ميخائيل بن التقدوسىّ الراهب بقلاية دمشرى بطركا، فأقام مدّة سنة و سبعين يوما، ثم أقيم يونس أبو الفتح بطركا بالمعلقة، و كمل بالإسكندرية، فأقام تسع عشرة سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۵

و مات، فى سابع عشرى جمادى الآخرة، سنة إحدى و خمسين و خمسمائة، فخلا الكرسىّ بعده ثلاثة و أربعين يوما، و قدم مرقص بن زرعة المكنى بأبى الفرج بطرك اليعاقبة بمصر، و كمل بالإسكندرية، فأقام اثنتين و عشرين سنة و ستة أشهر و خمسة و عشرين يوما و مات، و فى أيامه انتقل مرقص بن قنبر و جماعة من القنابرة إلى رأى الملكية، ثم عاد إلى اليعقوبية، فقبل. ثم عاد إلى الملكية و رجع فلم يقبل، و كان هذا البطرك له همة و مروءة. و فى أيامه كان حريق شاور الوزير لمصر، فى ثامن عشر هتور، فاحترقت كنيسة بومرقورة، و خلا بعده كرسىّ البطاركة سبعة و عشرين يوما، ثم قدّم اليعاقبة يونس بن أبى غالب بطركا فى يوم الأحد عاشر ذى الحجة سنة أربع و ثمانين و خمسمائة، و كمل بالإسكندرية، فأقام ستا و عشرين سنة و أحد عشر شهرا و ثلاثة عشر يوما، و مات يوم الخميس

رابع عشر شهر رمضان سنة اثنتى عشرة و ستمائة بالمعلقة بمصر، و دفن بالحبش، و كان فى ابتداء أمره تاجرا يتردّد إلى اليمن فى البحر حتى كثر ماله، و كان معه مال لأولاد الخباب فاتفق أنه غرق فى بحر الملح، و ذهب ماله و نجا بنفسه إلى القاهرة، و قد آيس أولاد الخباب من مالهم، فلما لقيهم أعلمهم أن مالهم قد سلّم، فإنه كان قد عمله فى نقائر خشب مسمرة فى المركب، فصار لهم به عناية، فلما مات مرقص بن زرعة سعى يونس هذا للقس أبى ياسر فقال له أولاد الخباب: خذ أنت البطركية و نحن نزكيك، فوافقهم و أقيم بطركا، فشق ذلك على أبى ياسر و هجره بعد صحبة طويلة، و كان معه لما استقرّ فى البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية، أنفقها على الفقراء، و أبطل الديارية و منع الشرطونية، و لم يأكل لأحد من النصارى خبزا و لا قبل من أحد هدية.

فلما مات قام أبو الفتوح نشو الخليفة بن الميقاط كاتب الجيش مع السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومىّ، فإنه كان خصيصا به، فأجابه و كتب توقيعه من غير أن يعلم الملك الكامل محمد ابن السلطان، فشق ذلك على النصارى، و قام منهم الأسعد بن صدقة كاتب دار التفاح بمصر و معه جماعة، و توجهوا سحرا و معهم الشموع إلى تحت قلعة الجبل حيث كان سكن الملك الكامل و استغاثوا به، و وقعوا فى القس و قالوا لا يصلح، و فى شريعتنا أنه لا يقدّم البطرك إلا باتفاق الجمهور عليه، فبعث الملك الكامل يطيب خواطرهم، و كان القس قد ركب بكرة و معه الأساقفة و عالم كثير من النصارى ليقدّموه بالمعلقة بمصر، و ذلك يوم الأحد، فركب الملك الكامل بشجو كبير من القلعة إلى أبيه بدار الوزارة من القاهرة حيث سكنه، و أوقف ولاية القس، فبعث السلطان فى طلب الأساقفة ليتحقق الأمر منهم، فوافقهم الرسل مع القس فى الطريق فأخذوهم، و دخل القس إلى كنيسة بوجرج التى بالحمراء و بطلت بطركيته، و أقامت مصر بغير بطرك تسع عشرة سنة و مائة و ستين يوما. ثم قدّم هذا القس بطركا فى يوم الأحد تاسع عشرى شهر رمضان سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة، فأقام سبع سنين و تسعة أشهر و عشرة أيام و مات يوم الثلاثاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۶

سابع عشر شهر رمضان سنة أربعين و ستمائة، و دفن بدير الشمع بالجيزة، و كان عالما بدينه محبا للرياسة، و أخذ الشرطونية فى بطركيته، و كانت الديارات بأرض مصر قد خلت من الأساقفة، فقدم جماعة أساقفة كثيرة بمال كثير أخذه منهم و قاسى شدائد، و رافعه الراهب عماد المرشال و وكل عليه و على أقاربه و ألزامه، و ساعده الراهب السنى بن الثعبان، و أشاع مثالبه و قال لا يصح له كونية لأنه يقدّم بالرشوة، و أخذ الشرطونية و جمع عليه طائفة كثيرة، و عقد مجلسا عند الصاحب معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، و أثبت على البطرك قوادح، فقام الكتاب النصارى فى أمره مع الصاحب بمال يحمله إلى السلطان حتى استمر على بطركيته، و خلا كرسىّ البطاركة بعده سبع سنين و ستة أشهر و ستة و عشرين يوما.

ثم قدّم اليعاقبة ابناسيوس ابن القس أبى المكارم بن كليل بالمعلقة فى يوم الأحد رابع شهر رجب سنة ثمان و أربعين و ستمائة، و كمل بالإسكندرية، فأقام إحدى عشرة سنة و خمسة و خمسين يوما، و مات يوم الأحد ثالث المحرّم سنة ستين و ستمائة، فخلت مصر من البطركية خمسة و ثمانين يوما. و فى أيامه أخذ الوزير الأسعد شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزى الجوالى من النصارى مضاعفة، و فى أيامه ثارت عوامّ دمشق و خربت كنيسة مريم بدمشق بعد إحراقها و نهب ما فيها، و قتل جماعة من النصارى بدمشق، و نهب دورهم، و خرابها فى سنة ثمان و خمسين و ستمائة بعد وقعة عين جالوت و هزيمة المغل. فلما دخل السلطان الملك المظفر قطز إلى دمشق قرّر على النصارى بها مائة ألف و خمسين ألف درهم، جمعوها من بينهم و حملوها إليه بسفارة الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب، أتابك العسكر.

و فى سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة كانت واقعة النصارى، و من خبرها أن الأمير سنجر الشجاعىّ كانت حرمته وافرة فى أيام الملك المنصور قلاون، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير فى أوساطهم، و لا يجسر نصرانىّ يحدّث مسلما و هو راكب، و إذا مشى فبذلة، و لا يقدر أحد منهم يلبس ثوبا مصقولا، فلما مات الملك المنصور و تسلطن من بعده ابنه الملك الأشرف خليل، خدم الكتاب النصارى عند الأمراء الخاصكية و قوّوا نفوسهم على المسلمين، و ترفعوا فى ملابسهم و هيآتهم، و كان منهم كاتب عند خاصكىّ

يعرف بعين الغزال، فصدف يوما فى طريق مصر سمسار شونة مخدومه، فنزل السمسار عن دابته و قبّل رجل الكاتب، فأخذ يسبه و يهدّده على مال قد تأخر عليه من ثمن غلة الأمير، و هو يترفق له و يعتذر، فلا يزيده ذلك عليه إلّا غلظة، و أمر غلامه فنزل و كتف السمسار و مضى به و الناس تجتمع عليه حتى صار إلى صليبة جامع أحمد بن طولون، و معه عالم كبير، و ما منهم إلّا من يسأله أن يخلى عن السمسار و هو يمتنع عليهم، فتكاثروا عليه و ألقوه عن حماره و أطلقوا السمسار، و كان قد قرب من بيت أستاذه، فبعث غلامه لينجده بمن فيه، فأتاه بطائفة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۷

غلمان الأمير و أوجاقيته فخلصوه من الناس و شرعوا فى القبض عليهم ليفتكوا بهم، فصاحوا عليهم ما يحل و مرّوا مسرعين إلى أن وقفوا تحت القلعة، و استغاثوا نصر اللّه السلطان، فأرسل يكشف الخبر فعرّفوه ما كان من استطالة الكاتب النصرانىّ على السمسار، و ما جرى لهم، فطلب عين الغزال و رسم للعامّة بإحضار النصارى إليه، و طلب الأمير بدر الدين بيدرا النائب، و الأمير سنجر الشجاعىّ، و تقدّم إليهما بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم، فما زالا به حتى استقرّ الحال على أن ينادى فى القاهرة و مصر، أن لا يخدم أحد من النصارى و اليهود عند الأمير، و أمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام، فمن امتنع من الإسلام ضربت عنقه، و من أسلم استخدموه عندهم، و رسم للنائب بعرض جميع مباشرى ديوان السلطان و يفعل فيهم ذلك، فنزل الطلب لهم و قد اختفوا، فصارت العامّة تسبق إلى بيوتهم و تنهبها، حتى عمّ النهب بيوت النصارى و اليهود بأجمعهم، و أخرجوا نساءهم مسبيات، و قتلوا جماعة بأيديهم، فقام الأمير بيدرا النائب مع السلطان فى أمر العامّة، و تلطف به حتى ركب و إلى القاهرة و نادى من نهب بيت نصرانىّ شنق، و قبض على طائفة من العامّة و شهرهم بعد ما ضربهم، فانكفوا عن النهب بعد ما نبهوا كنيسة المعلقة بمصر و قتلوا منها جماعة، ثم جمع النائب كثيرا من النصارى كتاب السلطان و الأمراء و أوقفهم بين يدى السلطان عن بعد منه، فرسم للشجاعىّ و أمير جاندار أن يأخذا عدّة معهما و ينزلوا إلى سوق الخيل تحت القلعة، و يحفروا حفيرة كبيرة و يلقوا فيها الكتاب الحاضرين، و يضرموا عليهم الحطب نارا، فتقدّم الأمير بيدرا و شفع فيهم فأبى أن يقبل شفاعته و قال: ما أريد فى دولتى ديوانا نصرانيا، فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقرّ فى خدمته، و من امتنع ضربت عنقه، فأخرجهم إلى دار النيابة و قال لهم: يا جماعة ما وصلت قدرتى مع السلطان فى أمركم إلّا على شرط، و هو أن من اختار دينه قتل، و من اختار الإسلام خلع عليه و باشر، فابتدره المكين بن السقاعىّ أحد المستوفين و قال: يا خوند و أينا قوّاد يختار القتل على هذا الدين الخراء، و اللّه دين نقتل و نموت عليه يروح، لا كتب اللّه عليه سلامة، قولوا لنا الذى تختاروه حتى نروح إليه، فغلب بيدرا الضحك و قال له: ويلك، أ نحن نختار غير دين الإسلام؟ فقال يا خوند: ما نعرف، قولوا و نحن نتبعكم، فأحضر العدول و استسلمهم، و كتب بذلك شهادات عليهم، و دخل بها على السلطان فألبسهم تشاريف و خرجوا إلى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس، فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعىّ و ناوله ورقة ليكتب عليها و قال: يا مولانا القاضى اكتب على هذه الورقة. فقال: يا بنىّ ما كان لنا هذا القضاء فى خلد، فلم يزالوا فى مجلس الوزير إلى العصر، فجاءهم الحاجب و أخذهم إلى مجلس النائب و قد جمع به القضاة فجدّدوا إسلامهم بحضرتهم، فصار الذليل منهم بإظهار الإسلام عزيزا، يبدى من إذلال المسلمين و التسلط عليهم بالظلم ما كان يمنعه نصرانيته من إظهاره، و ما هو إلا كما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۸

كتب به بعضهم إلى الأمير بيدرا النائب:

أسلم الكافرون بالسيف قهراو إذا ما خلوا فهم مجرمونا

سلموا من رواح مال و روحفهم سالمون لا مسلمونا

و فى أخريات شهر رجب سنة سبعماءة قدم وزير متملك المغرب إلى القاهرة حاجا، و صار يركب إلى الموكب السلطانىّ و بيوت

الأمراء، فبينما هو ذات يوم بسوق الخيل تحت القلعة، إذا هو برجل راكب على فرس و عليه عمامة بيضاء و فرجية مصقولة، و جماعة يمشون فى ركابه و هم يسألونه و يتضرّعون إليه و يقبلون رجليه، و هو معرض عنهم و ينهرهم و يصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه. فقال له بعضهم يا مولاى الشيخ بحياة ولدك النشو تنظر فى حالنا، فلم يزده ذلك إلّا عتوّا و تحامقا، فرقّ المغربىّ لهم و همّ بمخاطبته فى أمرهم، فقيل له و أنه مع ذلك نصرانىّ، فغضب لذلك و كاد أن يبطش به، ثم كف عنه و طلع إلى القلعة و جلس مع الأمير سلار نائب السلطان، و الأمير بيبرس الجاشنكير، و أخذ يحادثهم بما رآه و هو يبكى رحمة للمسلمين بما نالهم من قسوة النصارى، ثم وعظ الأمراء و حذرهم نقمة اللّه، و تسليط عدوّهم عليهم من تمكين النصارى من ركوب الخيل، و تسلطهم على المسلمين و إذلالهم إياهم، و أن الواجب إلزامهم الصغار، و حملهم على العهد الذى كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فمالوا إلى قوله و طلبوا بطرك النصارى و كبراءهم و ديان اليهود، فجمعت نصارى كنيسة المعلقة و نصارى دير البغل و نحوهم، و حضر كبراء اليهود و النصارى، و قد حضر القضاة الأربعة و ناظروا النصارى و اليهود، فأذعنوا إلى التزام العهد العمرىّ، و ألزم بطرك النصارى طائفته النصارى بلبس العمائم الزرق و شدّ الزنار فى أوساطهم، و منعهم من ركوب الخيل و البغال، و التزام الصغار، و حرّم عليهم مخالفة ذلك أو شىء منه، و أنه برىء من النصرانية إن خالف. ثم اتبعه ديان اليهود بأن أوقع الكلمة على من خالف من اليهود ما شرط عليه، من لبس العمائم الصفر و التزام العهد العمرىّ، و كتب بذلك عدّة نسخ سيرت إلى الأعمال، فقام المغربىّ فى هدم الكنائس، فلم يمكنه قاضى القضاة تقى الدين محمد بن دقيق العيد من ذلك، و كتب خطه بأنه لا يجوز أن يهدم من الكنائس إلّا ما استجدّ بناؤه، فغلقت عدّة كنائس بالقاهرة و مصر مدّة أيام، فسعى بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها، فثارت العامة و وقفوا للنائب و الأمراء و استغاثوا بأن النصارى قد فتحوا الكنائس بغير إذن، و فيهم جماعة تكبروا عن لبس العمائم الزرق، و احتمى كثير منهم بالأمراء، فنودى فى القاهرة و مصر أن يلبس النصارى بأجمعهم العمائم الزرق، و يلبس اليهود بأسرهم العمائم الصفر، و من لم يفعل ذلك نهب ماله و حلّ دمه، و منعوا جميعا من الخدمة فى ديوان السلطان و دواوين الأمراء حتى يسلموا، فتسلطت الغوغاء عليهم و تتبعوهم، فمن رأوه بغير الزىّ الذى رسم به ضربوه بالنعال و صفعوا عنقه حتى يكاد يهلك، و من مرّ بهم و قد ركب و لا يثنى رجله ألقوه عن دابته و أوجعوه ضربا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۹

فاختفى كثير منهم، و ألجأت الضرورة عدّة من أعيانهم إلى إظهار الإسلام أنفة من لبس الأزرق و ركوب الحمير، و قد أكثر شعراء العصر فى ذكر تغيير زىّ أهل الذمّة، فقال علاء الدين علىّ بن مظفر الوداعىّ:

لقد ألزم الكفار شاشات ذلةتزيدهم من لعنة اللّه تشويشا

فقلت لهم ما ألبسوكم عمائماو لكنهم قد ألزموكم براطيشا

و قال شمس الدين الطيبى:

تعجبوا للنصارى و اليهود معاو السامريين لما عمموا الخرقا

كأنما بات بالأصباغ منسهلانسر السماء فأضحى فوقهم زرقا

فبعث ملك برشلونة فى سنة ثلاث و سبعمائة هدية جليلة زائدة عن عادته، عمّ بها جميع أرباب الوظائف من الأمراء مع ما خص به السلطان، و كتب يسأل فى فتح الكنائس، فاتفق الرأى على فتح كنيسة حارة زويلة لليعاقبة، و فتح كنيسة البندقانيين من القاهرة، ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، هدمت كنائس أرض مصر فى ساعة واحدة، كما ذكر فى أخبار كنيسة الزهرىّ، و فى سنة خمس و خمسين و سبعمائة، رسم بتحرير ما هو موقوف على الكنائس من أراضى مصر، فأناف على خمسة و عشرين ألف فدان، و سبب الفحص عن ذلك، كثرة تعاظم النصارى و تعدّيهم فى الشرّ و الإضرار بالمسلمين، لتمكنهم من أمراء الدولة و تفاخرهم بالملابس الجليلة، و المغالاة فى أثمانها، و التبسط فى المآكل و المشارب، و خروجهم عن الحدّ فى الجراءة و

السلاطة، إلى أن اتفق مرور بعض كتاب النصارى على الجامع الأزهر من القاهرة، و هو راكب بخف و مهماز و بقباء إسكندريّ طرح على رأسه، و قدّامه طرّادون يمنعون الناس من مزاحمته، و خلفه عدّة عبيد بثياب سرية على أكاديش فارهة، فشق ذلك على جماعة من المسلمين، و ثاروا به و أنزلوه عن فرسه و قصدوا قتله، و قد اجتمع عالم كبير، ثم خلوا عنه، و تحدّد جماعة مع الأمير طاز فى أمر النصارى و ما هم عليه، فوعدهم بالإنصاف منهم، فرفعوا قصة على لسان المسلمين قرئت على السلطان الملك الصالح صالح بحضرة الأمراء و القضاة و سائر أهل الدولة، تتضمن الشكوى من النصارى، و أن يعقد لهم مجلس ليلتزموا بما عليهم من الشروط، فرسم بطلب بطرك النصارى و أعيان أهل ملتهم، و بطلب رئيس اليهود و أعيانهم، و حضر القضاة و الأمراء بين يدى السلطان، و قرأ القاضى علاء الدين علىّ بن فضل اللّه كاتب السرّ العهد الذى كتب بين المسلمين و بين أهل الذمّة، و قد أحضروه معهم، حتى فرغ منه، فالتزم من حضر منهم بما فيه و أقرّوا به، فعدّدت لهم أفعالهم التى جاهروا بها و هم عليها، و أنهم لا يرجعون عنها غير قليل، ثم يعودن إليها كما فعلوه غير مرّة فيما سلف، فاستقرّ الحال على أن يمنعوا من المباشرة بشىء من ديوان السلطان و دواوين الأمراء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۰

و لو أظهروا الإسلام، و أن لا يكره أحد منهم على إظهار الإسلام، و يكتب بذلك إلى الأعمال. فتسلطت العامّة عليهم و تتبعوا آثارهم و أخذوهم فى الطرقات، و قطعوا ما عليهم من الثياب، و أوجعوهم ضربا، و لم يتركوهم حتى يسلموا، و صاروا يضرمون لهم النار ليلقوهم فيها، فاختفوا فى بيوتهم و لم يتجاسروا على المشى بين الناس، فنودى بالمنع من التعرّض لأذاهم، فأخذت العامّة فى تتبع عوراتهم و ما علوه من دورهم على بناء المسلمين فهدموه، و اشتدّ الأمر على النصارى باختفائهم، حتى أنهم فقدوا من الطرقات مدّة، فلم ير منهم و لا من اليهود أحد، فرفع المسلمون قصة قرئت فى دار العدل فى يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب، تتضمن أن النصارى قد استجدّوا عمارات فى كنائسهم و وسعوها، هذا و قد اجتمع بالقلعة عالم عظيم و استغاثوا بالسلطان من النصارى، فرسم بركوب والى القاهرة و كشفه على ذلك، فلم تتمهل العامّة و مرّت بسرعة فخرّبت كنيسة بجوار قناطر السباع، و كنيسة بطريق مصر للأسرى، و كنيسة الفهادين بالجوّانية من القاهرة، و دير نهيا من الجيزة، و كنيسة بناحية بولاق التكرورىّ، و نهبوا حواصل ما خرّبوه من ذلك، و كانت كثيرة، و أخذوا أخشابها و رخامها و هجموا كنائس مصر و القاهرة، و لم يبق إلّا أن يخرّبوا كنيسة البندقانيين بالقاهرة، فركب الوالى و منعهم منها، و اشتدّت العامة و عجز الحكام عن كفهم، و كان قد كتب إلى جميع أعمال مصر و بلاد الشام أن لا يستخدم يهودىّ و لا- نصرانىّ و لو أسلم، و أنه من أسلم منهم لا- يمكن من العبور إلى بيته و لا من معاشرة أهله إلّا أن يسلموا و أن يلزم من أسلم منهم بملازمة المساجد و الجوامع لشهود الصلوات الخمس و الجمع، و أنّ من مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته إن كان له وارث، و إلّا فهى لبيت المال، و كان يلى ذلك البطرك، و كتب بذلك مرسوم قرىء على الأمراء، ثم نزل به الحاجب فقرأه فى يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الآخرة بجوامع القاهرة و مصر، فكان يوما مشهودا.

ثم أحضر فى أخريات شهر رجب من كنيسة شبرا بعدما هدمت، إصبع الشهيد الذى كان يلقى فى النيل حتى يزيد، بزعمهم، و هو فى صندوق، فأحرق بين يدى السلطان بالميدان من قلعة الجبل و ذرى رماده فى البحر خشية من أخذ النصارى له، فقدمت الأخبار بكثرة دخول النصارى من أهل الصعيد و الوجه البحرىّ فى الإسلام. و تعلمهم القرآن، و إن أكثر كنائس الصعيد هدمت و بنيت مساجد، و أنه أسلم بمدينة قليوب فى يوم واحد أربعمائة و خمسون نصرانيا، و كذلك بعامة الأرياف، مكرا منهم و خديعة حتى يستخدموا فى المباشرات، و ينكحوا المسلمات، فتم لهم مرادهم و اختلطت بذلك الأنساب حتى صار أكثر الناس من أولادهم، و لا يخفى أمرهم على من نوّر اللّه قلبه، فإنه يظهر من آثارهم القبيحة إذا تمكنوا من الإسلام و أهل ما يعرف به الفطن سوء أصلهم، و قديم معاداة أسلافهم للدين و حملته.

النصارى فرق كثيرة، الملكانية، و النسطورية، و اليعقوبية، و البرذعانية، و المرقولية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۱

و هم الرهاويون الذين كانوا بنواحى حرّان و غير هؤلاء. فمنهم من مذهبه مذهب الحرّانية، و منهم من يقول بالنور و الظلمة، و الثنوية كلهم يقرّون بنبوّة المسيح عليه السلام و منهم من يعتقد مذهب أرسطاطاليس. و الملكانية و اليعقوبية و النسطورية متفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم ، و هذه الأقانيم الثلاثة شيء واحد، و هو جوهر قديم، و معناه أب و ابن و روح القدس إله واحد، و أن الابن نزل من السماء فتدرّع جسدا من مريم، و ظهر للناس يحيى و يبروئ و ينبى، ثم قتّل و صلب و خرج من القبر لثلاث، فظهر لقوم من أصحابه فعرفوه حق معرفته، ثم صعد إلى السماء فجلس عن يمين أبيه هذا الذى يجمعهم اعتقاده، ثم إنهم يختلفون فى العبارة عنه.

فمنهم من يزعم أنّ القديم جوهر واحد يجمعه ثلاثة أقانيم، كل أقنوم منها جوهر خاص، فأحد هذه الأقانيم أب واحد غير مولود، و الثالث روح فائضة منبثقة بين الأب و الابن، و أن الابن لم يزل مولودا من الأب، و أن الأب لم يزل والدا للابن، لا على جهة النكاح و التناسل، لكن على جهة تولد ضياء الشمس من ذات الشمس، و تولد حرّ النار من ذات النار.

و منهم من يزعم أن معنى قولهم إن الإله ثلاثة أقانيم، أنها ذات لها حياة و نطق، فالحياة هى روح القدس، و النطق هو العلم و الحكمة، ... و النطق و العلم و الحكمة و الكلمة عبارة عن الابن، كما يقال الشمس و ضياؤها، و النار و حرّها، فهو عبارة عن ثلاثة أشياء ترجع إلى أصل واحد.

و منهم من يزعم أنه لا يصحّ له أن يثبت الإله فاعلا حكيما، إلّا أنه يثبته حيا ناطقا، و معنى الناطق عندهم العالم المميز، لا الذى يخرج الصوت بالحروف المركبة، و معنى الحىّ عندهم من له حياة بها يكون حيا، و معنى العالم من له علم به يكون عالما. قالوا فذاته و علمه و حياته ثلاثة أشياء و الأصل واحد، فالذات هى العلة للاثنين اللذين هما العلم و الحياة، و الاثنان هما المعلولان للعلة، و منهم من يتنزه عن لفظ العلة و المعلول فى صفة القديم، و يقول أب و ابن و والدة و روح و حياة و علم و حكمة و نطق. قالوا و الابن اتحد بإنسان مخلوق، فصار هو و ما اتحد به مسيحا واحدا، و أن المسيح هو إله العباد و ربهم، ثم اختلفوا فى صفة الاتحاد، فزعم بعضهم أنه وقع بين جوهر لاهوتىّ و جوهر ناسوتىّ اتحاد، فصارا مسيحا واحدا، و لم يخرج الاتحاد كلّ واحد منهما عن جوهريته و عنصره، و أن المسيح إله معبود، و أنه ابن مريم الذى حملته و ولدته، و أنه قتل و صلب، و زعم قوم أن المسيح بعد الاتحاد جوهران، أحدهما لاهوتىّ و الآخر ناسوتىّ، و أن القتل و الصلب وقعا به من جهة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۲

ناسوته لا من جهة لاهوته، و أن مريم حملت بالمسيح و ولدته من جهة ناسوته، و هذا قول النسطورية، ثم يقولون أن المسيح بكماله إله معبود، و أنه ابن اللّه، تعالى اللّه عن قولهم، و زعم قوم أنّ الاتحاد وقع بين جوهرين لاهوتىّ و ناسوتىّ، فالجوهر اللاهوتىّ بسيط غير منقسم و لا متجزئ، و زعم قوم أن الاتحاد على جهة حلول الابن فى الجسد و مخالطته إياه، و منهم من زعم أن الاتحاد على جهة الظهور، كظهور كتابة الخاتم و النقش إذا وقع على طين أو شمع، و كظهور صورة الإنسان فى المرآة، إلى غير ذلك من الاختلاف الذى لا يوجد مثله فى غيرهم، حتى لا تكاد تجد اثنين منهم على قول واحد.

و الملكانية تنسب إلى ملك الروم، و هم يقولون أنّ اللّه اسم لثلاثة معان، فهو واحد ثلاثة و ثلاثة واحد. و اليعقوبية تقول أنه واحد قديم، و أنه كان لا جسم و لا إنسان، ثم تجسم و تأنس. و المرقولية قالوا اللّه واحد و علمه غيره قديم معه، و المسيح ابنه على جهة الرحمة، كما يقال إبراهيم خليل اللّه، و المرقولية تزعم أن المسيح يطوف عليهم كل يوم و ليلة، و البوزغانية تزعم أن المسيح هو الذى يحشر الموتى من قبورهم و يحاسبهم.

و عندهم لا بدّ من تنصير أولادهم، و ذلك أنهم يغمسون المولود فى ماء قد أغلى بالرياحين و ألوان الطيب فى إجانة جديدة، و يقرءون عليه من كتابهم، فيزعمون أنه حينئذ ينزل عليه روح القدس، و يسمون هذا الفعل المعمودية، و طهارتهم إنما هى غسل الوجه و اليدين فقط، و لا يختتن منهم إلّا اليعقوبية، و لهم سبع صلوات يستقبلون فيها المشرق، و يحجون إلى بيت المقدس، و زكاتهم العشر من أموالهم، و صيامهم خمسون يوما، فالثانى و الأربعون منه عيد الشعانين، و هو اليوم الذى نزل فيه المسيح من الجبل و دخل بيت

المقدس، و بعده بأربعة أيام عيد الفصح، و هو اليوم الذى خرج فيه موسى و قومه من مصر، و بعده بثلاثة أيام عيد القيامة، و هو اليوم الذى خرج فيه المسيح من القبر بزعمهم، و بعده بثمانية أيام عيد الجديد، و هو اليوم الذى ظهر فيه المسيح لتلامذته بعد خروجه من القبر، و بعده بثمانية و ثلاثين يوما عيد السلاق، و هو اليوم الذى صعد فيه المسيح إلى السماء. و لهم عيد الصليب، و هو اليوم الذى وجدوا فيه خشبة الصليب، و زعموا أنها وضعت على ميت فعاش، و لهم أيضا عيد الميلاد و عيد الذبح، و لهم قرابين و كهنة، فالشماس فوقه القس، و فوق القس الأسقف، و فوق الأسقف المطران، و فوق المطران البطريق، و السكر عندهم حرام، و لا يحلّ لهم أكل اللحم و لا الجماع فى الصوم، و كل ما يباع فى السوق و لم تعفه أنفسهم يباح أكله، و لا يصحّ النكاح إلّا بحضور شماس و قس و عدول و مهر، و يحرّمون من النساء ما يحرّمه المسلمون، و لا يحلّ الجمع بين امرأتين، و لا التسرّى بالإماء إلّا أن يعتقن و يتزوّج بهنّ، و إذا خدم العبد سبع سنين عتق، و لا يحل طلاق المرأة إلّا أن تأتى بفاحشة مبينة فتطلق، و لا تحل للزوج أبدا، و حدّ المحصن إذا زنى الرجم، فإن زنى غير محصن و حملت منه المرأة تزوّج بها، و من قتل عمدا قتل، و من قتل خطأ يهرّب و لا يحل طلبه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۳

و أكثر أحكامهم من التوراة، و قد لعن منهم من لاط أو شهد بالزور أو قامر أو زنى أو سكر.

ذكر ديارات النصارى

اشارة

قال ابن سيده: الدير خان النصارى، و الجمع أديار، و صاحبه ديار و ديرانىّ. قلت الدير عند النصارى يختص بالنساك المقيمين به، و الكنيسة مجتمع عامتهم للصلاة.

القلاية بمصر: هذه القلاية بجانب المعلقة التى تعرف بقصر الشمع فى مدينة مصر، و هى مجمع أكابر الرهبان و علماء النصارى، و حكمها عندهم حكم الأديرة.

دير طرا: و يعرف بدير أبى جرج، و هو على شاطىء النيل. و أبو جرج هذا هو جرجس، و كان ممن عذبه الملك دقلطيانوس ليرجع عن دين النصرانية، و نوّع له العقوبات من الضرب و التحريق بالنار، فلم يرجع، فضرب عنقه بالسيف فى ثالث تشرين و سابع بابه.

دير شعران: هذا الدير فى حدود ناحية طرا، و هو مبنىّ بالحجر و اللبن، و به نخل و به عدّة رهبان، و يقال إنما هو دير شهران بالهاء، و أنّ شهران كان من حكماء النصارى، و قيل بل كان ملكا، و كان هذا الدير يعرف قديما بمرقوريوس الذى يقال له مرقورة، و أبو مرقورة، ثم لما سكنه برصوما بن التبان عرف بدير برصوما، و له عيد يعمل فى الجمعة الخامسة من الصوم الكبير، فيحضره البطرك و أكابر النصارى، و ينفقون فيه مالا كبيرا. و مرقوريوس هذا كان ممن قتله دقلطيانوس فى تاسع عشر تموز، و خامس عشرى أبيب، و كان جنديا.

دير الرسل: هذا الدير خارج ناحية الصف و الودى، و هو دير قديم لطيف.

دير بطرس و بولص: هذا الدير خارج اطفيح من قبليها، و هو دير لطيف و له عيد فى خامس أبيب يعرف بعيد القصرية. و بطرس هذا هو أكبر الرسل الحواريين، و كان دباغا، و قيل صيادا، قتله الملك نيرون فى تاسع عشرى حزيران، و خامس أبيب. و بولص هذا كان يهوديا فتنصر بعد رفع المسيح عليه السلام، و دعا إلى دينه، فقتله الملك نيرون بعد قتله بطرس بسنة.

دير الجميزة: و يعرف بدير الجود، و يسمى موضعه البحارة جزائر الدير، و هو قبالة الميمون، و هو عزبة لدير العزبة، بنى على اسم انطونيوس، و يقال انطونة، و كان من أهل قمن، فلما انقضت أيام الملك دقلطيانوس و فاتته الشهادة أحب أن يتعوّض عنها بعبادة توصل ثوابها أو قريبا من ذلك، فترهب، و كان أوّل من أحدث الرهبانية للنصارى عوضا عن الشهادة، و واصل أربعين يوما ليلا و

نهارا طاويا لا يتناول طعاما و لا شرابا مع قيام الليل، و كان هكذا يفعل فى الصيام الكبير كل سنة.

دير العزبة: هذا الدير يسار إليه فى الجبل الشرقىّ ثلاثة أيام بسير الإبل، و بينه و بين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۴

بحر القلزم مسافة يوم كامل، و فيه غالب الفواكه مزدرعة، و به ثلاثة أعين تجرى، و بناه أنطونيوس المقدّم ذكره، و رهبان هذا الدير لا يزالون دهرهم صائمين، لكن صومهم إلى العصر فقط ثم يفطرون، ما خلا الصوم الكبير و البرمولات، فإن صومهم فى ذلك إلى طلوع النجم، و البرمولات هى الصوم كذلك بلغتهم.

دير أنبابولا: و كان يقال له أوّلا دير بولص، ثم قيل له دير بولا، و يعرف بدير النمورة أيضا، و هذا الدير فى البرّ الغربىّ من الطور على عين ماء يردها المسافرون، و عندهم أن هذه العين تطهرت منها مريم أخت موسى عليهما السلام عند نزول موسى ببنى إسرائيل فى برّية القلزم. و انبابولا هذا كان من أهل الإسكندرية، فلما مات أبوه ترك له و لأخيه مالا جما، فخاصمه أخوه فى ذلك و خرج مغاضبا له، فرأى ميتا يقبر، فاعتبر به و مرّ على وجهه سائحا حتى نزل على هذه العين، فأقام هناك و اللّه تعالى يرزقه، فمرّ به انطونيوس و صحبه حتى مات، فبنى هذا الدير على قبره، و بين هذا الدير و البحر ثلاث ساعات، و فيه بستان فيه نخل و عنب و به عين ماء تجرى أيضا.

دير القصير: قال أبو الحسن علىّ بن محمد الشابشتى فى كتاب الديارات: و هذا الدير فى أعلى الجبل على سطح فى قلته، و هو دير حسن البناء محكم الصنعة نزه البقعة، و فيه رهبان مقيمون به، و له بئر منقورة فى الحجر يستقى له منها الماء، و فى هيكله صورة مريم عليها السلام فى لوح، و الناس يقصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة، و فى أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، لها أربع طاقات إلى أربع جهات، و كان كثير الغشيان لهذا الدير معجبا بالصورة التى فيه، يستحسنها و يشرب على النظر إليها، و فى الطريق إلى هذا الدير من جهة مصر صعوبة، و أما من قبليه فسهل الصعود و النزول، و إلى جانبه صومعة لا تخلو من حبيس يكون فيها، و هو مطلّ على القرية المعروفة بشهران، و على الصحراء و البحر، و هى قرية كبيرة عامرة على شاطىء البحر، و يذكرون أن موسى صلوات اللّه عليه ولد فيها، و منها ألقته أمّه إلى البحر فى التابوت، و به أيضا دير يعرف بدير شهران، و دير القصير هذا أحد الديارات المقصودة، و المنتزهات المطروقة لحسن موضعه و إشرافه على مصر و أعمالها، و قد قال فيه شعراء مصر و وصفوه فذكروا طيبه و نزهته، و لأبى هريرة بن أبى عاصم فيه من المنسرح:

كم لى بدير القصير من قصف‌مع كل ذى صبوة و ذى ظرف

لهوت فيه بشادن غنج‌تقصر عنه بدائع الوصف

و قال ابن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر: و قد اختلف فى القصير فعن ابن لهيعة قال: ليس بقصير موسى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و لكنه موسى الساحر، و عن المفضل بن فضالة عن أبيه قال: دخلنا على كعب الأحبار فقال لنا: ممن أنتم؟ قلنا فتيان من أهل مصر. فقال: ما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۵

تقولون فى القصير؟ قلنا قصير موسى. فقال: ليس بقصير موسى، و لكنه قصير عزيز مصر، كان إذا جرى النيل يترفع فيه. و على ذلك إنه لمقدّس من الجبل إلى البحر. قال: و يقال بل كان موقدا يوقد فيه لفرعون إذا هو ركب من منف إلى عين شمس، و كان على المقطم موقد آخر، فإذا رأوا النار علموا بركوبه فأعدّوا له ما يريد، و كذلك إذا ركب منصرفا من عين شمس، و اللّه أعلم، و ما أحسن قول كشاجم:

سلام على دير القصير و سفحه‌بجنات حلوان إلى النخلات

منازل كانت لى بهنّ مآرب‌و كنّ مواخيرى و منتزهاتى

إذا جئتها كان الجياد مراكبىو منصرفى فى السفن منحدرات

فأقبض بالأسحار وحشىّ عينهاو أقتنص الأنسىّ فى الظلمات

معى كلّ بسام أغرّ مهذبعلى كل ما يهوى النديم مواتى

و لحمان مما أمسكته كلابناعلينا و مما صيد فى الشبكات

و كأس و ابريق و نای و مزهرو ساق غرير فاتر اللحظات

كأنّ قضيب البان عند اهتزازهتعلم من أعطافه الحركات

هنالك تصفو لى مشارب لذتىو تصحب أيام السرور حياتى

و قال علماء الأخبار من النصارى: إن أرقاديوس ملك الروم طلب أرسانيوس ليعلّم ولده، فظنّ أنه يقتله، ففرّ إلى مصر و ترهب، فبعث إليه أمانا و أعلمه أن الطلب من أجل تعليم ولده، فاستعفى و تحوّل إلى الجبل المقطم شرقىّ طرا، و أقام فى مغارة ثلاث سنين و مات، فبعث إليه أرقاديوس فإذا هو قد مات، فأمر أن يبنى على قبره كنيسة، و هو المكان المعروف بدير القصير، و يعرف الآن بدير البغل، من أجل أنه كان به بغل يستقى عليه الماء، فإذا خرج من الدير أتى الموردة، و هناك من يملأ عليه، فإذا فرغ من الماء تركه فعاد إلى الدير. و فى رمضان سنة أربعمائة أمر الحاكم بأمر اللّه بهدم دير القصير، فأقام الهدم و النهب فيه مدّة أيام.

دير مرحنا: قال الشابشتى: دير مرحنا على شاطىء بركة الحبش، و هو قريب من النيل، و إلى جانبه بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز، و مجلس على عمد، حسن البناء مليح الصنعة مسوّر، أنشأه الأمير تميم أيضا، و بقرب الدير بئر تعرف ببئر مماتى، عليها جميزة كبيرة يجتمع الناس إليها و يشربون تحتها، و هذا الموضع من مغانى اللعب و مواطن القصف و الطرب، و هو نزه فى أيام النيل و زيادة البحر و امتلاء البركة، حسن المنظر فى أيام الزرع و النواوير، لا يكاد حينئذ يخلو من المتنزهين و المتطربين، و قد ذكرت الشعراء حسنه و طيبه، و هذا الدير يعرف اليوم بدير الطين بالنون.

دير أبى النعناع: هذا الدير خارج انصنا، و هو من جملة عماراتها القديمة، و كنيسته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۶

فى قصره لا فى أرضه، و هو على اسم أبى بخنس القصير، و عيده فى العشرين من بابه، و سيأتى ذكر أبى بخنس هذا.

دير مغارة شقلقيل: هو دير لطيف معلق فى الجبل، و هو نقر فى الحجر على صخرة تحتها عقبة لا يتوصل إليه من أعلاه و لا من أسفله و لا سلّم له، و إنما جعلت له نقور فى الجبل، فإذا أراد أحد أن يصعد إليه أرخيت له سلبة فأمسكها بيده و جعل رجليه فى تلك النقور و صعد، و به طاحونة يديرها حمار واحد، و يطلّ هذا الدير على النيل تجاه منفلوط و تجاه أمّ القصور، و تجاهه جزيرة يحيط بها الماء، و هى التى يقال لها شقلقيل، و بها قريتان إحداهما شقلقيل و الأخرى بنى شقير، و لهذا الدير عيد يجتمع فيه النصارى، و هو على اسم يومينا، و هو من الأجناد الذين عاقبهم ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية و يسجد للأصنام، فثبت على دينه، فقتله فى عاشر حزيران و سادس عشر بابه.

دير بقطر: بحاجر أبنوب من شرقىّ بنى مرّ تحت الجبل، على مائتى قصبة منه، و هو دير كبير جدّا، و له عيد يجتمع فيه نصارى البلاد شرقا و غربا، و يحضره الأسقف. و بقطر هذا هو ابن رومانوس، كان أبوه من وزراء ديقلطيانوس، و كان هو جميلا شجاعا له منزلة من الملك، فلما تنصر وعده الملك و مناه ليرجع إلى عبادة الأصنام فلم يفعل، فقتله فى ثانى عشرى نيسان، و سابع عشرى برمودة.

دير بقطرشق: فى بحرىّ أبنوب، و هو دير لطيف خال، و إنما تأتيه النصارى مرّة فى كل سنة. و بقطرشق ممن عذبه ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية فلم يرجع، فقتله فى العشرين من هتور، و كان جنديا.

دير بوجرج: بنى على اسم بوجرج، و هو خارج المعيصرة بناحية شرق بنى مرّو، تارة يخلو من الرهبان و تارة يعمر بهم، و له وقت يعمل العيد فيه.

دير حماس: و حماس اسم بلد هو بحربها، و له عيدان فى كل سنة و جموعات متعدّدة.

دير الطير: هذا الدير قديم، و هو مطلّ على النيل، و له سلالم منحوتة فى الجبل، و هو قبالة سملوط. و قال الشابشتى و بنواحى أخميم دير كبير عامر يقصد من كل موضع، و هو بقرب الجبل المعروف بجبل الكهف، و فى موضع من الجبل شق فإذا كان يوم عيد هذا الدير لم يبق فى البلد بوقير حتى يجىء إلى هذا الموضع، فيكون أمرا عظيما بكثرتها و اجتماعها و صياحها عند الشق، و لا يزال الواحد بعد الواحد يدخل رأسه فى ذلك الشق و يصيح و يخرج، و يجىء غيره إلى أن يعلق رأس أحدها و ينشب فى الموضع، فيضطرب حتى يموت، و تتفرّق حينئذ الباقية فلا يبقى منها طائر. و قال القاضى: أبو جعفر القضاعىّ: و من عجائبها يعنى مصر، شعب البوقيرات بناحية أشموم من أرض الصعيد، و هو شعب فى جبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۷

فيه صدع تأتيه البوقيرات فى يوم من السنة كان معروفا، فتعرض أنفسها على الصدع، فكلما أدخل بوقير منها منقاره فى الصدع مضى لطيته، فلا تزال تفعل ذلك حتى يلقتى الصدع على بوقير منها فيحبسه، و تمضى كلها و لا يزال ذلك الذى تحبسه معلقا حتى يتساقط. قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: و قد بطل هذا. فى جملة ما بطل.

دير أبى هرمينة: بحرىّ فاو الخراب، و بحريه بربافاو، و هى مملوءة كتبا و حكما، و بين دير الطين و هذا الدير نحو يومين و نصف، و أبو هرمينة هذا من قدماء الرهبان المشهورين عند النصارى.

دير السبعة جبال باخميم: هذا الدير داخل سبعة أوديه، و هو دير عال بين جبال شامخة، و لا تشرق عليه الشمس إلّا بعد ساعتين من الشروق لعلوّ الجبل الذى هو فى لحفه، و إذا بقى للغروب نحو ساعتين خيل لمن فيه أن الشمس قد غابت و أقبل الليل، فيشعلون حينئذ الضوء فيه، و على هذا الدير من خارجه عين ماء تظلها صفصافة، و يعرف هذا الموضع الذى فيه دير الصفصافة بوادى الملوك، لأن فيه نباتا يقال له الملوكة، و هو شبه الفجل، و ماؤه أحمر قان يدخل فى صناعة علم أهل الكيمياء، و من داخل هذا الدير دير القرقس: و هو فى أعلى جبل، قد نقر فيه، و لا يعلم له طريق، بل يصعد إليه فى نقور فى الجبل، و لا يتوصل إليه إلّا كذلك، و بين دير الصفصافة و دير القرقس ثلاث ساعات، و تحت دير القرقس عين ماء عذب و أشجار بان.

دير صبرة: فى شرقىّ اخميم، عرف بعرب يقال لهم بنى صبرة، و هو على اسم ميخائيل الملك، و ليس به غير راهب واحد. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۴ ؛ ص۴۲۷

ر أبى بشادة الأسقف: قريب من ناحية انقه، و هو بالحاجر، و تجاهه فى الغرب منشأة اخميم، و كان أبو بشادة هذا من علماء النصارى.

دير بوهر الراهب: و يعرف بدير سوادة، و سوادة عرب تنزل هناك، و هو قبالة منية بنى خصيب، خرّبته العرب، و هذه الأديرة كلها فى الشرق من النيل، و جميعها لليعاقبة، و ليس فى الجانب الشرقىّ الآن سواها، و أما الجانب الغربىّ من النيل فإنه كثير الديارات لكثرة عمارته.

دير دموة بالجيزة: و تعرف بدموة السباع، و هو على اسم قزمان و دميان، و هو دير لطيف، و تزعم النصارى أن بعض الحكماء كان يقال له سبع أقام بدموة، و أن كنيسة دموة التى بأيدى اليهود الآن كانت ديرا من ديارات النصارى، فابتاعته منهم اليهود فى ضائقة نزلت بهم، و قد تقدّم ذكر كنيسة دموة و قزمان و دميان من حكماء النصارى و رهبانهم العباد، و لهما أخبار عندهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۸

دير نهيا: قال الشابشتى: و نهيا بالجيزة، و ديرها هذا من أحسن ديارات مصر، و أنزهها و أطيبها موضعا، و أجلها موقعا، عامر برهبانه و سكانه، و له فى أيام النيل منظر عجيب، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته، فإذا انصرف الماء و زرعت الأرض أظهرت أراضيه غرائب النواوير و أصناف الزهر، و هو من المنتزهات الموصوفة و البقاع المستحسنة، و له خليج يجتمع فيه سائر الطير، فهو أيضا متصيد ممنع، و قد وصفته الشعراء و ذكرت حسنه و طيبه، قلت و قد خرب هذا الدير.

دير طمويه: قال ياقوت: طمويه- بفتح الطاء و سكون الميم و فتح الواو ساكنة- قريتان بمصر، إحداهما فى كورة المرتاحية، و الأخرى بالجيزة، قال الشابشتى: و طمويه فى الغرب بإزاء حلوان، و الدير راكب البحر، حوله الكروم و البساتين و النخل و الشجر، و هو نزه عامر آهل، و له فى النيل منظر حسن، و حين تخضرّ الأرض يكون فى بساطين من البحر و الزرع، و هو أحد منتزهات أهل مصر المذكورة، و مواضع لهوها المشهورة. و لابن أبى عاصم المصرىّ فيه من البسيط:

و اشرب بطمويه من صهباء صافيةتزرى بخمر قرى هيت و عانات

على رياض من النوّار زاهرةتجرى الجداول فيها بين جنات

كأن نبت الشقيق العصفرىّ بهاكاسات خمر بدت فى إثر كاسات

كأنّ نرجسها من حسنه حدقفى خفية يتناجى بالإشارات

كأنما النيل فى مرّ النسيم بهمستلئم فى دروع سابريات

منازل كنت مفتونا بها شغفاو كنّ قدما مواخيرى و حاناتى

إذ لا أزال ملما بالصبوح علىضرب النواقيس صبّا بالديارات

قلت هذا الدير عند النصارى على اسم بوجرج و يجتمع فيه النصارى من النواحى:

دير أقفاص: و صوابها أقفهس و قد خرب.

دير خارج ناحية منهرى: خامل الذكر لأنهم لا يطعمون فيه أحدا.

دير الخادم: على جانب المنهى بأعمال البهنسا، على اسم غبريال الملك، به بستان فيه نخل و زيتون.

دير أشنين: عرف بناحية أشنين، فإنه فى بحريها، و هو لطيف على اسم السيدة مريم، و ليس به سوى راهب واحد.

دير ايسوس: و معنى ايسوس يسوع، و يقال له دير أرجنوس، و له عيد فى خامس عشرى بشنس، فإذا كان ليلة هذا اليوم سدّت بئر فيه تعرف ببئر ايسوس، و قد اجتمع الناس

إلى الساعة السادسة من النهار، ثم كشفوا الطابق عن البئر فإذا بها قد فاض ماؤها ثم ينزل، فحيث وصل الماء قاسوا منه إلى موضع استقرّ فيه الماء، فما بلغ كانت زيادة النيل فى تلك السنة من الأذرع.

دير سدمنت: على جانب المنهى بالحاجر بين الفيوم و الريف على اسم بوجرج، و قد ضعفت أحواله عما كان عليه و قل ساكنه.

دير النقلون: و يقال له دير الخشبة، و دير غبريال الملك، و هو تحت مغارة فى الجبل الذى يقال له طارف الفيوم، و هذه المغارة تعرف عندهم بمظلة يعقوب، يزعمون أن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر كان يستظل بها، و هذا الجبل مطلّ على بلدين يقال لهما اطفيح شيلا، و شلا. و يملأ الماء لهذا الدير من بحر المنهى و من تحت دير سدمنت، و لهذا الدير عيد يجتمع فيه نصارى الفيوم و غيرهم، و هو على السكة التى تنزل إلى الفيوم و لا يسكلها إلّا القليل من المسافرين.

دير القلمون: هذا الدير فى برّية تحت عقبة القلمون، يتوصل المسافر منها إلى الفيوم، يقال لها عقبة الغريق، و بنى هذا الدير على اسم صمويل الراهب، و كان فى زمن الفترة ما بين عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و مات فى ثامن كيهك، و فى هذا الدير نخل كثير يعمل من تمره العجوة، و فيه أيضا شجر البلخ، و لا يوجد إلّا فيه، و ثمره بقدر الليمون، طعمه حلو فى مثل طعم الرامخ، ولنواه عدّة منافع، و قال أبو حنيفة فى كتاب النبات: و لا ينبت اللبخ إلّا بأنصنا، و هو عود تنشر منه ألواح السفن، و ربما أرعف ناشرها، و يباع اللوح منها بخمسين دينارا و نحوها، و إذا شدّ لوح منها بلوح و طرحا فى الماء سنة التأما و صارا لوحا واحدا، و فى هذا الدير قصران مبنيان بالحجارة، و هما عاليان كبيران لبياضهما إشراق، و فيه أيضا عين ماء تجرى، و فى خارجه عين أخرى، و بهذا الوادى عدّة معابد قديمة، و ثمّ واد يقال له الأميلح فيه عين ماء تجرى و نخيل مثمرة تأخذ العرب ثمرها، و خارج هذا الدير ملّاحة يبيع رهبان الدير ملحها

فيعم تلك الجهات.

دير السيدة مريم: خارج طنبدى، ليس فيه سوى راهب واحد و هو على غير الطريق المسلوك، و كان بأعمال البهنسا عدّة ديارات خربت.

دير برقانا: بحرىّ بنى خالد، و هو مبنىّ بالحجر و عمارته حسنة، و هو من أعمال المنية، و كان به فى القديم ألف راهب، و ليس به الآن سوى راهبين، و هو فى الحاجر تحت الجبل.

دير بالوجه: على جنب المنهى، و هو لأهل دلجة، و هو من الأديرة الكبار، و قد خرب حتى لم يبق به سوى راهب أو راهبين، و هو بإزاء دلجة بينه و بينها نحو ساعتين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۰

دير مرقورة: و يقال أبو مرقورة، هذا الدير تحت دلجة بخارجها من شرقيها و ليس به أحد.

دير صنبو: فى خارجها من بحريها على اسم السيدة مريم و ليس به أحد.

دير تادرس: قبلىّ صنبو و قد تلاشى أمره لاتضاع حال النصارى.

دير الريرمون: فى شرقىّ ناحية الريرمون، و هو شرقىّ ملوى و غربىّ أنصنا، و هو على اسم الملك غبريال.

دير المحرق: تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام أقام فى موضعه ستة أشهر و أياما، و له عيد عظيم يعرف بعيد الزيتونة و عيد العنصرة يجتمع فيه عالم كثير.

دير بنى كلب: عرف بذلك لنزول بنى كلب حوله، و هو على اسم غبريال، و ليس فيه أحد من الرهبان و إنما هو كنيسة لنصارى منفلوط و هو غربيها.

دير الجاولية: هذا الدير ناحية الجاولية من قبليها، و هو على اسم الشهيد مرقورس الذى يقال له مرقورة، و عليه رزق محبسة، و تأتيه النذورات و العوائد و له عيدان فى كل سنة.

دير السبعة جبال: هذا الدير على رأس الجبل الذى غربىّ سيوط، على شاطىء النيل، و يعرف بدير بخنس القصير، و له عدّة أعياد، و خرب فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة من منسر طرقه ليلا. بخنس: و يقال أبو بخنس القصير، كان راهبا قمصا، له أخبار كثيرة منها: أنه غرس خشبة يابسة فى الأرض بأمر شيخه له، و سقاها الماء مدّة فصارت شجرة مثمرة تأكل منها الرهبان، و سميت شجرة الطاعة و دفن فى ديره.

دير المطل: هذا الدير على اسم السيدة مريم، و هو على طرف الجبل تحت دير السبعة جبال قبالة سيوط، و له عيد يحضره أهل النواحى و ليس به أحد من الرهبان.

أديرة أدرنكة

اعلم أن ناحية أدرنكة هى من قرى النصارى الصعايدة، و نصاراها أهل علم فى دينهم، و تفاسيرهم فى اللسان القبطىّ، و لهم أديرة كثيرة فى خارج البلد من قبليها مع الجبل، و قد خرب أكثرها و بقى منها:

دير بوجرج: و هو عامر البناء و ليس به أحد من الرهبان و يعمل فيه عيد فى أوانه.

دير أرض الحاجر و دير ميكائيل و دير كرفونه: على اسم السيدة مريم، و كان يقال له ارافونه و اغرافونا و معناه النساخ، فإن نساخ علوم النصارى كانت فى القديم تقيم به و هو على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۱

طرف الجبل، و فيه مغاير كثيرة منها ما يسير الماشى بجنبه نحو يومين.

دير أبى بغام: تحت دير كرفونة بالحاجر، و قد كان أبو بغام جنديا فى أيام ديقلطيانوس فتنصر و عذب ليرجع عن دينه، ثم قتل فى ثامن عشرى كانون الأوّل، و ثانى كيهك.

ديربوساويرس: بحاجر أدرنكة، كان على اسم السيدة مريم، و كان ساويرس من عظماء الرهبان فعمل بطركا، و ظهرت آية عند موته، و ذلك أنه أنذرهم لما سار إلى الصعيد بأنه إذا مات ينشق الجبل و تقع منه قطعة عظيمة على الكنيسة فلا تضرّها، فلما كان فى بعض الأيام سقطت قطعة عظيمة من الجبل كما قال، فعلم رهبان هذا الدير بأن ساويرس قد مات، فأرخوا ذلك فوجدوه وقت موته فسموا الدير حينئذ باسمه.

دير تادرس: تحت دير بوساويرس، و تادرس اثنان كانا من أجناد ديقلطيانوس، أحدهما يقال له قاتل التنين و الآخر الاسفهسلار، و قتلا كما قتل غيرهما.

دير منسى آك: و يقال منساك، و بنى ساك وايساآك، و معنى ذلك إسحاق، و كان على اسم السيدة ماريهام يعنى مار مريم، ثم عرف بمنساك، و كان راهبا قديما له عندهم شهرة، و بهذا الدير بئر تحته فى الحاجر منها شرب الرهبان فإذا زاد النيل شربوا من مائه.

دير الرسل: تحت دير منساك، و يعرف بدير الأثل، و هو لأعمال بوتيج، و دير منساك لأهل ربقة هو و دير ساويرس، و دير كرفونة لأهل سيوط، و دير بوجرج لأهل أدرنكة، و دير الأثل كان فى خراب فعمر بجانبه كفر لطيف عرف بمنشأة الشيخ، لأن الشيخ أبا بكر الشاذلىّ أنشأه و أنشأ بستانا كبيرا، و قد وجد موضعه بئرا كبيرة وجد بها كنزا، أخبرنى من شاهد من ذهبه دنانير مربعة بأحد وجهيها صليب وزنة الدينار مثقال و نصف. و أديرة أدرنكة المذكورة قريب بعضها من بعض، و بينها مغاير عديدة منقوش على ألواح فيها نقوشات من كتابة القدماء كما على البرابى، و هى مزخرفة بعدّة أصباغ، ملوّنة تشتمل على علوم شتى، و دير السبعة جبال و دير المطل و دير النساخ خارج سيوط فى المقابر، و يقال أنه كان فى الحاجرين ثلاثمائة و ستون ديرا، و أن المسافر كان لا يزال من البدرشين إلى أصفون فى ظل البساتين، و قد خرب ذلك و باد أهله.

دير موشه: و موشه خارج سيوط من قبليها بنى على اسم توما الرسول الهندى، و هو بين الغيطان قريب من ربقة، و فى أيام النيل لا يوصل إليه إلّا فى مركب، و له أعياد و الأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطىّ الصعيدىّ، و هو أصل اللغة القبطية، و بعدها اللغة القبطية البحرية، و نساء نصارى الصعيد و أولادهم لا يكادون يتكلمون إلّا بالقبطية الصعيدية، و لهم أيضا معرفة تامّة باللغة الرومية.

دير أبى مقروفة: و أبو مقروفة اسم للبلدة التى بها هذا الدير، و هو منقور فى لحف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۲

الجبل و فيه عدّه مغاير و هو على اسم السيدة مريم، و بمقروفة نصارى كثيرة غنامة و رعاة أكثرهم همج، و فيهم قليل من يقرأ و يكتب، و هو دير معطش.

دير بومغام: خارج طما و أهلها نصارى و كانوا قديما أهل علم.

دير بوشنوده: و يعرف بالدير الأبيض، و هو غربىّ ناحية سوهاى و بناؤه بالحجر و قد خرب و لم يبق منه إلا كنيسته، و يقال إن مساحته أربعة فدادين و نصف و ربع، و الباقى منه نحو فدّان و هو دير قديم.

الدير الأحمر: و يعرف بدير أبى بشاى، و هو بحرىّ الدير الأبيض بينهما نحو ثلاث ساعات، و هو دير لطيف مبنىّ بالطوب الأحمر، و أبو بشاى هذا من الرهبان المعاصرين لشنوده، و هو تلميذه، و صار من تحت يده ثلاث آلاف راهب، و له دير آخر فى برّية شبهات.

دير أبى ميساس: و يقال أبو ميسيس، و اسمه موسى، و هذا الدير تحت البلينا و هو دير كبير. و أبو ميسيس هذا كان راهبا من أهل البلينا و له عندهم شهرة، و هم ينذرونه و يزعمون فيه مزاعم، و لم يبق بعد هذا الدير إلا أديرة بحاجر اسنا و نقادة قليلة العمارة، و كان بأصفون دير كبير و كانت أصفون من أحسن بلاد مصر و أكثر نواحى الصعيد فواكه، و كان رهبان ديرها معروفين بالعلم و المهارة،

فخربت أصفون و خرب ديرها. و هذا آخر أديرة الصعيد و هى كلها يحمل متلاشية آئلة إلى الدثور بعد كثرة عمارتها و وفور أعداد رهبانها وسعة أرزاقهم، و كثرة ما كان يحمل إليهم.

و أما

الوجه البحرى: فكان فيه أديرة كثيرة خربت و بقى منها بقية، فكان بالمقس خارج القاهرة من بحريها عدّة كنائس هدمها الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور فى تاسع عشر ذى الحجة سنة تسع و تسعين و ثلاثمائة و أباح ما كان فيها، فنهب منها شىء كثير جدّا بعد ما أمر فى شهر ربيع الأوّل منها بهدم كنائس راشدة خارج مدينة مصر من شرقيها، و جعل موضعها الجامع المعروف براشدة، و هدم أيضا فى سنة أربع و تسعين كنيستين هناك، و ألزم النصارى بلبس السواد و شدّ الزنار، و قبض على الأملاك التى كانت محبسة على الكنائس و الأديرة و جعلها فى ديوان السلطان، و أحرق عدّة كثيرة من الصلبان، و منع النصارى من إظهار زينة الكنائس فى عيد الشعانين، و تشدّد عليهم و ضرب جماعة منهم، و كانت بالروضة كنيسة بجوار المقياس فهدمها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة، و كان فى ناحية أبى النمرس من الجيزة كنيسة قام فى هدمها رجل من الزيالعة، لأنه سمع أصوات النواقيس يجهر بها فى ليلة الجمعة بهذه الكنيسة، فلم يتمكن من ذلك فى أيام الأشرف شعبان بن حسين لتمكن الأقباط فى الدولة، فقام فى ذلك مع الأمير الكبير برقوق، و هو يومئذ القائم بتدبير الدولة، حتى هدمها على يد القاضى جمال الدين محمود

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۳

العجمىّ محتسب القاهرة فى ثامن عشر رمضان سنة ثمانين و سبعمائة، و عملت مسجدا.

دير الخندق: ظاهر القاهرة من بحريها، عمره القائد جوهر عوضا عن دير هدمه فى القاهرة، كان بالقرب من الجامع الأقمر حيث البئر التى تعرف الآن ببئر العظمة، و كانت إذ ذاك تعرف ببئر العظام من أجل أنه نقل عظاما كانت بالدير و جعلها بدير الخندق، ثم هدم دير الخندق فى رابع عشرى شوّال سنة ثمان و سبعين و ستمائة، فى أيام المنصور قلاون، ثم جدّد هذا الدير الذى هناك بعد ذلك، و عمل كنيستين يأتى ذكرهما فى الكنائس.

دير سرياقوس: كان يعرف بأبى هور، و له عيد يجتمع فيه الناس، و كان فيه أعجوبة ذكرها الشابشتى، و هو أن من كان به خنازير أخذه رئيس هذا الدير و أضجعه و جاءه بخنزير فلحس موضع الوجع، ثم أكل الخنازير التى فيه فلا يتعدّى ذلك إلى الموضع الصحيح، فإذا نظف الموضع ذرّ عليه رئيس الدير من رماد خنزير فعل مثل هذا الفعل من قبل و دهنه بزيت قنديل البيعة، فإنه يبرأ ثم يؤخذ ذلك الخنزير الذى أكل خنازير العليل فيذبح و يحرق، و يعدّ رماده لمثل هذه الحالة، فكان لهذا الدير دخل عظيم ممن يبرأ من هذه العلة، و فيه خلق من النصارى.

دير اتريب: و يعرف بمارى مريم، و عيده فى حادى عشرى بؤنه، و ذكر الشابشتى أن حمامة بيضاء تأتى فى ذلك العيد فتدخل المذبح، لا يدرون من أين جاءت و لا يرونها إلى يوم مثله. و قد تلاشى أمر هذا الدير حتى لم يبق به إلّا ثلاثة من الرهبان، لكنهم يجتمعون فى عيده، و هو على شاطىء النيل قريب من بنها العسل.

دير المغطس: عند الملاحات قريب من بحيرة البراس، و تحج إليه النصارى من قبلىّ أرض مصر، و من بحريها، مثل حجهم إلى كنيسة القيامة، و ذلك يوم عيده، و هو فى بشنس و يسمونه عيد الظهور من أجل أنهم يزعمون أن السيدة مريم تظهر لهم فيه مزاعم كلها من أكاذيبهم المختلفة، و ليس بحذاء هذا الدير عمارة سوى منشأة صغيرة فى قبليه بشرق، و بقربه الملاحة التى يؤخذ منها الملح الرشيدىّ، و قد هدم هذا الدير فى شهر رمضان سنة إحدى و أربعين و ثمانمائة بقيام بعض الفقراء المعتقدين.

دير العسكر: فى أرض السباخ على يوم من دير المغطس، على اسم الرسل، و بقربه ملاحة الملح الرشيدىّ و لم يبق به سوى راهب واحد.

دير جميانة: على اسم بوجرج قريب من دير العسكر على ثلاث ساعات منه، و عيده عقب عيد دير المغطس و ليس به الآن أحد.

دير الميمنة: بالقرب من دير العسكر، كانت له حالات جليلة، و لم يكن فى القديم دير بالوجه البحرىّ أكثر رهبانا منه، إلّا أنه تلاشى أمره و خرب، فنزله الحبش و عمروه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۴

و ليس فى السباخ سوى هذه الأربعة الأديرة. و أما وادى هبيب و هو وادى النطرون، و يعرف ببرّية شيهات و ببرّية الأسقط و بميزان القلوب، فإنه كان بها فى القديم مائة دير، ثم صارت سبعة ممتدّة غربا على جانب البرّية القاطعة بين بلاد البحيرة و الفيوم، و هى فى رمال منقطعة و سباخ مالحة و برار منقطعة معطشة و قفار مهلكة، و شارب أهلها من حفائر، و تحمل النصارى إليهم النذور و القرابين، و قد تلاشت فى هذا الوقت بعدما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج إلى عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه و أنه كتب لهم كتابا هو عندهم.

فمنها

دير أبى مقار الكبير: و هو دير جليل عندهم، و بخارجه أديرة كثيرة خربت، و كان دير النساك فى القديم، و لا يصح عندهم بطركية البطرك حتى يجلسوه فى هذا الدير بعد جلوسه بكرسىّ اسكندرية، و يذكر أنه كان فيه من الرهبان ألف و خمسمائة لا تزال مقيمة به، و ليس به الآن إلّا قليل منهم، و المقارات ثلاثة: أكبرهم صاحب هذا الدير، ثم أبو مقار الإسكندرانىّ، ثم أبو مقار الأسقف. و هؤلاء الثلاثة قد وضعت رممهم فى ثلاث أنابيب من خشب، و تزورها النصارى بهذا الدير، و به أيضا الكتاب الذى كتبه عمرو بن العاص لرهبان وادى هبيب بجرانة نواحى الوجه البحرى على ما أخبرنى من أخبر برؤيته فيه.

أبو مقار الأكبر: هو مقاريوس، أخذ الرهبانية عن أنطونيوس، و هو أوّل من لبس عندهم القلنسوة و الاشكيم، و هو سير من جلد فيه صليب يتوشح به الرهبان فقط، و لقى انطونيوس بالجبل الشرقىّ من حيث دير العزبة، و أقام عنده مدّة، ثم ألبسه لباس الرهبانية و أمره بالمسير إلى وادى النطرون ليقيم هناك، ففعل ذلك و اجتمع عنده الرهبان الكثيرة العدد، و له عندهم فضائل عديدة منها: أنه كان لا يصوم الأربعين إلّا طاويا فى جميعها لا يتناول غذاء و لا شرابا البتة، مع قيام ليلها. و كان لا يعمل الخوص و يتقوّت منه، و ما أكل خبزا طريا قط، بل يأخذ القراقيش فيبلها فى نقاعة الخوص و يتناول منها هو و رهبان الدير ما يمسك الرمق من غير زيادة، هذا قوتهم مدّة حياتهم حتى مضوا لسبيلهم، و أما أبو مقار الإسكندرانىّ فإنه ساح من الإسكندرية إلى مقاريوس المذكور و ترهب على يديه، ثم كان أبو مقار الثالث و صار أسقفا.

دير أبى بخنس القصير: يقال أنه عمر فى أيام قسطنطين بن هيلانة، و لأبى بخنس هذا فضائل مذكورة، و هو من أجل الرهبان، و كان لهذا الدير حالات شهيرة و به طوائف من الرهبان، و لم يبق به الآن إلّا ثلاثة رهبان.

دير الياس: عليه السلام، و هو دير للحبشة، و قد خرب دير بخنس كما خرب دير الياس، أكلت الأرضة أخشابهما فسقطا، و صار الحبشة إلى دير سيدة بوبخنس القصير، و هو دير لطيف بجوار دير بوبخنس القصير. و بالقرب من هذه الأديرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۵

دير انبانوب: و قد خرب هذا الدير أيضا انبانوب هذا من أهل سمنود قتل فى الإسلام و وضع جسده فى بيت بسمنود.

دير الأرمن: قريب من هذه الأديرة و قد خرب. و بجوارها أيضا:

دير بوبشاى: و هو دير عظيم عندهم، من أجل أن بوبشاى هذا كان من الرهبان الذين فى طبقة مقاريوس و بخنس القصير، و هو دير كبير جدّا.

دير بإزاء دير بوبشاى: كان بيد اليعاقبة، ثم ملكته رهبان السريان من نحو ثلاثمائة سنة، و هو بيدهم الآن، و مواضع هذه الأديرة يقال لها بركة الأديرة.

دير سيدة برموس: على اسم السيدة مريم فيه بعض رهبان. و بإزائه:

دير موسى: و يقال أبو موسى الأسود، و يقال برمؤس، و هذا الدير لسيدة برمؤس، فبرموس اسم الدير و له قصة حاصلها أن مكسيموس و دوماديوس كانا ولدى ملك الروم، و كان لهما معلم يقال له ارسانيوس، فسار المعلم من بلاد الروم إلى أرض مصر، و عبر برّية شيهات هذه، و ترهب و أقام بها حتى مات، و كان فاضلا. و أتاه فى حياته ابنا الملك المذكوران و ترهبا على يديه، فلما ماتا بعث أبوهما فبنى على اسمهما كنيسة برموس. و أبو موسى الأسود كان لصا فاتكا قتل مائة نفس، ثم إنه تنصر و ترهب و صنف عدّة كتب، و كان ممن يطوى الأربعين فى صومه و هو بربرىّ.

دير الزجاج: هذا الدير خارج مدينة الإسكندرية، و يقال له الهايطون، و هو على اسم بوجرج الكبير، و من شرط البطرك أنه لا بدّ أن يتوجه من المعلقة بمصر إلى دير الزجاج هذا، ثم إنهم فى هذا الزمان تركوا ذلك، فهذه أديرة اليعاقبة.

و للنساء ديارات تختص بهنّ: فمنها دير الراهبات بحارة زويلة من القاهرة، و هو دير عامر بالإبكار المترهبات و غيرهنّ من نساء النصارى.

دير البنات: بحارة الروم بالقاهرة عامر بالنساء المترهبات.

دير المعلقة: بمدينة مصر، و هو أشهر ديارات النساء عامر بهنّ.

دير بربارة: بمصر بجوار كنيسة بربارة عامر بالبنات المترهبات بربارة: كانت قدّيسة فى زمان دقلطيانوس، فعذبها لترجع عن ديانتها و تسجد للأصنام، فثبتت على دينها و صبرت على عذاب شديد و هى بكر لم يمسها رجل، فلما يئس منها ضرب عنقها و عنق عدّة من النساء معها و للنصارى الملكية قلاية بطركهم بجوار كنيسة ميكائيل بالقرب من جسر الأفرم خارج مصر، و هى مجمع الرهبان الواردين من بلاد الروم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۶

دير بخنس القصير: المعروف بالقصيّر، و صوابه عندهم دير القصير على وزن شهيد، و حرّف فقيل دير القصيّر، بضم القاف و فتح الصاد و تشديد الياء، فسماه المسلمون دير القصير بضم القاف و فتح الصاد و إسكان الياء آخر الحروف، كأنه تصغير قصير، و أصله كما عرّفتك دير القصير الذى هو ضدّ الطويل، و سمى أيضا دير هر قل، و دير البغل، و قد تقدّم ذكره. و كان من أعظم ديارات النصارى و ليس به الآن سوى واحد يحرسه، و هو بيد الملكية.

دير الطور: قال ابن سيده: الطور الجبل، و قد غلب على طور سيناء جبل بالشام، و هو بالسريانية طورى و النسب إليه طورىّ و طوارى. و قال ياقوت: طور سبعة مواضع:

الأوّل طور زيتا بلفظ الزيت من الأدهان مقصور علم لجبل بقرب رأس عين. الثانى طور زيت أيضا جبل بالبيت المقدّس، و هو شرقىّ سلوان. الثالث الطور علم لجبل بعينه مطلّ على مدينة طبرية بالأردن. الرابع الطور علم لجبل كورة تشتمل على عدّة قرى بأرض مصر من الجهة القبلية بين مصر و جبل فاران. الخامس طور سيناء اختلفوا فيه فقيل هو جبل بقرب إيلة، و قيل جبل بالشام، و قيل سيناء حجازية، و قيل سحرتية. السادس طور عبدين بفتح العين و سكون الباء الموحدة و كسر الدال المهملة و ياء آخر الحروف و نون، اسم لبلدة من نواحى نصيبين فى بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل جودىّ. السابع طور هارون أخى موسى عليهما السلام. و قال الواحدىّ: فى تفسيره، و قال الكلبىّ و غيره: و الجبل فى قوله تعالى، و لكن انظر إلى الجبل أعظم جبل بمدين يقال له زبير، و ذكر الكلبىّ أن الطور سمى بيطور بن إسماعيل. قال السهيلىّ: فلعله محذوف الياء إن كان صح ما قاله.

و قال عمر بن شيبة: أخبرنى عبد العزيز عن أبى معشر عن سعيد بن أبى سعيد عن أبيه عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أربعة أنهار فى الجنة و أربعة أجبل و أربع ملاحم فى الجنة، فأما الأنهار فسيحان و جيحان و النيل و الفرات، و أما الأجبل فالطور و لبنان و أحد و ورقان، و سكت عن الملاحم». و عن كعب الأحبار معاقل المسلمين ثلاثة: فمعقلهم من الروم دمشق، و معقلهم من الدجال الأردن، و معقلهم من يأجوج و مأجوج الطور. و قال شعبة عن أرطاة بن المنذر: إذا خرج يأجوج و

مأجوج أوحى اللّه تعالى إلى عيسى بن مريم عليه السلام أنى قد أخرجت خلقا من خلقى لا يطيقهم أحد غيرى. فمرّ بمن معك إلى جبل الطور، فيمرّ و معه من الذرارى اثنا عشر ألفا. و قال طلق بن حبيب عن زرعة: أردت الخروج إلى الطور فأتيت عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما فقلت له: فقال إنما تشدّ الرحال إلى ثلاثة مساجد: إلى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و المسجد الحرام، و المسجد الأقصى. فدع عنك الطور فلا تأته. و قال القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعىّ، و قد ذكر كور أرض مصر: و من كور القبلة قرى الحجاز و هى: كورة الطور و فاران، و كورة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۷

راية و القلزم، و كورة إيلة و حيزها، و مدين و حيزها، و العويبد و الحوراء و حيزهما، ثم كورة بدا و شعيب. قلت لا خلاف بين علماء الأخبار من أهل الكتاب أن جبل الطور هذا هو الذى كلم اللّه تعالى نبيه موسى عليه السلام عليه، أو عنده، و به إلى الآن دير بيد الملكية و هو عامر و فيه بستان كبير به نخل و عنب و غير ذلك من الفواكه. و قال الشابشتىّ: و طور سينا هو الجبل الذى تجلّى فيه النور لموسى بن عمران عليه السلام، و فيه صعق، و الدير فى أعلى الجبل مبنىّ بحجر أسود، عرض حصنه سبع أذرع، و له ثلاثة أبواب حديد، و فى غربيه باب لطيف، و قدّامه حجر أقيم إذا أرادوا رفعه رفعوه، و إذا قصدهم أحد أرسلوه فانطبق على الموضع فلم يعرف مكان الباب، و داخل الدير عين ماء، و خارجه عين أخرى، و زعم النصارى أن به نارا من أنواع النار التى كانت ببيت المقدس، يقدمون منها فى كلّ عشية، و هى بيضاء لطيفة ضعيفة الحرّ لا تحرق، ثم تقوى إذا أوقد منها السراج، و هو عامر بالرهبان، و الناس يقصدونه، و هو من الديارات الموصوفة. قال ابن عامر فيه:

يا راهب الدير ما ذا الضوء و النورفقد أضاء بما فى ديرك الطور

هل حلّت الشمس فيه دون أبرجهاأو غيّب البدر فيه و هو مستور

فقال ما حلّه شمس و لا قمرلكن تقرّب فيه اليوم قوريرر

قلت ذكر مؤرخو النصارى أنّ هذا الدير أمر بعمارته يوسطيانوس ملك الروم بقسطنطينية، فعمل عليه حصن فوقه عدّة قلالى، و أقيم فيه الحرس لحفظ رهبانه من قوم يقال لهم بنو صالح من العرب، و فى أيام هذا الملك كان المجمع الخامس من مجامع النصارى، و بينه و بين القلزم، و كانت مدينة، طريقان إحداهما فى البرّ و الأخرى فى البحر، و هما جميعا يؤدّيان إلى مدينة فاران، و هى من مدائن العمالقة، ثم منها إلى الطور مسيرة يومين، و من مدينة مصر إلى القلزم ثلاثة أيام، و يصعد إلى جبل الطور بستة آلاف و ستمائة و ست و ستين مرقاة، و فى نصف الجبل كنيسة لإيلياء النبىّ، و فى قلته كنيسة على اسم موسى عليه السلام بأساطين من رخام، و أبواب من صفر، و هو الموضع الذى كلم اللّه تعالى فيه موسى، و قطع منه الألواح و لا يكون فيها إلّا راهب واحد للخدمة، و يزعمون أنه لا يقدر أحد أن يبيت فيها، بل يهيأ له موضع من خارج يبيت فيه، و لم يبق لهاتين الكنيستين وجود.

دير البنات بقصر الشمع بمصر: و هو على اسم بوجرج، و كان مقياس النيل قبل الإسلام، و به آثار ذلك إلى اليوم، فهذا ما للنصارى اليعاقبة، و الملكية رجالهم و نسائهم من الديارات بأرض مصر قبليها و بحريها، و عدّتها ستة و ثمانون ديرا منها لليعاقبة ... ديرا و للملكية ... .

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۸

ذكر كنائس النصارى

اشارة

قال الأزهريّ: كنيسة اليهود جمعها كنائس، و هى معرّبة أصلها كنشت. انتهى. و قد نطقت العرب بذكر الكنيسة. قال العباس بن مرداس السلميّ:

بدورون بى فى ظل كلّ كنيسةو ما كان قومى يبنون الكنائسا

و قال ابن قيس الرقيات: كأنها دمية مصوّرة فى بيعة من كنائس الروم.

كنيستا الخندق: ظاهر القاهرة، إحداهما على اسم غبريال الملاك، و الأخرى على اسم مرقوريوس، و عرفت برويس، و كان راهبا مشهورا بعد سنة ثمانمائة، و عند هاتين الكنيستين يقبر النصارى موتاهم، و تعرف بمقبرة الخندق، و عمرت هاتان الكنيستان عوضا عن كنائس المقس فى الأيام الإسلامية.

كنيسة حارة زويلة بالقاهرة: كنيسة عظيمة عند النصارى اليعاقبة، و هى على اسم السيدة، و زعموا أنها قديمة تعرف بالحكيم زايلون، و كان قبل الملة الإسلامية بنحو مائتين و سبعين سنة، و أنه صاحب علوم شتى، و أن له كنزا عظيما يتوصل إليه من بئر هناك.

كنيسة تعرف بالمغيثة: بحارة الروم من القاهرة على اسم السيدة مريم، و ليس لليعاقبة بالقاهرة سوى هاتين الكنيستين، و كان بحارة الروم أيضا كنيسة أخرى يقال لها كنيسة بربارة هدمت فى سنة ثمان عشرة و سبعمائة، و سبب ذلك أن النصارى رفعوا قصة للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون يسألون الإذن فى إعادة ما تهدّم منها، فأذن لهم فى ذلك فعمروها أحسن ما كانت، فغضبت طائفة من المسلمين و رفعوا قصة للسلطان بأن النصارى أحدثوا بجانب هذه الكنيسة بناء لم يكن فيها، فرسم للأمير علم الدين سنجر الخازن، والى القاهرة بهدم ما جدّدوه، فركب و قد اجتمع الخلائق، فبادروا و هدموا الكنيسة كلها فى أسرع وقت، و أقاموا فى موضعها محرابا و أذنوا و صلوا و قرؤا القرآن، كل ذلك بأيديهم، فلم تمكن معارضتهم خشية الفتنة، فاشتدّ الأمر على النصارى و شكوا أمرهم للقاضى كريم الدين ناظر الخاص، فقام و قعد غضبا لدين أسلافه، و ما زال بالسلطان حتى رسم بهدم المحراب فهدم، و صار موضعه كوم تراب و مضى الحال على ذلك.

كنيسة بومنا: هذه الكنيسة قريبة من السدّ فيما بين الكيمان بطريق مصر، و هى ثلاث كنائس متجاورة، إحداها لليعاقبة، و الأخرى للسريان، و أخرى للأرمن، و لها عيد فى كل سنة تجتمع إليه النصارى.

كنيسة المعلقة: بمدينة مصر فى خط قصر الشمع، على اسم السيدة، و هى جليلة القدر عندهم، و هى غير القلاية التى تقدّم ذكرها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۹

كنيسة شنوده: بمصر، نسبت لأبى شنودة الراهب القديم، و له أخبار منها: أنه كان ممن يطوى فى الأربعين إذا صام، و كان تحت يده ستة آلاف راهب يتقوّت هو و إياهم من عمل الخوص، و له عدّة مصنفات.

كنيسة مريم: بجوار كنيسة شنودة، هدمها علىّ بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس أمير مصر لما ولى من قبل أمير المؤمنين الهادى موسى، فى سنة تسع و ستين و مائة، و هدم كنائس محرس قسطنطين، و بذل له النصارى فى تركها خمسين ألف دينار فامتنع، فلما عزل بموسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد اللّه بن عباس فى خلافة هارون الرشيد، أذن موسى بن عيسى للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها علىّ بن سليمان، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد، و عبد اللّه بن لهيعة. و قالا هو من عمارة البلاد، و احتجا بأن الكنائس التى بمصر لم تبن إلّا فى الإسلام فى زمن الصحابة و التابعين.

كنيسة بوجرج الثقة: هذه الكنيسة فى درب بخط قصر الشمع بمصر يقال له درب الثقة، و يجاورها كنيسة سيدة بوجرج.

الثقة، و يجاورها كنيسة سيدة بوجرج.

كنيسة بربارة: بمصر، كبيرة جليلة عندهم، و هى تنسب إلى القديسة بربارة الراهبة، و كان فى زمانها راهبتان بكران، و هما ايسى و تكلة، و يعمل لهنّ عيد عظيم بهذه الكنيسة يحضره البطريق.

كنيسة بوسرحه: بالقرب من بربارة بجوار زاوية ابن النعمان، فيها مغارة يقال أن المسيح و أمّه مريم عليها السلام جلسا بها.

كنيسة بابليون: فى قبلىّ قصر الشمع بطريق جسر الأفرم، و هذه الكنيسة قديمة جدّا، و هى لطيفة، و يذكر أن تحتها كنز بابليون و قد خرب ما حولها.

كنيسة تاودورس الشهيد: بجوار بابليون، نسبت للشهيد تاودورس الإسفهسلار.

كنيسة بومنا بجوار بابليون أيضا: و هاتان الكنيستان مغلوقتان لخراب ما حولهما.

كنيسة بومنا: بالحمراء، و تعرف الحمراء اليوم بخط قناطر السباع، فيما بين القاهرة و مصر، و أحدثت هذه الكنيسة فى سنة سبع عشرة و مائة من سنى الهجرة بإذن الوليد بن رفاعة أمير مصر، فغضب و هيب اليحصبىّ و خرج على السلطان و جاء إلى ابن رفاعة ليفتك به، فأخذ و قتل، و كان وهيب مدريا من اليمن، قدم إلى مصر فخرج القرّاء على الوليد بن رفاعة غضبا لوهيب و قاتلوه، و صارت معونة امرأة وهيب تطوف ليلا على منازل القرّاء تحرّضهم على الطلب بدمه، و قد حلقت رأسها، و كانت امرأة جزلة، فأخذ ابن رفاعة أبا عيسى مروان بن عبد الرحمن اليحصبىّ بالقرّاء، فاعتذر و خلى ابن رفاعة عنهم، فسكنت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۰

الفتنة بعد ما قتل جماعة، و لم تزل هذه الكنيسة بالحمراء إلى أن كانت واقعة هدم الكنائس فى أيام الناصر محمد بن قلاون على ما يأتى ذكر ذلك، و الخبر عن هدم جميع كنائس أرض مصر و ديارات النصارى فى وقت واحد.

كنيسة الزهرى: كانت فى الموضع الذى فيه اليوم البركة الناصرية بالقرب من قناطر السباع فى برّ الخليج الغربىّ، غربىّ اللوق، و اتفق فى أمرها عدّة حوادث، و ذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاون لما أنشأ ميدان المهارى المجاور لقناطر السباع، فى سنة عشرين و سبعمائة، قصد بناء زريبة على النيل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسىّ، فأمر بنقل كوم تراب كان هناك، و حفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزريبة، و أجرى الماء إلى مكان الحفر، فصار يعرف إلى اليوم بالبركة الناصرية، و كان الشروع فى حفر هذه البركة من آخر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، فلما انتهى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرىّ، و كان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها، و بجانبها أيضا عدّة كنائس فى الموضع الذى يعرف اليوم بحكر أقبغا، ما بين السبع سقايات و بين قنطرة السدّ خارج مدينة مصر، أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرىّ حتى بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان ليحفر، و هو اليوم بركة الناصرية، و زاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة، و كان القصد من ذلك أن تسقط من غير قصد لخرابها، و صارت العامّة من غلمان الأمراء العمالين فى الحفر و غيرهم فى كل وقت يصرخون على الأمراء فى طلب هدمها و هم يتغافلون عنهم إلى أن كان يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة، و العمل من الحفر بطال، فتجمع عدّة من غوغاء العامّة بغير مرسوم السلطان و قالوا بصوت عال مرتفع اللّه أكبر، و وضعوا أيديهم بالمساحى و نحوها فى كنيسة الزهرى و هدموها حتى بقيت كوما، و قتلوا من كان فيها من النصارى، و أخذوا جميع ما كان فيها، و هدموا كنيسة بومنا التى كانت بالحمراء، و كانت معظمة عند النصارى من قديم الزمان، و بها عدّة من النصارى قد انقطعوا فيها، و يحمل إليهم نصارى مصر سائر ما يحتاج إليه، و يبعث إليها بالنذور الجليلة و الصدقات الكثيرة، فوجد فيها مال كثير ما بين نقد و مصاغ و غيره، و تسلق العامّة إلى أعلاها و فتحوا أبوابها و أخذوا منها مالا و قماشا و جرار خمر، فكان أمرا مهولا.

ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعد ما هدموها إلى كنيستين بجوار السبع سقايات تعرف إحداهما بكنيسة البنات، كان يسكنها بنات النصارى و عدّة من الرهبان، فكسروا أبواب الكنيستين و سبوا البنات و كنّ زيادة على ستين بنتا، و أخذوا ما عليهنّ من الثياب و نهبوا سائر ما ظفروا به، و حرّقوا و هدموا تلك الكنائس كلها، هذا و الناس فى صلاة الجمعة، فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار و دخان الحريق و مرج الناس و شدّة حركاتهم، و معهم ما نهبوه، فما شبه الناس الحال لهوله إلّا بيوم القيامة، و انتشر الخبر و طار إلى الرميلة تحت قلعة الجبل، فسمع السلطان ضجة عظيمة ورجة منكرة أفزعته،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۱

فبعث لكشف الخبر، فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما و غضب من تجرى العامّة و إقدامهم على ذلك بغير أمره، و أمر الأمير أيدغمش أميراخور أن يركب بجماعة الأوشاقية و يتدارك هذا الخلل، و يقبض على من فعله، فأخذ أيدغمش يتهيأ للركوب و إذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامّة ثارت فى القاهرة و خرّبت كنيسة بحارة الروم، و كنيسة بحارة زويلة، و جاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامّة قامت بمصر فى جمع كثير جدّا و زحفت إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فأغلقها النصارى و هم محصورون بها و هى على أن توخذ، فتزايد غضب السلطان و همّ أن يركب بنفسه و يبطش بالعامّة، ثم تأخر لمّا راجعه الأمير أيدغمش و نزل من القلعة فى أربعة من الأمراء إلى مصر، و ركب الأمير ببرس الحاجب، و الأمير الماس الحاجب إلى موضع الحفر، و ركب الأمير طينال إلى القاهرة، و كل منهم فى عدّة وافرة، و قد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامّة، بحيث لا يعفو عن أحد، فقامت القاهرة و مصر على ساق، و فرّت النهابة، فلم يظفر الأمراء منهم إلّا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبه من الكنائس، و لحق الأمير أيدغمش بمصر و قد ركب الوالى إلى المعلقة قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب، فأخذه الرجم حتى فرّ منهم، و لم يبق إلّا أن يحرق باب الكنيسة، فجرّد أيدغمش و من معه السيوف يريدون الفتك بالعامّة، فوجدوا عالما لا يقع عليه حصر، و خاف سوء العاقبة، فأمسك عن القتل و أمر أصحابه بإرجاف العامّة من غير إهراق دم، و نادى منادية: من وقف حلّ دمه.

ففرّ سائر من اجتمع من العامّة و تفرّقوا، و صار أيدغمش واقفا إلى أن أذّن العصر خوفا من عود العامّة، ثم مضى و ألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هناك، و ترك معه خمسين من الأوشاقية.

و أما الأمير الماس فإنه وصل إلى كنائس الحمراء و كنائس الزهرىّ ليتداركها، فإذا بها قد بقيت كيمانا ليس بها جدار قائم، فعاد و عاد الأمراء، فردّوا الخبر على السلطان و هو لا يزداد إلّا حنقا، فما زالوا به حتى سكن غضبه، و كان الأمر فى هدم هذه الكنائس عجبا من العجب، و هو أن الناس لما كانوا فى صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل، فعندما فرغوا من الصلاة قام رجل موله و هو يصيح من وسط الجامع: اهدموا الكنيسة التى فى القلعة، اهدموها. و أكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحدّ، ثم اضطرب. فتعجب السلطان و الأمراء من قوله، و رسم لنقيب الجيوش و الحاجب بالفحص عن ذلك، فمضيا من الجامع إلى خرائب التتر من القلعة، فإذا فيها كنيسة قد بنيت فهدموها، و لم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بواقعة كنائس الحمراء و القاهرة، فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير، و طلب فلم يوقف له على خبر، و اتفق أيضا بالجامع الأزهر أن الناس لما اجتمعوا فى هذا اليوم لصلاة الجمعة، أخذ شخصا من الفقراء مثل الرعدة، ثم قام بعد ما أذن قبل أن يخرج الخطيب و قال: اهدموا كنائس الطغيان و الكفرة، نعم اللّه أكبر، فتح اللّه و نصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۲

و صار يزعج نفسه و يصرخ من الأساس إلى الأساس، فحدّق الناس بالنظر إليه و لم يدروا ما خبره، و افترقوا فى أمره. فقائل هذا مجنون، و قائل هذه إشارة لشىء. فلما خرج الخطيب أمسك عن الصياح، و طلب بعد انقضاء الصلاة فلم يوجد. و خرج الناس إلى باب الجامع فرأوا النهابة و معهم أخشاب الكنائس و ثياب النصارى و غير ذلك من النهوب، فسألوا عن الخبر فقيل: قد نادى السلطان بخراب الكنائس، فظنّ الناس الأمر كما قيل، حتى تبين بعد قليل أن هذا الأمر إنما كان من غير أمر السلطان، و كان الذى هدم فى هذا اليوم من الكنائس بالقاهرة، كنيسة بحارة الروم، و كنيسة بالبندقانيين، و كنيستين بحارة زويلة. و فى يوم الأحد الثالث من يوم الجمعة الكائن فيه هدم كنائس القاهرة و مصر، ورد الخبر من الأمير بدر الدين بيلبك المحسنىّ والى الإسكندرية، بأنه لما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة، وقع فى الناس هرج، و خرجوا من الجامع و قد وقع الصياح: هدمت الكنائس- فركب المملوك من فوره فوجد الكنائس قد صارت كوما، و عدّتها أربع كنائس، و أن بطاقة وقعت من والى البحيرة بأن كنيستين فى مدينة دمنهور هدمتا و الناس فى صلاة الجمعة من هذا اليوم، فكثر التعجب من ذلك، إلى أن ورد فى يوم الجمعة سادس عشرة الخبر من مدينة قوص بأن الناس عند ما فرغوا من صلاة الجمعة فى اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر، قام رجل من الفقراء و قال يا فقراء اخرجوا إلى

هدم الكنائس، و خرج فى جمع من الناس فوجدوا الهدم قد وقع فى الكنائس، فهدمت ست كنائس كانت بقوص و ما حولها فى ساعة واحدة، و تواتر الخبر من الوجه القبلىّ و الوجه البحرىّ بكثرة ما هدم فى هذا اليوم وقت صلاة الجمعة و ما بعدها من الكنائس و الأديرة، فى جميع إقليم مصر كله، ما بين قوص و الإسكندرية و دمياط، فاشتدّ حنق السلطان على العامّة خوفا من فساد الحال، و أخذ الأمراء فى تسكين غضبه و قالوا: هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله، و لو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه، و ما هذا إلّا بأمر اللّه سبحانه، و بقدره لما علم من كثرة فساد النصارى و زيادة طغيانهم، ليكون ما وقع نقمة و عذابا لهم، هذا و العامّة بالقاهرة و مصر قد اشتدّ خوفهم من السلطان لما كان يبلغهم عنه من التهديد لهم بالقتل، ففرّ عدّة من الأوباش و الغوغاء، و أخذ القاضى فخر الدين ناظر الجيش فى ترجيع السلطان عن الفتك بالعامّة و سياسة الحال معه، و أخذ كريم الدين الكبير ناظر الخاص يغريه بهم إلى أن أخرجه السلطان إلى الإسكندرية بسبب تحصيل المال، و كشف الكنائس التى خربت بها.

فلم يمض سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتى وقع الحريق بالقاهرة و مصر فى عدّة مواضع، و حصل فيه من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس، فوقع الحريق فى ربع بخط الشوّايين من القاهرة، فى يوم السبت عاشر جمادى الأولى، و سرت النار إلى ما حوله و استمرّت إلى آخر يوم الأحد، فتلف فى هذا الحريق شىء كثير، و عند ما أطفىء وقع الحريق بحارة الديلم فى زقاق العريسة بالقرب من دور كريم الدين ناظر الخاص، فى خامس عشرى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۳

جمادى الأولى، و كانت ليلة شديدة الريح، فسرت النار من كلّ ناحية حتى وصلت إلى بيت كريم الدين، و بلغ ذلك السلطان فانزعج انزعاجا عظيما لما كان هناك من الحواصل السلطانية، و سيّر طائفة من الأمراء لإطفائه، فجمعوا الناس لإطفائه و تكاثروا عليه و قد عظم الخطب من ليلة الاثنين إلى ليلة الثلاثاء، فتزايد الحال فى اشتعال النار و عجز الأمراء و الناس عن إطفائها لكثرة انتشارها فى الأماكن و قوّة الريح التى ألقت باسقات النخل، و غرّقت المراكب، فلم يشكّ الناس فى حريق القاهرة كلّها، و صعدوا المآذن، و برز الفقراء و أهل الخير و الصلاح و ضجوا بالتكبير و الدعاء، و جأروا و كثر صراخ الناس و بكاؤهم، و صعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدّة الريح، و استمرّ الحريق و الاستحثاث يرد على الأمراء من السلطان فى إطفائه إلى يوم الثلاثاء، فنزل نائب السلطان و معه جميع الأمراء و سائر السقائين، و نزل الأمير بكتمر الساقى، فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم منه و لا أشدّ هولا، و وكل بأبواب القاهرة من يردّ السقائين إذا خرجوا من القاهرة لأجل إطفاء النار، فلم يبق أحد من سقائى الأمراء و سقائى البلد إلّا و عمل، و صاروا ينقلون الماء من المدارس و الحمامات، و أخذ جميع النجارين و سائر البنائين لهدم الدور، فهدم فى هذه النوبة ما شاء اللّه من الدور العظيمة و الرباع الكبيرة، و عمل فى هذا الحريق أربعة و عشرون أميرا من الأمراء المقدّمين، سوى من عداهم من أمراء الطبلخانات و العشراوات و المماليك، و عمل الأمراء بأنفسهم فيه، و صار الماء من باب زويلة إلى حارة الديلم فى الشارع بحرا من كثرة الرجال و الجمال التى تحمل الماء، و وقف الأمير بكتمر الساقى و الأمير أرغون النائب على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده بدرب الرصاصىّ، و خرّبوا ستة عشر دارا من جوار الدار و قبالتها، حتى تمكنوا من نقل الحواصل، فما هو إلا أن كمل إطفاء الحريق و نقل الحواصل، و إذا بالحريق قد وقع فى ربع الظاهر خارج باب زويلة، و كان يشتمل على مائة و عشرين بيتا، و تحته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء، وهب مع الحريق ريح قوية، فركب الحاجب و الوالى لإطفائه و هدموا عدّة دور من حوله حتى انطفأ، فوقع فى ثانى يوم حريق بدار الأمير سلار فى خط بين القصرين، ابتدأ من الباذهنج، و كان ارتفاعه عن الأرض مائة ذراع بالعمل، فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفىء، فأمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة، و الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، بالاحتراز و اليقظة، و نودى بأن يعمل عند كلّ حانوت دنّ فيه ماء، أو زير مملوء بالماء، و أن يقام مثل ذلك فى جميع الحارات و الأزقة و الدروب، فبلغ ثمن كل دنّ خمس دراهم بعد درهم، و ثمن الزير ثمانية دراهم، و وقع حريق بحارة الروم و عدّة مواضع، حتى أنه لم يخل يوم من وقوع الحريق فى موضع، فتنبه الناس لما نزل بهم، و ظنوا أنه من أفعال النصارى، و ذلك أن النار

كانت ترى فى منابر الجوامع و حيطان المساجد و المدارس، فاستعدّوا للحريق و تتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبلولة بزيت و قطران. فلما كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۴

ليلة الجمعة النصف من جمادى، قبض على راهبين عند ما خرجا من المدرسة الكهارية بعد العشاء الآخرة، و قد اشتعلت النار فى المدرسة، و رائحة الكبريت فى أيديهما، فحملا إلى الأمير علم الدين الخازن والى القاهرة، فأعلم السلطان بذلك فأمر بعقوبتهما، فما هو إلّا أن نزل من القلعة و إذا بالعامّة قد أمسكوا نصرانيا وجد فى جامع الظاهر و معه خرق على هيئة الكعكة، فى داخلها قطران و نفط، و قد ألقى منها واحدة بجانب المنبر، و ما زال واقفا إلى أن خرج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامع، و كان قد فطن به شخص و تأمّله من حيث لم يشعر به النصرانىّ، فقبض عليه و تكاثر الناس فجرّوه إلى بيت الوالى و هو بهيئة المسلمين، فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط و تفريقه مع جماعة من أتباعهم، و أنه ممن أعطى ذلك و أمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر، ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهما من سكان دير البغل، و أنهما هما اللذان أحرقا المواضع التى تقدّم ذكرها بالقاهرة، غيرة و حنقا من المسلمين لما كان من هدمهم للكنائس، و أن طائفة النصارى تجمعوا و أخرجوا من بينهم مالا- جزيلا- لعمل هذا النفط. و اتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الإسكندرية، فعرّفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى، فقال: النصارى لهم بطرك يرجعون إليه و يعرف أحوالهم، فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدّث معه فى أمر الحريق و ما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك، فجاء فى حماية والى القاهرة فى الليل خوفا من العامّة، فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم و أحضر إليه الثلاثة النصارى من عند الوالى، قالوا لكريم الدين بحضرة البطرك و الوالى جميع ما اعترفوا به قبل ذلك، فبكى البطرك عند ما سمع كلامهم و قال: هؤلاء سفهاء النصارى، قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس، و انصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرّما، فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها، فركبها و سار، فعظم ذلك على الناس و قاموا عليه يدا واحدة، فلو لا أن الوالى كان يسايره و إلّا هلك، و أصبح كريم الدين يريد الركوب إلى القلعة على العادة، فلما خرج إلى الشارع صاحت به العامّة ما يحلّ لك يا قاضى تحامى للنصارى و قد أحرقوا بيوت المسلمين و تركبهم بعد هذا البغال، فشق عليه ما سمع و عظمت نكايته، و اجتمع بالسلطان، فأخذ يهوّن أمر النصارى الممسوكين و يذكر أنهم سفهاء و جهال، فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم، فنزل و عاقبهم عقوبة مؤلمة، فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها، و فيهم راهب يصنع النفط، و أنهم اقتسموا القاهرة و مصر، فجعل للقاهرة ثمانية، و لمصر ستة، فكبس دير البغل و قبض على من فيه و أحرق من جماعته أربعة بشارع صليبة جامع ابن طولون فى يوم الجمعة، و قد اجتمع لمشاهدتهم عالم عظيم، فضرى من حينئذ جمهور الناس على النصارى و فتكوا بهم، و صاروا يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر و تجاوزوا فيهم المقدار، فغضب السلطان من ذلك و همّ أن يوقع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۵

بالعامّة، و اتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير فى يوم السبت، فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات و هم يصيحون نصر اللّه الإسلام، أنصر دين محمد بن عبد اللّه.

فخرج من ذلك، و عندما نزل الميدان أحضر إليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما و هما يحرقان الدور، فأمر بتحريقهما، فأخرجا و عمل لهما حفرة و أحرقا بمرأى من الناس، و بينا هم فى إحراق النصرانيين إذا بديوان الأمير بكتمر الساقى قد مرّ يريد بيت الأمير بكتمر، و كان نصرانيا، فعندما عاينه العامّة ألقوه عن دابته إلى الأرض و جرّدوه من جميع ما عليه من الثياب و حملوه ليلقوه فى النار، فصاح بالشهادتين و أظهر الإسلام، فأطلق.

و اتفق مع هذا مرور كريم الدين، و قد لبس التشريف، من الميدان، فرجمه من هنالك رجما متتابعا و صاحوا به: كم تحامى للنصارى

و تشدّ معهم، و لعنوه و سبّوه، فلم يجد بدّا من العود إلى السلطان و هو بالميدان، و قد اشتدّ ضجيج العامّة و صياحهم حتى سمعهم السلطان، فلما دخل عليه و أعلمه الخبر امتلأ غضبا و استشار الأمراء، و كان بحضرته منهم الأمير جمال الدين نائب الكرك، و الأمير سيف الدين البوبكرىّ، و الخطيرىّ، و بكتمر الحاجب فى عدّة أخرى، فقال الأبوبكرىّ: العامة عمى و المصلحة أن يخرج إليهم الحاجب و يسألهم عن اختيارهم حتى يعلم. فكره هذا من قوله السلطان، و أعرض عنه. فقال نائب الكرك: كل هذا من أجل الكتاب النصارى، فإن الناس أبغضوهم، و الرأى أن السلطان لا يعمل فى العامة شيئا، و إنما يعزل النصارى من الديوان. فلم يعجبه هذا الرأى أيضا، و قال للأمير الماس الحاجب: امض و معك أربعة من الأمراء وضع السيف فى العامّة من حين تخرج من باب الميدان إلى أن تصل إلى باب زويلة، و اضرب فيهم بالسيف من باب زويلة إلى باب النصر، بحيث لا ترفع السيف عن أحد البتة. و قال لوالى القاهرة: اركب إلى باب اللوق و إلى باب البحر، و لا تدع أحدا حتى تقبض عليه و تطلع به إلى القلعة، و متى لم تحضر الذين رجموا وكيلى، يعنى كريم الدين، و إلّا و حياة رأسى شنقتك عوضا عنهم، و عين معه عدّة من المماليك السلطانية، فخرج الأمراء بعد ما تلكئوا فى المسير حتى اشتهر الخبر، فلم يجدوا أحدا من الناس حتى و لا غلمان الأمراء و حواشيهم، و وقع القول بذلك فى القاهرة، فغلقت الأسواق جميعها، و حل بالناس أمر لم يسمع بأشدّ منه، و سار الأمراء فلم يجدوا فى طول طريقهم أحدا إلى أن بلغوا باب النصر، و قبض الوالى من باب اللوق و ناحية بولاق و باب البحر كثيرا من الكلابزية و النواتية و أسقاط الناس، فاشتدّ الخوف و عدّى كثير من الناس إلى البرّ الغربىّ بالجيزة، و خرج السلطان من الميدان فلم يجد فى طريقه إلى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامّة، و عند ما استقرّ بالقلعة سيّر إلى الوالى يستعجل حضوره، فما غربت الشمس حتى أحضر ممن أمسك من العامّة نحو مائتى رجل، فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم، و جماعة رسم بتوسيطهم، و جماعة رسم بقطع أيديهم، فصاحوا بأجمعهم: يا خوند ما يحلّ لك، ما نحن الذين رجمنا، فبكى الأمير بكتمر الساقى و من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۶

حضر من الأمراء رحمة لهم، و ما زالوا بالسلطان إلى أن قال للوالى: اعزل منهم جماعة، و انصب الخشب من باب زويلة إلى تحت القلعة بسوق الخيل، و علّق هؤلاء بأيديهم. فلما أصبح يوم الأحد علق الجميع من باب زويلة إلى سوق الخيل، و كان فيهم من له بزة و هيئة، و مرّ الأمراء بهم فتوجعوا لهم و بكوا عليهم، و لم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة و مصر فى هذا اليوم حانوتا، و خرج كريم الدين من داره يريد القلعة على العادة فلم يستطع المرور على المصولبين، و عدل عن طريق باب زويلة، و جلس السلطان فى الشباك و قد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى فقطع أيدى و أرجل ثلاثة منهم و الأمراء لا يقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدّة حنقه، فتقدّم كريم الدين و كشف رأسه و قبّل الأرض و هو يسأل العفو، فقبل سؤاله و أمر بهم أن يعملوا فى حفير الجيزة، فأخرجوا و قد مات ممن قطع أيديهم اثنان، و أنزل المعلقون من على الخشب.

و عند ما قام السلطان من الشباك وقع الصوت بالحريق فى جهة جامع ابن طولون، و فى قلعة الجبل، و فى بيت الأمير ركن الدين الأحمدىّ بحارة بهاء الدين، و بالفندق خارج باب البحر من المقس و ما فوقه من الربع، و فى صبيحة يوم هذا الحريق قبض على ثلاثة من النصارى و جد معهم فتائل النفط، فأحضروا إلى السلطان و اعترفوا بأن الحريق كان منهم، و استمرّ الحريق فى الأماكن إلى يوم السبت، فلما ركب السلطان إلى الميدان على عادته، وجد نحو عشرين ألف نفس من العامّة قد صبغوا خرقا بلون أزرق و علموا فيها صلبانا بيضا، و عند ما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد لا دين إلّا دين الإسلام، نصر اللّه دين محمد بن عبد اللّه، يا ملك الناصر، يا سلطان الإسلام انصرنا على أهل الكفر، و لا تنصر النصارى. فارتجت الدنيا من هول أصواتهم، و أوقع اللّه الرعب فى قلب السلطان و قلوب الأمراء، و سار و هو فى فكر زائد حتى نزل بالميدان و صراخ العامة لا يبطل، فرأى أن الرأى فى استعمال المداراة، و أمر الحاجب أن يخرج و ينادى بين يديه: من وجد نصرانيا فله ماله و دمه. فخرج و نادى بذلك، فصاحت العامّة و صرخت: نصرك اللّه. و ضجوا بالدعاء، و كان النصارى يلبسون العمائم البيض، فنودى فى القاهرة و مصر من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حلّ له دمه و

ماله، و من وجد نصرانيا راكبا حلّ له دمه و ماله، و خرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء، و أن لا يركب أحد منهم فرسا و لا بغلا و من ركب حمارا فليركبه مقلوبا، و لا يدخل نصرانيّ الحمام إلّا و فى عنقه جرس، و لا يتزيا أحد منهم بزيّ المسلمين، و منع الأمراء من استخدام النصارى، و أخرجوا من ديوان السلطان. و كتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من النصارى، و كثر إيقاع المسلمين بالنصارى حتى تركوا السعى فى الطرقات، و أسلم منهم جماعة كثيرة، و كان اليهود قد سكت عنهم فى هذه المدّة، فكان النصرانيّ إذا أراد أن يخرج من منزله يستعير عمامة صفراء من أحد من اليهود و يلبسها، حتى يسلم من العامّة، و اتفق أن بعض دواوين النصارى كان له عند يهوديّ مبلغ أربعة آلاف درهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۷

نقرة، فصار إلى بيت اليهوديّ و هو متنكر فى الليل ليطالبه، فأمسكه اليهودى و قال: أنا بالله و بالمسلمين، و صاح. فاجتمع الناس لأخذ النصرانيّ، ففرّ إلى داخل بيت اليهوديّ و استجار بامرأته، و أشهد عليه بإبراء اليهوديّ حتى خلص منه، و عثر على طائفة من النصارى بدير الخندق يعملون النفط لإحراق الأماكن، فقبض عليهم و سمروا و نودى فى الناس بالأمان، و أنهم يتفرّجون على عادتهم عند ركوب السلطان إلى الميدان، و ذلك أنهم كانوا قد تخوّفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالنصارى، و زادوا فى الخروج عن الحدّ، فاطمأنوا و خرجوا على العادة إلى جهة الميدان، و دعوا للسلطان، و صاروا يقولون نصرك اللّه يا سلطان الأرض، اصطلحنا اصطلحنا، و أعجب السلطان ذلك و تبسم من قولهم، و فى تلك الليلة وقع حريق فى بيت الأمير الماس الحاجب من القلعة، و كان الريح شديدا، فقويت النار و سرت إلى بيت الأمير ايتمش، فانزعج أهل القلعة و أهل القاهرة و حسبوا أن القلعة جميعها احترقت، و لم يسمع بأشنع من هذه الكائنة، فإنه احترق على يد النصارى بالقاهرة ربع فى سوق الشوّايين، و زقاق العريسة بحارة الديلم، و ستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين، و عدّة أماكن بحارة الروم، و دار بهادر بجوار المشهد الحسينيّ، و أماكن باصطبل الطارمة و بدرب العسل، و قصر أمير سلاح، و قصر سلار بخط بين القصرين، و قصر بيسرى، و خان الحجر، و الجملون، و قيسارية الادم، و دار بيبرس بحارة الصالحية، و دار ابن المغربيّ بحارة زويلة، و عدّة أماكن بخط بئر الوطاويط و بيشكر و فى قلعة الجبل و فى كثير من الجوامع و المساجد إلى غير ذلك من الأماكن بمصر و القاهرة يطول عددها.

و خرب من الكنائس كنيسة بخرائب التتر من قلعة الجبل، و كنيسة الزهرى فى الموضع الذى فيه الآن البركة الناصرية، و كنيسة الحمراء، و كنيسة بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات، و كنيسة أبى المنيا، و كنيسة الفهادين بالقاهرة، و كنيسة بحارة الروم، و كنيسة بالبندقانيين، و كنيستان بحارة زويلة، و كنيسة بخزانة البنود، و كنيسة بالخندق، و أربع كنائس بثغر الإسكندرية، و كنيستان بمدينة دمنهور الوحش، و أربع كنائس بالغربية، و ثلاث كنائس بالشرقية، و ست كنائس بالبهنساوية، و بسيوط و منفلوط و منية الخصيب ثمان كنائس، و بقوص و أسوان إحدى عشرة كنيسة، و بالأطفيحية كنيسة، و بسوق وردان من مدينة مصر، و بالمصاصة و قصر الشمع من مصر ثمان كنائس، و خرب من الديارات شىء كثير، و أقام دير البغل و دير شهران مدّة ليس فيهما أحد، و كانت هذه الخطوب الجليلة فى مدّة يسيرة. قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاولة، هلك فيها من الأنفس و تلف فيها من الأموال و خرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته، و للّه عاقبة الأمور.

كنيسة ميكائيل: هذه الكنيسة كانت عند خليج بنى وائل خارج مدينة مصر قبلىّ عقبة يحصب، و هى الآن قريبة من جسر الأفرم، أحدثت فى الإسلام و هى مليحة البناء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۸

كنيسة مريم: فى بساتين الوزير قبلىّ بركة الحبش خالية ليس بها أحد.

كنيسة مريم: بناحية العدوية من قبليها قديمة و قد تلاشت.

كنيسة أنطونيوس: بناحية بياض قبلىّ اطفيح، و هى محدثة. و كان بناحية شرنوب عدّة كنائس خربت، و بقى بناحية أهريت الجبل قبلىّ

بياض بيومين. كنيسة السيدة: بناحية أشكر و على بابها برج مبنيّ بلبن كبار يذكر أنه موضع ولد موسى بن عمران عليه السلام.

كنيسة مريم: بناحية الخصوص و هى بيت فعملوه كنيسة لا يعبأ بها.

كنيسة مريم و

كنيسة بخنس القصير و

كنيسة غبريال: هذه الكنائس الثلاث بناحية أبنوب.

كنيسة أسبوطير و معناه المخلص: هذه الكنيسة بمدينة اخميم، و هى كنيسة معظمة عندهم، و هى على اسم الشهداء، و فيها بئر إذا جعل ماؤها فى القنديل صار أحمر قانيا كأنه الدم.

كنيسة ميكائيل: بمدينة أخميم أيضا، و من عادة النصارى بهاتين الكنيستين إذا عملوا عيد الزيتونة المعروف بعيد الشعانين أن يخرج القسوس و الشمامسة بالمجامر و البخور و الصلبان و الأناجيل و الشموع المشتعلة و يقفوا على باب القاضى، ثم أبواب الأعيان من المسلمين، فيبخروا و يقرءوا فصلا من الإنجيل، و يطرحوا له طرحا، يعنى يمدحونه.

كنيسة بوبخوم: بناحية اتفه، و هى آخر كنائس الجانب الشرقيّ، و بخوم و يقال بخوميوس، كان راهبا فى زمن بوشنودة، و يقال له أبو الشركة من أجل أنه كان يربى الرهبان، فيجعل لكل راهبين معلما، و كان لا يمكن من دخول الخمر و لا اللحم إلى ديره، و يأمر بالصوم إلى آخر التاسعة من النهار، و يطعم رهبانه الحمص المصلوق، و يقال له عندهم حمص القلة، و قد خرب ديره و بقيت كنيسته هذه باتفه قبليّ اخميم.

كنيسة مرقص الإنجيليّ: بالجيزة، خربت بعد سنة ثمانمائة ثم عمرت. و مرقص هذا أحد الحواريين، و هو صاحب كرسيّ مصر و الحبشة.

كنيسة بوجرج: بناحية أبى النمرس من الجيزة، هدمت فى سنة ثمانين و سبعمائة، كما تقدّم ذكره ثم أعيدت بعد ذلك.

كنيسة بوفار: آخر أعمال الجيزة.

كنيسة شنودة: بناحية هربشت.

كنيسة بوجرج: بناحية ببا، و هى جليلة عندهم يأتونها بالنذور و يحلفون بها، و يحكون لها فضائل متعدّدة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۹

كنيسة ماروطا القدّيس: بناحية شمسطا، و هم يبالغون فى ماروطا هذا، و كان من عظماء رهبانهم، و جسده فى انبوبة بدير بوبشاء من برّية شيهات، يزورونه إلى اليوم.

كنيسة مريم بالبهناس: و يقال أنه كان بالبهنسا ثلاثمائة و ستون كنيسة خربت كلها، و لم يبق بها إلّا هذه الكنيسة لا غير.

كنيسة صمويل: الراهب بناحية شبرى.

كنيسة مريم: بناحية طنبدى و هى قديمة.

كنيسة ميخائيل: بناحية طنبدى و هى كبيرة قديمة، و كان هناك كنائس كثيرة خربت، و أكثر أهل طنبدى نصارى أصحاب صنائع.

كنيسة الأيصطولى: أعنى الرسل، بناحية أشنين، و هى كبيرة جدّا.

كنيسة مريم: بناحية اشنين أيضا و هى قديمة.

كنيسة ميخائيل و

كنيسة غبريال: بناحية اشنين أيضا، و كان بهذه الناحية مائة و ستون كنيسة خربت كلها إلّا هذه الكنائس الأربع، و أكثر أهل اشنين نصارى، و عليهم الدرك فى الخفارة، و بظاهرها آثار كنائس يعملون فيها أعيادهم، منها كنيسة بوجرج، و كنيسة مريم، و كنيسة ماروطا، و كنيسة بربارة، و كنيسة كفريل، و هو جبريل عليه السلام.

و فی منیة ابن خصیب ست کنائس: کنیسة المعلقة و هی کنیسة السیدة، و کنیسة بطرس و بولص، و کنیسة میکائیل، و کنیسة بوجرج، و کنیسة انیابولا الطمویهیّ، و کنیسة الثلاث فتیة، و هم حنانیا و عزاریا و میصائیل، و کانوا أجنادا فی أیام بخت نصر فعبدوا اللّه تعالی خفیة، فلما عثروا علیهم راودهم بخت نصر أن یرجعوا إلی عبادة الأصنام فامتنعوا من ذلک، فسجنهم مدّة لیرجعوا فلم یرجعوا، فأخرجهم و ألقاهم فی النار فلم تحرقهم، و النصاری تعظمهم، و إن کانوا قبل المسیح بدهر.

کنیسة بناحیة طحا: علی اسم الحواریین الذین یقال لهم عندهم الرسل.

کنیسة مریم: بناحیة طحا أیضا.

کنیسة الحکیمین: بناحیة منهری، لها عید عظیم فی بشنس یحضره الأسقف، و یقام هناک سوق کبیر فی العید، و هذان الحیکمان هما قزمان و دمیان الراهبان.

کنیسة السیدة: بناحیة بقرقاس قدیمة کبیرة.

و بناحیة ملوی کنیسة کنیسة الرسل، و کنیستان خراب، إحداهما علی اسم بوجرج، و الأخری علی اسم الملک میخائیل. و بناحیة دلجة کنائس کثیرة لم یبق منها إلّا ثلاث

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۴، ص: ۴۵۰

کنائس: کنیسة السیدة، و هی کبیرة. و کنیسة شنودة، و کنیسة مرقورة، و قد تلاشت کلها.

و بناحیة صنبو کنیسة انبابولا، و کنیسة بوجرج، و صنبو کثیرة النصاری. و بناحیة ببلاو و هی بحریّ صنبو کنیسة قدیمة بجانبها الغربیّ علی اسم جرجس، و بها نصاری کثیرون فلاحون.

و بناحیا دروط کنیسة و فی خارجها شبه الدیر علی اسم الراهب ساراماتون، و کان فی زمان شنودة، و عمل أسقفا، و له أخبار کثیرة. و بناحیة بوق بنی زید کنیسة کبیرة علی اسم الرسل، و لها عید. و بالقوصیة کنیسة مریم، و کنیسة غبریال، و بناحیة دمشیر کنیسة الشهید مرقوریوس، و هی قدیمة و بها عدّة نصاری. و بناحیة أمّ القصور کنیسة بوبخنس القصیر و هی قدیمة. و بناحیة بلوط من ضواحی منفلوط کنیسة میخائیل و هی صغیرة. و بناحیة البلاعزة من ضواحی منفلوط کنیسة صغیرة یقیم بها القسیس بأولاده. و بناحیة شقلقیل ثلاث کنائس کبار قدیمة إحداها علی اسم الرسل، و أخری باسم میخائیل، و أخری باسم بومنا. و بناحیة منشأة النصاری کنیسة میخائیل. و بمدینة سیوط کنیسة بوسدرة و کنیسة الرسل، و بخارجها کنیسة بومینا. و بناحیة درنکة کنیسة قدیمة جدّا علی اسم الثلاثة فتیة حنانیا و عزاریا و میصائیل، و هی مورد لفقراء النصاری، و درنکة أهلها من النصاری یعرفون اللغة القبطیة، فیتحدّث صغیرهم و کبیرهم بها، و یفسرونها بالعربیة. و بناحیة ریفة کنیسة بوقلتة الطبیب الراهب صاحب الأحوال العجیبة فی مداواة الرمدی من الناس، و له عید یعمل بهذه الکنیسة. و بها کنیسة میخائیل أیضا، و قد أکلت الأرضة جانب ریفة الغربیّ. و بناحیة موشة کنیسة مرکبة علی حمام علی اسم الشهید بقطر، و بنیت فی أیام قسطنطین ابن هیلانة، و لها رصیف عرضه عشرة أذرع، و لها ثلاث قباب ارتفاع کل منها نحو الثمانین ذراعا، مبنیة بالحجر الأبیض کلها، و قد سقط نصفها الغربیّ، و یقال أنّ هذه الکنیسة علی کنز تحتها، و یذکر أنه کان من سیوط إلی موشة هذه ممشاة تحت الأرض.

و بناحیة بقور من ضواحی بوتیج کنیسة قدیمة للشهید اکلودیس، و هو یعدل عندهم مرقوریوس، و جاأرجیوس، و هو أبو جرج و الإسفهسلارتا أدروس و میتاوس، و کان أکلودیوس أبوه من قوّاد دیقلطیانوس، و عرف هو بالشجاعة فتنصر، فأخذه الملک و عذبه لیرجع إلی عبادة الأصنام، فثبت حتی قتل و له أخبار کثیرة.

و بناحیة القطیعة کنیسة علی اسم السیدة، و کان بها أسقف یقال له الدوین، بینه و بینهم منافرة فدفنوه حیا، و هم من شرار النصاری معروفون بالشرّ، و کان منهم نصرانیّ یقال له جرجس ابن الراهبة، تعدّی طوره فضرب رقبته الأمیر جمال الدین یوسف الأستادار بالقاهرة فی أیام الناصر فرج بن برقوق.

و بناحية بوتيج كنائس كثيرة قد خربت، و صار النصارى يصلون فى بيت لهم سرّا، فإذا طلع النهار خرجوا إلى آثار كنيسة و عملوا لها سياجا من جريد شبه القفص و أقاموا هناك عباداتهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵۱

و بناحية مقروفه كنيسة قديمة لميخائيل، و لها عيد فى كل سنة، و أهل هذه الناحية نصارى، أكثرهم رعاة غنم و هم همج رعاع.

و بناحية دوينة كنيسة على اسم بوبخنس القصير، و هى قبة عظيمة و كان بها رجل يقال له يونس، عمل أسقفا و اشتهر بمعرفة علوم عديدة فتعصبوا عليه حسدا منهم له على علمه و دفنوه حيا، و قد توعك جسمه.

و بالمراغة التى بين طهطا و طما كنيسة.

و بناحية قلفا كنيسة كبيرة، و تعرف نصارى هذه البلدة بمعرفة السحر و نحوه، و كان بها فى أيام الظاهر برقوق شماس يقال له أبصاطيس له فى ذلك يد طولى، و يحكى عنه ما لا أحب حكايته لغرابته، و بناحية فرشوط كنيسة ميخائيل، و كنيسة السيدة مارت مريم، و بمدينة هوّ كنيسة السيدة و كنيسة بومنا. و بناحية بهجورة كنيسة الرسل. و باسنا كنيسة مريم و كنيسة ميخائيل و كنيسة يوحنا المعمدانىّ، و هو يحيى بن زكريا عليهما السلام. و بنقادة كنيسة السيدة، و كنيسة يوحنا المعمدانىّ، و كنيسة غبريال، و كنيسة يوحنا الرحوم، و هو من أهل أنطاكية ذوى الأموال، فزهد و فرّق ماله كله فى الفقراء و ساح و هو على دين النصرانية فى البلاد، فعمل أبواه عزاءه و ظنوا أنه قد مات، ثم قدم أنطاكية فى حالة لا يعرف فيها، و أقام فى كوخ على مزبلة، و أقام رمقه بما يلقى على تلك المزبلة حتى مات، فلما عملت جنازته كان ممن حضرها أبوه، فعرف غلاف إنجيله، ففحص عنه حتى عرف أنه ابنه، فدفنه و بنى عليه كنيسة أنطاكية. و بمدينة قفط كنيسة السيدة، و كان بأصفون عدّة كنائس خربت بخرابها، و بمدينة قوص عدّة أديرة و عدّة كنائس خربت بخرابها، و بقى بها كنيسة السيدة و لم يبق بالوجه القبلىّ من الكنائس سوى ما تقدّم ذكرنا له.

و أما الوجه البحرىّ:

ففى منية صرد من ضواحى القاهرة كنيسة السيدة مريم، و هى جليلة عندهم. و بناحية سندوة كنيسة محدثة على اسم بوجرج، و بمر صفا كنيسة مستجدّة على اسم بوجرج أيضا، و بسمنود كنيسة على اسم الرسل عملت فى بيت، و بسنباط كنيسة جليلة عندهم على اسم الرسل، و بصندفة كنيسة معتبرة عندهم على اسم بوجرج، و بالريدانية كنيسة السيدة و لها قدر جليل عندهم، و فى دمياط أربع كنائس للسيدة و لميخائيل و ليوحنا المعمدانىّ و لمارى جرجس، و لها مجد عندهم. و بناحية سبك العبيد كنيسة محدثة فى بيت مخفىّ على اسم السيدة، و بالنحراوية كنيسة محدثة فى بيت مخفى، و فى لقانة كنيسة بوبخنس القصير، و بدمنهور كنيسة محدثة فى بيت مخفى على اسم ميخائيل، و بالإسكندرية المعلقة على اسم السيدة و كنيسة بوجرج و كنيسة يوحنا المعمدانى و كنيسة الرسل، فهذه كنائس اليعاقبة بأرض مصر، و لهم بغزة كنيسة مريم، و لهم بالقدس القمامة و كنيسة صهيون.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵۲

و أما الملكية فلهم بالقاهرة كنيسة مارى نقولا بالبندقانيين، و بمصر كنيسة غبريال الملاك بخط قصر الشمع، و بها قلاية لبطركهم، و كنيسة السيدة بقصر الشمع أيضا، و كنيسة الملاك ميخائيل بجوار بربارة بمصر، و كنيسة مار يوحنا بخط دير الطين، و اللّه أعلم.

و هذا أخر الجزء الثانى و بتمامه تم الكتاب و الحمد للّه وحده و صلّى اللّه على من لا نبىّ بعده و سلّم و رضى اللّه عن أصحاب رسول اللّه أجمعين و حسبنا اللّه و نعم الوكيل، و لا عدوان إلّا على الظالمين.

قول المستعين بربه القوىّ، محمد ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن قطة العدوى، مصحح دار الطباعة المصرية، بلغه اللّه من الخير كلّ أمنية: إن من جملة المحاسن الممدوحة بكلّ لسان، و أحاسن الآثار الغنىّ فضلها عن البيان، التى ظهرت فى أيام صاحب العز و الإقبال،

من طبع على المرحمة و العدالة فى الأقوال و الأفعال، و اختص بحسن التبصر و سداد النظر، و رعاية المصالح العامّة لأهل البدو و الحضر، و وهب من صفات الكمال و كمال الصفات، ما تقصر دون تعداده العبارات و الإشارات، من هو الفرقد الثانى، فى أفق الصدارة العثمانىّ، عزيز الديار المصرية، ذى المناقب الفاخرة السنية، حضرة أفندينا الحاج عباس باشا، لا زال بصولة عدله جيش المظالم يتلاشى، و لا برح قرير العين بأنجاله، محفوظ الجناب نافذ القول فى حاله و استقباله، و لا فتىء لواء عزه منشورا، و لا انفك سعيه مشكورا، طبع كتاب الخطط للعلامة المقريزىّ الشهير، المجمع على فضله و عموم نفعه بلا نكير، كيف لا وقد جمع من تخطيط الحكومة المصرية، و ما يتعلق بها من الموادّ الجغرافية و التاريخية، و ذكر أصناف أهلها و ولاتها، و ما عرض لها من تقلبات الأزمان و تغيراتها، و ما تضمنته من الأخلاق و العوائد، الصحيح منها و الفاسد، و ما توارد عليها من الدول و الحكومات، و اختلاف الملل و الديانات، و غير ذلك من الفوائد، و صحيح الأدلة و الشواهد، و عجائب الأخبار، و غرائب الآثار، ما يغنى الحاذق اللبيب، و يكفى الماهر الأريب، و يعتبر به المعتبرون، و يتفكه به المتآمرون، بل هو النديم الذى لا يمل، و الأنيس الذى فى استصحابه تهون الكرائم و تبذل، بيد أنه يتحفك من تاريخ مصر بأظرف تحفه، و يمنحك من طريف جغرافيتها و تليدها ألطف طرقه، و يسكنك من قصور أنبائها على غرفه، و ينشقك من زهر روض أخبارها شميمه و عرفه، غير أنه لما كان فنّ التاريخ مع جليل نفعه، و جزيل فائدته عند أرباب المعارف و عظيم وقعه، قد رميت سوقه فى هذه الأزمان بالكساد، و تقاصرت عنه الهمم من كل حاضر و باد، كان هذا الكتاب مما خيمت عليه عناكب النسيان، و عزت نسخه فى ديارنا حتى كاد لا يعثر بها إنسان، فإنها فيها قليلة محصورة، متروكة الاستعمال مهجورة، فكانت مع قلتها عارية عن صحتها، فكم فيها من تحريف فاحش و سقط متفاحش، و غلط مخل، و خطا مضجر و ممل، و يفضى بالقارى إلى الملل، و يعوّضه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵۳

عن النشاط الكسل، لكن بحمد اللّه و عونه، و عظيم فضله و منه، و بذل المجهود فى التصحيح، و استفراغ الوسع فى التحرير و التنقيح، جاءت النسخة المطبوعة صحيحة حسب الإمكان، جديرة بأن تحل محل القبول و الاستحسان، فإنّ ما كان من عباراته بالتحريف سقيما، و لم يفهم معنى مستقيما، أجلت فيه ذهنى مع قصوره، و كلفته التسلق على قصوره، فإن فتح له باب الرشاد، و ألهم المعنى المراد، حمدت ربى، حيث نلت أربى، و إن كانت الأخرى، و كبا زند الفهم و ما أورى، نبهت على وجه التوقف فى الحاشية بالعبارة، أو رقمت فيها رقما هنديا ليكون إلى التوقف إشارة، و ربما أشرت إلى الصواب، لكن على سبيل الرجاء فى الاستصواب، و ربما مرّ بك تعداد بعض أشياء يشم منها مخالفة العربية، و تفصيل أمور تأباه بحسب الظاهر القواعد النحوية، و عذرنا فى ذلك، أن المؤلف تقلها كذلك، عمن نقلها عن جريدة حساب، و أثبتها على ما هى عليه فى تقييدات الكتاب، فأبقيناها على حالها، و لم ننسجها على غير منوالها، حرصا على عدم التغيير فى عبارات المؤلفين، حسبما نص عليه أئمة الدين، لا سيما و المعنى معه ظاهر، لا يخفى على السامع و الناظر، ثم إنه لبعض الأسباب، فاتنى تصحيح نحو اثنتين و عشرين ملزمة من أوّل الجزء الأوّل، و مثلها من أوّل الثانى من هذا الكتاب، لكن إن شاء اللّه تعالى يحصل الاطلاع عليها، و النظر بعين التأمل إليها، فإن عثر فيها على ما يلزم التنبيه عليه، و الإشارة إليه، نبهت عليه و أثبت ما يخص كلّ جزء بلصقه، ليكون كلّ منهما مستوفيا لحقه، هذا و كأنى بمتشقشق متشدّق، يعجل ببذاءة اللسان و لا يحقق، قد استولى عليه الحسد فأعمى بصيرته، و رفع بالذمّ و التشنيع عقيرته، قائلا ما لا يليق إلا به، مذيعا ما هو أولى به، و ما درى الجهول أن فنّ التصحيح خطر دقيق، و صاحبه بضدّ ما تبجح به جدير حقيق، و لو ذاق لعرف، و بالعجز أقرّ و اعترف، و بالجملة فذمّه يشهد لى بالكمال، أخذا بقول من قول:

و إذا أتتك مذمّتى من ناقص‌فهى الشهادة لى بأنى كامل

على أنى و اللّه معترف بقلة البضاعة، و عدم الأهلية لهذه الصناعة، و لكنما هى إقامات، و إنما الأعمال بالنيات.

و أفوّض أمرى إلى اللطيف الخبير، فإنه نعم المولى و نعم النصير، و كان طبع هذا الكتاب بدار الطباعة المصرية، المنشأة ببولاق

القاهرة المعزيـة، لا زالت بأنفاس الحضـرة الآصـفية، منبعا لنشـر الكتب النافعة العلمية، تحت ملاحظة صاحب نظارتها، القائم بتدبيرها و إدارتهـا، رب القلم الـذى لاـ يبـارى، و الإنشاء الـذى لا يجارى، من أحرز قصب السـبق فى ميـدان البراعـة، و انقاد له كلّ معنى أبىّ و أطاعه، حضـرة علىّ أفندى جودة، بلغه اللّه فى الدارين مأموله و قصده، و كان طبعه على ذمة ملتزمة، المتسبب بعد الطىّ فى نشر علمه، و اشتهاره فى الأقطار، و استعماله عند أهل القرى و الأمصار، الباذل فى ذلك نفائس الكرائم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵۴

المستصـغر فى استحصاله الصـعائب و العظائم، المستنصـر بمولاه فى حالتى الضـعف و الأيـد الخواجـة رفائيل عبيـد، و قد وافق تاريخ تمامه، و انتهاء الطبع إلى حـدّ ختامه، يوم الاثنين التاسع عشـر، من شـهر اليمن و الخير صـفر، الذى هو من شـهور سـنة ألف و مائتين و سبعين، من هجرة سيد النبيين و المرسلين صلّى اللّه و سلّم عليه و عليهم أجمعين، و على كـلّ الصـحابة و التـابعين، و رزقنـا بجاههم الاعتصام بحبله على الدوام، و منحنا التوفيق لما يرضيه، و الفوز بحسن الختام. آمين.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ ُبنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَـا لَاتَّبَعُونَـا... (بَـنـادِرُ البِحـار – فى تلخيص بحـار الأـنوار، للعلاّمـة فيض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشـّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّـس مُجتمَع "القائميّـة "الثّقافىّ بأصـبَهانَ – إيرانَ: الشـهيد آيـة الله "الشـمس آباذى – "رَحِمَهُ اللّه – كان أحـداً من جَهابـذة هـذه المدينة، الذى قدِ اشـتهَرَ بشَـغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صـلواتُ اللهِ علَـيهِم) و لاسـيَّما بحضـرة الإمام علىّ بن موسَـى الرِّضا (عليه السّـلام) و بِساحـة صـاحِب الزّمـان (عَجَّلَ اللّهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهـذا أسّـس مع نظره و درايته، فى سَـنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُـتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرّى الحاسوبىّ – بأصـبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِـطتَهُ من سَـنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عنايـة سـماحة آيـة الله الحـاجّ السـيّد حسن الإمـامىّ – دامَ عِزّهُ – و مـع مساعَـدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحـوزات العلميّـة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشـّباب و عموم النـاس إلى التّحَرِّى الأـدَقّ للمسائـل الدّينيّـة، تخليف المطـالب النّافعـة – مكـانَ البَلاـتيثِ المبتذلـة أو الرّديئـة – فى المحـاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّـلام – بباعث نشـر المعارف، خـدمات للمحققين و الطّلاّب، توسـعة ثقافـة القراءة و إغناء أوقات فراغـة هُواةِ برامِـج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشـّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشـرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّـه يُمكِن تسـريعُ إبراز المَرافِق و التسـهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جـهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹